الأحكام واللطائف

مِنْ جامِعِ القُرْطُبيّ

ⓒدار رواد المعرفة للنشر والتوزيع ، ١٤٤٧هـ

الشمراني ، صالح بن علي

الأحكام واللطائف من جامع القرطبي - أربعة مجلدات. / صالح بن علي الشمراني - ط١. .- مكة المكرمة ، ١٤٤٧هـ

٤مج.

رقم الإيداع: ١٤٤٧/٨٥٥١

ردمك: ٩٧٨-٦٠٣-٠٦-١١٠٢-٧ (مجموعة)

ردمك: ٩٧٨-٦٠٣-٠٦-١١٠٦-٥ (ج٤)

الطبعة الأولى

١٤٤٧ هـ - ٢٠٢٦ م

جمعية عِلْم للتنمية المعرفية

Elm Association for knowledge Development

الأحكام واللطائف

من جامع القرطبي

اختيار وتهذيب

أ.د. صالح بن علي الشمراني

جامعة أم القرى

المجلد الرابع

جمعية علم للتنمية المعرفية
Elm Association for knowledge Development

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الشعراء

بسمِ اللّهِ الرّحمنِ الرّحيمِ

مكّيّةٌ في قولِ الجمهورِ. وقيل: منها مدنيٌّ، الآيةُ الّتي يذكرُ فيها الشّعراءُ، وقولهُ: ﴿أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَـٰٓؤُاْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾، وهيَ مائتانِ وسبعٌ وعشرونَ آيةً.

قولهُ تعالى: ﴿طسٓمٓ ①﴾ قرأَ حمزةُ والكسائيُّ وخلفٌ بإمالةِ الطّاءِ مشبعاً في هذهِ السّورةِ وفي أختيها. وقرأَ نافعٌ وأبو جعفرٍ بينَ اللّفظينِ، وقرأَ الباقونَ بالفتحِ مشبعاً، وهيَ كلّها لغاتٌ فصيحةٌ، وقرأَ المدنيّونَ وأبو عمرو وعاصمٌ والكسائيُّ: ﴿طسٓمٓ﴾ بإدغامِ النّونِ في الميمِ، وقرأَ حمزةُ: «طسين ميم» بإظهارِ النونِ. وفي ذلكَ وجيهٌ: وهوَ أنَّ حروفَ المعجمِ حكمها أنْ يوقفَ عليها، فإذا وقفَ عليها تبيّنتِ النّونُ. والإدغامُ الاختيارُ قياساً على كلِّ القرآنِ، وإنّما أظهرها أولئكَ للتّبيينِ والتّمكينِ، وأدغمها هؤلاءِ لمجاورتها حروفَ الفمِ.

والطّواسيمُ والطّواسينُ سورٌ في القرآنِ جمعتْ على غيرِ قياسٍ.

قولهُ تعالى: ﴿تِلْكَ ءَايَـٰتُ ٱلْكِتَـٰبِ ٱلْمُبِينِ ②﴾ الّتي كنتمْ وعدتمْ بها، لأنّهمْ قدْ وعدوا في التّوراةِ والإنجيلِ بإنزالِ القرآنِ ﴿لَعَلَّكَ بَـٰخِعٌ نَّفْسَكَ﴾ أيْ قاتلٌ نفسكَ ومهلكها ﴿أَلَّا يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ③﴾ أيْ لتركهمُ الإيمانَ و: ﴿أن﴾ في موضعِ نصبِ مفعولٍ منْ أجلهِ ﴿إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً﴾ أي معجزةً ظاهرةً وقدرةً باهرةً فتصيرُ معارفهمْ ضروريّةً، ولكنْ سبقَ القضاءُ بأنْ تكونَ المعارفُ نظريّةً ﴿فَظَلَّتْ أَعْنَـٰقُهُمْ﴾ أيْ فتظلُّ أعناقهمْ ﴿لَهَا خَـٰضِعِينَ ④﴾ قالَ مجاهدٌ: أعناقهمْ كبراؤهمْ، وقيلَ: إنّما أرادَ أصحابَ الأعناقِ، فحذفَ المضافَ وأقامَ المضافَ إليهِ مقامهُ. والمعنى لوْ شاءَ لأنزلَ آيةً يذلّونَ بها فلا يلوي أحدٌ منهمْ عنقهُ إلى معصيةٍ، وخاضعينَ وخاضعةً هنا سواءٌ.

قولهُ تعالى: ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ ٱلرَّحْمَـٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُواْ عَنْهُ مُعْرِضِينَ ⑤ فَقَدْ كَذَّبُواْ﴾ أي أعرضوا ﴿فَسَيَأْتِيهِمْ أَنۢبَـٰٓؤُاْ مَا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ⑥﴾ وعيدٌ لهمْ.

قولهُ تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ إِلَى ٱلْأَرْضِ كَمْ أَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ۝٧﴾ نبّهَ على عظمتهِ وقدرتهِ وأنّهمْ لوْ رأوا بقلوبهمْ ونظروا ببصائرهمْ لعلموا أنّهُ الّذي يستحقُّ أنْ يعبدَ، إذْ هوَ القادر على كل شيء. والزوج هو اللون، والكرم في اللّغةِ الشّرفُ والفضلُ، فنخلةٌ كريمةٌ أيْ فاضلةٌ كثيرةُ الثّمرِ، ورجلٌ كريمٌ شريفٌ فاضلٌ صفوحٌ. ونبتتِ الأرضُ وأنبتتْ بمعنى، والله سبحانه المخرجُ والمنبتُ لهُ.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً﴾ أيْ فيما ذكرَ منَ الإنباتِ في الأرضِ لدلالتهِ على أنَّ اللّهَ قادرٌ، لا يعجزه شيء ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ۝٨﴾ أيْ مصدّقينَ لما سبقَ منْ علمي فيهمْ. وَ﴿كَانَ﴾ هنا صلةٌ في قولِ سيبويهِ، تقديرهُ: وما أكثرهمْ مؤمنينَ ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٩﴾ يريدُ المنيع المنتقم من أعدائه، الرحيم بأوليائه.

قولهُ تعالى: ﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ﴾ ﴿إِذ﴾ في موضع نصبٍ، المعنى: واتلُ عليهمْ ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ﴾ ويدل على هذا بعدهُ ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ﴾، وقيلَ: المعنى: واذكر إذا نادى كما صرّحَ بهِ في قولهِ: ﴿۞ وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ﴾ وقولهِ: ﴿وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ﴾ وقولهِ: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ﴾، والنّداءُ الدعاء بيا فلانُ، أيْ قالَ ربّكَ يا موسى: ﴿أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝١٠﴾ ثمَّ أخبرَ منْ همْ فقال: ﴿قَوْمَ فِرْعَوْنَ ۚ أَلَا يَتَّقُونَ ۝١١﴾ فـَ﴿قَوْمَ﴾ بدلٌ، ومعنى ﴿أَلَا يَتَّقُونَ﴾ ألا يخافونَ عقابَ اللّهِ؟ ودلَّ قولهُ: ﴿يَتَّقُونَ﴾ على أنّهمْ لا يتّقونَ، وعلى أنّهُ أمرهمْ بالتّقوى. وقيلَ: المعنى، قلْ لهمْ ﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾، وجاءَ بالياءِ لأنّهمْ غُيّبٌ وقتَ الخطابِ، ولو جاء بالتاء لجازَ. ومثلهُ ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ سَتُغْلَبُونَ﴾ بالتّاءِ والياءِ.

﴿قَالَ﴾ موسى ﴿رَبِّ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ۝١٢﴾ أيْ في الرّسالةِ والنّبوّةِ ﴿وَيَضِيقُ صَدْرِى﴾ لتكذيبهمْ إيّايَ ﴿وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِى﴾ في المحاجّةِ على ما أحبُّ، وكانَ في لسانهِ عقدةٌ على ما تقدّمَ في طه ﴿فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَٰرُونَ ۝١٣﴾ أرسلْ إليهِ جبريلَ بالوحي، ولمْ يذكرْ هنا ليعينني، لأنَّ المعنى كانَ معلومـاً، وقدْ صرّحَ بهِ في سورةِ طه: ﴿وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا﴾ وفي القصصِ: ﴿فَأَرْسِلْهُ مَعِىَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِىٓ﴾، ولمْ يكنْ ذلكَ استعفاءً منَ الرّسالةِ بلْ طلبَ منْ يعينهُ. ففي هذا دليلٌ على أنَّ منْ لا يستقلُّ بأمرٍ، ويخافُ منْ نفسهِ تقصيراً، أنْ يأخذَ منْ

يستعينُ بهِ عليهِ، ولا يلحقهُ في ذلكَ لومٌ ﴿وَلَهُمۡ عَلَيَّ ذَنۢبٞ فَأَخَافُ أَن يَقۡتُلُونِ ۝١٤﴾ الذّنبُ هنا قتلُ القبطيِّ، وخافَ موسى أنْ يقتلوهُ بهِ، ودلَّ على أنَّ الخوفَ قدْ يصحبُ الأنبياءَ والفضلاءَ والأولياءَ معَ معرفتهمْ باللّهِ وأنْ لا فاعلَ إلّا هوَ، إذْ قدْ يسلّطُ منْ شاءَ على منْ شاءَ ﴿قَالَ كَلَّا﴾ أيْ كلّا لنْ يقتلوكَ. فهوَ ردعٌ وزجرٌ عنْ هذا الظّنِّ، وأمرٌ بالثّقةِ باللّهِ تعالى، أيْ ثقْ باللّهِ وانزجرْ عنْ خوفكَ منهم، فإنهم لا يقدرون على قتلك ولا يقوونَ عليهِ ﴿فَٱذۡهَبَا﴾ أيْ أنتَ وأخوكَ فقدْ جعلتهُ رسولاً معكَ ﴿بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ أيْ ببراهيننا وبالمعجزات. وقيل: مع آياتنا ﴿إِنَّا مَعَكُم﴾ يريدُ نفسهُ سبحانهُ وتعالى ﴿مُّسۡتَمِعُونَ ۝١٥﴾ أيْ سامعونَ ما يقولونَ وما يجاوبونَ. وإنّما أرادَ بذلكَ تقويةَ قلبيهما وأنّهُ يعينهما ويحفظهما. والاستماعُ إنّما يكونُ بالإصغاءِ، ولا يوصفُ الباري سبحانهُ بذلكَ. وقدْ وصفَ سبحانهُ نفسهُ بأنّهُ السّميعُ البصيرُ. وقالَ في طه: ﴿أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ﴾. وقالَ: ﴿مَعَكُمۡ﴾ فأجراهما مجرى الجمعِ، لأنَّ الاثنينِ جماعةٌ. ويجوزُ أنْ يكونَ لهما ولمنْ أرسلا إليهِ. ويجوزُ أنْ يكونَ لجميعِ بني إسرائيل.

قولهُ تعالى: ﴿فَأۡتِيَا فِرۡعَوۡنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝١٦﴾ يجوزُ أنْ يكونَ الرّسولُ في معنى الاثنينِ والجمعِ، فتقولُ العربُ: هذا رسولي ووكيلي، وهذانِ رسولي ووكيلي، وهؤلاءِ رسولي ووكيلي، ومنهُ قولهُ تعالى: ﴿فَإِنَّهُمۡ عَدُوّٞ لِّيٓ﴾. وقيلَ: معناهُ إنَّ كلَّ واحدٍ منّا رسولُ ربِّ العالمينَ ﴿أَنۡ أَرۡسِلۡ مَعَنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ۝١٧﴾ إلى فلسطينَ ولا تستعبدهمْ. فعرفَ موسى لأنّهُ نشأَ في بيته، ف ﴿قَالَ أَلَمۡ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدٗا﴾ على جهةِ المنِّ عليهِ والاحتقارِ. أيْ ربّيناكَ صغيراً ولمْ نقتلكَ في جملةِ منْ قتلنا ﴿وَلَبِثۡتَ فِينَا مِنۡ عُمُرِكَ سِنِينَ ۝١٨﴾ فمتى كانَ هذا الّذي تدعيه. ثم قرره بقتل القبطي بقوله: ﴿وَفَعَلۡتَ فَعۡلَتَكَ ٱلَّتِي فَعَلۡتَ﴾ والفَعلةُ بفتحِ الفاءِ المرّةُ منَ الفعلِ ﴿وَأَنتَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ۝١٩﴾ بنعمتي الّتي كانتْ لنا عليكَ منَ التّربيةِ والإحسانِ إليكَ، وقيلَ: ﴿مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ في أنّي إلهكَ.

﴿قَالَ فَعَلۡتُهَآ إِذٗا﴾ يريدُ قتلَ القبطيِّ ﴿وَأَنَا۠﴾ إذْ ذاكَ ﴿مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ۝٢٠﴾ أيْ منَ الجاهلينَ، فنفى عنْ نفسهِ الكفرَ، أو: منَ الجاهلينَ بأنَّ الوكزةَ تبلغُ القتلَ، وقيلَ: ﴿وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ عنِ النبوة، فليسَ عليَّ فيما فعلتهُ في تلكَ الحالةِ توبيخٌ. وبيّنَ بهذا أنَّ التّربيةَ فيهمْ لا تنافي النّبوّةَ والحلمَ على النّاسِ، وأنَّ القتلَ خطأٌ أوْ في وقتٍ لمْ يكنْ فيهِ شرعٌ لا ينافي النّبوّةَ.

قولهُ تعالى: ﴿فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ﴾ أيْ خرجتُ منْ بينكمْ إلى مدينَ كما في سورةِ القصصِ: ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ﴾ وذلكَ حينَ القتلِ ﴿فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا﴾ يعني النّبوّةَ ﴿وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٢١﴾.

قولهُ تعالى: ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ۝٢٢﴾ اختلفَ النّاسُ في معنى هذا الكلامِ:

فقيل: هذا الكلامُ منْ موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ على جهةِ الإقرارِ بالنّعمةِ، كأنّهُ يقولُ: نعمْ! وتربيتكَ نعمةٌ عليَّ منْ حيثُ عبّدتَ غيري وتركتني، ولكنْ لا يدفعُ ذلكَ رسالتي.

وقيلَ: هوَ منْ موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ على جهةِ الإنكارِ، أيْ أتمنُّ عليَّ بأنْ ربّيتني وليداً وأنتَ قدِ استعبدتَ بني إسرائيلَ وقتلتهمْ؟! أيْ ليستْ بنعمةٍ؟ لأنَّ الواجبَ كانَ ألّا تقتلهمْ ولا تستعبدهمْ.

قولهُ تعالى: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢٣﴾ استفهمهُ استفهاماً عنْ مجهولٍ منَ الأشياءِ، فلذلكَ استفهمَ بـ ﴿مَا﴾، وقدْ وردَ لهُ استفهامٌ بـ ﴿مَن﴾ في قوله ﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ﴾ ويشبهُ أنّها مواطنُ، فأتى موسى بالصّفاتِ الدّالّةِ على اللّهِ منْ مخلوقاتهِ الّتي لا يشاركهُ فيها مخلوقٌ، فقالَ: فرعونُ: ﴿أَلَا تَسْتَمِعُونَ ۝٢٥﴾ على معنى الإغراءِ والتّعجّبِ منْ سفهِ المقالةِ إذْ كانتْ عقيدةُ القومِ أنَّ فرعونَ ربّهمْ ومعبودهمْ والفراعنةُ قبلهُ كذلكَ. فزادَ موسى في البيانِ بقولهِ: ﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝٢٦﴾ فجاءَ بدليلٍ يفهمونهُ عنهُ، لأنّهمْ يعلمونَ أنّهُ قدْ كانَ لهمْ آباءٌ وأنّهمْ قدْ فنوا وأنّهُ لا بدَّ لهمْ منْ مغيّرٍ، فقالَ: فرعونُ حينئذٍ على جهةِ الاستخفاف: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِيٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ۝٢٧﴾ أيْ ليسَ يجيبني عمّا أسألُ، فأجابهُ موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ عنْ هذا بأنْ قالَ: ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ﴾ لا كملككَ ﴿وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ۝٢٨﴾. ولمّا انقطعَ فرعونُ لعنهُ اللّهُ في بابِ الحجّةِ رجعَ إلى الاستعلاءِ والتّغلّبِ فتوعّدَ موسى بالسّجنِ، وفي توعّدهِ بالسّجنِ ضعفٌ ﴿قَالَ﴾ لهُ على جهة اللطف به والطمع في إيمانه: ﴿أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ ۝٣٠﴾ فيتّضحُ لكَ بهِ صدقي، فلمّا سمعَ فرعونُ ذلكَ طمعَ في أنْ يجدَ أثناءهُ موضع معارضة ﴿فَقَالَ﴾ لهُ ﴿فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ

مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿٣١﴾» ﴿فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ﴾ منْ يدهِ فكانَ ما أخبرَ اللّهُ منْ قصّتهِ. وقدْ تقدّمَ بيانُ ذلكَ وشرحهُ في الأعرافِ إلى آخرِ القصّةِ.

وقالَ السّحرةُ لما توعدهم فرعون بقطع الأيدي والأرجل ﴿لَا ضَيْرَ﴾ أيْ لا ضررَ علينا فيما يلحقنا منْ عذابِ الدّنيا، وهذا يدلُّ على شدّةِ استبصارهمْ وقوّةِ إيمانهمْ ﴿إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾﴾ يريدُ ننقلبُ إلى ربٍّ كريمٍ رحيمٍ ﴿إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَـٰيَـٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥١﴾﴾. عندَ ظهورِ الآيةِ ممّنْ كانَ في جانبِ فرعونَ.

قولهُ تعالى: ﴿۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِىٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٥٢﴾﴾ أمرَ موسى أنْ يخرجَ ببني إسرائيلَ ليلاً وسمّاهمْ عبادهُ، لأنّهمْ آمنوا بموسى. وتوجّهَ نحوَ البحرِ، فلمّا أصبحَ فرعونُ وعلمَ بسري موسى ببني إسرائيلَ، خرجَ في أثرهمْ، واللاّزمُ منَ الآيةِ الّذي يقطعُ بهِ أنَّ موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ خرجَ بجمعٍ عظيمٍ منْ بني إسرائيلَ وأنَّ فرعونَ تبعهُ بأضعافِ ذلكَ. والشّرذمةُ الجمعُ القليلُ المحتقرُ والجمعُ الشّراذمُ، واللاّمُ في قولهِ: ﴿لَشِرْذِمَةٌ﴾ لامُ توكيدٍ ﴿وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ﴿٥٥﴾﴾ أيْ أعداءٌ لنا لمخالفتهمْ ديننا وذهابهمْ بأموالنا ﴿وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَـٰذِرُونَ ﴿٥٦﴾﴾ أخذنا حذرنا وأسلحتنا.

قولهُ تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَـٰهُم مِّن جَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾﴾ يعني منْ أرضِ مصرَ، كانتِ الجنّاتُ بحافّتي النّيلِ في الشّقّتينِ جميعـاً منْ أسوانَ إلى رشيدٍ، وبينَ الجنّاتِ زروعٌ.

قلت: في الصّحيحِ منْ هذا حديثِ أبي هريرةَ قالَ: قالَ رسولُ اللّهِ ﷺ: «سيحانُ وجيحانُ والنّيلُ والفراتُ كلٌّ منْ أنهارِ الجنّةِ» لفظُ مسلمٍ، وفي حديثِ الإسراءِ منْ حديثِ أنسِ بنِ مالكٍ عنْ مالكِ بنِ صعصعةَ رجلٍ منْ قومهِ قالَ: «وحدّثَ نبيُّ اللّهِ ﷺ أنّهُ رأى أربعةَ أنهارٍ يخرجُ منْ أصلها نهرانِ ظاهرانِ ونهرانِ باطنانِ فقلت: يا جبريلُ ما هذهِ الأنهارُ قالَ أمّا النّهرانِ الباطنانِ فنهرانِ في الجنّةِ وأمّا الظّاهرانِ فالنّيلُ والفراتُ» لفظُ مسلمٍ.

وقالَ البخاريُّ منْ طريقِ شريكٍ عنْ أنسٍ «فإذا هوَ في السّماءِ الدّنيا بنهرينِ يطّردانِ فقالَ: ما هذانَ النّهرانِ يا جبريلُ؟ قالَ: هذا النّيلُ والفراتُ عنصرهما ثمَّ مضى في السّماءِ فإذا هوَ بنهرٍ آخرَ عليهِ قصرٌ منَ اللّؤلؤِ والزّبرجدِ فضربَ بيدهِ فإذا هوَ مسكٌ أذفرُ فقالَ: ما هذا يا

جبريلُ؟ فقالَ: هذا هوَ الكوثرُ الّذي خبّأَ لكَ ربّكُ.» وذكرَ الحديثَ.

والجمهورُ على أنَّ المرادَ بالعيونِ عيونُ الماءِ. وقيلَ: المرادُ عيونُ الذّهبِ. وفي الدّخانِ ﴿كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ﴾. قيل: إنّهمْ كانوا يزرعونَ ما بينَ الجبلينِ منْ أوّلِ مصرَ إلى آخرها. وليسَ في الدخان ﴿وَكُنُوزٍ﴾ جمع كنز، والمراد بها ها هنا الخزائنُ ﴿وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾ المنابرُ، وقيلَ: مجالسُ الرّؤساءِ والأمراءِ، والأظهرُ أنّها المساكنُ الحسانُ كانتْ تكرّمُ عليهمْ.

قولهُ تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾﴾ يريدُ أنَّ جميعَ ما ذكرهُ اللّهُ تعالى منَ الجنّاتِ والعيونِ والكنوزِ والمقامِ الكريمِ أورثهُ اللّهُ بني إسرائيلَ ورجعوا إلى مصرَ بعدَ هلاكِ فرعونَ وقومهِ، وقيلَ: أرادَ بالوراثةِ هنا ما استعاروهُ منْ حليِّ آلِ فرعونَ بأمرِ اللّهِ تعالى. **قلت**: وكلا الأمرينِ حصلَ لهمْ. والحمدُ للّهِ ﴿فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴿٦٠﴾﴾ حينَ أشرقتِ الشّمسُ بالشّعاعِ، أو حينَ أشرقتِ الأرضُ بالضّياءِ، أو ﴿فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴿٦٠﴾﴾ أي ناحيةَ المشرقِ.

قولهُ تعالى: ﴿فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ﴾ يرى كلُّ فريقٍ صاحبهُ، وهوَ تفاعلٌ منَ الرّؤيةِ ﴿قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾﴾ أيْ قربَ منّا العدوُّ ولا طاقةَ لنا بهِ.

قولهُ تعالى: ﴿قَالَ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾﴾ إلى طريقِ النّجاةِ، فأمرَ اللّهُ تعالى موسى أنْ يضربَ البحر بعصاه، وذلك أنه عزَّ وجلَّ أرادَ أنْ تكونَ الآيةُ متّصلةً بموسى ومتعلّقةً بفعلٍ يفعلهُ، وإلّا فضربُ العصا ليسَ بفارقٍ للبحرِ، ولا معينٍ على ذلكَ بذاتهِ إلّا بما اقترنَ بهِ منْ قدرةِ اللّهِ تعالى واختراعهِ، ولمّا انفلقَ صارَ فيهِ اثنا عشرَ طريقاً على عددِ أسباطِ بني إسرائيلَ، ووقفَ الماءُ بينها كالطّودِ العظيمِ، أيِ الجبلِ العظيم. والطّودُ الجبلُ، فصارَ لموسى وأصحابهِ طريقاً في البحرِ يبساً، فلمّا خرجَ أصحابُ موسى وتكاملَ آخرُ أصحابِ فرعونَ، على ما تقدّمَ في «يونسَ» انصبَّ عليهمْ وغرقَ فرعونُ، فقالَ: بعضُ أصحابِ موسى: ما غرقَ فرعونُ، فنبذَ على ساحلِ البحرِ حتّى نظروا إليهِ.

قولهُ تعالى: ﴿وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْآخَرِينَ ﴿٦٤﴾﴾ أيْ قرّبناهمْ إلى البحرِ، يعني فرعونَ وقومهُ. فـ«أزلفنا» جمعنا ومنهُ قيلَ للّيلةِ المزدلفةِ ليلةُ جمعٍ ﴿وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْآخَرِينَ ﴿٦٦﴾﴾ يعني فرعونَ وقومهُ ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً﴾ أيْ علامةً على قدرةِ اللّهِ تعالى. ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ لأنّهُ لمْ يؤمنْ منْ قومِ فرعونَ إلّا مؤمنُ آلِ فرعونَ وآسيةُ امرأةُ فرعونَ.

قولهُ تعالى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾﴾ النّبأُ الخبرُ، أيِ اقصصْ عليهمْ يا محمّدُ خبرهُ وحديثهُ وعيبهُ على قومهِ ما يعبدونَ ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾﴾ أي أيّ شيءٍ تعبدوا ﴿قَالُوا۟ نَعْبُدُ أَصْنَامًا﴾ وكانتْ أصنامهمْ منْ ذهبٍ وفضّةٍ ونحاسٍ وحديدٍ وخشبٍ ﴿فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴿٧١﴾﴾ مقيمين على عبادتها ﴿قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾﴾ استفهامٌ لتقريرِ الحجّةِ، فإذا لمْ ينفعوكمْ ولمْ يضرّوا فما معنى عبادتكمْ لها ﴿قَالُوا۟ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾﴾ فنزعوا إلى التقليدِ منْ غيرِ حجّةٍ ولا دليلٍ.

﴿قَالَ﴾ إبراهيمُ ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾﴾ منْ هذهِ الأصنامِ ﴿أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾﴾ الأوّلونَ ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّيٓ﴾ واحدٌ يؤدّي عنْ جماعةٍ، وكذلكَ يقالُ للمرأةِ هيَ عدوُّ اللّهِ وعدوّةُ اللّهِ، ووصفَ الجمادَ بالعداوةِ بمعنى أنّهمْ عدوٌّ لي إنْ عبدتهمْ يومَ القيامةِ، كما قالَ: ﴿كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ ﴿إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾﴾ كانوا يعبدونَ اللّهَ عزّ وجلّ ويعبدونَ معهُ الأصنامَ، فأعلمهمْ أنّهُ تبرّأَ ممّا يعبدونَ إلّا اللّهَ.

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾﴾ أيْ يرشدني إلى الدّينِ ﴿وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾﴾ أيْ يرزقني. ودخولُ «هوَ» تنبيهٌ على أنَّ غيرهُ لا يطعمُ ولا يسقي ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾﴾ قالَ: ﴿مَرِضْتُ﴾ رعايةً للأدبِ وإلّا فالمرضُ والشّفاءُ منَ اللّهِ عزَّ وجلَّ جميعًا. ونظيرهُ قولُ فتى موسى: ﴿وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ﴾. ﴿وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾﴾ يريدُ البعثَ، وكلّهُ بغيرِ ياءٍ: ﴿يَهْدِينِ﴾ ﴿يَشْفِينِ﴾ لأنَّ الحذفَ في رؤوسِ الآيِ حسنٌ لتتّفقَ كلّها.

وقرأ ابنُ أبي إسحاقَ على جلالته ومحله من العربية هذه كلها بالياءِ، لأنَّ الياءَ اسمٌ وإنّما دخلتِ النّونُ لعلة.

فإن قيل: فهذه صفة تجميع الخلقِ فكيفَ جعلها إبراهيمُ دليلاً على هدايتهِ ولمْ يهتدِ بها غيرهُ؟ قيل: إنّما ذكرها احتجاجاً على وجوبِ الطّاعةِ، لأنَّ منْ أنعمَ وجبَ أنْ يطاعَ ولا يعصى ليلتزمَ غيرهُ منَ الطّاعةِ ما قدِ التزمها، وهذا إلزامٌ صحيحٌ.

قلت: وتجوّزَ بعضُ أهلِ الإشاراتِ في غوامضِ المعاني فعدلَ عنْ ظاهرِ ما ذكرناهُ إلى ما تدفعهُ بداءةُ العقولِ منْ أنّهُ ليسَ المرادُ منْ إبراهيمَ. فقالوا: والّذي يطعمني لذّةَ الإيمانِ ويسقينِ حلاوةَ القبولِ، وإذا مرضتُ بمخالفتهِ شفاني برحمتهِ، والّذي يميتني بالمعاصي يحييني بالطّاعاتِ، إلى غيرِ ذلكَ ممّا ليسَ بشيءٍ منهُ مرادٌ منَ الآيةِ، فإنَّ هذهِ التّأويلاتِ الغامضةَ، والأمورَ الباطنةَ، إنّما تكونُ لمنْ حذقَ وعرفَ الحقَّ، وأمّا منْ كانَ في عمى عنِ الحقِّ ولا يعرفُ الحقَّ فكيفَ ترمزُ لهُ الأمورُ الباطنةُ، وتتركُ الأمورُ الظّاهرةُ؟ هذا محالٌ. واللّهُ أعلمُ.

قولهُ تعالى: ﴿وَٱلَّذِىٓ أَطۡمَعُ أَن يَغۡفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوۡمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾﴾ ﴿أَطۡمَعُ﴾ أيْ أرجو. وقيلَ: هوَ بمعنى اليقينِ في حقّهِ، وخطيئة بمعنى خطايا معروفٌ في كلامِ العربِ، وقدْ أجمعوا على التّوحيدِ في قولهِ عزَّ وجلَّ ﴿فَٱعۡتَرَفُواْ بِذَنۢبِهِمۡ﴾ ومعناهُ بذنوبهمْ. وكذا ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ معناهُ الصّلواتُ، وكذا ﴿خَطِيٓـَٔتِى﴾ إنْ كانتْ خطايا. واللّهُ أعلمُ.

قالَ مجاهدٌ: يعني بخطيئتهِ قولهُ: ﴿بَلۡ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمۡ هَٰذَا﴾ وقولهُ: ﴿إِنِّى سَقِيمٌ﴾ وقولهُ: إنَّ سارّةَ أختهُ. وقولهُ للكوكبِ: ﴿هَٰذَا رَبِّى﴾، والأنبياءُ بشرٌ فيجوزُ أنْ تقعَ منهمُ الخطيئةُ، ولا تجوزُ عليهمُ الكبائرُ لأنّهمْ معصومونَ عنها.

﴿يَوۡمَ ٱلدِّينِ﴾ يومَ الجزاءِ حيثُ يجازى العبادُ بأعمالهمْ. وهذا منْ إبراهيمَ إظهارٌ للعبوديّةِ وإنْ كانَ يعلمُ أنّهُ مغفورٌ لهُ. وفي صحيحِ مسلمٍ عنْ عائشةَ، قلتُ: يا رسولَ اللّهِ: ابنُ جدعانَ كانَ في الجاهليّةِ يصلُ الرّحمَ، ويطعمُ المسكينَ، فهلْ ذلكَ نافعهُ؟ قالَ: «لا ينفعهُ إنّهُ لمْ يقلْ يوما: رب اغفر لي خطيئتي يوم الدين».

قولهُ تعالى: ﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴿٨٣﴾﴾ ﴿حُكْمًا﴾ معرفةً بكَ وبحدودكَ وأحكامكَ، أو نبوة ورسالة إلى الخلقِ. ﴿وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴿٨٣﴾﴾ أيْ بالنّبيّينَ منْ قبلي في الدّرجةِ. أو: بأهلِ الجنّةِ.

قولهُ تعالى: ﴿وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ ﴿٨٤﴾﴾ هوَ الثّناءُ وخلدُ المكانةِ بإجماعِ المفسّرينَ، وكلَّ أمّةٍ تتمسّكُ بهِ وتعظّمهُ، وهوَ على الحنيفيّةِ الّتي جاءَ بها محمّدٌ ﷺ.

وقيلَ: معناهُ سؤالهُ أنْ يكونَ منْ ذرّيّتهِ في آخرِ الزّمانِ منْ يقومُ بالحقِّ، فأجيبتِ الدّعوةُ في محمّدٍ ﷺ.

وقيلَ: أرادَ الدّعاءَ الحسنَ إلى قيامِ السّاعةِ، فإنَّ زيادةَ الثّوابِ مطلوبةٌ في حقِّ كلِّ أحدٍ.

قلت: وقدْ فعلَ اللّهُ ذلكَ إذْ ليسَ أحدٌ يصلّي على النّبيِّ ﷺ إلّا وهوَ يصلّي على إبراهيمَ وخاصّةً في الصّلواتِ، وعلى المنابرِ الّتي هيَ أفضلُ الحالاتِ وأفضلُ الدّرجاتِ.

روى أشهبُ عنْ مالكٍ قالَ: قالَ اللّهُ عزَّ وجلَّ: ﴿وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ﴾ لا بأسَ أنْ يحبَّ الرّجلُ أنْ يثنى عليهِ صالحاً ويرى في عملِ الصّالحينَ، إذا قصدَ بهِ وجهَ اللّهِ تعالى، وقدْ قالَ اللّهُ تعالى: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي﴾، وقالَ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَٰنُ وُدًّا﴾ أيْ حباً في قلوبِ عبادهِ وثناءً حسناً، فنبّهَ تعالى بقولهِ: ﴿وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ﴾ على استحبابِ اكتسابِ ما يورثُ الذّكرَ الجميلَ.

قولهُ تعالى: ﴿وَاجْعَلْنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ ﴿٨٥﴾﴾ دعاءٌ بالجنّةِ ﴿وَاغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ ﴿٨٦﴾﴾ أيِ المشركينَ وَ ﴿كَانَ﴾ زائدةٌ، وكانَ أبوهُ وعدهُ في الظّاهرِ أنْ يؤمنَ بهِ فاستغفرَ لهُ لهذا، فلمّا بانَ أنّهُ لا يفي بما قالَ تبرأَّ منهُ ﴿وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾﴾ أيْ لا تفضحني على رؤوسِ الأشهادِ، أوْ لا تعذّبني يومَ القيامةِ. وفي البخاريِّ عنْ أبي هريرةَ عنِ النّبيِّ ﷺ قالَ: «إنَّ إبراهيمَ يرى أباهُ يومَ القيامةِ عليهِ الغبرةُ والقترةُ» والغبرةُ هيَ القترةُ. وعنهُ عنِ النّبيِّ ﷺ قالَ: «يلقى إبراهيمُ أباهُ فيقولُ يا رب إنك وعدتني ألا تخزيني يومَ يبعثونَ فيقولُ اللّهُ تعالى إنّي حرّمتُ الجنّةَ على الكافرينَ» انفردَ بهما البخاريُّ رحمهُ اللّهُ.

قولهُ تعالى: ﴿يَوۡمَ لَا يَنفَعُ مَالٞ وَلَا بَنُونَ ٨٨﴾ ﴿يَوۡمَ﴾ بدلٌ منْ ﴿يَوۡمَ﴾ الأوّلِ. أيْ يومَ لا ينفعُ مالٌ ولا بنونَ أحداً. والمرادُ بقولهِ: ﴿وَلَا بَنُونَ﴾ الأعوانُ، لأنَّ الابنَ إذا لمْ ينفعْ فغيرهُ متى ينفعُ؟ وقيلَ: ذكرَ البنينَ لأنّهُ جرى ذكرُ والدِ إبراهيمَ، أيْ لمْ ينفعهُ إبراهيمُ.

﴿إِلَّا مَنۡ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلۡبٖ سَلِيمٖ ٨٩﴾ هوَ استثناءٌ منَ الكافرينَ، أيْ لا ينفعهُ مالهُ ولا بنوهُ. وقيلَ: هوَ استثناءٌ منْ غيرِ الجنسِ، أيْ لكنْ ﴿مَنۡ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلۡبٖ سَلِيمٖ﴾ ينفعهُ لسلامةِ قلبهِ. وخصَّ القلبَ بالذّكرِ، لأنّهُ الّذي إذا سلمَ سلمتِ الجوارحُ، وإذا فسدَ فسدتْ سائرُ الجوارحِ.

واختلفَ في القلبِ السّليمِ فقيلَ: منَ الشّكِّ والشّركِ، فأمّا الذّنوبُ فليسَ يسلمُ منها أحدٌ، وقلبَ الكافرِ والمنافقِ مريضٌ، قالَ اللّهُ تعالى: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ﴾.

وقالَ الجنيدُ: السّليمُ في اللّغةِ اللّديغُ، فمعناهُ أنّهُ قلبٌ كاللّديغِ منْ خوفِ اللّهِ.

قولهُ تعالى: ﴿وَأُزۡلِفَتِ ٱلۡجَنَّةُ لِلۡمُتَّقِينَ﴾ أيْ قرّبتْ أو قربَ دخولهمْ إياها ﴿وَبُرِّزَتِ﴾ أيْ أظهرتِ ﴿ٱلۡجَحِيمُ﴾ يعني جهنّمَ ﴿لِلۡغَاوِينَ ٩١﴾ أيِ الكافرينَ فتظهرُ لأهلها قبلَ أنْ يدخلوها حتّى يستشعروا الرّوعَ والحزنَ ﴿وَقِيلَ لَهُمۡ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡبُدُونَ ٩٢ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ منَ الأصنامِ والأندادِ ﴿هَلۡ يَنصُرُونَكُمۡ﴾ منْ عذابِ اللّهِ ﴿أَوۡ يَنتَصِرُونَ ٩٣﴾ لأنفسهمْ. وهذا كلّهُ توبيخٌ ﴿فَكُبۡكِبُواْ فِيهَا﴾ أي قلبوا على رؤوسهم. وقيلَ: دهوروا وألقيَ بعضهمْ على بعضٍ، والأصلُ كبّبوا فأبدلَ منَ الباءِ الوسطى كافٌ استثقالاً لاجتماعِ الباءاتِ ﴿وَٱلۡغَاوُۥنَ ٩٤﴾ الآلهة ﴿وَجُنُودُ إِبۡلِيسَ﴾ منْ كانَ منْ ذرّيّتهِ. وقيلَ: كلُّ منْ دعاهُ إلى عبادةِ الأصنامِ فاتّبعهُ ﴿قَالُواْ وَهُمۡ فِيهَا يَخۡتَصِمُونَ ٩٦﴾ يعني الإنسَ والشّياطينَ والغاوينَ والمعبودينَ اختصموا حينئذٍ ﴿تَٱللَّهِ﴾ حلفوا باللّهِ ﴿إِن كُنَّا لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ٩٧﴾ أيْ في خسارٍ وتبارٍ وحيرةٍ عنِ الحق بينة ﴿إِذۡ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٩٨﴾ أيْ في العبادةِ وأنتمْ لا تستطيعونَ الآنَ نصرنا ولا نصرَ أنفسكمْ ﴿وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا ٱلۡمُجۡرِمُونَ ٩٩﴾ يعني الشّياطينَ الّذينَ زيّنوا لنا عبادةَ الأصنامِ. وقيلَ: أسلافنا الّذينَ قلّدناهمْ ﴿فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ١٠٠﴾ أيْ شفعاءَ يشفعونَ لنا منَ الملائكةِ والنّبيّينَ والمؤمنينَ ﴿وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٖ ١٠١﴾ أيْ صديقٍ مشفقٍ، وكانَ عليٌّ رضي الله عنه

يقولُ: عليكمْ بالإخوانِ فإنّهمْ عدّةُ الدّنيا وعدّةُ الآخرة، ألا تسمعُ إلى قولِ أهلِ النّارِ: ﴿فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ۝١٠٠ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ۝١٠١﴾، وجمعَ الشّافعُ لكثرةِ الشّافعينَ ووحّدَ الصّديقُ لقلّتِه، ويجوزُ أنْ يريدَ بالصّديقِ الجمعَ. والحميمِ القريبَ والخاصَّ، ومنهُ حامّةُ الرّجل أيْ أقرباؤهُ. وأصلُ هذا منَ الحميمِ وهوَ الماءُ الحارُّ، ومنهُ الحمّامُ والحمّى، فحامّةُ الرّجلِ الّذينَ يحرقهمْ ما أحرقه.

﴿فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً﴾ تمنّوا حينَ لا ينفعهمُ التّمنّي.

قولهُ تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝١٠٥﴾ قالَ: ﴿كَذَّبَتْ﴾ والقومُ مذكّرٌ، لأنَّ المعنى كذّبتْ جماعةُ قومِ نوحٍ، وقالَ: ﴿ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ لأنَّ منْ كذّبَ رسولاً فقدْ كذّبَ الرّسلَ، لأنَّ كلَّ رسولٍ يأمرُ بتصديقِ جميعِ الرّسلِ. وقيلَ: كذّبوا نوحاً في النّبوّةِ وفيما أخبرهمْ بهِ منْ مجيءِ المرسلينَ بعدهُ. وقيلَ: ذكرَ الجنسَ والمرادُ نوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ﴾ أخوّةُ نسبٍ لا أخوّةُ دينٍ. وقيلَ: هيَ أخوّةُ المجانسةِ قالَ اللّهُ تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ﴾ ﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾ اللّهَ في عبادةِ الأصنام ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ أيْ صادقٌ فيما أبلّغكمْ عنِ اللّهِ تعالى. وقيلَ: ﴿أَمِينٍ﴾ فيما بينكمْ، فإنّهمْ كانوا عرفوا أمانتهُ وصدقهُ منْ قبلُ كمحمّدٍ ﷺ في قريشٍ ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ واستتروا بطاعته منْ عقابهِ ﴿وَأَطِيعُونِ﴾ فيما آمركمْ بهِ من الإيمان ﴿وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ أيْ لا طمعَ لي في مالكم ﴿إِنْ أَجْرِيَ﴾ أيْ ما جزائي ﴿إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ كرّرَ تأكيداً.

قولهُ تعالى: ﴿۞قَالُوٓاْ أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ ۝١١١﴾ فيهِ مسألتانِ:

الأولى: قولهُ تعالى: ﴿۞قَالُوٓاْ أَنُؤْمِنُ لَكَ﴾ أيْ نصدّقُ قولكَ. ﴿وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ﴾ الواوُ للحالِ وفيهِ إضمارُ قدْ، أيْ وقدِ اتّبعكَ ﴿ٱلْأَرْذَلُونَ﴾ جمعُ الأرذلِ، والمكسّرُ الأراذلُ والأنثى الرّذلى والجمعُ الرّذّلُ، وقرأَ يعقوبُ الحضرميّ «وَأَتْبَاعُكَ الْأَرْذَلُونَ».

الثانية: قيل: إنَّ الّذينَ آمنوا بهِ بنوهُ ونساؤهُ وكنّاتهُ وبنو أبيه. واختلفَ هلْ كانَ معهمْ غيرهمْ أمْ لا. وعلى أيِ الوجهينِ كانَ فالكلُّ صالحونَ، وقدْ قالَ نوحٌ: ﴿وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِيَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ والّذينَ معهُ همُ الّذينَ اتّبعوهُ، ولا يلحقهمْ منْ قولِ الكفرةِ شينٌ ولا ذمٌّ بلِ

الأرذلونَ همُ المكذّبونَ لهمْ. قالَ السّهيليُّ: وقدْ أغريَ كثيرٌ منَ العوامِّ بمقالةٍ رويتْ في تفسيرِ هذهِ الآيةِ: همُ الحاكةُ والحجّامونَ. ولوْ كانوا حاكةً كما زعموا لكانَ إيمانهمْ بنبيِّ اللّهِ واتّباعهمْ لهُ مشرّفًا كما تشرّفَ بلالٌ وسلمانُ بسبقهما للإسلامِ، فهما منْ وجوهِ أصحابِ النّبيِّ ﷺ ومنْ أكابرهمْ، فلا ذرّيّةَ نوحٍ كانوا حاكةً ولا حجّامينَ، ولا قولَ الكفرةِ في الحاكةِ والحجّامينَ إنْ كانوا آمنوا بهم أرذلونَ مايلحقُ اليومَ بحاكتنا ذمًا ولا نقصًا، لأنَّ هذهِ حكايةٌ عنْ قولِ الكفرةِ إلّا أنْ يجعلَ الكفرةُ حجّةً ومقالتهمْ أصلاً، وهذا جهلٌ عظيمٌ وقدْ أعلمَ اللّهُ تعالى أنَّ الصّناعاتِ ليستْ بضائرةٍ في الدّينِ.

قولهُ تعالى: ﴿قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١١٢﴾﴾ ﴿كَانَ﴾ زائدةٌ، والمعنى: وما علمي بما يعملونَ، أيْ لمْ أكلّفِ العلمَ بأعمالهمْ إنّما كلّفتُ أنْ أدعوهمْ إلى الإيمانِ، والاعتبارِ بالإيمانِ لا بالحرفِ والصّنائعِ، وكأنّهمْ قالوا: إنّما اتّبعكَ هؤلاءِ الضّعفاءُ طمعًا في العزّةِ والمالِ. فقالَ: إنّي لمْ أقفْ على باطنِ أمرهمْ وإنّما إليَّ ظاهرهم ﴿إِنْ حِسَابُهُمْ﴾ أيْ في أعمالهمْ وإيمانهمْ ﴿إِلَّا عَلَىٰ رَبِّيۖ لَوْ تَشْعُرُونَ ﴿١١٣﴾﴾ وجوابُ ﴿لَوْ﴾ محذوفٌ، أيْ لوْ شعرتمْ أنَّ حسابهمْ على ربّهمْ لما عبتموهمْ بصنائعهمْ ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٤﴾﴾ أيْ لخساسةِ أحوالهمْ وأشغالهمْ. وكأنّهمْ طلبوا منهُ طردَ الضّعفاءِ كما طلبتهُ قريشٌ ﴿إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٥﴾﴾ يعني: إنَّ اللّهَ ما أرسلني أخصُّ ذوي الغنى دونَ الفقراءِ، إنّما أنا رسولٌ أبلّغكمْ ما أرسلتُ بهِ، فمنْ أطاعني فذلكَ السّعيدُ عندَ اللّهِ وإنْ كانَ فقيراً.

قولهُ تعالى: ﴿قَالُواْ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ﴾ أيْ عنْ سبِّ آلهتنا وعيبِ ديننا ﴿لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ ﴿١١٦﴾﴾ أيْ بالحجارةِ. قالَ الثّماليُّ: كلُّ رجمٍ في القرآنِ فهوَ القتلُ إلّا في مريمَ: ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَۖ﴾ أيْ لأسبّنّكَ. وقيلَ: ﴿مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ﴾ منَ المشتومين ﴿قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾ فَٱفْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِيَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾﴾ قالَ ذلكَ لمّا يئسَ منْ إيمانهمْ. والفتحُ الحكمُ ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِي ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١١٩﴾﴾ المملوءُ بالنّاسِ والدّوابِّ وغيرهم. ولم يؤنث الفلك ها هنا، لأن الفلك ها هنا واحدٌ لا جمعٌ ﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ ٱلْبَاقِينَ ﴿١٢٠﴾﴾ أيْ بعدَ إنجائنا نوحًا ومنْ آمنَ ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةًۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٢١﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٢﴾﴾.

قولهُ تعالى: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ ١٢٣﴾ التّأنيثُ بمعنى القبيلةِ والجماعةِ ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ١٢٤ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ١٢٥ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ١٢٦ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ١٢٧﴾ بيّنٌ المعنى وقدْ تقدّمَ.

قولهُ تعالى: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ١٢٨﴾ الرّيعُ ما ارتفعَ منَ الأرضِ جمعُ ريعةٍ. وقيلَ: الرّيعُ الطّريقُ. وقيلَ: الرّيعُ الجبلُ، الواحدُ ريعةٌ والجمعُ رياعٌ، كانوا يهتدونَ بالنّجومِ إذا سافروا، فبنوا على الطّريقِ أمثالاً طوالاً ليهتدوا بها: يدل عليه قوله: ﴿ءَايَةً﴾ أيْ علامةً. وعنْ مجاهدٍ: الرّيعُ بنيانُ الحَمَامِ دليلهُ ﴿تَعْبَثُونَ ١٢٨﴾ أيْ تلعبونَ، أيْ تبنونَ بكلِّ مكانٍ مرتفعٍ آيةً. علماً تلعبونَ بها على معنى أبنيةِ الحَمَامِ وبروجها. وقيلَ: تعبثونَ بمنْ يمرُّ في الطّريقِ. أيْ تبنونَ بكلِّ موضعٍ مرتفعٍ لتشرفوا على السّابلةِ فتسخروا منهمْ.

قولهُ تعالى: ﴿وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ﴾ حصوناً أو قصوراً مشيّدةً ﴿لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ١٢٩﴾ أيْ كيْ تخلدوا. وقيلَ: لعلَّ استفهامٌ بمعنى التّوبيخِ أيْ فهلْ ﴿تَخْلُدُونَ﴾ كقولكَ: لعلّكَ تشتمني أيْ هلْ تشتمني.

قولهُ تعالى: ﴿وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ١٣٠﴾ البطشُ السّطوةُ والأخذُ بالعنفِ ظلماً.

قولهُ تعالى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ١٣١﴾ تقدّمَ ﴿وَٱتَّقُواْ ٱلَّذِيٓ أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ١٣٢﴾ أيْ منَ الخيراتِ، ثمَّ فسّرها بقولهِ: ﴿أَمَدَّكُم بِأَنْعَٰمٍ وَبَنِينَ ١٣٣ وَجَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ١٣٤﴾ أيْ سخّرَ ذلكَ لكمْ وتفضّلَ بها عليكمْ، فهوَ الّذي يجبُ أنْ يعبدَ ويشكرَ ولا يكفرَ ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ١٣٥﴾ إنْ كفرتمْ بهِ وأصررتمْ على ذلكَ ﴿قَالُواْ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ ٱلْوَٰعِظِينَ ١٣٦﴾ كلُّ ذلكَ عندنا سواءٌ لا نسمعُ منكَ ولا نلوي على ما تقولهُ ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلْأَوَّلِينَ ١٣٧﴾ أيْ دينُ، أو عادةُ الأوّلينَ. وقرأَ ابنُ كثيرٍ وأبو عمرو والكسائيُّ: «خَلْقُ الْأَوَّلِينَ». الباقونَ ﴿خُلُقُ﴾. وقيلَ: ﴿خُلُقُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ اختلاقهم وكذبهمْ، والعربُ تقولُ: حدّثنا فلانٌ بأحاديثِ الخلقِ أيْ بالخرافات والأحاديث المفتعلة.

﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ١٣٨﴾ على ما نفعلُ ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَٰهُمْ﴾ بريحٍ صرصرٍ عاتيةٍ ﴿إِنَّ

﴿فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ١٣٩﴾ قالَ بعضهمْ: أسلمَ معهُ ثلاثمائةِ ألفٍ ومئونَ وهلكَ باقيهمْ ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ١٤٠﴾.

قولهُ تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ ١٤١﴾ ذكرُ قصّةِ صالحٍ وقومهِ وهمْ ثمودُ، وكانوا يسكنونَ الحجرَ كما تقدّمَ في «الحجرِ»، وهيَ ذواتُ نخلٍ وزروعٍ ومياهٍ ﴿أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ ١٤٦﴾ منَ الموتِ والعذاب ﴿فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ١٤٧ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ١٤٨﴾. وخصَّ النّخل بإفرادهِ بعدَ دخولهِ في جملةِ سائرِ الشّجرِ تنبيهاً على انفرادهِ عنها بفضلهِ عنها. وَ ﴿هَضِيمٌ﴾ رّطبُ لّيّنٌ يتهشّمُ في الفمِ، والطّلعُ اسمٌ مشتقٌّ منَ الطّلوعِ وهوَ الظّهورُ، ومنهُ طلوعُ الشّمسِ والقمرِ والنبات.

قوله تعالى: ﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ ١٤٩﴾ النّحتُ النّجرُ والبريُ، وفي «والصّافّاتِ» قالَ: ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ﴾.

وقرأَ ابنُ كثيرٍ وأبو عمرو ونافعٌ: «فَرِهِينَ» بغيرِ ألفٍ. الباقونَ: ﴿فَارِهِينَ﴾ بألفٍ وهما بمعنى واحدٍ مثلُ: ﴿عِظَامًا نَّخِرَةً﴾ وَ «نَاخِرَةً»، وفرّقَ بينهما قومٌ فقالوا: ﴿فَارِهِينَ﴾ حاذقينَ بنحتها، و «فَرِهِينَ» بغيرِ ألفٍ أشرينَ بطرينَ. وقيلَ: فرهينَ فرحينَ، والعربُ تعاقبُ بينَ الهاءِ والحاءِ، تقولُ: مدهتهُ ومدحتهُ، فالفرهُ الأشرُ، ثمَّ الفرحُ بمعنى المرح مذمومٌ، قالَ اللّهُ تعالى: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا﴾، وقالَ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾.

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ١٥٠ وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ ١٥١﴾ الّذينَ يريدون عقر النّاقةَ. وقيلَ: التّسعةُ الرّهطُ الّذينَ يفسدونَ في الأرضِ ولا يصلحونَ.

﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ١٥٣﴾ أُصبتَ بالسّحرِ فبطلَ عقلكَ، أو من المعللين بالطعام والشراب ﴿فَأْتِ بِآيَةٍ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ١٥٤﴾ في قولكَ ﴿قَالَ هَٰذِهِ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ١٥٥﴾ أيْ حظٌّ منَ الماءِ ﴿فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ ١٥٧﴾ على عقرها لمّا أيقنوا بالعذابِ.

قولهُ تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ١٦٠﴾ مضى معناهُ وقصّتهُ في الأعرافِ وَ «هودٍ» مستوفى والحمدُ للّهِ.

قولهُ تعالى: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ١٦٥﴾ كانوا يفعلونَ ذلكَ بالغرباءِ ﴿وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم﴾ يعني فروجَ النّساءِ فإنَّ اللّهَ خلقها للنّكاحِ ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ١٦٦﴾ متجاوزونَ لحدودِ اللّهِ ﴿قَالُواْ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰلُوطُ﴾ عن قولك هذا ﴿لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ ١٦٧﴾ أيْ منْ بلدنا وقريتنا ﴿قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُم﴾ يعني اللّواطَ ﴿مِّنَ ٱلْقَالِينَ ١٦٨﴾ أيِ المبغضينَ والقليُ البغضُ، قليتهُ أقليهِ قِلىً وقَلَاءً ﴿رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ ١٦٩﴾ أيْ منْ عذابِ عملهمْ. دعا اللّهُ لمّا أيسَ منْ إيمانهمْ ألّا يصيبهُ منْ عذابهم.

قال تعالى: ﴿فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ١٧٠﴾ ولمْ يكنْ إلّا ابنتاهُ على ما تقدّمَ في «هودٍ» ﴿إِلَّا عَجُوزًا فِي ٱلْغَٰبِرِينَ ١٧١﴾ غبرتْ في عذابِ اللّهِ عزَّ وجلَّ أيْ بقيتْ. يقالُ للذّاهبِ غابرٌ والباقي غابر ﴿ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ١٧٢﴾ بالخسفِ والحصبِ ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا﴾ يعني الحجارةَ ﴿فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ١٧٣﴾. وقيلَ: إنَّ جبريلَ خسفَ بقريتهمْ وجعلَ عاليها سافلها، ثمَّ أتبعها اللّهُ بالحجارةِ ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ١٧٤﴾ لمْ يكنْ فيها مؤمن إلا بيت لوط وابنتاه.

قولهُ تعالى: ﴿كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ ١٧٦﴾ الأيكُ الشّجرُ الملتفُّ الكثيرُ الواحدةُ أيكةٌ، ومن قرأ "الأيكة" فهي الغيضة، ومن قرأ "لَيْكةِ" فهي القرية، وقرأ أبو جعفرٍ ونافعٌ «كَذَّبَ أَصْحَابُ لَيْكَةَ الْمُرْسَلِينَ» وكذا قرأ في «ص»، وأجمع القراء على الخفض في التي في سورة الحجر والتي في سورة ق فيجب أن يُرَدَّ ما اختلفوا فيه إلى ما أجمعوا عليه إذ كان المعنى واحدا.

﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ﴾ ولمْ يقل أخوهمْ شعيبٌ، لأنّهُ لمْ يكنْ أخـًا لأصحابِ الأيكةِ في النّسبِ، فلمّا ذكرَ مدينَ قالَ: ﴿أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾، لأنّهُ كانَ منهمْ. وأرسلَ اللّهُ شعيبـًا رسولاً

إلى قومهِ أهلِ مدينَ، وإلى أهلِ الباديةِ وهمْ أصحابُ الأيكةِ ﴿أَلَا تَتَّقُونَ ۝١٧٧﴾ تخافونَ اللّهَ ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ۝١٧٨ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ۝١٧٩﴾ الآية. وإنّما كانَ جوابُ هؤلاءِ الرّسلِ واحداً على صيغةٍ واحدةٍ، لأنّهمْ متّفقونَ على الأمرِ بالتّقوى، والطّاعةِ والإخلاصِ في العبادةِ، والامتناعِ منْ أخذِ الأجرِ على تبليغِ الرّسالةِ ﴿۞أَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُخْسِرِينَ ۝١٨١﴾ الناقصين للكيل والوزنِ ﴿وَزِنُواْ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ۝١٨٢﴾ أيْ أعطوا الحقَّ ﴿وَلَا تَبْخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْاْ فِي ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ۝١٨٣﴾ تقدّمَ في «هود» وغيرها ﴿وَٱتَّقُواْ ٱلَّذِي خَلَقَكُمْ وَٱلْجِبِلَّةَ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٨٤﴾ الجبلّةُ هيَ الخليقةُ ذو العددِ الكثيرِ منَ النّاسِ، ومنهُ قولهُ تعالى: ﴿جِبِلًّا كَثِيرًاۖ﴾.

﴿قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ۝١٨٥﴾ الّذينَ يأكلونَ الطّعامَ والشّرابَ ﴿وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ۝١٨٦﴾ في أنّكَ رسولُ اللّهِ تعالى ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ قطعةً منهُ، فننظرُ إليهِ، كما قالَ: ﴿وَإِن يَرَوْاْ كِسْفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطًا يَقُولُواْ سَحَابٌ مَّرْكُومٌ﴾. وقيلَ: أرادوا أنزلْ علينا العذابَ. وهوَ مبالغةٌ في التّكذيبِ.

وقرأَ حفصٌ: «كِسَفًا» جمعُ كسفةٍ أيضاً وهيَ القطعةُ والجانبُ تقديرهُ كسرةٌ وكسرٌ. فمنْ قرأَ: ﴿كِسْفًا﴾ جعلهُ واحداً ومنْ قرأَ: «كِسَفًا» جعلهُ جمعاً.

﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝١٨٧ قَالَ رَبِّيٓ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ۝١٨٨﴾ تهديد، أيْ إنّما عليَّ التّبليغُ وليسَ العذابُ الّذي سألتم وهوَ يجازيكمْ ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِۚ﴾ قالَ ابنُ عبّاسٍ: أصابهمْ حرٌّ شديدٌ، فأرسلَ اللّهُ سبحانهُ سحابةً فهربوا إليها ليستظلّوا بها، فلمّا صاروا تحتها صيحَ بهمْ فهلكوا. وقيلَ: أقامها الله فوق رؤوسهم، وألهبها حراً حتّى ماتوا منَ الرّمدِ، فذلكَ قولهُ: ﴿فَأَصْبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ۝٩٤ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَآۗ﴾ وقولهُ: ﴿فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ۝١٨٩﴾.

وقالَ قتادةُ: بعثَ اللّهُ شعيباً إلى أمّتينِ: أصحابِ مدينَ وأصحابِ الأيكةِ فأهلكَ اللّهُ أصحابَ الأيكةِ بالظّلّةِ، وأمّا أصحابُ مدينَ فصاحَ بهمْ جبريلُ صيحةً فهلكوا أجمعينَ ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٩٠﴾﴾ قيل: آمن بشعيب من الفئتين تسعمائة نفر.

قولهُ تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾﴾ عادَ إلى ما تقدّمَ بيانهُ في أوّلِ السّورةِ منْ إعراضِ المشركينَ عنِ القرآنِ ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ ﴿نَزَلَ﴾ مخفّفاً قرأَ نافعٌ وابنُ كثيرٍ وأبو عمرو. الباقونَ: «نَزَّلَ» مشدّداً ﴿بِهِ ٱلرُّوحَ ٱلْأَمِينَ﴾ نصباً لقولهِ: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ﴾ وهوَ مصدرُ نزّلَ، والحجّةُ لمنْ قرأَ بالتّخفيفِ أنْ يقولَ ليسَ هذا بمقدّرٍ، لأنَّ المعنى وإنَّ القرآنَ لتنزيلُ ربِّ العالمينَ نزلَ بهِ جبريلُ إليكَ، كما قالَ تعالى: ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ أيْ يتلوهُ عليكَ فيعيهُ قلبك. وقيلَ: ليثبت قلبكَ ﴿لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾﴾ أيْ لئلّا يقولوا السنا نفهمُ ما تقولُ ﴿وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾﴾ أي وإنَّ ذكرَ نزولهِ لفي كتبِ الأوّلينَ يعني الأنبياءَ. وقيلَ: أيْ إنَّ ذكرَ محمّدٍ ﷺ في كتبِ الأوّلينَ، كما قالَ تعالى: ﴿يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ﴾ والزبر الكتبُ الواحدُ زبورٌ كرسولٍ ورسلٍ، وقدْ تقدّمَ.

قولهُ تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٩٧﴾﴾ عبد الله ابن سلامٍ وسلمان وغيرهما ممّنْ أسلمَ. وقالَ ابنُ عبّاسٍ: بعثَ أهلُ مكّةَ إلى اليهودِ وهمْ بالمدينة يسألونهمْ عنْ محمّدٍ ﷺ، فقالوا: إنَّ هذا لزمانهُ، وإنّا لنجدُ في التّوراةِ نعتهُ وصفتهُ. فيرجعُ لفظُ العلماءِ إلى كلِّ منْ كانَ لهُ علمٌ بكتبهمْ أسلمَ أوْ لمْ يسلم على هذ القولِ. وإنّما صارتْ شهادةُ أهلِ الكتابِ حجّةً على المشركينَ، لأنّهمْ كانوا يرجعونَ في أشياءَ منْ أمورِ الدّينِ إلى أهلِ الكتابِ، لأنّهمْ مظنونٌ بهمْ علمٌ.

وقرأَ ابنُ عامرٍ «أَوَلَمْ تَكُنْ لَهُمْ آيَةٌ». الباقونَ ﴿أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً﴾ بالنّصبِ على الخبرِ واسمُ يكنْ ﴿أَن يَعْلَمَهُۥ﴾ والتقدير أو لم يكنْ لهمْ علمُ علماءِ بني إسرائيلَ الّذينَ أسلموا آيةً واضحةً.

﴿وَلَوْ نَزَّلْنَٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ ﴿١٩٨﴾﴾ أيْ على رجلٍ ليسَ بعربيّ اللّسانِ ﴿فَقَرَأَهُۥ

عَلَيۡهِم﴾ بغيرِ لغةِ العربِ لما آمنوا ولقالوا لا نفقهُ. نظيرهُ: ﴿وَلَوۡ جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَانًا أَعۡجَمِيًّا﴾ الآيةَ. أو لما آمنوا بهِ أنفةً وكبراً.

يقالُ: رجلٌ أعجمُ وأعجميٌّ إذا كانَ غيرَ فصيحٍ وإنْ كانَ عربياً، ورجلٌ عجميٌّ وإنْ كانَ فصيحاً ينسبُ إلى أصلهِ، إلّا أنَّ الفرّاءُ أجازَ أنْ يقالَ رجلٌ عجميٌّ بمعنى أعجميٍّ.

قولهُ تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ سَلَكۡنَٰهُ﴾ يعني القرآنَ أيِ الكفرَ بهِ ﴿فِي قُلُوبِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ۝٢٠٠ لَا يُؤۡمِنُونَ بِهِۦ﴾. وقيلَ: سلكنا التّكذيبَ في قلوبهِمْ، فذلكَ الّذي منعهمْ منَ الإيمانِ، وقيلَ: القسوةُ ﴿حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ ۝٢٠١ فَيَأۡتِيَهُم بَغۡتَةً﴾ أيِ العذابُ. وقرأَ الحسنُ: «فَتَأْتِيَهُمْ» بالتّاءِ، والمعنى: فتأتيهمُ السّاعةُ بغتةً فأضمرتْ لدلالةِ العذابِ الواقعِ فيها، ولكثرةِ ما في القرآنِ منْ ذكرها ﴿وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ۝٢٠٢﴾ بإتيانها ﴿فَيَقُولُواْ هَلۡ نَحۡنُ مُنظَرُونَ ۝٢٠٣﴾ أيْ مؤخّرونَ وممهلونَ. يطلبونَ الرّجعةَ هنالكَ فلا يجابونَ إليها. قالَ القشيريُّ: وقولهُ: ﴿فَيَأۡتِيَهُم﴾ ليسَ عطفاً على قولهِ: ﴿حَتَّىٰ يَرَوُاْ﴾ بلْ هوَ جوابُ قولهِ: ﴿لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ فلمّا كانَ جواباً للنّفيِ انتصبَ، وكذلكَ قولهُ: ﴿فَيَقُولُواْ﴾.

قولهُ تعالى: ﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسۡتَعۡجِلُونَ ۝٢٠٤﴾ قالَ مقاتلٌ: قالَ المشركونَ للنّبيِّ ﷺ يا محمّدُ إلى متى تعدنا بالعذابِ ولا تأتي به! فنزلت ﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسۡتَعۡجِلُونَ﴾.

﴿أَفَرَءَيۡتَ إِن مَّتَّعۡنَٰهُمۡ سِنِينَ ۝٢٠٥﴾ يعني في الدّنيا والمرادُ أهلُ مكّةَ ﴿ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُواْ يُوعَدُونَ ۝٢٠٦﴾ منَ العذابِ والهلاكِ ﴿مَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يُمَتَّعُونَ ۝٢٠٧﴾ ﴿مَا﴾ الأولى استفهامٌ معناهُ التّقريرُ، وهوَ في موضعِ نصبٍ بِ ﴿أَغۡنَىٰ﴾ وَ ﴿مَا﴾ الثّانيةُ في موضعِ رفعٍ، ويجوزُ أنْ تكونَ الثّانيةُ نفياً لا موضعَ لها. وقيلَ: ﴿مَا﴾ الأولى حرفُ نفيٍ، وَ ﴿مَا﴾ الثّانيةُ في موضعِ رفعٍ بِ ﴿أَغۡنَىٰ﴾ والهاءُ العائدةُ محذوفةٌ. والتّقديرُ: ما أغنى عنهمُ الزّمانُ الّذي كانوا يمتّعونهُ. وعنِ الزّهريِّ: أنَّ عمرَ بنَ عبدِ العزيزِ كانَ إذا أصبحَ أمسكَ بلحيتهِ ثمَّ قرأَ: ﴿أَفَرَءَيۡتَ إِن مَّتَّعۡنَٰهُمۡ سِنِينَ ۝٢٠٥ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُواْ يُوعَدُونَ ۝٢٠٦ مَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يُمَتَّعُونَ ۝٢٠٧﴾ ثمَّ يبكي ويقولُ:

نهاركَ يا مغرورُ سهوٌ وغفلةٌ ... وليلكَ نومٌ والرّدى لكَ لازمُ

فلا أنتَ في الأيقاظِ يقظانُ حازمُ ولا أنتَ في النّوّامِ ناجٍ فسالمُ
تسرُّ بما يفنى وتفرحُ بالمنى كما سرَّ باللّذّاتِ في النّومِ حالمُ
وتسعى إلى ما سوفَ تكرهُ غبه كذلك في الدنيا تعيش البهائم

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةٍ﴾ ﴿مِن﴾ صلةٌ، المعنى: وما أهلكنا قريةً ﴿إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ ۝٢٠٨﴾ أي رسلٌ ﴿ذِكۡرَىٰ﴾ في موضعِ نصبٍ على الحالِ. أو على المصدرِ، أيْ يذكرونَ ذكرى، وَ ﴿ذِكۡرَىٰ﴾ لا يتبيّنُ فيهِ الإعرابُ، لأنَّ فيها ألفًا مقصورةً. ويجوزُ «ذِكْرًى» بالتّنوينِ، ويجوزُ أنْ يكونَ ﴿ذِكۡرَىٰ﴾ في موضعِ رفعٍ على إضمارِ مبتدأٍ. قالَ أبو إسحاقَ: أيْ إنذارنا ذكرى. وقالَ الفرّاءُ: أيْ ذلكَ ذكرى، وتلكَ ذكرى ﴿وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ۝٢٠٩﴾ في تعذيبهمْ حيثُ قدّمنا الحجة عليهم وأعذرنا إليهم.

قولهُ تعالى: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتۡ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ۝٢١٠﴾ يعني القرآنَ بلْ ينزلُ بهِ الرّوحُ الأمينُ ﴿وَمَا يَنۢبَغِي لَهُمۡ وَمَا يَسۡتَطِيعُونَ ۝٢١١ إِنَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّمۡعِ لَمَعۡزُولُونَ ۝٢١٢﴾ أيْ برمي الشّهبِ.

قولهُ تعالى: ﴿فَلَا تَدۡعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُعَذَّبِينَ ۝٢١٣﴾ خوطبَ بهذا والمقصودُ غيرهُ. ودلَّ على هذا قولهُ: ﴿وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ﴾ أيْ لا يتّكلونَ على نسبهمْ وقرابتهمْ فيدعونَ ما يجب عليهم.

قولهُ تعالى: ﴿وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ ۝٢١٤﴾ فيهِ مسألتانِ:

الأولى: خصَّ عشيرتهُ الأقربينَ بالإنذارِ، لتنحسمَ أطماعُ سائرِ عشيرتهِ وأطماعُ الأجانبِ في مفارقتهِ إيّاهمْ على الشّركِ. وعشيرتهُ الأقربونَ قريشٌ. وقيلَ: بنو عبدِ منافٍ، وروى مسلمٌ منْ حديثِ أبي هريرةَ قالَ: لمّا نزلتْ هذهِ الآيةُ ﴿وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ﴾ دعا رسولُ اللّهِ ﷺ قريشًا فاجتمعوا فعمَّ وخصَّ فقالَ: «يا بني كعبِ بنِ لؤيٍّ أنقذوا أنفسكمْ منَ النّارِ يا بني مرّةَ بنِ كعبٍ أنقذوا أنفسكمْ منَ النّارِ يا بني عبدِ شمسٍ أنقذوا أنفسكمْ منَ النّارِ، يا بني عبدِ منافٍ أنقذوا أنفسكمْ منَ النّارِ يا بني هاشمٍ أنقذوا أنفسكمْ منَ النّارِ يا بني عبدِ المطّلبِ أنقذوا أنفسكمْ منَ النّارِ يا فاطمةُ أنقذي نفسكِ منَ النّارِ فإنّي لا أملكُ لكمْ منَ اللّهِ شيئًا غيرَ أنَّ لكم رحما سابلها ببلالها».

الثانية- في هذا الحديثِ والآيةِ دليلٌ على أنَّ القربَ في الأنسابِ لا ينفعُ معَ البعدِ في الأسبابِ، ودليلٌ على جوازِ صلةِ المؤمن الكافرَ وإرشادِهِ ونصيحتهِ، لقولهِ: «إنَّ لكمْ رحمًا سأبلّها ببلالها»، وقولهُ عزَّ وجلَّ: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ﴾ الآيةَ.

قولهِ تعالى: ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾﴾ خفضَ جناحهُ إذا لانَ ﴿فَإِنْ عَصَوْكَ﴾ أي خالفوا أمرك ﴿فَقُلْ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢١٦﴾﴾ أي منْ معصيتكمْ إيّايَ.

قولهُ تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾﴾ أيْ فوّضْ أمركَ إليهِ فإنّهُ العزيزُ الّذي لا يغالبُ، الرّحيمُ الّذي لا يخذلُ أولياءهُ.

وقرأَ العامّةُ: ﴿وَتَوَكَّلْ﴾ بالواوِ وكذلكَ هوَ في مصاحفهمْ. وقرأَ نافعٌ وابنُ عامرٍ: «فَتَوَكَّلْ» بالفاءِ وكذلكَ هوَ في مصاحفِ المدينةِ والشّام ﴿ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾﴾ إلى الصّلاةِ في قولِ أكثرِ المفسّرينَ، وقيلَ: حيثما كنتَ ﴿وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾﴾ في المصلّينَ. وقيلَ: أيْ في أصلابِ الآباءِ، آدمَ ونوحٍ وإبراهيمَ حتّى أخرجهُ نبيًا ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٢٠﴾﴾ تقدم.

قولهُ تعالى: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾﴾ إنّما قالَ: ﴿تَنَزَّلُ﴾ لأنّها أكثرُ ما تكونُ في الهواءِ، وأنّها تمرُّ في الرّيح ﴿يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ﴾ صفة الشياطين ﴿وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ ﴿٢٢٣﴾﴾ يرجع إلى الكهنة. وقيلَ: إلى الشياطين.

قولهُ تعالى: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾﴾ فيهِ ستُّ مسائلَ:

الأولى: الشّعراءُ جمعُ شاعرٍ مثلُ جاهلٍ وجهلاءَ، قالَ ابنُ عبّاسٍ: همُ الكفّارُ ﴿يَتَّبِعُهُمُ﴾ ضلّالُ الجنِّ والإنسِ. وقيلَ ﴿ٱلْغَاوُۥنَ﴾ الزّائلونَ عن الحق، ودل بهذا أن الشّعراءَ أيضًا غاوونَ، لأنّهمْ لوْ لمْ يكونوا غاوينَ ما كانَ أتباعهمْ كذلكَ. وقدْ قدّمنا في سورةِ النّورِ أنَّ منَ الشّعرِ ما يجوزُ إنشادهُ ويكرهُ ويحرمُ. روى مسلمٌ منْ حديثِ عمرو بنِ الشّريدِ عنْ أبيهِ قالَ: ردفتُ رسولَ اللّهِ ﷺ يوما فقالَ: «هلْ معكَ منْ شعرِ أميّةَ بنِ أبي الصّلتِ شيءٌ» قلت: نعمْ. قالَ: «هيهِ» فأنشدتهُ بيتًا. فقالَ «هيهِ» ثمَّ أنشدتهُ بيتًا. فقالَ «هيهِ» حتّى أنشدتهُ مائةَ بيتٍ. هكذا صوابُ هذا السّندِ وصحيحُ روايتهِ.

وفي هذا دليلٌ على حفظِ الأشعارِ والاعتناءِ بها إذا تضمّنتِ الحكمَ والمعانيَ المستحسنةَ شرعـًا وطبعـًا، وإنّما استكثرَ النّبيُّ ﷺ من شعر أمية، لأنه كانَ حكيمـًا، ألا ترى قولهُ ﷺ: «وكادَ أميّةُ بنُ أبي الصّلتِ أنْ يسلمَ» فأمّا ما تضمّنَ ذكرَ اللّهِ وحمدهُ والثّناءَ عليهِ والذب عن رسوله فذلكَ مندوبٌ إليهِ، كقولِ حسّانَ:

هـجوتَ مـحـمّـداً فـأجبتُ عـنـهُ ... وعـنـدَ الـلّـهِ في ذاكَ الـجـزاءُ

وهيَ أبياتٌ ذكرها مسلمٌ في صحيحهِ وهيَ في السّيرِ أتمُّ.

قالَ ابنُ العربيِّ: أمّا الاستعاراتُ في التّشبيهاتِ فمأذونٌ فيها وإنِ استغرقتِ الحدَّ وتجاوزتِ المعتادَ، فبذلكَ يضربُ الملكُ الموكّلُ بالرّؤيا المثلَ، وقدْ أنشدَ كعبُ بنُ زهيرٍ النّبيَّ ﷺ:

بـانـتْ سـعـادُ فقلبي اليومَ متبولُ ... مـتـيّـمٌ إثـرهـا لـمْ يـفـدَ مـكـبـولُ
ومـا سـعـادُ غـداةَ البـيـنِ إذْ رحـلـوا ... إلّا أغنُّ غضـيـضُ الطّرفِ مكحولُ
تجلو عوارضَ ذي ظلمٍ إذا ابتسـمـتْ ... كـأنّـهُ مـنـهـلٌ بـالـرّاحِ مـعـلـولُ

فجاءَ في هذهِ القصيدةِ منَ الاستعاراتِ والتّشبيهاتِ بكلِّ بديعٍ، والنّبيُّ ﷺ يسمعُ ولا ينكرُ في تشبيههِ ريقها بالرّاحِ.

قالَ أبو عمرَ: ولا ينكرُ الحسنَ منَ الشّعرِ أحدٌ منْ أهلِ العلمِ ولا منْ أولي النّهى، وليسَ أحدٌ منْ كبارِ الصّحابةِ وأهلِ العلمِ وموضعِ القدوةِ إلّا وقدْ قالَ الشّعرَ، أوْ تمثّلَ بهِ أوْ سمعهُ فرضيهُ ما كانَ حكمةً أوْ مباحـًا، ولمْ يكنْ فيهِ فحشٌ ولا خنا ولا لمسلمٍ أذى، فإذا كانَ كذلكَ فهوَ والمنثورُ منَ القولِ سواءٌ لا يحلُّ سماعهُ ولا قولهُ، وروى أبو هريرة قال: سمعتُ رسولَ اللّهِ ﷺ على المنبرِ يقولُ: «أصدقُ كلمةٍ- أوْ أشعرُ كلمةٍ- قالتها العربُ قولُ لبيدٍ:

ألا كلُّ شيء ما خلا اللّهُ باطلُ

أخرجهُ مسلمٌ وزادَ: «وكادَ أميّةُ بنُ أبي الصّلتِ أنْ يسلمَ».

وكانَ عبيدِ اللّهِ بنِ عبدِ اللّهِ بنِ عتبةَ بنِ مسعودٍ أحدُ فقهاءِ المدينةِ العشرةِ ثمَّ المشيخةِ

السّبعةِ شاعراً مجيداً مقدّماً فيهِ، وكانتْ لهُ زوجةٌ حسنةٌ تسمّى عثمةُ فعتبَ عليها في بعضِ الأمرِ فطلّقها، ولهُ فيها أشعارٌ كثيرةٌ، منها قولهُ:

تغلغلَ حبُّ عثمةَ في فؤادي فباديهِ معَ الخافي يسيرُ
تغلغلَ حيثُ لمْ يبلغْ شرابٌ ولا حزنٌ ولمْ يبلغْ سرورُ
أكادُ إذا ذكرتُ العهدَ منها أطيرُ لوَ انَّ إنساناً يطيرُ

وقالَ ابنُ شهابٍ: قلتُ: لهُ تقولُ الشّعرَ في نسككَ وفضلكَ! فقالَ: إنَّ المصدورَ إذا نفثَ برأَ.

الثانية- وأمّا الشّعرُ المذمومُ الّذي لا يحلُّ سماعهُ وصاحبهُ ملومٌ، فهوَ المتكلّمُ بالباطلِ حتّى يفضّلوا أجبنَ النّاسِ على عنترةَ، وأشحّهمْ على حاتمٍ، وأن يبهتوا البريءَ ويفسّقوا التّقيَّ، وأنْ يفرطوا في القولِ بما لمْ يفعلهُ المرءُ، رغبةً في تسليةِ النّفسِ وتحسينِ القولِ، كما رويَ عنِ الفرزدقِ أنَّ سليمانَ بنَ عبدِ الملكِ سمعَ قولهُ:

فبتنَ بجانبي مصرعات وبت أفض أغلاق الختام

فقالَ: قدْ وجبَ عليكَ الحدُّ. فقالَ: يا أميرَ المؤمنينَ قدْ درأَ اللّهُ عنّي الحدَّ بقولهِ: ﴿وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾.

ورويَ أنَّ النّعمانَ بنَ عديِّ بنِ نضلةَ كانَ عاملاً لعمرَ بنِ الخطّابِ رضي الله عنه فقالَ:

منْ مبلغُ الحسناءِ أنَّ حليلها بميسانَ يُسقى في زجاجٍ وحنتمِ
إذا شئتُ غنّتني دهاقينُ قريةٍ ورقّاصةٌ تجذو على كلِّ منسمِ
فإنْ كنتَ ندماني فبالأكبرِ اسقني ولا تسقني بالأصغرِ المتثلّمِ
لعلَّ أميرَ المؤمنينَ يسوءهُ تنادمنا بالجوسقِ المتهدّمِ

فبلغَ ذلكَ عمرَ فأرسلَ إليهِ بالقدومِ عليهِ.،وقالَ: إي واللّهِ إنّي ليسوءني ذلكَ. فقالَ: يا أميرَ المؤمنينَ ما فعلتُ شيئاً ممّا قلتُ، وإنّما كانتْ فضلةً منَ القولِ، وقدْ قالَ اللّهُ تعالى: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا

يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ فقالَ: لهُ عمرُ: أمّا عذركَ فقدْ درأَ عنكَ الحدَّ، ولكنْ لا تعملُ لي عملاً أبداً وقدْ قلتَ ما قلتَ.

فهذا حكمُ الشّعرِ المذمومِ وحكمُ صاحبِهِ، فلا يحلُّ سماعهُ ولا إنشادهُ في مسجدٍ وفي غيرِهِ، كمنثورِ الكلامِ القبيحِ ونحوِهِ.

الثالثة- روى مسلمٌ عنْ أبي هريرةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قالَ: قالَ رسولُ اللّهِ ﷺ: «لأنْ يمتلئَ جوفُ أحدكمْ قيحاً حتّى يريهُ خيرٌ منْ أنْ يمتلئَ شعراً». وفي الصّحيحِ أيضاً عنْ أبي سعيدٍ الخدريِّ قالَ: بينا نحنُ نسيرُ معَ رسولِ اللّهِ ﷺ إذْ عرضَ شاعرٌ ينشدُ فقالَ: رسولُ اللّهِ ﷺ: «خذوا الشّيطانَ- أوْ أمسكوا الشّيطانَ- لأنْ يمتلئَ جوفُ رجلٍ قيحاً خيرٌ لهُ منْ أنْ يمتلئَ شعراً».

قالَ علماؤنا: وإنّما فعلُ النّبيِّ ﷺ هذا معَ هذا الشّاعرِ لمّا علمَ منْ حالهِ، فلعلَّ هذا الشّاعرَ كانَ ممّنْ قدْ عرفَ منْ حالهِ أنّهُ قدِ اتّخذَ الشّعرَ طريقاً للتّكسّبِ، فيفرطُ في المدحِ إذا أعطيَ، وفي الهجوِ والذّمِّ إذا منعَ، فيؤذي النّاسَ في أموالهمْ وأعراضهمْ. ولا خلافَ في أنَّ منْ كانَ على مثلِ هذهِ الحالةِ فكلُّ ما يكتسبهُ بالشّعرِ حرامٌ. وكلُّ ما يقولهُ منْ ذلكَ حرامٌ عليهِ، ولا يحلُّ الإصغاءُ إليهِ، بلْ يجبُ الإنكارُ عليه، فإنْ لم يكنْ ذلكَ لمنْ خافَ منْ لسانهِ قطعاً تعيّنَ عليهِ أنْ يداريهُ بما استطاعَ، ويدافعهُ بما أمكنَ، ولا يحلُّ لهُ أنْ يعطيَ شيئاً ابتداءً، لأنَّ ذلكَ عونٌ على المعصيةِ، فإنْ لمْ يجدْ منْ ذلكَ بداً أعطاهُ بنيّةِ وقايةِ العرضِ، فما وقى بهِ المرءُ عرضهُ كتب له به صدقة.

وهذا الحديثُ أحسنَ ما قيلَ في تأويلهِ: إنّهُ الّذي قدْ غلبَ عليهِ الشّعرُ، وامتلأَ صدرهُ منه دون علم سواه ولا شيءَ منَ الذّكرِ ممّنْ يخوضُ بهِ في الباطلِ، ويسلكُ بهِ مسالكَ لا تحمدُ لهُ، كالمكثرِ منَ اللّغطِ والهذرِ والغيبةِ وقبيحِ القولِ. ومنْ كانَ الغالب عليه الشعر لزمته هذه الأوصاف المذمومةُ الدّنيّةُ، لحكمِ العادةِ الأدبيّةِ. وهذا المعنى هوَ الّذي أشارَ إليهِ البخاريُّ في صحيحهِ لمّا بوّبَ على هذا الحديثِ: «بابُ ما يكرهُ أنْ يكونَ الغالبُ على الإنسانِ الشّعرَ». وقدْ قيلَ في تأويلهِ: إنَّ المرادَ بذلكَ الشّعرُ الّذي هجيَ بهِ النّبيُّ ﷺ أوْ غيرهُ. وهذا ليسَ بشيءٍ، لأنَّ القليلَ منْ هجوِ النّبيِّ ﷺ وكثيرهُ سواءٌ في أنّهُ كفرٌ ومذمومٌ، وكذلكَ هجوُ غيرِ النّبيِّ ﷺ منَ المسلمينَ محرّمٌ قليلهُ وكثيرهُ، وحينئذٍ لا يكونُ لتخصيصِ الذّمِّ بالكثيرِ

معنى.

الرابعة- قالَ الشّافعيُّ: الشّعرُ نوعٌ منَ الكلامِ حسنه كحسن الكلام وقبيح كقبيح الكلامِ، يعني أنَّ الشّعرَ ليسَ يكرهُ لذاتهِ وإنّما يكرهُ لمضمّناتهِ، وقدْ كانَ عندَ العربِ عظيمُ الموقعِ. قالَ الأوّلُ منهمْ:

وجرحُ اللّسانِ كجرحِ اليدِ

وقالَ النّبيُّ ﷺ في الشّعرِ الّذي يردُّ بهِ حسّانُ على المشركينَ: «إنّهُ لأسرعُ فيهمْ منْ رشقِ النّبلِ» أخرجهُ مسلمٌ. وروى التّرمذيُّ وصحّحهُ عنِ ابنِ عبّاسٍ أنَّ النّبيَّ ﷺ دخلَ مكّةَ في عمرةِ القضاءِ وعبدُ اللّهِ بنُ رواحةَ يمشي بينَ يديهِ ويقولُ:

خلّوا بني الكفّارِ عنْ سبيلهِ   اليومَ نضربكمْ على تنزيلهِ
ضربًا يزيلُ الهامَ عنْ مقيلهِ   ويذهلُ الخليلَ عنْ خليلهِ

فقالَ عمرُ: يا بن رواحةَ! في حرمِ اللّهِ وبينَ يديْ رسولِ اللّهِ ﷺ! فقالَ: رسولُ اللّهِ ﷺ: «خلِّ عنهُ يا عمرُ فلهوَ أسرعُ فيهمْ منْ نضحِ النبلِ».

الخامسة- قرأَ نافعٌ: «يَتْبَعُهُمْ» مخفّفًا. الباقونَ ﴿يَتَّبِعُهُمُ﴾. ﴿ٱلْغَاوُۥنَ﴾ معَ كلِّ واحدٍ غواةُ قومهِ وهمُ السّفهاءُ، وقيلَ: همُ الرّواةُ للشّعرِ، وقيلَ: همُ الكفّارُ يتّبعهمْ ضلّالَ الجنِّ والإنسِ.

السادسة- قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ٢٢٥﴾ يقولُ: في كلِّ لغوٍ يخوضونَ، ولا يتّبعونَ سننَ الحقِّ، لأنَّ منِ اتّبعَ الحقَّ وعلمَ أنّهُ يكتبُ عليهِ ما يقولهُ تثبّتَ، ولمْ يكنْ هائمًا يذهبُ على وجههِ لا يبالي ما قالَ: ﴿وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ٢٢٦﴾ يقولُ: أكثرهمْ يكذبونَ، أيْ يدلّونَ بكلامهمْ على الكرمِ والخيرِ ولا يفعلونهُ.

ثمَّ استثنى شعرَ المؤمنينَ: حسّانَ بنِ ثابتٍ وعبدِ اللّهِ بنِ رواحةَ وكعبِ بنِ مالكٍ وكعبِ بنِ زهيرٍ ومنْ كانَ على طريقهمْ منَ القولِ الحقِّ، فقالَ: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ في كلامهمْ ﴿وَٱنتَصَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟﴾ وإنما يكون الانتصار بالحق ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ٢٢٧﴾ فالظّالمُ ينتظرُ العقابَ،

والمظلومُ ينتظرُ النّصرةَ. وقرأَ ابنُ عبّاسٍ: «أَيَّ مُنْفَلَتٍ ينفلتون» بالفاءِ والتاءِ ومعناهما واحد لأنَّ مصيرهمْ إلى النّارِ، وهوَ أقبحُ مصيرٍ، ومرجعهمْ إلى العقابِ وهوَ شرُّ مرجعٍ. والفرقُ بينَ المنقلبِ والمرجعِ أنَّ المنقلبَ الانتقالُ إلى ضدِّ ما هوَ فيهِ، والمرجعُ العودُ منْ حالٍ هوَ فيها إلى حالٍ كانَ عليها فصارَ كلُّ مرجعٍ منقلبـًا، وليسَ كلُّ منقلبٍ مرجعـًا، واللّهُ أعلمُ.

سورة النمل

مكّيّةٌ كلّها في قولِ الجميعِ، وهيَ ثلاثٌ وتسعون آية. وقيلَ: أربع وتسعون آية.

بسمِ اللّهِ الرّحمنِ الرّحيم

قولهُ تعالى: ﴿طسٓۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡقُرۡءَانِ وَكِتَابٖ مُّبِينٍ ۝١﴾ ﴿تِلۡكَ﴾ بمعنى هذهِ، أيْ هذهِ السّورةُ آياتُ القرآنِ وآيات كتاب مبين. وذكر القرآن المعرفةِ،، وقالَ: ﴿وَكِتَابٖ مُّبِينٍ ۝١﴾ بلفظِ النّكرةِ وهما في معنى المعرفةِ، والكتابُ هوَ القرآنُ، فجمعَ لهُ بينَ الصّفتينِ: بأنّهُ قرآنٌ وأنّهُ كتابٌ، لأنّهُ مما يظهرُ بالكتابةِ، ويظهرُ بالقراءةِ، وقالَ في سورةِ الحجرِ: ﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ وَقُرۡءَانٖ مُّبِينٖ﴾ فأخرجَ الكتابَ بلفظِ المعرفةِ والقرآنَ بلفظِ النّكرةِ، وذلكَ لأنَّ القرآنَ والكتابَ اسمانِ يصلحُ لكلٍّ واحدٍ منهما أنْ يجعلَ معرفةً، وأنْ يجعلَ صفةً. ووصفهُ بالمبينِ لأنّهُ بيّنَ فيهِ أمرهُ ونهيهُ وحلالهُ وحرامهُ ووعدهُ ووعيدهُ.

قولهُ تعالى: ﴿هُدٗى وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٢﴾ ﴿هُدٗى﴾ في موضعِ نصبٍ على الحالِ منَ الكتابِ، أيْ تلكَ آياتُ الكتابِ هاديةٌ ومبشّرةٌ. ويجوزُ فيهِ الرّفعُ على الابتداءِ، أيْ هوَ هدى. وإنْ شئتَ على حذفِ حرفِ الصّفةِ، أيْ فيهِ هدى. ويجوزُ أنْ يكونَ الخبرُ ﴿لِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ ثمَّ وصفهمْ فقالَ: ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ۝٣﴾.

قولهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ﴾ أيْ لا يصدّقونَ بالبعثِ ﴿زَيَّنَّا لَهُمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾ قيل: أعمالهمُ السّيّئةُ حتّى رأوها حسنةً. وقيلَ: زيّنّا لهمْ أعمالهمُ الحسنةَ فلمْ يعملوها. وقيلَ: جعلنا جزاءهمْ على كفرهمْ أنْ زيّنّا لهمْ ما همْ فيهِ ﴿فَهُمۡ يَعۡمَهُونَ﴾ أيْ يتردّدونَ في أعمالهمُ الخبيثةِ، وفي ضلالتهمْ.

قولهُ تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمۡ سُوٓءُ ٱلۡعَذَابِ﴾ وهوَ جهنّمُ ﴿وَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ هُمُ ٱلۡأَخۡسَرُونَ ۝٥﴾ ﴿فِي ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ تبيينٌ وليسَ بمتعلّقٍ بالأخسرينَ فإنَّ منَ النّاسِ منْ خسرَ الدّنيا وربحَ الآخرةَ، وهؤلاءِ خسروا الآخرةَ بكفرهمْ فهمْ أخسرُ كلِّ خاسرٍ.

قولهُ تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ﴾ أيْ يلقى عليكَ فتلقّاهُ وتعلمهُ وتأخذهُ ﴿مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴿٦﴾﴾ ﴿لَّدُنْ﴾ بمعنى عندَ إلّا أنّها مبنيّةٌ غيرُ معربةٍ، لأنّها لا تتمكّنُ، وهذهِ الآيةُ بساطٌ وتمهيدٌ لما يريدُ أنْ يسوقَ منَ الأقاصيصِ، وما في ذلكَ منْ لطائف حكمته، ودقائق علمه.

قولهُ تعالى: ﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ﴾ ﴿إِذْ﴾ منصوبٌ بمضمرٍ وهوَ اذكرْ ﴿إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا﴾ أيْ أبصرتها منْ بعدٍ ﴿سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٧﴾﴾ قرأ عاصمٌ وحمزةُ والكسائيُّ: ﴿بِشِهَابٍ قَبَسٍ﴾ بتنوينِ «شِهَابٍ». والباقونَ بغيرِ تنوينٍ على الإضافةِ، أيْ بشعلةِ نارٍ، والشّهابُ كلُّ ذي نورٍ، نحوَ الكوكبِ والعودِ الموقدِ. والقبسُ اسمٌ لما يقتبسُ منْ جمرٍ وما أشبههُ، فالمعنى بشهابٍ منْ قبسٍ، ومنْ قرأَ: ﴿بِشِهَابٍ قَبَسٍ﴾ جعلهُ بدلاً منهُ أوْ صفةٌ لهُ ﴿لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ تستدفئونَ منَ البردِ. يقالُ: اصطلى يصطلي إذا استدفأَ.

قولهُ تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهَا﴾ جاءَ الّذي ظنَّ أنّهُ نارٌ وهيَ نورٌ ﴿نُودِىَ﴾ أيْ ناداهُ اللّهُ، كما قالَ: ﴿وَنَـٰدَيْنَـٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ﴾ ﴿أَنۢ بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ﴾ أيْ بوركَ على منْ في النّارِ وهوَ موسى، أوْ على منْ في قربِ النّارِ، لا أنّهُ كانَ في وسطها. وهذا تحيّةٌ منَ اللّهِ تعالى لموسى وتكرمةٌ لهُ، كما حيّا إبراهيمَ على ألسنةِ الملائكةِ حينَ دخلوا عليه، قال: ﴿رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَـٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ﴾. وقولٌ ثالثٌ قالهُ ابنُ عبّاسٍ: قدّسَ منْ في النّارِ وهوَ اللّهُ سبحانهُ وتعالى، عنى بهِ نفسهُ تقدّسَ وتعالى، فالنّارُ نورُ اللّهِ عزَّ وجلَّ، وتأويلُ هذا أنَّ موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ رأى نوراً عظيماً فظنّهُ ناراً، وهذا لأنَّ اللّهَ تعالى ظهرَ لموسى بآياتهِ وكلامهِ منَ النّارِ لا أنّهُ يتحيّزُ في جهةٍ. وقيلَ على هذا: أيْ بوركَ منْ في النّارِ سلطانهُ وقدرتهُ. وقيلَ: أيْ بوركَ ما في النّارِ منْ أمرِ اللّهِ تعالى الّذي جعلهُ علامةً.

قلت: وممّا يدلُّ على صحّةِ قولِ ابنِ عبّاسٍ ما خرّجهُ مسلمٌ في صحيحهِ عنْ أبي موسى قالَ: قامَ فينا رسولُ اللّهِ ﷺ بخمسِ كلماتٍ، فقالَ: «إنَّ اللّهَ عزَّ وجلَّ لا ينامُ ولا ينبغي لهُ أنْ ينامَ يخفضُ القسطَ ويرفعهُ، يرفعُ إليهِ عملُ اللّيلِ قبلَ عملِ النّهارِ وعملُ النّهارِ قبلَ عملِ اللّيلِ حجابهُ النّورُ - وفي روايةِ أبي بكرٍ النّارُ - لو كشفه لا حرقت سبحاتُ وجههِ ما انتهى

إليهِ بصرهُ منْ خلقهِ» قالَ أبو عبيدٍ: يقالُ السّبحاتُ إنّها جلالُ وجههِ، ومنها قيل: سبحانَ اللّهِ إنّما هوَ تعظيمٌ لهُ وتنزيهٌ. وقولهُ: «لوْ كشفها» يعني لوْ رفعَ الحجابَ عنْ أعينهمْ ولمْ يثبّتهمْ لرؤيتهِ لاحترقوا وما استطاعوا لها.

والمخلوقُ المحجوبُ واللّهُ لا يحجبه شيء، فكانتِ النّارُ نوراً وإنّما ذكرهُ بلفظِ النّارِ، لأنَّ موسى حسبهُ ناراً، والعربُ تضعُ أحدهما موضعَ الآخرِ.

قولهُ تعالى: ﴿وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٨﴾ تنزيهاً وتقديساً للّهِ ربِّ العالمينَ، والمعنى: أي يقول حولها «وسبحانَ اللّهِ» فحذفَ. وقيلَ: إنَّ موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ قالهُ حينَ فرغَ منْ سماعِ النّداءِ، استعانةً باللّهِ تعالى وتنزيهاً لهُ.

قولهُ تعالى: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٩﴾ الهاءُ عمادٌ وليستْ بكنايةٍ في قولِ الكوفيّينَ. والصّحيحُ أنها كناية عن الأمر والشأن ﴿أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ﴾ الغالبُ الّذي ليسَ كمثلهِ شي ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ في أمرهِ وفعلهِ.

قولهُ تعالى: ﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ﴾ ليعلمَ أنَّ المكلّمَ لهُ هوَ الله، وأن موسى رسوله، وكل نبي لا بد لهُ منْ آيةٍ في نفسهِ يعلمُ بها نبوّتهُ. وفي الآيةِ حذفٌ: أيْ وألقِ عصاكَ فألقاها منْ يدهِ فصارتْ حيّةً تهتزُّ كأنّها جانٌّ، وهيَ الحيّةُ الخفيفةُ الصّغيرةُ الجسمِ فلمّا أنسَ منها قلبتْ حيّةً كبيرةً. وقيلَ: انقلبتْ مرّةً حيّةً صغيرةً، ومرّةً حيّةً تسعى وهيَ الأنثى، ومرّةً ثعباناً وهوَ الذّكرُ الكبيرُ منَ الحيّاتِ. وقيلَ: المعنى انقلبتْ ثعباناً تهتزُّ كأنّها جانٌّ لها عظمُ الثّعبانِ وخفّةُ الجانِّ واهتزازهُ وهيَ حيّةٌ تسعى. وجمعُ الجانِّ جنّانٌ، ومنهُ الحديثُ: «نهى عنْ قتلِ الجنّانِ الّتي في البيوتِ» ﴿وَلَّىٰ مُدْبِرًا﴾ خائفاً على عادةِ البشرِ ﴿وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾ أيْ لمْ يرجعْ ﴿يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ﴾ أيْ منَ الحيّةِ وضررها ﴿إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ ٱلْمُرْسَلُونَ ۝١٠﴾ وتمَّ الكلامُ ثمَّ استثنى استثناءً منقطعاً فقالَ: ﴿إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًۢا بَعْدَ سُوٓءٍ﴾ فإنّهُ لا يخاف.

وفي الآيةِ قولٌ آخرُ: وهوَ أنْ يكونَ الاستثناءُ متّصلاً، والمعنى إلّا منْ ظلمَ منَ المرسلينَ بإتيانِ الصّغائرِ الّتي لا يسلمُ منها أحدٌ فإنّهُ يخافُ وإنْ كنتُ قدْ غفرتُ لهُ كموسى عَلَيْهِ السَّلَامُ بوكزهِ القبطيَّ.

فإنْ قالَ قائلٌ: فما معنى الخوفِ بعدَ التّوبةِ والمغفرةِ؟ قيلَ لهُ: هذهِ سبيلُ العلماءِ باللّهِ عزَّ وجلَّ أنْ يكونوا خائفينَ منْ معاصيهمْ وجلينَ، وهمْ أيضاً لا يأمنونَ أنْ يكونَ قد بقيَ من أشراط التوبة شيء لمْ يأتوا بهِ، فهمْ يخافونَ منَ المطالبةِ بهِ.

قولهُ تعالى: ﴿وَأَدۡخِلۡ يَدَكَ فِي جَيۡبِكَ تَخۡرُجۡ بَيۡضَآءَ مِنۡ غَيۡرِ سُوٓءٖۖ﴾ تقدّمَ في طه القولُ فيهِ ﴿فِي تِسۡعِ ءَايَٰتٍ﴾ فهما آيتانِ منْ تسعِ آياتٍ، وقيلَ: في بمعنى معَ، والتّسعُ: الفلقُ والعصا والجرادُ والقمّلُ والطّوفانُ والدّمُ والضّفادعُ والسّنينَ والطّمسُ ﴿إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَقَوۡمِهِۦٓۚ﴾ أيْ إنّكَ مبعوثٌ أوْ مرسلٌ إلى فرعونَ وقومهِ ﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمٗا فَٰسِقِينَ ١٢﴾ أيْ خارجينَ عنْ طاعةِ اللّهِ.

قولهُ تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَتۡهُمۡ ءَايَٰتُنَا مُبۡصِرَةٗ﴾ واضحةً بيّنةً ﴿قَالُواْ هَٰذَا سِحۡرٞ مُّبِينٞ ١٣﴾ جروا على عادتهمْ في التّكذيبِ فلهذا قالَ: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسۡتَيۡقَنَتۡهَآ أَنفُسُهُمۡ ظُلۡمٗا وَعُلُوّٗاۚ﴾ أيْ تيقّنوا أنّها منْ عندِ اللّهِ وأنّها ليستْ سحراً، ولكنّهمْ كفروا بها وتكبّروا أنْ يؤمنوا بموسى. وهذا يدلُّ على أنّهمْ كانوا معاندينَ. وَ ﴿ظُلۡمٗا﴾ وَ ﴿عُلُوّٗا﴾ منصوبانِ على نعتِ مصدرٍ محذوفٍ، أيْ وجحدوا بها جحوداً ظلماً وعلواً. والباءُ زائدةٌ أيْ وجحدوها ﴿فَٱنظُرۡ﴾ يا محمّدُ ﴿كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ١٤﴾ بعينِ قلبكَ وتدبّرْ فيهِ. والخطابُ له والمراد غيره.

قولهُ تعالى: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ عِلۡمٗاۖ﴾ أيْ فهماً وعلماً بالدّينِ والحكمِ وغيرهما كما قالَ: ﴿وَعَلَّمۡنَٰهُ صَنۡعَةَ لَبُوسٖ لَّكُمۡ﴾.

﴿وَقَالَا ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٖ مِّنۡ عِبَادِهِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٥﴾ وفي الآيةِ دليلٌ على شرفِ العلمِ وإنافةِ محلّهِ وتقدّمِ حملتهِ وأهلهِ، وأنَّ نعمةَ العلمِ منْ أجلِّ النّعمِ وأجزلِ القسمِ، وأنَّ منْ أوتيهُ فقدْ أوتيَ فضلاً على كثيرٍ منْ عبادِ اللّهِ المؤمنينَ. ﴿يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ دَرَجَٰتٖۚ﴾.

قولهُ تعالى: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ ۖ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ۖ﴾ ورثَ ملكهُ ومنزلتهُ منَ النّبوّةِ، وسمي ميراثا تجوزا، وهذا نحو قول: «العلماءُ ورثةُ الأنبياءِ»، وقولهُ ﷺ: «إنّا معشرَ الأنبياءِ لا نورثُ» عامٌّ ولا يخرج منه شيء إلّا بدليلٍ.

وكانَ سليمانُ أعظمَ ملكًا منْ داودَ وأقضى منهُ، وكانَ داودُ أشدَّ تعبّداً منْ سليمانَ، ولمْ يبلغْ أحدٌ منَ الأنبياءِ ما بلغَ ملكهُ، فإنَّ اللّهَ سبحانهُ وتعالى سخّرَ لهُ الإنسَ والجنَّ والطّيرَ والوحشَ، وآتاهُ ما لمْ يؤتِ أحداً منَ العالمينَ، وورثَ أباهُ في الملكِ والنّبوّةِ، وقامَ بعدهُ بشريعتهِ، وكلُّ نبيٍّ جاءَ بعد موسى ممّنْ بعثَ أوْ لمْ يبعثْ فإنّما كانَ بشريعةِ موسى، إلى أنْ بعثَ المسيحُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فنسخها.

قولهُ تعالى: ﴿وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ على جهةِ الشّكرِ لنعمِ اللّهِ ﴿عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ﴾ أيْ تفضّلَ اللّهُ علينا على ما ورثنا منْ داودَ منَ العلمِ والنّبوّةِ والخلافةِ في الأرضِ في أنْ فهّمنا منْ أصواتِ الطّيرِ المعانيَ الّتي في نفوسها.

وقالتْ فرقةٌ: بلْ كانَ في جميعِ الحيوانِ، وإنّما ذكرَ الطّيرَ لكثرةِ مداخلتهِ، ولأنَّ أمرَ سائرِ الحيوانِ نادرٌ وغيرُ متردّدٍ تردادَ أمرِ الطّيرِ.

قولهُ تعالى: ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾﴾، فيهِ مسألتانِ:

الأولى: ﴿حُشِرَ﴾ جُمعَ والحشرُ الجمعُ ومنهُ قولهُ عزَّ وجلَّ: ﴿وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾.

الثانية- في الآيةِ دليلٌ على اتّخاذِ الإمامِ والحكّامِ وزعةً يكفّونَ النّاسَ ويمنعونهمْ منْ تطاولِ بعضهمْ على بعض، إذ لا يمكن الحكام ذلكَ بأنفسهمْ. قالَ الحسنُ: لا بد للنّاسِ منْ وازعٍ، أيْ منْ سلطانٍ يكفّهمْ. وعن عثمانَ بنَ عفّانٍ كانَ يقولُ: ما يزعُ الإمامُ أكثرَ ممّا يزعُ القرآنُ، أيْ منَ النّاسِ. قالَ ابنُ القاسمِ: قلتُ: لمالكٍ ما يزعُ؟ قالَ: يكفُّ.

قولهُ تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوۡاْ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمۡلِ قَالَتۡ نَمۡلَةٞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمۡلُ ٱدۡخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمۡ لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ سُلَيۡمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ١٨ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكٗا مِّن قَوۡلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوۡزِعۡنِيٓ أَنۡ أَشۡكُرَ نِعۡمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنۡ أَعۡمَلَ صَٰلِحٗا تَرۡضَىٰهُ وَأَدۡخِلۡنِي بِرَحۡمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ١٩﴾، فيهِ ستُّ مسائلَ:

الأولى: قولهُ تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوۡاْ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمۡلِ﴾ وادٍ بأرضِ الشّامِ. وقيلَ: بالطّائفِ ﴿قَالَتۡ نَمۡلَةٞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمۡلُ﴾ قالَ الشّعبيُّ: كانَ للنّملةِ جناحانِ فصارتْ منَ الطّيرِ، فلذلكَ علمَ منطقها ولولا ذلكَ لما علمهُ، وسمّيتِ النّملةُ نملةً لتنمّلها وهوَ كثرةُ حركتها وقلّةُ قرارها.

﴿لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ سُلَيۡمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾ وقدْ قيل: إنَّ تبسّمَ سليمانَ سرورٌ بهذهِ الكلمةِ منها، ولذلكَ أكّدَ التّبسّمَ بقولهِ: ﴿ضَاحِكٗا﴾ إذْ قدْ يكونُ التّبسّمُ منْ غيرِ ضحكٍ ولا رضًا، ألا تراهمْ يقولونَ تبسّمَ تبسّمَ الغضبانِ وتبسّمَ تبسّمَ المستهزئينَ. وتبسّمُ الضّحكِ إنّما هوَ عنْ سرورٍ، ولا يسرُّ نبيٌّ بأمرِ دنيا، وإنّما سرَّ بما كانَ منْ أمرِ الآخرةِ والدّينِ.

وقولها: ﴿وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾ إشارةٌ إلى الدّينِ والعدلِ والرّأفةِ. ونظيره قولُ اللّهِ تعالى في جندِ محمّدٍ ﷺ: ﴿فَتُصِيبَكُم مِّنۡهُم مَّعَرَّةُۢ بِغَيۡرِ عِلۡمٖۖ﴾. التفاتاً إلى أنّهمْ لا يقصدونَ هدرَ مؤمنٍ. إلّا أنَّ المثنيَ على جندِ سليمانَ هيَ النّملةُ بإذنِ اللّهِ تعالى، والمثنيَ على جندِ محمّدٍ ﷺ هوَ اللّهُ عزَّ وجلَّ بنفسهِ، لما لجنودِ محمّدٍ ﷺ منَ الفضلِ على جندِ غيرهِ منَ الأنبياءِ، كما لمحمّدٍ ﷺ فضلٌ على جميعِ النّبيّينَ صلّى اللّهُ عليهمْ وسلّمَ أجمعينَ.

وقولها: ﴿ٱدۡخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمۡ﴾ جاءَ على خطابِ الآدميّينَ لأنَّ النّملَ هاهنا أجريَ مجرى الآدميّينَ حينَ نطقَ كما ينطقُ الآدميّونَ.

الثانية- ﴿لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ﴾ الحطمُ الكسرُ، والتّحطيمُ التّكسيرُ ﴿وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾ يجوزُ أنْ يكونَ حالاً منْ سليمانَ، وجنودهِ، أوْ حالاً منَ النّملِ والعاملُ ﴿قَالَتۡ﴾ على أنَّ المعنى: والنّملُ لا يشعرونَ أنَّ سليمانَ يفهمُ مقالتها.

الثالثة- روى مسلمٌ منْ حديثِ أبي هريرةَ عنْ رسولِ اللّهِ ﷺ: «أن نملةً قرصتْ نبياً

منَ الأنبياءِ فأمرَ بقريةِ النّملِ فأحرقتْ فأوحى اللّهُ تعالى إليهِ أفي أنْ قرصتكَ نملةٌ أهلكتَ أمّةً منَ الأممِ تسبّحُ»، وفي طريقٍ آخرَ: «فهلّا نملةً واحدةً». قالَ علماؤنا: يقالُ إنَّ هذا النّبيَّ هوَ موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وأنّهُ قالَ: يا ربِّ تعذّبُ أهلَ قريةٍ بمعاصيهمْ وفيهمُ الطّائعُ. فكأنّهُ أحبَّ أنْ يريهُ ذلكَ منْ عندهِ.! يريدُ أنْ ينبّههُ أنَّ العقوبةَ منَ اللّهِ تعالى تعمُّ فتصيرُ رحمةً على المطيعِ وطهارةً وبركةً، وشراً ونقمةً على العاصي. وعلى هذا فليسَ في الحديثِ ما يدلُّ على كراهةٍ ولا حظرٍ في قتلِ النّملِ، فإنَّ منْ آذاكَ حلَّ لكَ دفعهُ عنْ نفسكَ، ولا أحدَ منْ خلقهِ أعظمُ حرمةً منَ المؤمنِ، وقدْ أبيحَ لكَ دفعهُ عنكَ بقتلٍ وضربٍ على المقدارِ، فكيفَ بالهوامِّ والدّوابِّ الّتي قدْ سخّرتْ لكَ وسلّطتَ عليها، فإذا آذاكَ أبيحَ لكَ قتلهُ.

الرابعة- قولهُ: «أفي أنْ قرصتكَ نملةٌ أهلكتَ أمّةً منَ الأممِ تسبّحُ» مقتضى هذا أنّهُ تسبيحٌ بمقالٍ ونطقٍ، كما أخبرَ اللّهُ عنِ النّملِ أنَّ لها منطقاً وفهمهُ سليمانُ عَلَيْهِ السَّلَامُ- وهذا معجزةٌ لهُ- وتبسّمَ منْ قولها. وهذا يدلُّ دلالةً واضحةً أنَّ للنّملِ نطقاً وقولاً، لكنْ لا يسمعهُ كلُّ أحدٍ، بلْ منْ شاءَ اللّهُ تعالى ممّنْ خرقَ لهُ العادةَ منْ نبيٍّ أوْ وليٍّ. ولا ننكرُ هذا منْ حيثُ أنّا لا نسمعُ ذلكَ، فإنّهُ لا يلزمُ منْ عدمِ الإدراكِ عدمُ المدركِ في نفسهِ. ثمَّ إنَّ الإنسانَ يجدُ في نفسهِ قولاً وكلاماً ولا يسمعُ منهُ إلّا إذا نطقَ بلسانهِ. وقدْ خرقَ اللّهُ العادةَ لنبيّنا محمّدٍ ﷺ فأسمعهُ كلامَ النّفسِ منْ قومٍ تحدّثوا معَ أنفسهمْ وأخبرهمْ بما في نفوسهمْ، كما قد نقل منه الكثير من أئمّتنا في كتبِ معجزاتِ النّبيِّ ﷺ، وكذلكَ وقعَ لكثيرٍ ممّنْ أكرمهُ اللّهُ تعالى منَ الأولياءِ مثلَ ذلكَ في غيرِ ما قضيّةٍ. وإيّاهُ عنى النّبيُّ ﷺ بقولهِ: «إنَّ في أمّتي محدّثينَ وإنَّ عمرَ منهمْ». وقدْ مضى هذا المعنى في تسبيحِ الجمادِ في «سبحان» وأنّهُ تسبيحُ لسانٍ ومقالٍ لا تسبيحَ دلالةِ حالٍ. والحمدُ للّهِ.

الخامسة- قولهُ تعالى: ﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا﴾ التّبسّمُ دونَ الضّحكِ وهوَ أوّلهُ. يقالُ: بسَمَ بالفتحِ يبسمُ بسماً فهوَ باسمٌ وابتسمَ وتبسّمَ، والمبسمُ الثّغرُ مثلُ المجلسِ منْ جلسَ يجلسُ ورجلٌ مبسامٌ وبسّامٌ كثيرُ التّبسّمِ، فالتّبسّمُ ابتداءُ الضّحكِ، والضّحكُ عبارةٌ

عنْ الابتداءِ والانتهاءِ، إلّا أنَّ الضّحكَ يقتضي مزيداً على التّبسّمِ، فإذا زادَ ولمْ يضبطِ الإنسانُ نفسهُ قيلَ قهقهَ. والتّبسّمُ ضحكُ الأنبياءِ عليهمُ السّلامُ في غالبِ أمرهمْ. وفي الصّحيحِ عنْ جابرِ بنِ سمرةَ وقيلَ لهُ: أكنتَ تجالسُ النّبيِّ ﷺ، قالَ: نعمَ كثيراً، كانَ لا يقومُ منْ مصلّاهُ الّذي يصلّي فيهِ الصّبحَ - أوِ الغداةَ - حتّى تطلعَ الشّمسُ فإذا طلعتْ قامَ، وكانوا يتحدّثونَ ويأخذونَ في أمر الجاهلية فيضحكون ويتبسم.

وفيهِ عنْ سعدٍ قالَ: كانَ رجلٌ منَ المشركينَ قدْ أحرقَ المسلمينَ، فقالَ: لهُ النّبيُّ ﷺ: «ارمِ فداكَ أبي وأمّيِّ» قالَ فنزعتُ لهُ بسهمٍ ليسَ فيهِ نصلٌ فأصبتُ جنبهُ فسقطَ فانكشفتْ عورتهُ، فضحكَ رسولُ اللّهِ ﷺ حتى نظرتُ إلى نواجذهِ. فكانَ ﷺ في أكثرِ أحوالهِ يتبسّمُ. وكانَ أيضـاً يضحكُ في أحوالٍ أخرَ ضحكـاً أعلى منَ التّبسّمِ وأقلَّ منْ الاستغراقِ الّذي تبدو فيهِ اللّهواتُ. وكانَ في النّادرِ عندَ إفراطِ تعجّبهِ ربّما ضحكَ حتّى بدتْ نواجذهُ. وقدْ كرهَ العلماءُ منهُ الكثرةَ، كما قالَ لقمانُ لابنهِ: يا بنيَّ إيّاكَ وكثرةَ الضّحكِ فإنّهُ يميتُ القلبَ.

السادسة - لا اختلافَ عندَ العلماءِ أنَّ الحيواناتَ كلّها لها أفهامٌ وعقولٌ. وقدْ قالَ الشّافعيُّ: الحمامُ أعقلُ الطّيرِ. قالَ ابنُ عطيّةَ: والنّملُ حيوانٌ فطنٌ قويٌّ شمّامٌ جداً يدّخرُ ويتّخذُ القرى ويشقُّ الحبَّ بقطعتينِ لئلّا ينبتَ، ويشقُّ الكزبرةَ بأربعِ قطعٍ، لأنّها تنبت إذا قسمت شقين، ويأكلُ في عامهِ نصفَ ما جمعَ ويستبقي سائرهُ عدّةً. قالَ ابنُ العربيِّ: وهذهِ خواصُّ العلومِ عندنا، وقدْ أدركتها النّملُ بخلقِ اللّهِ ذلكَ لها.

قولهُ تعالى: ﴿وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ﴾ فـ ﴿أن﴾ مصدريّةٌ. وَ ﴿أَوْزِعْنِيٓ﴾ أيْ ألهمني ذلكَ ﴿وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ١٩﴾ أيْ معَ عبادكَ، أو في جملة عبادك الصالحين.

قولهُ تعالى: ﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَالِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ﴿٢٠﴾ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ إِنِّي وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ أَلَّا يَسْجُدُواْ لِلَّهِ ٱلَّذِي يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ۩ ﴿٢٦﴾ ۞ قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ ٱذْهَب بِّكِتَٰبِي هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾﴾، فيهِ ثمانِ عشرةَ مسألةً:

الأولى: قولهُ تعالى: ﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ﴾ فيه العنايةُ بأمورِ الملكِ، والتّهمّمُ بكلِّ جزءٍ منها.

الثانية- في هذهِ الآيةِ دليلٌ على تفقّدِ الإمامِ أحوالَ رعيّتهِ، والمحافظةِ عليهمْ. فانظرْ إلى الهدهدِ معَ صغرهِ كيفَ لمْ يخفَ على سليمانَ حالهُ، فكيفَ بعظامِ الملكِ. ويرحمُ اللّهُ عمرَ فإنّهُ كانَ على سيرتهِ، قالَ: لوْ أنَّ سخلةً على شاطئِ الفراتِ أخذها الذّئبُ ليُسألُ عنها عمرُ. فما ظنّكَ بوالٍ تذهبُ على يديهِ البلدانُ، وتضيعُ الرّعيّةُ ويضيعُ الرّعيانُ. وفي الصّحيحِ عنْ عبدِ اللّهِ بنِ عبّاسٍ أنَّ عمرَ بنَ الخطّابِ خرجَ إلى الشّامِ، حتّى إذا كانَ بسرغ لقيهُ أمراءُ الأجنادِ: أبو عبيدةَ وأصحابهُ فأخبروهُ أنَّ الوباءَ قدْ وقعَ بالشّامِ... الحديثَ، قالَ علماؤنا: كانَ هذا الخروجُ منْ عمرَ بعدَ ما فتحَ بيتُ المقدسِ سنةَ سبعَ عشرةَ.

فقدْ دلَّ القرآنُ والسّنّةُ وبيّنّا ما يجبُ على الإمامِ منْ تفقّدِ أحوالِ رعيّتهِ، ومباشرةِ ذلكَ بنفسهِ، والسّفرِ إلى ذلكَ وإنْ طالَ. ورحمَ اللّهُ ابنَ المباركِ حيثُ يقولُ:

وهلْ أفسدَ الدّينَ إلّا الملوكُ وأحبارُ سوءٍ ورهبانُها

الثالثة- قولهُ تعالى: ﴿مَالِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ﴾ أيْ ما للهدهدِ لا أراهُ، فهوَ منَ القلبِ الّذي لا يعرفُ معناهُ. والهدهدُ طيرٌ معروفٌ وهدهدتهُ صوتهُ، قيل: لمّا فقدَ نعمةَ الهدهدِ توقّعَ أنْ يكونَ قصّرَ في حقِّ الشّكرِ، فلأجلهِ سلبها فجعلَ يتفقّدُ نفسهُ، فقالَ: ﴿مَالِيَ﴾. قالَ ابنُ العربيِّ: وهذا يفعلهُ شيوخُ الصوفية: إذا فقدوا مالهم تفقّدوا أعمالهمْ، هذا في الآدابِ، فكيفَ بنا اليومَ ونحنُ نقصّرُ في الفرائضِ!.

وقرأَ ابنُ كثيرٍ وعاصمٌ والكسائيُّ: ﴿مَالِيَ﴾ بفتحِ الياءِ وكذلكَ في يس ﴿وَمَالِيَ لَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي﴾. وأسكنها حمزةُ ويعقوبُ. وقرأَ الباقونَ المدنيّونَ وأبو عمرو: بفتحِ الّتي في يس وإسكانِ هذهِ. قالَ أبو عمرو: لأنَّ هذهِ الّتي في النّملِ استفهامٌ، والأخرى انتفاءٌ.

الرابعة- قولهُ تعالى: ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابٗا شَدِيدًا أَوۡ لَأَاْذۡبَحَنَّهُۥٓ﴾ دليلٌ على أنَّ الحدَّ على قدرِ الذّنبِ لا على قدرِ الجسدِ، أما إنّهُ يُرفقُ بالمحدودِ في الزّمانِ والصّفةِ. وفعلَ سليمانُ هذا بالهدهدِ إغلاظاً على العاصينَ، وعقاباً على إخلالهِ بنوبتهِ ورتبتهِ، وكأنَّ اللّهَ أباحَ لهُ ذلكَ، كما أباحَ ذبحَ البهائمِ والطّيرِ للأكلِ وغيرهِ منَ المنافعِ. واللّهُ أعلمُ.

﴿أَوۡ لَيَأۡتِيَنِّي بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ﴾ أيْ بحجّةٍ بيّنةٍ. وليستِ اللّامُ في ﴿لَيَأۡتِيَنِّي﴾ لامَ القسمِ لأنّهُ لا يقسمُ سليمانُ على فعلِ الهدهدِ، ولكنْ لمّا جاءَ في أثرِ قولهِ: ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُۥ﴾ وهوَ ممّا جازَ بهِ القسمُ أجراهُ مجراهُ. وقرأَ ابنُ كثيرٍ وحدهُ: «لَيَأۡتِيَنَّنِي» بنونينِ.

الخامسة- قولهُ تعالى: ﴿فَمَكَثَ غَيۡرَ بَعِيدٖ﴾ أيِ الهدهدُ. والجمهورُ منَ القرّاءِ على ضمِّ الكافِ، وقرأَ عاصمٌ وحدهُ بفتحها. ومعناهُ في القراءتينِ أقامَ. والفتحُ أحسنُ لقولهِ تعالى: ﴿مَّٰكِثِينَ﴾ إذْ هوَ منْ مكثَ، يقالُ: مكثَ يمكثُ فهوَ ماكثٌ، ومكثَ يمكثُ مثلُ عظمَ يعظمُ فهوَ مكيثٌ، مثلُ عظيمٍ، والضّميرُ في «مكثَ» يحتملُ أنْ يكونَ لسليمانَ، والمعنى: بقيَ سليمانُ بعدَ التّفقّدِ والوعيدِ غيرَ طويلٍ أيْ غيرَ وقتٍ طويلٍ. ويحتملُ أنْ يكونَ للهدهدِ وهوَ الأكثرُ. فجاءَ: ﴿فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمۡ تُحِطۡ بِهِۦ﴾ وهيَ:

السادسة- أيْ علمتُ ما لمْ تعلمهُ منَ الأمرِ فكانَ في هذا ردٌّ على منْ قالَ: إنَّ الأنبياءَ تعلمُ الغيبَ.

السابعة- قولهُ تعالى: ﴿وَجِئۡتُكَ مِن سَبَإِۭ بِنَبَإٖ يَقِينٍ﴾ أعلمَ سليمانَ ما لمْ يكنْ يعلمهُ، ودفعَ عنْ نفسهِ ما توعّدهُ منَ العذابِ والذّبحِ. وقرأَ الجمهورُ ﴿سَبَإِۭ﴾ بالصّرفِ. وابنُ كثيرٍ وأبو عمرو «سَبَأَ» بفتحِ الهمزةِ وتركِ الصّرفِ، فالأوّلُ على أنّهُ اسمُ رجلٍ نسبَ إليهِ قومٌ، ومنْ لمْ يصرفْ قالَ: "سَبَأَ" اسمُ مدينةٍ تعرفُ بمأربَ باليمنِ بينها وبينَ صنعاءَ مسيرةُ ثلاثةِ أيامٍ، ومنْ صرفَ وهوَ الأكثرُ فلأنّهُ اسمُ البلدِ فيكونُ مذكّراً سمّيَ بهِ مذكّرٌ. وقيلَ: اسمُ امرأةٍ

سمّيتْ بها المدينةُ. والصّحيحُ أنّهُ اسمُ رجلٍ، كذلكَ في كتابِ التّرمذيِّ منْ حديثِ فروةَ بنِ مسيكٍ المراديِّ عنِ النّبيِّ ﷺ. وسيأتي إنْ شاءَ اللّهُ تعالى.

الثامنة- وفي الآيةِ دليلٌ على أنَّ الصّغيرَ يقولُ للكبيرِ والمتعلّمَ للعالمِ عندي ما ليسَ عندكَ إذا تحقّقَ ذلكَ وتيقّنهُ. هذا عمرُ بنُ الخطّابِ معَ جلالتهِ رضي الله عنه وعلمهِ لمْ يكنْ عندهُ علمٌ بالاستئذانِ. وكانَ علمُ التّيمّمِ عندَ عمّارٍ وغيرهِ، وغابَ عنْ عمرَ وابنِ مسعودٍ حتّى قالا: لا يتيمّمُ الجنبُ. وكانَ حكمُ الإذنِ في أنْ تنفرَ الحائضُ عندَ ابنِ عبّاسٍ ولمْ يعلمهُ عمرُ ولا زيدُ بنُ ثابتٍ. وكانَ غسلُ رأسِ المحرمِ معلوماً عندَ ابنِ عبّاسٍ وخفيَ عنِ المسورِ بنِ مخرمةَ. ومثلهُ كثيرٌ فلا يطوّلُ بهِ.

التاسعة- قولهُ تعالى: ﴿إِنِّي وَجَدتُّ ٱمۡرَأَةٗ تَمۡلِكُهُمۡ﴾ يعني بلقيسَ بنتَ شراحيلَ تملكُ أهلَ سبإٍ. ويقالُ: كيف خفي على سليمانَ مكانها وكانتِ المسافةُ بينَ محطّهِ وبينَ بلدها قريبةً، وهيَ منْ مسيرةِ ثلاثٍ بينَ صنعاءَ ومأربَ؟

والجوابُ: أنَّ اللّهَ تعالى أخفى ذلكَ عنهُ لمصلحةٍ، كما أخفى على يعقوبَ مكانَ يوسفَ. ويروى أنَّ أحدَ أبويها كانَ منَ الجنِّ. ونكاحهمْ تقدّمتِ الإشارةُ إليهِ في «سبحانَ» عندَ قولهِ: ﴿وَشَارِكۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِ﴾.

العاشرة- روى البخاريُّ منْ حديثُ ابنِ عبّاسٍ أنَّ النّبيَّ ﷺ لمّا بلغهُ أنَّ أهلَ فارسَ قدْ ملّكوا بنتَ كسرى قالَ: «لنْ يفلحَ قومٌ ولّوا أمرهمُ امرأةً» قالَ القاضي أبو بكرِ بنُ العربيِّ: هذا نصٌّ في أنَّ المرأةَ لا تكونُ خليفةً ولا خلافَ فيهِ، ونقلَ عنْ محمّدِ بنِ جريرٍ الطّبريِّ أنّهُ يجوزُ أنْ تكونَ المرأةُ قاضيةً، ولمْ يصحَّ ذلكَ عنهُ، ولعلّهُ نقلَ عنهُ كما نقلَ عنْ أبي حنيفةَ أنّها إنّما تقضي فيما تشهدُ فيهِ وليسَ بأنْ تكونَ قاضيةً على الإطلاقِ، ولا بأنْ يكتبَ لها مسطورٌ بأنَّ فلانةً مقدّمةٌ على الحكمِ، وإنّما سبيلُ ذلكَ التّحكيمُ والاستنابةُ في القضيّةِ الواحدةِ، وهذا هوَ الظّنُّ بأبي حنيفةَ وابنِ جريرٍ.

والمرأةُ لا يتأتّى منها أنْ تبرزَ إلى المجلسِ، ولا تخالطَ الرّجالَ، ولا تفاوضهمْ مفاوضةَ النّظيرِ للنّظيرِ لأنّها إنْ كانتْ فتاةً حرمَ النّظرُ إليها وكلامها، وإنْ كانتْ برزةً لمْ يجمعها والرّجالَ مجلسٌ واحدٌ تزدحمُ فيهِ معهمْ، وتكونُ مناظرةً لهمْ، ولنْ يفلحَ قطُّ منْ تصوّرَ هذا

ولا من اعتقدهُ.

وقدْ رويَ عنْ عمرَ أنّهُ قدّمَ امرأةً على حسبةِ السّوقِ. ولمْ يصحَّ فلا تلتفتوا إليهِ، فإنّما هوَ منْ دسائسِ المبتدعةِ في الأحاديثِ.

الحادية عشرة– قولهُ تعالى: ﴿وَأُوتِيَتۡ مِن كُلِّ شَيۡءٖ﴾ مبالغةٌ، أيْ ممّا تحتاجهُ المملكةُ. وقيلَ: المعنى أوتيتْ من كل شيء في زمانها شيئًا فحذفَ المفعولُ، لأنَّ الكلامَ دلَّ عليهِ ﴿وَلَهَا عَرۡشٌ عَظِيمٞ﴾ أيْ سريرٌ، ووصفهُ بالعظمِ في الهيئةِ ورتبةِ السّلطانِ. قيل: كانَ منْ ذهبٍ تجلسُ عليهِ. وقيلَ: العرشُ هنا الملكُ، والأوّلُ أصحُّ، لقولهِ تعالى: ﴿أَيُّكُمۡ يَأۡتِينِي بِعَرۡشِهَا﴾، فإنْ قيل كيفَ سوّى الهدهدُ بينَ عرشِ بلقيسَ وعرشِ اللّهِ في الوصفِ بالعظيمِ؟

قلت: بينَ الوصفينِ بونٌ عظيمٌ، لأنَّ وصفَ عرشها بالعظيمِ تعظيمٌ لهُ بالإضافةِ إلى عرش أبناءِ جنسها منَ الملوكِ، ووصفُ عرشِ اللّهِ بالعظيمِ تعظيمٌ لهُ بالنّسبةِ إلى ما خلقَ منَ السّماواتِ والأرضِ.

الثانية عشرة– قولهُ تعالى: ﴿وَجَدتُّهَا وَقَوۡمَهَا يَسۡجُدُونَ لِلشَّمۡسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ كانوا زنادقةً أو مجوسًا يعبدونَ الأنوارَ. ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾ أيْ ما همْ فيهِ منَ الكفرِ ﴿فَصَدَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ أيْ عنْ طريقِ التّوحيدِ. وبيّنَ بهذا أنَّ ما ليسَ بسبيلِ التّوحيدِ فليسَ بسبيلٍ ينتفعُ بهِ على التّحقيقِ ﴿فَهُمۡ لَا يَهۡتَدُونَ﴾ إلى اللّهِ وتوحيدهِ.

الثالثة عشرة– قولهُ تعالى: ﴿أَلَّا يَسۡجُدُواْ لِلَّهِ﴾ قرأَ أبو عمرو ونافعٌ وعاصمٌ وحمزةُ ﴿أَلَّا يَسۡجُدُواْ لِلَّهِ﴾ بتشديدِ ﴿أَلَّا﴾ والمعنى: وزيّنَ لهمُ الشّيطانُ ألّا يسجدوا. أو ﴿فَصَدَّهُمۡ﴾ ألّا يسجدوا. وهوَ في الوجهينِ مفعولٌ لهُ. أو بدلٌ منْ ﴿أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾ في موضعِ نصبٍ، وقيلَ: العاملُ فيها ﴿لَا يَهۡتَدُونَ﴾ أيْ فهمْ لا يهتدونَ أنْ يسجدوا اللّهِ، أيْ لا يعلمونَ أنَّ ذلكَ واجبٌ عليهمْ. وعلى هذا القولِ ﴿لَآ﴾ زائدةٌ، كقولهِ: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسۡجُدَ﴾ أيْ ما منعكَ أنْ تسجدَ. وعلى هذهِ القراءةِ فليسَ بموضعِ سجدةٍ، لأنَّ ذلكَ خبرٌ عنهمْ بتركِ السّجودِ، إمّا بالتّزيينِ، أوْ بالصّدِّ، أوْ بمنعِ الاهتداءِ. وقرأَ الكسائيُّ: «أَلَا يَسْجُدُوا لِلَّهِ» بمعنى ألا يا هؤلاءِ اسجدوا، لأنَّ «يا» ينادى بها الأسماءُ دونَ الأفعالِ، فعلى هذهِ القراءةِ «اسْجُدُوا» في موضعِ جزمٍ بالأمرِ

والوقفِ على «أَلَا يَا» ثمَّ تبتدئُ فتقولُ: «اسْجُدُوا». قالَ الكسائيُّ: ما كنتُ أسمعُ الأشياخَ يقرأونها إلّا بالتّخفيفِ على نيّةِ الأمرِ، وقراءةُ التّخفيفِ تقتضي وجوبَ السّجودِ دونَ التّشديدِ.

قالَ ابنُ عطيّةَ: قيلَ هوَ منْ كلامِ الهدهدِ إلى قولِهِ: ﴿ٱلۡعَظِيمِ﴾، ويحتملُ أنْ يكونَ منْ قولِ سليمانَ لمّا أخبرهُ الهدهدُ عنِ القومِ. ويحتملُ أنْ يكونَ منْ قولِ اللّهِ تعالى فهوَ اعتراضٌ بينَ الكلامينِ وهوَ الثّابتُ معَ التّأمّلِ، وقراءةُ التّشديدِ في ﴿أَلَّا﴾ تعطيَ أنَّ الكلامَ للهدهدِ، وقراءةُ التّخفيفِ تمنعهُ، والتّخفيفُ يقتضي الأمرَ بالسّجودِ للّهِ عزَّ وجلَّ للأمرِ على ما بيّنّاهُ.

وقالَ الزّمخشريُّ: فإنْ قلتَ أسجدةُ التّلاوةِ واجبةٌ في القراءتينِ جميعـًا أمْ في إحداهما؟

قلتُ: هيَ واجبةٌ فيهما جميعـًا، لأنَّ مواضعَ السّجدةِ إمّا أمرٌ بها، أوْ مدحٌ لمنْ أتى بها، أوْ ذمٌّ لمنْ تركها، وإحدى القراءتينِ أمرٌ بالسّجودِ والأخرى ذمٌّ للتّاركِ، وما ذكرهُ الزّجّاجُ منْ وجوبِ السّجدةِ معَ التّخفيفِ دونَ التّشديدِ فغيرُ مرجوعٍ إليهِ.

قلت: وقدْ أخبرَ اللّهُ عنِ الكفارِ بأنهم لا يسجدونَ كما في «الانشقاقِ» وسجدَ النّبيُّ ﷺ فيها، كما ثبتَ في البخاريِّ وغيرهِ فكذلكَ. «النّملُ». واللّهُ أعلمُ.

﴿ٱلَّذِى يُخۡرِجُ ٱلۡخَبۡءَ﴾ خبءُ السّماءِ قطرها، وخبءُ الأرضِ كنوزها ونباتها. وقيل. أيْ ما غابَ في السّماواتِ والأرضِ، ويدلُّ عليه ﴿مَا تُخۡفُونَ وَمَا تُعۡلِنُونَ﴾.

«ويعلمُ ما يخفونَ وما يعلنونَ» قراءةُ العامة فيهما بياء، وهذهِ القراءةُ تعطي أنَّ الآيةَ منْ كلامِ الهدهدِ، وأنَّ اللّهَ تعالى خصّهُ منْ المعرفةِ بتوحيدهِ ووجوبِ السّجودِ لهُ، وإنكارِ سجودهمْ للشّمسِ، وإضافتهِ للشّيطانِ، وتزيينهِ لهمْ، ما خصَّ بهِ غيرهُ منَ الطّيورِ وسائرِ الحيوانِ، منَ المعارفِ اللّطيفةِ الّتي لا تكادُ العقولُ الرّاجحةُ تهتدي لها. وقرأَ حفصٌ والكسائيُّ: ﴿تُخۡفُونَ﴾ وَ ﴿تُعۡلِنُونَ﴾ بالتّاءِ على الخطابِ، وهذه القراءة تعطى أن الآية منْ خطابِ اللّهِ عزَّ وجلَّ لأمّةِ محمّدٍ ﷺ.

﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ۩﴾ بالخفضِ نعتـًا للعرشِ. وخُصَّ بالذّكرِ لأنّهُ أعظمُ المخلوقاتِ وما عداهُ في ضمنهِ وقبضتهِ.

الرابعة عشرة– قولهُ تعالى: ﴿سَنَنظُرُ﴾ منَ النّظرِ الّذي هوَ التّأمّلُ والتّصفّحُ ﴿أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ في مقالتك. وَ ﴿كُنتَ﴾ بمعنى أنتَ.

الخامسة عشرة– في قوله: ﴿أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ دليلٌ على أنَّ الإمامَ يجبُ عليهِ أنْ يقبلَ عذرَ رعيّتِهِ، ويدرأَ العقوبةَ عنهمْ في ظاهرِ أحوالهِمْ بباطنِ أعذارهِمْ، لأنَّ سليمانَ لمْ يعاقبِ الهدهدَ حينَ اعتذرَ إليهِ. وفي الصّحيحِ: «ليسَ أحدٌ أحبَّ إليهِ العذرُ منَ اللّهِ منْ أجلِ ذلكَ أنزلَ الكتابَ وأرسلَ الرّسلَ».

السادسة عشرة– قولهُ تعالى: ﴿ٱذْهَب بِّكِتَٰبِى هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ﴾ قالَ الزّجّاجُ: فيها خمسةُ أوجهٍ ﴿فَأَلْقِهِى إِلَيْهِمْ﴾ بإثباتِ الياءِ في اللّفظِ. وبحذفِ الياءِ وإثباتِ الكسرةِ دالّةً عليها «فَأَلْقِهِ إِلَيْهِمْ». وبضمِّ الهاءِ وإثباتِ الواوِ على الأصل «فَأَلْقِهو إِلَيْهِمْ». وبحذفِ الواوِ وإثباتِ الضّمّةِ «فَأَلْقِهُ إِلَيْهِمْ». واللّغةُ الخامسة قرأَ بها حمزةُ بإسكانِ الهاءِ ﴿فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ﴾.

قالَ مقاتلٌ: حملَ الهدهدُ الكتابَ بمنقارهِ، وطارَ حتّى وقفَ على رأسِ المرأةِ وحولها الجنودُ والعساكرُ، فرفرفَ ساعةً والنّاسُ ينظرونَ إليهِ، فرفعتِ المرأةُ رأسها فألقى الكتابَ في حجرها.

السابعة عشرة– في هذهِ الآيةِ دليلٌ على إرسالِ الكتبِ إلى المشركينَ وتبليغهمُ الدّعوةَ، ودعائهمْ إلى الإسلامِ. وقدْ كتبَ النّبيُّ ﷺ إلى كسرى وقيصرَ وإلى كلِّ جبّارٍ.

الثامنة عشرة– ﴿ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ أمرهُ بالتّولّي حسنُ أدبٍ ليتنحّى حسبَ ما يتأدّبُ بهِ معَ الملوكِ. بمعنى: وكن قريبا حتى ترى مراجعتهم، وقيلَ: أمرهُ بالتّولّي بمعنى الرّجوعِ إليهِ، أيْ ألقهِ وارجعْ. قال وقوله: ﴿فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾ في معنى التّقديمِ على قولهِ: ﴿ثُمَّ تَوَلَّ﴾ واتّساقُ رتبةِ الكلامِ أظهرُ، أيْ ألقهِ ثمَّ تولَّ، وفي خلالِ ذلكَ فانظر أي انتظر. وقيلَ: فاعلم، كقوله: ﴿يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ أي اعلمْ ماذا يرجعونَ أيْ يجيبونَ وماذا يردّونَ منَ القولِ، وقيلَ: ﴿فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾﴾ يتراجعونَ بينهمْ من الكلام.

قولهُ تعالى: ﴿قَالَتْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَـٰبٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَـٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾﴾، فيه ست مسائلَ:

الأولى: قولهُ تعالى: ﴿قَالَتْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟﴾ في الكلامِ حذفٌ، والمعنى: فذهبَ فألقاهُ إليهم فسمعها وهي تقول: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟﴾ ثمَّ وصفتِ الكتابَ بالكريمِ إمّا لأنّهُ منْ عندِ عظيمٍ في نفسها ونفوسهمْ فعظّمتهُ إجلالاً لسليمانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وقيلَ: لأنّهُ بدأَ فيهِ بِ ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾، وقيلَ: لأنه بدأ فيهِ بنفسهِ، ولا يفعلُ ذلكَ إلّا الجلّةُ.

وقيلَ: توهّمتْ أنّهُ كتابٌ جاءَ منَ السّماءِ إذْ كان الموصل طيرا. وقيلَ: ﴿كَرِيمٍ﴾ حسن، كقول: «ومقامٍ كريمٍ» أيْ مجلسٍ حسنٍ. وقيلَ: وصفتهُ بذلكَ، لما تضمّنَ منْ لينِ القولِ والموعظةِ في الدّعاءِ إلى عبادةِ اللّهِ عزَّ وجلَّ، وحسنِ الاستعطافِ والاستلطافِ منْ غيرِ أنْ يتضمّنَ سبـًا ولا لعنـًا، ولا ما يغيّرُ النّفسَ، ومنْ غيرِ كلامٍ نازلٍ ولا مستغلقٍ، على عادةِ الرّسلِ في الدّعاءِ إلى اللّهِ عزَّ وجلَّ، ألا ترى إلى قولِ اللّهِ عزَّ وجلَّ لنبيّهِ ﷺ: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ﴾، وقولهُ لموسى وهرون: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾. وكلّها وجوهٌ حسانٌ وهذا أحسنها. وقدْ رويَ أنّهُ لمْ يكتبْ بسمِ اللّهِ الرّحمنِ الرّحيمِ أحدٌ قبلَ سليمانَ.

الثانية- الوصفُ بالكريمِ في الكتابِ غايةُ الوصفِ، ألا ترى قولهُ تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ﴾ وأهلُ الزّمانِ يصفونَ الكتابَ بالخطيرِ وبالأثيرِ وبالمبرورِ، فإنْ كانَ لملكٍ قالوا: العزيزُ وأسقطوا الكريمَ غفلةً، وهوَ أفضلها خصلةً. فأمّا الوصفُ بالعزيزِ فقدْ وصفَ بهِ القرآنُ في قولهِ تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَـٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَـٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ﴾ فهذهِ عزّتهُ وليستْ لأحدٍ إلّا لهُ، فاجتنبوها في كتبكمْ، واجعلوا بدلها العالي، توفيةً

لحقِ الولايةِ، وحياطةً للدّيانةِ.

الثالثة- كانَ رسمُ المتقدّمينَ إذا كتبوا أنْ يبدأوا بأنفسهمْ منْ فلانٍ إلى فلانٍ، وبذلكَ جاءتِ الآثارُ. وروى الرّبيعُ عنْ أنسٍ قالَ: ما كانَ أحدٌ أعظمَ حرمةً منَ النّبيِّ ﷺ: وكانَ أصحابهُ إذا كتبوا بدأوا بأنفسهمْ. وقالَ ابنُ سيرينَ قالَ النّبيُّ ﷺ: «إنَّ أهلَ فارسَ إذا كتبوا بدأوا بعظمائهمْ فلا يبدأِ الرّجلُ إلّا بنفسه».

قالَ أبو اللّيثِ في كتابِ «البستانِ» لهُ: ولوْ بدأَ بالمكتوبِ إليهِ لجازَ، لأنَّ الأمّةَ قدِ اجتمعتْ عليهِ وفعلوهُ لمصلحةٍ رأوا في ذلكَ، أوْ نسخِ ما كانَ منْ قبلُ، فالأحسنُ في زماننا هذا أنْ يبدأَ بالمكتوبِ إليهِ، ثمَّ بنفسهِ، لأنَّ البدايةَ بنفسهِ تعدُّ منهُ استخفافاً بالمكتوبِ إليهِ وتكبّراً عليهِ، إلّا أنْ يكتبَ إلى عبدٍ منْ عبيدهِ، أوْ غلامٍ منْ غلمانهِ.

الرابعة- وإذا وردَ على إنسانٍ كتابٌ بالتّحيّةِ أوْ نحوها ينبغي أنْ يردَّ الجوابَ، لأنَّ الكتابَ منَ الغائبِ كالسّلامِ منَ الحاضرِ. ورويَ عنِ ابنِ عبّاسٍ أنّهُ كانَ يرى ردَّ الكتابِ واجباً كما يرى ردَّ السّلامِ. واللّهُ أعلمُ.

الخامسة- اتّفقوا على كتبِ ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ في أوّلِ الكتبِ والرّسائلِ، وعلى ختمها، لأنّهُ أبعدُ منَ الرّيبةِ، وعلى هذا جرى الرّسمُ، وبهِ جاءَ الأثرُ عنْ عمرَ بنِ الخطّابِ أنّهُ قالَ: أيّما كتابٍ لمْ يكنْ مختوماً فهوَ أغلفُ. وفي الحديثِ: «كرمُ الكتابِ ختمهُ». وقالَ بعضُ الأدباءِ، وهوَ ابنُ المقفّعِ: منْ كتبَ إلى أخيهِ كتاباً ولمْ يختمهُ فقدِ استخفَّ بهِ، لأنَّ الختمَ حتمٌ. وقالَ أنسٌ: لمّا أرادَ النّبيُّ ﷺ أنْ يكتبَ إلى العجم قيل لهُ: إنّهمْ لا يقبلونَ إلّا كتاباً عليهِ ختمٌ، فاصطنعَ خاتماً ونقشَ على فصّهِ «لا إلهَ إلّا اللّهُ محمّدٌ رسولُ اللّهِ» وكأنّي أنظر إلى وبيصه وبياضه في كفه.

السادسة- قولهُ تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مِن سُلَيۡمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ ﴿وَإِنَّهُۥ﴾ بالكسرِ فيهما أيْ وإنَّ الكلامَ، أوْ إنَّ مبتدأَ الكلامِ ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾.

قولهُ تعالى: ﴿قَالَتْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴿٣٢﴾ قَالُوا۟ نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾﴾، فيهِ ثلاثَ مسائلَ:

الأولى: قولهُ تعالى: ﴿قَالَتْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى﴾ الملأُ أشرافُ القومِ، فأخذتْ في حسنِ الأدبِ معَ قومها، ومشاورتِهمْ في أمرِها، وأعلمتهمْ أنَّ ذلكَ مطرد عندها في كل أمر يعرض، بقولها: ﴿مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ﴾ فكيفَ في هذهِ النّازلةِ الكبرى. فراجعها الملأُ بما يقرُّ عينها، منْ إعلامهمْ إيّاها بالقوّةِ والبأسِ، ثمَّ سلّموا الأمرَ إلى نظرِها، وهذهِ محاورةٌ حسنةٌ منَ الجميعِ.

الثانية- في هذهِ الآيةِ دليلٌ على صحّةِ المشاورةِ. وقدْ قالَ اللّهُ تعالى لنبيّهِ ﷺ: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ﴾ في آلِ عمرانَ إمّا استعانةً بالآراءِ، وإمّا مداراةً للأولياءِ. وقدْ مدحَ اللّهُ تعالى الفضلاءَ بقولهِ: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾. والمشاورةُ منَ الأمرِ القديمِ وخاصّةً في الحربِ، فهذهِ بلقيسُ امرأةٌ جاهليّةٌ كانتْ تعبدُ الشّمسَ: ﴿قَالَتْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ﴾ لتختبرَ عزمهمْ على مقاومةِ عدوّهمْ، وحزمهمْ فيما يقيمُ أمرهمْ، وإمضائهمْ على الطّاعةِ لها.

الثالثة- قولهُ تعالى: ﴿وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ﴾ سلّموا الأمرَ إلى نظرها معَ ما أظهروا لها منَ القوّةِ والبأسِ والشّدّةِ، فلمّا فعلوا ذلكَ أخبرتْ عندَ ذلكَ بفعلِ الملوكِ بالقرى الّتي يتغلّبونَ عليها. وفي هذا الكلامِ خوفٌ على قومها، وحيطةٌ واستعظامٌ لأمرِ سليمانَ عليه السلام. ﴿وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ قيل: هوَ منْ قولِ بلقيسَ تأكيداً للمعنى الّذي أرادتهُ. وقالَ ابنُ عبّاسٍ: هوَ منْ قولِ اللّهِ عزَّ وجلَّ معرّفًا لمحمّدٍ ﷺ وأمّتهِ بذلكَ ومخبراً بهِ.

قالَ ابنُ الأنباريِّ: ﴿وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً﴾ هذا وقفٌ تامٌّ، فقالَ: اللّهُ عزَّ وجلَّ تحقيقًا لقولها: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ وشبيهٌ بهِ في الأعرافِ: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَـٰذَا لَسَـٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ﴾ تمَّ الكلام، فقال فرعون: ﴿فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾.

قولهُ تعالى: ﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣٥﴾﴾، فيهِ ستُّ مسائلَ:

الأولى: قولهُ تعالى: ﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ﴾ هذا منْ حسنِ نظرها وتدبيرها، فإنْ كانَ ملكـًا دنياويـًا أرضاهُ المالُ وعملنا معهُ بحسبِ ذلكَ، وإنْ كانَ نبيـًا لـمْ يرضهِ المالُ ولازمنا في أمرِ الدّينِ، فينبغي لنا أنْ نؤمنَ بهِ ونتّبعهُ على دينه.

الثانية- كانَ النّبيُّ ﷺ يقبّلُ الهدية ويثبت عليها ولا يقبلُ الصّدقةَ، وكذلكَ كانَ سليمانُ عليه السلام وسائرُ الأنبياءِ صلواتُ اللّهِ عليهمْ أجمعينَ. وإنّما جعلتْ بلقيسُ قبولَ الهديّةِ أوْ ردّها علامةً على ما في نفسها، على ما ذكرناهُ منْ كونِ سليمانَ ملكـًا أوْ نبيـًا، لأنّهُ قالَ لها في كتابهِ: ﴿أَلَّا تَعْلُواْ عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ وهذا لا تقبلُ فيهِ فديةٌ، ولا يؤخذُ عنهُ هديّةٌ، وليسَ هذا منَ البابِ الّذي تقرّرَ في الشّريعةِ عنْ قبولِ الهديّةِ بسبيلٍ، وإنّما هيَ رشوةٌ وبيعُ الحقِّ بالباطلِ، وهيَ الرّشوةُ الّتي لا تحلُّ. وأمّا الهديّةُ المطلقةُ للتّحبّبِ والتّواصلِ فإنّها جائزةٌ منْ كلِّ أحدٍ وعلى كلِّ حالٍ، وهذا ما لم يكن من مشرك:

الثالثة- فإنْ كانتْ منْ مشركٍ ففي الحديثِ «نهيتُ عنْ زبدِ المشركينَ» يعني رفدهمْ وعطاياهمْ. ورويَ عنهُ ﷺ أنّهُ قبلها كما في حديثِ مالكٍ عنْ ثورِ بنِ زيدٍ الدّيليِّ وغيرهِ، فقالَ جماعةٌ منَ العلماءِ بالنّسخِ فيهما، وقالَ آخرونَ: ليسَ فيها ناسخٌ ولا منسوخٌ، والمعنى فيها: أنّهُ كانَ لا يقبلُ هديّةَ منْ يطمعُ بالظّهورِ عليهِ وأخذِ بلدهِ ودخولهِ في الإسلامِ، وبهذهِ الصّفةِ كانتْ حالةُ سليمانَ عليه السلام، فعنْ مثلِ هذا نهى أنْ تقبلَ هديّتهُ حملاً على الكفِّ عنهُ، وهذا أحسنُ تأويلٍ للعلماءِ في هذا، فإنّهُ جمعٌ بينَ الأحاديثِ.

الرابعة- الهديّةُ مندوبٌ إليها، وهيَ ممّا تورثُ المودّةَ وتذهبُ العداوةَ، روى مالكٌ عنْ عطاءِ بنِ عبدِ اللّهِ الخراسانيِّ قالَ: قالَ رسولُ اللّهِ ﷺ: «تصافحوا يذهبُ الغلُّ وتهادوا تحابّوا وتذهبُ الشّحناءُ»، وقدْ ثبتَ أنَّ النّبيَّ ﷺ كانَ يقبلُ الهديّةَ، وفيهِ الأسوةُ الحسنةُ. ومنْ فضلِ

الهديّةِ معَ اتّباعِ السّنّةِ أنّها تزيلُ حزازاتِ النّفوسِ، وتكسبُ المهديَ والمهدى إليهِ رنّةً في اللّقاءِ والجلوسِ. ولقدْ أحسنَ منْ قالَ:

إنَّ الهدايا لها حظٌّ إذا وردتْ   أحظى منْ الابنِ عندَ الوالدِ الحدبِ

الخامسة- رويَ عنِ النّبيِّ ﷺ أنّهُ قالَ: «جلساؤكمْ شركاؤكمْ في الهديّةِ» واختلفَ في معناهُ، فقيلَ: هوَ محمولٌ على ظاهرهِ. وقيلَ: يشاركهمْ على وجه الكرمِ والمروءةِ، فإنْ لمْ يفعلْ فلا يجبرُ عليهِ. وقالَ أبو يوسفَ: ذلكَ في الفواكهِ ونحوها. وقالَ بعضهمْ: همْ شركاؤهُ في السّرورِ لا في الهديّةِ. والخبرُ محمولٌ في أمثالِ أصحابِ الصّفّةِ والخوانقِ والرّباطاتِ، أمّا إذا كانَ فقيهاً منَ الفقهاءِ اختصَّ بها فلا شركةَ فيها لأصحابهِ، فإنْ أشركهمْ فذلكَ كرمٌ وجودٌ منهُ.

السادسة- قولهُ تعالى: ﴿فَنَاظِرَةُۢ﴾ أيْ منتظرةٌ ﴿بِمَ يَرۡجِعُ ٱلۡمُرۡسَلُونَ﴾ قالَ قتادةُ: يرحمها اللّهُ إنْ كانتْ لعاقلةً في إسلامها وشركها، قدْ علمتْ أنَّ الهديّةَ تقعُ موقعاً منَ النّاسِ. وسقطتِ الألفُ في ﴿بِمَ﴾ للفرقِ بينَ «ما» الخبرية. وقد يجوز إثباتها، قال حسان:

على ما قامَ يشتمني لئيمٌ   كخنزيرٍ تمرّغَ في رماد

قولهُ تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ سُلَيۡمَٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٖ﴾ أيْ جاءَ الرّسولُ سليمانَ بالهديّةِ قالَ: ﴿أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٖ﴾. قرأَ حمزةُ ويعقوبُ: بنونٍ واحدةٍ مشدّدةٍ وياء ثابتة بعدها. الباقونَ بنونين. وقدْ روى إسحاقُ عنْ نافع أنّهُ كانَ يقرأُ: «أَتُمِدُّونِ» بنونٍ واحدةٍ مخفّفةٍ بعدها ياءٌ في اللّفظِ، فهذهِ القراءةُ يجبُ فيها إثباتُ الياءِ عندَ الوقفِ، ليصحَّ لها موافقةُ هجاءِ المصحفِ.

قولهُ تعالى: ﴿فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيۡرٞ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم﴾ أيْ فما أعطاني منَ الإسلامِ والملكِ والنّبوّةِ خيرٌ ممّا أعطاكمْ، فلا أفرحُ بالمالِ. وَ «آتانِ» وقعتْ في كلِّ المصاحفِ بغيرِ ياءٍ. وقرأَ أبو عمرو ونافعٌ وحفصٌ: «آتَانِيَ اللهُ» بياءٍ مفتوحةٍ، فإذا وقفوا حذفوا. وأمّا يعقوبُ فإنّهُ يثبتها في الوقفِ ويحذفُ في الوصلِ لالتقاءِ السّاكنينِ. الباقونَ بغيرِ ياءٍ في الحالينِ ﴿بَلۡ أَنتُم

﴿بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ﴾ لأنّكمْ أهلُ مفاخرةٍ ومكاثرةٍ في الدّنيا.

قولهُ تعالى: ﴿ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ﴾ أيْ قالَ سليمانُ لأميرِ الوفدِ، ارجعْ إليهمْ بهديّتهمْ ﴿فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا﴾ لامُ قسمٍ والنّونُ لها لازمةٌ، ومعنى ﴿لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا﴾ أيْ لا طاقةَ لهمْ عليها ﴿وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ﴾ أيْ منْ أرضهمْ ﴿أَذِلَّةً وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾. وقيلَ: ﴿مِنْهَا﴾ أيْ منْ قريةِ سبأٍ. و ﴿أَذِلَّةً﴾ قدْ سلبوا ملكهمْ وعزّهمْ. ﴿وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾ أيْ مهانونَ إنْ لمْ يسلموا.

﴿أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ أرادَ أخذهُ قبلَ أنْ يعصمها وقومها الإسلامُ ويحميَ أموالهمْ، والإسلامُ على هذا الدّينِ، وقيل ليريها القدرةَ الّتي هيَ منْ عندِ اللّهِ، ويجعلهُ دليلاً على نبوّتهِ، لأخذهِ منْ بيوتها دونَ جيشٍ ولا حربٍ، وَ ﴿مُسْلِمِينَ﴾ على هذا التّأويلِ بمعنى مستسلمينَ، وقيلَ: أرادَ أنْ يختبرَ عقلها ولهذا قالَ: ﴿نَكِّرُواْ لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِىٓ﴾، وقيلَ: أرادَ أنْ يختبرَ صدقَ الهدهدِ في قولهِ: ﴿وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾، أو أحبَّ أنْ يراهُ لمّا وصفهُ الهدهدُ. والقولُ الأوّلُ عليهِ أكثرُ العلماءِ، لقولهِ تعالى: ﴿قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ﴾. ولأنّها لوْ أسلمتْ لحظرَ عليهِ مالها فلا يؤتى بهِ إلّا بإذنها.

قولهُ تعالى ﴿قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ العفريتُ منَ الشّياطينِ القويُّ الماردُ، وفي الصّحيحِ عنْ أبي هريرةَ قالَ: قالَ رسولُ اللّهِ ﷺ: «إن عفريتاً منَ الجنّ جعلَ يفتكُ عليَّ البارحةَ ليقطعَ عليَّ الصّلاةَ وإنَّ اللّهَ أمكنني منهُ فذعته» وذكرَ الحديثَ.

قولهُ تعالى: ﴿أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ﴾ يعني في مجلسهِ الّذي يحكمُ فيهِ ﴿وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ﴾ أيْ قويٌّ على حملهِ. ﴿أَمِينٌ﴾ على ما فيهِ.

﴿قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ أكثرُ المفسّرينَ على أنَّ الّذي عندهُ علمٌ منَ الكتابِ آصفُ بنُ برخيا وهوَ منْ بني إسرائيلَ، وكانَ صدّيقاً يحفظُ اسمُ اللّهِ الأعظمِ الّذي إذا سئلَ بهِ أعطى، وإذا دعيَ بهِ أجابَ.

وقيلَ: هوَ سليمانُ نفسهُ، والمخاطبةُ في هذا التّأويل للعفريتِ لمّا قالَ: ﴿أَنَاْ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبۡلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَۖ﴾ كأنَّ سليمانَ استبطأَ ذلكَ فقالَ: لهُ على جهةِ تحقيرِه: ﴿أَنَاْ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبۡلَ أَن يَرۡتَدَّ إِلَيۡكَ طَرۡفُكَۚ﴾ واستدلَّ قائلو هذهِ المقالةِ بقولِ سليمانَ: ﴿هَٰذَا مِن فَضۡلِ رَبِّي﴾.

وقيلَ: هوَ ملكٌ بيدِهِ كتابُ المقاديرِ، أرسلهُ اللّهُ عندَ قولِ العفريتِ. وقيلَ: هوَ الخضرُ عَلَيْهِ السَّلَامُ. وقيلَ: إنّهُ جبريلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وعلم الكتابِ على هذا علمهُ بكتبِ اللّهِ المنزّلةِ، أوْ بما في اللّوحِ المحفوظِ. وقيلَ: علمُ كتابِ سليمانَ إلى بلقيسَ.

فإنْ كانَ الفعلُ منْ سليمانَ فهوَ معجزةٌ، وإنْ كانَ منْ آصفَ أوْ منْ غيرِهِ منْ أولياءِ اللّهِ فهيَ كرامةٌ، وكرامةُ الوليِّ معجزةُ النّبيِّ.

قولهُ تعالى: ﴿فَلَمَّا رَءَاهُ مُسۡتَقِرًّا عِندَهُۥ﴾ أيْ ثابتـًا عندهُ ﴿قَالَ هَٰذَا مِن فَضۡلِ رَبِّي﴾ أيْ هذا النّصرُ والتّمكينُ منْ فضلِ ربّي ﴿لِيَبۡلُوَنِيٓ﴾ ليختبرني ﴿ءَأَشۡكُرُ أَمۡ أَكۡفُرُۖ﴾ نعمتهُ ﴿وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشۡكُرُ لِنَفۡسِهِۦۖ﴾ أيْ لا يرجعُ نفعُ ذلكَ إلّا إلى نفسِهِ، والشّكرُ قيدُ النّعمةِ الموجودةِ، وبهِ تنالُ النّعمةُ المفقودةُ ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيّٞ﴾ أيْ عنِ الشكر ﴿كَرِيمٞ ٤٠﴾ في التفضل.

قولهُ تعالى: ﴿قَالَ نَكِّرُواْ لَهَا عَرۡشَهَا﴾ أيْ غيّروهُ. قيل: جعلَ أعلاهُ أسفلهُ، وأسفلهُ أعلاهُ. وقيلَ: غيّرَ بزيادةٍ أوْ نقصانٍ. أرادَ أنْ يمتحنها.

قولهُ تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَتۡ﴾ بلقيس ﴿قِيلَ﴾ لها ﴿أَهَٰكَذَا عَرۡشُكِۖ قَالَتۡ كَأَنَّهُۥ هُوَۚ﴾ شبّهتهُ بهِ لأنّها خلّفتهُ، فلمْ تقرَّ بذلكَ ولمْ تنكرْ، فعلمَ سليمانُ كمالَ عقلها، ولوْ قيلَ لها: أهذا عرشكِ لقالتْ نعمْ هوَ، وقيلَ: أرادَ سليمانُ أنْ يظهرَ لها أنَّ الجنَّ مسخّرونَ لهُ، وكذلكَ الشّياطينَ لتعرفَ أنّها نبوّةٌ وتؤمنَ بهِ ﴿وَأُوتِينَا ٱلۡعِلۡمَ مِن قَبۡلِهَا﴾ قيل: هوَ منْ قولِ بلقيسَ، أيْ أوتينا العلمَ بصحّةِ نبوّةِ سليمانَ منْ قبلِ هذهِ الآيةِ في العرشِ ﴿وَكُنَّا مُسۡلِمِينَ ٤٢﴾ منقادينَ لأمرِهِ. وقيلَ: هوَ منْ قولِ سليمانَ أيْ أوتينا العلمَ بقدرةِ اللّهِ على ما يشاءُ منْ قبلِ هذهِ المرّةِ.

وقيلَ: ﴿وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ﴾ بإسلامها ومجيئها طائعةً منْ قبلِ مجيئها.

قولهُ تعالى: ﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ الوقفُ على ﴿مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ حسنٌ، أيْ صدّها عبادتها إيّاها عنْ أنَّ تسلمَ. ويجوزُ أنْ يكونَ ﴿مَا﴾ في موضعِ نصبٍ، ويكونَ التّقديرُ: وصدّها سليمانُ عمّا كانتْ تعبدُ منْ دونِ اللّهِ، أيْ حالَ بينها وبينهُ.

﴿إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ٤٣﴾ قرأَ سعيدُ بنُ جبيرٍ ﴿أَنَّهَا﴾ بفتحِ الهمزةِ، وهيَ في موضعِ نصبٍ بمعنى لأنّها، والكسر على الاستئناف.

قوله تعالى: ﴿قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِي ٱلصَّرْحَ﴾ أي إلى الصّرحِ فحذفَ إلى وعدّيَ الفعلُ، وكانَ الصّرحُ صحناً منْ زجاجٍ تحتهُ ماءٌ، عملهُ ليريها ملكاً أعظمَ منْ ملكها ﴿إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ﴾ الممرّدُ المحكوكُ المملّسُ، ومنه الأمرد.

وقيلَ: عملهُ ليختبرَ قولَ الجنِّ فيها إنَّ أمّها منَ الجنِّ، ورجلها رجلُ حمارٍ، ولمْ يردْ فيهِ خبرٌ صحيحٌ لا في أنّهُ تزوّجها ولا في أنّهُ زوّجها.

وهيَ بلقيسُ بنتُ السّرحِ بنِ الهداهدِ بن شراحيل من يعربَ بنِ قحطانَ ثم من سامِ بنِ نوحٍ. وكانَ جدّها الهداهدُ ملكاً عظيمَ الشّأنِ قدْ ولدَ لهُ أربعونَ ولداً كلّهمْ ملوكٌ، وكانَ ملكَ أرضِ اليمنِ كلّها، وكانَ أبوها السّرحُ يقولُ لملوكِ الأطرافِ: ليسَ أحدٌ منكمْ كفؤاً لي، وأبى أنْ يتزوّجَ منهمْ، فزوّجوهُ امرأةً منَ الجنِّ يقالُ لها ريحانةُ بنتُ السّكنِ، فولدتْ لهُ بلقيسُ، ولمْ يكنْ لهُ ولدٌ غيرها.

قالَ الماورديُّ: والقولُ بأنَّ أمَّ بلقيسَ جنّيّةٌ مستنكرٌ منَ العقولِ لتباينِ الجنسينِ، واختلافِ الطّبعينِ، وتفارقِ الحسّينِ، لأنَّ الآدميَّ جسمانيٌّ والجنَّ روحانيٌّ، وخلقَ اللّهُ الآدميَّ منْ صلصالٍ كالفخّارِ، وخلقَ الجانَّ منْ مارجٍ منْ نارٍ، ويمنعُ الامتزاجُ معَ هذا التّباينِ، ويستحيلُ التّناسلُ معَ هذا الاختلافِ.

قلت: قدْ مضى القولُ في هذا، والعقلُ لا يحيلهُ معَ ما جاءَ منَ الخبرِ في ذلكَ، وإذا نظرَ في أصلِ الخلقِ فأصلهُ الماءُ على ما تقدّمَ بيانهُ، ولا بعدَ في ذلكَ، واللّهُ أعلمُ. وفي التّنزيلِ ﴿وَشَارِكْهُمْ فِي ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ﴾ وقدْ تقدّمَ. وقالَ تعالى: ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا

جَآنٌّ ﴿٧٤﴾﴾ على ما يأتي في الرّحمنِ.

قولهُ تعالى: ﴿قَالَتۡ رَبِّ إِنِّي ظَلَمۡتُ نَفۡسِي﴾ أيْ بالشّركِ الّذي كانتْ عليهِ، وقيلَ: بالظّنِّ الّذي توهّمتهُ في سليمانَ، لأنّها لمّا أمرتْ بدخولِ الصّرحِ حسبتهُ لجّةً، وأنَّ سليمانَ يريدُ تغريقها فيهِ. فلمّا بانَ لها أنّهُ صرحٌ ممرّدٌ منْ قواريرَ علمتْ أنّها ظلمتْ نفسها بذلكَ الظّنِّ. ﴿وَأَسۡلَمۡتُ مَعَ سُلَيۡمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٤٤﴾﴾.

قولهُ تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمۡ صَٰلِحًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ تقدّمَ معناهُ ﴿فَإِذَا هُمۡ فَرِيقَانِ يَخۡتَصِمُونَ ﴿٤٥﴾﴾ مؤمنٌ وكافرٌ، والخصومةُ ما قصّهُ اللّهُ تعالى في قولهِ: ﴿أَتَعۡلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرۡسَلٞ مِّن رَّبِّهِۦۚ﴾ إلى قولهِ: ﴿كَٰفِرُونَ﴾.

قولهُ تعالى: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ لِمَ تَسۡتَعۡجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبۡلَ ٱلۡحَسَنَةِۖ﴾ فتقولونَ: ايتنا بالعذابِ. وقيلَ: أيْ لِمَ تفعلونَ ما تستحقّونَ بهِ العقاب، لا أنهم التمسوا تعجيل العذاب ﴿لَوۡلَا تَسۡتَغۡفِرُونَ ٱللَّهَ﴾ أيْ هلّا تتوبونَ إلى اللّهِ منَ الشّركِ ﴿لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ﴿٤٦﴾﴾.

قولهُ تعالى: ﴿قَالُواْ ٱطَّيَّرۡنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَۚ﴾ أي تشاءمنا. والشؤم النحس. ولا شيءَ أضرَّ بالرّأيِ ولا أفسدَ للتّدبيرِ منَ اعتقادِ الطّيرةِ. ومنْ ظنَّ أنَّ خوارَ بقرةٍ أوْ نعيقَ غرابٍ يردُّ قضاءً، أوْ يدفعُ مقدوراً فقدْ جهلَ.

وقدْ كانتِ العربُ أكثرَ النّاسِ طيرةً، وكانتْ إذا أرادتْ سفراً نفّرتْ طائراً، فإذا طارَ يمنةً سارتْ وتيمّنتْ، وإنْ طارَ شمالاً رجعتْ وتشاءمتْ، فنهى النّبيُّ ﷺ عنْ ذلكَ، وقالَ: «أقرّوا الطّيرَ على وكناتها».

﴿قَالَ طَٰٓئِرُكُمۡ عِندَ ٱللَّهِۖ﴾ أيْ مصائبكمْ ﴿بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ تُفۡتَنُونَ ﴿٤٧﴾﴾ أيْ تمتحنون. وقيلَ: تعذبون بذنوبكم.

قولهُ تعالى: ﴿وَكَانَ فِي ٱلۡمَدِينَةِ﴾ أيْ في مدينةِ صالحٍ وهيَ الحجرُ ﴿تِسۡعَةُ رَهۡطٖ﴾ منْ أوجهِ القومِ وأقناهمْ وأغناهمْ، وكانوا أهلَ كفرٍ ومعاصٍ جمّةٍ، وجملةُ أمرهمْ أنّهمْ يفسدونَ ولا يصلحونَ.

والرّهطُ اسمٌ للجماعةِ، فكأنّهمْ كانوا رؤساءُ يتّبعُ كلَّ واحدٍ منهمْ رهطٌ. والجمعُ أرهطٌ وأراهطٌ.

قولهُ تعالى: ﴿قَالُواْ تَقَاسَمُواْ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهۡلَهُۥ﴾ يجوزُ أنْ يكونَ ﴿تَقَاسَمُواْ﴾ فعلاً مستقبلاً وهوَ أمرٌ، أيْ قالَ بعضهمْ لبعضٍ احلفوا. ويجوزُ أنْ يكونَ ماضياً في معنى الحالِ كأنّهُ قالَ: قالوا متقاسمينَ باللّهِ. ﴿لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهۡلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ﴾ قراءةُ العامّةِ بالنّونِ فيهما، وقرأَ حمزةُ والكسائيُّ: بالتّاءِ فيهما، وضمِّ التّاءِ واللّامِ على الخطابِ أيْ أنّهمْ تخاطبوا بذلكَ، والبياتُ مباغتةُ العدوِّ ليلاً. ومعنى ﴿لِوَلِيِّهِۦ﴾ أيْ لرهطِ صالحٍ الّذي لهُ ولايةُ الدّمِ ﴿مَا شَهِدۡنَا مَهۡلِكَ أَهۡلِهِۦ﴾ أيْ ما حضرنا، ولا ندري منْ قتلهُ وقتل أهله ﴿وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٤٩﴾﴾ في إنكارنا لقتله. والمَهلِك بمعنى الإهلاك، ويجوزُ أنْ يكونَ الموضعَ.

قولهُ تعالى: ﴿وَمَكَرُواْ مَكۡرٗا وَمَكَرۡنَا مَكۡرٗا وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ﴿٥٠﴾﴾ مكرهمْ تحالفهم على أنْ يأتوا دارَ صالح ليلاً ويقتلوهُ وأهلهُ المختصّينَ بهِ ﴿فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكۡرِهِمۡ أَنَّا دَمَّرۡنَٰهُمۡ وَقَوۡمَهُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿٥١﴾﴾ أيْ بالصّيحةِ الّتي أهلكتهمْ. وكانَ عاصمٌ وحمزةُ والكسائيُّ يقرأونَ: «أَنَّا» بالفتحِ، فعلى هذا المذهبِ لا يحسنُ الوقفُ على ﴿عَٰقِبَةُ مَكۡرِهِمۡ﴾ لأنَّ ﴿أَنَّا دَمَّرۡنَٰهُمۡ﴾ خبرُ كانَ، وقرأَ ابنُ كثيرٍ ونافعٌ وأبو عمرو: ﴿إِنَّا دَمَّرۡنَٰهُمۡ﴾ بكسرِ الألفِ على الاستئنافِ، فعلى هذا المذهبِ يحسنُ الوقفُ على ﴿مَكۡرِهِمۡ﴾.

قولهُ تعالى: ﴿فَتِلۡكَ بُيُوتُهُمۡ خَاوِيَةَۢ بِمَا ظَلَمُوٓاْۚ﴾ قراءةُ العامّةِ بالنّصبِ على الحالِ ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ﴿٥٢﴾ وَأَنجَيۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ بصالحٍ ﴿وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٥٣﴾﴾ اللّهَ ويخافونَ عذابهُ. وخرجَ صالحٌ بمنْ آمنَ معهُ إلى حضرموتَ، فلمّا دخلها ماتَ صالحٌ، فسمّيتْ حضرموتُ.

قولهُ تعالى: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ﴾ أيْ وأرسلنا لوطـًا، أوِ اذكرْ لوطـًا. ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ﴾ وهم أهل سدوم ﴿أَتَأْتُونَ ٱلْفَـٰحِشَةَ﴾ الفعلةَ القبيحةَ الشّنيعةَ ﴿وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ۝٥٤﴾ أنّها فاحشةٌ، وذلكَ أعظمُ لذنوبكمْ. وقيلَ: يأتي بعضكمْ بعضـًا وأنتمْ تنظرونَ إليهِ. وكانوا لا يستترون عتوا منهم وتمردا ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِۚ﴾ أعادَ ذكرها لفرط قبحها وشنعتها ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ۝٥٥﴾ إمّا أمرَ التّحريم أوِ العقوبةَ.

قولهُ تعالى: ﴿۞فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ۝٥٦﴾ أيْ عنْ أدبارِ الرّجالِ. يقولونَ ذلكَ استهزاءً منهمْ، وعابوهمْ واللّهِ بغيرِ عيبٍ بأنّهمْ يتطهّرونَ منْ أعمالِ السّوءِ ﴿فَأَنجَيْنَـٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَـٰهَا مِنَ ٱلْغَـٰبِرِينَ ۝٥٧﴾ وقرأ عاصمٌ: «قَدَرْنَا» مخفّفـًا والمعنى واحدٌ ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًاۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ۝٥٨﴾ أيْ منْ أنذرَ فلمْ يقبلِ الإنذارَ.

قولهُ تعالى: ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَـٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓۗ﴾ قيلَ للوطٍ ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِۚ﴾ على هلاكهمْ. وقيلَ: هوَ مخاطبةٌ لنبيّنا محمّدٍ ﷺ، أيْ قلِ الحمدُ للّهِ على هلاكِ كفّارِ الأممِ الخاليةِ، لأنَّ القرآنَ منزّلٌ على النّبيِّ ﷺ، وكلُّ ما فيهِ فهوَ مخاطبٌ بهِ ﷺ إلّا ما لمْ يصحَّ معناهُ إلّا لغيرهِ. ﴿وَسَلَـٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓۗ﴾ يعني أمّتهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ. وقيلَ: همْ أصحابُ محمّدٍ ﷺ.

وقيلَ: أمرَ رسولُ اللّهِ ﷺ أنْ يتلوَ هذهِ الآياتِ النّاطقةَ بالبراهينِ على وحدانيّتهِ وقدرتهِ على كل شيء وحكمتهِ، وأنْ يستفتحَ بتحميدهِ والسّلامِ على أنبيائهِ والمصطفينَ منْ عبادهِ. وفيهِ تعليمٌ حسنٌ، وتوقيفٌ على أدبٍ جميلٍ، ولقدْ توارثَ العلماءُ والخطباءُ والوعّاظُ كابراً عنْ كابرٍ هذا الأدبَ، فحمدوا اللّهَ وصلّوا على رسولِ اللّهِ ﷺ أمامَ كلِّ علمٍ مفادٍ، وقبلَ كلِّ عظةٍ وفي مفتتحِ كلِّ خطبةٍ، وتبعهمُ المترسّلونَ فأجروا عليهِ أوائلَ كتبهمْ في الفتوحِ والتّهاني، وغيرِ ذلكَ منَ الحوادثِ الّتي لها شأنٌ.

قولهُ تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓۗ﴾ اختارَ، أيْ لرسالتهِ وهمُ الأنبياءُ عليهمُ السّلامُ، دليلهُ قولهُ تعالى: ﴿وَسَلَـٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ﴾. ﴿ءَآللَّهُ خَيْرٌ﴾ ﴿خَيْرٌ﴾ هاهنا ليسَ بمعنى أفضلَ منك، وإنما

هو مثل قول الشاعر:

أتهجوهُ ولستَ لهُ بكفءٍ فشرّكما لخيركما الفداءُ

فالمعنى فالّذي فيهِ الشّرُّ منكما للّذي فيهِ الخيرُ الفداءُ.

وقيلَ: هوَ على بابهِ منَ التّفضيلِ، والمعنى: آللّهُ خيرٌ أمْ ما تشركونَ، أيْ أثوابهُ خيرٌ أمْ عقابُ ما تشركونَ. وقيلَ: قالَ لهمْ ذلكَ لأنّهمْ كانوا يعتقدونَ أنَّ في عبادةِ الأصنامِ خير فخاطبهمُ اللّهُ عزَّ وجلَّ على اعتقادهمْ. وقيلَ: اللّفظُ لفظُ الاستفهامِ ومعناهُ الخبرُ.

وقرأَ أبو عمرو وعاصمٌ ويعقوبُ: «يُشْرِكُونَ» بياءٍ على الخبرِ. الباقونَ بالتّاءِ على الخطابِ.

قولهُ تعالى: ﴿أَمَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾ فيه التّوبيخِ لهمْ، والتّنبيهِ على قدرةِ اللّهِ عزَّ وجلَّ وعجزِ آلهتهمْ ﴿فَأَنۢبَتۡنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهۡجَةٖ﴾ الحديقةُ البستانُ الّذي عليهِ حائطٌ وإنْ لمْ يكنْ عليهِ حائطٌ فهوَ البستانُ وليسَ بحديقةٍ. والبهجةُ المنظرُ الحسنُ ﴿مَّا كَانَ لَكُمۡ أَن تُنۢبِتُواْ شَجَرَهَآۗ﴾ ﴿مَا﴾ للنّفيِ. فهمْ عجزةٌ عنْ مثلها، لأنَّ ذلكَ إخراجُ الشّيءِ منَ العدمِ إلى الوجودِ.

قلت: وقدْ يستدلُّ من هذا على منع تصوير شيء سواءٌ كانَ لهُ روحٌ أمْ لمْ يكنْ، وهوَ قولُ مجاهدٍ. ويعضّدهُ قولهُ ﷺ: «قالَ اللّهُ عزَّ وجلَّ ومنْ أظلمَ ممّنْ ذهبَ يخلقُ خلقاً كخلقي فليخلقوا ذرّةً أوْ ليخلقوا حبّةً أوْ ليخلقوا شعيرةً» رواهُ مسلمٌ في صحيحهِ منْ حديثِ أبي هريرةَ، قالَ سمعتُ رسولَ اللّهِ ﷺ يقولُ: «قالَ اللّهُ عزَّ وجلَّ» فذكرهُ، فعمَّ بالذّمِّ والتّهديدِ والتّقبيحِ كلَّ منْ تعاطى تصوير شيء ممّا خلقهُ اللّهُ وضاهاهُ في التّشبيهِ في خلقه فيما انفردَ بهِ سبحانهُ منَ الخلقِ والاختراعِ. وذهبَ الجمهورُ إلى أنَّ تصويرَ ما ليسَ فيهِ روحٌ يجوزُ هوَ والاكتسابُ به. وقد قال ابن عباس للذي سأل أنْ يصنعَ الصّورَ: إنْ كنتَ لا بدَّ فاعلاً فاصنعِ الشّجرَ وما لا نفسَ لهُ خرّجهُ مسلمٌ أيضاً. والمنعُ أولى واللّهُ أعلمُ لما ذكرنا.

ثمَّ قالَ على جهةِ التّوبيخِ: ﴿أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ﴾ أيْ هلْ معبودٌ معَ اللّهِ يعينهُ على ذلكَ ﴿بَلۡ هُمۡ قَوۡمٞ يَعۡدِلُونَ ٦٠﴾ باللّهِ غيرهُ. وقيلَ: ﴿يَعۡدِلُونَ﴾ عنِ الحقِّ والقصدِ، أيْ يكفرونَ.

قولهُ تعالى: ﴿أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا﴾ أيْ مستقراً ﴿وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا﴾ أيْ وسطها مثلَ ﴿وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا﴾. ﴿وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ﴾ يعني جبالاً ثوابتَ تمسكها وتمنعها منَ الحركةِ ﴿وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا﴾ مانعاً لئلّا يختلطَ الأجاجُ بالعذبِ ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾ أيْ إذا ثبتَ أنّهُ لا يقدرُ على هذا غيرهُ فلمَ يعبدونَ ما لا يضرُّ ولا ينفعُ ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾﴾ يعني كأنّهمْ يجهلونَ اللّهَ فلا يعلمونَ ما يجب له من الوحدانية.

قولهُ تعالى: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾﴾، فيهِ ثلاثُ مسائلَ:

الأولى: قولهُ تعالى: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ المضطرّ: الّذي لا حولَ لهُ ولا قوّةَ. وقيلَ: هوَ الّذي قطعَ العلائقَ عمّا دونَ اللّهِ. وقيلَ: هوَ الّذي إذا رفعَ يديهِ إلى اللّهِ داعياً لمْ يكنْ لهُ وسيلةٌ منْ طاعةٍ قدّمها.

قالَ الشّاعرُ:

وإنّي لأدعو اللّهَ والأمرُ ضيّقٌ   عليَّ فما ينفكُّ أنْ يتفرّجا

الثانية- وفي مسند أبى داو الطّيالسيّ عنْ أبي بكرةَ قالَ: قالَ رسولُ اللّهِ ﷺ في دعاءِ المضطرِّ: «اللّهمَّ رحمتكَ أرجو فلا تكلني إلى نفسي طرفةَ عينٍ وأصلحْ لي شأني كلّهُ لا إلهَ إلّا أنتَ».

الثالثة- ضمنَ اللّهُ تعالى إجابةَ المضطرِّ إذا دعاهُ، وأخبرَ بذلكَ عنْ نفسهِ، والسّببُ في ذلكَ أنَّ الضّرورةَ إليهِ باللّجاءِ ينشأُ عنِ الإخلاصِ، وقطعِ القلبِ عمّا سواهُ، وللإخلاصِ عندهُ سبحانهُ موقعٌ وذمّةٌ، وجدَ منْ مؤمنٍ أوْ كافرٍ، طائعٍ أوْ فاجرٍ، كما قالَ تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ وقولهُ: ﴿فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ فأجابهمْ عندَ ضرورتهمْ ووقوعِ إخلاصهمْ، معَ علمهِ أنّهمْ يعودونَ إلى شركهمْ وكفرهمْ. وقالَ تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ فيجيبُ المضطرَّ لموضعِ اضطرارهِ

وإخلاصِهِ. وفي الحديثِ: «ثلاثُ دعواتٍ مستجاباتٍ لا شكَّ فيهنَّ دعوةُ المظلومِ ودعوةُ المسافرِ ودعوةُ الوالدِ على ولدِهِ»، وفي صحيحِ مسلمٍ عنِ النَّبيِّ ﷺ أنَّهُ قالَ لمعاذٍ لمَّا وجَّهَهُ إلى أرضِ اليمنِ «واتَّقِ دعوةَ المظلومِ فليسَ بينها وبينَ اللّهِ حجابٌ».

وفي الحديث: «اتَّقوا دعوةَ المظلومِ فإنَّها تحملُ على الغمامِ فيقولُ اللّهُ تباركَ وتعالى وعزَّتي وجلالي لأنصرنَّكِ ولوْ بعدَ حينٍ» وهوَ صحيحٌ أيضـًا.

وقالَ سبحانه على لسانِ نبيِّهِ في صحيحِ مسلمٍ وغيرِهِ: «يا عبادي إنِّي حرَّمتُ الظُّلمَ على نفسي وجعلتهُ بينكمْ محرَّمـًا فلا تظالموا» الحديثَ. فالمظلومُ مضطرٌّ، ويقربُ منهُ المسافرُ، لأنَّهُ منقطعٌ عنِ الأهلِ والوطنِ منفردٌ عنِ الصَّديقِ والحميمِ، لا يسكنُ قلبهُ إلى مسعدٍ ولا معينٍ لغربتهِ. فتصدقُ ضرورتهُ إلى المولى، فيخلصُ إليهِ في اللجأ، وهوَ المجيبُ للمضطرِّ إذا دعاهُ، وكذلكَ دعوةُ الوالدِ على ولدِهِ، لا تصدرُ منهُ معَ ما يعلمُ منْ حنَّتهِ عليهِ وشفقتهِ، إلَّا عندَ تكاملِ عجزهِ عنهُ، وصدقِ ضرورتهِ، وإياسهِ عنْ برِّ ولدهِ، معَ وجودِ أذيَّتهِ، فيسرعُ الحقُّ إلى إجابتهِ.

قولهُ تعالى: ﴿وَيَكۡشِفُ ٱلسُّوٓءَ﴾ أيِ الضَّرَّ. وقيلَ: الجورُ ﴿وَيَجۡعَلُكُمۡ خُلَفَآءَ ٱلۡأَرۡضِۗ﴾ يهلكُ قومـًا وينشئُ آخرينَ، وقيلَ: ويجعلُ أولادكمْ خلفـًا منكمْ. وقيلَ: خلفـًا منَ الكفَّارِ ينزلونَ أرضهمْ ﴿أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ﴾ على جهةِ التَّوبيخِ، كأنَّهُ قالَ أمعَ اللّهِ ويلكمْ إلهٌ ﴿قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ۝٦٢﴾ قرأَ أبو عمرو ويعقوبُ: «يَذَّكَّرُونَ» بالياءِ على الخبرِ، كقولِ: ﴿بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ وَ ﴿تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ فأخبرَ فيما قبلها وبعدها. الباقونَ بالتَّاءِ خطابـًا لقولهِ: ﴿وَيَجۡعَلُكُمۡ خُلَفَآءَ ٱلۡأَرۡضِۗ﴾.

قولهُ تعالى: ﴿أَمَّن يَهۡدِيكُمۡ﴾ أيْ يرشدكمُ الطّريقَ ﴿فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ﴾ إذا سافرتمْ بالليل والنهار ﴿وَمَن يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَيۡ رَحۡمَتِهِۦٓۚ﴾ أيْ قدّامَ المطرِ باتّفاقِ أهلِ التّأويلِ ﴿أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ﴾ يفعلُ ذلكَ ويعينهُ عليهِ ﴿تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ٦٣﴾ منْ دونهِ.

قولهُ تعالى: ﴿أَمَّن يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ كانوا يقرّونَ أنّهُ الخالقُ الرازق فألزمهم الإعادة، أي إذا قدر الابتداءِ فمنْ ضرورتهِ القدرةُ على الإعادةِ، وهوَ أهونُ عليهِ ﴿أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ﴾ يخلقُ ويرزقُ ويبدئُ ويعيدُ: ﴿قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡ﴾ أيْ حجّتكمْ أنَّ لي شريكًا، أوْ حجّتكمْ في أنّهُ صنعَ أحدٌ شيئًا منْ هذهِ الأشياءِ غيرَ الله ﴿إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ٦٤﴾.

قولهُ تعالى: ﴿قُل لَّا يَعۡلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ٱلۡغَيۡبَ إِلَّا ٱللَّهُۚ﴾ وعنْ بعضهمْ: أخفى غيبهُ على الخلقِ، ولمْ يطّلعْ عليهِ أحدٌ لئلّا يأمنَ أحدٌ منْ عبيدهِ مكرهُ. وقيلَ: نزلتْ في المشركينَ حينَ سألوا النّبيَّ ﷺ عنْ قيامِ السّاعةِ.

قالتْ عائشةُ: منْ زعمَ أنَّ محمّدًا يعلمُ ما في غدٍ فقدْ أعظمَ على اللّهِ الفريةَ، واللّهُ تعالى يقولُ: ﴿قُل لَّا يَعۡلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ٱلۡغَيۡبَ إِلَّا ٱللَّهُۚ﴾ خرّجهُ مسلمٌ.

قولهُ تعالى: ﴿بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلۡمُهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ﴾ هذهِ قراءةُ أكثرِ النّاسِ منهمْ عاصمٌ ونافعٌ وحمزةُ والكسائيُّ، أي تكاملَ علمهمْ في الآخرةِ، لأنّهمْ رأوا كلَّ ما وعدوا بهِ معاينةً فتكاملَ علمهم بهِ. وقرأَ أبو جعفرٍ وابنُ كثيرٍ وأبو عمرو وحميدٌ: «بَلْ أَدْرَكَ» منَ الإدراكِ. ﴿بَلۡ هُمۡ فِي شَكّٖ مِّنۡهَاۖ﴾ أيْ في الدّنيا ﴿بَلۡ هُم مِّنۡهَا عَمُونَ ٦٦﴾ أيْ بقلوبهم واحدهم عمو. وقيلَ: عمٍ.

قولهُ تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ يعني مشركي مكّةَ ﴿أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبٗا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخۡرَجُونَ ٦٧﴾ هكذا يقرأُ نافعٌ هنا وفي سورةِ العنكبوتِ. وقرأَ أبو عمرو باستفهامينِ إلّا أنّهُ خفّفَ الهمزةَ. وقرأَ عاصمٌ وحمزةُ أيضًا باستفهامينِ إلّا أنّهما حقّقا الهمزتينِ، وكلُّ ما ذكرناهُ في السّورتينِ جميعًا واحدٌ. وقرأَ الكسائيُّ وابنُ عامرٍ ورويس ويعقوب «أَإِذا» بهمزتين

«إِنَّنَا» بنونينِ على الخبرِ في هذهِ السّورةِ، وفي سورةِ العنكبوتِ باستفهامينِ.

قولهُ تعالى: ﴿لَقَدۡ وُعِدۡنَا هَٰذَا نَحۡنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبۡلُ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ۝٦٨﴾ تقدم في سورة المؤمنين. وكانت الأنبياء يقربون أمر البعث مبالغة في التّحذيرِ، وكلُّ ما هوَ آتٍ فقريبٌ.

قولهُ تعالى: ﴿قُلۡ سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ في بلادِ الشّامِ والحجازِ واليمنِ ﴿فَٱنظُرُواْ﴾ أيْ بقلوبكمْ وبصائركمْ ﴿كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ۝٦٩﴾ المكذّبينَ لرسلهمْ ﴿وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ﴾ أيْ على كفّارِ مكّةَ إنْ لمْ يؤمنوا ﴿وَلَا تَكُن فِي ضَيۡقٖ﴾ في حرج ﴿مِّمَّا يَمۡكُرُونَ ۝٧٠﴾ نزلت في المستهزئين الذين اقتسموا اعقاب مكة وقد تقدم ذكرهم. وقريء: «فِي ضِيقٍ» بالكسرِ وقدْ مضى في آخرِ النحل.

قولهُ تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ﴾ أي يجيئنا العذاب بتكذيبنا ﴿إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ۝٧١ قُلۡ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم﴾ أي اقتربَ لكمْ ودنا منكمْ ﴿بَعۡضُ ٱلَّذِي تَسۡتَعۡجِلُونَ ۝٧٢﴾ أيْ منَ العذابِ، منْ ردفهُ إذا تبعهُ وجاءَ في أثرهِ، وتكونُ اللّامُ أدخلتْ لأنَّ المعنى اقتربَ لكمْ ودنا لكمْ. فكانَ ذلكَ يومَ بدرٍ. وقيلَ: عذابُ القبرِ ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ في تأخيرِ العقوبةِ وإدرارِ الرّزقِ ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَشۡكُرُونَ ۝٧٣﴾ فضلهُ ونعمهُ.

قولهُ تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعۡلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمۡ﴾ أي تخفى ﴿وَمَا يُعۡلِنُونَ ۝٧٤﴾ يظهرون في الأمور.

قولهُ تعالى: ﴿وَمَا مِنۡ غَآئِبَةٖ فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٍ ۝٧٥﴾ الغائبةُ هنا القيامةُ. وقيلَ: ما غابَ عنهمْ منْ عذابِ السّماءِ والأرضِ، وقيلَ: جميعُ ما أخفى اللّهُ تعالى عنْ خلقهِ وغيّبهُ عنهمْ، وهذا عامٌّ. وإنّما دخلتِ الهاءُ في ﴿غَآئِبَةٖ﴾ إشارةً إلى الجمعِ، أيْ. ما منْ خصلةٍ غائبةٍ عنِ الخلقِ إلّا واللّهُ عالمٌ بها قدْ أثبتها في أمِّ الكتابِ عندهُ، فكيفَ يخفى عليهِ ما يسرُّ هؤلاءِ وما يعلنونهُ.

قولهُ تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَكۡثَرَ ٱلَّذِي هُمۡ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ

﴿٧٦﴾ لوْ أخذوا بهِ بعدما حرّفوهُ منَ التّوراةِ والإنجيلِ، وما سقطَ منْ كتبهمْ منَ الأحكام ﴿وَإِنَّهُۥ﴾ يعني القرآنَ ﴿لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾﴾ خصَّ المؤمنينَ لأنّهمُ المتفعونَ بهِ ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُم بِحُكْمِهِۦ﴾ أيْ يقضي بينَ بني إسرائيلَ فيما اختلفوا فيهِ في الآخرةِ، فيجازي المحقَّ والمبطلَ. وقيلَ: يقضي بينهمْ في الدّنيا فيظهرُ ما حرّفوهُ ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ المنيعُ الغالبُ الّذي لا يردُّ أمرهُ ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ الّذي لا يخفى عليه شي.

قولهُ تعالى: ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ أيْ فوّضْ إليهِ أمركَ واعتمدْ عليهِ، فإنّهُ ناصركَ ﴿إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ﴿٧٩﴾﴾ أيِ الظّاهرُ. وقيلَ: المظهرُ لمن تدبر وجهَ الصّوابِ ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ يعني الكفّارَ لتركهمُ التّدبّرَ، فهمْ كالموتى لا حسَّ لهمْ ولا عقلَ. وقيلَ: هذا فيمنْ علمَ أنّهُ لا يؤمنُ ﴿وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ﴾ يعني الكفّارَ الّذينَ همْ بمنزلةِ الصّمِّ عنْ قبولِ المواعظِ، نظيرهُ ﴿صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْيٌ﴾. وقرأَ ابنُ كثيرٍ «وَلَا يَسْمَعُ» بفتحِ الياءِ والميمِ «الصُّمُّ» رفعـًا على الفاعلِ. الباقونَ ﴿تُسْمِعُ﴾ مضارعُ أسمعتَ ﴿ٱلصُّمَّ﴾ نصبـًا.

مسألةٌ: وقدِ احتجّتْ عائشةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا في إنكارها أنَّ النّبيَّ ﷺ أسمعَ موتى بدرٍ بهذهِ الآيةِ، فنظرتْ في الأمرِ بقياسٍ عقليٍّ ووقفتْ معَ هذهِ الآيةِ. وقدْ صحَّ عنِ النّبيِّ ﷺ أنّهُ قالَ: «ما أنتمْ بأسمعَ منهمْ».

قالَ ابنُ عطيّةَ: فيشبهُ أنَّ قصّةَ بدرٍ خرقُ عادةٍ لمحمّدٍ ﷺ في أنْ ردَّ اللّهُ إليهمْ إدراكـًا سمعوا بهِ مقالهُ ولولا إخبارَ رسولِ اللّهِ ﷺ بسماعهمْ لحملنا نداءهُ إيّاهمْ على معنى التّوبيخِ لمنْ بقيَ منَ الكفرةِ، وعلى معنى شفاءِ صدورِ المؤمنينَ.

قلت: روى البخاريُّ عنْ أبي طلحةَ أنَّ نبيَّ اللّهِ ﷺ أمرَ يومَ بدرٍ بأربعةٍ وعشرينَ رجلاً منْ صناديدِ قريشٍ فقذفوا في طويٍّ منْ أطواءِ بدرٍ خبيثٍ مخبثٍ، وكانَ إذا ظهرَ على قومٍ أقامَ بالعرصةِ ثلاثَ ليالٍ، فلمّا كانَ ببدرٍ اليومُ الثّالثُ أمرَ براحلتهِ فشدَّ عليها رحلها ثمَّ مشى وتبعهُ أصحابهُ، قالوا: ما نرى ينطلقُ إلّا لبعضِ حاجتهِ، حتّى قامَ على شفيرِ الرّكيِّ، فجعلَ يناديهمْ بأسمائهمْ وأسماءِ آبائهمْ يا فلانُ بنَ فلانٍ ويا فلانُ بنَ فلانٍ أيسرّكمْ أنّكمْ أطعتمُ اللّهَ ورسولهُ، فإنّا قدْ وجدنا ما وعدنا ربّنا حقـًا فهلْ وجدتمْ ما وعدَ ربّكمْ حقـًا، قالَ فقالَ: عمرُ: يا رسولَ

اللّهِ! ما تكلّمُ منْ أجسادٍ لا أرواحَ لها، فقالَ: النّبيُّ ﷺ: «والّذي نفسُ محمّدٍ بيدهِ ما أنتمْ بأسمعَ لما أقولُ منهمْ». قالَ قتادةُ: أحياهمُ اللّهُ حتّى أسمعهمْ قولهُ توبيخًا وتصغيراً ونقمةً وحسرةً وندمًا. خرّجهُ مسلمٌ أيضًا.

وروى البخاريُّ عنِ ابنِ عمرَ قالَ: وقفَ النّبيُّ ﷺ على قليبِ بدرٍ فقالَ: «هلْ وجدتمْ ما وعدَ ربّكمْ حقًا» قال عروة: فذكر ذلك لعائشة فقالت إنما قال النبي ﷺ: «إنّهمُ الآنَ ليعلمونَ أنَّ الّذي كنتُ أقولُ لهمْ هوَ الحقُّ» ثمَّ قرأتْ ﴿إِنَّكَ لَا تُسۡمِعُ ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾ حتّى قرأتِ الآيةَ.

وقدْ عورضتْ هذهِ الآيةُ بقصّةِ بدرٍ وبالسّلام على القبورِ، وبما رويَ في ذلكَ منْ أنَّ الأرواحَ تكونُ على شفيرِ القبورِ في أوقاتٍ، وبأنَّ الميّتَ يسمعُ قرعَ النّعالِ إذا انصرفوا عنهُ، إلى غيرِ ذلكَ، فلوْ لمْ يسمعِ الميّتُ لمْ يسلّمْ عليهِ.

قولهُ تعالى: ﴿وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِي ٱلۡعُمۡيِ عَن ضَلَٰلَتِهِمۡۖ﴾ أيْ كفرهمْ، أيْ ليسَ في وسعكَ خلقُ الإيمانِ في قلوبهمْ. وقرأَ حمزةُ: «وَمَا أَنْتَ تَهْدِي الْعُمْيَ عَنْ ضَلَالَتِهِمْ» كقولهِ: ﴿أَفَأَنتَ تَهۡدِي ٱلۡعُمۡيَ﴾. الباقونَ: ﴿بِهَٰدِي ٱلۡعُمۡيِ﴾ وفي الرّومِ مثلهُ. وكلّهمْ وقفَ على ﴿بِهَٰدِي﴾ بالياءِ في هذهِ السّورةِ وبغيرِ ياءٍ في «الرّوم» اتّباعًا للمصحفِ، إلّا يعقوبَ فإنّهُ وقفَ فيهما جميعًا بالياءِ ﴿إِن تُسۡمِعُ﴾ أيْ ما تسمعُ ﴿إِلَّا مَن يُؤۡمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ قالَ ابنُ عبّاسٍ: أيْ إلّا منْ خلقته للسعادة فهم مخلصون في التوحيد.

قولهُ تعالى: ﴿۞وَإِذَا وَقَعَ ٱلۡقَوۡلُ عَلَيۡهِمۡ أَخۡرَجۡنَا لَهُمۡ دَآبَّةً مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ تُكَلِّمُهُمۡ﴾ اختلفَ في معنى وقعَ القولُ وفي الدّابّةِ، فقيلَ: معنى ﴿وَقَعَ ٱلۡقَوۡلُ عَلَيۡهِمۡ﴾ وجبَ الغضبُ عليهمْ، وقيلَ: أيْ حقَّ القولُ عليهمْ بأنّهمْ لا يؤمنونَ. وقيلَ: إذا لمْ يأمروا بالمعروفِ وينهوا عنِ المنكرِ وجبَ السّخطُ عليهمْ. وقالَ عبدُ اللّهِ بنُ مسعودٍ: وقْعُ القولِ يكونُ بموتِ العلماءِ، وذهابِ العلمِ، ورفعِ القرآنِ. **وقيلَ**: القولُ هوَ قولهُ تعالى: ﴿وَلَٰكِنۡ حَقَّ ٱلۡقَوۡلُ مِنِّي لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ﴾ فوقوعُ القولِ وجوبُ العقابِ على هؤلاءِ، فإذا صاروا إلى حدٍّ لا تقبلُ توبتهمْ ولا يولدُ لهمْ ولدٌ مؤمنٌ فحينئذٍ تقومُ القيامةُ.

قلت: وجميعُ الأقوالِ عندَ التأمّلِ ترجعُ إلى معنى واحدٍ. والدّليلُ عليهِ آخرُ الآيةِ ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ كَانُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ ۝٨٢﴾ وقرئ «أَنَّ» بفتحِ الهمزةِ وسيأتي. وفي صحيحِ مسلمٍ عنْ أبي هريرةَ رضي الله عنه قالَ: قالَ رسولُ اللّهِ ﷺ: «ثلاثٌ إذا خرجنَ لا ينفعُ نفسـًا إيمانها لمْ تكنْ آمنتْ منْ قبلُ أوْ كسبتْ في إيمانها خير طلوعُ الشّمسِ منْ مغربها والدّجّالُ ودابّةُ الأرضِ».

واختلفَ في تعيينِ هذهِ الدّابّةِ وصفتها ومنْ أينَ تخرجُ اختلافـًا كثيراً:

فأوّلُ الأقوالِ: أنّهُ فصيلُ ناقةِ صالحٍ وهوَ أصحّها- واللّهُ أعلمُ- لما ذكرهُ أبو داودَ الطّيالسيُّ في مسندهِ عنْ حذيفةَ قالَ: ذكرَ رسولُ اللّهِ ﷺ الدّابّةَ فقالَ: «لها ثلاثُ خرجاتٍ منَ الدّهرِ فتخرجُ في أقصى الباديةِ ولا يدخلُ ذكرها القريةَ- يعني مكّةَ- ثمَّ تكمن زمانا طويلا ثم تخرج خرجةً أخرى دونَ ذلكَ فيفشو ذكرها في الباديةِ ويدخلُ ذكرها القريةَ» يعني مكّةَ قالَ رسولُ اللّهِ ﷺ: «ثمَّ بينما النّاسُ في أعظمِ المساجدِ على اللّهِ حرمةً خيرها وأكرمها على اللّهِ المسجدِ الحرامِ لمْ يرعهمْ إلّا وهيَ ترغو بينَ الرّكنِ والمقامِ تنفضُ عنْ رأسها التّرابَ فارفَضَّ النّاسُ منها شتَّى ومعـًا وثبتت عصابة من المؤمنين وعرفوا أنهم لم يعجزوا اللّهَ فبدأتْ بهمْ فجلتْ وجوههمْ حتّى جعلتها كأنّها الكوكبُ الدّرّيُّ وولّتْ في الأرضِ لا يدركها طالبٌ ولا ينجو منها هاربٌ حتّى إنَّ الرّجلَ ليتعوّذُ منها بالصّلاةِ فتأتيهِ منْ خلفهِ فتقولُ يا فلانُ الآنَ تصلّي فتقبلُ عليهِ فتسِمُهُ في وجههِ ثمَّ تنطلقُ ويشتركُ النّاسُ في الأموالِ ويصطلحونَ في الأمصارِ يُعرفُ المؤمنُ منَ الكافرِ حتّى إنَّ المؤمنَ يقولُ يا كافرُ اقضِ حقّي».

وموضعُ الدّليلِ من هذا الحديث أنه الفصيل قول: «وهيَ ترغو» والرّغاءُ إنّما هوَ للإبلِ، وذلكَ أنَّ الفصيلَ لمّا قتلتِ النّاقةُ هربَ فانفتحَ لهُ حجرٌ فدخلَ في جوفهِ ثمَّ انطبقَ عليهِ، فهوَ فيهِ حتّى يخرجَ بإذنِ اللّهِ عزَّ وجلَّ.

وقالَ بعضُ المتأخّرينَ منَ المفسّرينَ: إنَّ الأقربَ أنْ تكونَ هذهِ الدّابّةُ إنسانـًا متكلّمـًا يناظرُ أهلَ البدعِ والكفرِ ويجادلهمْ لينقطعوا، فيهلكُ منْ هلكَ عنْ بيّنةٍ ويحيا منْ حيَّ عنْ

بيّنةٍ.

قالَ شيخنا الإمامُ أبو العبّاسِ أحمدُ بنُ عمرَ القرطبيُّ في كتابِ المفهمِ له: وإنما كانَ عندَ هذا القائلِ الأقربُ لقولِهِ تعالى: ﴿تُكَلِّمُهُمْ﴾ وعلى هذا فلا يكونُ في هذهِ الدّابّةِ آيةٌ خاصّةٌ خارقةٌ للعادةِ، ولا يكونُ منَ العشرِ الآياتِ المذكورةِ في الحديثِ، لأنَّ وجودَ المناظرينَ والمحتجّينَ على أهلِ البدعِ كثيرٌ، فلا آيةٌ خاصّةٌ بها فلا ينبغي أنْ تذكرَ معَ العشرِ، وترتفعُ خصوصيّةُ وجودها إذا وقعَ القولُ، ثمَّ فيهِ العدولُ عنْ تسميةِ هذا الإنسانِ المناظرِ الفاضلِ العالمِ الّذي على أهلِ الأرضِ أنْ يسمّوهُ باسمِ الإنسانِ أوْ بالعالمِ أوْ بالإمامِ إلى أنْ يسمّى بدابّةٍ، وهذا خروجٌ عنْ عادةِ الفصحاءِ، وعنْ تعظيمِ العلماءِ، وليسَ ذلكَ دأبَ العقلاءِ، فالأولى ما قالهُ أهلُ التّفسيرِ، واللّهُ أعلمُ بحقائقِ الأمورِ.

قلت: قدْ رفعَ الإشكالَ في هذهِ الدّابّةِ ما ذكرناهُ منْ حديثِ حذيفةَ فليعتمدْ عليهِ.

واختلفَ منْ أيِّ موضعٍ تخرجُ، فقيلتخرج من تهامة، وقيل من الطائف، وقالَ: عبدُ اللّهِ بنُ عمرَ: تخرجُ منْ جبلِ الصّفا بمكّةَ، يتصدّعُ فتخرجُ منهُ، والله أعلم.

﴿تُكَلِّمُهُمْ﴾ بضمِّ التّاءِ وشدِّ اللّامِ المكسورةِ - منَ الكلامِ - قراءةُ العامّةِ، يدلُّ عليهِ قراءةُ أبيٍّ «تُنَبِّئُهُمْ». قيل: ببطلانِ الأديانِ سوى دينِ الإسلامِ. وقيلَ: تكلّمهمْ بما يسوءهمْ. وقيلَ: تقول: ﴿أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ ۝٨٢﴾ أيْ بخروجي، لأنَّ خروجها منَ الآياتِ. وقيل بالقرآنِ وبمحمّدٍ ﷺ، وذلكَ حينَ لا يقبلُ اللّهُ منْ كافرٍ إيمانًا ولمْ يبقَ إلّا مؤمنونَ وكافرونَ في علمِ اللّهِ قبلَ خروجها. وقرأَ الكوفيّونَ: ﴿أَنَّ﴾ بالفتحِ. وقرأَ أهلُ الحرمينِ وأهلُ الشّامِ وأهلُ البصرةِ: «إِنَّ» بكسرِ الهمزةِ.

وقرأَ ابنُ عبّاسٍ: «تَكْلَمُهُمْ» بفتحِ التّاءِ منَ الكلمِ وهوَ الجرحُ، وقالَ أبو الجوزاءِ: سألتُ ابنَ عبّاسٍ عنْ هذهِ الآيةِ ﴿تُكَلِّمُهُمْ﴾ أو «تَكْلَمُهم»؟ فقال: هي والله تُكَلِّمُهم وتَكْلَمُهم، تُكلّمُ المؤمنَ وتَكْلمُ الكافرَ والفاجرَ أيْ تجرحهُ.

قولهُ تعالى: ﴿وَيَوۡمَ نَحۡشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٖ فَوۡجٗا﴾ أيْ زمرةً وجماعةً ﴿مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ يعني بالقرآنِ وبأعلامنا الدّالّةِ على الحقِّ ﴿فَهُمۡ يُوزَعُونَ ٨٣﴾ أيْ يُدفعونَ ويساقونَ إلى موضعِ الحسابِ ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو قَالَ﴾ أي قال اللّهُ ﴿أَكَذَّبۡتُم بِـَٔايَٰتِي﴾ الّتي أنزلتها على رسلي، وبالآياتِ الّتي أقمتها دلالةً على توحيدي ﴿وَلَمۡ تُحِيطُواْ بِهَا عِلۡمًا﴾ أيْ ببطلانها حتّى تعرضوا عنها، بل كذبتهم جاهلين غير مستدلين ﴿أَمَّاذَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ٨٤﴾ تقريعٌ وتوبيخٌ أيْ ماذا كنتمْ تعملونَ حينَ لمْ تبحثوا عنها ولمْ تتفكّروا ما فيها ﴿وَوَقَعَ ٱلۡقَوۡلُ عَلَيۡهِم بِمَا ظَلَمُواْ﴾ أيْ وجبَ العذابُ عليهمْ بظلمهمْ أيْ بشركهمْ ﴿فَهُمۡ لَا يَنطِقُونَ ٨٥﴾ أيْ ليسَ لهمْ عذرٌ ولا حجّةٌ. وقيلَ: يختمُ على أفواههمْ فلا ينطقونَ، قالهُ أكثرُ المفسّرينَ.

قولهُ تعالى: ﴿أَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّا جَعَلۡنَا ٱلَّيۡلَ لِيَسۡكُنُواْ فِيهِ﴾ أيْ يستقرّونَ فينامونَ ﴿وَٱلنَّهَارَ مُبۡصِرًاۚ﴾ لسعيِ الرّزقِ ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ٨٦﴾ باللّهِ. ذكرَ الدّلالةَ على إلهيّتِهِ وقدرتهِ أي ألم يعلموا كمال قدرتنا فيؤمنوا.

قولهُ تعالى: ﴿وَيَوۡمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ﴾ الصّحيحُ في الصّورِ أنّهُ قرنٌ منْ نورٍ ينفخُ فيهِ إسرافيلُ كهيئةِ البوقِ وقيلَ: هوَ البوقُ بلغةِ أهلِ اليمنِ ﴿فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۚ﴾ الصّحيحَ في النّفخِ في الصّورِ أنّهما نفختانِ لا ثلاثَ، وأنَّ نفخةَ الفزعِ هي نفخةِ الصّعقِ أيْ فزعوا فزعًا ماتوا منهُ، أوْ هي نفخةِ البعثِ، أيْ يحيونَ فزعينَ يقولونَ: ﴿مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرۡقَدِنَاۜ﴾، ويعاينونَ منَ الأمورِ ما يهولهمْ ويفزعهمْ، وهذا النّفخُ كصوتِ البوقِ لتجتمعَ الخلقُ في أرضِ الجزاءِ.

وفي هذا الفزعِ قولانِ:

أحدهما: أنّهُ الإسراعُ والإجابةُ إلى النّداءِ منْ قولهمْ: فزعتُ إليكَ في كذا إذا أسرعتُ إلى ندائكَ في معونتكَ.

والقولُ الثّاني: أنَّ الفزعَ هنا هوَ الفزعُ المعهودُ منَ الخوفِ والحزنِ، لأنّهمْ أزعجوا منْ قبورهم وخافوا. وهذا أشبهُ القولينِ.

قلت: والسّنّةُ الثّابتةُ منْ حديثِ أبى هريرةَ وحديثِ عبدِ اللّهِ بنِ عمرو يدلُّ على أنّهما

نفختانِ لا ثلاث، خرّجهما مسلمٌ، قالَ اللّهُ تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ فاستثنى هنا كما استثنى في نفخةِ الفزعِ فدلَّ على أنّهما واحدةٌ.

قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ۞ تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ ۞﴾ قالَ مجاهدٌ: هما صيحتان أما الأولى فتميت كل شيء بإذن الله، وأما الأخرى فتحيي كل شيء بإذنِ اللّهِ.

وقالَ عطاءٌ: ﴿ٱلرَّاجِفَةُ﴾ القيامةُ وَ ﴿ٱلرَّادِفَةُ﴾ البعثُ. وقالَ ابنُ زيدٍ: ﴿ٱلرَّاجِفَةُ﴾ الموتُ وَ ﴿ٱلرَّادِفَةُ﴾ السّاعةُ. واللّهُ أعلمُ.

﴿إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ اختلفَ في هذا المستثنى منْ همْ. ففي حديثِ أبي هريرةَ أنّهمُ الشّهداءُ عندَ ربّهمْ يرزقونَ إنّما يصلُ الفزعُ إلى الأحياءِ، وقيلَ: الأنبياءُ داخلونَ في جملتهمْ، لأنَّ لهمُ الشّهادةَ معَ النّبوّةِ وقيلَ: جبريلَ وميكائيلَ وإسرافيلَ وملكَ الموتِ. وقيلَ: الحورُ العينُ. وقيلَ: همُ المؤمنونَ، لأنَّ اللّهَ تعالى قالَ عقبَ هذا: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ﴾. والصّحيحُ أنّهُ لمْ يردْ في تعيينهمْ خبرٌ صحيحٌ والكلُّ محتملٌ.

وقولهُ: ﴿وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ ۞﴾ قرأ أبو عمرو وعاصمٌ والكسائيُّ ونافعٌ وابنُ عامرٍ وابنُ كثيرٍ: «آتُوهُ» جعلوهُ فعلاً مستقبلاً. وقرأَ حمزةُ وحفصٌ عنْ عاصمٍ: ﴿وَكُلٌّ أَتَوْهُ﴾ مقصوراً على الفعلِ الماضي.

قولهُ تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ﴾ كالقائمةِ وهيَ تسيرُ، وكذلكَ كلُّ شيء عظيمٍ وجمعٌ كثيرٌ يقصرُ عنهُ النّظرُ، لكثرتهِ وبعدِ ما بينَ أطرافهِ، وهوَ في حسبانِ النّاظرِ كالواقفِ وهوَ يسيرُ.

ويقال: إن اللّهَ تعالى وصفَ الجبالَ بصفاتٍ مختلفةٍ ترجعُ كلّها إلى تفريغِ الأرضِ منها، وإبرازِ ما كانتْ تواريهِ، فأوّلُ الصّفاتِ الاندكاكُ وذلكَ قبلَ الزّلزلةِ، ثمَّ تصيرُ كالعهنِ المنفوشِ، وذلكَ إذا صارتِ السّماءُ كالمهلِ، وقدْ جمعَ اللّهُ بينهما فقالَ: ﴿يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ ۞ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ﴾ والحالةُ الثالثةُ أنْ تصيرَ كالهباءِ ثم تنسفَ

لأنّها معَ الأحوالِ المتقدّمةِ قارّةٌ في مواضعها والأرضُ تحتها غيرُ بارزةٍ فتنسفُ عنها لتبرزَ، فإذا نسفتْ فبإرسالِ الرّياحِ عليها. ثم ترفعها الرّياحَ على وجهِ الأرضِ فتظهرها شعاعًا في الهواءِ كأنّها غبارٌ، فمنْ نظرَ إليها منْ بعدٍ حسبها لتكاثفها أجساداً جامدةً، وهيَ بالحقيقةِ مارّةٌ إلّا إنَّ مرورها منْ وراءِ الرّياحِ كأنّها مندكّةٌ متفتّتةٌ. ثم تكونَ سرابًا فمنْ نظرَ إلى مواضعها لمْ يجدْ فيها شيئًا منها كالسّرابِ.

وَ ﴿تَرَىٰ﴾ منْ رؤيةِ العينِ ولوْ كانتْ منْ رؤيةِ القلبِ لتعدّتْ إلى مفعولينِ.

﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ أيْ أحكمهُ، ومنهُ قولُ النّبيِّ ﷺ: «رحمَ اللّهُ منْ عملَ عملاً فأتقنه» ﴿إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ ۝٨٨﴾ بالتّاءِ على الخطابِ قراءةُ الجمهورِ وقرأَ ابنُ كثيرٍ وأبو عمرو بالياءِ.

قولهُ تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا﴾ الحسنةُ لا إلهَ إلّا اللّهُ، وقيلَ: بالإخلاصِ والتّوحيدِ. وقيلَ: أداءُ الفرائضِ كلّها.

قلت: إذا أتى بلا إلهَ إلّا اللّهُ على حقيقتها وما يجبُ لها فقدْ أتى بالتّوحيدِ والإخلاصِ والفرائضِ. ﴿فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا﴾ أيْ وصلَ إليهِ الخيرُ منها، وليسَ ﴿خَيْرٌ﴾ للتّفضيلِ. فإنّهُ ليس شيء خيراً ممّنْ قالَ لا إلهَ إلّا اللّهُ ولكنْ لهُ منها خيرٌ وقيلَ: ﴿فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا﴾ للتّفضيلِ أيْ ثوابُ اللّهِ خيرٌ منْ عملِ العبدِ وقولهِ وذكرهِ، وكذلكَ رضوانُ اللّهِ خيرٌ للعبدِ منْ فعلِ العبدِ، فإنَّ اللّهَ تعالى يعطيهُ بالواحدةِ عشراً، وبالإيمانِ في مدّةٍ يسيرةٍ الثّوابَ الأبديَّ.

﴿وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ ۝٨٩﴾ قرأَ عاصمٌ وحمزةُ والكسائيُّ: «فَزَعِ يَوْمِئِذٍ» بالإضافةِ. وهي أعمُّ فيكونَ الأمنُ منْ جميعِ فزعِ ذلكَ اليومِ، وإذا قالَ: ﴿مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ﴾ صارَ كأنّهُ فزعٌ دونَ فزعٍ.

قالَ القشيري: وقريء ﴿مِّن فَزَعٍ﴾ بالتّنوينِ ثمَّ قيلَ يعني بهِ فزعًا واحداً كما قالَ: ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ﴾. وقيلَ: عنى الكثرةَ لأنّهُ مصدرُ والمصدرُ صالحٌ للكثرةِ. قلت: فعلى هذا تكونُ القراءتانِ بمعنى.

قولهُ تعالى: ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ﴾ أيْ بالشّركِ، وهوَ إجماعٌ منْ أهلِ التّأويل في أنَّ الحسنةَ لا إلهَ إلّا اللّهُ، وأنَّ السّيّئةَ الشّركُ في هذهِ الآيةِ ﴿فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ﴾ يقالُ كبيتُ الإناءَ أيْ قلبتهُ على وجهه، واللازم من أكبَّ، وقلّما يأتي هذا في كلامِ العربِ ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ﴾ أيْ يقالُ لهمْ هلْ تجزونَ. ثمَّ يجوزُ أنْ يكونَ منْ قولِ اللّهِ، ويجوزُ أنْ يكونَ منْ قولِ الملائكةِ ﴿إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٠﴾﴾ أيْ إلّا جزاءَ أعمالكمْ.

قولهُ تعالى: ﴿إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا﴾ يعني مكّةَ الّتي عظّمَ اللّهُ حرمتها، أيْ جعلها حرمـًا آمنـًا، لا يسفكُ فيها دمٌ، ولا يظلمُ فيها أحدٌ، ولا يصادُ فيها صيدٌ، ولا يعضّدُ فيها شجرٌ ﴿وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ﴾ خلقـًا وملكـًا ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩١﴾﴾ أيْ منَ المنقادين لأمره، الموحدين له ﴿وَأَنْ أَتْلُوَا۟ ٱلْقُرْءَانَ﴾ أيْ وأمرتُ أنْ أتلوَ القرآنَ، أيْ أقرأه ﴿فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ﴾ فله ثواب هدايته ﴿وَمَن ضَلَّ﴾ فليس على الرسول إلا البلاغ، نسختها آية القتال.

قولهُ تعالى: ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ أيْ على نعمهِ وعلى ما هدانا ﴿سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ أيْ في أنفسكمْ وفي غيركمْ كما قالَ: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ ﴿فَتَعْرِفُونَهَا﴾ أيْ دلائلَ قدرتهِ ووحدانيّتهِ في أنفسكمْ وفي السّماواتِ وفي الأرضِ، نظيرهُ قولهُ تعالى: ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾.

﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾. قرأَ أهلُ المدينةِ وأهلُ الشّامِ وحفصٌ عنْ عاصمٍ بالتّاءِ على الخطابِ، لقولهِ: ﴿سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا﴾ فيكونُ الكلامُ على نسقٍ واحدٍ. الباقونَ بالياءِ على أنْ يردَّ إلى ما قبلهُ ﴿فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ﴾ فأخبرَ عنْ تلكَ الآيةِ.

كملتِ السّورةُ والحمدُ للّهِ ربِّ العالمينَ، وصلّى اللّهُ على سيّدنا محمّدٍ، وعلى آلهِ وصحبهِ وسلّمَ.

سورة القصص

مكّيّةٌ كلّها إلّا آيةً نزلتْ بينَ مكّةَ والمدينةِ في وقتِ هجرةِ رسولُ اللّهِ ﷺ إلى المدينةِ. وهيَ قولهُ عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾. وقالَ مقاتلٌ: فيها منَ المدنيِّ ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ﴾ إلى قولهِ: ﴿لَا نَبْتَغِى ٱلْجَـٰهِلِينَ﴾. وهى ثمان وثمانون آية.

بسمِ اللّهِ الرّحمنِ الرّحيمِ

قولهُ تعالى: ﴿طسٓمٓ ۝١﴾ تقدّمَ الكلامُ فيهِ ﴿تِلْكَ ءَايَـٰتُ ٱلْكِتَـٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝٢﴾ ﴿تِلْكَ﴾ في موضعِ رفعٍ بمعنى هذهِ تلكَ وَ ﴿ءَايَـٰتُ﴾ بدلٌ منها. وَ ﴿ٱلْمُبِينِ﴾ الحقَّ منَ الباطلِ، والحلالَ منَ الحرامِ، وقصصَ الأنبياءِ، ونبوّةَ محمّدٍ ﷺ ﴿نَتْلُوا۟ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝٣﴾ ﴿مِن﴾ للتبعيض، ومعنى ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ أيْ بالصّدقِ الّذي لا ريبَ فيهِ ولا كذبَ. ﴿لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ أيْ يصدّقونَ بالقرآنِ ويعلمونَ أنّهُ منْ عندِ اللّهِ، فأمّا منْ لمْ يؤمنْ فلا يعتقدُ أنّهُ حقٌّ.

قولهُ تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أيِ استكبرَ وتجبّرَ، والأرضِ أرضِ مصرَ ﴿وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا﴾ أيْ فرقًا في الخدمةِ ﴿يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ﴾ أيْ منْ بني إسرائيلَ ﴿يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ۝٤﴾ وذلكَ لأنَّ الكهنةَ قالوا لهُ: إنَّ مولوداً يولدُ في بني إسرائيلَ يذهبُ ملككَ على يديهِ، أوْ قالَ المنجّمونَ لهُ ذلكَ، أوْ رأى رؤيا فعبرت كذلك. ﴿إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ أيْ في الأرضِ بالعملِ والمعاصي والتّجبّرِ.

قولهُ تعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أيْ نتفضّلَ عليهمْ وننعمَ ﴿وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً﴾ قادةً في الخيرِ ﴿وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝٥﴾ لملكِ فرعونَ ﴿وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أرضَ الشّامِ ومصرَ ﴿وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ وَجُنُودَهُمَا﴾ قرأَ الأعمشُ وحمزةُ والكسائيُّ وخلفٌ «وَيَرَى» بالياءِ على أنّهُ فعلٌ ثلاثيٌّ منْ رأى ﴿فِرْعَوْنُ وَهَـٰمَـٰنُ وَجُنُودُهُمَا﴾ رفعـًا لأنّهُ الفاعلُ. الباقونَ ﴿نُرِى﴾ بضمِّ النّونِ وكسرِ الرّاءِ على أنّهُ فعلٌ رباعيٌّ منْ أرى يري،

وهيَ على نسقِ الكلامِ، لأنَّ قبلهُ ﴿وَنُرِيدُ﴾ وبعدهُ ﴿وَنُمَكِّنَ﴾ ﴿مِنْهُم مَّا كَانُواْ يَحْذَرُونَ ٦﴾ وذلكَ أنّهمْ أخبروا أنَّ هلاكهمْ على يديْ رجلٍ منْ بني إسرائيلَ فكانوا على وجلٍ ﴿مِنْهُمْ﴾ فأراهمُ اللّهُ ﴿مَّا كَانُواْ يَحْذَرُونَ﴾.

قولهُ تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾ كانَ إلهاماً أو قولاً في منامها أو بملكٍ يمثّلُ لها، وأجمعَ الكلُّ على أنّها لمْ تكنْ نبيّةً، وإنّما إرسالُ الملكِ إليها على نحوِ تكليمِ الملكِ للأقرعِ والأبرصِ والأعمى في الحديثِ المشهورِ، خرّجهُ البخاريُّ ومسلمٌ، وقدْ ذكرناهُ في سورةِ براءةٌ وغيرِ ذلكَ ممّا رويَ منْ تكليمِ الملائكةِ للنّاسِ منْ غيرِ نبوّةٍ، وقدْ سلّمتْ على عمرانَ بنِ حصينٍ فلمْ يكنْ بذلكَ نبياً ﴿أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾ قيل: كانَ الوحيُ بالرّضاعِ قبلَ الولادةِ. وقيل عقيبَ الولادةِ، لأنَّ الخوفَ كانَ عقيبَ الولادةِ ﴿فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ﴾ تصنعَ بهِ بما في الآيةِ ﴿وَلَا تَخَافِي﴾ عليهِ الغرقَ، أو الضّيعةَ ﴿وَلَا تَحْزَنِيٓ﴾ لفراقهِ ﴿إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ٧﴾ أيْ إلى أهلِ مصرَ. حكى الأصمعيُّ قالَ سمعتُ جاريةً أعرابيّةً تنشدُ وتقولُ:

أستغفرُ اللّهَ لذنبي كلّهِ ... قبّلتُ إنساناً بغيرِ حلّهِ
مثلَ الغزالِ ناعماً في دلّهِ ... فانتصفَ اللّيلُ ولمْ أصلّهِ

فقلت: قاتلكِ اللّهُ ما أفصحك! فقالت: أو يعد هذا فصاحةً معَ قولهُ تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾ الآيةَ، فجمعَ في آيةٍ واحدةٍ بينَ أمرينِ ونهيينِ وخبرينِ وبشارتينِ.

قولهُ تعالى: ﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ اللّامُ في ﴿لِيَكُونَ﴾ لامُ العاقبةِ ولامُ الصّيرورةِ، لأنّهمْ إنّما أخذوهُ ليكونَ لهمْ قرّةَ عينٍ، فكانَ عاقبةُ ذلكَ أنْ كانَ لهمْ عدواً وحزناً. فذكرَ الحالَ بالمآلِ، كما قالَ الشّاعرُ:

وللمنايا تربّي كلَّ مرضعةٍ ... ودورنا لخرابِ الدّهرِ نبنيها

والالتقاطُ وجودُ الشّيءِ منْ غيرِ طلبٍ ولا إرادةٍ، ومنهُ اللّقطةُ، وقرأَ حمزةُ والكسائيُّ وخلفٌ «وَحُزْنـًا» بضمِّ الحاء وسكون الزاي. الباقون بفتحهما، وهما لغتان مثل العَدَم والعُدْمِ، والسَّقم والسُّقمِ، والرّشدِ والرّشدِ ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ﴾ وكانَ وزيرهُ منَ القبطِ

﴿وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ ۝٨﴾ أيْ عاصينَ مشركينَ آثمينَ.

قولُه تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ ۖ لَا تَقْتُلُوهُ﴾ أيْ هوَ قرّةُ عينٍ لي ولك ف ﴿قُرَّتُ﴾ خبرُ ابتداءٍ مضمرٍ، وقالتْ: ﴿لَا تَقْتُلُوهُ﴾ ولمْ تقلْ لا تقتلهُ فهيَ تخاطبُ فرعونَ كما يخاطبُ الجبّارونَ، وكما يخبرونَ عنْ أنفسهمْ ﴿عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ﴾ فنصيبُ منهُ خيراً ﴿أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾ وكانتْ لا تلدُ، فاستوهبتْ موسى منْ فرعونَ فوهبهُ لها، وكانَ فرعونُ لمّا رأى الرّؤيا وقصّها على كهنتهِ وعلمائهِ- على ما تقدّمَ- قالوا لهُ إنَّ غلاماً منْ بني إسرائيلَ يفسدُ ملكَكَ، فأخذَ بني إسرائيلَ بذبحِ الأطفالِ، فرأى أنّهُ يقطعُ نسلهمْ فعادَ يذبحُ عاماً ويستحيي عاماً، فولدَ هارونُ في عامِ الاستحياءِ، وولدَ موسى في عامِ الذّبحِ.

قولُه تعالى: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ هذا ابتداءُ كلامٍ منَ اللّهِ تعالى، أيْ وهمْ لا يشعرونَ أنَّ هلاكهمْ بسببهِ، وقيلَ: هوَ منْ كلامِ المرأةِ، أيْ وبنو إسرائيلَ لا يدرونَ أنّا التقطناهُ، ولا يشعرونَ إلّا أنّهُ ولدنا. واختلفَ المتأوّلونَ في الوقتِ الّذي قالت فيه امرأة فرعون ﴿قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ ۖ﴾ فقالتْ فرقةٌ: كانَ ذلكَ عندَ التقاط التّابوتَ لمّا أشعرتْ فرعونَ بهِ، وقيلَ: بلْ ربّتهُ حتّى درجَ، فرأى فرعونُ فيهِ شهامةً وظنّهُ منْ بني إسرائيلَ وأخذهُ في يدهِ، فمدَّ موسى يده ونتف لحية فرعون فهمَّ حينئذ بذبحه، وحينئذٍ خاطبتهُ بهذا، وجرّبتهُ لهُ في الياقوتةِ والجمرةِ، فاحترقَ لسانهُ وعلقَ العقدةَ على ما تقدم في «طه».

قولُه تعالى: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا ۖ﴾ خالياً منْ ذكرِ كلِّ شيء في الدّنيا إلّا منْ ذكرِ موسى، وقيلَ: ﴿فَٰرِغًا ۖ﴾ خاليا من ذكر كل شيء إلّا منْ ذكرِ موسى، وقيل: من الغم والحزن لعلمها أنه لم يغرق، ويرده ما بعده: ﴿إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا﴾، وقيل: فارغا: ناسيا ذاهلا وقيل: والها، وعن مالك: هو ذهاب العقل، والمعنى أنها حين سمعت بوقوعه في يد فرعون طار عقلها من فرط الجزع والدهش، ونحوه قوله تعالى: ﴿ وأفئدتهم هواء﴾ أي جُوَّفٌ لا عقول لها، وذلك أن القلوب مراكز العقول، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿فتكون لهم قلوب يعقلون بها﴾ ويدل عليه قراءة من قرأ: " فزعا".

وفي قولهِ تعالى: ﴿وَأَصْبَحَ﴾ وجهانِ:

أحدهما- أنّها ألقتهُ ليلاً فأصبحَ فؤادها في النّهارِ فارغـًا. **الثّاني**- ألقتهُ نهاراً ومعنى: ﴿وَأَصۡبَحَ﴾ أيْ صارَ، كما قالَ الشّاعرُ:

مضى الخلفاءُ بالأمرِ الرّشيدِ وأصبحتِ المدينةُ للوليدِ

﴿إِن كَادَتۡ﴾ أيْ إنّها كادتْ، لضيق صدرها ﴿لَوۡلَآ أَن رَّبَطۡنَا عَلَىٰ قَلۡبِهَا﴾ بالإيمانِ، وقيلَ: الرّبطُ على القلبِ إلهامُ الصّبرِ ﴿لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ۝١٠﴾ أيْ منَ المصدّقينَ بوعدِ اللّهِ حينَ قالَ لها: ﴿إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيۡكِ﴾. وقالَ ﴿لَتُبۡدِي بِهِۦ﴾ ولمْ يقلْ: لتبديه، أيْ لتبدي القولَ بهِ.

قولهُ تعالى: ﴿وَقَالَتۡ لِأُخۡتِهِۦ قُصِّيهِۖ﴾ اتّبعي أثرهُ حتّى تعلمي خبرهُ ﴿فَبَصُرَتۡ بِهِۦ عَن جُنُبٍ﴾ أيْ بعد، وأصلهُ عنْ مكانٍ جنبٍ، وقيلَ: ﴿عَن جُنُبٍ﴾ أيْ عنْ مجانبةٍ لها منه فلم يعرفوا أنها منه بسبيلٍ وقالَ قتادةُ: جعلتْ تنظرُ إليهِ بناحيةٍ كأنّها لا تريدهُ ﴿وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ۝١١﴾ أنّها أختهُ لأنّها كانتْ تمشي على ساحلِ البحرِ حتّى رأتهمْ قدْ أخذوهُ.

قولهُ تعالى: ﴿۞وَحَرَّمۡنَا عَلَيۡهِ ٱلۡمَرَاضِعَ مِن قَبۡلُ﴾ أيْ منْ قبلِ مجيءِ أمّهِ وأختهِ. وَ ﴿ٱلۡمَرَاضِعَ﴾ جمعُ مُرضعٍ، وهذا تحريمُ منعٍ لا تحريمُ شرعٍ، قالَ امرؤُ القيسِ:

جالتْ لتصرعني فقلت لها اقصري إنّي امرؤٌ صرعي عليكِ حرامُ

أيْ ممتنعٌ. فلمّا رأتْ أختهُ ذلكَ قالتْ: ﴿هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰٓ أَهۡلِ بَيۡتٍ يَكۡفُلُونَهُۥ لَكُمۡ وَهُمۡ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ۝١٢﴾ أي وهمْ للملكِ ناصحونَ، وقيل لموسى ناصحونَ أيْ فيهمْ شفقةٌ ونصحٌ.

قولهُ تعالى: ﴿فَرَدَدۡنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ﴾ ووفّينا لها بالوعدِ ﴿كَيۡ تَقَرَّ عَيۡنُهَا﴾ بولدها ﴿وَلَا تَحۡزَنَ﴾ بفراقه ﴿وَلِتَعۡلَمَ أَنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ﴾ أيْ لتعلمَ وقوعهُ فإنّها كانتْ عالمةً بأنَّ ردّهُ إليها سيكونُ ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ۝١٣﴾ يعني أكثرَ آلِ فرعونَ لا يعلمونَ، أيْ كانوا في غفلة عن التقرير وشر القضاء. وقيلَ: أي أكثر الناس لا يعلمونَ أنَّ وعدَ اللّهِ في كلِّ ما وعدَ حقٌّ.

قولهُ تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسۡتَوَىٰٓ ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ﴾ الأشدِّ في قول مالكٍ

الحلمُ وهو أولى ما قيلَ فيهِ، لقولهِ تعالى ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُواْ ٱلنِّكَاحَ﴾ وذلك أوّلُ الأشدِّ، وأقصاهُ أربعٌ وثلاثونَ سنةً ﴿وَٱسْتَوَىٰٓ﴾ بلغَ أربعينَ سنةً، والحكمُ: الحكمةُ قبلَ النّبوّةِ، والعلم الفقهُ في الدّينِ. ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾﴾ جزينا أمَّ موسى لمّا استسلمتْ لأمرِ اللّهِ فرددنا ولدها إليها ثمَّ وهبنا لهُ العقلَ والحكمةَ والنّبوّةَ، وكذلكَ نجزي كلَّ محسن.

قولهُ تعالى: ﴿وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا﴾ في وقتِ القائلة، وهو وقت الغفلة، وقيلَ: هوَ بينَ العشاءِ والعتمةِ، وقيلَ: بلِ المدينةُ مصرُ نفسها، وكانَ موسى في هذا الوقتِ قدْ أظهرَ خلافَ فرعونَ، وعابَ عليهمْ عبادةَ فرعونَ والأصنامِ، فدخلَ مدينةَ فرعونَ يومًا على حينِ غفلةٍ منْ أهلها ﴿فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ﴾ أيْ منْ بني إسرائيلَ ﴿وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ﴾ أيْ منْ قومِ فرعونَ ﴿فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ﴾ أيْ طلبَ غوثهُ، وإنّما أغاثهُ لأنَّ نصرَ المظلومِ دينٌ في المللِ كلّها على الأممِ، وفرضٌ في جميعِ الشّرائعِ ﴿فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ﴾ بكفّهِ، أيْ دفعهُ والوكزُ واللّكزُ واللّهزُ واللّهدُ بمعنى واحدٍ، وهوَ الضّربُ بجمعِ الكفِّ مجموعًا كعقدِ ثلاثةٍ وسبعينَ، قالتْ عائشةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: فلهدني - تعني النّبيَّ ﷺ - لهدةً أوجعني، خرّجهُ مسلمٌ. ففعلَ موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ ذلكَ وهوَ لا يريدُ قتلهُ، إنّما قصدَ دفعهُ فكانتْ فيهِ نفسهُ، وهوَ معنى: ﴿فَقَضَىٰ عَلَيْهِ﴾. وكل شيءٍ أتيتَ عليهِ وفرغتَ منهُ فقدْ قضيتَ عليهِ ﴿قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ لمْ يكنْ يحلُّ قتلُ الكافرِ يومئذٍ في تلكَ الحالِ، لأنّها كانتْ حالَ كفٍّ عنِ القتالِ. ﴿إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾﴾ خبرٌ بعدَ خبرٍ ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ﴾ ندمَ موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ وحملهُ ندمهُ على الخضوعِ لربّهِ والاستغفارِ منْ ذنبهِ قالَ قتادةُ: عرفَ واللّهِ المخرجَ فاستغفرَ، ثمَّ لمْ يزلْ عَلَيْهِ السَّلَامُ يعدّدُ ذلكَ على نفسهِ، معَ علمهِ بأنّهُ قدْ غفرَ لهُ، حتّى إنّهُ في القيامةِ يقولُ: إنّي قتلتُ نفسًا لمْ أومرْ بقتلها. وإنّما عدّهُ على نفسهِ ذنبًا، وقالَ: ﴿ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى﴾ منْ أجلِ أنّهُ لا ينبغي لنبيٍّ أنْ يقتلَ حتّى يؤمرَ، وأيضًا فإنَّ الأنبياءَ يشفقونَ ممّا لا يشفقُ منهُ غيرهمْ. ولمْ يقتلهُ عنْ عمدٍ مريدًا للقتلِ فإنَّ الوكزةَ واللّكزةَ في الغالبِ لا تقتلُ، وإنّما وكزهُ وكزةً يريدُ بها دفعَ ظلمهِ.

قولهُ تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ فَلَنۡ أَكُونَ ظَهِيرٗا لِّلۡمُجۡرِمِينَ ١٧﴾ فيهِ مسألتانِ:

الأولى: قولهُ تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ﴾ أيْ من المعرفة والحكمة والتّوحيدِ ﴿فَلَنۡ أَكُونَ ظَهِيرٗا لِّلۡمُجۡرِمِينَ﴾ أيْ عونـاً للكافرينَ. وهذا نحوَ قولهِ: ﴿وَلَا تَرۡكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾. قالَ القشيريُّ: ولمْ يقلْ بما أنعمتَ عليَّ منَ المغفرةِ، لأنَّ هذا قبلَ الوحيِ، وما كانَ عالمـاً بأنَّ اللّهَ غفرَ لهُ ذلكَ القتلَ. وقيلَ: ﴿بِمَآ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ﴾ منَ المغفرةِ فلمْ تعاقبني.

قلت: ﴿فَغَفَرَ لَهُۥٓۚ﴾ يدلُّ على المغفرةِ، واللّهُ أعلمُ.

وأرادَ بمظاهرةِ المجرمينَ إمّا صحبةَ فرعونَ وانتظامهُ في جملتهِ، وتكثيرَ سوادهِ، حيثُ كانَ يركبُ بركوبهِ كالولدِ معَ الوالدِ، وكانَ يسمّى ابنَ فرعونَ، وإمّا بمظاهرةِ منْ أدّتْ مظاهرتهُ إلى الجرمِ والإثمِ، كمظاهرةِ الإسرائيليِّ المؤدّيةِ إلى القتلِ الّذي لمْ يحلَّ لهُ قتلهُ.

وقيلَ: أرادَ إنّي وإنْ أسأتُ في هذا القتلِ الّذي لمْ أومرْ بهِ فلا أتركُ نصرةَ المسلمينَ على المجرمينَ، فعلى هذا كانَ الإسرائيليُّ مؤمنـاً ونصرةُ المؤمنِ واجبةٌ في جميعِ الشّرائعِ. وقيلَ في بعضِ الرّواياتِ: إنَّ ذلكَ الإسرائيليَّ كانَ كافراً وإنّما قيلَ لهُ إنّهُ منْ شيعتهِ لأنّهُ كانَ إسرائيليـاً ولمْ يردِ الموافقةَ في الدّينِ، فعلى هذا ندمَ لأنّهُ أعان كافرا على كافرٍ، فقالَ: لا أكونُ بعدها ظهيراً للكافرينَ.

وقيلَ: ليسَ هذا خبراً بلْ هوَ دعاءٌ، أيْ فلا تجعلني يا ربِّ ظهيراً للمجرمينَ.

وكونه بمعنى الخبرِ أولى وأشبهُ بنسقِ الكلامِ، كما يقالُ: لا أعصيكَ لأنّكَ أنعمتَ عليَّ، وهذا قول ابن عبّاسٍ على الحقيقة لأنه قال: لمْ يستثنِ فابتليَ بهِ من ثاني يوم، يعني لمْ يقلْ فلنْ أكونَ إنْ شاءَ اللّهُ، والاستثناءُ لا يكونُ في الدّعاءِ، لا يقالُ: اللّهمَّ اغفرْ لي إنْ شئتَ.

الثانية– لا يحلُّ لأحدٍ أنْ يعينَ ظالمـاً ولا يكتبَ لهُ ولا يصحبهُ، وأنّهُ إنْ فعلَ شيئـاً منْ ذلكَ فقدْ صارَ معينـاً للظّالمينَ، والمشيُ معَ الظّالمِ لا يكونُ جرما، قال تعالى: ﴿وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِۚ﴾.

قولهُ تعالى: ﴿فَأَصْبَحَ فِي ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا﴾ والخوفَ لا ينافي المعرفةَ باللّهِ ولا التّوكّلَ عليهِ فقيلَ: أصبحَ خائفًا منْ قتلِ النّفسِ أنْ يؤخذَ بها. وقيلَ: خائفًا منْ قومهِ أنْ يسلّموهُ. وقيلَ: خائفًا منَ اللّهِ تعالى ﴿يَتَرَقَّبُ﴾ يتلفّتُ منَ الخوفِ وقيلَ: ينتظرُ الطّلبَ. وينتظرُ ما يتحدّثُ بهِ النّاسُ. وَ ﴿أَصْبَحَ﴾ يحتملُ أنْ يكونَ بمعنى صارَ، أيْ لمّا قتلَ صارَ خائفًا. ويحتملُ أنْ يكونَ دخلَ في الصّباحِ، أيْ في صباحِ اليومِ الّذي يلي يومهُ. وَ ﴿خَآئِفًا﴾ منصوبٌ على أنّهُ خبرُ أصبحَ، وإنْ شئتَ على الحالِ، ويكونُ الظّرفُ في موضعِ الخبرِ ﴿فَإِذَا ٱلَّذِى ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ﴾ أيْ فإذا صاحبهُ الإسرائيليُّ الّذي خلّصهُ بالأمسِ يقاتلُ قبطيًا آخرَ أرادَ أنْ يسخّرهُ. والاستصراخُ الاستغاثةُ.

وأمسِ اليومِ الّذي قبلَ يومكَ ﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ ١٨﴾ الغويُّ فعيلٌ منْ أغوى يغوي، وهوَ بمعنى مغوٍ، وهوَ كالوجيعِ والأليمِ بمعنى الموجعِ والمؤلمِ، وقيلَ: الغويُّ بمعنى الغاوي. أيْ إنّكَ لغويٌّ في قتالِ منْ لا تطيقُ دفعَ شرّهِ عنكَ، وهمَّ أنْ يبطشَ به ﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى﴾ أرادَ موسى أنْ يبطشَ بالقبطيِّ فتوهّمَ الإسرائيليُّ أنّهُ يريدهُ، لأنّهُ أغلظَ لهُ في القولِ، فقالَ: ﴿أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ﴾ فسمعَ القبطيُّ الكلامَ فأفشاهُ ﴿إِن تُرِيدُ﴾ أيْ ما تريدُ ﴿إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي قتالا ﴿وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ ١٩﴾ الّذينَ يصلحونَ بين الناس.

قوله تعالى: ﴿وَجَآءَ رَجُلٌ﴾ وهو مؤمنُ آلِ فرعونَ، وكانَ ابنَ عمِّ فرعونَ ﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ﴾ أيْ يتشاورونَ في قتلكَ بالقبطيِّ الّذي قتلتهُ بالأمسِ. وقيلَ: يأمرُ بعضهمْ بعضًا. نظيرهُ قولهُ: ﴿وَأْتَمِرُوا۟ بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ﴾

﴿فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ٢٠ فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ﴾ أيْ ينتظرُ الطّلبَ ﴿قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ٢١﴾.

قولهُ تعالى: ﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يَهْدِيَنِى سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ٢٢﴾ وهذهِ حالةُ المضطرِّ، وكانَ مُلكُ مدينَ لغيرِ فرعون.

قولهُ تعالى: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدۡيَنَ وَجَدَ عَلَيۡهِ أُمَّةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسۡقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمۡرَأَتَيۡنِ تَذُودَانِۖ قَالَ مَا خَطۡبُكُمَاۖ قَالَتَا لَا نَسۡقِي حَتَّىٰ يُصۡدِرَ ٱلرِّعَآءُۖ وَأَبُونَا شَيۡخٞ كَبِيرٞ ٢٣ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلۡتَ إِلَيَّ مِنۡ خَيۡرٖ فَقِيرٞ ٢٤ فَجَآءَتۡهُ إِحۡدَىٰهُمَا تَمۡشِي عَلَى ٱسۡتِحۡيَآءٖ قَالَتۡ إِنَّ أَبِي يَدۡعُوكَ لِيَجۡزِيَكَ أَجۡرَ مَا سَقَيۡتَ لَنَاۚ فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيۡهِ ٱلۡقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفۡۖ نَجَوۡتَ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ٢٥ قَالَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسۡتَـٔۡجِرۡهُۖ إِنَّ خَيۡرَ مَنِ ٱسۡتَـٔۡجَرۡتَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡأَمِينُ ٢٦ قَالَ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنۡ أُنكِحَكَ إِحۡدَى ٱبۡنَتَيَّ هَٰتَيۡنِ عَلَىٰٓ أَن تَأۡجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٖۖ فَإِنۡ أَتۡمَمۡتَ عَشۡرٗا فَمِنۡ عِندِكَۖ وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أَشُقَّ عَلَيۡكَۚ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ٢٧ قَالَ ذَٰلِكَ بَيۡنِي وَبَيۡنَكَۖ أَيَّمَا ٱلۡأَجَلَيۡنِ قَضَيۡتُ فَلَا عُدۡوَٰنَ عَلَيَّۖ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٞ ٢٨﴾، فيهِ ثلاثٌ وعشرونَ مسألةً:

الأولى: قولهُ تعالى: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدۡيَنَ﴾ أيْ بلغهُ لا أنّهُ دخلَ فيهِ. ولفظةُ الورودِ قدْ تكونُ بمعنى الدّخولِ في المورودِ، وقدْ تكونُ بمعنى الاطّلاعِ عليهِ والبلوغِ إليهِ إنْ لمْ يدخلْ. فورودُ موسى هذا الماءَ كانَ بالوصولِ إليهِ، ومنهُ قولُ زهيرٌ:

فلمّا وردنَ الماءَ زرقًا جِمَامُهُ ... وضعنَ عصيَّ الحاضرِ المتخيّمِ

وقدْ تقدّمتْ هذهِ المعاني في قولهِ: ﴿وَإِن مِّنكُمۡ إِلَّا وَارِدُهَاۚ﴾. ومدينُ لا تنصرفُ إذْ هي بلدة معروفة، وقيلَ: قبيلةٌ منْ ولدِ مدينَ بنِ إبراهيمَ، والأمّةُ: الجمعُ الكثيرُ و﴿يَسۡقُونَ﴾ معناه ماشيتهم. و ﴿مِن دُونِهِمُۖ﴾ معناهُ ناحية إلى الجهةِ الّتي جاء منها، فوصل إلى المرأتين قبل وصوله إلى الأمّةِ، ووجدهما تذودانِ ومعناهُ تمنعانِ وتحبسانِ غنمهما لئلّا تختلطَ بغنمِ النّاسِ، فحذفَ المفعولُ، إمّا إيهامًا على المخاطبِ، وإمّا استغناءً بعلمهِ، ومنه قول ﷺ: «فليذادنَّ رجالٌ عنْ حوضي»، فلمّا رأى موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ ذلكَ منهما ﴿قَالَ مَا خَطۡبُكُمَاۖ﴾ أي شأنكما، واستعمالُ السّؤالِ بالخطبِ إنّما هوَ في مصابٍ، أوْ مضطهدٍ، أوْ منْ يشفقُ عليهِ، أوْ يأتي بمنكرٍ منَ الأمرِ.

وقرأَ ابنُ عامرٍ وأبو عمرو: «يَصْدُرَ» منْ صدرَ، وهوَ ضدُّ وردَ أي يرجعُ الرّعاءُ. والباقونَ ﴿يُصۡدِرَ﴾ بضمِّ الياءِ منْ أصدرَ، أيْ حتّى يصدروا مواشيهمْ، والرّعاءُ جمعُ راعٍ، مثلُ صاحبٍ وصحابٍ.

الثانية- إنْ قيلَ كيفَ ساغَ لنبيِّ اللّهِ الّذي هوَ شعيبٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ أن يرضى لابنتيه بسقي الماشيةِ؟ قيلَ لهُ: ليسَ ذلكَ بمحظورٍ والدّينُ لا يأباهُ، وأمّا المروءةُ فالنّاسُ مختلفونَ في ذلكَ، والعادةُ متباينةٌ فيهِ، وأحوالُ العربِ فيهِ خلافُ أحوالِ العجمِ، ومذهبُ أهلِ البدوِ غيرُ مذهبِ الحضرِ، خصوصاً إذا كانتِ الحالةُ حالةَ ضرورةٍ.

الثالثة- قولهُ تعالى: ﴿ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ﴾ إلى ظلِّ سمرةٍ، وتعرّضَ لسؤالِ ما يطعمهُ بقولهِ: ﴿إِنِّي لِمَآ أَنزَلۡتَ إِلَيَّ مِنۡ خَيۡرٖ فَقِيرٞ ٢٤﴾ والخيرُ يكونُ بمعنى الطّعام، ويكون بمعنى المالِ كما قالَ: ﴿إِن تَرَكَ خَيۡرًا﴾ وقولهُ: ﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلۡخَيۡرِ لَشَدِيدٌ﴾ ويكونُ بمعنى القوّةِ كما قالَ: ﴿أَهُمۡ خَيۡرٌ أَمۡ قَوۡمُ تُبَّعٖ﴾ ويكونُ بمعنى العبادةِ كقولِ: ﴿وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِمۡ فِعۡلَ ٱلۡخَيۡرَٰتِ﴾ قالَ ابنُ عبّاسٍ: وكانَ قدْ بلغَ بهِ الجوعُ، واخضرَّ لونهُ منْ أكلِ البقلِ في بطنهِ، وإنّهُ لأكرمُ الخلقِ على اللّهِ، وفي هذا معتبرٌ وإشعارٌ بهوانِ الدّنيا على اللّهِ.

وقيل المعنى: فقيرٌ إلى أنْ تغنيني بكَ عمّنْ سواكَ.

قلت: ما ذكرهُ أهلُ التّفسيرِ أولى، فإنَّ اللّهَ تعالى إنّما أغناهُ بواسطةِ شعيبٍ.

الرابعة- قولهُ تعالى: ﴿فَجَآءَتۡهُ إِحۡدَىٰهُمَا تَمۡشِي عَلَى ٱسۡتِحۡيَآءٖ﴾ ولمْ تكنْ سلفعاً منَ النّساءِ، وأكثرُ النّاسِ على أنّهما ابنتا شعيبٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ وهوَ ظاهرُ القرآنِ، قالَ اللّهُ تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدۡيَنَ أَخَاهُمۡ شُعَيۡبٗا﴾ كذا في سورةِ الأعرافِ وفي سورةِ الشّعراءِ: ﴿كَذَّبَ أَصۡحَٰبُ لۡـَٔيۡكَةِ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ١٧٦ إِذۡ قَالَ لَهُمۡ شُعَيۡبٌ﴾ قالَ قتادةُ: بعثَ اللّهُ تعالى شعيباً إلى أصحابِ الأيكةِ وأصحابِ مدينَ.

الخامسة- قوله تعالى: ﴿قَالَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسۡتَـٔۡجِرۡهُۖ﴾ دليلٌ على أنَّ الإجارةَ كانتْ عندهمْ مشروعةً معلومةً، وكذلكَ كانتْ في كلِّ ملّةٍ، وهيَ منْ ضرورةِ الخليقة، ومصلحة الخلطة بين الناس، خلافا للأصمِّ حيثُ كانَ عنْ سماعها أصمَّ.

السادسة- قوله تعالى: ﴿إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنۡ أُنكِحَكَ﴾ الآيةَ. فيهِ عرضُ الولي ابنته على الرّجلِ، وهذهِ سنّةٌ قائمةٌ، عرضَ صالحُ مدينَ ابنتهُ على صالحِ بني إسرائيلَ، وعرضَ عمر ابن الخطّابِ ابنتهُ حفصةَ على أبي بكرٍ وعثمانَ، وعرضتِ الموهوبةُ نفسها على النّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ،

فمنَ الحسنِ عرضُ الرّجلِ وليّتهُ، والمرأةُ نفسها على الرّجلِ الصّالحِ، اقتداءً بالسّلفِ الصّالحِ. قالَ ابنُ عمرَ: لمّا تأيّمتْ حفصةُ قالَ عمرُ لعثمانَ: إنْ شئتَ أنكحكَ حفصةَ بنتَ عمرَ، الحديثَ انفردَ بإخراجهِ البخاريُّ.

السابعة- وفي هذهِ الآيةِ دليلٌ على أنَّ النّكاحَ إلى الوليِّ لا حظَّ للمرأةِ فيهِ، لأنَّ صالحَ مدينَ تولّاهُ، وبهِ قالَ فقهاءُ الأمصارِ. وخالفَ في ذلكَ أبو حنيفةَ. وقدْ مضى.

الثامنة- هذهِ الآيةُ تدلُّ على أنَّ للأبِ أنْ يزوّجَ ابنتهُ البكرَ البالغَ منْ غيرِ استئمار، وبهِ قالَ مالكٌ واحتجَّ بهذهِ الآيةِ، وهوَ ظاهرٌ قويٌّ في البابِ، واحتجاجهُ بها يدلُّ على أنّهُ كانَ يعوّلُ على الإسرائيليّاتِ، كما تقدّمَ. وبقولِ مالكٍ في هذهِ المسألةِ قالَ الشّافعيُّ وكثيرٌ منَ العلماءِ. وقالَ أبو حنيفةَ: إذا بلغتِ الصّغيرةُ فلا يزوّجها أحدٌ إلّا برضاها، لأنّها بلغتْ حدَّ التّكليفِ، فأمّا إذا كانتْ صغيرةً فإنّهُ يزوّجها بغيرِ رضاها لأنّهُ لا إذنَ لها ولا رضًا، بغيرِ خلافٍ.

التاسعة- استدلَّ أصحابُ الشّافعيِّ بقولهِ: ﴿إِنِّىٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ﴾ على أنَّ النّكاحَ موقوفٌ على لفظِ التّزويجِ والإنكاحِ. وبهِ قالَ داودُ ومالكٌ على اختلافٍ عنهُ. وقالَ علماؤنا في المشهورِ: ينعقدُ النّكاحُ بكلِّ لفظٍ. وقالَ أبو حنيفةَ: ينعقدُ بكلِّ لفظٍ يقتضي التّمليكَ على التّأبيدِ، أمّا الشّافعيّةُ فلا حجّةَ لهمْ في الآيةِ لأنّهُ شرعُ منْ قبلنا وهمْ لا يرونه حجة في شيء في المشهورِ عندهمْ، وأمّا أبو حنيفةَ وأصحابهُ فقالوا: ينعقدُ النّكاحُ بلفظِ الهبةِ وغيرهِ إذا كانَ قدْ أشهدَ عليهِ، لأنَّ الطّلاقَ يقعُ بالصّريحِ والكنايةِ، قالوا: فكذلكَ النّكاحُ قالوا: والّذي خصَّ بهِ النّبيُّ ﷺ تعرّي البضعِ منَ العوضِ لا النّكاحُ بلفظِ الهبةِ.

قالَ أبو عمرَ: الصّحيحُ أنّهُ لا ينعقدُ نكاحٌ بلفظِ الهبةِ، كما لا ينعقدُ بلفظ النكاح هبة شيءٍ منَ الأموالِ. وأيضًا فإنَّ النّكاحَ مفتقرٌ إلى التّصريحِ لتقعَ الشّهادةُ عليهِ، وهوَ ضدُّ الطّلاقِ فكيفَ يقاسُ عليهِ، وقدْ أجمعوا أنَّ النّكاحَ لا ينعقد بقوله: أبحتُ لكَ وأحللتُ لكَ فكذلكَ الهبةُ. وقالَ ﷺ: «استحللتمْ فروجهنَّ بكلمةِ اللّهِ» يعني القرآنَ، وليسَ في القرآنِ عقدُ النّكاحِ بلفظِ الهبةِ، وإنّما فيهِ التّزويجُ والنّكاحُ، وفي إجازةِ النّكاحِ بلفظِ الهبةِ إبطالُ بعضِ خصوصيّةِ النّبيِّ ﷺ.

العاشرة- قولهُ تعالى: ﴿إِحْدَى ٱبْنَتَىَّ هَـٰتَيْنِ﴾ يدلُّ على أنّهُ عرضٌ لا عقدٌ، لأنّهُ لوْ كانَ

عقداً لعيْنَ المعقودَ عليها لهُ، لأنَّ العلماءَ وإن كانوا قدِ اختلفوا في جوازِ البيعِ إذا قالَ: بعتكَ أحدَ عبديَّ هذينِ بثمنٍ كذا، فإنّهمُ اتّفقوا على أنَّ ذلكَ لا يجوزُ في النكاحِ، لأنه خيارٌ وشيءٌ منَ الخيارِ لا يلصقُ بالنّكاحِ.

الحادية عشرة- قالَ مكّيٌّ: في هذهِ الآيةِ خصائصُ في النّكاحِ منها أنّهُ لمْ يعيّنِ الزّوجةَ ولا حدَّ أوّلَ الأمدِ، وجعلَ المهرَ إجارةً، ودخلَ ولمْ ينقدْ شيئاً.

قلت: فهذهِ أربعُ مسائلَ تضمّنتها المسألةُ الحاديةَ عشرةَ.

الأولى: من الأربع مسائل، قالَ علماؤنا: أمّا التّعيينُ فيشبهُ أنّهُ كانَ في ثاني حالِ المراوضةِ، وإنّما عرضَ الأمرَ مجملاً، وعيّنَ بعدَ ذلكَ وقدْ قيل: إنّهُ زوّجهُ الصّغرى، وهيَ الّتي جاءتْ خلفهُ وهيَ الّتي قالتْ: ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ﴾. قيل: إنَّ الحكمةَ في تزويجهِ الصّغرى منهُ قبلَ الكبرى وإنْ كانتِ الكبرى أحوجَ إلى الرّجالِ أنّهُ توقّعَ أنْ يميلَ إليها، لأنّهُ رءاها في رسالتهِ، وماشاها في إقبالهِ إلى أبيها معها، فلوْ عرضَ عليهِ الكبرى ربّما أظهرَ لهُ الاختيارَ وهوَ يضمرُ غيرهُ وقيلَ غيرُ هذا، واللّهُ أعلمُ. وفي بعضِ الأخبارِ أنّهُ تزوّجَ بالكبرى.

الثانية- وأمّا ذكرُ أوّلِ المدّةِ فليسَ في الآيةِ ما يقتضي إسقاطهُ بلْ هوَ مسكوتٌ عنهُ، فإمّا رَسَماهُ، وإلّا فهوَ منْ أوّلِ وقتِ العقدِ.

الثالثة- وأمّا النّكاحُ بالإجارةِ فظاهرٌ منَ الآيةِ، وهوَ أمرٌ قدْ قرّرهُ شرعنا، وجرى في حديثِ الذي لم يكن عنده إلا شيء منَ القرآنِ، رواهُ الأئمّةُ، وفي بعضِ طرقهِ: فقالَ: لهُ رسولُ اللّهِ ﷺ: «ما تحفظُ منَ القرآنِ» فقالَ: سورةُ البقرةِ والّتي تليها، قالَ: «فعلّمها عشرينَ آيةً وهيَ امرأتكَ». واختلفَ العلماءُ في هذهِ المسألةِ على ثلاثةِ أقوالٍ: فكرههُ مالكٌ، وأجازهُ الشّافعيّ وأصحابهِ، قالوا: يجوزُ أنْ تكونَ منفعةُ الحرِّ صداقاً كالخياطةِ والبناءِ وتعليمِ القرآنِ وقالَ أبو حنيفةَ: لا يصحُّ، وجوّزَ أنْ يتزوّجها بأنْ يخدمها عبدهُ سنةً، أوْ يسكنها دارهُ سنةً، لأنَّ العبدَ والدّارَ مالٌ، وليسَ خدمتها بنفسهِ مالاً.

وقالَ أبو الحسنِ الكرخيُّ: إنَّ عقدَ النّكاحِ بلفظِ الإجارةِ جائزٌ، لقولهِ تعالى: ﴿فَـَٔاتُوهُنَّ

﴿أُجُورَهُنَّ﴾. وقالَ أبو بكرٍ الرّازيُّ: لا يصحُّ لأنَّ الإجارةَ عقدٌ مؤقّتٌ، وعقدُ النّكاحِ مؤبّدٌ، فهما متنافيانِ، وقالَ ابنُ القاسمِ: ينفسخُ قبلَ البناءِ ويثبتُ بعدهُ، وقالَ أصبغُ: إنْ نقدَ معهُ شيئًا ففيهِ اختلافٌ، وإنْ لمْ ينقدْ فهوَ أشدُّ، فإنْ تركَ مضى على كلِّ حالٍ بدليلِ قصّةِ شعيبٍ، قالهُ مالكٌ. وعوّلَ على هذهِ الآيةِ جماعةٌ منَ المتأخّرينَ والمتقدّمينَ في هذهِ النّازلةِ، قالَ ابنُ خويز منداد: تضمّنتْ هذهِ الآيةُ النّكاحَ على الإجارةِ والعقدُ صحيحٌ ويكرهُ أنْ تجعلَ الإجارةُ مهراً، وينبغي أنْ يكونَ المهرُ مالاً كما قالَ عزَّ وجلَّ: ﴿أَن تَبْتَغُواْ بِأَمْوَالِكُم مُّحْصِنِينَ﴾. هذا قولُ أصحابنا جميعـًا.

الرابعة- وأمّا قولهُ: ودخلَ ولمْ ينقدْ فقدِ اختلفَ النّاسُ في هذا، هلْ دخلَ حينَ عقدَ أمْ حينَ سافرَ؟ فإنْ كانَ حينَ عقدَ فماذا نقدَ؟ وقدْ منعَ علماؤنا منَ الدّخولِ حتّى ينقدَ ولوْ ربعَ دينار، قال ابنُ القاسمِ: فإنْ دخلَ قبلَ أنْ ينقدَ مضى، لأنَّ المتأخّرينَ منْ أصحابنا قالوا: تعجيلُ الصداقِ أو شيءٍ منهُ مستحبٌّ على أنّهُ إنْ كانَ الصّداقُ رعيةَ الغنمِ فقدْ نقدَ الشّروعَ في الخدمةِ، وإنْ كانَ دخلَ حينَ سافرَ فطولُ الانتظارِ في النّكاحِ جائزٌ إنْ كانَ مدى العمرِ بغيرِ شرطٍ. وأمّا إنْ كانَ بشرطٍ فلا يجوزُ إلّا أنْ يكونَ الغرضُ صحيحـًا مثلَ التّأهّبِ للبناءِ أوِ انتظارِ صلاحيّةِ الزّوجةِ للدّخولِ إنْ كانتْ صغيرةً، نصَّ عليهِ علماؤنا.

الثانية عشرة- في هذهِ الآيةِ اجتماعُ إجارةٍ ونكاحٍ، وقدْ اختلفَ علماؤنا في ذلكَ على ثلاثةِ أقوالٍ:

الأوّلُ- يكرهُ ابتداءً فإنْ وقعَ مضى.

الثّاني- قالَ مالكٌ وابنُ القاسمِ في المشهورِ: لا يجوزُ ويفسخُ قبلَ الدّخولِ وبعدهُ، لاختلافِ مقاصدهما كسائرِ العقودِ المتباينةِ.

الثّالثُ- أجازهُ أشهبُ وأصبغُ. قالَ ابنُ العربيِّ: وهذا هوَ الصّحيحُ وعليهِ تدلُّ الآية، وقد قال مالك: النكاح أشبه شيء بالبيوعِ، فأيُّ فرقٍ بينَ إجارةٍ وبيعٍ أوْ بينَ بيعٍ ونكاحٍ.

فرعٌ- وإنْ أصدقها تعليمَ شعرٍ مباحٍ صحَّ، وإنْ أصدقها تعليمَ شعرٍ فيهِ هجوٌ أوْ فحشٌ كانَ كما لو أصدقها خمرا أو خنزيرا.

الثالثة عشرة- قولهُ تعالى: ﴿عَلَىٰٓ أَن تَأۡجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٖۖ﴾ جرى ذكرُ الخدمةِ مطلقًا وقالَ مالكٌ: إنّهُ جائزٌ ويحملُ على العرفِ، فلا يحتاجُ في التّسميةِ إلى الخدمةِ وهوَ ظاهرُ قصّةِ موسى، فإنّهُ ذكرَ إجارةً مطلقةً، وقالَ أبو حنيفةَ والشّافعيُّ: لا يجوزُ حتّى يسمّى لأنّهُ مجهولٌ. وقدْ ترجمَ البخاريُّ: «بابُ منِ استأجرَ أجيراً فبيّنَ لهُ الأجلَ ولمْ يبيّنْ لهُ العملَ» لقولهِ تعالى: ﴿عَلَىٰٓ أَن تَأۡجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٖۖ﴾. قالَ المهلّبُ: ليسَ كما ترجمَ، لأنَّ العملَ عندهمْ كانَ معلومـًا منْ سقيٍ وحرثٍ ورعيٍ وما شاكلَ أعمالَ الباديةِ في مهنةِ أهلها، فهذا متعارفٌ وإنْ لمْ يبيّنْ لهُ أشخاصَ الأعمالِ ولا مقاديرها، وإنّما الّذي لا يجوزُ عندَ الجميعِ أنْ تكونَ المدّةُ مجهولة، والعمل مجهول غيرَ معهودٍ لا يجوزُ حتّى يعلمَ.

الرابعة عشرة- أجمعَ العلماءُ على أنّهُ جائزٌ أنْ يستأجرَ الرّاعيَ شهوراً معلومةً، بأجرةٍ معلومةٍ، لرعايةِ غنمٍ معدودةٍ، وإنْ كانتْ مطلقةً غيرَ مسمّاةٍ ولا معيّنةٍ جازتْ عندَ علمائنا. وقالَ أبو حنيفةَ والشّافعيُّ: لا تجوزُ لجهالتها، وعوّلَ علماؤنا على العرفِ حسبما ذكرناهُ آنفـًا، وأنّهُ يعطى بقدرِ ما تحتملُ قوّتهُ. وزادَ بعضُ علمائنا أنّهُ لا يجوزُ حتّى يعلمَ المستأجرُ قدرَ قوّتهِ، وهوَ صحيحٌ فإنَّ صالحَ مدينَ علمَ قدرَ قوّةِ موسى برفعِ الحجرِ.

الخامسة عشرة- قالَ مالكٌ: وليسَ على الرّاعي ضمانٌ وهوَ مصدّقٌ فيما هلكَ أوْ سرقَ، لأنّهُ أمينٌ كالوكيلِ. وقدْ ترجمَ البخاريُّ: «بابُ إذا أبصرَ الرّاعي أوِ الوكيلُ شاةً تموتُ أوْ شيئـًا يفسدُ فأصلحَ ما يخافُ الفسادَ» وساقَ حديثَ كعبِ بنِ مالكٍ عنْ أبيهِ أنه كانت لهمْ غنمٌ ترعى بسلعٍ، فأبصرتْ جاريةٌ لنا بشاةٍ منْ غنمنا موتـًا فكسرتْ حجراً فذبحتها بهِ، فقالَ: لهمْ: لا تأكلوا حتّى أسألَ النّبيَّ- أوْ أرسلَ إلى النّبيِّ ﷺ منَ يسألهُ- وأنّهُ سألَ النّبيَّ ﷺ- أوْ أرسلَ إليهِ- فأمرهُ بأكلها، قالَ عبيداللّهِ: فيعجبني أنّها أمةٌ وأنّها ذبحتْ.

قالَ المهلّبُ: فيهِ منَ الفقهِ تصديقُ الرّاعي والوكيلِ فيما ائتمنا عليهِ حتّى يظهرَ عليهما دليلُ الخيانةِ والكذبِ، وهذا قولُ مالكٍ وجماعةٍ. وقالَ ابنُ القاسمِ: إذا خافَ الموتَ على شاةٍ فذبحها لمْ يضمنْ ويصدّقُ إذا جاءَ بها مذبوحةً. وقالَ غيرهُ: يضمنُ حتّى يبيّنَ ما قالَ.

السادسة عشرة- واختلفَ ابنُ القاسمِ وأشهبُ إذا أنزى الرّاعي على إناثِ الماشيةِ بغيرِ إذنِ أربابها فهلكتْ، فقالَ: ابنُ القاسمِ: لا ضمانَ عليهِ، لأنَّ الإنزاءَ منْ إصلاحِ المالِ ونمائهِ

وقالَ أشهبُ: عليهِ الضّمانُ، وقولُ ابنِ القاسمِ أشبهُ بدليلِ حديثِ كعبٍ، وأنّهُ لا ضمانَ عليهِ فيما تلفَ عليهِ باجتهادهِ، إنْ كانَ منْ أهلِ الصّلاحِ، وممّنْ يعلمُ إشفاقهُ على المالِ، وأمّا إنْ كانَ منْ أهلِ الفسوقِ والفسادِ وأرادَ صاحبُ المالِ أنْ يضمّنهُ فعلَ، لأنّهُ لا يصدّقُ أنّهُ رأى بالشّاةِ موتـاً لما عرفَ من فسقه.

السابعة عشرةَ- لمْ ينقلْ ما كانتْ أجرةُ موسى عليه السلام، ولكنْ روي أنَّ صالحَ مدينَ جعلَ لموسى كلَّ سخلةٍ توضعُ خلافَ لونِ أمّها، وقيلَ: بلْ جعلَ لهُ كلَّ بلقاءَ تولدُ لهُ، فولدنَ لهُ كلّهنَّ بلقـاً. وقيل أجّرَ موسى نفسهُ بشبعِ بطنهِ وعفّةِ فرجهِ.

الثامنة عشرة- الإجارةُ بالعوضِ المجهولِ لا تجوزُ، فإنَّ ولادةَ الغنمِ غيرُ معلومةٍ، وإنَّ منَ البلادِ الخصبةِ ما يعلمُ ولادُ الغنمِ فيها قطعـاً وعدّتها وسلامةُ سخالها كديارِ مصرَ وغيرها، بيدَ أنَّ ذلكَ لا يجوزُ في شرعنا، لأنَّ النّبيَّ ﷺ نهى عنِ الغررِ، ونهى عنِ المضامينِ والملاقيحِ. والمضامينُ ما في بطونِ الإناثِ، والملاقيحُ ما في أصلابِ الفحولِ، على أنَّ راشدَ بنَ معمرٍ أجازَ الإجارةَ على الغنمِ بالثّلثِ والربعِ، وقالَ ابنُ سيرينَ وعطاءٌ: ينسجُ الثّوبَ بنصيبٍ منهُ، وبهِ قالَ أحمدُ.

التاسعة عشرة- الكفاءةُ في النّكاحِ معتبرةٌ، واختلفَ العلماءُ هلْ في الدّينِ والمالِ والحسبِ، أوْ في بعضِ ذلكَ والصّحيحُ جوازُ نكاحِ الموالي للعربيّاتِ والقرشيّاتِ، لقولهِ تعالى: ﴿إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ﴾. وقدْ جاءَ موسى إلى صالحِ مدينَ غريبـاً طريداً خائفـاً وحيدا جائعـاً عريانـاً فأنكحهُ ابنتهُ لمّا تحقّقَ منْ دينهِ ورأى منْ حالهِ، وأعرضَ عمّا سوى ذلكَ.

الموفّيةُ عشرينَ- قالَ بعضهمْ: هذا الّذي جرى منْ شعيبٍ لمْ يكنْ ذكراً لصداقِ المرأةِ، وإنّما كانَ اشتراطـاً لنفسهِ على ما يفعلهُ الأعرابُ، فإنّها تشترطُ صداقَ بناتها، وتقولُ لي كذا في خاصّةِ نفسي، وتركَ المهرَ مفوّضـاً، ونكاحُ التّفويضِ جائزٌ. قالَ ابنُ العربيِّ: هذا الّذي تفعلهُ الأعرابُ هوَ حلوانٌ وزيادةٌ على المهرِ، وهوَ حرامٌ لا يليقُ بالأنبياءِ، فأمّا إذا اشترطَ الوليُّ شيئـاً لنفسهِ، فقدِ اختلفَ العلماءُ فيما يخرجهُ الزّوجُ منْ يدهِ ولا يدخلُ في يدِ المرأةِ على قولينِ:

أحدهما- أنّهُ جائزٌ.

والآخرُ- لا يجوزُ. والّذي يصحُّ عندي التّقسيمُ، فإنَّ المرأةَ لا تخلو أنْ تكونَ بكراً أوْ ثيّباً، فإنْ كانت ثيبا جاز، لأن نكاحها بيدها، وإنّما يكونُ للوليِّ مباشرةُ العقدِ، ولا يمتنعُ أخذُ العوضِ عليهِ كما يأخذهُ الوكيلُ على عقدِ البيعِ، وإنْ كانتْ بكراً كانَ العقدُ بيدهِ، وكأنّهُ عوضٌ في النّكاحِ لغيرِ الزّوجِ وذلكَ باطلٌ، فإنْ وقعَ فُسِخَ قبلَ البناءِ، وثبتَ بعدهُ على مشهورِ الرّوايةِ.

الحادية والعشرون- لمّا ذكرَ الشّرطَ وأعقبهُ بالطّوعِ في العشرِ خرجَ كلُّ واحدٍ منهما على حكمهِ، ولمْ يلحقِ الآخرُ بالأوّلِ، ولذلكَ يكتبُ في العقودِ الشّروطُ المتّفقُ عليها، ثمَّ يقالُ وتطوّعَ بكذا، فيجري الشّرطُ على سبيلهِ، والطّوعُ على حكمهِ، وانفصلَ الواجب من التطوع، وجعلَ شعيبٌ الثّمانيةَ الأعوامَ شرطاً، ووكلَ العاشرةَ إلى المروءةِ.

وقيلَ: ومن لفظ شعيبٍ حسُنَ في لفظِ العقودِ في النّكاحِ: أنكِحْهُ إيّاها أولى منْ أنكِحْها إيّاهُ على ما يأتي بيانهُ في «الأحزابِ».

الثانية والعشرون- قوله تعالى: ﴿قَالَ ذَٰلِكَ بَيۡنِي وَبَيۡنَكَۖ أَيَّمَا ٱلۡأَجَلَيۡنِ قَضَيۡتُ فَلَا عُدۡوَٰنَ عَلَيَّۖ﴾ لمّا فرغَ كلامُ شعيبٍ قرّرهُ موسى عليه السلام وكرّرَ معناهُ على جهةِ التّوثّقِ في أنَّ الشّرطَ إنّما وقعَ في ثمان حججٍ، والعدوانُ التّجاوزُ في غيرِ الواجبِ، والحججُ السّنونَ.

﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٞ﴾ قيل: هوَ منْ قولِ موسى. وقيلَ: هوَ منْ قولِ والدِ المرأةِ. فاكتفى الصّالحانِ صلواتُ اللّهِ عليهما في الإشهادِ عليهما باللّهِ ولمْ يشهدا أحداً منَ الخلقِ، وقدِ اختلفَ العلماءُ في وجوبِ الإشهادِ في النّكاحِ، وهيَ:

الثالثة والعشرون- على قولينِ: أحدهما أنّهُ لا ينعقدُ إلّا بشاهدينِ وبهِ قالَ أبو حنيفةَ والشّافعيُّ. وقالَ مالكٌ: إنّهُ ينعقدُ دونَ شهودٍ، لأنّهُ عقدُ معاوضةٍ فلا يشترطُ فيهِ الإشهادُ، وإنّما يشترطُ فيهِ الإعلانُ والتّصريحُ، وفرقُ ما بينَ النّكاحِ والسّفاحِ الدّفُّ، وفي البخاريِّ عنْ أبي هريرةَ: أنَّ رجلاً منْ بني إسرائيلَ سألَ بعضَ بني إسرائيلَ أنْ يسلفهُ ألفَ دينارٍ فقالَ: ايتني بالشّهداءِ أشهدهمْ، فقالَ: كفى باللّهِ شهيداً، فقالَ: ايتني بكفيلٍ، فقالَ: كفى باللّهِ كفيلاً قالَ صدقتَ فدفعها إليهِ، وذكر الحديث.

قولهُ تعالى: ﴿۞فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًاۖ قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ٢٩﴾، فيهِ ثلاثُ مسائلَ:

الأولى: قولهُ تعالى: ﴿۞فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ﴾ قالَ ابنُ عبّاسٍ: قضى أكملهما وأوفاهما.

الثانية- قولهُ تعالى: ﴿وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ﴾ قيلَ فيهِ دليلٌ على أنَّ الرّجلَ يذهبُ بأهلهِ حيثُ شاءَ، لما لهُ عليها منْ فضل القواميّةِ وزيادةِ الدّرجةِ إلّا أنْ يلتزمَ لها أمراً فالمؤمنونَ عندَ شروطهمْ، وأحقُّ الشّروطِ أنْ يوفّى بهِ ما استحللتمْ بهِ الفروجَ.

الثالثة- قولهُ تعالى: ﴿ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًاۖ﴾ الآيةَ. تقدّمَ القولُ في ذلكَ في «طه». والجِذوةُ بكسرِ الجيمِ قراءةُ العامّةِ، وضمّها حمزةُ، وفتحها عاصمٌ وهي قطعةٍ منَ الجمرِ.

قولهُ تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا﴾ يعني الشّجرةَ قدّمَ ضميرها عليها ﴿نُودِىَ مِن شَٰطِيِٕ ٱلْوَادِ﴾ ﴿مِن﴾ الأولى والثّانيةُ لابتداءِ الغايةِ، والشّجرةُ كانتْ نابتةً على الشّاطئِ، ﴿ٱلْأَيْمَنِ﴾ أيْ عنْ يمينِ موسى. وقيلَ: عنْ يمينِ الجبلِ ﴿فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ أيْ منْ ناحيةِ الشّجرةِ. قيلَ كانتْ سمرةٌ وقيلَ عوسجٌ. ومنها كانتْ عصاهُ، والعوسجُ إذا عظمَ يقالُ لهُ الغرقدُ. وفي الحديثِ: إنّهُ منْ شجرِ اليهودِ فإذا نزلَ عيسى وقتلَ اليهودَ الّذينَ معَ الدّجّالِ فلا يختفي أحدٌ منهمْ خلفَ شجرةٍ إلّا نطقتْ وقالتْ يا مسلمُ هذا يهوديٌّ ورائي تعالَ فاقتلهُ إلّا الغرقدَ فإنّهُ منْ شجرِ اليهودِ فلا ينطقُ. خرّجهُ مسلمٌ.

وأجمعتِ الأمّةُ على أنَّ الرّبَّ تعالى خصّصَ موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ وغيرهُ منَ المصطفينَ منَ الملائكةِ بكلامهِ، واختلفوا في نبيّنا عَلَيْهِ السَّلَامُ هلْ سمعَ ليلةَ الإسراءِ كلامَ اللّهِ، وهلْ سمعَ جبريلُ كلامهُ على قولينِ.

﴿أَن يَٰمُوسَىٰٓ﴾ ﴿أن﴾ في موضعِ نصبٍ بحذفِ حرفِ الجرِّ أيْ بِ ﴿أَن يَٰمُوسَىٰٓ﴾ ﴿إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ٣٠﴾ نفيٌ لربوبيّةِ غيرهِ سبحانهُ.

قولهُ تعالى: ﴿وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَۚ﴾ عطفَ على ﴿أَن يَـٰمُوسَىٰٓ﴾، وَ ﴿مُدْبِرًا﴾ نصبَ على الحالِ وكذلكَ موضعُ قولهِ: ﴿وَلَمْ يُعَقِّبْۚ﴾ نصبَ على الحالِ أيضـًا ﴿يَـٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْۖ﴾ ارجعْ إلى حيثُ كنتَ ﴿إِنَّكَ مِنَ ٱلْـَٔامِنِينَ ﴿٣١﴾﴾ أيْ ممّا تحاذرُ.

قولهُ تعالى: ﴿ٱسْلُكْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ﴾ الآيةَ، تقدّمَ القولُ فيهِ ﴿وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِۖ﴾ ﴿مِن﴾ متعلّقةٌ بِـ ﴿وَلَّىٰ﴾ أيْ ولّى مدبراً منَ الرّهبِ. وقرأَ حفصٌ: ﴿مِنَ ٱلرَّهْبِۖ﴾ بفتحِ الرّاءِ وإسكانِ الهاءِ. وقرأَ ابنُ عامرٍ والكوفيون إلا حفص بضمِّ الرّاءِ وجزمِ الهاءِ. الباقونَ بفتحِ الرّاءِ والهاءِ. كقولهِ تعالى: ﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًاۖ﴾ وكلّها لغاتٌ وهوَ بمعنى الخوفِ.

وقيلَ: المعنى اضممْ يدكَ إلى صدركَ ليذهبَ اللّهُ ما في صدركَ منَ الخوفِ. وكانَ موسى يرتعدُ خوفـًا إمّا منْ آلِ فرعونَ وإمّا منَ الثّعبانِ.

وضمُّ الجناحِ هوَ السّكونُ، كقولهِ تعالى: ﴿وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ﴾ يريدُ الرّفقَ وكذلكَ قولهُ: ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أيِ ارفقْ بهمْ.

قلت: وما فسّروهُ منْ ضمِّ اليدِ إلى الصّدرِ يدلُّ على أنَّ الجيبَ موضعهُ الصّدرُ.

وقولهُ: ﴿وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ﴾ يريدُ اليدينِ إنْ قلنا أرادَ الأمنَ منْ فزعِ الثّعبانِ. وقيلَ: ﴿وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ﴾ أيْ شمّرْ واستعدَّ لتحمّلِ أعباءِ الرّسالةِ. قلت: فعلى هذا قيلَ: ﴿إِنَّكَ مِنَ ٱلْـَٔامِنِينَ﴾ أيْ منَ المرسلينَ، لقولهِ تعالى: ﴿إِنِّى لَا يَخَافُ لَدَىَّ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ قالَ ابنُ بحرٍ: فصارَ على هذا التّأويلِ رسولاً بهذا القول. وقيل إنما صار رسولا بقول: ﴿فَذَٰنِكَ بُرْهَـٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦٓ﴾ والبرهان اليدُ والعصا.

وقرأَ ابنُ كثيرٍ "فذانِّكَ" بتشديدِ النّونِ، وخفّفها الباقونَ. وروي عنِ ابنِ كثيرٍ «فَذَانِّيك» بالتّشديدِ والياءِ. وعنْ أبي عمرو أيضـًا قالَ لغةُ هذيلٍ «فَذَانِيكَ» بالتّخفيفِ والياءِ. ولغةُ قريشٍ ﴿فَذَٰنِّكَ﴾ كما قرأَ أبو عمرو وابنُ كثيرٍ.

قولهُ تعالى: ﴿فَأَرْسِلْهُ مَعِىَ رِدْءًا﴾ يعني معينـًا، وقرأَ عاصمٌ وحمزةُ ﴿يُصَدِّقُنِىٓۖ﴾ بالرّفعِ.

وجزمَ الباقونَ على جوابِ الدّعاءِ، والرّفعُ على الحالِ منَ الهاءِ في ﴿فَأَرْسِلْهُ﴾ أيْ أرسلهُ ردءاً مصدّقـًا حالةَ التّصديقِ، كقولهِ: ﴿أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ﴾ أيْ كائنةً ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ٣٤﴾ إذا لمْ يكنْ لي وزيرٌ ولا معينٌ، لأنّهمْ لا يكادونَ يفقهونَ عنّي، فـ ﴿قَالَ﴾ الله عز وجل له ﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ﴾ أيْ نقوّيكَ بهِ، وهذا تمثيلٌ، لأنَّ قوّةَ اليدِ بالعضدِ ﴿وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَٰنًا﴾ أيْ حجّةً وبرهانـًا ﴿فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا﴾ بالأذى ﴿بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ أيْ تمتنعانِ منهمْ ﴿بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ فيجوزُ أنْ يوقفَ على ﴿إِلَيْكُمَا﴾ ويكونُ في الكلامِ تقديمٌ وتأخيرٌ. وقيلَ: التّقديرُ ﴿أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ ٣٥﴾ بِـآياتِنَا.

قولهُ تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا بَيِّنَٰتٍ﴾ أيْ ظاهراتٍ واضحاتٍ، وهي ما احتجَّ بهِ موسى في إثباتِ التّوحيدِ منَ الحججِ العقليّةِ. وقيلَ: هيَ معجزاتهُ. ﴿قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى﴾ مكذوبٌ مختلقٌ ﴿وَمَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ٣٦﴾.

قولهُ تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ﴾ قراءةُ العامّةِ بالواوِ. وقرأَ ابنُ كثيرٍ: «قَالَ» بلا واوٍ، وكذلكَ هوَ في مصحفِ أهلِ مكّةَ ﴿رَبِّيٓ أَعْلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ﴾ أيْ بالرّشادِ ﴿مِنْ عِندِهِۦ وَمَن تَكُونُ لَهُۥ﴾ قرأَ الكوفيّونَ إلّا عاصمـًا «يَكُونُ» بالياءِ والباقونَ بالتّاءِ ﴿عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ﴾ أيْ دارِ الجزاءِ ﴿إِنَّهُۥ﴾ الهاءُ ضميرُ الأمرِ والشّأنِ ﴿لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٣٧﴾.

قولهُ تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ قالَ ابنُ عبّاسٍ: كانَ بينها وبينَ قولهِ: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ أربعونَ سنةً، وكذبَ عدوُّ اللّهِ بلْ علمَ أنَّ لهُ ثمَّ ربـًا هوَ خالقه وخالق قومه ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾. قالَ: ﴿فَأَوْقِدْ لِي يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ﴾ أي اطبخْ لي الآجرَّ وبنى بهِ ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ٣٨﴾ الظّنُّ هنا شكٌّ، فكفرَ على الشّكِّ، لأنّهُ قدْ رأى منَ البراهينِ ما لا يخيلُ على ذي فطرةٍ.

قولهُ تعالى: ﴿وَٱسْتَكْبَرَ﴾ أيْ تعظم ﴿هُوَ وَجُنُودُهُۥ﴾ عنِ الإيمانِ بموسى ﴿فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ أيْ بالعدوانِ، أيْ لمْ تكنْ لهُ حجّةٌ تدفعُ ما جاءَ بهِ موسى ﴿وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ٣٩﴾ أيْ توهّموا أنّهُ لا معادَ ولا بعثَ. وقرأَ نافعٌ ويعقوبُ وحمزةُ والكسائيُّ: «لَا يَرْجِعُونَ» بفتحِ الياءِ وكسرِ الجيمِ على أنّهُ مسمّى الفاعلِ. الباقونَ ﴿يُرْجَعُونَ﴾ على الفعلِ

المجهولِ.

﴿فَأَخَذۡنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡيَمِّۖ﴾ أيْ طرحناهمْ في البحرِ المالحِ بناحيةِ القلزم وقيلَ: يعني نهرَ النّيل. وهذا ضعيفٌ والمشهورُ الأوّلُ ﴿فَٱنظُرۡ﴾ يا محمّدُ ﴿كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ٤٠﴾ أيْ آخرُ أمرهمْ ﴿وَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَئِمَّةٗ﴾ أيْ جعلناهمْ زعماءَ يُتّبعونَ على الكفرِ، فيكونُ عليهمْ وزرهمْ ووزرُ منِ اتّبعهمْ حتّى يكونَ عقابهمْ أكثرَ. وقيلَ: أئمّةٌ يأتمُّ بهمْ ذوو العبرِ ويتّعظُ بهمْ أهلُ البصائرِ ﴿يَدۡعُونَ إِلَى ٱلنَّارِۖ﴾ أيْ إلى عملِ أهلِ النّارِ ﴿وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ٤١﴾ ﴿وَأَتۡبَعۡنَٰهُمۡ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا لَعۡنَةٗۖ﴾ أيْ أمرنا العبادَ بلعنهمْ فمنْ ذكرهمْ لعنهمْ. وقيلَ: أيْ ألزمناهمُ اللّعنَ أيِ البعدَ عنِ الخيرِ ﴿وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلۡمَقۡبُوحِينَ ٤٢﴾ أي منَ المهلكينَ الممقوتينَ. وقيلَ: المشوّهينَ الخلقةِ بسوادِ الوجوهِ وزرقةِ العيونِ وقيلَ: منَ المبعدينَ.

قولهُ تعالى: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ﴾ التّوراةَ ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَآ أَهۡلَكۡنَا ٱلۡقُرُونَ ٱلۡأُولَىٰ﴾ قومِ نوحٍ وعادٍ وثمودَ، قالَ أبو سعيد الخدري: قالَ النّبيُّ ﷺ: «ما أهلكَ اللّهُ قوماً ولا قرناً ولا أمّةً ولا أهلَ قريةٍ بعذابٍ منَ السّماءِ ولا منَ الأرضِ منذُ أنزلَ اللّهُ التّوراةَ على موسى غيرَ القريةِ الّتي مسختْ قردةً ألمْ ترَ إلى قولهِ تعالى: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ مِنۢ بَعۡدِ مَآ أَهۡلَكۡنَا ٱلۡقُرُونَ ٱلۡأُولَىٰ﴾».

﴿بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ﴾ أيْ آتيناهُ الكتابَ بصائرَ. أيْ ليتبصّروا ﴿وَهُدٗى﴾ أيْ منَ الضّلالةِ لمنْ عملَ بها ﴿وَرَحۡمَةٗ﴾ لمنْ آمنَ بها ﴿لَّعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ ٤٣﴾ أيْ ليذكروا هذهِ النّعمةَ فيقموا على إيمانهمْ في الدّنيا، ويثقوا بثوابهمْ في الآخرة.

قولهُ تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ﴾ أيْ ما كنتَ يا محمّدُ ﴿بِجَانِبِ ٱلۡغَرۡبِيِّ﴾ أيْ بجانبِ الجبلِ الغربيِّ ﴿إِذۡ قَضَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلۡأَمۡرَ﴾ إذْ كلّفناهُ أمرنا ونهينا ﴿وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ٤٤﴾ أيْ منَ الحاضرين.

قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّآ أَنشَأۡنَا قُرُونٗا﴾ منْ بعدِ موسى ﴿فَتَطَاوَلَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡعُمُرُۚ﴾ حتّى نسوا ذكرَ اللّهِ أيْ عهدهُ وأمرهُ. نظيرهُ: ﴿فَطَالَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَمَدُ فَقَسَتۡ قُلُوبُهُمۡۖ﴾. فأرسلناك مجدّداً للدّينِ وداعيا الخلق إليه. قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ ثَاوِيٗا فِيٓ أَهۡلِ مَدۡيَنَ﴾ أيْ مقيمًا كمقام موسى وشعيبٍ بينهمْ. ﴿تَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِنَا﴾ أيْ تذكّرهمْ بالوعدِ والوعيدِ ﴿وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرۡسِلِينَ ٤٥﴾ أيْ أرسلناكَ في أهلِ مكّةَ، وآتيناكَ كتاباً فيهِ هذهِ الأخبارُ، ولولا ذلكَ لما علمتها.

قولهُ تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذۡ نَادَيۡنَا﴾ موسى لمّا أتى الميقاتَ معَ السّبعينَ ﴿وَلَٰكِن﴾ فعلنا ذلكَ ﴿رَّحۡمَةٗ﴾ منّا بكمْ ﴿لِتُنذِرَ قَوۡمٗا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٖ مِّن قَبۡلِكَ﴾ يعني العربَ، أيْ لمْ تشاهدْ تلكَ الأخبارَ، ولكنْ أوحيناها إليكَ رحمةً بمنْ أرسلتَ إليهمْ لتنذرهم بها ﴿لَعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ ٤٦﴾.

قولهُ تعالى: ﴿وَلَوۡلَآ أَن تُصِيبَهُم﴾ يريدُ قريشاً. وقيلَ: اليهودَ ﴿مُّصِيبَةُۢ﴾ أيْ عقوبةٌ ونقمةٌ ﴿بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ﴾ منَ الكفرِ والمعاصي. وخصَّ الأيدي بالذّكرِ، لأنَّ الغالبَ منَ الكسبِ إنّما يقعُ بها. وجوابُ ﴿لَّوۡلَآ﴾ محذوفٌ أيْ لولا أنْ يصيبهمْ عذابٌ بسببِ معاصيهم المتقدمة ﴿فَيَقُولُواْ رَبَّنَا لَوۡلَآ﴾ أيْ هلّا ﴿أَرۡسَلۡتَ إِلَيۡنَا رَسُولٗا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ﴾ نصب على جواب التخصيص ﴿وَنَكُونَ﴾ عطفَ عليهِ ﴿مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٤٧﴾ منَ المصدّقينَ.

قولهُ تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلۡحَقُّ مِنۡ عِندِنَا﴾ يعني محمّداً ﷺ ﴿قَالُواْ﴾ يعني كفّارَ مكّةَ ﴿لَوۡلَآ﴾ أيْ هلّا ﴿أُوتِيَ مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ مُوسَىٰٓۚ﴾ منَ العصا واليدِ البيضاءِ وأنزلَ عليهِ القرآنَ جملةً واحدةً كالتّوراةِ، فقالَ: اللّهُ تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَكۡفُرُواْ بِمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ مِن قَبۡلُۖ قَالُواْ سَاحِرَانِ تَظَٰهَرَا﴾ تعاونا على السحر، وقرأَ الكوفيّونَ: ﴿سِحۡرَانِ﴾ بغيرِ ألفٍ، أي الإنجيلُ والقرآنُ. وقيلَ: التّوراةُ والفرقانُ، وقيلَ: التّوراةُ والإنجيلُ، الباقونَ «سَاحِرَانِ» بألفٍ. وفيهِ ثلاثةُ أقاويلَ:

أحدها- موسى ومحمّدٌ عليهما السّلامُ. وهذا قولُ مشركي العربِ.

الثّاني- موسى وهرون. وهذا قولُ اليهود لهما في ابتداءِ الرّسالةِ؛ فيكونُ الكلامُ احتجاجاً على اليهودِ.

الثّالثُ- عيسى ومحمّدٌ صلّى اللّهُ عليهما وسلّمَ. وهذا قولُ اليهودِ اليومَ.

قولهُ تعالى: ﴿قُلْ فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ﴾ منْ كتابي موسى ومحمّدٍ عليهما السّلامُ. وهذا يقوّي قراءةَ الكوفيّينَ ﴿سِحْرَانِ﴾.

﴿أَتَّبِعْهُ﴾ قال الفراء: بالرّفعِ، لأنّهُ صفةٌ للكتابِ وكتابٌ نكرةٌ، وإذا جزمت -وهو الوجه- فعلى الشرط. ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝٤٩﴾ في أنّهما سحرانِ.

قولهُ تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ﴾ يا محمد ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ﴾ أيْ آراءَ قلوبهمْ وما يحبّبهُ لهمُ الشّيطانُ ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أيْ لا أحدَ أضلُّ منهُ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٥٠﴾.

قولهُ تعالى: ﴿۞ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ﴾ أيْ أتبعنا بعضهُ بعضاً، وبعثنا رسولاً بعدَ رسولٍ، وقالَ أهلُ المعاني: تابعنا القرآنَ: وعداً ووعيداً وقصصاً وعبراً ونصائحَ ومواعظَ إرادةَ أنْ يتذكّروا فيفلحوا.

والضّميرُ في ﴿لَهُمُ﴾ لقريشٍ ولليهودِ، والآيةُ ردٌّ على منْ قالَ هلّا أوتيَ محمّدٌ القرآنَ جملةً واحدةً ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ۝٥١﴾ فيخافوا أنْ ينزلَ بهمْ ما نزلَ بمنْ قبلهمْ.

قولهُ تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ۝٥٢﴾ كعبدِ اللّهِ بنِ سلّامٍ وسلمانَ ومنْ أسلمَ منْ علماءِ النّصارى ﴿مِن قَبْلِهِ﴾ أيْ منْ قبلِ القرآنِ. وقيلَ: منْ قبلِ محمّدٍ ﷺ ﴿هُم بِهِۦ﴾ أيْ بالقرآنِ أوْ بمحمّدٍ ﷺ ﴿يُؤْمِنُونَ﴾.

﴿وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ﴾ أيْ إذا قرئَ عليهمُ القرآنُ قالوا صدّقنا بما فيهِ ﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ﴾ أيْ منْ قبلِ نزولهِ، أوْ منْ قبلِ بعثةِ محمّدٍ ﷺ ﴿مُسْلِمِينَ

﴿٥٣﴾ أي موحّدينَ، أوْ مؤمنينَ بأنّهُ سيبعثُ محمّدٌ وينزلُ عليهِ القرآن.

قولهُ تعالى: ﴿أُوْلَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَؤُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُواْ عَنْهُ وَقَالُواْ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٥٥﴾﴾، فيهِ أربعُ مسائلَ:

الأولى: قولهُ تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُواْ﴾ ثبتَ في صحيحِ مسلمٍ عنْ أبي موسى أنَّ رسولَ اللّهِ ﷺ قالَ: «ثلاثةٌ يؤتونَ أجرهمْ مرّتينِ: رجلٌ منْ أهلِ الكتابِ آمنَ بنبيّهِ وأدركَ النّبيَّ – ﷺ – فآمنَ بهِ واتّبعهُ وصدّقهُ فلهُ أجرانِ، وعبدٌ مملوكٌ أدّى حقَّ اللّهِ عزَّ وجلَّ وحقَّ سيّدهِ فلهُ أجرانِ، ورجلٌ كانتْ لهُ أمةٌ فغذّاها فأحسنَ غذاءها ثمَّ أدبها فأحسن أدّبها ثمَّ أعتقها وتزوّجها فلهُ أجرانِ» وخرّجهُ البخاريُّ أيضـًا.

الثانية – قولهُ تعالى ﴿بِمَا صَبَرُواْ﴾ عامٌّ في صبرهمْ على ملّتهمْ، ثمَّ على هذهِ وعلى الأذى الّذي يلقونهُ منَ الكفّارِ وغيرِ ذلك.

الثالثة – قوله تعالى: ﴿وَيَدْرَؤُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ﴾ أيْ يدفعونَ، درأتُ إذا دفعتُ، والدّرءُ الدّفعُ. وفي الحديثِ «ادرءوا الحدودَ بالشّبهاتِ». قيل: يدفعونَ بالاحتمالِ والكلامِ الحسنِ الأذى. وقيلَ: يدفعونَ بالتّوبةِ والاستغفارِ الذّنوبَ، وعلى الأوّلِ فهوَ وصفٌ لمكارمِ الأخلاقِ، أيْ منْ قالَ لهمْ سوءا لاينوه وقابلوهُ منَ القولِ الحسنِ بما يدفعهُ فهذهِ آيةُ مهادنةٍ، وهيَ منْ صدرِ الإسلامِ، وهيَ ممّا نسختها آيةُ السّيفِ وبقيَ حكمها فيما دونَ الكفرِ يتعاطاهُ أمّةِ محمّدٍ ﷺ إلى يومِ القيامةِ. ومنهُ قولهُ ﷺ لمعاذٍ: «وأتبعِ السّيّئةَ الحسنةَ تمحها وخالقْ النّاسَ بخلقٍ حسنٍ» ومنَ الخلقِ الحسنِ دفعُ المكروهِ والأذى، والصّبرُ على الجفا بالإعراضِ عنهُ ولينِ الحديثِ.

الرابعة – قولهُ تعالى: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ أثنى عليهمْ بأنّهمْ ينفقونَ منْ أموالهمْ في الطّاعاتِ، وقدْ يكونُ الإنفاقُ منَ الأبدانِ بالصّومِ والصّلاةِ، ثمَّ مدحهمْ أيضـًا على إعراضهمْ عنِ اللّغوِ، كما قالَ تعالى: ﴿وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغْوِ مَرُّواْ كِرَامًا﴾ أيْ إذا سمعوا ما قالَ لهمُ المشركونَ منَ الأذى والشتم أعرضوا عنهُ، أيْ لمْ يشتغلوا بهِ ﴿وَقَالُواْ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ

﴿أَعۡمَٰلُكُمۡ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ﴾ أيْ متاركةٌ، مثل قول: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلۡجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمٗا﴾ أيْ لنا ديننا ولكمْ دينكمْ ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ﴾ أيْ أمنـًا لكمْ منّا فإنّا لا نحاربكمْ، ولا نسابّكمْ، وليس من التحية في شيء. قالَ الزّجّاجُ: وهذا قبلَ الأمرِ بالقتالِ ﴿لَا نَبۡتَغِي ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾ أيْ لا نطلبهمْ للجدالِ والمراجعةِ والمشاتمة.

قولهُ تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهۡدِي مَنۡ أَحۡبَبۡتَ﴾ أجمعَ جلُّ المفسّرينَ على أنّها نزلتْ في شأنِ أبي طالبٍ عمِّ النّبيِّ ﷺ، وهوَ نصُّ حديثِ البخاريِّ ومسلمٍ ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ﴾ قيل: إشارةٌ إلى العبّاسِ ﴿وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ ٥٦﴾ بمنْ قدّرَ لهُ أنْ يهتديَ. وقيلَ: معنى ﴿مَنۡ أَحۡبَبۡتَ﴾ أيْ منْ أحببتَ أنْ يهتديَ.

قولهُ تعالى: ﴿وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلۡهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفۡ مِنۡ أَرۡضِنَآۚ﴾ هذا قولُ مشركي مكّةَ وكانَ هذا منْ تعلّلاتهمْ، فأجابَ اللّهُ تعالى فقالَ: ﴿أَوَلَمۡ نُمَكِّن لَّهُمۡ حَرَمًا ءَامِنٗا﴾ أيْ ذا أمنٍ بحرمةِ البيتِ ﴿يُجۡبَىٰٓ إِلَيۡهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ كلِّ أرضٍ وبلدٍ، وقرأ نافعٌ: «تُجْبَى» بالتّاءِ، لأجلِ الثّمراتِ. والباقون بالياءِ، لقولهِ: ﴿كُلِّ شَيۡءٖ﴾ ﴿رِّزۡقٗا مِّن لَّدُنَّا﴾ أي من عندنا ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ٥٧﴾ بل غافلون عن الاستدلال، وأن من رزقهم وأمنهم فيما مضى حال كفرهم يرزقهم لو أسلموا، ويمنع الكفار عنهم في إسلامهم.

قولهُ تعالى: ﴿وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةِۭ بَطِرَتۡ مَعِيشَتَهَاۖ﴾ فالخوفَ في تركِ الإيمانِ أكثرُ ﴿فَتِلۡكَ مَسَٰكِنُهُمۡ لَمۡ تُسۡكَن مِّنۢ بَعۡدِهِمۡ إِلَّا قَلِيلٗاۖ﴾ وأكثرها خرابٌ ﴿وَكُنَّا نَحۡنُ ٱلۡوَٰرِثِينَ ٥٨﴾ أيْ لما خلفوا بعد هلاكهم.

قولهُ تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهۡلِكَ ٱلۡقُرَىٰ﴾ الكافرة ﴿حَتَّىٰ يَبۡعَثَ فِيٓ أُمِّهَا﴾ يعني أم القرى مكّةَ وَ ﴿رَسُولٗا﴾ يعني محمّداً ﷺ ﴿يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِنَاۚ﴾ ﴿يَتۡلُواْ﴾ في موضعِ الصّفةِ أيْ تاليـًا أيْ يخبرهمْ أنَّ العذابَ ينزلُ بهمْ إنْ لمْ يؤمنوا ﴿وَمَا كُنَّا مُهۡلِكِي ٱلۡقُرَىٰٓ﴾ سقطتِ النّونُ للإضافةِ مثل ﴿ظَالِمِيٓ أَنفُسِهِمۡۖ﴾ ﴿إِلَّا وَأَهۡلُهَا ظَٰلِمُونَ ٥٩﴾ أي لم أهلكهم إلا وقد استحقوا الإهلاك لإصرارهمْ على الكفرِ بعدَ الإعذارِ إليهمْ. وفي هذا بيانٌ لعدلهِ وتقدّسهِ عنِ الظّلمِ كما قالَ عزَّ منْ قائلٍ: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهۡلِكَ ٱلۡقُرَىٰ بِظُلۡمٖ وَأَهۡلُهَا مُصۡلِحُونَ﴾ فنصَّ

في قولِهِ: ﴿بِظُلۡمٍ﴾ على أنّهُ لوْ أهلكهمْ وهمْ مصلحونَ لكانَ ذلكَ ظلماً لهمْ منهُ، وإنَّ حالهُ في غناهُ وحكمتهُ منافيةٌ للظّلمِ، دلَّ على ذلكَ بحرفِ النّفيِ معَ لامهِ كما قالَ تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمۡۚ﴾.

قولهُ تعالى: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيۡءٖ﴾ يا أهلَ مكّةَ ﴿فَمَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتُهَاۚ﴾ تتمتّعونَ بها حتى تزولوا عنها أوْ تزولَ عنكمْ ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓ﴾ أيْ أفضلُ وأدومُ، يريدُ الدّارَ الآخرةَ وهيَ الجنّةُ ﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ٦٠﴾ أنَّ الباقيَ أفضلُ منَ الفاني. قرأَ أبو عمرو «يَعْقِلُونَ» بالياءِ. الباقونَ بالتّاءِ على الخطابِ وهوَ الاختيارُ لقولهِ تعالى: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم﴾.

قولهُ تعالى: ﴿أَفَمَن وَعَدۡنَٰهُ وَعۡدًا حَسَنٗا فَهُوَ لَٰقِيهِ﴾ يعني الجنّةَ وما فيها منَ الثّوابِ ﴿كَمَن مَّتَّعۡنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ فأعطى منها بعض ما أراد ﴿ثُمَّ هُوَ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلۡمُحۡضَرِينَ ٦١﴾ أي في النار. ونظيره قوله: ﴿وَلَوۡلَا نِعۡمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ ٱلۡمُحۡضَرِينَ﴾ نزلتْ في كلِّ كافرٍ متّعَ في الدّنيا بالعافيةِ والغنى ولهُ في الآخرةِ النّارُ، وفي كلِّ مؤمنٍ صبرَ على بلاءِ الدّنيا ثقةً بوعدِ اللّهِ ولهُ في الآخرة الجنة.

قولهُ تعالى: ﴿وَيَوۡمَ يُنَادِيهِمۡ﴾ أيْ ينادي اللّهُ يومَ القيامةِ هؤلاءِ المشركينَ ﴿فَيَقُولُ أَيۡنَ شُرَكَآءِيَ﴾ بزعمكمْ أنّهمْ ينصرونكمْ ويشفعونَ لكمْ ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلُ﴾ أيْ كلمةُ العذابِ وهمُ الرّؤساءُ أو الشياطين ﴿رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغۡوَيۡنَآ﴾ أيْ دعوناهمْ إلى الغيِّ. فقيلَ لهمْ: أغويتموهمْ؟ قالوا: ﴿أَغۡوَيۡنَٰهُمۡ كَمَا غَوَيۡنَاۖ﴾. يعنونَ أضللناهمْ كما كنا ضالين ﴿تَبَرَّأۡنَآ إِلَيۡكَۖ﴾ أيْ تبرأَ بعضنا منْ بعضٍ، والشّياطينُ يتبرّأونَ ممّنْ أطاعهمْ، والرّؤساءُ يتبرّأونَ ممّنْ قبِلَ منهمْ، كما قالَ تعالى: ﴿ٱلۡأَخِلَّآءُ يَوۡمَئِذِۭ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلۡمُتَّقِينَ﴾.

قولهُ تعالى: ﴿وَقِيلَ﴾ أيْ للكفّارِ ﴿ٱدۡعُواْ شُرَكَآءَكُمۡ﴾ أيِ استغيثوا بآلهتكمُ الّتي عبدتموها في الدّنيا لتنصركمْ وتدفعَ عنكمْ ﴿فَدَعَوۡهُمۡ﴾ أيِ استغاثوا بهمْ ﴿فَلَمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَهُمۡ﴾ أيْ فلمْ يجيبوهمْ ولمْ ينتفعوا بهمْ ﴿وَرَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَۚ لَوۡ أَنَّهُمۡ كَانُواْ يَهۡتَدُونَ ٦٤﴾ قالَ الزّجّاجُ: جوابُ ﴿لَوۡ﴾ محذوفٌ، والمعنى: لوْ أنّهمْ كانوا يهتدونَ لأنجاهمُ الهدى.

قولهُ تعالى: ﴿وَيَوۡمَ يُنَادِيهِمۡ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبۡتُمُ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ٦٥﴾ لمّا بلّغوكمْ رسالاتي

﴿فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ يَوْمَئِذٍ﴾ أيْ خفيتْ عليهمُ الحججُ ﴿فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿٦٦﴾﴾ أيْ لا يسألُ بعضهمْ بعضـًا عنِ الحججِ منْ هولِ تلكَ السّاعةِ، ثمَّ يجيبونَ بعدَ ذلكَ كما أخبرَ عنْ قولهمْ: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾. وقيلَ: لا يتساءلونَ بالأنسابِ. وقيلَ: لا يسألُ بعضهمْ بعضـًا أنْ يحملَ منْ ذنوبه شيئا.

قولهُ تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن تَابَ﴾ أيْ منَ الشّركِ ﴿وَءَامَنَ﴾ أيْ صدّقَ ﴿وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ أدّى الفرائضَ وأكثرَ منَ النّوافلِ ﴿فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ ﴿٦٧﴾﴾ أيْ منَ الفائزينَ بالسّعادةِ. وعسى من الله واجبة.

قولهُ تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ﴾ لطاعتهِ ولنبوّتهِ. وفي هذا ردٌّ على القدريّةِ ﴿مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ﴾ أيْ ليسَ يرسلُ منِ اختاروهُ همْ. وَ ﴿مَا﴾ منْ قولهِ: ﴿مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ﴾ نفيٌ عامٌّ لجميعِ الأشياءِ أن يكون للعبد فيها شيء سوى اكتسابهِ بقدرةِ اللّهِ عزَّ وجلَّ، وقيلَ: ﴿مَا﴾ نفيٌ أيْ ليسَ لهمُ الاختيارُ على اللّهِ. كقولهِ تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾. قالَ محمودُ الورّاقِ:

توكّلْ على الرّحمنِ في كلِّ حاجةٍ أردتَ فإنَّ اللّهَ يقضي ويقدرُ

قالَ بعضُ العلماءِ: لا ينبغي لأحدٍ أنْ يقدر على أمرٍ منْ أمورِ الدّنيا حتّى يسألَ اللّهَ الخيرةَ في ذلكَ بأنْ يصلّيَ ركعتينِ صلاةَ الاستخارةِ ثمَّ يدعو بهذا الدّعاءِ بعدَ السّلامِ، وهوَ ما رواهُ البخاريُّ من صحيحهِ عنْ جابرِ بنِ عبدِ اللّهِ قالَ: كانَ النّبيُّ ﷺ يعلّمنا الاستخارةَ في الأمورِ كلّها، كما يعلّمنا السّورةَ في القرآنِ، يقولُ: «إذا همَّ أحدكمْ بالأمرِ فليركعْ ركعتينِ غيرَ الفريضةِ ثمَّ ليقلْ اللّهمَّ إني أستخيرك بعلمك وأستقدرك بقدرتك وأسألكَ منْ فضلكَ العظيمِ فإنّكَ تقدرُ ولا أقدرُ وتعلمُ ولا أعلمَ وأنتَ علاّمُ الغيوبِ اللّهمَّ إنْ كنتَ تعلمُ أنَّ هذا الأمرَ خيرٌ لي في ديني ومعاشي وعاقبةِ أمري- أوْ قالَ في عاجلِ أمري وآجلهِ- فاقدرهُ لي ويسّرهُ لي ثمَّ باركْ لي فيهِ اللّهمَّ وإنْ كنتَ تعلمُ أنَّ هذا الأمرَ شرٌّ لي في ديني ودنيايَ ومعاشي وعاقبةِ أمري- أوْ قالَ في عاجلِ أمري وآجلهِ- فاصرفهُ عنّي واصرفني عنهُ واقدرْ ليَ الخيرَ حيثُ كانَ ثمَّ رضّني بهِ» قالَ: ويسمّي حاجتهُ.

ثمَّ نزه نفسه سبحانه بقوله الحق، فقالَ: «سبحانَ اللّهِ» أيْ تنزيهـاً ﴿وَتَعَـٰلَىٰ﴾ أيْ تقدّسَ وتمجّدَ ﴿عَمَّا يُشۡرِكُونَ ۝٦٨﴾.

﴿وَرَبُّكَ يَعۡلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمۡ وَمَا يُعۡلِنُونَ ۝٦٩﴾ يظهرونَ ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَۖ لَهُ ٱلۡحَمۡدُ فِي ٱلۡأُولَىٰ وَٱلۡأٓخِرَةِۖ وَلَهُ ٱلۡحُكۡمُ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ۝٧٠﴾ تقدم معناه، وأنه المنفرد بالوحدانية، وجميعَ المحامدِ إنّما تجبُ لهُ وأنْ لا حكم إلا له وإليه المصير.

قولهُ تعالى: ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمُ ٱلَّيۡلَ سَرۡمَدًا﴾ دائماً ﴿مَنۡ إِلَـٰهٌ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَأۡتِيكُم بِضِيَآءٍۚ﴾ تطلبونَ فيهِ المعيشةَ وتصلحُ فيهِ الثّمارُ والنّباتُ ﴿أَفَلَا تَسۡمَعُونَ ۝٧١﴾ سماعَ فهمٍ وقبولٍ ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرۡمَدًا إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَـٰمَةِ مَنۡ إِلَـٰهٌ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَأۡتِيكُم بِلَيۡلٖ تَسۡكُنُونَ فِيهِۚ﴾ أيْ تستقرّونَ فيهِ منَ النّصبِ ﴿أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ۝٧٢﴾ ما أنتمْ فيهِ منَ الخطأ في عبادةِ غيرهِ، فإذا أقررتمْ بأنّهُ لا يقدرُ على إيتاءِ اللّيلِ والنّهارِ غيرهُ فلمَ تشركونَ بهِ ﴿وَمِن رَّحۡمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ﴾ أيْ فيهما. وقيلَ: الضّميرُ للزّمانِ وهوَ اللّيلُ والنّهارُ ﴿وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ﴾ أيْ لتطلبوا منْ رزقهِ فيهِ أيْ في النّهارِ فحذفَ ﴿وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ۝٧٣﴾ الله على ذلك.

قولهُ تعالى: ﴿وَيَوۡمَ يُنَادِيهِمۡ فَيَقُولُ أَيۡنَ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمۡ تَزۡعُمُونَ ۝٧٤﴾ المناداةُ هنا ليستْ منَ اللّهِ؟ لأنَّ اللّهَ تعالى لا يكلّمُ الكفّارَ لقولهِ تعالى: ﴿ولا يكلّمهمُ اللّه يومَ القيامةِ﴾ لكنّهُ تعالى يأمرُ منْ يوبّخهمْ ويبكّتهمْ، ويقيمُ الحجّةَ عليهمْ في مقامِ الحسابِ. وقيلَ: يحتملُ أنْ يكونَ منَ اللّهِ، وقولهُ: ﴿ولا يكلّمهمُ اللّهُ﴾ حين يقال لهم: ﴿ٱخۡسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾. وقالَ: ﴿شُرَكَآءِيَ﴾ لأنّهمْ جعلوا لهمْ نصيباً منْ أموالهمْ.

قولهُ تعالى: ﴿وَنَزَعۡنَا مِن كُلِّ أُمَّةٖ شَهِيدٗا﴾ أيْ نبيـاً، لقولهِ تعالى: ﴿فَكَيۡفَ إِذَا جِئۡنَا مِن كُلِّ أُمَّةِۭ بِشَهِيدٖ وَجِئۡنَا بِكَ عَلَىٰ هَـٰٓؤُلَآءِ شَهِيدٗا﴾ وشهيدُ كلِّ أمّةٍ رسولها الّذي يشهدُ عليها ﴿فَقُلۡنَا هَاتُواْ بُرۡهَـٰنَكُمۡ﴾ أيْ حجّتكمْ ﴿فَعَلِمُوٓاْ أَنَّ ٱلۡحَقَّ لِلَّهِ﴾ أيْ علموا صدقَ ما جاءتْ بهِ الأنبياءُ ﴿وَضَلَّ عَنۡهُم﴾ أيْ ذهبَ عنهمْ وبطلَ ﴿مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ۝٧٥﴾ أيْ يختلقونهُ منَ

الكذبِ على اللّهِ تعالى منْ أنَّ معهُ آلهةً تعبد.

قولهُ تعالى: ﴿۞إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ﴾ لمّا قالَ تعالى: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَا﴾ بيّنَ أنَّ قارونَ أوتيها واغترَّ بها ولمْ تعصمهُ منْ عذابِ اللّهِ كما لمْ تعصمْ فرعونَ، ولستمْ أيّها المشركونَ بأكثرَ عدداً ومالاً منْ قارونَ وفرعونَ، فلمْ ينفعْ فرعونَ جنودهُ وأموالهُ، ولمْ ينفعْ قارونَ قرابتهُ منْ موسى ولا كنوزهُ.

قيل: كانَ ابنَ عمِّ موسى وقيلَ: كانَ عمَّ موسى لأبٍ وأمٍّ. وقيلَ: كانَ ابنَ خالتهِ. ولمْ ينصرفْ للعجمةِ والتّعريفِ ﴿فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ بكفرهِ باللّهِ عزَّ وجلَّ، واستخفافهِ بهمْ بكثرةِ مالهِ وولدهِ، وقيلَ: بغيهُ نسبتهُ ما آتاهُ اللّهُ منَ الكنوزِ إلى نفسهِ بعلمهِ وحيلتهِ.

قولهُ تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ﴾ قالَ عطاءٌ: أصابَ كثيراً منْ كنوزِ يوسفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ. وقالَ الوليدُ بنُ مروانَ: إنّهُ كانَ يعملُ الكيمياءَ ﴿مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ﴾ جمعُ مِفتحٍ بالكسرِ وهوَ ما يفتحُ بهِ. ومنْ قالَ مفتاحٌ قالَ مفاتيحُ. ومنْ قال هي الخزائن فواحدها مَفتح بالفتح ﴿لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ﴾ تنهضُ متثاقلةً، والعصبة الجماعةُ الّتي يتعصّبُ بعضهمْ لبعضٍ وهي أيضاً منَ الثلاثة إلى العشرة؛ لقولِ إخوةِ يوسفَ ﴿وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾ ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ﴾ أي المؤمنونَ منْ بني إسرائيلَ ﴿لَا تَفْرَحْ﴾ أي لا تأشر ولا تبطر ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾﴾ أي البطرين.

قولهُ تعالى: ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ﴾ وهيَ الجنّةُ، فإنَّ منْ حقِّ المؤمنِ أنْ يصرفَ الدّنيا فيما ينفعهُ في الآخرةِ لا في التّجبّرِ والبغيِ.

قولهُ تعالى: ﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا﴾ فتضيّع عمركَ ولا تعملَ عملاً صالحاً في دنياكَ، إذِ الآخرةُ إنّما يعملُ لها، فنصيبُ الإنسانِ عمرهُ وعملهُ الصّالحُ فيها. فالكلامُ على هذا التّأويل شدّةٌ في الموعظةِ. وقيلَ: معناهُ لا تضيّعُ حظّكَ منْ دنياكَ في تمتّعكَ بالحلالِ وطلبكَ إيّاهُ، ونظركَ لعاقبةِ دنياكَ. فالكلامُ على هذا التّأويلِ فيهِ بعضُ الرّفقِ بهِ وإصلاحُ الأمرِ الّذي يشتهيهِ. وهذا ممّا يجبُ استعمالهُ معَ الموعوظِ خشيةَ النّبوةِ منَ الشّدّةِ.

قلت: وهذانِ التّأويلانِ قدْ جمعهما ابنُ عمرَ في قولهِ: احرثْ لدنياكَ كأنّكَ تعيشُ أبداً،

واعملْ لآخرتكَ كأنّكَ تموتُ غداً.

وقيلَ: أرادَ بنصيبهِ الكفنَ. فهذا وعظٌ متّصلٌ، كأنّهمْ قالوا: لا تنسَ أنّكَ تتركُ جميعَ مالكَ إلّا نصيبكَ هذا الّذي هوَ الكفنُ. ونحوَ هذا قولُ الشاعر:

نصيبك مما تجمع الدهر كله ... رداءان تلوى فيهما وحنوطُ

وقالَ آخرُ:

وهيَ القناعةُ لا تبغي بها بدلاً ... فيها النّعيمُ وفيها راحةُ البدنِ

انظرْ لمنْ ملكَ الدّنيا بأجمعها ... هلْ راحَ منها بغيرِ القطنِ والكفنِ

﴿وَأَحۡسِن كَمَآ أَحۡسَنَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَۖ﴾ أيْ أطعِ اللّهَ واعبدهُ كما أنعمَ عليكَ، ومنهُ الحديثُ: ما الإحسانُ؟ قالَ: «أنْ تعبدَ اللّهَ كأنّكَ تراهُ» وقيلَ: هوَ أمرٌ بصلةِ المساكينِ ﴿وَلَا تَبۡغِ ٱلۡفَسَادَ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ﴾ أيْ لا تعملْ بالمعاصي ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ٧٧﴾.

قولهُ تعالى: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓۚ﴾ يعني علمَ التّوراةِ. وكانَ فيما رويَ منْ أقرأِ النّاسِ لها، ومنْ أعلمهمْ بها. وكانَ أحدَ العلماءِ السّبعينَ الذين اختارهمْ موسى للميقاتِ. وقيلَ: أيْ إنّما أوتيتهُ لعلمهِ بفضلي ورضاهُ عنّي، وقيلَ: أوتيتهُ على علمٍ منْ عندي بوجوهِ التّجارةِ والمكاسبِ.

قولهُ تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَهۡلَكَ مِن قَبۡلِهِۦ﴾ أيْ بالعذابِ ﴿مِنَ ٱلۡقُرُونِ﴾ أي الأممِ الخاليةِ الكافرةِ ﴿مَنۡ هُوَ أَشَدُّ مِنۡهُ قُوَّةٗ وَأَكۡثَرُ جَمۡعٗاۚ﴾ ولوْ كانَ المالُ يدلُّ على فضلٍ لما أهلكهمْ. وقيلَ: القوّةُ الآلاتُ، والجمعُ الأعوانُ والأنصارُ ﴿وَلَا يُسۡـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ٧٨﴾ سؤالَ استعتابٍ كما قالَ: ﴿وَلَا هُمۡ يُسۡتَعۡتَبُونَ﴾ ﴿فَمَا هُم مِّنَ ٱلۡمُعۡتَبِينَ﴾ وإنّما يسألونَ سؤالَ تقريعٍ وتوبيخٍ لقوله: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسۡـَٔلَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾، وقيلَ: لا يسألُ المجرمونَ عنْ ذنوبهمْ لظهورها وكثرتها، بلْ يدخلونَ النّارَ بلا حسابٍ. وقيلَ: لا يسألُ مجرمو هذهِ الأمّةِ عنْ ذنوبِ الأممِ الخاليةِ الّذينَ عذّبوا في الدّنيا.

قولهُ تعالى: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ فِي زِينَتِهِۦۖ﴾ منْ متاعِ الحياةِ الدّنيا ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ

﴿ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِيَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ۝٧٩﴾ منَ الدّنيا. ثمَّ قيل: هذا منْ قولِ مؤمني ذلكَ الوقتِ، تمنّوا مثلَ مالهِ رغبةً في الدّنيا. وقيلَ: هوَ منْ قولِ أقوامٍ لمْ يؤمنوا بالآخرةِ ولا رغبوا فيها، وهمُ الكفّارُ.

قولهُ تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ﴾ وهم أحبار بني إسرائيل للّذينَ تمنّوا مكانهُ ﴿وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ﴾ يعني الجنّةَ ﴿لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ۚ وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ۝٨٠﴾ أيْ لا يؤتى الأعمالُ الصّالحةُ، أوْ لا يؤتى الجنّةَ في الآخرةِ إلّا الصّابرونَ على طاعةِ اللّهِ. وجازَ ضميرها لأنها المعنية بقوله: «ثوابُ اللّهِ».

قولهُ تعالى: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ﴾ وذهبَ في الأرضِ وغابَ بهِ فيها ﴿فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ﴾ أيْ جماعةٍ وعصابةٍ ﴿يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ۝٨١﴾ لنفسهِ أيِ الممتنعينَ فيما نزلَ بهِ منَ الخسفِ.

قولهُ تعالى: ﴿وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْاْ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ﴾ يتندّمونَ على ذلكَ التّمنّي وَ ﴿يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ﴾ «ويْ» حرفُ تندّمٍ. وقيلَ: ويْ: كلمةُ تعجّبٍ، وهيَ مفصولةٌ، تقولُ: «ويْ» ثمَّ تبتدئُ فتقولُ «كأنَّ». ﴿لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا﴾ بالإيمانِ والرّحمةِ ﴿لَخَسَفَ بِنَا ۖ﴾. قرأَ حفصُ: ﴿لَخَسَفَ بِنَا ۖ﴾ مسمّى الفاعلِ. الباقونَ: على ما لمْ يسمَّ فاعلهُ ﴿وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ۝٨٢﴾ عند الله.

قولهُ تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ﴾ يعني الجنّةَ. وقالَ ذلكَ على جهةِ التّعظيمِ لها والتّفخيمِ لشأنها يعني تلكَ الّتي سمعتَ بذكرها، وبلغكَ وصفها ﴿نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أيْ رفعةً وتكبّراً على الإيمانِ والمؤمنينَ ﴿وَلَا فَسَادًا ۚ﴾ عملا بالمعاصي ومنها. الدّعاءُ إلى غيرِ عبادةِ اللّهِ، وقتلُ الأنبياءِ والمؤمنينَ، وأخذُ المالِ بغيرِ حقٍّ ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ۝٨٣﴾ لأن لفظُ الدّارِ الآخرةِ يشملُ الثّوابَ والعقابَ. والمرادُ إنّما ينتفعُ بتلكَ الدّارِ منِ اتّقى، ومنْ لمْ يتّقِ فتلكَ الدّارُ عليهِ لا لهُ، لأنّها تضرّهُ ولا تنفعهُ.

قولهُ تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا ۖ﴾ تقدّمَ في «النمل»، وليس شيء خيراً منْ لا إلهَ إلّا اللّهُ. وإنّما المعني من جاء بلا إلهَ إلّا اللّهُ فلهُ منها خيرٌ ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ﴾

أيْ بالشّركِ ﴿فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ۝٨٤﴾ بما يليق بعلمه.

قولهِ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ ﴿فَرَضَ﴾ معناهُ أنزلَ، وختمَ السّورةَ ببشارةِ نبيّهِ محمّدٍ ﷺ بردّهِ إلى مكّةَ قاهراً لأعدائهِ. وقيلَ: هوَ بشارةٌ لهُ بالجنّةِ لأنَّ أباهُ آدمَ خرجَ منها. والأوّلُ أكثرُ. قالَ ابنُ عبّاسٍ: نزلتْ هذهِ الآيةُ بالجحفةِ ليستْ مكّيّةً ولا مدنيّةً. وقيلَ: ﴿إِلَىٰ مَعَادٍ﴾: إلى الموتِ. أو لرادّكَ إلى يوم القيامةِ، يقالُ بيني وبينكَ المعادُ، أيْ يومَ القيامة، لأن الناس يعودون فيه أحياء. ﴿قُل﴾ أيْ لكفّارِ مكّةَ إذا قالوا إنّكَ لفي ضلالٍ مبينٍ ﴿رَّبِّىٓ أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ۝٨٥﴾ أنا أمْ أنتم.

قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓاْ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبُ﴾ أيْ ما علمتَ أنّنا نرسلكَ إلى الخلقِ وننزّلُ عليكَ القرآنَ ﴿إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ قالَ الكسائيُّ: هوَ استثناءٌ منقطعٌ بمعنى لكنْ ﴿فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَـٰفِرِينَ ۝٨٦﴾ أيْ عوناً لهمْ ومساعداً.

قولهُ تعالى: ﴿وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ﴾ وامضِ لأمركَ وشأنكَ ﴿وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ أيْ إلى التّوحيدِ. وهذا يتضمّنُ المهادنةَ والموادعةَ. وهذا كلّهُ منسوخٌ بآيةِ السّيفِ ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ﴾ فإنّهُ لا إلهَ إلّا هوَ ﴿كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ قالَ مجاهدٌ: معناهُ إلّا هوَ. وقيلَ: أيْ إلّا ما أريدَ بهِ وجههُ، وقيلَ: إلّا جاههُ، كما تقولُ لفلانٍ وجهٌ في النّاسِ أيْ جاهٌ[1] ﴿لَهُ ٱلْحُكْمُ﴾ في الأولى والآخرةِ ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۝٨٨﴾.

تمت سورة القصص والحمد لله

---

(١) أهل السنة يثبتون صفة الوجه لله تعالى كما أثبتها لنفسه وأثبتها له رسوله ﷺ، وقولهم فيها كقولهم في سائر الصفات، إثبات بلا تعطيل ولا تشبيه ولا تمثيل، عز ربنا أن يشبه المخلوقين، وجل ربنا عن مقالة المعطلين قال تعالى: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَـٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ وقال ﴿ذُو﴾ بالواو في جميع المصاحف العثمانية، وبوب البخاري بقوله: بابُ قولِ اللّهِ تعالى: ﴿كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ وذكر حديث جابر بن عبدِ اللّهِ، قالَ: لمّا نزلتْ هذهِ الآيةُ: ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ﴾، قالَ النّبيُّ ﷺ: «أعوذُ بوجهكَ»، فقالَ: ﴿أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾، فقالَ النّبيُّ ﷺ: «أعوذُ بوجهكَ»، قالَ: ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا﴾، فقالَ النّبيُّ ﷺ: «هذا أيسرُ»، وفي الحديث الصحيح في دعائه ﷺ: " وأسألكَ لذّةَ النّظرِ إلى وجهكَ ".

سورة العنكبوت

بسمِ اللّهِ الرّحمنِ الرّحيمِ

مكّيّةٌ كلّها في قولٍ، ومدنيّةٌ كلّها في أحدِ قولي ابنِ عبّاسٍ وقتادةَ. وفي القولِ الآخرِ لهما وهوَ قولُ يحيى بنُ سلّام أنّها مكّيّةٌ إلّا عشرَ آياتٍ منْ أوّلها، فإنّها نزلتْ بالمدينةِ في شأنِ منْ كانَ منَ المسلمينَ بمكّةَ. وهيَ تسعٌ وستون آية.

قولهُ تعالى: ﴿الٓمٓ ١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ ٢﴾ تقدّمَ القولُ في أوائلِ السّورِ. و﴿حَسِبَ﴾ استفهامٌ أريدَ بهِ التّقريرُ والتّوبيخُ ومعناهُ الظّنُّ ﴿أَن يُتۡرَكُوٓاْ﴾ في موضعِ نصبٍ بِ «حسبَ» وهيَ وصلتها مقامُ المفعولينِ وَ﴿أن﴾ الثّانيةَ منْ ﴿أَن يَقُولُوٓاْ﴾ في موضعِ نصبٍ على إحدى جهتينِ:

بمعنى لأنْ يقولوا أوْ بأنْ يقولوا أوْ على أنْ يقولوا.

والجهةُ الأخرى أنْ يكونَ على التّكريرِ، التقدير ﴿الٓمٓ ١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ﴾ أحسبوا ﴿أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ ٢﴾ قالَ ابنُ عبّاسٍ وغيرهُ: يريدُ بالنّاسِ قوماً منَ المؤمنينَ كانوا بمكّةَ، وكانَ الكفّارُ منْ قريشٍ يؤذونهمْ ويعذّبونهمْ على الإسلامِ، كسلمةَ بنِ هشامٍ وعيّاشِ بنِ أبي ربيعةَ والوليدِ بنِ الوليدِ وعمّارِ بنِ ياسرٍ وياسرٌ أبوهُ وسميّةُ أمّهُ وعدّةٌ منْ بني مخزومٍ وغيرهمْ. فكانتْ صدورهمْ تضيقُ لذلكَ، وربّما استنكرَ أنْ يمكّنَ اللّهُ الكفّارَ منَ المؤمنينَ، فنزلتْ هذهِ الآيةُ مسلّيةً ومعلمةً أنْ هذهِ هيَ سيرةُ اللّهِ في عبادهِ اختباراً للمؤمنينَ وفتنةً.

وهذهِ الآيةُ وإنْ كانتْ نزلتْ بهذا السّببِ أوْ ما في معناهُ فهيَ باقيةٌ في أمّةِ محمّدٍ ﷺ، موجودٌ حكمها بقيّةَ الدّهرِ. وذلكَ أنَّ الفتنةَ منَ اللّهِ تعالى باقيةٌ في ثغورِ المسلمينَ بالأسرِ ونكايةِ العدوِّ وغيرِ ذلكَ. وإذا اعتبرَ أيضاً كلُّ موضعٍ ففيهِ ذلكَ بالأمراضِ وأنواعِ المحنِ.

قولُهُ تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ كالخليلِ ألقيَ في النّارِ، وروى البخاريُّ عنْ خبّابِ بنِ الأرت: قالوا شكونا إلى رسولِ اللّهِ ﷺ وهوَ متوسّدُ بردةً لهُ في ظلِّ الكعبةِ، فقلنا لهُ: ألا تستنصرُ لنا؟ ألا تدعو لنا فقالَ: «قدْ كانَ منْ قبلكمْ يؤخذُ الرّجلُ فيحفرُ لهُ في الأرضِ فيجعلُ فيها فيجاءُ بالمنشارِ فيوضعُ على رأسهِ فيجعلُ نصفينِ ويمشّطُ بأمشاطِ الحديدِ لحمهُ وعظمهُ فما يصرفهُ ذلكَ عنْ دينهِ واللّهِ ليتمّنَّ هذا الأمرُ حتّى يسيرَ الرّاكبُ منْ صنعاءَ إلى حضرموتَ لا يخافُ إلّا اللّهَ والذّئبَ على غنمهِ ولكنّكمْ تستعجلونَ».

وروى سعدِ بنِ أبي وقّاصٍ قالَ: قلتُ: يا رسولَ اللّهِ أيُّ النّاسِ أشدُّ بلاءً؟ قالَ: «الأنبياءُ ثمَّ الأمثلُ فالأمثلُ يبتلى الرّجلُ على حسبِ دينهِ فإنْ كانَ في دينهِ صلبـًا اشتدَّ بلاؤهُ وإنْ كانَ في دينهِ رقّةٌ ابتليَ على حسبِ دينهِ فما يبرحُ البلاءُ بالعبدِ حتّى يتركهُ يمشي على الأرضِ وما عليهِ منْ خطيئةٍ».

قوله تعالى ﴿فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ﴾ وقدْ علمَ الصّادقَ منَ الكاذبِ قبلَ أنْ يخلقهما، وإنّما يعلمُ صدقَ الصّادقِ واقعـًا كائنـًا وقوعهُ، وقدْ علمَ أنّهُ سيقعُ، ويحتملُ ثلاثةَ معانٍ:

الأوّلُ: أنْ يعلمَ في الآخرةِ هؤلاءِ الصّادقينَ والكاذبينَ بمنازلهمْ منْ ثوابهِ وعقابهِ وبأعمالهمْ في الدّنيا، بمعنى يوقفهمْ على ما كانَ منهمْ.

الثّاني: أنْ يكونَ المفعولُ الأوّلُ محذوفـًا تقديرهُ، فليُعلمنَّ النّاسَ والعالمَ هؤلاءِ الصّادقينَ والكاذبينَ، أيْ يفضحهمْ ويشهرهمْ، هؤلاءِ في الخيرِ وهؤلاءِ في الشّرِّ، وذلكَ في الدّنيا والآخرةِ.

الثّالثُ: أنْ يكونَ ذلكَ منَ العلامةِ، أيْ يضعُ لكلِّ طائفةٍ علامةً يشتهرُ بها. فالآيةُ على هذا تنظرُ إلى قولَ النّبيِّ ﷺ: «منْ أسَّر سريرة ألبسه الله رداءها».

قولهُ تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ أي الشرك قال ﴿أَن يَسْبِقُونَاۚ﴾ أي يفوتونا ويعجزونا قبلَ أنْ نؤاخذهمْ بما يفعلونَ. قالَ ابنُ عبّاسٍ: يريدُ الوليدَ بنَ المغيرةِ وأبا جهلٍ والأسودَ والعاصِ بنَ هشامٍ وشيبةَ وعتبةَ والوليدَ بنَ عتبةَ وعقبةَ بنَ أبي معيطٍ وحنظلة بن أبي سفيانَ والعاصِ بنَ وائلٍ ﴿سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ۝٤﴾ أيْ بئسَ الحكمُ ما حكموا في صفاتِ ربّهمْ أنّهُ مسبوقٌ واللّهُ القادرُ على كل شيء.

قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَأٓتٍۚ﴾ ﴿يَرْجُواْ﴾ بمعنى يخافُ، وأجمعَ أهلُ التّفسيرِ على أنَّ المعنى: منْ كانَ يخافُ الموتَ فليعملْ عملاً صالحاً فإنّهُ لا بدَّ أنْ يأتيهُ.

قولهُ تعالى: ﴿وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓۚ﴾ أيْ ومنْ جاهدَ في الدّينِ، وصبرَ على قتالِ الكفّارِ وأعمالِ الطّاعاتِ، فإنّما يسعى لنفسهِ، أيْ ثوابُ ذلكَ كلّهِ لهُ، ولا يرجعُ إلى اللّهِ نفعٌ منْ ذلكَ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٦﴾ أيْ عنْ أعمالهمْ وقيلَ: المعنى، منْ جاهدَ عدوّهُ لنفسهِ لا يريدُ وجهَ اللّهِ فليس لله حاجة بجهاده.

قولهُ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ أيْ صدّقوا ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ﴾ أيْ لنغطّينّها عنهمْ بالمغفرةِ لهمْ ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ ٱلَّذِى كَانُواْ يَعْمَلُونَ ۝٧﴾ أيْ بأحسنِ أعمالهمْ وهوَ الطّاعاتُ. ثمَّ قيل: يحتملُ أنْ تكفّرَ عنهمْ كلُّ معصيةٍ عملوها في الشّركِ ويثابوا على ما عملوا منْ حسنةٍ في الإسلامِ. ويحتملُ أنْ تكفّرَ عنهمْ سيّئاتهمْ في الكفرِ والإسلامِ ويثابوا على حسناتهمْ في الكفر والإسلام.

قولهُ تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًاۖ﴾ نزلتْ في سعدِ بنِ أبي وقّاصٍ فيما روى التّرمذيُّ عنه قالَ: أنزلتْ فيَّ أربعُ آياتٍ فذكرَ قصّةً، فقالتْ أمُّ سعدٍ: أليسَ قدْ أمرَ اللّهُ بالبرِّ! واللّهِ لا أطعمُ طعاماً، ولا أشربُ شراباً حتّى أموتَ أوْ تكفرَ، قالَ: فكانوا إذا أرادوا أنْ يطعموها شجروا فاها فنزلتْ هذهِ الآيةُ: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًاۖ﴾ الآيةَ قالَ أبو عيسى: هذا حديثٌ حسنٌ صحيحٌ.

ورويَ عنْ سعدٍ أنّهُ قالَ: كنتُ باراً بأمّي فأسلمتُ، فقالتْ: لتدعنَّ دينكَ أوْ لا آكلُ ولا

أشربُ حتّى أموتَ فتعيَّربي، ويقالُ يا قاتلَ أمّهِ، وبقيتْ يومـًا ويومـًا فقلت: يا أمّاهُ! لوْ كانتْ لكِ مائةُ نفسٍ، فخرجتْ نفسـًا نفسـًا ما تركتُ ديني هذا فإنْ شئتِ فكلي، وإنْ شئتِ فلا تأكلي، فلمّا رأتْ ذلكَ أكلتْ ونزلتْ: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشۡرِكَ بِي﴾ الآيةَ.

وَ ﴿حُسْناً﴾ نصبَ عندَ البصريّينَ على التّكريرِ أيْ ووصّيناهُ حسنـًا. وقيلَ: هوَ على القطعِ تقديرهُ ووصّيناهُ بالحسنِ كما تقولُ وصيته خيرا أي بالخيرِ.

﴿إِلَيَّ مَرۡجِعُكُمۡ﴾ وعيدٌ في طاعةِ الوالدينِ في معنى الكفرِ ﴿فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ٨ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُدۡخِلَنَّهُمۡ فِي ٱلصَّٰلِحِينَ ٩﴾ وإذا تحصّلَ للمؤمنِ هذا الحكمُ تحصلُ ثمرتهُ وجزاؤهُ وهوَ الجنّةُ.

قولهُ تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾ نزلتْ في المنافقينَ ﴿فَإِذَآ أُوذِيَ فِي ٱللَّهِ جَعَلَ فِتۡنَةَ ٱلنَّاسِ﴾ أي أذاهم ﴿كَعَذَابِ ٱللَّهِ﴾ في الآخرة فارتد عن إيمانه ﴿وَلَئِن جَآءَ﴾ المؤمنين ﴿نَصۡرٞ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ﴾ هؤلاء المرتدون ﴿إِنَّا كُنَّا مَعَكُمۡ﴾ وهم كاذبون، فقال الله لهم ﴿أَوَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِأَعۡلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٠﴾ منهم بأنفسهم ﴿وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ ١١﴾.

قولهُ تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبِعُواْ سَبِيلَنَا﴾ أيْ ديننا ﴿وَلۡنَحۡمِلۡ خَطَٰيَٰكُمۡ﴾ جزمَ على الأمرِ، والحمل هاهنا بمعنى الحمالة لا الحملُ على الظّهرِ ﴿وَلَيَحۡمِلُنَّ أَثۡقَالَهُمۡ وَأَثۡقَالٗا مَّعَ أَثۡقَالِهِمۡ﴾ يعني ما يحملُ عليهمْ منْ سيّئاتِ منْ ظلموهُ بعدَ فراغِ حسناتهِمْ، ومنْ دعا إلى ضلالةٍ كانَ عليهِ وزرها ووزرُ منْ عملَ بها ولا ينقصُ منْ أوزارهم شيء. ونظيرهُ قولهُ تعالى: ﴿لِيَحۡمِلُوٓاْ أَوۡزَارَهُمۡ كَامِلَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَمِنۡ أَوۡزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيۡرِ عِلۡمٍۗ﴾. ونظيرُ هذا قولهُ ﷺ: «منْ سنَّ في الإسلام سنّةً سيّئةً فعليهِ وزرها ووزرُ منْ عملَ بها بعدهُ منْ غيرِ أنْ ينقص من أوزار هم شي» خرّجهُ مسلمٌ.

قولهُ تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمۡ أَلۡفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمۡسِينَ عَامٗا﴾ ذكرَ قصّةَ نوحٍ تسليةً لنبيّهِ ﷺ، وخصَّ نوحـًا بالذّكرِ، لأنّهُ أوّلُ رسولٍ أرسلَ إلى الأرضِ وقدِ امتلأتْ كفراً، واختلفَ في مبلغِ عمرهِ. فقيلَ: مبلغُ عمرهِ ما ذكرهُ اللّهُ تعالى في كتابهِ، وقيلَ: بُعثَ نوحٌ لأربعينَ سنةً، ولبثَ في قومهِ ألفَ سنةٍ إلّا خمسينَ عامـًا، وعاشَ بعدَ الغرقِ ستّينَ سنةً حتّى كثرَ النّاسُ وفشوا، وقيل غير هذا، والله أعلم.

وولدَ لهُ سامُ وحامُ ويافثُ، فولدَ سامُ العربَ وفارسَ والرّومَ وفي كلِّ هؤلاءِ خيرٌ. وولدَ حامُ القبطَ والسّودانَ والبربرَ. وولدَ يافثُ التّركَ والصّقالبةَ ويأجوجَ ومأجوجَ. وليسَ في شيءٍ منْ هؤلاءِ خيرٌ. وقالَ ابنُ عبّاسٍ: في ولدِ سامٍ بياضٌ وأدمةٌ وفي ولدِ حامٍ سوادٌ وبياضٌ قليلٌ. وفي ولدِ يافثَ- وهمُ التّركُ والصّقالبةُ- الصّفرةُ والحمرةُ. وكانَ لهُ ولدٌ رابعٌ وهوَ كنعانُ الّذي غرقَ، والعربُ تسمّيهِ يام. وسمي نوح نوحا لأنه ناح على قومهِ ألفَ سنةٍ إلّا خمسينَ عامـًا، يدعوهمْ إلى اللّهِ تعالى، فإذا كفروا بكى وناحَ عليهمْ.

فإن قيل: فلمَ قالَ: ﴿أَلۡفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمۡسِينَ عَامٗا﴾ ولمْ يقلْ تسعمائةٍ وخمسينَ عامـًا. ففيهِ جوابانِ:

أحدهما- أنَّ المقصودَ بهِ تكثيرُ العددِ فكانَ ذكرهُ الألفَ أكثرَ في اللّفظِ وأكثرَ في العددِ.

الثّاني- ما رويَ أنّهُ أعطيَ منَ العمرِ ألفَ سنةٍ فوهبَ منْ عمرهِ خمسينَ سنةً لبعضِ ولدهِ، فلمّا حضرتهُ الوفاةُ رجعَ في استكمالِ الألفِ، فذكرَ اللّهُ تعالى ذلكَ تنبيهـًا على أنَّ النّقيصةَ كانتْ منْ جهتهِ.

﴿فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ﴾ المطرُ. وقيلَ: الغرقُ. وقيلَ: الموتُ ﴿وَهُمۡ ظَٰلِمُونَ ١٤﴾ جملةٌ في موضعِ الحالِ.

قولهُ تعالى: ﴿فَأَنجَيۡنَٰهُ وَأَصۡحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ﴾ معطوفٌ على الهاءِ ﴿وَجَعَلۡنَٰهَآ ءَايَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٥﴾ الهاء والألفُ في ﴿جَعَلۡنَٰهَا﴾ للسّفينةِ، أوْ للعقوبةِ، أوْ للنجاة، ثلاثة أقوال.

قولهُ تعالى: ﴿وَإِبۡرَٰهِيمَ﴾ منصوبٌ بِـ ﴿أَنجَيۡنَا﴾ يعني أنّهُ معطوفٌ على الهاءِ. أو يكونَ معطوفـًا على نوحٍ والمعنى وأرسلنا إبراهيمَ. وقولٌ ثالثٌ: أنْ يكونَ منصوبـًا بمعنى واذكرْ

إبراهيمَ ﴿إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ أيْ أفردوهُ بالعبادةِ ﴿وَٱتَّقُوهُ﴾ أيِ اتّقوا عقابةَ وعذابهُ ﴿ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ﴾ أيْ منْ عبادةِ الأوثانِ ﴿إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ١٦﴾.

قولهُ تعالى: ﴿إِنَّمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡثَٰنٗا﴾ الوثنُ الصّنمُ والجمعُ وُثْنٌ وأوثانٌ مثلُ أُسْدٍ وآسادٍ، وقيلَ: الصّنمُ ما يتّخذُ منْ ذهبٍ أوْ فضّةٍ أوْ نحاسٍ، والوثنُ ما يتّخذُ منْ جصٍّ أوْ حجارةٍ ﴿وَتَخۡلُقُونَ إِفۡكًاۚ﴾ تنحتونَ، فالمعنى إنّما تعبدونَ أوثانًا وأنتمْ تصنعونها ﴿لَا يَمۡلِكُونَ لَكُمۡ رِزۡقٗا فَٱبۡتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزۡقَ﴾ أيْ اصرفوا رغبتكمْ في أرزاقكمْ إلى اللّهِ فإيّاهُ فاسألوهُ وحدهُ دونَ غيرهِ ﴿وَإِن تُكَذِّبُواْ فَقَدۡ كَذَّبَ أُمَمٞ مِّن قَبۡلِكُمۡۖ﴾ فالتّكذيبُ عادةُ الكفّارِ وليسَ على الرّسلِ إلّا التّبليغُ.

قولهُ تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ كَيۡفَ يُبۡدِئُ ٱللَّهُ ٱلۡخَلۡقَ﴾ قراءةُ العامّةِ بالياءِ على الخبرِ والتّوبيخِ لهمْ، وقرأ حمزةُ والكسائيُّ: «تَرَوْا» بالتّاءِ خطابًا، لقول: ﴿وَإِن تُكَذِّبُواْ﴾. وقدْ قيلَ: ﴿وَإِن تُكَذِّبُواْ﴾ خطابٌ لقريشٍ ليسَ منْ قولِ إبراهيمَ. ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ﴾ يعني الخلق والبعث. وقيلَ: أو يبدئُ الثّمارَ فتحيا ثمَّ تفنى ثم يعيدها أبدا. أو يخلق الإنسان ثمَّ يهلكهُ بعدَ أنْ خلقَ منهُ ولداً، وخلقَ منَ الولدِ ولداً. وكذلكَ سائرُ الحيوانِ. أيْ فإذا رأيتمْ قدرتهُ على الإبداءِ والإيجادِ فهوَ القادرُ على الإعادةِ ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ١٩﴾ لأنّهُ إذا أرادَ أمراً قالَ له كن فيكون.

قولهُ تعالى: ﴿قُلۡ سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ أيْ قلْ لهمْ يا محمّدُ سيروا في الأرضِ ﴿فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ بَدَأَ ٱلۡخَلۡقَۚ﴾ على كثرتهمْ وتفاوتِ هيئاتهمْ واختلافِ ألسنتهمْ وألوانهمْ وطبائعهمْ، وانظروا إلى مساكنِ القرونِ الماضيةِ وديارهمْ وآثارهمْ كيفَ أهلكهمْ، لتعلموا بذلكَ كمالَ قدرةِ اللّهِ ﴿ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشۡأَةَ ٱلۡأٓخِرَةَۚ﴾ وقرأ أبو عمرو وابنُ كثيرٍ «النَّشَاءَةَ» بفتحِ الشّينِ وهما لغتانِ مثلُ الرّأفةِ والرّآفةِ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٢٠ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾ أيْ بعدلهِ ﴿وَيَرۡحَمُ مَن يَشَآءُۖ﴾ أيْ بفضلهِ ﴿وَإِلَيۡهِ تُقۡلَبُونَ ٢١﴾ ترجعونَ وتردّونَ ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِۖ﴾ معناهُ ولا منْ في السّماءِ بمعجزينَ اللّهَ، ونظيرهُ قولهُ سبحانهُ: ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٞ مَّعۡلُومٞ﴾ أيْ منْ لهُ. وقيلَ: ولا في السّماءِ لوْ كنتمْ فيها كما قالَ: ﴿وَلَوۡ

كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾، وقيلَ: لا يستطيعونَ هرباً في الأرضِ ولا في السّماءِ ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ٢٢﴾ ويجوزُ «نَصِيرٌ» بالرّفعِ على الموضعِ، وتكون ﴿مِن﴾ زائدة ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَلِقَآئِهِۦٓ﴾ أيْ بالقرآنِ أوْ بما نصبَ منَ الأدلّةِ والأعلامِ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يَئِسُواْ مِن رَّحْمَتِي﴾ أيْ منَ الجنّةِ ونسبَ اليأسَ إليهمْ والمعنى أويسوا. وهذهِ الآياتُ اعتراضٌ منَ اللّهِ تعالى تذكيراً وتحذيراً لأهلِ مكّةَ. ثمَّ عادَ الخطابُ إلى قصّةِ إبراهيمَ فقالَ:

﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ﴾ حينَ دعاهمْ إلى اللّهِ تعالى ﴿إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ﴾ ثمَّ اتّفقوا على تحريقهِ ﴿فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ أيْ منْ إذايتها ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ أيْ في إنجائهِ منَ النّارِ العظيمةِ حتّى لمْ تحرقهُ بعدَ ما ألقيَ فيها ﴿لَأٓيَٰتٍ﴾.

﴿وَقَالَ﴾ إبراهيمُ ﴿إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ وقرأ حفصٌ وحمزةُ: ﴿مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ﴾. وابنُ كثيرٍ وأبو عمرو والكسائيُّ: ﴿مَّوَدَّةُ بَيْنِكُمْ﴾. الباقونَ «مَوَدَّةً بَيْنَكُمْ» فأمّا قراءةُ ابنُ كثيرٍ ارتفعتْ المودّة على خبرِ إنَّ وتكونُ ﴿مَا﴾ بمعنى الّذي. والتّقديرُ إنَّ الّذي اتّخذتموهُ منْ دونِ اللّهِ أوثاناً مودّةُ بينكمْ. أو يكونَ على إضمارِ مبتدأٍ أيْ وهيَ مودّةٌ أوْ تلكَ مودّةُ بينكمْ. ومنْ نصبَ ﴿مَّوَدَّةَ﴾ على أنّهُ مفعولٌ منْ أجلِهِ، ومعنى الآيةِ جعلتمُ الأوثانَ تتحابّونَ عليها وعلى عبادتها في الحياةِ الدّنيا ﴿ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾ تتبرأُّ الأوثانُ منْ عبّادها والرّؤساءُ منَ السّفلةِ كما قالَ اللّهُ عزَّ وجلَّ: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ﴾ ﴿وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ﴾ هوَ خطابٌ لعبدةِ الأوثانِ الرّؤساءِ منهمْ والأتباعِ. وقيلَ: تدخلُ فيهِ الأوثانُ كقولهِ تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾.

قولهُ تعالى: ﴿۞ فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ﴾ وكانَ ابنَ أختهِ، وآمنتْ بهِ سارةُ وكانتْ بنتَ عمّهِ ﴿وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓ﴾ الّذي قالَ: ﴿إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓ﴾ هوَ إبراهيمُ عليه السلام، هاجرَ منْ حرّانَ إلى فلسطينَ، وقيلَ: الّذي قالَ: ﴿إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓ﴾ لوطٌ عليه السلام.

قوله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ﴾ أيْ منَّ اللّهُ عليهِ بالأولادِ ﴿وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ

﴿وَٱلۡكِتَٰبَ﴾ فلمْ يبعثِ اللّهُ نبيـاً بعدَ إبراهيمَ إلّا منْ صلبهِ. ووحّدَ الكتابَ، لأنّهُ أرادَ المصدرَ كالنّبوّةِ، والمرادُ التّوراةُ والإنجيلُ والفرقانُ؛ فالتّوراةُ أنزلتْ على موسى منْ ولدِ إبراهيمَ، والإنجيلُ على عيسى منْ ولدهِ، والفرقانُ على محمّدٍ منْ ولدهِ ﷺ وعليهمْ أجمعينَ ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُ أَجۡرَهُۥ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ﴾ فأهلَ كلِّ دينٍ يتولّونهُ، أو أنَّ أكثرَ الأنبياءِ منْ ولدهِ ﴿وَإِنَّهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ٢٧﴾ ليسَ ﴿فِي ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ داخلاً في الصّلةِ وإنّما هوَ تبيينٌ. وكلُّ هذا حثٌّ على الاقتداءِ بإبراهيمَ في الصّبرِ على الدين الحق.

قولهُ تعالى: ﴿وَلُوطًا إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦٓ﴾ المعنى وأنجينا لوطـاً أوْ أرسلنا لوطـاً. أو: واذكرْ لوطـاً إذْ قالَ لقومهِ موبخا أو محذرا أ ﴿إِنَّكُمۡ لَتَأۡتُونَ ٱلۡفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنۡ أَحَدٍ مِّنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٢٨﴾ تقدّمَ قصّةُ لوطٍ وقومهِ في الأعرافِ وَ هودٍ أيضـاً ﴿وَتَقۡطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ﴾ قيل: كانوا قطّاعَ الطّريقِ، وقيلَ: كانوا يأخذونَ النّاسَ منَ الطّرقِ لقضاءِ الفاحشةِ، وقيلَ: إنّهُ قطعُ النّسلِ بالعدولِ عن النساء إلى الرجال.

قلت: ولعلَّ الجميعَ كانَ فيهمْ فكانوا يقطعونَ الطّريقَ لأخذِ الأموالِ والفاحشةِ، ويستغنونَ عنِ النّساءِ بذلكَ.

﴿وَتَأۡتُونَ فِي نَادِيكُمُ ٱلۡمُنكَرَۖ﴾ كانوا يأتونَ الرّجالَ في مجالسهمْ وبعضهمْ يرى بعضـاً، ويتضارطونَ في مجالسهمْ، ويخذفونَ ويلعبونَ بالنّردِ والشّطرنجِ، ومعَ هذا كلّهِ كانوا يشركونَ باللّهِ، فلمّا وقّفهمْ لوطٌ عليه السلام على هذهِ القبائحِ رجعوا إلى التّكذيبِ واللّجاجِ، فقالوا: ﴿ٱئۡتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ﴾ أيْ إنَّ ذلكَ لا يكونُ ولا يقدرُ عليهِ. فاستنصر لوطٌ عليه السلام ربّهُ فبعثَ عليهمْ ملائكةً لعذابهمْ، فجاءوا إبراهيمَ أوّلاً مبشّرينَ بنصرةِ لوطٍ على قومهِ حسبما تقدّمَ بيانهُ في «هودٍ» وغيرها. وقرأ يعقوب وحمزة والكسائي «لننجينه وَأَهْلَهُ» بالتّخفيفِ. وشدّدَ الباقونَ. وقرأ ابنُ كثيرٍ وأبو بكرٍ وحمزةُ والكسائيُّ: «إِنَّا مُنْجُوكَ وَأَهْلَكَ» بالتّخفيفِ وشدّدَ الباقونَ. وهما لغتانِ: أنجى ونجّى بمعنى.

وقرأَ ابنُ عامرٍ: «إِنَّا مُنَزِّلُونَ» بالتّشديدِ. الباقونَ بالتّخفيفِ.

وقولهُ: ﴿وَلَقَد تَّرَكۡنَا مِنۡهَآ ءَايَةَۢ بَيِّنَةٗ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ٣٥﴾ قيل: هيَ الحجارةُ الّتي أبقيت،

وقيلَ: إنّهُ يرجمُ بها قومٌ منْ هذهِ الأمّةِ. وقالَ ابنُ عبّاسٍ: هيَ آثارُ منازلهمُ الخربةِ. وقالَ مجاهدٌ: هوَ الماءُ الأسودُ على وجهِ الأرضِ. وكلُّ ذلكَ باقٍ فلا تعارض.

قولهُ تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ أيْ وأرسلنا إلى مدين. وقد تقدم ذكرهمْ وفسادهمْ في الأعرافِ و«هودٍ» ﴿وَٱرْجُواْ ٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ﴾ الذي فيهِ الجزاءُ على الأعمالِ ﴿وَلَا تَعْثَوْاْ فِي ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٣٦﴾﴾ أيْ لا تكفروا فإنّهُ أصلُ كلِّ فسادٍ. والعثوُّ والعثيُّ أشدُّ الفسادِ. عثيَ يعثى وعثا يعثو بمعنى واحدٍ.

قولهُ تعالى: ﴿وَعَادًا وَثَمُودَاْ﴾ التقدير وأهلكنا عادا وثمودا ﴿وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم﴾ يا معشرَ الكفّارِ ﴿مِّن مَّسَٰكِنِهِمْ﴾ بالحجرِ والأحقافِ آياتٌ في إهلاكهمْ فحذفَ فاعلُ التّبيّنِ ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ الخسيسةَ فحسبوها رفيعةً ﴿فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ أيْ عنْ طريقِ الحقِّ ﴿وَكَانُواْ مُسْتَبْصِرِينَ ﴿٣٨﴾﴾ في الضّلالةِ، أو قدْ عرفوا الحقَّ منَ الباطلِ بظهورِ البراهينِ. وهذا القولُ أشبهُ، لأنّهُ إنّما يقالُ فلانٌ مستبصرٌ إذا عرفَ الشّيءَ على الحقيقةِ.

قولهُ تعالى: ﴿وَقَٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ﴾ أي وصدَّ قارونَ وفرعونَ وهامانَ ﴿فَٱسْتَكْبَرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ عنِ الحقِّ وعنْ عبادةِ اللّهِ ﴿وَمَا كَانُواْ سَٰبِقِينَ ﴿٣٩﴾﴾ أيْ فائتينَ. وقيلَ: سابقينَ في الكفرِ بلْ قدْ سبقهمْ للكفرِ قرونٌ كثيرةٌ فأهلكناهمْ. ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا﴾ يعني قومَ لوطٍ. والحاصبُ ريحٌ يأتي بالحصباءِ وهيَ الحصى الصّغارُ. وتستعملُ في كلِّ عذابٍ ﴿وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ﴾ يعني ثموداً وأهلَ مدينَ ﴿وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ﴾ يعني قارونَ ﴿وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا﴾ قومَ نوحٍ وقومَ فرعونَ ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ﴾ لأنّهُ أنذرهمْ وأمهلهم وبعث إليهم الرسل وأزاح العذر.

قولهُ تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا﴾ وهوَ مثلٌ ضربهُ اللّهُ سبحانهُ لمنِ اتّخذَ منْ دونهِ آلهةً لا تنفعهُ ولا تضرّهُ، كما أنَّ بيتَ العنكبوتِ لا يقيها حراً ولا برداً ﴿وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ﴾ أيْ أضعفها ﴿لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾﴾.

قولهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٍ﴾ ﴿مَا﴾ بمعنى الّذي وَ

﴿مِن﴾ للتبعيض، ولو كانت زائدة للتوكيد لانقلب المعنى، والمعنى: إنَّ اللّهَ يعلمُ ضَعفَ ما يعبدونَ منْ دونهِ. وقرأ عاصمٌ وأبو عمرو ويعقوبُ: ﴿يَدْعُونَ﴾ بالياءِ، لذكرِ الأممِ قبلها. الباقونَ بالتّاءِ على الخطابِ.

قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا﴾ نبيّنها ﴿لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ﴾ أيْ يفهمها ﴿إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ باللّهِ.

قولهُ تعالى: ﴿خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ﴾ أيْ بالعدلِ والقسطِ. وقيلَ: بكلامهِ وقدرتهِ وذلكَ هوَ الحقُّ ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً﴾ علامةً ودلالةً ﴿لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ المصدّقينَ.

قولهُ تعالى: ﴿ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿٤٥﴾﴾، فيهِ أربعُ مسائلَ:

الأولى: قولهُ تعالى: ﴿ٱتْلُ﴾ أمرٌ بالتّلاوةِ والدُّؤوبِ عليها. وقدْ مضى في طه الوعيدُ فيمنْ أعرضَ عنها، والكتابُ يرادُ به القرآن.

الثانية– قوله تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ﴾ الخطابُ للنّبيِّ ﷺ وأمّتهِ. وإقامة الصلاة أداؤها في وقتها بقراءتها وركوعها وسجودها وقعودها وتشهّدها وجميعِ شروطها.

الثالثة– قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ﴾ يريدُ إن الصلاة الخمسَ هيَ الّتي تكفّرُ ما بينها منَ الذّنوبِ، كما قالَ ﷺ: «أرأيتمْ لوْ أنَّ نهراً ببابِ أحدكمْ يغتسلُ فيهِ كلَّ يومٍ خمسَ مرّاتٍ هلْ يبقى منْ درنهِ شي» قالوا: لا يبقى من درنه شيء، قالَ: «فذلكَ مثلُ الصّلواتِ الخمسِ يمحو اللّهُ بهنَّ الخطايا» خرّجهُ التّرمذيُّ منْ حديثِ أبي هريرةَ، وقالَ فيهِ حديثٌ حسنٌ صحيحٌ.

وقالَ ابنُ عمرَ: الصّلاةُ هنا القرآنُ. والمعنى: الّذي يتلى في الصّلاةِ ينهى عنِ الفحشاءِ والمنكرِ، وعنِ الزنى والمعاصي قلت: ومنهُ الحديثُ الصّحيحُ: «قسمتُ الصّلاةَ بيني وبينَ

عبدي نصفين» يريدُ قراءةَ الفاتحةِ.

وقيلَ: العبدُ ما دامَ في صلاتهِ لا يأتي فحشاءَ ولا منكراً، أيْ إنَّ الصّلاةَ تنهى ما دمتَ فيها.

وفي الآيةِ تأويلٌ ثالثٌ، وهوَ الّذي ارتضاهُ المحقّقونَ أنَّ الصّلاةَ تنهى صاحبها وممتثلها عنِ الفحشاءِ والمنكرِ وذلك أنه إذا خشعَ وأخبت لربه وادكر أنّهُ واقفٌ بينَ يديهِ، وأنّهُ مطّلعٌ عليهِ ويراهُ، صلحتْ لذلكَ نفسهُ وتذلّلتْ، وخامرها ارتقابُ اللّهِ تعالى، وظهرتْ على جوارحهِ هيبتها، ولمْ يكدْ يفترُ منْ ذلكَ حتّى تظلّهُ صلاةٌ أخرى يرجعُ بها إلى أفضلِ حالةٍ، فهذهِ صلاةٌ تنهى ولا بدَّ عنِ الفحشاءِ والمنكرِ، ومنْ كانتْ صلاتهُ دائرةً حولَ الإجزاءِ، لا خشوعَ فيها ولا تذكّرَ ولا فضائلَ، كصلاتنا- وليتها تجزيء- فتلكَ تتركُ صاحبها منْ منزلتهِ حيثُ كانَ، فإنْ كانَ على طريقةِ معاصٍ تبعدهُ منَ اللّهِ تعالى تركتهُ الصّلاةُ يتمادى على بعدهِ. وعلى هذا يخرّجُ الحديثُ المرويُّ عنِ ابنِ مسعودٍ وابنِ عبّاسٍ: «منْ لمْ تنههُ صلاتهُ عنِ الفحشاءِ والمنكرُ لمْ تزدهُ منَ اللّهِ إلّا بعداً».

وقيلَ: هوَ خبرٌ بمعنى الأمرِ. أيْ ليتنهِ المصلّي عنِ الفحشاءِ والمنكرِ. والصّلاةُ بنفسها لا تنهى، ولكنّها سببُ الانتهاءِ. وهوَ كقولهِ تعالى: ﴿هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيۡكُم بِٱلۡحَقِّۚ﴾ وقولهُ: ﴿أَمۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٗا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُواْ بِهِۦ يُشۡرِكُونَ﴾.

الرابعة- قولهُ تعالى: ﴿وَلَذِكۡرُ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۗ﴾ أيْ ذكرُ اللّهِ لكمْ بالثّوابِ والثّناءِ عليكمْ أكبرُ منْ ذكركمْ لهُ في عبادتكمْ وصلواتكمْ.

وقيلَ: ذكركمُ اللّهَ في صلاتكمْ وفي قراءةِ القرآنِ أفضل من كل شيء.

وقيلَ: المعنى، إنَّ ذكرَ اللّهِ أكبرُ معَ المداومةِ منَ الصّلاةِ في النّهيِ عنِ الفحشاءِ والمنكر.

والذّكرُ النّافعُ هوَ معَ العلمِ وإقبالِ القلبِ وتفرّغهُ إلّا منَ اللّهِ. وأمّا ما لا يتجاوزُ اللّسانَ ففي رتبةٍ أخرى. وباقي الآيةِ ضربٌ منَ الوعيدِ والحثِّ على المراقبة.

قولهُ تعالى: ﴿۞وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ٤٦ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَۚ فَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۖ وَمِنۡ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤۡمِنُ بِهِۦۚ وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلۡكَٰفِرُونَ ٤٧﴾، فيهِ مسألتانِ:

الأولى: اختلفَ العلماءُ في قولهِ تعالى: ﴿۞وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾:

فقيل هيَ محكمةٌ فيجوزُ مجادلةُ أهلِ الكتابِ بالّتي هيَ أحسنُ رجاءَ إجابتهمْ إلى الإيمانِ، لا على طريقِ الإغلاظِ والمخاشنةِ، وقولهُ على هذا: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ﴾ معناهُ ظلموكمْ، وإلّا فكلّهمْ ظلمةٌ على الإطلاقِ.

وقيلَ: المعنى لا تجادلوا منْ آمنَ بمحمّدٍ ﷺ منْ أهلِ الكتابِ المؤمنينَ كعبدِ اللّهِ ابن سلامٍ ومنْ آمنَ معهُ ﴿إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ أيْ بالموافقةِ فيما حدّثوكمْ بهِ منْ أخبارِ أوائلهمْ وغيرِ ذلكَ. وقولهُ على هذا التّأويلِ: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ يريدُ بهِ منْ بقيَ على كفرهِ منهمْ، كمنْ كفرَ وغدرَ منْ قريظةَ والنّضيرِ وغيرهمْ. والآيةُ على هذا أيضًا محكمةٌ.

وقيلَ: هذهِ الآيةُ منسوخةٌ بآيةِ القتالِ قولهُ تعالى: ﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾. قال قتادةُ: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ أيْ جعلوا اللّهِ ولداً، وقالوا: ﴿يَدُ ٱللَّهِ مَغۡلُولَةٌۚ﴾ وَ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٞ﴾، واحتجّوا بأنَّ الآيةَ مكّيّةٌ، ولمْ يكنْ في ذلكَ الوقتِ قتالٌ ولا جزيةٍ، والقول الأول حسنٌ، لأنَّ أحكامَ اللّهِ عزَّ وجلَّ لا يقالُ فيها إنّها منسوخةٌ إلّا بخبرٍ يقطعُ العذرَ، أوْ حجّةٍ منْ معقول.

وقولهُ: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ﴾ ونصبوا للمؤمنينَ الحربَ فجدالهمْ بالسّيفِ حتّى يؤمنوا، أوْ يعطوا الجزيةَ.

الثانية- قولهُ تعالى: ﴿وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ﴾ روى البخاريُّ عنْ أبي هريرةَ: قالَ كانَ أهلُ الكتابِ يقرأونَ التّوراةَ بالعبرانيّةِ ويفسّرونها بالعربيّةِ، لأهلِ الإسلامِ، فقالَ: رسولُ اللّهِ ﷺ: «لا تصدّقوا أهلَ الكتابِ ولا تكذّبوهمْ» ﴿وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ﴾.

قولهُ تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾﴾، فيهِ ثلاثُ مسائلَ:

الأولى: قولهُ تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ﴾ الضّميرُ في ﴿قَبْلِهِۦ﴾ عائدٌ إلى القرآن، بلْ أنزلناهُ إليكَ في غايةِ الإعجازِ والتّضمينِ للغيوبِ وغيرِ ذلكَ، فلوْ كنتَ ممّنْ يقرأُ كتابًا، ويخطُّ حروفًا ﴿لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ أيْ منْ أهلِ الكتابِ، وكانَ لهمْ في ارتيابهمْ متعلّقٌ.

الثانية- وقعَ في صحيحِ مسلمٍ منْ حديثِ البراءِ في صلحِ الحديبيةِ أنَّ النّبيَّ ﷺ قالَ لعليٍّ: «اكتبِ الشّرطَ بيننا بسمِ اللّهِ الرّحمنِ الرّحيمِ هذا ما قاضى عليهِ محمّدٌ رسولُ اللّهِ» فقالَ لهُ المشركونَ: لوْ نعلمُ أنّكَ رسولُ اللّهِ تابعناكَ- وفي روايةٍ بايعناكَ- ولكنِ اكتبْ محمّدُ بنُ عبدِ اللّهِ فأمرَ عليا أن يمحوها، فقال علي: والله لا أمحاه. فقالَ: رسولُ اللّهِ ﷺ: «أرني مكانها» فأراهُ فمحاها وكتبَ ابنُ عبدِ الله.

وظاهرُ هذا أنّهُ ﷺ محا تلكَ الكلمةَ الّتي هيَ رسولُ اللّهِ- ﷺ- بيدهِ، وكتبَ مكانها ابن عبدِ اللّهِ. وقدْ رواهُ البخاريُّ بأظهرَ منْ هذا. فقالَ: فأخذَ رسولُ اللّهِ ﷺ الكتّابَ فكتبَ. وزادَ في طريقٍ أخرى: ولا يحسنُ أنْ يكتبَ. فقالَ: جماعةٌ: بجوازِ هذا الظّاهرِ عليهِ وأنّهُ كتبَ بيدهِ، ورأوا أنَّ ذلكَ غيرُ قادحٍ في كونهِ أمّيًا، ولا معارضٍ بقولهِ: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَۖ﴾ ولا بقولهِ: «إنّا أمّةٌ أمّيّةٌ لا نكتبُ ولا نحسبُ» بلْ رأوهُ زيادةً في معجزاتهِ، واستظهاراً على صدقهِ وصحّةِ رسالتهِ وذلكَ أنّهُ كتبَ منْ غيرِ تعلّمٍ لكتابةٍ، ولا تعاطٍ لأسبابها، وإنّما أجرى اللّهُ تعالى على يدهِ وقلمهِ حركاتٍ كانتْ عنها خطوطٌ مفهومها ابنُ عبدِ اللّهِ لمنْ قرأها، فكانَ ذلكَ خارقًا للعادةِ.

الثالثة- الصّحيحُ في البابِ أنّهُ ما كتبَ ولا حرفًا واحداً، وكذلكَ ما قرأَ ولا تهجّى. إنّما معنى كتبَ وأخذَ القلمَ، أيْ أمرَ منْ يكتبُ بهِ منْ كتّابهِ، وكانَ منْ كتبةِ الوحيِ بينَ يديهِ ﷺ ستّةٌ وعشرونَ كاتبًا. فإن قيل: فقدْ تهجّى النّبيُّ ﷺ حينَ ذكرَ الدّجّالَ فقال: «مكتوب بين عينيه: ك ا ف ر» ؟ فالجوابُ: ما نصَّ عليهِ ﷺ في حديثِ حذيفةَ وفيه: «يقرؤهُ كلُّ مؤمنٍ كاتبٍ وغيرِ كاتبٍ» فقدْ نصَّ في ذلك على غير الكتاب ممّنْ يكونُ أمّيًا. وهذا منْ أوضحِ ما يكون جليًا.

قولهُ تعالى: ﴿بَلۡ هُوَ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٞ﴾ يعني القرآنَ ﴿فِي صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَۚ﴾ لا كما يقولهُ المبطلونَ منْ أنّهُ سحرٌ أوْ شعرٌ، ولكنّهُ علاماتٌ ودلائلُ يعرفُ بها دينُ اللّهِ وأحكامهُ. والّذينَ أوتوا العلمَ، وهمْ أصحابُ محمّدٍ ﷺ والمؤمنونَ بهِ، يحفظونهُ ويقرأونهُ. ووصفهمْ بالعلمِ، لأنّهمْ ميّزوا بأفهامهمْ بينَ كلامِ اللّهِ وكلامِ البشرِ والشّياطينِ.

وقيل: ﴿بَلۡ هُوَ﴾ يعني محمّداً ﷺ ﴿ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٞ فِي صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَۚ﴾ منْ أهلِ الكتابِ يجدونهُ مكتوباً عندهمْ في كتبهمْ بهذهِ الصّفةِ أمّيًا لا يقرأُ، ولا يكتبُ، ولكنّهمْ ظلموا أنفسهمْ وكتموا ﴿وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ٤٩﴾ أيِ الكفّارُ، لأنهم جحدوا نبوته وما جاء به.

قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَٰتٞ مِّن رَّبِّهِۦۖ﴾ كما جاءَ صالحٌ بالنّاقةِ، وموسى بالعصا، وعيسى بإحياءِ الموتى ﴿قُلۡ إِنَّمَا ٱلۡأٓيَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ يأتي بها إذا شاءَ ﴿وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٞ مُّبِينٌ ٥٠﴾. وقرأ ابنُ كثيرٍ وأبو بكرٍ وحمزةُ والكسائيُّ: «آيَةٌ» بالتّوحيدِ. وجمعَ الباقونَ؛ لقولهِ تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّمَا ٱلۡأٓيَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ﴾.

قولهُ تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَكۡفِهِمۡ أَنَّآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡۚ﴾ وفي مثلِ هذا قالَ ﷺ لعمرَ رضي الله عنه: «لوْ كانَ موسى بنُ عمرانَ حيًا لما وسعهُ إلّا اتّباعي»، وفي مثلهِ قالَ ﷺ «ليسَ منّا منْ لمْ يتغنَّ بالقرآنِ» أيْ يستغني بهِ عنْ غيرهِ. وهذا تأويلُ البخاريِّ رحمهُ اللّهُ في الآيةِ ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ أيْ في القرآنِ ﴿لَرَحۡمَةٗ﴾ في الدّنيا والآخرةِ ﴿لِقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ٥١﴾.

قولهُ تعالى: ﴿قُلۡ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡ شَهِيدٗاۖ﴾ يشهدُ لي بالصّدقِ فيما أدّعيهِ منْ أنّي رسولهُ، وأنَّ هذا القرآنَ كتابهُ ﴿يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ﴾ فلا يخفى عليه شيء ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ﴾ بإبليسَ وبعبادةِ الأوثانِ والأصنامِ ﴿وَكَفَرُواْ بِٱللَّهِ﴾ أيْ لتكذيبهمْ برسلهِ، وجحدهمْ لكتابهِ. وقيلَ: بما أشركوا بهِ منَ الأوثانِ، وأضافوا إليهِ منَ الأولادِ والأضدادِ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ٥٢﴾ أنفسهم وأعمالهم في الآخرة.

قولهُ تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ﴾ بقولهم: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ وقولهم: ﴿رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾. ﴿وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ ألّا أعذّبَ قومكَ وأؤخّرهمْ إلى يوم القيامةِ. بيانهُ: ﴿بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ﴾. ﴿لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ الّذي استعجلوهُ ﴿وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً﴾ أيْ فجأةً ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٣﴾﴾ بنزولهِ عليهمْ. ﴿يَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ﴾ وقدْ أعدَّ لهمْ جهنّمَ وأنّها ستحيطُ بهمْ لا محالةَ، فما معنى الاستعجالِ.

قولهُ تعالى: ﴿يَوْمَ يَغْشَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ هو يوم أحاطتْ بهمْ جهنّمُ. وإنّما قالَ: ﴿مِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ للمقاربةِ وإلّا فالغشيانُ منْ فوقُ أعمُّ.

﴿وَيَقُولُ ذُوقُواْ﴾ قرأَ أهلُ المدينةِ والكوفةِ: «نَقُولُ» بالنّونِ. الباقونَ بالياءِ أي الملكُ الموكّلُ بهمْ، والقراءتان ترجعُ إلى معنى. أيْ يقولُ الملكُ بأمرنا ذوقوا.

قولهُ تعالى: ﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرْضِي وَٰسِعَةٌ﴾ فهاجروا إلى المدينةِ فإنّها واسعةٌ، لإظهارِ التّوحيدِ بها. ﴿فَإِيَّٰيَ فَٱعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ إنْ ضاقَ بكمْ موضعٌ فاعبدوني في غيرهِ.

وقرأ يعقوب وحمزةُ والكسائيُّ وخلفٌ «يَا عِبَادِي» بإسكانِ الياءِ. وفتحها الباقونَ. ﴿إِنَّ أَرْضِي﴾ فتحها ابنُ عامرٍ. وسكّنها الباقونَ.

قولهُ تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٥٧﴾﴾ فالبدارُ إلى طاعةِ اللّهِ والهجرةِ إليهِ وإلى ما يمتثلُ. ﴿ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾. قرأ وأبو بكرٍ عنْ عاصم «يُرْجَعُونَ» بالياءِ، لقولهِ ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ وقرأ الباقونَ بالتّاءِ، لقولهِ ﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾.

ثمَّ وعدَ المؤمنينَ العاملينَ بسكنى الجنّةِ تحريضاً منهُ تعالى، وذكرَ الجزاءَ الّذي ينالونهُ، ثمَّ نعتهمْ بقولهِ: ﴿ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٥٩﴾﴾.

قولهُ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ غُرَفًا﴾ قرأ حمزةُ والكسائيُّ: «لَنُثْوِيَنَّهُمْ» بالثّاءِ مكانَ الباءِ منَ الثّوي وهوَ الإقامةُ، أيْ لنعطينّهمْ غرفاً يثوونَ فيها. الباقونَ ﴿لَنُبَوِّئَنَّهُم﴾ أيْ لننزلنّهمْ. ﴿غُرَفًا﴾ جمعُ غرفةٍ وهيَ العليّةُ المشرفةُ. وفي

صحيح مسلم عنْ سهلِ بنِ سعدٍ أنَّ رسولَ اللّهِ ﷺ قالَ: «إنَّ أهلَ الجنّةِ ليتراءونَ أهلَ الغرفِ منْ فوقهمْ كما تتراءونَ الكوكبَ الدّرّيَّ الغابرَ منَ الأفقِ منَ المشرقِ أوِ المغربِ لتفاضلِ ما بينهمْ» قالوا: يا رسولَ اللّهِ تلكَ منازلُ الأنبياءِ لا يبلغها غيرهمْ. قالَ: «بلى والّذي نفسي بيدهِ رجالٌ آمنوا باللّهِ وصدّقوا المرسلينَ».

وخرّجَ التّرمذيُّ عنْ عليٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قالَ: قالَ رسولُ اللّهِ ﷺ: «إنَّ في الجنّةِ لغرفاً يرى ظهورها منْ بطونها وبطونها منْ ظهورها» فقامَ إليهِ أعرابيٌّ فقالَ: لمنْ هيَ يا رسولَ اللّهِ؟ قالَ: «هيَ لمنْ أطابَ الكلامَ وأطعمَ الطّعامَ وأدامَ الصّيامَ وصلّى للّهِ باللّيلِ والنّاسُ نيامٌ».

قولهُ تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحۡمِلُ رِزۡقَهَا ٱللَّهُ يَرۡزُقُهَا﴾ أينما توجّهتْ ﴿وَإِيَّاكُمۡ﴾ في دارِ الهجرةِ.

قالَ ابنُ عبّاسٍ: الدّوابُّ كلُّ ما دبَّ منَ الحيوانِ، فكلّهُ لا يحملُ رزقهُ ولا يدّخرُ إلّا ابنَ آدمَ والنّملُ والفأرُ. «اللّهُ يرزقها وإيّاكمْ» يسوّي بينَ الحريصِ والمتوكّلِ في رزقهِ، وبينَ الرّاغبِ والقانعِ، وبينَ الحيولِ والعاجزِ حتّى لا يغترَّ الجَلِدُ أنّهُ مرزوقٌ بجَلَدهِ، ولا يتصوّرُ العاجزُ أنّهُ ممنوعٌ بعجزهِ. وفي الصّحيحِ عنِ النّبيِّ ﷺ: «لوْ أنّكمْ توكّلونَ على اللّهِ حقَّ توكّلهِ لرزقكمْ كما يرزقُ الطّيرَ تغدو خماصاً وتروحُ بطاناً» ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لدعائكمْ وقولكمْ لا نجدُ ما ننفقُ بالمدينةِ ﴿ٱلۡعَلِيمُ﴾ بما في قلوبكم.

قولهُ تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾ الآيةَ. فإذا اعترفتمْ بأنَّ اللّهَ خالقُ هذهِ الأشياءِ، فكيفَ تشكّونَ في الرّزقِ، فمنْ بيدهِ تكوينُ الكائناتِ لا يعجزُ عنْ رزقِ العبدِ، ولهذا وصلهُ بقولهِ تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ وَيَقۡدِرُ لَهُۥٓ﴾ ﴿فَأَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ ۝٦١﴾ أيْ كيفَ يكفرونَ بتوحيدي وينقلبونَ عنْ عبادتي ﴿ٱللَّهُ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ﴾ أيْ لا يختلفُ أمرُ الرّزقِ بالإيمانِ والكفرِ، فالتّوسيعُ والتّقتيرُ منهُ فلا تعييرَ بالفقرِ، فكلُّ شيءٍ بقضاءٍ وقدرٍ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ۝٦٢﴾ من أحوالكم وأموركم. وقيلَ: عليمٌ بما يصلحكمْ منْ إقتارٍ أوْ توسيعٍ.

قولهُ تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ أيْ منَ السّحابِ مطراً ﴿فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا﴾ أيْ جدبها وقحطِ أهلها ﴿لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ فلمَ تشركونَ بهِ وتنكرونَ الإعادةَ ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ أيْ على ما أوضحَ منَ الحججِ والبراهين على قدرته ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ۝٦٣﴾ هذه الحجج. وقيلَ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ على إقرارهمْ بذلكَ. وقيلَ: على إنزالِ الماءِ وإحياءِ الأرضِ.

﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ﴾ إنْ بقيتْ لكَ لمْ تبقَ لها:

تروحُ لنا الدّنيا بغيرِ الّذي غدتْ ... وتحدثُ منْ بعدِ الأمورِ أمورُ
وتجري اللّيالي باجتماعٍ وفرقةٍ ... وتطلعُ فيها أنجمٌ وتغورُ
فمنْ ظنَّ أنَّ الدّهرَ باقٍ سرورهُ ... فذاكَ محالٌ لا يدومُ سرورُ
عفا اللّهُ عمّنْ صيّرَ الهمَّ واحداً ... وأيقنَ أنَّ الدّائراتِ تدورُ

﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِيَ ٱلْحَيَوَانُ﴾ الّتي لا تزولُ ولا موتَ فيها، والحيوان والحياة والحِيّ بكسرِ الحاءِ واحدٌ ﴿لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ۝٦٤﴾ أنها كذلك.

قولهُ تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ﴾ يعني السّفنَ وخافوا الغرقَ ﴿دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ وتركوا عبادةَ الأصنامِ ودعاءها ﴿فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ۝٦٥﴾ ويدعونَ معهُ غيرهُ، وما لم ينزّلْ بهِ سلطاناً. وقيلَ: إشراكهمْ أنْ يقولَ قائلهمْ: لولا اللّهُ والرّئيسُ أوِ الملّاحُ لغرقنا، فيجعلونَ ما فعلَ اللّهُ لهمْ منَ النّجاةِ قسمةً بينَ اللّهِ وبينَ خلقهِ.

قولهُ تعالى: ﴿لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا۟﴾ قيل: هما لامُ كيْ، وقيلَ: هما لامُ أمرٍ معناهُ التّهديدُ والوعيدُ. أي اكفروا بما أعطيناكمْ منَ النّعمةِ والنّجاةِ منَ البحرِ وتمتّعوا، ويقوّي هذا قراءةُ نافعٍ وحمزةَ: ﴿وَلْيَتَمَتَّعُوا۟﴾ بإسكانِ اللّامِ.

قولهُ تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا﴾ في مكّةَ ﴿وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ يقتلُ بعضهمْ بعضاً ويسبي بعضهمْ بعضاً. والخطفُ الأخذُ بسرعةٍ ﴿أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ﴾ أفبالشّركِ، أو أفبإبليسَ ﴿وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ ۝٦٧﴾ أفبعطاءِ اللّهِ وإحسانه، أو: أفبما جاءَ به

النّبيُّ ﷺ منْ الهدى. وحكى النّقّاشُ: أفبإطعامهمْ منْ جوعٍ، وأمنهمْ منْ خوفٍ يكفرونَ. وهذا تعجّبٌ وإنكارٌ خرجَ مخرجَ الاستفهامِ.

قولهُ تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ أيْ لا أحدَ أظلمُ ممّنْ جعلَ معَ اللّهِ شريكًا وولداً، وإذا فعلَ فاحشةً قالَ: ﴿وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾ ﴿أَوْ كَذَّبَ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُۥٓ﴾ بالقرآنِ والتّوحيدِ وبمحمّدٍ ﷺ ﴿أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٨﴾﴾ أيْ مستقرٌّ. وهو استفهام تقرير.

قولهُ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا﴾ وطلبِ مرضاتنا، أي جاهدوا الكفّارَ، وقيلَ: إنَّ هذهِ الآيةَ قبلَ الجهادِ العرفيِّ، وإنّما هوَ جهادٌ عامٌّ في دينِ اللّهِ وطلبِ مرضاتهِ. وقيلَ: هو قتال الكفّارِ ونصرُ الدّينِ، والرّدُّ على المبطلينَ، وقمعُ الظّالمينَ، وعظمهُ الأمرُ بالمعروفِ والنّهيُ عنِ المنكرِ، ومنهُ مجاهدةُ النّفوسِ في طاعةِ اللّهِ وهوَ الجهادُ الأكبرُ.

﴿لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ لدينِ الحقِّ والجنة ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾﴾ بالنّصرةِ والمعونةُ، والحفظِ والهدايةِ، ومعَ الجميعِ بالإحاطةِ والقدرةُ. فبينَ المعينين بون.

تمت سورة العنكبوت، والحمد لله وحده.

سورة الروم

مكّيّةٌ كلّها منْ غيرِ خلافٍ، وهي ستون آية.

بسمِ اللّهِ الرّحمنِ الرّحيمِ

قولهُ تعالى: ﴿الٓمٓ ① غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ② فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ﴾ روى التّرمذيُّ عنْ أبي سعيدٍ الخدريِّ قالَ: لمّا كانَ يومُ بدرٍ ظهرتِ الرّومُ على فارسَ فأعجبَ ذلكَ المؤمنينَ فنزلتْ: ﴿الٓمٓ ① غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ② فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ﴾- إلى قولهِ- ﴿يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ④ بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ﴾. قالَ: ففرحَ المؤمنونَ بظهورِ الرّومِ على فارسَ. قالَ: هذا حديثٌ غريبٌ منْ هذا الوجهِ.

ورواهُ أيضًا منْ حديثِ ابنِ عبّاسٍ بأتمَّ منهُ. قالَ ابنِ عبّاسٍ في قولِ اللّهِ عزَّ وجلَّ: ﴿الٓمٓ ① غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ② فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ﴾ قالَ: غُلبتْ وغلبتْ، قالَ: كانَ المشركونَ يحبّونَ أنْ يظهرَ أهلُ فارسَ على الرّومِ لأنّهمْ وإيّاهمْ أهلُ أوثانٍ، وكانَ المسلمونَ يحبّونَ أنْ تظهرَ الرّومُ على فارسَ لأنّهمْ أهلُ كتابٍ، فذكروهُ لأبي بكرٍ فذكرهُ أبو بكرٍ لرسولِ اللّهِ ﷺ فقالَ: «أما إنّهمْ سيَغلِبونَ» فذكرهُ أبو بكرٍ لهمْ فقالوا: اجعلْ بيننا وبينكَ أجلاً، فإنْ ظهرنا كانَ لنا كذا، وإنْ ظهرتمْ كانَ لكمْ كذا وكذا فجعلَ أجلَ خمسِ سنينَ، فلمْ يظهروا، فذكرَ ذلكَ للنّبيِّ ﷺ فقالَ: «ألا جعلته إلى دونٍ»- أراهُ قالَ العشرَ- قالَ: قالَ أبو سعيدٍ: والبضعُ ما دونَ العشرةِ. قالَ: ثمَّ ظهرتِ الرّومُ بعدُ، قالَ: فذلكَ قولهُ: ﴿الٓمٓ ① غُلِبَتِ ٱلرُّومُ﴾ -إلى قولهِ- ﴿ويومَئذٍ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ④ بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ﴾. قالَ سفيانُ: سمعتُ أنّهمْ ظهروا عليهمْ يومَ بدرٍ. قالَ أبو عيسى: هذا حديثٌ حسنٌ صحيحٌ غريبٌ.

ورواهُ أيضًا عنْ نيارِ بنِ مكرمِ الأسلميِّ وفيه: قالَ ناسٌ منْ قريشٍ لأبي بكرٍ: فذلكَ بيننا وبينكمْ، زعمَ صاحبكَ أنَّ الرّومَ ستغلبُ فارسَ في بضعِ سنينَ! أفلا نراهنكَ على ذلكَ؟ قالَ: بلى. وذلكَ قبلَ تحريمِ الرّهانِ، فارتهنَ أبو بكرٍ والمشركونَ وتواضعوا الرّهانَ. وقالوا لأبي بكرٍ: كمْ تجعلُ البضعَ؟ ثلاثَ سنينَ أوْ تسعَ سنينَ؟ فسمِّ بيننا وبينكَ وسطًا تنتهي إليهِ، قالَ فسمّوا بينهمْ ستَ سنينَ، قالَ: فمضتِ السّتُّ سنينَ قبلَ أنْ يظهروا، فأخذَ المشركونَ رهنَ أبي بكرٍ، فلمّا دخلتِ السّنةُ السّابعةُ ظهرتِ الرّومُ على فارسَ، فعابَ المسلمونَ على أبي

بكرٍ تسميةَ ستِّ سنينَ، قالَ: لأنَّ اللّهَ تعالى قالَ: ﴿فِي بِضْعِ سِنِينَ﴾ قالَ: وأسلمَ عندَ ذلكَ ناسٌ كثيرٌ. قالَ أبو عيسى: هذا حديثٌ حسنٌ صحيحٌ غريبٌ.

﴿فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ﴾ ما بينَ بلادِ العربِ والشّامِ، وهيَ أدنى بلادِ الشّامِ إلى أرضِ العربِ والعجمِ، فلمّا طرأَ ذلكَ وغلبتِ الرّومُ سُرَّ الكفّارُ فبشّرَ اللّهُ عبادهُ بأنَّ الرّومَ سيغلبونَ وتكونُ الدّولةَ لهمْ في الحربِ.

وكانَ في هذا الأخبارِ دليلٌ على نبوّةِ محمّدٍ ﷺ، لأنَّ الرّومَ غلبتها فارسُ، فأخبرَ اللّهُ عزَّ وجلَّ نبيّهُ محمّداً ﷺ أنَّ الرّومَ ستغلبُ فارسَ في بضعِ سنينَ، وأنَّ المؤمنينَ يفرحونَ بذلكَ، لأنَّ الرّومَ أهلُ كتابٍ، فكانَ هذا منْ علمِ الغيبِ الّذي أخبرَ اللّهُ عزَّ وجلَّ بهِ ممّا لمْ يكنْ علموهُ، وأمرَ أبا بكرٍ أنْ يراهنهمْ على ذلكَ وأنْ يبالغَ في الرّهانِ، ثمَّ حرّمَ الرّهانُ بعدُ ونسخَ بتحريمِ القمارِ.

وروى أنَّ إيقاعَ الرّومِ بالفرسِ كانَ يومَ بدرٍ، كما في حديثِ أبي سعيدٍ الخدريِّ حديثِ التّرمذيِّ، وروى أنَّ ذلكَ كانَ يومَ الحديبيةِ، وأنَّ الخبرَ وصلَ يومَ بيعةِ الرّضوانِ.

قالَ ابنُ عطيّةَ: وفي كلا اليومينِ كانَ نصرٌ منَ اللّهِ للمؤمنينَ.

وقدْ ذكرَ النّاسُ أنَّ سببَ سرورِ المسلمينَ بغلبةِ الرّومِ وهمّهمْ أنْ تغلبَ إنّما هوَ أنَّ الرّومَ أهلُ كتابٍ كالمسلمينَ، وفارسَ منْ أهلِ الأوثانِ، كما تقدّمَ بيانهُ في الحديثِ.

وقولٌ آخرُ وهوَ أولى – أنَّ فرحهمْ إنّما كانَ لإنجازِ وعدِ اللّهِ تعالى، إذْ كانَ فيهِ دليلٌ على النّبوّةِ لأنّهُ أخبرَ تباركَ وتعالى بما يكونُ في بضعِ سنينَ فكانَ فيهِ.

ويشبهُ أنْ يعلّلَ ذلكَ بما يقتضيهِ النّظرُ منْ محبّةِ أنْ يغلبَ العدوُّ الأصغرُ لأنّهُ أيسرُ مئونةً، ومتى غلبَ الأكبرُ كثرَ الخوفُ منهُ، فتأمّلْ هذا المعنى، مع ما كان رسول الله ﷺ ترجّاهُ منْ ظهورِ دينهِ وشرعِ اللّهِ الّذي بعثهُ بهِ وغلبتهِ على الأممِ، وإرادةِ كفّارِ مكّةَ أنْ يرميهُ اللّهُ بملكٍ يستأصلهُ ويريحهمْ منهُ.

وقيلَ: سرورهمْ إنّما كانَ بنصرِ رسولُ اللّهِ ﷺ على المشركينَ، لأنَّ جبريلَ أخبرَ بذلكَ النّبيَّ عليه السلام يومَ بدرٍ.

ويحتملُ أنْ يكونَ سرورهمْ بالمجموعِ منْ ذلكَ، فسرّوا بظهورهمْ على عدوّهمْ وبظهورِ الرّومِ أيضاً وبإنجازِ وعدِ اللّهِ.

قولهُ تعالى: ﴿لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ﴾ منْ قبلِ هذهِ الغلبةِ ومنْ بعدها. وقيلَ: منْ قبلِ كل شيء ومن بعد كل شيء ﴿وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٤ بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ﴾ تقدّمَ ذكرهُ ﴿يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ﴾ منْ أوليائه، لأنَّ نصرهُ مختصٌّ بغلبةِ أوليائهِ لأعدائهِ، فأمّا غلبةُ أعدائهِ لأوليائهِ فليسَ بنصرهِ، وإنّما هوَ ابتلاءٌ وقدْ يسمّى ظفراً ﴿وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ﴾ في نقمته ﴿ٱلرَّحِيمُ ٥﴾ لأهل طاعته.

قولهُ تعالى: ﴿وَعۡدَ ٱللَّهِۖ لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥ﴾ لأنَّ كلامهُ صدقٌ ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ٦﴾ وهمُ الكفّارُ وهمْ أكثرُ. وقيلَ: المرادُ مشركو مكّةَ. وانتصبَ ﴿وَعۡدَ ٱللَّهِ﴾ على المصدرِ: أيْ وعدَ ذلكَ وعداً. ثمَّ بيّنَ تعالى مقدارَ ما يعلمونَ فقالَ: ﴿يَعۡلَمُونَ ظَٰهِرٗا مِّنَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ يعني أمرَ معايشهمْ ودنياهمْ: متى يزرعونَ ومتى يحصدونَ، وكيفَ يغرسونَ وكيفَ يبنونَ، قالَ الحسنُ: بلغَ واللّهِ منْ علمِ أحدهمْ بالدّنيا أنّهُ ينقدُ الدّرهمَ فيخبركَ بوزنهِ ولا يحسنُ أنْ يصلّيَ ﴿وَهُمۡ عَنِ ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ أيْ عنِ العلمِ بها والعملِ لها ﴿هُمۡ غَٰفِلُونَ ٧﴾ قالَ بعضهمْ:

ومنَ البليّةِ أنْ ترى لكَ صاحباً في صورةِ الرّجلِ السّميعِ المبصرِ
فطنٍ بكلِّ مصيبةٍ في مالهِ وإذا يصابُ بدينهِ لم يشعرِ

قولهُ تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَتَفَكَّرُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَأَجَلٖ مُّسَمّٗىۗ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآيِٕ رَبِّهِمۡ لَكَٰفِرُونَ ٨﴾ قولهُ: ﴿فِيٓ أَنفُسِهِمۡ﴾ ظرفٌ للتّفكّرِ وليسَ بمفعولٍ، تعدّى إليهِ ﴿يَتَفَكَّرُواْ﴾ بحرفِ جرٍّ، لأنّهمْ لمْ يؤمروا أنْ يتفكّروا في خلقِ أنفسهمْ، إنّما أمروا أنْ يستعملوا التّفكّرَ في خلقِ السّماواتِ والأرضِ وأنفسهمْ، حتّى يعلموا أنَّ اللّهَ لمْ يخلقِ السّماواتِ وغيرها إلّا بالحقِّ. أي بالعدلِ والحكمةِ، فهوَ الحقُّ وللحقِّ خلقها ﴿وَأَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ﴾ ينتهيانِ إليهِ وهوَ يومُ القيامةِ. وفي هذا تنبيهٌ على الفناءِ، وعلى أنَّ لكلِّ مخلوقٍ أجلاً، وعلى ثوابِ المحسنِ وعقابِ المسيءِ. وقيلَ: ﴿وَأَجَلٖ

مُّسَمًّىۚ﴾ أيْ خلقَ ما خلقَ في وقتٍ سمّاهُ لأنْ يخلقَ ذلكَ الشّيءَ فيهِ ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآيِٕ رَبِّهِمۡ لَكَٰفِرُونَ ۝٨﴾ اللّامُ للتّوكيدِ، والتّقديرُ: لكافرونَ بلقاءِ ربّهمْ، على التّقديمِ والتّأخيرِ، أيْ لكافرونَ بالبعثِ بعدَ الموتِ.

قولهُ تعالى: ﴿۞أَوَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ﴾ ببصائرهمْ وقلوبهمْ ﴿كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗ وَأَثَارُواْ ٱلۡأَرۡضَ﴾ أيْ قلّبوها للزّراعةِ، لأنَّ أهلَ مكّةَ لمْ يكونوا أهلَ حرثٍ، قال الله تعالى: ﴿تُثِيرُ ٱلۡأَرۡضَ﴾ ﴿وَعَمَرُوهَآ أَكۡثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا﴾ فلمْ تنفعهمْ عمارتهمْ ولا طولُ مدّتهمْ ﴿وَجَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِۖ﴾ أيْ بالمعجزاتِ. وقيلَ: بالأحكامِ فكفروا ولمْ يؤمنوا ﴿فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ﴾ بأنْ أهلكهمْ بغيرِ ذنبٍ ولا رسلٍ ولا حجّةٍ ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ۝٩﴾ بالشرك والعصيان.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاؤُوا السُّوأَى﴾ السّوأى فعلى منَ السّوءِ تأنيثُ الأسوأِ وهوَ الأقبحُ، كما أنَّ الحسنى تأنيثُ الأحسنِ. وقيلَ: يعني بها هاهنا النّارَ، كما أنَّ الحسنى اسمُ الجنّةِ ﴿أَن كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ بأنْ كذّبوا. وقرأ نافعٌ وابنُ كثيرٍ وأبو عمرو ﴿ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ﴾ بالرّفعِ اسمُ كانَ، وذُكّرتْ لأنَّ تأنيثها غير حقيقي. و ﴿ٱلسُّوٓءَىٰٓ﴾ خبرُ كانَ. والباقونَ بالنّصبِ على خبرِ كانَ. ﴿السُّوأَى﴾ بالرّفعِ اسمُ كانَ. ويجوزُ أنْ يكونَ اسمها التّكذيبُ، فيكونَ التّقديرُ: ثمَّ كانَ التّكذيبُ عاقبةَ الّذينَ أساءوا ويكونَ السّوأى مصدراً لإساءوا، أو صفة لمحذوف، أي الخلة السوأى. ﴿أَن كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ قيلَ بمحمّدٍ والقرآنِ، أو بالعذابِ أنْ ينزلَ بهمْ ﴿وَكَانُواْ بِهَا يَسۡتَهۡزِءُونَ ۝١٠﴾.

قولهُ تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ۝١١﴾ قرأَ أبو عمرو وأبو بكرٍ «يُرْجَعُونَ» بالياءِ. الباقونَ بالتّاءِ ﴿وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُبۡلِسُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ۝١٢﴾ أبلسَ الرّجلُ إذا سكتَ وانقطعتْ حجّتهُ، ولمْ يؤملْ أنْ يكونَ لهُ حجّةٌ، وقدْ زعمَ بعضُ النّحويّينَ أنَّ إبليسَ مشتقٌّ منْ هذا، وأنّهُ أبلسَ لأنّهُ انقطعتْ حجّتهُ ﴿وَلَمۡ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمۡ﴾ أي ما عبدوه منْ دونِ اللّهِ ﴿شُفَعَٰٓؤُاْ وَكَانُواْ بِشُرَكَآئِهِمۡ كَٰفِرِينَ ۝١٣﴾ قالوا ليسوا بآلهةٍ فتبرّءوا منها وتبرّأتْ منهمْ.

قولهُ تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٖ يَتَفَرَّقُونَ ﴿١٤﴾﴾ يعني المؤمنين من الكافرين. ثم بين كيف تفريقهم فقال: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَهُمۡ فِي رَوۡضَةٖ يُحۡبَرُونَ ﴿١٥﴾﴾ الرّوضةُ الجنّةُ، والرّياضُ الجنانُ ﴿يُحۡبَرُونَ﴾ يسرّونَ، والحبرةُ عندَ العربِ: السّرورُ والفرحُ.

قولهُ تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ تقدّمَ الكلامِ فيهِ ﴿وَلِقَآيِٕ ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ أيْ بالبعثِ ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلۡعَذَابِ مُحۡضَرُونَ﴾ نازلونَ، ومنهُ قولهُ تعالى: ﴿إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ﴾ أيْ نزلَ بهِ.

قولهُ تعالى: ﴿فَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمۡسُونَ وَحِينَ تُصۡبِحُونَ ﴿١٧﴾ وَلَهُ ٱلۡحَمۡدُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَعَشِيّٗا وَحِينَ تُظۡهِرُونَ ﴿١٨﴾﴾، فيهِ ثلاثُ مسائلَ:

الأولى: قولهُ تعالى: ﴿فَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ﴾ الآيةَ فيهِ ثلاثةُ أقوالٍ:

الأوّلُ- أنّهُ خطابٌ للمؤمنينَ بالأمرِ بالعبادةِ والحضِّ على الصّلاةِ في هذهِ الأوقاتِ ﴿حِينَ تُمۡسُونَ﴾ صلاةُ المغربِ والعشاءِ ﴿وَحِينَ تُصۡبِحُونَ﴾ صلاةُ الفجرِ ﴿وَعَشِيّٗا﴾ العصرُ ﴿وَحِينَ تُظۡهِرُونَ﴾ الظّهرُ.

وقيلَ: فسبّحوا اللهَ في الصلوات، لأن التسبيح يكون في الصّلاةِ، وهوَ القولُ الثّاني.

والقولُ الثّالثُ- فسبّحوا اللّهَ حينَ تمسونَ وحينَ تصبحونَ.

وفي تسميةِ الصّلاةِ بالتّسبيحِ وجهانِ:

أحدهما- لما تضمّنها منْ ذكرِ التّسبيحِ في الرّكوعِ والسّجودِ.

الثّاني- مأخوذٌ منَ السّبحةِ والسّبحةُ الصّلاةُ، ومنهُ قولُ النّبيِّ ﷺ: «تكونُ لهمْ سبحةٌ يومَ القيامةِ» أيْ صلاةٌ.

الثانية- قولهُ تعالى: ﴿وَلَهُ ٱلۡحَمۡدُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ اعتراض بين الكلام بدؤوب الحمدِ على نعمهِ وآلائهِ. وقيلَ: معنى ﴿وَلَهُ ٱلۡحَمۡدُ﴾ أي الصّلاةُ لهُ لاختصاصها بقراءةِ الحمدِ. والأوّلُ أظهرُ، فإنَّ الحمدَ للّهِ منْ نوعِ تعظيمِ اللّهِ تعالى والحضِّ على عبادتهِ ودوامِ نعمتهِ، فيكونُ نوعـاً آخرَ خلافَ الصّلاةِ، واللّهُ أعلمُ.

وبدأَ بصلاةِ المغربِ لأنَّ اللّيلَ يتقدّمُ النّهارَ. وفي سورةِ ﴿سُبْحَٰنَ﴾ بدأَ بصلاةِ الظّهرِ إذْ هيَ أوّلُ صلاةٍ صلّاها جبريلُ بالنّبيِّ ﷺ.

وخصَّ صلاةَ اللّيلِ باسمِ التّسبيحِ وصلاةَ النّهارِ باسمِ الحمدِ لأنَّ للإنسانِ في النّهارِ متقلّبًا في أحوالٍ توجبُ حمدَ اللّهِ تعالى عليها، وفي اللّيلِ على خلوةٍ توجبُ تنزيهَ اللّهِ منَ الأسواءِ فيها، فلذلكَ صارَ الحمدُ بالنّهارِ أخصَّ فسمّيتْ بهِ صلاةُ النّهارِ، والتّسبيحُ باللّيلِ أخصُّ فسمّيتْ بهِ صلاةُ اللّيلِ.

الثالثة- ﴿وَعَشِيًّا﴾ العشيُّ والعشيّةُ منْ صلاةِ المغربِ إلى العتمةِ، والعشاءُ «بالكسرِ والمدِّ» مثلُ العشيِّ. والعشاءانِ المغربُ والعتمةُ.

والفرقُ بينَ المساءِ والعشاءِ: أنَّ المساءَ بدوُّ الظّلامِ بعدَ المغيبِ، والعشاءَ آخرُ النّهارِ عندَ ميلِ الشّمسِ للمغيبِ، وهوَ مأخوذٌ منْ عشا العينِ وهوَ نقصُ النّورِ منَ النّاظرِ كنقص نور الشمس.

قولهُ تعالى: ﴿يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَيُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١٩﴾﴾

بيّنَ كمالَ قدرتهِ، أيْ كما أحيا الأرضَ بإخراجِ النّباتِ بعدَ همودها، كذلكَ يحييكمْ بالبعثِ. وفي هذا دليلٌ على صحّةِ القياسِ.

قولهُ تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ﴾ أيْ منْ علاماتِ ربوبيّتهِ ووحدانيّتهِ أنْ خلقكمْ منْ ترابٍ، أيْ خلقَ أباكمْ منهُ والفرعُ كالأصلِ ﴿ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾﴾ عقلاءُ ناطقونَ تتصرّفونَ فيما هوَ قوامُ معايشكمْ، فلمْ يكنْ ليخلقكمْ عبثًا، ومنْ قدرَ على هذا فهوَ أهلٌ للعبادةِ والتّسبيحِ.

ومعنى: ﴿خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا﴾ أيْ نساءً تسكنونَ إليها. ﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ أيْ منْ نطفِ الرّجالِ ومنْ جنسكمْ. وقيلَ: المرادُ حوّاءُ، خلقها منْ ضلعِ آدمَ ﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ المودّةُ الجماعُ، والرّحمةُ الولدُ، وقيلَ: المودّةُ حبُّ الرّجلِ امرأتهُ، والرّحمةُ رحمتهُ إيّاها أنْ يصيبها بسوءٍ. ﴿لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا﴾ فأوّلُ ارتفاقِ الرّجلِ بالمرأةِ

سكونهُ إليها ممّا فيهِ منْ غليانِ القوّةِ، فإليها يسكنُ وبها يتخلّصُ منَ الهياجِ، وللرّجالِ خُلقَ البضعُ منهنَّ، قالَ اللّهُ تعالى: ﴿وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ﴾ فأعلمَ اللّهُ عزَّ وجلَّ الرّجالَ أنَّ ذلكَ الموضعَ خلقَ منهنَّ للرّجالِ، فعليها بذلهُ في كلِّ وقتٍ يدعوها الزّوجُ، فإنْ منعتهُ فهيَ ظالمةٌ وفي حرجٍ عظيمٍ، ويكفيكَ منْ ذلكَ ما ثبتَ في صحيحِ مسلمٍ منْ حديثِ أبي هريرةَ قالَ: قالَ رسولُ اللّهِ ﷺ: «والّذي نفسي بيدهِ ما منْ رجلٍ يدعو امرأتهُ إلى فراشها فتأبى عليهِ إلّا كانَ الّذي في السّماءِ ساخطًا عليها حتّى يرضى عنها». وفي لفظٍ آخرَ: «إذا باتتِ المرأةُ هاجرةً فراشَ زوجها لعنتها الملائكةُ حتّى تصبحَ».

قولهُ تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَوَاتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ وكانوا يعترفونَ بأنَّ اللّهَ هوَ الخالقُ ﴿وَٱخْتِلَفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ﴾ اللّسانُ في الفمِ، وفيهِ اختلافُ اللّغاتِ: منَ العربيّةِ والعجميّةِ والتّركيّةِ والرّوميّةِ. واختلافُ الألوانِ في الصّورِ: منَ البياضِ والسّوادِ والحمرةِ، فلا تكادُ ترى أحداً إلّا وأنتَ تفرّقُ بينهُ وبينَ الآخرِ. وليسَ هذهِ الأشياءُ منْ فعلِ النّطفةِ ولا منْ فعلِ الأبوينِ، فلا بدَّ منْ فاعلٍ، فعلمَ أنَّ الفاعلَ هوَ اللّهُ تعالى، فهذا منْ أدلِّ دليلٍ على المدبّرِ البارئِ ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَتٍ لِّلْعَلَمِينَ﴾ أيْ للبرِّ والفاجرِ. وقرأ حفصٌ: ﴿لِّلْعَلِمِينَ ٢٢﴾ بكسرِ اللّامِ جمع عالمٍ. ﴿وَمِنْ ءَايَتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ تقديم وتأخير، والمعنى: ومن ءاياته منامكم بالليل وابتغاؤكمْ منْ فضلهِ بالنّهارِ،، فجعلَ النّومُ باللّيلِ دليلاً على الموتِ، والتّصرّفُ بالنّهارِ دليلاً على البعثِ ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ٢٣﴾ سماعَ تفهّمٍ وتدبّرٍ ﴿وَمِنْ ءَايَتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ ﴿خَوْفًا﴾ من الصواعق، و ﴿طَمَعًا﴾ في الغيثِ. أو: ﴿خَوْفًا﴾ منَ البرد أن يهلك الزرع، و ﴿طَمَعًا﴾ في المطرِ أنْ يحييَ الزّرعَ. ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ٢٤﴾ تقدّمَ ﴿وَمِنْ ءَايَتِهِۦ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَاءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ﴾ بقدرتهِ بلا عمدٍ. وقيلَ: بتدبيرهِ وحكمتهِ. ﴿ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ٢٥﴾ بسرعة منْ غيرِ توقّفٍ ولا تلبّثٍ، فلا تبقى نسمةٌ منَ الأوّلينَ والآخرينَ إلّا قامتْ تنظرُ، كما قالَ تعالى: ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾. و ﴿إِذَا﴾ الأولى: في قوله تعالى: ﴿إِذَا دَعَاكُمْ﴾ للشّرطِ، والثّانيةُ في قولهُ تعالى: ﴿إِذَآ أَنتُمْ﴾ للمفاجأةِ.

وأجمعَ القرّاءَ على فتحِ التّاءِ هنا في ﴿تَخۡرُجُونَ﴾. واختلفوا في الّتي في الأعرافِ فقرأَ أهلُ المدينةِ: «وَمِنۡهَا تُخۡرَجُونَ» بضمِّ التّاءِ، وقرأ أهلُ العراقِ: بالفتحِ، والمعنيانِ متقاربانِ، إلّا أنَّ أهلَ المدينةِ فرّقوا بينهما لنسقِ الكلامِ، فنسقُ الكلامِ في الّتي في الأعرافِ بالضّمِّ أشبهُ، إذْ كانَ الموتُ ليسَ منْ فعلهمْ، وكذا الإخراجُ. والفتحُ في سورةِ الرّومِ أشبهُ بنسقِ الكلامِ، أيْ إذا دعاكمْ خرجتمْ أيْ أطعتمْ، فالفعلُ بهمْ أشبهُ.

وهذا الخروجُ إنّما هوَ عندَ نفخةِ إسرافيلَ النّفخةَ الآخرةَ.

﴿وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾ خلقاً وملكاً وعبداً ﴿كُلّٞ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ٢٦﴾ مطيعونَ طاعةَ انقيادٍ. وقيلَ: ﴿قَٰنِتُونَ﴾ مقرّونَ بالعبوديّةِ، إمّا قالةً وإمّا دلالةً.

قولهُ تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ أمّا بدءُ خلقهِ فبعلوقهِ في الرّحمِ قبلَ ولادتهِ، وأمّا إعادتهُ فإحياؤهُ بعدَ الموتِ بالنّفخةِ الثّانيةِ للبعثِ، فجعلَ ما علمَ منِ ابتداءِ خلقهِ دليلاً على ما يخفى منْ إعادتهِ، استدلالاً بالشّاهدِ على الغائبِ، ثم أكد ذلك بقوله: ﴿وَهُوَ أَهۡوَنُ عَلَيۡهِۚ﴾ بمعنى هيّنٍ، لأنه ليس شيء أهون على الله من شيء، كما قال تعالى: ﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٗا﴾ وقال: ﴿وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفۡظُهُمَاۚ﴾. والعربُ تحملُ أفعلَ على فاعلٍ، ومنهُ قولُ الفرزدقِ:

إنَّ الّذي سمكَ السّماءَ بنى لنا بيتاً دعائمهُ أعزُّ وأطولُ

أيْ دعائمهُ عزيزةٌ طويلة.

وقال آخر:

تمنّى رجالٌ أنْ أموتَ وإنْ أمتْ فتلكَ سبيلٌ لستُ فيها بأوحدَ

ومنهُ قولهمْ: اللّهُ أكبرُ، إنّما معناهُ اللّهُ الكبيرُ.

وقيلَ: أهونُ عندكمْ وفيما بينكمْ

﴿وَلَهُ ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾ الوصفُ الأعلى ﴿فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ كما قالَ: ﴿مَّثَلُ ٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلۡمُتَّقُونَۖ﴾ أيْ صفتها ﴿وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٢٧﴾ تقدم.

قولهُ تعالى: ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْۖ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِي مَا رَزَقْنَٰكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾﴾، فيهِ مسألتانِ:

الأولى: قولهُ تعالى: ﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ ثمَّ قالَ: ﴿مِّن شُرَكَآءَ﴾، ثمَّ قالَ: ﴿مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾ فَـ﴿مِن﴾ الأولى للابتداءِ، والثّانيةُ للتّبعيضِ، والثالثة زائدةٌ لتأكيدِ الاستفهامِ.

والآيةُ نزلتْ في كفّارِ قريشٍ، كانوا يقولونَ في التّلبيةِ: لبّيكَ لا شريكَ لكَ إلّا شريكًا هوَ لكَ، تملكهُ وما ملكَ، والمعنى: هلْ يرضى أحدكمْ أنْ يكونَ مملوكهُ في مالهِ ونفسهِ مثلهُ، فإذا لمْ ترضوا بهذا لأنفسكمْ فكيفَ جعلتمْ للّهِ شركاءَ.

الثانية- قالَ بعضُ العلماءِ: هذهِ الآيةُ أصلٌ في الشّركةِ بينَ المخلوقينَ لافتقارِ بعضهمْ إلى بعضٍ ونفيها عنِ الله سبحانه، فكيفَ يتصوّرُ أنْ تنزّهوا نفوسكمْ عنْ مشاركةِ عبيدكمْ وتجعلوا عبيدي شركائي في خلقي، فهذا حكمٌ فاسدٌ وقلّةُ نظرٍ وعمى قلبٍ! إذِ الشّركةُ تقتضي المعاونةَ، ونحنُ مفتقرونَ إلى معاونةِ بعضنا بعضًا بالمالِ والعملِ، والقديمُ الأزليُّ منزّهٌ عنْ ذلك عز وجل. وهذهِ المسألةُ أفضلُ للطّالبِ منْ حفظِ ديوانٍ كاملٍ في الفقهِ، لأنَّ جميعَ العباداتِ البدنيّةِ لا تصحُّ إلّا بتصحيحِ هذهِ المسألةِ في القلبِ، فافهم ذلك.

قولهُ تعالى: ﴿بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍۖ﴾ لمّا قامتْ عليهمُ الحجّةُ ذكرَ أنّهمْ يعبدونَ الأصنامَ باتّباعِ أهوائهمْ في عبادتها وتقليدِ الأسلافِ في ذلكَ ﴿فَمَن يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُۖ﴾ أيْ لا هاديَ لمنْ أضلّهُ اللّهُ تعالى. وفي هذا ردٌّ على القدرية ﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٩﴾﴾.

قولهُ تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًاۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ﴾ فيهِ ثلاثُ مسائلَ:

الأولى: سمّيتِ الفطرةُ ديناً لأنَّ النّاسَ يخلقونَ له، قال عز وجل: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾. ويقالُ: ﴿عَلَيْهَا﴾ بمعنى لها، كقولِهِ تعالى: ﴿وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَاۚ﴾. والخطابُ بِ ﴿أَقِمْ وَجْهَكَ﴾ للنّبيِّ ﷺ، أمرهُ بإقامةِ وجههِ للدّينِ المستقيمِ، كما قال: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ﴾ وهوَ دينُ الإسلامِ.

وإقامةُ الوجهِ هوَ تقويمُ المقصدِ والقوّةُ على الجدِّ في أعمالِ الدّينِ، وخصَّ الوجهُ بالذّكرِ لأنّهُ جامعُ حواسِّ الإنسانِ وأشرفهُ. ودخلَ في هذا الخطابِ أمّتهُ باتّفاقٍ منْ أهلِ التّأويلِ. وَ ﴿حَنِيفًاۚ﴾ معناهُ معتدلاً مائلاً عنْ جميعِ الأديانِ المحرّفةِ المنسوخةِ.

الثانية- في الصّحيحِ عنْ أبي هريرةَ قالَ: قالَ رسولُ اللّهِ ﷺ: «ما منْ مولودٍ إلّا يولدُ على الفطرةِ- في روايةٍ: على هذهِ الملّةِ- أبواهُ يهوّدانهِ وينصّرانهِ ويمجّسانهِ كما تنتجُ البهيمةُ بهيمةً جمعاءَ هلْ تحسّونَ فيها منْ جدعاءَ» ثمَّ يقولُ أبو هريرة: واقرأوا إن شئتم ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَاۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِۚ﴾، في رواية: «حتى تكونوا أنتمْ تجدعونها» قالوا: يا رسولَ اللّهِ، أفرأيتَ منْ يموتُ صغيراً؟ قالَ: «اللّهُ أعلمُ بما كانوا عاملينَ». لفظُ مسلمٍ.

الثالثة- واختلفَ العلماءُ في معنى الفطرةِ المذكورةِ في الكتابِ والسّنّةِ على أقوالٍ متعدّدةٍ: منها الإسلامُ، وهوَ المعروفُ عندَ عامّةِ السّلفِ منْ أهلِ التّأويلِ، واحتجّوا بالآيةِ وحديثِ أبي هريرةَ، وبقولهِ ﷺ: «خمسٌ منَ الفطرةِ...» فذكرَ منها قصَّ الشّاربِ، وهوَ منْ سننِ الإسلامِ، وعلى هذا التّأويلِ فيكونُ معنى الحديثِ: أنَّ الطّفلَ خلقَ سليماً منَ الكفرِ على الميثاقِ الّذي أخذهُ اللّهُ على ذرّيّةِ آدمَ حينَ أخرجهمْ منْ صلبهِ، وأنّهمْ إذا ماتوا قبلَ أنْ يدركوا في الجنّةِ، أولادَ مسلمينَ كانوا أوْ أولادَ كفّارٍ.

وقالَ آخرونَ: الفطرةُ هيَ البداءةُ الّتي ابتدأهمُ اللّهُ عليها، أيْ على ما فطرَ اللّهُ عليهِ خلقهُ منْ أنّهُ ابتدأهمْ للحياةِ والموتِ والسّعادةِ والشّقاءِ، وإلى ما يصيرونَ إليهِ عندَ البلوغِ. قالوا: والفطرةُ في كلامِ العربِ البداءةُ. والفاطرُ: المبتدئُ، واحتجّوا بما رويَ عنِ ابنِ عبّاسٍ أنّهُ قالَ: لمْ أكنْ أدري ما فاطرُ السّماواتِ والأرضِ حتّى أتى أعرابيّانِ يختصمانِ في بئرٍ، فقالَ:

أحدهما: أنا فطرتها، أي ابتدأتها.

قالَ المروزيُّ: كانَ أحمدُ بنُ حنبلٍ يذهبُ إلى هذا القولِ ثمَّ تركهُ.

قالَ أبو عمرَ في كتابِ التّمهيدِ لهُ: ما رسمهُ مالكٌ في موطّئهِ وذكرَ في بابَ القدرِ فيهِ منَ الآثارِ- يدلُّ على أنَّ مذهبهُ في ذلكَ نحوُ هذا، واللّهُ أعلمُ. وممّا احتجّوا بهِ ما رويَ عنْ كعبٍ القرظيِّ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُۚ﴾ قالَ: منِ ابتدأَ اللّهُ خلقهُ للضّلالةِ صيّرهُ إلى الضّلالةِ وإنْ عملَ بأعمالِ الهدى، ومنِ ابتدأَ اللّهَ خلقهُ على الهدى صيّرهُ إلى الهدى وإنْ عملَ بأعمالِ الضّلالةِ، ابتدأَ اللّهُ خلقَ إبليسَ على الضّلالةِ وعملَ بأعمالِ السّعادةِ معَ الملائكةِ، ثمَّ ردّهُ اللّهُ إلى ما ابتدأَ عليهِ خلقهُ، قالَ: وكانَ منَ الكافرينَ.

قلت: قدْ مضى قولُ كعبٍ هذا في الأعرافِ وجاءَ معناهُ مرفوعـًا منْ حديثِ عائشةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالتْ: دعيَ رسولُ اللّهِ ﷺ إلى جنازةِ غلامٍ منَ الأنصارِ فقلت: يا رسولَ اللّهِ، طوبى لهذا عصفورٌ منْ عصافيرِ الجنّةِ، لمْ يعملِ السّوءَ ولمْ يدركهُ! قالَ: «أوَ غيرَ ذلكَ يا عائشةُ! إنَّ اللّهَ خلقَ للجنّةِ أهلاً خلقهمْ لها وهمْ في أصلابِ آبائهمْ، وخلقَ للنّارِ أهلاً خلقهمْ لها وهمْ في أصلابِ آبائهمْ» خرّجهُ ابنُ ماجهْ في السّننِ. وخرّجَ أبو عيسى التّرمذيُّ عنْ عبدِ اللّهِ بنِ عمرو قالَ: خرجَ علينا رسولُ اللّهِ ﷺ وفي يدهِ كتابانِ فقالَ: «أتدرونَ ما هذانِ الكتابانِ»؟ فقلنا: لا يا رسولَ اللّهِ، إلّا أنْ تخبرنا، فقالَ: للّذي في يدهِ اليمنى: «هذا كتابٌ منْ ربِّ العالمينَ فيهِ أسماءُ أهلِ الجنّةِ وأسماءُ آبائهمْ وقبائلهمْ ثمَّ أجملَ على آخرهمْ فلا يزادُ فيهمْ ولا ينقصُ منهمْ أبداً- ثمَّ قالَ للّذي في شمالهِ- هذا كتابٌ منْ ربِّ العالمينَ فيهِ أسماءُ أهلِ النّارِ وأسماءِ آبائهمْ وقبائلهمْ ثمَّ أجملَ على آخرهمْ فلا يزادُ فيهمْ ولا ينقصُ منهمْ أبداً...» وذكرَ الحديثَ، وقالَ فيهِ: حديثٌ حسنٌ.

وقالتْ فرقةٌ: ليسَ المرادُ بقولهِ تعالى: ﴿فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَاۚ﴾ ولا قولهِ ﷺ: «كلُّ مولودٍ يولدُ على الفطرة» العموم، وإنما المراد بالناس المؤمنون، إذا لوْ فطرَ الجميعُ على الإسلامِ لما كفرَ أحدٌ، وقدْ ثبتَ أنّهُ خلقَ أقوامـًا للنّارِ، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ ذَرَأۡنَا لِجَهَنَّمَ﴾، وقالَ في الغلامِ الّذي قتلهُ الخضرُ: طبعَ يومَ طبعَ كافراً.

قالوا: والعمومُ بمعنى الخصوصِ كثيرٌ في لسانِ العربِ، ألا ترى إلى قوله عز وجل: ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍ﴾ ولمْ تدمّرِ السّماواتِ والأرضَ. وقولهُ: ﴿فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ﴾ ولمْ تفتحْ عليهمْ أبوابُ الرّحمةِ.

وقيلَ: تمَّ الكلامُ عندَ قولِهِ: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا﴾ ثم قال: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ﴾ أيْ فطرَ اللّهُ الخلقَ فطرةً إمّا بجنّةٍ أوْ نارٍ، وإليهِ أشارَ النّبيِّ ﷺ في قولِهِ: «كلُّ مولودٍ يولدُ على الفطرةِ» ولهذا قالَ: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾.

قالَ شيخنا أبو العبّاسِ: منْ قالَ هيَ سابقةُ السّعادةِ والشّقاوةِ فهذا إنّما يليقُ بالفطرةِ المذكورةِ في القرآنِ، لأنَّ اللّهَ تعالى قالَ: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾ وأمّا في الحديثِ فلا، لأنّهُ قدْ أخبرَ في بقيّةِ الحديثِ بأنّها تبدّلُ وتغيّرُ.

وقالتْ طائفةٌ منْ أهلِ الفقهِ والنّظرِ: الفطرةُ هيَ الخلقةُ الّتي خلقَ عليها المولودُ في المعرفةِ بربّهِ، فكأنّهُ قالَ: كلُّ مولودٍ يولدُ على خلقةٍ يعرفُ بها ربّهُ إذا بلغَ مبلغَ المعرفةِ، يريدُ خلقةً مخالفةً لخلقةِ البهائمِ الّتي لا تصلُ بخلقتها إلى معرفتهِ. واحتجّوا على أنَّ الفطرةَ الخلقةُ، والفاطرَ الخالقُ، لقولِ اللّهِ عزَّ وجل: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ يعني خالقهنَّ، وبقولِهِ: ﴿وَمَالِىَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾ يعني خلقني، وبقوله: ﴿ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ﴾ يعني خلقهنَّ.

قالوا: فالفطرةُ الخلقةُ، والفاطرُ الخالقُ، وأنكروا أنْ يكونَ المولودُ يفطرُ على كفرٍ أوْ إيمانٍ أوْ معرفةٍ أوْ إنكارٍ. قالوا: وإنّما المولودُ على السّلامةِ في الأغلبِ خلقةٍ وطبعاً وبنيةً ليسَ معها إيمانٌ ولا كفرٌ ولا إنكارٌ ولا معرفةٌ، ثمَّ يعتقدونَ الكفرَ والإيمانَ بعدَ البلوغِ إذا ميّزوا. واحتجّوا بقولِهِ في الحديثِ: «كما تنتجُ البهيمةُ بهيمةً جمعاءَ - يعني سالمةً - هلْ تحسّونَ فيها منْ جدعاءَ» يعني مقطوعةَ الأذنِ. فمثّلَ قلوبَ بني آدمَ بالبهائمِ لأنّها تولدُ كاملةَ الخلقِ ليسَ فيها نقصانٌ، ثمَّ تقطعُ آذانها بعدُ فكذلكَ قلوبُ الأطفالِ في حينِ ولادتهمْ ليسَ لهمْ كفرٌ ولا إيمانٌ، ولا معرفةٌ ولا إنكارٌ كالبهائمِ السّائمةِ، فلمّا بلغوا استهوتهمُ الشّياطينُ فكفرَ أكثرهمْ، وعصمَ اللّهُ أقلّهمْ. قالوا: ولوْ كانَ الأطفالُ قد فطروا على شيءٍ منَ الكفرِ والإيمانِ في أوّليّةِ أمورهمْ ما انتقلوا عنهُ أبداً، وقدْ نجدهمْ يؤمنونَ ثمَّ يكفرون. قالوا:

ويستحيلُ في المعقولِ أنْ يكونَ الطّفلُ في حينِ ولادتِهِ يعقلُ كفراً أوْ إيمانـاً، لأنَّ اللّهَ أخرجهمْ في حالٍ لا يفقهونَ معها شيئـاً، قالَ اللّهُ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا﴾ فمنْ لا يعلمُ شيئـاً استحالَ منهُ كفرٌ أوْ إيمانٌ، أوْ معرفةٌ أوْ إنكارٌ.

قالَ أبو عمرَ بنُ عبدِ البرِّ: هذا أصحُّ ما قيلَ في معنى الفطرةِ الّتي يولدُ النّاسُ عليها. ومنَ الحجّةِ أيضـاً في هذا قولهُ تعالى: ﴿إِنَّمَا تُجۡزَوۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ و﴿كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡ رَهِينَةٌ﴾ ومنْ لمْ يبلغْ وقتَ العملِ لمْ يرتهنْ بشيءٍ. وقالَ: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبۡعَثَ رَسُولٗا﴾ ولمّا أجمعوا على دفعِ القودِ والقصاصِ والحدودِ والآثامِ عنهمْ في دارِ الدّنيا كانتِ الآخرةُ أولى بذلكَ. واللّهُ أعلمُ.

ويستحيلُ أنْ تكونَ الفطرةُ المذكورةُ الإسلامَ، لأنَّ الإسلامَ والإيمانَ: قولٌ باللّسانِ واعتقادٌ بالقلبِ وعملٌ بالجوارحِ، وهذا معدومٌ منَ الطّفلِ، لا يجهلُ ذلكَ ذو عقلٍ.

وأمّا قولُ الأوزاعيِّ: سألتُ الزّهريَّ عنْ رجلٍ عليهِ رقبةٌ أيجزي عنهُ الصّبيُّ أنْ يعتقهُ وهوَ رضيعٌ؟ قالَ نعمْ، لأنّهُ ولدَ على الفطرةِ يعني الإسلامَ، فإنّما أجزى عتقهُ عندَ منْ أجازهُ، لأنَّ حكمهُ حكمُ أبويهِ. وخالفهمْ آخرونَ فقالوا: لا يجزئ في الرّقابِ الواجبةِ إلّا منْ صامَ وصلّى، وليسَ في قولهِ تعالى: ﴿كَمَا بَدَأَكُمۡ تَعُودُونَ﴾ دليلٌ على أنَّ الطّفلَ يولدُ حينَ يولدُ مؤمنـاً أوْ كافراً، لما شهدتْ لهُ العقولُ أنّهُ في ذلكَ الوقتِ ليسَ ممّنْ يعقلُ إيمانـاً ولا كفراً، وليسَ في قولهِ في الحديثِ «خلقتُ هؤلاءِ للجنّةِ وخلقتُ هؤلاءِ للنّارِ» أكثرُ منْ مراعاةِ ما يختمُ بهِ لهمْ، لا أنّهمْ في حينِ طفولتهمْ ممّنْ يستحقُّ جنّةً أوْ ناراً، أوْ يعقلُ كفرا أو إيمانا.

قلت: وإلى ما اختارهُ أبو عمرَ واحتجَّ لهُ ذهبَ غيرُ واحدٍ منَ المحقّقينَ منهمُ ابنُ عطيّةَ في تفسيرهِ في معنى الفطرةِ، وشيخنا أبو العبّاسِ. قالَ ابنُ عطيّةَ: والّذي يعتمدُ عليهِ في تفسيرِ هذهِ اللّفظةِ أنّها الخلقةُ والهيئةُ الّتي في نفسِ الطّفلِ الّتي هيَ معدّةٌ ومهيّأةٌ لأنْ يميّزَ بها مصنوعاتِ اللّهِ تعالى، ويستدلُّ بها على ربّهِ ويعرفُ شرائعهُ ويؤمنُ بهِ، فكأنّهُ تعالى قالَ: أقمْ وجهكَ للدّينِ الّذي هوَ الحنيفُ، وهوَ فطرةُ اللّهِ الّذي على الإعدادِ لهُ فطرَ البشرَ، لكنْ تعرضهمُ العوارضُ، ومنهُ قولُ النّبيِّ ﷺ: «كلُّ مولودٍ يولدُ على الفطرةِ فأبواهُ يهوّدانهِ أوْ ينصّرانهِ» فذكرُ الأبوينِ إنّما هوَ مثالٌ للعوارضِ الّتي هيَ كثيرةٌ.

وقالَ شيخنا في عبارتهِ: إنَّ اللّهَ تعالى خلقَ قلوبَ بني آدمَ مؤهّلةً لقبولِ الحقِّ، كما خلقَ أعينهمْ وأسماعهمْ قابلةً للمرئيّاتِ والمسموعاتِ، فما دامتْ باقيةً على ذلكَ القبولِ وعلى تلكَ الأهليّةِ أدركتِ الحقَّ ودينَ الإسلامِ وهوَ الدّينُ الحقُّ. وقدْ دلَّ على صحّةِ هذا المعنى قولهُ: «كما تنتجُ البهيمةُ بهيمةً جمعاءَ هلْ تحسّونَ فيها منْ جدعاءَ» يعني أنَّ البهيمةَ تلدُ ولدها كاملَ الخلقةِ سليماً منَ الآفاتِ، فلوْ تركَ على أصلِ تلكَ الخلقةِ لبقيَ كاملاً بريئاً منَ العيوبِ، لكنْ يتصرّفُ فيهِ فيجدعُ أذنهُ ويوسمُ وجههُ فتطرأُ عليهِ الآفاتُ والنّقائصُ فيخرجُ عنِ الأصلِ، وكذلكَ الإنسانُ، وهوَ تشبيهٌ واقعٌ ووجههُ واضحٌ.

قلت: وهذا القولُ معَ القولِ الأوّلِ موافقٌ لهُ في المعنى، وأنَّ ذلكَ بعدَ الإدراكِ حينَ عقلوا أمرَ الدّنيا، وتأكّدتْ حجّةُ اللّهِ عليهمْ بما نصبَ منَ الآياتِ الظّاهرةِ: منْ خلقِ السّماواتِ والأرضِ، والشّمسِ والقمرِ، والبرِّ والبحرِ، واختلافِ اللّيلِ والنّهارِ، فلمّا عملتْ أهواؤهمْ فيهمْ أتتهمُ الشّياطينُ فدعتهمْ إلى اليهوديّةِ والنّصرانيّةُ فذهبتْ بأهوائهمْ يميناً وشمالاً، وأنّهمْ إنْ ماتوا صغاراً فهمْ في الجنّةِ، أعني جميعَ الأطفالِ، لأنَّ اللّهَ تعالى لمّا أخرجَ ذرّيّةَ آدمَ منْ صلبهِ في صورةِ الذّرِّ أقرّوا لهُ بالرّبوبيّةِ وهوَ قولهُ تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ﴾. ثمَّ أعادهمْ في صلبِ آدمَ بعدَ أنْ أقرّوا لهُ بالرّبوبيّةِ، وأنّهُ اللّهُ لا إلهَ غيرهُ، ثمَّ يكتبُ العبدُ في بطنِ أمّهِ شقيا أو سعيدا على الكتابِ الأوّلِ، فمنْ كانَ في الكتابِ الأوّلِ شقياً عمّرَ حتّى يجريَ عليهِ القلمُ فينقضَ الميثاقَ الّذي أخذَ عليهِ في صلبِ آدمَ بالشّركِ، ومنْ كانَ في الكتابِ الأوّلِ سعيداً عمّرَ حتّى يجريَ عليهِ القلمُ فيصيرُ سعيداً، ومنْ ماتَ صغيراً منْ أولادِ المسلمينَ قبلَ أنْ يجريَ عليهِ القلمُ فهمْ معَ آبائهمْ في الجنّةِ، ومنْ كانَ منْ أولادِ المشركينَ فماتَ قبلَ أنْ يجريَ عليهِ القلمُ فليسَ يكونونَ معَ آبائهمْ، لأنّهمْ ماتوا على الميثاقِ الأوّلِ الّذي أخذَ عليهمْ في صلبِ آدمَ ولمْ ينقضِ الميثاقَ. ذهبَ إلى هذا جماعةٌ منْ أهلِ التّأويلِ، وهوَ يجمعُ بينَ الأحاديثِ، ويكونُ معنى قولهِ ﷺ لمّا سئلَ عنْ أولادِ المشركينَ فقالَ: «اللّهُ أعلمُ بما كانوا عاملينَ» يعني لوْ بلغوا. ودلَّ على هذا التّأويلِ أيضاً حديثُ البخاريِّ عنْ سمرةَ بنِ جندبٍ عنِ النّبيِّ ﷺ - الحديثُ الطّويلُ حديثُ الرّؤيا، وفيهِ قولهُ ﷺ: «وأمّا الرّجلُ الطّويلُ الّذي في

الرّوضةِ فإبراهيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وأمّا الولدانُ حولهُ فكلُّ مولودٍ يولدُ على الفطرةِ». قالَ فقيلَ: يا رسولَ اللّهِ، وأولادُ المشركينَ؟ فقالَ: رسولُ اللّهِ ﷺ: «وأولادُ المشركينَ». وهذا نص يرفع الخلاف، وهو أصح شيء رويَ في هذا البابِ، وغيرهُ منَ الأحاديثِ فيها عللٌ وليستْ منْ أحاديثِ الأئمّةِ الفقهاءِ، قالهُ أبو عمرَ بنُ عبدِ البرِّ.

قولهُ تعالى: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِۚ﴾ أيْ هذهِ الفطرةُ لا تبديلَ لها منْ جهةِ الخالق. ولا يجئ الأمرُ على خلافِ هذا بوجهٍ، أيْ لا يشقى منْ خلقهُ سعيداً، ولا يسعدُ منْ خلقهُ شقياً. وقيل: المعنى لا تبديلَ لدينِ اللّهِ، و﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾ دينُ الإسلامِ هوَ الدّينُ القيّمُ المستقيمُ ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ٣٠﴾ أيْ لا يتفكّرونَ فيعلمونَ أنَّ لهمْ خالقاً معبوداً، وإلهاً قديماً سبقَ قضاؤهُ ونفذ حكمه.

قولهُ تعالى: ﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ﴾ راجعينَ إليهِ بالتّوبةِ والإخلاصِ ﴿وَٱتَّقُوهُ﴾ أيْ خافوهُ وامتثلوا ما أمركمْ بهِ ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٣١﴾ بيّنَ أنَّ العبادةَ لا تنفعُ إلّا معَ الإخلاصِ ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ﴾ من أهلُ الكتابِ: اليهودِ والنّصارى أو منْ أهلِ الأهواءِ والبدعِ. وقرأ حمزةُ والكسائيُّ: «فَارَقُوا دِينَهُمْ»، وهوَ التّوحيدُ ﴿وَكَانُوا۟ شِيَعًاۖ﴾ أيْ فرقاً أو أدياناً ﴿كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ٣٢﴾ معجبونَ، لأنّهمْ لمْ يتبيّنوا الحقَّ وعليهمْ أنْ يتبيّنوهُ.

قولهُ تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ﴾ أيْ قحطٌ وشدّةٌ ﴿دَعَوْا۟ رَبَّهُم﴾ أنْ يرفعَ ذلكَ عنهمْ ﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ﴾ مقبلينَ عليهِ بكلِ قلوبهمْ لا يشركونَ. ومعنى هذا الكلامِ التّعجّبُ ﴿ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً﴾ أيْ عافيةً ونعمةً ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ٣٣﴾ في العبادة.

قولهُ تعالى: ﴿لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْۚ﴾ قيل: هيَ لامُ كيْ. وقيلَ: هيَ لامُ أمرٍ فيهِ معنى التهديد، كما قال عز وجل: ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْۚ﴾ ﴿فَتَمَتَّعُوا۟ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ٣٤﴾ تهديدٌ ووعيدٌ.

قولهُ تعالى: ﴿أَمۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٗا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُواْ بِهِۦ يُشۡرِكُونَ ٣٥﴾ استفهامُ فيهِ معنى التّوقيفِ و ﴿سُلۡطَٰنٗا﴾ أيْ كتاباً، وأضافَ الكلامُ إلى الكتابِ توسّعاً، والسّلطانُ: ما يدفعُ بِهِ الإنسانُ عنْ نفسهِ أمراً يستوجبُ بِهِ عقوبةً، كما قالَ تعالى: ﴿أَوۡ لَأَاْذۡبَحَنَّهُۥٓ أَوۡ لَيَأۡتِيَنِّي بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ﴾.

قولهُ تعالى: ﴿وَإِذَآ أَذَقۡنَا ٱلنَّاسَ رَحۡمَةٗ فَرِحُواْ بِهَاۖ﴾ بالنّعمة والمطر والأمن والدّعة ﴿وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةُۢ﴾ أيْ بلاءٌ وعقوبةٌ ﴿بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ﴾ أيْ بما عملوا منَ المعاصي ﴿إِذَا هُمۡ يَقۡنَطُونَ ٣٦﴾ ييأسونَ منَ الرّحمةِ والفرجِ، قَنِطَ يَقْنَطُ، وهيَ قراءةُ العامّةِ. وقَنَطَ يَقنِطُ، وهيَ قراءةُ أبي عمرو والكسائيِّ ويعقوبَ، والآيةُ صفةٌ للكافرِ، يقنطُ عندَ الشّدّةِ ويبطرُ عندَ النّعمةِ، كما قيل: كحمارِ السّوءِ إنْ أعلفتهُ رمحَ النّاسَ وإنْ جاعَ نهقَ، وكثيرٌ ممّنْ لمْ يرسخِ الإيمانُ في قلبهِ بهذِهِ المثابةِ، وقدْ مضى في غيرِ موضعٍ. فأمّا المؤمنُ فيشكرُ ربه عند النعمة، ويرجوه عند الشدة.

قولهُ تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُۚ﴾ أيْ يوسّعُ الخيرَ في الدّنيا لمنْ يشاءُ أوْ يضيّقُ، فلا يجبُ أنْ يدعوهمُ الفقرُ إلى القنوطِ ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ٣٧﴾.

قولهُ تعالى: ﴿فَـَٔاتِ ذَا ٱلۡقُرۡبَىٰ حَقَّهُۥ﴾ فيهِ ثلاثُ مسائلَ:

الأولى: لمّا تقدّمَ أنّهُ سبحانهُ يبسطُ الرّزقَ لمنْ يشاءُ ويقدرُ أمرَ منْ وسّعَ عليهِ الرّزقَ أنْ يوصّلَ إلى الفقيرِ كفايتهُ ليمتحنَ شكرَ الغنيِّ. والخطابُ للنّبيِّ ﷺ والمرادُ هوَ وأمّتهُ، لأنّهُ قالَ: ﴿ذَٰلِكَ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجۡهَ ٱللَّهِۖ﴾. وأمرَ بإيتاءِ ذي القربى لقربِ رحمهِ، وخيرُ الصّدقةِ ما كانَ على القريبِ، وفيها صلةُ الرّحمِ. وقدْ فضّلَ رسولُ اللّهِ ﷺ الصّدقةَ على الأقاربِ على عتقِ الرّقابِ، فقالَ: لميمونةَ وقدْ أعتقتْ وليدةً: «أما إنّكِ لوْ أعطيتها أخوالكِ كانَ أعظمَ لأجركِ».

الثانية – واختلفَ في هذهِ الآيةِ، فقيلَ: إنّها منسوخةٌ بآيةِ المواريثِ. وقيلَ: لا نسخَ، بلْ للقريبِ حقٌّ لازمٌ في البرِّ على كلِّ حالٍ، وهوَ الصّحيحُ، وقيلَ: المرادُ بالقربى أقرباءُ النّبيِّ

ﷺ. والأوّلُ أصحُّ، فإنَّ حقّهمْ مبيّنٌ في كتابِ اللّهِ عزَّ وجلَّ في قولهِ: ﴿فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾. قالَ الحسنُ: ﴿حَقَّهُۥ﴾ المواساةُ في اليسر، وقول ميسور في العسر ﴿وَٱلْمِسْكِينَ﴾ السّائلَ الطّوّافَ، وابنَ السّبيلِ: الضّيفَ.

الثالثة- ﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ﴾ أيْ إعطاءُ الحقِّ أفضلُ منَ الإمساكِ إذا أريدَ بذلكَ وجهُ اللّهِ والتّقرّبُ إليهِ ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٣٨﴾﴾ أيِ الفائزونَ بمطلوبهمْ منَ الثّوابِ في الآخرةِ.

قولهُ تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَا۟ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ﴾ فيهِ أربعُ مسائلَ:

الأولى: قرأَ الجمهورُ: ﴿ءَاتَيْتُم﴾ بالمدِّ بمعنى أعطيتمْ. وقرأ ابنُ كثيرٍ بغيرِ مدٍّ، بمعنى ما فعلتمْ منْ ربا ليربوا، كما تقولُ: أتيت صواباً وأتيت خطأً. وأجمعوا على المدِّ في قولهِ: ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ﴾. والرّبا الزّيادةُ، وهوَ هناكَ محرّمٌ وهاهنا حلالٌ. وثبتَ بهذا أنّهُ قسمانِ: منهُ حلالٌ ومنهُ حرامٌ، فأمّا الرّبا الحلالُ الّذي يهدي ليثابَ ما هوَ أفضلُ منهُ، فذلكَ الّذي لا يربو عندَ اللّهِ ولا يؤجرُ صاحبهُ ولكنْ لا إثمَ عليهِ، وفي هذا المعنى نزلتِ الآيةُ. قالَ ابنُ عبّاسٍ: هذهِ آيةٌ نزلتْ في هبةِ الثّوابِ. قالَ ابنُ عطيّةَ: وما جرى مجراها ممّا يصنعهُ الإنسانُ ليجازى عليهِ كالسّلامِ وغيرهِ.

وقيلَ: كانَ هذا حراماً على النّبيِّ ﷺ على الخصوصِ، قالَ اللّهُ تعالى: ﴿وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ﴾ فنهى أنْ يعطيَ شيئاً فيأخذَ أكثرَ منهُ عوضاً.

وقيلَ: إنّهُ الرّبا المحرّمُ، فمعنى: ﴿فَلَا يَرْبُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ﴾ على هذا القولِ لا يحكمُ بهِ لآخذهِ بلْ هوَ للمأخوذِ منهُ.

الثانية- اختلفَ العلماءُ فيمنْ وهبَ هبةً يطلبُ ثوابها، وقالَ: إنّما أردتُ الثّوابَ، فقالَ: مالكٌ: ينظرُ فيهِ، فإنْ كانَ مثلهُ ممّنْ يطلبُ الثّوابَ منَ الموهوبِ لهُ فلهُ ذلكَ، مثلُ هبةِ الفقيرِ للغنيِّ، وهبةِ الخادمِ لصاحبهِ، وهبةِ الرّجلِ لأميرهِ ومنْ فوقهُ، وهوَ أحدُ قولي الشّافعيِّ. وقالَ أبو حنيفةَ: لا يكونُ لهُ ثوابٌ إذا لمْ يشترطْ، وهوَ قولُ الشّافعيِّ الآخرُ. قالَ: والهبةُ للثّوابِ

باطلةٌ لا تنفعهُ، لأنّها بيعٌ بثمنٍ مجهولٍ. واحتجَّ الكوفيُّ بأنَّ موضوعَ الهبةِ التّبرّعُ، فلوْ أوجبنا فيها العوضَ لبطلَ معنى التّبرّعِ وصارتْ في معنى المعاوضاتِ، والعربُ قدْ فرّقتْ بينَ لفظِ البيعِ ولفظِ الهبةِ، فجعلتْ لفظَ البيعِ على ما يستحقُّ فيهِ العوضُ، والهبةُ بخلافِ ذلكَ. ودليلنا ما رواهُ مالكٌ في موطّئهِ عنْ عمرَ بنِ الخطّابِ رضي الله عنه قالَ: أيّما رجلٍ وهبَ هبةً يرى أنّها للثّوابِ فهوَ على هبته حتى يرضى منها.

وعنْ عليٍّ رضي الله عنه قالَ: المواهبُ ثلاثةٌ: موهبةٌ يرادُ بها وجهُ اللّهِ، وموهبةٌ يرادُ بها وجوهُ النّاسِ، وموهبةٌ يرادُ بها الثّوابُ، فموهبةُ الثّوابِ يرجعُ فيها صاحبها إذا لمْ يثبْ منها.

وترجمَ البخاريُّ رحمهُ اللّهُ «بابُ المكافأةِ في الهبةِ» وساقَ حديثُ عائشةَ قالتْ: كانَ رسولُ اللّهِ ﷺ يقبلُ الهديّةَ ويثيبُ عليها، وأثابَ على لقحةٍ ولمْ ينكرْ على صاحبها حينَ طلبَ الثّوابَ، وإنّما أنكرَ سخطهُ للثّوابِ وكانَ زائداً على القيمةِ. خرّجهُ التّرمذيُّ.

الثالثة- وما ذكرهُ عليٌّ رضي الله عنه وفصّلهُ منَ الهبةِ صحيحٌ، وذلكَ أنَّ الواهبَ لا يخلو في هبتهِ منْ ثلاثةِ أحوالٍ:

أحدها- أنْ يريدَ بها وجهَ اللّهِ تعالى ويبتغي عليها الثّوابَ منهُ.

والثّاني: أنْ يريدَ بها وجوهَ النّاسِ رياءً ليحمدوهُ عليها ويثنوا عليهِ منْ أجلها.

والثّالثُ- أنْ يريدَ بها الثّوابَ منَ الموهوبِ لهُ، وقالَ ﷺ: «الأعمالُ بالنّيّاتِ وإنّما لكلِّ امرئٍ ما نوى». فأمّا إذا أرادَ بهبتهِ وجهَ اللّهِ تعالى وابتغى عليهِ الثّوابَ منْ عندهِ فلهُ ذلكَ عندَ اللّهِ بفضلهِ ورحمتهِ، قالَ اللّهُ عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ﴾.

وكذلكَ منْ يصلُ قرابتهُ ليكونَ غنياً حتّى لا يكونَ كلاً فالنّيّةُ في ذلكَ متبوعةٌ، فإنْ كانَ ليتظاهرَ بذلكَ دنيا فليسَ لوجهِ اللّهِ، وإنْ كانَ لما لهُ عليهِ منْ حقِّ القرابةِ وبينهما منْ وشيجةِ الرّحمِ فإنّهُ لوجهِ اللّهِ. وأمّا منْ أرادَ بهبتهِ وجوهَ النّاسِ رياءً ليحمدوهُ عليها ويثنوا عليهِ منْ أجلها فلا منفعةَ لهُ في هبتهِ، لا ثوابَ في الدّنيا ولا أجرَ في الآخرةِ، قالَ اللّهُ عزَّ وجلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبْطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ﴾ الآيةَ.

وأمّا منْ أرادَ بهبتهِ الثّوابَ منَ الموهوبِ لهُ فلهُ ما أرادَ بهبتهِ، ولهُ أنْ يرجعَ فيها ما لمْ يثبْ بقيمتها، على مذهبِ ابنِ القاسمِ، أوْ ما لمْ يرضَ منها بأزيدَ منْ قيمتها، على ظاهرِ قول عمر وعليٍّ.

الرابعة- قوله تعالى: ﴿لِّيَرۡبُوَاْ﴾ قرأ جمهور القراء السبعة: ﴿لِّيَرۡبُوَاْ﴾ بالياءِ وإسنادِ الفعلِ إلى الرّبا. وقرأ نافعٌ وحدهُ: بضمِّ التّاءِ والواوِ ساكنةً على المخاطبةِ، بمعنى تكونوا ذوي زياداتٍ ﴿فَلَا يَرۡبُواْ عِندَ ٱللَّهِۖ﴾ أي لا يزكوا ولا يثيبُ عليهِ، لأنّهُ لا يقبلُ إلّا ما أريدَ بهِ وجههُ وكانَ خالصًا لهُ.

﴿وَمَآ ءَاتَيۡتُم مِّن زَكَوٰةٖ﴾ أيْ منْ صدقةٍ ﴿تُرِيدُونَ وَجۡهَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُضۡعِفُونَ﴾ أيْ ذلكَ الّذي يقبلهُ ويضاعفهُ لهُ عشرةَ أضعافهِ أوْ أكثرَ، كما قالَ: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِي يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضۡعَافٗا كَثِيرَةٗۚ﴾. وقال: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمُ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثۡبِيتٗا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ كَمَثَلِ جَنَّةِۭ بِرَبۡوَةٍ﴾.

وقالَ: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُضۡعِفُونَ ٣٩﴾ ولمْ يقلْ فأنتمُ المضعفونَ لأنّهُ رجعَ منَ المخاطبةِ إلى الغيبةِ، مثلُ قولهِ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمۡ فِي ٱلۡفُلۡكِ وَجَرَيۡنَ بِهِم﴾.

قوله تعالى: ﴿۞ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ﴾ ابتداءٌ وخبرٌ. وعادَ الكلامُ إلى الاحتجاجِ على المشركينَ وأنّهُ الخالقُ الرّازقُ المميتُ المحيي. ثمَّ قالَ على جهةِ الاستفهامِ: ﴿هَلۡ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفۡعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَيۡءٖۚ﴾ لا يفعل. ثمَّ نزّهَ نفسهُ عنِ الأندادِ والأضدادِ والصّاحبةِ والأولاد بقوله الحق: ﴿سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ٤٠﴾ وأضافَ الشّركاءَ إليهمْ لأنّهمْ كانوا يسمّونهمْ بالآلهةِ والشركاء، ويجعلون لهم من أموالهم.

قولهُ تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلۡفَسَادُ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ﴾ الفسادُ المعاصي وقطعُ السّبيلِ والظّلمُ، أيْ صارَ هذا العملُ مانعًا منَ الزّرعِ والعماراتِ والتّجاراتِ، والبرُّ والبحرُ هما المعروفانِ المشهورانِ في اللّغةِ وعندَ النّاسِ، لا ما قالهُ بعضُ العبادِ: أنَّ البرَّ اللسان، والبحر القلب، لظهور ما على اللّسانِ وخفاءِ ما في القلبِ. وقيلَ: البرُّ: الفيافي، والبحرُ: القرى، والعربُ

تسمّي الأمصارَ البحارَ، وقيلَ: ظهر الجدب في البرِّ، أيْ في البوادي وقراها، وفي البحر أي في مدن البحر، مثل: ﴿وَسۡـَٔلِ ٱلۡقَرۡيَةَ﴾.

﴿بِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِي ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعۡضَ﴾ أيْ عقابَ بعضِ ﴿ٱلَّذِي عَمِلُواْ﴾ ثمَّ حذفَ. ﴿لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ۝٤١﴾ لعلّهمْ يتوبونَ. وقالَ: ﴿بَعۡضَ ٱلَّذِي عَمِلُواْ﴾ لأنَّ معظمَ الجزاءِ في الآخرةِ.

قولهُ تعالى: ﴿قُلۡ سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ أيْ قلْ لهمْ يا محمّدُ سيروا في الأرضِ ليعتبروا بمنْ قبلهمْ، وينظروا كيفَ كانَ عاقبةُ منْ كذّبَ الرّسلَ ﴿كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّشۡرِكِينَ ۝٤٢﴾ أيْ كافرين فأهلكوا.

قولهُ تعالى: ﴿فَأَقِمۡ وَجۡهَكَ لِلدِّينِ ٱلۡقَيِّمِ﴾ يعني الإسلامَ ﴿مِن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِۖ﴾ أيْ لا يردّهُ اللّهُ عنهمْ، والمرادُ يومُ القيامةِ ﴿يَوۡمَئِذٖ يَصَّدَّعُونَ ۝٤٣﴾ يتفرقون. وقال الشاعر:

وكنّا كندمانيْ جذيمةَ حقبةً ... منَ الدّهرِ حتّى قيلَ لنْ يتصدّعا

أيْ لنْ يتفرّقا، نظيرهُ قوله تعالى: ﴿يَوۡمَئِذٖ يَتَفَرَّقُونَ﴾ ﴿فَرِيقٞ فِي ٱلۡجَنَّةِ وَفَرِيقٞ فِي ٱلسَّعِيرِ﴾. والأصلُ يتصدّعونَ، ويقالُ: تصدّعَ القومُ إذا تفرّقوا، ومنهُ اشتق الصداع، لأنه يفرق شعب الرأس.

قولهُ تعالى: ﴿مَن كَفَرَ فَعَلَيۡهِ كُفۡرُهُۥۖ﴾ أيْ جزاءُ كفرهِ ﴿وَمَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا فَلِأَنفُسِهِمۡ يَمۡهَدُونَ ۝٤٤﴾ أيْ يوطّئونَ لأنفسهمْ في الآخرةِ فراشًا ومسكنًا وقراراً بالعملِ الصّالحِ، ومنهُ: مهدُ الصّبيِّ. والمهادُ الفراشُ، وقدْ مهّدتُ الفراشَ مهداً: بسطتهُ ووطّأتهُ. وتمهيدُ الأمورِ: تسويتها وإصلاحها.

قولهُ تعالى: ﴿لِيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ أيْ يمهّدونَ لأنفسهمْ ليجزيهمُ اللّهُ منْ فضلهِ. وقيلَ يصدّعونَ ليجزيهم الله، أي ليميز الكافرُ منَ المسلمِ. ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡكَٰفِرِينَ ۝٤٥﴾.

قولهُ تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ﴾ أيْ ومنْ أعلامِ كمالِ قدرتهِ إرسالُ الرّياحِ مبشّراتٍ أيْ بالمطرِ لأنّها تتقدّمهُ. وقدْ مضى في «الحجرِ» بيانهُ ﴿وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ﴾ يعني الغيثَ والخصبَ ﴿وَلِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ﴾ أيْ في البحرِ عندَ هبوبها. وإنّما زادَ ﴿بِأَمْرِهِۦ﴾ لأنَّ الرّياحَ قدْ تهبُّ ولا تكونُ مؤاتية، فلا بدَّ منْ إرساءِ السّفنِ والاحتيالِ بحبسها، وربّما عصفتْ فأغرقتها بأمرهِ ﴿وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ﴾ يعني الرزق بالتجارة ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٤٦﴾﴾ هذهِ النّعمَ بالتّوحيدِ والطّاعةِ.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ أي المعجزات والحجج النيرات ﴿فَٱنتَقَمْنَا﴾ أي فكفروا فانتقمنا ممن كفر. ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾﴾.

قولهُ تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ﴾ قرأَ ابنُ كثيرٍ وحمزةُ والكسائيُّ: «الرِّيحَ» بالتّوحيدِ. والباقونَ بالجمعِ. قالَ أبو عمرو: وكلُّ ما كانَ بمعنى الرّحمةِ فهوَ جمعٌ، وما كانَ بمعنى العذابِ فهوَ موحّدٌ. «كِسَفًا» جمعُ كسفةٍ وهيَ القطعةُ. وفي قراءةِ أبي جعفرَ وابنِ عامرٍ ﴿كِسْفًا﴾ بإسكانِ السّينِ، وهيَ أيضًا جمعُ كسفةٍ، كما يقالُ: سدرةٌ وَسدرٌ، وعلى هذهِ القراءةِ يكونُ المضمرُ الّذي بعدهُ عائداً عليهِ، أيْ فترى الودقَ أيِ المطرَ يخرجُ منْ خلالِ الكسفِ، لأنَّ كلَّ جمعٍ بينهُ وبينَ واحدهِ الهاءُ لا غيرَ فالتّذكيرُ فيهِ حسنٌ. ومنْ قرأَ: «كِسَفًا» فالمضمرُ عندهُ عائدٌ على السّحابِ ﴿فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ﴾ أي بالمطرِ ﴿مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٨﴾﴾ يفرحونَ بنزولِ المطرِ عليهمْ ﴿وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِۦ لَمُبْلِسِينَ ﴿٤٩﴾﴾ أيْ يائسينَ مكتئبينَ قدْ ظهرَ الحزنُ عليهم لاحتباس المطر عنهم. و ﴿مِن قَبْلِهِۦ﴾ تكريرٌ معناهُ التّأكيدُ، ﴿لَمُبْلِسِينَ﴾ أيْ لبائسينَ.

قولهُ تعالى: ﴿فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ﴾ نظرَ استبصارٍ واستدلالٍ، أيِ استدلّوا بذلكَ على أنَّ منْ قدرَ عليهِ قادرٌ على إحياءِ الموتى. وقرأ ابنُ عامرٍ وحفصٌ وحمزةُ والكسائيُّ: ﴿ءَاثَٰرِ﴾ بالجمعِ. الباقونَ بالتّوحيدِ، لأنّهُ مضافٌ إلى مفردٍ. والأثرُ فاعل ﴿يُحْىِ﴾ ويجوزُ أنْ يكونَ الفاعلُ اسمَ اللّهِ عزَّ وجل. ومن قرأ: ﴿ءَاثَٰرِ﴾ بالجمع فلأن ﴿رَحْمَتِ ٱللَّهِ﴾ يجوزُ أنْ

يرادَ بها الكثرةُ، كما قالَ تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ﴾. و ﴿يُحۡيِ﴾ أيْ يحيي اللّهُ عزَّ وجلَّ أوِ المطرُ أوِ الأثرُ ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٥٠﴾ استدلالٌ بالشاهد على الغائب.

قولُه تعالى: ﴿وَلَئِنۡ أَرۡسَلۡنَا رِيحٗا فَرَأَوۡهُ مُصۡفَرّٗا﴾ يعني الرّيحَ، والرّيحُ يجوزُ تذكيرُه. فلا يمتنعُ تذكيرُ كلِّ مؤنّثٍ غيرِ حقيقيٍّ، نحوِ أعجبني الدّارُ وشبهِهِ. وقيلَ: فرأوا السّحابَ. وقيلَ: الزّرعُ، وهوَ الأثرُ، والمعنى: فرأوا الأثرَ مصفراً، واصفرارُ الزّرعِ بعدَ اخضرارِهِ يدلُّ على يبسِهِ، وكذا السّحابُ يدلُّ على أنّهُ لا يمطرُ، والرّيحُ على أنّها لا تلقّحُ ﴿لَّظَلُّواْ مِنۢ بَعۡدِهِۦ يَكۡفُرُونَ ٥١﴾ أيْ ليظلّنَّ، وحسنَ وقوعُ الماضي في موضعِ المستقبلِ لما في الكلامِ من معنى المجازاةِ، والمجازاةُ لا تكونُ إلّا بالمستقبلِ.

قولُه تعالى: ﴿فَإِنَّكَ لَا تُسۡمِعُ ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾ ماتتْ عقولهمْ وعميتْ بصائرهمْ، فلا يتهيّأُ لكَ إسماعهمْ وهدايتهمْ. وهذا ردٌّ على القدريّةِ ﴿إِن تُسۡمِعُ إِلَّا مَن يُؤۡمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ الّذينَ يصغونَ إلى أدلّةِ التّوحيدِ وخلقتْ لهمُ الهدايةُ.

قولُه تعالى: ﴿۞ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعۡفٖ﴾ منْ نطفةٍ ضعيفةٍ، أو ابتداء الطفولة والصغر ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعۡدِ ضَعۡفٖ قُوَّةٗ﴾ يعني الشّبيبةَ ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعۡدِ قُوَّةٖ ضَعۡفٗا﴾ يعني الهرمَ. وقرأ عاصمٌ وحمزةُ: بفتحِ الضّادِ فيهنَّ، الباقونَ بالضّمِّ، لغتانِ، والضّمُّ لغةُ النّبيِّ ﷺ، وقيلَ: الضّعفُ بالفتحِ في الرّأيِ، وبالضّمِّ في الجسد، ﴿وَشَيۡبَةٗۚ﴾ مصدرٌ كالشّيبِ، والمصدرُ يصلحُ للجملةِ، وكذلكَ القولُ في الضعف والقوة ﴿يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ﴾ منْ قوّةٍ وضعفٍ ﴿وَهُوَ ٱلۡعَلِيمُ﴾ بتدبيرِهِ ﴿ٱلۡقَدِيرُ ٥٤﴾ على إرادتِهِ.

قولُه تعالى: ﴿وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقۡسِمُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾ أيْ يحلفُ المشركونَ ﴿مَا لَبِثُواْ غَيۡرَ سَاعَةٖۚ﴾ ليسَ في هذا ردٌّ لعذابِ القبرِ، إذْ كانَ قدْ صحَّ عنِ النّبيِّ ﷺ منْ غيرِ طريقٍ أنّهُ تعوّذَ منهُ، وأمرَ أنْ يتعوّذَ منهُ، فمنْ ذلكَ ما رواهُ عبدُ اللّهِ بنُ مسعودٍ قالَ: سمعَ النّبيُّ ﷺ أمَّ حبيبةَ وهيَ تقولُ: اللّهمَّ أمتعني بزوجي رسولِ اللّهِ، وبأبي أبي سفيانَ، وبأخي معاويةَ، فقالَ: لها النّبيُّ ﷺ: «لقدْ سألتِ اللّهَ لآجالٍ مضروبةٍ وأرزاقٍ مقسومةٍ ولكنْ سليهِ أنْ يعيذكِ منْ

عذابِ جهنّمَ وعذابِ القبر» في أحاديثَ مشهورةٍ خرّجها مسلمٌ والبخاريُّ وغيرهما، وفي معنى: ﴿مَا لَبِثُواْ غَيْرَ سَاعَةٍۚ﴾ قولانِ:

أحدهما– أنّهُ لا بدَّ منْ خمدةٍ قبلَ يومِ القيامةِ، فعلى هذا قالوا: ما لبثنا غيرَ ساعةٍ.

والقولُ الآخرُ– أنّهمْ يعنونَ في الدّنيا لزوالها وانقطاعها، كما قالَ اللّهُ تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا﴾ كأنْ لمْ يلبثوا إلّا ساعةً منْ نهارٍ، وإنْ كانوا قدْ أقسموا على غيبٍ وعلى غير ما يدرون.

قال الله عز وجل: ﴿كَذَٰلِكَ كَانُواْ يُؤْفَكُونَ ٥٥﴾ أيْ كانوا يكذبونَ في الدّنيا، يقالُ: أفكَ الرّجلُ إذا صرفَ عنِ الصّدقِ والخيرِ. وأرضٌ مأفوكةٌ: ممنوعةٌ منَ المطرِ. وقدْ زعمَ جماعةٌ منْ أهلِ النّظرِ أنَّ القيامةَ لا يجوزُ أنْ يكونَ فيها كذبٌ لما همْ فيهِ، والقرآنُ يدلُّ على غيرِ ذلكَ، قالَ اللّهُ عزَّ وجلَّ: ﴿كَذَٰلِكَ كَانُواْ يُؤْفَكُونَ﴾ أيْ كما صرفوا عنِ الحقِّ في قسمهمْ أنّهمْ ما لبثوا غيرَ ساعةٍ كذلكَ كانوا يصرفون عن الحق في الدنيا، وقال عز وجل: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍۚ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ﴾ وقالَ: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ٢٣ ٱنظُرْ كَيْفَ كَذَبُواْ﴾.

قولهُ تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِۖ﴾ اختلفَ في الّذينَ أوتوا العلمَ، فقيلَ الملائكةُ. وقيلَ الأنبياءُ. وقيلَ علماءُ الأممِ. وقيلَ مؤمنو هذهِ الأمّةِ. وقيلَ جميعُ المؤمنينَ، أيْ يقولُ المؤمنونَ للكفّارِ ردّاً عليهمْ لقدْ لبثتمْ في قبوركمْ إلى يومِ البعثِ. والفاءُ في قولهِ: ﴿فَهَٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ﴾ جوابٌ لشرطٍ محذوفٍ دلَّ عليهِ الكلامُ، مجازهُ: إنْ كنتمْ منكرينَ البعثَ فهذا يومُ البعثِ. وقيلَ: معنى ﴿فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ في حكمِ اللّهِ. وقيلَ: في الكلامِ تقديمٌ وتأخيرٌ، أيْ وقالَ الّذينَ أوتوا العلمَ في كتابِ اللّهِ والإيمانَ لقدْ لبثتمْ إلى يومِ البعثِ، ﴿فَهَٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ﴾ أي اليوم الذي كنتم تنكرونه.

قولهُ تعالى: ﴿فَيَوۡمَئِذٖ لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَعۡذِرَتُهُمۡ﴾ أيْ لا ينفعهمُ العلمُ بالقيامةِ ولا الاعتذارُ يومئذٍ ﴿وَلَا هُمۡ يُسۡتَعۡتَبُونَ ۝٥٧﴾ أيْ ولا حالهمْ حالُ منْ يستعتبُ ويرجعُ، يقالُ: استعتبتهُ فأعتبني، أيِ استرضيتهُ فأرضاني، وذلكَ إذا كنتُ جانياً عليهِ. وحقيقةُ أعتبتهُ: أزلتُ عتبهُ. وقرأ عاصمٌ وحمزةُ والكسائيُّ: ﴿فَيَوۡمَئِذٖ لَّا يَنفَعُ﴾ بالياء، والباقون بالتاء.

قولهُ تعالى: ﴿وَلَقَدۡ ضَرَبۡنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٖ﴾ يدلّهمْ على ما يحتاجونَ إليهِ، وينبّههمْ على التّوحيدِ وصدقِ الرّسلِ ﴿وَلَئِن جِئۡتَهُم بِـَٔايَةٖ﴾ أيْ معجزةٍ، كفلقِ البحرِ والعصا وغيرهما ﴿لَّيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ أَنتُمۡ﴾ يا معشرَ المؤمنينَ ﴿إِلَّا مُبۡطِلُونَ ۝٥٨﴾ أيْ تتّبعونَ الباطلَ والسّحرَ ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أيْ كما طبعَ اللّهُ على قلوبهمْ حتّى لا يفهموا الآياتِ عنِ اللّهِ فكذلكَ ﴿يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ ۝٥٩﴾ أدلّةَ التّوحيدِ ﴿فَٱصۡبِرۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ﴾ ينصركَ ﴿وَلَا يَسۡتَخِفَّنَّكَ﴾ أيْ لا يستفزّنّكَ عنْ دينكَ ﴿ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ۝٦٠﴾ والخطابُ للنّبيِّ ﷺ والمرادُ أمّتهُ يقالُ: استخفَّ فلانٌ فلاناً أيِ استجهلهُ حتّى حملهُ على اتّباعهِ في الغيِّ.

سورة لقمان

مكّيّةٌ، وهي أربع وثلاثون آية.

بسمِ اللّهِ الرّحمنِ الرّحيمِ

قولهُ تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ ۝٢﴾ الكتابُ: القرآنُ. والحكيمُ: المحكمُ لا خللَ فيهِ ولا تناقضَ. وقيلَ ذو الحكمة وقيل الحاكم ﴿هُدٗى وَرَحۡمَةٗ﴾ بالنّصبِ على الحالِ، مثلُ: ﴿هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمۡ ءَايَةٗۖ﴾ وهذهِ قراءةُ المدنيّينَ وأبي عمرو وعاصم والكسائيِّ. وقرأ حمزةُ: «هُدًى وَرَحْمَةٌ» بالرّفعِ على إضمارِ مبتدأٍ، لأنّهُ أوّلُ آيةٍ. أو يكونَ خبرَ ﴿تِلۡكَ﴾. ﴿لِّلۡمُحۡسِنِينَ﴾ المحسنُ: الّذي يعبدُ اللّهَ كأنّهُ يراهُ، فإنْ لمْ يكنْ يراهُ فإنّهُ يراهُ. وقيلَ: همُ المحسنونَ في الدّينِ وهوَ الإسلامُ، قالَ اللّهُ تعالى: ﴿وَمَنۡ أَحۡسَنُ دِينٗا مِّمَّنۡ أَسۡلَمَ وَجۡهَهُۥ لِلَّهِ﴾ الآيةَ. ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ في موضعِ الصّفةِ، ويجوزُ الرّفعُ على القطعِ بمعنى: همُ الّذينَ، والنّصبُ بإضمارٍ أعني. وقدْ مضى الكلامُ في هذهِ الآيةِ والّتي بعدها في البقرةِ وغيرها.

قولهُ تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡتَرِي لَهۡوَ ٱلۡحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ ۝٦﴾، فيهِ خمسُ مسائلَ:

الأولى: قولهُ تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡتَرِي لَهۡوَ ٱلۡحَدِيثِ﴾ ﴿لَهۡوَ ٱلۡحَدِيثِ﴾: الغناءُ، وهوَ ممنوعٌ بالكتابِ والسّنّةِ، والتّقديرُ: منْ يشتري ذا لهوٍ أو ذات لهو، مثل: ﴿وَسۡـَٔلِ ٱلۡقَرۡيَةَ﴾. وهذهِ إحدى الآياتِ الثّلاثِ الّتي استدلَّ بها العلماءُ على كراهةِ الغناءِ والمنعِ منهُ. والآية الثانية قوله تعالى: ﴿وَأَنتُمۡ سَٰمِدُونَ﴾. قالَ ابنُ عبّاسٍ: هوَ الغناءُ بالحميريّةِ، اسمدي لنا، أيْ غنّي لنا. والآيةُ الثالثة قولهُ تعالى: ﴿وَٱسۡتَفۡزِزۡ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتَ مِنۡهُم بِصَوۡتِكَ﴾ قالَ مجاهدٌ: الغناءُ والمزاميرُ.

قلت: هذا أعلى ما قيلَ في هذهِ الآيةِ، وحلفَ على ذلكَ ابنُ مسعودٍ باللّهِ الّذي لا إلهَ إلّا هوَ ثلاثَ مرّاتٍ إنّهُ الغناءُ. وقال: الغناءُ ينبتُ النّفاقَ في القلبِ، وقالَ ابنُ القاسمِ: سألتُ

مالكًا عنهُ فقالَ: قالَ الله تعالى: ﴿فَمَاذَا بَعۡدَ ٱلۡحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُۖ﴾ أفحقٌّ هوَ؟! وترجمَ البخاريُّ «بابُ كلِّ لهوٍ باطلٍ إذا شغلَ عنْ طاعةِ اللّهِ، ومنْ قال لصاحبه تعال أقامركَ»، وقولهُ تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡتَرِي لَهۡوَ ٱلۡحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًاۚ﴾ فقولهُ: «إذا شغلَ عنْ طاعةِ اللّهِ» مأخوذٌ منْ قولهِ تعالى: ﴿لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾.

وقالتْ طائفةٌ: الشّراءُ في هذهِ الآيةِ مستعارٌ، وإنّما نزلتِ الآيةُ في أحاديثَ قريشٍ وتلهّيهمْ بأمرِ الإسلامِ وخوضهمْ في الباطلِ، فكانَ تركُ ما يجبُ فعلهُ وامتثالُ هذهِ المنكراتِ شراءٌ لها، على حدِّ قولهُ تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ﴾، اشتروا الكفرَ بالإيمانِ، أيِ استبدلوهُ منهُ واختاروهُ عليهِ.

وروى التّرمذيُّ وغيرهُ منْ حديثِ أنسٍ وغيرهُ عنِ النّبيِّ ﷺ أنّهُ قالَ: «صوتانِ ملعونانِ فاجرانِ أنهى عنهما: صوتُ مزمارٍ ورنّةُ شيطانٍ عندَ نغمةٍ ومرحٍ ورنّةٌ عندَ مصيبةٍ لطمُ خدودٍ وشقُّ جيوبٍ»، وروى التّرمذيُّ منْ حديثِ عليٍّ رضي الله عنه قالَ: قالَ رسولُ اللّهِ ﷺ: «إذا فعلتْ أمّتي خمسَ عشرةَ خصلةً حلَّ بها البلاءُ- فذكرَ منها: إذا اتّخذتِ القيناتُ والمعازفُ».

ولهذهِ الآثارِ وغيرها قالَ العلماءُ بتحريمِ الغناءِ. وهيَ المسألةُ:-

الثانية- وهوَ الغناءُ المعتادُ عندَ المشتهرينَ بهِ، الّذي يحرّكُ النّفوسَ ويبعثها على الهوى والغزلِ، والمجونُ الّذي يحرّكُ السّاكنَ ويبعثُ الكامنَ فهذا النّوعُ إذا كانَ في شعرٌ يشبّبُ فيهِ بذكرِ النّساءِ ووصفِ محاسنهنَّ وذكرِ الخمورِ والمحرّماتِ لا يختلفُ في تحريمهِ، لأنّهُ اللّهوُ والغناءُ المذمومُ بالاتّفاقِ. فأمّا ما سلمَ منْ ذلكَ فيجوزُ القليلُ منهُ في أوقاتِ الفرحِ، كالعرسِ والعيدِ وعندَ التّنشيطِ على الأعمالِ الشّاقّةِ، كما كانَ في حفرِ الخندقِ وحدوِ أنجشةَ وسلمةَ بنِ الأكوعِ. فأمّا ما ابتدعتهُ الصّوفيّةُ اليومَ منَ الإدمانِ على سماعِ المغاني بالآلاتِ المطربةِ منَ الشّبّاباتِ والطار والمعازف والأوتار فحرام.

قال ابنُ العربيِّ: فأمّا طبلُ الحربِ فلا حرجَ فيهِ، لأنّهُ يقيمُ النّفوسَ ويرهبُ العدوَّ، والدّفُّ مباحٌ، ضربَ بينَ يدي النّبيِّ ﷺ يومَ دخلَ المدينةَ، فهمَّ أبو بكرٍ بالزّجرِ فقالَ: رسولُ اللّهِ ﷺ: «دعهنَّ يا أبا بكرٍ حتّى تعلمَ اليهودُ أنَّ ديننا فسيحٌ» فكنَّ يضربنَ ويقلنَ: نحنُ بناتُ النّجّارِ، حبّذا محمّدٌ منْ جارِ. وقدْ قيل: إنَّ الطّبلَ في النّكاحِ كالدّفِّ، وكذلكَ الآلاتُ

المشهورةُ للنّكاحِ يجوزُ استعمالها فيهِ بما يحسنُ منَ الكلامِ ولَمْ يكن فيه رفث.

الثالثة- الاشتغالُ بالغناءِ على الدّوامِ سفهٌ تردُّ بهِ الشّهادةُ، فإنْ لمْ يدمْ لمْ تردَّ. قالَ: مالك بن أنسٍ: إنّما يفعلهُ عندنا الفسّاقُ. وإذا اشترى جاريةً ووجدها مغنّيةً كانَ لهُ ردّها بالعيبِ، وهوَ مذهبُ سائرِ أهلِ المدينةِ، إلّا إبراهيمَ بنَ سعدٍ.

وأمّا مذهبُ أبي حنيفةَ فإنّهُ يكرهُ الغناءَ مع إباحته شرب النبيذ، ويجعل سماعَ الغناءِ منَ الذّنوبِ. وكذلكَ مذهبُ سائرِ أهلِ الكوفةِ لا اختلافَ بينهمْ في ذلكَ.

وأمّا مذهبُ الشّافعيِّ فقالَ: الغناءُ مكروهٌ يشبهُ الباطلَ، ومنِ استكثَرَ منهُ فهوَ سفيهٌ تردُّ شهادتهُ. وذكرَ أبو الفرجِ الجوزيُّ عنْ إمامهِ أحمدَ بنِ حنبلٍ ثلاثَ رواياتٍ قالَ: وقدْ ذكرَ أصحابنا عنْ أبي بكرٍ الخلّالِ وصاحبهِ عبدِ العزيزِ إباحةَ الغناءِ، وإنّما أشاروا إلى ما كانَ في زمانهما منَ القصائدِ الزّهديّاتِ، قالَ: وعلى هذا يحملُ ما لمْ يكرههُ أحمدُ، ويدلُّ عليهِ أنّهُ سئلَ عنْ رجلٍ ماتَ وخلّفَ ولداً وجاريةً مغنّيةً فاحتاجَ الصّبيُّ إلى بيعها فقالَ: تباعُ على أنّها ساذجةٌ لا على أنّها مغنّيةٌ. فقيلَ لهُ: إنّها تساوي ثلاثينَ ألفًا، ولعلّها إنْ بيعتْ ساذجةً تساوي عشرينَ ألفًا؟ فقالَ: لا تباعُ إلّا على أنّها ساذجةٌ. قالَ أبو الفرجِ: وإنّما قالَ أحمدُ هذا لأنَّ هذهِ الجاريةَ المغنّيةَ لا تغنّي بقصائدَ الزّهدِ، بلْ بالأشعارِ المطربةِ المثيرةِ إلى العشق.

وهذا دليلٌ على أنَّ الغناءَ محظورٌ، إذْ لوْ لمْ يكنْ محظوراً ما جازَ تفويتُ المالِ على اليتيمِ. وصارَ هذا كقولِ أبي طلحةَ للنّبيِّ ﷺ: عندي خمرٌ لأيتامٍ؟ فقالَ: «أرقها». فلوْ جازَ استصلاحها لمّا أمرَ بتضييعِ مالِ اليتامى.

قالَ الطّبريُّ: فقدْ أجمعَ علماءُ الأمصارِ على كراهةِ الغناءِ والمنعِ منهُ. وادّعى أبو عمرَ بنُ عبدِ البرِّ الإجماعَ على تحريمِ الأجرةِ على ذلكَ.

الرابعة- قالَ القاضي أبو بكرِ بنُ العربيِّ: وأمّا سماعُ القيناتِ فيجوزُ للرّجلِ أنْ يسمع غناء جاريته، إذ ليس شيء منها عليهِ حراماً لا منْ ظاهرها ولا منْ باطنها، فكيفَ يمنعُ منَ التّلذّذِ بصوتها. أمّا إنّهُ لا يجوزُ انكشافُ النّساءِ للرّجالِ ولا هتكُ الأستارِ ولا سماعُ الرّفثِ، فإذا خرجَ ذلكَ إلى ما لا يحلُّ ولا يجوزُ منعَ منْ أوّلهِ واجتثَّ منْ أصلهِ.

وقالَ أبو الطّيّبِ الطّبريُّ: أمّا سماعُ الغناءِ منَ المرأةِ التّي ليستْ بمحرمٍ فإنَّ أصحابَ الشّافعيِّ قالوا لا يجوزُ، سواءٌ كانتْ حرّةً أوْ مملوكةً. قالَ: وقالَ الشّافعيُّ: وصاحبُ الجاريةِ إذا جمعَ النّاسَ لسماعها فهوَ سفيهٌ تردُّ شهادتهُ، ثمَّ غلّظَ القولَ فيهِ فقالَ: فهيَ دياثةٌ. وإنّما جعلَ صاحبها سفيهاً لأنّهُ دعا النّاسَ إلى الباطلِ، ومنْ دعا إلى الباطلِ كانَ سفيهاً.

الخامسة- قولهُ تعالى: ﴿لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ قراءةُ العامّةِ بضمِّ الياءِ، أيْ ليضلَّ غيرهُ عنْ طريقِ الهدى، وإذا أضلَّ غيرهُ فقدْ ضلَّ. وقرأ ابنُ كثيرٍ بفتحِ الياءِ على اللّازمِ، أيْ ليضل هو نفسه.

﴿وَيَتَّخِذُهَا هُزُوًاۚ﴾ قراءةُ المدنيّينَ وأبي عمرو وعاصم بالرّفعِ عطفاً على ﴿مَن يَشۡتَرِي﴾ ويجوزُ أنْ يكونَ مستأنفاً. وقرأ حمزةُ والكسائيُّ: «وَيَتَّخِذَها» بالنّصبِ عطفاً على ﴿لِّيُضِلَّ﴾. ومنَ الوجهينِ جميعاً لا يحسنُ الوقفُ على قولهِ: ﴿بِغَيۡرِ عِلۡمٍۖ﴾ والوقف على قوله: ﴿هُزُوًا﴾.

والهاء في «يَتَّخِذَها» كنايةٌ عنِ الآياتِ. ويجوزُ أنْ يكونَ كنايةً عنِ السّبيلِ، لأنَّ السّبيلَ يؤنّثُ ويذكّرُ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ ٦﴾ أيْ شديدٌ يهينهمْ.

قولهُ تعالى: ﴿وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ ءَايَٰتُنَا﴾ يعني القرآنَ ﴿وَلَّىٰ﴾ أيْ أعرضَ ﴿مُسۡتَكۡبِرٗا﴾ نصبَ على الحالِ ﴿كَأَن لَّمۡ يَسۡمَعۡهَا كَأَنَّ فِيٓ أُذُنَيۡهِ وَقۡرٗاۖ﴾ ثقلاً وصمماً ﴿فَبَشِّرۡهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ٧﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ ٨﴾ لمّا ذكرَ عذابُ الكفّارِ ذكرَ نعيمُ المؤمنينَ ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ﴾ أيْ دائمينَ ﴿وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٗاۚ﴾ أيْ وعدهمُ اللّهُ هذا وعداً حقاً لا خلفَ فيهِ ﴿وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٩﴾ تقدم.

قولهُ تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَاۖ﴾ تكونُ ﴿تَرَوۡنَهَاۖ﴾ في موضعِ خفضٍ على النّعتِ لـ ﴿عَمَدٖ﴾ فيمكنُ أنْ يكونَ ثمَّ عمدٌ ولكنْ لا ترى. ويجوزُ أنْ تكونَ في موضعِ نصبٍ على الحالِ منَ ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ ولا عمدَ ثمَّ البتّةَ ﴿وَأَلۡقَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ﴾ أيْ جبالاً ثوابتَ ﴿أَن تَمِيدَ﴾ لئلّا تميدَ ﴿وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٖۚ وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا

﴿مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿١٠﴾﴾ منْ كلِّ لونٍ حسنٍ. وتأوّلهُ الشّعبيُّ على النّاسِ، لأنّهمْ مخلوقونَ منَ الأرضِ، قالَ: منْ كانَ منهمْ يصيرُ إلى الجنّةِ فهوَ الكريمُ، ومنْ كانَ منهمْ يصيرُ إلى النّارِ فهوَ اللّئيمُ.

قولهُ تعالى: ﴿هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ﴾ مبتدأٌ وخبرٌ، أيْ مخلوقُ اللّهِ ﴿فَأَرُونِى﴾ معاشرَ المشركينَ ﴿مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾ يعني الأصنامَ ﴿بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ أيِ المشركونَ ﴿فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١١﴾﴾ خسران ظاهر.

قولهُ تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ﴾ مفعولانِ. ولمْ ينصرفْ «لقمانَ» لأنَّ في آخرهِ ألفًا ونونًا زائدتينِ، وهو لقمان بن باعوراء، كانَ ابنَ أختِ أيّوبَ أوِ ابنِ خالتهِ، وقيلَ كانَ منْ أولادِ آزرَ، عاشَ ألفَ سنةٍ وأدركهُ داودُ عَلَيْهِ السَّلَامُ وأخذَ عنهُ العلمَ.

كانَ لقمانُ أسودَ منْ سودانِ مصرَ ذا مشافرَ أيْ عظيمَ الشّفتينِ، أعطاهُ اللّهُ تعالى الحكمةَ ومنعهُ النّبوّةَ، وعلى هذا جمهورُ أهلِ التّأويلِ أنّهُ كانَ وليًا ولمْ يكنْ نبيًا. وقالَ بنبوّتهِ عكرمةُ والشّعبيُّ، وعلى هذا تكونُ الحكمةُ النّبوّةَ. والصّوابُ أنّهُ كانَ رجلاً حكيمًا بحكمةِ اللّهِ تعالى - وهيَ الصّوابُ في المعتقداتِ والفقهُ في الدّينِ والعقلِ - قاضيًا في بني إسرائيلَ.

واختلفَ في صنعتهِ، فقيلَ: كانَ خيّاطًا، وقيلَ: كانَ نجّاراً، فقالَ: لهُ سيّدهُ: اذبحْ لي شاة وائتني بأطيبها مضغتينِ، فأتاهُ باللّسانِ والقلبِ، فقالَ: لهُ: ما كان فيها شيء أطيبُ منْ هذينِ؟ فسكتَ، ثمَّ أمرهُ بذبحِ شاةٍ أخرى ثمَّ قالَ لهُ: ألقِ أخبثها مضغتينِ، فألقى اللّسانَ والقلبَ، فقالَ: لهُ: أمرتكَ أنْ تأتيني بأطيبِ مضغتينِ فأتيتني باللّسانِ والقلبِ، وأمرتكَ أنْ تلقيَ أخبثها فألقيتَ اللّسانَ والقلبَ؟! فقال له: إنه ليس شيء أطيبَ منهما إذا طابا، ولا أخبثَ منهما إذا خبثا. قلت: هذا معناهُ مرفوعٌ في غيرِ ما حديثٍ، منْ ذلكَ قولهُ ﷺ: «ألا وإنَّ في الجسدِ مضغةً إذا صلحتْ صلحَ الجسدُ كلّهُ وإذا فسدتْ فسدَ الجسدُ كلّهُ ألا وهيَ القلبُ». وجاءَ في اللّسانِ آثارٌ كثيرةٌ صحيحةٌ وشهيرةٌ، منها قولهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «منْ وقاهُ اللّهُ شرَّ اثنتينِ ولجَ الجنّةَ: ما بينَ لحييهِ ورجليهِ...» الحديثَ.

وحكمُ لقمانَ كثيرةٌ مأثورةٌ هذا منها. وقيلَ لهُ: أيُّ النّاسِ شرٌّ؟ قالَ: الّذي لا يبالي أنْ رآهُ النّاسُ مسيئًا. قلت: وهذا أيضًا مرفوعٌ معنى، قالَ ﷺ: «كلُّ أمّتي معافى إلّا المجاهرون وإنَّ منَ المجاهرةِ أنْ يعملَ الرّجلُ باللّيلِ عملاً ثمَّ يصبحُ وقدْ سترهُ اللّهُ فيقولُ يا فلانُ عملتُ البارحةَ كذا وكذا وقدْ باتَ يسترهُ ربّهُ ويصبحُ يكشفُ سترَ اللّهِ عنهُ». رواهُ أبو هريرةَ خرّجهُ البخاريُّ.

قولهُ تعالى: ﴿أَنِ ٱشۡكُرۡ لِلَّهِۚ﴾ أيْ قلنا لهُ اشكرْ، والشّكرُ للّهِ: طاعتهُ فيما أمرَ بهِ ﴿وَمَن يَشۡكُرۡ فَإِنَّمَا يَشۡكُرُ لِنَفۡسِهِۦۖ﴾ لأنَّ نفعَ الثّوابِ عائدٌ إليهِ ﴿وَمَن كَفَرَ﴾ أيْ كفرَ النّعمَ فلمْ يوحّدِ اللّهَ ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ﴾ عنْ عبادةِ خلقهِ ﴿حَمِيدٞ ١٢﴾ عندَ الخلقِ، أيْ محمودٌ. وقالَ يحيى بنُ سلّامٍ: ﴿غَنِيٌّ﴾ عنْ خلقهِ ﴿حَمِيدٌ﴾ في فعله.

قولهُ تعالى: ﴿وَإِذۡ قَالَ لُقۡمَٰنُ لِٱبۡنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ﴾ قيل: كانَ ابنهُ وامرأتهُ كافرينِ فما زالَ يعظهما حتّى أسلما. قلت: ودلَّ على هذا قولهُ: ﴿لَا تُشۡرِكۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ ١٣﴾ وفي صحيحِ مسلمٍ وغيرهِ عنْ عبدِ اللّهِ قالَ: لمّا نزلتْ ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ﴾ شقَّ ذلكَ على أصحابِ رسولِ اللّهِ ﷺ وقالوا: أيّنا لا يظلمْ نفسهِ؟ فقالَ: رسولُ اللّهِ ﷺ: ليسَ هوَ كما تظنّونَ إنّما هوَ كما قالَ لقمانُ لابنهِ: ﴿يَٰبُنَيَّ لَا تُشۡرِكۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ﴾.

واختلفَ في قولهِ: ﴿إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ﴾ فقيلَ: إنّهُ منْ كلامِ لقمانَ. وقيلَ: هوَ خبرٌ منَ اللّهِ تعالى منقطعًا منْ كلامِ لقمانَ متّصلاً بهِ في تأكيدِ المعنى، ويؤيّدُ هذا الحديثُ المأثورُ أنّهُ لمّا نزلتْ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ﴾ أشفقَ أصحاب رسولِ اللّهِ ﷺ وقالوا: أيّنا لمْ يظلمْ، فأنزلَ اللّهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ﴾ فسكنَ إشفاقهمْ، وإنّما يسكنُ إشفاقهمْ بأنْ يكونَ خبراً منَ اللّهِ تعالى، وقدْ يسكنُ الإشفاقُ بأنْ يذكرَ اللّهُ ذلكَ عنْ عبدٍ قدْ وصفهُ بالحكمةِ والسّدادِ.

قولهُ تعالى: ﴿وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيۡهِ حَمَلَتۡهُ أُمُّهُۥ وَهۡنًا عَلَىٰ وَهۡنٖ وَفِصَٰلُهُۥ فِي عَامَيۡنِ أَنِ ٱشۡكُرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيۡكَ إِلَيَّ ٱلۡمَصِيرُ ١٤ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشۡرِكَ بِي مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٞ فَلَا تُطِعۡهُمَاۖ وَصَاحِبۡهُمَا فِي ٱلدُّنۡيَا مَعۡرُوفٗاۖ وَٱتَّبِعۡ سَبِيلَ مَنۡ أَنَابَ إِلَيَّۚ ثُمَّ إِلَيَّ مَرۡجِعُكُمۡ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ١٥﴾، فيهِ ثماني مسائلَ:

الأولى: قولهُ تعالى: ﴿وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيۡهِ﴾ هاتانِ الآيتانِ اعتراضٌ بيْنَ أثناءَ وصيّةِ لقمانَ. وقيلَ: إنَّ هذا ممّا أوصى بِهِ لقمانُ ابنهُ، أخبرَ اللّهُ بِهِ عنهُ، أيْ قالَ لقمانُ لابنِهِ: لا تشركْ باللّهِ ولا تطعْ في الشّركِ والديكَ، فإنَّ اللّهَ وصّى بهما في طاعتهما ممّا لا يكونُ شركًا ومعصيةً للّهِ تعالى، والصّحيحُ أنَّ هاتينِ الآيتينِ نزلتا في شأنِ سعدِ ابن أبي وقّاصٍ، كما تقدّمَ في العنكبوتِ وعليهِ جماعة المفسرين.

وجملةُ هذا البابِ أنَّ طاعةَ الأبوينِ لا تراعى في ركوبِ كبيرةٍ ولا في تركِ فريضةٍ على الأعيانِ، وتلزمُ طاعتهما في المباحاتِ، ويستحسنُ في تركِ الطّاعاتِ النّدبِ، ومنهُ أمرُ الجهادِ الكفايةِ، والإجابةُ للأمِّ في الصّلاةِ معَ إمكانِ الإعادةِ، على أنَّ هذا أقوى منَ النّدبِ، لكنْ يعلّلُ بخوفِ هلكةٍ عليها، ونحوهِ ممّا يبيحُ قطعَ الصّلاةِ فلا يكونُ أقوى منَ النّدبِ.

الثانية- لمّا خصَّ تعالى الأمَّ بدرجةِ ذكرِ الحملِ وبدرجةِ ذكرِ الرّضاعِ حصلَ لها بذلكَ ثلاثُ مراتبَ، وللأبِ واحدةٌ، وأشبهَ ذلكَ قولهُ ﷺ حينَ قالَ لهُ رجلٌ منْ أبرُّ؟ قالَ: أمُّك قالَ ثمَّ منْ؟ قالَ: أمُّك قالَ ثمَّ منْ؟ قالَ: أمُّك قالَ ثمَّ منْ؟ قالَ: أبوك، فجعلَ لهُ الرّبعَ منَ المبرّةِ كما في هذهِ الآيةِ، وقدْ مضى هذا كله في «سبحان».

الثالثة- قوله تعالى: ﴿وَهۡنًا عَلَىٰ وَهۡنٖ﴾ تزدادُ كلَّ يومٍ ضعفًا على ضعفٍ. وقيلَ: المرأةُ ضعيفةُ الخلقةِ ثمَّ يضعفها الحملُ. والفصالِ الفطامُ، فعبّرَ بغايتهِ ونهايتهِ.

الرابعة- النّاسُ مجمعونَ على العامينِ في مدّةِ الرّضاعِ في بابِ الأحكامِ والنّفقاتِ، وأمّا في تحريمِ اللّبنِ فحدّدتْ فرقةٌ بالعامِ لا زيادةَ ولا نقصَ. وقالتْ فرقةٌ: العامانِ وما اتّصلَ بهما

منَ الشّهرِ ونحوهِ إذا كانَ متّصلَ الرّضاعِ. وقالتْ فرقةٌ: إنْ فطمَ الصّبيُّ قبلَ العامينِ وتركَ اللّبنَ فإنَّ ما شربَ بعدَ ذلك في الحولين لا يحرّمُ.

الخامسة- قولهُ تعالى: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِي﴾ ﴿أنِ﴾ مفسّرةً، والمعنى: قلنا لهُ أنِ اشكرْ لي ولوالديكَ. قيل: الشّكرُ للّهِ على نعمةِ الإيمانِ، وللوالدينِ على نعمةِ التّربيةِ. وقالَ سفيانُ بنُ عيينةَ: منْ صلّى الصّلواتِ الخمسَ فقدْ شكرَ اللّهَ تعالى، ومنْ دعا لوالديهِ في أدبارِ الصّلواتِ فقدْ شكرهما.

السّادسةُ- قولهُ تعالى: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِي ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ﴾ قدْ بيّنّا أنَّ هذهِ الآيةَ والّتي قبلها نزلتا في شأنِ سعدِ بنِ أبي وقّاصٍ لمّا أسلمَ، وأنَّ أمّهُ وهيَ حمنةُ بنتُ أبي سفيانَ بنِ أميّةَ حلفتْ ألّا تأكلَ.

السابعة- قولهُ تعالى: ﴿وَصَاحِبْهُمَا فِي ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ﴾ نعتٌ لمصدرٍ محذوفٍ، أيْ مصاحباً معروفاً، يقالُ صاحبتهُ مصاحبةً ومصاحباً. وَ ﴿مَعْرُوفًا﴾ أيْ ما يَحْسنُ. والآيةُ دليلٌ على صلةِ الأبوينِ الكافرينِ بما أمكنَ منَ المالِ إنْ كانا فقيرينِ، وإلانةِ القولِ والدّعاءِ إلى الإسلامِ برفقٍ. وقدْ قالتْ أسماءُ بنتُ أبي بكرٍ الصّدّيقِ للنّبيِّ ﷺ وقد قدمت عليه خالتها وقيلَ أمّها منَ الرّضاعةِ فقالتْ: يا رسولَ اللّهِ، إنَّ أمّي قدمتْ عليَّ وهيَ راغبةٌ أفأصلها؟ قالَ: نعم ، وراغبةٌ قيلَ: عنِ الإسلامِ. وقيل: راغبةٌ في الصّلةِ، وما كانتْ لتقدمَ على أسماءَ لولا حاجتها. ووالدةُ أسماءَ هيَ قتيلةُ بنتُ عبدِ العزّى بنِ عبدِ أسدٍ. وأمُّ عائشةَ وعبدِ الرّحمنِ هيَ أمُّ رومانَ قديمة الإسلام.

الثامنة- قوله تعالى: ﴿وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ۚ﴾ وصيّةٌ لجميعِ العالمِ، كأنَّ المأمورَ الإنسانُ. وَ ﴿أَنَابَ﴾ معناهُ مالَ ورجعَ إلى الشّيءِ، وهذهِ سبيلُ الأنبياءِ والصّالحينَ.

قوله تعالى: ﴿يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٖ فَتَكُن فِي صَخۡرَةٍ أَوۡ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَأۡتِ بِهَا ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٞ ١٦﴾

المعنى: وقالَ لقمانُ لابنهِ يا بنيَّ. وهذا القولُ منْ لقمانَ إنّما قصدَ بهِ إعلامَ ابنهِ بقدرِ قدرةِ اللّهِ تعالى. وهذهِ الغايةُ الّتي أمكنهُ أنْ يفهمهُ، لأنَّ الخردلةَ يقالُ: إنَّ الحسَّ لا يدركُ لها ثقلاً، إذْ لا ترجّحُ ميزاناً. أيْ لوْ كانَ للإنسانِ رزقُ مثقالِ حبّةِ خردلٍ في هذهِ المواضعِ جاءَ اللّهُ بها حتّى يسوقها إلى منْ هيَ رزقهُ، أيْ لا تهتمَّ للرّزقِ حتّى تشتغلَ بهِ عنْ أداءِ الفرائضِ، وعنِ اتّباعِ سبيلِ منْ أنابَ إليَّ.

وقيلَ: المعنى أنّهُ أرادَ الأعمالَ، المعاصيَ والطّاعاتِ، أيْ إنْ تكُ الحسنةُ أوِ الخطيئةُ مثقالَ حبّةٍ يأتِ بها اللّهُ، أيْ لا تفوتُ الإنسانَ المقدّرُ وقوعها منهُ، وقرأ نافعٌ: «مِثْقالُ» بالرّفعِ، وعلى هذا ﴿تَكُ﴾ يرجعُ إلى معنى خردلةٍ، أيْ إنْ تكُ حبّةً منْ خردلٍ. وقيلَ: أسندَ إلى المثقالِ فعلاً فيهِ علامةُ التّأنيثِ منْ حيثُ انضافَ إلى مؤنّثٍ هوَ منهُ، لأنَّ مثقالَ الحبّةِ منَ الخردلِ إمّا سيّئةً أوْ حسنةً، كما قالَ: ﴿فَلَهُۥ عَشۡرُ أَمۡثَالِهَاۖ﴾ فأنّثَ وإنْ كانَ المثلُ مذكّراً، لأنّهُ أرادَ الحسناتِ.

قولهُ تعالى: ﴿فَتَكُن فِي صَخۡرَةٍ﴾ قيلَ: معنى الكلامِ المبالغةُ والانتهاءُ في التّفهيمِ، أيْ أنَّ قدرتهُ تعالى تنالُ ما يكونُ في تضاعيفِ صخرةٍ وما يكونُ في السّماءِ والأرضِ. وقالَ ابنُ عبّاسٍ: الصّخرةُ تحتَ الأرضينَ السّبعِ وعليها الأرضُ. وقيلَ: هيَ الصّخرةُ على ظهرِ الحوتِ. وقالَ السّدّيَّ: هيَ صخرةٌ ليستْ في السّماواتِ والأرضِ، بلْ هيَ وراءَ سبعِ أرضينَ عليها ملكٌ قائمٌ، لأنّهُ قالَ: ﴿أَوۡ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ وفيهما غنيةٌ عنْ قولهِ: ﴿فَتَكُن فِي صَخۡرَةٍ﴾، وهذا الّذي قالهُ ممكنٌ، ويمكنُ أنْ يقالَ: قولهُ: ﴿فَتَكُن فِي صَخۡرَةٍ﴾ تأكيدٌ، كقولهِ: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ﴾، وقوله: ﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ لَيۡلٗا﴾.

قوله تعالى: ﴿يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ١٧﴾، فيهِ ثلاثُ مسائلَ:

الأولى: قولهُ تعالى: ﴿يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ وصّى ابنهُ بعظمِ الطّاعاتِ وهيَ الصّلاةُ والأمرُ بالمعروفِ والنّهيُ عنِ المنكرِ، وهذا إنّما يريدُ بهِ بعدَ أنْ يمتثلَ ذلكَ هوَ في نفسهِ ويزدجرَ عنِ المنكرِ، وهنا هيَ الطّاعاتُ والفضائلُ أجمعُ. ولقدْ أحسنَ منْ قالَ:

وابدأ بنفسكَ فانهها عنْ غيّها ... فإذا انتهتْ عنهُ فأنتَ حكيمُ

الثانية- قولهُ تعالى: ﴿وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ﴾ يقتضي حضًا على تغييرِ المنكرِ وإنْ نالكَ ضررٌ، فهوَ إشعارٌ بأنَّ المغيّرَ يؤذى أحيانًا، وهذا القدرُ على جهةِ النّدبِ والقوّةِ في ذاتِ اللّهِ، وأمّا على اللّزومِ فلا.

وقيلَ: أمرهُ بالصّبرِ على شدائدِ الدّنيا كالأمراضِ وغيرها، وألّا يخرجَ منَ الجزعِ إلى معصيةِ اللّهِ عزَّ وجل، وهذا قول حسن لأنه يعم.

الثالثة: قولهُ تعالى: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ﴾ منْ حقيقةِ الإيمانِ الصّبرُ على المكارهِ. وقيلَ: إنَّ إقامةَ الصّلاةِ والأمرَ بالمعروفِ والنّهيَ عنِ المنكرِ منْ عزمِ الأمورِ، أيْ ممّا عزمهُ اللّهُ وأمرَ بهِ، ويحتملُ أنْ يريدَ أنَّ ذلكَ منْ مكارمِ الأخلاقِ وعزائمِ أهلِ الحزمِ السّالكينَ طريقَ النّجاةِ.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تُصَعِّرۡ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمۡشِ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَحًاۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخۡتَالٖ فَخُورٖ ١٨﴾، فيهِ ثلاثُ مسائلَ:

الأولى: قرأ نافعٌ وأبو عمرو وحمزةُ والكسائيُّ: «تُصَاعِرْ» بالألفِ بعدَ الصّادِ. وقرأ ابنُ كثيرٍ وعاصمٌ وابنُ عامرٍ: ﴿تُصَعِّرۡ﴾، والصّعرُ: الميلُ، أيْ لا تعرضْ عنهمْ تكبّراً عليهمْ، يقالُ: أصابَ البعيرَ صعرٌ وصيدٌ إذْ أصابهُ داءٌ يلوي منهُ عنقهُ. ثمَّ يقالُ للمتكبّرِ: فيهِ صعرٌ وصيدٌ، فمعنى: ﴿لَا تُصَعِّرۡ﴾ أيْ لا تلزمْ خدكَ الصّعرَ.

الثانية- معنى الآيةِ: ولا تملْ خدّكَ للنّاسِ كبراً عليهمْ واحتقاراً لهمْ، بل أقبلْ عليهمْ متواضعًا مؤنسًا مستأنسًا.

الثالثة- قولهُ تعالى: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا﴾ أيْ متبختراً، مصدرٌ في موضع الحالِ، قالَ ﷺ: «منْ جرَّ ثوبهُ خيلاءَ لا ينظرُ اللّهُ إليهِ يومَ القيامةِ». والفخورُ: هوَ الّذي يعدّدُ ما أعطيَ ولا يشكرُ اللّهَ تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَٱقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ١٩﴾، فيهِ ستُّ مسائلَ:

الأولى: قولهُ تعالى: ﴿وَٱقْصِدْ فِي مَشْيِكَ﴾ أيْ توسّطْ فيهِ. لا تدبَّ دبيبَ المتماوتينَ ولا تثبْ وثبَ الشّطّارِ، فأمّا ما رويَ عنهُ ﷺ أنّهُ كانَ إذا مشى أسرعَ، وقولُ عائشةَ في عمرَ رضي الله عنها: كانَ إذا مشى أسرعَ فإنّما أرادتِ السّرعةَ المرتفعةَ عنْ دبيبِ المتماوتِ، وقدْ مدحَ اللّهُ سبحانهُ منْ هذهِ صفتهُ حسبما تقدم في الفرقان.

الثانية- قوله تعالى: ﴿وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ﴾ أيِ انقصْ منهُ، أيْ لا تتكلّفْ رفعَ الصّوتِ وخذْ منهُ ما تحتاجُ إليهِ، فإنَّ الجهرَ بأكثرَ منَ الحاجةِ تكلّفٌ يؤذي. والمرادُ بذلكَ كلّهِ التّواضعُ، وقدْ قالَ عمرُ لمؤذّنٍ تكلّفَ رفعَ الأذانِ بأكثرَ منْ طاقتهِ: لقدْ خشيتُ أنْ ينشقَّ مريطاؤكَ! والمؤذّنُ هوَ أبو محذورةَ سمرةُ بنُ معيرٍ. والمريطاءُ: ما بينَ السّرّةِ إلى العانةِ.

الثالثة- قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ﴾ أيْ أقبحها وأوحشها، ومنهُ أتانا بوجهٍ منكرٍ. والحمارُ مثلٌ في الذّمِّ البليغِ والشّتيمةِ، وكذلكَ نهاقهُ، وقدْ عدَّ في مساوئِ الآدابِ أنْ يجريَ ذكرُ الحمارِ في مجلسِ قومٍ منْ أولي المروءةِ. ومنَ العربِ منْ لا يركبُ الحمارَ استنكافاً وإنْ بلغتْ منهُ الرّجلةُ. وكانَ ﷺ يركبهُ تواضعاً وتذلّلاً للّهِ تباركَ وتعالى.

الرابعة- في الآيةِ دليلٌ على تعريفِ قبحِ رفعِ الصّوتِ في المخاطبةِ والملاحاةِ بقبحِ أصواتِ الحميرِ، لأنّها عاليةٌ. وفي الصّحيحِ عنِ النّبيِّ ﷺ أنّهُ قالَ: «وإذا سمعتمْ نهيقَ الحميرِ فتعوّذوا باللّهِ منَ الشّيطانِ فإنّها رأتْ شيطاناً». وقدْ رويَ: أنّهُ ما صاحَ حمارٌ ولا نبحَ كلبٌ إلّا أنْ يرى شيطاناً.

الخامسة- وهذهِ الآيةُ أدبٌ منَ اللّهِ تعالى بتركِ الصّياحِ في وجوهِ النّاسِ تهاوناً بهمْ، أوْ بتركِ الصّياحِ جملةً، وكانتِ العربُ تفخرُ بجهارةِ الصّوتِ الجهيرِ وغيرِ ذلكَ، فمنْ كانَ منهمْ

أشدَّ صوتاً كانَ أعزَّ، ومنْ كانَ أخفضَ كانَ أذلَّ، فنهى اللّهُ سبحانهُ وتعالى عنْ هذهِ الخلقِ الجاهليّةِ بقولهِ: ﴿إِنَّ أَنكَرَ ٱلۡأَصۡوَٰتِ لَصَوۡتُ ٱلۡحَمِيرِ﴾ أيْ لوْ أنَّ شيئاً يهابُ لصوتهِ لكانَ الحمارُ، فجعلهمْ في المثلِ سواءً.

السّادسةُ- قولهُ تعالى: ﴿لَصَوۡتُ ٱلۡحَمِيرِ﴾ اللّامُ للتّأكيدِ، ووحّدَ الصّوتَ وإنْ كانَ مضافاً إلى الجماعةِ لأنّهُ مصدرٌ والمصدرُ يدلُّ على الكثرةِ، وهوَ مصدرٌ صاتَ يصوتُ صوتاً فهوَ صائتٌ. ويقالُ: صوّتَ تصويتاً فهوَ مصوّتٌ.

قولهُ تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ منْ شمسٍ وقمرٍ ونجومٍ وملائكةٍ تحوطهمْ وتجرُّ إليهمْ منافعهمْ، ﴿وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ عامٌّ في الجبالِ والأشجارِ والثّمارِ وما لا يحصى ﴿وَأَسۡبَغَ عَلَيۡكُمۡ نِعَمَهُۥ﴾ أيْ أكملها وأتمّها. والنّعمُ: جمعُ نعمةٍ كسدرةٍ وسدَرٍ «بفتحِ الدّالِ» وهيَ قراءةُ نافعٍ وأبي عمرو وحفصٍ. الباقونَ: «نِعْمَةً» على الإفرادِ، والإفرادُ يدلُّ على الكثرةِ، كقولهِ تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآ﴾، وقيلَ: إنَّ معناها الإسلامُ، وشرحُ هذا أنَّ سعيدَ بنَ جبيرٍ قالَ في قولِ اللّهِ عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمۡ وَلِيُتِمَّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكُمۡ﴾ قالَ: يدخلكمُ الجنّةَ. وتمامُ نعمةِ اللّهِ عزَّ وجلَّ على العبدِ أنْ يدخلهُ الجنّةَ، فكذا لمّا كانَ الإسلامُ يؤولُ أمرهُ إلى الجنّةِ سمّيَ نعمةً.

وقيلَ: الظّاهرةُ الصّحّةُ وكمالُ الخلقِ، والباطنةُ المعرفةُ والعقلُ. وقيلَ: الظّاهرةُ نعمُ الدّنيا، والباطنةُ نعمُ العقبى.

قولهُ تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٍ﴾ أيْ بغيرِ حجّةٍ ﴿وَلَا هُدٗى وَلَا كِتَٰبٖ مُّنِيرٖ ٢٠﴾ أيْ نيّرٍ بيّنٍ، إلّا الشّيطانُ فيما يلقي إليهمْ. ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِهِمۡ لِيُجَٰدِلُوكُمۡ﴾ وإلّا تقليدَ الأسلافِ كما في الآيةِ بعدُ ﴿أَوَلَوۡ كَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ يَدۡعُوهُمۡ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ٢١﴾ يتبعونه.

قولهُ تعالى: ﴿۞وَمَن يُسۡلِمۡ وَجۡهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ أيْ يخلصُ عبادتهُ وقصدهُ إلى اللّهِ تعالى ﴿وَهُوَ مُحۡسِنٞ﴾ لأنَّ العبادةَ منْ غيرِ إحسانٍ ولا معرفةِ القلبِ لا تنفعُ، نظيرهُ: ﴿وَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ﴾. وفي حديثِ جبريلَ قالَ: فأخبرني عنِ الإحسانُ؟ قالَ: «أنْ تعبدَ

اللّهَ كأنّكَ تراهُ فإنْ لمْ تكنْ تراهُ فإنّهُ يراكَ» ﴿فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾ قالَ ابنُ عبّاسٍ: لا إلهَ إلّا اللّهُ.

فإنْ قلت: ماله عدّيَ بإلى، وقدْ عدّيَ باللّامِ في قولهِ عزَّ وجلَّ: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ﴾؟ قلت: معناهُ معَ اللّامِ أنّهُ جعلَ وجههُ وهوَ ذاتهُ ونفسهُ سالماً للّهِ، أيْ خالصاً لهُ. ومعناهُ معَ إلى راجعٍ إلى أنّهُ سلّمَ إليهِ نفسهُ كما يسلّمُ المتاعُ إلى الرّجلِ إذا دفعَ إليهِ. والمرادُ التّوكّلُ عليهِ والتّفويضُ إليهِ ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ۝٢٢﴾ أيْ مصيرها.

قولهُ تعالى: ﴿وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟﴾ أيْ نجازيهمْ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝٢٣﴾ ﴿نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا﴾ في الدّنيا ﴿ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ﴾ أيْ نلجئهمْ ونسوقهمْ ﴿إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ۝٢٤﴾ وهوَ عذابُ جهنّمَ. ولفظُ ﴿مَن﴾ يصلحُ للواحدِ والجمعِ، فلهذا قالَ: ﴿كُفْرُهُۥٓ﴾ ثمَّ قالَ: ﴿مَرْجِعُهُمْ﴾ وما بعدهُ على المعنى.

قولهُ تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ أي هم يعترفون بأن الله خالقهن فلمَ يعبدونَ غيرهُ ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ أيْ على ما هدانا لهُ منْ دينهِ، وليسَ الحمدُ لغيرهِ ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۝٢٥﴾ أيْ لا ينظرون ولا يتدبرون.

﴿لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أيْ ملكاً وخلقاً ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ﴾ أيِ الغنيُّ عنْ خلقهِ وعنْ عبادتهمْ، وإنّما أمرهمْ لينفعهمُ ﴿ٱلْحَمِيدُ ۝٢٦﴾ أي المحمود على صنعه.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۝٢٧﴾

الغرضُ الإعلامُ بكثرةِ معاني كلماتِ اللّهِ وهيَ في نفسها غيرُ متناهيةٍ، وإنّما قرّبَ الأمرُ على أفهامِ البشرِ بما يتناهى لأنّهُ غايةُ ما يعهدهُ البشرُ منَ الكثرةِ، لا أنّها تنفدُ بأكثرَ منْ هذهِ الأقلامِ والبحورِ.

قولهُ تعالى: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ لأنّهُ يقولُ للقليلِ والكثيرِ

كنْ فيكونُ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ﴾ لما يقولونَ ﴿بَصِيرٌ ٢٨﴾ بما يفعلونَ.

قولهُ تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ﴾ تقدّمَ في الحج وآل عمرانَ ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾ أيْ ذلّلهما بالطّلوعِ والأفولِ تقديراً للآجالِ وإتماماً للمنافعِ ﴿كُلٌّ يَجْرِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ إلى يومِ القيامة، وقيلَ: إلى وقتهِ في طلوعهِ وأفولهِ لا يعدوهُ ولا يقصرُ عنهُ ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ٢٩﴾ أيْ منْ قدرَ على هذهِ الأشياءِ فلا بدَّ منْ أنْ يكونَ عالماً بها، والعالمُ بها عالمٌ بأعمالكمْ ﴿ذَٰلِكَ﴾ أيْ فعلَ اللّهُ تعالى ذلكَ لتعلموا وتقرّوا ﴿بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ﴾ أيِ الشّيطانُ، أو الأصنامِ والأوثانِ ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ٣٠﴾ العليُّ في مكانتهِ، الكبيرُ في سلطانه.

قولهُ تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ﴾ أيِ السّفنَ ﴿تَجْرِى﴾ في موضع الخبر. ﴿فِى ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ﴾ أيْ بلطفهِ بكمْ وبرحمتهِ لكمْ في خلاصكمْ منهُ. ﴿لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَٰتِهِۦٓ﴾ ﴿مِن﴾ للتّبعيضِ ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ٣١﴾ أيْ صبّارٍ لقضائهِ شكورٍ على نعمائهِ.

قولهُ تعالى: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ﴾ كالجبالِ. وقيلَ: كالسّحابِ، شبّهَ الموجُ بها لكبرها وارتفاعها ﴿دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ موحّدينَ لهُ لا يدعونَ لخلاصهمْ سواهُ ﴿فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ﴾ يعني منَ البحرِ ﴿إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ﴾ مؤمنٌ متمسّكٌ بالتّوحيدِ والطّاعةِ. وفي الكلامِ حذفٌ، والمعنى: فمنهمْ مقتصدٌ ومنهمْ كافرٌ. ودلَّ على المحذوفِ قولهُ تعالى: ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ٣٢﴾ الختّارُ: الغدّارُ. والخترُ: أسوأ الغدر، وجحدُ الآياتِ إنكارُ أعيانها، والجحد بالآيات إنكار دلائلها.

قولهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ﴾ يعني الكافرَ والمؤمنَ، أيْ خافوهُ ووحّدوهُ ﴿وَٱخْشَوْا۟ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا﴾، فإن قيل: فقدْ قالَ النّبيُّ ﷺ: «منْ ماتَ لهُ ثلاثةٌ منَ الولدِ لمْ يبلغوا الحنثَ لمْ تمسّهُ النّارُ إلّا تحلّةَ القسم». وقالَ: «منِ ابتليَ بشيءٍ منْ هذا البناتِ فأحسنَ إليهنَّ كنَّ لهُ حجاباً منَ النّارِ». قيلَ لهُ: المعنيُّ بهذهِ الآيةِ أنّهُ لا يحملُ والدٌ ذنبَ ولدهِ، ولا مولودٌ ذنبَ والدهِ، ولا يؤاخذُ أحدهما عنِ

الآخرِ. والمعنيُّ بالأخبارِ أنَّ ثوابَ الصّبرِ على الموتِ والإحسانِ إلى البناتِ يحجبُ العبدَ عنِ النّارِ، ويكونُ الولدُ سابقًا لهُ إلى الجنّةِ ﴿إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ﴾ أيِ البعثَ ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ﴾ أي تخدعنكم ﴿ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا﴾ بزينتها وما تدعوا إليهِ فتتّكلوا عليها وتركنوا إليها وتتركوا العملَ للآخرةِ ﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ ٣٣﴾ قراءةُ العامّةِ هنا وفي سورة الملائكة والحديد بفتحِ الغينِ، وهوَ الشّيطانُ، وهوَ الّذي يغرُّ الخلقَ ويمنّيهمُ الدّنيا ويلهيهمْ عنِ الآخرةِ، وفي سورةِ النّساءِ: ﴿يَعِدُهُمۡ وَيُمَنِّيهِمۡۖ﴾. قالَ سعيدُ بنُ جبيرٍ: هوَ أنْ يعملَ بالمعصيةِ ويتمنّى المغفرة.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلۡغَيۡثَ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡأَرۡحَامِۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسٞ مَّاذَا تَكۡسِبُ غَدٗاۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسُۢ بِأَيِّ أَرۡضٖ تَمُوتُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرُۢ ٣٤﴾

هذا معنى النّفيِ، أيْ ما يعلمهُ أحدٌ إلّا اللّهَ تعالى. قالَ أبو جعفرٍ النّحّاسُ: وإنّما صارَ فيهِ معنى النّفيِ والإيجابِ بتوقيفِ الرّسولِ ﷺ على ذلكَ، لأنّهُ ﷺ قالَ في قولهِ اللّهُ عزَّ وجلَّ: ﴿۞وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلۡغَيۡبِ لَا يَعۡلَمُهَآ إِلَّا هُوَۚ﴾: «إنّها هذهِ»: قلت: قدْ ذكرنا في سورةِ الأنعام حديثَ ابنِ عمرَ في هذا، خرّجهُ البخاريُّ. وفي حديثِ جبريلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ قالَ: «أخبرني عنِ السّاعةِ؟ فقالَ: رسولُ اللّهِ ﷺ: «ما المسئولُ عنها بأعلمَ منَ السّائلِ».

والمرادُ إبطالُ كونِ الكهنةِ والمنجّمينَ ومنْ يستسقي بالأنواءِ وقدْ يعرفُ بطولِ التّجاربِ أشياءَ منْ ذكورةِ الحملِ وأنوثتهِ إلى غيرِ ذلكَ، حسبما تقدّمَ ذكرهُ في الأنعامِ. وقدْ تختلفُ التّجربةُ وتنكسرُ العادةُ ويبقى العلمُ للّهِ تعالى وحدهُ.

وقراءةُ العامّةِ: ﴿وَيُنَزِّلُ﴾ مشدّداً. وقرأ ابنُ كثيرٍ وأبو عمرو وحمزةُ والكسائيُّ مخفّفًا ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرُۢ﴾ ﴿خَبِيرُۢ﴾ نعتٌ لِ ﴿عَلِيمٌ﴾ أوْ خبرٌ بعدَ خبرٍ. واللّهُ تعالى أعلمُ.

سورة السجدة

مكّيّةٌ، وهيَ ثلاثونَ آيةٍ، وفي الصّحيحِ عنِ ابنِ عبّاسٍ أنَّ النّبيَّ ﷺ كانَ يقرأُ في صلاةِ الفجرِ يومَ الجمعةِ ﴿الٓمٓ ۝١ تَنزِيلُ﴾ السّجدةَ، وَ ﴿هَلۡ أَتَىٰ عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ حِينٞ مِّنَ ٱلدَّهۡرِ﴾ الحديثَ.

بسمِ اللّهِ الرّحمنِ الرّحيمِ

قولهُ تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ ﴿تَنزِيلُ﴾ رفعَ بالابتداءِ والخبرُ ﴿لَا رَيۡبَ فِيهِ﴾. أوْ خبرٌ على إضمارِ مبتدأٍ، أيْ هذا تنزيلُ، أوِ المتلوُّ تنزيلُ، أوْ هذهِ الحروف تنزيل. ومعنى: ﴿لَا رَيۡبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٢﴾ لا شكَ فيهِ أنّهُ منْ عندِ اللّهِ، فليسَ بسحرٍ ولا شعرٍ ولا كهانة ولا أساطير الأولين.

قولهُ تعالى: ﴿أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۚ﴾ هذهِ ﴿أَمۡ﴾ المنقطعةُ الّتي تقدّرُ ببلْ وألفِ الاستفهام، أيْ بلْ أيقولونَ. وهيَ تدلُّ على خروجٍ منْ حديثٍ إلى حديثٍ، و ﴿ٱفۡتَرَىٰهُۚ﴾ أيِ افتعلهُ واختلقهُ ﴿بَلۡ هُوَ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ كذّبهمْ في دعوى الافتراء ﴿لِتُنذِرَ قَوۡمٗا﴾ يعني قريشًا، كانوا أمّةً أمّيّةً لمْ يأتِهمْ نذيرٌ منْ قبلِ محمّدٍ ﷺ. وَ ﴿لِّتُنذِرَ﴾ متعلّقٌ بما قبلها فلا يوقفُ على ﴿مِن رَّبِّكَ﴾. ويجوزُ أنْ يتعلّقَ بمحذوفٍ، التّقديرُ: أنزلهُ لتنذرَ قومًا، فيجوزُ الوقفُ على ﴿مِن رَّبِّكَ﴾. وَ ﴿مَا﴾ في قولهِ: ﴿مَآ ءَاتَىٰهُم﴾ نفيٌ. ﴿مِّن نَّذِيرٍ﴾ صلةٌ. وَ ﴿نَذِير﴾ في محلِّ الرّفعِ، وهوَ المعلّمُ المخوّفُ. وقيلَ: المرادُ بالقومِ أهلُ الفترةِ بينَ عيسى ومحمّدٍ عليهما السّلامُ، وقيلَ: كانتِ الحجّةُ ثابتةً للّهِ عز وجل عليهمْ بإنذارِ منْ تقدّمَ منَ الرّسلِ وإنْ لمْ يروا رسولاً، وقدْ تقدّمَ هذا المعنى.

قولهُ تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ﴾ عرّفهمْ كمالَ قدرتهِ ليسمعوا القرآنَ ويتأمّلوهُ. ومعنى: ﴿خَلَقَ﴾ أبدعَ وأوجدَ بعدَ العدمِ وبعدَ أنْ لمْ تكنْ شيئًا. ﴿فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ﴾ منْ أيّامِ الدّنيا، وقيلَ: أيّامٍ منْ أيّامِ الآخرةِ ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ﴾

تقدّمَ في الأعرافِ وليستْ ﴿ثُمَّ﴾ للتّرتيبِ وإنّما هيَ بمعنى الواوِ ﴿مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍۚ﴾ يمنعُ منْ عذابهمْ ﴿أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ۝٤﴾ في قدرته ومخلوقاته.

قولهُ تعالى: ﴿يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ﴾ ينزلُ القضاءَ والقدرَ. وقيلَ: ينزلُ الوحيَ معَ جبريلَ ﴿ثُمَّ يَعۡرُجُ إِلَيۡهِ﴾ جبريلُ يصعدُ إلى السّماءِ بعدَ نزولهِ بالوحي ﴿فِي يَوۡمٖ كَانَ مِقۡدَارُهُۥٓ أَلۡفَ سَنَةٖ مِّمَّا تَعُدُّونَ ۝٥﴾. وقيلَ: ﴿ثُمَّ يَعۡرُجُ إِلَيۡهِ﴾ أيْ يرجعُ ذلكَ الأمرُ والتّدبيرُ إليهِ بعدَ انقضاءِ الدّنيا ﴿فِي يَوۡمٖ كَانَ مِقۡدَارُهُۥٓ أَلۡفَ سَنَةٖ﴾ وهوَ يومُ القيامةِ. وعلى الأقوالِ المتقدّمةِ فالكنايةُ في ﴿يَعۡرُجُ﴾ كنايةٌ عنِ الملَكِ، ولمْ يجرِ لهُ ذكرٌ لأنّهُ مفهومٌ منَ المعنى، وقدْ جاءَ صريحاً في ﴿سَأَلَ سَآئِلُۢ﴾ قولهُ: ﴿تَعۡرُجُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيۡهِ﴾. والضّميرُ في ﴿إِلَيۡهِ﴾ يعودُ على السّماءِ على لغةِ منْ يذكّرها، أوْ على مكانِ الملكِ الّذي يرجعُ إليهِ، أوْ على اسمِ اللّهِ تعالى، والمرادُ إلى الموضعِ الّذي أقرّهُ فيهِ، أيْ أنَّ جبريلَ لسرعةِ سيرهِ يقطعُ مسيرةَ ألفِ سنةٍ في يومٍ منْ أيّامكمْ، ينزلُ ويصعدُ في يوم مقدارهُ ألفُ سنة، فيكون مقدار نزولهِ خمسمائةِ سنةٍ، ومقدارُ صعودهِ خمسمائةٍ ﴿مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ أيْ ممّا تحسبونَ منْ أيّام الدّنيا. وهذا اليومُ عبارةٌ عنْ زمانٍ يتقدّرُ بألفِ سنةٍ منْ سني العالمِ، وليسَ بيومٍ يستوعبُ نهاراً بينَ ليلتينِ، لأنَّ ذلكَ ليسَ عندَ اللّهِ.

فأمّا قولهُ تعالى: ﴿فِي يَوۡمٖ كَانَ مِقۡدَارُهُۥ خَمۡسِينَ أَلۡفَ سَنَةٖ﴾ فهوَ إشارةٌ إلى يوم القيامةِ، بخلافِ هذهِ الآيةِ. والمعنى: أنَّ اللّهَ تعالى جعلهُ في صعوبتهِ على الكفّارِ كخمسينَ ألفِ سنةٍ، وقيلَ: إنَّ يومَ القيامةِ فيهِ أيّامٌ، فمنهُ ما مقدارهُ ألفُ سنةٍ ومنهُ ما مقدارهُ خمسونَ ألفَ سنةٍ. وقيلَ: أوقاتُ القيامةِ مختلفةٌ، فيعذّبُ الكافرُ بجنسٍ منَ العذابِ ألفَ سنةٍ، ثمَّ ينتقلُ إلى جنسٍ آخرَ مدّتهُ خمسونَ ألفَ سنةٍ. فالمعنى: تعرجُ الملائكةُ والرّوحُ إليهِ في وقتٍ كانَ مقدارهُ ألفَ سنةٍ، وفي وقتٍ آخرَ كانَ مقدارهُ خمسينَ ألفَ سنةٍ.

وقولهُ: ﴿إِلَيۡهِ﴾ يعني إلى المكانِ الّذي أمرهمُ اللّهُ تعالى أنْ يعرجوا إليهِ. وهذا كقولِ إبراهيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهۡدِينِ﴾ أرادَ أرضَ الشّامِ. وقالَ تعالى: ﴿وَمَن يَخۡرُجۡ مِنۢ بَيۡتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ﴾ أيْ إلى المدينةِ. وقالَ أبو هريرةَ قالَ النّبيُّ ﷺ: «أتاني ملكٌ منْ ربّي عزَّ وجلَّ برسالةٍ ثمَّ رفعَ رجلهُ فوضعها فوقَ السّماءِ والأخرى على الأرضِ لمْ يرفعها

بعد».

قولهُ تعالى: ﴿ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ أيْ علمَ ما غابَ عنِ الخلقِ وما حضرهمْ. وَ ﴿ذَٰلِكَ﴾ بمعنى أنا، وفي الكلامِ معنى التّهديدِ والوعيدِ، أيْ أخلصوا أفعالكمْ وأقوالكمْ فإنّي أجازي عليها.

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ﴾ قرأَ ابنُ كثيرٍ وأبو عمرو وابنُ عامرٍ: «خَلْقَهُ» بإسكانِ اللّامِ. وفتحها الباقونَ، والمعنى: أحكم كل شيء خلقهُ، وهوَ مثلُ قولهِ تباركَ وتعالى: ﴿ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ﴾ أيْ لمْ يخلقِ الإنسانَ على خلقِ البهيمةِ، ولا خلقَ البهيمةَ على خلقِ الإنسانِ.

قولهُ تعالى: ﴿وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ۝٧﴾ يعني آدمَ ﴿ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ۝٨﴾ لا خطرَ لهُ عندَ الناس ﴿ثُمَّ سَوَّىٰهُ﴾ رجعَ إلى آدمَ، أيْ سوّى خلقهُ ﴿وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ﴾ ثمَّ رجعَ إلى ذرّيّتهِ فقالَ: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ﴾ وقيلَ: ثمَّ جعلَ ذلكَ الماءَ المهينَ خلقًا معتدلاً، وركّبَ فيهِ الرّوحَ وأضافهُ إلى نفسهِ تشريفًا، وعبّرَ عنهُ بالنّفخِ لأنَّ الرّوحَ في جنسِ الرّيحِ ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ۝٩﴾ أيْ ثمَّ أنتمْ لا تشكرونَ بل تكفرون.

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ هذا قولُ منكري البعثِ، أيْ هلكنا وبطلنا وصرنا ترابًا، وأصلهُ منْ قولِ العربِ: ضلَّ الماءُ في اللّبنِ إذا ذهبَ. والعربُ تقولُ للشيء غلب عليه غيره حتّى خفيَ فيهِ أثرهُ: قدْ ضلَّ. ﴿أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ أيْ نخلق بعد ذلك خلقا جديدا؟ ﴿بَلْ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ كَٰفِرُونَ ۝١٠﴾ أيْ ليسَ لهمْ جحودُ قدرةِ اللّهِ تعالى عنِ الإعادةِ، لأنّهمْ يعترفونَ بقدرتهِ ولكنّهمْ اعتقدوا أنْ لا حسابَ عليهمْ، وأنّهمْ لا يلقون الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾﴾، فيه مسألتان:

الأولى: قولهُ تعالى: ﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ﴾ ﴿يَتَوَفَّاكُم﴾ منْ توفّى العددَ والشّيءَ إذا استوفاهُ وقبضهُ جميعاً. يقالُ: توفّاهُ اللّهُ أي استوفى روحهُ ثمَّ قبضهُ. وتوفّيتُ ماليَ منْ فلانٍ أي استوفيتهُ. ﴿مَّلَكُ الْمَوْتِ﴾ واسمهُ عزرائيلُ ومعناهُ عبدُ اللّهِ، وتصرّفهُ كلّهُ بأمرِ اللّهِ تعالى وبخلقهِ واختراعهِ. فخلق الله تعالى ملك الموتِ وخلقَ على يديهِ قبضَ الأرواحِ، واستلالها منَ الأجسامِ وإخراجها منها. وخلقَ اللّهُ تعالى جنداً يكونونَ معهُ يعملونَ عملهُ بأمرهِ، فقالَ: تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ﴾، وقال تعالى: ﴿تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا﴾، والبارئُ خالقُ الكلِّ، الفاعلُ حقيقةً لكلِّ فعلٍ، قالَ اللّهُ تعالى: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا﴾. ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ﴾. ﴿يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾. فملكُ الموتِ يقبضُ والأعوانُ يعالجونَ واللّهُ تعالى يزهقُ الرّوحَ. وهذا هوَ الجمعُ بينَ الآيِ والأحاديثِ، لكنّهُ لمّا كانَ ملكُ الموتِ متولّيَ ذلكَ بالوساطةِ والمباشرةِ أضيفَ التّوفّي إليهِ كما أضيفَ الخلقُ للملكِ، كما تقدّمَ في الحجِّ.

الثانية– استدلَّ بهذهِ الآيةِ بعضُ العلماءِ على جوازِ الوكالةِ منْ قولهِ: ﴿وُكِّلَ بِكُمْ﴾ أيْ بقبضِ الأرواحِ. قالَ ابنُ العربيِّ: «وهذا أخذَ منْ لفظهِ لا منْ معناهُ، ولوِ اطّردَ ذلكَ لقلنا في قولهُ تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾: إنّها نيابةٌ عنِ اللّهِ تباركَ وتعالى ووكالةٌ في تبليغِ رسالتهِ، ولقلنا أيضاً في قولهِ تبارك وتعالى: ﴿وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ إنّهُ وكالةٌ، فإنَّ اللّهَ تعالى ضمنَ الرّزقَ لكلِّ دابّةٍ وخصَّ الأغنياءَ بالأغذيةِ وأوعزَ إليهمْ بأنَّ رزقَ الفقراءِ عندهمْ، وأمرَ بتسليمهِ إليهمْ مقداراً معلوماً في وقتٍ معلومٍ، دبّرهُ بعلمهِ، وأنفذه منْ حكمهِ، وقدّرهُ بحكمتهِ. والأحكامُ لا تتعلّقُ بالألفاظِ إلّا أنْ تردَ على موضوعاتها الأصليّةِ في مقاصدها المطلوبةِ، فإنْ ظهرتْ في غيرِ مقصدها لمْ تعلّقْ عليها. ألا ترى أنَّ البيعَ والشّراءَ معلومُ اللّفظِ والمعنى، وقدْ قالَ تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ﴾ ولا يقالُ: هذهِ الآيةُ دليلٌ على جوازِ مبايعةِ السّيّدِ لعبدهِ، لأنَّ المقصدينِ مختلفانِ. أمّا إنّهُ إذا لمْ يكنْ بدٌّ منَ المعاني فيقالُ: إنَّ هذهِ الآيةَ دليلٌ على أنَّ للقاضي أنْ

يستتيبَ منْ يأخذُ الحقَّ ممّنْ هوَ عليهِ قسراً دونَ أنْ يكونَ لهُ في ذلكَ فعلٌ، أوْ يرتبطَ بهِ رضىً إذا وجد ذلك.

قولهُ تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُؤُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ ابتداءٌ وخبرٌ، والمخاطبةُ للنّبيِّ ﷺ مخاطبةٌ لأمّتهِ. والمعنى: لرأيتَ العجبَ، و ﴿نَاكِسُو رُؤُوسِهِمْ﴾ أيْ منَ النّدمِ والخزيِ والحزنِ والذّلِّ والغمِّ. ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ أيْ عندَ محاسبةِ ربّهِمْ وجزاءِ أعمالهِمْ. ﴿رَبَّنَا﴾ أيْ يقولونَ ربّنا. ﴿أَبْصَرْنَا﴾ أيْ أبصرنا ما كنا نكذب. ﴿وَسَمِعْنَا﴾ ما كنّا ننكرُ. وقيلَ: ﴿أَبْصَرْنَا﴾ صدقَ وعيدكَ. و ﴿سَمِعْنَا﴾ تصديقَ رسلكَ. أبصروا حينَ لا ينفعهمُ البصرُ، وسمعوا حينَ لا ينفعهمُ السّمعُ. ﴿فَارْجِعْنَا﴾ أيْ إلى الدّنيا. ﴿نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٢﴾﴾ أيْ مصدّقونَ بالبعثِ، فأكذبهمُ اللّهُ تعالى: فقالَ ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾. وقيلَ: معنى ﴿إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ أيْ قدْ زالتْ عنّا الشّكوكُ الآنَ، وكانوا يسمعونَ ويبصرونَ في الدنيا، ولكن لم يكونوا يتدبّرونَ.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٣﴾﴾ في معناهُ قولانِ: **أحدهما**: أنّهُ في الدّنيا. **والآخرُ**: أنَّ سياقَ الكلامِ يدلُّ على أنّهُ في الآخرةِ، أيْ لوْ شئنا لرددناهمْ إلى الدّنيا والمحنةِ كما سألوا ﴿وَلَٰكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ أيْ حقَّ القولُ منّي لأعذّبنَّ منْ عصاني بنارِ جهنّمَ. وعلمَ اللّهُ تباركَ وتعالى أنّهُ لوْ ردّهمْ لعادوا، كما قالَ تعالى: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾. وهذهِ الهدايةُ معناها خلقُ المعرفةِ في القلبِ، فمنْ شاءَ آمنَ وأطاعَ اختياراً لا جبراً، قالَ اللّهُ تعالى: ﴿لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ﴾، وقالَ: ﴿فَمَن شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا﴾. ثمَّ عقّبَ هاتينِ الآيتينِ بقولهِ تعالى: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ﴾. فوقعَ إيمانُ المؤمنينَ بمشيئتهمْ، ونفى أنْ يشاءوا إلّا أنْ يشاءَ اللّهُ، ولهذا فرّطتِ المجبرةُ لما قالوا: الخلقُ مجبورونَ في طاعتهم كلها، التفاتا إلى قوله: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ﴾. وفرّطتِ القدريّةِ لمّا قالوا: الخلقُ خالقونَ لأفعالهمُ، التفاتـًا منهمْ إلى قولهِ تعالى: ﴿لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ﴾. ومذهبنا هوَ الاقتصادُ في الاعتقادِ، وهوَ مذهبٌ بينَ مذهبي المجبرةِ والقدريّةِ، وخيرُ الأمورِ أوساطها. وذلكَ أنَّ أهلَ الحقِّ قالوا: نحنُ نفرّقُ بينَ ما اضطررنا إليهِ

وبينَ ما اخترناهُ، وهوَ أنّا ندركُ تفرقةً بينَ حركةِ الارتعاشِ الواقعةِ في يدِ الإنسانِ بغيرِ محاولتِهِ وإرادتِهِ ولا مقرونةً بقدرتِهِ، وبينَ حركةِ الاختيارِ إذا حرّكَ يدهُ حركةً مماثلةً لحركةِ الارتعاشِ، ومنْ لا يفرّقُ بينَ الحركتينِ: حركةِ الارتعاشِ وحركةِ الاختيارِ، وهما موجودتانِ في ذاتِهِ ومحسوستانِ في يدِهِ بمشاهدتِهِ وإدراكِ حاسّتِهِ فهوَ معتوهٌ في عقلِهِ ومختلٌّ في حسِّهِ، وخارجٌ منْ حزبِ العقلاءِ. وهذا هوَ الحقُّ المبينُ، وهوَ طريقٌ بين طريقي الإفراط والتفريط، وكلا طرفي قصد الأمور ذميم.

قولهُ تعالى: ﴿فَذُوقُواْ بِمَا نَسِيتُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَآ﴾ فيهِ قولانِ:

أحدهما- أنّهُ منَ النّسيانِ الّذي لا ذكرَ معهُ، أيْ لمْ يعملوا لهذا اليومِ فكانوا بمنزلةِ النّاسينَ.

والآخرُ: أنَّ ﴿نَسِيتُمۡ﴾ أي لما تركتمْ الإيمانَ بالبعثِ ﴿نَسِينَٰكُمۡۖ﴾ تركناكمْ في العذابِ ﴿بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ١٤﴾ يعني في الدّنيا منَ المعاصي. وقدْ يعبّرُ بالذّوقِ عمّا يطرأُ على النّفسِ وإنْ لمْ يكنْ مطعومًا، لإحساسها بهِ كإحساسها بذوقِ المطعومِ. قالَ عمرُ بنُ أبي ربيعةَ:

فذقْ هجرها إنْ كنتَ تزعمُ أنّها ... فسادٌ ألا يا ربما كذب الزعم

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُؤۡمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِهَا خَرُّواْ سُجَّدٗا وَسَبَّحُواْ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَهُمۡ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ۩ ١٥﴾ خرّوا سجّداً للّهِ تعالى على وجوههمْ تعظيمًا لآياتِهِ وخوفًا منْ سطوتِهِ وعذابِهِ ﴿وَسَبَّحُواْ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ﴾ أيْ خلطوا التّسبيحَ بالحمدِ، أيْ نزّهوهُ وحمدوهُ، فقالوا في سجودهمْ: سبحانَ اللّهِ وبحمدهِ ﴿وَهُمۡ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ﴾ كما استكبرَ أهل مكة عن السجود.

قولهُ تعالى: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمۡ عَنِ ٱلۡمَضَاجِعِ﴾ أيْ ترتفعُ وتنبو عنْ مواضعِ الاضطجاعِ، والمضاجعُ جمعُ مضجعٍ، وهي مواضعُ النّومِ. ويحتملُ عنْ وقتِ الاضطجاعِ، ولكنّهُ مجازٌ، والحقيقةُ أولى. ومنهُ قولُ عبدِ اللّهِ بنِ رواحةَ:

وفينا رسولُ اللّهِ يتلو كتابهُ ... إذا انشقَّ معروفٌ منَ الصّبحِ ساطعُ

يبيتُ يجافي جنبهُ عنْ فراشهِ إذا استثقلتْ بالمشركين المضاجعُ

وفيما تتجافى جنوبهمْ عنِ المضاجعِ لأجلهِ قولانِ:

أحدهما- لذكرِ اللّهِ تعالى، إمّا في صلاةٍ وإمّا في غيرِ صلاةٍ.

الثّاني- للصّلاةِ. وفي الصّلاةِ الّتي تتجافى جنوبهمْ لأجلها أربعةُ أقوالٍ:

أحدها- التّنفّلُ باللّيلِ، قالهُ الجمهورُ منَ المفسّرينَ وعليهِ أكثرُ النّاسِ، ويدلُّ عليهِ قولهُ تعالى: ﴿فَلَا تَعۡلَمُ نَفۡسٌ مَّآ أُخۡفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعۡيُنٍ﴾ لأنّهمْ جوزوا على ما أخفوا بما خفيَ.

الثّاني: صلاةُ العشاءِ الّتي يقالُ لها العتمةُ، وفي التّرمذيِّ عنْ أنسِ بنِ مالكٍ أنَّ هذهِ الآيةَ ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمۡ عَنِ ٱلۡمَضَاجِعِ﴾ نزلتْ في انتظارِ الصّلاةِ الّتي تدعى العتمةَ قالَ: هذا حديثٌ حسنٌ غريبٌ.

الثّالثُ- التّنفّلُ ما بينَ المغربِ والعشاءِ، وروى أبو داودَ عنْ أنسِ بنِ مالكٍ أنَّ هذهِ الآيةَ ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمۡ عَنِ ٱلۡمَضَاجِعِ يَدۡعُونَ رَبَّهُمۡ خَوۡفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ﴾ قالَ: كانوا يتنفّلونَ بينَ المغربِ والعشاءِ.

الرّابعُ- تجافي الجنبِ هوَ أنْ يصلّيَ الرّجلُ العشاءَ والصّبحَ في جماعةٍ.

قلت: وهذا قولٌ حسنٌ، وهوَ يجمعُ الأقوالَ بالمعنى. وذلكَ أنَّ منتظرَ العشاءِ إلى أنْ يصليها في صلاة وذكر لله عز وجل، كما قالَ النّبيُّ ﷺ: «لا يزالُ الرّجلُ في صلاةٍ ما انتظرَ الصّلاةَ».

وفي مسلمٌ منْ حديثِ عثمانَ بنِ عفّانَ قالَ سمعتُ رسولَ اللّهِ ﷺ يقولُ: «منْ صلّى العشاءَ في جماعةٍ فكأنّما قامَ نصفَ اللّيلِ، ومنْ صلّى الصّبحَ في جماعةٍ فكأنّما قامَ اللّيلَ كلّهُ».

قولهُ تعالى: ﴿يَدۡعُونَ رَبَّهُمۡ﴾ في موضع نصبٍ على الحالِ، أيْ داعينَ. ويحتملُ أنْ تكونَ صفةً مستأنفةً، أيْ تتجافى جنوبهمْ وهمْ أيضًا في كلِّ حالٍ يدعونَ ربّهمْ ليلهمْ ونهارهمْ. وَ﴿خَوۡفًا﴾ مفعولٌ منْ أجلهِ. ويجوزُ أن يكون مصدرا. ﴿وَطَمَعًا﴾ مثلهُ، أيْ خوفًا منَ العذابِ

وطمعـاً في الثّوابِ. ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾﴾ تكونُ «ما» بمعنى الّذي وتكونُ مصدراً، وفي كلا الوجهينِ يجبُ أنْ تكونَ منفصلةً منْ «مِنْ».

وَ ﴿يُنفِقُونَ﴾ قيلَ: معناهُ الزّكاةُ المفروضةُ، وقيلَ: النّوافلُ، وهذا القول أمدح.

قوله تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾﴾ قرأَ حمزةُ: «مَا أُخْفِيْ لَهُمْ» بإسكانِ الياءِ. وفتحها الباقونَ.

وفي معنى هذهِ الآيةُ: قالَ ﷺ: قالَ اللّهُ عزوجل أعددت لعبادي الصّالحينَ ما لا عينٌ رأتْ ولا أذنٌ سمعتْ ولا خطرَ على قلبِ بشرٍ ثمَّ قرأَ ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ﴾ إلى قولهِ: ﴿بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾. خرّجهُ الصّحيحُ منْ حديثِ سهلِ بنِ سعدٍ السّاعديِّ.

قلت: وهذهِ الكرامةُ إنّما هيَ لأعلى أهلِ الجنّةِ منزلاً، كما جاءَ مبيّناً في صحيحِ مسلم عنِ المغيرةِ بنِ شعبةَ يرفعهُ إلى رسولِ اللّهِ ﷺ قال: «سألَ موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ ربّهُ فقالَ: يا ربِّ ما أدنى أهلِ الجنّةِ منزلة قال هو رجل يأتي بعد ما يدخلُ أهلُ الجنّةِ الجنّةَ فيقالُ لهُ ادخلِ الجنّةَ فيقولُ أيْ ربِّ كيفَ وقدْ نزلَ النّاسُ منازلهمْ وأخذوا أخذاتهمْ فيقالُ لهُ أترضى أنْ يكونَ لكَ مثلُ ملكِ ملكٍ منْ ملوكِ الدّنيا فيقولُ رضيتُ ربِّ فيقولُ لكَ ذلك ومثله ومثله ومثله معه ومثلهُ ومثلهُ ومثلهُ فقالَ: في الخامسة رضيتُ ربِّ فيقالُ هذا لكَ وعشرةُ أمثالهِ ولكَ ما اشتهتْ نفسكَ ولذّتْ عينكَ فيقولُ رضيتُ ربِّ. قالَ ربِّ فأعلاهمْ منزلةً قالَ أولئكَ الّذينَ أردتُ غرستُ كرامتهمْ بيدي وختمتُ عليها فلمْ ترَ عينٌ ولمْ تسمعْ أذنٌ ولمْ يخطرْ على قلبِ بشرٍ- قالَ- ومصداقهُ منْ كتابِ اللّهِ قولهُ تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾.

وخرّجَ مسلمٌ أيضـاً عنْ أبي هريرةَ قالَ: قالَ رسولُ اللّهِ ﷺ: يقولُ اللّهُ تباركَ وتعالى أعددتُ لعبادي الصّالحينَ ما لا عينٌ رأتْ ولا أذنٌ سمعتْ ولا خطرَ على قلبِ بشرٍ ذخراً بلهَ ما أطلعكمْ عليهِ- ثمَّ قرأَ- ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾.

وقالَ ابنُ سيرينَ: المرادُ بهِ النّظرُ إلى اللّهِ تعالى. وقالَ الحسنُ: أخفى القومُ أعمالاً فأخفى اللّهُ تعالى لهمْ ما لا عينٌ رأتْ ولا أذنٌ سمعتْ.

قوله تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًاۚ لَّا يَسْتَوُۥنَ ١٨﴾، فيهِ ثلاثُ مسائلَ:

الأولى: قولهُ تعالى ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًاۚ لَّا يَسْتَوُۥنَ﴾ أيْ ليسَ المؤمنُ كالفاسقِ، فلهذا آتينا هؤلاءِ المؤمنينَ الثّوابَ العظيمَ.

الثانية– لمّا قسّمَ اللّهُ تعالى المؤمنينَ والفاسقينَ الّذينَ فسّقهمْ بالكفرِ – لأنَّ التّكذيبَ في آخرِ الآيةِ يقتضي ذلكَ – اقتضى ذلكَ نفيَ المساواةِ بينَ المؤمنِ والكافرِ، ولهذا منعَ القصاصُ بينهما، إذْ منْ شرطِ وجوبِ القصاصِ المساواةُ بينَ القاتلِ والمقتولِ. وبذلكَ احتجَّ علماؤنا على أبي حنيفةَ في قتلهِ المسلم بالذمي. وقال: أراد نفي المساواة ها هنا في الآخرةِ في الثّوابِ وفي الدّنيا في العدالةِ. ونحنُ حملناهُ على عمومهِ، وهوَ أصحُّ، إذْ لا دليلَ يخصّهُ.

الثالثة– قولهُ تعالى: ﴿لَّا يَسْتَوُۥنَ﴾ «منْ» يصلحُ للواحدِ والجمعِ. وقال بعضهم: " لا يستوون" لاثنين.

قولهُ تعالى: ﴿أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ أخبرَ عنْ مقرِّ الفريقينِ غداً، فللمؤمنينَ جنات المأوى أو يأوونَ إلى الجنّاتِ فأضافَ الجنّاتِ إلى المأوى لأن ذلك الموضعَ يتضمّنُ جنّاتٍ. ﴿نُزُلًۢا﴾ أيْ ضيافةً. والنّزلُ: ما يهيّأُ للنّازلِ والضّيفِ ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُواْ﴾ أيْ خرجوا عنِ الإيمانِ إلى الكفرِ ﴿فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُۖ﴾ أيْ مقامهمْ فيها ﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَآ أُعِيدُواْ فِيهَا﴾ أيْ إذا دفعهمْ لهبُ النّارِ إلى أعلاها ردّوا إلى موضعهمْ فيها ﴿وَقِيلَ لَهُمْ﴾ يقولُ لهمْ خزنةُ جهنّمَ. أوْ يقولُ اللّهُ لهمْ: ﴿ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ٢٠﴾ والذّوقُ يستعملُ محسوساً ومعنى.

قولهُ تعالى: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ﴾ قيل: العذابُ الأدنى مصائبُ الدّنيا وأسقامها ممّا يبتلى بهِ العبيدُ حتّى يتوبوا، وقيلَ: الحدودُ. وقيلَ: هوَ القتلُ بالسّيفِ يومَ بدرٍ، وقيلَ: الجوعُ سبعَ سنينَ بمكّةَ حتّى أكلوا الجيفَ، وقيلَ: العذابُ الأدنى عذابُ القبرِ والأكبرُ عذابُ يوم القيامةِ، وفيهِ نظرٌ، لقولهِ: ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ٢١﴾، ولا خلافَ أنَّ العذابَ الأكبرَ عذابُ جهنّمَ.

قولهُ تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾ أيْ لا أحدَ أظلمُ لنفسهِ ﴿مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِۦ﴾ أيْ بحججهِ وعلاماتهِ ﴿ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ﴾ بتركِ القبولِ ﴿إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ لتكذيبهم وإعراضهم.

قولهُ تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ﴾ أيْ فلا تكنْ يا محمّدُ في شكٍّ منْ لقاءِ موسى، وقدْ لقيهُ ليلةَ الإسراءِ، وقيلَ: فلا تكنْ في شكٍّ منْ لقاءِ موسى في القيامةِ، وستلقاهُ فيها. وقيلَ: فلا تكنْ في شكٍّ منْ لقاءِ موسى الكتابَ بالقبولِ، ﴿وَجَعَلْنَـٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٣﴾﴾. والضّميرُ في ﴿وَجَعَلْنَـٰهُ﴾ فيهِ وجهانِ:

أحدهما: جعلنا موسى.

الثّاني- جعلنا الكتابَ.

﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً﴾ أيْ قادةً وقدوةً يقتدى بهمْ في دينهمْ ﴿يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾ أيْ يدعونَ الخلقَ إلى طاعتنا. ﴿بِأَمْرِنَا﴾ أيْ أمرناهمْ بذلكَ. وقيلَ: ﴿بِأَمْرِنَا﴾ أيْ لأمرنا، أيْ يهدونَ النّاسَ لديننا. ثمَّ قيل: المرادُ الأنبياءُ عليهمُ السّلامُ، وقيلَ: المرادُ الفقهاءُ والعلماءُ. ﴿لَمَّا صَبَرُوا۟﴾ قراءةُ العامّةِ ﴿لَمَّا﴾ بفتحِ اللّامِ وتشديدِ الميمِ وفتحها، أيْ حينَ صبروا. وقرأ حمزةُ والكسائيُّ وخلفٌ ورويسٌ عنْ يعقوبَ: «لِمَا صَبَرُوا» أيْ لصبرهمْ جعلناهمْ أئمّةً، وهذا الصّبرُ صبرٌ على الدّينِ وعلى البلاءِ. وقيلَ: صبروا عنِ الدّنيا ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ أيْ يقضي ويحكمُ بينَ المؤمنينَ والكفّارِ، فيجازي كلاًّ بما يستحقُّ. وقيلَ: يقضي بينَ الأنبياء وبين قومهم.

قولهُ تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ﴾ المعنى: أوَ لمْ يهدِ اللّهُ لهمْ، أيْ أوَ لمْ نبيّنْ لهمْ إهلاكنا القرونَ الكافرةَ منْ قبلهمْ. ﴿يَمْشُونَ فِى مَسَـٰكِنِهِمْ﴾ يحتملُ الضّميرُ في ﴿يَمْشُونَ﴾ أنْ يعودَ على الماشينَ في مساكنِ المهلكينَ، أيْ وهؤلاءِ يمشونَ ولا يعتبرونَ. ويحتملُ أنْ يعودَ على المهلكينَ فيكونُ حالاً، والمعنى: أهلكناهمْ ماشينَ في مساكنهمْ ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴿٢٦﴾﴾ آياتِ الله وعظاته فيتعظون.

قولهُ تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَسُوقُ ٱلْمَآءَ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلْجُرُزِ﴾ اليابسةِ الّتي جرزَ نباتها، أيْ قطعَ، إمّا لعدمِ الماءِ وإمّا لأنّهُ رعيَ وأزيلَ. ولا يقالُ للّتي لا تنبتُ كالسّباخِ جرزٌ، ويدلُّ عليهِ قولهُ تعالى: ﴿فَنُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا﴾، ﴿فَنُخْرِجُ بِهِۦ﴾ أيْ بالماءِ. ﴿زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَٰمُهُمْ﴾ منَ الكلأِ والحشيشِ. ﴿وَأَنفُسُهُمْ﴾ منَ الحبِّ والخضرِ والفواكهِ. ﴿أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴿٢٧﴾﴾ هذا فيعلمونَ أنّا نقدرُ على إعادتهمْ.

قولهُ تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٨﴾﴾ يعني فتحَ مكّةَ. وقيلَ: يعني يومَ القيامةِ. ﴿قُلْ يَوْمَ ٱلْفَتْحِ﴾ على الظّرفِ ﴿لَا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِيمَٰنُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٢٩﴾﴾ أيْ يؤخّرونَ ويمهلونَ للتّوبةِ، إنْ كانَ يومُ الفتحِ يومَ بدرٍ أوْ فتحَ مكّةَ. ففي بدرٍ قتلوا، ويومَ الفتحِ هربوا فلحقهمْ خالد بن الوليد فقتلهم.

قولهُ تعالى: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ أي عنْ سفههمْ ولا تجبهمْ إلّا بما أمرتَ بهِ ﴿وَٱنتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ ﴿٣٠﴾﴾ أيِ انتظرْ يومَ الفتحِ، يومَ يحكمُ اللّهُ لكَ عليهمْ. وقيلَ: هذا منسوخٌ بالسّيفِ في «براءةٌ» في قولهِ: ﴿فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾.

﴿وَٱنتَظِرْ﴾ أيْ موعدي لكَ. قيل: يعني يومَ بدرٍ. ﴿إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ﴾ أيْ يتنظرونَ بكمْ حوادثَ الزّمانِ. وقيلَ: الآيةُ غيرُ منسوخةٍ، إذْ قدْ يقعُ الإعراضُ معَ الأمرِ بالقتالِ كالهدنةِ وغيرها. وقيلَ: أعرض عنهم بعد ما بلّغتَ الحجّةَ، وانتظرْ إنّهمْ منتظرونَ.

إنْ قيل: كيفَ ينتظرونَ القيامةَ وهمْ لا يؤمنونَ؟ ففي هذا جوابانِ:

أحدهما- أنْ يكونَ المعنى أنّهمْ منتظرونَ الموتَ وهوَ منْ أسبابِ القيامةِ، فيكونُ هذا مجازاً.

والآخرُ- أنَّ فيهمْ منْ يشكُّ وفيهمْ منْ يؤمنُ بالقيامةِ، فيكونُ هذا جواباً لهذينِ الصّنفينِ. واللّهُ أعلمُ.

سورة الأحزاب

مدنيّةٌ في قولِ جميعهمْ. نزلتْ في المنافقينَ وإيذائهمْ رسولَ اللّهِ ﷺ، وطعنهمْ فيهِ وفي مناكحتهِ وغيرها. وهي ثلاث وسبعونَ آيةً. وكانتْ هذهِ السّورةُ تعدلُ سورةَ البقرةِ. وكانتْ فيها آيةُ الرّجمِ: «الشّيخُ والشّيخةُ إذا زنيا فارجموهما البتّةَ نكالاً منَ اللّهِ واللّهُ عزيزٌ حكيمٌ».

بسمِ اللّهِ الرّحمنِ الرّحيمِ

قولهُ تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ أيْ خفِ اللّهَ ﴿وَلَا تُطِعِ ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ منْ أهلِ مكّةَ ﴿وَٱلْمُنَـٰفِقِينَ﴾ منْ أهلِ المدينةِ فيما نهيت عنه ولا تملْ إليهمْ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا﴾ بكفرهمْ ﴿حَكِيمًا ۝١﴾ فيما يفعلُ بهمْ، ودلَّ بقولهِ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ على أنّهُ كانَ يميلُ إليهمُ استدعاءً لهمْ إلى الإسلامِ، أيْ لوْ علمَ اللّهُ عزَّ وجلَّ أنَّ ميلكَ إليهمْ فيهِ منفعةٌ لما نهاكَ عنهُ، لأنّهُ حكيمٌ، والخطاب له ولأمته.

قولهُ تعالى: ﴿وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ يعني القرآنَ. وفيهِ زجرٌ عنِ اتّباعِ مراسمِ الجاهليّةِ، وأمرٌ بجهادهمْ ومنابذتهمْ، وفيهِ دليلٌ على تركِ اتّباعِ الآراءِ معَ وجودِ النّصِّ. والخطابُ لهُ ولأمّتهِ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ۝٢﴾ قراءةُ العامّةِ بتاءٍ على الخطابِ. ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ أيِ اعتمدْ عليهِ في كلِّ أحوالكَ، فهوَ الّذي يمنعكَ ولا يضرّكَ منْ خذلكَ ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ۝٣﴾ حافظًا مما تخافهُ منهمْ. وَ ﴿بِٱللَّهِ﴾ في موضعِ رفعٍ لأنّهُ الفاعلُ. وَ ﴿وَكِيلًا﴾ نصب على البيان أو الحال.

قولهُ تعالى: ﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ ۚ وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّـٰٓـِٔى تُظَـٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَـٰتِكُمْ ۚ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ ۖ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ ۝٤﴾، فيه خمس مسائلَ:

الأولى: قيل: هوَ مثلٌ ضربَ للمظاهرِ، أيْ كما لا يكونُ للرّجلِ قلبانِ كذلكَ لا تكونُ امرأةُ المظاهرِ أمّهُ حتّى تكونَ لهُ أمّانِ، وقيلَ: لا يجتمعُ الكفرُ والإيمانُ باللّهِ تعالى في قلبٍ، كما لا يجتمعُ قلبانِ في جوفٍ، فالمعنى: لا يجتمعُ اعتقادانِ متغايرانِ في قلبٍ.

الثانية- القلبُ بضعةٌ صغيرةٌ على هيئةِ الصّنوبرةِ، خلقها اللّهُ تعالى في الآدميِّ وجعلها محلاً للعلمِ، وهوَ بينَ لمّتينِ: لمّةٌ منَ الملكِ، ولمّةٌ منَ الشّيطانِ، كما قالَ ﷺ. خرّجهُ التّرمذيُّ، وهوَ محلُّ الخطراتِ والوساوسِ ومكانُ الكفرِ والإيمانِ، وموضعُ الإصرارِ والإنابةِ، ومجرى الانزعاجِ والطّمأنينةِ.

الثالثة- أعلمَ اللّهُ عزَّ وجلَّ في هذهِ الآيةِ أنّهُ لا أحدَ بقلبينِ، ويكونُ في هذا طعنٌ على المنافقينَ الّذينَ تقدّمَ ذكرهمْ، أيْ إنّما هوَ قلبٌ واحدٌ، فإمّا فيهِ إيمانٌ وإمّا فيه كفر، لأن درجةَ النّفاقِ كأنّها متوسّطةٌ، فنفاها اللّهُ تعالى وبيّنَ أنّهُ قلبٌ واحدٌ. وعلى هذا النّحوِ يستشهدُ الإنسانُ بهذهِ الآيةِ متى نسيَ شيئاً أوْ وهمَ. يقولُ على جهةِ الاعتذارِ: ما جعلَ اللّهُ لرجلٍ منْ قلبينِ في جوفهِ.

الرابعة- قولهُ تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔى تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْ﴾ يعني قولَ الرّجلِ لامرأتهِ: أنتِ عليَّ كظهرِ أمّي. وذلكَ مذكورٌ في سورةِ المجادلةِ على ما يأتي بيانهُ إنْ شاءَ اللّهُ تعالى.

الخامسة- قولهُ تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ﴾ أجمعَ أهلُ التّفسيرِ على أنَّ هذا نزلَ في زيدِ بنِ حارثةَ. وروى الأئمّةُ أنَّ ابنَ عمرَ قالَ: ما كنّا ندعو زيدَ بنَ حارثةَ إلّا زيدَ ابن محمّدٍ حتّى نزلتْ: ﴿ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ وكان زيد فيما روي عن أنس بن مالكٍ وغيرهِ مسبياً منَ الشّامِ، سبتهُ خيلٌ منْ تهامةَ، فابتاعهُ حكيمُ بنُ حزام بنِ خويلدٍ، فوهبهُ لعمّتهِ خديجةَ فوهبتهُ خديجةُ للنّبيِّ ﷺ فأعتقهُ وتبنّاهُ، فأقامَ عندهُ مدّةً، ثمَّ جاءَ عمّهُ وأبوهُ يرغبانِ في فدائهِ، فقالَ: لهما النّبيُّ ﷺ وذلكَ قبلَ البعثِ: «خيّراهُ فإنِ اختاركما فهوَ لكما دونَ فداءٍ». فاختارَ الرّقَّ معَ رسولِ اللّهِ ﷺ على حرّيّتهِ وقومهِ، فقالَ رسولُ اللّهِ ﷺ عندَ ذلكَ: «يا معشرَ قريشٍ اشهدوا أنّهُ ابني يرثني وأرثهُ» وكانَ يطوفُ على حلقِ قريشٍ يشهدهمْ على ذلكَ، فرضيَ ذلكَ عمّهُ وأبوهُ وانصرفا، وسيأتي منْ ذكرهِ وفضلهِ وشرفهِ شفاءٌ عندَ قولهِ: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا﴾ إنْ شاءَ اللّهُ تعالى. وقتلَ زيدٌ بمؤتةَ منْ أرضِ الشّأمِ سنةَ ثمانٍ منَ الهجرةِ، وكانَ النّبيُّ ﷺ أمّرهُ في تلكَ الغزاةِ،، وقالَ: «إنْ قتلَ زيدٌ فجعفرٌ فإنْ قتلَ جعفرٌ فعبدُ اللّهِ بنُ رواحةَ». فقتلَ الثّلاثةُ في تلكَ الغزاةِ ﷺ.

قولهُ تعالى: ﴿ٱدۡعُوهُمۡ لِأٓبَآئِهِمۡ هُوَ أَقۡسَطُ عِندَ ٱللَّهِۚ فَإِن لَّمۡ تَعۡلَمُوٓاْ ءَابَآءَهُمۡ فَإِخۡوَٰنُكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمۡۚ وَلَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٞ فِيمَآ أَخۡطَأۡتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتۡ قُلُوبُكُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمًا ٥﴾، فيهِ ستُّ مسائلَ:

الأولى: قولهُ تعالى: ﴿ٱدۡعُوهُمۡ لِأٓبَآئِهِمۡ﴾ كانَ التّبنّي معمولاً بهِ في الجاهليّةِ والإسلامِ يتوارثُ بهِ ويتناصرُ إلى أنْ نسخَ اللّهُ ذلكَ بقولهِ: ﴿ٱدۡعُوهُمۡ لِأٓبَآئِهِمۡ هُوَ أَقۡسَطُ عِندَ ٱللَّهِۚ﴾، وهوَ منْ نسخِ السّنّةِ بالقرآنِ فأمرَ أنْ يدعوا منْ دعوا إلى أبيهِ المعروفِ فإنْ لمْ يكنْ لهُ أبٌ معروفٌ نسبوهُ إلى ولائهِ فإنْ لمْ يكنْ لهُ ولاءٌ معروفٌ قالَ لهُ يا أخي يعني في الدّينِ قالَ اللّهُ تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِخۡوَةٞ﴾.

الثانية- لوْ نسبهُ إنسانٌ إلى أبيهِ منَ التّبنّي فإنْ كانَ على جهةِ الخطأِ وهوَ أنْ يسبقَ لسانهُ إلى ذلكَ منْ غيرِ قصدٍ فلا إثمَ ولا مؤاخذةَ لقولهِ تعالى: ﴿وَلَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٞ فِيمَآ أَخۡطَأۡتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتۡ قُلُوبُكُمۡۚ﴾، فإنْ قالهُ أحدٌ متعمّداً عصى لقولهِ تعالى: ﴿وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتۡ قُلُوبُكُمۡۚ﴾ أيْ فعليكمُ الجناحُ، ولذلكَ قالَ بعدهُ: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمًا﴾ أي ﴿غَفُورٗا﴾ للعمد و ﴿رَّحِيمًا﴾ برفعِ إثمِ الخطأِ.

الثالثة- وقدْ قيل: إنَّ قولَ اللّهِ تباركَ وتعالى: ﴿وَلَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٞ فِيمَآ أَخۡطَأۡتُم﴾ مجملٌ أيْ وليسَ عليكمْ جناحٌ في شيء أخطأتمْ وكانتْ فتيا عطاءٍ وكثيرٍ منَ العلماءِ على هذا إذا حلفَ رجلٌ ألّا يفارقَ غريمهُ حتّى يستوفيَ منهُ حقّهُ فأخذَ منهُ ما يرى أنّهُ جيّدٌ منْ دنانيرَ فوجدها زيوفا أنه لا شيء عليهِ، وكذلكَ عندهُ إذا حلفَ ألّا يسلّمَ على فلانٍ فسلّمَ عليهِ وهوَ لا يعرفهُ أنّهُ لا يحنثُ لأنّهُ لمْ يتعمّدْ ذلكَ.

الرابعة- قولهُ تعالى: ﴿ذَٰلِكُمۡ قَوۡلُكُم بِأَفۡوَٰهِكُمۡۖ﴾ ﴿بِأَفۡوَٰهِكُمۡۖ﴾ تأكيدٌ لبطلانِ القولِ، أيْ أنّهُ قولٌ لا حقيقةَ لهُ في الوجودِ، إنّما هوَ قولٌ لسانيٌّ فقط.

الخامسة- الأدعياءُ جمعُ الدّعيِّ وهوَ الّذي يُدعى ابنـًا لغيرِ أبيهِ أوْ يدّعي غيرَ أبيهِ والمصدرُ الدِّعوةُ بالكسرِ، فأمرَ تعالى بدعاءِ الأدعياءِ إلى آبائهمْ للصّلبِ فمنْ جهلَ ذلكَ فيهِ ولمْ تشتهرْ أنسابهمْ كانَ مولى وأخـًا في الدّينِ.

السادسة- روى الصّحيح عنْ سعدِبنِ أبي وقّاصٍ وأبي بكر كلاهما قالَ: سمعتهُأذنايَ ووعاهُ قلبي محمّداً ﷺ يقولُ: «منِ ادّعى إلى غيرِ أبيهِ وهوَ يعلمُ أنّهُ غيرُ أبيهِ فالجنّةُ عليهِ حرامٌ». وفي حديثِ أبي ذرٍّ أنّهُ سمعَ النّبيَّ ﷺ يقولُ: ليسَ منْ رجلٍ ادّعى لغيرِ أبيه وهو يعلمه إلا كفر.

قولهُ تعالى: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ إِلَّآ أَن تَفْعَلُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم مَّعْرُوفًا كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا ۝٦﴾، فيهِ تسعُ مسائلَ:

الأولى: قولهُ تعالى: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ هذهِ الآيةُ أزالَ اللّهُ تعالى بها أحكاماً كانتْ في صدرِ الإسلامِ، منها: أنّهُ ﷺ كان لا يصلي على ميت عليهِ دينٌ، فلمّا فتحَ اللّهُ عليهِ الفتوحَ قالَ: «أنا أولى بالمؤمنينَ منْ أنفسهمْ فمنْ توفّيَ وعليهِ دينٌ فعليَّ قضاؤهُ ومنْ تركَ مالاً فلورثتهِ» أخرجهُ الصّحيحانِ. وفيهما أيضاً «فأيّكمْ تركَ ديناً أوْ ضياعاً فأنا مولاهُ».

وقالَ بعضُ العلماءِ العارفينَ هوَ أولى بهمْ منْ أنفسهمْ، لأنَّ أنفسهمْ تدعوهمْ إلى الهلاكِ، وهوَ يدعوهمْ إلى النّجاةِ. قالَ ابنُ عطيّةَ: ويؤيّدُ هذا قولهُ ﷺ: «أنا آخذٌ بحجزكمْ عنِ النّارِ وأنتمْ تقتحمونَ فيها تقحّمَ الفراشِ». قلت: هذا قولٌ حسنٌ في معنى الآيةِ وتفسيرها، والحديثُ الّذي ذكرَ أخرجهُ مسلمٌ في صحيحهِ عنْ أبي هريرةَ قالَ: قالَ رسولُ اللّهِ ﷺ: «إنّما مثلي ومثلُ أمّتي كمثلِ رجلٍ استوقدَ ناراً فجعلتِ الدّوابُّ والفراشُ يقعنَ فيهِ وأنا آخذٌ بحجزكمْ وأنتمْ تقحّمونَ فيهِ». وعنْ جابرٍ مثلهُ، وقالَ: «وأنتمْ تفلتونَ منْ يديَّ». قالَ العلماءُ الحجزةُ للسّراويلِ، والمعقدُ للإزارِ، فإذا أرادَ الرّجلُ إمساكَ منْ يخافُ سقوطهُ أخذَ بذلكَ الموضعِ منهُ. وهذا مثلٌ لاجتهادِ نبيّنا ﷺ في نجاتنا، وحرصهِ على تخلّصنا منَ الهلكاتِ الّتي بينَ أيدينا، فهوَ أولى بنا منْ أنفسنا، ولجهلنا بقدرِ ذلكَ وغلبةِ شهواتنا علينا وظفرِ عدوّنا اللعينِ بناصرنا أحقرَ منَ الفراشِ وأذلَّ منَ الفراشِ، ولا حولَ ولا قوّةَ إلّا باللّهِ العليِّ العظيمِ!

وقيلَ: أولى بهمْ أيْ أنّهُ إذا أمرَ بشيءٍ ودعتِ النّفسُ إلى غيرهِ كانَ أمرُ النّبيِّ ﷺ أولى، وقيلَ أولى بهمْ أيْ هوَ أولى بأنْ يحكمَ على المؤمنينَ فينفّذُ حكمهُ في أنفسهمْ، أيْ فيما

يحكمونَ بهِ لأنفسهمْ ممّا يخالفُ حكمهُ.

الثانية- قالَ بعضُ أهلِ العلمِ: يجبُ على الإمامِ أنْ يقضيَ منْ بيتِ المالِ دينَ الفقراءِ اقتداءً بالنّبيِّ ﷺ، فإنّهُ قدْ صرّحَ بوجوبِ ذلكَ عليهِ حيثُ قالَ: «فعليَّ قضاؤهُ». والضّياعُ «بفتحِ الضّادِ» مصدرُ ضاعَ، ثمَّ جعلَ اسمـًا لكلِ ما هوَ بصددِ أن يضيع منْ عيالٍ وبنينَ لا كافلَ لهمْ، ومالٍ لا قيّمَ لهُ. وسمّيتِ الأرضُ ضيعةً لأنّها معرّضةٌ للضّياعِ وتجمعُ ضياعـًا بكسرِ الضّادِ.

الثالثة- قوله تعالى: ﴿وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْۗ﴾ في وجوبِ التّعظيمِ والمبرّةِ والإجلالِ وحرمةِ النّكاحِ على الرّجالِ، وحَجْبِهنَّ رضيَ اللّهُ تعالى عنهنَّ بخلافِ الأمّهاتِ، ثمَّ هذهِ الأمومةُ لا توجبُ ميراثـًا كأمومةِ التّبنّي. وجازَ تزويجُ بناتِهنَّ، ولا يجعلنَ أخواتٍ للنّاسِ.

الرابعة- قوله تعالى: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ﴾ قيل: إنّهُ أرادَ بالمؤمنينَ الأنصار، وبالمهاجرين قريشا. وفيه قولان:

أحدهما: أنّهُ ناسخٌ للتّوارثِ بالهجرةِ. فقد قيل: كانَ نزلَ في سورةِ الأنفالِ ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْۚ﴾ فتوارثَ المسلمونَ بالهجرةِ، فكانَ لا يرثُ الأعرابيُّ المسلمُ منْ قريبِهِ المسلمِ المهاجرِ شيئـًا حتّى يهاجرَ، ثمَّ نسخَ ذلكَ في هذهِ السّورةِ بقوله: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾.

الثّاني: أنَّ ذلكَ ناسخٌ للتّوارثِ بالحلفِ والمؤاخاةِ في الدّينِ.

وقولهُ: ﴿فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ يحتملُ أنْ يريدَ القرآنَ، ويحتملَ أنْ يريدَ اللّوحَ المحفوظَ الّذي قضى فيهِ أحوالَ خلقهِ.

الخامسة- واختلفَ في كونهنَّ كالأمّهاتِ في المحرمِ وإباحةِ النّظرِ، على وجهينِ:

أحدهما- هنَّ محرمٌ، لا يحرمُ النّظرُ إليهنَّ.

الثّاني: أنَّ النّظرَ إليهنَّ محرّمٌ، لأنَّ تحريمَ نكاحهنَّ إنّما كانَ حفظـًا لحقِ رسولِ اللّهِ ﷺ فيهنَّ، وكانَ منْ حفظِ حقّهِ تحريمُ النّظرِ إليهنَّ، ولأنَّ عائشةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا كانتْ إذا أرادتْ دخولَ

رجلٍ عليها أمرتْ أختها أسماءَ أنْ ترضعهُ ليصيرَ ابنـًا لأختها منَ الرّضاعةِ، فيصيرُ محرمـًا يستبيحُ النّظرَ. وأمّا اللاّتي طلّقهنَّ رسولُ اللّهِ ﷺ في حياتهِ فقدِ اختلفَ في ثبوتِ هذهِ الحرمةِ لهنَّ على ثلاثةِ أوجهٍ:

أحدها: ثبتتْ لهنَّ هذهِ الحرمةُ تغليبـًا لحرمةِ رسولِ اللّهِ ﷺ.

الثّاني- لا يثبتُ لهنَّ ذلكَ، بلْ هنَّ كسائرِ النّساءِ، لأنَّ النّبيَّ ﷺ قدْ أثبتَ عصمتهنَّ، وقالَ: «أزواجي في الدّنيا هنَّ أزواجي في الآخرةِ».

الثّالثُ- منْ دخلَ بها رسولُ اللّهِ ﷺ منهنَّ ثبتتْ حرمتها وحرّمَ نكاحها وإنْ طلّقها، حفظـًا لحرمتهِ وحراسةً لخلوتهِ. ومنْ لمْ يدخلْ بها لمْ تثبتْ لها هذهِ الحرمةُ.

السّادسةُ- قالَ قومٌ: لا يجوزُ أنْ يسمّى النّبيُّ ﷺ أبـًا لقولهِ تعالى: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ﴾. ولكنْ يقالُ: مثلُ الأبِ للمؤمنينَ، كما قالَ: «إنّما أنا لكمْ بمنزلةِ الوالدِ أعلّمكمْ...» الحديثَ. خرّجهُ أبو داودَ. والصّحيحُ أنّهُ يجوزُ أنْ يقالَ: إنّهُ أبٌ للمؤمنينَ، أيْ في الحرمةِ، وقولهُ تعالى: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ﴾ أيْ في النّسبِ. وسيأتي.

السابعة- قالَ قومٌ: لا يقالُ بناتهُ أخواتُ المؤمنينَ، ولا أخوالهنَّ أخوالُ المؤمنينَ وخالاتهمْ. قالَ الشّافعيُّ: تزوّجَ الزّبيرُ أسماءَ بنتَ أبي بكرٍ وهيَ أختُ عائشةَ، ولمْ يقلْ هيَ خالةُ المؤمنينَ. وأطلقَ قومٌ هذا وقالوا: معاويةُ خالُ المؤمنينَ، يعني في الحرمةِ لا في النّسبِ.

الثامنة- قولهُ تعالى: ﴿إِلَّآ أَن تَفْعَلُوٓاْ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم مَّعْرُوفًا﴾ يريدُ الإحسانَ في الحياةِ، والوصيّةَ عندَ الموتِ، أيْ أنَّ ذلكَ جائزٌ، قال محمد ابن الحنفيّةِ: نزلتْ في إجازةِ الوصيّةِ لليهوديِّ والنّصرانيِّ، أيْ يفعلُ هذا معَ الوليِّ والقريبِ وإنْ كانَ كافراً، فالمشركُ وليٌّ في النّسبِ لا في الدّينِ فيوصى لهُ بوصيّةٍ. واختلفَ العلماءُ هلْ يجعلُ الكافرُ وصيـًا، فجوّزَ بعضٌ ومنعَ بعضٌ. وردَّ النّظرَ إلى السّلطانِ في ذلكَ بعضٌ، منهمْ مالكٌ رحمهُ اللّهُ تعالى.

التاسعةُ- قولهُ تعالى: ﴿كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا﴾ ﴿ٱلْكِتَٰبِ﴾ يحتملُ الوجهينِ المذكورينِ المتقدّمينِ في «كِتابِ اللهِ»، وقيل: كانَ ذلكَ في التوراة. وَ﴿مَسْطُورًا﴾ منْ قولكَ سطرتُ الكتابَ إذا أثبتّهُ أسطاراً. قالَ قتادةُ: أيْ مكتوبـًا عندَ اللّهِ عزَّ وجلَّ ألّا يرثَ كافرٌ

مسلماً.

قولهُ تعالى: ﴿وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمۡ﴾ أيْ عهدهمْ على الوفاءِ بما حمّلوا، وأنْ يبشّرَ بعضهمْ ببعضٍ، ويصدّقَ بعضهمْ بعضاً، أيْ كانَ مسطوراً حينَ كتبَ اللّهُ ما هوَ كائنٌ، وحينَ أخذَ اللّهُ تعالى المواثيقَ منَ الأنبياءِ ﴿وَمِنكَ﴾ يا محمّدُ ﴿وَمِن نُّوحٖ وَإِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۖ﴾ وإنّما خصَّ هؤلاءِ الخمسةُ وإنْ دخلوا في زمرةِ النّبيّينَ تفضيلاً لهمْ. وقيلَ: لأنّهمْ أصحابُ الشّرائعِ والكتبِ، وأولو العزمِ منَ الرّسلِ وأئمّةُ الأممِ ﴿وَأَخَذۡنَا مِنۡهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظٗا ۝٧﴾ أيْ عهداً وثيقاً عظيماً على الوفاءِ بما التزموا منْ تبليغِ الرّسالةِ، وأنْ يصدّقَ بعضهمْ بعضاً.

قالَ مجاهدٌ: هذا في ظهرِ آدمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

قوله تعالى: ﴿لِّيَسۡـَٔلَ ٱلصَّٰدِقِينَ عَن صِدۡقِهِمۡۚ﴾ فيهِ أربعةُ أوجهٍ:

أحدها- ليسألَ الأنبياءَ عنْ تبليغهمُ الرّسالةَ إلى قومهمْ، وفي هذا تنبيهٌ، أيْ إذا كانَ الأنبياءُ يسألونَ فكيفَ منْ سواهمْ.

الثّاني- ليسألَ الأنبياءَ عمّا أجابهمْ بهِ قومهمْ.

الثّالثُ- ليسألَ الأنبياءَ عليهمُ السّلامُ عنِ الوفاءِ بالميثاقِ الّذي أخذهُ عليهمْ.

الرّابعُ- ليسألَ الأفواهَ الصّادقةَ عن القلوب المخلصة، وفي التنزيل: ﴿فَلَنَسۡـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرۡسِلَ إِلَيۡهِمۡ وَلَنَسۡـَٔلَنَّ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾، وقيلَ: فائدةُ سؤالهمْ توبيخُ الكفّارِ، كما قال تعالى: ﴿ءَأَنتَ قُلۡتَ لِلنَّاسِ﴾.

﴿وَأَعَدَّ لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابًا أَلِيمٗا ۝٨﴾ وهوَ عذابُ جهنّمَ.

قولهُ تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾﴾ يعني غزوةَ الخندقِ والأحزابِ وبني قريظةَ، وكانتْ حالاً شديدةً معقّبةً بنعمةٍ ورخاءٍ وغبطةٍ، وتضمّنتْ أحكاماً كثيرةً وآياتٍ باهراتٍ عزيزةً ونحنُ نذكرُ منْ ذلكَ بعونِ اللّهِ تعالى ما يكفي في عشرِ مسائلَ:

الأولى: اختلفَ في أيِّ سنةٍ كانتْ، فقالَ: ابنُ إسحاقَ: كانتْ في شوّالٍ منَ السّنةِ الخامسة، وقيلَ: كانت وقعة الخندق سنة أربع، وهيَ وبنو قريظةَ في يوم واحدٍ، وبينَ بني قريظةَ والنّضيرِ أربعُ سنينَ. ﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ﴾. جاءتْ قريشٌ منْ ها هنا واليهود من ها هنا والنجدية من ها هنا، فخرجتْ قريشٌ يقودهمْ أبو سفيانُ بنُ حربٍ، وخرجتْ غطفانُ وقائدهمْ عيينةُ بنُ حصنٍ الفزاريُّ على فزارةَ، والحارثُ بنُ عوفٍ المرّيُّ على بني مرّةَ، ومسعودُ بنُ رخيلةَ على أشجعَ. فلمّا سمعَ رسولَ اللّهِ ﷺ باجتماعهمْ وخروجهمْ شاورَ أصحابهُ، فأشارَ عليهِ سلمانُ بحفرِ الخندقِ فرضيَ رأيهُ. وقالَ المهاجرونَ يومئذٍ: سلمانُ منّا. وقالَ الأنصارُ: سلمانُ منّا! فقالَ: رسولُ اللّهِ ﷺ: «سلمانُ منّا أهلَ البيتِ».

وكانَ الخندقُ أوّلَ مشهدٍ شهدهُ سلمانُ معَ رسولِ اللّهِ ﷺ وهوَ يومئذٍ حرٌّ. فقالَ: يا رسولَ اللّهِ، إنّا كنّا بفارسَ إذا حوصرنا خنّدقنا، فعملَ المسلمونَ في الخندقِ مجتهدينَ، ونكصَ المنافقونَ وجعلوا يتسلّلونَ لواذاً فنزلتْ فيهمْ آياتٌ منَ القرآنِ ذكرها ابنُ إسحاقَ وغيرهُ. وكانَ منْ فرغَ منَ المسلمينَ منْ حصّتهِ عادَ إلى غيرهِ، حتّى كملَ الخندقُ. وكانتْ فيهِ آياتٌ بيّناتٌ وعلاماتٌ للنّبوّاتِ.

قلت: ففي هذا الّذي ذكرناهُ منْ هذا الخبرِ من الفقه وهي:-

الثانية: مشاورةُ السّلطانِ أصحابهُ وخاصّتهُ في أمرِ القتالِ، وفيهِ التّحصّنُ منَ العدوِّ بما أمكنَ منَ الأسبابِ واستعمالها، وفيهِ أنَّ حفرُ الخندقِ يكونُ مقسوماً على النّاسِ، فمنْ فرغَ منهمْ عاونَ منْ لمْ يفرغْ، فالمسلمونَ يدٌ على منْ سواهمْ، وفي البخاريِّ ومسلمٍ عنِ البراءِ بنِ عازبٍ قالَ: لمّا كانَ يومُ الأحزابِ وخنّدقَ رسولُ اللّهِ ﷺ رأيتهُ ينقل من تراب الخندق وارى عنّي الغبارُ جلدةَ بطنهِ، وكانَ كثيرَ الشّعرِ، فسمعتهُ يرتجزُ بكلماتِ ابنِ رواحةَ ويقولُ:

اللّهمَّ لولا أنتَ ما اهتدينا ولا تصدّقنا ولا صلّينا

فأنزلنْ سكينةً علينا وثبّتِ الأقدامَ إنْ لاقينا

وأمّا ما كانَ فيهِ منَ الآياتِ وهيَ:

الثالثة- فروى النّسائيُّ عنْ رجلٍ منْ أصحابِ رسولِ اللّهِ ﷺ قالَ: لمّا أمرَ رسولُ اللّهِ ﷺ بحفرِ الخندقِ عرضتْ لهمْ صخرةٌ حالتْ بينهمْ وبينَ الحفرِ، فقامَ رسولُ اللّهِ ﷺ وأخذَ المعولَ ووضعَ رداءهُ ناحيةَ الخندقِ وقالَ: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا﴾ الآيةَ، فندرَ ثلثُ الحجرِ وسلمانُ الفارسيُّ قائمٌ ينظرُ، فبرقَ معَ ضربةِ رسولِ اللّهِ ﷺ برقةً، ثمَّ ضربَ الثّانيةَ وقال: ﴿وَتَمَّتْ﴾ الآيةَ، فندرَ الثّلثُ الآخرُ، فبرقتْ برقةً فرآها سلمانُ، ثمَّ ضربَ الثالثة وقالَ: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا﴾ الآيةَ، فندرَ الثّلثُ الباقي، وخرجَ رسولُ اللّهِ ﷺ فأخذَ رداءهُ وجلسَ. قالَ سلمانُ: يا رسولَ اللّهِ، رأيتكَ حينَ ضربتَ! ما تضربُ ضربةً إلّا كانتْ معها برقةٌ؟ قالَ لهُ رسولُ اللّهِ ﷺ: «رأيتَ ذلكَ يا سلمانُ»؟ فقالَ: أيْ والّذي بعثكَ بالحقِّ يا رسولَ اللّهِ! قالَ: «فإنّي حينَ ضربتُ الضّربةَ الأولى رفعتْ لي مدائنُ كسرى وما حولها ومدائنُ كثيرةٌ حتّى رأيتها بعينيَّ- قالَ لهُ منْ حضرهُ منْ أصحابِهِ: يا رسول اللّهِ، ادعُ اللّهَ أنْ يفتحها علينا ويغنّمنا ذراريّهمْ ويخرّبَ بأيدينا بلادهمْ، فدعا رسولُ اللّهِ ﷺ- ثمَّ ضربتُ الضّربةَ الثّانيةَ فرفعتْ لي مدائنُ قيصرَ وما حولها حتّى رأيتها بعينيَّ- قالوا: يا رسولَ اللّهِ، ادعُ اللّهَ تعالى أنْ يفتحها علينا ويغنّمنا ذراريّهمْ ويخرّبَ بأيدينا بلادهمْ، فدعا رسولُ اللّهِ ﷺ- ثمَّ ضربتُ الضّربةَ الثالثة فرفعتْ لي مدائنُ الحبشةِ وما حولها منَ القرى حتّى رأيتها بعينيَّ- قالَ رسولُ اللّهِ ﷺ عندَ ذلكَ: دعوا الحبشةَ ما ودعوكمْ واتركوا التّركَ ما تركوكمْ».

الرابعة- فلمّا فرغَ رسولُ اللّهِ ﷺ منْ حفرِ الخندقِ أقبلتْ قريشٌ في نحوِ عشرةِ آلافٍ بمنْ معهمْ منْ كنانةَ وأهلِ تهامةَ، وأقبلتْ غطفانُ بمنْ معها منْ أهلِ نجدٍ حتّى نزلوا إلى جانبِ أحدٍ، وخرجَ رسولُ اللّهِ ﷺ والمسلمونَ حتّى نزلوا بظهرِ سلعٍ في ثلاثةِ آلافٍ وضربوا عسكرهمْ والخندقُ بينهمْ وبينَ المشركينَ، واستعملَ على المدينةِ ابنَ أمِّ مكتومٍ- في قولِ ابنِ شهابٍ- وخرجَ عدوُّ اللّهِ حييُّ بنُ أخطبَ النّضريُّ حتّى أتى كعبَ بنَ أسدٍ القرظيَّ، وكانَ صاحبَ عقدِ بني قريظةَ ورئيسهمْ، وكانَ قدْ وادعَ رسولَ الله ﷺ وعاقده وعاهدهُ، فلمّا

سمعَ كعبُ بنُ أسدٍ حييَّ بن أخطب أغلقَ دونهُ بابَ حصنهِ وأبى أنْ يفتحَ لهُ، فقالَ: لهُ: افتحْ لي يا أخي، فقالَ: لهُ: لا أفتحُ لكَ، فإنّكَ رجلٌ مشؤومٌ، تدعوني إلى خلافِ محمّدٍ وأنا قدْ عاقدتهُ وعاهدتهُ، ولمْ أرَ منهُ إلّا وفاءً وصدقًا، فلستُ بناقضٍ ما بيني وبينهُ. فقالَ: حييٌّ: افتحْ لي حتّى أكلّمكَ وأنصرفَ عنكَ، فقالَ: لا أفعلُ، فقالَ: إنّما تخافُ أنْ آكلَ معكَ جشيشتكَ، فغضبَ كعبٌ وفتحَ لهُ، فقالَ: يا كعبُ! إنّما جئتكَ بعزِّ الدّهرِ، جئتكَ بقريشٍ وسادتها، وغطفانَ وقادتها، قدْ تعاقدوا على أنْ يستأصلوا محمّداً ومنْ معهُ، فقالَ: لهُ كعبٌ: جئتني واللّهِ بذلِّ الدّهرِ وبجهامٍ لا غيثَ فيهِ! ويحكَ يا حييُّ؟ دعني فلستُ بفاعلٍ ما تدعوني إليهِ، فلمْ يزلْ حييٌّ بكعبٍ يعدهُ ويغرّهُ حتّى رجعَ إليهِ وعاقدهُ على خذلانِ محمّدٍ ﷺ وأصحابهِ وأنْ يسيرَ معهمْ، وقالَ لهُ حييُّ بنُ أخطبَ: إنِ انصرفتْ قريشٌ وغطفانُ دخلتُ عندكَ بمنْ معي منَ اليهودِ. فلمّا انتهى خبرُ كعبٍ وحييٍّ إلى النّبيِّ ﷺ بعثَ سعدَ بنَ عبادةَ وهوَ سيّدُ الخزرجِ، وسيّدَ الأوسِ سعدَ بنَ معاذٍ، وبعثَ معهما عبدَ اللّهِ بنَ رواحةَ وخوّاتَ بنَ جبيرٍ، وقالَ لهمْ رسولُ اللّهِ ﷺ: «انطلقوا إلى بني قريظةَ فإنْ كانَ ما قيلَ لنا حقًا فالحنوا لنا لحنًا ولا تفتّوا في أعضادِ النّاسِ. وإنْ كانَ كذبًا فاجهروا بهِ للنّاسِ» فانطلقوا حتّى أتوهمْ فوجدوهمْ على أخبثِ ما قيلَ لهمْ عنهمْ، ونالوا منْ رسولِ اللّهِ ﷺ وقالوا: لا عهدَ لهُ عندنا، فشاتمهمْ سعدُ بنُ معاذٍ وشاتموهُ، وكانتْ فيهِ حدّةٌ فقالَ: لهُ سعدُ بنُ عبادةَ: دعْ عنكَ مشاتمتهمْ، فالّذي بيننا وبينهمْ أكثرُ منْ ذلكَ، ثمَّ أقبلَ سعدٌ وسعدٌ حتّى أتيا رسولَ اللّهِ ﷺ في جماعةِ المسلمينَ فقالا: عضلٌ والقارةُ- يعرّضانِ بغدرِ عضلٍ والقارةِ بأصحابِ الرّجيعِ خبيبٍ وأصحابهِ- فقالَ: النّبيُّ ﷺ: «أبشروا يا معشرَ المسلمينَ» وعظمَ عندَ ذلكَ البلاءُ واشتدَّ الخوفُ، وأتى المسلمينَ عدوّهمْ منْ فوقهمْ، يعني منْ فوقِ الوادي منْ قبلِ المشرقِ، ومنْ أسفلَ منهمْ منْ بطنِ الوادي من قبل المغرب، حتى ظنوا بالله الظنونا، وأظهرَ المنافقونَ كثيراً ممّا كانوا يسرّونَ، فمنهمْ منْ قالَ: إنَّ بيوتنا عورةٌ، فلننصرفْ إليها، فإنّا نخافُ عليها، ومنهمْ منْ قالَ: يعدنا محمّدٌ أنْ يفتحَ كنوزَ كسرى وقيصرَ وأحدنا اليومَ لا يأمنُ على نفسهِ يذهبُ إلى الغائطِ! فأقامَ رسولُ اللّهِ ﷺ وأقامَ المشركونَ بضعًا وعشرينَ ليلةً قريبًا منْ شهرٍ لمْ يكنْ بينهمْ حربٌ إلّا الرّميَ بالنّبلِ والحصى. فلمّا رأى رسولَ اللّهِ ﷺ أنّهُ اشتدَّ على المسلمينَ البلاءُ بعثَ إلى عيينةَ بنِ حصنٍ الفزاريِّ، وإلى الحارثِ بنِ عوفٍ المرّيِّ، وهما

قائدا غطفانَ، فأعطاهما ثلثَ ثمارِ المدينةِ لينصرفا بمنْ معهما من غطفان ويخذلان قريشاً ويرجعا بقومهما عنهمْ. وكانتْ هذهِ المقالةُ مراوضةً ولمْ تكنْ عقداً، فلمّا رأى رسولَ اللّهِ ﷺ منهما أنّهما قدْ أنابا ورضيا أتى سعدَ بنَ معاذٍ وسعدَ بنَ عبادةَ فذكرَ ذلكَ لهما واستشارهما فقالا: يا رسولَ اللّهِ، هذا أمرٌ تحبّهُ فنصنعه لك، أو شيء أمركَ اللّهُ بهِ فنسمعُ لهُ ونطيعُ، أوْ أمرٌ تصنعهُ لنا؟ قالَ: «بلْ أمرٌ أصنعهُ لكمْ، واللّهِ ما أصنعهُ إلّا أنّي قدْ رأيتُ العربَ قدْ رمتكمْ عنْ قوسٍ واحدةٍ» فقالَ: لهُ سعدُ بنُ معاذٍ: يا رسولَ اللّهِ، واللّهِ لقدْ كنّا نحنُ وهؤلاءِ القومُ على الشّركِ باللّهِ وعبادةِ الأوثانِ، لا نعبدُ اللّهَ ولا نعرفهُ، وما طمعوا قطُّ أنْ ينالوا منّا ثمرةً إلّا شراءً أوْ قرى، فحينَ أكرمنا اللّهُ بالإسلام وهدانا لهُ وأعزّنا بكَ نعطيهمْ أموالنا! واللّهِ لا نعطيهمْ إلّا السّيفَ حتّى يحكمَ اللّهُ بيننا وبينهمْ!! فسرَّ رسولُ اللّهِ ﷺ بذلكَ، وقالَ: «أنتمْ وذاكَ». وقالَ لعيينةَ والحارثِ: «انصرفا فليسَ لكما عندنا إلّا السّيفُ». وتناولَ سعدٌ الصّحيفةَ وليسَ فيها شهادةٌ فمحاها.

الخامسة- فأقامَ رسولُ اللّهِ ﷺ والمسلمونَ على حالهمْ، والمشركونَ يحاصرونهمْ ولا قتالَ بينهمْ، إلّا أنَّ فوارسَ منْ قريشٍ منهمْ عمرو بنُ عبدِ ودٍّ العامريُّ منْ بني عامرِ بنِ لؤيٍّ، وعكرمةُ بنُ أبي جهلٍ، وهبيرةُ بنُ أبي وهبٍ، وضرارُ بنُ الخطّابِ الفهريُّ، وكانوا فرسانَ قريشٍ وشجعانهمْ، أقبلوا حتّى وقفوا على الخندقِ، فلمّا رأوهُ قالوا: إنَّ هذهِ لمكيدةٌ، ما كانتِ العربُ تكيدها. ثمَّ تيمّموا مكاناً ضيّقاً منَ الخندقِ، فضربوا خيلهمْ فاقتحمتْ بهمْ، وجاوزوا الخندقَ وصاروا بينَ الخندقِ وبينَ سلعٍ، وخرجَ عليُّ بنُ أبي طالبٍ في نفرٍ منَ المسلمينَ حتّى أخذوا عليهمُ الثّغرةَ الّتي اقتحموا منها، وأقبلتِ الفرسانُ نحوهمْ، وكان عمرو بن عبد ود قد أثبتتهُ الجراحُ يومَ بدرٍ فلمْ يشهدْ أحداً، وأرادَ يومَ الخندقِ أنْ يرى مكانهُ، فلمّا وقفَ هوَ وخيلهُ، نادى: منْ يبارزُ؟ فبرزَ لهُ عليُّ بنُ أبي طالبٍ وقالَ لهُ: يا عمرو، إنّكَ عاهدتَ اللّهَ فيما بلغنا أنّكَ لا تدعى إلى إحدى خلّتينِ إلّا أخذتَ إحداهما؟ قالَ نعمْ. قالَ: فإنّي أدعوكَ إلى اللّهِ والإسلام. قالَ: لا حاجةَ لي بذلكَ. قالَ: فأدعوكَ إلى البرازِ. قالَ: يا بنَ أخي، واللّهِ ما أحبُّ أنْ أقتلكَ لما كانَ بيني وبينَ أبيكَ. فقالَ: لهُ عليٌّ: أنا واللّهِ أحبُّ أنْ أقتلكَ. فحميَ عمرو بنُ عبدِ ودٍّ ونزلَ عنْ فرسهِ، فعقرهُ وصارَ نحوَ عليٍّ، فتنازلا وتجاولا وثارَ النّقعُ بينهما حتّى حالَ دونهما، فما انجلى النّقعُ حتّى رئيَ عليٌّ على صدرِ عمرو يقطعُ

رأسهُ، فلمّا رأى أصحابهُ أنّهُ قدْ قتلهُ عليٌّ اقتحموا بخيلهمُ الثّغرةَ منهزمينَ هاربينَ.

ورميَ يومئذٍ سعدُ بنُ معاذٍ بسهمٍ فقطعَ منهُ الأكحلَ.

ولحسّانَ معَ صفيّةَ بنتِ عبدِ المطّلبِ خبرٌ طريفٌ يومئذٍ، ذكرهُ ابنُ إسحاقَ وغيرهُ. قالتْ صفيّةُ بنتُ عبدِ المطّلبِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: كنّا يوم الأحزاب في حصن حسان ابن ثابتٍ، وحسّانُ معنا في النّساءِ والصّبيانِ، والنّبيُّ ﷺ وأصحابهُ في نحرِ العدوِّ لا يستطيعونَ الانصرافَ إلينا، فإذا يهوديٌّ يدورُ، فقلت لحسّانَ: انزلْ إليهِ فاقتلهُ، فقالَ: ما أنا بصاحب هذا يا ابنة عبدِ المطّلبِ! فأخذتُ عموداً ونزلتُ منَ الحصنِ فقتلتهُ، فقلت: يا حسّانُ، انزلْ فاسلبهُ، فلمْ يمنعني منْ سلبهُ إلّا أنّهُ رجلٌ. فقالَ: ما لي بسلبه حاجة يا بنة عبد المطلب! قال: فنزلتُ فسلبتهُ. قالَ أبو عمرَ بنُ عبدِ البرِّ: وقدْ أنكرَ هذا عنْ حسّانَ جماعةٌ منْ أهلِ السّيرِ وقالوا: لوْ كانَ في حسّانَ منَ الجبنِ ما وصفتمْ لهجاهُ بذلكَ الّذينَ كانَ يهاجيهمْ في الجاهليّةِ والإسلامِ، ولهجيَ بذلكَ ابنهُ عبدُ الرّحمنِ، فإنّهُ كانَ كثيراً ما يهاجي النّاسَ منْ شعراءِ العربِ.

السّادسةُ– وآتي رسولَ اللّهِ ﷺ نعيمُ بنُ مسعودٍ الأشجعيُّ فقالَ: يا رسولَ اللّهِ، إنّي قدْ أسلمتُ ولمْ يعلمْ قوميِّ بإسلامي، فمرني بما شئت، فقال له رسول اللّهِ ﷺ: «إنّما أنتَ رجلٌ واحدٌ منْ غطفانَ فلوْ خرجتَ فخذّلتَ عنّا إنِ استطعتَ كانَ أحبَّ إلينا منْ بقائكَ معنا فاخرجْ فإنَّ الحربَ خدعةٌ». فخرجَ نعيمُ بنُ مسعودٍ حتّى أتى بني قريظةَ– وكانَ ينادمهمْ في الجاهليّةِ– فقالَ: يا بني قريظةَ، قدْ عرفتمْ ودّي إيّاكمْ، وخاصّةَ ما بيني وبينكمْ، قالوا: قلْ فلستَ عندنا بمتّهمٍ، فقالَ: لهمْ: إنَّ قريشاً وغطفانَ ليسوا كأنتمْ، البلدُ بلدكمْ، فيهِ أموالكمْ وأبناؤكمْ ونساؤكمْ، وإنَّ قريشاً وغطفانَ قدْ جاءوا لحربِ محمّدٍ وأصحابهِ، وقدْ ظاهرتموهمْ عليهِ فإنْ رأوا نهزةً أصابوها، وإنْ كانَ غيرَ ذلكَ لحقوا ببلادهمْ وخلّوا بينكمْ وبينَ الرّجلِ، ولا طاقةَ لكمْ بهِ، فلا تقاتلوا معَ القومِ حتّى تأخذوا منهمْ رهناً. ثمَّ خرجَ حتّى أتى قريشاً فقالَ: لهمْ: قدْ عرفتمْ ودّي لكمْ معشرَ قريشٍ، وفراقي محمّداً، وقدْ بلغني أمرٌ أرى منَ الحقِّ أنْ أبلّغكموهُ نصحاً لكمْ، فاكتموا عليَّ، قالوا نفعلُ، قالَ: تعلمونَ أنَّ معشرَ يهودَ، قدْ ندموا على ما كانَ منْ خذلانهمْ محمّداً، وقدْ أرسلوا إليهِ: إنّا قدْ ندمنا على ما فعلنا، فهلْ يرضيكَ أنْ نأخذَ منْ قريشٍ وغطفانَ رجالاً منْ أشرافهمْ فنعطيكهمْ فتضربَ أعناقهمْ،

ثمَّ نكونُ معكَ على ما بقيَ منهمْ حتّى نستأصلهمْ. ثمَّ أتى غطفانَ فقالَ: مثلَ ذلكَ. فلمّا كانَ ليلةُ السّبتِ وكانَ ذلكَ منْ صنعِ اللّهِ عزَّ وجلَّ لرسولهِ والمؤمنينَ، أرسلَ أبو سفيانَ إلى بني قريظةَ عكرمةَ بنَ أبي جهلٍ في نفرٍ منْ قريشٍ وغطفانَ يقولُ لهمْ: إنّا لسنا بدارِ مقامٍ، قدْ هلكَ الخفُّ والحافرُ، فاغدوا صبيحةَ غدٍ للقتالِ حتّى نناجزَ محمّداً، فأرسلوا إليهمْ: إنَّ اليومَ يومُ السّبتِ، وقدْ علمتمْ ما نالَ منّا منْ تعدّى في السّبتِ، ومعَ ذلكَ فلا نقاتلُ معكمْ حتّى تعطونا رهنـًا، فلمّا رجعَ الرّسولُ بذلكَ قالوا: صدقنا والله نعيم بن مسعود، فردوا إليهمُ الرّسلَ وقالوا: واللّهِ لا نعطيكمْ رهنـًا أبداً فاخرجوا معنا إنْ شئتمْ وإلّا فلا عهدَ بيننا وبينكمْ. فقالَ: بنو قريظةَ: صدقَ واللّهِ نعيمُ بنُ مسعودٍ. وخذّلَ اللّهُ بينهمْ، واختلفتْ كلمتهمْ، وبعثَ اللّهُ عليهمْ ريحـًا عاصفـًا في ليالٍ شديدةِ البردِ، فجعلتِ الرّيحُ تقلبُ آنيتهمْ وتكفأُ قدورهمْ.

السابعة- فلمّا اتّصلَ برسولِ اللّهِ ﷺ اختلافُ أمرهمْ بعث حذيفة ابن اليمانِ ليأتيهُ بخبرهمْ، فأتاهمْ واستترَ في غمارهمْ، وسمعَ أبا سفيانَ يقولُ: يا معشرَ قريشٍ، ليتعرّفْ كلُّ امرئٍ جليسهُ. قالَ حذيفةُ: فأخذتُ بيدِ جليسي وقلت: منْ أنتَ؟ فقالَ: أنا فلانٌ. ثمَّ قالَ أبو سفيانَ: ويلكمْ يا معشرَ قريشٍ! إنّكمْ واللّهِ ما أصبحتمْ بدارِ مقامٍ، ولقدْ هلكَ الكراعُ والخفُّ وأخلفتنا بنو قريظةَ، ولقينا منْ هذهِ الرّيحِ ما ترونَ، ما يستمسكُ لنا بناءٌ، ولا تثبتُ لنا قدرٌ، ولا تقومُ لنا نارٌ، فارتحلوا فإنّي مرتحلٌ، ووثبَ على جملهِ فما حلَّ عقالَ يدهُ إلّا وهوَ قائمٌ. قالَ حذيفةُ: ولولا عهدِ رسولِ اللّهِ ﷺ لي إذْ بعثني، قالَ لي: «مرَّ إلى القوم فاعلمْ ما همْ عليهِ ولا تحدثْ شيئـًا» - لقتلتهُ بسهمٍ، ثمَّ أتيتُ رسولَ اللّهِ ﷺ عندَ رحيلهمْ، فوجدتهُ قائمـًا يصلّي في مرطٍ لبعضِ نسائهِ مراجلَ- قالَ ابنُ هشامٍ: المراجلُ ضربٌ منْ وشيِ اليمنِ- فأخبرتهُ فحمدَ اللّهَ.

قلت: وخبرُ حذيفةَ هذا مذكورٌ في صحيحِ مسلمٍ، وفيهِ آياتٌ عظيمةٌ، رواهُ جريرٌ عنِ الأعمشِ عنْ إبراهيمَ التّيميِّ عنْ أبيهِ قالَ: كنّا عندَ حذيفةَ فقالَ: رجلٌ لوْ أدركتُ رسولَ اللّهِ ﷺ قاتلتُ معهُ وأبليتُ. فقالَ: حذيفةُ: أنتَ كنتَ تفعلُ ذلكَ! لقدْ رأيتنا معَ رسولِ اللّهِ ﷺ ليلةَ الأحزابِ وأخذتنا ريحٌ شديدةٌ وقرٌّ. فقالَ: رسولُ اللّهِ ﷺ: «ألا رجلٌ يأتيني بخبرِ القومِ جعلهُ اللّهُ معي يومَ القيامةِ»؟ فسكتنا فلمْ يجبهُ منّا أحدٌ، ثمَّ قالَ: «ألا رجلٌ يأتينا بخبرِ القومِ

جعلهُ اللّهُ معي يومَ القيامةِ»؟ فسكتنا فلمْ يجبهُ أحدٌ. فقالَ: «قمْ يا حذيفةُ فأتنا بخبرِ القومِ» فلمْ أجدْ بداً إذْ دعاني باسمي أنْ أقومَ. قالَ: «اذهبْ فأتني بخبرِ القومِ ولا تذعرهمْ عليَّ» قالَ: فلمّا ولّيتُ من عنده جعلت كأنما أمشي في حمّام حتّى أتيتهمْ، فرأيتُ أبا سفيانَ يصلي ظهرهُ بالنّارِ، فوضعتُ سهماً في كبدِ القوسِ فأردتُ أنْ أرميهُ، فذكرتُ قولِ رسولِ اللّهِ ﷺ: «ولا تذعرهمْ عليَّ» ولوْ رميتهُ لأصبتهُ: فرجعتُ وأنا أمشي في مثلِ الحمّام، فلمّا أتيتهُ فأخبرتهُ بخبرِ القومِ وفرغتُ قُرِرتُ، فألبسني رسولُ اللّهِ ﷺ منْ فضل عباءةٍ كانتْ عليهِ يصلّي فيها، فلمْ أزلْ نائماً حتّى أصبحتُ، فلمّا أصبحتُ قالَ: «قمْ يا نومانُ». ولمّا أصبحَ رسولُ اللّهِ ﷺ وقدْ ذهبَ الأحزابُ، رجعَ إلى المدينةِ ووضعَ المسلمونَ سلاحهمْ، فأتاهُ جبريلُ عليه السلام في صورةِ دحيةَ بنِ خليفةَ الكلبيِّ، على بغلةٍ عليها قطيفةُ ديباج فقالَ: لهُ: يا محمّدُ، إنْ كنتمْ قدْ وضعتمْ سلاحكمْ فما وضعتِ الملائكةُ سلاحها. إنَّ اللّهَ يأمركَ أنْ تخرجَ إلى بني قريظةَ، وإنّي متقدّمٌ إليهمْ فمزلزلٌ بهمْ حصونهمْ. فأمرَ رسولُ اللّهِ ﷺ وهيَ:-

الثامنة- منادياً فنادى: لا يصلّينَّ أحدٌ العصرَ إلّا في بني قريظةَ، فتخوّفَ ناسٌ فوتَ الوقتِ فصلّوا دونَ بني قريظةَ. وقالَ آخرونَ: لا نصلّي العصرَ إلّا حيثُ أمرنا رسولُ اللّهِ ﷺ وإنْ فاتنا الوقتُ. قالَ: فما عنّفَ واحداً منَ الفريقينِ. وفي هذا منَ الفقهِ تصويبُ المجتهدينَ، وكانَ سعدُ بنُ معاذٍ إذْ أصابهُ السّهمُ دعا ربّهُ فقالَ: اللّهمَّ إنْ كنتَ أبقيتَ منْ حربِ قريشٍ فأبقني لها، فإنّهُ لا قومَ أُحبُّ أنْ أجاهدهمْ منْ قوم كذّبوا رسولكَ وأخرجوهُ. اللّهمَّ وإنْ كنتَ وضعتَ الحربَ بيننا وبينهمْ فاجعلها لي شهادةً، ولا تمتني حتّى تقرَّ عيني في بني قريظةَ.

التاسعةُ- ولمّا خرجَ المسلمونَ إلى بني قريظةَ أعطى رسولُ اللّهِ ﷺ الرّايةَ عليَّ بنَ أبي طالبٍ، واستخلفَ على المدينةِ ابنَ أمِّ مكتومٍ، ونزلَ رسولُ اللّهِ ﷺ فحاصرهمْ بضعاً وعشرينَ ليلةً. وعرضَ عليهمْ سيّدهمْ كعبٌ ثلاثَ خصالٍ ليختاروا أيّها شاءوا: إمّا أنْ يسلموا ويتّبعوا محمّداً على ما جاءَ بهِ فيسلموا. قالَ: وتحرزوا أموالكمْ ونساءكمْ وأبناءكمْ، فواللّهِ إنّكمْ لتعلمونَ أنّهُ الّذي تجدونهُ مكتوباً في كتابكمْ. وإمّا أنْ يقتلوا أبناءهمْ ونساءهمْ ثمَّ يتقدّموا، فيقاتلونَ حتّى يموتوا منْ آخرهمْ. وإمّا أنْ يبيّتوا المسلمينَ ليلةَ السّبتِ في حينِ طمأنينتهمْ فيقتلوهمْ قتلاً. فقالوا لهُ: أمّا الإسلامُ فلا نسلمُ ولا نخالفُ حكمَ التّوراةِ، وأمّا قتلُ

أبنائنا ونسائنا فما جزاؤهمُ المساكينِ منّا أنْ نقتلهمْ، ونحنُ لا نتعدّى في السّبتِ. ثمَّ بعثوا إلى أبي لبابةَ، وكانوا حلفاءَ بني عمرو بنِ عوفٍ وسائرِ الأوسِ، فأتاهمْ فجمعوا إليهِ أبناءهمْ ونساءهمْ ورجالهمْ وقالوا لهُ: يا أبا لبابةَ، أترى أنْ ننزلَ على حكمِ محمّدٍ؟ فقالَ: نعمْ، -وأشارَ بيدهِ إلى حلقهِ- إنّهُ الذّبحُ إنْ فعلتمْ. ثمَّ ندمَ أبو لبابةَ في الحينِ، وعلمَ أنّهُ خانَ اللّهَ ورسولهُ، وأنّهُ أمرٌ لا يسترهُ اللّهُ عليهِ عنْ نبيّهِ ﷺ فانطلقَ إلى المدينةِ ولمْ يرجعْ إلى النّبيِّ ﷺ فربطَ نفسهُ في ساريةٍ وأقسمَ ألّا يبرحَ منْ مكانهِ حتّى يتوبَ اللّهُ عليهِ فكانتِ امرأتهُ تحلّهُ لوقتِ كلِّ صلاةٍ. وفيهِ نزلتْ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَخُونُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓا۟ أَمَـٰنَـٰتِكُمْ﴾ الآيةَ. وأقسمَ ألّا يدخلَ أرضَ بني قريظةَ أبداً مكاناً أصابَ فيهِ الذّنبَ. فلمّا بلغَ ذلكَ النّبيِّ ﷺ منْ فعلَ أبي لبابةَ قالَ: «أما إنّهُ لوْ أتاني لاستغفرتُ لهُ وأمّا إذْ فعلَ ما فعلَ فلا أطلقهُ حتّى يطلقهُ اللّهُ تعالى» فأنزلَ اللّهُ تعالى في أمرِ أبي لبابةَ: ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ﴾ الآيةَ. فلمّا نزلَ فيهِ القرآنُ أمرَ رسولُ اللّهِ ﷺ بإطلاقهِ، فلمّا أصبحَ بنو قريظةَ نزلوا على حكمَ رسولُ اللّهِ ﷺ، فتواثبَ الأوسُ إلى رسولِ اللّهِ ﷺ وقالوا: يا رسولَ اللّهِ، وقدْ علمتَ أنّهمْ حلفاؤنا، وقدْ أسعفتَ عبدَ اللّهِ بنَ أبيٍّ ابنِ سلولَ في بني النّضيرِ حلفاءِ الخزرجِ، فلا يكنْ حظّنا أوكسَ وأنقصَ عندكَ منْ حظِّ غيرنا، فهمْ موالينا. فقالَ: لهمْ رسولُ اللّهِ ﷺ: «يا معشرَ الأوسِ ألا ترضونَ أنْ يحكمَ فيهمْ رجلٌ منكمْ- قالوا بلى. قالَ-: فذلكَ إلى سعدِ بنِ معاذٍ». وكانَ رسولُ اللّهِ ﷺ قدْ ضربَ لهُ خيمةً في المسجدِ، ليعودهُ منْ قريبٍ في مرضهِ منْ جرحهِ الّذي أصابهُ في الخندقِ. فحكمَ فيهمْ بأنْ تقتلَ المقاتلةُ، وتسبى الذّرّيّةُ والنّساءُ، وتقسّمَ أموالهمْ. فقالَ: لهُ رسولُ اللّهِ ﷺ: «لقدْ حكمتَ فيهمْ بحكمِ اللّهِ تعالى منْ فوقِ سبعِ أرقعةٍ».

وأمرَ رسولُ اللّهِ ﷺ فأخرجوا إلى موضعِ بسوقِ المدينةِ اليومَ- زمنَ ابنِ إسحاقَ- فخندقَ بها خنادقَ، ثمَّ أمرَ ﷺ فضربتْ أعناقهمْ في تلكَ الخنادقِ، وقتلَ يومئذٍ حييُّ بنُ أخطبَ وكعبُ بنُ أسدٍ، وكانا رأسَ القومِ، وكانوا منَ السّتّمائةِ إلى السّبعمائةِ. وكانَ على حييٍّ حلّةٌ فقّاحيّةٌ قدْ شقّقها عليهِ منْ كلِّ ناحيةٍ كموضعِ الأنملةِ، أنملةً أنملةً لئلّا يسلبها. فلمّا نظرَ إلى رسولِ الله ﷺ حينَ أتيَ بهِ ويداهُ مجموعتانِ إلى عنقهِ بحبلٍ قالَ: أما واللّهِ ما لمتُ نفسي في عداوتكَ، ولكنّهُ منْ يخذلُ اللّهُ يخذلُ ثمَّ قالَ: يا أيّها النّاسُ، لا بأسَ بأمرِ اللّهِ كتابٌ وقدرٌ وملحمةٌ كتبتْ على بني إسرائيلَ، ثمَّ جلسَ فضربتْ عنقهُ. وقتلَ منْ نسائهمُ امرأةٌ،

وهيَ بنانةُ امرأةُ الحكمِ القرظيِّ الّتي طرحتِ الرحى على خلادِ ابنِ سويدٍ فقتلتهُ. وأمرَ رسولُ اللّهِ ﷺ بقتلِ كلِّ منْ أنبتَ منهمْ وتركَ منْ لمْ ينبتْ. وكانَ عطيّةُ القرظيُّ ممّنْ لمْ ينبتْ، فاستحياهُ رسولُ اللّهِ ﷺ، وهوَ مذكورٌ في الصّحابةِ.

العاشرةُ- وقسّمَ ﷺ أموالَ بني قريظةَ فأسهمَ للفارسِ ثلاثةَ أسهمٍ وللرّاجلِ سهمًا. وقدْ قيلَ: للفارسِ سهمانِ وللرّاجلِ سهمٌ. وكانتِ الخيلُ للمسلمينَ يومئذٍ ستّةً وثلاثينَ فرسًا، فلمّا تمَّ أمرُ بني قريظةَ أجيبتْ دعوةُ الرّجلِ الفاضلِ الصّالحِ سعدِ بنِ معاذٍ، فانفجرَ جرحهُ، وانفتحَ عرقهُ، فجرى دمهُ وماتَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وهوَ الّذي أتى الحديثُ فيهِ: «اهتزَّ لموتهِ عرشُ الرّحمنِ».

ولمْ يستشهدْ يومَ الخندقِ منَ المسلمينَ إلّا أربعةٌ أوْ خمسةٌ.

قولهُ تعالى: ﴿إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ﴾ يعني الأحزابَ ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا﴾ هيَ الصّبا، أرسلتْ على الأحزابِ يومَ الخندقِ حتّى ألقتْ قدورهمْ ونزعتْ فساطيطهمْ. قالَ رسولُ اللّهِ ﷺ: «نصرتُ بالصّبا وأهلكتْ عادٌ بالدّبورِ». وكانتْ هذهِ الريح معجزة للنبي ﷺ، لأنَّ النّبيَّ ﷺ والمسلمينَ كانوا قريبًا منها، لمْ يكنْ بينهمْ وبينها إلّا عرضُ الخندقِ، وكانوا في عافيةٍ منها، ولا خبرَ عندهمْ بها ﴿وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾ والجنودُ الملائكةُ ولمْ تقاتلْ يومئذٍ، وقريء بالياءِ، أيْ لمْ يرها المشركونَ ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ١٠﴾ وقريء: «يَعْمَلُونَ» بالياءِ على الخبرِ، وهيَ قراءةُ أبي عمرو. الباقونَ بالتّاءِ، يعني منْ حفرِ الخندقِ والتحرز من العدو.

قوله تعالى: ﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ﴾ ﴿إِذْ﴾ في موضعِ نصبٍ بمعنى واذكرْ. وكذا ﴿وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ﴾. ﴿مِّن فَوْقِكُمْ﴾ يعني منْ فوقِ الوادي، وهوَ أعلاهُ منْ قبلِ المشرقِ، جاءَ منهُ أهل نجدٍ، وبنو أسدٍ. ﴿وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ﴾ يعني منْ بطنِ الوادي منْ قبلِ المغربِ، جاءَ منهُ أهل مكّةَ، وجاءَ يهودِ بني قريظةَ منْ وجهِ الخندقِ ﴿وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ أيْ شخصتْ. وقيلَ: مالتْ، فلم تلتفت إلا إلى عدوّها دهشًا منْ فرطِ الهولِ ﴿وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ﴾ أيْ زالتْ عنْ أماكنها منَ الصّدورِ حتّى بلغتِ الحناجرَ

وهيَ الحلاقيمُ، واحدها حنجرةٌ، فلولا أنَّ الحلوقَ ضاقتْ عنها لخرجتْ، وقيلَ: هوَ على معنى المبالغةِ على مذهب العرب على إضمار كاد، قال:

إذا ما غضبنا غضبةً مضريّةً هتكنا حجابَ الشّمسِ أوْ قطرتْ دما

أيْ كادتْ تقطرُ. وقيلَ: إنّهُ مثلٌ مضروبٌ في شدّةِ الخوفِ ببلوغِ القلوبِ الحناجرَ وإنْ لمْ تزلْ عنْ أماكنها معَ بقاءِ الحياة ﴿وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ١٠﴾ ظنَّ المنافقونَ أنَّ المسلمينَ يستأصلونَ، وظنَّ المؤمنونَ أنّهمْ ينصرونَ. وقيلَ: هوَ خطابٌ للمنافقينَ، أيْ قلتمْ هلكَ محمّدٌ وأصحابهُ.

واختلف القراء في قوله تعالى: ﴿ٱلظُّنُونَا۠﴾، و ﴿ٱلرَّسُولَا۠﴾، و ﴿ٱلسَّبِيلَا۠﴾ آخرُ السّورةِ، فأثبتَ ألفاتها في الوقفِ والوصلِ نافعٌ وابنُ عامرٍ تمسّكاً بخطِ المصحفِ، ولأنَّ العربَ تفعلُ ذلكَ في قوافي أشعارهمْ ومصاريعها، قالَ:

نحنُ جلبنا القرّحَ القوافلا تستنفرُ الأواخرُ الأوائلا

وقرأَ أبو عمرو ويعقوبُ وحمزةُ بحذفها في الوصلِ والوقفِ معاً. قالوا: هيَ زائدةٌ في الخطِّ كما زيدتِ الألفُ في قوله تعالى: ﴿وَلَأَوْضَعُواْ خِلَٰلَكُمْ﴾ فكتبوها "ولا أوضعوا"، وغيرِ هذا كقوله في النمل: "أو لا أذبحنه". وقرأَ ابنُ كثيرٍ والكسائيُّ بإثباتها في الوقفِ وحذفها في الوصلِ.

قولهُ تعالى: ﴿هُنَالِكَ ٱبْتُلِيَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُواْ زِلْزَالًا شَدِيدًا ١١﴾

«هنا» للقريبِ منَ المكانِ. وَ ﴿هُنَالِكَ﴾ للبعيدِ. وَ «هناكَ» للوسطِ. ويشارُ بهِ إلى الوقتِ، أيْ عندَ ذلكَ اختبرَ المؤمنونَ ليتبيّنَ المخلصُ منَ المنافقِ. وكانَ هذا الابتلاءُ بالخوفِ والقتالِ والجوعِ والحصرِ والنّزالِ ﴿وَزُلْزِلُواْ زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾ أيْ حرّكوا تحريكا.

وقراءةُ العامّةِ بكسرِ الزّاي. وقرأ عاصمٌ «زَلْزَالاً» بفتحِ الزّاي، أيْ حرّكوا بالخوفِ تحريكاً شديداً، وَ ﴿هُنَالِكَ﴾ يجوزُ أنْ يكونَ العاملُ فيهِ ﴿ٱبْتُلِيَ﴾ فلا يوقفُ على ﴿هُنَالِكَ﴾.

ويجوزُ أنْ يكونَ ﴿وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠﴾ فيوقف على ﴿هُنَالِكَ﴾.

قولهُ تعالى: ﴿وَإِذۡ يَقُولُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ أيْ شكٌّ ونفاقٌ ﴿مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورٗا ١٢﴾ أيْ باطلاً منَ القولِ، قالوا: كيفَ يعدنا كنوزَ كسرى وقيصرَ ولا يستطيعُ أحدنا أنْ يتبرّزَ؟ وإنّما قالوا ذلكَ لمّا فشا في أصحابِ النّبيِّ ﷺ منْ قولهِ عندَ ضربِ الصّخرةِ، على ما تقدّمَ في حديثِ النّسائيِّ، فأنزلَ اللّهُ تعالى هذه الآية.

قولهُ تعالى: ﴿وَإِذۡ قَالَت طَّآئِفَةٞ مِّنۡهُمۡ يَٰٓأَهۡلَ يَثۡرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمۡ فَٱرۡجِعُواْۚ﴾ الطّائفةُ تقعُ على الواحدِ فما فوقهُ. وعنيَ بهِ هنا أوسُ بنُ قيظيٍّ والدُّعرابةَ بنِ أوسٍ، الّذي يقولُ فيهِ الشّمّاخُ:

إذا ما رايةٌ رفعتْ لمجدٍ تلقّاها عرابةُ باليمينِ

وَ ﴿يَثۡرِبَ﴾ هيَ المدينةُ، وسمّاها رسولُ اللّهِ ﷺ طيبةَ وطابةَ «لَا مَقَامَ لَكُمْ» بفتحِ الميمِ قراءةُ العامّةِ. وقرأ حفصٌ: بضمِّ الميمِ، يكونُ مصدراً منْ أقامَ يقيمُ، أيْ لا إقامةَ، أوْ موضعاً يقيمونَ فيهِ. ومنْ فتحَ فهوَ اسمُ مكانٍ، أيْ لا موضعَ لكمْ تقيمونَ فيهِ. ﴿فَٱرۡجِعُواْۚ﴾ أيْ إلى منازلكمْ.

قولهُ تعالى: ﴿وَيَسۡتَـٔۡذِنُ فَرِيقٞ مِّنۡهُمُ ٱلنَّبِيَّ﴾ في الرّجوعِ إلى منازلهم بالمدينة ﴿يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوۡرَةٞ﴾ أيْ سائبةٌ ضائعةٌ ليستْ بحصينةٍ، وهيَ ممّا يلي العدوَّ. وقيلَ: ممكنةٌ للسّرّاقِ لخلوّها منَ الرّجالِ. ثم قال تعالى: ﴿وَمَا هِيَ بِعَوۡرَةٍۖ﴾ تكذيباً لهمْ ورداً عليهمْ فيما ذكروهُ ﴿إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارٗا ١٣﴾ منَ القتلِ. وقيلَ: منَ الدّينِ.

قولهُ تعالى: ﴿وَلَوۡ دُخِلَتۡ عَلَيۡهِم مِّنۡ أَقۡطَارِهَا﴾ وهيَ البيوتُ أوِ المدينةُ، أيْ منْ نواحيها وجوانبها، الواحدُ قطرٌ، وهوَ الجانبُ والنّاحيةُ ﴿ثُمَّ سُئِلُواْ ٱلۡفِتۡنَةَ لَأٓتَوۡهَا﴾ أيْ لجاءوها، هذا على قراءةِ نافعٍ وابنِ كثيرٍ بالقصرِ. وقرأ الباقونَ بالمدِّ، أيْ لأعطوها.

وفي ﴿ٱلۡفِتۡنَةَ﴾ هنا وجهانِ:

أحدهما- سئلوا القتالَ في العصبيّةِ لأسرعوا إليهِ.

الثّاني: ثمَّ سئلوا الشرك لأجابوا إليه مسرعين.

﴿وَمَا تَلَبَّثُواْ بِهَآ﴾ أيْ بالمدينةِ بعدَ إعطاءِ الكفرِ إلا قليلا حتى يهلكوا، وقالَ أكثرُ المفسّرينَ: أيْ وما احتبسوا عنْ فتنة الشّركِ إلّا قليلاً ولأجابوا بالشّركِ مسرعينَ، وذلكَ لضعفِ نيّاتهمْ ولفرطِ نفاقهمْ، فلو اختلطت بهم الأحزاب لأظهروا الكفر.

قولهُ تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَانُواْ عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ﴾ أيْ منْ قبلِ غزوةِ الخندقِ وبعدَ بدرٍ، وذلكَ أنّهمْ غابوا عنْ بدرٍ ورأوا ما أعطى اللّهُ أهلَ بدرٍ منَ الكرامةِ والنّصرِ، فقالوا لئنْ أشهدنا اللّهُ قتالاً لنقاتلنَّ ﴿وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا ١٥﴾ يسألهمْ عنهُ يومَ القيامةِ.

قولهُ تعالى: ﴿قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ﴾ أيْ منْ حضرَ أجلهُ ماتَ أوْ قتلَ، فلا ينفعُ الفرارُ ﴿وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ١٦﴾ أيْ في الدّنيا بعدَ الفرارِ إلى أنْ تنقضيَ آجالكمْ، وكلُّ ما هوَ آتٍ فقريبٌ.

قولهُ تعالى: ﴿قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أيْ يمنعكمْ منهُ ﴿إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا﴾ أيْ هلاكًا ﴿أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً﴾ أيْ خيراً ونصراً وعافيةً ﴿وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ١٧﴾ أيْ لا قريباً ينفعهمْ ولا ناصرا ينصرهم.

قولهُ تعالى: ﴿۞ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ﴾ أيِ المعترضينَ منكمْ لأنْ يصدّوا النّاسَ عنِ النّبيِّ ﷺ، وهوَ مشتقٌّ منْ عاقني عنْ كذا أيْ صرفني عنهُ. وعوّقَ، على التّكثيرِ ﴿وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا﴾ أي أقبلْ، وهؤلاءِ طائفتانِ، أيْ منكمْ منْ يثبّطُ ويعوّقُ ﴿وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ﴾ هم المنافقونَ يقولون لإخوانهم المنافقين، أو أنّهمُ اليهودُ منْ بني قريظةَ، قالوا لإخوانهمْ منَ المنافقينَ: هلمَّ إلينا، أيْ تعالوا إلينا وفارقوا محمّداً فإنّهُ هالكٌ ﴿وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ١٨﴾ خوفًا منَ الموتِ. وقيلَ: لا يحضرون القتال إلا رياء وسمعة.

قولهُ تعالى: ﴿أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ﴾ أيْ بخلاءَ عليكمْ، أيْ بالحفرِ في الخندقِ والنّفقةِ في سبيلِ اللّهِ، وقيلَ: بالقتالِ معكمْ وقيلَ: بالنفقة على فقرائكم ومساكينكم.

﴿فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ

﴿ٱلۡمَوۡتِۖ﴾ وصفهمْ بالجبنِ، وكذا سبيلُ الجبانِ ينظرُ يميناً وشمالاً محدّداً بصرهُ، وربّما غشيَ عليهِ. وفي ﴿ٱلۡخَوۡفُ﴾ وجهانِ:

أحدهما: منْ قتالِ العدوِّ إذا أقبلَ.

الثّاني: الخوفُ منَ النّبيِّ ﷺ إذا غلبَ.

﴿تَدُورُ أَعۡيُنُهُمۡ﴾ لشدّةِ خوفهمْ حذراً أنْ يأتيهمُ القتلُ منْ كلِّ جهةٍ ﴿فَإِذَا ذَهَبَ ٱلۡخَوۡفُ سَلَقُوكُم بِأَلۡسِنَةٍ حِدَادٍ﴾ وحكي: صلقوكم، وأصلُ الصّلقِ الصّوتُ، ومنهُ قولُ النّبيِّ ﷺ: «لعنَ اللّهُ الصالقة والحالقة والشاقة»، ومعناهُ بسطوا ألسنتهمْ فيكمْ في وقتِ قسمةِ الغنيمةِ، يقولونَ: أعطنا أعطنا، فإنّا قدْ شهدنا معكمْ. فعندَ الغنيمةِ أشحُّ قومٍ وأبسطهمْ لسانًا، ووقتَ البأسِ أجبنُ قومٍ وأخوفهمْ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَمۡ يُؤۡمِنُواْ﴾ يعني بقلوبهمْ وإنْ كانَ ظاهرهمُ الإيمانَ، والمنافقُ كافرٌ على الحقيقةِ لوصفِ اللّهِ عزَّ وجلَّ لهمْ بالكفرِ ﴿فَأَحۡبَطَ ٱللَّهُ أَعۡمَٰلَهُمۡۚ﴾ أيْ لمْ يثبهمْ عليها، إذا لمْ يقصدوا وجهَ اللّهِ تعالى بها ﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٗا ١٩﴾ يحتملُ وجهينِ:

أحدهما- وكانَ نفاقهمْ على اللّهِ هيّنًا.

الثّاني- وكانَ إحباطُ عملهمْ على الله هينا.

قولهُ تعالى: ﴿يَحۡسَبُونَ ٱلۡأَحۡزَابَ لَمۡ يَذۡهَبُواْۖ﴾ أيْ لجبنهمْ، يظنّونَ الأحزابَ لمْ ينصرفوا وكانوا انصرفوا ولكنّهمْ لمْ يتباعدوا في السّيرِ ﴿وَإِن يَأۡتِ ٱلۡأَحۡزَابُ﴾ إليهمْ للقتالِ ﴿يَوَدُّواْ لَوۡ أَنَّهُم بَادُونَ فِي ٱلۡأَعۡرَابِ﴾ تمنّوا أنْ يكونوا معَ الأعرابِ حذراً منَ القتلِ وتربّصًا للدّوائرِ. ﴿يَسۡـَٔلُونَ﴾ وقرأَ يعقوبُ في روايةِ رويسٍ «يَتَسَاءَلُونَ عَنْ أَنْبَائِكُمْ» أما هلكَ محمّدٌ وأصحابهُ! أما غلبَ أبو سفيانَ وأحزابهُ! أيْ يودّوا لوْ أنّهمْ بادونَ سائلونَ عنْ أنبائكمْ منْ غيرِ مشاهدةِ القتالِ لفرطِ جبنهمْ ﴿وَلَوۡ كَانُواْ فِيكُم مَّا قَٰتَلُوٓاْ إِلَّا قَلِيلٗا ٢٠﴾ أيْ رميًا بالنّبلِ والحجارةِ على طريقِ الرّياءِ والسّمعةِ، ولوْ كان ذلك لله لكان قليله كثيرا.

قولهُ تعالى: ﴿لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ لِّمَن كَانَ يَرۡجُواْ ٱللَّهَ وَٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا ٢١﴾، فيهِ مسألتانِ.

الأولى: قولهُ تعالى ﴿لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ﴾ عتابٌ للمتخلّفينَ عنِ القتالِ، أيْ كانَ لكمْ قدوةٌ في النّبيِّ ﷺ حيثُ بذلَ نفسهُ لنصرةِ دينِ اللّهِ وخرج إلى الخندقِ. والأسوةُ القدوةُ. وقرأ عاصمٌ «أُسْوَةٌ» بالضم. الباقونَ بالكسرِ، وهما لغتانِ، وجمعُهما واحدٌ.

الثانية- قولهُ تعالى: «أُسْوَةٌ» الأسوةُ القدوةُ. والأسوةُ ما يتأسّى بهِ، أيْ يتعزّى به. فيقتدى بهِ في جميعِ أفعالهِ ويتعزّى بهِ في جميعِ أحوالهِ، فلقدْ شجَّ وجههُ، وكسرتْ رباعيتهُ، وقتلَ عمّهُ حمزةُ، وجاعَ بطنهُ، ولمْ يلفَ إلّا صابراً محتسباً، وشاكراً راضياً. وعنْ أنسِ بن مالكٍ عنْ أبي طلحةَ قالَ: شكونا إلى رسولِ اللّهِ ﷺ الجوعَ ورفعنا عنْ بطوننا عنْ حجرٍ حجرٍ، فرفعَ رسولُ اللّهِ ﷺ عنْ حجرينِ. خرّجهُ أبو عيسى التّرمذيُّ وقالَ فيهِ: حديثٌ غريبٌ. وقالَ ﷺ لمّا شجَّ: «اللّهمَّ اغفرْ لقومي فإنّهمْ لا يعلمون» وقد تقدم.

﴿لِّمَن كَانَ يَرۡجُواْ ٱللَّهَ وَٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ﴾ يصدّقُ بالبعثِ الّذي فيهِ جزاءُ الأفعالِ. وقيلَ: أيْ لمنْ كانَ يرجو ثوابَ اللّهِ في اليومِ الآخرِ. ولا يجوزُ عندَ الحذّاقِ منَ النحويين أن يكتب "يرجو" إلّا بغيرِ ألفٍ إذا كانَ لواحدٍ، لأنَّ العلّةَ الّتي في الجمعِ ليستْ في الواحدِ.

﴿وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا ٢١﴾ خوفاً منْ عقابهِ ورجاءً لثوابهِ.

واختلفَ فيمنْ أريدَ بهذا الخطاب على قولين:

أحدهما- المنافقونَ، عطفاً على ما تقدّمَ منْ خطابهم.

الثاني- المؤمنون، لقوله: ﴿لِّمَن كَانَ يَرۡجُواْ ٱللَّهَ وَٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ﴾.

واختلفَ في هذهِ الأسوةِ بالرّسولِ ﷺ هلْ هيَ على الإيجابِ على قولين:

أحدهما- على الإيجابِ حتّى يقومَ دليلٌ على الاستحبابِ.

الثّاني- على الاستحبابِ حتّى يقومَ دليلٌ على الإيجابِ.

ويحتملُ أنْ يحملَ على الإيجابِ في أمورِ الدّينِ وعلى الاستحبابِ في أمورِ الدنيا.

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ﴾ يريد قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم﴾ الآية. فلما رأوا الأحزاب يوم الخندق قالوا: ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾.

﴿وَمَا زَادَهُمْ﴾ النّظرُ إلى الأحزاب ﴿إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾﴾.

قولهُ تعالى: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ﴾ رفعَ بالابتداءِ، وصلحَ الابتداءُ بالنّكرةِ لأنَّ ﴿صَدَقُوا۟﴾ في موضعِ النّعتِ ﴿فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ﴾ النّحبُ: النّذرُ والعهدُ، وروى البخاريُّ ومسلمٌ والتّرمذيُّ عنْ أنسٍ قالَ: قالَ عمّي أنسُ بنُ النّضرِ - سمّيتْ بهِ - ولمْ يشهدْ بدراً معَ رسولِ اللّهِ ﷺ فكبرَ عليهِ فقالَ: أوّلُ مشهدٍ شهدهُ رسولُ اللّهِ ﷺ غبتُ عنهُ، أما واللّهِ لئنْ أراني اللّهُ مشهداً معَ رسولِ اللّهِ ﷺ فيما بعدُ ليرينَّ اللّهُ ما أصنعُ. قالَ: فهابَ أنْ يقولَ غيرها، فشهدَ معَ رسولِ اللّهِ ﷺ يومَ أحدٍ منَ العامِ القابلِ، فاستقبلهُ سعدُ بنُ مالكٍ فقالَ: يا أبا عمرو أينَ؟ قالَ: واهاً لريحِ الجنّةِ! أجدها دونَ أحدٍ، فقاتلَ حتّى قتلَ، فوجدَ في جسدهِ بضعٌ وثمانونَ ما بينَ ضربةٍ وطعنةٍ ورميةٍ. فقالتْ عمّتي الرّبيّعُ بنتُ النّضرِ: فما عرفتُ أخي إلّا ببنانهِ. ونزلتْ هذهِ الآيةُ ﴿رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾﴾ لفظُ التّرمذيِّ،، وقالَ: هذا حديثٌ حسنٌ صحيحٌ.

وقالتْ عائشةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا في قولهِ تعالى: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ﴾ الآيةَ: منهمْ طلحةُ بنُ عبيدِ اللّهِ ثبتَ معَ رسولِ اللّهِ ﷺ حتّى أصيبتْ يدهُ، فقالَ: النّبيُّ ﷺ: «أوجبَ طلحةُ الجنّةَ».

وقيلَ: النّحبُ الموتُ، أيْ ماتَ على ما عاهدَ عليهِ.

﴿لِّيَجْزِىَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ﴾ أيْ أمرَ اللّهُ بالجهادِ ليجزيَ الصّادقينَ في الآخرةِ بصدقهمْ ﴿وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ في الآخرةِ ﴿إِن شَآءَ﴾ أيْ إنْ شاءَ أنْ يعذّبهمْ لمْ يوفّقهمْ للتّوبةِ، وإنْ لمْ يشأْ أنْ يعذبهم تاب عليهم قبل الموت ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٤﴾﴾.

قولهُ تعالى: ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا ۚ﴾ رجعَ أبو سفيانَ إلى تهامةَ، ورجعَ عيينةُ إلى نجدٍ ﴿وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ﴾ بأنْ أرسلَ عليهمْ ريحاً وجنوداً

حتّى رجعوا ورجعتْ بنو قريظةَ إلى صياصيهمْ، فكفيَ أمرُ قريظةَ- بالرّعبِ ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا﴾ أمرهُ ﴿عَزِيزًا ﴿٢٥﴾﴾ لا يغلب.

قولهُ تعالى: ﴿وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ﴾ يعني الّذينَ عاونوا الأحزابَ: قريشاً وغطفانَ وهمْ بنو قريظةَ. وقدْ مضى خبرهمْ ﴿مِن صَيَاصِيهِمْ﴾ أيْ حصونهمْ واحدها صيصةٌ. قالَ الشاعر:

فأصبحتِ الثّيرانُ صرعى وأصبحتْ　　نساءُ تميمٍ يبتدرنَ الصّياصيا

﴿وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ وهمُ الرّجالُ ﴿وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾﴾ وهمُ النّساءُ والذّرّيّةُ ﴿وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا﴾ بعدُ. وهيَ فارسُ والرّومُ وكلُّ أرضٍ تفتحُ إلى يومِ القيامةِ. ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ﴾ ممّا وعدكموهُ ﴿قَدِيرًا ﴿٢٧﴾﴾ لا تردُّ قدرتهُ ولا يجوزُ عليهِ العجزُ تعالى.

قولهُ تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾﴾، فيهِ ثماني مسائلَ:

الأولى: قولهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ﴾ روى البخاريُّ ومسلمٌ- واللّفظُ لمسلمٍ- عنْ جابرِ بنِ عبدِ اللّهِ قالَ: دخلَ أبو بكرٍ يستأذنُ رسولَ اللّهِ ﷺ، فوجدَ النّاسَ جلوساً ببابهِ لمْ يؤذنْ لأحدٍ منهمْ، قالَ: فأُذنَ لأبي بكرٍ فدخلَ، ثمَّ جاءَ عمرُ فاستأذنَ فأذنَ لهُ، فوجدَ النّبيَّ ﷺ جالساً حولهُ نساؤهُ واجماً ساكتاً. قالَ:- فقالَ: واللّهِ لأقولنَّ شيئاً أضحكُ رسولَ اللّهِ ﷺ، فقالَ: يا رسولَ اللّهِ، لوْ رأيتَ بنتَ خارجةَ سألتني النّفقةَ فقمتُ إليها فوجأتُ عنقها، فضحكَ رسولُ اللّهِ ﷺ وقالَ: «هنَّ حولي كما ترى يسألنني النّفقةَ» فقامَ أبو بكرٍ إلى عائشةَ يجأُ عنقها، وقامَ عمرُ إلى حفصةَ يجأُ عنقها، كلاهما يقولُ: تسألنَ رسولَ اللّهِ ﷺ ما ليسَ عندهُ!! فقلنَ: واللّهِ لا نسألُ رسولَ اللّهِ ﷺ شيئاً أبداً ليسَ عندهُ. ثمَّ اعتزلهنَّ شهراً أوْ تسعاً وعشرينَ. ثمَّ نزلتْ عليهِ هذهِ الآيةُ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ﴾- حتّى بلغَ- ﴿لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾﴾. قالَ: فبدأَ بعائشةَ فقالَ: «يا عائشةُ، إنّي

أريدُ أنْ أعرضَ عليكِ أمراً أحبُّ ألّا تعجلي فيهِ حتّى تستشيري أبويكِ» قالتْ: وما هوَ يا رسولَ اللّهِ؟ فتلا عليها الآيةَ. قالتْ: أفيكَ يا رسولَ اللّهِ أستشيرُ أبويَّ! بلْ أختارُ اللّهَ ورسولهُ والدّارَ الآخرةَ، وأسألكَ ألّا تخبرَ أمرأةً منْ نسائكَ بالّذي قلتُ. قالَ: «لا تسألني امرأةٌ منهنَّ إلّا أخبرتها، إنَّ اللّهَ لمْ يبعثني معنّتاً ولا متعنّتاً ولكنْ بعثني معلّماً ميسّراً».

الثانية- قولهُ تعالى: ﴿قُل لِّأَزْوَاجِكَ﴾ كانَ للنّبيِّ ﷺ أزواجٌ، منهنَّ منْ دخلَ بها، ومنهنَّ منْ عقدَ عليها ولمْ يدخلْ بها، ومنهنَّ منْ خطبها فلمْ يتمَّ نكاحهُ معها:

فأوّلهنَّ: خديجةُ بنتُ خويلدِ بنِ أسدِ بنِ عبدِ العزّى بنِ قصيِّ بنِ كلابٍ، ولمْ يتزوّجْ رسولُ اللّهِ ﷺ على خديجةَ غيرها حتّى ماتتْ. وكانتْ يومَ تزوّجها رسولُ اللّهِ ﷺ بنتَ أربعينَ سنةً، وتوفّيتْ بعدَ أنْ مضى منَ النّبوّةِ سبعُ سنينَ، وقيلَ: عشرٌ. أوْ كانَ لها حينَ توفّيتْ خمسٌ وستّونَ سنةً. وهيَ أوّلُ امرأةٍ آمنتْ بهِ. وجميعُ أولادهِ منها غيرَ إبراهيمَ.

ومنهنَّ: سودةُ بنتُ زمعةَ بنِ قيسِ بنِ عبدِ شمسٍ العامريّةُ، أسلمتْ قديماً وبايعتْ، وكانتْ عندَ ابنِ عمٍّ لها يقالُ لهُ السّكرانُ بنُ عمرو، وأسلمَ أيضاً، وهاجرا جميعاً إلى أرضِ الحبشةِ في الهجرةِ الثّانيةِ، فلمّا قدما مكّةَ ماتَ زوجها. وقيلَ: ماتَ بالحبشةِ، فلمّا حلّتْ خطبها رسولُ اللّهِ ﷺ، فتزوّجها ودخلَ بها بمكّةَ، وهاجرَ بها إلى المدينةِ، فلمّا كبرتْ أرادَ طلاقها فسألتهُ ألّا يفعلَ وأنْ يدعها في نسائهِ، وجعلتْ ليلتها لعائشةَ حسبما هوَ مذكورٌ في الصّحيحِ فأمسكها، وتوفّيتْ بالمدينةِ في شوّالَ سنةَ أربعٍ وخمسينَ.

ومنهنَّ: عائشةُ بنتُ أبي بكرٍ الصّدّيقِ، تزوّجها رسولِ اللّهِ ﷺ بمكّةَ قبلَ الهجرةِ بسنتينِ، وبنى بها بالمدينةِ وهيَ بنتُ تسعٍ، وبقيتْ عندهُ تسعَ سنينَ، وماتَ رسولِ اللّهِ ﷺ وهيَ بنت ثمانِ عشرةَ، ولمْ يتزوّجْ بكراً غيرها، وماتتْ سنةَ تسعٍ وخمسينَ.

ومنهنَّ: حفصةُ بنتُ عمرَ بنِ الخطّابِ القرشيّةُ العدويّةُ، تزوّجها رسولِ اللّهِ ﷺ ثمَّ طلّقها، فأتاهُ جبريلُ فقالَ: «إنَّ اللّهَ يأمركَ أنْ تراجعَ حفصةَ فإنّها صوّامةٌ قوّامةٌ» فراجعها. قالَ الواقديُّ: وتوفّيتْ في شعبانَ سنةَ خمسٍ وأربعينَ في خلافةِ معاويةَ، وهيَ ابنةُ ستّينَ سنةً.

ومنهنَّ: أمُّ سلمةَ هندُ بنتُ أبي أميّةَ المخزوميّةُ واسمُ أبي أميّةَ سهيلٌ تزوّجها رسول الله

ﷺ في ليالٍ بقينَ منْ شوّالَ سنةَ أربعٍ، زوّجها منهُ ابنها سلمةُ على الصّحيح، وكانَ عمرُ ابنها صغيراً، وتوفّيتْ في سنةِ تسعٍ وخمسينَ، وصلّى عليها سعيدُ بنُ زيدٍ. وقيلَ أبو هريرةَ. وقبرتْ بالبقيعِ وهيَ ابنةُ أربعٍ وثمانينَ سنةً.

ومنهنَّ: أمُّ حبيبةَ رملةُ بنتُ أبي سفيانَ. بعثَ رسولُ اللّهِ ﷺ عمرو بن أمية الضميري إلى النّجاشيِّ، ليخطبَ عليهِ أمَّ حبيبةَ فزوّجهُ إيّاها، وذلكَ سنةَ سبعٍ منَ الهجرةِ، وأصدقَ النّجاشيُّ عنْ رسولِ اللّهِ ﷺ أربعمائةِ دينارٍ، وبعثَ بها معَ شرحبيلَ بنِ حسنةَ، وتوفّيتْ سنةَ أربعٍ وأربعينَ، وكانتْ أمُّ حبيبةَ تحتَ عبيدِ اللّهِ بنِ جحشٍ فماتَ بأرضِ الحبشةِ على النّصرانيّةِ.

ومنهنَّ: زينبُ بنتُ جحشِ بنِ رئابِ الأسديّةُ، تزوجها رسولُ اللّهِ ﷺ بالمدينةِ في سنةِ خمسٍ منَ الهجرةِ، وتوفّيتْ سنةَ عشرينَ، وهيَ بنتُ ثلاثٍ وخمسينَ.

ومنهنَّ: زينبُ بنت خذيمة بنِ الحارثِ الهلاليّةُ، كانتْ تسمّى في الجاهليّةِ أمَّ المساكينِ، لإطعامها إيّاهمْ. تزوّجها رسولُ اللّهِ ﷺ في رمضانَ على رأسِ واحدٍ وثلاثينَ شهراً منَ الهجرةِ، فمكثتْ عندهُ ثمانيةَ أشهرٍ، وتوفّيتْ في حياتهِ في آخرِ ربيعِ الأوّلِ على رأسِ تسعةٍ وثلاثينَ شهراً، ودفنتْ بالبقيعِ.

ومنهنَّ: جويريةُ بنتُ الحارثِ بنِ أبي ضرارٍ الخزاعيّةُ المصطلقيّةُ، أصابها في غزوةِ بني المصطلقِ فوقعتْ في سهمِ ثابتِ بنِ قيسِ بنِ شمّاسٍ فكاتبها، فقضى رسولُ اللّهِ ﷺ كتابتها وتزوّجها، وذلكَ في شعبانَ سنةَ ستٍّ، وتوفّيتْ في ربيعِ الأوّلِ سنةَ خمسينَ وهيَ ابنةُ خمسٍ وستّينَ.

ومنهنَّ: صفيّةُ بنتُ حييِّ بنِ أخطبَ الهارونيّةُ، سباها النّبيُّ ﷺ يومَ خيبرَ واصطفاها لنفسهِ، وأسلمتْ وأعتقها، وجعلَ عتقها صداقها. وفي الصّحيحِ: أنّها وقعتْ في سهمِ دحيةَ الكلبيِّ فاشتراها رسولُ اللّهِ ﷺ بسبعةِ أرؤسٍ، وماتت في سنة خمسين ودفنتْ بالبقيعِ.

ومنهنَّ: ريحانةُ بنتُ زيدِ بنِ عمرو بنِ خنافةَ منْ بني النّضيرِ، سباها رسولُ اللّهِ ﷺ وأعتقها، وتزوّجها في سنةِ ستٍّ، وماتتْ مرجعهُ منْ حجّةِ الوداعِ، فدفنها بالبقيعِ. وقالَ

الواقديُّ: ماتتْ سنةَ ستَّ عشرةَ وصلّى عليها عمرُ. قالَ أبو الفرجِ الجوزيُّ: وقدْ سمعتُ منْ يقولُ: إنّهُ كانَ يطؤها بملكِ اليمينِ ولمْ يعتقها. قلت: ولهذا واللّهُ أعلمُ لمْ يذكرها أبو القاسمِ عبدُ الرّحمنِ السّهيليُّ في عدادِ أزواجِ النّبيِّ ﷺ.

ومنهنَّ: ميمونةُ بنتُ الحارثِ الهلاليّةُ، تزوّجها رسولُ اللّهِ ﷺ بسرفَ على عشرةِ أميالٍ منْ مكّةَ، وذلكَ في سنةِ سبعٍ منَ الهجرةِ في عمرةِ القضيّةِ، وهيَ آخرُ امرأةٍ تزوّجها رسولُ اللّهِ ﷺ، وقدّرَ اللّهُ تعالى أنّها ماتتْ في المكانِ الّذي بنى فيهِ رسولُ اللّهِ ﷺ بها، ودفنتْ هنالكَ، وذلكَ في سنةِ إحدى وستّينَ.

فهؤلاءِ المشهوراتُ منْ أزواجِ النّبيِّ ﷺ، وهنَّ اللّاتي دخلَ بهنَّ، فأمّا من لمْ يدخلْ بهنَّ:

فمنهنَّ: فاطمةَ بنتَ الضّحّاكِ الكلابيّةَ فاستعاذتْ منهُ فطلّقها، وكانتْ تقولُ: أنا الشّقيّةُ. تزوّجها في ذي القعدةِ سنةَ ثمانٍ منَ الهجرةِ، وتوفّيتْ سنةَ ستّينَ.

ومنهنَّ: أسماءُ بنتُ النّعمانِ بنِ الجونِ بنِ الحارثِ الكنديّةُ، وهيَ الجونيّةُ. وفي البخاريِّ قالَ أبو أسيدٍ: أتى رسولَ اللّهِ ﷺ بالجونيّةِ، فلمّا دخلَ عليها قالَ: «هبي لي نفسكِ» فقالتْ: وهلْ تهبُ الملكةُ نفسها للسّوقةِ! فأهوى بيدهِ ليضعها عليها لتسكنَ، فقالتْ: أعوذُ باللّهِ منكَ! فقالَ: «قدْ عذتِ بمعاذٍ» ثمَّ خرجَ علينا فقالَ: «يا أبا أسيدٍ، اكسها رازقيّينِ وألحقها بأهلها».

ومنهنَّ: أمُّ شريكٍ الأزديّةُ، واسمها غزيّةُ بنتُ جابرِ بنِ حكيمٍ، وكانت قبله عند أبي بكر ابن أبي سلمى، فطلّقها النّبيُّ ﷺ ولمْ يدخلْ بها. وهيَ الّتي وهبتْ نفسها. وقيلَ: إنَّ الّتي وهبتْ نفسها للنّبيِّ ﷺ خولةُ بنتُ حكيمٍ.

ومنهنَّ: الغفاريّةُ. قالَ بعضهمْ: تزوّجَ امرأةً منْ غفارٍ، فأمرها فنزعتْ ثيابها فرأى بياضًا فقالَ: «الحقي بأهلكِ» ويقالُ: إنّما رأى البياضَ بالكلابيّةِ. فهؤلاءِ اللّاتي، عقدَ عليهنَّ ولمْ يدخلْ بهنَّ، ﷺ.

فأمّا منْ خطبهنَّ فلمْ يتمَّ نكاحهُ معهنَّ، ومنْ وهبتْ لهُ نفسها: فمنهنَّ: أمُّ هانئٍ بنتُ أبي طالبٍ، واسمها فاختةُ. خطبها النّبيُّ ﷺ فقالتْ: إنّي امرأة مصبية واعتذرت إليه فعذرها.

وكانَ لهُ منَ السّراري سرّيّتانِ: ماريةُ القبطيّةُ، وريحانةُ، في قولِ قتادةَ. وقالَ غيرهُ: كانَ لهُ أربعٌ: ماريةُ، وريحانةُ، وأخرى جميلةٌ أصابها في السّبيِ، وجارية وهبتها له زينب بنت جحش.

الثالثة- قوله تعالى: ﴿إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا﴾ ﴿إِن﴾ شرطٌ، وجوابهُ ﴿فَتَعَالَيْنَ﴾، فعلّقَ التّخييرَ على شرطٍ. وهذا يدلُّ على أنَّ التّخييرَ والطّلاقَ المعلّقينِ على شرطٍ صحيحانِ، فينفذانِ ويمضيانِ، خلافًا للجهّالِ المبتدعةِ الّذينَ يزعمونَ أنَّ الرّجلَ إذا قالَ لزوجتهِ: أنتِ طالقٌ إنْ دخلتِ الدّارَ، أنّهُ لا يقعُ الطّلاقُ إنْ دخلتِ الدّارَ، لأنَّ الطّلاقَ الشّرعيَّ هوَ المنجّزُ في الحالِ لا غير.

الرابعة- قوله تعالى: ﴿فَتَعَالَيْنَ﴾ هوَ جوابُ الشّرطِ، وهوَ فعلُ جماعةِ النساء، من قولك تعال، بمعنى أقبلْ ﴿أُمَتِّعْكُنَّ﴾ قدْ تقدّمَ الكلامُ في المتعة في «البقرة».

وقرئ: ﴿ أُمَتِّعُكُنَّ﴾ بضم العين ﴿وَأُسَرِّحُكُنَّ﴾ بضمِّ الحاءِ على الاستئنافِ. والسّراحُ الجميلُ: هوَ أنْ يكونَ طلاقًا للسّنّةِ منْ غيرِ ضرارٍ ولا منع واجبٍ لها.

الخامسة- اختلفَ العلماءُ في كيفيّةِ تخييرِ النّبيِّ ﷺ أزواجهُ على قولين:

الأوّلُ- أنّهُ خيّرهنَّ بإذنِ اللّهِ تعالى في البقاءِ على الزّوجيّةِ أوِ الطّلاقِ، فاخترنَ البقاءَ،

ومنهن منْ قالَ: إنّما خيّرهنَّ بينَ الدّنيا فيفارقهنَّ، وبينَ الآخرةِ فيمسكهنَّ، لتكونَ لهنَّ المنزلةُ العليا كما كانتْ لزوجهنَّ، ولمْ يخيّرهنَّ في الطّلاقِ.

قلت: القولُ الأوّلُ أصحُّ، لقولِ عائشةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا لمّا سئلتْ عنِ الرّجلِ يخيّرُ امرأتهُ فقالتْ: قدْ خيّرنا رسولُ اللّهِ ﷺ أفكانَ طلاقًا! في روايةٍ: فاخترناهُ فلمْ يعدّهُ طلاقًا ولمْ يثبتْ عنْ رسولِ اللّهِ ﷺ إلّا التّخييرُ المأمورُ بينَ البقاءِ والطّلاقِ، لذلكَ قالَ: «يا عائشةُ إنّي ذاكرٌ لكِ أمراً فلا عليكِ ألا تعجلي فيه حتى تستأمري أبويكِ» الحديثَ. ومعلومٌ أنّهُ لمْ يردِ الاستئمارَ في اختيارِ الدّنيا وزينتها على الآخرةِ. فثبتَ أنَّ الاستئمارَ إنّما وقعَ في الفرقةِ، أوِ النكاح.

السادسة- اختلف العلماءُ في المخيّرةِ إذا اختارتْ زوجها، فقالَ: جمهورُ العلماءِ منَ السّلفِ وغيرهمْ وأئمّةُ الفتوى: إنّهُ لا يلزمهُ طلاقٌ، لا واحدةَ ولا أكثرَ، ورويَ عنْ عليٍّ

وزيدٍ: إنِ اختارتْ زوجها فواحدةٌ بائنةٌ، وهوَ قولُ اللّيثِ، وحكاهُ الخطّابيُّ عنْ مالكٍ. وتعلّقوا بأنَّ قولهُ: اختاري، كنايةٌ عنْ إيقاعِ الطّلاقِ، فإذا أضافهُ إليها وقعتْ طلقةً، كقولِهِ: أنتِ بائنٌ. والصّحيحُ الأوّلُ، لقولِ عائشةَ: خيّرنا رسولُ اللّهِ ﷺ فاخترناهُ فلمْ يعدّهُ علينا طلاقًا. أخرجهُ الصّحيحانِ.

قالَ ابنُ المنذرِ: وحديثُ عائشةَ يدل على أنَّ المخيّرةَ إذا اختارتْ زوجها لمْ يكنْ ذلكَ طلاقًا، ويدلُّ على أنَّ اختيارها نفسها يوجبُ الطّلاقَ، ويدلُّ على معنى ثالثٍ، وهوَ أنَّ المخيّرةَ إذا اختارتْ نفسها أنّها تطليقةٌ يملكُ زوجها رجعتها، إذْ غيرُ جائزٍ أنْ يطلّقَ رسولُ اللّهِ ﷺ بخلافِ ما أمرهُ اللّهُ، وبهِ قالَ الشّافعيُّ، وقال أبو حنيفةَ وأصحابه إذا اختارتْ نفسها فواحدةٌ بائنةٌ وهو رواية عن مالك، ومذهبه أنّها ثلاثٌ؛ لأنَّ الملكَ إنّما يكونُ بذلكَ.

السابعة- ذهبَ أكثرُ الفقهاءِ إلى أنَّ التّمليكَ والتّخييرَ سواءٌ، والقضاءَ ما قضتْ فيهما جميعًا، والمشهورُ منْ مذهبِ مالكٍ الفرقُ بينهما، وذلك أن التمليك عند مالك هو قولُ الرّجلِ لامرأتهِ: قدْ ملّكتكِ، أيْ قدْ ملّكتكِ ما جعلَ اللّهُ لي منَ الطّلاقِ واحدةً أوِ اثنتينِ أوْ ثلاثًا، فلمّا جازَ أنْ يملّكها بعضَ ذلكَ دونَ بعضٍ وادّعى ذلكَ، كانَ القولُ قولهَ معَ يمينهِ إذا ناكرها، وتحصيلُ مذهبِ مالكٍ: أنَّ المخيّرةَ إذا اختارتْ نفسها وهيَ مدخولٌ بها فهوَ الطّلاقُ كلّهُ، وإنْ أنكرَ زوجها فلا نكرةَ لهُ. وإنِ اختارتْ واحدةً فليسَ بشيءٍ، وإنّما الخيارُ البتاتُ، إمّا أخذتهُ وإمّا تركتهُ، لأنَّ معنى التّخييرِ التّسريحُ، قالَ اللّهُ تعالى في آيةِ التّخييرِ: ﴿فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾ فمعنى التّسريحِ البتاتُ، قالَ اللّهِ تعالى: ﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِۖ فَإِمۡسَاكُۢ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ تَسۡرِيحُۢ بِإِحۡسَٰنٖۗ﴾. والتّسريحُ بإحسانٍ هوَ الطّلقةُ الثالثة، ومنْ جهةِ المعنى أنَّ قولهُ: اختاريني أوِ اختاري نفسكِ يقتضي ألّا يكونَ لهُ عليها سبيلٌ إذا اختارتْ نفسها، ولا يملكُ منها شيئًا، إذْ قدْ جعلَ إليها أنْ تخرجَ ما يملكهُ منها أوْ تقيمَ معهُ إذا اختارتهُ، فإذا اختارتِ البعضَ منَ الطّلاقِ لم تعمل بمقتضى اللفظ، وكانت به بمنزل منْ خيّرَ بينَ شيئينِ فاختارَ غيرهما. وأمّا الّتي لمْ يدخلْ بها فلهُ مناكرتها في التّخييرِ والتّمليكِ إذا زادتْ على واحدةٍ، لأنّها تبين في الحال.

الثامنة- اختلف متى يكونُ لها الخيارُ، فقيل: لها الخيارُ ما دامتْ في المجلسِ قبلَ القيامِ

أوِ الاشتغالِ بما يدلُّ على الإعراضِ. فإنْ لمْ تخترْ ولمْ تقضِ شيئاً حتّى افترقا منْ مجلسهما بطلَ ما كانَ منْ ذلكَ إليها، وعلى هذا أكثرُ الفقهاءِ. وعن مالك: لها الخيارُ أبداً ما لمْ يعلمْ أنّها تركتْ، وذلكَ يعلمُ بأنْ تمكنه من نفسها بوطي أوْ مباشرةٍ، فعلى هذا إنْ منعتْ نفسها ولم تختر شيئا كان له رفعها إلى الحاكمِ لتوقعَ أوْ تسقطَ، فإنْ أبتْ أسقطَ الحاكمُ تمليكها.

وعلى القولِ الأوّلِ إذا أخذتْ في غيرِ ذلكَ منْ حديثٍ أوْ عملٍ أوْ مشيٍ أوْ ما ليسَ في التّخييرِ بشيءٍ كما ذكرنا سقطَ تخييرها. واحتجَّ بعضُ أصحابنا لهذا القولِ بقولِهِ تعالى: ﴿فَلَا تَقْعُدُواْ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ﴾. وأيضاً فإنَّ الزّوجَ أطلقَ لها القولَ ليعرفَ الخيارَ منها، فصارَ كالعقدِ بينهما، فإنْ قبلتهُ وإلّا سقطَ، كالّذي يقولُ: قدْ وهبتُ لكَ أوْ بايعتكَ، فإنْ قبلَ وإلّا كانَ الملكُ باقياً بحالهِ.

ووجهُ الرّوايةِ الثّانيةِ أنَّ ذلكَ قدْ صار في يدها وملكته على زوجها بتمليكهِ إيّاها فلمّا ملكتْ ذلكَ وجبَ أنْ يبقى في يدها كبقائهِ في يدِ زوجها.

قلت: وهذا هوَ الصّحيحُ لقولهِ ﷺ لعائشةَ: «إنّي ذاكرٌ لكِ أمراً فلا عليكِ ألّا تستعجلي حتّى تستأمري أبويكِ» خرّجهُ البخاريُّ، فجعلَ لها التّخييرَ إلى أنْ تستأمرَ أبويها، ولمْ يجعلْ قيامها منْ مجلسها خروجاً منَ الأمرِ.

قولهُ تعالى: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِىِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ﴾ فيهِ ثلاثُ مسائلَ:

الأولى: قالَ العلماءُ: لمّا اختارَ نساءُ النّبيِّ ﷺ رسولَ اللّهِ ﷺ شكرهنَّ اللّهُ على ذلكَ فقالَ: تكرمةً لهنَّ: ﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَٰجٍ﴾ الآيةَ. وبيّنَ حكمهنَّ عنْ غيرهنَّ فقالَ: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُواْ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓاْ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا﴾. وجعلَ ثوابَ طاعتهنَّ وعقابَ معصيتهنَّ أكثرَ ممّا لغيرهنَّ فقالَ: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِىِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ﴾ لشرفِ منزلتهنَّ وفضلِ درجتهنَّ، وتقدّمهنَّ على سائرِ النّساءِ أجمعَ. وكذلكَ بيّنتِ الشّريعةُ في غيرِ ما موضعٍ حسبما تقدّمَ بيانهُ غيرَ مرّةٍ- أنّهُ كلّما تضاعفتِ الحرماتُ فهتكتْ تضاعفتِ العقوباتُ، ولذلكَ ضوعفَ حدُّ الحرِّ على العبدِ والثيب على البكر.

وقيلَ: لما كان أزواج النّبيِّ ﷺ في مهبطِ الوحيِ وفي منزلِ أوامرِ اللّهِ ونواهيهِ، قويَ الأمرُ عليهنَّ ولزمهنَّ بسببِ مكانتهنَّ أكثرَ ممّا يلزمُ غيرهنَّ، فضوعفَ لهنَّ الأجرُ والعذابُ. وقيلَ، إنّما ذلكَ لعظمِ الضّررِ في جرائمهنَّ بإيذاءِ رسولِ اللّهِ ﷺ، فكانتِ العقوبةُ على قدرِ عظمِ الجريمةِ في إيذاءِ رسولِ اللّهِ ﷺ، وقالَ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ﴾.

الثانية- قالَ قومٌ: لوْ قدّرَ الزّنى منْ واحدةٍ منهنَّ- وقدْ أعاذهنَّ اللّهُ منْ ذلكَ- لكانتْ تحدُّ حدّينِ لعظمِ قدرها، كما يزادُ حدُّ الحرّةِ على الأمةِ. والعذابُ بمعنى الحدِّ، قالَ اللّهُ تعالى: ﴿وَلۡيَشۡهَدۡ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٞ مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾. وعلى هذا فمعنى الضّعفينِ معنى المثلينِ أوِ المرّتينِ. وقيلَ: ضعفُ الشّيءِ شيئانِ حتّى يكونَ ثلاثةً، فيضافُ إليهِ عذابانِ مثلهُ فيكونُ ثلاثةَ أعذبةٍ. وضعّفهُ الطّبريُّ. وكذلكَ هوَ غيرُ صحيحٍ وإنْ كانَ لهُ باللّفظِ تعلّقُ الاحتمالِ. وكونُ الأجرِ مرّتينِ ممّا يفسدُ هذا القولَ، لأنَّ العذابَ في الفاحشةِ بإزاءِ الأجرِ في الطاعة.

ويدلُّ على هذا ﴿نُّؤۡتِهَآ أَجۡرَهَا مَرَّتَيۡنِ﴾ ولا يكونُ العذابُ أكثرَ منَ الأجرِ. وقالَ في موضعٍ آخرَ ﴿ءَاتِهِمۡ ضِعۡفَيۡنِ مِنَ ٱلۡعَذَابِ﴾ أيْ مثلينِ.

وروى معمرٌ عنْ قتادةَ ﴿يُضَٰعَفۡ لَهَا ٱلۡعَذَابُ ضِعۡفَيۡنِۚ﴾ قالَ: عذابُ الدّنيا وعذابُ الآخرةِ.

فأمّا في الوصايا، لوْ أوصى لإنسانٍ بضعفيْ نصيبِ ولدهِ فهوَ وصيّةٌ بأنْ يعطى مثلَ نصيبهِ ثلاثَ مرّاتٍ، فإنَّ الوصايا تجري على العرفِ فيما بينَ النّاسِ، وكلامُ اللّهِ يردُّ تفسيرهُ إلى كلامِ العربِ، والضّعفُ في كلامِ العربِ المثلُ إلى ما زادَ، وليسَ بمقصورٍ على مثلينِ. يقالُ: هذا ضعفُ هذا، أيْ مثلهُ. وهذا ضعفاهُ، أيْ مثلاهُ، فالضّعفُ في الأصلِ زيادةٌ غيرُ محصورةٍ، قالَ اللّهُ تعالى: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ جَزَآءُ ٱلضِّعۡفِ﴾ ولمْ يردْ مثلاً ولا مثلينِ.

الثالثة: قالَ أبو رافعٍ: كانَ عمرُ رضي الله عنه كثيراً ما يقرأُ سورةَ يوسفَ وسورةَ الأحزابِ في الصّبحِ، وكانَ إذا بلغَ ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ﴾ رفعَ بها صوتهُ، فقيلَ لهُ في ذلكَ فقالَ: «أذكّرهنَّ

العهدَ».

قرأَ الجمهورُ: ﴿مَن يَأْتِ﴾ بالياءِ. وكذلكَ ﴿مَن يَقْنُتْ﴾ حملا على لفظ ﴿مَن﴾. والقنوتُ الطّاعةُ، وقدْ تقدّمَ. وقرأ يعقوبُ: «مَنْ تَأْتِ» وَ «تَقْنُتُ» بالتّاءِ منْ فوقٍ، حملاً على المعنى.

وقالَ قومٌ: الفاحشةُ إذا وردتْ معرّفةً فهيَ الزّنى واللّواطُ. وإذا وردتْ منكّرةً فهيَ سائرُ المعاصي، وقالتْ فرقةٌ: بل قوله: ﴿بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ﴾ تعمُّ جميعَ المعاصي. وكذلكَ الفاحشةُ كيفَ وودت.

وقرأَ ابنُ كثيرٍ «مُبَيَّنَةٍ» بفتحِ الياءِ. وقرأ نافعٌ وأبو عمرو بكسرها. وقرأتْ فرقةٌ: «يُضَاعِفْ» بكسرِ العينِ على إسنادِ الفعلِ إلى اللّهِ تعالى. وقرأ أبو عمرو فيما روى خارجةُ «نُضَاعِفْ» بالنّونِ المضمومةِ ونصبِ «الْعَذابَ»، وهذهِ مفاعلةٌ منْ واحدٍ، كطارقتُ النّعلَ وعاقبتُ اللّصَّ.

وقرأَ نافعٌ وحمزةُ والكسائيُّ: ﴿يُضَٰعَفْ﴾ بالياءِ وفتحِ العينِ ﴿ٱلْعَذَابُ﴾ رفعًا، وقرأ ابنُ كثيرٍ وابنُ عامرٍ «نُضَعِّفْ» بالنّونِ وكسرِ العينِ المشدّدةِ «الْعَذَابَ» نصبًا. قالَ مقاتلٌ: هذا التّضعيفُ في العذابِ إنّما هوَ في الآخرةِ، لأنَّ إيتاءَ الأجرِ مرّتينِ أيضًا في الآخرةِ. وهذا حسنٌ، لأنَّ نساءَ النّبيِّ ﷺ لا يأتينَ بفاحشةٍ توجبُ حداً. وقدْ قالَ ابنُ عبّاسٍ: ما بغتِ امرأةُ نبيٍّ قطُّ، وإنّما خانتْ في الإيمانِ والطّاعةِ. وقالَ بعضُ المفسّرينَ: العذابُ الّذي توعّدنَ بهِ ﴿ضِعْفَيْنِ﴾ هوَ عذابُ الدّنيا وعذابُ الآخرةِ، فكذلكَ الأجرُ.

وأهلُ التّفسيرِ على أنَّ الرّزقَ الكريمَ الجنّةُ.

قولهُ تعالى: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسۡتُنَّ كَأَحَدٖ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ يعني في الفضلِ والشّرفِ. وقالَ: ﴿كَأَحَدٖ﴾ ولمْ يقلْ كواحدةٍ، لأنَّ أحداً نفيٌ منَ المذكّرِ والمؤنّثِ والواحدِ والجماعةِ، وإنّما خصّصَ النّساءُ بالذّكرِ لأنَّ فيمنْ تقدّمَ آسيةَ ومريمَ، وقدْ تقدّمَ في «آلِ عمرانَ» الاختلافُ في التّفضيلِ بينهن، فتأمله هناك.

﴿إِنِ ٱتَّقَيۡتُنَّۚ﴾ أيْ خفتنَّ اللّهَ. فبيّنَ أنَّ الفضيلةَ إنّما تتمُّ لهنَّ بشرطِ التّقوى، لما منحهنَّ اللّهُ منْ صحبةِ الرّسولِ وعظيمِ المحلِّ منهُ، ونزولِ القرآنِ في حقّهنَّ.

قولهُ تعالى: ﴿فَلَا تَخۡضَعۡنَ بِٱلۡقَوۡلِ﴾ كما كانتِ الحالُ عليهِ في نساءِ العربِ منْ مكالمةِ الرّجالِ بترخيمِ الصّوتِ ولينهِ ﴿فَيَطۡمَعَ﴾ بالنّصبِ على جوابِ النّهيِ. ﴿ٱلَّذِي فِي قَلۡبِهِۦ مَرَضٞ﴾ أيْ تشوّفُ الفجورِ، وهوَ الفسقُ والغزلُ،

قولهُ تعالى: ﴿وَقُلۡنَ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا ٣٢﴾ والقولُ المعروفُ: هوَ الصّوابُ الذي لا تنكره الشريعة ولا النفوس.

قولهُ تعالى: ﴿وَقَرۡنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجۡنَ تَبَرُّجَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ ٱلۡأُولَىٰۖ﴾، فيهِ أربعُ مسائلَ:

الأولى: قولهُ تعالى: ﴿وَقَرۡنَ﴾ قرأَ الجمهورُ «وَقِرْنَ» بكسرِ القافِ، وقرأَ عاصمٌ ونافعٌ بفتحها، فأمّا القراءةُ الأولى فتحتملُ وجهينِ:

أحدهما: أنْ يكونَ منَ الوقارِ، تقولُ: وقَرَيَقِرُّ وقاراً أيْ سكنَ، والأمرُ قِرْ، وللنّساءِ قِرنَ، مثلُ عِدنَ وزِنَّ.

والوجهُ الثّاني: أنْ يكونَ منَ القرارِ، تقولُ: قررتُ بالمكانِ «بفتحِ الرّاءِ» أقِرُّ، والأصلِ أقرِرنَ، بكسرِ الرّاءِ، فحذفتِ الرّاءُ الأولى تخفيفـًا.

وأمّا قراءةُ أهلِ المدينةِ وعاصمٍ، فعلى لغةِ العربِ: قررتُ في المكانِ إذا أقمتُ فيهِ «بكسرِ الرّاءِ» أقَرُّ «بفتحِ القافِ»، منْ بابِ حمدَ يحمدُ، وهيَ لغةُ أهلِ الحجازِ.

الثانية– معنى هذهِ الآيةِ الأمرُ بلزومِ البيتِ، وإنْ كانَ الخطابُ لنساءِ النّبيِّ ﷺ فقدْ دخلَ غيرهنَّ فيهِ بالمعنى. هذا لوْ لمْ يردْ دليلٌ يخصُّ جميعَ النّساءِ، كيفَ والشّريعةُ طافحةٌ بلزومِ

النّساءِ بيوتهنَّ، والانكفافِ عنِ الخروجِ منها إلّا لضرورةٍ، على ما تقدّمَ في غيرِ موضعٍ. فأمرَ اللّهُ تعالى نساءَ النّبيِّ ﷺ بملازمةِ بيوتهنَّ، وخاطبهنَّ بذلكَ تشريفًا لهنَّ، ونهاهنَّ عنِ التّبرّجِ، وأعلمَ أنّهُ فعلُ الجاهليّةِ الأولى فقالَ: ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ﴾، وحقيقة التّبرّجِ إظهارُ ما سترهُ أحسنُ، وهوَ مأخوذٌ منَ السّعةِ، يقالُ: في أسنانهِ برجٌ إذا كانتْ متفرّقةً.

واختلفَ النّاسُ في ﴿ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ﴾، فقيلَ: ما بينَ آدمَ ونوحٍ، وحكيتْ لهمْ سيرٌ ذميمةٌ. وقيلَ: ما بينَ نوحٍ وإبراهيمَ كانتْ تلبسُ الثّيابَ الرّقاقَ ولا تواري بدنها. وقالتْ فرقةٌ: ما بينَ موسى وعيسى. وقيلَ: ما بينَ عيسى ومحمّدٍ ﷺ.

قالَ ابنُ عطيّةَ: والّذي يظهرُ عندي أنّهُ أشارَ للجاهليّةِ الّتي لحقنها، لأنّهمْ كانوا لا غيرةَ عندهمْ وكانَ أمرُ النّساءِ دونَ حجابٍ، وجعلها أولى بالنّسبةِ إلى ما كنَّ عليهِ، وليسَ المعنى أنَّ ثمَّ جاهليّةٌ أخرى. وقدْ أوقعَ اسمُ الجاهليّةِ على تلكَ المدّةِ الّتي قبلَ الإسلامِ، فقالوا: جاهليٌّ في الشّعراءِ. وقالَ ابنُ عبّاسٍ في البخاريِّ: سمعتُ أبي في الجاهليّةِ يقولُ، إلى غيرِ هذا.

الثالثة– ذكرَ الثّعلبيُّ وغيرهُ: أنَّ عائشةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا كانتْ إذا قرأتْ هذهِ الآيةَ تبكي حتّى تبلَّ خمارها. وذكرَ أنَّ سودةَ ما خرجتْ منْ بابِ حجرتها حتّى أخرجتْ جنازتها. رضوانُ اللّهِ عليها!

قالَ ابنُ العربيِّ: لقدْ دخلتُ نيّفًا على ألفِ قريةٍ فما رأيتُ نساءً أصونَ عيالاً ولا أعفَّ نساءً منْ نساءِ نابلسَ، الّتي رميَ بها الخليلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ النار، فإنّي أقمتُ فيها فما رأيتُ امرأةً في طريقٍ نهاراً إلّا يومَ الجمعةِ فإنّهنَّ يخرجنَ إليها حتّى يمتلئَ المسجدُ منهنَّ، فإذا قضيتِ الصّلاةُ وانقلبنَ إلى منازلهنَّ لمْ تقعْ عينيَّ على واحدةٍ منهنَّ إلى الجمعةِ الأخرى. وقدْ رأيتُ بالمسجدِ الأقصى عفائفَ ما خرجنَ منْ معتكفهنَّ حتّى استشهدنَ فيهِ.

الرابعة– قالَ ابنُ عطيّةَ: بكاءُ عائشةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا إنّما كانَ بسببِ سفرها أيّامَ الجملِ، قالَ ابنُ العربيِّ: تعلّقَ الرّافضةُ لعنهمُ اللّهُ– بهذهِ الآيةِ على أمِّ المؤمنينَ عائشةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا إذْ قالوا: إنّها خالفتْ أمرَ رسولِ اللّهِ ﷺ حينَ خرجتْ تقودُ الجيوشَ، وتباشرُ الحروبَ فيما لمْ يفرضْ عليها ولا يجوزُ لها.

والجواب: أنها ما خرجتْ لحربٍ، ولكنْ تعلّقَ النّاسُ بها، وشكوا إليها ما صاروا إليهِ منْ عظيمِ الفتنةِ وتهارجِ النّاسِ، ورجوا بركتها، وطمعوا في الاستحياءِ منها إذا وقفتْ إلى الخلقِ، وظنّتْ هيَ ذلكَ فخرجتْ مقتديةً باللّهِ في قولهِ: ﴿۞لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍ بَيْنَ ٱلنَّاسِۚ﴾، وقولهِ: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَاۖ﴾ والأمرُ بالإصلاحِ مخاطبٌ بهِ جميعُ النّاسِ منْ ذكرٍ وأنثى، حرٍ أوْ عبدٍ فلمْ يردِ اللّهُ تعالى بسابقِ قضائهِ ونافذِ حكمهِ أنْ يقعَ إصلاحٌ، ولكنْ جرتْ مطاعناتٌ وجراحاتٌ حتّى كادَ يفنى الفريقانِ، فعمدَ بعضهمْ إلى الجملِ فعرقبهُ، فلمّا سقطَ الجملُ لجنبهِ أدركَ محمّدُ بنُ أبي بكرٍ عائشةَ رضيَ اللّهُ تعالى عنها، فاحتملها إلى البصرةِ، وخرجتْ في ثلاثينَ امرأةً، قرنهنَّ عليٌّ بها حتّى أوصلوها إلى المدينةِ برّةً تقيّةً مجتهدةً مصيبةً مثابةً فيما تأوّلتْ، مأجورةً فيما فعلتْ، إذْ كلُّ مجتهدٍ في الأحكامِ مصيبٌ.

قولهُ تعالى: ﴿وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ﴾ أيْ فيما أمرَ ونهى ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ﴾ وهم نساؤهُ وأهلهُ.

قولهُ تعالى: ﴿وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴿٣٤﴾﴾، فيه ثلاث مسائلَ:

الأولى: قولهُ تعالى: ﴿وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِۚ﴾ هذهِ الألفاظُ تعطي أنَّ أهلَ البيتِ نساؤهُ. وقدِ اختلفَ أهلُ العلمِ في أهلِ البيتِ، منْ همْ؟ فقيل: همْ زوجاتهُ خاصّةً، لقولهِ تعالى: ﴿وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾. وقالتْ فرقةٌ: همْ عليٌّ وفاطمةُ والحسنُ والحسينُ خاصّةً، وفي هذا أحاديثُ عنِ النّبيِّ ﷺ، واحتجّوا بقولهِ تعالى: ﴿لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ﴾ بالميمِ ولوْ كانَ للنّساءِ خاصّةً لكانَ «عَنْكُنَّ وَيُطَهِّرَكُنَّ»، والّذي يظهرُ منَ الآيةِ أنّها عامّةٌ في جميعِ أهلِ البيتِ منَ الأزواجِ وغيرهمْ. وإنّما قالَ: ﴿وَيُطَهِّرَكُمْ﴾ لأنَّ رسولَ اللّهِ ﷺ وعليـاً وحسنـاً وحسينـاً كانَ فيهمْ،

وإذا اجتمعَ المذكّرُ والمؤنّثُ غلّبَ المذكّرُ، فاقتضتِ الآيةُ أنَّ الزّوجاتِ منْ أهلِ البيتِ، لأنَّ الآيةَ فيهنَّ، والمخاطبةَ لهنَّ يدلُّ عليهِ سياقُ الكلامِ. أمّا أنَّ أمَّ سلمةَ قالتْ: نزلتْ هذهِ الآيةُ في بيتي، فدعا رسولُ اللّهِ ﷺ علياً وفاطمة وحسنا وحسينا، فدخلَ معهمْ تحتَ كساءٍ خيبريٍّ، وقالَ: «هؤلاءِ أهلُ بيتي» - وقرأ الآيةَ-، وقالَ: «اللّهمَّ أذهبْ عنهمُ الرّجسَ وطهّرهمْ تطهيراً» فقالتْ أمُّ سلمةَ: وأنا معهمْ يا رسولَ اللّهِ؟ قالَ: «أنتِ على مكانكِ وأنتِ على خيرٍ» أخرجهُ التّرمذيُّ وغيرهُ، وقالَ: هذا حديثٌ غريبٌ. فهذهِ دعوةٌ منَ النّبيِّ ﷺ لهمْ بعدَ نزولِ الآيةِ، أحبَّ أنْ يدخلهمْ في الآيةِ الّتي خوطبَ بها الأزواجُ.

الثانية- لفظُ الذّكرِ يحتملُ ثلاثةَ معانٍ:

أحدها: أيِ اذكرنَ موضعَ النّعمةِ، إذْ صيّركنَّ اللّهُ في بيوتٍ تتلى فيها آياتُ اللّهِ والحكمةُ.

الثّاني: اذكرنَ آياتِ اللّهِ واقدرنَ قدرها، وفكّرنَ فيها حتّى تكونَ منكنَّ على بالٍ لتتّعظنَ بمواعظَ اللّهِ تعالى، ومنْ كانَ هذا حالهُ ينبغي أن تحسن أفعاله.

الثالث: ﴿ٱذۡكُرۡنَ﴾ بمعنى اخبرنَ بما ينزّلُ منَ القرآنِ في بيوتهنَّ، وما يرينَ منْ أفعالِ النّبيِّ ﷺ، ويسمعنَ منْ أقوالهِ حتّى يبلّغنَ ذلكَ إلى النّاسِ، فيعملوا ويقتدوا. وهذا يدلُّ على جوازِ قبولِ خبرِ الواحدِ منَ الرّجالِ والنّساءِ في الدّينِ.

الثالثة- قالَ ابنُ العربيِّ: في هذهِ الآيةِ مسألةٌ بديعةٌ، وهيَ أنَّ اللّهَ تعالى أمرَ نبيّهُ ﷺ بتبليغِ ما أنزلَ عليهِ منَ القرآنِ، وتعليمِ ما علّمهُ منَ الدّينِ، فكانَ إذا قرأَ على واحدٍ أوْ ما اتّفقَ سقطَ عنهُ الفرضُ، وكانَ على منْ سمعهُ أنْ يبلّغهُ إلى غيرهِ، ولا يلزمهُ أنْ يذكرهُ لجميعِ الصّحابةِ، ولا كانَ عليهِ إذا علّمَ ذلكَ أزواجهُ أنْ يخرجَ إلى النّاسِ فيقولُ لهمْ نزلَ كذا ولا كانَ كذا، ولهذا قلنا: يجوزُ العملُ بخبرِ بسرةَ في إيجابِ الوضوءِ منْ مسِّ الذّكرِ، لأنّها روتْ ما سمعتْ وبلّغتْ ما وعتْ. ولا يلزمُ أنْ يبلّغَ ذلكَ الرّجالُ، كما قالَ أبو حنيفةَ، على أنّهُ قدْ نقلَ عنْ سعدِ بنِ أبي وقّاصٍ وابنِ عمرَ.

قولهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡمُسۡلِمِينَ وَٱلۡمُسۡلِمَٰتِ وَٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ وَٱلۡقَٰنِتِينَ وَٱلۡقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلۡخَٰشِعِينَ وَٱلۡخَٰشِعَٰتِ وَٱلۡمُتَصَدِّقِينَ وَٱلۡمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلۡحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمۡ وَٱلۡحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغۡفِرَةٗ وَأَجۡرًا عَظِيمٗا ٣٥﴾، فيهِ مسألتانِ:

الأولى: روى الترّمذيُّ عنْ أمِّ عمارةَ الأنصاريّةِ أنّها أتتِ النّبيَّ ﷺ، فقالتْ: ما أرى كل شيء إلّا للرّجالِ، وما أرى النّساءَ يذكرنَ بشيءٍ! فنزلتْ هذهِ الآيةُ: ﴿إِنَّ ٱلۡمُسۡلِمِينَ وَٱلۡمُسۡلِمَٰتِ وَٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ﴾ الآيةَ. هذا حديثٌ حسنٌ غريبٌ.

الثانية- بدأَ تعالى في هذهِ الآيةِ بذكرِ الإسلامِ الّذي يعمُّ الإيمانَ وعملَ الجوارحِ، ثمَّ ذكرَ الإيمانَ تخصيصاً لهُ وتنبيهاً على أنّهُ عظمُ الإسلامِ ودعامتهُ. والقانتُ: العابدُ المطيعُ. والصّادقُ: معناهُ فيما عوهدَ عليهِ أنْ يفيَ بهِ. والصّابرُ عنِ الشّهواتِ وعلى الطّاعاتِ في المكرهِ والمنشطِ. والخاشعُ: الخائفُ للّهِ. والمتصدّقُ بالفرضِ والنّفلِ. وقيلَ. بالفرضِ خاصّةً، والأوّلُ أمدحُ. والصّائمُ كذلكَ. ﴿وَٱلۡحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمۡ وَٱلۡحَٰفِظَٰتِ﴾ أيْ عمّا لا يحلُّ منَ الزّنى وغيرهِ. وفي قولهِ: ﴿وَٱلۡحَٰفِظَٰتِ﴾ حذفٌ يدلُّ عليهِ المتقدّمُ، تقديرهُ: والحافظاتها، فاكتفيَ بما تقدّمَ.

والذّاكرُ قيلَ في أدبارِ الصّلواتِ وغدواً وعشياً، وفي المضاجعِ وعندَ الانتباهِ منَ النّومِ.

قالَ مجاهدٌ: لا يكونُ ذاكراً للّهِ تعالى كثيراً حتّى يذكرهُ قائماً وجالساً ومضطجعاً.

وقالَ أبو سعيدٍ الخدريِّ رضي الله عنه: منْ أيقظَ أهلهُ باللّيلِ وصلّيا أربعَ ركعاتٍ كتبا منَ الذّاكرينَ اللّهَ كثيراً والذاكرات.

قولهُ تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾﴾، فيهِ أربعُ مسائلَ:

الأولى: سببِ نزولِ هذهِ الآيةِ: أنَّ رسولَ اللّهِ ﷺ خطبَ زينبَ بنتَ جحشٍ، وكانتْ بنتَ عمّتهِ، فظنّتْ أنَّ الخطبةَ لنفسهِ، فلمّا تبيّنَ أنّهُ يريدها لزيدٍ، كرهتْ وأبتْ وامتنعتْ وامتنعَ أخوها عبدُ اللّهِ لنسبها منْ قريشٍ، وأنَّ زيداً كانَ بالأمسِ عبداً، إلى أنْ نزلتْ هذهِ الآيةُ.

الثانية: لفظةُ «مَا كَانَ، وَمَا يَنْبَغِي» ونحوهما، معناها الحظرُ والمنعُ. فتجيءُ لحظرِ الشّيءِ والحكمِ بأنّهُ لا يكونُ، كما في هذهِ الآيةِ. وربّما كانَ امتناعُ ذلكَ الشّيءِ عقلاً كقولهِ تعالى: ﴿مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُواْ شَجَرَهَآ ۗ﴾. وربّما كانَ العلمُ بامتناعهِ شرعـًا كقولهِ تعالى: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ﴾، وقولهِ تعالى: ﴿۞ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ﴾. وربّما كانَ في المندوباتِ، كما تقولُ: ما كانَ لكَ يا فلانُ أنْ تتركَ النّوافلَ، ونحوَ هذا.

الثالثة- في هذهِ الآيةِ دليلٌ بلْ نصٌّ في أنَّ الكفاءةَ لا تعتبرُ في الأحسابِ وإنّما تعتبرُ في الأديانِ، خلافـًا لمالكٍ والشّافعيِّ، وذلكَ أنَّ الموالي تزوّجتْ في قريشٍ، تزوّجَ زيدٌ زينبَ بنتَ جحشٍ. وتزوّجَ المقدادُ بنُ الأسودِ ضباعةَ بنتَ الزّبيرِ. وزوّجَ أبو حذيفةَ سالمـًا منْ فاطمةَ بنتِ الوليدِ بنِ عتبةَ. وتزوّجَ بلالٌ أختَ عبدِ الرّحمنِ بنِ عوفٍ.

الرابعة- قولهُ تعالى: ﴿أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ﴾ قرأَ الكوفيّونَ: ﴿أَن يَكُونَ﴾ بالياءِ. لأنّهُ قدْ فرّقَ بينَ المؤنّثِ وبينَ فعلهِ. الباقونَ بالتّاءِ، لأنَّ اللّفظَ مؤنّثٌ فتأنيثُ فعلهِ حسنٌ. والخيرةُ مصدرٌ بمعنى الاختيارِ. وهذهِ الآيةُ في ضمنِ قولهِ تعالى: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ﴾. ثم توعد تعالى وأخبر أن من يعصى الله ورسوله فقد ضل أدلُّ دليلٍ على ما ذهبَ إليهِ الجمهورُ منْ فقهائنا وفقهاءِ أصحابِ الإمامِ الشّافعيِّ وبعضِ الأصوليّينَ، منْ أنَّ صيغةَ «افعلْ» للوجوبِ في أصلِ وضعها، لأنَّ اللّهَ تباركَ وتعالى نفى خيرةَ المكلّفِ عندَ سماعِ أمرهِ وأمرِ رسولهِ ﷺ، ثمَّ أطلقَ على منْ بقيتْ لهُ خيرةٌ عندَ صدورِ الأمرِ اسمَ المعصيةِ، ثمَّ علّقَ على المعصيةِ بذلكَ الضّلالِ، فلزمَ حملُ الأمرِ على الوجوبِ.

قولهُ تعالى ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾﴾، فيهِ تسعُ مسائلَ:

الأولى: عنْ عائشةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا. قالتْ: لوْ كانَ النبيُّ ﷺ كاتماً شيئاً منَ الوحي لكتمَ هذهِ الآيةَ ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ﴾ ﴿وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ﴾ أخرجهُ مسلمٌ في صحيحهِ.

وفي البخاريِّ عنْ أنسِ بنِ مالكٍ أنَّ هذهِ الآيةَ ﴿وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ﴾ نزلتْ في شأنِ زينبَ بنتِ جحشٍ وزيد بن حارثة.

واختلفَ النّاسُ في تأويلِ هذهِ الآيةِ، فذهبَ جماعةٌ منَ المفسّرينَ إلى أنَّ النّبيَّ ﷺ وقعَ منهُ استحسانٌ لزينبَ بنتِ جحشٍ، وهيَ في عصمةِ زيدٍ، وكانَ حريصاً على أنْ يطلّقها زيدٌ فيتزوّجها هوَ ثمَّ إنَّ زيداً لمّا أخبرهُ بأنّهُ يريدُ فراقها، ويشكو منها غلظةَ قولٍ وعصيانَ أمرٍ، وأذى باللّسانِ وتعظّماً بالشّرفِ، قالَ لهُ: ﴿ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ أيْ فيما تقولُ عنها و﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ﴾ وهوَ يخفي الحرصَ على طلاقِ زيدٍ إيّاها. وهذا الّذي كانَ يخفي في نفسهِ، ولكنّهُ لزمَ ما يجبُ منَ الأمرِ بالمعروف.

ورويَ عنْ عليِّ بنِ الحسينِ: أنَّ النّبيَّ ﷺ كانَ قدْ أوحى اللّهُ تعالى إليهِ أنَّ زيداً يطلّقُ زينبَ، وأنّهُ يتزوّجها بتزويجِ اللّهِ إيّاها، فلمّا تشكّى زيدٌ للنّبيِّ ﷺ خُلقَ زينبَ، وأنّها لا تطيعهُ، وأعلمهُ أنّهُ يريدُ طلاقها، قالَ لهُ رسولُ اللّهِ ﷺ على جهةِ الأدبِ والوصيّةِ: «اتّقِ اللّهَ في قولكَ وأمسكْ عليكَ زوجكَ» وهوَ يعلمُ أنّهُ سيفارقها ويتزوّجها، وهذا هوَ الّذي أخفى في نفسهِ، ولمْ يردْ أنْ يأمرهُ بالطّلاقِ لما علمَ أنّهُ سيتزوّجها، وخشيَ رسولُ اللّهِ ﷺ أنْ يلحقهُ قولٌ منَ النّاسِ في أنْ يتزوّجَ زينبَ بعدَ زيدٍ، وهوَ مولاهُ، وقدْ أمرهُ بطلاقها، فعاتبهُ اللّهُ تعالى على هذا القدرِ منْ أنْ خشيَ النّاسَ في شيءٍ قدْ أباحهُ اللّهُ لهُ، بأنْ قالَ: ﴿أَمْسِكْ﴾ معَ علمهِ بأنّهُ يطلّقُ، وأعلمهُ أنَّ اللّهَ أحقُّ بالخشيةِ، أيْ في كلِّ حالٍ.

قالَ علماؤنا رحمةُ اللّهِ عليهمْ: وهذا القولُ أحسنُ ما قيلَ في تأويلِ هذهِ الآيةِ، وهوَ الذي عليهِ أهلُ التّحقيقِ منَ المفسّرينَ والعلماءِ الرّاسخينَ.

والمرادُ بقولهِ تعالى: ﴿وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ﴾ إنّما هوَ إرجافُ المنافقينَ بأنّهُ نهى عنْ تزويجِ نساءِ الأبناءِ وتزوّجَ بزوجةِ ابنهِ. فأمّا ما رويَ أنَّ النّبيَّ ﷺ هويَ زينبَ امرأةَ زيدٍ وربّما أطلقَ بعضُ المجّانِ لفظَ عشقَ فهذا إنّما يصدرُ عنْ جاهلٍ بعصمةِ النّبيِّ ﷺ عنْ مثلِ هذا، أوْ مستخفٍّ بحرمتهِ.

الثانية: قالَ ابنُ العربيِّ: فإنْ قيلَ لأيِّ معنى قالَ لهُ: ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ﴾ وقدْ أخبرهُ اللّهُ أنّها زوجهُ. قلنا: أرادَ أنْ يختبرَ منهُ ما لمْ يعلمهُ اللّهُ منْ رغبتهِ فيها أوْ رغبتهِ عنها، فأبدى لهُ زيدٌ منَ النّفرةِ عنها والكراهةِ فيها ما لمْ يكنْ علمهُ منهُ في أمرها. فإن قيل: كيفَ، يأمرهُ بالتّمسّكِ بها وقدْ علمَ أنَّ الفراقَ لا بدَّ منهُ؟ وهذا تناقضٌ. **قلنا**: بلْ هوَ صحيحٌ للمقاصدِ الصّحيحةِ، لإقامةِ الحجّةِ ومعرفةِ العاقبةِ، ألا ترى أنَّ اللّهَ تعالى يأمرُ العبدَ بالإيمانِ وقدْ علمَ أنّهُ لا يؤمنُ، فليسَ في مخالفةِ متعلّقِ الأمرِ لمتعلّقِ العلمِ ما يمنعُ منَ الأمرِ بهِ عقلاً وحكماً. وهذا منْ نفيسِ العلمِ فتيقّنوهُ وتقبّلوهُ. وقولهُ: ﴿وَٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ أيْ في طلاقها، فلا تطلّقها. وأرادَ نهيَ تنزيهٍ لا نهيَ تحريمٍ، لأنَّ الأولى ألّا يطلّقَ. وقيلَ: ﴿ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ فلا تذمّها.

الثالثة: روى الأئمّةُ - واللّفظُ لمسلم - عنْ أنسٍ قالَ: لمّا انقضتْ عدّةُ زينبَ قالَ رسولُ اللّهِ ﷺ لزيدٍ: «فاذكرها عليَّ» قالَ: فانطلقَ زيدٌ حتّى أتاها وهيَ تخمّرُ عجينها. قالَ: فلمّا رأيتها عظمتْ في صدري، حتّى ما أستطيعُ أنْ أنظرَ إليها، أنَّ رسولَ اللّهِ ﷺ ذكرها فولّيتها ظهري، ونكصتُ على عقبي، فقلت: يا زينبُ، أرسلَ رسولُ اللّهِ ﷺ يذكركِ، قالتْ: ما أنا بصانعةٍ شيئاً حتّى أوامرَ ربّي، فقامتْ إلى مسجدها ونزلَ القرآنُ. وجاءَ رسولُ اللّهِ ﷺ فدخلَ عليها بغيرِ إذنٍ. قالَ: فقالَ: ولقدْ رأيتنا أنَّ رسولَ اللّهِ ﷺ أطعمنا الخبزَ واللّحمَ حينَ امتدَّ النّهارُ.. الحديثَ.

وفي روايةٍ عنْ أنسٍ أيضاً قالَ: ما رأيتُ رسولَ اللّهِ ﷺ أولمَ على امرأةٍ منْ نسائهِ ما أولمَ على زينبَ، فإنّهُ ذبحَ شاةً.

قالَ علماؤنا: فقولهُ ﷺ لزيدٍ: «فاذكرها عليَّ» أيِ اخطبها، وهذا امتحانٌ لزيدٍ واختبارٌ لهُ، حتّى يظهرَ صبرهُ وانقيادهُ وطوعهُ.

قلت: وقدْ يستنبطُ منْ هذا أنْ يقولَ الإنسانُ لصاحبهِ: اخطبْ عليَّ فلانةً، لزوجهِ المطلّقةِ منهُ، ولا حرجَ في ذلكَ. والله أعلم.

الرابعة- لمّا وكّلتْ أمرها إلى اللّهِ وصحَّ تفويضها إليهِ تولّى اللّهُ إنكاحها، ولذلكَ قالَ: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا﴾، ولمّا أعلمهُ اللّهُ بذلكَ دخلَ عليها بغيرِ إذنٍ، ولا تجديدِ عقدٍ ولا تقريرِ صداقٍ، ولا شيء ممّا يكونُ شرطًا في حقوقنا ومشروعًا لنا. وهذا منْ خصوصيّاتهِ ﷺ الّتي لا يشاركهُ فيها أحدٌ بإجماعٍ منَ المسلمينَ. أخرجَ النّسائيُّ عنْ أنسِ بنِ مالكٍ قالَ: كانتْ زينبُ تفخرُ على نساءِ النّبيِّ ﷺ تقولُ: إنَّ اللّهَ عزَّ وجلَّ أنكحني منَ السّماءِ. وفيها نزلتْ آيةُ الحجابِ، وسيأتي.

الخامسة- المنعمُ عليهِ في هذهِ الآيةِ هوَ زيدُ بنُ حارثةَ، كما بيّنّاهُ، وقدْ تقدّمَ خبرهُ في أوّلِ السّورةِ.

السّادسةُ- قالَ الإمامُ أبو القاسمِ عبدُ الرّحمنِ السّهيليُّ رضي الله عنه: كانَ يقالُ زيدُ بن محمد حتى نزل: ﴿ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ﴾ فقالَ: أنا زيدُ بنُ حارثةَ. وحرّمَ عليهِ أنْ يقولَ: أنا زيدُ بنُ محمّدٍ. فلمّا نزعَ عنهُ هذا الشّرفُ وهذا الفخرُ، وعلمَ اللّهُ وحشتهُ منْ ذلكَ شرّفهُ بخصّيصةٍ لمْ يكنْ يخصُّ بها أحداً منْ أصحابِ النّبيِّ ﷺ وهيَ أنّهُ سمّاهُ في القرآنِ، فقالَ: تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا﴾ يعني منْ زينبَ. ومنْ ذكرهُ اللّهُ تعالى باسمهِ في الذّكرِ الحكيمِ حتّى صارَ اسمهُ قرآنًا يتلى في المحاريبِ، نوّهَ بهِ غايةَ التّنويهِ، فكانَ في هذا تأنيسٌ لهُ وعوضٌ منَ الفخرِ بأبوّةِ محمّدٍ ﷺ لهُ ألا ترى إلى قول أبي ابن كعبٍ حينَ قالَ لهُ النّبيُّ ﷺ: «إنَّ اللّهَ أمرني أنْ أقرأَ عليك سورة كذا» فبكى وقال: أو ذكرت هنالكَ؟ وكانَ بكاؤهُ منَ الفرحِ حينَ أخبرَ أنَّ اللّهَ تعالى ذكرهُ، فكيفَ بمنْ صارَ اسمهُ قرآنًا يتلى مخلّداً لا يبيدُ، يتلوهُ أهلُ الدّنيا

إذا قرءوا القرآنَ، وأهلُ الجنّةِ كذلكَ أبداً، لا يزالُ على ألسنةِ المؤمنينَ، كما لمْ يزلْ مذكوراً على الخصوصِ عندَ ربِّ العالمينَ، إذِ القرآنُ كلامُ اللّهِ القديمُ، وهوَ باقٍ لا يبيدُ، فاسمُ زيدٍ هذا في الصّحفِ المكرّمةِ المرفوعةِ المطهّرةِ، تذكرهُ في التّلاوةِ السّفرةُ الكرامُ البررةُ. وليسَ ذلكَ لاسمٍ منْ أسماءِ المؤمنينَ إلّا لنبيٍّ منَ الأنبياءِ، ولزيدِ بنِ حارثةَ تعويضاً منَ اللّهِ تعالى لهُ ممّا نزعَ عنهُ. وزادَ في الآيةِ أنْ قالَ: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ﴾ أيْ بالإيمانِ، فدلَّ على أنّهُ منْ أهلِ الجنّةِ، علمَ ذلكَ قبلَ أنْ يموتَ، وهذهِ فضيلةٌ أخرى.

السابعة- قولهُ تعالى: ﴿وَطَرًا﴾ الوطرُ كلُّ حاجةٍ للمرءِ لهُ فيها همّةٌ، والجمعُ الأوطارُ. قالَ ابنُ عبّاسٍ: أيْ بلغَ ما أرادَ منْ حاجتهِ، يعني الجماعَ. وفيهِ إضمارٌ، أيْ لمّا قضى وطرهُ منها وطلّقها ﴿زَوَّجْنَـٰكَهَا﴾. وقيلَ: الوطرُ عبارةٌ عنِ الطّلاقِ.

الثامنة- ذهبَ بعضُ النّاسِ منْ هذهِ الآيةِ، ومنْ قولِ شعيب: ﴿إِنِّىٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ﴾ إلى أنَّ ترتيبَ هذا المعنى في المهورِ ينبغي أن يكون: «أنكحه إياها» فتقدم ضميرُ الزّوجِ كما في الآيتينِ. وكذلكَ قولهُ ﷺ لصاحبِ الرّداءِ «اذهبْ فقدْ أنكحتكها بما معكَ منَ القرآنِ». قالَ ابنُ عطيّةَ: وهذا غيرُ لازمٍ، لأنَّ الزّوجَ في الآيةِ مخاطبٌ فحسنَ تقديمهُ، وفي المهورِ الزّوجانِ سواءٌ، فقدّمْ منْ شئتَ، ولمْ يبقَ ترجيحٌ إلّا بدرجةِ الرّجالِ، وأنّهمُ القوّامونَ.

التاسعةُ- قولهُ تعالى: ﴿زَوَّجْنَـٰكَهَا﴾ دليلٌ على ثبوتِ الوليِّ في النّكاحِ، وقدْ تقدّمَ الخلافُ في ذلكَ. ورويَ أنَّ عائشةَ وزينبَ تفاخرتا، فقالتْ عائشةُ: أنا الّتي جاءَ بي الملكَ إلى النّبيِّ ﷺ في سرقةٍ منْ حريرٍ فيقولُ: «هذهِ امرأتكَ» خرّجهُ الصّحيحُ. وقالتْ زينبُ: أنا التي زوجني الله من فوق سبع سموات.

قولهُ تعالى: ﴿مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ مِنۡ حَرَجٖ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥۖ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلُۚ وَكَانَ أَمۡرُ ٱللَّهِ قَدَرٗا مَّقۡدُورًا ٣٨ ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخۡشَوۡنَهُۥ وَلَا يَخۡشَوۡنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبٗا ٣٩﴾

قولهُ تعالى: ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلُۚ﴾ هذهِ مخاطبةٌ منَ اللّهِ تعالى لجميعِ الأمّةِ. أعلمهمْ أنَّ هذا ونحوهُ هوَ السّننُ الأقدمُ في الأنبياءِ أنْ ينالوا ما أحلّهُ لهمْ، أيْ سنَّ لمحمّدٍ ﷺ التّوسعةُ عليهِ في النّكاحِ سنّةَ الأنبياءِ الماضيةِ، كداودَ وسليمانَ. فكانَ لداودَ مائةُ امرأةٍ وثلاثمائةِ سرّيّةٍ، ولسليمانَ ثلاثمائةِ امرأةٍ وسبعمائةِ سرّيّةٍ. وَ ﴿ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ﴾ همُ الأنبياءُ، بدليلِ وصفهمْ بعدُ بقولهِ: ﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ﴾.

قولهُ تعالى: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٖ مِّن رِّجَالِكُمۡ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٗا ٤٠﴾، فيهِ ثلاثُ مسائلَ:

الأولى: لمّا تزوّجَ زينبَ قالَ النّاسُ: تزوّجَ امرأةَ ابنهِ، فنزلتِ الآيةُ، أيْ ليسَ هوَ بابنهِ حتّى تحرّمَ عليهِ حليلتهُ، ولكنّهُ أبو أمّتهِ في التّبجيلِ والتّعظيمِ، وأنَّ نساءهُ عليهمْ حرامٌ. فأذهبَ اللّهُ بهذهِ الآيةِ ما وقعَ في نفوسِ المنافقينَ وغيرهمْ، وأعلمَ أنَّ محمّداً لمْ يكنْ أبا أحدٍ منَ الرّجالِ المعاصرينَ لهُ في الحقيقةِ. ولمْ يقصدْ بهذهِ الآيةِ أنَّ النّبيَّ ﷺ لمْ يكنْ لهُ ولدٌ، فقدْ ولدَ لهُ ذكورٌ: إبراهيمُ، والقاسمُ، والطّيّبُ، والمطهّرُ، ولكنْ لمْ يعشْ لهُ ابنٌ حتّى يصيرَ رجلاً. وأمّا الحسنُ والحسينُ فكانا طفلينِ، ولمْ يكونا رجلينِ معاصرينِ لهُ.

الثانية- قولهُ تعالى: ﴿وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَۗ﴾ قرأَ عاصمٌ وحدهُ بفتحِ التّاءِ، بمعنى أنّهمْ بهِ ختموا، فهوَ كالخاتمِ والطّابعِ لهمْ. وقرأَ الجمهورُ بكسرِ التّاءِ بمعنى أنّهُ ختمهمْ، أيْ جاءَ آخرهمْ. وقيلَ: الخاتمُ والخاتمُ لغتانِ، مثلُ طابعٍ وطابَعٍ.

الثالثة- رويَ عنِ النّبيِّ ﷺ أنّهُ قالَ: «لا نبوّةَ بعدي إلّا ما شاءَ اللّهُ». قالَ أبو عمرَ: يعني الرّؤيا- واللّهُ أعلمُ- الّتي هيَ جزءٌ منها، كما قالَ ﷺ: «ليسَ يبقى بعدي منَ النّبوّةِ إلّا الرّؤيا الصّالحةُ».

وفي صحيحِ مسلمٍ عنْ جابرٍ قالَ: قالَ رسولُ اللّهِ ﷺ: «مثلي ومثلُ الأنبياءِ كمثلِ رجلٍ

بنى داراً فأتمّها وأكملها إلّا موضعَ لبنةٍ فجعلَ النّاسُ يدخلونها ويتعجّبونَ. منها ويقولونَ لولا موضعُ اللّبنةِ! – قالَ رسولُ اللّهِ ﷺ– فأنا موضعُ اللّبنةِ جئتُ فختمتُ الأنبياءَ». ونحوهُ عنْ أبي هريرةَ، غيرَ أنّهُ قال: «فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين».

قولهُ تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾﴾

أمرَ اللّهُ تعالى عبادهُ بأنْ يذكروهُ ويشكروهُ، ويكثروا منْ ذلكَ على ما أنعمَ بهِ عليهمْ. وجعلَ تعالى ذلكَ دونَ حدٍّ لسهولتهِ على العبدِ. ولعظمِ الأجرِ فيهِ قالَ ابنُ عبّاسٍ: لمْ يعذرْ أحدٌ في تركِ ذكرِ اللّهِ إلّا منْ غلبَ على عقلهِ.

قولهُ تعالى: ﴿وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾﴾ أيِ اشغلوا ألسنتكمْ في معظمِ أحوالكمْ بالتّسبيحِ والتّهليلِ والتّحميدِ والتّكبيرِ، وقيلَ: المرادُ صلّوا للّهِ بكرةً وأصيلاً، والصّلاةُ تسمّى تسبيحـاً. وخصَّ الفجرُ والمغربُ والعشاءُ بالذّكرِ لأنّها أحقُّ بالتّحريضِ عليها، لاتّصالها بأطرافِ اللّيلِ.

قولهُ تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ﴾ قالَ ابنُ عبّاسٍ: لمّا نزلَ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَـٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ﴾ قالَ المهاجرونَ والأنصارُ: هذا لكَ يا رسولَ الله خاصة، وليس لنا فيه شيء، فأنزلَ اللّهُ تعالى هذهِ الآيةَ. قلت: وهذهِ نعمةٌ منَ اللّهِ تعالى على هذهِ الأمّةِ منْ أكبرِ النّعمِ، ودليلٌ على فضلها على سائرِ الأممِ. وقدْ قالَ: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾.

والصّلاةُ منَ اللّهِ على العبدِ هيَ رحمتهُ لهُ وبركتهُ لديهِ. وصلاةُ الملائكةِ: دعاؤهمْ للمؤمنينَ واستغفارهمْ لهمْ، كما قالَ: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ وسيأتي.

قولهُ تعالى: ﴿لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ أيْ منَ الضّلالةِ إلى الهدى. ومعنى هذا التّثبيتُ على الهدايةِ، لأنّهمْ كانوا في وقت الخطاب على الهداية. ثم أخبر تعالى برحمته بالمؤمنين تأنيسا لهم فقال: ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾﴾.

قولهُ تعالى: ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ ۚ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴿٤٤﴾﴾

اختلفَ في الضّميرِ الّذي في ﴿يَلْقَوْنَهُۥ﴾ على منْ يعودُ، فقيلَ على اللّهِ تعالى، أيْ كانَ بالمؤمنينَ رحيماً، فهوَ يؤمّنهمْ منْ عذابِ اللّهِ يومَ القيامةِ. وفي ذلكَ اليومِ يلقونهُ. وَ﴿تَحِيَّتُهُمْ﴾ أيْ تحيّةُ بعضهمْ لبعضٍ. ﴿سَلَٰمٌ﴾ أيْ سلامةٌ لنا ولكمْ منْ عذابِ اللّهِ.

وقيلَ: هذهِ التّحيّةُ منَ اللّهِ تعالى، المعنى: فيسلّمهمْ منَ الآفاتِ، أوْ يبشّرهمْ بالأمنِ منَ المخافاتِ ﴿يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ﴾ أيْ يومَ القيامةِ بعدَ دخولِ الجنّةِ. قالَ معناهُ الزّجّاجُ، واستشهدَ بقوله عزوجل: ﴿وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ﴾. **وقيلَ:** ﴿يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ﴾ أيْ يومَ يلقونَ ملكَ الموتِ، وقدْ وردَ أنّهُ لا يقبضُ روحَ مؤمنٍ إلّا سلّمَ عليهِ.

قولهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴿٤٦﴾﴾

هذهِ الآيةُ تضمّنتْ منْ أسمائهِ ﷺ ستة أسماءٍ، ولنبيّنا ﷺ أسماءٌ كثيرةٌ وسماتٌ جليلةٌ، وردَ ذكرها في الكتابِ والسّنّةِ والكتبِ المتقدّمةِ. وقدْ سمّاهُ اللّهُ في كتابهِ محمّداً وأحمدَ. وقالَ ﷺ فيما روى عنهُ الثّقاتُ العدولُ: «لي خمسةُ أسماءٍ أنا محمّدٌ وأنا أحمدُ وأنا الماحي الّذي يمحو اللّهُ بيَ الكفرَ وأنا الحاشرُ الّذي يحشرُ النّاسُ على قدمي وأنا العاقب». وفي صحيح مسلم من حديثُ جبيرِ بنِ مطعم: وقدْ سمّاهُ اللّهُ «رؤوفا رحيمـاً». وفيهِ أيضـاً عنْ أبي موسى الأشعريِّ قالَ: كانَ رسولُ اللّهِ ﷺ يسمّي لنا نفسهُ أسماءً، فيقولُ: «أنا محمّدٌ وأحمدُ والمقفّي والحاشرُ ونبيُّ التّوبةِ ونبيُّ الرّحمةِ».

وقدْ ذكرَ القاضي أبو بكرِ بنُ العربيِّ في أحكامهِ في هذهِ الآيةِ منْ أسماءِ النّبيِّ ﷺ سبعةً وستّينَ اسمـاً.

وقالَ ابنُ عبّاسٍ: لمّا نزلتْ هذهِ الآيةُ دعا رسولُ اللّهِ ﷺ عليـاً ومعاذاً، فبعثهما إلى اليمنِ، وقالَ: «اذهبا فبشّرا ولا تنفّرا، ويسّرا ولا تعسّرا فإنّهُ قدْ أنزلَ عليَّ...» وقرأ هذهِ الآيةَ.

قولهُ تعالى: ﴿شَٰهِدًا﴾ على أمّتهِ بالتّبليغِ إليهمْ، وعلى سائرِ الأممِ بتبليغِ أنبيائهمْ، ونحو ذلك. و ﴿مُبَشِّرًا﴾ للمؤمنين برحمة الله وبالجنة و ﴿نَذِيرًا﴾ للعصاةِ والمكذّبينَ منَ النّارِ

وعذابِ الخلدِ ﴿وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ﴾ الدّعاءُ إلى اللّهِ هوَ تبليغ التوحيد والأخذ به، ومكافحة الكفرة. و ﴿بِإِذْنِهِۦ﴾ هنا معناهُ: بأمرِهِ إيّاكَ، وتقديرِهِ ذلكَ في وقتهِ وأوانه. ﴿وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ٤٦﴾ هنا استعارةٌ للنّورِ الّذي يتضمّنهُ شرعهُ. ووصفهُ بالإنارةِ لأنَّ منَ السُّرجِ ما لا يضيءُ.

قولهُ تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٤٧﴾ الواوُ عاطفةٌ جملةً على جملةٍ، والمعنى منقطعٌ منَ الّذي قبلهُ.

قالَ ابنُ عطيّةَ: قالَ لنا أبي: هذهِ منْ أرجى آيةٍ عندي في كتابِ اللّهِ تعالى، لأنَّ اللّهَ عزَّ وجلَّ قدْ أمرَ نبيّهُ أنْ يبشّرَ المؤمنينَ بأنَّ لهمْ عندهُ فضلاً كبيراً، وقدْ بيّنَ تعالى الفضلَ الكبير في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فِى رَوْضَاتِ ٱلْجَنَّاتِ ۖ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تُطِعِ ٱلْكَـٰفِرِينَ وَٱلْمُنَـٰفِقِينَ﴾ فيما يشيرونَ عليكَ منَ المداهنةِ في الدّينِ ولا تمالئهمْ. و ﴿دَعْ أَذَىٰهُمْ﴾ أيْ دعْ أنْ تؤذيهمْ مجازاةً على إذايتهم إيّاكَ، والآيةُ منسوخةٌ بآيةِ السّيفِ ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ﴾ أمرهُ بالتّوكّلِ عليهِ وآنسهُ بقولهِ ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ٤٨﴾ وفي قوّةِ الكلامِ وعدٌ بنصرٍ. والوكيلُ: الحافظ القائم على الأمر.

قولهُ تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَـٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا ۖ فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ٤٩﴾، فيهِ سبعُ مسائلَ:

الأولى: المطلّقةُ إذا لمْ تكنْ ممسوسةً لا عدّةَ عليها بنصِّ الكتابِ وإجماعِ الأمّةِ على ذلكَ. فإن دخل بها فعليها العدة إجماعا.

الثانية– النكاح حقيقة في الوطء، وتسميةُ العقدِ نكاحاً لملابستهِ لهُ منْ حيثُ إنّهُ طريقٌ إليهِ. ونظيرهُ تسميتهمُ الخمرَ إثماً لأنّهُ سببٌ في اقترافِ الإثمِ. ولمْ يردْ لفظُ النّكاحِ في كتابِ اللّهِ إلّا في معنى العقد، لأنه في معنى الوطء، وهوَ منْ آدابِ القرآنِ، الكنايةُ عنهُ بلفظِ:

الملامسةِ والمماسّةِ والقربانِ والتّغشّي والإتيانِ.

الثالثة– استدلَّ بعضُ العلماءِ بقولهِ تعالى: ﴿ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ﴾ وبمهلةِ ﴿ثُمَّ﴾ على أنَّ الطّلاقَ لا يكونُ إلّا بعدَ نكاحٍ وأنَّ منْ طلّقَ المرأةَ قبلَ نكاحها وإنْ عيّنها، فإنَّ ذلكَ لا يلزمهُ. وقالَ هذا نيّفٌ على ثلاثينَ منْ صاحبٍ وتابعٍ وإمامٍ. سمّى البخاريُّ منهمُ اثنينِ وعشرينَ.

وقالتْ طائفةٌ منْ أهلِ العلمِ: إنَّ طلاقَ المعيّنةِ الشّخصِ أوِ القبيلةِ أوِ البلدِ لازمٌ قبلَ النّكاحِ، منهمْ مالكٌ وجميعُ أصحابهِ، وجمعٌ عظيمٌ منْ علماءِ الأمّةِ، فإذا قالَ: كلُّ امرأةٍ أتزوّجها طالقٌ وكل عبد أشتريه حر، لم يلزمه شيء. وإنْ قالَ: كلُّ امرأةٍ أتزوّجها إلى عشرينَ سنةٍ، أوْ إنْ تزوّجتُ منْ بلدِ فلانٍ أوْ منْ بني فلانٍ فهيَ طالقٌ، لزمهُ الطّلاقُ ما لمْ يخفِ العنتَ على نفسهِ في طولِ السّنينَ، أوْ يكونُ عمرهُ في الغالبِ لا يبلغُ ذلكَ، فلهُ أنْ يتزوّجَ. وإنّما لمْ يلزمهُ الطّلاقُ إذا عمّمَ لأنّهُ ضيّقَ على نفسهِ المناكحَ، فلوْ منعناهُ ألّا يتزوّجَ لحرجَ وخيفَ عليهِ العنتُ.

وقدْ قالَ بعضُ أصحابنا: إنّهُ إنْ وجدَ ما يتسرّرُ بهِ لمْ ينكحْ، وليسَ بشيءٍ وذلكَ أنَّ الضّروراتِ والأعذارَ ترفعُ الأحكامَ، فيصيرُ هذا منْ حيثُ الضّرورةِ كمنْ لمْ يحلفْ.

الرابعة– استدلَّ داودُ– ومنْ قالَ بقولهِ– إنَّ المطلّقةَ الرّجعيّةَ إذا راجعها زوجها قبلَ أنْ تنقضيَ عدّتها ثمَّ فارقها قبلَ أنْ يمسّها، أنّهُ ليسَ عليها أنْ تتمَّ عدّتها ولا عدّةً مستقبلةً، لأنّها مطلّقةٌ قبلَ الدّخولِ بها.

وقالت فرقةٌ: تمضي في عدّتها منْ طلاقها الأوّلِ– وهوَ أحدُ قولي الشّافعيِّ–، لأنَّ طلاقهُ لها إذا لمْ يمسّها في حكمِ منْ طلّقها في عدّتها قبلَ أنْ يراجعها. ومنْ طلّقَ امرأتهُ في كلِّ طهرٍ مرّةً بنتْ ولمْ تستأنفْ.

وقالَ أكثرُ أهلِ العلمِ: إذا فارقها قبلَ أنْ يمسّها إنّها لا تبني على ما مضى منْ عدّتها، وإنّها تنشئُ منْ يومِ طلّقها عدّةً مستقبلةً؛ لأنّها في حكمِ الزّوجاتِ المدخولِ بهنَّ في النّفقةِ

والسّكنى وغيرِ ذلكَ، وقدْ ظلمَ زوجها نفسهُ وأخطأَ إنْ كانَ ارتجعها ولا حاجةَ لهُ بها.

الخامسة- فلوْ كانتْ بائنةً غيرَ مبتوتةٍ فتزوّجها في العدّةِ ثمَّ طلّقها قبلَ الدّخولِ فقدِ اختلفوا في ذلكَ أيضـًا، فقالَ: مالكٌ والشّافعيُّ: لها نصفُ الصّداقِ وتتمُّ بقيّةَ العدّةِ الأولى، وقالَ أبو حنيفةَ: لها مهرٌ كاملٌ للنّكاحِ الثّاني وعدّةٌ مستقبلةٌ. جعلوها في حكمِ المدخولِ بها لاعتدادها منْ مائهِ. وقالَ داودُ: لها نصفُ الصّداقِ، وليسَ عليها بقيّةُ العدّةِ الأولى ولا عدّةٌ مستقبلةٌ. والأولى ما قالهُ مالكٌ والشّافعيُّ، واللّهُ أعلمُ.

السّادسةُ- هذهِ الآيةُ مخصّصةٌ لقولهِ تعالى: ﴿وَٱلۡمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصۡنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٖ﴾، ولقولهِ: ﴿وَٱلَّٰٓـِٔي يَئِسۡنَ مِنَ ٱلۡمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمۡ إِنِ ٱرۡتَبۡتُمۡ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشۡهُرٖ﴾.

﴿وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحٗا جَمِيلٗا﴾ فيهِ وجهانِ:

أحدهما: أنّهُ دفعُ المتعة بحسب الميسرة والعسرة.

الثّاني- أنّهُ طلاقها طاهراً منْ غيرِ جماعٍ.

وقيلَ: فسرّحوهنَّ بعدَ الطّلاقِ إلى أهلهنَّ، فلا يجتمعُ الرّجلُ والمطلّقةُ في موضع واحد.

السابعة- قوله تعالى: ﴿فَمَتِّعُوهُنَّ﴾ منسوخةٌ بالآيةِ الّتي في البقرةِ، وهيَ قولهُ: ﴿وَإِن طَلَّقۡتُمُوهُنَّ مِن قَبۡلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدۡ فَرَضۡتُمۡ لَهُنَّ فَرِيضَةٗ فَنِصۡفُ مَا فَرَضۡتُمۡ﴾ أيْ فلمْ يذكرِ المتعةَ. وقدْ مضى الكلامُ في هذا البقرةِ مستوفى.

وقولهُ: ﴿وَسَرِّحُوهُنَّ﴾ طلّقوهنَّ. والتّسريحُ كنايةٌ عنِ الطّلاقِ عندَ أبي حنيفةَ، لأنّهُ يستعملُ في غيرهِ فيحتاجُ إلى النّيّةِ. وعندَ الشّافعيِّ صريحٌ.

﴿جَمِيلٗا﴾ سنّةً، غيرَ بدعةٍ.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ ٱلَّٰتِيٓ ءَاتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَٰلَٰتِكَ ٱلَّٰتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَٱمْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۗ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِيٓ أَزْوَٰجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥٠﴾﴾، فيهِ تسعَ عشرةَ مسألةً:

الأولى: عنْ أمِّ هانئٍ بنتِ أبي طالبٍ قالتْ: خطبني رسولُ اللّهِ ﷺ فاعتذرتُ إليهِ فعذرني، ثمَّ أنزلَ اللّهُ تعالى: ﴿إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ ٱلَّٰتِيٓ ءَاتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَٰلَٰتِكَ ٱلَّٰتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ﴾ قالتْ: فلمْ أكنْ أحلُّ لهُ، لأنّي لمْ أهاجرْ، كنتُ منَ الطّلقاءِ. خرّجهُ أبو عيسى، وقالَ: هذا حديثٌ حسنٌ لا نعرفهُ إلّا منْ هذا الوجهِ. قالَ ابنُ العربيِّ: وهوَ ضعيفٌ جداً ولمْ يأتِ هذا الحديثُ منْ طريقٍ صحيحٍ يحتجُّ بها.

الثانية- لمّا خيرَ رسولُ اللّهِ ﷺ نساءهُ فاخترنهُ، حرّمَ عليهِ التّزوّجُ بغيرهنَّ والاستبدالُ بهنَّ، مكافأةً لهنَّ على فعلهنَّ. والدّليلُ على ذلكَ قولهُ تعالى: ﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ﴾ الآيةَ. وهلْ كانَ يحلُّ لهُ أنْ يطلّقَ واحدةً منهنَّ بعدَ ذلكَ؟ فقيلَ: لا يحل له ذلك جزاء لهنَّ على اختيارهنَّ لهُ. وقيلَ: كانَ يحلُّ لهُ ذلكَ كغيرهِ منَ الناسِ ولكنْ لا يتزوّجُ بدلها. ثمَّ نسخَ هذا التّحريمُ فأباحَ لهُ أنْ يتزوّجَ بمنْ شاءَ عليهنَّ منَ النّساءِ، والدّليلُ عليهِ قولهُ تعالى: ﴿إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ﴾ والإحلالُ يقتضي تقدّمَ حظرٍ. وزوجاتهُ اللّاتي في حياتهِ لمْ يكنَّ محرّماتٍ عليهِ، وإنّما كانَ حرّمَ عليهِ التّزويجُ بالأجنبيّاتِ فانصرفَ الإحلالُ إليهنَّ، ولأنّهُ قالَ في سياقِ الآيةِ ﴿وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّٰتِكَ﴾ الآيةَ. ومعلومٌ أنّهُ لمْ يكنْ تحتهُ أحدٌ منْ بناتِ عمّهِ ولا منْ بناتِ عمّاتهِ ولا منْ بناتِ خالهِ ولا منْ بناتِ خالاتهِ، فثبتَ أنّهُ أحلَّ لهُ التّزويجُ بهذا ابتداءً. وهذهِ الآيةُ وإنْ كانتْ مقدّمةً في التّلاوةِ فهيَ متأخّرةُ النّزولِ على الآيةِ المنسوخةِ بها، كآيتي الوفاةِ في البقرةِ.

وقدِ اختلفَ النّاسُ في تأويلِ قولهِ تعالى: ﴿إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ﴾ فقيلَ: المرادُ بها أنَّ اللّهَ تعالى أحلَّ لهُ أن يتزوج كل امرأة يؤتيها مهرها، فعلى هذا تكونُ الآيةُ مبيحةً جميعَ النّساءِ

حاشا ذواتَ المحارمِ.

وقيلَ: المرادُ أحللنا لكَ أزواجكَ، أيِ الكائناتِ عندكَ، لأنهن قد اخترنك على الدنيا والآخرة، قاله الجمهورُ منَ العلماءِ. وهوَ الظّاهرُ، لأنَّ قولهُ: ﴿ءَاتَيۡتَ أُجُورَهُنَّ﴾ ماضٍ، ولا يكونُ الفعلُ الماضي بمعنى الاستقبالِ إلّا بشروطٍ. ويجيءُ الأمرُ على هذا التّأويل ضيّقًا على النّبيِّ ﷺ. ويؤيّدُ هذا التّأويلَ ما قالهُ ابنُ عبّاسٍ: كانَ رسولُ اللّهِ ﷺ يتزوّجُ في أيِّ النّاسِ شاءَ، وكانَ يشقُّ ذلكَ على نسائه، فلمّا نزلتْ هذهِ الآيةُ وحرّمَ عليهِ بها النّساءُ إلّا منْ سمّيَ، سرَّ نساؤهُ بذلكَ. قلت: والقولُ الأوّلُ أصحُّ لما ذكرناهُ. ويدلُّ أيضًا على صحّتهِ ما خرّجهُ التّرمذيُّ عنْ عطاءٍ قالَ قالتْ عائشةُ رضي الله عنها: ما ماتَ رسولُ اللّهِ ﷺ حتّى أحلَّ اللّهُ تعالى لهُ النّساءَ. قالَ: هذا حديثٌ حسنٌ صحيحٌ.

الثالثة- قولهُ تعالى: ﴿وَمَا مَلَكَتۡ يَمِينُكَ﴾ أحلَّ اللّهُ تعالى السّراريَّ لنبيّهِ ﷺ ولأمّتهِ مطلقًا، وأحلَّ الأزواجُ لنبيّهِ ﷺ مطلقًا، وأحلّهُ للخلقِ بعددٍ. وقولهُ: ﴿مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيۡكَ﴾ أيْ ردّهُ عليكَ منَ الكفّارِ. والغنيمةُ قدْ تسمّى فيئًا، أيْ ممّا أفاءَ اللّهُ عليكَ منَ النّساءِ بالمأخوذِ على وجهِ القهرِ والغلبةِ.

الرابعة- قولهُ تعالى: ﴿وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّٰتِكَ﴾ أيْ أحللنا لكَ ذلكَ زائداً منَ الأزواجِ اللّاتي آتيتَ أجورهنَّ وما ملكتْ يمينكَ، على قولِ الجمهورِ، لأنّهُ لوْ أرادَ أحللنا لكَ كلَّ امرأةٍ تزوّجتَ وآتيتَ أجرها، لما قالَ بعدَ ذلكَ: ﴿وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّٰتِكَ﴾ لأنَّ ذلكَ داخلٌ فيما تقدّمَ. قلت: وهذا لا يلزمُ، وإنّما خصَّ هؤلاءِ بالذّكرِ تشريفًا، كما قالَ تعالى: ﴿فِيهِمَا فَٰكِهَةٞ وَنَخۡلٞ وَرُمَّانٞ﴾. والله أعلم.

الخامسة- قوله تعالى: ﴿ٱلَّٰتِي هَاجَرۡنَ مَعَكَ﴾ فيهِ قولانِ:

الأوّلُ: لا يحلُّ لكَ منْ قرابتكَ كبناتِ عمّكَ العبّاسِ وغيرهِ منْ أولادِ عبدِ المطّلبِ، وبناتِ أولادِ بناتِ عبدِ المطّلبِ، وبناتِ الخالِ منْ ولدِ بناتِ عبدِ منافِ بن زهرة إلا من أسلم، لقول ﷺ: «المسلمُ منْ سلمَ المسلمونَ منْ لسانهِ ويدهِ والمهاجرُ منْ هجرَ ما نهى اللّهُ تعالى عنهُ».

الثّاني: لا يحلُّ لكَ منهنَّ إلّا منْ هاجرَ إلى المدينة، لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيۡءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْۚ﴾ ومنْ لمْ يهاجرْ لمْ يكملْ، ومنْ لمْ يكملْ لمْ يصلحْ للنّبيِّ ﷺ الّذي كملَ وشرفَ وعظمَ ﷺ.

السّادسةُ- قولهُ تعالى: ﴿مَعَكَۚ﴾ المعيّةُ هنا الاشتراكُ في الهجرةِ لا في الصّحبةِ فيها.

السابعة- ذكرَ اللّهُ تباركَ وتعالى العمَّ فرداً والعمّاتِ جمعاً. وكذلكَ قال: ﴿خَالِكَ﴾، و﴿خَٰلَٰتِكَ﴾ والحكمةُ في ذلكَ: أنَّ العمَّ والخالَ في الإطلاقِ اسمُ جنسٍ كالشّاعرِ والرّاجزِ وليسَ كذلكَ العمّةُ والخالةُ. وهذا عرفٌ لغويٌّ فجاءَ الكلامُ عليهِ بغايةِ البيانِ لرفعِ الإشكالِ وهذا دقيقٌ فتأمّلوهُ قالهُ ابنُ العربيِّ.

الثامنة- قولهُ تعالى: ﴿وَٱمۡرَأَةً مُّؤۡمِنَةً﴾ عطفٌ على ﴿أَحۡلَلۡنَا﴾. المعنى وأحللنا لك امرأة تهبُ نفسها منْ غيرِ صداقٍ. وقدِ اختلفَ في هذا المعنى، فرويَ عنِ ابنِ عبّاسٍ أنّهُ قالَ: لمْ تكنْ عندَ رسولِ اللّهِ ﷺ امرأةٌ إلّا بعقدِ نكاحٍ أوْ ملكِ يمينٍ. فأمّا الهبةُ فلمْ يكنْ عندهُ منهنَّ أحدٌ. وقالَ قومٌ: كانتْ عندهُ موهوبةٌ.

قلت: والّذي في الصّحيحينِ يقوّي هذا القولَ ويعضدهُ، روى مسلمٌ عنْ عائشةَ رضي الله عنها أنّها قالتْ: كنتُ أغارُ على اللّاتي وهبنَ أنفسهنَّ لرسولِ اللّهِ ﷺ وأقولُ: أما تستحي امرأةٌ تهبُ نفسها لرجلٍ! حتّى أنزلَ اللّهُ تعالى ﴿۞تُرۡجِي مَن تَشَآءُ مِنۡهُنَّ وَتُـٔۡوِيٓ إِلَيۡكَ مَن تَشَآءُۖ﴾ فقلت: واللّهِ ما أرى ربّكَ إلّا يسارعُ في هواكَ.

وروى البخاريُّ عنْ عائشةَ أنّها قالتْ: كانتْ خولةُ بنتُ حكيمٍ منَ اللّائي وهبنَ أنفسهنَّ لرسولِ اللّهِ ﷺ.

فدلَّ هذا على أنّهنَّ كنَّ غيرَ واحدةٍ. واللّهُ تعالى أعلمُ.

وقيلَ الموهباتُ أربعٌ: ميمونةُ بنتُ الحارثِ، وزينبُ بنتُ خزيمةَ أمُّ المساكينِ الأنصاريّةُ، وأمُّ شريكٍ بنتُ جابرٍ، وخولة بنت حكيم.

التاسعةُ- وقدِ اختلفَ في اسمِ الواهبةِ نفسها، فقيل هي أم شريك الأنصاريّةُ، وقيلَ: هيَ ميمونةُ بنتُ الحارثِ حينَ خطبها النّبيُّ ﷺ، فجاءها الخاطبُ وهيَ على بعيرها فقالتْ:

البعيرُ وما عليهِ لرسولِ اللّهِ ﷺ. وقيلَ: هيَ أمُّ شريكٍ العامريّةُ، وقيلَ: هي زينبُ بنتُ خزيمةَ أمُّ المساكينِ. واللّهُ تعالى أعلمُ.

العاشرةُ- قرأَ جمهورُ النّاسِ ﴿إِن وَهَبَتْ﴾ بكسرِ الألفِ، وهذا يقتضي استئنافَ الأمرِ، أيْ إنْ وقعَ فهوَ حلالٌ لهُ. وقدْ رويَ عنِ ابنِ عبّاسٍ ومجاهدٍ أنّهما قالا: لمْ يكنْ عندَ النّبيِّ ﷺ امرأةٌ موهوبةٌ، وقدْ دلّلنا على خلافهِ. وروى الأئمّةُ في الصّحاحِ: أنَّ امرأةً قالتْ لرسولِ اللّهِ ﷺ: جئتُ أهبُ لكَ نفسي، فسكتَ حتّى قامَ رجلٌ فقالَ: زوّجنيها إنْ لمْ يكنْ لكَ بها حاجةٌ. فلوْ كانتْ هذهِ الهبةُ غيرَ جائزةٍ لما سكتَ رسولِ اللّهِ ﷺ لأنّهُ لا يقرُّ على الباطلِ إذا سمعهُ، غيرَ أنّهُ يحتملُ أنْ يكونَ سكوتهُ منتظراً بيانـاً، فنزلتِ الآيةُ بالتّحليلِ والتّخييرِ، فاختارَ تركها وزوّجها منْ غيرهِ. ويحتملُ أنْ يكونَ سكتَ ناظراً في ذلكَ حتّى قامَ الرّجلُ لها طالبـاً.

وقرأَ أبيُّ بنُ كعبٍ «أَنْ» بفتحِ الألفِ، قالَ النّحّاسُ: وكسرُ ﴿إِن﴾ أجمعُ للمعاني، لأنّهُ قيلَ إنّهنَّ نساءٌ. وإذا فتحَ كانَ المعنى على واحدةٍ بعينها، لأنَّ الفتحَ على البدلِ منِ امرأةٍ، أوْ بمعنى لأنَّ.

الحاديةَ عشرةَ- قولهُ تعالى: ﴿مُّؤْمِنَةً﴾ يدلُّ على أنَّ الكافرةَ لا تحلُّ لهُ. قالَ إمامُ الحرمينِ: وقدِ اختلفَ في تحريمِ الحرّةِ الكافرةِ عليهِ. قالَ ابنُ العربيِّ: والصّحيحُ عندي تحريمها عليهِ. وبهذا يتميّزُ علينا، فإنّهُ ما كانَ منْ جانبِ الفضائلِ والكرامةِ فحظّهُ فيهِ أكثرُ، وما كان من جانبُ النّقائصِ فجانبهُ عنها أطهرُ، فجوّزَ لنا نكاحُ الحرائرِ الكتابيّاتِ، وقصرَ هوَ ﷺ لجلالتهِ على المؤمناتِ. وإذا كانَ لا يحلُّ لهُ منْ لمْ تهاجرْ لنقصانِ فضلِ الهجرةِ فأحرى ألّا تحلَّ لهُ الكافرةُ الكتابيّةُ لنقصانِ الكفرِ.

الثانية عشرةَ- قولهُ تعالى: ﴿إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا﴾ دليلٌ على أنَّ النّكاحَ عقدُ معاوضةٍ على صفاتٍ مخصوصةٍ.

الثالثة عشرةَ- قولهُ تعالى: ﴿إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا﴾ أيْ إذا وهبتِ المرأةُ نفسها وقبلها النّبيُّ ﷺ حلّتْ لهُ، وإنْ لمْ يقبلها لمْ يلزمْ ذلكَ. كما إذا وهبتَ لرجل شيئـاً فلا يجبُ عليهِ القبولُ، بيدَ أنَّ منْ مكارمِ أخلاقِ نبيّنا أنْ يقبلَ منَ الواهبِ هبتهُ. ويرى الأكارمُ أنَّ ردّها

هجنةٌ في العادةِ، ووصمةٌ على الواهبِ وأذيّةٌ لقلبهِ، فبيّنَ اللّهُ ذلكَ في حقّ رسولهِ ﷺ وجعلهُ قرآنا يتلى، ليرفع عنه الحرج، ويُبطلَ بُطْلَ النّاسِ في عادتِهمْ وقولهِمْ.

الرابعة عشرة- قولهُ تعالى: ﴿خَالِصَةً لَّكَ﴾ أيْ هبةُ النّساءِ أنفسهنَّ خالصةً ومزيّةً لا تجوزُ، فلا يجوزُ أنْ تهبَ المرأةُ نفسها لرجلٍ. ووجهُ الخاصّيّةِ أنّها لوْ طلبتْ فرضَ المهرِ قبلَ الدّخولِ لمْ يكنْ لها ذلكَ. فأمّا فيما بيننا فللمفوّضةِ طلبُ المهرِ قبلَ الدّخولِ، ومهرُ المثلِ بعد الدخول.

الخامسة عشرةَ- أجمعَ العلماءُ على أنَّ هبةَ المرأةِ نفسها غيرُ جائزٍ، وأنَّ هذا اللّفظَ منَ الهبةِ لا يتمُّ عليهِ نكاحٌ، إلّا ما رويَ عنْ أبي حنيفةَ وصاحبيهِ فإنّهمْ قالوا: إذا وهبتْ فأشهدَ هوَ على نفسهِ بمهرٍ فذلكَ جائزٌ. قالَ ابنُ عطيّةَ: فليسَ في قولهِمْ إلّا تجويزُ العبارةِ ولفظةِ الهبةِ، وإلّا فالأفعالُ الّتي اشترطوها هيَ أفعالُ النّكاحِ بعينهِ، وقدْ تقدّمتْ هذهِ المسألةُ في القصصِ مستوفاةً. والحمدُ للّهِ.

السادسة عشرةَ- خصَّ اللّهُ تعالى رسوله في أحكام الشريعة بمعان لمْ يشاركهُ فيها أحدٌ- في بابِ الفرضِ والتّحريمِ والتّحليلِ- مزيّةً على الأمّةِ وهبتْ لهُ، ومرتبةً خصَّ بها، ففرضتْ عليهِ أشياءُ ما فرضتْ على غيرهِ، وحرّمتْ عليهِ أفعالٌ لمْ تحرّمْ عليهمْ، وحلّلتْ لهُ أشياءُ لمْ تحلّلْ لهمْ، منها متّفقٌ عليهِ ومختلفٌ فيهِ. فمما فرضَ عليهِ: التّهجّد باللّيلِ، لقولهِ تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيْلَ﴾ الآيةَ. والمنصوصُ أنّهُ كانَ، واجبًا عليهِ ثمَّ نسخَ بقولهِ تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ﴾ وسيأتي، وأمّا ما حرّمَ عليهِ فمنه: تحريمُ الزّكاةِ عليهِ وعلى آلهِ، والتّبدّلُ بأزواجهِ، وحرّمَ اللّهُ عليهِ أشياءَ لمْ يحرّمها على غيرهِ تنزيهًا لهُ وتطهيراً. فحرّمَ اللّهُ عليهِ الكتابةَ وقولَ الشّعرِ وتعليمه، تأكيداً لحجّتهِ وبيانًا لمعجزته قال الله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَـٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ﴾، وأمّا ما أحلَّ لهُ ﷺ فمنه صفيُّ المغنمِ، والوصالُ، والزّيادةُ على أربعِ نسوةٍ، والنّكاحُ بلفظِ الهبةِ، والنّكاحُ بغيرِ وليٍّ، والنّكاحُ بغيرِ صداقٍ، ونكاحهُ في حالةِ الإحرامِ، وسقوطُ القسمِ بينَ الأزواجِ عنهُ،

والقتالُ بمكّةَ، وأنّهُ لا يورثُ، وبقاءُ زوجيّتِهِ منْ بعدِ الموتِ.

وأكرمهُ اللّهُ بتحليلِ الغنائمِ. وجعلتِ الأرضُ لهُ ولأمّتِهِ مسجداً وطهوراً. وكانَ منَ الأنبياءِ منْ لا تصحُّ صلاتهمْ إلّا في المساجدِ. ونُصرَ بالرّعبِ، فكانَ يخافهُ العدوُّ منْ مسيرةِ شهرٍ. وبعثَ إلى كافّةِ الخلقِ، وقدْ كانَ منْ قبلهُ منَ الأنبياءِ يبعثُ الواحدُ إلى بعضِ النّاسِ دونَ بعضٍ. وجعلتْ معجزاتهُ كمعجزاتِ الأنبياءِ قبلهُ وزيادةً.

وكانتْ معجزةُ موسى عليه السلام العصا وانفجارَ الماءِ منَ الصّخرةِ. وقدْ انشقَّ القمرُ للنّبيِّ ﷺ وخرجَ الماءُ منْ بينِ أصابعهِ ﷺ. وكانتْ معجزةُ عيسى عليه السلام إحياءَ الموتى وإبراءَ الأكمهِ والأبرصِ. وقدْ سبّحَ الحصى في يدِ النّبيِّ ﷺ، وحنَّ الجذعُ إليهِ، وهذا أبلغُ. وفضّلهُ اللّهُ عليهمْ بأنْ جعلَ القرآنَ معجزةً لهُ، وجعلَ معجزتهُ فيهِ باقيةً إلى يومِ القيامةِ، ولهذا جعلتْ نبوّتهُ مؤبّدةً لا تنسخُ إلى يومِ القيامةِ.

السابعة عشر - قوله تعالى: ﴿أَن يَسْتَنكِحَهَا﴾ أيْ ينكحها يقالُ: نكحَ واستنكحَ مثلُ عجبَ واستعجبَ وعجلَ واستعجلَ. ويجوزُ أنْ يرد الاستنكاحُ بمعنى طلبِ النّكاحِ أوْ طلبِ الوطء. و ﴿خَالِصَةً﴾ نصب على الحال.

الثامنة عشرة - قولهُ تعالى: ﴿مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ فائدتهُ أنَّ الكفّارَ وإنْ كانوا مخاطبينَ بفروعِ الشّريعةِ عندنا فليسَ لهمْ في ذلكَ دخولٌ، لأنَّ تصريفَ الأحكامِ إنّما يكونُ فيهمْ على تقديرِ الإسلامِ.

قولهُ تعالى: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِىٓ أَزْوَٰجِهِمْ﴾ أي ما أوجبنا على المؤمنين، وهوَ ألّا يتزوّجوا إلّا أربعَ نسوةٍ بمهرٍ وبيّنةٍ ووليٍّ.

التاسعة عشرة - قوله تعالى: ﴿لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ﴾ أيْ ضيقٌ في أمرٍ أنتَ فيهِ محتاجٌ إلى السّعةِ، فَـ ﴿لِّكَيْلَا﴾ متعلّقٌ بقولهِ: ﴿إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ﴾ ثمَّ آنسَ تعالى جميعَ المؤمنينَ بغفرانهِ ورحمتهِ فقال تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ۝٥٠﴾.

قوله تعالى: ﴿۞تُرۡجِي مَن تَشَآءُ مِنۡهُنَّ وَتُـٔۡوِيٓ إِلَيۡكَ مَن تَشَآءُۖ وَمَنِ ٱبۡتَغَيۡتَ مِمَّنۡ عَزَلۡتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكَۚ ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَن تَقَرَّ أَعۡيُنُهُنَّ وَلَا يَحۡزَنَّ وَيَرۡضَيۡنَ بِمَآ ءَاتَيۡتَهُنَّ كُلُّهُنَّۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمٗا ٥١﴾، فيهِ إحدى عشرةَ مسألةً:

الأولى: قولهُ تعالى: ﴿۞تُرۡجِي مَن تَشَآءُ﴾ قرئَ مهموزاً وغيرَ مهموزٍ، وهما لغتانِ، يقالُ: أرجيتُ الأمرَ وأرجأته إذا أخرته. ﴿وَتُـٔۡوِيٓ﴾ تضمُّ، يقالُ: آوى إليهِ ممدودةَ الألفِ ضم إليهِ. وأوى مقصورةَ الألفِ انضمَّ إليهِ.

الثانية- واختلفَ العلماءُ في تأويلِ هذهِ الآيةِ، وأصحُّ ما قيلَ فيها. التّوسعةُ على النّبيِّ ﷺ في تركِ القسمِ، فكانَ لا يجبُ عليهِ القسمُ بينَ زوجاتهِ. وهذا القولُ هوَ الّذي يناسبُ ما مضى، وهوَ الّذي ثبتَ معناهُ في الصّحيحِ عنْ عائشةَ رضي الله عنها، قالتْ: كنتُ أغارُ على اللّائي وهبنَ أنفسهنَّ لرسولِ اللّهِ ﷺ وأقول: أو تهب المرأةُ نفسها لرجلٍ؟ فلمّا أنزلَ اللّهُ عزَّ وجل ﴿۞تُرۡجِي مَن تَشَآءُ مِنۡهُنَّ وَتُـٔۡوِيٓ إِلَيۡكَ مَن تَشَآءُۖ وَمَنِ ٱبۡتَغَيۡتَ مِمَّنۡ عَزَلۡتَ﴾ قالتْ: قلتُ: واللّهِ ما أرى ربّكَ إلّا يسارعُ في هواكَ.

قالَ ابنُ العربيِّ: هذا الّذي ثبتَ في الصّحيحِ هوَ الّذي ينبغي أنْ يعوّلَ عليهِ. والمعنى المرادُ: هوَ أنَّ النّبيَّ ﷺ كانَ مخيّراً في أزواجهِ، إنْ شاءَ أنْ يقسمَ قسمَ، وإنْ شاءَ أنْ يتركَ القسمَ تركَ. فخصَّ النّبيُّ ﷺ بأنْ جعلَ الأمرُ إليهِ فيهِ، لكنّهُ كانَ يقسمُ منْ قبلِ نفسهِ دونَ أنْ فرض ذلكَ عليهِ، تطييباً لنفوسهنَّ، وصوناً لهنَّ عنْ أقوالِ الغيرةِ الّتي تؤدّي إلى ما لا ينبغي.

وقيلَ: كانَ القسمُ واجباً على النّبيِّ ﷺ ثمَّ نسخَ الوجوبُ عنهُ بهذهِ الآيةِ. قالَ أبو رزينٌ: كانَ رسولُ اللّهِ ﷺ قد همَّ بطلاقِ بعضِ نسائهِ فقلنَ لهُ: اقسمْ لنا ما شئتَ. فكانَ ممّنْ آوى عائشةَ وحفصةَ وأمَّ سلمةَ وزينبَ، فكانَ قسمتهنَّ منْ نفسهِ ومالهِ سواءً بينهنَّ. وكانَ ممّنْ أرجى سودةُ وجويريةُ وأمُّ حبيبةَ وميمونةُ وصفيّةُ، فكانَ يقسمُ لهنَّ ما شاءَ. وقيلَ: المرادُ الواهباتُ.

وروى هشامُ بنُ عروةَ عنْ أبيهِ عنْ عائشةَ في قولِهِ: ﴿۞تُرۡجِى مَن تَشَآءُ مِنۡهُنَّ﴾ قالتْ: هذا في الواهباتِ أنفسهنَّ. قالَ الشّعبيُّ: هنَّ الواهباتُ أنفسهنَّ، تزوّجَ رسولُ اللّهِ ﷺ منهنَّ وتركَ منهنَّ.

وقالَ الزّهريُّ: ما علمنا أنَّ رسولَ اللّهِ ﷺ أرجأَ أحداً منْ أزواجِهِ، بلْ آواهنَّ كلّهنَّ. وقالَ ابنُ عبّاسٍ وغيرهُ: المعنى في طلاقِ منْ شاءَ ممّنْ حصلَ في عصمتِهِ، وإمساكِ منْ شاءَ. وقيلَ غيرُ هذا. وعلى كلِّ معنى فالآيةُ معناها التّوسعةُ على رسولِ اللّهِ ﷺ والإباحةُ. وما اخترناهُ أصحُّ واللّهُ أعلمُ.

الثالثة- ذهبَ هبةُ اللّهِ في النّاسخِ والمنسوخِ إلى أنَّ قولهُ: ﴿۞تُرۡجِى مَن تَشَآءُ﴾ الآيةَ، ناسخٌ لقولِهِ: ﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعۡدُ﴾ الآيةَ، وقالَ: ليسَ في كتابِ اللّهِ ناسخٌ تقدّمَ المنسوخَ سوى هذا. وكلامهُ يُضعّفُ منْ جهاتٍ. وفي البقرةِ عدّةُ المتوفّى عنها أربعةُ أشهرٍ وعشرٌ، وهوَ ناسخٌ للحولِ وقدْ تقدّمَ عليهِ.

الرابعة- قولهُ تعالى: ﴿وَمَنِ ٱبۡتَغَيۡتَ مِمَّنۡ عَزَلۡتَ﴾ ﴿ٱبۡتَغَيۡتَ﴾ طلبتَ، والابتغاءُ الطّلبُ. وَ ﴿عَزَلۡتَ﴾ أزلتَ، والعزلةُ الإزالةُ، أيْ إنْ أردتَ أنْ تؤوي إليك امرأة ممن عزلتهنَّ منَ القسمةِ وتضمّها إليكَ فلا بأسَ عليكَ في ذلكَ. كذلكَ حكمُ الإرجاءِ، فدلَّ أحدُ الطّرفينِ على الثّاني.

الخامسة- قولهُ تعالى: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكَۚ﴾ أيْ لا ميلَ، يقالُ: جنحتِ السّفينةُ أيْ مالتْ إلى الأرضِ. أيْ لا ميلَ عليكَ باللّومِ.

السّادسةُ- قولهُ تعالى: ﴿ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَن تَقَرَّ أَعۡيُنُهُنَّ﴾ أيْ ذلكَ التّخييرُ الّذي خيّرناكَ في صحبتهنَّ أدنى إلى رضاهنَّ إذْ كانَ منْ عندنا، لأنّهنَّ إذا علمنَ أنَّ الفعلَ منَ اللّهِ قرّتْ أعينهنَّ بذلكَ ورضينَ، لأنَّ المرءَ إذا علمَ أنّهُ لا حقَّ لهُ في شيء كانَ راضياً بما أوتيَ منهُ وإنْ قلَّ، وكانَ ﷺ معَ هذا يشدّدُ على نفسهِ في رعايةِ التّسويةِ بينهنَّ، تطييباً لقلوبهنَّ ويقولُ: «اللّهمَّ

هذهِ قدرتي فيما أملكُ فلا تلمني فيما تملكُ ولا أملكُ» يعني قلبهُ، لإيثارهِ عائشةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا دونَ أنْ يكونَ يظهر ذلك في شيءٍ منْ فعلهِ.. وكانَ في مرضهِ الّذي توفّيَ فيهِ يطافُ بهِ محمولاً على بيوتِ أزواجهِ، إلى أنِ استأذنهنَّ أنْ يقيمَ في بيتِ عائشةَ. قالتْ عائشةُ: أوّلُ ما اشتكى رسولُ اللّهِ ﷺ في بيتِ ميمونةَ، فاستأذنَ أزواجهُ أنْ يمرّضَ في بيتها -يعني في بيتِ عائشةَ- فأذنَ لهُ... الحديثَ، خرّجهُ الصّحيحُ. وفي الصّحيحِ أيضاً عنْ عائشةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالتْ: إنْ كانَ رسولُ اللّهِ ﷺ ليتفقد يقولُ: «أينَ أنا اليومَ أينَ أنا غداً» استبطاءً ليومِ عائشةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا. قالتْ: فلمّا كانَ يومي قبضهُ اللّهُ تعالى بينَ سحري ونحري ﷺ.

السابعة- على الرّجلِ أنْ يعدلَ بينَ نسائهِ لكلِ واحدةٍ منهنَّ يوماً وليلةً، هذا قولُ عامّةِ العلماءِ. وذهبَ بعضهمْ إلى وجوبِ ذلكَ في اللّيلِ دونَ النّهارِ. ولا يسقطُ حقَّ الزّوجةِ مرضها ولا حيضها، ويلزمهُ المقامُ عندها في يومها وليلتها. وعليهِ أنْ يعدلَ بينهنَّ في مرضهِ كما يفعلُ في صحّتهِ، إلّا أنْ يعجزَ عنِ الحركةِ فيقيمَ حيثُ غلبَ عليهِ المرضُ، فإذا صحَّ استأنفَ القسمَ. والإماءُ والحرائرُ والكتابيّاتُ والمسلماتُ في ذلكَ سواءٌ. قالَ عبدُ الملكِ: للحرّةِ ليلتانِ وللأمةِ ليلةٌ. وأمّا السّراريُّ فلا قسمَ بينهنَّ وبينَ الحرائرِ، ولا حظَّ لهنَّ فيهِ.

الثامنة- ولا يجمعُ بينهنَّ في منزلٍ واحدٍ إلّا برضاهنَّ، ولا يدخلُ لإحداهنَّ في يومِ الأخرى وليلتها لغيرِ حاجةٍ. واختلفَ في دخولهِ لحاجةٍ وضرورةٍ، فالأكثرونَ على جوازهِ، مالكٌ وغيرهُ. وروي أنَّ معاذَ بنَ جبلٍ كانتْ لهُ امرأتانِ، فإذا كانَ يومُ هذهِ لمْ يشربْ منْ بيتِ الأخرى الماءَ. وروي أنه كانتْ لهُ امرأتانِ ماتتا في الطّاعونِ. فأسهمَ بينهما أيّهما تدلى أول.

التاسعةُ- قالَ مالكٌ: ويعدلُ بينهنَّ في النّفقةِ والكسوةِ إذا كنَّ معتدلاتِ الحالِ ولا يلزمُ ذلكَ في المختلفاتِ المناصبَ. وأجازَ مالكٌ أنْ يفضّلَ إحداهما في الكسوةِ على غيرِ وجهِ الميلِ. فأمّا الحبُّ والبغضُ فخارجانِ عنِ الكسبِ فلا يتأتّى العدلُ فيهما، وهوَ المعنيُّ بقولهِ ﷺ في قسمهِ: «اللّهمَّ هذا فعلي فيما أملكُ فلا تلمني فيما تملكُ ولا أملكُ». أخرجهُ النّسائيُّ وأبو داودَ عنْ عائشةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا. وفي كتابِ أبي داودَ «يعني القلبَ»، وإليهِ الإشارةُ بقولهِ تعالى: ﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوٓاْ أَن تَعْدِلُواْ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ﴾ وقولهِ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى

﴿قُلُوبِكُمْۚ﴾. وهذا هوَ وجهُ تخصيصهِ بالذّكرِ هنا، تنبيهاً منه لنا على أنه يعلم ما في قلوبنا منْ ميلِ بعضنا إلى بعضٍ منْ عندنا منَ النّساءِ دونَ بعضٍ، وهو العالم بكل شي ﴿لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ ﴿يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى﴾ لكنّهُ سمحَ في ذلكَ، إذْ لا يستطيعُ العبدُ أنْ يصرفَ قلبهُ عنْ ذلكَ الميلِ، وإلى ذلكَ يعودُ قولهُ: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾.

العاشرةُ- وقيلَ في قولهِ: ﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ﴾: أيْ ذلكَ أقربُ ألّا يحزنَّ إذا لمْ يجمعْ إحداهنَّ معَ الأخرى ويعاينَّ الأثرةَ والميلَ. وروى أبو داودَ عنْ أبي هريرةَ عنِ النّبيِّ ﷺ قال: «منْ كانتْ لهُ امرأتانِ فمالَ إلى إحداهما جاءَ يومَ القيامةِ وشقّهُ مائلٌ».

﴿وَيَرْضَيْنَ بِمَآ ءَاتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّۚ﴾ توكيدٌ للضّميرِ، أيْ ويرضينَ كلّهنَّ.

الحاديةَ عشرةَ- قولهُ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْۚ﴾ خبرٌ عامٌّ، والإشارةُ إلى ما في قلبَ رسولِ اللّهِ ﷺ منْ محبّةِ شخصٍ دونَ شخصٍ. وكذلكَ يدخلُ في المعنى أيضاً المؤمنونَ. وفي البخاريِّ عنْ عمرو بنِ العاصِ أنَّ النّبيَّ ﷺ بعثهُ على جيشِ ذاتِ السّلاسلِ، فأتيتهُ فقلت: أيُّ النّاسِ أحبُّ إليكَ؟ فقالَ: عائشةُ. فقلت: منَ الرّجالِ؟ قالَ: أبوها. قلت: ثمَّ منْ؟ قالَ: عمرُ بنُ الخطّابِ... فعدَّ رجالاً. وقدْ تقدّمَ القولُ في القلبِ بما فيهِ كفايةٌ في أوّلِ البقرةِ، ويروى أنَّ لقمانَ الحكيمَ كانَ عبداً نجّاراً قالَ لهُ سيّدهُ: اذبحْ شاةً وائتني بأطيبها بضعتينِ، فأتاهُ باللّسانِ والقلبِ. ثمَّ أمرهُ بذبحِ شاةٍ أخرى فقالَ: لهُ: ألقِ أخبثها بضعتينِ، فألقى اللّسانَ والقلبَ. فقالَ: أمرتكَ أنْ تأتيني بأطيبها بضعتينِ فأتيتني باللّسانِ والقلبِ، وأمرتكَ أنْ تلقيَ بأخبثها بضعتينِ فألقيتَ اللّسانَ والقلب؟ فقال: ليس شيء أطيبَ منهما إذا طابا، ولا أخبثَ منهما إذا خبثا.

قولهُ تعالى: ﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعۡدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجٖ وَلَوۡ أَعۡجَبَكَ حُسۡنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتۡ يَمِينُكَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ رَّقِيبٗا ٥٢﴾، فيهِ سبعُ مسائلَ:

الأولى: اختلفَ العلماءُ في تأويلِ قولهِ: ﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعۡدُ﴾ على أقوالٍ منها:

الأول: - أنّها منسوخةٌ بالسّنّةِ، والنّاسخُ لها حديثُ عائشةَ، قالتْ: ما ماتَ رسولُ اللّهِ ﷺ حتّى أحلَّ لهُ النّساءُ. وقدْ تقدّمَ.

الثّاني - أنّها منسوخةٌ بقوله عز وجل: ﴿۞تُرۡجِي مَن تَشَآءُ مِنۡهُنَّ وَتُـٔۡوِيٓ إِلَيۡكَ مَن تَشَآءُۖ﴾.

الثّالثُ - أنّها محكمةٌ وحظرَ عليهِ ﷺ أنْ يتزوّجَ على نسائهِ، لأنّهنَّ اخترنَ اللّهَ ورسولهُ والدّارَ الآخرةَ، أو لأنّهُ لمّا حرّمَ عليهنَّ أنْ يتزوّجنَ بعدهُ حرّمَ عليهِ أنْ يتزوّجَ غيرهنَّ.

الثانية - قولهُ تعالى: ﴿وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجٖ﴾ روى الدّارقطنيُّ عنْ أبي هريرةَ قالَ: كانَ البدلُ في الجاهليّةِ أنْ يقولَ الرّجلُ للرّجلِ: انزلْ لي عنِ امرأتكَ وأنزلُ لكَ عنِ امرأتي وأزيدكَ، فأنزلَ اللّهُ عزَّ وجلَّ ﴿وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجٖ وَلَوۡ أَعۡجَبَكَ حُسۡنُهُنَّ﴾.

الثالثة - قولهُ تعالى: ﴿وَلَوۡ أَعۡجَبَكَ حُسۡنُهُنَّ﴾ قالَ ابنُ عبّاسٍ: نزلَ ذلكَ بسببِ أسماءَ بنتِ عميسٍ، أعجبَ رسولَ اللّهِ ﷺ حينَ ماتَ عنها جعفرُ بنُ أبي طالبٍ حسنها، فأرادَ أنْ يتزوّجها، فنزلتِ الآيةُ، وهذا حديثٌ ضعيفٌ قالهُ ابنُ العربيِّ.

الرابعة - في هذهِ الآيةِ دليلٌ على جوازِ أنْ ينظرَ الرّجلُ إلى منْ يريدُ زواجها. وقدْ أرادَ المغيرةُ بنُ شعبةَ زواجَ امرأةٍ، فقالَ: لهُ النّبيُّ ﷺ: «انظرْ إليها فإنه أجدر أن يودم بينكما». وقالَ ﷺ لآخرَ: «انظرْ إليها فإنَّ في أعينِ الأنصارِ شيئًا» أخرجهُ الصّحيحُ.

الخامسة - الأمرُ بالنّظرِ إلى المخطوبةِ إنّما هوَ على جهةِ الإرشادِ إلى المصلحةِ، فإنّهُ إذا نظرَ إليها فلعلّهُ يرى منها ما يرغّبهُ في نكاحها. وممّا يدلُّ على أنَّ الأمرَ على جهةِ الإرشادِ ما ذكرهُ أبو داودَ منْ حديثِ جابرٍ عنِ النّبيِّ ﷺ أنّهُ قالَ: «إذا خطبَ أحدكمُ المرأةَ فإنِ استطاعَ أنْ ينظرَ منها إلى ما يدعوهُ إلى نكاحها فليفعلْ». فقولهُ: «فإنِ استطاعَ فليفعلْ» لا يقالُ مثلهُ في

الواجبِ. وبهذا قالَ جمهورُ الفقهاءِ مالكٌ والشّافعيُّ والكوفيّونَ وغيرهمْ وأهلُ الظّاهرِ. وقدْ كرهَ ذلكَ قومٌ لا مبالاةَ بقولهمْ، للأحاديثِ الصّحيحةِ، وقولهِ تعالى: ﴿وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ﴾.

السّادسةُ- اختلفَ فيما يجوزُ أنْ ينظرَ منها، فقالَ: مالكٌ: ينظرُ إلى وجهها وكفّيها، ولا ينظرُ إلّا بإذنها. وقالَ الشّافعيُّ وأحمدُ: بإذنها وبغيرِ إذنها إذا كانتْ مستترةً. وقالَ الأوزاعيُّ: ينظرُ إليها ويجتهدُ وينظرُ مواضعَ اللّحمِ منها. قالَ داودُ: ينظرُ إلى سائرِ جسدها، تمسّكًا بظاهرِ اللّفظِ. وأصولُ الشّريعةِ تردُّ عليهِ في تحريمِ الاطّلاعِ على العورةِ. واللّهُ أعلمُ.

السابعة- قولهُ تعالى: ﴿إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ﴾ اختلفَ العلماءُ في إحلالِ الأمةِ الكافرةِ للنّبيِّ ﷺ على قولين:

الأول: تحل لعموم قوله: ﴿إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ﴾.

القولُ الثّاني- لا تحلُّ، تنزيهًا لقدرهِ عنْ مباشرةِ الكافرةِ، وقدْ قالَ اللّهُ تعالى: ﴿وَلَا تُمْسِكُوا۟ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ﴾ فكيف به ﷺ.

قولهُ تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤۡذَنَ لَكُمۡ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيۡرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَٰكِنۡ إِذَا دُعِيتُمۡ فَٱدۡخُلُواْ فَإِذَا طَعِمۡتُمۡ فَٱنتَشِرُواْ وَلَا مُسۡتَـٔۡنِسِينَ لِحَدِيثٍۚ إِنَّ ذَٰلِكُمۡ كَانَ يُؤۡذِي ٱلنَّبِيَّ فَيَسۡتَحۡيِۦ مِنكُمۡۖ وَٱللَّهُ لَا يَسۡتَحۡيِۦ مِنَ ٱلۡحَقِّۚ وَإِذَا سَأَلۡتُمُوهُنَّ مَتَٰعٗا فَسۡـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٖۚ ذَٰلِكُمۡ أَطۡهَرُ لِقُلُوبِكُمۡ وَقُلُوبِهِنَّۚ وَمَا كَانَ لَكُمۡ أَن تُؤۡذُواْ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓاْ أَزۡوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦٓ أَبَدًاۚ إِنَّ ذَٰلِكُمۡ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا ٥٣﴾، فيهِ ستَّ عشرةَ مسألةً:

الأولى: قولهُ تعالى: ﴿لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤۡذَنَ لَكُمۡ﴾ ﴿أَن﴾ في موضع نصبٍ على معنى: إلّا بأنْ يؤذنَ لكمْ، ويكونُ الاستثناءُ ليسَ منَ الأول ﴿إِلَىٰ طَعَامٍ غَيۡرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ﴾ نصبَ على الحالِ، أيْ لا تدخلوا في هذهِ الحالِ.

قالَ حمّادُ بنُ زيدٍ: هذهِ الآيةُ نزلتْ في الثّقلاءِ.

وقالَ إسماعيلُ بنُ أبي حكيمٍ: وهذا أدبٌ أدّبَ اللّهُ بهِ الثّقلاءَ.

وقالَ ابنُ أبي عائشةَ في كتابِ الثّعلبيِّ: حسبكَ منَ الثّقلاءِ أنَّ الشّرعَ لمْ يحتملهمْ.

وهذهِ الآيةُ تضمّنتْ قصّتينِ:

إحداهما- الأدبُ في أمرِ الطّعامِ والجلوسِ.

والثانية- أمرُ الحجابِ.

فأمّا القصّةُ الأولى: فالجمهورُ منَ المفسّرينَ على أنَّ: سببها أنَّ رسولَ اللّهِ ﷺ لمّا تزوّجَ زينبَ بنتَ جحشٍ امرأةَ زيدٍ أولمَ عليها، فدعا النّاسَ، فلمّا طعموا جلسَ طوائفُ منهمْ يتحدّثونَ في بيتُ رسولِ اللّهِ ﷺ وزوجتهُ مولّيةٌ وجهها إلى الحائطِ، فثقلوا على رسولِ اللّهِ ﷺ. قالَ أنسٌ: فما أدري أأنا أخبرتُ النّبيَّ ﷺ أنَّ القومَ قدْ خرجوا أوْ أخبرني. قالَ: فانطلقَ حتّى دخلَ البيتَ، فذهبتُ أدخلُ معهُ فألقى السّترَ بيني وبينهُ ونزلَ الحجابُ. قالَ: ووعظَ القومُ بما وعظوا بهِ، وأنزلَ اللّهُ عزَّ وجلَّ ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ﴾ - إلى قولهِ- ﴿إِنَّ ذَٰلِكُمۡ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا ٥٣﴾ أخرجهُ الصّحيحُ.

وأمّا قصّةُ الحجابِ فقالَ: أنسُ بنُ مالكٍ وجماعةٌ: سببها أمرُ القعودِ في بيتِ زينبَ،

القصّةُ المذكورةُ آنفـًا.

وقالتْ عائشةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا وجماعةٌ: سببها أنَّ عمرَ قالَ قلت: يا رسولَ اللّهِ، إنَّ نساءكَ يدخلُ عليهنَّ البرُّ والفاجرُ، فلوْ أمرتهنَّ أنْ يحتجبنَ، فنزلتِ الآيةُ. وروى الصّحيحُ عنِ ابنُ عمرَ قالَ: قالَ عمرُ وافقتُ ربّي في ثلاثٍ: في مقامِ إبراهيمَ، وفي الحجابِ، وفي أسارى بدرٍ. هذا أصحُّ ما قيلَ في أمرِ الحجابِ، وما عدا هذينِ القولينِ منَ الأقوالِ والرّواياتِ فواهية، لا يقوم شيء منها على ساقٍ.

الثانية- قولهُ تعالى: ﴿بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ﴾ دليلٌ على أنَّ البيتَ للرّجلِ، ويحكمُ لهُ بهِ، فإنَّ اللّهَ تعالى أضافهُ إليهِ. فإن قيل: فقدْ قالَ اللّهُ تعالى: ﴿وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴿٣٤﴾﴾ قلنا: إضافةُ البيوتِ إلى النّبيِّ ﷺ إضافةُ ملكٍ، وإضافةُ البيوتِ إلى الأزواجِ إضافةُ محلٍّ، بدليلِ أنّهُ جعلَ فيها الإذنَ للنّبيِّ ﷺ والإذنُ إنّما يكونُ للمالكِ.

الثالثة- واختلفَ العلماءُ في بيوتِ النّبيِّ ﷺ إذْ كانَ يسكنُ فيها أهلهُ بعدَ موتهِ، هلْ هي ملك لهن أم لا على قولين:

فقالتْ طائفةٌ: كانتْ ملكـًا لهنَّ، بدليلِ أنّهنَّ سكنَّ فيها بعدَ موتِ النّبيِّ ﷺ إلى وفاتهنَّ، وذلكَ أنَّ النّبيَّ ﷺ وهبَ ذلكَ لهنَّ في حياتهِ.

الثّاني- أنَّ ذلكَ كانَ إسكانـًا كما يسكنُ الرّجلُ أهلهُ ولمْ يكنْ هبةً، وتمادى سكناهنَّ بها إلى الموتِ. وهذا هوَ الصّحيحُ، ويدلُّ على ذلكَ أنَّ مساكنهنَّ لمْ يرثها عنهنَّ ورثتهنَّ، وإنما كان لهن سكنٌ حياتهنَّ، فلمّا توفّينَ جعلَ ذلكَ زيادةً في المسجدِ الّذي يعمُّ المسلمينَ نفعهُ.

قولهُ تعالى: ﴿غَيْرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ﴾ أيْ غيرَ منتظرينَ وقتَ نضجهِ. وَ ﴿إِنَىٰهُ﴾ مقصورٌ، وهو مصدرُ أنى الشّيءَ يأني إذا فرغَ وحانَ وأدركَ.

الرابعة- قولهُ تعالى: ﴿وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُواْ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُواْ﴾ فأكّدَ المنعَ، وخصَّ وقتَ الدّخولِ بأنْ يكونَ عندَ الإذنِ على جهةِ الأدبِ، وحفظِ الحضرةِ الكريمةِ منَ المباسطةِ المكروهةِ. قالَ ابنُ العربيِّ: وتقديرُ الكلامِ: ولكنْ إذا دعيتمْ وأذنَ لكمْ في الدّخولِ

فادخلوا، وإلّا فنفسُ الدّعوةِ لا تكونُ إذنـاً كافيـاً في الدّخولِ. والفاءُ في جوابِ ﴿إِذَا﴾ لازمةٌ لما فيها من معنى المجازاة.

الخامسة- قوله تعالى: ﴿فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُواْ﴾ أمرَ تعالى بعدَ الإطعامِ بأنْ يتفرّقَ جميعهمْ وينتشروا. والمرادُ إلزامُ الخروجِ منَ المنزلِ عندَ انقضاءِ المقصودِ منَ الأكلِ. والدّليلُ على ذلكَ أنَّ الدّخولَ حرامٌ، وإنّما جازَ لأجلِ الأكلِ، فإذا انقضى الأكلُ زالَ السّببُ المبيحُ وعادَ التحريم إلى أصله.

السّادسةُ- في هذهِ الآيةِ دليلٌ على أنَّ الضّيفَ يأكلُ على ملكِ المضيفِ لا على ملكِ نفسهِ، لأنّهُ قالَ: ﴿فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُواْ﴾ فلمْ يجعلْ لهُ أكثرَ منَ الأكلِ، ولا أضافَ إليهِ سواهُ، وبقيَ الملكُ على أصلهِ.

السابعة- قولهُ تعالى: ﴿وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍۚ﴾ عطفٌ على قولهِ: ﴿غَيْرَ نَٰظِرِينَ﴾ وَ﴿غَيْرَ﴾ منصوبةٌ على الحالِ منَ الكافِ والميمِ في ﴿لَكُمْ﴾ أيْ غيرَ ناظرينَ ولا مستأنسينَ، والمعنى، المقصودُ: لا تمكثوا مستأنسينَ بالحديثِ كما فعلَ أصحاب رسولِ اللّهِ ﷺ في وليمةِ زينبَ ﴿إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْۖ وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْىِۦ مِنَ ٱلْحَقِّۚ﴾ أيْ لا يمتنعُ منْ بيانهِ وإظهارهِ. ولمّا كانَ ذلكَ يقعُ منَ البشرِ لعلّةِ الاستحياءِ نفيَ عنِ اللّهِ تعالى العلّةُ الموجبةُ لذلكَ في البشرِ. وفي الصّحيحِ عنْ أمِّ سلمةَ قالتْ: جاءتْ أمُّ سليمٍ إلى النّبيِّ ﷺ فقالتْ: يا رسولَ اللّهِ، إنَّ الله لا يستحي منَ الحقِّ، فهلْ على المرأةِ منْ غسلٍ إذا احتلمتْ؟ فقالَ: رسولُ اللّهِ ﷺ: «إذا رأتِ الماءَ».

الثامنة- قولهُ تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا﴾ الآية. روى أبو داودَ الطّيالسيُّ عنْ أنسِ بنِ مالكٍ قالَ: قالَ عمرُ: وافقتُ ربّي في أربعٍ ...، الحديثَ. وفيهِ: قلتُ: يا رسولَ اللّهِ، لوْ ضربتَ على نسائكَ الحجابَ، فإنّهُ يدخلُ عليهنَّ البرُّ والفاجرُ، فأنزلَ اللّهُ عزَّ وجلَّ ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍۚ﴾. واختلفَ في المتاعِ، فقيلَ: ما يتمتع به من العواري. وقيل فتوى. وقيلَ صحفُ القرآنِ. والصّوابُ أنّهُ عامٌّ في جميعِ ما يمكنُ أنْ يطلبَ منَ المواعينِ وسائرِ المرافقِ للدّينِ والدّنيا.

التاسعةُ- في هذهِ الآيةِ دليلٌ على أنَّ اللّهَ تعالى أذنَ في مسألتهنَّ منْ وراءِ حجابٍ، في حاجةٍ تعرضُ، أوْ مسألةٍ يستفتينَ فيها، ويدخلُ في ذلكَ جميعُ النّساءِ بالمعنى، وبما تضمّنتهُ أصولُ الشّريعةِ منْ أنَّ المرأةَ كلّها عورةٌ، بدنها وصوتها، كما تقدّمَ، فلا يجوزُ كشفُ ذلكَ إلّا لحاجةٍ كالشّهادةِ عليها، أوْ داءٍ يكونُ ببدنها، أوْ سؤالها عمّا يعرضُ وتعيّنَ عندها.

العاشرةُ- استدلَّ بعضُ العلماءِ بأخذِ النّاسِ عنْ أزواجِ النّبيِّ ﷺ منْ وراءِ حجابٍ على جوازِ شهادةِ الأعمى، وبأنَّ الأعمى يطأُ زوجتهُ بمعرفتهِ بكلامها. وعلى إجازة شهادتهِ أكثرُ العلماءِ، ولمْ يجزها أبو حنيفةَ والشّافعيُّ وغيرهما. قالَ أبو حنيفةَ: تجوزُ في الأنسابِ. وقالَ الشّافعيُّ: لا تجوزُ إلّا فيما رآهُ قبلَ ذهابِ بصرهِ.

الحاديةَ عشرةَ- قولهُ تعالى: ﴿ذَٰلِكُمۡ أَطۡهَرُ لِقُلُوبِكُمۡ وَقُلُوبِهِنَّۚ﴾ يريدُ منَ الخواطرِ الّتي تعرضُ للرّجالِ في أمرِ النّساءِ، وللنّساءِ في أمرِ الرّجالِ، أيْ ذلكَ أنفى للرّيبةِ وأبعدُ للتّهمةِ وأقوى في الحمايةِ. وهذا يدلُّ على أنّهُ لا ينبغي لأحدٍ أنْ يثقَ بنفسهِ في الخلوةِ معَ منْ لا تحلُّ لهُ فإنَّ مجانبةَ ذلكَ أحسنُ لحالهِ وأحصن لنفسه وأتم لعصمته.

الثانية عشرة- قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمۡ أَن تُؤۡذُواْ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾ الآيةَ. هذا تكرارٌ للعلّةِ وتأكيدٌ لحكمها، وتأكيدُ العللِ أقوى في الأحكامِ.

الثالثة عشرةَ- قولهُ تعالى: ﴿وَلَآ أَن تَنكِحُوٓاْ أَزۡوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦٓ أَبَدًاۚ﴾ حرّمَ اللّهُ نكاحَ أزواجهِ منْ بعدهِ، وجعلَ لهنَّ حكمَ الأمّهاتِ. وهذا منْ خصائصهِ تمييزاً لشرفهِ وتنبيهاً على مرتبتهِ ﷺ. قالَ الشّافعيُّ رحمهُ اللّهُ: وأزواجهُ ﷺ اللّاتي ماتَ عنهنَّ لا يحلُّ لأحدٍ نكاحهنَّ، ومنِ استحلَّ ذلكَ كانَ كافراً، لقولهِ تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمۡ أَن تُؤۡذُواْ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓاْ أَزۡوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦٓ أَبَدًاۚ﴾. وقدْ قيلَ: إنّما منعَ منَ التّزوّجِ بزوجاتهِ، لأنّهنَّ أزواجهُ في الجنّةِ، وأنَّ المرأةَ في الجنّةِ لآخرِ أزواجها.

الرابعة عشرة- اختلفَ العلماءُ في أزواجِ النّبيِّ ﷺ بعدَ موتهِ، هلْ بقينَ أزواجاً أمْ زالَ

النّكاحُ بالموتِ، وإذا زالَ النّكاحُ بالموتِ فهلْ عليهنَّ عدّةٌ أمْ لا؟ فقيلَ: عليهنَّ العدّةُ، لأنّهُ توفّيَ عنهنَّ، والعدّةُ عبادةٌ. وقيلَ: لا عدّةَ عليهنَّ، لأنّها مدّةُ تربّصٍ لا ينتظرُ بها الإباحةُ. وهوَ الصّحيحُ، لقولهِ ﷺ: «ما تركتُ بعدَ نفقةِ عيالي» ورويَ ﴿أَهْلِي﴾ وهذا اسمٌ خاصٌّ بالزّوجيّةِ، فأبقى عليهنَّ النّفقةَ والسّكنى مدّةَ حياتهنَّ لكونهنَّ نساءهُ، وحرّمنَ على غيرهِ، وهذا هوَ معنى بقاءِ النّكاحِ. وإنّما جعلَ الموتُ في حقّهِ ﷺ لهنَّ بمنزلةِ المغيّبِ في حقِّ غيرهِ، لكونهنَّ أزواجًا لهُ في الآخرةِ قطعًا بخلافِ سائرِ النّاسِ، لأنَّ الرّجلَ لا يعلمُ كونهُ معَ أهلهِ في دارٍ واحدةٍ، فربّما كانَ أحدهما في الجنّةِ والآخرُ في النّارِ، فبهذا انقطعَ السّببُ في حقِّ الخلقِ وبقيَ في حقِّ النّبيِّ ﷺ.

فرعٌ - فأمّا زوجاتهُ ﷺ اللّاتي فارقهنَّ في حياتهِ مثلُ الكلبيّةِ وغيرها، فهلْ كانَ يحلُّ لغيرهِ نكاحهنَّ؟ فيهِ خلافٌ. والصّحيحُ جوازُ ذلكَ، لما رويَ أنَّ الكلبيّةَ الّتي فارقها رسولُ اللّهِ ﷺ تزوّجها عكرمةُ بنُ أبي جهلٍ على ما تقدّمَ. وقيلَ: إنَّ الّذي تزوّجها الأشعثُ بنُ قيسٍ الكنديُّ. قالَ القاضي أبو الطّيّبِ: الّذي تزوّجها مهاجرُ بنُ أبي أميّةَ، ولمْ ينكرْ ذلكَ أحدٌ، فدلَّ على أنّهُ إجماع.

الخامسة عشرة - قوله تعالى: ﴿إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا﴾ يعني أذيّةَ رسولُ اللّهِ ﷺ أوِ نكاحَ أزواجهِ فجعلَ ذلكَ منْ جملةِ الكبائرِ ولا ذنبَ أعظمُ منهُ.

السادسة عشرةَ - قدْ بيّنّا سببَ نزولِ الحجابِ منْ حديثِ أنسٍ وقولِ عمرَ، وكانَ يقولُ لسودةَ إذا خرجتْ وكانتِ امرأةً طويلةً: قدْ رأيناكِ يا سودةَ، حرصًا على أنْ ينزلَ الحجابُ، فأنزلَ اللّهُ آيةَ الحجابِ. ولا بعدَ في نزولِ الآيةِ عندَ هذهِ الأسبابِ كلّها - واللّهُ أعلمُ - بيدَ أنّهُ لمّا ماتتْ زينبُ بنتُ جحشٍ قالَ: لا يشهدُ جنازتها إلّا ذو محرمٍ منها، مراعاةً للحجابِ الّذي نزلَ بسببها. فدلّتهُ أسماءُ بنتُ عميسٍ على سترها في النّعشِ في القبّةِ، وأعلمتهُ أنّها رأتْ ذلكَ في بلادِ الحبشةِ فصنعهُ عمرُ. ورويَ أنَّ ذلكَ صنعَ في جنازةِ فاطمةَ بنتِ النّبيِّ ﷺ.

قولهُ تعالى: ﴿إِن تُبْدُواْ شَيْـًٔا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٥٤﴾﴾

الباريُ سبحانهُ وتعالى عالمٌ بما بدا وما خفيَ وما كانَ وما لمْ يكنْ، لا يخفى عليهِ ماضٍ تقضّى، ولا مستقبلٍ يأتي. وهذا على العمومِ تمدّحٌ بهِ، وهوَ أهلُ المدحِ والحمدِ. والمرادُ به ها هنا التّوبيخُ والوعيدُ لمنْ تقدّمَ التّعريضُ بهِ في الآيةِ قبلها، ممّنْ أشيرَ إليهِ بقولهِ: ﴿ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾، ومنْ أشيرَ إليهِ في قولهِ: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُواْ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓاْ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا﴾ فقيلَ لهمْ في هذهِ الآيةِ: إنَّ اللّهَ تعالى يعلمُ ما تخفونهُ منْ هذهِ المعتقداتِ والخواطرِ المكروهةِ ويجازيكمْ عليها. فصارتْ هذهِ الآيةُ منعطفةً على ما قبلها مبينة لها. والله أعلم.

قولهُ تعالى: ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِىٓ ءَابَآئِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآئِهِنَّ وَلَآ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ أَخَوَٰتِهِنَّ وَلَا نِسَآئِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ ۗ وَٱتَّقِينَ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدًا ﴿٥٥﴾﴾، فيهِ ثلاثُ مسائلَ:

الأولى: لمّا نزلتْ آيةُ الحجابِ قالَ الآباءُ والأبناءُ والأقاربُ لرسولِ اللّهِ ﷺ: ونحنُ أيضاً نكلّمهنَّ منْ وراءِ حجابٍ؟ فنزلتْ هذهِ الآيةُ.

الثانية- ذكرَ اللّه تعالى في هذهِ الآيةِ منْ يحلُّ للمرأةِ البروزُ لهُ، ولمْ يذكرِ العمَّ والخالَ لأنّهما يجريانِ مجرى الوالدينِ. وقدْ يسمّى العمُّ أباً، قالَ اللّهُ تعالى: ﴿نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِۦمَ وَإِسْمَٰعِيلَ﴾ وإسماعيلُ كانَ العمَّ، وقدْ ذكرَ في هذهِ الآيةِ بعضَ المحارمِ وذكرَ الجميعُ في سورةِ النّورِ، فهذهِ الآيةُ بعضُ تلكَ.

الثالثة- قولهُ تعالى: ﴿وَٱتَّقِينَ ٱللَّهَ﴾ لمّا ذكرَ اللّهُ تعالى الرّخصةَ في هذهِ الأصنافِ وانجزمتِ الإباحةُ، عطفَ بأمرهنَّ بالتّقوى عطفَ جملةٍ. وهذا في غايةِ البلاغةِ والإيجازِ، كأنّهُ قالَ: اقتصرنَ على هذا واتّقينَ اللّهَ فيهِ أنْ تتعدّينهُ إلى غيرهِ. وخصَّ النّساءَ بالذّكرِ وعيّنهنَّ في هذا الأمرِ، لقلّةِ تحفّظهنَّ وكثرةِ استرسالهنَّ. واللّهُ أعلم. ثم توعد تعالى بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدًا﴾.

قولهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا ٥٦﴾

هذهِ الآيةُ شرّفَ اللّهُ بها رسولهُ ﷺ حياتهُ وموتهُ، وذكرَ منزلتهُ منهُ، وطهّرَ بها سوءَ فعلِ من استصحبَ في جهتهِ فكرةَ سوءٍ، أوْ في أمرِ زوجاتهِ ونحوَ ذلكَ. والصّلاةُ منَ اللّهِ رحمتهُ ورضوانهُ، ومنَ الملائكةِ الدّعاءُ والاستغفارُ، ومنَ الأمّةِ الدّعاءُ والتّعظيمُ لأمرهِ.

مسألةٌ- واختلفَ العلماءُ في الضّميرِ في قولهِ: ﴿يُصَلُّونَ﴾ فقالتْ فرقةٌ: الضّميرُ فيهِ للّهِ والملائكةِ شرّفَ بهِ ملائكتهُ، فلا يصحبهُ الاعتراضُ الّذي جاءَ في قولِ الخطيبِ: منْ يطعِ اللّهَ ورسولهُ فقدْ رشدَ، ومنْ يعصهما فقدْ غوى. فقالَ: لهُ رسولُ اللّهِ ﷺ: «بئس الخطيب أنت، قل ومن يعصى اللّهَ ورسولهُ» أخرجهُ الصّحيحُ. قالوا: لأنّهُ ليسَ لأحدٍ أنْ يجمعَ ذكرَ اللّهِ تعالى معَ غيرهِ في ضميرٍ، وللّهِ أنْ يفعلَ في ذلكَ ما يشاءُ.

وقالتْ فرقةٌ: في الكلامِ حذفٌ، تقديرهُ إنَّ اللّهَ يصلّي وملائكتهُ يصلّونَ، وليسَ في الآيةِ اجتماعٌ في ضميرٍ.

قولهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا﴾ فيهِ خمسُ مسائلَ:

الأولى: قولهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا﴾ أمرَ اللّهُ تعالى عبادهُ بالصّلاةِ على نبيّهِ محمّدٍ ﷺ دونَ أنبيائهِ تشريفًا لهُ، ولا خلافَ في أنَّ الصّلاةَ عليهِ فرضٌ في العمرِ مرّةً، وفي كلِّ حينٍ منَ الواجباتِ وجوبَ السّننِ المؤكّدةِ الّتي لا يسعُ تركها ولا يغفلها إلّا منْ لا خيرَ فيهِ. وقدِ اختلفوا في وجوبها، فمنهمْ منْ أوجبها كلّما جرى ذكرهُ. وفي الحديث: «منْ ذكرتُ عندهُ فلمْ يصلِّ عليَّ فدخل النار فأبعده الله».

ومنهمْ منْ قالَ: تجبُ في كلِّ مجلسٍ مرّةً وإنْ تكرّرَ ذكرهُ، كما قالَ في آيةِ السّجدةِ وتشميتِ العاطسِ. وكذلكَ في كلِّ دعاءٍ في أوّلهِ وآخرهِ.

ومنهمْ منْ أوجبها في العمرِ. وكذلكَ قالَ في إظهارِ الشّهادتينِ.

والّذي يقتضيهِ الاحتياطُ: الصّلاةُ عندَ كلِّ ذكرٍ، لما وردَ منَ الأخبارِ في ذلكَ.

الثانية- في صفةِ الصّلاةِ عليهِ ﷺ فروى مسلمٌ في صحيحهِ من حديثِ أبي حميدٍ السّاعديِّ وعنْ كعبِ بنِ عجرةَ وأبي مسعود بألفاظ متقاربة أنهم قالوا: يا رسول الله قد علمنا كيف نسلمُ عليكَ فكيفَ نصلي عليك؟ قالَ: قولوا: «اللّهمَّ صلِّ على محمّدٍ وعلى آلِ محمّدٍ كما صلّيتَ على آل إبراهيمَ، اللهم باركْ على محمّدٍ وعلى آلِ محمّدٍ كما باركتَ على آلِ إبراهيمَ إنّكَ حميدٌ مجيدٌ».

فبيّنَ كيفَ الصّلاةُ عليهِ وعلّمهمْ في التّحيّاتِ كيفَ السّلامُ عليهِ، وهوَ قولهُ: «السّلامُ عليكَ أيّها النّبيُّ ورحمةُ اللّهِ وبركاتهُ».

الثالثة- في فضلِ الصّلاةِ على النّبيِّ ﷺ: ثبتَ عنهُ ﷺ أنّهُ قالَ: «منْ صلّى عليَّ صلاةً صلّى اللّهُ عليهِ بها عشراً».

وقالَ سهلُ بنُ عبدِ اللّهِ: الصّلاةُ على محمّدٍ ﷺ أفضلُ العباداتِ، لأنَّ اللّهَ تعالى تولّاها هوَ وملائكتهُ، ثمَّ أمرَ بها المؤمنينَ، وسائرُ العباداتِ ليسَ كذلكَ.

قالَ أبو سليمانُ الدّارانيُّ: منْ أرادَ أنْ يسألَ اللّهَ حاجةً فليبدأْ بالصّلاةِ على النّبيِّ ﷺ، ثمَّ يسألُ اللّهَ حاجتهُ، ثمَّ يختمُ بالصّلاةِ على النّبيِّ ﷺ فإنَّ اللّهَ تعالى يقبلُ الصّلاتينِ وهوَ أكرمُ منْ أنْ يردَّ ما بينهما.

الرابعة- واختلفَ العلماءُ في الصّلاةِ على النّبيِّ ﷺ في الصّلاةِ، فالّذي عليهِ الجمُّ الغفيرُ والجمهورُ الكثيرُ: أنَّ ذلكَ منْ سننِ الصّلاةِ ومستحبّاتها. قالَ ابنُ المنذرِ: يستحبُّ ألّا يصلّيَ أحدٌ صلاةً إلّا صلّى فيها على رسولِ اللّهِ ﷺ، فإنْ ترك ذلك تارك فصلاته مجزية في مذاهب مالكٍ وأهلِ المدينةِ وأهلِ الكوفةِ منْ أصحابِ الرّأيِ وغيرهمْ. وهوَ قولُ جلِّ أهلِ العلمِ، وقالَ الشّافعيُّ إذا لمْ يصلِّ على النّبيِّ ﷺ في التّشهّدِ الأخيرِ بعدَ التّشهّدِ وقبلَ التّسليم أعادَ الصّلاةَ. قالَ: وإنْ صلّى عليهِ قبلَ ذلكَ لمْ تجزهِ. وزعمَ الطّحاويُّ أنّهُ لمْ يقلْ بهِ أحدٌ منْ أهلِ العلمِ غيرهُ. وقالَ الخطّابيُّ وهوَ منْ أصحابِ الشّافعيِّ: وليستْ بواجبةٍ في الصّلاةِ، وهوَ قولُ جماعةِ الفقهاءِ إلّا الشّافعيَّ، ولا أعلمُ لهُ فيها قدوةً. والدّليلُ على أنّها ليستْ منْ فروضِ الصّلاةِ عملُ السّلفِ الصّالحِ قبلَ الشّافعيِّ وإجماعهمْ عليهِ، وقدْ شنّعَ عليهِ في هذهِ المسألةِ جداً.

الخامسة- قوله تعالى: ﴿وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا﴾ عندَ حضورهِمْ قبرهُ وعندَ ذكرهِ، وروى النّسائيُّ عنْ عبدِ اللّهِ قالَ: قالَ رسولُ اللّهِ ﷺ: «إنَّ للّهِ ملائكةً سيّاحينَ في الأرضِ يبلّغوني منْ أمّتي السّلامَ».

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمۡ عَذَابٗا مُّهِينٗا ٥٧﴾، فيهِ خمسُ مسائلَ:

الأولى: اختلفَ العلماءُ في أذية الله بماذا تكونُ؟ فقالَ: الجمهورُ منَ العلماءِ: معناهُ بالكفرِ ونسبةِ الصّاحبةِ والولدِ والشّريكِ إليهِ، ووصفهِ بما لا يليقُ بهِ، كقولِ اليهودِ لعنهمُ اللّهُ: وقالتِ اليهودُ يدُ اللّهِ مغلولةٌ. والنّصارى: المسيحُ ابنُ اللّهِ. والمشركونَ: الملائكةُ بناتُ اللّهِ والأصنامُ شركاؤهُ. وفي صحيحِ البخاريِّ قالَ اللّهُ تعالى: «كذّبني ابنُ آدمَ ولمْ يكنْ لهُ ذلكَ وشتمني ولمْ يكنْ لهُ ذلكَ...» الحديثَ، وفي صحيحِ مسلمٍ عنْ أبي هريرةَ مرفوعا: «يؤذيني ابن آدم يسبُّ الدّهرَ وأنا الدّهرُ أقلّبُ اللّيلَ والنّهارَ».

وقالتْ فرقةٌ: ذلكَ على حذفِ مضافٍ، تقديرهُ: يؤذونَ أولياءَ اللّهِ.

وأمّا أذيّةُ رسولهِ ﷺ فهيَ كلُّ ما يؤذيهِ منَ الأقوالِ في غيرِ معنى واحدٍ، ومنَ الأفعالِ أيضًا. أمّا قولهمْ: فساحرٌ. شاعرٌ. كاهنٌ مجنونٌ. وأمّا فعلهمْ: فكسرُ رباعيتهِ وشجُّ وجههِ يومَ أحدٍ، وبمكّةَ إلقاءُ السّلى على ظهرهِ وهوَ ساجدٌ إلى غيرِ ذلكَ.

وأطلقَ إيذاءُ اللّهِ ورسولهِ وقيّدَ إيذاءُ المؤمنينَ والمؤمناتِ، لأنَّ إيذاءَ اللّهِ ورسولهِ لا يكونُ إلّا بغيرِ حقٍّ أبداً. وأمّا إيذاءُ المؤمنينَ والمؤمناتِ فمنهُ ومنهُ.

الثانية- قالَ علماؤنا: والطّعنُ في تأميرِ أسامةَ بنِ زيدٍ أذيّةٌ لهُ ﷺ. روى الصّحيحُ عنِ ابنِ عمرَ قالَ: بعثَ رسولُ اللّهِ ﷺ بعثًا وأمّر عليهم أسامة ابن زيدٍ فطعنَ النّاسُ في إمرتهِ، فقامَ رسولُ الله ﷺ فقالَ: «إنْ تطعنوا في إمرتهِ فقدْ كنتمْ تطعنونَ في إمرةِ أبيهِ منْ قبلُ وايم اللّهِ إنْ كانَ لخليقًا للإمارةِ وإنْ كانَ لمنْ أحبِّ النّاسِ إليَّ وإنَّ هذا لمنْ أحبِّ النّاسِ إليَّ بعدهُ». وهذا البعثُ- واللّهُ أعلمُ- هوَ الّذي جهّزهُ رسولُ اللّهِ ﷺ معَ أسامةَ وأمّرهُ عليهمْ وأمره أن يغزوا «أبنى» وهي القرية التي عند مؤتةَ، الموضعُ الّذي قتلَ فيهِ زيدٌ أبوهُ معَ جعفرِ بنِ أبي

طالبٍ وعبدِ اللّهِ ابن رواحةَ. فأمرهُ أنْ يأخذَ بثأرِ أبيهِ فطعنَ منْ في قلبهِ ريبٌ في إمرتهِ، منْ حيثُ إنّهُ كانَ منَ الموالي، ومنْ حيثُ إنّهُ كانَ صغيرَ السّنِّ، لأنّهُ كانَ إذْ ذاك ابن ثمان عشرةَ سنةً، فماتَ النّبيُّ ﷺ وقدْ برزَ هذا البعثُ عنِ المدينةِ ولمْ ينفصلْ بعدُ عنها، فنفذهُ أبو بكرٍ بعدَ رسولِ اللّهِ ﷺ.

الثالثة: في هذا الحديثِ أوضحُ دليل على جوازِ إمامةِ المولى والمفضولِ على غيرهما ما عدا الإمامةَ الكبرى. وقدّمَ رسولُ اللّهِ ﷺ سالماً مولى أبي حذيفةَ على الصّلاةِ بقباءٍ، فكانَ يؤمّهمْ وفيهمْ أبو بكرٍ وعمرُ وغيرهمْ منْ كبراءِ قريشٍ. وروى الصّحيحُ عنْ عامرِ بنِ واثلةَ أنَّ نافعَ بنَ عبدِ الحارثِ لقيَ عمرَ بعسفانَ، وكانَ عمرُ يستعملهُ على مكّةَ فقالَ: منِ استعملتَ على هذا الوادي؟ قالَ: ابنُ أبزى. قالَ: ومنِ ابنُ أبزى؟ قالَ: مولى منْ موالينا. قالَ: فاستخلفتَ عليهمْ مولى! قالَ: إنّهُ لقارئٌ لكتابِ الله وإنه لعالمٌ بالفرائضِ - قالَ - أما إنَّ نبيّكمْ قدْ قالَ: «إنَّ اللّهَ يرفعُ بهذا الكتابِ أقواماً ويضعُ بهِ آخرينَ».

الرابعة - كانَ أسامةُ رضي الله عنه الحبَّ ابنَ الحبِّ وبذلكَ كانَ يدعى، وكانَ أسودُ شديدُ السّوادِ، وكانَ زيدٌ أبوهُ أبيضَ منَ القطنِ.

وقدْ ذكرَ أنَّ سببَ ارتدادِ العربِ بعدَ النّبيِّ ﷺ، أنّهُ لمّا كانَ ﷺ في حجّةِ الوداعِ بجبلِ عرفةَ عشيّةَ عرفةَ عندَ النّفرِ، احتبسَ النّبيُّ ﷺ قليلاً بسببِ أسامةَ إلى أنْ أتاهُ، فقالوا: ما احتبسَ إلّا لأجلِ هذا! تحقيراً لهُ. فكانَ قولهمْ هذا سببَ ارتدادهمْ. ذكرهُ البخاريُّ في التّاريخِ بمعناهُ. واللّهُ أعلمُ.

الخامسة - كانَ عمرُ رضي الله عنه يفرضُ لأسامةَ في العطاءِ خمسةَ آلافٍ، ولابنهِ عبدِ اللّهِ ألفينِ، فقالَ: لهُ عبدُ اللّهِ: فضّلتُ عليَّ أسامةَ وقدْ شهدتُ ما لمْ يشهدْ! فقالَ: إنَّ أسامةَ كانَ أحبَّ إلى رسولِ اللّهِ ﷺ منكَ، وأباهُ كانَ أحبَّ إلى رسولِ اللّهِ ﷺ منْ أبيكَ، ففضّلَ رضي الله عنه محبوبَ رسولُ اللّهِ ﷺ على محبوبهِ. وهكذا يجبُ أنْ يحبَّ ما أحبَّ رسولُ اللّهِ ﷺ ويبغضَ منْ أبغضَ.

قولهُ تعالى: ﴿لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ﴾ معناهُ أبعدوا منْ كلِّ خيرٍ. واللّعنُ في اللّغةِ: الإبعادُ، ومنهُ اللّعانُ. ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ تقدّمَ معناهُ في غيرِ موضعٍ. والحمدُ للّهِ ربِّ العالمين.

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٨﴾﴾

أذيّةُ المؤمنينَ والمؤمناتِ هيَ أيضـًا بالأفعالِ والأقوالِ القبيحةِ، كالبهتانِ والتّكذيبِ الفاحشِ المختلقِ. وهذهِ الآيةُ نظيرُ الآيةِ الّتي في النّساءِ: ﴿وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ كما قالَ هنا. وقدْ قيل: إنَّ منَ الأذيّةِ تعييرهُ بحسبٍ مذمومٍ، أوْ حرفةٍ مذمومةٍ، أو شيءٍ يثقلُ عليهِ إذا سمعهُ، لأنَّ أذاهُ في الجملةِ حرامٌ. وقدْ ميّزَ اللّهُ تعالى بينَ أذاهُ وأذى الرّسولِ وأذى المؤمنينَ فجعلَ الأوّلَ كفراً والثّانيَ كبيرةً، فقالَ: في أذى المؤمنينَ: ﴿فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ وقدْ بيّنّاهُ.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥٩﴾﴾، فيهِ ستُّ مسائلَ:

الأولى: قولهُ تعالى: ﴿قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ﴾ ماتَ رسولُ اللّهِ ﷺ عنْ تسعٍ. خمسٌ منْ قريشٍ: عائشةُ، وحفصةُ، وأمُّ حبيبةَ، وسودةُ، وأمُّ سلمةَ. وثلاثٌ منْ سائرِ العربِ: ميمونةُ، وزينبُ بنتُ جحشٍ، وجويريةُ. وواحدةٌ منْ بني هارونَ: صفيّةُ.

وأمّا أولادهُ فولدتْ خديجةُ للنّبيِّ ﷺ: القاسمَ والطّاهرَ وعبدَ اللّهِ والطّيّبِ، وإبراهيمُ أمّهُ ماريةُ القبطيّةُ، ولدَ في ذي الحجّةِ سنةَ ثمانٍ منَ الهجرةِ، وتوفّيَ ابنَ ثمانيةَ عشرَ شهرا ودفنَ بالبقيعِ. وقالَ ﷺ: «إنَّ له مرضعا تتمُّ رضاعهُ في الجنّةِ»، وكلُّ أولادهِ ماتوا في حياتهِ غيرَ فاطمةَ. وأمّا الإناثُ منْ أولادهِ:

فمنهنَّ: فاطمةُ الزّهراءُ بنتُ خديجةَ رضي الله عنهما ، ولدتها وقريشٌ تبني البيتَ قبلَ النّبوّةِ بخمسِ سنينَ، وهيَ أصغرُ بناتهِ، وتزوّجها عليٌّ في السّنةِ الثّانيةِ منَ الهجرةِ في رمضانَ، وبنى بها في ذي الحجّةِ، وتوفّيتْ بعدَ رسولِ اللّهِ ﷺ بيسيرٍ، وهيَ أوّلُ منْ لحقهُ منْ أهلِ بيته.

ومنهنَّ: زينبُ -أمّها خديجةُ، أكبرُ بناتِ رسولِ اللّهِ ﷺ، تزوّجها ابنُ خالتها أبو العاصي بنُ الرّبيعِ، وكانتْ أمُّ العاصي هالةُ بنتُ خويلدٍ أختُ خديجةَ. واسمُ أبي العاصي هاشمٌ. وقيلَ هشيمٌ. وقيلَ مقسمٌ. وتوفّيتْ سنةَ ثمانٍ منَ الهجرةِ، ونزلَ رسول الله ﷺ في قبرها.

ومنهنَّ: رقيّةُ- أمّها خديجةُ- تزوّجها عتبةُ بنُ أبي لهبٍ قبلَ النّبوّةِ، فلمّا بعثَ رسولُ اللّهِ ﷺ وأنزلَ عليهِ: ﴿تَبَّتۡ يَدَآ أَبِي لَهَبٖ﴾ قالَ أبو لهبٍ لابنهِ: رأسي منْ رأسكَ حرامٌ إنْ لمْ تطلّقِ ابنتهُ، ففارقها ولمْ يكن بنى بها. وأسلمت حينَ أسلمتْ أمّها خديجةُ، وبايعتْ رسولَ اللّهِ ﷺ هيَ وأخواتها حينَ بايعهُ النّساءُ، وتزوّجها عثمانُ بنُ عفّانَ، وهاجرتْ معهُ إلى أرضِ الحبشةِ الهجرتينِ، وكانتْ قدْ أسقطتْ منْ عثمانَ سقطًا، ثمَّ ولدتْ بعدَ ذلكَ عبدَ اللّهِ، وكانَ عثمانُ يكنى بهِ في الإسلامِ، وبلغَ ستَّ سنينَ فنقرهُ ديكٌ في وجههِ فماتَ، ولمْ تلدْ لهُ شيئًا بعدَ ذلكَ. وهاجرتْ إلى المدينةِ ومرضتْ ورسولُ اللّهِ ﷺ يتجهّزُ إلى بدرٍ فخلّفَ عثمانَ عليها، فتوفّيتْ ورسولُ اللّهِ ﷺ ببدرٍ، على رأسِ سبعةَ عشرَ شهراً منَ الهجرةِ. وقدمَ زيدُ بنُ حارثةَ بشيراً منْ بدرٍ، فدخلَ المدينةَ حينَ سوّيَ التّرابُ على رقيّةَ. ولمْ يشهدْ دفنها رسولُ اللّهِ ﷺ.

ومنهنَّ: أمُّ كلثومٍ- أمّها خديجةُ- تزوّجها عتيبةُ بنُ أبي لهبٍ- أخو عتبةَ- قبلَ النّبوّةِ، وأمرهُ أبوهُ أنْ يفارقها للسّببِ المذكورِ في أمرِ رقية، ولم يكن دخل بها، حتى نزل بمكّةَ معَ رسولِ اللّهِ ﷺ. وأسلمتْ حينَ أسلمتْ أمّها، وبايعتْ رسولُ اللّهِ ﷺ معَ أخواتها حينَ بايعهُ النّساءُ، وهاجرتْ إلى المدينةِ حينَ هاجرَ رسولُ اللّهِ ﷺ. فلمّا توفّيتْ رقيّةُ تزوّجها عثمانُ، وبذلكَ سمي ذا النورين. وتوفيت في حياةِ النّبيِّ ﷺ في شعبانَ سنةَ تسعٍ منَ الهجرةِ. وجلسَ رسولُ اللّهِ ﷺ على قبرها، ونزلَ في حفرتها عليٌّ والفضلُ وأسامةُ

الثانية- لمّا كانتْ عادةُ العربيّاتِ التّبذّلَ، وكنَّ يكشفنَ وجوههنَّ كما يفعلُ الإماءُ، وكانَ ذلكَ داعيةً إلى نظرِ الرّجالِ إليهنَّ، وتشعّبِ الفكرةِ فيهنَّ، أمرَ اللّهُ رسولهُ ﷺ أنْ يأمرهنَّ بإرخاءِ الجلابيبِ عليهنَّ إذا أردنَ الخروجَ إلى حوائجهنَّ، وكنَّ يتبرّزنَ في الصّحراءِ قبلَ أنْ تتّخذَ الكنفُ- فيقعُ الفرقُ بينهنَّ وبينَ الإماءِ، فتعرفُ الحرائرُ بسترهنَّ، فيكفُّ عنْ معارضتهن من كان عذبا أوْ شابـًا.

الثالثة- قوله تعالى: ﴿مِن جَلَٰبِيبِهِنَّۚ﴾ الجلابيبُ جمعُ جلبابٍ، وهوَ ثوبٌ أكبرُ منَ الخمارِ. ورويَ عنِ ابنِ عبّاسٍ وابنِ مسعودٍ أنّهُ الرّداءُ. وقدْ قيل: إنّهُ القناعُ. والصّحيحُ أنّهُ الثّوبُ الّذي يسترُ جميعَ البدنِ. وفي صحيحِ مسلمٍ عنْ أمِّ عطيّةَ: قلت: يا رسولَ اللّهِ إحدانا

لا يكونُ لها جلبابٌ؟ قالَ: «لتلبسها أختها منْ جلبابها».

الرابعة- واختلفَ النّاسُ في صورةِ إرخائهِ، فقالَ: ابنُ عبّاسٍ وعبيدةُ السّلمانيُّ: ذلكَ أنْ تلويهُ المرأةُ حتّى لا يظهرَ منها إلّا عينٌ واحدةٌ تبصرُ بها. وقالَ ابنُ عبّاسٍ أيضـًا وقتادةُ: ذلكَ أنْ تلويهُ فوقَ الجبينِ وتشدّهُ، ثمَّ تعطفهُ على الأنفِ، وإنْ ظهرتْ عيناها لكنّهُ يسترُ الصّدرَ ومعظمَ الوجهِ. وقالَ الحسنُ: تغطّي نصفَ وجهها.

الخامسة- أمرَ اللّهُ سبحانهُ جميعَ النّساءِ بالسّترِ، وإنَّ ذلكَ لا يكونُ إلّا بما لا يصفُ جلدها، إلّا إذا كانتْ معَ زوجها فلها أنْ تلبسَ ما شاءتْ، لأنَّ لهُ أنْ يستمتعَ بها كيفَ شاء.

ثبتَ أنَّ النّبيَّ ﷺ استيقظَ ليلةً فقالَ: «سبحانَ اللّهِ ماذا أنزلَ اللّيلةَ منَ الفتنِ وماذا فتحَ منَ الخزائنِ منْ يوقظُ صواحبَ الحجرِ ربَّ كاسيةٍ في الدّنيا عاريةٌ في الآخرةِ».

وثبتَ عنِ النّبيِّ ﷺ أنّهُ قالَ: «نساءٌ كاسياتٌ عارياتٌ مائلاتٌ مميلاتٌ رءوسهنَّ مثلُ أسنمةِ البختِ لا يدخلنَ الجنّةَ ولا يجدنَ ريحها».

وقالَ عمرُ رضي الله عنه: ما يمنع المرأة المسلمة إذا كانتْ لها حاجةٌ أنْ تخرجَ في أطمارها أوْ أطمارِ جارتها مستخفيةً، لا يعلمُ بها أحدٌ حتّى ترجعَ إلى بيتها.

السّادسةُ- قولهُ تعالى: ﴿ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَن يُعۡرَفۡنَ﴾ أيِ الحرائرُ، حتّى لا يختلطنَ بالإماءِ، فإذا عرفنَ لمْ يقابلنَ بأدنى منَ المعارضةِ مراقبةً لرتبةِ الحرّيّةِ، فتنقطعُ الأطماعُ عنهنَّ.

وقدْ قيل: إنّهُ يجبُ السّترُ والتّقنّعُ الآنَ في حقِّ الجميعِ منَ الحرائرِ والإماءِ. وهذا كما أنَّ أصحابَ رسولِ اللّهِ ﷺ منعوا النّساءَ المساجدَ بعدَ وفاةِ رسولِ اللّهِ ﷺ معَ قولهِ: «لا تمنعوا إماءَ اللّهِ مساجدَ اللّهِ» حتّى قالتْ عائشةُ رضي الله عنها: لوْ عاشَ رسولُ اللّهِ ﷺ إلى وقتنا هذا المنعهنَّ منَ الخروجِ إلى المساجدِ كما منعتْ نساءُ بني إسرائيلَ ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا﴾ تأنيسٌ للنّساءِ في تركِ الجلابيبِ قبل هذا الأمر المشروع.

قوله تعالى: ﴿۞لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا ۝٦٠ مَّلْعُونِينَ ۖ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓا۟ أُخِذُوا۟ وَقُتِّلُوا۟ تَقْتِيلًا ۝٦١ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۝٦٢﴾، فيهِ خمسُ مسائلَ:

الأولى: قولهُ تعالى: ﴿۞لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ﴾ الآية. أهلُ التّفسيرِ على أنَّ الأوصافَ الثّلاثةَ لشيءٍ واحدٍ، يعني أنّهمْ قدْ جمعوا هذهِ الأشياءَ. والواوُ مقحمةٌ.

وقيلَ: كانَ منهمْ قومٌ يرجفونَ، وقومٌ يتبعونَ النّساءَ للرّيبةِ وقومٌ يشككون المسلمين.

ودلّتِ الآيةُ على تحريمِ الإيذاءِ بالإرجافِ.

الثانية- قولهُ تعالى: ﴿لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ﴾ أيْ لنسلّطنّكَ عليهمْ فتستأصلهمْ بالقتلِ، ثمَّ إنّهُ قالَ عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ﴾ وإنّهُ أمرهُ بلعنهمْ، وهذا هوَ الإغراءُ، وقيلَ: قدْ أغراهُ بهمْ في الآيةِ الّتي تلي هذهِ معَ اتّصالِ الكلامِ بها، وهوَ قولهُ عزَّ وجلَّ: ﴿أَيْنَمَا ثُقِفُوٓا۟ أُخِذُوا۟ وَقُتِّلُوا۟ تَقْتِيلًا﴾. فهذا فيهِ معنى الأمرِ بقتلهمْ وأخذهمْ، أيْ هذا حكمهمْ إذا كانوا مقيمينَ على النّفاقِ والإرجافِ. وفي الحديثِ عنِ النّبيِّ ﷺ: «خمسٌ يقتلنَ في الحلِّ والحرمِ». فهذا فيهِ معنى الأمرِ كالآيةِ سواءٌ، وهذا منْ أحسنِ ما قيلَ في الآيةِ. وقيلَ: إنّهمْ قدِ انتهوا عنِ الإرجافِ فلمْ يغرَ بهمْ. ولامُ ﴿لَنُغْرِيَنَّكَ﴾ لامُ القسمِ، واليمينُ واقعةٌ عليها، وأدخلتِ اللّامُ في «إنْ» توطئةً لها.

الثالثة- قولهُ تعالى: ﴿ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ﴾ أيْ في المدينةِ. ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ نصبَ على الحالِ منَ الضّميرِ في ﴿يُجَاوِرُونَكَ﴾، أيْ لا يجاورونكَ إلّا في حالِ قلّتهمْ. والجوابُ الآخرُ- أنْ يكونَ المعنى إلّا وقتًا قليلًا، فيكونُ نعتًا لمصدرٍ أوْ ظرفٍ محذوفٍ. ودلَّ على أنَّ منْ كانَ معكَ ساكنًا بالمدينةِ فهوَ جارٌ.

الرابعة- قولهُ تعالى: ﴿مَّلْعُونِينَ ۖ﴾ هذا تمامُ الكلامِ عندَ محمّدِ بنِ يزيدَ، وهوَ منصوبٌ على الحالِ. وقالَ ابنُ الأنباريِّ: ﴿قَلِيلًا ۝٦٠ مَّلْعُونِينَ ۖ﴾ وقفٌ حسنٌ. ويجوزُ أنْ يكونَ التّمامُ ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ وتنصبُ ﴿مَّلْعُونِينَ ۖ﴾ على الشّتمِ.

الخامسة- قولهُ تعالى: ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ﴾ نصب على المصدر، أي سن الله عز وجل فيمنْ

أرجفَ بالأنبياءِ وأظهرَ نفاقهُ أنْ يؤخذَ ويقتلَ ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلًا﴾ أيْ تحويلاً وتغييراً. وفي الآيةِ دليلٌ على جوازِ تركِ إنفاذِ الوعيدِ، والدّليل على ذلكَ بقاءُ المنافقينَ معهُ حتّى ماتَ. والمعروفُ منْ أهلِ الفضلِ إتمامُ وعدهمْ وتأخيرُ وعيدهمْ.

قوله تعالى: ﴿يَسۡـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِۖ﴾ استبعاداً وتكذيباً، موهمينَ أنّها لا تكونُ ﴿قُلۡ إِنَّمَا عِلۡمُهَا عِندَ ٱللَّهِۚ﴾ وليسَ منْ شرطِ النّبيِّ أنْ يعلمَ الغيبَ بغير تعليم من الله عز وجل ﴿وَمَا يُدۡرِيكَ﴾ أيْ ما يعلمكَ ﴿لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ٦٣﴾، وقالَ ﷺ: «بعثتُ أنا والسّاعةِ كهاتينِ» وأشارَ إلى السّبّابةِ والوسطى، خرّجهُ أهلُ الصحيح.

وقيلَ: إنّما أخفى وقتَ السّاعةِ ليكونَ العبد مستعدا لها في كل وقت.

قولهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ أيْ طردهمْ وأبعدهمْ ﴿وَأَعَدَّ لَهُمۡ سَعِيرًا ٦٤ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ﴾ أنث السّعيرَ لأنّها بمعنى النّارِ ﴿لَّا يَجِدُونَ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا ٦٥﴾ ينجّيهمْ منْ عذابِ اللّهِ والخلودِ فيه.

قولهُ تعالى: ﴿يَوۡمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمۡ فِي ٱلنَّارِ﴾ التّقليبُ تغييرُ ألوانهمْ بلفحِ النّارِ، فتسودُّ مرّةً وتخضرُّ أخرى. وإذا بدّلتْ جلودهمْ بجلودٍ أخرَ فحينئذٍ يتمنّونَ أنّهمْ ما كفروا ﴿يَقُولُونَ يَٰلَيۡتَنَآ﴾ ويجوزُ أنْ يكونَ المعنى: يقولونَ يومَ تقلّبُ وجوههمْ في النّارِ يا ليتنا ﴿أَطَعۡنَا ٱللَّهَ وَأَطَعۡنَا ٱلرَّسُولَا۠ ٦٦﴾ وهذهِ الألفُ تقعُ في الفواصلِ فيوقفُ عليها ولا يوصلُ بها. وكذا ﴿ٱلسَّبِيلَا۠﴾.

قولهُ تعالى:﴿أَطَعۡنَا سَادَتَنَا﴾ جمعُ سادةٍ والسّادةُ جمعُ السّيّدِ، والسّادةُ والكبراءُ بمعنى، وهم القادةِ والرّؤساءِ في الشّركِ والضّلالةِ ﴿فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ٦٧﴾ أيْ عنِ السّبيلِ وهوَ التّوحيدُ.

قولهُ تعالى: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِهِمۡ ضِعۡفَيۡنِ مِنَ ٱلۡعَذَابِ﴾ عذابُ الدّنيا وعذابُ الآخرةِ. وقيلَ: عذّبهمْ مثليْ ما تعذّبنا فإنّهمْ ضلّوا وأضلّوا ﴿وَٱلۡعَنۡهُمۡ لَعۡنٗا كَبِيرٗا ٦٨﴾ قرأَ عاصمٌ بالباءِ. الباقونَ بالثّاءِ، كقولهِ تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يَلۡعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلۡعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ﴾ وهذا المعنى كثيرٌ.

قولهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوۡاْ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهٗا ٦٩﴾

لمّا ذكرَ اللّهُ تعالى المنافقينَ والكفّارَ الّذينَ آذوا رسولَ اللّهِ ﷺ والمؤمنينَ، حذّرَ المؤمنينَ ونهاهمْ عنِ التّشبّهِ ببني إسرائيلَ في أذيّتهمْ نبيّهمْ موسى، وأذيّتهُ ﷺ أنه قسمَ قسماً فقالَ: رجلٌ منَ الأنصارِ: إنَّ هذهِ القسمةَ ما أريدَ بها وجهُ اللّهِ، فذكرَ ذلكَ للنّبيِّ ﷺ فغضبَ، وقالَ: «رحمَ اللّهُ موسى لقدْ أوذيَ بأكثرَ منْ هذا فصبرَ». وأمّا أذيّةُ موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ فقالَ: ابنُ عبّاسٍ وجماعةٌ: هيَ ما تضمّنهُ حديثِ أبي هريرةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عنِ النّبيِّ ﷺ، وذلكَ أنّهُ قالَ: «كانَ بنو إسرائيلَ يغتسلونَ عراةً وكانَ موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ يتستّرُ كثيراً ويخفي بدنهُ فقالَ: قومٌ هوَ آدرُ وأبرصُ أوْ بهِ آفةٌ، فانطلقَ ذاتَ يومٍ يغتسلُ في عينٍ بأرضِ الشّامِ وجعلَ ثيابهُ على صخرةٍ ففرَّ الحجرُ بثيابهِ واتّبعهُ موسى عرياناً يقولُ ثوبي حجرُ ثوبي حجرُ حتّى انتهى إلى ملأٍ منْ بني إسرائيل فنظروا إليه وهو من أحسنهمْ خلقاً وأعدلهمْ صورةً وليسَ بهِ الّذي قالوا فهوَ قولهُ تباركَ وتعالى: ﴿فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْۚ﴾ أخرجهُ البخاريُّ ومسلمٌ بمعناهُ.

مسألةٌ: في وضعِ موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ ثوبهُ على الحجرِ ودخولهِ في الماءِ عرياناً- دليلٌ على جوازِ ذلكَ، وهوَ مذهبُ الجمهورِ.

فإن قيل: كيفَ نادى موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ الحجرَ نداءَ منْ يعقلُ؟ قيل: لأنّهُ صدرَ عنِ الحجرِ فعلُ منْ يعقلُ. وَ «حجرُ» منادى مفردٌ محذوفُ حرفِ النّداءِ، كما قالَ تعالى: ﴿يُوسُفُ أَعۡرِضۡ عَنۡ هَٰذَاۚ﴾. وَ «ثوبي» منصوبٌ بفعلٍ مضمرٍ، التّقديرُ: أعطني ثوبي، أوِ اتركْ ثوبي، فحذفَ الفعلُ لدلالةِ الحال عليه.

قوله تعالى: ﴿وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهٗا ٦٩﴾ أيْ عظيماً. والوجيهُ عندَ العربِ: العظيمُ القدرِ الرّفيعُ المنزلةِ، وقيلَ: معنى ﴿وَجِيهٗا﴾ أيْ كلّمهُ تكليماً.

قولهُ تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ٧٠﴾ أيْ قصداً وحقاً أُريدَ بِهِ وجهُ اللّهِ دونَ غيرهِ. وقيلَ: هوَ الإصلاحُ بينَ المتشاجرينَ. وهوَ مأخوذٌ منْ تسديدِ السّهمِ ليصابَ بِهِ الغرضُ.

ثم وعد عز وجل بأنّهُ يجازي على القولِ السّدادِ بإصلاحِ الأعمالِ وغفران الذنوب، وحسبك بذلك درجة ورفعة منزلة ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ أيْ فيما أمرَ بهِ ونهى عنهُ ﴿فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ٧١﴾.

قولهُ تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَـٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ٧٢ لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ وَٱلْمُنَـٰفِقَـٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَـٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ٧٣﴾

الأمانةُ تعمُّ جميعَ وظائفِ الدّينِ ائتمنَ اللّهُ عليها العبادَ، وقيلَ: هيَ في أماناتِ الأموالِ كالودائعِ وغيرها.

ويحتمل أن هذا العرض حقيقة أيْ أظهرَ لهنَّ ذلكَ فلمْ يحملنَ وزرها، وكلٌّ يقولُ: هذا أمرٌ لا نطيقهُ. قالَ العلماءُ: معلومٌ أنَّ الجمادَ لا يفهمُ ولا يجيبُ، فلا بدَّ منْ تقديرِ الحياةِ على القولِ الأخيرِ. وهذا العرضُ عرضُ تخييرٍ لا إلزامٍ. والعرضُ على الإنسانِ إلزامٌ.

وقيلَ: العرضُ في هذهِ الآيةِ ضربُ مثلٍ، أيْ أنَّ السّماواتِ والأرضَ على كبرِ أجرامها، لوْ كانتْ بحيثُ يجوزُ تكليفها لثقل عليها تقلّدُ الشّرائعِ كقولهِ: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ﴾ ثم قال:- ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَـٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ﴾.

و ﴿ٱلْإِنسَـٰنُ﴾ آدمُ، تحمّلَ الأمانةَ فما تمَّ لهُ يومٌ حتّى عصى المعصيةَ الّتي أخرجتهُ منَ الجنّةِ، وقالَ قومٌ: ﴿ٱلْإِنسَـٰنُ﴾ النّوعُ كلّهُ. وهذا حسنٌ معَ عمومِ الأمانةِ. ﴿إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا﴾ لنفسه ﴿جَهُولًا﴾ بعاقبة ما تقلد.

﴿لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ وَٱلْمُنَـٰفِقَـٰتِ﴾ اللّامُ في ﴿لِّيُعَذِّبَ﴾ متعلّقةٌ بـ ﴿حَمَلَ﴾ أيْ حملها ليعذّبَ العاصيَ ويثيبَ المطيعَ، فهيَ لامُ التّعليلِ، لأنَّ العذابَ نتيجةُ حملِ الأمانةِ.

وقيلَ بِ ﴿عَرَضۡنَا﴾، أيْ عرضنا الأمانةَ على الجميعِ ثمَّ قلّدناها الإنسانَ ليظهرَ شركُ المشركِ ونفاقُ المنافق ليعذّبهمُ: اللّهُ، وإيمانُ المؤمنِ ليثيبهُ اللّهُ ﴿وَيَتُوبَ ٱللَّهُ﴾ وقراءةُ الحسنِ بالرّفعِ، يقطعهُ منَ الأوّلِ، أيْ يتوبَ اللّهُ عليهمْ بكلِ حالٍ ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ خبرٌ بعدَ خبرٍ لِ ﴿كَانَ﴾. ويجوزُ أنْ يكونَ نعتًا لغفورٍ، ويجوزُ أنْ يكونَ حالاً منَ المضمرِ. واللّهُ أعلمُ بالصّوابِ.

سورة سبأ

مكّيّةٌ وهي أربع وخمسون آية.

بسم اللّهِ الرّحمنِ الرّحيم

قولهُ تعالى: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ ﴿ٱلَّذِي﴾ في موضع خفضٍ على النّعتِ أوِ البدلِ. ويجوزُ أنْ يكونَ في موضع رفع على إضمارِ مبتدأٍ، وأنْ يكونَ في موضعِ نصبٍ بمعنى أعني، والحمدُ الكاملُ والثّناءُ الشّاملُ كلّهُ للّهِ، إذِ النّعمُ كلّها منهُ.

﴿وَلَهُ ٱلۡحَمۡدُ فِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ﴾ قيل: هوَ قولهُ تعالى: ﴿وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي صَدَقَنَا وَعۡدَهُۥ﴾. وقيلَ: هوَ قولهُ: ﴿وَءَاخِرُ دَعۡوَىٰهُمۡ أَنِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ فهوَ المحمودُ في الآخرةِ كما أنّهُ المحمودُ في الدّنيا، وهوَ المالكُ للآخرةِ كما أنّهُ المالكُ للأولى ﴿وَهُوَ ٱلۡحَكِيمُ﴾ في فعلهِ ﴿ٱلۡخَبِيرُ ١﴾ بأمر خلقه.

قولهُ تعالى: ﴿يَعۡلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ أيْ ما يدخلُ فيها منْ قطرٍ وغيرهِ، كما قالَ: ﴿فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ منَ الكنوزِ والدّفائنِ والأمواتِ وما هيَ لهُ كفاتٌ ﴿وَمَا يَخۡرُجُ مِنۡهَا﴾ منْ نباتٍ وغيرهِ ﴿وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ منَ الأمطارِ والبردِ والصّواعقِ والأرزاقِ والمقاديرِ ﴿وَمَا يَعۡرُجُ فِيهَاۚ﴾ منَ الملائكةِ وأعمالِ العبادِ ﴿وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلۡغَفُورُ ٢﴾.

قولهُ تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَأۡتِينَا ٱلسَّاعَةُۖ﴾ المرادُ أهلُ مكّةَ ﴿قُلۡ﴾ يا محمّدُ ﴿بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأۡتِيَنَّكُمۡ﴾ فهؤلاءِ الكفّارُ مقرّونَ بالابتداءِ منكرونَ الإعادةَ ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ﴾ بالرّفع قراءةُ نافعٍ وابنِ كثيرٍ على الابتداءِ، وخبرهُ ﴿لَا يَعۡزُبُ عَنۡهُ﴾ وقرأ عاصمٌ وأبو عمرو ﴿عَٰلِمِ﴾ بالخفضِ، أي الحمدُ للّهِ عالمِ، فعلى هذهِ القراءةِ لا يحسنُ الوقفُ على قولهِ: ﴿لَتَأۡتِيَنَّكُمۡ﴾. وقرأ حمزةُ والكسائيُّ: «عَلَّامِ الْغَيْبِ» على المبالغةِ والنّعتِ ﴿لَا يَعۡزُبُ عَنۡهُ﴾ أيْ لا يغيبُ عنهُ ﴿مِثۡقَالُ ذَرَّةٖ﴾ أيْ قدرُ نملةٍ صغيرةٍ ﴿فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَآ أَصۡغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡبَرُ﴾ وفي قراءةِ الأعمشِ ﴿وَلَآ أَصۡغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡبَرَ﴾ بالفتح فيهما عطفا على ﴿ذَرَّةٖ﴾. وقرأ العامة بالرّفعِ عطفًا على ﴿مِثۡقَالُ﴾.

﴿إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ۝٣﴾ فهوَ العالمُ بما خلقَ ولا يخفى عليه شيء. ﴿لِّيَجْزِىَ﴾ منصوبٌ بلامِ كيْ ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ بالثّوابِ، والكافرينَ بالعقابِ ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ يعني المؤمنينَ ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ﴾ لذنوبهمْ ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ۝٤﴾ وهو الجنة.

قولهُ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوْ فِىٓ ءَايَٰتِنَا﴾ أيْ في إبطالِ أدلّتنا والتكذيب بآياتنا ﴿مُعَٰجِزِينَ﴾ مسابقين يحسبون أنهم يفوتوننا، وأنَّ اللّهَ لا يقدرُ على بعثهمْ في الآخرةِ، وظنّوا أنّا نهملهمْ، فهؤلاءِ ﴿لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ۝٥﴾ يقال: عاجزهُ وأعجزهُ إذا غالبهُ وسبقهُ. وَ ﴿أَلِيمٍ﴾ قراءةُ نافع بالكسرِ نعتـًا للرّجزِ، فإنَّ الرّجزَ هوَ العذابُ، قالَ اللّهُ تعالى: ﴿فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾. وقرأ ابنُ كثيرٍ وحفصٌ عنْ عاصمٍ ﴿عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ﴾ برفعِ «الميمِ» هنا وفي الجاثيةِ نعتـًا للعذابِ. وقرأ ابنُ كثيرٍ وأبو عمرو «مُعَجِّزِينَ» مثبّطينَ، أيْ ثبّطوا النّاسَ عنِ الإيمانِ بالمعجزات وآيات القرآن.

قولهُ تعالى: ﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ وهمْ مؤمنو أهلِ الكتابِ. وقالَ ابنُ عبّاسٍ: همْ أصحابُ محمّدٍ ﷺ. وقيلَ جميعُ المسلمينَ، وهوَ أصحُّ لعمومهِ. والرّؤيةُ بمعنى العلمِ، وهوَ في موضعِ نصبٍ عطفـًا على ﴿لِيَجْزِىَ﴾ قيل: ليجزيَ وليرى، وفيه نظر، لأنَّ قولهُ: ﴿لِيَجْزِىَ﴾ متعلّقٌ بقولهِ: ﴿لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾ السّاعةُ، ولا يقالُ: لتأتينّكمُ السّاعةُ ليرى الّذينَ أوتوا العلمَ أنَّ القرآنَ حقٌّ، فإنّهمْ يرونَ القرآنَ حقـًا وإنْ لمْ تأتهمُ السّاعةُ. والصّحيحُ أنّهُ رفعَ على الاستئنافِ. ﴿ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ۝٦﴾ أيْ يهدي القرآنُ إلى طريقِ الإسلامِ الّذي هوَ دينُ اللّهِ. ودلَّ بقولهِ: ﴿ٱلْعَزِيزِ﴾ على أنّهُ لا يغالبُ. وبقولهِ: ﴿ٱلْحَمِيدِ﴾ على أنّهُ لا يليقُ بهِ صفة العجز.

قولهُ تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ﴾ وإنْ شئتَ أدغمتَ اللّامَ في النّونِ لقربها منها. ﴿يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾ فرّقتمْ كلَّ تفريقٍ. وهذا إخبارٌ عمّنْ قالَ: ﴿لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ﴾ وهذا صادرٌ عنْ فرطِ إنكارهمْ، وكانَ رسولُ اللّهِ ﷺ مشهوراً علمـًا في قريشٍ، وكانَ إنباؤهُ بالبعثِ شائعـًا عندهمْ فنكّروهُ يقصدونَ بذلكَ الطّنزَ والهزؤَ والسّخريةَ. ﴿إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ۝٧﴾ أيْ يقولُ لكمْ: إنّكمْ تبعثونَ بعدَ البلى في القبورِ.

قولهُ تعالى: ﴿أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ الافتراءُ الاختلاقُ. ﴿أَم بِهِۦ جِنَّةٌ﴾ أيْ جنونٌ، فهوَ يتكلّمُ بما لا يدري. ثمَّ ردَّ عليهمْ فقالَ: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ فِى ٱلْعَذَابِ وَٱلضَّلَٰلِ ٱلْبَعِيدِ ۝٨﴾ أيْ ليسَ الأمرُ كما قالوا، بلْ هوَ أصدقُ الصّادقينَ، ومنْ ينكرُ البعثَ فهوَ غداً في العذابِ، واليومَ في الضّلالِ عنِ الصّوابِ، إذْ صاروا إلى تعجيزِ الإلهِ ونسبةِ الافتراءِ إلى منْ أيّدهُ اللّهُ بالمعجزاتِ.

قولهُ تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ۝٩﴾

استدلَّ بقدرتهِ عليهمْ، وأنَّ السّماواتِ والأرضَ ملكهُ، وأنّهما محيطتانِ بهمْ منْ كلِّ جانبٍ، فكيفَ يأمنونَ الخسفَ والكسفَ كما فعلَ بقارونَ وأصحابِ الأيكةِ. وقرأ حمزةُ والكسائيُّ: «إنْ يشأْ يخسف بهمُ الأرضَ أوْ يسقطْ» بالياءِ في الثّلاثِ. الباقونَ بالنّونِ على التّعظيمِ. وقرأ حفصٌ «كِسَفًا» بفتحِ السّينِ. الباقونَ بالإسكانِ ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ أيْ في هذا الّذي ذكرناهُ منْ قدرتنا ﴿لَءَايَةً﴾ أيْ دلالةً ظاهرةً ﴿لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ۝٨﴾ أيْ تائبٍ رجّاعٍ إلى اللّهِ بقلبهِ. وخصَّ المنيبُ بالذّكرِ لأنّهُ المنتفعُ بالفكرةِ في حججِ اللّهِ وآياته.

قولهُ تعالى: ﴿۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا﴾ بيّنَ لمنكري نبوّةِ محمّدٍ ﷺ أنَّ إرسالَ الرّسلِ ليسَ أمراً بدعاً، بلْ أرسلنا الرّسلَ وأيّدناهمْ بالمعجزاتِ، وأحللنا بمنْ خالفهمُ العقابَ. ﴿ءَاتَيْنَا﴾ أعطينا. ﴿فَضْلًا﴾ أيْ أمراً فضّلناهُ بهِ على غيرهِ. واختلفَ في هذا الفضلِ على تسعةِ أقوالٍ:

الأوّلُ– النّبوّةُ.

الثّاني– الزّبورُ.

الثّالثُ– العلمُ، قالَ اللّهُ تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا﴾.

الرّابعُ- القوّةُ، قالَ اللّهُ تعالى: ﴿وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلۡأَيۡدِۖ﴾.

الخامس- تسخير الجبالِ والنّاسِ، قالَ اللّهُ تعالى: ﴿يَٰجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُۥ﴾.

السّادسُ- التّوبةُ، قالَ اللّهُ تعالى: ﴿فَغَفَرۡنَا لَهُۥ ذَٰلِكَۖ﴾.

السّابعُ: الحكمُ بالعدلِ، قالَ اللّهُ تعالى: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلۡنَٰكَ خَلِيفَةٗ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ الآيةَ.

الثّامنُ- إلانةُ الحديدِ، قالَ تعالى: ﴿وَأَلَنَّا لَهُ ٱلۡحَدِيدَ﴾.

التّاسعُ- حسنُ الصّوتِ، وكانَ داودُ عليه السلام ذا صوتٍ حسنٍ ووجهٍ حسنٍ. وحُسنُ الصّوتِ هبةٌ منَ اللّهِ تعالى وتفضّلٌ منهُ، وهوَ المرادُ بقولهِ تباركَ وتعالى: ﴿يَزِيدُ فِي ٱلۡخَلۡقِ مَا يَشَآءُۚ﴾، وقالَ ﷺ لأبي موسى: «لقدْ أوتيتَ مزماراً منْ مزاميرِ آلِ داودَ».

قالَ العلماءُ: المزمارُ والمزمورُ الصّوتُ الحسنُ، وبهِ سمّيتْ آلةُ الزّمرِ مزماراً. وقدِ استحسنَ كثيرٌ منْ فقهاءِ الأمصارِ القراءةُ بالتّزيينِ والتّرجيع.

قولهُ تعالى: ﴿يَٰجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُۥ﴾ أيْ وقلنا يا جبالُ أوّبي معهُ، أيْ سبّحي معهُ، لأنّهُ قالَ تباركَ وتعالى: ﴿إِنَّا سَخَّرۡنَا ٱلۡجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحۡنَ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِشۡرَاقِ﴾. قيل: هوَ التّسبيحُ بلسانِ الحبشةِ، وقيلَ: المعنى سيري معهُ حيثُ شاءَ، منَ التّأويبِ الّذي هو سير النهار أجمع وينزل اللّيلِ، وقرأ الحسنُ وقتادةُ وغيرهما: «أُوْبِي مَعَهُ» أيْ إرجعي معهُ، من آب يؤوب إذا رجعَ، أوباً وأوبةً وإياباً. ﴿وَٱلطَّيۡرَ﴾ بالنّصبِ عطفاً على موضع ﴿يَٰجِبَالُ﴾ أيْ نادينا الجبالَ والطّيرَ ﴿وَأَلَنَّا لَهُ ٱلۡحَدِيدَ ١٠﴾ كالطّينِ المبلولِ والعجينِ والشّمعِ، يصرفهُ كيفَ شاءَ، منْ غيرِ إدخالِ نارٍ ولا ضربٍ بمطرقةٍ. وقيلَ: أعطيَ قوّةً يثني بها الحديدَ، فكانَ يصنعُ الدّرعَ فيما بينَ يومهِ وليلتهِ يساوي ألفَ درهم، حتّى ادّخرَ منها كثيرا وتوسعت معيشة منزله، ويتصدق على الفقراءِ والمساكينِ، وكانَ ينفقُ ثلثَ المالِ في مصالحِ المسلمينَ، وهوَ أوّلُ منِ اتّخذَ الدّروعَ وصنعها وكانتْ قبلَ ذلكَ صفائحَ.

مسألةٌ- في هذهِ الآيةِ دليلٌ على تعلّمِ أهلِ الفضلِ الصّنائعَ، وأنَّ التّحرّفَ بها لا ينقصُ منْ مناصبهمْ، بلْ ذلكَ زيادةٌ في فضلهمْ وفضائلهمْ، إذْ يحصلُ لهمُ التّواضعُ في أنفسهمْ

والاستغناءُ عنْ غيرهِمْ، وكسبُ الحلالِ الخليِّ عنِ الامتنانِ. وفي الصّحيحِ عنِ النّبيِّ ﷺ قال: «إن خيرَ ما أكلَ المرءُ منْ عملِ يدهِ وإنَّ نبيَّ اللّهِ داودَ كانَ يأكلُ منْ عملِ يدهِ».

قولهُ تعالى: ﴿أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ﴾ أيْ دروعاً واسعاتٍ ﴿وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ﴾ يجمعُ الخفّةِ والحصانةِ. أيْ قدّرْ ما تأخذُ منْ هذينِ المعنيينِ بقسطهِ. أيْ لا تقصدِ الحصانةَ فتثقلَ، ولا الخفّةَ فتزيلَ المنعةَ. و ﴿ٱلسَّرْدِ﴾ السّردُ نسجُ حلقِ الدّروعِ، والسّردُ: الخرزُ، يقالُ: سردَ يسردُ إذا خرزَ، ويقالُ: قدْ سردَ الحديثَ والصّومَ، فالسّردُ فيهما أن يجيءَ بهما ولاءً في نسقٍ واحدٍ، ومنهُ سردُ الكلامِ. وفي حديثِ عائشةَ: لمْ يكنِ النّبيُّ ﷺ يسردُ الحديثَ كسردكمْ، وكانَ يحدّثُ الحديثَ لوْ أرادَ العادُّ أنْ يعدّهُ لأحصاهُ. ﴿وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا﴾ أيْ عملاً صالحاً. وهذا خطابٌ لداودَ وأهلهِ، كما قالَ: ﴿ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا﴾ ﴿إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١﴾﴾.

قولهُ تعالى: ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ﴾ التّقديرُ وسخّرنا لسليمانَ الرّيحَ. وقرأ عاصمٌ في روايةِ أبي بكرٍ عنهُ: «الرِّيحُ» بالرّفعِ على الابتداءِ، والمعنى له تسخير الريح ﴿غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ﴾ أيْ مسيرةُ شهرٍ. قالَ الحسنُ: كانَ يغدو منْ دمشقَ فيقيلُ بإصطخرَ، وبينهما مسيرةُ شهرٍ للمسرعِ، ثمَّ يروحُ منْ إصطخرَ ويبيتُ بكابلَ، وبينهما شهرٌ للمسرعِ فكانتْ تسيرُ بهِ في اليومِ مسيرةَ شهرينِ. قالَ الحسنُ: شغلتْ سليمانَ الخيلُ حتّى فاتتهُ صلاةُ العصرِ، فعقرَ الخيلَ فأبدلهُ اللّهُ خيراً منها وأسرعَ.

قولهُ تعالى: ﴿وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ﴾ وهو النّحاسُ، أسيلتْ لهُ كما يسيلُ الماءُ، وكانتْ بأرضِ اليمنِ، ولمْ يذبِ النّحاسُ فيما رويَ لأحدٍ قبلهُ، وكانَ لا يذوبُ، ومنْ وقتهِ ذابَ، وإنّما ينتفعُ النّاسُ اليومَ بما أخرجَ اللّهُ تعالى لسليمانَ. قالَ قتادةُ: أسالَ اللّهُ عيناً يستعملها فيما يريدُ. وقيلَ لعكرمةَ: إلى أينَ سالتْ؟ فقالَ: لا أدري!

﴿وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ﴾ أيْ بأمرهِ ﴿وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا﴾ الّذي أمرناهُ بهِ منْ طاعةِ سليمانَ. ﴿نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٢﴾﴾ أيْ في الآخرةِ، قالهُ أكثرُ المفسّرينَ. وقيلَ ذلكَ في الدّنيا، وذلكَ أنَّ اللّهَ تعالى وكّلَ بهمْ ملكاً بيدهِ سوطٌ منْ نارٍ، فمنْ زاغَ عنْ أمرِ سليمانَ ضربهُ بذلكَ السّوطِ ضربةً منْ حيثُ لا يراهُ فأحرقتهُ.

قوله تعالى: ﴿يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍۚ ٱعْمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًاۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾﴾، فيهِ ثماني مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ﴾ المحرابُ في اللّغةِ: كلُّ موضعٍ مرتفعٍ. وقيلَ للّذي يُصلّى فيهِ: محرابٌ، لأنّهُ يجبُ أنْ يرفع ويعظم. وقيل: ﴿مِن مَّحَٰرِيبَ﴾ أيْ من مساجدَ. وقيلَ: المحرابُ أشرفُ بيوتِ الدار. **وقيلَ**: هوَ ما يرقى إليهِ بالدّرجِ كالغرفةِ الحسنةِ، كما قال: ﴿إِذْ تَسَوَّرُواْ ٱلْمِحْرَابَ﴾ وقوله: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ﴾ أيْ أشرفَ عليهمْ.

الثانية- قولهُ تعالى: ﴿وَتَمَٰثِيلَ﴾ جمعُ تمثالٍ. وهوَ كلُّ ما صوّرَ على مثلِ صورةٍ منْ حيوانٍ أوْ غيرِ حيوانٍ. وقيلَ: كانتْ منْ زجاجٍ ونحاسٍ ورخامٍ تماثيلَ أشياءَ ليستْ بحيوانٍ. وذكرَ أنّها صورُ الأنبياءِ والعلماءِ، وكانتْ تصوّرَ في المساجدِ ليراها النّاسُ فيزدادوا عبادةً واجتهاداً، قالَ ﷺ: «إنَّ أولئكَ كانَ إذا ماتَ فيهمُ الرّجلُ الصّالحُ بنوا على قبرهِ مسجداً وصوّروا فيهِ تلكَ الصّورَ». أيْ ليتذكّروا عبادتهمْ فيجتهدوا في العبادةِ. وهذا يدلُّ على أنَّ التّصويرَ كانَ مباحاً في ذلكَ الزّمانِ، ونسخَ ذلكَ بشرعِ محمّدٍ ﷺ. وواحدُ التّماثيلِ تمثالٌ بكسرِ التّاءِ.

الثالثة- قالَ قومٌ عملُ الصّورِ جائزٌ لهذهِ الآيةِ، ولما أخبرَ اللّهُ عزَّ وجلَّ عنِ المسيحِ. قالَ ابنُ عطيّةَ: وذلكَ خطأٌ، وما أحفظُ عنْ أحدٍ منْ أئمّةِ العلمِ منْ يجوّزهُ. وقدْ صحَّ النّهيُ عنِ النّبيِّ ﷺ عنها والتّوعّدُ لمنْ عملها أوِ اتّخذها، فنسخَ اللّهُ عزَّ وجلَّ بهذا ما كانَ مباحاً قبلهُ، وكانتِ الحكمةُ في ذلكَ لأنّهُ بعثَ ﷺ والصّورُ تعبد، فكان الأصلح إزالتها.

الرابعة- التّمثالُ على قسمينِ: حيوانٌ ومواتٌ. والمواتُ على قسمينِ: جمادٌ ونامٍ، وقدْ كانتِ الجنُّ تصنعُ لسليمانَ جميعهُ، لعمومِ قولهِ: ﴿وَتَمَٰثِيلَ﴾.

فإن قيل: لا عمومَ لقولهِ: ﴿وَتَمَٰثِيلَ﴾ فإنّهُ إثباتٌ في نكرةٍ، والإثباتُ في النّكرةِ لا عمومَ لهُ، إنّما العمومُ في النّفيِ في النّكرةِ. قلنا: كذلكَ هوَ، بيدَ أنّهُ قدِ اقترنَ بهذا الإثباتِ في النّكرةِ ما يقتضي حملهُ على العمومِ، وهوَ قولهُ: ﴿مَا يَشَآءُ﴾ فاقترانُ المشيئةِ بهِ يقتضي العمومَ لهُ.

فإن قيل: كيفَ استجازَ الصّورَ المنهيَّ عنها؟ قلنا: كانَ ذلكَ جائزاً في شرعهِ ونسخَ ذلكَ بشرعنا كما بيّنّا، واللّهُ أعلمُ.

الخامسة- ومقتضى الأحاديث يدل على أنَّ الصّورَ ممنوعةٌ، ثمَّ جاءَ «إلّا ما كانَ رقماً في ثوبٍ» فخصَّ منْ جملةِ الصّورِ، ثمَّ ثبتتِ الكراهيةُ فيهِ بقولهِ ﷺ لعائشةَ في الثّوبِ: «أخّريهِ عنّي فإنّي كلّما رأيتهُ ذكرتُ الدّنيا». ثمَّ بهتكهِ الثّوبَ المصوّرَ على عائشةَ منعَ منهُ، ثمَّ بقطعها لهُ وسادتينِ تغيّرتِ الصّورةُ وخرجتْ عنْ هيئتها، فإنَّ جوازَ ذلكَ إذا لمْ تكنِ الصّورةُ فيهِ متّصلةَ الهيئةِ، ولوْ كانتْ متّصلةَ الهيئةِ لمْ يجزْ، لقولها في النّمرقةِ المصوّرةِ: اشتريتها لكَ لتقعدَ عليها وتوسّدها، فمنعَ منهُ وتوعّدَ عليهِ. وتبيّنَ بحديثِ الصّلاةِ إلى الصّورِ أنَّ ذلكَ جائزٌ في الرّقمِ في الثّوبِ ثمَّ نسخهُ المنعُ منهُ. فهكذا استقرَّ الأمرُ فيهِ، واللّهُ أعلمُ.

السّادسةُ- روى مسلمٌ عنْ عائشةَ قالتْ: كانَ لنا سترٌ فيهِ تمثالُ طائرٌ وكانَ الدّاخلُ إذا دخلَ استقبلهُ، فقالَ: رسولُ اللّهِ ﷺ: «حوّلي هذا فإنّي كلّما دخلتُ فرأيتهُ ذكرتُ الدّنيا». قالتْ: وكانتْ لنا قطيفةٌ كنّا نقولُ علمها حريرٌ، فكنّا نلبسها.

وعنها قالتْ: دخلَ علي رسول اللّهِ ﷺ وأنا مستترةٌ بقرام فيهِ صورةٌ، فتلوّنَ وجهه، ثمَّ تناولَ السّتر فهتكهُ، ثمَّ قالَ: «إنَّ منْ أشدِ النّاسِ عذاباً يومَ القيامةِ الّذينَ يشبّهونَ بخلقِ اللّهِ عزَّ وجلَّ».

وعنها: أنّهُ كانَ لها ثوبٌ فيهِ تصاويرُ ممدودٌ إلى سهوةٍ، فكانَ النّبيُّ ﷺ يصلّي إليهِ فقالَ: «أخّريهِ عنّي» قالتْ: فأخّرتهُ فجعلتهُ وسادتينِ.

قالَ بعضُ العلماءِ: ويمكنُ أنْ يكونَ تهتيكهُ ﷺ الثّوبَ وأمرهُ بتأخيرهِ ورعاً، لأنَّ محلَّ النّبوّةِ والرّسالةِ الكمالُ. فتأمّلهُ.

السابعة- قالَ المزنيُّ عنِ الشّافعيِّ: إنْ دعيَ رجلٌ إلى عرسٍ فرأى صورةً ذاتَ روحٍ أوْ صوراً ذاتَ أرواحٍ، لمْ يدخلْ إنْ كانتْ منصوبةً. وإنْ كانتْ توطأُ فلا بأسَ، أو كانتْ صورَ شّجرٍ. ولمْ يختلفوا أنَّ التّصاويرَ في السّتورِ المعلّقةِ مكروهةٌ غيرُ محرّمةٍ. وكذلكَ عندهمْ ما كانَ خرطاً أوْ نقشاً في البناءِ. واستثنى بعضهمْ «ما كانَ رقماً في ثوبٍ»، لحديثِ سهلِ بنِ

حُنيفٍ.

قلت: لعنَ رسولُ اللّهِ ﷺ المصوّرينَ ولمْ يستثنِ. وقولهُ: «إنَّ أصحابَ هذهِ الصّورِ يعذّبونَ يومَ القيامةِ ويقالُ لهمْ أحيوا ما خلقتمْ» ولمْ يستثنِ.

وفي التّرمذيِّ عنْ أبي هريرةَ قالَ: قالَ رسولُ اللّهِ ﷺ اللّهُ عليهِ وسلم: «يخرجُ عنقٌ منَ النّارِ يومَ القيامةِ لهُ عينانِ تبصرانِ وأذنانِ تسمعانِ ولسانٌ ينطقُ يقولُ: إنّي وكّلتُ بثلاثٍ: بكلِّ جبار عنيد، وبكل من دعا مع الله إلهـًا آخرَ وبالمصوّرينَ» قالَ أبو عيسى: هذا حديثٌ حسنٌ غريبٌ صحيحٌ.

وفي البخاريِّ ومسلمٍ عنْ عبدِ اللّهِ بنِ مسعودٍ قالَ: قالَ رسولُ اللّهِ ﷺ: «أشدُّ النّاسِ عذابـًا يومَ القيامةِ المصوّرونَ». يدلُّ على المنع من تصوير شيء أي شيء كان. وقد قال عز وجل: ﴿مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُواْ شَجَرَهَآۗ﴾ على ما تقدّمَ بيانهُ فاعلمهُ.

الثامنة- وقدِ استثنيَ منْ هذا البابِ لعبُ البناتِ، لما ثبتَ، عنْ عائشةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أنَّ النّبيَّ ﷺ تزوّجها وهيَ بنتُ سبعِ سنينَ، وزفّتْ إليهِ وهيَ بنتُ تسع ولعبها معها، ومات عنها وهي بنت ثمان عشرةَ سنةً. وعنها أيضـًا قالتْ: كنتُ ألعبُ بالبناتِ عندَ النّبيِّ ﷺ وكانَ لي صواحبُ يلعبنَ معي، فكانَ رسولُ اللّهِ ﷺ إذا دخلَ ينقمعنَ منهُ فيسرّبهنَّ إليَّ فيلعبنَ معي. خرّجهما مسلمٌ.

قالَ العلماءُ: وذلكَ للضّرورةِ إلى ذلكَ وحاجةِ البناتِ حتّى يتدرّبنَ على تربيةِ أولادهنَّ. ثمَّ إنّهُ لا بقاءَ لذلكَ، وكذلكَ ما يصنعُ منَ الحلاوةِ أوْ منَ العجينِ لا بقاءَ لهُ، فرخّصَ في ذلكَ، واللّهُ أعلمُ.

قولهُ تعالى: ﴿وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ﴾ الجوابيُّ جمعُ الجابيةِ، وهيَ القدرُ العظيمةُ، والحوضُ العظيمُ الكبيرُ الّذي يجبى فيهِ الشّيءُ أيْ يجمعُ، ومنهُ جبيتُ الخراجَ، وجبيتُ الجرادَ، أيْ جعلتُ الكساءَ فجمعتهُ فيهِ.

قولهُ تعالى: ﴿وَقُدُورٍ رَّاسِيَـٰتٍۚ﴾ نحتتْ منَ الجبالِ الصّمِّ ممّا عملتْ لهُ الشّياطينُ، أثافيّها منها منحوتةٌ هكذا منَ الجبالِ. ومعنى ﴿رَّاسِيَـٰتٍۚ﴾ ثوابتُ، لا تحملُ ولا تحرّكُ

لعظمها.

وكذلكَ كانتْ قدورُ عبدِ اللّهِ بنِ جدعانَ، يصعدُ إليها في الجاهليّةِ بسلّمٍ. وعنها عبّرَ طرفةُ بنُ العبدِ بقولهِ:

كالجوابي لا تني مُترعةً لِقِرى الأضيافِ أوْ للمحتضرِ

قولهُ تعالى: ﴿ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكۡرٗاۚ وَقَلِيلٞ مِّنۡ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ١٣﴾ الشّكر حقيقتهُ الاعترافُ بالنّعمةِ للمنعمِ واستعمالها في طاعتهِ، والكفرانُ استعمالها في المعصيةِ. وقليلٌ منْ يفعلُ ذلكَ، لأنَّ الخيرَ أقلُّ منَ الشّرِّ، والطّاعةُ أقلُّ منَ المعصيةِ.

﴿ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكۡرٗاۚ﴾ أيِ اعملوا عملاً هوَ الشّكرُ. وكأنَّ الصّلاةَ والصّيامَ والعباداتِ كلّها هيَ في نفسها الشّكرُ إذْ سدّتْ مسدّهُ، ويبيّنُ هذا قولهِ تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٞ مَّا هُمۡۗ﴾ وهوَ المرادُ بقولهِ ﴿وَقَلِيلٞ مِّنۡ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾. وقدْ قالَ سفيانُ بنُ عيينةَ في تأويلِ قوله تعالى: ﴿أَنِ ٱشۡكُرۡ لِي﴾ أنَّ المرادَ بالشّكرِ الصّلواتُ الخمسُ.

وفي صحيحِ مسلمٍ عنْ عائشةَ رضيَ اللّهُ تعالى عنها أنَّ رسولَ اللّهِ ﷺ كانَ يقومُ منَ اللّيلِ حتّى تفطّرَ قدماهُ، فقالتْ لهُ عائشةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: أتصنعُ هذا وقدْ غفرَ اللّهُ لكَ ما تقدّمَ منْ ذنبكَ وما تأخّرَ؟ فقالَ: «أفلا أكونُ عبداً شكوراً». انفردَ بإخراجهِ مسلمٌ.

فظاهرُ القرآنِ والسّنّةِ أنَّ الشّكرَ بعملِ الأبدانِ دونَ الاقتصارِ على عملِ اللّسانِ، فالشّكرُ بالأفعالِ عملُ الأركانِ، والشّكرُ بالأقوالِ عملُ اللّسانِ. واللّهُ أعلمُ.

قولهُ تعالى: ﴿وَقَلِيلٞ مِّنۡ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ١٣﴾ يحتملُ أنْ يكونَ مخاطبةً لآلِ داودَ، ويحتملُ أنْ يكونَ مخاطبة لمحمد ﷺ.

قالَ ابنُ عطيّةَ: وعلى كلِّ وجهٍ ففيهِ تنبيهٌ وتحريضٌ. وسمعَ عمرَ بنِ الخطّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ رجلاً يقولُ: اللّهمَّ اجعلني منَ القليلِ، فقالَ: عمرُ: ما هذا الدّعاءُ؟ فقالَ: الرّجل: أردتُ قولهُ تعالى: ﴿وَقَلِيلٞ مِّنۡ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾. فقالَ: عمرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: كلُّ النّاسِ أعلمُ منكَ يا عمرُ!

قولهُ تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ﴾ أيْ فلمّا حكمنا على سليمانَ بالموتِ حتّى صارَ كالأمرِ المفروغِ منهُ ووقعَ بِهِ الموتُ ﴿مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ﴾ وذلكَ أنّهُ كانَ متّكئًا على المنسأةِ وهيَ العصا بلسانِ الحبشةِ، وقيلَ: هيَ بلغةِ اليمنِ، فكانتِ الأرضةُ دالّةً على موتهِ، وكانتِ الجنُّ تدّعي علمَ الغيبِ، فلمّا ماتَ سليمانُ عليه السلام وخفيَ موتهُ عليهمْ ﴿تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُواْ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ﴾

وقرأَ نافعٌ وأبو عمرو ﴿تَأْكُلُ مِنسَاتَهُۥ﴾ بألفٍ بينَ السّينِ والتّاءِ منْ غيرِ همزٍ. والباقونَ بهمزةٍ مفتوحةٍ موضعَ الألفِ، لغتانِ، وأصلها منْ: نسأتُ الغنمَ أيْ زجرتها وسقتها، فسمّيتِ العصا بذلكَ لأنّهُ يزجرُ بها الشّيءُ ويساقُ.

قولهُ تعالى: ﴿فَلَمَّا خَرَّ﴾ أيْ سقطَ ﴿تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ﴾ أيْ تبيّنتِ الجنُّ موتهُ. وقيلَ: المعنى تبيّنَ أمرُ الجنِّ، و ﴿لَبِثُواْ﴾ أقاموا. و ﴿ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ١٤﴾ السُّخرةِ والحملِ والبنيانِ وغيرِ ذلكَ.

قولهُ تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِى مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ﴾ قرأَ نافعٌ وغيرهُ بالصّرفِ والتّنوينِ على أنّهُ اسمُ حيٍّ، وهوَ في الأصلِ اسمُ رجلٍ، وقرأَ ابنُ كثيرٍ وأبو عمرو «لِسَبَأَ» بغيرِ صرفٍ، جعلهُ اسمًا للقبيلةِ، وهوَ اختيارُ أبي عبيدٍ، واستدلَّ على أنّهُ اسمُ قبيلةٍ بأنَّ بعدهُ «فِي مَسَاكِنِهِمْ». وقيلَ: ولوْ كانَ كما قالَ لكانَ في مساكنها.

«فِي مَسَاكِنِهِمْ» قراءةُ العامّةِ على الجمعِ، لأنَّ لهمْ مساكنَ كثيرةً وليسَ بمسكنٍ واحدٍ، وقرأَ حمزةُ وحفصٌ ﴿مَسْكَنِهِمْ﴾ موحّداً، إلّا أنّهمْ فتحوا الكافَ. وقرأَ الكسائيُّ موحّداً كذلكَ، إلّا أنّهُ كسر الكافَ. ﴿ءَايَةٌ﴾ اسمُ كانَ، أيْ علامةٌ دالّةٌ على قدرةِ اللّهِ تعالى على أنَّ لهمْ خالقًا خلقهمْ، وأنَّ كلَّ الخلائقِ لوِ اجتمعوا على أنْ يخرجوا منَ الخشبةِ ثمرةً لمْ يمكنهمْ ذلكَ، ولمْ يهتدوا إلى اختلافِ أجناسِ الثّمارِ وألوانها وطعومها وروائحها وأزهارها، وفي ذلكَ ما يدلُّ على أنّها لا تكونُ إلّا منْ عالمٍ قادرٍ ﴿جَنَّتَانِ﴾ بدل منْ ﴿ءَايَةٌ﴾، ويجوزُ أنْ يكون خبر ابتداء محذوف، فوقف على هذا الوجهِ على ﴿ءَايَةٌ﴾ وليسَ بتمامٍ.

وقيلَ: إنَّ الآيةَ هيَ الجنّتانِ، كانتِ المرأةُ تمشي فيهما وعلى رأسها مكتلٌ فيمتلئُ منْ أنواعِ الفواكهِ منْ غيرِ أنْ تمسّها بيدها، ولمْ يردْ جنّتينِ اثنتينِ بلْ أرادَ منَ الجنّتينِ يمنةً ويسرةً، أيْ كانتْ بلادهمْ ذاتَ بساتينَ وأشجارٍ وثمارٍ، تستترُ النّاسُ بظلالها.

﴿كُلُواْ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ﴾ أيْ قيلَ لهمْ كلوا، ولمْ يكنْ ثمَّ أمرٌ، ولكنّهمْ تمكّنوا منْ تلكَ النّعمِ ﴿وَٱشْكُرُواْ لَهُۥ﴾ يعني على ما رزقكمْ ﴿بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ﴾ هذا كلامٌ مستأنفٌ، أيْ هذهِ بلدةٌ طيّبةٌ أيْ كثيرةُ الثّمارِ. وهيَ صنعاءُ ﴿وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾﴾ أيْ والمنعمُ بها عليكمْ ربٌّ غفورٌ يسترُ ذنوبكمْ، فجمعَ لهمْ بينَ مغفرةِ ذنوبهمْ وطيبِ بلدهمْ ولمْ يجمعْ ذلكَ لجميعِ خلقهِ.

قولهُ تعالى: ﴿فَأَعْرَضُواْ﴾ يعني عنْ أمرهِ واتّباعِ رسلهِ بعدَ أنْ كانوا مسلمينَ ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ﴾ ٱلعَرِمِ: السّدُّ فالتّقديرُ: سيلَ السّدِّ العرمِ. وقيلَ: العرمِ اسمُ وادي سبأٍ، كانتْ تجتمعُ إليهِ مسايلُ منَ الأوديةِ، وقيلَ: العرمِ اسمُ الجُرذِ الّذي نقبَ السّكرَ عليهمْ، وقيلَ: العرمِ منْ أسماءِ الفأرِ.

ورويَ أنَّ العرمَ سدٌّ بتتهُ بلقيسُ صاحبةُ سليمانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وهوَ المسنّاةُ بلغةِ حميرَ، بتتهُ بالصّخرِ والقارِ، وجعلتْ لهُ أبوابا ثلاثة ببعضها فوقَ بعضٍ، وهوَ مشتقٌّ منَ العرامةِ وهيَ الشّدّةُ، ومنهُ: رجلٌ عارمٌ، أيْ شديدٌ.

قولهُ تعالى: ﴿وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ﴾ وقرأ أبو عمرو ﴿أُكُلِ خَمْطٍ﴾ بغيرِ تنوينٍ مضافًا. قالَ أهلُ التّفسيرِ والخليلُ: الخمطُ الأراكُ. وقيلَ: كلُّ نبتٍ فيهِ مرارةٌ لا يمكنُ أكلهُ. ﴿وَأَثْلٍ﴾ هوَ شبيهٌ بالطّرفاءِ إلّا أنّهُ أعظمُ منهُ طولاً، ومنهُ اتّخذَ منبرُ النّبيِّ ﷺ، وللأثلِ أصولٌ غليظةٌ يتّخذُ منهُ الأبوابُ، وورقهُ كورقِ الطّرفاءِ، الواحدة أثلة والجمع أثلات. ﴿وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾﴾ السّدرُ منَ الشّجرِ سدرانِ:

الأول: برّيٌّ لا ينتفعُ بهِ ولا يصلحُ ورقهُ للغسولِ ولهُ ثمرٌ عفصٌ لا يؤكلُ، وهوَ الّذي يسمّى الضّالَ.

والثّاني- سدرٌ ينبتُ على الماءِ وثمرهُ النّبقُ وورقهُ غسولٌ يشبهُ شجرَ العنّابِ. قالَ قتادةُ: بينما شجرُ القومِ منْ خيرِ شجرٍ إذْ صيّرهُ اللّهُ تعالى منْ شرِّ الشّجرِ بأعمالهمْ، فأهلكَ

أشجارهمُ المثمرةَ وأنبتَ بدلها الأراكَ والطّرفاءَ والسّدرَ، وأشجارُ البوادي لا تسمّى جنّةً وبستانًا ولكنْ لمّا وقعتِ الثّانيةُ في مقابلةِ الأولى أطلقَ لفظُ الجنّةِ، وهوَ كقولهِ تعالى: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ﴾. ويحتملُ أنْ يرجعَ قولهُ: ﴿قَلِيلٖ﴾ إلى جملةِ ما ذكر من الخمط والأثل والسدر.

قولهُ تعالى: ﴿ذَٰلِكَ جَزَيۡنَٰهُم بِمَا كَفَرُواْۖ﴾ أيْ هذا التّبديلُ جزاءُ كفرهمْ ﴿وهل يجازى إلّا الكفورَ﴾ قراءةُ العامّةِ «يُجازَى» بياءٍ مضمومةٍ وزايٍ مفتوحةٍ «الْكَفُورُ» رفعًا على ما لمْ يسمَّ فاعلهُ. وقرأ يعقوبُ وحفصٌ وحمزةُ والكسائيُّ: ﴿نُجَٰزِيٓ﴾ بالنّونِ وكسرِ الزّاي «الْكَفُورَ» بالنّصبِ لأنَّ قبلهُ ﴿جَزَيۡنَٰهُم﴾ ولمْ يقلْ جوزوا، والأمرُ في هذا واسعٌ، والمعنى فيهِ بيّنٌ.

مسألةٌ- في هذهِ الآيةِ سؤالٌ ليسَ في هذهِ السّورةِ أشدُّ منهُ، وهوَ أنْ يقالَ: لمَ خصَّ اللّهُ تعالى المجازاةَ بالكفورِ ولمْ يذكرْ أصحابَ المعاصي؟ فتكلّمَ العلماءُ في هذا، فقالَ: قومٌ: ليسَ يجازى بهذا الجزاءِ الّذي هوَ الاصطلامُ والإهلاكُ إلّا منْ كفرَ. وقالَ مجاهدٌ: يجازى بمعنى يعاقبُ، وذلكَ أنَّ المؤمنَ يكفّرُ اللّهُ تعالى عنهُ سيّئاتهُ، والكافرُ يجازى بكلِ سوءِ عملهِ، فالمؤمنُ يجزى ولا يجازى لأنّهُ يثابُ.

وعنْ عائشةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالتْ: سمعتُ رسولَ اللّهِ ﷺ يقولُ: «منْ حوسبَ هلكَ» فقلت: يا نبيَّ الله، فأين قوله عز وجل: ﴿فَسَوۡفَ يُحَاسَبُ حِسَابٗا يَسِيرٗا﴾؟ قالَ: «إنّما ذلكَ العرضُ ومنْ نوقشَ الحسابَ هلكَ». وهذا إسنادٌ صحيحٌ، وشرحهُ: أنَّ الكافرَ يكافأُ على أعمالهِ ويحاسبُ عليها ويحبطُ ما عملَ منْ خيرٍ، ويبيّنُ هذا قولهُ تعالى في الأوّلِ: ﴿ذَٰلِكَ جَزَيۡنَٰهُم بِمَا كَفَرُواْۖ﴾ وفي **الثّاني**: «وهلْ يجازى إلّا الكفورُ» ومعنى «يجازى»: يكافأ بكل عمل عمله، ومعنى ﴿جَزَيۡنَٰهُم﴾ وفيناهم، فهذا حقيقةُ اللّغةِ، وإنْ كانَ «جازى» يقعُ بمعنى «جزى» مجازا.

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا بَيۡنَهُمۡ وَبَيۡنَ ٱلۡقُرَى ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَا قُرٗى ظَٰهِرَةٗ﴾ يعني بينَ اليمنِ والشّامِ، والقرى الّتي بوركَ فيها: الشّامُ والأردنُ وفلسطينُ ﴿قُرٗى ظَٰهِرَةٗ﴾ متّصلةٌ على طريقٍ، وهوَ سببُ أمنِ الطّريقِ ﴿وَقَدَّرۡنَا فِيهَا ٱلسَّيۡرَۖ﴾ سيراً مقدّراً بينَ كلِّ قريتينِ نصفَ يومٍ حتّى يكونَ المقيلُ في قريةٍ والمبيتُ في قريةٍ أخرى. وإنّما يبالغُ الإنسان في السير لعدم الزاد والماء ولخوفِ الطّريقِ، فإذا وجدَ الزّادَ والأمنَ لمْ يحملْ على نفسهِ المشقّةَ ونزلَ أينما أرادَ ﴿سِيرُواْ فِيهَا﴾ أيْ وقلنا لهمْ سيروا فيها، أيْ في هذهِ المسافةِ فهوَ أمرُ تمكينٍ، بمعنى الخبرِ، وفيهِ إضمار القول ﴿لَيَالِيَ وَأَيَّامًا﴾ ظرفانِ ﴿ءَامِنِينَ﴾ نصبَ على الحالِ. وقالَ: ﴿لَيَالِيَ وَأَيَّامًا﴾ بلفظِ النّكرةِ تنبيهاً على قصرِ أسفارهمْ، أيْ كانوا لا يحتاجونَ إلى طولِ السّفرِ لوجودِ ما يحتاجونَ إليهِ.

قوله تعالى: ﴿فَقَالُواْ رَبَّنَا بَٰعِدۡ بَيۡنَ أَسۡفَارِنَا﴾ لمّا بطروا وطغوا وسئموا الرّاحةَ ولمْ يصبروا على العافيةِ تمنّوا طولَ الأسفارِ والكدحَ في المعيشةِ، كقولِ بني إسرائيلَ: ﴿فَٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ يُخۡرِجۡ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلۡأَرۡضُ مِنۢ بَقۡلِهَا﴾ الآيةَ. وكالنّضرِ بنِ الحارثِ حينَ قالَ: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلۡحَقَّ مِنۡ عِندِكَ فَأَمۡطِرۡ عَلَيۡنَا حِجَارَةٗ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ فأجابهُ اللّهُ تباركَ وتعالى، وقتلَ يومَ بدرٍ بالسّيفِ صبراً، فكذلكَ هؤلاءِ تبدّدوا في الدّنيا ومزّقوا كلَّ ممزّقٍ، وجعلَ بينهمْ وبينَ الشّامِ فلواتٌ ومفاوزُ يركبونَ فيها الرّواحلَ ويتزوّدونَ الأزوادَ.

وقراءةُ العامّةِ ﴿رَبَّنَا﴾ بالنّصبِ على أنّهُ نداءٌ مضافٌ، وهوَ منصوبٌ لأنّهُ مفعولٌ بهِ، لأنَّ معناهُ: ناديتُ ودعوتُ. ﴿بَٰعِدۡ﴾ سألوا المباعدةَ في أسفارهمْ. وقرأ ابنُ كثيرٍ وأبو عمرو ﴿رَبَّنَا﴾ كذلكَ على الدّعاءِ «بَعِّدْ» منَ التّبعيدِ، وباعدْ وبعّدْ واحدٌ في المعنى، كما تقولُ: قاربْ وقرِّبْ. وقرأ يعقوبُ: «رَبُّنا» رفعاً «بَاعَدَ» بفتحِ العينِ والدّالِ على الخبرِ، تقديرهُ: لقدْ باعدَ ربُّنا بينَ أسفارنا، كأنَّ اللّهَ تعالى يقولُ: قرّبنا لهمْ أسفارهمْ فقالوا أشراً وبطراً: لقدْ بوعدتْ علينا أسفارنا. واختارَ هذهِ القراءةَ أبو حاتمٍ قالَ: لأنّهمْ ما طلبوا التّبعيدَ إنّما طلبوا أقربَ منْ ذلكَ القربِ بطراً وعجباً معَ كفرهمْ.

وعن ابنِ عبّاسٍ «رِبُّنَا بَعَّدَ بَيْنَ أَسْفَارِنَا» بشدِّ العينِ منْ غيرِ ألفٍ، وفسّرها ابنُ عبّاسٍ قالَ: شكوا أنَّ ربّهمْ باعدَ بينَ أسفارهمْ. وقراءةُ سعيدِ بنِ أبي الحسنِ أخي الحسنِ البصريِّ «رَبَّنَا بَعُدَ بَيْنُ أَسْفَارِنَا». ﴿رَبَّنَا﴾ نداءٌ مضافٌ، ثمَّ أخبروا بعدَ ذلكَ فقالوا: «بَعُدَ بَيْنُ أَسْفَارِنَا» ورفعَ «بَيْنُ» بالفعلِ، أيْ، بَعُدَ ما يتّصلُ بأسفارنا.

وهذهِ القراءاتُ إذا اختلفتْ معانيها لمْ يجزْ أنْ يقالَ إحداها أجودُ منَ الأخرى، كما لا يقالُ ذلكَ في أخبارِ الآحادِ إذا اختلفتْ معانيها، ولكنْ خبّرَ عنهمْ أنّهمْ دعوا ربّهمْ أنْ يبعدَ بينَ أسفارهمْ بطراً وأشراً، وخبّرَ عنهمْ أنّهمْ لمّا فعلَ ذلكَ بهمْ خبّروا بهِ وشكوا.

﴿وَظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾ أيْ بكفرهمْ ﴿فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ﴾ أيْ يتحدّثُ بأخبارهمْ ﴿وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾ فلحقتِ الأنصارُ بيثربَ، وغسّانُ بالشّامِ، والأسدُ بعمانَ، وخزاعةُ بتهامةَ، وكانتِ العربُ تضربُ بهمُ المثلَ فتقولُ: تفرّقوا أيدي سبأٍ وأيادي سبأٍ، أيْ مذاهبَ سبأٍ وطرقها ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ١٩﴾ الصّبّارُ الّذي يصبرُ عنِ المعاصي، وهوَ تكثيرُ صابرٍ يمدحُ بهذا الاسمِ. فإنْ أردتَ أنّهُ صبرَ عنِ المعصيةِ لمْ يستعملْ فيهِ إلّا ﴿صَبَّارٍ﴾ عنْ كذا. ﴿شَكُورٌ﴾ لنعمهِ.

قولهُ تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ﴾ قرأَ أبو جعفرٍ ونافعٌ وأبو عمرو وابنُ كثيرٍ وابنُ عامرٍ «وَلَقَدْ صَدَقَ عَلَيْهِمْ» بالتّخفيفِ ﴿إِبْلِيسُ﴾ بالرّفعِ ﴿ظَنَّهُۥ﴾ بالنّصبِ، أيْ صدّقَ عليهمْ ظنّهُ إذْ قالَ: ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ وقال: ﴿لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾، وقرأَ عاصمٌ وحمزةُ والكسائيُّ: ﴿صَدَّقَ﴾ بالتّشديدِ ﴿ظَنَّهُۥ﴾ بالنّصبِ بوقوعِ الفعلِ عليهِ. قالَ مجاهدٌ: ظنَّ ظنّاً فكانَ كما ظنَّ فصدّقَ ظنّهُ.

ثمَّ قيل: هذا في أهلِ سبأٍ، أيْ كفروا وغيّروا وبدّلوا بعدَ أنْ كانوا مسلمينَ إلّا قوماً منهمْ آمنوا برسلهمْ. وقيلَ: هذا عامٌّ، أيْ صدّقَ إبليسُ ظنّهُ على النّاسِ كلّهمْ إلّا منْ أطاعَ اللّهَ تعالى. ﴿فَٱتَّبَعُوهُ﴾ ما ضربهم بسوط ولا بعصاً وإنّما ظنَّ ظنّاً فكانَ كما ظنَّ بوسوستهِ ﴿إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٢٠﴾ نصبَ على الاستثناءِ، وفيهِ قولانِ:

أحدهما: أنّهُ يرادُ بِهِ بعضُ المؤمنينَ، لأنَّ كثيراً منَ المؤمنينَ منْ يذنبُ وينقادُ لإبليسَ في بعضِ المعاصي، أيْ ما سلمَ منَ المؤمنينَ أيضاً إلّا فريقٌ وهوَ المعنيُّ بقولهِ تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾.

أمّا ابنُ عبّاسٍ فقالَ: همُ المؤمنونَ كلّهمْ، فَـ ﴿مِنَ﴾ على هذا للتّبيينِ لا للتّبعيضِ.

فإن قيل: كيفَ علمَ إبليسُ صدقَ ظنّهِ وهوَ لا يعلمُ الغيبَ؟

قيلَ لهُ: لمّا نفّذَ لهُ في آدمَ ما نفّذَ غلبَ على ظنّهِ أنّهُ ينفّذُ لهُ مثلُ ذلكَ في ذرّيّتهِ، وقدْ وقعَ لهُ تحقيقُ ما ظنَّ.

وجوابٌ آخرُ: وهوَ ما أجيبَ منْ قولهُ تعالى: ﴿وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ﴾ فأعطيَ القوّةَ والاستطاعةَ، فظنَّ أنّهُ يملكهمْ كلّهمْ بذلكَ، فلمّا رأى أنّهُ تابَ على آدمَ وأنّهُ سيكونُ لهُ نسلٌ يتّبعونهُ إلى الجنّةِ وقالَ: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾ علمَ أنَّ لهُ تبعاً ولآدمَ تبعاً، فظنَّ أنَّ تبعهُ أكثرُ منْ تبعِ آدمَ، لما وضعَ في يديهِ منْ سلطانِ الشّهواتِ، ووضعتِ الشّهواتُ في أجوافِ الآدميّينَ، فخرجَ على ما ظنَّ حيثُ نفخَ فيهمْ وزيّنَ في أعينهمْ تلكَ الشّهواتِ، ومدّهمْ إليها بالأمانيِّ والخدائعِ، فصدّقَ عليهم الظن الذي ظنه، والله أعلم.

قولهُ تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ﴾ أيْ قوّةٌ يقهرهمْ بها على الكفرِ، وإنّما كانَ منهُ الدّعاءُ والتّزيينُ، وقيلَ الحجّةُ، أيْ لمْ تكنْ لهُ حجّةٌ يستتبعهم بها، وإنّما اتّبعوهُ بشهوةٍ وتقليدٍ وهوى نفسٍ، لا عنْ حجّةٍ ودليلٍ ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْءَاخِرَةِ﴾ يريدُ علمَ الشّهادةِ الّذي يقعُ بِهِ الثّوابُ والعقابُ، فأمّا الغيبُ فقدْ علمهُ تباركَ وتعالى.

وقيل المعنى: إلّا لنعلمَ ذلكَ عندكمْ، كما قالَ: ﴿أَيْنَ شُرَكَآءِى﴾، على قولكمْ وعندكمْ، وليسَ قولهُ: ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ﴾ جوابَ ﴿وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ﴾ في ظاهرهِ إنّما هوَ محمولٌ على المعنى، أيْ وما جعلنا لهُ سلطاناً إلّا لنعلمَ، فالاستثناءُ منقطعٌ، أيْ لا سلطانَ لهُ عليهمْ ولكنّا ابتليناهمْ بوسوستهِ لنعلمَ، فَـ ﴿إِلَّا﴾ بمعنى لكنْ. وقيلَ هوَ متّصلٌ، أيْ ما كانَ لهُ عليهمْ منْ سلطانٍ، غيرَ أنّا سلّطناهُ عليهمْ ليتمَّ الابتلاءُ. وقيلَ: ﴿كَانَ﴾ زائدةٌ، أيْ وما لهُ

عليهِمْ منْ سلطانٍ، كقولهِ: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ﴾ أيْ أنتمْ خيرُ أمّةٍ.

﴿وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ۝٢١﴾ أي أنه عالم بكل شيء. وقيلَ: يحفظ كل شيء على العبد حتى يجازيه عليه.

قولهُ تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ خطابُ توبيخٍ، وفيهِ إضمارٌ: لتنفعكمْ أوْ لتدفعَ عنكمْ ﴿لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ۝٢٢﴾ أيْ ما للّهِ منْ هؤلاءِ منْ معينٍ على خلقِ شيءٍ، بلِ اللّهُ المنفردُ بالإيجادِ، فهوَ الّذي يعبدُ، وعبادة غيره محال.

قولهُ تعالى: ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ﴾ أيْ شفاعةُ الملائكةِ وغيرهِمْ ﴿عِندَهُۥ﴾ أيْ عندَ اللّهِ ﴿إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾ قراءةُ العامّةِ ﴿أَذِنَ﴾ بفتحِ الهمزةِ، لذكرِ اللّهِ تعالى أوّلاً. وقرأ أبو عمرو وحمزةُ والكسائيُّ: «أُذِنَ» بضمِّ الهمزةِ على ما لمْ يسمَّ فاعلهُ. والآذنُ هوَ اللّهُ تعالى. وَ﴿مَن﴾ يجوزُ أنْ ترجعَ إلى الشّافعينَ، ويجوزَ أنْ ترجعَ إلى المشفوعِ لهمْ.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ﴾ أُخرجَ ما فيها منَ الخوفِ. أيْ أنَّ الشّفاعةَ لا تكونُ منْ أحدِ هؤلاءِ المعبودينَ منْ دونِ اللّهِ منَ الملائكةِ والأنبياءِ والأصنام، إلّا أنَّ اللّهَ تعالى يأذنُ للأنبياءِ والملائكةِ في الشّفاعةِ وهمْ على غايةِ الفزعِ منَ اللّهِ، كما قالَ: ﴿وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ﴾، فإذا سرّيَ عنهمْ قالوا للملائكةِ فوقهمْ وهمُ الّذينَ يوردونَ عليهمُ الوحيَ بالإذنِ: ﴿مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ﴾ أيْ ماذا أمرَ اللّهُ بهِ، فيقولون لهم: ﴿قَالُواْ ٱلْحَقَّ﴾ هو أنّهُ أذنَ لكمْ في الشّفاعةِ للمؤمنينَ ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ ۝٢٣﴾ فلهُ أنْ يحكمَ في عبادهِ بما يريد.

وفي الكلامِ إضمارٌ، أيْ ولا تنفعُ الشّفاعةُ عندهُ إلّا لمنْ أذنَ لهُ ففزعَ لما وردَ عليهِ منَ الإذنِ تهيّباً لكلامِ اللّهِ تعالى، حتّى إذا ذهبَ الفزعُ عنْ قلوبهمْ أجابَ بالانقيادِ.

وقيلَ: هذا الفزعُ يكونُ اليومَ للملائكةِ في كلِّ أمرٍ يأمرُ بهِ الرّبُّ تعالى، أيْ لا تنفعُ الشّفاعةُ إلّا منَ الملائكةِ الّذينَ همُ اليومَ فزعونَ، مطيعونَ للّهِ تعالى دونَ الجماداتِ والشّياطينِ. وفي صحيحِ التّرمذيِّ عنْ أبي هريرةَ عنِ النّبيِّ ﷺ: «إذا قضى اللّهُ في السّماءِ أمراً ضربتِ الملائكةُ بأجنحتها خضعاناً لقولهِ كأنّها سلسلةٌ على صفوانٍ فإذا فزّعَ عنْ قلوبهمْ

قالوا ماذا قالَ ربّكمْ قالوا الحقَّ وهوَ العليُّ الكبيرُ - قالَ - والشّياطينُ بعضهمْ فوقَ بعضٍ» قالَ: حديثٌ حسنٌ صحيحٌ.

وقالَ النّوّاسُ بنُ سمعانَ قالَ النّبيُّ ﷺ: «إنَّ اللّهَ إذا أرادَ أنْ يوحيَ بالأمرِ تكلّمَ بالوحيِ أخذتِ السّماواتِ منهُ رجفةٌ أوْ رعدةٌ شديدةٌ خوفاً منَ اللّهِ تعالى فإذا سمعَ أهلُ السّماواتِ ذلكَ صعقوا وخرّوا للّهِ تعالى سجّداً فيكونُ أوّلُ منْ يرفعُ رأسهُ جبريلُ فيكلّمهُ اللّهُ تعالى ويقولُ لهُ منْ وحيهِ ما أرادَ ثمَّ يمرُّ جبريلُ بالملائكةِ كلّما مرَّ بسماءٍ سألهُ ملائكتها ماذا قالَ ربّنا يا جبريلُ فيقولُ جبريلُ قالَ الحقَّ وهوَ العليُّ الكبيرُ - قالَ - فيقولُ كلّهمْ كما قالَ جبريلُ فينتهي جبريلُ بالوحيِ حيثُ أمرهُ اللّهُ تعالى».

وهذا تنبيهٌ منَ اللّهِ تعالى وإخبارٌ أنَّ الملائكةَ معَ اصطفائهمْ ورفعتهمْ لا يمكنُ أنْ يشفعوا لأحدٍ حتّى يؤذنَ لهمْ، فإذا أذنَ لهمْ وسمعوا صعقوا، وكانَ هذهِ حالهمْ، فكيفَ تشفعُ الأصنامُ أوْ كيفَ تؤمّلونَ أنتمُ الشّفاعةَ ولا تعترفونَ بالقيامةِ.

وقيلَ: حتّى إذا كشفَ الفزعُ عنْ قلوبِ المشركينَ في الآخرةِ عندَ نزولِ الموتِ، إقامةً للحجّةِ عليهمْ قالتِ الملائكةُ لهمْ: ماذا قالَ ربّكمْ في الدّنيا قالوا الحقَّ وهوَ العليُّ الكبيرُ، فأقرّوا حينَ لا ينفعهمُ الإقرارُ، أيْ قالوا قالَ الحقَّ.

قولهُ تعالى: ﴿۞ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ﴾ ولا يمكنهمْ أنْ يقولوا هذا فعلُ آلهتنا - فيقولونَ لا ندري، فقلْ إنَّ اللّهَ يفعلُ ذلكَ الّذي يعلمُ ما في نفوسكمْ. وإنْ قالوا: إنَّ اللّهَ يرزقنا فقدْ تقرّرتِ الحجّةُ بأنّهُ الّذي ينبغي أنْ يعبدَ ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾﴾ هذا على وجهِ الإنصافِ في الحجّةِ، كما يقولُ القائلُ: أحدنا كاذبٌ، وهوَ يعلمُ أنّهُ صادقٌ وأنَّ صاحبهُ كاذبٌ. فكذّبهمْ بأحسنَ منْ تصريحِ التّكذيبِ، وقيلَ: هيَ بمعنى الواوِ، وتقديرهُ: وإنّا على هدى وإيّاكمْ لفي ضلالٍ مبينٍ.

قوله تعالى: ﴿قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا﴾ هذا كما قالَ: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ﴾ واللّهُ مجازي الجميعِ. فهذهِ آيةُ مهادنةٍ ومتاركةٍ، وهيَ منسوخةٌ بالسّيفِ.

قولهُ تعالى: ﴿قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا﴾ يريدُ يومَ القيامةِ ﴿ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ﴾ فيثيبُ

المهتديَ ويعاقبُ الضّالَّ ﴿وَهُوَ ٱلْفَتَّاحُ﴾ أيِ القاضي بالحقِّ ﴿ٱلْعَلِيمُ ٢٦﴾ بأحوالِ الخلقِ. وهذا كله منسوخ بآية السيف.

قولُهُ تعالى: ﴿قُلْ أَرُونِيَ ٱلَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِۦ شُرَكَآءَ﴾ يكونُ ﴿أَرُونِي﴾ هنا منْ رؤيةِ القلبِ، فيكونُ ﴿شُرَكَآءَ﴾ المفعولَ الثّالثَ، أيْ عرّفوني الأصنامَ والأوثانَ الّتي جعلتموها شركاءَ للّهِ عزَّ وجلَّ، وهلْ شاركتْ في خلق شيءٍ، فبينوا ما هو؟ وإلا فلم تعبدونها. ويجوز أنْ تكونَ منْ رؤيةِ البصرِ، فيكونُ ﴿شُرَكَآءَ﴾ حالاً. ﴿كَلَّا﴾ أيْ ليسَ الأمرُ كما زعمتمْ. وقيلَ: إنَّ ﴿كَلَّا﴾ ردٌّ لجوابهمُ المحذوفِ، كأنّهُ قالَ: أروني الّذينَ ألحقتمْ بهِ شركاءَ. قالوا: هيَ الأصنامُ. فقالَ: كلّا، أيْ ليسَ لهُ شركاء ﴿بَلْ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ٢٧﴾.

قولُهُ تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ كافة أي عامة، وقيلَ: معناهُ كافًّا للنّاسِ، تكفّهمْ عمّا همْ فيهِ منَ الكفرِ وتدعوهمْ إلى الإسلامِ. والهاءُ للمبالغةِ. ﴿بَشِيرًا﴾ أيْ بالجنّةِ لمنْ أطاعَ ﴿وَنَذِيرًا﴾ منَ النّارِ لمنْ كفرَ ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ٢٨﴾ ما عندَ اللّهِ وهمُ المشركونَ، وكانوا في ذلكَ الوقتِ أكثرَ منَ المؤمنينَ عدداً ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾ يعني موعدكمْ لنا بقيامِ السّاعةِ ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ٢٩﴾ فقالَ: اللّهُ تعالى: ﴿قُل﴾ لهمْ يا محمّدُ ﴿لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَـْٔخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ ٣٠﴾ فلا يغرّنّكمْ تأخيرهُ. والميعادُ الميقاتُ. ويعني بهذا الميعادِ وقتَ البعثِ وقيلَ وقتَ حضورِ الموتِ، أيْ لكمْ قبلَ يومِ القيامةِ وقتٌ معيّنٌ تموتونَ فيهِ فتعلمونَ حقيقةَ قولي. وقيلَ: أرادَ بهذا اليومِ يومَ بدرٍ، لأنَّ ذلكَ اليومَ كانَ ميعادَ عذابهمْ في الدّنيا في حكمِ اللّهِ تعالى.

قولُهُ تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ يريدُ كفّارَ قريشٍ ﴿لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَلَا بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ منَ الكتبِ والأنبياءِ عليهمُ الصّلاةُ والسّلامُ. وقيلَ منَ الآخرةِ، ثمَّ أخبرَ اللّهُ تباركَ وتعالى عنْ حالهمْ فيما لهمْ فقالَ: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ﴾ يا محمّدُ ﴿إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ في موقفِ الحسابِ، يتراجعونَ الكلامَ فيما بينهمْ باللّومِ والعتابِ بعدَ أنْ كانوا في الدّنيا أخلّاءَ متناصرينَ. وجوابُ ﴿لَوْ﴾ محذوفٌ، أيْ لرأيتَ أمراً هائلاً فظيعا. ثم ذكر أي شيء يرجع من القول بينهم فقال: ﴿يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟﴾ في الدّنيا منَ الكافرينَ ﴿لِلَّذِينَ

﴿ٱسۡتَكۡبَرُواْ﴾ وهم القادة والرؤساء ﴿لَوۡلَآ أَنتُمۡ لَكُنَّا مُؤۡمِنِينَ ٣١﴾ أي أغويتمونا وأضللتمونا. واللغة الفصيحة ﴿لَوۡلَآ أَنتُمۡ﴾ ومنَ العربِ منْ يقولُ «لولاكمْ». ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ لِلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُوٓاْ أَنَحۡنُ صَدَدۡنَٰكُمۡ عَنِ ٱلۡهُدَىٰ﴾ هوَ استفهامٌ بمعنى الإنكارِ ﴿بَعۡدَ إِذۡ جَآءَكُمۖ بَلۡ كُنتُم مُّجۡرِمِينَ ٣٢﴾ مصرّينَ على الكفرِ ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ بَلۡ مَكۡرُ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ المكرُ الاحتيالُ والخديعةُ، أيْ بلْ مكركمُ الليْلُ والنّهارُ، كما تقولُ العربُ: نهارهُ صائمٌ وليلهُ قائمٌ. وقيلَ: مرَّ اللّيْلُ والنّهارُ عليهمْ فغفلوا. ﴿إِذۡ تَأۡمُرُونَنَآ أَن نَّكۡفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجۡعَلَ لَهُۥٓ أَندَادٗاۚ﴾ أيْ أشباهاً وأمثالاً ونظراءَ. ﴿وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ﴾ أيْ أظهروها، وهوَ منَ الأضدادِ يكونُ بمعنى الإخفاءِ والإبداءِ، وقيلَ: ﴿وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ﴾ أيْ تبيّنتِ النّدامةُ في أسرارِ وجوههمْ. قيل: النّدامةُ لا تظهرُ، وإنّما تكونُ في القلبِ، وإنّما يظهرُ ما يتولّدُ عنها، قيل: إظهارهمُ النّدامةَ قولهمْ: ﴿فَلَوۡ أَنَّ لَنَا كَرَّةٗ فَنَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾. وقيلَ: أسرّوا النّدامةَ فيما بينهمْ ولمْ يجهروا القول بها، كما قال: ﴿وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجۡوَى﴾. ﴿وَجَعَلۡنَا ٱلۡأَغۡلَٰلَ فِيٓ أَعۡنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۖ﴾ الأغلالُ جمعُ غلٍّ ﴿هَلۡ يُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٣٣﴾ في الدنيا.

قولهُ تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ﴾ أيْ أغنياؤها ورؤساؤها وجبابرتها وقادةُ الشّرِّ للرّسلِ: ﴿إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ٣٤ وَقَالُواْ نَحۡنُ أَكۡثَرُ أَمۡوَٰلٗا وَأَوۡلَٰدٗا﴾ ولوْ لمْ يكنْ ربّكمْ راضياً بما نحنُ عليهِ منَ الدّينِ والفضلِ لمْ يخوّلنا ذلكَ ﴿وَمَا نَحۡنُ بِمُعَذَّبِينَ ٣٥﴾؛ لأنَّ منْ أحسنَ إليهِ فلا يعذّبهُ، فردَّ اللّهُ عليهمْ قولهمْ وما احتجّوا بهِ منَ الغنى فقالَ: لنبيّهِ ﷺ: ﴿قُلۡ إِنَّ رَبِّي يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ﴾ أي يوسعه ﴿وَيَقۡدِرُ﴾ أيْ يقتّرُ، فسعةُ الرّزقِ في الدّنيا لا تدلُّ على سعادةِ الآخرةِ فلا تظنّوا أموالكمْ وأولادكمْ تغني عنكمْ غداً شيئاً ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ٣٦﴾ هذا لأنّهمْ لا يتأمّلونَ. ﴿وَمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُم بِٱلَّتِي تُقَرِّبُكُمۡ عِندَنَا زُلۡفَىٰٓ﴾ أيْ قربى. والزّلفةُ القربةُ ﴿إِلَّا مَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا﴾ فلنْ يضرّهُ مالهُ وولدهُ في الدّنيا ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ جَزَآءُ ٱلضِّعۡفِ بِمَا عَمِلُواْ﴾ يعني قولهِ: ﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشۡرُ أَمۡثَالِهَاۖ﴾ فالضّعفُ الزّيادةُ، أيْ لهمْ جزاءُ التّضعيفِ، أو الجزاءُ المضعّفُ ﴿وَهُمۡ فِي ٱلۡغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ ٣٧﴾ قراءةُ العامّةِ ﴿جَزَآءُ ٱلضِّعۡفِ﴾ بالإضافةِ. وقرأ الجمهورُ أيضاً ﴿فِي ٱلۡغُرُفَٰتِ﴾ على الجمعِ، كقولهِ: ﴿لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ غُرَفٗا﴾، وقرأ

حمزةُ وخلفٌ «فِي الْغُرْفَةِ» على التّوحيدِ، لقولهِ تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُجۡزَوۡنَ ٱلۡغُرۡفَةَ﴾. والغرفةُ قدْ يرادُ بها اسمُ الجمعِ واسمُ الجنس ﴿ءَامِنُونَ﴾ منَ العذابِ والموتِ والأسقامِ والأحزانِ ﴿وَٱلَّذِينَ يَسۡعَوۡنَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا﴾ في إبطالِ أدلّتنا وحجّتنا وكتابنا ﴿مُعَٰجِزِينَ﴾ معاندينَ، يحسبونَ أنّهمْ يفوتوننا بأنفسهمْ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلۡعَذَابِ مُحۡضَرُونَ ٣٨﴾ أيْ في جهنم تحضرهم الزبانية فيها.

قولهُ تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّ رَبِّي يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ وَيَقۡدِرُ لَهُۥۚ﴾ كرّرَ تأكيداً ﴿وَمَآ أَنفَقۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَهُوَ يُخۡلِفُهُۥۖ﴾ فيهِ إضمارٌ، أيْ فهوَ يخلفهُ عليكمْ، إمّا في الدّنيا وإمّا في الآخرةِ. وفي صحيحِ مسلمٍ عنْ أبي هريرةَ قالَ: قالَ رسولُ اللّهِ ﷺ: «ما منْ يومٍ يصبحُ العبادُ فيهِ إلّا وملكانِ ينزلانِ فيقولُ أحدهما اللّهمَّ أعطِ منفقاً خلفاً وأعطِ ممسكاً تلفاً»، وفيهِ أيضاً عنْ أبي هريرةَ عنْ رسولِ اللّهِ ﷺ قال: «إنَّ اللّهَ قالَ لي أنفقْ أنفقْ عليكَ...» الحديثَ. وهذهِ إشارةٌ إلى الخلفِ في الدّنيا بمثلِ المنفقِ فيها إذا كانتِ النّفقةُ في طاعةِ اللّهِ. وقدْ لا يكونُ الخلفُ في الدّنيا فيكونُ كالدّعاءِ - كما تقدّمَ - سواءٌ في الإجابةِ أوِ التّكفيرِ أو الادخار، والادخار هاهنا مثلهُ في الأجرِ. ﴿وَهُوَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ٣٩﴾ يرزقُ منْ خزائنَ لا تفنى ولا تتناهى. ومنْ أخرجَ منْ عدمٍ إلى الوجودِ فهوَ الرّازقُ على الحقيقةِ، كما قالَ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلۡقُوَّةِ ٱلۡمَتِينُ﴾.

قولهُ تعالى: ﴿وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ جَمِيعٗا﴾ هذا متّصلٌ بقولهِ: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوۡقُوفُونَ﴾. أيْ لوْ تراهمْ في هذهِ الحالةِ لرأيتَ أمراً فظيعاً. والخطابُ للنّبيِّ ﷺ والمرادُ هوَ وأمّتهُ. ثمَّ قالَ: ولوْ تراهمْ أيضاً ﴿يَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ جَمِيعٗا﴾ العابدينَ والمعبودينَ نجمعهمْ للحسابِ ﴿ثُمَّ يَقُولُ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمۡ كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ٤٠﴾. كقولهِ عزَّ وجلَّ لعيسى: ﴿ءَأَنتَ قُلۡتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيۡنِ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ﴾ ﴿قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ﴾ تنزيهاً لكَ ﴿أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِمۖ﴾ أيْ أنتَ ربّنا الّذي نتولّاهُ ونطيعهُ ونعبدهُ ونخلصُ في العبادةِ لهُ ﴿بَلۡ كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ٱلۡجِنَّۖ﴾ ويزعمونَ أنَّ الجنَّ تتراءى لهمْ، وأنّهمْ ملائكةٌ، وأنّهمْ بناتُ اللّهِ، وهوَ قولهُ: ﴿وَجَعَلُواْ بَيۡنَهُۥ وَبَيۡنَ ٱلۡجِنَّةِ نَسَبٗاۚ﴾. ﴿أَكۡثَرُهُم بِهِم مُّؤۡمِنُونَ ٤١﴾.

قولهُ تعالى: ﴿فَٱلۡيَوۡمَ لَا يَمۡلِكُ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٖ نَّفۡعٗا﴾ أيْ شفاعةً ونجاةً ﴿وَلَا ضَرّٗا﴾ أيْ عذاباً وهلاكاً ﴿وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ٤٢﴾ يجوزُ أنْ يقولَ اللّهُ لهمْ أوِ الملائكةُ: ذوقوا.

قولهُ تعالى: ﴿وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٖ﴾ يعني القرآنَ ﴿قَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٞ﴾ يعنونَ محمّداً ﷺ ﴿يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمۡ عَمَّا كَانَ يَعۡبُدُ ءَابَآؤُكُمۡ﴾ أيْ أسلافكمْ من الآلهةِ الّتي كانوا يعبدونها ﴿وَقَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفۡكٞ مُّفۡتَرٗىۚ﴾ يعنونَ القرآنَ، أيْ ما هوَ إلّا كذبٌ مختلقٌ ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمۡ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٞ ٤٣﴾ فتارةً قالوا سحرٌ، وتارةً قالوا إفكٌ. ويحتملُ أنْ يكونَ منهمْ منْ قالَ سحرٌ ومنهم من قال إفك.

قولهُ تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَيۡنَٰهُم مِّن كُتُبٖ يَدۡرُسُونَهَاۖ﴾ فيها بطلانَ ما جئتَ بهِ، كما قالَ: ﴿أَمۡ ءَاتَيۡنَٰهُمۡ كِتَٰبٗا مِّن قَبۡلِهِۦ فَهُم بِهِۦ مُسۡتَمۡسِكُونَ﴾ فليسَ لتكذيبهمْ وجهٌ ﴿وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ وكانوا أشدَّ منْ هؤلاءِ بطشاً وأكثرَ أموالاً وأولاداً وأوسعَ عيشاً، فأهلكتهمْ كثمودَ وعادٍ ﴿وَمَا بَلَغُواْ﴾ أيْ ما بلغَ أهلُ مكّةَ ﴿مِعۡشَارَ مَآ ءَاتَيۡنَٰهُمۡ﴾ تلكَ الأممَ. والمعشارُ والعشرُ سواءٌ، لغتانِ. وقيلَ: المعشارُ عشرُ العشرِ. وقيلَ: ما أعطى اللّهُ تعالى منْ قبلهمْ معشارَ ما أعطاهمْ منَ العلمِ والبيانِ والحجّةِ والبرهانِ. قالَ ابنُ عبّاسٍ: فليسَ أمّةٌ أعلمَ منْ أمّتهِ، ولا كتابٌ أبينَ منْ كتابهِ ﴿فَكَذَّبُواْ رُسُلِيۖ فَكَيۡفَ كَانَ نَكِيرِ ٤٥﴾ فيهِ محذوفٌ وتقديرُهُ: فأهلكناهم فكيف كان نكيري.

قولهُ تعالى: ﴿۞قُلۡ إِنَّمَآ أَعِظُكُم﴾ أذكّركمْ ﴿بِوَٰحِدَةٍۖ﴾ هيَ لا إلهَ إلّا اللّهُ، وقيلَ: بخصلةٍ واحدةٍ وهي ﴿أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثۡنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ﴾ فتكونُ ﴿أن﴾ في موضعِ خفضٍ على البدلِ منْ ﴿وَٰحِدَةٍ﴾، أوْ في موضعِ رفعٍ على إضمارِ مبتدأٍ، أيْ هيَ أنْ تقوموا، وهذا القيامُ معناهُ القيامُ إلى طلبِ الحقِّ لا القيامُ الّذي هوَ ضدُّ القعودِ، كما قالَ تعالى: ﴿وَأَن تَقُومُواْ لِلۡيَتَٰمَىٰ بِٱلۡقِسۡطِۚ﴾. ﴿مَثۡنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ﴾ أيْ وحداناً ومجتمعينَ، وقيلَ: منفرداً برأيهِ ومشاوراً لغيرهِ ﴿ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍۚ﴾ الوقفُ عندَ ﴿ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْۚ﴾. وقيلَ: ليسَ هوَ

بوقفٍ لأنَّ المعنى: ثمَّ تتفكّروا هلْ جرّبتمْ على صاحبكمْ كذبـًا، أوْ رأيتمْ فيهِ جنّةً، أوْ في أحوالهِ منْ فسادٍ ﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا نَذِيرٞ لَّكُم بَيۡنَ يَدَيۡ عَذَابٖ شَدِيدٖ ۝٤٦﴾ وفي صحيح مسلمٍ عنِ ابنِ عبّاسٍ قالَ: لمّا نزلتْ هذهِ الآيةُ ﴿وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ﴾. خرجَ رسولُ اللّهِ ﷺ حتّى صعدَ الصّفا فهتفَ: يا صباحاهُ؟ فقالوا: منْ هذا الّذي يهتفُ!؟ قالوا محمّدٌ، فاجتمعوا إليهِ فقالَ: «يا بني فلانٍ يا بني فلانٍ يا بني عبدِ منافٍ يا بني عبدِ المطّلبِ- فاجتمعوا إليهِ فقالَ- أرأيتمْ لوْ أخبرتكمْ أنَّ خيلاً تخرجُ منْ سفحِ هذا الجبلِ أكنتمْ مصدّقيَّ»؟ قالوا: ما جرّبنا عليكَ كذبـًا. قالَ: «فإنّي نذيرٌ لكمْ بينَ يديْ عذابٍ شديدٍ»». قالَ فقالَ: أبو لهبٍ: تبـًا لكَ! أما جمعتنا إلّا لهذا؟ ثمَّ قالَ فنزلتْ هذهِ السّورةُ: «تبّتْ يدا أبي لهبٍ وقد تب».

قولهُ تعالى: ﴿قُلۡ مَا سَأَلۡتُكُم مِّنۡ أَجۡرٖ﴾ على تبليغِ الرّسالةِ ﴿فَهُوَ لَكُمۡۖ﴾ أيْ ذلكَ الجعلُ لكمْ إنْ كنتُ سألتكموهُ ﴿إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٞ ۝٤٧﴾ أيْ رقيبٌ وعالمٌ وحاضرٌ لأعمالي وأعمالكمْ، لا يخفى عليه شيء فهو يجازي الجميع.

قولهُ تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّ رَبِّي يَقۡذِفُ بِٱلۡحَقِّ﴾ بالقرآنُ.

قولهُ تعالى: ﴿قُلۡ جَآءَ ٱلۡحَقُّ﴾ القرآنَ الّذي فيهِ البراهينُ والحججُ ﴿وَمَا يُبۡدِئُ ٱلۡبَٰطِلُ﴾ الشّيطانُ، أيْ ما يخلقُ الشّيطانُ أحداً ﴿وَمَا يُعِيدُ ۝٤٩﴾.

قولهُ تعالى: ﴿قُلۡ إِن ضَلَلۡتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفۡسِيۖ﴾ أيْ إثمُ ضلالتي على نفسي ﴿وَإِنِ ٱهۡتَدَيۡتُ فَبِمَا يُوحِيٓ إِلَيَّ رَبِّيٓۚ﴾ منَ الحكمةِ والبيانِ ﴿إِنَّهُۥ سَمِيعٞ قَرِيبٞ ۝٥٠﴾ أيْ سميعٌ ممّنْ دعاهُ قريبُ الإجابةِ.

قولهُ تعالى: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ فَزِعُواْ فَلَا فَوۡتَ﴾ عندَ نزولِ الموتِ أوْ غيرهِ منْ بأسِ اللّهِ تعالى بهمْ، وقيلَ: إذا خرجوا منْ قبورهمْ، أو إذا عاينوا عقابَ اللّهِ يومَ القيامةِ، وقيلَ: هوَ فزعهمْ يومَ بدرٍ حينَ ضربتْ أعناقهمْ بسيوفِ الملائكةِ فلمْ يستطيعوا فراراً ولا رجوعـًا إلى التّوبةِ ﴿فَلَا فَوۡتَ﴾ فلا نجاةَ ولا مهربَ ﴿وَأُخِذُواْ مِن مَّكَانٖ قَرِيبٖ ۝٥١﴾ أيْ منَ القبورِ. وقيلَ: منْ حيثُ كانوا، فهمْ منَ اللّهِ قريبٌ لا يعزبونَ عنهُ ولا يفوتونهُ.

قولهُ تعالى: ﴿وَقَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦ﴾ أي القرآنِ، أو باللّهِ عزَّ وجلَّ، أو بالبعثِ، أو بالرّسولِ ﷺ ﴿وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٖ ۝٥٢﴾ التّناوشُ الرّجعةُ، أيْ يطلبونَ الرّجعةَ إلى الدّنيا ليؤمنوا، وهيهاتَ منْ ذلكَ! ومنه قول الشاعر:

تمنى أن تؤوب إليَّ ميٌّ وليسَ إلى تناوشها سبيلُ

وقيلَ: هىَ التّوبةُ، أيْ طلبوها وقدْ بعدتْ، لأنّهُ إنّما تقبلُ التّوبةُ في الدّنيا. وقيلَ: التّناوشُ التّناولُ: أنّى لهمْ تناولُ الإيمانِ في الآخرةِ وقدْ كفروا في الدّنيا.

وقرأَ أبو عمرو والكسائى وحمزة: ﴿وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاؤُشُ﴾ بالهمز. مشتقّ منَ النّئيش وهوَ الحركةُ في إبطاءٍ، أيْ منْ أينَ لهمُ الحركةُ ﴿مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٖ ۝٥٢﴾ أيْ منَ الآخرةِ.

قولهُ تعالى: ﴿وَقَدۡ كَفَرُواْ بِهِۦ﴾ أيْ باللّهِ عزَّ وجلَّ وقيلَ: بمحمّدٍ ﴿مِن قَبۡلُ﴾ يعنى في الدّنيا ﴿وَيَقۡذِفُونَ بِٱلۡغَيۡبِ﴾ يرجمون بالغيب فيقولونَ: لا بعثَ ولا نشورَ رجماً منهم بالظن، وقيلَ: ﴿يَقۡذِفُونَ﴾ أيْ يرمونَ في القرآنِ فيقولونَ: سحرٌ وشعرٌ وأساطيرُ الأوّلينَ. وقيلَ: في محمّدٍ، فيقولونَ ساحرٌ شاعرٌ كاهنٌ مجنونٌ. ﴿مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٖ ۝٥٣﴾ أيْ أنَّ اللّهَ بعّدَ لهمْ أنْ يعلموا صدقَ محمّدٍ. وقيلَ: أرادَ البعدَ عنِ القلبِ، أيْ منْ مكانٍ بعيدٍ عنْ قلوبهمْ.

قولهُ تعالى: ﴿وَحِيلَ بَيۡنَهُمۡ وَبَيۡنَ مَا يَشۡتَهُونَ﴾ وهو النّجاةِ منَ العذاب. وقيلَ: ما يشتهونَ في الدّنيا منْ أموالهمْ وأهليهمْ ﴿كَمَا فُعِلَ بِأَشۡيَاعِهِم﴾ الأشياعُ جمعُ شيع، وشيعٌ جمعُ شيعةٍ ﴿مِن قَبۡلُ﴾ منَ القرونِ السّالفةِ الكافرةِ ﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ فِي شَكّٖ﴾ في الدّين والتّوحيدِ ﴿مُّرِيبِۭ ۝٥٤﴾ أيْ يسترابُ بهِ.

سورة فاطر

مكية في قول الجميع وهي خمس وأربعون آية.

بسمِ اللّهِ الرّحمنِ الرّحيمِ

قولهُ تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ يجوزُ في ﴿فَاطِرِ﴾ ثلاثةُ أوجهٍ: الخفضُ على النّعتِ، والرّفعُ على إضمارِ مبتدأٍ، والنّصبُ على المدحِ، وكذا ﴿جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾. والفاطرُ: الخالقُ، والفطرُ. الشّقُّ عنِ الشّيءِ، والفطرُ: الابتداءُ والاختراعُ. قالَ ابنُ عبّاسٍ: كنتُ لا أدري ما ﴿فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ حتّى أتاني أعرابيّانِ يختصمانِ في بئرٍ، فقال أحدهما: أنا فطرتها، أي أنا ابتدأتها.

والمرادُ بذكرِ السّماواتِ والأرضِ العالمُ كلّهُ، ونبّهَ بهذا على أنَّ منْ قدرَ على الابتداءِ قادرٌ على الإعادةِ. ﴿جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ لا يجوزُ فيهِ التّنوينُ، لأنّهُ لما مضى. ﴿رُسُلًا﴾ مفعولٌ ثانٍ، والرّسلُ منهمْ جبريلُ وميكائيلُ وإسرافيلُ وملكُ الموتِ، صلّى اللّهُ عليهمْ أجمعينَ ﴿أُوْلِيٓ أَجْنِحَةٍ﴾ نعتٌ، أيْ أصحابُ أجنحةٍ ﴿مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ﴾ أيِ اثنينِ اثنينِ، وثلاثةً ثلاثةً، وأربعةً أربعةً. بعضهمْ لهُ جناحانِ، وبعضهمْ ثلاثةٌ، وبعضهمْ أربعةٌ، ينزلونَ بهما منَ السّماءِ إلى الأرضِ، ويعرجونَ منَ الأرضِ إلى السّماءِ، وفي صحيحِ مسلمٍ عنِ ابنِ مسعودٍ أنَّ النّبيَّ ﷺ رأى جبريل عليه السلام لهُ ستّمائةِ جناحٍ.

وَ ﴿أُوْلُواْ﴾ اسمُ جمعٍ لذو، كما أنَّ هؤلاءِ اسمُ جمعٍ لذا ﴿يَزِيدُ فِي ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ﴾ أيْ في خلقِ الملائكةِ، أو في أجنحةِ الملائكةِ ما يشاءُ، والآيةُ مطلقةٌ تتناولُ كلَّ زيادةٍ في الخلقِ، منْ طولِ قامةٍ، واعتدالِ صورةٍ، وتمامٍ في الأعضاءِ، وقوّةٍ في البطشِ، وحصافةٍ في العقلِ، وجزالةٍ في الرّأيِ، وجرأةٍ في القلبِ، وسماحةٍ في النّفسِ، وذلاقةٍ في اللّسانِ، ولباقةٍ في التّكلّمِ، وحسنِ تأتٍّ في مزاولةِ الأمورِ، وما أشبهَ ذلكَ ممّا لا يحيطُ به وصف.

قوله تعالى: ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢﴾﴾

أيْ أنَّ الرّسلَ بعثوا رحمةً للنّاسِ فلا يقدرُ على إرسالهمْ غيرُ اللّهِ. وقيلَ: ما يأتيهمْ بهِ اللّهُ منْ مطرٍ أوْ رزقٍ فلا يقدرُ أحدٌ أنْ يمسكهُ، وما يمسكُ منْ ذلكَ فلا يقدر أحدٌ على أنْ يرسلهُ. وقيلَ: هوَ الدّعاءُ: وقيلَ: منْ توبةٍ. وقيلَ: منْ توفيقٍ وهدايةٍ.

قلت: ولفظُ الرّحمةِ يجمعُ ذلكَ إذْ هيَ منكّرةٌ للإشاعةِ والإبهامِ، فهيَ متناولةٌ لكلِ رحمةٍ على البدلِ، فهوَ عامٌّ في جميعِ ما ذكرَ.

قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ﴾ معنى الذّكرِ هنا الشّكرُ ﴿هَلْ مِنْ خَـٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ﴾ قالَ حميدٌ الطّويلُ: قلتُ: للحسنِ: منْ خلقَ الشّرَّ؟ فقالَ: سبحانَ اللّهِ! هل من خالق غير الله عز وجل، خلقَ الخيرَ والشّرَّ. وقرأ حمزةُ والكسائيُّ: ﴿هَلْ مِنْ خَـٰلِقٍ غَيْرِ ٱللَّهِ﴾ بالخفضِ. الباقونَ بالرّفعِ. ﴿يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ أي المطر ﴿وَٱلْأَرْضِ﴾ أي النبات ﴿لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣﴾﴾ منَ الأَفكِ بالفتحِ وهوَ الصّرفُ، لأنّهُ قولٌ مصروفٌ عنِ الصّدقِ والصّوابِ، أيْ منْ أينَ يقعُ لكمُ التّكذيبُ بتوحيدِ اللّهِ. والآيةُ حجّةٌ على القدريّةِ لأنّهُ نفى خالقاً غيرَ اللّهِ وهمْ يثبتونَ معهُ خالقينَ، على ما تقدّمَ في غير موضع.

قوله تعالى: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ﴾ يعني كفار قريش ﴿فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ ۚ﴾ يعزّي نبيّهُ ويسلّيهِ ﷺ وليتأسى بمن قبله في الصبر. ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٤﴾﴾ قرأ يعقوبُ وابنُ عامرٍ وحمزةُ والكسائيُّ وخلفُ بفتحِ التّاءِ على أنّهُ مسمّى الفاعل. وأختاره أبو عبيد لقول تعالى: ﴿أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ﴾ الباقون ﴿تُرْجَعُ﴾ على الفعل المجهول.

قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٥﴾﴾ وعظٌ للمكذّبينَ للرّسولِ، وغرورُ الحياةِ الدّنيا أنْ يشتغلَ الإنسانُ بنعيمها ولذّاتها عنْ عملِ الآخرة، حتى يقول: يا ليتني قدّمتُ لحياتي. قالَ سعيدُ بنُ جبيرٍ: الغرورُ باللّهِ أنْ يكونَ الإنسانُ يعملُ بالمعاصي ثمَّ يتمنّى على اللّهِ المغفرةَ.

وقراءةُ العامّةِ ﴿ٱلْغَرُورُ﴾ بفتحِ الغينِ وهوَ الشّيطانُ، أيْ لا يغرّنّكمْ بوساوسهِ في أنّهُ

يتجاوزُ عنكمْ لفضلكمْ. وقرئ «الْغُرُورُ» برفعِ الغينِ وهوَ الباطلُ، أيْ لا يغرّنّكمُ الباطلُ.

قولهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمۡ عَدُوّٞ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّاۚ﴾. أيْ فعادوهُ ولا تطيعوهُ. ويدلّكمْ على عداوتهِ إخراجهُ أباكمْ من الجنة، وضمانه إضلالكم في قول: ﴿وَلَأُضِلَّنَّهُمۡ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمۡ﴾ الآيةَ. وقولهُ: ﴿لَأَقۡعُدَنَّ لَهُمۡ صِرَٰطَكَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ١٦ ثُمَّ لَأٓتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ﴾ الآية. وكانَ الفضيلُ بنُ عياضٍ يقولُ: يا كذّابُ يا مفترِ، اتّقِ اللّهَ ولا تسبَّ الشّيطانَ في العلانيةِ وأنتَ صديقهُ في السّرِّ. وقالَ ابنُ السّمّاكِ: يا عجباً لمنْ عصى المحسنَ بعدَ معرفتهِ بإحسانهِ! وأطاعَ اللّعينَ بعدَ معرفتهِ بعداوتهِ! ﴿إِنَّمَا يَدۡعُواْ حِزۡبَهُۥ﴾ كفّتْ «ما» «إنَّ» عنِ العملِ فوقعَ بعدها الفعلُ. ﴿حِزۡبَهُۥ﴾ أيْ أشياعهُ ﴿لِيَكُونُواْ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ٦﴾ فهذهِ عداوتهُ. ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞۖ﴾ يكونُ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ في موضعِ رفعٍ بالابتداءِ ويكونُ خبرهُ ﴿لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞ﴾. ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ في موضعِ رفعٍ بالابتداءِ أيضاً، وخبرهُ ﴿لَهُم مَّغۡفِرَةٞ﴾ أيْ لذنوبهمْ ﴿وَأَجۡرٞ كَبِيرٞ﴾ وهوَ الجنّةُ.

قولهُ تعالى: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ﴾ «منْ» في موضعِ رفعٍ بالابتداءِ، وخبرهُ محذوفٌ ويدلُّ عليهِ قولهُ تعالى: ﴿فَلَا تَذۡهَبۡ نَفۡسُكَ عَلَيۡهِمۡ حَسَرَٰتٍۚ﴾ كما قال عز وجل: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ﴾.

وفي ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ﴾ أربعةُ أقوالٍ:

أحدها: أنهم اليهود والنصارى والمجوس، ويكونُ ﴿سُوٓءُ عَمَلِهِۦ﴾ معاندةُ الرّسولِ ﷺ.

الثّاني: أنّهمُ الخوارجُ، ويكون ﴿سُوٓءُ عَمَلِهِۦ﴾ تحريف التأويل.

الثالث: الشيطان، ويكونُ ﴿سُوٓءُ عَمَلِهِۦ﴾ الإغواءُ.

الرّابعُ: كفّارُ قريشٍ، ويكونُ ﴿سُوٓءُ عَمَلِهِۦ﴾ الشّركُ.

قلت: والقولُ بأنَّ المرادَ كفّارُ قريشٍ أظهرُ الأقوالِ، لقولهِ تعالى: ﴿۞لَّيۡسَ عَلَيۡكَ هُدَىٰهُمۡ﴾، وقولهِ: ﴿وَلَا يَحۡزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡكُفۡرِۚ﴾، وقالَ: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ

عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِمۡ إِن لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهَـٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَسَفًا﴾، وقولِهِ: ﴿لَعَلَّكَ بَـٰخِعٞ نَّفۡسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ﴾، وقوله في هذه الآية: وهذا ظاهرٌ بيّنٌ، أيْ لا ينفعُ تأسّفكَ على مقامهمْ على كفرهمْ، فإنَّ اللّهَ أضلّهمْ.

وهذهِ الآيةُ تردُّ على القدريّةِ قولهمْ على ما تقدّمَ، أيْ أفمنْ زيّنَ لهُ سوءُ عملهِ فرآهُ حسناً تريدُ أنْ تهديهُ، وإنّما ذلكَ إلى اللّهِ لا إليكَ، والّذي إليكَ هوَ التّبليغُ.

وقرأَ أبو جعفرٍ: «فَلَا تُذْهِبْ» بضمِّ التّاءِ وكسرِ الهاءِ «نَفْسَكَ» نصباً على المفعولِ، والمعنيانِ متقاربانِ.

﴿حَسَرَٰتٍۚ﴾ منصوبٌ مفعولٌ منْ أجلهِ، أيْ فلا تذهبُ نفسكَ للحسراتِ. وَ ﴿عَلَيۡهِمۡ﴾ صلةُ ﴿تَذۡهَبۡ﴾، كما تقولُ: هلكَ عليهِ حباً وماتَ عليهِ حزناً. وهوَ بيانٌ للمتحسّرِ عليهِ.

ويجوز أن يكون حالا كأن كلها صارتْ حسراتٍ لفرطِ التّحسّرِ.

قولهُ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابٗا فَسُقۡنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٖ مَّيِّتٖ﴾ ميّتٌ وميْتٌ واحدٌ، وكذا ميّتةٌ وميْتةٌ، هذا قولُ الحذّاقِ منَ النّحويّينَ. وقالَ محمّدُ بنُ يزيدَ: هذا قولُ البصريّينَ، ولمْ يستثنِ أحداً، واستدلَّ على ذلكَ بدلائلَ قاطعةٍ. وأنشدَ:

ليس من مات فاستراح بميْت ... وإنما الميْت ميِّتُ الأحياء
إنما المَيْت من يعيش كئيبا ... كاسفا بالهُ قليلَ الرّجاءِ

قالَ: ﴿فَسُقۡنَٰهُ﴾ بعدَ أنْ قالَ: ﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ﴾ وهوَ منْ بابِ تلوينِ الخطابِ. **فإنْ قلت**: لمَ جاءَ ﴿فَتُثِيرُ﴾ على المضارعةِ دونَ ما قبلهُ وما بعدهُ؟ قلت: لتحكيَ الحالَ الّتي تقعُ فيها إثارةُ الرّياحِ السّحابَ، وتستحضرُ تلكَ الصورة البديعة الدالة على القدوة الرّبّانيّةِ، فسوقُ السّحابِ إلى البلدِ الميّتِ، لمّا كانا منَ الدّلائل على القدرةِ الباهرةِ قيلَ: «فسقنا» وَ «أحيينا» معدولاً بهما عنْ لفظةِ الغيبةِ إلى ما هوَ أدخلُ في الاختصاصِ وأدلُّ عليهِ.

وقراءةُ العامّةِ ﴿ٱلرِّيَٰحَ﴾. وقرأ ابنُ كثيرٍ وحمزةُ والكسائيُّ: «الرِّيحَ» توحيداً.

قولهُ تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ جَمِيعًاۚ﴾ الألفُ واللّامُ للعهدِ عندَ العالمينَ بهِ سبحانهُ وبما وجبَ لهُ منْ ذلكَ، وهوَ المفهومُ منْ قولهِ الحقِّ في سورةِ يونسَ: ﴿وَلَا يَحۡزُنكَ قَوۡلُهُمۡۘ إِنَّ ٱلۡعِزَّةَ لِلَّهِ﴾. ويحتملُ أنْ يريدَ سبحانهُ أنْ ينبّهَ ذوي الأقدارِ والهممِ منْ أينَ تنالُ العزّةُ ومنْ أينَ تستحقُّ، فتكونُ الألفُ واللّامُ للاستغراقِ، وهوَ المفهومُ منْ آياتِ هذهِ السّورةِ. فمنْ طلبَ العزةَ منَ اللّهِ وصدقهُ في طلبها بافتقارٍ وذلٍّ، وسكونٍ وخضوعٍ، وجدها عندهُ إنْ شاءَ اللّهُ غيرَ ممنوعةٍ ولا محجوبةٍ عنهُ، قالَ ﷺ: «منْ تواضعَ للّهِ رفعهُ اللّهُ». ومنْ طلبها منْ غيرهِ وكلهُ إلى منْ طلبها عندهُ. وقدْ ذكرَ قومًا طلبوا العزّةَ عندَ منْ سواهُ فقالَ: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۚ أَيَبۡتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلۡعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلۡعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾. فأنبأكَ صريحًا لا إشكالَ فيهِ أنَّ العزّةَ لهُ يعزُّ بها منْ يشاءُ ويذلُّ منْ يشاءُ، ولقدْ أحسنَ منْ قالَ:

وإذا تذلّلتِ الرّقابُ تواضعًا ... منّا إليكَ فعزُّها في ذُلّها

قولهُ تعالى: ﴿إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلۡعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرۡفَعُهُۥ﴾ فيهِ مسألتانِ:

الأولى: قولهُ تعالى: ﴿إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ وتمَّ الكلامُ. ثمَّ تبتدئُ ﴿وَٱلۡعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرۡفَعُهُۥۚ﴾ على معنى: يرفعهُ اللّهُ، أوْ يرفعُ صاحبهُ. والصّعودُ هوَ الحركةُ إلى فوقُ، وهوَ العروجُ أيضًا. ولا يتصوّرُ ذلكَ في الكلامِ لأنّهُ عرضٌ، لكنْ ضربَ صعودهُ مثلًا لقبولهِ، لأنَّ موضعَ الثّوابِ فوقُ، وموضعَ العذابِ أسفلُ.

وقولهُ: ﴿إِلَيۡهِ﴾ أيْ إلى اللّهِ يصعدُ. وَ ﴿ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ هوَ التّوحيدُ الصّادرُ عنْ عقيدةٍ طيّبةٍ. وقيلَ: هوَ التّحميدُ والتّمجيدُ، وذكرُ اللّهِ ونحوهُ. ﴿وَٱلۡعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرۡفَعُهُۥۚ﴾ يرفعُ الكلمَ الطّيّبَ.

قالَ ابنُ العربيِّ: «إنَّ كلامَ المرءِ بذكرِ اللّهِ إنْ لمْ يقترنْ بهِ عملٌ صالحٌ لمْ ينفعْ، لأنَّ منْ خالفَ قولهُ فعلهُ فهوَ وبالٌ عليهِ. وتحقيقُ هذا: أنَّ العملَ إذا وقعَ شرطًا في قبولِ القولِ أوْ مرتبطًا، فإنّهُ لا قبولَ لهُ إلّا بهِ وإنْ لمْ يكنْ شرطًا فيهِ فإنَّ كلمهُ الطّيّبَ يكتبُ لهُ، وعملهُ السّيّئَ يكتبُ عليهِ، وتقعُ الموازنةُ بينهما، ثمَّ يحكمُ اللّهُ بالفوزِ والرّبحِ والخسرانِ».

وقيلَ: تعودُ على اللّهِ جلَّ وعزَّ، أيْ أنَّ العملَ الصّالحَ يرفعهُ اللّهُ على الكلمِ الطّيّبِ، لأنَّ العملَ تحقيقُ الكلمِ، والعاملُ أكثرُ تعباً منَ القائلِ، وهذا هوَ حقيقةُ الكلامِ، لأنَّ اللّهَ هوَ الرّافعُ الخافضُ.

وقيلَ: والعملُ الصّالحُ يرفعُ صاحبهُ، وهوَ الّذي أرادَ العزّةَ وعلمَ أنّها تطلبُ منَ اللّهِ تعالى.

الثانية: ذكروا عندَ ابنِ عبّاسٍ أنَّ الكلبَ يقطعُ الصّلاةَ، فقرأَ هذهِ الآيةَ: ﴿إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلۡعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرۡفَعُهُۥۚ﴾. وهذا استدلالٌ بعمومٍ على مذهبِ السّلفِ في القولِ بالعمومِ، وقدْ دخلَ في الصلاة بشروطها، فلا يقطعها عليه شيءٌ إلّا بثبوتِ ما يوجبُ ذلكَ، منْ مثلِ ما انعقدتْ بهِ منْ قرآنٍ أوْ سنّةٍ أوْ إجماعٍ. وقدْ تعلّقَ منْ رأى ذلكَ بقولهِ ﷺ: «يقطعُ الصّلاةَ المرأةُ والحمارُ والكلبُ الأسودُ» فقلت: ما بالُ الكلبِ الأسودِ منَ الكلبِ الأبيضِ منَ الكلبِ الأحمرِ؟ فقالَ: «إنَّ الأسودَ شيطانٌ» خرّجهُ مسلمٌ.

وقدْ جاءَ ما يعارضُ هذا، وهوَ ما خرّجهُ البخاريُّ عنِ ابنِ أخي ابنِ شهابٍ أنّهُ سأل عمه عن الصلاة يقطعها شيء؟ فقال: لا يقطعها شيء، أخبرني عروةُ بنُ الزّبيرِ أنَّ عائشةَ زوجَ النّبيِّ ﷺ قالتْ: لقدْ كانَ رسولُ اللّهِ ﷺ يقومُ فيصلّي منَ اللّيلِ، وإنّي لمعترضةٌ بينهُ وبينَ القبلةِ على فراشِ أهلهِ.

قولهُ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَمۡكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ قيل: همْ أصحابُ الرّياءِ، وقيلَ: همُ الّذينَ مكروا بالنّبيِّ ﷺ لمّا اجتمعوا في دارِ النّدوةِ. ويقالُ: بارَ يبورُ إذا هلكَ وبطلَ. وبارتِ السّوقُ أيْ كسدتْ، ومنهُ: ﴿وَكُنتُمۡ قَوۡمَۢا بُورٗا﴾ أيْ هلكى. والمكرُ: ما عملَ على سبيلِ احتيال وخديعة.

قولهُ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٍ﴾ أي: خلقَ أصلكم من تراب. ثمَّ منْ نطفةٍ أخرجها منْ ظهورِ آبائكمْ ﴿وَمَا تَحۡمِلُ مِنۡ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلۡمِهِۦۚ﴾ فلا يخرج شيء عن تدبيره ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٖ وَلَا يُنقَصُ مِنۡ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِي كِتَٰبٍۚ﴾ سمّاهُ معمّراً بما هوَ صائرٌ إليهِ. وهذا مثلُ قولهِ ﷺ: «منْ أحب أن يبسط له في رزقه وينسأَ لهُ في أثرهِ فليصلْ رحمهُ» أيْ أنّهُ يكتبُ في اللّوحِ المحفوظِ: عمرُ فلانٍ كذا سنةٍ، فإنْ وصلَ رحمهُ زيدَ في عمرهِ كذا سنةٍ. وهذا معنى قوله تعالى: ﴿يَمۡحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثۡبِتُۖ﴾ والكنايةُ على هذا ترجعُ إلى العمرِ. وقيلَ: المعنى وما يعمّرُ منْ معمّرٍ أيْ هرم، ولا ينقصُ آخرُ منْ عمرِ الهرمِ إلّا في كتابٍ، أيْ بقضاءٍ منَ اللّهِ جلَّ وعزَّ. وَ ﴿يَسِيرٞ ١١﴾ أيْ إحصاءُ طويلِ الأعمارِ وقصيرها لا يتعذّرُ عليه شيء منها ولا يعزب.

قولهُ تعالى: ﴿وَمَا يَسۡتَوِي ٱلۡبَحۡرَانِ هَٰذَا عَذۡبٞ فُرَاتٞ سَآئِغٞ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلۡحٌ أُجَاجٞۖ وَمِن كُلّٖ تَأۡكُلُونَ لَحۡمٗا طَرِيّٗا وَتَسۡتَخۡرِجُونَ حِلۡيَةٗ تَلۡبَسُونَهَاۖ﴾ فيه أربع مسائلَ:

الأولى: ﴿فُرَاتٞ﴾ حلوٌ، و ﴿أُجَاجٞۖ﴾ مرٌّ.

الثّانيةُ: الحليةَ إنّما تستخرجُ منَ الملحِ، لكنْ جمعا ثمَّ أخبرَ عن أحدهما كما قال عز وجل: ﴿وَمِن رَّحۡمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ﴾. ﴿وَمِن كُلّٖ تَأۡكُلُونَ لَحۡمٗا طَرِيّٗا وَتَسۡتَخۡرِجُونَ حِلۡيَةٗ تَلۡبَسُونَهَاۖ﴾ فاجتمعا في الأوّلِ وانفردَ الملحُ بالثّاني.

الثالثة: وفي قوله: ﴿تَلۡبَسُونَهَاۖ﴾، دليلٌ على أنَّ لباس كل شيء بحسبهِ، فالخاتمُ يجعلُ في الإصبعِ، والسّوارُ في الذّراعِ، والقلادةُ في العنقِ، والخلخالُ في الرّجلِ. وفي البخاريِّ والنّسائيِّ عنِ ابنِ سيرينَ قالَ قلت لعَبِيدة: افتراش الحرير كلبسه؟ قال نعمْ. وفي الصّحاحِ عنْ أنسٍ: «فقمتُ على حصيرٍ لنا قدِ اسودَّ منْ طولِ ما لبسَ» الحديثَ.

الرابعة: قولهُ تعالى ﴿وَتَرَى ٱلۡفُلۡكَ فِيهِ مَوَاخِرَ﴾ أيْ ماءَ الملحِ خاصّةً، ولولا ذلكَ لقالَ فيهما. وقدْ مخرتِ السّفينةُ تمخرُ إذا شقّتِ الماءَ ﴿وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ١٢﴾ على ما آتاكمْ منْ فضله. وقيلَ: على ما أنجاكم من هول.

قولهُ تعالى: ﴿يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ﴾ تقدّمَ في «آلِ عمرانَ» وغيرها ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ كُلّٞ يَجۡرِي لِأَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ﴾ تقدّمَ في ﴿لُقۡمَٰنُ﴾ بيانهُ. ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ لَهُ ٱلۡمُلۡكُۚ﴾ الخالقُ المدبر، والقادر المقتدر، فهو الذي يعبد ﴿وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ﴾ يعني الأصنام ﴿مَا يَمۡلِكُونَ مِن قِطۡمِيرٍ ١٣﴾ أيْ لا يقدرونَ عليهِ ولا على خلقهِ. والقطميرُ القشرةُ الرّقيقةُ البيضاءُ الّتي بينَ التّمرةِ والنّواةِ، قالهُ أكثرُ المفسّرينَ. ويقالُ: هيَ النّكتةُ البيضاءُ الّتي في ظهرِ النّواةِ، تنبتُ منها النخلة.

قولهُ تعالى: ﴿إِن تَدۡعُوهُمۡ لَا يَسۡمَعُواْ دُعَآءَكُمۡ﴾ لأنّها جمادات لا تبصر ولا تسمع. ولوْ سمعوا لمْ ينفعوكمْ، ولما استجابوا لكمْ على الكفرِ ﴿وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُونَ بِشِرۡكِكُمۡۚ﴾ أيْ يجحدونَ أنّكمْ عبدتموهمْ، ويتبرّأونَ منكمْ. ثمَّ يجوزُ أنْ يرجعَ هذا إلى المعبودينَ ممّا يعقلُ، كالملائكةِ والجنِّ والأنبياءِ والشّياطينِ أيْ يجحدونَ أنْ يكونَ ما فعلتموهُ حقـًا، وأنّهمْ أمروكمْ بعبادتهمْ، كما أخبرَ عنْ عيسى بقولهِ: ﴿مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أَقُولَ مَا لَيۡسَ لِي بِحَقٍّۚ﴾ ويجوزُ أنْ يندرجَ فيهِ الأصنامُ أيضـًا، أيْ يحييها اللّهُ حتّى تخبرَ أنّها ليستْ أهلاً للعبادة ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثۡلُ خَبِيرٖ ١٤﴾ وهو الله عز وجل.

قولهُ تعالى: ﴿۞يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِۖ﴾ وعرّفَ الفقراءَ ليريهمْ أنّهمْ لشدّةِ افتقارهمْ إليهِ همْ جنسُ الفقراءِ، وإنْ كانتِ الخلائقُ كلّهمْ مفتقرينَ إليهِ، وقدْ شهدَ اللّهُ سبحانهُ على الإنسانِ بالضّعفِ في قولهِ: ﴿وَخُلِقَ ٱلۡإِنسَٰنُ ضَعِيفٗا﴾، وقال: ﴿۞ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعۡفٖ﴾، وقوبلَ ﴿ٱلۡفُقَرَآءُ﴾ بِ ﴿ٱلۡغَنِيُّ﴾ و ﴿ٱلۡحَمِيدُ﴾ إذ ليسَ كلُّ غنيٍّ نافعـًا بغناهُ إلّا إذا كانَ جواداً منعمـًا، وإذا جادَ وأنعمَ حمدهُ المنعمُ عليهمْ واستحقَّ عليهمُ الحمدَ.

قولهُ تعالى: ﴿إِن يَشَأۡ يُذۡهِبۡكُمۡ﴾ فيهِ حذفٌ، المعنى إنْ يشأْ يذهبكمْ يذهبكمْ، أيْ يفنيكمْ ﴿وَيَأۡتِ بِخَلۡقٖ جَدِيدٖ ١٦﴾ أطوعِ منكمْ وأزكى ﴿وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٖ ١٧﴾ أيْ ممتنعٍ عسيرٍ متعذّرٍ.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا﴾ أي نفس مثقلة بذنوبها، والحِملُ ما كانَ على الظّهرِ، والحَملُ حملُ المرأةِ وحملُ النّخلةِ ﴿لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓ﴾ ولوْ كانَ الإنسانُ المدعوُّ ذا قربى. ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾. هوَ كقولهِ تعالى: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ﴾. ﴿وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ﴾ أي من اهتدى فإنما يهتدي لنفسه ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٨﴾﴾ أي إليه مرجع جميع الخلق.

قولهُ تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ﴿١٩﴾﴾ أي الكافرُ والمؤمنُ والجاهلُ والعالمُ. مثلُ: ﴿قُل لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ﴾. ﴿وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ﴿٢١﴾﴾ ﴿لَآ﴾ زائدةٌ، والمعنى ولا الظّلماتُ والنّورُ، ولا الظل والحرور. والسّمومُ لا يكونُ إلّا بالنّهارِ، والحرورِ يكونُ فيهما؛ لأنَّ الحرورَ فعولٌ منَ الحرِّ، وفيهِ معنى التّكثيرِ، أي الحرَّ المؤذي.

قلت: وفي صحيحِ مسلم عنْ أبي هريرةَ عنِ رسولِ اللّهِ ﷺ قال: «قالتِ النّارُ ربِّ أكلَ بعضي بعضًا فأذنْ لي أتنفّسُ فأذنَ لها بنفسينِ نفسٌ في الشّتاءِ ونفسٌ في الصّيفِ فما وجدتمْ منْ بردٍ أوْ زمهريرٍ فمنْ نفسِ جهنّمَ وما وجدتمْ منْ حرٍّ أوْ حرورٍ فمنْ نفسِ جهنّمَ».

وقيلَ: المرادُ بالظّلِّ والحرورِ الجنّةُ والنّارُ، فالجنّةُ ذاتُ ظلٍّ دائمٍ، كما قالَ تعالى: ﴿أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا﴾ والنّارُ ذاتُ حرورٍ.

﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ﴾ الأحياءُ العقلاءُ، والأمواتُ الجهّالُ، وهذهِ كلّها أمثالٌ، أيْ كما لا تستوي هذهِ الأشياءُ كذلكَ لا يستوي الكافرُ والمؤمنُ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ﴾ أيْ يسمعُ أولياءهُ الّذينَ خلقهمْ لجنّتهِ ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٢٢﴾﴾ كذلكَ لا تسمعُ منْ ماتَ قلبهُ. ﴿إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴿٢٣﴾﴾ أيْ رسولٌ منذرٌ، فليسَ عليكَ إلّا التّبليغُ، ليسَ لكَ منَ الهدي شيء إنما الهدى بيد الله تبارك وتعالى. ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ أيْ بشيراً بالجنّةِ أهلَ طاعتهِ، ونذيراً بالنّارِ أهلَ معصيتهِ ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾﴾ أيْ سلفَ فيها نبيٌّ. قالَ ابنُ جريجٍ: إلا العرب.

قولهُ تعالى: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ﴾ يعني كفّارَ قريشٍ ﴿فَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أنبياءهمْ، يسلّي رسولهُ ﷺ ﴿جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ أيْ بالمعجزاتِ الظّاهراتِ والشّرائعِ الواضحاتِ ﴿وَبِٱلزُّبُرِ﴾ أي الكتبِ المكتوبةِ ﴿وَبِٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴿٢٥﴾﴾ أي الواضح. وكرر الزبر والكتاب وهما واحدٌ لاختلافِ اللّفظينِ.

وقيلَ: يرجعُ البيّناتِ والزبر والكتاب إلى معنى واحدٍ، وهوَ ما أنزلَ على الأنبياءِ منَ الكتبِ ﴿ثُمَّ أَخَذْتُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٢٦﴾﴾ أيْ كيفَ كانتْ عقوبتي لهمْ. وأثبتَ ورشٌ عنْ نافعِ الياءَ في «نكِيرِي» حيثُ وقعتْ في الوصلِ دونَ الوقفِ. وأثبتها يعقوبُ في الحالينِ، وحذفها الباقونَ في الحالينِ.

قولهُ تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ هذهِ الرّؤيةُ رؤيةُ القلبِ والعلمِ، أيْ ألمْ ينتهِ علمكَ ورأيتَ بقلبكَ أنَّ اللّهَ أنزلَ، فـ ﴿أَنَّ﴾ واسمها وخبرها سدّتْ مسدَّ مفعولي الرّؤيةِ. ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ﴾ هوَ منْ بابِ تلوينِ الخطابِ. ﴿مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ﴾ نصبتْ ﴿مُّخْتَلِفًا﴾ نعتًا لـ ﴿ثَمَرَٰتٍ﴾. ﴿أَلْوَٰنُهَا ۚ﴾ رفع بمختلف، وصلحَ أنْ يكونَ نعتًا لـ ﴿ثَمَرَٰتٍ﴾ لما عادَ عليهِ منْ ذكرهِ. ﴿بِهِۦ﴾ أيْ بالماءِ وهوَ واحدٌ، والثّمراتُ مختلفةٌ ﴿وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا﴾ الجُدَدُ جمعُ جُدّةٍ، وهيَ الطّرائقُ المختلفةُ الألوانَ، وإنْ كانَ الجميعُ حجراً أوْ ترابًا، ولوْ كانَ جمعُ جديدٍ لقالَ: جُدُدٌ بضم الجيمِ والدّالِ نحوَ سريرٍ وسُرُرٍ. وقالَ زهيرٌ:

كأنّهُ أسفعُ الخدّينِ ذو جدَدٍ طاوٍ ويرتعُ بعدَ الصّيفِ عريانا

وقيلَ: إنَّ الجددَ القطعُ، مأخوذٌ منْ جددتُ الشّيءَ إذا قطعتهُ ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ﴾ ذكّرَ الضّميرَ مراعاةً لِ ﴿مَنَ﴾ أي فيهم الأحمر والأبيض والأسود وغير ذلك وكل ذلك دليل على صانع مختار ﴿وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾﴾ الغربيبُ الشّديدُ السّوادِ، والعربُ تقولُ للشّديدِ السّوادِ الّذي لونهُ كلونِ الغرابِ: أسودُ غربيبٌ.

قالَ امرؤُ القيسِ:

العينُ طامحةٌ واليدُ سابحةٌ والرّجلُ لافحةٌ والوجهُ غِربيبُ

﴿كَذَٰلِكَ﴾ هنا تمامُ الكلامِ، أيْ كذلكَ تختلفُ أحوالُ العبادِ في الخشيةِ، ثم استأنف فقال: ﴿إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ٢٨﴾ يعني بالعلماءِ الّذينَ يخافونَ قدرتهُ، فمنْ علمَ أنّهُ عزَّ وجلَّ قديرٌ أيقنَ بمعاقبتهِ على المعصيةِ، قالَ الرّبيعُ بنُ أنسٍ: منْ لمْ يخشَ اللّهَ تعالى فليسَ بعالمٍ. وعنِ ابنِ مسعودٍ: كفى بخشيةِ اللّهِ تعالى علما وبالاغترارِ جهلا. وعنْ عليٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قالَ: إنَّ الفقيهَ حق الفقيه من لم يقنِّط النّاسَ منْ رحمةِ اللّهِ، ولمْ يرخّصْ لهمْ في معاصي اللّهِ تعالى، ولمْ يؤمّنهمْ منْ عذابِ اللّهِ، ولمْ يدعِ القرآنَ رغبةً عنهُ إلى غيرهِ، إنّهُ لا خيرَ في عبادةٍ لا علمَ فيها، ولا علمَ لا فقهَ فيهِ، ولا قراءةَ لا تدبّرَ فيها.

فإنْ قلت: فما وجهُ قراءةِ منْ قرأَ: «إِنَّمَا يَخْشَى اللهُ» بالرّفع «مِنْ عِبادِهِ الْعُلَماءَ» بالنّصبِ، وهوَ عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ. وتحكى عنْ أبي حنيفةَ. قلت: الخشيةُ في هذهِ القراءةِ استعارةٌ، والمعنى: إنّما يجلّهمْ ويعظّمهمْ كما يجلُّ المهيبُ المخشيُّ منَ الرّجالِ بينَ النّاسِ منْ بينِ جميعِ عبادهِ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ تعليلٌ لوجوبِ الخشيةِ، لدلالتهِ على عقوبةِ العصاةِ وقهرهمْ، وإثابةِ أهلِ الطّاعةِ والعفوِ عنهمْ. والمعاقبُ والمثيبُ حقّهُ أنْ يخشى.

قولهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتۡلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ﴾ هذهِ آيةُ القرّاءِ العاملينَ العالمينَ الّذينَ يقيمونَ الصّلاةَ الفرضَ والنّفلَ، وكذا في الإنفاقِ. ﴿يَرۡجُونَ تِجَٰرَةٗ لَّن تَبُورَ ٢٩﴾ خبرُ إنَّ ﴿لِيُوَفِّيَهُمۡ أُجُورَهُمۡ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضۡلِهِۦٓۚ﴾ قيل: الزّيادةُ الشّفاعةُ في الآخرةِ. وهذا مثلُ الآيةِ الأخرى: ﴿رِجَالٞ لَّا تُلۡهِيهِمۡ تِجَٰرَةٞ وَلَا بَيۡعٌ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾ إلى قوله: ﴿وَيَزِيدَهُم مِّن فَضۡلِهِۦۗ﴾، وقولهِ في آخرِ النّساءِ: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمۡ أُجُورَهُمۡ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضۡلِهِۦۖ﴾ ﴿إِنَّهُۥ غَفُورٞ﴾ للذّنوبِ ﴿شَكُورٞ ٣٠﴾ يقبلُ القليلَ منَ العملِ الخالصِ، ويثيبُ عليهِ الجزيلَ من الثوابِ.

قولهُ تعالى: ﴿وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ يعني القرآنَ ﴿هُوَ ٱلۡحَقُّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِۗ﴾ أيْ منَ الكتبِ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرُۢ بَصِيرٞ ٣١﴾.

قولهُ تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٣٣﴾ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ ۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴿٣٥﴾﴾، فيهِ أربعُ مسائلَ:

الأولى: هذهِ الآيةُ مشكلةٌ، لأنّهُ قالَ جلَّ وعزَّ: ﴿ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ﴾ ثمَّ قالَ: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾ وقدْ تكلّمَ العلماءُ فيها منَ الصّحابةِ والتّابعينَ ومنْ بعدهمْ:

فمنْ أصحِ ما رويَ في ذلكَ ما رويَ عنِ ابنِ عبّاسٍ ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾ قالَ: الكافرُ، ويكونُ الضّميرُ الّذي في ﴿يَدْخُلُونَهَا﴾ يعودُ على المقتصدِ والسّابقِ لا على الظّالمِ. والمقتصدَ المؤمنُ العاصي، والسّابقُ التّقيُّ على الإطلاقِ. قالوا: وهذهِ الآيةُ نظيرُ قولهِ تعالى في سورةِ الواقعةِ ﴿وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَٰثَةً﴾ الآيةَ. فالظالمُ لنفسهِ «أصحابُ المشأمةِ» ومنهمْ مقتصدٌ «أصحابُ الميمنةِ» ﴿وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ﴾ السّابقونَ منَ النّاسِ كلّهمْ. قالوا وبعيدٌ أنْ يكونَ ممّنْ يصطفى ظالمٌ.

وقيلَ: الضّميرُ في ﴿يَدْخُلُونَهَا﴾ يعودُ على الثّلاثةِ الأصنافِ، على ألّا يكونَ الظالم ها هنا كافراً ولا فاسقاً، والتّقديرُ على هذا القولِ: أنْ يكونَ الظّالمُ لنفسهِ الّذي عملَ الصّغائرَ. وَ «المقتصدُ» الّذي يعطي الدّنيا حقّها والآخرةَ حقّها، قالَ كعبُ الأحبارِ: استوتْ مناكبهمْ- وربِّ الكعبةِ- وتفاضلوا بأعمالهمْ، وقرأ عمرُ بنُ الخطّابِ هذهِ الآيةَ ثمَّ قالَ: قالَ رسولُ اللّهِ ﷺ: «سابقنا سابقٌ ومقتصدنا ناجٍ وظالمنا مغفورٌ لهُ».

وهذا أصحُّ إنْ شاءَ اللّهُ، لأنَّ الكافرَ والمنافقَ لمْ يصطفوا بحمدِ اللّهِ، ولا اصطفيَ دينهمْ. وهذا قولُ ستّةٍ منَ الصّحابةِ، وحسبكَ.

الثانية- قولهُ تعالى: ﴿أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ﴾ أيْ أعطينا، و ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ ها هنا يريدُ بهِ معانيَ الكتابِ وعلمهِ وأحكامهِ وعقائدهِ ﴿ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا﴾ أي اخترنا. واشتقاقهُ منَ الصّفوِ، وهوَ الخلوصُ منْ شوائبِ الكدرِ ﴿مِنْ عِبَادِنَا﴾ قيلَ المرادُ أمّةُ محمّدٍ ﷺ، ويحتملُ جميعَ

المؤمنينَ منْ كلِّ أمّةٍ، وقيلَ: المصطفونَ الأنبياءُ، توارثوا الكتابَ بمعنى أنّهُ انتقلَ عنْ بعضهمْ إلى آخرَ، قالَ اللّهُ تعالى: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ﴾، وقال: ﴿يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ﴾ فإذا جازَ أنْ تكونَ النّبوّةُ موروثةً فكذلكَ الكتابُ.

الثالثة- وتكلّمَ النّاسُ في تقديمِ الظّالمِ على المقتصدِ والسابق فقيل: التقديم في الذّكرِ لا يقتضي تشريفًا، كقولهِ تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ﴾. وقيلَ: قدّمَ الظّالمُ لكثرةِ الفاسقينَ منهمْ وغلبتهمْ وأنَّ المقتصدينَ قليلٌ بالإضافةِ إليهمْ، والسّابقينَ أقلُّ منَ القليلِ، وقيلَ: قدّمَ الظالمَ لئلا ييئس منْ رحمةِ اللّهِ، وأخّرَ السّابقُ لئلّا يُعجبَ بعملهِ، وكلّهمْ في الجنة بحرمةِ كلمةِ الإخلاصِ: «لا إلهَ إلّا اللّهُ محمّدٌ رسولُ اللّهِ».

وقيلَ: أخّرَ السّابقَ ليكونَ أقربَ إلى الجنّاتِ والثّوابِ، كما قدّمَ الصّوامعَ والبيعَ في سورةِ الحجِّ على المساجدِ، لتكونَ الصّوامعُ أقربَ إلى الهدمِ والخرابِ، وتكونَ المساجدُ أقربَ إلى ذكرِ اللّهِ. وقيلَ: إنَّ الملوكَ إذا أرادوا الجمعَ بينَ الأشياءِ بالذّكرِ قدّموا الأدنى، كقولهِ تعالى: ﴿لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، وقولهِ: ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ﴾، وقولهِ: ﴿لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ﴾ قلت: ولقدْ أحسنَ منْ قالَ:

وغايةُ هذا الجودِ أنتَ وإنّما ... يوافى إلى الغاياتِ في آخرِ الأمرِ

الرابعة- قوله: ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا﴾ جمعهم في الدّخولِ لأنّهُ ميراثٌ، والعاقُّ والبارُّ في الميراثِ سواءٌ إذا كانوا معترفينَ بالنّسبِ، فالعاصي والمطيع مقرون بالرب.

وقرأَ أبو عمرو ﴿يُدْخَلُونَهَا﴾ بضمِّ الياءِ وفتحِ الخاءِ. قالَ: لقولهِ ﴿يُحَلَّوْنَ﴾.

وقدْ مضى في الحجِ الكلامُ في قولهِ تعالى: ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ﴾ لمّا ذكرَ أهلَ الجنّةِ وأحوالهمْ ومقالتهمْ، ذكرَ أهلَ النّارِ وأحوالهمْ ومقالتهمْ ﴿لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُواْ﴾ مثل: ﴿لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾. ﴿وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا﴾ مثلُ: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ﴾.

﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ ٣٦﴾ أيْ كافرٍ باللّهِ ورسولهِ.

﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا﴾ أيْ يستغيثونَ في النّارِ بالصّوتِ العالي. والصّراخُ الصّوتُ العالي، والصّارخُ المستغيثُ والمصرخُ المغيثُ. قالَ:

كـنّـا إذا مـا أتـانـا صـارخٌ فـزعٌ   كـانَ الصّـراخُ لهُ قـرعَ الظّـنابيبِ

﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا﴾ أيْ يقولونَ ربّنا أخرجنا منْ جهنّمَ وردّنا إلى الدّنيا ﴿نَعْمَلْ صَٰلِحًا﴾ نقلْ: لا إله إلا الله. وهو معنى قولهم: ﴿غَيْرَ ٱلَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾ أيْ منَ الشّركِ، أيْ نؤمنُ بدلَ الكفرِ، ونطيعُ بدلَ المعصيةِ، ونمتثلُ أمرَ الرّسلِ ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ﴾ هذا جوابُ دعائهمْ، أيْ فيقالُ لهمْ، فالقولُ مضمرٌ. وترجمَ البخاريُّ: «بابُ منْ بلغَ ستّينَ سنةً فقدْ أعذرَ اللّهُ إليهِ في العمرِ لقولهِ عزّ وجلَّ ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ﴾ يعني الشّيبَ، وأسند حديث أبي هريرةَ عنِ النّبيِّ ﷺ قال: «أعذرَ اللّهُ إلى امرئٍ أخّرَ أجلهُ حتّى بلّغهُ ستّينَ سنةً».

قالَ الخطّابيُّ: «أعذرَ إليهِ» أيْ بلغَ بهِ أقصى العذرِ، ومنهُ قولهمْ: قد أعذرَ منْ أنذرَ، أيْ أقامَ عذرَ نفسهِ في تقديمِ نذارتهِ. والمعنى: أنَّ منْ عمّرهُ اللّهُ ستّينَ سنةً لمْ يبقَ لهُ عذرٌ، لأنَّ السّتّينَ قريبٌ منْ معتركِ المنايا، وهوَ سنُّ الإنابةِ والخشوعِ وترقّبِ المنيّةِ ولقاءِ اللّهِ تعالى، ففيهِ إعذارٌ بعدَ إعذارٍ، الأوّلُ بالنّبيِّ ﷺ، والموتانِ في الأربعينَ والسّتّينَ.

وعنِ ابنِ عبّاسٍ أيضًا أنّهُ أربعونَ سنةً، لقولهِ تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾ الآيةَ. ففي الأربعينَ تناهي العقلِ، وما قبلَ ذلكَ وما بعدهُ منتقصٌ عنهُ، واللّهُ أعلمُ.

وقالَ مالكٌ: أدركتُ أهلَ العلمِ ببلدنا وهمْ يطلبونَ الدّنيا والعلمَ ويخالطونَ النّاسَ، حتّى يأتيَ لأحدهمْ أربعونَ سنةً، فإذا أتتْ عليهمُ اعتزلوا النّاسَ واشتغلوا بالقيامةِ حتّى يأتيهمُ

الموتُ. وخرّجَ ابنُ ماجهْ عنْ أبي هريرةَ أنَّ رسولَ اللّهِ ﷺ قال: «أعمارُ أمّتي ما بينَ السّتّينَ إلى السّبعينَ وأقلّهمْ منْ تجاوزَ ذلكَ».

قولهُ تعالى: ﴿وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ﴾ القرآنُ. وقيلَ الرّسولُ، وقيلَ: هوَ الشّيبُ، وقيلَ: موتُ الأهلِ والأقاربِ، وقيلَ: كمالُ العقل. والنذير بمعنى الإنذار، وكلها نذر:

قيل في الشيب:

رأيتُ الشّيبَ منْ نُذُرِ المنايا لصاحبهِ وحسبكَ منْ نذيرِ

وأمّا موتُ الأهلِ والأقاربِ والأصحابِ والإخوانِ فإنذارٌ بالرّحيلِ في كلِّ وقتٍ وأوانٍ، وحينٍ وزمانٍ. قالَ:

وأراكَ تحملهمْ ولستَ تردُّهمْ فكأنّني بكَ قدْ حُمِلتَ فلمْ تُردَّ

وقالَ آخرُ:

الموتُ في كلِ حينٍ ينشرُ الكفنا ونحنُ في غفلةٍ عمّا يرادُ بنا

وأمّا كمالُ العقل فبهِ تعرفُ حقائقُ الأمورِ ويفصلُ بينَ الحسناتِ والسّيّئاتِ، فالعاقلُ يعملُ لآخرتهِ ويرغبُ فيما عندَ ربّهِ، فهوَ نذيرٌ. وأمّا محمّدٌ ﷺ فبعثهُ اللّهُ بشيراً ونذيراً إلى عبادهِ قطعاً لحججهمْ، قالَ اللّهُ تعالى: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِۚ﴾ وقالَ: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبۡعَثَ رَسُولٗا﴾.

قولهُ تعالى: ﴿فَذُوقُواْ﴾ يريدُ عذابَ جهنّمَ، لأنّكمْ ما اعتبرتمْ ولا اتّعظتمْ ﴿فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ٣٧﴾ أي مانع من عذاب الله.

قولهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَٰلِمُ غَيۡبِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ٣٨﴾

علمَ أنّهُ لوْ ردّكمْ إلى الدّنيا لمْ تعملوا صالحاً، كما قالَ: ﴿وَلَوۡ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنۡهُ﴾. وَ ﴿عَٰلِمُ﴾ إذا كانَ بغيرِ تنوينٍ صلحَ أنْ يكونَ للماضي والمستقبلِ، وإذا كانَ منوّناً لم يجز أن يكون للماضي.

قولُه تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَـٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ خلفاً بعدَ خلفٍ، قرناً بعدَ قرنٍ. والخلفُ هوَ التّالي للمتقدّمِ، ولذلكَ قيلَ لأبي بكرٍ: يا خليفةَ اللّهِ، فقالَ: لستُ بخليفةِ اللّهِ، ولكنّي خليفةُ رسولِ اللّهِ ﷺ ﴿فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ﴾ أيْ جزاءُ كفرهِ ﴿وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَـٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا﴾ أيْ بغضاً وغضباً ﴿وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَـٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا ﴿٣٩﴾﴾ أي هلاكاً وضلالاً.

قولُه تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ﴾ ﴿شُرَكَآءَكُمُ﴾ منصوبٌ بالرّؤيةِ، أعبدتموهمْ لأنَّ لهمْ شركةً في خلقِ السّماواتِ، أمْ خلقوا منَ الأرضِ شيئاً! ﴿أَمْ ءَاتَيْنَـٰهُمْ كِتَـٰبًا﴾ أنزلناهُ إليهمْ بالشّركةِ. وكانَ في هذا ردٌّ على منْ عبدَ غيرَ اللّهِ عزَّ وجلَّ، لأنّهمْ لا يجدونَ في كتابٍ منَ الكتبِ أنَّ اللّهَ عزَّ وجلَّ أمرَ أنْ يعبدَ غيرهُ ﴿فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ﴾ قرأَ ابنُ كثيرٍ وأبو عمرو وحمزةُ وحفصٌ عنْ عاصمٍ ﴿عَلَىٰ بَيِّنَةٍ﴾ بالتّوحيدِ، وجمعَ الباقونَ ﴿بَلْ إِن يَعِدُ ٱلظَّـٰلِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا ﴿٤٠﴾﴾ أيْ أباطيلَ تغرُّ، وهوَ قولُ السّادةِ للسّفلةِ: إنَّ هذهِ الآلهةَ تنفعكمْ وتقرّبكمْ. وقيلَ: إنَّ الشّيطانَ يعدُ المشركينَ ذلك. وقيلَ: وعدهم بأنهم يُنصرون عليهم.

قولُه تعالى: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا﴾ فخالقهما وممسكهما هوَ اللّهُ، فلا يوجدُ حادثٌ إلّا بإيجادهِ، ولا يبقى إلّا ببقائهِ. وَ ﴿أَن﴾ في موضعِ نصبٍ بمعنى لئلّا تزولا ﴿وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ﴾ ﴿إِنْ﴾ بمعنى ما أي ما أمسكهما منْ أحدٍ، مثلُ قولهِ: ﴿وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّظَلُّوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ يَكْفُرُونَ﴾. وقيلَ: المراد زوالهما يومَ القيامةِ.

وختمَ الآيةَ بقولهِ: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤١﴾﴾ لأنَّ المعنى فيما ذكرهُ بعضُ أهلِ التّأويلِ: إنَّ اللّهَ يمسكُ السّماواتِ والأرضَ أنْ تزولا منْ كفرِ الكافرينَ، وقولهمُ اتّخذَ اللّهُ ولداً، وهوَ كقولهِ تعالى: ﴿لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ﴾ الآية.

قولهُ تعالى: ﴿وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ﴾ همْ قريشٌ أقسموا قبلَ أنْ يبعثَ اللّهُ رسولهُ محمّداً ﷺ، حينَ بلغهمْ أنَّ أهلَ الكتابِ كذّبوا رسلهمْ ﴿لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ﴾ أيْ نبيٌّ ﴿لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ﴾ يعني ممّنْ كذّبَ الرّسلَ منْ أهلِ الكتابِ فلمّا جاءهمْ ما تمنّوهُ وهوَ النّذيرُ منْ أنفسهمْ، نفروا عنهُ ولمْ يؤمنوا بهِ. ﴿ٱسْتِكْبَارًا﴾ أيْ عتواً عنِ الإيمانِ ﴿وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ﴾ أيْ مكرَ العملِ السّيّئِ وهوَ الكفرُ وخدعُ الضّعفاءِ، وصدّهمْ عنِ الإيمانِ ليكثرَ أتباعهمْ. وأنّثَ ﴿مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ﴾ لتأنيثِ أمّةٍ، وقرأ حمزةُ: «وَمَكْرَ السَّيِّءْ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّءُ» فحذفَ الإعرابَ منَ الأوّلِ وأثبتهُ في الثّاني. وقدِ احتجَّ بعضُ النّحويّينَ لحمزةَ في هذا بقولِ سيبويهِ، وأنّهُ أنشدَ هوَ وغيرهُ:

إذا اعوججنَ قلتُ: صاحبْ قوّمِ

وقالَ الآخر:

فاليومَ أشربْ غيرَ مستحقبٍ   إثماً منَ اللّهِ ولا واغلِ

وهذا لا حجّةَ فيهِ، لأنَّ سيبويهِ لمْ يجزهُ، وإنّما حكاهُ عنْ بعضِ النّحويّينَ.

وقرأ حمزةُ «وَمَكْرَ السَّيِّءْ» بسكونِ الهمزةِ، وذلكَ لاستثقالهِ الحركاتِ، ولعلّهُ اختلسَ فظنَّ سكوناً، أوْ وقفَ وقفةً خفيفةً ثمَّ ابتدأَ ﴿وَلَا يَحِيقُ﴾. وقدْ سبقَ وقلنا: ما ثبتَ بالاستفاضةِ أوِ التّواترِ أنَّ النّبيَّ ﷺ قرأهُ فلابدَّ منْ جوازهِ، ولا يجوزُ أنْ يقالَ: إنّهُ لحنٌ، ولعلَّ مرادَ منْ صارَ إلى التّخطئةِ أنَّ غيرهُ أفصحُ منهُ، وإنْ كانَ هوَ فصيحاً. ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾ أيْ لا ينزلُ عاقبةُ الشّركِ إلّا بمنْ أشركَ. وقيلَ: هذا إشارةٌ إلى قتلهمْ ببدرٍ. وقيل: ﴿يَحِيقُ﴾ بمعنى يحيطُ. والحوقُ الإحاطةُ، يقالُ: حاقَ بهِ كذا أيْ أحاطَ بهِ.

وعنِ ابنِ عبّاسٍ أنَّ كعباً قالَ لهُ: إنّي أجدُ في التّوراةِ «منْ حفرَ لأخيهِ حفرةً وقعَ فيها»؟ فقالَ: ابنُ عبّاسٍ: فإنّي أوجدكَ في القرآنِ ذلكَ. قالَ: وأينَ؟ قالَ: فاقرأْ ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾ ومنْ أمثالِ العربِ «منْ حفرَ لأخيهِ جباً وقعَ فيهِ منكباً».

قوله تعالى: ﴿فَهَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلۡأَوَّلِينَۚ﴾ أيْ إنّما ينتظرونَ العذابَ الّذي نزلَ بالكفار الأولين ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗاۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحۡوِيلًا ٤٣﴾ فهوَ يعذّبُ بمثلهِ منِ استحقّهُ، لا يقدرُ أحدٌ أنْ يبدّلَ ذلكَ، ولا أنْ يحوّلَ العذابَ عنْ نفسهِ إلى غيرهِ. والسّنّةُ الطّريقةُ، والجمعُ سننٌ. وقدْ مضى في «آلِ عمرانَ» وأضافها إلى اللّهِ عزَّ وجلَّ. وقالَ في موضعٍ آخرَ: ﴿سُنَّةَ مَن قَدۡ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ مِن رُّسُلِنَاۖ﴾ فأضافَ إلى القومِ لتعلّقِ الأمرِ بالجانبينِ، وهوَ كالأجلِ، تارةً يضافُ إلى اللّهِ، وتارةً إلى القومِ، قالَ الله تعالى: ﴿فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَأٓتٖۚ﴾ وقال: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ﴾..

قولهُ تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَكَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعۡجِزَهُۥ مِن شَيۡءٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمٗا قَدِيرٗا ٤٤﴾ بيّنَ السّنّةَ الّتي ذكرها، أيْ أوَ لمْ يروا ما أنزلنا بعادٍ وثمودَ، وبمدينَ وأمثالهمْ لمّا كذّبوا الرّسلَ، أفليسَ فيهِ عبرةٌ وبيانٌ لهمْ، ليسوا خيراً منْ أولئكَ ولا أقوى، بلْ كانَ أولئكَ أقوى، دليلهُ قولهُ: ﴿وَكَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعۡجِزَهُۥ مِن شَيۡءٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾ أيْ إذا أرادَ إنزالَ عذابٍ بقومٍ لمْ يعجزهُ ذلك. ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمٗا قَدِيرٗا ٤٤﴾.

قولهُ تعالى: ﴿وَلَوۡ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ﴾ يعني منَ الذّنوبِ ﴿مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهۡرِهَا مِن دَآبَّةٖ﴾ وقدْ فعلَ ذلكَ زمنَ نوحٍ عليه السلام. وقيل: ﴿مِن دَآبَّةٖ﴾ يريدُ الجنَّ والإنسَ دونَ غيرهما، لأنّهما مكلّفانِ بالعقلِ. وقيلَ: أرادَ بالدّابّةِ هنا النّاسَ وحدهمْ دونَ غيرهمْ.

قلت: والأوّلُ أظهرُ، لأنّهُ عنْ صحابيٍّ كبيرٍ. قالَ ابنُ مسعودٍ: كادَ الجعلُ أن يعذب في حجره بذنبِ ابنِ آدمَ. وقيل في قولهِ: ﴿وَيَلۡعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ﴾ قالَ: «دوابُّ الأرضِ».

﴿وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗىۖ﴾ هوَ يومُ القيامة ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ﴾ أيْ بمنْ يستحقُّ العقابَ منهمْ ﴿بَصِيرَۢا ٤٥﴾.

سورة يس

وهيَ مكية بإجماع. وهي ثلاث وثمانون آية، إلا أنَّ فرقةً قالتْ: إنَّ قولهُ تعالى: ﴿وَنَكۡتُبُ مَا قَدَّمُواْ وَءَاثَـٰرَهُمۡ﴾ نزلتْ في بني سلمةَ منَ الأنصارِ حينَ أرادوا أنْ يتركوا ديارهمْ، وينتقلوا إلى جوارِ مسجدِ الرّسولِ ﷺ، على ما يأتي. وفي كتابِ أبي داودَ عنْ معقلِ بنِ يسارٍ قالَ: قالَ النّبيُّ ﷺ: «اقرءوا يس على موتاكمْ».

بسمِ اللّهِ الرّحمنِ الرّحيمِ

قولهُ تعالى: ﴿يسٓ ۝١﴾ في ﴿يسٓ﴾ أوجهٌ منَ القراءاتِ: قرأَ أهلُ المدينةِ والكسائيُّ: ﴿يسٓ ۝١ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡحَكِيمِ ۝٢﴾ بإدغامِ النّونِ في الواوِ. وقرأ أبو عمرو والأعمش وحمزة ﴿يسٓ﴾ بإظهارِ النّونِ.

﴿يسٓ﴾ وقفٌ حسنٌ لمنْ قالَ هوَ افتتاحٌ للسّورةِ. ومنْ قالَ: معنى ﴿يسٓ﴾ يا رجلُ لمْ يقفْ عليهِ. ورويَ عنِ ابنِ عباس وابن مسعودٍ وغيرهما أنَّ معناهُ يا إنسانُ، وقالوا في قولهِ تعالى: ﴿سَلَـٰمٌ عَلَىٰٓ إِلۡ يَاسِينَ﴾ أيْ على آلِ محمّدٍ.

وقالَ سعيدُ بنُ جبيرٍ: هوَ اسمٌ منْ أسماءِ محمّدٍ ﷺ، ودليلهُ ﴿إِنَّكَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾. قالَ السّيّدُ الحميريُّ:

يا نفسُ لا تمحضي بالنصحِ جاهدة وعلى المودّةِ إلّا آلَ ياسينَ

وقيلَ: إنّهُ اسمٌ منْ أسماءِ اللّهِ.

قالَ النّقّاشُ: لمْ يقسمِ اللّهُ تعالى لأحدٍ منْ أنبيائهِ بالرّسالةِ في كتابهِ إلّا لهُ، وفيهِ منْ تعظيمهِ وتمجيدهِ على تأويلِ منْ قالَ إنّهُ يا سيّدُ ما فيهِ، وقدْ قالَ ﷺ: «أنا سيّدُ ولدِ آدمَ» انتهى كلامهُ.

وعن ابنُ عبّاسٍ: قالتْ كفّارُ قريشٍ لستَ مرسلاً وما أرسلكَ اللّهُ إلينا، فأقسمَ اللّهُ بالقرآنِ المحكمِ أنَّ محمّداً منَ المرسلينَ. و﴿ٱلۡحَكِيمِ﴾ المحكمُ حتّى لا يتعرّضَ لبطلانٍ وتناقضٍ، كما قالَ: ﴿أُحۡكِمَتۡ ءَايَـٰتُهُۥ﴾ وكذلكَ أحكمَ في نظمهِ ومعانيهِ فلا يلحقهُ خللٌ.

وقدْ يكونُ ﴿ٱلْحَكِيمِ﴾ في حق الله بمعنى المحكِم بكسر الكاف كالأليم بمعنى المؤلم ﴿عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ أيْ دينٍ مستقيمٍ وهوَ الإسلامُ. وقيلَ: على طريقِ الأنبياءِ الّذينَ تقدّموكَ، وقالَ: ﴿إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ خبرُ إنَّ، وَ ﴿عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ خبرٌ ثانٍ، أيْ إنّكَ لمنَ المرسلينَ، وإنّكَ على صراطٍ مستقيمٍ.

وقيلَ: المعنى لمنَ المرسلينَ على استقامةٍ، فيكونُ قولهُ: ﴿عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ منْ صلةِ المرسلينَ، أي إنك لمن المرسلين الّذينَ أرسلوا على طريقةٍ مستقيمةٍ، كقولهِ تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٥٢ صِرَٰطِ ٱللَّهِ﴾ أيِ الصّراطُ الّذي أمرَ اللّهُ بهِ.

قولهُ تعالى: ﴿تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ۝٥﴾ قرأَ ابنُ عامرٍ وحفصٌ وحمزةُ والكسائيُّ وخلفٌ: «تَنْزِيلَ» بنصبِ اللّامِ على المصدرِ، أيْ نزّلَ اللّهُ ذلكَ تنزيلاً. وأضافَ المصدرَ فصارَ معرفةً كقولهِ: ﴿فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ﴾ أيْ فضرباً للرّقابِ. الباقونَ «تَنْزِيلُ» بالرّفعِ على خبرِ ابتداءٍ محذوفٍ أيْ هوَ تنزيلٌ، والتّنزيلُ يرجعُ إلى القرآنِ. وقيلَ: إلى النّبيِّ ﷺ، أيْ إنّكَ لمنَ المرسلينَ، وإنّكَ ﴿تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ﴾. فالتّنزيلُ على هذا بمعنى الإرسالِ، قالَ اللّهُ تعالى: ﴿قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ۝١٠ رَّسُولًا يَتْلُوا۟﴾ ويقالُ: أرسلَ اللّهُ المطرَ وأنزلهُ بمعنى. ومحمّدٌ ﷺ رحمةُ اللّهِ أنزلها منَ السّماءِ. ومنْ نصبَ قالَ: إنّكَ لمنَ المرسلينَ إرسالاً منَ العزيزِ الرّحيمِ. وَ ﴿ٱلْعَزِيزِ﴾ المنتقم ممن خالفه ﴿ٱلرَّحِيمِ﴾ بأهل طاعته.

قولهُ تعالى: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ﴾ لمْ يأتِهمْ نبيٌّ كما قالَ تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَيْنَٰهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا ۖ وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ﴾ ﴿فَهُمْ غَٰفِلُونَ ۝٦﴾ عنْ عقابِ اللّهِ.

قولهُ تعالى: ﴿لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ﴾ أيْ وجبَ العذاب على أكثرهمْ ﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٧﴾ بإنذاركَ. وهذا فيمنْ سبقَ في علمِ اللّهِ أنّهُ يموتُ على كفرهِ.

ثمَّ بيّنَ سببَ تركهمُ الإيمانَ فقالَ: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا﴾. قيل: نزلت في أبي جهل ابن هشامٍ وصاحبيهِ المخزوميّينِ، الوليد بن المغيرةِ وآخر أراد كل واحد منهم أن

يشدخ رأس رسول الله ﷺ بحجر، فأنزلَ اللّهُ تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ﴿٨﴾﴾، وفي الكلامِ حذفُ التّقديرُ: إنّا جعلنا في أعناقهمْ وفي أيديهمْ أغلالاً فهيَ إلى الأذقانِ، فهيَ كنايةٌ عنِ الأيدي لا عنِ الأعناقِ، والعربُ تحذفُ مثلَ هذا. ونظيره: ﴿سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ﴾ وتقديرهُ وسرابيلُ تقيكمُ البردَ فحذفَ، لأنَّ ما وقى منَ الحرِّ وقى منَ البردِ، لأنَّ الغلَّ إذا كانَ في العنقِ فلا بدَّ أنْ يكونَ في اليدِ، ولا سيّما وقدْ قالَ اللّهُ عزَّ وجلَّ: ﴿فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ﴾ فقدْ علمَ أنّهُ يرادُ بهِ الأيدي. ﴿فَهُم مُّقْمَحُونَ ﴿٨﴾﴾ أي رافعو رؤوسهم لا يستطيعون الإطراق، لأن من علت يدهُ إلى ذقنهِ ارتفعَ رأسهُ، يقالُ أقمحتِ الدّابّةُ إذا جذبتْ لجامها لترفعَ رأسها.

وقيلَ: هوَ مثلٌ ضربهُ اللّهُ تعالى لهم في امتناعهم من الهدى كامتناع المغلول، كما يقالُ: فلانٌ حمارٌ، أيْ لا يبصرُ الهدى. وكما قال:

لهم عن الرشد أغلال وأقياد

وفي الخبرِ: أنَّ أبا ذؤيبٍ كانَ يهوى امرأةً في الجاهليّةِ، فلمّا أسلمَ راودتهُ فأبى وأنشأَ يقولُ:

فليسَ كعهدِ الدّارِ يا أمَّ مالك ولكن أحاطتْ بالرّقابِ السّلاسلُ

أرادَ منعنا بموانعِ الإسلامِ عنْ تعاطي الزّنى والفسقِ.

وقيلَ: هذا ضربُ مثلٍ، أيْ حبسناهمْ عنِ الإنفاقِ في سبيلِ اللّهِ، وهوَ كقولهِ تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ﴾.

وقيلَ: الآيةُ إشارةٌ إلى ما يفعلُ بأقوامٍ غداً في النّارِ منْ وضعِ الأغلالِ في أعناقهمْ والسّلاسلِ، كما قالَ تعالى: ﴿إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ﴾ وأخبرَ عنهُ بلفظِ الماضي. ﴿فَهُم مُّقْمَحُونَ﴾ تقدّمَ تفسيره، وقال مجاهد: ﴿مُّقْمَحُونَ﴾ مغللّون عن كل خير.

قولهُ تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا﴾ قالَ محمّدُ بنُ إسحاقَ في روايتِهِ: جلسَ عتبةُ وشيبةُ ابنا ربيعةَ، وأبو جهلٍ وأميّةُ بنُ خلفٍ، يرصدونَ النّبيَّ ﷺ ليبلغوا منْ أذاهُ، فخرجَ عليهمْ ﷺ وهوَ يقرأُ «يس» وفي يدِهِ ترابٌ فرماهمْ بِهِ وقرأَ: ﴿وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا﴾ فأطرقوا حتّى مرَّ عليهمْ ﷺ. وقدْ مضى هذا في سورةِ سبحانَ ومضى في الكهفِ الكلامُ في «سُدّاً» بضمِّ السّينِ وفتحها وهما لغتان. ﴿فَأَغْشَيْنَٰهُمْ﴾ أيْ غطّينا أبصارهمْ، وقرأ ابنُ عبّاسٍ «فَأَعْشَيْنَاهُمْ» بالعينِ غيرَ معجمةٍ منَ العشاءِ في العينِ وهوَ ضعفُ بصرها حتّى لا تبصرُ باللّيلِ، قالَ تعالى: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ الآيةَ. والمعنى متقاربٌ، والمعنى أعميناهمْ، ﴿فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ۝٩﴾ أيِ الهدى، وقيلَ: محمداً حينَ ائتمروا على قتلهِ.

وقالَ الضّحّاكُ: ﴿وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا﴾ أيِ الدّنيا ﴿وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا﴾ أيِ الآخرةُ أيْ عموا عنِ البعثِ وعموا عنْ قبولِ الشّرائعِ في الدّنيا، قالَ اللّهُ تعالى: ﴿۞ وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُوا۟ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ أيْ زيّنوا لهمُ الدّنيا ودعوهمْ إلى التّكذيبِ بالآخرةِ. وقيلَ: على هذا ﴿مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا﴾ أيْ غروراً بالدّنيا ﴿وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا﴾ أيْ تكذيباً بالآخرةِ وقيلَ: ﴿مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ﴾ الآخرةِ ﴿وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ الدّنيا.

قولهُ تعالى: ﴿وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝١٠﴾ تقدّمَ في البقرةِ، والآيةُ ردٌّ على القدريّةِ وغيرهمْ.

وعنِ ابنِ شهابٍ: أنَّ عمرَ بنَ عبدِ العزيزِ أحضرَ غيلانَ القدريَّ فقالَ: يا غيلانُ بلغني أنّكَ تتكلّمُ بالقدرِ، فقالَ: يكذبونَ عليَّ يا أميرَ المؤمنينَ. ثمَّ قالَ: يا أميرَ المؤمنينَ أرأيتَ قولَ اللّهِ تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ۝٢ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ قالَ: اقرأْ يا غيلانُ فقرأَ حتّى انتهى إلى قولهِ: ﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾ فقال اقرأ فقال: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ فقالَ: واللّهِ يا أميرَ المؤمنينَ إنْ شعرتُ أنَّ هذا في كتابِ اللّهِ قطُّ. فقالَ: لهُ: يا غيلانُ اقرأْ أوّلَ سورةِ يس، فقرأَ حتّى بلغَ: ﴿وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ فقالَ غيلانُ: واللّهِ يا

أمير المؤمنين كأني لمْ أقرأها قطُّ قبلَ اليوم، اشهدْ يا أميرَ المؤمنينَ أنّي تائبٌ. قالَ عمرُ: اللّهمَّ إنْ كانَ صادقًا فتبْ عليهِ وثبّتهُ، وإنْ كانَ كاذبًا فسلّطْ عليهِ منْ لا يرحمهُ واجعلهُ آيةً للمؤمنينَ، فأخذهُ هشامٌ فقطعَ يديهِ ورجليهِ وصلبهُ.

وقالَ ابنُ عونٍ: فأنا رأيتهُ مصلوبًا على بابِ دمشقَ. فقلنا: ما شأنكَ يا غيلانُ؟ فقالَ: أصابتني دعوةُ الرّجلِ الصّالحِ عمرَ بنِ عبدِ العزيزِ.

قولهُ تعالى: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكۡرَ﴾ يعني القرآنَ وعملَ بهِ. ﴿وَخَشِيَ ٱلرَّحۡمَٰنَ بِٱلۡغَيۡبِۖ﴾ أيْ ما غابَ منْ عذابهِ ونارهِ. وقيلَ: أيْ يخشاهُ في مغيبهِ عنْ أبصارِ النّاسِ وانفرادهِ بنفسهِ. ﴿فَبَشِّرۡهُ بِمَغۡفِرَةٖ﴾ أيْ لذنبهِ ﴿وَأَجۡرٖ كَرِيمٍ ١١﴾ أي الجنة.

قولهُ تعالى: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَنَكۡتُبُ مَا قَدَّمُواْ وَءَاثَٰرَهُمۡۚ وَكُلَّ شَيۡءٍ أَحۡصَيۡنَٰهُ فِيٓ إِمَامٖ مُّبِينٖ ١٢﴾، فيهِ أربعُ مسائلَ:

الأولى: قولهُ تعالى: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾ أخبرنا تعالى بإحيائهِ الموتى رداً على الكفرةِ. وقيلَ: أيْ نحييهمْ بالإيمانِ بعدَ الجهلِ، والأوّلُ أظهرُ أيْ نحييهمْ بالبعثِ للجزاءِ. ثمَّ توعّدهمْ بذكرهِ كتبَ الآثارِ وهيَ:

الثانية- ونظيرهُ قولهُ: ﴿عَلِمَتۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ وَأَخَّرَتۡ﴾: وقولهُ: ﴿يُنَبَّؤُاْ ٱلۡإِنسَٰنُ يَوۡمَئِذِۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾، وقالَ: «اتّقوا اللّهَ ولتنظرْ نفسٌ ما قدّمتْ لغدٍ» فآثارُ المرءِ الّتي تبقى وتذكرُ بعدَ الإنسانِ منْ خيرٍ أوْ شرٍّ يجازى عليها: منْ أثرٍ حسنٍ، كعلمٍ علّموهُ، أوْ كتابٍ صنّفوهُ، أوْ حبيسٍ احتبسوهُ، أوْ بناءٍ بنوهُ منْ مسجدٍ أوْ رباطٍ أوْ قنطرةٍ أوْ نحوِ ذلكَ. أوْ سيّئٍ كوظيفةٍ وظّفها بعضُ الظّلّامِ على المسلمينَ، وسكّةٍ أحدثها فيها تخسيرهمْ، أوْ شيءٍ أحدثهُ فيهِ صدٌّ عنْ ذكرِ اللّهِ منْ ألحانٍ وملاهٍ، وكذلكَ كلُّ سنّةٍ حسنةٍ أوْ سيئة يستن بها. وقيلَ: هي آثار المشاءين إلى المساجدِ، وفي صحيح مسلم عنْ جابرِ بنِ عبدِ اللّهِ قالَ: أرادَ بنو سلمةَ أنْ يتحوّلوا إلى قربِ المسجدِ، قالَ: والبقاعُ خاليةٌ، قالَ: فبلغَ ذلكَ النّبيَّ ﷺ فقالَ: «يا بني سلمةَ دياركمْ تكتبْ آثاركمْ دياركمْ تكتبْ آثاركمْ» فقالوا: ما كانَ يسرّنا أنّا كنّا تحوّلنا.

وواحدُ الآثارِ أثرٌ ويقالُ أثْرٌ.

الثالثة- في هذهِ الأحاديثِ المفسّرةِ لمعنى الآيةِ دليلٌ على أنَّ البعدَ منَ المسجدِ أفضلُ، فلوْ كانَ بجوارِ مسجدٍ، فهلْ لهُ أنْ يجاوزهُ إلى الأبعدِ؟ اختلفَ فيهِ، فرويَ عنْ أنسٍ أنّهُ كانَ يجاوزُ المحدثَ إلى القديمِ. ورويَ عنْ غيرهِ: الأبعدُ فالأبعدُ منَ المسجدِ أعظمُ أجراً. وكرهَ الحسنُ وغيرهُ هذا،، وقالَ: لا يدعُ مسجداً قربهُ ويأتي غيرهُ. وهذا مذهبُ مالكٍ. وفي تخطّي مسجدهِ إلى المسجدِ الأعظمِ قولانِ.

والإمامُ: الكتابُ المقتدى بهِ الّذي هوَ حجّةٌ. وقيلَ: أرادَ اللّوحَ المحفوظَ. وقالتْ فرقةٌ: أرادَ صحائفَ الأعمالِ.

قولهُ تعالى: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ١٣﴾ خطابٌ للنّبيِّ ﷺ أمرَ أنْ يضربَ لقومهِ مثلاً بأصحابِ القريةِ، وهذهِ القريةُ هيَ أنطاكيةُ في قولِ جميعِ المفسّرين، وكانَ بها فرعونُ يقالُ لهُ أنطيخسُ بنُ أنطيخسَ يعبدُ الأصنامَ، فأرسلَ اللّهُ إليهِ ثلاثةً، قيل: رسلٌ منَ اللّهِ على الابتداءِ. وقيلَ: إنَّ عيسى بعثهمْ إلى أنطاكيةَ للدّعاءِ إلى الله وأضاف الرّبُّ ذلكَ إلى نفسهِ، لأنَّ عيسى أرسلهما بأمرِ الرّبِّ، وكانَ ذلكَ حينَ رفعَ عيسى إلى السماء. قيل ضربوهما وسجنوهما. ﴿إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ١٤﴾ ﴿فَعَزَّزْنَا﴾ أيْ فقوّينا وشدّدنا الرّسالةَ ﴿بِثَالِثٍ﴾. وقرأ أبو بكرٍ عنْ عاصمٍ ﴿فَعَزَزْنَا﴾ بالتّخفيفِ وشدّدَ الباقون، والقراءتانِ بمعنى. وقيلَ: التّخفيفُ بمعنى غلبنا وقهرنا ومنهُ ﴿وَعَزَّنِي فِي ٱلْخِطَابِ﴾. والتّشديدُ بمعنى قوّينا وكثّرنا. فقالوا جميعـًا: ﴿إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ﴾. ﴿قَالُواْ مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ تأكلونَ الطّعامَ وتمشونَ في الأسواقِ ﴿وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ مِن شَيْءٍ﴾ يأمر به ولا من شي ينهى عنهُ ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ١٥﴾ في دعواكم الرسالة ﴿قَالُواْ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ١٦﴾ وإنْ كذّبتمونا ﴿وَمَا عَلَيْنَآ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ١٧﴾ في أنَّ اللّهَ واحدٌ ﴿قَالُوٓاْ﴾ لهمْ ﴿إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ﴾ أيْ تشاءمنا بكمْ. قالَ مقاتلٌ: حبسَ عنهمُ المطرُ ثلاثَ سنينَ فقالوا هذا بشؤمكمْ. ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهُواْ﴾ عنْ إنذارنا ﴿لَنَرْجُمَنَّكُمْ﴾ قالَ الفرّاءُ: لنقتلنّكمْ. قالَ: وعامّةُ ما في القرآنِ منَ الرّجمِ معناهُ القتلُ، وقيلَ: لنشتمنّكمْ. ﴿وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ١٨﴾ قيلَ: هوَ القتلُ. وقيلَ: هوَ التّعذيبُ المؤلمُ. وقيلَ: هوَ التّعذيبُ المؤلمُ قبلَ القتلِ كالسّلخِ والقطعِ والصّلبِ. فقالت الرسل:

﴿طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمۡ﴾ أي شومكم معكمْ أيْ حظّكمْ منَ الخيرِ والشّرِّ معكمْ ولازمٌ في أعناقكمْ، وليسَ هوَ منْ شؤمنا ﴿أَئِن ذُكِّرۡتُمۚ﴾ قرأَ أهلُ الكوفةِ: ﴿أَإِن﴾ بتحقيقِ الهمزتينِ، وقرأَ أهلُ المدينةِ «أَيِنْ ذُكِّرْتُمْ» بتخفيفِ الهمزةِ الثّانيةِ. ﴿بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ مُّسۡرِفُونَ ١٩﴾ في تطيّركمْ، وقيلَ: في كفركمْ، وقيلَ: مسرفونَ مشركونَ، والإسرافُ مجاوزةُ الحدِّ والمشركُ يجاوزُ الحد.

قوله تعالى: ﴿وَجَآءَ مِنۡ أَقۡصَا ٱلۡمَدِينَةِ رَجُلٞ يَسۡعَىٰ﴾ اسمه حبيبٍ النّجّارِ كانَ يعبدُ اللّهَ في غارٍ، وكان به سقم، فلمّا سمعَ بخبرِ المرسلينَ جاءَ يسعى، فاعتقدَ صدقهمْ وآمنَ بهمْ وأقبلَ على قومه ف ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ٢٠ ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسۡـَٔلُكُمۡ أَجۡرٗا وَهُم مُّهۡتَدُونَ ٢١﴾ فاهتدوا بهمْ. ﴿وَمَالِيَ لَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي﴾ أي خلقني. ﴿وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ٢٢﴾ وهذا احتجاجٌ منهُ عليهمْ. وأضافَ الفطرةَ إلى نفسهِ، لأنَّ ذلكَ نعمةٌ عليهِ توجبُ الشّكرَ، والبعثَ إليهمْ: لأنَّ ذلكَ وعيدٌ يقتضي الزّجرَ، فكانَ إضافةُ النّعمةِ إلى نفسهِ أظهرَ شكراً، وإضافةُ البعثِ إلى الكافرِ أبلغُ أثراً. ﴿ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً﴾ يعني أصنامـًا. ﴿إِن يُرِدۡنِ ٱلرَّحۡمَٰنُ بِضُرّٖ﴾ يعني ما أصابهُ منَ السّقمِ. ﴿لَّا تُغۡنِ عَنِّي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَا يُنقِذُونِ ٢٣﴾ يخلّصوني ممّا أنا فيهِ منَ البلاءِ ﴿إِنِّيٓ إِذٗا﴾ يعني إنْ فعلتُ ذلكَ ﴿لَّفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ٢٤﴾ أيْ خسرانٌ ظاهرٌ. ﴿إِنِّيٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمۡ فَٱسۡمَعُونِ ٢٥﴾ أيْ فاشهدوا، أيْ كونوا شهودي بالإيمانِ. فوثبوا عليهِ فقتلوهُ، وألقيَ في بئرٍ وهيَ الرّسُّ وهمْ أصحابُ الرّسِّ. وفي روايةٍ أنّهمْ قتلوا الرّسلَ الثّلاثةَ. ﴿قِيلَ ٱدۡخُلِ ٱلۡجَنَّةَۖ﴾ وجبتْ لكَ الجنّةُ، فهوَ خبرٌ بأنّهُ قدِ استحقَّ دخولَ الجنّةِ: لأنَّ دخولها يستحقُّ بعدَ البعثِ.

قلت: والظّاهرُ منَ الآيةِ أنّهُ لمّا قتلَ قيلَ لهُ ادخلِ الجنّةَ. قالَ قتادةُ: أدخلهُ اللّهُ الجنّةَ وهوَ فيها حيٌّ يرزقُ، أرادَ قول تعالى: ﴿وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمۡوَٰتَۢاۚ بَلۡ أَحۡيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمۡ يُرۡزَقُونَ﴾.

﴿قَالَ يَٰلَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾﴾ مرتّبٌ على تقديرِ سؤالِ سائلٍ عمّا وجدَ منْ قولٍ عندَ ذلكَ الفوزِ العظيمِ الّذي هوَ ﴿بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٧﴾﴾، وفي معنى تمنيه قولان:

أحدهما: أنّهُ تمنّى أنْ يعلموا بحالهِ ليعلموا حسنَ مآلهِ وحميدَ عاقبتهِ.

الثّاني: تمنّى ذلكَ ليؤمنوا مثلَ إيمانهِ فيصيروا إلى مثلِ حالهِ.

قالَ ابنُ عبّاسٍ: نصحَ قومهُ حيـًا وميّتـًا.

وفي هذهِ الآيةِ تنبيهٌ عظيمٌ، ودلالةٌ على وجوبِ كظمِ الغيظِ، والحلمِ عنْ أهلِ الجهلِ، والتّرؤّفِ على منْ أدخلَ نفسهُ في غمارِ الأشرارِ وأهلِ البغيِ، والتّشمّرِ في تخليصهِ، والتّلطّفِ في افتدائهِ، والاشتغالِ بذلكَ عنِ الشّماتةِ بهِ والدّعاءِ عليهِ. ألا ترى كيفَ تمنّى الخيرَ لقتلتهِ، والباغينَ لهُ الغوائلَ وهمْ كفرةٌ عبدةُ أصنامٍ، فلمّا قتلَ غضبَ اللّهُ لهُ وعجّلَ النّقمةَ على قومهِ، فأمرَ جبريلَ فصاحَ بهمْ صيحةً فماتوا عنْ آخرهمْ، فذلكَ قولهُ: ﴿۞ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِن جُندٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ﴿٢٨﴾﴾ أيْ ما أنزلنا عليهمْ من رسالة ولا نبي بعد قتله.

وقيلَ: لمْ أحتجْ في هلاكهمْ إلى إرسالِ جنودٍ ولا جيوشٍ ولا عساكرَ بلْ أهلكهمْ بصيحةٍ واحدةٍ؛ فقولهُ: ﴿وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ﴾ تصغيرٌ لأمرهمْ، أيْ أهلكناهمْ بصيحةٍ واحدةٍ منْ بعدِ ذلكَ الرّجلِ، أوْ منْ بعدِ رفعهِ إلى السّماءِ. **وقيلَ**: ﴿وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ﴾ على منْ كانَ قبلهمْ.

فإنْ قلتَ: فلمَ أنزلَ الجنودَ منَ السّماءِ يومَ بدرٍ والخندقِ؟ فقالَ: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾، وقال: ﴿بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ﴾. ﴿بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾.

قلت: إنّما كانَ يكفي ملكٌ واحدٌ، فقدْ أهلكتْ مدائنُ قوم لوطٍ بريشةٍ منْ جناحِ جبريلَ، وبلادُ ثمودَ وقومُ صالحٍ بصيحةٍ، ولكنَّ اللّهَ فضّلَ محمّداً ﷺ بكل شيء على سائرِ الأنبياءِ

وأولي العزمِ منَ الرّسلِ فضلاً عنْ حبيبِ النّجّارِ، وأولاهُ منْ أسبابِ الكرامةِ والإعزازِ ما لمْ يولهِ أحداً، فمنْ ذلكَ أنّهُ أنزلَ لهُ جنوداً منَ السّماءِ، وكأنّهُ أشارَ بقولهِ: ﴿۞ وَمَآ أَنزَلۡنَا﴾. ﴿وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ﴾ إلى أنَّ إنزالَ الجنودِ منْ عظائمِ الأمورِ الّتي لا يؤهّلُ لها إلّا مثلكَ، وما كنّا نفعلُ لغيركَ. ﴿إِن كَانَتۡ إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ﴾ قراءةُ العامّةِ ﴿وَٰحِدَةٗ﴾ بالنّصبِ على تقديرِ ما كانتْ عقوبتهمْ إلّا صيحةً واحدةً. ﴿فَإِذَا هُمۡ خَٰمِدُونَ ٢٩﴾ أيْ ميّتونَ هامدونَ، تشبيهاً بالرّمادِ الخامد.

قوله تعالى: ﴿يَٰحَسۡرَةً عَلَى ٱلۡعِبَادِۚ﴾ منصوبٌ، لأنّهُ نداءُ نكرةٍ ولا يجوزُ فيهِ غيرُ النّصبِ عندَ البصريّينَ. وفي حرفِ أبيٍّ «يَا حَسْرَةَ الْعِبَادِ» على الإضافةِ. وحقيقةُ الحسرةِ في اللّغةِ أنْ يلحقَ الإنسانَ منَ النّدمِ ما يصيرُ بهِ حسيراً.

وقيلَ: العباد ها هنا الرّسلُ، وذلكَ أنَّ الكفّارَ لمّا رأوا العذابَ قالوا: ﴿يَٰحَسۡرَةً عَلَى ٱلۡعِبَادِۚ﴾ فتحسّروا على قتلهمْ، وتركِ الإيمانِ بهمْ، فتمنّوا الإيمانَ حينَ لم ينفعهم الإيمان، وقيلَ: إنّها حسرةُ الملائكةِ على الكفّارِ حينَ كذّبوا الرّسلَ.

وقيلَ: ﴿يَٰحَسۡرَةً عَلَى ٱلۡعِبَادِۚ﴾ منْ قولِ الرّجلِ الّذي جاءَ منْ أقصى المدينةِ يسعى، لمّا وثبَ القومُ لقتلهِ. وقيلَ: إنَّ الرّسلَ الثّلاثةَ همُ الّذينَ قالوا لمّا قتلَ القومُ ذلكَ الرّجلَ الّذي جاءَ منْ أقصى المدينةِ يسعى، وحلَّ بالقومِ العذاب: يا حسرة على هؤلاء، كأنهم أمنوا أنْ يكونوا قدْ آمنوا. وقيلَ: هذا منْ قولِ القومِ قالوا لمّا قتلوا الرّجلَ وفارقهمُ الرّسلُ، أوْ قتلوا الرّجلَ معَ الرّسلِ الثّلاثةِ، على اختلافِ الرّواياتِ: يا حسرةً على هؤلاءِ الرّسلِ، وعلى هذا الرّجلِ، ليتنا آمنّا بهمْ في الوقتِ الّذي ينفعُ الإيمانُ وتمَّ الكلامُ على هذا، ثمَّ ابتدأَ فقالَ: ﴿مَا يَأۡتِيهِم مِّن رَّسُولٍ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسۡتَهۡزِءُونَ ٣٠﴾.

قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ يَرَوۡاْ كَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّنَ ٱلۡقُرُونِ أَنَّهُمۡ إِلَيۡهِمۡ لَا يَرۡجِعُونَ ٣١﴾ بعد الاستئصالِ، وهذهِ الآيةُ ردٌّ على منْ زعمَ أنَّ منَ الخلقِ منْ يرجعُ قبلَ القيامةِ بعدَ الموتِ.

قوله تعالى: ﴿وَإِن كُلّٞ لَّمَّا جَمِيعٞ لَّدَيۡنَا مُحۡضَرُونَ ٣٢﴾ يريدُ يومَ القيامةِ للجزاءِ. وقرأَ ابنُ عامرٍ وعاصم وحمزة: ﴿وَإِن كُلٌّ لَّمَّا﴾ بتشديد ﴿لَّمَّا﴾. وخفف الباقون.

قولهُ تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ٣٣﴾ نبّههمُ اللّهُ تعالى بهذا على إحياءِ الموتى، وشدّدَ أهلُ المدينةِ «الْمَيِّتَةُ» وخفّفَ الباقونَ ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا﴾ أيْ في الأرضِ. ﴿جَنَّٰتٍ﴾ أيْ بساتينَ. ﴿مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ﴾ وخصّصهما بالذّكرِ، لأنّهما أعلى الثّمارِ. ﴿وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ ٣٤﴾ أيْ في البساتينِ. ﴿لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ﴾ الهاءُ في ﴿ثَمَرِهِۦ﴾ تعودُ على ماءِ العيونِ، لأنَّ الثّمرَ منهُ اندرجَ، وقيلَ: أيْ ليأكلوا منْ ثمرِ ما ذكرنا، كما قالَ: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهِۦ﴾. وقرأ حمزةُ والكسائيُّ: «مِنْ ثُمُرِهِ» بضمِّ الثّاءِ والميمِ. وفتحهما الباقونَ. ﴿وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ﴾ أيْ وممّا. وقرأ الكوفيّونَ: «وَمَا عَمِلَتْ» بغيرِ هاءٍ. الباقونَ ﴿عَمِلَتْهُ﴾ على الأصلِ منْ غيرِ حذفٍ. وحذفُ الصّلةِ أيضاً في الكلامِ كثيرٌ لطولِ الاسمِ. ويجوزُ أنْ تكونَ ﴿مَا﴾ نافيةً لا موضعَ لها فلا تحتاجُ إلى صلةٍ ولا راجعٍ. أيْ ولمْ تعملهُ أيديهمْ منَ الزّرعِ الّذي أنبتهُ اللّهُ لهمْ. ﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ ٣٥﴾.

﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا﴾ نزّهَ نفسهُ سبحانهُ عنْ قولِ الكفّارِ، إذْ عبدوا غيرهُ معَ ما رأوهُ منْ نعمهِ وآثارِ قدرتهِ. وفيهِ تقديرُ الأمرِ، أيْ سبّحوهُ ونزّهوهُ عمّا لا يليقُ بهِ. وقيلَ: فيهِ معنى التّعجّبِ، أيْ عجباً لهؤلاءِ في كفرهمْ معَ ما يشاهدونهُ منْ هذهِ الآياتِ، ومنْ تعجب من شيء قالَ: سبحانَ اللّه. والأزواجُ: الأنواعُ والأصنافُ، فكلُّ زوجٍ صنفٌ، لأنّهُ مختلفٌ في الألوانِ والطّعومِ والأشكالِ والصّغرِ والكبرِ، فاختلافها هوَ ازدواجها. وقيل: يعني الذّكرَ والأنثى ﴿مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ﴾ يعني منَ النّباتِ، لأنّهُ أصنافٌ ﴿وَمِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ يعني وخلقَ منهمْ أولاداً أزواجاً ذكوراً وإناثاً. ﴿وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ٣٦﴾ أيْ منْ أصنافِ خلقهِ في البرِّ والبحرِ والسّماءِ والأرضِ. ثمَّ يجوزُ أنْ يكونَ ما يخلقهُ لا يعلمهُ البشرُ وتعلمهُ الملائكةُ. ويجوزُ ألّا يعلمهُ مخلوقٌ. ووجهُ الاستدلالِ في هذهِ الآيةِ أنّهُ إذا انفردَ بالخلقِ فلا ينبغي أن يشرك به.

قولهُ تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ﴾ أيْ وعلامةٌ دالّةٌ على توحيد الله وقدرته ووجوب إلاهيته. والسّلخُ: الكشطُ والنّزعُ، يقالُ: سلخهُ اللّهُ منْ دينهِ، ثمَّ تستعملُ بمعنى الإخراجِ. وقدْ جعلَ ذهابَ الضّوءِ ومجيءَ الظّلمةِ كالسّلخِ منَ الشّيءِ وظهورِ المسلوخِ فهيَ استعارةٌ. ﴿فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ٣٧﴾ داخلونَ في الظّلامِ، يقالُ: أظلمنا أيْ دخلنا في ظلامِ اللّيلِ، وأظهرنا دخلنا في وقتِ الظّهرِ، وكذلكَ أصبحنا وأضحينا وأمسينا. وقيلَ: ﴿مِنْهُ﴾ بمعنى عنهُ، والمعنى نسلخُ عنهُ ضياءَ النّهارِ؛ لأنَّ ضوءَ النّهارِ يتداخلُ في الهواءِ فيضيءُ فإذا خرجَ منه أظلم.

قولهُ تعالى: ﴿وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا﴾ أيْ إلى مستقرّها، والمستقرُّ موضعُ القرارِ، ويجوزُ أنْ يكونَ تقديرهُ وآيةٌ لهمُ الشّمسُ. ويجوزُ أنْ يكونَ الشّمسُ مرفوعًا بإضمارِ فعلٍ يفسّرهُ الثّاني. ويجوزُ أنْ يكونَ مرفوعًا بالابتداءِ ﴿تَجْرِى﴾ في موضعِ الخبرِ أيْ جاريةٌ. وفي صحيحِ مسلمٍ عنْ أبي ذرٍّ قالَ: سألتُ رسولَ اللّهِ ﷺ عنْ قولهِ عزَّ وجلَّ: ﴿وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا﴾ قالَ: «مستقرّها تحتَ العرشِ». ولفظُ البخاريِّ عنْ أبي ذرٍّ قالَ: قالَ النّبيُّ ﷺ لأبي ذرٍّ حينَ غربتِ الشّمسُ: «تدري أينَ تذهبُ» قلتُ اللّهُ ورسولهُ أعلمُ، قالَ: «فإنّها تذهبُ حتّى تسجدَ تحتَ العرشِ فتستأذنُ فيؤذنُ لها ويوشكُ أنْ تسجدَ فلا يقبلُ منها وتستأذنَ فلا يؤذنُ لها يقالُ لها ارجعي منْ حيثُ جئتِ فتطلعُ منْ مغربها فذلكَ قولهُ تعالى: ﴿وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ٣٨﴾».

قولهُ تعالى: ﴿وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ٣٩﴾، فيه ثلاث مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَٱلْقَمَرُ﴾ يكونُ تقديرهُ وآيةٌ لهمُ القمرُ. ويجوزُ أنْ يكونَ ﴿وَٱلْقَمَرُ﴾ مرفوعًا بالابتداءِ. وقرأ الكوفيّونَ ﴿وَٱلْقَمَرَ﴾ بالنّصبِ على إضمارِ فعلٍ ﴿قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ﴾ أي قدّرنا لهُ منازلَ ثمَّ حذفتِ اللّامُ، والمنازلُ ثمانيةٌ وعشرونَ منزلاً،

الثّانيةُ- ﴿حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ٣٩﴾ هوَ العذقُ اليابسُ المنحني منَ النّخلةِ، وهوَ

فعلونُ منَ الانعراجِ وهوَ الانعطافُ، أيْ سارَ في منازلهِ، فإذا كانَ في آخرها دقَّ واستقوسَ وضاقَ حتّى صارَ كالعرجونِ وَ ﴿ٱلْقَدِيمِ﴾ البالي.

واعلمْ أنَّ السَّنةَ منقسمةٌ على أربعةِ فصولٍ، لكلِّ فصلِ سبعةُ منازلَ: فأوّلها الرّبيعُ، ثمَّ الصّيفِ ثمَّ الخريفِ ثمَّ الشّتاءِ ﴿ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾.

الثالثة- قولهُ تعالى: ﴿ٱلْقَدِيمِ﴾ إذا قدمَ دقَّ وانحنى واصفرَّ فشبّهَ القمرُ بهِ منْ ثلاثةِ أوجهٍ.

وقيلَ: أقلُّ عدة الموصوف بالقديم الحول، فلوْ أنَّ رجلاً قالَ: كلُّ مملوكٍ لي قديم فهوَ حرٌّ، أوْ كتبَ ذلكَ في وصيّتهِ عتقَ منْ مضى لهُ حولٌ أوْ أكثرُ. وقدْ مضى في البقرةِ ما يترتّبُ على الأهلّةِ منَ الأحكامِ والحمدُ للّهِ.

قولهُ تعالى: ﴿لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ﴾ رفعتِ الشّمسُ بالابتداءِ، ولا يجوزُ أنْ تعملَ ﴿لَا﴾ في معرفةٍ. ومعناهُ. لكلِ واحدٍ منهما سلطانٌ إلى أنْ يبطلَ اللّهُ ما دبّرَ منْ ذلكَ، فتطلعُ الشّمسُ منْ مغربها.

وقيلَ: أيْ لا يشبهُ ضوءُ أحدهما ضوءَ الآخرِ. وقيلَ: سيرَ القمرِ سيرٌ سريعٌ والشّمسُ لا تدركهُ في السّيرِ، فأما قول سبحانه: ﴿وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ﴾ فذلكَ حينَ حبسَ الشّمسَ عنِ الطّلوعِ، وجمعهما علامةٌ لانقضاءِ الدّنيا وقيامِ السّاعةِ.

﴿وَكُلٌّ﴾ يعني منَ الشّمسِ والقمرِ والنّجوم ﴿فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ۝٤٠﴾ أيْ يجرونَ. **وقيلَ**: يدورونَ. ولمْ يقلْ تسبحُ، لأنّهُ وصفها بفعلِ منْ يعقلُ.

واستدل بعضهم بقول تعالى: ﴿وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ﴾ على أنَّ النّهارَ مخلوقٌ قبلَ اللّيلِ، وأنَّ اللّيلَ لمْ يسبقه بخلق. وقيلَ: كل واحد منهما يجيءُ وقتهُ ولا يسبقُ صاحبهُ إلى أنْ يجمعَ بينَ الشّمسِ والقمرِ يومَ القيامةِ، كما قالَ: ﴿وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ﴾ وإنّما هذا التّعاقبُ الآنَ لتتمَّ مصالحُ العبادِ ﴿لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ﴾ ويكونَ اللّيلُ للإجمام والاستراحةِ، والنّهارُ للتّصرّفِ، كما قالَ تعالى: ﴿وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ﴾ وقالَ: ﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا﴾ أيْ راحةً لأبدانكمْ منْ

عملِ النّهارِ. فقولهُ: ﴿وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ﴾ أيْ غالبُ، يقالُ: سبقَ فلانٌ فلانـًا أيْ غلبهُ.

قولهُ تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمۡ﴾ يحتملُ ثلاثةَ معانٍ: **أحدها:** عبرةٌ لهمْ، لأنَّ في الآياتِ اعتباراً. **الثّاني:** نعمةٌ عليهمْ، لأنَّ في الآياتِ إنعامـًا. الثّالثُ: إنذارٌ لهمْ، لأنَّ في الآياتِ إنذارا.

﴿أَنَّا حَمَلۡنَا ذُرِّيَّتَهُمۡ فِي ٱلۡفُلۡكِ ٱلۡمَشۡحُونِ ٤١﴾ منْ أشكلِ ما في السّورةِ، لأنّهمْ همُ المحمولونَ. فقيلَ المعنى وآيةٌ لأهلِ مكّةَ أنّا حملنا ذرّيّةَ القرونِ الماضيةِ ﴿فِي ٱلۡفُلۡكِ ٱلۡمَشۡحُونِ﴾ فالضّميرانِ مختلفانِ، وقيلَ: الضّميرانِ جميعـًا لأهلِ مكّةَ على أنْ يكونَ ذرّيّاتهمْ أولادهمْ وضعفاءهمْ، فالفلكُ على القولِ الأوّلِ سفينةُ نوحٍ. وعلى الثّاني يكونُ اسمـًا للجنسِ، خبّرَ جلَّ وعزَّ بلطفهِ وامتنانهِ أنّهُ خلقَ السفن يحمل فيها من يحملُ فيها منْ يصعبُ عليهِ المشيُ والرّكوبُ، وقيلَ: الذّرّيّةُ الآباءُ والأجدادُ، حملهمُ اللّهُ تعالى في سفينةِ نوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فالآباءُ ذرّيّةٌ والأبناءُ ذرّيّةٌ، بدليلِ هذهِ الآيةِ، وسمّيَ الآباءُ ذرّيّةً، لأنَّ منهمْ ذرأَ الأبناءِ. وقولٌ رابعٌ: أنَّ الذّرّيّةَ النّطفُ حملها اللّهُ تعالى في بطونِ النّساءِ تشبيهـًا بالفلكِ المشحونِ.

وَ ﴿ٱلۡمَشۡحُونِ﴾ المملوءُ الموقّرُ وَ ﴿ٱلۡفُلۡكُ﴾ يكونُ واحداً وجمعـًا.

قولهُ تعالى: ﴿وَخَلَقۡنَا لَهُم مِّن مِّثۡلِهِۦ مَا يَرۡكَبُونَ ٤٢﴾ الأصلُ يركبونهُ فحذفتِ الهاءُ لطولِ الاسمِ وأنّهُ رأسُ آيةٍ. ومعنى ﴿مِّن مِّثۡلِهِۦ﴾ للإبلِ، خلقها لهمْ للرّكوبِ في البرِّ مثلَ السّفنِ المركوبةِ في البحرِ، والعربُ تشبّهُ الإبلَ بالسّفنِ، **والقولُ الثّاني:** أنّهُ للإبلِ والدّوابِّ وكلِّ ما يركبُ. **والقولُ الثّالثُ:** أنّهُ للسّفنِ، وهوَ أصحّها خلقَ لهمْ سفنـًا أمثالها يركبونَ فيها.

قولهُ تعالى: ﴿وَإِن نَّشَأۡ نُغۡرِقۡهُمۡ﴾ أيْ في البحرِ فترجعُ الكنايةُ إلى أصحابِ الذّرّيّةِ، أوْ إلى الجميعِ، وهذا يدل على صحة قولِ منْ قالَ إنَّ المرادَ ﴿مِّن مِّثۡلِهِۦ﴾ السّفنُ لا الإبلُ. ﴿فَلَا صَرِيخَ لَهُمۡ﴾ أيْ لا مغيثَ لهمْ، ﴿وَلَا هُمۡ يُنقَذُونَ ٤٣﴾ لا يخلّصونَ منَ الغرقِ. وقيلَ: منَ العذابِ. ﴿إِلَّا رَحۡمَةً مِّنَّا﴾ نصبٌ على الاستثناءِ. وقيل: نصبُ مفعولٍ منْ أجلهِ، أيْ للرّحمةِ ﴿وَمَتَٰعًا﴾ معطوفٌ عليهِ. ﴿إِلَىٰ حِينٍ ٤٤﴾ إلى الموتِ، أو إلى القيامةِ أيْ إلّا أنْ نرحمهمْ ونمتّعهمْ إلى آجالهمْ، وأنَّ اللّهَ عجّلَ عذابَ الأممِ السّالفةِ، وأخّرَ عذابَ أمّةِ محمّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وان كذبوه إلى الموت والقيامة.

قولهُ تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّقُواْ مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ﴾ منَ الوقائعِ فيمنْ كانَ قبلكمْ منَ الأممِ ﴿وَمَا خَلْفَكُمْ﴾ منَ الآخرةِ. وقيل: ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ﴾ ما مضى منَ الذّنوبِ ﴿وَمَا خَلْفَكُمْ﴾ ما يأتي منَ الذّنوبِ، وقيلَ: ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ﴾ منَ الدّنيا ﴿وَمَا خَلْفَكُمْ﴾ منْ عذابِ الآخرةِ، ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٥﴾﴾ والجوابُ محذوفٌ والتّقديرُ إذا قيلَ لهمْ ذلكَ أعرضوا، دليلهُ قول بعدُ: ﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُواْ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤٦﴾﴾ فاكتفى بهذا عنْ ذلكَ.

قولهُ تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ﴾ وكانَ بمكّةَ زنادقةٌ، فإذا أمروا بالصّدقةِ على المساكينِ قالوا: لا واللّهِ أيفقرهُ اللّهُ ونطعمهُ نحنُ. وكانَ هذا الاحتجاجُ باطلاً، لأنَّ اللّهَ تعالى إذا ملّكَ عبداً مالاً ثمَّ أوجبَ عليهِ فيهِ حقاً فكأنّهُ انتزعَ ذلكَ القدرَ منهُ، فلا معنى للاعتراضِ. وقدْ صدقوا في قولهمْ: لوْ شاءَ اللّهُ أطعمهُ ولكنْ كذبوا في الاحتجاجِ. ومثلهُ قولهُ: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا﴾، وقولهُ: ﴿قَالُواْ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾.

﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٤٧﴾﴾ قيلَ هوَ منْ قولِ الكفّارِ للمؤمنينَ، أيْ في سؤالِ المالِ وفي اتّباعكمْ محمّداً، وقيلَ: هوَ منْ قولِ أصحابِ النّبيِّ ﷺ لهمْ. وقيلَ: منْ قولِ اللّهِ تعالى للكفّارِ حينَ ردّوا بهذا الجوابِ.

قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾﴾ لمّا قيلَ لهمْ: ﴿ٱتَّقُواْ مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ﴾ قالوا: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾ وكانَ هذا استهزاءً منهمْ أيضاً أيْ لا تحقيقَ لهذا الوعيدِ. قالَ اللّهُ تعالى: ﴿مَا يَنظُرُونَ﴾ أيْ ما ينتظرونَ ﴿إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً﴾ وهيَ نفخةُ إسرافيلَ النّفخةُ الأولى في الصّورِ ﴿تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴿٤٩﴾﴾ أيْ يختصمونَ في أمورِ دنياهمْ فيموتونَ في مكانهمْ، وهذهِ نفخةُ الصّعقِ.

وقرأَ أبو عمرو وابنُ كثير «وهم يَخَصِّمون» بفتحِ الياءِ والخاءِ وتشديدِ الصّادِ. وكذا روى ورشٌ عنْ نافعٍ. وقرأ حمزة «وهم يَخْصِمُون» بإسكان الخاء وتخفيف الصّادِ منْ

خصمهُ. وقرأ عاصمٌ والكسائيُّ: ﴿وَهُمْ يَخِصِّمُونَ﴾ بكسر الخاء وتشديد الصاد ومعناه يخصم بعضهمْ بعضًا، وقيلَ: تأخذهمْ وهمْ عندَ أنفسهمْ يختصمونَ في الحجّةِ أنّهمْ لا يبعثونَ. والأصلُ فيها يختصمونَ فأدغمتِ التّاءُ في الصّادِ فنقلتْ حركتها إلى الخاءِ-

قولهُ تعالى: ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً﴾ أيْ لا يستطيعُ بعضهمْ أن يوصي بعضا لما في يدهِ منْ حقٍّ. وقيلَ: لا يستطيعُ أنْ يوصيَ بعضهمْ بعضًا بالتّوبةِ والإقلاعِ بلْ يموتونَ في أسواقهمْ ومواضعهمْ. ﴿وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ۝٥٠﴾ إذا ماتوا. وقيلَ: إنَّ معنى ﴿وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ﴾ لا يرجعونَ إليهمْ قولاً. وقالَ قتادةُ: ﴿وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ﴾ أيْ إلى منازلهمْ، لأنّهمْ قدْ أعجلوا عنْ ذلك.

قولهُ تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ﴾ هذهِ النّفخةُ الثّانيةُ للنّشأةِ. وقدْ بيّنّا في سورةِ النّملِ أنّهما نفختانِ لا ثلاثٌ. وهذهِ الآيةُ دالةٌ على ذلك. وروي عن النبي ﷺ: «بينَ النّفختينِ أربعونَ سنةً الأولى يميتُ اللّهُ بها كلَّ حيٍّ والأخرى يحيي اللّهُ بها كلَّ ميّتٍ».

وقيلَ: الصّورُ جمعُ صورةٍ، أيْ نُفخَ في الصوَرِ والأرواحِ، والصّحيحُ أنَّ ﴿ٱلصُّورِ﴾ بإسكانِ الواوِ: القرنُ، جاءَ بذلكَ التّوقيفُ عنْ رسولِ اللّهِ ﷺ، وذلكَ معروفٌ في كلامِ العربِ.

﴿فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ﴾ أي القبور. جمع جَدَث ﴿إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ۝٥١﴾ أيْ يخرجونَ، ومنهُ قيلَ للولدِ نسلٌ، لأنّهُ يخرجُ منْ بطنِ أمّهِ. وقيلَ: يسرعونَ. والنّسلانُ والعسلانُ الإسراعُ في السّيرِ، ومنهُ مشيةُ الذّئبِ، فالمعنى يخرجون مسرعين. وفي التنزيل: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾، وقالَ: ﴿يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ﴾، وفي المعارج: ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ﴾ أيْ يسرعونَ. وفي الخبرِ: شكونا إلى النّبيِّ ﷺ الضّعفَ فقالَ: «عليكمْ بالنّسْلِ» أيْ بالإسراعِ في المشيِ فإنّهُ ينشّطُ.

قولهُ تعالى: ﴿قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ﴾ **قيل**: كيفَ قالوا هذا وهمْ منَ المعذّبينَ في قبورهمْ؟ فالجوابُ: أنَّ أبيَّ بنَ كعبٍ قالَ: ينامونَ نومةً. وقالَ أبو صالحٍ: إذا نفخ

النّفخةُ الأولى رفعَ العذابُ عنْ أهلِ القبورِ وهجعوا هجعةً إلى النّفخةِ الثّانيةِ وبينهما أربعونَ سنةً، فذلكَ قولهم: ﴿مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرۡقَدِنَاۜ﴾.

وقيلَ: إنَّ الكفّارَ إذا عاينوا جهنّمَ وما فيها منْ أنواعِ العذابِ صارَ ما عذّبوا بهِ في قبورهمْ إلى جنبِ عذابها كالنّومِ.

فقالَ لهمُ المؤمنونَ وقيلَ: فقال لهمُ الملائكةُ ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾.

وقيلَ: إنَّ الكفّارَ لمّا قالَ بعضهمْ لبعضٍ: ﴿مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرۡقَدِنَاۜ﴾ صدّقوا الرّسلَ لمّا عاينوا ما أخبروهمْ بهِ، ثمَّ قالوا ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلۡمُرۡسَلُونَ ٥٢﴾ فكذّبنا بهِ، أقرّوا حينَ لمْ ينفعهمُ الإقرارُ. وكانَ حفصٌ يقفُ على ﴿مِن مَّرۡقَدِنَاۜ﴾ ثمَّ يبتدئُ فيقولُ: ﴿هَٰذَا﴾.

قالَ أبو بكرِ بنُ الأنباريِّ: ﴿مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرۡقَدِنَاۜ﴾ وقفٌ حسنٌ، ثمَّ تبتدئُ: ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ ويجوزُ أنْ تقفَ على ﴿مَّرۡقَدِنَاۜ هَٰذَا﴾ فتخفضَ هذا على الإتباعِ للمرقدِ، وتبتدئَ: ﴿مَا وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ على معنى بعثكمْ ما وعدَ الرّحمنُ، أيْ بعثكمْ وعدُ الرّحمنِ.

﴿إِن كَانَتۡ إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ﴾ يعني إنَّ بعثهمْ وإحياءهمْ كانَ بصيحةٍ واحدةٍ، وهذا معنى قول الحقِّ: ﴿يَوۡمَ يَسۡمَعُونَ ٱلصَّيۡحَةَ بِٱلۡحَقِّۚ ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلۡخُرُوجِ﴾. وقال: ﴿مُّهۡطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِۖ﴾ على ما يأتي. ﴿فَإِذَا هُمۡ جَمِيعٞ لَّدَيۡنَا مُحۡضَرُونَ ٥٣﴾ فإذا همْ «مبتدأٌ وخبرهُ» ﴿جَمِيعٞ﴾ نكرةٌ، وَ ﴿مُّحۡضَرُونَ﴾ منْ صفتهِ. أي مجموعونَ أحضروا موقفَ الحسابِ، وهوَ كقولهِ: ﴿وَمَآ أَمۡرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمۡحِ ٱلۡبَصَرِ﴾.

قولهُ تعالى: ﴿فَٱلۡيَوۡمَ لَا تُظۡلَمُ نَفۡسٞ شَيۡـٔٗا﴾ أيْ لا تنقصُ منْ ثوابِ عملٍ. ﴿وَلَا تُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ٥٤﴾.

قولهُ تعالى: ﴿إِنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَٰكِهُونَ ﴿٥٥﴾﴾ شغلهمُ افتضاضُ العذارى.

وقيلَ: أصحابُ الجنّةِ في شغلٍ بما همْ فيهِ منَ اللّذّاتِ والنّعيمِ عنْ الاهتمامِ بأهلِ المعاصي ومصيرهمْ إلى النّارِ، وما همْ فيهِ منْ أليمِ العذابِ، وإنْ كان فيهم أقرباؤهم وأهلوهم، وقيل: ﴿فِى شُغُلٍ﴾ أيْ في زيارةِ بعضهمْ بعضـًا. وقيلَ: في ضيافةِ اللّهِ تعالى.

وَ ﴿شُغُلٍ﴾وَ «شُغْلٌ» لغتانِ قرئَ بهما، مثلَ الرُّعُبِ والرُّعْبِ، والسُّحُتِ والسُّحْتِ،

﴿فَٰكِهُونَ﴾ مسرورونَ، والفكاهةُ المزاحُ والكلامُ الطّيّبُ. وقرأ أبو جعفرٍ: «فَكِهُونَ» بغيرِ ألفٍ وهما لغتانِ كالفارهِ والفرهِ، والحاذرِ والحذرِ، وقيلَ: الفاكهُ ذو الفاكهةِ، والفكهُ المتفكّهُ والمتنعّمُ. وَ «فَكِهُونَ» بغيرِ ألفٍ في قولِ قتادةَ معجبونَ. يقالُ رجلٌ فكهٌ إذا كانَ طيّبَ النّفسِ ضحوكـًا.

﴿هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ فِى ظِلَٰلٍ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ ﴿٥٦﴾﴾ مبتدأٌ وخبرهُ، وقراءةُ العامّةِ: ﴿فِى ظِلَٰلٍ﴾ بكسرِ الظّاءِ والألفِ. وقرأ حمزةُ والكسائيُّ وخلفٌ: «في ظُللٍ» بضمِّ الظّاءِ منْ غيرِ ألفٍ، فالظّلالُ جمعُ ظلٍّ، والظللُ جمعُ ظلّةٍ.

﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ﴾ يعني السّررَ واحدها أريكةٌ، مثلَ سفينةٍ وسفائنَ، ﴿لَهُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ﴾ ابتداءٌ وخبرٌ. ﴿وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ﴿٥٧﴾﴾ الدّالُ الثّانيةُ مبدلةٌ منْ تاءٍ، لأنّهُ يفتعلونَ منْ دعا أيْ منْ دعا بشيءٍ أعطيهِ. ومعنى ﴿يَدَّعُونَ﴾ يتمنّونَ منَ الدّعاءِ.

قالَ ابنُ الأنباريِّ: ﴿وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ﴾ وقفٌ حسنٌ، ثمَّ تبتدئُ: ﴿سَلَٰمٌ﴾ على معنى ذلكَ لهمْ سلامٌ. ويجوزُ أنْ يرفعَ السّلامُ على معنى ولهمْ ما يدّعونَ مسلّمٌ خالصٌ. فعلى هذا المذهبِ لا يحسنُ الوقفُ على ﴿مَّا يَدَّعُونَ﴾. و﴿سَلَٰمٌ﴾ مرفوعٌ على البدلِ منْ ﴿مَا﴾ أيْ ولهمْ أنْ يسلّمَ اللّهُ عليهمْ، وهذا مُنى أهلِ الجنّةِ. ﴿قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴿٥٨﴾﴾. والمعنى: لهم ما يدعون سلام قولا من رب رحيم، أي عِدة من الله.

قولهِ تعالى: ﴿وَٱمۡتَٰزُواْ ٱلۡيَوۡمَ أَيُّهَا ٱلۡمُجۡرِمُونَ ۝٥٩﴾ يقالُ تميّزوا وامتازوا بمعنى، ومزتهُ فانمازَ وامتازَ، وميّزتهُ فتميّزَ. أيْ يقالُ لهمْ هذا عندَ الوقوفِ للسّؤالِ حينَ يؤمرُ بأهلِ الجنّةِ إلى الجنّةِ، أيِ اخرجوا منْ جملتهمْ.

قيل: عُزلوا عنْ كلِّ خيرٍ. وقيلَ: يمتازُ المجرمونَ بعضهمْ منْ بعضٍ، فيمتازُ اليهودُ فرقةً، والنّصارى فرقةً، والمجوسُ فرقةً، والصّابئونَ فرقةً، وعبدةُ الأوثانِ فرقةً. وقيلَ: فيمتازُ المسلمونَ منَ المجرمينَ، إلّا أصحابَ الأهواءِ فيكونونَ معَ المجرمين.

قولهُ تعالى: ﴿۞أَلَمۡ أَعۡهَدۡ إِلَيۡكُمۡ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ﴾ العهدُ هنا بمعنى الوصيّةِ، أيْ ألمْ أوصكمْ وأبلّغكمْ على ألسنةِ الرّسلِ. ﴿أَن لَّا تَعۡبُدُواْ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ﴾ أيْ لا تطيعوهُ في معصيتي. ﴿وَأَنِ ٱعۡبُدُونِيۚ﴾ بكسرِ النّونِ على الأصلِ، ومنْ ضمَّ كرهَ كسرةً بعدها ضمّةٌ. ﴿هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ ۝٦١﴾ أيْ عبادتي دينٌ قويمٌ.

قولهُ تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أَضَلَّ مِنكُمۡ﴾ أيْ أغوى ﴿جِبِلّٗا كَثِيرًاۖ﴾ أيْ خلقًا كثيراً، أو أممًا كثيرةً، والمعنى واحدٌ. وقرأ أهلُ المدينةِ وعاصمٌ ﴿جِبِلّٗا﴾ بكسرِ الجيمِ والباءِ. وأبو عمرو وابنُ عامرٍ «جُبْلاً» بضمِّ الجيمِ وإسكان الباء. الباقون «جُبُلا» ضم الجيمِ والباءِ وتخفيفِ اللّامِ، وكلّها لغاتٌ بمعنى الخلقِ، والقراءةُ الأولى أبينها والدّليلُ على ذلكَ أنّهمْ قدْ أجمعوا على أنْ قرءوا ﴿وَٱلۡجِبِلَّةَ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ فيكونُ ﴿جِبِلّٗا﴾ جمعَ جبلّةٍ والاشتقاقُ فيهِ كلّهُ واحدٌ، وإنّما هوَ منْ جبلَ اللّهُ عزَّ وجلَّ الخلقَ أيْ خلقهمْ.

﴿أَفَلَمۡ تَكُونُواْ تَعۡقِلُونَ ۝٦٢﴾ عداوتهُ وتعلموا أنَّ الواجبَ طاعةُ اللّهِ.

﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ﴾ أيْ تقولُ لهمْ خزنةُ جهنّمَ هذهِ جهنّمُ ﴿الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ۝٦٣﴾ فكذّبتمْ بها ﴿اصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ۝٦٤﴾ فحينئذٍ تجثو الأممُ على ركبها وتذهلُ كلُّ مرضعةٍ عمّا أرضعتْ، ﴿وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمۡلٍ حَمۡلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٞ﴾.

قولهُ تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٦٥﴾﴾ في صحيحِ مسلمٍ عنْ أنسِ بنِ مالكٍ قالَ: كنّا عندَ رسولِ اللّهِ ﷺ فضحكَ فقالَ: «هلْ تدرونَ ممَّ أضحكُ؟ - قلنا اللّهُ ورسولهُ أعلمُ قالَ - منْ مخاطبةِ العبدِ ربّهُ، يقولُ يا ربِّ ألمْ تجرني منَ الظّلمِ قالَ: يقولُ بلى فيقولُ فإنّي لا أجيزُ على نفسي إلّا شاهداً منّي قالَ فيقولُ كفى بنفسكَ اليومَ عليكَ شهيداً وبالكرامِ الكاتبينَ شهوداً قالَ فيختمُ على فيهِ فيقالُ لأركانهِ انطقي قالَ فتنطقُ بأعمالهِ قالَ: ثمَّ يخلّى بينهُ وبينَ الكلامِ فيقولُ بعداً لكنَّ وسحقًا فعنكنَّ كنتُ أناضلُ».

ثمَّ قيلَ في سببِ الختمِ أربعةُ أوجهٍ:

أحدها: لأنّهمْ قالوا ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ فختمَ اللّهُ على أفواههمْ حتّى نطقتْ جوارحهمْ.

الثّاني: ليعرفهمْ أهلُ الموقفِ فيتميّزونَ منهمْ.

الثّالثُ: لأنَّ إقرارَ غيرِ النّاطقِ أبلغُ في الحجّةِ منْ إقرارِ النّاطقِ لخروجهِ مخرجَ الإعجازِ، وإنْ كانَ يومًا لا يحتاجُ إلى إعجازٍ.

الرّابعُ: ليعلمَ أنَّ أعضاءهُ الّتي كانتْ أعوانًا في حقِّ نفسهِ صارتْ عليهِ شهوداً في حقِّ ربّهِ.

فإنْ قيلَ: لمَ قالَ: ﴿وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم﴾ فجعلَ ما كانَ منَ اليدِ كلامًا، وما كانَ منَ الرّجلِ شهادةً؟ قيلَ: إنَّ اليدَ مباشرةٌ لعملهِ والرّجلِ حاضرةٌ، وقولُ الحاضرِ على غيرهِ شهادةٌ، وقولُ الفاعلِ على نفسهِ إقرارٌ بما قالَ أوْ فعلَ، فلذلكَ عبّرَ عمّا صدرَ منَ الأيدي بالقولِ وعمّا صدرَ منَ الأرجلِ بالشّهادةِ.

قولهُ تعالى: ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ﴾ لأعميناهمْ عنِ الهدى، فلا يهتدونَ أبدا إلى طريقِ الحق، من طمسَ يَطمَسُ ويَطمِسُ، والمطموسُ الأعمى الّذي ليسَ في عينيهِ شقٌّ ﴿فَٱسْتَبَقُوا۟ ٱلصِّرَٰطَ﴾ أيِ استبقوا الطّريقَ ليجوزوا ﴿فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ ﴿٦٦﴾﴾ أيْ فمنْ أينَ يبصرونَ الهدى، **وقيلَ**: ذلكَ يومَ القيامةِ، إذا مدَّ الصّراطُ طمسَ اللّهُ أعينَ فجّارهمْ، فاستبقوا الصّراطَ فمنْ أينَ يبصرونهُ حتّى يجاوزوهُ.

قولهُ تعالى: ﴿وَلَوۡ نَشَآءُ لَمَسَخۡنَٰهُمۡ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمۡ فَمَا ٱسۡتَطَٰعُواْ مُضِيّٗا وَلَا يَرۡجِعُونَ ٦٧﴾ المسخُ: تبديلُ الخلقةِ وقلبها حجراً أوْ جماداً أوْ بهيمةً. فلا يستطيعونَ أنْ يمضوا أمامهمْ ولا يرجعوا وراءهمْ. وكذلكَ الجمادُ لا يتقدّمُ ولا يتأخّرُ. وقدْ يكونُ المسخُ تبديلَ صورةِ الإنسانِ بهيمةً، ثمَّ تلكَ البهيمةُ لا تعقلُ موضعًا تقصدهُ فتتحيّرُ، فلا تقبلُ ولا تدبرُ.

وقيلَ: المعنى لوْ نشاءُ لمسخناهمْ في المكانِ الّذي اجترأوا فيهِ على المعصيةِ.

وقيلَ: هذا كلّهُ يومَ القيامةِ يطمسُ اللّهُ تعالى أعينهمْ على الصّراطِ. وقرأ عاصمٌ في روايةِ أبي بكرٍ «مكاناتِهمْ» على الجمعِ، الباقونَ بالتّوحيدِ.

قوله تعالى: ﴿وَمَن نُّعَمِّرۡهُ نُنَكِّسۡهُ فِي ٱلۡخَلۡقِۚ﴾ قرأَ عاصمٌ وحمزةُ «نُنَكِّسْهُ» بضمِّ النّونِ الأولى وتشديدِ الكافِ منَ التّنكيسِ. الباقونَ «نَنْكُسْهُ» بفتحِ النّونِ الأولى وضمِّ الكافِ منْ نكستُ الشّيءَ أنكسهُ نكسًا قلبتهُ على رأسهِ فانتكسَ. فطولَ العمرِ يصيّرُ الشّبابَ هرمًا، والقوّةَ ضعفًا، والزّيادةَ نقصًا، وهذا هوَ الغالبُ. وقدْ تعوّذَ ﷺ منْ أنْ يردَّ إلى أرذلِ العمرِ.

﴿أَفَلَا يَعۡقِلُونَ ٦٨﴾ أنَّ منْ فعلَ هذا بكمْ قادرٌ على بعثكمْ، وقرأ نافعٌ وابنُ ذكوانَ: «تَعْقِلُونَ» بالتّاءِ. الباقون بالياء.

قولهُ تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمۡنَٰهُ ٱلشِّعۡرَ وَمَا يَنۢبَغِي لَهُۥٓۚ﴾، فيه أربع مسائل:

الأولى- أخبرَ تعالى عنْ حالِ نبيّهِ ﷺ، وردَّ قولَ منْ قالَ منَ الكفّارِ إنّهُ شاعرٌ، وإنَّ القرآنَ شعرٌ، بقولهِ: ﴿وَمَا عَلَّمۡنَٰهُ ٱلشِّعۡرَ وَمَا يَنۢبَغِي لَهُۥٓۚ﴾ وكذلكَ كانَ رسولُ اللّهِ ﷺ لا يقولُ الشّعرَ ولا يزنهُ، وكانَ إذا حاولَ إنشادَ بيتٍ قديمٍ متمثّلاً كسرَ وزنهُ، وإنّما كانَ يحرزُ المعانيَ فقطْ ﷺ. منْ ذلكَ أنّهُ أنشدَ يومًا قولَ طرفةَ:

ستبدي لكَ الأيّامُ ما كنتَ جاهلاً ... ويأتيك منْ لمْ تزوّدهُ بالأخبارِ

وأنشدَ يومًا وقدْ قيلَ لهُ منْ أشعرُ النّاسِ فقالَ: الّذي يقولُ:

ألمْ ترياني كلّما جئتُ طارقًا ... وجدتُ بها وإن لم تطب طيبا

وأنشد يوما:

أتجعل نهبي ونهب العب   يد بينَ الأقرعِ وعيينةَ

وقدْ كانَ ﷺ ربما أنشد بيت المستقيمَ في النّادرِ. رويَ أنّهُ أنشدَ بيتَ عبد الله بن رواحة:

يبيت يجافي جنبة عن فراشه   إذا استثقلتْ بالمشركينَ المضاجعُ

وعنِ الخليلِ بنِ أحمدَ: كانَ الشّعرُ أحبَّ إلى رسولِ اللّهِ ﷺ منْ كثيرٍ منَ الكلامِ، ولكنْ لا يتأتّى لهُ.

الثانية- إصابتهُ الوزنَ أحيانـًا لا يوجبُ أنّهُ يعلمُ الشّعرَ، وكذلكَ ما يأتي أحيانـًا منْ نثرِ كلامهِ ما يدخلُ في ورن، كقول يومَ حنينٍ وغيرهِ:

هلْ أنتِ إلّا إصبعٌ دميتِ   وفي سبيلِ اللّهِ ما لقيتِ

وقولهُ:

أنا النبي لا كذب   وأنا ابنُ عبدِ المطّلبْ

فقدْ يأتي مثلَ ذلكَ في آياتِ القرآنِ، وفي كلِّ كلامٍ، وليسَ ذلكَ شعراً ولا في معناهُ، كقولهِ تعالى: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾، وقوله: ﴿نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ﴾، وقوله: ﴿وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ﴾ إلى غيرِ ذلكَ منَ الآياتِ.

ولا يلزمُ أنْ يكونَ النّبيُّ ﷺ عالما بالشعر ولا شاعر أن تمثلَ بالبيتِ والنّزرِ منَ الرّجزِ وغيرهِ، لا يوجبُ أنْ يكونَ قائلها عالمـًا بالشّعرِ، ولا يسمّى شاعراً باتّفاقِ العلماءِ، كما أنَّ منْ خاطَ خيطـًا لا يكونُ خيّاطـًا.

وقدْ قيل: إنّما خبّرَ اللّهُ عزَّ وجلَّ أنّهُ ما علّمهُ اللّهُ الشّعرَ ولمْ يخبرْ أنّهُ لا ينشدُ شعراً، وهذا ظاهرُ الكلامِ.

وقيلَ فيهِ قولٌ بيّنٌ، زعمَ صاحبهُ أنّهُ إجماعٌ منْ أهلِ اللّغةِ، وذلكَ أنّهمْ قالوا: كلُّ منْ قالَ قولاً موزونـًا لا يقصدُ بهِ إلى شعرٍ فليسَ بشعرٍ وإنّما وافقَ الشّعرَ. قالوا: وإنّما الّذي نفاهُ اللّهُ عنْ نبيّهِ ﷺ العلمُ بالشّعرِ وأصنافهِ، وأعاريضهِ وقوافيهِ والاتّصافِ بقولهِ، ولمْ يكنْ موصوفـًا بذلكَ بالاتّفاقِ. ألا ترى أنَّ قريشـًا تراوضتْ فيما يقولونَ للعربِ فيهِ إذا قدموا عليهم

الموسمَ، فقالَ: بعضهمْ: نقولُ إنّهُ شاعرٌ. فقالَ: أهلُ الفطنةِ منهمْ: واللّهِ لتكذّبنّكمُ العربُ، فإنّهمْ يعرفونَ أصنافَ الشّعرِ، فواللّهِ ما يشبهُ شيئاً منها، وما قولهُ بشعرٍ. وقالَ أنيسٌ أخو أبي ذرٍّ: لقدْ وضعتُ قولهُ على أقراءِ الشّعرِ فلمْ يلتئمْ أنّهُ شعرٌ. أخرجهُ مسلمٌ، وكانَ أنيسٌ منْ أشعرِ العربِ.

وكذلكَ عتبةُ بنُ أبي ربيعةَ لمّا كلّمهُ: واللّهِ ما هوَ بشعرٍ ولا كهانةٍ ولا سحرٍ، على ما يأتي بيانهُ منْ خبرهِ في سورةِ فصّلتْ إنْ شاءَ اللّهُ تعالى.

الثالثة- روى ابنُ القاسمِ عنْ مالكٍ أنّهُ سئلَ عنْ إنشادِ الشّعرِ فقالَ: لا تكثرنَّ منهُ، فمنْ عيبِهِ أنَّ اللّهَ يقولُ: ﴿وَمَا عَلَّمۡنَٰهُ ٱلشِّعۡرَ وَمَا يَنۢبَغِي لَهُۥٓۚ﴾.

وسألَ عمر لبيداً فقالَ: ما قلتُ: شعراً منذُ سمعتُ اللّهَ عزَّ وجلَّ يقولُ: ﴿الٓمٓ ١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ﴾.

قالَ ابنُ العربيِّ: هذهِ الآيةُ ليستْ منْ عيبِ الشّعرِ، كما لمْ يكنْ قولهُ: ﴿وَمَا كُنتَ تَتۡلُواْ مِن قَبۡلِهِۦ مِن كِتَٰبٖ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَۖ﴾ منْ عيبِ الكتابةِ، فلمّا لمْ تكنِ الأمّيّةُ منْ عيبِ الخطِّ، كذلكَ لا يكونُ نفيُ النّظمِ عنِ النّبيِّ ﷺ منْ عيبِ الشّعرِ.

الرابعة- قولهُ تعالى: ﴿وَمَا يَنۢبَغِي لَهُۥٓۚ﴾ أيْ وما ينبغي له أن يقول. وجعلَ اللّهُ جلَّ وعزَّ ذلكَ علماً منْ أعلامِ نبيّهِ ﷺ لئلّا تدخلُ الشّبهةُ على منْ أرسلَ إليهِ، فيظنُّ أنّهُ قويَ على القرآنِ بما في طبعهِ منَ القوّةِ على الشّعرِ. ولا اعتراضَ لملحدٍ على هذا بما يتّفقُ الوزنُ فيهِ منَ القرآنِ وكلامِ الرّسولِ، لأنَّ ما وافقَ وزنهُ وزنَ الشّعرِ ولمْ يقصدْ بهِ إلى الشّعرِ ليسَ بشعرٍ، ولوْ كانَ شعراً لكانَ كلُّ منْ نطقَ بموزونٍ منَ العامّةِ الّذينَ لا يعرفونَ الوزنَ شاعراً، على ما تقدّمَ بيانهُ.

﴿إِنۡ هُوَ﴾ أي هذا الذي يتلوه عليكم ﴿ذِكۡرٞ وَقُرۡءَانٞ مُّبِينٞ ٦٩﴾. ﴿لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيّٗا﴾ أيْ حيُّ القلبِ، وقراءةِ التّاءِ خطاب للنّبيِّ ﷺ، وهيَ قراءةُ نافعٍ وابنِ عامرٍ. وقرأ الباقونَ بالياءِ على معنى لينذرَ اللّهُ عزَّ وجلَّ، أوْ لينذرَ محمّدٌ ﷺ، أوْ لينذرَ القرآنُ. ﴿وَيَحِقَّ ٱلۡقَوۡلُ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ٧٠﴾ أيْ وتجب الحجة بالقرآن على الكفرة.

قولهُ تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم﴾ هذهِ رؤيةُ القلبِ، أيْ أولـمْ ينظروا ويعتبروا ويتفكّروا. ﴿مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ﴾ أيْ ممّا أبدعناهُ وعملناهُ منْ غيرِ واسطةٍ ولا وكالةٍ ولا شركةٍ. وَ ﴿مَا﴾ بمعنى الذي وحذفت الهاء لطولِ الاسمِ. وإنْ جعلتَ ﴿مَا﴾ مصدريّةً لمْ تحتجْ إلى إضمارِ الهاءِ. ﴿أَنْعَـٰمًا﴾ جمعُ نعمٍ والنّعمُ مذكّرٌ. ﴿فَهُمْ لَهَا مَـٰلِكُونَ ﴿٧١﴾﴾ ضابطونَ قاهرونَ. ﴿وَذَلَّلْنَـٰهَا﴾ لهمْ أيْ سخّرناها لهمْ حتّى يقودَ الصّبيُّ الجملَ العظيمَ ويضربهُ ويصرفهُ كيفَ شاءَ لا يخرجُ منْ طاعتهِ. ﴿فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ﴾ قراءةُ العامّةِ بفتحِ الرّاءِ، أيْ مركوبهمْ، كما يقالُ: ناقة حلوبٌ أيْ محلوبٌ. ﴿وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾﴾ منْ لحمانها ﴿وَلَهُمْ فِيهَا مَنَـٰفِعُ﴾ منْ أصوافها وأوبارها وأشعارها وشحومها ولحومها وغيرِ ذلكَ. ﴿وَمَشَارِبُ﴾ يعني ألبانها، ولـمْ ينصرفا لأنّهما منَ الجموعِ الّتي لا نظيرَ لها في الواحدِ. ﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾﴾ الله على نعمه.

قولهُ تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً﴾ أيْ قدْ رأوا هذه الآيات من قدرتنا، ثمَّ اتّخذوا منْ دوننا آلهةً لا قدرةَ لها على فعلٍ. ﴿لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴿٧٤﴾﴾ أيْ لما يرجون من نصرتها لهمْ إنْ نزلَ بهمْ عذابٌ. ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ﴾ يعني الآلهةَ. وجمعوا بالواوِ والنّونِ، لأنّهُ أخبرَ عنهمْ بخبرِ الآدميّينَ. ﴿وَهُمْ﴾ يعني الكفّارَ ﴿لَهُمْ﴾ أيْ للآلهةِ ﴿جُندٌ مُّحْضَرُونَ ﴿٧٥﴾﴾ يعبدونَ الآلهةَ ويقومونَ بها، وقيلَ: الآلهةُ جندٌ لهمْ محضرونَ يومَ القيامةِ لإعانتهمْ في ظنونهمْ. وفي الخبرِ: إنّهُ يمثّلُ لكلِّ قومٍ ما كانوا يعبدونهُ في الدّنيا منْ دونِ اللّهِ فيتبعونهُ إلى النّارِ، فهمْ لهمْ جندٌ محضرونَ.

قلت: ومعنى هذا الخبرِ ما ثبتَ في صحيحِ مسلمٍ منْ حديثِ أبي هريرةَ، وفي التّرمذيِّ عنهُ أنَّ النّبيَّ ﷺ قالَ: «يجمعُ اللّهُ النّاسَ يومَ القيامةِ في صعيدٍ واحدٍ ثمَّ يطّلعُ عليهمْ ربُّ العالمينَ فيقولُ ألا ليتبعْ كلُّ إنسانٍ ما كانَ يعبدُ فيمثّلُ لصاحبِ الصّليبِ صليبهُ ولصاحبِ التّصاويرِ تصاويرهُ ولصاحبِ النّارِ نارهُ فيتّبعونَ ما كانوا يعبدونَ ويبقى المسلمونَ» وذكرَ الحديثَ بطولهِ.

قولهُ تعالى: ﴿فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ﴾ هذهِ اللّغةُ الفصيحةُ. ومنَ العربِ منْ يقولُ يُحزِنكَ. والمرادُ تسليةُ نبيّهِ ﷺ، أيْ لا يحزنكَ قولهم شاعر ساحر. وتم الكلام تم استأنف فقال: ﴿إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۝٧٦﴾ منَ القول والعمل وما يظهرون فنجازيهم بذلك.

قولهُ تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ العاصُ بن وائل السّهميُّ ﴿أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ﴾ وهوَ اليسيرُ منَ الماءِ، نطفَ إذا قطرَ. ﴿فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ۝٧٧﴾ أيْ مجادلٌ في الخصومةِ مبينٌ للحجّةِ. يريدُ بذلكَ أنّهُ صارَ بهِ بعدَ أنْ لمْ يكنْ شيئًا مذكوراً خصيمًا مبينًا. وذلكَ أنّهُ أتى النّبيَّ ﷺ بعظمٍ حائلٍ فقالَ: يا محمّدُ أترى أنَّ اللّهَ يحيي هذا بعدَ ما رمَّ! فقالَ: النّبيُّ ﷺ «نعمْ ويبعثكَ الله ويدخلك النار» فنزلت هذه الآية.

قولهُ تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ۝٧٨﴾ فيهِ مسألتانِ:

الأولى: في هذا دليلٌ على صحّةِ القياسِ، لأنَّ اللّهَ جلَّ وعزَّ احتجَّ على منكري البعثِ بالنّشأةِ الأولى والرميم الباليةُ. رمَّ العظمُ فهوَ رميمٌ ورمامٌ. وإنّما قالَ رميمٌ ولمْ يقلْ رميمةٌ، لأنّها معدولةٌ عنْ فاعلةٍ، وما كانَ معدولاً عنْ وجههِ ووزنهِ كانَ مصروفًا عنْ إعرابهِ، كقولهِ: ﴿وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا﴾ أسقطَ الهاءَ، لأنّها مصروفةٌ عنْ باغيةٍ.

الثانية- في هذهِ الآيةِ دليلٌ على أنَّ في العظامِ حياةً وأنّها تنجسُ بالموتِ. وهوَ قولُ أبي حنيفةَ وبعضُ أصحابِ الشّافعيِّ. وقالَ الشافعي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: لا حياةَ فيها.

فإن قيل: أراد بقوله: ﴿مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ﴾ أصحابَ العظامِ وإقامةُ المضافِ مقامَ المضافِ إليهِ كثيرٌ في اللّغةِ، موجودٌ في الشّريعةِ.

قلنا: إنّما يكونُ إذِ احتيجَ لضرورةٍ وليسَ ها هنا ضرورةٌ تدعو إلى هذا الإضمارِ، ولا يفتقرُ إلى هذا التقدير، إذا الباري سبحانهُ قدْ أخبرَ بهِ وهوَ قادرٌ عليهِ والحقيقةُ تشهدُ لهُ، فإنَّ الإحساسَ الّذي هوَ علامةُ الحياةِ موجودٌ فيه.

قولهُ تعالى: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ من غير شيء، فهو قادر على إعادتها من شيء وهو عجب الذنب ﴿وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ۝٧٩﴾ كيف يبدئ ويعيد.

قولهُ تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا﴾ نبّهَ تعالى على وحدانيّتِه، ودلَّ على كمالِ قدرتهِ في إحياءِ الموتى بما يشاهدونهُ منْ إخراجِ المُحْرِقِ اليابسِ منَ العود الندي الرطب. وذلكَ أنَّ الكافرَ قالَ: النّطفةُ حارّةٌ رطبةٌ بطبع حياةٍ فخرجَ منها الحياةُ، والعظمُ باردٌ يابسٌ بطبعِ الموتِ فكيفَ تخرجُ منهُ الحياةُ! فأنزلَ اللّهُ تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا﴾ أيْ إنَّ الشّجرَ الأخضرَ منَ الماءِ والماءُ باردٌ رطبٌ ضدُّ النّارِ وهما لا يجتمعانِ، فأخرجَ اللّهُ منهُ النّارَ، فهوَ القادرُ على إخراجِ الضّدِّ منَ الضّدِّ، وهو على كل شيء قدير. وقالَ: ﴿مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ﴾ ولمْ يقلِ الخضراءَ وهوَ جمعٌ، لأنّه ردّهُ إلى اللّفظِ. ومنَ العربِ منْ يقولُ: الشّجرُ الخضراءُ، كما قالَ عزَّ وجلَّ: ﴿مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ۝٥٢ فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ﴾.

قولهُ تعالى: ﴿فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ۝٨٠﴾ يعني بالآية ما في المرخِ والعفارِ، وهيَ زنادةُ العربِ، يؤخذُ منهما غصنانِ مثلَ المسواكينِ يقطرانِ ماءً فيحكُّ بعضهما إلى بعضٍ فتخرجُ منهما النّارُ.

ثمَّ قالَ تعالى محتجاً: ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمۚ﴾ أيْ أمثالَ المنكرينَ للبعثِ. ﴿بَلَىٰ﴾ فالذي خلق السموات والأرضَ يقدرُ على أنْ يبعثهمْ. ﴿وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ۝٨١﴾. وقرأ الحسن باختلاف عنه: "الخالق".

قولهُ تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝٨٢﴾ قرأَ الكسائيُّ «فَيَكُونَ» بالنّصبِ عطفاً على ﴿يَقُولَ﴾ أيْ إذا أرادَ خلق شيء لا يحتاجُ إلى تعبٍ ومعالجةٍ.

﴿فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ نزّهَ نفسهُ تعالى عنِ العجزِ والشّركِ، وملكوتُ وملكوتي في كلامِ العربِ بمعنى مِلْك. والعربُ تقولُ: جبروتي خيرٌ منْ رحموتي. ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۝٨٣﴾ أيْ تردّونَ وتصيرونَ بعدَ مماتكمْ.

سورة الصافات

مكّيّةٌ في قولِ الجميعِ

بسمِ اللّهِ الرّحمنِ الرّحيمِ

قولهُ تعالى: ﴿وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفّٗا ١ فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجۡرٗا ٢ فَٱلتَّٰلِيَٰتِ ذِكۡرًا ٣﴾ هذهِ قراءةُ أكثرِ القرّاءِ. وقرأ حمزةُ بالإدغامِ فيهنَّ. وهذهِ القراءةُ الّتي نفرَ منها أحمدُ بنُ حنبلٍ لمّا سمعها.

﴿وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ﴾ قسمٌ، الواوُ بدلٌ منَ الباءِ. والمعنى برب الصافات و ﴿فَٱلزَّٰجِرَٰتِ﴾ عطفٌ عليهِ. ﴿إِنَّ إِلَٰهَكُمۡ لَوَٰحِدٞ﴾ جوابُ القسمِ. وأجازَ الكسائيُّ فتحَ إنَّ في القسمِ.

والمرادُ بـ ﴿ٱلصَّٰٓفَّٰتِ﴾ وما بعدها إلى قولهِ: ﴿فَٱلتَّٰلِيَٰتِ ذِكۡرًا﴾ الملائكةُ تصفُّ في السّماءِ كصفوفِ الخلقِ في الدّنيا للصّلاةِ. وقيلَ: تصفُّ أجنحتها في الهواءِ واقفةً فيهِ حتّى يأمرها اللّهُ بما يريدُ. وقيل: ﴿صَفّٗا﴾ لصفوفهمْ عندَ ربّهمْ في صلاتهمْ.

وقيلَ: هيَ الطّيرُ، دليلهُ قولهُ تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَى ٱلطَّيۡرِ فَوۡقَهُمۡ صَٰٓفَّٰتٖ﴾.

والصّفُّ ترتيبُ الجمعِ على خطٍّ كالصّفِّ في الصّلاةِ. والصافات جمع الجمع يقال جماعة صافة ثم يجمع صافات.

وقيلَ: الصّافّاتُ جماعةُ النّاسِ المؤمنينَ إذا قاموا صفاً في الصّلاةِ أوْ في الجهاد.

﴿فَٱلزَّٰجِرَٰتِ﴾ الملائكةُ تزجرُ السّحابَ وتسوقهُ، أو لأنّها تزجرُ عنِ المعاصي بالمواعظِ والنّصائحِ. **وقيلَ**: هيَ زواجرُ القرآنِ.

﴿فَٱلتَّٰلِيَٰتِ ذِكۡرًا﴾ الملائكةُ تقرأ كتاب الله تعالى، **وقيلَ**: المرادُ جبريلُ وحدهُ فذكرَ بلفظِ الجمعِ، لأنّهُ كبيرُ الملائكةِ فلا يخلو منْ جنودٍ وأتباعٍ.

وقيلَ: المرادُ كلُّ منْ تلا ذكرَ اللّهِ تعالى وكتبهُ. وقيلَ: هيَ آياتُ القرآنِ وصفها بالتّلاوةِ كما قالَ تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾. ويجوزُ أنْ يقالَ لآياتِ القرآنِ تالياتٌ، لأنَّ بعضَ الحروفِ يتبعُ بعضاً.

وقيلَ: المرادَ بالتّالياتِ الأنبياءُ يتلونَ الذّكرَ على أممهمْ.

فإن قيل: ما حكمُ الفاءِ إذا جاءتْ عاطفةً في الصّفاتِ؟ قيلَ لهُ: إمّا أنْ تدلَّ على ترتّبِ معانيها في الوجود، وإمّا على ترتّبها في التّفاوتِ منْ بعضِ الوجوهِ كقولكَ: خذِ الأفضلَ فالأكملَ، واعملِ الأحسنَ فالأجملَ. وإمّا على ترتّبِ موصوفاتها في ذلكَ كقولهِ: رحمَ اللّهُ المحلّقينَ فالمقصّرينَ.

﴿إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَٰحِدٌ ﴿٤﴾﴾ جوابُ القسم. قالَ مقاتلٌ: وذلكَ أنَّ الكفّارَ بمكّةَ قالوا أجعلَ الآلهةَ إلهـاً واحداً، وكيفَ يسعُ هذا الخلقَ فردُ إلهٍ! فأقسمَ اللّهُ بهؤلاءِ تشريفا.

وهوَ وقفٌ حسن، ثم تبتدئ ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ على معنى هوَ ربُّ السّمواتِ. أيْ خالقهما ومالكهما ﴿وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ ٱلْمَشَٰرِقِ ﴿٥﴾﴾ فللشّمسِ كلَّ يوم مشرقٌ ومغربٌ. ودلَّ بذكرِ المطالعِ على المغاربِ، فلهذا لمْ يذكرِ المغاربَ، وهوَ كقولهِ: ﴿سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ﴾. وخصَّ المشارقَ بالذّكرِ، لأنَّ الشّروقَ قبلَ الغروبِ. وقالَ في سورةِ الرحمن: ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ﴾ أرادَ بالمشرقينِ أقصى مطلعِ تطلعُ منهُ الشّمسُ في الأيّامِ الطّوالِ، وأقصرَ يومٍ في الأيّامِ القصارِ.

قولهُ تعالى: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ﴿٦﴾﴾ قالَ قتادةُ: خلقتِ النّجومُ ثلاثـاً، رجومـاً للشّياطينِ، ونوراً يهتدى بها، وزينةً لسماءِ الدّنيا.

وقرأ وعاصمٌ وحمزةُ ﴿بِزِينَةٍ﴾ مخفوضٌ منوّنٌ ﴿ٱلْكَوَاكِبِ﴾ خفضَ على البدل من ﴿بِزِينَةٍ﴾ لأنّها هيَ، والباقونَ «بِزِينَةِ الْكَوَاكِبِ» على الإضافةِ. والمعنى زيّنّا السّماءَ الدّنيا بتزيينِ الكواكبِ، أيْ بحسنِ الكواكبِ. ويجوزُ أنْ يكونَ كقراءةِ منْ نوّنَ إلّا أنّهُ حذفَ التّنوينَ استخفافا.

﴿وَحِفْظًا ۚ﴾ مصدر أي حفظناها حفظنا. ﴿مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ ﴿٧﴾﴾ لمّا أخبرَ أنَّ الملائكةَ تنزلُ بالوحي منَ السّماءِ، بيّنَ أنّهُ حرسَ السّماءَ عنِ استراقِ السّمعِ بعدَ أنْ زيّنها بالكواكبِ. والماردُ: العاتي منَ الجنِّ والإنسِ، والعربُ تسمّيهِ شيطانـاً.

قولهُ تعالى: ﴿لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ الملأُ الأعلى: أهلُ السّماءِ الدّنيا فما فوقها، وسمّيَ الكلُّ منهمْ أعلى بالإضافةِ إلى ملأِ الأرضِ. الضّميرُ في ﴿يَسَّمَّعُونَ﴾ للشّياطينِ. وقرأ جمهورُ النّاسِ «يَسْمَعُونَ» بسكونِ السّينِ وتخفيفِ الميمِ. وقرأ حمزةُ وعاصمٌ في روايةِ حفصٍ ﴿لَّا يَسَّمَّعُونَ﴾ بتشديدِ السّينِ والميمِ منَ التّسميعِ. فينتفي على القراءةِ الأولى سماعهمْ وإنْ كانوا يستمعونَ، وهوَ المعنى الصّحيحُ، ويعضّدهُ قولهُ تعالى: ﴿إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ﴾. وينتفي على القراءةِ الأخيرةِ أنْ يقعَ منهمُ استماعٌ أوْ سماعٌ.

وأصلُ ﴿يَسَّمَّعُونَ﴾ يتسمّعونَ فأدغمتِ التّاءُ في السّينِ لقربها منها.

﴿وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ﴿٨﴾﴾ أيْ يرمونَ منْ كلِّ جانبٍ، أيْ بالشّهبِ. ﴿دُحُورًا﴾ مصدرٌ لأنَّ معنى ﴿يُقْذَفُونَ﴾ يدحرونَ. دحرتهُ دحراً ودحوراً أيْ طردتهُ.

واختلفَ هلْ كانَ هذا القذفُ قبلَ المبعثِ، أوْ بعدهُ لأجلِ المبعثِ، على قولينِ. وجاءتِ الأحاديثُ بذلكَ على ما يأتي منْ ذكرها في سورةِ الجنِّ عنِ ابنِ عبّاسٍ. وقدْ يمكنُ الجمعُ بينهما أنْ يقالَ: إنَّ الّذينَ قالوا لمْ تكنِ الشّياطينُ ترمى بالنّجومِ قبلَ مبعثِ النّبيِّ ﷺ ثمَّ رميتْ، أيْ لمْ تكنْ ترمى رمياً يقطعها عنِ السّمعِ، ولكنّها كانتْ ترمى وقتاً ولا ترمى وقتاً، وترمى منْ جانبٍ ولا ترمى منْ جانبٍ. ولعلَّ الإشارةَ بقولهِ تعالى: ﴿وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ﴿٨﴾ دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ﴿٩﴾﴾ إلى هذا المعنى، وهوَ أنّهمْ كانوا لا يقذفونَ إلّا منْ بعضِ الجوانبِ فصاروا يرمونَ واصباً. وإنّما كانوا منْ قبلُ كالمتجسّسةِ منَ الإنسِ، يبلغُ الواحدُ منهمْ حاجتهُ ولا يبلغها غيره، ويسلم واحد ولا يسلم غيرهُ، بلْ يقبضُ عليهِ ويعاقبُ وينكّلُ. فلمّا بعثَ النّبيُّ ﷺ زيدَ في حفظِ السّماءِ، وأعدّتْ لهمْ شهبٌ لمْ تكنْ منْ قبلُ، ليدحروا عنْ جميعِ جوانبِ السّماءِ، ولا يقرّوا في مقعدٍ منَ المقاعدِ الّتي كانتْ لهمْ منها، فصاروا لا يقدرونَ على سماعِ شيءٍ ممّا يجري فيها، إلّا أنْ يختطفَ أحدٌ منهمْ بخفّةِ حركتهِ خطفةً، فيتبعهُ شهابٌ ثاقبٌ قبلَ أنْ ينزلَ إلى الأرضِ فيلقيها إلى إخوانهِ فيحرقهُ، فبطلتْ منْ ذلكَ الكهانةُ وحصلتِ الرّسالةُ والنّبوّةُ.

فإن قيل: إنَّ هذا القذفَ إن كان لأجلِ النّبوّةِ فلمَ دامَ بعدَ النّبيِّ ﷺ؟

فالجواب: أنّهُ دامَ بدوامِ النّبوّةِ، فإنَّ النّبيَّ ﷺ أخبرَ ببطلانِ الكهانةِ فقالَ: «ليسَ منّا منْ تكهّنَ» فلوْ لمْ تحرسْ بعدَ موتهِ لعادتِ الجنُّ إلى تسمّعها، وعادتِ الكهانةُ. ولا يجوزُ ذلكَ بعدَ أنْ بطلَ، ولأنَّ قطعَ الحراسةِ عنِ السّماءِ إذا وقعَ لأجلِ النّبوّةِ فعادتِ الكهانةُ دخلتِ الشّبهةُ على ضعفاءِ المسلمينَ، ولمْ يؤمنْ أنْ يظنّوا أنَّ الكهانةَ إنّما عادتْ لتناهي النّبوّةِ، فصحَّ أنَّ الحكمةَ تقضي دوامَ الحراسةِ في حياةِ النّبيِّ ﷺ، وبعدَ أنْ توفّاهُ اللّهُ إلى كرامتهِ صلّى اللّهُ عليهِ وعلى آلهِ.

﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ۝٩﴾ أيْ دائمٌ، وقيلَ: شديدٌ.

﴿إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ﴾ استثناءٌ منْ قولهِ: ﴿وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ﴾. وقيلَ: الاستثناءُ يرجعُ إلى غيرِ الوحيِ، لقولهِ تعالى: ﴿إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ﴾ فيسترقُ الواحدُ منهمْ شيئاً ممّا يتفاوضُ فيهِ الملائكةُ، ممّا سيكونُ في العالمِ قبلَ أنْ يعلمهُ أهلُ الأرضِ، وهذا لخفّةِ أجسامِ الشّياطينِ فيرجمونَ بالشّهبِ حينئذٍ. ورويَ في هذا البابِ أحاديث صحاح، مضمونها أنَّ الشّياطينَ كانتْ تصعدُ إلى السّماءِ، فتقعدُ للسّمعِ واحداً فوقَ واحدٍ، فيتقدّمُ الأجسرُ نحوَ السّماءِ ثمَّ الّذي يليهِ ثمَّ الّذي يليهِ، فيقضي اللّهُ تعالى الأمرَ منْ أمرِ الأرضِ، فيتحدّثُ بهِ أهلُ السّماءِ فيسمعهُ منهمُ الشّيطانُ الأدنى، فيلقيهِ إلى الّذي تحتهُ فربّما أحرقهُ شهابٌ، وقدْ ألقى الكلامَ، وربّما لمْ يحرقهُ على ما بيّنّاهُ. فتنزلُ تلكَ الكلمةُ إلى الكهّانِ، فيكذبونَ معها مائةَ كذبةٍ، وتصدقُ تلكَ الكلمةُ فيصدّقُ الجاهلونَ الجميعَ، فلمّا جاءَ اللّهُ بالإسلامِ حرستِ السّماءُ بشدّةٍ، فلا يفلتُ شيطانٌ سمعَ بتّةً.

والكواكبُ الرّاجمةُ هيَ الّتي يراها النّاسُ تنقضُّ، وليستْ بالكواكبِ الجاريةِ في السّماءِ، لأنَّ تلكَ لا ترى حركتها، وهذهِ الرّاجمةُ ترى حركتها، لأنّها قريبةٌ منّا.

والخطفُ: أخذُ الشّيءِ بسرعةٍ، ﴿فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ۝١٠﴾ أيْ مضيءٌ، وجمعُ شهابٍ شهبٌ، والقياسُ في القليلِ أشهبةٌ وإنْ لمْ يسمعْ منَ العربِ.

قولهُ تعالى: ﴿فَٱسۡتَفۡتِهِمۡ﴾ أيْ سلهمْ يعني أهلَ مكّةَ، ﴿أَهُمۡ أَشَدُّ خَلۡقًا أَم مَّنۡ خَلَقۡنَآۚ﴾ أي من خلقنا من السموات والأرضِ والجبالِ والبحارِ. وقيلَ: يدخلُ فيهِ الملائكةُ ومنْ سلفَ منَ الأممِ الماضيةِ. يدلُّ على ذلكَ أنّهُ أخبرَ عنهمْ «بمنْ»، ونظيرُ هذهِ: ﴿لَخَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ أَكۡبَرُ مِنۡ خَلۡقِ ٱلنَّاسِ﴾ وقوله: ﴿ءَأَنتُمۡ أَشَدُّ خَلۡقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُۚ﴾.

﴿إِنَّا خَلَقۡنَٰهُم مِّن طِينٖ لَّازِبِۭ ۝١١﴾ أيْ لاصقٍ، ومنهُ قولُ عليٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

تعلّم فإن الله زادك بسطة ... وأخلاق خيرٍ كلّها لكَ لازبُ

وقيلَ: معنى ﴿لَّازِبِۭ﴾ لازقٌ، والفرقُ بينَ اللّاصقِ واللّازقِ أنَّ اللّاصقَ: هوَ الّذي قدْ لصقَ بعضهُ ببعضٍ، واللّازقَ: هوَ الّذي يلتزقُ بما أصابهُ. وقيل: ﴿لَّازِبِۭ﴾ لزجٌ. واللّازبُ الثّابتُ، تقولُ: صارَ الشّيءُ ضربةِ لازبٍ، وهوَ أفصحُ منْ لازمٍ. قالَ النابغة:

ولا تحسبون الخير لا شر بعده ... ولا تحسبون الشّرَّ ضربةَ لازبِ

قولهُ تعالى: ﴿بَلۡ عَجِبۡتَ وَيَسۡخَرُونَ ۝١٢﴾ قراءةُ أهلِ المدينةِ وأبي عمرو وعاصمٍ بفتحِ التّاءِ خطاباً للنّبيِّ ﷺ، أيْ بلْ عجبتَ ممّا نزلَ عليكَ منَ القرآنِ وهمْ يسخرونَ بهِ، وقرأ الكوفيّونَ إلّا عاصماً بضمِّ التّاءِ. وقالَ أبو زكريا الفراء: العجبُ إنْ أسندَ إلى اللّهِ عزَّ وجلَّ فليسَ معناهُ منَ اللّهِ كمعناهُ منَ العبادِ، وكذلكَ قولهُ: ﴿ٱللَّهُ يَسۡتَهۡزِئُ بِهِمۡ﴾ ليسَ ذلكَ منَ اللّهِ كمعناهُ منَ العبادِ.

وفي حديثِ عقبةَ بنِ عامرٍ قالَ: سمعتُ رسولَ اللّهِ ﷺ يقولُ: «عجبَ ربّكَ منْ شابٍّ ليستْ لهُ صبوةٌ» وكذلكَ ما خرّجهُ البخاريُّ عنْ أبي هريرةَ عنِ النّبيِّ ﷺ قالَ: «عجبَ اللّهُ منْ قومٍ يدخلونَ الجنّةَ في السّلاسلِ».

﴿وَيَسۡخَرُونَ﴾ قيلَ: الواوُ واوُ الحالِ، أيْ عجبتُ منهمْ في حالِ سخريتهمْ. وقيلَ: تمَّ الكلامُ عندَ قولهِ: ﴿بَلۡ عَجِبۡتَ﴾ ثمَّ استأنفَ فقالَ: ﴿وَيَسۡخَرُونَ﴾ أيْ ممّا جئتَ بهِ إذا تلوتهُ عليهمْ. وقيلَ: يسخرونَ منكَ إذا دعوتهمْ.

قولهُ تعالى: ﴿وَإِذَا ذُكِّرُواْ﴾ أيْ وعظوا بالقرآنِ ﴿لَا يَذۡكُرُونَ ١٣﴾ لا ينتفعونَ بهِ ﴿وَإِذَا رَأَوۡاْ ءَايَةً﴾ أيْ معجزةً ﴿يَسۡتَسۡخِرُونَ ١٤﴾ أيْ يسخرونَ، واستسخرَ وسخرَ بمعنى مثلُ استقرَّ وقرَّ، واستعجبَ وعجبَ. وقيلَ: ﴿يَسۡتَسۡخِرُونَ﴾ أيْ يستدعونَ السُّخري منْ غيرِهِمْ.

﴿وَقَالُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٌ ١٥﴾ أيْ إذا عجزوا عنْ مقابلةِ المعجزاتِ بشيءٍ قالوا هذا سحرٌ وتخييل وخداع. ﴿أَءِذَا مِتۡنَا﴾ أيْ أنبعثُ إذا متنا؟. فهوَ استفهامُ إنكارٍ منهم وسخرية. ﴿أَوَءَابَآؤُنَا ٱلۡأَوَّلُونَ﴾ أي أو تبعث آباؤنا دخلتْ ألفُ الاستفهامِ على حرفِ العطفِ. قرأ نافعٌ: «أوْ آباؤنا» بسكونِ الواوِ. وقدْ مضى هذا في سورةِ الأعرافِ في قولهِ تعالى: ﴿أَوَأَمِنَ أَهۡلُ ٱلۡقُرَىٰٓ﴾.

قولهُ تعالى: ﴿قُلۡ نَعَمۡ﴾ أيْ نعمْ تبعثونَ. ﴿وَأَنتُمۡ دَٰخِرُونَ ١٨﴾ أيْ صاغرونَ أذلّاءُ، ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجۡرَةٞ وَٰحِدَةٞ﴾ أيْ صيحةٌ واحدةٌ، وهيَ النّفخةُ الثّانيةُ. وسمّيتِ الصّيحةُ زجرةً، لأنَّ مقصودها الزّجرُ أيْ يزجرُ بها كزجرِ الإبلِ والخيلِ عندَ السّوقِ. ﴿فَإِذَا هُمۡ قِيَامٞ يَنظُرُونَ ١٩﴾ أيْ ينظرُ بعضهمْ إلى بعضٍ. وقيلَ: المعنى ينتظرونَ ما يفعلُ بهمْ. وقيلَ: هيَ مثلُ قولهِ: ﴿فَإِذَا هِيَ شَٰخِصَةٌ أَبۡصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾. وقيلَ: أيْ ينظرونَ إلى البعثِ الّذي أنكروهُ.

قولهُ تعالى: ﴿وَقَالُواْ يَٰوَيۡلَنَا هَٰذَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ ٢٠﴾ يومَ الحسابِ. وقيلَ: يومَ الجزاءِ، نادوا على أنفسهمْ بالويلِ، لأنّهمْ يومئذٍ يعلمونَ ما حلَّ بهمْ. ﴿هَٰذَا يَوۡمُ ٱلۡفَصۡلِ ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ٢١﴾ قيلَ: هوَ منْ قولِ بعضهمْ لبعضٍ، أيْ هذا اليومُ الّذي كذّبنا بهِ. وقيلَ: هوَ قولُ اللّهِ تعالى لهمْ. وقيلَ: منْ قولِ الملائكةِ، أيْ هذا يومُ الحكمِ بينَ النّاسِ فيبينُ المحقُّ منَ المبطلِ. فَـ ﴿فَرِيقٞ فِي ٱلۡجَنَّةِ وَفَرِيقٞ فِي ٱلسَّعِيرِ﴾.

قولهُ تعالى: ﴿۞ٱحۡشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزۡوَٰجَهُمۡ﴾، هوَ منْ قولِ اللّهِ تعالى للملائكةِ: «احشروا المشركينَ وأزواجهمْ» أيْ أشياعهمْ في الشّركِ، والشّركُ الظّلمُ، قالَ اللّهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ﴾ فيحشرُ الكافرُ معَ الكافرِ، وقالَ عمرُ بنُ الخطّابِ في قولِ اللّهِ عزَّ وجلَّ: ﴿۞ٱحۡشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزۡوَٰجَهُمۡ﴾ قالَ: الزّاني معَ الزّاني، وشاربُ الخمرِ معَ شارب الخمر، وصاحب السرقة مع صاحب السرقة. وقالَ ابنُ عبّاسٍ: «وَأَزْواجَهُمْ» أيْ

أشباههمْ. وهذا يرجعُ إلى قولِ عمرَ. وقيلَ: «وَأَزْواجَهُمْ» نساؤهمُ الموافقاتُ على الكفرِ، وقيل: «وَأَزْواجَهُمْ» قرناءهمْ منَ الشّياطينِ.

﴿وَمَا كَانُواْ يَعْبُدُونَ ۝٢٢ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ منَ الأصنام والشّياطينِ وإبليسَ. ﴿فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ ۝٢٣﴾ أيْ سوقوهمْ إلى النّارِ. وقيلَ: ﴿فَٱهْدُوهُمْ﴾ أيْ دلّوهمْ. يقالُ: هديتهُ إلى الطّريقِ، وهديتهُ الطّريقَ، أيْ دللتهُ عليهِ.

قوله تعالى: ﴿وَقِفُوهُمْۖ﴾ احبسوهم. وهذا يكونُ قبلَ السّوقِ إلى الجحيمِ، وفيهِ تقديم وتأخير، أيْ قفوهمْ للحسابِ ثمَّ سوقوهمْ إلى النّارِ. وقيلَ: يساقونَ إلى النّارِ أوّلاً ثمَّ يحشرونَ للسؤال إذا قربوا من النار. ﴿إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ۝٢٤﴾ عن أعمالهم وأقوالهم وأفعالهم، وفي هذا كلّهِ دليلٌ على أنَّ الكافرَ يحاسبُ، وقيلَ سؤالهمْ أنْ يقالَ لهم: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾ إقامة للحجة. ويقالُ لهمْ: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ۝٢٥﴾ على جهةِ التّقريعِ والتّوبيخِ، أيْ ينصرُ بعضكمْ بعضـاً فيمنعهُ منْ عذابِ اللّهِ. وقيلَ: هوَ إشارةٌ إلى قولِ أبي جهلٍ يومَ بدرٍ: ﴿نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ﴾. وأصلهُ تتناصرونَ فطرحتْ إحدى التّاءينِ تخفيفـاً.

قولهُ تعالى: ﴿بَلْ هُمُ ٱلْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ ۝٢٦﴾ خاضعونَ ذليلونَ ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ يعني الرّؤساءَ والأتباعَ ﴿يَتَسَآءَلُونَ ۝٢٧﴾ يتخاصمونَ، وأما قوله: ﴿فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ إنّما هوَ لا يتساءلونَ بالأرحامِ، فيقولُ أحدهمْ: أسألكَ بالرّحمِ الّذي بيني وبينكَ لما نفعتني، أوْ أسقطتَ لي حقـاً لكَ عليَّ، أوْ وهبتَ لي حسنةً. وهذا بيّنٌ، لأنَّ قبلهُ ﴿فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ﴾. و ﴿يَتَسَآءَلُونَ﴾ ها هنا إنّما هوَ أنْ يسألَ بعضهمْ بعضـاً ويوبّخهُ في أنه أضله أو فتح بابـاً منَ المعصيةِ، يبيّنُ ذلكَ أنَّ بعدهُ ﴿قَالُوٓاْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ ٱلْيَمِينِ ۝٢٨﴾ وهوَ قولُ الكفّارِ للشّياطينِ، وقيلَ: هوَ قولُ الإنس للجن. وقيلَ: هو من قول الأتباع للمتبوعين، دليله قول تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ﴾ الآيةَ.

أيْ تأتوننا عنْ طريقِ الخيرِ وتزيّنونَ لنا الضّلالةَ. وقيلَ: اليمينُ بمعنى القوّةِ، أيْ تمنعوننا بقوّةٍ وغلبةٍ وقهرٍ، قالَ اللّهُ تعالى: ﴿فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبَۢا بِٱلْيَمِينِ﴾ أيْ بالقوّةِ وقوّةِ الرّجلِ في

يمينِهِ، وقالَ الشاعر:

إذا ما رايةٌ رفعت لمجد تلقاها عرابةُ باليمينِ

أيْ بالقوّةِ والقدرةِ.

﴿قَالُواْ بَل لَّمۡ تَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ٢٩﴾ وهذا قولُ الشّياطينِ لهمْ. وقيلَ: منْ قولِ الرّؤساءِ، أيْ لمْ تكونوا مؤمنينَ قطُّ حتّى ننقلكمْ منهُ إلى الكفرِ، بلْ كنتمْ على الكفرِ فأقمتمْ عليهِ للإلفِ والعادةِ. ﴿وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيۡكُم مِّن سُلۡطَٰنِۭۖ﴾ أيْ منْ حجّةٍ في تركِ الحقِّ ﴿بَلۡ كُنتُمۡ قَوۡمٗا طَٰغِينَ ٣٠﴾ أيْ ضالّينَ متجاوزينَ الحدَّ. ﴿فَحَقَّ عَلَيۡنَا قَوۡلُ رَبِّنَآۖ إِنَّا لَذَآئِقُونَ ٣١﴾ هوَ أيضًا منْ قولِ المتبوعينَ، أيْ وجبَ علينا وعليكم قول ربنا، فكلنا ذائقو العذابَ، كما كتبَ اللّهُ وأخبرَ على ألسنةِ الرّسلِ ﴿لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلۡجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ﴾. وهذا موافقٌ للحديثِ: «إنَّ اللّهَ جلَّ وعزَّ كتبَ للنّارِ أهلاً وللجنّةِ أهلاً لا يزادُ فيهمْ ولا ينقصُ منهمْ». ﴿فَأَغۡوَيۡنَٰكُمۡ﴾ أيْ زيّنّا لكمْ ما كنتمْ عليهِ منَ الكفرِ ﴿إِنَّا كُنَّا غَٰوِينَ ٣٢﴾ بالوسوسة والاستدعاء. ثم قال خبرا عنهم: ﴿فَإِنَّهُمۡ يَوۡمَئِذٖ فِي ٱلۡعَذَابِ مُشۡتَرِكُونَ ٣٣﴾ الضّالُّ والمضلُّ. ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ﴾ أيْ مثلَ هذا الفعل ﴿نَفۡعَلُ بِٱلۡمُجۡرِمِينَ ٣٤﴾ أيِ المشركينَ.! ﴿إِنَّهُمۡ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمۡ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسۡتَكۡبِرُونَ ٣٥﴾ أيْ إذا قيلَ لهمْ قولوا فأضمرَ القولَ، قالَ تعالى: ﴿إِذۡ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَأَلۡزَمَهُمۡ كَلِمَةَ ٱلتَّقۡوَىٰ وَكَانُوٓاْ أَحَقَّ بِهَا وَأَهۡلَهَا﴾.

قولهُ تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٖ مَّجۡنُونِۭ ٣٦﴾ أيْ لقولِ شاعرٍ مجنونٍ، فردَّ اللّهُ جلَّ وعزَّ عليهمْ فقالَ: ﴿بَلۡ جَآءَ بِٱلۡحَقِّ﴾ يعني القرآنَ والتّوحيدَ ﴿وَصَدَّقَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ٣٧﴾ فيما جاءوا به من التوحيد. ﴿إِنَّكُمۡ لَذَآئِقُواْ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡأَلِيمِ ٣٨﴾ الأصلُ لذائقونَ فحذفتِ النّونُ استخفافًا وخفضتْ للإضافةِ. ﴿وَمَا تُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ٣٩﴾ أيْ إلّا بما عملتمْ من الشرك ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلۡمُخۡلَصِينَ ٤٠﴾ الاستثناء ممّنْ يذوقُ العذابَ. وقراءةُ أهلِ المدينةِ والكوفةِ ﴿ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾ بفتحِ اللّامِ، يعني الّذينَ أخلصهمُ اللّهُ لطاعتهِ ودينهِ وولايتهِ. الباقونَ بكسرِ اللّامِ، أيِ الّذينَ أخلصوا للّهِ العبادةَ. وقيلَ: هوَ استثناءٌ منقطعٌ،

أيْ إنّكمْ أيّها المجرمونَ ذائقو العذابِ لكنْ عبادَ اللّهِ المخلصينَ لا يذوقونَ العذابَ.

قولهُ تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ رِزۡقٞ مَّعۡلُومٞ ۝٤١﴾ يعني المخلصينَ، لهمْ عطيّةٌ معلومةٌ لا تنقطعُ يعني الجنّةَ، وقيلَ: هيَ الفواكهُ الّتي ذكرَ بمقدارِ الغداةِ والعشيِّ، قالَ اللّهُ تعالى: ﴿وَلَهُمۡ رِزۡقُهُمۡ فِيهَا بُكۡرَةٗ وَعَشِيّٗا﴾. ﴿فَوَٰكِهُ﴾ جمعُ فاكهةٍ، قالَ اللّهُ تعالى: ﴿وَأَمۡدَدۡنَٰهُم بِفَٰكِهَةٖ﴾ وهيَ الثّمارُ كلّها رطبها ويابسها ﴿وَهُم مُّكۡرَمُونَ ۝٤٢﴾ من الله تعالى برفع الدرجات ولقائه وسماع كلامه ﴿فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ۝٤٣﴾ أيْ في بساتينَ يتنعّمونَ فيها، والجنانُ سبعٌ منها النّعيمُ. ﴿عَلَىٰ سُرُرٖ مُّتَقَٰبِلِينَ ۝٤٤﴾ تواصلاً وتحابباً. وقيلَ: الأسرّةُ تدورُ كيفَ شاءوا فلا يرى أحدٌ قفا أحدٍ. ﴿يُطَافُ عَلَيۡهِم بِكَأۡسٖ مِّن مَّعِينِۭ ۝٤٥﴾ لمّا ذكرَ مطاعمهمْ ذكرَ شرابهمْ. والكأسُ عندَ أهلِ اللّغةِ اسمٌ شاملٌ لكلِّ إناءٍ معَ شرابهِ، فإنْ كانَ فارغاً فليسَ بكأسٍ، والعربُ تقولُ للإناءِ إذا كانَ فيهِ خمرٌ كأسٌ، فإذا لمْ يكنْ فيهِ خمرٌ قالوا إناءٌ وقدحٌ، كما يقالُ للخوانِ إذا كانَ عليهِ طعامٌ: مائدةٌ، فإذا لمْ يكنْ عليهِ طعامٌ لمْ تقلْ لهُ مائدةٌ. **والمعينُ**: الماءُ الجاري الظّاهرُ.

﴿بَيۡضَآءَ﴾ صفةٌ للكأسِ. وقيلَ: للخمرِ. ﴿لَذَّةٖ لِّلشَّٰرِبِينَ ۝٤٦﴾ أيْ ذاتِ لذّةٍ فحذفَ المضافُ. وقيلَ: ﴿بَيۡضَآءَ﴾ أيْ لمْ يعتصرها الرّجالُ بأقدامهمْ. ﴿لَا فِيهَا غَوۡلٞ﴾ أيْ لا تغتالُ عقولهمْ، ولا يصيبهمْ منها مرضٌ ولا صداعٌ. ﴿وَلَا هُمۡ عَنۡهَا يُنزَفُونَ ۝٤٧﴾ أيْ لا تذهبُ عقولهمْ بشربها، يقالُ: الخمرُ غولٌ للحلمِ، والحربُ غولٌ للنفوس، أي تذهب بها.

وقرأَ حمزةُ والكسائيُّ بكسرِ الزّايِ، منْ أنزفَ القومُ إذا حانَ منهمُ النّزفُ وهوَ السّكرُ، يقالُ: أحصدَ الزّرعُ إذا حانَ حصادهُ، وأقطفَ الكرمُ إذا حانَ قطافهُ، وأركبَ المهرُ إذا حانَ ركوبهُ.

وقيلَ: المعنى لا ينفدونَ شرابهمْ، لأنّهُ دأبهمْ، يقالُ: أنزفَ الرّجلُ فهوَ منزوفٌ إذا فنيتْ خمرهُ. ولا يكونُ معناهُ يسكرونَ، لأنَّ قبلهُ ﴿لَا فِيهَا غَوۡلٞ﴾. أيْ لا تغتالُ عقولهمْ فيكونُ تكراراً، ويسوغُ ذلكَ في آية «الواقعةِ». ويجوزُ أنْ يكونَ معنى ﴿لَا فِيهَا غَوۡلٞ﴾ لا يمرضونَ، فيكونُ معنى ﴿وَلَا هُمۡ عَنۡهَا يُنزَفُونَ﴾ لا يسكرونَ أوْ لا ينفدُ شرابهمْ. وقيل: ﴿لَا فِيهَا غَوۡلٞ﴾ أيْ إثمٌ، نظيرهُ: ﴿لَّا لَغۡوٞ فِيهَا وَلَا تَأۡثِيمٞ﴾. وإنّما صرفَ اللّهُ تعالى السّكرَ عنْ أهلِ الجنّةِ لئلّا

ينقطعُ الالتذاذُ عنهمْ بنعيمهمْ.

قولهُ تعالى: ﴿۞وَعِندَهُمۡ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرۡفِ﴾ أيْ نساءٌ قدْ قصرنَ طرفهنَّ على أزواجهنَّ فلا ينظرنَ إلى غيرهمْ، وَ﴿قَٰصِرَٰتُ﴾ مأخوذٌ منْ قولهمْ: قدِ اقتصرَ على كذا إذا اقتنعَ بهِ وعدلَ عنْ غيرهِ. ﴿عِينٞ ٤٨﴾ حسانُ العيونِ ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيۡضٞ مَّكۡنُونٞ ٤٩﴾ أيْ مصونٌ. شبّهنَ ببيضِ النّعامِ، تكنّها النّعامةُ بالرّيشِ منَ الرّيحِ والغبار، فلونها أبيض في صفرة وهو أحسن ألوانِ النّساءِ، والعربُ تشبّهُ المرأةَ بالبيضةِ لصفائها وبياضها، قالَ امرؤُ القيسِ:

وبيضةِ خدر لا يرام خباؤها　　تمتعتُ منْ لهوٍ بها غيرَ معجلِ

وقيلَ: المكنونُ المصونُ عنِ الكسرِ، أيْ إنّهنَّ عذارى. وقيلَ: المرادُ بالبيضِ اللّؤلؤُ، كقولهِ تعالى: ﴿وَحُورٌ عِينٞ ٢٢ كَأَمۡثَٰلِ ٱللُّؤۡلُوِٕ ٱلۡمَكۡنُونِ﴾ أيْ في أصدافهِ، وإنّما ذكرَ المكنونَ والبيضُ جمعٌ، لأنّهُ ردَّ النّعتَ إلى اللفظ.

قولهُ تعالى: ﴿فَأَقۡبَلَ بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ يَتَسَآءَلُونَ ٥٠﴾ أيْ يتفاوضونَ فيما بينهمْ أحاديثهمْ في الدّنيا. وهوَ منْ تمامِ الأنسِ في الجنّةِ. وهوَ معطوفٌ على معنى ﴿يُطَافُ عَلَيۡهِم﴾ المعنى يشربونَ فيتحادثونَ على الشّرابِ كعادةِ الشّرّابِ. قالَ بعضهمْ:

وما بقيتْ منَ اللّذّاتِ إلّا　　أحاديث الكرامِ على المدامِ

وجيءَ بهِ ماضياً على عادةِ اللّهِ تعالى في إخباره.

قولهُ تعالى: ﴿قَالَ قَآئِلٞ مِّنۡهُمۡ﴾ أيْ منْ أهلِ الجنّةِ ﴿إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٞ ٥١﴾ أيْ صديق ملازم ﴿يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلۡمُصَدِّقِينَ ٥٢﴾ أي بالبعث والجزاءِ، وقيلَ: أرادَ بالقرينِ قرينهُ منَ الشّيطانِ كانَ يوسوس إليه بإنكار البعث. ﴿أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ ٥٣﴾ أي مجزيون محاسبون بعد الموت. فَ﴿قَالَ﴾ اللّهُ تعالى لأهلِ الجنّةِ ﴿هَلۡ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ٥٤﴾. وقيلَ: هوَ منْ قولِ المؤمنُ لإخوانهِ في الجنّةِ هلْ أنتمْ مطّلعونَ إلى النّارِ لننظرَ كيفَ حالُ ذلكَ القرينُ. وقيلَ: هوَ منْ قولِ الملائكةِ. وليسَ ﴿هَلۡ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ٥٤﴾ باستفهامٍ، إنّما هوَ بمعنى الأمرِ، أيِ اطّلعوا، ومنهُ: ﴿فَهَلۡ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ أي انتهوا.

﴿فَاطَّلَعَ﴾ بقطعِ الألفِ مخفّفةٌ على معنى هلْ أنتمْ مقبلونَ، فأقبلَ. وفيهِ قولانِ: أحدهما أنْ يكونَ فعلاً مستقبلاً معناهُ فأطلعَ أنا، ويكونُ منصوباً على أنّهُ جوابُ الاستفهامِ. والقولُ الثّاني أنْ يكونَ فعلاً ماضياً ويكونُ اطّلعَ وأطلعَ واحداً.

وقال ابن عباس في قول تعالى: ﴿فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ﴾ إنَّ في الجنّةِ كوى ينظرُ أهلها منها إلى النّارِ وأهلها، فإذا أرادَ المؤمنُ أنْ ينظرَ إلى عدوٍّ كانَ لهُ في الدّنيا اطّلعَ منْ بعضِ الكوى. ﴿فَرَءَاهُ فِي سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ۝٥٥﴾ أيْ في وسطِ النّارِ، قالَ بعضُ العلماءِ: لولا أنَّ اللّهَ جلَّ وعزَّ عرّفهُ إيّاهُ لما عرفهُ، لقدْ تغيّرَ حِبرهُ وسِبرهُ. فعندَ ذلكَ يقولُ: ﴿تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرۡدِينِ ۝٥٦﴾ ﴿إِن﴾ مخفّفةٌ من الثقيلة دخلت على كاد كما تدخلُ على كانَ. ونحوهُ ﴿إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا﴾ واللام هي الفارقة بينها وبين النافية. وتردينِ تهلكني، والرّدى الهلاكُ ﴿وَلَوۡلَا نِعۡمَةُ رَبِّي﴾ أيْ عصمتهُ وتوفيقهُ بالاستمساكِ بعروةِ الإسلامِ والبراءةِ منَ القرينِ السّوءِ. ﴿لَكُنتُ مِنَ ٱلۡمُحۡضَرِينَ ۝٥٧﴾ في النار، أيْ لكنتُ معكَ في النّارِ محضراً. وأحضرَ لا يستعملُ مطلقاً إلّا في الشّرِّ.

قولهُ تعالى: ﴿أَفَمَا نَحۡنُ بِمَيِّتِينَ ۝٥٨ إِلَّا مَوۡتَتَنَا ٱلۡأُولَىٰ وَمَا نَحۡنُ بِمُعَذَّبِينَ ۝٥٩﴾ هوَ منْ قولِ أهلِ الجنّةِ للملائكةِ حينَ يذبحُ الموتُ، ويقالُ: يا أهلَ الجنّةِ خلودٌ ولا موتَ، ويا أهلَ النّارِ خلودٌ ولا موتَ. وقيلَ: هوَ منْ قولِ المؤمنِ على جهةِ الحديثِ بنعمةِ اللّهِ في أنّهمْ لا يموتونَ ولا يعذّبونَ، أيْ هذهِ حالنا وصفتنا. وقيلَ: هوَ منْ قولِ المؤمنِ توبيخاً للكافرِ لِما كانَ ينكرهُ منَ البعثِ، وأنّهُ ليسَ إلّا الموتُ في الدّنيا.

ثمَّ قالَ المؤمنُ مشيراً إلى ما هوَ فيهِ ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ۝٦٠﴾. ﴿لِمِثۡلِ هَٰذَا﴾ العطاءِ والفضلِ، ويحتملُ أنْ يكونَ منْ كلامِ المؤمنِ لمّا رأى ما أعدَّ اللّهُ لهُ في الجنّةِ وما أعطاهُ ﴿فَلۡيَعۡمَلِ ٱلۡعَٰمِلُونَ ۝٦١﴾ نظيرَ ما قالَ لهُ الكافرُ ﴿أَنَا۠ أَكۡثَرُ مِنكَ مَالٗا وَأَعَزُّ نَفَرٗا﴾. ويحتملُ أنْ يكونَ منْ قولِ الملائكةِ. وقيلَ: هوَ منْ قولِ اللّهِ عزَّ وجلَّ لأهلِ الدّنيا، أيْ قدْ سمعتمْ ما في الجنّةِ منَ الخيراتِ والجزاءِ، وَ ﴿لِمِثۡلِ هَٰذَا﴾ الجزاءِ ﴿فَلۡيَعۡمَلِ ٱلۡعَٰمِلُونَ﴾.

قولهُ تعالى: ﴿أَذَٰلِكَ خَيۡرٌ﴾ مبتدأٌ وخبرٌ، وهوَ منْ قولِ اللّهِ جلَّ وعزَّ. ﴿نُّزُلًا﴾ على البيانِ، والمعنى أنعيمُ الجنّةِ خيرٌ نزلاً ﴿أَمۡ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ ٦٢﴾ خيرٌ نزلاً. والنّزلُ في اللّغةِ الرّزقُ الّذي لهُ سعةٌ، وشجرةُ الزّقّومِ مشتقّةٌ منَ التّزقّمِ وهوَ البلعُ على جهدٍ لكراهتها ونتنها، واختلفَ فيها هلْ هيَ منْ شجرِ الدّنيا الّتي تعرفها العربُ أمْ لا على قولينِ:

أحدهما: أنّها معروفةٌ منْ شجرِ الدّنيا. وهي شجرةٌ مرّةٌ تكونُ بتهامةَ منْ أخبثِ الشّجرِ. **وقيلَ**: بلْ هوَ كلُّ نباتٍ قاتلٍ.

القولُ الثّاني: إنّها لا تعرفُ في شجرِ الدّنيا.

قولهُ تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلۡنَٰهَا فِتۡنَةٗ لِّلظَّٰلِمِينَ ٦٣﴾ أيِ المشركينَ، وذلكَ أنّهمْ قالوا: كيفَ تكونُ في النّارِ شجرةٌ وهيَ تحرقُ الشّجرَ؟ واستخفافهمْ في هذا كقولهمْ في قولهِ تعالى: ﴿عَلَيۡهَا تِسۡعَةَ عَشَرَ﴾. ما الّذي يخصّصُ هذا العدد؟ حتّى قالَ بعضهمْ: أنا أكفيكمْ منهمْ كذا فاكفوني الباقينَ. فقالَ: اللّهُ تعالى: ﴿وَمَا جَعَلۡنَا عِدَّتَهُمۡ إِلَّا فِتۡنَةٗ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ والفتنةُ الاختبارُ، وكانَ هذا القولُ منهمْ جهلاً، إذْ لا يستحيلُ في العقلِ أنْ يخلقَ اللّهُ في النّارِ شجراً منْ جنسها لا تأكلهُ النّارُ، كما يخلقُ اللّهُ فيها الأغلالَ والقيودَ والحيّاتِ والعقاربَ وخزنةَ النّارِ. وقيلَ إنّها فتنةٌ أيْ عقوبةٌ للظّالمينَ، كما قالَ: ﴿ذُوقُواْ فِتۡنَتَكُمۡ هَٰذَا ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ تَسۡتَعۡجِلُونَ﴾.

قولهُ تعالى: ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٞ تَخۡرُجُ فِيٓ أَصۡلِ ٱلۡجَحِيمِ ٦٤﴾ أيْ قعرُها ومنها منشؤها ثمَّ تتفرّع في جهنّمَ. ﴿طَلۡعُهَا﴾ أيْ ثمرها، سمي طلعا لطلوعه. ﴿كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ٦٥﴾ شبّهها برؤوسهمْ لقبحهمْ، ورؤوسُهم متصوّرٌ في النّفوسِ وإنْ كانَ غيرَ مرئيٍّ. ويقال لكلِّ قبيحٍ هوَ كصورةِ الشّيطانِ، ولكلِّ صورةٍ حسنةٍ هيَ كصورةِ ملَكٍ. ومنهُ قولهُ تعالى مخبراً عنْ صواحبِ يوسفَ: ﴿مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٞ كَرِيمٞ﴾ وهذا تشبيهٌ تخييليٌّ، وقدْ قالَ الله تعالى: ﴿شَيَٰطِينَ ٱلۡإِنسِ وَٱلۡجِنِّ﴾ فمردةُ الإنسِ شياطينُ مرئيّةٌ. وفي الحديثِ الصّحيح «ولكأنَّ نخلها رؤوسُ الشّياطينِ» وقدِ ادّعى كثيرٌ منَ العربِ رؤيةَ الشّياطينِ والغيلانِ. وقيلَ: الشّياطينُ حيّاتٌ لها رؤوسٌ وأعرافٌ، وهيَ منْ أقبحِ الحيّاتِ وأخبثها وأخفّها جسماً.

قولهُ تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٦٦﴾﴾ فهذا طعامهمْ وفاكهتهمْ بدلَ رزقِ أهلِ الجنّةِ. وقالَ في «الغاشيةِ»: ﴿لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ﴾.

﴿ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا﴾ أيْ بعدَ الأكلِ منَ الشّجرةِ ﴿لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٦٧﴾﴾ الشّوبُ الخلط، شابَ طعامهُ وشرابهُ إذا خلطهما بشيءٍ يشوبهما شوبـًا، والحميمُ: الماءُ الحارُّ ليكونَ أشنعَ، قالَ اللّهُ تعالى: ﴿وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ﴾.

﴿ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٨﴾﴾ قيلَ: إنَّ هذا يدلُّ على أنّهمْ كانوا حينَ أكلوا الزّقّومَ في عذابِ غيرِ النّارِ ثمَّ يردّونَ إليها. وقالَ مقاتلٌ: الحميمُ خارجُ الجحيمِ فهمْ يوردونَ الحميمَ لشربهِ ثمَّ يردّونَ إلى الجحيمِ، لقولهِ تعالى: ﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٤٣﴾ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ﴾. ويجوزُ أنْ تكونَ ﴿ثُمَّ﴾ بمعنى الواوِ، ولعلَّ الحميمَ في موضع من جهنم على طرف منها.

قولهُ تعالى: ﴿إِنَّهُمْ أَلْفَوْا۟ ءَابَآءَهُمْ ضَآلِّينَ ﴿٦٩﴾﴾ أيْ صادفوهمْ كذلكَ فاقتدوا بهمْ.

﴿فَهُمْ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ يُهْرَعُونَ ﴿٧٠﴾﴾ أيْ يسرعونَ، الإهراعُ الإسراعُ برعدةٍ.

قولهُ تعالى: ﴿وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٧١﴾﴾ أيْ منَ الأممِ الماضيةِ. ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ ﴿٧٢﴾﴾ أيْ رسلاً أنذروهمُ العذابَ فكفروا. ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾﴾ أيْ آخرُ أمرهمْ. ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٧٤﴾﴾ أيِ الّذينَ استخلصهمُ اللّهُ منَ الكفرِ، قيل: هوَ استثناءٌ منَ ﴿ٱلْمُنذَرِينَ﴾. وقيلَ هوَ منْ قولهِ تعالى: ﴿وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾.

قولهُ تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ﴾ منَ النّداءِ الّذي هوَ الاستغاثةُ، ودعا قيلَ: بمسألةِ هلاكِ قومهِ فقالَ: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾. ﴿فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾﴾ لهُ كنّا ﴿وَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ﴾ يعني أهلَ دينهِ ﴿مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾﴾ وهوَ الغرقُ. ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾﴾ وكانَ ولدُ نوحٍ ثلاثةً والنّاسُ كلّهمْ منْ ولدِ نوحٍ: فسامُ أبو العربِ وفارسَ والرّومِ واليهودِ والنّصارى، وحامُ أبو السّودانِ منَ المشرقِ إلى المغربِ: السّندِ والهندِ

والنّوبِ والزّنجِ والحبشةِ والقبطِ والبربرِ وغيرهمْ، ويافثُ أبو الصقالبة والترك والخزرِ ويأجوجَ ومأجوجَ وما هنالكَ.

وقالَ قومٌ: كانَ لغيرِ ولدِ نوحٍ أيضـًا نسلٌ، بدليلِ قوله: ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾، وقوله: ﴿قِيلَ يَـٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَـٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَـٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ فعلى هذا معنى الآيةِ: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ﴾ دونَ ذرّيّةِ منْ كفرَ أنّا أغرقنا أولئك.

قولهُ تعالى: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْـَٔاخِرِينَ ۝٧٨﴾ أيْ تركنا عليهِ ثناءً حسنـًا في كلِّ أمّةٍ، إذْ لمْ يبعثْ بعدهُ نبيٌّ إلّا أُمرَ بالاقتداءِ بهِ، قالَ اللّهُ تعالى: ﴿۞شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا﴾. ﴿سَلَامٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ ۝٧٩﴾ أي سلامة له فلا يذكر بسوء في الآخرين.

قولهُ تعالى: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ۝٨٠﴾ أيْ نبقي عليهمُ الثّناءَ الحسنَ. ﴿إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٨١﴾ هذا بيانُ إحسانه. ﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْـَٔاخَرِينَ ۝٨٢﴾ جمع آخرَ. أيْ منْ كفرَ، وهم الذين تأخروا عن الإيمان. و ﴿ثُمَّ﴾ ليس للتراخي ها هنا بل هو لتعديد النعم، كقول: ﴿أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ۝١٦ ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾.

قولهُ تعالى: ﴿۞وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ ۝٨٣﴾ أيْ منْ أهلِ دينهِ، والشّيعةُ الأعوانُ، وهوَ مأخوذٌ منَ الشّياعِ، وهوَ الحطبُ الصّغارُ الّذي يوقد مع الكبار حتّى يستوقدَ، وقيلَ: المعنى وإنَّ منْ شيعةِ محمّدٍ لإبراهيمَ. فالهاءُ في ﴿شِيعَتِهِۦ﴾ على هذا لمحمّدٍ ﷺ، وعلى الأوّلِ لنوحٍ وهوَ أظهرُ، لأنّهُ هوَ المذكورُ أوّلاً، وما كانَ بينَ نوحٍ وإبراهيمَ إلّا نبيّانِ هودٌ وصالحٌ.

قولهُ تعالى: ﴿إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ۝٨٤﴾ أيْ مخلصٍ منَ الشّركِ والشّكِّ، ويحتملُ مجيئهُ إلى ربّهِ وجهينِ:

أحدهما: عندَ دعائهِ إلى توحيدهِ وطاعتهِ.

الثّاني: عندَ إلقائهِ في النّارِ.

﴿إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ﴾ وهوَ آزرُ ﴿وَقَوۡمِهِۦ مَاذَا تَعۡبُدُونَ ٨٥﴾ تكونُ ﴿مَا﴾ في موضعِ رفعٍ بالابتداءِ وَ ﴿ذَا﴾ خبرهُ ويجوزُ أنْ تكون ﴿مَا﴾ وَ ﴿ذَا﴾ في موضعِ نصبٍ بـ ﴿تَعۡبُدُونَ﴾ ﴿أَئِفۡكًا﴾ نصب على المفعولية بمعنى أتريدونَ إفكـًا، والإفكُ أسوأُ الكذبِ، ﴿ءَالِهَةً﴾ بدلٌ منْ إفكٍ ﴿دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ٨٦﴾ أيْ تعبدونَ. ويجوزُ أنْ يكونَ حالاً بمعنى أتريدونَ آلهةً منْ دونِ اللّهِ آفكينَ. ﴿فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٨٧﴾ أيْ ما ظنّكمْ بهِ إذا لقيتموهُ وقدْ عبدتمْ غيرهُ؟ فهوَ تحذيرٌ، مثلَ قولهِ: ﴿مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ﴾.

قولهُ تعالى: ﴿فَنَظَرَ نَظۡرَةً فِي ٱلنُّجُومِ ٨٨ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٞ ٨٩﴾ أراهمْ منْ معتقدهمْ عذراً لنفسهِ، فقالَ: ﴿إِنِّي سَقِيمٞ﴾. أي سأسقمُ سقمَ الموتِ، لأنَّ منْ كتبَ عليهِ الموتُ يسقمُ في الغالبِ ثمَّ يموتُ، وهذا توريةٌ وتعريضٌ، كما قالَ للملكِ لما سألَ عنْ سارةَ هيَ أختي، يعني أخوّةَ الدّينِ. وفي الصّحيحِ عنِ النّبيِّ ﷺ: «لمْ يكذبْ إبراهيمُ النّبيُّ عَلَيْهِ السَّلَامُ إلّا ثلاثَ كذباتٍ» الحديثُ. وقدْ مضى في سورةِ الأنبياءِ وهوَ يدلُّ على أنّهُ لمْ يكنْ سقيمـًا وإنّما عرّضَ لهمْ، فإبراهيمُ صادقٌ، لكنْ لمّا كانَ الأنبياءُ لقربِ محلّهمْ واصطفائهمْ عدَّ هذا ذنبـًا، ولهذا قالَ: ﴿وَٱلَّذِيٓ أَطۡمَعُ أَن يَغۡفِرَ لِي خَطِيٓـَٔتِي يَوۡمَ ٱلدِّينِ﴾، وقيلَ: أرادَ سقيمَ النّفسِ لكفرهمْ. ﴿فَتَوَلَّوۡاْ عَنۡهُ مُدۡبِرِينَ ٩٠﴾.

قولهُ تعالى: ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمۡ﴾ مالَ. فقالَ: ﴿أَلَا تَأۡكُلُونَ ٩١﴾ فخاطبها كما يخاطبُ منْ يعقلُ، لأنّهمْ أنزلوها بتلك المنزلة. وكذا ﴿مَا لَكُمۡ لَا تَنطِقُونَ ٩٢﴾ قيلَ: كانَ بينَ يدي الأصنامِ طعامٌ تركوهُ ليأكلوهُ إذا رجعوا منَ العيدِ، وإنّما تركوهُ لتصيبهُ بركةُ أصنامهمْ بزعمهمْ. وقيلَ: تركوهُ للسّدنةِ. وقيلَ: قرّبَ هوَ إليها طعامـًا على جهةِ الاستهزاءِ، فقالَ: ﴿أَلَا تَأۡكُلُونَ ٩١ مَا لَكُمۡ لَا تَنطِقُونَ ٩٢ فَرَاغَ عَلَيۡهِمۡ ضَرۡبَۢا بِٱلۡيَمِينِ ٩٣﴾ خصَّ الضّربَ باليمينِ لأنّها أقوى، وقيلَ: المرادُ باليمينِ اليمينُ الّتي حلفها حينَ قالَ: ﴿وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصۡنَٰمَكُم﴾. وقيلَ: ضربـًا بالقوّةِ واليمينُ القوّةُ. وقيلَ: بالعدلِ واليمين ها هنا العدلُ. ومنهُ قولهُ تعالى: ﴿وَلَوۡ تَقَوَّلَ عَلَيۡنَا بَعۡضَ ٱلۡأَقَاوِيلِ ٤٤ لَأَخَذۡنَا مِنۡهُ بِٱلۡيَمِينِ﴾ أيْ بالعدلِ، فالعدلُ لليمينِ والجورُ للشّمالِ. ألا ترى أنَّ العدوَّ عنِ الشّمالِ والمعاصي عنِ الشّمالِ والطّاعةَ عنِ اليمينِ، ولذلكَ قالَ: ﴿إِنَّكُمۡ كُنتُمۡ تَأۡتُونَنَا عَنِ ٱلۡيَمِينِ﴾ أيْ منْ قبلِ الطّاعةِ. فاليمينُ هوَ

موضعُ العدلِ منَ المسلمِ، والشّمالُ موضعُ الجورِ. ألا ترى أنّهُ بايعَ اللّهَ بيمينهِ يومَ الميثاقِ، فالبيعةُ باليمينِ، فلذلكَ يعطى كتابهُ غداً بيمينهِ، لأنّهُ وفّى بالبيعةِ، ويعطى النّاكثُ للبيعةِ الهاربُ برقبتهِ منَ اللّهِ بشمالهِ، لأنَّ الجورَ هناكَ.

قولهُ تعالى: ﴿فَأَقْبَلُوٓاْ إِلَيْهِ يَزِفُّونَ ﴿٩٤﴾﴾ قرأ حمزةُ «يُزِفُّونَ» بضمِّ الياءِ. الباقونَ بفتحها. أيْ يسرعونَ، وقيلَ: يختالونَ وهوَ مشيُ الخيلاءِ، ومنه أخذ زفافُ العروسِ إلى زوجها. ﴿قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾﴾ فيهِ حذفٌ، أيْ قالوا منْ فعلَ هذا بآلهتنا، فقالَ: محتجـاً: ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ﴾ أيْ أتعبدونَ أصناماً أنتمْ تنحتونها بأيديكمْ تنجرونها. ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾ ﴿مَا﴾ في موضعِ نصبٍ أيْ وخلقَ ما تعملونهُ منَ الأصنامِ، يعني الخشبَ والحجارةَ وغيرهما، كقولهِ: ﴿بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ﴾ وقيلَ: إنَّ ﴿مَا﴾ استفهامٌ ومعناهُ التّحقيرُ لعملهمْ. وقيلَ: هيَ نفيٌ، والمعنى وما تعملونَ ذلكَ لكنَّ اللّهَ خالقهُ. والأحسنُ أنْ تكونَ ﴿مَا﴾ معَ الفعلِ مصدراً، والتّقديرُ واللّهَ خلقكمْ وعملكمْ وهذا مذهبُ أهلِ السّنّةِ: أنَّ الأفعالَ خلقٌ للّهِ عزَّ وجلَّ واكتسابٌ للعبادِ. وفي هذا إبطالُ مذاهبِ القدريّةِ والجبريّةِ.

قولهُ تعالى: ﴿قَالُواْ ٱبْنُواْ لَهُۥ بُنْيَٰنًا﴾ فبنوا وملأوه نارا ﴿فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ ﴿٩٧﴾﴾ وطرحوه فيها. ﴿فَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيْدًا﴾ أيْ بإبراهيمَ. والكيدُ المكرُ، أيِ احتالوا لإهلاكهِ. ﴿فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٩٨﴾﴾ المقهورينَ المغلوبينَ إذْ نفذتْ حجّتهُ منْ حيثُ لمْ يمكنهمْ دفعها، ولمْ ينفذْ فيهِ مكرهمْ ولا كيدهم.

قولهُ تعالى: ﴿وَقَالَ إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾ رَبِّ هَبْ لِى مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾ فبشّرناهُ بغلامٍ حليمٍ فيهِ مسألتانِ:

الأولى: هذهِ الآيةُ أصلٌ في الهجرةِ والعزلةِ، وأوّلُ منْ فعلَ ذلكَ إبراهيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، قيل: هوَ أوّلُ منْ هاجرَ منَ الخلقِ معَ لوطٍ وسارةَ، إلى الأرضِ المقدّسةِ وهيَ أرضُ الشّامِ.

وقيلَ: ذاهبٌ بعملي وعبادتي، وقلبي ونيّتي. فعلى هذا ذهابهُ بالعملِ لا بالبدنِ.

ثمَّ قيل: قالَ ذلكَ لمنْ فارقهُ منْ قومهِ، فيكونُ ذلكَ توبيخاً لهمْ. وقيلَ: قالهُ لمنْ هاجرَ معهُ منْ أهلهِ، فيكونُ ذلكَ منهُ ترغيباً.

الثانية- قولهُ تعالى: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ١٠٠﴾ في الكلامِ حذفٌ، أيْ هبْ لي ولداً صالحاً منَ الصّالحينَ، وحذفُ مثلِ هذا كثيرٌ. قال الله تعالى: ﴿فَبَشَّرۡنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ﴾ أيْ إنّهُ يكونُ حليماً في كبرهِ فكأنّهُ بشّرَ ببقاءِ ذلكَ الولدِ، لأنَّ الصّغيرَ لا يوصفُ بذلكَ، فكانتِ البشرى على ألسنةِ الملائكةِ.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعۡيَ قَالَ يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ فَٱنظُرۡ مَاذَا تَرَىٰۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٠٢ فَلَمَّآ أَسۡلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلۡجَبِينِ ١٠٣ وَنَٰدَيۡنَٰهُ أَن يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ١٠٤ قَدۡ صَدَّقۡتَ ٱلرُّءۡيَآۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٠٥ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡبَلَٰٓؤُاْ ٱلۡمُبِينُ ١٠٦ وَفَدَيۡنَٰهُ بِذِبۡحٍ عَظِيمٖ ١٠٧ وَتَرَكۡنَا عَلَيۡهِ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ ١٠٨ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ ١٠٩ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١١٠ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١١١ وَبَشَّرۡنَٰهُ بِإِسۡحَٰقَ نَبِيّٗا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ١١٢ وَبَٰرَكۡنَا عَلَيۡهِ وَعَلَىٰٓ إِسۡحَٰقَۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحۡسِنٞ وَظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ مُبِينٞ ١١٣﴾، فيه سبعَ عشرةَ مسألةً:

الأولى: قولهُ تعالى: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعۡيَ﴾ أي شب وأدرك سعيه سعي إبراهيم، وقيلَ: هوَ سعيُ العقلِ الّذي تقومُ بهِ الحجّةُ، وقيلَ: هوَ السّعيُ في العبادةِ فصامَ وصلّى، ألمْ تسمعِ اللّهَ عزَّ وجلَّ يقول: ﴿وَسَعَىٰ لَهَا سَعۡيَهَا﴾.

واختلفَ العلماءُ في المأمورِ بذبحهِ. فقالَ: أكثرهمُ: الذّبيحُ إسحاقُ، وهوَ قولُ عمرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في سبعة منَ الصّحابةِ. وقالَ بهِ جماعة منَ التّابعينَ ومالكُ بنُ أنسٍ، وعليهِ أهلُ الكتابينِ اليهودُ والنّصارى.

وقالَ آخرونَ: هوَ إسماعيلُ، وممّنْ قالَ ذلكَ أبو هريرةَ وأبو الطّفيلِ عامرُ بنُ واثلة، ورويَ ذلكَ عنِ ابنِ عمرَ وابنِ عبّاسٍ أيضاً، وجماعة منَ التّابعينَ، وعنِ الأصمعيِّ قالَ:

سألتُ أبا عمرو بنَ العلاءِ عنِ الذّبيحِ، فقالَ: يا أصمعيُّ أينَ عزبَ عنكَ عقلكَ! ومتى كانَ إسحاقُ بمكّةَ؟ وإنّما كانَ إسماعيلُ بمكّةَ، وهوَ الّذي بنى البيتَ معَ أبيهِ والمنحرَ بمكّةَ.

والأوّلُ أكثرُ عنِ النّبيِّ ﷺ وعنْ أصحابهِ وعنِ التّابعينَ. واحتجّوا بأنَّ اللّهَ عزَّ وجلَّ قدْ أخبرَ عنْ إبراهيمَ حينَ فارقَ قومهُ، فهاجرَ إلى الشّامِ معَ امرأتهِ سارةَ وابنِ أخيهِ لوطٍ فقالَ: ﴿إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّى سَيَهْدِينِ﴾ أنّهُ دعا فقالَ: ﴿رَبِّ هَبْ لِى مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ فقالَ تعالى: ﴿فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ﴾، ولأنَّ اللّهَ قالَ: ﴿وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾ فذكرَ أن الفداء في الغلام الحليم الذي بشّره بهِ إبراهيمُ وإنّما بُشّرَ بإسحاقَ، لأنّهُ قالَ: ﴿وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ﴾، وقالَ هنا: ﴿بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ﴾، وذلكَ قبلَ أنْ يتزوّجَ هاجرَ وقبلَ أنْ يولدَ لهُ إسماعيلُ، وليسَ في القرآنِ أنّهُ بشّرَ بولدٍ إلّا إسحاقَ.

احتجَّ منْ قالَ إنّهُ إسماعيلُ: بأنَّ اللّهَ تعالى وصفهُ بالصّبرِ دونَ إسحاقَ في قول تعالى: ﴿وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ وهوَ صبرهُ على الذّبحِ، ووصفهُ بصدقِ الوعدِ في قوله: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ﴾، لأنّهُ وعدَ أباهُ منْ نفسهِ الصّبرَ على الذّبحِ فوفّى بهِ، ولأنَّ اللّهَ تعالى قالَ: ﴿وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا﴾ فكيفَ يأمرهُ بذبحهِ وقدْ وعدهُ أنْ يكونَ نبيـًا، وأيضـًا فإنَّ اللّهَ تعالى قالَ: ﴿فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ﴾ فكيفَ يؤمرُ بذبحِ إسحاقَ قبلَ إنجازِ الوعدِ في يعقوبَ.

وأيضـًا وردَ في الأخبارِ تعليقَ قرنِ الكبشِ في الكعبةِ، فدلَّ على أنَّ الذّبيحَ إسماعيلُ، ولوْ كانَ إسحاقُ لكانَ الذّبحُ يقعُ ببيتِ المقدسِ.

وهذا الاستدلالُ كلّهُ ليسَ بقاطعٍ، أمّا قولهمْ: كيفَ يأمرهُ بذبحهِ وقدْ وعدهُ بأنّهُ يكونُ نبيـًا، فإنّهُ يحتملُ أنْ يكونَ المعنى: وبشّرناهُ بنبوّتهِ بعدَ أنْ كانَ من أمره ما كان، ولعلّهُ أمرَ بذبحِ إسحاقَ بعد أن ولد لإسحاق يعقوب، ولمْ يردْ في القرآنِ أنَّ يعقوبَ يولدُ منْ إسحاقَ. وأمّا قولهمْ: ولوْ كانَ الذّبيحُ إسحاقَ لكانَ الذّبحُ يقعُ ببيتِ المقدسِ، فالجوابُ: عنهُ ما قالهُ سعيدُ بنُ جبيرٍ، قالَ: أريَ إبراهيمُ ذبحَ إسحاقَ في المنامِ، فسارَ بهِ مسيرةَ شهرٍ في غداةٍ واحدةٍ، حتّى أتى بهِ المنحرَ منْ منى، فلمّا صرفَ اللّهُ عنهُ الذّبحَ وأمرهُ أنْ يذبحَ الكبشَ فذبحهُ، وسارَ بهِ مسيرةَ شهرٍ في روحةٍ واحدةٍ طويتْ لهُ الأوديةُ والجبالُ.

الثانية- قالَ ابنُ عبّاسٍ: رؤيا الأنبياءِ وحيٌ، واستدلَّ بهذهِ الآيةِ.

الثالثة- اختلفَ الناسُ في وقوعِ الذبح: فقالَ: أهلُ السّنّةِ: إنَّ نفسَ الذّبحِ لمْ يقعْ، وإنّما وقعَ الأمرُ بالذّبحِ قبلَ أنْ يقعَ الذّبحُ، ولوْ وقعَ لمْ يتصوّرْ رفعهُ، فكانَ هذا منْ بابِ النّسخِ قبلَ الفعلِ، لأنّهُ لوْ حصلَ الفراغُ منَ امتثالِ الأمرِ بالذّبحِ ما تحقّقَ الفداءُ. وقولهُ تعالى: ﴿قَدۡ صَدَّقۡتَ ٱلرُّءۡيَآۚ﴾: أيْ حقّقتَ ما نبّهناكَ عليهِ، وفعلتَ ما أمكنكَ ثمَّ امتنعتَ لمّا منعناكَ. هذا أصحُّ ما قيلَ بهِ في هذا البابِ. وقالتْ طائفةٌ: ليسَ هذا ممّا ينسخُ بوجهٍ، لأنَّ معنى ذبحتُ الشّيءَ قطعتهُ. وقيلَ: انقلبتِ السّكّينُ، وقالَ بعضهمْ: كانَ كلّما قطعَ جزءاً التأمَ. وقالتْ طائفةٌ: وجدَ حلقهُ نحاساً أوْ مغشّى بنحاسٍ، وكانَ كلّما أرادَ قطعاً وجدَ منعاً. وهذا كلّهُ جائزٌ في القدرةِ الإلهيّةِ. لكنّهُ يفتقرُ إلى نقلِ صحيحٍ، فإنّهُ أمرٌ لا يدركُ بالنّظرِ وإنّما طريقهُ الخبرُ.

الرابعة- قولهُ تعالى: ﴿فَٱنظُرۡ مَاذَا تَرَىٰۚ﴾ قرأَ أهلُ الكوفةِ غيرَ عاصمٍ «ماذا تُرِي» بضمِّ التّاءِ وكسرِ الرّاءِ منْ أريَ يري أيْ ما تريكَ نفسكَ منَ الرّأيِ، والباقونَ ﴿تَرَىٰ﴾ مضارعُ رأيت. ﴿قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ﴾ أيْ ما تؤمرُ بهِ فحذفَ الجارُّ كقولهِ: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَىٰٓۗ﴾ أي اصطفاهمْ على ما تقدّمَ. وَ ﴿مَا﴾ بمعنى الّذي. ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ قالَ بعضُ أهلِ الإشارةِ: لمّا استثنى وفّقهُ اللّهُ للصّبرِ.

الخامسة- قولهُ تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَسۡلَمَا﴾ أي انقادا لأمرِ اللّهِ. ﴿وَتَلَّهُۥ لِلۡجَبِينِ﴾ كبّهُ وحوّلَ وجههُ إلى القبلةِ. وجوابُ ﴿لَمَّا﴾ محذوفٌ عندَ البصريّينَ تقديرهُ ﴿فَلَمَّآ أَسۡلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلۡجَبِينِ﴾ فديناهُ بكبشٍ. وقالَ الكوفيّونَ: الجوابُ ﴿نَٰدَيۡنَٰهُ﴾ والواوُ زائدةٌ مقحمةٌ، كقولهِ: ﴿فَلَمَّا ذَهَبُواْ بِهِۦ وَأَجۡمَعُوٓاْ أَن يَجۡعَلُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلۡجُبِّۚ وَأَوۡحَيۡنَآ﴾ أيْ أوحينا. وقولهُ: ﴿وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٖ يَنسِلُونَ﴾. ﴿وَٱقۡتَرَبَ﴾ أي اقترب. وقوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا وَقَالَ﴾ أيْ قالَ لهمْ. وقالَ امرؤُ القيسِ:

فلمّا أجزنا ساحةَ الحيِّ وانتحى

أيِ انتحى، والواوُ زائدةٌ.

واختلفَ في الموضعِ الّذي أرادَ ذبحهُ فيهِ فقيلَ: بمكّةَ في المقامِ. وقيلَ: في المنحرِ بمنى عندَ الجمارِ الّتي رمى بها إبليسَ لعنهُ اللّهُ، وقيلَ: على الصّخرةِ الّتي بأصلِ ثبيرٍ بمنى. وقيلَ: ذبحهُ بالشّامِ وهوَ منْ بيتِ المقدسِ على ميلينِ. والأوّلُ أكثرُ، فإنّهُ وردَ في الأخبارِ تعليقُ قرنِ الكبشِ في الكعبةِ، فدلَّ على أنّهُ ذبحهُ بمكّةَ.

السّادسةُ- قولهُ تعالى: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ أيْ نجزيهمْ بالخلاصِ منَ الشّدائدِ في الدّنيا والآخرةِ. ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ﴾ أيِ النّعمةُ الظّاهرةُ، يقالُ: أبلاهُ اللّهُ إبلاءً وبلاءً إذا أنعمَ عليهِ. وقدْ يقالُ بلاهُ. قالَ زهيرٌ:

رأى الله بالإحسان ما فعلا بكم فأبلاهما خيرَ البلاءِ الّذي يبلو.

فزعم قوم أنه جاء باللغتين، وقال آخرونَ: بلِ الثّاني منْ بلاهُ يبلوهُ إذا اختبرهُ، ولا يقالُ منَ الاختبارِ إلّا بلاهُ يبلوهُ، ولا يقالُ منَ الابتلاءِ يبلوهُ. وأصلُ هذا كلّهِ منَ الاختبارِ أنْ يكونَ بالخيرِ والشّرِّ، قالَ اللّهُ عزَّ وجلَّ: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً﴾.

السابعة- قولهُ تعالى: ﴿وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾ الذّبحُ اسمُ المذبوحِ وجمعهُ ذبوحٌ، كالطّحنِ اسمُ المطحونِ. والذّبحُ بالفتحِ المصدرُ. ﴿عَظِيمٍ﴾ أيْ عظيمُ القدرِ ولمْ يردْ عظيمَ الجثّةِ. وإنّما عظمَ قدرهُ لأنّهُ فديَ بهِ الذّبيحُ، أوْ لأنّهُ متقبّلٌ.

وقالَ ابنُ عبّاسٍ: كبشٌ أرسلهُ اللّهُ منَ الجنّةِ، وقيلَ: ما فديَ إسماعيلُ إلّا بتيسٍ منَ الأروى هبطَ عليهِ منْ ثبيرٍ، فذبحهُ إبراهيمُ فداءً عنِ ابنهِ، وقيلَ إنّهُ فديَ بوعلٍ، والوعلُ: التّيسُ الجبليُّ، وأهلُ التّفسيرِ على أنّهُ فديَ بكبشٍ.

الثامنة- في هذهِ الآيةِ دليلٌ على أنَّ الأضحيّةَ بالغنمِ أفضلُ منَ الإبلِ والبقرِ. وهذا مذهبُ مالكٍ وأصحابهِ، وحجّتهمْ قولهُ سبحانهُ وتعالى: ﴿وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾ أيْ ضخمِ الجثّةِ سمينٍ، وذلكَ كبشٌ لا جملٌ ولا بقرةٌ، ولوْ علمَ اللّهُ حيوانًا أفضلَ منَ الكبشِ لفدى بهِ إسحاقَ. وضحّى رسولُ اللّهِ ﷺ بكبشينِ أملحينِ. وأكثرُ ما ضحّى بهِ الكباشُ.

التاسعة- واختلفوا أيما أفضلُ: الأضحيّةُ أوِ الصّدقةُ بثمنها. فقالَ: مالكٌ وأصحابهُ: الضّحيّةُ أفضلُ إلّا بمنى، لأنّهُ ليسَ موضعَ الأضحيّةِ، وفيهِ قولٌ ثانٍ وبهِ قالَ أصحابُ الرّأيِ

وأحمدُ بنُ حنبلٍ قالوا: الضّحيّةُ أفضلُ منَ الصّدقةِ، لأنَّ الضّحيّةَ سنّةٌ مؤكّدةٌ كصلاةِ العيدِ. ومعلومٌ أنَّ صلاةَ العيدِ أفضلُ منْ سائرِ النّوافلِ. وكذلكَ صلواتُ السّننِ أفضل من التطوع كله، وخرّجَ التّرمذيُّ عنْ عائشة أنَّ رسولَ اللّهِ ﷺ قالَ: «ما عملَ آدميٌّ منْ عملٍ يوم النّحرِ أحبَّ إلى اللّهِ منْ إهراقِ الدّمِ إنّها لتأتي يومَ القيامةِ بقرونها وأشعارها وأظلافها، وإنَّ الدّمَ ليقعُ منَ اللّهِ بمكانٍ قبلَ أنْ يقعَ إلى الأرضِ فطيبوا بها نفساً». قالَ: وفي البابِ عنْ عمرانَ بنِ حصينٍ وزيدِ بنِ أرقمَ. وهذا حديثٌ حسنٌ.

العاشرة- إن الضّحيّةُ ليستْ بواجبةٍ ولكنّها سنّةٌ ومعروفٌ، ورويَ عنْ أبي بكرٍ وعمرَ أنّهما لا يضحّيانِ لئلّا يعتقدَ في المواظبةِ عليها أنّها واجبةُ فرضٍ، وكانوا أئمّةً يقتدي بهمْ منْ بعدهمْ ممّنْ ينظرُ في دينهِ إليهمْ، لأنّهمُ الواسطةُ بينَ النّبيِّ ﷺ وبينَ أمّتهِ، فساغَ لهمْ منَ الاجتهادِ في ذلكَ ما لا يسوغُ اليومَ لغيرهمْ، وقالَ أبو حنيفةَ: الأضحيّةُ واجبةٌ على المقيمينَ الواجدينَ منْ أهلِ الأمصارِ، ولا تجبُ على المسافرِ، وخالفهُ أبو يوسفَ ومحمّدٌ فقالا: ليستْ بواجبةٍ ولكنّها سنّةٌ غيرُ مرخّصٍ لمنْ وجدَ السّبيلَ إليها في تركها، وهذا قولُ مالكٍ، قالَ: لا ينبغي لأحدٍ تركها مسافراً كانَ أوْ مقيماً، فإنْ تركها فبئسَ ما صنعَ إلّا أنْ يكونَ لهُ عذرٌ إلّا الحاجَّ بمنى. وقالَ الإمامُ الشّافعيُّ: هيَ سنّةٌ على جميعِ النّاسِ وعلى الحاجِّ بمنى وليستْ بواجبةٍ. وقدِ احتجَّ منْ أوجبها بأنَّ النّبيَّ ﷺ أمرَ أبا بردةَ بنَ نيارٍ أنْ يعيدَ ضحيّةً أخرى، لأنَّ ما لمْ يكنْ فرضاً لا يؤمرُ فيهِ بالإعادةِ. احتجَّ آخرونَ بحديثِ أمِّ سلمةَ عنِ النّبيِّ ﷺ أنّهُ قالَ: «إذا دخلَ العشرُ وأرادَ أحدكمْ أنْ يضحّيَ ... » قالوا: فلوْ كانَ ذلكَ واجباً لمْ يجعلْ ذلكَ إلى إرادةِ المضحّي.

الحادية عشرة- والّذي يضحّى بهِ بإجماعِ المسلمينَ الأزواجُ الثّمانيةُ: وهيَ الضّأنُ والمعزُ والإبلُ والبقرُ.

الثانية عشرة- وقد مضى في سورةِ الحجِّ الكلامُ في وقتِ الذّبحِ والأكلِ منَ الأضحيّةِ مستوفى. وفي صحيحِ مسلمٍ عنْ أنسٍ قالَ: «ضحّى النّبيُّ ﷺ بكبشينِ أملحينِ أقرنينِ ذبحهما بيدهِ وسمّى وكبّرَ ووضعَ رجلهُ على صفاحهما» في روايةٍ قالَ: «ويقولُ بسمِ اللّهِ واللّهُ أكبرُ» وقدْ مضى في «المائدةِ» القولُ في التّذكيةِ وبيانها وما يذكّى بهِ، وأنَّ ذكاةَ الجنينِ ذكاةُ أمّهِ.

وفي صحيحِ مسلم عنْ عائشةَ أنَّ رسولَ اللّهِ ﷺ «أمرَ بكبشٍ أقرنَ يطأُ في سوادٍ ويبركُ في سوادٍ وينظرُ في سوادٍ فأتيَ بهِ ليضحّيَ بهِ» فقالَ لها: «يا عائشةُ هلمّي المديةَ» ثمَّ قالَ: «اشحذيها بحجرٍ» ففعلتْ، ثمَّ أخذها وأخذَ الكبشَ فأضجعهُ ثمَّ ذبحهُ، ثمَّ قالَ: «بسمِ اللّهِ اللّهمَّ تقبّلْ منْ محمّدٍ وآلِ محمّدٍ ومنْ أمّةِ محمّدٍ» ثمَّ ضحّى بهِ.

وقدِ اختلفَ العلماءُ في هذا فكانَ الحسنُ البصريُّ يقولُ في الأضحيّةِ: بسمِ اللّهِ واللّهُ أكبرُ هذا منكَ ولكَ تقبّلْ منْ فلانٍ. وقالَ مالكٌ: إنْ فعلَ ذلكَ فحسنٌ، وإنْ لمْ يفعلْ وسمّى اللّهَ أجزأهُ. وقالَ الشّافعيُّ: والتّسميةُ على الذّبيحةِ بسمِ اللّهِ، فإنْ زادَ بعدَ ذلكَ شيئًا منْ ذكرِ اللّهِ، أوْ صلّى على محمّدٍ ﷺ لمْ أكرههُ، أوْ قالَ اللّهمَّ تقبّلْ منّي، أوْ قالَ تقبّلْ منْ فلانٍ فلا بأس. وقالَ النّعمانُ: يكرهُ أنْ يذكرَ معَ اسمِ اللّهِ غيرهُ، يكرهُ أنْ يقولَ: اللّهمَّ تقبّلْ منْ فلانٍ عندَ الذّبحِ.، وقالَ: لا بأسَ إذا كانَ قبلَ التّسميةِ وقبلَ أنْ يضجعَ للذّبحِ. وحديثُ عائشةَ يردُّ هذا القولَ.

الثالثة عشرةَ- روى البراءُ بنُ عازبٍ أنَّ رسولَ اللّهِ ﷺ سئلَ: ماذا يتّقى منَ الضّحايا؟ فأشارَ بيدهِ وقالَ: «أربعًا- وكانَ البراءُ يشيرُ بيدهِ ويقولُ يدي أقصرُ منْ يدِ رسولِ اللّهِ ﷺ- العرجاءُ البيّنُ ظلعها والعوراءُ البيّنُ عورها والمريضةُ البيّنُ مرضها والعجفاءُ الّتي لا تنقى» لفظُ مالكٍ ولا خلافَ فيهِ. واختلفَ في اليسيرِ منْ ذلكَ. وفي التّرمذيِّ عنْ عليٍّ رضي الله عنه قالَ: أمرنا رسولُ اللّهِ ﷺ أن نستشرف العين والإذن وألّا نضحّيَ بمقابلةٍ ولا مدابرةٍ ولا شرقاءَ ولا خرقاءَ. قالَ: والمقابلةُ ما قطعَ طرفُ أذنها، والمدابرةُ ما قطعَ منْ جانبِ الأذنِ، والشّرقاءُ المشقوقةُ، والخرقاءُ المثقوبةُ، قالَ هذا حديثٌ حسنٌ صحيحٌ.

الرابعة عشرة- ودلّتِ الآيةُ على أنَّ منْ نذرَ نحرَ ابنه أنّهُ يفديهِ بكبشٍ كما فدى بهِ إبراهيمُ ابنه، قاله ابنُ عبّاسٍ. وعنهُ روايةٌ أخرى: ينحرُ مائةً منَ الإبلِ كما فدى بها عبدُ المطّلبِ ابنهُ، وروى عنهُ القاسمُ بنُ محمّدٍ: يجزيهِ كفّارةُ يمينٍ. وقالَ مسروق: لا شيء عليه. وقال الشافعي: هوَ معصيةٌ يستغفرُ اللّهَ منها، وقالَ أبو حنيفةَ: هيَ كلمةٌ يلزمهُ بها في ولدهِ ذبحُ شاةٍ ولا يلزمهُ في غيرِ ولدهِ شيء.

الخامسة عشرةَ- قولهُ تعالى: ﴿وَتَرَكۡنَا عَلَيۡهِ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ﴾ أيْ على إبراهيمَ ثناءً جميلاً في الأممِ بعدهُ، فما منْ أمّةٍ إلّا تصلّي عليهِ وتحبه. وقيلَ: هوَ دعاءُ إبراهيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿وَٱجۡعَل لِّي لِسَانَ صِدۡقٖ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ﴾، ومثله: ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٖ فِي ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾.

﴿كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٣١ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ أيْ منَ الّذينَ أعطوا العبوديّةَ حقّها حتّى استحقّوا الإضافةَ إلى اللّهِ تعالى.

السادسة عشرةَ- قولهُ تعالى: ﴿وَبَشَّرۡنَٰهُ بِإِسۡحَٰقَ نَبِيّٗا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ١١٢﴾ قالَ ابنُ عبّاسٍ: بشّرَ بنبوّتهِ وذهبَ إلى أنَّ البشارةَ كانتْ مرّتينِ، فعلى هذا الذّبيحُ هوَ إسحاقُ بشّرَ بنبوّتهِ جزاءً على صبرهِ ورضاهُ بأمرِ ربّهِ واستسلامهِ لهُ. ﴿وَبَٰرَكۡنَا عَلَيۡهِ وَعَلَىٰٓ إِسۡحَٰقَۚ﴾ أيْ ثنّينا عليهما النّعمةَ. وقيلَ كثّرنا ولدهما، أيْ باركنا على إبراهيمَ وعلى أولادهِ، وعلى إسحاقَ حينَ أخرجَ أنبياءَ بني إسرائيلَ منْ صلبهِ.

وقدْ قيل: إنَّ الكنايةَ في ﴿عَلَيۡهِ﴾ تعودُ على إسماعيلَ وأنّهُ هوَ الذّبيحُ. قالَ المفضّلُ: الصّحيحُ الّذي يدلُّ عليهِ القرآنُ أنّهُ إسماعيلُ وذلكَ أنّهُ قصَّ قصّةَ الذّبيح، فلمّا قالَ في آخرِ القصّةِ: ﴿وَفَدَيۡنَٰهُ بِذِبۡحٍ عَظِيمٖ﴾ ثمَّ قالَ: ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ ١٠٩ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ قالَ: ﴿وَبَشَّرۡنَٰهُ بِإِسۡحَٰقَ نَبِيّٗا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ١١٢ وَبَٰرَكۡنَا عَلَيۡهِ﴾ أيْ على إسماعيلَ ﴿وَعَلَىٰٓ إِسۡحَٰقَۚ﴾ كنّى عنهُ، لأنّهُ قدْ تقدّمَ ذكرهُ. ثمَّ قالَ: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا﴾ فدلَّ على أنّها ذرّيّةُ إسماعيلَ وإسحاقَ، وليسَ تختلفُ الرّواةُ في أنَّ إسماعيلَ كانَ أكبرَ منْ إسحاقَ بثلاثَ عشرةَ سنةً.

قلت: قدْ ذكرنا أوّلاً ما يدلُّ على أنَّ إسحاقَ أكبرُ منْ إسماعيلَ، وأنَّ المبشّرَ بهِ هوَ إسحاقُ بنصِّ التّنزيل، فإذا كانتِ البشارةُ بإسحاقَ نصـًا فالذّبيحُ لا شكَ هوَ إسحاقُ، وبشّرَ بهِ إبراهيمُ مرّتينِ، الأولى: بولادتهِ والثّانيةُ بنبوّتهِ، كما قالَ ابنُ عبّاسٍ. ولا تكونُ النّبوّةُ إلّا في حالِ الكبرِ وَ ﴿نَبِيّٗا﴾ نصبٌ على الحالِ والهاءُ في ﴿عَلَيۡهِ﴾ عائدةٌ إلى إبراهيمَ وليسَ لإسماعيلَ في الآيةِ ذكرٌ حتّى ترجعَ الكنايةُ إليهِ. وأمّا ما رويَ منْ طريقِ معاويةَ قالَ: سمعتُ رجلاً يقولُ للنّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: يابن الذّبيحينِ، فضحكَ النّبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. ثمَّ قالَ معاويةُ: إنَّ عبدَ المطّلبِ لمّا حفرَ بئرَ زمزمَ، نذرَ للّهِ إنْ سهّلَ عليهِ أمرها ليذبحنَّ أحدَ ولدهِ للّهِ، فسهّلَ اللّهُ عليهِ أمرها،

فوقعَ السّهمُ على عبدِ اللّهِ، فمنعهُ أخوالهُ بنو مخزوم، وقالوا: افدِ ابنكَ، ففداهُ بمائةٍ منَ الإبلِ وهوَ الذّبيحُ، وإسماعيلُ هوَ الذّبيحُ الثّاني فلا حجّةَ فيهِ، لأنَّ سندهُ لا يثبتُ على ما ذكرناهُ في كتابِ الأعلامِ في معرفةِ مولدِ المصطفى ﷺ، ولأنَّ العربَ تجعلُ العمَّ أبـًا، قالَ اللّهُ تعالى: ﴿قَالُواْ نَعۡبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ﴾ وقال تعالى: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيۡهِ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ﴾ وهما أبوهُ وخالتهُ.

السابعة عشرةَ– قولهُ تعالى: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحۡسِنٞ وَظَالِمٞ﴾ لمّا ذكرَ البركةَ في الذّرّيّةِ والكثرةَ قالَ: منهم محسن ومنهم مسيء، وإنَّ المسيءَ لا تنفعهُ بنوّةِ النّبوّةِ، فاليهودُ والنصارى وإنْ كانوا منْ ولدِ إسحاقَ، والعربُ وإنْ كانوا منْ ولدِ إسماعيلَ، فلا بدَّ منَ الفرقِ بينَ المحسنِ والمسيءِ والمؤمنِ والكافرِ، وفي التّنزيلِ: ﴿وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحۡنُ أَبۡنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾ الآيةُ، أيْ أبناءُ رسلِ اللّهِ فرأوا لأنفسهمْ فضلا. وقد تقدم.

قولهُ تعالى: ﴿وَلَقَدۡ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ١١٤ وَنَجَّيۡنَٰهُمَا وَقَوۡمَهُمَا مِنَ ٱلۡكَرۡبِ ٱلۡعَظِيمِ ١١٥﴾ قيلَ: منَ الرّقِّ الّذي لحقَ بني إسرائيلَ. وقيلَ منَ الغرقِ الّذي لحق فرعون. ﴿وَنَصَرۡنَٰهُمۡ﴾ قال الفراء: الضمير لموسى وهرون وحدهما، وهذا على أنَّ الاثنينِ جمعٌ، دليلهُ قوله: ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُمَا﴾ ﴿وَهَدَيۡنَٰهُمَا﴾. وقيلَ: الضمير لموسى وهرون وقومهما وهذا هوَ الصّوابُ، لأنَّ قبلهُ ﴿وَنَجَّيۡنَٰهُمَا وَقَوۡمَهُمَا﴾. وَ ﴿ٱلۡكِتَٰبَ ٱلۡمُسۡتَبِينَ ١١٧﴾ التّوراةُ، يقالُ استبانَ كذا أيْ صارَ بيّنـًا، و ﴿ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ١١٨﴾ الدّينَ القويمَ الّذي لا اعوجاجَ فيهِ وهوَ دينُ الإسلام. ﴿وَتَرَكۡنَا عَلَيۡهِمَا فِي ٱلۡأٓخِرِينَ ١١٩﴾ يريدُ الثّناءَ الجميلَ. ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ١٢٠ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٢١ إِنَّهُمَا مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٢٢﴾ تقدم.

قولهُ تعالى: ﴿وَإِنَّ إِلۡيَاسَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ١٢٣﴾ إلياسُ نبيٌّ منْ بني إسرائيلَ. ورويَ عنِ ابنِ مسعودٍ قالَ: إسرائيلُ هوَ يعقوبُ وإلياسُ هوَ إدريسُ. ﴿إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦٓ﴾ يعني لبني إسرائيل. ﴿أَلَا تَتَّقُونَ ١٢٤﴾ يعنى الله عز وجل وتخافون عقابه. ﴿أَتَدۡعُونَ بَعۡلٗا﴾ اسم صنم لهم كانوا ايعبدونه وبذلك سميت مدينتهم بعلبك، وقالت طائفة: البعل ها هنا ملكٌ، والأوّلُ أكثرُ، وعنِ ابنِ عبّاسٍ: ﴿أَتَدۡعُونَ بَعۡلٗا﴾ قالَ: ربّـًا. وبعلُ الدّارِ ربّها، ومنهُ سمّيَ الزّوجُ بعلاً.

﴿وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ ٱلْخَٰلِقِينَ ۝١٢٥﴾ أيْ أحسنُ منْ يقالُ لهُ خالقٌ. وقيلَ: المعنى أحسنُ الصّانعينَ، لأنَّ النّاسَ يصنعونَ ولا يخلقون ﴿ٱللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٢٦﴾ بالنّصبِ في الأسماءِ الثّلاثةِ قرأَ حمزةُ والكسائيُّ على البدلِ، وقرأ ابنُ كثيرٍ وأبو عمرو وعاصمٌ وأبو جعفرٍ ونافعٌ بالرّفعِ، بمعنى هوَ اللّهُ ربّكمْ.

قولهُ تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ أخبرَ عنْ قومِ إلياسَ أنّهمْ كذّبوهُ. ﴿فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ۝١٢٧﴾ أيْ في العذابِ. ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ۝١٢٨﴾ أيْ منْ قومهِ فإنّهمْ نجوا من العذاب. وقريء «الْمُخْلِصِينَ» بكسرِ اللّامِ وقدْ تقدّمَ. ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْـَٔاخِرِينَ ۝١٢٩﴾ تقدّمَ. ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلْ يَاسِينَ ۝١٣٠﴾ قراءةُ نافعٍ. وقرأ أبو عمرو وابنُ كثيرٍ وحمزةُ والكسائيُّ: «سَلَامٌ عَلَى الْيَاسِينَ». والمرادُ إلياسُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وعليهِ وقعَ التّسليمُ ولكنّهُ اسمٌ أعجميٌّ. والعربُ تضطربُ في هذهِ الأسماءِ الأعجميّةِ ويكثرُ تغييرهمْ لها. قالَ ابنُ جنّي: العربُ تتلاعبُ بالأسماءِ الأعجميّةِ تلاعبا، فياسين وإلياس وإلياسين شيء واحدٌ.

قولهُ تعالى: ﴿وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝١٣٣ إِذْ نَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ۝١٣٤ إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَٰبِرِينَ ۝١٣٥﴾ تقدّمَ قصّةُ لوطٍ. ﴿ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْـَٔاخَرِينَ ۝١٣٦﴾ أي بالعقوبة ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ۝١٣٧﴾ خاطب العرب أي تمرون على منازلهمْ وآثارهمْ ﴿مُصْبِحِينَ﴾ وقتَ الصّباحِ ﴿وَبِٱلَّيْلِ﴾ تمرّونَ عليهم أيضا بالليل وتم الكلام. ثم قال: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ ۝١٣٨﴾ أي تعتبرون وتتدبرون.

قولهُ تعالى: ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝١٣٩ إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ۝١٤٠ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ ۝١٤١ فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ۝١٤٢ فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ۝١٤٣ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ۝١٤٤﴾، فيهِ سبع مسائلَ:

الأولى: يونسُ هوَ ذو النّونِ، وهوَ ابنُ متّى، أرسله اللّهُ إلي أهلِ نينوى منْ أرضِ الموصلِ وكانوا يعبدونَ الأصنام ثم تابوا، حسب ما تقدّمَ بيانهُ في سورةِ يونسَ ومضى في الأنبياءِ قصّةُ يونسَ في خروجهِ مغاضباً.

واختلفَ في رسالتهِ هلْ كانتْ قبلَ التقامِ الحوتِ إيّاهُ أوْ بعدهُ. فقيل: بعدَ ما نبذهُ الحوتُ،

واستدلَّ هؤلاءِ بأنَّ الرّسولَ لا يخرجُ مغاضباً لربّهِ، فكانَ ما جرى منهُ قبلَ النّبوّةِ. وقالَ آخرونَ: كانَ ذلكَ منهُ بعدَ دعائهِ منْ أرسلَ إليهمْ إلى ما أمرهُ اللّهُ بدعائهمْ إليهِ، وتبليغهِ إيّاهمْ رسالةَ ربّهِ، وهوَ الصّحيحُ على ما يأتي عند قول تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾.

الثانية– قولهُ تعالى: ﴿إِذْ أَبَقَ﴾ أصلُ أبقَ تباعدَ، ومنهُ غلامٌ آبقٌ. وقيل: إنّما قيلَ ليونسَ أبقَ، لأنّهُ خرجَ بغيرِ أمرِ اللّهِ عزَّ وجلَّ مستتراً منَ النّاسِ فسمّاهُ آبقاً ومليماً ﴿إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ١٤٠﴾ أي المملوء. ﴿وَٱلْفُلْكِ﴾ يذكّرُ ويؤنّثُ ويكونُ واحداً وجمعاً وقدْ تقدّمَ.

الثالثة: قوله تعالى: ﴿فَسَاهَمَ﴾ فقارعَ، وأصلهُ منَ السّهامِ الّتي تجالُ. ﴿فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ ١٤١﴾ قالَ: منَ المغلوبينَ.

الرابعة– قولهُ تعالى: ﴿فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ١٤٢﴾ أيْ أتى بما يلامُ عليهِ، فأمّا الملومُ فهوَ الّذي يلام، استحق ذلك أولم يستحقَّ. وقيلَ: المليمُ المعيبُ. يقالُ لامَ الرّجلَ إذا عملَ شيئاً فصارَ معيباً بذلكَ العمل. ﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ١٤٣﴾ أيْ منَ المصلّينَ ﴿لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ١٤٤﴾ أيْ عقوبةً لهُ، أيْ يكونُ بطنُ الحوتِ قبراً لهُ إلى يوم القيامةِ. واختلفَ كمْ أقامَ في بطنِ الحوتِ. فقيل: أربعينَ يوماً، وقيلَ: عشرينَ يوماً، وقيلَ: سبعةَ أيّامٍ. وقيلَ: ثلاثةَ أيّامٍ. وقيلَ: ساعةً واحدةً. واللّهُ أعلمُ.

الخامسة– ﴿فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ﴾، وفي هذا منَ الفقهِ أنَّ القرعةَ كانتْ معمولاً بها في شرعِ منْ قبلنا، وجاءتْ في شرعنا على ما تقدّمَ في «آلِ عمرانَ» قالَ ابنُ العربيِّ: وقدْ وردتِ القرعةُ في الشّرعِ في ثلاثةِ مواطنَ:

الأوّلُ: كانَ النّبيُّ ﷺ إذا أرادَ سفراً أقرعَ بينَ نسائه، فأيهم خرج سهمها خرج بها معه.

الثاني– أن النّبيَّ ﷺ رفعَ إليهِ أنَّ رجلاً أعتقَ ستّةَ أعبدٍ لا مالَ له فأقرعَ بينهمْ، فأعتقَ اثنينِ وأرقَّ أربعةً.

الثّالثُ– أنَّ رجلينِ اختصما إليهِ في مواريثَ قدْ درستْ فقالَ: «اذهبا وتوخّيا الحقَّ واستهما وليحللْ كلٌّ واحدٍ منكما صاحبهُ».

فهذهِ ثلاثةُ مواطنَ، وهيَ القسمُ في النّكاحِ والعتقِ والقسمةِ، وجريانُ القرعة فيها لرفع الإشكال.

السّادسةُ- الاقتراع على إلقاءِ الآدميِّ في البحرِ لا يجوزُ. وإنّما كانَ ذلكَ في يونسَ وزمانهِ مقدّمةً لتحقيقِ برهانهِ، وزيادةً في إيمانهِ، فإنّهُ لا يجوزُ لمنْ كانَ عاصياً أنْ يقتلَ ولا يرمى بهِ في النّارِ أوِ البحرِ، وإنّما تجرى عليهِ الحدودُ والتّعزيرُ على مقدارِ جنايتهِ. وقدْ ظنَّ بعضُ النّاسِ أنَّ البحرَ إذا هال على القوم اضطروا إلى تخفيفِ السّفينةِ أنَّ القرعةَ تضربُ عليهمْ فيطرحُ بعضهمْ تخفيفًا، وهذا فاسدٌ، فإنّها لا تخفُّ برمي بعضِ الرّجالِ وإنّما ذلكَ في الأموالِ: ولكنّهمْ يصبرونَ على قضاءِ اللّهِ عزَّ وجلَّ.

السابعة- - أخبرَ اللّهُ عزَّ وجلَّ أنَّ يونسَ كانَ منَ المسبّحينَ، وأنَّ تسبيحهُ كانَ سببَ نجاتهِ، قالَ ابنُ عبّاسٍ: ﴿مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ﴾ منَ المصلّينَ المطيعينَ قبلَ المعصيةِ.

وقالَ الحسنُ: ما كانَ لهُ صلاةٌ في بطنِ الحوتِ، ولكنّهُ قدّمَ عملاً صالحاً في حالِ الرّخاءِ فذكرهُ اللّهُ بهِ في حالِ البلاءِ، وإنَّ العملَ الصّالحَ ليرفعُ صاحبهُ، وإذا عثرَ وجدَ متّكأً.

وقدْ خرّجَ البخاريُّ وسلم منْ حديثِ ابنُ عمرَ عنْ رسولِ اللّهِ ﷺ أنّهُ قالَ: «بينما ثلاثةُ نفرٍ- في روايةٍ ممّنْ كانَ قبلكمْ- يتماشونَ أخذهمُ المطرُ فأووا إلى غارٍ في جبلٍ فانحطّتْ على فمِ الغارِ صخرةٌ منَ الجبلِ فانطبقتْ عليهمْ فقالَ: بعضهمْ لبعضٍ انظروا أعمالا عملتموها صالحه لله بها لعلّهُ يفرّجها عنكمْ» الحديثَ بكمالهِ وهوَ مشهورٌ، شهرتهُ أغنتْ عنْ تمامهِ.

وفي كتابِ أبي داودَ عنْ سعدِ بنِ أبي وقّاصٍ عنِ النّبيِّ ﷺ قالَ: «دعاء ذي النّونِ في بطنِ الحوتِ» لا إلهَ إلّا أنتَ سبحانكَ إنّي كنتُ منَ الظّالمينَ «لم يدع به رجل مسلم في شيء قط إلا استجيب لهُ».

قولهُ تعالى: ﴿۞فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾﴾

﴿۞فَنَبَذْنَٰهُ﴾ طرحناهُ. وقيلَ: تركناهُ. ﴿بِٱلْعَرَآءِ﴾ بالصّحراءِ، وقالَ في هذهِ السّورة: ﴿۞فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ﴾ وقال في «القلم»: ﴿لَّوْلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ﴾؟ **والجواب:** أن الله عز وجل أخبر هاهنا أنّهُ نبذهُ بالعراءِ وهوَ غيرُ مذمومٍ ولولا رحمةُ اللّهِ عزَّ وجلَّ لنبذَ بالعراءِ وهوَ مذمومٌ.

وقولهُ ﴿وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ﴿١٤٦﴾﴾ أيْ عندهُ، كقولهِ تعالى: ﴿وَلَهُمْ عَلَىَّ ذَنۢبٌ﴾ أيْ عندي. وقيلَ: ﴿عَلَيْهِ﴾ بمعنى لهُ. ﴿شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ﴾ اليقطينُ: شجرُ الدّبّاءِ وقيلَ: هيَ شجرةُ التّينِ. وقيلَ: شجرةُ الموزِ تغطّى بورقها، واستظلَّ بأغصانها، وأفطرَ على ثمارها. والأكثرُ على أنّها شجرةُ اليقطينِ، ويقالُ لكلِّ شجرةٍ ليسَ لها ساقٌ يفترشُ ورقها على الأرضِ يقطينةٌ نحوَ الدّبّاءِ والبطّيخِ والحنظلِ، فإنْ كانَ لها ساقٌ يقلّها فهيَ شجرةٌ فقطْ، وإنْ كانتْ قائمةً أيْ بعروقٍ تفترشُ فهيَ نجمةٌ وجمعها نَجْمٌ. قال الله تعالى: ﴿وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ﴾ واشتقاقُ اليقطينِ منْ قطنَ بالمكانِ إذا أقامَ بهِ فهوَ يفعيلٌ. وقيلَ: هوَ اسمٌ أعجميٌّ. وقيلَ: إنّما خصَّ اليقطينُ بالذّكرِ، لأنّهُ لا ينزلُ عليهِ ذبابٌ.

وقالَ أنسٌ: قدّمَ للنّبيِّ ﷺ مرقٌ فيهِ دبّاءٌ وقديدٌ فجعلَ يتبعُ الدّبّاءَ حوالي القصعةِ. قالَ أنسٌ: فلمْ أزلْ أحبُّ الدّبّاءَ منْ يومئذٍ. أخرجهُ الأئمّةُ.

قولهُ تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾﴾ قيل: أو بمعنى بلْ، وقيلَ: إنّها بمعنى الواوِ، كقولهِ تعالى: ﴿وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾، وأنكر البصريون كونَ ﴿أَوْ﴾ بمعنى بلْ وبمعنى الواوِ، لأنَّ بلْ للإضرابِ عنِ الأوّلِ والإيجابِ لما بعدهُ وتعالى اللّهُ عزَّ وجلَّ عنْ ذلكَ، أوْ خروجِ منْ شيءٍ إلى شيءٍ وليسَ هذا موضعَ ذلكَ، والواوُ معناهُ خلافُ معنى ﴿أَوْ﴾ فلوْ كانَ أحدهما بمعنى الآخرِ لبطلتِ المعاني، ولوْ جازَ ذلكَ لكانَ وأرسلناهُ إلى أكثرَ منْ مائتيْ ألفٍ أخصرَ.

وقيلَ: المعنى وأرسلناهُ إلى جماعةٍ لوْ رأيتموهمْ لقلتمْ همْ مائةُ ألفٍ أوْ أكثرُ، يعني في تقديركمْ. ﴿فَـَٔامَنُوا فَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١٤٨﴾﴾ إلى منتهى آجالهم.

قولهُ تعالى: ﴿فَٱسۡتَفۡتِهِمۡ أَلِرَبِّكَ ٱلۡبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلۡبَنُونَ ١٤٩﴾ احتجَّ على كفّارِ قريشٍ في قولِهِمْ: إنَّ الملائكةَ بناتُ اللّهِ، فقالَ: ﴿فَٱسۡتَفۡتِهِمۡ﴾. وهوَ معطوفٌ على مثلِهِ في أوّلِ السّورةِ وإنْ تباعدتْ بينهمُ المسافةُ، وهذا سؤالُ توبيخ ﴿أَمۡ خَلَقۡنَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثٗا وَهُمۡ شَٰهِدُونَ ١٥٠﴾ أيْ حاضرونَ لخلقنا إيّاهمْ إناثًا، وهذا كما قالَ اللّهُ عزَّ وجلَّ: ﴿وَجَعَلُواْ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمۡ عِبَٰدُ ٱلرَّحۡمَٰنِ إِنَٰثًاۚ أَشَهِدُواْ خَلۡقَهُمۡۚ﴾. ثمَّ قالَ: ﴿أَلَآ إِنَّهُم مِّنۡ إِفۡكِهِمۡ﴾ وهوَ أسوأُ الكذبِ ﴿لَيَقُولُونَ ١٥١ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ١٥٢﴾ في قولِهِمْ إنَّ للّهِ ولداً وهوَ الّذي لا يلدُ ولا يولدُ. وَ «إنَّ» بعدَ «ألا» مكسورةٌ، لأنّها مبتدأةٌ، وتمام الكلام ﴿كَٰذِبُونَ﴾. ثم يبتديء ﴿أَصۡطَفَى﴾ على معنى التّقريعِ والتّوبيخِ كأنّهُ قالَ: ويحكمْ ﴿أَصۡطَفَى ٱلۡبَنَاتِ﴾ أيِ اختارَ البناتِ وتركَ البنينَ. وقراءةُ العامّةِ ﴿أَصۡطَفَى﴾ بقطعِ الألفِ، لأنّها ألفُ استفهام دخلتْ على ألفِ الوصلِ، فحذفتْ ألفُ الوصلِ وبقيتْ ألف الاستفهام مفتوح مقطوعةً على حالها مثلَ: ﴿أَطَّلَعَ ٱلۡغَيۡبَ﴾ على ما تقدّمَ. وقرأ أبو جعفرٍ ونافعٌ وحمزةُ «اصْطَفَى» بوصلِ الألفِ على الخبرِ بغيرِ استفهامٍ. وإذا ابتدأَ كسرَ الهمزةَ.

﴿مَا لَكُمۡ كَيۡفَ تَحۡكُمُونَ ١٥٤ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ١٥٥﴾ فِي أَنَّهُ لَا يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ. ﴿أَمۡ لَكُمۡ سُلۡطَٰنٞ مُّبِينٞ ١٥٦﴾ حُجَّةٌ وَبُرْهَانٌ. ﴿فَأۡتُواْ بِكِتَٰبِكُمۡ﴾ أَيْ بِحُجَجِكُمْ ﴿إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ١٥٧﴾ في قولكم.

قولهُ تعالى: ﴿وَجَعَلُواْ بَيۡنَهُۥ وَبَيۡنَ ٱلۡجِنَّةِ نَسَبٗاۚ﴾ أكثر أهل التفسير أن الجنّةِ ها هنا الملائكةُ، فقالوا - يعني كفّارَ قريشٍ - الملائكةُ بناتُ اللّهِ جلَّ وتعالى، وقالَ أهلُ الاشتقاقِ: قيلَ لهمْ جنّةٌ لأنّهمْ لا يرونَ. ﴿نَسَبٗاۚ﴾ مصاهرة.

وقالَ الحسنُ: أشركوا الشّيطانَ في عبادةِ اللّهِ فهوَ النّسبُ الّذي جعلوهُ. قلت: قولُ الحسنِ في هذا أحسنُ، دليلهُ قولهُ تعالى: ﴿إِذۡ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ أيْ في العبادةِ.

قولهُ تعالى: ﴿وَلَقَدۡ عَلِمَتِ ٱلۡجِنَّةُ﴾ أيِ الملائكةُ ﴿إِنَّهُمۡ﴾ يعني قائلَ هذا القولِ ﴿لَمُحۡضَرُونَ ١٥٨﴾ في النار ﴿سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ١٥٩﴾ أيْ تنزيهًا للّهِ عمّا يصفونَ. ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلۡمُخۡلَصِينَ ١٦٠﴾ فإنّهمْ ناجونَ منَ النار.

قولهُ تعالى: ﴿فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ﴿١٦١﴾ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَـٰتِنِينَ ﴿١٦٢﴾ إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٦٣﴾﴾، فيهِ ثلاثُ مسائلَ:

الأولى: قولهُ تعالى: ﴿فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ﴾ «ما» بمعنى الّذي. وقيلَ: بمعنى المصدرِ، أيْ فإنّكمْ وعبادتكمْ لهذهِ الأصنامِ. وقيلَ: أيْ فإنّكمْ معَ ما تعبدونَ منْ دونِ اللّهِ، ﴿مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ﴾ أيْ على اللّهِ ﴿بِفَـٰتِنِينَ﴾ بمضلّينَ. وأهلُ التّفسيرِ مجمعونَ فيما علمتُ على أنَّ المعنى: ما أنتمْ بمضلّينَ أحداً إلّا منْ قدّرَ اللّهُ عزَّ وجلَّ عليهِ أنْ يضلَّ.

الثانية- في هذهِ الآيةِ ردٌّ على القدريّةِ. قالَ عمر بن عبدِ العزيزِ: لوْ أرادَ اللّهُ ألّا يعصى ما خلقَ إبليسَ وهوَ رأسُ الخطيئةِ، وإنَّ في ذلكَ لعلماً في كتابِ اللّهِ عزَّ وجلَّ، عرفه من عرفه، وجهل منْ جهلهُ، ثمَّ قرأَ: ﴿فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ﴿١٦١﴾ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَـٰتِنِينَ﴾ إلّا منْ كتبَ اللّهُ عزَّ وجلَّ عليهِ أنْ يصلى الجحيمَ.. وقالَ: فصلتْ هذهِ الآيةُ بينَ النّاسِ، وفيها منَ المعاني أنَّ الشّياطينَ لا يصلونَ إلى إضلالِ أحدٍ إلّا منْ كتبَ اللّهُ عليهِ أنّهُ لا يهتدي، ولوْ علمَ اللّهُ جلَّ وعزَّ أنّهُ يهتدي لحالَ بينهُ وبينهمْ، وعلى هذا قولهُ تعالى: ﴿وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ﴾ أي لست تصل منهم إلى شيء إلّا إلى ما في علمي.

الثالثة- ﴿إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ ٱلْجَحِيمِ﴾ حذفت لامُ ﴿صَالِ﴾ تخفيفاً وجرى الإعراب على عينهِ، كما حذفَ منْ قولهمْ: ما باليتُ بهِ بالةً. وأصلها باليةٌ منْ بالي كعافيةٍ منْ عافي، ونظيرهُ قراءةِ من قرأَ: ﴿وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٌ﴾ ﴿وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَـَٔاتُ﴾ أجرى الإعراب على العين. والأصل في قراءةِ الجماعةِ صالي بالياءِ فحذفها الكاتبُ منَ الخط لسقوطها في اللفظ.

قولهُ تعالى: ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴿١٦٤﴾﴾ هذا منْ قولِ الملائكةِ تعظيماً للّهِ عزَّ وجلَّ، وإنكاراً منهمْ عبادةَ منْ عبدهمْ، وما منّا ملكٌ إلّا لهُ مقامٌ معلومٌ، أيْ مكانٌ معلومٌ في العبادةِ، قالتْ عائشةُ رضي الله عنها: قالَ النّبيُّ ﷺ: «ما في السّماءِ موضعُ قدمٍ إلّا عليهِ ملكٌ ساجدٌ أوْ قائمٌ». ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ ﴿١٦٥﴾﴾ كصفوفِ أهلِ الدّنيا في الأرضِ. وفي صحيح مسلم عنْ جابرِ بنِ سمرةَ قالَ: خرجَ علينا رسولُ اللّهِ ﷺ ونحنُ في المسجدِ، فقالَ: «ألا تصفّونَ كما تصفُّ الملائكةُ عندَ ربّها» فقلنا يا رسولَ اللّهِ كيفَ تصفُّ الملائكةُ عندَ ربّها؟ قالَ؟ «يتمّونَ

الصّفوفَ الأولَ ويتراصّونَ في الصّفِّ»، وقيلَ: أيْ لنحنُ الصّافّونَ أجنحتنا في الهواءِ وقوفًا ننتظرُ ما نؤمرُ بهِ. وقيلَ: أيْ نحنُ الصّافّونَ حولَ العرشِ. ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ ١٦٦﴾ أي المصلون، والمرادُ أنّهمْ يخبرونَ أنّهمْ يعبدونَ اللّهَ بالتّسبيحِ والصّلاةِ وليسوا معبودينَ ولا بناتِ اللّهِ.

وقيلَ: ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ١٦٤﴾ منْ قولِ الرّسولِ ﷺ والمؤمنين المشركين، أيْ لكلِّ واحدٍ منّا ومنكمْ في الآخرةِ مقامٌ معلومٌ وهوَ مقامُ الحسابِ، والأظهر أنَّ ذلكَ راجعٌ إلى قولِ الملائكةِ، واللّهُ أعلمُ.

قولهُ تعالى: ﴿وَإِن كَانُوا۟ لَيَقُولُونَ ١٦٧﴾ عادَ إلى الإخبارِ عنْ قولِ المشركينَ، أيْ كانوا قبلَ بعثةِ محمّدٍ ﷺ إذا عيّروا بالجهل قالوا: ﴿لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ١٦٨﴾ أيْ لوْ بعثَ إلينا نبيٌّ ببيانِ الشّرائع ﴿لَكُنَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ١٦٩﴾ أي لاتّبعناهُ. ﴿فَكَفَرُوا۟ بِهِۦ﴾ أيْ فجاءهمْ محمّدٌ ﷺ بالذّكرِ فكفروا بهِ. وهذا تعجيبٌ منهمْ، أيْ فقدْ جاءهمْ نبيٌّ وأنزلَ عليهمْ كتابٌ فيهِ بيانُ ما يحتاجونَ إليهِ فكفروا وما وفّوا بما قالوا. ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ١٧٠﴾ مغبّةَ كفرهمْ.

قولهُ تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ١٧١﴾ وهي قولهُ عزَّ وجلَّ: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ﴾ ﴿إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ١٧٢﴾ أيْ سبقَ الوعد بنصرهم بالحجة والغلبة. ﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ١٧٣﴾ على المعنى ولوْ كانَ على اللّفظِ لكانَ هوَ الغالبَ مثلَ ﴿جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ ٱلْأَحْزَابِ﴾. وقيلَ: جاء ها هنا على الجمع منْ أجلِ أنّهُ رأسُ آيةٍ. ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ أيْ أعرضْ عنهمْ. ﴿حَتَّىٰ حِينٍ ١٧٤﴾ إلى الموتِ. وقيلَ: يعني القتلَ ببدرٍ. وقيلَ يعني فتحَ مكّةَ. وقيلَ: الآيةُ منسوخةٌ بآيةِ السّيفِ. ﴿وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ١٧٥﴾ حينَ لا ينفعهمُ الإبصارُ. ﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ١٧٦﴾ كانوا يقولونَ منْ فرطِ تكذيبهمْ متى هذا العذابُ، أيْ لا تستعجلوهُ فإنّهُ واقعٌ بكمْ. قولهُ تعالى: ﴿فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ﴾ أيْ بدارهمْ، ﴿فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلْمُنذَرِينَ ١٧٧﴾ وخصَّ الصّباحُ بالذّكرِ، لأنَّ العذابَ كانَ يأتيهمْ فيهِ. ومنهُ الحديثُ الّذي رواهُ أنسٌ رضي الله عنه قالَ: لمّا أتى رسولَ اللّهِ ﷺ خيبرَ، وكانوا خارجينَ إلى

مزارعهمْ ومعهمُ المساحي، فقالوا: محمّدٌ والخميسُ، ورجعوا إلى حصنهمْ، فقالَ: ﷺ: «اللّهُ أكبرُ خربتْ خيبرُ إنّا إذا نزلنا بساحةِ قوم فساءَ صباحُ المنذرينَ» وهوَ يبيّنُ معنى: ﴿فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ﴾ يريدُ النّبيَّ ﷺ. ﴿وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٨﴾﴾ كرّرَ تأكيداً وكذا ﴿وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٩﴾﴾ تأكيداً أيضـاً.

قولهُ تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٢﴾﴾، فيهِ أربعُ مسائلَ:

الأولى: قولهُ تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ﴾ نزّهَ سبحانهُ نفسهُ عمّا أضافَ إليهِ المشركونَ. ﴿رَبِّ ٱلْعِزَّةِ﴾ على البدلِ ﴿عَمَّا يَصِفُونَ﴾ أيْ منَ الصّاحبةِ والولدِ.

الثانية- سئلَ محمّدُ بنُ سحنونَ عنْ معنى ﴿رَبِّ ٱلْعِزَّةِ﴾ لِمَ جازَ ذلكَ والعزّةُ منْ صفاتِ الذّاتِ، ولا يقالُ ربُّ القدرةِ ونحوها من صفات ذاته جل وعز؟ قال: العزة تكون صفةَ ذاتٍ وصفةَ فعل، فصفةُ الذّاتِ نحوَ قولهِ: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ وصفةُ الفعل نحوَ قولهِ: ﴿رَبِّ ٱلْعِزَّةِ﴾ والمعنى ربُّ العزّةِ الّتي يتعازُّ بها الخلقُ فيما بينهمْ فهيَ منْ خلقِ اللّهِ عزَّ وجلَّ.

قالَ بعضُ علمائنا: منْ حلفَ بعزّةِ اللّهِ فإنْ أرادَ عزّتهُ الّتي هيَ صفتهُ فحنثَ فعليهِ الكفّارةُ، وإنْ أرادَ الّتي جعلها اللّهُ بينَ عبادهِ فلا كفّارةَ عليهِ. وقال الماورديُّ: ﴿رَبِّ ٱلْعِزَّةِ﴾ يحتملُ وجهينِ: **أحدهما**: مالك العزة، **والثاني**: رب كل شيء متعزّزٍ منْ ملكٍ أوْ متجبّرٍ. قلت: وعلى الوجهينِ فلا كفّارةَ إذا نواها الحالفُ.

الثالثة- رويَ منْ حديثِ أبي سعيدٍ الخدريِّ أنَّ رسولَ اللّهِ ﷺ كان يقولُ قبلَ أنْ يسلّمَ: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ﴾ إلى آخرِ السّورةِ.

الرابعة- قولهُ تعالى: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾﴾ أي الّذينَ بلّغوا عنِ اللّهِ تعالى التّوحيدَ والرّسالةَ. ﴿وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٢﴾﴾ أيْ على إرسالِ المرسلينَ مبشّرينَ ومنذرينَ. وقيلَ: أيْ على جميع ما أنعمَ اللّهُ بهِ على الخلقِ أجمعينَ. وقيلَ: أيْ على هلاكِ المشركينَ، دليلهُ: ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾. قلت: والكلُّ مرادٌ والحمدُ يعمُّ. ومعنى ﴿يَصِفُونَ﴾ يكذبونَ، والتّقديرُ عمّا يصفونَ منَ الكذبِ.

سورة ص

مكّيّةٌ في قولِ الجميعِ، وهيَ ستٌّ وثمانونَ آيةً. وقيلَ ثمانٍ وثمانونَ آيةً.

بسمِ اللّهِ الرّحمنِ الرّحيم

قولهُ تعالى: ﴿صٓۚ﴾ حرفٌ من حروفِ الهجاءِ مثلَ: ﴿أَلَمٓ﴾ وَ ﴿الٓمٓرۚ﴾. وهي ممّا استأثرَ اللّهُ تعالى بعلمهِ.

قولهُ تعالى: ﴿وَٱلۡقُرۡءَانِ﴾ خفضَ بواوِ القسمِ والواوُ بدلٌ منَ الباءِ، أقسمَ بالقرآنِ تنبيهًا على جلالة قدره، فإن فيه بيان كل شيء، وشفاءً لما في الصّدورِ، ومعجزةً للنّبيِّ ﷺ.

﴿ذِى ٱلذِّكۡرِ ١﴾ خفضَ على النّعتِ وعلامةُ خفضهِ الياءُ، وهوَ اسمٌ معتلٌّ والأصلُ فيهِ ذوي على فَعَل، ومعنى ﴿ذِى ٱلذِّكۡرِ﴾ ذي البيانِ، أو ذي الشّرفِ أيْ منْ آمنَ بهِ كانَ شرفًا لهُ في الدّارينِ، كما قالَ تعالى: ﴿لَقَدۡ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ كِتَٰبٗا فِيهِ ذِكۡرُكُمۡۚ﴾ أيْ شرفكمْ. وأيضًا القرآنُ شريفٌ في نفسهِ لإعجازهِ واشتمالهِ على ما لا يشتملُ عليهِ غيرهُ، وقيلَ: أيْ ذي الموعظةِ والذّكرِ. وجوابُ القسمِ محذوفٌ تقديرهُ ﴿وَٱلۡقُرۡءَانِ ذِى ٱلذِّكۡرِ﴾ لتبعثنَّ ونحوهُ.

قولهُ تعالى: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي عِزَّةٖ وَشِقَاقٖ ٢﴾ عنْ قبولِ الحقِّ وعداوةٍ لمحمّدٍ ﷺ كما قالَ جلَّ وعزَّ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتۡهُ ٱلۡعِزَّةُ بِٱلۡإِثۡمِۚ﴾ والعزّةُ عندَ العربِ: الغلبةُ والقهرُ. يقالُ: منْ عزَّ بزَّ، يعني منْ غلبَ سلبَ. ومنهُ: ﴿وَعَزَّنِي فِي ٱلۡخِطَابِ﴾ أي غلبني.

قوله تعالى: ﴿كَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِن قَبۡلِهِم مِّن قَرۡنٖ﴾ أيْ قومٌ كانوا أمنعَ منْ هؤلاءِ. وَ ﴿كَمۡ﴾ لفظةُ التّكثيرِ ﴿فَنَادَواْ﴾ أيْ بالاستغاثةِ والتّوبةِ. والنّداءُ رفعُ الصّوتِ، ومنهُ الخبرُ: «ألقهِ على بلالٍ فإنّهُ أندى منكَ صوتًا» أيْ أرفعُ.

﴿وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٖ ٣﴾ نادوا بالتّوبةِ وليسَ حينَ التّوبةِ ولا حينَ ينفعُ العملُ. وقيلَ: فنادوا حينَ لا مناصَ، أيْ ساعةٌ لا منجى ولا فوتَ. والمناصُ بمعنى التّأخّرِ والفرارِ والخلاصِ، أيْ نادوا لطلبِ الخلاصِ في وقتٍ لا يكونُ لهمْ فيهِ خلاصٌ.

قولهُ تعالى: ﴿وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡۖ﴾ هذا ابتداءُ كلامٍ، أيْ ومنْ جهلهمْ أنّهمْ أظهروا التّعجّبَ منْ أنْ جاءهمْ منذرٌ منهمْ. ﴿وَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٞ﴾ أي يجيءُ بالكلامِ المموّهِ الّذي يخدعُ بهِ النّاسَ، وقيلَ: يفرّقُ بسحرهِ بينَ الوالدِ وولدهِ والرّجلِ وزوجتهِ ﴿كَذَّابٌ﴾ أيْ في دعوى النّبوّةِ.

قولهُ تعالى: ﴿أَجَعَلَ ٱلۡأٓلِهَةَ إِلَٰهٗا وَٰحِدًاۖ﴾ مفعولانِ أيْ صيّرَ الآلهةَ إلهاً واحداً. ﴿إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عُجَابٞ ۝٥﴾ أيْ عجيبٌ، وقدْ فرّقَ الخليلُ بينَ عجيبٍ وعجابٍ فقالَ: العجيبُ العجبُ، والعجابُ الّذي قدْ تجاوزَ حدَّ العجبِ، والطّويلُ الّذي فيهِ طولٌ، والطّوالُ الّذي قدْ تجاوزَ حدَّ الطّولِ.

وعنِ ابنِ عبّاسٍ قالَ: مرضَ أبو طالبٍ فجاءتْ قريشٌ إليهِ، وجاءَ النّبيُّ ﷺ، وعندَ رأسِ أبي طالبٍ مجلسُ رجلٍ، فقامَ أبو جهلٍ كيْ يمنعهُ، قالَ: وشكوهُ إلى أبي طالبٍ، فقال: يا بن أخي ما تريدُ منْ قومكَ؟ فقالَ: «يا عمِّ إنّما أريدَ منهمْ كلمةً تذلُّ لهمْ بها العربُ وتؤدّي إليهمْ بها الجزيةَ العجمُ» فقالَ: وما هيَ؟ قالَ: «لا إلهَ إلّا اللّهُ» قالَ: فقالوا ﴿أَجَعَلَ ٱلۡأٓلِهَةَ إِلَٰهٗا وَٰحِدًاۖ﴾ قالَ: فنزلَ فيهمُ القرآنُ: ﴿صٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ذِي ٱلذِّكۡرِ ۝١ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي عِزَّةٖ وَشِقَاقٖ﴾ حتّى بلغَ ﴿إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا ٱخۡتِلَٰقٌ﴾ خرّجهُ التّرمذيُّ بمعناهُ، وقالَ: حسنٌ صحيحٌ.

قولهُ تعالى: ﴿وَٱنطَلَقَ ٱلۡمَلَأُ مِنۡهُمۡ أَنِ ٱمۡشُواْ﴾ ﴿ٱلۡمَلَأُ﴾ الأشرافُ، والانطلاقُ الذّهابُ بسرعةٍ، أيِ انطلقَ هؤلاءِ الكافرونَ منْ عندِ الرّسولِ ﷺ يقولُ بعضهمْ لبعضٍ ﴿أَنِ ٱمۡشُواْ﴾ أيِ امضوا على ما كنتم عليه وما لا تدخلوا في دينهِ. ﴿وَٱصۡبِرُواْ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمۡۖ﴾. وقيلَ: هوَ إشارةٌ إلى مشيهمْ إلى أبي طالبٍ في مرضهِ كما سبقَ.

وفي روايةِ محمّدِ بنِ إسحاقَ أنّهمْ أبو جهلِ بنُ هشامٍ، وشيبةُ وعتبةُ أبناءُ ربيعةَ بنِ عبدِ شمسٍ، وأميّةُ بنُ خلفٍ، والعاصُ بنُ وائلٍ، وأبو معيطٍ.

وقيلَ: المعنى انطلقَ الأشرافُ منهمْ فقالوا للعوامِّ: ﴿ٱمۡشُواْ وَٱصۡبِرُواْ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمۡۖ﴾ أيْ على عبادةِ آلهتكمْ. ﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ أيْ هذا الّذي جاء به محمد ﷺ ﴿لَشَيۡءٞ يُرَادُ ۝٦﴾ أيْ يرادُ بأهلِ الأرضِ منْ زوالِ نعم قوم وغير تنزل بهم.

قولهُ تعالى: ﴿مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي ٱلْمِلَّةِ ٱلْآخِرَةِ﴾ يعنونَ ملّةَ عيسى النّصرانيّةَ وهيَ آخرُ المللِ، والنّصارى يجعلونَ معَ اللّهِ إلهاً. وقيلَ: يعنونَ ملّةَ قريشٍ ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ ۝٧﴾ أيْ كذبٌ وتخرّصٌ، يقالُ: خلقَ واختلقَ أيِ ابتدعَ، وخلقَ اللّهُ عزَّ وجلَّ الخلقَ منْ هذا، أيِ ابتدعهمْ على غيرِ مثالٍ.

قولهُ تعالى: ﴿أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا﴾ هوَ استفهامُ إنكارٍ، والذّكرُ ها هنا القرآنُ. أنكروا اختصاصهُ بالوحيِ منْ بينهمْ. فقالَ اللّهُ تعالى: ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّن ذِكْرِي﴾ أيْ منْ وحيي وهوَ القرآنُ. أيْ قدْ علموا أنّكَ لمْ تزلْ صدوقاً فيما بينهمْ، وإنّما شكّوا فيما أنزلتهُ عليكَ هلْ هوَ منْ عندي أمْ لا. ﴿بَل لَّمَّا يَذُوقُوا۟ عَذَابِ ۝٨﴾ واغترّوا بطولِ الإمهالِ، ولوْ ذاقوا عذابي على الشّركِ لزالَ عنهمُ الشّكُّ، ولكنْ لا ينفعُ الإيمانُ حينئذٍ، وَ ﴿لَّمَّا﴾ بمعنى لمْ وما زائدة كقوله: ﴿عَمَّا قَلِيلٍ﴾ وقوله: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ﴾.

قولهُ تعالى: ﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ ٱلْعَزِيزِ ٱلْوَهَّابِ ۝٩﴾ فيمنعوا محمّداً ﷺ ممّا أنعمَ اللّهُ عزَّ وجلّ بهِ عليهِ منَ النّبوّةِ. ﴿أَمْ لَهُم مُّلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُوا۟ فِي ٱلْأَسْبَٰبِ ۝١٠﴾ أي فليصعدوا إلى السموات، وليمنعوا الملائكةَ منْ إنزالِ الوحيِ على محمّدٍ، والسّببُ في اللّغةِ كلُّ ما يوصلُ بهِ إلى المطلوبِ منْ حبلٍ أوْ غيرهِ، وهذا أمر توبيخ وتعجيز.

ثم وعد نبيه صلى النّصرَ عليهمْ فقالَ: ﴿جُندٌ مَّا هُنَالِكَ﴾ ﴿مَا﴾ صلةٌ وتقديرهُ: همْ جندٌ، فَ ﴿جُندٌ﴾ خبرُ ابتدا محذوفٍ. ﴿مَهْزُومٌ﴾ أيْ مقموعٌ ذليلٌ قدِ انقطعتْ حجّتهمْ، لأنّهمْ لا يصلونَ إلى أنْ يقولوا هذا لنا.

وهذا تأنيسٌ للنّبيِّ ﷺ، وقدْ فعلَ بهمْ هذا في يومِ بدرٍ. وَ ﴿هُنَالِكَ﴾ إشارةٌ لبدرٍ وهوَ موضعُ تحزّبهمْ لقتالِ محمّدٍ ﷺ. وقيلَ: المرادُ بالأحزابِ الّذينَ أتوا المدينة وتحزبوا على النبي ﷺ، والأحزابُ الجندُ، كما يقالُ: جندٌ منْ قبائلَ شتّى. وقيلَ: أرادَ بالأحزابِ القرونَ الماضيةَ منَ الكفّارِ. أيْ هؤلاءِ جندٌ على طريقةِ أولئكَ، كقوله تعالى: ﴿فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّيٓ﴾ أيْ على ديني ومذهبي.

قولهُ تعالى: ﴿۞ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ﴾ ذكرها تعزيةً للنّبيِّ ﷺ وتسليةً لهُ، وذكرَ اللّهُ تعالى القومَ بلفظِ التّأنيثِ، واختلفَ أهلُ العربيّةِ في ذلكَ على قولينِ: **أحدهما**: أنّهُ قدْ يجوزُ فيهِ التّذكيرُ والتّأنيثُ. **الثّاني**- أنّهُ مذكّرُ اللّفظِ لا يجوزُ تأنيثهُ، إلّا أنْ يقعَ المعنى على العشيرةِ والقبيلةِ، فيغلبَ في اللّفظِ حكمُ المعنى المضمرِ تنبيهـاً عليه، كقول تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ۝١١ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ﴾ ولمْ يقلْ ذكرها، لأنّهُ لمّا كانَ المضمرُ فيهِ مذكّراً ذكّرهُ، وإنْ كانَ اللّفظُ مقتضيـاً للتّأنيثِ. ﴿وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ ۝١٢﴾. أي ذو البناءِ المحكمِ. أو ذو القوّةِ والبطشِ. ﴿وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَـٰبُ لْـَٔيْكَةِ﴾ أي الغيضةُ. وقدْ مضى ذكرها في الشعراء. وقرأ نافعٌ وابنُ كثيرٍ وابنُ عامرٍ «لَيْكَةَ» بفتحِ اللّامِ والتّاءِ منْ غيرِ همزٍ. وهمزَ الباقونَ وكسروا التّاءَ ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلْأَحْزَابُ ۝١٣﴾ أيْ همُ الموصوفونَ بالقوّةِ والكثرةِ، كقولكَ فلانٌ هوَ الرّجلُ. ﴿إِن كُلٌّ﴾ بمعنى ما كلٌّ. ﴿إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ۝١٤﴾ أيْ فنزلَ بهمُ العذابُ لذلكَ التّكذيبِ. وأثبتَ يعقوبُ الياءَ في «عَذَابِي» وَ «عِقَابِي» في الحالينِ وحذفها الباقونَ في الحالينِ. ونظيرُ هذهِ الآيةِ قولهُ عزَّ وجلَّ: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَـٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ ۝٣٠ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ﴾ فسمى هذه الأمم أحزابا.

قولهُ تعالى: ﴿وَمَا يَنظُرُ هَـٰٓؤُلَآءِ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً﴾ ﴿يَنظُرُ﴾ بمعنى ينتظرُ، ومنهُ قولهُ تعالى: ﴿ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ﴾. ﴿هَـٰٓؤُلَآءِ﴾ يعني كفّارَ مكّةَ. ﴿إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً﴾ أيْ نفخةُ القيامةِ. أيْ ما ينتظرونَ بعدَ ما أصيبوا ببدرٍ إلّا صيحةَ القيامةِ، كما قالَ تعالى: ﴿مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ۝٤٩ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً﴾ وهذا إخبارٌ عنْ قربِ القيامةِ والموتِ.

﴿مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ ۝١٥﴾ ما لها رجوعٌ، وقرأ حمزةُ والكسائيُّ: ﴿مَّا لَهَا مِن فُوَاقٍ﴾ بضمِّ الفاءِ. الباقونَ بالفتحِ، والفَواقُ والفُواقُ ما بينَ الحلبتينِ منَ الوقتِ، لأنّها تحلبُ ثمَّ تتركُ سويعةً يرضعها الفصيلُ لتدرَّ ثمَّ تحلبُ. يقالُ: ما أقامَ عندهُ إلّا فواقًا، وفي الحديثِ: "العيادةُ قدرُ فواقِ الناقة". وقول تعالى: ﴿مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ﴾ أيْ ما لها منْ نظرةٍ وراحةٍ وإفاقةٍ، والمعنى المرادُ أنّها ممتدّةٌ لا تقطيعَ فيها.

قولهُ تعالى: ﴿وَقَالُواْ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبۡلَ يَوۡمِ ٱلۡحِسَابِ ١٦﴾ أي: نصيبنا منَ العذابِ قبلَ يومِ القيامةِ في الدّنيا إنْ كانَ الأمرُ كما يقولُ محمد. وكل هذا استهزاء منهم.

قولهُ تعالى: ﴿ٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ أمرَ نبيّهُ ﷺ بالصّبرِ لمّا استهزءوا بهِ. وهذهِ منسوخةٌ بآيةِ السّيفِ. ﴿وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلۡأَيۡدِ﴾ أخذَ في ذكرِ داودَ وقصصِ الأنبياءِ، ليتسلّى بصبرِ منْ صبرَ منهمْ، وقيلَ: المعنى اصبرْ على قولهمْ، واذكرْ لهمْ أقاصيصَ الأنبياءِ، لتكونَ برهاناً على صحّةِ نبوّتكَ. و ﴿ذَا ٱلۡأَيۡدِ﴾ ذا القوّةِ في العبادةِ. وكانَ يصومُ يوماً ويفطرُ يوماً، وذلكَ أشدُّ الصّومِ وأفضلهُ، وكانَ يصلّي نصفَ اللّيلِ، وكانَ لا يفرُّ إذا لاقى العدوَّ، وكانَ قويا في الدعا إلى اللّهِ تعالى. وقولهُ: ﴿عَبۡدَنَا﴾ إظهاراً لشرفهِ بهذهِ الإضافةِ. ﴿إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ١٧﴾ أيْ تواب.

قولهُ تعالى: ﴿إِنَّا سَخَّرۡنَا ٱلۡجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحۡنَ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِشۡرَاقِ ١٨﴾، فيهِ أربعُ مسائلَ:

الأولى: قولهُ تعالى: ﴿إِنَّا سَخَّرۡنَا ٱلۡجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحۡنَ﴾ ﴿يُسَبِّحۡنَ﴾ في موضعِ نصبٍ على الحالِ. ذكرَ تعالى ما آتاهُ منَ البرهانِ والمعجزةِ وهوَ تسبيحُ الجبالِ معهُ. وقيلَ: ﴿يُسَبِّحۡنَ﴾ يصلّينَ. وإنّما يكونُ هذا معجزةً إذا رآهُ النّاسُ وعرفوهُ، وقدْ مضى القولُ في هذا في «سبأٍ» وفي «سبحانَ» عندَ قولهُ تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡ﴾ وأنَّ ذلكَ تسبيحُ مقالٍ على الصّحيحِ منَ الأقوالِ. واللّهُ أعلمُ.

﴿بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِشۡرَاقِ ١٨﴾ الإشراقُ أيضاً ابيضاضُ الشّمسِ بعدَ طلوعها. يقالُ: شرقتِ الشّمسُ إذا طلعتْ، وأشرقتْ إذا أضاءتْ. فكانَ داودُ يسبّحُ إثرَ صلاتهِ عندَ طلوعِ الشّمسِ وعندَ غروبها.

الثانية– عنِ ابنِ عبّاسٍ أنّهُ قالَ: كنتُ أمرُّ بهذهِ الآيةِ: ﴿بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِشۡرَاقِ﴾ ولا أدري ما هيَ، حتّى حدّثتني أمُّ هانئٍ أنَّ رسولَ اللّهِ ﷺ دخل عليها، فدعا بوضوءٍ فتوضّأَ، ثمَّ صلّى صلاةَ الضّحى، وقالَ: «يا أمَّ هانئٍ هذهِ صلاةُ الإشراقِ». وقالَ عكرمةُ قالَ ابنُ عبّاسٍ: كانَ في نفسي شيء منْ صلاةِ الضّحى حتّى وجدتها في القرآنِ ﴿يُسَبِّحۡنَ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِشۡرَاقِ﴾.

الثالثة- صلاةُ الضّحى نافلةٌ مستحبّةٌ، وهيَ في الغداةِ بإزاءِ العصرِ في العشيِّ، لا ينبغي أنْ تصلّى حتّى تبيضَّ الشّمسُ طالعةً، ويرتفعُ كدرها، وتشرقُ بنورها، كما لا تصلّى العصرُ إذا اصفرّتِ الشّمسُ. وفي صحيحِ مسلمٍ عنْ زيدِ بنِ أرقمَ أنَّ رسولَ اللّهِ ﷺ قالَ: «صلاةُ الأوّابينَ حينَ ترمضُ الفصالُ» الفصالُ والفصلانُ جمعُ فصيلٍ، وهوَ الّذي يفطمُ منَ الرّضاعةِ منَ الإبلِ. والرّمضاءُ شدّةُ الحرِّ في الأرضِ. وخصَّ الفصالُ هنا بالذّكرِ، لأنّها هيَ الّتي ترمضُ قبلَ انتهاءِ شدّةِ الحرِّ الّتي ترمضُ بها أمّهاتها لقلّةِ جلدها، وذلكَ يكونُ في الضّحى أوْ بعدهُ بقليلٍ وهوَ الوقتُ المتوسّطُ بينَ طلوعِ الشّمسِ وزوالها.

الرابعة- روى التّرمذيُّ منْ حديثِ أنسِ بنِ مالكٍ قالَ: قالَ رسولُ اللّهِ ﷺ: «منْ صلّى الضّحى ثنتيْ عشرةَ ركعةً بنى اللّهُ لهُ قصراً منْ ذهبٍ في الجنّةِ» قالَ حديثٌ غريبٌ. وفي صحيحِ مسلمٍ عنْ أبي ذرٍّ عنِ النّبيِّ ﷺ أنّهُ قالَ: «يصبحُ على كلِّ سلامى منْ أحدكمْ صدقةٌ فكلُّ تسبيحةٍ صدقةٌ وكلُّ تهليلةٍ صدقةٌ وكلُّ تكبيرةٍ صدقةٌ وأمرٌ بالمعروفِ صدقةٌ ونهيٌ عنِ المنكرِ صدقةٌ ويجزي منْ ذلكَ ركعتانِ يركعهما منَ الضّحى».

وفي التّرمذيُّ عنْ أبي هريرةَ قالَ: قالَ رسولُ اللّهِ ﷺ: «منْ حافظَ على شفعةِ الضّحى غفرتْ له ذنوبه وإن كانت مثل زبدِ البحرِ».

وروى البخاريُّ ومسلمٌ عنْ أبي هريرة قالَ: «أوصاني خليلي بثلاثٍ لا أدعهنَّ حتّى أموتَ صومِ ثلاثةِ أيّامٍ منْ كلِّ شهرٍ وصلاةِ الضّحى ونومٍ على وترٍ» لفظُ البخاريِّ. وقالَ مسلمٌ: «وركعتيِ الضّحى» وخرّجهُ منْ حديثِ أبي الدّرداءِ كما خرّجهُ البخاريُّ منْ حديثِ أبي هريرةَ.

وهذا كلّهُ يدلُّ على أنَّ أقلَّ الضّحى ركعتانِ وأكثرهُ ثنتا عشرةَ. واللّهُ أعلمُ.

وأصلُ السُّلامى «بضمِّ السّينِ» عظامُ الأصابعِ والأكفِّ والأرجلِ، ثمَّ استعملَ في سائرِ عظامِ الجسدِ ومفاصلهِ.

قولهُ تعالى: ﴿وَٱلطَّيۡرَ مَحۡشُورَةٗۖ﴾ معطوفٌ على الجبالِ. وكانَ داودُ عَلَيْهِ السَّلَامُ إذا سبّحَ جاوبتهُ الجبالُ واجتمعتْ إليهِ الطّيرُ فسبّحتْ معهُ. فاجتماعها إليهِ حشرها ﴿كُلّٞ لَّهُۥٓ﴾ أيْ لداودَ ﴿أَوَّابٞ ١٩﴾ أيْ مطيعٌ، أيْ تأتيهِ وتسبّحُ معهُ. وقيلَ: الهاءُ للّهِ عزَّ وجلَّ.

قولهُ تعالى: ﴿وَشَدَدۡنَا مُلۡكَهُۥ﴾ أيْ قوّيناهُ حتّى ثبتَ. قيل: بالهيبةِ وإلقاءِ الرّعبِ منهُ في القلوبِ. وقيلَ: بكثرةِ الجنودِ. وقيلَ: بالتّأييدِ والنّصرِ. ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحِكۡمَةَ وَفَصۡلَ ٱلۡخِطَابِ ٢٠﴾ فيهِ مسألتانِ:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحِكۡمَةَ﴾ أي النبوة، وقيلَ: العدلُ. وقيلَ: العلمُ والفقهُ.

﴿وَفَصۡلَ ٱلۡخِطَابِ﴾ يعني الفصلَ في القضاءِ، وقيلَ: هوَ البيّنةُ على المدّعي واليمينُ على منْ أنكرَ. وقيلَ: هوَ قولهُ أمّا بعدُ، وهوَ أوّلُ منْ تكلّمَ بها. وقيلَ: ﴿فَصۡلَ ٱلۡخِطَابِ﴾ البيانُ الفاصلُ بينَ الحقِّ والباطلِ. وقيلَ: هوَ الإيجازُ بجعلِ المعنى الكثيرِ في اللّفظِ القليلِ.

الثانية– قالَ القاضي أبو بكرِ بنُ العربيِّ: فأمّا علمُ القضاءِ فلعمرُ إلهكَ إنّهُ لنوعٌ منَ العلمِ مجرّدٌ، وفصلٌ منهُ مؤكّدٌ، غيرَ معرفةِ الأحكامِ والبصرِ بالحلالِ والحرامِ، ففي الحديثِ «أقضاكمْ عليٌّ وأعلمكمْ بالحلالِ والحرامِ معاذُ بنُ جبلٍ» وقدْ يكونُ الرّجلُ بصيراً بأحكامِ الأفعالِ، عارفًا بالحلالِ والحرامِ، ولا يقومُ بفصلِ القضاءِ.

قولهُ تعالى: ﴿۞وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ ﴿٢٣﴾ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ ۖ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ۗ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ۩ ﴿٢٤﴾ فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ ۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٢٥﴾﴾، فيهِ أربعٌ وعشرونَ مسألةً:

الأولى: قولهُ تعالى: ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ﴾ ﴿ٱلْخَصْمِ﴾ يقعُ على الواحدِ والاثنينِ والجماعةِ، ولا خلافَ بينِ أهلِ التّفسيرِ أنّهُ يرادُ به ها هنا ملكان. وقيل: ﴿تَسَوَّرُوا۟﴾ وإن كانا اثنينِ حملاً على الخصمِ، و﴿تَسَوَّرُوا۟﴾ أتوهُ منْ أعلى سورهِ. والمحرابُ هنا الغرفةُ، لأنّهمْ تسوّروا عليهِ فيها، وقيلَ: إنّهُ صدرُ المجلسِ، ومنهُ محرابُ المسجدِ. ﴿إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَىٰ دَاوُۥدَ﴾ قيلَ: إنّهما كانا إنسيّينِ، وقيلَ: ملكين، وعيّنهما جماعةٌ فقالوا: إنّهما جبريلُ وميكائيلُ. وقيلَ: ملكينِ في صورةِ إنسيّينِ بعثهما اللّهُ إليهِ في يومِ عبادتهِ، وكانَ داودُ قدْ قسمَ الدّهرَ ثلاثةَ أيّامٍ، يومٌ يقضي فيهِ بينَ النّاسِ، ويومٌ يخلو فيهِ بعبادةِ ربّهِ، ويومٍ يخلو فيهِ بنسائهِ وأشغالهِ.

الثانية- وفي هذا دليلٌ أنه ليسَ على الحاكمِ أنْ ينتصبَ للنّاسِ كلَّ يومٍ، وأنّهُ ليسَ للإنسانِ أنْ يتركَ وطءَ نسائهِ وإنْ كانَ مشغولاً بالعبادةِ. وقدْ مضى هذا المعنى في «النّساءِ.» وحكمَ كعبٌ بذلكَ في زمنِ عمرَ بمحضرهِ رضي الله عنهما. وقد قال ﷺ لعبد الله بن عمرو: «إنَّ لزوجكَ عليكَ حقاً» الحديثَ.

الثالثة- قولهُ تعالى: ﴿فَفَزِعَ مِنْهُمْ ۖ﴾ لأنّهما أتياهُ ليلاً في غيرِ وقتِ دخولِ الخصومِ. وقيلَ: لدخولهم عليهِ بغيرِ إذنهِ. وقيلَ: لأنّهمْ تسوّروا عليهِ المحراب ولم يأتوه من الباب.

فإن قيل: كيفَ يجوزُ أنْ يقولَ الملكانِ ﴿خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ وذلكَ كذبٌ والملائكةُ عن مثله منزهون ؟.

فالجواب: أنه لا بد في الكلام من تقدير، فكأنهما قالا: قدرنا كأنّنا خصمانِ بغى بعضنا على بعضٍ فاحكمْ بيننا بالحقِّ، وعلى ذلكَ يحملُ قولهما: ﴿إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ

﴿نَعۡجَةَ﴾ لأنَّ ذلكَ وإنْ كانَ بصورةِ الخبرِ فالمرادُ إيرادهُ على طريقِ التّقديرِ لينبّهَ داودُ على ما فعل، والله أعلم.

الرابعة– إن قيل: لِمَ فزعَ داودُ وهوَ نبيٌّ، وقدْ قويتْ نفسهُ بالنّبوّةِ، واطمأنّتْ بالوحيِ، ووثقتْ بما آتاهُ اللّهُ منَ المنزلةِ، وأظهرَ على يديهِ منَ الآياتِ، وكانَ منَ الشّجاعةِ في غايةِ المكانةِ؟

قيلَ: ذلكَ سبيلُ الأنبياءِ قبلهُ، لمْ يأمنوا القتل والإذاية ومنهما كانَ يُخافُ. ألا ترى إلى موسى وهرون عليهما السّلامُ كيفَ قالا: ﴿إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفۡرُطَ عَلَيۡنَآ أَوۡ أَن يَطۡغَىٰ﴾ فقالَ اللّهُ عزَّ وجلَّ ﴿لَا تَخَافَآۖ﴾ وقالتِ الرّسلُ للوطٍ: ﴿لَا تَخَفۡ﴾. وكذا قالَ الملكانِ هنا: ﴿لَا تَخَفۡۖ﴾.

الخامسة– قالَ ابنُ العربيِّ: فإنْ قيلَ كيفَ لمْ يأمرْ بإخراجهما إذْ قدْ علمَ مطلبهما، وهلّا أدّبهما وقدْ دخلا عليهِ بغيرِ إذنٍ؟ فيحتمل أنْ يكونَ الفزعُ الطّارئُ عليهِ أذهلهُ عمّا كانَ يجبُ في ذلكَ لهُ، أو كان في مسجد ولا حجر فيه على أحد، أو قبلَ عذرهمْا، وأصغى إلى قولهمْا.

السّادسةُ– إنْ قيل: كيفَ قالَ: ﴿خَصۡمَانِ﴾ وقبلَ هذا ﴿إِذۡ تَسَوَّرُواْ ٱلۡمِحۡرَابَ﴾ فقيلَ: لأنَّ الاثنينِ جمعٌ، قالَ الخليلُ: كما تقولُ نحنُ فعلنا إذا كنتما اثنينِ، ويحتملُ أنْ تكونَ الخصومةُ بينَ اثنينِ ومعَ كلِّ واحدٍ جمعٌ.

السابعة– قولهُ تعالى: ﴿فَٱحۡكُم بَيۡنَنَا بِٱلۡحَقِّ وَلَا تُشۡطِطۡ﴾ أيْ لا تجرْ، والأصلُ فيهِ البعدُ منْ شطّتِ الدّارُ أيْ بعدتْ، وفي الحديثِ: «لها مهرُ مثلها لا وكسَ ولا شططَ» أيْ لا نقصانَ ولا زيادةَ. وفي التنزيل: ﴿لَّقَدۡ قُلۡنَآ إِذٗا شَطَطًا﴾ أيْ جوراً منَ القولِ وبعداً عنِ الحقِّ. وقوله: ﴿وَٱهۡدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ ٢٢﴾ أيْ أرشدنا إلى قصدِ السّبيلِ.

الثامنة– قولهُ تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَآ أَخِي لَهُۥ تِسۡعٌ وَتِسۡعُونَ نَعۡجَةً﴾ أيْ على ديني، وأشارَ إلى المدّعى عليهِ. وقيلَ: أخي أيْ صاحبي. ﴿لَهُۥ تِسۡعٌ وَتِسۡعُونَ نَعۡجَةً﴾ أي امرأة، والعربُ تكنّي عنِ المرأةِ بالنّعجةِ والشّاةِ، لما هيَ عليهِ منَ السّكونِ والمعجزةِ وضعفِ الجانبِ. قال الأعشى:

فرميتُ غفلةَ عينِهِ من شاتِهِ فأصبتُ حبَّةَ قلبِها وطحالِها

وقدْ يكنّى عنها بالبقرةِ والنّاقةِ، لأنَّ الكلَّ مركوبٌ.

وهذا منْ أحسنِ التّعريضِ حيثُ كنّى بالنّعاجِ عنِ النّساءِ. قالَ الحسينُ بنُ الفضلِ: هذا منَ الملكينِ تعريضٌ وتنبيهٌ كقولهمْ ضربَ زيدٌ عمراً، وما كانَ ضربٌ ولا نعاجٌ على التّحقيقِ، كأنّهُ قالَ: نحنُ خصمانِ هذهِ حالنا. قالَ أبو جعفرٍ النّحّاسُ: وأحسنَ ما قيلَ في هذا أنَّ المعنى، يقولُ: خصمانِ بغى بعضنا على بعضٍ على جهةِ المسألةِ، كما تقولُ: رجلٌ يقولُ لامرأتهِ كذا، ما يجب عليه؟

قلت: وقد تأوّلَ المزنيُّ صاحبُ الشّافعيِّ هذهِ الآيةَ، وقولهُ ﷺ في حديثِ ابنِ شهابٍ الّذي خرّجهُ الموطّأُ وغيرهُ: «هوَ لكَ يا عبدُ بنَ زمعةَ» على نحوِ هذا، قالَ المزنيُّ: يحتملُ هذا الحديثُ عندي- واللّهُ أعلمُ- أنْ يكونَ النّبيُّ ﷺ أجابَ عنِ المسألةِ فأعلمهمْ بالحكمِ أنَّ هذا يكونُ إذا ادّعى صاحبُ فراشٍ وصاحبُ زنى، لا أنّهُ قبلَ على عتبةَ قولَ أخيهِ سعدٍ، ولا على زمعةَ قولَ ابنهِ إنّهُ ولدُ زنى، لأنَّ كلَّ واحدٍ منهما أخبرَ عنْ غيرهِ. وقدْ أجمعَ المسلمونَ أنّهُ لا يقبلُ إقرارُ أحدٍ على غيرهِ. وقدْ ذكرَ اللّهُ سبحانهُ في كتابهِ مثلَ ذلكَ في قصّةِ داودَ والملائكةِ، إذْ دخلوا عليهِ ففزعَ منهمْ قالوا لا تخفْ خصمانِ ولمْ يكونوا خصمينِ، ولا كانَ لواحدٍ منهمْ تسعٌ وتسعونَ نعجةً، ولكنّهمْ كلّموهُ على المسألةِ ليعرفَ بها ما أرادوا تعريفهُ. فيحتملُ أنْ يكونَ النّبيُّ ﷺ حكمَ في هذهِ القصّةِ على المسألةِ، وإنْ لمْ يكنْ أحدٌ يؤنسني على هذا التّأويلِ في الحديثِ، فإنّهُ عندي صحيحٌ. واللّهُ أعلمُ.

التاسعةُ- في التّفسيرِ: لهُ تسعٌ وتسعونَ امرأةً. قالَ ابنُ العربيِّ: إنْ كانَ جميعهنَّ أحراراً فذلكَ شرعهُ، وإنْ كنَّ إماءً فذلكَ شرعنا. والظّاهرُ أنَّ شرعَ منْ تقدّمَ قبلنا لمْ يكنْ محصوراً بعددٍ، وإنّما الحصرُ في شريعةِ محمّدٍ ﷺ، لضعفِ الأبدانِ وقلّةِ الأعمارِ. ويجوزُ أنْ يقالَ: لمْ يكنْ لهُ هذا العددُ بعينهِ، ولكنَّ المقصودَ ضربُ مثلٍ، كما تقولُ: لوْ جئتني مائةَ مرّةٍ لمْ أقضِ حاجتكَ، أيْ مراراً كثيرةً.

قالَ ابنُ العربيِّ: قالَ بعضُ المفسّرينَ لمْ يكنْ لداودَ مائةُ امرأةٍ، وإنّما ذكرَ التّسعةَ والتّسعينَ مثلاً، المعنى: هذا غنيٌّ عنِ الزّوجةِ وأنا مفتقرٌ إليها. وهذا فاسدٌ منْ، وجهينِ:

أحدهما– أنَّ العدولَ عنِ الظّاهرِ بغيرِ دليلٍ لا معنى لهُ، ولا دليلَ يدلُّ على أنَّ شرعَ منْ قبلنا كانَ مقصوراً منَ النّساءِ على ما في شرعنا.

الثّاني: أنّهُ روى البخاريُّ وغيرهُ أنَّ سليمانَ قالَ: «لأطوفنَّ اللّيلةَ على مائةِ امرأةٍ تلدُ كلُّ أمرأةٍ غلامـاً يقاتلُ في سبيلِ اللّهِ ونسيَ أنْ يقولَ إنْ شاءَ اللّهُ» وهذا نصٌّ.

العاشرةُ– قولهُ تعالى: ﴿وَلِيَ نَعۡجَةٞ وَٰحِدَةٞ﴾ أي امرأة واحدة ﴿فَقَالَ أَكۡفِلۡنِيهَا﴾ أي انزلْ لي عنها حتّى أكفلها، أو اجعلها كفلي ونصيبي. ﴿وَعَزَّنِي فِي ٱلۡخِطَابِ﴾ أيْ غلبني، واختلفَ في سببِ الغلبةِ، فقيلَ: معناهُ غلبني ببيانهِ. وقيلَ: غلبني بسلطانهِ، لأنّهُ لمّا سألهُ لمْ يستطعْ خلافهُ.

الحاديةُ عشرةَ– قولهُ تعالى: ﴿قَالَ لَقَدۡ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعۡجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦۖ﴾ فكانتْ هذه خطيئةَ داودَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، لأنّهُ قالَ: لقدْ ظلمكَ منْ غيرِ تثبّتٍ ببيّنةٍ، ولا إقرارَ منَ الخصمِ، وهذا قولٌ، وسيأتي بيانهُ في المسألةِ بعدَ هذا، وهوَ حسنٌ إنْ شاءَ اللّهُ تعالى. وقالَ أبو جعفرٍ النّحّاسُ: فأمّا قولُ العلماءِ الّذينَ لا يدفعُ قولهمْ، منهمْ ابنُ مسعودٍ وابنُ عبّاسٍ، فإنّهمْ قالوا: ما زادَ داودُ عَلَيْهِ السَّلَامُ على أنْ قالَ للرّجلِ انزلْ لي عنِ امرأتكَ. قالَ أبو جعفرٍ: فعاتبهُ اللّهُ عزَّ وجلَّ على ذلكَ ونبّههُ عليهِ، وليسَ هذا بكبيرٍ منَ المعاصي، ومنْ تخطّى إلى غيرِ هذا فإنّما يأتي بما لا يصحُّ عنْ عالمٍ، ويلحقهُ فيهِ إثمٌ عظيمٌ. كذا قالَ: في كتابِ (إعرابِ القرآنِ) وقالَ: في كتابِ معاني القرآنِ لهُ بمثلهِ. قالَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: قدْ جاءتْ أخبارٌ وقصصٌ في أمرِ داودَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وأوريا، وأكثرها لا يصحُّ ولا يتصل إسناده، ولا ينبغي أن يجترئ على مثلها إلّا بعدَ المعرفةِ بصحّتها. وأصحُّ ما رويَ في ذلكَ ما رواهُ مسروقٍ عنْ عبدِ اللّهِ بنِ مسعودٍ قالَ: ما زادَ داودُ عَلَيْهِ السَّلَامُ على أنْ قالَ: ﴿أَكۡفِلۡنِيهَا﴾ أي انزلْ لي عنها، والمعنى عليهِ أنَّ داودَ عَلَيْهِ السَّلَامُ سألَ أوريّا أنْ يطلّقَ امرأتهُ، كما يسألُ الرّجلُ الرّجلَ أنْ يبيعهُ جاريتهُ، فنبهه الله عزَّ وجلَّ على ذلكَ، وعاتبهُ لمّا كانَ نبيـاً وكانَ لهُ تسعٌ وتسعونَ أنكرَ عليهِ أنْ يتشاغلَ بالدّنيا بالتّزيّدِ منها، فأمّا غيرُ هذا فلا ينبغي الاجتراءُ عليهِ.

قالَ ابنُ العربيِّ: وأمّا قولهمْ إنّها لمّا أعجبتهُ أمرَ بتقديمِ زوجها للقتلِ في سبيلِ اللّهِ فهذا باطلٌ قطعـاً، فإنَّ داودَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لمْ يكنْ ليريقَ دمهُ في غرضِ نفسهِ، وإنّما كانَ منَ الأمرِ أنَّ داودَ

قالَ لبعضِ أصحابهِ: انزلْ لي عنْ أهلكَ وعزمَ عليهِ في ذلكَ، كما يطلبُ الرّجلُ منَ الرّجلِ الحاجةَ برغبةٍ صادقةٍ، كانتْ في الأهل أو في المال، وقد قال سعيد بنُ الرّبيع لعبدِ الرّحمنِ بنِ عوفٍ حينَ آخى رسولُ اللّهِ ﷺ بينهما: إنَّ لي زوجتينِ أنزلُ لكَ عنْ أحسنهما، فقالَ: لهُ: باركَ اللّهُ لكَ في أهلكَ. وما يجوزُ فعلهُ ابتداءً يجوزُ طلبهُ، وليسَ في القرآنِ أنَّ ذلكَ كانَ، ولا أنّهُ تزوّجها بعدَ زوالِ عصمةِ الرّجلِ عنها، ولا ولادتها لسليمانَ، فعمّنْ يروى هذا ويسندُ؟! وعلى منْ في نقلهِ يعتمدُ، وليسَ يأثرهُ عنِ الثّقاتِ الأثباتِ أحدٌ.

وفي سورةِ الأحزابِ نكتة تدلُّ على أنَّ داودَ قدْ صارتْ لهُ المرأةُ زوجةً، وذلكَ قولهُ: ﴿ما كانَ على النّبيّ منْ حرجٍ فيما فرضَ اللّه لهُ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلُۚ﴾ يعني في أحدِ الأقوالِ: تزويجُ داودَ المرأةَ الّتي نظرَ إليها، كما تزوّجَ النّبيُّ ﷺ زينبَ بنتَ جحشٍ، إلّا أنَّ تزويجَ زينبَ كانَ منْ غيرِ سؤالِ الزّوجِ في فراقٍ، بلْ أمرهُ بالتّمسّكِ بزوجتهِ، وكانَ تزويجُ داودَ للمرأةِ بسؤالِ زوجها فراقها. فكانتْ هذهِ المنقبةُ لمحمّدٍ ﷺ على داودَ مضافةً إلى مناقبهِ العليّةِ ﷺ.

ولكنْ قدْ قيل: إنَّ معنى ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلُۚ﴾ تزويجُ الأنبياءِ بغيرِ صداقٍ منْ وهبتْ نفسها لهمْ منَ النّساءِ بغيرِ صداقٍ. وقيلَ: أرادَ بقولهِ: ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلُۚ﴾ أنَّ الأنبياءَ صلواتُ اللّهِ عليهمْ فرضَ لهمْ ما يمتثلونهُ في النّكاحِ وغيرهِ. وهذا أصحُّ الأقوالِ.

الثانية عشرةَ – قولهُ تعالى: ﴿قَالَ لَقَدۡ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعۡجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦۖ﴾ فيهِ الفتوى في النّازلةِ بعدَ السّماعِ منْ أحدِ الخصمينِ، وقبلَ أنْ يسمعَ منَ الآخرِ بظاهرِ هذا القولِ.

قالَ ابنُ العربيِّ: وهذا ممّا لا يجوزُ عندَ أحدٍ، ولا في ملّةٍ منَ المللِ، وإنّما تقديرُ الكلامِ أنَّ أحدَ الخصمينِ ادّعى والآخرَ سلّمَ في الدّعوى، فوقعتْ بعدَ ذلكَ الفتوى، وقيلَ: تقديرهُ لقدْ ظلمكَ إنْ كانَ كذلكَ.

وقيلَ: إنَّ ذلكَ لمْ يكنْ إلّا عنْ تقصيرٍ منهُ، فاستغفرَ ربّهُ وخرَّ راكعاً للّهِ تعالى شكراً على أنْ عصمهُ، بأنِ اقتصرَ على تظليمِ المشكوِّ، ولمْ يزدهُ على ذلكَ شيئاً منَ انتهارٍ أوْ ضربٍ

أَوْ غيرهما، فغفرَ اللّهُ لهُ ثمّ أقبلَ عليهِ يعاتبه، فقال: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ فبانَ بما قصّهُ اللّهُ تعالى منْ هذهِ الموعظةِ الّتي توخّاهُ بها بعدَ المغفرةِ، أنَّ خطيئتهُ إنّما كانتِ التّقصيرَ في الحكمِ، والمبادرةَ إلى تظليمِ منْ لمْ يثبتْ عندهُ ظلمهُ. ثمَّ جاءَ عنِ ابنِ عبّاسٍ أنّهُ قالَ: سجدها داوُدُ شكراً، وسجدها النّبيُّ ﷺ اتّباعاً، فثبتَ أنَّ السّجودَ للشّكرِ سنّةٌ متواترةٌ عنِ الأنبياءِ صلواتُ اللّهِ عليهمْ. وقوله: ﴿بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ﴾ أيْ بسؤالهِ نعجتكَ، فأضافَ المصدرَ إلى المفعولِ، وألقى الهاءَ منَ السّؤالِ، وهوَ كقولهِ تعالى: ﴿لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ﴾ أيْ منْ دعائهِ الخيرَ.

الثالثة عشرة- قولهُ تعالى: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ﴾ فيهِ وجهانِ: **أحدهما**: أنّهما الأصحابُ. **الثّاني**: أنّهما الشّركاءُ.

قلت: إطلاقُ الخلطاءِ على الشّركاءِ فيهِ بعدٌ، وقدِ اختلفَ العلماءُ في صفةِ الخلطاءِ فقالَ: أكثرُ العلماءِ: هوَ أنْ يأتيَ كلَّ واحدٍ بغنمهِ فيجمعهما راعٍ واحدٌ والدّلوُ والمراحُ. وقالَ طاوسٌ وعطاءٌ: لا يكونُ الخلطاءُ إلّا الشّركاءَ. وهذا خلاف الخبر، وهو قول ﷺ: «لا يجمعُ بينَ مفترقٍ ولا يفرّقُ بينَ مجتمعٍ خشيةَ الصّدقةِ وما كان من خليطين فإنهما يتراجعان بينهما بالسّويّةِ» ورويَ «فإنّهما يترادّانِ الفضلَ» ولا موضعَ لترادِّ الفضلِ بينَ الشّركاءِ، فاعلمهُ.

وأحكامُ الخلطةِ مذكورةٌ في كتبِ الفقهِ، ومالكٌ وأصحابهُ وجمعٌ منَ العلماءِ لا يرونَ «الصّدقةَ» على منْ ليسَ في حصّتهِ ما تجبُ فيهِ الزّكاةُ. وقالَ جمعٌ منَ العلماءِ منهمُ الشّافعيُّ: إذا كانَ في جميعها ما تجبُ فيهِ الزّكاةُ أخذتْ منهمُ الزّكاةُ. قالَ مالكٌ: وإنْ أخذَ المصّدّقُ بهذا ترادّوا بينهمْ للاختلافِ في ذلكَ، وتكونُ كحكمِ حاكمٍ اختلفَ فيهِ.

الرابعة عشرة- قولهُ تعالى: ﴿لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ أيْ يتعدّى ويظلمُ. ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ فإنّهمْ لا يظلمونَ أحداً. ﴿وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ يعني الصّالحينَ، أيْ وقليلٌ همْ فـ﴿مَا﴾ زائدةٌ. وقيلَ: بمعنى الّذينَ وتقديرهُ وقليلٌ الّذينَ همْ. وسمعَ عمرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ رجلاً يقولُ في دعائهِ: اللّهمَّ اجعلني منْ عبادكَ القليل. فقالَ: لهُ عمرُ: ما هذا الدّعاءُ. فقالَ: أردتُ قولَ اللّهِ عزَّ وجلَّ: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ فقالَ عمرُ:

كلُّ النّاسِ أفقهُ منكَ يا عمرُ.

الخامسة عشرةَ- قولهُ تعالى: ﴿وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّـٰهُ﴾ أي ابتليناهُ. ﴿وَظَنَّ﴾ معناهُ أيقنَ، فلا يجوزُ في المعاينِ أنْ يكونَ الظّنُّ إلّا بمعنى اليقينِ.

السادسة عشرةَ- قيل: قضى داودُ بينهما في المسجدِ، وليسَ في القرانِ ما يدلُّ على القضاءِ في المسجدِ إلّا هذهِ الآيةُ، وبها استدلَّ منْ قالَ بجوازِ القضاءِ في المسجدِ، ولوْ كانَ ذلكَ لا يجوزُ كما قالَ الشّافعيُّ لما أقرّهمْ داودُ على ذلكَ. ويقولُ: انصرفا إلى موضعِ القضاءِ. وكانَ النّبيُّ ﷺ والخلفاءُ يقضونَ في المسجدِ، وقدْ قالَ مالكٌ: القضاءُ في المسجدِ منَ الأمرِ القديمِ. يعني في أكثرِ الأمورِ. ولا بأسَ أنْ يجلسَ في رحبتهِ، ليصلَ إليهِ الضّعيفُ والمشركُ والحائضُ، ولا يقيمَ فيهِ الحدودَ، ولا بأسَ بخفيفِ الأدبِ.

السابعة عشرةَ- قالَ مالكٌ رحمهُ اللّهُ: وكانَ الخلفاءُ يقضونَ بأنفسهمْ، وأوّلُ منِ استقضى معاويةُ. قالَ مالكٌ: وينبغي للقضاةِ مشاورةُ العلماءِ. وقالَ عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ: لا يستقضي حتّى يكونَ عالماً بآثارِ منْ مضى، مستشيراً لذوي الرّأيِ، حليماً نزهاً. قالَ: ويكونُ ورعاً. قالَ مالكٌ: وينبغي أنْ يكونَ متيقّظاً كثيرَ التّحذّرِ منَ الحيلِ، وأنْ يكونَ عالماً بالشّروطِ، عارفاً بما لا بدَّ لهُ منهُ منَ العربيّةِ، فإنَّ الأحكامَ تختلفُ باختلافِ العباراتِ والدّعاوى والإقراراتِ والشّهاداتِ والشّروطِ الّتي تتضمّنُ حقوقَ المحكومِ لهُ.

الثامنة عشرةَ- قولهُ تعالى: ﴿فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ﴾ اختلفَ المفسّرونَ في الذّنبِ الّذي استغفرَ منهُ على أقوالٍ ستّةٍ: **الأوّلُ**: أنّهُ نظرَ إلى المرأةِ حتّى شبعَ منها. قالَ سعيدُ بنُ جبيرٍ: إنّما كانتْ فتنتهُ النّظرةَ. قالَ أبو إسحاقَ: ولمْ يتعمّدْ داودُ النّظرَ إلى المرأةِ لكنّهُ عاودَ النّظرَ إليها، فصارتِ الأولى لهُ والثّانيةُ عليهِ. **الثّاني**: أنّهُ أغزى زوجها في حملةِ التّابوتِ. **الثّالثُ**: أنّهُ نوى إنْ ماتَ زوجها أنْ يتزوّجها. **الرّابعُ**: أنَّ أوريّا كانَ خطبَ تلكَ المرأةَ، فلمّا غابَ خطبها داودُ فزوّجتْ منهُ لجلالتهِ، فاغتمَّ لذلكَ أوريّا. فعتبَ اللّهُ على داودَ إذْ لمْ يتركها لخاطبها. وقدْ كانَ عندهُ تسعٌ وتسعونَ امرأةً. **الخامسُ**: أنّهُ لمْ يجزعْ على قتلِ أوريّا، كما كانَ يجزعُ على منْ هلكَ منَ الجندِ، ثمَّ تزوّجَ امرأتهُ، فعاتبهُ اللّهُ تعالى على ذلكَ، لأنَّ ذنوبَ الأنبياءِ وإنْ صغرتْ فهيَ عظيمةٌ عندَ اللّهِ. **السّادسُ**: أنّهُ حكمَ لأحدِ الخصمينِ قبلَ أنْ يسمعَ منَ الآخرِ.

التاسعة عشرةَ- قولهُ تعالى: ﴿وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ﴾ أيْ خرَّ ساجداً، وقدْ يعبّرُ عنِ السّجودِ بالرّكوعِ. قالَ ابنُ العربيِّ: لا خلافَ بينِ العلماءِ أنَّ المرادَ بالركوع ها هنا السّجودُ، فإنَّ السّجودَ هوَ الميلُ، والرّكوعُ هوَ الانحناءُ، وأحدهما يدخلُ على الآخرِ، ولكنّهُ قدْ يختص كل واحد بهيئة، ثمَّ جاءَ هذا على تسميةِ أحدهما بالآخرِ، فسمّيَ السّجودُ ركوعـًا.

الموفّيةُ عشرينَ- واختلفَ في سجدةِ داودَ هلْ هيَ منْ عزائمِ السّجودِ المأمورِ بهِ في القرآنِ أمْ لا؟ فروى أبو سعيدٍ الخدريُّ أنَّ النّبيَّ ﷺ قرأَ على المنبرِ: ﴿صٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ذِي ٱلذِّكۡرِ﴾ فلمّا بلغَ السّجدةَ نزلَ فسجدَ وسجدَ النّاسُ معهُ، فلمّا كانَ يومٌ آخرَ قرأَ بها فتشزّنَ النّاسُ للسّجودِ، فقالَ: رسولُ اللّهِ ﷺ: «إنّها توبةُ نبيٍّ ولكنّي رأيتكمْ تشزّنتمْ للسّجودِ» ونزلَ وسجدَ. وهذا لفظُ أبي داودَ.

وفيَّ البخاريِّ وغيرهِ عنِ ابنِ عبّاسٍ أنّهُ قالَ: «ص» ليستْ منْ عزائمِ القرآنِ، وقدْ رأيتُ النّبيَّ ﷺ يسجدُ فيها. وقدْ رويَ منْ طريقٍ عنِ ابنِ مسعودٍ أنّهُ قالَ: «ص» توبةُ نبيٍّ ولا يسجدُ فيها، وعنِ ابنِ عبّاسٍ أنّها توبةُ نبيٍّ ونبيّكمْ ممّنْ أمرَ أنْ يقتديَ بهِ.

قالَ ابنُ العربيِّ: والّذي عندي أنّها ليستْ موضعَ سجودٍ، ولكنَّ النّبيَّ ﷺ سجدَ فيها فسجدنا بالاقتداءِ بهِ. ومعنى السّجودِ أنَّ داودَ سجدَ خاضعـًا لربّهِ، معترفـًا بذنبهِ تائبـًا منْ خطيئتهِ، فإذا سجدَ أحدٌ فيها فليسجدْ بهذهِ النّيّةِ، فلعلَّ اللّهَ أنْ يغفرَ لهُ بحرمةِ داودَ الّذي اتّبعهُ، وسواءٌ قلنا إنَّ شرعَ منْ قبلنا شرعٌ لنا أمْ لا؟ فإنَّ هذا أمرٌ مشروعٌ في كلِّ أمّةٍ لكلِّ أحدٍ.

الحاديةُ والعشرونَ- قولهُ: ﴿وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ﴾ فيهِ دلالةٌ على أنَّ السّجودَ للشّكرِ مفرداً لا يجوزُ، لأنّهُ ذكرَ معهُ الرّكوعَ، وإنّما الّذي يجوزُ أنْ يأتيَ بركعتينِ شكراً فأمّا سجدةٌ مفردةٌ فلا، وذلكَ أنَّ البشاراتِ كانتْ تأتي رسولَ اللّهِ ﷺ والأئمّةَ بعدهُ، فلمْ ينقلْ عنْ أحدٍ منهمْ أنّهُ سجدَ شكراً، ولوْ كانَ ذلكَ مفعولاً لهمْ لنقلَ نقلاً متظاهراً لحاجةِ العامّةِ إلى جوازه وكونه قربة.

قلت: وفي سننِ ابنِ ماجهْ عنْ عبدِ اللّهِ بنِ أبي أوفى أنَّ رسولَ اللّهِ ﷺ صلّى يومَ بُشّرَ برأسِ أبي جهلٍ ركعتينِ. وخرّجَ منْ حديثِ أبي بكرةَ أنَّ النّبيَّ ﷺ كانَ إذا أتاهُ أمرٌ يسرّهُ- أوْ

يسرُّ بهِ- خرَّ ساجداً شكراً للّهِ. وهذا قولُ الشّافعيِّ وغيرِه.

الثانية والعشرونَ- خرّجَ ابنُ ماجهْ في سننهِ عنِ ابنِ عبّاسٍ قالَ: كنتُ عندَ النّبيِّ ﷺ، فأتاهُ رجلٌ فقالَ: إنّي رأيتُ البارحةَ فيما يرى النّائمُ، كأنّي أصلّي إلى أصلِ شجرةٍ، فقرأتُ السّجدةَ فسجدتُ فسجدتِ الشّجرةُ لسجودي، فسمعتها تقولُ: اللّهمَّ احططْ بها عنّي وزراً، واكتبْ لي بها أجراً، واجعلها لي عندكَ ذخراً. قالَ ابنُ عبّاسٍ فرأيتُ رسولَ اللّهِ ﷺ قرأَ: «السّجدةَ» فسجدَ، فسمعتهُ يقولُ في سجودهِ مثلَ الّذي أخبرهُ الرّجلُ عنْ قولِ الشّجرةِ.

الثالثة والعشرونَ- قولهُ تعالى: ﴿فَغَفَرۡنَا لَهُۥ ذَٰلِكَۖ﴾ أيْ ذنبهُ. قيل: ﴿فَغَفَرۡنَا لَهُۥ ذَٰلِكَۖ﴾ تامٌّ، ثمَّ تبتدئُ ﴿وَإِنَّ لَهُۥ﴾ وقيل: ويجوزُ الوقفُ على ﴿فَغَفَرۡنَا لَهُۥ﴾ ثمَّ تبتدئُ ﴿ذَٰلِكَۖ وَإِنَّ لَهُۥ﴾ كقولهِ: ﴿هَٰذَاۚ وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ﴾ أي الأمر ذلك.

الرابعة والعشرونَ- قولهُ تعالى: ﴿وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلۡفَىٰ وَحُسۡنَ مَـَٔابٖ﴾ ﴿لَزُلۡفَىٰ﴾ قربةٌ بعدَ المغفرةِ، وقيلَ: الزّلفى الدّنوُّ منَ اللّهِ عزَّ وجلَّ يومَ القيامةِ.

قولهُ تعالى: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلۡنَٰكَ خَلِيفَةٗ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱحۡكُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلۡهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدُۢ بِمَا نَسُواْ يَوۡمَ ٱلۡحِسَابِ ٢٦﴾، فيهِ خمسُ مسائلَ:

الأولى: قولهُ تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلۡنَٰكَ خَلِيفَةٗ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ أيْ ملّكناكَ لتأمرَ بالمعروفِ وتنهى عنِ المنكرِ، فتخلفُ منْ كانَ قبلكَ منَ الأنبياءِ والأئمّةِ الصّالحينَ وقدْ مضى في البقرةِ القولُ في الخليفة وأحكامه مستوفى والحمد لله.

الثانية- قولهُ تعالى: ﴿فَٱحۡكُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَقِّ﴾ أيْ بالعدلِ وهوَ أمرٌ على الوجوبِ ﴿وَلَا تَتَّبِعِ ٱلۡهَوَىٰ﴾ أيْ لا تقتدِ بهواكَ المخالفِ لأمرِ اللّهِ ﴿فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾ أيْ عنْ طريقِ الجنّةِ. ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أيْ يحيدونَ عنها ويتركونها ﴿لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدُۢ﴾ في النّارِ ﴿بِمَا نَسُواْ يَوۡمَ ٱلۡحِسَابِ﴾ أيْ بما تركوا منْ سلوكِ طريقِ اللّهِ، فقولهُ: ﴿نَسُواْ﴾ أيْ تركوا الإيمانَ بهِ، أوْ تركوا العمل به فصاروا كالنّاسينَ. ثمَّ قيل: هذا لداودَ لمّا أكرمهُ اللّهُ بالنّبوّةِ. وقيلَ: بعدَ أنْ تابَ عليهِ وغفرَ خطيئتهُ.

الثالثة- الأصلُ في الأقضيةِ قولهُ تعالى: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ﴾، وقولهُ: ﴿وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾، وقولهُ تعالى: ﴿لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ﴾، وقولهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ﴾ الآيةَ. وقدْ تقدّمَ الكلامُ فيهِ.

الرابعة- في قولهِ تعالى: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ بيانِ وجوبِ الحكمِ بالحقِّ، وألّا يميلَ إلى أحدِ الخصمينِ لقرابةٍ أوْ رجاءِ نفعٍ، أوْ سببٍ يقتضي الميلَ منْ صحبةٍ أو صداقة، أوْ غيرهما.

الخامسة- هذهِ الآيةُ تمنعُ منْ حكمِ الحاكمِ بعلمهِ، لأنَّ الحكّامَ لوْ مكّنوا أنْ يحكموا بعلمهمْ لمْ يشأْ أحدهمْ إذا أرادَ أنْ يحفظَ وليّهُ ويهلكَ عدوّهُ إلّا ادّعى علمهُ فيما حكمَ بهِ. ونحوَ ذلكَ رويَ عنْ جماعةٍ منَ الصّحابةِ منهمْ أبو بكرٍ، قالَ: لوْ رأيتُ رجلاً على حدٍّ منْ حدودِ اللّهِ ما أخذتهُ حتّى يشهدَ على ذلكَ غيري. ورويَ أنَّ امرأةً جاءتْ إلى عمرَ فقالتْ لهُ: احكمْ لي على فلانٍ بكذا فإنّكَ تعلمُ ما لي عندهُ. فقالَ: لها: إنْ أردتِ أنْ أشهدَ لكِ فنعمْ وأمّا الحكمُ فلا. وفي صحيحِ مسلمٌ عنِ ابنِ عبّاسٍ: أنَّ رسولَ اللّهِ ﷺ قضى بيمينٍ وشاهدٍ، ورويَ عنِ النّبيِّ ﷺ أنّهُ اشترى فرساً فجحدهُ البائعُ، فلمْ يحكمْ عليهِ بعلمهِ وقالَ: «منْ يشهدُ لي» فقامَ خزيمةُ فشهدَ فحكمَ. خرّجَ الحديثَ أبو داودَ وغيرهُ وقدْ مضى في «البقرة».

قولهُ تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا﴾ أيْ هزلاً ولعباً. أيْ ما خلقناهما إلّا لأمرٍ صحيحٍ وهوَ الدّلالةُ على قدرتنا. ﴿ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أيْ حسبانُ الّذينَ كفروا. ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾﴾ ثم وبخهم فقالَ: ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ والميمُ صلةٌ تقديرهُ، أنجعلُ الّذينَ آمنوا وعملوا الصّالحاتِ ﴿كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ فكانَ في هذا ردٌّ على المرجئةِ، لأنّهم يقولونَ: يجوزُ أنْ يكون المفسد كالصالح أو أرفع درجة منه. وبعده أيضا: ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾﴾ أيْ أنجعلُ أصحابَ محمّدٍ ﷺ كالكفّارِ. وقيلَ هوَ عامٌّ في المسلمينَ المتّقينَ والفجّارِ الكافرينَ وهوَ أحسنُ، وهوَ ردٌّ على منكري البعثِ الذين جعلوا مصير المطيع والعاصي إلى شيء واحد.

قولهُ تعالى: ﴿كِتَٰبٌ﴾ أيْ هذا كتابٌ ﴿أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ﴾ يا محمد ﴿لِّيَدَّبَّرُوٓاْ﴾ أيْ ليتدبّروا فأدغمتِ التّاءُ في الدّالِ. وفي هذا دليلٌ على وجوبِ معرفةِ معاني القرآنِ، ودليلٌ على أنَّ التّرتيلَ أفضلُ منَ الهذِّ، إذْ لا يصحُّ التّدبّرُ معَ الهذِّ على ما بيّنّاهُ في كتابِ التّذكارِ.

﴿وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُوا الأَلْبَاب﴾ أيْ أصحابُ العقولِ واحدها لبٌّ.

قولهُ تعالى: ﴿وَوَهَبۡنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيۡمَٰنَۚ نِعۡمَ ٱلۡعَبۡدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ٣٠﴾ لمّا ذكرَ داودَ ذكرَ سليمانَ وَ ﴿أَوَّابٍ﴾ معناهُ مطيعٌ. ﴿إِذۡ عُرِضَ عَلَيۡهِ بِٱلۡعَشِيِّ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلۡجِيَادُ ٣١﴾ يعني الخيلَ جمعُ جوادٍ للفرسِ إذا كانَ شديدَ الحُضْرِ، كما يقالُ للإنسانِ جوادٌ إذا كانَ كثيرَ العطيّةِ غزيرها، يقالُ: قومٌ أجوادٌ وخيلٌ جيادٌ، جادَ الرّجلُ بمالهِ يجودُ جوداً فهوَ جوادٌ، وقيلَ: إنّها الطّوالُ الأعناقِ مأخوذٌ منَ الجيدِ وهوَ العنقُ، لأنَّ طولَ الأعناقِ في الخيلِ منْ صفاتِ فراهتها. وفي الصّافناتُ أيضاً وجهانِ:

أحدهما: أنَّ صفونها قيامها، والصّافنُ في كلامِ العربِ الواقفُ منَ الخيلِ أوْ غيرها.

الثاني: أن صفونها رفع إحدى اليدين على طرف الحافر حتى يقوم على ثلاث.

﴿فَقَالَ إِنِّيٓ أَحۡبَبۡتُ حُبَّ ٱلۡخَيۡرِ عَن ذِكۡرِ رَبِّي﴾ يعني بالخيرِ الخيلَ، والعربُ تسمّيها كذلكَ، وتعاقبُ بينَ الرّاءِ واللّامِ، فتقولُ: انهملتِ العينُ وانهمرتْ، وختلتْ وخترتْ إذا خدعتْ، وفي الحديثِ: «الخيلُ معقودٌ في نواصيها الخيرُ إلى يومِ القيامةِ» فكأنّها سمّيتْ خيراً لهذا، وقيلَ: إنّما سمّيتْ خيراً لما فيها منَ المنافعِ.

وسمّيَ خيلاً، لأنّها موسومةٌ بالعزِّ. وسمّيَ فرساً لأنّهُ يفترسُ مسافاتِ الجوِّ افتراسَ الأسدِ وثباناً، ويقطعها كالالتهامِ بيديهِ على كلِّ شيءٍ خبطا وتناولا. ﴿حَتَّىٰ تَوَارَتۡ بِٱلۡحِجَابِ ٣٢﴾ يعني الشّمسَ كنايةٌ عنْ غيرِ مذكورٍ، مثلَ قولهِ تعالى: ﴿مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهۡرِهَا مِن دَآبَّةٍ﴾ أيْ على ظهرِ الأرضِ، وقالَ اللّهُ تعالى: ﴿فَلَوۡلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلۡحُلۡقُومَ﴾ أيْ بلغتِ النّفسُ الحلقومَ وقال تعالى: ﴿إِنَّهَا تَرۡمِي بِشَرَرٖ كَٱلۡقَصۡرِ﴾ ولمْ يتقدّمْ للنّارِ ذكرٌ. وقالَ الزّجّاجُ: إنّما يجوزُ الإضمارُ إذا جرى ذكرُ الشّيءِ أوْ دليلُ الذّكرِ، وقدْ جرى هاهنا الدّليلُ وهوَ قولهُ: ﴿بِٱلۡعَشِيِّ﴾. والعشيُّ ما بعدَ الزّوالِ، والتّواري الاستتارُ عنِ الأبصارِ، والحجابُ

جبلٌ، وقيلَ: الحجابُ اللّيلُ سمّيَ حجاباً، لأنّهُ يسترُ ما فيهِ. وقيلَ: ﴿حَتَّىٰ تَوَارَتْ﴾ أي الخيلُ في المسابقةِ. وذلكَ أنَّ سليمانَ كانَ لهُ ميدانٌ مستديرٌ يسابقُ فيهِ بينَ الخيلِ، حتّى توارتْ عنهُ وتغيبُ عنْ عينهِ في المسابقةِ، لأنَّ الشّمسَ لمْ يجرِ لها ذكرٌ.

﴿رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ ﴿٣٣﴾﴾ أيْ فأقبلَ يمسحها مسحاً، ﴿بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ ﴿٣٣﴾﴾ وفي معناهُ قولانِ:

أحدهما: أنّهُ أقبلَ يمسحُ سوقها وأعناقها بيدهِ ويكشفُ الغبارَ عنها حباً وإكراماً منهُ لها، ولم يقتلها لأن ذلكَ إفسادُ المالِ ومعاقبةُ منْ لا ذنبَ لهُ.

وقيلَ: أمرَ بضربِ عراقيبها وأعناقها، ولمْ يكنْ ذلكَ معاقبةً للأفراسِ، إذْ ذبحُ البهائمِ جائزٌ إذا كانتْ مأكولةً، بلْ عاقبَ نفسهُ حتّى لا تشغلهُ الخيلُ بعدَ ذلكَ عنِ الصّلاةِ. ولعلّهُ عرقبها ليذبحها فحبسها بالعرقبةِ عنِ النّفارِ، ثمَّ ذبحها في الحالِ، ليتصدّقَ بلحمها، أوْ لأنَّ ذلكَ كانَ مباحاً في شرعهِ فأتلفها لمّا شغلتهُ عنْ ذكرِ اللّهِ، حتّى يقطعَ عنْ نفسهِ ما يشغلهُ عنِ اللّهِ، فأثنى اللّهُ عليهِ بهذا، وبيّنَ أنّهُ أثابهُ بأنْ سخّرَ لهُ الرّيحَ، فكانَ يقطعُ عليها منَ المسافةِ في يومٍ ما يقطعُ مثلهُ على الخيلِ في شهرينِ غدواً ورواحاً.

قلت: وقدِ استدلَّ الشّبليُّ وغيرهُ منَ الصّوفيّةِ في تقطيعِ ثيابهمْ وتخريقها بفعلِ سليمانَ، هذا. وهوَ استدلالٌ فاسدٌ، لأنّهُ لا يجوزُ أنْ ينسبَ إلى نبيٍّ معصومٍ أنّهُ فعلَ الفسادَ.

والمفسّرونَ اختلفوا في معنى الآيةِ، فمنهمْ منْ قالَ: مسحَ على أعناقها وسوقها إكراماً لها، وقالَ: أنتِ في سبيلِ اللّهِ، فهذا إصلاحٌ. ومنهمْ منْ قالَ: عرقبها ثمَّ ذبحها، وذبحُ الخيلِ وأكلُ لحمها جائزٌ. وعلى هذا فما فعلَ شيئاً عليهِ فيهِ جناحٌ. فأمّا إفسادُ ثوبٍ صحيحٍ لا لغرضٍ صحيحٍ فإنّهُ لا يجوزُ.

قولهُ تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ﴾ ﴿فَتَنَّا﴾ أي ابتلينا وعاقبنا. ﴿وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِ جَسَدًا﴾ الجسدَ ولدٌ ولدَ لسليمانَ، ففي صحيحِ البخاريِّ ومسلمٌ عنْ أبي هريرةَ قالَ: قالَ رسولُ اللّهِ ﷺ: «قالَ سليمانُ لأطوفنَّ اللّيلةَ على تسعينَ امرأةً كلّهنَّ تأتي بفارسٍ يجاهدُ في سبيلِ اللّهِ فقالَ: لهُ صاحبهُ قلْ إنْ شاءَ اللّهُ، فلمْ يقلْ إنْ شاءَ اللّهُ فطافَ عليهنَّ جميعاً فلمْ

تحملْ منهنَّ إلّا امرأةٌ واحدةٌ جاءتْ بشقِّ رجلٍ، وايمُ الّذي نفسُ محمّدٍ بيدهِ لوْ قالَ إنْ شاءَ الله لجاهدوا في سبيلِ اللّهِ فرسانًا أجمعونَ». ﴿ثُمَّ أَنَابَ ۝٣٤﴾ أيْ رجعَ إلى اللّهِ وتابَ.

قولهُ تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِي﴾ ذنبي ﴿وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِيٓ إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ۝٣٥﴾ يقالُ: كيفَ أقدمَ سليمانُ على طلبِ الدّنيا معَ ذمّها منَ اللّهِ تعالى، وبغضهِ لها، وحقارتها لديهِ؟

فالجوابُ: أنَّ ذلكَ محمولٌ عندَ العلماءِ على أداءِ حقوقِ اللّهِ تعالى وإقامةِ حدودهِ، وتعظيمِ شعائرهِ، وظهورِ عبادتهِ، ولزومِ طاعتهِ، وحوشي سليمانُ عَلَيْهِ السَّلَامُ أنْ يكونَ سؤالهُ طلبًا لنفسِ الدّنيا، لأنّهُ هوَ والأنبياءُ أزهدُ خلقِ اللّهِ فيها، وإنّما سألَ مملكتها للّهِ، كما سألَ نوحٌ دمارها وهلاكها للّهِ، فكانا محمودينِ مجابينِ إلى ذلكَ.

وفي الصّحيحِ: «لكلِّ نبيٍّ دعوةٌ مستجابةٌ فتعجّلَ كلُّ نبيٍّ دعوتهُ» الحديثُ.

قولهُ تعالى: ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً﴾ أيْ ليّنةً معَ قوّتها وشدّتها حتّى لا تضرَّ بأحدٍ، وتحملهُ بعسكرهِ وجنودهِ وموكبهِ ﴿حَيْثُ أَصَابَ ۝٣٦﴾ أيْ أرادَ، والعربُ تقولُ: أصابَ الصّوابَ وأخطأَ الجوابَ. أيْ أرادَ الصوابَ وأخطأَ الجوابَ، وهوَ مأخوذٌ منْ إصابةِ السّهمِ الغرضَ المقصودَ. ﴿وَٱلشَّيَٰطِينَ﴾ أيْ وسخّرنا لهُ الشّياطينَ وما سخّرتْ لأحدٍ قبلهُ. ﴿كُلَّ بَنَّآءٍ﴾ بدلٌ منَ الشّياطينِ أيْ كلَّ بنّاءٍ منهمْ، يبنونَ لهُ ما يشاءُ. ﴿وَغَوَّاصٍ ۝٣٧﴾ يعني في البحرِ يستخرجونَ لهُ الدّرَّ ﴿وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ۝٣٨﴾ قرنهمْ في سلاسلِ الحديدِ، ولمْ يكنْ يفعلُ ذلكَ إلّا بكفّارهمْ، فإذا آمنوا أطلقهمْ ولمْ يسخّرهمْ.

قولهُ تعالى: ﴿هَٰذَا عَطَآؤُنَا﴾ الإشارةُ بهذا إلى الملكِ، وقيلَ: إلى ما أعطيهُ منَ القوّةِ على الجماعِ، وكانتْ لهُ ثلاثمائةِ امرأةٍ وسبعمائةِ سرّيّةٍ، وكانَ في ظهرهِ ماء مائةِ رجلٍ، رواهُ عكرمةُ عن ابنِ عباسٍ. ومعناه في البخاري. وعلى هذا ﴿فَٱمْنُنْ﴾ منَ المنيِّ، يقالُ: أمنى يمني ومنى يمني لغتانِ، أيْ جامعْ منْ شئتَ منْ نسائكَ، واتركْ جماعَ منْ شئتَ منهنَّ لا حسابَ عليكَ. ﴿وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا﴾ في الآخرةِ أيضا ﴿لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ۝٤٠﴾ أيْ قربةٌ وحسنُ مرجعٍ.

قولهُ تعالى: ﴿وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَآ أَيُّوبَ﴾ أمرٌ للنّبيِّ ﷺ بالاقتداءِ بهمْ في الصّبرِ على المكارهِ. ﴿أَيُّوبَ﴾ بدلٌ. ﴿إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بِنُصۡبٖ وَعَذَابٍ ۝٤١﴾ وفي قراءة: «بنَصَب»، وعن أبي جعفر: «بنُصُبٍ». ونصْب ونصَب كحزْن وحزَن. ويجوز أن يكون نُصْب جمع نَصَب كوُثْن ووثن. وقيل: النُصْب الشر والبلاء، والنّصَب التعب والإعياء.

قيل: هو ما يلحقه من وسوسته لا غير. **وقيل**: النُصْب ما أصابهُ في بدنهِ، والعذابَ ما أصابهُ في مالهِ. وذكروا كلاماً طويلاً في سبب بلائه ومراجعته لربه وتبرمه من البلاء الذي نزلَ بهِ.

قال القاضي: والذي جرأهم على ذلك وتذرعوا به إلى ذكر هذا قوله تعالى ﴿إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بِنُصۡبٖ وَعَذَابٍ ۝٤١﴾ فلما رأوه قد شكا مس الشيطان أضافوا إليه من رأيهم ما سبق - يعني من تسلط الشيطان والعفاريت عليه مأخوذ عن الإسرائيليات- قال: وليس الأمر كما زعموا والأفعال كلّها خيرها وشرّها في إيمانها وكفرها، طاعتها وعصيانها، خالقها هوَ اللّهُ لا شريكَ لهُ في خلقه ولا في خلق شيء غيرها، ولكنَّ الشّرَّ لا ينسبُ إليهِ ذكراً، وإنْ كانَ موجوداً منهُ خلقاً، أدباً أدّبنا بهِ، وتحميداً علّمناهُ. وكانَ منْ ذكرِ محمّدٍ ﷺ لربّهِ: «والخيرُ في يديكَ والشّرُّ ليسَ إليكَ» على هذا المعنى. ومنهُ قولُ إبراهيمَ: ﴿وَإِذَا مَرِضۡتُ فَهُوَ يَشۡفِينِ﴾ وقالَ الفتى للكليمِ: ﴿وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾.

قالَ ابنُ العربيِّ: ولمْ يصحَّ عنْ أيّوبَ في أمرِهِ إلّا ما أخبرنا اللّهُ عنهُ في كتابهِ في آيتينِ، الأولى: قولهُ تعالى: ﴿وَأَيُّوبَ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ﴾ والثّانيةُ في: «ص» ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بِنُصۡبٖ وَعَذَابٍ﴾. وأمّا النّبيُّ ﷺ فلمْ يصحَّ عنهُ أنّهُ ذكرهُ بحرفٍ واحدٍ إلّا قولهُ: «بينا أيّوبُ يغتسلُ إذْ خرَّ عليهِ رجلٌ منْ جرادٍ منْ ذهبٍ» الحديثُ.

وفي الصّحيحِ واللّفظُ للبخاريِّ أنَّ ابنَ عبّاسٍ قالَ: يا معشرَ المسلمينَ تسألونَ أهلَ الكتابِ وكتابكمُ الّذي أنزلَ على نبيّكمْ أحدثُ الأخبارِ باللّهِ، تقرأونهُ محضاً لمْ يُشَبْ، وقدْ

حدّثكمْ أنَّ أهلَ الكتابِ قدْ بدّلوا منْ كتبِ اللّهِ وغيّروا وكتبوا بأيديهمُ الكتبَ، فقالوا: ﴿هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُواْ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ ولا ينهاكمْ ما جاءكمْ منَ العلمِ عنْ مسألتهمْ، فلا واللّهِ ما رأينا رجلاً منهمْ يسألكمْ عنِ الّذي أنزلَ عليكمْ.

وقدْ أنكرَ النّبيّ ﷺ في حديثِ الموطّأِ على عمرَ قراءتهُ التّوراةَ.

قولهُ تعالى: ﴿ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ﴾ الرّكضُ الدّفعُ بالرّجلِ، وفي الكلامِ إضمارٌ أيْ قلنا لهُ: ﴿ٱرْكُضْ﴾ ﴿هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ۝٤٢﴾ أيْ فركضَ فنبعتْ عينُ ماءٍ فاغتسلَ بهِ، فذهبَ الدّاءُ منْ ظاهرهِ، ثمّ شربَ منهُ فذهبَ الدّاءُ منْ باطنهِ.

قولهُ تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ﴾ تقدّمَ في «الأنبياءِ» الكلامُ فيهِ. ﴿رَحْمَةً مِّنَّا﴾ أيْ نعمةً منّا. ﴿وَذِكْرَىٰ لِأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۝٤٣﴾ أي عبرة لذوي العقول.

قولهِ تعالى: ﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ ۗ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ۝٤٤﴾، فيهِ سبعُ مسائلَ:

الأولى: كانَ أيّوبُ حلفَ في مرضهِ أنْ يضربَ امرأتهُ مائةَ جلدةٍ، وفي سببِ ذلكَ أقوال منها أنها باعتْ ذوائبها برغيفينِ إذْ لمْ تجدْ شيئًا تحملهُ إلى أيّوبَ، وكانَ أيّوبُ يتعلّقُ بها إذا أرادَ القيامَ، فلهذا حلفَ ليضربنّها، فلمّا شفاهُ اللّهُ أمرهُ أنْ يأخذ ضغثا فيضرب به، فأخذَ شماريخَ قدرَ مائةٍ فضربها ضربةً واحدةً.

الثانية– تضمّنتْ هذهِ الآيةُ جوازَ ضربِ الرّجلِ امرأتهُ تأديبًا. وذلكَ أنَّ امرأةَ أيّوبَ أخطأتْ فحلفَ ليضربنّها مائةً، فأمرهُ اللّهُ تعالى أنْ يضربها بعثكولٍ منْ عثاكيلِ النّخلِ، وهذا لا يجوزُ في الحدودِ. إنّما أمرهُ اللّهُ بذلكَ لئلّا يضربَ امرأتهُ فوقَ حدِّ الأدبِ. وذلكَ أنّهُ ليسَ للزّوجِ أنْ يضربَ امرأتهُ فوقَ حدِّ الأدبِ، ولذا قال ﷺ: «واضروهن ضربا غير مبرح».

الثالثة– واختلفَ العلماءُ في هذا الحكم هل هو عام أو خاص بأيّوبَ وحدهُ:

فقيل: هو عامٌّ للنّاسِ وحكمٌ باقٍ، وأنّهُ إذا ضربَ بمائةِ قضيبٍ ونحوهُ ضربةً واحدةً برَّ، وقيلَ لعطاءٍ هلْ يعملُ بهذا اليومِ؟ فقالَ: ما أنزلَ القرآنُ إلّا ليعملَ بهِ ويتّبعَ. وروى نحوهُ عن

الشّافعيُّ.

وقيل: هي لأيّوبَ خاصّةٌ، وهذا مذهبُ أصحابِ الرّأيِ، وكذلكَ روي عنْ مالكٍ أن منْ حلفَ ليضربنَّ عبدهُ مائةً فجمعها فضربهُ بها ضربةً واحدةً لمْ يبرَّ. قالَ بعضُ علمائنا: يريدُ مالكٌ قولهُ تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًاۚ﴾ أيْ إنَّ ذلكَ منسوخٌ بشريعتنا،

وقدِ احتجَّ الشّافعيُّ لقولهِ بحديثٍ خرّجهُ أبو داودَ في سننهِ عن أبي أمامةَ بن سهلِ بنِ حنيفٍ أنّهُ أخبرهُ بعضُ أصحابِ النّبيِّ ﷺ منَ الأنصارِ أنّهُ اشتكى رجلٌ منهمْ حتّى أضنى، فعادَ جلدةً على عظمٍ، فدخلتْ عليهِ جاريةٌ لبعضهمْ فهشَّ لها فوقعَ عليها، فلمّا دخلَ عليهِ رجالُ قومهِ يعودونهُ أخبرهمْ بذلكَ، وقالَ: استفتوا لي رسولُ اللّهِ ﷺ، فإنّي قدْ وقعتُ على جاريةٍ دخلتْ عليَّ. فذكروا ذلكَ لرسولِ اللّهِ ﷺ، وقالوا: ما رأينا بأحدٍ منَ النّاسِ منَ الضّرِّ مثلَ الّذي هوَ بهِ، لوْ حملناهُ إليكَ لتفسّختْ عظامهُ، ما هوَ إلّا جلدٌ على عظمٍ، فأمرَ رسولُ اللّهِ ﷺ أن يأخذوا لهُ مائةَ شمراخٍ فيضربوهُ بها ضربةً واحدةً.

قالَ الشّافعيُّ: إذا حلفَ ليضربنَّ فلاناً مائةَ جلدةٍ، أوْ ضرباً ولمْ يقلْ ضرباً شديداً ولمْ ينوِ ذلكَ بقلبهِ يكفيهِ مثلُ هذا الضّربِ المذكورِ في الآيةِ ولا يحنثُ.

قالَ ابنُ المنذرِ: وإذا حلفَ الرّجلُ ليضربنَّ عبدهُ مائةً فضربهُ ضرباً خفيفاً فهوَ بارٌّ عندَ الشّافعيِّ وأصحابِ الرّأيِ. وقالَ مالكٌ: ليسَ الضّربُ إلّا الضّربَ الّذي يؤلمُ.

الرابعة- قولهُ تعالى: ﴿وَلَا تَحْنَثْۗ﴾ دليلٌ على أن الاستثناء في اليمين لا يرفع حكمها إذا كانَ متراخياً. وقدْ مضى، القولُ فيهِ في المائدةِ، يقالُ: حنثَ في يمينهِ يحنثُ إذا لمْ يبرَّ بها. وعندَ الكوفيّينَ الواوُ مقحمةٌ أيْ فاضربْ لا تحنثْ.

الخامسة- قالَ ابنُ العربيِّ: قولهُ تعالى: ﴿فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْۗ﴾ يدلُّ على أحدِ وجهينِ: إمّا أنْ يكونَ أنّهُ لمْ يكنْ في شرعهمْ كفّارةٌ، وإنّما كانَ البرُّ والحنثُ. **والثّاني**: أنْ يكونَ صدرَ منهُ نذرٌ لا يمينَ وإذا كانَ النّذرُ معيّناً فلا كفّارةَ فيهِ عندَ مالكٍ وأبي حنيفةَ، وقالَ الشّافعيُّ: في كلِّ نذرٍ كفّارةٌ.

السّادسةُ- استدلَّ بعضُ جهّالِ المتزهّدةِ وطغامِ المتصوّفةِ بقولهِ تعالى لأيّوبَ: ﴿ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ﴾ على جوازِ الرّقصِ.

قالَ أبو الفرج الجوزيِّ: وهذا احتجاجٌ باردٌ، لأنّهُ لوْ كانَ أمرَ بضربِ الرّجلِ فرحـًا كانَ لهمْ فيهِ شبهة، وإنما أمر بضرب الرجل لينبعَ الماءُ.

قالَ ابنُ عقيل: أينَ الدّلالةُ في مبتلى أمرَ عندَ كشفِ البلاءِ بأنْ يضربَ برجلهِ الأرضَ لينبعَ الماءُ إعجازاً منَ الرقص، ولئن جاز أن يكون تحريك رجل قد انحلها تحكم الهوام دلالة على جواز الرقص في الإسلام جاز أن يجعل قولهُ سبحانهُ لموسى: ﴿ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ﴾ دلالةً على ضربِ الجمادِّ بالقضبانِ! نعوذُ باللّهِ منَ التّلاعبِ بالشّرعِ.

وقدِ احتجَّ بعضُ قاصريهمْ بأنَّ رسولَ اللّهِ ﷺ قال لعلي: «أنت مني وأنا منك» فحَجَل. وقال لجعفر: «أشبهت خلقي وخلقي» فحَجَل. وقال لزيد: «أنت أخونا ومولانا» فحَجَل. ومنهمْ منِ احتجَّ بأنَّ الحبشةَ زفنتْ والنّبيُّ ﷺ ينظرُ إليهمْ.

والجوابُ- أما الحجل فهو نوع من المشي يفعلُ عندَ الفرحِ فأينَ هوَ والرّقصُ، وكذلكَ زَفْن الحبشة نوع من الشيء يفعلُ عندَ اللّقاءِ للحربِ.

السابعة- قولهُ تعالى: ﴿إِنَّا وَجَدْنَـٰهُ صَابِرًا﴾ أيْ على البلاءِ ﴿نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾﴾ أيْ توّابٌ رجّاعٌ مطيعٌ.

وسئل سفيانُ عنْ عبدينِ ابتليَ أحدهما فصبرَ، وأنعمَ على الآخرِ فشكرَ، فقالَ: كلاهما سواءٌ، لأنَّ اللّهَ تعالى أثنى على عبدينِ، أحدهما صابرٌ والآخرُ شاكرٌ ثناءً واحداً، فقالَ: في وصفِ أيّوبَ: ﴿نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾، وقالَ في وصف سليمان: ﴿نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾.

قولهُ تعالى: ﴿وَٱذۡكُرۡ عِبَـٰدَنَآ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَـٰقَ وَيَعۡقُوبَ﴾ وقرأ ابنُ عبّاسٍ: «عَبْدَنَا» بإسنادٍ صحيحٍ، وهيَ قراءةُ ابنِ كثيرٍ، فعلى هذهِ القراءةِ يكونُ ﴿إِبۡرَٰهِيمَ﴾ بدلاً منْ «عَبْدَنَا» وَ﴿إِسۡحَـٰقَ وَيَعۡقُوبَ﴾ عطفٌ. والقراءةُ بالجمعِ أبينُ، ويكونُ ﴿إِبۡرَٰهِيمَ﴾ وما بعدهُ على البدلِ.

وقدِ استدلَّ بهذهِ الآيةِ منْ قالَ: إنَّ الذّبيحَ إسحاقُ لا إسماعيلُ.

﴿أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ ﴿٤٥﴾﴾. و ﴿ٱلۡأَبۡصَـٰرِ﴾ متّفقٌ على تأويلها أنّها البصائرُ في الدّينِ والعلمِ. وأمّا ﴿ٱلۡأَيۡدِي﴾ فمختلفٌ في تأويلها، فأهلُ التّفسيرِ يقولونَ: إنّها القوّةُ في الدّينِ. وقومٌ يقولونَ: ﴿ٱلۡأَيۡدِي﴾ جمعُ يدٍ وهيَ النّعمةُ، أيْ همْ أصحابُ النّعمِ، أيِ الّذينَ أنعمَ اللّهُ عزَّ وجلَّ عليهمْ. وقيلَ: همْ أصحابُ النّعمِ والإحسانِ، لأنّهمْ قدْ أحسنوا وقدّموا خيراً.

قولهُ تعالى: ﴿إِنَّآ أَخۡلَصۡنَـٰهُم بِخَالِصَةٖ ذِكۡرَى ٱلدَّارِ ﴿٤٦﴾﴾ قراءةُ العامّةِ ﴿بِخَالِصَةٍ﴾ منوّنةٌ، وقرأ نافع وأبو جعفرٍ وهشامٌ عنِ ابنِ عامرٍ «بِخَالِصَةِ ذِكْرَى الدَّارِ» بالإضافةِ فمنْ نوّنَ خالصةً فَ ﴿ذِكۡرَى ٱلدَّارِ﴾ بدلٌ منها، والدّارُ يجوزُ أنْ يرادَ بها الدّنيا، أيْ ليتذكّروا الدّنيا ويزهدوا فيها، ولتخلصَ لهمْ بالثّناءِ الحسنِ عليهمْ، كما قالَ تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا لَهُمۡ لِسَانَ صِدۡقٍ عَلِيّٗا﴾ ويجوزُ أنْ يرادَ بها الدّارُ الآخرةُ وتذكيرُ الخلقِ بها.

ومنْ أضافَ خالصة إلى الدّارِ فهيَ مصدرٌ بمعنى الإخلاصِ، والذّكرى مفعولٌ بهِ أضيفَ إليهِ المصدرُ، أيْ بإخلاصهمْ ذكرى الدّارِ.

﴿وَإِنَّهُمۡ عِندَنَا لَمِنَ ٱلۡمُصۡطَفَيۡنَ ٱلۡأَخۡيَارِ ﴿٤٧﴾﴾ أيِ الّذينَ اصطفاهمْ منَ الأدناسِ واختارهمْ لرسالتهِ. ومصطفينَ جمعُ مصطفى و ﴿ٱلۡأَخۡيَارِ﴾ جمعُ خيّرٍ.

قولهُ تعالى: ﴿وَٱذۡكُرۡ إِسۡمَـٰعِيلَ وَٱلۡيَسَعَ وَذَا ٱلۡكِفۡلِۖ﴾ مضى ذكرُ اليسعَ في الأنعامِ وذكرُ ذي الكفلِ في «الأنبياءِ.» ﴿وَكُلّٞ مِّنَ ٱلۡأَخۡيَارِ ﴿٤٨﴾﴾ أيْ ممّنِ اختيرَ للنّبوّةِ ﴿هَـٰذَا ذِكۡرٞۚ﴾ جميلٌ وشرفٌ يذكرونَ بهِ في الدّنيا أبداً. ﴿وَإِنَّ لِلۡمُتَّقِينَ لَحُسۡنَ مَـَٔابٖ ﴿٤٩﴾﴾ أيْ حسنُ المرجعِ في القيامةِ. ثمَّ بيّنَ ذلك بقوله تعالى: ﴿جَنَّـٰتِ عَدۡنٖ﴾ والعدنُ في اللّغةِ الإقامةُ، يقالُ: عدنَ بالمكانِ إذا أقامَ ﴿مُّفَتَّحَةٗ﴾ حالٌ ﴿لَّهُمُ ٱلۡأَبۡوَٰبُ ﴿٥٠﴾﴾ رفعتِ الأبوابُ لأنّهُ اسمُ ما لمْ يسمَّ فاعلهُ، وإنّما قالَ: ﴿مُّفَتَّحَةٗ﴾ ولمْ يقلْ مفتوحةً، لأنّها تفتحُ لهمْ بالأمرِ لا باللمس.

قولهُ تعالى: ﴿مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا﴾ هوَ حالٌ قدّمتْ على العاملِ فيها وهوَ قولهُ: ﴿يَدۡعُونَ فِيهَا﴾ أيْ يدعونَ في الجنّاتِ متّكئينَ فيها. ﴿بِفَٰكِهَةٖ كَثِيرَةٖ﴾ أيْ بألوانِ الفواكهِ ﴿وَشَرَابٖ ۝٥١﴾ أيْ وشرابٌ كثيرٌ فحذفَ لدلالةِ الكلامِ عليهِ.

قولهُ تعالى: ﴿وَعِندَهُمۡ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرۡفِ﴾ أيْ على أزواجهنَّ لا ينظرنَ إلى غيرهمْ ﴿أَتۡرَابٌ ۝٥٢﴾ أيْ على سنٍّ واحدٍ، وميلاد امرأةٍ واحدة، وقد تساوينَ في الحُسنِ والشّبابِ.

قولهُ تعالى: ﴿هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوۡمِ ٱلۡحِسَابِ ۝٥٣﴾ أيْ في يومِ الحسابِ. وهذا الجزاءُ الّذي وعدتمْ بهِ. وقراءةُ العامّةِ بالتّاءِ أيْ ما توعدونَ أيّها المؤمنونَ. وقرأ ابنُ كثيرٍ وأبو عمرو ويعقوبُ بالياءِ على الخبرِ، لقولهِ تعالى: ﴿وَإِنَّ لِلۡمُتَّقِينَ لَحُسۡنَ مَـَٔابٖ﴾ فهوَ خبرٌ.

قولهُ تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَرِزۡقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ ۝٥٤﴾ دليلٌ على أنَّ نعيمَ الجنّةِ دائمٌ لا ينقطعُ، كما قالَ: ﴿عَطَآءً غَيۡرَ مَجۡذُوذٖ﴾ وقال: ﴿فَلَهُمۡ أَجۡرٌ غَيۡرُ ممنونٍ﴾.

قولهُ تعالى: ﴿هَٰذَاۚ وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٖ ۝٥٥﴾ لمّا ذكرَ ما للمتّقينَ ذكرَ ما للطّاغينَ. و ﴿هَٰذَا﴾ خبرُ ابتداءٍ محذوفٌ أيِ الأمرُ هذا فيوقفُ على ﴿هَٰذَا﴾ قالَ ابنُ الأنباريِّ: ﴿هَٰذَا﴾ وقفٌ حسنٌ. ثمَّ تبتدئُ ﴿وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ﴾ وهم الذين كذبوا الرسل. ﴿لَشَرَّ مَـَٔابٖ﴾ أيْ منقلبٌ يصيرونَ إليهِ. ثمَّ بيّنَ ذلكَ بقولهِ: ﴿جَهَنَّمَ يَصۡلَوۡنَهَا فَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ۝٥٦﴾ أيْ بئسَ ما مهّدوا لأنفسهمْ، أوْ بئسَ الفراشُ لهمْ. ومنهُ مهدُ الصّبيِّ.

قولهُ تعالى: ﴿هَٰذَا فَلۡيَذُوقُوهُ حَمِيمٞ وَغَسَّاقٞ ۝٥٧﴾ ﴿هَٰذَا﴾ في موضع رفع بالابتداء وخبره ﴿حَمِيمٞ﴾ على التقديم والتأخير، أي هذا حميمٌ وغسّاقٌ فليذوقوه. وقراءةُ أهلِ المدينةِ وأهلِ البصرةِ وبعضِ الكوفيّينَ بتخفيفِ السّينِ في ﴿وَغَساقٌ﴾. وقرأ حمزةُ والكسائيُّ بالتّشديدِ، لغتانِ بمعنى واحدٍ، وقيلَ: بالتخفيف اسمٌ مثلُ عذابٍ وجوابٍ وصوابٍ، وبالتشديد: اسمُ فاعلٍ نُقلَ إلى فعّالٍ للمبالغةِ، نحوَ ضرّابٍ وقتّالٍ. ثم قيل: هوَ الزمهرير يخوفهم ببردهِ، وقيلَ: هوَ عصارةُ أهلِ النّارِ. وهو أشبهُ باللّغةِ، يقالُ: غسقَ الجرحُ إذا خرجَ منهُ ماءٌ أصفرُ.

قولهُ تعالى: ﴿وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ ۝٥٨﴾ قرأ أبو عمرو: «وَأُخَرُ» جمعُ أخرى مثل الكبرى والكُبرِ. الباقونَ: ﴿وَءَاخَرُ﴾ مفردٌ مذكّرٌ. وأنكرَ أبو عمرو ﴿وَءَاخَرُ﴾ لقولهِ تعالى: ﴿أَزْوَٰجٌ﴾ أيْ لا يخبرُ بواحدٍ عنْ جماعةٍ. وأنكرَ عاصمٌ الجحدريُّ «وَأُخَرُ» قالَ: ولوْ كانتْ «وَأُخَرَ» لقال منْ شكلها. وكلا الرّدّينِ لا يلزمُ والقراءتانِ صحيحتانِ. ﴿وَءَاخَرُ﴾ أيْ وعذابٌ آخرُ سوى الحميمِ والغسّاقِ. ﴿مِن شَكْلِهِۦٓ﴾ منْ نحوهِ وهو الزمهرير. وَ ﴿أَزْوَٰجٌ﴾ أيْ أصنافٌ وألوانٌ منَ العذابِ.

قولهُ تعالى: ﴿هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ﴾ قالَ ابنُ عبّاسٍ: هوَ أنَّ القادةَ إذا دخلوا النّارَ ثمَّ دخلَ بعدهمُ الأتباعُ، قالتِ الخزنةُ للقادةِ: ﴿هَٰذَا فَوْجٌ﴾ يعني الأتباعَ والفوجُ الجماعةُ ﴿مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ﴾ أيْ داخلٌ النّارَ معكمْ، فقالتِ السّادةُ: ﴿لَا مَرْحَبًا بِهِمْ﴾ أيْ لا اتّسعتْ منازلهمْ في النّارِ. والرّحبُ السّعةُ، ومنهُ رحبةُ المسجدِ وغيره. تقولُ: لا مرحبًا بكَ، أيْ لا رحبتْ عليكَ الأرضُ ولا اتسعت.! ﴿إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ ۝٥٩﴾ قيلَ: هوَ منْ قولِ القادةِ، أيْ إنهم صالوا النّارِ كما صليناها. وقيلَ: هوَ منْ قولِ الملائكةِ متّصلٌ بقولهمْ: ﴿هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ﴾ وَ ﴿قَالُوا۟ بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ﴾ هوَ منْ قولِ الأتباعِ، والآيةِ عامّةٌ في كلِّ تابعٍ ومتبوعٍ. ﴿أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا﴾ أيْ دعوتمونا إلى العصيانِ ﴿فَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ۝٦٠﴾ لنا ولكمْ. ﴿قَالُوا۟﴾ يعني الأتباعَ ﴿رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا﴾ منْ سوّغَ لنا هذا وسنّهُ ودعانا إلى المعاصي ﴿فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِى ٱلنَّارِ ۝٦١﴾، ونظيرُ هذهِ الآيةِ قولهُ تعالى: ﴿رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ﴾.

قولهُ تعالى: ﴿وَقَالُوا۟﴾ يعني أكابرُ المشركينَ ﴿مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلْأَشْرَارِ ۝٦٢﴾ قالَ ابنُ عبّاسٍ: يريدونَ أصحابَ محمّدٍ ﷺ، يقولُ أبو جهلٍ: أينَ بلالٌ أينَ صهيبٌ أينَ عمّارٌ أولئكَ في الفردوسِ. واعجبًا لأبي جهلٍ مسكينٌ، أسلمَ ابنهُ عكرمةُ، وابنتهُ جويريةُ، وأسلمتْ أمّهُ، وأسلمَ أخوهُ، وكفرَ هوَ، قالَ:

ونوراً أضاءَ الأرضَ شرقاً ومغرباً ... وموضعُ رجلي منهُ أسودُ مظلمُ

﴿أَتَّخَذْنَٰهُمْ سِخْرِيًّا﴾ في الدّنيا فأخطأنا ﴿أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٦٣﴾﴾ فلمْ نعلمْ مكانهمْ. قالَ الحسنُ: كلُّ ذلكَ قدْ فعلوا، اتّخذوهمْ سخرياً، وزاغتْ عنهمْ أبصارهمْ في الدّنيا محقّرةً لهمْ. وقيلَ: معنى ﴿أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ أيْ أهمْ معنا في النار فلا نراهم. وكان ابن كثير وأبو عمرو وحمزة والكسائيُّ يقرأونَ «مِنَ الْأَشْرَارِ اتَّخَذْنَاهُمْ» بحذفِ الألفِ في الوصلِ. وكانَ أبو جعفرٍ وشيبةُ ونافعٌ وعاصمٌ وابنُ عامرٍ يقرأونَ ﴿أَتَّخَذْنَٰهُمْ﴾ بقطعِ الألفِ على الاستفهامِ وسقطتْ ألفُ الوصلِ، لأنّهُ قدِ استغنيَ عنها، فمنْ قرأَ بحذفِ الألفِ لمْ يقفْ على ﴿ٱلْأَشْرَارِ﴾ لأنَّ ﴿أَتَّخَذْنَٰهُمْ﴾ حالٌ، ومنْ قرأَ: ﴿أَتَّخَذْنَٰهُمْ﴾ بقطعِ الألفِ وقفَ على ﴿ٱلْأَشْرَارِ﴾ والاستفهامُ هنا بمعنى التّوبيخِ والتّعجّبِ.

﴿أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ إذا قرأتَ بالاستفهامِ كانتْ أمْ للتّسويةِ، وإذا قرأتَ بغيرِ الاستفهامِ فهيَ بمعنى بلْ. وقرأ أبو جعفر وحمزةُ والكسائيُّ: «سُخْرِيًّا» بضمِّ السّينِ. الباقونَ بالكسرِ، فمنْ كسرَ جعلهُ منَ الهزءِ ومنْ ضمَّ جعلهُ منَ التّسخيرِ.

﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ ﴿٦٤﴾﴾ ﴿لَحَقٌّ﴾ خبرُ إنَّ و﴿تَخَاصُمُ﴾ خبرُ مبتدأٍ محذوفٍ بمعنى هوَ تخاصمٌ. ويجوزُ أنْ يكونَ بدلاً منْ حقٍّ، يعني قولهمْ: ﴿لَا مَرْحَبًۢا بِكُمْ﴾ الآيةَ وشبههُ منْ قولِ أهلِ النّارِ.

قولهُ تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٌ﴾ أيْ مخوّفٌ عقابَ اللّهِ لمنْ عصاهُ ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ﴾ أيْ معبودٍ ﴿إِلَّا ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٦٥﴾﴾ الّذي لا شريكَ لهُ. ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ ﴿٦٦﴾﴾ بالرّفع على النّعتِ وإنْ نصبتَ الأوّلَ نصبتهُ. ويجوزُ رفعُ الأوّلِ ونصبُ ما بعدهُ على المدحِ. و﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ المنيعُ الّذي لا مثلَ لهُ. ﴿ٱلْغَفَّٰرُ﴾ السّتّارُ لذنوبِ خلقهِ.

قولهُ تعالى: ﴿قُلْ هُوَ نَبَؤٌا۟ عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾﴾ أيْ ما أنذركمْ بهِ منَ الحسابِ والثّوابِ والعقابِ، نظيرهُ قولهُ تعالى: ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ﴿١﴾ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ﴾. وقيلَ: يعني القرآنَ الذي أنبأكم بهِ خبرٌ جليلٌ. وقيلَ: عظيمُ المنفعةِ ﴿أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴿٦٨﴾ مَا كَانَ لِىَ مِنْ عِلْمٍۭ بِٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰٓ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٦٩﴾﴾ الملأُ الأعلى همُ الملائكةُ اختصموا في أمرِ آدمَ حينَ خلقَ فـ ﴿قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا﴾ وقال إبليس: ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ﴾ وفي هذا بيانُ أنَّ محمّداً

ﷺ أخبرَ عنْ قصّةِ آدمَ وغيرِه، وذلكَ لا يتصوّرُ إلّا بتأييدٍ إلهيٍّ، فقدْ قامتِ المعجزةُ على صدقِهِ، فما بالهمْ أعرضوا عنْ تدبرِ القرآنِ ليعرفوا صدقهُ، ولهذا وصلَ قولهُ بقولِهِ: ﴿قُلْ هُوَ نَبَؤٌاْ عَظِيمٌ ۝٦٧ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ﴾.

وقولٌ ثانٍ رواهُ أبو الأشهبِ عنِ الحسنِ قالَ: قالَ رسولُ اللّهِ ﷺ: «سألني ربّي فقالَ: يا محمّدُ فيمَ اختصمَ الملأُ الأعلى قلتُ: في الكفّاراتِ والدّرجاتِ قالَ وما الكفّاراتُ؟ قلتُ: المشيُ على الأقدامِ إلى الجماعاتِ وإسباغُ الوضوءِ في السّبراتِ والتّعقيبُ في المساجدِ بانتظارِ الصّلاةِ بعدَ الصّلاةِ قالَ وما الدّرجاتُ قلتُ: إفشاءُ السّلامِ وإطعامُ الطّعامِ والصّلاةُ باللّيلِ والنّاسُ نيامٌ» خرّجهُ التّرمذيُّ بمعناهُ عنِ ابنِ عبّاسٍ، وقالَ فيهِ حديثٌ غريبٌ، وعنْ معاذِ بنِ جبلٍ أيضاً وقالَ حديثٌ حسنٌ صحيحٌ.

وقدْ مضى في «يس» القولُ في المشيِ إلى المساجدِ، وأنَّ الخطا تكفّرُ السّيّئاتِ، وترفعُ الدّرجاتِ.

وقيلَ: الملأُ الأعلى الملائكةُ والضّميرُ في ﴿يَخْتَصِمُونَ﴾ لفرقتينِ. يعني قولَ منْ قالَ منهمُ الملائكةُ بناتُ اللّهِ، ومنْ قالَ آلهةٌ تعبدُ. وقيلَ: الملأُ الأعلى هاهنا قريشٌ، يعني اختصامهمْ فيما بينهمْ سراً، فأطلعَ اللّهُ نبيّهُ على ذلكَ.

﴿إِن يُوحَىٰٓ إِلَيَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝٧٠﴾ أيْ إنْ يوحى إليَّ إلّا الإنذارُ. ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ ﴿إِذْ﴾ منْ صلةِ ﴿يَخْتَصِمُونَ﴾ المعنى، ما كانَ ليَ منْ علمٍ بالملأِ الأعلى حينَ يختصمونَ حينَ ﴿قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ۝٧١﴾.

﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ﴾ ﴿إِذَا﴾ تردُّ الماضيَ إلى المستقبلِ، لأنّها تشبهُ حروفَ الشّرطِ وجوابها كجوابِهِ، أيْ خلقتهُ. ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى﴾ أيْ منَ الرّوحِ الّذي أملكهُ ولا يملكهُ غيري. فهذا معنى الإضافةِ، كقولِهِ في عيسى ﴿وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾.

﴿فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ۝٧٢﴾ نصبٌ على الحالِ. وهذا سجودُ تحيّةٍ لا عبادةٍ ﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ۝٧٣﴾ خضوعاً لهُ وتعظيماً للّهِ بتعظيمهِ ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ﴾ أنفَ منَ السّجودِ لله ﴿وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ۝٧٤﴾، والأنفةُ منْ طاعةِ اللّهِ استكباراً كفرٌ.

قولهُ تعالى: ﴿قَالَ يَـٰٓإِبۡلِيسُ مَا مَنَعَكَ﴾ أيْ صرفكَ وصدّكَ ﴿أَن تَسۡجُدَ﴾ أيْ عنْ أنْ تسجدَ ﴿لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ﴾ أضافَ خلقهُ إلى نفسهِ تكريمًا لهُ، وإنْ كان خالق كل شيء وهذا كما أضافَ إلى نفسهِ الرّوحَ والبيتَ والنّاقةَ والمساجدَ. فخاطبَ النّاسَ بما يعرفونهُ في تعاملهمْ، فإنَّ الرّئيسَ منَ المخلوقينَ لا يباشرُ شيئًا بيدهِ إلّا على سبيلِ الإعظامِ والتّكرّمِ، فذكرُ اليدِ هنا بمعنى هذا، وقيلَ: أرادَ باليد القدرة، يقال: مالي بهذا الأمرِ يدٌ، وما لي بالحملِ الثّقيلِ يدانِ. ويدلُّ عليهِ أنَّ الخلقَ لا يقعُ إلّا بالقدرةِ بالإجماعِ[٢]. ﴿أَسۡتَكۡبَرۡتَ﴾ أيْ عنِ السّجودِ ﴿أَمۡ كُنتَ مِنَ ٱلۡعَالِينَ ۝٧٥﴾ أيِ المتكبّرينَ على ربّكَ.

قولهُ تعالى: ﴿قَالَ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ ۝٧٦﴾ فضّلَ النّارَ على الطّينِ وهذا جهلٌ منهُ، لأنَّ الجواهرَ متجانسةٌ فقاسَ فأخطأَ القياسَ.

﴿قَالَ فَٱخۡرُجۡ مِنۡهَا﴾ يعني منَ الجنّةِ ﴿فَإِنَّكَ رَجِيمٞ ۝٧٧﴾ أيْ مرجومٌ بالكواكبِ والشّهبِ ﴿وَإِنَّ عَلَيۡكَ لَعۡنَتِيٓ﴾ أيْ طردي وإبعادي منْ رحمتي ﴿إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ۝٧٨﴾ تعريفٌ بإصرارهِ على الكفرِ لأنَّ اللّعنَ منقطعٌ حينئذٍ، ثمَّ بدخولهِ النّارَ يظهرُ تحقيقُ اللّعنِ.

﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرۡنِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ۝٧٩﴾ أرادَ الملعونُ ألّا يموتَ فلمْ يجبْ إلى ذلك، وأخر إلى وقت معلوم، وهو يوم يموت الخلق فيه، فأخر إليه تهاونًا بهِ.

﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ۝٨٢﴾ لمّا طردهُ بسببِ آدمَ حلفَ بعزّةِ اللّهِ أنّهُ يضلُّ بني آدمَ بتزيينِ الشّهواتِ وإدخالِ الشّبهةِ عليهمْ، فمعنى: ﴿لَأُغۡوِيَنَّهُمۡ﴾ لأستدعينّهمْ إلى المعاصي وقدْ علمَ أنّهُ لا يصلُ إلّا إلى الوسوسةِ، ولا يفسدُ إلّا منْ كانَ لا يصلحُ لوْ لمْ يوسوسهُ، ولهذا قالَ: ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنۡهُمُ ٱلۡمُخۡلَصِينَ ۝٨٣﴾ أي الذي أخلصتهمْ لعبادتكَ، وعصمتهمْ منّي.

---

(٢) صفة اليد كغيرها من الصفات التى أثبتها القرآن والسنة صفة ذات نثبتها من غير تكييف ولا تشبيه ولا تمثيل ولا تعطيل على مذهب سلف الأمة وأهل السنة ، ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ۝١١﴾، وقد قال تعالى: ﴿بَلۡ يَدَاهُ مَبۡسُوطَتَانِ﴾، وقال تعالى: ﴿يَدُ ٱللَّهِ فَوۡقَ أَيۡدِيهِمۡۚ﴾، وفى السنة أحاديث كثيرة منها ما رواه مسلم عن عبدالله بن عمرو مرفوعا: «إن المقسطين عند الله على منابر من نور، عن يمين الرحمن عز وجل، وكلتا يديه يمين، الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما ولوا».

قولهُ تعالى: ﴿قَالَ فَٱلۡحَقُّ وَٱلۡحَقَّ أَقُولُ ٨٤﴾ هذهِ قراءةُ أهلِ الحرمينِ وأهلِ البصرةِ والكسائيِّ، وقرأ عاصمٌ وحمزة برفع الأول. ﴿لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ﴾ أيْ منْ نفسك وذريتك ﴿وَمِمَّن تَبِعَكَ﴾ منْ بني آدمَ ﴿أَجۡمَعِينَ ٨٥﴾.

قولهُ تعالى: ﴿قُلۡ مَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٖ﴾ أيْ منْ جعلٍ على تبليغِ الوحيِ وكنّى بهِ عنْ غيرِ مذكورٍ. وقيلَ هوَ راجعٌ إلى قولهِ: ﴿أَءُنزِلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ مِنۢ بَيۡنِنَا﴾.

﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُتَكَلِّفِينَ ٨٦﴾ أيْ لا أتكلّفُ ولا أتخرّصُ ما لمْ أومرْ بهِ. وعنْ ابنِ مسعودٍ قالَ: منْ سئلَ عمّا لمْ يعلمْ فليقلْ لا أعلمُ ولا يتكلّفْ، فإنَّ قولهُ لا أعلمُ علمٌ، وقدْ قالَ اللّهِ عزَّ وجلَّ لنبيّهِ ﷺ: ﴿قُلۡ مَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُتَكَلِّفِينَ﴾.

﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ﴾ يعني القرآنَ ﴿لِّلۡعَٰلَمِينَ ٨٧﴾ منَ الجنِّ والإنسِ. ﴿وَلَتَعۡلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعۡدَ حِينِۭ ٨٨﴾ أيْ نبأُ الذّكرِ وهوَ القرآنُ أنّهُ حقٌّ ﴿بَعۡدَ حِينِۭ﴾ بعدَ الموتِ، وقيلُ: بعدَ الموتِ وقبلهُ. وقيل: أيْ لتظهرُ لكمْ حقيقةُ ما أقولُ: ﴿بَعۡدَ حِينِۭ﴾ أيْ في المستأنفِ إذا أخذتكمْ سيوفُ المسلمينَ يوم بدرٍ.

وكان الحسن يقول: يا ابن آدم عند الموت يأتيك الخبر اليقين.

وسئل عكرمة عمن حلف ليصنعن كذا إلى حين. قال: إنّ من الحين ما لا تدركه كقوله تعالى: ﴿وَلَتَعۡلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعۡدَ حِينِۭ﴾، ومنه ما تدركه، كقوله تعالى: ﴿تُؤۡتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينِۭ﴾ من صرام النخل إلى طلوعه ستة أشهر.

سورة الزمر

يقال سورةُ الغرفِ، وهيَ مكّيّةٌ إلّا سبعَ آياتٍ منْ قولهُ تعالى: ﴿قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ﴾ إلى آخرِ سبعِ آياتٍ نزلتْ في وحشيٍّ وأصحابهِ على ما يأتي، وهيَ خمسٌ وسبعونَ آيةً.

بسمِ اللّهِ الرّحمنِ الرّحيمِ

قولهُ تعالى: ﴿تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ رفعٌ بالابتداءِ وخبرهُ ﴿مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ ۝١﴾، والكتابُ القرآنُ. سمّيَ بذلكَ لأنّهُ مكتوب.

قولهُ تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ﴾ أيْ بالصّدقِ وليسَ بباطلٍ وهزلٍ. ﴿فَٱعۡبُدِ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا﴾ ﴿مُخۡلِصٗا﴾ فيهِ مسألتانِ:

الأولى: ﴿مُخۡلِصٗا﴾ نصبٌ على الحالِ أيْ موحّداً لا تشركُ بهِ شيئاً ﴿لَّهُ ٱلدِّينَ﴾ أيِ الطّاعةُ وهوَ مفعولٌ بهِ. ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلۡخَالِصُۚ﴾ أيِ الذي لا يشوبه شيء.

الثانية– قالَ ابنُ العربيِّ: هذهِ الآيةُ دليلٌ على وجوبِ النّيّةِ في كلِّ عملٍ، وأعظمهُ الوضوءُ الّذي هوَ شطرُ الإيمانِ، خلافاً لأبي حنيفةَ، وما كانَ ليكونَ منَ الإيمانِ شطراً ولا ليخرجَ الخطايا منْ بينِ الأظافرِ والشّعرِ بغيرِ نيّةٍ.

قولهُ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ﴾ يعني الأصنامَ والخبرُ محذوفٌ. أيْ قالوا ﴿مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾ إذا قيلَ لهمْ منْ ربّكمْ وخالقكمْ؟ ومنْ خلقَ السّماواتِ والأرضَ وأنزلَ منَ السّماءِ ماءً؟ قالوا اللّهُ، فيقالُ لهمْ ما معنى عبادتكمُ الأصنامَ؟ قالوا ليقرّبونا إلى اللّهِ زلفى، ويشفعوا لنا عندهُ. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡ﴾ أيْ بينَ أهلِ الأديانِ يومَ القيامةِ فيجازي كلاً بما يستحقُّ. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَنۡ هُوَ كَٰذِبٞ كَفَّارٞ ۝٣﴾ أيْ منْ سبقَ لهُ القضاءُ بالكفرِ لمْ يهتدِ، أيْ للدّينِ الّذي ارتضاهُ وهوَ دينُ الإسلامِ، كما قالَ اللّهُ تعالى: ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ﴾ وفي هذا ردٌّ على القدريّةِ وغيرهمْ على ما تقدّمَ.

قولهُ تعالى: ﴿لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ أيْ لوْ أرادَ أنْ يسمّيَ أحداً منْ خلقهِ بهذا ما جعلهُ عزَّ وجلَّ إليهمْ. ﴿سُبْحَٰنَهُۥ﴾ أيْ تنزيهاً لهُ عنِ الولدِ ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ۝٤﴾.

قولهُ تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾ ومنْ كانَ هكذا فحقّهُ أنْ يفردَ بالعبادةِ لا أنّهُ يشركُ بهِ. ﴿يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ﴾ التّكويرِ في اللّغةِ وهوَ طرحُ الشّيءِ بعضهُ على بعضٍ، يقالُ كوّرَ المتاعَ أيْ ألقى بعضهُ على بعض، ومنهُ كورُ العمامةِ، فما نقصَ منَ اللّيلِ دخلَ في النّهارِ وما نقصَ منَ النّهارِ دخلَ في اللّيلِ وهوَ معنى قولهُ تعالى: ﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ﴾ فتكويرُ اللّيلِ على النّهارِ تغشيتهُ إيّاهُ حتّى يذهبَ ضوءهُ، ويغشيَ النّهارَ على اللّيلِ فيذهبُ ظلمتهُ، وهوَ معنى قولهِ تعالى: ﴿يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا﴾.

﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾ أيْ بالطّلوعِ والغروبِ لمنافعِ العبادِ. ﴿كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أيْ في فلكهِ إلى أنْ تنصرمَ الدّنيا وهوَ يومُ القيامةِ حينَ تنفطرُ السّماءُ وتنتثرُ الكواكبُ. وقيلَ: الأجلُ المسمّى هوَ الوقتُ الّذي ينتهي فيهِ سيرُ الشّمسِ والقمرِ إلى المنازلِ المرتّبةِ لغروبها وطلوعها. ﴿أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ الغالبُ ﴿ٱلْغَفَّٰرُ ۝٥﴾ السّاترُ لذنوبِ خلقهِ برحمتهِ. ﴿أَلَا﴾ تنبيهٌ أيْ تنبّهوا .

قولهُ تعالى: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ يعني آدمَ عليه السلام ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ يعني ليحصلَ التّناسلُ، ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾ أخبرَ عنِ الأزواجِ بالنّزولِ، لأنّها تكوّنتْ بالنّباتِ والنّباتُ بالماءِ المنزلِ. وهذا يسمّى التّدريجُ، ومثلهُ قولهُ تعالى: ﴿قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا﴾ الآيةَ. وقيلَ: أنزلَ أنشأَ وجعلَ، وقيلَ: إنَّ اللّهَ تعالى خلقَ هذهِ الأنعامَ في الجنّةِ ثمَّ أنزلها إلى الأرضِ، كما قيلَ في قولهِ تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾ فإنَّ آدمَ لمّا هبطَ إلى الأرضِ أنزلَ معهُ الحديدُ. وقيلَ: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ أيْ أعطاكمْ. وقيلَ: جعلَ الخلقَ إنزالاً، لأنَّ الخلقَ إنّما يكونُ بأمرٍ ينزلُ منَ السّماءِ. فالمعنى: خلقَ لكمْ كذا بأمرهِ النّازلِ.

﴿يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ﴾ نطفةً ثمَّ علقةً ثمَّ مضغةً ثمَّ عظماً ثمَّ لحماً، وقيل: ﴿خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ﴾ خلقاً في بطونِ أمّهاتكمْ منْ بعدِ خلقكمْ في ظهرِ آدمَ. وقيلَ: في ظهرِ الأبِ ثمَّ خلقاً في بطنِ الأمِّ ثم خلقا بعد الوضع. ﴿فِي ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ﴾ ظلمةُ البطنِ وظلمةُ الرّحمِ وظلمةُ المشيمةِ.

﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ﴾ أي الّذي خلقَ هذهِ الأشياءَ ﴿رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾. ﴿فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ۝٦﴾ أيْ كيفَ تنقلبونَ وتنصرفونَ عنْ عبادتهِ إلى عبادة غيره.

وقرأَ حمزةُ «إِمِهاتِكُمْ» بكسرِ الهمزةِ والميمِ. والكسائيُّ بكسرِ الهمزةِ وفتحِ الميمِ. الباقونَ بضمِّ الهمزةِ وفتح الميم.

قولهُ تعالى: ﴿إِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ﴾ شرطٌ وجوابهُ. ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ﴾ أيْ إنْ يكفروا أيْ لا يحبُّ ذلكَ منهمْ. وقيلَ: لا يرضى لعبادهِ المؤمنينَ الكفرَ، وهمُ الّذينَ قالَ اللّهُ فيهمْ: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾. وكقوله: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ﴾ أيِ المؤمنونَ. وهذا على قولِ منْ لا يفرّقُ بينَ الرّضا والإرادةِ. وقيلَ: لا يرضى الكفرَ وإنْ أرادهُ، فاللّهُ تعالى يريدُ الكفرَ منَ الكافرِ وبإرادتهِ كفرَ ولا يرضاهُ ولا يحبّهُ، فهوَ يريدُ كونُ ما لا يرضاهُ، وقدْ أرادَ اللّهُ عزَّ وجلَّ خلقَ إبليسَ وهوَ لا يرضاهُ، فالإرادةُ غيرُ الرّضا، وهذا مذهب أهل السنة.

قولهُ تعالى: ﴿وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ أيْ يرضى الشّكرَ لكمْ، ويرضى بمعنى يثيبُ ويثني[٣]، فالرّضا على هذا إمّا ثوابهُ فيكونُ صفةَ فعلٍ ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ وإمّا ثناؤهُ فهوَ صفةُ ذاتٍ. وَ﴿يَرْضْهُ﴾ بالإسكانِ في الهاءِ قرأَ أبو جعفرٍ وأبو عمرو، وأشبعَ الضّمّةَ ابنُ

(٣) هذا تفسير باللازم ويتضمن التأويل، والصواب إثبات صفة الرضا لله تعالى كما أثبتها لنفسه وأثبتها له رسوله ﷺ على الوجه اللائق به سبحانه من غير تكييف أو تمثيل أو تشبيه أو تعطيل ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾، يرضى عن المؤمنين ولا يرضى عن الفاسقين، وقد قال تعالى: ﴿رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ﴾ وقال: ﴿۞ لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ وغيرها وقال ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ۝٩٦﴾، وفي مسلم عن أنس بن مالك، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله ليرضى عن العبد أن يأكل الأكلة فيحمده عليها أو يشرب الشربة فيحمده عليها».

كثيرٍ والكسائيُّ وورشٌ عنْ نافعٍ. واختلسَ الباقونَ.

﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝٧﴾ تقدم في غير موضع.

قولهُ تعالى: ﴿۞وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ﴾ يعني الكافرَ ﴿ضُرٌّ﴾ أيْ شدّةٌ منَ الفقرِ والبلاءِ ﴿دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ﴾ أيْ راجعاً إليهِ مخبتاً مطيعاً لهُ مستغيثاً بهِ في إزالةِ تلكَ الشّدّةِ عنهُ. ﴿ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ﴾ أيْ أعطاهُ وملّكهُ. ﴿نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُوٓاْ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ﴾ أيْ نسيَ ربّهُ الّذي كان يدعوه من قبل فكشف الضّرِّ عنهُ. فَـ ﴿مَا﴾ على هذا الوجهِ للّهِ عزَّ وجلَّ وهيَ بمعنى الّذي. وقيلَ: بمعنى منْ كقولهِ: ﴿وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ﴾ والمعنى واحدٌ. وقيلَ: نسيَ الدّعاءَ الّذي كانَ يتضرّعُ بهِ إلى اللّهِ عزَّ وجلَّ. أيْ تركَ كونَ الدّعاءِ منهُ إلى اللّهِ، فما والفعلُ على هذا القولِ مصدرٌ. ﴿وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا﴾ أيْ أوثاناً وأصناماً ﴿لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ أيْ ليقتديَ بهِ الجهّالُ. ﴿قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا﴾ أمرُ تهديدٍ فمتاعُ الدّنيا قليلٌ. ﴿إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ۝٨﴾ أيْ مصيركَ إلى النّارِ.

قولهُ تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ﴾ بيّنَ تعالى أنَّ المؤمنَ ليسَ كالكافرِ الّذي مضى ذكرهُ. وقرأ أبو عمرو وعاصمٌ والكسائيُّ: ﴿أَمَّن﴾ بالتّشديدِ. وقرأ نافع وابن كثير وحمزةُ: «أَمنْ هُوَ» بالتّخفيفِ على معنى النّداءِ، كأنّهُ قالَ يا منْ هوَ قانتٌ. فالتّقديرُ على هذا ﴿قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ۝٨﴾ يا منْ هوَ قانتٌ إنّكَ منْ أصحابِ الجنّةِ، وقيلَ: إنَّ الألفَ في ﴿أَمَّن﴾ ألفُ استفهامٍ أيْ ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ﴾ أفضلُ؟ أمْ منْ جعلَ للّهِ أنداداً؟ والتّقديرُ الّذي هوَ قانتٌ خيرٌ. ومنْ شدّدَ ﴿أَمَّن﴾ فالمعنى العاصونَ المتقدّمُ ذكرهمْ خيرٌ ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ﴾ فالجملةُ الّتي عادلتْ أمْ محذوفةٌ، والأصلُ أمْ منْ فأدغمتْ في الميمِ.

وفي ﴿قَٰنِت﴾ أربعةُ أوجهٍ:

أحدها: أنّهُ المطيعُ.

الثّاني: أنّهُ الخاشعُ في صلاتهِ.

الثّالثُ: أنّهُ القائمُ في صلاته.

الرّابعُ: أنّهُ الدّاعي لربّهِ.

وقدْ رويَ عنِ النّبيِّ ﷺ أنّهُ قالَ: «كلُّ قنوتٍ في القرآنِ فهوَ طاعةٌ للّهِ عزَّ وجلَّ» وروِيَ عنْ جابرٍ عنِ النّبيِّ ﷺ أنّهُ سئلَ أيُّ الصّلاةِ أفضلُ؟ فقالَ: «طولُ القنوتِ»، وتأوّلهُ جماعةٌ منْ أهلِ العلمِ على أنّهُ طولُ القيامِ. وروى عبدُ اللّهِ عنْ نافعٍ عنِ ابنِ عمرَ سئلَ عنِ القنوتِ فقالَ: ما أعرفُ القنوتَ إلّا طولَ القيامِ، وقراءةَ القرآنِ، وكانَ العلماءُ إذا وقفوا في الصّلاةِ غضّوا أبصارهمْ، وخضعوا ولمْ يلتفتوا في صلاتهمْ، ولمْ يعبثوا ولمْ يذكروا شيئًا منْ أمرِ الدّنيا إلّا ناسينَ.

واختلفَ في تعيين القانت ها هنا، فقيل إنّهُ رسولُ اللّهِ ﷺ. وقالَ ابنُ عبّاسٍ في روايةٍ عنهُ: هوَ أبو بكرٍ وعمرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا. وقالَ ابنُ عمرَ: هوَ عثمانُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

﴿ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ﴾ ساعاتهُ، أوّلهُ وأوسطهُ وآخرهُ. وعنِ ابنِ عبّاسٍ: جوفُ اللّيلِ.

قالَ ابنُ عبّاسٍ: منْ أحبَّ أنْ يهوّنَ اللّهُ عليهِ الوقوفَ يومَ القيامةِ، فليرهُ اللّهُ في ظلمةِ اللّيلِ ساجداً وقائمًا يحذرُ الآخرةَ، ويرجو رحمةَ ربّهِ.

﴿يَحۡذَرُ ٱلۡأٓخِرَةَ﴾ قالَ سعيدبن جبير: أي عذاب الآخرة. ﴿وَيَرۡجُواْ رَحۡمَةَ رَبِّهِۦۗ﴾ أيْ نعيمَ الجنّةِ. وروِيَ عنِ الحسنِ أنّهُ سئلَ عنْ رجلٍ يتمادى في المعاصي ويرجو فقالَ: هذا متمنٍّ.

قولهُ: ﴿قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَۗ﴾ فكذلكَ لا يستوي المطيعُ والعاصي. وقالَ غيرهُ: الّذينَ يعلمونَ همُ الّذينَ ينتفعونَ بعلمهمْ ويعملونَ بهِ، فأمّا منْ لمْ ينتفعْ بعلمهِ ولمْ يعملْ بهِ فهوَ بمنزلةِ منْ لمْ يعلم. ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٩﴾ أي أصحاب العقول من المؤمنين.

قولهُ تعالى: ﴿قُلۡ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ أيْ قلْ يا محمّدُ لعباديَ المؤمنينَ ﴿ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡۚ﴾ أيِ اتّقوا معاصيهِ، ثمَّ قالَ: ﴿لِلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٞۗ﴾ يعني بالحسنةِ الأولى الطّاعةَ وبالثّانيةِ الثّوابَ في الجنّةِ. وقيلَ: المعنى للّذينَ أحسنوا في الدّنيا حسنةٌ في الدّنيا، يكونُ ذلكَ زيادةً على ثوابِ الآخرةِ، والحسنة الزائدة في الدّنيا الصّحّةُ والعافيةُ والظّفرُ والغنيمةُ، وقدْ تكونُ الحسنةُ في الدّنيا الثّناءَ الحسنَ، وفي الآخرةِ الجزاءَ. ﴿وَأَرۡضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌۗ﴾ فهاجروا فيها ولا تقيموا معَ منْ يعملُ بالمعاصي، وقيلَ: المرادُ أرضُ الجنّةِ، رغّبهمْ في سعتها وسعةِ نعيمها، كما قال: ﴿عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ﴾ والجنة قد تسمى أرضا، قالَ اللّهُ تعالى: ﴿وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي صَدَقَنَا وَعۡدَهُۥ وَأَوۡرَثَنَا ٱلۡأَرۡضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلۡجَنَّةِ حَيۡثُ نَشَآءُۖ﴾ والأوّلُ أظهرُ فهوَ أمرٌ بالهجرةِ. أيِ ارحلوا منْ مكّةَ إلى حيثُ تأمنوا، ويحتملُ أنْ يريدَ بسعةِ الأرضِ سعةَ الرّزقِ، لأنّهُ يرزقهمْ منَ الأرضِ فيكونُ معناهُ ورزقُ اللّهِ واسعٌ وهوَ أشبهُ، لأنّهُ أخرجَ سعتها مخرجَ الامتنانِ. ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجۡرَهُم بِغَيۡرِ حِسَابٖ ١٠﴾ أيْ بغيرِ تقديرٍ. وقيلَ: يزادُ على الثّوابِ، لأنّهُ لوْ أعطيَ بقدرِ ما عملَ لكانَ بحسابٍ. وقيلَ: ﴿بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾ أيْ بغيرِ متابعةٍ ولا مطالبةٍ كما تقعُ المطالبةُ بنعيمِ الدّنيا. وَ ﴿ٱلصَّٰبِرُونَ﴾ هنا الصّائمونَ، دليلهُ قولهُ ﷺ مخبراً عنِ اللّهِ عزَّ وجلَّ: «الصّومُ لي وأنا أجزي بهِ» وعن مالك: هوَ الصّبرُ على فجائعِ الدّنيا وأحزانها. ولا شكَ أنَّ كلَّ منْ سلّمَ فيما أصابهُ، وتركَ ما نهيَ عنهُ، فلا مقدارَ لأجرهمْ.

قولهُ تعالى: ﴿قُلۡ إِنِّيٓ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ ١١ وَأُمِرۡتُ لِأَنۡ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ١٢﴾ منْ هذهِ الأمّةِ، وكذلكَ كانَ فإنّهُ كانَ أوّلَ منْ خالفَ دينَ آبائهِ وخلعَ الأصنامَ وحطّمها، وأسلمَ للّهِ وآمنَ بهِ، ودعا إليهِ ﷺ. واللّامُ في قولهِ: ﴿لِأَنۡ أَكُونَ﴾ صلة زائدة، وقيلَ: لامُ أجل. ﴿قُلۡ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنۡ عَصَيۡتُ رَبِّي عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ١٣﴾. يريد عذاب يوم القيامة. وقاله حينَ دعاهُ قومهُ إلى دينِ آبائهِ.

قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهَ أَعۡبُدُ﴾ ﴿ٱللَّهَ﴾ نصب بـ ﴿أَعۡبُدُ﴾ ﴿مُخۡلِصٗا لَّهُۥ دِينِي ١٤﴾ طاعتي وعبادتي. ﴿فَٱعۡبُدُواْ مَا شِئۡتُم مِّن دُونِهِۦۗ﴾ أمرُ تهديدٍ ووعيدٍ وتوبيخ، كقولهِ تعالى: ﴿ٱعۡمَلُواْ مَا شِئۡتُمۡ﴾. وقيل منسوخة بآيةِ السّيفِ. ﴿قُلۡ إِنَّ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ

﴿وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ خلقَ اللّهُ لهُ زوجةً في الجنّةِ، فإذا دخلَ النّارَ خسرَ نفسهُ وأهلهُ. ﴿أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ١٥﴾.

قولهُ تعالى: ﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾ سمّى ما تحتهمْ ظللاً، لأنّها تظلُّ منْ تحتهمْ، وهذهِ الآيةُ نظيرُ قولهِ تعالى: ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾ وقولهِ: ﴿يَوْمَ يَغْشَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾. ﴿ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ﴾ أولياءه. ﴿يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ ١٦﴾ أيْ يا أوليائي فخافونِ. وقيلَ: هوَ عامٌّ في المؤمن والكافر. وقيلَ: خاص بالكفار.

قولهُ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا﴾ الطّاغوتُ جمعٌ ويجوزُ أنْ تكونَ واحدةً مؤنّثةً. أيْ تباعدوا منَ الطّاغوتِ وكانوا منها على جانبٍ فلمْ يعبدوها. وهوَ الشّيطانُ، وقيلَ: هوَ الأوثانُ. وقيلَ: إنّهُ الكاهنُ. وقيلَ إنّهُ اسمٌ أعجميٌّ مثلَ طالوتَ وجالوتَ وهاروتَ وماروتَ. وقيلَ: إنّهُ اسمٌ عربيٌّ مشتقٌّ منَ الطّغيانِ، وَ ﴿أن﴾ في موضعِ نصب بدلا من الطاغوت، تقديره: والذين اجتنبوا عبادةَ الطّاغوتِ. ﴿وَأَنَابُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ﴾ أيْ رجعوا إلى عبادتهِ وطاعتهِ. ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ﴾ في الحياةِ الدّنيا بالجنّةِ في العقبى. ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ ١٧ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ﴾ يستمعونَ القرآنَ وغيرهُ فيتّبعونَ القرآنَ. ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ﴾ لما يرضاه. ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ١٨﴾ أي أصحاب العقول من المؤمنين الذين انتفعوا بعقولهم.

قولهُ تعالى: ﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِى ٱلنَّارِ ١٩﴾ كانَ النّبيُّ ﷺ يحرصُ على إيمانِ قومٍ وقدْ سبقتْ لهمْ منَ اللّهِ الشّقاوةَ فنزلتْ هذهِ الآيةُ، والكلامُ شرطٌ وجوابهُ.

قولهُ تعالى: ﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ﴾ لمّا بيّنَ أن للكفار ظلا منَ النّارِ منْ فوقهمْ ومنْ تحتهمْ بيّنَ أنَّ للمتّقينَ غرفًا فوقها غرفٌ، لأنَّ الجنّةَ درجاتٌ يعلو بعضها بعضًا وَ ﴿لَٰكِنِ﴾ ليسَ للاستدراك، لأنّهُ لمْ يأتِ نفيٌ بلْ هوَ لتركِ قصّةٍ إلى قصّةٍ مخالفةٍ للأولى. ﴿لَهُمْ غُرَفٌ

﴿مِنْ فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ﴾ منْ زبرجدٍ وياقوتٍ ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَرُ﴾ جامعةٌ لأسبابِ النّزهةِ. ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ﴾ نصبٌ على المصدرِ، لأنَّ معنى ﴿لَهُمْ غُرَفٌ﴾ وعدهمُ اللّهُ ذلكَ وعداً. ويجوزُ الرّفعُ بمعنى ذلكَ وعدُ اللّهِ. ﴿لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٢٠﴾﴾ أي ما وعد الفريقين.

قولهُ تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ أيْ منَ السحاب ﴿مَآءً﴾ أيْ المطر أي إنّهُ لا يخلفُ الميعادَ في إحياءِ الخلقِ، والتّمييزِ بينَ المؤمنِ والكافرِ، وهوَ قادرٌ على ذلكَ كما أنّهُ قادرٌ على إنزالِ الماءِ منَ السّماءِ. ﴿فَسَلَكَهُۥ﴾ أيْ فأدخلهُ في الأرضِ وأسكنهُ فيها، كما قالَ: ﴿فَأَسْكَنَّهُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾. ﴿يَنَبِيعَ﴾ جمعُ ينبوعٍ منْ نبعَ، والينبوعُ عينُ الماءِ والجمعُ الينابيعُ. ﴿ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ﴾ أيْ بذلكَ الماءِ الخارجِ منْ ينابيعِ الأرضِ ﴿زَرْعًا﴾ هوَ للجنسِ أيْ زروعـاً شتّى لها ألوانٌ مختلفةٌ، حمرةً وصفرةً وزرقةً وخضرةً ونوراً. ﴿ثُمَّ يَهِيجُ﴾ أيْ ييبسُ. ﴿فَتَرَىٰهُ﴾ أيْ بعدَ خضرتهِ ﴿مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَٰمًا﴾ أيْ فتاتـاً مكسّراً، والمعنى أنَّ منْ قدرَ على هذا قدرَ على الإعادةِ.

وقيلَ: هوَ مثلٌ ضربهُ اللّهُ للقرآنِ ولصدورِ منْ في الأرضِ، فأمّا المؤمنُ فيزدادُ إيمانـاً ويقينـاً، وأمّا الّذي في قلبهِ مرضٌ فإنّهُ يهيجُ كما يهيجُ الزّرعُ. وقيلَ: هوَ مثلٌ ضربهُ اللّهُ للدّنيا، أيْ كما يتغيّرُ النّبتُ الأخضرُ فيصفرُّ كذلكَ الدّنيا بعدَ بهجتها. ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢١﴾﴾.

﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ﴾ شرحَ أي فتح ووسّعَ صدرهُ للإسلامِ حتّى ثبتَ فيهِ، وقيلَ: بالإسلامِ للفرحِ بهِ والطّمأنينةِ إليهِ، فعلى هذا لا يجوزُ أنْ يكونَ هذا الشّرحُ إلّا بعدَ الإسلامِ، وعلى الوجهِ الأوّلِ يجوزُ أنْ يكونَ الشّرحُ قبلَ الإسلامِ. ﴿فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ أيْ على هدى منْ ربّهِ كمنْ طبعَ على قلبهِ وأقساهُ. ودلَّ على هذا المحذوفِ قولهُ: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ أي عن قبول ذكر الله فلا ترقُّ ولا تلينُ. ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٍ ٢٣﴾، فيهِ مسألتان:

الأولى: قوله تعالى: ﴿نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ﴾ يعني القرآنَ لمّا قالَ: ﴿فَيَتَّبِعُونَ أَحۡسَنَهُۥٓۚ﴾ بيّنَ أنَّ أحسنَ ما يسمعُ ما أنزلهُ اللّهُ وهوَ القرآنُ، وسمّيَ القرآنُ حديثاً، لأنَّ رسولَ اللّهِ ﷺ كان يحدث به أصحابهُ وقومهُ، وهوَ كقولهِ: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثِۭ بَعۡدَهُۥ يُؤۡمِنُونَ﴾ وقولهِ: ﴿أَفَمِنۡ هَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ تَعۡجَبُونَ﴾ وقولهِ: ﴿فَذَرۡنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِۖ﴾.

قالَ القشيريُّ: وتوهّمَ قومٌ أنَّ الحديثَ منَ الحدوثِ فيدلَّ على أنَّ كلامهُ محدثٌ وهوَ وهمٌ، لأنّهُ لا يريدُ لفظَ الحديثِ على ما في قولهِ: ﴿مَا يَأۡتِيهِم مِّن ذِكۡرٖ مِّن رَّبِّهِم مُّحۡدَثٍ﴾ وقدْ قالوا: إنَّ الحدوثَ يرجعُ إلى التّلاوةِ لا إلى المتلوِّ.

﴿كِتَٰبٗا﴾ نصبٌ على البدلِ منْ ﴿أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ﴾ ويحتملُ أنْ يكونَ حالاً منهُ. ﴿مُّتَشَٰبِهٗا﴾ يشبهُ بعضهُ بعضاً في الحسنِ والحكمةِ ويصدّقُ بعضهُ بعضاً، ليسَ فيهِ تناقضٌ ولا اختلافٌ، وقيلَ: يشبهُ كُتبَ اللّهِ المنزّلةَ على أنبيائه، لما يتضمّنهُ منْ أمرٍ ونهيٍ وترغيبٍ وترهيبٍ وإنْ كانَ أعمَّ وأعجزَ. ثمَّ وصفهُ فقالَ: ﴿مَّثَانِيَ﴾ تثنّى فيهِ القصصُ والمواعظُ والأحكامُ وثنّيَ للتّلاوةِ فلا يملُّ. ﴿تَقۡشَعِرُّ﴾ تضطربُ وتتحرّكُ بالخوفِ ممّا فيهِ منَ الوعيدِ. ﴿ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ﴾ أيْ عندَ آيةِ الرّحمةِ. وقيلَ: إلى العملِ بكتابِ اللّهِ والتّصديقِ بهِ. وقيلَ: ﴿إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾ يعني الإسلامَ.

الثانية- تقشعر الجلودُ منهُ إعظاماً لهُ، وتعجّباً منْ حسنِ ترصيعهِ وتهيّباً لما فيهِ، وهوَ كقولهِ تعالى: ﴿لَوۡ أَنزَلۡنَا هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ عَلَىٰ جَبَلٖ لَّرَأَيۡتَهُۥ خَٰشِعٗا مُّتَصَدِّعٗا مِّنۡ خَشۡيَةِ ٱللَّهِۚ﴾ فالتّصدّعُ قريبٌ منَ الاقشعرارِ، والخشوعُ قريبٌ منْ قولهِ: ﴿ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ﴾ ومعنى لينِ القلبِ رقّتهُ وطمأنينتهُ وسكونهُ. ﴿ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ﴾ أي القرآنُ هدى اللّهِ ﴿وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٍ ٢٣﴾ أيْ منْ خذلهُ فلا مرشدَ لهُ. وهوَ يردُّ على القدريّةِ وغيرهمْ، ووقفَ ابنُ كثيرٍ على قولهِ: ﴿هَادٍ﴾ في الموضعين بالياء، الباقون بغير ياء.

قولهُ تعالى: ﴿أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ﴾ حين يرمى بهِ مكتوفـًا في النار فأول شيء تمسُّ منهُ النّارُ وجههُ. وقيلَ: يجرُّ على وجههِ في النّارِ. أيْ ﴿أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجۡهِهِۦ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ﴾ أفضلُ أمْ منْ سَعِدَ، مثلَ: ﴿أَفَمَن يُلۡقَىٰ فِي ٱلنَّارِ خَيۡرٌ أَم مَّن يَأۡتِيٓ ءَامِنٗا يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ﴾. ﴿وَقِيلَ لِلظَّٰلِمِينَ﴾ أيْ وتقولُ الخزنةُ للكافرينَ ﴿ذُوقُواْ مَا كُنتُمۡ تَكۡسِبُونَ ٢٤﴾ أيْ جزاءَ كسبكمْ منَ المعاصي. ومثلهُ ﴿هَٰذَا مَا كَنَزۡتُمۡ لِأَنفُسِكُمۡ فَذُوقُواْ مَا كُنتُمۡ تَكۡنِزُونَ﴾.

قولهُ تعالى: ﴿كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ فَأَتَىٰهُمُ ٱلۡعَذَابُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَشۡعُرُونَ ٢٥ فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلۡخِزۡيَ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ﴾ تقدّمَ معناهُ. ﴿وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَكۡبَرُۚ﴾ أيْ ممّا أصابهمْ في الدّنيا ﴿لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ٢٦﴾.

قولهُ تعالى: ﴿وَلَقَدۡ ضَرَبۡنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٖ﴾ أيْ منْ كلِّ مثلٍ يحتاجونَ إليهِ، مثلَ قولهُ تعالى: ﴿مَّا فَرَّطۡنَا فِي ٱلۡكِتَٰبِ مِن شَيۡءٖۚ﴾ ﴿لَّعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ ٢٧﴾ يتّعظونَ. ﴿قُرۡءَانًا عَرَبِيًّا﴾ نصبٌ على الحالِ. ﴿غَيۡرَ ذِي عِوَجٖ﴾ غيرُ مختلفٍ. ﴿لَّعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ﴾.

قولهُ تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا رَّجُلٗا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ﴾ أيْ مختلفونَ. ﴿وَرَجُلٗا سَلَمٗا لِّرَجُلٍ﴾ أيْ خالصـًا لسيّدٍ واحدٍ، وهوَ مثلُ منْ يعبدُ اللّهَ وحدهُ. ﴿هَلۡ يَسۡتَوِيَانِ مَثَلًاۚ﴾ هذا الّذي يخدمُ جماعةً شركاءَ أخلاقهمْ مختلفةٌ ونيّاتهمْ متباينةٌ، والّذي يخدمُ واحداً لا ينازعهُ فيهِ أحدٌ، فأيّهما أقلُّ تعبـًا أوْ على هدى مستقيم. وقرأ أهل الكوفة وأهل المدينة: ﴿وَرَجُلٗا سَلَمٗا﴾ وقرأَ أبو عمرو وابنُ كثيرٍ ويعقوبُ: «وَرَجُلاً سَالِمـًا» والسّالمَ الخالصَ ضدُّ المشتركِ، والسّلمَ ضدُّ الحربِ ولا موضعَ للحربِ هنا. والقراءتانِ حسنتانِ قرأَ بهما الأئمّةُ.

﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ٢٩﴾ الحق فيتبعونه.

قولهُ تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٞ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ٣٠﴾ الميّتُ بالتّشديدِ منْ لمْ يمتْ وسيموتُ، والميتُ بالتّخفيفِ منْ فارقتهُ الرّوحُ، فلذلكَ لمْ تخفّفْ هنا. قالَ قتادةُ: نعيتْ إلى النّبيِّ ﷺ نفسهُ، ونعيتْ إليكمْ أنفسكمْ، واحتملَ خمسةَ أوجهٍ:

أحدها: أنْ يكونَ ذلكَ تحذيراً منَ الآخرةِ.

الثّاني: أنْ يذكرهُ حثّاً على العملِ.

الثّالثُ: أنْ يذكرهُ توطئةً للموتِ.

الرّابعُ: لئلّا يختلفوا في موتهِ كما اختلفتِ الأممُ في غيرهِ، حتّى إنَّ عمرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لمّا أنكرَ موتهُ احتجَّ أبو بكرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بهذهِ الآيةِ فأمسكَ.

الخامسُ: ليعلمهُ أنَّ اللّهَ تعالى قدْ سوّى فيهِ بينَ خلقهِ معَ تفاضلهمْ في غيرهِ، لتكثرَ فيهِ السّلوةُ وتقلَّ فيهِ الحسرةُ.

﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴿٣١﴾﴾ يعني تخاصمَ الكافرِ والمؤمنِ والظّالمِ والمظلومِ، وقيلَ تخاصمهمْ هوَ تحاكمهمْ إلى اللّهِ تعالى، فيستوفي منْ حسناتِ الظّالمِ بقدرِ مظلمتهِ، ويردّها في حسناتِ منْ وجبتْ لهُ. وهذا عامٌّ في جميعِ المظالمِ كما في حديثِ أبي هريرةَ، أنَّ رسولَ اللّهِ ﷺ قالَ: «أتدرونَ منَ المفلسُ» قالوا: المفلسُ فينا منْ لا درهمَ لهُ ولا متاعَ. قالَ: إنَّ المفلسَ منْ أمّتي منْ يأتي يومَ القيامةِ بصلاةٍ وصيامٍ وزكاةٍ ويأتي قدْ شتمَ هذا وقذفَ هذا وأكلَ مالَ هذا وسفكَ دمَ هذا وضربَ هذا فيعطى هذا منْ حسناتهِ وهذا منْ حسناتهِ فإنْ فنيتْ حسناتهُ قبلَ أنْ يقضيَ ما عليهِ أخذَ منْ خطاياهمْ فطرحتْ عليهِ ثم طرفي النّارِ» خرّجهُ مسلمٌ، وفي البخاريِّ عنْ أبي هريرةَ أنَّ رسولَ اللّهِ ﷺ قالَ: «منْ كانتْ لهُ مظلمةٌ لأحدٍ من عرضه أو شيء فليتحلّلهُ منهُ اليومَ قبلَ ألّا يكونَ دينارٌ ولا درهمٌ إنْ كانَ لهُ عملٌ صالحٌ أخذَ منهُ بقدرِ مظلمتهِ وإنْ لمْ تكنْ لهُ حسناتٌ أخذَ منْ سيّئاتِ صاحبهِ فحملَ عليهِ».

قوله تعالى: ﴿۞فَمَنْ أَظْلَمُ﴾ أيْ لا أحدَ أظلمُ ﴿مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ﴾ فزعمَ أنَّ لهُ ولداً وشريكا ﴿وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ﴾ يعني القرآن ﴿أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ﴾ استفهام تقريرٍ ﴿مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾ أيْ مقامٌ للجاحدينَ، وهوَ مشتق من ثوى بالمكان إذ أقامَ بهِ يثوي ثواءً وثويـًا مثلُ مضى مضاءً ومضيـًا.

قولُه تعالى: ﴿وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ﴾ في موضعِ رفعٍ بالابتداءِ وخبرهُ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾﴾ واختلفَ في الّذي جاءَ بالصّدقِ وصدّقَ به، فقالَ: عليٌّ رضي الله عنه: ﴿ٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ﴾ النّبيُّ ﷺ ﴿وَصَدَّقَ بِهِۦٓ﴾ أبو بكرٍ رضي الله عنه. وقيلَ: الّذي جاء بالصدق جبريل والّذي صدّقَ بهِ محمّدٍ ﷺ. وقيل: ﴿ٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ﴾ النّبيُّ ﷺ: ﴿وَصَدَّقَ بِهِۦٓ﴾ المؤمنونَ. واستدلّوا على ذلكَ بقولهِ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ كما قالَ: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾. ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ أيْ منَ النّعيمِ في الجنّةِ ﴿ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٤﴾﴾ الثّناءُ في الدّنيا والثّوابُ في الآخرةِ. ﴿لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ﴾ أيْ صدّقوا ليكفر الله عنهم ﴿أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟﴾ أيْ يكرمهمْ ولا يؤاخذهمْ بما عملوا قبلَ الإسلامِ. ﴿وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم﴾ أيْ يثيبهم على الطاعات الدّنيا ﴿بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٣٥﴾﴾ وهيَ الجنّةُ.

قولُه تعالى: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾ حذفتِ الياءُ منْ «كافٍ» لسكونها وسكونِ التّنوينِ بعدها، ومنَ العربِ منْ يثبتها في الوقفِ على الأصلِ فيقولُ: كافي. وقراءةُ العامّةِ ﴿عَبْدَهُۥ﴾ بالتّوحيدِ يعني محمّداً ﷺ يكفيهِ اللّهُ وعيدَ المشركينَ وكيدهمْ. وقرأ حمزةُ والكسائيُّ: «عِبَادَهُۥ» وهمُ الأنبياءُ أوِ الأنبياءُ والمؤمنونَ بهم.

والاختيار قراءةَ الجماعةِ لقولهِ عقيبهُ: ﴿وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾. ويحتملُ أنْ يكونَ العبدُ لفظَ الجنسِ، كقولهِ عزَّ منْ قائل: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ﴾ وعلى هذا تكونُ القراءةُ الأولى راجعةً إلى الثّانيةِ. وقوله: ﴿وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾ وذلكَ أنّهمْ خوّفوا النّبيَّ ﷺ مضرّةَ الأوثانِ، ويدخلُ في الآيةِ تخويفهمُ النّبيَّ ﷺ بكثرةِ جمعهمْ وقوّتهمْ، كما قالَ: ﴿أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ﴾. ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٦﴾﴾ تقدّمَ. ﴿وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِى ٱنتِقَامٍ ﴿٣٧﴾﴾ أيْ ممن عاداه أو عادى رسله.

قولهُ تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم﴾ يا محمّدُ ﴿مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ بيّنَ أنّهمْ معَ عبادتهمُ الأوثانَ مقرّونَ بأنَّ الخالقَ هوَ اللّهُ، وإذا كانَ اللّهُ هوَ الخالقُ فكيفَ يخوّفونكَ بآلهتهمُ الّتي هيَ مخلوقةٌ للّهِ تعالى، وأنتَ رسولُ اللّهِ الذي خلقها وخلق السموات والأرضَ. ﴿قُلْ أَفَرَءَيْتُم﴾ أيْ قلْ لهمْ يا محمّدُ بعدَ اعترافهمْ بهذا ﴿إِنْ أَرَادَنِيَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ﴾ بشدّةٍ وبلاءٍ ﴿هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ﴾ يعني هذهِ الأصنامَ ﴿أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ﴾ نعمةٍ ورخاءٍ ﴿هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ﴾ وتركَ الجوابَ لدلالةِ الكلامِ عليهِ يعني فسيقولونَ لا فَـ ﴿قُلْ﴾ أنتَ ﴿حَسْبِىَ ٱللَّهُ﴾ أيْ عليهِ توكّلتُ أيِ اعتمدتُ وَ ﴿عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ۝٣٨﴾ يعتمدُ المعتمدونَ.

وقرأ نافع وابن كثير والكوفيون ما عدا عاصما ﴿كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ﴾ بغير تنوين. وقرأ أبو عمرو وهي المعروفةُ منْ قراءةِ عاصمٍ ﴿هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتٌ ضُرَّهُۥ﴾. ﴿مُمْسِكَٰتٌ رَحْمَتَهُۥ﴾ بالتّنوينِ على الأصلِ(٤).

قولهُ تعالى: ﴿قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ﴾ أي مكانتي أيْ على جهتي الّتي تمكّنتْ عندي ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٣٩ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾ أيْ يهينهُ ويذلّهُ أيْ في الدّنيا وذلكَ بالجوعِ والسّيفِ. ﴿وَيَحِلُّ عَلَيْهِ﴾ أي في الآخرة ﴿عَذَابٌ مُّقِيمٌ ۝٤٠﴾.

قولهُ تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ لِلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِۦ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ۝٤١﴾ تقدّمَ الكلامُ في هذهِ الآيةِ مستوفى في غير موضع.

قولهُ تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ۝٤٢﴾، فيهِ أربعُ مسائلَ:

الأولى: قولهُ تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ أيْ يقبضها عندَ فناءِ آجالها ﴿وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا﴾ يقبضها عندَ انقضاءِ أجلها، وقالَ ابنُ عبّاسٍ وغيرهُ منَ

(٤) قراءة عاصم المشهورة بغير تنوين وهي قراءة ابن عامر أيضًا.

المفسّرينَ: إنَّ أرواحَ الأحياءِ والأمواتِ تلتقي في المنامِ فتتعارفُ ما شاءَ اللّهُ منها، فإذا أرادَ جميعها الرّجوعَ إلى الأجسادِ أمسكَ اللّهُ أرواحَ الأمواتِ عندهُ، وأرسلَ أرواحَ الأحياءِ إلى أجسادها.

الثانية- وقدِ اختلفَ النّاسُ منْ هذهِ الآيةِ في النّفسِ والرّوحِ، هلْ هما شيء واحدٌ أوْ شيئانِ على ما ذكرنا. والأظهرُ أنهما شيء واحدٌ، وهوَ الّذي تدلُّ عليهِ الآثارُ الصّحاحُ على ما نذكرهُ في هذا البابِ. منْ ذلكَ حديثُ أمِّ سلمةَ قالتْ: دخلَ رسولُ اللّهِ ﷺ على أبي سلمةَ وقدْ شقَّ بصرهُ فأغمضهُ، ثمَّ قالَ: «إنَّ الرّوحَ إذا قبضَ تبعهُ البصرُ» وحديثِ أبي هريرةَ قالَ: قالَ رسولُ اللّهِ ﷺ: «ألمْ تروا الإنسانَ إذا ماتَ شخصَ بصرهُ» قالَ: «فذلكَ حينَ يتبعُ بصرهُ نفسهُ» خرّجهما مسلمٌ. وعنهُ عنِ النّبيِّ ﷺ قالَ: «تحضرُ الملائكةُ فإذا كانَ الرّجلُ صالحًا قالوا اخرجي أيّتها النّفسُ الطّيّبةُ كانتْ في الجسدِ الطّيّبِ اخرجي حميدةً وأبشري بروحٍ وريحانٍ وربٍّ راضٍ غيرِ غضبانَ فلا يزالُ يقالُ لها ذلكَ حتّى تخرجَ ثمَّ يعرجُ بها إلى السّماءِ» وذكرَ الحديثَ وإسنادهُ صحيحٌ خرّجهُ ابنُ ماجهْ، وفي صحيحِ مسلمٍ عنْ أبي هريرةَ قالَ: «إذا خرجتْ روحُ المؤمنِ تلقّاها» ملكانِ يصعدانِ بها. وذكرَ الحديثَ. وقالَ بلالٌ في حديثِ الوادي: أخذَ بنفسي يا رسولَ اللّهِ الّذي أخذَ بنفسكَ. وقالَ رسولُ اللّهِ ﷺ مقابلاً لهُ في حديثِ زيدِ بنِ أسلمَ في حديثِ الوادي: «يا أيّها النّاسُ إنَّ اللّهَ قبضَ أرواحنا ولوْ شاءَ ردّها إلينا في حينٍ غيرِ هذا».

الثالثة- والصّحيحُ فيهِ أنّهُ جسمٌ لطيفٌ مشابه للأجسامِ المحسوسةِ، يجذبُ ويخرجُ وفي أكفانهِ يلفُّ ويدرجُ، وبهِ إلى السّماءِ يعرجُ، لا يموتُ ولا يفنى، وهوَ ممّا لهُ أوّلٌ وليسَ لهُ آخرُ، وهوَ بعينينِ ويدينِ، وأنّهُ ذو ريحٍ طيّبةٍ وخبيثةٍ، كما في حديثِ أبي هريرةَ. وهذهِ صفةُ الأجسامِ لا صفةُ الأعراضِ، قال تعالى: ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ﴾ يعني النّفسَ إلى خروجها منَ الجسدِ، وهذهِ صفةُ الجسمِ. واللّهُ أعلمُ.

الرابعة- خرّجَ البخاريُّ ومسلمٌ منْ حديثِ أبي هريرةَ أنَّ رسولَ اللّهِ ﷺ قالَ: «إذا أوى أحدكمْ إلى فراشهِ فليأخذْ داخلةَ إزارهِ فلينفضْ بها فراشهُ وليسمِّ اللّهَ فإنّهُ لا يعلم ما خلفه بعد على فراشهِ فإذا أرادَ أنْ يضطجعَ فليضطجعْ على شقّهِ الأيمنِ وليقلْ سبحانكَ ربّي وضعتُ

جنبي وبكَ أرفعهُ إنْ أمسكتَ نفسي فاغفرْ لها.»وقالَ البخاريُّ وابنُ ماجهْ والتّرمذيُّ: «فارحمها» بدلَ «فاغفرْ لها» وإنْ أرسلتها فاحفظها بما تحفظُ بهِ عبادكَ الصّالحينَ» زادَ التّرمذيُّ: «وإذا استيقظَ فليقلِ الحمدُ للّهِ الّذي عافاني في جسدي وردَّ عليَّ روحي وأذنَ لي بذكرهِ» وخرّجَ البخاريُّ عنْ حذيفةَ قالَ: كانَ رسولُ اللّهِ ﷺ إذا أخذَ مضجعهُ منَ اللّيلِ وضعَ يدهُ تحتَ خدّهِ، ثمَّ يقولُ: «اللّهمَّ باسمكَ أموتُ وأحيا» وإذا استيقظَ قالَ: «الحمدُ للّهِ الّذي أحيانا بعدَ ما أماتنا وإليهِ النّشورُ».

قولهُ تعالى: ﴿فَيُمۡسِكُ ٱلَّتِي قَضَىٰ عَلَيۡهَا ٱلۡمَوۡتَ﴾ هذهِ قراءةُ العامّةِ على أنّهُ مسمّى الفاعلِ ﴿ٱلۡمَوۡتَ﴾ نصبـًا، أيْ قضى اللّهُ عليها لقولهِ في أوّلِ الآيةِ: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلۡأَنفُسَ﴾ فهوَ يقضي عليها. وقرأ حمزةُ والكسائيُّ: «قُضِيَ عَلَيْهَا الْمَوْتُ» على ما لمْ يسمَّ فاعلهُ، والمعنى واحدٌ وأجمعوا على ﴿وَيُرۡسِلُ﴾ ولم يقرأوا ﴿وَيُرۡسَلُ﴾.

وفي الآيةِ تنبيهٌ على عظيمِ قدرتهِ وانفرادهِ بالألوهيّةِ، وأنّهُ يفعلُ مايشاءُ، ويحيي ويميتُ، لا يقدرُ على ذلكَ سواهُ. ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ﴾ يعني في قبضِ اللّهِ نفسَ الميّتِ والنّائمِ، وإرسالهِ نفسَ النّائمِ وحبسهِ نفسَ الميّتِ ﴿لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ١٣﴾، وفي التنزيل: ﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي﴾ أيْ لا يعلمُ حقيقتهُ إلّا اللّهُ.

قولهُ تعالى: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَۚ قُلۡ أَوَلَوۡ كَانُواْ لَا يَمۡلِكُونَ شَيۡـٔٗا﴾ منَ الشّفاعةِ ﴿وَلَا يَعۡقِلُونَ ٤٣﴾ لأنّها جماداتٌ. وهذا استفهامُ إنكارٍ. ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعٗاۖ﴾ نصٌّ في أنَّ الشّفاعةَ للّهِ وحدهُ كما قالَ: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ﴾ فلا شافعَ إلّا منْ شفاعتهِ ﴿وَلَا يَشۡفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرۡتَضَىٰ﴾. ﴿جَمِيعٗا﴾ نصبٌ على الحالِ. فإنْ قيلَ: ﴿جَمِيعٗا﴾ إنّما يكونُ للاثنينِ فصاعداً والشّفاعةُ واحدةٌ. فالجوابُ: أنَّ الشّفاعةَ مصدرٌ والمصدرُ يؤدّي عنِ الاثنينِ والجميع. ﴿لَّهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ٤٤﴾.

قولهُ تعالى: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحۡدَهُ ٱشۡمَأَزَّتۡ﴾ انقبضتْ، وأصلُ الاشمئزازِ النّفورُ والازورارُ ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ﴾ يعني الأوثانَ ﴿إِذَا هُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ ٤٥﴾ أيْ يظهر في وجوههم البشر والسرور.

قولهُ تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ نصبٌ لأنّهُ نداءٌ مضافٌ وكذا ﴿عَٰلِمَ ٱلۡغَيۡبِ والشَّهَادةِ﴾. ﴿أَنتَ تَحۡكُمُ بَيۡنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ ۝٤٦﴾ وفي صحيح مسلمٍ عنْ أبي سلمةَ بنِ عبدِ الرّحمنِ بنِ عوفٍ قالَ: سألت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا بأي شيء كانَ النّبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يستفتحُ صلاتهُ إذا قامَ منَ اللّيلِ؟ قالتْ: كانَ إذا قامَ منَ اللّيلِ افتتحَ صلاتهُ: «اللّهمَّ رب جبريل وميكائيل وإسرافيل فاطر السموات والأرضِ عالمَ الغيبِ والشّهادةِ أنتَ تحكمُ بينَ عبادك فيما كانوا فيهِ يختلفونَ اهدني لما اختلفَ فيهِ منَ الحقِّ بإذنكَ إنّكَ تهدي منْ تشاءُ إلى صراطٍ مستقيمٍ».

قولهُ تعالى: ﴿وَلَوۡ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ أيْ كذّبوا وأشركوا ﴿مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا وَمِثۡلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفۡتَدَوۡاْ بِهِۦ مِن سُوٓءِ ٱلۡعَذَابِ﴾ أيْ منْ سوءِ عذابِ ذلكَ اليومِ ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمۡ يَكُونُواْ يَحۡتَسِبُونَ ۝٤٧﴾ عملوا أعمالاً توهّموا أنّها حسناتٌ فإذا هيَ سيّئاتٌ، وقالَ سفيانُ الثّوريُّ في هذهِ الآيةِ: ويلٌ لأهلِ الرّياءِ ويلٌ لأهلِ الرّياءِ هذهِ آيتهمْ وقصّتهمْ. ﴿وَبَدَا لَهُمۡ﴾ أيْ ظهرَ لهمْ ﴿سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْ﴾ أيْ عقابُ ما كسبوا منَ الكفرِ والمعاصي. ﴿وَحَاقَ بِهِم﴾ أيْ أحاطَ بهمْ ونزل ﴿مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ۝٤٨﴾.

قولهُ تعالى: ﴿فَإِذَا مَسَّ ٱلۡإِنسَٰنَ ضُرّٞ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلۡنَٰهُ نِعۡمَةٗ مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمِۭ﴾ عندي بوجوهِ المكاسبِ، أو على علمٍ منَ اللّهِ بفضلي. فقالَ: اللّهُ: ﴿بَلۡ هِيَ فِتۡنَةٞ﴾ أيْ بلِ النّعمُ الّتي أوتيتها فتنةٌ تختبرُ بها. ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ۝٤٩﴾ أيْ لا يعلمونَ أنَّ إعطاءهمُ المالَ اختبارٌ.

قولهُ تعالى: ﴿قَدۡ قَالَهَا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ يعني الكفّارَ قبلهمْ كقارونَ وغيرهِ حيثُ قالَ: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓۚ﴾. ﴿فَمَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ۝٥٠﴾ ﴿مَا﴾ للجحدِ أيْ لمْ تغنِ عنهمْ أموالهمْ ولا أولادهمْ منْ عذابِ اللّهِ شيئًا. ﴿فَأَصَابَهُمۡ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْ﴾ أيْ جزاءُ سيئات أعمالهمْ. وقدْ يسمّى جزاءُ السّيّئةِ سيّئةً. ﴿وَٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ أي أشركوا ﴿مِنۡ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ الأمة ﴿سَيُصِيبُهُمۡ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْ﴾ أيْ بالجوعِ والسّيفِ. ﴿وَمَا هُم بِمُعۡجِزِينَ ۝٥١﴾ أيْ فائتينَ اللّهَ ولا سابقيهِ.

قولهُ تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾﴾ خصَّ المؤمنَ بالذّكرِ، لأنّهُ هوَ الّذي يتدبّرُ الآياتِ وينتفعُ بها. ويعلمُ أنَّ سعةَ الرّزقِ قدْ يكو مكرا واستدراجا، وتقتيره رفعة وإعظاما.

قولهُ تعالى: ﴿۞قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ﴾ وإنْ شئتَ حذفتَ الياءَ، لأنَّ النّداءَ موضعُ حذفٍ. وكانَ قومٌ منَ المشركينَ قتلوا فأكثروا، وزنوا فأكثروا، فقالوا للنّبيِّ ﷺ أوْ بعثوا إليهِ: إن ما تدعو إليه لحسن أوَ تخبرنا أنَّ لنا توبةً؟ فأنزلَ اللّهُ عزَّ وجلَّ هذه الآية: ﴿۞قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ ذكرهُ البخاريُّ بمعناهُ، وقيلَ: إنّها نزلتْ في قومٍ منَ المسلمينَ أسرفوا على أنفسهمْ في العبادةِ، وخافوا ألّا يتقبّلَ منهمْ لذنوبٍ سبقتْ لهمْ في الجاهليّةِ.

قالَ عبدُ اللّهِ بنُ عمرَ: وهذهِ أرجى آيةٍ في القرآنِ فردَّ عليهمُ ابنُ عبّاسٍ وقالَ أرجى آية في القرآن قول تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْۖ﴾.

قولهُ تعالى: ﴿وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾ أيِ ارجعوا إليهِ بالطّاعةِ، لمّا بيّنَ أنَّ منْ تابَ منَ الشّركِ يغفرُ لهُ أمرَ بالتّوبةِ والرّجوعِ إليهِ، والإنابةُ الرّجوعُ إلى اللّهِ بالإخلاصِ ﴿وَأَسْلِمُواْ لَهُۥ﴾ أيِ اخضعوا لهُ وأطيعوا ﴿مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ في الدنيا ﴿ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾﴾ أيْ لا تمنعونَ منْ عذابهِ.

قولهُ تعالى: ﴿وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٥٥﴾﴾ ﴿أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ﴾ هوَ القرآنُ وكلّهُ حسنٌ، فقد أنزل الله كتبا التّوراةِ والإنجيلِ والزّبورِ ثمَّ أنزلَ القرآنَ وأمرَ باتّباعهِ فهوَ الأحسنُ وهوَ المعجزُ، وقيلَ: هذا أحسنُ لأنّهُ ناسخٌ قاضٍ على جميعِ الكتبِ وجميعُ الكتبِ منسوخةٌ- وقيلَ ما علّمَ اللّهُ النّبيَّ ﷺ وليسَ بقرآنٍ فهوَ حسنٌ، وما أوحى إليهِ منَ القرآنِ فهوَ الأحسنُ، وقيلَ: أحسنَ ما أنزلَ إليكمْ منْ أخبارِ الأممِ الماضيةِ.

قوله تعالى: ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ﴾ ﴿أَن تَقُولَ﴾ لئلّا تقولُ، وقيلَ: أيْ منْ قبلِ ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ﴾ لأنه قال قبل هذا: ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ﴾. ونكّرتْ لأنَّ المرادَ

بها بعضُ الأنفسِ وهيَ نفسُ الكافرِ، ﴿يَا حَسْرَتَى﴾ والأصلُ «يا حسرتي» فأبدلَ منَ الياءِ ألفٌ، لأنّها أخفُّ وأمكنُ في الاستغاثةِ بمدِّ الصّوتِ، وربّما ألحقوا بها الهاءَ، والحسرةُ النّدامةُ ﴿عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾ في طاعةِ اللّهِ. والجنبُ القربُ والجوارُ، أي على ما فرّطتُ في طلبِ جوارهِ وقربهِ وهوَ الجنّةُ ﴿وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ۝٥٦﴾ أيْ وما كنتُ إلّا منَ المستهزئينَ بالقرآن وبالرسول في الدنيا.

قولهُ تعالى: ﴿أَوۡ تَقُولَ﴾ هذهِ النّفسُ ﴿لَوۡ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِي﴾ أيْ أرشدني إلى دينه ﴿لَكُنتُ مِنَ ٱلۡمُتَّقِينَ ۝٥٧﴾ أي الشرك والمعاصي، وهذا قولَ صدقٍ، وهوَ قريبٌ منَ احتجاج المشركينَ فيما أخبرَ الرّبُّ جلَّ وعزَّ عنهمْ في قولهُ: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشۡرَكۡنَا﴾ فهيَ كلمةُ حقٍّ أريدَ بها باطلٌ، كما قالَ عليٌّ رضي الله عنه لمّا قالَ قائلٌ منَ الخوارجِ لا حكمَ إلا لله ﴿أَوۡ تَقُولَ﴾ يعنى هذهِ النّفسَ ﴿حِينَ تَرَى ٱلۡعَذَابَ لَوۡ أَنَّ لِي كَرَّةً﴾ أي رجعةً ﴿فَأَكُونَ﴾ نصبٌ على جوابِ التّمنّي، ﴿مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ۝٥٨﴾ فقالَ اللّهُ تعالى رداً لكلامهمْ ﴿بَلَىٰ قَدۡ جَآءَتۡكَ ءَايَٰتِي﴾ قالَ الزّجّاجُ: ﴿بَلَىٰ﴾ جوابُ النّفي وليسَ في الكلامِ لفظُ النّفي، وكأنَّ هذا القائلَ قالَ ما هديت، فقيل، بلى قدْ بيّنَ لكَ طريقُ الهدى فكنتَ بحيثُ لوْ أردتَ أنْ تؤمنَ أمكنكَ أنْ تؤمنَ. ﴿ءَايَٰتِي﴾ أيِ القرآنُ، وقيلَ: عنى بالآياتِ المعجزاتِ، أيْ وضحَ الدّليلُ فأنكرتهُ وكذّبتهُ ﴿وَٱسۡتَكۡبَرۡتَ﴾ أيْ تكبّرتَ عنِ الإيمانِ ﴿وَكُنتَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ۝٥٩﴾. وقالَ: ﴿ٱسۡتَكۡبَرۡتَ وَكُنتَ﴾ وهوَ خطابُ الذّكرِ، لأنَّ النّفسَ تقعُ على الذّكرِ والأنثى.

قولهُ تعالى: ﴿وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسۡوَدَّةٌۚ﴾ أي مما أحاط بهمْ منْ غضبِ اللّهِ ونقمته ﴿أَلَيۡسَ فِي جَهَنَّمَ مَثۡوٗى لِّلۡمُتَكَبِّرِينَ ۝٦٠﴾ وبينَ رسولِ اللّهِ ﷺ معنى الكبر فقال ﷺ: «سفه الحق وغمص النّاسِ» أيِ احتقارهمْ.

قولهُ تعالى: ﴿وَيُنَجِّي ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ﴾ وقريء «وَيُنْجِي» أيْ منَ الشّركِ والمعاصي ﴿بِمَفَازَتِهِمۡ﴾ على التّوحيدِ قراءةُ العامّةِ لأنّها مصدرٌ، وقرأ الكوفيّونَ «بمفازاتهمْ» وهوَ جائزٌ كما تقولُ بسعاداتهمْ ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ ۝٦٢﴾ أيْ حافظٌ وقائمٌ بهِ.

قولهُ تعالى: ﴿لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ واحدها مقليدٌ. وقيلَ: مقلادٌ، والمقاليدُ المفاتيحُ، وقيلَ: خزائن السموات المطرُ وخزائنُ الأرضِ النّباتُ، وفيهِ لغةٌ أخرى أقاليدُ وعليها يكونُ واحدها إقليدٌ،

قولهُ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ أيْ بالقرآنِ والحججِ والدّلالاتِ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٦٣﴾﴾ تقدم.

قولهُ تعالى: ﴿قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ أَعْبُدُ﴾ وذلكَ حينَ دعوا النّبيَّ ﷺ إلى ما همْ عليهِ منْ عبادةِ الأصنامِ وقالوا هوَ دينُ آبائكَ، وقرأنافعٌ «تَأْمُرُونِيَ» بنونٍ واحدةٍ مخفّفةٍ وفتحِ الياءِ، وقرأ ابنُ عامرٍ «تَأْمُرُونَنِي»، بنونينِ مخفّفتينِ على الأصلِ. الباقونَ بنونٍ واحدةٍ مشدّدةٍ على الإدغامِ، ﴿أَعْبُدُ﴾ أيْ أنْ أعبدَ.

قولهُ تعالى: ﴿وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ وهوَ خطاب للنبي ﷺ خاصّةً، وقيلَ: الخطابُ لهُ والمرادُ أمّتهُ، إذْ قدْ علمَ اللّهُ أنّهُ لا يشركُ ولا يقعُ منهُ إشراكٌ، والإحباط الإبطالُ والفسادُ، فمنِ ارتدَّ لمْ تنفعهُ طاعاتهُ السّابقةُ ولكنَّ إحباطَ الرّدّةِ العملَ مشروطٌ بالوفاةِ على الكفرِ، ولهذا قالَ: ﴿مَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ﴾ فالمطلق ها هنا محمولٌ على المقيّدِ، ولهذا قلنا منْ حجَّ ثمَّ ارتدَّ ثمَّ عادَ إلى الإسلامِ لا يجبُ عليهِ إعادةُ الحجِّ. قلت: هذا مذهبُ الشّافعيِّ، وعندَ مالكٍ تجبُ عليهِ الإعادةُ.

قولهُ تعالى: ﴿بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ﴾ أيْ فوحّدْ ﴿وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٦﴾﴾ لنعمهِ بخلاف المشركين.

قولهُ تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ﴾ إذ عبدوا معهُ غيرهُ وهوَ خالقُ الأشياءِ ومالكها، ثم أخبر عن قدرته وعظمته فقال: ﴿وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾﴾. وفي البخاريِّ ومسلمٌ عنْ أبي هريرةَ قالَ: قالَ رسولُ اللّهِ ﷺ: «يقبضُ اللّهُ الأرضَ يومَ القيامةِ ويطوي السّماءَ بيمينهِ ثمَّ يقولُ أنا الملكُ أينَ ملوكُ الأرضِ». وفي التّرمذيِّ عنْ عائشةَ أنّها سألتْ رسولَ اللّهِ ﷺ عنْ قولهِ:

﴿وَٱلۡأَرۡضُ جَمِيعٗا قَبۡضَتُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطۡوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦۚ﴾ قالتْ: قلتُ: فأينَ النّاسُ يومئذٍ يا رسولَ اللّهِ؟ قالَ: «على جسرِ جهنّمَ» في روايةٍ «على الصّراطِ يا عائشةُ» قالَ: حديثٌ حسنٌ صحيحٌ.

وقولهُ: ﴿وَٱلۡأَرۡضُ جَمِيعٗا قَبۡضَتُهُۥ﴾ و"يقبضُ اللّهُ الأرضَ" عبارةٌ عنْ قدرتهِ وإحاطتهِ بجميعِ مخلوقاتهِ، يقالُ ما فلانٌ إلّا في قبضتي، بمعنى ما فلانٌ إلّا في قدرتي، والنّاسُ يقولونَ الأشياءُ في قبضتهِ يريدونَ في ملكهِ وقدرتهِ، وقدْ يكونُ معنى القبضُ والطّيُّ إفناءُ الشّيءِ وإذهابهُ فقولهُ جلَّ وعزَّ: ﴿وَٱلۡأَرۡضُ جَمِيعٗا قَبۡضَتُهُۥ﴾ يحتملُ أنْ يكونَ المرادُ بهِ والأرضُ جميعـًا ذاهبةٌ فانيةٌ يومَ القيامةِ، والمرادُ بالأرضِ الأرضونَ السّبعُ، يشهدُ لذلكَ شاهدانِ قولهُ: ﴿وَٱلۡأَرۡضُ جَمِيعٗا﴾ ولأنَّ الموضعَ موضعَ تفخيمٍ وهوَ مقتضٍ للمبالغةِ، وقولهُ: ﴿وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطۡوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦۚ﴾ ليسَ يريدُ بهِ طيـًا بعلاجٍ وانتصابٍ، وإنّما المرادُ بذلكَ الفناءُ والذّهابُ، واليمينُ في كلامِ العربِ قد تكونُ بمعنى القدرةِ والملكِ، ومنهُ قولهُ تعالى: ﴿أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡۚ﴾ يريدُ به الملكَ، وقالَ: ﴿لَأَخَذۡنَا مِنۡهُ بِٱلۡيَمِينِ﴾ أيْ بالقوّةِ والقدرةِ أيْ لأخذنا قوّتهُ وقدرتهُ(٥)، وأنشدوا:

إذا ما رايةٌ رفعتْ لمجدٍ تلقّاها عرابةُ باليمين

وإنّما خصَّ يومُ القيامةِ بالذّكرِ وإنْ كانتْ قدرته شاملة لكلِ شيء أيضـًا، لأنَّ الدّعاوى تنقطعُ ذلكَ اليومَ، كما قالَ: ﴿وَٱلۡأَمۡرُ يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ﴾ وقالَ: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾، ولذلكَ قالَ في الحديثِ: «ثمَّ يقولُ أنا الملكُ أينَ ملوكُ الأرضِ».

---

(٥) هذا كله مسلم لكنه يتضمن تأويل صفة اليد لله تعالى وهى صفة ذاتية ثابتة بالكتاب والسنة وإجماع أهل السنة من غير تعطيل ولا تكييف ولا تمثيل ولا تشبيه ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾، قال تعالى: ﴿بَلۡ يَدَاهُ مَبۡسُوطَتَانِ﴾، وقال تعالى: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ﴾ وعند الشيخين فى حديث الشفاعة الطويل: فيأتون آدم فيقولون: «يا آدمُ أنتَ أبو البشر، خلقكَ اللّهُ بيدهِ، ونفخَ فيكَ منْ روحهِ...»، وفى البخارى عنْ أبى هريرةَ ﵁: أنَّ رسولَ اللّهِ ﷺ قالَ: " قالَ اللّهُ عزَّ وجلَّ: أنفقْ أنفقْ عليكَ، وقالَ: يدُ اللّهِ ملأى لا تغيضها نفقةٌ سحّاءُ اللّيلَ والنّهارَ، وقالَ: أرأيتمْ ما أنفقَ منذُ خلقَ السّماءَ والأرضَ، فإنّهُ لمْ يغضْ ما فى يدهِ، وكانَ عرشهُ على الماءِ، وبيدهِ الميزانُ يخفضُ ويرفعُ " وغير ذلك من النصوص.

قوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ۝٦٨﴾ بيّنَ ما يكونُ بعدَ قبضِ الأرضِ وطيِّ السّماءِ وهوَ النّفخُ في الصّورِ، وإنّما هما نفختانِ، يموتُ الخلقُ في الأولى منهما ويحيونَ في الثّانيةِ، والّذي ينفخُ في الصّورِ هوَ إسرافيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

واختلفَ في المستثنى منْ همْ؟ فقيلَ: همُ الشّهداءُ متقلّدينَ أسيافهمْ حولَ العرشِ، وقيلَ: جبريلُ وميكائيلُ وإسرافيلُ وملكُ الموتِ عليهمُ السّلامُ، وقيلَ: عقاربُ أهلِ النّارِ وحيّاتها. وقيلَ: هوَ الله الواحد القهار وما يدع أحد منْ أهلِ السّماءِ والأرضِ إلّا أذاقهُ الموتَ، وقيلَ: يرجعُ الاستثناء إلى منْ ماتَ قبلَ النّفخةِ الأولى، أيْ فيموت من في السموات والأرضِ إلّا منْ سبقَ موتهُ، لأنّهمْ كانوا قدْ ماتوا، وفي الصّحيحينِ وابنِ ماجهْ واللّفظُ لهُ عنْ أبي هريرةَ قالَ: قالَ رجلٌ من اليهود بسوق المدينةِ: والّذي اصطفى موسى على البشرِ، فرفعَ رجلٌ منَ الأنصارِ يدهُ فلطمهُ، قالَ: تقولُ هذا وفينا رسولُ اللّهِ ﷺ. فذكرتُ ذلكَ لرسولِ اللّهِ ﷺ فقالَ: «قالَ اللّهُ عزَّ وجلَّ ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ فأكونُ أوّلَ منْ رفعَ رأسهُ فإذا أنا بموسى آخذٌ بقائمةٍ منْ قوائمِ العرشِ فلا أدري أرفعَ رأسهُ قبلي أوْ كانَ ممّنِ استثنى اللّهُ ومنْ قالَ أنا خيرٌ منْ يونس بن متى كذبَ» وخرّجهُ التّرمذيُّ أيضًا وقالَ فيهِ: حديثٌ حسنٌ صحيحٌ، وجاءَ في بعضِ طرقِ أبي هريرةَ أنّهُ ﷺ قالَ: «لا تخيّروني على موسى فإنَّ النّاسَ يصعقونَ فأكونُ أوّلَ منْ يفيقُ فإذا موسى باطشٌ بجانبِ العرشِ فلا أدري أكانَ فيمنْ صعقَ فأفاقَ قبلي أمْ كانَ ممّنِ استثنى اللّهُ» خرّجهُ مسلمٌ، والإفاقةُ إنّما تكونُ عنْ غشيةٍ وزوالِ عقلٍ لا عنْ موتٍ بردِّ الحياةِ، واللّهُ أعلمُ.

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ أيْ فإذا الأمواتُ منْ أهلِ الأرضِ والسّماءِ أحياءٌ بعثوا منْ قبورهمْ، وأعيدتْ إليهمْ أبدانهمْ وأرواحهمْ، فقاموا ينظرونَ ماذا يؤمرونَ، وقيلَ: هذا النّظرُ بمعنى الانتظارِ، أيْ ينتظرونَ ما يفعلُ بهمْ.

قوله تعالى: ﴿وَأَشۡرَقَتِ ٱلۡأَرۡضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾ إشراقها إضاءتها، ومعنى ﴿بِنُورِ رَبِّهَا﴾ بعدلِ ربِّها وقضائهِ بالحقِّ بينَ عبادهِ. والظّلمُ ظلماتٌ والعدلُ نورٌ. وقيلَ: إنَّ اللّهَ يخلقُ نوراً يومَ القيامةِ يلبسهُ وجهَ الأرضِ فتشرقُ الأرضُ بهِ، وقالَ ابنُ عبّاسٍ: النّورُ المذكورُ هاهنا ليسَ منْ نورِ الشّمسِ والقمرِ، بلْ هوَ نورٌ يخلقهُ اللّهُ فيضيءُ بهِ الأرضَ، فأضافَ النّورَ إليهِ على حدِّ إضافةِ الملكِ إلى المالكِ، وقدضل قوم هاهنا فتوهموا أنَّ اللّهَ عزَّ وجلَّ منْ جنسِ النّورِ والضّياءِ المحسوسِ، وهوَ متعالٍ عنْ مشابهةِ المحسوساتِ، بل هو منور السموات والأرضِ، فمنهُ كلُّ نورٍ خلقاً وإنشاءً(٦).

قوله تعالى: ﴿وَوُضِعَ ٱلۡكِتَٰبُ﴾ يريدُ اللّوحَ المحفوظَ. وقيلَ: يريدُ الكتابَ والصّحفَ الّتي فيها أعمالُ بني آدمَ، فآخذ بيمينه وآخذ بشماله ﴿وَجِاْيٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ فسألهمْ عمّا أجابتهمْ بهِ أممهمْ. ﴿وَٱلشُّهَدَآءِ﴾ الذين شهدوا على الأمم من أمة محمّدٍ ﷺ، كما قالَ تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ وقيلَ: المراد بالشهداء الذي استشهدوا في سبيلِ اللّهِ، فيشهدونَ يومَ القيامةِ لمنْ ذبَّ عنْ دينِ اللّهِ، وقيلَ: همُ الحفظةُ الّذينَ يشهدونَ على النّاسِ بأعمالهمْ. قالَ اللّهُ تعالى: ﴿وَجَآءَتۡ كُلُّ نَفۡسٖ مَّعَهَا سَآئِقٞ وَشَهِيدٞ﴾ فالسّائقُ يسوقها إلى الحسابِ والشّهيدُ يشهدُ عليها، وهوَ الملكُ الموكّلُ بالإنسانِ على ما يأتي بيانهُ في "ق".

﴿وَقُضِيَ بَيۡنَهُم بِٱلۡحَقِّ﴾ أيْ بالصّدقِ والعدلِ. ﴿وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ۝٦٩﴾ فلا ينقصُ منْ حسناتهمْ ولا يزادُ على سيّئاتهمْ. ﴿وَوُفِّيَتۡ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا عَمِلَتۡ﴾ من خير أو شر. ﴿وَهُوَ أَعۡلَمُ بِمَا يَفۡعَلُونَ ۝٧٠﴾ في الدّنيا ولا حاجةَ بهِ عزَّ وجلَّ إلى كتابٍ ولا إلى شاهد، ومع ذلك فتشهد

---

(٦) هذا حق لكنه لا يلزم معه نفي وصفه سبحانه بالنور، كما دلت عليه هذه الآية مع قوله تعالى: ﴿۞ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ وقوله ﷺ في المعراج: «رأيت نورا» وقوله ﷺ: «حجابه النور» وفي رواية أبي بكر: «النار» لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه» رواهما مسلم، ونوره سبحانه لا يشبه الأنوار المخلوقة كما أن سمعه وبصره لا يشبه الأسماع ولا الأبصار المخلوقة، قال تعالى: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾، فالله نور وصفاته نور، وآياته المنزلة نور كما قال تعالى: ﴿وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ نُورٗا مُّبِينٗا﴾.

الكتب، إلزاما للحجة.

قولهُ تعالى: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًاۖ﴾ هذا بيانُ توفيةِ كلِّ نفسٍ عملها، فيساقُ الكافرُ إلى النّارِ والمؤمنُ إلى الجنّةِ. والزّمرُ: الجماعاتُ واحدتها زمرةٌ كظلمةٍ وغرفةٍ ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا﴾ جوابُ إذا، وهيَ سبعةُ أبوابٍ. ﴿وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَآ﴾ واحدهمْ خازنٌ نحوَ سدنةٌ وسادنٌ، يقولونَ لهمْ تقريعـًا وتوبيخـًا. ﴿أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَتۡلُونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِ رَبِّكُمۡ﴾ أي الكتبُ المنزّلةُ على الأنبياءِ. ﴿وَيُنذِرُونَكُمۡ﴾ أيْ يخوّفونكمْ ﴿لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَاۚ قَالُواْ بَلَىٰ﴾ أيْ قدْ جاءتنا، وهذا اعترافٌ منهمْ بقيامِ الحجّةِ عليهمْ ﴿وَلَٰكِنۡ حَقَّتۡ كَلِمَةُ ٱلۡعَذَابِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ٧١﴾ وهيَ قولهُ تعالى: ﴿لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلۡجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ﴾. ﴿قِيلَ ٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ﴾ أيْ يقالُ لهمُ ادخلوا جهنّمَ.

قولهُ تعالى: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ إِلَى ٱلۡجَنَّةِ زُمَرًاۖ﴾ يعني منَ الشّهداءِ والزّهّادِ والعلماءِ والقرّاءِ وغيرهمْ، ممّنِ اتّقى اللّهَ تعالى وعملَ بطاعتهِ. وقالَ في حقِّ الفريقينِ ﴿وَسِيقَ﴾ بلفظٍ واحدٍ، فسوقُ أهلِ النّارِ طردهمْ إليها بالخزي والهوان، كما يفعل بالأسارى والخارجين على السّلطانِ إذا سيقوا إلى حبسٍ أوْ قتلٍ، وسوقُ أهلِ الجنانِ سوقُ مراكبهمْ إلى دارِ الكرامةِ والرّضوانِ، لأنّهُ لا يذهبُ بهمْ إلّا راكبينَ كما يفعلُ بمنْ يشرّفُ ويكرّمُ منَ الوافدينَ على بعضِ الملوكِ، فشتّانَ ما بين السوقين. ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا﴾ قيلَ: الواوُ هنا للعطفِ عطفٍ على جملةٍ والجوابُ محذوفٌ. أيْ سعدوا وفتحتْ، وحذفُ الجوابِ بليغٌ في كلامِ العربِ، وقيلَ: الواوُ زائدةٌ. وزيادةَ الواوِ دليلٌ على أنَّ الأبوابَ فتحتْ لهمْ قبلَ أنْ يأتوا لكرامتهمْ على اللّهِ تعالى، والتّقديرُ حتّى إذا جاءوها وأبوابها مفتّحةٌ، بدليلِ قولهِ: ﴿جَنَّٰتِ عَدۡنٖ مُّفَتَّحَةٗ لَّهُمُ ٱلۡأَبۡوَٰبُ﴾ وحذفُ الواوِ في قصّةِ أهلِ النّارِ، لأنّهمْ وقفوا على النّارِ وفتحتْ بعدَ وقوفهمْ إذلالاً وترويعـًا لهمْ.

وقيلَ: إنّها واوُ الثّمانيةِ. وذلكَ منْ عادةِ قريشٍ أنّهمْ يعدّونَ منَ الواحدِ فيقولونَ خمسةٌ

ستّةٌ سبعةٌ وثمانيّةٌ، فإذا بلغوا السّبعةَ قالوا وثمانيّةٌ، قالَ اللّهُ تعالى: ﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ﴾ وقال: ﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ﴾ ثمَّ قالَ في الثّامنِ: ﴿وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ وقال: ﴿وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ﴾ وقال ﴿ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا﴾.

قلت: وقدِ استدلَّ بهذا منْ قالَ إنَّ أبوابَ الجنّةِ ثمانيةٌ، وذكروا حديثَ عمرَ بنِ الخطّابِ، قالَ: قالَ رسولُ اللّهِ ﷺ: «ما منكمْ منْ أحدٍ يتوضّأُ فيبلغُ -أوْ فيسبغُ الوضوءَ- ثمَّ قالَ أشهدُ أنْ لا إلهَ إلّا اللّهُ وأنَّ محمّداً عبدهُ ورسولهُ إلّا فتحتْ لهُ أبوابُ الجنّةِ الثّمانيةُ يدخلُ منْ أيّها شاءَ» خرّجهُ مسلمٌ وغيرهُ.

وقدْ خرّجَ التّرمذيُّ حديثَ عمرَ هذا وقالَ فيهِ: «فتحَ لهُ منْ أبوابِ الجنّةِ ثمانيةُ أبوابٍ يومَ القيامةِ» بزيادةٍ منْ وهوَ يدلُّ على أنَّ أبوابَ الجنّةِ أكثرُ منْ ثمانيةٍ.

﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا﴾ أي فتحتْ أبوابها وقالَ لهمْ خزنتها ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ﴾ أيْ في الدّنيا. بطاعةِ اللّهِ. ﴿طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴿٧٣﴾﴾.

قولهُ تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ﴾ أي إذا دخلوا الجنة قالوا هذا. ﴿وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ﴾ أيْ أرضَ الجنّةِ، قيل: إنّهمْ ورثوا الأرضَ الّتي كانتْ تكونُ لأهلِ النّارِ لوْ كانوا مؤمنينَ، قالهُ أكثرُ المفسّرينَ وقيلَ: إنّها أرضُ الدّنيا على التّقديمِ والتّأخيرِ ﴿فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿٧٤﴾﴾ قيلَ: هوَ منْ قولهمْ أيْ نعمَ الثّوابُ هذا.

قولهُ تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ﴾ يا محمّدُ ﴿حَآفِّينَ﴾ أيْ محدقينَ ﴿مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ﴾ في ذلكَ اليوم ﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ متلذّذينَ بذلكَ لا متعبّدينَ بهِ أيْ يصلّونَ حولَ العرشِ شكراً لربّهمْ. والحافون أخذ من حافات الشّيءِ ونواحيهِ. ودخلتْ ﴿مِن﴾ على ﴿حَوْلِ﴾ لأنّهُ ظرفٌ والفعلُ يتعدّى إلى الظّرفِ بحرفٍ وبغيرِ حرفٍ، وقيل: ﴿مِن﴾ زائدةٌ أيْ حافّينَ حولَ العرشِ. وهوَ كقولكَ: ما جاءني منْ أحدٍ، فمنْ توكيدٌ.

والعربُ تدخلُ الباءَ أحياناً في التّسبيحِ وتحذفها أحياناً، فيقولون: سبح بحمد ربك

وسبح حمد الله قالَ اللّهُ تعالى: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ وقالَ ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾. ﴿وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ﴾ بينَ أهلِ الجنّةِ والنّارِ. وقيلَ: قضيَ بين النبيين الذين جيء بهِمْ معَ الشّهداءِ وبينَ أممِهِمْ بالحقِّ والعدلِ.

﴿وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٧٥﴾ أيْ يقولُ المؤمنونَ الحمدُ للّهِ على ما أثابنا منْ نعمهِ وإحسانهِ ونصرنا على منْ ظلمنا.

وقالَ قتادةُ في هذهِ الآيةِ: افتتحَ اللّهُ أوّلَ الخلقِ بالحمد لله فقالَ: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ وختم بالحمد فقال: ﴿وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ فلزمَ الاقتداءُ بهِ، والأخذُ في ابتداءِ كلِّ أمرٍ بحمدهِ وخاتمتهِ بحمدهِ.

وقيلَ: إنَّ قولَ ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ منْ قولِ الملائكةِ فعلى هذا يكونُ حمدهمْ للّهِ تعالى على عدلهِ وقضائهِ.

سورة غافر

وهيَ سورةُ المؤمنِ، وتسمّى سورةُ الطّولِ وهيَ مكّيّةٌ وعنِ الحسنِ إلّا قولهُ: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ لأنَّ الصّلواتِ نزلتْ بالمدينةِ، وهي خمس وثمانونَ آيةً.

بسمِ اللّهِ الرّحمنِ الرّحيمِ

قولهُ تعالى: ﴿حمٓ ١﴾ اختلفَ في معناهُ، فقالَ: عكرمةُ: قالَ النّبيُّ ﷺ: ﴿حمٓ﴾ اسمٌ منْ أسماءِ اللّهِ تعالى وهيَ مفاتيحُ خزائنِ ربّكَ، وعن ابنُ عبّاسٍ: ﴿الٓر﴾ وَ ﴿حمٓ﴾ وَ ﴿نٓ﴾ حروفُ الرّحمنِ مقطّعةٌ، وقيلَ: حروفُ هجاءٍ، ولهذا تقرأُ ساكنةَ الحروفِ فخرجتْ مخرجَ التّهجّي وإذا سمّيتْ سورةٌ بشيءٍ منْ هذهِ الحروفِ أعربتْ، فتقولُ: قرأتُ ﴿حمَ﴾ فتنصب، وقال الشّاعرُ:

يذكّرني حاميمَ والرّمحُ شاجرٌ فهلّا تلا حاميمَ قبلَ التّقدّمِ

وقرأَ أبو جعفرٍ بقطعِ الحاءِ منَ الميمِ. الباقونَ بالوصلِ. وكذلكَ في ﴿حمٓ ١ عٓسٓقٓ﴾. وقرأَ أبو عمرو وأبو بكرٍ وحمزةُ والكسائيُّ وخلفٌ وابنُ ذكوانَ بالإمالةِ في الحاءِ. ورويَ عنْ أبي عمرو بينَ اللّفظينِ وهيَ قراءةُ نافعٍ وأبي جعفرٍ. الباقونَ بالفتحِ مشبعاً.

قولهُ تعالى: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ ابتداءٌ والخبرُ ﴿مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ٢﴾، والمعنى: أنَّ القرآنَ أنزلهُ اللّهُ وليسَ منقولاً ولا ممّا يجوز أن يكذب به.

قوله تعالى: ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ﴾ خفضٌ على البدلِ.

قالَ أهلُ الإشارةِ: ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ﴾ فضلاً ﴿وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ﴾ وعداً ﴿شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ عدلاً ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ فرداً.

وَ ﴿ٱلتَّوْبِ﴾ يجوزُ أنْ يكونَ مصدرَ تابَ يتوبُ توباً، ويحتملُ أنْ يكونَ جمعَ توبةٍ نحوَ دومةٍ ودومٍ وعزمةٍ وعزمٍ، ومنهُ قولهُ: **فيخبو ساعةً ويهبُّ ساعا**

ويجوزُ أنْ يكونَ التّوبُ بمعنى التّوبةِ. قالَ أبو العبّاسِ: والّذي يسبقُ إلى قلبي أنْ يكونَ

مصدراً، أيْ يقبلُ هذا الفعلَ، كما تقول قالا قولاً، وإذا كانَ جمعاً فمعناهُ يقبلُ التّوباتِ.

﴿ذِى ٱلطَّوۡلِۖ﴾ على البدلِ وعلى النّعتِ، لأنّهُ معرفةٌ. وأصلُ الطّولِ الإنعامُ والفضلُ والغنى والسّعةِ، ومنهُ قولهُ تعالى: ﴿وَمَن لَّمۡ يَسۡتَطِعۡ مِنكُمۡ طَوۡلًا﴾ أيْ غنى وسعةً. ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ إِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾ أي المرجعُ.

قولهُ تعالى: ﴿مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ والمرادُ الجدالُ بالباطلِ، لإدحاضِ الحقِّ، وإطفاءِ نورِ اللّهِ تعالى. وقدْ دلَّ على ذلكَ في قولهِ تعالى: ﴿وَجَٰدَلُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ لِيُدۡحِضُواْ بِهِ ٱلۡحَقَّ﴾. فأمّا الجدالُ فيها لإيضاحِ ملتبسها، وحلِّ مشكلها، ومقادحةِ أهلِ العلمِ في استنباطِ معانيها، وردِّ أهلِ الزّيغِ بها وعنها، فأعظمُ جهادٍ في سبيلِ اللّهِ. وقدْ مضى هذا المعنى في البقرةِ عندَ قولهِ تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِي حَآجَّ إِبۡرَٰهِـۧمَ فِي رَبِّهِۦٓ﴾ مستوفى.

﴿فَلَا يَغۡرُرۡكَ﴾ وقرى: «فَلَا يَغُرَّكَ» ﴿تَقَلُّبُهُمۡ﴾ أيْ تصرّفهمْ ﴿فِي ٱلۡبِلَٰدِ ٤﴾ فإني إن أمهلتهمْ لا أهملهمْ بلْ أعاقبهمْ. قالَ ابنُ عبّاسٍ: يريدُ تجارتهمْ منْ مكّةَ إلى الشّامِ وإلى اليمن. وقيل: ﴿فَلَا يَغۡرُرۡكَ﴾ ما همْ فيهِ منَ الخيرِ والسّعةِ في الرّزقِ فإنّهُ متاعٌ قليلٌ في الدّنيا.

قولهُ تعالى: ﴿۞ كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٍ﴾ على تأنيثِ الجماعةِ أيْ كذّبتِ الرّسلَ. ﴿وَٱلۡأَحۡزَابُ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۖ﴾ أي والأمم الذين تحزبوا عل أنبيائهمْ بالتّكذيبِ نحو عادٍ وثمودَ فمنْ بعدهمْ. ﴿وَهَمَّتۡ كُلُّ أُمَّةِۭ بِرَسُولِهِمۡ لِيَأۡخُذُوهُۖ﴾ أيْ ليحبسوهُ ويعذّبوهُ أو ليقتلوهُ. والأخذُ يردُ بمعنى الإهلاكِ، كقولهِ: ﴿ثُمَّ أَخَذۡتُهُمۡۖ فَكَيۡفَ كَانَ نَكِيرِ﴾. والعربُ تسمّي الأسيرَ الأخيذَ، لأنّهُ مأسورٌ للقتلِ، وأنشدَ قطربٌ قولَ الشّاعرِ:

فإمّا تأخذوني تقتلوني   فكمْ منْ آخذٍ يهوى خلودي

وفي وقتِ أخذهمْ لرسولهمْ قولانِ: **أحدهما:** عندَ دعائهِ لهمْ. **الثّاني:** عندَ نزولِ العذابِ بهمْ.

﴿وَجَٰدَلُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ لِيُدۡحِضُواْ بِهِ ٱلۡحَقَّ﴾ أيْ ليزيلوا. ومنهُ مكانٌ دحضٌ أيْ مزلقةٌ، والباطلُ داحضٌ، لأنّهُ يزلقُ ويزلُّ فلا يستقرُّ ﴿فَأَخَذۡتُهُمۡ﴾ أيْ بالعذابِ. ﴿فَكَيۡفَ كَانَ عِقَابِ ٥﴾ أيْ عاقبةُ الأممِ المكذّبةِ. أيْ أليسَ وجدوهُ حقاً.

قولهُ تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ﴾ أيْ وجبتْ ولزمتْ، مأخوذٌ منَ الحقِّ لأنّهُ اللّازمُ. ﴿كَلِمَةُ رَبِّكَ﴾ هذهِ قراءةُ العامّةِ على التّوحيدِ. وقرأ نافعٌ وابنُ عامر: «كلماتُ» جمعا. ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمْ﴾ أيْ لأنّهمْ وبأنّهمْ. ويجوزُ إنّهمْ بكسرِ الهمزةِ. ﴿أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ أيِ المعذّبونَ بها وتمَّ الكلام.

ثم ابتدأ فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ وقيلَ: اتّصلَ هذا بذكرِ الكفّارِ، لأنَّ المعنى واللّهُ أعلمُ ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ﴾ ينزّهونَ اللّهَ عزَّ وجلَّ عمّا يقولهُ الكفّارُ ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ أيْ يسألونَ لهمُ المغفرةَ منَ اللّهِ تعالى. وأقاويلُ أهلِ التّفسيرِ على أنَّ العرشَ هوَ السّريرُ، وأنّهُ جسمٌ مجسّمٌ خلقهُ اللّهُ عزَّ وجلَّ، وأمرَ ملائكةً بحملهِ، وتعبّدهمْ بتعظيمهِ والطّوافِ بهِ، كما خلقَ في الأرضِ بيتاً وأمرَ بني آدمَ بالطّوافِ بهِ واستقبالهِ في الصّلاةِ. وروي عنْ جابرِ بنِ عبدِ اللّهِ ﵁ قالَ: قالَ رسولُ اللّهِ ﷺ: «أذنَ لي أنْ أحدّثَ عنْ ملكٍ منْ ملائكةِ اللّهِ منْ حملةِ العرشِ ما بينَ شحمةِ أذنهِ إلى عاتقهِ مسيرُ سبعمائةِ عامٍ» ذكرهُ البيهقيُّ.

﴿رَبَّنَا﴾ أيْ يقولونَ ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ أيْ وسعتْ رحمتكَ وعلمكَ كلَّ شيء ﴿فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُواْ﴾ أيْ منَ الشّركِ والمعاصي ﴿وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ﴾ أيْ دينَ الإسلامِ ﴿وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ۝٧﴾ أيِ اصرفهُ عنهمْ حتّى لا يصل إليهم.

قالَ مطرّفُ بنُ عبدِ اللّهِ: وجدنا أنصحَ عبادِ اللّهِ لعبادِ اللّهِ الملائكةَ ووجدنا أغشَّ عبادِ اللّهِ لعبادِ اللّهِ الشّيطانَ وتلا هذهِ الآيةَ. وقالَ خلفُ بنُ هشام البزاز القاري: كنتُ أقرأُ على سليمِ بنِ عيسى فلمّا بلغتُ ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ بكى ثمَّ قالَ: يا خلفُ ما أكرمَ المؤمنَ على اللّهِ نائماً على فراشهِ والملائكةُ يستغفرونَ لهُ.

قولهُ تعالى: ﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ﴾ يروى أنَّ عمرَ بنَ الخطّابِ قالَ لكعبِ الأحبارِ: ما جنّاتُ عدنٍ. قالَ: قصورٌ منْ ذهبٍ في الجنّةِ يدخلها النّبيّونَ والصّدّيقونَ والشّهداءُ وأئمّةُ العدلِ. ﴿ٱلَّتِي وَعَدتَّهُمْ﴾ ﴿ٱلَّتِي﴾ في محلِّ نصبٍ نعتاً للجنّاتِ. ﴿وَمَن صَلَحَ﴾ ﴿مَن﴾ في محلِّ نصبٍ عطفاً على الهاءِ والميمِ في قولهِ ﴿وَأَدْخِلْهُمْ﴾. ﴿وَمَن صَلَحَ﴾

بالإيمان ﴿مِنْ ءَابَآبِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّتِهِمْۚ﴾ وقدْ مضى في «الرّعدِ» نظيرُ هذهِ الآيةِ. ويقربُ منْ هذهِ الآيةِ قولهُ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾.

قولهُ تعالى: ﴿وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ﴾ قالَ قتادةُ: أيْ وقهمْ ما يسوؤهمْ، وقيلَ: التّقديرُ وقهمْ عذابَ السّيّئاتِ وهوَ أمرٌ منْ وقاهُ اللّهُ يقيهِ وقايةً بالكسرِ، أيْ حفظهُ. ﴿وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُۥۚ﴾ أيْ بدخولِ الجنّةِ ﴿وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ٩﴾ أي النجاة الكبيرة.

قولهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ لأن بعضهم عادى بعضا ومقته يوم القيامة، أو إذا نظروا إلى سيئاتهم مقتوا أنفسهم فينادون من الملائكة ﴿لَمَقْتُ ٱللَّهِ﴾ إيّاكمْ في الدّنيا ﴿إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَٰنِ فَتَكْفُرُونَ ١٠﴾ ﴿أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ اليومَ.

قولهُ تعالى: ﴿قَالُواْ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ﴾ اختلفَ أهلُ التّأويلِ في معنى قولهمْ: ﴿أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ﴾ فقيل: كانوا أمواتًا في أصلابِ آبائهمْ، ثمَّ أحياهمْ ثمَّ أماتهمُ الموتةَ الّتي لا بدَّ منها في الدّنيا، ثمَّ أحياهم للبعث والقيامة، فهاتان حياتان وموتتان، وهوَ قولهُ تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾. وقيلَ: أميتوا في الدّنيا ثمَّ أحياهمْ في القبورِ للمسألةِ، ثمَّ أميتوا ثمَّ أحيوا في الآخرةِ. وإنّما صارَ إلى هذا، لأنَّ لفظَ الميّتِ لا ينطلقُ في العرفِ على النّطفةِ.

واستدلَّ العلماءُ منْ هذا في إثباتِ سؤالِ القبرِ، ولوْ كانَ الثّوابُ والعقابُ للرّوحِ دونَ الجسدِ فما معنى الإحياءِ والإماتةِ؟ والرّوحُ عندَ منْ يقصرُ أحكامَ الآخرةِ على الأرواحِ لا تموتُ ولا تتغيّرُ ولا تفسدُ، وهوَ حيٌّ لنفسهِ لا يتطرّقُ إليهِ موتٌ ولا غشيةٌ ولا فناءٌ.

وقيلَ: خلقهمْ في ظهرِ آدمَ وأخرجهمْ وأحياهمْ وأخذَ عليهمُ الميثاقَ، ثمَّ أماتهمْ ثمَّ أحياهمْ في الدّنيا ثمَّ أماتهمْ.

﴿فَٱعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا﴾ اعترفوا حيثُ لا ينفعهمُ الاعترافُ وندموا حيثُ لا ينفعهمُ النّدمُ. ﴿فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ ١١﴾ أيْ هلْ نردُّ إلى الدّنيا لنعملَ بطاعتكَ، نظيرهُ: ﴿هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ﴾ وقوله: ﴿فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا﴾ وقوله: ﴿يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ﴾ الآيةَ.

قولهُ تعالى: ﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِيَ ٱللَّهُ وَحۡدَهُۥ كَفَرۡتُمۡ﴾ ﴿ذَٰلِكُمۡ﴾ في موضعِ رفعٍ أي ﴿ذَٰلِكُمۡ﴾ العذابُ الّذي أنتمْ فيهِ لأنّكمْ ﴿إِذَا دُعِيَ ٱللَّهُ﴾ أيْ وحّدَ اللّهُ ﴿وَحۡدَهُۥ كَفَرۡتُمۡ﴾ وأنكرتمْ أنْ تكونَ الألوهيّةُ لهُ خاصّةً، وإنْ أشركَ بهِ مشركٌ صدّقتموهُ وآمنتمْ بقولهِ ﴿فَٱلۡحُكۡمُ لِلَّهِ ٱلۡعَلِيِّ ٱلۡكَبِيرِ ١٢﴾ عنْ أنْ تكونَ لهُ صاحبة أو ولد.

قولهُ تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُرِيكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ﴾ أيْ دلائلَ توحيدهِ وقدرتهِ ﴿وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزۡقٗاۚ﴾ جمعَ بينَ إظهارِ الآياتِ وإنزالِ الرّزقِ، لأن بالآيات قوام الأديان، وبالرزق قوام الأبدان. وهذه الآيات هي السموات والأرضونَ وما فيهما وما بينهما ﴿وَمَا يَتَذَكَّرُ﴾ أيْ ما يتّعظُ بهذهِ الآياتِ فيوحّدُ اللّهَ ﴿إِلَّا مَن يُنِيبُ ١٣﴾ أيْ يرجعُ إلى طاعةِ اللّهِ. ﴿فَٱدۡعُواْ ٱللَّهَ﴾ أيِ اعبدوهُ ﴿مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ أيِ العبادةَ ﴿وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ ١٤﴾ عبادةَ اللّهِ فلا تعبدوا أنتمْ غيرهُ.

قولهُ تعالى: ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ﴾ أيْ رفيعُ الصّفاتِ ﴿ذُو ٱلۡعَرۡشِ﴾ أيْ خالقهُ ومالكهُ لا أنّهُ محتاجٌ إليهِ. ﴿يُلۡقِي ٱلرُّوحَ﴾ أيِ الوحيَ والنّبوّةَ ﴿عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ﴾ وسمّيَ ذلكَ روحاً لأنَّ النّاسَ يحيونَ بهِ، أيْ يحيونَ منْ موتِ الكفرِ كما تحيا الأبدانُ بالأرواحِ. قالَ اللّهُ تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ﴾ وقيل: الروح جبرئيل، قالَ اللّهُ تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ ١٩٣ عَلَىٰ قَلۡبِكَ﴾ وقالَ: ﴿قُلۡ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلۡقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلۡحَقِّ﴾.

﴿مِنۡ أَمۡرِهِۦ﴾ أيْ منْ قولهِ. وقيلَ: منْ قضائهِ. وقيلَ: ﴿مِن﴾ بمعنى الباءِ أيْ بأمرهِ. ﴿عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ﴾ وهمُ الأنبياءُ يشاءُ هوَ أنْ يكونوا أنبياءَ وليسَ لأحدٍ فيهمْ مشيئةٌ. ﴿لِيُنذِرَ يَوۡمَ ٱلتَّلَاقِ ١٥﴾ يوم البعثِ يومَ تلتقي أهلُ السّماءِ وأهلُ الأرضِ ويلتقي فيهِ الخلقُ والخالقُ. وقيلَ: العابدونَ والمعبودونَ. وقيلَ: الظّالمُ والمظلومُ. وقيلَ: يلقى كلُّ إنسانٍ جزاءَ عملهِ. وقيلَ: يلتقي الأوّلونَ والآخرونَ على صعيدٍ واحدٍ، وكلّهُ صحيحُ المعنى. ﴿يَوۡمَ هُم بَٰرِزُونَۖ﴾ يكونُ بدلاً منْ يومَ الأوّلِ، ومعنى: ﴿بَٰرِزُونَۖ﴾ خارجونَ من قبورهم لا يسترهم شيء، لأنَّ الأرضَ يومئذٍ قاعٌ صفصفٌ لا عوجَ فيها ولا أمتاً ﴿لَا يَخۡفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنۡهُمۡ﴾ ﴿لِّمَنِ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَۖ﴾ وذلكَ عندَ فناءِ الخلقِ فيجيبُ نفسهُ سبحانهُ فيقولُ: ﴿لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ

﴿١٦﴾. وقيلَ: يؤمرُ منادٍ ينادي ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ﴾ فيقولُ العبادُ مؤمنهمْ وكافرهمْ ﴿لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ فيقولُ المؤمنونَ هذا الجوابَ سروراً وتلذّذاً، ويقولهُ الكافرونَ غماً وانقياداً وخضوعاً.

قلت: والقولُ الأوّلُ ظاهرٌ جداً، لأنَّ المقصودَ إظهارُ انفرادهِ تعالى بالملكِ عندَ انقطاعِ دعاوى المدّعينَ وانتسابِ المتنسبينَ، إذْ قدْ ذهبَ كلُّ ملكٍ وملكهُ ومتكبّرٍ وملكهُ وانقطعتْ نسبهمْ ودعاويهمْ، ودلَّ على هذا قولهُ الحقُّ عندَ قبضِ الأرضِ والأرواحِ وطيِّ السّماءِ: «أنا الملكُ أينَ ملوكُ الأرضِ» كما تقدّمَ في حديثِ أبي هريرةَ وفي حديثِ ابنِ عمرَ، ثمَّ يطوي الأرضَ بشمالهِ والسّمواتِ بيمينهِ، ثمَّ يقولُ: أنا الملكُ أينَ الجبّارونَ أينَ المتكبّرونَ.

قولهُ تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ منْ خيرٍ أوْ شرٍّ. ﴿لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ﴾ أيْ لا ينقصُ أحدٌ شيئاً ممّا عملهُ. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٧﴾﴾ كما يرزقهمْ في ساعةٍ واحدةٍ يحاسبهمْ كذلكَ في ساعةٍ واحدةٍ.

قولهُ تعالى: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْءَازِفَةِ﴾ أيْ يومَ القيامةِ. سمّيتْ بذلكَ لأنّها قريبةٌ، إذْ كلُّ ما هوَ آتٍ قريبٌ. وأزفَ فلانٌ أيْ قربَ، ونظيرُ هذهِ الآيةِ: ﴿أَزِفَتِ ٱلْءَازِفَةُ﴾ أيْ قربتِ السّاعةُ. وكانَ بعضهمْ يتمثّلُ ويقولُ:

أزفَ الرّحيلُ وليسَ لي منْ زادِ غيرِ الذّنوبِ لشقوتي ونكادي

﴿إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَ﴾ وقعتْ في الحناجرِ المخافةِ فهيَ لا تخرجُ ولا تعودُ في أمكنتها، وهذا لا يكونُ إلّا يومَ القيامةِ كما قالَ: ﴿وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ﴾.

﴿مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ﴾ أيْ منْ قريبٍ ينفعُ ﴿وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴿١٨﴾﴾ فيشفعُ فيهمْ.

قولهُ تعالى: ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ﴾ فيهِ تقديمٌ وتأخيرٌ أيْ يعلمُ الأعينَ الخائنةَ، وهيَ مسارقةُ نظرِ الأعينِ إلى ما نهى اللّهُ عنهُ، وقيلَ: إنّها الرّمزُ بالعينِ. ﴿وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴿١٩﴾﴾ تكنّهُ وتضمرهُ. ولمّا جيءَ بعبدِ اللّهِ بنِ أبي سرحٍ إلى رسولِ الله ﷺ بعدَ ما اطمأنَّ أهلُ مكّةَ وطلبَ لهُ الأمانَ عثمانُ رضي الله عنه، صمتَ رسولُ اللّهِ ﷺ طويلاً ثمَّ قالَ: «نعمْ» فلمّا انصرفَ قالَ رسولُ اللّهِ ﷺ لمنْ حولهُ: «ما صمتُّ إلّا ليقومَ إليهِ بعضكمْ فيضربَ عنقهُ» فقالَ رجلٌ

منَ الأنصارِ فهلّا أومأتَ إليَّ يا رسولَ اللّهِ، فقالَ: «إنَّ النّبيَّ لا تكونُ لهُ خائنةُ أعينٍ».

﴿وَٱللَّهُ يَقْضِى بِٱلْحَقِّ﴾ أيْ يجازي منْ غضَّ بصرهُ عنِ المحارمِ، ومنْ نظرَ إليها، ومنْ عزمَ على مواقعةِ الفواحشِ إذا قدرَ عليها. ﴿وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ﴾ يعني الأوثانَ ﴿لَا يَقْضُونَ بِشَىْءٍ﴾ لأنّها لا تعلمُ شيئاً ولا تقدرُ عليهِ ولا تملكُ. وقراءةُ العامّةِ بالياءِ على الخبرِ عنِ الظّالمينَ، وقرأ نافعٌ: «تَدْعُونَ» بالتّاءِ. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿٢٠﴾﴾ ﴿هُوَ﴾ زائدةٌ فاصلةٌ.

قولهُ تعالى: ﴿۞أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ﴾ قدْ مضى الكلامُ في معنى هذهِ الآيةِ في غير موضع فأغنى عن الإعادة.

قولهُ تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَآ﴾ وهيَ التّسعُ الآياتُ المذكورةُ في قولهُ تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَـٰتٍۭ بَيِّنَـٰتٍ﴾ وقدْ مضى تعيينها. ﴿وَسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾﴾ أيْ بحجّةٍ واضحة بينة، وهو يذكر ومؤنث. وقيلَ: أرادَ بالسّلطانِ التّوراةَ. ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ وَقَـٰرُونَ﴾ خصّهمْ بالذّكرِ لأنَّ مدارَ التّدبيرِ في عداوةِ موسى كانَ عليهمْ، ففرعونُ الملكُ وهامانُ الوزيرُ وقارونُ صاحبُ الأموالِ والكنوزِ فجمعهُ اللّهُ معهما، لأنَّ عملهُ في الكفرِ والتّكذيبِ كأعمالهما. ﴿فَقَالُوا۟ سَـٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٢٤﴾﴾ لمّا عجزوا عنْ معارضتهِ حملوا المعجزات على السحر.

قولهُ تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ مِنْ عِندِنَا﴾ وهيَ المعجزةُ الظّاهرةُ ﴿قَالُوا۟ ٱقْتُلُوٓا۟ أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ﴾ وهذا قتلٌ غيرُ القتلِ الأوّلِ، فشغلهمُ اللّهُ عنْ ذلكَ بما أنزلَ عليهمْ منْ أنواعِ العذابِ. كالضّفادعِ والقمّلِ والدّمِ والطّوفانِ إلى أنْ خرجوا منْ مصرَ، فأغرقهمُ اللّهُ. وهذا معنى قوله تعالى: ﴿وَمَا كَيْدُ ٱلْكَـٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَـٰلٍ ﴿٢٥﴾﴾ أيْ في خسرانٍ وهلاكٍ، وإنَّ النّاسَ لا يمتنعونَ منَ الإيمانِ وإنْ فعلَ بهمْ مثلَ هذا فكيدهُ يذهبُ باطلاً.

قولهُ تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ﴾ وهذا يدلُّ على أنّهُ قيلَ لفرعونَ: إنّا نخافُ أنْ يدعوَ عليكَ فيجابَ، فقالَ: ﴿وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ﴾ أيْ لا يهولنّكمْ ما يذكرُ منْ ربّهِ فإنّهُ لا حقيقةَ لهُ وأنا ربّكمُ الأعلى. ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ﴾ أيْ عبادتكمْ لي

إلى عبادةِ ربّهِ ﴿أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ ٢٦﴾ أيْ يقعُ بينَ النّاسِ بسببِهِ الخلافُ. وقراءةُ المدنيّينَ وابنِ عامرٍ وأبي عمرو: ﴿وَأَن يَظْهَرَ فِي ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادُ﴾ وقراءةُ الكوفيّينَ «أَوْ أَنْ يَظْهَرَ» بفتحِ الياءِ ﴿ٱلْفَسَادُ﴾ بالرّفعِ وكذلكَ هيَ في مصاحفِ الكوفيّينَ.

قولهُ تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم﴾ لمّا هدّدهُ فرعونُ بالقتلِ استعاذَ موسى باللّهِ ﴿مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ﴾ أيْ متعظّمٍ عنِ الإيمانِ باللّهِ، وصفتهُ أنّهُ ﴿لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ٢٧﴾.

قولهُ تعالى: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِي يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ٢٨﴾، فيهِ أربعُ مسائلَ:

الأولى: قولهُ تعالى: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ﴾ اختلفَ هلْ كانَ إسرائيليـاً أوْ قبطيـاً، فقيل: كانَ ابن عمِّ فرعونَ، وهوَ الّذي نجا معَ موسى عليه السلام، ولهذا قالَ: ﴿مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ وهذا الرّجلُ هوَ المرادُ بقولهِ تعالى: ﴿وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ﴾ الآيةَ. وقالَ ابنُ عبّاسٍ: لمْ يكنْ منْ آلِ فرعونَ مؤمنٌ غيرهُ وغيرَ امرأةِ فرعونَ وغيرَ المؤمنِ الّذي أنذرَ موسى فقالَ: ﴿إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ﴾.

وكانَ هذا الرّجلُ لهُ وجاهةٌ عندَ فرعونَ، فلهذا لمْ يتعرّضْ لهُ بسوءٍ.

وقيلَ: كانَ هذا الرّجلُ منْ بني إسرائيلَ يكتمُ إيمانهُ منْ آلِ فرعونَ، ففي الكلامِ على هذا تقديم، وفيهِ بعدٌ، لأنّهُ يقالُ كتمهُ أمرَ كذا ولا يقالُ كتمَ منهُ. قالَ اللّهُ تعالى: ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا﴾ وأيضـاً ما كانَ فرعونُ يحتملُ منْ بني إسرائيلَ مثلَ هذا القولِ.

الثانية- قولهُ تعالى: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ﴾ أيْ لأنْ يقولَ ومنْ أجلِ ﴿أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ﴾ ﴿وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ يعني الآياتِ التّسعَ ﴿مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ﴾ ولمْ يكنْ ذلك لشك منه في رسالته وصدقه، ولكن تلطفا ﴿وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِي يَعِدُكُمْ﴾ أيْ إنْ لمْ يصبكمْ إلّا بعضُ الّذي يعدكمْ بهِ هلكتمْ،

وهذا من ترقيق الكلامِ في الوعظِ، والبعض قدْيستعملُ في موضعِ الكلِّ، كما قالَ الشاعر :

قدْ يدركُ المتأنّي بعضَ حاجتهِ وقدْ يكونُ مع المتعجل الزّللُ

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِى مَنۡ هُوَ مُسۡرِفٌ﴾ على نفسهِ ﴿كَذَّابٌ﴾ على ربِّهِ إشارةٌ إلى موسى ويكونُ هذا منْ قولِ المؤمنِ. وقيلَ: ﴿مُسۡرِفٌ﴾ في عنادهِ ﴿كَذَّابٌ﴾ في ادّعائهِ إشارةٌ إلى فرعونَ ويكونُ هذا منْ قولِ اللّهِ تعالى.

الثالثة- قولهُ تعالى: ﴿يَكۡتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ﴾ قالَ مالكٌ: إنَّ الرّجلَ إذا نوى الكفرَ بقلبهِ كانَ كافراً وإنْ لمْ يتلفّظْ بلسانهِ، وأمّا إذا نوى الإيمانَ بقلبهِ فلا يكونُ مؤمناً بحالٍ حتّى يتلفّظَ بلسانهِ، ولا تمنعهُ التّقيّةُ والخوفُ منْ أنْ يتلفّظَ بلسانهِ فيما بينهُ وبينَ اللّهِ تعالى، إنّما تمنعه منْ أنْ يُسْمِعهُ غيرهُ، وليسَ منْ شرطِ الإيمانِ أنْ يسمعهُ الغيرُ في صحّتهِ منَ التّكليفِ، وإنّما يشترطُ سماعُ الغيرِ لهُ ليكفَّ عن نفسه وماله.

الرابعة- روى البخاريُّ ومسلمٌ عنْ عروةَ بنِ الزّبيرِ قالَ قلتُ: لعبدِ اللّهِ بنِ عمرو بنِ العاصِ: أخبرني بأشدِّ ما صنعهُ المشركونَ برسولِ اللّهِ ﷺ، قالَ: بينا رسولُ اللّهِ ﷺ بفناءِ الكعبة، وإذ أقبلَ عقبةُ بنُ أبي معيطٍ، فأخذَ بمنكبِ رسولِ اللّهِ ﷺ، ولوى ثوبهُ في عنقهِ فخنقهُ بهِ خنقاً شديداً، فأقبل أبو بكر بمنكبهِ ودفعَ عنْ رسولِ اللّهِ ﷺ، وقالَ: ﴿أَتَقۡتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ وَقَدۡ جَآءَكُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمۡۖ﴾ لفظُ البخاريِّ.

قالَ عليٌّ: واللّهِ ليومُ أبي بكرٍ خيرٌ منْ مؤمنِ آلِ فرعونَ، إنَّ ذلكَ رجلٌ كتمَ إيمانهُ، فأثنى اللّهُ عليهِ في كتابهِ، وهذا أبو بكر أظهر إيمانه وبذل ماله ودمهُ للّهِ عزَّ وجلَّ.

قلت: قولُ عليٍّ رضي الله عنه: إنَّ ذلكَ رجلٌ كتمَ إيمانهُ يريدُ في أوّلِ أمرهِ بخلافِ الصّدّيقِ فإنّهُ أظهرَ إيمانهُ ولمْ يكتمهُ، وإلّا فالقرآنُ مصرّحٌ بأنَّ مؤمنَ آلِ فرعونَ أظهرَ إيمانهُ لمّا أرادوا قتلَ موسى عليه السلام على ما يأتي بيانهُ.

قولهُ تعالى: ﴿يَٰقَوۡمِ لَكُمُ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَ﴾ هذا منْ قولِ مؤمنِ آلِ فرعونَ، وفي قولهِ ﴿يَٰقَوۡمِ﴾ دليلٌ على أنّهُ قبطيٌّ، ولذلكَ أضافهمْ إلى نفسهِ فقالَ: ﴿يَٰقَوۡمِ﴾ ليكونوا أقربَ إلى قبولِ وعظهِ ﴿لَكُمُ ٱلۡمُلۡكُ﴾ فاشكروا اللهَ على ذلك. ﴿ظَٰهِرِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ أيْ غالبينَ وهوَ نصبٌ على الحالِ أيْ في حالِ ظهوركمْ. والمرادُ بالأرضِ أرضُ مصرَ كقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾. أيْ في أرضِ مصرَ. ﴿فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأۡسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَاۚ﴾ أيْ منْ عذابِ اللّهِ تحذيراً لهمْ منْ نقمهِ إنْ كانَ موسى صادقاً، فذكّرَ وحذّرَ فعلمَ فرعونُ ظهورَ حجّتهِ فقالَ: ﴿مَآ أُرِيكُمۡ إِلَّا مَآ أَرَىٰ﴾ لنفسي. ﴿وَمَآ أَهۡدِيكُمۡ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ٢٩﴾ في تكذيبِ موسى والإيمانِ بي.

قولهُ تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِيٓ ءَامَنَ يَٰقَوۡمِ﴾ زادهمْ في الوعظِ ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُم مِّثۡلَ يَوۡمِ ٱلۡأَحۡزَابِ ٣٠﴾ يعني أيّامَ العذابِ الّتي عذّبَ فيها المتحزّبونَ على الأنبياءِ ﴿مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ ٣١﴾.

قولهُ تعالى: ﴿يَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ يَوۡمَ ٱلتَّنَادِ ٣٢﴾ زادَ في الوعظِ والتّخويفِ وأفصحَ عنْ إيمانهِ، إمّا مستسلماً موطّناً نفسهُ على القتلِ، أوْ واثقاً بأنّهمْ لا يقصدونهُ بسوءٍ، وقدْ وقاهُ اللّهُ شرّهمْ بقولهِ الحقَّ ﴿فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُواْۖ﴾. وقراءةُ العامّةِ ﴿ٱلتَّنَادِ﴾ بتخفيفِ الدّالِ وهوَ يومُ القيامةِ، سمّيَ بذلكَ لمناداةِ النّاسِ بعضهمْ بعضاً، فينادي أصحابُ الأعرافِ رجالاً يعرفونهمْ بسيماهمْ، وينادي أصحابُ الجنّةِ أصحابَ النّارِ: ﴿أَن قَدۡ وَجَدۡنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقّٗا﴾ وينادي أصحابُ النّارِ أصحابَ الجنّةِ: ﴿أَنۡ أَفِيضُواْ عَلَيۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ﴾، وتنادي الملائكةُ أصحابَ الجنّةِ: ﴿أَن تِلۡكُمُ ٱلۡجَنَّةُ أُورِثۡتُمُوهَا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾، وينادى حينَ يذبحُ الموتُ: يا أهلَ الجنّةِ خلودٌ لا موتَ ويا أهلَ النّارِ خلودٌ لا موتَ، وينادى كلُّ قومٍ بإمامهمْ إلى غيرِ ذلكَ منَ النّداءِ. وقرأ يعقوب وابن كثير: «التنادي» بإثباتِ الياءِ في الوصلِ والوقفِ على الأصلِ. ﴿يَوۡمَ تُوَلُّونَ مُدۡبِرِينَ﴾ على البدلِ منْ ﴿يَوۡمَ ٱلتَّنَادِ﴾ ﴿وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٖ ٣٣﴾ أيْ منْ خلقَ اللّهُ في قلبهِ الضّلالَ فلا هاديَ لهُ. وفي قائلهِ قولانِ:

أحدهما: موسى. **الثّاني**: مؤمنُ آلِ فرعونَ وهوَ الأظهرُ. واللهُ أعلم.

قولهُ تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ وهيَ الرّؤيا. وقيلَ: إنَّ هذا منْ قولِ موسى. وقيلَ: هوَ منْ تمامِ وعظِ مؤمنِ آلِ فرعونَ، ذكّرهمْ قديمَ عتوّهمْ على الأنبياءِ، وأرادَ يوسفَ بنَ يعقوبَ بعثهُ اللّهُ تعالى رسولاً إلى القبطِ بعدَ موتِ الملكِ ﴿فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ﴾ أيْ أسلافكمْ كانوا في شكٍّ. ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا﴾ أيْ منْ يدّعي الرّسالةَ ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ﴾ أيْ مثلَ ذلكَ الضّلالِ ﴿مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ﴾ مشرك ﴿مُّرْتَابٌ ٣٤﴾ شاكٌّ في وحدانيّةِ اللّهِ تعالى.

قولهُ تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ أيْ في حججه الظاهرة ﴿بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ﴾ أيْ بغيرِ حجّةٍ وبرهانٍ قيل: هذا منْ كلامِ مؤمنِ آلِ فرعونَ. وقيلَ: ابتداءُ خطابٍ منَ اللّهِ تعالى. ﴿كَبُرَ﴾ جدالهمْ ﴿مَقْتًا﴾، كقوله: ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً﴾ ومقتُ اللّهِ تعالى ذمّهُ لهمْ ولعنهُ إيّاهمْ وإحلالُ العذابِ بهمْ. ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أيْ كما طبعَ اللّهُ على قلوبِ هؤلاءِ المجادلينَ فكذلكَ ﴿يَطْبَعُ ٱللَّهُ﴾ أيْ يختمُ ﴿عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ٣٥﴾ حتّى لا يعقلَ الرّشادَ ولا يقبلَ الحقَّ. وقراءةُ العامّةِ ﴿عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ﴾ بإضافةِ قلبٍ إلى المتكبّرِ، وقرأ أبو عمرو «قَلْبٍ» منوّنٍ على أنَّ «مُتَكَبِّرٍ» نعتٌ للقلبِ فكنّى بالقلبِ عنِ الجملةِ، لأنَّ القلبَ هوَ الّذي يتكبّرُ وسائرَ الأعضاءِ تبعٌ لهُ، ولهذا قالَ النّبيُّ ﷺ: «إنَّ في الجسدِ مضغةً إذا صلحتْ صلحَ الجسدُ كلّهُ وإذا فسدتْ فسدَ الجسدُ كلّهُ ألا وهيَ القلبُ» ويجوزُ أنْ يكونَ على حذفِ المضافِ، أيْ على كلِّ ذي قلبٍ متكبّرٍ، تجعلُ الصّفةَ لصاحبِ القلبِ.

قولهُ تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا﴾ خافَ فرعونُ أنْ يتمكّنَ كلامُ هذا المؤمنِ في قلوبِ القومِ، فأوهمَ أنّهُ يمتحنُ ما جاءَ بهِ موسى منَ التّوحيدِ، فإنْ بانَ لهُ صوابهُ لمْ يخفهِ عنهمْ، وإنْ لمْ يصحَّ ثبّتهمْ على دينهمْ، فأمرَ وزيرهُ هامانَ ببناءِ الصّرحِ. وقدْ مضى في القصصِ ذكرهُ. ﴿لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ٣٦ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ ﴿أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ بدلٌ منَ الأوّلِ. وأسبابُ السّماءِ أبوابها ﴿فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ﴾ فأنظرُ إليهِ نظرَ مشرفٍ عليهِ. توهّمَ أنّهُ جسمٌ تحويهِ الأماكنُ، وقراءةُ العامّةِ ﴿فَأَطَّلِعُ﴾ بالرّفعِ نسقًا على قولهِ: ﴿أَبْلُغُ﴾، وقرأَ حفصٌ «فَأَطَّلِعَ» بالنّصبِ ﴿وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا﴾ وهذا يوجبُ شكَّ فرعونَ في أمرِ اللّهِ. وقيلَ: إنَّ الظّنَّ بمعنى اليقينِ، أيْ وأنا أتيقّنُ أنّهُ كاذبٌ وإنّما أقولُ ما أقول لإزالة الشّبهة عمن

لا يتيقن ما أتيقّنهُ. ﴿وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ﴾ أي الشّركُ والتّكذيبُ. ﴿وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ قراءةُ الكوفيّينَ ﴿وَصُدَّ﴾ على ما لمْ يسمَّ فاعلهُ الباقونَ «وَصَدَّ» بفتحِ الصّادِ والدّالِ. أيْ صدَّ فرعونُ النّاسَ عنِ السّبيلِ. ﴿وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ ﴿٣٧﴾﴾ أيْ في خسرانٍ وضلالٍ، ومنهُ: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ﴾ وقوله: ﴿وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ﴾ وفي موضع ﴿غَيْرَ تَخْسِيرٍ﴾ فهدَّ اللّهُ صرحهُ وغرّقهُ هوَ وقومهُ على ما تقدم.

قولهُ تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ﴾ هذا منْ تمامِ ما قالهُ مؤمنُ آلِ فرعونَ، أي اقتدوا بي في الدّينِ. ﴿أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٣٨﴾﴾ أيْ طريقَ الهدى وهوَ الجنّةُ. وقيلَ منْ قولِ موسى. ووقع في المصحف ﴿ٱتَّبِعُونِ﴾ بغيرِ ياءٍ. وقرأها يعقوبُ وابنُ كثيرٍ بالإثباتِ في الوصلِ والوقفِ. وحذفها أبو عمرو ونافعٌ في الوقفِ وأثبتوها في الوصلِ، إلّا ورشًا حذفها في الحالينِ، وكذلكَ الباقونَ، لأنّها وقعتْ في المصحفِ بغيرِ ياءٍ ومنْ أثبتها فعلى الأصل.

قوله تعالى: ﴿يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ﴾ أيْ يتمتّعُ بها قليلاً ثمَّ تنقطعُ وتزولُ. ﴿وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ ﴿٣٩﴾﴾ أي الاستقرارُ والخلودُ. ومرادهُ بالدّارِ الآخرةِ الجنّةُ والنّارُ لأنّهما لا يفنيانِ. بيّنَ ذلكَ بقولهِ: ﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً﴾ يعني الشّركَ ﴿فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا﴾ وهوَ العذاب. ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا﴾ قالَ ابنُ عبّاسٍ: يعني لا إلهَ إلّا اللّهُ. ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ مصدّقٌ بقلبهِ للّهِ وللأنبياءِ. «فَأُولَئِكَ يُدْخَلُونَ الْجَنَّةَ» بضمِّ الياءِ على ما لمْ يسمَّ فاعلهُ. وهيَ قراءةُ ابنُ كثيرٍ وأبي عمرو ويعقوبُ وأبي بكرٍ عنْ عاصمٍ، يدلُّ عليهِ ﴿يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤٠﴾﴾ الباقونَ ﴿يَدْخُلُونَ﴾ بفتحِ الياءِ.

قولهُ تعالى: ﴿وَيَٰقَوْمِ مَا لِىٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ﴾ أيْ إلى طريقِ الإيمانِ الموصّلِ إلى الجنانِ ﴿وَتَدْعُونَنِىٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٤١﴾﴾ بيّنَ أنَّ ما قالَ فرعونُ منْ قولهِ: ﴿وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ سبيلُ الغيِّ عاقبتهُ النّارُ وكانوا دعوهُ إلى اتّباعهِ، ولهذا قالَ: ﴿تَدْعُونَنِى لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ﴾ وهوَ فرعونُ ﴿وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ ﴿٤٢﴾﴾. ﴿لَا جَرَمَ﴾ معناه حقا. ﴿أَنَّمَا تَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ﴾ ﴿مَا﴾ بمعنى الّذي ﴿لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ﴾ ليسَ لهُ استجابةُ دعوةٍ تنفعُ، وقالَ غيرهُ: ليسَ لهُ دعوةٌ توجبُ لهُ الألوهيّةَ ﴿فِى ٱلدُّنْيَا وَلَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾.

وقيلَ: ليسَ لهُ شفاعةٌ في الدّنيا ولا في الآخرةِ. ﴿ وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى اللهِ وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٤٣﴾﴾. هم الذين تعدّوا حدودَ اللّهِ.

قولهُ تعالى: ﴿فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ﴾ تهديدٌ ووعيدٌ. ﴿وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ أيْ أتوكّلُ عليهِ وأسلمُ أمري إليهِ. وقيلَ: القائلُ موسى. والأظهرُ أنّهُ مؤمنُ آلِ فرعونَ.

قولهُ تعالى: ﴿فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُواْ﴾ أيْ منْ إلحاقِ أنواعِ العذابِ بهِ فطلبوهُ فما وجدوهُ لأنّهُ فوّضَ أمرهُ إلى اللّهِ. ﴿وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٥﴾﴾ أي نزلَ ولزمَ. ثمَّ بيّنَ العذابَ فقالَ: ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا﴾ رفعـًا على البدلِ منْ ﴿سُوٓءُ﴾. والجمهورُ على أن هذا العرض في البرزخ. واحتج به بعضُ أهلِ العلمِ في تثبيتِ عذابِ القبرِ ما دامتِ الدّنيا، ألا تراهُ يقولُ عنْ عذابِ الآخرةِ: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾﴾. وكانَ أبو هريرةَ إذا أصبحَ ينادي: أصبحنا والحمدُ للّهِ وعرضَ آلُ فرعونَ على النّارِ. فإذا أمسى نادى: أمسينا والحمدُ للّهِ وعرضَ آلُ فرعونَ على النّارِ، فلا يسمعُ أبا هريرةَ أحدٌ إلّا تعوّذَ باللّهِ منَ النّارِ. وخرّجَ البخاريُّ ومسلمٌ عنِ ابنِ عمرَ أنَّ رسولَ اللّهِ ﷺ قالَ: «إنَّ أحدكمْ إذا ماتَ عرضَ عليهِ مقعدهُ بالغداةِ والعشيِّ إنْ كانَ منْ أهلِ الجنّةِ فمنْ أهلِ الجنّةِ وإنْ كانَ منْ أهلِ النّارِ فمنْ أهلِ النّارِ فيقالُ هذا مقعدكَ حتّى يبعثكَ اللّهُ إليهِ يومَ القيامةِ».

وقرأَ نافعٌ وأهلُ المدينةِ وحمزةُ والكسائيُّ: ﴿أَدْخِلُوٓاْ﴾ بقطعِ الألفِ وكسرِ الخاءِ منْ أدخلْ، أي يأمر الملائكةَ أنْ يدخلوهمْ، ودليلهُ ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا﴾. الباقونَ «ٱدْخُلُوا» بوصلِ الألفِ وضمِّ الخاءِ منْ دخلَ أيْ يقالُ لهمُ: ﴿ٱدْخُلُوٓاْ﴾ يا ﴿ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾﴾ وفي القراءةِ الأولى ﴿ءَالَ﴾ مفعولٌ أوّلٌ وَ ﴿أَشَدَّ﴾ مفعولٌ ثانٍ بحذفِ الجرِّ، وفي القراءةِ الثّانيةِ منصوبٌ، لأنّهُ نداءٌ مضافٌ. وآلُ فرعونَ: منْ كانَ على دينهِ وعلى مذهبِهِ، وإذا كانَ منْ كانَ على دينهِ ومذهبِهِ في أشدِّ العذابِ كانَ هوَ أقربَ إلى ذلكَ.

قولهُ تعالى: ﴿وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِى ٱلنَّارِ﴾ أيْ يختصمونَ فيها ﴿فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَـٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ﴾ عنِ الانقيادِ للأنبياءِ ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا﴾ فيما دعوتمونا إليهِ منَ الشّركِ في الدّنيا ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ﴾ أيْ متحمّلونَ ﴿عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴿٤٧﴾﴾ أي جزاء منَ العذابِ. والتّبعُ

يكونُ واحداً ويكونُ جمعـًا ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ﴾ أيْ في جهنّمَ. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ ﴿٤٨﴾﴾ أيْ لا يؤاخذُ أحداً بذنبِ غيرِهِ، فكلٌّ منّا كافرٌ.

قولهُ تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِى ٱلنَّارِ﴾ منَ الأممِ الكافرةِ ﴿لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ﴾ خزنةُ جمعُ خازنٍ ويقالُ: خُزّانٌ وخُزّنٌ. ﴿ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٩﴾﴾ ﴿يُخَفِّفْ﴾ جوابٌ مجزومٌ، فسألوا يوما واحدا يخفف عنهم فيه العذاب فردت عليهم ﴿قَالُوٓاْ أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ قَالُواْ بَلَىٰ ۚ قَالُواْ فَٱدْعُواْ ۗ وَمَا دُعَٰٓؤُاْ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿٥٠﴾﴾.

قولهُ تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا﴾ والمرادُ موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ. ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ والمرادُ المؤمنُ الّذي وعظَ. وقيلَ: هوَ عامٌّ في الرّسلِ والمؤمنينَ، ونصرهمْ بإعلاءِ الحججِ، وقيلَ: بالانتقامِ منْ أعدائهمْ. ﴿وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴿٥١﴾﴾ يعني يومَ القيامةِ. و﴿ٱلْأَشْهَٰدُ﴾ جمعُ شهيدٍ مثلَ شريفٍ وأشرافٍ، وقيلَ: جمعُ شاهدٍ مثلُ صاحبٍ وأصحابٍ. وهم أربعةٌ: الملائكةُ والنّبيّونَ والمؤمنونَ والأجسادُ. ﴿يَوْمَ﴾ بدلٌ منْ يومَ الأوّلِ. ﴿لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ ۖ﴾ قرأَ نافعٌ والكوفيّونَ «يَنْفَعُ» بالياءِ. الباقونَ بالتّاءِ. ﴿وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ﴾ أي البعدُ منْ رحمةِ اللّهِ ﴿وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٥٢﴾﴾ جهنّمُ.

قولهُ تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْهُدَىٰ﴾ هذا دخلَ في نصرةِ الرّسلِ في الدّنيا والآخرةِ أيْ آتيناهُ التّوراةَ والنّبوّةَ. وسمّيتِ التّوراةُ هدى بما فيها منَ الهدى والنّورِ، وفي التّنزيلِ: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ﴾. ﴿وَأَوْرَثْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ ﴿٥٣﴾﴾ يعني التّوراةَ جعلناها لهمْ ميراثـًا. ﴿هُدًى﴾ بدلٌ منَ الكتابِ ويجوزُ بمعنى هوَ هدى، يعني ذلكَ الكتابَ. ﴿وَذِكْرَىٰ لِأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٥٤﴾﴾ أي موعظة لأصحاب العقول.

قولهُ تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ﴾ يا محمّدُ على أذى المشركينَ، كما صبرَ منْ قبلكَ ﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ بنصركَ وإظهاركَ، كما نصرتُ موسى وبني إسرائيلَ ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ﴾ قيلَ: لذنبِ أمّتكَ حذفَ المضافُ وأقيمَ المضافُ إليهِ مقامهُ. وقيلَ: لذنبِ نفسكَ على منْ يجوّزُ الصّغائرَ على الأنبياءِ. ومنْ قالَ لا تجوزُ قالَ: هذا تعبّدٌ للنّبيِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ بدعاءٍ، كما قالَ تعالى:

﴿وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا﴾ والفائدةُ زيادةُ الدّرجاتِ وأنْ يصيرَ الدّعاءُ سنّةً لمنْ بعدهُ. وقيلَ: فاستغفرِ اللّهَ منْ ذنبٍ صدرَ منكَ قبلَ النّبوّةِ. ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ۝٥٥﴾ قبلَ أنْ تفرضَ الصّلواتُ الخمسُ فيكونُ هذا ممّا نسخَ، واللّهُ أعلمُ. وقولهُ: ﴿بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ بالشّكرِ لهُ والثّناءِ عليهِ. وقيلَ: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ أيِ استدمِ التّسبيحَ في الصّلاةِ وخارجًا منها لتشتغلَ بذلكَ عنِ استعجالِ النّصرِ.

قولهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ﴾ يخاصمونَ ﴿فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ﴾ أيْ حجّةٍ ﴿إِن فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ﴾ فلا يبلغونَ الارتفاعَ الّذي أمّلوهُ بالتّكذيبِ. والمرادُ المشركونَ. وقيلَ: اليهودُ، فالآيةُ مدنيّةٌ على هذا كما تقدم أول السور. ﴿فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ﴾ منْ مثلِ ما ابتلوا بهِ منَ الكفرِ والكبرِ. ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ۝٥٦﴾.

قولهُ تعالى: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ﴾ احتجاجٌ على منكري البعثِ، أيْ هما أكبرُ منْ إعادةِ خلقِ النّاسِ فلمَ اعتقدوا عجزي عنها. ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝٥٧﴾ ذلكَ.

قولهُ تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ﴾ أيِ المؤمنُ والكافرُ والضّالُّ والمهتدي. ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ أيْ ولا يستوي العامل للصالحات ﴿وَلَا ٱلْمُسِيٓءُ﴾ الّذي يعملُ السّيّئاتِ. ﴿قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ ۝٥٨﴾ قراءةُ العامّةِ بياءٍ على الخبرِ لأجلِ ما قبلهُ منَ الخبرِ وما بعدهُ. وقرأ الكوفيّونَ بالتّاءِ على الخطابِ.

قولهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ﴾ هذهِ لامُ التّأكيدِ دخلتْ في خبرِ إنَّ وسبيلها أنْ تكونَ في أوّلِ الكلامِ، لأنّها توكيدُ الجملةِ إلّا أنّها تزحلقُ عنْ موضعها ﴿لَّا رَيْبَ فِيهَا﴾ لا شكَّ ولا مريةَ. ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٥٩﴾ أيْ لا يصدّقونَ بها وعندها يبينُ فرقُ ما بينَ الطائع والعاصي.

قولهُ تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ الآيةَ روى النّعمانُ بنُ بشيرٍ قالَ: سمعتُ النّبيَّ ﷺ يقولُ: «الدّعاءُ هوَ العبادةُ» ثمَّ قرأَ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِي سَيَدۡخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ۝٦٠﴾ قالَ أبو عيسى: هذا حديثٌ حسنٌ صحيحٌ. فدلَّ هذا على أنَّ الدّعاءَ هوَ العبادةُ. وكذا قالَ أكثرُ المفسّرينَ وأنَّ المعنى: وحّدوني واعبدوني أتقبّلْ عبادتكمْ وأغفرْ لكمْ. أمرهمْ بالدّعاءِ ووعدهمُ الاستجابةَ وليسَ بينهما شرطٌ، وقدْ قيل: إنَّ هذا منْ بابِ المطلقِ والمقيّدِ أيْ ﴿أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ﴾ إنْ شئتُ، كقولهِ: ﴿فَيَكۡشِفُ مَا تَدۡعُونَ إِلَيۡهِ إِن شَآءَ﴾. وقدْ تكونُ الاستجابةُ في غيرِ عينِ المطلوبِ على حديثِ أبي سعيدٍ الخدريِّ. وقرأَ ابنُ كثيرٍ ورويسٌ عنْ يعقوبَ وعيّاشٌ عنْ أبي عمرو وأبو بكرٍ والمفضّلُ عنْ عاصمٍ «سَيُدْخَلُونَ» بضمِّ الياءِ وفتحِ الخاءِ على ما لمْ يسمَّ فاعلهُ. الباقونَ ﴿يَدۡخُلُونَ﴾ بفتحِ الياءِ وضمِّ الخاءِ. ومعنى ﴿دَاخِرِينَ﴾ صاغرينَ أذلّاءَ.

قولهُ تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ﴾ ﴿جَعَلَ﴾ هنا بمعنى خلقَ، والعربُ تفرّقُ بينَ جعلَ إذا كانتْ بمعنى خلقَ وبين جعل إذ لمْ تكنْ بمعنى خلقَ، فإذا كانتْ بمعنى خلقَ فلا تعدّيها إلّا إلى مفعولٍ واحدٍ، وإذا لمْ تكنْ بمعنى خلقَ عدّتها إلى مفعولينِ، نحوَ قولهِ: ﴿إِنَّا جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾.

﴿وَٱلنَّهَارَ مُبۡصِرًاۚ﴾ أيْ مضيئًا لتبصروا فيهِ حوائجكم وتتصرفوا في طلب معايشكم. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ ۝٦١﴾ فضلهُ وإنعامهُ عليهمْ ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٍ﴾ بيّنَ الدّلالةَ على وحدانيّتهِ وقدرتهِ. ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ ۝٦٢﴾ أيْ كيفَ تنقلبونَ وتنصرفونَ عنِ الإيمانِ بعدَ أنْ تبيّنتْ لكمْ دلائلهُ كذلكَ، أيْ كما صرفتمْ عنِ الحقِّ معَ قيامِ الدّليلِ عليهِ فَـ ﴿كَذَٰلِكَ يُؤۡفَكُ﴾ يصرفُ عنِ الحقِّ ﴿ٱلَّذِينَ كَانُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ ۝٦٣﴾.

قولهُ تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ قَرَارًا﴾ مستقراً لكمْ في حياتكمْ وبعدَ الموتِ. ﴿وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً﴾ تقدّمَ. ﴿وَصَوَّرَكُمۡ فَأَحۡسَنَ صُوَرَكُمۡ﴾ أيْ خلقكمْ في أحسنِ صورةٍ ﴿وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡۖ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٦٤﴾ تقدّمَ ﴿هُوَ ٱلۡحَيُّ﴾ أيِ الباقي الّذي لا يموتُ ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدۡعُوهُ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَۗ﴾ أيِ الطّاعةَ والعبادةَ. ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٦٥﴾ خبرٌ وفيهِ إضمارُ أمرٍ أي ادعوهُ واحمدوهُ.

قولهُ تعالى: ﴿قُلۡ إِنِّي نُهِيتُ﴾ نهاني اللّهُ الّذي هوَ الحيُّ القيّومُ ولا إلهَ غيرهُ ﴿أَنۡ أَعۡبُدَ﴾ غيرهُ. ﴿لَمَّا جَآءَنِيَ ٱلۡبَيِّنَٰتُ مِن رَّبِّي﴾ أيْ دلائلُ توحيدهِ ﴿وَأُمِرۡتُ أَنۡ أُسۡلِمَ﴾ أذلَّ وأخضعَ ﴿لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٦٦﴾ وكانوا دعوهُ إلى دينِ آبائهِ، فأمرَ أنْ يقول هذا.

قولهُ تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ مِنۡ عَلَقَةٖ ثُمَّ يُخۡرِجُكُمۡ طِفۡلٗا﴾ أيْ أطفالاً. ﴿ثُمَّ لِتَبۡلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمۡ﴾ وهيَ حالةُ اجتماعِ القوّةِ وتمامِ العقلِ. ﴿ثُمَّ لِتَكُونُواْ شُيُوخٗاۚ﴾ بضمِّ الشّينِ قراءةُ نافعٍ وحفص ويعقوب وأبو عمرو على الأصل، وقرأ الباقونَ بكسرِ الشّينِ لمراعاةِ الياءِ وكلاهما جمعُ كثرةٍ ﴿وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبۡلُۖ﴾ قبل أنْ يكونَ شيخاً، أوْ منْ قبلِ هذهِ الأحوالِ إذا خرجَ سقطاً. ﴿وَلِتَبۡلُغُوٓاْ أَجَلٗا مُّسَمّٗى﴾ الموتُ للكلِّ. واللّامُ لامُ العاقبةِ. ﴿وَلَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ٦٧﴾ ذلكَ فتعلموا أنْ لا إله غيره.

قولهُ تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ﴾ زادَ في التّنبيهِ أيْ هوَ الّذي يقدرُ على الإحياءِ والإماتةِ. ﴿فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا﴾ أيْ أرادَ فعلهُ قالَ ﴿لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ٦٨﴾. ونصبَ ﴿فَيَكُونَ﴾ ابنُ عامرٍ على جوابِ الأمرِ.

قولهُ تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ أَنَّىٰ يُصۡرَفُونَ ٦٩﴾ وهمُ المشركونَ بدليلِ قولهِ: ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِٱلۡكِتَٰبِ وَبِمَآ أَرۡسَلۡنَا بِهِۦ رُسُلَنَاۖ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ٧٠﴾. وقالَ أكثرُ المفسّرينَ: نزلتْ في القدريّةِ.

قولهُ تعالى: ﴿إِذِ ٱلۡأَغۡلَٰلُ فِيٓ أَعۡنَٰقِهِمۡ﴾ إذا دخلوا النّارَ ﴿وَٱلسَّلَٰسِلُ﴾ بالرّفعِ قراءةُ العامّةِ عطفاً على الأغلالِ ﴿يُسۡحَبُونَ ٧١﴾ مستأنفٌ ﴿فِي ٱلۡحَمِيمِ ثُمَّ فِي ٱلنَّارِ يُسۡجَرُونَ ٧٢﴾ أيْ يطرحونَ وقوداً لها، يقالُ: سجرتُ التّنّورَ أيْ أوقدتهُ، وسجرتهُ ملأتهُ، ومنهُ ﴿وَٱلۡبَحۡرِ ٱلۡمَسۡجُورِ﴾ أيِ المملوءُ. فالمعنى على هذا تملأُ بهمُ النّارُ ﴿ثُمَّ قِيلَ لَهُمۡ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡ تُشۡرِكُونَ ٧٣ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ﴾ تقريعٌ وتوبيخٌ. ﴿قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا﴾ أيْ هلكوا وذهبوا عنّا وتركونا في العذابِ، ﴿بَل لَّمۡ نَكُن نَّدۡعُواْ مِن قَبۡلُ شَيۡـٔٗاۚ﴾ أيْ شيئاً لا يبصرُ ولا يسمعُ ولا يضرُّ ولا ينفعُ. وليسَ هذا إنكاراً لعبادةِ الأصنامِ، بلْ هوَ اعترافٌ بأنَّ عبادتهمُ الأصنامَ كانتْ باطلةً، قالَ اللّهُ تعلى: ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٧٤﴾ كما فعلَ بهؤلاءِ منَ الإضلالِ يفعلُ بكلِّ كافرٍ.

قولهُ تعالى: ﴿ذَٰلِكُم﴾ أيْ ذلكمُ العذابُ ﴿بِمَا كُنتُمۡ تَفۡرَحُونَ﴾ بالمعاصي يقالُ لهمْ ذلكَ توبيخاً، وقيلَ إنَّ فرحهمْ بما عندهمْ أنّهمْ قالوا للرّسلِ: نحنُ نعلمُ أنّا لا نبعثُ ولا نعذّبُ. كما في قولهِ جلَّ وعزَّ: ﴿فَلَمَّا جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ﴾. ﴿وَبِمَا كُنتُمۡ تَمۡرَحُونَ ٧٥﴾ تبطرونَ وتأشرونَ. ﴿ٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا فَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ ٧٦﴾. أي يقال لهم ذلك اليوم. ﴿فَٱصۡبِرۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۚ﴾ هذا تسليةٌ للنبي ﷺ، أي إنا لننتقم لكَ منهمْ إمّا في حياتكَ أوْ في الآخرةِ. ﴿فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ﴾ في موضع جزم بالشّرطِ وما زائدةٌ للتّوكيدِ وكذا النّونُ وزالَ الجزمُ وبنيَ الفعلُ على الفتحِ. ﴿أَوۡ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾ عطفٌ عليهِ ﴿فَإِلَيۡنَا يُرۡجَعُونَ ٧٧﴾ الجوابُ.

قولهُ تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلٗا مِّن قَبۡلِكَ﴾ عزّاهُ أيضاً بما لقيتِ الرّسلُ منْ قبلهِ. ﴿مِنۡهُم مَّن قَصَصۡنَا عَلَيۡكَ﴾ أيْ أنبأناكَ بأخبارهمْ وما لقوا منْ قومهمْ. ﴿وَمِنۡهُم مَّن لَّمۡ نَقۡصُصۡ عَلَيۡكَۗ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأۡتِيَ بِـَٔايَةٍ﴾ من قبل نفسه وإنما هي من عند اللّهِ ﴿إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ فَإِذَا جَآءَ أَمۡرُ ٱللَّهِ﴾ أيْ إذا جاءَ الوقتُ المسمّى لعذابهمْ أهلكهمُ اللّهُ، وإنّما التّأخيرُ لإسلامِ منْ علمَ اللّهُ إسلامهُ منهمْ ولمنْ في أصلابهمْ منَ المؤمنينَ. وقيلَ: أشارَ بهذا إلى القتلِ ببدرٍ. ﴿قُضِيَ بِٱلۡحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلۡمُبۡطِلُونَ ٧٨﴾ الّذينَ يتّبعونَ الباطلَ والشرك.

قولهُ تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَنۡعَٰمَ لِتَرۡكَبُواْ مِنۡهَا وَمِنۡهَا تَأۡكُلُونَ ٧٩﴾ احتجَّ منْ منع أكل الخيل وأباح أكل الجمال بأن اللّهَ عزَّ وجلَّ قالَ في الأنعام: ﴿وَمِنۡهَا تَأۡكُلُونَ﴾ وقالَ في الخيلِ: ﴿وَٱلۡخَيۡلَ وَٱلۡبِغَالَ وَٱلۡحَمِيرَ لِتَرۡكَبُوهَا﴾ ولمْ يذكرْ إباحةَ أكلها.

قولهُ تعالى: ﴿وَلَكُمۡ فِيهَا مَنَٰفِعُ﴾ في الوبرِ والصّوفِ والشّعرِ واللّبنِ والزّبدِ والسّمنِ والجبنِ وغيرِ ذلكَ. ﴿وَلِتَبۡلُغُواْ عَلَيۡهَا حَاجَةٗ فِي صُدُورِكُمۡ﴾ أيْ تحملُ الأثقالَ والأسفارَ. ثمَّ قالَ: ﴿وَعَلَيۡهَا﴾ يعني الأنعامِ في البرِّ ﴿وَعَلَى ٱلۡفُلۡكِ﴾ في البحرِ ﴿تُحۡمَلُونَ ٨٠﴾.

﴿وَيُرِيكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ﴾ الدّالّةِ على وحدانيّتهِ وقدرتهِ فيما ذكر. ﴿فَأَيَّ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ ٨١﴾ فإذا كنتمْ لا تنكرونَ أنَّ هذهِ الأشياءَ منَ اللّهِ فلمَ تنكرون قدرته على البعث والنشر.

قولهُ تعالى: ﴿۞أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ حتّى يشاهدوا آثارَ الأممِ السّالفةِ ﴿كَانُوٓاْ أَكۡثَرَ

مِنۡهُمۡ﴾ عدداً ﴿وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِي ٱلۡأَرۡضِ فَمَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ٨٢﴾ منَ الأبنية والأموال وما أدلوا بِهِ منَ الأولادِ والأتباعِ.

قولهُ تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ أيْ بالآياتِ الواضحاتِ. ﴿فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ﴾ منْ علمِ الدّنيا نحوَ ﴿يَعۡلَمُونَ ظَٰهِرٗا مِّنَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾.

وقيلَ: الّذينَ فرحوا الرّسلُ لمّا كذّبهمْ قومهمْ أعلمهمُ اللّهُ عزَّ وجلَّ أنّهُ مهلكُ الكافرينَ ومنجيهمْ والمؤمنينَ فَ ﴿فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ﴾ بنجاةِ المؤمنينَ ﴿وَحَاقَ بِهِم﴾ أيْ بالكفّارِ ﴿مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ٨٣﴾ أيْ عقابُ استهزائهمْ بما جاءَ بِهِ الرّسلُ صلواتُ اللّهِ عليهمْ.

قولهُ تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوۡاْ بَأۡسَنَا﴾ أيْ عاينوا العذابَ. ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحۡدَهُۥ وَكَفَرۡنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشۡرِكِينَ ٨٤﴾ أيْ بالأوثانِ الّتي أشركناهمْ في العبادةِ ﴿فَلَمۡ يَكُ يَنفَعُهُمۡ إِيمَٰنُهُمۡ﴾ باللّهِ عندَ معاينةِ العذابِ وحينَ رأوا البأس. ﴿سُنَّتَ ٱللَّهِ﴾ أنَّ التّوبةَ لا تقبلُ بعدَ رؤيةِ العذابِ وحصولِ العلمِ الضّروريِّ.

وقيلَ: أي احذروا يا أهلَ مكّةَ سنّةَ اللّهِ في إهلاك الكفرة ف ﴿سُنَّتَ ٱللَّهِ﴾ منصوبٌ على التّحذيرِ والإغراءِ. ﴿وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلۡكَٰفِرُونَ ٨٥﴾ وقدْ كانوا خاسرينَ منْ قبلِ ذلكَ إلّا أنّهُ بيّنَ لنا الخسرانَ لمّا رأوا العذابَ.

سورة فصلت

مكّيّةٌ في قولِ الجميعِ وهيَ أربع وخمسون آية.

بسمِ اللّهِ الرّحمنِ الرّحيمِ

قولهُ تعالى: ﴿حمٓ ۞ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۞﴾ ﴿تَنزِيلٌ﴾ رفعَ على إضمارِ هذا. و: ﴿كِتَٰبٌ﴾ بدلٌ منْ قولهِ: ﴿تَنزِيلٌ﴾. ﴿فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ﴾ أيْ بيّنتْ وفسّرتْ. ببيانِ حلالهِ منْ حرامهِ، وطاعتهِ منْ معصيتهِ. ﴿قُرۡءَانًا عَرَبِيًّا﴾ نصب على المدح ﴿لِّقَوۡمٍ يَعۡلَمُونَ ۞﴾ أنّهُ إلهٌ واحدٌ في التّوراةِ والإنجيلِ. وقيلَ: يعلمونَ العربيّةَ فيعجزونَ عنْ مثلهِ، والسّورةُ نزلتْ تقريعًا وتوبيخًا لقريشٍ في إعجازِ القرآنِ. ﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ نعتانِ للقرآن ﴿بَشِيرًا﴾ لأولياء الله ﴿نَذِيرًا﴾ لأعدائه ﴿فَأَعۡرَضَ أَكۡثَرُهُمۡ﴾ يعني أهلَ مكّةَ ﴿فَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ ۞﴾ سماعًا ينتفعونَ بهِ.

قولهُ تعالى: ﴿وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ﴾ الأكنّةُ جمعُ كنانٍ وهوَ الغطاءُ ﴿وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقۡرٌ﴾ أيْ صممٌ، فكلامكَ لا يدخلُ أسماعنا، وقلوبنا مستورةٌ منْ فهمهِ. ﴿وَمِنۢ بَيۡنِنَا وَبَيۡنِكَ حِجَابٌ﴾ أيْ خلافٌ في الدّينِ، لأنّهمْ يعبدونَ الأصنامَ وهوَ يعبدُ اللّهَ عزَّ وجلَّ ﴿فَٱعۡمَلۡ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ ۞﴾ أيِ اعملْ في هلاكنا فإنّا عاملونَ في هلاككَ، أو اعملْ بما يقتضيهِ دينكَ، فإنّا عاملونَ بما يقتضيهِ ديننا.

قولهُ تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثۡلُكُمۡ﴾ أيْ لستُ بملكٍ بلْ أنا منْ بني آدمَ. قالَ الحسنُ: علّمهُ اللّهُ تعالى التّواضعَ. ﴿يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ أيْ منَ السّماءِ ﴿أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱسۡتَقِيمُوٓاْ إِلَيۡهِ﴾ أيْ وجّهوا وجوهكمْ بالدّعاءِ لهُ والمسألةِ إليهِ ﴿وَٱسۡتَغۡفِرُوهُ﴾ أيْ منْ شرككمْ. ﴿وَوَيۡلٌ لِّلۡمُشۡرِكِينَ ۞ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ قال ابن عباس: لا يشهدونَ «أنْ لا إلهَ إلّا اللّهُ» وهيَ زكاةُ الأنفسِ. وقيلُ: لا يقرّونَ بالزّكاةِ أنّها واجبةٌ. وقيلَ: لا يتصدّقونَ ولا ينفقونَ في الطّاعةِ. قرّعهمْ بالشّحِّ الّذي يأنفُ منهُ الفضلاءُ، وفيهِ دلالةٌ على أن الكافر يعذب بكفره معَ منعِ وجوبِ الزّكاةِ عليهِ. ﴿وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ ۞﴾ فلهذا لا ينفقونَ

في الطّاعةِ ولا يستقيمونَ ولا يستغفرونَ.

الزّمخشريُّ: فإنْ قلتَ لمَ خصَّ منْ بينِ أوصافِ المشركينَ منعُ الزّكاةِ مقرونـًا بالكفرِ بالآخرةِ؟

قلت: لأن أحب شيء إلى الإنسانِ مالهُ، وهوَ شقيقُ روحهِ، فإذا بذلهُ في سبيلِ اللّهِ فذلكَ أقوى دليلٍ على ثباتهِ واستقامتهِ وصدقِ نيّتهِ ونصوعِ طويّتهِ ألا ترى إلى قولهِ عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ أيْ يثبّتونَ أنفسهمْ، ويدلّونَ على ثباتها بإنفاقِ الأموالِ، وما خُدعَ المؤلّفةُ قلوبهمْ إلّا بلمظةٍ منَ الدّنيا، فقويتْ عصبتهمْ ولانتْ شكيمتهمْ، وأهلُ الرّدّةِ بعدَ رسولِ اللّهِ ﷺ ما تظاهروا إلّا بمنعِ الزّكاةِ، فنصبتْ لهمُ الحروبُ وجوهدوا. وفيهِ بعثٌ للمؤمنينَ على أداءِ الزّكاةِ، وتخويفٌ شديدٌ منْ منعها، حيثُ جعلَ المنعُ منْ أوصافِ المشركينَ، وقرنَ بالكفرِ بالآخرةِ.

قولهِ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ۝٨﴾ غيرُ مقطوعٍ.

قولهُ تعالى: ﴿۞ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ﴾ استفهامٌ معناهُ التّوبيخُ. أمرهُ بتوبيخهمْ والتّعجّبِ منْ فعلهمْ، أيْ لمَ تكفرون بالله وهو خالق السموات والأرضِ؟! ﴿فِى يَوْمَيْنِ﴾ الأحدُ والاثنينِ. ﴿وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا﴾ أيْ أضداداً وشركاءَ ﴿ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٩﴾. ﴿وَجَعَلَ فِيهَا﴾ أيْ في الأرضِ ﴿رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا﴾ يعني الجبالَ ﴿وَبَٰرَكَ فِيهَا﴾ بما خلقَ فيها منَ المنافعِ. ﴿وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا﴾ أرزاقُ أهلها ومصالحهمْ. في يومِ الثّلاثاءِ والأربعاءِ ﴿فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ﴾ أي في تتمّةِ أربعةِ أيّامٍ ﴿سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ۝١٠﴾ مستويةٍ تامّةٍ.

قولهُ تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ﴾ أيْ عمدَ إلى خلقها وقصدَ لتسويتها. والاستواءُ منْ صفةِ الأفعالِ، يدلُّ عليهِ قولهُ تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ﴾ وَ ﴿ثُمَّ﴾ ترجعُ إلى نقلِ السّماءِ منْ صفةِ الدّخانِ إلى حالةِ الكثافةِ، ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ أيْ جيئا بما خلقتُ فيكما منَ المنافعِ والمصالحِ وأخرجاها لخلقي ﴿قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ۝١١﴾ في الكلامِ حذفٌ أيْ أتينا أمركَ ﴿طَآئِعِينَ﴾.

وفي قولهِ تعالى لهما وجهانِ:

أحدهما: أنّهُ قولٌ تكلّمَ بهِ.

الثّاني: أنّها قدرةٌ منهُ ظهرتْ لهما فقامَ مقامَ الكلامِ في بلوغِ المرادِ.

﴿قَالَتَآ أَتَيۡنَا طَآئِعِينَ ١١﴾ فيهِ أيضـًا وجهانِ:

أحدهما: أنّهُ ظهورُ الطّاعةِ منهما حيثُ انقادا وأجابا فقامَ مقامَ قولهما.

وقالَ أكثرُ أهلِ العلمِ: بلْ خلقَ اللّهُ فيهما الكلامَ فتكلّمتا كما أرادَ تعالى: **وقالَتا**: ﴿طَآئِعِينَ﴾ ولمْ يقلْ طائعتينِ على اللّفظِ ولا طائعاتٍ على المعنى، لأنّهما سمواتٌ وأرضونَ، لأنّهُ أخبرَ عنهما وعمّنْ فيهما، وقيلَ: لمّا وصفهنَّ بالقولِ والإجابةِ وذلكَ منْ صفاتِ منْ يعقلُ أجراهما في الكنايةِ مجرى منْ يعقلُ، ومثله: ﴿رَأَيۡتُهُمۡ لِي سَٰجِدِينَ﴾.

قولهُ تعالى: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبۡعَ سَمَٰوَاتٖ فِي يَوۡمَيۡنِ﴾ أيْ أكملهنَّ ﴿فِي يَوۡمَيۡنِ﴾ سوى الأربعةِ الأيّامِ الّتي خلق فيها الأرض، فوقع خلق السموات والأرضِ في ستّةِ أيّامٍ، كما قالَ تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ﴾ على ما تقدّمَ في الأعرافِ بيانهُ. ﴿وَأَوۡحَىٰ فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمۡرَهَاۚ﴾ أيْ أوحى فيها ما أرادهُ وما أمرَ بهِ فيها. والإيحاءُ قدْ يكونُ أمراً، لقولهِ: ﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوۡحَىٰ لَهَا﴾، وقوله: ﴿وَإِذۡ أَوۡحَيۡتُ إِلَى ٱلۡحَوَارِيِّـۧنَ﴾ أي أمرتهم وهو أمر تكوين. ﴿وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِمَصَٰبِيحَ﴾ أيْ بكواكبَ تضيءُ ﴿وَحِفۡظٗاۚ﴾ أيْ وحفظناها حفظـًا، أيْ منَ الشّياطينِ الّذينَ يسترقون السمع.

وظاهرُ هذهِ الآيةِ يدلُّ على أنَّ الأرضَ خلقتْ قبلَ السّماءِ. وقالَ في آيةٍ أخرى: ﴿أَمِ ٱلسَّمَآءُۚ بَنَىٰهَا﴾ ثم قال: ﴿وَٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ﴾ وهذا يدلُّ على خلقِ السّماءِ أوّلاً. وقالَ قومٌ: خلقتِ الأرضُ قبلَ السّماءِ، فأمّا قولهُ: ﴿وَٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ﴾ فالدّحوُ غيرُ الخلقِ، فاللّهُ خلقَ الأرضَ ثمَّ خلقَ السّمواتِ، ثمَّ دحا الأرضَ أيْ مدّها وبسطها، ﴿ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ١٢﴾.

قولهُ تعالى: ﴿فَإِنۡ أَعۡرَضُواْ﴾ يعني كفّارَ قريشٍ عمّا تدعوهمْ إليهِ يا محمّدُ منَ الإيمانِ. ﴿فَقُلۡ أَنذَرۡتُكُمۡ صَٰعِقَةٗ مِّثۡلَ صَٰعِقَةِ عَادٖ وَثَمُودَ ١٣﴾ أيْ خوّفتكمْ هلاكاً مثلَ هلاكِ عادٍ وثمودَ. ﴿إِذۡ جَآءَتۡهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ﴾ يعني منْ أرسلَ إليهمْ وإلى منْ قبلهمْ ﴿أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ موضعُ ﴿أن﴾ نصبَ بإسقاطِ الخافضِ أي ب ﴿أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ﴾ و ﴿قَالُواْ لَوۡ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةٗ﴾ بدلَ الرّسلِ ﴿فَإِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ١٤﴾ منَ الإنذارِ والتّبشيرِ. قيل: هذا استهزاءٌ منهمْ.

قولهُ تعالى: ﴿فَأَمَّا عَادٞ فَٱسۡتَكۡبَرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ على عبادِ اللّهِ هودٍ ومنْ آمنَ معهُ ﴿بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَقَالُواْ مَنۡ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةًۖ﴾ اغترّوا بأجسامهمْ حينَ تهدّدهمْ بالعذابِ، وذلكَ أنّهمْ كانوا ذوي أجسامٍ طوالٍ وخلقٍ عظيمٍ. فقالَ: اللّهُ تعالى رداً عليهمْ: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَهُمۡ هُوَ أَشَدُّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗۖ﴾ وقدرةً، وإنّما يقدرُ العبدُ بإقدارِ اللّهِ، فاللّهُ أقدرُ إذاً. ﴿وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ ١٥﴾ أيْ بمعجزاتنا يكفرونَ. ﴿فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا صَرۡصَرٗا﴾ باردةً شديدةَ البردِ وشديدةَ الصّوتِ والهبوبِ. والصّرّةِ الصّيحةُ، ومنهُ ﴿فَأَقۡبَلَتِ ٱمۡرَأَتُهُۥ فِي صَرَّةٖ﴾.. ﴿فِيٓ أَيَّامٖ نَّحِسَاتٖ﴾ أي مشئوماتٍ، وذلكَ ﴿سَبۡعَ لَيَالٖ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومٗاۖ﴾، وقيلَ: ﴿نَّحِسَاتٖ﴾ بارداتٍ، وقيلَ: متتابعاتٍ، وقرأ نافعٌ وابنُ كثيرٍ وأبو عمرو «نَحْسَاتٍ» بإسكانِ الحاءِ على أنّهُ جمعُ نحسٍ الّذي هوَ مصدرٌ وصفَ بهِ. الباقونَ: ﴿نَّحِسَاتٖ﴾ بكسرِ الحاءِ أيْ ذواتُ نحسٍ. وممّا يدلُّ على أنَّ النّحسَ مصدرٌ قولهُ: ﴿فِي يَوۡمِ نَحۡسٖ مُّسۡتَمِرّٖ﴾ ولوْ كانَ صفةً لمْ يضفِ اليومَ إليهِ، وبهذا كانَ يحتجُّ أبو عمرو على قراءتهِ، ﴿لِّنُذِيقَهُمۡ﴾ أيْ لكيْ نذيقهمْ ﴿عَذَابَ ٱلۡخِزۡيِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ﴾ أي العذاب بالرّيحِ العقيمِ. ﴿وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَخۡزَىٰۖ﴾ أيْ أعظمَ وأشد. ﴿وَهُمۡ لَا يُنصَرُونَ ١٦﴾.

قولهُ تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيۡنَٰهُمۡ﴾ بيّنّا لهمُ الهدى والضّلالَ ﴿فَٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡعَمَىٰ﴾ أي الكفرَ ﴿عَلَى ٱلۡهُدَىٰ﴾ أي الإيمانِ ﴿فَأَخَذَتۡهُمۡ صَٰعِقَةُ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡهُونِ﴾ بالضّمِّ الهوانُ. ﴿بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ١٧﴾ منْ تكذيبهمْ صالحاً وعقرهمُ النّاقةَ ﴿وَنَجَّيۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ١٨﴾ يعني صالحاً ومنْ آمنَ بهِ، فلمْ يحلَّ بهمْ ما حلَّ بالكفّارِ، وهكذا يا محمّدُ نفعلُ

بمؤمني قومكَ وكفارهم.

قولهُ تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ١٩﴾ قرأَ نافعٌ «نَحْشُرُ» بالنّونِ «أَعْدَاءَ» بالنّصبِ. الباقونَ ﴿يُحْشَرُ﴾ بياءٍ مضمومةٍ ﴿أَعْدَآءُ﴾ بالرّفعِ ومعناهما بيّنٌ. وأعداءُ اللّهِ: الّذينَ كذّبوا رسلهُ وخالفوا أمرهُ. ﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ يساقونَ ويدفعونَ إلى جهنّمَ.

قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا﴾ ﴿مَا﴾ زائدة ﴿شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ٢٠﴾ الجلودُ يعني بها الجلودَ أعيانها في قولِ أكثرِ المفسّرينَ، وقيلَ: أرادَ بالجلودِ الفروجَ، ﴿وَقَالُوا۟﴾ يعني الكفّارَ ﴿لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا﴾ وإنّما كنّا نجادلُ عنكمْ ﴿قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ لمّا خاطبتْ وخوطبتْ أجريتْ مجرى منْ يعقلُ. ﴿وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ أيْ ركّبَ الحياةَ فيكمْ بعدَ أنْ كنتمْ نطفًا، فمنْ قدرَ عليهِ قدرَ على أنْ ينطقَ الجلودَ وغيرها منَ الأعضاءِ. وقيلَ: ﴿وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ ابتداءُ كلامٍ منَ اللّهِ. ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ٢١﴾ وفي صحيحِ مسلمٍ عنْ أنسِ بنِ مالكٍ قالَ: كنّا عندَ رسولِ اللّهِ ﷺ فضحكَ فقالَ: «هلْ تدرونَ ممَّ أضحكُ» قلنا: اللّهُ ورسولهُ أعلمُ، قالَ: «منْ مخاطبةِ العبدِ ربه يقول: يا رب ألم تجرني منَ الظّلمِ؟ قالَ: يقولُ: بلى. قالَ فيقولُ: فإنّي لا أجيزُ على نفسي إلّا شاهداً منّي قالَ يقولُ: كفى بنفسكَ اليومَ عليكَ شهيداً وبالكرامِ الكاتبينَ شهوداً. قالَ: فيختمُ على فيهِ فيقالُ لأركانهِ انطقي فتنطقُ بأعمالهِ قالَ: ثمَّ يخلّى بينهُ وبينَ الكلامِ قالَ فيقولُ بُعداً لكنَّ وسُحقاً فعنكنَّ كنتُ أناضلُ». وفي حديثِ أبي هريرةَ ثمَّ يقالُ: «الآنَ نبعثُ شاهدنا عليكَ ويتفكّرُ في نفسهِ منْ ذا الّذي يشهدُ عليَّ فيختمُ على فيهِ ويقالُ لفخذهِ ولحمهِ وعظامهِ: انطقي فتنطقُ فخذهُ ولحمهُ وعظامهُ بعملهِ وذلكَ ليعذرَ منْ نفسهِ وذلكَ المنافقُ وذلكَ الّذي سخطَ اللّهُ عليهِ» خرّجهُ أيضًا مسلم.

قولهُ تعالى: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ﴾ يجوزُ أنْ يكونَ هذا منْ قولِ الجوارحِ لهمْ: ويجوزُ أنْ يكونَ منْ قولِ اللّهِ عزَّ وجلَّ أوِ الملائكةِ. وفي صحيحِ مسلمٍ عنِ ابنِ مسعودٍ قالَ: اجتمعَ عندَ البيتِ ثلاثةُ نفرٍ، قرشيّانِ وثقفيٌّ أوْ ثقفيّانِ وقرشيٌّ، قليلٌ فقهُ قلوبهمْ، كثيرٌ شحمُ بطونهمْ: فقالَ: أحدهمْ: أترونَ اللّهَ يسمعُ ما نقولُ؟ فقالَ: الآخرُ: يسمعُ إنْ جهرنا ولا يسمعُ إنْ أخفينا، وقالَ الآخرُ: إنْ كانَ يسمعُ إذا جهرنا فهوَ يسمعُ

إذا أخفينا، فأنزلَ اللّهُ عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَـٰرُكُمْ﴾ الآيةَ.

ومعنى ﴿تَسْتَتِرُونَ﴾ تستخفونَ في قولِ أكثرِ العلماءِ، أيْ ما كنتمْ تستخفونَ منْ أنفسكمْ حذراً منْ شهادةِ الجوارحِ عليكمْ، لأنَّ الإنسانَ لا يمكنهُ أنْ يخفيَ منْ نفسهِ عملهُ، فيكونُ الاستخفاءُ بمعنى تركِ المعصيةِ. وقيلَ: الاستتارُ بمعنى الاتّقاءِ، أيْ ما كنتمْ تتّقونَ في الدّنيا أنْ تشهدَ عليكمْ جوارحكمْ في الآخرةِ فتتركوا المعاصي خوفاً منْ هذهِ الشّهادةِ. ﴿وَلَـٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾﴾ منْ أعمالكمْ فجادلتمْ على ذلكَ حتّى شهدتْ عليكمْ جوارحكمْ بأعمالكمْ.

قولهُ تعالى: ﴿وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ﴾ أيْ أهلككمْ فأوردكمُ النّارَ، والظّنُّ هنا بمعنى العلمِ. وقالَ النّبيُّ ﷺ: «لا يموتنَّ أحدكمْ إلّا وهوَ يحسنُ الظّنَّ باللّهِ فإنَّ قوماً أساءوا الظّنَّ بربّهمْ فأهلكهمْ» فذلكَ قولهُ: ﴿وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ﴾. وقالَ الحسنُ البصريُّ: إنَّ قوماً ألهتهمُ الأمانيُّ حتّى خرجوا منَ الدّنيا وما لهمْ حسنةٌ، ويقولُ أحدهمْ: إنّي أحسنُ الظّنَّ بربّي وكذبَ، ولوْ أحسنَ الظّنَّ لأحسنَ العملَ، وتلا قولَ اللّهِ تعالى: ﴿وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾.

قولهُ تعالى: ﴿فَإِن يَصْبِرُوا۟ فَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾ أيْ فإنْ يصبروا في الدّنيا على أعمالِ أهلِ النّارِ فالنّارُ مثوى لهمْ. نظيره: ﴿فَمَآ أَصْبَرَهُمْ عَلَى ٱلنَّارِ﴾ على ما تقدّمَ. ﴿وَإِن يَسْتَعْتِبُوا۟﴾ في الدّنيا وهمْ مقيمونَ على كفرهمْ ﴿فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ ﴿٢٤﴾﴾. وقيلَ: المعنى ﴿فَإِن يَصْبِرُوا۟﴾ في النّارِ أوْ يجزعوا ﴿فَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾ أيْ لا محيصَ لهمْ عنها، ودلَّ على الجزعِ قولهُ: ﴿وَإِن يَسْتَعْتِبُوا۟﴾ لأنَّ المستعتبَ جزعٌ والمعتبُ المقبولُ عتابهُ، تقولُ: استعتبتهُ فأعتبني أيِ استرضيتهُ فأرضاني. فمعنى ﴿وَإِن يَسْتَعْتِبُوا۟﴾ أيْ طلبوا الرّضا لمْ ينفعهمْ ذلكَ بلْ لا بدَّ لهمْ منَ النّارِ. ولو أقالهمُ اللّهُ وردّهمْ إلى الدّنيا لمْ يعملوا بطاعتهِ لما سبقَ لهمْ في علمِ اللّهِ منَ الشّقاءِ، قالَ اللّهُ تعالى: ﴿وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ﴾.

قولهُ تعالى: ﴿۞وَقَيَّضۡنَا لَهُمۡ قُرَنَآءَ﴾ سلّطنا عليهمْ قرناءَ يزيّنونَ عندهمُ المعاصي، وهؤلاءِ القرناءُ منَ الجنِّ والشّياطينِ ومنَ الإنسِ أيضـاً. ﴿فَزَيَّنُواْ لَهُم مَّا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ﴾ منْ أمرِ الدّنيا فحسّنوهُ لهمْ حتّى آثروهُ على الآخرةِ ﴿وَمَا خَلۡفَهُمۡ﴾ حسّنوا لهمْ ما بعدَ مماتِهمْ ودعوهمْ إلى التّكذيبِ بأمورِ الآخرةِ ﴿وَحَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلُ فِيٓ أُمَمٖ﴾ أيْ وجبَ عليهمْ منَ العذابِ ما وجبَ على الأممِ الّذينَ منْ قبلِهمُ الّذينَ كفروا ككفرِهمْ. وقيلَ: ﴿فِيٓ﴾ بمعنى معَ، فالمعنى همْ داخلونَ معَ الأممِ الكافرةِ قبلَهمْ فيما دخلوا فيهِ. وقيلَ: ﴿فِيٓ أُمَمٖ﴾ في جملةِ أممٍ. ﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ خَٰسِرِينَ ٢٥﴾ أعمالهمْ في الدنيا وأنفسهم وأهليهم يوم القيامة.

قولهُ تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ﴾ لمّا أخبرَ تعالى عنْ كفرِ قومِ هودٍ وصالحٍ وغيرهمْ أخبرَ عنْ مشركي قريشٍ وأنّهمْ كذّبوا القرآنَ فقالوا: ﴿لَا تَسۡمَعُواْ﴾. وقيلَ: معنى ﴿لَا تَسۡمَعُواْ﴾ لا تطيعوا ﴿وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ﴾ بالمكاءِ والتّصفيقِ والتّخليطِ في المنطقِ. حتّى يصيرَ لغواً لمّا أعجزهمُ القرآنُ. ﴿لَعَلَّكُمۡ تَغۡلِبُونَ ٢٦﴾ محمّداً على قراءتهِ فلا يظهرُ ولا يستميلُ القلوبَ. واللّغوِ ما لا يعلمُ لهُ حقيقةٌ ولا تحصيلٌ.

قولهُ تعالى: ﴿فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَذَابٗا شَدِيدٗا﴾ يتوالى فلا ينقطع في جميعِ أجزائهمْ. ﴿وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَسۡوَأَ ٱلَّذِي كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٢٧﴾ وهو الشّركُ. ﴿ذَٰلِكَ جَزَآءُ أَعۡدَآءِ ٱللَّهِ ٱلنَّارُۖ﴾ أيْ ذلكَ العذابُ الشّديدُ، هو النّارُ ﴿لَهُمۡ فِيهَا دَارُ ٱلۡخُلۡدِ﴾ فترجمَ بالدّارِ عنِ النّارِ وهوَ مجازُ الآيةِ.

قولهُ تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ يعني في النّارِ فذكرهُ بلفظِ الماضي والمرادُ المستقبلُ ﴿رَبَّنَا أَرِنَا الَّذَيْنِ أَضَلاَّنَا مِنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ﴾ يعني إبليسَ وابنَ آدمَ الّذي قتلَ أخاهُ، ويشهدُ لهذا قوله ﷺ: «ما منْ مسلمٍ يقتلُ ظلماً إلّا كانَ على ابنِ آدمَ الأوّلِ كفلٌ منْ ذنبهِ لأنّهُ أوّلُ منْ سنَّ القتلَ» خرّجهُ التّرمذيُّ، وقيلَ: هوَ بمعنى الجنسِ وبني على التثنية لاختلاف الجنسين. ﴿نَجۡعَلۡهُمَا تَحۡتَ أَقۡدَامِنَا﴾ حتّى يشتفوا منهمْ ﴿لِيَكُونَا مِنَ ٱلۡأَسۡفَلِينَ ٢٩﴾ في الدّركُ الأسفلُ لمنْ كانَ سببَ ضلالتهمْ منَ الجنِّ والإنس. وقرأ السّوسيُّ عنْ أبي عمرو وابنُ عامرٍ «أَرْنَا» بإسكانِ الرّاءِ وعنْ أبي عمرو أيضـاً باختلاسها. وأشبعَ الباقونَ كسرتَها.

قولهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ﴾ فعلاً كما استقاموا قولاً، وفي التّرمذيِّ عنْ أنسِ بنِ مالكٍ أنَّ رسولَ اللّهِ ﷺ قرأَ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ﴾ قالَ: «قدْ قالَ النّاسُ ثمَّ كفرَ أكثرهمْ فمنْ ماتَ عليها فهوَ ممّنِ استقامَ» قالَ: حديثٌ غريبٌ. وفي صحيح مسلم عنْ سفيانَ بنِ عبدِ اللّهِ الثّقفيِّ قالَ: قلتُ: يا رسولَ اللّهِ قلْ لي في الإسلامِ قولاً لا أسألُ عنهُ أحداً بعدكَ - وفي روايةٍ - غيركَ. قالَ: «قلْ آمنتُ باللّهِ ثمَّ استقمْ»

﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ عندَ الموتِ، أو إذا قاموا منْ قبورهمْ للبعثِ. وقالَ ابنُ عبّاسٍ: هيَ بشرى تكونُ لهمْ منَ الملائكةِ في الآخرةِ. ﴿أَلَّا تَخَافُواْ﴾ الموت ﴿وَلَا تَحْزَنُواْ﴾ على أولادكمْ فإنَّ اللّهَ خليفتكمْ عليهمْ. ﴿وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ٣٠﴾.

قولهُ تعالى: ﴿نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْأٓخِرَةِ﴾ تقولُ لهمُ الملائكةُ نحنُ الحفظةُ لأعمالكمْ في الدنيا وأولياؤكم في الآخرةِ. ويجوزُ أنْ يكونَ هذا منْ قولِ اللّهِ تعالى، واللّهُ وليُّ المؤمنينَ ومولاهمْ. ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِيٓ أَنفُسُكُمْ﴾ منَ الملاذِ. ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ٣١﴾ تسألونَ وتتمنّونَ. ﴿نُزُلًا﴾ أيْ رزقاً وضيافةً ﴿مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ٣٢﴾.

قولهُ تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ هذا توبيخٌ للّذينَ تواصوا باللّغوِ في القرآنِ. والمعنى: أيُّ كلامٍ أحسنُ منَ القرآنِ، ومنْ أحسنَ قولاً منَ الدّاعي إلى اللّهِ وطاعتهِ وهوَ محمّدٍ ﷺ. وقيلَ: نزلتْ في المؤذّنينَ، والأول أصحُّ، لأنَّ الآيةَ مكّيّةٌ والأذانَ مدنيٌّ، وإنّما يدخلُ فيها بالمعنى، لا أنّهُ كانَ المقصودَ وقتَ القولِ، ويدخلُ فيها أبو بكرٍ الصّدّيقُ حينَ قالَ في النّبيِّ ﷺ وقدْ خنقهُ الملعونُ: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ﴾ وتتضمّنَ كلَّ كلامٍ حسنٍ فيهِ ذكرُ التّوحيدِ والإيمانِ.

قلت: وقولٌ ثالثٌ وهوَ أحسنها، قالَ الحسنُ: هذهِ الآيةُ عامّةٌ في كلِّ منْ دعا إلى اللّهِ، ومعنى ﴿وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ فأدّى الفرائضَ معَ اجتنابِ المحارمِ وكثرةِ المندوبِ. ﴿وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ٣٣﴾ للّهِ في ذلكَ كلّهِ.

مسألةٌ: لمّا قالَ اللّهُ تعالى: ﴿وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ ولمْ يقلْ لهُ اشترطْ إنْ شاءَ اللّهُ، كانَ في ذلكَ ردٌّ على منْ يقولُ أنا مسلمٌ إنْ شاء الله.

قولهُ تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ﴾ الحسنةُ لا إلهَ إلّا اللّهُ، والسّيّئةُ الشّركُ، وقيلَ: الحسنةُ المداراةُ، والسّيّئةُ الغلظةُ. وقيلَ: الحسنةُ العفوُ، والسّيّئةُ الانتصارُ، وقيلَ: الحسنةُ العلمُ، والسّيّئةُ الفحشُ.

قولهُ تعالى: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ نسختْ بآيةِ السّيفِ، وبقيَ المستحبُّ منْ ذلكَ: حسنُ العشرةِ والاحتمالُ والإغضاءُ. قالَ ابنُ عبّاسٍ: أيِ ادفعْ بحلمكَ جهلَ منْ يجهلُ عليكَ، وقيلَ: بالسّلامَ إذا لقيَ منْ يعاديهِ، وقيل بالمصافحة، ولمْ يرَ مالكٌ المصافحةَ، وقدِ اجتمعَ معَ سفيانَ فتكلّما فيها فقالَ: سفيانُ: قدْ صافحَ رسولُ اللّهِ ﷺ جعفراً حينَ قدمَ منْ أرضِ الحبشةِ، فقالَ: لهُ مالكٌ: ذلكَ خاصٌّ. فقالَ: لهُ سفيانُ: ما خصَّ رسولَ اللّهِ ﷺ يخصّنا، وما عمّهُ يعمّنا، والمصافحةُ ثابتةٌ فلا وجهَ لإنكارها. وقدْ روى قتادةُ قالَ قلتُ: لأنسٍ: هلْ كانتِ المصافحةُ في أصحابِ رسولِ اللّهِ ﷺ؟ قالَ: نعمْ. وهوَ حديثٌ صحيحٌ. وفي الأثرِ: «منْ تمامِ المحبّةِ الأخذُ باليدِ». ومنْ حديثِ محمّدِ بنِ إسحاقَ وهوَ إمامٌ مقدّمٌ، عنِ الزّهريِّ عنْ عروةَ عنْ عائشةَ قالتْ: قدمَ زيدُ بنُ حارثةَ المدينةَ ورسولُ اللّهِ ﷺ في بيتي، فقرعَ البابَ فقامَ إليهِ رسولُ اللّهِ ﷺ عرياناً يجرُّ ثوبهُ- واللّهِ ما رأيتهُ عرياناً قبلهُ ولا بعدهُ- فاعتنقهُ وقبّلهُ.

قلت: قدْ رويَ عنْ مالكٍ جوازُ المصافحةِ وعليها جماعةٌ منَ العلماءِ. وقدْ مضى ذلكَ في «يوسفَ» وذكرنا هناكَ حديثَ البراءُ بنُ عازبٍ قالَ: قالَ رسولُ اللّهِ ﷺ: «ما منْ مسلمينِ يلتقيانِ فيأخذُ أحدهما بيدِ صاحبهِ مودّةً بينهما ونصيحةً إلّا ألقيتْ ذنوبهما بينهما».

قولهُ تعالى: ﴿فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾ أيْ قريبٌ صديقٌ. نزلتْ في أبي سفيانَ بنِ حربٍ، كانَ مؤذياً للنّبيِّ ﷺ، فصارَ لهُ ولياً بعدَ أنْ كانَ عدواً بالمصاهرةِ الّتي وقعتْ بينهُ وبينَ النّبيِّ ﷺ، ثمَّ أسلمَ فصارَ ولياً في الإسلامِ حميماً بالقرابةِ.

وقيلَ: كانَ هذا قبلَ الأمرِ بالقتالِ. قالَ ابنُ عبّاسٍ: أمرهُ اللّهُ تعالى في هذهِ الآيةِ بالصّبرِ عندَ الغضبِ، والحلمِ عندَ الجهلِ، والعفوِ عندَ الإساءةِ، فإذا فعلَ النّاسُ ذلكَ عصمهمُ اللّهُ منَ الشّيطانِ، وخضعَ لهمْ عدوّهمْ.

وأنشدوا:

وللكفُّ عنْ شتمِ اللّئيمِ تكرّمًا أضرُّ لهُ منْ شتمهِ حينَ يشتمُ

﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ﴾ يعني هذهِ الفعلةَ الكريمةَ والخصلةَ الشّريفةَ ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ﴾ بكظمِ الغيظِ واحتمالِ الأذى. ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ٣٥﴾ أيْ نصيبٍ وافرٍ منَ الخيرِ، وهو الجنّةُ.

قولهُ تعالى: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ﴾ من كيده وشرّه ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لاستعاذتكَ ﴿ٱلْعَلِيمُ ٣٦﴾ بأفعالكَ وأقوالك.

قولهُ تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ﴾ علاماتهُ الدّالّةُ على وحدانيّتهِ وقدرتهِ ﴿ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ﴾ وقدْ مضى في غيرِ موضع. ثمَّ نهى عنِ السّجودِ لهما، لأن خالقهما هو الله لو شاءَ لأعدمهما أوْ طمسَ نورهما. ﴿وَٱسْجُدُواْ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ﴾ وصوّرهنَّ وسخّرهنَّ، فالكنايةُ ترجعُ إلى الشّمسِ والقمرِ واللّيلِ والنّهارِ. وقيلَ: للشّمسِ والقمرِ خاصّةً، لأنَّ الاثنينِ جمعٌ. وقيلَ: الضّميرُ عائدٌ على معنى الآياتِ ﴿إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ٣٧﴾ وإنّما أنّثَ على جمعِ التّكثيرِ ولمْ يجرِ على طريقِ التّغليبِ للمذكّرِ والمؤنّثِ لأنّهُ فيما لا يعقلُ. ﴿فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُواْ﴾ يعني الكفّارَ عنِ السّجودِ للّهِ ﴿فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ﴾ منَ الملائكةِ ﴿يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ ۩ ٣٨﴾ أي لا يملون عبادته.

مسألةٌ– هذهِ الآيةُ آيةُ سجدةٍ بلا خلافٍ، واختلفوا في موضعِ السّجودِ منها. فقالَ: مالكٌ: موضعهُ ﴿إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ لأنّهُ متّصلٌ بالأمرِ، وقالَ الشّافعيُّ: موضعهُ ﴿وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ ۩﴾ لأنّهُ تمامُ الكلامِ وغايةُ العبادةِ والامتثالِ. وبهِ قالَ أبو حنيفةَ.

مسألةٌ: هذهِ الآية تضمّنتْ صلاةَ كسوفِ القمرِ والشّمسِ، وذلكَ أنَّ العربَ كانتْ تقولُ: إنَّ الشّمسَ والقمرَ لا يكسفانِ إلّا لموتِ عظيمٍ، فصلّى النّبيُّ ﷺ صلاةَ الكسوفِ. وهي ثابتةٌ في الصّحاحِ البخاريِّ ومسلمٍ وغيرهما. واختلفوا في كيفيّتها اختلافًا كثيراً، لاختلافِ الآثارِ، وحسبكَ ما في صحيحِ مسلمٍ منْ ذلكَ، وهوَ العمدةُ في البابِ. والله الموفق للصواب.

قولهُ تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ﴾ الدّالّةِ على أنّهُ يحيي الموتى ﴿أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً﴾ أيْ يابسةً جدبةً ﴿فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ﴾ أي بالنبات، ﴿وَرَبَتْ﴾ أيِ انتفخت وعلت قبل أن تنبت، والاهتزازُ والرّبوُ قدْ يكونانِ قبلَ الخروجِ منَ الأرضِ، وقدْ يكونانِ بعدَ خروجِ النّباتِ إلى وجهِ الأرضِ، فربوّها ارتفاعها. ويقالُ للموضعِ المرتفع: ربوةٌ ورابيةٌ، فالنّباتُ يتحرّكُ للبروزِ ثمَّ يزدادُ في جسمهِ بالكبرِ طولاً وعرضـاً. وقرأ أبو جعفرٍ «وَرَبَأَتْ» ومعناهُ عظمتْ، منَ الرّبيئةِ. ﴿إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾ تقدم .

قولهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا﴾ أيْ يميلونَ عنِ الحقِّ في أدلّتنا. والإلحادُ: الميلُ والعدولُ. ومنهُ اللّحدُ في القبرِ لأنّهُ أميلَ إلى ناحيةٍ منهُ، وهذا يرجعُ إلى الّذينَ قالوا: ﴿لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ﴾.

﴿أَفَمَن يُلْقَىٰ فِى ٱلنَّارِ﴾ على وجههِ وهوَ الكافرُ ﴿خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِىٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ﴾ وهو المؤمن ﴿ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ﴾ أمرُ تهديدٍ، أيْ بعدَ ما علمتمْ أنّهما لا يستويانِ فلا بدَّ لكمْ منَ الجزاءِ. ﴿إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤٠﴾﴾ وعيدٌ بتهديدٍ وتوعّدٌ.

قولهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ ۖ﴾ الذكر ها هنا القرآنُ في قولِ الجميعِ، إذ فيهِ ذكرَ ما يحتاجُ إليهِ منَ الأحكام. والخبرُ محذوفٌ تقديره هالكون أو معذبون. ﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾﴾ أيْ عزيزٌ على اللّهِ، لا يتطرّقُ إليهِ باطلٌ. ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ﴾ أي لا يكذبه شيء ممّا أنزلَ اللّهُ منْ قبلُ ولا ينزلُ من بعده كتاب يبطله وينسخه، ﴿تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ﴾ في خلقهِ ﴿حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾﴾ إليهمْ.

قولهُ تعالى: ﴿مَّا يُقَالُ لَكَ﴾ منَ الأذى والتّكذيبِ ﴿إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ ۚ﴾ يعزّي نبيّهُ ويسلّيهِ ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ﴾ لكَ ولأصحابكَ ﴿وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴿٤٣﴾﴾ وجيعٍ لأعدائكَ. وقيلَ: أيْ ما يقالُ لكَ منْ إخلاصِ العبادةِ للّهِ إلّا ما قدْ أوحيَ إلى منْ قبلكَ، ولا خلافَ بينِ الشّرائعِ فيما يتعلّقُ بالتوحيد وهو كقوله ﴿وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ أيْ لمْ تدعهمْ إلا إلى ما تدعو إليهِ جميعُ الأنبياءِ فلا معنى لإنكارهمْ عليكَ.

قولهُ تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَـٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَـٰتُهُۥٓ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ﴾ فيهِ ثلاثُ مسائلَ:

الأولى: قولهُ تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَـٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا﴾ أيْ بلغةِ غيرِ العرب ﴿لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَـٰتُهُۥٓ﴾ أيْ بيّنتْ بلغتنا فإنّنا عربٌ لا نفهم الأعجمية. فبين أنه أنزلهُ بلسانهمْ ليتقرّرَ بهِ معنى الإعجازِ، إذْ همْ أعلمُ النّاسِ بأنواعِ الكلامِ نظماً ونثراً. وإذا عجزوا عنْ معارضتهِ كانَ منْ أدلِّ الدّليلِ على أنّهُ منْ عندِ اللّهِ. ولوْ كانَ بلسانِ العجمِ لقالوا لا علمَ لنا بهذا اللّسانِ.

الثانية- وإذا ثبتَ هذا ففيهِ دليلٌ على أنّهُ إذا نقلَ عنها إلى غيرها لمْ يكنْ قرآناً.

الثالثة- قوله تعالى: ﴿ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ﴾ قرأَ أبو بكرٍ وحمزةُ والكسائيُّ: «ااعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ» بهمزتينِ مخفّفتينِ، والعجميُّ الّذي ليسَ منَ العربِ كانَ فصيحاً أوْ غيرَ فصيحِ، والأعجميُّ الّذي لا يفصحُ كانَ منَ العربِ أوْ منَ العجمِ، فالأعجمُ ضدُّ الفصيح وهوَ الّذي لا يبينُ كلامهُ. ويقالُ للحيوانِ غيرِ النّاطقِ أعجمُ، ومنهُ «صلاةُ النّهارِ عجماءُ» أيْ لا يجهر فيها بالقراء فكانتِ النّسبةُ إلى الأعجمِ آكدَ، لأنَّ الرّجلَ العجميَّ الّذي ليسَ منَ العربِ قدْ يكونُ فصيحاً بالعربيّةِ، والعربيَّ قدْ يكونُ غيرَ فصيحِ، فالنّسبةُ إلى الأعجميِّ آكدُ في البيانِ. والمعنى أقرآنٌ أعجميٌّ، ونبيٌّ عربيٌّ؟ وهوَ استفهامُ إنكارٍ.

وقرأَ هشام عن ابن عامر «أَعْجَمِيٌّ» بهمزة واحدة على الخبر. والمعنى ﴿لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَـٰتُهُۥٓ﴾ فكانَ منها عربيٌّ يفهمهُ العربُ، وأعجميٌّ يفهمهُ العجمُ. وروى سعيدُ بنُ جبيرٍ قالَ قالتْ قريشٌ: لولا أنزلَ القرآنَ أعجمياً وعربياً فيكونُ بعضُ آياتهِ عجمياً وبعضُ آياتهِ عربياً فنزلتِ الآيةُ.

وأنزلَ في القرآنِ منْ كلِّ لغةٍ فمنهُ «السِّجِّيلُ» وهيَ فارسيّةٌ وأصلها سنكُ كيلَ، أيْ طينٌ وحجرٌ، ومنهُ ﴿ٱلْفِرْدَوْسَ﴾ روميّةٌ، وكذلكَ ﴿ٱلْقِسْطَاسِ﴾.

وقرأَ أهلُ الحجازِ وأبو عمرو وابنُ ذكوانَ وحفصٌ على الاستفهامِ، إلّا أنّهمْ ليّنوا الهمزةَ على أصولهمْ. والقراءةُ الصّحيحةُ قراءةُ الاستفهامِ. واللّهُ أعلمُ.

قولهُ تعالى: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ﴾ أعلمَ اللّهُ أنَّ القرآنَ هدى وشفاءٌ لكلِّ

منْ آمنَ بِهِ منَ الشّكِّ والرّيبِ والأوجاعِ. ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ﴾ أيْ صممٌ عنْ سماعِ القرآنِ. ولهذا تواصوا باللّغوِ فيهِ. ونظيرُ هذهِ الآيةِ: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ وقدْ مضى مستوفى.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴿٤٤﴾﴾ يقالُ ذلكَ لمنْ لا يفهمُ منَ التّمثيلِ. وحكى أهلُ اللّغةِ أنّهُ يقالُ للّذي يفهمُ: أنتَ تسمعُ منْ قريبٍ. ويقالُ للّذي لا يفهمُ: أنتَ تنادى منْ بعيدٍ. أيْ كأنّهُ ينادى منْ موضعٍ بعيدٍ منهُ فهوَ لا يسمع النداء ولا يفهمهُ. وقالَ الضّحّاكُ: ﴿يُنَادَوْنَ﴾ يومَ القيامةِ بأقبحِ أسمائهمْ ﴿مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴿٤٤﴾﴾ فيكونُ ذلكَ أشدَّ لتوبيخهمْ وفضيحتهمْ.

قولهُ تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾ يعني التّوراةَ ﴿فَٱخْتُلِفَ فِيهِ﴾ أيْ آمنَ بهِ قومٌ وكذّبَ بهِ قومٌ. والكنايةُ ترجعُ إلى الكتاب، وتسليةٌ للنّبيِّ ﷺ، أيْ لا يحزنكَ اختلافُ قومكَ في كتابكَ، فقدِ اختلفَ منْ قبلهمْ في كتابهمْ. وقيلَ الكنايةُ ترجعُ إلى موسى. ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ﴾ أيْ في إمهالهمْ. ﴿لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ بتعجيلِ العذابِ. ﴿وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ﴾ منَ القرآنِ ﴿مُرِيبٍ ﴿٤٥﴾﴾ أيْ شديدِ الرّيبةِ.

قوله تعالى: ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ﴾ شرطٌ وجوابهُ ﴿وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا﴾. واللّهُ جلَّ وعزَّ مستغنٍ عنْ طاعةِ العبادِ، فمنْ أطاعَ فالثّوابُ لهُ، ومنْ أساءَ فالعقابُ عليهِ. ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾﴾ نفى الظّلمَ عنْ نفسهِ جلَّ وعزَّ قليلهُ وكثيرهُ، وإذا انتفتِ المبالغةُ انتفى غيرها، دليلهُ قولهُ الحقُّ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا﴾ وروى العدول الثقات، والأئمّةُ الأثباتُ، عنِ الزّاهدِ العدلِ، عنْ أمينِ الأرضِ، عنْ أمينِ السّماءِ، عنِ الرّبِّ جلَّ جلالهُ: «يا عبادي إنّي حرّمتُ الظّلمَ على نفسي وجعلتهُ بينكمْ محرّماً فلا تظالموا» الحديثَ.

قولهُ تعالى: ﴿۞ إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ أيْ حينُ وقتها ﴿وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَٰتٍ﴾ ﴿مِن﴾ زائدةٌ أيْ وما تخرجُ ثمرةٌ. ﴿مِّنْ أَكْمَامِهَا﴾ أيْ منْ أوعيتها، فالأكمامُ أوعيةُ الثّمرةِ، واحدها كمّةٌ وهيَ كلُّ ظرفٍ لمالٍ أوْ غيرهِ، ولذلكَ سمّيَ قشرُ الطّلعِ أعني كفرّاهُ الّذي ينشقُّ عنِ

الثّمرةِ كمّةً، قالَ ابنُ عبّاسٍ: الكمّةُ الكفرّى قبلَ أنْ تنشقَّ، فإذا انشقّتْ فليستْ بكمّةٍ، وقرأ نافعٌ وابنُ عامرٍ وحفصٌ ﴿مِن ثَمَرَاتٍ﴾ على الجمعِ. الباقونَ «ثَمَرَةٍ» على التّوحيدِ والمرادُ الجمعُ، لقولهِ: ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ﴾ والمرادُ الجمعُ ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ﴾ أيْ ينادي اللّهُ المشركينَ ﴿أَيْنَ شُرَكَآءِى﴾ الّذينَ زعمتمْ في الدّنيا أنّها آلهةٌ تشفعُ. ﴿قَالُوٓاْ﴾ يعني الأصنامَ. وقيلَ: المشركونَ. ويحتملُ أنْ يريدهمْ جميعًا العابدَ والمعبودَ ﴿ءَاذَنَّٰكَ﴾ أسمعناكَ وأعلمناكَ. يقالُ: آذنَ يؤذن: إذا أعلم ﴿مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ ﴿٤٧﴾﴾ أيْ نعلمكَ ما منّا أحدٌ يشهدُ بأنَّ لكَ شريكًا. لمّا عاينوا القيامةَ تبرّءوا منَ الأصنامِ وتبرّأتِ الأصنامُ منهمْ ﴿وَضَلَّ عَنْهُم﴾ أيْ بطلَ عنهمْ ﴿مَّا كَانُواْ يَدْعُونَ مِن قَبْلُ﴾ في الدّنيا ﴿وَظَنُّواْ﴾ أيْ أيقنوا وعلموا ﴿مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٤٨﴾﴾ أيْ فرارٍ عنِ النّارِ، وقيلَ: إنَّ الظّنَّ هنا الّذي هوَ أغلبُ الرّأيِ، لا يشكّونَ في أنّهمْ أصحابُ النّارِ ولكنْ يطمعونَ أنْ يخرجوا منها. وليسَ يبعدُ أنْ يكونَ لهمْ ظنٌّ ورجاءٌ إلى أن يؤيّسوا.

قولهِ تعالى: ﴿لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ﴾ أيْ لا يملُّ منْ دعائهِ بالخيرِ. والخيرُ هنا المالُ والصحة والسلطان والعز، والإنسان ها هنا يرادُبهِ الكافرُ. ﴿وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ﴾ الفقر والمرض ﴿فَيَـُٔوسٌ﴾ منْ روحِ اللّهِ ﴿قَنُوطٌ ﴿٤٩﴾﴾ منْ رحمتهِ. وقيلَ: ﴿يَـُٔوسٌ﴾ منْ إجابةِ الدّعاءِ ﴿قَنُوطٌ﴾ بسوءِ الظّنِّ بربّهِ.

قولهُ تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا﴾ عافيةً ورخاءً وغنى ﴿مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ﴾ سقمٍ وشدّةٍ وفقرٍ. ﴿لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِى﴾ أيْ هذا شيء أستحقّهُ على اللّهِ لرضاهُ بعملي، فيرى النّعمةَ حتما واجب على اللّهِ تعالى، ولمْ يعلمْ أنّهُ ابتلاهُ بالنّعمةِ والمحنةِ، ليتبيّنَ شكرهُ وصبره. ﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ﴾ أيِ الجنّةُ، واللّامُ للتّأكيدِ. يتمنّى الأمانيَّ بلا عمل. ﴿فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِمَا عَمِلُواْ﴾ أيْ لنجزينّهمْ. قسمٌ أقسمَ اللّهُ عليهِ. ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٠﴾﴾ شديدٍ.

قولهُ تعالى: ﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ﴾ يريدُ الكافرَ ﴿أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ﴾ ترفَّعَ عنِ الانقيادِ إلى الحقِّ وتكبّرَ على أنبياء الله ﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ﴾ أيْ أصابهُ المكروه ﴿فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ ٥١﴾ كثيرٍ، والعربُ تستعملُ الطّولَ والعرضَ في الكثرةِ، والكافرُ يعرفُ ربّهُ في البلاءِ ولا يعرفهُ في الرّخاءِ.

قولهُ تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ﴾ أيْ قلْ لهمْ يا محمّدُ ﴿أَرَءَيْتُمْ﴾ يا معشرَ المشركينَ. ﴿إِن كَانَ﴾ هذا القرآنُ ﴿مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ مَنْ أَضَلُّ﴾ أيْ فأيُّ النّاسِ أضلُّ، أيْ لا أحدَ أضلُّ منكمْ لفرطِ شقاقكمْ وعداوتكمْ.

قولهُ تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ﴾ أيْ علاماتِ وحدانيّتنا وقدرتنا ﴿فِى ٱلْءَافَاقِ﴾ يعني خرابَ منازلِ الأممِ الخاليةِ ﴿وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ بالبلايا والأمراضِ.

وقيل: ﴿فِى ٱلْءَافَاقِ﴾ آياتُ السّماءِ ﴿وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ حوادثُ الأرضِ. وقيلَ: في الآفاقِ «فتحُ آفاقِ الدّنيا وبلادِ المشرقِ والمغربِ عموماً»، ﴿وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ فتح مكة. والآفاقُ النّواحي، واحدها أفْقٌ وأفُقٌ مثلَ عُسْرٍ وعُسُرٍ، ورجلٌ أَفَقيٌّ بفتحِ الهمزةِ والفاءِ: إذا كانَ منْ آفاقِ الأرضِ، وبعضهمْ يقولُ: أُفُقيٌّ بضمّهما وهوَ القياسُ.

﴿وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ منْ لطيفِ الصّنعةِ وبديعِ الحكمةِ حتّى سبيلِ الغائطِ والبولِ، فإنَّ الرّجلَ يشربُ ويأكلُ منْ مكانٍ واحدٍ ويتميّزُ ذلكَ منْ مكانينِ، وبديعِ صنعةِ اللّهِ وحكمتهِ في عينيهِ اللّتينِ هما قطرةُ ماءٍ ينظرُ بهما منَ السّماءِ إلى الأرضِ مسيرةَ خمسمائةِ عامٍ، وفي أذنيهِ اللّتينِ يفرّقُ بهما بينَ الأصواتِ المختلفةِ. وغيرِ ذلكَ منْ بديعِ حكمةِ اللّهِ فيهِ.

وقيلَ: ﴿وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ منْ كونهمْ نطفاً إلى غيرِ ذلكَ منِ انتقالِ أحوالهمْ كما تقدّمَ في المؤمنونَ بيانهُ.

وقيلَ: المعنى سيرونَ ما أخبرهمْ بهِ النّبيُّ ﷺ منْ الفتنِ وأخبارِ الغيوبِ.

﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ فيهِ أربعةُ أوجهٍ:

أحدها: أنّهُ القرآنُ.

الثّاني: الإسلامُ جاءهمْ بهِ الرّسولُ ودعاهمْ إليهِ.

الثّالثُ: أنَّ ما يريهمُ اللّهُ ويفعلُ منْ ذلكَ هوَ الحقُّ.

الرّابعُ: أنَّ محمّداً ﷺ هوَ الرّسولُ الحقُّ.

﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ﴾ وبما دلّهمْ عليهِ منْ توحيدهِ، لأنّهُ ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾﴾ وإذا شهدهُ جازى عليهِ. وقيلَ: المعنى ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ﴾ في معاقبتهِ الكفّارَ. وقيلَ: المعنى ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ﴾ يا محمّدُ أنّهُ شاهدٌ على أعمالِ الكفّارِ. وقيلَ: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ﴾ شاهداً على أنَّ القرآنَ منْ عندِ اللّهِ. وقيلَ: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ﴾ ممّا يفعلهُ العبدُ ﴿شَهِيدٌ﴾ والشّهيدُ بمعنى العالمِ، أوْ هوَ منَ الشّهادةِ الّتي هيَ الحضورُ ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ فِى مِرْيَةٍ﴾ في شكٍّ ﴿مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ﴾ في الآخرةِ ﴿أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ ﴿٥٤﴾﴾ أيْ أحاطَ علمهُ وقدرتهُ بكلِّ شيءٍ.

سورة الشورى

مكّيّةٌ، وهي ثلاث وخمسون آية.

بسم اللّهِ الرّحمنِ الرّحيم

قوله تعالى: ﴿حمٓ ۝١ عٓسٓقٓ ۝٢﴾ فواتحُ السّورِ. ﴿كَذَٰلِكَ يُوحِىٓ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ﴾ قرأ ابنُ كثيرٍ «يُوحَى» بفتح الحاءِ على ما لمْ يسمَّ فاعلهُ، ويكونَ اسمُ ما لمْ يسمَّ فاعلهُ مضمراً، أيْ يوحى إليكَ القرآنُ الّذي تضمّنتهُ هذهِ السّورةُ، ويكونُ اسمُ اللّهِ مرفوعًا بإضمارِ فعلٍ، التّقديرُ: يوحيهِ اللّهُ إليكَ، كقراءةِ ابنِ عامرٍ «يُسَبَّحُ لَهُ فِيها بِالْغُدُوِّ وَالْآصالِ رِجالٌ» أي يسبحه رجال، وقرأ الباقونَ ﴿يُوحِىٓ إِلَيْكَ﴾ بكسرِ الحاءِ، ورفعِ الاسمِ على أنّهُ الفاعلُ.

﴿لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ۝٤﴾ تقدم.

قولهُ تعالى: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾ قراءةُ العامّةِ بالتّاءِ. وقرأ نافعٌ والكسائيُّ بالياءِ. ﴿يَتَفَطَّرْنَ﴾ قرأ نافعٌ وغيرهُ بالياءِ والتّاءِ والتّشديدِ في الطّاءِ، وهيَ قراءةُ العامّةِ. وقرأ أبو عمرو «ينفطرن» من الانفطار، كقول تعالى: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ﴾ أيْ تكادُ كلُّ واحدةٍ منها تنفطرُ فوقَ الّتي تليها، منْ قولِ المشركينَ: ﴿ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا﴾. وقيل: ﴿يَتَفَطَّرْنَ﴾ أيْ يتشقّقنَ منْ عظمةِ اللّهِ وجلالهِ فوقهنَّ. وقيلَ: ﴿فَوْقِهِنَّ﴾ فوقَ الأرضينَ منْ خشيةِ اللّهِ لوْ كنَّ ممّا يعقلُ.

قولهُ تعالى: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ أيْ ينزّهونهُ عمّا لا يجوزُ في وصفهِ، وما لا يليقُ بجلالهِ لما يرونَ منْ عظمةِ اللّهِ. ومعنى ﴿بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ بأمرِ ربّهمْ. ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ ۗ﴾ منَ المؤمنينَ، بيانه في سورة المؤمن: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۖ﴾. وعلى هذا تكونُ الملائكةُ هنا حملةَ العرشِ. وقيلَ: جميعُ ملائكةِ السّماءِ، فحملةَ العرشِ مخصوصونَ بالاستغفارِ للمؤمنينَ خاصّةً، وللّهِ ملائكةٌ أخرُ يستغفرونَ لمنْ في الأرضِ، وفي استغفارهمْ لهمْ قولانِ:

أحدهما– منَ الذّنوبِ والخطايا.

الثّاني– أنّهُ طلبُ الرّزقِ لهمْ والسّعةِ عليهمْ، وهوَ أظهرُ، لأنَّ الأرضَ تعمُّ الكافرَ وغيرهُ،

﴿أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥﴾ قالَ بعض العلماء: هيَّب وعظَّم عز وجل في الابتداء، وألطف وبشر في الانتهاء.

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ﴾ أصنامـًا يعبدونها. ﴿ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ﴾ يحفظُ أعمالهمْ ليجازيهمْ بها. ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ۝٦﴾ وهذهِ منسوخةٌ بآيةِ السّيفِ.

قولهُ تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ بلسانِ قومكَ، كما أرسلنا كلَّ رسولٍ بلسانِ قومهِ. ﴿لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ﴾ يعني مكّةَ. قيلَ لمكّةَ أمُّ القرى لأنَّ الأرضَ دحيتْ منْ تحتها. ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ منْ سائرِ الخلقِ. ﴿وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ﴾ أيْ بيومِ الجمعِ، وهوَ يومُ القيامةِ. ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ لا شكَّ فيهِ. ﴿فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ ۝٧﴾ ابتداءٌ وخبرٌ.

قولهُ تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ أهلُ ضلالةٍ أوْ أهلُ هدى. ﴿وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ﴾ في الإسلامِ. ﴿وَٱلظَّٰلِمُونَ﴾ رفعَ على الابتداءِ، والخبرُ ﴿مَا لَهُم مِّن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ۝٨﴾ عطفَ على اللّفظِ.

قولهُ تعالى: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ﴾ أيْ بلِ اتّخذوا. ﴿مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ﴾ يعني أصنامـًا. ﴿فَٱللَّهُ هُوَ ٱلْوَلِىُّ﴾ أيْ وليّكَ يا محمّدُ ووليُّ منِ اتّبعكَ، لا ولي سواه. ﴿وَهُوَ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ يريدُ عندَ البعثِ. ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝٩﴾ وغيرهُ منَ الأولياءِ لا يقدرُ على شيء.

قولهُ تعالى: ﴿وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَىْءٍ﴾ حكايةُ قولِ رسولِ اللّهِ ﷺ للمؤمنينَ، أيْ وما خالفكمْ فيهِ الكفّارُ منْ أهلِ الكتابِ والمشركينَ منْ أمرِ الدّينِ، فقولوا لهمْ حكمهُ إلى اللّهِ لا إليكمْ، وقدْ حكمَ أنَّ الدّينَ هوَ الإسلامُ لا غيرهُ. وأمورُ الشّرائع إنّما تتلقّى منْ بيانِ اللّهِ. ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّى﴾ أيِ الموصوفُ بهذهِ الصّفاتِ هوَ ربّي وحدهُ. ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ اعتمدتُ. ﴿وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ۝١٠﴾ أرجعُ.

قولهُ تعالى: ﴿فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ بالرّفعِ على النّعتِ لاسمِ اللّهِ، والفاطرُ: المبدعُ والخالقُ. ﴿جَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا﴾ لأنّهُ خلقَ حوّاءَ منْ ضلعِ آدمَ ﴿وَمِنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ أَزۡوَٰجٗا﴾ يعني الثّمانيةَ الّتي ذكرها في الأنعامِ ذكورَ الإبلِ والبقرِ والضّأنِ والمعزِ وإناثها. ﴿يَذۡرَؤُكُمۡ فِيهِۚ﴾ أيْ يخلقكمْ وينشئكمْ ﴿فِيهِ﴾ أيْ في الرّحمِ. وقيلَ: في البطنِ. ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ١١﴾ قيلَ: إنَّ الكافَ زائدةٌ للتّوكيدِ، أيْ ليسَ مثله شيء، وقيلَ: المثلُ زائدةٌ للتّوكيدِ، ليس كهو شيء، نحوَ قولهُ تعالى: ﴿فَإِنۡ ءَامَنُواْ بِمِثۡلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهۡتَدَواْۖ﴾.

والّذي يعتقدُ في هذا البابِ أنَّ اللّهَ جلَّ اسمهُ في عظمتهِ وكبريائهِ وملكوتهِ وحسنى أسمائهِ وعليِّ صفاتهِ، لا يشبهُ شيئًا منْ مخلوقاتهِ ولا يشبّهُ بهِ، وإنّما جاءَ ممّا أطلقهُ الشّرعُ على الخالقِ والمخلوقِ، فلا تشابهَ بينهما في المعنى الحقيقي، إذ صفات القديم عز وجل بخلافِ صفاتِ المخلوقِ، إذْ صفاتهمْ لا تنفكُّ عنِ الأغراضِ والأعراضِ، وهوَ تعالى منزّهٌ عنْ ذلكَ، وكفى في هذا قولهُ الحقُّ: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ﴾. وقدْ قالَ بعضُ العلماءِ المحقّقينَ: التّوحيدُ إثباتُ ذاتٍ غيرِ مشبهةٍ للذّواتِ ولا معطّلةٍ منَ الصّفاتِ. وزادَ الواسطيُّ رحمهُ اللّهُ بيانًا فقالَ: ليسَ كذاتهِ ذاتٌ، ولا كاسمهِ اسمٌ، ولا كفعلهِ فعلٌ، ولا كصفتهِ صفةٌ إلّا منْ جهةِ موافقةِ اللّفظِ، وجلّتِ الذّاتُ القديمةُ أنْ يكونَ لها صفةٌ حديثةٌ، كما استحالَ أنْ يكونَ للذّاتِ المحدثةِ صفةٌ قديمةٌ. وهذا كلّهُ مذهبُ أهلِ الحقِّ والسنة والجماعة. رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

قولهُ تعالى: ﴿لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾ والّذي يملكُ المفاتيحَ يملكُ الخزائنَ، يقالُ للمفتاحِ: إقليدٌ، وجمعهُ على غيرِ قياسٍ، كمحاسنَ والواحدُ حسنٌ. ﴿يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ١٢﴾ تقدّمَ أيضا في غير موضع.

قولهُ تعالى: ﴿۞شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحٗا﴾ فيهِ مسألتانِ:

الأولى: قولهُ تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ﴾ ما شرعَ لقومِ نوحٍ وإبراهيمَ وموسى وعيسى، ثمَّ بيّنَ ذلكَ بقولهِ تعالى: ﴿أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ﴾ وهوَ توحيدُ اللّهِ وطاعتهُ، والإيمانُ برسلهِ وكتبهِ وبيومِ الجزاءِ، وبسائرِ ما يكونُ الرّجلُ بإقامتهِ مسلمًا. ولمْ يردِ الشّرائعَ الّتي هيَ

مصالحُ الأممِ على حسبِ أحوالها، فإنّها مختلفةٌ متفاوتةٌ، قالَ اللّهُ تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾، ومعنى ﴿شَرَعَ﴾ يشرعُ شرعـًا أيْ سنَّ. والشّارعُ: الطّريقُ الأعظمُ. وقدْ شرعَ المنزلُ إذا كانَ على طريقٍ نافذٍ. وشرعتَ الأديمَ إذا سلختهُ، وشرعتُ في هذا الأمرِ شروعـًا أيْ خضتُ.

الثانية- ثبتَ في الحديثِ الصّحيحِ أنَّ النّبيَّ ﷺ قالَ في حديثِ الشّفاعةِ الكبيرِ المشهورِ: «ولكنِ ائتوا نوحـًا فإنّهُ أوّلُ رسولٍ بعثهُ اللّهُ إلى أهلِ الأرضِ فيأتونَ نوحـًا فيقولونَ لهُ أنتَ أوّلُ رسولٍ بعثهُ اللّهُ إلى أهلِ الأرضِ...» وهذا صحيحٌ لا إشكالَ فيهِ، كما أنَّ آدمَ أوّلُ نبيٍّ بغيرِ إشكالٍ، لأنَّ آدمَ لمْ تفرضْ لهُ الفرائضُ ولا شرعتْ لهُ المحارمُ، واستقرَّ المدى إلى نوحٍ فبعثهُ اللّهُ بتحريمِ الأمّهاتِ والبناتِ والأخواتِ، ووظّفَ عليهِ الواجباتِ وأوضحَ لهُ الآدابَ في الدّياناتِ، ولمْ يزل ذلك يتأكدُ بالرسلِ يتناصرُ بالأنبياءِ- صلواتُ اللّهِ عليهمْ- واحداً بعدَ واحدٍ وشريعةً إثرَ شريعةٍ، حتّى ختمها اللّهُ بخيرِ المللِ ملّتنا على لسانِ أكرمِ الرّسلِ نبيّنا محمّدٍ ﷺ، فكانَ المعنى أوصيناكَ يا محمّدُ ونوحـًا دينـًا واحداً، يعني في الأصولِ الّتي لا تختلفُ فيها الشّريعةُ، وهيَ التّوحيدُ والصّلاةُ والزّكاةُ والصّيامُ والحجُّ، والتّقرّبُ إلى اللّهِ بصالحِ الأعمالِ، والزّلفِ إليهِ بما يردُّ القلبَ والجارحةَ إليهِ، والصّدقِ والوفاءِ بالعهدِ، وأداءِ الأمانةِ وصلةِ الرّحمِ، وتحريمِ الكفرِ والقتلِ والزنى والإذايةِ للخلقِ كيفما تصرّفتْ، والاعتداءِ على الحيوانِ كيفما دار، واقتحامِ الدناءاتِ وما يعودُ بخرمِ المروءاتِ، فهذا كلّهُ مشروعٌ دينـًا واحداً وملّةً متّحدةً، لمْ تختلفْ على ألسنةِ الأنبياءِ وإنِ اختلفتْ أعدادهمْ، وذلكَ قولهُ تعالى: ﴿أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ﴾ أي اجعلوهُ قائمـًا، يريدُ دائمـًا مستمراً محفوظـًا مستقراً منْ غيرِ خلافٍ فيهِ ولا اضطرابٍ، فمنَ الخلقِ منْ وفّى بذلكَ ومنهم من نكث، ومن نكث فإنما ينكث على نفسه. واختلفتِ الشّرائعُ وراءَ هذا في معانٍ حسبما أرادهُ اللّهُ ممّا اقتضتِ المصلحةُ وأوجبتِ الحكمةُ وضعهُ في الأزمنةِ على الأممِ. واللّهُ أعلمُ.

وخصَّ نوحـًا وإبراهيمَ وموسى وعيسى بالذّكرِ لأنّهمْ أربابُ الشّرائعِ.

قولهُ تعالى: ﴿كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ أيْ عظمَ عليهمْ. ﴿مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾ منَ التّوحيدِ ورفضِ الأوثانِ ﴿ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ﴾ أيْ يختارُ ﴿وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾﴾ أيْ

يستخلصُ لدينهِ منْ رجعَ إليهِ.

قولهُ تعالى: ﴿وَمَا تَفَرَّقُوٓاْ﴾ يعني قريشاً. ﴿إِلَّا مِنۢ بَعۡدِمَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ﴾ محمّدٌ ﷺ، وكانوا يتمنّونَ أنْ يبعثَ إليهمْ نبيٌّ، دليلهُ قولهُ تعالى في سورةِ فاطرٍ: ﴿وَأَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ لَئِن جَآءَهُمۡ نَذِيرٌ﴾ يريدُ نبياً. وقالَ في سورةِ البقرةِ: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦۚ﴾ وقيلَ: أممُ الأنبياءِ المتقدّمينَ، فإنّهمْ فيما بينهمُ اختلفوا لمّا طالَ بهمُ المدى، فآمنَ قومٌ وكفرَ قومٌ. وقيلَ: يعني أهلَ الكتابِ، دليلهُ في سورةِ المنفكّينَ ﴿وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِمَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَةُ﴾.

﴿بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۚ﴾ لا لقصورٍ في البيانِ والحججِ، ولكنْ للبغي والظلم والاشتغال بالدنيا. ﴿وَلَوۡلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ﴾ في تأخيرِ العقابِ عنْ هؤلاءِ. ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّىۚ﴾ قيلَ: القيامةُ، لقوله تعالى: ﴿بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوۡعِدُهُمۡ﴾. **وقيلَ**: إلى الأجلِ الّذي قضيَ فيهِ بعذابهمْ. ﴿لَّقُضِيَ بَيۡنَهُمۡۚ﴾ أيْ بينَ منْ آمنَ وبينَ منْ كفرَ بنزولِ العذابِ. ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ يريدُ اليهودَ والنّصارى. ﴿مِنۢ بَعۡدِهِمۡ﴾ أيْ منْ بعدِ المختلفينَ في الحقِّ. ﴿لَفِي شَكٍّ﴾ منَ الّذي أوصى بهِ الأنبياءُ. والكتابُ هنا التّوراةُ والإنجيلُ. وقيلَ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ قريش. ﴿مِنۢ بَعۡدِهِمۡ﴾ من بعد اليهود النصارى. ﴿لَفِي شَكٍّ﴾ منَ القرآنِ أوْ منْ محمّدٍ.

قولهُ تعالى: ﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدۡعُۖ وَٱسۡتَقِمۡ﴾ أيْ إلى القرآنِ فادعُ الخلقَ. ﴿وَٱسۡتَقِمۡ﴾ خطابٌ لهُ ﷺ. أيِ استقمْ على أمرِ اللّهِ. وقالَ سفيانُ: أيِ استقمْ على القرآنِ. وقيل: استقمْ على تبليغ الرّسالةِ. ﴿وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡۖ﴾ أيْ لا تنظرْ إلى خلافِ منْ خالفكَ. ﴿وَقُلۡ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٖۖ وَأُمِرۡتُ لِأَعۡدِلَ بَيۡنَكُمُۖ﴾ أيْ أنْ أعدلَ، كقولهِ تعالى: ﴿وَأُمِرۡتُ أَنۡ أُسۡلِمَ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾. وقيلَ: هيَ لامُ كيْ، أيْ لكيْ أعدلَ. ﴿ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمۡۖ لَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡۖ لَا حُجَّةَ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُۖ﴾ الخطابُ لليهودِ، أيْ لنا ديننا ولكمْ دينكمْ ثم نسختْ بقولهِ: ﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾ الآيةَ. ومعنى ﴿لَا حُجَّةَ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُۖ﴾ لا خصومةَ. وقيلَ: ليسَ بمنسوخ، لأنَّ البراهينَ قدْ ظهرتْ، والحججَ قدْ قامتْ، فلمْ يبقَ إلّا العنادُ، وبعدَ العنادِ لا حجّةَ ولا جدالَ. ﴿ٱللَّهُ يَجۡمَعُ بَيۡنَنَاۖ﴾ يريدُ يومَ القيامةِ.

﴿وَإِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ١٥﴾ أيْ فهوَ يحكمُ بيننا إذا صرنا إليهِ، ويجازي كلاً بما كانَ عليهِ.

قولهُ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِي ٱللَّهِ﴾ رجعَ إلى المشركينَ. ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا ٱسۡتُجِيبَ لَهُۥ﴾ قالَ وأسلمَ النّاسُ، وقيلَ: الّذينَ يحاجّونَ في اللّهِ اليهودُ والنّصارى، ومحاجّتهمْ قولهمْ نبيّنا قبلَ نبيّكمْ وكتابنا قبلَ كتابكمْ، وكانوا يرونَ لأنفسهمُ الفضيلةَ بأنّهمْ أهلُ الكتابِ وأنّهمْ أولادُ الأنبياءِ. وكانَ المشركونَ يقولونَ: ﴿أَيُّ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ خَيۡرٌ مَّقَامًا وَأَحۡسَنُ نَدِيًّا﴾ فقالَ: اللّهُ تعالى: ﴿حُجَّتُهُمۡ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمۡ﴾ لا ثباتَ لها، والهاءُ في ﴿لَهُۥ﴾ للّهِ عزَّ وجلَّ أو للنّبيِّ ﷺ، ﴿وَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٌ﴾ يريدُ في الدّنيا. ﴿وَلَهُمۡ عَذَابٌ شَدِيدٌ ١٦﴾ في الآخرة.

قولهُ تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ يعني القرآنَ وسائرَ الكتبِ المنزّلةِ. ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾ أيْ بالصّدقِ. ﴿وَٱلۡمِيزَانَ﴾ أيِ العدلَ، قالَ اللّهُ تعالى: ﴿لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلۡنَا مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلۡقِسۡطِۖ﴾. ﴿وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ ١٧﴾ فلمْ يخبرهُ بها. يحضّهُ على العملِ بالكتابِ والعدلِ والسّويّةِ، والعمل بالشّرائعِ قبلَ أنْ يفاجئَ اليومَ الّذي يكونُ فيهِ المحاسبةُ ووزنُ الأعمالِ، فيوفّي لمنْ أوفى ويطفّفُ لمنْ طفّفَ. وقالَ: ﴿قَرِيبٌ﴾ ولمْ يقلْ قريبةً، لأنَّ تأنيثها غيرُ حقيقيٍّ لأنّها كالوقتِ، وقيل: ﴿قَرِيبٌ﴾ نعتٌ ينعتُ بهِ المذكّرُ والمؤنّثُ والجمعُ بمعنى ولفظٍ واحدٍ، قالَ اللّهُ تعالى: ﴿إِنَّ رَحۡمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾.

قولهُ تعالى: ﴿يَسۡتَعۡجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِهَاۖ﴾ يعني على طريقِ الاستهزاءِ ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مُشۡفِقُونَ مِنۡهَا﴾ أيْ خائفونَ وجلونَ معَ الجهدِ في الطّاعةِ، كما قالَ: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤۡتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمۡ وَجِلَةٌ أَنَّهُمۡ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ رَٰجِعُونَ﴾. ﴿وَيَعۡلَمُونَ أَنَّهَا ٱلۡحَقُّۗ﴾ لا شكَّ فيها. ﴿أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِي ٱلسَّاعَةِ﴾ أيْ يشكّونَ ويخاصمونَ في قيامِ السّاعةِ. ﴿لَفِي ضَلَٰلِۢ بَعِيدٍ ١٨﴾ أيْ عنِ الحقِّ وطريقِ الاعتبارِ، إذْ لوْ تذكّروا لعلموا أنَّ الّذي أنشأهمْ منْ ترابٍ ثمَّ منْ نطفةٍ إلى أنْ بلغوا ما بلغوا، قادرٌ على أنْ يبعثهمْ.

قولهُ تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَطِيفُۢ بِعِبَادِهِۦ﴾ حفيٌّ رفيقٌ بهمْ. لطيفٌ بالبرِّ والفاجرِ، حيثُ لمْ يقتلهمْ جوعًا بمعاصيهمْ، ويقبلُ القليلَ ويبذلُ الجزيلَ، ويجبرُ الكسيرَ وييسّرُ العسيرَ، ولا يخافُ إلّا عدلهُ ولا يرجى إلّا فضلهُ، وهوَ الّذي يعينُ على الخدمةِ ويكثرُ المدحةَ، ولا يعاجلُ منْ عصاهُ ولا يخيّبُ منْ رجاهُ، ولا يردُّ سائلهُ ولا يوئسُ آملهُ، وهوَ الّذي يعفو عمّنْ يهفو.. ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ﴾ ﴿وَأَسۡبَغَ عَلَيۡكُمۡ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةٗ وَبَاطِنَةٗۗ﴾، وقالَ: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ﴾ ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمۡۚ﴾. ﴿يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُۖ﴾ ويحرمُ منْ يشاءُ. وفي تفضيلِ قومٍ بالمالِ حكمة، ليحتاج البعضُ إلى البعضِ، كما قالَ: ﴿لِّيَتَّخِذَ بَعۡضُهُم بَعۡضٗا سُخۡرِيّٗاۗ﴾، فكانَ هذا لطفًا بالعبادِ. وأيضًا ليمتحنَ الغنيَّ بالفقيرِ والفقيرَ بالغنيِّ، كما قالَ: ﴿وَجَعَلۡنَا بَعۡضَكُمۡ لِبَعۡضٖ فِتۡنَةً أَتَصۡبِرُونَۗ﴾ على ما تقدّمَ بيانهُ. ﴿وَهُوَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡعَزِيزُ ١٩﴾.

قولهُ تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلۡأٓخِرَةِ نَزِدۡ لَهُۥ فِي حَرۡثِهِۦۖ﴾ فنوفّقهُ للعبادةِ ونسهّلها عليهِ، ونعطيهِ ثوابَ الواحدة عشراً إلى سبعمائةٍ فأكثرَ. ﴿وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلدُّنۡيَا نُؤۡتِهِۦ مِنۡهَا﴾ ولا نحرمهُ الرّزقَ أصلاً ﴿وَمَا لَهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ٢٠﴾، قالَ اللّهُ تعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡعَاجِلَةَ عَجَّلۡنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلۡنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصۡلَىٰهَا مَذۡمُومٗا مَّدۡحُورٗا ١٨ وَمَنۡ أَرَادَ ٱلۡأٓخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعۡيَهَا وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعۡيُهُم مَّشۡكُورٗا﴾.

مسألةٌ: هذهِ الآيةُ تبطلُ مذهبَ أبي حنيفةَ في قولهِ: إنّهُ منْ توضّأَ تبرّداً أنّهُ يجزيهِ عنْ فريضةِ الوضوءِ الموظّفِ عليهِ، فإنَّ فريضةَ الوضوءِ منْ حرثِ الآخرةِ والتّبرّدَ منْ حرثِ الدّنيا، فلا يدخلُ أحدهما على الآخرِ، ولا تجزي نيّتهُ عنهُ بظاهرِ هذهِ الآيةِ، قالهُ ابن العربي.

قولهُ تعالى: ﴿أَمۡ لَهُمۡ شُرَكَٰٓؤُاْ﴾ أيْ ألهمْ! والميمُ صلةٌ والهمزةُ للتّقريعِ. ﴿شَرَعُواْ لَهُم﴾ الشّركَ الّذي لمْ يأذنْ بهِ اللّهُ!. ﴿وَلَوۡلَا كَلِمَةُ ٱلۡفَصۡلِ﴾ يوم القيامة حيث قال: ﴿بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوۡعِدُهُمۡ﴾. ﴿لَقُضِيَ بَيۡنَهُمۡۗ﴾ في الدّنيا، فعاجلَ الظّالمَ بالعقوبةِ وأثابَ الطّائعَ. ﴿وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي المشركينَ. ﴿لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ٢١﴾ في الدّنيا القتلُ والأسرُ والقهرُ، وفي الآخرةِ عذابُ النّارِ.

قولهُ تعالى: ﴿تَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ مُشۡفِقِينَ﴾ أيْ خائفينَ ﴿مِمَّا كَسَبُواْ﴾ أيْ منْ جزاءِ ما كسبوا. والظّالمونَ ها هنا الكافرونَ، بدليلِ التّقسيمِ بينَ المؤمنِ والكافرِ. ﴿وَهُوَ وَاقِعُۢ بِهِمۡۗ﴾ أيْ نازلٌ بهمْ. ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِي رَوۡضَاتِ ٱلۡجَنَّاتِۖ﴾ الرّوضةُ: الموضعُ النّزهُ الكثيرُ الخضرةِ. ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمۡۚ﴾ منَ النّعيمِ والثّوابِ الجزيلِ. ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡكَبِيرُ ٢٢﴾ أيْ لا يوصفُ ولا تهتدي العقولُ إلى كنهِ صفتهِ، لأنَّ الحقَّ إذا قالَ كبيرٌ فمنْ ذا الّذي يقدر قدره.

قولهُ تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلَّذِي يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ ليتعجّلوا السّرورَ ويزدادوا منهُ وجداً في الطّاعةِ.

قولهُ تعالى: ﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰۗ﴾ فيهِ مسألتان:

الأولى: قوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا﴾ أيْ قلْ يا محمّدُ لا أسألكمْ على تبليغِ الرّسالةِ جعلاً. ﴿إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰۗ﴾ استثناءٌ ليسَ منَ الأوّلِ، أيْ إلّا أنْ تودّوني لقرابتي فتحفظوني. والخطابُ لقريشٍ خاصّةً، ف ﴿ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾ ها هنا قرابةُ الرّحمِ، كأنّهُ قالَ: اتّبعوني للقرابةِ إنْ لمْ تتّبعوني للنّبوّةِ. وفي البخاريِّ عنْ طاوسٍ عنِ ابنِ عبّاسٍ إنّهُ سئلَ عنْ قولهِ تعالى: ﴿إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰۗ﴾ فقالَ سعيدُ بنُ جبيرٍ: قربى آلِ محمّدٍ، فقالَ: ابنُ عبّاسٍ: عجلتَ! إنَّ النّبيَّ ﷺ لمْ يكنْ بطنٌ منْ قريشٍ إلّا كانَ لهُ فيهمْ قرابةٌ، فقالَ: إلّا أنْ تصلوا ما بينكمْ منَ القرابةِ. فهذا قولٌ. وقيلَ: القربى قرابةُ الرّسولِ ﷺ، أيْ لا أسألكمْ أجراً إلّا أنْ تودّوا قرابتي وأهلَ بيتي، كما أمرَ بإعظامهمْ ذوي القربى. ف ﴿ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾ على هذا بمعنى القربةَ. يقالُ: قربةٌ وقربى بمعنى، كالزّلفةِ والزّلفى.

وقالَ قومٌ: الآيةُ منسوخةٌ وإنّما نزلتْ بمكّةَ، وكانَ المشركونَ يؤذونَ رسولَ اللّهِ ﷺ فنزلتْ هذهِ الآيةُ، وأمرهمُ اللّهُ بمودّةِ نبيّهِ ﷺ وصلةِ رحمهِ، فلمّا هاجرَ آوتهُ الأنصارُ ونصروهُ، وأرادَ اللّهُ أنْ يلحقهُ بإخوانهِ منَ الأنبياءِ حيث قالوا: ﴿وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ فأنزلَ اللّهُ تعالى: ﴿قُلۡ مَا سَأَلۡتُكُم مِّنۡ أَجۡرٍ فَهُوَ لَكُمۡۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۖ﴾ فنسخت بهذه الآية وبقوله: ﴿قُلۡ مَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍ وَمَآ

أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ﴾، وقولِه. ﴿أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ﴾، وقوله: ﴿أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ﴾، وليسَ بالقويِّ، فإنَّ التّقرّبَ إلى اللّهِ بطاعتهِ ومودّةِ نبيّهِ ﷺ لا ينسخ.

الثانية- في سببِ نزولها: قالَ المشركونَ لعلَّ محمّداً فيما يتعاطاهُ يطلبُ أجراً، فنزلتْ هذهِ الآيةُ، ليحثّهمْ على مودّتهِ ومودّةِ أقربائهِ. وهذا أشبهُ بالآيةِ، لأنَّ السّورةَ مكّيّةٌ.

قولهُ تعالى: ﴿وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً﴾ أيْ يكتسبُ. ﴿نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًا﴾ أيْ نضاعفْ لهُ الحسنةَ بعشرٍ فصاعداً. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ﴾ للذّنوبِ ﴿شَكُورٌ ﴿٢٣﴾﴾ للحسناتِ.

قولهُ تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ الميمُ صلةٌ، والتّقديرُ أيقولونَ افترى. يعني كفّارَ قريشٍ قالوا: إنَّ محمّداً اختلقَ الكذبَ على اللّهِ. ﴿فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ﴾ شرطٌ وجوابهُ ﴿عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ فينسيكَ القرآنَ، فأخبرهمُ اللّهُ أنّهُ لوِ افترى عليهِ لفعلَ بمحمّدٍ ما أخبرهمْ بهِ في هذهِ الآيةِ. وقيلَ: يربطْ على قلبكَ بالصّبرِ على أذاهمْ حتّى لا يدخلَ قلبكَ مشقّةٌ منْ قولهمْ. ﴿وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ﴾ كما جرتْ بهِ عادتهُ في المفترينَ. ﴿وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ﴾ أي الإسلامَ فيثبتهُ ﴿بِكَلِمَٰتِهِۦٓ﴾ أيْ بما أنزلهُ منَ القرآنِ. ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٤﴾﴾ عامٌّ أيْ بما في قلوبِ العبادِ.

قولهُ تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ﴾ أيْ عنْ أوليائهِ وأهلِ طاعتهِ. والآيةُ عامّةٌ. ﴿وَيَعْفُوا۟ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ أيْ عنِ الشّركِ قبلَ الإسلام. ﴿وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٢٥﴾﴾ أيْ منَ الخيرِ والشّرِّ. وقرأ حمزةُ والكسائيُّ وحفصٌ وخلفٌ بالتّاءِ على الخطابِ، الباقونَ بالياءِ على الخبرِ.

قولهُ تعالى: ﴿وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ في موضعِ نصبٍ، أيْ ويستجيبُ اللّهُ الّذينَ آمنوا، أيْ يقبلُ عبادةَ منْ أخلصَ لهُ بقلبهِ وأطاعَ ببدنهِ. وقيلَ: يعطيهمْ مسألتهمْ إذا دعوهُ. وقيلَ: ويجيبُ دعاءَ المؤمنينَ بعضهمْ لبعضٍ، يقالُ: أجابَ واستجابَ بمعنى، ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿٢٦﴾﴾.

قولهُ تعالى: ﴿۞ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَـٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٧﴾﴾، فيهِ مسألتانِ:

الأولى: في نزولها، قيل: إنّها نزلتْ في قومٍ منْ أهلِ الصّفّةِ تمنّوا سعةَ الرّزقِ، نظروا إلى أموالِ بني النّضيرِ وقريظةَ وبني قينقاعَ فتمنّوها فنزلتْ. ﴿لَوْ بَسَطَ﴾ معناهُ وسّعَ. وبسطَ الشّيءَ نشرهُ. وبالصّادِ أيضـًا. ﴿لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ طغوا وعصوا، وقيلَ: لطلبوا ما هوَ أكثرُ منهُ، لقولهِ: «لوْ كانَ لابنِ آدمَ واديانِ منْ ذهبٍ لابتغى إليهما ثالثـًا» وهذا هوَ البغيُ. ﴿وَلَـٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ ۚ﴾ لكفايتهمْ. أو يجعلُ من يشاء غنيا ومن يشاء فقيرا.

الثانية– قالَ علماؤنا: أفعالُ الرّبِّ سبحانهُ لا تخلو عنْ مصالحَ، وليسَ ضيق الرزق هوانا ولا سعة فضيلةً، وقدْ أعطى أقوامـًا معَ علمهِ أنّهمْ يستعملونهُ في الفسادِ، ولوْ فعلَ بهمْ خلافَ ما فعلَ لكانوا أقربَ إلى الصّلاحِ. والأمرُ على الجملةِ مفوّضٌ إلى مشيئتهِ.

قولهُ تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ ۚ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٨﴾﴾ قرأَ ابنُ كثيرٍ وأبو عمرو ويعقوب وحمزه والكسائيُّ: «يُنْزِلُ» مخفّفـًا. الباقونَ بالتّشديدِ، والغيثُ المطرُ، وسمّيَ غيثا لأنه يغيث الخلقَ. والقنوطُ الإياسُ. قالَ قتادةُ: ذكرَ أنَّ رجلاً قالَ لعمرَ بنِ الخطّابِ: يا أميرَ المؤمنينَ، قحطَ المطرُ وقلَّ الغيثُ وقنطَ النّاسُ؟ فقالَ: مطرتمْ إنْ شاءَ اللّهُ، ثمَّ قرأَ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟﴾. والغيثُ ما كانَ نافعـًا في وقتهِ، والمطرُ قدْ يكونُ نافعـًا وضارا في وقته وغير وقته، ﴿وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ ۚ﴾ قيلَ المطرُ، وقيلَ ظهورُ الشّمسِ بعدَ المطرِ. ﴿وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ﴾ الّذي ينصرُ أولياءهُ. ﴿ٱلْحَمِيدِ﴾ المحمودُ بكل لسان.

قولهُ تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أيْ علاماتهِ الدّالّةَ على قدرتهِ. ﴿وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ ۚ﴾ ويدخلُ في هذا الملائكةُ والنّاسُ، وقدْ قالَ تعالى: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾. وقيلَ: أرادَ ما بثَّ في الأرضِ دونَ السّماءِ، كقولهِ: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾ وإنّما يخرجُ منَ الملحِ دونَ العذبِ. ﴿وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ﴾ أيْ يومَ القيامةِ. ﴿إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾﴾.

قولهُ تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٍ ٣٠﴾ قرأَ نافعٌ وابنُ عامرٍ ﴿بِمَا كَسَبَتۡ﴾ بغيرِ فاءٍ. الباقونَ ﴿فَبِمَا﴾ بالفاءِ، والمصيبةُ هنا الحدودُ على المعاصي، وقيلَ: ما منَ اختلاجِ عرقٍ ولا خدشِ عودٍ ولا نكبةِ حجرٍ إلّا بذنبٍ ولما يعفو اللّهُ عنهُ أكثرُ.

قالَ عليٌّ رضي الله عنه: هذهِ الآيةُ أرجى آيةٍ في كتابِ اللّهِ عزَّ وجلَّ. وإذا كانَ يكفّرُ عنّي بالمصائبِ ويعفو عنْ كثيرٍ فما يبقى بعدَ كفّارتهِ وعفوهِ!

قلت: ونظيرُ هذهِ الآيةِ في المعنى قولهُ تعالى: ﴿مَن يَعۡمَلۡ سُوٓءٗا يُجۡزَ بِهِۦ﴾ وقدْ مضى القولُ فيهِ. قالَ علماؤنا: وهذا في حقِّ المؤمنينَ، فأمّا الكافرُ فعقوبتهُ مؤخّرةٌ إلى الآخرةِ. وقيلَ: هذا خطابٌ للكفّارِ، وكانَ إذا أصابهمْ شرٌّ قالوا: هذا بشؤمِ محمّدٍ، فرد عليهم وقال بل ذلك بشؤمِ كفركمْ. والأوّلُ أكثرُ وأظهرُ وأشهرُ.

ثمَّ فيها قولانِ:

أحدهما- أنّها خاصّةٌ في البالغينَ أنْ تكونَ عقوبةً لهمْ، وفي الأطفالِ أنْ تكونَ مثوبةً لهمْ.

الثّاني- أنّها عقوبةٌ عامّةٌ للبالغينَ في أنفسهمْ والأطفال في غيرهم من والد ووالدة.

﴿وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٍ﴾ أيْ عنْ كثيرٍ منَ المعاصي ألّا يكونَ عليها حدودٌ، وقيلَ: أيْ يعفو عنْ كثيرٍ منَ العصاةِ ألّا يعجلَ عليهمْ بالعقوبةِ. ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ﴾ أيْ بفائتينَ اللّهَ ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ ٣١﴾ تقدّمَ في غير موضع.

قولهُ تعالى: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِ ٱلۡجَوَارِ فِي ٱلۡبَحۡرِ كَٱلۡأَعۡلَٰمِ ٣٢﴾ وهي السّفنُ الجاريةُ في البحرِ كأنّها منْ عظمها أعلامٌ. والأعلامُ: الجبالُ، وواحدُ الجواري جاريةٌ، قالَ اللّهُ تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلۡمَآءُ حَمَلۡنَٰكُمۡ فِي ٱلۡجَارِيَةِ﴾. سمّيتْ جاريةً لأنّها تجري في الماءِ. والجاريةُ: هيَ المرأةُ الشّابّةُ، سمّيتْ بذلكَ لأنّها يجري فيها ماءُ الشّبابِ. وقيلَ: الأعلامُ القصورُ، واحدها علمٌ، وكلُّ شيءٍ مرتفعٍ عندَ العربِ فهوَ علمٌ. قالتِ الخنساءُ ترثي أخاها صخراً:

وإنَّ صخراً لتأتمُّ الهداةُ بهِ كأنّهُ علمٌ في رأسهِ نارُ

﴿إِن يَشَأۡ يُسۡكِنِ ٱلرِّيَحَ﴾ كذا قرأ العامة، وقراءة أهلُ المدينةِ ﴿ٱلرِّياحَ﴾ بالجمعِ. ﴿فَيَظۡلَلۡنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهۡرِهِۦٓ﴾ أيْ فتبقى السّفنُ سواكنَ على ظهرِ البحرِ لا تجري. ركدَ الماءُ ركوداً سكنَ. وكذلكَ الرّيحُ والسّفينةُ، والشّمسُ إذا قامَ قائمُ الظّهيرةِ. وكلُّ ثابتٍ في مكانٍ فهو راكد، وركدَ القومُ هدأوا. ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ﴾ أيْ دلالاتٍ وعلاماتٍ ﴿لِّكُلِّ صَبَّارٖ﴾ على البلوى ﴿شَكُورٍ ٣٣﴾ على النّعماءِ. إذا أعطيَ شكرَ وإذا ابتليَ صبرَ، وكمْ منْ منعمٍ عليهِ غيرِ شاكر، وكم من مبتلى غير صابر.

قولهُ تعالى: ﴿أَوۡ يُوبِقۡهُنَّ بِمَا كَسَبُواْ﴾ أيْ وإنْ يشأْ يجعلْ الرّياحَ عواصفَ فيوبقِ السّفنَ، أيْ يغرقهنَّ بذنوبِ أهلها. وقيلَ: يوبقْ أهلَ السّفنِ. ﴿وَيَعۡفُ عَن كَثِيرٖ ٣٤﴾ منْ أهلها فلا يغرقهمْ معها، وقيلَ: ﴿وَيَعۡفُ عَن كَثِيرٖ﴾ أيْ ويتجاوزُ عنْ كثيرٍ منَ الذنوب فينجيهم الله من الهلاك.

والقراءةُ الفاشيةُ ﴿وَيَعۡفُ﴾ بالجزمِ، وفيها إشكالٌ، لأنَّ المعنى: إنْ يشأْ يسكن الرّيحَ فتبقى تلكَ السّفنُ رواكدَ ويهلكها بذنوبِ أهلها، فلا يحسنُ عطفُ ﴿يَعۡفُ﴾ على هذا، لأنّهُ يصيرُ المعنى: إنْ يشأْ يعفُ، وليسَ المعنى ذلكَ بل المعنى الإخبارُ عنِ العفوِ منْ غيرِ شرطِ المشيئةِ، فهوَ إذاً عطفٌ على المجزومِ منْ حيثُ اللّفظُ لا منْ حيثُ المعنى. وقدْ قرأ قوم «وَيَعْفُو» بالرّفعِ، وهيَ جيّدةٌ في المعنى.

﴿وَيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٖ ٣٥﴾ يعني الكفّارَ، إذا توسّطوا البحرَ وبقيتِ السّفنُ رواكدَ علموا أنّهُ لا ملجأَ لهمْ سوى اللّهِ، وقرأ نافع وابن عامر «وَيَعْلَمُ» بالرّفعِ، الباقونَ بالنّصبِ. فالرّفعُ على الاستئنافِ بعدَ الشّرطِ والجزاءِ، كقولهِ في سورةِ التّوبةِ: ﴿وَيُخۡزِهِمۡ وَيَنصُرۡكُمۡ عَلَيۡهِمۡ﴾ ثمَّ قالَ: ﴿وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۗ﴾ رفعـًا. والنّصبُ على الصّرفِ، كقولهِ تعالى: ﴿وَلَمَّا يَعۡلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمۡ وَيَعۡلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ صرفَ منْ حالِ الجزمِ إلى النّصبِ استخفافـًا كراهيةً لتوالي الجزمِ، ومعنى ﴿مِن مَّحِيصٖ﴾ أيْ منْ فرارٍ ومهربٍ.

قولهُ تعالى: ﴿فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ﴾ من الغنى والسعة في الدنيا. ﴿فَمَتَٰعُ﴾ ينقضي ويذهبُ، فلا ينبغي أنْ يتفاخرَ بهِ. والخطابُ للمشركينَ. ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ يريدُ منَ الثّوابِ على الطّاعةِ ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ صدقوا ووحّدوا ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٣٦﴾.

قولهُ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُواْ هُمْ يَغْفِرُونَ۝٣٧﴾، فيهِ مسألتانِ:

الأولى: قرأَ حمزة والكسائي «كبير الإِثْمِ» والواحدُ قدْ يرادُ بهِ الجمعُ عندَ الإضافةِ، كقولهِ تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾، وكما جاءَ في الحديث: «منعتِ العراقُ درهمها وقفيزها». الباقونَ بالجمعِ هنا وفي «النّجم». ﴿وَٱلْفَوَٰحِشَ﴾ الزّنى. وكبيرُ الإثمِ الشّركُ. وقيلَ: الفواحشُ والكبائرُ بمعنى واحدٍ، فكرّرَ لتعدّدِ اللّفظِ، أيْ يجتنبونَ المعاصيَ لأنّها كبائرُ وفواحشُ.

الثانية- قولهُ تعالى: ﴿وَإِذَا مَا غَضِبُواْ هُمْ يَغْفِرُونَ﴾ أي يتجاوزون عمّنْ ظلمهمْ، وهذهِ منْ محاسنِ الأخلاقِ، يشفقونَ على ظالمهمْ ويصفحونَ لمنْ جهلَ عليهمْ، يطلبونَ بذلكَ ثوابَ اللّهِ تعالى وعفوهُ، لقولهِ تعالى: ﴿وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ﴾.

قولهُ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُواْ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣٨﴾، فيهِ ثلاثُ مسائلَ:

الأولى: قولهُ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُواْ لِرَبِّهِمْ﴾ وهمُ الأنصارُ بالمدينةِ، استجابوا إلى الإيمانِ بالرّسولِ حينَ أنفذَ إليهمُ اثنيْ عشرَ نقيباً منهمْ قبلَ الهجرةِ. ﴿وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أيْ أدّوها لمواقيتها بشروطها وهيئاتها.

الثانية- قوله تعالى: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ أيْ يتشاورونَ في الأمورِ. والشّورى مصدرُ شاورتهُ، مثلُ البشرى والذّكرى ونحوهُ. فكانتِ الأنصارُ قبلَ قدومِ النّبيِّ ﷺ إليهمْ إذا أرادوا أمراً تشاوروا فيهِ ثمَّ عملوا عليهِ، فمدحهمُ اللّهُ تعالى باتّفاقِ كلمتهمْ. قالَ الحسنُ: ما تشاورَ قومٌ قطُّ إلّا هدوا لأرشدِ أمورهمْ.

وقالَ ابنُ العربيِّ: الشّورى ألفةٌ للجماعةِ ومسبارٌ للعقولِ وسببٌ إلى الصّوابِ، وما

تشاورَ قومٌ إلّا هدوا. وقدْ قالَ الحكيمُ:

إذا بلغَ الرّأيُ المشــورةَ فاســتعنْ   بــرأيِ لـبـيـب أو مشـــورة حــازمٍ
ولا تجعلِ الشّـورى عليكَ غضـاضـةً   فــإنَّ الـخــوافيَ قــوّةٌ لــلــقــوادمِ

وقدْ كانَ النّبيُّ ﷺ يشاورُ أصحابهُ في الآراءِ المتعلّقةِ بمصالحَ الحروبِ، ولمْ يكنْ يشاورهمْ في الأحكامِ، لأنّها منزّلةٌ منْ عندِ اللّهِ على جميعِ الأقسامِ منَ الفرضِ والنّدبِ والمكروهِ والمباحِ والحرامِ.

فأمّا الصّحابةُ بعدَ استئثارِ اللّهِ تعالى بهِ علينا فكانوا يتشاورونَ في الأحكامِ ويستنبطونها منَ الكتابِ والسّنّةِ. وأوّلُ ما تشاورَ فيهِ الصّحابةُ الخلافةُ، وتشاوروا في أهلِ الرّدّةِ فاستقرَّ رأيُ أبي بكرٍ على القتالِ. وتشاوروا في الجدِّ وميراثِه، وفي حدِّ الخمرِ وعددِهِ. وتشاوروا في الحروبِ، حتّى شاورَ عمرُ الهرمزانَ حينَ وفدَ عليهِ مسلماً في المغازي، فقالَ: لهُ الهرمزانُ: مَثَلها ومثلُ منْ فيها منَ النّاسِ منْ عدوِّ المسلمينَ مثلُ طائرٍ لهُ ريشٌ ولهُ جناحانِ ورجلانِ فإنْ كسرَ أحدُ الجناحينِ نهضتِ الرّجلانِ بجناحٍ والرّأسُ وإنْ كسرَ الجناحُ الآخرُ نهضتِ الرّجلانِ والرّأسُ وإنْ شدخَ الرّأسُ ذهبَ الرّجلانِ والجناحانِ. والرّأسُ كسرى والجناحُ الواحدُ قيصرُ والآخرُ فارسُ، فمرِ المسلمينَ فلينفروا إلى كسرى... الحديثَ.

وقالَ بعضُ العقلاءِ: ما أخطأتُ قطُّ! إذا حزبني أمرٌ شاورتُ قومي ففعلتُ الّذي يرونَ، فإنْ أصبتُ فهمُ المصيبون، وإن أخطأت فهم المخطئون.

الثالثة- قدْ مضى في «آلِ عمرانَ» ما تضمّنتهُ الشّورى منَ الأحكامِ عندَ قولهِ تعالى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ﴾، والمشورةُ بركةٌ. والمَشْوَرَةُ: الشّورى، وكذلكَ المَشُورةُ بضمِّ الشّينِ. تقولُ منهُ: شاورتهُ في الأمرِ واستشرتهُ بمعنى. وروى التّرمذيُّ عنْ أبي هريرةَ قالَ: قالَ رسولُ اللّهِ ﷺ: «إذا كانَ أمراؤكمْ خياركمْ وأغنياؤكمْ سمحاؤكمْ وأمركمْ شورى بينكمْ فظهرُ الأرضِ خيرٌ لكمْ منْ بطنها وإذا كانَ أمراؤكمْ شراركمْ وأغنياؤكمْ بخلاؤكمْ وأموركمْ إلى نسائكمْ فبطنُ الأرضِ خيرٌ لكمْ من ظهرها». قال حديث غريب.

﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾﴾ أيْ وممّا أعطيناهمْ يتصدّقونَ.

قولهُ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلۡبَغۡيُ هُمۡ يَنتَصِرُونَ ۝٣٩ وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٤٠ وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعۡدَ ظُلۡمِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيۡهِم مِّن سَبِيلٍ ۝٤١ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظۡلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبۡغُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ۝٤٢ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ۝٤٣﴾، فيهِ إحدى عشرةَ مسألةً:

الأولى: قولهُ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلۡبَغۡيُ﴾ بغيُ المشركينَ. بغوا على رسولِ اللّهِ ﷺ وعلى أصحابهِ وآذوهمْ وأخرجوهمْ منْ مكّةَ، فأذنَ اللّهُ لهمْ بالخروجِ ومكّنَ لهمْ في الأرضِ ونصرهمْ على منْ بغى عليهمْ، وذلكَ قولهُ في سورةِ الحجِّ: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصۡرِهِمۡ لَقَدِيرٌ ۝٣٩ ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ﴾ الآياتِ كلّها.

وقيلَ: هوَ عامٌّ في بغيِ كلِّ باغٍ منْ كافرٍ وغيرهِ، أيْ إذا نالهمْ ظلمٌ منْ ظالمٍ لمْ يستسلموا لظلمهِ. وهذهِ إشارةٌ إلى الأمرِ بالمعروفِ والنّهيِ عنِ المنكرِ وإقامةِ الحدودِ.

قالَ ابنُ العربيِّ: ذكرَ اللّهُ الانتصارَ في البغيِ في معرضِ المدحِ، وذكرَ العفوَ عنِ الجرمِ في موضعٍ آخرَ في معرضِ المدحِ، فاحتملَ أنْ يكونَ أحدهما رافعًا للآخرِ، واحتملَ أنْ يكونَ ذلكَ راجعًا إلى حالتينِ:

إحداهما: أنْ يكونَ الباغي معلنًا بالفجورِ، وقحًا في الجمهورِ، مؤذيًا للصّغيرِ والكبيرِ، فيكونُ الانتقامُ منهُ أفضلَ. وفي مثلهِ قالَ إبراهيمُ النّخعيُّ: كانوا يكرهونَ أنْ يذلّوا أنفسهمْ فتجترئُ عليهمُ الفسّاقُ.

الثانية– أنْ تكونَ الفلتةُ، أوْ يقعُ ذلكَ ممّنْ يعترفُ بالزّلّةِ ويسألُ المغفرةَ، فالعفوُ ها هنا أفضلُ، وفي مثلهِ نزلتْ: ﴿وَأَن تَعۡفُوٓاْ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۚ﴾، وقولهُ: ﴿فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٞ لَّهُۥۚ﴾، وقولهُ: ﴿وَلۡيَعۡفُواْ وَلۡيَصۡفَحُوٓاْۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَكُمۡۚ﴾..

الثانية– قولهُ تعالى: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ﴾ قالَ العلماءُ: جعلَ اللّهُ المؤمنينَ صنفينِ، صنفٌ يعفونَ عنِ الظّالمِ فبدأَ بذكرهمْ في قولهِ ﴿وَإِذَا مَا غَضِبُواْ هُمۡ يَغۡفِرُونَ﴾. وصنفٌ ينتصرونَ منْ ظالمهمْ. ثمَّ بيّنَ حدَّ الانتصارِ بقولهِ: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ﴾

فينتصرُ ممّنْ ظلمهُ منْ غيرِ أنْ يعتديَ، وهذا في المجروحِ ينتقمُ منَ الجارحِ بالقصاصِ دونَ غيرِهِ منْ سبٍّ أوْ شتمٍ. قالهُ الشّافعيُّ وأبو حنيفةَ.

وتأوّلَ الشّافعيُّ في هذهِ الآيةِ أنَّ للإنسانِ أنْ يأخذَ منْ مالِ منْ خانهُ مثلَ ما خانهُ منْ غيرِ علمِهِ، واستشهدَ في ذلكَ بقولِ النّبيِّ ﷺ لهندٍ زوجِ أبي سفيانَ: «خذي منْ مالهِ ما يكفيكِ وولدكِ» فأجازَ لها أخذَ ذلكَ بغيرِ إذنهِ، وسمّيَ الجزاءُ سيّئةً لأنّهُ في مقابلتها، فالأوّلُ ساءَ هذا في مالٍ أوْ بدنٍ، وهذا الاقتصاصُ يسوؤهُ بمثلِ ذلكَ أيضاً.

الثالثة- قولهُ تعالى: ﴿فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ﴾ وتركَ القصاصَ وأصلحَ بينهُ وبينَ الظّالمِ بالعفوِ ﴿فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٤٠﴾ أيْ منْ بدأَ بالظّلمِ، أو منْ يتعدّى في الاقتصاصِ ويجاوزُ الحدَّ.

الرابعة- قولهُ تعالى: ﴿وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعۡدَ ظُلۡمِهِۦ﴾ أيِ المسلمُ إذا انتصرَ منَ الكافرِ فلا سبيلَ إلى لومهِ، بلْ يحمدُ على ذلكَ معَ الكافرِ. ولا لومَ إنِ انتصرَ الظّالمُ منَ المسلمِ، فالانتصارُ منَ الكافرِ حتمٌ، ومنَ المسلمِ مباح، والعفو مندوب.

الخامسة- في قولهُ تعالى: ﴿وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعۡدَ ظُلۡمِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيۡهِم مِّن سَبِيلٍ﴾ دليلٌ على أنَّ لهُ أنْ يستوفيَ ذلكَ بنفسهِ. وهذا ينقسمُ ثلاثةَ أقسامٍ:

أحدها- أنْ يكونَ قصاصاً في بدنٍ يستحقّهُ آدميٌّ، فلا حرجَ عليهِ إنِ استوفاهُ منْ غيرِ عدوانٍ وثبتَ حقّهُ عندَ الحكّامِ، لكنْ يزجرهُ الإمامُ في تفوّتهِ بالقصاصِ لما فيهِ منَ الجرأةِ على سفكِ الدّمِ. وإنْ كانَ حقّهُ غيرَ ثابتٍ عندَ الحاكمِ فليسَ عليهِ فيما بينهُ وبينَ اللّهِ حرجٌ، وهوَ في الظّاهرِ مطالبٌ وبفعلهِ مؤاخذٌ ومعاقبٌ.

القسمُ الثّاني- أنْ يكونَ حدُّ اللّهِ تعالى لا حقَّ لآدميٍّ فيهِ كحدِّ الزّنى وقطعِ السّرقةِ، فإنْ لمْ يثبتْ ذلكَ عندَ حاكمٍ أخذَ بهِ وعوقبَ عليهِ، وإنْ ثبتَ عندَ حاكمٍ نظرَ، فإنْ كانَ قطعاً في سرقةٍ سقطَ بهِ الحدُّ لزوالِ العضوِ المستحقِّ قطعهُ، ولمْ يجبْ عليهِ في ذلكَ حقٌّ إلا التّعزيرَ أدبا، وإنْ كانَ جلداً لمْ يسقطْ بهِ الحدُّ لتعدّيهِ معَ بقاءِ محلّهِ فكانَ مأخوذاً بحكمهِ.

القسمُ الثّالثُ- أنْ يكونَ حقاً في مالٍ، فيجوزُ لصاحبهِ أنْ يغالبَ على حقّهِ حتّى يصلَ

إليهِ إنْ كانَ ممّنْ هوَ عالمٌ بهِ، وإنْ كانَ غيرَ عالمٍ نظرَ، فإنْ أمكنهُ الوصولُ إليهِ عندَ المطالبةِ لمْ يكنْ لهُ الاستسرارُ بأخذهِ. وإنْ كانَ لا يصلُ إليهِ بالمطالبةِ لجحودِ منْ هوَ عليهِ منْ عدمِ بيّنةٍ تشهدُ لهُ ففي جوازِ استسرارهِ بأخذهِ مذهبانِ:

أحدهما- جوازهُ، وهوَ قولُ مالكٍ والشّافعيِّ.

الثّاني- المنعُ، وهوَ قولُ أبي حنيفةَ.

السّادسةُ- قولهُ تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظۡلِمُونَ ٱلنَّاسَ﴾ أيْ بعدوانهمْ عليهمْ، في قولِ أكثرِ العلماءِ. وقيلَ: بالشرك المخالف لدينهم. ﴿وَيَبۡغُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّۚ﴾ في النّفوسِ والأموالِ.

السابعة- قالَ ابنُ العربيِّ: هذهِ الآيةُ في مقابلةِ الآيةِ المتقدّمةِ في «براءةٌ» وهيَ قولهُ: ﴿مَا عَلَى ٱلۡمُحۡسِنِينَ مِن سَبِيلٖۚ﴾، فكما نفى اللّهُ السّبيلَ عمّنْ أحسنَ فكذلكَ نفاها على من ظُلم، واستوفى بيان القسمينِ.

الثامنة- واختلفَ علماؤنا في السّلطانِ يضعُ على أهل بلد مالا معلوما يأخذهم بهِ ويؤدّونهُ على قدرِ أموالهمْ، هلْ لمنْ قدرَ على الخلاصِ منْ ذلكَ أنْ يفعلَ، فقيلَ لا، وقيلَ: نعمْ، لهُ ذلكَ إنْ قدرَ على الخلاصِ، لقوله سبحانهُ: ﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظۡلِمُونَ ٱلنَّاسَ﴾.

التاسعة- واختلف العلماءُ في التّحليلِ، وكانَ سليمانُ بنُ يسارٍ ومحمّدُ بنُ سيرينَ يحلّلانِ منَ العرضِ والمالِ. ورأى مالكٌ التّحليلُ منَ المالِ دونَ العرضِ. وفي المسألةِ ثلاثةُ أقوالٍ:

أحدها: لا يحلّلهُ بحالٍ.

الثّاني- يحلّلهُ.

الثّالثُ- إنْ كانَ مالاً حلّلهُ وإنْ كانَ ظلماً لمْ يحلّلهُ، وهوَ قولُ مالكٍ.

وجهُ الأوّلِ: ألّا يحلّلَ ما حرّمَ اللّهُ، فيكونُ كالتّبديلِ لحكمِ اللّهِ.

ووجهُ الثّاني: أنّهُ حقّهُ فلهُ أنْ يسقطَ كما يسقطُ دمهُ وعرضهُ.

ووجهُ الثّالثِ: الّذي اختارهُ مالكٌ هوَ أنَّ الرّجلَ إذا غلبَ على أداءِ حقّكَ فمنَ الرّفقِ بهِ أنْ يتحلّلهُ، وإنْ كانَ ظالماً فمنَ الحقِّ ألّا تتركهُ لئلّا تغترَّ الظّلمةُ ويسترسلوا في أفعالهمُ القبيحةِ. وفي صحيحِ مسلمٍ حديثُ أبي اليسرِ الطّويلِ وفيهِ أنّهُ قالَ لغريمهِ: اخرجْ إليَّ، فقدْ علمتُ أينَ أنتَ، فخرجَ، فقالَ: ما حملكَ على أنِ اختبأتَ منّي؟ قالَ: أنا واللّهِ أحدّثكَ ثمَّ لا أكذبكَ، خشيتُ واللّهِ أنْ أحدّثكَ فأكذبكَ، وأنْ أعدكَ فأخلفكَ، وكنتَ صاحبَ رسولِ اللّهِ ﷺ، وكنتُ واللّهِ معسراً. قالَ قلت: آللّهِ؟ قالَ اللّهِ، قالَ: فأتى بصحيفةٍ فمحاها فقالَ: إنْ وجدتَ قضاءً فاقضِ، وإلّا فأنتَ في حلٍّ... وذكرَ الحديثَ. قالَ ابنُ العربيِّ: وهذا في الحيِّ الّذي يرجى لهُ الأداءُ لسلامةِ الذّمّةِ ورجاءِ التّمحّلِ، فكيفَ بالميّتِ الّذي لا محاللةَ لهُ ولا ذمّةَ معهُ.

العاشرةُ- قالَ بعضُ العلماءِ: إنَّ منْ ظُلمَ وأخذَ لهُ مالٌ فإنّما لهُ ثوابُ ما احتبس عنه إلى موته، ثم يرجع الثّوابُ إلى ورثتهِ، ثمَّ كذلكَ إلى آخرهمْ، لأنَّ المالَ يصيرُ بعدهُ للوارثِ. وعلى هذا القولِ إنْ ماتَ الظّالمُ قبلَ منْ ظلمهُ ولمْ يتركْ شيئاً أوْ تركَ ما لمْ يعلمْ وارثهُ فيهِ بظلمٍ لمْ تنتقلْ تباعةُ المظلومِ إلى ورثةِ الظّالمِ، لأنّهُ لمْ يبقَ للظّالمِ ما يستوجبهُ ورثةُ المظلومِ.

الحاديةُ عشرةَ- قولهُ تعالى: ﴿وَلَمَن صَبَرَ﴾ على الأذى و ﴿غَفَرَ﴾ وتركَ الانتصارَ لوجهِ اللّهِ تعالى ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ﴾، وهذا فيمنْ ظلمهُ مسلمٌ. ويحكى أنَّ رجلاً سبَّ رجلاً في مجلسِ الحسنِ رحمهُ اللّهُ فكانَ المسبوبُ يكظمُ ويعرقُ فيمسحُ العرقَ، ثمَّ قامَ فتلا هذهِ الآيةَ، فقالَ: الحسنُ: عقلها واللّهِ! وفهمها إذْ ضيّعها الجاهلونَ.

وبالجملةِ العفوُ مندوبٌ إليهِ، ثمَّ قدْ ينعكسُ الأمرُ في بعضِ الأحوالِ فيرجعُ تركُ العفوِ مندوباً إليهِ كما تقدّمَ، وذلكَ إذا احتيجَ إلى كفِّ زيادةِ البغي وقطع مادّةِ الأذى، وعنِ النّبيِّ ﷺ ما يدلُّ عليهِ، وهوَ أنَّ زينبَ أسمعتْ عائشةَ رضي الله عنها بحضرتهِ فكانَ ينهاها فلا تنتهي، فقالَ: لعائشةَ: «دونكِ فانتصري» خرّجهُ مسلمٌ في صحيحهِ بمعناهُ. **وقيلَ**: ﴿صَبَرَ﴾ عنِ المعاصي وسترٌ على المساوئِ. ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ٤٣﴾ أيْ منْ عزائمِ اللّهِ الّتي أمرَ بها.

قولهُ تعالى: ﴿وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ﴾ أيْ يخذلهُ ﴿فَمَا لَهُۥ مِن وَلِيّٖ مِّنۢ بَعۡدِهِۦۗ﴾ هذا فيمنْ أعرضَ عنِ النّبيِّ ﷺ فيما دعاهُ إليهِ منَ الإيمانِ باللّهِ والمودّةِ في القربى، ولمْ يصدّقهُ في البعثِ وأنَّ متاعَ الدّنيا قليلٌ.

قولهُ تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أيِ الكافرينَ. ﴿لَمَّا رَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَ﴾ يعني جهنّمَ. وقيلَ رأوا العذابَ عندَ الموتِ. ﴿يَقُولُونَ هَلۡ إِلَىٰ مَرَدّٖ مِّن سَبِيلٖ ٤٤﴾ يطلبونَ أنْ يردّوا إلى الدّنيا ليعملوا بطاعة الله فلا يجابون إلى ذلك.

قولهُ تعالى: ﴿وَتَرَىٰهُمۡ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا﴾ أيْ على النّارِ، ولوْ راعى اللّفظَ لقالَ عليهِ، تعرضُ عليهمْ ذنوبهمْ في قبورهمْ، ويعرضونَ على العذابِ في قبورهمْ. ﴿خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ﴾ والخشوعُ الانكسارُ ﴿يَنظُرُونَ مِن طَرۡفٍ خَفِيّٖۗ﴾ أيْ ذليل، يسارقونَ النّظرَ منْ شدّةِ الخوفِ. ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَأَهۡلِيهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ﴾ خسروا أنفسهمْ لأنّهمْ في العذابِ المخلّدِ، وخسروا أهليهمْ لأنَّ الأهلَ إنْ كانوا في النّارِ فلا انتفاعَ بهمْ، وإنْ كانوا في الجنّةِ فقدْ حيلَ بينهُ وبينهمْ. ﴿أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِي عَذَابٖ مُّقِيمٖ ٤٥﴾ أيْ دائمٌ لا ينقطعُ. ثمَّ يجوزُ أنْ يكونَ هذا منْ قولِ المؤمنينَ، ويجوزُ أنْ يكونَ ابتداءٌ منَ اللّهِ تعالى.

قولهُ تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّنۡ أَوۡلِيَآءَ﴾ أيْ أعوانًا ونصراءَ ﴿يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِۗ﴾ أيْ منْ عذابهِ ﴿وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ ٤٦﴾ يصلُ بهِ إلى الحقِّ في الدّنيا والجنّةِ في الآخرةِ، لأنّهُ قدْ سدّتْ عليهِ طريقُ النجاة.

قولهُ تعالى: ﴿ٱسۡتَجِيبُواْ لِرَبِّكُم﴾ وما دعاكمْ إليهِ منَ الإيمانِ بهِ والطّاعةِ. ﴿مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِۚ﴾ يريدُ يومُ القيامةِ. ﴿مَا لَكُم مِّن مَّلۡجَإٖ﴾ ينجيكمْ منَ العذابِ. ﴿وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٖ ٤٧﴾ أيْ منْ ناصرٍ ينصركمْ، وقيلَ: النّكيرُ بمعنى المنكرِ، كالأليمِ بمعنى المؤلمِ، أيْ لا تجدونَ يومئذٍ منكراً لما ينزلُ بكمْ منَ العذابِ.

قولهُ تعالى: ﴿فَإِنۡ أَعۡرَضُواْ﴾ أيْ عنِ الإيمانِ ﴿فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظًاۖ﴾ أيْ حافظًا لأعمالهمْ حتّى تحاسبهمْ عليها. وليسَ لكَ إكراههمْ على الإيمانِ. ﴿إِنۡ عَلَيۡكَ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُۗ﴾

وقيلَ: نسخَ هذا بآيةِ القتالِ. ﴿وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ﴾ الكافرَ. ﴿مِنَّا رَحْمَةً﴾ رخاءً وصحّةً. ﴿فَرِحَ بِهَا﴾ بطرَ بها. ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ﴾ بلاءٌ وشدّةٌ. ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ كَفُورٌ ﴿٤٨﴾﴾ أيْ لما تقدّمَ منَ النّعمةِ فيعدّدُ المصائبَ وينسى النعم.

قولُه تعالى: ﴿لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ﴾، فيهِ أربعُ مسائلَ:

الأولى: ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾﴾ بدأَ بالإناثِ وأدخلَ الألفَ واللّامَ على الذّكورِ فميّزهمْ بسمةِ التّعريفِ. وقيلَ: إنَّ منْ يمنِ المرأةِ تبكيرها بالأنثى قبلَ الذّكرِ، ﴿أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا﴾ التّزويجُ ها هنا هوَ الجمعُ بينَ البنينَ والبناتِ ﴿وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا﴾ أيْ لا يولدُ لهُ، يقالُ: رجلٌ عقيمٌ، وامرأةٌ عقيمٌ.

وقيلَ: هذهِ الآيةَ نزلتْ في الأنبياءِ خصوصاً وإنْ عمَّ حكمها. وهبَ للوطٍ الإناثُ ليسَ معهنَّ ذكرٌ، ووهبَ لإبراهيمَ الذّكورُ ليسَ معهمْ أنثى، ووهبَ لإسماعيلَ وإسحاقَ الذّكورَ والإناثَ، وجعلَ عيسى ويحيى عقيمينِ، وكذلكَ محمّدٌ ﷺ كانَ لهُ ذكورٌ وإناثٌ، منَ الأولادِ: القاسمُ والطّيّبُ والطّاهرُ وعبدُ اللّهِ وزينبُ وأمُّ كلثومَ ورقيّةُ وفاطمةُ، وكلّهمْ منْ خديجةَ رضي الله عنها، وإبراهيمُ وهوَ منْ ماريةَ القبطيّةِ. وكذلكَ قسمَ اللّهُ الخلقَ منْ لدنْ آدمَ إلى زماننا هذا، إلى أنْ تقومَ السّاعةُ، على هذا التّقديرِ المحدودِ بحكمتهِ البالغةِ ومشيئتهِ النّافذةِ، ليبقى النّسلُ، ويتمادى الخلقُ، وينفذَ الوعدُ، ويحقَّ الأمرُ، وتعمرَ الدّنيا، وتأخذَ الجنّةُ وجهنّمُ كلَّ واحدةٍ ما يملؤها ويبقى. ففي الحديث: «إنَّ النّارَ لنْ تمتلئَ حتّى يضعَ الجبّارُ فيها قدمهُ، فتقولُ قطْ قطْ. وأمّا الجنّةُ فيبقى منها فينشئُ اللّهُ لها خلقاً آخرَ».

الثانية- إنَّ اللّهَ تعالى لعمومِ قدرتهِ وشديدِ قوّتهِ يخلقُ الخلقَ ابتداء من غير شيء، وبعظيمِ لطفهِ وبالغِ حكمتهِ يخلقُ شيئاً منْ شيء لا عن حاجة، فإنه قدوس عنِ الحاجاتِ سلامٌ عنِ الآفاتِ، كما قالَ: ﴿القدّوسُ السّلامُ﴾، فخلقَ آدمَ منَ الأرضِ وخلقَ حوّاءَ منْ آدمَ وخلقَ النّشأةَ منْ بينهما منهما مرتبا على الوطء كائناً عنِ الحملِ موجوداً في الجنينِ بالوضعِ، كما قالَ النّبيُّ ﷺ: «إذا سبقَ ماءُ الرّجلِ ماءَ المرأةِ أذكرا وإذا سبق ماء المرأة ماء الرجل أنثى». وكذلكَ في الصّحيحِ أيضاً: «إذا علا ماءُ الرّجلِ ماءَ المرأةِ أشبهَ الولدُ أعمامهُ وإذا علا ماءُ

المرأةِ ماءَ الرّجلِ أشبهَ الولدُ أخوالهُ».

قالَ علماؤنا: فعلى مقتضى هذا الحديثِ أنَّ العلوَّ يقتضي الشّبهَ، وقدْ جاءَ في حديثِ ثوبانَ خرّجهُ مسلمٌ أيضـًا أنَّ النّبيَّ ﷺ قالَ لليهوديِّ: «ماءُ الرّجلِ أبيضُ وماءُ المرأةِ أصفرُ، فإذا اجتمعا فعلا منيُّ الرّجلِ منيَّ المرأةِ أذكرا بإذنِ اللّهِ وإذا علا مني المرأة مني الرجل أنثى بإذنِ اللّهِ... الحديثَ. فجعلَ في هذا الحديثِ أيضـًا العلوَّ يقتضي الذّكورةَ والأنوثةَ، فعلى مقتضى الحديثينِ يلزمُ اقترانُ الشّبهِ للأعمامِ والذّكورةِ إنْ علا منيُّ الرّجلِ، وكذلكَ يلزمُ إنْ علا منيُّ المرأةِ اقترانُ الشّبهِ للأخوالِ والأنوثةِ، لأنّهما معلولاً علّةٌ واحدةٌ، وليسَ الأمرُ كذلكَ بلِ الوجودُ بخلافِ ذلكَ، لأنّا نجدُ الشّبهَ للأخوالِ والذّكورةِ والشّبهَ للأعمامِ والأنوثةِ فتعيّنَ تأويلُ أحدِ الحديثينِ.

الثالثة– قالَ علماؤنا: كانتِ الخلقةُ مستمرّةً ذكراً وأنثى إلى أنْ وقعَ في الجاهليّةِ الأولى الخنثى، وقدْ روى الفرضيّونَ عنِ ابنِ عبّاسٍ عنِ النّبيِّ ﷺ أنّهُ سئلَ عنْ مولودٍ لهُ قبلٌ وذكرٌ منْ أينَ يورّثُ؟ قالَ: منْ حيثُ يبولُ. وبهِ قالَ أبو حنيفةَ وحكاهُ المزنيُّ عنِ الشّافعيِّ. وقالَ قومٌ: لا دلالةَ في البولِ. فإنْ خرجَ البولُ منهما جميعـًا قالَ أبو يوسفَ: يحكمُ بالأكثرِ. وأنكرهُ أبو حنيفةَ، وقالَ: أتكيلهُ! ولمْ يجعلْ أصحابُ الشّافعيِّ للكثرةِ حكمـًا. وحكيَ عنْ عليٍّ والحسنِ أنّهما قالا: تعدُّ أضلاعهُ، فإنَّ المرأةَ تزيدُ على الرّجلِ بضلعٍ واحدٍ. وقدْ مضى ما للعلماءِ في هذا في آيةِ المواريثِ في النّساءِ مجوّداً والحمدُ للّهِ.

الرابعة– قالَ القاضي أبو بكرِ بنُ العربيِّ: وقدْ أنكرَ قومٌ منْ رؤوسِ العوامِّ وجودَ الخنثى، لأنَّ اللّهَ تعالى قسمَ الخلقَ إلى ذكرٍ وأنثى. قلنا: هذا جهلٌ باللّغةِ، وغباوةٌ عنْ مقطعِ الفصاحةِ، وقصورٌ عنْ معرفةِ سعةِ القدرةِ. أمّا قدرةُ اللّهِ سبحانهُ فإنّهُ واسعٌ عليمٌ، وأمّا ظاهرُ القرآنِ فلا ينفي وجودَ الخنثى، لأنَّ اللّهَ تعالى قالَ: ﴿لِّلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ﴾. فهذا عمومُ مدحٍ فلا يجوزُ تخصيصهُ، لأنَّ القدرةَ تقتضيهِ. وأمّا قولهُ: ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثٗا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ٤٩ أَوۡ يُزَوِّجُهُمۡ ذُكۡرَانٗا وَإِنَٰثٗاۖ وَيَجۡعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًاۚ﴾ فهذا إخبارٌ عنِ الغالبِ في الموجوداتِ، وسكتَ عنْ ذكرِ النّادرِ لدخولهِ تحتَ عمومِ الكلامِ الأوّلِ، والوجودُ يشهدُ لهُ والعيانُ يكذّبُ منكرهُ.

قولهُ تعالى: ﴿۞وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ إِنَّهُۥ عَلِىٌّ حَكِيمٌ ۝٥١﴾، فيهِ مسألتانِ:

الأولى: قولهُ تعالى: ﴿۞وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا﴾ أي نفثا وإلهاماً في قلبهِ أو رؤيا منام، ومنهُ قولهُ ﷺ: «إنَّ روحَ القدسِ نفثَ في روعي إنَّ نفساً لنْ تموتَ حتّى تستكملَ، رزقها وأجلها فاتّقوا اللّهَ وأجملوا في الطّلبِ. خذوا ما حلَّ ودعوا ما حرمَ». ﴿أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ﴾ كما كلّمَ موسى. ﴿أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا﴾ كإرسالهِ جبريلَ عليه السلام.

وقرأ نافعٌ ﴿أَوْ يُرْسِلُ رَسُولًا فَيُوحِى﴾ برفعِ الفعلينِ. الباقونَ بنصبهما. فالرّفعُ على الاستئنافِ، أيْ وهوَ يرسلُ، ومنْ نصبَ عطفوهُ على محلِّ الوحيِ، لأنَّ معناهُ وما كانَ لبشرٍ أنْ يكلّمهُ اللّهُ إلّا أنْ يوحيَ أوْ يرسلَ.

الثانية– احتجَّ بهذهِ الآيةِ منْ رأى فيمنْ حلفَ ألّا يكلّمَ رجلاً فأرسلَ إليهِ رسولاً أنّهُ حانثٌ، لأنَّ المرسلَ قدْ سمّيَ فيها مكلّماً للمرسلِ إليهِ، إلّا أنْ ينويَ الحالفُ المواجهةَ بالخطابِ.

قالَ ابنُ المنذرِ: واختلفوا في الرّجلِ يحلفُ ألّا يكلّمَ فلاناً فكتبَ إليهِ كتاباً أوْ أرسلَ إليهِ رسولاً، فقالَ: الثّوريُّ: الرّسولُ ليسَ بكلامٍ. وقالَ الشّافعيُّ: لا يبينُ أنْ يحنثَ. وقالَ النّخعيُّ: والحكمُ في الكتابِ يحنثُ. وقالَ مالكٌ: يحنثُ في الكتابِ والرّسولِ. وقالَ مرّةً: الرّسولُ أسهلُ منَ الكتابِ. وقالَ أبو عبيدٍ: الكلامُ سوى الخطِّ والإشارةِ. وقالَ أبو ثورٍ: لا يحنثُ في الكتابِ. قالَ ابنُ المنذرِ: لا يحنثُ في الكتابِ والرّسولِ. قلت: وهوَ قولُ مالكٍ. قالَ أبو عمرَ: ومنْ حلفَ ألّا يكلّمَ رجلاً فسلّمَ عليهِ عامداً أوْ ساهياً، أوْ سلّمَ على جماعةٍ هوَ فيهمْ فقدْ حنثَ في ذلكَ كلّهِ عندَ مالكٍ. وإنْ أرسلَ إليهِ رسولاً أوْ سلّمَ عليهِ في الصّلاةِ لمْ يحنثْ.

قلت: يحنثُ في الرّسولِ إلّا أنْ ينويَ المشافهةَ، للآيةِ، وهوَ قولُ مالكٍ، وقدْ مضى في أوّلِ سورةِ مريمَ هذا المعنى عن علمائنا مستوفى، والحمد لله.

قولهُ تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلۡنَٰهُ نُورٗا نَّهۡدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنۡ عِبَادِنَاۚ وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ۝٥٢ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلۡأُمُورُ ۝٥٣﴾، فيهِ أربعُ مسائلَ:

الأولى: قولهُ تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ﴾ كالّذي أوحينا إلى الأنبياءِ منْ قبلكَ ﴿رُوحٗا﴾ قرآنا، وسمّاهُ روحـًا لأنَّ فيهِ حياةً منْ موتِ الجهلِ. وجعلهُ منْ أمرهِ بمعنى أنزلهُ كما شاءَ على منْ يشاءُ منَ النّظمِ المعجزِ والتّأليفِ المعجبِ. ويمكنُ أنْ يحمل قوله: ﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ﴾ على القرآنِ أيضـًا ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي﴾ أي يسألونك منْ أينَ لكَ هذا القرآنُ، قلْ إنّهُ من أمر الله أنزله عليَّ معجزاً.

الثانية- ظاهرُ قولهُ تعالى: ﴿مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ﴾ يدلُّ على أنّهُ ما كانَ قبلَ الإيحاءِ متّصفـًا بالإيمانِ، وهوَ منْ مجوّزاتِ العقولِ، والّذي صارَ إليهِ المعظمُ أنَّ اللّهَ ما بعثَ نبيـًا إلّا كانَ مؤمنـًا بهِ قبلَ البعثةِ، وأنّهمْ معصومونَ قبلَ النّبوّةِ منَ الجهلِ باللّهِ وصفاتهِ والتّشكّكِ في شيءٍ منْ ذلكَ. وقدْ تعاضدتِ الأخبارُ والآثارُ عنِ الأنبياءِ بتنزيههمْ عنْ هذهِ النّقيصةِ منذُ ولدوا، ونشأتهمْ على التّوحيدِ والإيمانِ، قالَ تعالى في يحيى ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحُكۡمَ صَبِيّٗا﴾ وكانَ ابنَ سنتينِ أوْ ثلاثٍ، وقيلَ في قوله: ﴿مُصَدِّقَۢا بِكَلِمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ صدّقَ يحيى بعيسى وهوَ ابنُ ثلاثٍ، وقدْ نصَّ اللّهُ على كلامِ عيسى لأمّهِ عند ولادتها إياه بقوله: ﴿أَلَّا تَحۡزَنِي﴾ على قراءة من قرأ «مَنْ تَحْتَهَا»، ونصَّ على كلامهِ في مهدهِ فقالَ ﴿إِنِّي عَبۡدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلۡكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيّٗا﴾. وقالَ: ﴿فَفَهَّمۡنَٰهَا سُلَيۡمَٰنَۚ وَكُلًّا ءَاتَيۡنَا حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ﴾ وقدْ ذكرَ منْ حكمِ سليمانَ وهوَ صبيٌّ يلعبُ في قصّةِ المرجومةِ وفي قصّةِ الصّبيِّ ما اقتدى بهِ أبوهُ داودُ. وحكى الطّبريُّ أنَّ عمرهُ كانَ حينَ أوتيَ الملكَ اثنيْ عشر عاما. وكذلك قصة موسى معَ فرعونَ وأخذهُ بلحيتهِ وهوَ طفلٌ. وقالَ المفسّرونَ في قولهِ تعالى: ﴿۞وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَآ إِبۡرَٰهِيمَ رُشۡدَهُۥ مِن قَبۡلُ﴾ أيْ هديناهُ صغيراً، وقيلَ: إنَّ إلقاءَ إبراهيمَ في النّارِ ومحنتهُ كانتْ وهوَ ابنُ ستَّ عشرةَ سنةً. وإنَّ ابتلاءَ إسحاقَ بالذّبحِ وهوَ ابنُ سبع سنينَ. وإنَّ استدلالَ إبراهيمَ بالكوكبِ والقمرِ والشّمسِ كانَ وهوَ ابنُ خمسَ عشرةَ سنةً، وقيلَ أوحيَ إلى يوسفَ

وهوَ صبي عندما همَّ إخوتهُ بإلقائهِ في الجبِّ بقولهِ تعالى: ﴿وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمۡرِهِمۡ هَٰذَا﴾ الآيةَ، إلى غيرِ ذلكَ منْ أخبارِهِمْ.

ثمَّ يتمكّنُ الأمرُ لهمْ، وتترادفُ نفحاتُ اللّهِ تعالى عليهمْ، وتشرقُ أنوارُ المعارفِ في قلوبهمْ حتّى يصلوا الغايةَ ويبلغوا باصطفاءِ اللّهِ تعالى لهمْ بالنّبوّةِ في تحصيلِ الخصالِ الشّريفةِ النّهايةَ دونَ ممارسةٍ ولا رياضةٍ. قالَ اللّهُ تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسۡتَوَىٰٓ ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ﴾. قالَ القاضي: ولمْ ينقلْ أحدٌ منْ أهلِ الأخبارِ أنَّ أحداً نُبِّئَ واصطفيَ ممّنْ عرفَ بكفرٍ وإشراكٍ قبلَ ذلكَ. ومستندُ هذا البابِ النَّقلُ. وقدِ استدلَّ بعضهمْ بأنَّ القلوبَ تنفرُ عمن كانت هذه سبيله.

قالَ القاضي: وأنا أقولُ إنَّ قريشًا قدْ رمتْ نبيّنا ﷺ بكلِّ ما افترتهُ، وعيّرَ كفّارُ الأممِ أنبياءها بكلِّ ما أمكنها واختلقتهُ، ولمْ نجدْ في شيءٍ منْ ذلكَ تعييراً لواحدٍ منهمْ بتركِ ما كانَ قدْ جامعهمْ عليهِ. فتوبيخهمْ لهُ بنهيهم عمّا كانَ يعبدُ قبلُ أقطعَ في الحجّةِ منْ توبيخهِ بنهيهمْ عنْ تركهِ آلهتهمْ وما كانَ يعبدُ آباؤهمْ منْ قبلُ، ولوْ كانَ لنقلَ وما سكتوا عنهُ كما لمْ يسكتوا عنْ تحويلِ القبلةِ وقالوا ﴿مَا وَلَّىٰهُمۡ عَن قِبۡلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُواْ عَلَيۡهَاۚ﴾ كما حكاهُ اللّهُ عنهمْ.

الثالثة- وتكلّمَ العلماءُ في نبيّنا ﷺ، هلْ كانَ متعبّداً بدينٍ قبلَ الوحيِ أمْ لا، والّذي يقطعُ بهِ أنّهُ ﷺ لمْ يكنْ منسوبًا إلى واحدٍ منَ الأنبياءِ نسبةً تقتضي أنْ يكونَ واحداً منْ أمّتهِ ومخاطبًا بكلِّ شريعتهِ، بلْ شريعتهُ مستقلّةٌ بنفسها مفتتحةٌ منْ عندِ الله الحاكم عز وجل وأنه ﷺ كانَ مؤمنًا باللّهِ عزَّ وجلَّ، ولا سجدَ لصنمٍ، ولا أشركَ باللّهِ، ولا زنى ولا شربَ الخمرَ، ولا شهدَ السّامرَ ولا حضرَ حلفَ المطرِ ولا حلفَ المطيّبينَ، بلْ نزّههُ اللّهُ وصانهُ عنْ ذلكَ. وكذلكَ المعروفُ منْ سيرتهِ ﷺ وتوفيقِ اللّهِ إيّاهُ لهُ أنّهُ كانَ قبلَ نبوّتهِ يخالفُ المشركينَ في وقوفهمْ بمزدلفةَ في الحجِّ، وكانَ يقفُ هوَ بعرفةَ، لأنّهُ كان موقفَ إبراهيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

فإن قيل: فقدْ قالَ اللّهُ تعالى: ﴿قُلۡ بَلۡ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِـۧمَ﴾ وقال: ﴿أَنِ ٱتَّبِعۡ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ﴾ وقال: ﴿۞شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ﴾ الآيةَ. وهذا يقتضي أنْ يكونَ متعبّداً بشرعٍ.

فالجوابُ: أنَّ ذلكَ فيما لا تختلفُ فيهِ الشّرائعُ منَ التّوحيدِ وإقامةِ الدّينِ، على ما تقدّمَ

بيانُهُ في غيرِ موضعٍ وفي هذهِ السّورةِ عندَ قولِهِ ﴿۞شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ﴾ والحمدُ للّهِ.

الرابعة- إذا تقرّرَ هذا فاعلمْ أنَّ العلماءَ اختلفوا في تأويلِ قولهُ تعالى: ﴿مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ﴾. فقالَ: جماعةٌ: معنى الإيمانِ في هذهِ الآيةِ شرائعُ الإيمانِ ومعالمهُ والفرائضُ الّتي لمْ يكنْ يدريها قبلُ.

وقيلَ: عنى بالإيمانِ الصّلاةَ، لقولهِ تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمۡۚ﴾ أيْ صلاتكمْ إلى بيتِ المقدسِ، فيكونُ اللّفظُ عاماً والمرادُ الخصوصُ، وقيلَ: ما كنتَ تدري ما الكتابُ لولا إنعامنا عليكَ، ولا الإيمانُ لولا هدايتنا لكَ، وهوَ محتملٌ، وقيلَ: ﴿مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ﴾ أيْ كنتَ منْ قومٍ أمّيّينَ لا يعرفونَ الكتابَ ولا الإيمانَ، حتّى تكونَ قدْ أخذتَ ما جئتهمْ بهِ عمّنْ كانَ يعلمُ ذلكَ منهمْ، وهو كقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَتۡلُواْ مِن قَبۡلِهِۦ مِن كِتَٰبٖ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَۖ إِذٗا لَّٱرۡتَابَ ٱلۡمُبۡطِلُونَ﴾.

وفي هذا الإيمانِ وجهانِ:

أحدهما: أنّهُ الإيمانُ باللّهِ، وهذا يعرفهُ بعدَ بلوغهِ وقبلَ نبوّتهِ.

والثّاني: أنّهُ دينُ الإسلامِ، وهذا لا يعرفهُ إلا بعد النبوة.

﴿وَلَٰكِن جَعَلۡنَٰهُ﴾ الإيمانَ أو القرآنُ ﴿نُورٗا نَّهۡدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ﴾ أيْ منْ نختارهُ للنّبوّةِ، كقوله تعالى: ﴿يَخۡتَصُّ بِرَحۡمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۗ﴾.

﴿وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ﴾ ترشدُ ﴿إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ لا اعوجاجَ فيهِ. ﴿صِرَٰطِ ٱللَّهِ﴾ بدلٌ منَ الأوّلِ بدلُ المعرفةِ منَ النّكرةِ. ﴿ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ﴾ ملكا وعبدا وخلقا. ﴿أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلۡأُمُورُ﴾ وعيدٌ بالبعثِ والجزاءِ.

سورة الزخرف

مكّيّةٌ بإجماعٍ. وهيَ تسعٌ وثمانونَ آيةً.

بسمِ اللّهِ الرّحمنِ الرّحيمِ

قولهُ تعالى: ﴿حمٓ ۝١ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ۝٢﴾. تقدّمَ الكلامُ فيهِ. ﴿إِنَّا جَعَلۡنَٰهُ﴾. أنزلناهُ وبيّنّاهُ. ﴿قُرۡءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾ أيْ أنزلناهُ بلسانِ العربِ، لأنَّ كلَّ نبيٍّ أنزلَ كتابهُ بلسان قومه، أو لأنَّ لسانَ أهلِ السّماءِ عربيٌّ. ﴿لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ۝٣﴾ أيْ تفهمونَ أحكامهُ ومعانيهِ.

قولهُ تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ فِيٓ أُمِّ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ يعني القرآنَ في اللّوحِ المحفوظِ ﴿لَدَيۡنَا﴾ عندنا ﴿لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ ۝٤﴾ أيْ رفيعٌ محكمٌ لا يوجدُ فيهِ اختلافٌ ولا تناقضٌ، قالَ اللّهُ تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ ۝٧٧ فِي كِتَٰبٖ مَّكۡنُونٖ﴾ وقالَ تعالى: ﴿بَلۡ هُوَ قُرۡءَانٞ مَّجِيدٞ ۝٢١ فِي لَوۡحٖ مَّحۡفُوظِۭ﴾، وكسرَ الهمزةَ منْ ﴿إِمِّ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ حمزةُ والكسائيُّ، وضمَّ الباقون، وقد تقدم .

قولهُ تعالى: ﴿أَفَنَضۡرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكۡرَ صَفۡحًا﴾ يعني: القرآنَ أتكذّبونَ به ولا تعاقبونَ، وقيلَ: المعنى أفنتركُكمْ سدى فلا نأمركمْ ولا ننهاكمْ، وقيلَ: المرادُ بالذّكرِ العذابُ، أيْ أفنضربُ عنكمُ العذابَ ولا نعاقبكمْ على إسرافكمْ وكفركمْ، وقيلَ: المعنى أفنهلككمْ ولا نأمركمْ ولا ننهاكمْ.

ومعنى ﴿صَفۡحًا﴾ إعراضًا، والأصلُ فيهِ صفحةُ العنقِ، يقالُ: أعرضتُ عنهُ أيْ ولّيتهُ صفحةَ عنقي.

ومعنى ﴿مُّسۡرِفِينَ﴾ مشركينَ. واختارَ أبو عبيدةَ الفتحَ في ﴿أن﴾ وهيَ قراءةُ ابنِ كثيرٍ وأبي عمرو وعاصمٍ وابنِ عامرٍ، قالَ: لأنَّ اللّهَ تعالى عاتبهمْ على ما كانَ منهم، وعلمه قبل ذلك من فعلهم.

قولهُ تعالى: ﴿وَكَمۡ أَرۡسَلۡنَا مِن نَّبِيّٖ فِي ٱلۡأَوَّلِينَ ۝٦﴾ ﴿كَمۡ﴾ هنا خبريّةٌ والمرادُ بها التّكثيرُ، كما قالَ: ﴿كَمۡ تَرَكُواْ مِن جَنَّٰتٖ وَعُيُونٖ﴾. ﴿وَمَا يَأۡتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ۝٧﴾ يعزّي نبيّهُ محمّداً ﷺ. ﴿فَأَهۡلَكۡنَآ أَشَدَّ مِنۡهُم بَطۡشٗا﴾ أيْ قوّةً. والكنايةُ في

﴿مِنۡهُمۡ﴾ ترجعُ إلى المشركينَ المخاطبينَ بقولهِ ﴿أَفَنَضۡرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكۡرَ صَفۡحًا﴾ فكنّى عنهمْ بعدَ أن خاطبهم. و ﴿أَشَدَّ﴾ نصبَ على الحالِ. وقيلَ هوَ مفعولٌ، أيْ فقد أهلكنا ﴿وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلۡأَوَّلِينَ ۝٨﴾ أيْ عقوبتهمْ.

قولهُ تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم﴾ يعني المشركينَ. ﴿مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡعَلِيمُ ۝٩﴾ فأقرّوا لهُ بالخلقِ والإيجادِ، ثمَّ عبدوا معهُ غيرهُ جهلاً منهمْ.

قولهُ تعالى: ﴿ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ مَهۡدٗا﴾. فراشـاً وبساطـاً، وقرأ الكوفيّونَ «مَهْداً» ﴿وَجَعَلَ لَكُمۡ فِيهَا سُبُلٗا﴾ طرقـاً ﴿لَّعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ۝١٠﴾ فتستدلّونَ بمقدوراتهِ على قدرتهِ. وقيلَ ﴿لَّعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ﴾ في أسفاركمْ.

قولهُ تعالى: ﴿وَٱلَّذِي نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءَۢ بِقَدَرٖ﴾ لا طوفانَ مغرقٌ ولا قاصرَ عن الحاجة، ﴿فَأَنشَرۡنَا﴾ أيْ أحيينا. ﴿بِهِۦ﴾ أيْ بالماءِ. ﴿بَلۡدَةٗ مَّيۡتٗاۚ﴾ أيْ مقفرةً منَ النّباتِ. ﴿كَذَٰلِكَ تُخۡرَجُونَ ۝١١﴾ أيْ منْ قبوركمْ، لأنَّ منْ قدرَ على هذا قدرَ على ذلكَ، وقرأ حمزةُ والكسائيُّ وابنُ ذكوانَ عنِ ابنِ عامرٍ «يَخْرُجُونَ» بفتحِ الياءِ وضم الراء. الباقون على الفعل المجهول.

قولهُ تعالى: ﴿وَٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡأَزۡوَٰجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلۡفُلۡكِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ مَا تَرۡكَبُونَ ۝١٢ لِتَسۡتَوُۥاْ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ رَبِّكُمۡ إِذَا ٱسۡتَوَيۡتُمۡ عَلَيۡهِ وَتَقُولُواْ سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقۡرِنِينَ ۝١٣ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ۝١٤﴾، فيهِ خمسُ مسائلَ:

الأولى: قولهُ تعالى: ﴿وَٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡأَزۡوَٰجَ﴾ أيْ الأصنافَ كلّها، الشتاء والصيف والليل والنهار والسموات والأرضَ والشّمسَ والقمرَ والجنّةَ والنّارَ والذكرِ والأنثى، وقيلَ: أرادَ أزواجَ النّباتِ، كما قالَ تعالى: ﴿وَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجِۢ بَهِيجٖ﴾ و ﴿مِن كُلِّ زَوۡجٖ كَرِيمٍ﴾. وقيلَ ما يتقلّبُ فيهِ الإنسانُ منْ خيرٍ وشرٍّ، وإيمانٍ وكفرٍ، ونفعٍ وضرٍّ، وفقرٍ وغنى، وصحّةٍ وسقمٍ. قلت: وهذا القولُ يعمُّ الأقوالَ كلّها ويجمعها بعمومهِ.

﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلۡفُلۡكِ﴾ السّفنِ ﴿وَٱلۡأَنۡعَٰمِ﴾ الإبلِ ﴿مَا تَرۡكَبُونَ﴾ في البرِّ والبحرِ. ﴿لِتَسۡتَوُۥاْ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ﴾ ذكرَ الكنايةَ لأنّهُ ردّهُ إلى ما في قولهِ: ﴿مَا تَرۡكَبُونَ﴾، وجمعَ الظّهورَ،

أيْ على ظهورِ هذا الجنس.

الثانية- قيل: الأنعامُ هنا الإبلُ والبقرُ، والصّحيحُ أنها الإبلُ وحدها، لقولهِ ﷺ: «بينما رجلٌ راكبُ بقرةً إذْ قالتْ لهُ لمْ أخلقْ لهذا إنّما خلقتُ للحرثِ» فقالَ: النّبيُّ ﷺ: «آمنتُ بذلكَ أنا وأبو بكرٍ وعمرُ». وما هما في القومِ.

الثالثة- قولهُ تعالى: ﴿لِتَسْتَوُۥا۟ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ﴾ يعني بهِ الإبلَ خاصّةً بدليلِ ما ذكرنا. ولأنَّ الفلكَ إنّما تركبُ بطونها، ولكنّهُ ذكرهما جميعاً في أوّلِ الآيةِ وعطفَ آخرها على أحدهما. ويحتمل أن يجعل ظاهرهما باطنهما، لأن الماء غمره وستره وباطنهما ظاهراً، لأنّهُ انكشفَ للظّاهرينَ وظهرَ للمبصرينَ.

الرابعة- قولهُ تعالى: ﴿ثُمَّ تَذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ﴾ بالحمدُ للّهِ على تسخيرِ ذلكَ لنا في البرِّ والبحرِ. ﴿وَتَقُولُوا۟ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا﴾ أيْ ذلّلَ لنا هذا المركبَ. ﴿وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ﴾ أيْ مطيقينَ.

الخامسة- لما كان الركوب مباشرة أمر محظور واتّصالاً بأسبابٍ منْ أسبابِ التّلفِ علّمنا اللّهُ سبحانهُ ما نقولُ إذا ركبنا الدّوابَّ، وعرّفنا في آيةٍ أخرى على لسانِ نوح عليه السلام ما نقولُ إذا ركبنا السّفنَ، وهيَ قولهُ تعالى: ﴿۞ وَقَالَ ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْر۪ىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، فيقولُ متى ركبَ وخاصّةً في السّفرِ إذا تذكّرَ: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ۝١٣ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ﴾ اللّهمَّ أنتَ الصّاحبُ في السّفرِ، والخليفةُ في الأهلِ والمالِ، اللّهمَّ إنّي أعوذُ بكَ منْ وعثاءِ السّفرِ، وكآبةِ المنقلبِ، وسوءِ المنظرِ في الأهلِ والمالِ.

قولهُ تعالى: ﴿وَجَعَلُوا۟ لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا ۚ﴾ الجزءُ عندَ أهلِ العربيّةِ البناتُ، يقالُ: قدْ أجزأتِ المرأةُ إذا ولدتِ البناتِ، قال الشاعر:

إن أجزأت حرة يوماً فلا عجب ... قدْ تجزئُ الحرّةُ المذكارَ أحيانا

﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ﴾ يعني الكافرَ. ﴿لَكَفُورٌ﴾ يعدُّ المصائبَ وينسى النّعمَ. ﴿مُّبِينٌ﴾ مظهر الكفر.

قولُه تعالى: ﴿أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخۡلُقُ بَنَاتٍ﴾ الميمُ صلةٌ، تقديرهُ أتّخذَ ولفظهُ لفظ استفهامُ ومعناهُ التّوبيخُ. ﴿وَأَصۡفَىٰكُم بِٱلۡبَنِينَ ١٦﴾ أي اختصّكمْ وأخلصكمْ بالبنينَ، وهذا كما قالَ تعالى: ﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلۡأُنثَىٰ ٢١ تِلۡكَ إِذٗا قِسۡمَةٞ ضِيزَىٰٓ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحۡمَٰنِ مَثَلٗا﴾ أيْ بأنّهُ ولدتْ لهُ بنتٌ ﴿ظَلَّ وَجۡهُهُۥ﴾ أيْ صارَ ﴿مُسۡوَدّٗا﴾ قيلَ ببطلانِ مثلهِ الّذي ضربهُ. وقيلَ: بما بشّرَ بهِ منَ الأنثى، دليلهُ في سورةِ النّحلِ ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلۡأُنثَىٰ﴾. ومنْ حالهمْ أنَّ أحدهمْ إذا قيلَ لهُ قدْ ولدتْ لهُ أنثى اغتمَّ واربدَّ وجههُ غيظًا وتأسّفًا وهوَ مملوءٌ منَ الكربِ. وعنْ بعضِ العربِ أنَّ امرأتهُ وضعتْ أنثى فهجرَ البيتَ الّذي فيهِ المرأةُ فقالتْ:

ما لأبي حمزةَ لا يأتينا ... يظلُّ في البيتِ الّذي يلينا
غضبانَ ألّا نلدَ البنينا ... وإنّما نأخذُ ما أعطينا

﴿وَهُوَ كَظِيمٞ ١٧﴾ أيْ حزينٌ، وقيلَ مكروبٌ، وذلكَ لفسادِ مثلهِ وبطلانِ حجّتهِ.

قوله تعالى: ﴿أَوَمَن يُنَشَّؤُاْ فِي ٱلۡحِلۡيَةِ﴾ فيهِ مسألتانِ:

الأولى: قولهُ تعالى: ﴿أَوَمَن يُنَشَّؤُاْ﴾ أيْ يربّى ويشبُّ. والنّشوءُ: التّربيةُ، وقرأ حفصٌ وحمزة والكسائي وخلف ﴿يُنَشَّؤُاْ﴾ بضمِّ الياءِ وفتحِ النّونِ وتشديدِ الشّينِ، أيْ يربّى ويكبّرُ في الحليةِ، وقرأ الباقون «يَنْشَؤُا» بفتحِ الياءِ وإسكانِ النّونِ، منْ نشأَ أيِ ارتفع، فـ «ينشأ» متعدٍّ، وَ «ينشأُ» لازمٌ.

الثانية- قولهُ تعالى: ﴿فِي ٱلۡحِلۡيَةِ﴾ أيْ في الزّينةِ. وفيهِ دلالةٌ على إباحةِ الحليِّ للنّساءِ، والإجماعُ منعقدٌ عليه والأخبار فيه لا تحصى.

قولهُ تعالى: ﴿وَهُوَ فِي ٱلۡخِصَامِ غَيۡرُ مُبِينٖ ١٨﴾ أيْ في المجادلةِ والإدلاءِ بالحجّةِ. فكيف يضافُ إلى اللّهِ منْ هذا وصفهُ! أو من كانَ على هذهِ الحالةِ يستحقُّ العبادةَ.

قولُه تعالى: ﴿وَجَعَلُواْ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمۡ عِبَٰدُ ٱلرَّحۡمَٰنِ إِنَٰثًاۚ﴾ قرأ الكوفيّونَ ﴿عِبَادُ﴾ بالجمعِ لأنَّ اللّهَ تعالى إنّما كذّبهمْ في قولهمْ إنّهمْ بناتُ اللّهِ، فأخبرهمْ أنّهمْ عبيدٌ وأنّهمْ ليسوا بناتهِ. قال تعالى: ﴿أَفَحَسِبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن يَتَّخِذُواْ عِبَادِي مِن دُونِيٓ أَوۡلِيَآءَۚ﴾. وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمۡثَالُكُمۡۖ﴾. وقرأ الباقونَ «عِنْدَ الرَّحْمَنِ» بنونٍ ساكنةٍ، وتصديقُ هذهِ القراءةِ قولهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ﴾، وقولهُ: ﴿وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَمَنۡ عِندَهُۥ﴾. والمقصود إيضاح كذبهم وبيان جهلهم في نسبةِ الأولادِ إلى اللّهِ سبحانهُ، ثمَّ في تحكّمهمْ بأنَّ الملائكةَ إناثٌ وهمْ بناتُ اللّهِ. وذكرُ العبادِ مدحٌ لهمْ، أيْ كيفَ عبدوا من هو في نهايةُ العبادةِ، ثمَّ كيفَ حكموا بأنّهمْ إناثٌ منْ غيرِ دليلٍ. والجعلُ هنا بمعنى القولِ والحكمِ، تقولُ: جعلتُ زيداً أعلمَ النّاسِ، أيْ حكمتُ لهُ بذلكَ. ﴿أَشَهِدُواْ خَلۡقَهُمۡۚ﴾ أيْ أحضروا حالةَ خلقهمْ حتّى حكموا بأنّهمْ إناثٌ. ﴿سَتُكۡتَبُ شَهَٰدَتُهُمۡ وَيُسۡـَٔلُونَ ١٩﴾ أي يسئلون عنها في الآخرةِ. وقرأ نافعٌ «أَأُشْهِدُوا» بهمزةِ استفهام داخلةٍ على همزةٍ مضمومةٍ مسهّلةٍ، والباقونَ ﴿أَشَهِدُواْ﴾ بهمزةٍ واحدةٍ للاستفهامِ. ﴿سَتُكۡتَبُ﴾ قراءةُ العامّةِ بضمِّ التّاءِ على الفعلِ المجهولِ ﴿شَهَٰدَتُهُمۡ﴾ رفعاً.

قولهُ تعالى: ﴿وَقَالُواْ﴾ أي المشركونَ على طريقِ الاستهزاءِ والسّخريةِ ﴿لَوۡ شَآءَ ٱلرَّحۡمَٰنُ مَا عَبَدۡنَٰهُمۗ﴾ أي ما عبدنا هذهِ الملائكةَ. وهذا منهمْ كلمةُ حقٍّ أُريدَ بها باطلٌ. وكلُّ شيءٍ بإرادةِ اللّهِ، وإرادتهُ تجبُ وكذا علمهُ فلا يمكنُ الاحتجاجُ بها، وخلافُ المعلومِ والمرادُ مقدورٌ وإنْ لمْ يقعْ. ولوْ عبدوا اللّهَ بدلَ الأصنامِ لعلمنا أنَّ اللّهَ أرادَ منهمْ ما حصلَ منهمْ. وقدْ مضى هذا المعنى في الأنعامِ عندَ قولهُ: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشۡرَكۡنَا﴾ وفي يس: ﴿أَنُطۡعِمُ مَن لَّوۡ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطۡعَمَهُۥٓ﴾.

وقولهُ: ﴿مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنۡ عِلۡمٍۖ﴾ مردودٌ إلى قولهِ ﴿وَجَعَلُواْ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمۡ عِبَٰدُ ٱلرَّحۡمَٰنِ إِنَٰثًاۚ﴾. ﴿إِنۡ هُمۡ إِلَّا يَخۡرُصُونَ ٢٠﴾ أيْ يحدسونَ ويكذبونَ، فلا عذرَ لهمْ في عبادةِ غيرِ اللّهِ عزوجل. وكان في ضمنِ كلامهمْ أنَّ اللّهَ أمرنا بهذا أوْ أرضى ذلكَ منّا، ولهذا لمْ ينهنا ولمْ يعاجلنا بالعقوبة.

قولهُ تعالى: ﴿أَمْ ءَاتَيْنَـٰهُمْ كِتَـٰبًا مِّن قَبْلِهِۦ فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ ﴿٢١﴾﴾ هذا معادلٌ لقولهِ ﴿أَشَهِدُواْ خَلْقَهُمْ﴾.

والمعنى: أحضروا خلقهمْ أمْ آتيناهمْ كتابـًا منْ قبلهِ، أيْ منْ قبلِ القرآنِ بما ادّعوهُ، فهمْ به متمسكون يعملون بما فيه.

قولهُ تعالى: ﴿بَلْ قَالُوٓاْ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾ وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾﴾، فيهِ مسألتانِ:

الأولى: قولهُ تعالى: ﴿عَلَىٰٓ أُمَّةٍ﴾ أيْ على طريقةٍ ومذهبٍ، ومنهُ قول قيس بن الخطيم:

كنا على أمة آبائنا ويقتدي الآخرُ بالأوّلِ

الثّانيةُ- ﴿وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِم مُّهْتَدُونَ﴾ أيْ نهتدي بهمْ. وفي الآيةِ الأخرى ﴿مُّقْتَدُونَ﴾ أيْ نقتدي بهمْ، والمعنى واحدٌ. قالَ قتادةُ: مقتدونَ متّبعونَ. وفي هذا دليلٌ على إبطالِ التّقليدِ، لذمّهِ إيّاهمْ على تقليدِ آبائهمْ وتركهمُ النّظرَ فيما دعاهمْ إليهِ الرّسولُ ﷺ. أيْ وكما قالَ هؤلاءِ فقدْ قالَ منْ قبلهمْ أيضـًا. يعزّي نبيّهُ ﷺ، ونظيرهُ: ﴿مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ﴾. والمترف: المنعم، والمراد هنا الملوك والجبابرة.

قوله تعالى: ﴿قَـٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ﴾ بأرشدَ. ﴿مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَـٰفِرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ يعني بكلِّ ما أرسلَ بهِ الرّسلُ. فالخطابُ للنّبيِّ ﷺ ولفظهُ لفظُ الجمعِ، لأنَّ تكذيبهُ تكذيب لمن سواه.

وقريء: ﴿قُلْ﴾ وَ ﴿قَالَ﴾ وَ ﴿جِئْتُكُم﴾ وَ ﴿جِئْنَـٰكُم﴾ يعني أتتّبعونَ آباءكمْ ولوْ جئتكمْ بدينٍ أهدى منْ دينِ آبائكمْ؟ قالوا إنّا ثابتونَ على دينِ آبائنا لا ننفكُّ عنهُ وإنْ جئتنا بما هوَ أهدى.

قولهُ تعالى: ﴿فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ بالقحطِ والقتلِ والسّبي ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٥﴾﴾ آخرُ أمرِ من كذب الرسل. وقراءة العامة ﴿قُل أَوَلَوْ جِئْتُكُم﴾. وقرأ ابنُ

عامرٍ وحفصٌ ﴿قَٰلَ أَوَلَوْ﴾ على الخبرِ عنِ النّذيرِ أنّهُ قالَ لهمْ هذهِ المقالةَ. وقرأ أبو جعفرٍ «قُلْ أَوَلَوْ جِئْنَاكُمْ» بنونٍ وألفٍ، على أنَّ المخاطبةَ منْ رسولِ اللّهِ ﷺ عن جميع الرسل.

قولهُ تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ﴾ أيْ ذكّرهمْ إذْ قالَ. ﴿إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾﴾ البراءُ يستعملُ للواحدِ فما فوقهُ فلا يثنّى ولا يجمعُ ولا يؤنّثُ، لأنّهُ مصدرٌ وضعَ موضعَ النّعتِ، لا يقالُ: البراءانِ والبراءونَ، لأنَّ المعنى ذو البراءِ وذوو البراءِ. ﴿إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾﴾ استثناء متّصلٌ، لأنّهمْ عبدوا اللّهَ معَ آلهتهمْ، ويجوزُ أنْ يكونَ منقطعًا، أيْ لكنَّ الّذي فطرني فهوَ يهدينِ. قالَ ذلكَ ثقةً باللّهِ وتنبيهًا لقومهِ أنَّ الهدايةَ منْ ربّهِ.

قولهُ تعالى: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾﴾، فيهِ ثلاثُ مسائلَ:

الأولى: قولهُ تعالى: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً﴾ الضّميرُ في ﴿جَعَلَهَا﴾ عائدٌ على قولهِ ﴿إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾. وضميرُ الفاعلِ في ﴿جَعَلَهَا﴾ للّهِ عزَّ وجلَّ، أيْ وجعلَ اللّهُ هذهِ الكلمةَ والمقالةَ باقيةً في عقبهِ، وهمْ ولدهُ وولدُ ولدهِ، أيْ إنّهمْ توارثوا البراءةَ عنْ عبادةِ غيرِ اللّهِ، وأوصى بعضهمْ بعضًا في ذلكَ. والعقبُ منْ يأتي بعدهُ. والكلمةُ لا إلهَ إلّا اللّهُ. فلا يزالُ منْ عقبهِ منْ يعبدُ اللّهَ إلى يومِ القيامةِ. وقيلَ: الكلمةُ النّبوّةُ. قالَ ابنُ العربيِّ: ولمْ تزلِ النّبوّةُ باقيةً في ذرّيّةِ إبراهيمَ. والتّوحيدُ همْ أصلهُ وغيرهمْ فيهِ تبعٌ لهمْ.

الثانية– قالَ ابنُ العربيِّ: إنّما كانتْ لإبراهيمَ في الأعقابِ موصولةٌ بالأحقابِ بدعوتيهِ المجابتينِ:

إحداهما: في قولهِ ﴿إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًاۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِىۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ فقدْ قالَ نعمْ إلّا منْ ظلمَ منهمْ فلا عهدَ.

ثانيهما: قولهُ: ﴿وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾. وقيلَ: بلِ الأولى قولهُ: ﴿وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْءَاخِرِينَ﴾ فكلُّ أمّةٍ تعظّمهُ، بنوهُ وغيرهمْ ممّنْ يجتمعُ معهُ في سامٍ أوْ نوحٍ.

الثالثة– قالَ ابن العربي: جرى ذكر العقب ها هنا موصولاً في المعنى، وذلكَ ممّا يدخلُ في الأحكامِ وترتّبُ عليهِ عقودُ العمرى والتّحبيسِ. قالَ النبي ﷺ: «أيّما رجلٍ أعمرَ عمرى

لهُ ولعقبهِ فإنّها للّذي أعطيها لا ترجعُ إلى الّذي أعطاها لأنّهُ أعطى عطاءً وقعتْ فيهِ المواريثُ». وهيَ تردُ على أحدَ عشرَ لفظًا:

اللّفظُ الأوّلُ- الولدُ، وهوَ عندَ الإطلاقِ عبارةٌ عمّنْ وجدَ منَ الرّجلِ وامرأتهِ في الإناثِ والذّكورِ. وعنْ ولدِ الذّكورِ دونَ الإناثِ لغةً وشرعًا، ولذلكَ وقعَ الميراثُ على الولدِ المعيّنِ وأولادِ الذّكورِ منَ المعيّنِ دونَ ولدِ الإناثِ لأنّهُ منْ قومٍ آخرينَ، ولذلكَ لمْ يدخلوا في الحبسِ بهذا اللّفظِ، وهذا مذهبُ مالكٍ وجميعُ أصحابهِ المتقدّمينَ، ومنْ حجّتهمْ على ذلكَ الإجماعِ على أنَّ ولدَ البناتِ لا ميراثَ لهمْ معَ قولهِ تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡۖ﴾.

وقدْ ذهبَ جماعةٌ منَ العلماءِ إلى أنَّ ولدَ البناتِ منَ الأولادِ والأعقابِ يدخلونَ في الأحباسِ، يقولُ المحبسُ: حبستُ على ولدي أوْ على عقبي، واحتجوا بقول الله عز وجل: ﴿حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمۡ أُمَّهَٰتُكُمۡ وَبَنَاتُكُمۡ﴾. قالوا: فلمّا حرّمَ اللّهُ البناتِ فحرّمتْ بذلكَ بنتُ البنتِ بإجماعٍ علمَ أنّها بنتٌ ووجبَ أنْ تدخلَ في حبسِ أبيها إذا حبسَ على ولدهِ أوْ عقبهِ.

اللّفظُ الثّاني- البنونَ، فإنْ قالَ: هذا حبسٌ على ابني، فلا يتعدّى الولدَ المعيّنَ ولا يتعدّدُ. ولوْ قالَ ولدي، لتعدّى وتعدّدَ في كلِّ منْ ولدَ. وإنْ قالَ على بنيَّ، دخلَ فيهِ الذّكورُ والإناثُ. قالَ مالكٌ: منْ تصدّقَ على بنيهِ وبني بنيهِ فإنَّ بناتهُ وبناتَ بناتهِ يدخلنَ في ذلكَ. والّذي عليهِ جماعةُ أصحابهِ أنَّ ولدَ البناتِ لا يدخلونَ في البنينَ. فإنْ قيلَ فقدْ قالَ النّبيُّ ﷺ في الحسنِ ابنِ ابنتهِ: «إنَّ ابني هذا سيّدٌ ولعلَّ اللّهَ أنْ يصلحُ بهِ بينَ فئتينِ عظيمتينِ منَ المسلمينَ».

قلنا: هذا مجازٌ، وإنّما أشارَ بهِ إلى تشريفهِ وتقديمهِ، ألا ترى أنّهُ يجوزُ نفيهُ عنهُ فيقولُ الرّجلُ في ولدِ بنتهِ ليسَ بابني، ولوْ كانَ حقيقةً ما جاز نفيه عنه، لأنَّ الحقائقَ لا تنفى عنْ منتسباتها. ألا ترى أنّهُ ينتسبُ إلى أبيهِ دونَ أمّهِ.

قلت: هذا الاستدلالُ غيرُ صحيحٍ، بلْ هوَ ولدٌ على الحقيقةِ في اللّغةِ لوجودِ معنى الولادةِ فيهِ، ولأنَّ أهلَ العلمِ قدْ أجمعوا على تحريمِ بنتِ البنتِ منْ قولِ الله تعالى ﴿حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمۡ أُمَّهَٰتُكُمۡ وَبَنَاتُكُمۡ﴾. وقالَ تعالى: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ﴾- إلى قولهِ-

﴿مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ فجعلَ عيسى منْ ذرّيّتهِ وهوَ ابنُ بنتهِ، فإنْ قيلَ فقدْ قالَ الشّاعرُ:

بنونا بنو أبنائنا، وبناتنا بنوهنَّ أبناءُ الرّجالِ الأباعدِ

قيلَ لهمْ: هذا لا دليلَ فيهِ، لأنَّ معنى قولهِ إنّما هوَ ولدُ بنيهِ الذّكرانِ همُ الّذينَ لهمْ حكمُ بنيهِ في الموارثةِ والنّسبِ، وإنَّ ولدَ بناتهِ ليسَ لهمْ حكمُ بناتهِ في ذلكَ، إذْ ينتسبونَ إلى غيرهِ فأخبرَ بافتراقهمْ بالحكمِ معَ اجتماعهمْ في التّسميةِ ولمْ ينفِ عنْ ولدِ البناتِ اسمَ الولدِ لأنّهُ ابنٌ، وقدْ يقولُ الرّجلُ في ولدهِ ليسَ هوَ بابني إذْ لا يطيعني ولا يرى لي حقاً، ولا يريدُ بذلكَ نفيَ اسمِ الولدِ عنهُ وإنّما يريدُ أنْ ينفيَ عنهُ حكمهُ.

اللّفظُ الثّالثُ- الذّرّيّةُ، وهيَ مأخوذةٌ منْ ذرأَ اللّهُ الخلقَ، فيدخلُ فيهِ ولدُ البناتِ لقولهِ ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ﴾- إلى أنْ قالَ- ﴿وَزَكَرِيَّا وَيَحۡيَىٰ وَعِيسَىٰ﴾. وإنّما كانَ منْ ذرّيّتهِ منْ قبلِ أمّهِ.

اللّفظُ الرّابعُ- العقبُ، وعقبُ الرّجلِ: ولدهُ وولدُ ولدهِ الباقونَ بعدهُ، ولا فرقَ عندَ أحدٍ منَ العلماءِ بينَ لفظِ العقبِ والولدِ في المعنى. واختلفَ في الذّرّيّةِ والنّسلِ فقيلَ إنهمّا بمنزلةِ الولدِ والعقبِ، لا يدخلُ ولدُ البناتِ فيهما على مذهبِ مالكٍ. وقيلَ: إنّهمْ يدخلونَ فيهما.

اللّفظُ الخامسُ- نسلي، وهوَ عندَ علمائنا كقولهِ ولدي وولدُ ولدي، فإنّهُ يدخلُ فيهِ ولدُ البناتِ. ويجبُ أنْ يدخلوا، لأنَّ نسلَ بهِ بمعنى خرجَ، وولدُ البناتِ قدْ خرجوا منهُ بوجهٍ، ولمْ يقترنْ بهِ ما يخصّهُ كما اقترنَ بقولهِ عقبي ما تناسلوا. وقالَ بعضُ علمائنا: إنَّ النّسلَ بمنزلةِ الولدِ والعقبِ لا يدخلُ فيهِ ولدُ البناتِ، إلّا أنْ يقولَ المحبسُ نسلي ونسلُ نسلي، كما إذا قالَ عقبي وعقبُ عقبي، وأمّا إذا قالَ ولدي أوْ عقبي مفرداً فلا يدخلُ فيهِ البناتُ.

اللّفظُ السّادسُ- الآلُ، وهمُ الأهلُ، وهوَ اللّفظُ السّابعُ. وهما سواءٌ، وهمُ العصبةُ والإخوةُ والبناتُ والعمّاتُ، ولا يدخلُ فيهِ الخالاتُ. وأصل أهل الاجتماع، يقالُ: مكانٌ أهلٌ إذا كانَ فيهِ جماعةٌ، وذلكَ بالعصبةِ ومنْ دخلَ في القعددِ منَ النّساءِ، والعصبةُ مشتقّةٌ منهُ وهيَ أخصُّ بهِ. وفي حديثِ الإفكِ: يا رسولَ اللّهِ، أهلكَ! ولا نعلمُ إلّا خيراً، يعني عائشةَ. ولكنْ لا تدخلُ فيهِ الزّوجةُ بإجماعٍ وإنْ كانتْ أصلَ التّأهّلِ، لأنَّ ثبوتها ليسَ بيقينٍ إذْ قدْ يتبدّلُ

ربطها وينحلُّ بالطّلاقِ، وهذهِ المعاني إنّما تبنى على الحقيقةِ أوْ على العرفِ المستعملِ عندَ الإطلاقِ، فهذانِ لفظانِ.

اللّفظُ الثّامنُ- قرابةٌ، فيهِ أربعةُ أقوالٍ:

الأوّلُ- قالَ مالكٌ: إنّهمُ الأقربُ فالأقربُ بالاجتهادِ، ولا يدخلُ فيهِ ولدُ البناتِ ولا ولدُ الخالاتِ.

الثّاني- يدخلُ فيهِ أقاربهُ منْ قبلِ أبيهِ وأمّهِ.

الثّالثُ- يدخلُ فيهِ كلُّ رحمٍ منَ الرّجالِ والنّساءِ.

الرّابعُ- يدخلُ فيهِ الأعمامُ والعمّاتُ والأخوالُ والخالاتُ وبناتُ الأختِ. وقدْ قالَ ابنُ عبّاسٍ في تفسيرِ قولهِ تعالى: ﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰۗ﴾ قالَ: إلّا أنْ تصلوا قرابةَ ما بيني وبينكمْ، وقالَ: لمْ يكنْ بطنٌ منْ قريشٍ إلّا كانَ بينهُ وبينَ النّبيِّ ﷺ قرابةٌ، فهذا يضبطهُ واللّهُ أعلمُ.

اللّفظُ التّاسعُ- العشيرةُ، ويضبطهُ الحديثُ الصّحيحُ: إنَّ اللّهَ تعالى لمّا أنزلَ ﴿وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ﴾ دعا النّبيُّ ﷺ بطونَ قريشٍ وسمّاهمْ- كما تقدّمَ ذكرهُ- وهمُ العشيرةُ الأقربونَ، وسواهمْ عشيرةٌ في الإطلاقِ. واللّفظُ يحملُ على الأخصِّ الأقربِ بالاجتهادِ، كما تقدّمَ منْ قولِ علمائنا.

اللّفظُ العاشرُ- القومُ، يحملُ ذلكَ على الرّجالِ خاصة من العصبة دون النساء. والقوم يشملُ الرّجالَ والنّساءَ، وإنْ كانَ الشّاعرُ قدْ قالَ:

وما أدري وسوفَ إخالُ أدري أقومٌ آلُ حصنٍ أمْ نساءُ

ولكنّهُ أرادَ أنَّ الرّجلَ إذا دعا قومهُ للنّصرةِ عنى الرّجالَ، وإذا دعاهمْ للحرمةِ دخلَ فيهمُ الرّجالُ والنّساءُ، فتعمّمهُ الصّفةُ وتخصّصهُ القرينةُ.

اللّفظُ الحاديَ عشرَ- الموالي، قالَ مالكٌ: يدخلُ فيهِ موالي أبيهِ وابنهِ معَ مواليهِ، قالَ ابنُ العربيِّ: والّذي يتحصّلُ منهُ أنّهُ يدخلُ فيهِ منْ يرثهُ بالولاءِ.

قولهُ تعالى: ﴿بَلْ مَتَّعْتُ هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ﴾ أيْ في الدّنيا بالإمهالِ. ﴿حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ﴾ أيْ محمّدٌ ﷺ بالتّوحيدِ والإسلام ﴿وَرَسُولٌ مُّبِينٌ ٢٩﴾ أيْ يبيّنُ لهمْ ما بهمْ إليهِ حاجةٌ. ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ﴾ يعني القرآنَ. ﴿قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ ٣٠﴾ جاحدون. ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ﴾ أيْ هلّا نزلَ ﴿هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ٣١﴾ أيْ منْ إحدى القريتينِ، كقولهِ تعالى: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾ أيْ منْ أحدهما. والقريتانِ: مكّةُ والطّائفُ. والرّجلانِ: الوليدُ بنِ المغيرةِ عمُّ أبي جهلٍ وكانَ يسمّى ريحانةَ قريشٍ. والّذي منَ الطّائفِ أبو مسعودٍ عروةُ بنُ مسعودٍ الثّقفيُّ، - فقالَ اللّهُ تعالى: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ﴾ يعني النّبوّةَ فيضعونها حيثُ شاءوا. ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ﴾ فإذا لمْ يكنْ أمرُ الدّنيا إليهمْ فكيفَ يفوّضُ أمرُ النّبوّةِ إليهمْ. ﴿وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ﴾ أيْ فاضلنا بينهمْ، فمنْ فاضلٍ ومفضولٍ ورئيسٍ ومرؤوسٍ، وغني وفقير، ﴿لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ﴾ فيكون بعضهمْ سبباً لمعاشِ بعضٍ، وقيلَ: هوَ منَ السّخريةِ الّتي بمعنى الاستهزاءِ، أيْ ليستهزئَ الغنيُّ بالفقيرِ. ﴿وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ٣٢﴾ منَ الدّنيا. ثمَّ قيل: الرّحمةُ النّبوّةُ، وقيلَ الجنّةُ. وقيلَ: تمامُ الفرائضِ خيرٌ منْ كثرة النّوافلِ. وقيلَ: ما يتفضّلُ بهِ عليهمْ خيرٌ مما يجازيهم عليه من أعمالهم.

قولهُ تعالى: ﴿وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ٣٣﴾، فيهِ خمسُ مسائلَ:

الأولى - قالَ العلماءُ: ذكرَ حقارةَ الدّنيا وقلّةَ خطرها، وأنّها عندهُ منَ الهوانِ بحيثُ كانَ يجعلُ بيوتَ الكفرةِ ودرجها ذهباً وفضّةً لولا غلبةُ حبِّ الدّنيا على القلوبِ، فيحملُ ذلكَ على الكفرِ.

الثانية - قرأَ ابنُ كثيرٍ وأبو عمرو «سَقْفًا» بفتحِ السّينِ وإسكانِ القافِ على الواحدِ ومعناهُ الجمعُ، اعتباراً بقولهِ تعالى: ﴿فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ﴾. وقرأَ الباقونَ بضمِّ السّينِ والقافِ على الجمعِ، مثلَ رَهْنٍ ورُهُنٍ.

الثالثة - قوله تعالى: ﴿وَمَعَارِجَ﴾ يعني الدرج، واحدها معراجٌ، والمعراجُ السّلّمُ، ومنهُ

ليلةُ المعراجِ. والجمعُ معارجُ ومعاريجُ، مثلُ مفاتحَ ومفاتيحَ، لغتانِ ﴿عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ٣٣﴾ يرتقونَ ويصعدونَ، يقالُ: ظهرتُ على البيتِ أيْ علوتُ سطحهُ. وهذا لأنَّ منْ علا شيئًا وارتفعَ عليهِ ظهرَ للنّاظرينَ. ويقالُ: ظهرتُ على الشّيءِ أيْ علمتهُ. وظهرتُ على العدوِّ أيْ غلبتهُ. وأنشدَ نابغةُ بني جعدةَ رسولِ اللّهِ ﷺ قولهُ:

علونا السّماءَ عزّةً ومهابةً وإنّا لنرجوُ فوقَ ذلكَ مظهرا

أيْ مصعداً، فغضبَ رسولُ اللّهِ ﷺ، وقالَ: إلى أينَ؟ قالَ إلى الجنّةِ، قالَ: أجلْ إنْ شاءَ اللّهُ. قالَ الحسنُ: واللّهِ لقدْ مالتِ الدّنيا بأكثرِ أهلها وما فعلَ ذلكَ! فكيفَ لوْ فعلَ؟!

الرابعة- استدلَّ بعضُ العلماءِ بهذهِ الآيةِ على أنَّ السّقفَ لا حقَّ فيهِ لربِّ العلوِّ، لأنَّ اللّهَ تعالى جعلَ السّقوفَ للبيوتِ كما جعلَ الأبوابَ لها. وهذا مذهبُ مالكٍ رحمهُ اللّهُ. قالَ ابنُ العربيِّ: وذلكَ لأنَّ البيتَ عبارةٌ عنْ قاعةٍ وجدارٍ وسقفٍ وبابٍ، فمنْ لهُ البيتُ فلهُ أركانهُ. ولا خلافَ أنَّ العلوَّ لهُ إلى السّماءِ. واختلفوا في السّفلِ، فمنهمْ منْ قالَ هوَ لهُ، ومنهمْ منْ قالَ ليسَ لهُ في باطنِ الأرضِ شيءٌ. وفي مذهبنا القولانِ. وقدْ بيّنَ حديثُ الإسرائيليِّ الصّحيحِ فيما تقدّمَ: أنَّ رجلاً باعَ منْ رجلٍ داراً فبناها فوجدَ فيها جرّةً منْ ذهبٍ، فجاءَ بها إلى البائعِ فقالَ: إنّما اشتريتُ الدّارَ دونَ الجرّةِ، وقالَ البائعُ: إنّما بعتُ الدّارَ بما فيها، وكلّهمْ تدافعها فقضى بينهمُ النّبيُّ ﷺ أنْ يزوجَ أحدهما ولده من بنت الآخرِ ويكونُ المالُ لهما. والصّحيحُ أنَّ العلوَّ والسّفلَ لهُ إلّا أنْ يخرجَ عنهما بالبيعِ، فإذا باعَ أحدهما أحدَ الموضعينِ فلهُ منهُ ما ينتفعُ بهِ وباقيهِ للمبتاعِ منهُ.

الخامسة- منْ أحكامِ العلوِّ والسّفلِ إذا كانَ العلوُّ والسّفلُ بينَ رجلينِ فيعتلُّ السّفلَ أوْ يريدُ صاحبهُ هدمهُ، فذكرَ سحنونٌ عنْ أشهبَ أنّهُ قالَ: إذا أرادَ صاحبُ السّفلِ أنْ يهدمَ، أوْ أرادَ صاحبُ العلوِّ أنْ يبنيَ علوّهُ فليسَ لصاحبِ السّفلِ أنْ يهدمَ إلّا منْ ضرورةٍ، ويكونُ هدمهُ لهُ أرفقَ لصاحبِ العلوِّ، لئلّا ينهدمَ بانهدامهِ العلوُّ، وليسَ لربِّ العلوِّ أنْ يبنيَ على علوّهِ شيئًا لمْ يكنْ قبلَ ذلكَ إلّا الشّيءَ الخفيفَ الّذي لا يضرُّ بصاحبِ السّفلِ، ولوِ انهدمَ السّفلُ أجبرَ صاحبهُ على بنائهِ، وليسَ على صاحبِ العلوِّ أنْ يبنيَ السّفلَ، فإنْ أبى صاحبُ السّفلِ منَ البناءِ قيلَ لهُ بعْ ممّنْ يبني. وروى ابنُ القاسمِ عنْ مالكٍ في السّفلِ لرجلٍ والعلوِّ لآخرَ

فاعتلَّ السّفلُ، فإنَّ صلاحهُ على ربِّ السّفلِ وعليهِ تعليقُ العلوِّ حتّى يصلحَ سفلهُ، لأنَّ عليهِ إمّا أنْ يحملهُ على بنيانٍ أوْ على تعليقٍ، وكذلكَ لوْ كانَ على العلو علو فتعليقُ العلوِّ الثّاني على صاحبِ الأوسطِ. وقدْ قيل: إنَّ تعليقَ العلوِّ الثّاني على ربِّ العلوِّ حتّى يبنيَ الأسفلَ. وحديثُ النّعمانِ بنِ بشيرٍ عنِ النّبيِّ ﷺ قالَ: «مثلُ القائمِ على حدودِ اللّهِ والواقعِ فيها كمثلِ قومٍ استهموا على سفينةٍ فأصابَ بعضهمْ أعلاها وبعضهمْ أسفلها فكانَ الّذينَ في أسفلها إذا استقوا منَ الماءِ مرّوا على منْ فوقهمْ فقالوا لوْ أنّا خرقنا في نصيبنا خرقا ولم نؤذ منْ فوقنا فإنْ يتركوهمْ وما أرادوا هلكوا جميعًا وإنْ أخذوا على أيديهمْ نجوا ونجوا جميعًا» - أصلٌ في هذا البابِ. وهوَ حجّةٌ لمالكٍ وأشهبَ.

وفيهِ دليلٌ على أنَّ صاحبَ السّفلِ ليسَ لهُ أنْ يحدثَ على صاحبِ العلوِّ ما يضرُّ بهِ، وأنّهُ إنْ أحدثَ عليهِ ضرراً لزمهُ إصلاحهُ دونَ صاحبِ العلوِّ، وأنَّ لصاحبِ العلوِّ منعهُ منَ الضّررِ، لقولهِ ﷺ: «فإنْ أخذوا على أيديهمْ نجوا ونجوا جميعًا» ولا يجوزُ الأخذُ إلّا على يدِ الظّالمِ أوْ منْ هوَ ممنوعٌ منْ إحداثِ ما لا يجوزُ لهُ في السّنّةِ. وفيهِ دليلٌ على استحقاقُ العقوبةِ بتركِ الأمرِ بالمعروفِ والنّهيِ عنِ المنكرِ، وفيهِ دليلٌ على جوازِ القرعةِ واستعمالها.

قولهُ تعالى: ﴿وَلِبُيُوتِهِمۡ أَبۡوَٰبًا﴾ أيْ منْ فضّةٍ. ﴿وَسُرُرًا﴾ كذلكَ، وهوَ جمعُ السّريرِ. وقيلَ: جمعُ الأسرّةِ، والأسرّةُ جمعُ السرير، فيكون جمع الجمع. ﴿عليها يتّكئون﴾ الاتكاء والتوكؤ: التحامل على الشيء، ومنه ﴿أَتَوَكَّؤُاْ عَلَيۡهَا﴾. ﴿وَزُخۡرُفٗاۚ﴾ الزّخرفُ هنا الذّهبُ، نظيرهُ: ﴿أَوۡ يَكُونَ لَكَ بَيۡتٞ مِّن زُخۡرُفٍ﴾. وقيلَ: الأمتعةِ والأثاثِ. أو النّقوشُ، وأصلهُ الزّينةُ. يقالُ: زخرفتُ الدّارَ، أيْ زيّنتها. ﴿وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ﴾ قرأَ عاصمٌ وحمزةُ وهشامٌ عنِ ابنِ عامرٍ ﴿وَإِنَّ كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ﴾ بالتّشديدِ. الباقونَ بالتّخفيفِ، ﴿وَٱلۡأٓخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلۡمُتَّقِينَ ٣٥﴾ يريدُ الجنّةُ لمنِ اتّقى وخافَ. وفي صحيحِ التّرمذيُّ عنْ أبي هريرةَ قالَ: قالَ رسولُ اللّهِ ﷺ: «الدّنيا سجنُ المؤمنِ وجنّةُ الكافرِ». وعنْ سهلِ بنِ سعدٍ قالَ: قالَ رسولُ اللّهِ ﷺ: «لوْ كانتِ الدّنيا تعدلُ عندَ اللّهِ جناحَ بعوضةٍ ما سقى كافراً منها شربةَ ماءٍ». وفي البابِ عنْ أبي هريرةَ، وقالَ: حديثٌ حسنٌ غريبٌ. وأنشدوا:

فلوْ كانتِ الدّنيا جزاءً لمحسنٍ إذاً لمْ يكنْ فيها معاشٌ لظالمِ
لقدْ جاعَ فيها الأنبياءُ كرامةً وقدْ شبعتْ فيها بطونُ البهائمِ

قولهُ تعالى: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ٣٦﴾ ﴿يَعْشُ﴾ بالضّمِّ، منْ عشا يعشو والعشوُّ هوَ النّظرُ ببصرٍ ضعيفٍ، والعشواءُ: النّاقةُ الّتي لا تبصرُ أمامها فهيَ تخبطُ بيديها كل شيء. وركبَ فلانُ العشواءَ إذا خبطَ أمرهُ على غيرِ بصيرةٍ. وفلانٌ خابطٌ خبطَ عشواءٍ.

﴿نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا﴾ أيْ نسبّبُ لهُ شيطاناً جزاءً لهُ على كفرهِ ﴿فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ﴾ قيلَ في الدّنيا، يمنعهُ منَ الحلالِ، ويبعثهُ على الحرامِ، وينهاهُ عنِ الطّاعةِ، ويأمرهُ بالمعصية، وقيلَ في الآخرةِ إذا قامَ منْ قبرهِ، والصّحيحُ فهوَ لهُ قرينٌ في الدّنيا والآخرةِ.

﴿وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ أي الهدى ﴿وَيَحْسَبُونَ﴾ أيْ ويحسبُ الكفّارُ ﴿أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ٣٧﴾ وقيلَ: ويحسبُ الكفّارُ إنَّ الشّياطينَ مهتدونَ فيطيعونهمْ. ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا﴾ على التّوحيدِ، قرأَ أبو عمرو وحمزةُ والكسائيُّ وحفصٌ، يعني الكافرُ يومَ القيامةِ. الباقونَ «جَاءَانَا» على التّثنيةِ، يعني الكافرُ وقرينهُ وقدْ جعلا في سلسلةٍ واحدةٍ، فيقول الكافر ﴿يَٰلَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ﴾ أيْ مشرقُ الشّتاءِ ومشرقُ الصّيفِ، كما قالَ تعالى: ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ﴾، وقراءةُ التّوحيدِ وإنْ كانَ ظاهرها الإفرادَ فالمعنى لهما جميعاً، لأنّهُ قدْ عرف ذلك بما بعده، وقيلَ: أرادَ المشرقَ والمغربَ فغلّبَ اسمَ أحدهما، كما يقالُ: القمرانِ للشّمسِ والقمرِ، والعمرانِ لأبي بكرٍ وعمرَ، والبصرتانِ للكوفةِ والبصرةِ، والعصرانِ للغداةِ والعصرِ.

﴿فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ ٣٨﴾ أيْ فبئسَ الصّاحبُ أنتَ، لأنّهُ يوردهُ إلى النّارِ.

قولهُ تعالى: ﴿وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ﴾ أيْ لا تنفعُ النّدامةُ اليومَ. ﴿إِنَّكُمْ﴾ بالكسرِ ﴿فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ٣٩﴾ وهيَ قراءةُ ابنُ عامرٍ باختلافٍ عنهُ. الباقونَ بالفتحِ. وهيَ في موضعِ رفعِ تقديرهُ: ولنْ ينفعكمُ اليومَ اشتراككمْ في العذابِ، لأنَّ لكلِ واحدٍ نصيبهُ الأوفرَ منهُ. أعلمَ اللّهُ تعالى أنّهُ منعَ أهلَ النّارِ التّأسّي كما يتأسّى أهلُ المصائبِ في الدّنيا،

وذلكَ أنَّ التّأسّيَ يستروحهُ أهلُ الدّنيا، كما قالتِ الخنساءُ:

فلولا كثرةُ الباكينَ حولي على إخوانهمْ لقتلتُ نفسي
وما يبكونَ مثلَ أخي ولكنْ أعزّي النّفسَ عنهُ بالتّأسّي

قولهُ تعالى: ﴿أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ أَوْ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ﴾ يا محمّدُ ﴿وَمَن كَانَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٤٠﴾﴾ أيْ ليسَ لكَ ذلكَ فلا يضيقُ صدركَ إنْ كفروا، ففيهِ تسليةٌ للنّبيِّ ﷺ. وفيهِ ردٌّ على القدريّةِ وغيرهمْ، وأنَّ الهدى والرّشدَ والخذلانَ في القلبِ خلقُ اللّهِ تعالى، يضل من يشاء ويهدي من يشاء.

قولهُ تعالى: ﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ﴾ ونخرجنك منْ مكّةَ منْ أذى قريشٍ. ﴿فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ ﴿٤١﴾ أَوْ نُرِيَنَّكَ ٱلَّذِى وَعَدْنَـٰهُمْ﴾ وهوَ الانتقامُ منهمْ في حياتك ﴿فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ ﴿٤٢﴾﴾ وقدْ أراهُ اللّهُ ذلكَ يومَ بدرٍ، وهوَ قولُ أكثرِ المفسّرينَ. وقيلَ: هيَ في أهلِ الإسلامِ وما كانَ بعدَ النّبيِّ ﷺ من الفتن. و ﴿نَذْهَبَنَّ بِكَ﴾ على هذا نتوفّينّكَ. وقدْ كانَ بعدَ النّبيِّ ﷺ نقمةٌ شديدةٌ فأكرمَ اللّهُ نبيّهُ ﷺ وذهبَ بهِ فلمْ يرهْ في أمّتهِ إلّا الّتي تقرُّ بهِ عينهُ وأبقى النّقمةَ بعدهُ، وليسَ منْ نبيٍّ إلّا وقدْ أريَ النّقمةَ في أمّتهِ.

قولهُ تعالى: ﴿فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ﴾ يريدُ القرآنَ، وإنْ كذّبَ بهِ منْ كذّبَ، فـ ﴿إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾﴾ يوصلكَ إلى اللّهِ ورضاهُ وثوابهِ. ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ يعني القرآنَ شرفٌ لكَ ولقومكَ منْ قريشٍ، إذْ نزلَ بلغتهمْ وعلى رجلٍ منهمْ، نظيرهُ: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَـٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾ أيْ شرفكمْ. فالقرآنُ نزلَ بلسانِ قريشٍ وإيّاهمْ خاطبَ، فاحتاجَ أهلُ اللّغاتِ كلّها إلى لسانهمْ كلُّ منْ آمنَ بذلكَ فصاروا عيالاً عليهمْ، وقيلَ: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ يعني الخلافةَ فإنّها في قريشٍ لا تكونُ في غيرهمْ، قالَ النّبيُّ ﷺ: «النّاسُ تبعٌ لقريشٍ في هذا الشّأنِ مسلمهمْ تبعٌ لمسلمهمْ وكافرهمْ تبعٌ لكافرهمْ». ﴿وَلِقَوْمِكَ﴾ فيهمْ قولانِ:

أحدهما- منِ اتّبعكَ منْ أمّتكَ.

الثّاني- لقومكَ منْ قريشٍ، والصّحيحُ أنّهُ شرفٌ لمنْ عملَ بهِ، كانَ منْ قريشٍ أوْ من

غيرهمْ.

﴿وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴿٤٤﴾﴾ عن الشكر عليه، وعما عملتم فيه، والمعنى متقارب.

قولهُ تعالى: ﴿وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾﴾

قيل: سألهمْ ليلةَ أسريَ بهِ، لقيَ الأنبياءَ ولقيَ آدمَ ومالك خازنَ النّارِ، وقيلَ: المعنى واسألْ تبّاعَ منْ أرسلنا منْ قبلكَ منْ رسلنا، فحذفَ المضافَ. والخطابُ للنّبيِّ ﷺ والمرادُ أمّتهُ. ﴿أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ﴾ أخبرَ عنِ الآلهةِ كما أخبرَ عمّنْ يعقلُ فقالَ: ﴿يُعْبَدُونَ﴾ ولمْ يقلْ تعبدُ ولا يعبدنَ، لأنَّ الآلهةَ جرتْ عندهمْ مجرى منْ يعقلُ فأجرى الخبرَ عنهمْ مجرى الخبرِ عمّنْ يعقلُ.

واختلفَ أهلُ التّأويلِ في سؤالِ النّبيِّ ﷺ لهمْ على قولينِ:

أحدهما- أنّهُ سألهمْ فقالتِ الرّسلُ بعثنا بالتّوحيدِ.

الثّاني- أنّهُ لمْ يسألهمْ ليقينهِ باللّهِ عزَّ وجلَّ.

قولهُ تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ بالمعجزاتِ وهيَ التّسعُ الآياتُ فكُذّبَ، فجعلتِ العاقبةُ الجميلةُ لهُ، فكذلكَ أنتَ. ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم بِـَٔايَٰتِنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ ﴿٤٧﴾﴾ استهزاءً وسخريةً ﴿وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِىَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا﴾ فكانتْ كلُّ واحدةٍ أعظمَ ممّا قبلها. ﴿وَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ﴾ أيْ على تكذيبهمْ بتلكَ الآياتِ، وهوَ كقولهِ تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾. والطّوفانُ والجرادُ والقمّلُ والضّفادعُ. وكانتْ هذهِ الآياتُ الأخيرةُ عذاباً لهمْ وآياتٍ لموسى. ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤٨﴾﴾ منْ كفرهمْ. ﴿وَقَالُواْ يَـٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ﴾ لمّا عاينوا العذابَ قالوا يا أيّها السّاحرُ، نادوهُ بما كانوا ينادونهُ بهِ منْ قبلِ ذلكَ على حسبِ عادتهمْ. وقيلَ: كانوا يسمّونَ العلماءَ سحرةً فنادوهُ بذلكَ على سبيلِ التّعظيمِ، وكانَ السّاحرُ فيهمْ عظيماً يوقّرونهُ، وقرأ ابنُ عامرٍ «ايهُ السَّاحِرُ» بغيرِ ألفٍ والهاءُ مضمومةٌ، ووقفَ أبو عمرو والكسائيُّ: ﴿أَيُّهَا﴾ بالألفِ على الأصلِ. الباقونَ بغيرِ ألفٍ، لأنّها كذلكَ وقعتْ في المصحفِ. ﴿ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ﴾ أنّا إنْ آمنّا كشفَ عنّا،

فسلهُ يكشفُ عنّا ﴿إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾﴾ أيْ فيما يستقبلُ. ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ﴾ أيْ فدعا فكشفنا. ﴿إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿٥٠﴾﴾ أيْ ينقضونَ العهدَ الّذي جعلوهُ على أنفسهمْ فلمْ يؤمنوا.

قولهُ تعالى: ﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِۦ﴾ قيلَ: لمّا رأى تلكَ الآياتِ خافَ ميلَ القومِ إليهِ فجمعَ قومهُ فقالَ، فنادى بمعنى قالَ، أو أمرَ منْ ينادي في قومهِ ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ﴾ أيْ لا ينازعني فيهِ أحدٌ ﴿وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ﴾ يعني أنهارَ النّيلِ، تجري منْ تحتِ قصورهِ، وقيلَ: ﴿مِن تَحْتِىٓ﴾ أيْ تصرّفي نافذٌ فيها منْ غيرِ صانعٍ. ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾﴾ عظمتي وقوّتي وضعفَ موسى. ثمَّ صرّحَ بحالهِ فقالَ ﴿أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ﴾ ﴿أَمْ﴾ بمعنى ﴿بَلْ﴾ وليستْ بحرفِ عطفٍ، ﴿مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ﴾ أيْ لا عزَّ لهُ فهوَ يمتهنُ نفسهُ في حاجاتهِ لحقارتهِ وضعفهِ ﴿وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾﴾ يعني ما كانَ في لسانهِ منَ العقدةِ.

قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَآ﴾ أي هلا ﴿أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ﴾ إنّما قالَ ذلكَ لأنّهُ كانَ عادةَ الوقتِ وزيَّ أهلِ الشّرفِ. وقرأ حفصٌ ﴿أَسْوِرَةٌ﴾ جمعُ سوارٍ، كخمارٍ وأخمرةٌ. الباقونَ «أَسَاوِرَةٌ» جمعُ الأَسْوِرةِ، ﴿أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾﴾ يعاونونهُ على منْ خالفهُ، ويكونُ ذلكَ أهيبَ في القلوبِ، وكلُّ عاقلٍ يعلمُ أنَّ حفظَ اللّهِ موسى معَ تفرّدهِ ووحدتهِ منْ فرعونَ معَ كثرةِ أتباعهِ، وإمدادَ موسى بالعصا واليدِ البيضاءِ كانَ أبلغَ منْ أنْ يكونَ لهُ أسورةٌ أوْ ملائكةٌ يكونونَ معهُ أعوانًا. وقدْ كانَ في الجائزِ أنْ يكذّبَ معَ مجيءِ الملائكةِ كما كذّبَ معَ ظهورِ الآياتِ. وذكرَ فرعونُ الملائكةَ حكايةً عنْ لفظِ موسى، لأنّهُ لا يؤمنُ بالملائكةِ منْ لا يعرفُ خالقهم.

قولهُ تعالى: ﴿فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ﴾ فاستجهلهم ﴿فَأَطَاعُوهُ﴾ لخفّةِ أحلامهمْ وقلّةِ عقولهمْ، ومنهُ ﴿وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾. ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾﴾ أيْ خارجينَ عنْ طاعةِ اللّهِ.

قولهُ تعالى: ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا﴾ أغضبونا ﴿ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾﴾.

قولهُ تعالى: ﴿فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا﴾ إلى النّارِ لمنْ عملَ عملهمْ ﴿وَمَثَلًا لِّلْآخِرِينَ ﴿٥٦﴾﴾ عظةً لمنْ يأتي بعدهمْ ويعملُ عملهمْ. وقراءةُ العامّةِ «سَلَفًا» بفتحِ السّينِ واللّامِ جمعُ سالفٍ، كخادمٍ وخدمَ، وراصدٍ ورصدَ، وحارسٍ وحرسَ. وقرأ حمزةُ والكسائيُّ: «سُلُفًا» بضمِّ السّينِ واللّام. قالَ الفرّاءُ: هوَ جمعُ سليفٍ، نحوَ سريرٍ وسررٌ. وقيلَ: هوَ جمعُ سلفٍ، نحوَ خشبٍ وخشُبٌ، وثمرٍ وثُمرٌ، ومعناهما واحدٌ.

قولهُ تعالى: ﴿۞وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾﴾ أيْ يضجّونَ كضجيجِ الإبلِ عندَ حملِ الأثقال. قرأ نافعٌ وابنُ عامرٍ والكسائيُّ: «يَصُدُّونَ» بضمِّ الصّادِ ومعناهُ يعرضونَ، وكسرَ الباقونَ. قالَ الكسائيُّ: هما لغتانِ، مثلُ يعرِشونَ ويعرُشونَ، وقيلَ: إنّهُ بالضّمِّ منَ الصّدودِ وهوَ الإعراضُ، وبالكسرِ منَ الضّجيج.

قولهُ تعالى: ﴿وَقَالُوٓاْ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ﴾ أيْ آلهتنا خيرٌ أمْ عيسى؟ وقالوا إنَّ كلَّ منْ عبدَ منْ دونِ اللّهِ في النّارِ، فنحنُ نرضى أنْ تكونَ آلهتنا معَ عيسى والملائكةِ وعزيرٍ، فأنزلَ اللّهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ الآيةَ. وقيل: ﴿أَمْ هُوَ﴾ يعنونَ محمّداً ﷺ. وقرأ الكوفيّونَ ويعقوبُ ﴿ءَأَٰلِهَتُنَا﴾ بتحقيقِ الهمزتينِ، وليّنَ الباقونَ. وقدْ تقدّمَ. ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًۢا﴾ أي إلّا إرادةَ الجدلِ، لأنّهمْ علموا أنَّ المرادَ بحصبِ جهنّمَ ما اتّخذوهُ منَ المواتِ ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾﴾ مجادلونَ بالباطلِ. وفي صحيحِ التّرمذيِّ عنْ أبي أمامةَ قالَ: قالَ رسولُ اللّهِ ﷺ: ما ضلَّ قومٌ بعدَ هدى كانوا عليهِ إلّا أوتوا الجدلَ، ثمَّ تلا رسولُ اللّهِ ﷺ هذهِ الآيةُ: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًۢا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾.

قولهُ تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ﴾ أيْ ما عيسى إلّا عبدٌ أنعمَ اللّهُ عليهِ بالنّبوّةِ، وجعلهُ مثلاً لبني إسرائيلَ، أيْ آيةً وعبرةً يستدلُّ بها على قدرةِ اللّهِ تعالى، فإنَّ عيسى كانَ منْ غيرِ أبٍ، ثمَّ جعلَ إليهِ منْ إحياءِ الموتى وإبراءِ الأكمهِ والأبرصِ والأسقامِ كلّها ما لمْ يجعلْ لغيرهِ في زمانهِ، معَ أنَّ بني إسرائيلَ كانوا يومئذٍ خيرَ الخلقِ وأحبّهُ إلى اللّهِ عزَّ وجلَّ، والنّاسُ دونهمْ. وقيلَ: المرادُ بالعبدِ المنعمِ عليهِ محمّدٌ ﷺ، والأوّلُ أظهرُ.

قولهُ تعالى: ﴿وَلَوۡ نَشَآءُ لَجَعَلۡنَا مِنكُم﴾ أيْ بدلاً منكمْ ﴿مَّلَٰٓئِكَةً فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ يعمرونَ الأرضَ بدلاً منكمْ، وليسَ في إسكاننا إيّاهمُ السّماءَ شرفٌ حتّى يعبدوا، أوْ يقالُ لهمْ بناتُ اللّهِ. ومعنى ﴿يَخۡلُفُونَ ٦٠﴾ يخلفُ بعضهمْ بعضاً.

قولهُ تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَعِلۡمٞ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمۡتَرُنَّ بِهَا﴾ يريدُ القرآنَ، لأنّهُ يدلُّ على قربِ مجيءِ السّاعةِ، أوْ بهِ تعلمُ السّاعةُ وأهوالها وأحوالها، وقيلَ: إنّهُ خروجُ عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وذلكَ منْ أعلامِ السّاعةِ، لأنَّ اللّهَ ينزّلهُ منَ السّماءِ قبيلَ قيامِ السّاعةِ، كما أنَّ خروجَ الدّجّالِ منْ أعلامِ السّاعةِ. وفي صحيح مسلم فبينما هو يعني المسيح الدجال- إذ بعث الله المسيح بن مريم فينزل عند المنارة البيضاء شرقي دمشقَ بينَ مهرودتينِ واضعاً كفّيهِ على أجنحةِ ملكينِ إذا طأطأَ رأسهُ قطرَ وإذا رفعهُ تحدّرَ منهُ جمانٌ كاللّؤلؤِ فلا يحلُّ لكافرٍ يجدُ ريحَ نفسهِ إلّا ماتَ ونفسهُ ينتهي حيثُ ينتهي طرفهُ فيطلبهُ حتّى يدركهُ ببابٍ لدٍّ فيقتلهُ... الحديثَ.

وثبتَ في صحيحِ مسلمٍ عنْ أبي هريرةَ قالَ: قالَ رسولُ اللّهِ ﷺ: لينزلنَّ عيسى بن مريمَ حكماً عادلاً فليكسرنَّ الصّليبَ وليقتلنَّ الخنزيرَ وليضعنَّ الجزيةَ ولتتركنَّ القلاصُ فلا يسعى عليها ولتذهبنَّ الشّحناءُ والتّباغضُ والتّحاسدُ وليدعونَّ إلى المالِ فلا يقبلهُ أحدٌ.

وعنهُ قالَ: قالَ رسولُ اللّهِ ﷺ: كيفَ أنتمْ إذا نزلَ ابنُ مريمَ فيكمْ وإمامكمْ منكمْ... وهذا نصَّ على أنّهُ ينزلُ مجدّداً لدينِ النّبيِّ ﷺ للّذي درسَ منهُ، لا بشرعٍ مبتدأٍ.

ويحتملُ أنْ يكونَ المعنى ﴿وَإِنَّهُۥ﴾ وإنَّ محمّداً ﷺ لعلمٌ للسّاعةِ، بدليلِ قولهِ ﷺ: «بعثتُ أنا والسّاعةُ كهاتينِ، وضمَّ السّبّابةَ والوسطى». خرّجهُ البخاريُّ ومسلمٌ.

﴿فَلَا تَمۡتَرُنَّ بِهَا﴾ فلا تشكّونَ فيها، يعني في السّاعةِ ﴿وَٱتَّبِعُونِۚ﴾ أيْ في التّوحيدِ وفيما أبلّغكمْ عنِ اللّهِ. ﴿هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ ٦١﴾ أيْ طريقٌ قويمٌ إلى اللّهِ، أيْ إلى جنّتهِ. وأثبتَ الياءَ يعقوبُ في قولهِ ﴿وَٱتَّبِعُونِۚ﴾ في الحالينِ، وكذلكَ ﴿وَأَطِيعُونِ﴾. وأبو عمرو في الوصلِ دونَ الوقفِ، وحذفَ الباقونَ في الحالينِ. ﴿وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُۖ﴾ أيْ لا تغترّوا بوساوسهِ وشبهِ الكفّارِ المجادلينَ، فإنَّ شرائعَ الأنبياءِ لمْ تختلفْ في التّوحيدِ ولا فيما أخبروا بهِ منْ علمِ السّاعةِ وغيرها بما تضمّنتهُ منْ جنّةٍ أوْ نارٍ. ﴿إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ٦٢﴾.

قولهُ تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ كإحياءَ الموتى وإبراءَ الأسقامِ وخلقَ الطّيرِ والمائدةَ وغيرها، وقيلَ: البينات هنا الإنجيلُ. ﴿قالَ قدْ جئتكمْ بالحكمةِ﴾ أي النّبوّةِ ﴿وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾ منْ أحكامِ التّوراةِ وهوَ كقولهِ ﴿وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾. يعني ما أحلَّ في الإنجيلِ ممّا كانَ محرّماً في التّوراةِ، كلحمِ الإبلِ والشّحمِ منْ كلِّ حيوانٍ وصيدِ السّمكِ يومَ السّبتِ. ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ أي اتّقوا الشّركَ ولا تعبدوا إلّا اللّهَ وحدهُ، وإذا كانَ هذا قولُ عيسى فكيفَ يجوزُ أنْ يكونَ إلهاً أوِ ابنَ إلهٍ. ﴿وَأَطِيعُونِ ﴿٦٣﴾﴾ فيما أدعوكمْ إليهِ منَ التّوحيدِ وغيرهِ. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦٤﴾﴾ أيْ عبادةُ اللّهِ صراطٌ مستقيمٌ، وما سواهُ معوجٌّ لا يؤدّي سالكهُ إلى الحق.

قولهُ تعالى: ﴿فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ﴾ يعني ما بينهمْ، وفيهمْ قولانِ:

أحدهما- أنّهمْ أهلُ الكتابِ منَ اليهودِ والنّصارى، خالفَ بعضهمْ بعضاً.

الثّاني- فرق النّصارى اختلفوا في عيسى، فقالَ: النّسطوريّةُ: هوَ ابنُ اللّهِ، وقالتِ اليعاقبةُ: هوَ اللّهُ، وقالتِ الملكيّةُ: ثالثُ ثلاثةٍ أحدهمُ اللّهُ.

﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ أيْ كفروا وأشركوا ﴿مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٦٥﴾﴾ أيْ أليمٍ عذابهُ ﴿هَلْ يَنظُرُونَ﴾ يريدُ الأحزابَ لا ينتظرونَ. ﴿إِلَّا ٱلسَّاعَةَ﴾ يريدُ القيامةَ. ﴿أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً﴾ أيْ فجأةً. ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٦﴾﴾ يفطنونَ.

وقيلَ: المعنى لا ينتظرُ مشركو العربِ إلّا السّاعةَ. ويكونُ ﴿ٱلْأَحْزَابُ﴾ على هذا الّذينَ تحزّبوا على النّبيِّ ﷺ وكذّبوهُ منَ المشركينَ. ويتّصلُ هذا بقولهِ تعالى: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا﴾.

قولهُ تعالى: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍ﴾ يريدُ يومَ القيامةِ. ﴿بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ أيْ أعداءٌ، يعادي بعضهمْ بعضاً ويلعنُ بعضهمْ بعضاً. ﴿إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾﴾ فإنّهمْ أخلّاءٌ في الدّنيا والآخرةِ، قيل: هذهِ الآيةَ نزلتْ في أميّةَ بنِ خلفٍ الجمحيِّ وعقبةَ بنِ أبي معيطٍ، كانا خليلينِ، وكانَ عقبةُ يجالسُ النّبيَّ ﷺ، فقالتْ قريشٌ: قدْ صبأَ عقبةُ بنُ أبي معيطٍ، فقالَ: لهُ أميّةُ:

وجهي منْ وجهكَ حرامٌ إنْ لقيتَ محمّداً ولمْ تتفلْ في وجهِهِ، ففعلَ عقبةُ ذلكَ، فنذرَ النّبيُّ ﷺ قتلهُ فقتلهُ يومَ بدرٍ صبراً، وقتلَ أميّةُ في المعركةِ، وفيهمْ نزلتْ هذهِ الآيةُ.

قولهُ تعالى: ﴿يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ﴿٦٩﴾ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ تُحْبَرُونَ ﴿٧٠﴾﴾

قرأ أبو بكرٍ «يَا عِبَادِيَ» بفتحِ الياءِ وإثباتها في الحالينِ، ولذلكَ أثبتها نافعٌ وابنُ عامرٍ وأبو عمرو ورويسٌ ساكنةً في الحالينِ. وحذفها الباقونَ في الحالينِ، لأنّها وقعتْ مثبتةً في مصاحفِ أهلِ الشّامِ والمدينةِ لا غيرَ. ﴿ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ﴾. أيْ يقالُ لهمُ ادخلوا الجنّةَ، أوْ يا عبادي الّذينَ آمنوا ادخلوا الجنّةَ. ﴿أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ﴾ المسلماتُ في الدّنيا. وقيلَ: قرناؤكمْ منَ المؤمنينَ. وقيلَ: زوجاتكمْ منَ الحورِ العينِ. ﴿تُحْبَرُونَ ﴿٧٠﴾﴾ تكرمونَ.

قولهُ تعالى: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ ۖ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ ۖ وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٧١﴾﴾، فيهِ أربعُ مسائلَ:

الأولى: قولهُ تعالى: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ ۖ﴾ ولمْ يذكرِ الأطعمةَ والأشربةَ، لأنّهُ يعلمُ أنّهُ لا معنى للإطافةِ بالصّحافِ والأكوابِ عليهمْ منْ غيرِ أنْ يكون فيها شيء. وذكرَ الذّهبَ في الصّحافِ واستغنى بهِ عنِ الإعادة في الأكواب، كقوله تعالى: ﴿وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ﴾. وفي الصّحيحينِ عنْ حذيفةَ أنّهُ سمعَ النّبيَّ ﷺ يقولُ: «لا تلبسوا الحريرَ ولا الدّيباجَ ولا تشربوا في آنيةِ الذّهبِ والفضّةِ ولا تأكلوا في صحافها فإنّها لهمْ في الدّنيا ولكمْ في الآخرةِ». وقدْ مضى في سورةِ الحجِّ أنَّ منْ أكلَ فيهما في الدّنيا أوْ لبسَ الحريرَ في الدّنيا ولمْ يتبْ حرمَ ذلكَ في الآخرةِ تحريماً مؤبّداً. واللّهُ أعلمُ.

﴿وَأَكْوَابٍ﴾ أيْ ويطافُ عليهمْ بأكوابٍ، كما قالَ تعالى: ﴿وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِـَٔانِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ﴾، وفي صحيح مسلم عنْ جابرِ بنِ عبدِ اللّهِ قالَ: سمعتُ رسولَ اللّهِ ﷺ يقولُ: «إنَّ أهلَ الجنّةِ يأكلونَ فيها ويشربونَ ولا يتفلونَ ولا يبولونَ ولا يتغوّطونَ ولا يمتخطونَ قالوا فما بالُ الطّعامِ؟ قالَ: جشاءٌ ورشحٌ كرشحِ المسكِ يلهمونَ التّسبيحَ والتّحميدَ والتّكبيرَ - في روايةٍ - كما يلهمونَ النّفسَ».

الثانية- روى الأئمّةُ منْ حديثِ أمِّ سلمةَ عنِ النّبيِّ ﷺ قال: «الّذي يشربُ في آنيةِ الذّهبِ والفضّةِ إنّما يجرجرُ في بطنهِ نارَ جهنّمَ»، وقالَ: «لا تشربوا في آنيةِ الذّهبِ والفضّةِ ولا تأكلوا في صحافها» وهذا يقتضي التّحريمَ، ولا خلافَ في ذلك.

واختلفَ النّاسُ في استعمالها في غيرِ ذلكَ. قالَ ابنُ العربيِّ: والصّحيحُ أنّهُ لا يجوزُ للرجال استعمالها في شيء، لقولِ النّبيِّ ﷺ في الذّهبِ والحريرِ: «هذانِ حرامٌ لذكورِ أمّتي حلٌّ لإناثها». والنّهيُ عنِ الأكلِ والشّربِ فيها يدلُّ على تحريمِ استعمالها، لأنّهُ نوعٌ منَ المتاعِ فلمْ يجزْ. أصلهُ الأكلُ والشّربُ، ولأنَّ العلّةَ في ذلكَ استعجالُ أمرِ الآخرةِ، وذلكَ يستوي فيهِ الأكلُ والشّربُ وسائرُ أجزاءِ الانتفاعِ، ولأنّهُ ﷺ قال: «هيَ لهمْ في الدّنيا ولنا في الآخرةِ» فلمْ يجعلْ لنا فيها حظًا في الدّنيا.

الثالثة- إذا كانَ الإناءُ مضبّبًا بهما أوْ فيهِ حلقةٌ منهما، فقالَ: مالكٌ: لا يعجبني أنْ يشربَ فيهِ، وكذلكَ المرآةُ تكونُ فيها الحلقةُ منَ الفضّةِ ولا يعجبني أنْ ينظرَ فيها وجههُ. وقدْ كانَ عندَ أنسٍ إناءٌ مضبّبٌ بفضّةٍ، وقالَ: لقدْ سقيتُ فيهِ النّبيِّ ﷺ.

قالَ ابنُ سيرينَ: كانتْ فيهِ حلقةُ حديدٍ فأرادَ أنسٌ أنْ يجعلَ فيهِ حلقةَ فضّةٍ، فقالَ: أبو طلحةَ: لا أغيّرُ شيئًا ممّا صنعهُ رسولُ اللّهِ ﷺ، فتركهُ.

الرابعة- إذا لمْ يجزِ استعمالها لمْ يجزِ اقتناؤها، لأنَّ ما لا يجوزُ استعمالهُ لا يجوزُ اقتناؤهُ كالصّنمِ والطّنبورِ. وفي كتبِ علمائنا أنّهُ يلزمُ الغرمَ في قيمتها لمنْ كسرها، وهوَ معنى فاسدٌ، فإنَّ كسرهُ واجبٌ فلا ثمنَ لقيمتها. ولا يجوزُ تقويمها في الزّكاةِ بحالٍ. وغيرُ هذا لا يلتفتُ إليهِ.

قولهُ تعالى: ﴿بِصِحَافٍ﴾ الصّحفةُ كالقصعةِ والجمعُ صحافٌ، وأعظمُ القصاعِ الجفنةُ ثمَّ القصعةُ تليها تشبعُ العشرةَ، والصّحيفةُ الكتابُ والجمعُ صحفٌ وصحائفُ.

قولهُ تعالى: ﴿وَأَكْوَابٍ﴾ الكوبُ كوزٌ لا عروةَ لهُ، والجمع أكواب، والإبريقُ المستطيلُ العنقِ الطّويلُ العروةِ.

قولهُ تعالى: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ﴾ قرأ أهل المدينة، ابن عامرٍ وأهلُ

الشّام ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ﴾، الباقونَ «تَشْتَهِي الْأَنْفُسُ» أيْ تشتهيهِ الأنفسُ ﴿وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ﴾ أيْ في الجنّةِ ما تستلذّهُ العينُ فكانَ حسنَ المنظرِ. وقيل: ﴿وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ﴾ النّظرُ إلى اللّهِ عزَّ وجلَّ، كما في الخبرِ: أسألكَ لذّةَ النّظرِ إلى وجهكَ. ﴿وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٧١﴾ باقونَ دائمونَ، لأنّها لو انقطعتْ لتبغضت.

قولهُ تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ﴾ الّتي كانتْ توصفُ لكمْ في الدّنيا، وجعلها بالإشارةِ القريبةِ كالحاضرةِ الّتي ينظرُ إليها. ﴿ٱلَّتِيٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ٧٢﴾.

قولهُ تعالى: ﴿لَكُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ ٧٣﴾ الفاكهةُ معروفةٌ، وأجناسها الفواكهُ، والفاكهانيُّ الّذي يبيعها، أيْ لهمْ في الجنّةِ سوى الطّعامِ والشّرابِ فاكهة كثيرة يأكلون منها.

قولهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ٧٤﴾ لمّا ذكرَ أحوالَ أهلِ الجنّةِ ذكرَ أحوالَ أهلِ النّارِ أيضاً ليبيّنَ فضلَ المطيعِ على العاصي ﴿لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ﴾ أيْ لا يخفّفُ عنهمْ ذلكَ العذابُ. ﴿وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ٧٥﴾ أيْ آيسونَ منَ الرّحمةِ. وقيلَ: ساكتونَ سكوتَ يأسٍ، ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ﴾ بالعذابِ ﴿وَلَٰكِن كَانُواْ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ ٧٦﴾ أنفسهمْ بالشّركِ.

قوله تعالى: ﴿وَنَادَوْاْ يَٰمَٰلِكُ﴾ وهوَ خازنُ جهنّمَ، خلقهُ لغضبهِ، إذا زجرَ النّارَ زجرةً أكلَ بعضها بعضاً. وقرأ عليٌّ وابنُ مسعودٍ رضي الله عنهما «وَنَادَوْا يَا مَالِ» وذلكَ خلافُ المصحفِ، فرخّمَ الاسمَ وحذفَ الكافَ. والتّرخيمُ الحذفُ، ومنهُ ترخيمُ الاسمِ في النّداءِ، وهوَ أنْ يحذفَ منْ آخرهِ حرفٌ أوْ أكثرُ، فتقولُ في مالكٍ: يا مالِ، وفي حارثٍ: يا حارِ، وفي فاطمةَ: يا فاطمَ، وفي عائشةَ: يا عائشَ وفي مروانَ: يا مروَ، وهكذا. قالَ:

أفاطمُ مهلاً بعضَ هذا التّدلّلِ وإنْ كنتِ قدْ أزمعت صرمي فأجمل

ولكَ في آخرِ الاسمِ المرخّمِ وجهانِ:

أحدهما - أنْ تبقيهُ على ما كانَ عليهِ قبلَ الحذفِ. **والآخرُ** - أنْ تبنيهُ على الضّمِّ، مثلُ: يا زيدُ، كأنّكَ أنزلتهُ منزلتهُ ولمْ تراعِ المحذوفَ.

وفي صحيحِ البخاريِّ عنْ صفوانَ بنِ يعلى عنْ أبيهِ قالَ سمعتُ النّبيَّ ﷺ يقرأُ على المنبرِ ﴿وَنَادَوْا۟ يَـٰمَـٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ بإثباتِ الكافِ.

قولهُ تعالى: ﴿لَقَدْ جِئْنَـٰكُم بِٱلْحَقِّ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَـٰرِهُونَ ۝٧٨﴾

يحتملُ أنْ يكونَ هذا منْ قولِ مالكٍ لهمْ، أيْ إنّكمْ ماكثونَ في النّارِ لأنّا جئناكمْ في الدّنيا بالحقِّ فلمْ تقبلوا. ويحتملُ أنْ يكونَ منْ كلامِ اللّهِ لهمُ اليومَ، أيْ بيّنّا لكمُ الأدلّةَ وأرسلنا إليكمُ الرّسلَ. ﴿وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ﴾ أيْ ولكنَّ كلّكمْ. وقيلَ: أرادَ بالكثرةِ الرّؤساءَ والقادةَ منهمْ، وأمّا الأتباعُ فما كانَ لهمْ أثرٌ ﴿لِلْحَقِّ﴾ أيْ للإسلامِ ودينِ اللّهِ ﴿كَـٰرِهُونَ ۝٧٨﴾.

قولهُ تعالى: ﴿أَمْ أَبْرَمُوٓا۟ أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ ۝٧٩﴾ ﴿أَبْرَمُوٓا۟﴾ أحكموا. والإبرامُ الإحكامُ. فالمعنى أمْ أحكموا كيداً فإنّا محكمونَ لهمْ كيداً.

قولهُ تعالى: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم﴾ أيْ ما يسرّونهُ في أنفسهمْ ويتناجونَ بهِ بينهمْ. ﴿بَلَىٰ﴾ نسمعُ ونعلمُ. ﴿وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ۝٨٠﴾ أيِ الحفظةُ عندهمْ يكتبونَ عليهمْ.

قولهُ تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَـٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَـٰبِدِينَ ۝٨١﴾ اختلفَ في معناهُ، فقيل ﴿إِن﴾ بمعنى ما، ويكونُ الكلامُ على هذا تامـاً، ثمَّ تبتدئُ ﴿فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَـٰبِدِينَ﴾ أي الموحّدينَ منْ أهلِ مكّةَ على أنّهُ لا ولدَ لهُ. والوقفُ على ﴿ٱلْعَـٰبِدِينَ﴾ تامٌّ. وقيلَ: المعنى قلْ يا محمّدُ إنْ ثبتَ للّهِ ولدٌ فأنا أوّلُ منْ يعبدُ ولدهُ، ولكنْ يستحيلُ أنْ يكونَ لهُ ولدٌ، وهوَ كما تقولُ لمنْ تناظره: إن ثبت ما قلت بالدّليلِ فأنا أوّلُ منْ يعتقدهُ، وهذا مبالغةٌ في الاستبعادِ، أيْ لا سبيلَ إلى اعتقادهِ. وهذا ترقيقٌ في الكلامِ، كقولهِ: ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾. والمعنى على هذا: فأنا أوّلُ العابدينَ لذلكَ الولدِ، لأنَّ تعظيمَ الولدِ تعظيمٌ للوالدِ. وقالَ مجاهدٌ: المعنى إنْ كانَ للرّحمنِ ولدٌ فأنا أوّلُ منْ عبدهُ وحدهُ، على أنّهُ لا ولدَ لهُ.

وقرأ أهلُ الكوفةِ إلّا عاصماً «وُلْدٌ» بضمِّ الواوِ وإسكانِ اللّامِ. الباقونَ وعاصمٌ ﴿وَلَدٌ﴾.

قولهُ تعالى: ﴿سُبۡحَٰنَ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ أيْ تنزيهـًا لهُ وتقديسـًا. نزّهَ نفسهُ عنْ كلِّ ما يقتضي الحدوثَ، وأمرَ النّبيَّ ﷺ بالتّنزيهِ. ﴿عَمَّا يَصِفُونَ ٨٢﴾ أيْ عمّا يقولونَ من الكذب.

قولهُ تعالى: ﴿فَذَرۡهُمۡ يَخُوضُواْ وَيَلۡعَبُواْ﴾ يعني كفّارَ مكّةَ حينَ كذّبوا بعذابِ الآخرةِ. أيِ اتركهمْ يخوضوا في باطلهمْ ويلعبوا في دنياهمْ ﴿حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ يَوۡمَهُمُ ٱلَّذِي يُوعَدُونَ ٨٣﴾ إمّا العذابَ في الدّنيا أوْ في الآخرةِ. وقيلَ: إنَّ هذا منسوخٌ بآيةِ السّيفِ. وقيلَ: هوَ محكمٌ، وإنّما أخرجَ مخرجَ التّهديدِ.

قولهُ تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي فِي ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٞ وَفِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَٰهٞۚ وَهُوَ ٱلۡحَكِيمُ ٱلۡعَلِيمُ ٨٤﴾

أيْ هوَ المستحقُّ للعبادةِ في السّماءِ والأرضِ. وقالَ عمرُ رضي الله عنه وغيرهُ: المعنى وهوَ الّذي في السّماءِ إلهٌ في الأرضِ، وكذلكَ قرأَ. والمعنى أنّهُ يعبدُ فيهما، وقيلَ: ﴿فِي﴾ بمعنى على، كقولهِ تعالى: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمۡ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخۡلِ﴾ أيْ على جذوعِ النّخلِ، أيْ هوَ القادرُ على السّماءِ والأرضِ. ﴿وَهُوَ ٱلۡحَكِيمُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ تقدّمَ.

قولهُ تعالى: ﴿وَتَبَارَكَ ٱلَّذِي لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا وَعِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ٨٥﴾

﴿تَبَارَكَ﴾ تفاعلَ منَ البركةِ ﴿وَعِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ أيْ وقتُ قيامها. ﴿وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ قرأَ ابنُ كثيرٍ وحمزةُ والكسائيُّ: «وَإِلَيۡهِ يُرۡجَعُونَ» بالياءِ. الباقونَ بالتّاءِ.

قولهُ تعالى: ﴿وَلَا يَمۡلِكُ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلۡحَقِّ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ٨٦﴾، فيهِ مسألتانِ:

الأولى: أراد ب ﴿ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِ﴾ عيسى وعزيراً والملائكةَ. والمعنى ولا يملكُ هؤلاءِ الشّفاعةَ إلّا لمنْ شهدَ بالحقِّ وآمنَ على علمٍ وبصيرةٍ، وشهادةُ الحقِّ لا إلهَ إلّا اللّهُ. وقيلَ: يعني الآلهةَ لا تشفع لعابديها إلّا منْ شهدَ بالحقِّ، يعني عزيراً وعيسى والملائكةَ فإنّهمْ يشهدونَ بالحقِّ والوحدانيّةِ للّهِ. ﴿وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾ حقيقةَ ما شهدوا به.

و ﴿إِلَّا﴾ بمعنى لكنْ، أيْ لا ينالُ المشركونَ الشّفاعةَ لكنْ ينالُ الشّفاعةَ منْ شهدَ بالحقِّ، فهوَ استثناء منقطعٌ، وقيلَ: ﴿إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ﴾ إلّا منْ تشهدُ لهُ الملائكةُ بأنّهُ كانَ على الحقِّ في الدّنيا، معَ علمهمْ بذلكَ منهُ بأنْ يكونَ اللّهُ أخبرهمْ بهِ، أو بأن شاهدوه على الإيمان.

الثانية- قولهُ تعالى: ﴿إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ يدلُّ على معنيينِ:

أحدهما- أنَّ الشّفاعةَ بالحقِّ غيرُ نافعةٍ إلّا معَ العلمِ، وأن التقيد لا يغني معَ عدمِ العلمِ بصحّةِ المقالةِ.

و**الثّاني**- أنَّ شرطَ سائرِ الشّهاداتِ في الحقوقِ وغيرها أنْ يكونَ الشّاهدُ عالماً بها. ونحوهُ ما رويَ عنِ النّبيِّ ﷺ: «إذا رأيتَ مثلَ الشّمسِ فاشهدْ وإلّا فدع».

قولهُ تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ أيْ لأقرّوا بأنَّ اللّهَ خلقهمْ بعدَ أنْ لمْ يكونوا شيئاً. ﴿فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ۝٨٧﴾ أي كيف ينقلبون عن عبادته وينصرفون عنها حتّى أشركوا بهِ غيرهُ رجاءَ شفاعتهمْ لهُ. يقالُ: أفكهُ يأفكهُ أفكاً، أيْ قلبهُ وصرفهُ عنِ الشّيءِ. ومنهُ قولهُ تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا﴾. وقيلَ: أي ولئن سألتَ الملائكةَ وعيسى ﴿مَّنْ خَلَقَهُمْ﴾ لقالوا اللّهُ. ﴿فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ أيْ فأنّى يؤفكُ هؤلاءِ في ادعائهم إياهم آلهة.

قولهُ تعالى: ﴿وَقِيلِهِۦ يَٰرَبِّ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ ۝٨٨﴾

في ﴿قِيلِهِۦ﴾ ثلاثُ قراءاتٍ: النّصبُ، والجرُّ، والرّفعُ. فأمّا الجرُّ فهيَ قراءةُ عاصمٍ وحمزةَ. وبقيّةُ السّبعةِ بالنّصبِ. وأمّا الرّفعُ فهيَ قراءةُ الأعرجِ وقتادةَ وابنِ هرمزٍ ومسلمِ بنِ جندبٍ. فمنْ جرَّ حملهُ على معنى: وعندهُ علمُ السّاعةِ وعلمُ قيلهِ. ومنْ نصبَ فعلى معنى: وعندهُ علمُ السّاعةِ ويعلمُ قيلهُ، ومنْ رفعَ قيلهِ فالتّقديرُ: وعندهُ قيلهُ، أوْ قيلهُ مسموعٌ، أوْ قيلهُ هذا القولُ.

وأقوى منْ ذلكَ وأوجهُ أنْ يكونَ الجرُّ والنّصبُ على إضمارِ حرفِ القسمِ وحذفهِ. والرّفعُ على قولهمْ: أيمنُ اللّهِ وأمانةُ اللّهِ ويمينُ اللّهِ ولعمركَ، ويكونُ قولهُ: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ جوابُ القسمِ، كأنّهُ قالَ: وأقسمَ بقيلهِ يا ربِّ، أوْ قيلهِ يا ربِّ قسمي، إنَّ هؤلاءِ قومٌ لا يؤمنونَ.

والهاءُ في ﴿قِيلِهِۦ﴾ لعيسى، وقيلَ لمحمّدٍ ﷺ، والقيلُ مصدرٌ كالقولِ، ومنهُ الخبرُ نهى عنْ قيلٍ وقالٍ. ويقالُ: قلتُ: قولاً وقيلاً وقالاً. وفي النّساءِ: ﴿ومنْ أصدقُ منَ اللهِ قيلاً﴾.

قولهُ تعالى: ﴿فَٱصۡفَحۡ عَنۡهُمۡ وَقُلۡ سَلَٰمٞۚ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ٨٩﴾

﴿فَٱصۡفَحۡ عَنۡهُمۡ﴾ أي أعرضْ عنهمْ. ﴿وَقُلۡ سَلَٰمٞۚ﴾ أيْ معروفـًا، أيْ قل لمشركي أهلِ مكّةَ، ثمَّ نسخَ هذا في سورةِ براءةٌ بقولهِ تعالى: ﴿فَٱقۡتُلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ حَيۡثُ وَجَدتُّمُوهُمۡ﴾ الآيةَ. وقيلَ: هيَ محكمةٌ لمْ تنسخْ. وقراءةُ العامة ﴿فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ﴾ بالياءِ على أنّهُ خبرٌ منَ اللّهِ تعالى لنبيّهِ بالتّهديدِ. وقرأ نافعٌ وابنُ عامرٍ ﴿تَعۡلَمُونَ﴾ بالتّاءِ على أنّهُ منْ خطابِ النّبيِّ ﷺ للمشركين بالتّهديدِ. وَ ﴿سَلَٰمٞ﴾ رفعَ بإضمارِ عليكمْ، ومعناهُ الأمرُ بتوديعهمْ بالسّلامِ، ولمْ يجعلهُ تحيّةً لهمْ.

سورة الدخان

مكّيّةٌ باتّفاقٍ، وهيَ تسعٌ وخمسونَ آيةً.

بسمِ اللّهِ الرّحمنِ الرّحيمِ

قولهُ تعالى: ﴿حمٓ ۝١ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ۝٢ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةٖ مُّبَٰرَكَةٍۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ۝٣﴾.

الهاءُ في ﴿أَنزَلۡنَٰهُ﴾ للقرآنِ، واللّيلةُ المباركةُ ليلةُ القدرِ، لقولهِ تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِ﴾. ووصفها بالبركةِ لما ينزلُ اللّهُ فيها على عبادهِ منَ البركاتِ والخيراتِ والثّوابِ. ثمَّ قيل: أنزلَ القرآنُ كلّهُ إلى السّماءِ الدّنيا في هذهِ اللّيلةِ. ثمَّ أنزلَ نجماً نجماً في سائرِ الأيّامِ على حسبِ اتّفاقِ الأسبابِ. وقيلَ: كانَ ينزلُ في كلِّ ليلةِ القدرِ ما ينزلُ في سائرِ السّنةِ. وقيلَ كانَ ابتداءُ الإنزالِ في هذهِ اللّيلةِ. وقيلَ: أنزلَ اللّهُ القرآنَ كلّهُ في ليلةِ القدرِ منْ أمِّ الكتابِ إلى بيتِ العزّةِ في سماءِ الدّنيا، ثمَّ أنزلهُ اللّهُ على نبيّهِ ﷺ في اللّيالي والأيّامِ في ثلاثٍ وعشرينَ سنةً. وهذا المعنى قدْ مضى في البقرةِ عندَ قولهِ تعالى: ﴿شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ﴾.

قولهُ تعالى: ﴿فِيهَا يُفۡرَقُ كُلُّ أَمۡرٍ حَكِيمٍ ۝٤﴾.

يحكمُ اللّهُ أمرَ الدّنيا إلى قابلٍ في ليلةِ القدرِ ما كانَ منْ حياةٍ أوْ موتٍ أوْ رزقٍ، ومعنى هذا القولِ أمرُ اللّهِ عزَّ وجلَّ الملائكةَ بما يكونُ في ذلكَ العامِ ولمْ يزلْ ذلكَ في علمهِ عزَّ وجلَّ، وهذهِ الإبانةُ لأحكامِ السّنّةِ إنّما هيَ للملائكةِ الموكّلينَ بأسبابِ الخلقِ.

وجمهورُ العلماءِ على أنّها ليلةُ القدرِ. ومنهمْ منْ قالَ: إنّها ليلةُ النّصفِ منْ شعبانَ، وهوَ باطلٌ لقوله تعالى: ﴿شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ﴾ فنصَّ على أنَّ ميقاتَ نزولهِ رمضانُ، ثمَّ عين من زمانه الليل ها هنا بقوله: ﴿فِي لَيۡلَةٖ مُّبَٰرَكَةٍۚ﴾، وليسَ في ليلةِ النّصفِ منْ شعبانَ حديثٌ يعوّلُ عليهِ لا في فضلها ولا في نسخِ الآجالِ فيها. والفارقُ اللّهُ عزَّ وجلَّ ﴿كُلُّ أَمۡرٍ حَكِيمٍ﴾ كلَّ شأنٍ ذي حكمةٍ، أي مفعول على ما تقتضيه الحكمة.

قولهُ تعالى: ﴿أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ﴾ ﴿أَمْرًا﴾ نصبَ على الاختصاصِ، جعلَ كلَّ أمرٍ جزلاً فخماً بأنْ وصفهُ بالحكيمِ، ثمَّ زادهُ جزالةً وكسبه فخامةً بأنْ قالَ: أعني بهذا الأمرِ أمراً حاصلاً منْ عندنا، كائناً منْ لدنّا، وكما اقتضاهُ علمنا وتدبيرنا، والأمرُ هوَ القرآنُ أنزلهُ اللّهُ منْ عندهِ، وقيلَ: هوَ ما قضاهُ اللّهُ في اللّيلةِ المباركةِ منْ أحوالِ عبادهِ. ﴿إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ۝٥ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ ﴿رَحْمَةً﴾ مفعولٌ ب ﴿مُرْسِلِينَ﴾. والرّحمةُ النّبيُّ ﷺ.

قولهُ تعالى: ﴿رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ قرأَ الكوفيّونَ ﴿رَبِّ﴾ بالجرِّ على البدلِ منْ ﴿رَبِّكَ﴾ وكذلكَ ﴿رَبِّكُمْ وَرَبِّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ بالجرِّ فيهما، الباقونَ بالرّفعِ، رداً على قولهِ ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝٦﴾. وإنْ شئتَ على الابتداءِ، ﴿إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ۝٧﴾ بهِ فاعلموا أنَّ لهُ أنْ يرسلَ الرّسلَ، وقيلَ: الموقن ها هنا هوَ الّذي يريدُ اليقينَ ويطلبهُ، كما تقولُ: فلانٌ ينجدُ، أيْ يريدُ نجداً. ويتهمُ، أيْ يريدُ تهامةَ. ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ﴾ أيْ هوَ خالقُ العالمِ، فلا يجوزُ أنْ يشركَ بهِ غيرهُ ممّنْ لا يقدرُ على خلق شيء. و ﴿هُوَ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ﴾ أيْ يحيي الأمواتَ ويميتُ الأحياءَ. ﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝٨﴾ أيْ مالككمْ ومالكُ منْ تقدّمَ منكمْ ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ ۝٩﴾ في دينهمْ بما يعنُّ لهمْ منْ غيرِ حجّةٍ، ويقالُ لمنْ أعرضَ عنِ المواعظِ: لاعبٌ، وهوَ كالصّبيِّ الّذي يلعبُ فيفعلُ ما لا يدري عاقبتهُ.

قولهُ تعالى: ﴿فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ۝١٠﴾ ارتقبْ معناهُ انتظرْ يا محمّدُ بهؤلاءِ الكفّارِ يومَ تأتي السّماءُ بدخانٍ مبينٍ، وفي الدّخانِ أقوالٌ ثلاثةٌ:

الأوّلُ- أنّهُ منْ أشراطِ السّاعةِ لمْ يجئْ بعدُ، وأنّهُ يمكثُ في الأرضِ أربعينَ يوماً يملأُ ما بينَ السّماءِ والأرضِ، فأمّا المؤمنُ فيصيبهُ مثلُ الزّكامِ، وأمّا الكافرُ والفاجرُ فيدخلُ في أنوفهمْ فيثقبُ مسامعهمْ، ويضيّقُ أنفاسهمْ، وهوَ منْ آثارِ جهنّمَ يومَ القيامةِ، وفي صحيحِ مسلمٍ عنْ حذيفةَ بنِ أسيدٍ الغفاريِّ قالَ: اطّلعَ النّبيُّ ﷺ علينا ونحنُ نتذاكرُ فقالَ: ما تذكرونَ؟ قالوا: نذكرُ السّاعةَ، قالَ: «إنّها لنْ تقومَ حتّى تروا قبلها عشرَ آياتٍ- فذكرَ- الدّخانَ والدّجّالَ والدّابّةَ وطلوعَ الشّمسِ من مغربها ونزول عيسى بن مريمَ وخروجَ يأجوجَ ومأجوجَ وثلاثةَ خسوفٍ خسفٌ بالمشرق وخسف بالمغرب وخسفٌ بجزيرةِ العربِ وآخرُ

ذلكَ نارٌ تخرجُ منَ اليمنِ تطردُ النّاسَ إلى محشرهمْ».

القولُ الثّاني- أنَّ الدّخانَ هوَ ما أصابَ قريشًا منَ الجوعِ بدعاءِ النّبيِّ ﷺ، حتّى كانَ الرّجلُ يرى بينَ السّماءِ والأرضِ دخانًا، قالهُ ابنُ مسعودٍ. قالَ: وقدْ كشفهُ اللّهُ عنهمْ، ولوْ كانَ يومُ القيامةِ لمْ يكشفهُ عنهمْ. والحديثُ عنهُ بهذا في صحيحِ البخاريِّ ومسلمٍ عنْ مسروقٍ قالَ: قالَ عبدُ اللّهِ: إنّما كانَ هذا لأنَّ قريشًا لمّا استعصتْ على النّبيِّ ﷺ دعا عليهمْ بسنينَ كسني يوسفَ، فأصابهمْ قحطٌ وجهدٌ حتّى أكلوا العظامَ، فجعلَ الرّجلَ ينظرُ إلى السّماءِ فيرى ما بينهُ وبينها كهيئةِ الدّخانِ منَ الجهدِ، فأنزلَ اللّهُ تعالى: ﴿فَٱرۡتَقِبۡ يَوۡمَ تَأۡتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٖ مُّبِينٖ ۝١٠ يَغۡشَى ٱلنَّاسَۖ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾. قالَ: فأتى رسولُ اللّهِ ﷺ فقيلَ: يا رسولَ اللّهِ، استسقِ اللّهَ لمضرَ فإنّها قدْ هلكتْ. قالَ: «لمضرَ! إنّكَ لجريءٌ» فاستسقى فسقوا، فنزلت: ﴿إِنَّكُمۡ عَآئِدُونَ﴾. فلمّا أصابتهمُ الرّفاهيةُ عادوا إلى حالهمْ حينَ أصابتهمُ الرّفاهيةُ، فأنزلَ اللّهُ عزَّ وجلَّ ﴿يَوۡمَ نَبۡطِشُ ٱلۡبَطۡشَةَ ٱلۡكُبۡرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ﴾ قالَ: يعني يومَ بدرٍ.

القولُ الثّالثُ- أنّهُ يومُ فتحِ مكّةَ لمّا حجبتِ السّماءَ الغبرةُ.

﴿يَغۡشَى ٱلنَّاسَۖ﴾ في موضعِ الصّفةِ للدّخانِ، فإنْ كانَ قدْ مضى على ما قالَ ابنُ مسعودٍ فهوَ خاصٌّ بالمشركينَ منْ أهلِ مكة، وإن كان من أشراطِ السّاعةِ فهوَ عامٌّ على ما تقدّمَ. يقولُ اللّهُ لهمْ: ﴿هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٞ ۝١١﴾. ومنْ قالَ: إنَّ الدّخانَ قدْ مضى فقولهُ: ﴿هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٞ ۝١١﴾ حكايةُ حالٍ ماضيةٍ، ومنْ جعلهُ مستقبلاً فهوَ حكايةُ حالٍ آتيةٍ. وقيلَ: ﴿هَٰذَا﴾ بمعنى ذلكَ. وقيلَ: أيْ يقولُ النّاسُ لذلكَ الدّخانِ: ﴿هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾. وقيلَ: هوَ إخبارٌ عنْ دنوِّ الأمرِ، كما تقول: هذا الشتاء فأعد له.

قولهُ تعالى: ﴿رَّبَّنَا ٱكۡشِفۡ عَنَّا ٱلۡعَذَابَ إِنَّا مُؤۡمِنُونَ ۝١٢﴾.

أيْ يقولونَ: اكشفْ عنّا العذابَ ونؤمنُ. وقيل: إنَّ قريشًا أتوا النّبيَّ ﷺ وقالوا: إنْ كشفَ اللّهُ عنّا هذا العذابَ أسلمنا، ثمَّ نقضوا هذا القولَ.

قولهُ تعالى: ﴿أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكۡرَىٰ﴾ أيْ منْ أينَ يكونُ لهمُ التّذكّرُ والاتّعاظُ عندَ حلولِ العذابِ. ﴿وَقَدۡ جَآءَهُمۡ رَسُولٞ مُّبِينٞ ١٣﴾ يبيّنُ لهمُ الحقَّ، والذّكرى والذّكرُ واحدٌ. ﴿ثُمَّ تَوَلَّوۡاْ عَنۡهُ﴾ أيْ أعرضوا عنْ محمّدٍ ﷺ ﴿وَقَالُواْ مُعَلَّمٞ مَّجۡنُونٌ ١٤﴾ أيْ علّمهُ بشرٌ أوْ علّمهُ الكهنةُ والشّياطينُ، ثمَّ هوَ مجنونٌ وليس برسول.

قولهُ تعالى: ﴿إِنَّا كَاشِفُواْ ٱلۡعَذَابِ قَلِيلًاۚ﴾ أيْ وقتًا قليلاً، لأنّهمْ عادوا إلى تكذيبِهِ. ومنْ قالَ: إنَّ الدّخانَ منتظرٌ قالَ: أشارَ بهذا إلى ما يكونُ منَ الفرجةِ بينَ آيةٍ وآيةٍ منْ آياتِ قيامِ السّاعةِ، ومنْ قالَ هذا في القيامةِ قالَ: أيْ لوْ كشفنا عنكمُ العذابَ لعدتمْ إلى الكفرِ. وقيلَ: معنى ﴿إِنَّكُمۡ عَآئِدُونَ ١٥﴾ إلينا، أيْ مبعوثونَ بعدَ الموتِ. وقيلَ: المعنى ﴿إِنَّكُمۡ عَآئِدُونَ ١٥﴾ إلى نارِ جهنّمَ إنْ لمْ تؤمنوا.

قولهُ تعالى: ﴿يَوۡمَ نَبۡطِشُ ٱلۡبَطۡشَةَ ٱلۡكُبۡرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ ١٦﴾

﴿يَوۡمَ﴾ محمولٌ على ما دلَّ عليهِ ﴿مُنتَقِمُونَ﴾، أيْ ننتقمُ منهمْ يومَ نبطشُ، ويجوز أن يكون المعنى إنكم عائدونَ، فإذا عدتمْ أنتقمُ منكمْ يومَ نبطشُ البطشةَ الكبرى. ولهذا وصلَ هذا بقصّةِ فرعونَ، فإنّهمْ وعدوا موسى الإيمانَ إنْ كشفَ عنهمُ العذابَ، ثمَّ لمْ يؤمنوا حتّى غرقوا. وقيلَ: ﴿إِنَّا كَاشِفُواْ ٱلۡعَذَابِ قَلِيلًاۚ إِنَّكُمۡ عَآئِدُونَ﴾ كلامٌ تامٌّ. ثمَّ ابتدأَ ﴿يَوۡمَ نَبۡطِشُ ٱلۡبَطۡشَةَ ٱلۡكُبۡرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ﴾ أيْ ننتقمُ منْ جميعِ الكفّارِ. وقيلَ: المعنى وارتقبِ الدّخانَ وارتقبْ يومَ نبطشُ، فحذفَ واوَ العطف، وَ ﴿ٱلۡبَطۡشَةَ ٱلۡكُبۡرَىٰٓ﴾ في قولِ ابنِ مسعودٍ: يومَ بدرٍ، وقيلَ: عذابُ جهنّمَ يومَ القيامة.

ويقالُ: انتقمَ اللّهُ منهُ، أيْ عاقبهُ. والاسمُ منهُ النّقمةُ، وقيلَ بالفرقِ بينَ النّقمةِ والعقوبةِ، فالعقوبةُ بعدَ المعصيةِ لأنّها منَ العاقبةِ. والنّقمةُ قدْ تكونُ قبلها، وقيلَ: العقوبةُ ما تقدّرتْ والانتقام غير مقدر.

قولهُ تعالى: ﴿۞وَلَقَدۡ فَتَنَّا قَبۡلَهُمۡ قَوۡمَ فِرۡعَوۡنَ وَجَآءَهُمۡ رَسُولٞ كَرِيمٌ ١٧﴾

أيِ ابتليناهمْ ببعثةِ موسى إليهمْ فكذّبوا فأُهلكوا، فهكذا أفعلُ بأعدائكَ يا محمّدُ إنْ لمْ يؤمنوا. وقيلَ: فتنّاهمْ عذّبناهمْ بالغرقِ. ومعنى ﴿كَرِيمٌ﴾ أيْ في قومهِ. وقيلَ: كريمُ الأخلاقِ

بالتّجاوزِ والصّفحِ، وقيلَ: كريمٌ على ربّهِ إذِ اختصّهُ بالنبوة وإسماع الكلام.

قولهُ تعالى: ﴿أَنْ أَدُّوٓاْ إِلَيَّ﴾ اتّبعوني ﴿عِبَادَ ٱللَّهِ﴾ فَـ ﴿عِبَادَ ٱللَّهِ﴾ منادى. وقيلَ: المعنى أرسلوا معي عبادَ اللّهِ وأطلقوهمْ منَ العذابِ. فَـ ﴿عِبَادَ ٱللَّهِ﴾ على هذا مفعولٌ. ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ١٨﴾ على الوحيِ فاقبلوا نصحي. ﴿وَأَن لَّا تَعْلُواْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ أيْ لا تبغوا، وقيلَ: لا تفتروا على اللّهِ. والفرقُ بينَ البغيِ والافتراءِ أنَّ البغيَ بالفعلِ والافتراءَ بالقولِ. وقيلَ: لا تعظُمُوا وقيلَ: لا تستكبروا على عبادةِ اللّهِ. والفرقُ بينَ التّعظيمِ والاستكبارِ أنَّ التّعظيمَ تطاولُ المقتدرِ، والاستكبارُ ترفّعُ المحتقرِ. ﴿إِنِّيٓ ءَاتِيكُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ١٩﴾ أيْ برهانٌ بين.

قولهُ تعالى: ﴿وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ ٢٠﴾ تشتمونَ، فتقولوا ساحرٌ كذّابٌ، وقيلَ: بالحجارةِ. وأظهرَ الذّالَ منْ ﴿عُذْتُ﴾ نافعٌ وابنُ كثيرٍ وابنُ عامرٍ وعاصمٌ ويعقوبُ. وأدغمَ الباقونَ. والإدغامُ طلبًا للتّخفيفِ، والإظهارُ على الأصلِ. ثمَّ قيل: إنّي عذتُ باللّهِ فيما مضى، لأنَّ الله وعده فقال: ﴿فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا﴾. وقيلَ: إنّي أعوذُ، كما تقولُ نشدتكَ باللّهِ، وأقسمت عليك بالله، أي أقسم.

قولهُ تعالى: ﴿وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُواْ لِي﴾ أيْ بي، كقولهِ: ﴿۞فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ﴾ أيْ بهِ. ﴿فَٱعْتَزِلُونِ ٢١﴾ أيْ كونوا بمعزلٍ منّي إلى أنْ يحكمَ اللّهُ بيننا.

قولهُ تعالى: ﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ﴾ فيهِ حذفٌ، أيْ فكفروا فدعا ربّهُ. ﴿أَنَّ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ بفتح ﴿أَنَّ﴾ أيْ بأنْ هؤلاءِ. ﴿قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ ٢٢﴾ أيْ مشركونَ، قدِ امتنعوا منْ إطلاقِ بني إسرائيلَ ومنَ الإيمان.

قولهُ تعالى: ﴿فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ٢٣﴾، فيهِ مسألتانِ:

الأولى: قوله تعالى: ﴿فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا﴾ أيْ فأجبنا دعاءهُ وأوحينا إليهِ أنْ أسرِ بعبادي، أيْ بمنْ آمنَ باللّهِ منْ بني إسرائيلَ. ﴿لَيْلًا﴾ قبلَ الصّباحِ. ﴿إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ﴾ وقرأَ أهلُ الحجازِ وابنُ كثيرٍ ﴿فَاسْرِ﴾ بوصلِ الألفِ. منْ سرى. الباقونَ ﴿فَأَسْرِ﴾ بالقطعِ، منْ

أسرى.

الثانية- أُمرَ موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ بالخروجِ ليلاً. وسيرُ اللّيلِ في الغالبِ إنّما يكونُ عنْ خوفٍ، والخوفُ يكونُ بوجهينِ: إمّا منَ العدوِّ فيتّخذُ اللّيلُ ستراً مسدلاً، فهوَ منْ أستارِ اللّهِ تعالى. وإمّا منْ خوفِ المشقّةِ على الدّوابِّ والأبدانِ بحرٍّ أوْ جدبٍ، فيتّخذُ السّرى مصلحةً منْ ذلكَ. وكانَ النّبيُّ ﷺ يسري ويدلجُ ويترفق ويستعجلُ، بحسبِ الحاجةِ وما تقتضيهِ المصلحةُ.

قولهُ تعالى: ﴿وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًا﴾ يبساً، لقولهِ: ﴿فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا﴾، وقيل ساكناً رها البحرُ أيْ سكنَ، وعيشٌ راهٍ، أيْ ساكنٌ رافهٌ. ويجوزُ أنْ يكونَ ﴿رَهْوًا﴾ منْ نعتِ موسى، وعلى الأوّلِ هوَ منْ نعتِ البحرِ، أيِ اتركهُ ساكناً كما هوَ قدِ انفرقَ فلا تأمرهُ بالانضمامِ حتّى يدخلَ فرعونُ وقومهُ.

. ﴿إِنَّهُمْ﴾ أيْ إنَّ فرعونَ وقومهُ. ﴿جُندٌ مُّغْرَقُونَ ﴿٢٤﴾﴾ أخبرَ موسى بذلكَ ليسكنَ قلبهُ.

قولهُ تعالى: ﴿كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾﴾ ﴿كَمْ﴾ للتكثير. ﴿وَنَعْمَةٍ كَانُوا۟ فِيهَا فَٰكِهِينَ ﴿٢٧﴾﴾ النّعمةُ نَعمةٌ ونِعمةٌ «بفتحِ النّونِ وكسرها»، وفي الفرقِ بينهما وجهانِ:

أحدهما- أنّها بكسرِ النّونِ في الملكِ، وبفتحها في البدنِ والدّينِ.

الثّاني- أنّها بالكسرِ منَ المنّةِ وهوَ الإفضالُ والعطيّةُ، وبالفتحِ منَ التّنعيمِ وهوَ سعةُ العيشِ والراحة.

وقرأ أبو جعفرٍ «فَكِهِينَ» بغيرِ ألفٍ، ومعناهُ أشرينَ بطرينَ. و ﴿فَٰكِهِينَ﴾ لاهينَ مازحينَ، يقالُ: إنّهُ لفاكهٌ أيْ مزّاحٌ. وفيهِ فكاهةٌ أيْ مزحٌ. وقيلَ: هما لغتانِ كالحاذرِ والحذرِ، والفارهِ والفرهِ. والفاكهَ هوَ المستمتعُ بأنواعِ اللّذّةِ كما يتمتّعُ الآكلُ بأنواعِ الفاكهةِ.

قولهُ تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ كانَ أمرهمْ فأهلكوا. ﴿وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿٢٨﴾﴾ يعني بني إسرائيلَ، ملّكهمُ اللّهُ تعالى أرضَ مصرَ بعدَ أنْ كانوا فيها مستعبدينَ، فصاروا لها وارثينَ،

لوصولِ ذلكَ إليهمْ كوصولِ الميراثِ. ونظيرهُ ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُواْ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا﴾. الآية.

قولهُ تعالى: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ﴾ أيْ لكفرهمْ. ﴿وَمَا كَانُواْ مُنظَرِينَ ٢٩﴾. أيْ مؤخّرينَ بالغرقِ. وكانتِ العربُ تقولُ عندَ موتِ السّيّدِ منهمْ: بكتْ لهُ السّماءُ والأرضُ، أيْ عمّتْ مصيبتهُ الأشياءَ حتّى بكتهُ السّماءُ والأرضُ والرّيحُ والبرقُ، وبكتهُ اللّيالي الشّاتياتُ. قالَ الشّاعرُ:

والشّمسُ طالعةٌ ليستْ بكاسفةٍ تُبكي عليكَ نجومَ الليلِ والقمرا

وذلكَ على سبيلِ التّمثيلِ والتّخييلِ مبالغةً في وجوبِ الجزعِ والبكاءِ عليهِ. والمعنى أنّهمْ هلكوا فلمْ تعظمْ مصيبتهمْ ولمْ يوجدْ لهمْ فقدٌ. **وقيلَ**: في الكلامِ إضمارٌ، أيْ ما بكى عليهمْ أهلُ السّماءِ والأرض من الملائكة، كقوله تعالى: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ﴾ بلْ سرّوا بهلاكهمْ. **وقيلَ**: فما بكتْ عليهمْ مصاعدُ عملهمْ منَ السّماءِ ولا مواضعُ عبادتهمْ منَ الأرضِ. **وقيل**: هو بكاء كالمعروفِ منْ بكاءِ الحيوانِ إذْ لا استحالةَ في ذلكَ. وإذا كانتِ السموات والأرضُ تسبّحُ وتسمعُ وتتكلّمُ فكذلكَ تبكي.

قولهُ تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ٣٠﴾ يعني ما كانتِ القبطُ تفعلُ بهمْ بأمرِ فرعونَ، منْ قتلِ الأبناءِ واستخدامِ النّساءِ، واستعبادهمْ إيّاهمْ وتكلّفهمُ الأعمالَ الشّاقّةَ. ﴿مِن فِرْعَوْنَ﴾ بدلٌ منَ ﴿ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ٣٠﴾ ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيًا مِّنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ٣١﴾ أيْ جبّاراً منَ المشركينَ. وليسَ هذا علوُّ مدحٍ بلْ هوَ علوٌّ في الإسرافِ، كقولهِ: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾. وقيلَ: هذا العلوُّ هوَ التّرفّعُ عنْ عبادةِ الله.

قولهُ تعالى: ﴿وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَٰهُمْ﴾ أي بني إسرائيلَ. ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ منّا بهمْ لكثرةِ الأنبياءِ منهمْ. ﴿عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ٣٢﴾ أيْ عالمي زمانهمْ، بدليل قوله لهذه الامة: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾. ﴿وَءَاتَيْنَٰهُم مِّنَ ٱلْءَايَٰتِ﴾ أيْ من المعجزات لموسى ﴿مَا فِيهِ بَلَٰٓؤٌاْ مُّبِينٌ ٣٣﴾ كفلقُ البحرِ لهمْ، وتظليل الغمام عليهمْ وإنزال المنِّ والسّلوى. والخطابُ متوجّه إلى بني إسرائيلَ. وقيلَ: إنّها العصا واليدُ. ويكونُ الخطابُ متوجّهاً إلى قومِ فرعونَ.

قولهُ تعالى: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَيَقُولُونَ ٣٤﴾ يعني كفّارَ قريشٍ ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا ٱلْأُولَىٰ﴾ ابتداءٌ وخبر، مثل قوله: ﴿إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ﴾ وقوله: ﴿إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا﴾. ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ ٣٥﴾ أيْ بمبعوثينَ. ﴿فَأْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ٣٦﴾ أنشرَ اللّهُ الموتى فنشروا. وقدْ تقدّمَ. والمنشورونَ المبعوثونَ، ثم قيل: ﴿فَأْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ﴾ مخاطبة وللنبي ﷺ وحدهُ، كقولهِ: ﴿رَبِّ ٱرْجِعُونِ﴾، وقيلَ: مخاطبة له ولاتباعه.

قولهُ تعالى: ﴿أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ﴾ هذا استفهامُ إنكارٍ، فقد أهلكنا أولئكَ فكذا هؤلاءِ، وليسَ المرادُ بتبّعٍ رجلاً واحداً بلِ المرادُ بهِ ملوكُ اليمنِ، فكانوا يسمّونَ ملوكهمُ التّبابعةَ. فتبّعٌ لقبٌ للملكِ منهمْ كالخليفةِ للمسلمينَ، وكسرى للفرسِ، وقيصرَ للرّومِ. وقيل: سمّيَ كلُّ واحدٍ منهم تُبّعا لأنّهُ يتبعُ صاحبهُ. ﴿وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَٰهُمْ﴾ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ في موضعِ رفعِ عطفٍ على ﴿قَوْمُ تُبَّعٍ﴾. ﴿أَهْلَكْنَٰهُمْ﴾ صلتهُ. ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ٣٧﴾

قولهُ تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ٣٨﴾ لاهين، ﴿مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ أيْ إلّا بالأمرِ الحقِّ، وقيلَ: إلا لإقامة الحق وإظهاره منْ توحيدِ اللّهِ والتزامِ طاعتهِ. ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ﴾ يعني أكثر الناس. ﴿لَا يَعْلَمُونَ ٣٩﴾ ذلك.

قولهُ تعالى: ﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ﴾ هوَ يومُ القيامةِ، وسمّيَ بذلكَ لأنَّ اللّهَ تعالى يفصلُ فيهِ بينَ خلقهِ. دليلهُ قولهُ تعالى: ﴿لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ﴾. ونظيرهُ قولهُ تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ﴾. فَـ ﴿يَوْمَ ٱلْفَصْلِ﴾ ميقاتُ الكلِّ، كما قالَ تعالى: ﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ كَانَ مِيقَٰتًا﴾ لتمييزِ المسيءِ منَ المحسنِ، والفصلِ بينهما: فريقٌ في الجنّةِ وفريقٌ في السّعيرِ. وهذا غايةٌ في التّحذيرِ والوعيدِ.

قولهُ تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يُغْنِى مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْـًٔا﴾ ﴿يَوْمَ﴾ بدلٌ منْ ﴿يَوْمَ﴾ الأوّلِ. والمولى: الوليُّ وهوَ ابنُ العمِّ والنّاصرُ. أيْ لا يدفعُ ابنُ عمٍّ عنِ ابنِ عمّهِ، ولا قريبٌ عنْ قريبهِ، ولا صديقٌ عنْ صديقهِ. ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ٤١﴾ أيْ لا ينصرُ المؤمنُ الكافرَ لقرابتهِ. ونظيرُ هذهِ الآيةِ ﴿وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا﴾ الآيةَ. ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُ﴾

فمغفورٌ لهُ، والاستثناءِ المنقطعِ، ويجوزُ أنْ يكونَ استثناءً متّصلاً، أيْ لا يغني قريبٌ عنْ قريبٍ إلّا المؤمنينَ فإنّهُ يؤذنُ لهمْ في شفاعةِ بعضهمْ لبعضٍ. ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٤٢﴾ أيِ المنتقمُ منْ أعدائهِ الرّحيمُ بأوليائهِ، كما قال ﴿شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ ذِى ٱلطَّوۡلِۖ﴾ فقرن الوعد بالوعيد.

قولهُ تعالى: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ ۝٤٣﴾ كلُّ ما في كتابِ اللّهِ تعالى منْ ذكرِ الشّجرةِ فالوقفُ عليهِ بالهاءِ إلا هذه ﴿طَعَامُ ٱلۡأَثِيمِ ۝٤٤﴾ وهو الفاجرُ، وشجرةُ الزّقّومِ: الشّجرةُ الّتي خلقها اللّهُ في جهنّمَ وسمّاها الشّجرةَ الملعونةَ، فإذا جاعَ أهلُ النّارِ التجئوا إليها فأكلوا منها، فغليتْ في بطونهمْ ﴿كَٱلۡمُهۡلِ يَغۡلِي﴾ كما يغلي الماءُ الحارُّ. وشبّهَ ما يصيرُ منها إلى بطونهمْ بالمهلِ، وهوَ النّحاسُ المذابُ. وقراءةُ العامّةِ «تغلي» بالتّاءِ حملاً على الشّجرةِ. وقرأ ابنُ كثيرٍ وحفصٌ «يَغْلِي» بالياءِ حملاً على الطّعامِ، وهوَ في معنى الشّجرةِ. ولا يحملُ على المهلِ لأنّهُ ذكر للتشبيه. و ﴿ٱلۡأَثِيمِ﴾ الآثم، وقيلَ هوَ المشركُ المكتسبُ للإثمِ.

قولهُ تعالى: ﴿خُذُوهُ﴾ أيْ يقالُ للزّبانيةِ خذوهُ، يعني الأثيمَ. ﴿فَٱعۡتِلُوهُ﴾ أيْ جرّوهُ وسوقوهُ. والعتلُ: أنْ تأخذَ بتلابيبِ الرّجلِ فتعتلهُ، أيْ تجرّهُ إليكَ لتذهبَ بهِ إلى حبسٍ أوْ بليّةٍ. عتلتُ الرّجلَ أعتلهُ وأعتلهُ عتلاً إذا جذبتهُ جذبًا عنيفًا، وقرأ الكوفيّونَ وأبو عمرو ﴿فَٱعۡتِلُوهُ﴾ بالكسرِ. وضمَّ الباقونَ. ﴿إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلۡجَحِيمِ ۝٤٧﴾ وسطَ الجحيم. ﴿ثُمَّ صُبُّواْ فَوۡقَ رَأۡسِهِۦ مِنۡ عَذَابِ ٱلۡحَمِيمِ ۝٤٨﴾ نظيره ﴿يُصَبُّ مِن فَوۡقِ رُءُوسِهِمُ ٱلۡحَمِيمُ﴾.

قولهُ تعالى: ﴿ذُقۡ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡكَرِيمُ ۝٤٩﴾ بكسرِ ﴿إِنَّ﴾. وقرأَ الكسائيُّ بفتحها. فمنْ كسرَ «إنَّ» وقفَ على ﴿ذُقۡ﴾. ومنْ فتحها لمْ يقفْ على ﴿ذُقۡ﴾، لأنَّ المعنى ذقْ لأنّكَ وبأنّكَ أنتَ العزيزُ الكريمُ. وهوَ على معنى الاستخفافِ والتّوبيخِ والاستهزاءِ والإهانةِ والتّنقيصِ، أيْ قالَ لهُ: إنّكَ أنتَ الذّليلُ المهانُ. وهوَ كما قالَ قومُ شعيب لشعيب: «إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ» يعنونَ السّفيهَ الجاهلَ في أحدِ التّأويلاتِ على ما تقدّمَ. ﴿إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ تَمۡتَرُونَ ۝٥٠﴾ أيْ تقولُ لهمُ الملائكةُ: إنَّ هذا ما كنتمْ تشكون فيه في الدنيا.

قولهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى مَقَامٍ أَمِينٍ ۝٥١﴾ لمّا ذكرَ مستقرَّ الكافرينَ وعذابهمْ ذكرَ نُزُلَ المؤمنينَ ونعيمهمْ. وقرأ نافعٌ وابنُ عامرٍ ﴿فِى مُقَامٍ﴾ بضمِّ الميمِ. الباقونَ بالفتحِ. والمقامُ المكانُ، والمقامُ الإقامةُ، ﴿أَمِينٍ﴾ يؤمن فيه من الآفاتِ ﴿فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ۝٥٢﴾ بدل من ﴿مَقَامٍ أَمِينٍ﴾. ﴿يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ۝٥٣﴾ لا يرى بعضهمْ قفا بعضٍ، متواجهينَ يدورُ بهمْ مجلسهمْ حيثُ داروا. والسّندسُ: ما رقَّ منَ الدّيباجِ. والإستبرقُ: ما غلظَ منهُ.

قولهُ تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ ۝٥٤﴾ أيْ كما أدخلناهمُ الجنّةَ أكرمناهمْ بأنْ زوّجناهمْ حوراً عيناً، والحورُ جمعُ حوراءَ. والحوراءُ: البيضاءُ الّتي يرى ساقها منْ وراءِ ثيابها، ويرى النّاظرُ وجههُ في كعبها، كالمرآةِ منْ دقّةِ الجلدِ وبضاضةِ البشرةِ وصفاءِ اللّونِ. وقيلَ: إنّما سمّيتِ الحورُ حوراً لأنّهنَّ يحارُ الطّرفِ في حسنهنَّ وبياضهنَّ وصفاءِ لونهنَّ. وقيلَ: لحَورِ أعينهنَّ. والحَورُ: شدّةُ بياضِ العينِ في شدّةِ سوادها، والعينُ جمعُ عيناءَ، وهيَ الواسعةُ العظيمةُ العينينِ.

واختلفَ أيّما أفضلُ في الجنّةِ، نساءُ الآدميّاتِ أمِ الحورُ؟ فقيل: إنَّ نساءَ الآدميّاتِ منْ دخلَ منهنَّ الجنّةَ فضّلنَ على الحورِ العينِ بما عملنَ في الدّنيا، وقيلَ: إنَّ الحورَ العينَ أفضلُ، لقولهِ ﷺ في دعائهِ: «وأبدلهُ زوجاً خيراً منْ زوجهِ». واللّهُ أعلمُ.

قولهُ تعالى: ﴿يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ ۝٥٥﴾ منَ الموتِ والوصبِ والشّيطانِ. وقيلَ: آمنينَ منَ انقطاعِ ما همْ فيهِ منَ النّعيمِ، أوْ منْ أنْ ينالهمْ منْ أكلها أذى أو مكروه.

قولهُ تعالى: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ﴾ أيْ لا يذوقونَ فيها الموتَ البتّةَ لأنّهمْ خالدونَ فيها. ثمَّ قالَ: ﴿إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ﴾ على الاستثناءِ المنقطعِ، أيْ لكنَّ الموتةَ الأولى قدْ ذاقوها في الدّنيا.

وقيلَ: إنَّ ﴿إِلَّا﴾ بمعنى بعدُ، كقولكَ: ما كلّمتُ رجلاً اليومَ إلّا رجلاً عندكَ، أيْ بعدَ رجلٍ عندكَ.

وقيلَ: ﴿إِلَّا﴾ بمعنى سوى، أيْ سوى الموتةِ الّتي ماتوها في الدّنيا، كقولهِ تعالى: ﴿وَلَا

تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَۚ﴾.

والموتُ عرضٌ لا يذاقُ، ولكنْ جُعلَ كالطّعامِ الّذي يكرهُ ذوقهُ، فاستعيرَ فيهِ لفظُ الذّوقِ. ﴿وَوَقَىٰهُمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ ۝٥٦ فَضۡلٗا مِّن رَّبِّكَۚ﴾ أيْ فعلَ ذلكَ بهمْ تفضّلاً منهُ عليهمْ. فَ ﴿فَضۡلٗا﴾ مصدرٌ عملَ فيهِ ﴿يَدۡعُونَ﴾. وقيلَ: العاملُ فيهِ ﴿وَوَقَىٰهُمۡ﴾. ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ۝٥٧﴾ الرّبحُ العظيمُ والنّجاةُ العظيمةُ.

قوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرۡنَٰهُ بِلِسَانِكَ﴾ يعني القرآنَ، أيْ سهّلناهُ بلغتكَ عليكَ وعلى منْ يقرؤهُ ﴿لَعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ ۝٥٨﴾ أيْ يتّعظونَ وينزجرونَ. ونظيرهُ ﴿وَلَقَدۡ يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ لِلذِّكۡرِ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ﴾ فختمَ السّورةَ بالحثِّ على اتّباعِ القرآنِ وإنْ لمْ يكنْ مذكوراً، كما قالَ في مفتتحِ السورة: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةٖ مُّبَٰرَكَةٍۚ﴾ ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِ﴾ على ما تقدّمَ.

قوله تعالى: ﴿فَٱرۡتَقِبۡ إِنَّهُم مُّرۡتَقِبُونَ ۝٥٩﴾ أيِ انتظرْ ما وعدتكَ منَ النّصرِ عليهمْ إنهم منتظرون لك الموت.

□

سورة الجاثية

مكّيّةٌ كلّها، وهيَ سبعٌ وثلاثونَ آيةً.

بسمِ اللّهِ الرّحمنِ الرّحيمِ

قولهُ تعالى: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَـٰبِ﴾ مبتدأٌ. وخبرهُ ﴿مِنَ ٱللَّهِ﴾. والكتاب القرآن. و ﴿ٱلْعَزِيزِ﴾ المنيعُ. ﴿ٱلْحَكِيمِ ۝٢﴾ في فعلهِ.

قولهُ تعالى: ﴿إِنَّ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أيْ في خلقهما ﴿لَـَٔايَـٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۝٣ وَفِى خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَـٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ۝٤ وَٱخْتِلَـٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ﴾ يعني المطرَ. ﴿فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَـٰحِ ءَايَـٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ۝٥﴾، وقراءةُ العامّةِ ﴿وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَـٰتٌ﴾ ﴿وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَـٰحِ ءَايَـٰتٌ﴾ بالرّفعِ فيهما. وقرأ حمزةُ والكسائيُّ بكسرِ التّاءِ فيهما. ولا خلافَ في الأوّلِ أنّهُ بالنّصبِ على اسمِ ﴿إِنَّ﴾ وخبرها ﴿فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ﴾.

قولهُ تعالى: ﴿تِلْكَ ءَايَـٰتُ ٱللَّهِ﴾ أيْ حججهُ وبراهينهُ الدّالّةُ على وحدانيّتهِ وقدرتهِ. ﴿نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ﴾ أيْ بالصّدقِ الّذي لا باطل ولا كذب فيه. وقرئَ «يتلوها» بالياء. ﴿فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَ ٱللَّهِ﴾ بعد حديث الله، وقيلَ بعدَ قرآنهِ ﴿وَءَايَـٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ﴾ قراءةُ العامّةِ بالياءِ على الخبرِ. وقرأ أبو بكرٍ عنْ عاصمٍ وحمزةَ والكسائيِّ ﴿تُؤْمِنُونَ﴾ بالتاء على الخطاب.

قولهُ تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ۝٧﴾ ﴿وَيْلٌ﴾ وادٍ في جهنّمَ. توعّدَ منْ تركَ الاستدلالَ بآياتهِ. والأفّاكُ: الكذّابُ. والإفكُ الكذبُ ﴿أَثِيمٍ﴾ أيْ مرتكبٌ للإثمِ. ﴿يَسْمَعُ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ﴾ يعني آياتِ القرآنِ. ﴿ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا﴾ أيْ يتمادى على كفرهِ متعظّماً في نفسهِ عنِ الانقيادِ، مأخوذٌ منْ صرَّ الصّرّةَ إذا شدّها. ﴿فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٨﴾.

قولهُ تعالى: ﴿وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَـٰتِنَا شَيْـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا﴾ نحوُ قولهِ في الزّقّومِ: إنّهُ الزّبدُ والتّمرُ، وقولهُ في خزنةِ جهنّمَ: إنْ كانوا تسعةَ عشرَ فأنا ألقاهمْ وحدي. ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ

مُّهِينٌ ۝٩﴾ مذلٌّ مخزٍ. ﴿مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ﴾ أيْ من وراءِ ما هم فيهِ منَ التّعزّزِ في الدّنيا والتّكبّرِ عنِ الحقِّ جهنّمُ. وقيل: ﴿مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ﴾ أيْ أمامهمْ، نظيرهُ ﴿مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ﴾ أيْ منْ أمامهِ. قالَ:

أليسَ ورائي إنْ تراختْ منيّتي أدبُّ معَ الولدانِ أزحفُ كالنّسرِ

﴿وَلَا يُغْنِى عَنْهُم مَّا كَسَبُوا۟ شَيْـًٔا﴾ أيْ منَ المالِ والولدِ، نظيرهُ ﴿لَّن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ أيْ منَ المالِ والولدِ. ﴿وَلَا مَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ﴾ يعني الأصنامَ. ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝١٠﴾ أي دائم مؤلم.

قولهُ تعالى: ﴿هَٰذَا هُدًى﴾ ابتداءٌ وخبرٌ، يعني القرآنَ. وقالَ ابنُ عبّاسٍ: يعني كلَّ ما جاءَ بهِ محمّدٌ ﷺ. ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ﴾ أي جحدوا دلائله. ﴿لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ۝١١﴾ الرّجزُ العذابُ، أيْ لهمْ عذابٌ منْ عذابٍ أليمٍ، دليلهُ قولهُ تعالى: ﴿فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ أيْ عذاباً. وقيلَ: الرّجزُ القذرُ مثلُ الرّجسِ، وهوَ كقولهِ تعالى: ﴿وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ﴾ أيْ لهمْ عذابٌ منْ تجرّعِ الشّرابِ القذرِ، وقرأ ابنُ كثيرٍ وحفصٌ ﴿أَلِيمٌ﴾ بالرّفعِ، على معنى لهمْ عذابٌ أليمٌ من رجز. الباقون بالخفض نعتا للرجز.

قولهُ تعالى: ﴿۞ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝١٢﴾ ذكرَ كمالَ قدرتهِ وتمامَ نعمتهِ على عبادهِ، وبيّنَ أنّهُ خلقَ ما خلقَ لمنافعهمْ. ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ يعني أنَّ ذلكَ فعلهُ وخلقهُ وإحسانٌ منهُ وإنعامٌ. ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ۝١٣﴾.

قولهُ تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَغْفِرُوا۟﴾ جزمَ على معنى قل لهمُ اغفروا يغفروا، فهوَ جوابُ أمرٍ محذوفٍ دلَّ الكلامُ عليهِ، ومعنى ﴿يَغْفِرُوا۟﴾: يعفوا ويتجاوزوا. ومعنى ﴿للذين لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ﴾ أيْ لا يرجونَ ثوابهُ. وقيلَ: أيْ لا يخافونَ بأسَ اللّهِ ونقمهُ. وقيلَ: الرّجاءُ بمعنى الخوفِ، كقولهِ: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾ أيْ لا تخافونَ لهُ عظمةً. والمعنى: لا تخشون مثلَ عذابِ الأممِ الخاليةِ. والأيّامُ يعبّرُ بها عنِ الوقائعِ. وقيلَ: لا يأملونَ نصرَ اللّهِ لأوليائهِ وإيقاعهِ بأعدائهِ. وقيلَ: المعنى لا يخافونَ البعثَ. ﴿لِيَجْزِىَ قَوْمًۢا بِمَا كَانُوا۟

﴿يَكۡسِبُونَ ١٤﴾ قراءةُ العامّةِ ﴿لِيَجۡزِيَ﴾ بالياءِ على معنى ليجزيَ اللّهُ. وقرأ حمزةُ والكسائيُّ وابنُ عامرٍ «لنجزيَ» بالنّونِ على التّعظيم. وقرأ أبو جعفرٍ «لِيُجزَى» بياءٍ مضمومةٍ وفتح الزّاي على الفعلِ المجهولِ ﴿قَوۡمَۢا﴾ بالنّصبِ. قالَ أبو عمرو: وهذا لحنٌ ظاهرٌ. وقالَ الكسائيُّ: معناهُ ليجزيَ الجزاءَ قوماً، نظيرهُ «وكذلكَ نُجِّي المؤمنينَ» على قراءةِ ابنِ عامرٍ وأبي بكرٍ في سورةِ الأنبياءِ.

قولهُ تعالى: ﴿مَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا فَلِنَفۡسِهِۦۖ وَمَنۡ أَسَآءَ فَعَلَيۡهَاۖ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ تُرۡجَعُونَ ١٥﴾ تقدم.

قولهُ تعالى: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ يعني التّوراةَ. ﴿وَٱلۡحُكۡمَ وَٱلنُّبُوَّةَ﴾ الحكمُ: الفهمُ في الكتابِ. وقيلَ: الحكمُ على النّاسِ والقضاء. و ﴿ٱلنُّبُوَّةَ﴾ يعني الأنبياءَ منْ وقتِ يوسفَ عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ إلى زمنِ عيسى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ. ﴿وَرَزَقۡنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ أي الحلال منَ الأقواتِ والثّمارِ والأطعمةِ الّتي كانتْ بالشّامِ. وقيلَ: يعني المنَّ والسّلوى في التّيهِ. ﴿وَفَضَّلۡنَٰهُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٦﴾ أيْ على عالمي زمانهمْ. ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُم بَيِّنَٰتٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِۖ﴾ يعني أمرَ النّبيِّ ﷺ، وشواهدَ نبوّتهِ بأنّهُ يهاجرُ منْ تهامةَ إلى يثربَ، وينصرهُ أهلُ يثربَ. ﴿فَمَا ٱخۡتَلَفُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ﴾ نبوّةُ النّبيِّ ﷺ فاختلفوا فيها. ﴿بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۚ﴾ أيْ حسداً على النّبيِّ ﷺ. ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقۡضِي بَيۡنَهُمۡ﴾ أيْ يحكمُ ويفصلُ. ﴿يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ ١٧﴾ في الدنيا.

قولهُ تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلۡنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ فَٱتَّبِعۡهَا وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ ١٨﴾، فيهِ مسألتانِ:

الأولى: الشّريعةُ في اللّغةِ: المذهبُ والملّةُ، ومنهُ الشّارعُ لأنّهُ طريقٌ إلى المقصدِ. فالشّريعةُ: ما شرعَ اللّهُ لعبادهِ منَ الدّينِ، والجمعُ الشّرائعُ. والشّرائعُ في الدّينِ: المذاهبُ الّتي شرعها اللّهُ لخلقهِ. فمعنى ﴿جَعَلۡنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ﴾ أيْ على منهاجٍ واضحٍ منْ أمرِ الدّينِ يشرعُ بكَ إلى الحقِّ.

والأمرُ يردُ في اللّغةِ بمعنيينِ:

أحدهما- بمعنى الشّأنِ كقولهِ: ﴿فَٱتَّبَعُوٓاْ أَمۡرَ فِرۡعَوۡنَۖ وَمَآ أَمۡرُ فِرۡعَوۡنَ بِرَشِيدٖ﴾.

و**الثّاني**- أحدُ أقسامِ الكلامِ الّذي يقابلهُ النّهيُ. وكلاهما يصح أن يكون مرادا ها هنا، وتقديرهُ: ثمَّ جعلناكَ على طريقةٍ منَ الدّينِ وهيَ ملّةُ الإسلامِ، كما قالَ تعالى: ﴿ثُمَّ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ أَنِ ٱتَّبِعۡ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾. ولا خلافَ أنَّ اللّهَ تعالى لمْ يغايرْ بينَ الشّرائعِ في التّوحيدِ والمكارمِ والمصالحِ، وإنّما خالفَ بينهما في الفروعِ حسبما علّمهُ سبحانهُ.

الثانية- قالَ ابنُ العربيِّ: ظنَّ بعضُ منْ يتكلّمُ في العلمِ أنَّ هذهِ الآيةَ دليلٌ على أنَّ شرعَ منْ قبلنا ليسَ بشرعٍ لنا، لأنَّ اللّهَ تعالى أفردَ النّبيَّ ﷺ وأمّتهُ في هذهِ الآيةِ بشريعةٍ، ولا ننكرُ أنَّ النّبيَّ ﷺ وأمّتهُ منفردانِ بشريعةٍ، وإنّما الخلافُ فيما أخبرَ النّبيُّ ﷺ عنهُ منْ شرعِ منْ قبلنا في معرضِ المدحِ والثّناءِ هلْ يلزمُ اتّباعهُ أمْ لا.

قولهُ تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ ١٨﴾ يعني المشركينَ لمّا دعتهُ قريشٌ إلى دينِ آبائه.

قولهُ تعالى: ﴿إِنَّهُمۡ لَن يُغۡنُواْ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗاۚ﴾ أيْ إنِ اتّبعتَ أهواءهمْ لا يدفعونَ عنكَ منْ عذابِ اللّهِ شيئًا. ﴿وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۖ﴾ فالمنافقون أولياءُ اليهودِ. ﴿وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلۡمُتَّقِينَ ١٩﴾ أيْ ناصرهمْ ومعينهمْ. والمتّقونَ هنا: الّذينَ اتّقوا الشّركَ والمعاصي.

قولهُ تعالى: ﴿هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ﴾ ابتداءٌ وخبرٌ، أيْ هذا الّذي أنزلتُ عليكَ براهينُ ودلائلُ ومعالم للناسِ في الحدود والأحكام. ﴿هُدٗى﴾ أيْ رشدٌ وطريقٌ يؤدّي إلى الجنّةِ لمنْ أخذَ بهِ. ﴿وَرَحۡمَةٞ﴾ في الآخرةِ ﴿لِّقَوۡمٖ يُوقِنُونَ ٢٠﴾.

قولهُ تعالى: ﴿أَمۡ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجۡتَرَحُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ أي اكتسبوها. والاجتراح: الاكتساب، ومنه الجوارح، وتقدم في المائدة. ﴿أَن نَّجۡعَلَهُمۡ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، وقولهُ: ﴿أَمۡ حَسِبَ﴾ استفهامٌ معطوفٌ معناهُ الإنكارُ، وقراءةُ العامّةِ ﴿سَوَآءٌ﴾ بالرّفعِ على أنّهُ خبرُ ابتداءٍ مقدّمٌ، أيْ محياهمْ ومماتهمْ سواءٌ. والضّميرُ في ﴿مَّحۡيَاهُمۡ

﴿وَمَمَاتُهُمْۚ﴾ يعودُ على الكفّارِ، أيْ محياهمْ محيا سوءٍ ومماتهمْ كذلكَ. وقرأ حمزةُ والكسائيُّ: ﴿سَوَآءً﴾ بالنّصبِ، أي نجعلهمْ سواءً، ويجوزُ أنْ يكونَ الضّميرُ في ﴿مَّحۡيَاهُمۡ وَمَمَاتُهُمۡۚ﴾ للكفّارِ والمؤمنينَ جميعًا. قالَ مجاهدٌ: المؤمنُ يموتُ مؤمنًا ويبعثُ مؤمنًا، والكافرُ يموتُ كافراً ويبعثُ كافراً.

قولهُ تعالى: ﴿وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّ﴾ أيْ بالأمرِ الحقِّ. ﴿وَلِتُجۡزَىٰ﴾ أيْ ولكيْ تجزى. ﴿كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡ﴾ أيْ في الآخرةِ. ﴿وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ١٩﴾.

قولهُ تعالى: ﴿أَفَرَءَيۡتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلۡمٖ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمۡعِهِۦ وَقَلۡبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةٗ فَمَن يَهۡدِيهِ مِنۢ بَعۡدِ ٱللَّهِۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ٢٣﴾

المعنى أفرأيتَ منْ ينقادُ لهواهُ ومعبودهِ تعجيبًا لذوي العقولِ منْ هذا الجهلِ، وإنّما سمّيَ الهوى هوى لأنّهُ يهوي بصاحبهِ في النّارِ. وقالَ ابنُ عبّاسٍ: ما ذكرَ اللّهُ هوى في القرآنِ إلّا ذمّهُ، قالَ اللّهُ تعالى: ﴿وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلۡكَلۡبِ﴾. وقالَ تعالى: ﴿وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمۡرُهُۥ فُرُطٗا﴾. وقالَ تعالى: ﴿بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَهۡوَآءَهُم بِغَيۡرِ عِلۡمٖۖ فَمَن يَهۡدِي مَنۡ أَضَلَّ ٱللَّهُۖ﴾. وقالَ تعالى: ﴿وَمَنۡ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيۡرِ هُدٗى مِّنَ ٱللَّهِۚ﴾. وقالَ تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعِ ٱلۡهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾. وقال عبد الله ابن عمرو بنِ العاصِ عنِ النّبيِّ ﷺ: «لا يؤمنُ أحدكمْ حتّى يكونَ هواهُ تبعًا لما جئتُ بهِ»، وقالَ شدّادُ بنُ أوسٍ عنِ النّبيِّ ﷺ: «الكيّسُ منْ دانَ نفسهُ وعملَ لما بعدَ الموتِ. والفاجرُ منْ أتبعَ نفسهُ هواها وتمنّى على اللّهِ». وقالَ ﷺ: «إذا رأيتَ شحًا مطاعًا وهوى متّبعًا ودنيا مؤثرةً وإعجابَ كلِّ ذي رأيٍ برأيهِ فعليكَ بخاصّةِ نفسكَ ودعْ عنكَ أمرَ العامّةِ». وقالَ ﷺ: «ثلاثٌ مهلكاتٌ وثلاثٌ منجياتٌ فالمهلكاتُ شحٌّ مطاعٌ وهوى متّبعٌ وإعجابُ المرءِ بنفسهِ. والمنجياتُ خشيةُ اللّهِ في السّرِّ والعلانيةِ والقصدُ في الغنى والفقرِ والعدلُ في الرّضا والغضبِ».

وللعلماءِ في هذا البابِ في ذمِّ الهوى ومخالفتهِ كتبٌ وأبوابٌ أشرنا إلى ما فيهِ كفايةٌ منهُ، وحسبكَ بقولهِ تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفۡسَ عَنِ ٱلۡهَوَىٰ ٤٠ فَإِنَّ ٱلۡجَنَّةَ هِيَ ٱلۡمَأۡوَىٰ﴾.

قولهُ تعالى: ﴿وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلۡمٖ﴾ يجوزُ أنْ يكونَ حالاً منَ الفاعلِ، المعنى: أضلّهُ على علمٍ منهُ بهِ، أيْ أضلّهُ عالماً بأنّهُ منْ أهلِ الضّلالِ في سابقِ علمهِ. ويجوزُ أنْ يكونَ حالاً منَ المفعولِ، فيكونُ المعنى: أضلّهُ في حالِ علمِ الكافرِ بأنّهُ ضالٌّ. ﴿وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمۡعِهِۦ وَقَلۡبِهِۦ﴾ أيْ طبعَ على سمعهِ حتّى لا يسمعَ الوعظَ، وطبعَ على قلبهِ حتّى لا يفقهُ الهدى. ﴿وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةٗ﴾ أيْ غطاءً حتّى لا يبصرَ الرّشدَ. وقرأ حمزةُ والكسائيُّ: «غَشوةً» بفتحِ الغينِ منْ غيرِ ألفٍ ﴿فَمَن يَهۡدِيهِ مِنۢ بَعۡدِ ٱللَّهِۚ﴾ أيْ منْ بعدِ أنْ أضلّهُ. ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ٢٣﴾ تتّعظونَ وتعرفونَ أنّهُ قادرٌ على ما يشاءُ.

وهذهِ الآيةُ تردُّ على القدريّةِ والإماميّةِ ومنْ سلكَ سبيلهمْ في الاعتقادِ، إذْ هيَ مصرّحةٌ بمنعهمْ منَ الهدايةِ. ثمَّ قيلَ: ﴿وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمۡعِهِۦ وَقَلۡبِهِۦ﴾ إنّهُ خارجٌ مخرجَ الخبرِ عنْ أحوالهمْ. وقيلَ: إنّهُ خارجٌ مخرجَ الدّعاءِ بذلكَ عليهمْ.

قولهُ تعالى: ﴿وَقَالُواْ مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا نَمُوتُ وَنَحۡيَا﴾ هذا إنكارٌ منهمْ للآخرةِ وتكذيبٌ للبعثِ وإبطالٌ للجزاءِ. ومعنى ﴿نَمُوتُ وَنَحۡيَا﴾ أي نموت نحن وتحيا أولادنا، وقيلَ: يموتُ بعضنا ويحيا بعضنا. وقيلَ: فيهِ تقديمٌ وتأخيرٌ، أيْ نحيا ونموتُ، ﴿وَمَا يُهۡلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهۡرُۚ﴾ يعني السّنينَ والأيّامَ. ﴿وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنۡ عِلۡمٍۖ﴾. أي علم. و﴿مِن﴾ زائدةٌ، أيْ قالوا ما قالوا شاكّينَ. ﴿إِنۡ هُمۡ إِلَّا يَظُنُّونَ ٢٤﴾ أيْ ما همْ إلّا يتكلّمونَ بالظّنِّ. وكانَ المشركونَ أصنافاً، منهمْ هؤلاءِ، ومنهمْ منْ كانَ يثبتُ الصّانعَ وينكرُ البعثَ، ومنهمْ منْ كانَ يشكُّ في البعثِ ولا يقطعُ بإنكارهِ. وحدّثَ في الإسلامِ أقوامٌ ليسَ يمكنهمْ إنكارُ البعثِ خوفاً منَ المسلمينَ، فيتأوّلونَ ويرونَ القيامةَ موتَ البدنِ، ويرونَ الثّوابَ والعقابَ إلى خيالاتٍ تقعُ للأرواحِ بزعمهمْ، فشرُّ هؤلاءِ أضرُّ منْ شرِّ جميعِ الكفّارِ، لأنَّ هؤلاءِ يلبّسونَ على الحقِّ، ويغترُّ بتلبيسهمُ الظّاهرِ. والمشركُ المجاهرُ بشركهِ يحذرهُ المسلمُ.

وقيلَ: نموتُ وتحيا آثارنا، فهذهِ حياةُ الذّكرِ. وقيلَ أشاروا إلى التّناسخِ، أيْ يموتُ الرّجلُ فتجعلُ روحهُ في موات فتحيا به.

قولهُ تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ﴾ في جوازِ البعثِ ﴿مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾﴾ الموتى نسألهمْ عنْ صدقِ ما تقولونَ، فردَّ اللّهُ عليهمْ بقولهِ ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ﴾ يعني بعدَ كونكمْ نطفاً أمواتاً ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ كما أحياكمْ في الدّنيا. ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾﴾ أنَّ اللّهَ يعيدهمْ كما بدأهمْ. وسمى قولهم حجّة على سبيلِ التّهكّمِ، والمرادُ نفيَ أنْ تكونَ لهمْ حجّةٌ البتّةَ.

قولهُ تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ خلقاً وملكاً. ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٢٧﴾﴾ يخسرونَ منازلهمْ في الجنة.

قولهُ تعالى: ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً﴾ أيْ منْ هولِ ذلكَ اليوم. والأمّةُ هنا: أهلُ كلِّ ملّةٍ. والجاثيَ المستوفزُ الّذي لا يصيبُ الأرضَ منهُ إلّا ركبتاهُ وأطرافُ أناملهِ. باركةٌ على الرّكبِ.

ثم قيل: هو خاص بالكفار، وقيلَ: إنّهُ عامٌّ للمؤمنِ والكافرِ انتظاراً للحسابِ ﴿كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا﴾ إلى حسابها. وقيلَ: إلى كتابها الّذي كانَ يستنسخُ لها فيهِ ما عملتْ منْ خير وشر، ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾﴾ من خير أو شر.

قولهُ تعالى: ﴿هَٰذَا كِتَٰبُنَا﴾ قيلَ منْ قولِ اللّهِ لهمْ. وقيلَ منْ قولِ الملائكةِ. ﴿يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ﴾ أيْ يشهدُ. وهوَ استعارةٌ، ﴿وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا﴾. وفي المؤمنينَ: ﴿وَلَدَيْنَا كِتَٰبٌ يَنطِقُ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ ﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٩﴾﴾ أيْ نأمرُ بنسخِ ما كنتمْ تعملونَ.

قولهُ تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِى رَحْمَتِهِۦ﴾ أي الجنّةَ ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴿٣٠﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ أيْ فيقالُ لهمْ ذلكَ. وهوَ استفهامُ توبيخٍ. ﴿فَٱسْتَكْبَرْتُمْ﴾ عنْ قبولها. ﴿وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٣١﴾﴾ أيْ مشركينَ تكسبونَ المعاصي، وقدْ قالَ اللّهُ تعالى: ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ﴾ فالمجرمُ ضدُّ المسلمِ فهوَ المذنبُ بالكفرِ إذاً.

قولهُ تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ أيِ البعثُ كائنٌ. ﴿وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيۡبَ فِيهَا﴾ وقرأَ حمزةُ ﴿وَٱلسَّاعَةَ﴾ بالنّصبِ عطفًا على ﴿وَعۡدَ﴾. الباقونَ بالرّفعِ على الابتداءِ، أوِ العطف على موضعِ ﴿إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ﴾. ﴿قُلۡتُم مَّا نَدۡرِي مَا ٱلسَّاعَةُ﴾ هلْ هيَ حقٌّ أمْ باطلٌ. ﴿إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنّٗا وَمَا نَحۡنُ بِمُسۡتَيۡقِنِينَ ٣٢﴾ أن الساعة آتية.

قولهُ تعالى: ﴿وَبَدَا لَهُمۡ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُواْ﴾ أيْ ظهرَ لهمْ جزاءُ سيّئاتِ ما عملوا. ﴿وَحَاقَ بِهِم﴾ أيْ نزلَ بهمْ وأحاطَ. ﴿مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ٣٣﴾ من عذاب الله.

قولهُ تعالى: ﴿وَقِيلَ ٱلۡيَوۡمَ نَنسَىٰكُمۡ﴾ أيْ نترككمْ في النّارِ كما تركتمْ لقاءَ يومكمْ هذا، أيْ تركتمُ العملَ لهُ. ﴿وَمَأۡوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ﴾ أيْ مسكنكمْ ومستقرّكمْ. ﴿وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ٣٤﴾ منْ ينصركم.

قولهُ تعالى: ﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ ٱتَّخَذۡتُمۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ يعنى القرآنَ. ﴿هُزُوٗا﴾ لعبًا. ﴿وَغَرَّتۡكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا﴾ أيْ خدعتكمْ بأباطيلها وزخارفها، فظننتمْ أنْ ليسَ ثمَّ غيرها، وأنْ لا بعثَ. ﴿فَٱلۡيَوۡمَ لَا يُخۡرَجُونَ مِنۡهَا﴾ أيْ منَ النّارِ. ﴿وَلَا هُمۡ يُسۡتَعۡتَبُونَ ٣٥﴾ يسترضونَ.

وقرأ حمزةُ والكسائيُّ: «فَالْيَوْمَ لَا يَخْرُجُونَ» بفتح الياءِ وضم الراء، لقوله تعالى: ﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَآ أُعِيدُواْ فِيهَا﴾ الباقونَ بضمِّ الياءِ وفتح الرّاءِ، لقولهِ تعالى: ﴿رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا﴾ ونحوه.

قولهُ تعالى: ﴿فَلِلَّهِ ٱلۡحَمۡدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلۡأَرۡضِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٣٦ وَلَهُ ٱلۡكِبۡرِيَآءُ﴾ أي العظمةُ والجلالُ والبقاءُ والسّلطانُ والقدرةُ والكمالُ. ﴿فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ والله أعلم.

سورة الأحقاف

مكّيّةٌ في قولِ جميعهم. وهي خمس وثلاثون آية.

بسمِ اللّهِ الرّحمنِ الرّحيم

قولهِ تعالى: ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ ۝٢﴾ تقدّمَ ﴿مَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ﴾ تقدّمَ أيضـًا. ﴿وَأَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ﴾ يعني القيامةَ، وهوَ الأجل الذي تنتهي إليه السموات والأرض. ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَمَّآ أُنذِرُواْ﴾ خوفوه ﴿مُعۡرِضُونَ ۝٣﴾ مولون لاهون غير مستعدين له. ويجوز أنْ تكونَ ﴿مَا﴾ مصدريّةً، أيْ عنْ إنذارهمْ ذلك اليوم.

قولهُ تعالى: ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُم مَّا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِ أَمۡ لَهُمۡ شِرۡكٞ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِۖ ٱئۡتُونِي بِكِتَٰبٖ مِّن قَبۡلِ هَٰذَآ أَوۡ أَثَٰرَةٖ مِّنۡ عِلۡمٍ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ۝٤﴾، فيهِ خمسُ مسائلَ:

الأولى: قولهُ تعالى: ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُم مَّا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ منَ الأصنام والأندادِ منْ دونِ اللّهِ. ﴿أَرُونِي مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِ﴾ أيْ هلْ خلقوا شيئـًا منَ الأرضِ ﴿أَمۡ لَهُمۡ شِرۡكٞ﴾ أيْ نصيبٌ ﴿فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ أيْ في خلق السموات معَ اللّهِ. ﴿ٱئۡتُونِي بِكِتَٰبٖ مِّن قَبۡلِ هَٰذَآ﴾ أيْ منْ قبلِ هذا القرآنِ.

الثانية– قولهُ تعالى: ﴿أَوۡ أَثَٰرَةٖ مِّنۡ عِلۡمٍ﴾. قراءةُ العامّةِ ﴿أَوۡ أَثَٰرَةٖ﴾ بألفٍ بعدَ الثّاءِ. قيل: هوَ خطٌّ كانتْ تخطّهُ العربُ في الأرضِ، وفي مشهورِ الحديثِ عنِ النّبيِّ ﷺ قالَ: كانَ نبيٌّ منَ الأنبياءِ يخطُّ فمنْ وافقَ خطّهُ فذاكَ خرّجهُ مسلمٌ.

واختلفوا في تأويلِه، فمنهمْ منْ قالَ: جاءَ لإباحةِ الضّربِ، لأنَّ بعضَ الأنبياء كانَ يفعله، ومنهمْ منْ قالَ جاءَ للنّهي عنهُ، لأنّهُ ﷺ قالَ: فمنْ وافقَ خطّهُ فذاكَ ولا سبيلَ إلى معرفةِ طريقِ النبي المتقدّمِ فيهِ، فإذاً لا سبيلَ إلى العملِ بهِ. قالَ:

لعمركَ ما تدري الضّوارِبُ بالحصا ولا زاجراتُ الطّيرِ ما اللّهُ صانعُ

وقدْ نهتِ الشّريعةُ عنهُ، وأخبرتْ أنَّ ذلكَ ممّا اختصَّ اللّهُ بهِ، وقطعهُ عنِ الخلقِ، وإنْ كانتْ لهمْ قبلَ ذلكَ أسبابٌ يتعلّقونَ بها في دركِ الأشياءِ المغيّبةِ، فإنَّ اللّهَ قد رفع تلك الأسباب وطمس تيك الأبوابَ وأفردَ نفسهُ بعلمِ الغيبِ، فلا يجوزُ مزاحمتهُ في ذلكَ، ولا يحلُّ لأحدٍ دعواهُ.

الثالثة- قالَ ابنُ العربيِّ: إنَّ اللّهَ تعالى لمْ يبقِ منَ الأسبابِ الدّالّةِ على الغيبِ الّتي أذنَ في التّعلّقِ بها والاستدلالِ منها إلّا الرّؤيا، فإنّهُ أذنَ فيها، وأخبرَ أنّها جزءٌ منَ النّبوّةِ وكذلكَ الفألُ، وأمّا الطّيرةُ والزّجرُ فإنّهُ نهى عنهما. والفألُ: هوَ الاستدلالُ بما يسمعُ منَ الكلامِ على ما يريدُ من الأمر إذا كان حسنا، فإن سمعَ مكروهًا فهوَ تطيّرٌ، أمرهُ الشّرعُ بأنْ يفرحَ بالفألِ ويمضيَ على أمرهِ مسروراً. وإذا سمعَ المكروهَ أعرضَ عنهُ ولمْ يرجعْ لأجلهِ، وقدْ قالَ النّبيُّ ﷺ: «اللّهمَّ لا طيرَ إلّا طيركَ ولا خيرَ إلّا خيركَ ولا إلهَ غيركَ». وقدْ روى بعضُ الأدباءِ:

الفألُ والزّجرُ والكهّانُ كلّهمُ مضلّلونَ ودونَ الغيبِ أقفالُ

وهذا كلامٌ صحيحٌ، إلّا في الفألِ فإنَّ الشّرعَ استثناهُ وأمرَ بهِ، فلا يقبلُ منْ هذا الشّاعرِ ما نظمهُ فيهِ، فإنّهُ تكلّمَ بجهلٍ، وصاحبُ الشّرعِ أصدقُ وأعلمُ وأحكمُ.

الرابعة- قولهُ تعالى: ﴿أَوْ أَثَـٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ﴾ يريدُ الخطَّ. وكانَ مالكٌ رحمهُ اللّهُ يحكمُ بالخطِّ إذا عرفَ الشّاهدُ خطّهُ. وإذا عرفَ الحاكمُ خطّهُ أوْ خطَّ منْ كتبَ إليهِ حكمَ بهِ، ثمَّ رجعَ عنْ ذلكَ حينَ ظهرَ في النّاسِ ما ظهرَ منَ الحيلِ والتّزويرِ. وقدْ رويَ عنهُ أنّهُ قالَ: يحدثُ النّاسُ فجوراً فتحدثُ لهمْ أقضيةٌ. فأمّا إذا شهدَ الشّهودُ على الخطِّ المحكومِ بهِ، مثلُ أنْ يشهدوا أنَّ هذا خطُّ الحاكمِ وكتابهُ، أشهدنا على ما فيهِ وإنْ لمْ يعلموا ما في الكتابِ. وكذلكَ الوصيّةُ أوْ خطُّ الرّجلِ باعترافهِ بمالٍ لغيرهِ يشهدونَ أنّهُ خطّهُ ونحوُ ذلكَ فلا يختلف مذهبه أنه يحكمَ بهِ.

وقيلَ: ﴿أَوْ أَثَـٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ﴾ أوْ بقيّةٍ منْ علمٍ، والأثارةُ مصدرٌ كالسّماحةِ والشّجاعةِ. وأصلُ الكلمةِ منَ الأثرِ، وهيَ الرّوايةُ، يقالُ: أثرتُ الحديثَ آثرهُ أثراً وأثارةً وأثرةً فأنا آثرٌ، إذا ذكرتهُ عنْ غيركَ. ومنهُ قيل: حديثٌ مأثورٌ، أيْ نقلهُ خلفٌ عنْ سلفٍ.

الخامسة- قولهُ تعالى: ﴿ٱئْتُونِي بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ﴾ فيهِ بيانُ مسالكَ الأدلّةِ بأسرها، فأوّلها المعقول، وهو قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ وهوَ احتجاجٌ بدليلِ العقلِ في أنَّ الجمادَ لا يصحُّ أنْ يدعى منْ دونِ اللّهِ فإنّهُ لا يضرُّ ولا ينفعُ. ثمَّ قالَ: ﴿ٱئْتُونِي بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ﴾ فيهِ بيانُ أدلّةِ السّمعِ ﴿أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ﴾.

قولهُ تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ﴾ أيْ لا أحدَ أضل وأجهل ﴿مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ وهيَ الأوثانُ. ﴿وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ۝٥﴾ يعني لا يسمعونَ ولا يفهمونَ، فأخرجها وهيَ جمادٌ مخرجَ ذكورِ بني آدمَ، إذْ قدْ مثّلتها عبدتها بالملوكِ والأمراءِ الّتي تخدم.

قولهُ تعالى: ﴿وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ﴾ يريدُ يومَ القيامةِ. ﴿كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً﴾ أيْ هؤلاءِ المعبودونَ أعداءُ الكفّارِ يومَ القيامةِ. فالملائكةُ أعداءُ الكفّارِ، والجنُّ والشّياطينُ يتبرّءونَ غداً منْ عبدتهمْ، ويلعنُ بعضهمْ بعضاً. ويجوزُ أنْ تكونَ الأصنامُ للكفّارِ الّذينَ عبدوها أعداءً، على تقديرِ خلقِ الحياةِ لها، دليلهُ قولهُ تعالى: ﴿تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ مَا كَانُوٓا۟ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ﴾. وقيلَ: عادوا معبوداتهمْ لأنّهمْ كانوا سببُ هلاكهمْ، وجحدَ المعبودونَ عبادتهمْ، وهوَ قولهُ: ﴿وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ ۝٦﴾.

قولهُ تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ﴾ يعني القرآنَ. ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝٧﴾.

قولهُ تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ﴾ الميمُ صلةٌ، التّقديرُ: أيقولونَ افتراهُ، أيْ تقوّلهُ محمّدٌ. وهوَ إضرابٌ عنْ ذكرِ تسميتهمُ الآياتِ سحراً. ومعنى الهمزةِ في ﴿أَمْ﴾ الإنكارُ والتّعجّبُ، كأنّهُ قالَ: دعْ هذا واسمعْ قولهمُ المستنكرَ المقضيُّ منهُ العجبُ. ﴿قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ﴾ على سبيلِ الفرضِ. ﴿فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ أيْ لا تقدرونَ على أنْ تردّوا عنّي عذابَ اللّهِ، فكيفَ أفتري على اللّهِ لأجلكمْ. ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ تخوضونَ فيهِ منَ التّكذيبِ. والإفاضةُ في الشّيءِ: الخوضُ فيهِ والاندفاعُ. أفاضوا في الحديثِ أيِ اندفعوا فيهِ،

وأفاضَ النّاسُ منْ عرفاتَ إلى منى أيْ دفعوا، وكلُّ دفعةٍ إفاضةٌ. ﴿كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدًۢا﴾ نصبَ على التّمييزِ. ﴿بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ﴾ أيْ هوَ يعلمُ صدقي وأنّكمْ مبطلونَ. ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ﴾ لمنْ تاب ﴿ٱلرَّحِيمُ ﴿٨﴾﴾ بعباده المؤمنين.

قولهُ تعالى: ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾ أيْ أوّلُ منْ أرسلَ، قدْ كانَ قبلي رسلٌ، ﴿وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ﴾ يريدُ يومَ القيامةِ، وقيلَ: ﴿وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ﴾ في الدّنيا منْ مرضٍ وصحّةٍ ورخصٍ وغلاءٍ وغنى وفقرٍ. ومثلهُ ﴿وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ ۚ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ﴾. فلمْ يزلْ ﷺ منْ أوّلِ مبعثهِ إلى مماتهِ يخبرُ أنَّ منْ ماتَ على الكفرِ مخلّدٌ في النّارِ، وقيلَ: المعنى لا أدري ما يفرضُ عليَّ وعليكمْ منَ الفرائضِ.

و ﴿مَا﴾ في ﴿مَا يُفْعَلُ﴾ يجوز أن تكونَ موصولةً، وأنْ تكونَ استفهاميّةً مرفوعةً. ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٩﴾﴾ وقرئ «يُوحِي» أيِ اللّهُ عزَّ وجلَّ.

قولهُ تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ يعني القرآنَ. ﴿وَكَفَرْتُم بِهِۦ﴾ المرادُ محمّدٌ ﷺ. ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ هوَ عبدُ اللّهِ بنُ سلامٍ، شهدَ على اليهودِ أنَّ رسولَ اللّهِ ﷺ مذكورٌ في التّوراةِ، وأنّهُ نبيٌّ منْ عندِ اللّهِ. وقيلَ: هوَ موسى والتّوراةُ، لا ابنُ سلامٍ، لأنّهُ أسلمَ بالمدينةِ والسّورةُ مكّيّةٌ، وقولهُ: ﴿وَكَفَرْتُم بِهِۦ﴾ مخاطبةٌ لقريشٍ، ويجوزُ أنْ تكونَ الآيةُ نزلتْ بالمدينةِ وتوضعُ في سورةٍ مكّيّةٍ، فإنَّ الآيةَ كانتْ تنزلُ فيقولُ النّبيُّ ﷺ ضعوها في سورةِ كذا. والآيةُ في محاجّةِ المشركينَ، ووجهُ الحجّةِ أنّهمْ كانوا يراجعونَ اليهودَ في أشياءٍ، أيْ شهادتهمْ لهمْ وشهادةُ نبيّهمْ لي منْ أوضحِ الحججِ. ولا يبعدُ أنْ تكونَ السّورةُ في محاجّةِ اليهودِ، ولمّا جاءَ ابنُ سلامٍ مسلمًا منْ قبلِ أنْ تعلمَ اليهودُ بإسلامهِ قالَ: يا رسولَ اللّهِ، اجعلني حكمًا بينكَ وبينَ اليهودِ، فسألهمْ عنهُ: أيُّ رجلٍ هوَ فيكمْ؟ قالوا: سيّدنا وعالمنا. فقالَ: إنّهُ قدْ آمنَ بي فأساءوا القول فيه... الحديث.

﴿عَلَىٰ مِثْلِهِۦ﴾ أيْ على مثلِ ما جئتكمْ بهِ، فشهدَ موسى على التّوراةِ ومحمّدٌ على القرآنِ. ﴿فَـَٔامَنَ﴾ أيْ هذا الشّاهدُ. ﴿وَٱسْتَكْبَرْتُمْ﴾ أنتمْ عنِ الإيمانِ.

قولهُ تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِۚ﴾ نزلتْ في مشركي قريشٍ، قالوا: لوْ كانَ ما يدعونا إليهِ محمّدٌ خيراً ما سبقنا إليهِ بلالٌ وصهيبٌ وعمّارٌ وفلانٌ وفلان، وقيلَ: إنَّ الّذينَ كفروا منَ اليهودِ قالوا للّذينَ آمنوا يعني عبدَ اللّهِ بنَ سلامٍ وأصحابهُ: لوْ كانَ دينُ محمّدٍ حقـًا ما سبقونا إليهِ، قالهُ أكثرُ المفسّرينَ، ﴿وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُواْ بِهِۦ﴾ يعني الإيمانَ. وقيلَ القرآنُ. وقيلَ محمّدٌ ﷺ. ﴿فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴿١١﴾﴾ كما قالوا: أساطيرُ الأوّلينَ، ومثلهُ ﴿بَلْ كَذَّبُواْ بِمَا لَمْ يُحِيطُواْ بِعِلْمِهِۦ﴾.

قولهُ تعالى: ﴿وَمِن قَبْلِهِۦ﴾ أيْ ومنْ قبلِ القرآنِ ﴿كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ﴾ أيِ التّوراةَ ﴿إِمَامًا﴾ يقتدى بما فيه ﴿وَرَحْمَةًۚ﴾ من الله. ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ﴾ يعني القرآنَ ﴿مُّصَدِّقٌ﴾ يعني للتّوراةِ ولما قبلهُ منَ الكتبِ. وقيلَ: مصدّقٌ للنّبيِّ ﷺ. ﴿لِّسَانًا عَرَبِيًّا﴾ منصوبٌ على الحالِ، أيْ مصدّقٌ لما قبلهُ عربيـًا، و ﴿لِّسَانًا﴾ توطئةٌ للحالِ أيْ تأكيدٌ ﴿لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ قراءةُ العامّةِ ﴿لِّيُنذِرَ﴾ بالياءِ خبرا عنِ الكتابِ، وقرأ نافعٌ وابنُ عامرٍ بالتّاءِ، على خطابِ النّبيِّ ﷺ، قالَ اللّهُ تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ﴾. ﴿وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢﴾﴾ ﴿بُشْرَىٰ﴾ في موضعِ رفعٍ، أيْ وهوَ بشرى، **وقيلَ**: عطفـًا على الكتابِ، أيْ وهذا كتابٌ مصدّقٌ وبشرى.

قولهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ﴾ الآيةَ تقدّمَ معناها. وقالَ ابنُ عبّاسٍ: نزلتْ في أبي بكرٍ الصّدّيقِ. والآية تعم. ﴿جَزَآءَۢ﴾ نصب على المصدر.

قولهُ تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًاۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًاۖ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًاۚ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِيٓۖ إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾﴾، فيهِ سبعُ مسائلَ:

الأولى: قولهُ تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًاۖ﴾ بيّنَ اختلافَ حالِ الإنسانِ معَ أبويهِ، فقدْ يطيعهما وقدْ يخالفهما، أيْ فلا يبعدُ مثلُ هذا في حقِّ النّبيِّ ﷺ وقومهِ حتّى يستجيبَ لهُ البعضُ ويكفرَ البعضُ. فهذا وجهُ اتّصالِ الكلامِ بعضهُ ببعضٍ.

الثانية– قوله تعالى: ﴿حُسْناً﴾ قراءةُ العامّةِ ﴿حُسْناً﴾ وكذا هوَ في مصاحفِ أهلِ

الحرمينِ والبصرةِ والشّامِ. وقرأ الكوفيّونَ «إِحْسانـًا» وحجّتهمْ قولهُ تعالى في سورةِ الأنعام وبني إسرائيل: ﴿وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنًاۚ﴾ وكذا هوَ في مصاحفِ الكوفةِ. وحجّةُ القراءةِ الأولى قول تعالى في سورةِ العنكبوتِ: ﴿وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيۡهِ حُسۡنٗاۖ﴾ ولمْ يختلفوا فيها. والحسنُ خلافُ القبحِ. والإحسانُ خلافُ الإساءةِ. والتّوصيةُ الأمرُ.

الثالثة- قولهُ تعالى: ﴿حَمَلَتۡهُ أُمُّهُۥ كُرۡهٗا وَوَضَعَتۡهُ كُرۡهٗاۖ﴾ أيْ بكرهٍ ومشقّةٍ. وقراءةُ العامّةِ بفتحِ الكافِ، وكذلكَ لفظُ الكرهِ في كلِّ القرآنِ بالفتح إلّا الّتي في سورةِ البقرةِ ﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِتَالُ وَهُوَ كُرۡهٞ لَّكُمۡۖ﴾ لأنَّ ذلكَ اسمٌ وهذهِ كلّها مصادرُ. وقرأ الكوفيّونَ ﴿كُرۡهٗا﴾ بالضّمِّ. قيل: هما لغتانِ مثلُ الضَعفِ والضُعفِ والشَهدُ والشُهدُ، وقيلَ: في الفرقِ بينهما: أنَّ الكُرهَ بالضّمِّ ما حملَ الإنسانُ على نفسهِ، وبالفتحِ ما حمل على غيره.

الرابعة- قولهُ تعالى: ﴿وَحَمۡلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهۡرًاۚ﴾ قالَ ابنُ عبّاسٍ: إذا حملتْ تسعةَ أشهرٍ أرضعتْ إحدى وعشرينَ شهراً، وإنْ حملتْ ستّةَ أشهرٍ أرضعتْ أربعةً وعشرينَ شهراً، وقيلَ: لمْ يعدَّ ثلاثةَ أشهرٍ في ابتداءِ الحملِ، لأنَّ الولدَ فيها نطفةٌ وعلقةٌ ومضغةٌ فلا يكونُ لهُ ثقلٌ يحسُّ بهِ، وهوَ معنى قولهِ تعالى: ﴿فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتۡ حَمۡلًا خَفِيفٗا فَمَرَّتۡ بِهِۦۖ﴾. والفصالُ الفطامُ.

الخامسة- قولهُ تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ﴾ ثمانيَ عشرةَ سنةً. وقيلَ: الأشدُّ الحلمُ. وقيلَ: هوَ بلوغُ الأربعينَ.

السّادسةُ- قولهُ تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ أَوۡزِعۡنِيٓ﴾ أيْ ألهمني. ﴿أَنۡ أَشۡكُرَ﴾ في موضعِ نصبٍ على المصدرِ، أيْ شكرَ نعمتكَ ﴿عَلَيَّ﴾ أيْ ما أنعمتَ بهِ عليَّ منَ الهدايةِ ﴿وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ﴾ بالتّحنّنِ والشّفقةِ حتّى ربّياني صغيراً. وقيلَ: أنعمتَ عليَّ بالصّحّةِ والعافيةِ وعلى والديَّ بالغنى والثّروةِ. وقالَ عليٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: هذهِ الآيةَ نزلتْ في أبي بكرٍ الصّدّيقِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ! أسلمَ أبواهُ جميعـًا ولمْ يجتمعْ لأحدٍ منَ المهاجرينَ أنْ أسلمَ أبواهُ غيره، فأوصاهُ اللّهُ بهما ولزمَ ذلكَ منْ بعدهُ. ﴿وَأَنۡ أَعۡمَلَ صَٰلِحٗا تَرۡضَىٰهُ﴾ فلمْ يدعْ شيئـًا منَ الخيرِ إلّا أعانهُ اللّهُ عليهِ. وفي الصّحيحُ عنْ أبي هريرةَ قالَ: قالَ رسولُ اللّهِ ﷺ: منْ أصبحَ منكمُ اليومَ صائمـًا؟ قالَ أبو

بكرٍ أنا. قالَ: فمنْ تبعَ منكمُ اليومَ جنازةً؟ قالَ أبو بكرٍ أنا. قالَ: فمنْ أطعمَ منكمُ اليومَ مسكيناً؟ قالَ أبو بكرٍ أنا. قالَ: فمنْ عادَ منكمُ اليومَ مريضاً؟ قالَ أبو بكرٍ أنا. قالَ رسولُ اللّهِ ﷺ: «ما اجتمعنَ في امرئٍ إلّا دخلَ الجنّةَ».

السابعة- قولهُ تعالى: ﴿وَأَصۡلِحۡ لِي فِي ذُرِّيَّتِيٓۖ﴾ أيِ اجعلْ ذرّيّتي صالحينَ. قالَ ابنُ عبّاسٍ: فلمْ يبقَ لهُ ولدٌ ولا والدٌ ولا والدةٌ إلّا آمنوا باللّهِ وحدهُ. ولمْ يكنْ أحدٍ منْ أصحابِ رسولِ اللّهِ ﷺ أسلمَ هوَ وأبواهُ وأولادهُ وبناتهُ كلّهمْ إلّا أبو بكرٍ.

﴿إِنِّي تُبۡتُ إِلَيۡكَ﴾ رجعتُ عنِ الأمرِ الّذي كنتُ عليهِ. ﴿وَإِنِّي مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ١٥﴾ أي المخلصين بالتوحيد.

قولهُ تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنۡهُمۡ أَحۡسَنَ مَا عَمِلُواْ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمۡ﴾ قراءةُ العامّةِ بضم الياء فيهما. وقرئ «يَتقبّلُ، ويَتجاوزُ» بفتحِ الياءِ، والضّميرُ فيهما يرجعُ للّهِ عزَّ وجلَّ. وقرأ حفصٌ وحمزةُ والكسائيُّ: «نتقبّلُ، ونتجاوزُ» بالنّونُ فيهما، أيْ نغفرها ونصفحُ عنها. والتّجاوزُ أصلهُ منْ جزتُ الشّيءَ إذا لمْ تقفْ عليهِ. وهذهِ الآيةُ تدلُّ على أنَّ الآيةَ الّتي قبلها ﴿وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ﴾ إلى آخرها مرسلةٌ نزلتْ على العمومِ. ﴿وَعۡدَ ٱلصِّدۡقِ﴾ نصبَ لأنّهُ مصدرٌ مؤكّدٌ لما قبلهُ، أيْ وعدَ اللّهُ أهلَ الإيمانِ أنْ يتقبّلَ منْ محسنهمْ ويتجاوزَ عنْ مسيئهمْ وعدَ الصّدقِ. وهوَ منْ بابِ إضافةِ الشّيءِ إلى نفسهِ، لأنَّ الصّدقَ هوَ ذلكَ الوعدُ الّذي وعدهُ الله، وهو كقوله تعالى: ﴿حَقُّ ٱلۡيَقِينِ﴾. وهذا عندَ الكوفيّينَ، فأمّا عندَ البصريّينَ فتقديرهُ: وعدُ الكلامِ الصّدقِ أوِ الكتابُ الصّدقِ، فحذفَ الموصوفَ ﴿ٱلَّذِي كَانُواْ يُوعَدُونَ ١٦﴾ في الدّنيا على ألسنةِ الرسل، وذلك الجنة.

قولهُ تعالى: ﴿وَٱلَّذِي قَالَ لِوَٰلِدَيۡهِ أُفّٖ لَّكُمَآ أَتَعِدَانِنِيٓ أَنۡ أُخۡرَجَ﴾ أيْ أنْ أبعثَ. ﴿وَقَدۡ خَلَتِ ٱلۡقُرُونُ مِن قَبۡلِي﴾ قراءةُ نافعٍ وحفصٍ وغيرهما ﴿أُفّٖ﴾ مكسورٌ منوّنٌ. وقرأ ابنُ كثيرٍ وابنُ عامرٍ «أفَّ» بالفتحِ منْ غيرِ تنوينٍ. الباقونَ بالكسرِ غيرِ منوّنٍ، وكلّها لغاتٌ، وقراءةُ العامّةِ ﴿أَتَعِدَانِنِيٓ﴾ بنونينِ مخفّفتينِ. وفتحَ ياءهُ أهلُ المدينةِ ومكّةَ. وأسكنَ الباقونَ، والعامّةُ على

ضمِّ الألفِ وفتحِ الرّاءِ منْ ﴿أَنْ أُخْرَجَ﴾. قيل: نزلتْ في عبدُ الرّحمنِ بنُ أبي بكرٍ قبلَ إسلامهِ، وكانَ أبوهُ وأمّهُ أمُّ رومانَ يدعوانهِ إلى الإسلامِ ويعدانهِ بالبعثِ، فيردُّ عليهما بما حكاهُ اللّهُ عزَّ وجلَّ عنهُ، وكانَ هذا منهُ قبلَ إسلامهِ. ورويَ أنَّ عائشةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أنكرتْ أنْ تكونَ نزلتْ في عبدِ الرّحمنِ. وكيفَ يقالُ نزلتْ في عبدِ الرّحمنِ قبلَ إسلامهِ واللّهُ عزَّ وجلَّ يقولُ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلُ فِيٓ أُمَمٖ﴾ أيِ العذابُ، ومنْ ضرورتهِ عدمُ الإيمانِ، وعبدُ الرّحمنِ منْ أفاضلِ المؤمنينَ، فالصّحيحُ أنّها نزلتْ في عبدٍ كافرٍ عاقٍّ لوالديهِ.

وقالَ محمّدُ بنُ زيادٍ: كتبَ معاويةُ إلى مروان ابن الحكمِ حتّى يبايعَ النّاسَ ليزيدَ، فقالَ: عبدُ الرّحمنِ بنُ أبي بكرٍ: لقدْ جئتمْ بها هرقليّةً، أتبايعونَ لأبنائكمْ! فقالَ: مروانُ: هوَ الّذي يقولُ اللّهُ فيهِ ﴿وَٱلَّذِي قَالَ لِوَٰلِدَيۡهِ أُفّٖ لَّكُمَآ﴾ الآيةَ. فقالَ: واللّهِ ما هوَ بهِ. ولوْ شئتُ لسمّيتُ، ولكنَّ اللّهَ لعنَ أباكَ وأنتَ في صلبهِ، فأنتَ فَضَضٌ منْ لعنةِ اللّهِ.

﴿وَهُمَا﴾ يعني والديهِ. ﴿يَسۡتَغِيثَانِ ٱللَّهَ﴾ أيْ يدعوانِ اللّهَ لهُ بالهدايةِ. أوْ يستغيثانِ باللّهِ منْ كفرهِ ﴿وَيۡلَكَ ءَامِنۡ﴾ أيْ صدّقْ بالبعثِ. ﴿إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ﴾ أيْ صدقٌ لا خلفَ فيهِ. ﴿فَيَقُولُ مَا هَٰذَآ﴾ أيْ ما يقولهُ والداهُ. ﴿إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ١٧﴾ أيْ أحاديثهمْ وما سطروهُ ممّا لا أصلَ لهُ. ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلُ﴾ يعني مشايخَ قريشٍ، وهمُ المعنيّونَ بقولهِ ﴿وَقَدۡ خَلَتِ ٱلۡقُرُونُ مِن قَبۡلِي﴾. ومعنى ﴿حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلُ﴾ أيْ، وجبَ عليهمُ العذابُ، وهيَ كلمةُ اللّهِ: هؤلاءِ في الجنّةِ ولا أبالي وهؤلاءِ في النّارِ ولا أبالي. ﴿فِيٓ أُمَمٖ﴾ أي مع أمم ﴿قَدۡ خَلَتۡ﴾ تقدمت ومضت. ﴿مِن قَبۡلِهِم مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِۖ﴾ الكافرينَ ﴿إِنَّهُمۡ﴾ أيْ تلكَ الأممُ الكافرةُ ﴿كَانُواْ خَٰسِرِينَ ١٨﴾ لأعمالهمْ، أيْ ضاعَ سعيهم وخسروا الجنة.

قولهُ تعالى: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ﴾ أيْ ولكلِّ واحدٍ منَ الفريقينِ المؤمنينَ والكافرينَ منَ الجنِّ والإنسِ مراتبٌ عندَ اللّهِ يومَ القيامةِ بأعمالهمْ. درجاتُ أهلِ النّارِ في هذهِ الآيةِ تذهبُ سفالاً، ودرجَ أهلُ الجنّةِ علواً. ﴿وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ قرأَ ابنُ كثيرٍ وعاصمٌ وأبو عمرو ويعقوبُ بالياءِ لذكرِ اللّهِ قبلهُ، وهوَ قولهُ تعالى: ﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ الباقونَ بالنّونِ رداً على قولهِ تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ﴾.

﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ١٩﴾ أيْ لا يزاد على مسيء ولا ينقص من محسن.

قولهُ تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ﴾ أيْ ذكّرهمْ يا محمّدُ يومَ يعرضُ. ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ﴾ أيْ يكشفُ الغطاءُ فيقرّبونَ منَ النّارِ وينظرونَ إليها. ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ﴾ أيْ يقالُ لهمْ أذهبتمْ، فالقولُ مضمرٌ. وقرأ يعقوبُ وابنُ كثيرٍ «أَأَذْهَبْتُمْ» بهمزتينِ مخفّفتينِ، ومعناها التّوبيخُ، والعربُ توبّخُ بالاستفهامِ وبغيرِ الاستفهامِ، وقدْ تقدّمَ. وتركُ الاستفهامِ قراءةُ أكثرِ أئمّةِ السّبعةِ نافعٍ وعاصمٍ وأبي عمرو وحمزةَ والكسائيِّ، لأنَّ إثباتهُ يوهمُ أنّهمْ لمْ يفعلوا ذلكَ، ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ﴾ أيْ تمتّعتمْ بالطّيّباتِ في الدّنيا واتّبعتمُ الشّهواتِ واللّذّاتِ، يعني المعاصيَ. ﴿فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ﴾ أيْ عذابَ الخزيِ والفضيحةِ. ﴿بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ أي تستعلون على أهلها بغيرِ استحقاقٍ. ﴿وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ ٢٠﴾ في أفعالكمْ بغياً وظلماً.

وقيلَ: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ﴾ أيْ أفنيتمْ شبابكمْ في الكفرِ والمعاصي.

ولمّا قدمَ عمرُ الشّامَ صنعَ لهُ طعامٌ لمْ يرَ قطُّ مثلهُ قالَ: هذا لنا! فما لفقراءَ المسلمينَ الّذينَ ماتوا وما شبعوا من خبزِ الشعيرِ! فقال خالد ابن الوليدِ: لهمُ الجنّةُ، فاغرورقتْ عينا عمرَ بالدّموعِ، وقالَ: لئنْ كانَ حظّنا منَ الدّنيا هذا الحطامَ، وذهبوا همْ في حظّهمْ بالجنّةِ فلقدْ باينونا بوناً بعيداً.

وفي صحيحِ مسلمٍ وغيرهِ أنَّ عمرَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ دخلَ على النّبيِّ ﷺ وهوَ في مشربتهِ حينَ هجرَ نساءهُ قالَ: فالتفتُّ فلمْ أرَ شيئاً يردُّ البصرَ إلّا أهباً جلوداً معطونةً قدْ سطعَ ريحها، فقلت: يا رسولَ اللّهِ، أنتَ رسولُ اللّهِ وخيرتهُ، وهذا كسرى وقيصرُ في الدّيباجِ والحريرِ؟ قالَ: فاستوى

جالساً وقال: «أفي شك أنت يا بن الخطّابِ. أولئكَ قومٌ عجّلتْ لهمْ طيّباتهمْ في حياتهمُ الدّنيا» فقلت: استغفرْ لي! فقالَ: «اللّهمَّ اغفرْ لهُ».

وقالَ جابرٌ: اشتهى أهلي لحماً فاشتريتهُ لهمْ فمررتُ بعمرَ بنِ الخطّابِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ فقالَ: ما هذا يا جابرُ؟ فأخبرتهُ، فقال: أو كلما اشتهى أحدكمْ شيئاً جعلهُ في بطنهِ! أما يخشى أنْ يكونَ منْ أهلِ هذهِ الآيةِ: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ﴾ الآيةَ.

قالَ ابنُ العربيِّ: وهذا عتابٌ منهُ لهُ على التّوسّعِ بابتياعِ اللّحمِ والخروجِ عنْ جلفِ الخبزِ والماءِ، فإنَّ تعاطيَ الطّيّباتِ منَ الحلالِ تستشرهُ لها الطّباعُ وتستمرئها العادةُ فإذا فقدتها استسهلتَ في تحصيلها بالشّبهاتِ حتّى تقعَ في الحرامِ المحضِ بغلبةِ العادةِ واستشراهِ الهوى على النّفسِ الأمّارةِ بالسّوءِ، فأخذَ عمرُ الأمرَ منْ أوّلهِ وحماهُ منَ ابتدائهِ كما يفعلهُ مثلهُ.

والّذي يضبطُ هذا البابَ ويحفظُ قانونهُ: على المرءِ أنْ يأكلَ ما وجدَ، طيّباً كانَ أوْ قفاراً، ولا يتكلّفُ الطّيّبَ ويتّخذهُ عادةً، وقدْ كانَ النّبيُّ ﷺ يشبعُ إذا وجدَ، ويصبرُ إذا عدمَ، ويأكلُ الحلوى إذا قدرَ عليها، ويشربُ العسلَ إذا اتّفقَ لهُ، ويأكلُ اللّحمَ إذا تيسر، ولا يعتمده أصلاً، ولا يجعلهُ ديدناً. ومعيشةُ النّبيِّ ﷺ معلومةٌ، وطريقةُ الصّحابةِ منقولةٌ، فأمّا اليومُ عندَ استيلاءِ الحرامِ وفسادِ الحطام فالخلاصُ عسيرٌ، واللّهُ يهبُ الإخلاصَ، ويعينُ على الخلاصِ برحمتهِ. وقيلَ: إنَّ التّوبيخَ واقعٌ على تركِ الشّكرِ لا على تناولِ الطّيّباتِ المحلّلةِ، وهو حسن، فإن تناولَ الطّيّبِ الحلالِ مأذونٌ فيهِ، فإذا تركَ الشّكرَ عليهِ واستعانَ بهِ على ما لا يحل له فقد أذهبه. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿۞ وَٱذۡكُرۡ أَخَا عَادٍ﴾ هوَ هودٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ، كانَ أخاهمْ في النّسبِ لا في الدّينِ. ﴿إِذۡ أَنذَرَ قَوۡمَهُۥ بِٱلۡأَحۡقَافِ﴾ أي اذكرْ لهؤلاءِ المشركينَ قصّةَ عادٍ ليعتبروا بها. وقيلَ: أمرهُ بأنْ يتذكّرَ في نفسهِ قصّةَ هودٍ ليقتديَ بهِ، ويهوّنَ عليهِ تكذيبَ قومهِ لهُ. والأحقافُ: ديارُ عادٍ. جمعُ حقفٍ، وهوَ ما استطالَ منَ الرّملِ العظيمِ واعوجَّ ولمْ يبلغْ أنْ يكونَ جبلاً، والجمعُ حقافٌ وأحقافٌ وحقوفٌ، وكانوا منْ قبيلةِ إرمَ ﴿وَقَدۡ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ﴾ أيْ مضتِ الرّسلُ. ﴿مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ﴾ أي منْ قبلِ هودٍ. ﴿وَمِنۡ خَلۡفِهِۦٓ﴾ أيْ ومنْ بعدهِ، ﴿أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ هذا منْ قولِ المرسلِ، فهوَ كلامٌ معترضٌ. ثمَّ قالَ هودٌ ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ٢١﴾ وقيلَ ﴿أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ منْ كلامِ هودٍ، واللّهُ أعلم.

قوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِتَأۡفِكَنَا﴾ لتصرفنا ﴿عَنۡ ءَالِهَتِنَا﴾ بالمنعِ. ﴿فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾ هذا يدلُّ على أنَّ الوعدَ قدْ يوضعُ موضعُ الوعيدِ. ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ٢٢﴾ أنّكَ نبيٌّ ﴿قَالَ إِنَّمَا ٱلۡعِلۡمُ﴾ بوقتِ مجيءِ العذابِ. ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ لا عندي. ﴿وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرۡسِلۡتُ بِهِۦ﴾ عنْ ربّكمْ. ﴿وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمۡ قَوۡمٗا تَجۡهَلُونَ ٢٣﴾ في سؤالكمْ استعجالُ العذابِ. ﴿فَلَمَّا رَأَوۡهُ عَارِضٗا﴾ الضّميرُ في ﴿رَأَوۡهُ﴾ يعودُ إلى غيرِ مذكورٍ، وبيّنهُ قولهُ: ﴿عَارِضٗا﴾ فالضّميرُ يعودُ إلى السّحابِ، لأنّهُ يبدو في عرضِ السّماءِ. وكانَ المطرُ قدْ أبطأَ عنهمْ، فلمّا رأوهُ ﴿مُّسۡتَقۡبِلَ أَوۡدِيَتِهِمۡ﴾ استبشروا. وكانَ قدْ جاءهمْ منْ وادٍ جرتِ العادةُ أنَّ ما جاءَ منهُ يكونُ غيثًا، قالَ هود ﴿بَلۡ هُوَ مَا ٱسۡتَعۡجَلۡتُم بِهِۦۖ رِيحٞ﴾ أيْ قالَ اللّهُ قلْ بلْ هوَ ما استعجلتم به، يعني قولهم: ﴿فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾ ثم بين ما هو فقال: ﴿رِيحٞ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٞ ٢٤﴾ وهيَ الّتي قالَ اللّهُ تعالى فيها: ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيۡءِۭ بِأَمۡرِ رَبِّهَا﴾ أيْ كلُّ شيءٍ مرّتْ عليهِ منْ رجالِ عادٍ وأموالها. والتّدميرُ: الهلاكُ. وكذلك الدمار. ﴿بِأَمۡرِ رَبِّهَا﴾ بإذنِ ربّها.

وفي البخاريِّ عنْ عائشةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا زوجِ النّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قالتْ: «ما رأيتُ رسولَ اللّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ضاحكًا حتّى أرى منهُ لهواتهُ إنّما كانَ يتبسّمُ. قالتْ: وكان إذا رأى غيما أو ريحا عرفَ في وجههِ. قالتْ: يا رسولَ اللّهِ، النّاسُ إذا رأوا الغيمَ فرحوا رجاءَ أنْ يكونَ فيهِ المطرُ، وأراكَ إذا رأيتهُ عرفَ في وجهكَ الكراهيةُ؟ فقالَ: يا عائشةُ، مايؤمّنني أنْ يكونَ فيهِ عذابٌ عذّبَ قومٌ بالرّيحِ وقدْ رأى قومٌ العذابَ فقالوا هذا عارضٌ ممطرنا» خرّجهُ مسلمٌ.

وفي صحيح مسلم عنِ ابنِ عبّاسٍ عنِ النّبيِّ ﷺ أنّهُ قالَ: «نصرتُ بالصّبا وأهلكتْ عادٌ بالدّبورِ». ﴿فَأَصْبَحُواْ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْۚ﴾ قرأ عاصمٌ وحمزةُ ﴿لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْۚ﴾ بالياءِ غيرَ مسمّي الفاعلَ. الباقونَ «تَرَى» بتاءٍ مفتوحةٍ. «مَساكِنَهمْ» بالنّصبِ، أيْ لا ترى يا محمّدُ إلّا مساكنهمْ. ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ٢٥﴾ أيْ مثلَ هذهِ العقوبةِ نعاقبُ بها المشركين.

قولهُ تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ﴾ قيلَ: إن ﴿إِن﴾ زائدةٌ، تقديرهُ ولقدْ مكناهم فيما مكّنّاكمْ فيهِ، وقيلَ: إن ﴿مَا﴾ بمعنى الذي. و ﴿إِن﴾ بمعنى ما، والتّقديرُ ولقدْ مكّنّاهمْ في الّذي ما مكّنّاكمْ فيهِ، وقيلَ: شرطيّةٌ وجوابها مضمرٌ محذوفٌ، والتّقديرُ ولقدْ مكّنّاهمْ في ما إنْ مكّنّاكمْ فيهِ كانَ بغيكمْ أكثرَ وعنادكمْ أشدَّ، وتمَّ الكلامُ. ثمَّ ابتدأَ فقالَ: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً﴾ يعني قلوبًا يفقهونَ بها. ﴿فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ﴾ منْ عذابِ اللّهِ. ﴿إِذْ كَانُواْ يَجْحَدُونَ﴾ يكفرونَ ﴿بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم﴾ أحاطَ بهمْ. ﴿مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ٢٦﴾.

قولهُ تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْقُرَىٰ﴾ يريدُ حجرَ ثمودَ وقرى لوطٍ ونحوهما ممّا كانَ يجاورُ بلادَ الحجازِ، وكانتْ أخبارهمْ متواترةً عندهمْ. ﴿وَصَرَّفْنَا ٱلْءَايَٰتِ﴾ يعني الحججَ والدّلالاتِ وأنواعَ البيّناتِ والعظاتِ، أيْ بيّنّاها لأهلِ تلكَ القرى. ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ٢٧﴾ فلمْ يرجعوا. وقيلَ: أيْ صرّفنا آياتِ القرآنِ في الوعدِ والوعيدِ والقصصِ والإعجازِ لعلَّ هؤلاءِ المشركينَ يرجعون.

قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ﴾ ﴿فَلَوْلَآ﴾ بمعنى هلّا، أيْ هلّا نصرهمْ آلهتهمُ الّتي تقرّبوا بها بزعمهمْ إلى اللّهِ لتشفعَ لهمْ حيث قالوا: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ﴾ ومنعتهمْ منَ الهلاكِ الواقعِ بهمْ. و ﴿قُرْبَانًا﴾ حالٌ والقربانُ كلُّ ما يتقرّبُ بهِ إلى اللّهِ تعالى منْ طاعةٍ ونسيكةٍ، والجمعُ قرابينَ، كالرّهبانِ والرّهابينَ. ﴿بَلْ ضَلُّواْ عَنْهُمْۚ﴾ أيْ هلكوا عنهمْ. وقيلَ: ﴿بَلْ ضَلُّواْ عَنْهُمْۚ﴾ أيْ ضلّتْ عنهمْ آلهتهمْ لأنّها لمْ يصبها ما أصابهمْ، إذْ هيَ جمادٌ. وقيلَ: ضلّوا عنهمْ، أيْ تركوا الأصنامَ وتبرّءوا منها. ﴿وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ﴾ أيْ والآلهةُ الّتي ضلّتْ عنهم

هيَ إفكهمْ في قولهمْ: إنّها تقرّبهمْ إلى اللّهِ زلفى. وقراءةُ العامّةِ ﴿إِفْكُهُمْ﴾ بكسرِ الهمزةِ وسكونِ الفاءِ، أيْ كذبهمْ. والإفكُ: الكذبُ، ودليلُ قراءةِ العامّةِ قولهُ: ﴿وَمَا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾ أيْ يكذبونَ.

قولهُ تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ هذا توبيخٌ لمشركي قريشٍ، أيْ إنَّ الجنَّ سمعوا القرآنَ فآمنوا بهِ وعلموا أنّهُ منْ عندِ اللّهِ وأنتمْ معرضونَ مصرّونَ على الكفرِ. ومعنى ﴿صَرَفْنَآ﴾ وجّهنا إليكَ وبعثنا. وذلكَ أنّهمْ صرفوا عنِ استراقِ السّمعِ منَ السّماءِ برجومِ الشّهبِ فلمّا ماتَ أبو طالبٍ خرجَ النّبيُّ ﷺ وحدهُ إلى الطّائفِ يلتمسُ منْ ثقيفٍ النّصرةَ، فلمْ يجيبوه وأغروا به سفهاءهم وانصرفَ مهموما حتّى إذا كانَ ببطنِ نخلةٍ قامَ منَ اللّيلِ يصلّي فمرَّ نفرٌ منْ جنِّ أهلِ نصيبينَ أو منْ أهلِ نينوى ويقالُ كانوا سبعةً، وكانوا يهوداً فأسلموا، ولذلكَ قالوا ﴿أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ﴾. وكانَ سببُ ذلكَ أنَّ الجنَّ كانوا يسترقونَ السّمعَ، فلمّا حرستِ السّماءُ ورموا بالشّهبِ قالَ إبليسُ: إنَّ هذا الّذي حدثَ في السّماءِ لشيءٌ حدثَ في الأرضِ، فبعثَ سراياهُ ليعرفَ الخبرَ، أوّلهمْ ركبُ نصيبينَ وهمْ أشرافُ الجنِّ إلى تهامةَ، فلمّا بلغوا بطنَ نخلةٍ سمعوا النّبيَّ ﷺ يصلّي صلاةَ الغداةِ ببطنِ نخلةَ ويتلو القرآنَ، فاستمعوا لهُ وقالوا: أنصتوا.

قولهُ تعالى: ﴿فَلَمَّا حَضَرُوهُ﴾ أيْ حضروا النّبيَّ ﷺ، وهوَ منْ بابِ تلوينِ الخطابِ. وقيلَ: لمّا حضروا القرآنَ واستماعهُ. ﴿قَالُوٓاْ أَنصِتُواْ﴾ أيْ قالَ بعضهمْ لبعضٍ اسكتوا لاستماعِ القرآنَ.

﴿فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْاْ إِلَىٰ قَوْمِهِم﴾ منَ الجنِّ ﴿مُّنذِرِينَ ٢٩﴾ لهمْ مخالفةَ القرآنِ ومحذّرينَ إيّاهمْ بأسَ اللّهِ إنْ لمْ يؤمنوا. وهذا يدلُّ على أنّهمْ آمنوا بالنّبيِّ ﷺ، وأنّهُ أرسلهمْ. ويدلُّ على هذا قولهم: ﴿يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ﴾ ولولا ذلكَ لما أنذروا قومهمْ. وعنِ ابنِ عبّاسٍ أنَّ النّبيَّ ﷺ جعلهمْ رسلاً إلى قومهمْ.

قولهُ تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ﴾ أي القرآنَ، وكانوا مؤمنينَ بموسى، ولذلكَ قالوا: ﴿أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ﴾. وعنِ ابنِ عبّاسٍ أنَّ الجنَّ لمْ تكنْ

سمعتْ بأمرِ عيسى، فلذلكَ قالتْ: ﴿أُنزِلَ مِنۢ بَعۡدِ مُوسَىٰ﴾. ﴿مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ﴾ يعني ما قبله من التوراة. ﴿يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلۡحَقِّ﴾ دينِ الحقِّ. ﴿وَإِلَىٰ طَرِيقٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٣٠﴾ دينُ اللّهِ القويم. ﴿يَٰقَوۡمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ﴾ يعني محمّداً ﷺ، وهذا يدلُّ على أنّهُ كانَ مبعوثـاً إلى الجنِّ والإنسِ، ولمْ يبعثِ اللّهُ نبيـاً إلى الجنِّ والإنسِ قبلَ محمّدٍ ﷺ، ويدلُّ على قولِه ما في صحيحِ مسلم عنْ جابرِ بنِ عبدِ اللّهِ الأنصاريِّ قالَ: قالَ رسولُ اللّهِ ﷺ: «أعطيتْ خمسـاً لمْ يعطهنَّ أحدٌ قبلي كانَ كلُّ نبيٍّ يبعثُ إلى قومِهِ خاصّةً وبعثتُ إلى كلِّ أحمرَ وأسودَ وأحلّتْ ليَ الغنائمُ ولمْ تحلَّ لأحدٍ قبلي وجعلتْ ليَ الأرضُ طيّبةً طهوراً ومسجداً فأيّما رجلٍ أدركتهُ الصّلاةُ صلّى حيثُ كانَ ونصرتُ بالرّعبِ بينَ يديْ مسيرةَ شهرٍ وأعطيتُ الشّفاعةَ».

﴿وَءَامِنُواْ بِهِۦ﴾ أيْ بالدّاعي، وهوَ محمّدٌ ﷺ. وقيلَ: ﴿بِهِۦ﴾ أيْ باللّهِ، لقولِهِ: ﴿يَغۡفِرۡ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمۡ﴾.

مسألةٌ- هذهِ الآيُ تدلُّ على أنَّ الجنَّ كالإنسِ في الأمرِ والنّهيِ والثّوابِ والعقابِ.

وقالَ الحسنُ: ليسَ لمؤمني الجنِّ ثوابٌ غيرَ نجاتِهمْ منَ النّارِ، يدلُّ عليهِ قولهُ تعالى: ﴿يَغۡفِرۡ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمۡ وَيُجِرۡكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ٣١﴾. وبهِ قالَ أبو حنيفةَ قالَ: ليسَ ثوابُ الجنِّ إلّا أنْ يجاروا منَ النّارِ، ثمَّ يقالُ لهمْ: كونوا تراباً مثلَ البهائمِ.

وقالَ آخرونَ: إنّهمْ كما يعاقبون في الإساءةِ يجازونَ في الإحسانِ مثلُ الإنسِ. وإليهِ ذهبَ مالكٌ والشّافعيُّ، لقولهُ تعالى: ﴿وَلِكُلّٖ دَرَجَٰتٞ مِّمَّا عَمِلُواْۖ﴾، لأنّهُ قال في أول الآية: ﴿يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِي﴾- إلى أنْ قالَ- ﴿وَلِكُلّٖ دَرَجَٰتٞ مِّمَّا عَمِلُواْۖ﴾. واللّهُ أعلمُ.

قولهُ تعالى: ﴿وَمَن لَّا يُجِبۡ دَاعِيَ ٱللَّهِ فَلَيۡسَ بِمُعۡجِزٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ أيْ لا يفوتُ اللّهَ ولا يسبقهُ ﴿وَلَيۡسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءُۚ﴾ أيْ أنصارٌ يمنعونهُ منْ عذابِ اللّهِ. ﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ٣٢﴾.

قولهُ تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ الرّؤيةُ هنا بمعنى العلم. و ﴿أَنَّ﴾ واسمها وخبرها سدّتْ مسدَّ مفعولي الرّؤيةِ. ﴿وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ احتجاج على منكري البعث. ومعنى ﴿لَمْ يَعْىَ﴾ يعجزْ ويضعفُ عنْ إبداعهنَّ. ﴿بِقَٰدِرٍ﴾ الباءُ زائدةٌ للتّوكيدِ كالباءِ في قولهِ: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾، وقوله: ﴿تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ﴾. وقيلَ: العربُ تدخلها معَ الجحدِ، والتّقديرُ: أليسَ اللّهُ بقادرٍ، كقولهِ تعالى: ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ﴾. وقرأ يعقوبُ «يَقْدِرُ».

قولهُ تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ﴾ أيْ ذكّرهمْ يومَ يعرضونَ فيقالُ لهمْ: ﴿أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ﴾ فيقولُ لهمُ المقرّرُ: ﴿فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٤﴾﴾ أي بكفركم.

قولهُ تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ ذوو الحزمِ والصّبرِ، وهمْ خمسةٌ: نوحٌ، وإبراهيمُ، وموسى، وعيسى، ومحمّدٌ عليهمُ الصّلاةُ والسّلامُ. وهمْ أصحابُ الشّرائعِ. وقيلَ: كلُّ الرّسلِ كانوا أولي عزمٍ، وإنّما دخلتْ ﴿مِنَ﴾ للتّجنيسِ لا للتّبعيضِ.

ثمَّ قيل: هيَ منسوخةٌ بآيةِ السّيفِ. وقيلَ: محكمةٌ، والأظهرُ أنّها منسوخةٌ، لأنَّ السّورةَ مكّيّةٌ. وذكرَ مقاتلٌ: أنَّ هذهِ الآيةَ نزلتْ على رسولِ اللّهِ ﷺ يومَ أحدٍ، فأمرهُ اللّهُ عزَّ وجلَّ أنْ يصبرَ على ما أصابهُ كما صبرَ أولو العزمِ منَ الرّسلِ، تسهيلاً عليهِ وتثبيتاً له. والله أعلم.

﴿وَلَا تَسْتَعْجِل﴾ بالدعاء عليهمْ. ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ﴾ منَ العذابِ ﴿لَمْ يَلْبَثُوٓا۟﴾ أيْ في الدّنيا أو في قبورهمْ حتّى بعثوا للحسابِ. ﴿إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ ۚ﴾ يعني في جنبِ يومِ القيامةِ ﴿بَلَٰغٌ ۚ﴾ أيْ هذا القرآنُ بلاغٌ، رفعَ على إضمارِ مبتدأ، دليلهُ قولهُ تعالى: ﴿هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ﴾، وقولهُ: ﴿إِنَّ فِى هَٰذَا لَبَلَٰغًا لِّقَوْمٍ عَٰبِدِينَ﴾. والبلاغُ بمعنى التّبليغِ.

﴿فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾ أيِ الخارجونَ عنْ أمرِ اللّهِ.

سورة القتال

وهيَ سورةُ محمّدٍ ﷺ مدنيّةٌ وهيَ ثمانٌ وثلاثونَ آيةً.

بسمِ اللّهِ الرّحمنِ الرّحيمِ

قولهُ تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ ١﴾ وهمْ أهلُ مكّةَ كفروا بتوحيدِ اللّهِ، وصدّوا أنفسهمْ والمؤمنينَ عنْ دينِ اللّهِ وهوَ الإسلامُ بنهيهمْ عنِ الدّخولِ فيهِ، وقيل: ﴿عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾ عنْ بيتِ اللّهِ بمنعِ قاصديهِ. ومعنى ﴿أَضَلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾ أبطلَ كيدهمْ وجعلَ الدّائرةَ عليهمْ، وقيلَ: أبطلَ ما عملوهُ في كفرهمْ بما كانوا يسمّونهُ مكارمَ، منْ صلةِ الأرحامِ وفكِّ الأسارى وقري الأضيافِ وحفظِ الجوارِ.

قولهُ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ﴾ همُ الأنصارُ. وقيلَ: في ناسٍ منْ قريشٍ. وقيلَ: هما عامتان فيمن كفروا وآمنَ. ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ منْ قالَ إنّهمُ الأنصارُ فهيَ المواساةُ في مساكنهمْ وأموالهمْ. ومنْ قالَ إنّهمْ منْ قريشٍ فهيَ الهجرةُ. ومنْ قالَ بالعمومِ فالصّالحاتُ جميعُ الأعمالِ الّتي ترضي اللّهَ تعالى.

﴿وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ﴾ لمْ يخالفوهُ في شيء ﴿وَهُوَ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّهِمۡ﴾ وهو القرآن ﴿كَفَّرَ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ﴾ أيْ ما مضى منْ سيّئاتهمْ قبلَ الإيمانِ. ﴿وَأَصۡلَحَ بَالَهُمۡ ٢﴾ أيْ شأنهمْ، وهيَ متأوّلةٌ على إصلاحِ ما تعلّقَ بدنياهمْ أو دينهمْ.

وقدْ يكونُ البالُ في موضعِ آخرَ بمعنى القلبِ، يقالُ: ما يخطرُ فلانٌ على بالي، أيْ على قلبي.

قولهُ تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلۡبَٰطِلَ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلۡحَقَّ مِن رَّبِّهِمۡۚ﴾ ﴿ذَٰلِكَ﴾ في موضعِ رفعٍ، أيْ ذلكَ الإضلالُ والهدى سببهُ أن الكافر اتّبعَ الباطلَ، والمؤمن اتّبعَ الحقَّ. والباطلُ: الشّركُ. والحقُّ: التّوحيدُ والإيمانُ. ﴿كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمۡثَٰلَهُمۡ ٣﴾ أيْ كهذا البيانِ الّذي بيّنَ يبيّنُ اللّهُ للنّاسِ أمرَ الحسناتِ والسّيّئاتِ. والضّميرُ في ﴿أَمۡثَٰلَهُمۡ﴾ يرجعُ إلى الّذينَ كفروا والّذينَ آمنوا.

قولهُ تعالى: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّواْ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَاْ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ وَٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٤﴾﴾، فيهِ أربعُ مسائلَ:

الأولى: قولهُ تعالى: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ﴾ لمّا ميّزَ بينَ الفريقينِ أمرَ بجهادِ الكفّارِ. وهم كلُّ منْ خالفَ دينَ الإسلامِ منْ مشركٍ أوْ كتابيٍّ إذا لمْ يكنْ صاحبَ عهدٍ ولا ذمّةٍ ﴿فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ﴾ مصدرٌ أيْ فاضربوا الرّقابَ ضربـًا، ولمْ يقلْ فاقتلوهمْ، لأنَّ في العبارةِ بضربِ الرّقابِ منَ الغلظةِ والشّدّةِ ما ليسَ في لفظِ القتلِ.

الثانية– قولهُ تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ﴾ أيْ أكثرتمُ القتلَ. وقدْ مضى في الأنفالِ عندَ قولهِ تعالى: ﴿حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾. ﴿فَشُدُّواْ ٱلْوَثَاقَ﴾ أيْ إذا أسرتموهمْ. والوثاقُ اسمٌ منَ الإيثاقِ، وأمّا الوثاقُ بالكسرِ فهوَ اسمُ الشّيءِ الّذي يوثقُ بهِ كالرّباطِ. ﴿فَإِمَّا مَنًّۢا﴾ عليهمْ بالإطلاقِ منْ غيرِ فديةٍ ﴿وَإِمَّا فِدَآءً﴾.

رويَ عنْ بعضهمْ أنّهُ قالَ: كنتُ واقفـًا على رأسِ الحجّاجِ حينَ أتيَ بالأسرى منْ أصحابِ عبدِ الرّحمنِ بنِ الأشعثِ وهمْ أربعةُ آلافٍ وثمانمائةٍ فقتلَ منهمْ نحوٌ منْ ثلاثةِ آلافٍ حتّى قدّمَ إليهِ رجلٌ منْ كندةَ فقالَ: يا حجّاجُ، لا جازاكَ اللّهُ عنِ السّنّةِ والكرمِ خيراً! قالَ: ولمَ ذلكَ؟ قالَ: لأنَّ اللّهَ تعالى قالَ: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّواْ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً﴾ في حقِّ الّذينَ كفروا، فواللّهِ! ما مننتَ ولا فديتَ؟ وقدْ قالَ شاعركمْ فيما وصفَ بهِ قومهُ منْ مكارمِ الأخلاقِ:

ولا نقتلُ الأسرى ولكنْ نفكّهمْ إذا أثقلَ الأعناقَ حملُ المغارمِ

فقالَ الحجّاجُ: أفٍّ لهذهِ الجيفِ! أما كانَ فيهمْ منْ يحسنُ مثلَ هذا الكلامِ!؟ خلّوا سبيلَ منْ بقيَ. فخلّيَ يومئذٍ عنْ بقيّةِ الأسرى، وهمْ زهاءُ ألفينِ، بقولِ ذلكَ الرجلِ.

الثالثة– واختلفَ العلماءُ في تأويلِ هذهِ الآيةِ على خمسةِ أقوالٍ:

الأول– أنّها منسوخةٌ، وهيَ في أهلِ الأوثانِ، لا يجوزُ أنْ يفادوا ولا يمنُّ عليهمْ.

والنّاسخُ لها عندهمْ قولهُ تعالى: ﴿فَٱقْتُلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾، وقولهُ: ﴿فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِى ٱلْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ﴾، وقوله: ﴿وَقَٰتِلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً﴾ الآية، قالهُ كثيرٌ منَ الكوفيّينَ.

الثّاني- أنّها في الكفّارِ جميعـًا. وهيَ منسوخةٌ على قولِ جماعةٍ منَ العلماءِ وأهلِ النّظرِ، قالوا: إذ أسرَ المشركُ لمْ يجزْ أنْ يمنَّ عليهِ، ولا أنْ يفادى بهِ فيردُّ إلى المشركينَ، ولا يجوزُ أنْ يفادى عندهمْ إلّا بالمرأةِ، لأنّها لا تقتلُ. والنّاسخُ لها ﴿فَٱقْتُلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾ إذْ كانتْ براءةٌ آخرُ ما نزلتْ بالتّوقيفِ، فوجبَ أنْ يقتلُ كلُّ مشركٍ إلّا منْ قامتِ الدّلالةُ على تركهِ منَ النّساءِ والصّبيانِ ومنْ يؤخذُ منهُ الجزيةُ. وهوَ المشهورُ منْ مذهبِ أبي حنيفةَ، خيفةَ أنْ يعودوا حربـًا للمسلمينَ. قالوا: ﴿فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً﴾ نسخها ﴿فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ﴾. وقوله: ﴿فَٱقْتُلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾.

الثالث- أنها ناسخة، لقوله: ﴿فَٱقْتُلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾، فلا يقتلُ المشركُ ولكنْ يمنَّ عليهِ ويفادى، كما قال الله عز وجل.

الرّابع- لا يكونُ فداءٌ ولا أسرٌ إلّا بعدَ الإثخانِ والقتل بالسّيفِ، لقولهِ تعالى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾. فإذا أسرَ بعدَ ذلكَ فللإمامِ أنْ يحكمَ بما رآهُ منْ قتلٍ أوْ غيرهِ.

الخامسِ- أنَّ الآيةَ محكمةٌ، والإمامُ مخيّرٌ في كلِّ حالٍ، وقالهُ كثيرٌ منَ العلماءِ، وهوَ مذهبُ مالكٍ والشّافعيِّ وحكاهُ الطّحاويُّ مذهبـًا عنْ أبي حنيفةَ؛ لأنَّ النّبيَّ ﷺ والخلفاءُ الرّاشدينَ فعلوا كلَّ ذلكَ، قتلَ النّبيُّ ﷺ عقبةَ بنَ أبي معيطٍ والنّضرَ بنَ الحارثِ يومَ بدرٍ صبراً، وفادى سائرَ أسارى بدرٍ، ومنَّ على ثمامةَ بنِ أثالٍ الحنفيِّ وهوَ أسيرٌ في يدهِ، وأخذَ منْ سلمةَ بنِ الأكوعِ جاريةً ففدى بها أناسـًا منَ المسلمينَ، وهبطَ عليهِ ﷺ قومٌ منْ أهلِ مكّةَ فأخذهمُ النّبيُّ ﷺ ومنَّ عليهمْ، وقدْ منَّ على سبيِ هوازنَ. وهذا كلّهُ ثابتٌ في الصّحيحِ، ولأنَّ النّسخَ إنّما يكونُ لشيءٍ قاطعٍ، فإذا أمكنَ العملُ بالآيتينِ فلا معنى للقولِ بالنّسخِ، إذا كانَ يجوزُ أنْ يقعَ التّعبّدُ إذا لقينا الّذينَ كفروا قتلناهمْ، فإذا كانَ الأسرُ جازَ القتلُ والاسترقاقُ والمفاداةُ والمنُّ، على ما فيهِ الصّلاحُ للمسلمينَ.

الرابعة- قولهُ تعالى: ﴿حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾ ويظهرَ الإسلامُ على الدّينِ كلّهِ، وقيلَ: معنى الأوزارِ السّلاحُ، فالمعنى شدّوا الوثاقَ حتّى تأمنوا وتضعوا السّلاحَ. وقيلَ: معناهُ حتّى تضعَ الحربُ، أيِ الأعداءُ المحاربونَ أوزارهمْ، وهوَ سلاحهمْ بالهزيمةِ أوِ الموادعةِ.

وقيلَ: ﴿حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾ أيْ أثقالها. والوزرُ الثّقلُ، ومنهُ وزيرُ الملكِ لأنّهُ يتحمّلُ عنهُ الأثقالَ. وأثقالها السّلاحُ لثقلِ حملها.

قولهُ تعالى: ﴿ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ﴾ ﴿ذَٰلِكَ﴾ في موضعِ رفعٍ على ما تقدّمَ، أيِ الأمرُ ذلكَ الّذي ذكرتُ وبيّنتُ، وهيَ كلمةٌ يستعملها الفصيحُ عندَ الخروجِ منْ كلامٍ إلى كلامٍ، وهوَ كما قالَ تعالى: ﴿هَٰذَا وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٍ﴾. أيْ هذا حقٌّ وأنا أعرّفكمْ أنَّ للظّالمينَ كذا. ومعنى ﴿لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ﴾ أيْ أهلكهمْ بغيرِ قتالٍ. ﴿وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَاْ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ﴾ أيْ أمركمْ بالحربِ ليبلوَ ويختبرَ بعضكمْ ببعضٍ فيعلمُ المجاهدينَ والصّابرينَ، كما في السّورةِ نفسها. ﴿وَٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ يريد قتلى أحد من المؤمنين ﴿فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ۝٤﴾ قراءةُ العامّةِ «قَاتَلُوا»، وقرأَ أبو عمرو وحفصٌ ﴿قُتِلُواْ﴾ بضمِّ القافِ وكسرِ التّاءِ.

قولهُ تعالى: ﴿سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ۝٥﴾ على قراءةِ أبي عمرو ﴿قُتِلُواْ﴾ فقوله تعالى: ﴿سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ﴾ أي إلى الجنّةِ أوْ سيهدي منْ بقيَ منهمْ، أيْ يحقّقُ لهمُ الهدايةَ.

قولهُ تعالى: ﴿وَيُدْخِلُهُمُ ٱلْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ۝٦﴾ فهمْ أعرفُ بمنازلهمْ منْ أهلِ الجمعةِ إذا انصرفوا إلى منازلهمْ، لما في البخاريِّ عنْ أبي سعيدٍ الخدريِّ، قالَ: قالَ رسولُ اللّهِ ﷺ: «يخلصُ المؤمنونَ منَ النّارِ فيحبسونَ على قنطرةٍ بينَ الجنّةِ والنّارِ فيقصُّ لبعضهمْ منْ بعضٍ مظالمَ كانت بينهم في الدنيا حتى إذا هذّبوا ونقّوا أذنَ لهمْ في دخولِ الجنّةِ فوالّذي نفسُ محمّدٍ بيدهِ لأحدهمْ أهدى بمنزلهِ في الجنّةِ منهُ بمنزلهِ في الدّنيا».

وقيلَ عرفوها بصفتها، وقيل: ﴿عَرَّفَهَا لَهُمْ﴾ أيْ طيّبها لهمْ بأنواعِ الملاذِ، مأخوذٌ منَ العرفِ، وهوَ الرّائحةُ الطّيّبةُ. وطعامٌ معرّفٌ أيْ مطيّبٌ.

قولهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ﴾ أيْ إنْ تنصروا دينَ اللّهِ ينصركمْ على الكفّارِ. نظيرهُ ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ﴾، ﴿وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ ٧﴾ على الإسلام. وقيلَ على الصّراطِ وقيلَ أيْ عندَ القتالِ، وقدْ قال في الأنفالِ: ﴿إِذۡ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمۡ فَثَبِّتُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ﴾، فأثبتَ هناكَ واسطةً ونفاها هنا، كقولهِ تعالى: ﴿۞قُلۡ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلۡمَوۡتِ﴾، ثمَّ نفاها بقولهِ: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ ثُمَّ رَزَقَكُمۡ ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ﴾. ﴿ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡمَوۡتَ وَٱلۡحَيَوٰةَ﴾، ومثلهُ كثيرٌ، فلا فاعلَ إلّا اللّهُ وحدهُ.

قولهُ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ يحتملُ الرّفعَ على الابتداءِ، والنّصبَ بما يفسّرهُ ﴿فَتَعۡسٗا لَّهُمۡ﴾ بعداً وشقاءً وهلاكاً لهمْ، والتّعسُ من تعَسَ بفتحِ العينِ يتعسُ تعساً، وجوّزَ قومٌ تعِسَ بكسرِ العينِ. ومنهُ حديثِ أبي هريرةَ قالَ: قالَ رسولُ اللّهِ ﷺ: «تعسَ عبدُ الدّينارِ والدّرهمِ والقطيفةِ والخميصةِ إنْ أعطيَ رضيَ وإنْ لمْ يعطَ لمْ يرضَ» خرّجهُ البخاريُّ.

قولهُ تعالى: ﴿وَأَضَلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ ٨﴾ أيْ أبطلها لأنّها كانتْ في طاعةِ الشّيطانِ.

قولهُ تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَرِهُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحۡبَطَ أَعۡمَٰلَهُمۡ ٩﴾

أيْ ذلكَ الإضلالُ والإتعاسُ، لأنّهمْ ﴿كَرِهُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ منَ الكتبِ والشّرائعِ. ﴿فَأَحۡبَطَ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾ أيْ ما لهمْ منْ صورِ الخيراتِ، كعمارةِ المسجدِ وقري الضّيفِ وأصنافِ القربِ، ولا يقبلُ اللّهُ العملَ إلّا منْ مؤمنٍ. وقيلَ: أحبط أعمالهم أي عبادة الصنم.

قولهُ تعالى: ﴿۞أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ﴾ بقلوبهمْ ﴿كَيۡفَ كَانَ﴾ آخرُ أمرِ الكافرينَ قبلهمْ. ﴿دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡۖ﴾ أيْ أهلكهمْ واستأصلهمْ. يقالُ: دمّرهُ تدميراً، ودمّرَ عليهِ بمعنى. ثمَّ تواعدَ مشركي مكّةَ فقالَ ﴿وَلِلۡكَٰفِرِينَ أَمۡثَٰلُهَا ١٠﴾ أمثالَ هذهِ الفعلةِ، أو العاقبةِ.

قولهُ تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوۡلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ أيْ وليّهمْ وناصرهمْ. نزلتْ يومَ أحدٍ والنّبيُّ ﷺ في الشّعبِ، إذْ صاحَ المشركونَ: يومٌ بيومٍ، لنا العزّى ولا عزى لكم، فقالَ: النّبيُّ ﷺ: قولوا اللّهُ مولانا ولا مولى لكمْ. ﴿وَأَنَّ ٱلۡكَٰفِرِينَ لَا مَوۡلَىٰ لَهُمۡ ١١﴾ أيْ لا ينصرهم أحد من الله.

قولهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ﴾ تقدّمَ في غيرِ موضعٍ ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ﴾ في الدّنيا كأنّهمْ أنعامٌ ﴿وَٱلنَّارُ مَثۡوٗى لَّهُمۡ ١٢﴾ أيْ مقامٌ ومنزل.

قولهُ تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرۡيَةٍ﴾ ﴿كَأَيِّن﴾ ها هنا بمعنى كمْ منْ أهلِ قريةٍ. ﴿هِيَ أَشَدُّ قُوَّةٗ مِّن قَرۡيَتِكَ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَتۡكَ﴾ أيْ أخرجكَ أهلها. ﴿فَلَا نَاصِرَ لَهُمۡ ١٣﴾ ولمّا خرجَ النّبيّ ﷺ منْ مكّةَ إلى الغارِ التفتَ إلى مكّةَ، وقالَ: اللّهمَّ أنتِ أحبُّ البلادِ إلى اللّهِ وأنتِ أحبُّ البلادِ إليَّ ولولا المشركونَ أهلكِ أخرجوني لما خرجتُ منكِ. فنزلتِ الآيةُ، ذكرهُ الثعلبي، وهو حديث صحيح.

قولهُ تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ الألفُ ألفُ تقريرٍ. ومعنى ﴿عَلَىٰ بَيِّنَةٖ﴾ أيْ على ثباتٍ ويقينٍ، وهوَ محمّدٌ ﷺ. والبيّنةُ: الوحيُ. ﴿كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ﴾ أيْ عبادةَ الأصنام، وهوَ أبو جهلٍ والكفّارُ ﴿وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهۡوَآءَهُم﴾ أيْ ما اشتهوا. وهذا التّزيينُ منْ جهةِ اللّهِ خلقًا. ويجوزُ أنْ يكونَ منَ الشّيطانِ دعاءٌ ووسوسةٌ. ويجوزُ أنْ يكونَ منَ الكافرِ، أيْ زيّنَ لنفسهِ سوءَ عملهِ وأصرَّ على الكفرِ. وقالَ ﴿سُوٓءُ﴾ على لفظِ «من» ﴿وَٱتَّبَعُوٓاْ﴾ على معناه.

قولهُ تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلۡمُتَّقُونَۖ فِيهَآ أَنۡهَٰرٞ مِّن مَّآءٍ غَيۡرِ ءَاسِنٖ﴾ أيْ غيرَ متغيّرِ الرّائحةِ. والآسنُ منَ الماءِ مثلُ الآجنِ، وقراءةُ العامّةِ ﴿ءَاسِنٖ﴾ بالمدِّ. وقرأ ابنُ كثيرٍ «أَسِنٍ» بالقصرِ، وهما لغتانِ، مثلُ حاذرٍ وحذرٍ. وقيلَ: أسنَ للحالِ، وآسنٌ مثلُ فاعلٍ يراد به الاستقبال. ﴿وَأَنۡهَٰرٞ مِّن لَّبَنٖ لَّمۡ يَتَغَيَّرۡ طَعۡمُهُۥ﴾ أيْ لمْ يحمضْ بطولِ المقامِ كما تتغيّرُ ألبانُ الدّنيا إلى الحموضةِ. ﴿وَأَنۡهَٰرٞ مِّنۡ خَمۡرٖ لَّذَّةٖ لِّلشَّٰرِبِينَ﴾ لا يتكرّهها الشّاربونَ. ﴿وَأَنۡهَٰرٞ مِّنۡ عَسَلٖ مُّصَفّٗىۖ﴾ العسلُ ما يسيلُ منْ لعابِ النّحلِ. ﴿مُّصَفّٗىۖ﴾ أيْ منَ الشّمعِ والقذى، خلقهُ اللّهُ كذلكَ لمْ يطبخْ على نارٍ ولا دنّسهُ النّحلُ. وفي التّرمذيِّ عنْ حكيمِ بنِ معاويةَ عنْ أبيهِ عنِ النّبيِّ ﷺ قالَ: «إنَّ في الجنّةِ بحرُ الماءِ وبحرُ العسلِ وبحرُ اللّبنِ وبحرُ الخمرِ ثمَّ تشقّقُ الأنهارُ بعدُ». قالَ: حديثٌ حسنٌ صحيحٌ. وفي صحيح مسلمٍ عنْ أبي هريرةَ رضي الله عنه قالَ: قالَ رسولُ اللّهِ ﷺ: «سيحانُ وجيحانُ والنّيلُ والفراتُ كلٌّ منْ أنهارِ الجنّةِ». وقالَ كعبٌ: نهرُ دجلةَ نهرُ

ماءِ أهلِ الجنّةِ، ونهرُ الفراتِ نهرُ لبنهمْ، ونهرُ مصرَ نهرُ خمرهمْ، ونهرُ سيحانَ نهرُ عسلهمْ. وهذهِ الأنهارُ الأربعةُ تخرجُ منْ نهرِ الكوثرِ. والعسلُ: يذكّرُ ويؤنّثُ. وقالَ ابنُ عبّاسٍ: ﴿مِّنۡ عَسَلٖ مُّصَفّٗىۖ﴾ أيْ لمْ يخرجْ منْ بطونِ النّحلِ.

﴿وَلَهُمۡ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ ﴿مِن﴾ زائدةٌ للتّأكيدِ. ﴿وَمَغۡفِرَةٞ مِّن رَّبِّهِمۡۖ﴾ أيْ لذنوبهمْ. ﴿كَمَنۡ هُوَ خَٰلِدٞ فِي ٱلنَّارِ وَسُقُواْ مَآءً حَمِيمٗا﴾ أي حارا شديد الغليان، إذا دنا منهم شوى وجوههم، ووقعت فروة رؤوسهم، فإذا شربوهُ قطّعَ أمعاءهمْ وأخرجها منْ دبورهمْ. والأمعاءُ: جمعُ معى، والتّثنيةُ معيانِ، وهوَ جميعُ ما في البطن من الحوايا.

قولهُ تعالى: ﴿وَمِنۡهُم مَّن يَسۡتَمِعُ إِلَيۡكَ﴾ وهمُ المنافقونَ. ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُواْ مِنۡ عِندِكَ﴾ أيْ إذا فارقوا مجلسكَ. ﴿قَالُواْ لِلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ﴾ من الصّحابة. ﴿مَاذَا قَالَ ءَانِفًاۚ﴾ أي الآنَ، على جهةِ الاستهزاءِ. أيْ أنا لمْ ألتفتْ إلى قوله. و ﴿ءَانِفًاۚ﴾ يرادُ بهِ السّاعةَ الّتي هيَ أقربُ الأوقاتِ إليكَ.

قولهُ تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ﴾ فلمْ يؤمنوا. ﴿وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهۡوَآءَهُمۡ﴾ في الكفرِ. ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ﴾ أيْ للإيمانِ زادهمُ اللّهُ هدى. وقيلَ: زادهمُ النّبيُّ ﷺ هدى. وقيلَ: ما يستمعونهُ منَ القرآنِ هدى، أي علماً وبصيرةً في دينهمْ وتصديقاً لنبيّهمْ ﴿وَءَاتَىٰهُمۡ تَقۡوَىٰهُمۡ ١٧﴾ أيْ ألهمهمْ الخشيةَ.

قولهُ تعالى: ﴿فَهَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأۡتِيَهُم بَغۡتَةٗۖ﴾ أيْ فجأةً. وهذا وعيدٌ للكفّارِ. ﴿فَقَدۡ جَآءَ أَشۡرَاطُهَاۚ﴾ أيْ أماراتها وعلاماتها. كبعثه ﷺ منْ أشراطها وأدلّتها، ففي الصّحيح عنْ أنسٍ قالَ: قالَ رسولُ اللّهِ ﷺ: «بعثتُ أنا والسّاعةِ كهاتينِ» وضمَّ السّبّابةَ والوسطى، لفظُ مسلم. وخرّجهُ البخاريُّ، ويروى «بعثتُ والسّاعةُ كفرسيْ رهانٍ». ومنها انشقاق القمرِ والدّخانُ، وواحدُ الأشراطِ شرطٌ، وأصلهُ الأعلامُ. ومنهُ قيلَ الشّرطُ، لأنّهمْ جعلوا لأنفسهمْ علامةً يعرفونَ بها. ومنهُ الشّرطُ في البيع وغيرهِ.

قولهُ تعالى: ﴿فَأَنَّىٰ لَهُمۡ إِذَا جَآءَتۡهُمۡ ذِكۡرَىٰهُمۡ ١٨﴾ أي فمنْ أينَ لهمُ التّذكّرُ والنّجاة إذا جاءتهمُ السّاعةُ، وفي الذّكرى وجهانِ:

أحدهما- تذكيرهمْ بما عملوهُ منْ خيرٍ أوْ شرٍّ.

الثّاني- هوَ دعاؤهمْ بأسمائهمْ تبشيراً وتخويفـاً.

قولهُ تعالى: ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ وهو يعلم ﷺ ولكن يعني اعلمْ أنَّ اللّهَ أعلمكَ أنْ لا إلهَ إلّا اللّهُ. أو ما علمتهُ استدلالاً فاعلمهُ خبراً يقيناً. وقيل: أي فاذكرْ أنْ لا إلهَ إلّا الله، فعبر عن الذكر بالعلم لحدوثهِ عنهُ.

وعنْ سفيانَ بنِ عيينةَ أنّهُ سئلَ عنْ فضلِ العلمِ فقالَ: ألمْ تسمعْ قولهُ حينَ بدأَ بهِ: ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ﴾ فأمرَ بالعملِ بعدَ العلمِ وقالَ: ﴿ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞ﴾- إلى قولهِ- ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾، وقال: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞ﴾، ثم قال بعد: ﴿فَٱحۡذَرُوهُمۡۚ﴾. وقالَ تعالى: ﴿۞وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ﴾. ثمَّ أمرَ بالعملِ بعدُ.

قولهُ تعالى: ﴿وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ﴾ يحتملُ وجهينِ:

أحدهما- يعني استغفرِ اللّهَ أنْ يقعَ منكَ ذنبٌ.

الثّاني- استغفرِ اللّهَ ليعصمكَ منَ الذّنوبِ.

وقيلَ: أمرَ بالاستغفارِ لتقتديَ بهِ الأمّةُ.

﴿وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۗ﴾ أيْ ولذنوبهمْ. وهذا أمرٌ بالشّفاعةِ. وروى مسلمٌ عنْ عبدِ اللّهِ بنِ سرجسٍ المخزوميِّ قالَ: أتيتُ النّبيَّ ﷺ وأكلتُ منْ طعامهِ فقلت: يا رسولَ اللّهِ، غفرَ اللّهُ لكَ! فقالَ: لهُ صاحبي: هلِ استغفرَ لكَ النّبيِّ ﷺ؟ قالَ: نعمَ، ولكَ. ثمَّ تلا هذهِ الآيةَ ﴿وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۗ﴾ ثمَّ تحوّلتُ فنظرتُ إلى خاتمِ النّبوّةِ بينَ كتفيهِ، جُمعـاً عليهِ خيلانٌ كأنّهُ الثّآليلُ.

﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مُتَقَلَّبَكُمۡ وَمَثۡوَىٰكُمۡ ١٩﴾ فيهِ خمسةُ أقوالٍ:

أحدها- يعلمُ أعمالكمْ في تصرّفكمْ وإقامتكمْ.

الثّاني- ﴿مُتَقَلَّبَكُمۡ﴾ في أعمالكمْ نهاراً ﴿وَمَثۡوَىٰكُمۡ ١٩﴾ في ليلكمْ نياما.

وقيل ﴿مُتَقَلَّبَكُمْ﴾ في الدّنيا. ﴿وَمَثْوَىٰكُمْ﴾ في الآخرةِ. وقيل: ﴿مُتَقَلَّبَكُمْ﴾ في أصلابِ الآباءِ إلى أرحامِ الأمّهاتِ. ﴿وَمَثْوَىٰكُمْ﴾ مقامكمْ في الأرضِ. وقيل: ﴿مُتَقَلَّبَكُمْ﴾ من ظهرٍ إلى بطنٍ إلى الدّنيا. ﴿وَمَثْوَىٰكُمْ﴾ في القبورِ.

والعمومُ يأتي على هذا كلّهِ، فلا يخفى عليهِ سبحانهُ شيءٌ منْ حركاتِ بني آدمَ وسكناتهِمْ، وكذا جميعُ خلقهِ. فهوَ عالمٌ بجميعِ ذلكَ قبلَ كونهِ جملةً وتفصيلاً لا إله إلا هو.

قولهُ تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ أيِ المؤمنونَ المخلصون. ﴿لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ﴾ اشتياقًا للوحيِ وحرصًا على الجهادِ وثوابه. ومعنى ﴿لَوْلَآ﴾ هلّا. ﴿فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ﴾ لا نسخَ فيها. قالَ قتادةُ: كلُّ سورةٍ ذكرَ فيها الجهادُ فهيَ محكمةٌ، وهيَ أشدُّ القرآنِ على المنافقينَ. ﴿وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ﴾ أي فرض فيها الجهاد. ﴿رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ أيْ شكٌّ ونفاقٌ. ﴿يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ﴾ أيْ نظرُ مغموصينَ مغتاظينَ بتحديدٍ وتحديقٍ، كمنْ يشخصُ بصرهُ عندَ الموتِ، وذلكَ لجبنهِمْ عنِ القتالِ جزعًا وهلعًا، ولميلهِمْ في السّرِّ إلى الكفّارِ. ﴿فَأَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٠﴾﴾ تهدد ووعيدٌ كأنّهُ قالَ العقابَ أولى لهمْ.

قولهُ تعالى: ﴿طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ﴾ أمثلُ وأحسنُ. ﴿فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ﴾ أيْ جدَّ القتالُ، أوْ وجب فرض القتال. ﴿فَلَوْ صَدَقُواْ ٱللَّهَ﴾ أيْ في الإيمانِ والجهادِ. ﴿لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴿٢١﴾﴾ من المعصية والمخالفة.

قولهُ تعالى: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓاْ أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ ﴿٢٣﴾ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾﴾، فيهِ أربعُ مسائلَ:

الأولى: اختلفَ في معنى ﴿إِن تَوَلَّيْتُمْ﴾ فقيلَ: هوَ منَ الولايةِ. والمعنى فهلْ عسيتمْ إنْ تولّيتمُ الحكمَ فجعلتمْ حكّامًا أنْ تفسدوا في الأرضِ بأخذِ الرّشا والظّلم. وقيلَ: منَ الإعراضِ عنِ الشّيءِ والمعنى فهلْ عسيتمْ إنْ تولّيتمْ عنِ الطّاعةِ أنْ تفسدوا في الأرضِ بالمعاصي ﴿وَتُقَطِّعُوٓاْ أَرْحَامَكُمْ﴾ بالبغيِ والظّلمِ والقتلِ. وقرأ يعقوبُ «وتَقْطعوا» بفتحِ

التّاءِ وتخفيفِ القافِ، منَ القطعِ، اعتباراً بقولهِ تعالى: ﴿وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ﴾ الباقونَ ﴿وَتُقَطِّعُوٓاْ﴾ بضمِّ التّاءِ مشدّدةَ الطّاءِ، منَ التّقطيعِ على التّكثيرِ، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ﴾ أيْ طردهمْ وأبعدهمْ منْ رحمتهِ. ﴿فَأَصَمَّهُمْ﴾ عنِ الحقِّ. ﴿وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ﴾ أيْ قلوبهمْ عنِ الخيرِ. وقالَ: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ﴾ ثمَّ قالَ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ﴾ فرجعَ منَ الخطابِ إلى الغيبةِ على عادةِ العربِ في ذلكَ.

الثانية- قولهُ تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ أيْ يتفهّمونهُ فيعلمونَ ما أعدَّ اللّهُ للّذينَ لمْ يتولّوا عنِ الإسلامِ. ﴿أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ أيْ بلْ على قلوبٍ أقفالٌ أقفلها اللّهُ عزَّ وجلَّ عليهمْ فهمْ لا يعقلونَ. وهذا يردُّ على القدريّةِ والإماميّةِ مذهبهمْ. وقالَ: ﴿عَلَىٰ قُلُوبٍ﴾ لأنّهُ لوْ قالَ على قلوبهمْ لمْ يدخلْ قلبُ غيرهمْ في هذهِ الجملةِ. والمرادُ أمْ على قلوبِ هؤلاءِ وقلوبِ منْ كانوا بهذهِ الصّفةِ أقفالها.

الثالثة- في صحيحِ مسلمٍ عنْ أبي هريرةَ قالَ: قالَ رسولُ اللّهِ ﷺ: «إنَّ اللّهَ خلقَ الخلقَ حتّى إذا فرغَ منهمْ قامتِ الرّحمُ فقالتْ هذا مقامُ العائذِ منَ القطيعةِ قالَ نعمْ أما ترضينَ أنْ أصلَ منْ وصلكِ وأقطعَ منْ قطعكِ قالتْ بلى قالَ فذاكَ لكِ- ثمَّ قالَ رسولُ اللّهِ ﷺ- اقرءوا إنْ شئتمْ ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓاْ أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ ﴿٢٣﴾ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾﴾». وظاهرُ الآيةِ أنّها خطابٌ لجميعِ الكفّارِ.

والرّحمُ على وجهينِ: عامّةٌ وخاصّةٌ، فالعامّةُ رحمُ الدين، ويجب مواصلتها بملازمةِ الإيمانِ والمحبّةِ لأهلهِ ونصرتهمْ، والنّصيحةِ وتركِ مضارّتهمْ والعدلَ بينهمْ، والقيام بحقوقهمُ الواجبةِ، كتمريضِ المرضى وحقوقِ الموتى منْ غسلهمْ والصّلاةِ عليهمْ ودفنهمْ. وأمّا الرّحمُ الخاصّةُ وهيَ رحمُ القرابةِ منْ طرفي الرّجلِ أبيهِ وأمّهِ، فتجبُ لهمُ الحقوقُ الخاصّةِ وزيادةٌ، كالنّفقةِ وتفقد أحوالهم، وتركِ التّغافلُ عنْ تعاهدهمْ في أوقاتِ ضروراتهمْ، وتتأكّدُ في حقّهمْ حقوقُ الرّحمِ العامّةُ، حتّى إذا تزاحمتِ الحقوقُ بدئَ بالأقربِ فالأقربِ.

وقالَ بعضُ أهلِ العلمِ: إنَّ الرّحمَ الّتي تجبُ صلتها هيَ كلُّ رحمٍ محرمٍ، وعليهِ فلا

تجبُ في بني الأعمامِ وبني الأخوالِ. وقيلَ: بلْ هذا في كلِّ رحمٍ ممّنْ ينطلقُ عليهِ ذلكَ منْ ذوي الأرحامِ في المواريثِ، محرماً كانَ أوْ غيرَ محرمٍ. فيخرجُ منْ هذا أنَّ رحمَ الأمِّ الّتي لا يتوارثُ بها لا تجبُ صلتهمْ ولا يحرمُ قطعهمْ. وهذا ليسَ بصحيحٍ، والصّوابُ أنَّ كلَّ ما يشملهُ ويعمّهُ الرّحمُ تجبُ صلتهُ على كلِّ حالٍ. وفي صحيحِ مسلمٍ عنْ جبيرِ بنِ مطعمٍ عنِ النّبيِّ ﷺ قالَ: «لا يدخلُ الجنّةَ قاطعٌ». قالَ سفيانُ: يعني قاطعَ رحمٍ. ورواهُ البخاريُّ.

الرابعة- قولهُ ﷺ: «إنَّ اللّهَ تعالى خلقَ الخلقَ حتّى إذا فرغَ منهمْ...» «خلقَ» بمعنى اخترعَ وأصلهُ التّقديرُ، كما تقدّمَ. والخلقُ هنا بمعنى المخلوقِ. ومنهُ قولهُ تعالى: ﴿هَٰذَا خَلۡقُ ٱللَّهِ﴾ أيْ مخلوقهُ. ومعنى «فرغَ منهمْ» كمّلَ خلقهمْ. لا أنّهُ اشتغلَ بهمْ ثمَّ فرغَ منْ شغلهِ بهمْ، تعالى عنْ ذلكَ. وقولهُ: «قامتِ الرّحمُ فقالتْ» يحملُ على أحدِ وجهينِ:

أحدهما- أنْ يكونَ اللّهُ تعالى أقامَ منْ يتكلّمُ عنِ الرّحمِ منَ الملائكةِ فيقولُ ذلكَ، وكأنّهُ وكّلَ بهذهِ العبادةِ منْ يناضلُ عنها ويكتبُ ثوابَ منْ وصلها ووزرَ منْ قطعها، كما وكّلَ اللّهُ بسائرِ الأعمالِ كراماً كاتبينَ، وبمشاهدةِ أوقاتِ الصّلواتِ ملائكة متعاقبين.

ثانيهما- أنَّ ذلكَ على جهةِ التّقديرِ والتّمثيلِ المفهمِ بشدّةِ الاعتناءِ. فكأنّهُ قالَ: لوْ كانتِ الرّحمُ ممّنْ يعقلُ ويتكلّمُ لقالتْ هذا الكلامَ، كما قالَ تعالى: ﴿لَوۡ أَنزَلۡنَا هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيۡتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنۡ خَشۡيَةِ ٱللَّهِۚ﴾- ثمَّ قالَ- ﴿وَتِلۡكَ ٱلۡأَمۡثَٰلُ نَضۡرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

وقولهُ: «فقالتْ هذا مقامُ العائذِ بكَ منَ القطيعةِ» مقصودُ هذا أنَّ اللّهَ سبحانهُ قدْ نزّلها بمنزلةِ منِ استجارَ بهِ فأجارهُ، وأدخلهُ في ذمّتهِ وخفارتهِ، وإذا كانَ كذلكَ فجارُ اللّهِ غيرُ مخذولٍ وعهدهُ غيرُ منقوضٍ. ولذلكَ قالَ مخاطباً للرّحمِ: «أما ترضينَ أنْ أصلَ منْ وصلكِ وأقطعَ منْ قطعكِ». وهذا كما قالَ ﷺ: «ومنْ صلّى الصّبحَ فهوَ في ذمّةِ اللّهِ تعالى فلا يطلبنّكمُ اللّهُ منْ ذمّتهِ بشيءٍ فإنّهُ منْ يطلبهُ بذمّتهِ بشيءٍ يدركهُ ثمَّ يكبّهُ في النّارِ على وجهه».

قولهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرۡتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدۡبَٰرِهِم مِّنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلۡهُدَى﴾ وهمْ كفّارُ أهلِ الكتابِ، وقيلَ: همُ المنافقونَ قعدوا عن القتال بعدما علموهُ في القرآنِ ﴿ٱلشَّيۡطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمۡ﴾ أيْ زيّنَ لهمْ خطاياهمْ ﴿وَأَمۡلَىٰ لَهُمۡ ٢٥﴾ أيْ مدَّ لهمُ في الأملِ ووعدهمْ طولَ العمرِ، وقيلَ: إنَّ الّذي أملى لهمْ في الأملِ ومدَّ في آجالهمْ هوَ اللّهُ عزَّ وجلَّ، وقرأ أبو عمرو وأبو جعفرٍ «وَأُمْلِيَ لَهُمْ» بضمِّ الهمزةِ وكسرِ اللّامِ وفتحِ الياءِ، على ما لمْ يسمَّ فاعلهُ. وكذلكَ قرأَ يعقوبُ، إلّا أنّهُ سكّن الياءَ على وجهِ الخبرِ منَ اللّهِ تعالى عنْ نفسهِ أنّهُ يفعلُ ذلكَ بهمْ.

﴿ذَٰلِكَ﴾ أيْ ذلكَ الإملاءُ لهمْ حتّى يتمادوا في الكفرِ ﴿بِأَنَّهُمۡ قَالُواْ﴾ يعني المنافقينَ واليهودَ. ﴿لِلَّذِينَ كَرِهُواْ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ﴾ وهمْ المشركونَ ﴿سَنُطِيعُكُمۡ فِي بَعۡضِ ٱلۡأَمۡرِۖ﴾ في مخالفةِ محمّدٍ والتّظاهرِ على عداوتهِ، والقعودِ عنِ الجهادِ معهُ وتوهينِ أمرهِ في السّرِّ ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ إِسۡرَارَهُمۡ ٢٦﴾. وقراءةُ العامّةِ «أَسْرَارَهُمْ» بفتحِ الهمزةِ، جمعُ سرٍّ، وقرأ الكوفيّونَ وحمزةُ والكسائيُّ وحفصٌ عنْ عاصمٍ ﴿إِسۡرَارَهُمۡ﴾ بكسرِ الهمزةِ على المصدرِ، نحوُ قوله تعالى: ﴿وَأَسۡرَرۡتُ لَهُمۡ إِسۡرَارًا﴾، وجمع لاختلاف ضروب السر.

﴿فَكَيۡفَ﴾ أيْ فكيفَ تكونُ حالهمْ. ﴿إِذَا تَوَفَّتۡهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَضۡرِبُونَ وُجُوهَهُمۡ وَأَدۡبَٰرَهُمۡ ٢٧﴾ أيْ ضاربينَ، فهوَ في موضعِ الحالِ. ومعنى الكلامِ التّخويفُ والتّهديدُ، أيْ إنْ تأخّرَ عنهمُ العذابُ فإلى انقضاءِ العمرِ. قيل: لا يتوفّى أحدٌ على معصيةٍ إلّا بضربٍ شديدٍ لوجههِ وقفاهُ. وقيلَ: ذلك عند القتال نصرة لرسول الله ﷺ بضربِ الملائكةِ وجوههمْ عندَ الطّلبِ وأدبارهمْ عندَ الهربِ. وقيلَ: ذلكَ في القيامة عند سوقهم إلى النار.

قولهُ تعالى: ﴿ذَٰلِكَ﴾ أيْ ذلكَ جزاؤهمْ. ﴿بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُواْ مَآ أَسۡخَطَ ٱللَّهَ﴾ وهوَ كتمانهمْ ما في التّوراةِ منْ نعتِ محمّدٍ ﷺ. وإنْ حُملتْ على المنافقينَ فهوَ إشارةٌ إلى ما أضمروا عليهِ منَ الكفرِ. ﴿وَكَرِهُواْ رِضۡوَٰنَهُۥ﴾ يعني الإيمانَ. ﴿فَأَحۡبَطَ أَعۡمَٰلَهُمۡ ٢٨﴾ أيْ ما عملوهُ منْ صدقةٍ وصلةِ رحمٍ وغيرِ ذلكَ.

قولهُ تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ نفاقٌ وشكٌّ، يعني المنافقينَ. ﴿أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَـٰنَهُمْ ۝٢٩﴾ الأضغانُ ما يضمرُ منَ المكروهِ. ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَـٰكَهُمْ﴾ أيْ لعرّفناكهمْ، وقدْ عرّفهُ إيّاهمْ في سورة براءة. ﴿فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَـٰهُمْ﴾ أيْ بعلاماتهمْ. قالَ أنسٌ. ما خفيَ على النّبيِّ ﷺ بعدَ هذهِ الآيةِ أحدٌ منَ المنافقينَ، كانَ يعرفهمْ بسيماهمْ. ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ ٱلْقَوْلِ﴾ أيْ في فحواهُ ومعناهُ. مأخوذٌ منَ اللّحنِ في الإعرابِ، وهوَ الذّهابُ عنِ الصّوابِ، ومنهُ قولُ النّبيِّ ﷺ: «إنّكمْ تختصمونَ إليَّ ولعلَّ بعضكمْ أنْ يكونَ ألحنَ بحجّتهِ منْ بعضٍ» أيْ أذهبُ بها في الجوابِ لقوّتهِ على تصريفِ الكلامِ. ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَـٰلَكُمْ ۝٣٠﴾ أيْ لا يخفى عليه شيء منها.

قولهُ تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ﴾ أيْ نتعبّدكمْ بالشّرائع وإنْ علمنا عواقبَ الأمورِ. وقيلَ: لنعاملنّكمْ معاملةَ المختبرينَ. ﴿حَتَّىٰ نَعْلَمَ﴾ حتّى نميّزَ ﴿ٱلْمُجَـٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّـٰبِرِينَ﴾ عليهِ، وقراءة العامة بالنون في ﴿لَنَبْلُوَنَّكُمْ﴾ و ﴿نَعْلَمَ﴾ ﴿وَنَبْلُوَا۟﴾. وقرأ أبو بكرٍ عنْ عاصمٍ بالياءِ فيهنَّ.

وهذا العلمُ هوَ العلمُ الّذي يقعُ بهِ الجزاءُ، لأنّهُ إنّما يجازيهمْ بأعمالهمْ لا بعلمهِ القديمِ عليهمْ. فتأويلهُ: حتّى نعلمَ المجاهدينَ علمَ شهادةٍ، لأنّهمْ إذا أمروا بالعملِ يشهدُ منهمْ ما عملوا، فالجزاءُ بالثّوابِ والعقابِ يقعُ على علمِ الشّهادةِ.

﴿وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ ۝٣١﴾ نختبرها ونظهرها. وكانَ الفضيلُ بنُ عياضٍ إذا قرأَ هذهِ الآيةَ بكى وقال: اللهم لا تبتلينا فإنك إذا بلوتنا فضحتنا وهتكت أستارنا.

قولهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ يرجعُ إلى المنافقينَ أوْ إلى اليهودِ. ﴿وَشَآقُّوا۟ ٱلرَّسُولَ﴾ أيْ عادوهُ وخالفوهُ. ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَىٰ﴾ أيْ علموا أنّهُ نبيٌّ بالحججِ والآياتِ. ﴿لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا﴾ بكفرهمْ. ﴿وَسَيُحْبِطُ أَعْمَـٰلَهُمْ ۝٣٢﴾ أيْ ثوابَ ما عملوه.

قولهُ تعالى: ﴿۞يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبۡطِلُوٓاْ أَعۡمَـٰلَكُمۡ ٣٣﴾، فيهِ مسألتانِ:

الأولى: قولهُ تعالى: ﴿۞يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾ لمّا بيّنَ حالَ الكفّارِ أمرَ المؤمنينَ بلزومِ الطّاعةِ في أوامرهِ والرّسولِ في سننهِ. ﴿وَلَا تُبۡطِلُوٓاْ أَعۡمَـٰلَكُمۡ ٣٣﴾ أيْ حسناتكمْ بالمعاصي والكبائرِ، وقيلَ: بالرياءِ والسمعة، وقيلَ: بالمنِّ، وهوَ خطابٌ لمنْ كانَ يمنُّ على النّبيِّ ﷺ بإسلامهِ. وكلّهُ متقاربٌ.

الثانية- احتجَّ علماؤنا وغيرهمْ بهذهِ الآيةِ على أنَّ التّحلّلَ منَ التّطوّعِ- صلاةً كانَ أوْ صومًا- بعدَ التّلبّسِ بهِ لا يجوزُ، لأنَّ فيهِ إبطالَ العملِ وقدْ نهى اللّهُ عنهُ. وقالَ منْ أجازَ ذلكَ- وهوَ الإمامُ الشّافعيُّ وغيرهُ-: المرادُ بذلكَ إبطالُ ثوابِ العملِ المفروضِ، فنهى الرّجلَ عنْ إحباطِ ثوابهِ. فأمّا ما كانَ نفلاً فلا، لأنّهُ ليسَ واجباً عليهِ. فإنْ زعموا أنَّ اللّفظَ عامٌّ فالعامُّ يجوزُ تخصيصهُ. ووجهُ تخصيصهِ أنَّ النّفلَ تطوّعٌ، والتّطوّعُ يقتضي تخييراً

قولهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ مَاتُواْ وَهُمۡ كُفَّارٞ فَلَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَهُمۡ ٣٤﴾

بيّنَ أنَّ الاعتبارَ بالوفاةِ على الكفرِ يوجبُ الخلودُ في النّارِ.

قولهُ تعالى: ﴿فَلَا تَهِنُواْ وَتَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱلسَّلۡمِ وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمۡ وَلَن يَتِرَكُمۡ أَعۡمَـٰلَكُمۡ ٣٥﴾، فيهِ ثلاثُ مسائلَ:

الأولى: قولهُ تعالى: ﴿فَلَا تَهِنُواْ﴾ أيْ تضعفوا عنِ القتالِ. والوهنُ: الضّعفُ وقدْ وهنَ الإنسانُ ووهنهُ غيرهُ، يتعدّى ولا يتعدّى. ووهِن أيضا بالكسر وهناً أي ضعف، وقريء: «فَمَا وَهُنُوا» بضمِّ الهاءِ وكسرها.

الثانية- قولهُ تعالى: ﴿وَتَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱلسَّلۡمِ﴾ أي الصّلحَ. ﴿وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ﴾ أيْ وأنتمْ أعلمُ باللّهِ منهمْ. وقيلَ: وأنتمُ الأعلونَ في الحجّةِ. وقيلَ: المعنى وأنتمُ الغالبونَ لأنّكمْ مؤمنونَ وإنْ غلبوكمْ في الظّاهرِ في بعضِ الأحوالِ.

الثالثة- واختلفَ العلماءُ في حكمها، فقيلَ: إنّها ناسخةٌ لقولهِ تعالى: ﴿وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا﴾، لأنَّ اللّهَ تعالى منعَ منَ الميلِ إلى الصّلحِ إذا لمْ يكنْ بالمسلمينَ حاجةٌ إلى الصّلحِ. وقيلَ: منسوخةٌ بقولهِ تعالى: ﴿وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا﴾. وقيلَ: هيَ محكمةٌ. والآيتانِ نزلتا في وقتينِ مختلفِي الحالِ. وقيلَ: إنَّ قولهُ ﴿وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا﴾ مخصوصٌ في قومٍ بأعيانهِمْ، والأخرى عامّةٌ. فلا يجوزُ مهادنةُ الكفّارِ إلّا عندَ الضّرورةِ، وذلكَ إذا عجزنا عنْ مقاومتهِمْ لضعفِ المسلمينَ.

﴿وَٱللَّهُ مَعَكُمْ﴾ أيْ بالنّصرِ والمعونة، مثل ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

﴿وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ ٣٥﴾ أيْ لنْ ينقصكمْ، ومنهُ الموتورُ الّذي قتلَ لهُ قتيلٌ فلمْ يدركْ بدمهِ، تقولُ منهُ: وَتَرهُ يترهُ وَتْراً وتِرةً. ومنهُ قولهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «منْ فاتتهُ صلاةُ العصرِ فكأنّما وتِرَ أهلهُ ومالهُ» أيْ ذهبَ بهما.

وقيل: ﴿وَلَن يَتِرَكُمْ﴾ مشتقٌّ منَ الوترِ وهوَ الفردُ، فكانَ المعنى ولنْ يفردكم بغير ثواب.

قولهِ تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ تقدّمَ في الأنعامِ. ﴿وَإِن تُؤْمِنُواْ وَتَتَّقُواْ يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ﴾ شرط وجوابه. ﴿وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ ٣٦﴾ أيْ لا يأمركمْ بإخراجِ جميعها في الزّكاةِ، بلْ أمرَ بإخراجِ البعضِ، وقيل: ﴿لَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ﴾ لنفسهِ أوْ لحاجةٍ منهُ إليها، إنّما يأمركمْ بالإنفاقِ في سبيلهِ ليرجعَ ثوابهُ إليكمْ. وقيل: ﴿لَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ﴾ إنّما يسألكمْ أموالهُ، لأنّهُ المالكُ لها وهوَ المنعمُ بإعطائها. وقيلَ: ولا يسألكمْ محمّدٌ أموالكمْ أجراً على تبليغِ الرّسالةِ. نظيرهُ ﴿قُل مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ الآية.

﴿إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ﴾ يلحُّ عليكمْ ﴿تَبْخَلُواْ وَيُخْرِجْ أَضْغَٰنَكُمْ ٣٧﴾ أيْ يخرجُ البخلُ أضغانكمْ. قالَ قتادةُ: قدْ علمَ اللّهُ أنَّ في سؤالِ المالِ خروجَ الأضغانِ.

قوله تعالى: ﴿هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ﴾ أي ها أنتم هؤلاء أيها المؤمنون تدعونَ ﴿لِتُنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أيْ في الجهادِ وطريقِ الخيرِ. ﴿فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا

يَبۡخَلُ عَن نَّفۡسِهِۦۚ﴾ أيْ على نفسهِ، أيْ يمنعها الأجرَ والثّوابَ. ﴿وَٱللَّهُ ٱلۡغَنِيُّ﴾ أيْ إنّهُ ليسَ بمحتاجٍ إلى أموالكمْ. ﴿وَأَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُۚ﴾ إليهِ. ﴿وَإِن تَتَوَلَّوۡاْ يَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ﴾ أيْ أطوعَ للّهِ منكمْ. ﴿ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمۡثَٰلَكُم ٣٨﴾ في البخلِ بالإنفاقِ في سبيلِ اللّهِ.

□

سورة الفتح

سورةُ الفتحِ مدنيّةٌ بإجماعٍ، وهيَ تسعٌ وعشرونَ آيةً. ونزلتْ ليلاً بينَ مكّةَ والمدينةَ في شأنِ الحديبيةِ.

وفي الصّحيحينِ عنْ زيدِ بنِ أسلمَ عنْ أبيهِ أنَّ رسولَ اللّهِ ﷺ كانَ يسيرُ في بعضِ أسفارهِ وعمرُ بنُ الخطّابِ يسيرُ معهُ ليلاً، فسألهُ عمرُ عنْ شيءٍ فلمْ يجبهُ رسولِ اللّهِ ﷺ، ثمَّ سألهُ فلمْ يجبهُ، ثمَّ سألهُ فلمْ يجبهُ، فقالَ: عمرُ بنُ الخطّابِ: ثكلتْ أمُّ عمرَ، نزرتَ رسولُ اللّهِ ﷺ ثلاث مرّاتٍ كلَّ ذلكَ لمْ يجبكَ، فقالَ: عمرُ: فحرّكتُ بعيري ثمَّ تقدّمتُ أمامَ النّاسِ وخشيتُ أنْ ينزلَ فيَّ قرآنٌ، فما نشبتُ أنْ سمعتُ صارخًا يصرخُ بي، فقلت: لقدْ خشيتُ أنْ يكونَ نزلَ فيَّ قرآنٌ، فجئتُ رسولَ اللّهِ ﷺ فسلّمتُ عليهِ، فقالَ: «لقدْ أنزلتْ عليَّ اللّيلةَ سورةٌ لهيَ أحبُّ إليَّ ممّا طلعتْ عليهِ الشّمسُ- ثمَّ قرأَ- ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١﴾». لفظُ البخاريِّ.

وفي صحيح مسلم عنْ قتادةَ أنَّ أنسَ بنَ مالكٍ حدّثهمْ قالَ: لمّا نزلتْ ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ۝٢﴾- إلى قولهِ- ﴿فَوْزًا عَظِيمًا ۝٥﴾ مرجعهُ منَ الحديبيةِ وهمْ يخالطهمُ الحزنُ والكآبةُ، وقدْ نحرَ الهديَ بالحديبيةِ، فقالَ: «لقدْ أنزلتْ عليَّ آيةٌ هيَ أحبُّ إليَّ منَ الدّنيا جميعًا».

بسمِ اللّهِ الرّحمنِ الرّحيمِ

قولهُ تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١﴾

اختلفَ في هذا الفتحِ ما هوَ؟ ففي البخاريِّ عنْ أنسٍ أنه الحديبيةُ. وقالَ جابرٌ: ما كنّا نعدُّ فتحَ مكّةَ إلّا يومَ الحديبيةِ، والحديبيةُ بئرٌ. قالَ الزّهريُّ: لقدْ كانَ الحديبيةُ أعظمَ الفتوحِ، وذلكَ أنَّ النّبيَّ ﷺ جاءَ إليها في ألفٍ وأربعمائةٍ، فلمّا وقعَ الصّلحُ مشى النّاسُ بعضهمْ في بعضٍ وعلموا وسمعوا عنِ اللّهِ، فما أرادَ أحدٌ الإسلامَ إلّا تمكّنَ منهُ، فما مضتْ تلكَ السّتانِ

إلّا والمسلمونَ قدْ جاءوا إلى مكّةَ في عشرةِ آلافٍ.

وقيلَ: هو فتح خيبر. والأوّلُ أكثرُ، وخيبرُ إنّما كانتْ وعداً وعدوهُ، على ما يأتي بيانهُ في قولِهِ تعالى: ﴿سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ﴾، وقولهُ: ﴿وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ﴾.

وقيلَ: إنَّ قولهُ تعالى: ﴿فَتْحًا﴾ يدلُّ على أنَّ مكّةَ فتحتْ عنوةً، لأنَّ اسمَ الفتحِ لا يقعُ مطلقاً إلّا على ما فتحَ عنوةً. هذا هوَ حقيقةُ الاسمِ. وقدْ يقالُ: فتحَ البلدُ صلحاً، فلا يفهمُ الصّلحُ إلّا بأنْ يقرنَ بالفتحِ، فصارَ الفتحُ في الصّلحِ مجازاً. والأخبارُ دالّةٌ على أنّها فتحتْ عنوةً.

قولهُ تعالى: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢﴾ وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ﴿٣﴾﴾

أي لكيْ يجمعَ اللّهُ لكَ معَ الفتحِ المغفرةَ، فيجمعُ اللّهُ لكَ بِهِ ما تقرُّ بهِ عينكَ في الدّنيا والآخرةِ، ويجوزُ أنْ يكونَ فتحُ مكّةَ منْ حيثُ إنّهُ جهادٌ للعدوِّ سبباً للغفرانِ والثّوابِ. وفي التّرمذيِّ عنْ أنسٍ قالَ: أنزلتْ على النّبيِّ ﷺ ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ مرجعهُ منَ الحديبيةِ، فقالَ: النّبيُّ ﷺ: «لقدْ أنزلتْ عليَّ آيةٌ أحبُّ إليَّ ممّا على وجهِ الأرضِ». ثمَّ قرأها النّبيُّ ﷺ عليهمْ، فقالوا: هنيئا مريئا يا رسول اللّهِ، لقدْ بيّنَ اللّهُ لكَ ماذا يفعلُ بكَ، فماذا يفعلُ بنا؟ فنزلتْ عليهِ ﴿لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾- حتّى بلغَ- ﴿فَوْزًا عَظِيمًا﴾ قالَ حديثٌ حسنٌ صحيح.

واختلفَ أهلُ التّأويلِ في معنى ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ فقيلَ: ﴿مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ﴾ قبلَ الرّسالةِ. ﴿وَمَا تَأَخَّرَ﴾ بعدها، وقيلَ: ﴿مَا تَقَدَّمَ﴾ قبلَ الفتحِ. ﴿وَمَا تَأَخَّرَ﴾ بعدَ الفتحِ.

قولهُ تعالى: ﴿وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ﴾ في الجنّةِ. وقيلَ: بالنّبوّةِ والحكمةِ. وقيلَ: بفتحِ مكّةَ والطّائفِ وخيبرَ ﴿وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ أيْ يثبّتكَ على الهدى إلى أنْ يقبضكَ إليهِ. ﴿وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا﴾ أيْ غالباً منيعاً لا يتبعه ذل.

قولهُ تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ لِيَزۡدَادُوٓاْ إِيمَٰنٗا مَّعَ إِيمَٰنِهِمۡۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا ٤﴾

﴿ٱلسَّكِينَةَ﴾: السّكونُ والطّمأنينةُ. قالَ ابنُ عبّاسٍ: كلُّ سكينةٍ في القرآنِ هيَ الطّمأنينةُ إلّا الّتي في البقرةِ. ﴿لِيَزۡدَادُوٓاْ إِيمَٰنٗا مَّعَ إِيمَٰنِهِمۡۗ﴾ يقيناً معَ يقينهمْ. ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ يريدُ الملائكةَ والجنَّ والشّياطينَ والإنسَ ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا﴾ بأحوالِ خلقهِ ﴿حَكِيمٗا﴾ فيما يريده.

قولهُ تعالى: ﴿لِّيُدۡخِلَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوۡزًا عَظِيمٗا ٥﴾

أيْ أنزلَ السّكينةَ ليزدادوا إيماناً. ثمَّ تلكَ الزّيادةُ بسببِ إدخالهمُ الجنّةَ. ﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ﴾ أي ذلك الوعد من دخول مكة وغفران الذنوب. ﴿عِندَ ٱللَّهِ فَوۡزًا عَظِيمٗا﴾ أي نجاة من كل غم، وظفرا بكل مطلوب.

قولهُ تعالى: ﴿وَيُعَذِّبَ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ وَٱلۡمُشۡرِكَٰتِ﴾ أيْ بإيصالِ الهمومِ إليهمْ بسببِ علوِّ كلمةِ المسلمينَ، وبأنْ يسلّطَ النّبيَّ ﷺ قتلاً وأسراً واسترقاقاً. ﴿ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوۡءِۚ﴾ يعني ظنّهمْ أنَّ النّبيَّ ﷺ لا يرجعُ إلى المدينةِ، ولا أحدَ منْ أصحابهِ حينَ خرجَ إلى الحديبيةِ، وأنَّ المشركينَ يستأصلونهمْ. كما قالَ: ﴿بَلۡ ظَنَنتُمۡ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهۡلِيهِمۡ أَبَدٗا﴾. ﴿عَلَيۡهِمۡ دَآئِرَةُ ٱلسَّوۡءِۖ﴾ في الدّنيا بالقتلِ والسّبي والأسرِ، وفي الآخرةِ جهنّمُ. وقرأ ابنُ كثيرٍ وأبو عمرو «دائِرَةُ السُوْءِ» بالضّمِّ. وفتحَ الباقونَ. ﴿وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ وَلَعَنَهُمۡ وَأَعَدَّ لَهُمۡ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرٗا ٦ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ٧﴾ والمرادُ في الموضعينِ التّخويفُ والتّهديدُ. فلوْ أرادَ إهلاكَ المنافقينَ والمشركينَ لمْ يعجزهُ ذلكَ، ولكنْ يؤخّرهمْ إلى أجل مسمى.

قولهُ تعالى: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا﴾ على أمّتكَ، فهوَ شاهدُ أفعالهمُ اليومَ، والشّهيدُ عليهمْ يومَ القيامةِ. ﴿وَمُبَشِّرٗا﴾ لمنْ أطاعهُ بالجنّةِ. ﴿وَنَذِيرٗا ٨﴾ منَ النّارِ لمنْ عصى.

قولهُ تعالى: ﴿لِتُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ قرأَ ابنُ كثيرٍ وأبو عمرو «لِيُؤْمِنُوا» بالياءِ، وكذلكَ «يُعَزِّرُوهُ وَيُوَقِّرُوهُ وَيُسَبِّحُوهُ» كلّهُ بالياءِ على الخبرِ. الباقونَ بالتّاءِ على الخطابِ. ﴿وَتُعَزِّرُوهُ﴾ أيْ تعظّموهُ وتفخّموهُ، وقيلَ: تنصروهُ وتمنعوا منهُ. ومنهُ التّعزيرُ في الحدِّ. لأنّهُ مانعٌ. ﴿وَتُوَقِّرُوهُ﴾ أيْ تسوّدوهُ وتعظّموهُ. والتّوقيرُ: التّعظيمُ والتّرزينُ أيضـًا. والهاءُ فيهما للنّبيِّ ﷺ. وهنا وقفٌ تامٌّ، ثمَّ تبتدئُ ﴿وَتُسَبِّحُوهُ﴾ أيْ تسبّحوا اللّهَ ﴿بُكۡرَةٗ وَأَصِيلًا ٩﴾ أيْ عشيـًا. وقيلَ: الضّمائرُ كلّها للّهِ تعالى، فعلى هذا يكونُ تأويلُ ﴿تُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ﴾ أيْ تثبتوا لهُ صحّةَ الرّبوبيّةِ وتنفوا عنهُ أنْ يكونَ لهُ ولدٌ أوْ شريكٌ.

وفي ﴿تُسَبِّحُوهُ﴾ وجهان:

أحدهما- تسبيحهُ بالتّنزيهِ لهُ سبحانهُ منْ كلِّ قبيحٍ.

و**الثّاني**- هوَ فعلُ الصّلاةِ الّتي فيها التّسبيحُ.

﴿بُكۡرَةٗ وَأَصِيلًا﴾ أيْ غدوةً وعشيـًا. وقدْ مضى القول فيه.

قولهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ﴾ بالحديبيةِ يا محمّدُ. ﴿إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾ بيّنَ أنَّ بيعتهمْ لنبيّهِ ﷺ إنّما هيَ بيعةُ اللّهِ، كما قالَ تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾. وهذهِ المبايعةُ هيَ بيعةُ الرّضوانِ، على ما يأتي بيانها في هذهِ السّورةِ إنْ شاءَ اللّهُ تعالى. ﴿يَدُ ٱللَّهِ فَوۡقَ أَيۡدِيهِمۡ﴾ قوّةُ اللّهِ ونصرتهُ فوقَ قوّتهمْ ونصرتهمْ. ﴿فَمَن نَّكَثَ﴾ بعدَ البيعةِ. ﴿فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦ﴾ أيْ يرجعُ ضررَ النّكثِ عليهِ، لأنّهُ حرمَ نفسهُ الثّوابَ وألزمها العقابَ. ﴿وَمَنۡ أَوۡفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيۡهُ ٱللَّهَ﴾ قيلَ في البيعةِ. وقيلَ في إيمانهِ. ﴿فَسَيُؤۡتِيهِ أَجۡرًا عَظِيمٗا ١٠﴾ يعني في الجنّةِ.

وقرأَ حفصٌ ﴿عَلَيۡهُ﴾ بضمِّ الهاءِ، وجرّها الباقونَ، وقرأ نافعٌ وابنُ كثيرٍ وابنُ عامرٍ «فَسَنُؤْتِيهِ» بالنّونِ، وقرأ الباقونَ بالياءِ.

قولهُ تعالى: ﴿سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ﴾ يعني أعرابَ غفارٍ ومزينةَ وجهينةَ وأسلمَ الّذينَ كانوا حولَ المدينةِ، تخلّفوا عنْ رسولِ اللّهِ ﷺ حينَ أرادَ السّفرَ إلى مكّةَ عامَ الفتحِ، بعدَ أنْ كانَ استنفرهمْ ليخرجوا معهُ حذراً منْ قريشٍ، وأحرمَ بعمرةٍ وساقَ معهُ الهديَ، ليعلمَ النّاسُ أنّهُ لا يريدُ حرباً فتثاقلوا عنهُ واعتلّوا بالشّغلِ، فنزلتْ. وإنّما قالَ: ﴿ٱلْمُخَلَّفُونَ﴾ لأنَّ اللّهَ خلّفهمْ عنْ صحبةِ نبيّهِ. والمخلّفُ المتروكُ. وقد مضى في براءة.

﴿شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا﴾ أيْ ليسَ لنا منْ يقومُ بهما. ﴿فَٱسْتَغْفِرْ لَنَاۚ﴾ جاءوا يطلبونَ الاستغفارَ واعتقادهمْ بخلافِ ظاهرهمْ، ففضحهمُ اللّهُ تعالى بقولهِ: ﴿يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْۚ﴾ وهذا هوَ النّفاقُ المحضُ. ﴿قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا﴾ قرأَ حمزةُ والكسائيُّ: «ضُرّاً» بضمِّ الضّادِ هنا فقطْ، أيْ أمراً يضرّكمْ. الباقونَ بالفتحِ، وهوَ مصدرُ ضررتهُ ضراً. وبالضّمِّ اسمٌ لما ينالُ الإنسانُ منَ الهزالِ وسوءِ الحالِ، وقيلَ: هما لغتانِ بمعنى، كالفقرِ والفقرِ والضّعفِ والضّعفِ. ﴿أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًاۚ﴾ أيْ نصراً وغنيمةً. وهذا ردٌّ عليهمْ حينَ ظنّوا أنَّ التّخلّفَ عنِ الرّسولِ يدفع عنهم الضر ويعجل لهم النفع.

قولهُ تعالى: ﴿بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا﴾ وذلك أنّهمْ قالوا: إنَّ محمّداً وأصحابهُ أكلةُ رأسٍ لا يرجعونَ. ﴿وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ﴾ أيِ النّفاقُ. ﴿فِي قُلُوبِكُمْ﴾ وهذا التّزيينُ منَ الشّيطانِ، أوْ يخلقُ اللّهُ ذلكَ في قلوبهمْ. ﴿وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ﴾ أنَّ اللّهَ لا ينصرُ رسولهُ. ﴿وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٢﴾﴾ أيْ هلكى، وقيلَ: البورُ: الرّجلُ الفاسدُ الهالكُ الّذي لا خيرَ فيهِ.

قولهُ تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَعِيرًا ﴿١٣﴾﴾

وعيدٌ لهمْ، وبيانٌ أنّهمْ كفروا بالنفاق.

قولهُ تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٤﴾﴾

أيْ هوَ غنيٌّ عنْ عبادهِ، وإنّما ابتلاهمْ بالتّكليفِ ليثيبَ منْ آمنَ ويعاقبَ منْ كفرَ وعصى.

قولهُ تعالى: ﴿سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا﴾ يعني مغانمَ خيبرَ، لأنَّ اللّهَ عزَّ وجلَّ وعدَ أهلَ الحديبيةِ فتحَ خيبرَ، وأنّها لهمْ خاصّةً منْ غابَ منهمْ ومنْ حضرَ. ولمْ يغبْ منهمْ عنها غيرُ جابرِ بنِ عبدِ اللّهِ فقسمَ لهُ رسولُ اللّهِ ﷺ كسهمِ منْ حضرَ. ﴿ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْۖ﴾ أيْ دعونا. تقولُ: ذرهُ، أيْ دعهُ. تخلّفوا عنِ الخروجِ إلى مكّةَ، فلمّا خرجَ النّبيُّ ﷺ وأخذ قوما ووجّهَ بهمْ قالوا اذرونا نتّبعكمْ فنقاتلْ معكمْ. ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُواْ كَلَٰمَ ٱللَّهِۚ﴾ أيْ يغيّروا وعدَ اللّهِ الّذي وعدَ لأهلِ الحديبيةِ، وذلكَ أنَّ اللّهَ تعالى جعلَ لهمْ غنائمَ خيبرَ عوضًا عنْ فتحِ مكّةَ إذْ رجعوا منَ الحديبيةِ على صلحٍ.

وقرأَ حمزةُ والكسائيُّ: «كَلِمَ» بإسقاطِ الألفِ وكسرِ اللّامِ جمعُ كلمةٍ، نحوَ سلمة وسَلِمَ. الباقونَ ﴿كَلَٰمَ﴾ على المصدرِ. والكلامُ: ما استقلَّ بنفسهِ منَ الجملِ، والكلامُ اسمُ جنسٍ يقعُ على القليلِ والكثيرِ. والكلِمُ لا يكونُ أقلَّ منْ ثلاثِ كلماتٍ لأنّهُ جمعُ كلمةٍ، مثلُ نبقةٍ ونبقٍ. ﴿كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُۖ﴾ أيْ منْ قبلِ رجوعنا منَ الحديبيةِ إنَّ غنيمةَ خيبرَ لمنْ شهدَ الحديبيةَ خاصّةً. ﴿فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَاۚ﴾ أنْ نصيبَ معكمْ منَ الغنائمِ. فقال الله تعالى ﴿بَلْ كَانُواْ لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥﴾﴾ يعني لا يعلمونَ إلّا أمرَ الدّنيا. وقيلَ: لا يفقهونَ منْ أمرِ الدّينِ إلّا قليلاً، وهوَ تركُ القتالِ.

قولهُ تعالى: ﴿قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَۖ فَإِن تُطِيعُواْ يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ أَجْرًا حَسَنًاۖ وَإِن تَتَوَلَّوْاْ كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦﴾﴾، فيهِ أربعُ مسائلَ:

الأولى: قولهُ تعالى: ﴿قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ﴾ الّذينَ تخلّفوا عنِ الحديبيةِ. ﴿سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ فارسُ والرّومُ. وقيلَ: هوازنُ وثقيفٌ. وقيلَ: هوازنُ وغطفانُ يومَ حنينٍ. وقيلَ: بنو حنيفةَ أهلُ اليمامةِ أصحابُ مسيلمةَ.

الثانية - في هذهِ الآيةِ دليلٌ على صحّةِ إمامةِ أبي بكرٍ وعمرَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، لأنَّ أبا بكرٍ دعاهمْ إلى قتالِ بني حنيفةَ، وعمرَ دعاهمْ إلى قتالِ فارسَ والرّومِ، ومعلومٌ أنّهُ لمْ يدعُ هؤلاءِ القومَ بعدَ النّبيِّ ﷺ إلّا أبو بكرٍ وعمرُ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا.

الثالثة- قولهُ تعالى: ﴿تُقَٰتِلُونَهُمۡ أَوۡ يُسۡلِمُونَۖ﴾ هذا حكمُ منْ لا تؤخذُ منهمُ الجزيةُ، وهوَ معطوفٌ على ﴿تُقَٰتِلُونَهُمۡ﴾ أيْ يكونُ أحدُ الأمرينِ، إمّا المقاتلةُ وإمّا الإسلامُ، لا ثالثَ لهما، وهذا في قتالِ المشركينَ لا في أهلِ الكتابِ.

الرابعة- قولهُ تعالى: ﴿فَإِن تُطِيعُواْ يُؤۡتِكُمُ ٱللَّهُ أَجۡرًا حَسَنٗاۖ﴾ الغنيمةَ والنّصرَ في الدّنيا، والجنّةَ في الآخرةِ. ﴿وَإِن تَتَوَلَّوۡاْ كَمَا تَوَلَّيۡتُم مِّن قَبۡلُ﴾ عامَ الحديبيةِ. ﴿يُعَذِّبۡكُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا ١٦﴾ وهو عذاب النار.

قولهُ تعالى: ﴿لَّيۡسَ عَلَى ٱلۡأَعۡمَىٰ حَرَجٞ وَلَا عَلَى ٱلۡأَعۡرَجِ حَرَجٞ وَلَا عَلَى ٱلۡمَرِيضِ حَرَجٞۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدۡخِلۡهُ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبۡهُ عَذَابًا أَلِيمٗا ١٧﴾

أيْ لا إثمَ عليهمْ في التّخلّفِ عنِ الجهادِ لعماهمْ وزمانتهمْ وضعفهمْ. وهمْ أهل الزمانة الّذينَ تخلّفوا عنِ الحديبيةِ وقدْ عذرهمْ. أيْ منْ شاءَ أنْ يسيرَ منهمْ معكمْ إلى خيبرَ فليفعلْ. ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ فيما أمرهُ. ﴿يُدۡخِلۡهُ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ قرأَ نافعٌ وابنُ عامرٍ «نُدْخِلْهُ» بالنّونِ على التّعظيمِ. الباقونَ بالياءِ. ﴿وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبۡهُ عَذَابًا أَلِيمٗا ١٧﴾.

قولهُ تعالى: ﴿۞لَّقَدۡ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذۡ يُبَايِعُونَكَ تَحۡتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ هذهِ بيعةُ الرّضوانِ، وكانتْ بالحديبيةِ، وهذا خبرُ الحديبيةِ على اختصارٍ: وذلكَ أنَّ النّبيَّ ﷺ أقامَ منصرفهُ منْ غزوةِ بني المصطلقِ في شوّالٍ، وخرجَ في ذي القعدةِ معتمراً، واستنفرَ الأعرابَ الّذينَ حولَ المدينةِ فأبطأَ عنهُ أكثرهمْ، وخرجَ النّبيُّ ﷺ بمنْ معهُ منَ المهاجرينَ والأنصارِ ومنِ اتّبعهُ منَ العربِ، وجميعهمْ نحوُ ألفٍ وأربعمائةٍ. وساقَ معهُ الهديَ، فأحرمَ رسولُ اللّهِ ﷺ ليعلمَ النّاسُ أنّهُ لمْ يخرجْ لحربٍ، فلمّا بلغَ خروجهُ قريشاً خرجَ جمعهمْ صادّينَ لرسولِ اللّهِ ﷺ عنْ المسجدِ الحرامِ ودخولِ مكّةَ، وإنّهُ إنْ قاتلهمْ قاتلوهُ دونَ ذلكَ، وقدّموا خالدَ بنَ الوليدِ في خيلٍ إلى كراعِ الغميمِ فوردَ الخبرُ بذلكَ على رسولِ اللّهِ ﷺ وهوَ بعسفانَ، فسلكَ طريقاً يخرجُ بهِ في ظهورهمْ، وخرجَ إلى الحديبيةِ منْ أسفلِ مكّةَ، وكانَ دليلهُ فيهمْ رجلٌ منْ أسلمَ، فلمّا بلغَ ذلكَ خيلَ قريشٍ الّتي معَ خالد، جرت إلى قريش تعلمهم بذلك، فلمّا وصلَ رسولُ اللّهِ ﷺ إلى الحديبيةِ بركتْ ناقتهُ ﷺ فقالَ: النّاسُ: خلأتْ! خلأتْ!

فقالَ: النّبيُّ ﷺ: «ما خلأتْ وما هوَ لها بخلقٍ ولكنْ حبسها حابسُ الفيل عنْ مكّةَ، لا تدعوني قريشٌ اليومَ إلى خطّةٍ يسألوني فيها صلةَ رحمٍ إلّا أعطيتهمْ إيّاها». ثمَّ نزلَ ﷺ هناكَ، فقيلَ: يا رسولَ اللّهِ، ليسَ بهذا الوادي ماءٌ! فأخرجَ ﷺ سهمًا منْ كنانتهِ فأعطاهُ رجلاً منْ أصحابهِ، فنزلَ في قليبٍ منْ تلكَ القلبِ فغرزهُ في جوفهِ فجاشَ بالماءِ الرّوّاءِ حتّى كفى جميعَ الجيشِ.

ثمَّ جرتِ السّفراءُ بينَ رسولِ اللّهِ ﷺ وبينَ كفّارِ قريشٍ، وطالَ التّراجعُ والتّنازعُ إلى أن جاءه سهيلُ بنُ عمرو العامريُّ، فقاضاهُ على أنْ ينصرفَ ﷺ عامهُ ذلكَ، فإذا كانَ منْ قابلٍ أتى معتمراً ودخلَ هوَ وأصحابهُ مكّةَ بغيرِ سلاحٍ، حاشا السّيوفِ في قربها فيقيمُ بها ثلاثًا ويخرجُ، وعلى أنْ يكونَ بينهُ وبينهمْ صلحٌ عشرةَ أعوامٍ، يتداخلُ فيها النّاسُ ويأمنُ بعضهمْ بعضًا، وعلى أنَّ منْ جاءَ منَ الكفّارِ إلى المسلمينَ مسلمًا منْ رجلٍ أوِ امرأةٍ ردَّ إلى الكفّارِ، ومنْ جاءَ منَ المسلمينَ إلى الكفّارِ مرتداً لمْ يردّوهُ إلى المسلمينَ، فعظمَ ذلكَ على المسلمينَ حتّى كانَ لبعضهمْ فيهِ كلامٌ، وكانَ رسولُ اللّهِ ﷺ أعلمُ بما علّمهُ اللّهُ منْ أنّهُ سيجعلُ للمسلمينَ فرجًا، فقالَ لأصحابهِ: «اصبروا فإنَّ اللّهَ يجعلُ هذا الصّلحَ سببًا إلى ظهورِ دينهِ» فأنسَ النّاسُ إلى قولهِ هذا بعدَ نفارٍ منهمْ، وأبى سهيلُ بنُ عمرو أنْ يكتبَ في صدرِ صحيفةِ الصّلحِ: منْ محمّدٍ رسولِ اللّهِ، وقالوا لهُ: لوْ صدّقناكَ بذلكَ ما دفعناكَ عمّا تريدُ! فلا بدَّ أنْ تكتبَ: باسمكَ اللّهمَّ. فقالَ: لعليٍّ وكانَ يكتبُ صحيفةَ الصّلحِ: «امحُ يا عليُّ، واكتبْ باسمكَ اللّهمَّ» فأبى عليٌّ أنْ يمحوَ بيدهِ «محمّدٌ رسولُ اللّهِ». فقالَ: لهُ رسولُ اللّهِ ﷺ: «اعرضهُ عليَّ» فأشارَ إليهِ فمحاهُ رسولُ اللّهِ ﷺ بيدهِ، وأمرهُ أن يكتبَ «منْ محمّدِ بنِ عبدِ اللّهِ». وأتى أبو جندلِ بنُ سهيلٍ يومئذٍ بإثرِ كتابِ الصّلحِ وهوَ يرسفُ في قيودهِ، فردّهُ رسولُ اللّهِ ﷺ إلى أبيهِ، فعظمَ ذلكَ على المسلمينَ، فأخبرهمْ رسولُ اللّهِ ﷺ وأخبرَ أبا جندلٍ «أنَّ اللّهَ سيجعلُ لهُ فرجًا ومخرجًا». وكانَ رسولُ اللّهِ ﷺ قبلَ الصّلحِ قدْ بعثَ عثمانَ بنَ عفّانَ إلى مكّةَ رسولاً، فجاءَ خبرٌ إلى رسولِ اللّهِ ﷺ بأنَّ أهلَ مكّةَ قتلوهُ، فدعا رسولُ اللّهِ ﷺ حينئذٍ إلى المبايعةِ لهُ على الحربِ والقتالِ لأهلِ مكّةَ، فرويَ أنّهُ بايعهمْ على الموتِ. ورويَ أنّهُ بايعهمْ على ألّا يفرّوا. وهيَ بيعةُ الرّضوانِ تحتَ الشّجرةِ، الّتي أخبرَ اللّهُ تعالى أنّهُ رضيَ عنِ المبايعينَ لرسولِ اللّهِ ﷺ تحتها. وأخبرَ رسولِ اللّهِ ﷺ إنّهمْ لا يدخلونَ النّارَ. وضربَ رسولُ اللّهِ ﷺ بيمينه على شمالهِ لعثمانَ، فهوَ كمنْ شهدها.

وفي صحيحِ مسلمٍ عنْ جابرٍ قالَ: كنّا يومَ الحديبيةِ ألفـًا وأربعمائةٍ، فبايعناهُ وعمرُ آخذٌ بيدِهِ تحتَ الشّجرةِ وهيَ سمرةٌ، وقالَ: بايعناهُ على ألّا نفرَّ ولمْ نبايعهُ على الموتِ.

وعنِ البراءِ بنِ عازبٍ قالَ: كتبَ عليٌّ رضي الله عنه الصّلحَ بينَ النّبيِّ ﷺ وبينَ المشركينَ يومَ الحديبيةِ، فكتبَ: هذا ما كاتبَ عليهِ محمّدٌ رسولُ اللّهِ ﷺ فقالوا: لا تكتبْ رسولَ اللّهِ، فلوْ نعلمُ أنّكَ رسولُ اللّهِ لمْ نقاتلكَ. فقالَ: النّبيُّ ﷺ لعليٍّ: «امحهُ». فقالَ: ما أنا بالّذي أمحاهُ، فمحاهُ النّبيُّ ﷺ بيدِهِ. وكانَ فيما اشترطوا: أنْ يدخلوا مكّةَ فيقيموا فيها ثلاثـًا، ولا يدخلها بسلاحٍ إلّا جلبّانُ السّلاحِ، القرابُ وما فيهِ.

وعنْ أنسٍ: أنَّ قريشـًا صالحوا النّبيَّ ﷺ فيهمْ سهيلُ بنُ عمرو، فقالَ: النّبيُّ ﷺ لعليٍّ: «اكتبْ بسمِ اللّهِ الرّحمنِ الرّحيمِ» فقالَ سهيلُ بن عمرو: أما باسمِ اللّهِ، فما ندري ما بسمِ اللّهِ الرّحمنِ الرّحيمِ! ولكنِ اكتبْ ما نعرفُ: باسمكَ اللّهمَّ. فقالَ: «اكتبْ منْ محمّدٍ رسولِ اللّهِ» قالوا: لوْ علمنا أنّكَ رسولهُ لاتّبعناكَ! ولكنِ اكتبَ اسمكَ واسمَ أبيكَ. فقالَ: النّبيُّ ﷺ: «اكتبْ منْ محمّدِ بنِ عبدِ اللّهِ» فاشترطوا على النّبيِّ ﷺ: أنْ منْ جاءَ منكمْ لمْ نردّهُ عليكمْ، ومنْ جاءكمْ منّا رددتموهُ علينا. فقالوا: يا رسولَ اللّهِ، أنكتبُ هذا! قالَ: «نعمْ إنّهُ منْ ذهبَ منّا إليهمْ فأبعدهُ اللّهُ ومنْ جاءنا منهمْ فسيجعلُ اللّهُ لهُ فرجـًا ومخرجـًا».

وعنْ أبي وائلٍ قالَ: قامَ سهلُ بنُ حنيفٍ يومَ صفّينَ فقالَ: يا أيّها النّاسُ، اتّهموا أنفسكمْ، لقدْ كنّا معَ رسولِ اللّهِ ﷺ يومَ الحديبيةِ ولوْ نرى قتالاً لقاتلنا، وذلكَ في الصّلحِ الّذي كانَ بينَ رسولِ اللّهِ ﷺ وبينَ المشركينَ. فجاءَ عمرُ بنُ الخطّابِ – رضي الله عنه – فأتى رسولَ اللّهِ ﷺ فقالَ: يا رسولَ اللّهِ، ألسنا على حقٍّ وهمْ على باطلٍ؟ قالَ: «بلى» قالَ. أليسَ قتلانا في الجنّةِ وقتلاهمْ في النّارِ؟ قالَ: «بلى» قالَ ففيمَ نعطي الدّنيّةَ في ديننا ونرجعُ ولمّا يحكمُ اللّهُ بيننا وبينهمْ؟ فقالَ «يا بنَ الخطّابِ إنّي رسولُ اللّهِ ولنْ يضيّعني اللّهُ أبداً» قالَ: فانطلقَ عمرُ، فلمْ يصبرْ متغيّظـًا فأتى أبا بكرٍ فقالَ: يا أبا بكرٍ، ألسنا على حقٍّ وهمْ على باطلٍ؟ قالَ بلى، قالَ: أليسَ قتلانا في الجنّةِ وقتلاهمْ في النّارِ؟ قالَ بلى. قالَ: فعلامَ نعطي الدّنيّةَ في ديننا ونرجعُ ولمّا يحكمُ اللّهُ بيننا وبينهمْ؟ فقالَ: يا بنَ الخطّابِ، إنّهُ رسولُ اللّهِ ولنْ يضيّعهُ اللّهُ أبداً. قالَ: فنزلَ القرآن على رسول الله ﷺ بالفتحِ، فأرسلَ إلى عمرَ فأقرأه إياه، فقال: يا رسول الله، أو فتح

هوَ؟ قالَ: «نعمْ». فطابتْ نفسهُ ورجعَ.

قولهُ تعالى: ﴿فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ منَ الصّدقِ والوفاءِ، وقيلَ: منْ كراهةِ البيعةِ على أنْ يقاتلوا معهُ على الموتِ. ﴿فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ﴾ حتّى بايعوا وقيلَ: ﴿فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ منَ الكآبةِ بصدِّ المشركينَ إيّاهمْ وتخلّفِ رؤيا النبيِّ ﷺ عنهم، إذا رأى أنّهُ يدخلُ الكعبةَ، حتّى قالَ رسولُ اللّهِ ﷺ: «إنّما ذلكَ رؤيا منام». وقالَ الصّدّيقُ: لمْ يكنْ فيها الدّخولُ في هذا العامِ. والسّكينةُ: الطّمأنينةُ وسكونُ النّفسِ إلى صدقِ الوعدِ. وقيلَ الصّبرُ. ﴿وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ١٨﴾ فتح خيبر، وقيل فتح مكة. ﴿وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا﴾ يعني أموالَ خيبرَ، وكانتْ خيبرُ ذاتَ عقارٍ وأموالٍ، وكانتْ بينَ الحديبيةِ ومكّةَ. فَـ﴿مَغَانِمَ﴾ على هذا بدلٌ منْ ﴿فَتْحًا قَرِيبًا﴾ والواوُ مقحمةٌ. وقيلَ: ﴿وَمَغَانِمَ﴾ فارس والروم.

قولهُ تعالى: ﴿وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا﴾ إلى يومِ القيامةِ. ﴿فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ﴾ أيْ خيبرَ، وقيلَ: عجّلَ لكمْ صلحَ الحديبيةِ. ﴿وَكَفَّ أَيْدِيَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ﴾ يعني أهلَ مكّةَ، كفّهمْ عنكمْ بالصّلحِ. وكفَّ أيدي اليهودِ عنِ المدينةِ بعدَ خروجِ النّبيِّ ﷺ إلى الحديبيةِ وخيبرَ. ﴿وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ أيْ ولتكونَ هزيمتهمْ وسلامتكمْ آيةً للمؤمنينَ، فيعلموا أنَّ اللّهَ يحرسهمْ في مشهدهمْ ومغيبهمْ. وقيلَ: أي ولتكون كفُّ أيديهمْ عنكمْ آيةً للمؤمنينَ. وقيلَ: أيْ ولتكونَ هذهِ الّتي عجّلها لكمْ آيةً للمؤمنينَ على صدقكَ حيثُ وعدتهمْ أنْ يصيبوها. ﴿وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ٢٠﴾ أيْ يزيدكمْ هدى، أوْ يثبّتكمْ على الهداية.

قولهُ تعالى: ﴿وَأُخْرَىٰ﴾ أيْ مغانمَ أخرى ﴿لَمْ تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا﴾ وهيَ الفتوحُ الّتي فتحتْ على المسلمينَ، كفارسَ والرّومِ وجميعِ ما فتحهُ المسلمونَ وما يكونُ إلى يومِ القيامةِ. ﴿قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا﴾ أيْ أعدّها لكمْ ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ٢١﴾.

قولهُ تعالى: ﴿وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوَلَّوُا۟ ٱلْأَدْبَٰرَ﴾ يعني كفّارَ قريشٍ في الحديبيةِ. وقيلَ: ﴿وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ﴾ غطفانُ وأسدٌ والّذينَ أرادوا نصرةَ أهلِ خيبرَ، لكانتِ الدّائرةُ عليهمْ. ﴿ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ٢٢ سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ﴾ يعني طريقة الله وعادته السّالفةُ نصرُ أوليائهِ على أعدائهِ. ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ٢٣﴾.

قولهُ تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ﴾ وهيَ الحديبيةُ. ﴿مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ٢٤﴾.

قالَ الماورديُّ: وفي قولِهِ﴿مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ۚ﴾ بفتح مكة. تكون هذهِ نزلتْ بعدَ فتحِ مكّةَ، وفيها دليلٌ على أنَّ مكّةَ فتحتْ صلحـًا، لقولهِ عزَّ وجلَّ: ﴿كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم﴾.

قلتُ: الصّحيحُ أنَّ هذهِ الآيةَ نزلتْ في الحديبيةِ قبلَ فتحِ مكّةَ، حسبَ ما قدّمناهُ عنْ أهلِ التّأويلِ منَ الصّحابةِ والتّابعينَ. وروى التّرمذيُّ عنْ أنسٍ: أنَّ ثمانينَ هبطوا على رسولِ اللّهِ ﷺ وأصحابهِ منْ جبلِ التّنعيم عندَ صلاةِ الصّبحِ وهمْ يريدونَ أنْ يقتلوهُ، فأخذوا أخذاً فأعتقهمْ رسولُ اللّهِ ﷺ، فأنزلَ اللّهُ تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم﴾ الآيةَ. قالَ أبو عيسى: هذا حديثٌ حسنٌ صحيحٌ،

﴿بِبَطْنِ مَكَّةَ﴾ فيهِ قولانِ: **أحدهما**- يريدُ بهِ مكّةَ. **الثّاني**- الحديبيةَ، لأنَّ بعضها مضافٌ إلى الحرمِ.

قولهُ تعالى: ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ ۚ﴾، فيهِ ثلاثُ مسائلَ:

الأولى: قولهُ تعالى: ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ يعني قريشـًا، منعوكمْ دخولَ المسجدِ الحرامِ عامَ الحديبيةِ حينَ أحرمَ النّبيُّ ﷺ معَ أصحابهِ بعمرةٍ، ومنعوا الهديَ وحبسوهُ عنْ أنْ يبلغَ محلّهُ. وهذا كانوا لا يعتقدونهُ، ولكنّهُ حملتهمُ الأنفةُ ودعتهمْ حميّةُ الجاهليّةِ إلى أنْ يفعلوا ما لا يعتقدونهُ دينـًا، فوبّخهمُ اللّهُ على ذلكَ وتوعّدهمْ عليهِ، وأدخلَ الأنسَ على رسولِ اللّهِ ﷺ ببيانهِ ووعدهِ.

الثانية- قولهُ تعالى: ﴿وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا﴾ أيْ محبوسـًا، ومنهُ الاعتكافُ في المسجدِ وهوَ الاحتباسُ. ﴿أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ ۚ﴾ أيْ منحرهُ، وقالَ الشّافعيُّ: الحرمُ. وكذا قالَ أبو حنيفةَ المحصرُ محلُّ هديهِ الحرمُ. والمحِلُّ بكسرِ الحاءِ: غايةُ الشّيءِ، وبالفتحِ: هوَ الموضعُ الّذي يحلّهُ النّاسُ. وكانَ الهديُ سبعينَ بدنةً، ولكنَّ اللّهَ بفضلهِ جعلَ ذلكَ الموضعَ لهُ محلاً. وقدِ

اختلفَ العلماءُ في هذا على ما تقدّمَ بيانهُ في البقرةِ عندَ قولهِ تعالى: ﴿فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ﴾ والصّحيحُ ما ذكرناهُ. وفي صحيحِ مسلم عن جابر بن عبدِ اللّهِ قالَ: نحرنا معَ رسولِ اللّهِﷺ عامَ الحديبيةِ البدنةَ عنْ سبعةٍ، والبقرةَ عنْ سبعةٍ.

وفي البخاريِّ عنِ ابنِ عمرَ قالَ: خرجنا معَ رسولِ اللّهِﷺ معتمرينَ، فحالَ كفّارُ قريشٍ دونَ البيتِ، فنحرَ رسولُ اللّهِ ﷺ بدنةً وحلقَ رأسهُ.، وأمرَ المسلمينَ أنْ ينحروا ويحلّوا، ففعلوا بعدَ توقّفٍ كانَ منهمْ أغضبَ رسولَ اللّهِﷺ. فقالتْ لهُ أمُّ سلمةَ: لوْ نحرتَ لنحروا، فنحرَ رسولُ اللّهِﷺ هديهُ ونحروا بنحرهِ، وحلقَ رسولُ اللّهِﷺ رأسهُ ودعا للمحلّقينَ ثلاثًا وللمقصّرينَ مرّةً. ورأى كعبَ بنَ عجرةَ والقملُ يسقطُ على وجههِ، فقالَ: «أيؤذيكَ هوامّكَ» ؟ قالَ نعمْ، فأمرهُ أنْ يحلقَ وهوَ بالحديبيةَ. خرّجهُ البخاريُّ.

الثالثة- قولهُ تعالى: ﴿وَٱلْهَدْىَ﴾ الهديُ والهدِيُّ لغتان. وقريء: «حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ» بالتّخفيفِ والتّشديدِ، الواحدةُ هديّةٌ.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍۖ﴾، فيهِ ثلاثُ مسائلَ:

الأولى: قولهُ تعالى: ﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ﴾ يعني المستضعفينَ منَ المؤمنينَ بمكّةَ وسطَ الكفّارِ، كسلمةَبنِ هشام وعيّاشِ بنِ أبي ربيعةَ وأبي جندلِ بنِ سهيل، وأشباههمْ. ﴿لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ﴾ أيْ تعرفوهمْ. وقيلَ لمْ تعلموهمْ أنّهمْ مؤمنونَ. ﴿أَن تَطَـُٔوهُمْ﴾ بالقتلِ والإيقاعِ بهمْ، يقالُ: وطئتُ القومَ، أيْ أوقعت بهم.

وقيلَ: لولا منْ في أصلابِ الكفّارِ وأرحامِ نسائهمْ منْ رجالٍ مؤمنينَ ونساءٍ مؤمناتٍ لمْ تعلموا أنْ تطؤوا آباءهمْ فتهلكُ أبناؤهمْ.

وهذا ضعيفٌ، لأنَّ منْ في الصّلبِ أوْ في البطنِ لا يوطأُ ولا تصيبُ منهُ معرة. وهو سبحانه قد صرح فقال: ﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ﴾ وذلكَ لا ينطلقُ على منْ في بطنِ المرأةِ وصلبِ الرّجالِ، وإنّما ينطلقُ على مثلِ الوليدَ بنَ الوليدِ، وسلمةَ بنَ هشامٍ، وعيّاشَ بنِ أبي ربيعةَ، وأبي جندلِ بنِ سهيلٍ.

الثانية- قولهُ تعالى: ﴿فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍۖ﴾ المعرّةُ العيبُ، وهيَ مفعلةٌ منَ العرِّ وهوَ الجربُ، أيْ يقولُ المشركونَ: قدْ قتلوا أهلَ دينهمْ. وقيلَ: المعنى يصيبكمْ منْ قتلهمْ ما يلزمكمْ منْ أجلهِ كفّارةُ قتلِ الخطأِ، لأنَّ اللّهَ تعالى إنّما أوجبَ على قاتلِ المؤمنِ في دارِ الحربِ إذا لمْ يكنْ هاجرَ منها ولمْ يعلمْ بإيمانهِ الكفّارةَ دونَ الدّيةِ في قولهِ: ﴿فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍۖ﴾.

الثالثة- قولهُ تعالى: ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍۖ﴾ تفضيلٌ للصّحابةِ وإخبارٌ عنْ صفتهمُ الكريمةِ منَ العفّةِ عنِ المعصيةِ والعصمةِ عنِ التّعدّي، حتّى لوْ أنّهمْ أصابوا منْ ذلكَ أحداً لكانَ عنْ غيرِ قصدٍ. وهذا كما وصفتِ النّملةُ عنْ جندِ سليمانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ في قولها: ﴿لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾.

قولهُ تعالى: ﴿لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۚ لَوْ تَزَيَّلُوا۟﴾ فيهِ أربعُ مسائلَ:

الأولى: قولهُ تعالى: ﴿لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۚ﴾ اللّامُ في ﴿لِّيُدْخِلَ﴾ متعلّقةٌ بمحذوفٍ، أيْ لوْ قتلتموهمْ لأدخلهمُ اللّهُ في رحمتهِ. ويجوزُ أنْ تتعلّقَ بالإيمانِ.

الثانية- قولهُ تعالى: ﴿لَوْ تَزَيَّلُوا۟﴾ أيْ تميّزوا عنِ الكفّارِ لعذّبَ الكفّارُ بالسّيفِ.

الثالثة- هذهِ الآيةُ دليلٌ على مراعاةِ الكافرِ في حرمةِ المؤمنِ، إذ لا يمكن إذاية الكافرِ إلّا بإذايّةِ المؤمنِ، وعن مالك وسئل عنْ قومٍ منَ المشركينَ في مراكبهمْ أنرمي في مراكبهمْ بالنّارِ ومعهمُ الأسارى في مراكبهمْ؟ قالَ لا أرى ذلكَ، لقولهِ تعالى لأهلِ مكّةَ: ﴿لَوْ تَزَيَّلُوا۟ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾. وكذلكَ لوْ تترّسَ كافرٌ بمسلمٍ لمْ يجزْ رميهُ. وإنْ فعلَ ذلكَ فاعلٌ فأتلفَ أحداً منَ المسلمينَ فعليهِ الدّيةُ والكفّارةُ. فإنْ لمْ يعلموا فلا ديةَ ولا كفّارةَ، وذلكَ أنّهمْ إذا علموا فليسَ لهمْ أنْ يرموا، فإذا فعلوهُ صاروا قتلةَ خطأٍ والدّيةُ على عواقلهمْ. فإنْ لمْ يعلموا فلهمْ أنْ يرموا. وإذا أبيحوا الفعلَ لمْ يجزْ أنْ يبقى عليهمْ فيها تباعةٌ. وقدْ جوّزَ أبو حنيفةَ الرّمي في حصونِ المشركينَ وإنْ كانَ فيهمْ أسارى منَ المسلمينَ وأطفالهمْ. ولوْ تترّسَ كافرٌ بولدٍ مسلمٍ رميَ المشركُ، وإنْ أصيبَ أحدٌ منَ المسلمينَ فلا ديةَ فيهِ ولا كفّارةَ.

وقالَ الثّوريُّ: فيهِ الكفّارةُ ولا ديةَ. وقالَ الشّافعيُّ بقولنا. وهذا ظاهرٌ، فإنَّ التّوصّلَ إلى

المباحِ بالمحظورِ لا يجوزُ، سيّما بروحِ المسلمِ، فلا قولَ إلّا ما قالهُ مالكٌ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ. والله أعلم.

قلت: قدْ يجوزُ قتلُ التّرسِ، ولا يكونُ فيهِ اختلافٌ إنْ شاءَ اللّهُ، وذلكَ إذا كانتِ المصلحةُ ضروريّةً كليّةً قطعيّةً. فمعنى كونها ضروريّةً، أنّها لا يحصلُ الوصولُ إلى الكفّارِ إلّا بقتلِ التُّرسِ. ومعنى أنّها كليّةٌ، أنّها قاطعةٌ لكلِّ الأمّةِ، حتّى يحصلَ منْ قتلِ التّرسِ مصلحةُ كلِّ المسلمينَ، فإنْ لمْ يفعلْ قتلَ الكفّارُ التُّرسَ واستولوا على كلِّ الأمّةِ. ومعنى كونها قطعيّةً، أنَّ تلكَ المصلحةَ حاصلةٌ منْ قتلِ التّرسِ قطعًا. قالَ علماؤنا: وهذهِ المصلحةُ بهذهِ القيودِ لا ينبغي أنْ يختلفَ في اعتبارها، لأنَّ الفرضَ أنَّ التّرسَ مقتولٌ قطعًا، فإمّا بأيدي العدوِّ فتحصلُ المفسدةُ العظيمةُ الّتي هيَ استيلاءُ العدوِّ على كلِّ المسلمينَ. وإمّا بأيدي المسلمينَ فيهلكُ العدوُّ وينجو المسلمونَ أجمعونَ. ولا يتأتّى لعاقلٍ أنْ يقولَ: لا يقتلُ التّرسُ في هذهِ الصّورةِ بوجهٍ، لأنّهُ يلزمُ منهُ ذهابُ التّرسِ والإسلامِ والمسلمينَ، لكنْ لمّا كانتْ هذهِ المصلحةُ غيرَ خاليةٍ منَ المفسدةِ، نفرتْ منها نفسُ منْ لمْ يمعنَ النّظرَ فيها، فإن تلك المفسدة بالنسبة إلى ما حصل منها عدمٌ أوْ كالعدمِ. والله أعلم.

الرابعة- قراءةُ العامّةِ ﴿لَوۡ تَزَيَّلُواْ﴾ والتزايل: التباين منْ زِلْت. ﴿لَعَذَّبۡنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ قيلَ: اللّامُ جوابٌ لكلامينِ: **أحدهما**: ﴿لَوۡلَا رِجَالٞ﴾ **والثاني**- ﴿لَوۡ تَزَيَّلُواْ﴾. وقيل جواب ﴿لَّوۡلَآ﴾ محذوفٌ، وقدْ تقدّمَ. و﴿لَوۡ تَزَيَّلُواْ﴾ ابتداءُ كلامٍ.

قولهُ تعالى: ﴿إِذۡ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَأَلۡزَمَهُمۡ كَلِمَةَ ٱلتَّقۡوَىٰ وَكَانُوٓاْ أَحَقَّ بِهَا وَأَهۡلَهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٗا ٢٦﴾

العاملُ في ﴿إِذۡ﴾ قولهُ تعالى: ﴿لَعَذَّبۡنَا﴾ أيْ لعذّبناهمْ إذْ جعلوا هذا. أوْ فعلٌ مضمرٌ تقديرهُ واذكروا. ﴿ٱلۡحَمِيَّةَ﴾ فعيلةٌ وهيَ الأنفةُ، وحميّتهمْ عصبيّتهمْ لآلهتهمُ الّتي كانوا يعبدونها منْ دونِ اللّهِ تعالى، والأنفةُ منْ أنْ يعبدوا غيرها. ﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ﴾ أي الطّمأنينةَ والوقارَ. ﴿عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَأَلۡزَمَهُمۡ كَلِمَةَ ٱلتَّقۡوَىٰ﴾ لا إلهَ إلّا اللّهُ محمّدٌ رسولُ اللّهِ يتّقى بها منَ الشّركِ. ﴿وَكَانُوٓاْ أَحَقَّ بِهَا وَأَهۡلَهَاۚ﴾ أيْ أحقَّ بها منْ كفّارِ مكّةَ، لأنَّ اللّهَ تعالى اختارهمْ لدينهِ وصحبةِ نبيّهِ. ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٗا ٢٦﴾.

قولهُ تعالى: ﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ ۖ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ۖ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾﴾

وكانَ رسولُ اللّهِ ﷺ رأى في المنامِ أنّهُ يدخلُ مكّةَ على هذهِ الصّفةِ، فلمّا صالحَ قريشًا بالحديبيةِ ارتابَ المنافقونَ حتّى قالَ رسولُ اللّهِ ﷺ إنّهُ يدخلُ مكّةَ، فأنزلَ اللّهُ تعالى: ﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ ۖ﴾ فأعلمهمْ أنّهمْ سيدخلونَ في غيرِ ذلكَ العامِ، وأنَّ رؤياهُ ﷺ حقٌّ، فالرّؤيا أحدُ وجوهِ الوحيِ إلى الأنبياءِ. ﴿لَتَدْخُلُنَّ﴾ أيْ في العامِ القابلِ ﴿ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ استثنى فيما يعلمُ ليستثنيَ الخلقُ فيما لا يعلمونَ، وقيلَ حكى في التّنزيلِ ما قيلَ لهُ في المنامِ، فليسَ هنا شكٌّ كما زعمَ بعضهمْ أنَّ الاستثناءَ يدلُّ على الشّكِّ، والله تعالى لا يشك، و﴿لَتَدْخُلُنَّ﴾ تحقيق فكيف يكون شك. ف﴿إِن﴾ بمعنى «إذا». ﴿ءَامِنِينَ﴾ أي من العدو. ﴿مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ﴾ والتّحليقُ والتّقصيرُ جميعًا للرّجالِ، ولذلكَ غلّبَ المذكّرَ على المؤنّثِ. والحلقُ أفضلُ، وليسَ للنّساءِ إلّا التّقصيرُ، وفي الصّحيحِ أنَّ معاويةَ أخذَ منْ شعرِ النّبيِّ ﷺ على المروةِ بمشقصٍ. وهذا كانَ في العمرةِ لا في الحجِّ، لأنَّ النّبيَّ ﷺ حلقَ في حجّتهِ. ﴿لَا تَخَافُونَ ۖ﴾ حالٌ منَ المحلّقينَ والمقصّرينَ، والتّقديرُ: غيرَ خائفينَ. ﴿فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟﴾ أيْ علمَ ما في تأخيرِ الدّخولِ منَ الخيرِ والصّلاحِ ما لمْ تعلموهُ أنتمْ. وذلكَ أنّهُ ﷺ لمّا رجعَ مضى منها إلى خيبرَ فافتتحها، ورجعَ بأموالِ خيبرَ وأخذَ منَ العدّةِ والقوّةِ أضعافَ ما كانَ فيهِ في ذلكَ العامِ، وأقبلَ إلى مكّةَ على أهبةٍ وقوّةٍ وعدّةٍ بأضعافِ ذلكَ.

﴿فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾﴾ فتح خيبرَ، وقيلَ فتحُ مكّةَ. وقيلَ: هوَ صلحُ الحديبيةِ، وقالهُ أكثرُ المفسّرينَ. فلمّا كانتِ الهدنةُ وضعتِ الحربُ أوزارها وأمنَ النّاسُ بعضهمْ بعضًا، فالتقوا وتفاوضوا الحديثَ والمناظرةَ. فلمْ يكلّمْ أحدٌ بالإسلام يعقلُ شيئًا إلّا دخلَ فيهِ، فلقدْ دخل تينكَ السّنتينِ في الإسلامِ مثلُ ما كانَ في الإسلام قبلَ ذلكَ وأكثرُ. يدلّكَ على ذلكَ أنّهمْ كانوا سنةَ ستٍّ يومَ الحديبيةِ ألفًا وأربعمائةٍ، وكانوا بعدَ عامِ الحديبيةِ سنةَ ثمان في عشرة آلاف.

قولهُ تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ﴾ يعني محمّداً ﷺ ﴿بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ أيْ يعليهِ على كلِّ الأديانِ بالحجّةِ ثمَّ باليدِ والسّيفِ، ونسخَ ما عداه، فالدّينُ اسمٌ بمعنى المصدرِ ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدٗا ٢٨﴾ ﴿شَهِيدٗا﴾ نصبَ على التّفسيرِ، والباءُ زائدةٌ، أيْ كفى اللّهُ شهيداً لنبيِّهِ ﷺ، وشهادتهُ لهُ تبيّنُ صحّةَ نبوّتهِ بالمعجزاتِ.

قولهُ تعالى: ﴿مُّحَمَّدٞ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ تَرَىٰهُمۡ رُكَّعٗا سُجَّدٗا يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗاۖ سِيمَاهُمۡ فِي وُجُوهِهِم مِّنۡ أَثَرِ ٱلسُّجُودِۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِۚ وَمَثَلُهُمۡ فِي ٱلۡإِنجِيلِ كَزَرۡعٍ أَخۡرَجَ شَطۡـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسۡتَغۡلَظَ فَٱسۡتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعۡجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلۡكُفَّارَۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنۡهُم مَّغۡفِرَةٗ وَأَجۡرًا عَظِيمَۢا ٢٩﴾، فيهِ خمسُ مسائلَ:

الأولى: قولهُ تعالى: ﴿مُّحَمَّدٞ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ﴾ ﴿مُّحَمَّدٞ﴾ مبتدأٌ وَ ﴿رَّسُولُ﴾ خبرهُ. ﴿وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ﴾ وقيلَ: جميعُ المؤمنينَ. ﴿رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ﴾ أيْ يرحمُ بعضهمْ بعضاً. ﴿تَرَىٰهُمۡ رُكَّعٗا سُجَّدٗا﴾ إخبارٌ عنْ كثرةِ صلاتهمْ. ﴿يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ﴾ الجنّةَ ﴿وَرِضۡوَٰنٗا﴾ من اللّهِ تعالى.

الثانية- قولهُ تعالى: ﴿سِيمَاهُمۡ فِي وُجُوهِهِم مِّنۡ أَثَرِ ٱلسُّجُودِۚ﴾ السّيما العلامةُ، وفيها لغتانِ: المدُّ والقصرُ، والسيماء في الدّنيا السّمتُ الحسنُ، قال منصورٌ: سألتُ مجاهداً عنْ قولهِ تعالى: ﴿سِيمَاهُمۡ فِي وُجُوهِهِم﴾ أهوَ أثرٌ يكونُ بينَ عيني الرّجلِ؟ قالَ لا، ربّما يكونُ بينَ عيني الرّجلِ مثلُ ركبةِ العنزِ وهوَ أقسى قلباً منَ الحجارةِ! ولكنّهُ نورٌ في وجوههمْ من الخشوعِ.

وهوَ أيضا بياضٌ يكونُ في الوجهِ يومَ القيامةِ، ففي الصّحيح عنْ رسولِ اللّهِ ﷺ من حديثِ أبي هريرةَ، وفيهِ: «حتّى إذا فرغَ اللّهُ منَ القضاءِ بينَ العبادِ وأرادَ أنْ يخرجَ برحمتهِ منْ أرادَ منْ أهلِ النّارِ أمرَ الملائكةَ أنْ يخرجوا منَ النّارِ من كانَ لا يشركُ باللّهِ شيئاً ممّنْ أرادَ اللّهُ أنْ يرحمهُ ممّنْ يقولُ لا إلهَ إلّا اللّهُ فيعرفونهمْ في النّارِ بأثرِ السّجودِ تأكلُ النّارُ ابنَ آدمَ إلّا

أثرَ السّجودِ حرّمَ اللّهُ على النّارِ أنْ تأكلَ أثرَ السّجودِ».

الثالثة- قولهُ تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ﴾ فهما مثلانِ، أحدهما في التّوراةِ والآخرُ في الإنجيلِ، فيوقفُ على هذا على ﴿ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾. وقيلَ: هوَ مثلٌ واحدٌ، يعني أنَّ هذهِ صفتهمْ في التّوراةِ والإنجيلِ، فلا يوقفُ على ﴿ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾ على هذا، ويوقفُ على ﴿ٱلْإِنجِيلِ﴾. ويبتدئُ ﴿كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ﴾ على معنى وهم كزرع. و ﴿شَطْـَٔهُۥ﴾ يعني فراخهُ وأولادهُ، وقرأ ابنُ كثيرٍ وابنُ ذكوانَ «شَطَأَهُ» بفتحِ الطّاءِ، وأسكنَ الباقونَ.

وهذا مثلٌ ضربهُ اللّهُ تعالى لأصحابِ النّبيِّ ﷺ، يعني أنّهمْ يكونونَ قليلاً ثمَّ يزدادونَ ويكثرونَ، فكانَ النّبيُّ ﷺ حينَ بدأَ بالدّعاءِ إلى دينهِ ضعيفاً فأجابهُ الواحدُ بعدَ الواحدِ حتّى قويَ أمرهُ، كالزّرعِ يبدو بعدَ البذرِ ضعيفاً فيقوى حالاً بعدَ حالٍ حتّى يغلظَ نباتهُ وأفراخهُ. فكانَ هذا منْ أصحِّ مثلٍ وأقوى بيانٍ.

﴿فَـَٔازَرَهُۥ﴾ أيْ قوّاهُ وأعانهُ وشدّهُ، أيْ قوّى الشّطءُ الزّرعَ. وقيلَ بالعكسِ، أيْ قوّى الزّرعُ الشّطءَ. ﴿فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ﴾ على عودهِ الّذي يقومُ عليهِ فيكونُ ساقاً لهُ. والسّوقُ: جمعُ السّاقِ. ﴿يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ﴾ أيْ يعجبُ هذا الزّرعُ زرّاعهُ. وهوَ مثلٌ كما بيّنّا، فالزّرعُ محمّدٌ ﷺ، والشّطءُ أصحابهُ، كانوا قليلاً فكثروا، وضعفاءَ فقووا ﴿لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ﴾ اللّامُ متعلّقةٌ بمحذوفٍ، أيْ فعلَ اللّهُ هذا لمحمّدٍ ﷺ وأصحابهِ ليغيظَ بهمُ الكفّارَ.

الرابعة- قولهُ تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ أيْ وعدَ اللّهُ هؤلاءِ الّذينَ معَ محمّدٍ، وهمُ المؤمنونَ الّذينَ أعمالهمْ صالحة. ﴿مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ أي ثوابا لا ينقطع وهو الجنة. وليست «منْ» في قولهِ ﴿مِنْهُم﴾ مبعّضةٌ لقومٍ منَ الصحابة دون قوم، ولكنها عامة مجنّسةٌ، مثلُ قولهِ تعالى: ﴿فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ﴾ لا يقصدُ للتّبعيضِ لكنّهُ يذهبُ إلى الجنسِ، أيْ فاجتنبوا الرّجسَ منْ جنسِ الأوثانِ، إذْ كانَ الرّجسُ يقعُ منْ أجناسٍ شتّى، منها الزّنى والرّبا وشربِ الخمرِ والكذبِ، فأدخلَ ﴿مِن﴾ يفيدُ بها الجنسَ وكذا ﴿مِنْهُم﴾، أيْ منْ هذا الجنسِ، يعني جنسَ الصّحابةِ، وقدْ يخصّصُ أصحابُ محمّدٍ ﷺ بوعدِ المغفرةِ

تفضيلاً لهمْ وإنْ وعدَ اللّهُ جميعَ المؤمنينَ المغفرةَ. وفي الآيةِ جوابٌ آخرُ: وهوَ أنَّ ﴿مِن﴾ مؤكّدةٌ للكلام، والمعنى وعدهمُ اللّهُ كلّهمْ مغفرةً وأجراً عظيماً، وشاهدُ هذا منَ القرآنِ ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ﴾ معناهُ وننزّلُ القرآنَ شفاءً، لأنَّ كلَّ حرفٍ منهُ يشفي، وليسَ الشّفاءُ مختصاً بهِ بعضهِ دونَ بعضٍ.

الخامسة- روى أبو عروةَ الزّبيريُّ منْ ولدِ الزّبيرِ: كنّا عندَ مالكِ بنِ أنسٍ، فذكروا رجلاً ينتقصُ أصحابَ رسولِ اللّهِ ﷺ، فقرأَ مالكٌ هذه الآية: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ﴾ حتّى بلغَ ﴿يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ﴾. فقالَ: مالكٌ: منْ أصبحَ منَ النّاسِ في قلبهِ غيظٌ على أحدٍ منْ أصحابِ رسولِ اللّهِ ﷺ فقدْ أصابتهُ هذهِ الآيةُ، ذكرهُ الخطيبُ أبو بكرٍ.

قلت: لقدْ أحسنَ مالكٌ في مقالتهِ وأصابَ في تأويلهِ. فمنْ نقّصَ واحداً منهمْ أوْ طعنَ عليهِ في روايتهِ فقدْ ردَّ على اللّهِ ربِّ العالمينَ، وأبطلَ شرائعَ المسلمينَ، قالَ اللّهُ تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ﴾ الآيةَ. وقالَ: ﴿۞ لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ إلى غيرِ ذلكَ منَ الآيِ الّتي تضمّنتِ الثّناءَ عليهمْ، والشّهادةَ لهمْ بالصّدقِ والفلاحِ، قالَ اللّهُ تعالى: ﴿رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ﴾. وقالَ: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا﴾- إلى قوله- ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾، ثم قال عز من قائل: ﴿والّذينَ تبوّؤا الدّارَ والإيمانَ منْ قبلهمْ- إلى قولِه- فأولئكَ همُ المفلحون﴾. وهذا كلّهُ معَ علمهِ تباركَ وتعالى بحالهمْ ومآلِ أمرهمْ، وقالَ رسولُ اللّهِ ﷺ: «خيرُ النّاسِ قرني ثمَّ الّذينَ يلونهمْ»، وقالَ: «لا تسبّوا أصحابي فلوْ أنَّ أحدكمْ أنفقَ مثلَ أحدٍ ذهباً لمْ يدركْ مدَّ أحدهمْ ولا نصيفهُ» خرّجهما البخاريُّ. وفي حديثٍ آخرَ: «فلوْ أنَّ أحدكمْ أنفقَ ما في الأرضِ لمْ يدركْ مدَّ أحدهمْ ولا نصيفهُ».

والأحاديثُ بهذا المعنى كثيرةٌ، فحذارِ منَ الوقوعِ في أحدٍ منهمْ، كما فعلَ منْ طعنَ في الدّينِ، فالصّحابةُ كلّهمْ عدولٌ، أولياءُ اللّهِ تعالى وأصفياؤهُ، وخيرتهُ منْ خلقهِ بعدَ أنبيائهِ ورسلهِ. هذا مذهبُ أهلِ السّنّةِ، والّذي عليهِ الجماعةُ منْ أئمّةِ هذهِ الأمّةِ. وقدْ ذهبتْ شرذمةٌ لا مبالاةَ بهمْ إلى أنَّ حالَ الصّحابةِ كحالِ غيرهمْ، فيلزمُ البحثُ عنْ عدالتهمْ. ومنهمْ منْ فرّقَ

بينَ حالهمْ في بداءةِ الأمرِ فقالَ: إنّهمْ كانوا على العدالةِ إذْ ذاكَ، ثمَّ تغيّرتْ بهمُ الأحوالُ فظهرتْ فيهمُ الحروبُ وسفكُ الدّماءِ، فلا بدَّ منَ البحثِ. وهذا مردودٌ، فإنَّ خيارَ الصّحابةِ وفضلاءهمْ كعليٍّ وطلحةَ والزّبيرِ وغيرهمْ رضي الله عنهم ممّنْ أثنى اللّهُ عليهمْ وزكّاهمْ ورضيَ عنهمْ وأرضاهمْ ووعدهمُ الجنّةَ بقولهِ تعالى: ﴿مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾. وخاصّةً العشرةَ المقطوعُ لهمْ بالجنّةِ بإخبارِ الرّسولِ همُ القدوةُ معَ علمهمْ بكثيرٍ منَ الفتنِ والأمورِ الجاريةِ عليهمْ بعدَ نبيّهمْ بإخبارهِ لهمْ بذلكَ. وذلكَ غيرُ مسقطٍ منْ مرتبتهمْ وفضلهمْ، إذْ كانتْ تلكَ الأمورُ مبنيّةً على الاجتهادِ، وكلُّ مجتهدٍ مصيبٌ.

□

سورة الحجرات

مدنيّةٌ بإجماعٍ. وهيَ ثمانيَ عشرةَ آيةً.

بسمِ اللّهِ الرّحمنِ الرّحيمِ

قولهُ تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ١﴾، فيهِ ثلاثُ مسائلَ:

الأولى: قولهُ تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ﴾ قال العلماء: كان في العرب جفاءٌ وسوءُ أدبٍ في خطابِ النّبيِّ ﷺ وتلقيبِ النّاسِ. فالسّورةُ في الأمرِ بمكارمِ الأخلاقِ ورعايةِ الآدابِ. وقرأ يعقوبُ الحضرميُّ: «لَا تَقَدَّمُوا» بفتحِ التّاءِ والدّالِ منَ التّقدّمِ. الباقونَ ﴿تُقَدِّمُواْ﴾ بضمِّ التّاءِ وكسرِ الدّالِ منَ التّقديمِ. ومعناهما ظاهرٌ، أيْ لا تقدّموا قولاً ولا فعلاً بينَ يدي اللّهِ وقولِ رسولهِ وفعلهِ فيما سبيلهُ أنْ تأخذوهُ عنهُ منْ أمرِ الدّينِ والدّنيا. ومنْ قدّمَ قولهُ أوْ فعلهُ على الرّسولِ ﷺ فقدْ قدّمهُ على اللّهِ تعالى، لأنَّ الرّسولَ ﷺ إنّما يأمرُ عنْ أمرِ اللّهِ عزَّ وجلَّ.

الثانية– في سببِ نزولها أنّهُ قدمَ ركبٌ منْ بني تميمٍ على رسولِ اللّهِ ﷺ، فقالَ: أبو بكرٍ: أمّرِ القعقاعَ بنَ معبدٍ. وقالَ عمرُ: أمّرِ الأقرعَ بنَ حابسٍ. فقالَ: أبو بكرٍ: ما أردتَ إلّا خلافي. وقالَ عمرُ: ما أردتُ خلافكَ. فتماديا حتّى ارتفعتْ أصواتهما، فنزلَ في ذلكَ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ﴾– إلى قولهِ– ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُواْ حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ﴾. رواهُ البخاريُّ.

وقيلَ: نزلتْ في قومٍ ذبحوا قبلَ أنْ يصلّيَ رسولُ اللّهِ ﷺ، فأمرهمْ أنْ يعيدوا الذّبحَ.

وقيل المعنى: لا تقدّموا أعمالَ الطّاعاتِ قبلَ وقتها الّذي أمرَ اللّهُ تعالى بهِ ورسولهُ ﷺ.

قالَ القاضي: إذا قلنا إنّها نزلتْ في تقديمِ الطّاعاتِ على أوقاتها فهوَ صحيحٌ، لأنَّ كلَّ

عبادةٍ مؤقّتةٍ بميقاتٍ لا يجوز تقديمها عليهِ كالصّلاةِ والصّومِ والحجِّ، وذلكَ بيّنٌ. إلّا أنَّ العلماءَ اختلفوا في الزّكاةِ لمّا كانتْ عبادةً ماليّةً وكانتْ مطلوبةً لمعنى مفهومٍ، وهوَ سدُّ خلّةِ الفقيرِ، ولأنَّ النّبيَّ ﷺ استعجلَ منَ العبّاسِ صدقةَ عامينِ، ولما جاءَ منْ جمعِ صدقةِ الفطرِ قبلَ يومِ الفطرِ حتّى تعطى لمستحقّيها يومَ الوجوبِ وهوَ يومُ الفطرِ، فاقتضى ذلكَ كلّهُ جوازَ تقديمها العامَ والاثنينِ. فإنْ جاءَ رأسُ العامِ والنّصابُ بحالهِ وقعتْ موقعها. وإنْ جاءَ رأسُ العامِ وقدْ تغيّرَ النّصابُ تبيّنَ أنّها صدقةٌ تطوّعٍ.

وقالَ أشهبُ: لا يجوزُ تقديمها على الحولِ لحظةً كالصّلاةِ، وكأنّهُ طردَ الأصلَ في العباداتِ فرأى أنّها إحدى دعائمِ الإسلامِ فوفّاها حقّها في النّظامِ وحسنِ التّرتيبِ. ورأى سائرُ علمائنا أنَّ التّقديمَ اليسيرَ فيها جائزٌ، لأنّهُ معفوٌّ عنهُ في الشّرعِ بخلافِ الكثيرِ. وما قالهُ أشهبُ أصحُّ، فإنَّ مفارقةَ اليسيرِ الكثيرَ في أصولِ الشّريعةِ صحيحٌ، ولكنّهُ لمعانٍ تختصُّ باليسيرِ دونَ الكثيرِ. فأمّا في مسألتنا فاليومُ فيهِ كالشّهرِ، والشّهرُ كالسّنةِ. فإمّا تقديمٌ كلّيٌّ كما قالهُ أبو حنيفةَ والشّافعيُّ، وإمّا حفظُ العبادةِ على ميقاتها كما قالَ أشهبُ.

الثالثة- قولهُ تعالى: ﴿لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ﴾ أصلٌ في تركِ التّعرّضِ لأقوالِ النّبيِّ ﷺ، وإيجابِ اتّباعهِ والاقتداءِ بهِ، وكذلكَ قالَ النّبيُّ ﷺ في مرضهِ: «مروا أبا بكرٍ فليصلِّ بالنّاسِ». فقالتْ عائشةُ لحفصةَ رضي الله عنهما: قولي لهُ إنَّ أبا بكرٍ رجلٌ أسيفٌ وإنّهُ متى يقمْ مقامكَ لا يسمعُ النّاسَ منَ البكاءِ، فمرْ عمرَ فليصلِّ بالنّاسِ. فقالَ ﷺ: «إنّكنَّ لأنتنَّ صواحبُ يوسفَ. مروا أبا بكرٍ فليصلِّ بالنّاسِ». فمعنى قولهِ: «صواحبُ يوسفَ» الفتنةُ بالرّدِّ عنِ الجائزِ إلى غيرِ الجائزِ.

وربما احتج نفاةُ القياسِ بهذهِ الآيةِ. وهوَ باطلٌ منهمْ، فإنَّ ما قامتْ دلالتهُ فليسَ في فعلهِ تقديمٌ بينَ يديهِ. وقدْ قامتْ دلالةُ الكتابِ والسّنّةِ على وجوبِ القولِ بالقياسِ في فروعِ الشّرعِ، فليسَ إذاً تقدّمٌ بينَ يديهِ. ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ يعني في التّقدّمِ المنهيِّ عنهُ. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ﴾ لقولكم ﴿عَلِيمٌ﴾ بفعلكم.

قولهُ تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجۡهَرُواْ لَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ كَجَهۡرِ بَعۡضِكُمۡ لِبَعۡضٍ أَن تَحۡبَطَ أَعۡمَـٰلُكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ ٢﴾، فيهِ ستُّ مسائلَ:

الأولى: قولهُ تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ﴾ روى البخاريُّ عن عبدُ اللّهِ بنُ الزّبيرِ أنَّ الأقرعَ بنَ حابسٍ قدمَ على النّبيِّ ﷺ، فقالَ: أبو بكرٍ: يا رسولَ اللّهِ استعملهُ على قومهِ، فقالَ: عمرُ: لا تستعملهُ يا رسولَ اللّهِ، فتكلّما عندَ النّبيِّ ﷺ حتّى ارتفعتْ أصواتهما، فقالَ: أبو بكرٍ لعمرَ: ما أردتَ إلّا خلافي. فقالَ: عمرُ: ما أردتُ خلافكَ، قالَ: فنزلتْ هذهِ الآيةُ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ﴾ قالَ: فكانَ عمرُ بعدَ ذلكَ إذا تكلّمَ عندَ النّبيِّ ﷺ لمْ يسمعْ كلامهُ حتّى يستفهمهُ. قالَ: ولمْ يذكرْ ذلكَ عنْ أبيهِ، يعني أبا بكرٍ الصّدّيقَ.

وفي الصّحيحينِ عنْ أنسِ بنِ مالكٍ أنَّ النّبيَّ ﷺ افتقدَ ثابتَ بنَ قيسٍ فقالَ رجلٌ: يا رسولَ اللّهِ، أنا أعلمُ لكَ علمهُ، فأتاهُ فوجدهُ جالسًا في بيتهِ منكّسًا رأسهُ، فقالَ: لهُ: ما شأنكَ؟ فقالَ: شرٌّ! كانَ يرفعُ صوتهُ فوقَ صوتِ النّبيِّ ﷺ فقدْ حبطَ عملهُ وهوَ منْ أهلِ النّارِ. فأتى الرّجلُ النّبيَّ ﷺ فأخبرهُ أنّهُ قالَ كذا وكذا. فقالَ: «اذهبْ إليهِ فقلْ لهُ إنّكَ لستَ منْ أهلِ النّارِ ولكنّكَ منْ أهلِ الجنّةِ». لفظُ البخاريِّ. وثابتٌ هذا هوَ ثابتُ بنُ قيسِ بنِ شمّاسٍ الخزرجيُّ يكنّى أبا محمّدٍ بابنهِ محمّدٍ. وقيلَ: أبا عبدِ الرّحمنِ. قتلَ لهُ يومَ الحرّةِ ثلاثةٌ منَ الولدِ: محمّدٌ، ويحيى، وعبدُ اللّهِ. وكانَ خطيبًا بليغًا معروفًا بذلكَ، كانَ يقالُ لهُ خطيبُ رسولُ اللّهِ ﷺ، كما يقالُ لحسّانٍ شاعرُ رسولِ اللّهِ ﷺ. ولمّا قدمَ وفدُ تميمٍ على رسولِ اللّهِ ﷺ وطلبوا المفاخرةَ قامَ خطيبهمْ فافتخرَ، ثمَّ قامَ ثابتُ بنُ قيسٍ فخطبَ خطبةً بليغةً جزلةً فغلبهمْ، وقامَ شاعرهمْ وهوَ الأقرعُ بنُ حابسٍ فأنشد:

أتيناك كيما يعرف الناس فضلنا وإذا خالفونا عندَ ذكرِ المكارمِ
وإنّا رءوسُ النّاسِ منْ كلِّ معشرٍ وأنْ ليسَ في أرضِ الحجازِ كدارمِ
وإنَّ لنا المرباعَ في كلِّ غارة تكون بنجد أو بأرض التهايم

فقامَ حسّانٌ فقالَ:

بني دارمٍ لا تفخروا إنَّ فخركمْ يعودُ وبالاً عندَ ذكرِ المكارمِ
هبلتمْ علينا تفخرونَ وأنتمُ لنا خولٌ منْ بينِ ظئرٍ وخادمِ

في أبياتٍ لهما. فقالوا: خطيبهمْ أخطبُ منْ خطيبنا، وشاعرهمْ أشعرُ منْ شاعرنا، فارتفعتْ أصواتهمْ فأنزلَ اللّهُ تعالى: ﴿لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُواْ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ﴾.

فلمّا كانَ يومُ اليمامةِ خرجَ ثابت معَ خالدِ بنِ الوليدِ إلى مسيلمةَ فلمّا التقوا انكشفوا، فقالَ: ثابتٌ وسالمٌ مولى أبي حذيفةَ: ما هكذا كنّا نقاتلُ معَ رسولِ اللّهِ ﷺ، ثمَّ حفرَ كلُّ واحدٍ منهما لهُ حفرةً فثبتا وقاتلا حتّى قتلا.

الثانية- قولهُ تعالى: ﴿وَلَا تَجْهَرُواْ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ﴾ أيْ لا تخاطبوهُ: يا محمّدُ، ويا أحمدُ. ولكنْ: يا نبيَّ اللّهِ، ويا رسولَ اللّهِ، توقيراً لهُ. وقيلَ: كانَ المنافقونَ يرفعونَ أصواتهمْ عندَ النّبيِّ ﷺ، ليقتديَ بهمْ ضعفةُ المسلمينَ فنهيَ المسلمونَ عنْ ذلكَ. وقيلَ: ﴿لَا تَجْهَرُواْ لَهُۥ﴾ أيْ لا تجهروا عليهِ، كما يقالُ: سقطَ لفيهِ، أيْ على فيهِ. ﴿كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ﴾ الكافُ كافُ التّشبيهِ في محلِّ النّصبِ، أيْ لا تجهروا لهُ جهراً مثلَ جهرِ بعضكمْ لبعضٍ. وفي هذا دليلٌ على أنّهمْ لمْ ينهوا عنِ الجهرِ مطلقاً حتّى لا يسوغَ لهمْ إلّا أنْ يكلّموهُ بالهمسِ والمخافتةِ، وإنّما نهوا عنْ جهرٍ مخصوصٍ مقيّدٍ بصفةٍ، أعني الجهرَ المنعوتَ بمماثلةِ ما قدِ اعتادوهُ منهمْ فيما بينهمْ، وهوَ الخلوُّ منْ مراعاةِ أبّهةِ النّبوّةِ وجلالةِ مقدارها وانحطاطِ سائرِ الرّتبِ وإنْ جلّتْ عنْ رتبتها. ﴿أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ۝٢﴾ أيْ لئلّا تحبطُ أعمالكمْ.

الثالثة- معنى الآيةِ الأمرُ بتعظيمِ رسولِ اللّهِ ﷺ وتوقيرِهِ، وخفضِ الصّوتِ بحضرتهِ وعندَ مخاطبتهِ، وقدْ كرهَ بعضُ العلماءِ رفعَ الصّوتِ عندَ قبرهِ ﷺ. وكرهَ بعضُ العلماءِ رفعَ الصّوتِ في مجالسِ العلماءِ تشريفاً لهمْ، إذْ همْ ورثةُ الأنبياءِ.

الرابعة- قالَ القاضي أبو بكرٍ بنُ العربيِّ: حرمةُ النّبيِّ ﷺ ميّتاً كحرمتهِ حياً، وكلامهُ المأثورُ بعدَ موتهِ في الرفعة مثالُ كلامهِ المسموعِ منْ لفظهِ، فإذا قرئَ كلامهُ وجبَ على كلِّ

حاضرٍ ألّا يرفعَ صوتهُ عليهِ، ولا يعرضَ عنهُ، كما كانَ يلزمهُ ذلكَ في مجلسهِ عندَ تلفّظهِ بهِ. وقدْ نبّهَ اللّهُ سبحانهُ على دوامِ الحرمةِ المذكورةِ على مرورِ الأزمنةِ بقولهِ تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ﴾ وكلامهُ ﷺ منَ الوحيِ، ولهُ منَ الحكمة مثل ما للقرآن، إلا معاني مستثناةً، بيانها في كتبِ الفقهِ.

الخامسة- وليسَ الغرضُ برفعِ الصّوتِ ولا الجهرِ ما يقصدُ بهِ الاستخفافُ والاستهانةُ، لأنَّ ذلكَ كفرٌ والمخاطبونَ مؤمنونَ. وإنّما الغرضُ صوتٌ هوَ في نفسهِ والمسموعُ منْ جرسهِ غيرُ مناسبٍ لما يهابُ به العظماء ويوقروا الكبراءُ، فيتكلّفُ الغضَّ منهُ وردّهُ إلى حدٍّ يميلُ بهِ إلى ما يستبينُ فيهِ المأمورَ بهِ منَ التّعزيرِ والتّوقيرِ. ولمْ يتناولِ النّهيُ أيضـًا رفعَ الصّوتِ الّذي لا يتأذّى بهِ رسولُ اللّهِ ﷺ، وهوَ ما كان منهم في الحرب أوْ مجادلةِ معاندٍ أوْ إرهابِ عدوٍّ أوْ ما أشبهَ ذلكَ، ففي الحديثِ أنّهُ قالَ ﷺ للعباس ابن عبدِ المطّلبِ لمّا انهزمَ النّاسُ يومَ حنينٍ: «اصرخْ بالنّاسِ» وكانَ العبّاسُ أجهرَ النّاسِ صوتـًا.

السادسة- ﴿أَن تَحۡبَطَ أَعۡمَٰلُكُمۡ﴾ التّقديرُ لأنْ تحبطَ، أيْ فتحبطُ أعمالكمْ، فاللّامُ المقدّرةُ لامُ الصّيرورةِ، وليسَ قولهُ: ﴿أَن تَحۡبَطَ أَعۡمَٰلُكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ﴾ بموجبٍ أنْ يكفرَ الإنسانُ وهوَ لا يعلمُ، فكما لا يكونُ الكافرُ مؤمنـًا إلّا باختيارهِ الإيمانَ على الكفرِ، كذلكَ لا يكونُ المؤمنُ كافراً منْ حيثُ لا يقصدُ إلى الكفرِ ولا يختارهُ بإجماعٍ. كذلكَ لا يكونُ الكافرُ كافراً منْ حيثُ لا يعلم.

قولهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصۡوَٰتَهُمۡ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ﴾ إجلالاً لهُ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمۡتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ لِلتَّقۡوَىٰۚ﴾. الامتحانُ افتعالٌ منْ محنتُ الأديمَ محنـًا حتّى أوسعتهُ، أيْ أخلصها وشرحها للتّقوى وطهّرهمْ منْ كلِّ قبيحٍ، كقولكَ: امتحنتُ الفضّةَ أي اختبرتها حتّى خلصتْ. وقالَ عمرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أذهبَ عنْ قلوبهمُ الشّهواتِ. ﴿لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٌ عَظِيمٌ ٣﴾.

قولهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلۡحُجُرَٰتِ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ ٤﴾

نزلتْ في أعرابِ بني تميمٍ، قدمَ الوفدُ منهمْ على النّبيِّ ﷺ، فدخلوا المسجدَ وجعلوا ينادونهُ وهوَ في حجرتهِ: يا محمّدُ، يا محمّدُ ونادى الأقرعُ بنُ حابسٍ: إنَّ مدحي زينٌ وإنْ

ذمّي شينٌ، فقالَ: النّبيُّ ﷺ: «ذاكَ اللّهُ». ذكرهُ التّرمذيُّ عنِ البراءِ بنِ عازبٍ أيضـًا.

والحجرات جمع حجرة، كالغرفاتِ جمعِ غرفةٍ، والظّلماتِ جمعِ ظلمةٍ. وقيلَ: الحجراتُ جمعُ الحُجرِ، والحُجرُ جمعُ حجرةٍ، فهوَ جمعُ الجمعِ. والحجرةُ: الرّقعةُ منَ الأرضِ المحجورةِ بحائطٍ يحوّطُ عليها. وحظيرةُ الإبلِ تسمّى الحجرةُ، وهيَ فعلةٌ بمعنى مفعولةٍ. وأصلُ الكلمةِ المنعُ. وكلُّ ما منعتَ أنْ يوصلَ إليهِ فقدْ حجرتَ عليهِ. ثمَّ يحتملُ أنْ يكونَ المنادي بعضـًا منَ الجملةِ فلهذا قالَ: ﴿أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ﴾ أيْ إنَّ الّذينَ ينادونكَ منْ جملةِ قوم الغالب عليهم الجهل.

قولهُ تعالى: ﴿وَلَوۡ أَنَّهُمۡ صَبَرُواْ حَتَّىٰ تَخۡرُجَ إِلَيۡهِمۡ لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٥﴾

أيْ لوِ انتظروا خروجك لكان أصلح لهم في دينهمْ ودنياهمْ. وكانَ ﷺ لا يحتجبُ عنِ النّاسِ إلّا في أوقات يشتغل فيها بمهمّاتِ نفسهِ، فكانَ إزعاجهُ في تلكَ الحالةِ منْ سوءِ الأدبِ.

قولهُ تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ ٦﴾، فيهِ سبعُ مسائلَ:

الأولى: هذهِ الآيةَ نزلتْ في الوليدِ بنِ عقبةَ بنِ أبي معيطٍ. بعثه النّبيَّ ﷺ مصدّقـًا إلى بني المصطلقِ، فلمّا أبصروهُ أقبلوا نحوهُ فهابهمْ- في روايةٍ: لإحنةٍ كانتْ بينهُ وبينهمْ- فرجعَ إلى النّبيِّ ﷺ فأخبرهُ أنّهمْ قدِ ارتدّوا عنِ الإسلامِ. فبعثَ ﷺ خالدَ بنِ الوليدِ وأمرهُ أنْ يتثبّتَ ولا يعجلَ، فانطلقَ خالدٌ حتّى أتاهمْ ليلاً، فبعثَ عيونهُ فلمّا جاءوا أخبروا خالداً أنّهمْ متمسّكونَ بالإسلامِ، وسمعوا أذانهمْ وصلاتهمْ، فلمّا أصبحوا أتاهمْ خالدٌ ورأى صحّةَ ما ذكروهُ، فعادَ إلى نبيِّ اللّهِ ﷺ فأخبرهُ، فأنزلَ اللّهُ هذهِ الآيةَ، وسمّيَ الوليدُ فاسقـًا أي كاذبا.

وقرأَ حمزةُ والكسائيُّ: «فَتَثَبَّتُوا» منَ التّثبّتِ. الباقونَ ﴿فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾ منَ التّبيينِ ﴿أَن تُصِيبُواْ﴾ أيْ لئلّا تصيبوا، فَـ ﴿أن﴾ في محلِّ نصبٍ بإسقاطِ الخافضِ. ﴿قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ﴾ أيْ بخطأ ﴿فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ﴾ على العجلةِ وتركِ التّأنّي.

الثانية- في هذهِ الآيةِ دليلٌ على قبولِ خبرِ الواحدِ إذا كانَ عدلاً، لأنّهُ إنّما أمرَ فيها بالتّثبّتِ عندَ نقلِ خبرِ الفاسقِ. ومنْ ثبتَ فسقهُ بطلَ قولهُ في الأخبارِ إجماعـًا، لأنَّ الخبرَ أمانةٌ والفسقُ

قرينةٌ يبطلها. وقدِ استثنى الإجماعُ منْ جملةِ ذلكَ ما يتعلّقُ بالدّعوى والجحودِ، وإثباتِ حقٍّ مقصودٍ على الغيرِ، مثلَ أنْ يقولَ: هذا عبدي، فإنّهُ يقبلُ قولهُ. وإذا قالَ: قدْ أنفذَ فلانٌ هذا لكَ هديّةً، فإنّهُ يقبلُ ذلكَ. وكذلكَ يقبلُ في مثلِهِ خبرُ الكافرِ. وكذلكَ إذا أقرَّ لغيرِهِ بحقٍّ على نفسهِ فلا يبطلُ إجماعـًا. وأمّا في الإنشاءِ على غيرِهِ فقالَ: الشّافعيُّ وغيرهُ: لا يكونُ وليـًا في النّكاحِ. وقالَ أبو حنيفةَ ومالك: يكون وليا، لأنه يلي مالها فيلي بضعها كالعدلِ، وهوَ وإنْ كانَ فاسقـًا في دينهِ إلّا أنَّ غيرتهُ موفّرةٌ وبها يحمي الحريمَ، وقدْ يبذلُ المالَ ويصونُ الحرمةَ، وإذا وليَ المالَ فالنّكاحُ أولى.

الثالثة– جوّزَ الشّافعيُّ إمامةَ الفاسقِ، وهذا إنّما كانَ أصلهُ أنَّ الولاةَ الّذينَ كانوا يصلّونَ بالنّاسِ لمّا فسدتْ أديانهمْ ولمْ يمكنْ تركُ الصّلاةِ وراءهمْ، ولا استطيعتْ إزالتهمْ صلّيَ معهمْ ووراءهمْ، كما قالَ عثمانُ: الصّلاةُ أحسنُ ما يفعلُ النّاسُ، فإذا أحسنوا فأحسنْ، وإذا أساءوا فاجتنبْ إساءتهمْ. ثمَّ كانَ منَ النّاسِ منْ إذا صلّى معهمْ تقيّةً أعادوا الصّلاةَ للّهِ، ومنهمْ منْ كانَ يجعلها صلاته.

الرابعة– وأمّا أحكامهُ إنْ كانَ واليـًا فينفّذُ منها ما وافقَ الحقَّ ويردُّ ما خالفهُ، ولا ينقضُ حكمٌ أمضاهُ بحالٍ.

الخامسة– لا خلافَ في أنّهُ يصحُّ أنْ يكونَ رسولاً عنْ غيرِهِ في قولٍ يبلّغهُ أوْ شيءٍ يوصّلهُ أوْ إذنٍ يعلمهُ، إذا لمْ يخرجْ عنْ حقِّ المرسلِ والمبلّغِ، فإنْ تعلّقَ بهِ حقٌّ لغيرهما لمْ يقبلْ قولهُ. وهذا جائزٌ للضّرورةِ الدّاعيةِ إليهِ، فإنّهُ لوْ لمْ يتصرّفْ بينَ الخلقِ في هذهِ المعاني إلّا العدولُ لمْ يحصلْ منها شيء لعدمهمْ في ذلكَ. واللهُ أعلم.

السادسة– وفي الآية دليل على فساد قول منْ قالَ: إنَّ المسلمينَ كلّهمْ عدولٌ حتّى تثبتَ الجرحةُ، لأنَّ اللّهَ تعالى أمرَ بالتّثبّتِ قبلَ القبولِ، ولا معنى للتّثبّتِ بعدَ إنفاذِ الحكمِ، فإنْ حكمَ الحاكمُ قبلَ التّثبّتِ فقدْ أصابَ المحكومَ عليهِ بجهالةٍ.

السابعة– فإنْ قضى بما يغلبُ على الظّنِّ لمْ يكنْ ذلكَ عملاً بجهالةٍ، كالقضاءِ بالشّاهدينِ العدلينِ، وقبولِ قولِ العالمِ المجتهدِ. وإنّما العملُ بالجهالةِ قبولُ قولِ منْ لا يحصلُ غلبةُ الظّنِّ بقبولهِ.

قولهُ تعالى: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمۡ رَسُولَ ٱللَّهِۚ﴾ فلا تكذبوا، فإنَّ اللّهَ يُعلمهُ أنباءكمْ فتفتضحونَ. ﴿لَوۡ يُطِيعُكُمۡ فِي كَثِيرٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ لَعَنِتُّمۡ﴾ ونالكمْ مشقّةٌ وإثمٌ، فإنّهُ لوْ قتلَ القومَ الّذينَ سعى بهمُ الوليدُ بنُ عقبةَ إليهِ لكانَ خطأً، ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ﴾ هذا خطابٌ للمؤمنينَ المخلصينَ الّذينَ لا يكذّبونَ النّبيَّ ﷺ ولا يخبرونَ بالباطلِ. ﴿وَزَيَّنَهُۥ﴾ بتوفيقهِ. ﴿فِي قُلُوبِكُمۡ﴾ أيْ حسّنهُ إليكمْ حتّى اخترتموهُ. وفي هذا ردٌّ على القدريّةِ والإماميّةِ وغيرهمْ، فهوَ سبحانهُ المنفردُ بخلقِ ذواتِ الخلقِ وخلقِ أفعالهمْ وصفاتهمْ واختلافِ ألسنتهمْ وألوانهمْ، لا شريكَ لهُ. ﴿وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَۚ﴾ والفسوق: كلُّ ما خرّجَ عنِ الطّاعةِ، مشتقٌّ منْ فسقتِ الرّطبةُ خرجتْ منْ قشرها. والفأرةُ منْ جحرها، والعصيانُ جمع المعاصي. ثم انتقل من الخطاب إلى الخبر فقال ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ يعني همُ الّذينَ وفّقهمُ اللّهُ فحبّبَ إليهمُ الإيمانَ وكرّهَ إليهمُ الكفرَ أيْ قبّحهُ عندهمُ ﴿هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ٧﴾ كقول تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَيۡتُم مِّن زَكَوٰةٖ تُرِيدُونَ وَجۡهَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُضۡعِفُونَ﴾.

والرّشدُ الاستقامةُ على طريقِ الحقِّ معَ تصلّبٍ فيهِ، منَ الرشاد وهي الصخرة. ﴿فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعۡمَةٗۚ﴾ أيْ فعلَ اللّهُ ذلكَ بكمْ فضلاً، أيِ الفضلَ والنّعمةَ، فهوَ مفعولٌ لهُ. ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بما يصلحكم ﴿حَكِيمٞ ٨﴾ في تدبيركم.

قولهُ تعالى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱقۡتَتَلُواْ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَاۖ فَإِنۢ بَغَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا عَلَى ٱلۡأُخۡرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبۡغِي حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمۡرِ ٱللَّهِۚ فَإِن فَآءَتۡ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَا بِٱلۡعَدۡلِ وَأَقۡسِطُوٓاْۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ ٩﴾، فيهِ عشرُ مسائلَ:

الأولى: قولهُ تعالى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱقۡتَتَلُواْ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَاۖ﴾ نزلتْ في الأوسِ والخزرجِ. تقاتلَ حيّانِ منَ الأنصارِ بالعصيِّ والنّعالِ فنزلتِ الآيةُ. ﴿فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَاۖ﴾ بالدّعاءِ إلى كتابِ اللّهِ لهما أوْ عليهما. ﴿فَإِنۢ بَغَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا عَلَى ٱلۡأُخۡرَىٰ﴾ تعدّتْ ولمْ تجبْ إلى حكمِ اللّهِ وكتابهِ. والبغيُ: التّطاولُ والفسادُ. ﴿فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبۡغِي حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمۡرِ ٱللَّهِۚ﴾ أيْ ترجعَ إلى كتابهِ. ﴿فَإِن فَآءَتۡ﴾ رجعتْ ﴿فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَا بِٱلۡعَدۡلِ﴾ أيِ احملوهما على الانصاف. ﴿وَأَقۡسِطُوٓاْۖ﴾ أيِ اعدلوا. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ﴾ أيِ العادلين.

الثانية– قالَ العلماءُ: لا تخلو الفئتانِ منَ المسلمينَ في اقتتالهما، إمّا أنْ يقتتلا على سبيل البغي منهما جميعا أو لا. فإنْ كانَ الأوّلُ فالواجبُ في ذلكَ أنْ يمشى بينهما بما يصلحُ ذاتَ البينِ ويثمّرُ المكافّةَ والموادعةَ. فإنْ لمْ يتحاجزا ولمْ يصطلحا وأقامتا على البغي صيرَ إلى مقاتلتهما. وأمّا إنْ كانَ الثّاني وهوَ أنْ تكونَ إحداهما باغيةً على الأخرى، فالواجبُ أنْ تقاتلَ فئةُ البغيِ إلى أنْ تكفَّ وتتوبَ.

الثالثة– في هذهِ الآيةُ دليلٌ على وجوبِ قتالِ الفئةِ الباغيةِ المعلومُ بغيها على الإمام أوْ على أحدٍ منَ المسلمينَ. وعلى فسادِ قولِ منْ منعَ منْ قتالِ المؤمنينَ، واحتجَّ بقولهِ ﷺ: «قتالُ المؤمنِ كفرٌ». ولوْ كانَ قتالُ المؤمنِ الباغي كفراً لكانَ اللّهُ تعالى قدْ أمرَ بالكفرِ، تعالى اللّهُ عنْ ذلكَ! وقدْ قاتلَ الصّدّيقُ رضي الله عنه منْ تمسّكَ بالإسلامِ وامتنعَ منَ الزّكاةِ، وأمرَ ألّا يتبعَ مولٍّ، ولا يجهزَ على جريحٍ، ولمْ تحلَّ أموالهمْ، بخلافِ الواجبِ في الكفّارِ.

الرابعة– قالَ القاضي أبو بكرِ بنُ العربيِّ: هذهِ الآيةُ أصلٌ في قتالِ المسلمينَ، والعمدةُ في حربِ المتأوّلينَ، وعليها عوّلَ الصّحابةُ، وإليها لجأَ الأعيانُ منْ أهلِ الملّةِ، وإيّاها عنى النّبيُّ ﷺ بقولهِ: «تقتلُ عمّاراً الفئةُ الباغية». وقوله ﷺ في شأن الخوارج: «يخرجونَ على خيرِ فرقةٍ أوْ على حينِ فرقةٍ»، والرّوايةُ الأولى: أصحُّ، لقولهِ ﷺ: «تقتلهمْ أولى الطّائفتينِ إلى الحقِّ». وكانَ الّذي قتلهمْ عليُّ بنُ أبي طالبٍ ومنْ كانَ معهُ. فتقرّرَ عندَ علماءِ المسلمينَ وثبتَ بدليلِ الدّينِ أنَّ علياً رضي الله عنه كانَ إماماً، وأنَّ كلَّ منْ خرجَ عليهِ باغٍ وأن قتاله واجب حتى يفيءَ إلى الحقِّ وينقادَ إلى الصّلحِ، لأنَّ عثمانَ رضي الله عنه قتلَ والصّحابةُ برآءٌ منْ دمهِ، لأنّهُ منعَ منْ قتالِ منْ ثارَ عليهِ، وقالَ: لا أكونُ أوّلَ منْ خلفَ رسولِ اللّهِ ﷺ في أمّتهِ بالقتلِ، فصبرَ على البلاءِ، واستسلمَ للمحنةِ وفدى بنفسهِ الأمّةَ.

ثمَّ لمْ يمكنْ تركُ النّاسِ سدى، فعرضتْ على باقي الصّحابةِ الّذينَ ذكرهمْ «عمرُ» في الشّورى، وتدافعوها، وكانَ عليٌّ كرّمَ اللّهُ وجههُ أحقَّ بها وأهلها، فقبلها حوطةً على الأمّةِ أنْ تسفكَ دماؤها بالتّهارجِ والباطلِ، أوْ يتخرّقَ أمرها إلى ما لا يتحصّلُ. فربّما تغيّرَ الدّينُ وانقضَّ عمودُ الإسلامِ. فلمّا بويعَ لهُ طلبَ أهلُ الشّامِ في شرطِ البيعةِ التّمكّنَ منْ قتلةِ عثمانَ وأخذَ القودِ منهمْ، فقالَ: لهمْ عليٌّ رضي الله عنه: ادخلوا في البيعةِ واطلبوا الحقَّ تصلوا إليهِ. فقالوا:

لا تستحقُّ بيعةً وقتلةُ عثمانَ معكَ تراهمْ صباحاً ومساءً. فكانَ عليٌّ في ذلكَ أشدَّ رأياً وأصوبَ قيلاً، لأنَّ علياً لوْ تعاطى القودَ منهمْ لتعصّبتْ لهمْ قبائلُ وصارتْ حرباً ثالثةً، فانتظرَ بهمْ أنْ يستوثقَ الأمرُ وتنعقدَ البيعةُ، ويقعَ الطّلبُ منَ الأولياءِ في مجلسِ الحكمِ، فيجريَ القضاءُ بالحقِّ. ولا خلافَ بينَ الأمّةِ أنّهُ يجوزُ للإمامِ تأخيرُ القصاصِ إذا أدّى ذلكَ إلى إثارةِ الفتنةِ أوْ تشتيتِ الكلمةِ. وكذلكَ جرى لطلحةِ والزّبيرِ، فإنّهما ما خلعا علياً منْ ولايةٍ ولا اعترضا عليهِ في ديانةٍ، وإنّما رأيا أنَّ البداءةَ بقتلِ أصحابِ عثمانَ أولى.

قلت: فهذا قولٌ في سببِ الحربِ الواقعِ بينهمْ. وقالَ جلّةٌ منْ أهلِ العلمِ: إنَّ الوقعةَ بالبصرةِ بينهمْ كانتْ على غيرِ عزيمةٍ منهمْ على الحربِ بلْ فجأةً، وعلى سبيلِ دفعِ كلِّ واحدٍ منَ الفريقينِ عنْ أنفسهمْ لظنّهِ أنَّ الفريقَ الآخرَ قدْ غدرَ بهِ، لأنَّ الأمرَ كان قد انتظم بينهم، وتمَّ الصّلحُ والتّفرّقُ على الرّضا. فخافَ قتلةُ عثمانَ رضي الله عنه منَ التّمكينِ منهمْ والإحاطةِ بهمْ، فاجتمعوا وتشاوروا واختلفوا، ثمَّ اتّفقتْ آراؤهمْ على أنْ يفترقوا فريقينِ، ويبدءوا بالحربِ سحرةً في العسكرينِ، وتختلفَ السّهامُ بينهمْ، ويصيحُ الفريقُ الّذي في عسكرِ عليٍّ: غدرَ طلحةُ والزّبيرُ، والفريقُ الّذي في عسكرِ طلحةَ والزّبيرِ: غدرَ عليٌّ. فتمَّ لهمْ ذلكَ على ما دبّروهُ، ونشبتِ الحربُ، فكانَ كلَّ فريقٍ دافعاً لمكرتهِ عندَ نفسهِ، ومانعاً منَ الإشاطةِ بدمهِ. وهذا صوابٌ منَ الفريقينِ وطاعةٌ للّهِ تعالى، إذْ وقعَ القتالُ والامتناعُ منهما على هذهِ السّبيلِ. وهذا هوَ الصّحيحُ المشهورُ. والله أعلم.

الخامسة- قولهُ تعالى: ﴿فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبۡغِي حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمۡرِ ٱللَّهِۚ﴾ أمرٌ بالقتالِ. وهوَ فرضٌ على الكفايةِ إذا قامَ بهِ البعضُ سقطَ عنِ الباقينَ، ولذلكَ تخلّفَ قومٌ منَ الصّحابةِ رضي الله عنهم عنْ هذهِ المقاماتِ، كسعدِ بنِ أبي وقّاصٍ وعبدِ اللّهِ بنِ عمرو ومحمد بن سلمة وغيرهمْ. وصوّبَ ذلكَ عليُّ بنُ أبي طالبٍ لهمْ، واعتذرَ إليهِ كلُّ واحدٍ منهمْ بعذرٍ قبلهُ، منهُ. ويروى أنَّ معاويةَ رضي الله عنه لمّا أفضى إليهِ الأمرُ عاتبَ سعداً على ما فعلَ، وقالَ لهُ: لمْ تكنْ ممّنْ أصلحَ بينَ الفئتينِ حينَ اقتتلا، ولا ممّنْ قاتلَ الفئةَ الباغيةَ. فقالَ: لهُ سعدٌ: ندمتُ على تركي قتالَ الفئةِ الباغيةِ. فتبيّنَ أنّهُ ليسَ على الكلِّ دركٌ فيما فعلَ، وإنّما كانَ تصرّفاً بحكمِ الاجتهادِ وإعمالاً بمقتضى الشرعِ. والله أعلم.

السادسة- قوله تعالى: ﴿فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ﴾ ومنَ العدل في صلحهم ألا يطالبون بما جرى بينهمْ منْ دمٍ ولا مالٍ، فإنّهُ تلفٌ على تأويلٍ. وفي طلبهمْ تنفيرٌ لهمْ عنِ الصّلحِ واستشراءٌ في البغيِ. وهذا أصلٌ في المصلحةِ.

السابعة- إذا خرجتْ على الإمامِ العدلِ خارجةٌ باغيةٌ ولا حجّةَ لها، قاتلهمُ الإمامُ بالمسلمينَ كافةً أو بمن فيه الكفاية، ويدعوهمْ قبلَ ذلكَ إلى الطّاعةِ والدّخولِ في الجماعة، فإن أبو من الرّجوعِ والصّلحِ قوتلوا. ولا يقتلُ أسيرهمْ ولا يتبعُ مدبرهمْ ولا يذفّفُ على جريحهمْ، ولا تسبى ذراريهمْ ولا أموالهمُ. وإذا قتلَ العادلُ الباغيَ أوِ الباغي العادلَ وهوَ وليّهُ لمْ يتوارثا. ولا يرثُ قاتلٌ عمداً على حالٍ. وقيلَ: إنَّ العادلَ يرثُ الباغي، قياساً على القصاصِ.

الثّامنةُ- وما استهلكهُ البغاةُ والخوارجُ منْ دمٍ أوْ مالٍ ثمَّ تابوا لمْ يؤاخذوا بهِ. وقالَ أبو حنيفةَ: يضمنونَ. وللشّافعيِّ قولانِ. وجهُ قولِ أبي حنيفةَ أنّهُ إتلافٌ بعدوانٍ فيلزمُ الضّمانُ. والمعوّلُ في ذلكَ عندنا أنَّ الصّحابةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ في حروبهمْ لمْ يتبعوا مدبراً ولا ذفّفوا على جريحٍ ولا قتلوا أسيراً ولا ضمنوا نفساً ولا مالاً، وهمُ القدوةُ.

فأمّا ما كانَ قائماً ردَّ بعينهِ. هذا كلّهُ فيمنْ خرجَ بتأويلٍ يسوّغُ لهُ.

التاسعة- ولوْ تغلّبوا على بلدٍ فأخذوا الصّدقاتِ وأقاموا الحدودَ، وحكموا فيهمْ بالأحكام، لمْ تثنَّ عليهمُ الصّدقاتُ ولا الحدود، ولا ينقض منْ أحكامهمْ إلّا ما كانَ خلافاً للكتابِ أوِ السّنّةِ أوِ الإجماعِ، كما تنقضُ أحكامُ أهلِ العدلِ والسّنّةِ، وقالَ ابنُ القاسمِ: لا تجوزُ بحالٍ وبهِ قالَ أبو حنيفةَ، لأنّهُ عملٌ بغيرِ حقٍّ ممّنْ لا تجوزُ توليتهُ. فلمْ يجزْ كما لوْ لمْ يكونوا بغاةً. والعمدةُ لنا ما قدّمناهُ منْ أنَّ الصّحابةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، لمّا انجلتِ الفتنةُ وارتفعَ الخلافُ بالهدنةِ والصّلحِ، لمْ يعرضوا لأحدٍ منهمْ في حكمٍ.

العاشرة- لا يجوزُ أنْ ينسبَ إلى أحدٍ منَ الصّحابةِ خطأٌ مقطوعٌ بهِ، إذْ كانوا كلّهمُ اجتهدوا فيما فعلوهُ وأرادوا اللّهَ عزَّ وجلَّ، وهمْ كلّهمْ لنا أئمّةٌ، وقدْ تعبّدنا بالكفِّ عمّا شجرَ بينهمْ، وألّا نذكرهمْ إلّا بأحسنَ الذّكرِ، لحرمةِ الصّحبةِ ولنهيِ النّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عنْ سبّهمْ، وأنَّ اللّهَ غفرَ لهمْ، وأخبرَ بالرّضا عنهمْ. هذا معَ ما قدْ وردَ منَ الأخبارِ منْ طرقٍ مختلفةٍ عنِ النّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

أنَّ طلحةَ شهيدٌ يمشي على وجهِ الأرضِ، فلوْ كانَ ما خرجَ إليهِ منَ الحربِ عصيانـًا لـمْ يكنْ بالقتلِ فيهِ شهيداً. وكذلكَ لوْ كانَ ما خرجَ إليهِ خطأً في التّأويلِ وتقصيراً في الواجبِ عليهِ، لأنَّ الشّهادةَ لا تكونُ إلّا بقتلٍ في طاعةٍ، فوجبَ حملُ أمرهمْ على ما بيّنّاهُ. وممّا يدلُّ على ذلكَ ما قدْ صحَّ وانتشرَ منْ أخبارِ عليٍّ بأنَّ قاتلَ الزّبيرِ في النار. وقوله: سمعتُ رسولَ اللّهِ ﷺ يقولُ: «بشّرْ قاتلَ ابنِ صفيّةَ بالنّارِ». وإذا كانَ كذلكَ فقدْ ثبتَ أنَّ طلحةَ والزّبيرَ غيرُ عاصيين ولا آثمينِ بالقتالِ، لأنَّ ذلكَ لوْ كانَ كذلكَ لـمْ يقلِ النّبيُّ ﷺ في طلحةَ: «شهيدٌ». ولمْ يخبرْ أنَّ قاتلَ الزّبيرِ في النّارِ. وكذلكَ منْ قعدَ غيرَ مخطئٍ في التّأويلِ. بلْ صوابٌ أراهم اللّهُ الاجتهادَ. وإذا كانَ كذلكَ لـمْ يوجبْ ذلكَ لعنهمْ والبراءةَ منهمْ وتفسيقهمْ، وإبطالَ فضائلهمْ وجهادهمْ، وعظيمَ غنائهمْ في الدّينِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ. وقدْ سئلَ بعضهم عنِ الدّماءِ الّتي أريقتْ فيما بينهمْ فقالَ: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾. وسئلَ بعضهمْ عنها أيضـًا فقالَ: تلكَ دماءٌ طهّرَ اللّهُ منها يدي، فلا أخضّبُ بها لساني. يعني في التّحرّزِ منَ الوقوعِ في خطأٍ، والحكمِ على بعضهمْ بما لا يكونُ مصيبـًا فيهِ.

قولهُ تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾﴾، فيهِ ثلاثُ مسائلَ:

الأولى: قولهُ تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ أيْ في الدّينِ والحرمةِ لا في النّسبِ، ولهذا قيل: أخوّةُ الدّينِ أثبتُ منْ أخوّةِ النّسبِ، فإنَّ أخوة النسب تنقطع بمخالفة الدين، وأخوّةَ الدّينِ لا تنقطعُ بمخالفةِ النّسبِ. وفي الصّحيحينِ عنْ أبي هريرةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قالَ: قالَ رسولُ اللّهِ ﷺ: «لا تحاسدوا ولا تناجشوا ولا تباغضوا ولا تدابروا ولا يبعْ بعضكمْ على بيعِ بعضٍ وكونوا عبادَ اللّهِ إخوانـًا، المسلمُ أخو المسلمِ لا يظلمهُ ولا يخذلهُ ولا يحقره، التقوى ها هنا- ويشيرُ إلى صدرهِ ثلاثَ مرّاتٍ- بحسبِ امرئٍ منَ الشّرِّ أنْ يحقرَ أخاهُ المسلمَ، كلُّ المسلمِ على المسلمِ حرامٌ دمهُ ومالهُ وعرضهِ» لفظُ مسلمٍ.

الثانية- قولهُ تعالى: ﴿فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ أيْ بينَ كلِّ مسلمينِ تخاصما. وقيلَ: بينَ الأوسِ والخزرجِ، وقيلَ: أرادَ بالأخوينِ الطّائفتينِ، وقيلَ: أيْ أصلحوا بينَ كلِّ أخوينِ، فهوَ آتٍ على الجميعِ.

الثالثة- في هذهِ الآيةِ والّتي قبلها دليلٌ على أنَّ البغي لا يزيلُ اسمَ الإيمانِ، لأنَّ اللّهَ تعالى سمّاهمْ إخوةً مؤمنينَ معَ كونهمْ باغينَ. قالَ عليُّ بنُ أبي طالبٍ ﵁ وهوَ القدوةُ عنْ قتالِ أهلِ البغيِ منْ أهلِ الجمل وصفين: إخواننا بغوا علينا.

قولهُ تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهُنَّۖ ١١﴾ فيه أربع مسائل:

الأولى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ﴾ قيلَ عندَ اللّهِ. وقيلَ ﴿خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ﴾ أيْ معتقداً وأسلمَ باطناً. والسّخريةُ الاستهزاءُ.

الثانية- ينبغي ألّا يجترئَ أحدٌ على الاستهزاءِ بمنْ يقتحمهُ بعينهِ إذا رآهُ رثَّ الحالِ أوْ ذا عاهةٍ في بدنهِ أوْ غيرِ لبيقٍ في محادثتهِ، فلعلّهُ أخلصُ ضميراً وأنقى قلباً ممّنْ هوَ على ضدِّ صفتهِ، فيظلمُ نفسهُ بتحقيرِ منْ وقّرهُ اللّهُ، والاستهزاءِ بمنْ عظّمهُ اللّهُ.

و ﴿قَوۡمٞ﴾ في اللّغةِ للمذكّرينَ خاصّةً. قالَ زهيرٌ:

وما أدري وسوفَ إخالُ أدري أقومٌ آلُ حصنٍ أمْ نساءُ

وسمّوا قوماً لأنّهمْ يقومونَ معَ داعيهمْ في الشّدائدِ. وقيلَ: إنّهُ جمع قائم، ثمَّ استعملَ في كلِّ جماعةٍ وإنْ لمْ يكونوا قائمينَ. وقدْ يدخلُ في القومِ النّساءُ مجازا.

الثالثة- قولهُ تعالى: ﴿وَلَا نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهُنَّۖ﴾ أفردَ النّساءَ بالذّكرِ لأنَّ السّخريةَ منهنَّ أكثرُ. وقدْ قالَ تعالى: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦٓ﴾ فشملَ الجميعَ.

الرابعة- في صحيحِ التّرمذيِّ عنْ عائشةَ قالتْ: حكيتُ للنّبيِّ ﷺ رجلاً، فقالَ: «ما يسرّني أنّي حكيتُ رجلاً وأنَّ لي كذا وكذا». قالتْ فقلت: يا رسولَ اللّهِ، إنَّ صفيّةَ امرأةٌ- وقالتْ بيدها- هكذا، يعني أنّها قصيرةٌ. فقالَ: «لقدْ مزجتِ بكلمةٍ لوْ مزجَ بها البحرُ لمزجَ».

وفي البخاريِّ عنْ عبدِ اللّهِ بنِ زمعةَ قالَ: نهى النّبيُّ ﷺ أنْ يضحكَ الرّجلُ ممّا يخرجُ منَ الأنفسِ، وقالَ: «لِمَ يضربُ أحدكمُ امرأتهُ ضربَ الفحلِ ثمَّ لعلّهُ يعانقها». وفي صحيحِ مسلمٍ عنْ أبي هريرةَ قالَ: قالَ رسولُ اللّهِ ﷺ: «إنَّ اللّهَ لا ينظرُ إلى صوركمْ وأموالكمْ ولكنْ

ينظرُ إلى قلوبكمْ وأعمالكمْ». وهذا حديثٌ عظيمٌ يترتّبُ عليهِ ألّا يقطعَ بعيبِ أحدٍ لما يرى عليهِ منْ صورِ أعمالِ الطّاعةِ أوِ المخالفةِ، فلعلَّ منْ يحافظُ على الأعمالِ الظّاهرةِ يعلمُ اللّهُ منْ قلبهِ وصفًا مذمومًا لا تصح معهُ تلكَ الأعمالُ. ولعلَّ منْ رأينا عليهِ تفريطًا أوْ معصيةً يعلمُ اللّهُ منْ قلبهِ وصفًا محمودًا يغفرُ لهُ بسببهِ. فالأعمالُ أماراتٌ ظنّيّةٌ لا أدلّةٌ قطعيّةٌ. ويترتّبُ عليها عدمُ الغلوِّ في تعظيمِ منْ رأينا عليهِ أفعالاً صالحةً، وعدمُ الاحتقارِ لمسلمٍ رأينا عليهِ أفعالاً سيّئةً. بلْ تحتقرُ وتذمُّ تلكَ الحالةُ السّيّئةُ، لا تلكَ الذّاتُ المسيئةُ. فتدبّرْ هذا، فإنّهُ نظرٌ دقيقٌ، وباللّهِ التّوفيقُ.

قولهُ تعالى: ﴿وَلَا تَلۡمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ﴾ فيه ثلاث مسائل:

الأولى: قولهُ تعالى: ﴿وَلَا تَلۡمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ﴾ اللّمزُ: العيبُ، وقدْ مضى في «براءةٌ» عندَ قولهُ تعالى: ﴿وَمِنۡهُم مَّن يَلۡمِزُكَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ﴾. واللّمزُ باليدِ والعينِ واللّسانِ والإشارةِ. والهمزُ لا يكونُ إلّا باللّسانِ. وهذهِ الآيةُ مثل قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡۚ﴾ أيْ لا يقتلُ بعضكمْ بعضًا، لأنَّ المؤمنينَ كنفسٍ واحدةٍ، فكأنّهُ بقتلِ أخيهِ قاتل نفسهُ. وكقوله تعالى: ﴿فَسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ﴾ يعني يسلّمُ بعضكمْ على بعضٍ. والمعنى: لا يعبْ بعضكمْ بعضًا. وفي قولهِ ﴿أَنفُسَكُمۡ﴾ تنبيهٌ على أنَّ العاقلَ لا يعيبُ نفسهُ، فلا ينبغي أنْ يعيبَ غيرهُ لأنّهُ كنفسهِ، قالَ ﷺ: «المؤمنونَ كجسدٍ واحدٍ إنِ اشتكى عضوٌ منهُ تداعى لهُ سائرُ الجسدِ بالسّهرِ والحمّى».

الثانية- قولهُ تعالى: ﴿وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلۡأَلۡقَٰبِۖ﴾ النّبزُ بالتّحريكِ اللّقبُ، والجمعُ الأنبازُ. والنّبْزُ بالتّسكينِ المصدرُ، تقولُ: نبزهُ ينبزهُ نبزًا، أيْ لقّبهُ. وفلانٌ ينبّزُ بالصّبيانِ أيْ يلقّبهمْ، وتنابزوا بالألقابِ: أيْ لقّبَ بعضهمْ بعضًا، وكانَ الرّجلُ يعيّرُ بعدَ إسلامهِ بكفرهِ يا يهوديُّ يا نصرانيُّ، فنزلتْ. ﴿بِئۡسَ ٱلِٱسۡمُ ٱلۡفُسُوقُ بَعۡدَ ٱلۡإِيمَٰنِۚ﴾ أي بئس أن يسمى الرجل كافرا أو زانيا بعد إسلامه وتوبته، فمن لقب أخاه أو سخر منه فهو فاسق. وفي الصحيح «من قال لأخيه يا كافر فقد باء بها أحدهما إن كان كما قال وإلا رجعت عليه». فمن فعل ما نهى الله عنه من السخرية والهمز والنبز فذلك فسوق، وذلك لا يجوز. وقدْ رويَ أنَّ أبا ذرٍّ رضي الله عنه كانَ عندَ النّبيِّ ﷺ فنازعه رجلٌ فقالَ: لهُ أبو ذرٍّ: يا ابنَ اليهوديّةِ! فقالَ: النّبيُّ ﷺ: «ما ترى ها هنا أحمرَ

وأسودَ ما أنتَ بأفضلَ منهُ» يعني بالتّقوى، ونزلتْ ﴿وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلْأَلْقَٰبِ﴾.

الثالثة- وقعَ منْ ذلكَ مستثنى منْ غلبَ عليهِ الاستعمالُ كالأعرجِ والأحدبِ ولمْ يكنْ لهُ فيهِ كسبٌ يجدُ في نفسهِ منهُ عليهِ، فجوّزتهُ الأمّةُ واتّفقَ على قولهِ أهلُ الملّةِ.

والّذي يضبطُ هذا كلّهُ، أن كل ما يكرهه الإنسانُ إذا نوديَ بهِ فلا يجوزُ لأجلِ الإذاية، وعلى هذا المعنى ترجمَ البخاريُّ رحمهُ اللّهُ في «كتابِ الأدبِ» منَ الجامعِ الصّحيحِ. في «بابِ ما يجوزُ منْ ذكرِ النّاسِ نحوَ قولهمُ الطّويلِ والقصيرِ لا يرادُ بهِ شينُ الرّجلِ» قالَ: وقالَ النّبيُّ ﷺ: «ما يقولُ ذو اليدينِ».

قالَ ابنُ خويزِ منداد: تضمّنتِ الآيةُ المنعَ منْ تلقيبِ الإنسانِ بما يكرهُ، ويجوزُ تلقيبهُ بما يحبُّ، ألا ترى أنَّ النّبيَّ ﷺ لقّبَ عمرَ بالفاروقِ، وأبا بكرٍ بالصّدّيقِ، وعثمانَ بذي النّورينِ، وخزيمةَ بذي الشّهادتينِ، وأبا هريرةَ بذي الشّمالينِ وبذي اليدينِ، في أشباهِ ذلكَ.

ومنْ حقِّ المؤمنِ على المؤمنِ أنْ يسمّيهُ بأحبِّ أسمائهِ إليهِ، ولهذا كانتِ التّكنيةُ منَ السّنّةِ والأدبِ الحسنِ، قالَ عمرُ رضي الله عنه: أشيعوا الكنى فإنّها منبّهةٌ. ولقدْ لقّبَ أبو بكرٍ بالعتيقِ والصّدّيقِ، وعمرُ بالفاروقِ، وحمزةُ بأسدِ اللّهِ، وخالدٌ بسيفِ اللّهِ. وقلَّ منَ المشاهيرِ في الجاهليّةِ والإسلامِ منْ ليسَ لهُ لقبٌ. ولمْ تزلْ هذهِ الألقابُ الحسنةُ في الأممِ كلّها- منَ العربِ والعجمِ- تجري في مخاطباتهمْ ومكاتباتهمْ منْ غيرِ نكيرٍ.

قالَ الماورديُّ: فأمّا مستحبُّ الألقابِ ومستحسنها فلا يكرهُ. وقدْ وصفَ رسولُ اللّهِ ﷺ عدداً منْ أصحابهِ بأوصافٍ صارتْ لهمْ منْ أجلِّ الألقابِ.

قلتُ- فأمّا ما يكونُ ظاهرها الكراهةُ إذا أريدَ بها الصّفةُ لا العيبُ فذلكَ كثيرٌ. وقدْ سئلَ عبدُ اللّهِ بنُ المباركِ عنِ الرّجلِ يقولُ: حميدٌ الطّويلُ، وسليمانُ الأعمشُ، وحميدٌ الأعرجُ، ومروانُ الأصغرُ، فقالَ: إذا أردتَ صفتهُ ولمْ تردْ عيبهُ فلا بأسَ بهِ. وفي صحيحِ مسلمٍ عنْ عبدِ اللّهِ بنِ سرجسَ قالَ: رأيتُ الأصلعَ- يعني عمرَ- يقبّلُ الحجرَ. في روايةٍ الأصيلعَ.

قولهُ تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَتُبْ﴾ أيْ عنْ هذهِ الألقابِ الّتي يتأذّى بها السّامعونَ. ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۝٩﴾ لأنفسهم بارتكاب هذه المناهي.

قولهُ تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾﴾، فيهِ عشرُ مسائلَ:

الأولى: قولهُ تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ﴾ أيْ لا تظنّوا بأهلِ الخيرِ سوءاً إنْ كنتمْ تعلمونَ منْ ظاهرِ أمرهمُ الخيرَ.

الثانية- ثبتَ في الصّحيحينِ عنْ أبي هريرةَ أنَّ النّبيَّ ﷺ قالَ: «إيّاكمْ والظّنَّ فإنَّ الظّنَّ أكذبُ الحديثِ ولا تحسّسوا ولا تجسّسوا ولا تناجشوا ولا تحاسدوا ولا تباغضوا ولا تدابروا وكونوا عبادَ اللّهِ إخوانـًا» لفظُ البخاريِّ.

قالَ علماؤنا: فالظّنُّ هنا وفي الآيةِ هوَ التّهمةُ. ومحلُّ التّحذيرِ والنّهيِ إنّما هوَ تهمةٌ لا سببَ لها يوجبها، كمنْ يتّهمُ بالفاحشةِ أوْ بشربِ الخمرِ مثلاً ولمْ يظهرْ عليهِ ما يقتضي ذلكَ. ودليلُ كونِ الظّنِّ هنا بمعنى التهمة قول تعالى: ﴿وَلَا تَجَسَّسُواْ﴾ وذلكَ أنّهُ قدْ يقعُ لهُ خاطرُ التّهمةِ ابتداءً ويريدُ أنْ يتجسّسَ خبر ذلك ويبحث عنه، ويتبصر ويستمع لتحقق ما وقعَ لهُ منْ تلكَ التّهمةِ. فنهى النّبيِّ ﷺ عنْ ذلكَ. وإنْ شئتَ قلت: والّذي يميّزُ الظّنونَ الّتي يجبُ اجتنابها عمّا سواها أنَّ كلَّ ما لمْ تعرفْ لهُ أمارةٌ صحيحةٌ وسببٌ ظاهرٌ كان حراما واجب الاجتناب، بخلافِ منِ اشتهرهُ النّاسُ بتعاطي الرّيبَ والمجاهرةِ بالخبائثِ.

الثالثة- للظّنِّ حالتانِ:

-**حالةٌ** تعرفُ وتقوى بوجهٍ منْ وجوهِ الأدلّةِ فيجوزُ الحكمُ بها، وأكثرُ أحكامِ الشّريعةِ مبنيّةٌ على غلبةِ الظّنِّ، كالقياسِ وخبرِ الواحدِ وغيرِ ذلكَ منْ قيمِ المتلفاتِ وأروشِ الجناياتِ.

-**والحالةُ الثانية-** أنْ يقعَ في النّفسِ شيءٌ منْ غيرِ دلالةٍ فلا يكونُ ذلكَ أولى منْ ضدّهِ، فهذا هوَ الشّكُّ، فلا يجوزُ الحكمُ بهِ، وهوَ المنهيُّ عنهُ على ما قرّرناهُ آنفـًا.

وقدْ أنكرتْ جماعةٌ منَ المبتدعةِ تعبّدَ اللّهِ بالظّنِّ وجوازِ العملِ بهِ، تحكّمـًا في الدّينِ ودعوى في المعقولِ. وليسَ في ذلكَ أصلٌ يعوّلُ عليهِ، فإنَّ البارئَ تعالى لمْ يذمَّ جميعهُ، وإنّما

أوردَ الذمَّ في بعضهِ، وربّما تعلّقوا بحديثِ أبي هريرةَ «إيّاكمْ والظّنَّ» فإنَّ هذا لا حجّةَ فيهِ، لأنَّ الظّنَّ في الشّريعةِ قسمانِ: محمودٌ ومذمومٌ، فالمحمودُ منهُ ما سلمَ معهُ دينُ الظّانِّ والمظنونِ بهِ عندَبلوغهِ. والمذمومُ ضدّهُ، بدلالةِ قولهِ تعالى: ﴿إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞۖ﴾، وقوله: ﴿لَّوۡلَآ إِذۡ سَمِعۡتُمُوهُ ظَنَّ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمۡ خَيۡرٗا﴾، وقولهُ: ﴿وَظَنَنتُمۡ ظَنَّ ٱلسَّوۡءِ وَكُنتُمۡ قَوۡمَۢا بُورٗا﴾، وقالَ النّبيُّ ﷺ: «إذا كانَ أحدكمْ مادحـًا أخاهُ فليقلْ أحسبُ كذا ولا أزكّي على اللّهِ أحداً».

وأكثرُ العلماءِ على أنَّ الظّنَّ القبيحَ بمنْ ظاهرهُ الخيرُ لا يجوزُ، وأنّهُ لا حرجَ في الظن القبيح بمن ظاهره القبح.

الرابعة- قولهُ تعالى: ﴿وَلَا تَجَسَّسُواْ﴾ التّجسّسَ «بالجيم» هوَ البحثُ، ومنهُ قيل: رجلٌ جاسوسٌ إذا كانَ يبحثُ عنِ الأمورِ. وبالحاءِ: هوَ ما أدركهُ الإنسانُ ببعضِ حواسّهِ. وقولٌ ثانٍ في الفرقِ: أنّهُ بالحاءِ تطلّبهُ لنفسهِ، وبالجيمِ أنْ يكونَ رسولاً لغيرهِ، ومعنى الآيةِ: خذوا ما ظهرَ ولا تتّبعوا عوراتِ المسلمينَ، أيْ لا يبحثُ أحدكمْ عنْ عيبِ أخيهِ حتّى يطّلعَ عليهِ بعدَ أنْ سترهُ اللّهُ. وفي كتابِ أبي داودَ عنْ معاويةَ قالَ سمعتُ رسولَ اللّهِ ﷺ يقولُ: «إنّكَ إنِ اتّبعتَ عوراتِ الناس أفسدتهم أو كدت أن تفسدهمْ» فقالَ أبو الدّرداءِ: كلمةٌ سمعها معاويةُ منْ رسولِ اللّهِ ﷺ نفعهُ اللّهُ تعالى بها.

وعنْ زيدِ بنِ وهبٍ قالَ: أُتيَ ابنُ مسعودٍ فقيلَ: هذا فلانٌ تقطرُ لحيتهُ خمراً. فقالَ: عبدُ اللّهِ: إنّا قدْ نهينا عنِ التّجسّسِ، ولكنْ إنْ يظهرْ لنا شيءٌ نأخذُ بهِ.

وعنْ أبي برزةَ الأسلميِّ قالَ: قالَ رسولُ اللّهِ ﷺ: «يا معشرَ منْ آمنَ بلسانهِ ولمْ يدخلِ الإيمانُ قلبهُ لا تغتابوا المسلمينَ ولا تتّبعوا عوراتهمْ، فإنَّ منِ اتّبعَ عوراتهمْ يتّبعُ اللّهُ عورتهُ ومنْ يتّبعِ اللّهُ عورتهُ يفضحهُ في بيتهِ».

وقالَ عبدُ الرّحمنِ ابن عوفٍ: حرستُ ليلةً معَ عمرَبنِ الخطّابِ رضي الله عنه بالمدينةِ إذْ تبيّنَ لنا سراجٌ في بيتٍ بابهُ مجافٍ على قومٍ لهمْ أصواتٌ مرتفعةٌ ولغطٌ، فقالَ: عمرُ: هذا بيتُ ربيعةَ بنِ أميّةِ بنِ خلفٍ، وهمُ الآنَ شرّبٌ فما ترى!؟ قلت: أرى أنّا قدْ أتينا ما نهى اللّهُ عنهُ، قالَ اللّهُ

تعالى: ﴿وَلَا تَجَسَّسُواْ﴾ وقدْ تجسّسنا، فانصرفَ عمرُ وتركهمْ.

الخامسة- قولهُ تعالى: ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًاۚ﴾ نهى عزَّ وجلَّ عنِ الغيبةِ، وهيَ أنْ تذكرَ الرّجلَ بما فيهِ، فإنْ ذكرتهُ بما ليسَ فيهِ فهوَ البهتانُ. ثبتَ معناهُ في صحيح مسلمٍ عنْ أبي هريرةَ أنَّ رسولَ اللّهِ ﷺ قالَ: «أتدرونَ ما الغيبةُ»؟ قالوا: اللّهُ ورسولهُ أعلمُ. قالَ: «ذكركَ أخاكَ بما يكرهُ» قيلَ: أفرأيتَ إنْ كان في أخي ما أقول؟ قالَ: «إنْ كانَ فيهِ ما تقولُ فقدِ اغتبتهُ وإنْ لمْ يكنْ فيهِ فقدْ بهتّهُ».

قالَ الحسنُ: الغيبةُ ثلاثةُ أوجهٍ كلّها في كتابِ اللّهِ تعالى: الغيبةُ والإفكُ والبهتانُ. فأمّا الغيبةُ فهوَ أنْ تقولَ في أخيكَ ما هوَ فيهِ. وأمّا الإفكُ فأنْ تقولَ فيهِ ما بلغكَ عنهُ. وأمّا البهتانُ فأنْ تقولَ فيهِ ما ليسَ فيهِ.

وعنْ شعبةَ قالَ: قالَ لي معاويةُ -يعني ابنَ قرّةَ-: لوْ مرَّ بكَ رجلٌ أقطعُ، فقلت هذا أقطعُ كانَ غيبةً. قالَ شعبةُ: فذكرتهُ لأبي إسحاقَ فقالَ: صدق.

وروى أبو هريرة أن الأسلمي ماعزاً جاءَ إلى النّبيِّ ﷺ فشهدَ على نفسهِ بالزّنى فرجمهُ رسولُ اللّهِ ﷺ. فسمعَ نبيُّ اللّهِ ﷺ رجلينِ منْ أصحابهِ يقولُ أحدهما للآخرِ: انظرْ إلى هذا الّذي سترَ اللّهُ عليهِ فلمْ تدعهُ نفسهُ حتّى رجمَ رجمَ الكلبِ، فسكتَ عنهما. ثمَّ سارَ ساعةً حتّى مرَّ بجيفةِ حمارٍ شائلٍ برجلهِ فقالَ: «أينَ فلانٌ وفلانٌ»؟ فقالا: نحنُ ذا يا رسولَ اللّهِ، قالَ: «انزلا فكلا منْ جيفةِ هذا الحمارِ» فقالا: يا نبيَّ اللّهِ ومنْ يأكلُ منْ هذا! قالَ: «فما نلتما منْ عرضِ أخيكما أشدُّ منَ الأكلِ منهُ والّذي نفسي بيدهِ إنّهُ الآنَ لفي أنهارِ الجنّةِ ينغمسُ فيها».

السادسة- قولهُ تعالى: ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا﴾ مثّلَ اللّهُ الغيبةَ بأكلِ الميتةِ، لأنَّ الميّتَ لا يعلمُ بأكلِ لحمهِ كما أنَّ الحيَّ لا يعلمُ بغيبةِ منِ اغتابهُ. وقالَ ابنُ عبّاسٍ: إنّما ضربَ اللّهُ هذا المثلَ للغيبةِ لأنَّ أكلَ لحمِ الميّتِ حرامٌ مستقذرٌ، وكذا الغيبةُ حرامٌ في الدّينِ وقبيحٌ في النّفوسِ. واستعملَ أكلَ اللّحمِ مكانَ الغيبةِ لأنَّ عادةَ العربِ بذلكَ جاريةٌ. قالَ الشّاعرُ:

فإنْ أكلوا لحمي وفرتُ لحومهمْ وإنْ هدموا مجدي بنيت لهم مجدا

وفي كتابِ أبي داودَ عنْ أنسِ بنِ مالكٍ قالَ: قالَ رسولُ اللّهِ ﷺ: «لمّا عرجَ بي مررتُ بقومٍ لهمْ أظفارٌ منْ نحاسٍ يخمشونَ وجوههمْ وصدورهمْ فقلت: منْ هؤلاءِ يا جبريلُ؟ قالَ هؤلاءِ الّذينَ يأكلونَ لحومَ النّاسِ ويقعونَ في أعراضهمْ».

وقالَ عمرُ بنُ الخطّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: إيّاكمْ وذكرَ النّاسِ فإنّهُ داءٌ، وعليكمْ بذكرِ اللّهِ فإنّهُ شفاءٌ. وسمعَ عليُّ بنُ الحسينِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا رجلاً يغتابُ آخرَ، فقالَ: إيّاكَ والغيبةَ فإنّها إدامُ كلابِ النّاسِ.

وقالَ رجلٌ للحسنِ: بلغني أنّكَ تغتابني! فقالَ: لمْ يبلغْ قدركَ عندي أنْ أحكّمكَ في حسناتي.

السابعة- ذهبَ قومٌ إلى أنَّ الغيبةَ لا تكونُ إلّا في الدّينِ ولا تكونُ في الخلقةِ والحسبِ. وقالوا: ذلكَ فعلُ اللّهِ بهِ. وذهبَ آخرونَ إلى عكسِ هذا فقالوا: لا تكونُ الغيبةُ إلّا في الخلقِ والخُلقِ والحسبِ. والغيبةُ في الخَلقِ أشدُّ، لأنَّ منْ عيّبَ صنعةً فإنّما عيّبَ صانعها. وهذا كلّهُ مردودٌ:

أمّا الأوّلُ: فيردّهُ حديثُ عائشةَ حينَ قالتْ في صفيّةَ: إنّها امرأةٌ قصيرةٌ، فقالَ: لها النّبيُّ ﷺ: «لقدْ قلتِ كلمةً لوْ مزجَ بها البحرُ لمزجتهُ». خرّجهُ أبو داودَ. وقالَ فيهِ التّرمذيُّ: حديثٌ حسنٌ صحيحٌ، وإجماعُ العلماءِ قديمـًا على أنَّ ذلكَ غيبةٌ إذا أُريدَ بهِ العيبُ.

وأمّا الثّاني: فمردودٌ أيضـًا عندَ جميعِ العلماءِ، لأنَّ العلماءَ منْ أوّلِ الدّهرِ منْ أصحابِ رسولِ اللّهِ ﷺ والتّابعينَ بعدهمْ لمْ تكنِ الغيبةُ عندهمْ في شيءٍ أعظمَ منَ الغيبةِ في الدّينِ، لأنَّ عيبَ الدّينِ أعظمُ العيبِ، فكلُّ مؤمنٍ يكرهُ أنْ يذكرَ في دينهِ أشدَّ ممّا يكرهُ في بدنهِ. وكفى رداً لمنْ قالَ هذا القولَ قولهُ ﷺ: «إذا قلتَ في أخيكَ ما يكرهُ فقدِ اغتبتهُ...» الحديث. فمنْ زعمَ أنَّ ذلكَ ليسَ بغيبةٍ فقدْ ردَّ ما قالَ النّبيُّ ﷺ نصـًا. وكفى بعمومِ قولِ النّبيِّ ﷺ: «دماؤكمْ وأموالكمْ وأعراضكمْ عليكمْ حرامٌ» وذلكَ عامٌّ للدّينِ والدنيا. وقولُ النّبيِّ ﷺ: «منْ كانت عندهُ لأخيهِ مظلمةٌ في عرضهِ أوْ مالهِ فليتحلّلهُ منهُ». فعمَّ كلَّ عرضٍ، فمنْ خصَّ منْ ذلكَ شيئـًا دونَ شيءٍ فقدْ عارضَ ما قال النبي ﷺ.

الثّامنةُ- لا خلافَ أنَّ الغيبةَ منَ الكبائرِ، وأنَّ منِ اغتابَ أحداً عليهِ أنْ يتوبَ إلى اللّهِ عزَّ وجلَّ. وهلْ يستحلُّ المغتابُ؟ اختلفَ فيهِ:

فقالتْ فرقةٌ: ليسَ عليهِ استحلالهُ، وإنّما هيَ خطيئةٌ بينهُ وبينَ ربّهِ. واحتجّتْ بأنّهُ لمْ يأخذْ منْ مالهِ ولا أصابَ منْ بدنهِ ما ينقصهُ، فليسَ ذلكَ بمظلمةٍ يستحلّها منهُ، وإنّما المظلمةُ ما يكونُ منهُ البدلُ والعوضُ في المالِ والبدنِ.

وقالتْ فرقةٌ: هيَ مظلمةٌ، وكفّارتها الاستغفارُ لصاحبها الّذي اغتابهُ. واحتجّتْ بحديثٍ يروى عنِ الحسنِ قالَ: كفّارةُ الغيبةِ أنْ تستغفرَ لمنِ اغتبتهُ.

وقالتْ فرقةٌ: هيَ مظلمةٌ وعليهِ الاستحلالُ منها. واحتجّتْ بما خرّجهُ البخاريُّ منْ حديثِ أبي هريرةَ ﵁ قالَ: قالَ رسولُ اللّهِ ﷺ: «منْ كانتْ لهُ مظلمةٌ لأخيهِ منْ عرضهِ أوْ شيءٌ فليتحلّلهُ منهُ اليومَ قبلَ ألّا يكونَ لهُ دينارٌ ولا درهمٌ إنْ كانَ لهُ عملٌ صالحٌ أخذَ منهُ بقدرِ مظلمتهِ وإنْ لمْ يكنْ لهُ حسناتٌ أخذَ منْ سيّئاتِ صاحبهِ فحملَ عليهِ».

وأمّا قولُ منْ قالَ: إنّما الغيبةُ في المالِ والبدنِ، فقدْ أجمعتِ العلماءُ على أنَّ على القاذفِ للمقذوفِ مظلمةً يأخذهُ بالحدِّ حتّى يقيمهُ عليهِ، وذلكَ ليسَ في البدنِ ولا في المالِ، ففي ذلكَ دليلٌ على أنَّ الظّلمَ في العرضِ والبدنِ والمالِ، وقدْ قالَ اللّهُ تعالى في القاذفِ: ﴿فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَـٰذِبُونَ﴾.

وأمّا منْ قالَ: إنّها مظلمةٌ، وكفّارةُ المظلمةِ أنْ يستغفرَ لصاحبها، فقدْ ناقضَ إذْ سمّاها مظلمةً ثمَّ قالَ كفّارتها أنْ يستغفرَ لصاحبها، لأنَّ قولهُ مظلمةٌ تثبتُ ظلامةَ المظلومِ، فإذا ثبتتِ الظّلامةُ لمْ يزلها عنِ الظّالمِ إلّا إحلالُ المظلومِ لهُ. وأمّا قولُ الحسنِ فليسَ بحجّةٍ.

وقدْ ذهبَ بعضهمْ إلى تركِ التّحليلِ لمنْ سألهُ، ورأى أنّهُ لا يحلُّ ما حرّمَ اللّهُ عليهِ، منهمْ سعيدُ بنُ المسيّبِ قالَ: لا أحلّلُ منْ ظلمني. وقيلَ لابنِ سيرينَ: يا أبا بكرٍ، هذا رجلٌ سألكَ أنْ تحلّلهُ منْ مظلمةٍ هيَ لكَ عندهُ، فقالَ: ما كنتُ لأحلَّ ما حرّمَ اللّهُ عليهِ أبداً. وخبرُ النّبيِّ ﷺ يدلُّ على التّحليلِ، وهوَ الحجّةُ والمبيّنُ. والتّحليلُ يدلُّ على الرّحمةِ وهوَ منْ وجهِ العفوُ، وقدْ قالَ تعالى: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾.

التاسعة- ليسَ منْ هذا البابِ غيبةُ الفاسقِ المعلنُ بِهِ المجاهرُ، إنما الغيبةُ في المرءِ الّذي يسترُ نفسهُ. ورويَ عنِ الحسنِ أنه قال: ثلاثة ليست لهمْ حرمةٌ: صاحبُ الهوى، والفاسقُ المعلنُ، والإمامُ الجائرُ. وعنِ الحسنِ قالَ: ليسَ لأهلِ البدعِ غيبةٌ. وكذلكَ قولكَ للقاضي تستعينُ بِهِ على أخذِ حقّكَ ممّنْ ظلمكَ فتقولُ: فلانٌ ظلمني أوْ غصبني أوْ خانني أوْ ضربني أوْ قذفني أوْ أساءَ إليَّ، ليسَ بغيبةٍ. وعلماءُ الأمّةِ على ذلكَ مجمعةٌ. وقالَ النّبيِّ ﷺ في ذلكَ: «لصاحبِ الحقِّ مقالٌ».، وقالَ: «مطلُ الغنيِّ ظلمٌ» وقالَ: «ليُّ الواجدِ يحلُّ عرضهُ وعقوبتهُ». ومنْ ذلكَ الاستفتاءُ، كقولِ هندٌ للنّبيِّ ﷺ: إنَّ أبا سفيانَ رجلٌ شحيحٌ لا يعطيني ما يكفيني أنا وولدي، فآخذُ منْ غيرِ علمهِ؟ فقالَ: النّبيُّ ﷺ: «نعمْ فخذي». فذكرتهُ بالشّحِّ والظّلمِ لها ولولدها، ولمْ يرها مغتابةً، لأنّهُ لمْ يغيّرْ عليها، بلْ أجابها ﷺ بالفتيا لها. وكذلكَ إذا كانَ في ذكرهِ بالسّوءِ فائدةٌ، كقولهِ ﷺ: «أمّا معاويةُ فصعلوكٌ لا مالَ لهُ وأمّا أبو جهم فلا يضعُ عصاهُ عنْ عاتقهِ». فهذا جائزٌ، وكانَ مقصودهُ ألّا تغترَّ فاطمةُ بنتُ قيسٍ بهما[٧].

العاشرة- قول تعالى: ﴿مَّيۡتٗا﴾ وقريء «مَيِّتًا» وهوَ نصبٌ على الحالِ منَ اللّحمِ. ويجوزُ أنْ ينصبَ على الأخِ، وقوله: ﴿فَكَرِهۡتُمُوهُۚ﴾ فيهِ وجهانِ:

أحدهما- فكرهتمْ أكلَ الميتةِ فكذلكَ فاكرهوا الغيبةَ.

الثّاني- فكرهتمْ أنْ يغتابكمُ النّاسُ فاكرهوا غيبةَ النّاسِ.

﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ عطفٌ عليهِ. وقيلَ: عطفٌ على قولهِ: ﴿ٱجۡتَنِبُواْ. وَلَا تَجَسَّسُواْ﴾. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٞ رَّحِيمٞ ١٢﴾.

---

(٧) نظمها بعضهم بقوله:

الذم ليس بغيبة في ستة ... متظلم ومعرف ومحذر

ولمظهر فسقًا ومستفت ومن ... طلب الإعانة في إزالة منكر

قولهُ تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾﴾، فيهِ سبعُ مسائلَ:

الأولى: قولهُ تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ﴾ يعني آدمَ وحوّاءَ. زجرهمْ عنِ التّفاخرِ بالأنسابِ، والتّكاثرِ بالأموالِ، والازدراءِ بالفقراءِ، فإنَّ المدارَ على التّقوى. أيِ الجميعُ منْ آدمَ وحوّاءَ، إنّما الفضلُ بالتّقوى. وفي التّرمذيُّ عنِ ابنِ عمرَ أنَّ رسولَ اللّهِ ﷺ خطبَ بمكّةَ فقالَ: «يا أيّها النّاسُ إن الله قد أذهب عنكم عيبة الجاهليّةِ وتعاظمها بآبائها. فالنّاسُ رجلانِ: رجلٌ برٌّ تقيٌّ كريمٌ على اللّهِ، وفاجرٌ شقيٌّ هيّنٌ على اللّهِ. والنّاسُ بنو آدمَ وخلقَ اللّهُ آدمَ منْ ترابٍ قالَ اللّهُ تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾﴾». ولعليٍّ رضي الله عنه في هذا المعنى وهوَ مشهورٌ منْ شعرهِ:

النّاسُ منْ جهةِ التّمثيلِ أكفاءُ ... أبوهمُ آدمُ والأمُّ حوّاءُ
نفسٌ كنفسٍ وأرواحٌ مشاكلةٌ ... وأعظمٌ خلقتْ فيهمْ وأعضاءُ
فإنْ يكنْ لهمُ منْ أصلهمْ حسبٌ ... يفاخرونَ بهِ فالطّينُ والماءُ
ما الفضلُ إلّا لأهلِ العلمِ إنّهمُ ... على الهدى لمنِ استهدى أدلّاءُ
وقدرُ كلِّ امرئٍ ما كانَ يحسنهُ ... وللرّجالِ على الأفعالِ سيماءُ
وضدَّ كلِّ امرئٍ ما كانَ يجهلهُ ... والجاهلونَ لأهلِ العلمِ أعداءُ

الثانية- بيّنَ اللّهُ تعالى في هذهِ الآيةِ أنّهُ خلقَ الخلقَ منَ الذّكرِ والأنثى، وكذلكَ في أوّلِ سورةِ النّساءِ. ولوْ شاءَ لخلقهُ دونهما كخلقهِ لآدمَ، أوْ دونَ ذكرٍ كخلقهِ لعيسى عليه السلام، أوْ دونَ أنثى كخلقهِ حوّاءَ منْ إحدى الجهتينِ. وهذا الجائزُ في القدرةِ لمْ يردْ بهِ الوجودَ. وقدْ جاءَ أنَّ آدمَ خلقَ اللّهُ منهُ حوّاءَ منْ ضلعٍ انتزعها منْ أضلاعهِ.

الثالثة- خلقَ اللّهُ الخلقَ بينَ الذّكرِ والأنثى أنساباً وأصهاراً وقبائلَ وشعوباً، وخلقَ لهمْ منها التّعارفَ، وجعلَ لهمْ بها التّواصلَ للحكمةِ الّتي قدّرها وهوَ أعلمُ بها، فصارَ كلُّ أحدٍ يحوزُ نسبهُ، فإذا نفاهُ رجلٌ عنهُ استوجبَ الحدَّ بقذفهِ، مثلُ أن ينفيه عن رهطه وحسبه، بقولهِ

للعربيِّ: ياعجميُّ، وللعجميِّ: يا عربيُّ،ونحوُ ذلكَ ممّا يقعُ بهِ النّفيُ حقيقةً.

الرابعة- ذهبَ قومٌ منَ الأوائلِ إلى أنَّ الجنينَ إنّما يكونُ منْ ماءِ الرّجلِ وحدهُ، ويتربّى في رحمِ الأمِّ، ويستمدُّ منَ الدّمِ الّذي يكونُ فيهِ. واحتجّوا بقولهِ تعالى: ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ۝٢٠ فَجَعَلْنَٰهُ فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾. وقولهُ تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾. وقولهُ: ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ﴾. فدلَّ على أنَّ الخلقَ منْ ماءٍ واحدٍ. والصّحيحُ أنَّ الخلقَ إنّما يكونُ منْ ماءِ الرّجلِ والمرأةِ لهذهِ الآيةِ، فإنّها نصٌّ لا يحتملُ التّأويلَ. وقولهُ تعالى: ﴿خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ۝٦ يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ﴾ والمرادُ منهُ أصلابُ الرّجالِ وترائبُ النّساءِ، على ما يأتي بيانهُ. وأمّا ما احتجّوا بهِ فليسَ فيهِ أكثرُ منْ أنَّ اللّهَ تعالى ذكرَ خلقَ الإنسانِ منَ الماءِ والسّلالةِ والنّطفةِ ولمْ يضفها إلى أحدِ الأبوينِ دونَ الآخرِ. فدلَّ على أنَّ الماءَ والسّلالةَ لهما والنّطفةَ منهما بدلالةِ ما ذكرنا. وبأنَّ المرأةَ تمني كما يمني الرّجلُ، وعنْ ذلكَ يكونُ الشّبهُ، حسبَ ما تقدّمَ بيانهُ في آخرِ الشّورى. وقدْ قالَ في قصّةِ نوحٍ: ﴿فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾ وإنّما أرادَ ماءَ السّماءِ وماءَ الأرضِ، لأنَّ الالتقاءَ لا يكونُ إلّا منَ اثنينِ، فلا ينكرُ أنْ يكونَ ﴿ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾، وقولهُ تعالى: ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾ ويريدُ ماءينِ. واللهُ أعلم.

الخامسة- قولهُ تعالى: ﴿وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟﴾ الشّعوبُ رؤوسُ القبائلِ، مثلُ ربيعةَ ومضرَ والأوسِ والخزرجِ، واحدها «شَعبٌ» بفتحِ الشينِ، سموا به لتشعّبهمْ واجتماعهمْ كشعبِ أغصانِ الشّجرةِ. فأمّا الشِّعبُ بالكسرِ فهوَ الطّريقُ في الجبلِ، والجمعُ الشّعابُ، والشّعوبيّةُ: فرقةٌ لا تفضّلُ العربَ على العجمِ. والقبائلُ الأفخاذُ.

وقيلَ: إنَّ الشّعوبَ بطونُ العجمِ والموالي، والقبائلُ بطونُ العربِ. وعلى هذا فالشّعوبُ منْ لا يعرفُ لهمْ أصلُ نسبٍ كالهندِ والجبلِ والتّركِ، والقبائلُ من العرب.

وقيلَ: الشّعبُ أكبرُ منَ القبيلةِ ثمَّ الفصيلةُ ثمَّ العمارةُ ثمَّ البطنُ ثمَّ الفخذُ.

السادسة- قولهِ تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ تقدّمَ في الزّخرفِ عندَ قولهِ تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾. وفي هذهِ الآيةِ مايدلّكَ على أنَّ التّقوى هيَ المراعى

عندَ اللّهِ تعالى وعندَ رسوله دون الحسب والنسب. والتّقوى معناها مراعاةُ حدودِ اللّهِ تعالى أمراً ونهياً، والاتّصافُ بما أمركَ أنْ تتّصفَ بهِ، والتّنزّهُ عمّا نهاكَ عنهُ.

وفي مسلمٍ عن عبدِ اللّهِ بنِ عمرو قالَ: سمعتُ رسولَ اللّهِ ﷺ جهاراً غيرَ سرٍّ يقولُ: «إنَّ آلَ أبي – يعني فلانا – ليسوا لي بأولياءَ إنّما وليّيَ اللّهُ وصالحُ المؤمنينَ». وعنْ أبي هريرةَ أنَّ النّبيَّ ﷺ سئل منْ أكرمُ النّاسِ؟ فقالَ: «يوسفُ بنُ يعقوبَ بنِ إسحاقَ بنِ إبراهيمَ» قالوا: ليسَ عنْ هذا نسألكَ، قالَ: «فأكرمهمْ عندَ اللّهِ أتقاهمْ» فقالوا: ليسَ عنْ هذا نسألكَ، فقالَ: «عنْ معادنِ العربِ؟ خيارهمْ في الجاهليّةِ خيارهمْ في الإسلامِ إذا فقهوا».

السابعة– في الكفاءةِ في النّكاحِ قال مالك: يتزوّجُ المولى العربيّةَ، واحتجَّ بهذهِ الآيةِ. وقال أبو حنيفة والشافعي: يراعى الحسبُ والمالُ. وفي الصّحيحِ عنْ عائشةَ أنَّ أبا حذيفةَ بنَ عتبةَ بنِ ربيعةَ– وكانَ ممّنْ شهدَ بدراً – تبنّى سالماً وأنكحهُ هنداً بنت أخيه الوليد بن عتبة ابن ربيعةَ، وهوَ مولى لامرأةٍ منَ الأنصارِ، وضباعةُ بنتُ الزّبيرِ كانتْ تحتَ المقدادِ بنِ الأسودِ، وأختُ عبدِ الرّحمنِ بنِ عوفٍ كانتْ تحتَ بلالٍ، وزينبُ بنتُ جحشٍ كانتْ تحتَ زيدِ بنِ حارثةَ. فدلَّ على جوازِ نكاحِ الموالي العربيّةَ، وإنّما تراعى الكفاءةُ في الدّينِ.

والدليل عليهِ أيضاً ما روى سهلُ بنُ سعدٍ في صحيحِ البخاريِّ أنَّ النّبيَّ ﷺ مرَّ عليهِ رجلٌ فقالَ: «ما تقولونَ في هذا»؟ فقالوا: حريٌّ إنْ خطبَ أنْ ينكحَ، وإنْ شفعَ أنْ يشفّعَ وإنْ قالَ أنْ يسمعَ. قالَ: ثمَّ سكتَ، فمرَّ رجلٌ منْ فقراءِ المسلمينَ فقالَ: «ما تقولونَ في هذا» قالوا: حريٌّ إنْ خطبَ ألّا ينكحَ، وإنْ شفعَ ألّا يشفّعَ، وإنْ قالَ ألّا يسمعَ. فقالَ: رسولُ اللّهِ ﷺ: «هذا خيرٌ منْ ملءِ الأرضِ مثلَ هذا».

وقالَ ﷺ: «تنكحُ المرأةُ لمالها وجمالها ودينها– وفي روايةٍ– ولحسبها فعليكَ بذاتِ الدّينِ تربتْ يداكَ»، وقالَ النّبيُّ ﷺ في أبي هندٍ حينَ حجمهُ: «أنكحوا أبا هندٍ وأنكحوا إليهِ». وهوَ مولى بني بياضةَ. وكانَ حجّاماً فحجمَ النّبيَّ ﷺ.

وقد يعتبر النسب في الكفاءةِ في النّكاحِ وهوَ الاتّصالُ بشجرةِ النّبوّةِ أوْ بالعلماءِ الّذينَ همْ ورثةُ الأنبياءِ، أوْ بالمرموقينَ في الزّهدِ والصّلاحِ. والتّقيُّ المؤمنُ أفضلُ منَ الفاجرِ النّسيبِ، فإنْ كانا تقيّينِ قدم النسيب، كما يقدم الشّابُّ على الشّيخِ في الصّلاةِ إذا استويا في التقوى.

قولهُ تعالى: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّاۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُواْ﴾ نزلتْ في أعرابٍ أرادوا أنْ يتسمّوا باسمِ الهجرةِ قبلَ أنْ يهاجروا، فأعلمَ اللّهُ أنَّ لهمْ أسماءَ الأعرابِ لا أسماءَ المهاجرينَ، والآيةُ خاصّةٌ لبعضِ الأعرابِ، لأنَّ منهمْ منْ يؤمنُ باللّهِ واليوم الآخرِ كما وصفَ اللّهُ تعالى. ومعنى ﴿وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْۖ﴾ أيِ استسلمنا خوفَ القتلِ والسّبيِ، وهذهِ صفةُ المنافقينَ؟ لأنّهمْ أسلموا في ظاهر إيمانهم ولم تؤمن قلوبهمْ، وحقيقةُ الإيمانِ التّصديقُ بالقلبِ. وأمّا الإسلامُ فقبولُ ما أتى بهِ النّبيُّ ﷺ في الظّاهرِ، وذلكَ يحقنُ الدّمَ. ﴿وَإِن تُطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ يعني إنْ تخلصوا الإيمانَ ﴿لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَٰلِكُمْ شَيْـًٔاۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾﴾ لا يلتكمْ أيْ لا ينقصكمْ، وقرأ أبو عمرو «لا يألتكمْ» بالهمزةِ، من أَلَتَ يألِتُ ألتا اعتباراً بقولهِ تعالى: ﴿وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍۚ﴾.

قولهُ تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُواْ﴾ أيْ صدّقوا ولمْ يشكّوا وحقّقوا ذلكَ بالجهادِ والأعمالِ الصّالحةِ. أولئكَ همُ الصّادقونَ في إيمانهمْ، لا منْ أسلمَ خوفَ القتلِ ورجاءَ الكسبِ. فلمّا نزلتْ حلفَ الأعرابُ أنهم مؤمنون في السر والعلانيةِ وكذبوا، فنزلتْ: ﴿قُلْ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمْ﴾ الّذي أنتمْ عليهِ. ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٦﴾﴾.

قولهُ تعالى: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُواْۖ قُل لَّا تَمُنُّواْ عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُمۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾﴾ وقرئ: «إنْ هداكمْ» بالكسرِ، وفيهِ بعدٌ، لقولهِ: ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾، ولا يقالُ يمنُّ عليكمْ أنْ يهديكمْ إنْ صدقتمْ. والقراءةُ الظّاهرةُ ﴿أَنْ هَدَىٰكُمْ﴾ وهذا لا يدلُّ على أنّهمْ كانوا مؤمنينَ، لأنَّ تقديرَ الكلامِ: إنْ آمنتمْ فذلكَ منّةُ اللّهِ عليكمْ. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾﴾ قرأ ابنُ كثيرٍ وأبو عمرو بالياءِ على الخبرِ، رداً على قولهِ: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ﴾. الباقونَ بالتّاءِ على الخطابِ.

سورة ق

مكّيّةٌ كلّها، وهيَ خمسٌ وأربعونَ آيةً مكّيّةٌ كلّها، وفي صحيح مسلمٍ عنْ أمِّ هشامِ بنتِ حارثةَ بنِ النّعمانِ قالتْ: لقدْ كانَ تنورنا وتنّورُ رسولِ اللّهِ ﷺ واحداً سنتينِ - أوْ سنةً وبعضَ سنةٍ - وما أخذتُ ﴿قٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ ۞﴾ إلّا عنْ لسانِ رسولِ اللّهِ ﷺ، يقرؤها كلَّ يومِ جمعةٍ على المنبرِ إذا خطبَ النّاسَ.

وعنْ عمرَ بنِ الخطّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ سألَ أبا واقدٍ اللّيثيَّ ما كانَ يقرأُ بهِ رسولُ اللّهِ ﷺ في الأضحى والفطرِ؟ فقالَ: كانَ يقرأُ فيهما بِ ﴿قٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ﴾ وَ ﴿ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ﴾.

وعنْ جابرِ بنِ سمرةَ أنَّ النّبيَّ ﷺ كانَ يقرأُ في الفجرِ بِ ﴿قٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ﴾ وكانتْ صلاتهُ بعدُ تخفيفاً.

بسمِ اللّهِ الرّحمنِ الرّحيمِ

قولهُ تعالى: ﴿قٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ﴾ قرأَ العامّةُ «قافْ» بالجزمِ، و ﴿قٓۚ﴾ فاتحةُ السّورةِ ﴿وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ﴾ أي رّفيعُ القدرِ. ﴿بَلۡ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡ﴾ يعني محمّداً ﷺ، والضّميرُ للكفّارِ. وقيلَ: للمؤمنينَ والكفّارِ جميعاً. ثمَّ ميّزَ بينهمْ بقولهِ تعالى: ﴿فَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ ولمْ يقلْ فقالوا، بلْ قبّحَ حالهمْ وفعلهمْ ووصفهمْ بالكفرِ ﴿هَٰذَا شَيۡءٌ عَجِيبٌ﴾ العجيبُ الأمرُ الّذي يتعجّبُ منهُ، وكذلكَ العُجابُ بالضّمِّ، والعجّابُ بالتّشديدِ أكثرُ منهُ، وكذلكَ الأعجوبةُ. وقالَ قتادةُ: عجبهمْ أنْ دعوا إلى إلهٍ واحدٍ. وقيلَ: منْ إنذارهمْ بالبعثِ والنّشورِ. والّذي نصَّ عليه القرآن أولى.

قوله تعالى: ﴿أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗاۖ﴾ نبعثُ، ففيهِ إضمارٌ ﴿ذَٰلِكَ رَجۡعُۢ بَعِيدٞ﴾ الرّجعُ الرّدُّ أيْ هوَ ردٌّ بعيدٌ أيْ محالٌ، وفيهِ إضمارٌ آخرُ، أيْ وقالوا أنبعثُ إذا متنا. وذكرُ البعثِ وإن لم يجر هاهنا فقدْ جرى في مواضعَ، والقرآنُ كالسّورةِ الواحدةِ. وأيضاً ذكرُ البعثِ منطوٍ تحتَ قولهِ: ﴿بَلۡ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡ﴾ لأنّهُ إنّما ينذر بالعقاب والحساب في الآخرة.

قولهُ تعالى: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ﴾ على إرادةِ اللّامِ، أيْ لقدْ علمنا. أيْ ما تأكلُ منْ أجسادهمْ فلا يضلُّ عنا شيء حتّى تتعذّرَ علينا الإعادةُ. وفي التّنزيل: ﴿قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ۞ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَٰبٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾ وفي الصّحيحِ: «كلُّ ابنِ آدمَ يأكلهُ التّرابُ إلّا عجبَ الذّنبِ منهُ خلقَ وفيهِ يركب»، وثبت أن الأنبياء والأولياءَ والشّهداءَ لا تأكلُ الأرضُ أجسادهمْ، حرّمَ اللّهُ على الأرضِ أنْ تأكلَ أجسادهمْ. وقيلَ: النّقصُ هنا الموتُ يقولُ قدْ علمنا منهمْ منْ يموتُ ومنْ يبقى، لأنَّ منْ ماتَ دفنَ فكأنَّ الأرضَ تنقصُ منَ النّاسِ. ﴿وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌۢ﴾ أيْ بعدّتهمْ وأسمائهمْ فهوَ فعيلٌ بمعنى فاعلٍ. وقيلَ: اللّوحُ المحفوظُ أيْ محفوظٌ منَ الشّياطينِ أوْ محفوظٌ فيهِ كلُّ شيء.

قوله تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ﴾ أيِ القرآنِ أو الإسلامُ، أو محمّدٌ ﷺ ﴿فَهُمْ فِيٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ﴾ أيْ مختلطٍ. يقولونَ مرّةً ساحرٌ ومرّةً شاعرٌ ومرّةً كاهنٌ. ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ﴾ نظرَ اعتبارٍ وتفكّرٍ، وأنَّ القادرَ على إيجادها قادرٌ على الإعادةِ ﴿كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا﴾ فرفعناها بلا عمدٍ ﴿وَزَيَّنَّٰهَا﴾ بالنّجومِ ﴿وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ﴾ جمعُ فرجٍ وهوَ الشّقُّ ﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ﴾ أيْ منْ كلِّ نوعٍ منَ النّباتِ ﴿بَهِيجٍ﴾ أيْ حسنٍ يسرُّ النّاظرينَ ﴿تَبْصِرَةً﴾ أيْ جعلنا ذلكَ تبصرةً لندلَّ بهِ على كمالِ قدرتنا ﴿وَذِكْرَىٰ﴾ معطوفٌ عليهِ ﴿لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾ راجعٌ إلى الله تعالى مفكر في قدرته.

قوله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ أيْ منَ السّحابِ ﴿مَآءً مُّبَٰرَكًا﴾ كثيرَ البركةِ ﴿فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ﴾ وهوَ كلُّ ما يحصدُ ويدّخرُ ويقتاتُ كالبرِّ والشّعير ﴿وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ﴾ طوالٌ ﴿لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ﴾ الطّلعُ هوَ أوّلُ ما يخرجُ منْ ثمرِ النّخلِ ﴿نَّضِيدٌ﴾ أيْ متراكبٌ قدْ نضدَ بعضهُ على بعضٍ. وفي البخاريِّ «النّضيدُ» الكُفُرّى ما دامَ في أكمامهِ ومعناهُ منضودٌ بعضهُ على بعضٍ، فإذا خرجَ منْ أكمامهِ فليسَ بنضيدٍ ﴿رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ﴾ أيْ رزقناهم رزقًا، والرّزقُ ما كانَ مهيّأً للانتفاعِ بهِ ﴿وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ﴾ أيْ منَ القبورِ أيْ كما أحيا اللّهُ هذهِ الأرضَ الميتةَ فكذلكَ يخرجكمْ أحياءً بعدَ موتكمْ، فالكافُ في محلِّ رفعٍ على الابتداءِ. وقالَ: ﴿مَّيْتًا﴾ لأنَّ المقصود المكان ولو قال ميتة لجاز.

قولهُ تعالى: ﴿كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ وَأَصۡحَٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ ١٢ وَعَادٞ وَفِرۡعَوۡنُ وَإِخۡوَٰنُ لُوطٖ ١٣ وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡأَيۡكَةِ وَقَوۡمُ تُبَّعٖۚ كُلّٞ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ﴾ أيْ كما كذّبَ هؤلاءِ فكذلكَ كذّبَ أولئكَ فحلَّ بهمُ العقابُ، ذكّرهمْ نبأَ منْ كانَ قبلهمْ منَ المكذّبينَ وخوّفهمْ ما أخذهمْ. وقدْ ذكرنا قصصهمْ في غيرِ موضعِ عندَ ذكرهمْ ﴿كُلّٞ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ﴾ منْ هذهِ الأممِ المكذّبةِ ﴿فَحَقَّ وَعِيدِ﴾ أيْ فحقَّ عليهمْ وعيدي وعقابي.

قوله تعالى: ﴿أَفَعَيِينَا بِٱلۡخَلۡقِ ٱلۡأَوَّلِۚ﴾ توبيخٌ لمنكري البعثِ وجوابُ قولهمْ: ﴿ذَٰلِكَ رَجۡعُۢ بَعِيدٞ﴾. يقالُ: عييتَ بالأمرِ إذا لمْ تعرفْ وجههُ ﴿بَلۡ هُمۡ فِي لَبۡسٖ مِّنۡ خَلۡقٖ جَدِيدٖ﴾ أيْ في حيرةٍ منَ البعثِ منهمْ مصدّقٌ ومنهمْ مكذّبٌ.

قولهُ تعالى: ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ﴾ يعني النّاسَ، وقيلَ آدمُ ﴿وَنَعۡلَمُ مَا تُوَسۡوِسُ بِهِۦ نَفۡسُهُۥۖ﴾ أيْ ما يختلجُ في سرّهِ وقلبهِ وضميرهِ، وفي هذا زجرٌ عنِ المعاصي الّتي يستخفي بها. ومنْ قالَ: إنَّ المرادَ بالإنسانِ آدمُ، فالّذي وسوستْ بهِ نفسهُ هوَ الأكلُ منَ الشّجرةِ، ثمَّ هوَ عامٌّ لولدهِ. والوسوسةُ حديثُ النّفسِ بمنزلةِ الكلامِ الخفيِّ ﴿وَنَحۡنُ أَقۡرَبُ إِلَيۡهِ مِنۡ حَبۡلِ ٱلۡوَرِيدِ﴾ هوَ حبلُ العاتقِ وهوَ ممتدٌّ منْ ناحيةِ حلقهِ إلى عاتقهِ، وهما وريدانِ عنْ يمينٍ وشمالٍ، وقيلَ: الوريدُ الوتينُ وهوَ عرقٌ معلّقٌ بالقلبِ. وهذا تمثيلٌ للقربِ، وقيلَ: أيْ ونحنُ أعلمُ بما توسوسُ بهِ نفسهُ منْ حبلِ وريدهِ الّذي هوَ منْ نفسهِ، لأنّهُ عرقٌ يخالطُ القلبَ، فعلمُ الرّبِّ أقربُ إليهِ منْ علمِ القلبِ.

قولهُ تعالى: ﴿إِذۡ يَتَلَقَّى ٱلۡمُتَلَقِّيَانِ﴾ وهما الملكانِ الموكّلانِ بهِ ﴿عَنِ ٱلۡيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ﴾ أحدهما عنْ يمينه يكتبُ حسناته، والآخرُ عنْ شماله يكتبُ سيّئاته ﴿قَعِيدٞ﴾ بمعنى قاعدٍ كالسّميعِ والعليمِ والقديرِ والشّهيدِ، ولمْ يقلْ قعيدانِ وهما اثنانِ، لأنَّ المرادَ عنِ اليمينِ قعيدٌ وعنِ الشّمالِ قعيدٌ فحذفَ الأوّلُ لدلالةِ الثّاني عليهِ، والمراد بالقعيد ها هنا الملازمُ الثّابتُ لا ضدَّ القائمِ. ﴿مَّا يَلۡفِظُ مِن قَوۡلٍ إِلَّا لَدَيۡهِ رَقِيبٌ عَتِيدٞ﴾ أيْ ما يتكلّمُ بشيءٍ إلّا كتبَ عليهِ، مأخوذٌ منْ لفظِ الطّعامِ وهوَ إخراجهُ منَ الفمِ. والرّقيبِ والعتيدِ الحافظُ المُعَدُّ للحفظ والشهادة.

قولهُ تعالى: ﴿وَجَآءَتۡ سَكۡرَةُ ٱلۡمَوۡتِ بِٱلۡحَقِّۖ﴾ أيْ غمرتهُ وشدّتهُ، وفي الكلامِ تقديمٌ وتأخيرٌ، وتقديرهُ وجاءتْ سكرةُ الحقِّ بالموتِ، والسّكرةُ واحدةُ السّكراتِ. وفي الصّحيح عنْ عائشةَ أنَّ رسولَ اللّهِ ﷺ كانتْ بينَ يديهِ ركوةٌ - أوْ علبةٌ - فيها ماءٌ فجعلَ يدخلُ يديهِ في الماءِ، فيمسحُ بهما وجههُ ويقولُ: «لا إلهَ إلّا اللّهُ إنَّ للموتِ سكراتٍ» ثمَّ نصبَ يدهُ فجعلَ يقولُ: «في الرّفيقِ الأعلى» حتّى قبضَ ومالتْ يدهُ. خرّجهُ البخاريُّ. ﴿ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنۡهُ تَحِيدُ﴾ أيْ تفرُّ منهُ وتميلُ عنهُ.

قولهُ تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِۚ﴾ النّفخةُ الآخرةُ للبعثِ ﴿ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلۡوَعِيدِ﴾ الّذي وعدهُ اللّهُ للكفّارِ أنْ يعذّبهمْ فيهِ. ﴿وَجَآءَتۡ كُلُّ نَفۡسٍ مَّعَهَا سَآئِقٞ وَشَهِيدٞ﴾ ملكٌ يسوقها إلى أمرِ اللّهِ، وشهيدٌ: يشهدُ عليها بعملها.

ثمَّ في الآيةِ قولانِ:

أحدهما: أنّها عامّةٌ في المسلمِ والكافرِ وهوَ قولُ الجمهورِ.

الثّاني: أنها خاصة في الكافر.

قولهُ تعالى: ﴿لَّقَدۡ كُنتَ فِي غَفۡلَةٖ مِّنۡ هَٰذَا فَكَشَفۡنَا عَنكَ غِطَآءَكَ﴾ أيْ عماكَ وقتَ العرضِ في القيامةِ ﴿فَبَصَرُكَ ٱلۡيَوۡمَ حَدِيدٞ﴾ إلى لسانِ ميزانكَ حينَ توزنُ سيّئاتكَ وحسناتكَ

قولهُ تعالى: ﴿وَقَالَ قَرِينُهُۥ﴾ يعني الملكَ الموكّلَ بهِ ﴿هَٰذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ﴾ أيْ هذا ما عندي منْ كتابةِ عملهِ معدٌّ محفوظٌ، فيقولُ اللّهُ تعالى لقرينهِ: ﴿أَلۡقِيَا فِي جَهَنَّمَ﴾ منْ قولِ اللّهِ تعالى يخاطبُ بهِ الملكينِ ﴿كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٖ﴾ معرضٌ عنِ الحقِّ ﴿مَّنَّاعٖ لِّلۡخَيۡرِ﴾ يعني الزّكاةَ المفروضةَ وكلَّ حقٍّ واجبٍ ﴿مُعۡتَدٖ﴾ في منطقهِ وسيرتهِ وأمرهِ، ظالمٌ ﴿مُّرِيبٍ﴾ شاكٍّ في التّوحيدِ، وهوَ المشركُ ﴿ٱلَّذِي جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَأَلۡقِيَاهُ فِي ٱلۡعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ﴾ تأكيدٌ للأمرِ الأوّلِ. ﴿۞قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطۡغَيۡتُهُۥ﴾ يعني الشّيطانَ الّذي قيّضَ لهذا الكافرِ العنيدِ تبرّأً منهُ وكذّبهُ ﴿وَلَٰكِن كَانَ فِي ضَلَٰلِۢ بَعِيدٖ﴾ عنِ الحقِّ وكانَ طاغياً باختيارهِ وإنّما دعوتهُ فاستجابَ لي؛ فحينئذٍ يقولُ اللّهُ تعالى: ﴿لَا تَخۡتَصِمُواْ لَدَيَّ﴾ يعني الكافرينَ وقرناءهمْ منَ الشّياطينِ ﴿وَقَدۡ قَدَّمۡتُ إِلَيۡكُم بِٱلۡوَعِيدِ﴾ أيْ أرسلتُ الرّسلَ ﴿مَا يُبَدَّلُ ٱلۡقَوۡلُ لَدَيَّ﴾ قيلَ

هوَ قولهِ: ﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشۡرُ أَمۡثَالِهَاۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجۡزَىٰٓ إِلَّا مِثۡلَهَا﴾ وقيلَ هوَ قولهُ: ﴿لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلۡجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ﴾ ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلۡعَبِيدِ﴾ أيْ ما أنا بمعذّبٍ منْ لمْ يجرمْ.

قولهُ تعالى: ﴿يَوۡمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمۡتَلَأۡتِ وَتَقُولُ هَلۡ مِن مَّزِيدٖ﴾ قرأ نافعٌ وأبو بكرٍ ﴿يَوۡمَ يَقُولُ﴾ بالياءِ اعتباراً بقولهِ: ﴿لَا تَخۡتَصِمُواْ لَدَيَّ﴾. الباقونَ بالنّونِ على الخطابِ منَ اللّهِ تعالى وهيَ نونُ العظمةِ. وانتصبَ ﴿يَوۡمَ﴾ على معنى ما يبدّلُ القولُ لديَّ يومَ. وقيلَ: بفعلٍ مقدّرٍ معناهُ: وأنذرهمْ ﴿يَوۡمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمۡتَلَأۡتِ﴾ لما سبقَ منْ وعدهِ إيّاها أنّهُ يملؤها. وهذا الاستفهامُ على سبيلِ التّصديقِ لخبرهِ، والتّحقيقِ لوعدهِ، والتّقريعِ لأعدائهِ، والتّنبيهِ لجميعِ عبادهِ ﴿وَتَقُولُ﴾ جهنّمُ ﴿هَلۡ مِن مَّزِيدٖ﴾ أيْ ما بقيَ فيَّ موضعٌ للزّيادةِ، كقولهِ ﷺ: «هلْ تركَ لنا عقيلٌ منْ ربعٍ أوْ منزلٍ» أيْ ما تركَ، فمعنى الكلامِ الجحدُ. ويحتملُ أنْ يكونَ استفهاماً بمعنى الاستزادةِ، أيْ هلْ منْ مزيدٍ فأزدادُ؟. وإنّما صلحَ هذا للوجهينِ، لأنَّ في الاستفهامِ ضرباً منَ الجحدِ. وقيلَ: ليسَ ثمَّ قولٌ وإنّما هوَ على طريقِ المثلِ، أيْ إنّها فيما يظهرُ منْ حالها بمنزلةِ النّاطقةِ بذلكَ، كما قالَ الشّاعرُ:

امتلأَ الحوضُ وقالَ قطني مهلاً رويداً قدْ ملأتَ بطني

وقيلَ: ينطقُ اللّهُ النّارَ حتّى تقولَ هذا كما تنطقُ الجوارحُ. وهذا أصحُّ، وفي صحيحِ مسلمٍ والبخاريِّ عنْ أنسُ عنِ النّبيِّ ﷺ قال: «لا تزالُ جهنّمُ يلقى فيها وتقولُ هلْ منْ مزيدٍ حتّى يضعَ ربُّ العزّةِ فيها قدمهُ فينزوي بعضها إلى بعضٍ وتقولُ قطْ قطْ بعزّتكَ وكرمكَ ولا يزالُ في الجنّةِ فضلٌ حتّى ينشئَ اللّهُ لها خلقاً فيسكنهمْ فضلَ الجنّةِ» لفظُ مسلمٍ.

قولهُ تعالى: ﴿وَأُزۡلِفَتِ ٱلۡجَنَّةُ لِلۡمُتَّقِينَ غَيۡرَ بَعِيدٍ﴾ منهمْ ﴿هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ﴾ أيْ ويقالُ لهمْ هذا الجزاءُ الّذي وعدتمْ في الدّنيا على ألسنةِ الرّسلِ. وقراءةُ العامّةِ ﴿تُوعَدُونَ﴾ بالتّاءِ على الخطابِ. وقرأ ابنُ كثيرٍ بالياءِ على الخبرِ، لأنّهُ أتى بعدَ ذكرِ المتّقينَ ﴿لِكُلِّ أَوَّابٍ﴾ أوّابٍ أيْ رجّاعٌ إلى اللّهِ عنِ المعاصي، وقيلَ: الأوّابُ المسبّحُ منْ قولهِ: ﴿يَٰجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُۥ﴾ ﴿حَفِيظٍ﴾ لأمرِ اللّهِ. ﴿مَّنۡ خَشِيَ ٱلرَّحۡمَٰنَ بِٱلۡغَيۡبِ﴾ ﴿مَن﴾ في محلِّ خفضٍ على البدلِ من

قوله: ﴿لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ﴾، والخشيةُ بالغيبِ أنْ يخافهُ ولمْ يرهُ، وفي الخلوةِ حينَ لا يراهُ أحدٌ ﴿وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ﴾ مقبل على الطّاعةِ سّليمَ، كما قالَ تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ ﴿ٱدْخُلُوهَا﴾ أيْ يقالُ لأهلِ هذهِ الصّفاتِ: ﴿ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ﴾ أيْ بسلامةٍ منَ العذابِ. وقيلَ: بسلامٍ منَ اللّهِ وملائكتهِ عليهمْ. وقيلَ: بسلامةٍ منْ زوالِ النّعمِ. ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا﴾ يعني ما تشتهيهِ أنفسهمْ وتلذُّ أعينهمْ ﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ منَ النّعمِ ممّا لمْ يخطرْ على بالهمْ، وقيلَ: المزيدُ النّظرُ إلى وجهِ اللّهِ تعالى بلا كيفٍ. وقدْ وردَ ذلكَ في أخبارٍ مرفوعةٍ إلى النّبيِّ ﷺ في قولهِ تعالى: ﴿۞لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ قالَ: الزّيادةُ النّظرُ إلى وجهِ اللّهِ الكريمِ.

قولهُ تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ﴾ أيْ كمْ أهلكنا يا محمّدُ قبلَ قومكَ منْ أمّةٍ همْ أشدُّ منهمْ بطشًا وقوّةً ﴿فَنَقَّبُواْ فِي ٱلْبِلَٰدِ﴾ طلبًا للمهربِ، والنّقبُ هوَ الخرقُ والدّخولُ في الشّيءِ ﴿هَلْ مِن﴾ الموتِ ﴿مَّحِيصٍ﴾ محيد ومهربٌ. ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ﴾ أيْ فيما ذكرناهُ في هذهِ السّورةِ تذكرةٌ وموعظةٌ ﴿لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾ أيْ عقلٌ يتدبّرُ بهِ، فكنّى بالقلبِ عنِ العقلِ لأنّهُ موضعهُ، وقيلَ: لمنْ كانَ لهُ حياةٌ ونفسٌ مميّزةٌ، فعبّرَ عنِ النّفسِ الحيّةِ بالقلبِ، لأنّهُ وطنها ومعدنُ حياتها، كما قالَ امرؤُ القيسِ:

أغرّكِ منّي أنَّ حبّكِ قاتلي ... وأنّكِ مهما تأمري القلبَ يفعلِ

وفي التّنزيلِ: ﴿لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا﴾.

﴿أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ﴾ أيِ استمعَ القرآنَ ﴿وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ أيْ شاهدُ القلبِ.

قولهُ تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ أي تعب وإعياء، نزلتْ في يهودِ المدينةِ، زعموا أنَّ اللّهَ تعالى خلقَ السموات والأرضَ في ستّةِ أيّامٍ، أوّلها يومُ الأحدِ وآخرها يومُ الجمعةِ، واستراحَ يومَ السّبتِ، فجعلوهُ راحة، فأكذبهم الله تعالى في ذلك.

قولهُ تعالى: ﴿فَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ قَبۡلَ طُلُوعِ ٱلشَّمۡسِ وَقَبۡلَ ٱلۡغُرُوبِ ۝٣٩ وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡهُ وَأَدۡبَٰرَ ٱلسُّجُودِ ۝٤٠﴾، فيهِ خمسُ مسائلَ:

الأولى: قولهُ تعالى: ﴿فَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ أمرَ النّبيّ ﷺ بالصّبر على ما يقولهُ المشركونَ، أيْ هوّنْ أمرهمْ عليكَ. ونزلتْ قبلَ الأمرِ بالقتالِ فهيَ منسوخةٌ. وقيلَ: هوَ ثابتٌ للنّبيِّ ﷺ وأمّتهِ.

الثانية- قولهُ تعالى: ﴿وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ قَبۡلَ طُلُوعِ ٱلشَّمۡسِ وَقَبۡلَ ٱلۡغُرُوبِ﴾ أرادَ الصّلواتِ الخمسَ، وقيلَ: قبلَ طلوعِ الشّمسِ صلاةُ الصّبحِ، وقبلَ الغروبِ صلاةُ العصرِ. ورواهُ جريرُ بنُ عبدِ اللّهِ مرفوعـًا، قالَ: كنّا جلوسـًا عندَ النّبيِّ ﷺ إذْ نظرَ إلى القمرِ ليلةَ البدرِ، فقالَ: «أما إنّكمْ سترونَ ربّكمْ كما ترونَ هذا القمرَ لا تضامونَ في رؤيتهِ فإنِ استطعتمْ ألّا تغلبوا على صلاةٍ قبلَ طلوعِ الشّمسِ وقبلَ غروبها- يعني العصرَ والفجرَ ثمَّ قرأَ جريرٌ- ﴿وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ قَبۡلَ طُلُوعِ ٱلشَّمۡسِ وَقَبۡلَ غُرُوبِهَاۖ﴾» متّفقٌ عليهِ واللّفظُ لمسلمٍ.

وقيلَ: قبلَ الغروبِ الظّهرِ والعصرِ ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡهُ﴾ يعني صلاةَ العشاءينِ.

الثالثة- قولهُ تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡهُ﴾ هوَ تسبيح الله تعالى في الليل، وقيل- أنّها صلاةُ اللّيلِ كلّهِ فإنَّ الصّلاةَ تسمّى تسبيحـًا لما فيها منْ تسبيحِ اللّهِ، ومنهُ سبحةُ الضّحى.

الرابعة- قولهُ تعالى: ﴿وَأَدۡبَٰرَ ٱلسُّجُودِ﴾ أدبارَ السّجودِ الرّكعتانِ بعدَ المغربِ، وأدبارَ النّجومِ الرّكعتانِ قبلَ الفجرِ، وقيلَ: هوَ الوترُ. وقيلَ: هوَ النّوافلُ بعدَ الصّلواتِ، ركعتانِ بعدَ كلِّ صلاةٍ مكتوبةٍ، وقيلَ: هوَ التّسبيحُ في أدبارِ السّجودِ. قالَ ابنُ العربيِّ وهوَ الأقوى في النّظرِ. وفي صحيح الحديثِ: أنَّ النّبيَّ ﷺ كانَ يقولُ في دبرِ الصّلاةِ المكتوبةِ «لا إلهَ إلّا اللّهُ وحدهُ لا شريكَ لهُ لهُ الملكُ ولهُ الحمدُ وهوَ على كل شيء قديرٌ اللّهمَّ لا مانعَ لما أعطيتَ ولا معطيَ لما منعتَ ولا ينفعُ ذا الجدِّ منكَ الجدُّ».

الخامسة- قرأَ نافعٌ وابنُ كثيرٍ وحمزةُ «وإدبارَ السّجودِ» بكسرِ الهمزةِ على المصدرِ منْ أدبرَ الشّيءُ إدباراً إذا ولّى. الباقونَ بفتحها جمعُ دبرٍ، ولا خلافَ في آخرِ الطور ﴿وَإِدۡبَٰرَ ٱلنُّجُومِ﴾ أنّهُ بالكسرِ مصدرٌ، وهوَ ذهابُ ضوئها إذا طلعَ الفجرُ الثّاني، وهوَ البياضُ المنشقُّ

منْ سوادِ اللّيلِ.

قوله تعالى: ﴿وَٱسۡتَمِعۡ يَوۡمَ يُنَادِ ٱلۡمُنَادِ مِن مَّكَانٖ قَرِيبٖ﴾ مفعولُ الاستماعِ محذوفٌ، أيِ استمع صيحةَ القيامةِ، وهيَ النّفخةُ الثّانيةُ، وقيلَ: واستمعْ نداءَ الكفّارِ بالويلِ والثّبورِ منْ مكانٍ قريبٍ وأثبتَ ابنُ كثيرٍ ويعقوبُ ياءَ «المنادي» في الحالينِ على الأصلِ، وأثبتها نافعٌ وأبو عمرو في الوصلِ لا غيرَ، وحذفَ الباقونَ في الحالينِ ﴿يَوۡمَ يَسۡمَعُونَ ٱلصَّيۡحَةَ بِٱلۡحَقِّۚ﴾ يعني صيحةَ البعثِ ﴿ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلۡخُرُوجِ﴾ أيْ يومُ الخروجِ منَ القبورِ للحساب ﴿إِنَّا نَحۡنُ نُحۡيِۦ وَنُمِيتُ﴾ نميتُ الأحياءَ ونحيي الموتى، أثبتَ هنا الحقيقةَ ﴿يَوۡمَ تَشَقَّقُ ٱلۡأَرۡضُ عَنۡهُمۡ سِرَاعٗاۚ﴾ إلى المنادي صاحبِ ﴿ذَٰلِكَ حَشۡرٌ عَلَيۡنَا يَسِيرٞ﴾ أيْ هيّنٌ سهلٌ. وقرأ الكوفيّونَ ﴿تَشَقَّقُ﴾ بتخفيفِ الشّينِ على حذفِ التّاءِ الأولى الباقونَ بإدغامِ التّاءِ في الشّينِ.

قولهُ تعالى: ﴿نَّحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَا يَقُولُونَۖ﴾ أيْ منْ تكذيبكَ وشتمكَ ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِجَبَّارٖۖ﴾ بمسيطرٍ كما في الغاشيةِ ﴿فَذَكِّرۡ بِٱلۡقُرۡءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ الوعيدُ العذابُ والوعد الثواب، قال الشاعر:

وإنّي وإنْ أوعدتهُ أوْ وعدتهُ لمخلفُ إيعادي ومنجزُ موعدي

وأثبتَ الياءَ في «وعيدي» يعقوبُ في الحالينِ، وأثبتها ورشٌ في الوصلِ دونَ الوقفِ، وحذفَ الباقونَ في الحالينِ. والله أعلم.

سورة الذاريات

مكّيّةٌ في قولِ الجميعِ، وهيَ ستّونَ آيةً

بسمِ اللّهِ الرّحمنِ الرّحيمِ

و﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ﴾ وما بعدهُ أقسامٌ، وإذا أقسمَ الرّبُّ بشيءٍ أثبتَ لهُ شرفًا. وقيلَ: المعنى وربِّ الذّارياتِ، والجوابُ ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ﴾ أيِ الّذي توعدونهُ من الخير والشر والثواب والعقاب ﴿لَصَادِقٌ﴾ لا كذب فيهِ، ومعنى ﴿لَصَادِقٌ﴾ لصدقٌ، وقعَ الاسمُ موقعَ المصدرِ ﴿وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَٰقِعٌ﴾ يعني الجزاءُ نازلٌ بكم.

قولهُ تعالى: ﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرۡوٗا﴾ الرّياحُ وقيلَ: إن الذاريات النساء الوالدات لأنَّ في ذرايتهنَّ ذروُ الخلقِ، لأنّهنَّ يذرينَ الأولادَ فصرنَ ذارياتٍ، وخصَّ النّساءَ بذلكَ دونَ الرّجالِ وإنْ كانَ كلُّ واحدٍ منهما ذاريـًا لأنّهنَّ أوعيةٌ دونَ الرّجالِ، وهنَّ بالمباشرةِ أقربُ عهداً ﴿فَٱلۡحَٰمِلَٰتِ وِقۡرٗا﴾ السّحابُ، وقيلَ: الحاملاتُ من النساء إذا ثقلن بالحمل. والوِقر بكسرِ الواوِ ثقلُ الحملِ على ظهرٍ أوْ في بطنٍ ﴿فَٱلۡجَٰرِيَٰتِ يُسۡرٗا﴾ السّفنُ، وقيلَ: السّحابُ ﴿فَٱلۡمُقَسِّمَٰتِ أَمۡرًا﴾ الملائكةُ.

قولهُ تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلۡحُبُكِ﴾ السماء ها هنا السّحبُ الّتي تظلُّ الأرضَ. وقيلَ: السّماءُ المرفوعةُ. و﴿ٱلۡحُبُكِ﴾ من حبكَ الثّوبَ يحبكهُ بالكسرِ حبكـًا أيْ أجادَ نسجهُ، وكل شيء أحكمتهُ وأحسنتَ عملهُ فقدِ احتبكتهُ. و﴿ذَاتِ ٱلۡحُبُكِ﴾ ذاتُ الزّينةِ وذاتُ الشّدّةِ، كما في قوله تعالى ﴿وَبَنَيۡنَا فَوۡقَكُمۡ سَبۡعٗا شِدَادٗا﴾. والمحبوكُ الشّديدُ الخلقِ منَ الفرسِ وغيرهِ.

قولهُ تعالى: ﴿إِنَّكُمۡ لَفِي قَوۡلٖ مُّخۡتَلِفٖ﴾ في محمّدٍ والقرآنِ فمنْ مصدّقٍ ومكذّبٍ. ويقرّونَ بأنَّ اللّهَ خالقهمْ ويعبدونَ غيرهُ. ﴿يُؤۡفَكُ عَنۡهُ مَنۡ أُفِكَ﴾ أيْ يصرفُ عنِ الإيمانِ بمحمّدٍ والقرآنِ منْ صرفَ، ومنهُ قولهُ تعالى: ﴿أَجِئۡتَنَا لِتَأۡفِكَنَا﴾.

قولهُ تعالى: ﴿قُتِلَ ٱلۡخَرَّٰصُونَ﴾ لعنَ الكذّابونَ الّذينَ يتخرّصونَ بما لا يعلمونَ، ويدخلُ

في الخرصِ قولُ المنجّمينَ. ﴿ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي غَمۡرَةٖ سَاهُونَ﴾ الغمرةُ ما سترَ الشّيءَ وغطّاهُ. ومنهُ نهرٌ غمرٌ أيْ يغمرُ منْ دخلهُ، ومنهُ غمراتُ الموتِ ﴿سَاهُونَ﴾ أيْ لاهونَ غافلونَ عنْ أمر الآخرة. ﴿يَسۡـَٔلُونَ أَيَّانَ يَوۡمُ ٱلدِّينِ﴾ أيْ متى يومُ الحسابِ، استهزاءً وشكـًا في القيامةِ ﴿يَوۡمَ هُمۡ عَلَى ٱلنَّارِ يُفۡتَنُونَ﴾ أيْ يحرقونَ. ﴿ذُوقُواْ فِتۡنَتَكُمۡ﴾ عذابكمْ ﴿هَٰذَا ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ تَسۡتَعۡجِلُونَ﴾ في الدّنيا.، وقالَ: ﴿هَٰذَا﴾ ولمْ يقلْ هذهِ، لأنَّ الفتنة هنا بمعنى العذاب.

قولهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٖ وَعُيُونٍ﴾ لمّا ذكرَ مآلَ الكفّارِ ذكرَ مآلَ المؤمنينَ أيْ همْ في بساتينَ فيها عيونٌ جاريةٌ على نهايةِ ما يتنزّهُ بهِ ﴿ءَاخِذِينَ﴾ نصبَ على الحالِ ﴿مَآ ءَاتَىٰهُمۡ رَبُّهُمۡۚ﴾ أيْ ما أعطاهمْ منَ الثّوابِ وأنواعِ الكراماتِ، وقيلَ: ﴿ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمۡ رَبُّهُمۡۚ﴾ أيْ عاملينَ بالفرائضِ ﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَبۡلَ ذَٰلِكَ﴾ أيْ قبلَ دخولهمُ الجنّةَ في الدّنيا ﴿مُحۡسِنِينَ﴾ بالفرائضِ.

قولهُ تعالى: ﴿كَانُواْ قَلِيلٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مَا يَهۡجَعُونَ ١٧ وَبِٱلۡأَسۡحَارِ هُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ ١٨ وَفِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ ١٩﴾، فيهِ خمسُ مسائلَ:

الأولى: قولهُ تعالى: ﴿كَانُواْ قَلِيلٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مَا يَهۡجَعُونَ﴾ أي ينامونَ، والهجوعُ النّومُ ليلاً، واختلفَ في ﴿مَا﴾ فقيلَ: صلةٌ زائدةٌ، والتّقديرُ كانوا قليلاً منَ اللّيلِ يهجعونَ، أيْ ينامونَ قليلاً منَ اللّيلِ ويصلّونَ أكثرهُ، وقيلَ: ليسَ ﴿مَا﴾ صلةً بلِ الوقفُ عندَ قولهِ: ﴿قَلِيلٗا﴾ ثمَّ يبتدئُ ﴿مِّنَ ٱلَّيۡلِ مَا يَهۡجَعُونَ﴾ فَـ ﴿مَا﴾ للنّفيِ وهوَ نفيُ النّومِ عنهمُ البتّةَ.

الثانية– رويَ عنْ بعضِ المتهجّدينَ أنّهُ أتاهُ آتٍ في منامهِ فأنشدهُ:

وكيفَ تنامُ اللّيلَ عينٌ قريرةٌ ... ولمْ تدرِ في أيِ المجالسِ تنزلُ

الثالثة– قوله تعالى: ﴿بِٱلۡأَسۡحَارِ هُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ﴾ مدحٌ ثانٍ، أيْ يستغفرونَ منْ ذنوبهمْ، والسّحرُ وقتٌ يرجى فيهِ إجابةُ الدّعاءِ. وقيلَ: أيْ يصلّونَ وقتَ السّحرِ فسمّوا الصّلاةَ استغفاراً. وقالَ الحسنُ في قولهِ تعالى: ﴿كَانُواْ قَلِيلٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مَا يَهۡجَعُونَ﴾ مدّوا الصّلاةَ منْ أول الليل إلى السّحرِ ثمَّ استغفروا في السّحرِ.

الرابعة- قولهُ تعالى: ﴿وَفِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ﴾ مدحٌ ثالثٌ، والحقُّ هنا الزّكاةُ المفروضةُ. وقيلَ: إنّهُ حقٌّ سوى الزّكاةِ يصلُ بهِ رحماً، أوْ يقري بهِ ضيفاً، أوْ يحملُ بهِ كلاً، أوْ يغني محروماً لأنَّ السّورةَ مكيّةٌ وفرضتِ الزّكاةُ بالمدينةِ.

الخامسة- قولهُ تعالى: ﴿لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ﴾ السّائلُ الّذي يسألُ النّاسَ لفاقتهِ ﴿وَٱلۡمَحۡرُومِ﴾ الّذي حرمَ المالَ متعفّفٌ لا يسألُ النّاسَ شيئاً ولا يعلمُ بحاجتهِ.

قولهُ تعالى: ﴿وَفِي ٱلۡأَرۡضِ ءَايَٰتٞ لِّلۡمُوقِنِينَ﴾ تدلُّ على قدرتهِ على البعثِ والنّشورِ ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ﴾ أيْ في خلقها منْ نطفةٍ وعلقةٍ ومضغةٍ ولحمٍ وعظمٍ إلى نفخِ الرّوحِ، وفي اختلافِ الألسنةِ والألوانِ والصّورِ، إلى غيرِ ذلكَ منَ الآياتِ الباطنةِ والظّاهرةِ، في حياتكمْ وموتكمْ، وفيما يدخلُ ويخرجُ منْ طعامكمْ، وفي الهرمِ بعدَ الشّبابِ، والضّعفِ بعدَ القوّةِ، والشّيبِ بعدَ السّوادِ ﴿أَفَلَا تُبۡصِرُونَ﴾ يعني بصرَ القلبِ ليعرفوا كمالَ قدرتهِ. ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ أي على ربِّ السّماءِ رزقكمْ، نظيرهُ: ﴿۞وَمَا مِن دَآبَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا﴾، وقيلَ: في المطرِ رزقكمْ، سمّيَ المطرُ سماءً لأنّهُ منَ السّماءِ ينزلُ، قالَ الشّاعرُ:

إذا سقطَ السّماءُ بأرضِ قومٍ رعيناهُ وإنْ كانوا غضابا

﴿وَمَا تُوعَدُونَ﴾ منْ خيرٍ وشرٍّ وجنّة ونّارٍ. ﴿فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ إِنَّهُۥ لَحَقّٞ﴾ أكّدَ ما أخبرهمْ بهِ منَ البعثِ وما خلقَ في السّماءِ منَ الرّزقِ، وأقسمَ عليهِ بأنّهُ لحقٌّ ثمَّ أكّدهُ بقولهِ: ﴿مِّثۡلَ مَآ أَنَّكُمۡ تَنطِقُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿هَلۡ أَتَىٰكَ﴾ أيْ ألمْ يأتكَ. وقيلَ: ﴿هَلۡ﴾ بمعنى قدْ، كقولهِ تعالى: ﴿هَلۡ أَتَىٰ عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ حِينٞ مِّنَ ٱلدَّهۡرِ﴾ ﴿حَدِيثُ ضَيۡفِ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ﴾ عندَ إبراهيم، أو عندَ اللّهِ، دليلهُ قولهُ تعالى: ﴿بَلۡ عِبَادٞ مُّكۡرَمُونَ﴾ يريدُ جبريلَ وميكائيلَ وإسرافيلَ. ﴿إِذۡ دَخَلُواْ عَلَيۡهِ فَقَالُواْ سَلَٰمٗاۖ قَالَ سَلَٰمٞ﴾ أيْ عليكمْ سلامٌ. ويجوزُ بمعنى أمري سلامٌ أوْ ردّي لكمْ سلامٌ. وقرأ أهلُ الكوفةِ إلّا عاصماً ﴿سِلۡمٌ﴾ بكسرِ السّينِ ﴿قَوۡمٞ مُّنكَرُونَ﴾ أي غرباءُ لا نعرفكمْ. وقيلَ: لأنّهُ رآهمْ على غيرِ صورةِ البشرِ، وعلى غيرِ صورةِ الملائكةِ الّذينَ كانَ

يعرفهمْ فنكرهمْ، وقيلَ: أنكرهمْ لأنّهمْ دخلوا عليهِ منْ غيرِ استئذانٍ. أو أنكرَ سلامهمْ في ذلكَ الزّمانِ وفي تلكَ الأرضِ. ﴿فَرَاغَ﴾ أيْ عدلَ كالمستخفي ﴿إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجۡلٖ سَمِينٖ﴾ أيْ جاءَ ضيفهُ بعجلٍ قدْ شواهُ لهمْ كما في ﴿هُودٌ﴾: ﴿فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجۡلٍ حَنِيذٖ﴾. والعجلُ ولدُ البقرةِ والجمعُ العجاجيلُ والأنثى عِجلةٌ. ﴿فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيۡهِمۡ﴾ يعني العجل. ف ﴿قَالَ أَلَا تَأۡكُلُونَ﴾. ﴿فَأَوۡجَسَ مِنۡهُمۡ خِيفَةٗۖ﴾ أيْ أحسَّ منهمْ في نفسهِ خوفًا لمّا لمْ يتحرّموا بطعامهِ ﴿قَالُواْ لَا تَخَفۡۖ﴾ وأعلموهُ أنّهمْ ملائكةُ اللّهِ ورسلهُ ﴿وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ﴾ أيْ بولدٍ يولدُ لهُ منْ سارّةَ زوجتهِ ﴿عَلِيمٖ﴾ أيْ يكونُ بعدَ بلوغهِ منْ أولي العلمِ باللّهِ وبدينهِ. والجمهورُ على أنَّ المبشّرَ بهِ هوَ إسحاقُ. وقالَ مجاهدٌ وحدهُ: هوَ إسماعيلُ وليسَ بشيءٍ فإنَّ اللّهَ تعالى يقولُ: ﴿وَبَشَّرۡنَٰهُ بِإِسۡحَٰقَ﴾ وهذا نص.

قولهُ تعالى: ﴿فَأَقۡبَلَتِ ٱمۡرَأَتُهُۥ فِي صَرَّةٖ﴾ أيْ في صيحةٍ وضجّةٍ، لمّا سمعتْ البشارةَ و﴿صَكَّتۡ وَجۡهَهَا﴾، أيْ ضربتْ يدها على وجهها على عادةِ النّسوانِ عندَ التّعجّبِ ﴿وَقَالَتۡ عَجُوزٌ عَقِيمٞ﴾ فكيف ألِد ﴿قَالُواْ كَذَٰلِكِ﴾ أيْ كما قلنا لكِ وأخبرناكِ ﴿قَالَ رَبُّكِۖ﴾ فلا تشكّي فيهِ، وكانَ بينَ البشارةِ والولادةِ سنةٌ، وكانتْ سارّةُ لمْ تلدْ قبلَ ذلكَ فولدتْ وهيَ بنتُ تسعٍ وتسعينَ سنةً، وإبراهيمُ يومئذٍ ابنَ مائةِ سنةٍ ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡحَكِيمُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ حكيمٌ فيما يفعلهُ عليمٌ بمصالحِ خلقه.

قولهُ تعالى: ﴿قال فَمَا خَطۡبُكُمۡ﴾ أيْ ما شأنكمْ وقصّتكمْ ﴿أَيُّهَا ٱلۡمُرۡسَلُونَ ٣١ قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرۡسِلۡنَآ إِلَىٰ قَوۡمٖ مُّجۡرِمِينَ﴾ يريدُ قومَ لوطٍ ﴿لِنُرۡسِلَ عَلَيۡهِمۡ حِجَارَةٗ مِّن طِينٖ﴾ نرجمهمْ بها ﴿مُّسَوَّمَةً﴾ أيْ معلّمةً. أو معروفةٌ بأنّها حجارةُ العذابِ. وقيلَ: على كلِّ حجرٍ اسمُ منْ يهلكُ بهِ ﴿عِندَ رَبِّكَ﴾ أعدّها لرجمِ منْ قضى برجمهِ. ثمَّ قيل: كانتْ مطبوخةً طبخَ الآجرِّ، وهوَ معنى قولهِ تعالى: ﴿حِجَارَةٗ مِّن سِجِّيلٖ﴾، وإنّما قالَ: ﴿مِّن طِينٖ﴾ ليعلمَ أنّها ليستْ حجارةَ الماءِ الّتي هيَ البردُ.

قولهُ تعالى: ﴿فَأَخۡرَجۡنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ وذلكَ قولهُ تعالى: ﴿فَأَسۡرِ بِأَهۡلِكَ﴾ ﴿فَمَا وَجَدۡنَا فِيهَا غَيۡرَ بَيۡتٖ مِّنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾ أيْ أهلِ بيتٍ ففيهِ إضمارٌ، يعني لوطًا

وبنتيهِ. وقولهُ: ﴿فِيهَآ﴾ كنايةٌ عنِ القريةِ فقولهُ تعالى: ﴿إِنَّآ أُرۡسِلۡنَآ إِلَىٰ قَوۡمٖ مُّجۡرِمِينَ﴾ يدلُّ على القريةِ، لأنَّ القومَ إنّما يسكنونَ قريةً. وقيلَ: الضّميرُ فيها للجماعة. والمؤمنون والمسلمون ها هنا سواءٌ فجنّسَ اللّفظَ لئلّا يتكرّرَ، كما قالَ: ﴿إِنَّمَآ أَشۡكُواْ بَثِّي وَحُزۡنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾، وقيلَ: الإيمانُ تصديقُ القلبِ، والإسلامُ الانقيادُ بالظّاهرِ، فكلُّ مؤمنٍ مسلمٌ وليسَ كلُّ مسلمٍ مؤمنـًا. فسمّاهمْ في الآيةِ الأولى مؤمنينَ، لأنّهُما منْ مؤمنٍ إلّا وهوَ مسلمٌ، وقولهُ: ﴿۞قَالَتِ ٱلۡأَعۡرَابُ ءَامَنَّاۖ قُل لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ﴾ يدلُّ على الفرقِ بينَ الإيمانِ والإسلامِ وهوَ مقتضى حديثِ جبريلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ في صحيحِ مسلمٍ وغيرهِ.

قولهُ تعالى: ﴿وَتَرَكۡنَا فِيهَآ ءَايَةٗ﴾ أيْ عبرةً وعلامةً لأهلِ ذلكَ الزّمانِ ومنْ بعدهمْ، نظيرهُ: ﴿وَلَقَد تَّرَكۡنَا مِنۡهَآ ءَايَةَۢ بَيِّنَةٗ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ﴾. ثمَّ قيل: الآيةُ المتروكةُ نفسُ القريةِ الخربةِ. وقيلَ: الحجارةُ المنضودةُ الّتي رجموا بها هيَ الآيةُ ﴿لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ﴾ لأنهم المنتفعون.

قولهُ تعالى: ﴿وَفِي مُوسَىٰٓ﴾ أيْ وتركنا أيضـًا في قصّةِ موسى آيةً ﴿إِذۡ أَرۡسَلۡنَٰهُ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ﴾ أيْ بحجّةٍ بيّنةٍ وهيَ العصا وغيرها ﴿فَتَوَلَّىٰ بِرُكۡنِهِۦ﴾ بأجنادهِ، ومنهُ قولهُ: ﴿أَوۡ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكۡنٖ شَدِيدٖ﴾ يعني المنعةَ والعشيرةَ. وقيلَ: بجانبهِ، كقولهِ تعالى: ﴿أَعۡرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ﴾، وهذا عبارةٌ عنِ المبالغةِ في الإعراض عن الشيء ﴿وَقَالَ سَٰحِرٌ أَوۡ مَجۡنُونٞ﴾ ﴿أَوۡ﴾ بمعنى الواوِ، لأنّهمْ قالوهما جميعـًا، وقدْ توضعُ ﴿أَوۡ﴾ بمعنى الواوِ، كقولهِ تعالى: ﴿وَلَا تُطِعۡ مِنۡهُمۡ ءَاثِمًا أَوۡ كَفُورٗا﴾ والواوُ بمعنى أوْ، كقولهِ تعالى: ﴿فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثۡنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَۖ﴾ وقد تقدم جميع هذا. ﴿فَأَخَذۡنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ﴾ لكفرهم وتوليهم عن الايمان. و﴿نَبَذۡنَٰهُمۡ﴾ أي طرحناهم ﴿فِي ٱلۡيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٞ﴾ يعني فرعونَ، لأنّهُ أتى ما يلام عليه.

قولهُ تعالى: ﴿وَفِي عَادٍ﴾ أيْ وتركنا في عادٍ آيةً لمنْ تأمّلَ ﴿إِذۡ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلۡعَقِيمَ﴾ وهيَ الّتي لا تلقحُ سحابـًا ولا شجراً، ولا رحمةَ فيها ولا بركةَ ولا منفعةَ، ومنهُ امرأةٌ عقيمٌ لا تحملُ ولا تلدُ. وهيَ الدّبورُ كما في الصّحيحِ عنِ النّبيِّ ﷺ «نصرتُ بالصّبا وأهلكتْ

عادٌ بالدّبورِ» ﴿مَا تَذَرُ مِن شَىْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ﴾ كالهشيمِ البالي، وأصلُ الكلمةِ منْ رمَّ العظمُ إذا بليَ، تقولُ منهُ: رمَّ العظمُ يرمُّ بالكسرِ رمّةً فهوَ رميمٌ، ونظيرُ هذهِ الآيةِ: ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍ﴾.

قولهُ تعالى: ﴿وَفِى ثَمُودَ﴾ عبرةٌ وآيةٌ ﴿إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا۟﴾ بالدّنيا ﴿حَتَّىٰ حِينٍ﴾ أيْ إلى وقتِ الهلاكِ وهوَ ثلاثةُ أيّامٍ كما في هودٍ: ﴿تَمَتَّعُوا۟ فِى دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ﴾. وقيلَ: معنى ﴿تَمَتَّعُوا۟﴾ أيْ أسلموا وتمتّعوا إلى وقتِ فراغِ آجالكمْ ﴿فَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾ أيْ خالفوه فعقروا النّاقةَ ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ﴾ العذابُ ﴿وَهُمْ يَنظُرُونَ﴾ إليها نهاراً ﴿فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مِن قِيَامٍ﴾ منْ نهوضٍ ﴿وَمَا كَانُوا۟ مُنتَصِرِينَ﴾ أيْ ممتنعينَ منَ العذابِ حينَ أهلكوا، أي ما كان لهم ناصر.

قولهُ تعالى: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ﴾ قرأَ حمزةُ والكسائيُّ وأبو عمرو ﴿وَقَوْمِ نُوحٍ﴾ بالخفضِ، أيْ وفي قومِ نوحٍ آيةٌ أيضـًا. الباقونَ بالنّصبِ على معنى وأهلكنا قومَ نوحٍ ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾.

قولهُ تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْي۟دٍ﴾ أيْ بقوّةٍ وقدرةٍ ﴿وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ أيْ أغنياءُ قادرونَ ﴿وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا﴾ مددناها ﴿فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ﴾ نحنُ لهمْ. والمعنى في الجمعِ التّعظيمُ، ومهّدتُ الفراشَ مهداً بسطتهُ ووطّأتهُ. ﴿وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾ أيْ صنفينِ ونوعينِ مختلفينِ. ذكراً وأنثى وحلواً وحامضا والسّماءَ والأرضَ، والشّمسَ والقمرَ، واللّيلَ والنّهارَ، والنّورَ والظّلامَ، والسّهلَ والجبلَ، والجنَّ والإنسَ، والخيرَ والشّرَّ ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾.

قولهُ تعالى: ﴿فَفِرُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ﴾ منْ معاصيهِ إلى طاعتهِ ﴿إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ من عقابه على الكفر والمعصية. ﴿وَلَا تَجْعَلُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ أمرَ محمّداً ﷺ أنْ يقولَ هذا للنّاسِ وهوَ النّذيرُ. وقيلَ: هوَ خطابٌ منَ اللّهِ للخلقِ ﴿إِنِّى لَكُم مِّنْهُ﴾ أيْ منْ محمّدٍ وسيوفهِ ﴿نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ أيْ أنذركمْ بأسهُ وسيفهُ إنْ أشركتمْ بي.

قولهُ تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ﴾ هذا تسليةٌ للنّبيِّ ﷺ، أيْ كما

كذّبكَ قومكَ وقالوا ساحرٌ أوْ مجنونٌ، كذّبَ منْ قبلهمْ وقالوا مثلَ قولهمْ. ﴿أَتَوَاصَوۡاْ بِهِۦۚ﴾ أيْ أوصى أوّلهمْ آخرهمْ بالتّكذيبِ. وتواطئوا عليهِ، والألفُ للتّوبيخِ والتّعجّبِ ﴿بَلۡ هُمۡ قَوۡمٞ طَاغُونَ﴾ أيْ لمْ يوصِ بعضهمْ بعضًا بلْ جمعهمُ الطّغيانُ، وهوَ مجاوزةُ الحدِّ في الكفرِ. ﴿فَتَوَلَّ عَنۡهُمۡ﴾ أيْ أعرضْ عنهمْ واصفحْ عنهمْ ﴿فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٖ﴾ عندَ اللّهِ لأنّكَ أدّيتَ ما عليكَ منْ تبليغِ الرّسالةِ، ثمَّ نسخَ هذا بقولهِ تعالى: ﴿وَذَكِّرۡ فَإِنَّ ٱلذِّكۡرَىٰ تَنفَعُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ وقيلَ: نسخَ بآيةِ السّيفِ، وخصَّ المؤمنينَ، لأنّهمُ المتفعون بها.

قولهُ تعالى: ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ﴾ إلّا ليوحّدونِ، وجاءَ بلفظِ العمومِ ومعناهُ الخصوصُ. والمعنى: وما خلقتُ أهلَ السّعادةِ منَ الجنِّ والإنسِ، والآيةُ دخلها التّخصيصُ على القطعِ، لأنَّ المجانينَ والصّبيانَ ما أمروا بالعبادةِ حتّى يقالَ أرادَ منهمُ العبادةَ، وقدْ قالَ اللّهُ تعالى: ﴿وَلَقَدۡ ذَرَأۡنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِۖ﴾ ومنْ خلقَ لجهنّمَ لا يكونُ ممّنْ خلقَ للعبادةِ، فالآيةُ محمولةٌ على المؤمنينَ منهمْ، وهوَ كقولهِ تعالى: ﴿۞قَالَتِ ٱلۡأَعۡرَابُ ءَامَنَّاۖ﴾ وإنّما قالَ فريقٌ منهمْ.

وقيلَ: وما خلقت الجن ولأنس إلّا لآمرهمْ بالعبادةِ، ويدلُّ عليهِ قولهُ تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ﴾.

فإنْ قيل: كيفَ كفروا وقدْ خلقهمْ للإقرارِ بربوبيّتهِ والتّذلّلِ لأمرهِ ومشيئته؟

قيل: لأنَّ قضاءهُ جارٍ عليهمْ لا يقدرونَ على الامتناعِ منهُ، فخلقَ السّعداءَ منَ الجنِّ والإنسِ للعبادةِ، وخلقَ الأشقياءَ منهمْ للمعصيةِ.

وقيلَ: إلّا ليوحّدونِ، فأمّا المؤمنُ فيوحّدهُ في الشّدّةِ والرّخاءِ، وأمّا الكافرُ فيوحّدهُ في الشّدّةِ والبلاءِ دونَ النّعمةِ والرّخاءِ، يدلُّ عليهِ قولهُ تعالى: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوۡجٞ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ الآيةَ.

﴿مَآ أُرِيدُ مِنۡهُم مِّن رِّزۡقٖ﴾ ﴿مِن﴾ صلةٌ أيْ رزقًا بلْ أنا الرّزّاقُ والمعطي. فما أريدُ أنْ يرزقوا أنفسهمْ ولا أنْ يطعموها، ولا أنْ يرزقوا عباديَ ولا أنْ يطعموهمْ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلۡقُوَّةِ ٱلۡمَتِينُ﴾ أيِ الشّديدُ القويُّ.

قولهُ تعالى: ﴿فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ أيْ كفروا منْ أهلِ مكّةَ ﴿ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَٰبِهِمْ﴾ أيْ نصيباً منَ العذابِ مثلَ نصيبِ الكفّارِ منَ الأممِ السّالفةِ، وأصلُ الذّنوبِ في اللّغةِ الدّلوُ العظيمةُ، وكانوا يستقونَ الماءَ فيقسمونَ ذلكَ على الأنصباءِ فقيلَ للذّنوبِ نصيبٌ منْ هذا ﴿فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ﴾ نزولَ العذابِ بهمْ، لأنّهمْ قالوا: يا محمّدُ ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ فنزلَ بهمْ يومَ بدرٍ ما حقّقَ بهِ وعدهُ وعجّلَ بهمُ انتقامهُ، ثمَّ لهمْ في الآخرةِ العذابُ الدّائمُ، والخزيُ القائمُ، الّذي لا انقطاعَ لهُ. ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن يَوْمِهِمُ الَّذِى يُوعَدُونَ﴾.

سورة الطور

مكّيّةٌ كلّها في قولِ الجميعِ، وهيَ تسعٌ وأربعونَ آيةً. روى الأئمّةُ عنْ جبيرِ بنِ مطعمٍ قالَ: سمعتُ رسولَ اللّهِ ﷺ يقرأُ بالطّورِ في المغربِ. متّفقٌ عليهِ.

بسمِ اللّهِ الرّحمنِ الرّحيمِ

قولهُ تعالى: ﴿وَٱلطُّورِ﴾ الطّورِ اسمُ الجبلِ الّذي كلّمَ اللّهُ عليهِ موسى، أقسمَ اللّهُ بهِ تشريفًا لهُ وتكريمًا وتذكيرًا لما فيهِ منَ الآياتِ، وهوَ أحدُ جبالِ الجنّةِ، والطّورِ هوَ بالسّريانيّةِ الجبلُ والمرادُ بهِ طور سينا. ﴿وَكِتَٰبٍ مَّسۡطُورٍ﴾ أيْ مكتوبٌ، يعني القرآن يقرؤه المؤمنون من المصاحف، ويقرؤه الملائكةُ منَ اللّوحِ المحفوظِ، كما قالَ تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٌ كَرِيمٌ ٧٧ فِي كِتَٰبٍ مَّكۡنُونٍ﴾. وقيلَ: يعني سائرَ الكتبِ المنزّلةِ على الأنبياءِ، وقيلَ: هوَ صحائفُ الأعمالِ، فمنْ آخذٍ كتابهِ بيمينهِ، ومنْ آخذٍ كتابهِ بشمالهِ، نظيرهُ: ﴿وَنُخۡرِجُ لَهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلۡقَىٰهُ مَنشُورًا﴾ وقولهُ: ﴿وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتۡ﴾، وقيلَ: المرادُ ما كتبَ اللّهُ في قلوبِ الأولياءِ منَ المؤمنينَ، بيانهُ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡإِيمَٰنَ﴾.

قلت: وفي هذا القولِ تجوّزٌ، لأنّهُ عبّرَ بالقلوبِ عنِ الرَّقِّ.

قولهُ تعالى: ﴿فِي رَقّٖ مَّنشُورٖ﴾ الرَّقُّ بالفتحِ ما رقّقَ منَ الجلدِ ليكتبَ فيهِ، والمنشورُ المبسوطُ. وأمّا الرّقُّ بالكسرِ فهوَ الملكُ.

قولهُ تعالى: ﴿وَٱلۡبَيۡتِ ٱلۡمَعۡمُورِ﴾ وهوَ بيتٌ في السّماءِ السابعة حيالَ الكعبةِ كما في صحيحِ مسلمٍ عنْ أنسِ بنِ مالكٍ أنَّ رسولَ اللّهِ ﷺ قال: «أتيتُ بالبراقِ» الحديثَ، وفيهِ: «ثمَّ عرجَ بنا إلى السّابعةِ» «فاستفتحَ جبريلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فقيلَ منْ هذا قالَ جبريلُ قيلَ ومنْ معكَ قالَ محمّدٌ ﷺ قيلَ: وقدْ بعثَ إليهِ؟ قالَ: قدْ بعثَ إليهِ. ففتحَ لنا فإذا أنا بإبراهيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ مسندًا ظهرهُ إلى البيتِ المعمورِ وإذا هوَ يدخلهُ كلَّ يومٍ سبعونَ ألفَ ملكٍ لا يعودونَ إليهِ».

وقيلَ: البيتِ المعمورِ هوَ الكعبةُ، البيتُ الحرامُ الّذي هوَ معمورٌ منَ النّاسِ، يعمرهُ اللّهُ، فإنْ عجزَ النّاسُ عنْ ذلكَ أتمّهُ اللّهُ بالملائكةِ، وهوَ أوّلُ بيتٍ وضعهُ اللّهُ للعبادةِ في الأرضِ.

قولهُ تعالى: ﴿وَٱلسَّقْفِ ٱلْمَرْفُوعِ﴾ يعني السّماءَ سمّاها سقفاً، لأنّها للأرضِ كالسّقفِ للبيتِ، بيانهُ: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا﴾. وقيلَ: هوَ العرشُ وهوَ سقفُ الجنّةِ ﴿وَٱلْبَحْرِ ٱلْمَسْجُورِ﴾ الموقدُ، ودليلُ هذا التّأويلِ قولهُ تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾ أيْ أوقدتْ، وقيلَ: المسجورُ أيِ المفجورُ، دليلهُ: ﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ﴾ أيْ تنشّفها الأرضُ فلا يبقى فيها ماء.

قولهُ تعالى: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ﴾ هذا جوابُ القسمِ، أيْ واقعٌ بالمشركينَ. قالَ جبيرُ بنُ مطعم: قدمتُ المدينةَ لأسألَ رسولَ اللّهِ ﷺ في أسارى بدرٍ، فوافيتهُ يقرأُ في صلاةِ المغربِ ﴿وَٱلطُّورِ﴾ إلى قولهِ: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ۝٧ مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ﴾ فكأنّما صدعَ قلبي.

قولهُ تعالى: ﴿يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا﴾ العاملُ في يوم قوله: ﴿لَوَاقِعٌ﴾ أيْ يقعُ العذابُ بهمْ يومَ القيامةِ وهوَ اليومُ الّذي تمورُ فيهِ السّماءُ. أيْ تتحرّكَ وتضطرب ﴿وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ سَيْرًا﴾ كسيرِ السّحابِ اليومَ في الدّنيا، بيانهُ ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ﴾.

قولهُ تعالى: ﴿فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ ﴿فَوَيْلٌ﴾ كلمةٌ تقالُ للهالكِ، وإنّما دخلتِ الفاءُ لأنَّ في الكلامِ معنى المجازاةِ ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ فِى خَوْضٍ يَلْعَبُونَ﴾ أيْ في تردّدٍ في الباطلِ، لا يذكرونَ حساباً ولا جزاءً. ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ﴾ ﴿يَوْمَ﴾ بدلٌ منْ يومئذٍ. وَ ﴿يُدَعُّونَ﴾ معناهُ يدفعونَ إلى جهنّمَ بشدّةٍ وعنفٍ، ومنهُ قولهُ تعالى: ﴿فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ﴾ فإذا دنوا منَ النّارِ قالتْ لهمُ الخزنةُ: ﴿هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ في الدّنيا. ﴿أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ﴾ الّذي ترونَ الآنَ بأعينكمْ، وهو استفهامٌ توبيخٌ وتقريعٌ ﴿أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ﴾. وقيلَ: ﴿أَمْ﴾ بمعنى بلْ، أيْ بلْ كنتمْ لا تبصرونَ في الدّنيا ولا تعقلونَ. ﴿ٱصْلَوْهَا﴾ أيْ تقولُ لهمُ الخزنةُ ذوقوا حرّها بالدّخولِ فيها ﴿فَٱصْبِرُوٓاْ أَوْ لَا تَصْبِرُواْ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ﴾ فلا ينفعكم شيء، كما أخبرَ عنهمْ أنّهمْ يقولونَ: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا﴾ ﴿إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

قولهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَعِيمٍ ۝١٧ فَٰكِهِينَ﴾ أيْ ذوي فاكهةٍ كثيرةٍ ﴿بِمَآ ءَاتَىٰهُمْ﴾ أيْ أعطاهمْ ﴿رَبُّهُمْ وَوَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ۝١٨ كُلُواْ وَٱشْرَبُواْ﴾ أيْ يقالُ لهمْ

ذلكَ ﴿هَنِيٓـًٔا﴾ الهني ما لا تنغيصَ فيهِ ولا نكدَ ولا كدرَ ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾.

قولهُ تعالى: ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٍ﴾ جمعُ سريرٍ وفي الكلامِ حذفٌ تقديرهُ: متّكئينَ على نمارقَ أي سُررٍ ﴿مَّصْفُوفَةٍ﴾ بعضها إلى بعضٍ حتّى تصيرَ صفـًا ﴿وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ﴾ أيْ قرنّاهمْ بهنَّ، منْ قولِ اللّهِ تعالى: ﴿۞ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ﴾ أيْ وقرناءهمْ.

قولهُ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم﴾ قرأَ العامّةُ ﴿وَٱتَّبَعَتْهُمْ﴾ بوصلِ الألفِ وتشديدِ التاءِ وفتحِ العينِ وإسكانِ التاءِ. وقرأَ أبو عمرو ﴿وَأَتْبَعْنَٰهُمْ﴾ بقطعِ الألفِ وإسكانِ التّاءِ والعينِ ونونٍ، اعتباراً بقولهِ: ﴿أَلْحَقْنَا بِهِمْ﴾، ليكونَ الكلامُ على نسقٍ واحدٍ. فأمّا قولهُ: ﴿ذُرِّيَّتُهُم﴾ الأولى فقرأها بالجمعِ ابنُ عامرٍ وأبو عمرو ويعقوبُ ورواها عنْ نافعٍ إلّا أنَّ أبا عمرو كسرَ التّاءَ على المفعولِ وضمَّ باقيهمْ. وقرأَ الباقونَ ﴿ذُرِّيَّتُهُم﴾ على التّوحيدِ وضمِّ التّاءِ وهوَ المشهورُ عنْ نافعٍ.

فأمّا الثّانيةُ: فقرأها نافعٌ وابنُ عامرٍ وأبو عمرو ويعقوبُ بكسرِ التّاءِ على الجمعِ. الباقونَ ﴿ذُرِّيَّتَهُم﴾ على التّوحيدِ وفتحِ التّاءِ. واختلفَ في معناهُ، فقيلَ: إنَّ اللّهَ ليرفعُ ذرّيّةَ المؤمنِ معهُ في درجتهِ في الجنّةِ وإنْ كانوا دونهُ في العملِ لتقرَّ بهمْ عينهُ، وإنْ كانَ الأبناءُ أرفعَ درجةً رفعَ اللّهُ الآباءَ إلى الأبناءِ، فالآباءُ داخلونَ في اسمِ الذّرّيّةِ، كقولهِ تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ﴾.

قولهُ تعالى: ﴿وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ﴾ أيْ ما نقصنا الأبناءَ منْ ثوابِ أعمالهمْ لقصرِ أعمارهمْ، وما نقصنا الآباءَ منْ ثوابِ أعمالهمْ شيئـًا بإلحاقِ الذّرّيّاتِ بهمْ. والهاءُ والميمُ راجعانِ إلى قولهِ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾. وقرأَ ابنُ كثيرٍ ﴿وَمَآ أَلِتْنَٰهُم﴾ بكسرِ اللّامِ. وفتحَ الباقونَ. وألتهُ يألتهُ ألتـًا، وآلتهُ يؤلتهُ إيلاتـًا، ولاتهُ يليتهُ ليتـًا كلّها إذا نقصه.

قولهُ تعالى: ﴿كُلُّ ٱمْرِئٍۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ ارتهنَ أهلُ جهنّمَ بأعمالهمْ وصارَ أهلُ الجنّةِ إلى نعيمهمْ، ولهذا قالَ: ﴿كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّآ أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ﴾. وقيلَ: هوَ عامٌّ لكلِّ إنسانٍ مرتهنٍ بعملهِ فلا ينقصُ أحدٌ منْ ثوابِ عملهِ، فأمّا الزّيادةُ على ثوابِ العملِ فهيَ تفضّلٌ منَ اللّهِ. ﴿وَأَمْدَدْنَٰهُم بِفَٰكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ﴾ أيْ أكثرنا لهمْ منْ ذلكَ زيادةً

منَ اللّهِ، أمدّهمْ بها غيرَ الّذي كانَ لهمْ. ﴿يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا كَأۡسٗا﴾ أيْ يتناولها بعضهمْ منْ بعضٍ وهوَ المؤمنُ وزوجاتهُ وخدمهُ في الجنّةِ. والكأسُ: كلُّ إناءٍ مملوءٍ منْ شرابٍ وغيرِه، فإذا فرغَ لمْ يسمَّ كأساً ﴿لَّا لَغۡوٞ فِيهَا﴾ أيْ في الكأسِ أيْ لا يجري بينهمْ لغو ﴿وَلَا تَأۡثِيمٞ﴾ تفعيلٌ منَ الإثمِ، أيْ تلكَ الكأسُ لا تجعلهمْ آثمينَ لأنّهُ مباحٌ لهمْ.

وقيلَ: ﴿لَّا لَغۡوٞ فِيهَا﴾ أيْ في الجنّةِ ﴿وَلَا تَأۡثِيمٞ﴾ أيْ ولا كذبٌ. وقرأَ ابنُ كثيرٍ وأبو عمرو: ﴿لَّا لَغۡوَ فِيهَا وَلَا تَأۡثِيمَ ٢٣﴾ بفتحِ آخرِه. الباقونَ بالرّفعِ والتّنوينِ.

قولهُ تعالى: ﴿۞وَيَطُوفُ عَلَيۡهِمۡ غِلۡمَانٞ لَّهُمۡ﴾ أيْ بالفواكهِ والتّحفِ والطّعامِ والشّرابِ، ودليلهُ: ﴿يُطَافُ عَلَيۡهِم بِصِحَافٖ مِّن ذَهَبٖ﴾ ﴿يُطَافُ عَلَيۡهِم بِكَأۡسٖ مِّن مَّعِينِۭ﴾. ثمَّ قيلَ: همُ الأطفالُ منْ أولادهمُ الّذينَ سبقوهمْ، فأقرَّ اللّهُ تعالى بهمْ أعينهمْ، وقيلَ: همْ غلمانٌ خلقوا في الجنّةِ لا يكبرونَ أبداً ﴿كَأَنَّهُمۡ﴾ في الحسنِ والبياضِ ﴿لُؤۡلُؤٞ مَّكۡنُونٞ﴾ في الصّدفِ، والمكنونُ المصونُ.

قولهُ تعالى: ﴿وَأَقۡبَلَ بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ﴾ إذا بعثوا منْ قبورهمْ، وقيلَ: في الجنّةِ ﴿يَتَسَآءَلُونَ﴾ أيْ يتذاكرونَ ما كانوا فيهِ في الدّنيا منَ التّعبِ والخوفِ منَ العاقبةِ، ويحمدونَ اللّهَ تعالى على زوالِ الخوفِ عنهمْ ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا قَبۡلُ فِيٓ أَهۡلِنَا مُشۡفِقِينَ﴾ خائفينَ وجلينَ منْ عذابِ اللّهِ ﴿فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا﴾ بالجنّةِ والمغفرةِ. وقيلَ: بالتّوفيقِ والهدايةِ ﴿وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ﴾ اسمٌ منْ أسماءِ النّارِ وطبقةٌ منْ طباقِ جهنّمَ. ﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبۡلُ نَدۡعُوهُۖ﴾ أيْ في الدّنيا بأنْ يمنَّ علينا بالمغفرةِ عنْ تقصيرنا. وقيلَ: ﴿نَدۡعُوهُۖ﴾ أيْ نعبدهُ ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡبَرُّ ٱلرَّحِيمُ﴾ وقرأَ نافعٌ والكسائيُّ ﴿أَنَّهُۥ﴾ بفتحِ الهمزةِ، أيْ لأنّهُ. الباقونَ بالكسرِ على الابتداءِ. و﴿ٱلۡبَرُّ﴾ اللّطيفُ. ﴿فَذَكِّرۡ﴾ يا محمّدُ قومكَ بالقرآنِ ﴿فَمَآ أَنتَ بِنِعۡمَتِ رَبِّكَ﴾ يعني برسالةِ ربّكَ ﴿بِكَاهِنٖ﴾ تبتدعُ القولَ ﴿وَلَا مَجۡنُونٍ﴾ وهذا ردٌّ لقولهمْ في النّبيِّ ﷺ.

قولهُ تعالى: ﴿أَمۡ يَقُولُونَ شَاعِرٞ﴾ أيْ بلْ يقولونَ محمّدٌ شاعرٌ ﴿نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيۡبَ ٱلۡمَنُونِ﴾ حوادثُ الدّهرِ ﴿قُلۡ تَرَبَّصُواْ﴾ أيْ قلْ لهمْ يا محمّدُ تربّصوا أيِ انتظروا ﴿فَإِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُتَرَبِّصِينَ﴾ أيْ منَ المنتظرينَ بكمُ العذابَ، فعذّبوا يومَ بدرٍ بالسّيفِ. ﴿أَمۡ

﴿تَأۡمُرُهُمۡ أَحۡلَٰمُهُم﴾ أيْ عقولهمْ ﴿بِهَٰذَآ﴾ أيْ بالكذبِ عليكَ ﴿أَمۡ هُمۡ قَوۡمٞ طَاغُونَ﴾ أيْ أمْ طغوا بغيرِ عقولٍ. وقيلَ: ﴿أَمۡ﴾ بمعنى بلْ، أيْ بلْ كفروا طغياناً وإنْ ظهرَ لهمُ الحقُّ ﴿أَمۡ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ﴾ أيِ افتعلهُ وافتراهُ، يعني القرآنَ. والتّقوّلُ تكلّفُ القولِ، وإنّما يستعملُ في الكذبِ في غالبِ الأمرِ ﴿بَل لَّا يُؤۡمِنُونَ﴾ جحدا واستكباراً ﴿فَلۡيَأۡتُواْ بِحَدِيثٖ مِّثۡلِهِۦٓ﴾ أيْ بقرآنٍ يشبههُ منْ تلقاءِ أنفسهمْ ﴿إِن كَانُواْ صَٰدِقِينَ﴾ في أنَّ محمّداً افتراهُ.

قولهُ تعالى: ﴿أَمۡ خُلِقُواْ مِنۡ غَيۡرِ شَيۡءٍ﴾ ﴿أَمۡ﴾ صلةٌ زائدة والتقدير أخلقوا من غير شيء. منْ غيرِ ربٍّ خلقهمْ وقدّرهمْ. وقيلَ: أمْ خلقوا عبثاً وتركوا سدى ﴿مِنۡ غَيۡرِ شَيۡءٍ﴾ أي لغير شيء فَ ﴿مِن﴾ بمعنى اللّامِ ﴿أَمۡ هُمُ ٱلۡخَٰلِقُونَ﴾ أيْ أيقولونَ إنّهمْ خلقوا أنفسهمْ فهمْ لا يأتمرونَ لأمرِ اللّهِ وهمْ لا يقولونَ ذلكَ، وإذا أقرّوا أنَّ ثمَّ خالقاً غيرهمْ فما الذي يمنعهمْ منَ الإقرارِ لهُ بالعبادةِ دونَ الأصنامِ، ومنَ الإقرارِ بأنّهُ قادرٌ على البعثِ ﴿أَمۡ خَلَقُواْ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۚ﴾ أيْ ليسَ الأمرُ كذلكَ فإنّهمْ لمْ يخلقوا شيئاً ﴿بَل لَّا يُوقِنُونَ﴾ بالحقِّ ﴿أَمۡ عِندَهُمۡ خَزَآئِنُ رَبِّكَ﴾ فيستغنوا عنِ اللّهِ ويعرضوا عنْ أمرهِ، وخزائنُ ربّكَ المطرُ والرّزقُ ﴿أَمۡ هُمُ ٱلۡمُصَيۡطِرُونَ﴾ المسلّطونَ الجبّارونَ ﴿أَمۡ لَهُمۡ سُلَّمٞ﴾ أيْ مرتقى إلى السّماءِ ﴿يَسۡتَمِعُونَ فِيهِۖ﴾ أيْ عليهِ الأخبارَ ويصلونَ بهِ إلى علمِ الغيبِ كقولهِ تعالى: ﴿فِي جُذُوعِ ٱلنَّخۡلِ﴾ أيْ عليها ﴿فَلۡيَأۡتِ مُسۡتَمِعُهُم بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٍ﴾ أيْ بحجّةٍ بيّنةٍ أنَّ هذا الّذي همْ عليهِ حقٌّ.

قولهُ تعالى: ﴿أَمۡ لَهُ ٱلۡبَنَٰتُ وَلَكُمُ ٱلۡبَنُونَ﴾ معَ أنفتكمْ منهنَّ، سفّهُ أحلامهمْ توبيخاً لهمْ وتقريعاً ﴿أَمۡ تَسۡـَٔلُهُمۡ أَجۡرٗا﴾ على تبليغِ الرّسالةِ ﴿فَهُم مِّن مَّغۡرَمٖ مُّثۡقَلُونَ﴾ أيْ فهمْ منَ المغرمِ الّذي تطلبهمْ بهِ ﴿مُّثۡقَلُونَ﴾ مجهدونَ لما كلّفتهمْ بهِ ﴿أَمۡ عِندَهُمُ ٱلۡغَيۡبُ فَهُمۡ يَكۡتُبُونَ﴾ أيْ يكتبونَ للنّاسِ ما أرادوهُ منْ علمِ الغيوبِ. ﴿أَمۡ يُرِيدُونَ كَيۡدٗاۖ﴾ أيْ مكراً بكَ في دارِ النّدوةِ ﴿فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هُمُ ٱلۡمَكِيدُونَ﴾ أيِ الممكورُ بهمْ ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلۡمَكۡرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهۡلِهِۦۚ﴾ وذلكَ أنّهمْ قتلوا ببدرٍ ﴿أَمۡ لَهُمۡ إِلَٰهٌ غَيۡرُ ٱللَّهِۚ﴾ يخلقُ ويرزقُ ويمنعُ ﴿سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ نزّهَ نفسهُ أنْ يكونَ لهُ شريكٌ.

قالَ الخليلُ: كلُّ ما في سورةِ ﴿وَٱلطُّورِ ١﴾ منْ ذكر ﴿أَمۡ﴾ فكلمة استفهام وليس بعطف.

قولهُ تعالى: ﴿وَإِن يَرَوۡاْ كِسۡفٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطٗا﴾ قالَ ذلكَ جواباً لقولهمْ: ﴿فَأَسۡقِطۡ عَلَيۡنَا كِسَفٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾، وقولهمْ: ﴿أَوۡ تُسۡقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمۡتَ عَلَيۡنَا كِسَفًا﴾ فأعلمَ أنّهُ لوْ فعلَ ذلكَ لقالوا: ﴿سَحَابٞ مَّرۡكُومٞ﴾ أيْ بعضهُ فوقَ بعضٍ سقطَ علينا، وهذا فعلُ المعاندِ أوْ فعلُ منِ استولى عليهِ التّقليدُ، والكسفُ جمعُ كسفةٍ وهيَ القطعةُ منَ الشّيءِ ﴿فَذَرۡهُمۡ﴾ منسوخٌ بآيةِ السّيفِ ﴿حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ يَوۡمَهُمُ ٱلَّذِي فِيهِ يَصۡعَقُونَ﴾ بفتحِ الياءِ قراءةُ العامّةِ، وقرأ ابنُ عامرٍ وعاصمٌ بضمّها ﴿يَوۡمَ لَا يُغۡنِي عَنۡهُمۡ كَيۡدُهُمۡ شَيۡـٔٗا﴾ أيْ ما كادوا بهِ النّبيَّ ﷺ في الدّنيا ﴿وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ﴾ من الله. و ﴿يَوۡمَ﴾ منصوبٌ على البدلِ منْ ﴿يَوۡمَهُمُ ٱلَّذِي فِيهِ يُصۡعَقُونَ﴾.

قولهُ تعالى: ﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ أيْ كفروا ﴿عَذَابٗا دُونَ ذَٰلِكَ﴾ قيل: قبلَ موتهمْ بمصائب الدّنيا منَ الأوجاعِ والأسقامِ والبلايا وذهابِ الأموالِ والأولادِ، والقتلُ وعذابُ القبرِ. و ﴿دُونَ﴾ بمعنى غيرَ. وقيلَ: عذاباً أخفَّ منْ عذابِ الآخرةِ ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ أنَّ العذابَ نازلٌ بهمْ، وقيلَ: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ ما يصيرونَ إليهِ.

قولهُ تعالى: ﴿وَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعۡيُنِنَاۖ﴾. فيهِ مسألتانِ:

الأولى: ﴿وَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ﴾ قيل: لقضاءِ ربّكَ فيما حمّلكَ منْ رسالتهِ. وقيلَ: لبلائهِ فيما ابتلاكَ بهِ منْ قومكَ، ثمَّ نسخَ بآيةِ السّيفِ.

الثانية- قولهُ تعالى: ﴿فَإِنَّكَ بِأَعۡيُنِنَاۖ﴾ أيْ بمرأى ومنظرٍ منّا نرى ونسمعُ ما تقولُ وتفعلُ. وقيلَ: بحيثُ نراكَ ونحفظكَ ونحوطكَ ونحرسكَ ونرعاكَ. والمعنى واحدٌ. ومنهُ قول تعالى لموسى عليه السلام: ﴿وَلِتُصۡنَعَ عَلَىٰ عَيۡنِيٓ﴾ أيْ بحفظي وحراستي وقدْ تقدّمَ.

قولهُ تعالى: ﴿وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ٤٨ وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡهُ وَإِدۡبَٰرَ ٱلنُّجُومِ﴾ فيهِ مسألتانِ:

الأولى: قولهُ تعالى: ﴿وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ﴾ منْ مجلسك، فإنْ كانَ المجلسُ خيراً ازددتَ ثناءً حسناً، وإنْ كانَ غيرَ ذلكَ كانَ كفّارةً لهُ، ودليلُ هذا التّأويلِ ما خرّجهُ التّرمذيُّ عنْ أبي هريرةَ قال: قال رسول اللّهِ ﷺ: «منْ جلسَ في مجلسٍ فكثرَ فيهِ لغطهُ فقالَ:

قبلَ أنْ يقومَ منْ مجلسهِ: سبحانكَ اللّهمَّ وبحمدكَ أشهدُ أنْ لا إلهَ إلّا أنتَ أستغفركَ وأتوبُ إليكَ إلّا غفرَ لهُ ما كانَ في مجلسه ذلك» قال: حديث حسنٌ صحيحٌ غريبٌ.

وقيلَ: حينَ تقومُ منْ فراشكَ إلى أنْ تدخلَ الصّلاةَ وهيَ صلاةُ الفجرِ. وفي هذا رواياتٌ مختلفاتٌ صحاحٌ، منها حديثُ عبادةَ عنِ النّبيِّ ﷺ قال: «من تعار في اللّيلِ فقالَ: لا إلهَ إلّا اللّهُ وحدهُ لا شريكَ لهُ لهُ الملكُ ولهُ الحمدُ وهوَ على كل شيء قديرٌ والحمدُ للّهِ وسبحانَ اللّهُ واللّهُ أكبرُ ولا حولَ ولا قوّةَ إلّا باللّهِ ثمَّ قالَ اللّهمَّ اغفرْ لي أوْ دعا استجيبَ لهُ فإنْ توضّأَ وصلّى قبلتْ صلاتهُ» خرّجهُ البخاريُّ.

وعنِ ابنِ عبّاسٍ أنَّ رسولَ اللّهِ ﷺ كانَ يقولُ إذا قامَ إلى الصّلاةِ منْ جوفِ اللّيلِ: «اللّهمَّ لك الحمد أنت نور السموات والأرضِ ومنْ فيهنَّ ولكَ الحمدُ أنتَ قيّومُ السموات والأرضِ ومنْ فيهنَّ ولكَ الحمدُ أنتَ ربُّ السموات والأرضِ ومنْ فيهنَّ أنتَ الحقُّ ووعدكَ الحقُّ وقولكَ الحقُّ ولقاؤكَ الحقُّ والجنّةُ حقٌّ والنّارُ حقٌّ والسّاعةُ حقٌّ والنّبيّونَ حقٌّ ومحمّدٌ حقٌّ اللّهمَّ لكَ أسلمتُ وعليكَ توكّلتُ وبكَ آمنتُ وإليكَ أنبتُ وبكَ خاصمتُ وإليكَ حاكمتُ فاغفرْ لي ما قدّمتُ وما أخّرتُ وأسررتُ وأعلنتُ أنتَ المقدّمُ وأنتَ المؤخّرُ لا إلهَ إلّا أنتَ ولا إلهَ غيركَ» متّفقٌ عليهِ. وعنِ ابنِ عبّاسٍ أيضـًا أنّهُ ﷺ كانَ إذا استيقظَ منَ اللّيلِ مسحَ النّومَ عن وجههِ، ثمَّ قرأَ العشرَ الآياتِ الأواخرَ منْ سورة آل عمران.

وقيلَ: إنّهُ التّسبيحُ في الصّلاةِ إذا قامَ إليها، وفي هذا التّسبيحِ قولانِ:

أحدهما: وهوَ قولهُ سبحانَ ربّيَ العظيمِ في الرّكوعِ وسبحانَ ربّيَ الأعلى في السّجودِ.

الثّاني: أنّهُ التّوجّهُ في الصّلاةِ يقولُ: سبحانكَ اللّهمَّ وبحمدكَ وتباركَ اسمكَ وتعالى جدّكَ ولا إلهَ غيركَ.

الثانية- قولهُ تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡهُ وَإِدۡبَٰرَ ٱلنُّجُومِ﴾ يعني ركعتيِ الفجرِ. فحملَ بعضُ العلماءِ الآيةَ على هذا القولِ على النّدبِ وجعلها منسوخةً بالصّلواتِ الخمسِ، **وقيلَ**: يريدُ بهِ صلاةَ الصّبحِ.

سورة النجم

اثنتانِ وستّونَ آيةً، وهي مكّيّةٌ كلّها. لما روى ابنُ مسعودٍ أنّهُ قالَ: هيَ أوّلُ سورةٍ أعلنها رسولِ اللّهِ ﷺ بمكّةَ. وفي البخاريِّ عنِ ابنِ عبّاسٍ: أنَّ النّبيَّ ﷺ سجدَ بالنّجمِ، وسجدَ معهُ المسلمونَ والمشركونَ والجنُّ والإنسُ. وعنْ عبدِ اللّهِ أنَّ النّبيَّ ﷺ قرأَ سورةَ النّجمِ فسجدَ لها، فما بقيَ أحدٌ منَ القومِ إلّا سجدَ، فأخذَ رجلٌ منَ القومِ كفًا منْ حصباءَ أوْ ترابٍ فرفعهُ إلى وجههِ، وقالَ: يكفيني هذا. قالَ عبدُ اللّهِ: فلقدْ رأيتهُ بعدُ قتلَ كافراً، متّفقٌ عليهِ. الرّجلُ يقالُ لهُ أميّةُ بنُ خلفٍ. وفي الصّحيحينِ عنْ زيدِ بنِ ثابتٍ «رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ» أنّهُ قرأَ على النّبيِّ ﷺ سورةَ ﴿وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ﴾ فلمْ يسجدْ.

بسمِ اللّهِ الرّحمنِ الرّحيمِ

قولهُ تعالى: ﴿وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ﴾ الثّريّا إذا سقطتْ معَ الفجرِ، والعربُ تسمّي الثّريّا نجمًا وإنْ كانتْ في العددِ نجومًا، يقالُ: إنّها سبعةُ أنجمٍ، ستّةٌ منها ظاهرةٌ وواحدٌ خفيٌّ يمتحنُ النّاسُ بهِ أبصارهمْ. وقيلَ: المعنى والقرآنِ إذا نزّلَ، لأنّهُ كانَ ينزلُ نجومًا. وقيلَ: أقسمَ اللّهُ بالنّجومِ إذا غابتْ. وليسَ يمتنعُ أنْ يعبّرَ عنها بلفظٍ واحدٍ ومعناهُ جمعٌ، وقيلَ: النّجمُ هنا هوَ النّبتُ الّذي ليسَ لهُ ساقٌ، وهوى أيْ سقطَ على الأرضِ.

قولهُ تعالى: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمۡ﴾ هذا جوابُ القسمِ، أيْ ما ضلَّ محمّدٌ ﷺ عنِ الحقِّ وما حادَ عنهُ ﴿وَمَا غَوَىٰ﴾ الغيُّ ضدُّ الرّشدِ أيْ ما صارَ غاويًا. وقيلَ: أيْ ما تكلّمَ بالباطلِ، ويجوزُ أنْ يكونَ إخباراً عنْ أحوالهِ على التّعميمِ، أيْ كانَ أبداً موحّداً للّهِ. وهوَ الصّحيحُ على ما بيّنّاهُ في الشّورى عندَ قولهِ: ﴿مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ﴾.

قولهُ تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ ۝٣ إِنۡ هُوَ إِلَّا وَحۡيٞ يُوحَىٰ﴾ فيهِ مسألتانِ:

الأولى: قولهُ تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ﴾ أي بالهوى، كقوله تعالى: ﴿فَسۡـَٔلۡ بِهِۦ خَبِيرٗا﴾ أيْ فاسألْ عنهُ. وقيل ﴿عَنِ﴾ على بابها، أيْ ما يخرجُ نطقهُ عنْ رأيهِ ﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا وَحۡيٞ يُوحَىٰ﴾ منَ اللّهِ عزَّ وجلَّ.

الثانية- قدْ يحتجُّ بهذهِ الآيةِ منْ لا يجوّزُ لرسولِ اللّهِ ﷺ الاجتهادَ في الحوادثِ. وفيها أيضـًا دلالةٌ على أنَّ السّنّةَ كالوحيِ المنزّلِ في العملِ.

قولهُ تعالى: ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلۡقُوَىٰ﴾ جبريلَ عليه السلام ﴿ذُو مِرَّةٖ﴾ ذو قوّةٍ ﴿فَٱسۡتَوَىٰ ٦ وَهُوَ بِٱلۡأُفُقِ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾ أيِ استوى جبريلُ ومحمّدٌ عليهما الصّلاةُ والسّلامُ. ليلةَ الإسراءِ بالأفقِ الأعلى، والأفقُ ناحيةُ السّماءِ وجمعهُ آفاقٌ، وهوَ الموضعُ الّذي تطلعُ منهُ الشّمسُ.

قولهُ تعالى: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ﴾ أيْ دنا جبريلُ بعدَ استوائهِ بالأفقِ الأعلى منَ الأرضِ ﴿فَتَدَلَّىٰ﴾ فنزلَ على النّبيِّ ﷺ بالوحيِ. المعنى أنّهُ لمّا رأى النّبيُّ ﷺ منْ عظمتهِ ما رأى، وهالهُ ذلكَ ردّهُ اللّهُ إلى صورةٍ آدميٍّ حينَ قربَ منَ النّبيِّ ﷺ بالوحيِ، وذلكَ قولهُ تعالى: ﴿فَأَوۡحَىٰٓ إِلَىٰ عَبۡدِهِۦ﴾ يعني أوحى اللّهُ إلى جبريلَ وكانَ جبريلُ ﴿قَابَ قَوۡسَيۡنِ أَوۡ أَدۡنَىٰ﴾، وقيلَ: إنَّ الفاءَ في ﴿فَتَدَلَّىٰ﴾ بمعنى الواوِ، والتّقديرُ ثمَّ تدلّى جبريلُ عليه السلام ودنا. كقوله تعالى: ﴿ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ﴾ المعنى والله أعلم: انشقَّ القمرُ واقتربتِ السّاعةُ. وقيل: في الكلامِ تقديمٌ وتأخيرٌ أيْ تدلّى فدنا، لأنَّ التّدلّيَ سببُ الدّنوِّ.

قولهُ تعالى: ﴿فَكَانَ قَابَ قَوۡسَيۡنِ أَوۡ أَدۡنَىٰ﴾ أي ﴿فَكَانَ﴾ محمّدٌ منْ ربّهِ أوْ منْ جبريلَ ﴿قَابَ قَوۡسَيۡنِ﴾ أيْ قدرَ قوسينِ عربيّتينِ ﴿أَوۡ أَدۡنَىٰ﴾ أيْ على تقديركمْ، كقولهِ تعالى: ﴿أَوۡ يَزِيدُونَ﴾. وفي الصّحيحِ عنْ أبي هريرةَ قالَ: قالَ النّبيُّ ﷺ: «ولقابُ قوسِ أحدكمْ منَ الجنّةِ خيرٌ منَ الدّنيا وما فيها»، ومنْ جعلَ الضّميرَ عائداً إلى اللّهِ تعالى لا إلى جبريلَ كانَ عبارةً عنْ نهايةِ القربِ، ولطفِ المحلِّ، وقضاءِ المطالبِ، وإظهارِ التّحفّي، وإنافةِ المنزلةِ، ويتأوّلُ فيهِ ما يتأوّلُ في قولهِ ﷺ: «منْ تقرّبَ منّي شبراً تقرّبتُ منهُ ذراعـًا ومنْ أتاني يمشي أتيتهُ هرولةً» قربٌ بالإجابةِ والقبولِ، وإتيانٌ بالإحسانِ وتعجيلُ المأمولِ.

وقدْ قيل: ﴿ثُمَّ دَنَا﴾ جبريلُ منْ ربّهِ ﴿فَكَانَ قَابَ قَوۡسَيۡنِ أَوۡ أَدۡنَىٰ﴾.

قولهُ تعالى: ﴿فَأَوۡحَىٰٓ﴾ اللّهُ تعالى ﴿إِلَىٰ عَبۡدِهِۦ﴾ محمّدٍ ﷺ ﴿مَآ أَوۡحَىٰ﴾ تفخيمٌ للوحيِ الّذي أوحيَ إليهِ، وقيلَ: ﴿فَأَوۡحَىٰٓ﴾ جبريلُ إلى عبدِ اللّهِ محمّدٍ ﷺ.

قولهُ تعالى: ﴿مَا كَذَبَ ٱلۡفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ﴾ أيْ لمْ يكذبْ قلبُ محمّدٍ ﷺ ليلةَ المعراجِ،

وذلكَ أنَّ اللّهَ تعالى جعلَ بصرهُ في فؤادهِ حتّى رأى ربّهُ تعالى وجعلَ اللّهُ تلكَ رؤيةً. وقيلَ: كانتْ رؤيةً حقيقةً بالبصرِ، وفي صحيحِ مسلمٍ أنّهُ رآهُ بقلبهِ، وهوَ قولُ جماعةٍ منَ الصّحابةِ. والثّاني قولُ أنسٍ وجماعةٍ. ورويَ عنِ ابنِ عبّاسٍ أيضاً أنّهُ قالَ: أتعجبونَ أنْ تكونَ الخلّةُ لإبراهيمَ، والكلامُ لموسى، والرّؤيةُ لمحمّدٍ ﷺ. وقولٌ: ثالثٌ أنّهُ رأى جلالهُ وعظمتهُ، وفي صحيحِ مسلمٍ عنْ أبي ذرٍّ قالَ: سألتُ رسولَ اللّهِ ﷺ هلْ رأيتَ ربّكَ؟ قالَ: «نورٌ أنّى أراهُ» المعنى غلبني منَ النّورِ وبهرني منهُ ما منعني منْ رؤيتهِ. ودلَّ على هذا الرّوايةُ الأخرى «رأيتُ نوراً».

وقالَ ابنُ مسعودٍ: رأى جبريلَ على صورتهِ مرّتينِ.

وقرأ هشامٌ عنِ ابنِ عامرٍ وأهلِ الشّامِ ﴿مَا كَذَّبَ﴾ بالتّشديدِ أيْ ما كذّبَ قلبُ محمّدٍ ما رأى بعينهِ تلكَ اللّيلةَ بلْ صدّقهُ. الباقونَ مخفّفاً، أيْ ما كذبَ فؤادُ محمّدٍ فيما رأى، فأسقطَ حرفَ الصّفةِ. قالَ حسّانُ رضي الله عنه:

لوْ كنتِ صادقةَ الّذي حدّثتني ... لنجوتِ منجى الحارثِ بنِ هشامِ

أيْ في الّذي حدّثتني.

قولهُ تعالى: ﴿أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ﴾ قرأ حمزةُ والكسائيُّ «أفتَمرونهُ» بفتحِ التّاءِ منْ غيرِ ألفٍ على معنى أفتجحدونهُ. الباقونَ ﴿أَفَتُمَٰرُونَهُۥ﴾ بألفٍ، أيْ أتجادلونهُ وتدافعونهُ في أنّهُ رأى اللّهَ، والمعنيانِ متداخلانِ، لأنَّ مجادلتهمْ جحودٌ.

قولهُ تعالى: ﴿وَلَقَدۡ رَءَاهُ نَزۡلَةً أُخۡرَىٰ﴾ ﴿نَزۡلَةً﴾ مصدرٌ في موضعِ الحالِ كأنّهُ قالَ: ولقدْ رآهُ نازلاً نزلةً أخرى. قالَ ابنُ عبّاسٍ: رأى محمّدٌ ﷺ ربّهُ مرّةً أخرى بقلبهِ. روى مسلمٌ عنْ أبي العاليةِ عنهُ قالَ: ﴿مَا كَذَبَ ٱلۡفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ﴾ ﴿وَلَقَدۡ رَءَاهُ نَزۡلَةً أُخۡرَىٰ﴾ قالَ: رآهُ بفؤادهِ مرّتينِ، فقولهُ: ﴿نَزۡلَةً أُخۡرَىٰ﴾ يعودُ إلى محمدٍ ﷺ، فإنْ كانَ لهُ صعودٌ ونزولٌ مراراً بحسبِ أعدادِ الصّلواتِ المفروضةِ، فلكلِّ عرجةٍ نزلةٌ وعلى هذا قولهُ تعالى: ﴿عِندَ سِدۡرَةِ ٱلۡمُنتَهَىٰ﴾ أيْ ومحمّدٌ ﷺ عندَ سدرةِ المنتهى وفي بعضِ تلكَ النّزلاتِ.

وقالَ ابنُ مسعودٍ وأبو هريرةَ في تفسيرِ قولهِ تعالى: ﴿وَلَقَدۡ رَءَاهُ نَزۡلَةً أُخۡرَىٰ﴾ إنّهُ جبريلُ.

ثبتَ هذا أيضـًا في صحيحِ مسلمٍ. وقالَ ابنُ مسعودٍ: قالَ النّبيُّ ﷺ: «رأيتُ جبريلَ بالأفقِ الأعلى لهُ ستّمائةِ جناحٍ يتناثرُ منْ ريشهِ الدّرُّ والياقوتُ».

قولهُ تعالى: ﴿عِندَ سِدۡرَةِ ٱلۡمُنتَهَىٰ﴾ ﴿عِندَ﴾ منْ صلةِ ﴿رَّءَاهُ﴾ على ما بيّنّا. والسّدرُ شجرُ النّبقِ وهيَ في السّماءِ السّابعةِ. فعنْ أنسٍ أنَّ النّبيَّ ﷺ قال: «لمّا رفعتُ إلى سدرةِ المنتهى في السّماءِ السّابعةِ نبقها مثلُ قلالِ هجرَ وورقها مثلُ آذانِ الفيلةِ يخرجُ منْ ساقها نهرانِ ظاهرانِ ونهرانِ باطنانِ قلتُ: يا جبريلُ ما هذا قالَ أمّا الباطنانِ ففي الجنّةِ وأمّا الظّاهرانِ فالنّيلُ والفراتُ» لفظُ الدّارقطنيّ.

وروى التّرمذيُّ عنْ أسماءَ بنتِ أبي بكرٍ رضي الله عنهما قالتْ: سمعتُ رسولَ اللّهِ ﷺ يقولُ- وقدْ ذكرَ لهُ سدرةُ المنتهى- قالَ: «يسيرُ الرّاكبُ في ظلِّ الغصنِ منها مائةَ سنةٍ أوْ يستظلُّ بظلّها مائةَ راكبٍ- شكَّ يحيى- فيها فراشُ الذّهبِ كأنَّ ثمرها القلالُ» قالَ أبو عيسى: هذا حديثٌ حسنٌ.

وسمّيتْ سدرةُ المنتهى لأنّهُ ينتهي علمُ الأنبياءِ إليها ويعزبُ علمهمْ عمّا وراءها، أو لأنَّ منْ رفعَ إليها فقدِ انتهى في الكرامةِ.

قولهُ تعالى: ﴿عِندَهَا جَنَّةُ ٱلۡمَأۡوَىٰٓ﴾ التي يصيرُ إليها المتّقونَ ﴿إِذۡ يَغۡشَى ٱلسِّدۡرَةَ مَا يَغۡشَىٰ﴾ قيل: فراشٌ منْ ذهبٍ، وقيلَ: غشيها نورُ ربِّ العالمين فاستنارت ﴿مَا زَاغَ ٱلۡبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ﴾ وما عدلَ يمينـًا ولا شمالاً، ولا تجاوزَ الحدَّ الّذي رأى. وقيلَ: ما جاوزَ ما أمرَ بهِ. وقيلَ: لمْ يمدَّ بصرهِ إلى غيرِ ما رأى منَ الآياتِ. وهذا وصفُ أدبٍ للنّبيِّ ﷺ في ذلكَ المقامِ.

قولهُ تعالى: ﴿لَقَدۡ رَأَىٰ مِنۡ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلۡكُبۡرَىٰٓ﴾ قالَ ابنُ عبّاسٍ: رأى رفرفـًا سدَّ الأفقَ. وذكرَ البيهقيُّ عنْ عبدِ اللّهِ قالَ: رأى جبريلَ في صورتهِ لهُ ستّمائةِ جناحٍ، أو رأى سدرةَ المنتهى وما غشيَ السّدرةَ منْ فراشِ الذّهبِ.

قولهُ تعالى: ﴿أَفَرَءَيۡتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلۡعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلۡأُخۡرَىٰٓ﴾ كانتْ مناةَ لهذيل وخزاعةَ، فبعثَ رسولُ اللّهِ ﷺ عليـًا رضي الله عنه فهدمها عامَ الفتحِ. وكانت اللّاتَ بالطّائفِ، كانَ سدنتها منْ ثقيفَ، وكانتْ قريشٌ وجميعُ العربِ تعظّمها، وكانتْ في موضعِ منارةِ مسجدِ

الطّائفِ اليسرى، فلمْ تزلْ كذلكَ إلى أنْ أسلمتْ ثقيفُ، فبعثَ رسولُ اللّهِ ﷺ المغيرةَ بنَ شعبةَ فهدمها وحرقها بالنّارِ. وكانتْ العزّى بوادي نخلةَ الشّاميّةِ فوقَ ذاتِ عرقٍ، فلمّا افتتحَ رسولُ اللّهِ ﷺ مكّةَ، بعثَ خالدَ بنَ الوليدِ رضي الله عنه فهدمها، وقيلَ: إنَّ اللّاتَ فيما ذكرَ بعضُ المفسّرينَ أخذهُ المشركونَ منْ لفظِ اللّهِ، والعزّى منَ العزيزِ، ومناةَ منْ منى اللّهُ الشّيءَ إذا قدّرهُ. وقرأ ابنُ عبّاسٍ «اللّاتّ» بتشديدِ التّاءِ وكانَ رجلاً يلتُّ السّويقَ للحاجِّ - ذكرهُ البخاريُّ عنِ ابنِ عبّاسٍ - فلمّا ماتَ عكفوا على قبرهِ فعبدوهُ.

قولهُ تعالى: ﴿وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلۡأُخۡرَىٰٓ﴾ قرأ ابنُ كثيرٍ «وَمَنَاءَةَ» بالمدِّ والهمزِ. والباقونَ بتركِ الهمزِ لغتانِ. وقيلَ: سمّيَ بذلكَ، لأنّهمْ كانوا يريقونَ عندهُ الدّماءَ يتقرّبونَ بذلكَ إليهِ. وبذلكَ سمّيتْ منى لكثرةِ ما يراقُ فيها منَ الدّماءِ.

وكانَ الكسائيُّ وابنُ كثيرٍ يقفونَ بالهاءِ على الأصل. الباقونَ بالتّاءِ اتّباعًا لخطِّ المصحفِ.

وفي الآيةِ حذفٌ دلَّ عليهِ الكلامُ، أيْ أفرأيتمْ هذهِ الآلهةَ هلْ نفعتْ أوْ ضرّتْ حتّى تكونَ شركاءَ للّهِ. ثمَّ قالَ على جهةِ التّقريعِ والتّوبيخِ: ﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلۡأُنثَىٰ﴾ رداً عليهمْ قولهمْ: الملائكةُ بناتُ اللّهِ، والأصنامُ بناتُ اللّهِ ﴿تِلۡكَ إِذٗا﴾ يعني هذهِ القسمةُ ﴿قِسۡمَةٞ ضِيزَىٰٓ﴾ أيْ جائرةٌ عنِ العدلِ فعلى مثلُ طوبى وحبلى، يقالُ: ضازَ في الحكمِ أيْ جارَ.

وحكى أبو حاتمٍ عنْ أبي زيدٍ: أنّهُ سمعَ العربَ تهمزُ ﴿ضِئۡزَىٰٓ﴾. قالَ غيرهُ: وبها قرأ ابنُ كثيرٍ.

قولهُ تعالى: ﴿إِنۡ هِيَ إِلَّآ أَسۡمَآءٞ سَمَّيۡتُمُوهَآ﴾ أيْ ما هيَ يعني هذهِ الأوثانَ ﴿إِلَّآ أَسۡمَآءٞ سَمَّيۡتُمُوهَآ﴾ نحتّموها وسمّيتموها آلهةً ﴿أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم﴾ وقلّدتموهمْ في ذلكَ ﴿مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ﴾ أيْ منْ حجّةٍ ولا برهانٍ ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾ عادَ منَ الخطابِ إلى الخبرِ أي ما يتبع هؤلاء إلى الظّنَّ ﴿وَمَا تَهۡوَى ٱلۡأَنفُسُۖ﴾ أيْ تميلُ إليهِ. وقراءةُ العامّةِ ﴿يَتَّبِعُونَ﴾ بالياءِ ﴿وَلَقَدۡ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلۡهُدَىٰٓ﴾ أي البيانُ منْ جهةِ الرّسولِ أنّها ليستْ بآلهةٍ ﴿أَمۡ لِلۡإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ﴾ أيْ ليسَ ذلكَ لهُ ﴿فَلِلَّهِ ٱلۡأٓخِرَةُ وَٱلۡأُولَىٰ﴾ يعطي منْ يشاءُ ويمنعُ منْ يشاءُ.

قولهُ تعالى: ﴿۞وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِي شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ﴾ هذا توبيخٌ منَ اللّهِ تعالى لمنْ عبدَ الملائكةَ والأصنامَ، وزعمَ أنَّ ذلكَ يقرّبهُ إلى اللّهِ تعالى، فأعلمَ أنَّ الملائكةَ معَ كثرةِ عبادتها وكرامتهمْ على اللّهِ لا تشفعُ إلّا لمنْ أذنَ أنْ يشفعَ لهُ، وإنّما ذكرَ ملكـًا واحداً، لأنَّ كمْ تدلُّ على الجمع.

قولهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ همُ الكفّارُ الّذينَ قالوا الملائكةُ بناتُ اللّهِ والأصنامُ بناتُ اللّهِ ﴿لَيُسَمُّونَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ تَسْمِيَةَ ٱلْأُنثَىٰ﴾ أيْ كتسميةِ الأنثى، أيْ يعتقدونَ أنَّ الملائكةَ إناثٌ وأنّهمْ بناتُ اللّهِ ﴿وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ﴾ أيْ إنّهمْ لمْ يشاهدوا خلقهُ الملائكةَ، ولمْ يسمعوا ما قالوهُ منْ رسولِ اللّهِ ﷺ، ولمْ يروهُ في كتابٍ ﴿إِن يَتَّبِعُونَ﴾ أيْ ما يتّبعونَ ﴿إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا﴾.

قولهُ تعالى: ﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا﴾ يعني القرآنَ والإيمانَ. وهذا منسوخٌ بآيةِ السّيفِ ﴿وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۝٢٩ ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ﴾ صغّرهمْ وازدرى بهمْ، أيْ ذلكَ قدرُ عقولهمْ ونهايةُ علمهمْ أنْ آثروا الدّنيا على الآخرةِ. وقيلَ: أنْ جعلوا الملائكةَ والأصنامَ بناتَ اللّهِ ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ أيْ حادَ عنْ دينهِ ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱهْتَدَىٰ﴾ فيجازي كلا بأعمالهم.

قولهُ تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَى﴾ اللّامُ لام العاقبة، أي ولله ما في السموات وما في الأرضِ، أيْ وعاقبةُ أمرِ الخلقِ أن يكون فيهم مسي ومحسنٌ، فللمسيءِ السّوأى وهيَ جهنّمُ، وللمحسنِ الحسنى وهيَ الجنّةُ.

قولهُ تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ﴾ فيهِ ثلاثُ مسائلَ:

الأولى: قولهُ تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ﴾ هذا نعتٌ للمحسنينَ، أيْ همْ لا يرتكبونَ كبائرَ الإثمِ وهوَ الشّركُ، لأنّهُ أكبرُ الآثام. وقرأ حمزةُ والكسائيُّ ﴿كَبِيرَ﴾ على التّوحيدِ وهو الشّركِ ﴿وَٱلْفَوَٰحِشَ﴾ الزّنى: وقالَ مقاتلٌ: ﴿كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ﴾ كلُّ ذنبٍ ختمَ بالنّارِ ﴿وَٱلْفَوَٰحِشَ﴾ كلُّ ذنبٍ فيهِ الحدُّ.

الثانية– قوله: ﴿إِلَّا ٱللَّمَمَۚ﴾ استثناء منقطع، وهيَ الصّغائرُ الّتي لا يسلمُ منَ الوقوعِ فيها إلّا منْ عصمهُ اللّهُ وحفظهُ، وفي صحيحِ البخاريِّ ومسلم عنِ ابنِ عبّاسٍ قالَ: ما رأيتُ شيئًا أشبهَ باللّممِ ممّا قالَ أبو هريرةَ أنَّ النّبيَّ ﷺ قال: «إنَّ اللّهَ كتبَ على ابنِ آدمَ حظّهُ منَ الزّنى أدركَ ذلكَ لا محالةَ فزنى العينينِ النّظرُ وزنى اللّسانِ النّطقُ والنّفسُ تتمنّى وتشتهي والفرجُ يصدّقُ ذلكَ أوْ يكذّبهُ». والمعنى: أنَّ الفاحشةَ العظيمةَ والزّنى التّامَّ الموجبَ للحدِّ في الدّنيا والعقوبةِ في الآخرةِ هوَ في الفرجِ وغيرهُ لهُ حظٌّ منَ الإثمِ. والله أعلم.

الثالثة– قولهُ تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِۚ﴾ لمنْ تابَ منْ ذنبهِ واستغفرَ.

قولهُ تعالى: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ﴾ منْ أنفسكمْ ﴿إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ يعني أباكمْ آدمَ منَ الطّينِ وخرجَ اللّفظُ على الجمعِ ﴿وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ﴾ جمعُ جنينٍ وهوَ الولدُ ما دامَ في البطنِ، سمّيَ جنينًا لاجتنانهِ واستتارهِ ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمْۖ﴾ فإنّهُ أبعدُ منَ الرّياءِ وأقربُ إلى الخشوعِ ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾ أيْ أخلصَ العملَ واتّقى عقوبةَ اللّهِ.

قولهُ تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى تَوَلَّىٰ﴾ وهو الوليدِ بنِ المغيرةِ كان مدحَ القرآنَ ثمَّ أمسكَ عنهُ فنزلَ: ﴿وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا﴾ أيْ منَ الخيرِ بلسانهِ ﴿وَأَكْدَىٰٓ﴾ أيْ قطعَ ذلكَ وأمسكَ، وأصلُ ﴿أَكْدَىٰٓ﴾ منَ الكديةِ يقالُ لمنْ حفرَ بئراً ثمَّ بلغَ إلى حجرٍ لا يتهيّأُ لهُ فيهِ حفرٌ: قدْ أكدى، ثمَّ استعملتهُ العربُ لمنْ أعطى ولمْ يتمّمْ، ولمنْ طلبَ شيئًا ولمْ يبلغْ آخرهُ.

قولهُ تعالى: ﴿أَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰٓ﴾ ما غابَ عنهُ منْ أمرِ الآخرةِ ﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ ۝٣٦ وَإِبْرَٰهِيمَ﴾ أيْ صحفِ ﴿إِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ﴾ بالتّشديدِ أيْ قامَ بجميعِ ما فرضَ عليهِ فلمْ يخرمْ منهُ شيئًا. وقدْ مضى في البقرةِ عندَ قولهُ تعالى: ﴿۞وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَـٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّۖ﴾ والتّوفيةُ الإتمامُ ﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ أي لا تؤخذ نفس بدلا عنْ أخرى، وخصَّ صحفَ إبراهيمَ وموسى بالذّكرِ، لأنّهُ كانَ ما بينَ نوحٍ وإبراهيمَ يؤخذُ الرّجلُ بجريرةِ أخيهِ وابنهِ وأبيهِ.

قولهُ تعالى: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَـٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ رويَ عنِ ابنِ عبّاسٍ أنّها منسوخةٌ بقولهِ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَـٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ فيشفّعُ اللّهُ تعالى الآباءَ

في الأبناءِ والأبناءَ في الآباءِ، يدلُّ على ذلكَ قولهُ تعالى: ﴿ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا﴾.

وقالَ أكثرُ أهلِ التّأويلِ: هيَ محكمةٌ ولا ينفع أحدا عمل أحد، وأجمعوا أنه لا يصلّي أحدٌ عنْ أحدٍ. ولمْ يجزْ مالكٌ الصّيامَ والحجَّ والصّدقةَ عنِ الميّتِ، إلّا أنّهُ قالَ: إنْ أوصى بالحجِّ وماتَ جازَ أنْ يحجَّ عنهُ. وأجازَ الشّافعيُّ وغيرهُ الحجَّ التّطوّعَ عنِ الميّتِ. ورويَ عنْ عائشةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أنّها اعتكفتْ عنْ أخيها عبدِ الرّحمنِ وأعتقتْ عنهُ. ورويَ أنَّ سعدَ بنَ عبادة قالَ للنّبيِّ ﷺ: إنَّ أمّي توفّيتْ أفأتصدّقُ عنها؟ قالَ: «نعم» قالَ: فأيُّ الصّدقةِ أفضلُ؟ قالَ: «سقيُ الماءِ».

وقيلَ: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ لا يجبْ للإنسانِ إلّا ما سعى، فإذا تصدق عنه غيره فليس يجب له شيء إلّا أنَّ اللّهَ عزَّ وجلَّ يتفضّلُ عليهِ بما لا يجبُ لهُ، كما يتفضّلُ على الأطفالِ بإدخالهمُ الجنّةَ بغيرِ عملٍ.

وقيلَ: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ أي الكافرَ وأمّا المؤمنُ فلهُ ما سعى وما سعى لهُ غيرهُ. قلت: وكثيرٌ منَ الأحاديثِ يدلُّ على هذا القولِ، وأنَّ المؤمن يصل إليه ثوابِ العملِ الصّالحِ منْ غيرهِ، وقدْ تقدّمَ كثيرٌ منها لمنْ تأمّلها، وليسَ في الصّدقةِ اختلاف، ففي الصّحيح: «إذا ماتَ الإنسانُ انقطعَ عملهُ إلّا منْ ثلاثٍ» وفيهِ «أوْ ولدٌ صالحٌ يدعو لهُ» وهذا كلّهُ تفضّلٌ منَ اللّهِ عزَّ وجلَّ، كما أنَّ زيادةَ الأضعافِ فضلٌ منهُ، كتبَ لهمْ بالحسنةِ الواحدةِ عشراً إلى سبعمائةِ ضعفٍ إلى أضعاف كثيرة، وطريقُ العدلِ ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾.

قلت: ويحتملُ أنْ يكونَ قولهُ: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ خاصٌّ في السّيّئةِ، بدليلِ ما في صحيح مسلمٍ عنْ أبي هريرةَ عنْ رسولِ اللّهِ ﷺ قال: «قالَ اللّهُ عزَّ وجلَّ إذا همَّ عبدي بحسنةٍ ولمْ يعملها كتبتها لهُ حسنةً فإنْ عملها كتبتها لهُ عشرَ حسناتٍ إلى سبعمائةِ ضعفٍ وإذا همَّ بسيّئةٍ ولمْ يعملها لمْ أكتبها عليهِ فإنْ عملها كتبتها سيّئةً واحدةً».

قولهُ تعالى: ﴿وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ﴾ أيْ يريهُ اللّهُ تعالى جزاءهُ يومَ القيامةِ ﴿ثُمَّ يُجْزَىٰهُ﴾ أيْ يجزى بهِ ﴿ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ﴾.

قولهُ تعالى: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾ أي المرجعُ والمرادُ والمصيرُ فيعاقبُ ويثيبُ. وقيلَ: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾ فلا فكرةَ في الرّبِّ، وهذا معنى قولهُ ﷺ: «يأتي الشّيطانُ أحدكمْ فيقولُ منْ خلقَ كذا وكذا حتّى يقولَ لهُ منْ خلقَ ربّكَ فإذا بلغَ ذلكَ فليستعذْ باللّهِ ولينتهِ».

قولهُ تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ﴾ قضى أسباب الضحك والبكاء، وأفرحَ وأحزنَ، لأنَّ الفرحَ يجلبُ الضّحكَ والحزنَ يجلبُ البكاءَ. وقيلَ: أضحكَ اللّهُ أهلَ الجنّةِ في الجنّةِ، وأبكى أهلَ النّارِ في النّارِ. وقالَ ذو النّونِ: أضحكَ قلوبَ المؤمنينَ والعارفينَ بشمسِ معرفتهِ، وأبكى قلوبَ الكافرينَ والعاصينَ بظلمةِ نكرتهِ ومعصيتهِ.

وقيلَ: إنَّ اللّهَ تعالى خصَّ الإنسانَ بالضّحكِ والبكاءِ منْ بينِ سائرِ الحيوانِ، وليسَ في سائرِ الحيوانِ منْ يضحكُ ويبكي غيرَ الإنسانِ. وقدْ قيل: إنَّ القردَ وحدهُ يضحكُ ولا يبكي، وإنَّ الإبلَ وحدها تبكي ولا تضحكُ ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا﴾ أيْ قضى أسبابَ الموتِ والحياةِ. وقيلَ: خلقَ الموتَ والحياةَ كما قالَ: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ﴾ وقيلَ: أماتَ الكافرَ بالكفرِ وأحيا المؤمنَ بالإيمانِ، قالَ الله تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَـٰهُ﴾ الآيةَ، وقالَ: ﴿۞إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ﴾، وقيلَ: أماتَ الآباءَ وأحيا الأبناءَ. وقيلَ: يريدُ بالحياةِ الخصبَ وبالموتِ الجدبَ. وقيلَ: أماتَ في الدّنيا وأحيا للبعثِ.

قولهُ تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ﴾ أيْ منْ أولادِ آدمَ ولمْ يردْ آدمَ وحوّاءَ بأنهما خلقا ﴿مِن نُّطْفَةٍ﴾ النّطفةُ الماءُ القليلُ، مشتقٌّ منْ نطفَ الماءَ إذا قطرَ ﴿إِذَا تُمْنَىٰ﴾ تصبُّ في الرّحمِ وتراقُ ﴿وَأَنَّ عَلَيْهِ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ﴾ أيْ إعادةَ الأرواحِ في الأشباحِ للبعثِ. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو ﴿ٱلنَّشَاءَةَ﴾ بفتحِ الشّينِ والمدِّ، أيْ وعدَ ذلكَ ووعدهُ صدقٌ ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ﴾ أي وأفقرَ يقبضُ ويبسطُ **وقيلَ**: ﴿أَقْنَىٰ﴾ جعل لكمْ قنيةً تقتنونها ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ﴾ ﴿ٱلشِّعْرَىٰ﴾ الكوكب المضيء الّذي يطلعُ بعدَ الجوزاءِ، وإنّما ذكرَ أنّهُ ربُّ الشّعرى وإنْ كانَ ربـاً لغيرهِ، لأنَّ العربَ كانت تعبده، فأعلمهم الله عز وجل أن الشعرى مربوب وليس بربٍّ ﴿وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ﴾ سمّاها الأولى: لأنّهمْ كانوا منْ قبلِ ثمودَ، أو لأنّها أوّلُ أمّةٍ أهلكتْ بعدَ نوحٍ عليه السلام. وقيلَ: هما عادانِ فالأولى: أهلكتْ بالرّيحِ

الصّرصرِ، ثمَّ كانتِ الأخرى فأهلكتْ بالصّيحةِ.

وقراءةُ العامّةِ ﴿عَادًا ٱلْأُولَىٰ﴾ ببيانِ التّنوينِ والهمزِ. وقرأ نافعٌ وأبو عمرو ﴿عَادًا لُّوْلَىٰ﴾ بنقلِ حركةِ الهمزةِ إلى اللّامِ وإدغامِ التّنوينِ فيها، إلّا أنَّ قالونَ والسّوسيُّ يظهرانِ الهمزةَ السّاكنةَ. وقلبها الباقونَ واواً على أصلها، والعربُ تقلبُ هذا القلبَ فتقولُ: قمِ لآنَ عنّا وصُمِ لثنينِ أيْ قمِ الآنَ وصُمِ الاثنينِ ﴿وَثَمُودَاْ فَمَآ أَبْقَىٰ﴾ ثمودُ همْ قومُ صالحٍ أهلكوا بالصيحة ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ﴾ أيْ وأهلكَ قومَ نوحٍ منْ قبلِ عادٍ وثمودَ ﴿إِنَّهُمْ﴾ قوم نوح ﴿كَانُواْ هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ﴾، وقيلَ: إنَّ الكنايةَ ترجعُ إلى كلٍّ منْ ذكرَ منْ عادٍ وثمودَ وقومِ نوحٍ، أيْ كانوا أكفرَ منْ مشركي العربِ وأطغى. فيكونُ فيهِ تسليةٌ وتعزيةٌ للنّبيِّ ﷺ.

قولهُ تعالى: ﴿وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ﴾ يعني مدائنَ قومِ لوطٍ عليه السلام ائتفكتْ بهمْ، أيِ انقلبتْ وصارَ عاليها سافلها. يقالُ: أفكتهُ أيْ قلبتهُ وصرفتهُ ﴿أَهْوَىٰ﴾ أيْ خسفَ بهمْ بعدَ رفعها إلى السّماءِ، رفعها جبريلُ ثمَّ أهوى بها إلى الأرضِ ﴿فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ﴾ أيْ ألبسها ما ألبسها منَ الحجارةِ، قالَ الله تعالى: ﴿فَجَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾ وقيلَ: إنَّ الكنايةَ ترجعُ إلى جميعِ هذهِ الأممِ، أيْ غشّاها منَ العذابِ ما غشّاهمْ، وأبهمَ لأنَّ كلاً منهمْ أهلكَ بضربٍ غيرِ ما أهلكَ بهِ الآخرُ. وقيلَ: هذا تعظيمُ الأمرِ ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ﴾ أيْ تشكُّ. والمخاطبةُ للإنسانِ المكذّبِ. والآلاءُ النّعمُ واحدها ألى وإلى وإليٌ. وقرأ يعقوبُ «تّمارى» بإدغامِ إحدى التّاءينِ في الأخرى والتشديد.

قولهُ تعالى: ﴿هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ﴾ يريدُ أنَّ محمّداً ﷺ نذيرٌ بالحقِّ الّذي أنذرَ بهِ الأنبياءَ قبلهُ، وقيلَ: يريدُ القرآنَ، والنّذرُ في قولِ العربِ بمعنى الإنذارِ كالنّكرِ بمعنى الإنكارِ، أيْ هذا إنذارٌ لكمْ.

قولهُ تعالى: ﴿أَزِفَتِ ٱلْآزِفَةُ﴾ أيْ قربتِ السّاعةُ ودنتِ القيامةُ ﴿لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ﴾ أيْ ليسَ لها منْ دونِ اللّهِ منْ يؤخّرها أوْ يقدّمها. وقيلَ: كاشفةٌ أيِ انكشافٌ أيْ لا يكشفُ عنها ولا يبديها إلّا اللّهُ.

قولهُ تعالى: ﴿أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ﴾ يعني القرآنَ. وهذا استفهامُ توبيخ ﴿تَعْجَبُونَ﴾ تكذيبـاً بهِ ﴿وَتَضْحَكُونَ﴾ استهزاءً ﴿وَلَا تَبْكُونَ﴾ انزجاراً وخوفـاً منَ الوعيدِ ﴿وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ﴾ أيْ لاهونَ معرضونَ، والسّمودُ اللّهوُ، والسّامدُ اللاّهي ﴿فَٱسْجُدُواْ لِلَّهِ وَٱعْبُدُواْ۩﴾ قيل: المرادُ بهِ سجودُ تلاوةِ القرآنِ، وبهِ قالَ أبو حنيفةَ والشّافعيُّ. وقدْ تقدّمَ أوّلَ السّورةِ منْ حديثُ ابنِ عبّاسٍ أنَّ النّبيَّ ﷺ سجدَ فيها وسجدَ معهُ المشركونَ، وقيلَ: المرادُ سجودُ الفرضِ في الصّلاةِ وهوَ قولُ ابنِ عمرَ، كانَ لا يراها منْ عزائمِ السّجودِ. وبهِ قالَ مالكٌ، والأوّلُ أصحُّ.

سورة القمر

مكّيّةٌ كلّها، وهيَ خمسٌ وخمسونَ آيةً.

بسمِ اللّهِ الرّحمنِ الرّحيمِ

قولهُ تعالى: ﴿ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ﴾ ﴿ٱقۡتَرَبَتِ﴾ أيْ قربتْ فهيَ بالإضافةِ إلى ما مضى قريبةٌ، لأنّهُ قدْ مضى أكثرُ الدّنيا ﴿وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ﴾ أيْ وقدِ انشقَّ القمرُ، وعلى هذا الجمهورُ منَ العلماء، ثبت ذلك في صحيح البخاريِّ وغيرهِ منْ حديثِ ابنِ مسعودٍ وابنِ عمرَ وأنسٍ وجبيرِ بنِ مطعمٍ وابنِ عبّاسٍ ﷺ. وعنْ أنسٍ قالَ: سألَ أهلُ مكّةَ النّبيَّ ﷺ آيةً، فانشقَّ القمرُ بمكّةَ مرّتينِ فنزلتْ: ﴿ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ﴾ إلى قولهِ: ﴿سِحۡرٞ مُّسۡتَمِرّٞ﴾ يقولُ ذاهبٌ. قالَ أبو عيسى التّرمذيُّ: هذا حديث حسن صحيح. ولفظ البخاري عن أنس قالَ: انشقَّ القمرُ فرقتينِ.

وقالَ قومٌ: لمْ يقعِ انشقاقُ القمرِ بعدُ وهوَ منتظرٌ، أيِ اقتربَ قيامُ السّاعةِ وانشقاقُ القمرِ، وأنَّ السّاعةَ إذا قامتِ انشقّتِ السّماءُ بما فيها منَ القمرِ وغيرهِ. لأنّهُ إذا انشقَّ ما بقيَ أحدٌ إلّا رآهُ، لأنّهُ آيةٌ والنّاسُ في الآياتِ سواءٌ.

وقيلَ: ﴿وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ﴾ أيْ وضحَ الأمرُ وظهرَ، والعربُ تضربُ بالقمرِ مثلاً فيما وضحَ.

قلت: وقدْ ثبتَ بنقلِ الآحادِ العدولِ أنَّ القمرَ انشقَّ بمكّةَ، وهوَ ظاهرُ التّنزيلِ، ولا يلزمُ أنْ يستويَ النّاسُ فيها، لأنّها كانتْ آيةً ليليّةً، وأنّها كانتْ باستدعاءِ النّبيِّ ﷺ منَ اللّهِ تعالى عندَ التّحدّي.

وقدْ تقدّمَ في الصّحيحِ أنَّ أهلَ مكّةَ همُ الّذينَ سألوا وطلبوا أنْ يريهمْ آيةً، فأراهمُ انشقاقَ القمرِ فلقتينِ كما في حديثِ ابنِ مسعودٍ وغيرهِ.

وقيل: هوَ على التّقديمِ والتّأخيرِ، وتقديرهُ انشقَّ القمرُ واقتربتِ السّاعةُ، وعنِ الفرّاءِ أنَّ الفعلينِ إذا كانا متقاربيِ المعنى فلكَ أنْ تقدّمَ وتؤخّرَ كما مر في قولهِ تعالى: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ﴾.

قولهُ تعالى: ﴿وَإِن يَرَوۡاْ ءَايَةٗ يُعۡرِضُواْ﴾ هذا يدلُّ على أنّهمْ رأوا انشقاقَ القمرِ ﴿وَيَقُولُواْ سِحۡرٞ مُّسۡتَمِرّٞ﴾ أيْ ذاهبٌ، منْ قولهمْ: مرَّ الشّيءُ واستمرَّ إذا ذهبَ، وقيلَ: محكمٌ قويٌّ شديدٌ، وهوَ منَ المِرّةِ وهيَ القوّةُ، وقيلَ: مستمرٌّ نافذٌ.

﴿وَكَذَّبُواْ﴾ نبيّنا ﴿وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهۡوَآءَهُمۡۚ﴾ أيْ ضلالاتهمْ واختياراتهمْ ﴿وَكُلُّ أَمۡرٖ مُّسۡتَقِرّٞ ٣﴾ أيْ يستقرُّ بكلِّ عاملٍ عملهُ، فالخيرُ مستقرٌّ بأهلهِ في الجنّةِ، والشّرُّ مستقرٌّ بأهلهِ في النّارِ.

قولهُ تعالى: ﴿وَلَقَدۡ جَآءَهُم مِّنَ ٱلۡأَنۢبَآءِ﴾ أيْ منْ بعضِ أنباءِ الأممِ الخاليةِ ﴿مَا فِيهِ مُزۡدَجَرٌ﴾ أيْ ما يزجرهمْ عنِ الكفرِ لوْ قبلوهُ ﴿حِكۡمَةُۢ بَٰلِغَةٞۖ﴾ يعني القرآنَ وهوَ بدلٌ منْ ﴿مَا﴾ منْ قولهِ: ﴿مَا فِيهِ مُزۡدَجَرٌ﴾. ويجوزُ أنْ يكونَ خبرَ ابتداءٍ محذوفٍ، أيْ هوَ حكمةٌ ﴿فَمَا تُغۡنِ ٱلنُّذُرُ﴾ إذا كذّبوا وخالفوا كما قالَ اللّهُ تعالى: ﴿وَمَا تُغۡنِي ٱلۡأٓيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ﴾ ف ﴿فَمَا﴾ نفيٌ أيْ ليستْ تغني عنهمُ النّذرُ. ويجوزُ أنْ يكونَ استفهاماً بمعنى التّوبيخِ، أيْ فأيُّ شيء تغني النّذرُ عنهمْ وهمْ معرضونَ عنها.

وَ ﴿ٱلنُّذُرُ﴾ يجوزُ أنْ تكونَ بمعنى الإنذارِ، ويجوزُ أنْ تكونَ جمعُ نذيرٍ.

قولهُ تعالى: ﴿فَتَوَلَّ عَنۡهُمۡۘ﴾ أيْ أعرضْ عنهمْ. قيل: هذا منسوخٌ بآيةِ السّيفِ. وقيلَ: هوَ تمامُ الكلامِ. ثمَّ قال: ﴿يَوۡمَ يَدۡعُ ٱلدَّاعِ﴾ العاملُ في ﴿يَوۡمَ﴾ ﴿يَخۡرُجُونَ مِنَ ٱلۡأَجۡدَاثِ﴾ أوْ ﴿خُشَّعًا﴾ أوْ فعلٌ مضمرٌ تقديرهُ واذكرْ يومَ.

وقيلَ: أيْ أعرضْ عنهمْ يومَ القيامةِ ولا تسألْ عنهمْ وعنْ أحوالهمْ، فإنّهمْ يدعونَ ﴿إِلَىٰ شَيۡءٖ نُّكُرٍ﴾ وينالهمْ عذابٌ شديدٌ.

وقرأ ابنُ كثيرٍ ﴿نُّكۡرٍ﴾ بإسكانِ الكافِ، وضمّها الباقونَ وهما لغتانِ كعُسْرٍ وعُسُرٍ وشغلٍ وشغلٍ، ومعناهُ الأمرُ الفظيعُ العظيمُ وهوَ يومُ القيامةِ. والدّاعي هوَ إسرافيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

﴿خُشَّعًا أَبۡصَٰرُهُمۡ﴾ الخشوعُ في البصرِ الخضوعُ والذّلّةُ، وأضافَ الخشوعَ إلى الأبصارِ لأنَّ أثرَ العزِّ والذّلِّ يتبيّنُ في ناظرِ الإنسانِ، قالَ اللّهُ تعالى: ﴿أَبۡصَٰرُهَا خَٰشِعَةٞ﴾، وقالَ تعالى: ﴿خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرۡفٍ خَفِيّٖۗ﴾. وقرأ حمزةُ والكسائيُّ وأبو عمرو ﴿خَٰشِعًا﴾

بالألفِ ويجوزُ في أسماءِ الفاعلينَ إذا تقدّمتْ على الجماعةِ التّوحيدُ، نحوُ: «خاشعًا أبصارهمْ» والتّأنيثُ نحوُ: ﴿خَٰشِعَةً أَبۡصَٰرُهُمۡ﴾ ويجوزُ الجمعُ نحو: ﴿خُشَّعًا أَبۡصَٰرُهُمۡ﴾، وَ﴿خُشَّعًا﴾ جمعُ خاشعٍ والنّصبُ فيهِ على الحالِ منَ الهاءِ والميمِ في ﴿عَنۡهُمۡ﴾ فيقبحُ الوقفُ على هذا التّقديرِ على ﴿عَنۡهُمۡ﴾. ويجوزُ أنْ يكونَ حالاً منَ المضمرِ في ﴿يَخۡرُجُونَ﴾ فيوقف على ﴿عَنۡهُمۡ﴾.

﴿يَخۡرُجُونَ مِنَ ٱلۡأَجۡدَاثِ﴾ أي القبورُ واحدها جدث ﴿كَأَنَّهُمۡ جَرَادٞ مُّنتَشِرٞ ٧ مُّهۡطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِۖ﴾. وقالَ في موضعٍ آخرَ: ﴿يَوۡمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلۡفَرَاشِ ٱلۡمَبۡثُوثِ﴾ فهما صفتانِ في وقتينِ مختلفينِ:

أحدهما- عندَ الخروجِ منَ القبورِ، يخرجونَ فزعينَ لا يهتدونَ أينَ يتوجّهونَ، فيدخلُ بعضهمْ في بعضٍ، فهمْ حينئذٍ كالفراشِ المبثوثِ بعضهُ في بعضٍ.

الثّاني- إذا سمعوا المناديَ قصدوهُ فصاروا كالجرادِ المنتشرِ، لأنَّ الجرادَ لهُ جهةٌ يقصدها.

وَ﴿مُّهۡطِعِينَ﴾ معناهُ مسرعينَ ﴿يَقُولُ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوۡمٌ عَسِرٞ﴾ يعني يومَ القيامةِ لما ينالهمْ فيهِ منَ الشدة.

قولهُ تعالى: ﴿۞ كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ﴾ ذكرَ جملاً منْ وقائعِ الأممِ الماضيةِ تأنيسًا للنّبيِّ ﷺ وتعزيةٌ لهُ ﴿قَبۡلَهُمۡ﴾ أيْ قبلَ قومكَ ﴿فَكَذَّبُواْ عَبۡدَنَا﴾ يعني نوحًا ﴿وَقَالُواْ مَجۡنُونٞ﴾ أيْ هوَ مجنونٌ ﴿وَٱزۡدُجِرَ﴾ أيْ زجرَ عنْ دعوى النّبوّةِ بالسّبِّ والوعيدِ بالقتلِ ﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ﴾ أيْ دعا عليهمْ حينئذٍ نوحٌ، وقالَ: رب ﴿أَنِّي مَغۡلُوبٞ﴾ أيْ غلبوني بتمرّدهمْ ﴿فَٱنتَصِرۡ﴾ أيْ فانتصرْ لي ﴿فَفَتَحۡنَآ أَبۡوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ﴾ أيْ فأجبنا دعاءهُ وأمرناهُ باتّخاذِ السّفينةِ وفتحنا أبوابَ السّماءِ ﴿بِمَآءٖ مُّنۡهَمِرٖ﴾ أيْ كثيرٍ، وقرأ ابنُ عامرٍ ويعقوبُ: ﴿فَفَتَّحۡنَآ﴾ مشدّدةً على التّكثيرِ. الباقونَ ﴿فَفَتَحۡنَآ﴾ مخففًا ﴿وَفَجَّرۡنَا ٱلۡأَرۡضَ عُيُونٗا فَٱلۡتَقَى ٱلۡمَآءُ﴾ أيْ ماءُ السّماءِ وماءُ الأرضِ ﴿عَلَىٰٓ أَمۡرٖ قَدۡ قُدِرَ﴾ أيْ على مقدارٍ لمْ يزدْ أحدهما على الآخرِ ﴿وَحَمَلۡنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلۡوَٰحٖ﴾ أيْ على سفينةٍ ذاتِ ألواحٍ ﴿وَدُسُرٖ﴾ مساميرَ الّتي دسرتْ بها السّفينةُ أيْ شدّتْ،

وقيلَ: هيَ صدرُ السّفينةِ الّتي تضربُ بها الموجَ سمّيتْ بذلكَ لأنّها تدسرُ الماءَ أيْ تدفعهُ، والدّسرُ الدّفعُ والمخرُ ﴿تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا﴾ أيْ بمرأى منّا. وقيلَ: تجري بأوليائنا ﴿جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ﴾ أيْ جعلنا ذلكَ ثواباً وجزاءً لنوحٍ على صبرِهِ على أذى قومِهِ وهوَ المكفورُ بهِ.

قولهُ تعالى: ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً﴾ يريدُ هذهِ الفعلةَ عبرةً. وقيلَ: أرادَ السّفينةَ تركها آيةً لمنْ بعدَ قومِ نوحٍ يعتبرونَ بها فلا يكذّبونَ الرّسلَ ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ متّعظٍ خائفٍ ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ﴾ أيْ إنذاري، والإنذارُ والنّذرُ مصدرانِ. وقيلَ: ﴿نُذُرِ﴾ جمعُ نذيرٍ ونذيرٌ بمعنى الإنذارِ كنكيرٍ بمعنى الإنكارِ.

﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ﴾ أيْ سهّلناهُ للحفظِ وأعنّا عليهِ منْ أرادَ حفظهُ ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ يقرؤهُ ويعانُ عليهِ؟. وكرّرَ في هذهِ السّورةِ للتّنبيهِ والإفهامِ.

قولهُ تعالى: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ﴾ همْ قومُ هودٍ ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ﴾ وقعتْ ﴿نُذُرِ﴾ في هذهِ السّورةِ في ستّةِ أماكنَ محذوفةَ الياءَ في جميعِ المصاحفِ، وقرأها يعقوبُ مثبتةً في الحالينِ، وورشٌ في الوصلِ لا غيرَ، وحذفَ الباقونَ. ولا خلافَ في حذفِ الياءِ منْ قولهِ: ﴿فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ﴾ والواوُ منْ قولهِ: ﴿يَدْعُ﴾ فأما الياء من ﴿ٱلدَّاعِ﴾ الأول فأثبتها في الحالينِ يعقوبُ، وأثبتها ورشٌ وأبو عمرو في الوصلِ، وحذفها الباقونَ. وأمّا ﴿ٱلدَّاعِ﴾ الثّانيةُ فأثبتها يعقوبُ وابنُ كثيرٍ في الحالينِ، وأثبتها أبو عمرو ونافعٌ في الوصلِ، وحذفها الباقونَ.

قولهُ تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا﴾ أيْ شديدةَ البردِ والصّوتِ ﴿فِى يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ﴾ أيْ في يوم كانَ مشئوماً عليهمْ. استمرَّ عليهمْ بنحوسهِ ﴿تَنزِعُ ٱلنَّاسَ﴾ في موضعِ الصّفةِ للرّيحِ أيْ تقلعهمْ منْ مواضعهمْ، والأعجازُ جمعُ عجزٍ وهوَ مؤخّرُ الشّيءِ، وكانتْ عادٌ موصوفينَ بطولِ القامةِ، فشبّهوا بالنّخلِ انكبّتْ لوجوهها ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ۝٢١ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾.

قولهُ تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ﴾ همْ قومُ صالحٍ كذّبوا الرّسلَ ونبيّهمْ، أوْ كذّبوا بالآياتِ الّتي هيَ النّذرُ ﴿فَقَالُوٓا۟ أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ﴾ وندع جماعة ﴿إِنَّآ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ﴾ أيْ ذهابٍ عنِ الصّوابِ ﴿وَسُعُرٍ﴾ أيْ جنونٍ، منْ قولهمْ: ناقةٌ مسعورةٌ، أيْ كأنّها منْ شدّةِ

نشاطها مجنونةٌ.

قوله تعالى: ﴿أَءُلْقِيَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا﴾ أيْ خصّصَ بالرّسالةِ منْ بينِ آلِ ثمودَ وفيهِمْ منْ هوَ أكثرُ مالاً وأحسنُ حالاً؟! وهوَ استفهامٌ معناهُ الإنكارُ ﴿بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ﴾ يلتمسَ التّكبّرَ علينا ﴿سَيَعْلَمُونَ غَدًا﴾ يومَ القيامةِ، أوْ في حالِ نزولِ العذابِ بهِمْ في الدّنيا. وقرأ ابنُ عامرٍ وحمزةُ بالتّاءِ على أنّهُ منْ قولِ صالحٍ لهمْ على الخطابِ. الباقونَ بالياءِ إخبارٌ منَ اللّهِ تعالى لصالحٍ عنهم ﴿مَّنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا مُرْسِلُوا۟ ٱلنَّاقَةِ﴾ أيْ مخرجوها منَ الهضبةِ الّتي سألوها ﴿فِتْنَةً لَّهُمْ﴾ أيِ اختباراً وهوَ مفعولٌ لهُ ﴿فَٱرْتَقِبْهُمْ﴾ أيِ انتظرْ ما يصنعونَ ﴿وَٱصْطَبِرْ﴾ أيِ اصبرْ على أذاهمْ، وأصلُ الطّاءِ في اصطبرْ تاءٌ فتحوّلتْ طاءً لتكونَ موافقةً للصّادِ في الإطباقِ ﴿وَنَبِّئْهُمْ﴾ أيْ أخبرهمْ ﴿أَنَّ ٱلْمَآءَ قِسْمَةٌۢ بَيْنَهُمْ﴾ أيْ بينَ آلِ ثمودَ وبينَ النّاقةِ، لها يومٌ ولهمْ يومٌ، كما قالَ تعالى: ﴿لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ ﴿كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ﴾ الشِّربُ - بالكسرِ - الحظُّ منَ الماءِ، ومعنى ﴿مُّحْتَضَرٌ﴾ أيْ يحضرهُ منْ هوَ لهُ، فالنّاقةُ تحضرُ الماءَ يومَ وردها، وتغيبُ عنهمْ يومَ وردهمْ.

قولهُ تعالى: ﴿فَنَادَوْا۟ صَاحِبَهُمْ﴾ يعني بالحضِّ على عقرها واسمهِ قدارُ بنُ سالفٍ ﴿فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ﴾ ها ومعنى تعاطى تناولَ الفعلَ ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَٰحِدَةً﴾ يريدُ صيحةَ جبريلَ عليه السلام ﴿فَكَانُوا۟ كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ﴾ أي صاحبَ الحظيرةِ. وهوَ الرّجلُ يجعلُ لغنمهِ حظيرةً بالشّجرِ والشّوكِ، فما سقطَ منْ ذلكَ وداستهُ الغنمُ فهوَ الهشيمُ ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾.

قولهُ تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍۭ بِٱلنُّذُرِ﴾ أخبرَ عنْ قومِ لوطٍ أيضاً لمّا كذّبوا لوطاً ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا﴾ أيْ ريحاً ترميهمْ بالحصباءِ وهيَ الحصى ﴿إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ﴾ يعني منْ تبعهُ على دينهِ ولمْ يكنْ إلّا بنتاهُ ﴿نَّجَّيْنَٰهُم بِسَحَرٍ﴾ مصروف، إذا كانَ نكرةً يرادُ بهِ سحرٌ منَ الأسحارِ يصرفُ، تقولُ أتيتهُ سحراً، فإذا أردتَ سحر يومك لمْ تصرفهُ، تقولُ: أتيتهُ بسحرَ. ونظيرهُ: ﴿ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا﴾ لمّا نكّرهُ، فلمّا عرّفهُ في قولهِ: ﴿ٱدْخُلُوا۟ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ لمْ

يصرفه، والسّحرُ: هوَ ما بينَ آخرِ اللّيلِ وطلوعِ الفجرِ ﴿نِّعۡمَةٗ مِّنۡ عِندِنَاۚ﴾ إنعامًا منّا على لوطٍ وابنتيهِ، فهوَ نصبَ لأنّهُ مفعولٌ بهِ ﴿كَذَٰلِكَ نَجۡزِي مَن شَكَرَ﴾ أيْ منْ آمنَ باللّهِ وأطاعهُ ﴿وَلَقَدۡ أَنذَرَهُم﴾ يعني لوطًا خوّفهمْ ﴿بَطۡشَتَنَا﴾ عقوبتنا ﴿فَتَمَارَوۡاْ بِٱلنُّذُرِ﴾ أيْ شكّوا فيما أنذرهمْ بهِ الرّسولُ ولمْ يصدّقوهُ، وهوَ تفاعلٌ منَ المريةِ ﴿وَلَقَدۡ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيۡفِهِۦ﴾ طلبًا للفاحشةِ ﴿فَطَمَسۡنَآ أَعۡيُنَهُمۡ﴾ يروى أنَّ جبريلَ ﷺ ضربهمْ بجناحهِ فعموا ﴿فَذُوقُواْ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ أيْ فقلنا لهمْ ذوقوا، والمرادُ منْ هذا الأمرِ الخبرُ، أيْ فأذقتهمْ عذابي الّذي أنذرهمْ بهِ لوطٌ ﴿وَلَقَدۡ صَبَّحَهُم بُكۡرَةً عَذَابٞ مُّسۡتَقِرّٞ﴾ دائمٌ عامٌّ، وذلكَ العذابُ قلبُ قريتهمْ عليهمْ وجعلُ أعلاها أسفلها. وَ ﴿بُكۡرَةً﴾ هنا نكرةٌ فلذلكَ صرفتْ ﴿فَذُوقُواْ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ العذابُ الّذي نزلَ بهمْ منْ طمسِ الأعينِ غيرُ العذابِ الّذي أهلكوا بهِ فلذلكَ حسنَ التّكريرُ ﴿وَلَقَدۡ يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ لِلذِّكۡرِ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ﴾.

قولهُ تعالى: ﴿وَلَقَدۡ جَآءَ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ﴾ يعني القبط ﴿ٱلنُّذُرُ﴾ موسى وهرون. وقدْ يطلقُ لفظُ الجمعِ على الاثنينِ ﴿كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ معجزاتنا الدّالّةِ على توحيدنا ونبوّةِ أنبيائنا، وهيَ العصا، وغيرها ﴿فَأَخَذۡنَٰهُمۡ أَخۡذَ عَزِيزٖ﴾ أيْ غالبٍ في انتقامهِ ﴿مُّقۡتَدِرٍ﴾ أيْ قادرٌ على ما أراد.

قولهُ تعالى: ﴿أَكُفَّارُكُمۡ خَيۡرٞ مِّنۡ أُوْلَٰٓئِكُمۡ﴾ خاطبَ العربَ. وهو استفهامُ إنكارٍ ومعناهُ النّفيُ، أيْ ليسَ كفّاركمْ خيراً منْ كفّارِ منْ تقدّمَ منَ الأممِ الّذينَ أهلكوا بكفرهمْ ﴿أَمۡ لَكُم بَرَآءَةٞ فِي ٱلزُّبُرِ﴾ أيْ في الكتبِ المنزّلةِ على الأنبياءِ أو في اللّوحِ المحفوظِ بالسّلامةِ منَ العقوبةِ ﴿أَمۡ يَقُولُونَ نَحۡنُ جَمِيعٞ مُّنتَصِرٞ﴾ أيْ جماعةٌ لا تطاقُ لكثرةِ عددهمْ وقوّتهمْ، ولمْ يقلْ منتصرينَ اتّباعًا لرؤوسِ الآيِ، فردَّ اللّهُ عليهمْ فقالَ: ﴿سَيُهۡزَمُ ٱلۡجَمۡعُ﴾ أيْ جمعُ كفّارِ مكّةَ، وقدْ كانَ ذلكَ يومُ بدرٍ وغيرهِ. وقراءةُ العامّةِ ﴿سَيُهۡزَمُ﴾ بالياءِ على ما لمْ يسمَّ فاعلهُ ﴿ٱلۡجَمۡعُ﴾ بالرّفعِ. وقرأ رويسٌ عن يعقوب «سنهزِمُ» بالنّونِ وكسرِ الزّاي ﴿ٱلۡجَمۡعَ﴾ نصبًا ﴿وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ﴾ قراءةُ العامّةِ بالياءِ على الخبرِ عنهمْ. وقرأ رويسٌ عنْ يعقوبَ «وتولّونَ» بالتّاءِ على الخطابِ. وَ ﴿ٱلدُّبُرَ﴾ وحّدَ والمرادُ الجمعُ لأجلِ رؤوسِ الآيِ، وكانَ بينَ نزولِ هذهِ الآيةِ وبينَ بدرٍ سبعُ سنينَ، فالآيةُ على هذا مكّيّةٌ. وفي البخاريِّ عنْ عائشةَ ﵂ قالتْ: لقدْ أنزلَ

على محمّدٍ ﷺ بمكّةَ وإنّي لجاريةٌ ألعبُ: ﴿بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوۡعِدُهُمۡ وَٱلسَّاعَةُ أَدۡهَىٰ وَأَمَرُّ﴾.

وعن ابنِ عبّاسٍ أنَّ النّبيَّ ﷺ قالَ وهوَ في قبّةٍ لهُ يومَ بدرٍ: «أنشدكَ عهدكَ ووعدكَ اللّهمَّ إنْ شئتَ لمْ تعبدْ بعدَ اليوم أبداً» فأخذَ أبو بكرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بيدهِ، وقالَ: حسبكَ يا رسولَ اللّهِ فقدْ ألححتَ على ربّكَ، وهوَ في الدّرعِ فخرجَ وهوَ يقولُ: ﴿سَيُهۡزَمُ ٱلۡجَمۡعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ۝٤٥ بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوۡعِدُهُمۡ﴾ يريدُ القيامةَ أدهى وأمرُّ ممّا لحقهمْ يوم بدر. و ﴿أَدۡهَىٰ﴾ منَ الدّاهيةِ وهيَ الأمرُ العظيمُ.

قولهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡمُجۡرِمِينَ فِي ضَلَٰلٖ وَسُعُرٖ﴾ فيهِ أربعُ مسائلَ:

الأولى: قولهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡمُجۡرِمِينَ فِي ضَلَٰلٖ﴾ أيْ في حيدةٍ عنِ الحقِّ ﴿وَسُعُرٖ﴾ أيِ احتراقٍ. وقيلَ: جنونٌ ﴿يَوۡمَ يُسۡحَبُونَ فِي ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ ذُوقُواْ مَسَّ سَقَرَ﴾ في صحيح مسلمٍ عنْ أبي هريرةَ قالَ: جاءَ مشركو قريشٍ يخاصمونَ رسولَ اللّهِ ﷺ في القدرِ فنزلتْ: ﴿يَوۡمَ يُسۡحَبُونَ فِي ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ ذُوقُواْ مَسَّ سَقَرَ ۝٤٨ إِنَّا كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَٰهُ بِقَدَرٖ﴾ خرّجهُ التّرمذيُّ أيضاً، وقالَ: حديثٌ حسنٌ صحيحٌ.

وروى مسلمٌ عنْ طاوسٍ قالَ: أدركتُ ناساً منْ أصحابِ رسولِ اللّهِ ﷺ يقولون: كل شيء بقدرٍ. قالَ: وسمعتُ عبدَ اللّهِ بنَ عمرَ يقولُ: قالَ النّبيُّ ﷺ: «كل شيء بقدر حتى العجز والكيس- أو الكيس والعجزَ» وهذا إبطالٌ لمذهبِ القدريّةِ.

﴿ذُوقُواْ﴾ أيْ يقالُ لهمْ ذوقوا، وَ ﴿مَسَّ سَقَرَ﴾ اسمٌ منْ أسماءِ جهنّمَ لا ينصرفُ، لأنّهُ اسمٌ مؤنّثٌ معرفةٌ، وكذا لظى وجهنّمُ، ومسّها ما يجدونَ منَ الألمِ عندَ الوقوعِ فيها.

الثانية- قولهُ تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيۡءٍ﴾ قراءةُ العامّةِ ﴿كُلَّ﴾ بالنّصبِ بإضمارِ فعلٍ، والنّصبُ أدلُّ على العمومِ في المخلوقاتِ للّهِ تعالى.

الثالثة- الّذي عليهِ أهلُ السّنّةِ أنَّ اللّهَ سبحانهُ قدّرَ الأشياءَ، أيْ علمَ مقاديرها وأحوالها وأزمانها قبلَ إيجادها، ثمَّ أوجدَ منها ما سبقَ في علمهِ أنّهُ يوجدهُ على نحوِ ما سبقَ في علمهِ، فلا يحدثُ حدثٌ في العالمِ العلويِّ والسّفليِّ إلّا وهوَ صادرٌ عنْ علمهِ تعالى وقدرتهِ وإرادتهِ دونَ خلقهِ، وأنَّ الخلقَ ليسَ لهمْ فيها إلّا نوعُ اكتسابٍ ومحاولةٌ ونسبةٌ وإضافةٌ، وأنَّ ذلكَ

كلّهُ إنّما حصلَ لهمْ بتيسيرِ اللّهِ تعالى وبقدرتِهِ وتوفيقِهِ وإلهامِهِ، سبحانهُ لا إلهَ إلّا هوَ، ولا خالقَ غيرهُ، كما نصَّ عليهِ القرآنُ والسّنّةُ، لا كما قالتِ القدريّةُ وغيرهمْ منْ أنَّ الأعمالَ إلينا والآجالَ بيدِ غيرنا. قالَ أبو ذرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: قدمَ وفدُ نجرانَ على رسولِ اللّهِ ﷺ فقالوا: الأعمالُ إلينا والآجالُ بيدِ غيرنا، فنزلتْ هذهِ الآياتُ إلى قولهِ: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾ فقالوا: يا محمّدُ يكتبُ علينا الذّنبَ ويعذّبنا؟ فقالَ: «أنتمْ خصماءُ اللّهِ يومَ القيامةِ».

الرابعة– في صحيح مسلمٍ أنَّ ابنَ عمرَ تبرأَ منْ القدريّة الّذينَ يقولونَ الخيرَ والشّرَّ بأيدينا ولا يتبرأُ إلّا منْ كافرٍ، ثمَّ أكّدَ هذا بقولهِ: والّذي يحلفُ بهِ عبدُ اللّهِ بنُ عمرَ لوْ أنَّ لأحدهمْ مثلَ أحدٍ ذهبًا فأنفقهُ ما قبلَ اللّهُ منهُ حتّى يؤمنَ بالقدرِ. وهذا مثلُ قولهِ تعالى في المنافقينَ: ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَٰتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ﴾.

قولهُ تعالى: ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ﴾ أيْ قضائي في خلقي ﴿إِلَّا وَٰحِدَةٌ﴾ أيْ إلّا مرّةً واحدةً ﴿كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ﴾ أسرعُ منْ لمحِ البصرِ. واللّمحُ النّظرُ بالعجلةِ ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَآ أَشْيَاعَكُمْ﴾ أيْ أشباهكمْ في الكفرِ منَ الأممِ الخاليةِ. وقيلَ: أتباعكمْ وأعوانكمْ ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ أي من يتذكر ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي ٱلزُّبُرِ﴾ أيْ جميعُ ما فعلتهُ الأممُ قبلهمْ منْ خيرٍ أوْ شرٍّ كانَ مكتوبًا عليهمْ، وهذا بيانُ قولهِ: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾ ﴿فِي ٱلزُّبُرِ﴾ أيْ في اللّوحِ المحفوظِ. وقيلَ: في كتبِ الحفظةِ. وقيلَ: في أمِّ الكتابِ ﴿وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ﴾ أيْ كلُّ ذنبٍ كبيرٍ وصغيرٍ مكتوبٌ على عاملِهِ قبلَ أنْ يفعلهُ ليجازى بهِ، ومكتوبٌ إذا فعلهُ.

قولهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ﴾ أنهارَ الماءِ والخمرِ والعسلِ واللّبنِ، ووحّدَ لأنّهُ رأسُ الآيةِ، ثمَّ الواحدُ قدْ ينبئُ عنِ الجميعِ. وقيلَ: في ﴿نَهَرٍ﴾ في ضياءٍ وسعةٍ، ومنهُ النّهارُ لضيائهِ، ومنهُ أنهرتُ الجرحَ ﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ﴾ أيْ مجلسِ حقٍّ لا لغوَ فيهِ ولا تأثيمَ وهوَ الجنّةُ ﴿عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ﴾ يقدرُ على ما يشاءُ وَ ﴿عِندَ﴾ هاهنا عنديّةُ القربةِ والزّلفةِ والمكانةِ والرّتبةِ والكرامةِ والمنزلةِ.

سورة الرحمن

مكّيّةٌ، وهيَ ثمانٌ وسبعونَ آيةً.

بسمِ اللّهِ الرّحمنِ الرّحيمِ

قولهُ تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ﴾ علّمهُ نبيّهُ ﷺ حتّى أدّاهُ إلى جميعِ النّاسِ ﴿خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ﴾ يعني آدمَ عليه السلام ﴿عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ﴾ أسماء كل شيء. وقيلَ: علّمهُ اللّغاتِ كلّها. وقيلَ: الإنسانُ هاهنا يرادَ بِهِ محمّدٌ ﷺ، والبيانُ بيانُ الحلالِ منَ الحرامِ، والهدى منَ الضّلالِ. وقيلَ: ﴿ٱلۡإِنسَٰنَ﴾ يرادُ بِهِ جميعُ النّاسِ فهوَ اسمٌ للجنس و ﴿ٱلۡبَيَانَ﴾ على هذا الكلامُ والفهمُ، وهوَ ممّا فضّلَ بِهِ الإنسانُ على سائرِ الحيوانِ. وعلمه الكتابة والخطّ بالقلمِ. نظيرهُ: ﴿عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ﴾.

قولهُ تعالى: ﴿ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ بِحُسۡبَانٍ﴾ أيْ يجريانِ بحسابٍ معلوم فأضمرَ الخبرَ. في منازلَ لا يعدوانها ولا يحيدانِ عنها. وقيلَ: بهما تحسب الأوقات والآجال الأعمار، ولولا اللّيلُ والنّهارُ والشّمسُ والقمرُ لمْ يدرِ أحدٌ كيفَ يحسبُ شيئًا لوْ كانَ الدّهرُ كله ليلا أوْ نهاراً ﴿وَٱلنَّجۡمُ وَٱلشَّجَرُ يَسۡجُدَانِ﴾ النجم مالا ساق له والشجر ماله ساقٌ، واشتقاقُ النّجم منْ نجمَ الشّيءُ ينجُمُ بالضّمِّ نجوما ظهر وطلع، وسجودهما بسجود ظلالهما ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلۡمِيزَانَ﴾ أيِ العدلَ، وهوَ خبرٌ بمعنى الأمرِ بالعدلِ، يدلُّ عليهِ قولهُ تعالى: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلۡوَزۡنَ بِٱلۡقِسۡطِ﴾ والقسطُ العدلُ. وقيلَ: هوَ الحكمُ. وقيلَ: أرادَ وضعَ الميزانِ في الآخرةِ لوزنِ الأعمالِ ﴿أَلَّا تَطۡغَوۡاْ فِي ٱلۡمِيزَانِ﴾ أي لئلّا تطغوا، كقولهِ تعالى: ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ أَن تَضِلُّواْۗ﴾، والطّغيانُ مجاوزةُ الحدِّ ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلۡوَزۡنَ بِٱلۡقِسۡطِ﴾ أي افعلوهُ مستقيمًا بالعدلِ ﴿وَلَا تُخۡسِرُواْ ٱلۡمِيزَانَ﴾ ولا تنقصوا الميزانَ ولا تبخسوا الكيلَ والوزنَ، وهذا كقولهِ: ﴿وَلَا تَنقُصُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَۖ﴾. وكرّرَ الميزانَ لحالِ رءوسِ الآيِ. وقيلَ: التّكريرُ للأمرِ بإيفاءِ الوزنِ ورعايةِ العدلِ فيهِ.

قولهُ تعالى: ﴿وَٱلۡأَرۡضَ وَضَعَهَا لِلۡأَنَامِ﴾ الأنامُ النّاسُ، وقيلَ: الجنُّ والإنسُ. وقيلَ: كلُّ

ما دبَّ على وجهِ الأرضِ، وهذا عامٌّ ﴿فِيهَا فَٰكِهَةٌ﴾ أي كل ما يتفكّهُ بِهِ الإنسانُ منْ ألوانِ الثّمارِ ﴿وَٱلنَّخۡلُ ذَاتُ ٱلۡأَكۡمَامِ﴾ الأكمام جمعُ كمٍّ بالكسرِ وهو وعاءُ الطّلعِ وغطاءُ النّورِ والجمعُ كمامٌ وأكمّةٌ وأكمامٌ، وقيلَ: ﴿ذَاتُ ٱلۡأَكۡمَامِ﴾ أيْ ذاتُ اللّيفِ فإنَّ النّخلةَ قدْ تكمّمُ باللّيفِ، وكمامها ليفها الّذي في أعناقها. ابنُ زيدٍ: ذاتُ الطّلعِ قبلَ أنْ يتفتّقَ. وقالَ عكرمةُ: ذاتُ الأحمالِ ﴿وَٱلۡحَبُّ ذُو ٱلۡعَصۡفِ وَٱلرَّيۡحَانُ﴾ الحبُّ الحنطةُ والشّعيرُ ونحوهما، والعصفُ ورقُ الزّرعِ الأخضرِ إذا قطعَ رءوسهُ ويبسَ، نظيرهُ: ﴿فَجَعَلَهُمۡ كَعَصۡفٖ مَّأۡكُولِۭ﴾. والرّيحانُ نبتٌ معروفٌ طيّبَ الرّيحِ سمّيَ ريحانًا، لأنَّ الإنسانَ يَراحُ لها رائحةً طيّبةً. أيْ يشمُّ فهوَ فعلانُ روحانُ منَ الرّائحةِ.

وقراءةُ العامّةِ ﴿وَٱلۡحَبُّ ذُو ٱلۡعَصۡفِ وَٱلرَّيۡحَانُ﴾ بالرّفعِ فيها كلّها على العطفِ على الفاكهةِ. ونصبها كلّها ابنُ عامرٍ عطفًا على الأرضِ، وجرَّ حمزةُ والكسائيُّ «الرّيحانِ» عطفًا على العصفِ، أيْ فيها الحبُّ ذو العصفِ والرّيحانِ.

قوله تعالى: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ خطابٌ للإنسِ والجنِّ، لأنَّ الأنامَ واقعٌ عليهما. وقد قالَ: ﴿خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ﴾ ﴿وَخَلَقَ ٱلۡجَآنَّ﴾ وقال: ﴿سَنَفۡرُغُ لَكُمۡ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ﴾ وهوَ خطابٌ للإنسِ والجنِّ وقدْ قالَ في هذهِ السّورةِ: ﴿يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ﴾، والآلاءُ النّعمُ، وهوَ قولُ جميعِ المفسّرينَ، واحدها إلى وألى، والتّكريرُ في هذهِ الآياتِ للتّأكيدِ والمبالغةِ في التّقريرِ، واتّخاذِ الحجّةِ عليهمْ.

قولهُ تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ﴾ لمّا ذكرَ سبحانهُ خلقَ العالمِ الكبيرِ منَ السّماءِ والأرضِ، وما فيهما منَ الدّلالاتِ على وحدانيّتِهِ وقدرتهِ ذكرَ خلقَ العالمِ الصّغيرِ فقالَ: ﴿خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ﴾ يعني آدمَ باتّفاقٍ ﴿مِن صَلۡصَٰلٖ﴾ طّينٍ يابسٍ يسمعُ لهُ صلصلةٌ ﴿كَٱلۡفَخَّارِ﴾ الّذي طبخَ. وقالَ هناكَ: ﴿مِن صَلۡصَٰلٖ مِّنۡ حَمَإٖ مَّسۡنُونٖ﴾. وقال: ﴿إِنَّا خَلَقۡنَٰهُم مِّن طِينٖ لَّازِبِۭ﴾، وقالَ: ﴿كَمَثَلِ ءَادَمَۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٖ﴾ وذلكَ متّفقُ المعنى، وذلكَ أنّهُ أخذَ منْ ترابِ الأرضِ فعجنهُ فصارَ طينًا، ثمَّ انتقلَ فصارَ كالحمأ المسنونِ، ثمَّ انتقلَ فصارَ صلصالاً كالفخّارِ. ﴿وَخَلَقَ ٱلۡجَآنَّ مِن مَّارِجٖ مِّن نَّارٖ﴾ الجانُّ إبليسُ وهوَ أبو الجنِّ. وقيلَ: الجانُّ واحدُ الجنِّ، والمارجُ اللّهبُ.

قولهُ تعالى: ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ﴾ وفي الصّافّاتِ ﴿وَرَبُّ ٱلْمَشَٰرِقِ﴾ وقدْ مضى الكلام في ذلك هنالك.

قولهُ تعالى: ﴿مَرَجَ﴾ أرسلَ وخلطَ ﴿ٱلْبَحْرَيْنِ﴾ بحرُ فارسَ والرّوم. أو المالحُ والأنهارُ العذبةُ ﴿بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ﴾ أيْ حاجزٌ ﴿لَّا يَبْغِيَانِ﴾ على النّاسِ فيغرقانهمْ،أو لا يبغي أحدهما على صاحبهِ فيغلبهُ ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾ أيْ يخرجُ لكمْ منَ الماءِ اللّؤلؤُ والمرجانُ، كما يخرجُ منَ التّرابِ الحبُّ والعصفُ والريحان. وقرأ نافع وأبو عمر ﴿يُخْرَجُ﴾ بضمِّ الياءِ وفتحِ الرّاءِ على الفعلِ المجهولِ. الباقونَ ﴿يَخْرُجُ﴾ بفتحِ الياءِ وضمِّ الرّاءِ على أنَّ اللّؤلؤَ هوَ الفاعلُ.، وقالَ: ﴿مِنْهُمَا﴾ وإنّما يخرجُ منَ الملحِ لا العذبِ لأنَّ العربَ تجمعُ الجنسينِ ثمَّ تخبرُ عنْ أحدهما، كقوله تعالى: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾ وإنما الرسل من الإنس دون الجن،وهوَ كقولهِ تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا۟ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۝١٥ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا﴾ والقمرُ في سماءِ الدّنيا، وقيلَ: هذا منْ بابِ حذفِ المضافِ، أيْ منْ إحداهما، كقولهِ: ﴿عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ أيْ منْ إحدى القريتينِ. وقيلَ: هما بحرانِ يخرجُ منْ أحدهما اللّؤلؤُ ومنَ الآخرِ المرجانُ.

قولهُ تعالى: ﴿وَلَهُ ٱلْجَوَارِ﴾ يعنى السفن ﴿ٱلْمُنشَـَٔاتُ﴾ قراءةُ العامّةِ ﴿ٱلْمُنشَـَٔاتُ﴾ بفتحِ الشّينِ، قالَ قتادةُ: أيِ المخلوقاتُ للجريِ مأخوذٌ منَ الإنشاءِ. وقرأ حمزةُ وأبو بكرٍ عنْ عاصمٍ باختلافٍ عنه ﴿ٱلْمُنشِـَٔاتُ﴾ بكسرِ الشّينِ أيِ المنشئاتُ السّيرَ، أضيفَ الفعلُ إليها على التّجوّزِ والاتّساعِ ﴿كَٱلْأَعْلَٰمِ﴾ أيْ كالجبالِ، والعلمُ الجبلُ الطّويلُ.

وقرأ يعقوبُ «الجواري» بياءٍ في الوقف، وحذف الباقون.

قولهُ تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ الضّميرُ في ﴿عَلَيْهَا﴾ للأرضِ، وقدْ جرى ذكرها في أوّلِ السّورةِ في قولهِ تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ﴾ وقدْ يقالُ: هوَ أكرمُ منْ عليها، يعنونَ الأرضَ وإنْ لمْ يجرِ لها ذكرٌ. ووجهُ النّعمةِ في فناءِ الخلقِ التّسويةُ بينهمْ في الموتِ، ومعَ الموتِ تستوي الأقدامُ. وقيلَ: وجهُ النّعمةِ أنَّ الموتَ سببُ النّقلِ إلى دارِ الجزاءِ والثّوابِ ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ﴾ أيْ ويبقى اللّهُ، فالوجهُ عبارةٌ عنْ وجودهِ وذاتهِ سبحانهُ، وقالَ قومٌ هوَ

صفةٌ زائدةٌ على الذّاتِ لا تكيّفُ[٨] ﴿ذُو ٱلْجَلَـٰلِ﴾ الجلالُ عظمةُ اللّهِ وكبرياؤهُ واستحقاقهُ صفاتَ المدحِ ﴿وَٱلْإِكْرَامِ﴾ أي هو أهل لأن يكرم عما لا يليقُ بهِ منَ الشّركِ.

قولهُ تعالى: ﴿يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ قيل: المعنى يسألهُ من في السموات الرّحمةَ، ومنْ في الأرضِ الرّزقَ. وقالَ ابنُ عباس: أهل السموات يسألونهُ المغفرةَ ولا يسألونهُ الرّزقَ، وأهلُ الأرضِ يسألونهما جميعاً. وقالَ ابنُ جريج: وتسألُ الملائكةُ الرّزقَ لأهلِ الأرضِ، فكانتِ المسألتانِ جميعاً منْ أهلِ السّماءِ وأهلِ الأرضِ لأهلِ الأرضِ ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ﴾ يغفر ذنباً ويفرّج كرباً ويرفع قوماً ويضع آخرينَ يحيي ويميت، ويعزّ ويذلُّ، ويرزقُ ويمنعُ، يولجُ اللّيلَ في النّهارِ، ويولجُ النّهارَ في اللّيلِ، ويخرجَ الحيَّ منَ الميّتِ، ويخرجُ الميّتَ منَ الحيِّ، ويشفيَ سقيماً، ويسقمَ سليماً، ويبتليَ معافى، ويعافيَ مبتلى، ويعزَّ ذليلاً، ويذلَّ عزيزاً، ويفقرَ غنياً، ويغنيَ فقيراً، والشّأنُ في اللّغةِ الخطبُ العظيمُ والجمع الشئون والمراد بالشأن ها هنا الجمعُ كقولهِ تعالى: ﴿ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾.

وعن عبد الله ابن طاهرٍ: أنّهُ دعا الحسينَ بنَ الفضلِ وقالَ لهُ: أشكلتْ عليَّ ثلاثُ آياتٍ دعوتكَ لتكشفها لي: قولهُ تعالى: ﴿فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّـٰدِمِينَ﴾، وقدْ صحَّ أنَّ النّدمَ توبةٌ. وقولهُ: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ﴾ وقدْ صحَّ أنَّ القلمَ جفَّ بما هوَ كائنٌ إلى يومِ القيامةِ. وقولهِ: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَـٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ فما بالُ الأضعافِ؟

فقالَ الحسينُ:

يجوزُ ألّا يكونَ النّدمُ توبةً في تلكَ الأمّةِ، ويكونُ توبةً في هذهِ الأمّةِ، لأنَّ اللّهَ تعالى خصَّ هذهِ الأمّةَ بخصائصَ لمْ تشاركهمْ فيها الأممُ. وقيلَ: إنَّ ندمَ قابيلَ لمْ يكنْ على قتلِ هابيلَ ولكنْ على حملهِ.

وأمّا قولهُ: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ﴾ فإنّها شؤونٌ يبديها لا شؤونٌ يبتديها.

وأمّا قولهُ: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَـٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ فمعناهُ: ليسَ لهُ إلّا ماسعى عدلاً ولي أنْ

---

[٨] – وهو مذهب أهل الحق وقد نبهنا على مذهب السنة فى تفسير قوله تعالى :" فثم وجه الله " من سورة البقرة وفي سورة القصص عند قوله تعالى: " كل شيء هالك إلا وجهه ".

أجزيهُ بواحدةٍ ألفـًا فضلاً. فقامَ عبدُ الله وقبل رأسه وسوّغ خراجه.

قولهُ تعالى: ﴿سَنَفۡرُغُ لَكُمۡ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ﴾ لمجازاتكمْ أوْ محاسبتكمْ، وهذا وعيدٌ وتهديدٌ واللّهُ تعالى ليسَ لهُ شغلٌ يفرغُ منهُ، إنّما المعنى سنقصدُ لهمْ.

وقرأ حمزةُ والكسائيُّ «سيفرغُ لكمْ» بالياءِ. الباقونَ بالنّونِ وهيَ لغةُ تهامةَ. والثّقلانِ الجنُّ والإنسُ، سمّيا بذلكَ لعظمِ شأنهما بالإضافةِ إلى ما في الأرضِ منْ غيرهما بسببِ التّكليفِ. وقيلَ: سمّوا بذلكَ لأنّهمْ ثقلٌ على الأرضِ أحياءً وأمواتـًا، قالَ اللّهُ تعالى: ﴿وَأَخۡرَجَتِ ٱلۡأَرۡضُ أَثۡقَالَهَا﴾ ومنهُ قولهمْ: أعطهِ ثقلهُ أيْ وزنهَ. وقيلَ: سمّيا ثقلينِ، لأنّهما مثقلانِ بالذّنوبِ، وقالَ: ﴿سَنَفۡرُغُ لَكُمۡ﴾ فجمعَ، ثمَّ قالَ: ﴿أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ﴾ لأنّهما فريقانِ وكلُّ فريقٍ جمعٌ، وكذا قولهُ تعالى: ﴿يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ إِنِ ٱسۡتَطَعۡتُمۡ﴾ ولمْ يقلْ إنِ استطعتما، لأنّهما فريقانِ في حالِ الجمعِ، كقولهِ تعالى: ﴿فَإِذَا هُمۡ فَرِيقَانِ يَخۡتَصِمُونَ﴾ وَ ﴿۞هَٰذَانِ خَصۡمَانِ ٱخۡتَصَمُواْ فِي رَبِّهِمۡۖ﴾ ولوْ قالَ: سنفرغُ لكما، وقالَ: إنِ استطعتما لجازَ. وقرأ أهلُ الشّامِ ﴿أَيُّهُ ٱلثَّقَلَانِ﴾ بضمِّ الهاءِ. الباقونَ بفتحها وقدْ تقدّمَ.

مسألةٌ- هذهِ السّورةُ وَ «الأحقافُ» وَ ﴿قُلۡ أُوحِيَ﴾ دليلٌ على أنَّ الجنَّ مخاطبونَ مكلّفونَ مأمورونَ منهيّونَ مثابونَ معاقبونَ كالإنسِ سواءٌ، مؤمنهمْ كمؤمنهمْ، وكافرهمْ ككافرهمْ، لا فرقَ بيننا وبينهمْ في شيءٍ منْ ذلكَ.

قولهُ تعالى: ﴿يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ﴾ الآيةَ. معناها إنِ استطعتمْ أنْ تهربوا منَ الموتِ فاهربوا. وقيلَ: المعنى: ﴿لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلۡطَٰنٖ﴾ لا تخرجونَ منْ سلطاني وقدرتي عليكمْ. وقولهُ: ﴿فَٱنفُذُواْۚ﴾ أمرُ تعجيزٍ.

قولهُ تعالى: ﴿يُرۡسَلُ عَلَيۡكُمَا شُوَاظٞ مِّن نَّارٖ وَنُحَاسٞ﴾ أيْ لوْ خرجتمْ أرسلَ عليكمْ شواظٌ منْ نارٍ، وأخذكمُ العذابُ المانعُ منَ النّفوذِ. وقيلَ: ليسَ هذا متعلّقـًا بالنّفوذِ بلْ أخبرَ أنّهُ يعاقبُ العصاةَ عذابـًا بالنّارِ. والشّواظُ اللّهبُ الّذي لا دخانَ لهُ. وقرأ ابنُ كثيرٍ ﴿شِوَاظٌ﴾ بكسرِ الشّينِ. الباقونَ بالضّمِّ وهما لغتانِ ﴿وَنُحَاسٌ﴾ قراءةُ العامّةِ بالرّفعِ عطفٌ على ﴿شُوَاظٌ﴾. وقرأ ابنُ كثيرٍ وأبو عمرو ﴿وَنُحَاسٍ﴾ بالخفضِ عطفـًا على النّارِ. والنحاس الصّفرُ

المذابُ يصبُّ على رؤوسهم، وقيل هو المهلُ ﴿فَلَا تَنتَصِرَانِ﴾ أيْ لا ينصرُ بعضكم بعضا يعني الجن والإنس.

قولهُ تعالى: ﴿فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ﴾ أيِ انصدعتْ يومَ القيامةِ ﴿فَكَانَتۡ وَرۡدَةٗ كَٱلدِّهَانِ﴾ الدّهانُ الدّهنُ، والمعنى أنّها صارتْ في حمرةِ الوردِ وصفاءِ الدّهنِ، والدّهانُ على هذا جمعُ دهنٍ.

قالَ الماورديُّ: زعمَ المتقدّمونَ أنَّ أصلَ لونِ السّماءِ الحمرةُ، وأنّها لكثرةِ الحوائلِ وبعدِ المسافةِ ترى بهذا اللّونِ الأزرقِ، وشبّهوا ذلكَ بعروقِ البدنِ، وهيَ حمراءُ كحمرةِ الدّمِ وترى بالحائلِ زرقاءُ، فإنْ كانَ هذا صحيحاً فإنَّ السّماءَ لقربها منَ النّواظرِ يومَ القيامةِ وارتفاعِ الحواجزِ ترى حمراءَ، لأنه أصل لونها. والله أعلم.

قولهُ تعالى: ﴿فَيَوۡمَئِذٖ لَّا يُسۡـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٞ وَلَا جَآنّٞ﴾، هذا مثل قوله تعالى: ﴿وَلَا يُسۡـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾ وأنَّ القيامةَ مواطنُ لطولِ ذلكَ اليومِ، فيسألُ في بعضٍ ولا يسألُ في بعضٍ، وقيلَ: المعنى لا يسألونَ إذا استقرّوا في النّارِ. وقيلَ: لا يسألونَ عنْ ذنوبهمْ، لأنَّ اللّهَ حفظها عليهمْ، وكتبتها عليهمُ الملائكةُ.

وعنِ ابنِ عبّاسٍ في قولهِ تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسۡـَٔلَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾ وقوله: ﴿فَيَوۡمَئِذٖ لَّا يُسۡـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٞ وَلَا جَآنّٞ﴾ قالَ: لا يسألهمْ ليعرفَ ذلكَ منهمْ، لأنّهُ أعلمُ بذلكَ منهمْ، ولكنّهُ يسألهمْ لمَ عملتموها سؤالَ توبيخٍ.

قولهُ تعالى: ﴿يُعۡرَفُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ بِسِيمَٰهُمۡ﴾ سوادُ الوجهِ وزرقةُ الأعينِ، قالَ اللّهُ تعالى: ﴿وَنَحۡشُرُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ يَوۡمَئِذٖ زُرۡقٗا﴾، وقالَ تعالى: ﴿يَوۡمَ تَبۡيَضُّ وُجُوهٞ وَتَسۡوَدُّ وُجُوهٞۚ﴾. ﴿فَيُؤۡخَذُ بِٱلنَّوَٰصِي وَٱلۡأَقۡدَامِ﴾ أيْ تأخذُ الملائكةُ بنواصيهم، أي بشعور مقدم رؤوسهم وأقدامهم فيقذفونهمْ في النّارِ. والنّواصي جمعُ ناصيةٍ.

قولهُ تعالى: ﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾ أيْ يقالُ لهمْ هذهِ النّارُ الّتي أخبرتمْ بها فكذّبتمْ ﴿يَطُوفُونَ بَيۡنَهَا وَبَيۡنَ حَمِيمٍ ءَانٖ﴾ يطوفونَ مرّةً بينَ الحميمِ ومرّةً بينَ الجحيمِ، والجحيمُ النّارُ، والحميمُ الشّرابُ. وقوله: ﴿ءَانٖ﴾ انتهى حرّهُ وحميمهُ.

قولهُ تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾﴾ فيهِ مسألتانِ:

الأولى: لمّا ذكرَ أحوالَ أهلِ النّارِ ذكرَ ما أعدَّ للأبرارِ. والمعنى خافَ مقامهُ بينَ يديْ ربّهِ للحسابِ فتركَ المعصيةَ. فَـ ﴿مَقَامَ﴾ مصدرٌ بمعنى القيام. وقيلَ: خافَ قيامَ ربّهِ عليهِ أيْ إشرافهُ واطّلاعهُ عليهِ، بيانهُ قولهُ تعالى: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْۗ﴾.

الثانية- هذهِ الآيةُ دليلٌ على أنَّ منْ قالَ لزوجهِ: إنْ لمْ أكنْ منْ أهلِ الجنّةِ فأنتِ طالقٌ أنّهُ لا يحنثُ إنْ كانَ همَّ بالمعصيةِ وتركها خوفاً منَ اللّهِ وحياءً منهُ. وأفتى بهِ سفيانُ الثّوريُّ.

و﴿جَنَّتَانِ﴾ لكلِّ خائفٍ، وقيلَ: جنّتانِ لجميعِ الخائفينَ، والأوّلُ أظهرُ.

قولهُ تعالى: ﴿ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ﴾ أيْ ذواتا ألوانٍ منَ الفاكهةِ والواحدُ فَنٌّ، وقيلَ: الأفنانُ الأغصانُ واحدها فَنَنٌ ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ﴾ ماءً بالزّيادةِ والكرامةِ منَ اللّهِ تعالى على أهلِ الجنّةِ. إحدى العينينِ التّسنيمُ والأخرى السّلسبيلُ ﴿فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ﴾ أيْ صنفانِ وكلاهما حلوٌ يستلذُّ بهِ ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍ﴾ هوَ نصبٌ على الحالِ. والفرشُ جمعُ فراشٍ ﴿بَطَآئِنُهَا﴾ جمعُ بطانةٍ وهيَ الّتي تحتَ الظّهارةِ. ﴿مِنْ إِسْتَبْرَقٍۚ﴾ وهو ما غلظَ منَ الدّيباجِ وخشنَ، فإذا كانتِ البطانةُ الّتي تلي الأرضَ هكذا فما ظنّكَ بالظّهارةِ ﴿وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ﴾ الجنى ما يجتنى منَ الشّجرِ، و ﴿دَانٍ﴾ قريبٌ.

قولهُ تعالى: ﴿فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ﴾، فيهِ ثلاثُ مسائلَ:

الأولى: قولهُ تعالى: ﴿فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ﴾ في الجنّتينِ المذكورتينِ، وقالَ: ﴿فِيهِنَّ﴾ ولمْ يقلْ فيهما، لأنّهُ عنى الجنّتينِ وما أعدَّ لصاحبهما منَ النّعيم. وقيلَ: ﴿فِيهِنَّ﴾ يعودُ على الفرشِ الّتي بطائنها منْ إستبرقٍ، أيْ في هذهِ الفرشِ ﴿قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ﴾ أيْ نساءٌ قاصراتُ الطّرفِ، قصرنَ أعينهنَّ على أزواجهنَّ فلا يرينَ غيرهمْ، ووحّدَ الطّرفُ معَ الإضافةِ إلى الجمعِ لأنّهُ في معنى المصدرِ.

الثانية- قوله تعالى: ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ﴾ الطّمثُ الافتضاضُ وهوَ النّكاحُ بالتّدميةِ، طمثها يطمثها ويطمثها طمثاً إذا افتضّها. ومنهُ قيل: امرأةٌ طامثٌ أيْ حائضٌK أيْ لمْ يصبهنَّ

بالجماعِ قبلَ أزواجهنَّ هؤلاءِ أحدٌ. وقرأ الكسائيُّ ﴿لَمْ يَطْمُثْهُنَّ﴾ بضمِّ الميمِ، يقالُ: طمثتِ المرأةُ تطمُثُ بالضّمِّ حاضتْ. وطمثتْ بالكسرِ لغةٌ فهيَ طامثٌ.

الثالثة– في هذهِ الآيةِ دليلٌ على أنَّ الجنَّ تغشى كالإنسِ، وتدخلُ الجنّةَ ويكونُ لهمْ فيها جنّيّاتٌ. فللمؤمنينَ منهمْ أزواجٌ منَ الحورِ العينِ، فالإنسيّاتُ للإنسِ، والجنّيّاتُ للجنِّ. وذلكَ لأنَّ الجنَّ لا تطأُ بناتِ آدمَ في الدّنيا، وقيلَ: جائزٌ أنْ الجن تطأَ بنات آدمَ؛ فقولهُ تعالى: ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ﴾ يعلمكَ أنَّ نساءَ الآدميّاتِ قدْ يطمثهنَّ الجانُّ، وأنَّ الحورَ العينَ قدْ برين منْ هذا العيبِ ونزّهنَ، والطّمثُ الجماعُ.

قولهُ تعالى: ﴿كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾ أي في صفاءِ الياقوتِ، وبياضِ المرجانِ، وروى التّرمذيُّ عنْ عبدِ اللّهِ بنِ مسعودٍ عنِ النّبيِّ ﷺ قال: «إنَّ المرأةَ منْ نساءِ أهلِ الجنّةِ ليرى بياضُ ساقيها منْ وراءِ سبعينَ حلّةً حتّى يرى مخّها».

قولهُ تعالى: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ﴾ ﴿هَلْ﴾ في الكلامِ على أربعةِ أوجهٍ: تكونُ بمعنى قدْ كقولهِ تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ﴾، وبمعنى الاستفهام كقولهِ تعالى: ﴿فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا﴾، وبمعنى الأمر كقولهِ تعالى: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾، وبمعنى ما في الجحدِ كقولهِ تعالى: ﴿فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾، وَ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ﴾. أيْ هلْ جزاءُ منْ قال لا إله إلا اله وعملَ بما جاءَ بِهِ محمّدٌ ﷺ إلّا الجنّةُ. وقيلَ: هلْ جزاءُ منْ أحسنَ في الدّنيا إلّا أنْ يحسنَ إليهِ في الآخرةِ،

قولهُ تعالى: ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾ أيْ ولهُ منْ دونِ الجنّتينِ الأوليينِ جنّتانِ أخريانِ. منْ دونهما في الفضلِ فهيَ أربعٌ: جنّتانِ منها للسّابقينَ المقرّبينَ ﴿فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ﴾ وَ﴿عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ﴾، وجنّتانِ لأصحابِ اليمين ﴿فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ﴾ وفيهما ﴿عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ﴾، وفي الأوليينِ: ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍۭ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ﴾ وهوَ الدّيباجُ، وفي الأخريين ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ﴾ والعبقريُّ الوشيُ، ولا شكَّ أنَّ الدّيباجَ أعلى منَ الوشيِ، والرّفرفُ كسرُ الخباءِ، ولا شكَّ أنَّ الفرشَ المعدّةَ للاتّكاءِ عليها أفضلُ منْ فضلِ الخباءِ. وقالَ في الأوليينِ في صفةِ الحورِ: ﴿كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ

﴿وَٱلْمَرْجَانُ﴾، وفي الأخريين ﴿فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ﴾ وليسَ كلُّ حُسنٍ كحُسنِ الياقوتِ والمرجانِ. وقالَ في الأوليين: ﴿ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ﴾ وفي الأخريين ﴿مُدْهَآمَّتَانِ﴾ أيْ خضراوانِ كأنّهما منْ شدّةِ خضرتهما سوداوانِ، ووصفَ الأوليينِ بكثرةِ الأغصانِ، والأخريينِ بالخضرةِ وحدها، وفي هذا كلّهِ تحقيقٌ للمعنى الّذي قصدنا بقولهِ ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾ ولعلَّ ما لمْ يذكرْ منْ تفاوتِ ما بينهما أكثرُ ممّا ذكرَ.

قيل: الجنّتانِ الأوليانِ جنّةُ عدنٍ وجنّةُ النّعيم، والأخريانِ جنّةُ الفردوسِ وجنّةُ المأوى.

قولهُ تعالى: ﴿مُدْهَآمَّتَانِ﴾ سوداوانِ منْ شدّةِ الخضرةِ منَ الرّيِّ، والعربُ تقولُ لكلِّ أخضرَ أسودُ، وسمّيتْ قرى العراقِ سواداً لكثرةِ خضرتها ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ﴾ أيْ فوّارتانِ، والنّضخُ بالخاءِ أكثرُ منَ النّضحِ بالحاءِ. وعنهُ أنَّ المعنى نضّاختانِ بالخيرِ والبركةِ.

قولهُ تعالى: ﴿فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴿٦٨﴾﴾ فيهِ مسألتانِ:

الأولى: قالَ بعضُ العلماءِ: ليسَ الرّمّانُ والنّخلُ منَ الفاكهةِ، لأنَّ الشّيءَ لا يعطفُ على نفسهِ إنّما يعطفُ على غيرهِ. وهذا ظاهرُ الكلامِ. وقالَ الجمهورُ: هما منَ الفاكهةِ وإنّما أعادَ ذكرَ النّخلِ والرّمّانِ لفضلهما وحسنِ موقعهما على الفاكهة، كقوله تعالى: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ﴾ وقولهُ: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ﴾.

الثانية- قالَ أبو حنيفةَ رحمهُ اللّهُ: إذا حلفَ أنْ لا يأكلَ فاكهةً فأكلَ رمّاناً أوْ رطباً لمْ يحنثْ. وخالفهُ صاحباهُ والنّاسُ.

قولهُ تعالى: ﴿فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ ﴿٧٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾، فيهِ مسألتانِ:

الأولى: قولهُ تعالى: ﴿فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ﴾ يعني النّساءَ الواحدةُ خيرةٌ على معنى ذواتِ خيرٍ. وقيلَ: ﴿خَيْرَٰتٌ﴾ بمعنى خيّراتٍ فخفّفَ، كهين ولين ﴿حِسَانٍ﴾ أيْ حسانُ الخلقِ، وإذا قالَ اللّهُ تعالى: ﴿حِسَانٌ﴾ فمنْ ذا الّذي يقدرُ أنْ يصفَ حسنهنَّ! وقيلَ: ﴿خَيْرَٰتٌ﴾ الأخلاقِ ﴿حِسَانٌ﴾ الوجوهِ.

الثانية- واختلفَ أيّهما أكثرُ حسناً وأبهرُ جمالاً الحورُ أوِ الآدميّاتُ؟ فقيلَ: الحورُ لما ذكرَ منْ وصفهنَّ في القرآنِ والسّنّةِ، ولقولهِ ﷺ في دعائه على الميت في الجنازةِ: «وأبدلهُ زوجاً خيراً منْ زوجهِ». وقيلَ: الآدميّاتُ أفضلُ منَ الحورِ العينِ بسبعينَ ألفَ ضعفٍ، ورويَ مرفوعاً.

وقدْ قيل: إنَّ الحورَ العينَ المذكوراتِ في القرآنِ هنَّ المؤمناتُ منْ أزواجِ النّبيّينَ والمؤمنينَ يخلقنَ في الآخرةِ على أحسنِ صورةٍ، والمشهورُ أنَّ الحورَ العينَ لسنَ منْ نساءِ أهلِ الدّنيا بل مخلوقاتٌ في الجنّةِ، لأنَّ اللّهَ تعالى قالَ: ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ﴾ وأكثرُ نساءِ أهلِ الدّنيا مطموثاتٍ، ولأنَّ النّبيَّ ﷺ قال: «إنَّ أقلَّ ساكني الجنّةِ النّساءُ» فلا يصيبُ كلَّ واحدٍ منهمُ امرأةً، ووعدَ الحورَ العينَ لجماعتهمْ، فثبتَ أنّهنَّ منْ غيرِ نساءِ الدّنيا.

قولهُ تعالى: ﴿حُورٌ﴾ جمعُ حوراءَ، وهيَ الشّديدةُ بياضَ العينِ الشّديدةُ سوادها ﴿مَّقْصُورَٰتٌ﴾ محبوساتٌ مستوراتٌ ﴿فِي ٱلْخِيَامِ﴾ في الحجالِ لسنَ بالطّوّافاتِ في الطّرقِ، محبوساتٌ حبسُ صيانةٍ وتكرمةٍ، وقالَ في الأوليين: ﴿فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ﴾ قصرنَ طرفهنَّ على الأزواجِ ولمْ يذكرْ أنّهنَّ مقصوراتٌ، فدلَّ على أنَّ المقصوراتِ أعلى وأفضلُ.

قولهُ تعالى: ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ﴾ أيْ لمْ يمسسهنَّ على ما تقدّمَ قبلُ. وقراءةُ العامّةِ ﴿يَطْمِثْهُنَّ﴾ بكسرِ الميمِ، وكانَ الكسائيُّ يكسرُ إحداهما ويضمُّ الأخرى ويخيّرُ في ذلكَ.

قولهُ تعالى: ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ﴾ الرّفرفُ فضولُ الفرشِ والبسطِ ﴿وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ﴾ ثيابٌ منقوشةٌ تبسطُ، فإذا قالَ خالقُ النّقوشِ إنّها حسانٌ فما ظنّكَ بتلكَ العباقرِ!.

قولهُ تعالى: ﴿تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ﴾ تفاعلَ منَ البركةِ ﴿ذِى ٱلْجَلَٰلِ﴾ في ذاتهِ ﴿وَٱلْإِكْرَامِ﴾ في أفعالهِ ﴿ذِى ٱلْجَلَٰلِ﴾ أي العظمةِ ﴿وَٱلْإِكْرَامِ﴾. وقرأ ابن عامرٌ ﴿ذُو ٱلْجَلَٰلِ﴾ بالواوِ وجعلهُ وصفاً للاسمِ، وذلكَ تقويةٌ لكونِ الاسمِ هوَ المسمّى. الباقونَ ﴿ذِى ٱلْجَلَٰلِ﴾ جعلوا ﴿ذِى﴾ صفةً لِ ﴿رَبِّكَ﴾. وكأنّهُ يريدُ الاسمَ الّذي افتتحَ بهِ السّورةَ، فقالَ: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ﴾.

سورة الواقعة

مكّيّةٌ، وهيَ ستٌ وتسعونَ آيةً.

بسمِ اللّهِ الرّحمنِ الرّحيمِ

قولهُ تعالى: ﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ﴾ أيْ قامتِ القيامةُ، والمرادُ النّفخةُ الأخيرةُ. وسمّيتْ واقعةٌ لأنّها تقعُ عنْ قربٍ. وقيلَ: لكثرةِ ما يقعُ فيها منَ الشّدائدِ. وفيهِ إضمارٌ، أي اذكروا إذا وقعتِ الواقعةُ. وقيلَ: ﴿إِذَا﴾ صلةٌ، أيْ وقعتِ الواقعةُ، كقولهِ: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ﴾ وَ ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾. ﴿لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ﴾ الكاذبةُ مصدرٌ بمعنى الكذبِ، والعربُ قدْ تضعُ الفاعلَ والمفعولَ موضعَ المصدرِ، كقولهِ تعالى: ﴿لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَٰغِيَةً﴾ أي لغو، وقيلَ: الكاذبةُ صفةٌ والموصوفُ محذوفٌ، أيْ ليسَ لوقعتها حالٌ كاذبةٌ، أوْ نفسٌ كاذبةٌ، أيْ كلُّ منْ يخبرُ عنْ وقعتها صادقٌ. وقيلَ: ليسَ لوقعتها أحدٌ يكذّبُ بها.

قولهُ تعالى: ﴿خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ﴾ خفضتْ أعداءَ اللّهِ في النّارِ، ورفعتْ أولياءَ اللّهِ في الجنّةِ، والخفضُ والرّفعُ يستعملانِ عندَ العربِ في المكانِ والمكانةِ، والعزِّ والمهانة. ونسب سبحانه الخفض والرفع للقيامة توسّعـًا ومجازًا على عادةِ العربِ في إضافتها الفعلَ إلى المحلِّ والزّمانِ وغيرهما ممّا لمْ يكنْ منهُ الفعلُ، يقولونَ: ليلٌ نائمٌ ونهارٌ صائمٌ. وفي التّنزيلِ: ﴿بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ والخافضُ والرّافعُ على الحقيقةِ إنّما هوَ اللّهُ وحدهُ، فرفعَ أولياءهُ في أعلى الدّرجاتِ، وخفضَ أعداءهُ في أسفلِ الدّركاتِ.

قولهُ تعالى: ﴿إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا﴾ أيْ زلزلتْ وحرّكتْ أي اذكرْ ﴿إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا﴾ مصدرٌ وهوَ دليلٌ على تكريرِ الزّلزلةِ ﴿وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا﴾ أيْ فتّتتْ، نظيرهُ: ﴿يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا﴾ ﴿فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا﴾ الهباءُ هوَ الشّعاعُ الّذي يكونُ في الكوّةِ كهيئةِ الغبارِ.

قولهُ تعالى: ﴿وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَٰثَةً﴾ أيْ أصنافـًا ثلاثةً كلٌّ، صنفٍ يشاكلُ ما هوَ منهُ، كما يشاكلُ الزّوجُ الزّوجةَ، ثمَّ بيّنَ منْ هم فقال: ﴿فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ﴾ ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ﴾ و ﴿ٱلسَّٰبِقُونَ﴾، فأصحابُ الميمنةِ همُ الّذينَ يؤخذُ بهمْ ذاتَ اليمينِ إلى الجنّةِ، وأصحابُ

المشأمةِ همُ الّذينَ يؤخذُ بهمْ ذاتَ الشّمالِ إلى النّارِ، وفي صحيحِ مسلمٍ منْ حديثِ الإسراءِ عنْ أبي ذرٍّ عنِ النّبيِّ ﷺ قال: «فلمّا علونا السّماءَ الدّنيا فإذا رجلٌ عنْ يمينهِ أسودةٌ وعنْ يسارهِ أسودةٌ قالَ فإذا نظرَ قبلَ يمينهِ ضحكَ وإذا نظرَ قبلَ شمالهِ بكى قالَ فقالَ: مرحباً بالنّبيِّ الصّالحِ والابنِ الصّالحِ. قالَ: قلتُ: يا جبريلُ منْ هذا قالَ هذا آدمُ عليه السلام وهذهِ الأسودةُ الّتي عنْ يمينهِ وعنْ شمالهِ نسمُ بنيهِ فأهلُ اليمينِ أهلُ الجنّةِ والأسودةُ الّتي عنْ شمالهِ أهلُ النّارِ» وذكرَ الحديثَ.

والتّكريرُ في ﴿مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ﴾. و ﴿مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ﴾ للتّفخيمِ والتّعجيبِ، كقولهِ: ﴿ٱلۡحَآقَّةُ ۝١ مَا ٱلۡحَآقَّةُ﴾ وَ ﴿ٱلۡقَارِعَةُ ۝١ مَا ٱلۡقَارِعَةُ﴾ كما يقالُ: زيدٌ ما زيدٌ! وفي حديثِ أمِّ زرعٍ رضي الله عنها: مالكٌ وما مالكٌ! والمقصودُ تكثيرُ ما لأصحابِ الميمنةِ منَ الثّوابِ ولأصحابِ المشأمةِ منَ العقابِ.

قولهُ تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ﴾ قيلَ: السّابقونَ إلى الإيمانِ منْ كلِّ أمّةٍ، دليلهُ قولهُ تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلۡأَوَّلُونَ مِنَ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ﴾، وقيلَ: همُ السّابقونَ إلى الجهادِ، وأوّلُ النّاسِ رواحاً إلى الصّلاةِ وأعمالِ البرِّ، قالَ اللّهُ تعالى: ﴿۞وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ ثمَّ أثنى عليهمْ فقالَ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَهُمۡ لَهَا سَٰبِقُونَ﴾.

و ﴿ٱلسَّٰبِقُونَ﴾ رفعَ بالابتداءِ والثّاني توكيدٌ لهُ والخبرُ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡمُقَرَّبُونَ﴾.

قولهُ تعالى: ﴿ثُلَّةٞ مِّنَ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ أيْ جماعةٌ منَ الأممِ الماضيةِ ﴿وَقَلِيلٞ مِّنَ ٱلۡأٓخِرِينَ﴾ أيْ ممّنْ آمنَ بمحمّدٍ ﷺ، وقيلَ: لمّا نزلَ هذا شقَّ على أصحابِ رسولِ اللّهِ ﷺ فنزلتْ: ﴿ثُلَّةٞ مِّنَ ٱلۡأَوَّلِينَ ۝٣٩ وَثُلَّةٞ مِّنَ ٱلۡأٓخِرِينَ﴾ فقالَ: النّبيُّ ﷺ: «إنّي لأرجو أنْ تكونوا ربعَ أهلِ الجنّةِ بلْ ثلثَ أهلِ الجنّةِ بلْ نصفَ أهلِ الجنّةِ وتقاسمونهمْ في النّصفِ الثّاني» ومعناهُ ثابتٌ في صحيحِ مسلمٍ منْ حديثِ عبدِ اللّهِ بنِ مسعودٍ. وكأنّها منسوخةٌ والأشبهُ أنّها محكمةٌ لأنّها خبرٌ، ولأنَّ ذلكَ في جماعتينِ مختلفتينِ، فلذلك قالَ في السابقين: ﴿وَقَلِيلٞ مِّنَ ٱلۡأٓخِرِينَ﴾ وقالَ في أصحابِ اليمينِ وهمْ سوى السّابقينَ: ﴿ثُلَّةٞ مِّنَ ٱلۡأَوَّلِينَ ۝٣٩ وَثُلَّةٞ مِّنَ ٱلۡأٓخِرِينَ﴾ ولذلكَ قالَ النّبيُّ ﷺ: «إنّي لأرجو أنْ تكونَ أمّتي شطرَ أهلِ الجنّةِ».

وقيلَ: كلٌّ منْ هذهِ الأمّةِ، فمنهمْ منْ هوَ في أوّلها، ومنهمْ منْ هوَ في آخرها، وهوَ مثلُ قولهِ تعالى: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾،

وقيلَ: ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أيْ منْ أوّلِ هذهِ الأمّةِ ﴿وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ﴾ يسارعُ في الطّاعاتِ حتّى يلحقَ درجةَ الأوّلينَ، ولهذا قالَ ﷺ: «خيركمْ قرني»، ثمَّ سوّى في أصحابِ اليمينِ بينَ الأوّلينَ والآخرينَ. والثّلّةُ منْ ثللتُ الشّيءَ أيْ قطعتهُ، فمعنى ثلّةٍ كمعنى فرقةٍ.

قولهُ تعالى: ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ﴾ أيِ السّابقونَ في الجنّةِ ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ﴾، أيْ مجالسهمْ على سررٍ جمعُ سريرٍ ﴿مَّوْضُونَةٍ﴾ مصفوفةٍ، كما قالَ في موضعِ آخرَ: ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ﴾ ﴿مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيْهَا﴾ أيْ على السّررِ ﴿مُتَقَٰبِلِينَ﴾ أيْ لا يرى بعضهمْ قفا بعضٍ، بلْ تدورُ بهمُ الأسرّةُ.

قولهُ تعالى: ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ﴾ لا يموتونَ ﴿بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ﴾ أكوابٌ جمعُ كوبٍ وهيَ الآنيةُ الّتي لا عرى لها ولا خراطيمَ، والأباريقُ الّتي لها عرى وخراطيمُ واحدها إبريقٌ، سمّيَ بذلكَ لأنّهُ يبرقُ لونهُ منْ صفائهِ ﴿وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ﴾ جاري منْ ماءٍ أوْ خمرٍ، لا تستخرجُ بعصرٍ وتكلّفٍ ومعالجةٍ ﴿لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا﴾ أي لا تتصدع رؤوسهم منْ شربها بخلافِ شرابِ الدّنيا ﴿وَلَا يُنزِفُونَ﴾ لا يسكرونَ فتذهبُ عقولهمْ. وقرأ أهلُ الكوفةِ ﴿يُنزِفُونَ﴾ بكسرِ الزّاي، أيْ لا ينفد شرابهم ولا تفنى خمرهمْ.

قولهُ تعالى: ﴿وَفَٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ﴾ لكثرتها ﴿وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ۝٢١ وَحُورٌ عِينٌ﴾ قرأ حمزةُ والكسائيُّ بالجرِّ عطفاً على ﴿بِأَكْوَابٍ﴾ وهوَ محمولٌ على المعنى، لأنَّ المعنى يتنعّمونَ بأكوابٍ وفاكهةٍ ولحمٍ وحورٍ، ورفعَ الجمهورُ على معنى وعندهمْ حورٌ عينٌ؛ لأنّهُ لا يطافُ عليهمْ بالحورِ ﴿كَأَمْثَٰلِ﴾ أيْ مثلِ أمثالِ ﴿ٱللُّؤْلُؤِ ٱلْمَكْنُونِ﴾ الّذي لمْ تمسّهُ الأيدي ولمْ يقعْ عليهِ الغبارُ فهوَ أشدُّ ما يكونُ صفاءً وتلألؤاً ﴿جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ أيْ ثواباً ونصبهُ على المفعولِ لهُ ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا﴾ باطلاً ﴿وَلَا تَأْثِيمًا﴾ ولا كذباً ﴿إِلَّا قِيلًا﴾ منصوبٌ بـ ﴿يَسْمَعُونَ﴾ أوِ استثناءٌ منقطعٌ أيْ لكنْ يقولونَ قيلاً أوْ يسمعونَ. وَ ﴿سَلَٰمًا سَلَٰمًا﴾ منصوبانِ بالقولِ، يحيّي بعضهمْ بعضاً، أو تحيّيهمُ الملائكةُ أوْ يحيّيهمْ ربّهمْ عز وجل.

قولهُ تعالى: ﴿وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡيَمِينِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡيَمِينِ﴾ التّكريرُ لتعظيمِ شأنِ النّعيمِ الّذي همْ فيهِ ﴿فِي سِدۡرٖ مَّخۡضُودٖ﴾ أيْ في نبقٍ قدْ خضّدَ شوكهُ أيْ قطعَ ﴿وَطَلۡحٖ مَّنضُودٖ﴾ الطّلحُ شجرُ الموزِ واحدهُ طلحةٌ، والمنضودُ المتراكبُ المرصوصُ ﴿وَظِلّٖ مَّمۡدُودٖ﴾ دائمٌ لا تنسخهُ الشّمسُ، كقولهِ تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيۡفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوۡ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنٗا﴾ وذلكَ بالغداةِ وهيَ ما بينَ الإسفارِ إلى طلوعِ الشّمسِ حسبَ ما تقدّمَ بيانهُ هناكَ. والجنّةُ كلّها ظلٌّ لا شمسَ معهُ. وهو ظلُّ العرشِ، وفي صحيحِ التّرمذيِّ وغيرهِ منْ حديثُ أبي هريرةَ عنِ النّبيِّ ﷺ: «وفي الجنّةِ شجرةٌ يسيرُ الرّاكبُ في ظلّها مائةَ عامٍ لا يقطعها واقرءوا إنْ شئتمْ ﴿وَظِلّٖ مَّمۡدُودٖ﴾». ﴿وَمَآءٖ مَّسۡكُوبٖ﴾ أيْ جارٍ لا ينقطعُ وأصلُ السّكبِ الصّبُّ ﴿وَفَٰكِهَةٖ كَثِيرَةٖ ٣٢ لَّا مَقۡطُوعَةٖ﴾ في وقتٍ منَ الأوقاتِ كانقطاعِ فواكهِ الصيفِ في الشاء ﴿وَلَا مَمۡنُوعَةٖ﴾ بشوكٍ ولا بعدٍ ولا حائطٍ، قالَ اللّهُ تعالى: ﴿وَذُلِّلَتۡ قُطُوفُهَا تَذۡلِيلٗا﴾.

قولهُ تعالى: ﴿وَفُرُشٖ مَّرۡفُوعَةٍ﴾ كنايةٌ عنِ نّساءِ الجنّةِ ولمْ يتقدّمْ لهنَّ ذكرٌ، ولكنَّ قولهُ عزَّ وجلَّ: ﴿وَفُرُشٖ مَّرۡفُوعَةٍ﴾ دالٌّ، لأنّها محلُّ النّساءِ، فالمعنى ونساءٌ مرتفعاتُ الأقدارِ في حسنهنَّ وكمالهنَّ، دليلهُ قولهُ تعالى: ﴿إِنَّآ أَنشَأۡنَٰهُنَّ إِنشَآءٗ﴾ أيْ خلقناهنَّ خلقاً وأبدعناهنَّ إبداعاً. والعربُ تسمّي المرأةَ فراشاً ولباساً وإزاراً، وقدْ قالَ تعالى: ﴿هُنَّ لِبَاسٞ لَّكُمۡ﴾ ثمَّ قيل: على هذا هنَّ الحورُ العينُ، أيْ خلقناهنَّ منْ غيرِ ولادةٍ. وقيلَ: المرادُ نساءُ بني آدمَ، أيْ خلقناهنَّ خلقاً جديداً وهوَ الإعادةُ، أيْ أعدناهنَّ إلى حالِ الشّبابِ وكمالِ الجمالِ ﴿عُرُبًا﴾ جمعُ عَروبٍ، والعربُ العواشقُ لأزواجهنَّ المتحبّباتُ إليهم، واشتقاقهُ منْ أعربَ إذا بيّنَ، فالعروبُ تبيّنُ محبّتها لزوجها بشكلٍ وغنجٍ وحسنِ كلامٍ، وقرأ حمزةُ وأبو بكرٍ عنْ عاصمٍ ﴿عُرْبًا﴾ بإسكانِ الرّاءِ. وضمَّ الباقونَ وهما جائزانِ في جمعِ فعولٍ ﴿أَتۡرَابٗا﴾ على ميلادٍ واحدٍ في الاستواءِ وسنٍّ واحدةٍ ثلاثٌ وثلاثينَ سنةً. يقالُ في النّساءِ أترابٌ وفي الرّجالِ أقرانٌ.

قولهُ تعالى: ﴿ثُلَّةٞ مِّنَ ٱلۡأَوَّلِينَ ٣٩ وَثُلَّةٞ مِّنَ ٱلۡأٓخِرِينَ﴾ رجعَ الكلامُ إلى قولهِ تعالى: ﴿وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡيَمِينِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡيَمِينِ﴾ أي هم ﴿ثُلَّةٞ مِّنَ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ يعني منْ سابقي هذهِ الأمّةِ ﴿وَثُلَّةٞ مِّنَ ٱلۡأٓخِرِينَ﴾ منْ هذهِ الأمّةِ منْ آخرها.

قولهُ تعالى: ﴿وَأَصۡحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ۝٤١ فِي سَمُومٖ﴾ والسّمومُ الرّيحُ الحارّةُ الّتي تدخلُ في مسامِّ البدنِ. والمرادُ هنا حرُّ النّارِ ولفحها ﴿وَحَمِيمٖ﴾ أيْ ماءٍ حارٍّ قدِ انتهى حرّهُ ﴿وَظِلّٖ مِّن يَحۡمُومٖ﴾ منْ دخانِ جهنّمَ أسودَ شديدِ السّوادِ ﴿لَّا بَارِدٖ﴾ بلْ حارٌّ لأنّهُ منْ دخانِ شفيرِ جهنّمَ ﴿وَلَا كَرِيمٍ﴾ عذبٍ ﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَبۡلَ ذَٰلِكَ مُتۡرَفِينَ﴾ متنعّمينَ بالحرام ﴿وَكَانُواْ يُصِرُّونَ عَلَى ٱلۡحِنثِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ أيْ يقيمونَ على الشّركِ ﴿وَكَانُواْ يَقُولُونَ أَئِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ﴾ هذا استبعادٌ منهمْ لأمرِ البعثِ وتكذيبٌ لهُ، فقالَ اللّهُ تعالى: ﴿قُلۡ﴾ لهمْ يا محمّدُ ﴿إِنَّ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ منْ آبائكمْ ﴿وَٱلۡأٓخِرِينَ﴾ منكمْ ﴿لَمَجۡمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوۡمٖ مَّعۡلُومٖ﴾ يريدُ يومَ القيامةِ ﴿ثُمَّ إِنَّكُمۡ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ﴾ عنِ الهدى ﴿ٱلۡمُكَذِّبُونَ﴾ بالبعثِ ﴿لَأٓكِلُونَ مِن شَجَرٖ مِّن زَقُّومٖ﴾ وهوَ شجرٌ كريهُ المنظرِ، كريهُ الطّعمِ، وهيَ التي ذكرت في سورة ﴿وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ﴾ ﴿فَمَالِـُٔونَ مِنۡهَا ٱلۡبُطُونَ﴾ أيْ منَ الشّجرةِ، لأنَّ المقصودَ منَ الشّجرِ شجرةٌ ﴿فَشَٰرِبُونَ عَلَيۡهِ﴾ أيْ على الزّقّومِ أوْ على الأكلِ أوْ على الشّجرِ، لأنه يذكر ومؤنث ﴿مِنَ ٱلۡحَمِيمِ﴾ وهوَ الماءُ المغليُّ ﴿فَشَٰرِبُونَ شُرۡبَ ٱلۡهِيمِ﴾ قراءةُ نافعٍ وعاصمٍ وحمزةَ ﴿شُرۡبَ﴾ بضمِّ الشّينِ. الباقونَ بفتحها لغتانِ جيّدتانِ، والهيمُ الإبلُ العطاش التي لا تروى لداءٍ يصيبها ﴿هَٰذَا نُزُلُهُمۡ يَوۡمَ ٱلدِّينِ﴾ أيْ رزقهمُ الّذي يعدُّ لهمْ، كالنّزلِ الّذي يعدُّ للأضيافِ تكرمةً لهمْ، وفيهِ تهكّمٌ، كما في قولهِ تعالى: ﴿فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ و ﴿يَوۡمَ ٱلدِّينِ﴾ يومَ الجزاءِ، يعني في جهنم.

قوله تعالى: ﴿نَحۡنُ خَلَقۡنَٰكُمۡ فَلَوۡلَا تُصَدِّقُونَ﴾ بالبعثِ؟ ﴿أَفَرَءَيۡتُم مَّا تُمۡنُونَ﴾ أيْ ما تصبّونهُ منَ المنيِّ في أرحامِ النّساءِ ﴿ءَأَنتُمۡ تَخۡلُقُونَهُۥٓ﴾ أيْ تصوّرونَ منهُ الإنسانَ ﴿أَمۡ نَحۡنُ ٱلۡخَٰلِقُونَ﴾ المقدّرونَ المصوّرونَ.

قولهُ تعالى: ﴿نَحۡنُ قَدَّرۡنَا بَيۡنَكُمُ ٱلۡمَوۡتَ﴾ فلا أحدَ يبقى غيرهُ عزَّ وجلَّ، والّذي يقدرُ على الإماتةِ يقدرُ على الخلقِ، وإذا قدرَ على الخلقِ قدرَ على البعثِ. وقرأ ابنُ كثيرٍ ﴿قَدَرۡنَا﴾ بتخفيفِ الدّالِ. الباقونَ بالتّشديدِ ﴿وَمَا نَحۡنُ بِمَسۡبُوقِينَ ۝٦٠ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمۡثَٰلَكُمۡ﴾ أيْ إنْ أردنا أنْ نبدّلَ أمثالكمْ لمْ يسبقنا أحد، أي لم يغلبنا ﴿وَنُنشِئَكُمۡ فِي مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ منَ الصّورِ والهيئاتِ.

قولهُ تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ﴾ يعني خلق آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ، أو إذْ خلقتمْ منْ نطفةٍ ثمَّ منْ علقةٍ ثمَّ منْ مضغةٍ ولمْ تكونوا شيئاً ﴿فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ﴾ أيْ فهلّا تذكّرونَ، وقراءةُ العامّةِ ﴿ٱلنَّشْأَةَ﴾ بالقصرِ. وقرأ ابنُ كثيرٍ وأبو عمرو: «النّشاءةَ» بالمدِّ.

قولهُ تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ﴾ منْ أرضكمْ فتطرحونَ فيها البذرَ، ﴿ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ﴾ وأضافَ الحرثَ إليهمْ والزّرعَ إليهِ تعالى، لأنَّ الحرثَ فعلهمْ ويجري على اختيارهمْ، والزّرعُ منْ فعلِ الله تعالى. وتتضمّنُ هذهِ الآيةُ أمرينِ:

أحدهما- الامتنانُ عليهمْ بأنْ أنبتَ زرعهمْ حتّى عاشوا بهِ ليشكروهُ على نعمتهِ عليهمْ.

الثّاني- البرهانُ الموجبُ للاعتبارِ، لأنّهُ لمّا أنبتَ زرعهمْ بعدَ تلاشي بذرهِ، وانتقالهِ إلى استواءِ حالهِ منَ العفنِ والتّتريبِ حتّى صارَ زرعاً أخضرَ، ثمَّ جعلهُ قوياً مشتداً أضعافَ ما كانَ عليهِ، فهوَ بإعادةِ منْ أماتَ أخفُّ عليهِ وأقدرُ.

ثمَّ قالَ: ﴿لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا﴾ أيْ متكسّراً يعني الزّرعَ، ونبّهَ بذلكَ أيضاً على أمرينِ:

أحدهما- ما أولاهمْ بهِ منَ النّعمِ في زرعهمْ إذْ لمْ يجعلهُ حطاماً ليشكروهُ.

الثّاني- ليعتبروا بذلكَ في أنفسهم، كما أنه يجعل الزّرعَ حطاماً إذا شاءَ، وكذلكَ يهلكهمْ إذا شاءَ ليتّعظوا فينزجروا.

﴿فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ﴾ أيْ تندمونَ على ما سلفَ منكمْ منْ معصيةِ اللّهِ الّتي أوجبتْ عقوبتكمْ ﴿إِنَّا لَمُغْرَمُونَ﴾ أيْ معذّبونَ، والغرامُ العذابُ ﴿بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾ منَ الرّزقِ.

قولهُ تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ﴾ لتحيوا بهِ أنفسكمْ، وجاءَ الطّعامُ مقدّماً في الآيةِ، ألا ترى أنّكَ تسقي ضيفكَ بعدَ أنْ تطعمهُ ﴿ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ﴾ أي السّحابِ، الواحدةُ مزنةٌ ﴿أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ﴾ أيْ فإذا عرفتمْ بأنّي أنزلتهُ فلمَ لا تشكروني بإخلاصِ العبادةِ لي؟ ولمَ تنكرونَ قدرتي على الإعادةِ؟ ﴿لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا﴾ أيْ ملحاً شديدَ الملوحةِ ﴿فَلَوْلَآ﴾ أيْ فهلّا ﴿تَشْكُرُونَ﴾ الّذي صنعَ ذلكَ بكمْ.

قولهُ تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي تُورُونَ﴾ أي تظهرونها بالقدحِ منَ الشّجرِ الرّطبِ ﴿ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ﴾ يعني الّتي تكونُ منها الزّنادُ وهيَ المرخُ والعفارُ ﴿أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ﴾ أي المخترعونَ الخالقونَ، أيْ فإذا عرفتمْ قدرتي فاشكروني ولا تنكروا قدرتي على البعثِ ﴿نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً﴾ موعظة للنار الكبرى، وقيلَ: تبصرةً للنّاسِ منَ الظّلامِ. وصحَّ عنِ النّبيِّ ﷺ أنّهُ قالَ: «إنَّ ناركمْ هذهِ الّتي يوقدُ بنو آدمَ جزءٌ منْ سبعينَ جزءاً منْ نارِ جهنّمَ» فقالوا يا رسولَ اللّهِ: إنْ كانتْ لكافيةٌ، قالَ: «فإنّها فضّلتْ عليها بتسعةٍ وستّينَ جزءاً كلّهنَّ مثلُ حرّها» ﴿وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ﴾ للمسافرينَ، سمّوا بذلكَ لنزولهمُ القَوَى وهو القَفْر ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾ أيْ فنزّهِ اللّهَ عمّا أضافهُ إليهِ المشركونَ منَ الأندادِ، والعجزِ عنِ البعثِ.

قولهُ تعالى: ﴿۞ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾ إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِي كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، فيهِ سبعُ مسائلَ:

الأولى: قولهُ تعالى: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ﴾ ﴿فَلَا﴾ صلةٌ في قولِ أكثرِ المفسّرينَ، والمعنى فأقسمُ، بدليلِ قولهِ: ﴿وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ﴾. وقالَ الفرّاءُ: هيَ نفيٌ، والمعنى ليسَ الأمرُ كما تقولونَ، ثمَّ استأنفَ ﴿أُقْسِمُ﴾. ونبّهَ بهذا على فضيلةِ القرآنِ ليتدبّروهُ، وأنّهُ ليسَ بشعرٍ ولا سحرٍ ولا كهانةٍ كما زعموا.

الثانية- قولهُ تعالى: ﴿بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ﴾ للّهِ تعالى أنْ يقسمَ بما يريدُ، وليسَ لنا أنْ نقسمَ بغيرِ اللّهِ تعالى، ومواقعُ النّجومِ مساقطها ومغاربها. **وقيلَ**: انكدارها وانتثارها يومَ القيامةِ، وقيلَ: المرادُ بمواقعِ النّجومِ نزولُ القرآنِ نجوماً، أنزلهُ اللّهُ تعالى منَ اللّوحِ المحفوظِ منَ السّماءِ العليا إلى السّفرةِ الكاتبينَ، فنجّمهُ السّفرةُ على جبريلَ عشرينَ ليلةً، ونجّمهُ جبريلُ على محمّدٍ عليهما الصّلاةُ والسّلامُ عشرينَ سنةً، فهوَ ينزلهُ على الأحداثِ منْ أمّتهِ، وقرأ حمزةُ والكسائيُّ «بموقعِ» على التوحيد، الباقونَ على الجمعِ، فمنْ أفردَ فلأنّهُ اسمُ جنسٍ يؤدّي الواحدُ فيهِ عنِ الجمعِ، ومنْ جمعَ فلاختلافِ أنواعهِ.

الثالثة- قولهُ تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ﴾ على المؤمنينَ، لأنّهُ كلامُ ربّهمْ، وشفاءُ صدورهمْ، كريمٌ على أهلِ السّماءِ، لأنّهُ تنزيلُ ربّهمْ ووحيهِ. وقيلَ: ﴿كَرِيمٞ﴾ أيْ غيرُ مخلوقٍ. وقيلَ: ﴿كَرِيمٞ﴾ لما فيهِ منْ كريمِ الأخلاقِ ومعاني الأمورِ. وقيلَ: لأنّهُ يكرّمُ حافظهُ، ويعظّمُ قارئهُ.

الرابعة- قولهُ تعالى: ﴿فِي كِتَٰبٖ مَّكۡنُونٖ﴾ مصونٌ عندَ اللّهِ تعالى. وقيلَ: مكنونٍ محفوظٌ عنِ الباطلِ. والكتابُ هنا كتابٌ في السّماءِ، وهوَ اللّوحُ المحفوظُ، وقيلَ: هوَ المصحفُ الّذي في أيدينا.

الخامسة- قولهُ تعالى: ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ﴾ اختلفَ في معنى ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ﴾ هلْ هوَ حقيقةٌ في المسِّ بالجارحةِ أوْ معنى؟ وكذلكَ اختلفَ في ﴿ٱلۡمُطَهَّرُونَ﴾ منْ همْ؟ فقيل: همُ الملائكةُ السّفرةُ الكرامُ البررةُ، وهوَ نحوُ ما اختارهُ مالكٌ حيثُ قالَ: أحسنَ ما سمعتُ في قولهِ ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ﴾ أنّها بمنزلةِ الآيةِ الّتي في «عبسَ»: ﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ١٢ فِي صُحُفٖ مُّكَرَّمَةٖ ١٣ مَّرۡفُوعَةٖ مُّطَهَّرَةِۭ ١٤ بِأَيۡدِي سَفَرَةٖ ١٥ كِرَامِۭ بَرَرَةٖ﴾

وقيلَ: المرادُ بالكتابِ المصحفُ الّذي بأيدينا، وهوَ الأظهر. وقد روى مالك وغيره أن في كتابِ عمرو بنِ حزمِ الّذي كتبهُ لهُ رسولُ اللّهِ ﷺ: ألّا يمسَّ القرآنَ إلّا طاهرٌ. وقالَ ابنُ عمرَ: قالَ النّبيُّ ﷺ: «لا تمسَّ القرآنَ إلّا وأنتَ طاهرٌ». وقالتْ أختُ عمرَ لعمرَ عندَ إسلامهِ وقدْ دخلَ عليها ودعا بالصحيفة: ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ﴾ فقامَ واغتسلَ وأسلمَ.

وعلى هذا المعنى قالَ قتادةُ وغيرهُ: ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ﴾ منَ الأحداثِ والأنجاسِ. وقيلَ: منَ الشّركِ، وقيلَ: معنى ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ﴾ لا يقرؤهُ ﴿إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ﴾ إلّا الموحّدونَ، فكانَ ابنُ عبّاسٍ ينهى أنْ يمكّنَ أحدٌ منَ اليهودِ والنّصارى منْ قراءةِ القرآنِ. وقيلَ: لا يجدُ طعمهُ ونفعهُ وبركتهُ إلّا المطهّرونَ، أيِ المؤمنونَ بالقرآنِ، وهوَ اختيارُ البخاريِّ، قالَ النّبيُّ ﷺ: «ذاقَ طعمَ الإيمانِ منْ رضيَ باللّهِ ربـاً وبالإسلامِ دينـاً وبمحمّدٍ ﷺ نبيـاً».

السادسة- واختلفَ العلماءُ في مسِّ المصحفِ على غيرِ وضوءٍ، فالجمهورُ على المنعِ

منْ مسّهِ لحديثِ عمرو بنِ حزمٍ. وهوَ مذهبُ مالك والشّافعيّ. واختلفتِ الرّوايةُ عنْ أبي حنيفةَ، فرويَ عنهُ أنّهُ يمسّهُ المحدثُ، ورويَ عنهُ أنّهُ يمسُّ ظاهرهُ وحواشيهُ وما لا مكتوبَ فيهِ، وأمّا الكتابُ فلا يمسّهُ إلّا طاهرٌ، وفيما كتبهُ النّبيُّ ﷺ لعمرو ابن حزمٍ أقوى دليلٌ عليهِ.

وقالَ مالكٌ: لا يحمله غير طاهر بعلاقة ولا على وسادةٍ. وقالَ أبو حنيفةَ: لا بأسَ بذلكَ. ولمْ يمنعْ منْ حملهِ بعلاقةٍ أوْ مسّهِ بحائلٍ. وقدْ رويَ عنِ الحكمِ وحمّادٍ وداودَ بنِ عليٍّ أنّهُ لا بأسَ بحملهِ ومسّهِ للمسلمِ والكافرِ طاهراً أوْ محدثاً، إلّا أنَّ داودَ قالَ: لا يجوزُ للمشركِ حملهُ. واحتجّوا في إباحةِ ذلكَ بكتابِ النّبيِّ ﷺ إلى قيصرَ، وهوَ موضعُ ضرورةٍ فلا حجّةَ فيهِ.

وفي مسِّ الصّبيانِ إيّاهُ على وجهينِ:

أحدهما المنعُ اعتباراً بالبالغِ.

والثّاني: الجوازُ، لأنّهُ لوْ منعَ لمْ يحفظِ القرآنَ، لأنَّ تعلّمهُ حالَ الصّغرِ، ولأنَّ الصّبيَّ وإنْ كانتْ لهُ طهارةٌ إلّا أنّها ليستْ بكاملةٍ، لأنَّ النّيّةَ لا تصحُّ منهُ، فإذا جازَ أنْ يحملهُ على غيرِ طهارةٍ كاملةٍ جازَ أنْ يحملهُ محدثاً.

السابعة- قولهُ تعالى: ﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ أيْ منزّلٌ.

قولهُ تعالى: ﴿أَفَبِهَـٰذَا ٱلْحَدِيثِ﴾ يعني القرآنَ ﴿أَنتُم مُّدْهِنُونَ﴾ أيْ مكذّبونَ، والمدهنُ الّذي ظاهرهُ خلافُ باطنهِ، كأنّهُ شبّهَ بالدّهنِ في سهولةِ ظاهرهِ.

قولهُ تعالى: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ وهو الاستسقاءُ بالأنواءِ، وقولُ العربِ: مطرنا بنوءِ كذا، وفي صحيح مسلم عنْ ابنِ عبّاسٍ قالَ: مطرَ النّاسُ على عهدِ النّبيِّ ﷺ فقالَ: النّبيُّ ﷺ: «أصبحَ منَ النّاسِ شاكرٌ ومنهمْ كافرٌ قالوا هذهِ رحمةُ اللّهِ وقالَ بعضهمْ لقدْ صدقَ نوءُ كذا وكذا، قالَ: فنزلتْ هذهِ الآيةُ: ﴿۞ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ﴾- حتّى بلغَ- ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾. أيْ شكركمْ للّهِ على رزقهِ إيّاكمْ ﴿أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ بالنّعمةِ وتقولونَ سقينا بنوءِ كذا، وفي الموطّأ عنْ زيدِ بنِ خالدٍ الجهنيِّ أنّهُ قالَ: صلّى بنا رسولُ الله ﷺ صلاةَ الصّبحِ بالحديبيةِ على إثرِ سماءٍ كانتْ منَ اللّيلِ، فلمّا انصرفَ

أقبلَ على النّاسِ، وقالَ: «أتدرونَ ماذا قالَ ربّكمْ» قالوا: اللهُ ورسول أعلمُ، قالَ: «أصبحَ منْ عبادي مؤمنٌ بي وكافرٌ بالكوكبِ فأمّا منْ قالَ مطرنا بفضلِ اللّهِ ورحمتهِ فذلكَ مؤمنٌ بي كافرٌ بالكوكبِ وأمّا منْ قالَ مطرنا بنوءِ كذا وكذا فذلكَ مؤمنٌ بالكوكبِ كافرٌ بي».

قالَ الشّافعيُّ: لا أحبُّ أحداً أنْ يقولَ مطرنا بنوءِ كذا وكذا، وإنْ كانَ النّوءُ عندنا الوقتُ المخلوقُ لا يضرُّ ولا ينفعُ، ولا يمطرُ ولا يحبسُ شيئًا منَ المطرِ، والّذي أحبُّ أنْ يقولَ: مطرنا وقتَ كذا كما تقولُ مطرنا شهرَ كذا، ومنْ قالَ: مطرنا بنوءِ كذا، وهوَ يريدُ أنَّ النّوءَ أنزلَ الماءَ، كما عنى بعضُ أهلِ الشّركِ منَ الجاهليّةِ بقولهِ فهوَ كافرٌ، حلالٌ دمهُ إنْ لمْ يتبْ.

وقالَ أبو عمرَ بنُ عبدِ البرِّ: وأمّا قولهُ ﷺ حاكيًا عنِ اللّهِ سبحانهُ: «أصبحَ منْ عبادي مؤمنٌ بي وكافرٌ» فمعناهُ عندي على وجهينِ:

أمّا أحدهما: فإنَّ المعتقدَ بأنَّ النّوءَ هوَ الموجبُ لنزولِ الماءِ، وهوَ المنشئُ للسّحابِ دونَ اللّهِ عزَّ وجلَّ فذلكَ كافرٌ كفراً صريحًا يجبُ استتابتهُ عليهِ وقتلهُ إنْ أبى لنبذهِ الإسلام ورده القرآن.

والوجه الآخر: أن يعتقدَ أنَّ النّوءَ ينزلُ اللّهُ بهِ الماءَ، وأنّهُ سببُ الماءِ على ما قدّرهُ اللّهُ وسبقَ في علمهِ، وهذا وإنْ كانَ وجهًا مباحًا، فإنَّ فيهِ أيضًا كفراً بنعمةِ اللّهِ عزَّ وجلَّ، وجهلاً بلطيفِ حكمتهِ في أنّهُ ينزلُ الماءَ متى شاءَ، مرّةً بنوءِ كذا، ومرّةً بنوءِ كذا، وكثيراً ما ينوءُ النّوءُ فلا ينزل معه شيء منَ الماءِ، وذلكَ منَ اللّهِ تعالى لا منَ النّوءِ. وكذلكَ كانَ أبو هريرةَ يقولُ إذا أصبحَ وقدْ مطرَ: مطرنا بنوءِ الفتحِ، ثمَّ يتلو: ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا﴾ قالَ أبو عمرَ: وهذا عندي نحو قول وسول اللّهِ ﷺ: «مطرنا بفضلِ اللّهِ ورحمتهِ».

وقراءةُ العامّةِ ﴿تُكَذِّبُونَ﴾ منَ التّكذيبِ. وقرأ المفضّلُ عنْ عاصمٍ «تَكْذِبُونَ» بفتحِ التّاءِ مخفّفًا.

وثبتَ في مسلم من حديثِ أبي مالك الأشعري قالَ: قالَ رسولُ اللّهِ ﷺ: «أربعٌ في أمّتي منْ أمرِ الجاهليّةِ لا يتركونهنَّ الفخرُ في الأحسابِ والطّعنُ في الأنسابِ والاستسقاءُ بالنّجومِ والنّياحةُ».

قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ﴾ أيْ فهلّا إذا بلغتِ النّفسُ أوِ الرّوحُ الحلقومَ. ولمْ يتقدّمْ لها ذكرٌ، لأنَّ المعنى معروفٌ ﴿وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ﴾ أمري وسلطاني. وقيلَ: تنظرونَ إلى الميت لا تقدرون له على شيء. ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ﴾ أيْ بالقدرةِ والعلمِ والرّؤيةِ، وقيلَ: أرادَ ورسلنا الّذينَ يتولّونَ قبضهُ ﴿أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ﴾ أيْ لا ترونهم.

قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ﴾ أيْ فهلّا إنْ كنتمْ غيرَ محاسبينَ ولا مجزيّينَ بأعمالكمْ، ومنهُ قوله تعالى: ﴿أَإِنَّا لَمَدِينُون﴾ أيْ مجزيّونَ محاسبونَ ﴿تَرْجِعُونَهَآ﴾ أي الرّوحَ إلى الجسدِ ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ أيْ ولنْ ترجعوها فبطلَ زعمكمْ أنّكمْ غير مملوكين ولا محاسبين.

قولهُ تعالى: ﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾ ذكرَ طبقاتِ الخلقِ عندَ الموتِ وعندَ البعثِ، وبيّنَ درجاتهمْ فقالَ: ﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ﴾ هذا المتوفّى ﴿مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾ وهمُ السّابقونَ ﴿فروحٌ وريحانٌ وجنّةُ نعيمٍ﴾ والرّوحُ الرّحمةُ. وقيلَ: الرّوحُ النّظرُ إلى وجهِ اللّهِ، والرّيحانُ الاستماعُ لكلامهِ ووحيهِ ﴿وَجَنَّةُ نَعيم﴾ هوَ ألّا يحجبَ فيها عنِ اللّهِ عزَّ وجلَّ.

وقيل: ﴿وَرَيْحَانٌ﴾ أيْ رزقٌ بلغةِ حميرَ، وقيلَ هوَ الرّيحانُ المعروفُ الّذي يشمُّ. وهذا عندَ الموتِ والجنّةُ مخبوءةٌ لهُ إلى أنْ يبعثَ.

قولهُ تعالى: ﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ﴾ هذا المتوفّى ﴿مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩١﴾ فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ﴾ أيْ لستَ ترى منهمْ إلّا ما تحبُّ منَ السّلامةِ فلا تهتمَّ لهمْ، فإنّهمْ يسلمونَ منْ عذابِ اللّهِ.

قولهُ تعالى: ﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ بالبعثِ ﴿ٱلضَّآلِّينَ﴾ عنِ الهدى وطريقِ الحقِّ ﴿فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ﴾ أيْ فلهمْ رزقٌ منْ حميمٍ، كما قالَ: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ ﴿٥١﴾ لَأَكِلُونَ﴾ وكما قالَ: ﴿ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ﴾. ﴿وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ﴾ إدخالٌ في النّارِ ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ﴾ أيْ هذا الّذي قصصناهُ محضُ اليقينِ وخالصهُ. وجازَ إضافةُ الحقِّ إلى اليقينِ وهما واحدٌ لاختلافِ لفظهما ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ

﴿ٱلْعَظِيمِ﴾ أيْ نزّهِ اللّهَ تعالى عنِ السّوءِ. والباءُ زائدةٌ أيْ سبح اسم ربك، والاسم المسمى.

وقيل: ﴿فَسَبِّحْ﴾ أيْ فصلِّ بذكرِ ربّكَ وبأمرهِ.

وقيلَ: فاذكرِ اسمَ ربّكَ العظيمِ وسبّحهُ.

وعنْ عقبةَ بنِ عامرٍ قالَ: لمّا نزلتْ ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾ قالَ النّبيُّ ﷺ: «اجعلوها في ركوعكمْ» ولمّا نزلتْ ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ قالَ النّبيُّ ﷺ: «اجعلوها في سجودكمْ» خرّجهُ أبو داود. والله أعلم.

سورة الحديد

مدنيّةٌ في قولِ الجميع، وهيَ تسعٌ وعشرونَ آيةً وهي أول المسبّحاتِ: «الحديدَ» وَ «الحشرَ» وَ «الصّفَّ» وَ «الجمعةَ» وَ «التغابن».

بسمِ اللّهِ الرّحمنِ الرّحيمِ

قولهُ تعالى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ﴾ أيْ مجّدَ اللّهَ ونزّههُ عنِ السّوءِ ﴿مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ ممّنْ خلق من الملائكة ﴿وَٱلْأَرْضِ﴾ من شيء فيه روح أو لا روح فيهِ، وهوَ تسبيحُ مقالٍ لا تسبيحُ الدّلالةِ لقوله: ﴿وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ وقولهِ تعالى: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ﴾ فلوْ كانَ هذا تسبيحُ دلالةٍ فأي تخصيص لداود؟! ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ①﴾.

قوله تعالى: ﴿لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ انفردَ بالملك ونفوذِ الأمرِ ﴿يُحْيِۦ وَيُمِيتُ﴾ يميتُ الأحياءَ في الدّنيا ويحيي الأمواتَ للبعثِ. وقيلَ: يحيي النّطفَ وهيَ مواتٌ ويميتُ الأحياءَ ﴿لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ محييًا ومميتًا ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ②﴾ لا يعجزه شيء سبحانه.

قولهُ تعالى: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ﴾ وقدْ شرحها رسولُ اللّهِ ﷺ شرحًا يغني عنْ قولِ كلِّ قائلٍ، فقالَ كما في صحيحِ مسلمٍ منْ حديثِ أبي هريرةَ: «اللّهمَّ أنتَ الأوّلُ فليس قبلك شيء وأنت الآخر فليس بعدك شيء وأنت الظاهر فليس فوقك شيء وأنت الباطن فليس دونك شيء اقضِ عنّا الدّينَ وأغننا منَ الفقرِ» ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ③﴾ بما كانَ أوْ يكونُ فلا يخفى عليه شيء.

قولهُ تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ تقدّمَ في «الأعرافِ» مستوفى ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ منْ مطرٍ وغيرهِ ﴿وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا﴾ منْ نباتٍ وغيرهِ ﴿وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ منْ رزقٍ ومطرٍ وملكٍ ﴿وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾ يصعدُ فيها منْ ملائكةٍ وأعمالِ العبادِ ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ﴾ يعني بقدرتهِ وسلطانهِ وعلمهِ ﴿أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ④﴾ لا يخفى عليه شيء منْ أعمالكم.

وقدْ جمعَ في هذهِ الآيةِ بينَ ﴿ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ وبينَ ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ﴾ والأخذُ بالظّاهرينِ تناقضٌ فدلَّ على أنّهُ لا بدَّ منَ التّأويلِ، والإعراضُ عنِ التّأويلِ اعترافٌ بالتّناقضِ[٩].

قولهُ تعالى: ﴿لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ هذا التّكريرُ للتّأكيدِ أيْ هوَ المعبودُ على الحقيقةِ ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ۝٥﴾ أيْ أمورُ الخلائقِ في الآخرةِ. وقرأ يعقوبُ وابنُ عامرٍ وحمزةُ والكسائيُّ وخلفٌ «تَرْجِعُ» بفتحِ التّاءِ وكسرِ الجيمِ. الباقونَ ﴿تُرْجَعُ﴾.

قولهُ تعالى: ﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ﴾ تقدّمَ في آلِ عمرانَ ﴿وَهُوَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝٦﴾ أيْ لا تخفى عليهِ الضّمائرُ، ومنْ كانَ بهذهِ الصّفةِ فلا يجوزُ أن يعبد من سواه.

قولهُ تعالى: ﴿ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ أيْ صدّقوا أنَّ اللّهَ واحدٌ وأنَّ محمّداً رسولهُ ﴿وَأَنفِقُوا۟﴾ تصدّقوا، وفي سبيلِ اللّهِ. وقيلَ: المرادُ الزّكاةُ المفروضةُ ﴿مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ فأصلُ الملكِ للّهِ سبحانهُ، وأنتم ﴿مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ بوراثتكمْ إيّاهُ عمّنْ كانَ قبلكمْ ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ وعملوا الصّالحاتِ ﴿مِنكُمْ وَأَنفَقُوا۟﴾ في سبيلِ اللّهِ ﴿لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ۝٧﴾ وهوَ الجنّةُ.

قولهُ تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ استفهامٌ توبيخٌ ﴿وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ﴾ بيّنَ بهذا أنّهُ لا حكم قبل ورود الشرائع. وقرأ أبو عمرو: ﴿وَقَدْ أُخِذَ مِيثَٰقُكُمْ﴾ على غيرِ مسمّى الفاعلِ. والباقونَ على مسمّى الفاعلِ، أيْ أخذَ اللّهُ ميثاقكمْ. وهوَ الميثاقُ الأوّلُ الّذي كانَ وهمْ في ظهرِ آدمَ بأنَّ اللّهَ ربّكمْ لا إلهَ لكمْ سواهُ ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝٨﴾ بالحججِ والدّلائلِ، وقيلَ: إنْ كنتمْ مؤمنينَ باللّهِ خالقكمْ. وكانوا يعترفونَ بهذا.

قولهُ تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ﴾ المعجزاتُ، وأكبرها وأعظمها

---

[٩]– لا تناقض ولا ضرورة للتأويل، بل هو مع علوه واستوائه على عرشه محيط بكل مخلوقاته عالم بكل شيء لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، فظاهر الآية على الوجه اللائق بجلاله وعظمته سبحانه مراد لا يفتقر إلى تأويل. (ليس كمثله شيء وهو السميع البصير).

القرآنُ ﴿لِّيُخۡرِجَكُم﴾ أيْ بالقرآنِ. وقيلَ: بالرّسولِ. وقيلَ: بالدّعوةِ ﴿مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ وهي الشّركُ والكفرُ ﴿إِلَى ٱلنُّورِۚ﴾ وهو الإيمان ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمۡ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ ٩﴾.

قولهُ تعالى: ﴿وَمَا لَكُمۡ أَلَّا تُنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ لَا يَسۡتَوِي مِنكُم مَّنۡ أَنفَقَ مِن قَبۡلِ ٱلۡفَتۡحِ وَقَٰتَلَۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعۡظَمُ دَرَجَةٗ مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُواْ مِنۢ بَعۡدُ وَقَٰتَلُواْۚ وَكُلّٗا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ١٠﴾، فيهِ خمسُ مسائلَ:

الأولى: قولهُ تعالى: ﴿وَمَا لَكُمۡ أَلَّا تُنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ توبيخٌ على عدمِ الإنفاقِ ﴿وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ أيْ أنّهما راجعتانِ إليهِ بانقراضِ منْ فيهما كرجوعِ الميراثِ إلى المستحقِّ لهُ.

الثانية- قولهُ تعالى: ﴿لَا يَسۡتَوِي مِنكُم مَّنۡ أَنفَقَ مِن قَبۡلِ ٱلۡفَتۡحِ وَقَٰتَلَۚ﴾ أكثرُ المفسّرينَ على أنَّ المرادَ بالفتحِ فتحُ مكّةَ. وقيلَ: فتحُ الحديبيةِ. وفي الكلامِ حذفٌ، أيْ ﴿لَا يَسۡتَوِي مِنكُم مَّنۡ أَنفَقَ مِن قَبۡلِ ٱلۡفَتۡحِ وَقَٰتَلَۚ﴾ ومنْ أنفقَ منْ بعدِ الفتحِ وقاتلَ، فحذفَ لدلالةِ الكلامِ عليهِ. وإنّما كانتِ النّفقةُ قبلَ الفتحِ أعظمَ، لأنَّ حاجةَ النّاسِ كانتْ أكثرَ، وفعلُ ذلكَ كانَ أشقَّ والأجرُ على قدرِ النّصبِ. واللهُ أعلم.

الثالثة- فيها دليلٌ واضحٌ على تفضيلِ أبي بكرٍ رضي الله عنه وتقديمهِ، لأنّهُ أوّلُ منْ أسلمَ وأوّلُ منْ أنفقَ على نبيِّ اللّهِ ﷺ، ولهذا قدمته الصحابة عل أنفسهمْ، وأقرّوا لهُ بالتّقدّمِ والسّبقِ. وقالَ عليُّ بنُ أبي طالبٍ رضي الله عنه: سبقَ النّبيُّ ﷺ وصلّى أبو بكرٍ وثلّثَ عمرُ، فلا أوتى برجلٍ فضلّني على أبي بكرٍ إلّا جلدتهُ حدَّ المفتري ثمانينَ جلدةً وطرحَ الشّهادةَ.

الرابعة- التّقدّمُ والتّأخّرُ قدْ يكونُ في أحكامِ الدّنيا، فأمّا في أحكامِ الدّينِ فقدْ قالتْ عائشةُ رضي الله عنها: أمرنا رسولُ اللّهِ ﷺ أنْ ننزلَ النّاسَ منازلهمْ. وأعظمُ المنازلِ مرتبةً الصّلاةُ. وقدْ قالَ ﷺ في مرضهِ: «مروا أبا بكرٍ فليصلِّ بالنّاسِ» الحديثَ.، وقالَ: «يؤمُّ القومَ أقرؤهمْ لكتابِ اللّهِ»، وقالَ: «وليؤمّكما أكبركما» منْ حديثِ مالكِ بنِ الحويرثِ وقدْ تقدّمَ. وفهمَ منهُ البخاريُّ وغيرهُ منَ العلماءِ أنّهُ أرادَ كبرَ المنزلةِ، كما قالَ ﷺ: «الولاءُ للكبرِ» ولمْ يعنِ كبرَ السّنِّ. وقدْ قالَ مالكٌ وغيرهُ: إنَّ للسّنِّ حقًا. وراعاهُ الشّافعيُّ وأبو حنيفةَ وهوَ أحقُّ

بالمراعاةِ، لأنّهُ إذا اجتمعَ العلمُ والسّنُّ في خيّرينِ قدّمَ العلمُ، وأمّا أحكامُ الدّنيا فهيَ مرتّبةٌ على أحكامِ الدّينِ، فمنْ قدّمَ في الدّينِ قدّمَ في الدّنيا. وفي الآثارِ: «ليسَ منّا منْ لمْ يوقّرْ كبيرنا ويرحمْ صغيرنا ويعرفْ لعالمنا حقّهُ».

الخامسة – قولهُ تعالى: ﴿وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ﴾ أي والّلاحقونَ، وعدهمُ اللّهُ جميعاً الجنّةَ معَ تفاوتِ الدّرجاتِ. وقرأ ابنُ عامرٍ «وَكُلٌّ» بالرّفعِ، وكذلكَ هوَ بالرّفعِ في مصاحفِ أهلِ الشّامِ. الباقونَ ﴿وَكُلًّا﴾ بالنّصبِ على ما في مصاحفهم، فمنْ نصبَ فعلى إيقاعِ الفعلِ عليهِ أيْ وعدَ اللّهُ كلاً الحسنى. ومنْ رفعَ فلأنَّ المفعولَ إذا تقدّمَ ضعّفَ عملَ الفعلِ، والهاءُ محذوفة من وعده.

قولهُ تعالى: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِي يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنًا﴾ ندبَ إلى الإنفاقِ في سبيلِ اللّهِ، وسمّيَ قرضاً، لأنَّ القرضَ أخرجَ لاستردادِ البدلِ. أيْ منْ ذا الّذي ينفقُ في سبيلِ اللّهِ حتّى يبدّلهُ اللّهُ بالأضعافِ الكثيرةِ ﴿حَسَنًا﴾ أيْ محتسباً منْ قلبهِ بلا منٍّ ولا أذى ﴿فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ﴾ وقرأ ابنُ كثيرٍ وابنُ عامرٍ «فَيُضَعِّفُهُ» بإسقاطِ الألفِ إلّا ابنَ عامرٍ ويعقوبَ نصبوا الفاءَ. وقرأ نافعٌ وأهلُ الكوفةِ والبصرةِ ﴿فَيُضَٰعِفُهُۥ﴾ بالألفِ وتخفيفِ العينِ إلّا أنَّ عاصماً نصب الفاء. ورفعَ الباقونَ عطفاً على ﴿يُقۡرِضُ﴾. وبالنّصبِ جواباً على الاستفهامِ ﴿وَلَهُۥٓ أَجۡرٞ كَرِيمٞ ١١﴾ يعني الجنّةَ.

قولهُ تعالى: ﴿يَوۡمَ تَرَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ﴾ العاملُ في ﴿يَوۡمَ﴾: ﴿وَلَهُۥٓ أَجۡرٞ كَرِيمٞ﴾، وفي الكلامِ حذفٌ أيْ ﴿وَلَهُۥٓ أَجۡرٞ كَرِيمٞ﴾ في ﴿يَوۡمَ تَرَى﴾ فيه ﴿ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ يَسۡعَىٰ نُورُهُم﴾ أيْ يمضي ﴿بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ﴾ أيْ قدّامهمْ ﴿وَبِأَيۡمَٰنِهِمۡ﴾ على قدرِ أعمالهمْ ﴿بُشۡرَىٰكُمُ ٱلۡيَوۡمَ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ التّقديرُ يقالُ لهمْ: ﴿بُشۡرَىٰكُمُ ٱلۡيَوۡمَ﴾ دخولُ جنّاتٍ. ولا بدَّ منْ تقديرِ حذفِ المضافِ ﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ أيْ منْ منْ تحتِ مساكنها أنهارُ اللّبنِ والماءِ والخمرِ والعسلِ ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ﴾ حالٌ منَ الدّخولِ المحذوفِ ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ١٢﴾.

قولهُ تعالى: ﴿يَوۡمَ يَقُولُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ﴾ العاملُ في ﴿يَوۡمَ﴾ ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾.

وقيلَ: هو بدل منَ اليوم الأوّلِ ﴿ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ﴾ قراءةُ العامّةِ بوصلِ الألفِ مضمومةُ الظّاءِ منْ نظرَ، والنّظرُ الانتظارُ أي انتظرونا. وقرأ حمزةُ ﴿أَنظِرُونَا﴾ بقطعِ الألفِ وكسرِ الظّاءِ منَ الإنظارِ. أيْ أمهلونا وأخّرونا، أنظرتهُ أخّرتهُ، واستنظرتهُ أي استمهلتهُ ﴿نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ﴾ أي نستضيءْ منْ نوركمْ وقد غشي النّاسَ يومَ القيامةِ ظلمةٌ ﴿قِيلَ ٱرْجِعُواْ وَرَآءَكُمْ﴾ أيْ قالتْ لهمُ الملائكةُ ﴿ٱرْجِعُواْ﴾. وقيلَ: بلْ هوَ قولُ المؤمنينَ لهمْ ﴿ٱرْجِعُواْ وَرَآءَكُمْ﴾ إلى الموضعِ الّذي أخذنا منهُ النّورَ فاطلبوا هنالكَ لأنفسكمْ نوراً فإنّكمْ لا تقتبسونَ منْ نورنا. فلمّا رجعوا وانعزلوا في طلبِ النّورِ ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ﴾. وقيلَ: أيْ هلّا طلبتمُ النّورَ منَ الدّنيا بأنْ تؤمنوا ﴿بِسُورٍ﴾ أيْ سورٍ، والباء صلة. أي حاجزٌ بينَ الجنّةِ والنّارِ ﴿بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ﴾ يعني الجنّةَ ﴿وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ ﴿١٣﴾﴾ يعني جهنّمَ.

قولهُ تعالى: ﴿يُنَادُونَهُمْ﴾ أيْ ينادي المنافقونَ المؤمنينَ ﴿أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ﴾ في الدّنيا يعني نصلّي مثلَ ما تصلون، ونغزوا مثلَ ما تغزونَ، ونفعلُ مثلَ ما تفعلونَ ﴿قَالُواْ بَلَىٰ﴾ أيْ يقولُ المؤمنونَ ﴿بَلَىٰ﴾ قدْ كنتمْ معنا في الظّاهرِ ﴿وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ بالشهوات واللذات، ﴿وَتَرَبَّصْتُمْ﴾ بالنّبيِّ ﷺ الموتَ، وبالمؤمنينَ الدّوائرَ. ﴿وَٱرْتَبْتُمْ﴾ أيْ شككتمْ في التّوحيدِ والنّبوّةِ ﴿وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِيُّ﴾ أي الأباطيلُ وطولُ الأمل ﴿حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ يعني الموتَ. وقيلَ: نصرةُ نبيّهِ ﷺ ﴿وَغَرَّكُم﴾ أيْ خدعكمْ ﴿بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿١٤﴾﴾ أيِ الشّيطانُ، وقيلَ: الدّنيا.

قولهُ تعالى: ﴿فَٱلْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ﴾ أيّها المنافقونَ ﴿وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ أيأسهمْ منَ النّجاةِ. وقراءةُ العامّةِ ﴿يُؤْخَذُ﴾ بالياءِ، لأنَّ التّأنيثَ غيرُ. حقيقيٍّ، ولأنّهُ قدْ فصلَ بينها وبينَ الفعلِ. وقرأ ابنُ عامرٍ ويعقوبُ «تؤخذُ» بالتّاءِ لتأنيث الفدية ﴿مَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ﴾ أيْ مقامكمْ ومنزلكمْ ﴿هِيَ مَوْلَىٰكُمْ﴾ أيْ أولى بكمْ ﴿وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٥﴾﴾ أيْ ساءت مرجعا ومصيرا.

قولهُ تعالى: ﴿۞ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ أيْ يقربُ ويحينُ ﴿أَن تَخْشَعَ﴾ أيْ تذلَّ وتلينَ ﴿قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾، وفي صحيحِ مسلمٍ عنِ ابنِ مسعودٍ قالَ: ما كانَ بينَ

إسلامنا وبينَ أنْ عاتبنا اللّهُ بهذهِ الآيةِ ﴿۞أَلَمۡ يَأۡنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخۡشَعَ قُلُوبُهُمۡ لِذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾ إلّا أربعُ سنينَ ﴿وَلَا يَكُونُواْ﴾ أيْ وألّا يكونوا فهوَ منصوبٌ عطفاً على ﴿أَن تَخۡشَعَ﴾. وقيلَ: مجزومٌ على النّهيِ ﴿كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلُ﴾ من اليهود والنصارى ﴿فَقَسَتۡ قُلُوبُهُمۡۖ وَكَثِيرٞ مِّنۡهُمۡ فَٰسِقُونَ ١٦﴾ يعني الّذينَ ابتدعوا الرّهبانيّةَ أصحابَ الصّوامعِ.

قوله تعالى: ﴿ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يُحۡيِ ٱلۡأَرۡضَ﴾ الجدبةَ ﴿بَعۡدَ مَوۡتِهَاۚ﴾ بالمطرِ ﴿قَدۡ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ١٧﴾ أيْ إحياءُ اللّهِ الأرضَ بعدَ موتها دليلٌ على قدرةِ اللّهِ، وأنّهُ لمحيي الموتى.

قولهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡمُصَّدِّقِينَ وَٱلۡمُصَّدِّقَٰتِ﴾ قرأَ ابنُ كثيرٍ وأبو بكرٍ عنْ عاصمٍ بتخفيفِ الصّادِ فيهما منَ التّصديقِ، أي المصدّقينَ بما أنزلَ اللّهُ تعالى. الباقونَ بالتّشديدِ أي المتصدّقينَ والمتصدّقاتِ فأدغمتِ التّاءُ في الصّادِ، وهوَ حثٌّ على الصّدقاتِ، ولهذا قالَ: ﴿وَأَقۡرَضُواْ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا﴾ بالصّدقةِ والنّفقةِ في سبيلِ اللّهِ. قالَ الحسنُ: كلُّ ما في القرآنِ منَ القرضِ الحسنِ فهوَ التّطوّعُ. وقيلَ: هوَ العملُ الصّالحُ منَ الصّدقةِ وغيرها محتسباً صادقاً ﴿يُضَٰعَفُ لَهُمۡ﴾ أمثالها. وقراءةُ العامّةِ بفتحِ العينِ على ما لمْ يسمَّ فاعلهُ. وقرأَ ابنُ كثيرٍ وابنُ عامرٍ ويعقوبُ «يضعَّفُ» بفتحِ العينِ وتشديدها ﴿وَلَهُمۡ أَجۡرٞ كَرِيمٞ ١٨﴾ يعني الجنّةَ.

قولهُ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَۖ وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمۡ لَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ وَنُورُهُمۡۖ﴾ اختلفَ في ﴿ٱلشُّهَدَآءِ﴾ هلْ هوَ مقطوعٌ ممّا قبلُ أوْ متّصلٌ بهِ فلا يوقفُ على قولهِ: ﴿ٱلصِّدِّيقُونَۖ﴾، وفي الشّهداء قولانِ:

أحدهما- أنّهمُ الرّسلُ يشهدونَ على أممهمْ بالتّصديقِ والتّكذيبِ، ودليلهُ قولهُ تعالى: ﴿وَجِئۡنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدٗا﴾.

الثّاني- أنّهمْ أممُ الرّسلِ يشهدونَ يومَ القيامةِ، وفيما يشهدونَ بهِ قولانِ:

أحدهما- أنّهمْ يشهدونَ على أنفسهمْ بما عملوا منْ طاعةٍ ومعصيةٍ.

الثّاني- يشهدونَ لأنبيائهمْ بتبليغهمُ الرّسالةَ إلى أممهمْ.

وقيلَ: إنّهمُ القتلى في سبيلِ اللّهِ تعالى، والواوُ واوُ الابتداءِ. والصّدّيقونَ على هذا القول مقطوع من الشهداء.

قولهُ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ أيْ بالرّسلِ والمعجزاتِ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ١٩﴾ فلا أجرَ لهمْ ولا نورَ.

قولهُ تعالى: ﴿ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ اللّعبُ ما رغبَ في الدّنيا، واللّهوُ ما ألهى عنِ الآخرةِ ﴿وَزِينَةٌ﴾ في غيرِ طاعةِ اللّهِ ﴿وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ﴾ بالأنسابِ، وفي صحيح مسلمٍ عنِ النّبيِّ ﷺ قال: «إنَّ اللّهَ أوحى إليَّ أنْ تواضعوا حتّى لا يبغيَ أحدٌ على أحدٍ ولا يفخرَ أحدٌ على أحدٍ» وصحَّ عنهُ ﷺ أنّهُ قالَ: «أربعٌ في أمّتي منْ أمرِ الجاهليّةِ الفخرُ في الأحسابِ» الحديثَ. وقدْ تقدّمَ جميعُ هذا ﴿وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ﴾ لأنَّ عادةَ الجاهليّةِ أنْ تتكاثرَ بالأبناءِ والأموالِ، وتكاثرُ المؤمنينَ بالإيمانِ والطّاعةِ ﴿كَمَثَلِ غَيْثٍ﴾ أيْ مطرٍ ﴿أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ﴾ الكفّارُ هنا: الزّرّاعُ لأنّهمْ يغطّونَ البذرَ. والمعنى أنَّ الحياةَ الدّنيا كالزّرعِ يعجبُ النّاظرينَ إليهِ لخضرتهِ بكثرةِ الأمطارِ، ثمَّ لا يلبثُ أنْ يصيرَ هشيماً كأنْ لمْ يكنْ، وإذا أعجبَ الزّرّاعَ فهوَ غايةُ ما يستحسنُ. وقيلَ: الكفّارُ هنا الكافرونَ باللّهِ عزَّ وجلَّ، لأنّهمْ أشدُّ إعجاباً بزينةِ الدّنيا منَ المؤمنينَ ﴿ثُمَّ يَهِيجُ﴾ أيْ يجفُّ بعدَ خضرتهِ ﴿فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا﴾ أيْ متغيّراً عمّا كانَ عليهِ منَ النّضرةِ ﴿ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا﴾ أيْ فتاتاً وتبناً فيذهبُ بعدَ حسنهِ، كذلكَ دنيا الكافرِ ﴿وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ أيْ للكافرينَ. والوقفُ عليهِ حسنٌ، ويبتدئُ ﴿وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ﴾ أيْ للمؤمنينَ ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ٢٠﴾ تغرُّ الكفّارَ.

قولهُ تعالى: ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ بالأعمالِ الصّالحةِ، وقيلَ: بالتّوبةِ ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ لوْ وصلَ بعضها ببعضٍ. والعرضُ أقلُّ منَ الطّولِ، ومنْ عادةِ العربِ أنّها تعبّرُ عنْ سعةِ الشّيءِ بعرضهِ دونَ طولهِ. قالَ:

كأنَّ بلادَ اللّهِ وهيَ عريضةٌ ... على الخائفِ المطلوبِ كفّةُ حابلِ

﴿أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾ شرطُ الإيمانِ لا غيرَ، وفيهِ تقويةُ الرّجاءِ. وقدْ

قيل: شرطُ الإيمانِ هنا وزادَ عليهِ في «آلِ عمرانَ» فقالَ: ﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ۝١٣٣ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۝١٣٤ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾ أيْ إنَّ الجنّةَ لا تنالُ ولا تدخلُ إلّا برحمةِ اللّهِ تعالى وفضلهِ. وقدْ مضى هذا في الأعراف وغيرها ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ۝٢١﴾.

قولهُ تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ كالقحط والجوائح ﴿وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ﴾ بالأوصابِ والأسقامِ وضيقُ المعاشِ ﴿إِلَّا فِى كِتَٰبٍ﴾ يعني في اللّوحِ المحفوظِ ﴿مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ﴾ الضّميرُ في ﴿نَّبْرَأَهَآ﴾ عائدٌ على النّفوسِ أوِ الأرضِ أوِ المصائبِ أوِ الجميعِ ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ۝٢٢﴾ أيْ خلقُ ذلكَ وحفظُ جميعهِ ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ﴾ منَ الدّنيا فإنّهُ لمْ يقدّرْ لكمْ ولوْ قدّرَ لكمْ لمْ يفتكمْ ﴿وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾ منها ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ۝٢٣﴾ أي متكبر بما أوتى من الدنيا، فخور به على الناس.

وقراءةُ العامّةِ ﴿ءَاتَىٰكُمْ﴾ بمدِّ الألفِ أيْ أعطاكمْ منَ الدّنيا، وقرأ أبو عمرو ﴿أَتَىٰكُمْ﴾ أيْ جاءكمْ، وهوَ معادلٌ لِ ﴿فَاتَكُمْ﴾ ولهذا لمْ يقلْ أفاتكمْ. والمختالُ الّذي ينظرُ إلى نفسهِ بعينِ الافتخارِ، والفخورُ الّذي ينظرُ إلى النّاسِ بعينِ الاحتقارِ، وكلاهما شركٌ خفيٌّ.

قولهُ تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ﴾ أيْ لا يحبُّ المختالينَ ﴿ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ﴾ فـ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ في موضعِ خفضٍ نعتًا للمختالِ، وقيلَ: رفعٌ بابتداءٍ أيِ الّذينَ يبخلونَ بالصدقة والحقوق فاللّهُ غنيٌّ عنهمْ. وقيلَ: ﴿ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ﴾ بالعلم ﴿وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ﴾ أيْ بألّا يعلّموا النّاسَ شيئًا ﴿وَمَن يَتَوَلَّ﴾ أيْ عنِ الإيمانِ ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ۝٢٤﴾ غنيٌّ عنهُ. ويجوزُ أنْ يكونَ لمّا حثَّ على الصّدقةِ أعلمهمْ أنَّ الّذينَ يبخلونَ بها ويأمرونَ النّاسَ بالبخلِ بها فإنَّ اللّهَ غنيٌّ عنهمْ. وقراءةُ العامّةِ ﴿بِٱلْبُخْلِ﴾ بضمِّ الباءِ وسكونِ الخاءِ. وقرأ حمزةُ والكسائيُّ ﴿بِٱلْبَخَلِ﴾ بفتحتينِ وهيَ لغةُ الأنصارِ. وقدْ تقدّمَ الفرقُ بينَ البخلِ والشّحِّ في آخر آل عمران.

وقرأَ نافعٌ وابنُ عامرٍ «فإنَّ اللّهَ الغنيُّ الحميدُ» بغيرِ ﴿هُوَ﴾. والباقونَ ﴿هُوَ ٱلْغَنِىُّ﴾ على أنْ يكونَ فصلاً.

قولهُ تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ أيْ بالمعجزاتِ البيّنةِ والشّرائعِ الظّاهرةِ ﴿وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ أيِ الكتبَ، أيْ أوحينا إليهمْ خبرَ ما كانَ قبلهمْ ﴿وَٱلْمِيزَانَ﴾ وهوَ ما يوزنُ بهِ ويتعاملُ ﴿لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ﴾ أيْ بالعدلِ في معاملاتهمْ. وقولهُ: ﴿بِٱلْقِسْطِ﴾ يدلُّ على أنّهُ أرادَ الميزانَ المعروفَ. وقالَ قومٌ: أرادَ بهِ العدلَ ﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾ مع آدم، أو من السماء وقيلَ: ﴿أَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ﴾ أيْ أنشأناهُ وخلقناهُ، كقولهِ تعالى: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾ ﴿فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾ يعني السّلاحَ والكراعَ والجُنّةَ ﴿وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾ بالماعونِ منَ الحديدِ، مثلَ السّكّينِ والفأسِ والإبرةِ ونحوهِ ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ﴾ أيْ أنزلَ الحديدَ ليعلمَ منْ ينصرهُ. وقيلَ: هوَ عطفٌ على قولهِ تعالى: ﴿لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ﴾ أيْ أرسلنا رسلنا وأنزلنا معهمُ الكتابَ، وهذهِ الأشياءُ، ليتعاملَ النّاسُ بالحقِّ ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ﴾ وليرى الله من ينصر دينه و ﴿رُسُلَهُۥ﴾ ويؤمنونَ بهمْ ﴿بِٱلْغَيْبِ﴾ أيْ وهمْ لا يرونهمْ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ﴾ في أخذهِ ﴿عَزِيزٌ ٢٥﴾ أيْ منيعٌ غالبٌ.

قولهُ تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَٰهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ﴾ أيْ في بعضِ ذرّيّتهما، والكتابَ: كالتّوراةَ والإنجيلَ والزّبورَ والفرقانَ. وقيلَ: الكتابُ الخطُّ بالقلمِ ﴿فَمِنْهُم﴾ أيْ أيْ منْ ذرّيّتهما ﴿مُّهْتَدٍ﴾ ﴿وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ٢٦﴾ كافرونَ خارجونَ عنِ الطّاعةِ.

قولهُ تعالى: ﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ٢٧﴾، فيهِ أربعُ مسائلَ:

الأولى: قولهُ تعالى: ﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا﴾ أيْ أتبعنا ﴿عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم﴾ أيْ على آثارِ الذّرّيّةِ. وقيلَ: على آثارِ نوحٍ وإبراهيمَ ﴿بِرُسُلِنَا﴾ موسى وإلياسَ وداودَ وسليمانَ ويونسَ وغيرهمْ ﴿وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ﴾ فهوَ منْ ذرّيّةِ إبراهيمَ منْ جهةِ أمّهِ ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ﴾ وهوَ الكتابُ المنزّلُ عليهِ.

الثانية- قولهُ تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ﴾ على دينهِ يعني الحواريّينَ وأتباعهمْ ﴿رَأْفَةً وَرَحْمَةً﴾ الرّأفةُ اللّينُ، والرّحمةُ الشّفقةُ، وهذا إشارةٌ إلى أنّهمْ أمروا في الإنجيلِ بالصّلحِ وتركِ إيذاءِ النّاسِ وألانَ اللّهُ قلوبهمْ لذلكَ، بخلافِ اليهودِ الّذينَ قستْ قلوبهمْ وحرّفوا الكلمَ عنْ مواضعهِ، وتمَّ الكلامُ. ثم قال: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا﴾ أيْ منْ قبلِ أنفسهمْ، وهيَ منسوبةٌ إلى الرّهبانِ، وذلكَ لأنّهمْ حملوا أنفسهمْ على المشقّاتِ في الامتناعِ منَ المطعمِ والمشربِ والنّكاحِ والتّعلّقِ بالكهوفِ والصّوامعِ ﴿مَا كَتَبْنَـٰهَا عَلَيْهِمْ﴾ أيْ ما فرضناها عليهمْ ولا أمرناهمْ بها ﴿إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ﴾ أيْ ما أمرناهمْ إلّا بما يرضي اللّهَ، وقيلَ: ﴿إِلَّا ٱبْتِغَآءَ﴾ الاستثناء منقطعٌ، والتّقديرُ ما كتبناها عليهمْ لكنِ ابتدعوها ابتغاءَ رضوانِ اللّهِ ﴿فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾ أيْ فما قاموا بها حقَّ القيامِ. وهذا خصوصٌ، لأنَّ الّذينَ لمْ يرعوها بعضُ القومِ، وإنّما تسبّبوا بالتّرهّبِ إلى طلبِ الرّياسةِ على النّاسِ وأكلِ أموالهمْ، كما قالَ تعالى: ﴿۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَـٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ وهذا في قومٍ أدّاهمُ التّرهّبُ إلى طلبِ الرّياسةِ في آخرِ الأمرِ. والمعنى: ابتدعها هؤلاءِ الصّالحونَ ثم خلف قوم من بعدهم ممن غيّر الكتاب ﴿فَمَا رَعَوْهَا﴾ أي المتأخّرونَ ﴿حَقَّ رِعَايَتِهَا فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ﴾ يعني الّذينَ ابتدعوها أوّلاً ورعوها ﴿وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَـٰسِقُونَ ۝٢٧﴾ يعني المتأخّرينَ، فلمّا بعثَ اللّهُ محمّداً ﷺ ولمْ يبقَ منهمْ إلّا قليلٌ، جاءوا منَ الكهوفِ والصّوامعِ والغيرانِ فآمنوا بمحمّدٍ ﷺ.

الثالثة- وهذهِ الآيةُ دالّةٌ على أنَّ كلَّ محدثةٍ بدعةٌ.

الرابعة- وفي الآيةِ دليلٌ على العزلةِ عنِ النّاسِ في الصّوامعِ والبيوتِ، وذلكَ مندوبٌ إليهِ عندَ فسادِ الزّمانِ وتغيّرِ الأصدقاءِ والإخوانِ. وقدْ مضى بيانُ هذا في سورةِ الكهفِ مستوفى والحمدُ للّهِ.

قولهُ تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ بموسى وعيسى ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ﴾ بمحمّدٍ ﷺ ﴿يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ﴾ أيْ مثلينِ منَ الأجرِ على إيمانكمْ بعيسى ومحمّدٍ صلّى اللّهُ عليهما وسلّمَ، وهذا مثلُ قولهُ تعالى: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُواْ﴾، والكفلُ الحظُّ والنّصيبُ ﴿وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا﴾ أيْ بيانًا وهدى وهوَ القرآنُ

﴿تَمۡشُونَ بِهِۦ﴾ في النّاسِ تدعونهمْ إلى الإسلامِ فتكونونَ رؤساءَ في دينِ الإسلامِ لا تزول عنكم رئاسة كنتمْ فيها. وقيلَ: ضياء ﴿تَمۡشُونَ بِهِۦ﴾ في الآخرةِ على الصّراطِ، وفي القيامةِ إلى الجنّةِ ﴿وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ﴾ ذنوبكمْ ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٢٨﴾.

قولهُ تعالى: ﴿لِّئَلَّا يَعۡلَمَ أَهۡلُ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ أيْ ليعلمَ، وَ ﴿أَن لَّا﴾ صلةٌ زائدةٌ مؤكّدةٌ ﴿أَلَّا يَقۡدِرُونَ عَلَىٰ شَيۡءٖ مِّن فَضۡلِ ٱللَّهِ﴾ وهو الإسلامُ، وقيلَ: نعمُ اللّهِ التّي لا تحصى ﴿وَأَنَّ ٱلۡفَضۡلَ بِيَدِ ٱللَّهِ﴾ ليسَ بأيديهمْ فيصرفونَ النّبوّةَ عنْ محمّدٍ ﷺ إلى منْ يحبّونَ. بل هوَ لهُ ﴿يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ﴾. وفي البخاريِّ: أنَّ عبدَ اللّهِ بنَ عمرَ قالَ: سمعتُ رسولَ اللّهِ ﷺ يقولُ وهوَ قائمٌ على المنبرِ: «إنّما بقاؤكمْ فيما سلفَ قبلكمْ منَ الأممِ كما بينَ صلاةِ العصرِ إلى غروبِ الشّمسِ أعطيَ أهلُ التّوراةِ التّوراةَ فعملوا بها حتّى انتصفَ النّهارُ ثمَّ عجزوا فأعطوا قيراطاً قيراطاً ثمَّ أعطيَ أهلُ الإنجيلِ الإنجيلَ فعملوا بهِ حتّى صلاةَ العصرِ ثمَّ عجزوا فأعطوا قيراطاً قيراطاً ثمَّ أعطيتمُ القرآنَ فعملتمْ به حتى الشّمسِ فأعطيتمْ قيراطينِ قيراطينِ قالَ أهلُ التّوراةِ ربّنا هؤلاءِ أقلُّ عملاً وأكثرُ أجراً قالَ هل ظلمتكم من أجركم من شيء قالوا لا فقالَ: فذلكَ فضلي أوتيهِ منْ أشاءُ».

□

سورة المجادلة

اثنتانِ وعشرونَ آيةً، وهي مدنيّةٌ في قولِ الجميعِ.

بسمِ اللّهِ الرّحمنِ الرّحيمِ

قولهُ تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ ①﴾، فيهِ مسألتانِ:

الأولى: قولهُ تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ وهيَ خولةُ بنتُ ثعلبةَ. وقيلَ بنتُ حكيمٍ، وزوجها أوسُ بنُ الصّامتِ أخو عبادةَ، وقدْ مرَّ بها عمرَ بنِ الخطّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في خلافتهِ والنّاسُ معهُ على حمارٍ فاستوقفتهُ طويلاً ووعظتهُ وقالتْ: يا عمرَ قدْ كنتَ تدعى عميراً، ثمَّ قيلَ لكَ عمرُ، ثمَّ قيلَ لكَ أميرُ المؤمنينَ، فاتّقِ اللّهَ يا عمرَ، فإنّهُ منْ أيقنَ بالموتِ خافَ الفوتَ، ومنْ أيقنَ بالحسابِ خافَ العذابَ، وهوَ واقفٌ يسمعُ كلامها، فقيلَ لهُ: يا أميرَ المؤمنينَ أتقفُ لهذهِ العجوزِ هذا الوقوفَ؟ فقالَ: واللّهِ لوْ حبستني منْ أوّلِ النّهارِ إلى آخرهِ لا زلتُ إلّا للصّلاةِ المكتوبةِ، أتدرونَ من هذه العجوز؟ هي خولة بنتُ ثعلبةَ سمعَ اللّهُ قولها منْ فوقِ سبعِ سمواتٍ ولا يسمعهُ عمرُ؟

وفي البخاريِّ عنْ عائشةَ قالتْ: الحمدُ للّهِ الّذي وسعَ سمعهُ الأصواتَ، لقدْ جاءتِ المجادلةُ تشكو إلى رسولِ اللّهِ ﷺ، وأنا في ناحيةِ البيتِ ما أسمعُ ما تقولُ، فأنزلَ اللّهُ عزَّ وجلَّ: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا﴾.

وكانَ الإيلاءُ والظّهارُ منَ الطّلاقِ في الجاهليّةِ، وروى الدّارقطنيُّ منْ حديثِ قتادةَ أنَّ أنسَ بنَ مالكٍ حدّثهُ قالَ: إنَّ أوسَ بنَ الصّامتِ ظاهرَ منِ امرأتهِ خويلةَ بنتِ ثعلبةَ فشكتْ ذلكَ إلى رسولِ اللّهِ ﷺ فقالتْ: ظاهرَ حينَ كبرتْ سنّي ورقَّ عظمي. فنزلت آيةَ الظّهارِ.

الثانية- قرئَ ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ﴾ بالادغامِ وبالإظهارِ. والأصلُ في السّماعِ إدراكُ المسموعاتِ، والسّمعُ والبصرُ صفتانِ كالعلمِ والقدرةِ والحياةِ والإرادةِ، فهما منْ صفاتِ الذّاتِ لمْ يزلِ الخالقُ سبحانهُ وتعالى متّصفاً بهما.

قولهُ تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمۡۖ إِنۡ أُمَّهَٰتُهُمۡ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔي وَلَدۡنَهُمۡۚ وَإِنَّهُمۡ لَيَقُولُونَ مُنكَرٗا مِّنَ ٱلۡقَوۡلِ وَزُورٗاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٞ ٢﴾، فيهِ ثلاثٌ وعشرونَ مسألةً:

الأولى: قولهُ تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ﴾ قرأَ ابنُ عامرٍ وحمزةُ والكسائيُّ وخلفٌ ﴿يَظَّٰهرُونَ﴾ بفتحِ الياءِ وتشديدِ الظّاءِ وألفٍ. وقرأ نافعٌ وابن كثير وأبو عمرو ويعقوب ﴿يَظَّهَرُونَ﴾ بحذفِ الألفِ وتشديدِ الهاءِ والظّاءِ وفتحِ الياءِ. وقرأ عاصم ﴿يُظَٰهِرُونَ﴾ بضمِّ الياءِ وتخفيفِ الظّاءِ وألفٍ وكسرِ الهاءِ. وذُكرَ الظّهرَ كنايةً عنْ معنى الرّكوبِ، ومعنى أنتِ عليَّ كظهرِ أمّي: أيْ أنتِ عليَّ محرّمةٌ لا يحلُّ لي ركوبكِ.

الثانية- حقيقةُ الظّهارِ تشبيهُ ظهرٍ محلّلٍ بظهرٍ محرّمٍ، ولهذا أجمعَ الفقهاءُ على أنَّ منْ قالَ لزوجتهِ: أنتِ عليَّ كظهرِ أمّي أنّهُ مظاهرٌ. وأكثرهمْ على أنّهُ إنْ قالَ لها: أنتِ عليَّ كظهرِ ابنتي أوْ أختي أوْ غيرَ ذلكَ منْ ذواتِ المحارمِ أنّهُ مظاهرٌ. وهوَ مذهبُ مالكٍ وأبي حنيفةَ وغيرهما. واختلفَ فيهِ عنِ الشّافعيِّ رضي الله عنه، فرويَ عنهُ نحوُ قولِ مالكٍ، لأنه شبه امرأته بظهر محرم عليه مؤبد كالأمِّ. وعنهُ: أنَّ الظّهارَ لا يكونُ إلّا بالأمِّ وحدها.

الثالثة- أصلُ الظّهارِ أنْ يقولَ الرّجلُ لامرأتهِ: أنتِ عليَّ كظهرِ أمّي. وإنّما ذكرَ اللّهُ الظّهرَ كنايةً عنِ البطنِ وستراً. فإنْ قالَ: أنتِ عليَّ كأمّي ولمْ يذكرِ الظّهرَ، أوْ قالَ: أنتِ عليَّ مثلُ أمّي، فإنْ أرادَ الظّهارَ فلهُ نيّتهُ، وإنْ أرادَ الطلاق كان مطلقا البتة عند مالك، وإنْ لمْ تكنْ لهُ نيّةٌ في طلاقٍ ولا ظهارٍ كانَ مظاهراً. ولا ينصرفُ صريحُ الظّهارِ بالنّيّةِ إلى الطّلاقِ، كما لا ينصرفُ صريحُ الطّلاقِ وكنايتهُ المعروفةُ لهُ إلى الظّهارِ، وكنايةُ الظّهارِ خاصّةً تنصرفُ بالنّيّةِ إلى الطّلاقِ البتِّ.

الرابعة- ألفاظُ الظّهارِ ضربانِ: صريحٌ وكنايةٌ، فالصّريحُ أنتِ عليَّ كظهرِ أمّي، وأنتِ عندي وأنتِ منّي وأنتِ معي كظهرِ أمّي. وكذلكَ أنتِ عليَّ كبطنِ أمّي أوْ كرأسها أوْ فرجها أوْ نحوهِ، وقالَ الشّافعيُّ في أحدِ قوليهِ: لا يكونُ ظهاراً. وهذا ضعيفٌ منهُ، لأنّهُ قدْ وافقنا على أنّهُ يصحُّ إضافةُ الطّلاقِ إليهِ خاصّةً حقيقةً خلافاً لأبي حنيفةَ فصحَّ إضافةُ الظّهارِ إليهِ. ومتى شبّهها بأمّهِ أوْ بإحدى جدّاتهِ منْ قبلِ أبيهِ أوْ أمّهِ فهوَ ظهارٌ بلا خلافٍ. وإنْ شبّهها بغيرهنَّ منْ

ذواتِ المحارمِ الّتي لا تحلُّ لهُ بحالٍ كالبنتِ والأختِ والعمّةِ والخالةِ كانَ مظاهراً عندَ أكثرِ الفقهاءِ وعندَ الإمامِ الشّافعيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ على الصّحيحِ منَ المذهبِ على ما ذكرنا.

والكنايةُ أنْ يقولَ: أنتِ عليَّ كأمّي أوْ مثلِ أمّي فإنّهُ يعتبرُ فيهِ النّيّةَ. فإنْ أرادَ الظّهارَ كانَ ظهاراً، وإنْ لمْ يردِ الظّهارَ لمْ يكنْ مظاهراً عندَ الشّافعيِّ وأبي حنيفةَ. وقدْ تقدّمَ مذهبُ مالكٍ في ذلكَ والدّليلُ عليهِ أنّهُ أطلقَ تشبيهَ امرأتِهِ بأمّهِ فكانَ ظهاراً.

الخامسة- إذا شبّهَ جملةَ أهلِهِ بعضوٍ منْ أعضاءِ أمّهِ كانَ مظاهراً، خلافاً لأبي حنيفةَ في قولِهِ: إنّهُ إنْ شبّهها بعضوٍ يحلُّ لهُ النّظرُ إليهِ لمْ يكنْ مظاهراً. وهذا لا يصحُّ، لأنَّ النّظرَ إليهِ على طريقِ الاستمتاعِ لا يحلُّ لهُ، وفيهِ وقعَ التّشبيهُ، وإيّاهُ قصدَ المظاهرُ، وقدْ قالَ الإمامُ الشّافعيُّ في قولٍ: إنّهُ لا يكونُ ظهاراً إلّا في الظّهرِ وحدهُ. وهذا فاسدٌ، لأنَّ كلَّ عضوٍ منها محرّمٌ، فكانَ التّشبيهُ بهِ ظهاراً كالظّهرِ، ولأنَّ المظاهرَ إنّما يقصدُ تشبيهَ المحلّلِ بالمحرّمِ فلزمَ على المعنى.

السادسة- إنْ شبّهَ امرأتهُ بأجنبيّةٍ فإنْ ذكرَ الظّهرَ كانَ ظهاراً حملاً على الأوّلِ، وإنْ لمْ يذكرِ الظّهرَ فاختلفَ فيهِ علماؤنا، فمنهمْ منْ قالَ: يكونُ ظهاراً. ومنهمْ منْ قالَ: يكونُ طلاقاً. وقالَ أبو حنيفةَ والشّافعيُّ: لا يكونُ شيئاً. والخلافُ في الظّهارِ بالأجنبيّةِ قويٌّ عندَ مالكٍ. وأصحابهُ منهمْ منْ لا يرى الظّهارَ إلّا بذواتِ المحارمِ خاصّةً ولا يرى الظّهارَ بغيرهنَّ. ومنهمْ منْ لا يجعلهُ شيئاً. ومنهمْ منْ يجعلهُ في الأجنبيّةِ طلاقاً. وهوَ عندَ مالكٍ إذا قالَ: كظهرِ ابني أوْ غلامي أوْ كظهرِ زيدٍ أوْ كظهرِ أجنبيّةٍ ظهارٌ لا يحلُّ لهُ وطؤها في حينِ يمينِهِ. وقدْ رويَ عنهُ أيضاً: أنَّ الظّهارَ بغيرِ ذواتِ المحارمِ ليسَ بشيءٍ، كما قالَ الكوفيُّ والشّافعيُّ.

السابعة- إذا قالَ: أنتِ عليَّ حرامٌ كظهرِ أمّي كانَ ظهاراً ولمْ يكنْ طلاقاً، لأنَّ قولهُ: أنتِ حرامٌ عليَّ يحتملُ التّحريمَ بالطّلاقِ فهيَ مطلّقةٌ، ويحتملُ التّحريمَ بالظّهارِ فلمّا صرّحَ بهِ كانَ تفسيراً لأحدِ الاحتمالينِ يقضي بهِ فيهِ.

الثّامنةُ- الظّهارُ لازمٌ في كلِّ زوجةٍ مدخولٍ بها أوْ غيرِ مدخولٍ بها على أيِّ الأحوالِ كانتْ منْ زوجٍ يجوزُ طلاقهُ. وكذلكَ عندَ مالكٍ منْ يجوزُ لهُ وطؤها منْ إمائهِ، إذا ظاهرَ منهنَّ

لزمهُ الظّهارُ فيهنَّ. وقالَ أبو حنيفةَ والشّافعيُّ: لا يلزمُ.

قال القاضي أبو بكر ابن العربيِّ: وهيَ مسألةٌ عسيرةٌ جداً علينا، لأنَّ مالكـًا يقولُ: إذا قالَ لأمتهِ أنتِ عليَّ حرامٌ لا يلزمُ. فكيفَ يبطلُ فيها صريحُ التّحريمِ وتصحُّ كنايتهُ. ولكنْ تدخلُ الأمةُ في عمومِ قولهِ: ﴿مِن نِّسَآئِهِمْ﴾ لأنّهُ أرادَ منْ محلّلاتهمْ. والمعنى فيهِ أنّهُ لفظٌ يتعلّقُ بالبضعِ دونَ رفعِ العقدِ فصحَّ في الأمةِ، أصلهُ الحلفُ باللّهِ تعالى.

التاسعة- ويلزمُ الظّهارُ قبلَ النّكاحِ إذا نكحَ الّتي ظاهرَ منها عندَ مالكٍ. ولا يلزمُ عندَ الشّافعيِّ وأبي حنيفةَ، لقولهِ تعالى: ﴿مِن نِّسَآئِهِمْ﴾ وهذهِ ليستْ منْ نسائهِ.

العاشرة- الذّمّيُّ لا يلزمُ ظهارهُ وبهِ قالَ أبو حنيفةَ. وقالَ الشّافعيُّ: يصحُّ ظهارُ الذّمّيِّ، ودليلنا قولهُ تعالى: ﴿مِنكُمْ﴾ يعني منَ المسلمينَ. وهذا يقتضي خروجَ الذّمّيِّ منَ الخطابِ. فإن قيل: هذا استدلالٌ بدليلِ الخطابِ. قلنا: هوَ استدلالٌ بالاشتقاقِ والمعنى، فإنَّ أنكحةَ الكفّارِ فاسدةٌ مستحقّةٌ الفسخَ فلا يتعلّقُ بها حكمُ طلاقٍ ولا ظهارٍ، وذلكَ كقولهِ تعالى: ﴿وَأَشْهِدُواْ ذَوَىْ عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ وإذا خلتِ الأنكحةُ عنْ شروطِ الصّحّةِ فهيَ فاسدةٌ، ولا ظهارَ في النّكاحِ الفاسد بحال.

الحادية عشرة: قوله تعالى: ﴿مِنكُمْ﴾ يقتضي صحّةَ ظهارِ العبدِ خلافًا لمنْ منعهُ، لأنّهُ منْ جملةِ المسلمينَ وأحكامُ النّكاحِ في حقّهِ ثابتةٌ وإنْ تعذّرَ عليهِ العتقُ والإطعامُ فإنّهُ قادرٌ على الصّيامِ.

الثانية عشرةَ- وقالَ مالكٌ ﵁: ليسَ على النّساءِ تظاهرٌ، وإنّما قال الله تعالى: و﴿ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم﴾ ولمْ يقل اللاّئي يظّهّرنَ منكنَّ منْ أزواجهنَّ، إنّما الظّهارُ على الرّجالِ. لأنَّ الحلَّ والعقدَ والتّحليلَ والتّحريمَ في النّكاحِ بيدِ الرّجالِ ليسَ بيد المرأة منه شيء وهذا إجماعٌ.

قالَ أبو عمرَ: ليسَ على النّساءِ ظهارٌ في قولِ جمهورِ العلماءِ. وقالَ الحسنُ بنُ زيادٍ: هيَ مظاهرةٌ، وقالَ الأوزاعيُّ وإسحاقُ يمينٌ تكفّرها. وقالَ الزّهريُّ: أرى أن تكفر كفارة الظّهارَ، ولا يحولُ قولها هذا بينها وبينَ زوجها أنْ يصيبها، قالَ أبو يوسف: حرّمتْ ما أحلَّ اللّهُ،

عليها كفّارةُ يمينٍ، وقال محمد بن الحسن: لا شيء عليها.

الثالثة عشرةَ- منْ بهِ لممٌ وانتظمتْ لهُ في بعضِ الأوقاتِ الكَلِمُ إذا ظاهرَ لزمَ ظهارهُ، لما رويَ في الحديثِ: أنَّ خولةَ بنتَ ثعلبةَ وكانَ زوجها أوسُ بنُ الصّامتِ وكانَ بهِ لممٌ فأصابهُ بعضُ لممهِ فظاهرَ منِ امرأتهِ.

الرابعة عشرة- منْ غضبَ وظاهرَ منِ امرأتهِ أوْ طلّقَ لمْ يسقطْ عنهُ غضبهُ حكمهُ، والغضبُ لغوٌ لا يرفعُ حكماً ولا يغيّرُ شرعاً.

الخامسة عشرةَ- السّكرانُ يلزمهُ حكمُ الظّهارِ والطّلاقِ في حالِ سكرهِ إذا عقلَ قولهُ ونظمَ كلامهُ، لقولهِ تعالى: ﴿حَتَّىٰ تَعۡلَمُواْ مَا تَقُولُونَ﴾ على ما تقدّمَ في النّساءِ بيانهُ. والله أعلم.

السادسة عشرةَ- ولا يقربُ المظاهرُ امرأتهُ ولا يباشرها ولا يتلذّذُ منها بشيءٍ حتّى يكفّرَ، خلافاً للشّافعيِّ في أحدِ قوليهِ، لأنَّ قولهُ: أنتِ عليَّ كظهرِ أمّي يقتضي تحريمَ كلِّ استمتاعٍ بلفظهِ ومعناهُ.

السابعة عشرةَ- إنْ وطئها قبلَ أنْ يكفّرَ استغفرَ اللّهَ تعالى وأمسكَ عنها حتّى يكفّرَ كفّارةً واحدةً. وروى جماعةٌ منَ الأئمّةِ منهم ابن ماجة والنّسائيُّ عنِ ابنِ عبّاسٍ: أنَّ رجلاً ظاهرَ منِ امرأتهِ فغشيها قبلَ أنْ يكفّرَ فأتى النّبيُّ ﷺ فذكرَ ذلكَ لهُ فقالَ: «ما حملكَ على ذلكَ»؟ فقالَ: يا رسولَ اللّهِ! رأيتُ بياضَ خلخالها في ضوءِ القمرِ فلمْ أملكْ نفسي أنْ وقعتُ عليها. فضحكَ النّبيُّ ﷺ وأمرهُ ألّا يقربها حتّى يكفّرَ.

الثامنة عشرةَ- إذا ظاهرَ منْ أربعِ نسوةٍ في كلمةٍ واحدةٍ، كقولهِ: أنتنَّ عليَّ كظهرِ أمّي كانَ مظاهراً منْ كل واحدة منهن، ولم يجز له وطئ إحداهنَّ وأجزأتهُ كفّارةٌ واحدةٌ. وقالَ الشّافعيُّ: تلزمهُ أربعُ كفّاراتٍ. وليسَ في الآيةِ دليلٌ على شيء منْ ذلكَ، لأنَّ لفظَ الجمعِ إنّما وقعَ في عامّةِ المؤمنينَ والمعوّلُ على المعنى. وقدْ روى الدّارقطنيُّ عنِ ابنِ عبّاسٍ قالَ: كانَ عمرُ بنُ الخطّابِ رضي الله عنه يقول: إذا كانَ تحتَ الرّجل أربعُ نسوةٍ فظاهرَ منهنَّ يجزيهِ كفّارةٌ واحدةٌ، فإنْ ظاهرَ منْ واحدةٍ بعدَ أخرى لزمهُ في كلِّ واحدةٍ منهنَّ كفّارةٌ. وهذا إجماعٌ.

التاسعة عشرةَ- فإنْ قالَ لأربعِ نسوةٍ: إنْ تزوّجتكنَّ فأنتنَّ عليَّ كظهرِ أمّي فتزوّجَ

إحداهنَّ لمْ يقربها حتّى يكفّرَ، ثمَّ قدْ سقطَ عنهُ اليمينُ في سائرهنَّ. وقدْ قيل: لا يطأُ البواقيَ منهنَّ حتّى يكفّرَ. والأوّلُ هوَ المذهبُ.

الموفّيةُ عشرينَ: وإنْ قالَ لامرأتهِ: أنتِ عليَّ كظهرِ أمّي وأنتِ طالقٌ البتّةَ، لزمهُ الطّلاقُ والظّهارُ معًا، ولمْ يكفّرْ حتّى ينكحها بعدَ زوجٍ آخرَ ولا يطأها إذا نكحها حتّى يكفّرَ، فإنْ قالَ لها: أنتِ طالقٌ البتّةَ وأنتِ عليَّ كظهرِ أمّي لزمهُ الطّلاقُ ولمْ يلزمهُ الظّهارُ، لأن المبتوتة لا يلحقها طلاق.

الحاديةُ والعشرونَ- قالَ بعضُ العلماءِ: لا يصحُّ ظهارُ غيرِ المدخولِ بها. وقالَ المزنيُّ: لا يصحُّ الظّهارُ منَ المطلّقةِ الرّجعيّةِ، وهذا ليسَ بشيءٍ، لأنَّ أحكامَ الزّوجيّةِ في الموضعينِ ثابتةٌ، وكما يلحقها الطّلاقُ كذلكَ يلحقها الظّهارُ قياسًا ونظراً. واللهُ أعلم.

الثانية والعشرونَ- قولهُ تعالى: ﴿مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمۡۖ﴾ أيْ ما نساؤهمْ بأمّهاتهمْ. وقراءةُ العامّةِ ﴿أُمَّهَٰتِهِمۡۖ﴾ بخفضِ التّاءِ على لغةِ أهلِ الحجازِ، كقولهِ تعالى: ﴿مَا هَٰذَا بَشَرًا﴾.

﴿إِنۡ أُمَّهَٰتُهُمۡ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔي وَلَدۡنَهُمۡۚ﴾ أيْ ما أمّهاتهمْ إلّا الوالداتُ.

الثالثة والعشرونَ- قولهُ تعالى: ﴿وَإِنَّهُمۡ لَيَقُولُونَ مُنكَرٗا مِّنَ ٱلۡقَوۡلِ وَزُورٗاۚ﴾ أيْ فظيعًا منَ القولِ لا يعرفُ في الشّرعِ. والزّورُ الكذبُ ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٞ ۝٢﴾ إذْ جعلَ الكفّارةَ عليهمْ مخلّصةً لهم من هذا القول المنكر.

قولهُ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمۡ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُواْ فَتَحۡرِيرُ رَقَبَةٖ مِّن قَبۡلِ أَن يَتَمَآسَّاۚ ذَٰلِكُمۡ تُوعَظُونَ بِهِۦۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ۝٣ فَمَن لَّمۡ يَجِدۡ فَصِيَامُ شَهۡرَيۡنِ مُتَتَابِعَيۡنِ مِن قَبۡلِ أَن يَتَمَآسَّاۖ فَمَن لَّمۡ يَسۡتَطِعۡ فَإِطۡعَامُ سِتِّينَ مِسۡكِينٗاۚ ذَٰلِكَ لِتُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۚ وَتِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِۗ وَلِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝٤﴾، فيهِ ثلاث عشرةَ مسألةً:

الأولى: قولهُ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمۡ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُواْ فَتَحۡرِيرُ رَقَبَةٖ﴾ يدلُّ على أنَّ كفّارةَ الظّهارِ لا تلزمُ بالقولِ خاصّةً حتّى ينضمَّ إليها العودُ، وهذا حرفٌ مشكلٌ اختلفَ النّاسُ فيهِ على أقوال سبعة:

الأول- أنه العزم على الوطء، وهوَ مشهورُ قولِ أبي حنيفةَ وأصحابهِ. ورويَ عنْ مالكٍ.

الثّاني- العزمُ على الإمساكِ بعدَ التّظاهرِ منها، قالهُ مالكٌ.

الثّالثُ- العزمُ عليهما. وهوَ قولُ مالكٍ في موطّئهِ.

القول **الرابع**- أنه الوطء نفسهُ فإنْ لمْ يطأْ لمْ يكنْ عوداً، قالهُ الحسنُ ومالكٌ أيضـًا.

الخامسُ- وقالَ الإمامُ الشّافعيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: هوَ أنْ يمسكها زوجةً بعدَ الظّهارِ معَ القدرةِ على الطّلاقِ، لأنّهُ لمّا ظاهرَ قصدَ التّحريمَ، فإنْ وصلَ بهِ الطّلاقَ فقدْ جرى على خلافِ ما ابتدأهُ منْ إيقاعِ التّحريمِ ولا كفّارةَ عليهِ. وإنْ أمسكَ عنِ الطّلاقِ فقدْ عادَ إلى ما كانَ عليهِ فتجبُ عليهِ الكفّارةُ.

السّادسُ- أنَّ الظّهارَ يوجبُ تحريمـًا لا يرفعهُ إلّا الكفّارةُ. ومعنى العودِ عندَ القائلينَ بهذا: أنّهُ لا يستبيحُ وطأها إلّا بكفّارةٍ يقدّمها، قالهُ أبو حنيفةَ وأصحابهُ.

السّابعُ- هوَ تكريرُ الظّهارِ بلفظهِ. وهذا قولُ أهلِ الظّاهرِ النّافينَ للقياسِ، قالوا: إذا كرّرَ اللّفظَ بالظّهارِ فهوَ العودُ، وإنْ لمْ يكرّرْ فليسَ بعودٍ، وظاهرُ الآيةِ يشهدُ لهُ، لأنّهُ قالَ: ﴿ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُواْ﴾ أيْ إلى قولِ ما قالوا.

وهو باطل قطعا، وقدْ رويتْ قصصُ المتظاهرينَ وليسَ في ذكرِ الكفّارةِ عليهمْ ذكرٌ لعودِ القولِ منهمْ، ولأنَّ اللّهَ تعالى وصفهُ بأنّهُ منكرٌ منَ القولِ وزورٌ، فكيفَ يقالُ لهُ إذا أعدتَ القولَ المحرّمَ والسّببَ المحظورَ وجبتْ عليكَ الكفّارةُ، ولأنَّ كلَّ سببٍ يوجبُ الكفّارةَ لا تشترط فيه الإعادة من قتل ووطئ في صومٍ أوْ غيرهِ.

وأمّا قولُ الشّافعيِّ: بأنّهُ تركَ الطّلاقَ معَ القدرةِ عليهِ فينقضهُ أنَّ الطّلاقَ الرّجعيَّ لا ينافي البقاءَ على الملكِ فلمْ يسقطْ حكمُ الظّهارِ كالإيلاءِ.

الثانية- ﴿ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُواْ﴾ لما قالوا وإلى ما قالوا واحد، واللام وإلى يتعاقبانِ، قالَ: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي هَدَىٰنَا لِهَٰذَا﴾، وقالَ: ﴿فَٱهۡدُوهُمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡجَحِيمِ﴾، وقالَ: ﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوۡحَىٰ لَهَا ۝٥﴾، وقالَ: ﴿وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ﴾.

الثالثة– قولهُ تعالى: ﴿فَتَحۡرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ أيْ فعليهِ إعتاقُ رقبةٍ، يقالُ: حرّرتهُ أيْ جعلتهُ حراً. ثمَّ هذهِ الرّقبةُ يجبُ أنْ تكونَ كاملةً سليمةً منْ كلِّ عيبٍ، ومنْ كمالها إسلامها عندَ مالكٍ والشّافعيِّ، كالرّقبةِ في كفّارةِ القتلِ. وعندَ أبي حنيفةَ وأصحابهِ تجزي الكافرةُ ومنْ فيها شائبةُ رقٍّ كالمكاتبةِ وغيرها.

الرابعة– فإنْ أعتقَ نصفيْ عبدينِ فلا يجزيهِ عندنا ولا عندَ أبي حنيفةَ. وقالَ الشّافعيُّ يجزئُ، لأنَّ نصفَ العبدينِ في معنى العبدِ الواحدِ، ولأنَّ الكفّارةَ بالعتقِ طريقها المالُ فجازَ أنْ يدخلها التبعيض كالإطعام، ودليلنا قولهُ تعالى: ﴿فَتَحۡرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ وهذا الاسمُ عبارةٌ عنْ شخصٍ واحدٍ، وبعضُ الرّقبةِ ليسَ برقبةٍ، ولأنّهُ لوْ أمرَ رجلينِ أنْ يحجّا عنهُ حجّةً لمْ يجزْ أنْ يحجَّ عنهُ واحدٌ منهما نصفها كذلكَ هذا.

الخامسة– قولهُ تعالى: ﴿مِن قَبۡلِ أَن يَتَمَآسَّاۚ﴾ أي يجامعها فلا يجوز للمظاهر الوطء قبلَ التّكفيرِ، فإنْ جامعها قبلَ التّكفيرِ أثمَ وعصى ولا يسقطُ عنهُ التّكفيرُ، لأنّهُ بوطئهِ ارتكبَ إثماً فلمْ يكنْ ذلكَ مسقطاً للكفّارةِ، ويأتي بها قضاءً كما لوْ أخّرَ الصّلاةَ عنْ وقتها. وفي حديثِ أوسِ بنِ الصّامتِ لمّا أخبرَ النّبيَّ ﷺ بأنّهُ وطئَ امرأتهُ أمرهُ بالكفّارةِ. وهذا نصٌّ وسواءٌ كانتْ كفّارةً بالعتقِ أوِ الصّومِ أوِ الإطعامِ. وقالَ أبو حنيفةَ: إنْ كانتْ كفّارتهُ بالإطعام جازَ أنْ يطأَ ثمَّ يطعمَ، فأما غير الوطء منَ القبلةِ والمباشرةِ والتّلذّذِ فلا يحرمُ في قولِ أكثرِ العلماءِ، وهوَ الصّحيحُ منْ مذهبِ الشّافعيِّ. وقيلَ: وكلُّ ذلكَ محرّمٌ وكلُّ معاني المسيسِ، وهوَ قولُ مالكٍ وأحدُ قولي الشّافعيِّ.

السادسة– قولهُ تعالى: ﴿ذَٰلِكُمۡ تُوعَظُونَ بِهِۦۚ﴾ أيْ تؤمرونَ بهِ ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ﴾ منَ التّكفيرِ وغيرهِ.

السابعة– منْ لمْ يجدِ الرّقبةَ ولا ثمنها، أوْ كانَ مالكاً لها إلّا أنّهُ شديدُ الحاجةِ إليها لخدمتهِ، أوْ كانَ مالكاً لثمنها إلّا أنّهُ يحتاجُ إليهِ لنفقتهِ، أوْ كانَ لهُ مسكنٌ ليسَ لهُ غيرهُ ولا يجدُ شيئاً سواهُ، فلهُ أنْ يصومَ عندَ الشّافعيِّ. وقالَ أبو حنيفةَ: لا يصومُ وعليهِ عتقٌ ولوْ كانَ محتاجاً إلى ذلكَ. وقالَ مالكٌ: إذا كانَ لهُ دارٌ وخادمٌ لزمهُ العتقُ.

الثّامنةُ– إنْ عجزَ عنِ الرّقبةِ فعليهِ صومُ شهرينِ متتابعينِ. فإنْ أفطرَ في أثنائهما بغيرِ عذرٍ استأنفهما، وإنْ أفطرَ لعذرٍ منْ سفرٍ أوْ مرضٍ، فقيلَ: يبني، وهوَ أحدُ قولي الشّافعيِّ وهوَ الصحيح من مذهبه. وقال مالك: إنّهُ إذا مرضَ في صيامِ كفّارةِ الظِّهارِ بنى إذا صحَّ. ومذهبُ أبي حنيفةَ ﵁ أنّهُ يبتدئُ. وهوَ أحدُ قولي الشّافعيِّ.

التاسعة– إذا ابتدأَ الصّيامَ ثمَّ وجدَ الرّقبةَ أتمَّ الصّيامَ وأجزأهُ عندَ مالكٍ والشّافعيِّ، لأنّهُ بذلكَ أُمرَ حينَ دخلَ فيهِ. ويهدمُ الصّومَ ويعتقُ عندَ أبي حنيفةَ وأصحابهِ، قياساً على الصّغيرةِ المعتدّةِ بالشّهورِ ترى الدّمَ قبلَ انقضائها، فإنّها تستأنفُ الحيضَ إجماعاً منَ العلماءِ. وإذا ابتدأَ سفراً في صيامهِ فأفطرَ، ابتدأَ الصّيامَ عندَ مالكٍ والشّافعيِّ وأبي حنيفةَ، لقولهِ: ﴿مُتَتَابِعَيْنِ﴾. ويبني في قولِ الحسنِ البصريِّ، لأنّهُ عذرٌ وقياساً على رمضانَ، فإنْ تخلّلها زمانٌ لا يحلُّ صومهُ في الكفّارةِ كالعيدينِ وشهرِ رمضانَ انقطعَ.

العاشرة– إذا وطئَ المتظاهرُ في خلالِ الشّهرينِ نهاراً، بطلَ التّتابعُ في قولِ الشّافعيِّ، وليلاً فلا يبطلُ، لأنّهُ ليسَ محلاً للصّومِ. وقالَ مالكٌ وأبو حنيفةَ: يبطلُ بكلِّ حالٍ ووجبَ عليهِ ابتداءُ الكفّارةِ، لقولهِ تعالى: ﴿مِن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّاۖ﴾ وهذا الشّرطُ عائدٌ إلى جملةِ الشّهرينِ، وإلى أبعاضهما، فإذا وطئَ قبلَ انقضائهما فليسَ هوَ الصّيامُ المأمورُ بهِ، فلزمهُ استئنافهُ.

الحاديةَ عشرةَ– ومنْ تطاولَ مرضهُ طولاً لا يرجى برؤهُ كانَ بمنزلةِ العاجزِ منْ كبرٍ، وجازَ لهُ العدولُ عنِ الصّيامِ إلى الإطعامِ. ولوْ كانَ مرضهُ ممّا يرجى برؤه واشتدت حاجته إلى وطءِ امرأتهِ كانَ الاختيارُ لهُ أنْ ينتظرَ البرءَ حتّى يقدرَ على الصّيامِ. ولوْ كفّرَ بالإطعامِ ولمْ ينتظرِ القدرةَ على الصّيامِ أجزأهُ.

الثانية عشرةَ– ومنْ تظاهرَ وهوَ معسرٌ ثمَّ أيسرَ لمْ يجزهِ الصّومُ. ومنْ تظاهرَ وهوَ موسرٌ ثمَّ أعسرَ قبلَ أنْ يكفّرَ صامَ. وإنّما ينظرُ إلى حالهِ يومَ يكفّرُ. ولوْ جامعها في عدمه وعسرهِ ولمْ يصمْ حتّى أيسرَ لزمهُ العتقُ. ولوِ ابتدأَ بالصّومِ ثمَّ أيسرَ فإنْ كانَ مضى منْ صومهِ صدرٌ صالحٌ نحوُ الجمعةِ وشبهها تمادى. وإنْ كانَ اليومَ واليومينِ ونحوهما تركَ الصّومَ وعادَ إلى العتقِ وليسَ ذلكَ بواجبٍ عليهِ. ألا ترى أنّهُ غيرُ واجبٍ على منْ طرأَ الماءُ عليهِ وهوَ قدْ دخلَ

بالتّيمّمِ في الصّلاةِ أنْ يقطعَ ويبتدئَ الطّهارةَ عندَ مالكٍ.

الثالثة عشرةَ- ولوْ أعتقَ رقبتينِ عنْ كفّارتيْ ظهارٍ وْ قتلٍ أوْ فطرَ في رمضانَ وأشركَ بينهما في كلِّ واحدةٍ منهما لمْ يجزهِ. وهوَ بمنزلةِ منْ أعتقَ رقبةً واحدةً عنْ كفّارتين. وكذلكَ لوْ صامَ عنهما أربعةَ أشهرٍ حتّى يصومَ عنْ كلِّ واحدةٍ منهما شهرينِ. وقدْ قيل: إنَّ ذلك يجزيه. ولو ظاهر من امرأتين فأعتقَ رقبةً عنْ إحداهما بغيرِ عينها لمْ يجز له وطء واحدةٍ منهما حتّى يكفّرَ كفّارةً أخرى. ولوْ عيّنَ الكفّارةَ عنْ إحداهما جازَ لهُ أنْ يطأها قبلَ أنْ يكفّرَ الكفّارةَ عنِ الأخرى.

فصل، وفية ست مسائلَ:

الأولى: ذكرَ اللّهُ عزَّ وجلَّ الكفّارةَ هنا مرتّبةً، فلا سبيلَ إلى الصّيام إلّا عندَ العجزِ عنِ الرّقبةِ، وكذلكَ لا سبيلَ إلى الإطعامِ إلّا عندَ عدمِ الاستطاعةِ على الصّيامِ، فمنْ لمْ يطقِ الصّيامَ وجبَ عليهِ إطعام ستين مسكينا لكل مسكين مُدّان بمد النّبيِّ ﷺ، وهوَ مذهبُ أبي حنيفةَ وأصحابهِ. ومذهبُ الشّافعيِّ وغيرهِ مدٌّ واحدٌ لكلِّ مسكينٍ لا يلزمهُ أكثرُ منْ ذلكَ، لأنّهُ يكفّرُ بالإطعامِ ولمْ يلزمهُ صرفُ زيادةٍ على المدِّ، أصلهُ كفّارةُ الإفطارِ واليمينِ. ودليلنا قولهُ تعالى: ﴿فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا﴾ وإطلاقُ الإطعام يتناولُ الشّبعَ، وذلكَ لا يحصلُ بالعادةِ بمدٍّ واحدٍ إلّا بزيادةٍ عليهِ. ولأنَّ اللّهَ عزَّ وجلَّ لمْ يقلْ في كفّارةِ الظّهارِ ﴿مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ﴾ فواجبٌ قصدُ الشّبعِ.

الثانية- ولا يجزئُ عندَ مالكٍ والشّافعيِّ أنْ يطعمَ أقلَّ منْ ستّينَ مسكينًا. وقالَ أبو حنيفةَ وأصحابهُ: إنْ أطعمَ مسكينًا واحدًا كلَّ يومٍ نصفَ صاعٍ حتّى يكملَ العددَ أجزأهُ.

الثالثة- قالَ القاضي أبو بكرِ بنُ العربيِّ: منْ غريبِ الأمرِ أنَّ أبا حنيفةَ قالَ إنَّ الحجرَ على الحرِّ باطلٌ. واحتجَّ بقولهِ تعالى: ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ ولمْ يفرّقْ بينَ الرّشيدِ والسّفيهِ، وهذا فقهٌ ضعيفٌ لا يناسبُ قدرهُ، فإنَّ هذهِ الآيةَ عامّةٌ، وقدْ كانَ القضاءُ بالحجرِ في أصحابِ رسولِ اللّهِ ﷺ فاشيًا والنّظرُ يقتضيهِ، ومنْ كانَ عليهِ حجرٌ لصغرٍ أوْ لولايةٍ وبلغَ سفيهًا قدْ نهيَ عنْ دفعِ المالِ إليهِ، فكيفَ ينفذُ فعلهُ فيهِ والخاصُّ يقضي على العامِّ.

الرابعة- وحكمُ الظّهارِ عندَ بعضِ العلماءِ ناسخٌ لما كانوا عليهِ منْ كونِ الظّهارِ طلاقًا.

الخامسة- استدلَّ بعضُ العلماءِ على أنَّ هذهِ الكفّارةَ إيمانٌ باللّهِ سبحانهُ وتعالى، فحين أوجبها قالَ: ﴿ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۚ﴾ أيْ ذلكَ لتكونوا مطيعينَ للّهِ تعالى واقفينَ عندَ حدودِهِ لا تتعدّوها، فسمّى التّكفيرَ لأنّهُ طاعةٌ ومراعاةٌ للحدِّ إيمانًا، فثبتَ أنَّ كلَّ ما أشبههُ فهوَ إيمانٌ.

السادسة- قولهُ تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِۗ﴾ أيْ بيّنَ معصيتهُ وطاعتهُ، فمعصيتهُ الظّهارُ، وطاعتهُ الكفّارةُ ﴿وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝٤﴾ أيْ لمنْ لمْ يصدّقْ بأحكامِ اللّهِ تعالى عذابُ جهنم.

قولهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ المحادّةُ المعاداةُ والمخالفةُ في الحدودِ، وهوَ مثل قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۖ﴾، وقيلَ: ﴿يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ﴾ أيْ أولياءَ اللّهِ ﴿كُبِتُواْ﴾ أهلكوا واخزوا ﴿كَمَا كُبِتَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۚ﴾، وهوَ بشارةٌ منَ اللّهِ تعالى للمؤمنينَ بالنّصرِ، وأخرجَ الكلامُ بلفظِ الماضي تقريبًا للمخبرِ عنهُ. ﴿وَقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍۚ﴾ فيمنْ حادَّ اللّهَ ورسولهُ منَ الّذينَ منْ قبلهمْ فيما فعلنا بهمْ ﴿وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ۝٥﴾.

قولهُ تعالى: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا﴾ منْ قبورهمْ ﴿فَيُنَبِّئُهُم﴾ يخبرهمْ ﴿بِمَا عَمِلُوٓاْۚ﴾ في الدّنيا ﴿أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ﴾ عليهمْ في صحائفِ أعمالهمْ ﴿وَنَسُوهُۚ﴾ حتّى ذكّرهمْ بهِ في صحائفهمْ ليكونَ أبلغَ في الحجّةِ عليهمْ ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ۝٦﴾ لا يخفى عليه شيء.

قولهُ تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۖ﴾ فلا يخفى عليهِ سرٌّ ولا علانيةٌ ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ﴾ سّرارُ ﴿ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾ يعلمُ ويسمعُ نجواهمْ، يدلُّ عليهِ افتتاحُ الآيةِ بالعلمِ ثمَّ ختمها بالعلم ﴿وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُواْ﴾ والمعنى: أنَّ سمعَ اللّهِ محيطٌ بكلِّ كلامٍ، وقدْ سمعَ اللّهُ مجادلةَ المرأةِ الّتي ظاهرَ منها زوجها. ﴿ثُمَّ يُنَبِّئُهُم﴾ يخبرهمْ ﴿بِمَا عَمِلُواْ﴾ منْ حسن وسيء ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ۝٧﴾.

قولهُ تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَى ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَيَتَنَاجَوْنَ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَإِذَا جَاؤُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿٨﴾﴾، فيهِ ثلاثُ مسائلَ:

الأولى: قولهُ تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نُهُوا۟ عَنِ ٱلنَّجْوَىٰ﴾ قيل: إنَّ هذا في اليهودِ والمنافقينَ، وكانَ بينَ النّبيِّ ﷺ وبينَ اليهودِ موادعةٌ، فإذا مرَّ بهمْ رجلٌ منَ المؤمنينَ تناجوا بينهمْ حتّى يظنَّ المؤمنُ شراً، فيعرج عنْ طريقهِ، فنهاهمْ رسولُ اللّهِ ﷺ فلمْ ينتهوا فنزلتْ.

وقيلَ: نزلت في المسلمينَ، كانَ الرّجلُ يأتي النّبيَّ ﷺ فيسأله الحاجةَ ويناجيهِ والأرضُ يومئذٍ حربٌ، فيتوهّمونَ أنّهُ يناجيهِ في حربٍ أوْ بليّةٍ أوْ أمرٍ مهمٍّ فيفزعونَ لذلكَ فنزلتْ.

الثانية- قرأ حمزةُ وخلفٌ ورويسٌ عنْ يعقوبَ «وينتجونَ» في وزنِ يفتعلونَ، وقرأ الباقونَ ﴿وَيَتَنَٰجَوْنَ﴾ في وزنِ يتفاعلونَ، لقولهِ تعالى: ﴿إِذَا تَنَٰجَيْتُمْ﴾ و ﴿تَتَنَٰجَوْا۟﴾. ومعنى ﴿بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾ أيِ الكذبِ والظّلمِ ﴿وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ﴾ أيْ مخالفتهِ.

الثالثة- قوله تعالى: ﴿وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ﴾ لا خلافَ بينَ النّقلةِ أنَّ المرادَ بها اليهودُ، كانوا يأتونَ النّبيَّ ﷺ فيقولونَ: السّامُّ عليكَ. يريدونَ بذلكَ السّلامَ ظاهراً وهمْ يعنونَ الموتَ باطنـاً، وثبتَ عنْ عائشةَ أنّها قالتْ: جاءَ أناسٌ منَ اليهودِ إلى النّبيِّ ﷺ فقالوا: السّامُّ عليكَ يا أبا القاسمِ. فقلت: السّامُّ عليكمْ وفعلَ اللّهُ بكمْ وفعلَ. فقالَ: ﷺ: «مهْ يا عائشةُ فإنَّ اللّهَ لا يحبُّ الفحشَ ولا التّفحّشَ» فقلت: يا رسولَ اللّهِ ألستَ ترى ما يقولونَ؟! فقالَ: «ألستِ ترينَ أردُّ عليهمْ ما يقولونَ أقولُ وعليكمْ» فنزلتْ هذهِ الآيةُ.

وفي الصّحيحينِ منْ حديثِ أنسِ بنِ مالكٍ رضي الله عنه قالَ: قالَ النّبيُّ ﷺ: «إذا سلّمَ عليكمْ أهلُ الكتابِ فقولوا وعليكمْ» كذا الرّوايةُ «وعليكمْ» وهيَ للاستئنافِ، كأنّهُ قالَ: والسّامُّ عليكمْ. وقالَ بعضهمْ: هيَ على بابها منَ العطفِ ولا يضرّنا ذلكَ، لأنّا نجابُ عليهمْ ولا يجابونَ علينا، كما قالَ النّبيُّ ﷺ.

وقدِ اختلفَ في ردِّ السّلامِ على أهلِ الذّمّةِ هلْ هوَ واجبٌ كالرّدِّ على المسلمينَ، وإليهِ

ذهبَ ابنُ عبّاسٍ للأمرِ بذلكَ. وذهبَ مالكٌ فيما روى عنهُ أشهبُ وابنُ وهبٍ إلى أنَّ ذلكَ ليسَ بواجبٍ فإنْ رددتَ فقلْ عليكَ.

وقدِ اختارَ ابنُ طاوسٍ أنْ يقولَ في الرّدِّ عليهِمْ: علاكَ السّلامُ أيِ ارتفعَ عنكَ. واختارَ بعضُ أصحابنا: السِّلامُ بكسرِ السّينِ يعني الحجارةُ. وما قالهُ مالكٌ أولى اتّباعًا للسّنّةِ، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ لَوۡلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُۚ﴾ قالوا: لوْ كانَ محمّدٌ نبيًا لعذّبنا اللّهُ بما نقولُ فهلّا يعذّبنا اللّهُ. وهذا موضعُ تعجّبٍ منهمْ، فإنّهمْ كانوا أهلَ كتابٍ، وكانوا يعلمونَ أنَّ الأنبياءَ قدْ يغضبونَ فلا يعاجلُ من يغضبهم بالعذاب ﴿حَسۡبُهُمۡ جَهَنَّمُ﴾ أيْ كافيهمْ جهنّمُ عقابًا غدًا ﴿فَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ أي المرجع.

قولهُ تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَنَـٰجَيۡتُمۡ﴾ أيْ تساررتمْ ﴿فَلَا تَتَنَـٰجَوۡاْ بِٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ وَمَعۡصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَتَنَـٰجَوۡاْ بِٱلۡبِرِّ﴾ أيْ بالطّاعةِ ﴿وَٱلتَّقۡوَىٰۖ﴾ بالعفافِ عمّا نهى اللّهُ عنهُ ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ۝٩﴾ أي تجمعون في الآخرة.

قولهُ تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّجۡوَىٰ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ لِيَحۡزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَيۡسَ بِضَآرِّهِمۡ شَيۡـًٔا إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝١٠﴾، فيهِ مسألتانِ:

الأولى: قولهُ تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّجۡوَىٰ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ﴾ أيْ منْ تزيينِ الشّياطينِ ﴿لِيَحۡزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ إذا أجروا اجتماعهمْ على مكايدةِ المسلمينَ ﴿وَلَيۡسَ بِضَآرِّهِمۡ﴾ أيِ التّناجي ﴿شَيۡـًٔا إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ﴾ أيْ بمشيئتهِ وقيلَ: بعلمهِ ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ ويفوّضونَ جميعَ شئونهمْ إلى عونه.

الثانية- في الصّحيحينِ عنِ ابنِ عمرَ أنَّ رسولَ اللّهِ ﷺ قال: «إذا كانَ ثلاثةٌ فلا يتناجى اثنانِ دونَ الواحدِ». وعنْ عبدِ اللّهِ بنِ مسعودٍ قالَ: قالَ رسولُ اللّهِ ﷺ: «إذا كنتمْ ثلاثةً فلا يتناجى اثنانِ دونَ الآخرِ حتّى تختلطوا بالنّاسِ منْ أجلِ أنْ يحزنهُ» فبيّنَ في هذا الحديثِ غايةَ المنعِ وهيَ أنْ يجدَ الثّالثُ منْ يتحدّثُ معهُ كما فعلَ ابنُ عمرَ، ذلكَ أنّهُ كانَ يتحدّثُ معَ رجلٍ فجاءَ آخرُ يريدُ أنْ يناجيهُ فلمْ يناجهِ حتّى دعا رابعًا. خرّجهُ الموطّأُ.

وفيهِ أيضًا التّنبيهُ على التّعليلِ بقولهِ: «منْ أجلِ أنْ يحزنهُ» أيْ يقعُ في نفسهِ ما يحزنُ لأجلهِ. وذلكَ بأنْ يقدّرَ في نفسهِ أنَّ الحديثَ عنهُ بما يكرهُ، أوْ أنّهُ لمْ يروهُ أهلاً ليشركوهُ في حديثهمْ، إلى غيرِ ذلكَ منْ ألقياتِ الشّيطانِ وأحاديثِ النّفسِ. وحصلَ ذلكَ كلّهُ منْ بقائهِ وحدهُ، فإذا كانَ معهُ غيرهُ أمنَ ذلكَ، وعلى هذا يستوي في ذلكَ كلُّ الأعدادِ، فلا يتناجى أربعةٌ دونَ واحدٍ ولا عشرةٌ ولا ألفٌ مثلاً، لوجودِ ذلكَ المعنى في حقّهِ، بلْ وجودهُ في العددِ الكثيرِ أمكنُ وأوقعُ، فيكونُ بالمنعِ أولى. وإنّما خصَّ الثّلاثةَ بالذّكرِ، لأنّهُ أوّلُ عددٍ يتأتّى ذلكَ المعنى فيهِ.

قولهُ تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُواْ فِى ٱلْمَجَـٰلِسِ فَٱفْسَحُواْ يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُواْ فَٱنشُزُواْ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَـٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١﴾﴾، فيهِ سبعُ مسائلَ:

الأولى: قولهُ تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُواْ فِى ٱلْمَجَـٰلِسِ﴾ أمر بتحسينِ الأدبِ في مجلس رسولِ اللّهِ ﷺ، وقيلَ: المرادُ بذلكَ مجالسُ القتالِ إذا اصطفّوا للحربِ تشاحَّ أصحابهُ على الصّفِّ الأوّلِ فلا يوسّعُ بعضهمْ لبعضٍ، رغبةً في القتالِ والشّهادةِ فنزلتْ. فيكونُ كقولهِ: ﴿مَقَـٰعِدَ لِلْقِتَالِ ۗ﴾.

الثانية- قرأَ عاصمٌ ﴿فِى ٱلْمَجَـٰلِسِ﴾. الباقونَ «تَفَسَّحُوا فِي الْمَجْلِسِ» فمنْ جمع فلأن قوله: ﴿تَفَسَّحُواْ فِى ٱلْمَجَـٰلِسِ﴾ ينبئُ أنَّ لكلِّ واحدٍ مجلسًا. وهي عامّةٌ في كلِّ مجلسٍ اجتمعَ المسلمونَ فيهِ للخيرِ والأجرِ، سواءٌ كانَ مجلسَ حربٍ أوْ ذكرٍ أوْ مجلسَ يوم الجمعةِ، فإنَّ كلَّ واحدٍ أحقُّ بمكانهِ الّذي سبقَ إليهِ. قالَ ﷺ: «منْ سبقَ إلى ما لمْ يسبقْ إليهِ فهوَ أحقُّ بهِ» ولكنْ يوسّعُ لأخيهِ ما لمْ يتأذَّ فيخرجهُ الضّيقُ عنْ موضعهِ. روى البخاريُّ ومسلمٌ عن ابن عمر عن النّبيِّ ﷺ قال: «لا يقيمُ الرّجلُ الرّجلَ منْ مجلسهِ ثمَّ يجلسُ فيهِ». وعنهُ عنِ النّبيِّ ﷺ أنّهُ نهى أنْ يقامَ الرّجلُ منْ مجلسهِ ويجلسُ فيهِ آخرُ، ولكنْ تفسّحوا وتوسّعوا. وكانَ ابنُ عمرَ يكرهُ أنْ يقومَ الرّجلُ منْ مجلسهِ ثمَّ يجلسُ مكانهُ. لفظُ البخاريِّ.

الثالثة- إذا قعدَ واحدٌ منَ النّاسِ في موضعٍ منَ المسجدِ لا يجوزُ لغيرهِ أنْ يقيمهُ حتّى يقعدَ مكانهُ، لما روى مسلمٌ عنْ أبي الزّبيرِ عنْ جابرٍ عنِ النّبيِّ ﷺ قال: «لا يقيمنَّ أحدكمْ

أخاهُ يومَ الجمعةِ ثمَّ يخالفُ إلى مقعدهِ فيقعدُ فيهِ ولكنْ يقولُ افسحوا».

فرعٌ- القاعدُ في المكانِ إذا قامَ حتّى يقعدَ غيرهُ موضعهُ نظرَ، فإنْ كانَ الموضعُ الّذي قامَ إليهِ مثلَ الأوّلِ في سماعِ كلامِ الإمامِ لمْ يكرهْ لهُ ذلكَ، وإنْ كانَ أبعدَ منَ الإمامِ كرهَ لهُ ذلكَ، لأنَّ فيهِ تفويتُ حظّهِ.

الرابعة- إذا أمرَ إنسانٌ إنساناً أنْ يبكّرَ إلى الجامعِ فيأخذُ لهُ مكاناً يقعدُ فيهِ لا يكرهُ، فإذا جاءَ الآمرُ يقومُ منَ الموضعِ، لما رويَ: أنَّ ابنَ سيرينَ كانَ يرسلُ غلامهُ إلى مجلسٍ لهُ في يومِ الجمعةِ فيجلسُ لهُ فيهِ، فإذا جاءَ قامَ لهُ منهُ، وفرّعَ على هذا منْ أرسلَ بساطاً أوْ سجّادةً فتبسطُ لهُ في موضعٍ منَ المسجدِ[١٠].

الخامسة- روى مسلمٌ عنْ أبي هريرةَ رضي الله عنه أنَّ النّبيَّ ﷺ قال: «إذا قامَ أحدكمْ- وفي حديثِ أبي عوانةَ منْ قامَ منْ مجلسهِ- ثمَّ رجعَ إليهِ فهوَ أحقُّ بهِ» قالَ علماؤنا: هذا يدلُّ على صحّةِ القولِ بوجوبِ اختصاصِ الجالسِ بموضعهِ إلى أنْ يقومَ منهُ، لأنّهُ إذا كانَ أولى بهِ بعدَ قيامهِ فقبلهُ أولى بهِ وأحرى.

السادسة- قولهُ تعالى: ﴿يَفۡسَحِ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ﴾ أيْ في قبوركمْ. وقيلَ: في قلوبكمْ. وقيلَ: يوسّعُ عليكمْ في الدّنيا والآخرةِ ﴿وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُواْ فَٱنشُزُواْ﴾ قرأَ نافعٌ وابنُ عامرٍ وعاصمٌ بضمِّ الشّينِ فيهما. وكسرَ الباقونَ، وهما لغتانِ مثلُ ﴿يَعۡكُفُونَ﴾ وَ ﴿يَعۡرِشُونَ﴾ والمعنى انهضوا إلى الصّلاةِ والجهادِ وعملِ الخيرِ، والنّشزُ الارتفاعُ، مأخوذٌ منْ نشزِ الأرضِ وهوَ ارتفاعها، يقالُ نشزَ ينشُزُ وينشِزُ إذا انتحى منْ موضعهِ، أيِ ارتفعَ منهُ. وامرأةٌ ناشزٌ منتحيةٌ عنْ زوجها.

السابعة- قولهُ تعالى: ﴿يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ دَرَجَٰتٖۚ﴾ أيْ في الثّوابِ في الآخرةِ وفي الكرامةِ في الدّنيا، فيرفعُ المؤمنَ على منْ ليسَ بمؤمنٍ والعالمَ على منْ ليسَ بعالمٍ، وفي الصّحيحِ أنَّ عمرَ بنَ الخطّابِ رضي الله عنه كانَ يقدّمُ عبدَ اللّهِ بنَ عبّاسٍ على الصّحابةِ، فكلّموهُ في ذلكَ فدعاهمْ ودعاهُ، وسألهمْ عنْ تفسيرِ ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ١﴾ فسكتوا، فقالَ: ابنُ عبّاسٍ: هوَ أجلُ رسولِ اللّهِ ﷺ أعلمهُ اللّهُ إيّاهُ. فقالَ: عمرُ:

---

[١٠] – وقيل يكره، وقيل يحرم لما فيه من تحجير المسجد.

ما أعلمُ منها إلّا ما تعلمُ.

وفي البخاريِّ عن ابن عباس قال: قدم عيينة ابن حصنِ بنِ حذيفةَ بنِ بدرٍ فنزلَ على ابنِ أخيهِ الحرِّ بنِ قيسِ بنِ حصنٍ، وكانَ منَ النّفرِ الّذينَ يدنيهمْ عمرُ، وكانَ القرّاءُ أصحابُ مجالسِ عمرَ ومشاورتهِ كهولاً كانوا أوْ شبّانـًا. الحديثَ وقدْ مضى في آخرِ الأعرافِ.

وفي صحيحِ مسلمٍ أنَّ نافعَ بنَ عبد الحارث لقيَ عمرَ بعسفانَ وكانَ عمرُ يستعملهُ على مكّةَ فقالَ: منِ استعملتهُ على أهلِ الوادي؟ فقالَ: ابنُ أبزى. فقالَ: ومنِ ابنُ أبزى؟ قالَ: مولى منْ موالينا. قالَ: فاستخلفتَ عليهمْ مولى! قالَ: إنّهُ قارئٌ لكتابِ اللّهِ وإنّهُ عالمٌ بالفرائضِ. قالَ عمرُ: أما إنَّ نبيّكمْ ﷺ قدْ قالَ: «إنَّ اللّهَ يرفعُ بهذا الكتابِ أقوامـًا ويضعُ بهِ آخرينَ».

ورويَ عنِ النّبيِّ ﷺ أنّهُ قالَ: «فضلُ العالمِ على العابدِ كفضلِ القمرِ ليلةَ البدرِ على سائرِ الكواكبِ».

قولهُ تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَـٰجَيْتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَةً ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ ۚ فَإِن لَّمْ تَجِدُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾﴾، فيهِ ثلاثُ مسائلَ:

الأولى: قولهُ تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَـٰجَيْتُمُ ٱلرَّسُولَ﴾ ﴿نَـٰجَيْتُمُ﴾ ساررتمْ. قالَ ابنُ عبّاسٍ: نزلتْ بسببِ أنَّ المسلمينَ كانوا يكثرونَ المسائلَ على رسولِ اللّهِ ﷺ حتى شقّوا عليهِ، فأرادَ اللّهُ عزَّ وجلَّ أنْ يخفّفَ عنْ نبيّهِ ﷺ، فلمّا قالَ ذلكَ كفَّ كثيرٌ منَ النّاسِ. ثمَّ وسّعَ اللّهُ عليهمْ بالآيةِ الّتي بعدها.

وقالَ الحسنُ: نزلتْ بسببِ أنَّ قومـًا منَ المسلمينَ كانوا يستخلونَ النّبيَّ ﷺ ويناجونهُ، فظنَّ بهمْ قومٌ منَ المسلمينَ أنّهمْ ينتقصونهمْ في النّجوى، فشقَّ عليهمْ ذلكَ فأمرهمُ اللّهُ تعالى بالصّدقةِ عندَ النّجوى ليقطعهمْ عنِ استخلائهِ.

وقالَ زيدُ بنُ أسلمَ: نزلتْ بسببِ أنَّ المنافقينَ واليهودَ كانوا يناجونَ النّبيَّ ﷺ ويقولونَ: إنّهُ أذنٌ يسمعُ كلَّ ما قيلَ لهُ، وكانَ لا يمنعُ أحداً مناجاتهُ. فكانَ ذلكَ يشقُّ على المسلمينَ، لأنَّ الشّيطانَ كانَ يلقي في أنفسهمْ أنّهمْ ناجوهُ بأنَّ جموعـًا اجتمعتْ لقتالهِ. قالَ: فأنزلَ اللّهُ

تباركَ وتعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَنَـٰجَيۡتُمۡ فَلَا تَتَنَـٰجَوۡاْ بِٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ وَمَعۡصِيَتِ ٱلرَّسُولِ﴾ الآيةَ، فلمْ ينتهوا فأنزلَ اللّهُ هذهِ الآيةَ، فانتهى أهلُ الباطلِ عنِ النّجوى، لأنّهمْ لمْ يقدّموا بينَ يديْ نجواهمْ صدقةً، وشقَّ ذلكَ على أهلِ الإيمانِ وامتنعوا منَ النّجوى، لضعفِ مقدرةِ كثيرٍ منهمْ عنِ الصّدقةِ فخفّفَ اللّهُ عنهمْ بما بعدَ الآيةِ.

الثانية– في هذا ما يدلُّ على أنَّ الأحكامَ لا تترتّبُ بحسبِ المصالحِ، فإنَّ اللّهَ تعالى قالَ: ﴿ذَٰلِكَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ وَأَطۡهَرُۚ﴾ ثمَّ نسخهُ معَ كونهِ خيراً وأطهرَ، وهذا ردٌّ على المعتزلةِ عظيمٌ في التزامِ المصالحِ، والله أعلم.

الثالثة– في هذا ما يدلُّ على نسخ العبادةِ قبلَ فعلها. ويحتمل أنَّ النّسخَ إنّما وقعَ بعدَ فعلِ الصّدقةِ. وقدْ رويَ أنَّ أوّلَ منْ تصدّقَ في ذلكَ عليُّ بنُ أبي طالبٍ رضي الله عنه ناجى النّبيَّ صلى الله عليه وسلم. ورويَ أنّهُ تصدّقَ بخاتمٍ. ثم نسخها اللّهُ بالآيةِ الّتي بعدها. قالَ ابنُ عمرَ: لقدْ كانتْ لعليٍّ رضي الله عنه ثلاثةٌ لوْ كانتْ لي واحدةٌ منهنَّ كانتْ أحبَّ إليَّ منْ حمرِ النّعمِ: تزويجهُ فاطمةَ، وإعطاؤهُ الرّايةَ يومَ خيبرَ، وآيةُ النّجوى.

﴿ذَٰلِكَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ﴾ أيْ منْ إمساكها ﴿وَأَطۡهَرُۚ﴾ لقلوبكمْ منَ المعاصي ﴿فَإِن لَّمۡ تَجِدُواْ﴾ يعني الفقراءَ ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ١٢﴾.

قولهُ تعالى: ﴿ءَأَشۡفَقۡتُمۡ أَن تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَٰتٖۚ فَإِذۡ لَمۡ تَفۡعَلُواْ وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ١٣﴾، فيهِ مسألتانِ:

الأولى: قولهُ تعالى: ﴿ءَأَشۡفَقۡتُمۡ﴾ استفهامٌ معناهُ التّقريرُ. أيْ خفتمْ وبخلتمْ بالصّدقةِ وشقَّ عليكمْ.

الثانية– قولهُ تعالى: ﴿فَإِذۡ لَمۡ تَفۡعَلُواْ وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ﴾ أيْ نسخ اللّهُ ذلكَ الحكمَ. وهذا خطابٌ لمنْ وجدَ ما يتصدّقُ بهِ ﴿فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ فنسختْ فرضيّةُ الزّكاةِ هذهِ الصّدقةَ. وهذا يدلُّ على جوازِ النّسخِ قبلَ الفعلِ، وما رويَ عنْ عليٍّ رضي الله عنه ضعيفٌ، لأنَّ اللّهَ تعالى قالَ: ﴿فَإِذۡ لَمۡ تَفۡعَلُواْ﴾ وهذا يدلُّ على أنَّ أحداً لم يتصدق بشيء. والله أعلم.

﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ﴾ في فرائضهِ ﴿وَرَسُولَهُۥ﴾ في سننهِ ﴿وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾.

قولهُ تعالى: ﴿۞أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ تَوَلَّوۡاْ قَوۡمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم﴾ وهمُ المنافقونَ تولّوا اليهودَ ﴿مَّا هُم مِّنكُمۡ وَلَا مِنۡهُمۡ﴾ يقولُ: ليسَ المنافقونَ منَ اليهودِ ولا منَ المسلمينَ بلْ همْ مذبذبونَ بينَ ذلكَ ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمۡ﴾ أيْ لهؤلاءِ المنافقينَ ﴿عَذَابًا شَدِيدًاۖ﴾ في جهنّمَ وهوَ الدّركُ الأسفلُ ﴿إِنَّهُمۡ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٥﴾ أيْ بئسَ الأعمالُ أعمالهمْ ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ جُنَّةً﴾ يستجنّونَ بها منَ القتلِ ﴿فَلَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ ١٦﴾ في الدنيا بالقتل وفى الآخرة بالنار.

قولهُ تعالى: ﴿لَّن تُغۡنِيَ عَنۡهُمۡ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔاۚ﴾ أيْ منْ عذابهِ شيئًا ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ١٧ يَوۡمَ يَبۡعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعٗا فَيَحۡلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحۡلِفُونَ لَكُمۡ وَيَحۡسَبُونَ أَنَّهُمۡ عَلَىٰ شَيۡءٍۚ أَلَآ إِنَّهُمۡ هُمُ ٱلۡكَٰذِبُونَ ١٨﴾ في قولهم ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشۡرِكِينَ﴾ ويحسبونَ أنّهمْ على شيءٍ بإنكارهمْ وحلفهمْ ﴿ٱسۡتَحۡوَذَ عَلَيۡهِمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾ أحاطَ بهمْ وقوي عليهم. ﴿فَأَنسَىٰهُمۡ ذِكۡرَ ٱللَّهِۚ﴾ أوامرهُ في العملِ بطاعتهِ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ حِزۡبُ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ﴾ طائفتهُ ورهطهُ ﴿أَلَآ إِنَّ حِزۡبَ ٱلشَّيۡطَٰنِ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ١٩﴾ في بيعهمْ الجنّةَ بجهنّمَ والهدى بالضلالة.

قولهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾ تقدّمَ أوّلَ السّورة. ﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلۡأَذَلِّينَ ٢٠﴾ أيْ منْ جملةِ الأذلّاءِ ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغۡلِبَنَّ﴾ أيْ قضى اللّهُ ذلكَ. ﴿أَنَا۠﴾ توكيدٌ ﴿وَرُسُلِيٓۚ﴾ منْ بعثَ منهمْ بالحربِ فإنّهُ غالبٌ بالحربِ، ومنْ بعثَ منهمْ بالحجّةِ فإنّهُ غالبٌ بالحجّةِ، نظيرهُ: ﴿وَلَقَدۡ سَبَقَتۡ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلۡمُرۡسَلِينَ ١٧١ إِنَّهُمۡ لَهُمُ ٱلۡمَنصُورُونَ ١٧٢ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ ١٧٣﴾.

قولهُ تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَـٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾﴾، فيهِ مسألتانِ:

الأولى: قولهُ تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ يُوَآدُّونَ﴾ أيْ يحبّونَ ويوالونَ منْ حادَّ اللّهَ ورسولهُ فبيّنَ أنَّ الإيمانَ يفسدُ بموالاةِ الكفّارِ وإنْ كانوا أقاربَ.

الثانية- استدلَّ مالكٌ رحمهُ اللّهُ منْ هذهِ الآيةِ على معاداةِ القدريّةِ وتركِ مجالستهمْ.

قلت: وفي معنى أهلِ القدرِ جميعُ أهلِ الظّلمِ والعدوانِ.

وعنِ الثّوريِّ أنّهُ قالَ: كانوا يرونَ أنّها نزلتْ في منْ كانَ يصحبُ السّلطانَ.

﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَـٰنَ﴾ خصَّ القلوبَ بالذّكرِ لأنّها موضعُ الإيمانِ. ﴿وَأَيَّدَهُم﴾ قوّاهمْ ونصرهمْ ﴿بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ﴾ بالقرآن وحججه. وقيلَ: بجبريلَ عليه السلام ﴿وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ﴾ أيْ قبلَ أعمالهمْ ﴿وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ﴾ فرحوا بما أعطاهمْ ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾﴾.

سورة الحشر

مدنيّةٌ في قولِ الجميعِ، وهيَ أربعٌ وعشرونَ آيةً، وعند التّرمذيِّ عنْ معقلِ بنِ يسارٍ قالَ: قالَ رسولُ اللّهِ ﷺ: «منْ قالَ حينَ يصبحُ ثلاثَ مرّاتٍ أعوذُ باللّهِ السّميعِ العليمِ منَ الشّيطانِ الرّجيمِ وقرأَ ثلاثَ آياتٍ منْ آخرِ سورةِ الحشرِ وكّلَ اللّهُ بهِ سبعينَ ألفَ ملكٍ يصلّونَ عليهِ حتّى يمسيَ وإنْ ماتَ في يومهِ ماتَ شهيداً ومنْ قرأها حينَ يمسي فكذلكَ». قالَ: حديث حسن غريب.

بسمِ اللّهِ الرّحمنِ الرّحيمِ

قولهُ تعالى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ١﴾ تقدم.

قولهُ تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَخۡرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمۡ لِأَوَّلِ ٱلۡحَشۡرِۚ﴾، فيهِ ثلاثُ مسائلَ:

الأولى: قولهُ تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَخۡرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمۡ﴾ سورةُ الحشرِ سورةُ النّضيرِ، وهمْ رهطٌ منَ اليهودِ منْ ذرّيّةِ هارونَ عليه السلام، نزلوا المدينةَ في فتنِ بني إسرائيلَ انتظاراً لمحمّدٍ ﷺ، وكانَ منْ أمرهمْ ما نصَّ اللّهُ عليهِ.

الثانية- قولهُ تعالى: ﴿لِأَوَّلِ ٱلۡحَشۡرِۚ﴾ الحشرُ الجمعُ، قالَ ابنُ عبّاسٍ: منْ شكَّ أنَّ المحشرَ في الشّامِ فليقرأْ هذهِ الآيةَ، وهمْ أوّلُ منْ حشرَ منْ أهلِ الكتابِ وأخرجَ منْ ديارهِ.

وقيلَ: إنّهمْ أخرجوا إلى خيبرَ، وأنَّ معنى لأوّلِ الحشرِ إخراجهمْ منْ حصونهمْ إلى خيبرَ، وآخرهُ إخراجُ عمرَ رضي الله عنه إيّاهمْ منْ خيبرَ إلى نجدٍ وأذرعاتٍ. وقيلَ تيماءُ وأريحا، وذلكَ بكفرهمْ ونقضِ عهدهمْ. وأمّا الحشرُ **الثّاني**: فحشرهمْ قربَ القيامةِ.

وقيلَ: للحشرِ أوّلٌ ووسطٌ وآخرٌ، فالأوّلُ إجلاءُ بني النّضيرِ، والأوسطُ إجلاءُ خيبرَ، والآخرُ حشرُ يومِ القيامةِ، تأتي نارٌ تحشرُ النّاسَ منَ المشرقِ إلى المغربِ، تبيتُ معهمْ حيثُ باتوا، وتقيلُ معهمْ حيثُ قالوا، وتأكلُ منهمْ منْ تخلّفَ. وهذا ثابتٌ في الصّحيحِ

الثالثة- قالَ الكيا الطّبريُّ: ومصالحةُ أهلِ الحربِ على الجلاءِ منْ ديارهمْ منْ غيرِ شيءٍ

لا يجوزُ الآنَ، وإنّما كانَ ذلكَ في أوّلِ الإسلامِ ثمَّ نسخَ. والآنَ فلا بدَّ منْ قتالهمْ أوْ سبيهمْ أوْ ضربِ الجزيةِ عليهمْ.

قولهُ تعالى: ﴿مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا۟ۖ﴾ يريدُ لعظمِ أمرِ اليهودِ ومنعتهمْ وقوّتهمْ في صدورِ المسلمينَ، واجتماعِ كلمتهمْ ﴿وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أيْ منْ أمرهِ. وكانوا أهلَ حلقةٍ - أيْ سلاحٍ - كثيرٍ - وحصونٍ منيعةٍ، فلمْ يمنعهم شيء منها ﴿فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ﴾ أيْ أمرهُ وعذابهُ ﴿مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟ۖ﴾ أيْ لمْ يظنّوا.

قولهُ تعالى: ﴿وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَۚ﴾ بقتلِ سيّدهمْ كعبِ بنِ الأشرفِ، وكانَ الّذي قتلهُ هوَ محمّدُ بنُ مسلمةَ وأبو نائلةَ، وفي الصّحيحِ أنَّ النّبيَّ ﷺ قال: «نصرتُ بالرّعبِ بينَ يديْ مسيرةِ شهرٍ» فكيفَ لا ينصرُ بهِ مسيرةَ ميلٍ منَ المدينةِ إلى محلّةِ بني النّضيرِ. وهذهِ خصّيصية لمحمّدٍ ﷺ دونَ غيره.

قولهُ تعالى: ﴿يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم﴾ قراءةُ العامّةِ بالتّخفيفِ منْ أخربَ، أيْ يهدمونَ، وقرأ أبو عمرو ﴿يُخَرِّبُونَ﴾ بالتشديد من التخريب.

﴿بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ كانَ المؤمنونَ يخرّبونَ منْ خارجٍ ليدخلوا، واليهودُ يخرّبونَ منْ داخلٍ ليبنوا بهِ ما خربَ منْ حصنهمْ، وقيلَ: لمّا صالحهمُ النّبيُّ ﷺ على أنَّ لهمْ ما أقلّتِ الإبلُ، كانوا يستحسنونَ الخشبةَ والعمودَ فيهدمونَ بيوتهمْ ويحملونَ ذلكَ على إبلهمْ ويخرّبُ المؤمنونَ باقيها. قيل: كانوا يخرّبونها لئلّا يسكنها المسلمونَ بعدهمْ.

فرويَ أنّهمْ صالحوا رسولُ اللّهِ ﷺ على ألّا يكونوا عليهِ ولا لهُ، فلمّا ظهرَ يومَ بدرٍ قالوا: هوَ النّبيُّ الّذي نعتَ في التّوراةِ، فلا تردُّ لهُ رايةٌ. فلمّا هزمَ المسلمونَ يومَ أحدٍ ارتابوا ونكثوا، فخرجَ كعبُ بنُ الأشرفِ في أربعينَ راكبًا إلى مكّةَ، فحالفوا عليهِ قريشًا عندَ الكعبةِ، فأمّرَ ﷺ محمّدَ بنَ مسلمةَ الأنصاريَّ فقتلَ كعبًا غيلةً ثمَّ صبّحهمْ بالكتائبِ، فقالَ: لهمُ: اخرجوا منَ المدينةِ. فقالوا: الموتُ أحبُّ إلينا منْ ذلكَ، فتنادوا بالحربِ. وقيلَ: استمهلوا رسولُ اللّهِ ﷺ عشرةَ أيّامٍ ليتجهّزوا للخروجِ، فدس إليهم عبد الله ابن أبيٍّ المنافقُ وأصحابهُ لا تخرجوا منَ الحصنِ، فإن قاتلوكم فنحن معكم لا نخذلكم، ولين أخرجتمْ لنخرجنَّ

معكمْ. فدُرِّبُوا على الأزقّةِ وحصّنوها إحدى وعشرينَ ليلةً، فلمّا قذفَ اللّهُ في قلوبهمُ الرّعبَ وأيسوا منْ نصرِ المنافقينَ طلبوا الصّلحَ، فأبى عليهمْ إلّا الجلاءَ.

﴿فَٱعْتَبِرُواْ يَـٰٓأُوْلِى ٱلْأَبْصَـٰرِ ۝٢﴾ أيِ اتّعظوا يا أصحابَ العقولِ والألبابِ.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمُ ٱلْجَلَآءَ﴾ ويبقونَ مدّةً يؤمنُ بعضهمْ ويولدُ لهمْ منْ يؤمنُ ﴿لَعَذَّبَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا﴾ أيْ بالقتلِ والسّبيِ كما فعلَ ببني قريظةَ. والجلاءُ مفارقةُ الوطنِ، والفرقُ بينَ الجلاءِ والإخراجِ وإنْ كانَ معناهما في الإبعادِ واحداً منْ وجهينِ:

أحدهما- أنَّ الجلاءَ ما كانَ معَ الأهلِ والولدِ، والإخراجُ قد يكون مع بقاء الأهلِ والولدِ.

الثّاني- أنَّ الجلاءَ لا يكونُ إلّا لجماعةٍ، والإخراجَ يكونُ لواحدٍ ولجماعةٍ.

قولهُ تعالى: ﴿ذَٰلِكَ﴾ أيْ ذلكَ الجلاءُ ﴿بِأَنَّهُمْ شَآقُّواْ ٱللَّهَ﴾ أيْ عادوهُ وخالفوا أمرهُ ﴿وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ۝٤﴾.

قولهُ تعالى: ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيُخْزِىَ ٱلْفَـٰسِقِينَ ۝٥﴾، فيهِ خمسُ مسائلَ:

الأولى: قولهُ تعالى: ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ﴾ "مَا" في محلِّ نصبٍ بِ قطعتمْ، كأنه قال: أي شيءٍ قطعتمْ. وذلكَ أنَّ النّبيَّ ﷺ لمّا نزلَ على حصونِ بني النّضيرِ- وهي البويرة- حينَ نقضوا العهدَ بمعونةِ قريشٍ عليهِ يومَ أحدٍ، أمرَ بقطعِ نخيلهمْ وإحراقها. إمّا لإضعافهمْ بها وإما لسعةِ المكانِ بقطعها. فشقَّ ذلكَ عليهمْ فقالوا- وهمْ يهودُ أهل الكتابِ-: يا محمّدُ، ألستَ تزعمُ أنّكَ نبيٌّ تريدُ الصّلاحَ، أفمنَ الصّلاحِ قطع النخلِ وحرقُ الشّجرِ؟ فشقَّ ذلكَ على النّبيِّ ﷺ. ووجدَ المؤمنونَ في أنفسهمْ، فنزلتِ الآيةُ بتصديقِ منْ نهى عنِ القطعِ وتحليلِ منْ قطعَ منَ الإثمِ، وأخبرَ أنَّ قطعهُ وتركهُ بإذنِ اللّهِ..

الثانية- كانَ خروجُ النّبيِّ ﷺ إليهمْ في ربيعِ الأوّلِ أوّلَ السّنةِ الرابعة منَ الهجرةِ، وتحصّنوا منهُ في الحصونِ، وأمرَ بقطعِ النّخلِ وإحراقها، وحينئذٍ نزلَ تحريمُ الخمرِ. ودس عبد الله بن أبي بن سلولَ ومنْ معهُ منَ المنافقينَ إلى بني النّضيرِ: إنّا معكمْ، وإنْ قوتلتمْ قاتلنا

معكمْ، وإنْ أخرجتمْ خرجنا معكمْ، فاغترّوا بذلكَ. فلمّا جاءتِ الحقيقةُ خذلوهمْ وأسلموهمْ وألقوا بأيديهمْ، وسألوا رسول الله ﷺ أن يكف عن دمائهمْ ويجليهمْ، على أنَّ لهمْ ما حملتِ الإبلُ منْ أموالهمْ إلّا السّلاحَ، فاحتملوا كذلكَ إلى خيبرَ، ومنهمْ منْ سارَ إلى الشّامِ. وكانَ ممّنْ سارَ منهمْ إلى خيبرَ أكابرهمْ، كحييِّ بنِ أخطبَ، وسلّامِ بنِ أبي الحقيقِ، وكنانةَ بنِ الرّبيعِ. فدانتْ لهمْ خيبرُ.

الثالثة: ثبتَ في صحيحِ مسلمٍ وغيرهِ عنِ ابنِ عمرَ أنَّ رسولَ اللّهِ ﷺ قطعَ نخلَ بني النّضيرِ وحرّقَ. ولها يقول حسان:

وهان على سراة بني لوي حريقٌ بالبويرةِ مستطيرُ

واختلفَ النّاسُ في تخريبِ دارِ العدوِّ وتحريقها وقطعِ ثمارها على قولين:

الأول– أن ذلك جائز، قاله في المدوّنةِ.

الثّاني– إنْ علمَ المسلمونَ أنَّ ذلكَ لهمْ لمْ يفعلوا، وإنْ يئسوا فعلوا، قالهُ مالكٌ في الواضحةِ. وعليهِ يناظرُ أصحابُ الشّافعيِّ. والصّحيحُ الأوّلُ. وقدْ علمَ رسول الله ﷺ أن نخلَ بني النّضيرِ لهُ، ولكنّهُ قطعَ وحرّقَ ليكونَ ذلكَ نكايةً لهمْ ووهنًا فيهمْ حتّى يخرجوا عنها. وإتلافُ بعضِ المالِ لصلاحِ باقيهِ مصلحةٌ جائزةٌ شرعًا، مقصودةٌ عقلاً.

الرابعة– في هذهِ الآيةِ دليلاً على أنَّ كلَّ مجتهدٍ مصيبٌ وإنْ كانَ الاجتهادُ يبعدُ في مثلهِ معَ وجودِ النّبيِّ ﷺ بينَ أظهرهمْ، ولا شكَ أنَّ رسولَ اللّهِ ﷺ رأى ذلكَ وسكتَ، فتلقّوا الحكمَ منْ تقريرهِ فقطْ.

قالَ ابنُ العربيِّ: وهذا باطلٌ، لأنَّ رسولَ اللّهِ ﷺ كانَ معهمْ، ولا اجتهادَ معَ حضورِ رسولِ اللّهِ ﷺ، وإنّما يدلُّ على اجتهادِ النّبيِّ ﷺ فيما لمْ ينزلْ عليهِ، أخذاً بعمومِ الأذيّةِ للكفّارِ، ودخولاً في الإذنِ للكل بما يقضي عليهمْ بالاجتياحِ والبوارِ، وذلكَ قولهُ تعالى: ﴿وَلِيُخۡزِيَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾.

الخامسة: اللّينةِ قيل: هو النّخلُ كلّهُ أو كله إلّا العجوةَ، أو العجوةُ خاصّةً أو كرامُ النّخلِ، واختلفَ في اشتقاقها، فقيلَ: هيَ منَ اللّونِ وأصلها لُونةٌ. وقيلَ أصلها لينةٌ منْ لانَ يلينُ.

قولهُ تعالى: ﴿وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنۡهُمۡ﴾ هذهِ الآيةُ والّتي بعدها إلى قولهِ ﴿شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ۝٧﴾، فيهِ عشرُ مسائلَ:

الأولى: قولهُ تعالى: ﴿وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ﴾ يعني ما ردّهُ اللّهُ تعالى على رسولهِ منْ أموالِ بني النّضيرِ ﴿فَمَآ أَوۡجَفۡتُمۡ عَلَيۡهِ﴾ أوضعتمْ عليهِ. والإيجافُ: الإيضاعُ في السّيرِ وهوَ الإسراعُ، يقولُ: لمْ تقطعوا إليها شقّةً ولا لقيتمْ بها حرباً ولا مشقّةً، وإنّما كانتْ منَ المدينةِ على ميلينِ، وافتتحها صلحاً وأجلاهمْ وأخذَ أموالهمْ. فسألَ المسلمونَ النّبيَّ ﷺ أنْ يقسمَ لهمْ فنزلتْ: ﴿وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنۡهُمۡ﴾ الآيةَ. فجعلَ أموالَ بني النّضيرِ للنّبيِّ ﷺ خاصّةً يضعها حيثُ شاءَ، فقسمها النّبيُّ ﷺ بينَ المهاجرينَ.

وفي صحيحِ مسلمٍ عنْ عمرُ قالَ: كانتْ أموالُ بني النّضيرِ ممّا أفاءَ اللّهُ على رسولهِ ممّا لمْ يوجفْ عليهِ المسلمونَ بخيلٍ ولا ركابٍ، وكانتْ للنّبيِّ ﷺ خاصّةً، فكانَ ينفقُ على أهلهِ نفقةَ سنةٍ، وما بقيَ يجعلهُ في الكراعِ والسّلاحِ عدّةً في سبيلِ اللّهِ تعالى.

وقالَ العبّاسُ لعمرَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا -: اقضِ بيني وبينَ هذا الكاذبِ الآثمِ الغادرِ الخائنِ - يعني عليّاً رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - فيما أفاءَ اللّهُ على رسولهِ منْ أموالِ بني النّضيرِ. فقالَ: عمرُ: أتعلمانِ أنَّ النّبيَّ ﷺ قال: «لا نورثُ ما تركناهُ صدقةٌ» قالا نعمْ. قالَ عمرُ: إنَّ اللّهَ عزَّ وجلَّ كانَ خصَّ رسولهُ ﷺ بخاصّةٍ ولمْ يخصّصْ بها أحداً غيرهُ. قالَ: ﴿وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰ فللّهِ وللرّسولِ﴾ - ما أدري هلْ قرأَ الآيةَ الّتي قبلها أمْ لا - فقسمَ رسولُ اللّهِ ﷺ بينكمْ أموالَ بني النّضيرِ، فواللّهِ ما استأثرها عليكمْ ولا أخذها دونكمْ حتّى بقيَ هذا المالُ، فكانَ رسولُ اللّهِ ﷺ يأخذُ منهُ نفقةَ سنةٍ، ثمَّ يجعلُ ما بقيَ أسوةَ المالِ... الحديثَ بطولهِ، خرّجهُ مسلمٌ.

﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ﴾ أيْ منْ أعدائهِ. وفي هذا بيانٌ أنَّ تلكَ الأموالَ كانتْ خاصّةً لرسولِ اللّهِ ﷺ دونَ أصحابهِ.

الثانية- قولهُ تعالى: ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰ﴾ قريظةُ والنّضيرُ، وقدْ تكلّمَ العلماءُ في هذهِ الآيةِ والّتي قبلها، هلْ معناهما واحدٌ أوْ مختلفٌ، والآيةُ الّتي في الأنفالِ:

فقالَ قومٌ منَ العلماءِ: إنَّ قولهُ تعالى: ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰ﴾

منسوخٌ بما في سورةِ الأنفالِ منْ كونِ الخمسِ لمنْ سمّيَ لهُ، والأخماسُ الأربعةُ لمنْ قاتلَ. وكانَ في أوّلِ الإسلامِ تقسمُ الغنيمةُ على هذهِ الأصنافِ ولا يكون لمن قاتل عليها شيء. وهذا قولُ يزيدَ بنِ رومانَ وقتادةَ وغيرهما. ونحوهُ عنْ مالكٍ.

وقالَ قومٌ: إنّما غُنمَ بصلح منْ غيرِ إيجافِ خيلٍ ولا ركابٍ، فيكونُ لمنْ سمّى اللّهَ تعالى فيهِ فيئًا والأولى للنّبيِّ ﷺ خاصّةً، إذا أخذَ منهُ حاجتهُ كانَ الباقي في مصالحِ المسلمينَ.

وقالَ معمرٌ: الأولى للنّبيِّ ﷺ، والثانية هيَ الجزيةُ والخراجُ للأصنافِ المذكورةِ فيهِ، والثالثة الغنيمةُ في سورةِ الأنفالِ للغانمينَ.

وقالَ قومٌ منهمُ الشّافعيُّ: إنَّ معنى الآيتينِ واحدٌ، أيْ ما حصلَ منْ أموالِ الكفّارِ بغيرِ قتالٍ قسّمَ على خمسةِ أسهمٍ، أربعةٌ منها للنّبيِّ ﷺ. وكانَ الخمسُ الباقي على خمسةِ أسهمٍ: سهمٌ لرسولِ اللّهِ ﷺ أيضًا وسهمٌ لذوي القربى - وهمْ بنو هاشمٍ وبنو المطّلبِ - لأنّهمْ منعوا الصّدقةَ فجعلَ لهمْ حقٌّ في الفيءِ، وسهمٍ لليتامى، وسهمٍ للمساكينِ، وسهم لابنِ السّبيلِ، وأمّا بعدَ وفاةِ رسولِ اللّهِ ﷺ، فالّذي كانَ منَ الفيءِ لرسولِ اللّهِ ﷺ يصرفُ عندَ الشّافعيِّ في قولٍ إلى المجاهدينَ المترصّدينَ للقتالِ في الثّغورِ، لأنّهمُ القائمونَ مقامَ الرّسولِ ﷺ. وفي قولٍ آخرَ لهُ: يصرفُ إلى مصالحِ المسلمينَ منْ سدِّ الثّغورِ وحفرِ الأنهارِ وبناءِ القناطرِ، يقدّمُ الأهمُّ فالأهمُّ، وهذا في أربعةِ أخماسِ الفيءِ، فأمّا السّهمُ الّذي كانَ لهُ منْ خمسِ الفيءِ والغنيمةِ فهوَ لمصالحِ المسلمينَ بعدَ موتهِ ﷺ بلا خلافٍ، كما قالَ ﷺ: «ليسَ لي منْ غنائمكمْ إلّا الخمسُ والخمسُ مردودٌ فيكمْ».

وكذلكَ ما خلّفهُ منَ المالِ غيرُ موروثٍ، بلْ هوَ صدقةٌ يصرفُ عنهُ إلى مصالحِ المسلمينَ، كما قالَ ﷺ: «إنّا لا نورّثُ ما تركناهُ صدقةٌ».

الثالثة - الأموالُ الّتي للأئمّةِ والولاةِ فيها مدخلُ ثلاثةِ أضربٍ:

الأول: ما أخذَ منَ المسلمينَ على طريقِ التّطهيرِ لهمْ، كالصّدقاتِ والزّكواتِ.

والثّاني: الغنائمُ، وهوَ مايحصلُ في أيدي المسلمينَ منْ أموالِ الكافرينَ بالحربِ والقهرِ والغلبةِ.

والثّالثُ: الفيءُ، وهوَ ما رجعَ للمسلمينَ منْ أموالِ الكفّارِ عفواً صفواً منْ غيرِ قتالٍ ولا إيجافٍ، كالصّلحِ والجزيةِ والخراجِ والعشورِ المأخوذةِ منْ تجّارِ الكفّارِ. ومثلهُ أنْ يهربَ المشركونَ ويتركوا أموالهمْ، أوْ يموتَ أحدٌ منهمْ في دارِ الإسلامِ ولا وارثَ لهُ. فأمّا الصّدقةُ فمصرفها الفقراءِ والمساكينَ والعاملينَ عليها، حسبَ ما ذكرهُ اللّهُ تعالى، وقدْ مضى في براءةٍ وأمّا الغنائمُ فكانتْ في صدرِ الإسلامِ للنّبيِّ ﷺ يصنعُ فيها ما شاءَ، كما قالَ في سورةِ الأنفالِ: ﴿قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾، ثمَّ نسخَ بقولهِ تعالى: ﴿۞ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ﴾ الآيةَ. وقدْ مضى في الأنفالِ بيانهُ. فأمّا الفيءُ فقسمتهُ وقسمةُ الخمسِ سواءٌ. والأمرُ عندَ مالكٍ فيهما إلى الإمامِ، فإنْ رأى حبسهما لنوازلَ تنزلُ بالمسلمينَ فعلَ، وإنْ رأى قسمتهما أوْ قسمةَ أحدهما قسمهُ كلّهُ بينَ النّاسِ، وسوّى فيهِ بينَ عربيّهمْ وموالاهمْ. ويبدأُ بالفقراءِ منْ رجالٍ ونساءٍ حتّى يغنوا، ويعطوا ذوو القربى منْ رسولِ اللّهِ ﷺ منَ الفيءِ سهمهمْ على ما يراهُ الإمامُ، وليسَ لهُ حدٌّ معلومٌ. واختلفَ في إعطاءِ الغنيِّ منهمْ، فأكثرُ النّاسِ على إعطائهِ لأنّهُ حقٌّ لهمْ. وقالَ مالكٌ: لا يعطى منهُ غيرُ فقرائهمْ، لأنّهُ جعلَ لهمْ عوضاً منَ الصّدقةِ.

ومذهبُ الشّافعيِّ رضي الله عنه: أنَّ سبيلَ خمسِ الفيءِ سبيلُ خمسِ الغنيمةِ، وأنَّ أربعةَ أخماسهِ كانتْ للنّبيِّ ﷺ، وهيَ بعدهُ لمصالحِ المسلمينَ. ولهُ قولٌ آخرُ: أنّها بعدهُ للمرصدينَ أنفسهمْ للقتالِ بعدهُ خاصّةً، كما تقدّمَ.

الرابعة- قالَ علماؤنا: ويقسمُ كلُّ مالٍ في البلدِ الّذي جبيَ فيهِ، ولا ينقلُ عنْ ذلكَ البلدِ الّذي جبيَ فيهِ حتّى يغنوا، ثمَّ ينقلُ إلى الأقربِ منْ غيرهمْ، إلّا أنْ ينزلَ بغيرِ البلدِ الّذي جبيَ فيهِ فاقةٌ شديدةٌ، فينتقلَ ذلكَ إلى أهلِ الفاقةِ حيثُ كانوا، كما فعلَ عمرَ بنِ الخطّابِ رضي الله عنه في أعوامِ الرّمادةِ، وكانتْ خمسةَ أعوامٍ أوْ ستّةً. وقدْ قيل عامين. وقيلَ: عامٌ فيهِ اشتدَّ الطّاعونُ معَ الجوعِ. وإنْ لمْ يكنْ ما وصفنا ورأى الإمامُ إيقافَ الفيءِ أوقفهُ لنوائبِ المسلمينَ، ويعطي منهُ المنفوسَ ويبدأُ بمنْ أبوهُ فقيرٌ. والفيءُ حلالٌ للأغنياءِ. ويسوّي بينَ النّاسِ فيهِ إلّا أنّهُ يؤثرُ أهلَ الحاجةِ والفاقةِ. والتّفضيلُ فيهِ إنّما يكونُ على قدرِ الحاجةِ. ويعطى منهُ الغرماءُ ما يؤدّونَ بهِ ديونهمْ. ويعطي منهُ الجائزةَ والصّلةَ إن كان ذلك أهلا، ويرزق القضاء والحكّامَ ومنْ فيهِ منفعةٌ للمسلمينَ. وأولاهمْ بتوفّرِ الحظِّ منهمْ أعظمهمْ للمسلمينَ نفعاً. ومنْ أخذَ

منَ الفيءِ شيئًا في الدّيوانِ كانَ عليهِ أنْ يغزوَ إذا غزى.

الخامسة- قولهُ تعالى: ﴿كَيۡ لَا يَكُونَ دُولَةَۢ﴾ قراءةُ العامّةِ يكونَ بالياءِ. دولةً بالنّصبِ، أيْ كيْ لا يكونَ الفيءُ دولةً وقرأ أبو جعفرٍ وهشامٌ- عنِ ابنِ عامرٍ- «تَكُونَ» بتاءِ «دُولَةٌ» بالرّفعِ، أيْ كيْ لا تقعُ دولةٌ. فكانَ تامّةٌ، والدَولةُ بالفتحِ الظّفَرُ في الحربِ وغيرِه، وهيَ المصدرُ. وبالضّمِّ اسمُ الشّيءِ الّذي يتداولُ منَ الأموالِ، ومعنى الآيةِ: فعلنا ذلكَ في هذا الفيءِ، كيْ لا تقسمهُ الرّؤساءُ والأغنياءُ والأقوياءُ بينهمْ دونَ الفقراءِ والضّعفاءِ.

السادسة- قولهِ تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْۚ﴾ أيْ ما أعطاكمْ منْ مالِ الغنيمةِ فخذوهُ، وما نهاكمْ عنهُ منَ الأخذِ والغلولِ فانتهوا، وقيلَ: إنّهُ محمولٌ على العمومِ في جميعِ أوامرهِ ونواهيهِ، لا يأمرُ إلّا بصلاحٍ ولا ينهى إلّا عنْ فسادٍ.

السابعة- قولهِ تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْۚ﴾ هذا يوجبُ أنَّ كلَّ ما أمرَ بهِ النّبيُّ ﷺ أمرٌ منَ اللّهِ تعالى. والآيةُ وإنْ كانتْ في الغنائمِ فجميعُ أوامرهِ ﷺ ونواهيهِ دخلَ فيها.

الثّامنةُ- في صحيحِ مسلمٍ وغيرهِ عنْ علقمةَ عنِ ابنِ مسعودٍ قالَ: قالَ رسولُ اللّهِ ﷺ: «لعنَ اللّهُ الواشماتِ والمستوشماتِ والمتنمّصاتِ والمتفلّجاتِ للحسنِ المغيّراتِ خلقَ اللّهِ» فبلغَ ذلكَ امرأةً منْ بني أسدٍ يقالُ لها أمُّ يعقوبَ، فجاءتْ فقالتْ: بلغني أنّكَ لعنتَ كيتَ وكيتَ! فقالَ: وما لي لا ألعنُ منْ لعنَ رسولُ اللّهِ ﷺ وهوَ في كتابِ اللّهِ! فقالتْ: لقدْ قرأتُ ما بينَ اللّوحينِ فما وجدتُ فيهِ ما تقولُ. فقالَ: لئنْ كنتِ قرأتيهِ لقدْ وجدتيهِ! أما قرأتِ: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْۚ﴾ قالتْ: بلى. قالَ: فإنّهُ قدْ نهى عنهُ.. الحديثَ.

التاسعة- قولهُ تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ﴾ وإنْ جاءَ بلفظِ الإيتاءِ وهوَ المناولةُ فإنَّ معناهُ الأمرُ، بدليلِ قولهِ تعالى: ﴿وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْۚ﴾ فقابلهُ بالنّهي، ولا يقابلُ النّهيُ إلّا بالأمرِ، والدّليلُ على فهمِ ذلكَ ما ذكرناهُ قبلُ معَ قولهِ ﷺ: «إذا أمرتكمْ بأمرٍ فأتوا منهُ ما استطعتمْ، وإذا نهيتكمْ عنْ شيءٍ فاجتنبوهُ».

العاشرة- قولهُ تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ في أوامرهِ ونواهيهِ فلا تضيّعوها ﴿إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ۝٧﴾ لمنْ خالفَ ما أمره به.

قولهُ تعالى: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمْ﴾ أي الفيءُ والغنائمُ للفقراءِ المهاجرينَ ﴿يَبْتَغُونَ﴾ يطلبونَ ﴿فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أيْ غنيمةً في الدّنيا ﴿وَرِضْوَٰنًا﴾ في الآخرةِ، أيْ مرضاةَ ربّهمْ ﴿وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾ في الجهادِ في سبيلِ اللّهِ. ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ۝٨﴾ في فعلهمْ ذلكَ.

قولهُ تعالى: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّؤُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلاَ يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ۝٩﴾، فيهِ إحدى عشرةَ مسألةً:

الأولى: قولهُ تعالى: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّؤُوا الدَّارَ﴾ همُ الأنصارُ الّذينَ استوطنوا المدينةَ قبلَ المهاجرينَ إليها ﴿وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ اعتقدوا وأخلصوه، ويجوزُ حملهُ على حذفِ المضافِ كأنّهُ قالَ: تبوّؤا الدّارَ ومواضعَ الإيمانِ، والتّبوّءُ: التّمكّنُ والاستقرارُ. وليسَ يريدُ أنَّ الأنصارَ آمنوا قبلَ المهاجرينَ، بلْ أرادَ آمنوا قبلَ هجرةِ النّبيِّ ﷺ إليهمْ.

الثانية- واختلفَ أيضاً هلْ هذهِ الآيةُ مقطوعةٌ ممّا قبلها أوْ معطوفةٌ، فتأوّلَ قومٌ أنّها معطوفةٌ على قولهِ: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ﴾ وأنَّ الآياتِ الّتي في الحشرِ كلّها معطوفةٌ بعضها على بعضٍ. وقيلَ: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّؤُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ﴾ ابتداءُ كلامٍ في مدحِ الأنصارِ والثّناءِ عليهمْ، فإنّهمْ سلّموا ذلكَ الفيءَ للمهاجرينَ، وكأنّهُ قالَ: الفيءُ للفقراءِ المهاجرينَ، والأنصارِ يحبّونَ لهم، لم يحسدوهمْ على ما صفا لهمْ منَ الفيءِ. وكذا ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾ ابتداءُ كلامٍ، والخبرُ ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا﴾، وقيلَ: إن قوله: ﴿والّذين تبوّأوا الدّارَ﴾ ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو﴾ معطوف على ما قبل، شركاءُ في الفيءِ، أيْ هذا المالُ للمهاجرينَ والّذينَ تبوّؤا الدّارَ.

الثالثة- روى مالكٌ عنْ زيدِ بنِ أسلمَ عنْ أبيهِ أنَّ عمرَ قالَ: لولا منْ يأتي منْ آخرُ النّاسِ ما فتحتْ قريةٌ إلّا قسمتها كما قسمَ رسولُ اللّهِ ﷺ خيبرَ. وفي الرّواياتِ المستفيضةِ منَ

الطّرقِ الكثيرةِ: أنَّ عمرَ أبقى سوادَ العراقِ ومصرَ وما ظهرَ عليهِ منَ الغنائمِ، لتكونَ منْ أعطياتِ المقاتلةِ وأرزاقِ الحشوةِ والذّراريِّ، وأنَّ الزّبيرَ وبلالاً وغيرَ واحدٍ منَ الصّحابةِ أرادوهُ على قسمِ ما فتحَ عليهمْ، فكرهَ ذلكَ منهمْ.

واختلفَ فيما فعلَ منْ ذلكَ، فقيلَ: إنّهُ استطابَ أنفسَ أهلِ الجيشِ، فمنْ رضيَ لهُ بتركِ حظّهِ بغيرِ ثمنٍ ليبقيهُ للمسلمينَ ومنْ أبى أعطاهُ ثمنَ حظّهِ. وقيلَ: إنّهُ أبقاها بغيرِ شيءٍ أعطاه أهل الجيوش.

الرابعة- واختلفَ العلماءُ في قسمةِ العقارِ، فقالَ: مالكٌ: للإمامِ أنْ يوقفها لمصالحِ المسلمينَ. وقالَ أبو حنيفةَ: الإمامُ مخيّرٌ بينَ أنْ يقسمها أوْ يجعلها وقفًا لمصالحِ المسلمينَ. وقالَ الشّافعيُّ: ليسَ للإمامِ حبسها عنهمْ بغيرِ رضاهمْ، بلْ يقسمها عليهمْ كسائرِ الأموالِ. فمنْ طابَ نفسًا عنْ حقّهِ للإمامِ أنْ يجعلهُ وقفًا عليهمْ فلهُ. ومن لم تطب نفسه فهو أحق بماله. وعمرُ ﵁ استطابَ نفوسَ الغانمينَ واشتراها منهمْ. قلت: وعلى هذا يكونُ قولهُ: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ﴾ مقطوعًا ممّا قبلهُ، وأنّهمْ ندبوا بالدّعاءِ للأوّلينَ والثّناءِ عليهمْ.

الخامسة- قالَ ابنُ وهبٍ: سمعتُ مالكًا يذكرُ فضلَ المدينةِ على غيرها منَ الآفاقِ فقالَ: إنَّ المدينةَ تُبُوّئتْ بالإيمانِ والهجرةِ، وإنَّ غيرها منَ القرى افتتحتْ بالسّيفِ، ثمَّ قرأ: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّؤُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ﴾ الآيةَ.

السادسة- قولهُ تعالى: ﴿وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمۡ حَاجَةٗ مِّمَّآ أُوتُواْ﴾ يعني لا يحسدونَ المهاجرينَ على ما خصّوا بهِ منْ مالِ الفيءِ وغيرهِ، وكانَ المهاجرونَ في دورِ الأنصارِ، فلمّا غنمَ ﷺ أموالَ بني النّضيرِ، دعا الأنصارَ وشكرهمْ فيما صنعوا معَ المهاجرينَ في إنزالهمْ إيّاهمْ في منازلهمْ، وإشراكهمْ في أموالهمْ. ثمَّ قالَ: «إنْ أحببتمْ قسمتُ ما أفاءَ اللّهُ عليَّ منْ بني النّضيرِ بينكمْ وبينهمْ، وكانَ المهاجرونَ على ما همْ عليهِ منَ السّكنى في مساكنكمْ وأموالكمْ وإنْ أحببتمْ أعطيتهمْ وخرجوا منْ دوركمْ». فقالَ: سعدُ بنُ عبادةَ وسعدُ بنُ معاذٍ: بلْ نقسمهُ بينَ المهاجرينَ، ويكونونَ في دورنا كما كانوا. ونادتِ الأنصارُ: رضينا وسلّمنا يا رسول الله، فقال رسول الله ﷺ: «اللّهمَّ ارحمِ الأنصارَ وأبناءَ الأنصارِ». وأعطى رسولُ اللّهِ ﷺ المهاجرينَ ولمْ يعطِ الأنصارَ شيئًا إلّا الثّلاثةَ الّذينَ ذكرناهمْ.

ويحتملُ أنْ يريدَ بهِ ﴿وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُواْ﴾ إذا كانَ قليلاً بلْ يقنعونَ بهِ ويرضونَ عنهُ. وقدْ كانوا على هذهِ الحالةِ حينَ حياةِ النّبيِّ ﷺ دنيا، ثمَّ كانوا عليهِ بعدَ موتهِ ﷺ بحكمِ الدّنيا. وقدْ أنذرهمُ النّبيُّ ﷺ، وقالَ: «سترونَ بعدي أثرةً فاصبروا حتّى تلقوني على الحوضِ».

السابعة- قولهُ تعالى: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌۚ﴾ في التّرمذيِّ عنْ أبي هريرةَ: أنَّ رجلاً باتَ بهِ ضيفٌ فلمْ يكنْ عندهُ إلّا قوتهُ وقوتُ صبيانه، فقالَ: لامرأتهِ: نوّمي الصّبيةَ وأطفئي السّراجَ وقرّبي للضّيفِ ما عندكِ، فنزلتْ هذهِ الآيةُ ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌۚ﴾ قالَ: هذا حديثٌ حسنٌ صحيحٌ. خرّجهُ مسلمٌ أيضـًا.

وخرّجَ عنْ أبي هريرةَ قالَ: جاءَ رجلٌ إلى رسولِ اللّهِ ﷺ فقال: إنّي مجهودٌ. فأرسلَ إلى بعضِ نسائهِ فقالتْ: والّذي بعثكَ بالحقِّ ما عندي إلّا ماءٌ. ثمَّ أرسلَ إلى الأخرى فقالتْ مثلَ ذلكَ، حتّى قلنَ كلّهنَّ مثلَ ذلكَ: لا والّذي بعثكَ بالحقِّ ما عندي إلّا ماءٌ. فقالَ: منْ يضيّفُ هذا اللّيلةَ رحمهُ اللّهُ؟ فقامَ رجلٌ منَ الأنصارِ فقالَ: أنا يا رسولَ اللّهِ. فانطلقَ بهِ إلى رحلهِ فقالَ: لامرأتهِ: هل عندك شي؟ قالتْ: لا، إلّا قوتُ صبياني. قالَ: فعلّليهمْ بشيءٍ فإذا دخلَ ضيفنا فأطفئي السّراجَ وأريهِ أنّا نأكلُ، فإذا أهوى ليأكلَ فقومي إلى السّراجِ حتّى تطفئيهِ. قالَ: فقعدوا وأكلَ الضّيفُ. فلمّا أصبحَ غدا على النّبيِّ ﷺ فقالَ: «قدْ عجبَ اللّهُ عزَّ وجلَّ- منْ صنيعكما بضيفكما اللّيلةَ».

وفي الصّحيحينِ عنْ أنسٍ: أنَّ الرّجلَ كانَ يجعلُ للنّبيِّ ﷺ النّخلاتِ منْ أرضهِ حتّى فتحتْ عليهِ قريظةُ والنّضيرُ، فجعلَ بعدَ ذلكَ يردُّ عليهِ ما كانَ أعطاهُ. لفظُ مسلمٍ.

وعنْ أنسِ بنِ مالكٍ: لمّا قدمَ المهاجرونَ من مكة المدينة قدموا وليس بأيديهم شيء، وكانَ الأنصارُ أهلَ الأرضِ والعقارِ، فقاسمهمُ الأنصارُ على أنْ أعطوهمْ أنصافَ ثمارِ أموالهمْ كلَّ عام ويكفونهم العمل والمئونة، وكانتْ أمُّ أنسِ بنِ مالكٍ تدعى أمَّ سليمٍ، وكانتْ أمَّ عبدِ اللّهِ بنِ أبي طلحةَ، كانَ أخـًا لأنسٍ لأمّهِ، وكانتْ أعطتْ أمُّ أنسٍ رسولَ اللّهِ ﷺ عذاقـًا لها، فأعطاها رسولُ اللّهِ ﷺ أمَّ أيمنَ مولاتهُ، ثمَّ أسامةَ بنَ زيدٍ. قالَ ابنُ شهابٍ: فأخبرني أنسُ بنِ مالكٍ: أنَّ رسولَ اللّهِ ﷺ لمّا فرغَ منْ قتالِ أهلِ خيبرَ وانصرفَ إلى المدينةِ، ردَّ

المهاجرونَ إلى الأنصارِ منائحهمُ الّتي كانوا منحوهمْ منْ ثمارهمْ. قالَ: فردَّ رسولُ اللّهِ ﷺ إلى أمّي عذاقها، وأعطى رسولُ اللّهِ ﷺ أمَّ أيمنَ مكانهنَّ منْ حائطهِ. خرّجهُ مسلمٌ أيضـًا.

الثّامنةُ- الإيثارُ: هوَ تقديمُ الغيرِ على النّفسِ وحظوظها الدنيوية، ورغبةٌ في الحظوظِ الدّينيّةِ. وذلكَ ينشأُ عنْ قوّةِ اليقينِ، وتوكيدِ المحبّةِ، والصّبرِ على المشقّةِ. يقالُ: آثرتهُ بكذا، أيْ خصصتهُ بهِ وفضّلتهُ. ومفعولُ الإيثارِ محذوفٌ، أيْ يؤثرونهمْ على أنفسهمْ بأموالهمْ ومنازلهمْ، لا عنْ غنى بلْ معَ احتياجهمْ إليها، حسبَ ما تقدّمَ بيانهُ.

فإنْ قيلَ: وردتْ أخبارٌ صحيحةٌ في النّهيِ عنِ التّصدّقِ بجميعِ ما يملكهُ المرءُ.

قيلَ لهُ: إنّما كرهَ ذلكَ في حقِّ منْ لا يوثقُ منهُ الصّبرُ على الفقرِ، وخافَ أنْ يتعرّضَ للمسألةِ إذا فقدَ ما ينفقهُ. فأمّا الأنصارُ الّذينَ أثنى اللّهُ عليهمْ بالإيثارِ على أنفسهمْ، فلمْ يكونوا بهذهِ الصّفةِ، بلْ كانوا كما قالَ اللّهُ تعالى: ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ فِي ٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلۡبَأۡسِۗ﴾ وكانَ الإيثارُ فيهمْ أفضلَ منَ الإمساكِ. والإمساكُ لمن لا يصبر ويتعرّضُ للمسألةِ أولى منَ الإيثارِ.

التّاسعةُ: والإيثارُ بالنّفسِ فوقَ الإيثارِ بالمالِ وإنْ عادَ إلى النّفسِ. ومنَ الأمثال السائرة:

والجودُ بالنّفسِ أقصى غايةِ الجودِ

ومنْ عباراتِ الصّوفيّةِ الرّشيقةِ في حدِّ المحبّةِ: أنّها الإيثارُ، ألا ترى أنَّ امرأةَ العزيزِ لمّا تناهتْ في حبّها ليوسفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، آثرتهُ على نفسها فقالتْ: أنا راودتهُ عنْ نفسهِ. وأفضلُ الجود بالنفس الجود على حمايةِ رسولِ اللّهِ ﷺ، ففي الصّحيحِ أنَّ أبا طلحةَ ترّسَ على النّبيِّ ﷺ يومَ أحدٍ، وكانَ النّبيُّ ﷺ يتطلّعُ ليرى القومَ. فيقولُ لهُ أبو طلحةَ: لا تشرفُ يا رسولَ اللّهِ! لا يصيبونكَ! نحري دونَ نحركَ ووقى بيدهِ رسولَ اللّهِ ﷺ فشلّتْ.

وقالَ أبو يزيدَ البسطاميُّ: ما غلبني أحدٌ ما غلبني شابٌّ منْ أهلِ بلخ! قدمَ علينا حاجـًا فقالَ: لي: يا أبا يزيدَ، ما حدُّ الزّهدِ عندكمْ؟ فقلت: إنْ وجدنا أكلنا، وإن فقدنا صبرنا. فقالَ: هكذا كلابُ بلخٍ عندنا. فقلت: وما حدُّ الزّهدِ عندكمْ؟ قالَ: إنْ فقدنا شكرنا، وإن وجدنا

آثرنا.

وحكيَ عنْ أبي الحسنِ الأنطاكيِّ: أنّهُ اجتمعَ عندهُ نيّفٌ وثلاثونَ رجلاً بقريةٍ منْ قرى الرّيِّ، ومعهمْ أرغفةٌ معدودةٌ لا تشبعُ جميعهمْ، فكسروا الرّغفانَ وأطفئوا السّراجَ وجلسوا للطّعامِ، فلمّا رفعَ فإذا الطّعامُ بحالهِ لمْ يأكلْ منهُ أحدٌ شيئًا، إيثاراً لصاحبهِ على نفسهِ.

العاشرةُ: قولهُ تعالى: ﴿وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ الخصاصةُ: الفاقةُ والحاجةُ. وأصلها منَ الاختصاصِ وهوَ انفرادٌ بالأمرِ.

الحاديةَ عشرةَ- قولهُ تعالى: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ٩﴾ الشّحُّ والبخلُ سواءٌ، وجعلَ بعضُ أهلِ اللّغةِ الشّحَّ أشدَّ منَ البخلِ. وفي الصّحاحِ: الشّحُّ البخلُ معَ حرصٍ، والمرادُ بالآيةِ: الشّحُّ بالزّكاةِ وما ليسَ بفرضٍ من صلة ذوي الأرحام والضيافة، وما شاكلَ ذلكَ. فليسَ بشحيحٍ ولا بخيلٍ منْ أنفقَ في ذلكَ وإنْ أمسكَ عنْ نفسهِ. ومنْ وسّعَ على نفسهِ ولمْ ينفقْ فيما ذكرناهُ منَ الزّكواتِ والطّاعاتِ فلمْ يوقَ شحَّ نفسهِ.

وقيلَ: البخلُ أنْ يبخلَ الإنسانُ بما في يدهِ، والشّحُّ أنْ يشحَّ بما في أيدي النّاسِ.

وقالَ أنسٌ: قالَ النّبيُّ ﷺ: «بريءٌ منَ الشّحِّ منْ أدّى الزّكاةَ وقرئَ الضّيفَ وأعطى في النّائبةِ»، وقال ﷺ: «اتّقوا الظّلمَ فإنَّ الظّلمَ ظلماتٌ يومَ القيامةِ واتّقوا الشّحَّ فإنَّ الشّحَّ أهلكَ منْ كانَ قبلكمْ حملهمْ على أنْ سفكوا دماءهمْ واستحلّوا محارمهمْ».

قولهُ تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاؤُوا مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ ١٠﴾، فيهِ أربعُ مسائلَ:

الأولى: قولهُ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾ يعني التّابعينَ ومنْ دخلَ في الإسلامِ إلى يومِ القيامةِ. قالَ ابنُ أبي ليلى: النّاس ثلاثةِ منازلَ: المهاجرونَ، والّذينَ تبوّؤا الدّارَ والإيمانَ، والّذينَ جاءوا منْ بعدهمْ. فاجهدْ ألّا تخرجَ منْ هذهِ المنازلِ.

الثانيةُ- هذهِ الآيةُ دليلٌ على وجوبِ محبّةِ الصّحابةِ، لأنّهُ جعلَ لمنْ بعدهمْ حظّاً في الفيءِ ما أقاموا على محبّتهمْ وموالاتهمْ والاستغفارِ لهمْ، وأنَّ منْ سبّهمْ أوْ واحداً منهمْ أوِ اعتقدَ فيهِ شراً أنّهُ لا حقَّ لهُ في الفيءِ، رويَ ذلكَ عنْ مالكٍ وغيرهِ. قالَ مالكٌ: منْ كانَ يبغضُ

أحداً منْ أصحابِ محمّدٍ ﷺ، أوْ كانَ في قلبهِ عليهمْ غلٌّ، فليس له حق في فيْء المسلمين.

الثالثة- هذهِ الآيةُ تدلُّ على أنَّ الصّحيحَ منْ أقوالِ العلماءِ قسمةُ المنقولِ وإبقاءُ العقارِ والأرضِ شملاً بينَ المسلمينَ أجمعينَ، كما فعلَ عمرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، إلّا أنْ يجتهدَ الوالي فينفذَ أمراً فيمضيَ عملهُ فيهِ لاختلافِ النّاسِ عليهِ وأنَّ هذهِ الآيةَ قاضيةٌ بذلكَ، لأنَّ اللّهَ تعالى أخبرَ عنِ الفيءِ وجعلهُ لثلاثِ طوائفَ: المهاجرينَ والأنصارِ- وهم معلومون- والّذينَ جاؤوا منْ بعدهمْ يقولونَ ربّنا اغفرْ لنا ولإخواننا الّذينَ سبقونا بالإيمانِ. فهيَ عامّةٌ في جميعِ التّابعينَ والآتينَ بعدهمْ إلى يومِ الدّينِ. وفي الحديثِ الصّحيحِ: أنَّ النّبيَّ ﷺ خرجَ إلى المقبرةِ فقالَ: السّلامُ عليكمْ دارَ قومٍ مؤمنينَ وإنّا إنْ شاءَ اللّهُ بكمْ لاحقونَ وددتُ أنْ رأيتُ إخواننا» قالوا: يا رسولَ اللّهِ، ألسنا بإخوانكَ؟ فقالَ: «بلْ أنتمْ أصحابي وإخواننا الّذينَ لمْ يأتوا بعدُ وأنا فرطهمْ على الحوضِ». فبيّنَ ﷺ أنَّ إخوانهمْ كلُّ منْ يأتي بعدهمْ.

الرابعة- قولهُ تعالى: ﴿يَقُولُونَ﴾ نصبَ في موضعِ الحالِ، أيْ قائلينَ ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ فيهِ وجهانِ:

أحدهما- أمروا أنْ يستغفروا لمنْ سبقَ هذهِ الأمّةَ منْ مؤمني أهلِ الكتابِ.

الثّاني: أمروا أنْ يستغفروا للسّابقينَ الأوّلينَ منَ المهاجرينَ والأنصارِ.

قالَ ابنُ عبّاسٍ: أمرَ اللّهُ تعالى بالاستغفارِ لأصحابِ محمّدٍ ﷺ، وهوَ يعلمُ أنّهمْ سيفتنونَ.

قالَ الشّعبيُّ: تفاضلتِ اليهودُ والنّصارى على الرّافضةِ بخصلةٍ، سئلتِ اليهودُ: منْ خيرُ أهلِ ملّتكمْ؟ فقالوا: أصحابُ موسى. وسئلتِ النّصارى: منْ خيرُ أهلِ ملّتكمْ؟ فقالوا: أصحابُ عيسى. وسئلتِ الرّافضةُ منْ شرُّ أهلِ ملّتكمْ؟ فقالوا: أصحابُ محمّدٍ، أمروا بالاستغفارِ لهمْ فسبّوهمْ، فالسّيفُ عليهمْ مسلولٌ إلى يومِ القيامةِ، لا تقومُ لهمْ رايةٌ، ولا تثبتُ لهمْ قدمٌ، ولا تجتمعُ لهمْ كلمةٌ، كلّما أوقدوا ناراً للحربِ أطفأها اللّهُ بسفكِ دمائهمْ وإدحاضِ حجّتهمْ. أعاذنا اللّهُ وإيّاكمْ منَ الأهواءِ المضلّةِ ﴿وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ أي حقدًا وحسدًا ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾.

قولهُ تعالى: ﴿۞أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾ تعجّبٌ منَ اغترارِ اليهودِ بما وعدهمُ المنافقونَ منَ النّصرِ معَ علمهمْ بأنّهمْ لا يعتقدونَ ديناً ولا كتاباً. ومنْ جملةِ المنافقينَ عبدُ الله بن أبي بن سلولَ، قالوا ليهودِ قريظةَ والنّضيرِ: ﴿لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ﴾. وقيلَ: هوَ منْ قولِ بني النّضيرِ لقريظةَ. وقوله: ﴿وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا﴾ يعنونَ محمّداً ﷺ، لا نطيعهُ في قتالكمْ. وفي هذا دليلٌ على صحّةِ نبوّةِ محمّدٍ ﷺ منْ جهةِ علمِ الغيبِ، لأنّهمْ أخرجوا فلمْ يخرجوا، وقوتلوا فلمْ ينصروهمْ، كما قالَ اللّهُ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١١﴾﴾ أيْ في قولهمْ وفعلهمْ ﴿لَئِنْ أُخْرِجُواْ لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُواْ لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ ٱلْأَدْبَٰرَ﴾ منهزمينَ ﴿ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٢﴾﴾ ﴿لَأَنتُمْ﴾ يا معشرَ المسلمينَ ﴿أَشَدُّ رَهْبَةً﴾ أيْ خوفاً وخشيةً ﴿فِي صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِ﴾ يعني صدورَ بني النّضيرِ والمنافقينَ ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٣﴾﴾ أيْ لا يفقهون قدر عظمة الله وقدرته ﴿لَا يُقَٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا﴾ يعني اليهودَ ﴿إِلَّا فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ﴾ أيْ بالحيطانِ والدّورِ، يظنّونَ أنّها تمنعهمْ منكمْ ﴿أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍ﴾ أيْ منْ خلفِ حيطانٍ يستترونَ بها لجبنهمْ ورهبتهمْ. وقراءةُ العامّةِ ﴿جُدُرٍ﴾ على الجمعِ، وقرأ ابنُ كثيرٍ وأبو عمرو «جِدَارٍ» على التّوحيدِ، والتّوحيدَ يؤدّي عنِ الجمع ﴿بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ﴾ يعني عداوةَ بعضهمْ لبعضٍ. وقالَ مجاهدٌ: بأسهمْ بينهمْ شديدٌ أيْ بالكلامِ والوعيدِ لنفعلنَّ كذا. ولكنْ إذا لقوا العدوَّ انهزموا ﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ﴾ يعني اليهودَ والمنافقينَ، وهمْ مجتمعونَ في عداوةِ أهلِ الحقِّ ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿١٤﴾﴾ أيْ ذلكَ التّشتيتُ والكفرُ بأنّهمْ لا عقلَ لهمْ يعقلون به أمر الله ﴿كَمَثَلِ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاقُواْ وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٥﴾﴾ عني بهِ قينقاعَ، أمكنَ اللّهُ منهمْ قبلَ بني النّضيرِ. وقيلَ: يعني بني النّضيرِ، أمكنَ اللّهُ منهمْ قبلَ قريظةَ. وقيلَ: يعني كفّارَ قريشٍ يومَ بدرٍ. وقيلَ: هوَ عامٌّ في كلِّ منِ انتقمَ منهُ على كفرهِ قبل بني الضير منْ نوحٍ إلى محمّدٍ ﷺ. ومعنى ﴿وَبَالَ﴾ جزاءُ كفرهمْ. وكانتْ وقعةُ بدرٍ قبلَ غزوةِ بني النّضيرِ بستّةِ أشهرٍ، فلذلكَ قالَ: قريباً وقدْ قالَ قومٌ: غزوةُ بني النّضيرِ بعدَ وقعةِ أحد ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ في الآخرة ﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ هذا ضربُ مثلٍ للمنافقينَ واليهودِ

في تخاذلهمْ وعدمِ الوفاءِ في نصرتهمْ، كمثلِ إبليسَ ﴿إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ﴾ أيْ أغواهُ حتى كفر ﴿فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّنكَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾﴾ على وجهِ التّبرّؤِ منَ الإنسانِ وليس على الحقيقة، فهو تأكيد لقوله تعالى: ﴿إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّنكَ﴾ وفتحَ الياءَ منْ ﴿إِنِّيَ﴾ نافعٌ وابنُ كثيرٍ وأبو عمرو. وأسكنَ الباقونَ ﴿فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ﴾ أيْ عاقبةُ الشّيطانِ وذلكَ الإنسانِ ﴿أَنَّهُمَا فِي ٱلنَّارِ خَٰلِدَيْنِ فِيهَا﴾ نصبَ على الحالِ ﴿وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ ﴿١٧﴾﴾.

قولهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ في أوامرِهِ ونواهيهِ، وأداءِ فرائضهِ واجتنابِ معاصيهِ ﴿وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ﴾ منْ خيرٍ أوْ شرٍّ ﴿لِغَدٍ﴾ يعني يومَ القيامةِ. والعربُ تكنّي عنِ المستقبلِ بالغدِ. وقيلَ: ذكرَ الغدَ تنبيهـًا على أنَّ السّاعةَ قريبة ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ أعادَ هذا تأكيدا، وقيلَ التّقوى الأولى التّوبةُ فيما مضى منَ الذّنوبِ، والثّانيةُ اتّقاءُ المعاصي في المستقبلِ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾﴾ أيْ بما يكونُ منكمْ ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟ ٱللَّهَ﴾ أيْ تركوا أمرهُ ﴿فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾ أن يعملوا لها خيراً، وقيلَ: نسوا اللّهَ في الرّخاءِ فأنساهمْ أنفسهمْ في الشّدائدِ ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿١٩﴾﴾ الخارجون عنْ طاعةِ اللّهِ.

قولهُ تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ﴾ أيْ في الفضلِ والرّتبةِ ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾﴾ أي المقرّبونَ المكرّمونَ والنّاجونَ منَ النّارِ.

قولهُ تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا﴾ حثَّ على تأمّلِ مواعظِ القرآنِ وبيّنَ أنّهُ لا عذرَ في تركِ التّدبّرِ، فإنّهُ لوْ خوطبَ بهذا القرآنِ الجبالُ معَ تركيبِ العقلِ فيها لانقادتْ لمواعظهِ، ولرأيتها على صلابتها ورزانتها خاشعةً متصدّعةً، أيْ متشقّقةً منْ خشيةِ اللّهِ. والخاشعُ: الذّليلُ. والمتصدّعُ: المتشقّقُ.

قولهُ تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ﴾ للكفّارِ، وقيلَ: الخطابُ للنّبيِّ ﷺ امتنانـًا عليهِ أنْ ثبّتهُ لما لا تثبتُ لهُ الجبالُ. وقيلَ: إنّهُ خطابٌ للأمّةِ، وأنَّ اللّهَ تعالى لوْ أنذرَ بهذا القرآنِ الجبالَ لتصدّعتْ منْ خشيةِ اللّهِ. والإنسانُ أقلُّ قوّةً وأكثرُ ثباتـًا، فهوَ يقومُ بحقّهِ إنْ أطاعَ، ويقدرُ على ردّهِ إنْ عصى، لأنه موعود بالثواب، ومزجور بالعقاب.

قولهُ تعالى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ السّرِّ والعلانيةِ، وما كانَ وما يكونُ، والدّنيا والآخرةِ ﴿هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ۝٢٢﴾.

قولهُ تعالى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ﴾ المنزّهُ عنْ كلِّ نقصٍ، والطّاهرُ عنْ كلِّ عيبٍ ﴿ٱلسَّلَٰمُ﴾ سلمَ منْ كلِّ عيب وبرئ من كل نقص وهي صفةَ ذاتٍ، وهو المسلّمُ لعبادهِ، والمسلّمُ على عبادهِ في الجنّةِ، وهي صفة فعل ﴿ٱلْمُؤْمِنُ﴾ أي المصدّقُ لرسلهِ بإظهارِ معجزاتهِ عليهمْ ومصدّقُ المؤمنينَ ما وعدهمْ بهِ منَ الثّوابِ ومصدّقُ الكافرينَ ما أوعدهمْ منَ العقابِ. وقيلَ: المؤمن الذي وحدَّ نفسه بقول: شهدَ اللّهُ أنّهُ لا إلهَ إلّا هوَ ﴿ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ﴾ تقدّمَ الكلامُ في المهيمنِ في المائدةِ وفي العزيزُ في غيرِ موضع ﴿ٱلْجَبَّارُ﴾ وجبروته عظمتهُ. والجبّارُ الّذي لا تطاقُ سطوتهُ ﴿ٱلْمُتَكَبِّرُ﴾ الذي تكبر بربوبيته فلا شيء مثلهُ. وقيلَ: المتكبّرُ عنْ كلِّ سوءٍ المتعظّمُ عمّا لا يليقُ بهِ منْ صفاتِ الحدثِ والذّمِّ. وأصلُ الكبرِ والكبرياءِ الامتناعُ وقلّةُ الانقيادِ. والكبرياءُ في صفاتِ اللّهِ مدحٌ، وفي صفاتِ المخلوقينَ ذمٌّ. وفي الصّحيح عنْ أبي هريرةَ أنَّ رسولَ اللّهِ ﷺ قالَ فيما يرويهِ عنْ ربّهِ تباركَ وتعالى أنّهُ قالَ: «الكبرياءُ ردائي والعظمةُ إزاري فمنْ نازعني في واحدٍ منهما قصمتهُ ثمَّ قذفتهُ في النّارِ». ثمَّ نزّهَ نفسه فقال: ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ﴾ أي تنزيها لجلالته وعظمته ﴿عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝٢٣﴾.

قولهُ تعالى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ﴾ الخالقُ هنا المقدّرُ. والبارئُ المنشئُ المخترعُ. والمصوّرُ مصوّرُ الصّورِ ومركّبها على هيئاتٍ مختلفةٍ ﴿لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٢٤﴾ تقدّمَ الكلامُ فيهِ.

سورة الممتحنة

مدنيّةٌ في قولِ الجميعِ، وهيَ ثلاثَ عشرةِ آيةً، والممتحِنةُ بكسرِ الحاءِ أيِ المختبرةُ، أضيفَ الفعل إليها مجازا، كما سميت سورة براءة المبعثرةَ والفاضحةَ، لما كشفتْ منْ عيوبِ المنافقينَ. ومنْ قالَ في هذهِ السّورةِ: الممتحَنةُ بفتحِ الحاءِ فإنّهُ أضافها إلى المرأةِ الّتي نزلتْ فيها، وهيَ أمّ كلثومِ بنت عقبةَ بنِ أبي معيطٍ، قالَ اللّهُ تعالى: ﴿فَٱمۡتَحِنُوهُنَّۖ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّۖ﴾ الآيةَ. وهيَ امرأةُ عبدِ الرّحمنِ بنِ عوفٍ، ولدتْ لهُ إبراهيمَ بنَ عبدِ الرّحمنِ.

بسمِ اللّهِ الرّحمنِ الرّحيمِ

قولهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمۡ أَوۡلِيَآءَ﴾ عدّى اتّخذَ إلى مفعولينِ وهما: عدوّكمْ أولياءَ. والعدوُّ فعولٌ منْ عدا، كعفوٍّ منْ عفا، وفي هذهِ الآيةِ سبعُ مسائلَ:

الأولى: روى الأئمّةُ- واللّفظُ لمسلمٍ- عنْ عليٍّ ﵁ قالَ: بعثنا رسولِ اللّهِ ﷺ أنا والزّبيرَ والمقدادَ فقالَ: «ائتوا روضةَ خاخٍ فإنَّ بها ظعينةً معها كتابٌ فخذوهُ منها» فانطلقنا تعادى بنا خيلنا، فإذا نحنُ بالمرأةِ، فقلنا: أخرجي الكتابَ، فقالتْ: ما معي كتابٌ. فقلنا: لتخرجنَّ الكتابَ أوْ لتلقينَّ الثّيابَ، فأخرجتهُ منْ عقاصها. فأتينا بهِ رسولِ اللّهِ ﷺ فإذا فيهِ: منْ حاطبِ بنِ أبي بلتعةَ... إلى ناسٍ منَ المشركينَ منْ أهلِ مكّةَ يخبرهمْ ببعضِ أمرَ رسولُ اللّهِ ﷺ. فقالَ: رسولُ اللّهِ ﷺ: «يا حاطبُ ما هذا؟ قالَ لا تعجلْ عليَّ يا رسولَ اللّهِ، إنّي كنتُ امرأً ملصقاً في قريشٍ – قالَ سفيانُ: كانَ حليفاً لهمْ، ولمْ يكنْ منْ أنفسها – وكانَ ممّنْ كانَ معكَ منَ المهاجرينَ لهمْ قراباتٌ يحمونَ بها أهليهمْ، فأحببتُ إذْ فاتني ذلكَ منَ النّسبِ فيهمْ أنْ أتّخذَ فيهمْ يداً يحمونَ بها قرابتي، ولمْ أفعلهُ كفراً ولا ارتداداً عنْ ديني، ولا رضاً بالكفرِ بعدَ الإسلامِ. فقالَ: النّبيُّ ﷺ: «صدقَ». فقالَ: عمرُ: دعني يا رسولَ اللّهِ أضربْ عنقَ هذا المنافقِ. فقالَ: «إنّهُ قدْ شهدَ بدراً وما يدريكَ لعلَّ اللّهَ اطّلعَ على أهلِ بدرٍ فقالَ: اعملوا ما شئتمْ فقدْ غفرتُ لكمْ» فأنزلَ اللّهُ عزَّ وجلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمۡ أَوۡلِيَآءَ﴾.

الثانية- السّورةُ أصل في النهي عن موالاة الكفّارِ، وقدْ مضى ذلكَ في غيرِ موضع، منْ ذلكَ قولهُ تعالى: ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ﴾، ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَـٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ﴾. ومثلهُ كثيرٌ. وذُكرَ أنَّ حاطباً لمّا سمعَ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ غشيَ عليهِ منَ الفرحِ بخطابِ الإيمانِ.

الثالثة- قولهُ تعالى: ﴿تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ﴾ يعني بالظّاهرِ، لأنَّ قلبَ حاطبٍ كانَ سليماً، بدليلِ أنَّ النّبيَّ ﷺ قالَ لهمْ: «أمّا صاحبكمْ فقدْ صدقَ» وهذا نصٌّ في سلامةِ فؤادهِ وخلوصِ اعتقادهِ. والباءُ في بالمودّةِ زائدةٌ، ويجوزُ أنْ تكونَ ثابتةً أي بسببِ المودّةِ الّتي بينكمْ وبينهمْ.

الرابعة- منْ كثرَ تطلّعهُ على عوراتِ المسلمينَ وينبّهُ عليهمْ ويعرّفُ عدوّهمْ بأخبارهمْ لمْ يكنْ بذلكَ كافراً إذا كانَ فعلهُ لغرضٍ دنيويٍّ واعتقادهُ على ذلكَ سليمٌ، كما فعلَ حاطبٌ حينَ قصدَ بذلكَ اتّخاذَ اليدِ ولمْ ينو الردة عن الدين.

الخامسة- إذا قلنا لا يكونُ بذلكَ كافراً فهلْ يقتلُ بذلكَ حداً أمْ لا؟ اختلفَ النّاسُ فيه، فقالَ مالكٌ: يجتهدُ في ذلكَ الإمامُ. وقالَ عبدُ الملكِ: إذا كانتْ عادتهُ تلكَ قتلَ، لأنّهُ جاسوسٌ، وقدْ قالَ مالكٌ بقتلِ الجاسوسِ، وهوَ صحيحٌ لإضرارهِ بالمسلمينَ وسعيهِ بالفسادِ في الأرضِ. ولعلَّ ابنَ الماجشونِ إنّما اتّخذَ التّكرارَ في هذا لأنَّ حاطباً أُخذَ في أوّلِ فعلهِ. والله أعلم.

السادسة- فإنْ كانَ الجاسوسُ كافراً فقالَ: الأوزاعيُّ: يكونُ نقضاً لعهدهِ، وقالَ أصبغُ: الجاسوسُ الحربي يقتلُ، والجاسوسُ المسلمُ والذّمّيُّ يعاقبانِ إلّا إنْ تظاهرا على الإسلامِ فيقتلانِ.

السابعة- قولهُ تعالى: ﴿يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ﴾ استئنافُ كلامٍ كالتّفسيرِ لكفرهمْ وعتوّهمْ، أوْ حالٍ منْ كفروا ﴿وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ﴾ تعليلٌ ليخرجونَ، وهذا كلّهُ معاتبةٌ لحاطبٍ. وهوَ يدلُّ على فضلهِ وكرامتهِ ونصيحتهِ لرسولِ اللّهِ ﷺ وصدقِ إيمانهِ، فإنَّ

المعاتبةَ لا تكونُ إلّا منْ محبٍّ لحبيبِهِ، ومعنى بالمودّةِ أيْ بالنّصيحةِ في الكتابِ إليهمْ.

قولهُ تعالى: ﴿وَأَنَا۠ أَعۡلَمُ بِمَآ أَخۡفَيۡتُمۡ وَمَآ أَعۡلَنتُمۡۚ﴾ الباءُ في بما زائدةٌ، يقالُ: علمتُ كذا وعلمتُ بكذا ﴿وَمَن يَفۡعَلۡهُ مِنكُمۡ﴾ أيْ منْ يسرَّ إليهمْ ويكاتبهمْ منكمْ ﴿فَقَدۡ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ١﴾ أيْ أخطأَ قصدَ الطريق.

قولهُ تعالى: ﴿إِن يَثۡقَفُوكُمۡ﴾ يلقوكمْ ويصادفوكمْ، ومنهُ المثاقفةُ، أيْ طلبُ مصادفةِ الغرّةِ في المسايفةِ وشبهها. وقيلَ: يثقفوكمْ يظفروا بكم ويتمكنوا منكم ﴿يَكُونُواْ لَكُمۡ أَعۡدَآءٗ وَيَبۡسُطُوٓاْ إِلَيۡكُمۡ أَيۡدِيَهُمۡ وَأَلۡسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ﴾ أيْ أيديهمْ بالضّربِ والقتلِ، وألستهمْ بالشّتمِ ﴿وَوَدُّواْ لَوۡ تَكۡفُرُونَ ٢﴾ بمحمّدٍ، فلا تناصحوهمْ فإنّهمْ لا يناصحونكم.

قولهُ تعالى: ﴿لَن تَنفَعَكُمۡ أَرۡحَامُكُمۡ لَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ﴾ لمّا اعتذرَ حاطبٌ بأنَّ لهُ أولاداً وأرحاماً فيما بينهمْ بيّنَ الرّبُّ عزَّ وجلَّ أنَّ الأهلَ والأولادَ لا ينفعونَ شيئاً ﴿يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ إنْ عصيَ منْ أجلِ ذلكَ ﴿يَفۡصِلُ بَيۡنَكُمۡۚ﴾ فيدخلُ المؤمنينَ الجنّةَ ويدخلُ الكافرينَ النّارَ. وقرأَ عاصمٌ «يَفْصِلُ» بفتحِ الياءِ وكسرِ الصّادِ مخفّفاً. وقرأ حمزةُ والكسائيُّ مشدّداً إلّا أنّهُ على ما لمْ يسمَّ فاعلهُ. وقرأ الباقونَ «يُفْصَلُ» بياءٍ مضمومةٍ وتخفيفِ الفاءِ وفتحِ الصّادِ على الفعلِ المجهولِ، فمنْ خفّفَ فلقولهِ: ﴿وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡفَٰصِلِينَ﴾، وقوله: ﴿إِنَّ يَوۡمَ ٱلۡفَصۡلِ﴾، ومنْ شدّدَ فلأنَّ ذلكَ أبينُ في الفعلِ الكثيرِ المكرّرِ المتردّدِ. ومنْ أتى بهِ على ما لمْ يسمَّ فاعلهُ فلأنَّ الفاعلَ معروفٌ ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ٣﴾.

قولهُ تعالى: ﴿قَدۡ كَانَتۡ لَكُمۡ إِسۡوَةٌ حَسَنَةٞ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ﴾ ومنْ سيرتهِ التّبرّؤَ منَ الكفّارِ، فاقتدوا بهِ وأتمّوا، إلّا في استغفارهِ لأبيهِ. والإسوةُ والأسوةُ ما يتأسّى بهِ، مثلُ القدوةِ والقدوةِ. وقرأ عاصمٌ أُسوةٌ بضمِ الهمزةِ لغتانِ ﴿وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ﴾ يعني أصحابَ إبراهيمَ منَ المؤمنينَ. وقيلَ: همُ الأنبياءُ ﴿إِذۡ قَالُواْ لِقَوۡمِهِمۡ﴾ الكفار ﴿إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمۡ وَمِمَّا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أيِ الأصنام. وبرآؤا جمع بريء، مثلُ شريكٍ وشركاءَ، وظريفٍ وظرفاءَ. والآيةُ نصٌّ في الأمرِ بالاقتداءِ بإبراهيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ في فعلهِ. وذلكَ يصحّحُ أنَّ شرعَ منْ قبلنا شرعٌ لنا فيما أخبرَ اللّهُ ورسولهُ ﴿كَفَرۡنَا بِكُمۡ﴾ أيْ بما آمنتمْ بهِ منَ الأوثانِ. وقيلَ: أيْ بأفعالكمْ وكذبناها

وأنكرنا أنْ تكونوا على حقٍّ ﴿وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا﴾ أيْ هذا دأبنا معكمْ ما دمتمْ على كفركمْ ﴿حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ﴾ فحينئذٍ تنقلبُ المعاداةُ موالاةً ﴿إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ﴾ فلا تتأسّوا بهِ في الاستغفارِ فتستغفرونَ للمشركينَ، فإنّهُ كانَ عن موعدةٍ منهُ لهُ.

وفي هذا دلالةٌ على تفضيلِ نبيّنا ﷺ على سائرِ الأنبياءِ، لأنّا حينَ أمرنا بالاقتداءِ بهِ أمرنا أمراً مطلقاً في قولهِ تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ۚ﴾، وحينَ أمرنا بالاقتداءِ بإبراهيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ استثنى بعضَ أفعالهِ. وقيلَ: هوَ استثناءٌ منقطعٌ، أيْ لكنَّ قولَ إبراهيمَ لأبيهِ لأستغفرنَّ لكَ، إنّما جرى لأنّهُ ظنَّ أنّهُ أسلمَ، فلمّا بانَ لهُ أنّهُ لمْ يسلمْ تبرّأَ منهُ. وعلى هذا يجوزُ الاستغفارُ لمنْ يظنُّ أنّهُ أسلمَ، وأنتمْ لمْ تجدوا مثلَ هذا الظّنِّ، فلمَ توالوهمْ ﴿وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍۖ﴾ هذا منْ قولِ إبراهيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لأبيهِ، أيْ ما أدفعُ عنكَ منْ عذابِ اللّهِ شيئاً إنْ أشركتَ بهِ ﴿رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا﴾ هذا منْ دعاءِ إبراهيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وأصحابهُ ﴿وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا﴾ أيْ رجعنا ﴿وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ۝٤﴾ في الآخرةِ ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أيْ لا تظهرْ عدوّنا علينا فيظنّوا أنّهمْ على حقٍّ فيفتتنوا بذلكَ. وقيلَ: لا تسلّطهمْ علينا فيفتنونا ويعذّبونا ﴿وَٱغْفِرْ لَنَا رَبَّنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٥﴾.

قولهُ تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ﴾ أيْ في إبراهيمَ ومنْ معهُ منَ الأنبياءِ والأولياءِ ﴿أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ أيْ في التّبرّؤِ منَ الكفّارِ وكرّرَ للتّأكيدِ ﴿وَمَن يَتَوَلَّ﴾ أيْ عنِ الإسلامِ وقبولِ هذهِ المواعظِ ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ﴾ لمْ يتعبّدهمْ لحاجتهِ إليهمْ ﴿ٱلْحَمِيدُ ۝٦﴾ في نفسهِ وصفاتهِ.

﴿۞عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةًۚ﴾ وهذا بأنْ يسلمَ الكافرُ. وقدْ أسلمَ قومٌ منهمْ بعدَ فتحِ مكّةَ وخالطهمُ المسلمونَ، كأبي سفيانَ ابن حربٍ، والحارثِ بنِ هشامٍ، وسهيلِ بنِ عمرو، وحكيمِ بنِ حزامٍ. وقيلَ: المودّةُ تزويجُ النّبيِّ ﷺ أمَّ حبيبةَ بنتَ أبي سفيانَ، فلانتْ عندَ ذلكَ عريكةُ أبي سفيانَ، واسترختْ شكيمتهُ في العداوةِ.

قولهُ تعالى: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ...﴾ الآية فيهِ ثلاثُ مسائلَ:

الأولى: هذهِ الآيةُ رخصةٌ منَ اللّهِ تعالى في صلةِ الّذينَ لمْ يعادوا المؤمنينَ ولمْ يقاتلوهمْ. قيل: كانَ هذا في أوّلِ الإسلامِ عندَ الموادعةِ وتركِ الأمرِ بالقتالِ ثمَّ نسخَ، نسختها: ﴿فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾.

وقيلَ: كانَ هذا الحكمُ لعلّةٍ وهوَ الصّلحُ، فلمّا زالَ الصّلحُ بفتحِ مكّةَ نسخَ الحكمُ وبقيَ الرّسمُ يتلى.

وقيلَ: هيَ مخصوصةٌ في حلفاءَ النّبيِّ ﷺ ومنْ بينهُ وبينهُ عهدٌ لمْ ينقضهُ.

وقيلَ: يعني بهِ النّساءَ والصّبيانَ لأنّهمْ ممّنْ لا يقاتلُ، فأذنَ اللّهُ في برّهمْ.

وقالَ أكثرُ أهلِ التّأويلِ: هيَ محكمةٌ، واحتجّوا بأنَّ أسماءَ بنتَ أبي بكرٍ سألتِ النّبيَّ ﷺ: هلْ تصلُ أمّها حينَ قدمتْ عليها مشركةً؟ قالَ: «نعمْ». خرّجهُ البخاريُّ ومسلمٌ. وقيلَ: إنَّ الآيةَ فيها نزلتْ.

الثانية– قولهُ تعالى: ﴿أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ﴾ أيْ تعطوهمْ قسطًا منْ أموالكمْ على وجهِ الصّلةِ. وليسَ يريدُ بهِ منَ العدلِ، فإنَّ العدلَ واجبٌ فيمنْ قاتلَ وفيمنْ لمْ يقاتل.

الثالثة– استدلَّ بهِ بعضُ منْ تعقدُ عليهِ الخناصرُ على وجوبِ نفقةِ الابنِ المسلمِ على أبيهِ الكافرِ، وهذهِ وهلةٌ عظيمةٌ، إذِ الإذنُ في الشّيءِ أوْ تركُ النّهيِ عنهُ لا يدلُّ على وجوبهِ، وإنّما يعطيكَ الإباحةَ خاصّةً.

قولهُ تعالى: ﴿إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ﴾ وهمْ عتاةُ أهلِ مكّةَ ﴿وَظَٰهَرُوا۟﴾ أيْ عاونوا على إخراجكمْ وهمْ مشركو أهلِ مكّةَ ﴿أَن تَوَلَّوْهُمْ﴾ أنْ في موضعِ جرٍّ على البدلِ على ما تقدّمَ في أنْ تبرّوهمْ ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُمْ﴾ أيْ يتّخذهمْ أولياءَ وأنصاراً وأحبابا ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۝٩﴾.

قولهُ تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَـٰتُ مُهَـٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ﴾، فيهِ ستَّ عشرةَ مسألةً:

الأولى: قولهُ تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَـٰتُ﴾ لمّا جرى الصّلحُ معَ مشركي قريشٍ عامَ الحديبيةِ، على أنَّ منْ أتاهُ منْ أهلِ مكّةَ ردّهُ إليهمْ، فجاءتْ أمّ كلثوم بنت عقبةَ بنِ أبي معيطٍ، فجاءَ أهلها يسألونَ رسولَ اللّهِ ﷺ أنْ يردّها. وقيلَ: هربتْ منْ زوجها عمرو بنِ العاصِ ومعها أخواها عمارةُ والوليدُ، فردَّ رسولُ اللّهِ ﷺ أخويها وحبسها، فقالوا للنّبيِّ ﷺ، ردّها علينا للشّرطِ، فقالَ ﷺ: «كانَ الشّرطُ في الرّجالِ لا في النّساءِ» فأنزلَ اللّهُ تعالى هذهِ الآيةَ.

الثانية- واختلفَ أهلُ العلمِ هلْ دخلَ النّساءُ في عقدِ المهادنةِ لفظاً أوْ عموماً، فقالتْ طائفةٌ منهمْ: قدْ كانَ شرطُ ردّهنَّ في عقدِ المهادنةِ لفظاً صريحاً فنسخَ اللّهُ ردّهنَّ منَ العقدِ ومنعَ منهُ، وهذا يدلُّ على أنَّ للنّبيِّ ﷺ أنْ يجتهدَ رأيهُ في الأحكامِ، ولكنْ لا يقرّهُ اللّهُ على خطأٍ. وقالتْ طائفةٌ منْ أهلِ العلمِ: لمْ يشترطْ ردّهنَّ في العقدِ لفظاً، وإنّما أطلقَ العقدَ في ردِّ منْ أسلمَ، فكانَ ظاهره العمومِ، فبيّنَ اللّهُ تعالى خروجهنَّ عنْ عمومهِ. وفرّقَ بينهنَّ وبينَ الرّجالِ لأمرينِ:

أحدهما: أنّهنَّ ذواتُ فروجٍ يحرمنَ عليهمْ.

الثّاني- أنّهنَّ أرقُّ قلوباً وأسرعُ تقلّباً منهمْ. فأمّا المقيمةُ منهنَّ على شركها فمردودةٌ عليهمْ.

الثالثة- قولهُ تعالى: ﴿فَٱمْتَحِنُوهُنَّ﴾ فتستحلفَ باللّهِ أنّها ما خرجتْ إلا حباً للّهِ ولرسولهِ. فإذا حلفتْ باللّهِ الّذي لا إلهَ إلّا هوَ على ذلكَ، أعطى النّبيُّ ﷺ زوجها مهرها وما أنفقَ عليها ولمْ يردّها، فذلكَ قولهُ تعالى: ﴿فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَـٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾. وقيلَ: المحنةَ بما بيّنهُ في السّورةِ بعدُ منْ قولهِ تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَـٰتُ﴾ قالتْ عائشةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: ما كانَ رسولُ اللّهِ ﷺ يمتحن إلّا بالآيةِ التّي قالَ اللّهُ: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَـٰتُ يُبَايِعْنَكَ﴾. خرّجهُ الترمذي وقال: هذا

حديث حسن صحيح.

الرابعة- أكثرُ العلماءِ على أنَّ هذا ناسخٌ لما كانَ ﷺ عاهدَ عليهِ قريشًا، منْ أنّهُ يردُّ إليهمْ منْ جاءهُ منهمْ مسلمًا، فنسخَ منْ ذلكَ النّساءُ. وهذا مذهبُ منْ يرى نسخَ السّنّةِ بالقرآنِ. وقالَ بعضُ العلماءِ: كلّهُ منسوخٌ في الرّجالِ والنّساءِ، ولا يجوزُ أنْ يهادنَ الإمامُ العدوَّ على أنْ يردَّ إليهمْ منْ جاءهُ مسلمًا، لأنَّ إقامةَ المسلمِ بأرضِ الشّركِ لا تجوزُ. وهذا مذهبُ الكوفيّينَ. وعقدُ الصّلحِ على ذلكَ جائزٌ عندَ مالكٍ.

وقدِ احتجَّ الكوفيّونَ لما ذهبوا إليهِ منْ ذلكَ بحديثِ خالدِ بنِ الوليدِ، أنَّ رسولَ اللّهِ ﷺ بعثهُ إلى قومٍ منْ خثعمَ فاعتصموا بالسّجودِ فقتلهمْ، فوداهمْ رسولُ اللّهِ ﷺ بنصفِ الدّيةِ، وقالَ «أنا بريءٌ منْ كلِّ مسلمٍ أقامَ معَ مشركٍ في دارِ الحربِ لا تراءى نارهما» قالوا: فهذا ناسخٌ لردِّ المسلمينَ إلى المشركينَ، إذْ كانَ رسولُ اللّهِ ﷺ قد برئَ ممّنْ أقامَ معهمْ في دارِ الحربِ.

ومذهبُ مالكٍ والشّافعيِّ أنَّ هذا الحكمَ غيرُ منسوخٍ. قالَ الشّافعيُّ: وليسَ لأحدٍ هذا العقدُ إلّا الخليفةُ أوْ رجلٌ يأمرهُ، لأنّهُ يلي الأموالَ كلّها. فمنْ عقدَ غيرُ الخليفةِ هذا العقدَ فهوَ مردودٌ.

الخامسة- قولهُ تعالى: ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّۖ﴾ لأنّهُ متولّي السّرائرَ ﴿فَإِنۡ عَلِمۡتُمُوهُنَّ مُؤۡمِنَٰتٖ﴾ أيْ بما يظهرُ منَ الإيمانِ ﴿فَلَا تَرۡجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلۡكُفَّارِۖ لَا هُنَّ حِلّٞ لَّهُمۡ وَلَا هُمۡ يَحِلُّونَ لَهُنَّۖ﴾ أيْ لمْ يحلَّ اللّهُ مؤمنةً لكافرٍ، ولا نكاحَ مؤمنٍ لمشركةٍ. وهذا أدلُّ دليلٍ على أنَّ الّذي أوجبَ فرقةَ المسلمةِ منْ زوجها إسلامها لا هجرتها.

وقالَ أبو حنيفةَ: الّذي فرّقَ بينهما هوَ اختلافُ الدارين. وإليه إشارةٌ في مذهب مالكٍ بلْ عبارةٌ.

والصّحيحُ الأوّلُ، لأنَّ اللّهَ تعالى قالَ: ﴿لَا هُنَّ حِلّٞ لَّهُمۡ وَلَا هُمۡ يَحِلُّونَ لَهُنَّۖ﴾ فبيّنَ أنَّ العلّةَ عدمُ الحلِّ بالإسلامِ وليسَ باختلافِ الدّارِ. والله أعلم.

وقالَ أبو عمرَ: لا فرقَ بينَ الدّارينِ لا في الكتابِ ولا في السّنّةِ ولا في القياسِ، وإنّما المراعاةُ في ذلكَ الدّينانِ، فباختلافهما يقعُ الحكمُ وباجتماعهما، لا بالدّارِ.

السادسة- قولهُ تعالى: ﴿وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُواْۚ﴾ أمرَ اللّهُ تعالى إذا أمسكتِ المرأةُ المسلمةُ أنْ يردَّ على زوجها ما أنفقَ وذلكَ منَ الوفاءِ بالعهدِ، لأنّهُ لمّا منعَ منْ أهلهِ بحرمةِ الإسلامِ، أمرَ بردِّ المالِ إليهِ حتّى لا يقعُ عليهمْ خسرانٌ منَ الوجهينِ: الزّوجةِ والمالِ.

السابعة- ولا غرمَ إلّا إذا طالبَ الزّوجُ الكافرُ، فإذا حضرَ وطالبَ منعناها وغرمنا. فإنْ كانتْ ماتتْ قبلَ حضورِ الزّوجِ لمْ نغرمِ المهرَ إذْ لمْ يتحقّقِ المنعُ. وإنْ كانَ المسمّى خمراً أوْ خنزيراً لمْ نغرمْ شيئًا، لأنّهُ لا قيمةَ لهُ.

وللشّافعيِّ في هذهِ الآيةِ قولانِ:

أحدهما: أنَّ هذا منسوخٌ. قالَ الشّافعيُّ: وإذا جاءتنا المرأةُ الحرّةُ منْ أهلِ الهدنةِ مسلمةً مهاجرةً منْ دارِ الحربِ إلى الإمامِ في دارِ السّلامِ أوْ في دارِ الحربِ، فمنْ طلبها منْ وليٍّ سوى زوجها منعَ منها بلا عوضٍ. وإذا طلبها زوجها لنفسهِ أوْ غيرهِ بوكالتهِ ففيهِ قولانِ:

أحدهما- يعطي العوضَ، والقولُ ما قالَ اللّهُ عزَّ وجلَّ.

وفيهِ قولٌ آخرُ: أنّهُ لا يعطى الزّوجُ المشركُ الّذي جاءتْ زوجتهُ مسلمةً العوضَ.

الثّامنةُ- أمرَ اللّهُ تعالى بردِّ مثلِ ما أنفقوا إلى الأزواجِ، وأنَّ المخاطبَ بهذا الإمامُ ينفّذُ ممّا بينَ يديهِ منْ بيتِ المالِ الّذي لا يتعيّنُ لهُ مصرفٌ. وقيلَ: يردُّ المهرَ الّذي يتزوّجها منَ المسلمينَ، فإنْ لمْ يتزوّجها منَ المسلمينَ أحدٌ فليسَ لزوجها الكافرِ شيءٌ. وقيلَ: الحكمُ في ردِّ الصّداقِ إنّما هوَ في نساءِ أهلِ العهدِ، فأمّا منْ لا عهدَ بينهُ وبينَ المسلمينَ فلا يردُّ إليهمُ الصّداقُ. والأمرُ كما قالهُ.

التاسعة- قولهُ تعالى: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ﴾ يعني إذا أسلمنَ وانقضتْ عدّتهنَّ لما ثبتَ منْ تحريمِ نكاحِ المشركةِ والمعتدّةِ. فإنْ أسلمتْ قبلَ الدّخولِ ثبتَ النّكاحُ في الحالِ ولها التّزوّجُ.

العاشرة- قولهُ تعالى: ﴿إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّۚ﴾ أباحَ نكاحها بشرطِ المهرِ، لأنَّ الإسلامَ فرّقَ بينها وبينَ زوجها الكافرِ.

الحاديةَ عشرةَ- قولهُ تعالى: ﴿وَلَا تُمۡسِكُواْ بِعِصَمِ ٱلۡكَوَافِرِ﴾ قراءةُ العامّةِ بالتّخفيفِ منَ الإمساكِ. كقولهِ تعالى:﴿فَأَمۡسِكُوهُنَّ بِمَعۡرُوفٍ﴾، وقرأ أبو عمرو «وَلَا تُمَسِّكُوا» مشدّدةً منَ التّمسّكِ. يقالُ: مسّكَ يمسّكُ تمسكا، والعِصمُ جمعُ العصمةِ، وهوَ ما اعتصمَ بهِ. والمرادُ بالعصمةِ هنا النّكاحُ، وكانَ الكفّارُ يتزوّجونَ المسلماتِ والمسلمونَ يتزوّجونَ المشركاتِ، ثمَّ نسخَ ذلكَ في هذهِ الآيةِ. فطلّقَ عمرُ بنُ الخطّابِ حينئذٍ امرأتينِ لهُ بمكّةَ مشركتينِ، وزوّجَ النّبيُّ ﷺ زينبَ ابنتهُ- وكانتْ كافرةً- منْ أبي العاصِ بنِ الرّبيعِ، ثمَّ أسلمتْ، ثمَّ أتى زوجها المدينةَ فأمّنتهُ فأسلمَ فردّها عليهِ النّبيُّ ﷺ. وعندَ أبي داودَ عنِ ابنِ عبّاسٍ: بالنّكاحِ الأوّلِ، ولمْ يحدثْ شيئًا. قيل: بعدَ ستِّ سنينَ. وقيلَ: بعدَ سنتينِ.

قالَ أبو عمرَ: فإنْ صحَّ هذا فلا يخلو منْ وجهينِ: إمّا أنّها لمْ تحضْ حتّى أسلمَ زوجها، وإمّا أنَّ الأمرَ فيها منسوخٌ بقولِ اللّهِ عزَّ وجلَّ: ﴿وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ يعني في عدّتهنَّ. وهذا ما لا خلافَ فيهِ بينَ العلماءِ أنّهُ عنى بهِ العدّةَ.

الثانية عشرةَ- قولهُ تعالى: ﴿بِعِصَمِ ٱلۡكَوَافِرِ﴾ منْ غيرِ أهلِ الكتابِ. فإذا أسلمَ وثنيٌّ أوْ مجوسيٌّ ولمْ تسلمِ امرأتهُ فرّقَ بينهما. وهذا قولُ بعضِ أهلِ العلمِ. ومنهمْ منْ قالَ: ينتظرُ بها تمامَ العدّةِ. فممنْ قالَ يفرّقُ بينهما في الوقتِ ولا ينتظرُ تمامَ العدّةِ إذا عرضَ عليها الإسلامَ ولمْ تسلمْ- مالكُ بنُ أنسٍ. واحتجّ بقولهِ تعالى: ﴿وَلَا تُمۡسِكُواْ بِعِصَمِ ٱلۡكَوَافِرِ﴾. وقالَ الشّافعيّ وأحمد: ينتظرُ بها العدّةَ، واحتجّوا بأنَّ أبا سفيانَ بنَ حربٍ أسلمَ قبلَ هندِ بنتِ عتبةَ امرأتهِ، وكانَ إسلامهُ بمرِّ الظّهرانِ ثمَّ رجعَ إلى مكّةَ وهندٌ بها كافرةٌ مقيمةٌ على كفرها، فأخذتْ بلحيتهِ وقالتِ: اقتلوا الشّيخَ الضّالَّ. ثمَّ أسلمتْ بعدهُ بأيّام، فاستقرّا على نكاحهما لأنَّ عدّتها لمْ تكنِ انقضتْ. قالوا: ومثلهُ حكيمُ بنُ حزامٍ أسلمَ قبلَ امرأتهِ، ثمَّ أسلمتْ بعدهُ فكانا على نكاحهما.

قالَ الشّافعيُّ: ولا حجّةَ لمنِ احتجَّ بقولهِ تعالى: ﴿وَلَا تُمۡسِكُواْ بِعِصَمِ ٱلۡكَوَافِرِ﴾ لأنَّ نساءَ المسلمينَ محرّماتٌ على الكفّارِ، كما أنَّ المسلمينَ لا تحلُّ لهمُ الكوافرُ والوثنيّاتُ ولا المجوسيّاتُ بقولِ اللّهِ عزَّ وجلَّ: ﴿لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمۡ وَلَا هُمۡ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾ ثمَّ بيّنتِ السّنّةُ أنَّ مرادَ اللّهِ منْ قولهِ هذا أنّهُ لا يحلُّ بعضهمْ لبعضٍ إلّا أنْ يسلمَ الباقي منهما في العدّةِ. وأمّا

الكوفيّونَ وهمْ سفيانُ وأبو حنيفةَ وأصحابهُ فإنّهمْ قالوا في الكافرينَ الذّمّيّينَ: إذا أسلمتِ المرأةُ عرضَ على الزّوجِ الإسلامُ، فإنْ أسلمَ وإلّا فرّقَ بينهما. قالوا: ولوْ كانا حربيّينِ فهيَ امرأتهُ حتّى تحيضَ ثلاثَ حيضٍ إذا كانا جميعاً في دارِ الحربِ أوْ في دارِ الإسلامِ. وإنْ كانَ أحدهما في دارِ الإسلامِ والآخرُ في دارِ الحربِ انقطعتِ العصمةُ بينهما فراعوا الدّارَ، وليسَ بشيءٍ. وقدْ تقدّمَ.

الثالثة عشرةَ- هذا الاختلافُ إنّما هوَ في المدخولِ بها، فإنْ كانتْ غيرَ مدخولٍ بها فلا نعلمُ اختلافاً في انقطاعِ العصمةِ بينهما، إذْ لا عدّةَ عليها. كذا يقولُ مالكٌ في المرأةِ ترتد وزوجها مسلمٌ: انقطعتِ العصمةُ بينهما. وحجّتهُ: ﴿وَلَا تُمۡسِكُواْ بِعِصَمِ ٱلۡكَوَافِرِ﴾، ومذهبُ الشّافعيِّ وأحمدَ أنّهُ ينتظرُ بها تمامَ العدّةِ.

الرابعة عشرة- فإنْ كانَ الزّوجانِ نصرانيّينِ فأسلمتِ الزّوجةُ ففيها أيضاً اختلافٌ. ومذهبُ مالكٍ وأحمدَ والشّافعيِّ الوقوفُ إلى تمامِ العدّةِ، وكذا الوثنيُّ تسلمُ زوجتهُ، إنّهُ إنْ أسلمَ في عدّتها فهوَ أحقُّ بها، كما كانَ صفوانُ بن أميّة وعكرمة بن أبي جهل أحقُّ بزوجتيهما لمّا أسلما في عدّتيهما، ذكرهُ مالكٌ في الموطّأ. قالَ ابنُ شهابٍ: كانَ بينَ إسلامِ صفوانَ وبينَ إسلامِ زوجتهِ نحوٌ منْ شهرٍ. قالَ ابنُ شهابٍ: ولمْ يبلغنا أنَّ امرأةً هاجرتْ إلى رسولِ اللّهِ ﷺ وزوجها كافرٌ مقيمٌ بدارِ الحربِ إلّا فرّقتْ هجرتها بينهُ وبينها، إلّا أنْ يقدمَ زوجها مهاجراً قبلَ أنْ تنقضيَ عدّتها. ومنَ العلماءِ منْ قالَ: ينفسخُ النّكاحُ بينهما ولا سبيلَ عليها إلّا بخطبةٍ.

الخامسة عشرة- قوله تعالى: ﴿وَسۡـَٔلُواْ مَآ أَنفَقۡتُمۡ وَلۡيَسۡـَٔلُواْ مَآ أَنفَقُواْۚ﴾ قالَ المفسّرونَ: كانَ منْ ذهبَ منَ المسلماتِ مرتدّاتٍ إلى الكفّارِ منْ أهلِ العهدِ يقالُ للكفّارِ: هاتوا مهرها. ويقالُ للمسلمينَ إذا جاءَ أحدٌ منَ الكافراتِ مسلمةً مهاجرةً: ردّوا إلى الكفّارِ مهرها. وكانَ ذلكَ نصفاً وعدلاً بينَ الحالتينِ. وكانَ هذا حكمُ اللّهِ مخصوصاً بذلكَ الزّمانِ في تلكَ النّازلةِ خاصّةً بإجماعِ الامة.

السادسة عشرةَ- قولهُ تعالى: ﴿ذَٰلِكُمۡ حُكۡمُ ٱللَّهِ﴾ أيْ ما ذكرَ في هذهِ الآيةِ ﴿يَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡۖ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ١٠﴾ تقدّمَ في غير موضع.

قولهُ تعالى: ﴿وَإِن فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى ٱلْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَـَٔاتُوا۟ ٱلَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُم مِّثْلَ مَآ أَنفَقُوا۟ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾﴾، فيهِ ثلاثُ مسائلَ:

الأولى: قولهُ تعالى: ﴿وَإِن فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ﴾ في الخبرِ: أنَّ المسلمينَ قالوا: رضينا بما حكمَ اللّهُ، وكتبوا إلى المشركينَ فامتنعوا فنزلتْ: ﴿وَإِن فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى ٱلْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَـَٔاتُوا۟ ٱلَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُم مِّثْلَ مَآ أَنفَقُوا۟ۚ﴾. أي منَ الفيءِ والغنيمةِ، قيل: ثم نسخ هذا، وقيلَ: انقطعَ عامَ الفتحِ، وقالَ قومٌ: هوَ ثابتُ الحكمِ الآنَ أيضـًا.

الثانية- قولهُ تعالى: ﴿فَعَاقَبْتُمْ﴾ صنعتمْ كما صنعوا بكمْ، وقيلَ: أيْ فعاقبتمُ المرتدّةَ بالقتلِ فلزوجها مهرها من غنائم المسلمين.

الثالثة- قولهُ تعالى: ﴿فَـَٔاتُوا۟ ٱلَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُم مِّثْلَ مَآ أَنفَقُوا۟ۚ﴾ قالَ ابنُ عبّاسٍ: يقولُ إنْ لحقتِ امرأةٌ مؤمنةٌ بكفّارِ أهلِ مكّةَ، وليسَ بينكمْ وبينهمْ عهدٌ ولها زوجٌ مسلمٌ قبلكمْ فغنمتمْ، فأعطوا هذا الزّوجَ المسلمَ مهرهُ منَ الغنيمةِ قبلَ أنْ تخمّسَ. وقيلَ: يعطى منْ مالِ الفيءِ، وقيلَ: يعطى منْ صداقِ منْ لحقَ بنا.

ثم قيل: هيَ منسوخةٌ، وقيلَ: بلْ حكمها ثابتٌ.

﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ احذروا أنْ تتعدّوا ما أمرتمْ به.

قولهُ تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَـٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَـٰدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَـٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾﴾، فيها ثماني مسائلَ:

الأولى: قولهُ تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَـٰتُ يُبَايِعْنَكَ﴾ لمّا فتحَ رسولُ اللّهِ ﷺ مكّةَ جاءَ نساءُ أهلِ مكّةَ يبايعنهُ، فأمرَ أنْ يأخذَ عليهنَّ ألّا يشركنَ. وفي صحيحِ مسلمٍ عنْ عائشةَ زوجِ النّبيِّ ﷺ قالتْ: كانَ المؤمناتُ إذا هاجرنَ إلى رسولِ اللّهِ ﷺ يمتحنَّ بقولِ اللّهِ تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَـٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ﴾ إلى آخرِ الآيةِ.

قالتْ عائشةُ: فمنْ أقرَّ بهذا منَ المؤمناتِ فقدْ أقرَّ بالمحنةِ، وكانَ رسولُ اللّهِ ﷺ إذا أقررنَ بذلكَ منْ قولهنَّ قالَ لهنَّ رسولُ اللّهِ ﷺ: «انطلقنَ فقدْ بايعتكنَّ» ولا واللّهِ ما مست يدِ رسولِ اللّهِ ﷺ يدَ امرأةٍ قطُّ، غيرَ أنّهُ بايعهنَّ بالكلامِ.

الثانية: رويَ أنَّ النّبيَّ ﷺ لمّا قالَ: ﴿وَلَا يَزْنِينَ﴾ قالت هند: أو تزني الحرّةُ! ثمَّ قالَ: ﴿وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ﴾ ألستهنَّ بالنّميمةِ وقيل ما كان من قبلةٍ أوْ جسّةٍ، والجمهورُ على أنَّ معنى ﴿بِبُهْتَٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ﴾ ما أخذتهُ لقيطًا ﴿وَأَرْجُلِهِنَّ﴾ ما ولدتهُ منْ زنى. وقدْ تقدّمَ.

﴿وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ﴾ لا ينحنَ. ولا تخلو امرأةٌ منهنَّ إلّا بذي محرمٍ، وفي صحيحِ مسلمٍ عنْ أمِّ عطيّةَ لما نزلت هذه الآية: يبايعنكَ على أنْ لا يشركنَ باللّهِ شيئًا - إلى قولهِ - ولا يعصينكَ في معروفٍ قالَ: «كانَ منهُ النّياحةُ» قالتْ: فقلت يا رسولَ اللّهِ، إلّا آلَ فلانٍ فإنّهمْ كانوا أسعدوني في الجاهليّةِ، فلا بدَّ لي منْ أنْ أسعدهمْ. فقالَ، رسولُ اللّهِ ﷺ: «إلّا آلَ فلانٍ».

الثالثة: ذكرَ اللّهُ عزَّ وجلَّ ورسولهُ ﷺ في صفةِ البيعةِ خصالاً شتّى، صرّحَ فيهنَّ بأركانِ النّهيِ في الدّينِ ولمْ يذكرْ أركانَ الأمرِ. وهيَ ستّةٌ أيضًا: الشّهادةُ، والصّلاةُ، والزّكاةُ، والصّيامُ، والحجُّ، والاغتسالُ منَ الجنابةِ. وذلكَ لأنَّ النّهيَ دائمٌ في كلِّ الأزمانِ وكلِّ الأحوالِ، فكانَ التّنبيهُ على اشتراطِ الدّائمِ آكدَ.

وقيلَ: إنَّ هذهِ المناهيَ كانَ في النّساءِ كثيرٌ منْ يرتكبها ولا يحجزهنَّ عنها شرفُ النّسبِ، فخصّتْ بالذّكرِ لهذا. ونحوٌ منهُ قولهُ ﷺ لوفدِ عبدِ القيسِ: «وأنهاكمْ عنِ الدّبّاءِ والحنتمِ والنّقيرِ والمزفّتِ» فنبّههمْ على تركِ المعصيةِ في شربِ الخمرِ دونَ سائرِ المعاصي، لأنّها كانتْ شهوتهمْ وعادتهمْ، وإذا تركَ المرءُ شهوتهُ منَ المعاصي هانَ عليهِ تركُ سائرها ممّا لا شهوةَ لهُ فيها.

الرابعة: لمّا قالَ النّبيُّ ﷺ في البيعةِ: ﴿وَلَا يَسْرِقْنَ﴾ قالتْ هندُ: يا رسولَ اللّهِ إنَّ أبا سفيانَ رجلٌ مسيكٌ فهلْ عليَّ حرجٌ أنْ آخذَ ما يكفيني وولدي؟ قالَ: «لا إلّا بالمعروفِ».

الخامسة: قالَ عبادةُ بنُ الصّامتِ: أخذَ علينا رسولُ اللّهِ ﷺ كما أخذَ على النّساءِ: «ألّا تشركوا باللّهِ شيئًا ولا تسرقوا ولا تزنوا ولا تقتلوا أولادكمْ ولا يعضهُ بعضكمْ بعضًا ولا تعصوا في معروفٍ آمركمْ بهِ». معنى «يعْضُهُ» يسحرُ. والعضهُ: السّحرُ.

السادسة- قولهُ تعالى: ﴿وَلَا يَعۡصِينَكَ فِي مَعۡرُوفٖ﴾ في البخاريِّ عنِ ابنِ عبّاسٍ في قولهِ تعالى: ﴿وَلَا يَعۡصِينَكَ فِي مَعۡرُوفٖ﴾ قالَ: إنّما هوَ شرطٌ شرطهُ اللّهُ للنّساءِ. واختلفَ في معناهُ على ما ذكرنا. والصّحيحُ أنّهُ عامٌّ في جميعِ ما يأمرُ بهِ النّبيُّ ﷺ وينهى عنهُ، فيدخلُ فيهِ النّوحُ وتخريقُ الثّيابِ وجزُّ الشّعرِ والخلوةُ بغيرِ محرمٍ إلى غيرِ ذلكَ. وهذهِ كلّها كبائرُ ومنْ أفعالِ الجاهليّةِ.

وفي صحيحِ مسلمٍ عنْ أبي مالكٍ الأشعريِّ أنَّ النّبيَّ ﷺ قال: «أربعٌ في أمّتي منْ أمرِ الجاهليّةِ» فذكرَ منها النّياحةَ.

أمّا تخصيصُ قولهِ: ﴿فِي مَعۡرُوفٖ﴾ معَ قوّةِ قولهِ: ﴿وَلَا يَعۡصِينَكَ﴾ ففيهِ قولانِ:

أحدهما- أنّهُ تفسيرٌ للمعنى على التّأكيدِ، كما قالَ تعالى: ﴿قَٰلَ رَبِّ ٱحۡكُم بِٱلۡحَقِّۗ﴾، لأنّهُ لوْ قالَ احكمْ لكفى.

الثّاني- إنّما شرطَ المعروفَ في بيعةِ النّبيِّ ﷺ حتّى يكونَ تنبيهًا على أنَّ غيرهُ أولى بذلكَ وألزمَ لهُ وأنفى للإشكالِ.

السابعة- روى البخاريُّ عنْ عبادةَ بنِ الصّامتِ قالَ: كنّا عندَ النّبيِّ ﷺ فقالَ: «أتبايعوني على ألّا تشركوا باللّهِ شيئًا ولا تزنوا ولا تسرقوا» قرأَ آيةَ النّساءِ. وأكثرُ لفظِ سفيانَ قرأَ في الآيةِ «فمنْ وفى منكمْ فأجره على اللّهِ ومنْ أصابَ منْ ذلكَ شيئًا فعوقبَ فهوَ كفّارةٌ لهُ ومنْ أصابَ منْ ذلكَ شيئًا فسترهُ اللّهُ فهوَ إلى اللّهِ إنْ شاءَ عذّبهُ وإنْ شاءَ غفرَ لهُ منها».

وفي الصّحيحينِ عنِ ابنِ عبّاسٍ قالَ: شهدتُ الصّلاةَ يومَ الفطرِ معَ رسولِ اللّهِ ﷺ وأبي بكرٍ وعمرَ وعثمانَ، فكلّهمْ يصلّيها قبلَ الخطبةِ ثمَّ يخطبُ، فنزلَ نبيُّ اللّهِ ﷺ فكأنّي أنظرُ إليهِ حينَ يجلّسُ الرّجالَ بيدهِ، ثمَّ أقبلَ يشقّهمْ حتّى أتى النّساءَ معَ بلالٍ فقالَ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ يُبَايِعۡنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشۡرِكۡنَ بِٱللَّهِ شَيۡـٔٗا وَلَا يَسۡرِقۡنَ وَلَا يَزۡنِينَ وَلَا يَقۡتُلۡنَ

﴿أَوۡلَٰدَهُنَّ وَلَا يَأۡتِينَ بِبُهۡتَٰنٖ يَفۡتَرِينَهُۥ بَيۡنَ أَيۡدِيهِنَّ وَأَرۡجُلِهِنَّ﴾ حتّى فرغَ منَ الآيةِ كلّها، ثمَّ قالَ حينَ فرغَ: أنتنَّ على ذلكَ؟ فقالتِ: امرأةٌ واحدةٌ لمْ يجبهُ غيرها: نعمْ يا رسولَ اللّهِ، لا يدري الحسنُ منْ هيَ. قالَ: «فتصدّقنَ» وبسطَ بلالٌ ثوبهُ فجعلنَ يلقينَ الفتخَ والخواتيمَ في ثوبِ بلالٍ. لفظُ البخاريِّ.

الثّامنةُ- أجمعَ المسلمونَ على أنّهُ ليسَ للإمامِ أنْ يشترطَ عليهنَّ هذا، والأمرُ بذلكَ ندبٌ لا إلزامٌ. وقالَ بعضُ أهلِ النّظرِ: إذا احتيجَ إلى المحنةِ منْ أجلِ تباعدِ الدّارِ كانَ على إمامِ المسلمينَ إقامةُ المحنة.

قولهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَوَلَّوۡاْ قَوۡمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ﴾ يعني اليهودَ. وذلكَ أنَّ ناسًا منْ فقراءِ المسلمينَ كانوا يخبرونَ اليهودَ بأخبارِ المؤمنينَ ويواصلونهمْ فيصيبونَ بذلكَ منْ ثمارهمْ فنهوا عنْ ذلكَ ﴿قَدۡ يَئِسُواْ مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ يعني اليهودَ، وقيلَ: همُ المنافقونَ ﴿كَمَا يَئِسَ ٱلۡكُفَّارُ﴾ أيِ الأحياءُ منَ الكفّارِ ﴿مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡقُبُورِ ١٣﴾ أنْ يرجعوا إليهمْ.

سورة الصف

مدنيّةٌ في قولِ الجميعِ.

بسمِ اللّهِ الرّحمنِ الرّحيمِ

قولُه تعالى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ١﴾ تقدم.

قولُه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ٢ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ٣﴾، فيهِ خمسُ مسائلَ:

الأولى: قولهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ﴾ نزلتْ في قومٍ كانوا يقولونَ نحنُ جاهدنا وأبلينا ولمْ يفعلوا.

الثانية – هذهِ الآيةُ توجبُ على كلِّ منْ ألزمَ نفسهُ عملاً فيهِ طاعةٌ أنْ يفيَ بها، فإنَّ منِ التزمَ شيئًا لزمهُ شرعًا، والملتزمُ على قسمينِ:

أحدهما: النّذرُ، وهوَ على قسمينِ، نذرُ تقرّبٍ مبتدأٍ كقول: للّهِ عليَّ صلاةٌ وصومٌ وصدقةٌ، ونحوهُ منَ القربِ. فهذا يلزمُ الوفاءُ بهِ إجماعًا. ونذرٌ مباحٌ وهوَ ما علّقَ بشرطِ رغبةٍ، كقولهِ: إنْ قدمَ غائبي فعليَّ صدقةٌ، أوْ علّقَ بشرطِ رهبةٍ، كقولهِ: إنْ كفاني اللّهُ شرَّ كذا فعليَّ صدقةٌ. فاختلفَ العلماءُ فيهِ:

فقالَ مالكٌ وأبو حنيفةَ، يلزمهُ الوفاءُ بهِ.

وقالَ الشّافعيُّ في أحدِ أقوالهِ: إنّهُ لا يلزمهُ الوفاءُ بهِ. وعمومُ الآيةِ حجّةٌ لنا، لأنّها بمطلقها تتناولُ ذمَّ منْ قالَ ما لا يفعلهُ على أيِّ وجهٍ كانَ منْ مطلقٍ أوْ مقيّدٍ بشرطٍ.

فإن قالَ أصحابهُ: إنَّ النّذرَ إنّما يكونُ بما القصدُ منهُ القربةُ ممّا هوَ منْ جنسِ القربةِ. وهذا وإنْ كانَ منْ جنسِ القربةِ لكنّهُ لمْ يقصدْ بهِ القربةُ، وإنّما قصدَ منعُ نفسهِ عنْ فعلٍ أوِ الإقدامُ على فعلٍ.

قلنا: القربُ الشّرعيّةُ مشقّاتٌ وكلفٌ وإنْ كانتْ قرباتٍ. وهذا تكلّفُ التزامِ هذهِ القربةِ

بمشقّةٍ لجلبِ نفعٍ أوْ دفعِ ضرٍّ، فلمْ يخرجْ عنْ سننِ التّكليفِ ولا زالَ عنْ قصدِ التّقرّبِ.

قالَ ابنُ العربيِّ: فإنْ كانَ المقولُ منهُ وعداً فلا يخلو أنْ يكونَ منوطـاً بسببٍ كقولهِ: إنْ تزوّجتَ أعتتكَ بدينارٍ، أوِ ابتعتَ حاجةَ كذا أعطيتكَ كذا. فهذا لازمٌ إجماعـاً منَ الفقهاءِ. وإنْ كانَ وعداً مجرّداً فقيلَ يلزمُ بتعلّقهِ. وتعلّقوا بسببِ الآيةِ، فإنّهُ رويَ أنّهمْ كانوا يقولونَ: لوْ نعلمُ أيَّ الأعمالِ أفضلَ أوْ أحبَّ إلى اللّهِ لعملناهُ، فأنزلَ اللّهُ تعالى هذهِ الآيةَ. وهوَ حديثٌ لا بأسَ بهِ، والصّحيحُ عندي: أنَّ الوعدَ يجبُ الوفاءُ بهِ على كل حال إلا لعذر.

قلت: قالَ مالكٌ: فأمّا العدةُ مثلُ أنْ يسألَ الرّجلَ الرّجلَ أنْ يهبَ لهُ الهبةَ فيقولُ لهُ نعمْ ثمَّ يبدو لهُ ألّا يفعلَ فما أرى ذلكَ يلزمهُ.

قلت: أيْ لا يقضي عليهِ بذلكَ، فأمّا في مكارمِ الأخلاقِ وحسنِ المروءةِ فنعمْ. وقدْ أثنى اللّهُ تعالى على منْ صدقَ وعدهُ ووفى بنذرهِ فقالَ: ﴿وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَـٰهَدُوا۟﴾، وقالَ تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَـٰبِ إِسْمَـٰعِيلَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ﴾.

الثالثة- قال النخعي: ثلاثُ آياتٍ منعتني أنْ أقصَّ على النّاسِ: ﴿۞ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ﴾، ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ ۚ﴾، ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾.

وخرّجَ أبو نعيمٍ الحافظُ منْ حديثِ أنسٍ قالَ: قالَ رسولُ اللّهِ ﷺ: «أتيتُ ليلةَ أسريَ بي على قومٍ تقرضُ شفاههمْ بمقاريضَ منْ نارٍ كلّما قرضتْ وفتْ قلت: منْ هؤلاءِ يا جبريلُ؟ قالَ: هؤلاءِ خطباءُ أمّتكَ الّذينَ يقولونَ ولا يفعلونَ ويقرؤونَ كتابَ اللّهِ ولا يعملونَ».

الرابعة- قولهُ تعالى: ﴿لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ استفهامٌ على جهةِ الإنكارِ والتّوبيخِ، على أنْ يقولَ الإنسانُ عنْ نفسهِ منَ الخيرِ ما لا يفعلهُ. أمّا في الماضي فيكونُ كذبـاً، وأمّا في المستقبلِ فيكونُ خلفـاً، وكلاهما مذمومٌ.

الخامسة- قولهُ تعالى: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ المقتُ والمقاتةُ مصدرانِ، يقالُ: رجلٌ مقيتٌ وممقوتٌ إذا لمْ يحبه الناس، وقدْ يحتجُّ بهِ في وجوبِ الوفاءِ في اللّجاجِ والغضبِ على أحد قولي الشافعي.

قولهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفّٗا كَأَنَّهُم بُنۡيَٰنٞ مَّرۡصُوصٞ ۝٤﴾، فيهِ ثلاثُ مسائلَ:

الأولى: قولهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفّٗا﴾ أيْ ويصفّونَ صفـًا: ﴿كَأَنَّهُم بُنۡيَٰنٞ مَّرۡصُوصٞ﴾ التّراصُّ التّلاصقُ، ومنهُ وتراصّوا في الصّفِّ. ومعنى الآيةِ: يحبُّ منْ يثبتُ في الجهادِ في سبيلِ اللّهِ ويلزمُ مكانهُ كثبوتِ البناءِ.

الثانية– وقدِ استدلَّ بعضُ أهلِ التّأويلِ بهذا على أنَّ قتالَ الرّاجلِ أفضلُ منْ قتالِ الفارسِ، لأنَّ الفرسانَ لا يصطفّونَ على هذهِ الصّفةِ، وذلكَ غيرُ مستقيمٍ، لما جاءَ في فضلِ الفارسِ في الأجرِ والغنيمةِ. ولا يخرجُ الفرسانُ منْ معنى الآيةِ، لأنَّ معناهُ الثّباتُ.

الثالثة– لا يجوزُ الخروجُ عنِ الصّفِّ إلّا لحاجةٍ تعرضُ للإنسانِ، أوْ في رسالةٍ يرسلها الإمامُ، أوْ في منفعةٍ تظهرُ في المقامِ، كفرصةٍ تنتهزُ ولا خلافَ فيها. وفي الخروجِ عنِ الصّفِّ للمبارزةِ خلافٌ على قولينِ:

أحدهما: أنّهُ لا بأسَ بذلكَ إرهابـًا للعدوِّ، وطلبـًا للشّهادةِ وتحريضـًا على القتالِ.

وقالَ أصحابنا: لا يبرزُ أحدٌ طالبـًا لذلكَ، لأنَّ فيهِ رياءً وخروجـًا إلى ما نهى اللّهُ عنهُ منْ لقاءِ العدوِّ. وإنّما تكونُ المبارزةُ إذا طلبها الكافرُ، كما كانتْ في حروبِ النّبيِّ ﷺ يومَ بدرٍ وفي غزوةِ خيبرَ، وعليهِ درجَ السّلفُ.

قولهُ تعالى: ﴿وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ لِمَ تُؤۡذُونَنِي﴾ وذلكَ حينَ رموهُ بالأدرةِ، ومنَ الأذى قولهمْ: ﴿ٱجۡعَل لَّنَآ إِلَٰهٗا كَمَا لَهُمۡ ءَالِهَةٞۚ﴾، وقولهم: ﴿فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ﴾. ﴿وَقَد تَّعۡلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡۖ﴾ دخلتْ قدْ على تعلمونَ للتّأكيدِ ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ﴾ أيْ مالوا عنِ الحقِّ ﴿أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡۚ﴾ أيْ أمالها عنِ الهدى. وقيلَ: فلمّا زاغوا عنِ الطّاعةِ أزاغَ اللّهُ قلوبهمْ عن الهداية.

قولهُ تعالى: ﴿وَإِذۡ قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ ولمْ يقلْ «يا قوم» كما قالَ موسى، لأنّهُ لا نسبَ لهُ فيهمْ فيكونونَ قومهُ ﴿إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُم﴾ أيْ بالإنجيلِ ﴿مُّصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِ﴾ لأنَّ في التّوراةِ صفتي ﴿وَمُبَشِّرَۢا بِرَسُولٖ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِي ٱسۡمُهُۥٓ

﴿أَحۡمَدُۖ﴾ قرأَ نافعٌ وابنُ كثيرٍ وأبو عمرو ﴿مِنۢ بَعۡدِيَ﴾ بفتحِ الياءِ. وهيَ قراءةُ أبي بكرٍ عنْ عاصمٍ. الباقون بالإسكان. وأحمدُ اسمُ نبيِّنا ﷺ. وهوَ اسمُ علمٍ منقولٍ منْ صفةٍ لا منْ فعلٍ، فتلكَ الصّفةُ أفعلُ الّتي يرادُ بها التّفضيلُ. فمعنى أحمدُ أيْ أحمدُ الحامدينَ لربّهِ. والأنبياءُ صلواتُ اللّهِ عليهمْ كلّهمْ حامدونَ اللّهَ، ونبيّنا أحمدُ أكثرهمْ حمداً. وأمّا محمّدٌ فمنقولٌ منْ صفةٍ أيضـًا، وهيَ في معنى محمودٍ، ولكنْ فيهِ معنى المبالغةِ والتّكرارِ. فالمحمّدُ هوَ الّذي حمدَ مرّةً بعدَ مرّةٍ. كما أنَّ المكرّمُ منَ الكرمِ مرّةً بعدَ مرّةٍ. فهوَ محمودٌ في الدّنيا لما هديَ إليهِ ونفعَ بهِ منَ العلمِ والحكمةِ، وهوَ محمودٌ في الآخرةِ بالشّفاعةِ.

وفي الصّحيحِ: «لي خمسةُ أسماءَ أنا محمّدٌ وأحمدُ وأنا الماحي الّذي يمحو اللّهُ بيَ الكفرَ وأنا الحاشرُ الّذي تحشرُ النّاسُ على قدمي وأنا العاقبُ» ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ قيلَ عيسى، وقيلَ: محمّدٌ صلّى الله عليهما وسلّمَ ﴿قَالُواْ هَٰذَا سِحۡرٞ مُّبِينٞ ٦﴾ قرأَ الكسائيُّ وحمزةُ «سَاحِرٌ» نعتـًا للرّجلِ. الباقونَ ﴿سِحۡرٞ﴾ نعتـًا لما جاءَ به الرسول.

قولهُ تعالى: ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ﴾ أيْ لا أحدَ أظلمُ ﴿مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ﴾ تقدّمَ في غيرِ موضعٍ ﴿وَهُوَ يُدۡعَىٰٓ إِلَى ٱلۡإِسۡلَٰمِۚ﴾ هذا تعجّبٌ ممّنْ كفرَ بعيسى ومحمّدٍ بعدَ المعجزاتِ الّتي ظهرتْ لهما ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٧﴾ أيْ منْ كانَ في حكمهِ أنّهُ يختمُ له بالضلالة.

قوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطۡفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفۡوَٰهِهِمۡ﴾ الإطفاءُ هوَ الإخمادُ، يستعملانِ في النّارِ، ويستعملانِ فيما يجري مجراها منَ الضّياءِ والظّهورِ.

ونورَ اللّهِ هنا القرآنُ، يريدونَ إبطالهُ وتكذيبهُ بالقولِ، ويريدونَ دفعَ الإسلامُ بالكلامِ، ويريدونَ هلاكَ محمّد ﷺ بالأراجيفِ.

﴿وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ﴾ وإظهاره في الآفاقِ. وقرأ ابنُ كثيرٍ وحمزةُ والكسائيُّ وحفصٌ عنْ عاصمٍ واللّهُ متمُّ نورهِ بالإضافةِ على نيّةِ الانفصالِ، كقولهِ تعالى: ﴿كُلُّ نَفۡسٖ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِۗ﴾. الباقونَ ﴿مُتِمٌّ نُورَهُۥ﴾ لأنّهُ فيما يستقبلُ، فعملَ ﴿وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ ٨﴾ منْ سائرِ الأصنافِ.

قولهُ تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ﴾ أيْ محمّداً بالحقِّ والرّشادِ ﴿لِيُظۡهِرَهُۥ

﴿عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ أيْ بالحججِ وباليدِ في القتالِ، وليسَ المرادُ بالظّهورِ ألّا يبقى دينٌ آخرُ منَ الأديانِ، بلِ المرادُ يكونُ أهلُ الإسلامِ عالينَ غالبينَ. ومنَ الإظهارِ ألّا يبقى دينٌ سوى الإسلامِ في آخرِ الزّمانِ، وذلكَ إذا نزلَ عيسى لمْ يكنْ في الأرضِ دينٌ إلّا دينُ الإسلامِ.

وفي صحيحِ مسلمٍ عنْ أبي هريرةَ قالَ: قالَ رسولُ اللّهِ ﷺ: «لينزلنَّ ابنُ مريمَ حكماً عادلاً فليكسرنَّ الصّليبَ وليقتلنَّ الخنزيرَ وليضعنَّ الجزيةَ ولتتركنَّ القلاصُ فلا يسعى عليها ولتذهبنَّ الشّحناءُ والتّباغضُ والتّحاسدُ وليدعونَّ إلى المالِ فلا يقبلهُ أحدٌ».

وقيلَ: ليظهرهُ أيْ ليطلعَ محمّداً ﷺ على سائرِ الأديانِ، حتّى يكونَ عالماً بها عارفاً بوجوهِ بطلانها، وبما حرّفوا وغيّروا منها. على الدّينِ أيِ الأديانِ، لأنَّ الدّينَ مصدر يعبر به عن جمع.

قولهُ تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَـٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ۝١٠ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَـٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝١١ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ وَمَسَـٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّـٰتِ عَدْنٍ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ۝١٢ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا ۖ نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝١٣﴾، فيهِ خمسُ مسائلَ:

الأولى: قولهُ تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَـٰرَةٍ﴾ خطابٌ لجميعِ المؤمنينَ.

الثانية– قوله تعالى: ﴿تُنجِيكُم﴾ أي تخلصكم ﴿مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ أي مؤلم. وقراءةُ العامّةِ تنجيكمْ بإسكانِ النّونِ منَ الإنجاءِ. وقرأ ابن عامر «تُنَجِّيكُمْ» مشدّداً منَ التّنجيةِ.

الثالثة– بيّنَ التّجارةَ فقالَ: ﴿تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَـٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ﴾ ذكرَ الأموالَ أوّلاً لأنّها الّتي يبدأُ بها في الإنفاق ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ أي هذا الفعل ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ من أموالكم وأنفسكم ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

الرابعة– قولهُ تعالى: ﴿وَمَسَـٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّـٰتِ عَدْنٍ ۚ﴾ أيْ إقامةً ﴿ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ أيِ السّعادةُ الدّائمةُ الكبيرةُ. وأصلُ الفوزِ الظّفرُ بالمطلوبِ.

الخامسة- قولهُ تعالى: ﴿وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا﴾ أخرى معطوفةٌ على تجارةٍ فهيَ في محلِّ خفضٍ. وقيلَ: محلّها رفعٌ أيْ ولكمْ خصلةٌ أخرى وتجارةٌ أخرى تحبّونها ﴿نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أيْ هوَ نصرٌ منَ اللّهِ، فنصرٌ على هذا تفسير ﴿وَأُخْرَىٰ﴾. **وقيلَ**: رفعٌ على البدلِ منْ أخرى أيْ ولكمْ نصرٌ منَ اللّهِ ﴿وَفَتْحٌ قَرِيبٌ﴾ أيْ غنيمةٌ في عاجلِ الدّنيا، وقيلَ فتحُ مكّةَ. وقيلَ: يريدُ فتحَ فارسَ والروم ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ برضا الله عنهم.

قولهُ تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوٓا۟ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّـۧنَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا۟ ظَـٰهِرِينَ ﴿١٤﴾﴾

أكد أمر الجهاد، أي كونوا حوارى نبيّكمْ ليظهركمُ اللّهُ على منْ خالفكمْ كما أظهر حواري عيسى على منْ خالفهمْ. وقرأ ابنُ كثيرٍ وأبو عمرو ونافعٌ «أَنْصَاراً لِلَّهِ» بالتّنوين. قالوا: لأنَّ معناهُ اثبتوا وكونوا أعواناً للّهِ بالسّيفِ على أعدائهِ، وقرأ الباقونَ منْ أهلِ البصرةِ والكوفةِ والشّام ﴿أَنصَارَ ٱللَّهِ﴾ بلا تنوينٍ، وحذفوا لامَ الإضافةِ منَ اسمِ اللّهِ تعالى، ومعناهُ كونوا أنصاراً لدينِ اللّهِ.

والحواريّونَ خواصُّ الرّسلِ ﴿كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّـۧنَ﴾ وهمْ أصفياؤهُ اثنا عشرَ رجلاً، أوّلُ منْ آمنَ بهِ منْ بني إسرائيلَ ﴿فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ﴾ والطّائفتانِ في زمنِ عيسى افترقوا بعدَ رفعهِ إلى السّماءِ ﴿فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ﴾ الّذينَ كفروا بعيسى ﴿فَأَصْبَحُوا۟ ظَـٰهِرِينَ﴾ أيْ غالبينَ بالحجّةِ والبرهانِ.

سورة الجمعة

مدنيّةٌ في قولِ الجميعِ، وهيَ إحدى عشرةَ آيةً. وفي صحيحِ مسلمٍ عنْ أبي هريرةَ أنَّ رسولَ اللّهِ ﷺ قال: «خيرُ يومٍ طلعتْ عليهِ الشّمسُ يومُ الجمعةِ فيهِ خلقَ آدمُ وفيهِ أدخلَ الجنّةَ وفيهِ أخرجَ منها ولا تقومُ السّاعةُ إلّا في يومِ الجمعةِ». وعنهُ قالَ: قالَ رسولُ اللّهِ ﷺ: «نحنُ الآخرونَ الأوّلونَ يومَ القيامةِ ونحنُ أوّلُ منْ يدخلُ الجنّةَ بيدَ أنّهمْ أوتوا الكتابَ منْ قبلنا وأوتيناهُ منْ بعدهمْ فاختلفوا فهدانا اللّهُ لما اختلفوا فيهِ منَ الحقِّ فهذا يومهمُ الّذي اختلفوا فيهِ هدانا اللّهُ لهُ- قالَ- يومُ الجمعةِ فاليومُ لنا وغداً لليهودِ وبعدَ غدٍ للنّصارى».

بسمِ اللّهِ الرّحمنِ الرّحيمِ

قولهُ تعالى: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ ٱلۡمَلِكِ ٱلۡقُدُّوسِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ ١﴾ تقدّمَ الكلامُ فيهِ.

قولهُ تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي بَعَثَ فِي ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ﴾ الأمّيّونَ العربُ؛ لأنّهمْ لمْ يكونوا أهلَ كتابٍ ﴿رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ﴾ يعني محمّداً ﷺ، وهذا دليلُ معجزتهِ وصدقِ نبوته ﴿يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ﴾ يعني القرآنَ ﴿وَيُزَكِّيهِمۡ﴾ أيْ يجعلهمْ أزكياءَ القلوبِ بالإيمانِ ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ يعني القرآنَ ﴿وَٱلۡحِكۡمَةَ﴾ السّنّةَ والفقهُ في الدّينِ ﴿وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلُ﴾ أيْ منْ قبلهِ وقبلِ أنْ يرسلَ إليهمْ ﴿لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ٢﴾ أيْ في ذهابٍ عن الحق.

قولهُ تعالى: ﴿وَءَاخَرِينَ مِنۡهُمۡ﴾ عطفٌ على الأمّيّينَ أيْ بعثَ في الأمّيّينَ وبعثَ في آخرينَ منهمْ. ويجوزُ أنْ يكونَ منصوباً بالعطفِ على الهاءِ والميمِ في يعلّمهمُ ويزكّيهمْ، أيْ يعلّمهمْ ويعلّمُ آخرينَ منَ المؤمنينَ، لأنَّ التّعليمَ إذا تناسقَ إلى آخرِ الزّمانِ كانَ كلّهُ مسنداً إلى أوّلهِ فكأنّهُ هوَ الّذي تولّى كلَّ ما وجدَ منهُ ﴿لَمَّا يَلۡحَقُواْ بِهِمۡۚ﴾ أيْ لمْ يكونوا في زمانهمْ وسيجيئونَ بعدهم. قيل: همُ العجمُ. وفي صحيحِ البخاريِّ ومسلمٍ عنْ أبي هريرةَ قالَ: كنّا جلوساً عندَ النّبيِّ ﷺ إذْ نزلتْ عليهِ سورةُ الجمعةِ فلمّا قرأ: ﴿وَءَاخَرِينَ مِنۡهُمۡ لَمَّا يَلۡحَقُواْ بِهِمۡۚ﴾ قالَ رجلٌ: منْ هؤلاءِ يا رسولَ اللّهِ؟ فلمْ يراجعهُ النّبيُّ ﷺ حتّى سألهُ مرّةً أوْ مرّتينِ أوْ ثلاثاً. قالَ وفينا سلمانُ الفارسيُّ. قالَ: فوضعَ النّبيُّ ﷺ يدهُ على سلمانَ ثمَّ قالَ: «لوْ كانَ الإيمانُ عندَ الثّريّا

لنالهُ رجالٌ منْ هؤلاءِ».

وقيلَ: همُ التّابعونَ. وقيلَ: همْ منْ دخلَ في الإسلامِ بعدَ النّبيِّ ﷺ إلى يومِ القيامةِ.

قولهُ تعالى: ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ﴾ الوحيَ والنّبوّةَ ﴿يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ۝٤﴾ وقيلَ: يعني الإسلامَ، فضلُ اللّهِ يؤتيهِ منْ يشاءُ، وقيلَ: إنّهُ المالُ ينفقُ في الطّاعةِ، فقدْ روى مسلمٌ عنْ أبي صالحٍ عنْ أبي هريرةَ أنَّ فقراءَ المهاجرينَ أتوا رسولَ اللّهِ ﷺ فقالوا: ذهبَ أهلُ الدّثورِ بالدّرجاتِ العلا والنّعيمِ المقيمِ. فقالَ: «وما ذاكَ»؟ قالوا: يصلّونَ كما نصلّي ويصومونَ كما نصومُ ويتصدّقونَ ولا نتصدَّقُ ويعتقونَ ولا نعتقُ. فقالَ: رسولُ اللّهِ ﷺ: «أفلا أعلّمكمْ شيئًا تدركونَ بهِ منْ سبقكمْ وتسبقونَ بهِ منْ بعدكمْ ولا يكونُ أحدٌ أفضلَ منكمْ إلّا منْ صنعَ مثلَ ما صنعتمْ» قالوا: بلى يا رسولَ اللّهِ، قالَ: «تسبّحونَ وتكبّرونَ وتحمدونَ دبرَ كلِّ صلاةٍ ثلاثًا وثلاثينَ مرّةً». قالَ أبو صالحٍ: فرجعَ فقراءُ المهاجرينَ إلى رسولِ اللّهِ ﷺ فقالوا: سمعَ إخواننا أهلُ الأموالِ بما فعلنا ففعلوا مثلهُ. فقالَ: رسولُ اللّهِ ﷺ: «ذلكَ فضلُ اللّهِ يؤتيهِ منْ يشاءُ».

قولهُ تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ﴾ كلّفوا العملَ بها ﴿ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا﴾ وهم اليهود ﴿كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا ۚ﴾ جمعُ سفرٍ، وهوَ الكتابُ الكبيرُ، لأنّهُ يسفرُ عنِ المعنى إذا قرئَ ﴿بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ۚ﴾ وفي هذا تنبيهٌ منَ اللّهِ تعالى لمنْ حملَ الكتابَ أنْ يتعلّمَ معانيهُ ويعلمَ ما فيهِ، لئلّا يلحقهُ منَ الذّمِّ ما لحق هؤلاء ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٥﴾ أيْ منْ سبقَ في علمهِ أنّهُ يكونُ كافراً.

قولهُ تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓا۟ إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ﴾ لمّا قالوا: ﴿نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ۚ﴾ فللأولياءِ عندَ اللّهِ الكرامةُ ﴿فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝٦﴾ لتصيروا إلى ما يصيرُ إليهِ أولياءُ اللّهِ ﴿وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۚ﴾ أيْ أسلفوهُ منْ تكذيبِ محمّدٍ ﷺ ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ۝٧﴾ وفي هذا إخبارٌ عنِ الغيبِ، ومعجزةٌ للنّبيِّ ﷺ. وقدْ مضى معنى هذهِ الآيةِ في البقرةِ في قولهُ تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝٩٤﴾.

قولهُ تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ ۖ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾﴾ قالَ زهيرٌ:

ومنْ هابَ أسبابَ المنايا ينلنهُ ولوْ رامَ أسبابَ السّماءِ بسلّمِ

قولهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْا۟ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُوا۟ ٱلْبَيْعَ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩﴾﴾، فيهِ ثلاثَ عشرةَ مسألةً:

الأولى: سمّيتْ جمعةً لأنَّ اللّهَ جمعَ فيها خلقَ آدمَ، وقيلَ: لأنَّ اللّهَ تعالى فرغَ فيها منْ خلقِ كل شيء فاجتمعتْ فيها المخلوقاتُ. وقيلَ: لتجتمعَ الجماعاتُ فيها. وقيلَ: لاجتماع الناس فيها للصلاة. ومنْ بمعنى في، أيْ في يومِ، كقولهِ تعالى: ﴿أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ﴾ أيْ في الأرضِ.

الثانية: كانَ يقالُ ليوم الجمعةِ: العروبةُ. وقيلَ: أوّلُ منْ سماها جمعة الأنصار، فقد جمّعَ أهلُ المدينةِ منْ قبل أنْ يقدمَ النّبيُّ ﷺ المدينةَ، وقبلَ أنْ تنزلَ الجمعةُ، اجتمعوا إلى أسعدَ بنِ زرارةَ -أبو أمامةَ- رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فصلّى بهمْ يومئذٍ ركعتينِ وذكّرهمْ، فسمّوهُ يومَ الجمعةِ حينَ اجتمعوا. فذبحَ لهمْ أسعدُ شاةً فتعشّوا وتغدّوا منها لقلّتهمْ. فهذهِ أوّلُ جمعةٍ في الإسلامِ. وروي أن مصعب ابن عميرٍ كانَ أوّلَ منْ جمّعَ الجمعةَ بالمدينةِ للمسلمينَ قبلَ أنْ يقدمها رسولُ اللّهِ ﷺ. قالَ البيهقيُّ: يحتملُ أنْ يكونَ مصعبٌ جمّعَ بهمْ بمعونةِ أسعدَ بنِ زرارةَ فأضافهُ كعبٌ إليهِ. والله أعلم.

وأمّا أوّلُ جمعةٍ جمّعها النّبيُّ ﷺ بأصحابهِ، فقالَ: أهلُ السّيرِ والتّواريخ: قدمَ رسولُ اللّهِ ﷺ مهاجراً حتّى نزلَ بقباءٍ، على بني عمرو بنِ عوفٍ يومَ الاثنينِ لاثنتيْ عشرةَ ليلةً خلتْ منْ شهرِ ربيعِ الأوّلِ حينَ اشتدَّ الضّحى. ومنْ تلكَ السّنةِ يعدُّ التّاريخُ. فأقامَ بقباءٍ إلى يوم الخميسِ وأسّسَ مسجدهمْ. ثمَّ خرجَ يومَ الجمعةِ إلى المدينةِ، فأدركتهُ الجمعةُ في بني سالمِ بنِ عوفٍ في بطنِ وادٍ لهمْ قدِ اتّخذَ القومُ في ذلكَ الموضعِ مسجداً، فجمّعَ بهمْ وخطبَ. وهيَ أوّلُ خطبةٍ خطبها بالمدينةِ.

وأوّلُ جمعةٍ جمّعتْ بعدها جمعةٌ بقريةٍ يقالُ لها جواثى منْ قرى البحرينِ.

الثالثة: خاطبَ اللّهُ المؤمنينَ بالجمعةِ دونَ الكافرينَ تشريفـًا لهمْ وتكريمـًا.

الرابعة: قدْ تقدّمَ حكمُ الأذانِ في سورةِ المائدةِ مستوفى. وقدْ كانَ الأذانُ على عهدِ رسولِ اللّهِ ﷺ كما في سائرِ الصّلواتِ، يؤذّنُ واحدٌ إذا جلسَ النّبيُّ ﷺ على المنبرِ. وكذلكَ كانَ يفعلُ أبو بكرٍ وعمرُ وعليٌّ بالكوفةِ. ثمَّ زادَ عثمانُ على المنبرِ أذانـًا ثالثـًا على دارهِ الّتي تسمّى الزّوراءُ حينَ كثرَ النّاسُ بالمدينةِ. فإذا سمعوا أقبلوا، حتّى إذا جلسَ عثمانُ على المنبرِ أذّنَ مؤذّنُ النّبيِّ ﷺ، ثمَّ يخطبُ عثمانُ. خرّجهُ ابنُ ماجهْ في سننهِ، وخرّجهُ البخاريُّ منْ طرقٍ بمعناهُ.

وفي الحديثِ الصّحيحِ: أنَّ الأذانَ كانَ على عهدِ رسولِ اللّهِ ﷺ واحداً، فلمّا كانَ زمنُ عثمانَ زادَ الأذانَ الثّالثَ على الزّوراءِ، وسمّاهُ في الحديثِ ثالثـًا لأنّهُ أضافهُ إلى الإقامةِ، كما قالَ ﷺ: «بينَ كلِّ أذانينِ صلاةٌ لمنْ شاءَ» يعني الأذانَ والإقامةَ.

الخامسة- قولهُ تعالى ﴿فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ أيْ فاعملوا على المضيِّ إلى ذكرِ اللّهِ، واشتغلوا بأسبابهِ منَ الغسلِ والتّطهيرِ والتّوجّهِ إليهِ لا السّعيُ على الأقدامِ. لقولهُ ﷺ: «إذا أقيمتِ الصّلاةُ فلا تأتوها تسعونَ ولكنِ ائتوها وعليكمُ السّكينةُ». فالسّعيُ أنْ تسعى بقلبكَ وعملكَ. ومنه قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا﴾، وقوله: ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى﴾، وقوله: ﴿وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى﴾.

وقدْ جاءَ في الاغتسالِ للجمعةِ والتّطيّبِ والتّزيّنِ باللّباسِ أحاديثُ مذكورةٌ في كتبِ الحديثِ.

السّادسةُ: قولهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ خطابٌ للمكلّفينَ بإجماعٍ. ويخرجُ منهُ المرضى والزّمنى والمسافرونَ والعبيدُ والنّساءُ بالدّليلِ، والعميانُ والشّيخُ الّذي لا يمشي إلّا بقائدٍ عندَ أبي حنيفةَ.

ولوْ تخلّفَ عنها متخلّفٌ على وليٍّ حميمٍ لهُ قدْ حضرتهُ الوفاةُ، ولمْ يكنْ عندهُ منْ يقومُ بأمرهِ رجا أنْ يكونَ في سعةٍ. وقدْ فعلَ ذلكَ ابنُ عمرَ.

ومنْ تخلّفَ عنها لغيرِ عذرٍ فصلّى قبلَ الإمامِ أعادَ، ولا يجزيهِ أنْ يصلّيَ قبلهُ. وهوَ في تخلّفهِ عنها معَ إمكانهِ لذلكَ عاصٍ للّهِ بفعلهِ.

السّابعةُ: قولهُ تعالى: ﴿إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ﴾ يختصُّ بوجوبِ الجمعةِ على القريبِ الّذي يسمعُ النّداءَ، فأمّا البعيدُ الدّارِ الّذي لا يسمعُ النّداءَ فلا يدخلُ تحتَ الخطابِ. واختلفَ فيمنْ يأتي الجمعةَ منَ الدّاني والقاصي:

فقالَ مالكٌ: تجبُ الجمعةُ على منْ في المصرِ على ثلاثة أميالٍ.

وقالَ الشّافعيُّ: اعتبارُ سماعِ الأذانِ أنْ يكونَ المؤذّنُ صيّتًا، والأصواتُ هادئةٌ، والرّيحُ ساكنةٌ وموقفُ المؤذّنِ عندَ سورِ البلدِ. وفي الصّحيحِ عنْ عائشةَ: أنَّ النّاسَ كانوا ينتابونَ الجمعةَ منْ منازلهمْ ومنَ العوالي فيأتونَ في الغبارِ ويصيبهمُ الغبارُ فتخرجُ منهمُ الرّيحُ، فقالَ: رسولُ اللّهِ ﷺ: «لو اغتسلتم ليومكم هذا».

قالَ علماؤنا: والصّوتُ إذا كانَ منيعًا والنّاسُ في هدوءٍ وسكونٍ فأقصى سماعِ الصّوتِ ثلاثةُ أميالٍ. والعوالي منَ المدينةِ أقربها على ثلاثةِ أميالٍ.

وقالَ أحمدُ بنُ حنبلٍ: تجبُ الجمعةُ على منْ سمعَ النّداءَ. وروى الدّارقطنيُّ منْ حديثِ عمرو بنِ شعيبٍ عنْ أبيهِ عنْ جدّهِ عنْ رسولِ اللّهِ ﷺ قال: «إنّما الجمعةُ على منْ سمعَ النّداءَ».

وقالَ أبو حنيفةَ وأصحابهُ تجبُ على منْ في المصرِ، سمعَ النّداءَ أوْ لمْ يسمعهُ، ولا تجبْ على منْ هوَ خارجَ المصرِ وإنْ سمعَ النّداءَ.

الثّامنةُ: قولهُ تعالى: ﴿إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ دليلٌ على أنَّ الجمعةَ لا تجبُ إلّا بالنّداءِ، والنّداءُ لا يكونُ إلّا بدخولِ الوقتِ، بدليلِ قولهِ ﷺ: «إذا حضرتِ الصّلاةُ فأذّنا ثم أقيما وليومكما أكبركما» قاله لمالك ابن الحويرثِ وصاحبهِ.

وفي البخاريِّ عنْ أنسِ بنِ مالكٍ أنَّ النّبيَّ ﷺ كانَ يصلّي الجمعةَ حينَ تميلُ الشّمسُ. وقدْ رويَ عنْ أحمدَ بنِ حنبلٍ أنّها تصلّى قبلَ الزّوالِ، وتمسّكَ في ذلكَ بحديثِ سلمةَ بنِ الأكوعِ: كنّا نصلّي معَ النّبيِّ ﷺ ثمَّ ننصرفُ وليسَ للحيطانِ ظلٌّ، وبحديثِ ابنِ عمرَ: ما كنّا

نقيلُ ولا نتغدّى إلّا بعدَ الجمعةِ. ومثلهُ عنْ سهل. خرّجهُ مسلمٌ. وحديثُ سلمةَ محمولٌ على التّبكيرِ، وروى وكيعٌ عنْ يعلى عنْ إياسٍ عنْ أبيهِ قالَ: كنّا نجمّعُ معَ رسولِ اللّهِ ﷺ إذا زالتِ الشّمسُ ثمَّ نرجعُ نتتبّعُ الفيءَ. وهذا مذهبُ الجمهورِ منَ الخلفِ والسّلفِ، وقياسًا على صلاةِ الظّهرِ.

وحديثُ ابنِ عمرَ وسهلٍ، دليلٌ على أنّهمْ كانوا يبكّرونَ إلى الجمعةِ تبكيراً كثيراً عندَ الغداةِ أوْ قبلها، فلا يتناولونَ ذلكَ إلّا بعدَ انقضاءِ الصّلاةِ.

وقدْ رأى مالكٌ أنَّ التّبكيرَ بالجمعةِ إنّما يكونُ قربَ الزّوالِ بيسيرٍ. وتأوّلَ قولَ النّبيِّ ﷺ: «منْ راحَ في السّاعةِ الأولى فكأنّما قرّبَ بدنةً...» الحديثَ بكمالهِ أنّهُ كانَ في ساعةٍ واحدةٍ. وحملهُ سائرُ العلماءِ على ساعاتِ النّهارِ الزّمانيّةِ الاثنتيْ عشرةَ ساعةً المستويةَ أوِ المختلفةَ بحسبِ زيادةِ النّهارِ ونقصانهِ.

التّاسعةُ: فرضَ اللّهُ تعالى الجمعةَ على كلِّ مسلمٍ، رداً على منْ يقولُ: إنّها فرضٌ على الكفايةِ، ونقلَ عنْ بعضِ الشّافعيّةِ. ونقلَ عنْ مالكٍ منْ لمْ يحقّقْ: أنّها سنّةٌ. وجمهورُ الأمّةِ والأئمّةِ أنّها فرضٌ على الأعيانِ، لقولِ اللّهِ تعالى: ﴿إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلۡبَيۡعَۚ﴾. وثبتَ عنِ النّبيِّ ﷺ أنّهُ قالَ: «لينتهينَّ أقوامٌ عنْ ودعهمُ الجمعاتِ أوْ ليختمنَّ اللّهُ على قلوبهمْ ثمَّ ليكوننَّ منَ الغافلينَ». وهذا حجّةٌ واضحةٌ في وجوبِ الجمعةِ وفرضيّتها. وفي سننِ ابنِ ماجهْ عنْ أبي الجعدِ الضّمريِّ -وكانتْ لهُ صحبةٌ- قالَ: قالَ رسولُ اللّهِ ﷺ: «منْ تركَ الجمعةَ ثلاثَ مرّاتٍ تهاونـًا بها طبعَ اللّهُ على قلبهِ» إسنادهُ صحيحٌ.

العاشرةُ: أوجبَ اللّهُ السّعيَ إلى الجمعةِ مطلقـًا منْ غيرِ شرطٍ، وثبتَ شرطُ الوضوءِ بالقرآنِ والسّنّةِ في جميعِ الصّلواتِ، لقولهِ عزَّ وجلَّ: ﴿إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ﴾، وقالَ النّبيُّ ﷺ: «لا يقبلُ اللّهُ صلاةً بغيرِ طهورٍ».

وأغربتْ طائفةٌ فقالتْ: إنَّ غسلَ الجمعةِ فرضٌ، وهذا باطلٌ، لما في صحيح مسلمٍ عنْ أبي هريرةَ قالَ: قالَ رسولُ اللّهِ ﷺ: «من توضّأَ يومَ الجمعةِ فأحسنَ الوضوءَ ثمَّ راحَ إلى

الجمعةِ فاستمعَ وأنصتَ غفرَ اللّهُ لهُ ما بينَ الجمعةِ إلى الجمعةِ وزيادةَ ثلاثةِ أيّامٍ. ومنْ مسَّ الحصى فقدْ لغا» وهذا نصٌّ.

وفي الموطّأ: أنَّ رجلاً دخلَ يومَ الجمعةِ وعمرُ بنُ الخطّابِ يخطبُ... الحديثَ إلى أنْ قالَ: ما زدتُ على أنْ توضّأتُ، فقالَ: عمرُ: والوضوءُ أيضًا؟ وقدْ علمتَ أنَّ رسولَ اللّهِ ﷺ كان يأمرُ بالغسلِ. فأمرَ عمرُ بالغسلِ ولمْ يأمرهُ بالرّجوعِ، فدلَّ على أنّهُ محمولٌ على الاستحبابِ. فلمْ يمكنْ وقدْ تلبّسَ بالفرضِ وهوَ الحضورُ والإنصاتُ للخطبةِ أنْ يرجعَ عنهُ إلى السّنّةِ، وذلكَ بمحضرِ فحولِ الصّحابةِ وكبارِ المهاجرينَ حواليْ عمرَ، وفي مسجدِ النّبيِّ ﷺ.

الحاديةَ عشرةَ- لا تسقطُ الجمعةُ لكونها في يومِ عيدٍ، خلافًا لأحمدَ بنِ حنبلٍ فإنّهُ قالَ: إذا اجتمعَ عيدٌ وجمعةٌ سقطَ فرضُ الجمعةِ، لتقدّمِ العيدِ عليها واشتغالِ النّاسِ بهِ عنها، وتعلّقَ في ذلكَ بما رويَ أنَّ عثمانَ أذنَ في يومِ عيدٍ لأهلِ العوالي أنْ يتخلّفوا عنِ الجمعةِ، وقولُ الواحدِ منَ الصّحابةِ ليسَ بحجّةٍ إذا خولفَ فيهِ ولمْ يجمعْ معهُ عليهِ. والأمرُ بالسّعي متوجّهٌ يومَ العيدِ كتوجّههِ في سائرِ الأيّامِ.

وفي صحيحِ مسلمٍ عنِ النّعمانِ بنِ بشيرٍ قالَ: كانَ رسولُ اللّهِ ﷺ يقرأُ في العيدينِ وفي الجمعةِ: بِ ﴿سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى﴾ و ﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلۡغَٰشِيَةِ﴾. قالَ: وإذا اجتمعَ العيدُ والجمعةُ في يومٍ واحدٍ يقرأُ بهما أيضًا في الصّلاتينِ. أخرجهُ أبو داودَ والتّرمذيُّ.

الثانية عشرةَ- قولهُ تعالى: ﴿إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾ أيِ الصّلاةِ. وقيلَ الخطبةُ والمواعظُ، والصّحيحُ أنّهُ واجبٌ في الجميعِ، وأوّلهُ الخطبةُ. وبهِ قالَ علماؤنا، إلّا عبدَ الملكِ بنَ الماجشونِ فإنّهُ رآها سنّةً. والدّليلُ على وجوبها أنّها تحرّمُ البيعَ ولولا وجوبها ما حرّمتهُ، لأنَّ المستحبَّ لا يحرّمُ المباحَ.

الثالثة عشرةَ- قولهُ تعالى: ﴿وَذَرُواْ ٱلۡبَيۡعَۚ﴾ منعَ اللّهُ عزَّ وجلَّ منهُ عندَ صلاةِ الجمعةِ، وحرّمهُ في وقتها على منْ كانَ مخاطبًا بفرضها. والبيعُ لا يخلو عنْ شراءٍ فاكتفى بذكرِ أحدهما، كقولهِ تعالى: ﴿سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلۡحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأۡسَكُمۡۚ﴾، وخصَّ البيعَ

لأنّهُ أكثرُ ما يشتغلُ بهِ أصحابُ الأسواقِ. ومنْ لا يجبُ عليهِ حضورُ الجمعة فلا ينهى عن البيع والشراء، وفي وقتِ التّحريمِ قولانِ:

الأول: أنّهُ منْ بعدِ الزّوالِ إلى الفراغِ منها.

الثّاني- منْ وقتِ أذانِ الخطبةِ إلى وقتِ الصّلاةِ، قالهُ الشّافعيُّ. ومذهبُ مالكٍ أنْ يتركَ البيعُ إذا نوديَ للصّلاةِ، ويفسخُ عندهُ ما وقعَ منْ ذلكَ منَ البيع في ذلكَ الوقتِ. ولا يفسخُ العتقُ والنّكاحُ والطّلاقُ وغيرهُ، إذْ ليسَ منْ عادةِ النّاسِ الاشتغالُ بهِ كاشتغالهمْ بالبيعِ. قالوا: وكذلكَ الشّركةُ والهبةُ والصّدقةُ نادرٌ لا يفسخُ.

قال ابنُ العربيِّ: والصّحيحُ فسخُ الجميعِ، لأنَّ البيعَ إنّما منعَ منهُ للاشتغالِ بهِ. فكلُّ أمرٍ يشغلُ عنِ الجمعةِ منَ العقودِ كلّها فهوَ حرامٌ شرعـًا مفسوخٌ ردعـًا.

ورأى بعضُ العلماءِ البيعَ في الوقتِ المذكورِ جائزاً، وتأوّلَ النّهيُ عنهُ ندبـًا، واستدلَّ بقولهِ تعالى: ﴿ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ﴾، وهذا مذهبُ الشّافعيِّ، فإنَّ البيعَ ينعقدُ عندهُ ولا يفسخُ.

وقالَ الزّمخشريُّ في تفسيرهِ: إنَّ عامّةَ العلماءِ على أنَّ ذلكَ لا يؤدّي فسادَ البيعِ. قالوا: لأنَّ البيعَ لـمْ يحرمْ لعينهِ، ولكنْ لما فيهِ منَ الذّهولِ عنِ الواجبِ، فهوَ كالصّلاةِ في الأرضِ المغصوبةِ والثّوبِ المغصوبِ، والوضوءِ بماءٍ مغصوبٍ. وعنْ بعضِ النّاسِ أنّهُ فاسدٌ.

قلت: والصّحيحُ فسادهُ وفسخهُ، لقولهِ ﷺ: «كلُّ عملٍ ليسَ عليهِ أمرنا فهوَ ردٌّ». أيْ مردودٌ. واللهُ أعلم.

قولهُ تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ هذا أمرُ إباحةٍ، كقولهِ تعالى: ﴿وَإِذَا حَلَلۡتُمۡ فَٱصۡطَادُواْۚ﴾ ﴿وَٱبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ﴾ أيْ منْ رزقهِ ﴿وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا﴾ أيْ بالطّاعةِ واللّسانَ، وبالشّكرِ على ما بهِ أنعمَ عليكمْ منَ التّوفيقِ لأداءِ الفرائضِ ﴿لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ كيْ تفلحوا.

قولهُ تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْا۟ تِجَٰرَةً أَوْ لَهْوًا ٱنفَضُّوٓا۟ إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمًا ۚ قُلْ مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ ٱللَّهْوِ وَمِنَ ٱلتِّجَٰرَةِ ۚ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١﴾﴾، فيهِ سبعَ عشرةَ مسألةً:

الأولى: في صحيحِ مسلمٌ عنْ جابرِ بنِ عبدِ اللّهِ أنَّ النّبيَّ ﷺ كانَ يخطبُ قائماً يومَ الجمعةِ، فجاءتْ عيرٌ منَ الشّامِ فانفتلَ النّاسُ إليها حتّى لمْ يبقَ إلّا اثنا عشرَ رجلاً - في روايةٍ أنا فيهمْ - فأنزلتْ هذهِ الآيةُ الّتي في الجمعةِ ﴿وَإِذَا رَأَوْا۟ تِجَٰرَةً أَوْ لَهْوًا ٱنفَضُّوٓا۟ إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمًا ۚ﴾. في روايةٍ: فيهمْ أبو بكرٍ وعمرَ رضي الله عنهما. والّذي قدمَ بها دحيةُ بنُ خليفةَ الكلبيُّ منَ الشّامِ، وكانَ إذا قدمَ تلقّاهُ أهلهُ بالدّفافِ، فخرجَ النّاسُ فلمْ يظنّوا إلّا أنّهُ ليسَ في تركِ الخطبة شيء.

الثانية - واختلفَ العلماءُ في العددِ الّذي تنعقدُ بهِ الجمعةُ على أقوالٍ، فقالَ: أبو حنيفةَ: بأربعةٍ، وقالَ الشّافعيُّ: بأربعينَ رجلاً، ومالَ أحمدُ إلى هذا القولِ، وقالَ مالكٌ: إذا كانتْ قريةً فيها سوقٌ ومسجدٌ فعليهمُ الجمعةُ منْ غيرِ اعتبارِ عددٍ.

وقالَ أبو حنيفةَ: لا تجبُ الجمعةُ على أهلِ السّوادِ والقرى، لا يجوزُ لهمْ إقامتها فيها. واشترطَ في وجوبِ الجمعةِ وانعقادها: المصر الجامع والسّلطان القاهر والسّوق القائمة والنّهر الجاري. واحتجَّ بحديثِ عليٍّ: لا جمعةَ ولا تشريقَ إلّا في مصرٍ جامعٍ ورفقةٍ تعينهمْ. وهذا يردّهُ حديثُ ابنِ عبّاسٍ، قالَ: إنَّ أوّلَ جمعةٍ جمّعتْ بعدَ جمعةٍ في مسجدِ رسولِ اللّهِ ﷺ بقريةٍ منْ قرى البحرينِ يقالُ لها جواثى.

وحجّةُ الإمامِ الشّافعيِّ في الأربعينَ حديثُ جابرٍ: مضتِ السّنّةُ أنَّ في كلِّ ثلاثةٍ إماماً، وفي كلِّ أربعينَ فما فوقَ ذلكَ جمعةً وأضحى وفطراً، وذلكَ أنّهمْ جماعةٌ. خرّجهُ الدّارقطنيُّ، وعنده أن أبا أمامةَ هوَ أوّلُ منْ جمّعَ بالمدينةِ في هزمٍ منْ حرّةِ بني بياضةَ يقالُ لهُ نقيعُ الخضماتِ، وكانوا أربعينَ رجلاً.

الثالثة - وتصحُّ الجمعةُ بغيرِ إذنِ الإمامِ وحضورهِ. وقالَ أبو حنيفةَ: منْ شرطها الإمامُ أوْ خليفتهُ. ودليلنا أنَّ الوليدَ بنَ عقبةَ والي الكوفةِ أبطأَ يوماً فصلّى ابنُ مسعودٍ بالنّاسِ منْ غيرِ إذنهِ. ورويَ أنَّ عليّاً صلّى الجمعةَ يومَ حصرَ عثمانُ ولمْ ينقلْ أنّهُ استأذنهُ. ورويَ أنَّ سعيدَ بنَ العاصي والي المدينةِ لمّا خرجَ منَ المدينةِ صلّى أبو موسى بالنّاسِ الجمعةَ منْ غيرِ

استئذانٍ. وقالَ مالكٌ: إنَّ للّهِ فرائضَ في أرضهِ لا يضيّعها، وليها والٍ أوْ لمْ يلها.

الرابعة- قالَ علماؤنا: منْ شرطِ أدائها المسجدُ المسقّفُ، ووجههُ قولهُ تعالى: ﴿وَطَهِّرۡ بَيۡتِيَ لِلطَّآئِفِينَ﴾، وقولهُ: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرۡفَعَ﴾، وحقيقةُ البيتِ أنْ يكونَ ذا حيطانٍ وسقفٍ. هذا العرفُ، والله أعلم.

الخامسة- قولهُ تعالى: ﴿وَتَرَكُوكَ قَآئِمٗاۚ﴾ شرطٌ في قيام الخطيبِ على المنبرِ إذا خطبَ، وفي صحيحِ مسلمٍ عنْ كعبِ بنِ عجرةَ أنّهُ دخلَ المسجدَ وعبدُ الرّحمنِ بنُ أمِّ الحكمِ يخطبُ قاعداً فقالَ: انظروا إلى هذا الخبيثِ، يخطبُ قاعداً وقالَ اللّهُ تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوۡاْ تِجَٰرَةً أَوۡ لَهۡوًا ٱنفَضُّوٓاْ إِلَيۡهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمٗاۚ﴾. وخرّجَ عنْ جابرٍ أنَّ رسولَ اللّهِ ﷺ كان يخطبُ قائماً ثمَّ يجلسُ، ثمَّ يقومُ فيخطبُ، فمنْ نبّأكَ أنّهُ كانَ يخطبُ جالساً فقدْ كذبَ، فقدْ واللّهِ صلّيتُ معهُ أكثرَ منْ ألفيْ صلاةٍ. وعلى هذا جمهورُ الفقهاءِ وأئمّةُ العلماءِ.

وقالَ أبو حنيفةَ: ليسَ القيامُ بشرطٍ فيها. ويروى أنَّ أوّلَ منْ خطبَ قاعداً معاويةُ. وخطبَ عثمانُ قائماً حتّى رقَّ فخطبَ قاعداً. وقيلَ: إنَّ معاويةَ إنّما خطبَ قاعداً لسنّهِ. وقدْ كانَ النّبيُّ ﷺ يخطبُ قائماً ثمَّ يقعدُ ثمَّ يقومُ ولا يتكلّمُ في قعدتهِ. رواهُ جابرُ بنُ سمرةَ. ورواهُ ابنُ عمرَ في كتابِ البخاريِّ.

السّادسةُ: والخطبةُ شرطٌ في انعقادِ الجمعةِ لا تصحُّ إلّا بها، وهوَ قولُ جمهورِ العلماءِ، والدّليلُ على وجوبها قولهُ تعالى: ﴿وَتَرَكُوكَ قَآئِمٗاۚ﴾. وهذا ذمٌّ، والواجبُ هوَ الّذي يذمُّ تاركهُ شرعاً، ثمَّ إنَّ النّبيَّ ﷺ لمْ يصلّها إلّا بخطبةٍ.

السّابعةُ: ويخطبُ متوكّئاً على قوسٍ أوْ عصاً. وفي سننِ ابنِ ماجهْ عن عمّارِ بنِ سعدٍ عنْ أبيهِ أن رسول الله ﷺ كانَ إذا خطبَ في الحربِ خطبَ على قوسٍ، وإذا خطبَ في الجمعةِ خطبَ على عصاً.

الثامنةُ: ويسلّمَ إذا صعدَ المنبرَ على النّاسِ عندَ الشّافعيِّ وغيرهِ. ولمْ يرهُ مالكٌ. وقدْ روى ابنُ ماجهْ منْ حديثِ جابرِ بنِ عبدِ اللّهِ أنَّ النّبيَّ ﷺ كانَ إذا صعدَ المنبرَ سلّمَ.

التّاسعةُ: فإنْ خطبَ على غيرِ طهارةٍ الخطبةَ كلّها أوْ بعضها أساءَ عندَ مالكٍ، ولا إعادةَ

عليهِ إذا صلّى طاهراً. وللشّافعيِّ قولانِ في إيجابِ الطّهارةِ، فشرطها في الجديدِ ولمْ يشترطها في القديمِ. وهوَ قولُ أبي حنيفةَ.

العاشرةُ: وأقلُّ ما يجزي في الخطبةِ أنْ يحمدَ اللّهَ ويصلّيَ على نبيّهِ ﷺ، ويوصي بتقوى اللّهِ ويقرأُ آيةً منَ القرآنِ. ويجبُ في الثّانيةِ أربعٌ كالأولى، إلّا أنَّ الواجبَ بدلاً منْ قراءةِ الآيةِ في الأولى الدعاء، قاله أكثرُ الفقهاءِ. وقالَ أبو حنيفةَ: لوِ اقتصرَ على التّحميدِ أوِ التّسبيحِ أوِ التّكبيرِ أجزأهُ. وقالَ أبو يوسفَ ومحمّدٌ: الواجبُ ما تناولهُ اسمُ خطبةٍ. وهوَ قولُ الشّافعيِّ. قالَ أبو عمرَ بنُ عبدِ البرِّ: وهوَ أصحُّ ما قيلَ في ذلكَ.

الحاديةَ عشرةَ: في صحيحِ مسلمٍ عنْ يعلى بنِ أميّةَ أنّهُ سمعَ النّبيَّ ﷺ يقرأُ على المنبرِ ﴿وَنَادَوْا۟ يَـٰمَـٰلِكُ﴾، وفيهِ عنْ عمرةَ بنتِ عبدِ الرّحمنِ عنْ أختٍ لعمرةَ قالتْ: ما أخذتُ ﴿قٓ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ﴾ إلّا منْ في رسولِ اللّهِ ﷺ يومَ الجمعةِ وهوَ يقرأُ بها على المنبرِ في كلِّ جمعةٍ.

الثانيةَ عشرةَ: السّكوتُ للخطبةِ واجبٌ على منْ سمعها وجوبَ سنّةٍ. والسّنّةُ أنْ يسكتَ لها منْ يسمعُ ومنْ لمْ يسمعْ، وهما إنْ شاءَ اللّهُ في الأجرِ سواءٌ. ومنْ تكلّمَ حينئذٍ لغا، ولا تفسدُ صلاتهُ بذلكَ. وفي الصّحيحِ عنْ أبي هريرةَ أنَّ النّبيَّ ﷺ قال: «إذا قلتَ لصاحبكَ أنصتْ يومَ الجمعةِ والإمامُ يخطبُ فقدْ لغوتَ».

الثالثة عشرةَ: ويستقبلُ النّاسُ الإمامَ إذا صعدَ المنبرَ، لما رواهُ ابنُ ماجهْ عنْ عديِّ بنِ ثابتٍ عنْ أبيهِ، قالَ: كانَ رسولُ اللّهِ ﷺ إذا قامَ على المنبرِ استقبلهُ أصحابهُ بوجوههمْ. قالَ ابنُ ماجهْ: أرجو أنْ يكونَ متّصلاً.

الرابعة عشرةَ: ولا يركعُ منْ دخلَ المسجدَ والإمامُ يخطبُ، عندَ مالكٍ رحمهُ اللّهُ، فخروجُ الإمامِ يقطعُ الصّلاةَ، وكلامهُ يقطعُ الكلامَ. وهذا مرسلٌ. وفي صحيحِ مسلمٍ منْ حديثِ جابرٍ عنِ النّبيِّ ﷺ «إذا جاءَ أحدكمْ يومَ الجمعةِ والإمامُ يخطبُ فليركعْ ركعتينِ وليتجوّزْ فيهما». وهذا نصٌّ في الرّكوعِ. وبهِ يقولُ الشّافعيُّ وغيره.

الخامسة عشرة: عنِ ابنِ سيرينَ قالَ: كانوا يكرهونَ النّومَ والإمامُ يخطبُ ويقولونَ فيهِ قولاً شديداً، وعنْ سمرةَ بنِ جندبٍ أنَّ النّبيَّ ﷺ قال: «إذا نعسَ أحدكمْ فليتحوّلْ إلى مقعدِ صاحبهِ وليتحوّلْ صاحبهُ إلى مقعدهِ».

السّادسةَ عشرةَ: في فضلِ الجمعةِ وفرضيّتها مما لمْ نذكرهُ ما روى الأئمّةُ عنْ أبي هريرةَ رضي الله عنه عن رسولَ اللّهِ ﷺ ذكرَ يومَ الجمعةِ فقالَ: «فيهِ ساعةٌ لا يوافقها عبدٌ مسلمٌ وهوَ يصلّي يسألُ اللّهَ عزَّ وجلَّ شيئاً إلّا أعطاهُ إيّاهُ» وأشارَ بيدهِ يقلّلها. وفي صحيح مسلم منْ حديثِ أبي موسى قالَ: سمعتُ رسولَ اللّهِ ﷺ يقولُ: «هيَ ما بينَ أنْ يجلسَ الإمامُ إلى أنْ تقضى الصّلاةُ»، وفي سننِ ابنِ ماجهْ عنْ أبي هريرةَ أنَّ رسولَ اللّهِ ﷺ: قالَ: «الجمعةُ إلى الجمعةِ كفّارةٌ ما بينهما ما لمْ تغشَ الكبائرُ» خرّجهُ مسلمٌ بمعناهُ. وعنْ أوسِ بنِ أوسٍ الثّقفيِّ قالَ: سمعتُ رسولَ اللّهِ ﷺ يقولُ: «منْ غسّلَ يومَ الجمعةِ واغتسلَ وبكّرَ وابتكرَ ومشى ولمْ يركبْ ودنا منَ الإمامِ فاستمعَ ولمْ يلغُ كانَ لهُ بكلِّ خطوةٍ عملُ سنةٍ أجرُ صيامها وقيامها».

السابعة عشرةَ- قولهُ تعالى: ﴿قُلْ مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ ٱللَّهْوِ وَمِنَ ٱلتِّجَٰرَةِۚ﴾ فيهِ وجهانِ:

أحدهما: ما عندَ اللّهِ منْ ثوابِ صلاتكمْ خيرٌ منْ لذّةِ لهوكمْ وفائدةِ تجارتكمْ.

الثّاني: ما عندَ اللّهِ منْ رزقكمُ الّذي قسمهُ لكمْ خيرٌ ممّا أصبتموهُ منْ لهوكمْ وتجارتكمْ.

﴿وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ أيْ خيرُ منْ رزقَ وأعطى، فمنهُ فاطلبوا، واستعينوا بطاعتهِ على نيلِ ما عندهُ منْ خيريِ الدّنيا والآخرة.

سورة المنافقون

مدنيّةٌ في قولِ الجميعِ، وهيَ إحدى عشرةَ آيةً.

بسمِ اللّهِ الرّحمنِ الرّحيمِ

قولهُ تعالى: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُواْ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ﴾ روى البخاريُّ عنْ زيدِ بنِ أرقمَ قالَ: كنتُ معَ عمّي فسمعت عبد الله بن أبي بن سلولَ يقولُ: ﴿لَا تُنفِقُواْ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّواْ﴾، وقالَ: لئنْ رجعنا إلى المدينةِ ليخرجنَّ الأعزُّ منها الأذلَ فذكرتُ ذلكَ لعمّي فذكرَ عمّي لرسولِ اللّهِ ﷺ، فأرسلَ رسولُ اللّهِ ﷺ إلى عبدِ اللّهِ بنِ أبيٍّ وأصحابهِ فحلفوا ما قالوا، فصدّقهمْ رسولُ اللّهِ ﷺ وكذّبني، فأصابني همٌّ لمْ يصبني مثلهُ، فجلستُ في بيتي فأنزلَ اللّهُ عزَّ وجلَّ: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ﴾- إلى قولهِ- ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُواْ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ﴾- إلى قولهِ- ﴿لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ﴾ فأرسلَ إلى رسولِ اللّهِ ﷺ، ثمَّ قالَ: «إنَّ اللّهَ قدْ صدّقكَ».

وسئل حذيفةُ بنُ اليمانِ عنِ المنافقِ، فقالَ: الّذي يصفُ الإسلامَ ولا يعملُ بهِ. وهوَ اليومَ شرٌّ منهمْ على عهدِ رسولِ اللّهِ ﷺ، لأنّهمْ كانوا يكتمونهُ وهمُ اليومَ يظهرونهُ. وفي الصّحيحينِ عنْ أبي هريرةَ أنَّ النّبيَّ ﷺ قال: «آيةُ المنافقِ ثلاثٌ إذا حدّثَ كذبَ وإذا وعدَ أخلفَ وإذا ائتمن خانَ». وعنْ عبدِ اللّهِ بنِ عمرو أنَّ النّبيَّ ﷺ قال: «أربعٌ منْ كنَّ فيهِ كانَ منافقاً خالصاً ومنْ كانتْ فيهِ خصلةٌ منهنَّ كانَ فيهِ خصلةٌ منَ النّفاقِ حتّى يدعها: إذا ائتمن خانَ وإذا حدّثَ كذبَ وإذا عاهدَ غدرَ وإذا خاصمَ فجرَ». أخبرَ ﷺ أنَّ منْ جمعَ هذهِ الخصالَ كانَ منافقاً، وخبرهُ صدقٌ.

قولهُ تعالى: ﴿قَالُواْ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ﴾ قيل: معنى نشهدُ نحلفُ. فعبّرَ عنِ الحلفِ بالشّهادةِ، لأنَّ كلَّ واحدٍ منَ الحلفِ والشّهادةِ إثباتٌ لأمرٍ مغيّبٍ ومنهُ قولُ قيسِ بنِ ذريحٍ:

وأشـــهـدُ عـنـدَ الـلّـهِ أنّي أحـبّـهـا ... فـهـذا لـهـا عـنـدي فـمـا عـنـدهـا لـيـا

ويحتملُ أنْ يكونَ ذلكَ محمولاً على ظاهرهِ أنّهمْ يشهدونَ أنَّ محمّداً رسولَ اللّهِ ﷺ

اعترافاً بالإيمانِ ونفياً للنّفاقِ عنْ أنفسهمْ، وهوَ الأشبهُ ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ﴾ كما قالوهُ بألسنتهمْ ﴿وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ١﴾ بضمائرهمْ، وهذا يدلُّ على أنَّ الإيمانَ تصديقُ القلبِ، وعلى أنَّ الكلامَ الحقيقيَّ كلامُ القلبِ. ومنْ قالَ شيئاً واعتقدَ خلافهُ فهوَ كاذبٌ. وقيلَ: أكذبهمُ اللّهُ في أيمانهمْ وهوَ قولهُ تعالى: ﴿يَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمۡ لَمِنكُمۡ وَمَا هُم مِّنكُمۡ﴾.

قولهُ تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ جُنَّةٗ فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِنَّهُمۡ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٢﴾، فيهِ ثلاثُ مسائلَ:

الأولى: قولهُ تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ جُنَّةٗ﴾ أيْ سترةً.

الثانية- منْ قالَ أقسمُ باللّهِ أوْ أشهدُ باللّهِ أوْ أعزمُ باللّهِ أوْ أحلفُ باللّهِ، أوْ أقسمتُ باللّهِ أوْ أشهدتُ باللّهِ أوْ أعزمتُ باللّهِ أوْ أحلفتُ باللّهِ، فقالَ: في ذلكَ كلّهِ باللّهِ فلا خلافَ أنّها يمينٌ. وكذلكَ عندَ مالكٍ وأصحابهِ إنْ قالَ: أقسمُ أوْ أشهدُ أوْ أعزمُ أوْ أحلفُ، ولمْ يقلْ باللّهِ، إذا أرادَ باللّهِ، وإنْ لمْ يردْ باللّهِ فليسَ بيمينٍ. وحكاهُ الكيا عنِ الشّافعيِّ، قالَ الشّافعيُّ: إذا قالَ أشهدُ باللّهِ ونوى اليمينَ كانَ يميناً. وقالَ أبو حنيفةَ وأصحابه: لو قال أشهدُ باللّهِ لقدْ كانَ كذا كانَ يميناً، ولوْ قالَ أشهدُ لقدْ كانَ كذا دونَ النّيّةِ كانَ يميناً لهذهِ الآيةِ، لأنَّ اللّهَ تعالى ذكرَ منهمُ الشّهادةَ ثمَّ قالَ: اتّخذوا أيمانهمْ جنّةً. وعندَ الشّافعيِّ لا يكونُ ذلكَ يميناً وإنْ نوى اليمينَ، لأنَّ قولهُ تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ جُنَّةٗ﴾ ليسَ يرجعُ إلى قولهِ: قالوا نشهدُ وإنّما يرجعُ إلى ما في براءة منْ قولهِ تعالى: ﴿يَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُواْ﴾.

الثالثة- قولهُ تعالى: ﴿فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾ أيْ أعرضوا، وهوَ منَ الصّدودِ. أوْ صرفوا المؤمنينَ عنْ إقامةِ حكمِ اللّهِ عليهمْ منَ القتلِ والسّبيِ وأخذِ الأموالِ، فهوَ منَ الصّدِّ، أوْ منعوا النّاسَ عنِ الجهادِ بأنْ يتخلّفوا ويقتديَ بهمْ غيرهمْ. وقيلَ: فصدّوا اليهودَ والمشركينَ عنِ الدّخولِ في الإسلامِ، بأنْ يقولوا ها نحنُ كافرونَ بهمْ، ولوْ كانَ محمّدٌ حقاً لعرفَ هذا منّا، ولجعلنا نكالاً. فبيّنَ اللّهُ أنَّ حالهمْ لا يخفى عليهِ، ولكنَّ حكمهُ أنَّ منْ أظهرَ الإيمانَ أجريَ عليهِ في الظّاهرِ حكمُ الإيمانِ ﴿إِنَّهُمۡ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ أي بئست

أعمالهم الخبيئة- منْ نفاقهمْ وأيمانهمُ الكاذبةِ وصدّهمْ عنْ سبيلِ الله- أعمالا.

قولهُ تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ أيْ أقرّوا باللّسانِ ثمَّ كفروا بالقلبِ﴾، وهذا إعلامٌ منَ اللّهِ تعالى بأنَّ المنافقَ كافرٌ ﴿فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ أيْ ختمَ عليها بالكفرِ ﴿فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ۝٣﴾ الإيمانَ ولا الخيرَ.

قولهُ تعالى: ﴿۞وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْۖ﴾ أيْ هيئاتهمْ ومناظرهمْ ﴿وَإِن يَقُولُواْ تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْۖ﴾ يعني عبدَ اللّهِ بنَ أبيٍّ كان وسيماً جسيماً صحيحاً صبيحاً ذلقَ اللّسانِ ﴿كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌۖ﴾ أشباحٌ بلا أرواحٍ وأجسامٌ بلا أحلامٍ. وقيلَ: شبّههمْ بالخشبِ الّتي قدْ تآكلتْ فهيَ مسندةٌ بغيرها لا يعلمُ ما في بطنها. وقرأ أبو عمرو والكسائيُّ «خُشْبٌ» بإسكانِ الشّينِ واحدتها خشبةٌ كما تقولُ: بدنةٌ وبدنٌ، وقرأ الباقونَ ﴿خُشُبٌ﴾ وهوَ جمعُ الجمعِ، خشبةٌ وخشابٌ وخُشبٌ، مثلَ ثمرةٍ وثمارٍ وثُمرٍ.

قولهُ تعالى: ﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْۚ﴾ يصفهمْ بالجبنِ والخورِ. ثمَّ استأنفَ اللّهُ خطابَ نبيّهِ ﷺ فقالَ: ﴿هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْۚ﴾ أنْ تثقَ بقولهمْ واحذر ممايلتهم لأعدائكَ وتخذيلهمْ لأصحابكَ ﴿قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُۖ﴾ أيْ لعنهمُ اللّهُ، وفيها ذمٌّ وتوبيخٌ ﴿أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ۝٤﴾ كيف يكذبونَ ويعدلونَ عنِ الحقِّ.

قولهُ تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ﴾ لمّا نزلَ القرآنُ بنّفاقهم ﴿لَوَّوْاْ رُءُوسَهُمْ﴾ حرّكوها استهزاءً وإباءً، وقرأ نافعٌ «لَوَوْا» بالتّخفيفِ. وشدّدَ الباقونَ ﴿وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ۝٥﴾ أيْ يعرضونَ عنِ الرّسولِ متكبّرينَ عنِ الإيمانِ.

قولهُ تعالى: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لن يَغفِرَ اللهُ لَهُم﴾ فلا ينفعُ استغفاركَ شيئاً، لأنَّ اللّهَ لا يغفرُ لهمْ. نظيرهُ: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾، و﴿سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ ٱلْوَٰعِظِينَ﴾ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ۝٦﴾ أيْ منْ سبقَ في علمِ اللّهِ أنه يموت فاسقا.

قولهُ تعالى: ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُواْ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّواْۗ وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ۝٧﴾ ذكرنا سببَ النّزولِ فيما تقدّمَ.

﴿حَتَّىٰ يَنفَضُّواْۗ﴾، حتّى يتفرّقوا عنهُ. فأعلمهمُ اللّهُ سبحانهُ أنَّ خزائنَ السّمواتِ والأرضِ لهُ، ينفقُ كيفَ يشاءُ ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَا يَفۡقَهُونَ ٧﴾ أنه إذا أراد أمرا يسره.

قولهُ تعالى: ﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعۡنَآ إِلَى ٱلۡمَدِينَةِ لَيُخۡرِجَنَّ ٱلۡأَعَزُّ مِنۡهَا ٱلۡأَذَلَّۚ وَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَا يَعۡلَمُونَ ٨﴾ القائلُ ابنُ أبيٍّ وتقدّمَ، توهّموا أنَّ العزّةَ بكثرةِ الأموالِ والأتباعِ، فبيّنَ اللّهُ أنَّ العزّةَ والمنعة والقوة لله.

قولهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ٩﴾ حذّرَ المؤمنينَ أخلاقَ المنافقينَ، أيْ لا تشتغلوا بأموالكمْ كما فعلَ المنافقونَ إذْ قالوا - للشّحِّ بأموالهمْ -: لا تنفقوا على منْ عندَ رسولِ اللّهِ.

وقوله: ﴿عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ﴾ أي عنْ طاعةِ اللّهِ وفرائضِ الله كالصّلواتِ الخمسِ والحجِّ والزّكاةِ ﴿وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ﴾ أيْ منْ يشتغلْ بالمالِ والولدِ عنْ طاعةِ ربّهِ ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ٩﴾.

قولهُ تعالى: ﴿وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقۡنَٰكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوۡلَآ أَخَّرۡتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ١٠ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَاۚ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ١١﴾، فيهِ أربعُ مسائلَ:

الأولى: قولهُ تعالى: ﴿وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقۡنَٰكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ﴾ يدلُّ على وجوبِ تعجيلِ أداءِ الزّكاةِ، ولا يجوزُ تأخيرها أصلاً. وكذلكَ سائرُ العباداتِ إذا تعيّنَ وقتها.

الثانية- قولهُ تعالى: ﴿فَيَقُولَ رَبِّ لَوۡلَآ أَخَّرۡتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ سألَ الرّجعةَ إلى الدّنيا ليعملَ صالحاً. وروى التّرمذيُّ عنِ ابنِ عبّاسٍ قالَ: منْ كانَ لهُ مالٌ يبلّغهُ حجَّ بيتِ ربّهِ أوْ تجبُ عليهِ فيهِ زكاةٌ فلمْ يفعلْ، سألَ الرّجعةَ عندَ الموت. فقال رجل: يا ابن عبّاسٍ، اتّقِ اللّهَ، إنّما سألَ الرّجعةَ الكفّارُ. فقال: سأتلوا عليكَ بذلكَ قرآناً:... وتلى هذه الآيات».

الثالثة- أما أخذَ ابنُ عبّاسٍ بعمومِ الآيةِ في إنفاقِ الواجبِ خاصّةً دونَ النّفلِ، وتفسيرهُ بالزّكاةِ فصحيحٌ، وأمّا القولُ في الحجِّ:

فإنْ قلنا: إنَّ الحجَّ على التّراخي ففي المعصيةِ في الموتِ قبلَ الحجِّ خلافٌ بينَ العلماءِ، فلا تخرّجُ الآيةُ عليهِ.

وإنْ قلنا: إنَّ الحجَّ على الفورِ فالآيةُ في العمومِ صحيحٌ، لأنَّ منْ وجبَ عليهِ الحجُّ فلمْ يؤدّهِ لقيَ منَ اللّهِ ما يودُّ أنّهُ رجعَ ليأتيَ بما تركَ منَ العباداتِ.

الرابعة- قالَ ابنُ عبّاسٍ: هذهِ الآيةُ أشدُّ على أهلِ التّوحيدِ، لأنّهُ لا يتمنّى الرّجوعَ في الدّنيا أوِ التّأخيرَ فيها أحدٌ لهُ عندَ اللّهِ خيرٌ في الآخرةِ.

قلت: إلّا الشّهيدَ فإنّهُ يتمنّى الرّجوعَ حتّى يقتلَ، لما يرى منَ الكرامةِ.

﴿وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ منْ خيرٍ وشرٍّ. وقراءةُ العامّةِ بالتّاءِ على الخطابِ. وقرأ أبو بكرٍ عنْ عاصمٍ بالياءِ، على الخبرِ عمّنْ ماتَ.

سورة التغابن

مدنيّةٌ في قولِ الأكثرينَ، وهيَ ثماني عشرةَ آيةً.

بسمِ اللّهِ الرّحمنِ الرّحيمِ

قولهُ تعالى: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۖ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝١﴾ تقدم في غير موضع.

قولهُ تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝٢﴾.

قالَ ابنُ مسعودٍ: قالَ النّبيُّ ﷺ: «خلقَ اللّهُ فرعونَ في بطنِ أمّهِ كافراً وخلقَ يحيى بنَ زكريّا في بطنِ أمّهِ مؤمناً». وفي الصّحيحِ منْ حديثِ ابنِ مسعودٍ: «وإنَّ أحدكمْ ليعملُ بعملِ أهلِ الجنّةِ حتّى ما يكونُ بينهُ وبينها إلّا ذراعٌ أوْ باعٌ فيسبقُ عليهِ الكتابُ فيعملُ بعملِ أهلِ النّارِ فيدخلها. وإنَّ أحدكمْ ليعملُ بعملِ أهلِ النّارِ حتّى ما يكونُ بينهُ وبينها إلّا ذراعٌ أوْ باعٌ فيسبقُ عليهِ الكتابُ فيعملُ بعملِ أهلِ الجنّةِ فيدخلها». خرّجهُ البخاريُّ والتّرمذيُّ وليسَ فيهِ ذكرُ الباعِ. وفي صحيح مسلم عن سهل ابن سعدٍ السّاعديِّ أنَّ رسولَ اللّهِ ﷺ قال: «إنَّ الرّجلَ ليعملُ عملَ أهلِ الجنّةِ فيما يبدو للنّاسِ وهوَ منْ أهلِ النّارِ. وإنَّ الرّجلَ ليعملُ عملَ أهلِ النّارِ فيما يبدو للنّاسِ وهوَ منْ أهلِ الجنّةِ».

قالَ علماؤنا: والمعنى تعلّقُ العلمِ الأزليِّ بكلِّ معلومٍ، فيجري ما علمَ وأرادَ وحكمَ. فقدْ يريدُ إيمانَ شخصٍ على عمومِ الأحوالِ، وقدْ يريدهُ إلى وقتٍ معلومٍ. وكذلكَ الكفرُ.

وقيلَ في الكلامِ محذوفٌ: فمنكمْ مؤمنٌ ومنكمْ كافرٌ ومنكمْ فاسقٌ، فحذفَ لما في الكلامِ منَ الدّلالةِ عليهِ، قالهُ الحسنُ وقالَ غيرهُ: لا حذفَ فيهِ، لأنَّ المقصودَ ذكرُ الطّرفينِ.

وقالَ جماعةٌ منْ أهلِ العلمِ: إنَّ اللّهَ خلقَ الخلقَ ثمَّ كفروا وآمنوا. قالوا: وتمامُ الكلامِ هوَ الّذي خلقكمْ. ثمَّ وصفهمْ فقالَ: فمنكمْ كافرٌ ومنكمْ مؤمنٌ كقولهِ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍۖ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِۦ﴾ الآيةَ. قالوا: فاللّهُ خلقهمْ، والمشيُ فعلهمْ،

واحتجّوا بقولهِ ﷺ: «كلُّ مولودٍ يولدُ على الفطرةِ فأبواهُ يهوّدانهِ وينصّرانهِ ويمجّسانهِ» الحديثَ.

والّذي عليهِ الأئمّةُ والجمهورُ منَ الأمّةِ: أنَّ اللّهَ خلقَ الكافرَ، وكفرهُ فعلٌ لهُ وكسبٌ، معَ أنَّ اللّهَ خالقُ الكفرِ. وخلقَ المؤمنَ، وإيمانهُ فعلٌ لهُ وكسبٌ، معَ أنَّ اللّهَ خالقُ الإيمانِ. والكافرُ يكفرُ ويختارُ الكفرَ بعدَ خلقِ اللّهِ إيّاهُ، لأنَّ اللّهَ تعالى قدّرَ ذلكَ عليهِ وعلمهُ منهُ. ولا يجوزُ أنْ يوجدَ منْ كلٍّ واحدٍ منهما غيرُ الّذي قدّرَ عليهِ وعلمهُ منهُ، لأنَّ وجودَ خلافِ المقدورِ عجزٌ، ووجودَ خلافِ المعلوم جعل، ولا يليقانِ باللّهِ تعالى. وفي هذا سلامةٌ منَ الجبرِ والقدرِ.

قولهُ تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّ﴾ أيْ خلقها حقاً يقيناً لا ريبَ فيهِ ﴿وَصَوَّرَكُمۡ فَأَحۡسَنَ صُوَرَكُمۡۖ﴾ ومنْ حسنِ صورتهِ أنّهُ خلقَ منتصباً غيرَ منكبٍّ، كما قالَ عزَّ وجلَّ: ﴿لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِيٓ أَحۡسَنِ تَقۡوِيمٖ﴾ ﴿وَإِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ٣﴾ أيِ المرجعُ، فيجازي كلاً بعمله.

قولهُ تعالى: ﴿يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَيَعۡلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعۡلِنُونَۚ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ٤﴾ تقدّمَ في غيرِ موضعٍ، فهوَ عالمُ الغيبِ والشهادة، لا يخفى عليه شيء.

قولهُ تعالى: ﴿أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبۡلُ فَذَاقُواْ وَبَالَ أَمۡرِهِمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ٥﴾

الخطابُ لقريشٍ أيْ ألمْ يأتكمْ خبرُ كفّارِ الأممِ الماضيةِ ﴿فَذَاقُواْ وَبَالَ أَمۡرِهِمۡ﴾ أيْ عوقبوا ﴿وَلَهُمۡ﴾ في الآخرةِ ﴿عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ أيْ موجعٌ.

قولهُ تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُۥ كَانَت تَّأۡتِيهِمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَقَالُوٓاْ أَبَشَرٞ يَهۡدُونَنَا فَكَفَرُواْ وَتَوَلَّواْۖ وَّٱسۡتَغۡنَى ٱللَّهُۚ وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٞ ٦﴾ أيْ هذا العذابُ لهمْ بكفرهمْ بالرّسلِ تأتيهمْ ﴿بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ أيْ بالدّلائلِ الواضحةِ ﴿فَقَالُوٓاْ أَبَشَرٞ يَهۡدُونَنَا﴾ أنكروا أنْ يكونَ الرّسولُ منَ البشرِ ﴿فَكَفَرُواْ﴾ أيْ بهذا القولِ، أو: كفروا بالرّسلِ وتولّوا عنِ البرهانِ وأعرضوا عنِ الإيمانِ والموعظةِ ﴿وَّٱسۡتَغۡنَى ٱللَّهُۚ﴾ أيْ بسلطانهِ عنْ طاعةِ عبادهِ ﴿وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٞ﴾.

قولهُ تعالى: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبۡعَثُواْۚ﴾ أيْ ظنّوا. الزعم هو القول بالظن ﴿قُلۡ﴾ يا محمّدُ ﴿بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبۡعَثُنَّ﴾ أيْ لتخرجنَّ منْ قبوركمْ أحياءً ﴿ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ﴾ لتخبرنَّ ﴿بِمَا عَمِلۡتُمۡۚ﴾ أيْ بأعمالكم ﴿وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ٧﴾ إذ الإعادة أسهل من الإبتداء.

قولهُ تعالى: ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ أمرهمْ بالإيمانِ بعدَ أنْ عرّفهمْ قيامَ السّاعةِ ﴿وَٱلنُّورِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلۡنَاۚ﴾ وهوَ القرآنُ، وهوَ نورٌ يهتدى بهِ منْ ظلمةِ الضّلالِ ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ٨﴾.

قولهُ تعالى: ﴿يَوۡمَ يَجۡمَعُكُمۡ لِيَوۡمِ ٱلۡجَمۡعِۖ ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلتَّغَابُنِۗ وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعۡمَلۡ صَٰلِحٗا يُكَفِّرۡ عَنۡهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُدۡخِلۡهُ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ٩﴾، فيهِ ثلاثُ مسائلَ:

الأولى: الغبنُ: النّقصُ، وقراءةُ العامّةِ يجمعكمْ بالياءِ، لقولهِ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ﴾ فأخبرَ، ولذكرِ اسمِ اللّهِ أوّلاً. وقرأ يعقوبُ «نَجْمَعُكُمْ» بالنّونِ، اعتباراً بقولهِ: ﴿والنّورِ الّذى أنزلنا﴾. ويومَ الجمعِ يومَ يجمعُ اللّهُ الأوّلينَ والآخرينَ والإنسَ والجنَّ وأهلَ السّماءِ وأهلَ الأرضِ. وقيلَ: هوَ يومَ يجمعُ اللّهُ بينَ كلِّ عبدٍ وعملهِ. وقيلَ: لأنّهُ يجمعُ فيهِ بينَ الظّالمِ والمظلومِ. وقيلَ: لأنّهُ يجمعُ فيهِ بينَ كلِّ نبيٍّ وأمّتهِ. وقيلَ: لأنّهُ يجمعُ فيهِ بينَ ثوابِ أهلِ الطّاعاتِ وعقابِ أهلِ المعاصي ﴿ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلتَّغَابُنِۗ﴾ أيْ يومَ القيامةِ، وسمّى يومَ القيامةِ يومَ التّغابنِ، لأنّهُ غبنَ فيهِ أهلُ الجنّةِ أهلَ النّارِ، فالمغبونُ منْ غبنَ أهلهُ ومنازلهُ في الجنّةِ ويظهرُ يومئذٍ غبنُ كلِّ كافرٍ بتركِ الإيمانِ، وغبنُ كلِّ مؤمنٍ بتقصيرهِ في الإحسانِ وتضييعهِ الأيّامَ، ويغبنُ منِ ارتفعتْ منزلتهُ في الجنّةِ منْ كانَ دونَ منزلتهِ.

الثانية– فإن قيل: فأيُّ معاملةٍ وقعتْ بينهما حتّى يقعَ الغبنُ فيها. قيلَ لهُ إنَّ أهلَ الجنّةِ اشتروا الآخرةَ بتركِ الدّنيا، واشترى أهلُ النّارِ الدّنيا بتركِ الآخرةِ وهذا نوعُ مبادلةٍ اتّساعاً ومجازاً، قالَ تعالى: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ﴾ أي الكفار ﴿ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمۡ﴾. فحصلَ التّغابنُ.

الثالثة– قالَ ابنُ العربيِّ: استدلَّ علماؤنا بقولهِ تعالى: ﴿ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلتَّغَابُنِۗ﴾ على أنّهُ لا

يجوزُ الغبنُ في المعاملةِ الدّنيويّةِ، لأنَّ اللّهَ تعالى خصّصَ التّغابنَ بيوم القيامةِ، وهذا الاختصاصُ يفيدُ أنّهُ لا غبنَ في الدّنيا، فكلُّ منِ اطّلعَ على غبنٍ في مبيعٍ فإنّهُ مردودٌ إذا زادَ على الثّلثِ. واختارهُ البغداديّونَ واحتجّوا عليهِ بوجوهٍ: منها قولهُ ﷺ لحبّانَ بنِ منقذٍ: «إذا بايعتَ فقلْ لا خلابةَ ولكَ الخيارُ ثلاثـًا». وهذا فيهِ نظرٌ طويلٌ بيّنّاهُ في مسائلِ الخلافِ. نكتتهُ أنَّ الغبنَ في الدّنيا ممنوعٌ بإجماعٍ في حكمِ الدّينِ، إذْ هوَ منْ بابِ الخداعِ المحرّمِ شرعـًا في كلِّ ملّةٍ، لكنَّ اليسيرَ منهُ لا يمكنُ الاحترازُ عنهُ لأحدٍ، فمضى في البيوعِ، إذْ لوْ حكمنا بردّهِ ما نفذَ بيعٌ أبداً، لأنّهُ لا يخلو منهُ، حتّى إذا كانَ كثيراً أمكنَ الاحترازُ منهُ فوجبَ الرّدُّ بهِ.

والفرقُ بينَ القليلِ والكثيرِ أصلٌ في الشّريعةِ معلومٌ، فقدّرَ علماؤنا الثّلثَ لهذا الحدِّ، إذْ رأوهُ في الوصيّةِ وغيرها. ويكونُ معنى الآيةِ على هذا: ذلكَ يومُ التّغابنِ الجائزِ مطلقـًا منْ غيرِ تفصيلٍ. أوْ ذلكَ يومُ التّغابنِ الّذي لا يستدركُ أبداً، لأنَّ تغابنَ الدّنيا يستدركُ بوجهينِ: إمّا بردٍّ في بعضِ الأحوالِ، وإمّا بربحٍ في بيعٍ آخرَ وسلعةٍ أخرى. فأمّا منْ خسرَ الجنّةَ فلا دركَ لهُ أبداً.

وقدْ قالَ بعضُ علماءِ الصّوفيّةِ: إنَّ اللّهَ كتبَ الغبنَ على الخلقِ أجمعينَ، فلا يلقى أحدٌ ربّهُ إلّا مغبونـًا، لأنّهُ لا يمكنهُ الاستيفاءُ للعملِ حتّى يحصلَ لهُ استيفاءُ الثّوابِ. وفي الأثرِ قالَ النّبيُّ ﷺ: «لا يلقى اللّهَ أحدٌ إلّا نادمـًا إنْ كانَ مسيئـًا إنْ لمْ يحسنْ، وإنْ كانَ محسنا إن لم يزدد».

قولهُ تعالى: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ﴾ قرأَ نافعٌ وابنُ عامرٍ بالنّونِ فيهما، والباقون بالياء.

قولهُ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ يعني القرآنَ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ١٠﴾ لمّا ذكرَ ما للمؤمنينَ ذكرَ ما للكافرينَ كما تقدّمَ في غير موضع.

قولهُ تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِۗ﴾ أيْ بإرادتهِ وقضائهِ وعلمه.

قولهُ تعالى: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ﴾ أيْ يصدّقُ ويعلمُ أنّهُ لا يصيبهُ مصيبةٌ إلّا بإذنِ اللّهِ ﴿يَهْدِ

﴿قَلْبَهُۥ﴾ للصّبرِ والرّضا. وقيلَ: يثبّتهُ على الإيمانِ. فيقول عندَ المصيبةِ: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾، ويجعلَ اللّهُ في قلبهِ اليقينَ ليعلمَ أنَّ ما أصابهُ لمْ يكنْ ليخطئهُ، وأنَّ ما أخطأهُ لمْ يكنْ ليصيبهُ ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ١١﴾ لا يخفى عليهِ تسليمُ منِ انقادَ وسلّمَ لأمره، ولا كراهة من كرهه.

قولهُ تعالى: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَۚ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ١٢﴾ أيْ هوّنوا على أنفسكمُ المصائبَ، واشتغلوا بطاعةِ اللّهِ، واعملوا بكتابهِ، وأطيعوا الرّسولَ في العملِ بسنّتهِ، فإنْ تولّيتمْ عنِ الطّاعةِ فليسَ على الرّسولِ إلّا التّبليغُ ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ١٣﴾ أيْ لا معبودَ سواهُ، ولا خالقَ غيرهِ، فعليه توكلوا.

قولهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْۚ وَإِن تَعْفُواْ وَتَصْفَحُواْ وَتَغْفِرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ١٤﴾، فيهِ خمسُ مسائلَ:

الأولى: قالَ ابنُ عبّاسٍ: نزلتْ هذهِ الآيةُ بالمدينةِ في عوفِ بنِ مالكٍ الأشجعيِّ، شكا إلى النّبيِّ ﷺ جفاءَ أهلهِ وولدهِ، وكانَ إذا أرادَ الغزوَ بكوا إليهِ ورقّقوهُ فقالوا: إلى منْ تدعنا؟ فيرقُّ فيقيمُ، فنزلتْ.

وروى التّرمذيُّ عنِ ابنِ عبّاسٍ قالَ: هؤلاءِ رجالٌ أسلموا منْ أهلِ مكّةَ وأرادوا أنْ يأتوا النّبيَّ ﷺ، فأبى أزواجهمْ وأولادهمْ أنْ يدعوهمْ أنْ يأتوا النّبيَّ ﷺ، فلمّا أتوا النّبيَّ ﷺ رأوا النّاسَ قدْ فقهوا في الدّينِ همّوا أنْ يعاقبوهمْ، فأنزلَ اللّهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْۚ﴾ الآيةَ. هذا حديثٌ حسنٌ صحيحٌ.

الثانية – قالَ القاضي أبو بكرِ بنُ العربيِّ: هذا يبيّنُ وجهَ العداوةِ، فإنَّ العدوَّ لمْ يكنْ عدواً لذاتهِ وإنّما كانَ عدواً بفعله. فإذا فعلَ الزّوجُ والولدُ فعلَ العدوِّ كانَ عدواً، ولا فعلَ أقبحُ منَ الحيلولةِ بينَ العبدِ وبينَ الطّاعةِ. وفي صحيحِ البخاريِّ منْ حديثُ أبي هريرةَ عنِ النّبيِّ ﷺ قال: «إنَّ الشّيطانَ قعدَ لابنِ آدمَ في طريقِ الإيمانِ فقالَ: لهُ أتؤمنُ وتذرُ دينكَ ودينَ آبائكَ فخالفهُ فآمنَ ثمَّ قعدَ لهُ على طريقِ الهجرةِ فقالَ: لهُ أتهاجرُ وتتركُ مالكَ وأهلكَ فخالفهُ فهاجرَ ثمَّ قعدَ لهُ على طريقِ الجهادِ فقالَ: لهُ أتجاهدُ فتقتلُ نفسكَ فتنكحُ نساؤكَ ويقسمُ

مالكَ فخالفهُ فجاهدَ فقتلَ، فحقٌّ على اللّهِ أنْ يدخلهُ الجنّةَ».

وفي حكمةِ عيسى عليه السلام: منِ اتّخذَ أهلاً ومالاً وولداً كانَ للدّنيا عبداً. وفي صحيحِ الحديثِ بيانُ أدنى منْ ذلكَ في حالِ العبدِ، قالَ النّبيُّ ﷺ: «تعسَ عبدُ الدّينارِ تعسَ عبدُ الدّرهمِ تعسَ عبدُ الخميصةِ تعسَ عبدُ القطيفةِ تعسَ وانتكس وإذا شيكَ فلا انتقشَ».

الثالثة– كما أنَّ الرّجلَ يكونُ لهُ ولدهُ وزوجهُ عدواً كذلكَ المرأةُ يكونُ لها زوجها وولدها عدواً بهذا المعنى بعينهِ. وعمومُ قولهِ: ﴿مِنْ أَزْوَاجِكُمْ﴾ يدخلُ فيهِ الذّكرُ والأنثى لدخولهما في كلِّ آيةٍ. والله أعلم.

الرابعة– قولهُ تعالى: ﴿فَٱحْذَرُوهُمْ﴾ معناهُ على أنفسكمْ. والحذرُ على النّفسِ يكونُ بوجهينِ: إمّا لضررٍ في البدنِ، وإمّا لضررٍ في الدّينِ. وضررُ البدنِ يتعلّقُ بالدّنيا، وضررُ الدّينِ يتعلّقُ بالآخرةِ. فحذّرَ اللّهُ سبحانهُ العبدَ منْ ذلكَ وأنذرهُ بهِ.

الخامسة– الآيةُ عامّةٌ في كلِّ معصيةٍ يرتكبها الإنسانُ بسببِ الأهلِ والولدِ. وخصوصُ السبب لا يمنع عموم الحكم.

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَـٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ أيْ بلاءٌ واختبارٌ يحملكمْ على كسبِ المحرّمِ ومنعِ حقِّ اللّهِ تعالى فلا تطيعوهمْ في معصيةِ اللّهِ. وفي الحديثِ «يؤتى برجل يوم القيامة فيقالُ أكلَ عيالهُ حسناتهِ». وعنْ بعضِ السّلفِ: العيال سوس الطاعات.

وقالَ الحسنُ في قولهِ تعالى: ﴿إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ﴾: أدخلَ منْ للتّبعيضِ، لأنَّ كلّهمْ ليسوا بأعداءَ. ولمْ يذكر منْ في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَـٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ لأنّهما لا يخلوانِ منَ الفتنةِ واشتغالِ القلبِ بهما.

وروى التّرمذيُّ وغيرهُ عنْ عبدِ اللّهِ بنِ بريدةَ عنْ أبيهِ قالَ: رأيتُ النّبيَّ ﷺ يخطبُ، فجاءَ الحسنُ والحسينُ عليهما السّلامُ– وعليهما قميصانِ أحمرانِ، يمشيانِ ويعثرانِ، فنزلَ ﷺ فحملهما بينَ يديهِ، ثمَّ قالَ: «صدقَ اللّهُ عزَّ وجلَّ إنّما أموالكمْ وأولادكمْ فتنةٌ. نظرتُ إلى هذينَ الصّبيّينِ يمشيانِ ويعثرانِ فلمْ أصبرْ حتّى قطعتُ حديثي ورفعتهما» ثمَّ أخذ في خطبته.

﴿وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٌ ١٥﴾ يعني الجنّةَ، فهيَ الغايةُ، ولا أجرَ أعظمَ منها في قولِ المفسّرينَ. وفي الصّحيحينِ واللّفظُ للبخاريِّ- عنْ أبي سعيدٍ الخدريِّ قالَ: قالَ رسولُ اللّهِ ﷺ: «إنَّ اللّهَ يقولُ لأهلِ الجنّةِ يأهل الجنّةِ فيقولونَ لبّيكَ ربّنا وسعديكَ فيقولُ هلْ رضيتمْ فيقولونَ وما لنا لا نرضى وقدْ أعطيتنا ما لمْ تعطِ أحداً منْ خلقكَ فيقولُ ألا أعطيكمْ أفضلَ منْ ذلكَ قالوا يا رب وأي شيء أفضلُ منْ ذلكَ فيقولُ أحلُّ عليكمْ رضواني فلا أسخطُ عليكمْ بعدهُ أبداً».

قولهُ تعالى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ وَٱسۡمَعُواْ وَأَطِيعُواْ وَأَنفِقُواْ خَيۡرٗا لِّأَنفُسِكُمۡۗ﴾ فيهِ خمسُ مسائلَ:

الأولى: ذهبَ جماعةٌ منْ أهلِ التّأويلِ إلى أنَّ هذهِ الآيةَ ناسخةٌ لقولهِ تعالى: ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ وهذا أمرٌ شديدٌ، قالوا: ومنْ يعرفُ قدرَ هذا أوْ يبلغهُ؟

وقيلَ: هيَ محكمةٌ لا نسخَ فيها. وحقَّ تقاتهِ أنْ يجاهدَ للّهِ حقَّ جهادهِ، ولا يأخذهمْ في اللّهِ لومةُ لائمٍ، ويقوموا للّهِ بالقسطِ ولوْ على أنفسهمْ وآبائهمْ وأبنائهمْ.

الثانية- فإن قيل: فإذا كانتْ هذهِ الآيةُ محكمةٌ غيرُ منسوخةٍ فكيفَ يجوزُ اجتماعُ الأمرِ باتّقاءِ اللّهِ حقَّ تقاتهِ والأمرُ باتّقائهِ ما استطعنا. والأمرُ باتّقائهِ حقَّ تقاتهِ إيجابُ القرآنِ بغيرِ خصوصٍ ولا وصلَ بشرطٍ، والأمرُ باتّقائهِ ما استطعنا أمرٌ باتّقائهِ موصولاً بشرطٍ.

قيلَ: قولهُ فاتّقوا اللّهَ ما استطعتمْ منَ الهجرةِ منْ أرضِ الكفرِ إلى أرضِ الإسلامِ، وذلكَ أنَّ اللّهَ جلَّ ثناؤهُ قدْ كانَ عذرَ منْ لمْ يقدرْ على الهجرةِ بتركها بقولهِ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِيٓ أَنفُسِهِمۡ﴾ إلى قولهِ ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعۡفُوَ عَنۡهُمۡۚ﴾ فأخبرَ أنّهُ قدْ عفا عمّنْ لا يستطيعُ حيلةً ولا يهتدي سبيلاً بالإقامةِ في دارِ الشّركِ، فكذلكَ معنى قولهِ: فاتّقوا اللّهَ ما استطعتمْ في الهجرةِ منْ دارِ الشّركِ إلى دارِ الإسلامِ أنْ تتركوها بفتنةِ أموالكمْ وأولادكمْ. وممّا يدلُّ على صحّةِ هذا أنَّ قولهُ: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ﴾ عقيبَ قولهِ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجِكُمۡ وَأَوۡلَٰدِكُمۡ عَدُوّٗا لَّكُمۡ فَٱحۡذَرُوهُمۡۚ﴾.

الثالثة- قولهُ تعالى: ﴿وَٱسۡمَعُواْ وَأَطِيعُواْ﴾ أيِ اسمعوا ما توعظونَ بهِ وأطيعوا فيما

تؤمرونَ بهِ وتنهونَ عنهُ، وهيَ للنّبيِّ ﷺ أوّلاً ثمَّ لأولي الأمرِ منْ بعدهِ. دليلهُ: ﴿أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾.

الرابعة- قولهُ تعالى: ﴿وَأَنفِقُوا۟﴾ قيل: هوَ الزّكاةُ، وقيلَ: هوَ النّفقةُ في النّفلِ، وقيلَ: هوَ النّفقةُ في الجهادِ، والصّحيحُ أنّها عامّةٌ. وروِيَ عنِ النّبيِّ ﷺ أنّهُ قالَ لهُ رجلٌ: عندي دينارٌ؟ قالَ: «أنفقهُ على نفسكَ» قالَ: عندي آخرُ؟ قالَ: «أنفقهُ على عيالكَ» قالَ: عندي آخرُ؟ قالَ: «أنفقهُ على ولدكَ» قالَ: عندي آخرُ؟ قالَ: «تصدّقْ بهِ» فبدأَ بالنّفسِ والأهلِ والولدِ وجعلَ الصّدقةَ بعدَ ذلكَ. وهوَ الأصلُ في الشّرعِ.

الخامسة- قولهُ تعالى: ﴿خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ﴾ كما قالَ اللّهُ تعالى: ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾ وكلُّ ما يفعلهُ الرّجلُ منْ خيرٍ فإنّما هوَ لنفسهِ.

قولهُ تعالى: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٦﴾﴾ تقدّمَ الكلامُ فيهِ. وكذا ﴿إِن تُقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعِفْهُ لَكُمْ﴾ تقدّمَ الكلام فيه أيضا في «البقرة» و«الحديدِ» ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٧﴾﴾ تقدّمَ معنى الشّكرِ في البقرةِ. والحليمُ: الّذي لا يعجل.

قولهُ تعالى ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ أيْ ما غابَ وحضرَ. وهوَ ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ أيِ الغالبُ القاهرُ ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ في تدبيرِ خلقهِ.

سورة الطلاق

بسمِ اللّهِ الرّحمنِ الرّحيمِ

مدنيّةٌ في قولِ الجميعِ. وهيَ إحدى عشرةَ آيةً، أوِ اثنتا عشرةَ آيةً.

قولهُ تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحۡصُواْ ٱلۡعِدَّةَۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ رَبَّكُمۡۖ لَا تُخۡرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخۡرُجۡنَ إِلَّآ أَن يَأۡتِينَ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖۚ وَتِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدۡ ظَلَمَ نَفۡسَهُۥۚ لَا تَدۡرِي لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحۡدِثُ بَعۡدَ ذَٰلِكَ أَمۡرٗا ١﴾، فيهِ أربعَ عشرةَ مسألةً:

الأولى: خوطبَ النبي بلفظِ الجماعةِ تعظيماً وتفخيماً. قيل: طلّقَ رسولُ اللّهِ ﷺ حفصةَ رضي الله عنها فأتتْ أهلها، فأنزلَ اللّهُ تعالى عليهِ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾. وقيلَ لهُ: راجعها فإنّها قوّامةٌ صوّامةٌ، وهيَ منْ أزواجكَ في الجنّةِ. ونزلَ في خروجها إلى أهلها قولهُ تعالى: ﴿لَا تُخۡرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ﴾.

وقيلَ: نزلتْ في عبدِ اللّهِ بنِ عمرَ، طلّقَ امرأتهُ حائضاً تطليقةً واحدةً فأمرهُ رسولُ اللّهِ ﷺ بأنَّ يراجعها ثمَّ يمسكها حتّى تطهرَ وتحيضَ ثمَّ تطهرَ، فإذا أرادَ أنْ يطلّقها فليطلّقها حينَ تطهرُ منْ قبلِ أنْ يجامعها. فتلكَ العدّةُ الّتي أمرَ اللّهُ تعالى أنْ يطلّقَ لها النّساءُ.

وقدْ قيل: إنَّ رجالاً فعلوا مثلَ ما فعلَ عبدُ اللّهِ بنُ عمرَ، منهمْ عبدُ اللّهِ بنُ عمرو بنِ العاصِ، وعمرو بنُ سعيدِ بنِ العاصِ، وعتبةُ بنُ غزوانَ، فنزلتِ الآيةُ فيهمْ.

وقدْ قيل: إنّهُ خطابٌ للنّبيِّ ﷺ والمرادُ أمّتهُ، وغايرَ بينَ اللّفظينِ منْ حاضرٍ وغائبٍ وذلكَ لغةٌ فصيحةٌ، كما قالَ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمۡ فِي ٱلۡفُلۡكِ وَجَرَيۡنَ بِهِم بِرِيحٖ طَيِّبَةٖ﴾. تقديرهُ: يا أيّها النّبيُّ قلْ لهمْ إذا طلّقتمُ النّساءَ فطلّقوهنَّ لعدّتهنَّ. وهذا هوَ قولهمْ: إنَّ الخطابَ لهُ وحدهُ والمعنى لهُ وللمؤمنينَ. وإذا أراد الله بالخطاب المؤمنين لاطفه بقولهِ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾ فإذا كانَ الخطابُ باللّفظِ والمعنى جميعاً لهُ قالَ: ﴿۞يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ﴾.

قلت: ويدلُّ على صحّةِ هذا القولِ نزولُ العدّةِ في أسماءَ بنتِ يزيدَ بنِ السّكنِ الأنصاريّةِ.

ففي كتابِ أبي داودَ عنها أنّها طلّقتْ على عهدِ النّبيِّ ﷺ، ولمْ يكنْ للمطلّقةِ عدّةٌ، فأنزلَ اللّهُ تعالى حينَ طلّقتْ أسماءُ بالعدّةِ للطّلاقِ، فكانتْ أوّلَ منْ أنزلَ فيها العدّةُ للطّلاقِ.

وقيلَ: المرادُ بهِ نداءُ النّبيِّ ﷺ تعظيماً، ثمَّ ابتدأَ فقالَ: إذا طلّقتمُ النّساءَ، كقولهِ تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾: ﴿إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ وَٱلۡأَنصَابُ وَٱلۡأَزۡلَـٰمُ﴾ الآيةَ. فذكرَ المؤمنينَ على معنى تقديمهمْ وتكريمهمْ، ثمَّ افتتحَ فقالَ: إنّما الخمرُ والميسرُ والأنصابُ ... الآيةَ.

الثانية- روى الثّعلبيُّ منْ حديثِ ابنِ عمرَ قالَ: قالَ رسولُ اللّهِ ﷺ: «إنَّ منْ أبغضِ الحلالِ إلى اللّهِ تعالى الطّلاقُ».

وروى الدّارقطنيُّ عنْ معاذِ بنِ جبلٍ قالَ: قالَ لي رسولُ اللّهِ ﷺ: «يا معاذُ ما خلقَ اللّهُ شيئاً على وجهِ الأرضِ أحبَّ إليهِ منَ العتاقِ ولا خلقَ اللّهُ شيئاً على وجهِ الأرضِ أبغضَ منَ الطّلاقِ. فإذا قالَ الرّجلُ لمملوكهِ أنتَ حرٌّ إنْ شاءَ اللّهُ فهوَ حرٌّ ولا استثناءَ لهُ. وإذا قالَ الرّجلُ لامرأتهِ أنتِ طالقٌ إنْ شاءَ اللّهُ فلهُ استثناؤهُ ولا طلاقَ عليهِ».

قالَ ابنُ المنذرِ: اختلفوا في الاستثناءِ في الطّلاقِ والعتقِ، فقالتْ طائفةٌ: ذلكَ جائزٌ. وبهِ قالَ الشّافعيُّ وأصحابُ الرّأيِ. ولا يجوزُ الاستثناءُ في الطّلاقِ في قولِ مالكٍ.

الثالثة- روى الدّارقطنيُّ عنِ ابنِ عبّاسٍ قال: الطّلاقُ على أربعةِ وجوهٍ: وجهانِ حلالانِ ووجهانِ حرامانِ، فأمّا الحلالُ فأنْ يطلّقها طاهراً عنْ غيرِ جماعٍ وأنْ يطلّقها حاملاً مستبيناً حملها. وأمّا الحرامُ فأنْ يطلّقها وهيَ حائضٌ، أوْ يطلّقها حينَ يجامعها، لا تدري اشتملَ الرّحمُ على ولدٍ أمْ لا.

الرابعة- قولهُ تعالى: ﴿فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾ في كتابِ أبي داودَ عنْ أسماءَ بنتِ يزيد ابن السّكنِ الأنصاريّةِ أنّها طلّقتْ على عهدِ النّبيِّ ﷺ ولمْ يكنْ للمطلّقةِ عدّةٌ، فأنزلَ اللّهُ سبحانهُ حينَ طلّقتْ أسماءُ بالعدّةِ للطّلاقِ، فكانتْ أوّلَ منْ أنزلَ فيها العدّةُ للطّلاقِ. وقدْ تقدّمَ.

الخامسة: قولهُ تعالى: ﴿لِعِدَّتِهِنَّ﴾ يقتضي أنّهنَّ اللّاتي دخلَ بهنَّ منَ الأزواجِ، لأنَّ غيرَ المدخولِ بهنَّ خرجنَ بقولهِ تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَكَحۡتُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَـٰتِ ثُمَّ طَلَّقۡتُمُوهُنَّ مِن قَبۡلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمۡ عَلَيۡهِنَّ مِنۡ عِدَّةٖ تَعۡتَدُّونَهَاۖ﴾.

السّادسةُ: منْ طلّقَ في طهرٍ لمْ يجامعْ فيهِ نفذَ طلاقهُ وأصابَ السّنّةَ. وإنْ طلّقها حائضاً نفذَ طلاقهُ وأخطأَ السّنّةَ. وقالَ سعيدُ بنُ المسيّبِ: لا يقعُ الطّلاقُ في الحيضِ لأنّهُ خلافُ السّنّةِ. وإليهِ ذهبتِ الشّيعةُ. وفي الصحيحين - واللفظ للدارقطني - عنْ عبدِ اللّهِ بنِ عمرَ قالَ: طلّقتُ امرأتي وهيَ حائضٌ فذكرَ ذلكَ عمرُ لرسولِ اللّهِ ﷺ، فتغيّظَ رسولُ اللّهِ ﷺ فقالَ: «ليراجعها ثمَّ ليمسكها حتّى تحيضَ حيضةً مستقبلةً سوى حيضتها الّتي طلّقها فيها فإنْ بدا لهُ أنْ يطلّقها فليطلّقها طاهراً منْ حيضتها قبلَ أنْ يمسّها فذلكَ الطّلاقُ للعدّةِ كما أمرَ اللّهُ».

وكانَ عبدُ اللّهِ بنُ عمرَ طلّقها تطليقةً، فحسبتْ منْ طلاقها وراجعها عبدُ اللّهِ بنُ عمرَ كما أمرهُ رسولُ اللّهِ ﷺ. في روايةٍ عنِ ابنِ عمرَ أنَّ رسولَ اللّهِ ﷺ قال: «هيَ واحدةٌ». وهذا نصٌّ. وهوَ يردُّ على الشّيعةِ قولهمْ.

السّابعةُ: قالَ علماؤنا: طلاقُ السّنّةِ ما جمعَ شروطاً سبعةً: وهوَ أنْ يطلّقها واحدةً، وهيَ ممّنْ تحيضُ، طاهراً، لمْ يمسّها في ذلكَ الطّهرِ، ولا تقدّمهُ طلاقٌ في حيضٍ، ولا تبعهُ طلاقٌ في طهرٍ يتلوهُ، وخلا عنِ العوضِ. وهذهِ الشّروطُ السّبعةُ منْ حديثِ ابنِ عمرَ المتقدّمِ.

وقالَ الشّافعيُّ: طلاقُ السّنّةِ أنْ يطلّقها في كلِّ طهرٍ خاصّةً، ولوْ طلّقها ثلاثاً في طهرٍ لمْ يكنْ بدعةً.

وقالَ أبو حنيفةَ: طلاقُ السّنّةِ أنْ يطلّقها في كلِّ طهرٍ طلقةً.

فعلماؤنا قالوا: يطلّقها واحدةً في طهرٍ لمْ يمسَّ فيهِ، ولا تبعهُ طلاقٌ في عدّةٍ، ولا يكونُ الطّهرُ تالياً لحيضٍ وقعَ فيهِ الطّلاقُ، لقولِ النّبيِّ ﷺ: «مرّةً فليراجعها ثمَّ ليمسكها حتّى تطهرَ ثمَّ تحيضَ ثمَّ تطهرَ ثمَّ إنْ شاءَ أمسكَ وإنْ شاءَ طلّقَ. فتلكَ العدّةُ الّتي أمرَ اللّهُ أنْ يطلّقَ لها النّساءُ».

وتعلّقَ الإمامُ الشّافعيُّ بظاهرِ قولهِ تعالى: ﴿فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾ وهذا عامٌّ في كلِّ طلاقٍ كانَ واحدةً أوِ اثنتينِ أوْ أكثرَ. وإنّما راعى اللّهُ سبحانهُ الزّمانَ في هذهِ الآيةِ ولمْ يعتبرِ العددَ. وكذلكَ حديثُ ابنِ عمرَ لأنَّ النّبيَّ ﷺ علّمهُ الوقتَ لا العددَ. قالَ ابنُ العربيِّ: «وهذهِ غفلةٌ عنِ الحديثِ الصّحيحِ، فإنّهُ قالَ: «مرهُ فليراجعها» وهذا يدفعُ الثّلاثَ. وفي الحديثِ أنّهُ قالَ:

أرأيتَ لوْ طلّقها ثلاثـًا؟ قالَ حرمتْ عليكَ وبانتْ منكَ بمعصيةٍ.

وقالَ أبو حنيفةَ: ظاهرُ الآيةِ يدلُّ على أنَّ الطّلاقَ الثّلاثَ والواحدةَ سواءٌ، وهوَ مذهبُ الشّافعيِّ لولا قولهُ بعدَ ذلكَ: ﴿لَا تَدْرِى لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا﴾. وهذا يبطلُ دخولَ الثّلاثِ تحتَ الآيةِ. وكذلكَ قالَ أكثرُ العلماءِ، وهوَ بديعٌ لهمْ.

وأمّا مالكٌ فلمْ يخفَ عليهِ إطلاقُ الآيةِ كما قالوا، ولكنَّ الحديثَ فسّرها كما قلنا.

وقال الشّعبيِّ: يجوزُ طلاقٌ في طهرٍ جامعها فيهِ، ويردّهُ حديثُ ابنِ عمرَ بنصّهِ ومعناهُ. أمّا نصّهُ فقدْ قدّمناهُ، وأمّا معناهُ فلأنّهُ إذا منعَ منْ طلاقِ الحائضِ لعدمِ الاعتدادِ بهِ، فالطّهرُ المجامعُ فيهِ أولى بالمنعِ، لأنّهُ يسقطُ الاعتدادُ بهِ مخافةَ شغلِ الرّحمِ وبالحيضِ التّالي لهُ.

قلت: وقدِ احتجَّ الشّافعيُّ في طلاقِ الثّلاثِ بكلمةٍ واحدةٍ بما رواهُ الدارقطني أنَّ عبدَ الرّحمنِ بنَ عوفٍ طلّقَ امرأتهُ تماضرَ بنتَ الأصبغِ الكلبيّةَ وهيَ أمُّ أبي سلمةَ ثلاثَ تطليقاتٍ في كلمةٍ واحدةٍ، فلمْ يبلغنا أنَّ أحداً منْ أصحابهِ عابَ ذلكَ.

قالَ: وحدّثنا سلمةُ بنُ أبي سلمةَ عنْ أبيهِ أنَّ حفصَ بنَ المغيرةِ طلّقَ امرأتهُ فاطمة بنت قيس على عهد رسول الله ﷺ ثلاثَ تطليقاتٍ في كلمةٍ، فأبانها منهُ رسولُ اللّهِ ﷺ، ولمْ يبلغنا أنَّ النّبيَّ ﷺ عابَ ذلكَ عليهِ.

واحتجَّ أيضا بحديث عويمر العجلاني لمّا لاعن قالَ: يا رسولَ اللّهِ، هيَ طالقٌ ثلاثٌ. فلمْ ينكرْ عليهِ النّبيُّ ﷺ. وقدِ انفصلَ علماؤنا عنْ هذا أحسنَ انفصالٍ. بيانهُ في غيرِ هذا الموضعِ.

وعنْ سعيدِ بنِ المسيّبِ وجماعةٍ منَ التّابعينَ أنَّ منْ خالفَ السّنّةَ في الطّلاقِ فأوقعهُ في حيضٍ أوْ ثلاثٍ لم يقع، وشبهوه بمنْ وكّلَ بطلاقِ السّنّةِ فخالفَ.

الثامنةُ: اللّامُ في قولهِ تعالى: ﴿لِعِدَّتِهِنَّ﴾ بمعنى في، كقولهِ تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ﴾. أيْ في أوّلِ الحشرِ. فقولهُ: ﴿لِعِدَّتِهِنَّ﴾ أيْ في عدّتهنَّ، أيْ في الزّمانِ الّذي يصلحُ لعدّتهنَّ. وحصلَ الإجماعُ على أنَّ الطّلاقَ في الحيضِ ممنوعٌ وفي الطّهرِ مأذونٌ فيهِ. ففيهِ دليلٌ على أنَّ القرءَ هوَ الطّهرُ. وقدْ

مضى القولُ فيهِ في البقرةِ.

فإن قيل: معنى ﴿فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾ أيْ في قِبلِ عدّتهنَّ، أوْ لقبلِ عدّتهنَّ. وهيَ قراءةُ النّبيِّ ﷺ، كما قالَ ابنُ عمرَ في صحيحِ مسلمٍ وغيرِه. فقبلُ العدّةِ آخرُ الطّهرِ حتّى يكونَ القرءُ الحيضَ.

قيلَ لهُ: هذا هوَ الدّليلُ الواضحُ لمالكٍ ومنْ قالَ بقولِهِ، على أنَّ الأقراءَ هيَ الأطهارُ. ولوْ كانَ كما قالَ الحنفيُّ ومنْ تبعهُ لوجبَ أنْ يقالَ: إنَّ منْ طلّقَ في أوّلِ الطّهرِ لا يكونُ مطلّقًا لقبلِ الحيضِ، لأنَّ الحيضَ لمْ يقبلْ بعدُ. وأيضًا إقبالُ الحيضِ يكونُ بدخولِ الحيضِ، وبانقضاءِ الطّهرِ لا يتحقّقُ إقبالُ الحيضِ. ولوْ كانَ إقبالُ الشّيءِ إدبارَ ضدّهِ لكانَ الصّائمُ مفطراً قبلَ مغيبِ الشّمسِ، إذِ اللّيلُ يكونُ مقبلاً في إدبارِ النّهارِ قبلَ انقضاءِ النّهارِ. ثمَّ إذا طلّقَ في آخرِ الطّهرِ فبقيّةُ الطّهرِ قرءٌ، ولأنَّ بعضَ القرءِ يسمّى قرءاً لقولهِ تعالى: ﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ﴾ يعني شوّالاً وذا القعدةِ وبعضَ ذي الحجّةِ، كقولهِ تعالى: ﴿فَمَن تَعَجَّلَ فِى يَوْمَيْنِ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ وهوَ ينفرُ في بعضِ اليومِ الثّاني.

التاسعة– قولهُ تعالى: ﴿وَأَحْصُوا۟ ٱلْعِدَّةَ﴾ يعني في المدخولِ بها، لأنَّ غيرَ المدخولِ بها لا عدّةَ عليها، ولهُ أنْ يراجعها فيما دوّنَ الثّلاثِ قبلَ انقضاءِ العدّةِ، ويكونُ بعدها كأحدِ الخطّابِ. ولا تحلُّ لهُ في الثّلاثِ إلّا بعدَ زوجٍ.

العاشرة– قولهُ تعالى: ﴿وَأَحْصُوا۟ ٱلْعِدَّةَ﴾ معناهُ احفظوها، أيِ احفظوا الوقتَ الّذي وقعَ فيهِ الطّلاقُ، حتّى إذا انفصلَ المشروطُ منهُ وهوَ الثّلاثةُ قروءٍ في قولهِ تعالى: ﴿وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ﴾ حلّتْ للأزواجِ. وهذا يدلُّ على أنَّ العدّةَ هيَ الأطهارُ وليستْ بالحيضِ. ويؤكّدهُ ويفسّرهُ قراءةُ النّبيِّ ﷺ «لقبلِ عدّتهنَّ» وقبلُ الشّيءِ بعضهُ لغةً وحقيقةً، بخلافِ استقبالهِ فإنه يكون غيره.

الحاديةَ عشرةَ: المخاطبُ بأمرِ الإحصاءِ فيهِ ثلاثُ أقوالٍ:

أحدها– أنّهمُ الأزواجُ.

الثّاني– أنّهمُ الزّوجاتُ.

الثّالثُ- أنّهمُ المسلمونَ.

والصّحيحُ الأول، لأنَّ الضّمائرَ كلها من ﴿طَلَّقْتُمُ﴾ ﴿وَأَحْصُواْ﴾ و﴿لَا تُخْرِجُوهُنَّ﴾ على نظامٍ واحدٍ يرجعُ إلى الأزواجِ، ولكنَّ الزّوجاتِ داخلةٌ فيهِ بالإلحاقِ بالزّوجِ، لأنَّ الزّوجَ يحصي ليراجعَ، وينفقُ أوْ يقطعُ، وليسكنَ أوْ يخرجَ وليلحقَ نسبهُ أوْ يقطعَ. وهذهِ كلّها أمورٌ مشتركةٌ بينهُ وبينَ المرأةِ، وتنفردُ المرأةُ دونهُ بغيرِ ذلكَ. وكذلكَ الحاكمُ يفتقرُ إلى الإحصاءِ للعدّةِ للفتوى عليها، وفصلُ الخصومةِ عندَ المنازعةِ فيها. وهذهِ فوائدُ الإحصاءِ المأمورِ بهِ.

الثانية عشرةَ- قولهُ تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ رَبَّكُمۡۖ﴾ أيْ لا تعصوهُ ﴿لَا تُخۡرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ﴾ أيْ ليسَ للزّوجِ أنْ يخرجها منْ مسكن النكاح ما دامت في العدة، ولا يجوزُ لها الخروجُ أيضـًا لحقِّ الزّوجِ إلّا لضرورةٍ ظاهرةٍ، فإنْ خرجتْ أثمتْ ولا تنقطعُ العدّةُ. والرّجعيّةُ والمبتوتةُ في هذا سواءٌ. وهذا لصيانةِ ماءِ الرّجلِ. وهذا معنى إضافةِ البيوتِ إليهنَّ، كقولهِ تعالى: ﴿وَٱذۡكُرۡنَ مَا يُتۡلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلۡحِكۡمَةِۚ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَقَرۡنَ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾ فهوَ إضافةُ إسكانٍ وليسَ إضافةَ تمليكٍ.

وقولهُ: ﴿لَا تُخۡرِجُوهُنَّ﴾ يقتضي أنْ يكونَ حقـًا في الأزواجِ. ويقتضي قولهُ: ﴿وَلَا يَخۡرُجۡنَ﴾ أنّهُ حقٌّ على الزّوجاتِ. وفي صحيح الحديثِ عنْ جابرِ بنِ عبدِ اللّهِ قالَ: طلّقتْ خالتي فأرادتْ أنْ تجدَّ نخلها فزجرها رجلٌ أنْ تخرجَ، فأتتِ النّبيَّ ﷺ فقالَ: «بلى فجدّيَ نخلكِ فإنّكِ عسى أنْ تصدّقي أوْ تفعلي معروفـًا». خرّجهُ مسلمٌ.

ففي هذا الحديثِ دليلٌ لمالكٍ والشّافعيِّ وابنِ حنبلٍ على قولهمْ: إنَّ المعتدّةَ تخرجُ بالنّهارِ في حوائجها، وإنّما تلزمُ منزلها باللّيلِ. وسواءٌ عندَ مالكٍ كانتْ رجعيّةً أوْ بائنةً. وقالَ الشّافعيُّ في الرّجعيّةِ: لا تخرجُ ليلاً ولا نهاراً، وإنّما تخرجُ نهاراً المبتوتةُ. وقالَ أبو حنيفةَ: ذلكَ في المتوفّى عنها زوجها، وأمّا المطلّقةُ فلا تخرجُ لا ليلاً ولا نهاراً. والحديثُ يردُّ عليهِ.

وفي الصّحيحينِ أنَّ أبا حفصِ بنِ عمرو خرجَ معَ عليِّ بنِ أبي طالبٍ إلى اليمنِ، فأرسلَ إلى امرأتهِ فاطمةَ بنت قيس بتطليقة كانتْ بقيتْ منْ طلاقها، وأمرَ لها الحارثَ بنَ هشامٍ

وعيّاشَ بنَ أبي ربيعةَ بنفقةٍ فقالا لها: واللّهِ ما لكِ منْ نفقةٍ إلّا أنْ تكوني حاملاً. فأتتِ النّبيّ ﷺ فذكرتُ لهُ قولهما. فقالَ: «لا نفقةَ لكِ»، فاستأذنتهُ في الانتقالِ فأذنَ لها، فقالتْ: أينَ يا رسولَ اللّهِ؟ فقالَ: «إلى ابنِ أمِّ مكتومٍ»، وكانَ أعمى تضعُ ثيابها عندهُ ولا يراها. فلمّا مضتْ عدّتها أنكحها النّبيُّ ﷺ أسامةَ بنَ زيدٍ. فأرسلَ إليها مروانُ قبيصةَ بنَ ذؤيبٍ يسألها عنِ الحديثِ، فحدّثتهُ. فقالَ: مروانُ: لمْ نسمعْ هذا الحديثَ إلّا منَ امرأةٍ، سنأخذُ بالعصمةِ الّتي وجدنا النّاسَ عليها. فقالتْ فاطمةُ حينَ بلغها قولُ مروانَ: فبيني وبينكمُ القرآنُ، قالَ اللّهُ عزَّ وجلَّ: ﴿لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ﴾ الآيةَ، قالتْ: هذا لمنْ كانتْ لهُ رجعةٌ، فأيُّ أمرٍ يحدثُ بعدَ الثّلاثِ؟ فكيفَ تقولونَ: لا نفقةَ لها إذا لمْ تكنْ حاملاً، فعلامَ تحبسونها؟ لفظُ مسلمٍ.

فبيّنَ أنَّ الآيةَ في تحريمِ الإخراجِ والخروجِ إنّما هوَ في الرّجعيّةِ. وكذلكَ استدلّتْ فاطمةُ بأنَّ الآيةَ الّتي تليها إنّما تضمّنتِ النّهيَ عنْ خروجِ المطلّقةِ الرّجعيّةِ، لأنّها بصددِ أنْ يحدثَ لمطلّقها رأيٌ في ارتجاعها ما دامتْ في عدّتها، فكأنّها تحتَ تصرّفِ الزّوجِ في كلِّ وقتٍ. وأمّا البائنُ فليسَ له شيء منْ ذلكَ، فيجوزُ لها أنْ تخرجَ إذا دعتها إلى ذلكَ حاجةٌ، أوْ خافتْ عورةَ منزلها، كما أباحَ لها النّبيُّ ﷺ ذلكَ. وفي مسلمٍ- قالتْ فاطمةُ يا رسولَ اللّهِ، زوجي طلّقني ثلاثًا وأخافُ أنْ يقتحمَ عليَّ. قالَ: فأمرها فتحوّلتْ.

وفي البخاريِّ عنْ عائشةَ أنّها كانتْ في مكانٍ وحشٍ فخيفَ على ناحيتها، فلذلكَ أرخصَ النّبيُّ ﷺ لها. وهذا كلّهُ يردُّ على الكوفيِّ قولهُ.

وفي حديثِ فاطمةَ: أنَّ زوجها أرسلَ إليها بتطليقةٍ كانتْ بقيتْ منْ طلاقها، فهوَ حجّةٌ لمالكٍ وحجّةٌ على الشّافعيِّ. وهوَ أصحُّ منْ حديثِ سلمةَ بنِ أبي سلمةَ عنْ أبيهِ أنَّ حفصَ بنَ المغيرةِ طلّقَ امرأتهُ ثلاثَ تطليقاتٍ في كلمةٍ، على ما تقدم.

الثالثة عشرةَ- قولهُ تعالى: ﴿إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ﴾ قيل: هوَ الزّنى، فتخرجُ ويقامُ عليها الحدُّ. وعنِ ابنِ عبّاسٍ أيضًا والشّافعيِّ: أنّهُ البذاءُ على أحمائها، فيحلُّ لهمْ إخراجها. ورويَ عنْ سعيدِ بنِ المسيّبِ أنّهُ قالَ في فاطمةَ: تلكَ امرأةٌ استطالتْ على أحمائها بلسانها فأمرها ﷺ أنْ تنتقلَ.

وفي كتابِ أبي داودَ قالَ سعيدٌ: تلكَ امرأةٌ فتنتِ النّاسَ، إنّها كانتْ لسنةً فوضعتْ على

يدي ابنِ أمِّ مكتومٍ الأعمى.

وعنِ ابنِ عبّاسٍ أيضـًا: الفاحشةُ كلُّ معصيةٍ كالزّنى والسّرقةِ والبذاءِ على الأهلِ. وهوَ اختيارُ الطّبريِّ.

وعنِ ابنِ عمرَ أيضـًا والسّدّيِّ: الفاحشةُ خروجها منْ بيتها في العدّةِ. وتقديرُ الآيةِ: إلّا أنْ يأتينَ بفاحشةٍ مبيّنةٍ بخروجهنَّ منْ بيوتهنَّ بغيرِ حقٍّ، أيْ لوْ خرجتْ كانتْ عاصيةً. وقالَ قتادةُ: الفاحشةُ النّشوزُ، وذلكَ أنْ يطلّقها على النّشوزِ فتتحوّلَ عنْ بيتهِ.

قالَ ابنُ العربيِّ: أمّا منْ قالَ إنّهُ الخروجُ للزّنى، فلا وجهَ لهُ، لأنَّ ذلكَ الخروجَ هوَ خروجُ القتلِ والإعدامِ: وليسَ ذلكَ بمستثنى في حلالٍ ولا حرامٍ. وأمّا منْ قالَ: إنّهُ البذاءُ، فهوَ مفسّرٌ في حديثِ فاطمةَ بنتِ قيسٍ. وأمّا منْ قالَ: إنّهُ كلُّ معصيةٍ، فوهمَ لأنَّ الغيبةَ ونحوها منَ المعاصي لا تبيحُ الإخراجَ ولا الخروجَ. وأمّا منْ قالَ: إنّهُ الخروجُ بغيرِ حقٍّ، فهوَ صحيحٌ. وتقديرُ الكلامِ: لا تخرجوهنَّ منْ بيوتهنَّ ولا يخرجنَ شرعـًا إلّا أنْ يخرجنَ تعدّيـًا.

الرابعة عشرة- قولهُ تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِۚ﴾ فمنْ تجاوزَ فقدْ ظلمَ نفسهُ وأوردها موردَ الهلاكِ ﴿لَا تَدْرِى لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا﴾ وهو الرّغبةَ في الرّجعةِ. ومعنى القولِ: التحريض على طلاقِ الواحدةِ والنّهي عنِ الثّلاثِ، فإنّهُ إذا طلق ثلاثا أضرَّ بنفسهِ عندَ النّدمِ على الفراقِ والرّغبةِ في الارتجاعِ، فلا يجدُ عندَ الرّجعةِ سبيلاً.

قولهُ تعالى: ﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾ أيْ قاربنَ انقضاءَ العدّةِ، كقولهِ تعالى: ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ﴾ أيْ قربنَ منَ انقضاءِ الأجلِ ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾ يعني المراجعةَ بالمعروفِ، أيْ بالرّغبةِ منْ غيرِ قصدِ المضارّةِ في الرّجعةِ تطويلاً لعدّتها. ﴿أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾ أي اتركوهنَّ حتّى تنقضيَ عدّتهنَّ فيملكنَ أنفسهنَّ.

وفي قولهِ تعالى: ﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾ ما يوجبُ أنْ يكونَ القولُ قولَ المرأةِ في انقضاءِ العدّةِ إذا ادّعتْ ذلكَ، على ما بيّنّاهُ في سورةِ البقرةِ عندَ قولهُ تعالى: ﴿وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِىٓ أَرْحَامِهِنَّ﴾ الآيةَ.

قولهُ تعالى: ﴿وَأَشْهِدُواْ ذَوَيْ عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ فيهِ ستُّ مسائلَ:

الأولى: قولهُ تعالى: وأشهدوا أمرٌ بالإشهادِ على الطّلاقِ. وقيلَ: على الرّجعةِ. والظّاهرُ رجوعهُ إلى الرّجعةِ لا إلى الطّلاقِ. فإنْ راجعَ منْ غيرِ إشهادٍ ففي صحّةِ الرّجعةِ قولانِ للفقهاءِ. وقيلَ: المعنى وأشهدوا عندَ الرّجعةِ والفرقةِ جميعاً. وهذا الإشهادُ مندوبٌ إليهِ عند أبي حنيفةَ، كقولهِ تعالى: ﴿وَأَشْهِدُوٓاْ إِذَا تَبَايَعْتُمْۚ﴾. وعندَ الشّافعيِّ واجبٌ في الرّجعةِ، مندوبٌ إليهِ في الفرقةِ. وفائدةُ الإشهادِ ألّا يقعَ بينهما التّجاحدُ، وألّا يتّهمَ في إمساكها، ولئلّا يموتَ أحدهما فيدّعي الباقي ثبوتَ الزّوجيّةِ ليرثَ.

الثانية- الإشهادُ عندَ أكثرِ العلماءِ على الرّجعةِ ندبٌ. وإذا جامعَ أوْ قبّلَ أوْ باشرَ يريدُ بذلكَ الرّجعةَ، وتكلّمَ بالرّجعةِ يريدُ بهِ الرّجعةَ فهوَ مراجعٌ عندَ مالكٍ، وإنْ لمْ يردْ بذلكَ الرّجعةَ فليسَ بمراجعٍ.

وقالَ أبو حنيفةَ وأصحابهُ: إذا قبّلَ أوْ باشرَ أوْ لامسَ بشهوةٍ فهوَ رجعةٌ. وقالوا: والنّظرُ إلى الفرجِ رجعةٌ. وقالَ الشّافعيُّ: إذا تكلّمَ بالرّجعةِ فهوَ رجعةٌ. وقدْ قيل: وطؤهُ مراجعةٌ على كلِّ حالٍ، نواها أوْ لمْ ينوها. ورويَ ذلكَ عنْ طائفةٍ منْ أصحابِ مالكٍ. وكان مالك يقولُ: إذا وطئَ ولمْ ينوِ الرّجعةَ فهوَ وطئ فاسدٌ، ولا يعودُ لوطئها حتّى يستبرئها منْ مائهِ الفاسدِ، ولهُ الرّجعةُ في بقيّةِ العدّةِ الأولى، وليسَ لهُ رجعةٌ في هذا الاستبراءِ.

الثالثة- أوجبَ الإشهادَ في الرّجعةِ أحمدُ بنُ حنبلٍ في أحدِ قوليهِ، والشّافعيُّ كذلكَ لظاهرِ الأمرِ. وقالَ مالكٌ وأبو حنيفةَ وأحمدُ والشّافعيُّ في القولِ الآخرِ: إنَّ الرّجعةَ لا تفتقرُ إلى القبولِ، فلمْ تفتقرْ إلى الإشهادِ كسائرِ الحقوقِ، وخصوصاً حلُّ الظّهارِ بالكفّارةِ.

قالَ ابنُ العربيِّ: وركّبَ أصحابُ الشّافعيِّ على وجوبِ الإشهادِ في الرّجعةِ أنّهُ لا يصحُّ أنْ يقولَ: كنتُ راجعتُ أمسَ وأنا أشهدُ اليومَ على الإقرارِ بالرّجعةِ، ومنْ شرطِ الرّجعةِ الإشهادُ فلا تصحُّ دونهُ. وهذا فاسدٌ مبنيٌّ على أنَّ الإشهادَ في الرّجعةِ تعبّدٌ. ونحنُ لا نسلّمُ فيها ولا في النّكاحِ بأنْ نقولَ: إنّهُ موضعٌ للتّوثّقِ، وذلكَ موجودٌ في الإقرارِ كما هوَ موجودٌ في الإنشاءِ.

الرابعة: منِ ادّعى بعدَ انقضاءِ العدّةِ أنّهُ راجعَ امرأتهُ في العدّةِ، فإنْ صدّقتهُ جازَ وإنْ أنكرتْ حلفتْ، فإنْ أقامَ بيّنةً أنّهُ ارتجعها في العدّةِ ولمْ تعلمْ بذلكَ لمْ يضرّهُ جهلها بذلكَ، وكانتْ زوجتهُ، وإنْ كانتْ قدْ تزوّجتْ ولمْ يدخلْ بها ثمَّ أقامَ الأوّلُ البيّنةَ على رجعتها فعنْ مالكٍ في ذلكَ روايتانِ: **إحداهما**- أنَّ الأوّلَ أحقُّ بها. **والأخرى**- أنَّ الثّاني أحقُّ بها. فإنْ كانَ الثّاني قدْ دخلَ بها فلا سبيلَ للأوّلِ إليها.

الخامسة- قولهُ تعالى: ﴿ذَوَىْ عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ منَ المسلمينَ. وقيلَ: منْ أحراركمْ. وذلكَ يوجبُ اختصاصَ الشّهادةِ على الرّجعةِ بالذّكورِ دونَ الإناثِ، لأنَّ ذويْ مذكّرٌ. ولذلكَ قالَ علماؤنا: لا مدخلَ للنّساءِ فيما عدا الأموالِ.

السادسة- قولهُ تعالى: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلشَّهَـٰدَةَ لِلَّهِ﴾ أيْ تقرّباً إلى اللّهِ في إقامةِ الشّهادةِ على وجهها، إذا مسّتِ الحاجةُ إليها منْ غيرِ تبديلٍ ولا تغييرٍ. وقدْ مضى في سورةِ البقرةِ معناهُ عندَ قوله تعالى: ﴿وَأَقْوَمُ لِلشَّهَـٰدَةِ﴾.

قولهُ تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِۦ﴾ أيْ يرضى بهِ ﴿مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ﴾ فأمّا غيرُ المؤمنِ فلا ينتفعُ بهذهِ المواعظِ.

قولهُ تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا﴾ أيْ منْ طلّقَ كما أمرهُ اللّهُ يكنْ لهُ مخرجٌ في الرّجعةِ في العدّةِ، وأنْ يكونَ كأحدِ الخطّابِ بعدَ العدّةِ، وقيلَ: ينجيهِ منْ كلِّ كربٍ في الدّنيا والآخرةِ. ﴿وَيَرْزُقْهُ﴾ الثواب ﴿مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ أيْ يباركْ لهُ فيما آتاهُ. وعنِ ابنِ عبّاسٍ أنَّ النّبيَّ ﷺ قال: «من أكثرَ الاستغفارَ جعلَ اللّهُ لهُ منْ كلِّ همٍّ فرجاً ومنْ كلِّ ضيقٍ مخرجاً ورزقهُ منْ حيثُ لا يحتسبُ».

قولهُ تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ أيْ منْ فوّضَ إليهِ أمرهُ كفاهُ ما أهمّهُ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بَـٰلِغُ أَمْرِهِۦ﴾ قراءةُ العامّةِ «بَالِغٌ» منوّناً. «أَمْرَهُ» نصباً. وقرأ عاصمٌ ﴿بَـٰلِغُ أَمْرِهِۦ﴾ بالإضافةِ وحذفِ التّنوينِ استخفافاً، أيْ أمرهُ بالغٌ. وقيلَ: «أَمْرُهُ» مرتفعٌ بـ «بَالِغٌ» والمفعولُ محذوفٌ، والتّقديرُ: بالغٌ أمرُه ما أرادَ ﴿قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا﴾ قيل: هوَ قدرُ الحيضِ في الأجلِ والعدّةِ، **وقيلَ**: أي لكل شيء منَ الشّدّةِ والرّخاءِ أجلاً ينتهي إليهِ.

قالَ الرّبيعُ بنُ خيثم: إنَّ اللّهَ تعالى قضى على نفسهِ أنَّ منْ توكّلَ عليهِ كفاهُ ومنْ آمنَ بهِ هداهُ، ومنْ أقرضهُ جازاهُ، ومنْ وثقَ بهِ نجّاهُ، ومنْ دعاهُ أجابَ لهُ. وتصديقُ ذلكَ في كتابِ اللّهِ: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾ ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ ﴿إِن تُقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعِفْهُ لَكُمْ﴾ ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ﴾.

قولهُ تعالى: ﴿وَٱلَّٰٓـِٔى يَئِسْنَ مِنَ ٱلْمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمْ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشْهُرٍ﴾ فيهِ سبعُ مسائلَ:

الأولى: لمّا بيّنَ أمرَ الطّلاقِ والرّجعةِ في الّتي تحيضُ، وكانوا قدْ عرفوا عدّةَ ذواتِ الأقراءِ، عرّفهمْ في هذهِ السّورةِ عدّةَ الّتي لا ترى الدّمَ.

وقالَ مجاهدٌ: الآيةُ واردةٌ في المستحاضةِ لا تدري دمَ حيضٍ هوَ أوْ دمَ علّةٍ.

الثانية- قولهُ تعالى: ﴿إِنِ ٱرْتَبْتُمْ﴾ المعنى: إنْ شككتمْ فلمْ تدروا ما الحكمُ فيهنَّ.

وقالَ الزّجّاجُ: إنِ ارتبتمْ في حيضها وقدِ انقطعَ عنها الحيضُ وكانتْ ممّنْ يحيضُ مثلها.

وقالَ مجاهدٌ: قولهُ ﴿إِنِ ٱرْتَبْتُمْ﴾ للمخاطبينَ، يعني إنْ لمْ تعلموا كمْ عدّةُ اليائسةِ والّتي لمْ تحضْ فالعدّةُ هذهِ.

وقيلَ: المعنى إنِ ارتبتمْ أنَّ الدّمَ الّذي يظهرُ منها منْ أجلِ كبرٍ أوْ منَ الحيضِ المعهودِ أوْ منَ الاستحاضةِ فالعدّةُ ثلاثةُ أشهرٍ.

وقيلَ: إنّهُ متّصلٌ بأوّلِ السّورةِ. والمعنى: لا تخرجوهنَّ منْ بيوتهنَّ إنِ ارتبتمْ في انقضاءِ العدّةِ. وهوَ أصحُّ ما قيلَ فيهِ.

الثالثة- المرتابةُ في عدّتها لا تنكحُ حتّى تستبرئَ نفسها منْ ريبتها ولا تخرجُ منَ العدّةِ إلّا بارتفاعِ الرّيبةِ. وقدْ قيلَ في المرتابةِ الّتي ترتفع حيضتها وهيَ لا تدري ما يرفعها: إنّها تنتظرُ سنةً منْ يوم طلّقها زوجها، منها تسعةُ أشهرٍ استبراءٌ، وثلاثةٌ عدّةٌ، وهذا قالهُ الشّافعيُّ بالعراقِ. فعلى قياسِ هذا القولِ تقيمُ الحرّةُ المتوفّى عنها زوجها المستبرأةُ بعدَ التّسعةِ أشهرٍ

أربعةَ أشهرٍ وعشراً، والأمةُ شهرينِ وخمسَ ليالٍ بعدَ التّسعةِ الأشهرِ. ورويَ عنِ الشّافعيِّ أيضـاً أنَّ أقراءها على ما كانتْ حتّى تبلغَ سنَّ اليائساتِ، وحكاهُ أبو عبيدٍ عنْ أهلِ العراقِ. فإنْ كانتِ المرأةُ شابّةً وهيَ:

الرابعة– استؤنيَ بها هلْ هيَ حاملٌ أمْ لا، فإنِ استبانَ حملها فإنَّ أجلها وضعهُ. وإنْ لمْ يستبنْ فقالَ: مالكٌ: عدّةُ الّتي ارتفعَ حيضها وهيَ شابّةٌ سنةٌ. وبهِ قالَ أحمدُ، وأهلُ العراقِ يرون أن عدتها ثلاث حيض بعدما كانتْ حاضتْ مرّةً واحدةً في عمرها، وإنْ مكثتْ عشرينَ سنةً، إلّا أنْ تبلغَ منَ الكبرِ مبلغـاً تيأسُ فيهِ منَ الحيضِ فتكونُ عدّتها بعدَ الإياسِ ثلاثةَ أشهرٍ، وهذا الأصحُّ منْ مذهبِ الشّافعيِّ وعليهِ جمهورُ العلماءِ؛ لأنَّ اللّهَ تعالى جعلَ عدّةَ الآيسةِ ثلاثةَ أشهرٍ، والمرتابةُ ليستْ آيسةً.

الخامسة– وأمّا منْ تأخّرَ حيضها لمرضٍ، فقالَ: مالكٌ: تعتدُّ تسعةَ أشهرٍ ثمَّ ثلاثةً، وقدْ طلّقَ حبّانُ بنُ منقذٍ امرأتهُ وهيَ ترضعُ، فمكثتْ سنةً لا تحيضُ لأجلِ الرّضاعِ، ثمَّ مرضَ حبّانُ فخافَ أنْ ترثهُ فخاصمها إلى عثمانَ وعندهُ عليٌّ وزيدٌ، فقالا: نرى أنْ ترثهُ، لأنّها ليستْ منَ القواعدِ ولا منَ الصّغارِ، فماتَ حبّانُ فورثتهُ واعتدّتْ عدّةَ الوفاةِ.

السادسة– ولوْ تأخّرَ الحيضُ لغيرِ مرضٍ ولا رضاعٍ فإنّها تنتظرُ سنةً لا حيضَ فيها، تسعةَ أشهرٍ ثمَّ ثلاثةً، على ما ذكرناهُ. فتحلُّ ما لمْ ترتبْ بحملٍ، فإنِ ارتابتْ بحملٍ أقامتْ أربعةَ أعوامٍ، أوْ خمسةً، أوْ سبعةً، على اختلافِ الرّواياتِ عنْ علمائنا. ومشهورها خمسةُ أعوامٍ، فإنْ تجاوزتها حلّتْ. وقالَ أشهبُ: لا تحلُّ أبداً حتّى تنقطعَ عنها الرّيبةُ. قالَ ابنُ العربيِّ: وهوَ الصّحيحُ، لأنّهُ إذا جازَ أنْ يبقى الولدُ في بطنها خمسةَ أعوامٍ جازَ أنْ يبقى عشرةً وأكثرَ منْ ذلكَ. وقدْ رويَ عنْ مالكٍ مثله.

السابعة– وأمّا الّتي جهلَ حيضها بالاستحاضةِ ففيها ثلاثةُ أقوالٍ: فقيل: تعتدُّ سنةً. وهوَ قولُ اللّيثِ. قالَ اللّيثُ: عدّةُ المطلّقةِ وعدّةُ المتوفّى عنها زوجها إذا كانتْ مستحاضةً سنةٌ. وهوَ مشهورُ قولِ علمائنا، سواءٌ علمتْ دمَ حيضها منْ دمِ استحاضتها، وميّزتْ ذلكَ أوْ لمْ تميّزهُ، عدّتها في ذلكَ كلّهِ عندَ مالكٍ في تحصيلِ مذهبِهِ سنةٌ، منها تسعةُ أشهرٍ استبراءٌ وثلاثةٌ عدّةٌ. وقالَ الشّافعيُّ في أحدِ أقوالهِ: عدّتها ثلاثةُ أشهرٍ. وهوَ قولُ جماعةٍ منَ التّابعينَ

والمتأخّرينَ منَ القرويّينَ. ابنُ العربيِّ: وهوَ الصّحيحُ عندي.

وقالَ أبو عمرَ: المستحاضةُ إذا كانَ دمها ينفصلُ فعلمتْ إقبالَ حيضتها أوْ إدبارها اعتدّتْ ثلاثةَ قروءٍ. وهذا أصحُّ في النّظرِ، وأثبتُ في القياسِ والأثرِ.

قولهُ تعالى: ﴿وَٱلَّٰٓـِٔي لَمۡ يَحِضۡنَۚ﴾ - يعني الصّغيرةَ - فعدّتهنَّ ثلاثةَ أشهرٍ، فأضمرَ الخبرُ. وإنّما كانتْ عدّتها بالأشهرِ لعدمِ الأقراءِ فيها عادةً، والأحكامُ إنّما أجراها اللّهُ تعالى على العاداتِ، فهيَ تعتدُّ بالأشهرِ. فإذا رأتِ الدّمَ في زمنِ احتمالهِ عندَ النّساءِ انتقلتْ إلى الدّمِ لوجودِ الأصلِ، وإذا وجدَ الأصلُ لمْ يبقَ للبدلِ حكمٌ، كما أنَّ المسنّةَ إذا اعتدّتْ بالدّمِ ثمَّ ارتفعَ عادتْ إلى الأشهرِ. وهذا إجماعٌ.

قولهُ تعالى: ﴿وَأُوْلَٰتُ ٱلۡأَحۡمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعۡنَ حَمۡلَهُنَّۚ﴾، فيهِ مسألتانِ:

الأولى: قولهُ تعالى: ﴿وَأُوْلَٰتُ ٱلۡأَحۡمَالِ أَجَلُهُنَّ﴾ وضعُ الحملِ وإنْ كانَ ظاهراً في المطلّقةِ لأنّهُ عليها عطفَ وإليها رجعَ عقبُ الكلامِ، فإنّهُ في المتوفّى عنها زوجها كذلكَ، لعمومِ الآيةِ وحديثِ سبيعة.

الثانية - إذا وضعتِ المرأةُ ما وضعتْ منْ علقةٍ أوْ مضغةٍ حلّتْ. وقالَ الشّافعيُّ وأبو حنيفةَ: لا تحلُّ إلّا بما يكونُ ولداً.

قولهُ تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مِنۡ أَمۡرِهِۦ يُسۡرٗا ٤﴾ أيْ منْ يتّقهِ في طلاقِ السّنّةِ يجعلْ لهُ منْ أمرهِ يسراً في الرّجعةِ، وقيلَ: ومنْ يتّقِ اللّهَ في اجتنابِ معاصيهِ يجعلْ لهُ منْ أمرهِ يسراً في توفيقهِ للطّاعةِ ﴿ذَٰلِكَ أَمۡرُ ٱللَّهِ﴾ أي الّذي ذكر من الأحكام أمرُ اللّهِ أنزلهُ إليكمْ وبيّنهُ لكمْ ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ﴾ فيعملُ بطاعته ﴿يُكَفِّرۡ عَنۡهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ﴾ منَ الصّلاةِ إلى الصّلاةِ، ومنَ الجمعةِ إلى الجمعةِ ﴿وَيُعۡظِمۡ لَهُۥٓ أَجۡرًا﴾ أيْ في الآخرة.

قولهُ تعالى: ﴿أَسۡكِنُوهُنَّ مِنۡ حَيۡثُ سَكَنتُم مِّن وُجۡدِكُمۡ وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُواْ عَلَيۡهِنَّۚ وَإِن كُنَّ أُوْلَٰتِ حَمۡلٖ فَأَنفِقُواْ عَلَيۡهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعۡنَ حَمۡلَهُنَّۚ فَإِنۡ أَرۡضَعۡنَ لَكُمۡ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأۡتَمِرُواْ بَيۡنَكُم بِمَعۡرُوفٖۖ وَإِن تَعَاسَرۡتُمۡ فَسَتُرۡضِعُ لَهُۥٓ أُخۡرَىٰ ٦﴾، فيهِ أربعُ مسائلَ:

الأولى: اختلفَ العلماءُ في المطلّقةِ ثلاثـاً على ثلاثةِ أقوالٍ فمذهبُ مالكٍ والشّافعيِّ: أنَّ لها السّكنى ولا نفقةَ لها. ومذهبُ أبي حنيفةَ وأصحابِهِ: أنَّ لها السّكنى والنّفقةَ. ومذهبُ أحمدَ: أنْ لا نفقةَ لها ولا سكنى، على حديثِ فاطمةَ بنتِ قيسٍ: أنّهُ طلّقها زوجها في عهدِ النّبيِّ ﷺ، وكانَ أنفقَ عليها نفقةَ دونٍ، فلمّا رأتْ ذلكَ قالتْ: واللّهِ لأعلمنَّ رسولَ اللّهِ ﷺ، فإنْ كانَ لي نفقةٌ أخذتُ الّذي يصلحني وإنْ لمْ تكنْ لي نفقةٌ لمْ آخذْ شيئاً. قالتْ: فذكرتُ ذلكَ لرسولِ اللّهِ ﷺ فقالَ: «لا نفقةَ لكِ ولا سكنى». لفظُ مسلمٍ، ولأنَّ السّكنى تابعةٌ للنّفقةِ وجاريةٌ مجراها، فلمّا لمْ تجبْ للمبتوتةِ نفقةٌ لمْ يجبْ لها سكنى.

وحجّةُ أبي حنيفةَ أنَّ للمبتوتةِ النّفقةُ قولهُ تعالى: ﴿وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُواْ عَلَيۡهِنَّۚ﴾ وتركُ النّفقةِ منْ أكبرِ الأضرارِ. وفي إنكارِ عمرَ على فاطمةَ قولها ما يبيّنُ هذا، ولأنّها معتدّةٌ تستحقُّ السّكنى عنْ طلاقٍ فكانتْ لها النّفقةُ كالرّجعيّةِ، ولأنّها محبوسةٌ عليهِ لحقّهِ فاستحقّتِ النّفقةَ كالزّوجةِ.

ودليلُ مالكٍ قولهُ تعالى: ﴿وَإِن كُنَّ أُوْلَٰتِ حَمۡلٍ﴾ الآيةَ.

الثانية- قولهُ تعالى: ﴿مِّن وُجۡدِكُمۡ﴾ أيْ منْ سعتكمْ، والوجدُ: الغنى والمقدرةُ.

الثالثة- قولهُ تعالى: ﴿وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُواْ عَلَيۡهِنَّۚ﴾ في المسكنِ. وقيلَ: في النّفقةِ، وهوَ قولُ أبي حنيفةَ. وعنْ أبي الضّحى: هوَ أنْ يطلّقها فإذا بقيَ يومانِ منْ عدّتها راجعها ثمَّ طلّقها.

الرابعة- قولهُ تعالى: ﴿وَإِن كُنَّ أُوْلَٰتِ حَمۡلٍ فَأَنفِقُواْ عَلَيۡهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعۡنَ حَمۡلَهُنَّۚ﴾ لا خلافَ بينَ العلماءِ في وجوبِ النّفقةِ والسّكنى للحاملِ المطلّقةِ ثلاثـاً أوْ أقلَّ منهنَّ حتّى تضعَ حملها. فأمّا الحاملُ المتوفّى عنها زوجها فقيل: ينفقُ عليها منْ جميعِ المالِ حتّى تضعَ. وقالَ مالكٌ والشّافعيُّ وأبو حنيفةَ وأصحابهمْ: لا ينفقُ عليها إلّا منْ نصيبها.

قولهُ تعالى: ﴿فَإِنۡ أَرۡضَعۡنَ لَكُمۡ﴾، فيهِ أربعُ مسائلَ:

الأولى: قولهُ تعالى: ﴿فَإِنۡ أَرۡضَعۡنَ لَكُمۡ﴾ - يعني المطلّقاتِ- أولادكمْ منهنَّ فعلى الآباءِ أنْ يعطوهنَّ أجرةَ إرضاعهنَّ. وللرّجلِ أنْ يستأجرَ امرأتهُ للرّضاعِ كما يستأجرُ أجنبيةً،

ولا يجوزُ عندَ أبي حنيفةَ وأصحابِهِ الاستئجارُ إذا كانَ الولدُ منهنَّ ما لمْ يبنَّ. ويجوزُ عندَ الشّافعيِّ.

الثانية- قولهُ تعالى: ﴿وَأْتَمِرُوا۟ بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ﴾ هوَ خطابٌ للأزواجِ والزّوجاتِ، أيْ وليقبلْ بعضكمْ منْ بعضٍ ما أمرهُ بهِ منَ المعروفِ الجميلِ. والجميلُ منها إرضاعُ الولدِ منْ غيرِ أجرةٍ. والجميلُ منهُ توفيرُ الأجرةِ عليها للإرضاعِ. وقيلَ: ائتمروا في رضاعِ الولدِ فيما بينكمْ بمعروفٍ حتّى لا يلحقَ الولدَ إضرارٌ.

الثالثة- قولهُ تعالى: ﴿وَإِن تَعَاسَرْتُمْ﴾ أيْ في أجرةِ الرّضاعِ فأبى الزّوجُ أنْ يعطيَ الأمَّ رضاعها وأبتِ الأمُّ أنْ ترضعهُ فليسَ لهُ إكراهها، وليستأجرْ مرضعةً غيرَ أمّهِ. وهوَ خبرٌ في معنى الأمرِ. وقالَ الضّحّاكُ: إنْ أبتِ الأمُّ أنْ ترضعَ استأجرَ لولدهِ أخرى، فإنْ لمْ يقبلْ أجبرتْ أمّهُ على الرّضاعِ بالأجرِ.

وقدِ اختلفَ العلماءُ فيمنْ يجبُ عليهِ رضاعُ الولدِ على ثلاثةِ أقوالٍ:

قالَ علماؤنا: رضاعُ الولدِ على الزّوجةِ ما دامتِ الزّوجيّةُ، إلّا لشرفها وموضعها فعلى الأبِ رضاعهُ يومئذٍ في مالهِ.

الثّاني- قالَ أبو حنيفةَ: لا يجبُ على الأمِّ بحالٍ.

الثّالثُ- يجبُ عليها في كلِّ حالٍ.

الرابعة- فإنْ طلّقها فلا يلزمها رضاعهُ إلّا أنْ يكونَ غيرَ قابلٍ ثديَ غيرها فيلزمها حينئذٍ الإرضاعُ. فإنِ اختلفا في الأجرِ فإنْ دعتْ إلى أجرِ مثلها وامتنعَ الأبُ إلّا تبرّعًا فالأمُّ أولى بأجرِ المثلِ إذا لمْ يجدِ الأبُ متبرّعًا. وإنْ دعا الأبُ إلى أجرِ المثلِ وامتنعتِ الأمُّ لتطلبَ شططًا فالأبُ أولى بهِ. فإنْ أعسرَ الأبُ بأجرتها أخذت جبرا برضاع ولدها.

قولهُ تعالى: ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ۝٧﴾، فيهِ أربعُ مسائلَ:

الأولى: قولهُ تعالى: ﴿لِيُنفِقْ﴾ أيْ لينفقِ الزّوجُ على زوجتهِ وعلى ولدهِ الصّغيرِ على

قدرِ وسعهِ حتّى يوسّعَ عليهما إذا كانَ موسّعاً عليهِ. ومنْ كانَ فقيراً فعلى قدرِ ذلكَ. فتقدّرُ النّفقةُ بحسبِ الحالةِ منَ المنفقِ والحاجةِ منَ المنفقِ عليهِ بالاجتهادِ على مجرى حياةِ العادةِ.

وقالَ الإمامُ الشّافعيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وأصحابهُ: النّفقةُ مقدّرةٌ محدّدةٌ بحالِ الزّوجِ وحدهُ منْ يسرهِ وعسرهِ، ولا يعتبرُ بحالها وكفايتها، فإنْ كانَ الزّوجُ موسراً لزمهُ مدّانِ، وإنْ كانَ متوسّطاً فمدٌّ ونصفٌ، وإنْ كانَ معسراً فمدٌّ. واستدلّوا بقولهِ تعالى: ﴿لِيُنفِقۡ ذُو سَعَةٖ مِّن سَعَتِهِۦۖ﴾ الآيةَ، وقولهُ: ﴿عَلَى ٱلۡمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلۡمُقۡتِرِ قَدَرُهُۥ﴾. فجعلَ الاعتبارَ بالزّوجِ في اليسرِ والعسرِ دونها.

والجوابُ: أنَّ هذهِ الآيةَ لا تعطي أكثرَ منْ فرقٍ بينَ نفقةِ الغنيِّ والفقيرِ، وإنّها تختلفُ بعسرِ الزّوجِ ويسرهِ. وهذا مسلّمٌ، فأمّا إنّهُ لا اعتبارَ بحالِ الزّوجةِ على وجههِ فليسَ فيهِ، وقدْ قالَ اللّهُ تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلۡمَوۡلُودِ لَهُۥ رِزۡقُهُنَّ وَكِسۡوَتُهُنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ﴾، وذلكَ يقتضي تعلّقَ المعروفِ في حقّهما، لأنّهُ لمْ يخصَّ في ذلكَ واحداً منهما. وليسَ من المعروفِ أنْ يكونَ كفايةُ الغنيّةِ مثلَ نفقةِ الفقيرةِ، وقدْ قالَ رسولُ اللّهِ ﷺ لهند: «خذي ما يكفيكِ وولدكِ بالمعروفِ». فأحالها على الكفايةِ حينَ علمَ السّعةَ منْ حالِ أبي سفيانَ الواجبُ عليهِ بطلبها، ولمْ يقلْ لها لا اعتبار بكفايتك وأن الواجب لك شيء مقدّرٌ، بلْ ردّها إلى ما يعلمهُ منْ قدرِ كفايتها ولمْ يعلّقهُ بمقدارٍ معلومٍ. ثمَّ ما ذكروهُ منَ التّحديدِ يحتاجُ إلى توقيفٍ، والآيةُ لا تقتضيهِ.

الثانية- الكسوةُ بقدرِ العادةِ قميصٌ وسراويلُ وجبّةٌ في الشّتاءِ وكساءٌ وإزارٌ وحصيرٌ. وهذا الأصلُ، ويتزيّدُ بحسبِ الأحوالِ والعادةِ.

الثالثة- هذهِ الآيةُ أصلٌ في وجوبِ النّفقةِ للولدِ على الوالدِ دونَ الأمِّ، وفي البخاريِّ عنِ النّبيِّ ﷺ «تقولُ لكَ المرأةُ أنفقْ عليَّ وإلّا فطلّقني ويقولُ لكَ العبدُ أنفقْ عليَّ واستعملني ويقولُ لكَ ولدكَ أنفقْ عليَّ إلى منْ تكلني» فقدْ تعاضدَ القرآنُ والسّنّةُ وتواردا في شرعةٍ واحدةٍ.

الرابعة- قولهُ تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا﴾ أيْ لا يكلّفُ الفقيرَ مثلَ ما يكلّفُ الغنيَّ ﴿سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ۝٧﴾ أيْ بعد الضيق غنى، وبعد الشدة سعة.

قولهُ تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ﴾ لمّا ذكرَ الأحكامَ ذكرَ وحذّرَ مخالفةَ الأمرِ، وذكرَ عتوَّ قومٍ وحلولَ العذابِ بهمْ ﴿عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا﴾ أيْ عصتْ والمرادُ أهلها ﴿فَحَاسَبْنَٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا﴾ أيْ جازيناها بالعذابِ في الدّنيا ﴿وَعَذَّبْنَٰهَا عَذَابًا نُّكْرًا ۝٨﴾ في الآخرةِ ﴿فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا﴾ أيْ عاقبةَ كفرها ﴿وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ۝٩﴾ أيْ هلاكًا في الدنيا بما ذكرنا، والآخرة بجهنم. وجيء بلفظِ الماضي كقولهِ تعالى: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ﴾ ونحوِ ذلكَ، لأنَّ المنتظرَ منْ وعدِ اللّهِ ووعيدهِ ملقى في الحقيقةِ، وما هوَ كائنٌ فكأنْ قدْ ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ بيّنَ ذلكَ الخسرَ وأنّهُ عذابُ جهنّمَ في الآخرةِ ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ أيِ العقولِ ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ بدلٌ منْ أولي الألبابِ أوْ نعتٌ لهمْ ﴿قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا﴾ قرآنًا ﴿رَّسُولًا﴾ أيْ أنزلَ إليكمْ قرآنًا وأرسلَ رسولاً. وقيلَ: إنَّ المعنى قدْ أنزلَ اللّهُ إليكمْ صاحبَ ذكرٍ رسولا، ويجوزُ أنْ يكونَ رسولاً بدلٌ منْ ذكرٍ، وقيلَ: الذّكرُ هنا الشّرفُ، نحوَ قولهِ تعالى: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾، ثمَّ بيّنَ هذا الشّرفَ، فقالَ: رسولاً.

والأكثرُ على أنَّ المرادَ بالرّسولِ هنا محمّدٌ ﷺ. وقيلَ: هوَ جبريلُ، فيكونان جميعا منزلين ﴿يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ نعت لرسول. وآياتِ اللّهِ القرآنَ ﴿مُبَيَّنَٰتٍ﴾ قراءةُ العامّةِ بفتحِ الياءِ، أيْ بيّنها اللّهُ. كقولهِ تعالى: ﴿قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ﴾. وقرأ ابنُ عامرٍ وحفصٌ وحمزةُ والكسائيُّ بكسرها، أيْ يبيّنُ لكمْ ما تحتاجونَ إليهِ منَ الأحكامِ ﴿لِّيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ أيْ منْ سبقَ لهُ ذلكَ في علمِ اللّهِ ﴿مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ أيْ منَ الكفرِ ﴿إِلَى ٱلنُّورِ﴾ الهدى والإيمانِ، وأضافَ الإخراجَ إلى الرّسولِ لأنَّ الإيمانَ يحصلُ منهُ بطاعتهِ.

قولهُ تعالى: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾. قرأَ نافعٌ وابنُ عامرٍ بالنّونِ، والباقونَ بالياءِ ﴿قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزْقًا﴾ أيْ وسّعَ اللّهُ لهُ في

الجنّاتِ.

قولهُ تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ وَمِنَ ٱلۡأَرۡضِ مِثۡلَهُنَّ﴾ دلَّ على كمالِ قدرتهِ وأنّهُ يقدرُ على البعثِ والمحاسبةِ. ولا خلافَ في السّمواتِ أنّها سبعٌ بعضها فوقَ بعضٍ، دلَّ على ذلكَ حديثُ الإسراءِ وغيرهُ. ثمَّ قالَ: ومنَ الأرضِ مثلهنَّ يعني سبعـًا. واختلفَ فيهنَّ على قولينِ:

أحدهما- وهوَ قولُ الجمهورِ- أنّها سبعُ أرضينَ طباقا بعضها فوق بعض، بينَ كلِّ أرضٍ وأرضٍ مسافةٌ كما بينَ السّماءِ والسّماءِ، وفي كلِّ أرضٍ سكّانٌ منْ خلقِ اللّهِ. **وقيلَ**: سبعـًا منَ الأرضينَ، ولكنّها مطبقةٌ بعضها على بعضٍ منْ غيرِ فتوقٍ بخلافِ السّمواتِ. والأوّلُ أصحُّ، لأنَّ الأخبارَ دالّةٌ عليهِ في التّرمذيِّ والنّسائيِّ وغيرهما. وقدْ مضى ذلكَ مبيّنًا في البقرةِ.

وفي صحيحِ مسلمٍ عن سعيد ابن زيدٍ قالَ: سمعتُ النّبيَّ ﷺ يقولُ: «منْ أخذَ شبراً منَ الأرضِ ظلمـًا فإنّهُ يطوّقهُ يومَ القيامةِ منْ سبعِ أرضينَ» ومثلهُ حديثُ عائشةَ، وأبينُ منهما حديثِ أبي هريرةَ قالَ: قالَ رسولُ اللّهِ ﷺ: «لا يأخذُ أحدٌ شبراً منَ الأرضِ بغيرِ حقّهِ إلّا طوّقهُ اللّهُ إلى سبعِ أرضينَ يومَ القيامةِ».

قالَ الماورديُّ: وعلى أنّها سبعُ أرضينَ بعضها فوقَ بعضٍ تختصُّ دعوةُ أهلِ الإسلامِ بأهلِ الأرضِ العليا، ولا تلزمُ منْ في غيرها منَ الأرضينَ وإنْ كانَ فيها منْ يعقلُ منْ خلقٍ مميّزٍ، وفي مشاهدتهمُ السّماءَ واستمدادهمُ الضّوءَ منها قولانِ:

أحدهما- أنّهمْ يشاهدونَ السّماءَ منْ كلِّ جانبٍ منْ أرضهمْ ويستمدّونَ الضّياءَ منها. وهذا قولُ منْ جعلَ الأرضَ مبسوطةً.

والقولُ الثّاني- أنهم لا يشاهدون السماء، وأنَّ اللّهَ تعالى خلقَ لهمْ ضياءً يستمدّونهُ. وهذا قولُ منْ جعلَ الأرضَ كالكرةِ.

وفي الآيةِ قولٌ ثالثٌ عنِ ابنِ عبّاسٍ أنّها سبعُ أرضينَ منبسطةٍ، ليسَ: بعضها فوقَ بعضٍ، تفرّقُ بينها البحارُ وتظلُّ جميعهمُ السّماءُ، فعلى هذا إنْ لمْ يكنْ لأحدٍ منْ أهلِ الأرضِ

وصولٌ إلى أرضٍ أخرى اختصّتْ دعوةُ الإسلام بأهلِ هذهِ الأرضِ، وإنْ كانَ لقومٍ منهمْ وصولٌ إلى أرضٍ أخرى احتملَ أنْ تلزمهمْ دعوةُ الإسلام عندَ إمكانِ الوصولِ إليهمْ، لأنَّ فصلَ البحارِ إذا أمكنَ سلوكها لا يمنعُ منْ لزومِ ما عمَّ حكمهُ، واحتملَ ألّا تلزمهمْ دعوةُ الإسلامِ لأنّها لوْ لزمتهمْ لكانَ النّصُّ بها وارداً، ولكانَ ﷺ بها مأموراً. والله أعلم ما استأثرَ بعلمهِ، وصوابِ ما اشتبهَ على خلقهِ.

ثمَّ قالَ: ﴿يَتَنَزَّلُ ٱلۡأَمۡرُ بَيۡنَهُنَّ﴾ منَ السّمواتِ السّبعِ إلى الأرضينَ السّبعِ، والأمرُ هنا الوحيُ، وقيلَ: الأمرُ القضاءُ والقدرُ. وهوَ قولُ الأكثرينَ ﴿لِتَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ يعني أنَّ منْ قدرَ على هذا الملكِ العظيمِ فهوَ على ما بينهما منْ خلقهِ أقدرُ، ومنَ العفوِ والانتقامِ أمكنُ، وإنِ استوى كلُّ ذلكَ، في مقدورهِ ومكنتهِ ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عِلۡمَۢا ١٢﴾ فلا يخرج شيء عنْ علمهِ وقدرتهِ.

ختمتِ السّورةُ بحمد الله وعونه.

سورة التحريم

بسمِ اللّهِ الرّحمنِ الرّحيمِ

قولهُ تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ﴾، فيهِ خمسُ مسائلَ:

الأولى: في صحيحِ مسلمٍ عنْ عائشةَ رضيَ الله عنها أنَّ النّبيَّ ﷺ كانَ يمكثُ عندَ زينبَ بنتِ جحشٍ فيشربُ عندها عسلاً، قالتْ فتواطأتُ أنا وحفصةُ أنَّ أيّتنا ما دخلَ عليها رسولُ اللّهِ ﷺ فلتقلْ: إنّي أجدُ منكَ ريح مغافير! فدخلَ على إحداهما فقالتْ لهُ ذلكَ. فقالَ: «بلْ شربتُ عسلاً عندَ زينبَ بنتِ جحشٍ ولنْ أعودَ لهُ». فنزلَ: ﴿لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ﴾- إلى قولهِ- ﴿إِن تَتُوبَآ﴾ لعائشةَ وحفصةَ ﴿وَإِذۡ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعۡضِ أَزۡوَٰجِهِۦ حَدِيثٗا﴾ لقولهِ: «بلْ شربتُ عسلاً».

وروى الدّارقطنيُّ عنِ ابنِ عبّاسٍ عنْ عمرَ قالَ دخلَ رسولُ اللّهِ ﷺ بأمِّ ولدهِ ماريةَ في بيتِ حفصةَ، فوجدتهُ حفصةُ معها- وكانتْ حفصةُ غابتْ إلى بيتِ أبيها- فقالتْ لهُ: تدخلها بيتي! ما صنعتَ بي هذا منْ بينِ نسائكَ إلّا منْ هواني عليكَ. فقالَ: لها: «لا تذكري هذا لعائشةَ فهيَ عليَّ حرامٌ إنْ قربتها». قالتْ حفصةُ: وكيفَ تحرمُ عليكَ وهيَ جاريتكَ؟ فحلفَ لها ألّا يقربها. فقالَ: النّبيُّ ﷺ: «لا تذكريهِ لأحدٍ». فذكرتهُ لعائشةَ، فآلى لا يدخلُ على نسائهِ شهراً، فاعتزلهنَّ تسعاً وعشرينَ ليلةً، فأنزلَ اللّهُ عزَّ وجلَّ لمَ تحرّمُ ما أحلَّ اللّهُ لكَ الآيةَ.

الثانية- أمّا منْ روى أنّهُ حرّمَ ماريةَ القبطيّةَ هوَ أمثلُ في السّندِ وأقربُ إلى المعنى، لكنّهُ لمْ يدوّنْ في الصّحيحِ. ورويَ مرسلاً. وإنّما الصّحيحُ أنّهُ كانَ في العسلِ وأنّهُ شربهُ عندَ زينبَ، وتظاهرتْ عليهِ عائشةُ وحفصةُ فيهِ، فجرى ما جرى فحلفَ ألّا يشربهُ وأسرَّ ذلكَ. ونزلتِ الآيةُ في الجميعِ.

الثالثة- قولهُ تعالى: ﴿لِمَ تُحَرِّمُ﴾ إنْ كانَ النّبيُّ ﷺ حرّمَ ولمْ يحلفْ فليسَ ذلكَ بيمينٍ عندنا. ولا يحرّمُ قولُ الرّجلِ: هذا عليَّ حرامٌ شيئاً حاشا الزّوجةِ. وقالَ أبو حنيفةَ: إذا أطلقَ حملَ على المأكولِ والمشروبِ دونَ الملبوسِ، وكانتْ يميناً توجب الكفّارةَ. وعوّلَ

المخالفُ على أنَّ النّبيَّ ﷺ حرّمَ العسلَ فلزمتهُ الكفّارةُ. وقدْ قالَ اللّهُ تعالى: ﴿قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَٰنِكُمْ﴾، فسمّاهُ يميناً. ودليلنا قولُ اللّهِ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْ﴾، وقولهُ تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾. فذمَّ اللّهُ المحرّمَ للحلالِ ولمْ يوجبْ عليهِ كفّارةً.

فمنْ قالَ لزوجتهِ أوْ أمتهِ: أنتِ عليَّ حرامٌ، ولمْ ينوِ طلاقاً ولا ظهاراً فهذا اللّفظُ يوجبُ كفّارةَ اليمينِ. ولوْ خاطبَ بهذا اللّفظِ جمعاً منَ الزّوجاتِ والإماءِ فعليهِ كفّارةٌ واحدةٌ. ولوْ حرّمَ على نفسهِ طعاماً أوْ شيئاً آخرَ لمْ يلزمهُ بذلكَ كفّارةٌ عندَ الشّافعيِّ ومالكٍ. وتجبُ بذلكَ كفّارةٌ عندَ أبي حنيفةَ.

الرابعة- واختلفَ العلماءُ في الرّجلِ يقولُ لزوجتهِ: أنتِ عليَّ حرامٌ على ثمانيةَ عشرَ قولاً أشهرها تسعة:

أولها- لا شيء عليهِ. تمسّكا بالبراءةِ الأصليّةِ، وبهِ قالَ الشّعبيُّ ومسروقٌ وربيعةُ وأبو سلمةَ وأصبغُ. وهوَ عندهمْ كتحريمِ الماءِ والطّعامِ، قالَ اللّهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ والزّوجةُ منَ الطّيّباتِ وممّا أحلَّ اللّهُ. وقالَ تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ﴾، ولمْ يثبتْ عنْ رسولِ اللّهِ ﷺ أنّهُ قالَ لما أحلّهُ اللّهُ هوَ عليَّ حرامٌ. وإنّما امتنعَ منْ ماريةَ ليمينٍ تقدّمتْ منهُ وهوَ قولهُ: «واللّهِ لا أقربها بعدَ اليومِ» فقيلَ لهُ: لمَ تحرّمُ ما أحلَّ اللّهُ لكَ، أيْ لمَ تمتنعُ منهُ بسببِ اليمين. يعني أقدم عليه وكفر.

ثانيها - أنّها يمينٌ يكفّرها، فقد سمّاها اللّهُ يميناً فقال: ﴿قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَٰنِكُمْ﴾.

ثالثها - أنّها تجبُ فيها كفّارةٌ وليستْ بيمينٍ، قالهُ الشّافعيُّ في أحدِ قوليهِ، فوقعتِ الكفّارةُ على المعنى.

ورابعها - هيَ ظهارٌ، ففيها كفّارةُ الظّهارِ، قالهُ أحمدُ بنُ حنبلٍ؛ لأنّهُ أقلُّ درجاتِ

التّحريمِ، فإنّهُ تحريمٌ لا يرفعُ النّكاحَ.

وخامسها - أنّهُ إنْ نوى الظّهارَ وهوَ ينوي أنّها محرّمةٌ كتحريمِ ظهرِ أمّهِ كانَ ظهاراً، وإنْ نوى تحريمَ عينها عليهِ بغيرِ طلاقٍ تحريماً مطلقاً وجبتْ كفّارةُ يمينٍ، وإنْ لمْ ينوِ شيئاً فعليهِ كفّارةُ يمينٍ، قالهُ الشّافعيُّ.

وسادسها - أنّها طلقةٌ رجعيّةٌ، روي عنْ مالك، وحملَ اللّفظَ على أقلِّ وجوههِ، والرجعية محرمة الوطء كذلكَ، فيحملُ اللّفظُ عليهِ.

سابعها - هيَ في المدخولِ بها ثلاثٌ، وينوّى في غيرِ المدخول بها، وهوَ مشهورُ مذهبِ مالكٍ.

ثامنها - أنّهُ إنْ نوى الطّلاقَ أوِ الظّهارَ كانَ ما نوى. فإنْ نوى الطّلاقَ فواحدةٌ بائنةٌ إلّا أنْ ينويَ ثلاثاً. فإنْ نوى ثنتينِ فواحدةٌ. فإنْ لمْ ينوِ شيئاً كانتْ يميناً وكانَ الرّجلُ مولياً منَ امرأتهِ، قالهُ أبو حنيفةَ وأصحابهُ.

تاسعها - إنْ نوى الطّلاقَ فما أرادَ منْ أعدادهِ. وإنْ نوى واحدةً فهيَ رجعيّةٌ. وهوَ قولُ الشّافعيِّ رضي الله عنه.

الخامسة - قالَ علماؤنا: سببُ الاختلافِ في هذا البابِ أنّهُ ليسَ في كتابِ اللّهِ ولا في سنّةِ رسولِ اللّهِ ﷺ نصٌّ ولا ظاهرٌ صحيحٌ يعتمدُ عليهِ في هذهِ المسألةِ، فتجاذبها العلماءُ لذلكَ.

وهذا كلّهُ في الزّوجةِ، وأمّا في الأمة فلا يلزم فيها شيء من ذلك، إلا أن ينوي بهِ العتقَ عندَ مالكٍ. وذهبَ عامّةُ العلماءِ إلى أنَّ عليهِ كفّارةَ يمينٍ.

﴿تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ﴾ أيْ تفعلُ ذلكَ طلباً لرضاهنَّ ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ﴾ لما أوجبَ المعاتبةَ ﴿رَّحِيمٌ ۝١﴾ برفعِ المؤاخذةِ. وقدْ قيل: إنَّ ذلكَ كانَ ذنباً منَ الصّغائرِ. والصّحيحُ أنّهُ معاتبةٌ على تركِ الأولى، وأنّهُ لمْ تكنْ لهُ صغيرةٌ ولا كبيرة.

قولهُ تعالى: ﴿قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَٰنِكُمْ ۚ وَٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ۝٢﴾، فيهِ ثلاثُ مسائلَ:

الأولى: تحليلُ اليمينِ كفّارتها. أيْ إذا أحببتمُ استباحةَ المحلوفِ عليهِ، وهوَ قولهُ تعالى: ﴿فَكَفَّٰرَتُهُۥٓ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ﴾، ويتحصّلُ منْ هذا أنَّ منْ حرّمَ شيئاً منَ المأكولِ والمشروبِ لمْ يحرّمْ عليهِ عندنا، لأنَّ الكفّارةَ لليمينِ لا للتّحريمِ على ما بيّنّاهُ. وأبو حنيفةَ يراهُ يميناً في كلِّ شيءٍ، ويعتبرُ الانتفاعَ المقصودَ فيما يحرّمهُ، فإذا حرّمَ طعاماً فقدْ حلفَ على أكلهِ، أوْ أمةً فعلى وطئها، أوْ زوجةً فعلى الإيلاءِ منها إذا لمْ يكنْ لهُ نيّةٌ، وإنْ نوى الظّهارَ فظهارٌ، وإنْ نوى الطّلاقَ فطلاقٌ بائنٌ. وكذلكَ إنْ نوى ثنتينِ أوْ ثلاثاً. وإنْ قالَ: نويتُ الكذبَ دينَ فيما بينهُ وبينَ اللّهِ تعالى. ولا يدينُ في القضاءِ بإبطالِ الإيلاءِ. ولا يراهُ الشّافعيُّ يميناً ولكنْ سبباً في الكفّارةِ في النّساءِ وحدهنَّ. وإنْ نوى الطّلاقَ فهوَ رجعيٌّ عندهُ، على ما تقدّمَ بيانهُ.

الثانية - فإنْ حرّمَ أمتهُ أوْ زوجتهُ فكفّارةُ يمينٍ، كما في صحيحِ مسلمٍ عن ابنِ عبّاسٍ قالَ: إذا حرّمَ للرجلِ عليهِ امرأتهُ، فهيَ يمينٌ يكفّرها.، وقالَ: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾.

الثالثة - قيل: إنَّ النّبيَّ ﷺ كفّرَ عنْ يمينهِ. وعنِ الحسنِ: لمْ يكفّرْ، لأنَّ النّبيَّ ﷺ قدْ غفرَ لهُ ما تقدّمَ منْ ذنبهِ وما تأخّرَ، وكفّارةُ اليمينِ في هذهِ السّورةِ إنّما أمرَ بها الأمّةَ. والأوّلُ أصحُّ، وأنَّ المرادَ بذلكَ النّبيُّ ﷺ ثمَّ إنَّ الأمّةَ تقتدي بهِ في ذلكَ. وعنْ زيدِ بنِ أسلمَ أنّهُ ﷺ كفّرَ بعتقِ رقبةٍ. وعنْ مقاتلٍ أن رسول الله ﷺ أعتقَ رقبةً في تحريمِ ماريةَ. والله أعلم.

وقيلَ: تحلّةُ اليمينِ الاستثناءُ، أيْ فرضَ اللّهُ لكمُ الاستثناءَ المخرجَ عنِ اليمينِ. ثمَّ عندَ قومٍ يجوزُ الاستثناءُ منَ الأيمانِ متى شاءَ وإنْ تخلّلَ مدّةً. وعندَ المعظمِ لا يجوزُ إلّا متّصلاً، فكأنّهُ قالَ: استثنِ بعدَ هذا فيما تحلفُ عليهِ. وتحلّةُ اليمينِ تحليلها بالكفّارةِ.

﴿وَٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ﴾ وليّكمْ وناصركمْ بإزالةِ الحظرِ فيما تحرّمونهُ على أنفسكمْ، وبالتّرخيصِ لكمْ في تحليلِ أيمانكمْ بالكفّارةِ، وبالثّوابِ على ما تخرجونه في الكفارة.

قولهُ تعالى: ﴿وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ حَدِيثًا﴾ أيْ واذكرْ إذْ أسرَّ النّبيُّ إلى حفصةَ حديثاً يعني تحريمَ ماريةَ على نفسهِ واستكتامهِ إيّاها ذلكَ، وقيل أسرَّ أمرَ الخلافةِ بعدهُ إلى حفصةَ فذكرتهُ حفصةُ. وقيلَ: اطّلعتْ حفصةُ على النّبيِّ ﷺ معَ أمِّ إبراهيمَ فقالَ: «لا تخبري عائشةَ» وقالَ لها «إنَّ أباكِ وأباها سيملكانِ أوْ سيليانِ بعدي فلا تخبري عائشةَ» قالَ: فانطلقتْ حفصةُ فأخبرتْ عائشةَ فأظهرهُ اللّهُ عليهِ، فعرّفَ بعضهُ وأعرضَ عنْ بعضٍ. قالَ أعرضَ عنْ قولهِ: «إنَّ أباكِ وأباها يكونانِ بعدي» كرهَ رسولُ اللّهِ ﷺ أنْ ينشرَ ذلكَ في النّاسِ ﴿فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِۦ﴾ أيْ أخبرتْ بهِ عائشةَ لمصافاةٍ كانتْ بينهما، وكانتا متظاهرتينِ على نساءِ النّبيِّ ﷺ ﴿وَأَظْهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيْهِ﴾ أيْ أطلعهُ اللّهُ على أنّها قدْ نبّأتْ بهِ ﴿عَرَّفَ بَعْضَهُۥ وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍۖ﴾ عرّفَ حفصةَ بعضَ ما أوحيَ إليهِ منْ أنّها أخبرتْ عائشةَ بما نهاها عنْ أنْ تخبرها، وأعرضَ عنْ بعضٍ تكرّماً. قالَ الحسنُ: ما استقصى كريمٌ قطُّ، وقراءةُ العامّةِ عرّفَ مشدّداً، ومعناهُ ما ذكرناهُ، وقرأَ الكسائيُّ «عَرَفَ» بالتّخفيفِ، أيْ غضبَ فيهِ وجازى عليهِ، وهوَ كقولكَ لمنْ أساءَ إليكَ: لأعرفن لكَ ما فعلتَ، أيْ لأجازينّكَ عليهِ.

وجازاها النّبيُّ ﷺ بأنْ طلّقها طلقةً واحدةً. فقالَ: عمرُ: لوْ كانَ في آلِ الخطّابِ خيرٌ لما كانَ رسولُ اللّهِ ﷺ طلّقكِ. فأمرهُ جبريلُ بمراجعتها وشفعَ فيها ﴿فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ﴾ أيْ أخبرَ حفصةَ بما أظهرهُ اللّهُ عليهِ ﴿قَالَتْ مَنْ أَنۢبَأَكَ هَٰذَاۖ﴾ يا رسولَ اللّهِ عنّي. فظنّتْ أنَّ عائشةَ أخبرتهُ، فقالَ ﷺ: ﴿نَبَّأَنِيَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ ٣﴾ أي الذي لا يخفى عليه شيء. وهذا سدَّ مسدَّ مفعوليْ أنبأَ. وَ «نَبَّأَ» الأول تعدى إلى مفعولين، وَ «نَبَّأَ» الثّاني تعدّى إلى مفعولٍ واحدٍ.

قولهُ تعالى: ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾ يعني حفصةَ وعائشةَ، حثّهما على التّوبةِ على ما كانَ منهما منَ الميلِ إلى خلافِ محبّةِ رسولِ اللّهِ ﷺ ﴿فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَاۖ﴾ أيْ زاغتْ ومالتْ عنِ الحقِّ. وهوَ أنّهما أحبّتا ما كرهَ النّبيُّ ﷺ منَ اجتنابِ جاريتهِ واجتنابِ العسلِ، وكانَ عليه السلام يحبُّ العسلَ والنّساءَ.

وقالَ: ﴿فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَاۖ﴾ ولمْ يقلْ: فقدْ صغى قلباكما، ومنْ شأنِ العربِ إذا ذكروا الشّيئينِ، منَ اثنينِ جمعوهما، لأنّهُ لا يشكلُ. وقدْ مضى هذا المعنى في المائدةِ في قولهِ تعالى: ﴿فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا﴾.

وليس قوله: ﴿فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ جزاءً للشّرطِ، لأنَّ هذا الصّغوَ كانَ سابقاً، فجوابُ الشّرطِ محذوفٌ للعلمِ بهِ. أيْ إنْ تتوبا كانَ خيراً لكما، إذْ قدْ صغتْ قلوبكما.

قولهُ تعالى: ﴿وَإِن تَظَاهَرَا عَلَيْهِ﴾ أيْ تتظاهرا وتتعاونا على النّبيِّ ﷺ بالمعصيةِ والإيذاءِ. وفي صحيح مسلم عنِ ابنِ عبّاسٍ قالَ: مكثتُ سنةً وأنا أريدُ أنْ أسألَ عمرَ بنَ الخطّابِ عنْ آيةٍ فما أستطيعُ أنْ أسألهُ هيبةً لهُ، حتّى خرجَ حاجاً فخرجتُ معهُ، فلمّا رجعَ فكنّا ببعضِ الطّريقِ عدلَ إلى الأراكِ لحاجةٍ لهُ، فوقفتُ حتّى فرغَ، ثمَّ سرتُ معهُ فقلت: يا أميرَ المؤمنينَ، منِ اللّتانِ تظاهرتا على رسولِ اللّهِ ﷺ من أزواجهِ؟ فقالَ: تلكَ حفصةُ وعائشةُ. قالَ فقلت له: واللهِ إن كنت لأريد أن سألك عنْ هذا منذُ سنةٍ فما أستطيعُ هيبةً لكَ. قالَ: فلا تفعلْ، ما ظننتَ أنَّ عندي منْ علمٍ فسلني عنهُ، فإنْ كنتُ أعلمهُ أخبرتكَ... وذكرَ الحديثَ.

﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ﴾ أيْ وليّهُ وناصرهُ، فلا يضرّهُ ذلكَ التظاهر منهما ﴿وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أبو بكرٍ وعمرُ، لأنّهما أبوا عائشةَ وحفصةَ، وقدْ كانا عوناً لهُ عليهما، وقيلَ: خيارُ المؤمنينَ. وصالحٌ: اسمُ جنسٍ كقولهِ تعالى: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ﴾، وقيلَ: صالحُ المؤمنينَ همُ الأنبياءُ، وقيلَ: همُ الملائكةُ، وقيلَ: همْ أصحابُ محمّدٍ ﷺ.

وفي صحيح مسلمٍ عنِ ابنِ عبّاسٍ قالَ: حدّثني عمرَبنِ الخطّابِ رضي الله عنه قالَ: لمّا اعتزلَ نبيُّ اللّهِ ﷺ نساءهُ قالَ دخلتُ المسجدَ فإذا النّاسُ ينكتونَ بالحصى ويقولونَ: طلّقَ رسولُ اللّهِ ﷺ نساءهُ- وذلكَ قبلَ أن يؤمرن بالحجاب- فقال عمر: فقلت لأعلمن ذلكَ اليومَ، قالَ فدخلتُ على عائشةَ فقلت: يا بنت أبي بكرٍ، أقدْ بلغَ منْ شأنكِ أنْ تؤذي رسولَ اللّهِ ﷺ! فقالتْ: مالي ومالكَ يا ابنَ الخطّابِ! عليكَ بعيبتكَ! قالَ فدخلتُ على حفصةَ بنتِ عمرَ فقلت لها: يا حفصةُ، أقدْ بلغَ منْ شأنك أن تؤذي رسولُ اللّهِ ﷺ! واللّهِ لقدْ علمتَ أنَّ رسولَ اللّهِ ﷺ لا يحبّكِ، ولولا أنا لطلّقكِ رسولُ اللّهِ ﷺ. فبكتْ أشدَّ البكاءِ، فقلت لها: أينَ رسولُ اللّهِ ﷺ؟ قالتِ: هوَ في خزانتهِ في المشربةِ. فدخلتُ فإذا أنا برباحٍ غلامِ رسولِ اللّهِ ﷺ قاعداً على أسكفّةِ المشربةِ مدلٍّ رجليهِ على نقيرٍ منْ خشبٍ، وهوَ جذعٌ يرقى عليهِ رسولُ اللّهِ ﷺ وينحدرُ. فناديتُ: يا رباحُ، استأذنْ لي عندكَ على رسولِ اللّهِ ﷺ، فنظرَ رباحٌ إلى

الغرفةِ ثمَّ نظرَ إليَّ فلمْ يقلْ شيئـًا. ثمَّ قلت: يا رباحُ، استأذنْ لي عندكَ على رسولِ اللّهِ ﷺ، فنظرَ رباحٌ إلى الغرفةِ ثمَّ نظرَ إليَّ فلمْ يقلْ شيئـًا. ثمَّ رفعتُ صوتي فقلت: يا رباحُ، استأذنْ لي عندكَ على رسولِ اللّهِ ﷺ، فإنّي أظنُّ أنَّ رسولَ اللّهِ ﷺ ظنَّ أنّي جئتُ منْ أجلِ حفصةَ، واللّهِ لئنْ أمرني رسولُ اللّهِ ﷺ بضربِ عنقها لأضربنَّ عنقها، ورفعتُ صوتي فأومأَ إليَّ أنِ ارقهْ، فدخلتُ على رسولِ اللّهِ ﷺ وهوَ مضطجعٌ على حصيرٍ، فجلستُ فأدنى عليهِ إزارهُ وليسَ عليهِ غيرهُ، وإذا الحصيرُ قدْ أثّرَ في جنبهِ، فنظرتُ ببصري في خزانةِ رسولِ اللّهِ ﷺ فإذا أنا بقبضةٍ منْ شعيرٍ نحوِ الصّاعِ، ومثلها قرظـًا في ناحيةِ الغرفةِ، وإذا أفيقٌ معلّقٌ – قالَ- فابتدرتْ عيناايَ. قالَ: «ما يبكيك يا بن الخطاب»؟ قلت يا نبي الله، وما لي لا أبكي وهذا الحصيرُ قدْ أثّرَ في جنبكَ، وهذهِ خزانتكَ لا أرى فيها إلّا ما أرى! وذاكَ قيصرُ وكسرى في الثّمارِ والأنهارِ وأنتَ رسولُ اللّهِ ﷺ وصفوتهُ، وهذهِ خزانتكَ! فقالَ: «يا ابنَ الخطّابِ ألا ترضى أنْ تكونَ لنا الآخرةُ ولهمُ الدّنيا» قلت: بلى. قالَ: ودخلتُ عليهِ حينَ دخلتُ وأنا أرى في وجههِ الغضبَ، فقلت: يا رسولَ اللّهِ، ما يشقُّ عليكَ منْ شأنِ النّساءِ، فإنْ كنتَ طلّقتهنَّ فإنَّ اللّهَ معكَ وملائكتهُ وجبريلُ وميكائيلُ، وأنا وأبو بكرٍ والمؤمنونَ معكَ. وقلّما تكلّمتُ- وأحمدُ اللّهَ- بكلامٍ إلّا رجوتُ أنْ يكونَ اللّهُ عزَّ وجلَّ يصدّقُ قولي الّذي أقولُ ونزلتْ هذهِ الآيةُ، آيةُ التّخييرِ: عسى ربّهُ إنْ طلّقكنَّ أنْ يبدلهُ أزواجـًا خيراً منكنَّ وإنْ تظاهرا عليهِ فإنَّ اللّهَ هوَ مولاهُ وجبريلُ وصالحُ المؤمنينَ والملائكةُ بعدَ ذلكَ ظهيرٌ. وكانتْ عائشةُ بنتُ أبي بكرٍ وحفصةُ تظاهرانِ على سائرِ نساءِ رسولَ اللّهِ ﷺ. فقلت: يا رسولَ اللّهِ، أطلّقتهنَّ؟ قالَ: «لا». قلت: يا رسولَ اللّهِ، إنّي دخلتُ المسجدَ والمسلمونَ ينكتونَ بالحصى يقولونَ: طلّقَ رسولُ اللّهِ ﷺ نساءهُ أفأنزلُ فأخبرهمْ أنّكَ لمْ تطلّقهنَّ؟ قالَ: «نعمْ إنْ شئتَ». فلمْ أزلْ أحدّثهُ حتّى تحسّرَ الغضبُ عنْ وجههِ، وحتّى كشرَ فضحكَ، وكانَ منْ أحسنِ النّاسِ ثغراً. ثمَّ نزلَ نبيُّ اللّهِ ﷺ ونزلتُ، فنزلتُ أتشبّثُ بالجذعِ، ونزلَ رسولُ اللّهِ ﷺ كأنّما يمشي على الأرضِ ما يمسّهُ بيدهِ. فقلت: يا رسولَ اللّهِ، إنّما كنتَ في الغرفةِ تسعـًا وعشرينَ. قالَ: «إنَّ الشّهرَ يكونُ تسعـًا وعشرينَ» فقمتُ على بابِ المسجدِ فناديتُ بأعلى صوتي: لمْ يطلّقْ رسولُ اللّهِ ﷺ نساءهُ. ونزلتْ هذهِ الآيةُ: ﴿وَإِذَا جَآءَهُمۡ أَمۡرٞ مِّنَ ٱلۡأَمۡنِ أَوِ ٱلۡخَوۡفِ أَذَاعُواْ بِهِۦۖ وَلَوۡ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنۡهُمۡ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسۡتَنۢبِطُونَهُۥ مِنۡهُمۡۗ﴾. فكنتُ أنا استنبطتُ

ذلكَ الأمرَ، وأنزلَ اللّهُ آيةَ التّخييرِ.

قولهُ تعالى: ﴿وَجِبْرِيلُ﴾ يجوزُ أنْ يكونَ معطوفاً على مولاهُ والمعنى: اللّهُ وليّهُ وجبريلُ وليّهُ، فلا يوقفُ على مولاهُ ويوقفُ على جبريلَ ويكونُ وصالحُ المؤمنينَ مبتدأ والملائكةُ معطوفاً عليه. وظهيرٌ خبرا، وهوَ بمعنى الجمعِ.

ويجوزُ أنْ يكونَ وجبريلُ مبتدأً وما بعدهُ معطوفاً عليهِ. والخبرُ ظهيرٌ وهوَ بمعنى الجمعِ أيضاً. فيوقفُ على هذا على مولاهُ. ويجوزُ أنْ يكونَ جبريلُ وصالحُ المؤمنينَ معطوفاً على مولاهُ فيوقفُ على المؤمنينَ ويكونُ والملائكةُ بعدَ ذلكَ ظهيرٌ ابتداءً وخبراً. ومعنى ظهيرٌ أعوانٌ. وهوَ بمعنى ظهراءَ، كقولهِ تعالى: ﴿وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾.

قولهُ تعالى: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ﴾ كلُّ عسى في القرآنِ واجبٌ إلّا هذا. وقيلَ: هوَ واجبٌ ولكنَّ اللّهَ عزَّ وجلَّ علّقهُ بشرطٍ وهوَ التّطليقُ ولمْ يطلّقهنَّ ﴿أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ﴾ واللّهُ كانَ عالماً بأنّهُ كانَ لا يطلّقهنَّ، ولكنْ أخبرَ عنْ قدرتهِ، على أنّهُ إنْ طلّقهنَّ أبدلهُ خيراً منهنَّ تخويفاً لهنَّ. وهوَ كقولهِ تعالى: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾، وهوَ إخبارٌ عنِ القدرةِ وتخويفٌ لهمْ، لا أنَّ في الوجودِ منْ هوَ خيرٌ منْ أصحابِ رسولِ اللّهِ ﷺ.

قولهُ تعالى: ﴿مُسْلِمَٰتٍ﴾ لأمرِ اللّهِ تعالى وأمرِ رسولهِ ﴿مُّؤْمِنَٰتٍ﴾ مصدّقاتٍ بما أمرنَ بهِ ونهينَ عنهُ ﴿قَٰنِتَٰتٍ﴾ مطيعاتٍ ﴿تَٰٓئِبَٰتٍ﴾ أيْ منْ ذنوبهنَّ ﴿عَٰبِدَٰتٍ﴾ أيْ كثيراتِ العبادةِ للّهِ تعالى. وقالَ ابنُ عبّاسٍ: كلُّ عبادةٍ في القرآنِ فهوَ التوحيد ﴿سَٰٓئِحَٰتٍ﴾ صائمات، سمّيَ الصّائمُ سائحاً لأنَّ السّائحَ لا زادَ معهُ، وقيلَ: مهاجراتٌ. والسّياحةُ الجولانُ في الأرضِ ﴿ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا ۝﴾ أيْ منهنَّ ثيّبٌ ومنهنَّ بكرٌ. وقيلَ: إنّما سمّيتِ الثّيّبُ ثيّباً لأنّها راجعةٌ إلى زوجها إنْ أقامَ معها، أوْ إلى غيرهِ إنْ فارقها. وقيلَ: لأنّها ثابتْ إلى بيتِ أبويها. وهذا أصحُّ، لأنّهُ ليسَ كلُّ ثيّبٍ تعودُ إلى زوجٍ. وأمّا البكرُ فهيَ العذراءُ، سمّيتْ بكراً لأنّها على أوّلِ حالتها الّتي خلقتْ بها. **وقيل**: أرادَ بالثّيّبِ مثلَ آسيةَ امرأةِ فرعونَ، وبالبكرِ مثلَ مريمَ ابنةَ عمرانَ. قلت: وهذا إنّما يمشي على قولِ منْ قالَ: إنَّ التّبديلَ وعدٌ منَ اللّهِ لنبيّهِ لوْ طلّقهنَّ في الدّنيا زوّجهُ في الآخرة خيرا منهن. والله أعلم.

قولهُ تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ عَلَيۡهَا مَلَـٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ ٦﴾ **فيهِ مسألةٌ واحدةٌ**- وهيَ الأمرُ بوقايةِ الإنسانِ نفسهُ وأهلهُ النّارَ، أي قوا أنفسكمْ بأفعالكمْ وقوا أهليكمْ بوصيّتكمْ، ففي صحيحِ الحديثِ أنَّ النّبيَّ ﷺ قال: «كلّكمْ راعٍ وكلّكمْ مسئولٌ عنْ رعيّتهِ فالإمامُ الّذي على النّاسِ راعٍ وهوَ مسئولٌ عنهمْ والرّجلُ راعٍ على أهلِ بيتهِ وهوَ مسئولٌ عنهمْ».

وقالَ بعضُ العلماءِ لمّا قالَ: قوا أنفسكمْ دخلَ فيهِ الأولادُ، لأنَّ الولدَ بعضٌ منهُ. كما دخلَ في قولهُ تعالى: ﴿وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ أَن تَأۡكُلُواْ مِنۢ بُيُوتِكُمۡ﴾ فلمْ يفردوا بالذّكرِ إفرادَ سائرِ القراباتِ. فيعلّمهُ الحلالَ والحرامَ، ويجنّبهُ المعاصيَ والآثامَ، إلى غيرِ ذلكَ منَ الأحكامِ.

وقدْ روى عمرو بنُ شعيبٍ عنْ أبيهِ عنْ جدّهِ عنِ النّبيِّ ﷺ «مروا أبناءكمْ بالصّلاةِ لسبعٍ واضربوهمْ عليها لعشرٍ وفرّقوا بينهمْ في المضاجعِ». خرّجهُ جماعةٌ منْ أهلِ الحديثِ. وهذا لفظُ أبي داودَ.

وكذلكَ يخبرُ أهلهُ بوقتِ الصّلاةِ ووجوبِ الصّيامِ ووجوبِ الفطرِ إذا وجبَ، مستنداً في ذلكَ إلى رؤيةِ الهلالِ. وقدْ روى مسلمٍ أنَّ النّبيَّ ﷺ كانَ إذا أوترَ يقولُ: «قومي فأوتري يا عائشةُ». ورويَ أنَّ النّبيَّ ﷺ قال: «رحمَ اللّهُ امرأً قامَ منَ اللّيلِ فصلّى فأيقظَ أهلهُ فإنْ لمْ تقمْ رشَّ وجهها بالماءِ. رحمَ اللّهُ امرأةً قامتْ منَ اللّيلِ تصلّي وأيقظتْ زوجها فإذا لمْ يقمْ رشّتْ على وجههِ منَ الماءِ». ومنهُ قولهُ ﷺ: «أيقظوا صواحبَ الحجرِ». ويدخلُ هذا في عمومِ قولهِ تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ﴾.

قالَ الكيا: فعلينا تعليمُ أولادنا وأهلينا الدّينَ والخيرَ، وما لا يستغنى عنهُ منَ الأدبِ، وهوَ قولهُ تعالى: ﴿وَأۡمُرۡ أَهۡلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصۡطَبِرۡ عَلَيۡهَاۖ﴾، ونحوَ قولهِ تعالى للنّبيِّ ﷺ: ﴿وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ﴾، وفي الحديثِ: «مروهمْ بالصّلاةِ وهمْ أبناءُ سبعٍ».

﴿وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ﴾ تقدّمَ في سورةِ «البقرةِ» القول فيه.

﴿عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ﴾ يعني الملائكةَ الزّبانيةَ غلاظَ القلوبِ شداد الأبدانِ. وقيلَ: غلاظُ الأقوالِ شدادُ الأفعالِ «ما بينَ منكبيْ أحدهمْ كما بينَ المشرقِ والمغربِ».

قولهُ تعالى: ﴿لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ﴾ أيْ لا يخالفونهُ في أمرهِ منْ زيادةٍ أوْ نقصانٍ ﴿وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ ٦﴾ أيْ في وقتهِ، فلا يؤخّرونهُ ولا يقدّمونهُ.

قولهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَعۡتَذِرُواْ ٱلۡيَوۡمَۖ﴾ فإنَّ عذركمْ لا ينفعُ. وهذا النّهيُ لتحقيقِ اليأسِ ﴿إِنَّمَا تُجۡزَوۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ٧﴾ في الدّنيا. ونظيرهُ: ﴿فَيَوۡمَئِذٖ لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَعۡذِرَتُهُمۡ وَلَا هُمۡ يُسۡتَعۡتَبُونَ﴾.

قولهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوۡبَةٗ نَّصُوحًا﴾، فيهِ مسألتانِ:

الأولى: التّوبة فرضٌ على الأعيانِ في كلِّ الأحوالِ وكلِّ الأزمانِ، واختلفتْ عبارةُ العلماءِ وأربابِ القلوبِ في التّوبةِ النّصوحِ على ثلاثةٍ وعشرينَ قولاً، وأحسن ما قيلَ: هي الخالصةُ الّتي لا عودة بعدها مع نّدم القلبِ، واستغفار اللّسانِ، والإقلاع عنِ الذّنبِ مع ردّ المظالمِ، واستحلال الخصومِ، وإدمان الطّاعاتِ.

الثانية- الذّنبُ الّذي تكونُ منهُ التّوبةُ لا يخلو، إمّا أنْ يكونَ حقـًا للّهِ أوْ للآدميّينَ. فإنْ كانَ حقـًا للّهِ كتركِ صلاةٍ فإنَّ التّوبةَ لا تصحُّ منهُ حتّى ينضمَّ إلى النّدمِ قضاءُ ما فاتَ منها. وهكذا إنْ كانَ تركَ صومٍ أوْ تفريطـًا في الزّكاةِ.

فإنْ كانَ الذّنبُ منْ مظالمِ العبادِ فلا تصحُّ التّوبةُ منهُ إلّا بردّهِ إلى صاحبهِ والخروجِ عنهُ- عينـًا كانَ أوْ غيرهُ- إنْ كانَ قادراً عليهِ، فإنْ لمْ يكنْ قادراً فالعزمُ أنْ يؤدّيهُ إذا قدرَ في أعجلِ وقتٍ وأسرعهِ. وإنْ كانَ أضرَّ بواحدٍ منَ المسلمينَ وذلكَ الواحدُ لا يشعرُ بهِ أوْ لا يدري منْ أينَ أتيَ، فإنّهُ يزيلُ ذلكَ الضّررَ عنهُ، ثمَّ يسألهُ أنْ يعفوَ عنهُ ويستغفرَ لهُ، فإذا عفا عنهُ فقدْ سقطَ الذّنبُ عنهُ. وإنْ أرسلَ منْ يسألُ ذلكَ لهُ، فعفا ذلكَ المظلومُ عنْ ظالمهِ- عرّفهُ بعينهِ أوْ لمْ يعرّفهُ- فذلكَ صحيحٌ.

وإنْ كانَ ذلكَ قتلَ نفسٍ بغيرِ حقٍّ فأنْ يمكّنَ منَ القصاصِ إنْ كانَ عليهِ وكانَ مطلوبـًا بهِ. وإنْ كانَ قذفـًا يوجبُ الحدَّ فيبذلُ ظهرهُ للجلدِ إنْ كانَ مطلوبـًا بهِ. فإنْ عفيَ عنهُ كفاهُ النّدمُ

والعزمُ على تركِ العودِ بالإخلاصِ. وكذلكَ إنْ عفيَ عنهُ في القتلِ بمالٍ فعليهِ أنْ يؤدّيهُ إنْ كانَ واجداً لهُ، قالَ اللّهُ تعالى: ﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَٰنٍ﴾، وإنْ كانَ ذلكَ حداً منْ حدودِ اللّهِ كائنا ما كان فإنه إذا تابَ إلى اللّهِ تعالى بالنّدمِ الصّحيحِ سقطَ عنهُ. وقدْ نصَّ اللّهُ تعالى على سقوطِ الحدِّ عنِ المحاربينَ إذا تابوا قبلَ القدرةِ عليهِمْ. وفي ذلكَ دليلٌ على أنّها لا تسقطُ عنهمْ إذا تابوا بعدَ القدرةِ عليهِمْ.

قولهُ تعالى: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾ عسى منَ اللّهِ واجبةٌ ﴿وَيُدْخِلَكُمْ﴾ معطوفٌ على يكفّرَ ﴿يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ﴾ أيْ لا يعذّبهُ ولا يعذّبهم.

﴿نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِمْ﴾ تقدّمَ في سورةِ الحديدِ ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَٱغْفِرْ لَنَآ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝٨﴾ وهذا دعاءُ المؤمنينَ حينَ أطفأَ اللّهُ نورَ المنافقينَ.

قولهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ فيهِ مسألةٌ واحدةٌ– وهوَ التّشديدُ في دينِ اللّهِ. فأمرهُ أنْ يجاهدَ الكفّارَ بالسّيفِ والمواعظِ الحسنةِ والدّعاءِ إلى اللّهِ. والمنافقينَ بالغلظةِ وإقامةِ الحجّةِ، وأنْ يعرّفهمْ أحوالهمْ في الآخرةِ، وأنّهمْ لا نورَ لهمْ يجوزونَ بهِ الصّراطَ معَ المؤمنينَ، وجاهدهمْ بإقامةِ الحدودِ عليهمْ، فإنّهمْ كانوا يرتكبونَ موجباتِ الحدودِ. وكانتِ الحدودُ تقامُ عليهمْ ﴿وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ﴾ يرجعُ إلى الصنفين ﴿وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ۝٩﴾ أي المرجع.

قولهُ تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ۝١٠﴾

ضربَ اللّهُ تعالى هذا المثلَ تنبيهـاً على أنّهُ لا يغني أحدٌ في الآخرةِ عنْ قريبٍ ولا نسيبٍ إذا فرّقَ بينهما الدّينُ.

وما بغتِ امرأةُ نبيٍّ قطُّ. وهذا إجماعٌ منَ المفسّرينَ إنّما كانتْ خيانتهما في الدّينِ وكانتا

مشركتينِ. وقيلَ: كانتا منافقتينِ. وقيلَ: خيانتهما النّميمةُ إذا أوحى اللّهُ إليهما شيئًا أفشتاهُ إلى المشركينَ، وقيلَ: كانتِ امرأةُ لوطٍ إذا نزلَ بهِ ضيفٌ دخّنتْ لتعلمَ قومها أنّهُ قدْ نزلَ بهِ ضيفٌ، لما كانوا عليهِ منْ إتيانِ الرّجالِ ﴿فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ أيْ لمْ يدفعْ نوحٌ ولوطٌ معَ كرامتهما على اللّهِ تعالى عنْ زوجتيهما - لمّا عصتا - شيئًا منْ عذابِ اللّهِ، تنبيهًا بذلكَ على أنَّ العذابَ يدفعُ بالطّاعةِ لا بالوسيلةِ.

قولهُ تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ﴾ واسمها آسيةُ بنتُ مزاحم، وهو مثلٌ ضربهُ اللّهُ يحذّرَ بهِ عائشةَ وحفصةَ في المخالفةِ حينَ تظاهرتا على رسولِ اللّهِ ﷺ، ثمَّ ضربَ لهما مثلا بامرأة فرعون ومريم ابنة عمرانَ، ترغيبًا في التّمسّكِ بالطّاعةِ والثّباتِ على الدين ﴿إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى﴾ ونجّاها اللّهُ أكرمَ نجاةٍ فرفعها إلى الجنّةِ ﴿مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ﴾ تعني بالعملِ الكفرَ. وقيلَ: ظلمهِ وشماتتهِ. وقيلَ: الجماعُ ﴿وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١١﴾﴾ القبطُ.

قوله تعالى: ﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ﴾ أيْ واذكرْ مريمَ. وقيلَ: هوَ معطوفٌ على امرأةِ فرعونَ. والمعنى: وضربَ اللّهُ مثلاً لمريم ابنة عمرانَ وصبرها على أذى اليهودِ ﴿ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾ أيْ عنِ الفواحشِ ﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ﴾ في جيبها منْ روحنا. وكلُّ خرقٍ في الثّوبِ يسمّى جيبًا، ومنهُ قولهُ تعالى: ﴿وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ﴾ ويحتملُ أنْ تكونَ أحصنتْ فرجها ونفخَ الرّوحَ في جيبها. ومعنى فنفخنا أرسلنا جبريلَ فنفخَ في جيبها منْ روحنا أيْ روحًا منْ أرواحنا وهيَ روحُ عيسى ﴿وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا﴾ وهي قولُ جبريلَ لها: إنّما أنا رسولُ ربّكِ. وقيلَ: يعني بالكلماتِ عيسى وأنّهُ نبيٌّ وعيسى كلمةُ اللّهِ. وقرأ أبو عمرو وحفصٌ عنْ عاصمٍ ﴿وَكُتُبِهِۦ﴾ جمعًا. والباقونَ «بِكِتَابِهِ» على التّوحيدِ. والكتابُ يرادُ بهِ الجنسُ، فيكونُ في معنى كلِّ كتابٍ أنزلَ اللّهُ تعالى ﴿وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ ﴿١٢﴾﴾ أيْ منَ المطيعينَ. ولمْ يقلْ منَ القانتاتِ، لأنّهُ أرادَ وكانتْ منَ القومِ القانتينَ. ويجوزُ أنْ يرجعَ هذا إلى أهلِ بيتها، فإنّهمْ كانوا مطيعينَ للّهِ.

سورة الملك

مكيّةٌ في قولِ الجميعِ. وتسمّى الواقيةُ والمنجيةُ. وهيَ ثلاثونَ آيةً، وعنْ أبي هريرةَ قالَ: قالَ النّبيُّ ﷺ: «إنَّ سورةً منْ كتابِ اللّهِ ما هيَ إلّا ثلاثونَ آيةً شفعتْ لرجلٍ حتّى أخرجتهُ منَ النّارِ يومَ القيامةِ وأدخلتهُ الجنّةَ وهيَ سورةُ تباركَ». خرّجهُ التّرمذيُّ بمعناهُ، وقالَ فيهِ: حديثٌ حسنٌ.

بسمِ اللّهِ الرّحمنِ الرّحيمِ

قولهُ تعالى: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ١﴾

تباركَ تفاعلَ منَ البركةِ، وقيلَ: تقدّسَ. وقيلَ دامَ. فهوَ الدّائمُ الّذي لا أوّلَ لوجودهِ ولا آخرَ لدوامهِ ﴿ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾ ملك السموات والأرضِ في الدّنيا والآخرةِ، يعزُّ منْ يشاءُ ويذلُّ منْ يشاءُ ويحيي ويميتُ، ويغني ويفقرُ، ويعطي ويمنعُ ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ١﴾ من إنعامٍ وانتقامٍ.

قولهُ تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ٢﴾، فيهِ مسألتانِ:

الأولى: قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ﴾ قيل: المعنى خلقكمْ للموتِ والحياةِ، يعني للموتِ في الدّنيا والحياةِ في الآخرةِ وقدّمَ الموتَ لأنّهُ أقدمَ، لأنَّ الأشياءَ في الابتداءِ كانتْ في حكمِ الموتِ كالنّطفةِ والتّرابِ ونحوهِ.

المسألةُ الثانيةُ: الموتَ والحياةَ قدّمَ الموتَ على الحياةِ، لأنَّ أقوى النّاسِ داعيًا إلى العملِ منْ نصبَ موتهُ بينَ عينيهِ، فقدّمَ لأنّهُ فيما يرجعُ إلى الغرضِ المسوقِ لهُ الآيةُ أهمُّ، والموت ليسَ بعدمٍ محضٍ ولا فناءٍ صرفٍ، وإنّما هوَ انقطاعُ تعلّقِ الرّوحِ بالبدنِ ومفارقتهُ، وحيلولةٌ بينهما، وتبدّلُ حالٍ وانتقالٌ منْ دارٍ إلى دارٍ. والحياةُ عكسُ ذلكَ.

وفي التّنزيل: ﴿قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ﴾ ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ ﴿تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا﴾، ثمَّ قالَ: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾. فالوسائطُ ملائكةٌ مكرمونَ صلواتُ اللّهِ عليهمْ. وهوَ سبحانهُ المميتُ على الحقيقةِ، وإنّما يمثّلُ الموتُ بالكبشِ في الآخرةِ ويذبحُ على الصّراطِ، حسبَ ما وردَ بهِ الخبرُ الصّحيحُ.

وخلقَ الحياةَ، يعني خلقَ إنسانـًا ونفخَ فيهِ الرّوحَ فصارَ إنسانـًا، يدلُّ عليهِ قولهُ تعالى: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ فاللّامُ في ليبلوكمْ تتعلّقُ بخلقِ الحياةِ لا بخلقِ الموتِ ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ في انتقامهِ ممّنْ عصاه ﴿ٱلْغَفُورُ﴾ لمن تاب.

قولهُ تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا﴾ أيْ بعضها فوقَ بعضٍ ﴿مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ﴾ قراءةُ حمزةَ والكسائيِّ «مِنْ تَفَوُّتٍ» بغيرِ ألفٍ مشدّدةٍ. الباقونَ منْ تفاوتٍ بألفٍ. وهما لغتانِ مثلَ التّعاهدِ والتّعهّدِ، والتّحمّلِ والتّحاملِ، وتضاعفٍ وتضعّفٍ، وتباعدٍ وتبعّدٍ، كلّهُ بمعنى. والمعنى: ما ترى في خلقِ الرّحمنِ منَ اعوجاجٍ ولا تناقضٍ ولا تباينٍ بلْ هيَ مستقيمةٌ مستويةٌ دالّةٌ على خالقها ﴿فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ٣﴾ أي قلّبِ البصرُ في السّماءِ. والفطورُ: الشّقوقُ، وأصلهُ منَ التّفطّرِ والانفطارِ وهوَ الانشقاقُ.

قولهُ تعالى: ﴿ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ﴾ مرّةً بعدَ أخرى. فلن يرى فيها عيبـًا بلْ يتحيّرُ بالنّظرِ إليها، فذلكَ قولهُ تعالى: ﴿يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا﴾ أيْ خاشعـًا صاغراً ﴿وَهُوَ حَسِيرٌ ٤﴾ أيْ قدْ بلغَ الغايةَ في الإعياءِ.

قولهُ تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ﴾ جمعُ مصباحٍ وهوَ السّراجُ. وتسمّى الكواكبُ مصابيحَ لإضاءتها ﴿وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا﴾ أي جعلنا شهبها، فحذف المضاف. دليلهُ: ﴿إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾ وعلى هذا فالمصابيحُ لا تزولُ ولا يرجمُ بها، والرّجومُ جمعُ رجمٍ، وهوَ مصدرٌ سمّيَ بهِ ما يرجمُ بهِ.

قالَ قتادةُ: خلقَ اللّهُ تعالى النّجومَ لثلاثٍ: زينةً للسّماءِ، ورجومـًا للشّياطينِ، وعلاماتٍ يهتدى بها في البرِّ والبحرِ والأوقاتِ. فمنْ تأوّلَ فيها غيرَ ذلكَ فقدْ تكلّفَ ما لا علمَ لهُ بهِ، وتعدّى وظلمَ.

قولهُ تعالى: ﴿وَأَعۡتَدۡنَا لَهُمۡ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ ۝٥﴾ أيْ أعتدنا للشّياطينِ أشدَّ الحريقِ، يقالُ: سعرتِ النّارُ فهيَ مسعورةٌ وسعيرٌ، مثلَ مقتولةٍ وقتيل ﴿وَلِلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡ عَذَابُ جَهَنَّمَۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ۝٦ إِذَآ أُلۡقُواْ فِيهَا﴾ يعني الكفّارَ ﴿سَمِعُواْ لَهَا شَهِيقًا﴾ أيْ صوتـًا عندَ إلقاءِ الكفّارِ فيها، تشهقُ ثمَّ تزفرُ زفرةً لا يبقى أحدٌ إلّا خافَ. وقيلَ: الشّهيقُ منَ الكفّارِ عندَ إلقائهمْ في النّارِ، والشّهيقُ في الصّدرِ، والزّفيرُ في الحلقِ ﴿وَهِيَ تَفُورُ ۝٧﴾ أيْ تغلي ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلۡغَيۡظِۖ﴾ يعني تتقطّعُ وينفصلُ بعضها من بعض منْ شدّةِ الغيظِ على أعداءِ اللّهِ تعالى. وقيلَ: منَ الغيظِ منَ الغليانِ. وأصلُ تميّزُ تتميّزُ ﴿كُلَّمَآ أُلۡقِيَ فِيهَا فَوۡجٌ﴾ أيْ جماعةٌ منَ الكفّارِ ﴿سَأَلَهُمۡ خَزَنَتُهَآ﴾ على جهةِ التّوبيخ والتّقريع ﴿أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ نَذِيرٌ ۝٨﴾ أيْ رسولٌ في الدّنيا ينذركمْ هذا اليومَ حتّى تحذروا ﴿قَالُواْ بَلَىٰ قَدۡ جَآءَنَا نَذِيرٌ﴾ أنذرنا وخوّفنا ﴿فَكَذَّبۡنَا وَقُلۡنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَيۡءٍ﴾ أيْ على ألسنتكمْ ﴿إِنۡ أَنتُمۡ﴾ يا معشرَ الرّسلِ ﴿إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ كَبِيرٖ ۝٩﴾ اعترفوا بتكذيبِ الرّسلِ، ثمَّ اعترفوا بجهلهمْ فقالوا وهم في النار: ﴿لَوۡ كُنَّا نَسۡمَعُ﴾ منَ النّذرِ- يعني الرّسلَ- ما جاءوا بهِ ﴿أَوۡ نَعۡقِلُ﴾ عنهمْ ﴿مَا كُنَّا فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ۝١٠﴾ يعني ما كنّا منْ أهلِ النّارِ. فقالَ: اللّهُ تعالى: ﴿فَٱعۡتَرَفُواْ بِذَنۢبِهِمۡ﴾ أي بتكذيبهم الرسل. والذنب ها هنا بمعنى الجمعِ، لأنَّ فيهِ معنى الفعلِ. يقالُ: خرجَ عطاءُ النّاسِ أيْ أعطيتهمْ ﴿فَسُحۡقٗا لِّأَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ۝١١﴾ أيْ فبعداً لهمْ منْ رحمةِ اللّهِ. وقيلَ: هوَ وادٍ في جهنّمَ يقالُ لهُ السّحقُ. وقرأ الكسائيُّ وأبو جعفرٍ ﴿فَسُحُقًا﴾ بضمِ الحاءِ. الباقونَ بإسكانها، وهما لغتانِ مثلَ السّحتِ والرّعبِ.

وقيلَ: إنَّ قولهُ تعالى: ﴿إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ كَبِيرٖ﴾ من قول خزنة جهنم لأهلها.

قولهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ﴾ نظيرهُ: ﴿مَّنۡ خَشِيَ ٱلرَّحۡمَٰنَ بِٱلۡغَيۡبِ﴾ أيْ يخافونَ اللّهَ ويخافونَ عذابهُ الّذي هوَ بالغيبِ، وهوَ عذابُ يومِ القيامةِ ﴿لَهُم مَّغۡفِرَةٞ﴾ لذنوبهمْ ﴿وَأَجۡرٞ كَبِيرٞ ۝١٢﴾ وهو الجنة.

قولهُ تعالى: ﴿وَأَسِرُّواْ قَوۡلَكُمۡ أَوِ ٱجۡهَرُواْ بِهِۦٓۖ﴾ اللّفظُ لفظُ الأمرِ والمرادُ بِهِ الخبرُ ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝١٣﴾ يعني بما في القلوبِ منَ الخيرِ والشّرِّ ﴿أَلَا يَعۡلَمُ مَنۡ خَلَقَ﴾ يعني

ألا يعلمُ السّرَّ منْ خلقَ السّرَّ ﴿وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ۝١٤﴾.

قولهُ تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا﴾ أيْ سهلةً تستقرّونَ عليها، وثبّتها بالجبالِ ومكنكم منَ الزّرعِ والغرسِ وشقِّ العيونِ والأنهارِ وحفرِ الآبارِ ﴿فَٱمْشُواْ فِى مَنَاكِبِهَا﴾ هوَ أمرُ إباحةٍ، وفيهِ إظهارُ الامتنانِ. أي في أطرافها ﴿وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِۦ﴾ أيْ ممّا أحلّهُ لكمْ ﴿وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ۝١٥﴾ المرجعُ.

قولهُ تعالى: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ﴾ إنْ عصيتموهُ، وخصَّ السّماءَ وإنْ عمَّ ملكهُ تنبيهاً على أنَّ الإلهَ الّذي تنفذُ قدرتهُ في السّماءِ لا منْ يعظّمونهُ في الأرضِ ﴿فَإِذَا هِىَ تَمُورُ ۝١٦﴾ أيْ تذهبُ وتجيءُ. والمورُ: الاضطرابُ بالذّهابِ والمجيءِ.

وقالَ المحقّقونَ: أأمنتمْ منْ فوقَ السّماءِ، كقولهِ: ﴿فَسِيحُواْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أيْ فوقها، كقوله تعالى: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ﴾ أيْ عليها، والأخبارُ في هذا البابِ كثيرةٌ صحيحةٌ منتشرةٌ، مشيرةٌ إلى العلوِّ، لا يدفعها إلّا ملحدٌ أوْ جاهلٌ معاندٌ. والمرادُ بها توقيرهُ وتنزيههُ عنِ السّفلِ والتّحتِ. ووصفهُ بالعلوِّ والعظمةِ، خلقَ الأمكنةَ وهوَ غيرُ محتاجٍ إليها، وكانَ في أزلهِ قبلَ خلقِ المكانِ والزّمانِ. ولا مكانَ لهُ ولا زمانَ. وهوَ الآنَ على ما عليهِ كانَ.

وقرأَ الكوفيّونَ والبصريّونَ وأهلُ الشّامِ سوى أبي عمرو وهشامٍ بالتّخفيفِ في الهمزتينِ، وخفّفَ الباقونَ.

قولهُ تعالى: ﴿أَمْ أَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا﴾ أيْ حجارةً منَ السّماءِ كما أرسلها على قومِ لوطٍ وأصحابِ الفيلِ ﴿فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ ۝١٧﴾ أيْ إنذاري. وقيلَ: النّذيرُ بمعنى المنذرِ. يعني محمّداً ﷺ فستعلمونَ صدقهُ وعاقبةَ تكذيبكم.

قولهُ تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ كقومِ نوحٍ وعادٍ وثمودَ وقومِ لوطٍ وأصحابِ مدينَ وأصحابِ الرّسِّ وقومِ فرعونَ ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ۝١٨﴾ أيْ إنكاري وقدْ تقدّمَ. وأثبتَ ورشٌ الياءَ في «نَذِيرِي، ونكيري» في الوصلِ، وأثبتها يعقوبُ في الحالينِ. وحذفَ الباقون اتباعا للمصحف.

قولهُ تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٍ﴾ باسطاتٍ أجنحتهنَّ في الجوِّ عندَ

طيرانها، لأنّهنَّ إذا بسطنها صففنَ قوائمها صفاً ﴿وَيَقْبِضْنَ﴾ أيْ يضربنَ بها جنوبهنَّ ﴿مَا يُمْسِكُهُنَّ﴾ في الجوِّ وهيَ تطيرُ ﴿إِلَّا ٱللَّهُ﴾ عزَّ وجلَّ ﴿إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍۭ بَصِيرٌ ١٩﴾.

قوله تعالى: ﴿أَمَّنْ هَـٰذَا ٱلَّذِى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ﴾ استفهامُ إنكارٍ ﴿يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَـٰنِ﴾ أيْ منْ سوى الرّحمنِ ﴿إِنِ ٱلْكَـٰفِرُونَ إِلَّا فِى غُرُورٍ ٢٠﴾ منَ الشّياطينِ، تغرّهمْ بأنْ لا عذابَ ولا حسابَ.

قولهُ تعالى: ﴿أَمَّنْ هَـٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ﴾ منافعَ الدّنيا ﴿إِنْ أَمْسَكَ﴾ يعني اللّهُ تعالى رزقهُ ﴿بَل لَّجُّوا۟﴾ أيْ تمادوا وأصرّوا ﴿فِى عُتُوٍّ﴾ طغيانٍ ﴿وَنُفُورٍ ٢١﴾ عنِ الحقِّ.

قولهُ تعالى: ﴿أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ﴾ وهو الكافر لا يأمنُ منَ العثورِ والانكبابِ على وجههِ ﴿أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا﴾ معتدلاً ناظراً وهو المؤمن ﴿عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ٢٢﴾ وهوَ الإسلامُ.

قولهُ تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ﴾ أمرَ نبيّهُ أنْ يعرّفهمْ قبحَ شركهمْ معَ اعترافهمْ بأنَّ اللّهَ خلقهمْ ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ﴾ يعني القلوبَ ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ٢٣﴾ أيْ لا تشكرونَ هذهِ النّعمَ، ولا توحّدونَ اللّهَ تعالى.

قولهُ تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ﴾ نشركمْ ﴿فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ٢٤﴾ حتّى يجازيَ كلاً بعملهِ ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَـٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ٢٥﴾ أيْ متى يومُ القيامةِ! استهزاء منهم.

قولهُ تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ فلا يعلمهُ غيرهُ. نظيرهُ: ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى﴾ ﴿وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ٢٦﴾ أيْ مخوّفٌ ومعلم لكم.

قولهُ تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً﴾ مصدرٌ بمعنى مزدلفاً أيْ قريباً، أو عياناً. وأكثرُ المفسّرينَ على أنَّ المعنى: فلمّا رأوهُ يعني العذابَ، وهوَ عذابُ الآخرةِ. وقيلَ: يعني عذابَ بدرٍ ﴿سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أيْ فعلَ بها السّوءُ، وظهرَ على وجوههمْ سمةٌ تدلُّ على كفرهمْ، كقولهِ تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾.

وقرأ نافعٌ وابنُ عامرٍ والكسائيُّ: «سُيئَتْ» بإشمامِ الضّمِّ. وكسرَ الباقونَ بغيرِ إشمام طلبـًا للخفّةِ. ومنْ ضمَّ لاحظَ الأصلَ ﴿وَقِيلَ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ ٢٧﴾ تفتعلونَ منَ الدّعاءِ أي تتمنون وتسألون، وقيلَ: تكذبونَ وتدّعونَ الأباطيلَ والأحاديثَ.

وقراءةُ العامّةِ ﴿تَدَّعُونَ﴾ بالتّشديدِ، وقرأ يعقوبُ «تَدْعُونَ» مخفّفةً، وهوَ قولهمْ: ﴿رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا﴾، وقولهمْ ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾.

قولهُ تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِىَ ٱللَّهُ﴾ وكانوا يتمنّونَ موتَ محمّدٍ ﷺ، كما قالَ تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ﴾ ﴿أَوْ رَحِمَنَا﴾ فأخّر آجالنا ﴿فَمَن يُجِيرُ ٱلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ٢٨﴾، وأسكنَ الياءَ في ﴿أَهْلَكَنِىَ﴾ حمزةُ. وفتحها الباقونَ. وكلّهمْ فتحَ الياءَ في ﴿وَمَن مَّعِىَ﴾ إلّا أهلَ الكوفةِ فإنّهمْ سكّنوها. وفتحها حفصٌ كالجماعةِ.

قولهُ تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ٢٩﴾ قرأَ الكسائيُّ بالياءِ على الخبرِ، الباقونَ بالتّاءِ على الخطابِ. وهوَ تهديدٌ لهمْ.

قولهُ تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ﴾ يا معشرَ قريشٍ ﴿إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا﴾ أيْ غائراً ذاهبـًا في الأرضِ لا تنالهُ الدّلاءُ. وكانَ ماؤهمْ منْ بئرينِ: بئرِ زمزمَ وبئرِ ميمونٍ ﴿فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍ ٣٠﴾ أيْ جارٍ، فلا بدَّ لهمْ منْ أنْ يقولوا لا يأتينا بهِ إلّا اللّهُ، وقيلَ: بماءٍ معينٍ أيْ ظاهرٍ تراهُ العيونُ، فهوَ مفعولٌ. وقيلَ: هوَ منْ معنَ الماءَ أيْ كثرَ، فهوَ على هذا فعيلٌ. وقيلَ: أنَّ المعنى فمنْ يأتيكمْ بماءٍ عذبٍ. والله أعلم.

سورة القلم

مكّيّةٌ في قولِ.

بسمِ اللّهِ الرّحمنِ الرّحيمِ

قولُه تعالى: ﴿نٓ وَٱلۡقَلَمِ﴾ أدغمَ النّونَ الثّانيةَ في هجائها في الواوِ ابنُ عامرٍ والكسائيُّ ويعقوب. والباقون بالإظهار. واختلفَ في تأويلِه، فقيل: ﴿نٓ﴾ الحوتُ، وقيلَ: إن ن آخر حروف من حروف الرّحمنِ. قال: الر، وحمَ، و ن، الرّحمنِ تعالى متقطّعةٌ، وقيلَ: حرفُ هجاءٍ كما في سائرِ مفاتيحِ السّورِ.

ثمَّ قالَ: ﴿وَٱلۡقَلَمِ﴾ أقسمَ بالقلمِ الّذي خلقهُ اللّهُ، فأمرهُ فجرى بكتابةِ جميعِ ما هوَ كائنٌ إلى يومِ القيامةِ.

قولُه تعالى: ﴿وَمَا يَسۡطُرُونَ﴾ أيْ وما يكتبونَ. يريدُ الملائكةَ يكتبونَ أعمالَ بني آدمَ، وقيلَ: وما يكتبونَ أي النّاسُ ويتفاهمونَ بهِ ﴿مَآ أَنتَ بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ بِمَجۡنُونٍ﴾ هذا جوابُ القسمِ وهوَ نفيٌ، وكانَ المشركونَ يقولونَ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ إِنَّكَ لَمَجۡنُونٌ﴾ فأنزلَ اللّهُ تعالى رداً عليهمْ وتكذيباً لقولهمْ ما أنتَ بنعمةِ ربّكَ بمجنونٍ أيْ برحمةِ ربك. والنعمة ها هنا الرحمة.

ويحتمل ثانيا– أن النعمة ها هنا قسمٌ، وتقديرهُ: ما أنتَ ونعمةِ ربّكَ بمجنونٍ، لأنَّ الواوَ والباءَ منْ حروفِ القسمِ ﴿وَإِنَّ لَكَ لَأَجۡرًا﴾ أيْ ثواباً على ما تحمّلتَ منْ أثقالِ النّبوّةِ ﴿غَيۡرَ مَمۡنُونٍ﴾ أيْ غيرُ مقطوعٍ ولا منقوصٍ.

قولُه تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾، فيهِ مسألتانِ:

الأولى: قولُه تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ أيْ طبعٍ كريمٍ، وحقيقةُ الخلقِ في اللّغةِ: هوَ ما يأخذُ بهِ الإنسانُ نفسهُ منَ الأدبِ يسمّى خلقاً، لأنّهُ يصيرُ كالخلقةِ فيهِ، وفي صحيحِ مسلمٍ عنْ عائشةَ: أنَّ خلقهُ كانَ القرآنَ.

ولمْ يذكرْ خلقٌ محمودٌ إلّا وكانَ للنّبيِّ ﷺ منهُ الحظُّ الأوفرُ لاجتماعِ مكارمِ الأخلاقِ

فيهِ، يدلُّ عليهِ قولهُ ﷺ: «إن الله بعثني لأتمم مكارمَ الأخلاقِ»، وقيلَ: لأنّهُ امتثلَ تأديبَ اللّهِ تعالى إيّاهُ بقولهِ تعالى: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾.

الثانية- روى التّرمذيُّ عنْ أبي ذرٍّ قالَ: قالَ رسولُ اللّهِ ﷺ: «اتّقِ اللّهَ حيثما كنتَ وأتبعِ السّيّئةَ الحسنةَ تمحها وخالقِ النّاسَ بخلقٍ حسنٍ». قالَ حديثٌ حسنٌ صحيحٌ.

وعنْ أبي الدّرداءِ أنَّ النّبيَّ ﷺ قال: «ما شيء أثقلُ في ميزانِ المؤمنِ يومَ القيامةِ منْ خلقٍ حسنٍ وإنَّ اللّهَ تعالى ليبغضُ الفاحشَ البذي». قالَ: حديثٌ حسنٌ صحيحٌ.

وعنْ أبي هريرةَ قالَ: سئلَ رسولُ اللّهِ ﷺ عنْ أكثرِ ما يدخلُ النّاسَ الجنّةَ؟ فقالَ: «تقوى الله وحسن الخلق». وسئل عنْ أكثرِ ما يدخلُ النّاسَ النّارَ؟ فقالَ: «الفمُ والفرجُ» قالَ: هذا حديثٌ صحيحٌ غريبٌ.

وعنْ جابرٍ: أنَّ رسولَ اللّهِ ﷺ قال: «إنَّ منْ أحبّكمْ إليَّ وأقربكمْ منّي مجلساً يومَ القيامةِ أحسنكمْ أخلاقاً- قالَ- وإنَّ أبغضكمْ إليَّ وأبعدكمْ منّي مجلساً يومَ القيامةِ الثّرثارونَ والمتشدّقونَ والمتفيهقونَ. قالوا: يا رسولَ اللّهِ، قدْ علمنا الثّرثارونَ والمتشدّقونَ، فما المتفيهقونَ؟ قالَ: المتكبّرونَ».

وعن عبد الله ابن المباركِ أنّهُ وصفَ حسنَ الخلقِ فقالَ: هوَ بسطُ الوجهِ، وبذلُ المعروفِ، وكفُّ الأذى.

قولهُ تعالى: ﴿فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ﴾ يومَ القيامةِ حينَ يتبيّنُ الحقُّ والباطلُ ﴿بِأَييِّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ﴾ الباءُ زائدةٌ، أيْ أيّكمُ الّذي فتنَ بالجنونِ، كقولهِ تعالى: ﴿تَنْبُتُ بِٱلدُّهْنِ﴾ و ﴿يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ﴾ والمفتونُ: المجنونُ الّذي فتنهُ الشّيطانُ. وقيلَ: المفتونُ المعذّبُ، ومنهُ قولهُ تعالى: ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ﴾ أيْ يعذّبونَ.

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ أي حادَ عنْ دينهِ ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ أيِ الّذينَ همْ على الهدى فيجازي كلاً غداً بعمله.

قولهُ تعالى: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ نهاهُ عنْ ممايلةِ المشركينَ، وكانوا يدعونهُ إلى أنْ يكفَّ عنهمْ ليكفّوا عنه، فبين الله تعالى أن ممايلتهم كفر. وقال تعالى: ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ

﴿لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا﴾ وقيلَ: أيْ فلا تطع المكذّبينَ فيما دعوكَ إليهِ منْ دينهمُ الخبيثِ. نزلتْ في مشركي قريش حين دعوه إلى دين آبائه.

قولهُ تعالى: ﴿وَدُّواْ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾ لوْ تلينَ وتترك الحقَّ والمناصحةِ فيلينونَ لكَ. والادّهانُ: اللّينُ والمصانعةُ لمنْ لا ينبغي لهُ التّليينُ.

قولهُ تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ﴾ يعني الوليدبن المغيرةِ، وقيلَ: هوَ أبو جهلِ بنُ هشامٍ. والحلّافُ: الكثيرُ الحلفِ. والمهينُ: الوضيعُ لإكثارهِ منَ القبيحِ، وهوَ فعيلٌ منَ المهانةِ بمعنى القلّةِ ﴿هَمَّازٍ﴾ طعّان، والهمّازُ الّذي يذكرُ النّاسَ في وجوههمْ، واللّمّازُ الّذي يذكرهمْ في مغيبهمْ ﴿مَّشَّآءِۭ بِنَمِيمٍ﴾ بينَ النّاسِ ليفسدَ بينهمْ، وفي صحيح مسلمٍ عنْ حذيفةَ قال: سمعتُ رسولَ اللّهِ ﷺ يقولُ: «لا يدخلُ الجنّةَ نمّامٌ» ﴿مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ﴾ أيْ للمالِ أنْ ينفقَ في وجوههِ، وقيلَ: يمنعُ عنِ الإسلامِ ولدهُ وعشيرتهُ ﴿مُعْتَدٍ﴾ على النّاسِ في الظّلمِ، متجاوزٍ للحدِّ ﴿أَثِيمٍ﴾ أيْ ذي إثمٍ ﴿عُتُلٍّۭ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ﴾ العتلُّ الجافي الشّديدُ في كفرهِ، مأخوذٌ منَ العتلِ وهوَ الجرُّ، ومنهُ قولهُ تعالى: ﴿خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ﴾، وفي صحيح مسلمٍ عنْ حارثةَ بنِ وهبٍ سمعَ النّبيَّ ﷺ قال: «ألا أخبركمْ بأهلِ الجنّةِ- قالوا بلى قالَ- كلُّ ضعيفٍ متضعّفٍ لوْ أقسمَ على اللّهِ لأبرّهُ. ألا أخبركمْ بأهلِ النّارِ- قالوا بلى قالَ- كلُّ عتلٍّ جوّاظٍ مستكبرٍ»، والزّنيمُ الملصقُ بالقومِ الدّعيُّ، وكانَ الوليدُ دعيًا في قريشٍ ليسَ منْ سِنخهمْ، ادّعاهُ أبوهُ بعدَ ثمانيَ عشرةَ سنةً منْ مولدهِ. قالَ الشّاعرُ:

زنيمٌ ليسَ يعرفُ منْ أبوهُ بغيِّ الأمِّ ذو حسبٍ لئيمِ

وفي صحيح مسلمٍ عنْ زينبَ بنتِ جحشٍ زوجِ النّبيِّ ﷺ قالتْ: خرجَ النّبيُّ ﷺ يومًا فزعًا محمرًا وجههُ يقولُ: «لا إلهَ إلّا اللّهُ. ويلٌ للعربِ منْ شرٍّ قدِ اقتربَ. فتحَ اليومَ منْ ردمِ يأجوجَ ومأجوجَ مثلُ هذهِ» وحلّقَ بإصبعيهِ الإبهامِ والّتي تليها. قالتْ فقلت: يا رسولَ اللّهِ، أنهلكُ وفينا الصّالحونَ؟ قالَ: «نعمْ إذا كثرَ الخبثُ» خرّجهُ البخاريُّ. وكثرةُ الخبثِ ظهورُ الزنى وأولادِ الزنى، كذا فسّرهُ العلماءُ.

قولهُ تعالى: ﴿أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ﴾ قرأَ أبو جعفرٍ وابنُ عامرٍ: «آنْ كَانَ» بهمزةٍ واحدةٍ

ممدودةٍ على الاستفهامِ. وقرأ حمزةُ «أَأَنْ كَانَ» بهمزتينِ محقّقتينِ. وقرأ الباقونَ بهمزةٍ واحدةٍ على الخبر، فمنْ قرأَ بهمزةٍ مطوّلةٍ أوْ بهمزتينِ محقّقتينِ فهوَ استفهامٌ والمرادُ بهِ التّوبيخُ، ويحسنُ لهُ أنْ يقفَ على زنيمٍ، ويبتدئَ أنْ كانَ على معنى ألأنْ كانَ ذا مالٍ وبنينَ تطيعهُ. أو: ألأنْ كانَ ذا مالٍ وبنينَ يكفرُ ويستكبرُ.

ومنْ قرأَ أنْ كانَ بغيرِ استفهامٍ فهوَ مفعولٌ منْ أجلهِ والعامل فيهِ فعلٌ مضمرٌ، والتّقديرُ: يكفرُ لأنْ كانَ ذا مالٍ وبنينَ. ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أباطيلهمْ وترّهاتهمْ وخرافاتهمْ.

قولهُ تعالى: ﴿سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ ١٦﴾، فيهِ مسألتانِ:

الأولى: قولهُ تعالى: ﴿سَنَسِمُهُۥ﴾ سنخطمهُ بالسّيفِ. قالَ: وقدْ خطمَ الّذي نزلتْ فيهِ يومَ بدرٍ بالسّيفِ، فلمْ يزلْ مخطوماً إلى أن مات، وقيلَ: سنسمهُ يومَ القيامةِ على أنفهِ سمةً يعرفُ بها، وقدْ قالَ تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ فهذهِ علامةٌ ظاهرةٌ. وقالَ تعالى: ﴿وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا﴾ وهذهِ علامةٌ أخرى ظاهرةٌ. فأفادتْ هذهِ الآيةُ علامةً ثالثةً وهيَ الوسمُ على الأنفِ بالنّارِ، وهذا كقوله تعالى: ﴿يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ﴾.

﴿عَلَى ٱلْخُرْطُومِ﴾ أيْ على أنفهِ، ونسوّدُ وجههُ في الآخرةِ فيعرفُ بسوادِ وجههِ.

وقيلَ: المعنى سنلحقُ بهِ عاراً وسبّةً حتّى يكونَ كمنْ وسمَ على أنفهِ.

الثانية- أعظمُ الإهانةِ إهانةُ الوجهِ. وكذلكَ كانتِ الاستهانةُ بهِ في طاعةِ اللّهِ سبباً لخيرةِ الأبدِ والتّحريمِ لهُ على النّارِ، فإنَّ اللّهَ تعالى قدْ حرّمَ على النّارِ أنْ تأكلَ منَ ابنِ آدمَ أثرَ السّجودِ، حسبَ ما ثبتَ في الصّحيحِ.

قولهُ تعالى: ﴿إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ١٧ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ١٨ فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ١٩﴾، فيهِ ثلاثُ مسائلَ:

الأولى: قولهُ تعالى: ﴿إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ﴾ يريدُ أهلَ مكّةَ. والابتلاءُ الاختبارُ. والمعنى أعطيناهمْ أموالاً ليشكروا لا ليبطروا، فلمّا بطروا وعادوا محمّداً ﷺ ابتليناهمْ بالجوعِ

والقحطِ ﴿كَمَا بَلَوۡنَآ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ﴾ المعروفِ خبرها عندهمْ. وذلكَ أنّها كانتْ بأرضِ اليمنِ بالقربِ منهمْ على فراسخَ منْ صنعاءَ- وكانتْ لرجلٍ يؤدّي حقَّ اللّهِ تعالى منها، فلمّا ماتَ صارتْ إلى ولدِهِ، فمنعوا النّاسَ خيرها وبخلوا بحقِّ اللّهِ فيها، فكانوا يجدّونَ التّمرَ ليلاً منْ أجلِ المساكينِ، وكانوا أرادوا حصادَ زرعها وقالوا: لا يدخلها اليومَ عليكمْ مسكينٌ ﴿وَلَا يَسۡتَثۡنُونَ﴾ أيْ ولمْ يقولوا إنْ شاءَ اللّهُ. وقيلَ: لا يستثنونَ حقَّ المساكينِ ﴿فَطَافَ عَلَيۡهَا طَآئِفٞ مِّن رَّبِّكَ وَهُمۡ نَآئِمُونَ﴾ وكانَ الطّائفُ الّذي طافَ عليها جبريل عليه السلام فاقتعلها منْ أصلها.

الثانية- قالَ بعضُ العلماءِ: على منْ حصدَ زرعًا أوْ جدَّ ثمرةً أنْ يواسيَ منها منْ حضرهُ، وذلكَ معنى قولهِ: ﴿وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوۡمَ حَصَادِهِۦۖ﴾ وأنّهُ غيرُ الزّكاةِ، ورويَ أنّهُ نهيَ عنِ الحصادِ باللّيلِ. رفقا بالمساكينِ أو خشية الحيات وهوام الأرضِ، والأوّلُ أصحُّ لأنَّ العقوبةَ كانتْ بسببِ ما أرادوهُ منْ منعِ المساكينِ كما ذكرَ اللّهُ تعالى.

الثالثة- في هذهِ الآيةِ دليلٌ على أنَّ العزمَ ممّا يؤاخذُ بهِ الإنسانُ، لأنّهمْ عزموا على أنْ يفعلوا فعوقبوا قبلَ فعلهمْ. ونظيرُ هذهِ الآيةِ قولهُ تعالى: ﴿وَمَن يُرِدۡ فِيهِ بِإِلۡحَادِۭ بِظُلۡمٖ نُّذِقۡهُ مِنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ﴾، وفي الصّحيحِ عنِ النّبيِّ ﷺ قال: «إذا التقى المسلمانِ بسيفيهما فالقاتلُ والمقتولُ في النّارِ» قيل: يا رسولَ اللّهِ، هذا القاتلُ فما بالُ المقتولِ؟ قالَ: «إنّهُ كانَ حريصًا على قتلِ صاحبهِ».

قولهُ تعالى: ﴿فَأَصۡبَحَتۡ كَٱلصَّرِيمِ﴾ أيْ احترقتْ فأصبحت كاللّيلِ المظلم لاسوداد موضعها فالصّريمُ بمعنى المصروم ﴿فَتَنَادَوۡاْ مُصۡبِحِينَ﴾ ينادي بعضهمْ بعضا ﴿أَنِ ٱغۡدُواْ عَلَىٰ حَرۡثِكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰرِمِينَ﴾ عازمينَ على الصّرام والجدادِ ﴿فَٱنطَلَقُواْ وَهُمۡ يَتَخَٰفَتُونَ﴾ أيْ يتسارّونَ، أيْ يخفونَ كلامهمْ لئلّا يعلمَ بهمْ أحدٌ، ﴿أَن لَّا يَدۡخُلَنَّهَا ٱلۡيَوۡمَ عَلَيۡكُم مِّسۡكِينٞ﴾ وقيلَ: يخفونَ أنفسهمْ منَ النّاسِ حتّى لا يروهمْ ﴿وَغَدَوۡاْ عَلَىٰ حَرۡدٖ قَٰدِرِينَ﴾ أيْ على قصدٍ وقدرةٍ في أنفسهمْ ويظنّونَ أنّهمْ تمكّنوا منْ مرادهمْ، والحردُ القصدُ، ومعنى قادرينَ على جنّتهمْ عندَ أنفسهمْ ﴿فَلَمَّا رَأَوۡهَا﴾ محترقة ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا لَضَآلُّونَ﴾ أيْ ضللنا الطّريقَ إلى جنّتنا ﴿بَلۡ نَحۡنُ مَحۡرُومُونَ﴾ أيْ حرمنا جنّتنا بما صنعنا ﴿قَالَ أَوۡسَطُهُمۡ﴾ أيْ أعدلهمْ

وأعقلهمْ ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ﴾ أيْ تقولونَ سبحانَ اللّهِ وتشكرونهُ على ما أعطاكمْ ﴿قَالُوا۟ سُبْحَـٰنَ رَبِّنَآ﴾ اعترفوا بالمعصيةِ ونزّهوا اللّهَ عنْ أنْ يكونَ ظالماً فيما فعلَ ﴿إِنَّا كُنَّا ظَـٰلِمِينَ﴾ لأنفسنا في منعنا المساكينَ ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَـٰوَمُونَ﴾ في منعِ المساكينِ ﴿قَالُوا۟ يَـٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَـٰغِينَ﴾ أيْ عاصينَ بمنعِ حقِّ الفقراءِ وتركِ الاستثناءِ ﴿عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَآ﴾ دعوا اللّهَ وتضرّعوا فأبدلهمُ اللّهُ خيرا منها، وقراءةُ العامّةِ ﴿يُبْدِلَنَا﴾ بالتّخفيفِ. وقرأ أهلُ المدينةِ وأبو عمرو بالتّشديدِ، وهما لغتانِ ﴿إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ﴾ لا أدري إيماناً كانَ ذلكَ منهمْ، أوْ على حدِّ ما يكونُ منَ المشركينَ إذا أصابتهمُ الشدة، فيوقف في كونهم مؤمنين ﴿كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ﴾ يا أهل مكّةَ، أي عذاب الدنيا وهلاك الأموال ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾.

قولهُ تعالى: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّـٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ تقدّمَ القولُ فيهِ ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ﴾ أيْ كالكفّارِ ﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ هذا الحكمَ الأعوجَ ﴿أَمْ لَكُمْ كِتَـٰبٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ﴾ وتجدونَ فيهِ المطيعَ كالعاصي ﴿إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ﴾ تختارونَ وتشتهونَ ﴿أَمْ لَكُمْ أَيْمَـٰنٌ﴾ أيْ عهودٌ ومواثيقُ ﴿عَلَيْنَا بَـٰلِغَةٌ﴾ مؤكّدةٌ ﴿إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ﴾.

قولهُ تعالى: ﴿سَلْهُمْ﴾ سل يا محمّدُ هؤلاءِ المتقوّلينَ عليَّ أنَّ لهمْ منَ الخيرِ ما للمسلمينَ ﴿أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ﴾. كفيلٌ وضّمينٌ ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَآءُ﴾ أيْ ألهمْ والميمُ صلةٌ. شركاءُ أيْ شهداءُ ﴿فَلْيَأْتُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ﴾ يشهدونَ على ما زعموا ﴿إِن كَانُوا۟ صَـٰدِقِينَ﴾ في دعواهمْ. وهو أمر معناه التعجيز.

قولهُ تعالى: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾ عن شّدّة القيامة، وهيَ أشدُّ ساعةً فيها، كقولهمْ: شمّرتِ الحربُ عنْ ساقها ﴿وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ فيذهبُ بهمْ إلى النّارِ ﴿خَـٰشِعَةً أَبْصَـٰرُهُمْ﴾ أيْ ذليلةً متواضعةً ﴿تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ﴾ ﴿وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ﴾ أيْ في الدّنيا بالأذانِ والإقامةِ فيأبونه ﴿وَهُمْ سَـٰلِمُونَ﴾ معافونَ أصحّاءُ، وقالَ كعبُ الأحبارِ: واللّهِ ما نزلتْ هذهِ الآيةُ إلّا في الّذينَ يتخلّفونَ عنِ الجماعاتِ، وقدْ مضى في سورةِ

البقرةِ الكلامُ في وجوبِ صلاةِ الجماعةِ.

قولهُ تعالى: ﴿فَذَرۡنِي﴾ أيْ دعني ﴿وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِۖ﴾ يعني القرآنَ، وقيلَ: يومَ القيامةِ. وهذا تسليةٌ للنّبيِّ ﷺ، أيْ فأنا أجازيهمْ وأنتقم منهم. ثم قال ﴿سَنَسۡتَدۡرِجُهُم مِّنۡ حَيۡثُ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ على غفلةٍ، قالَ الحسنُ: كمْ مستدرجٌ بالإحسانِ إليهِ، وكمْ مفتونٌ بالثّناءِ عليهِ، وكمْ مغرورٌ بالسّترِ عليهِ ﴿وَأُمۡلِي لَهُمۡۚ﴾ أيْ أمهلهمْ وأطيلُ لهمُ المدّةَ. والملاوةُ: المدّةُ منَ الدّهرِ. وأملى اللّهُ لهُ أيْ أطالَ لهُ. والملوانِ: اللّيلُ والنّهارُ ﴿إِنَّ كَيۡدِي مَتِينٌ﴾ أيْ إنَّ عذابي لقويٌّ شديدٌ فلا يفوتني أحد.

قولهُ تعالى: ﴿أَمۡ تَسۡـَٔلُهُمۡ أَجۡرٗا﴾ ثواباً على ما تدعوهمْ إليهِ منَ الإيمانِ باللّهِ ﴿فَهُم مِّن مَّغۡرَمٖ مُّثۡقَلُونَ﴾ لما يشقُّ عليهمْ منْ بذلِ المالِ ﴿أَمۡ عِندَهُمُ ٱلۡغَيۡبُ﴾ أيْ علمُ ما غابَ عنهمْ ﴿فَهُمۡ يَكۡتُبُونَ﴾ أنّهمْ أفضلُ منكمْ، وأنّهمْ لا يعاقبونَ ﴿فَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ﴾ أيْ لقضاءِ ربّكَ. ولا تعجلْ ولا تغاضبْ فلابدَّ منْ نصركَ. وقيلَ: إنّهُ منسوخٌ بآيةِ السّيفِ ﴿وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلۡحُوتِ﴾ يعني يونسَ عَلَيهِ السَّلَامُ. أيْ لا تكنْ مثلهُ في الغضبِ والضّجرِ والعجلةِ ﴿إِذۡ نَادَىٰ﴾ في بطنِ الحوتِ فقالَ: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ ﴿وَهُوَ مَكۡظُومٞ﴾ أيْ مملوءٌ غماً وكرباً. والغمَّ في القلبِ، والكربَ في الأنفاسِ. وقيلَ: مكظومٌ محبوسٌ. والكظمُ الحبسُ، ومنهُ قولهمْ: فلانٌ كظمَ غيظهُ، أيْ حبسَ غضبهُ.

قوله تعالى: ﴿لَّوۡلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعۡمَةٞ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ وهي عبادتهُ الّتي سلفتْ، ونداؤهُ لا إلهَ إلّا أنتَ سبحانكَ إنّي كنتُ منَ الظّالمينَ ﴿لَنُبِذَ بِٱلۡعَرَآءِ وَهُوَ مَذۡمُومٞ﴾ ولكنّهُ نبذَ سقيماً غيرَ مذمومٍ. والمذمومُ المبعد منْ كلِّ خيرٍ. والعراءُ: الأرضُ الواسعةُ الفضاءِ الّتي ليسَ فيها جبلٌ ولا شجرٌ يسترُ، ولولا فضلُ اللّهِ عليهِ أيضا لبقيَ في بطنِ الحوتِ إلى يوم القيامةِ، يدلُّ عليهِ قولهُ تعالى: ﴿فَلَوۡلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلۡمُسَبِّحِينَ ١٤٣ لَلَبِثَ فِي بَطۡنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ﴾ ﴿فَٱجۡتَبَٰهُ رَبُّهُۥ﴾ أي اصطفاهُ واختارهُ ﴿فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ وردَّ إليهِ الوحيَ، وشفّعهُ في نفسهِ وفي قومهِ، وقبلَ توبتهُ، وأرسلهُ إلى مائة ألف أو يزيدون.

قولهُ تعالى: ﴿وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ﴾ أيْ يعتانونكَ أي يصيبوك بالعينِ. فأخبرَ بشدّةِ عداوتهمُ النّبيَّ ﷺ ﴿وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ﴾ أيْ ينسبونكَ إلى الجنونِ إذا رأوكَ تقرأُ القرآنَ. وقرأ أهلُ المدينةِ «لَيَزْلِقُونَكَ» بفتحِ الياءِ. وضمّها الباقونَ، وهما لغتانِ بمعنى، يقالُ: زلقهُ يزلقهُ وأزلقهُ يزلقهُ إزلاقًا إذا نحّاهُ وأبعدهُ.

قولهُ تعالى: ﴿وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ أيْ وما القرآنُ أو وما محمّدٌ إلّا ذكرٌ للعالمينَ يتذكّرونَ بهِ. وقيلَ: معناهُ شرفٌ للعالمين، أيِ القرآنُ. كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾، والنّبيُّ ﷺ شرفٌ للعالمينَ أيضًا. شرفوا باتّباعهِ والإيمانِ بهِ ﷺ.

سورة الحاقة

مكّيّةٌ في قولِ الجميعِ. وهيَ إحدى وخمسونَ آيةً.

بسمِ اللّهِ الرّحمنِ الرّحيمِ

قولهُ تعالى: ﴿ٱلۡحَآقَّةُ ۝١ مَا ٱلۡحَآقَّةُ﴾ يريدُ القيامةَ، سمّيتْ بذلكَ لأنَّ الأمورَ تحقُّ فيها، واللّفظُ استفهامٌ، معناهُ التّعظيمُ والتّفخيمُ لشأنها ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡحَآقَّةُ﴾ استفهام أيضا، والنّبيُّ ﷺ كانَ عالماً بالقيامةِ ولكنْ بالصّفةِ فقيلَ تفخيماً لشأنها: وما أدراكَ ما هيَ، كأنّكَ لستَ تعلمها إذْ لمْ تعاينها. قال سفيان بن عيينة: كل شيء قال فيه: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ﴾ فإنه أخبر به، وكل شيء قال فيه: ﴿وَمَا يُدۡرِيكَ﴾ فإنه لم يخبر به.

قولهُ تعالى: ﴿كَذَّبَتۡ ثَمُودُ وَعَادُۢ بِٱلۡقَارِعَةِ﴾ ذكرَ منْ كذّبَ بالقيامةِ. والقارعةُ القيامةُ، سمّيتْ بذلكَ لأنّها تقرعُ النّاسَ بأهوالها، وثمودُ قومُ صالحٍ، وكانتْ منازلهمْ بالحجرِ فيما بينَ الشّامِ والحجازِ، وكانوا عرباً. وأمّا عادٌ فقومُ هودٍ، وكانتْ منازلهمْ بالأحقافِ. والأحقافُ: الرّملُ بينَ عمانَ إلى حضرموتَ واليمنِ كلّهِ، وكانوا عرباً ذوي خلقٍ وبسطةٍ.

قولهُ تعالى: ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهۡلِكُواْ بِٱلطَّاغِيَةِ﴾ فيهِ إضمارٌ، أيْ بالصّيحةِ الطّاغيةِ. المجاوزةُ لحدِّ الصّيحاتِ منَ الهولِ. كما قالَ: إنّا أرسلنا عليهمْ صيحةً واحدةً فكانوا كهشيمِ المحتظرِ، والطّغيانُ: مجاوزةُ الحدِّ، ومنهُ: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلۡمَآءُ﴾ أيْ جاوزَ الحدَّ.

قولهُ تعالى: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهۡلِكُواْ بِرِيحٍ صَرۡصَرٍ﴾ باردةٍ تحرقُ ببردها كإحراقِ النّارِ، مأخوذٌ منَ الصّرِّ وهوَ البردُ، وقيلَ: إنّها الشّديدةُ الصّوتِ ﴿عَاتِيَةٍ﴾ عتتْ على خزّانها فلمْ تطعهمْ، ولمْ يطيقوها منْ شدّةِ هبوبها، غضبتْ لغضبِ اللّهِ ﴿سَخَّرَهَا﴾ أرسلها وسلّطها ﴿عَلَيۡهِمۡ سَبۡعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا﴾ أيْ متتابعةً لا تفترُ ولا تنقطعُ والحسمُ الاستئصالُ ﴿فَتَرَى ٱلۡقَوۡمَ فِيهَا﴾ أيْ في تلكَ اللّيالي والأيّامِ ﴿صَرۡعَىٰ﴾ جمعُ صريعٍ، يعني موتى. وقيلَ: فيها أيْ في الرّيحِ ﴿كَأَنَّهُمۡ أَعۡجَازُ﴾ أيْ أصولُ ﴿نَخۡلٍ خَاوِيَةٍ﴾ أيْ باليةٍ، والنّخلُ يذكّرُ ويؤنّثُ. وقدْ قالَ تعالى في موضعٍ آخرَ: ﴿كَأَنَّهُمۡ أَعۡجَازُ نَخۡلٍ مُّنقَعِرٍ﴾ وهوَ إخبارٌ عنْ عظمِ أجسامهمْ،

وإنّما قالَ خاويةٍ لأنَّ أبدانهمْ خوتْ منْ أرواحهمْ مثلَ النّخلِ الخاويةِ ﴿فَهَلۡ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٖ﴾ أيْ منْ فرقةٍ باقيةٍ أوْ نفسٍ باقيةٍ. قال عزَّ وجلَّ: ﴿فَأَصۡبَحُواْ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمۡ﴾.

قولهُ تعالى: ﴿وَجَآءَ فِرۡعَوۡنُ وَمَن قَبۡلَهُۥ﴾ قرأَ أبو عمرو والكسائيُّ ﴿وَمَن قِبَلَهُۥ﴾ بكسرِ القافِ وفتحِ الباءِ، أيْ ومنْ معهُ وتبعهُ منْ جنودهِ، الباقونَ ﴿قَبۡلَهُۥ﴾ بفتحِ القافِ وسكونِ الباءِ، أيْ ومنْ تقدّمهُ منَ القرونِ الخاليةِ والأممِ الماضيةِ ﴿وَٱلۡمُؤۡتَفِكَٰتُ﴾ أيْ أهلُ قرى لوطٍ. وإنّما سمّيتْ قرى قومِ لوطٍ «مؤتفكاتٍ» لأنّها ائتفكتْ بهمْ، أيِ انقلبتْ ﴿بِٱلۡخَاطِئَةِ﴾ أيْ بالفعلةِ الخاطئةِ وهيَ المعصيةُ والكفرُ ﴿فَعَصَوۡاْ رَسُولَ رَبِّهِمۡ﴾ عنى موسى ولوطًا عليهما السّلامُ، كما قالَ تعالى: ﴿فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ ﴿فَأَخَذَهُمۡ أَخۡذَةٗ رَّابِيَةً﴾ أيْ عاليةً زائدةً على الأخذاتِ وعلى عذابِ الأممِ. يقالُ: ربا الشّيءُ يربو أيْ زادَ وتضاعفَ.

قولهُ تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلۡمَآءُ﴾ أيِ ارتفعَ وعلا، وقيلَ: طغى على خزّانهِ منَ الملائكةِ غضبًا لربّهِ فلمْ يقدروا على حبسهِ، والمقصودُ منْ قصصِ هذهِ الأممِ وذكرِ ما حلَّ بهمْ منَ العذابِ: زجرُ هذهِ الأمّةِ عنِ الاقتداءِ بهمْ في معصيةِ الرّسولِ ﴿فِي ٱلۡجَارِيَةِ﴾ أيْ في السّفنِ الجاريةِ. والمحمولُ في الجاريةِ نوحٌ وأولادهُ، وكلُّ منْ على وجهِ الأرضِ منْ نسلِ أولئكَ ﴿لِنَجۡعَلَهَا لَكُمۡ تَذۡكِرَةٗ﴾ يعني سفينةَ نوحٍ ﷺ. جعلها اللّهُ تذكرةً وعظةً لهذهِ الأمّةِ حتّى أدركها أوائلهمْ، وقيلَ: لنجعلَ تلكَ الفعلةَ منْ إغراقِ قومِ نوحٍ وإنجاءِ منْ آمنَ معهُ موعظةً لكمْ، ولهذا قالَ اللّهُ تعالى: ﴿وَتَعِيَهَآ أُذُنٞ وَٰعِيَةٞ﴾ أيْ تحفظها.

قولهُ تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ نَفۡخَةٞ وَٰحِدَةٞ﴾ وهيَ النّفخةُ الأولى لقيامِ السّاعةِ، فلمْ يبقَ أحدٌ إلّا ماتَ، وقيلَ: إنَّ هذهِ النّفخةَ هيَ الأخيرةُ ﴿وَحُمِلَتِ ٱلۡأَرۡضُ وَٱلۡجِبَالُ﴾ قراءةُ العامّةِ بتخفيفِ الميمِ، أيْ رفعتْ منْ أماكنها، وعن ابن عامر بالتشديد، أي حُمِّلَت المَلَكَ ﴿فَدُكَّتَا﴾ أيْ فتّتا وكسرتا ﴿دَكَّةٗ وَٰحِدَةٗ﴾ ولمْ يقلْ فدككنَ لأنّهُ جعلَ الجبالَ كلّها كالجملةِ الواحدةِ، والأرضَ كالجملةِ الواحدةِ. ومثله: ﴿أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ كَانَتَا رَتۡقٗا﴾ ولمْ يقلْ كنَّ. وهذا الدّكُّ كالزّلزلةِ، كما قال تعالى: ﴿إِذَا زُلۡزِلَتِ ٱلۡأَرۡضُ زِلۡزَالَهَا﴾ وقيلَ: فدكّتا أيْ بسطتا بسطةً واحدةً، ومنهُ اندكَّ سنامُ البعيرِ إذا انفرشَ في ظهرهِ.

قولهُ تعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ﴾ أيْ قامتِ القيامةُ ﴿وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ﴾ أي انصدعتْ وتفطّرتْ. وقيلَ: تنشقُّ لنزولِ ما فيها منَ الملائكةِ، دليلهُ قولهُ تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا﴾ ﴿فَهِىَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ﴾ أيْ ضعيفةٌ. يقالُ: وهى البناءُ يهي وهيًا فهوَ واهٍ إذا ضعفَ جداً. ويكونُ ذلكَ لنزولِ الملائكةِ أو لهول يوم القيامةِ ﴿وَٱلْمَلَكُ﴾ يعني الملائكةَ، اسمٌ للجنسِ ﴿عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَا﴾ أيْ على أطرافها حينَ تنشقُّ، لأنَّ السّماءَ مكانهمْ، ينتظرونَ ما يؤمرونَ بهِ في أهلِ النّارِ منَ السّوقِ إليها، وفي أهلِ الجنّةِ منَ التّحيّةِ والكرامةِ ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ﴾ صفوفٍ منَ الملائكةِ لا يعلمُ عددهمْ إلّا اللّهُ. وقيلَ: همْ ثمانيةُ أملاكٍ. وعنِ الحسنِ: اللّهُ أعلمُ كمْ همْ، ثمانيةٌ أمْ ثمانيةُ آلافٍ، ومعنى: فوقهمْ أي فوق رؤوسهم. قالَ السّدّيُّ: العرشُ تحملهُ الملائكةُ الحملةُ فوقهمْ ولا يحملُ حملةَ العرشِ إلّا اللّهُ. وقيلَ: فوقهمْ أيْ إنَّ حملةَ العرشِ فوقَ الملائكةِ الّذينَ في السّماءِ على أرجائها.

قولهُ تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ﴾ أيْ، على اللّهِ، دليلهُ: ﴿وَعُرِضُواْ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا﴾ ﴿لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ﴾ من أعمالكم، وقيلَ: لا تستترُ منكمْ عورةٌ، كما قالَ النّبيُّ ﷺ: «يحشرُ النّاسُ حفاةً عراةً». وقرأ الكوفيّونَ إلّا عاصمًا ﴿لَا يَخْفَىٰ﴾ بالياءِ، لأنَّ تأنيثَ الخافيةِ غيرُ حقيقيٍّ، نحوَ قولهِ تعالى: ﴿وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيْحَةُ﴾ الباقونَ بالتاء. لتأنيث الخافية.

قولهُ تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ﴾ إعطاءُ الكتابِ باليمينِ دليلٌ على النّجاةِ ﴿فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَؤُوا كِتَابِيه﴾ يقولُ وسروراً بنجاتهِ، لأنَّ اليمينَ عندَ العربِ منْ دلائلِ الفرحِ، والشّمالِ منْ دلائلِ الغمِّ، ومعنى: هاؤمُ تعالوا ﴿اقْرَؤُوا كِتَابِيه﴾ والأصلُ «كتابي» فأدخلتِ الهاءُ لتبيّنَ فتحةَ الياءِ، وكأنَ الهاءُ للوقفِ، وكذلكَ في أخواته: حسابيهْ، وماليهْ، وسلطانيهْ وفي القارعة ماهيهْ. وقراءةُ العامّةِ بالهاءِ فيهنَّ في الوقفِ والوصلِ معًا، لأنّهنَّ وقعنَ في المصحفِ بالهاءِ فلا تتركُ، وقرأ يعقوبُ بحذفِ الهاءِ في الوصلِ وإثباتها في الوقفِ فيهنَّ جمعٌ. ووافقهمْ حمزةُ في ماليهْ وسلطانيهْ، وماهيهْ في القارعةِ. وجملةُ هذهِ الحروفِ سبعةٌ ﴿إِنِّي ظَنَنتُ﴾ أيْ أيقنتُ وعلمتُ ﴿أَنِّي مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ﴾ أيْ في الآخرةِ ولمْ أنكرِ البعثَ ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾ أيْ مرضيّةٌ، كقولكَ: ماءٌ دافقٌ، أيْ مدفوقٌ ﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ﴾ أيْ عظيمةٌ

في النّفوسِ ﴿قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ﴾ أيْ قريبةُ التّناولِ، والقطوفُ جمعُ قطفٍ «بكسرِ القافِ» وهوَ ما يقطفُ منَ الثّمارِ ﴿كُلُواْ وَٱشْرَبُواْ﴾ أيْ يقالُ لهمْ ذلكَ ﴿هَنِيٓـًٔا﴾ لا تكديرَ فيهِ ولا تنغيصَ ﴿بِمَآ أَسْلَفْتُمْ﴾ قدّمتمْ منَ الأعمالِ الصّالحةِ ﴿فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ﴾ أيْ في الدّنيا.

قولهُ تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَـٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَـٰلَيْتَنِى لَمْ أُوتَ كِتَـٰبِيَهْ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾ يَـٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ﴾ يتمنّى الموتَ. ﴿هَلَكَ عَنِّى سُلْطَـٰنِيَهْ﴾ يعني الملكُ، وقيلَ: هلكتْ عنّي حجّتي ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ﴾ شدّوهُ بالأغلالِ ﴿ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ﴾ أي اجعلوهُ يصلى الجحيمَ ﴿ثُمَّ فِى سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا﴾ بذراعِ الملكِ ﴿فَٱسْلُكُوهُ﴾ أي اسلكوا فيهِ سلسلةً فتدخلُ في دبرهِ حتّى تخرجَ منْ فيهِ. ﴿إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾ أيْ على الإطعامِ، كما يوضعُ العطاءُ موضعَ الإعطاءِ، فبيّنَ أنّهُ عذّبَ على تركِ الإطعامِ وعلى الأمرِ بالبخلِ، كما عذّبَ بسببِ الكفرِ. والحضُّ: التّحريضُ والحثُّ ﴿فَلَيْسَ لَهُ ٱلْيَوْمَ هَـٰهُنَا حَمِيمٌ﴾ قريبٌ. يرقُّ لهُ ويدفعُ عنهُ. وهوَ مأخوذٌ منَ الحميمِ وهوَ الماءُ الحارُّ، كأنّهُ الصّديقُ الّذي يرقُّ ويحترقُ قلبهُ لهُ ﴿وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ﴾ الغسلينُ فعلينٌ منَ الغسلِ، فكأنّهُ ينغسلُ منْ أبدانهمْ، وهوَ صديدُ أهلِ النّارِ السّائلِ منْ جروحهمْ وفروجهمْ، وقالَ في موضعٍ آخرَ: ﴿لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ﴾ ويجوزُ أنْ يكونَ الضّريعُ منَ الغسلينِ ﴿لَّا يَأْكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلْخَـٰطِـُٔونَ﴾ أيِ المذنبونَ.

قوله تعالى: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ﴾ المعنى أقسمُ بالأشياءِ كلّها ما ترونَ منها وما لا ترونَ. وَ﴿لَآ﴾ صلةٌ. وقيلَ: هوَ ردٌّ لكلامٍ سبقَ، أيْ ليسَ الأمرُ كما يقولهُ المشركونَ ﴿إِنَّهُۥ﴾ يعني القرآنَ ﴿لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ يريدُ جبريلَ، دليلهُ: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ﴾، وقيلَ: الرّسولُ ها هنا محمّدٌ ﷺ، لقولهِ: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ﴾ وليسَ القرآنُ قولَ الرّسولِ ﷺ، إنّما هوَ منْ قولِ اللّهِ عزَّ وجلَّ ونسبَ القولُ إلى الرّسولِ لأنّهُ تاليهِ ومبلّغهُ والعاملُ بهِ، كقولنا: هذا قول مالك.

قولهُ تعالى: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ﴾ لأنّهُ مباينٌ لصنوفِ الشّعرِ كلّها ﴿قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ﴾ وما زائدةٌ والمعنى: قليلاً تؤمنونَ، وذلكَ القليلُ منْ إيمانهمْ هوَ أنّهمْ إذا سئلوا منْ خلقهمْ

قالوا: اللّهُ ﴿وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍۚ﴾ لأنّهُ وردَ بسببِ الشّياطينِ وشتمهمْ فلا ينزّلونَ شيئا على من يسبهم. وما زائدةٌ أيضا والمعنى: قليلاً تذكّرونَ، وقرأ ابنُ كثيرٍ وابنُ عامرٍ ويعقوبُ «مَا يُؤْمِنُونَ»، وَ «يَذَّكَّرُونَ» بالياءِ. الباقونَ بالتّاءِ لأنَّ الخطابَ قبلهُ وبعدهُ. أمّا قبلهُ فقولهُ: تبصرونَ وأما بعده: فما منكمْ الآية ﴿تَنزِيلٌ﴾ أيْ هوَ تنزيلٌ ﴿مِّن رَّبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾.

قولهُ تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ﴾ تقوّلَ أيْ تكلف وأتى بقول من قبل نفسه ﴿لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ﴾ أيْ بالقوّةِ والقدرةِ، أيْ لأخذناهُ بالقوّةِ. ومنْ صلةٌ زائدةٌ. وعبّرَ عنِ القوّةِ والقدرةِ باليمينِ لأن قوة كل شيء في ميامنهِ، ومنه قول الشماخ:

إذ ما رايةٌ رفعتْ لمجدٍ   تلقّاها عرابةُ باليمينِ

أيْ بالقوّةِ. عرابةُ اسمُ رجلٍ منَ الأنصارِ من الأوس.

وقيلَ: المعنى لقبضنا بيمينهِ عنِ التّصرّفِ ﴿ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ﴾ يعني نياطَ القلبِ، أيْ لأهلكناهُ ﴿فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَـٰجِزِينَ﴾ فما نفي وأحدٍ في معنى الجمع، فلذلكَ نعتهُ بالجمعِ، أيْ فما منكمْ قومٌ يحجزونَ عنهُ كقولهِ تعالى: ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦۚ﴾ هذا جمعٌ، لأنَّ بينَ لا تقعُ إلّا على اثنينِ فما زادَ، ومنْ زائدة، والحجز: المنع.

قولهُ تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ﴾ يعني القرآنَ ﴿لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ أيْ للخائفينَ الّذينَ يخشونَ الله. ونظيره: ﴿فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾، وقيلَ: المرادُ محمّدٌ ﷺ، أيْ هو تذكرة ورحمة ونجاة.

قولهُ تعالى: ﴿وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ﴾ بالقرآنِ ﴿وَإِنَّهُۥ لَحَسْرَةٌ﴾ يعني التّكذيبَ. والحسرةُ: النّدامةُ. وقيلَ: أيْ وإنَّ القرآنَ لحسرةٌ على الكافرينَ يومَ القيامةِ إذا رأوا ثوابَ منْ آمنَ بهِ. وقيلَ: هيَ حسرتهمْ في الدّنيا حينَ لمْ يقدروا على معارضتهِ عندَ تحدّيهمْ أنْ يأتوا بسورةٍ مثلهِ ﴿وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلْيَقِينِ﴾ يعني أنَّ القرآنَ العظيمَ تنزيلٌ منَ اللّهِ عزَّ وجلَّ، فهوَ لحقُّ اليقينِ. وقيلَ: أيْ حقـًا يقينـًا ليكوننَّ ذلكَ حسرةً عليهمْ يومَ القيامةِ ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾ أيْ فصلِّ لربّكَ، وقيلَ: أيْ نزّهِ اللّهَ عنِ السّوءِ والنقائص.

سورة المعارج

مكّيّةٌ باتّفاقٍ، وهيَ أربعٌ وأربعون آية.

بسمِ اللّهِ الرّحمنِ الرّحيم

قولهُ تعالى: ﴿سَأَلَ سَآبِلُۢ بِعَذَابٖ وَاقِعٖ﴾ قرأَ نافعٌ وابن عامر «سَالَ سايِلٌ» بغيرِ همزةٍ. الباقونَ بالهمزِ. فمنْ همزَ فهوَ منَ السّؤالِ. والباءُ يجوزُ أنْ تكونَ زائدةً، ويجوزُ أنْ تكونَ بمعنى عنْ. والسّؤالُ بمعنى الدّعاءِ، أيْ دعا داعٍ بعذابٍ، أيِ التمسَ ملتمسٌ عذابًا للكافرينَ، وهوَ واقعٌ بهمْ لا محالةَ يومَ القيامةِ. وعلى هذا فالباءُ زائدةٌ، كقولهِ تعالى: ﴿تَنۢبُتُ بِٱلدُّهۡنِ﴾، وقوله: ﴿وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ﴾ فهيَ تأكيدٌ. أيْ سألَ سائلٌ عذابًا واقعًا ﴿لِّلۡكَٰفِرِينَ﴾ أي على الكافرين. وهو النضر ابن الحارثِ حيثُ قالَ: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلۡحَقَّ مِنۡ عِندِكَ فَأَمۡطِرۡ عَلَيۡنَا حِجَارَةٗ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئۡتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٖ﴾ فنزلَ سؤالهُ، وقتلَ يومَ بدرٍ صبراً هوَ وعقبةُ بنُ أبي معيطٍ، لمْ يقتلْ صبراً غيرهما، وقيلَ: إنّهُ قولُ جماعةٍ منْ كفّارِ قريشٍ، وقيلَ: هوَ رسولُ اللّهِ ﷺ أيُّ دعا عليه السلام بالعقابِ وطلبَ أنْ يوقعهُ اللّهُ بالكفّارِ، وهوَ واقعٌ بهمْ لا محالةَ. وامتدَّ الكلامُ إلى قولهِ تعالى: ﴿فَٱصۡبِرۡ صَبۡرٗا جَمِيلًا﴾ أيْ لا تستعجلْ فإنّهُ قريبٌ. وإذا كانتِ الباءُ بمعنى عنْ- فكأنَّ سائلاً سألَ عنِ العذابِ بمنْ يقعُ أوْ متى يقع. قال الله تعالى: ﴿فَسۡـَٔلۡ بِهِۦ خَبِيرٗا﴾ أيْ سلْ عنهُ.

ومنْ قرأَ بغيرِ همزٍ فلهُ وجهانِ:

أحدهما: أنّهُ لغةٌ في السّؤالِ وهيَ لغةُ قريشٍ، تقولُ العربُ: سالَ يسالُ، مثلَ نالَ ينالُ وخافَ يخافُ.

والثّاني: أنْ يكونَ منَ السّيلانِ، ويؤيّدهُ قراءةُ ابنِ عبّاسٍ «سَالَ سَيْلٌ». قالَ عبدُ الرّحمنِ بنُ زيدٍ: سالَ وادٍ منْ أوديةِ جهنم يقال له: سائل.

﴿لِّلۡكَٰفِرِينَ﴾ اللّامُ في الكافرينَ متعلّقةٌ بـ واقعٍ. التّقديرُ بعذابٍ للكافرينَ واقعٍ، وقيلَ إنَّ اللّامَ بمعنى على، والمعنى: واقعٌ على الكافرينَ، وقيلَ: بمعنى عنْ، أيْ ليسَ لهُ دافعٌ عنِ

الكافرينَ منَ اللّهِ ﴿ذِى ٱلْمَعَارِجِ ۝٣﴾ أيْ ذي العلوِّ والدّرجاتِ الفواضلِ والنّعمِ، وقيلَ: هيَ معارجُ السّماءِ. وقيلَ: هيَ معارجُ الملائكةِ ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ﴾ قرأ الكسائيُّ «يَعْرُجُ» بالياءِ على إرادةِ الجمعِ، وقرأ الباقونَ بالتّاءِ على إرادةِ الجماعةِ. والرّوحُ جبريلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، دليلهُ قولهُ تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ﴾. وقيلَ: إنّهُ روحُ الميّتِ حينَ يقبضُ ﴿فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ۝٤﴾ ما بينَ أسفلِ الأرضِ إلى العرشِ مسيرةَ خمسينَ ألفَ سنةٍ، وأما قوله: في «ألم تنزيل» ﴿فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ فهو نزولَ الأمرِ منْ سماءِ الدّنيا إلى الأرضِ.

وقيلَ: هوَ يومُ القيامةِ، جعلهُ اللّهُ على الكافرينَ مقدارَ خمسينَ ألفَ سنةٍ، ثمَّ يدخلونَ النّارَ للاستقرارِ.

قلت: وهذا القولُ أحسنُ ما قيلَ في الآيةِ إنْ شاءَ اللّهُ، بدليلِ ما رواهُ أبو هريرةَ عنِ النّبيِّ ﷺ أنّهُ قالَ: «ما منْ رجلٍ لمْ يؤدِّ زكاةَ مالهِ إلّا جعلَ شجاعـاً منْ نارٍ تكوى بهِ جبهتهُ وظهرهُ وجنباهُ في يومٍ كانَ مقدارهُ خمسينَ ألفَ سنةٍ حتّى يقضيَ اللّهُ بينَ الناس».

قولهُ تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا﴾ أيْ على أذى قومكَ. والصّبرُ الجميلُ: هوَ الّذي لا جزعَ فيهِ ولا شكوى لغيرِ اللّهِ. وقيلَ: هيَ منسوخةٌ بآيةِ السّيفِ ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا﴾ يريدُ أهلَ مكّةَ يرونَ العذابَ بالنّارِ غيرَ كائنٍ لأنّهمْ لا يؤمنونَ بالبعث ﴿وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا﴾ لأنَّ ما هوَ آتٍ فهوَ قريبٌ.

قولهُ تعالى: ﴿يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ﴾ ما أذيبَ منَ الرّصاصِ والنّحاسِ والفضّةِ ﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ﴾ أيْ كالصّوفِ المصبوغِ ذي الألوانِ. وهوَ أضعفُ الصّوف، فشبّهَ الجبالَ بهِ في تلوّنها ألوانـاً، وأنّها تلينُ بعدَ الشّدّةِ، وتتفرّقُ بعدَ الاجتماع. وقيلَ: أوّلُ ما تتغيّرُ الجبالُ تصيرُ رملاً مهيلاً، ثمَّ عهنا منفوشا، ثم هباء منبثا ﴿وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا﴾ أيْ عنْ شأنهِ لشغلِ كلِّ إنسانٍ بنفسهِ، كما قالَ تعالى: ﴿لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ ﴿كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾.

قولهُ تعالى: ﴿يُبَصَّرُونَهُمْ﴾ يبصرُ بعضهمْ بعضـاً فيتعارفونَ ثمَّ يفرُّ بعضهمْ منْ بعضٍ.

فالضّميرُ في يبصّرونهمْ على هذا للكفّارِ، والميمُ للأقرباءِ. وقيلَ: الضّميرُ في يبصّرونهمْ للتّابعينَ، والهاءُ والميمُ للمتبوعينَ. وتمَّ الكلامُ عندَ قولهِ: يبصّرونهمْ. ثمَّ قالَ: ﴿يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ﴾ أيْ يتمنّى الكافرُ ﴿لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ﴾ يعني منْ عذابِ جهنّمَ ﴿بِبَنِيهِ ۝١١ وَصَٰحِبَتِهِۦ﴾ زوجتهِ ﴿وَأَخِيهِ ۝١٢ وَفَصِيلَتِهِ﴾ أيْ عشيرتهِ ﴿ٱلَّتِى تُـْٔوِيهِ﴾ تنصرهُ، والفصيلةُ دونَ القبيلةِ.

وهنا مسألةٌ، وهيَ: إذا حبّسَ على فصيلتهِ أوْ أوصى لها فمنِ ادّعى العمومَ حملهُ على العشيرةِ، ومنِ ادّعى الخصوصَ حملهُ على الآباءِ، الأدنى فالأدنى. والأوّلُ أكثرُ في النّطقِ. والله أعلم

﴿وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ أيْ ويودُّ لوْ فديَ بهمْ لافتدى ﴿ثُمَّ يُنجِيهِ﴾ أيْ يخلّصهُ ذلكَ الفداءُ.

قولهُ تعالى: ﴿كَلَّآ﴾ أي حقـًا ﴿إِنَّهَا لَظَىٰ﴾ أيْ هيَ جهنّمُ، أيْ تتلظّى نيرانها، كقوله تعالى: ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ﴾ واشتقاقُ لظى منَ التّلظّي. والتظاءُ النّارِ التهابها، وتلظّيها تلهّبها، وقيلَ: هيَ الدّركةُ الثّانيةُ منْ طبقاتِ جهنّمَ ﴿نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ﴾ قرأَ أبو جعفرٍ ونافعٌ وعاصمٌ في روايةِ أبي بكرٍ عنهُ وأبو عمرو وحمزةُ والكسائيُّ «نَزَّاعَةٌ» بالرّفعِ. وروى أبو عمرو عنْ عاصمٍ ﴿نَزَّاعَةً﴾ بالنّصبِ. فمنْ رفعَ فلهُ أوجهٍ: منها أنْ تجعلَ لظى خبرَ ﴿إِنَّ﴾ وترفعَ ﴿نَزَّاعَةٌ﴾ بإضمارِ هيَ، ومنها أن تكون ﴿نَزَّاعَةٌ﴾ بدل من لظى و لظى خبر إنَّ، ومنْ نصبَ نزّاعةً فعلى الحالِ المؤكّدةِ، كما قالَ: ﴿وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا﴾.

وَ«الشّوى». جمعُ شواةٍ وهيَ جلدةُ الرّأسِ ﴿تَدْعُواْ مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ﴾ أيْ تدعو لظى منْ أدبرَ في الدّنيا عنْ طاعةِ اللّهِ وتولّى عنِ الإيمانِ، وقيلَ: تدعو الكافرينَ والمنافقينَ بأسمائهمْ بلسانٍ فصيحٍ، وقيلَ: الدّاعي خزنةُ جهنّمَ، أضيفَ دعاؤهمْ إليها ﴿وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰٓ﴾ أيْ جمعَ المالَ فجعلهُ في وعائهِ ومنعَ منهُ حقَّ اللّهِ تعالى، فكانَ جموعـًا منوعـًا.

قولهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ﴾ الكافرَ ﴿خُلِقَ هَلُوعًا﴾ ثم فسّره ﴿إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ۝٢٠ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا﴾.

قولهُ تعالى: ﴿إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ﴾ دلَّ على أنَّ ما قبلهُ في الكفّارِ، كقولهِ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ﴾ أيْ على مواقيتها. وقيلَ: همُ الّذينَ إذا صلّوا لمْ يلتفتوا يميناً ولا شمالاً. والدّائمُ السّاكنُ، ومنهُ: نهيَ عنِ البولِ في الماءِ الدّائم، أيِ السّاكنِ. وقيلَ: همُ الّذينَ يكثرونَ فعلَ التّطوّعِ منها ﴿وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ﴾ يريدُ الزّكاةَ المفروضةَ، وقيلَ: سوى الزّكاةِ ﴿لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ﴾ تقدّمَ في الذّارياتِ ﴿وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ أيْ بيوم الجزاءِ ﴿وَٱلَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ﴾ أيْ خائفونَ ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ﴾ لا يأمنهُ أحدٌ ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ۝٢٩ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝٣٠ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ﴾ تقدّمَ القولُ فيهِ في سورةِ ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ﴾ تقدّمَ أيضاً ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَٰدَٰتِهِمْ قَآئِمُونَ﴾ على منْ كانتْ عليهِ منْ قريبٍ أوْ بعيدٍ، لا يكتمونها ولا يغيّرونها. وقيلَ: بشهاداتهمْ أنَّ اللّهَ واحدٌ لا شريكَ لهُ وأنَّ محمّداً عبدهُ ورسولهُ.

وقريء «لِأَمَانَتِهِمْ» على التّوحيدِ. وهيَ قراءةُ ابنِ كثيرٍ، فالأمانةُ اسمُ جنسٍ، فيدخلُ فيها أماناتُ الدّينِ، فإنَّ الشّرائعَ أماناتٌ ائتمنَ اللّهُ عليها عبادهُ. ويدخلُ فيها أماناتُ النّاسِ منَ الودائعِ، وقرأ الدّوريُّ عنْ أبي عمرو ويعقوبَ ﴿بِشَهَٰدَٰتِهِمْ﴾ جمعاً. الباقونَ «بِشَهَادَتِهِمْ» على التّوحيدِ، لأنّها تؤدّي عنِ الجمعِ. والمصدرُ قدْ يفردُ وإنْ أضيفَ إلى جمعٍ، كقولهِ تعالى: ﴿إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ﴾، ويدلُّ على أنّها «بِشَهَادَتِهِمْ» توحيداً قوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِ﴾ ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ على وضوئها وركوعها وسجودها. وقيلَ: التّطوّعُ، فالدّوامُ خلافُ المحافظةِ. فالدّوامُ يرجعُ إلى نفسِ الصّلواتِ لا يشتغلونَ عنها بشيءٍ والمحافظةُ إلى أحوالها فيراعون إسباغَ الوضوءِ لها ومواقيتها، ويقيموا أركانها، ويكملوها بسننها وآدابها، ويحفظوها منَ الإحباطِ باقترابِ المأثمِ. ﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِى جَنَّٰتٍ مُّكْرَمُونَ﴾ أيْ أكرمهمُ الله فيها بأنواع الكرامات.

قولهُ تعالى: ﴿فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ﴾ مسرعينَ في التّكذيبِ لكَ. وقيلَ: معرضينَ. وقبلكَ أيْ نحوكَ ﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ عِزِينَ﴾ أيْ عنْ يمينِ النّبيِّ ﷺ

وشمالهِ حلقاً حلقاً وجماعاتٍ. والعزينُ: جماعاتٌ في تفرقةٍ. ومنهُ حديثَ النّبيِّ ﷺ أنّهُ خرجَ على أصحابهِ فرآهمْ حلقاً فقالَ: «مالي أراكمْ عزينِ ألا تصفّونَ كما تصفُّ الملائكةُ عندَ ربّها- قالوا: وكيفَ تصفُّ الملائكةُ عندَ ربّها؟ قالَ-: يتمّونَ الصّفوفَ الأولَ ويتراصّونَ في الصّفِّ» خرّجهُ مسلمٌ وغيرهُ ﴿أَيَطۡمَعُ كُلُّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُمۡ أَن يُدۡخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٖ﴾ بقولهم: لئنْ دخلَ هؤلاء الجنة لندخلنها قبلهم. ﴿كَلَّآ﴾ لا يدخلونها. ثمَّ ابتدأَ فقالَ: ﴿إِنَّا خَلَقۡنَٰهُم مِّمَّا يَعۡلَمُونَ﴾ منْ نطفةٍ ثمَّ منْ علقةٍ ثمَّ منْ مضغةٍ فكيف يستهزئونَ بفقراءِ المسلمينَ ويتكبّرونَ عليهمْ. وقد خلقوا ممّا يعلمونَ منَ القذرِ.

ورويَ أنَّ مطرّفَ بنَ عبدِ اللّهِ بنِ الشّخّيرِ رأى المهلب ابن أبي صفرةَ يتبخترُ في مطرفِ خزٍّ وجبّةِ خزٍّ فقالَ: لهُ: يا عبدَ اللّهِ، ما هذه المشيةُ التي يبغضها الله؟! فقال له: أتعرفني؟ قال نعم، أولك نطفةٌ مذرةٌ، وآخركَ جيفةٌ قذرةٌ، وأنتَ فيما بينَ ذلكَ تحملُ العذرةَ. فمضى المهلّبُ وتركَ مشيتهُ.

قولهُ تعالى: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ﴾ أيْ أقسمُ. وفلا صلةٌ ﴿بِرَبِّ ٱلۡمَشَٰرِقِ وَٱلۡمَغَٰرِبِ﴾ هيَ مشارقُ الشّمسِ ومغاربها ﴿إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ۝٤٠ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ﴾ يقولُ: نقدرُ على إهلاكهمْ والذّهابِ بهمْ والمجيءِ بخيرٍ منهمْ في الفضلِ والطّوعِ والمالِ ﴿وَمَا نَحۡنُ بِمَسۡبُوقِينَ﴾ أيْ لا يفوتنا شيء ولا يعجزنا أمر نريده.

قولهُ تعالى: ﴿فَذَرۡهُمۡ يَخُوضُواْ﴾ في باطلهمْ ﴿وَيَلۡعَبُواْ﴾ في دنياهمْ ﴿حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ يَوۡمَهُمُ ٱلَّذِي يُوعَدُونَ﴾ واشتغلْ أنتَ بما أمرتَ بهِ ولا يعظمنَّ عليكَ شركهمْ، فإنَّ لهمْ يوماً يلقونَ فيهِ ما وعدوا، وهذهِ الآيةُ منسوخةٌ بآيةِ السيف.

قولهُ تعالى: ﴿يَوۡمَ يَخۡرُجُونَ مِنَ ٱلۡأَجۡدَاثِ﴾ القبورُ، واحدها جدثٌ ﴿سِرَاعٗا﴾ حينَ يسمعونَ الصّيحةَ الآخرةَ إلى إجابةِ الدّاعي ﴿كَأَنَّهُمۡ إِلَىٰ نُصُبٖ﴾ قراءةُ العامّةِ بفتحِ النّونِ وجزمِ الصّادِ. وقرأ ابنُ عامرٍ وحفصٌ بضمِّ النّونِ والصّادِ، والنَّصْبُ والنُّصُبُ لغتانِ مثلَ الضَعفِ، والضُعفِ، والنُّصُبُ ما نُصِبَ فعُبِدَ منْ دونِ اللّهِ، ومنهُ قولهُ تعالى: ﴿وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ﴾، وقيلَ: إلى شيء منصوبٍ، علمٌ أوْ رايةٌ ﴿يُوفِضُونَ﴾ يسرعونَ والإيفاضُ الإسراعُ.

قولهُ تعالى: ﴿خَٰشِعَةً أَبۡصَٰرُهُمۡ﴾ أيْ ذليلةٌ خاضعةٌ، لا يرفعونها لما يتوقّعونهُ منْ عذابِ اللّهِ ﴿تَرۡهَقُهُمۡ ذِلَّةٞۚ﴾ أيْ يغشاهمُ الهوانُ. وسوادُ الوجوهِ. والرّهقُ: الغشيانُ، ومنهُ غلامٌ مراهقٌ إذا غشيَ الاحتلامَ. رهقهُ بالكسرِ يرهقهُ رهقًا أيْ غشيهُ، ومنهُ قولهُ تعالى: ﴿وَلَا يَرۡهَقُ وُجُوهَهُمۡ قَتَرٞ وَلَا ذِلَّةٌۚ﴾ ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمُ ٱلَّذِي كَانُواْ يُوعَدُونَ﴾ أيْ يوعدونهُ في الدّنيا أنَّ لهمْ فيهِ العذابَ.

سورة نوحٍ

مكّيّةٌ، وهيَ ثمانٍ وعشرونَ آيةً.

بسمِ اللّهِ الرّحمنِ الرّحيمِ

قولهُ تعالى: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا﴾ وهو أوّلُ رسولٍ أرسلَ، فلذلكَ لمّا كفروا أغرقَ اللّهُ أهلَ الأرضِ جميعـًا، إلى قومهِ ﴿أَنۡ أَنذِرۡ قَوۡمَكَ﴾ أيْ بأنْ أنذرْ قومكَ ﴿مِن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ يعني ما نزلَ عليهمْ منَ الطّوفانِ ثم عذابَ النّارِ في الآخرةِ.

قولهُ تعالى: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّي لَكُمۡ نَذِيرٞ﴾ أيْ مخوّفٌ ﴿مُّبِينٌ﴾ بلسانكمُ الذي تعرفونه ﴿أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ﴾ اعبدوا أيْ وحّدوا. واتّقوا: خافوا ﴿وَأَطِيعُونِ﴾ أيْ فيما آمركمْ بهِ ﴿يَغۡفِرۡ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمۡ﴾ جزمَ يغفرْ بجوابِ الأمر. ومنْ صلةٌ زائدةٌ. ومعنى الكلامِ يغفرْ لكمْ ذنوبكمْ، وقيلَ: لا يصحُّ كونها زائدةً، وإنّما هيَ هنا للتّبعيضِ، وهوَ بعضُ الذّنوبِ، وهوَ ما لا يتعلّقُ بحقوقِ المخلوقينَ ﴿وَيُؤَخِّرۡكُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمًّىۚ﴾ في عافيةٍ، فلا يعاقبكمْ بالعقوباتِ والشّدائدِ ﴿إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ﴾ أيْ إذا جاءَ الموتُ لا يؤخّرُ بعذابٍ كانَ أوْ بغيرِ عذابٍ. وأضافَ الأجلَ إليهِ سبحانهُ لأنّهُ الّذي أثبتهُ. وقدْ يضافُ إلى القومِ، كقولهِ تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ﴾؛ لأنه مضروب لهم ﴿لَا يُؤَخَّرُۚ لَوۡ كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ لوْ بمعنى «إنْ» أيْ إنْ كنتمْ تعلمونَ.

قولهُ تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوۡتُ قَوۡمِي لَيۡلٗا وَنَهَارٗا﴾ أيْ سراً وجهراً. وقيلَ: أيْ واصلتُ الدّعاءَ ﴿فَلَمۡ يَزِدۡهُمۡ دُعَآءِيٓ إِلَّا فِرَارٗا﴾ أيْ تباعداً منَ الإيمانِ. وقراءةُ العامّةِ بفتحِ الياءِ منْ ﴿دُعَآءِيٓ﴾ وأسكنها الكوفيّونَ ويعقوبُ والدّوريُّ عنْ أبي عمرو.

قولهُ تعالى: ﴿وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوۡتُهُمۡ﴾ إلى الإيمان ﴿جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمۡ فِيٓ ءَاذَانِهِمۡ﴾ لئلّا يسمعوا دعائي ﴿وَٱسۡتَغۡشَوۡاْ ثِيَابَهُمۡ﴾ أيْ غطّوا بها وجوههمْ لئلّا يروهُ ﴿وَأَصَرُّواْ﴾ أيْ على الكفرِ فلمْ يتوبوا ﴿وَٱسۡتَكۡبَرُواْ﴾ عنْ قبولِ الحقِّ، لأنّهمْ قالوا: أنؤمنُ لكَ واتّبعكَ الأرذلونَ ﴿ٱسۡتِكۡبَارٗا﴾ تفخيم.

قولهُ تعالى: ﴿ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا﴾ أيْ مظهراً لهمُ الدّعوةَ ﴿ثُمَّ إِنِّيٓ أَعۡلَنتُ لَهُمۡ وَأَسۡرَرۡتُ لَهُمۡ إِسۡرَارٗا﴾ أيْ لمْ أبقِ مجهوداً، وفتحَ الياءَ منْ ﴿إِنِّيٓ أَعۡلَنتُ لَهُمۡ﴾ الحرميّونَ وأبو عمرو وأسكنَ الباقونَ.

قولهُ تعالى: ﴿فَقُلۡتُ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارٗا ١٠ يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا ١١ وَيُمۡدِدۡكُم بِأَمۡوَٰلٖ وَبَنِينَ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ جَنَّٰتٖ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ أَنۡهَٰرٗا ١٢﴾، فيهِ ثلاثُ مسائلَ:

الأولى: قولهُ تعالى: ﴿فَقُلۡتُ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ﴾ أيْ سلوهُ المغفرةَ منْ ذنوبكمُ السّالفةِ بإخلاصِ الإيمانِ ﴿إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارٗا﴾ وهذا منهُ ترغيبٌ في التوبة.

الثانية- قولهُ تعالى: ﴿يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا﴾ أيْ يرسلْ ماءَ السّماءِ، ففيهِ إضمارٌ. وقيلَ: السّماءُ المطر، أي يرسل المطر. قالَ الشّاعرُ:

إذا سقطَ السّماءُ بأرضِ قومٍ رعيناهُ وإنْ كانوا غضابا

ومدراراً ذا غيثٍ كثيرٍ. وجزمَ ﴿يُرۡسِلِ﴾ جواباً للأمرِ، قالَ قتادةُ: علمَ نبيُّ اللّهِ ﷺ أنّهمْ أهلُ حرصٍ على الدّنيا فقالَ: «هلمّوا إلى طاعةِ اللّهِ فإنَّ في طاعةِ اللّهِ دركَ الدّنيا والآخرةِ».

الثالثة- في هذهِ الآيةِ والّتي في هودٍ دليلٌ على أنَّ الاستغفارَ يستنزلُ بهِ الرّزقُ والأمطارُ. قالَ الشّعبيُّ: خرجَ عمرُ يستسقي فلمْ يزدْ على الاستغفارِ حتّى رجعَ، فأمطروا فقالوا: ما رأيناكَ استسقيتَ؟ فقالَ: لقدْ طلبتُ المطرَ بمجاديحِ السّماءِ الّتي يستنزلُ بها المطرُ، ثمَّ قرأَ: ﴿ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارٗا ١٠ يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا﴾.

وقالَ ابنُ صبيحٍ: شكا رجلٌ إلى الحسنِ الجدوبةَ فقالَ: لهُ: استغفرِ اللّهَ. وشكا آخرُ إليهِ الفقرَ فقالَ: لهُ: استغفرِ اللّهَ. وقالَ لهُ آخرُ. ادعُ اللّهَ أنْ يرزقني ولداً، فقالَ: لهُ: استغفرِ اللّهَ. وشكا إليهِ آخرُ جفافَ بستانهِ، فقالَ: لهُ: استغفرِ اللّهَ. فقلنا لهُ في ذلكَ؟ فقالَ: ما قلتُ: منْ عندي شيئاً، إنَّ اللّهَ تعالى يقولُ في سورةِ نوحٍ: ﴿ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارٗا ١٠ يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا ١١ وَيُمۡدِدۡكُم بِأَمۡوَٰلٖ وَبَنِينَ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ جَنَّٰتٖ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ أَنۡهَٰرٗا ١٢﴾ وقدْ مضى في سورةِ آلِ عمرانَ كيفيّةُ الاستغفارِ، وإنَّ ذلكَ يكونُ عنْ إخلاصٍ

وإقلاعٍ منَ الذّنوبِ. وهوَ الأصلُ في الإجابة.

قولهُ تعالى: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ۝١٣ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾

قيلَ: ما لكمْ لا تبالونَ للّهِ عظمةً وقدرةً على أحدكمْ بالعقوبةِ. يقولونَ: لمْ أرجُ: لمْ أبالِ. والوقارُ: العظمةُ. والتّوقيرُ: التّعظيمُ، ثمَّ دلّهمْ على ذلكَ فقالَ: ﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾ أيْ جعلَ لكمْ في أنفسكمْ آيةً تدلُّ على توحيدهِ. نطفةً ثمَّ علقةً ثمَّ مضغةً، أيْ طوراً بعدَ طورٍ إلى تمامِ الخلقِ، وقيلَ: أطواراً صبياناً، ثمَّ شباباً، ثم شيوخا وضعفاء، ثم أقوياء.

قولهُ تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا﴾ بعضها فوقَ بعضٍ، كلُّ سماءٍ مطبقةٍ على الأخرى كالقبابِ، وقولهُ: ألمْ تروا على جهةِ الإخبارِ لا المعاينةِ ﴿وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا﴾ أيْ في سماءِ الدّنيا، وإذا كانَ في إحداهنَّ فهوَ فيهنَّ ﴿وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا﴾ يعني مصباحاً لأهلِ الأرضِ ليتوصّلوا إلى التّصرّفِ لمعايشهمْ.

قولهُ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ۝١٧ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا﴾ يعني آدمَ عليه السلام خلقهُ منْ أديمِ الأرضِ كلّها، وقيلَ: أيْ أنبتَ لكمْ منَ الأرضِ النّباتَ ﴿ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا﴾ أيْ عندَ موتكمْ بالدّفنِ ﴿وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا﴾ بالنشور للبعث يوم القيامة ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا﴾ أيْ مبسوطةً ﴿لِّتَسْلُكُواْ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا﴾ السّبلُ: الطّرقُ. والفجاجُ جمعُ فجٍّ، وهوَ الطّريقُ الواسعةُ.

قولهُ تعالى: ﴿قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي﴾ شكاهمْ إلى اللّهِ تعالى، وأنّهمْ عصوهُ ولمْ يتّبعوهُ فيما أمرهمْ بهِ منَ الإيمانِ ﴿وَٱتَّبَعُواْ مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارًا﴾ يعني كبراءهمْ وأغنياءهمُ الّذينَ لمْ يزدهمْ كفرهمْ وأموالهمْ وأولادهمْ إلّا ضلالاً في الدّنيا وهلاكاً في الآخرةِ. وقرأ أهل المدنية والشّام وعاصمٌ ﴿وَوَلَدُهُۥٓ﴾ بفتحِ الواوِ واللّامِ. الباقونَ «وُلْدُهُ» بضمِّ الواوِ وسكونِ اللّامِ وهيَ لغةٌ في الولدِ، ويجوزُ أنْ يكونَ جمعاً للولدِ، كالفلك فإنه واحد وجمع.

قولهُ تعالى: ﴿وَمَكَرُواْ مَكْرًا كُبَّارًا﴾ أيْ كبيراً عظيماً. يقالُ: كبيرٌ وكبارٌ وكبّارٌ، مثلُ عجيبٍ وعجابٍ وعجّابٍ بمعنى.

واختلفَ في مكرهمْ ما هوَ؟ فقيلَ: تحريشهمْ سفلتهمْ على قتلِ نوحٍ. وقيلَ: هوَ قولُ كبرائهمْ لأتباعهمْ: ﴿لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ وهيَ أصنامٌ وصورٌ، كانَ قومُ نوحٍ يعبدونها ثمَّ عبدتها العربُ. وهذا قولُ الجمهورِ.

وهذهِ الأصنامُ أسماءُ رجالٍ صالحينَ منْ قومِ نوحٍ، فلمّا هلكوا أوحى الشّيطانُ إلى قومهمْ أنِ انصبوا في مجالسهمُ الّتي كانوا يجلسونَ فيها أنصاباً وسمّوها بأسمائهمْ تذكروهمْ بها، ففعلوا، فلمْ تعبدْ حتّى إذا هلكَ أولئكَ ونسخَ العلمُ عبدتْ منْ دونِ اللّهِ، وبهذا المعنى فسّرَ ما جاءَ في صحيحِ مسلمٍ منْ حديثِ عائشةَ: أنَّ أمَّ حبيبةَ وأمَّ سلمةَ ذكرتا كنيسةً رأينها بالحبشةِ تسمّى ماريةَ، فيها تصاويرُ لرسولِ اللّهِ ﷺ، فقالَ: رسولُ اللّهِ ﷺ: «إنَّ أولئكَ إذا كانَ فيهمُ الرّجلُ الصّالحُ فماتَ بنوا على قبرهِ مسجداً وصوّروا فيهِ تلكَ الصّورَ أولئكَ شرارُ الخلقِ عندَ اللّهِ يومَ القيامةِ».

وقرأ نافعٌ ﴿وَلَا تَذَرُنَّ وُدًّا﴾ بضمِ الواوِ. وفتحها الباقونَ ﴿وَقَدْ أَضَلُّواْ كَثِيرًاۖ﴾ هذا منْ قولِ نوحٍ، أيْ أضلَّ كبراؤهمْ كثيراً منْ أتباعهمْ، فهوَ عطفٌ على قولهِ: ﴿وَمَكَرُواْ مَكْرًا كُبَّارًا﴾. وقيلَ: إنَّ الأصنامَ أضلّوا كثيراً أيْ ضلَّ بسببها كثيرٌ، نظيرهُ قولُ إبراهيمَ: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِۖ﴾ فأجرى عليهمْ وصفَ ما يعقلُ، لاعتقادِ الكفّارِ فيهمْ ذلكَ ﴿وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَٰلًا﴾ أيْ عذاباً، كقولهِ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ﴾ وقيلَ إلّا خسراناً. وقيلَ إلّا فتنةً بالمالِ والولدِ. وهو محتمل.

قولهُ تعالى: ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٰٔتِهِمْ أُغْرِقُواْ﴾ ﴿مَا﴾ صلةٌ مؤكّدةٌ، والمعنى منْ أجلِ خطاياهم، وقراءةُ أبي عمرو خطاياهمْ على جمعِ التكسير، الواحدةُ خطية. الباقونَ خطيئاتهمْ على جمعِ السّلامةِ. قالَ أبو عمرو: قومٌ كفروا ألفَ سنةٍ فلمْ يكنْ لهمْ إلّا خطيّاتٌ، يريدُ أنَّ الخطايا أكثرُ منَ الخطيّاتِ. وقالَ قومٌ: خطايا وخطيّاتٌ واحدٌ، جمعانِ مستعملانِ في الكثرةِ والقلّةِ، واستدلّوا بقولهِ تعالى: ﴿مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِۗ﴾، وقالَ الشّاعرُ:

لنا الجفناتُ الغرُّ يلمعنَ بالضّحى وأسيافنا يقطرن من نجدة دما

﴿فَأُدْخِلُواْ نَارًا﴾ أيْ بعدَ إغراقهمْ، وهذا يدلُّ على عذابِ القبرِ. ومنكروهُ يقولونَ:

صاروا مستحقّينَ دخولَ النّارِ، أوْ عرضَ عليهمْ أماكنهمْ منَ النّارِ، كما قالَ تعالى: ﴿ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا غُدُوّٗا وَعَشِيّٗاۚ﴾ ﴿فَلَمۡ يَجِدُواْ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارٗا﴾ أيْ منْ يدفعُ عنهم العذاب.

قولهُ تعالى: ﴿وَقَالَ نُوحٞ رَّبِّ لَا تَذَرۡ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ٢٦ إِنَّكَ إِن تَذَرۡهُمۡ يُضِلُّواْ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓاْ إِلَّا فَاجِرٗا كَفَّارٗا﴾، فيهِ أربعُ مسائلَ:

الأولى: دعا عليهمْ حينَ يئسَ منَ اتّباعهمْ إيّاهُ، أو بعدَ أنْ أوحى اللّهُ إليهِ: ﴿أَنَّهُۥ لَن يُؤۡمِنَ مِن قَوۡمِكَ إِلَّا مَن قَدۡ ءَامَنَ﴾ فأجابَ اللّهُ دعوتهُ وأغرقَ أمّتهُ، وهذا كقولِ النّبيِّ ﷺ: «اللّهمَّ منزّلَ الكتابِ سريعَ الحسابِ وهازمَ الأحزابِ اهزمهمْ وزلزلهمْ».

الثانية- قالَ ابنُ العربيِّ: دعا نوحٌ على الكافرينَ أجمعينَ، ودعا النّبيُّ ﷺ على منْ تحزّبَ على المؤمنينَ وألّبَ عليهمْ. وكانَ هذا أصلاً في الدّعاءِ على الكافرينَ في الجملةِ، فأمّا كافرٌ معيّنٌ لمْ تعلمْ خاتمتهُ فلا يدعى عليهِ، لأنَّ مآلهُ عندنا مجهولٌ، وربّما كانَ عندَ اللّهِ معلومَ الخاتمةِ بالسّعادةِ. وإنّما خصَّ النّبيُّ ﷺ بالدّعاءِ عتبةَ وشيبةَ وأصحابهما، لعلمهِ بمآلهمْ وما كشفَ لهُ منَ الغطاءِ عنْ حالهمْ. والله أعلم.

الثالثة: قالَ ابنُ العربيِّ: إنْ قيلَ لمَ جعلَ نوحٌ دعوتهُ على قومهِ سبباً لتوقّفهِ عنْ طلبِ الشّفاعةِ للخلقِ منَ اللّهِ في الآخرةِ؟ قلنا قالَ النّاسُ في ذلكَ وجهانِ:

أحدهما- أنه خافَ أنْ يعاتبَ ويقالَ: دعوتَ على الكفّارِ بالأمسِ وتشفعُ لهمُ اليومَ.

الثّاني- أنّهُ دعا غضباً بغيرِ نصٍّ ولا إذنٍ صريحٍ في ذلكَ، فخافَ الدّركَ فيهِ يومَ القيامةِ، كما قالَ موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: «إنّي قتلتُ نفساً لمْ أومر بقتلها». قال: وبهذا أقول.

قلت: إنْ كانَ لمْ يؤمرْ بالدّعاءِ نصاً فقدْ قيلَ لهُ: ﴿أَنَّهُۥ لَن يُؤۡمِنَ مِن قَوۡمِكَ إِلَّا مَن قَدۡ ءَامَنَ﴾ فأعلمَ عواقبهمْ فدعا عليهمْ بالهلاكِ، كما دعا نبيّنا ﷺ على شيبةَ وعتبةَ ونظرائهمْ فقالَ: «اللّهمَّ عليكَ بهمْ» لمّا أعلمَ عواقبهمْ، وعلى هذا يكونُ فيهِ معنى الأمرِ بالدّعاءِ. والله أعلم.

الرابعة- قولهُ تعالى: ﴿دَيَّارًا﴾ أيْ منْ يسكنُ الدّيارَ.

قولهُ تعالى: ﴿رَّبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ﴾ دعا لنفسهِ ولوالديهِ وكانا مؤمنينِ.

وقيلَ: كانَ بينهُ وبينَ آدمَ عشرةُ آباءَ كلّهمْ مؤمنونَ. وقالَ ابنُ عبّاسٍ: لمْ يكفرْ لنوحٍ والدٌ فيما بينهُ وبينَ آدمَ عليهما السّلامُ ﴿وَلِمَن دَخَلَ بَيۡتِيَ مُؤۡمِنٗا﴾ أيْ مسجدي ومصلّايَ مصلّيًا مصدّقًا باللّهِ. وكانَ إنّما يدخلُ بيوتَ الأنبياءِ منْ آمن منهم فجعل المسجد سببا للدعاء بالمغفرة. وقدْ قالَ النّبيُّ ﷺ: «الملائكةُ تصلّي على أحدكمْ ما دامَ في مجلسهِ الّذي صلّى فيهِ ما لمْ يحدثْ فيهِ تقولُ اللّهمَّ اغفرْ لهُ اللّهمَّ ارحمهُ» الحديثَ. وقدْ تقدّمَ.

﴿وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۖ﴾ عامّةً إلى يوم القيامةِ ﴿وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أيِ الكافرينَ ﴿إِلَّا تَبَارَۢا﴾ إلّا هلاكًا، فهيَ عامّةٌ في كلِّ كافرٍ ومشركٍ. وقيلَ: أرادَ مشركي قومهِ. والتّبارُ: الهلاكُ. وقيلَ: الخسرانُ، ومنهُ قولهُ تعالى: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٞ مَّا هُمۡ فِيهِ﴾.

سورة الجن

مكّيّةٌ في قولِ الجميعِ. وهيَ ثمان وعشرون آية

بسمِ اللّهِ الرّحمنِ الرّحيمِ

قولهُ تعالى: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓا۟ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا ۝٢ وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا﴾، فيهِ خمسُ مسائلَ:

الأولى: قولهُ تعالى: قلْ أوحيَ إليَّ أيْ قلْ يا محمّدُ لأمّتكَ: أوحى اللّهُ إليَّ على لسانِ جبريلَ أنّهُ استمعَ إليَّ نفرٌ منَ الجنِّ وما كانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ عالمـاً بهِ قبلَ أنْ أوحى إليهِ.

الثانية- واختلفَ هلْ رآهمُ النّبيُّ ﷺ أمْ لا؟ فظاهرُ القرآنِ يدلُّ على أنّهُ لمْ يرهمْ، لقولهِ تعالى: ﴿ٱسْتَمَعَ﴾، وقولهِ تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾، وفي مسلمٍ عنِ ابنِ عبّاسٍ قالَ: ما قرأَ رسولُ اللّهِ ﷺ على الجنِّ وما رآهمْ، انطلقَ رسولُ اللّهِ ﷺ في طائفةٍ منْ أصحابهِ عامدينَ إلى سوقِ عكاظٍ، وقدْ حيلَ بينَ الشّياطينِ وبينَ خبرِ السّماءِ، وأرسلتْ عليهمُ الشّهبُ، فرجعتِ الشّياطينُ إلى قومهمْ، فقالوا: ما لكمْ؟ قالوا: حيلَ بيننا وبينَ خبرِ السّماءِ، وأرسلتْ علينا الشّهبُ! قالوا: ما ذاكَ إلّا من شيءٍ حدثَ، فاضربوا مشارقَ الأرضِ ومغاربها، فانظروا ما هذا الّذي حالَ بيننا وبينَ خبرِ السّماءِ؟ فانطلقوا يضربونَ مشارقَ الأرضِ ومغاربها، فمرَّ النّفرُ الّذينَ أخذوا نحوَ تهامةَ وهوَ بنخلةَ عامدينَ إلى سوقِ عكاظٍ، وهوَ يصلّي بأصحابهِ صلاةَ الفجرِ، فلمّا سمعوا القرآنَ استمعوا لهُ وقالوا: هذا الّذي حالَ بيننا وبينَ خبرِ السّماءِ. فرجعوا إلى قومهمْ فقالوا: يا قومنا إنّا سمعنا قرآنـاً عجبـاً. يهدي إلى الرّشدِ فآمنّا بهِ ولنْ نشركَ بربّنا أحداً فأنزلَ اللّهُ عز وجل على نبيّهِ محمّدٍ ﷺ: قلْ أوحيَ إليَّ أنّهُ استمعَ نفرٌ منَ الجنِّ.

وقيلَ: أنَّ النّبيَّ ﷺ رأى الجنَّ ليلةَ الجنِّ وهوَ أثبتُ، قالَ علقمةُ: أنا سألتُ ابنَ مسعودٍ فقلت: هلْ شهدَ أحدٌ منكمْ معَ رسولِ اللّهِ ﷺ ليلةَ الجنِّ؟ قالَ: لا، ولكنّا كنّا معَ رسولِ اللّهِ ﷺ ذاتَ ليلةٍ ففقدناهُ، فالتمسناهُ في الأوديةِ والشّعابِ، فقلنا استطيرَ أوِ اغتيلَ، قالَ: فبتنا بشرِّ

ليلةٍ باتَ بها قومٌ، فلمّا أصبحَ إذا هو يجيءُ منْ قبلِ حراءَ، فقلنا: يا رسولَ اللّهِ! فقدناكَ وطلبناكَ فلمْ نجدكَ، فبتنا بشرِّ ليلةٍ باتَ بها قومٌ، فقالَ: «أتاني داعي الجنِّ فذهبت معه فقرأتُ عليهمُ القرآنَ» فانطلقَ بنا فأرانا آثارهمْ وآثارَ نيرانهمْ، وسألوهُ الزّادَ وكانوا منْ جنِّ الجزيرةِ، فقالَ: «لكمْ كلُّ عظمٍ ذكرَ اسمُ اللّهِ عليهِ يقعُ في أيديكمْ أوفرَ ما يكونُ لحمـًا، وكلُّ بعرةٍ علفٌ لدوابّكمْ- فقالَ: رسولُ اللّهِ ﷺ: فلا تستنجوا بهما، فإنّهما طعامُ إخوانكمُ الجنِّ».

قالَ ابنُ العربيِّ: وابنُ مسعودٍ أعرفُ منَ ابنِ عبّاسٍ، لأنّهُ شاهدهُ وابنُ عبّاسٍ سمعهُ وليسَ الخبرُ كالمعاينةِ.

وقدْ قيلَ: إنَّ الجنَّ أتوا رسولَ اللّهِ ﷺ دفعتينِ: إحداهما بمكّةَ وهيَ الّتي ذكرها ابنُ مسعودٍ، والثّانيةُ بنخلةَ وهيَ الّتي ذكرها ابنُ عبّاسٍ.

الثالثة- قدْ مضى الكلامُ في الماءِ في سورةِ الحجرِ وما يستنجى بهِ في سورةِ براءةَ فلا معنى للإعادةِ.

الرابعة- واختلفَ أهلُ العلمِ في أصلِ الجنِّ، فقيلَ: الجنَّ ولدُ إبليسَ، والإنسَ ولدُ آدمَ، ومنْ هؤلاءِ وهؤلاءِ مؤمنونَ وكافرونَ، وهمْ شركاءُ في الثّوابِ والعقابِ. وعنِ ابنِ عبّاسٍ: أنَّ الجنَّ همْ ولدُ الجانِّ وليسوا بشياطينَ، ومنهمُ المؤمنُ ومنهمُ الكافرُ، والشّياطينُ همْ ولدُ إبليسَ لا يموتونَ إلّا معَ إبليسَ. واختلفوا في دخولِ مؤمني الجنِّ الجنّةَ، على حسبِ الاختلافِ في أصلهمْ. فمنْ زعمَ أنّهمْ منَ الجانِّ لا منْ ذرّيّةِ إبليسَ قالَ: يدخلونَ الجنّةَ بإيمانهمْ. ومنْ قالَ: إنّهمْ منْ ذرّيّةِ إبليسَ فلهمْ فيهِ قولانِ: **أحدهما**- يدخلونها. **الثّاني**- لا يدخلونها وإنْ صرفوا عنِ النّارِ.

الخامسة- في سؤالهم الزّادَ دليلٌ على أنّهمْ يأكلونَ ويطعمونَ. وقدْ أنكرَ جماعةٌ منْ كفرةِ الأطبّاءِ والفلاسفةِ الجنَّ، والقرآنُ والسّنّةُ تردُّ عليهمْ، وليسَ يمتنعُ أنْ يراهمُ النّبيُّ ﷺ في صورهمْ كما يرى الملائكةَ. وأكثرُ ما يتصوّرونَ لنا في صورِ الحيّاتِ، ففي الموطّأِ: أنَّ رجلاً حديثَ عهدٍ بعرسٍ استأذنَ رسولَ اللّهِ ﷺ بأنصافِ النّهارِ أنْ يرجعَ إلى أهلهِ... الحديثَ، وفيهِ: فإذا حيّةٌ عظيمةٌ منطويةٌ على الفراشِ، فأهوى إليها بالرّمحِ فانتظمها. وذكرَ الحديثَ. وفي الصّحيحِ أنّهُ ﷺ قالَ: «إنَّ لهذهِ البيوتِ عوامرَ، فإذا رأيتمْ منها شيئـًا فحرّجوا

عليها ثلاثًا، فإنْ ذهبَ وإلّا فاقتلوهُ فإنّهُ كافرٌ».

وقدْ ذهبَ قومٌ إلى أنَّ ذلكَ مخصوصٌ بالمدينةِ، لقولهِ في الصّحيحِ: «إنَّ بالمدينةِ جنًا قدْ أسلموا». وهذا لفظٌ مختصٌّ بها فيختصُّ بحكمها. قلنا: هذا يدلُّ على أنَّ غيرها منَ البيوتِ مثلها، لأنّهُ لمْ يعلّلْ بحرمةِ المدينةِ، فيكونُ ذلكَ الحكمُ مخصوصًا بها.

قولهُ تعالى: ﴿فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعۡنَا قُرۡءَانًا عَجَبًا﴾ أيْ في فصاحةِ كلامهِ وبلاغةِ مواعظهِ ﴿يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلرُّشۡدِ﴾ إلى معرفةِ اللّهِ تعالى ﴿فَـَٔامَنَّا بِهِۦ﴾ أيْ فاهتدينا بهِ وصدّقنا أنّهُ منْ عندِ اللّهِ ﴿وَلَن نُّشۡرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا﴾ أيْ لا نرجعُ إلى إبليسَ ولا نطيعهُ، لأنّهُ الّذي كانَ بعثهمْ ليأتوهُ بالخبرِ، ثمَّ رميَ الجنُّ بالشّهبِ.

وقولهُ تعالى: ﴿ٱسۡتَمَعَ نَفَرٞ مِّنَ ٱلۡجِنِّ﴾ أيِ استمعوا إلى النّبيِّ ﷺ فعلموا أنَّ ما يقرؤهُ كلامُ اللّهِ. ولمْ يذكرِ المستمعَ إليهِ لدلالةِ الحالِ عليهِ. والنّفرُ الرّهطُ، قالَ الخليلُ: ما بينَ ثلاثةٍ إلى عشرةٍ.

قولهُ تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا﴾ كانَ حمزةُ والكسائيُّ وابنُ عامرٍ وخلفٌ وحفصٌ ينصبونَ «أَنَّ» في جميعِ السّورةِ في اثنيْ عشرَ موضعًا، عطفًا على قولهِ: أنّهُ استمعَ نفرٌ، وأنّهُ استمعَ لا يجوزُ فيهِ إلّا الفتحُ، لأنّها في موضعِ اسمِ فاعلٍ أوحيَ فما بعدهُ معطوفٌ عليهِ.

وقرأ الباقونَ كلّها بالكسرِ وهوَ الصّوابُ، عطفًا على قولهِ: ﴿فقالوا إنّا سمعنا﴾؛ لأنّهُ كلّهُ من كلام الجن. وأما أبو جعفر وشيبةُ فإنّهما فتحا ثلاثةَ مواضعَ، وهيَ قولهُ تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا﴾ ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ﴾ ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٞ﴾، قالا: لأنّهُ منَ الوحيِ، وكسرا ما بقيَ، لأنّهُ منْ كلامِ الجنِّ.

ولا خلافَ في فتحِ همزةِ: ﴿أَنَّهُ ٱسۡتَمَعَ نَفَرٞ مِّنَ ٱلۡجِنِّ﴾، ﴿وَأَلَّوِ ٱسۡتَقَٰمُواْ﴾ ﴿وَأَنَّ ٱلۡمَسَٰجِدَ لِلَّهِ﴾، ﴿أَن قَدۡ أَبۡلَغُواْ﴾، وكذلكَ لا خلافَ في كسرِ ما بعدَ القولِ، نحوَ قولهِ تعالى: ﴿فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعۡنَا﴾، و ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَدۡعُواْ رَبِّي﴾، و ﴿قُلۡ إِنۡ أَدۡرِيٓ﴾، و ﴿قُلۡ إِنِّي لَآ أَمۡلِكُ﴾. وكذلكَ لا خلافَ في كسرِ ما كانَ بعدَ فاءِ الجزاءِ، نحوَ قولهِ تعالى: ﴿فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ﴾، و ﴿فَإِنَّهُۥ يَسۡلُكُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ﴾. لأنه موضع ابتداء.

قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا﴾ الجدُّ في اللّغةِ: العظمةُ والجلالُ، ومنهُ قولُ أنسٍ: كانَ الرّجلُ إذا حفظَ البقرةَ وآلَ عمرانَ جدَّ في عيوننا، أيْ عظمَ وجلَّ، وقيل: ﴿جَدُّ رَبِّنَا﴾ غناهُ. ومنهُ قيلَ للحظِّ جدٌّ، وفي الحديثِ: «ولا ينفعُ ذا الجدِّ منكَ الجدُّ» أيْ ذا الغنى، منكَ الغنى، إنّما تنفعهُ الطّاعةُ ﴿مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا﴾ فالرّبُّ يتعالى عنِ الأندادِ والنظراء.

قولهُ تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى ٱللَّهِ شَطَطًا﴾ الهاءُ في أنّهُ للأمرِ أوِ الحديثِ، والسّفيهُ هنا إبليسُ، والشّططُ والاشتطاطُ: الغلوُّ في الكفرِ.

قولهُ تعالى: ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ﴾ أيْ حسبنا ﴿أَن لَّن تَقُولَ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾، فلذلكَ صدّقناهمْ في أنَّ للّهِ صاحبةً وولداً، حتّى سمعنا القرآنَ وتبينا به الحق. وقرأ يعقوب «أَنْ لَنْ تَقَوَّلَ».

قولهُ تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ وهو قول الرّجل إذا نزلَ بوادٍ: أعوذُ بسيّدِ هذا الوادي منْ شرِّ سفهاءِ قومهِ ﴿فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ أيْ زادَ الجنُّ الإنسَ رهقاً أيْ خطيئةً وإثماً، والرّهقُ: الإثمُ في كلامِ العربِ وغشيانُ المحارمِ، ورجلٌ رهقٌ إذا كانَ كذلكَ، ومنهُ قولهُ تعالى: ﴿وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾، وأضيفتِ الزّيادةُ إلى الجنِّ إذْ كانوا سبباً لها. وقيلَ: إنَّ الإنسَ زادوا الجنَّ طغياناً بهذا التّعوّذِ، حتّى قالتِ الجنُّ: سدنا الإنسَ والجنَّ.

ولا خفاءَ أنَّ الاستعاذةَ بالجنِّ دونَ الاستعاذةِ باللّهِ كفرٌ وشركٌ. وفيه إطلاقُ لفظِ الرّجالِ على الجنِّ.

قولهُ تعالى: ﴿وَأَنَّهُمْ ظَنُّواْ كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ ٱللَّهُ أَحَدًا﴾ هذا منْ قولِ اللّهِ تعالى للإنسِ أيْ وأنَّ الجنَّ ظنّوا أنْ لنْ يبعثَ اللّهُ الخلقَ كما ظننتمْ، وكلُّ هذا توكيدٌ للحجّةِ على قريشٍ، أيْ إذا آمنَ هؤلاءِ الجنُّ بمحمّدٍ، فأنتمْ أحقُّ بذلكَ.

قولهُ تعالى: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا﴾ هذا منْ قولِ الجنِّ، أيْ طلبنا خبرها كما جرتْ عادتنا فوجدناها قدْ ملئتْ حرساً يعني الملائكةَ الشداد، وشهباً محرقة جمعُ شهابٍ.

قولهُ تعالى: ﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا﴾ من السماء ﴿مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ﴾ مواضعُ يقعدُ في مثلها لاستماعِ الأخبارِ منَ السّماءِ حتّى يلقوها إلى الكهنةِ ﴿فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا﴾.

واختلفَ السّلفُ هلْ كانتِ الشّياطينُ تقذفُ قبلَ المبعثِ، أوَ كانَ ذلكَ أمراً حدثَ لمبعثِ النّبيِّ ﷺ؟ فقالَ: قومٌ: إنّما كانَ منْ أجلِ بعثةِ النّبيِّ ﷺ، فلمّا بعثَ محمّدٌ ﷺ منعوا من السموات كلّها، وحرستْ بالملائكةِ والشّهبِ، وقيلَ: كانَ ذلكَ قبلَ المبعثِ، وإنّما زادتْ بمبعثِ رسولِ اللّهِ ﷺ إنذاراً بحالهِ، وهوَ معنى قولهِ تعالى: ﴿مُلِئَتْ﴾ أيْ زيدَ في حرسها.

قولهُ تعالى: ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أيْ هذا الحرسُ الّذي حرستْ بهمُ السّماءُ ﴿أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ أيْ خيراً، وقيلَ: هوَ منْ قولِ الجنِّ فيما بينهمْ قبلَ أنْ يسمعوا قراءةَ النّبيِّ ﷺ. أيْ لا ندري أشرٌّ أريدَ بمنْ في الأرضِ بإرسالِ محمّدٍ إليهمْ، فإنّهمْ يكذّبونهُ ويهلكونَ بتكذيبهِ كما هلكَ منْ كذّبَ منَ الأممِ، أمْ أرادَ أنْ يؤمنوا فيهتدوا، فالشّرُّ والرّشدُ على هذا الكفرُ والإيمانُ، وعلى هذا كانَ عندهمْ علمٌ بمبعثِ النّبيِّ ﷺ، ولمّا سمعوا قراءتهُ علموا أنّهمْ منعوا منَ السّماءِ حراسةً للوحيِ. وقيلَ: لا، بلْ هذا قولٌ قالوهُ لقومهمْ بعدَ أنِ انصرفوا إليهمْ منذرينَ، أيْ لمّا آمنوا أشفقوا ألّا يؤمنَ كثيرٌ منْ أهلِ الأرضِ فقالوا: إنّا لا ندري أيكفرُ أهلُ الأرض بما آمنا به أم يؤمنون؟

قولهُ تعالى: ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ﴾ هذا منْ قولِ الجنِّ، بعضهم لبعضٍ لمّا دعوا أصحابهمْ إلى الإيمانِ بمحمّدٍ ﷺ، وإنّا كنّا قبلَ استماعِ القرآنِ منّا الصّالحونَ ومنّا الكافرونَ. وقيلَ: ومنّا دونَ ذلكَ أيْ ومنْ دونِ الصّالحينَ في الصّلاحِ، وهوَ أشبهُ منْ حملهِ على الإيمانِ والشّركِ ﴿كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا﴾ أيْ فرقاً شتّى، وأدياناً مختلفةً.

قولهُ تعالى: ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعْجِزَ ٱللَّهَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ الظّنُّ هنا بمعنى العلمِ واليقينِ، وهوَ خلافُ الظّنِّ في قولهِ تعالى: ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن تَقُولَ﴾ ﴿وَأَنَّهُمْ ظَنُّواْ﴾ ﴿وَلَن نُّعْجِزَهُۥ هَرَبًا﴾ بل نحن في قبضتهِ وسلطانهِ، لنْ نفوتهُ بهربٍ ولا غيره.

قولهُ تعالى: ﴿وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ﴾ يعني القرآنَ ﴿ءَامَنَّا بِهِۦ﴾ وباللّهِ، وكانَ ﷺ مبعوثـًا إلى الإنسِ والجنِّ، ولـمْ يبعثِ اللّهُ تعالى قطُّ رسولاً منَ الجنِّ، ولا منْ أهلِ الباديةِ، ولا منَ النّساءِ، وذلكَ قولهُ تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ﴾، وفي الصّحيحِ: «وبعثتُ إلى الأحمرِ والأسودِ» أي الإنسِ والجنِّ ﴿فَمَن يُؤْمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا﴾أي نقصا منْ حسناتهِ ﴿وَلَا رَهَقًا﴾ بأنْ يزادَ في سيّئاتهِ.

قولهُ تعالى: ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَ﴾ أيْ وأنّا بعدَ استماعِ القرآنِ مختلفونَ، فمنّا منْ أسلمَ ومنّا منْ كفرَ. والقاسطُ: الجائرُ، لأنّهُ عادلٌ عنِ الحقِّ، والمقسطُ: العادلُ، لأنّهُ عادلٌ إلى الحقِّ، يقالُ: «قسطَ: أيْ جارَ، وأقسطَ: إذا عدلَ ﴿فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ تَحَرَّوْا۟ رَشَدًا﴾ أيْ قصدوا طريق الحق وتوخوه ومنه تحرى القبلةَ ﴿وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ﴾ الجائرونَ عنْ طريقِ الحقِّ والايمانَ ﴿كَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾ أي وقودا. وقوله: كانوا أي في علم الله تعالى.

قولهُ تعالى: ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ﴾ هذا منْ قولِ اللّهِ تعالى. أيْ لوْ آمنَ هؤلاءِ الكفّارُ ﴿لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا﴾ أي لوسّعنا عليهمْ في الدّنيا وبسطنا لهمْ في الرّزقِ، وماءً غدقـًا أيْ واسعـًا كثيراً، وقالَ عمرُ في هذهِ الآيةِ: أينما كانَ الماءُ كانَ المالُ، وأينما كانَ المالُ كانتِ الفتنةُ، والخير والرّزق كلّهُ بالمطرِ يكونُ، فأقيمَ مقامهُ، كقولهِ تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾، وقولهِ تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم﴾ أيْ بالمطرِ ﴿لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ أيْ لنختبرهمْ كيفَ شكرهمْ فيهِ على تلكَ النّعمِ.. والله أعلم.

وقيلَ: وأنْ لوِ استقاموا على الطّريقةِ الّتي همْ عليها منَ الكفرِ لوسّعنا أرزاقهمْ مكراً بهمْ واستدراجـًا لهمْ حتّى يفتتنوا بها، فنعذّبهمْ بها في الدّنيا والآخرةِ. واستدلّوا بقولهِ تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ﴾ الآيةَ، والأوّلُ أشبهُ، لأنَّ الطّريقةَ معرّفةٌ بالألفِ واللاّمِ، فالأوجبُ أنْ تكونَ طريقتهُ طريقةَ الهدى، ولأنَّ الاستقامةَ لا

تكونُ إلّا معَ الهدى. وفي صحيحِ مسلمٍ عنْ أبي سعيدٍ الخدريِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أنَّ رسولَ اللّهِ ﷺ قال: «أخوفَ ما أخافُ عليكمْ ما يخرجُ اللّهُ لكمْ منْ زهرةِ الدّنيا» قالوا: وما زهرةُ الدّنيا؟ قالَ: «بركاتُ الأرضِ..» وذكرَ الحديثَ. وقالَ ﷺ: «فواللّهِ ما الفقرَ أخشى عليكمْ، وإنّما أخشى عليكمْ أنْ تبسطَ عليكمُ الدّنيا كما بسطتْ على منْ قبلكمْ فتنافسوها كما تنافسوها فتهلككمْ كما أهلكتهمْ».

قولهُ تعالى: ﴿وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ﴾ يعني القرآنَ والعملِ به ﴿يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا﴾ قرأَ الكوفيّونَ يسلكهُ بالياءِ لذكرِ اسمِ اللّهِ أوّلاً فقالَ: ومنْ يعرضْ عنْ ذكرِ ربّهِ. الباقونَ «نَسْلُكْهُ» بالنّونِ. و ﴿عَذَابًا صَعَدًا﴾ أيْ شاقاً شديداً.

قولهُ تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ١٨﴾، فيهِ ستُّ مسائلَ:

الأولى: قولهُ تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ﴾ أنَّ بالفتحِ، قيل: هوَ مردودٌ إلى قولهِ تعالى: ﴿قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ﴾ أيْ قلْ أوحيَ إليَّ أنَّ المساجدَ للّهِ، والمرادُ البيوتُ الّتي تبنيها أهلُ المللِ للعبادةِ. وقيلَ: أرادَ بها كلَّ البقاعِ، لأنَّ الأرضَ كلّها مسجدٌ، قال ﷺ: «وجعلتْ ليَ الأرضُ مسجداً وطهوراً».

وقيلَ: أرادَ بالمساجدِ الأعضاءَ الّتي يسجدُ عليها العبدُ، وهيَ القدمانِ والرّكبتانِ واليدانِ والوجهُ، يقولُ: هذهِ الأعضاءُ أنعمَ اللّهُ بها عليكَ، فلا تذلّلها لغيرِ خالقها. وفي الصّحيحِ عنِ ابنِ عبّاسٍ عنِ النّبيِّ ﷺ قال: «أمرتُ أنْ أسجدَ على سبعةِ أعظمَ: الجبهةِ- وأشارَ بيدهِ إلى أنفهِ- واليدينِ والرّكبتينِ وأطرافِ القدمينِ».

وقيلَ: المساجدُ هيَ الصّلواتُ، أيْ لأنَّ السّجودَ للّهِ.

وقيلَ: المساجدُ هنا مكّةُ الّتي هيَ القبلةُ وسمّيتْ مكّةَ المساجدِ، لأنَّ كلَّ أحدٍ يسجدُ إليها. والقولُ الأوّلُ أظهرُ هذهِ الأقوالِ إنْ شاءَ اللّهُ، وهوَ مرويٌّ عنِ ابنِ عبّاسٍ رحمهُ اللّهُ.

الثانية- قولهُ تعالى: ﴿لِلَّهِ﴾ إضافةُ تشريفٍ وتكريمٍ، ثمَّ خصَّ بالذّكرِ منها البيتَ العتيقَ فقالَ: ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِىَ﴾، وقالَ ﷺ: «لا تعملُ المطيُّ إلّا إلى ثلاثةِ مساجدَ» الحديث خرّجهُ الأئمّةُ، وقالَ ﷺ: «صلاةٌ في مسجدي هذا خيرٌ منْ ألفِ صلاةٍ فيما سواهُ إلّا المسجدَ

الحرامَ». قالَ ابنُ العربيِّ: وقدْ رويَ منْ طريقٍ لا بأسَ بها أنَّ النّبيَّ ﷺ قالَ: «صلاةٌ في مسجدي هذا خيرٌ منْ ألفِ صلاةٍ فيما سواهُ إلّا المسجدَ الحرامَ، فإنَّ صلاةً فيهِ خيرٌ منْ مائةِ صلاةٍ في مسجدي هذا» ولوْ صحَّ هذا لكانَ نصاً. قلت: هوَ صحيحٌ بنقلِ العدلِ عنِ العدلِ حسبَ ما بيّنّاهُ في سورةِ إبراهيمَ.

الثالثة- المساجدُ وإنْ كانتْ للّهِ ملكاً وتشريفاً فإنّها قدْ تنسبُ إلى غيرهِ تعريفاً، فيقالُ: مسجدُ فلانٍ. وفي صحيحِ الحديثِ أنَّ النّبيَّ ﷺ سابقَ بينَ الخيلِ الّتي أضمرتْ منَ الحفياءِ وأمدها ثنيّةَ الوداعِ، وسابقَ بينَ الخيلِ الّتي لمْ تضمرْ منَ الثنيةِ إلى مسجد بني زريقٍ. وتكونُ هذهِ الإضافةُ بحكمِ المحلّيّةِ كأنّها في قبلتهمْ، وقدْ تكونُ بتحبيسهمْ، ولا خلافَ بينَ الأمّةِ في تحبيسِ المساجدِ والقناطرِ والمقابرِ وإنِ اختلفوا في تحبيسِ غيرِ ذلكَ.

الرابعة- معَ أنَّ المساجدَ للّهِ لا يذكرُ فيها إلّا اللّهُ فإنّهُ تجوزُ القسمةُ فيها للأموالِ. ويجوزُ وضعُ الصّدقاتِ فيها على رسمِ الاشتراكِ بينَ المساكينِ وكلُّ منْ جاءَ أكلَ. ويجوزُ حبسُ الغريمِ فيها، وربطُ الأسيرِ والنّومُ فيها، وسكنى المريضِ فيها، وفتحُ البابِ للجارِ إليها، وإنشادُ الشّعرِ فيها إذا عريَ عنِ الباطلِ.

الخامسة- قولهُ تعالى: ﴿فَلَا تَدۡعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدٗا﴾ هذا توبيخٌ للمشركينَ في دعائهمْ معَ اللّهِ غيرهُ في المسجدِ الحرام، وقيلَ: المعنى أفردوا المساجدَ لذكرِ اللّهِ، ولا تتّخذوها هزواً ومتجراً ومجلساً، ولا طرقاً، ولا تجعلوا لغيرِ اللّهِ فيها نصيباً. وفي الصّحيحِ: «منْ نشدَ ضالّةً في المسجدِ فقولوا لا ردّها اللّهُ عليكَ فإنَّ المساجدَ لمْ تبنَ لهذا».

السادسة- رويَ عنِ ابنِ عبّاسٍ عنِ النّبيِّ ﷺ: كانَ إذا دخلَ المسجدَ قدّمَ رجلهُ اليمنى، وإذا خرجَ منَ المسجدِ قدّمَ رجلهُ اليسرى.

قولهُ تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبۡدُ ٱللَّهِ يَدۡعُوهُ﴾ يجوزُ الفتحُ، أيْ أوحى اللّهُ إليهِ أنّهُ. ويجوز الكسر على الاستئناف. وعبدُ اللّهِ هنا محمّدٌ ﷺ حينَ كانَ يصلّي ببطنِ نخلةَ ويقرأُ القرآنَ، ويدعوهُ أيْ يعبدهُ ﴿كَادُواْ يَكُونُونَ عَلَيۡهِ لِبَدٗا﴾ أيْ كادَ يركبُ بعضهمْ بعضاً ازدحاماً ويسقطونَ، حرصاً على سماعِ القرآنِ، وقيلَ: المعنى كادَ المشركونَ يركبونَ بعضهمْ بعضاً، حرداً على النّبيِّ ﷺ ليطفئوا الّذي جاءَ بهِ، وقولهُ لبداً جماعاتٍ وهوَ منْ تلبّدِ الشّيءِ على الشّيءِ أيْ تجمّعٍ، وقولهُ تعالى: ﴿أَهۡلَكۡتُ مَالٗا لُّبَدًا﴾ أيْ جماً. ويقالُ أيضاً:

النّاسُ لبدُ أيْ مجتمعونَ.

قولهُ تعالى: ﴿قالَ إِنَّمَآ أَدۡعُواْ رَبِّي﴾ أيْ قالَ ﷺ: ﴿إِنَّمَآ أَدۡعُواْ رَبِّي وَلَآ أُشۡرِكُ بِهِۦٓ أَحَدٗا﴾ وكذا قرأَ أكثرُ القرّاءِ على الخبرِ. وقرأ حمزةُ وعاصمٌ «قُلْ» على الأمرِ.

قولهُ تعالى: ﴿قُلۡ إِنِّي لَآ أَمۡلِكُ لَكُمۡ ضَرّٗا وَلَا رَشَدٗا﴾ إنّما عليَّ التّبليغُ ﴿قُلۡ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٞ﴾ أيْ لا يدفعُ عذابهُ عنّي أحدٌ إنِ استحفظتهُ، وهذا لأنّهمْ قالوا اتركْ ما تدعو إليهِ ونحنُ نجيركَ ﴿وَلَنۡ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلۡتَحَدًا﴾ أي ملتجأ ألجأ إليه ﴿إِلَّا بَلَٰغٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦۚ﴾ استثناءٌ منقطع منْ قولهِ: ﴿لَآ أَمۡلِكُ لَكُمۡ ضَرّٗا وَلَا رَشَدٗا﴾ لكنْ أبلّغكمْ ما أرسلتُ بهِ.

قولهُ تعالى: ﴿وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ في التّوحيدِ والعبادةِ ﴿فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ﴾ كسرتْ إنَّ، لأنَّ ما بعدَ فاءِ الجزاءِ موضعُ ابتداءٍ وقدْ تقدّمَ ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ﴾ نصب على الحالِ، وجمعَ خالدينَ لأنَّ المعنى لكلِّ منْ فعلَ ذلكَ، فوحّدَ أوّلاً للفظِ منَ ثمَّ جمعَ للمعنى. وقولهُ أبداً دليلٌ على أنَّ العصيانَ هنا هوَ الشّركُ. وقيلَ: هوَ المعاصي غيرِ الشّركِ، ويكونُ معنى خالدينَ فيها أبداً إلّا أنْ أعفوَ أوْ تلحقهمْ شفاعةٌ، ولا محالةَ إذا خرجوا منَ الدّنيا على الإيمانِ يلحقهمُ العفوُ.

قولهُ تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوۡاْ مَا يُوعَدُونَ﴾ منْ عذابِ الآخرةِ، أوْ ما يوعدونَ منْ عذابِ الدّنيا، وهوَ القتلُ ببدرٍ ﴿فَسَيَعۡلَمُونَ﴾ حينئذٍ ﴿مَنۡ أَضۡعَفُ نَاصِرٗا﴾ أهمْ أمِ المؤمنونَ ﴿وَأَقَلُّ عَدَدٗا﴾ معطوفٌ.

قولهُ تعالى: ﴿قُلۡ إِنۡ أَدۡرِيٓ أَقَرِيبٞ مَّا تُوعَدُونَ﴾ يعني قيامَ السّاعةِ. وقيلَ: عذابُ الدّنيا، أيْ لا أدري فَـ إنْ بمعنى «ما» أوْ «لا»، أيْ لا يعرفُ وقتَ نزولِ العذابِ ووقتَ قيام السّاعةِ إلّا اللّهُ ﴿أَمۡ يَجۡعَلُ لَهُۥ رَبِّيٓ أَمَدًا﴾ أيْ غايةً وأجلاً. وقرأ العامّةُ بإسكانِ الياءِ منْ ربّي. وقرأ الحرميان وأبو عمرو بالفتح.

قولهُ تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ فَلَا يُظۡهِرُ عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ أَحَدًا ٢٦ إِلَّا مَنِ ٱرۡتَضَىٰ مِن رَّسُولٖ فَإِنَّهُۥ يَسۡلُكُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ رَصَدٗا ٢٧﴾، فيهِ مسألتانِ:

الأولى: قولهُ تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ﴾ عالمُ رفعًا نعتًا لقولِهِ: ﴿رَبِّيٓ﴾. وقيلَ: أيْ هوَ عالمُ الغيبِ والغيبُ ما غابَ عنِ العبادِ ﴿فَلَا يُظۡهِرُ عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ أَحَدًا ٢٦ إِلَّا مَنِ ٱرۡتَضَىٰ مِن رَّسُولٖ﴾ فإنّهُ يظهرهُ على ما يشاء من غيبه، لأنَّ الرّسلَ مؤيّدونَ بالمعجزاتِ، ومنها الإخبارُ عنْ بعضِ الغائباتِ، وفي التّنزيلِ: ﴿وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأۡكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمۡۚ﴾، وقيلَ: إلّا منِ ارتضى منْ رسولٍ هوَ جبريلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وفيهِ بعدٌ.

الثانية- قالَ العلماءُ رحمةُ اللّهِ عليهمْ: لمّا تمدّحَ سبحانهُ بعلمِ الغيبِ واستأثرَ بهِ دونَ خلقهِ، كانَ فيهِ دليلٌ على أنّهُ لا يعلمُ الغيبَ أحدٌ سواهُ، ثمَّ استثنى منِ ارتضاهُ منَ الرّسلِ، فأودعهمْ ما شاءَ منْ غيبِهِ بطريقِ الوحيِ إليهمْ، وجعلهُ معجزةً لهمْ ودلالةً صادقةً على نبوّتهمْ. وليسَ المنجّمُ ومنْ ضاهاهُ ممّنْ يضربُ بالحصى وينظرُ في الكتبِ ويزجرُ بالطّيرِ ممّنِ ارتضاهُ منْ رسولٍ فيطلعهُ على ما يشاءُ منْ غيبِهِ، بلْ هوَ كافرٌ باللّهِ مفترٍ عليهِ بحدسهِ وتخمينهِ وكذبهِ.

قولهُ تعالى: ﴿فَإِنَّهُۥ يَسۡلُكُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ رَصَدٗا ٢٧﴾ يعني ملائكةً يحفظونهُ عنْ أنْ يقربَ منهُ شيطانٌ، فيحفظُ الوحيَ منِ استراقِ الشّياطينِ والإلقاءِ إلى الكهنةِ ﴿لِّيَعۡلَمَ﴾ أيْ محمّدٌ ﷺ ﴿أَن قَدۡ أَبۡلَغُواْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمۡ﴾ أي الرّسل قبلهُ كما بلّغَ هوَ الرّسالةَ ﴿وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيۡهِمۡ﴾ وفيهِ حذفٌ يتعلّقُ بهِ اللّامُ، أيْ أخبرناهُ بحفظنا للوحي، وقراءةُ الجماعةِ ليعلمَ بفتحِ الياءِ وتأويلهُ ما ذكرناهُ. وقرأ يعقوبُ بضمِّ الياءِ أيْ ليُعلمَ النّاسُ أنَّ الرّسلَ قدْ أبلغوا ﴿وَأَحۡصَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ عَدَدَۢا﴾ أي أحاط بعدد كل شيء وعرفه وعلمه فلم يخف عليه منه شيء. وعدداً نصب على الحال.

سورة المزمل

سبعٌ وعشرونَ آيةً، وهي مكيّةٌ كلّها، وقيلَ: إلّا آيتينِ منها: ﴿وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ والّتي تليها، وقيل إلا: قوله تعالى: ﴿۞إِنَّ رَبَّكَ يَعۡلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدۡنَىٰ﴾ إلى آخرِ السّورةِ، فإنّهُ نزلَ بالمدينةِ.

بسمِ اللّهِ الرّحمنِ الرّحيمِ

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ ١ قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا ٢ نِّصۡفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلًا ٣ أَوۡ زِدۡ عَلَيۡهِ وَرَتِّلِ ٱلۡقُرۡءَانَ تَرۡتِيلًا ٤﴾، فيهِ ثمانُ مسائلَ:

الأولى: قولهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ﴾ أصلهُ المتزمّلُ، فأدغمتِ التّاءُ في الزّاي وكذلكَ المدّثّرُ، وفي أصلِ المزّمّلُ قولانِ:

أحدهما أنّهُ المحتملُ، يقالُ: زملَ الشّيءَ إذا حملهُ، ومنهُ الزّاملةُ، لأنّها تحملُ القماشَ.

الثّاني أنَّ المزّمّلَ هوَ المتلفّفُ، يقالُ: تزمّلَ وتدثّرَ بثوبهِ إذا تغطّى. وزمّلَ غيرهُ إذا غطاه.

الثانية- قولهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ﴾ هذا خطابٌ للنّبيِّ ﷺ، وفيهِ ثلاثةُ أقوالٍ:

الأوّلُ: يا أيّها المزّمّلُ بالنّبوّةِ والملتزمُ للرّسالةِ قم.

الثّاني: يا أيّها المزّمّلُ بالقرآنِ قم.

الثّالثُ: المزّمّلُ بثيابهِ قم.

ثم قيل إنَّ السّورةَ مدنيّةٌ، وقيلَ: كانَ هذا في ابتداءِ ما أوحيَ إليهِ، فإنّهُ لمّا سمعَ قولَ الملكِ ونظرَ إليهِ أخذتهُ الرّعدةُ فأتى أهلهُ فقالَ: «زمّلوني دثّروني» رويَ معناهُ عنِ ابنِ عبّاسٍ.

الثالثة- ليسَ المزّمّلُ باسمٍ منْ أسماءِ النّبيِّ ﷺ، وكذلكَ المدّثّرُ. وفي خطابهِ بهذا الاسمِ فائدتانِ:

إحداهما: الملاطفةُ، فإنَّ العربَ إذا قصدتْ ملاطفةَ المخاطبِ وتركَ المعاتبةِ سمّوهُ باسمٍ مشتقٍّ منْ حالتهِ الّتي هوَ عليها، كقولِ النّبيِّ ﷺ لعليٍّ حينَ غاضبَ فاطمةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، فأتاهُ

وهوَ نائمٌ وقدْ لصقَ بجنبهِ التّرابُ فقالَ: لهُ: «قمْ يا أبا ترابٍ» إشعاراً لهُ أنّهُ غيرُ عاتبٍ عليهِ، وملاطفةً لهُ. وكذلكَ قولهُ ﷺ لحذيفةَ: «قمْ يا نومانُ» وكانَ نائماً ملاطفةً لهُ، وإشعاراً لتركِ العتبِ والتّأنيبِ.

والفائدةُ الثانية- التّنبيهُ لكلِّ متزمّلٍ راقدٍ ليلهُ ليتنبّهَ إلى قيامِ اللّيلِ وذكرِ اللّهِ تعالى فيهِ، لأنَّ الاسمَ المشتقَّ منَ الفعلِ يشتركُ فيهِ معَ المخاطبِ كلُّ منْ عملَ ذلكَ العملَ واتّصفَ بتلكَ الصّفةِ.

الرابعة- قولهُ تعالى: ﴿قُمِ ٱلَّيۡلَ﴾ قمِ هنا معناهُ صلِّ، عبّرَ بهِ عنهُ واستعيرَ لهُ حتّى صارَ عرفاً بكثرةِ الاستعمالِ.

الخامسة- حدُّ اللّيلِ: منْ غروبِ الشّمسِ إلى طلوعِ الفجرِ، واختلفَ: هلْ كانَ قيامهُ فرضاً وحتماً، أوْ كانَ ندباً وحضاً؟ والدّلائلُ تقوّي أنَّ قيامهُ كانَ حتماً وفرضاً، وذلكَ أنَّ النّدبَ والحضَّ لا يقعُ على بعضِ اللّيلِ دونَ بعضٍ، لأنَّ قيامهُ ليس مخصوصا به وقتا دونَ وقتٍ. وأيضاً فقدْ جاءَ التّوقيتُ بذلكَ عنْ عائشةَ وغيرها على ما يأتي. واختلفَ أيضاً: هلْ كانَ فرضاً على النّبيِّ ﷺ وحدهُ، أوْ عليهِ وعلى منْ كانَ قبلهُ منَ الأنبياءِ، أوْ عليهِ وعلى أمّتهِ؟ ثلاثةُ أقوالٍ.

السادسة- قولهُ تعالى: ﴿إِلَّا قَلِيلٗا﴾ استثناءٌ منَ اللّيلِ، أيْ صلِّ اللّيلَ كلّهُ إلّا يسيراً منهُ، لأنَّ قيامَ جميعهِ على الدّوامِ غيرُ ممكنٍ، فاستثنى منهُ القليلَ لراحةِ الجسدِ. والقليلُ منَ الشّيءِ ما دونَ النّصفِ، ثمَّ قالَ تعالى: ﴿نِّصۡفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلًا﴾ فكانَ ذلكَ تخفيفاً إذْ لمْ يكنْ زمانُ القيامِ محدوداً، فقامَ النّاسُ حتّى ورمتْ أقدامهمْ، ثمَّ نسخَ ذلكَ بقولهِ تعالى: ﴿عَلِمَ أَن لَّن تُحۡصُوهُ﴾، ونصفهُ بدلٌ منَ الليل وإلّا قليلاً استثناءٌ منَ النّصفِ. والضّميرُ في منهُ وعليهِ للنّصفِ. المعنى: قمْ نصفَ اللّيلِ أوِ انقصْ منَ النّصفِ قليلاً إلى الثّلثِ أوْ زدْ عليهِ قليلاً إلى الثّلثينِ، فكأنّهُ قالَ: قمْ ثلثي اللّيلِ أوْ نصفهُ أوْ ثلثهُ. وفي مسلمٍ عنْ أبي هريرةَ عنِ رسولِ اللّهِ ﷺ قال: «ينزلُ اللّهُ عزَّ وجلَّ إلى سماءِ الدّنيا كلَّ ليلةٍ حينَ يمضي ثلثُ اللّيلِ الأوّلُ، فيقولُ أنا الملكُ منْ ذا الّذي يدعوني فأستجيبُ لهُ منْ ذا الّذي يسألني فأعطيهِ منْ ذا الّذي يستغفرني فأغفرُ له، فلا يزال كذلك حتى يضيءَ الفجرُ». وهوَ يدلُّ على

ترغيبِ قيامِ ثلثي اللّيلِ.

فكانوا يستحبّونَ صلاةَ آخرِ اللّيلِ على أوّلهِ. قالَ علماؤنا: وبهذا التّرتيبِ انتظمَ الحديثُ والقرآنُ، فإنّهما يبصرانِ منْ مشكاةٍ واحدةٍ. وفي الموطّأِ وغيرِهِ منْ حديثِ ابنِ عبّاسٍ: بتُّ عندَ خالتي ميمونةٍ حتّى إذا انتصفَ اللّيلُ أوْ قبلهُ بقليلٍ أوْ بعدهُ بقليلٍ، استيقظَ رسولُ اللّهِ ﷺ، فقامَ إلى شنٍّ معلّقٍ فتوضّأَ وضوءاً خفيفاً. وذكرَ الحديثَ.

السابعة- اختلفَ العلماءُ في النّاسخِ للأمرِ بقيامِ اللّيلِ، فعنِ ابنِ عبّاسٍ وعائشةَ أنَّ النّاسخَ للأمرِ بقيامِ اللّيلِ قولهُ تعالى: ﴿۞إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ﴾ إلى آخرِ السّورةِ. وقيلَ قولهُ تعالى: ﴿عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ﴾، وعنِ ابنِ عبّاسٍ أيضاً: هوَ منسوخٌ بقولهِ تعالى: ﴿عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ﴾، وعنْ الشّافعيِّ: هوَ منسوخٌ بالصّلواتِ الخمسِ. وقيلَ النّاسخُ لذلكَ قوله تعالى: ﴿فَاقْرَؤُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ﴾.

قالَ بعضُ العلماءِ: وهوَ فرضٌ نسخَ بهِ فرضٌ، كانَ على النّبيِّ ﷺ خاصّةً لفضلهِ، كما قالَ تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ﴾.

الثّامنةُ- قولهُ تعالى: ﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا﴾ أيْ لا تعجلْ بقراءةِ القرآنِ بل اقرأهُ حرفاً حرفاً في مهلٍ وبيانٍ معَ تدبّرِ المعاني، والتّرتيلُ التّنضيدُ والتّنسيقُ وحسنُ النّظامِ.

وروى عبدُ اللّهِ بنُ عمرو قالَ: قالَ النّبيُّ ﷺ: «يؤتى بقارئِ القرآنِ يومَ القيامةِ، فيوقفُ في أوّلِ درجِ الجنّةِ ويقالُ لهُ اقرأْ وارتقِ ورتّلْ كما كنتَ ترتّلُ في الدّنيا، فإنَّ منزلكَ عندَ آخرِ آيةٍ تقرؤها» خرّجهُ أبو داودَ، وروى أنسٌ أنَّ النّبيَّ ﷺ كانَ يمدُّ صوته بالقراءة مدا.

قولهُ تعالى: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ هوَ متّصلٌ بما فرضَ منْ قيامِ اللّيلِ، فمنْ أمرَ بقيامِ أكثرِهِ لمْ يتهيّأْ لهُ ذلكَ إلّا بحملٍ شديدٍ على النّفسِ ومجاهدةٍ للشّيطانِ، فهوَ أمرٌ يثقلُ على العبدِ.

وقيلَ: إنّا سنوحي إليكَ القرآنَ، وهوَ قولٌ ثقيلٌ يثقلُ العملُ بشرائعه وفرائضه وحدوده.

وقيلَ: ثقيلاً على الكفّارِ والمنافقينَ لما فيهِ منَ الاحتجاجِ عليهمْ، والبيانِ لضلالتهمْ وسبِّ آلهتهمْ، والكشفِ عمّا حرّفهُ أهلُ الكتابِ.

وقيلَ: ثقيلٌ مباركٌ، كما ثقلَ في الدّنيا يثقلُ في الميزانِ يومَ القيامةِ.

وقيلَ: هوَ القرآنُ نفسهُ، كما قالتْ عائشةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: ولقدْ رأيتهُ ينزلُ عليهِ الوحيُ في اليومِ الشّديدِ البردِ، فيفصمُ عنهُ وإنَّ جبينهُ ليتفصّدُ عرقـًا.

قولهُ تعالى: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ هِيَ أَشَدُّ وَطۡـًٔا وَأَقۡوَمُ قِيلًا ۝٦ إِنَّ لَكَ فِي ٱلنَّهَارِ سَبۡحًا طَوِيلًا﴾، فيهِ خمسُ مسائلَ:

الأولى: قولهُ تعالى: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ﴾ ناشئةُ اللّيلِ أيْ أوقاتهُ وساعاتهُ، لأنَّ أوقاتهُ تنشأُ أوّلاً فأوّلاً، فناشئةٌ: فاعلةٌ منْ نشأتْ تنشأُ فهيَ ناشئةٌ، ومنهُ قولهُ تعالى: ﴿أَوَمَن يُنَشَّؤُاْ فِي ٱلۡحِلۡيَةِ وَهُوَ فِي ٱلۡخِصَامِ غَيۡرُ مُبِينٖ﴾.

الثانية– بيّنَ تعالى في هذهِ الآيةِ فضلَ صلاةِ اللّيلِ على صلاةِ النّهارِ، وأنَّ الاستكثارَ منْ صلاةِ اللّيلِ بالقراءةِ فيها ما أمكنَ، أعظمُ للأجرِ، وأجلبُ للثّوابِ. واختلفَ العلماءُ في المرادِ بناشئةِ اللّيلِ:

فقيل: هوَ ما بينَ المغربِ والعشاءِ، تمسّكـًا بأنَّ لفظَ نشأَ يعطي الابتداءَ.

وقيلَ: هيَ ما بعدَ العشاءِ الآخرةِ إلى الصّبحِ.

وقيلَ: إنّما النّاشئةُ القيامُ باللّيلِ بعدَ النّومِ.

وقيلَ: هيَ اللّيلُ كلّهُ، لأنّهُ ينشأُ بعدَ النّهارِ، وهوَ الّذي اختارهُ مالكُ بنُ أنسٍ.

الثالثة– قولهُ تعالى: ﴿هِيَ أَشَدُّ وَطۡـًٔا﴾ قرأَ أبو عمرو وابنُ عامرٍ «وِطَاءً» بكسرِ الواوِ وفتحِ الطّاءِ والمدِّ. الباقون وَطْئـًا بفتحِ الواوِ وسكونِ الطّاءِ مقصورةً، والمعنى أنّها أثقلُ على المصلّي منْ ساعاتِ النّهارِ. وذلكَ أنَّ اللّيلَ وقتُ منامٍ وإجمامٍ، فمنْ شغلهُ بالعبادةِ فقدْ تحمّلَ المشقّةَ العظيمةَ. ومنْ مدَّ فهوَ مصدرُ واطأتُ وطاءً ومواطأةً أيْ وافقتهُ، قال الله تعالى: ﴿لِّيُوَاطِـُٔواْ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ﴾ أيْ ليوافقوا. فالمعنى أشدُّ موافقةً بينَ القلبِ والبصرِ والسّمعِ واللّسانِ، لانقطاعِ الأصواتِ والحركاتِ.

الرابعة– قولهُ تعالى: ﴿وَأَقۡوَمُ قِيلًا﴾ أيِ القراءةُ باللّيلِ أقومُ منها بالنّهارِ، لأنّهُ أتم

إخلاصا، وأكثر بركة، وزمان التّفهّم والأصوات هادئةٌ، والدّنيا ساكنةٌ، فلا يضطربُ على المصلّي ما يقرؤهُ، وقيلَ: أيْ أعجلُ إجابةً للدّعاءِ.

الخامسة– قولهُ تعالى: ﴿إِنَّ لَكَ فِى ٱلنَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا﴾ أيْ تصرّفًا في حوائجكَ، وإقبالاً وإدباراً وذهابًا ومجيئًا. والسّبحُ: الجريُ والدّورانُ، ومنهُ السّابحُ في الماءِ، لتقلّبِهِ بيديهِ ورجليهِ. وفرسٌ سابحٌ: شديدُ الجريِ، وقيلَ: ﴿سَبْحًا طَوِيلًا﴾ فراغًا طويلاً لنومكَ وراحتكَ، فاجعلْ ناشئةَ اللّيلِ لعبادتكَ، وإنْ فاتكَ في الليل شيء فلكَ في النّهارِ فراغُ الاستدراكِ.

قولهُ تعالى: ﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا﴾، فيهِ ثلاثُ مسائلَ:

الأولى: قولهُ تعالى: ﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ﴾ أيِ ادعهُ بأسمائهِ الحسنى، ليحصلَ لكَ معَ الصّلاةِ محمودُ العاقبةِ، وقيلَ: صل لربك أي بالنهار أيضا، وقدْ قالَ اللّهُ تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ﴾.

الثانية– قولهُ تعالى: ﴿وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا﴾ التّبتّلُ: الانقطاعُ إلى عبادةِ اللّهِ عزَّ وجلَّ، أيِ انقطعْ بعبادتكَ إليهِ، ولا تشركْ بهِ غيرهُ. يقالُ: بتلتُ الشّيءَ أيْ قطعتهُ، ومنهُ قولهمْ. طلّقها بتّةً بتلةً، ومنهُ مريمُ البتولُ لانقطاعها إلى اللّهِ تعالى، وفي الحديثِ النّهيُ عنِ التّبتّلِ، وهوَ الانقطاعُ عنِ النّاسِ والجماعاتِ.

الثالثة– التّبتّلُ مأمورٌ بهِ في القرآنِ، منهيّ عنهُ في السّنّةِ، ومتعلّقُ الأمرِ غيرُ متعلّقِ النّهي، فلا يتناقضانِ، وإنّما بعثَ ليبيّنَ للنّاسِ ما نزّلَ إليهمْ، فالتّبتّلُ المأمورُ بهِ: الانقطاعُ إلى اللّهِ بإخلاصِ العبادةِ، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾، والتّبتّلُ المنهيُّ عنهُ: هوَ سلوكُ مسلكَ النّصارى في تركِ النّكاحِ والتّرهّبِ في الصّوامعِ، لكنَّ عندَ فسادِ الزّمانِ يكونُ خيرُ مالِ المسلمِ غنمًا يتبعُ بها شعفَ الجبالِ ومواقعَ القطرِ، يفرُّ بدينهِ منَ الفتنِ.

قولهُ تعالى: ﴿رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ﴾ قرأَ أهلُ الحرمينِ وأبو عمرو وحفصٌ ربُّ بالرّفعِ على الابتداءِ والخبرُ لا إلهَ إلّا هوَ. وقيلَ: على إضمارِ هوَ. الباقونَ «رَبِّ» بالخفضِ على نعتِ الرّبِّ تعالى في قولهِ تعالى: ﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ﴾. ومنْ علمَ أنّهُ ربُّ المشارقِ

والمغاربِ انقطعَ بعملِهِ وأملِهِ إليهِ.

قولهُ تعالى: ﴿فَٱتَّخِذۡهُ وَكِيلٗا﴾ أيْ قائماً بأمورِكَ. وقيلَ: كفيلاً بما وعدكَ ﴿وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ منَ الأذى والاستهزاءِ ﴿وَٱهۡجُرۡهُمۡ هَجۡرٗا جَمِيلٗا﴾ فلا تشتغلُ بمكافأتِهِمْ، وكانَ هذا قبلَ الأمرِ بالقتالِ، ثمَّ نسختْ آيةُ القتالِ ما كانَ قبلها منَ التّركِ، وقالَ أبو الدّرداءِ: إنّا لنكشرُ في وجوهِ «أقوامٍ» ونضحكُ إليهِمْ وإنَّ قلوبنا لتلعنهمْ.

قولهُ تعالى: ﴿وَذَرۡنِي وَٱلۡمُكَذِّبِينَ﴾ أيِ ارضَ بي لعقابِهِمْ ﴿أُوْلِي ٱلنَّعۡمَةِ﴾ أيْ أولي الغنى والتّرفّهِ واللذةِ في الدنيا ﴿وَمَهِّلۡهُمۡ قَلِيلًا﴾ إلى مدّةِ آجالِهِمْ ﴿إِنَّ لَدَيۡنَآ أَنكَالٗا وَجَحِيمٗا﴾ الأنكالُ: القيودُ، واحدها نكلٌ، وهوَ ما منعَ الإنسانَ منَ الحركةِ لا خشيةَ أنْ يهربوا ولكن إذا أرادوا أنْ يرتفعوا استفلتْ بهِمْ، والجحيمُ النّارُ المؤجّجةُ ﴿وَطَعَامٗا ذَا غُصَّةٖ﴾ أيْ غيرُ سائغٍ، يأخذُ بالحلقِ، لا هوَ نازلٌ ولا هوَ خارجٌ، وهوَ الغسلينُ والزّقّومُ والضّريعُ، كما قالَ: ﴿لَّيۡسَ لَهُمۡ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٖ﴾ وهوَ شوكٌ كالعوسجِ أو الزّقّومُ، كما قالَ: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ٤٣ طَعَامُ ٱلۡأَثِيمِ﴾.

قولهُ تعالى: ﴿يَوۡمَ تَرۡجُفُ ٱلۡأَرۡضُ وَٱلۡجِبَالُ﴾ أيْ تتحرّكُ وتضطربُ بمنْ عليها. وانتصبَ يومَ على الظّرفِ أيْ ينكّلُ بهِمْ ويعذّبونَ يومَ ترجفُ الأرضُ ﴿وَكَانَتِ ٱلۡجِبَالُ كَثِيبٗا مَّهِيلًا﴾ أيْ وتكونُ. والكثيبُ الرّملُ المجتمعُ، والمهيلُ: الّذي يمرُّ تحتَ الأرجلِ.

قولهُ تعالى: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ رَسُولٗا﴾ يريدُ النّبيَّ ﷺ أرسلهُ إلى قريشٍ ﴿كَمَآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ رَسُولٗا﴾ وهوَ موسى ﴿فَعَصَىٰ فِرۡعَوۡنُ ٱلرَّسُولَ﴾ أيْ كذّبَ بهِ ولمْ يؤمنْ ﴿فَأَخَذۡنَٰهُ أَخۡذٗا وَبِيلٗا﴾ أيْ ثقيلاً شديداً، ومنهُ مطرٌ وابلٌ أيْ شديدٌ.

قولهُ تعالى: ﴿فَكَيۡفَ تَتَّقُونَ﴾ العذابَ ﴿إِن كَفَرۡتُمۡ يَوۡمٗا يَجۡعَلُ ٱلۡوِلۡدَٰنَ شِيبًا﴾ وهوَ توبيخٌ وتقريعٌ، والضّميرُ في يجعلُ يجوزُ أنْ يكونَ للّهِ عزَّ وجلَّ، ويجوزُ أنْ يكونَ لليومِ، وإذا كانَ لليومِ صلحَ أنْ يكونَ صفةً لهُ، ولا يصلحُ ذلكَ إذا كانَ الضّميرُ للّهِ عزَّ وجلَّ إلّا معَ تقديرِ حذفٍ، كأنّهُ قالَ: يوماً يجعلُ اللّهُ الولدانَ فيهِ شيباً.

والولدانَ الصّبيانُ، وقيلَ: أولادُ المشركينَ. والعمومُ أصحُّ، أيْ يشيبُ فيهِ الصغيرُ منْ

غيرِ كبرٍ، ثمَّ إنَّ أهلَ الجنّةِ يغيّرُ اللّهُ أحوالهمْ وأوصافهمْ على ما يريدُ. وقيلَ: هذا ضربُ مثلٍ لشدّةِ ذلكَ اليومِ وهوَ مجازٌ، لأنَّ يومَ القيامةِ لا يكونُ فيهِ ولدانٌ ولكنَّ معناهُ أنَّ هيبةَ ذلكَ اليومِ بحالٍ لوْ كانَ فيهِ هناكَ صبيٌّ لشابَ رأسهُ منَ الهيبةِ.

قولهُ تعالى: ﴿ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦۚ﴾ أيْ متشقّقةٌ لشدّتهِ. ومعنى بهِ أيْ فيهِ، أيْ في ذلكَ اليومِ لهولهِ. وقيلَ: بهِ أيْ لهُ، أيْ لذلكَ اليومِ، يقالُ: فعلتُ كذا بحرمتكَ ولحرمتكَ، والباءُ واللّامُ وفي: متقاربةٌ في مثلِ هذا الموضعِ، قالَ اللّهِ تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ أيْ في يومِ القيامةِ. **وقيلَ**: منفطرٌ باللّهِ، أيْ بأمرهِ. ولمْ يقلْ منفطرة، لأنَّ مجازها السّقفُ، تقولُ: هذا سماءُ البيتِ، وفي التّنزيلِ: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًاۖ﴾، وقيلَ: السّماءُ يذكّرُ ويؤنّثُ.

قولهُ تعالى: ﴿إِنَّ هَـٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌۖ﴾ يريدُ هذهِ السّورةُ أوِ الآياتُ عظةٌ. وقيلَ: آياتُ القرآنِ، إذْ هوَ كالسّورةِ الواحدةِ ﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ﴾ بالإيمان ﴿سَبِيلًا﴾ أيْ طريقاً إلى رضاهُ ورحمتهِ فليرغبْ، فقدْ أمكنَ لهُ، لأنّهُ أظهرَ لهُ الحججَ والدّلائلَ. ثمَّ قيل: نسختْ بآيةِ السّيفِ.

قولهُ تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَٱقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَءَاخَرُونَ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَٱقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُوا ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقْرِضُوا ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا وَٱسْتَغْفِرُوا ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴿٢٠﴾﴾، فيهِ ثلاثَ عشرةَ مسألةً:

الأولى: هذهِ الآيةُ تفسيرٌ لقولهِ تعالى: ﴿قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢﴾ نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ﴿٣﴾ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ﴾، وهيَ النّاسخةُ لفرضيّةِ قيامِ اللّيلِ. وتقومُ معناه تصلي وأدنى أيْ أقلُّ، ونصفهِ وثلثهِ بالخفضِ قراءةُ العامّةِ عطفاً على ثلثي، المعنى: تقومُ أدنى منْ ثلثي اللّيلِ ومنْ نصفهِ وثلثهِ، وقرأ ابنُ كثيرٍ والكوفيّونَ «وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ» بالنّصبِ عطفاً على ﴿أدنى﴾ التّقديرُ: تقومُ أدنى منْ ثلثي اللّيلِ وتقومُ نصفهُ وثلثهُ؛ لأنّهُ قالَ أقلَّ منَ الثّلثينِ، ثمَّ ذكرَ نفسَ القلّةِ لا

أقلَّ منَ القلّةِ. وعلى هذهِ القراءةِ يحتملُ أنّهمْ كانوا يصيبونَ الثّلثَ والنّصفَ، لخفّةِ القيامِ عليهمْ بذلكَ القدرِ، وكانوا يزيدونَ، وفي الزّيادةِ إصابةُ المقصودِ، فأمّا الثّلثانِ فكانَ يثقلُ عليهمْ قيامهُ فلا يصيبونهُ، وينقصونَ منهُ. ويحتملُ أنّهمْ أمروا بقيامِ نصفِ اللّيلِ، ورخّصَ لهمْ في الزّيادةِ والنّقصانِ، فكانوا ينتهونَ في الزّيادةِ إلى قريبٍ منَ الثّلثينِ، وفي النّصفِ إلى الثّلثِ.

الثانية- قولهُ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَۚ﴾ أيْ يعلمُ مقاديرَ اللّيلِ والنّهارِ على حقائقها، وأنتمْ تعلمونَ بالتّحرّي والاجتهادِ الّذي يقعُ فيهِ الخطأُ ﴿عَلِمَ أَن لَّن تُحۡصُوهُ﴾ أن مخفّفةٌ منَ الثّقيلةِ، أيْ علمَ أنّكمْ لنْ تحصوهُ أيْ لنْ تطيقوا معرفةَ حقائقَ ذلكَ والقيامَ بهِ. وقيلَ: أيْ لنْ تطيقوا قيامَ اللّيلِ. والأوّلُ أصحُّ، فإنَّ قيامَ اللّيلِ ما فرضَ كلّهُ قطُّ، وكانَ الرّجلُ لا يدري متى نصفُ اللّيلِ منْ ثلثهِ، فيقومُ حتّى يصبحَ مخافةَ أنْ يخطئَ، فانتفختْ أقدامهمْ، وانتقعتْ ألوانهمْ، فرحمهمُ اللّهُ وخفّفَ عنهمْ، فقالَ تعالى: ﴿عَلِمَ أَن لَّن تُحۡصُوهُ﴾، لأنّكمْ إنْ زدتمْ ثقلَ عليكمْ، واحتجتمْ إلى تكليفِ ما ليسَ فرضًا، وإنْ نقصتمْ شقَّ ذلكَ عليكمْ.

الثالثة- قولهُ تعالى: ﴿فَتَابَ عَلَيۡكُمۡۖ﴾ منْ فرضِ القيامِ إذْ عجزتمْ. وأصلُ التّوبةِ الرّجوعُ كما تقدّمَ، فالمعنى رجعَ لكمْ منْ تثقيلٍ إلى تخفيفٍ، ومنْ عسرٍ إلى يسرٍ. وإنّما أمروا بحفظِ الأوقاتِ على طريقِ التّحرّي، فخفّفَ عنهمْ ذلكَ التّحرّي.

الرابعة- قوله تعالى: ﴿فَاقْرَؤُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ﴾ فيهِ قولانِ:

أحدهما: أن المراد نفس القراءة، أي فاقرءوا فيما تصلّونهُ باللّيلِ ما خفَّ عليكمْ. قيل: مائةُ آيةٍ؛ لقولهِ ﷺ: «منْ قامَ بعشرِ آياتٍ لمْ يكتبْ منَ الغافلينَ، ومنْ قامَ بمائةِ آيةٍ كتبَ منَ القانتينَ، ومنْ قامَ بألفِ آيةٍ كتبَ منَ المقنطرين» خرجه أبو داود الطّيالسيُّ في مسندهِ منْ حديثِ عبدِ اللّهِ بنِ عمرو.

القول **الثاني**: ﴿فَاقْرَؤُوا مَا تَيَسَّرَ مِنه﴾ أيْ فصلّوا ما تيسّرَ عليكمْ، والصّلاةُ تسمّى قرآنًا، كقولهِ تعالى: ﴿وَقُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِۖ﴾ أيْ صلاةَ الفجرِ. والقول الأوّلُ حمل الخطاب على ظاهرِ اللّفظِ، والقولُ الثّاني مجازٌ، فإنّهُ منْ تسميةِ الشّيءِ ببعضِ ما هوَ منْ أعمالهِ.

الخامسة- قول الله عز وجل: ﴿فَاقْرَؤُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَه﴾ احتملَ معنيينِ:

أحدهما: أنْ يكونَ فرضـاً ثانيـاً ناسخا لقيام اللّيلِ ونصفه، والنّقصان منَ النّصفِ والزّيادة عليهِ.

والآخرُ: أنْ يكونَ فرضـاً منسوخـاً أزيلَ بغيرهِ كما أزيلَ بهِ غيرهُ، وذلكَ لقولهِ تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةٗ لَّكَ﴾ أيْ يتهجّدُ بغيرِ الّذي فرضَ عليهِ ممّا تيسّرَ منهُ. قالَ الشّافعيُّ: فكانَ الواجبُ طلبَ الاستدلالِ بالسّنّةِ على أحدِ المعنيينِ، فوجدنا سنّةِ رسولِ اللّهِ ﷺ تدلُّ على أنْ لا واجبَ منَ الصّلاةِ إلّا الخمسُ.

السادسة- المشهورُ أنَّ نسخَ قيامِ اللّيلِ كانَ في حقِّ الأمّةِ، وبقيتِ الفريضةُ في حقِّ النّبيِّ ﷺ، ومقدارهُ مفوّضٌ إلى خيرتهِ.

وقيلَ: نسخَ التّقديرُ بمقدارٍ، وبقيَ أصلُ الوجوبِ، كقولهِ تعالى: ﴿فَمَا ٱسۡتَيۡسَرَ مِنَ ٱلۡهَدۡيِۖ﴾ فالهديُ لا بدَّ منهُ، كذلكَ لمْ يكنْ بدٌّ منْ صلاةِ اللّيلِ، ولكنْ فوّضَ قدرهُ إلى اختيارِ المصلّي. وقالَ قومٌ: نسخَ بالكلّيّةِ، فلا تجبُ صلاةُ اللّيلِ أصلاً، وهوَ مذهبُ الشّافعيِّ، وقوله تعالى: ﴿فَاقْرَؤُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَه﴾ معناه أقرءوا إنْ تيسّرَ عليكمْ ذلكَ، وصلّوا إنْ شئتمْ.

وصارَ قومٌ إلى أنَّ النّسخَ بالكلّيّةِ تقرّرَ في حقِّ النّبيِّ ﷺ أيضـاً، لقوله: ﴿نَافِلَةٗ لَّكَ﴾ محمولٌ على حقيقةِ النّفلِ، والخطابُ للنّبيِّ ﷺ وللأمّةِ، كما أنَّ فرضيّةَ الصّلاةِ وإنْ خوطبَ بها النّبيِّ ﷺ في قولهِ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ ١ قُمِ ٱلَّيۡلَ﴾ كانتْ عامّةً لهُ ولغيرهِ.

وقدْ قيل: إنَّ فريضةَ اللّهِ امتدّتْ إلى ما بعدَ الهجرةِ، ونسختْ بالمدينةِ، لقولهِ تعالى: ﴿عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرۡضَىٰ وَءَاخَرُونَ يَضۡرِبُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَبۡتَغُونَ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ﴾ وإنّما فرضَ القتالُ بالمدينةِ.

السابعة- قولهُ تعالى: ﴿عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرۡضَىٰ﴾ الآيةَ، بيّنَ سبحانهُ علّةَ تخفيفِ قيامِ اللّيلِ، فإنَّ الخلقَ منهمُ المريضُ، ويشقُّ عليهمْ قيامُ اللّيلِ، ويشقُّ عليهمْ أنْ تفوتهمُ الصّلاةُ، والمسافرُ في التّجاراتِ قدْ لا يطيقُ قيامَ اللّيلِ، والمجاهدُ كذلكَ، فخفّفَ اللّهُ عن الكل لأجل هؤلاء.

الثّامنةُ- سوّى اللّهُ تعالى في هذهِ الآيةِ بينَ درجةِ المجاهدينَ والمكتسبينَ المالَ الحلالَ للنّفقةِ على نفسهِ وعيالهِ، والإحسانِ والإفضالِ، فكانَ هذا دليلاً على أنَّ كسبَ المالِ بمنزلةِ الجهادِ، لأنّهُ جمعهُ معَ الجهادِ في سبيلِ اللّهِ.

التاسعة- قوله تعالى: ﴿فَاقْرَؤُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ﴾ أيْ صلّوا ما أمكنَ، فأوجبَ اللّهُ منْ صلاةِ اللّيلِ ما تيسّرَ، ثمَّ نسخَ ذلكَ بإيجابِ الصّلواتِ الخمسِ على ما تقدّمَ.

قالَ ابنُ العربيِّ وقدْ قالَ قومٌ: إنَّ فرضَ قيامِ اللّيلِ سنَّ في ركعتينِ منْ هذهِ الآيةِ، قالهُ البخاريُّ وغيرهُ، وعقدَ باباً ذكرَ فيهِ حديثَ «يعقدُ الشّيطانُ على قافيةِ رأسِ أحدكمْ إذا هوَ نامَ ثلاثَ عقدٍ، يضربُ على كلِّ عقدةٍ مكانها: عليكَ ليلٌ طويلٌ فارقدْ. فإنِ استيقظَ فذكرَ اللّهَ انحلّتْ عقدةٌ، فإنْ توضّأَ انحلّتْ عقدةٌ، فإنْ صلّى انحلّتْ عقدهُ كلّها، فأصبحَ نشيطاً طيب النفس، وإلا أصبح خبيث النّفسِ كسلانَ» وذكرَ حديثَ سمرةَ بنِ جندبٍ عنِ النّبيِّ ﷺ الرّؤيا قالَ: «أمّا الّذي يثلغُ رأسهُ بالحجرِ فإنّهُ يأخذُ القرآنَ فيرفضهُ، وينامُ عنِ الصّلاةِ المكتوبةِ». وحديثَ عبدِ اللّهِ بنِ مسعودٍ قالَ: ذكرَ عندَ النّبيِّ ﷺ رجلٌ ينامُ اللّيلَ كلّهُ فقالَ: «ذلكَ رجلٌ بالَ الشّيطانُ في أذنيهِ» فقالَ: ابنُ العربيِّ: فهذهِ أحاديثُ مقتضيةٌ حملَ مطلقِ الصّلاةِ على المكتوبةِ، فيحملُ المطلقُ على المقيّدِ لاحتمالهِ لهُ، وتسقطُ الدّعوى ممّنْ عيّنهُ لقيامِ اللّيلِ.

وفي الصّحيحِ واللّفظُ للبخاريِّ: قالَ عبدُ اللّهِ بنُ عمرو: وقالَ لي رسولُ اللّهِ ﷺ: «يا عبدَ اللّهِ لا تكنْ مثلَ فلانٍ، كانَ يقومُ اللّيلَ فتركَ قيامَ اللّيل» ولوْ كانَ فرضاً ما أقرّهُ النّبيُّ ﷺ عليهِ، ولا أخبرَ بمثل هذا الخبرِ عنهُ، بلْ كانَ يذمّهُ غايةَ الذّمِّ، وفي الصّحيحِ عنْ عبدِ اللّهِ بنِ عمرَ قالَ: كانَ الرّجلُ في حياةِ النّبيِّ ﷺ إذا رأى رؤيا قصّها على النّبيِّ ﷺ، وكنتُ غلاماً شاباً عزباً، وكنتُ أنامُ في المسجدَ على عهدِ رسولِ اللّهِ ﷺ، فرأيتُ في النّومِ كأنَّ ملكينِ أخذاني فذهبا بي إلى النّارِ، فإذا هيَ مطويّةٌ كطيِّ البئرِ، وإذا لها قرنانِ، وإذا فيها ناسٌ قدْ عرفتهمْ، فجعلتُ أقولُ: أعوذُ باللّهِ منَ النّارِ. قالَ: ولقينا ملكٌ آخرُ، فقالَ: لي: لمْ ترعْ. فقصصتها على حفصةَ، فقصّتها حفصةُ على رسولِ اللّهِ ﷺ، فقالَ: «نعمَ الرّجلُ عبدُ اللّهِ لوْ كانَ يصلّي منَ اللّيلِ» فكانَ بعدُ لا ينامُ منَ اللّيلِ إلّا قليلاً، فلوْ كانَ تركُ القيامِ معصيةً لما قالَ

لهُ الملكُ: لمْ ترعْ. والله أعلم.

العاشرة- إذا ثبتَ أنَّ قيامَ اللّيلِ ليسَ بفرضٍ، وأنَّ قوله: ﴿فَاقْرَؤُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ﴾ محمولٌ على ظاهرِهِ منَ القراءةِ في الصّلاةِ فاختلفَ العلماءُ في قدرِ ما يلزمهُ أنْ يقرأَ بهِ في الصّلاةِ:

فقالَ مالكٌ والشّافعيُّ: فاتحةُ الكتابِ لا يجزئُ العدولُ عنها، ولا الاقتصارُ على بعضها. وقدّرهُ أبو حنيفةَ بآيةٍ واحدةٍ، منْ أيِّ القرآنِ كانت. وعنه ثلاث آياتٍ، لأنّها أقلُّ سورةٍ، والصحيح ما ذهبَ إليهِ مالكٌ والشّافعيُّ.

وقيلَ: إنَّ المرادَ بهِ قراءةُ القرآنِ في غيرِ الصّلاةِ، ويكونُ مطلقُ هذا الأمرِ محمولاً على الوجوبِ، أوْ على الاستحبابِ دونَ الوجوبِ. وهذا قولُ الأكثرينَ، لأنّهُ لوْ وجبَ عليهِ أنْ يقرأَ لوجبَ عليهِ أنْ يحفظهُ. **الثّاني**: أنّهُ محمولٌ على الوجوبِ، ليقفَ بقراءتِهِ على إعجازِهِ، وما فيهِ منْ دلائلِ التّوحيدِ وبعثِ الرّسلِ، ولا يلزمهُ إذا قرأهُ وعرفَ إعجازهُ ودلائلَ التّوحيدِ منهُ أنْ يحفظهُ، لأنَّ حفظَ القرآنِ منَ القربِ المستحبّةِ دونَ الواجبةِ.

الحاديةَ عشرةَ- قولهُ تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ يعني المفروضةَ وهيَ الخمسُ لوقتها ﴿وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ الواجبةَ في أموالكمْ، وقيلَ: صدقةُ الفطرِ لأنَّ زكاةَ الأموالِ وجبتْ بعدَ ذلكَ. وقيلَ: صدقةُ التّطوّعِ. وقيلَ: كلُّ أفعالِ الخيرِ.

الثانية عشرةَ- قولهُ تعالى: ﴿وَأَقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ القرضُ الحسنُ ما قصدَ بهِ وجهُ اللّهِ تعالى خالصاً منَ المالِ الطّيّبِ، ومنه النّفقةُ على الأهلِ، وفي سبيلِ اللّهِ.

الثالثة عشرةَ- قولهُ تعالى: ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا﴾ أيْ ممّا تركتمْ وخلّفتمْ، ومنِ الشّحِّ والتّقصيرِ ﴿وَأَعْظَمَ أَجْرًا﴾ لإعطائهِ بالحسنةِ عشراً ﴿وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ﴾ أيْ سلوهُ المغفرةَ لذنوبكمْ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ﴾ لما كانَ قبلَ التّوبةِ ﴿رَّحِيمٌ﴾ لكمْ بعدها.

سورة المدثر

مكّيّةٌ في قولِ الجميعِ، وهيَ ستٌّ وخمسونَ آيةً.

بسمِ اللّهِ الرّحمنِ الرّحيمِ

قولهُ تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤﴾، فيهِ ستُّ مسائلَ:

الأولى: قولهُ تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ﴾ أيْ بثيابهِ، وتغشّى بها ونامَ، وأصلهُ المتدثّرُ فأدغمتِ التّاءُ في الدّالِ لتجانسهما، وفي صحيح مسلم عنْ جابرِ بنِ عبدِ اللّهِ وكانَ منْ أصحابِ رسولِ اللّهِ ﷺ كانَ يحدّثُ- قالَ: قالَ رسولُ اللّهِ ﷺ وهوَ يحدّثُ عنْ فترةِ الوحي- قالَ في حديثهِ: «فبينما أنا أمشي سمعتُ صوتًا منَ السّماءِ فرفعتُ رأسي، فإذا الملكُ الّذي جاءني بحراءَ جالسًا على كرسي بين السماء والأرض». قالَ رسولُ اللّهِ ﷺ: «فجئثتُ منهُ فرقًا، فرجعتُ فقلت زمّلوني زمّلوني، فدثّروني، فأنزلَ اللّهُ تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ﴾ في روايةٍ- قبلَ أنْ تفرضَ الصّلاةُ- وهيَ الأوثانُ قالَ: «ثمَّ تتابعَ الوحيُ».

وفي مسلم عن أبي سلمةَ: قالَ: سألتُ جابرَ بنَ عبدِ اللّهِ أيُّ القرآنِ أنزلَ قبلُ؟ قالَ: يا أيّها المدّثّرُ فقلت: أوِ «اقرأْ» فقالَ جابرٌ: أحدّثكمْ ما حدّثنا رسولُ اللّهِ ﷺ، قالَ: «جاورتُ بحراءَ شهراً، فلمّا قضيتُ جواري نزلتُ فاستبطنتُ بطنَ الوادي، فنوديتْ فنظرتُ أمامي وخلفي وعنْ يميني وعنْ شمالي فلم أرا أحداً، ثمَّ نوديتُ فنظرتُ فلمْ أرَ أحداً، ثمَّ نوديتُ فرفعتُ رأسي فإذا هوَ على العرشِ في الهواءِ- يعني جبريلَ ﷺ- فأخذتني رجفةٌ شديدةٌ، فأتيتُ خديجةَ فقلت دثّروني، فدثّروني فصبّوا عليَّ ماءً، فأنزلَ اللّهُ عزَّ وجلَّ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ خرّجهُ البخاريُّ. وقالَ فيه: «فأتيتُ خديجةَ فقلت دثّروني وصبّوا عليَّ ماءً بارداً، فدثّروني وصبّوا عليَّ ماءً بارداً فنزلتْ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ۝٥ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ﴾».

الثانية- في قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ﴾ ملاطفةٌ في الخطابِ منَ الكريمِ إلى الحبيبِ إذْ ناداهُ بحالِهِ، وعبّرَ عنهُ بصفتهِ، ولمْ يقلْ يا محمّدُ ويا فلانُ، ليستشعرَ اللّينَ والملاطفةَ منْ ربّهِ كما تقدّمَ في سورةِ المزّمّل. ومثلهُ قولُ النّبيِّ ﷺ لعليٍّ إذْ نامَ في المسجدِ: «قمْ أبا ترابٍ» وكانَ خرجَ مغاضبـًا لفاطمةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا فسقطَ رداؤهُ وأصابهُ ترابهُ، خرّجهُ مسلمٌ. ومثلهُ قولهُ ﷺ لحذيفةَ ليلةَ الخندقِ: «قمْ يا نومانُ».

الثالثة- قولهُ تعالى: ﴿قُمۡ فَأَنذِرۡ﴾ أيْ خوّفْ أهلَ مكّةَ العذابَ إنْ لمْ يسلموا. وقيلَ: الإنذارُ هنا إعلامهمْ بنبوّتهِ، لأنّهُ مقدّمةُ الرّسالةِ. وقيلَ: هوَ دعاؤهمْ إلى التّوحيدِ، لأنّهُ المقصودُ بها.

الرابعة- قولهُ تعالى: ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرۡ﴾ أيْ سيّدكَ ومالككَ ومصلحَ أمركَ فعظّمْ، وقدْ صارَ هذا اللّفظُ بعرفِ الشّرعِ في تكبيرِ العباداتِ كلّها أذانـًا وصلاةً وذكراً بقولهِ: «اللّهُ أكبرُ» وحُملَ عليهِ لفظُ النّبيِّ ﷺ الواردُ على الإطلاقِ في مواردَ، منها قولهُ: «تحريمها التّكبيرُ، وتحليلها التّسليمُ» والشّرعُ يقتضي بعرفهِ ما يقتضي بعمومهِ، ومنْ مواردهِ أوقاتُ الإهلالِ بالذّبائحِ للّهِ تخليصـًا لهُ منَ الشّركِ، وإعلانـًا باسمهِ في النّسكِ، وقدْ تقدّمَ في أوّلِ سورةِ البقرةِ أنَّ هذا اللّفظَ «اللّهُ أكبرُ» هوَ المتعبّدُ بهِ في الصّلاةِ، المنقولُ عنِ النّبيِّ ﷺ.

الخامسة- الفاءُ في قولهِ تعالى: ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرۡ﴾ دخلتْ على معنى جوابِ الجزاءِ أو زائدةٌ.

السادسة- قولهُ تعالى: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرۡ﴾ فيهِ ثمانيةُ أقوالٍ:

أحدها: أنَّ المرادَ بالثّيابِ العملُ، يقولون: فلان طاهرُ الثّيابِ أي حسنَ العملِ.

الثّاني: القلبُ: منَ الإثمِ والغدرِ، وهذا مرويٌّ عنِ ابنِ عبّاسٍ، واستشهدَ بقولِ غيلانَ بنِ سلمةَ الثّقفيِّ:

فإنّي بحمدِ اللّهِ لا ثوبَ فاجرٍ لبستُ ولا منْ غدرةٍ أتقنّعُ

الثّالثُ: النّفسُ، أيْ منَ الذّنوبِ، والعربُ تكنّي عنِ النّفسِ بالثّيابِ، قالهُ ابنُ عبّاسٍ، ومنهُ قولُ عنترةَ:

فشككتُ بالرّمحِ الطّويلِ ثيابهُ   ليسَ الكريمُ على القنا بمحرّمِ

الرّابعُ: الجسم، أي: وجسمكَ فطهّرْ، أيْ عنِ المعاصي الظّاهرةِ. وممّا جاءَ عنِ العربِ في الكنايةِ عنِ الجسمِ بالثّيابِ قولُ ليلى، وذكرتْ إبلاً:

رموها بأثيابٍ خفافٍ فلا ترى   لها شبهًا إلّا النّعامَ المنفّرا

أيْ ركبوها فرموها بأنفسهمْ.

الخامس: الأهلُ، والعربُ تسمّي الأهلَ ثوبًا ولباسًا وإزاراً، قالَ اللّهُ تعالى: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾، ولهمْ في تأويلِ الآيةِ وجهانِ:

أحدهما- معناهُ ونساءكَ فطهّرْ، باختيارِ المؤمناتِ العفائفِ.

الثّاني- الاستمتاعُ بهنَّ في القبلِ دونَ الدّبرِ، في الطّهرِ لا في الحيضِ.

السادس: الخلق، أي: وخلقكَ فحسّنْ. قالهُ الحسنُ والقرظيُّ، لأنَّ خلقَ الإنسانِ مشتملٌ على أحوالهِ اشتمالَ ثيابهِ على نفسهِ. وقالَ الشّاعرُ:

ويحيى لا يلامُ بسوءِ خلقٍ   ويحيى طاهرُ الأثوابِ حرُّ

أيْ حسنُ الأخلاقِ.

السابع: الدّينُ، ففي الصّحيحينِ عنهُ عليه السلام قال: «ورأيتُ النّاسَ وعليهمْ ثيابٌ، منها ما يبلغُ الثّديَّ، ومنها ما دونَ ذلكَ، ورأيتُ عمرَ بنَ الخطّابِ وعليهِ إزارٌ يجرّهُ». قالوا: يا رسولَ اللّهِ فما أوّلتَ ذلكَ؟ قالَ: الدّينُ.

الثامن: الثّيابُ الملبوساتُ على الظّاهرِ، ولهمْ في تأويلهِ أوجه:

أحدهما- وثيابكَ فشمّرْ وقصّرْ، لأنّها إذا أرسلتْ تدنّستْ، ولهذا قالَ عمرُ بنُ الخطّابِ رضي الله عنه لغلامٍ منَ الأنصارِ وقدْ رأى ذيلهُ مسترخيًا: ارفعْ إزاركَ فإنّهُ أتقى وأنقى وأبقى، وقدْ قالَ النّبيُّ صلى الله عليه وسلم: «إزرةُ المؤمنِ إلى أنصافِ ساقيهِ، لا جناحَ عليهِ فيما بينهُ وبينَ الكعبينِ، وما كانَ أسفلَ منْ ذلكَ ففي النّارِ».

وفي الصّحيحِ: «منْ جرَّ إزارهُ خيلاءَ لمْ ينظرِ اللّهُ إليهِ يومَ القيامةِ». قالَ أبو بكرٍ: يا رسولَ

اللّهِ! إنَّ أحدَ شقّيْ إزاري يسترخي إلّا أنْ أتعاهدَ ذلكَ منهُ؟ قالَ رسولُ اللّهِ ﷺ: «لستَ ممّنْ يصنعهُ خيلاءَ» فعمَّ رسولُ اللّهِ ﷺ بالنّهي، واستثنى الصّدّيقَ.

الثّاني- وثيابكَ فطهّرْ منَ النّجاسةِ بالماءِ، واحتجَّ بها الشّافعيُّ على وجوبِ طهارةِ الثّوبِ. وليستْ عندَ مالكٍ وأهلِ المدينةِ بفرضٍ، وكذلكَ طهارةُ البدنِ، ويدلُّ على ذلكَ الإجماعُ على جوازِ الصّلاةِ بالاستجمارِ منْ غيرِ غسلٍ.

الثالث- لا تلبسْ ثيابكَ إلّا منْ كسبٍ حلالٍ.

قولهُ تعالى: ﴿وَٱلرُّجۡزَ فَٱهۡجُرۡ﴾ يعني الأوثانَ، لقولهُ تعالى: ﴿فَٱجۡتَنِبُواْ ٱلرِّجۡسَ مِنَ ٱلۡأَوۡثَٰنِ﴾، وقيلَ: الرّجزُ العذابُ، على تقديرِ حذف المضافِ، المعنى: العملَ المؤدّي إلى العذابِ. وأصلُ الرّجزِ العذابُ، قالَ اللّهُ تعالى: ﴿لَئِن كَشَفۡتَ عَنَّا ٱلرِّجۡزَ لَنُؤۡمِنَنَّ لَكَ﴾، وقالَ تعالى: ﴿فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِجۡزٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾، وقراءةُ العامّةِ ﴿ٱلرِّجۡزَ﴾ بكسرِ الرّاءِ. وقرأ حفصٌ عنْ عاصمٌ والرُّجزَ بضمِّ الرّاءِ وهما لغتانِ مثلَ الذِكرِ والذُكرِ، وقيلَ: الرُجزُ بالضّمِّ: الصّنمُ، وبالكسرِ: العذابُ.

قولهُ تعالى: ﴿وَلَا تَمۡنُن تَسۡتَكۡثِرُ﴾، فيهِ ثلاثُ مسائلَ:

الأولى: قولهُ تعالى: ﴿وَلَا تَمۡنُن تَسۡتَكۡثِرُ﴾ فيهِ أحدَ عشرَ تأويلاً، منها:

الأول- لا تمننْ على ربّكَ بما تتحمّلهُ منْ أثقالِ النّبوّةِ، كالّذي يستكثرُ ما يتحمّلهُ بسببِ الغيرِ.

الثّاني- لا تعطِ عطيّةً تلتمسُ بها أفضلَ منها، قاله ابن عباس: لأنّهُ مأمورٌ بأشرفِ الآدابِ وأجلِّ الأخلاقِ.

الثّالثُ- لا تمننْ على اللّهِ بعملكَ فتستكثرهُ.

الرابع- لا تمننْ بالنّبوّةِ والقرآنِ على النّاسِ فتأخذَ منهمْ أجراً تستكثرُ بهِ.

الثانية- هذهِ الأقوالُ وإنْ كانتْ مرادةً فأظهرها قولُ ابنِ عبّاسٍ: لا تعطِ لتأخذَ أكثرَ ممّا أعطيتَ منَ المالِ، لأنّهُ ﷺ ما كانَ يجمعُ الدّنيا، ولهذا قالَ: «ما ليَ ممّا أفاءَ اللّهُ عليكمْ إلّا

الخمسُ والخمسُ مردودٌ عليكمْ». وكانَ ما يفضلُ منْ نفقةِ عيالهِ مصروفاً إلى مصالح المسلمينَ، ولهذا لمْ يورّثْ، لأنّهُ كانَ لا يملكُ لنفسهِ الادّخارَ والاقتناءَ، وقدْ عصمهُ اللّهُ تعالى عنِ الرّغبةِ في شيءٍ منَ الدّنيا، ولذلكَ حرّمتْ عليهِ الصّدقةُ وأبيحتْ لهُ الهديّةُ، فكانَ يقبلها ويثيبُ عليها، وقدْ قالَ اللّهُ تعالى لهُ: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾.

الثالثة- قولهُ تعالى: ﴿وَلَا تَمْنُن﴾ المنُّ بمعنى التّعدادِ على المنعمِ عليهِ بالنّعمِ، ويعضّدهُ قولهُ تعالى: ﴿لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ﴾، وقدْ يكونُ مراداً في هذهِ الآيةِ.

قولهُ تعالى: ﴿وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ﴾ على أداءِ فرائضهِ وعلى ما أوذيتَ؛ لأنّهُ يمتحنُ أولياءهُ وأصفياءهُ.

قولهُ تعالى: ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِى ٱلنَّاقُورِ﴾ إذا نفخَ في الصّورِ. والنّاقورُ: فاعولٌ منَ النّقرِ، كأنّهُ الّذي منْ شأنهِ أنْ ينقرَ فيهِ للتّصويتِ، والنّقرُ في كلامِ العربِ: الصّوتُ، وهوَ كهيئةِ البوقِ، ويعني بها النّفخةَ الثّانيةَ. وقيلَ: الأولى، لأنّها أوّلُ الشّدّةِ الهائلةِ العامّةِ ﴿فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ﴾ شديدٌ ﴿عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ﴾ وذلكَ أنَّ عقدهمْ لا تنحلُّ إلّا إلى عقدةٍ أشدَّ منها، بخلافِ المؤمنينَ الموحّدينَ المذنبينَ فإنّها تنحلُّ إلى ما هوَ أخفُّ منها حتّى يدخلوا الجنّةَ برحمةِ اللّهِ تعالى.

قولهُ تعالى: ﴿ذَرْنِى﴾ أيْ دعني، وهيَ كلمةُ وعيدٍ وتهديدٍ ﴿وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا﴾ لا مالَ لهُ ولا ولدَ، والمفسّرونَ على أنّهُ الوليدُ بنُ المغيرةِ المخزوميُّ، وإنْ كانَ النّاسُ خلقوا مثلَ خلقهِ. وإنّما خصَّ بالذّكرِ لاختصاصهِ بكفرِ النّعمةِ وإيذاءِ الرّسولِ ﷺ، وكانَ يسمّى الوحيدَ في قومهِ.

وقالَ قومٌ: إنَّ قولهُ تعالى: ﴿وَحِيدًا﴾ يرجعُ إلى الرب تعالى على معنيين:

أحدهما: ذرني وحدي معهُ فأنا أجزيكَ في الانتقامِ منهُ عنْ كلِّ منتقمٍ.

والثّاني: أنّي انفردتُ بخلقهِ ولمْ يشركني فيهِ أحدٌ، فأنا أهلكهُ ولا أحتاجُ إلى ناصرٍ في إهلاكهِ، فَوحيداً على هذا حالٌ منْ ضميرِ الفاعلِ، وهوَ التّاءُ في خلقتُ.

وقيلَ: الوحيدُ الّذي لا يعرفُ أبوهُ، وكانَ الوليدُ معروفًا بأنّهُ دعيٌّ، كما ذكرنا في قولهِ تعالى: ﴿عُتُلِّۭ بَعۡدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ﴾ وهوَ في صفةِ الوليدِ أيضـًا.

قولهُ تعالى: ﴿وَجَعَلۡتُ لَهُۥ مَالٗا مَّمۡدُودٗا﴾ بينَ مكّةَ والطّائفِ منَ الإبلِ والحجورِ والنّعمِ والجنانِ والعبيدِ والجواري.

قولهُ تعالى: ﴿وَبَنِينَ شُهُودٗا﴾ عشرة لا يغيبونَ عنهُ، أسلمَ منهمْ ثلاثةٌ: خالدٌ وهشامٌ والوليدُ بنُ الوليدِ.

وقيلَ: شهوداً، أيْ إذا ذكرَ ذكروا معهُ، وقيلَ: شهوداً، أيْ قدْ صاروا مثلهُ في شهودِ ما كانَ يشهدهُ، والقيامِ بما كانَ يباشرهُ.

قولهُ تعالى: ﴿وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمۡهِيدٗا﴾ أيْ بسطتُ لهُ في العيشِ بسطًا ﴿ثُمَّ يَطۡمَعُ أَنۡ أَزِيدَ﴾ في المالِ والولدِ ﴿كَلَّآۖ﴾ فلمْ يزلْ يرى النّقصانَ في ماله وولده حتى هلك، وثمَّ ليستْ بثمَّ الّتي للنّسقِ ولكنّها تعجيبٌ، وهيَ كقولهِ تعالى: ﴿وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡ يَعۡدِلُونَ﴾ وذلكَ كما تقولُ: أعطيتكَ ثمَّ أنتَ تجفوني، كالمتعجّبِ منْ ذلكَ ﴿إِنَّهُۥ كَانَ لِأٓيَٰتِنَا عَنِيدٗا﴾ عاندٌ فهوَ عنيدٌ مثلَ جالسٌ فهوَ جليسٌ، وعندَ يعندُ بالكسرِ أيْ خالفَ وردَّ الحقَّ وهوَ يعرفهُ فهوَ عنيدٌ وعاندٌ.

قولهُ تعالى: ﴿سَأُرۡهِقُهُۥ﴾ سأكلّفهُ ﴿صَعُودًا﴾ الصّعودُ: «جبلٌ منْ نارٍ يتصعّدُ فيهِ سبعينَ خريفًا ثمَّ يهوي كذلكَ فيهِ أبداً» رواهُ أبو سعيدٍ الخدريُّ عنِ النّبيِّ ﷺ، خرّجهُ التّرمذيُّ وقالَ فيهِ حديثٌ غريبٌ.

قولهُ تعالى: ﴿إِنَّهُۥ فَكَّرَ﴾ في شأنِ النّبيِّ ﷺ والقرآن ﴿وَقَدَّرَ﴾ أيْ هيّأَ الكلامَ في نفسهِ ماذا يمكنهُ أنْ يقولَ فيهما ﴿فَقُتِلَ﴾ أيْ لعنَ ﴿كَيۡفَ قَدَّرَ﴾ أيْ على أيِّ حالٍ قدّرَ ﴿ثُمَّ نَظَرَ﴾ بأيِّ شيءٍ يردُّ الحقَّ ويدفعهُ ﴿ثُمَّ عَبَسَ﴾ أيْ قطّبَ بينَ عينيهِ في وجوهِ المؤمنينَ ﴿وَبَسَرَ﴾ أيْ كلحَ وجههُ وتغيّرَ لونهُ فقال: ﴿إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا قَوۡلُ ٱلۡبَشَرِ﴾ تلقّنهُ عنْ عديٍّ الحضرميِّ الكاهنِ.

قولهُ تعالى: ﴿سَأُصۡلِيهِ سَقَرَ﴾ يصلى حرّها. وإنّما سمّيتْ سقرَ منْ سقرتهُ الشّمسُ: إذا أذابتهُ ولوّحتهُ، وأحرقتْ جلدةَ وجههِ ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا سَقَرُ﴾ كلمةُ تعظيمٍ ثمَّ فسّرَ حالها فقالَ:

﴿لَا تُبۡقِي وَلَا تَذَرُ﴾ لا عظماً ولا لحماً ولا دماً إلّا أحرقتهُ. وكرّرَ اللّفظَ تأكيداً ﴿لَوَّاحَةٞ لِّلۡبَشَرِ﴾ أيْ مغيّرةٌ منْ لاحهُ إذا غيّرهُ. وقيلَ: لوّاحةٌ أيْ تلوحُ للبشرِ منْ مسيرةِ خمسمائةِ عامٍ، وفي البشرِ وجهانِ:

أحدهما- أنّهُ الإنسُ منْ أهلِ النّارِ.

الثّاني- أنّهُ جمعُ بشرةٍ، وهيَ جلدةُ الإنسانِ الظّاهرةُ.

قولهُ تعالى: ﴿عَلَيۡهَا تِسۡعَةَ عَشَرَ﴾ منَ الملائكةِ، وهمْ خزنتها، مالكٌ وثمانيةَ عشرَ ملكاً. وهؤلاءِ همُ الرّؤساءُ والنّقباءُ، وأمّا جملتهمْ فالعبارةُ تعجزُ عنها، كما قالَ اللّهُ تعالى: ﴿وما يعلمُ جنودَ ربّكَ إلّا هوَ﴾ وقدْ ثبتَ في الصّحيحِ عنْ عبدِ اللّهِ بنِ مسعودٍ قالَ: قالَ رسولُ اللّهِ ﷺ: «يؤتى بجهنّمَ يومئذٍ لها سبعونَ ألفَ زمامٍ معَ كلِّ زمامٍ سبعونَ ألفَ ملكٍ يجرّونها».

وقالَ ابنُ عبّاسٍ: لمّا نزلَ: ﴿عَلَيۡهَا تِسۡعَةَ عَشَرَ﴾ قالَ أبو جهلٍ لقريشٍ: ثكلتكمْ أمّهاتكمْ! أسمعُ ابنُ أبي كبشةَ يخبركمْ أنَّ خزنةَ جهنّمَ تسعةَ عشرَ، وأنتمُ الدّهمُ- أيِ العددُ- والشّجعانُ، فيعجزُ كلُّ عشرةٍ منكمْ أنْ يبطشوا بواحدٍ منهمْ! فنزلَ قولهُ تعالى: ﴿وَمَا جَعَلۡنَآ أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةٗ﴾ أيْ لمْ نجعلهمْ رجالاً فتتعاطونَ مغالبتهمْ. ولأنّهمْ أشدُّ خلقِ اللّهِ بأساً وأقواهمْ بطشاً ﴿وَمَا جَعَلۡنَا عِدَّتَهُمۡ إِلَّا فِتۡنَةٗ﴾ أيْ بليّةً ﴿لِيَسۡتَيۡقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ التّوراةَ والإنجيلَ أنَّ عدّةَ خزنةِ جهنّمَ موافقةٌ لما عندهمْ، ثمَّ يحتملُ أنّهُ يريد الذين آمنوا منهم كعبد الله بنِ سلامٍ. ويحتملُ أنّهُ يريدُ الكلَّ ﴿وَيَزۡدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِيمَٰنٗا﴾ بذلكَ؛ لأنّهمْ كلّما صدّقوا بما في كتابِ اللّهِ آمنوا، ثمَّ ازدادوا إيماناً لتصديقهمْ بعددِ خزنةِ جهنّمَ ﴿وَلَا يَرۡتَابَ﴾ أيْ ولا يشكَّ ﴿ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ أيْ أعطوا الكتابَ ﴿وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ أي المصدّقونَ منْ أصحابِ محمّدٍ ﷺ في أنَّ عدّةَ خزنةِ جهنّمَ تسعةَ عشرَ ﴿وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ﴾ وشكٌّ ونفاقٌ منْ منافقي أهلِ المدينةِ ﴿مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلٗاۚ﴾ يعني بعددِ خزنةِ جهنّمَ. والسّورةُ مكّيّةٌ ولمْ يكنْ بمكّةَ نفاقٌ، لكنّ أهلَ مكّةَ كانَ أكثرهمْ شاكّينَ، وبعضهمْ قاطعينَ بالكذبِ ﴿وَمَا يَعۡلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَۚ﴾ أيْ الّذينَ خلقهمْ لتعذيبِ أهلِ النّارِ، وفي التّرمذيِّ عنِ النّبيِّ ﷺ: «أطّتِ السّماءُ وحقَّ لها أنْ تئطَّ، ما فيها موضعُ أربعِ أصابعَ

إلّا وملكٌ واضعٌ جبهتهُ للّهِ ساجداً».

قولهُ تعالى: ﴿وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ﴾ يعني الدّلائلَ والحججَ والقرآنَ، أو ما هذهِ النّارُ الّتي هيَ سقرُ إلّا عظةٌ للخلقِ، وقيلَ: أيْ ما هذهِ العدّةُ إلّا ذكرى للبشرِ أيْ ليتذكّروا ويعلموا كمالَ قدرةِ اللّهِ تعالى، وأنّهُ لا يحتاجُ إلى أعوانٍ وأنصارٍ، فالكنايةُ على هذا في قولهِ تعالى: ﴿وَمَا هِيَ﴾ ترجعُ إلى الجنودِ، لأنّهُ أقرب مذكور.

قولهُ تعالى: ﴿كَلَّا﴾ كلّا صلةٌ للقسمِ، التّقديرُ أيْ ﴿وَالْقَمَرِ﴾ أقسمَ على ذلك عز وجل بالقمرِ وبما بعدهُ، فقالَ: ﴿وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ﴾ أيْ ولّى، وقرأ نافعٌ وحمزةُ وحفصٌ ﴿إِذْ أَدْبَرَ﴾ الباقونَ «إِذَا» بألفٍ وَ «دَبَرَ» بغيرِ ألفٍ وهما لغتانِ بمعنى، يقالُ: دبرَ وأدبرَ ﴿وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ﴾، والإسفارُ: الإنارةُ. وأسفرَ وجههُ حسنًا أيْ أشرقَ.

قولهُ تعالى: ﴿إِنَّهَا لَإِحْدَى الْكُبَرِ﴾ جوابُ القسمِ، أيْ إنَّ هذهِ النّارَ لإحدى الكبرِ أيْ لإحدى الدّواهي، وقيلَ: إنّها أيْ إنَّ تكذيبهمْ بمحمّدٍ ﷺ لإحدى الكبرِ أيْ لكبيرةٌ منَ الكبائرِ. وقيلَ: أيْ إنَّ قيامَ السّاعةِ لإحدى الكبرِ. والكبرُ: هيَ العظائمُ منَ العقوباتِ ﴿نَذِيرًا لِلْبَشَرِ﴾ يريدُ النّارَ، أيْ أنَّ هذهِ النّارَ الموصوفةَ نذيراً للبشرِ فما أنذرَ الخلائقُ بشيءٍ أدهى منها.

قولهُ تعالى: ﴿لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ﴾ إلى الخيرِ والطّاعةِ ﴿أَوْ يَتَأَخَّرَ﴾ إلى الشر والمعصية، نظيره: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ﴾ أي في الخير ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ﴾ عنهُ. وهذا وعيدٌ وتهديدٌ وإنْ خرجَ مخرجَ الخبرِ، كقولهِ تعالى: ﴿فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾. وقالَ بعضُ أهلِ التّأويلِ: معناهُ لمنْ شاءَ اللّهُ أنْ يتقدّمَ أوْ يتأخّرَ، فالمشيئةُ متّصلةٌ باللّهِ جلَّ ثناؤهُ، والتّقديمُ الإيمانُ، والتّأخيرُ الكفرُ.

قولهُ تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ أيْ مرتهنةٌ بكسبها، مأخوذةٌ بعملها، إمّا خلّصها وإمّا أوبقها ﴿إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ﴾ الّذينَ سبقتْ لهمْ منَ اللّهِ الحسنى الّذينَ يعطونَ كتبهمْ بأيمانهمْ ﴿فِي جَنَّاتٍ﴾ أيْ في بساتينَ ﴿يَتَسَاءَلُونَ﴾ أيْ يسألونَ ﴿عَنِ الْمُجْرِمِينَ﴾ أيِ المشركينَ ﴿مَا سَلَكَكُمْ﴾ أيْ أدخلكمْ في سقرَ كما تقولُ: سلكتُ الخيطَ في كذا أيْ أدخلتهُ

فيهِ ﴿قَالُوا۟﴾ يعني أهلَ النّارِ ﴿لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ﴾ أي المؤمنينَ الّذينَ يصلّونَ ﴿وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ﴾ أيْ لمْ نكُ نتصدّقُ ﴿وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ﴾ أهلَ الباطلِ في باطلهمْ ﴿وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ أيْ يومِ الجزاءِ والحكمِ. قولهُ تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ﴾ أيْ جاءنا ونزلَ بنا الموتُ، ومنهُ قولهُ تعالى: ﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ﴾.

قولهُ تعالى: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ﴾ هذا دليلٌ على صحّةِ الشّفاعةِ للمذنبينَ، وذلكَ أنَّ قومًا منْ أهلِ التّوحيدِ عذّبوا بذنوبهمْ، ثمَّ شفّعَ فيهمْ، فرحمهمُ اللّهُ بتوحيدهمْ والشّفاعةِ، فأخرجوا منَ النّارِ، وليسَ للكفّارِ شفيعٌ يشفعُ فيهمْ.

قولهُ تعالى: ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ﴾ والإعراضُ عنِ القرآنِ منْ وجهينِ: أحدهما الجحودُ والإنكارُ، والوجهُ الآخرُ تركُ العملِ بما فيه ﴿كَأَنَّهُمْ﴾ أيْ كأنَّ هؤلاءِ الكفّارَ في فرارهمْ منْ محمّدٍ ﷺ ﴿حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ﴾ أراد الحمر الوحشية، وقرأَ نافعٌ وابنُ عامرٍ بفتحِ الفاءِ، أيْ منفّرةٌ مذعورةٌ، الباقونَ بالكسرِ، أيْ نافرةٌ.

قولهُ تعالى: ﴿فَرَّتْ﴾ أيْ نفرتْ وهربتْ ﴿مِن قَسْوَرَةٍ﴾ القسورةَ الرّماةُ والصّيّادونَ، وقيلَ: إنّهُ الأسدُ، منَ القسرِ بمعنى القهرِ فإنّهُ يقهرُ السّباعَ، والحمرَ الوحشيّةَ تهربُ منَ السّباعِ.

قولهُ تعالى: ﴿بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً﴾ مفتوحةً، فيها براءتهُ وأمنهُ منَ النّارِ. وقيلَ: أرادوا أنْ ينزّلَ على كلِّ واحدٍ منهمْ كتابٌ منَ اللّهِ عزَّ وجلَّ.

قولهُ تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذْكِرَةٌ﴾ أيْ حقًا إنَّ القرآنَ عظةٌ ﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ﴾ أي اتّعظَ بهِ ﴿وَمَا يَذْكُرُونَ﴾ أيْ وما يتّعظونَ ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ أيْ ليسَ يقدرونَ على الاتّعاظِ والتّذكّرِ إلّا بمشيئةِ اللّهِ ذلكَ لهمْ. وقراءةُ العامّةِ ﴿يذكرونَ﴾ بالياءِ لقولهِ تعالى: ﴿كَلَّا بَل لَّا يَخَافُونَ ٱلْءَاخِرَةَ﴾. وقرأ نافعٌ ويعقوبُ بالتّاءِ، وهو أعمُّ واتّفقوا على تخفيفها ﴿هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ أي أهلٌ أنْ يتّقى ﴿وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾ أي أهلٌ أنْ يغفرَ لهُ.

سورة القيامة

مكّيّةٌ، وهيَ تسعٌ وثلاثونَ آيةً.

بسمِ اللّهِ الرّحمنِ الرّحيمِ

قولهُ تعالى: ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ قيل: إنَّ لا صلةٌ، وجازَ وقوعها في أوّلِ السّورةِ، لأنَّ القرآنَ متّصلٌ بعضهُ ببعضٍ، فهوَ في حكمِ كلامٍ واحدٍ، ولهذا قدْ يذكرُ الشّيءُ في سورةٍ ويجيءُ جوابهُ في سورةٍ أخرى، كقولهِ تعالى: ﴿وَقَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِي نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ إِنَّكَ لَمَجۡنُونٞ﴾ وجوابهُ في سورةٍ أخرى: ﴿مَآ أَنتَ بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ بِمَجۡنُونٖ﴾، ومعنى الكلامِ: أقسمُ بيومِ القيامةِ، ومثلهُ قولُ الشّاعرِ:

تذكّرتُ ليلى فاعترتني صبابةٌ فكادَ صميمُ القلبِ لا يتقطعِ

وقال بعضهمْ: ﴿لَآ﴾ زيادةٌ في الكلامِ للزّينةِ، ويجري في كلامِ العربِ زيادةُ ﴿لَآ﴾ كما قال في آية أخرى: ﴿قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ﴾ يعني أنْ تسجدَ، وقالَ بعضهمْ: ﴿لَآ﴾ ردٌّ لكلامهمْ حيثُ أنكروا البعثَ، فقالَ: ليسَ الأمرُ كما زعمتمْ. وذلكَ كقولهمْ لا واللّهِ لا أفعلُ فـ﴿لَآ﴾ ردٌّ لكلامٍ قدْ مضى، وفائدتها توكيدُ القسمِ في الرّدِّ. قالَ الفرّاءُ: وكانَ منْ لا يعرفُ هذهِ الجهةَ يقرأُ «لَأُقْسِمُ» بغيرِ ألفٍ، كأنّها لامُ تأكيدٍ دخلتْ على أقسمُ، وهوَ صوابٌ، لأنَّ العربَ تقولُ: لأقسمُ باللّهِ وهيَ قراءةُ ابن كثيرٍ ﴿بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ أيْ بيومٍ يقومُ النّاسُ فيهِ لربّهمْ، وللّهِ عزَّ وجلَّ أنْ يقسمَ بما شاءَ ﴿وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ﴾ لا خلافَ في هذا بينَ القرّاءِ، وهوَ أنّهُ أقسمَ سبحانهُ بيومِ القيامةِ تعظيمًا لشأنهِ ولمْ يقسمْ بالنّفسِ. وعلى قراءةِ ابنِ كثيرٍ أقسمَ بالأولى ولمْ يقسمْ بالثّانيةِ. وقيلَ: ولا أقسمُ بالنّفسِ اللّوّامةِ ردٌّ آخرُ وابتداءُ قسمٍ بالنّفسِ اللّوّامةِ، والصّحيحُ أنّهُ أقسمَ بهما جميعًا. ومعنى: بالنّفسِ اللّوّامةِ وهيَ نفسُ المؤمنِ، ما يرى المؤمنُ إلّا يلومُ نفسهُ على الشّرِّ لمَ فعلتهُ، وعلى الخيرِ لمَ لا تستكثرُ منهُ، والفاجرُ لا يحاسبُ نفسهُ.

فعلى هذهِ الوجه تكونُ اللّوّامةُ بمعنى اللّائمةِ، وهوَ صفة مدح، وعلى هذا يجيءُ القسمُ

بها سائغًا حسنًا، وقيلَ: اللّوّامةُ بمعنى الملومةِ المذمومةِ فهيَ صفةُ ذمٍّ وهوَ قولُ منْ نفى أنْ يكونَ قسمًا، إذْ ليسَ للعاصي خطرٌ يقسمُ بهِ.

قولهُ تعالى: ﴿أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجۡمَعَ عِظَامَهُۥ﴾ جوابُ القسمِ محذوفٌ أيْ لتبعثنَّ، ودلَّ عليهِ قولهُ تعالى: ﴿أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجۡمَعَ عِظَامَهُۥ﴾ للإحياءِ والبعثِ. والإنسانُ هنا الكافرُ المكذّبُ للبعثِ، وذكرَ العظامَ والمرادُ نفسهُ كلّها، لأنَّ العظامَ قالبُ الخلقِ ﴿بَلَىٰ﴾ وقفٌ حسنٌ ثمَّ تبتدئُ ﴿قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ﴾ البنانُ عندَ العربِ: الأصابعُ، واحدها بنانةٌ، فنبّهَ بالبنانِ على بقيّةِ الأعضاءِ. وأيضًا فإنّها أصغرُ العظامِ، فخصّها بالذّكرِ لذلكَ، ومنْ قدرَ على هذا فهوَ على جمعِ الكبارِ أقدرُ.

وقيلَ: المعنى على أنْ نسوّيَ بنانهُ أيْ نجعلَ أصابعَ يديهِ ورجليهِ شيئًا واحداً كخفِّ البعيرِ ولكنّا فرّقنا أصابعهُ حتّى يأخذَ بها ما شاءَ، وقيلَ: أيْ نقدرُ أنْ نعيدَ الإنسانَ في هيئةِ البهائمِ، وهوَ كقولهِ تعالى: ﴿وَمَا نَحۡنُ بِمَسۡبُوقِينَ ۝٦٠ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمۡثَٰلَكُمۡ وَنُنشِئَكُمۡ فِي مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾، والتّأويلُ الأوّلُ أشبهُ بمساقِ الآيةِ. والله أعلم.

قولهُ تعالى: ﴿بَلۡ يُرِيدُ ٱلۡإِنسَٰنُ﴾ يعني الكافرَ ﴿لِيَفۡجُرَ أَمَامَهُۥ﴾ يكذّبُ بما أمامهُ منَ البعثِ والحسابِ، ودليله: ﴿يَسۡـَٔلُ أَيَّانَ يَوۡمُ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ أيْ يسألُ متى يكونُ! على وجهِ الإنكارِ والتّكذيبِ.

وقيلَ: أيْ يعزمُ على المعصيةِ أبداً، فالهاءُ على هذهِ الأقوالِ للإنسانِ. وقيلَ: الهاءُ ليومِ القيامةِ. والمعنى بلْ يريدُ الإنسانُ ليكفرَ بالحقِّ بينَ يديْ يومِ القيامةِ. والفجورُ أصلهُ الميلُ عنِ الحقِّ ﴿يَسۡـَٔلُ أَيَّانَ يَوۡمُ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ أيْ متى يومُ القيامةِ.

قولهُ تعالى: ﴿فَإِذَا بَرِقَ ٱلۡبَصَرُ﴾ قرأَ نافعٌ «بَرَقَ» بفتحِ الرّاءِ، معناهُ: لمعَ بصرهُ منْ شدّةِ شخوصهِ، فتراهُ لا يطرفُ، والباقونَ بالكسرِ برِقَ ومعناهُ: تحيّرَ فلمْ يطرفْ، وقيلَ: برقَ يبرقُ بالفتحِ: شقَّ عينيهِ وفتحهما، وقيلَ: إنَّ كسرَ الرّاءِ وفتحها لغتانِ بمعنى.

قولهُ تعالى: ﴿وَخَسَفَ ٱلۡقَمَرُ﴾ أيْ ذهبَ ضوءهُ. والخسوفُ في الدّنيا إلى انجلاءٍ، بخلافِ الآخرةِ، فإنّهُ لا يعودُ ضوءهُ. ويحتملُ أنْ يكونَ بمعنى غابَ، ومنهُ قولهُ تعالى:

﴿فَخَسَفۡنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلۡأَرۡضَ﴾، وقيلَ: إذا ذهبَ بعضهُ فهوَ الكسوفُ، وإذا ذهبَ كلّهُ فهوَ الخسوفُ ﴿وَجُمِعَ ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ﴾ أيْ جمعَ بينهما في ذهابِ ضوئهما، فلا ضوءَ للشّمسِ كما لا ضوءَ للقمرِ بعدَ خسوفهِ،، فلا يكونُ ثمَّ تعاقبُ ليلٍ ولا نهارٍ، ولمْ يقلْ جُمعتْ، لأنَّ المعنى جمعَ بينهما أو هوَ على تغليبِ المذكّرِ.

قولهُ تعالى: ﴿يَقُولُ ٱلۡإِنسَٰنُ يَوۡمَئِذٍ أَيۡنَ ٱلۡمَفَرُّ﴾ منَ اللّهِ استحياءً منهُ. أو منْ جهنّمَ حذراً منها. ويحتملُ هذا القولُ منَ الإنسانِ وجهينِ:

أحدهما- أنْ يكونَ منَ الكافرِ خاصّةً في عرضةِ القيامةِ دونَ المؤمنِ، لثقةِ المؤمنِ ببشرى ربّهِ.

الثّاني- أنْ يكونَ منْ قولِ المؤمنِ والكافرِ عندَ قيامِ السّاعةِ لهولِ ما شاهدوا منها.

﴿كَلَّا﴾ أيْ لا مفرَّ فـ ﴿كَلَّا﴾ ردٌّ وهوَ منْ قولِ اللّهِ تعالى، ثمَّ فسّرَ هذا الرّدَّ فقالَ: ﴿لَا وَزَرَ﴾ أيْ لا ملجأَ منَ النّارِ. والوزرُ في اللّغةِ: ما يلجأُ إليهِ منْ حصنٍ أوْ جبلٍ أوْ غيرهما ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡمُسۡتَقَرُّ﴾ أيِ المنتهى، نظيرهُ: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلۡمُنتَهَىٰ﴾.

قوله تعالى: ﴿يُنَبَّؤُاْ ٱلۡإِنسَٰنُ﴾ أيْ يخبرُ ابنُ آدمَ براً كانَ أوْ فاجراً ﴿بِمَا قَدَّمَ﴾ منْ عملٍ سيّءٍ أوْ صالحٍ ﴿وَأَخَّرَ﴾ منْ سنّةٍ سيّئةٍ أوْ صالحةٍ يعملُ بها بعدهُ، وهذا الإنباءُ يكونُ في القيامةِ عندَ وزنِ الأعمالِ. ويجوزُ أنْ يكونَ عندَ الموتِ، والأوّلُ أظهرُ، ودلَّ على هذا قولهُ الحقُّ: ﴿وَلَيَحۡمِلُنَّ أَثۡقَالَهُمۡ وَأَثۡقَالٗا مَّعَ أَثۡقَالِهِمۡۖ﴾، وقولهُ تعالى: ﴿وَمِنۡ أَوۡزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيۡرِ عِلۡمٍۗ﴾، وهذا لا يكونُ إلّا في الآخرةِ بعدَ وزنِ الأعمالِ. واللهُ أعلم. وفي الصّحيحِ: «منْ سنَّ في الإسلامِ سنّةً حسنةً كانَ لهُ أجرها وأجرُ منْ عملَ بها بعدهِ، منْ غيرِ أنْ ينقصَ منْ أجورهمْ شيء، ومنْ سنَّ في الإسلامِ سنّةً سيّئةً كانَ عليهِ وزرها ووزرُ منْ عملَ بها بعدهِ، منْ غيرِ أنْ ينقصَ منْ أوزارهمْ شيء».

قولهُ تعالى: ﴿بَلِ ٱلۡإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦ بَصِيرَةٞ﴾ أيْ شاهدٌ، وهوَ شهودُ جوارحه، ودليلُ هذا التّأويلِ منَ التّنزيلِ قولهُ تعالى: ﴿يَوۡمَ تَشۡهَدُ عَلَيۡهِمۡ أَلۡسِنَتُهُمۡ وَأَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾، وجاء تأنيث البصيرة لأن المراد بالإنسان ها هنا الجوارحُ، لأنّها شاهدةٌ على نفسِ

الإنسانِ، فكأنّهُ قالَ: بلِ الجوارحُ على نفسِ الإنسانِ بصيرةٌ، وقيلَ: هي هاءَ المبالغةِ، كالهاءِ في قولهِمْ: داهيةٌ وعلّامةٌ وراويةٌ، وقيلَ المرادُ بالبصيرةِ الكاتبانِ اللّذانِ يكتبانِ ما يكونُ منهُ منْ خيرٍ أوْ شرٍّ، يدلُّ عليهِ قولهُ تعالى: ﴿وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُ﴾ فيمنْ جعلَ المعاذيرَ السّتورَ، والسّترُ بلغةِ أهلِ اليمنِ: معذارٌ، يريدُ أنْ يخفيَ عملهُ، فنفسهُ شاهدةٌ عليهِ. وقيلَ: أيْ ولوِ اعتذرَ وأدلى بعذرٍ أوْ حجّةٍ لمْ ينفعهُ ذلكَ. نظيرهُ قولهُ تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ﴾، وقوله: ﴿وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾ فالمعاذيرُ على هذا: مأخوذٌ منَ العذرِ، والدّليلُ على هذا قولهُ تعالى في الكفّارِ: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾، وقولهُ تعالى في المنافقينَ: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ﴾، وفي الصّحيحِ أنّهُ يقولُ: «يا ربِّ آمنتُ بكَ وبكتابكَ وبرسولكَ، وصلّيتُ وصمتُ وتصدّقتُ، ويثني بخيرٍ ما استطاعَ» الحديثَ، والمعاذيرُ والمعاذرُ: جمعُ معذرةٍ.

وتضمّنتْ هذهِ الآيةُ خمسَ مسائلَ:

الأولى: في قولهُ تعالى: ﴿بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ۝١٤ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ﴾ دليلٌ على قبولِ إقرارِ المرءِ على نفسهِ، لأنّها بشهادةٍ منهُ عليها، قالَ اللّهُ سبحانهُ وتعالى: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ ولا خلافَ فيهِ، لأنّهُ إخبارٌ على وجهٍ تنتفي التّهمةُ عنهُ، لأنَّ العاقلَ لا يكذبُ على نفسه، وقدْ قالَ سبحانهُ في كتابهِ الكريمِ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّۦنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾، ثمَّ قالَ تعالى: ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا﴾ وهوَ في الآثارِ كثيرٌ، قالَ النّبيُّ ﷺ: «اغدُ يا أنيسُ على امرأةِ هذا، فإنِ اعترفتْ فارجمها».

الثانية: أمّا إقرارُ الغيرِ على الغيرِ بوارثٍ أوْ دينٍ فقالَ: مالكٌ: الأمرُ المجتمعُ عليهِ عندنا في الرّجلِ يهلكُ ولهُ بنونَ، فيقولُ أحدهمْ: إنَّ أبي قدْ أقرَّ أنَّ فلانـًا ابنهُ، أنَّ ذلكَ النّسبَ لا يثبتُ بشهادةِ إنسانٍ واحدٍ، ولا يجوزُ إقرارُ الّذي أقرَّ إلّا على نفسهِ في حصّتهِ منْ مالِ أبيهِ، يعطى الّذي شهدَ لهُ قدرَ الدّينِ الّذي يصيبهُ منَ المالِ الّذي في يدهِ.

الثالثة– لا يصحُّ الإقرارُ إلّا منْ مكلّفٍ، لكنْ بشرطِ ألّا يكونَ محجوراً عليهِ، لأنَّ الحجرَ يسقطُ قولهُ إنْ كانَ لحقِّ نفسهِ، فإنْ كانَ لحقِّ غيرهِ كالمريضِ كانَ منهُ ساقطٌ، ومنهُ جائزٌ. وبيانهُ في مسائلِ الفقهِ، وإبهامِ الإقرارِ، لهُ صورٌ كثيرةٌ وأمّهاتها ستٌّ:

الصّورةُ الأولى: أن يقول: له عندي شيء، قالَ الشّافعيُّ: لوْ فسّرهُ بتمرةٍ أوْ كسرةٍ قبلَ منهُ. والّذي تقتضيهِ أصولنا أنّهُ لا يقبلُ إلّا فيما لهُ قدرٌ، فإذا فسّرهُ بهِ قبلَ منهُ وحلفَ عليهِ.

الصّورةُ الثانية– أنْ يفسّرَ هذا بخمرٍ أوْ خنزيرٍ أوْ ما لا يكونُ مالاً في الشّريعةِ: لمْ يقبلْ باتّفاقٍ ولوْ ساعدهُ عليهِ المقرُّ لهُ.

الصّورةُ الثالثة– أنْ يفسّرهُ بمختلفٍ فيهِ مثلَ جلدِ الميتةِ أوْ سرقينٍ أوْ كلبٍ فإنَّ الحاكمَ يحكمُ عليهِ في ذلكَ بما يراهُ منْ ردٍّ وإمضاءٍ، فإنْ ردّهُ لمْ يحكمْ عليهِ حاكمٌ آخرُ غيرهُ بشيءٍ، لأنَّ الحكمَ قدْ نفذَ بإبطالهِ، وقالَ بعضُ أصحابِ الشّافعيِّ: يلزمُ الخمرُ والخنزيرُ، وهوَ قولٌ باطلٌ. وقالَ أبو حنيفة: إذا قال له علي شيء لمْ يقبلْ تفسيرهُ إلّا بمكيل أوْ موزونٍ، لأنّهُ لا يثبتُ في الذّمّةِ بنفسهِ إلّا هما. وهذا ضعيفٌ، فإنَّ غيرهما يثبتُ في الذّمّةِ إذا وجبَ ذلكَ إجماعـًا.

الصّورةُ الرابعة– إذا قالَ: لهُ عندي مالٌ قبلَ تفسيرهُ بما يكونُ مالاً في العادةِ كالدّرهمِ والدّرهمينِ، ما لمْ يجئْ منْ قرينةِ الحالِ ما يحكمُ عليهِ بأكثرَ منهُ.

الصّورةُ الخامسة– أنْ يقولَ: لهُ عندي مالٌ كثيرٌ أوْ عظيمٌ، فقالَ: الشّافعيُّ: يقبلُ في الحبّةِ. وقالَ أبو حنيفةَ: لا يقبلُ إلّا في نصابِ الزّكاةِ. وقالَ علماؤنا في ذلكَ أقوالاً مختلفةً، منها نصابُ السّرقةِ والزّكاةِ والدّيةِ وأقلّهُ عندي نصاب السرقة، لأنّهُ لا يبانُ عضوُ المسلمِ إلّا في مالٍ عظيمٍ. وبهِ قالَ أكثرُ الحنفيّةِ.

الصّورةُ السادسة– إذا قالَ لهُ: عندي عشرةٌ أو مائة أو ألف، فإنّهُ يفسّرها بما شاءَ ويقبلُ منهُ، فإنْ قالَ ألفُ درهمٍ أوْ مائةٌ وعبدٌ أوْ مائةٌ وخمسونَ درهمـًا فإنّهُ يفسّرِ المبهمَ ويقبلُ منهُ. وبهِ قالَ الشّافعيُّ، وقالَ أبو حنيفةَ: إنْ عطفَ على العددِ المبهمِ مكيلاً أوْ موزونـًا كانَ تفسيراً، كقولهِ: مائةٌ وخمسونَ درهمـًا، لان الدرهم تفسير للخمسين، والخمسين تفسيرٌ للمائةِ.

المسألةُ الرابعة– قولهُ تعالى: ﴿وَلَوۡ أَلۡقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ﴾ ومعناهُ لو اعتذرَ بعدَ الإقرارِ لمْ يقبلْ منهُ. وقدِ اختلفَ العلماءُ فيمن رجع بعد ما أقرَّ في الحدودِ الّتي هيَ خالصُ حقِّ اللّهِ، فقالَ: أكثرهمْ منهمُ الشّافعيُّ وأبو حنيفةَ: يقبلُ رجوعهُ بعدَ الإقرارِ. وقالَ بهِ مالكٌ في أحدِ قوليهِ، وقالَ في القولِ الآخرِ: لا يقبلُ إلّا أنْ يذكرَ لرجوعهِ وجهـًا صحيحـًا. والصّحيحُ جوازُ الرّجوعِ مطلقـًا، لما روى الأئمّةُ منهم البخاريِّ ومسلمٍ أنَّ النّبيَّ ﷺ رد المقر بالزنى مراراً أربعـًا كلَّ مرّةٍ يعرضُ عنهُ، ولمّا شهدَ على نفسهِ أربعَ مرّاتٍ دعاهُ النّبيُّ ﷺ، وقالَ: «أبكَ جنونٌ» قالَ: لا. قالَ: «أحصنتَ» قالَ: نعمْ. وفي حديثِ البخاريِّ: «لعلّكَ قبّلتَ أوْ غمزتَ أوْ نظرتَ».

وفي قولهِ ﷺ: «لعلّكَ قبّلتَ أوْ غمزتَ» إشارةٌ إلى قولِ مالكٍ: إنّهُ يقبلُ رجوعهُ إذا ذكرَ وجهـًا.

الخامسة– وهذا في الحرِّ المالكِ لأمرِ نفسهِ، فأمّا العبدُ فإنَّ إقرارهُ لا يخلو منْ أحدِ قسمينِ: إمّا أنْ يقرَّ على بدنهِ، أوْ على ما في يدهِ وذمّتهِ، فإنْ أقرَّ على ما في بدنهِ فيما فيهِ عقوبةٌ منَ القتلِ فما دونهُ نفذَ ذلكَ عليهِ.

وقالَ محمّدُ بنُ الحسنِ: لا يقبلُ ذلكَ منهُ، لأنَّ بدنهُ مستغرقٌ لحقِ السّيّدِ، وفي إقرارهِ إتلافُ حقوقِ السّيّدِ في بدنهِ، ودليلنا قولهُ ﷺ: «منْ أصابَ منْ هذهِ القاذوراتِ شيئا فليستتر بستر الله، فإن من يبدلنا صفحتهُ نقمْ عليهِ الحدَّ». المعنى: أنَّ محلَّ العقوبةِ أصلُ الخلقةِ، وهيَ «الدّميةُ» في الآدميّةِ، ولا حقَّ للسّيّدِ فيها، وإنّما حقّهُ في الوصفِ والتّبعِ، وهيَ الماليّةُ الطّارئةُ عليهِ، ألا ترى أنّهُ لوْ أقرَّ بمالٍ لمْ يقبلْ، حتّى قالَ أبو حنيفةَ: إنّهُ لوْ قالَ سرقتُ هذهِ السّلعةَ أنّهُ لمْ تقطعْ يدهُ ويأخذها المقرُّ لهُ.

وقالَ علماؤنا: السّلعةُ للسّيّدِ ويتبعُ العبدُ بقيمتها إذا عتقَ، لأنَّ مالَ العبدِ للسّيّدِ إجماعـًا، فلا يقبلُ قولهُ فيهِ ولا إقرارهُ عليهِ، لا سيّما وأبو حنيفةَ يقولُ: إنَّ العبدَ لا ملكَ لهُ ولا يصحُّ أنْ يملكَ ولا يملّكَ، ونحنُ وإنْ قلنا إنّهُ يصحُّ تملّكهُ. ولكنَّ جميعَ ما في يدهِ لسيّدهِ بإجماعِ على القولينِ. والله أعلم.

قولُهُ تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكۡ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعۡجَلَ بِهِۦٓ﴾ في مسلم عنِ سعيد ابن جبير عن ابنِ عبّاسٍ قالَ: كانَ النّبيُّ ﷺ يعالجُ منَ التّنزيلِ شدّةً، كانَ يحرّكُ شفتيهِ، فقالَ: لي ابنُ عبّاسٍ: أنا أحرّكهما كما كانَ رسولُ اللّهِ ﷺ يحرّكهما، فقالَ: سعيدٌ: أنا أحرّكهما كما كانَ ابنُ عبّاسٍ يحرّكهما، فحرّكَ شفتيهِ، فأنزلَ اللّهُ عزَّ وجلَّ: ﴿لَا تُحَرِّكۡ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعۡجَلَ بِهِۦٓ إِنَّ عَلَيۡنَا جَمۡعَهُۥ وَقُرۡآنَهُۥ﴾. قالَ جمعهُ في صدركَ ثمَّ تقرؤهُ ﴿فإذا قرأناهُ فاتّبعْ قرآنهُ﴾ قالَ فاستمعْ لهُ وأنصتْ. ثمَّ إنَّ علينا أنْ نقرأهُ، قالَ: فكانَ رسولُ اللّهِ ﷺ بعدَ ذلكَ إذا أتاهُ جبريلُ عليهما السّلامُ استمعَ، وإذا انطلقَ جبريلُ عليه السلام قرأهُ النّبيُّ ﷺ كما أقرأه، خرّجهُ البخاريُّ أيضـًا، ونظيرُ هذهِ الآيةِ قولهُ تعالى: ﴿وَلَا تَعۡجَلۡ بِٱلۡقُرۡءَانِ مِن قَبۡلِ أَن يُقۡضَىٰٓ إِلَيۡكَ وَحۡيُهُۥۖ﴾.

قيل: إنّما كانَ يعجلُ بذكرهِ إذا نزلَ عليهِ منْ حبّهِ لهُ، وحلاوتهِ في لسانهِ، فنهيَ عنْ ذلكَ حتّى يجتمعَ، لأنَّ بعضهُ مرتبطٌ ببعضٍ، وقيلَ: مخافةَ أنْ ينساهُ، فنزلتْ: ﴿وَلَا تَعۡجَلۡ بِٱلۡقُرۡءَانِ مِن قَبۡلِ أَن يُقۡضَىٰٓ إِلَيۡكَ وَحۡيُهُۥۖ﴾، ونزل: ﴿سَنُقۡرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ﴾، ونزلَ: ﴿لَا تُحَرِّكۡ بِهِۦ لِسَانَكَ﴾، وقرآنهُ أيْ وقراءتهُ عليكَ. والقراءةُ والقرآنُ مصدرانِ. وقيلَ: فاتّبعْ قرآنهُ أيْ فاتّبعْ شرائعهُ وأحكامهُ. ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيۡنَا بَيَانَهُۥ﴾ أيْ تفسيرَ ما فيهِ منَ الحدودِ والحلالِ والحرامِ.

قولُهُ تعالى: ﴿كَلَّا بَلۡ تُحِبُّونَ﴾ يا كفّارَ أهلِ مكّةَ ﴿ٱلۡعَاجِلَةَ﴾ الدّنيا ﴿وَتَذَرُونَ ٱلۡأٓخِرَةَ﴾ والعملَ لها، وقرأ أهلُ المدينةِ والكوفيّونَ بلْ تحبّونَ وتذرونَ بالتّاءِ فيهما على الخطابِ. الباقونَ بالياءِ على الخبرِ، ردًا على قولهِ تعالى: ﴿يُنَبَّؤُاْ ٱلۡإِنسَٰنُ﴾ وهوَ بمعنى النّاسِ. ومنْ قرأَ بالتّاءِ فعلى أنّهُ واجههمْ بالتّقريعِ، لأنَّ ذلكَ أبلغُ في المقصودِ، نظيرهُ: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلۡعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمۡ يَوۡمًا ثَقِيلًا﴾.

قولِهِ تعالى: ﴿وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ نَّاضِرَةٌ﴾ منَ النّضرةِ أي مشرقةٌ حسنةٌ ناعمةٌ، ومنهُ الحديثُ «نضّرَ اللّهُ امرأً سمعَ مقالتي فوعاها» ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٞ﴾ منَ النّظرِ أيْ تنظرُ إلى ربّها على هذا جمهورُ العلماءِ. وفي البابِ حديثُ صهيبٍ خرّجهُ مسلمٌ وقدْ مضى في يونسَ عندَ قولهِ تعالى: ﴿۞لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ ٱلۡحُسۡنَىٰ وَزِيَادَةٞۖ﴾، وقيلَ: إنَّ النّظرَ هنا انتظارُ ما لهمْ عندَ اللّهِ منَ الثّوابِ، واحتجّوا بقولهِ تعالى: ﴿لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَهُوَ يُدۡرِكُ ٱلۡأَبۡصَٰرَۖ﴾ وهذا القولُ

ضعيفٌ جداً، خارجٌ عنْ مقتضى ظاهرِ الآيةِ والأخبارِ. وفي التّرمذيِّ عنِ ابنِ عمرَ قالَ: قالَ رسولُ اللّهِ ﷺ: «إنَّ أدنى أهلِ الجنّةِ منزلةً لمنْ ينظرُ إلى جنانهِ وأزواجهِ وخدمهِ وسررهِ مسيرةَ ألفَ سنةٍ وأكرمهمْ على اللّهِ منْ ينظرُ إلى وجههِ غدوةً وعشيّةً» ثمَّ قرأَ رسولُ اللّهِ ﷺ: وجوهٌ يومئذٍ ناضرةٌ. إلى ربّها ناظرةٌ قالَ هذا حديثٌ غريبٌ، وفي صحيحِ مسلمٍ عنْ أبي بكرِ بنِ عبدِ اللّهِ بنِ قيسٍ عنْ أبيهِ عنِ النّبيِّ ﷺ قال: «جنّتانِ منْ فضّةٍ آنيتهما وما فيهما، وجنّتانِ منْ ذهبٍ آنيتهما وما فيهما، وما بينَ القومِ وبينَ أنْ ينظروا إلى ربّهمْ عزوجل إلّا رداءُ الكبرياءِ على وجههِ في جنّةِ عدنٍ».

وروى جريرُ بنُ عبدِ اللّهِ قالَ: كنّا عندَ رسولِ اللّهِ ﷺ جلوساً، فنظرَ إلى القمرِ ليلةَ البدرِ فقالَ: «إنّكمْ سترونَ ربّكمْ عياناً كما ترونَ هذا القمرَ، لا تضامونَ في رؤيتهِ، فإنِ استطعتمْ ألّا تغلبوا على صلاةٍ قبلَ طلوعِ الشّمسِ وقبلَ غروبها فافعلوا». ثمَّ قرأَ: ﴿وسبّحْ بحمدِ ربّكَ قبلَ طلوعِ الشّمسِ وقبلَ الغروبِ﴾ متّفقٌ عليهِ.

وأما قول إنّها بمعنى تنتظرُ الثّوابَ منْ ربّها ولا يراه شيء منْ خلقهِ، فتأويلٌ مدخولٌ، لأنَّ العربَ إذا أرادتْ بالنّظرِ الانتظارَ قالوا نظرتهُ، كما قالَ تعالى: ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ﴾ ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأۡوِيلَهُۥ﴾ ﴿مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيۡحَةً وَٰحِدَةً﴾، وإذا أرادتْ بهِ التّفكّرَ والتّدبّرَ قالوا: نظرتُ فيهِ، فأمّا إذا كانَ النّظرُ مقروناً بذكرِ إلى، وذكرِ الوجهِ فلا يكونُ إلّا بمعنى الرّؤيةِ والعيانِ. وأمّا ما استدلّوا بهِ منْ قولهُ تعالى: ﴿لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَهُوَ يُدۡرِكُ ٱلۡأَبۡصَٰرَ﴾ فإنما ذلك في الدّنيا، وقيلَ: ينظرونَ إلى اللّهِ لا تحيطُ أبصارهمْ بهِ منْ عظمتهِ، ونظرهُ يحيطُ بها، يدلُّ عليهِ: ﴿لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَهُوَ يُدۡرِكُ ٱلۡأَبۡصَٰرَ﴾، وأضافَ النّظرَ إلى الوجهِ، وهوَ كقولهِ تعالى: ﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾، والماءُ يجري في النّهرِ لا النّهرُ. ثمَّ قدْ يذكرُ الوجهُ بمعنى العينِ، قالَ اللّهُ تعالى: ﴿فَأَلۡقُوهُ عَلَىٰ وَجۡهِ أَبِي يَأۡتِ بَصِيرٗا﴾ أيْ على عينيهِ. ثمَّ لا يبعدُ قلبُ العادةِ غداً، حتّى يخلقَ الرّؤيةَ والنّظرَ في الوجهِ، وهوَ كقولهِ تعالى: ﴿أَفَمَن يَمۡشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجۡهِهِۦٓ﴾، فقيلَ: يا رسولَ اللّهِ! كيفَ يمشونَ في النّارِ على وجوههمْ؟ قالَ: «الّذي أمشاهمْ على أقدامهمْ قادرٌ أنْ يمشيهمْ على وجوههمْ».

قولهُ تعالى: ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ﴾ أيْ وجوهُ الكفّارِ يومَ القيامةِ كالحةٌ كاسفةٌ عابسةٌ، وبسرَ الرّجلُ وجههُ بسوراً أيْ كلحَ، يقالُ: عبسَ وبسرَ ﴿تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ﴾ أيْ توقنُ وتعلمُ، والفاقرةُ: الدّاهيةُ والأمرُ العظيمُ.

قولهُ تعالى: ﴿كَلَّآ﴾ ردعٌ وزجرٌ، أيْ بعيدٌ أنْ يؤمنَ الكافرُ بيومِ القيامةِ، ثمَّ استأنفَ فقالَ: ﴿إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ﴾ أيْ بلغتِ النّفسُ أوِ الرّوحُ التّراقيَ، فأخبرَ عمّا لمْ يجرِ لهُ ذكرٌ، لعلمِ المخاطبِ بهِ، كقولهِ تعالى: ﴿حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ﴾، وقوله تعالى: ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ﴾ وقدْ تقدّمَ، والتّراقي جمعُ ترقوةٍ وهيَ العظامُ المكتنفةُ لنقرةِ النّحرِ، وهوَ مقدّمُ الحلقِ منْ أعلى الصّدرِ، موضعُ الحشرجةِ ﴿وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ﴾ يرقي: أيْ يشفي منَ الموتِ وهوَ منَ الرّقيةِ، وكانَ هذا على وجهِ الاستبعادِ واليأسِ، وقيلَ: هو منْ رقيَ يرقى: إذا صعدَ، والمعنى: منْ يرقى بروحهِ إلى السّماءِ؟ أملائكةُ الرّحمةِ أمْ ملائكةُ العذابِ؟

وأظهرَ عاصمٌ وقومٌ النّونَ في قولهِ تعالى: ﴿مَنْ رَاقٍ﴾ واللّامَ في قولهِ: ﴿بَلْ رَانَ﴾ لئلّا يشبه مراق وهو بائع المرقة، وبران في تثنيةِ البرِّ. والصّحيحُ تركُ الإظهارِ، وكسرةُ القافِ في ﴿مَنْ رَاقٍ﴾، وفتحةُ النّونِ في ﴿بَلْ رَانَ﴾ تكفي في زوالِ اللّبسِ ﴿وَظَنَّ﴾ أيْ أيقنَ الإنسانُ ﴿أَنَّهُ ٱلْفِرَاقُ﴾ أيْ فراقُ الدّنيا والأهلِ والمالِ والولدِ، وذلكَ حينَ عاينَ الملائكة.

قال الشّاعرُ:

فراقٌ ليسَ يشبههُ فراقٌ ... قدِ انقطعَ الرّجاءُ عنِ التّلاقِ

قولهُ تعالى: ﴿وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ﴾ أيْ فاتّصلتِ الشّدّةُ بالشّدّةِ، شدّةُ آخرِ الدّنيا بشدّةِ أوّلِ الآخرةِ، وقيلَ: المعنى التفّتْ ساقا الإنسانِ عندَ الموتِ منْ شدّةِ الكربِ ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ﴾ أيِ المرجعُ ﴿فَلَا صَدَّقَ﴾ بالرّسالةِ ﴿وَلَا صَلَّىٰ﴾ ويرجعُ هذا إلى الإنسانِ في أوّلِ السّورةِ، وهوَ اسمُ جنسٍ ﴿وَلَٰكِن كَذَّبَ﴾ بالقرآنِ ﴿وَتَوَلَّىٰ﴾ عنِ الإيمانِ ﴿ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ﴾ أيْ يتبخترُ، افتخاراً بذلكَ، و﴿يَتَمَطَّىٰٓ﴾ منَ المَطَا وهوَ الظّهرُ، والمعنى يلوي مطاهُ. وقيلَ: أصلهُ يتمطّطُ، وهوَ التّمدّدُ منَ التّكسّلِ والتّثاقلِ، فهوَ يتثاقلُ عنِ الدّاعي إلى الحقِّ، فأبدلَ منَ الطّاءِ ياءً كراهةَ التّضعيفِ.

قولهُ تعالى: ﴿أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ۝٣٤ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰٓ﴾: تهديدٌ بعدَ تهديدٍ، ووعيدٌ بعدَ وعيدٍ، أيْ فهوَ وعيدُ أربعةٍ لأربعةٍ، كما رويَ أنّها نزلتْ في أبي جهلِ الجاهلِ بربّهِ فقالَ: ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ۝٣١ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ فتركُ التّصديقَ خصلةٌ، والتّكذيبُ خصلةٌ، وتركُ الصّلاةِ خصلةٌ، والتّولّي عنِ اللّهِ تعالى خصلةٌ، فجاءَ الوعيدُ أربعةً مقابلةً لتركِ الخصالِ الأربعةِ. واللهُ أعلم.

قولهُ تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ أيْ يظنُّ ابنُ آدمَ ﴿أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾ مهملاً، فلا يؤمرُ ولا ينهى ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ﴾ أيْ منْ قطرةِ ماءٍ تمنى في الرحم، أي تراق فيه، ولذلك سميت ﴿مَّنِيٍّ﴾ لإراقةِ الدّماءِ، وقرأ حفصٌ ويعقوبَ ﴿مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ﴾ بالياءِ. الباقونَ بالتّاءِ لأجلِ النّطفةِ ﴿ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً﴾ أيْ دماً بعدَ النّطفةِ، أيْ قدْ رتّبهُ تعالى بهذا كلّهِ على خسّةِ قدرهِ. ثمَّ قالَ: ﴿فَخَلَقَ﴾ أيْ فقدّرَ ﴿فَسَوَّىٰ﴾ بجعلِ الرّوحِ فيهِ ﴿فَجَعَلَ مِنْهُ﴾ أيْ منَ الإنسانِ. وقيلَ: منَ المنيِّ ﴿ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ﴾ أي الرّجلَ والمرأةَ. وقدِ احتجَّ بهذا منْ رأى إسقاطَ الخنثى. وقدْ مضى في سورةِ الشّورى أنَّ هذهِ الآيةَ وقرينتها إنّما خرجتا مخرجَ الغالبِ. وقدْ مضى في أوّلِ سورةِ «النّساءِ» أيضاً القولُ فيهِ، وذكرنا في آيةِ المواريثِ حكمهُ، فلا معنى لإعادتهِ ﴿أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ﴾ أيْ أليسَ الّذي قدرَ على خلقِ هذهِ النّسمةِ منْ قطرةٍ منْ ماءٍ ﴿بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ أيْ على أنْ يعيدَ هذهِ الأجسامَ كهيئتها للبعثِ بعدَ البلى؟ بلى.

سورة الإنسان

إحدى وثلاثونَ آيةً، وهي مكّيّةٌ في قولِ ابنِ عبّاسٍ وقالَ الجمهورُ: مدنيّةٌ.

بسمِ اللّهِ الرّحمنِ الرّحيم

قولهُ تعالى: ﴿هَلۡ أَتَىٰ عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ حِينٞ مِّنَ ٱلدَّهۡرِ لَمۡ يَكُن شَيۡـٔٗا مَّذۡكُورًا﴾ هلْ: بمعنى قدْ، والمعنى: أتى، والإنسانُ هنا آدمُ عَلَيۡهِ السَّلَامُ، والحين المذكور ها هنا: لا يعرفُ مقدارهُ، و﴿لَمۡ يَكُن شَيۡـٔٗا مَّذۡكُورًا﴾ أي لا في السّماءِ ولا في الأرضِ، ثمَّ نفخَ فيه الروح، فصار مذكورا، وقيلَ: ليسَ هذا الذّكرُ بمعنى الإخبارِ، فإنَّ إخبارَ الرّبِّ عنِ الكائناتِ قديمٌ، بلْ هذا الذّكرُ بمعنى الخطرِ والشّرفِ والقدرِ، تقولُ: فلانٌ مذكورٌ أيْ لهُ شرفٌ وقدرٌ. وقدْ قالَ تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكۡرٞ لَّكَ وَلِقَوۡمِكَۖ﴾، ثمَّ لمّا عرّفَ اللّهُ الملائكةَ أنّهُ جعلَ آدمَ خليفةً، وحمله الأمانة التي عجز عنها السموات والأرضُ والجبالُ، ظهرَ فضلهُ على الكلِّ، فصارَ مذكوراً.

وقدْ قيل: الإنسانِ في قولهُ تعالى: ﴿هَلۡ أَتَىٰ عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ﴾ حينٌ عنيَ بهِ الجنسُ منْ ذرّيّةِ آدمَ، وأنَّ الحينَ تسعةُ أشهرٍ، مدّةَ حملِ الإنسانِ في بطنِ أمّهِ لمْ يكنْ شيئاً مذكوراً: إذْ كانَ علقةً ومضغةً، لأنّهُ في هذهِ الحالةِ جمادٌ لا خطرَ لهُ.

قولهُ تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ﴾ أي ابنَ آدمَ منْ غيرِ خلافٍ منْ نطفةٍ أيْ منْ ماءٍ يقطرُ وهوَ المنيُّ، وكلُّ ماءٍ قليلٍ في وعاءٍ فهوَ نطفةٌ، كقولِ عبدِ اللّهِ بنِ رواحةَ يعاتبُ نفسهُ:

مالي أراكِ تكرهينَ الجنّهْ   هلْ أنتِ إلّا نطفةٌ في شنّهْ

وجمعها: نطفٌ ونطافٌ ﴿أَمۡشَاجٖ﴾: أخلاطٌ. واحدها: مشجٌ ومشيجٌ، مثلَ خدنٍ وخدينٍ، وهوَ هنا اختلاطُ النّطفةِ بالدّمِ، وقيلَ: أمشاجٌ: أخلاطُ ماءِ الرّجلِ وماءِ المرأةِ، والدّمُ والعلقةُ ﴿نَّبۡتَلِيهِ﴾ نكلّفهُ ونختبرهُ بالخيرِ والشر ﴿فَجَعَلۡنَٰهُ سَمِيعَۢا بَصِيرًا﴾ لنبتليهُ، لأنَّ الابتلاءَ لا يقعُ إلّا بعدَ تمامِ الخلقةِ.

قولهُ تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَـٰهُ ٱلسَّبِيلَ﴾ أيْ بيّنّا لهُ وعرّفناهُ طريقَ الهدى والضّلالِ، والخيرِ والشّرِّ ببعثِ الرّسلِ، فآمنَ أوْ كفرَ، كقولهِ تعالى: ﴿وَهَدَيْنَـٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾، وقيلَ: السّبيلُ هنا خروجهُ منَ الرّحمِ ﴿إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ أيْ أيّهما فعلَ فقد بينا له،ويقالُ: هديتهُ السّبيلَ وللسّبيلِ وإلى السّبيلِ، وجمعَ بينَ الشّاكرِ والكفورِ، ولمْ يجمعْ بينَ الشّكورِ والكفورِ معَ اجتماعهما في معنى المبالغةِ، نفياً للمبالغةِ في الشّكرِ وإثباتاً لها في الكفرِ، لأنَّ شكرَ اللّهِ تعالى لا يؤدّى، فانتفتْ عنهُ المبالغةُ، ولمْ تنتفِ عنِ الكفرِ المبالغةُ، فقلَّ شكرهُ، لكثرةِ النّعمِ عليهِ وكثرةِ كفرهِ وإنْ قلَّ معَ الإحسانِ إليهِ.

قولهُ تعالى: ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَـٰفِرِينَ سَلَـٰسِلَا۟ وَأَغْلَـٰلًا وَسَعِيرًا﴾ السّلاسلُ: القيودُ في جهنّمَ طولُ كلِّ سلسلةٍ سبعونَ ذراعاً كما مضى في الحاقّةِ. وقرأ نافعٌ والكسائيُّ وأبو بكرٍ عنْ عاصمٍ وهشامٍ عنِ ابنِ عامرٍ «سَلَاسِلاً» منوّناً. الباقونَ بغيرِ تنوينٍ. ووقفَ ابنُ كثيرٍ وحمزةُ بغيرِ ألفٍ. الباقونَ بالألفِ. فأمّا ﴿قَوَارِيرَا۟﴾ الأوّلُ فنوّنهُ نافعٌ وابنُ كثيرٍ والكسائيُّ وأبو بكرٍ عنْ عاصمٍ، ولمْ ينوّنِ الباقونَ. ووقفَ فيهِ يعقوبُ وحمزةُ بغيرِ ألفٍ. والباقونَ بالألفِ. وأمّا ﴿قَوَارِيرَا۟﴾ الثّانيةُ فنوّنهُ أيضاً نافعٌ والكسائيُّ وأبو بكرٍ، ولمْ ينوّنِ الباقونَ. فمنْ نوّنَ قرأها بالألفِ، ومنْ لمْ ينوّنْ أسقطَ منها الألفَ،

قوله تعالى: ﴿وَأَغْلَـٰلًا﴾ جمعُ غلٍّ تغلُّ بها أيديهمْ إلى أعناقهمْ إذلالا ﴿وَسَعِيرًا﴾ تقدم القول فيه.

قولهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ﴾ الأبرارُ: أهلُ الصّدقِ واحدهمْ برٌّ، وهوَ منِ امتثلَ أمرَ اللّهِ تعالى. وقيلَ: الأبرارُ جمعُ بارٍّ، وقيلَ: جمعُ البرِّ الأبرارُ، وجمعُ البارِّ البررةُ، وفلانٌ يبرُّ خالقهُ ويتبرّرهُ أيْ يطيعهُ ﴿يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ﴾ والكأسُ في اللّغةِ الإناءُ فيهِ الشّرابُ: يريدُ الخمرَ، وإذا لمْ يكنْ فيهِ شرابٌ لمْ يسمَّ كأساً ﴿كَانَ مِزَاجُهَا﴾ أيْ شوبها وخلطها، ومنهُ مزاجُ البدنِ وهوَ ما يمازجهُ منَ الحرارةِ والبرودةِ. ﴿كَافُورًا﴾ قالَ ابنُ عبّاسٍ: هوَ اسمُ عينِ ماءٍ في الجنّةِ، يقالُ لهُ عينُ الكافورِ. أيْ يمازجهُ ماءُ هذهِ العينِ الّتي تسمّى كافوراً. وقالَ وقيلَ: تمزجُ لهمْ بالكافورِ وتختمُ بالمسكِ. وقيلَ: أرادَ كالكافورِ في بياضهِ وطيبِ رائحتهِ وبردهِ، لأنَّ الكافورَ لا يشربُ، كقولهِ تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا﴾ أيْ كنارٍ

﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ﴾ قيل: ﴿عَيْنًا﴾ بدلٌ منْ كافورٍ، وقيلَ: بدلٌ منْ كأسٍ على الموضعِ ﴿يَشْرَبُ بِهَا﴾ أي يشربها والباءُ زائدةٌ ﴿يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾ يشقّقونها شقّاً كما يفجّرُ الرجل النهر ها هنا وها هنا إلى حيثُ يريدُ ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ﴾ إذا نذروا، والنّذرُ: حقيقتهُ ما أوجبهُ المكلف على نفسه من شيء يفعلهُ. **وقيلَ**: بما فرضَ اللّهُ عليهمْ منَ الصّلاةِ والزّكاةِ والصّومِ والحجِّ والعمرةِ وغيرِهِ منَ الواجباتِ، وقد قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ لْيَقْضُوا۟ تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا۟ نُذُورَهُمْ﴾ أيْ أعمالَ نسكهمُ الّتي ألزموها أنفسهمْ بإحرامهمْ بالحجِّ ﴿وَيَخَافُونَ يَوْمًا﴾ أيْ يومَ القيامةِ ﴿كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا﴾ أيْ عالياً داهياً.

قولهُ تعالى: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾ على قلّتهِ وحبّهمْ إيّاهُ وشهوتهمْ لهُ. وقيلَ: على حبِّ اللّهِ. وقيلَ: على حبِّ إطعامِ الطّعامِ ﴿مِسْكِينًا﴾ أيْ ذا مسكنةٍ ﴿وَيَتِيمًا﴾ منْ يتامى المسلمينَ ﴿وَأَسِيرًا﴾ منْ أهلِ الشّركِ يكونُ في أيديهم. وقيلَ: الأسيرُ هوَ المحبوسُ المسلمُ يحبسُ بحقٍّ، وقيلَ: الأسيرُ العبدُ. وقيلَ: المرأةُ، يدلُّ عليهِ قولهُ ﷺ: «استوصوا بالنّساءِ خيراً فإنّهنَّ عوانٌ عندكمْ» أيْ أسيراتٌ.

وقيلَ: نسخَ إطعامَ المسكينِ آيةُ الصّدقاتِ، وإطعامَ الأسيرِ آيةُ السّيفُ، قيل: بلْ هوَ ثابتُ الحكمِ، وإطعامُ اليتيمِ والمسكينِ على التّطوّعِ، وإطعامُ الأسيرِ لحفظِ نفسهِ إلّا أنْ يتخيّرَ فيهِ الإمامُ، وهذا برٌّ وإحسانٌ. ويكونُ إطعامُ الأسيرِ المشركِ قربةً إلى اللّهِ تعالى، غيرَ أنّهُ منْ صدقةِ التّطوّعِ، فأمّا المفروضةُ فلا. والله أعلم.

قولهُ تعالى: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا﴾ يقولونه بألسنتهمْ للمسكينِ واليتيمِ والأسيرِ، أو لم يتكلّموا بهِ ولكنْ علمهُ اللّهُ جلَّ ثناؤهُ منهمْ فأثنى بهِ عليهمْ، ليرغبَ في ذلكَ راغبٌ ﴿إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا﴾ عبوساً منْ صفةِ اليومَ، أيْ يوماً تعبسُ فيهِ الوجوهُ منْ هولهِ وشدّتهِ، وقيلَ: يعبسُ الكافرُ، والقمطريرُ الشّديدُ، وقيلَ: إنَّ العبوسَ بالشّفتينِ، والقمطريرَ بالجبهةِ والحاجبينِ، فجعلها منْ صفاتِ الوجهِ المتغيّرِ منْ شدائدِ ذلكَ اليوم.

قولهُ تعالى: ﴿فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ﴾ أيْ دفعَ عنهمْ ﴿شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ﴾ أيْ بأسهُ وشدّتهُ وعذابهُ

﴿وَلَقَّىٰهُمْ﴾ أيْ أعطاهمْ حينَ لقوهُ أيْ رأوهُ ﴿نَضْرَةً﴾ أيْ حسناً في وجوههمْ ﴿وَسُرُورًا﴾ أيْ حبوراً في قلوبهمْ ﴿وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُواْ﴾ على المصائبِ وعلى طاعةِ اللّهِ، وعن معصيةِ الله ومحارمه ﴿جَنَّةً وَحَرِيرًا﴾ أيْ أدخلهم الجنة وألبسهم الحرير، وقدْ تقدّمَ: أنَّ منْ لبسَ الحريرَ في الدّنيا لمْ يلبسهُ في الآخرةِ، وإنّما ألبسهُ منْ ألبسهُ في الجنّةِ عوضاً عنْ حبسهمْ أنفسهمْ في الدّنيا عنِ الملابسِ الّتي حرّمَ اللّهُ فيها.

قولهُ تعالى: ﴿مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا﴾ أيْ في الجنّةِ، ونصبُ متّكئينَ على الحالِ منَ الهاءِ والميمِ في جزاهمْ والعاملُ فيها جزى ولا يعملُ فيها صبروا، لأنَّ الصّبرَ إنّما كانَ في الدّنيا والاتّكاءُ في الآخرةِ ﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ﴾ السّررِ ﴿لَا يَرَوْنَ فِيهَا﴾ في الجنّةِ ﴿شَمْسًا﴾ أيْ لا يرونَ شدّةَ حرٍّ كحرِّ الشّمسِ ﴿وَلَا زَمْهَرِيرًا﴾ أيْ ولا برداً مفرطاً، وعنْ أبي هريرةَ رضي الله عنه قالَ: قالَ رسولُ اللّهِ ﷺ: «اشتكتِ النّارُ إلى ربّها عزَّ وجلَّ قالتْ: يا ربِّ أكلَ بعضي بعضاً، فجعلَ لها نفسينِ نفساً في الشّتاءِ ونفساً في الصّيفِ، فشدّةُ ما تجدونَ منَ البردِ منْ زمهريرها، وشدّةُ ما تجدون من الحر في الصيف منْ سمومها».

وقيلَ: المعنى لا يرونَ فيها شمساً كشمسِ الدّنيا ولا قمراً كقمرِ الدّنيا، أيْ إنّهمْ في ضياءٍ مستديمٍ، لا ليلَ فيهِ ولا نهارَ، لأنَّ ضوءَ النّهارِ بالشّمسِ، وضوءَ اللّيلِ بالقمرِ.

قولهُ تعالى: ﴿وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَـٰلُهَا﴾ أيْ ظلُّ الأشجارِ في الجنّةِ قريبةٌ منَ الأبرارِ، فهيَ مظلّةٌ عليهمْ زيادةً في نعيمهمْ وإنْ كانَ لا شمسَ ولا قمرَ ثمَّ، كما أنَّ أمشاطهمُ الذّهبُ والفضّةُ، وإنْ كانَ لا وسخَ ولا شعثَ ثمَّ ﴿وَذُلِّلَتْ﴾ أيْ سخّرتْ لهمْ ﴿قُطُوفُهَا﴾ أيْ ثمارها فيتناولها القائمُ والقاعدُ والمضطجعُ، لا يردُّ أيديهمْ عنها بعدٌ ولا شوكٌ ﴿تَذْلِيلًا﴾ تأكيدٌ لما وصفَ بهِ منَ الذّلِّ، كقولهِ: ﴿وَنَزَّلْنَـٰهُ تَنزِيلًا﴾ ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾.

قولهُ تعالى: ﴿وَيُطَافُ عَلَيْهِم﴾ أيْ يدورُ على هؤلاءِ الأبرارِ الخدمُ إذا أرادوا الشّرابَ ﴿بِـَٔانِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ﴾ وليس في الدنيا شيء ممّا في الجنّةِ إلّا الأسماءُ، فما في الجنّةِ أشرفُ وأعلى وأنقى. ثمَّ لمْ تنفَ الأواني الذّهبيّةُ بلِ المعنى يسقونَ في أواني الفضّةِ، وقدْ

يسقونَ في أواني الذّهبِ. وقدْ قالَ تعالى: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ﴾، وقيلَ: نبّهَ بذكرِ الفضّةِ على الذّهبِ، كقولهِ: ﴿سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ﴾ أيْ والبردَ، فنبّهَ بذكرِ أحدهما على الثّاني «والأكوابُ»: الكيزانُ العظامُ الّتي لا آذانَ لها ولا عرى، الواحدُ منها كوبٌ ﴿كَانَتْ قَوَارِيرَا۠ ﴿١٥﴾ قَوَارِيرَا۠ مِن فِضَّةٍ﴾ أيْ في صفاءِ القواريرِ وبياضِ الفضّةِ، فصفاؤها صفاءُ الزّجاجِ وهيَ منْ فضّةٍ ﴿قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا﴾ أيْ قدّرها لهمُ السّقاةُ الّذينَ يطوفونَ بها عليهمْ. وأتوا بها على قدرِ ريّهمْ، بغيرِ زيادةٍ ولا نقصانٍ، وذلكَ ألذُّ وأشهى.

قولهُ تعالى: ﴿وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا﴾ وهيَ الخمرُ في الإناءِ ﴿كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا﴾ كانَ صلةٌ، أيْ مزاجها زنجبيلٌ، أوْ كانَ في حكمِ اللّهِ زنجبيلا. وكانت العرب تستلذ من الشّرابِ ما يمزجُ بالزّنجبيلِ لطيبِ رائحتهِ، لأنّهُ يحذو اللّسانَ، ويهضمُ المأكولَ، فرغّبوا في نعيمِ الآخرةِ بما اعتقدوهُ نهايةَ النّعمةِ والطّيبِ ﴿عَيْنًا﴾ بدلٌ منْ كأسٍ. ويجوزُ أنْ ينتصبَ بإضمارِ فعلٍ أيْ يسقونَ عينـًا. ويجوزُ نصبهُ بإسقاطِ الخافضِ أيْ منْ عينٍ على ما تقدّمَ في قولهِ تعالى: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ﴾ ﴿فِيهَا﴾ أيْ في الجنّةِ ﴿تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا﴾ السّلسبيلُ الشّرابُ اللّذيذُ، وهوَ فعلليلٌ منَ السّلالةِ، تقولُ العربُ: هذا شرابٌ سلسٌ وسلسالٌ وسلسلٌ وسلسبيلٌ بمعنى، أيْ طيّبُ الطّعمِ لذيذهُ. وقولهُ: ﴿تُسَمَّىٰ﴾ أيْ إنّها مذكورةٌ عندَ الملائكةِ وعندَ الأبرارِ وأهلِ الجنّةِ بهذا الاسمِ. وصرفَ سلسبيلٌ، لأنّهُ رأسُ آيةٍ، كقوله تعالى: ﴿ٱلظُّنُونَا۠﴾ و ﴿ٱلسَّبِيلَا۠﴾.

قولهُ تعالى: ﴿۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ﴾ فإنّهمْ أخفُّ في الخدمةِ ﴿مُّخَلَّدُونَ﴾ باقونَ على ما همْ عليهِ منَ الشّبابِ والغضاضةِ والحسنِ، لا يهرمونَ ولا يتغيّرونَ، ويكونونَ على سنٍّ واحدةٍ على مرِّ الأزمنةِ ﴿إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا﴾ أيْ ظننتهمْ منْ حسنهمْ وكثرتهمْ وصفاءِ ألوانهمْ: لؤلؤاً مفرّقـًا في عرصةِ المجلسِ، واللّؤلؤُ إذا نثرَ على بساطٍ كانَ أحسنَ منهُ منظومـًا. **وقيلَ**: إنّما شبّههمْ بالمنثورِ، لأنّهمْ سراعٌ في الخدمةِ، بخلافِ الحورِ العينِ إذْ شبّههنَّ باللّؤلؤِ المكنونِ المخزونِ، لأنّهنَّ لا يمتهنَّ بالخدمةِ.

قولهُ تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ﴾ ظرفُ مكانٍ أيْ هناكَ في الجنّةِ ﴿رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا﴾ النّعيمُ: سائرُ ما يتنعّمُ بهِ. والملكُ الكبيرُ: استئذانُ الملائكةِ عليهم، دليلهُ قولهُ تعالى:

﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ٢٣ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ﴾.

قولهُ تعالى: ﴿عَٰلِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ﴾ قرأ نافعٌ وحمزةُ ﴿عَٰلِيْهُمْ﴾ ساكنةَ الياءِ، وقرأ الباقونَ ﴿عَٰلِيَهُمْ﴾ بالنّصبِ. هوَ كقولكَ فوقهمْ، وقرأ ابنُ كثيرٍ وأبو بكرٍ عنْ عاصمٍ ﴿خُضْرٍ﴾ بالجرِّ على نعتِ السّندسِ، و ﴿إستبرقٌ﴾ بالرّفعِ نسقًا على الثّيابِ، وقرأ ابنُ عامرٍ وأبو عمرو ويعقوبُ ﴿خُضْرٌ﴾ رفعًا نعتًا للثّيابِ ﴿وإستبرقٍ﴾ بالخفضِ نعتًا للسّندسِ، وقرأ نافعٌ وحفصٌ كلاهما بالرّفعِ ويكونُ ﴿خُضْرٌ﴾ نعتًا للثّيابِ، لأنّهما جميعًا بلفظِ الجمعِ و ﴿إستبرقٌ﴾ عطفًا على الثّيابِ. وقرأ حمزةُ والكسائيُّ كلاهما بالخفضِ ويكونُ قولهُ: ﴿خُضْرٍ﴾ نعتًا للسّندسِ، والسّندسُ اسمُ جنسٍ ﴿وَحُلُّوٓاْ﴾ عطفٌ على ويطوفُ ﴿أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ﴾ وفي سورةِ فاطرٍ ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ﴾ وفي سورةِ الحجِّ ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا﴾، فقيلَ: حليُّ الرّجلِ الفضّةُ وحليُّ المرأةِ الذّهبُ. وقيلَ: تارةً يلبسونَ الذّهبَ وتارةً يلبسونَ الفضّةَ، وقيلَ: أيْ لكلِّ قومٍ ما تميلُ إليهِ نفوسهمْ ﴿وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾ إذا شربوهُ بعدَ أكلهمْ طهّرهمْ، وصارَ ما أكلوهُ وما شربوهُ رشحَ مسكٍ، وضمرتْ بطونهمْ.

قولهُ تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً﴾ أيْ يقالُ لهمْ: إنّما هذا جزاءٌ لكمْ أيْ ثوابٌ ﴿وَكَانَ سَعْيُكُم﴾ أيْ عملكمْ ﴿مَّشْكُورًا﴾ أيْ منْ قبلِ اللّهِ، وشكرهُ للعبدِ قبولُ طاعتهِ، وثناؤهُ عليهِ، وإثابتهُ إيّاهُ.

قولهُ تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ تَنزِيلًا﴾ متفرّقًا: آيةً بعدَ آيةٍ، ولمْ ينزلْ جملةً واحدةً ﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ أيْ لقضاءِ ربّكَ. وعلى أذى المشركينَ، ثمَّ نسخَ بآيةِ القتالِ. وقيلَ: أيِ اصبرْ لما حكمَ بهِ عليكَ منَ الطّاعاتِ، أوِ انتظرْ حكمَ اللّهِ إذْ وعدكِ أنّهُ ينصركِ عليهمْ، ولا تستعجلْ فإنّهُ كائنٌ لا محالةَ ﴿وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا﴾ أيْ ذا إثمٍ ﴿أَوْ كَفُورًا﴾ أيْ لا تطعِ الكفّارَ. وقيلَ: الآثمُ المنافقُ، والكفورُ الكافرُ الّذي يظهرُ الكفرَ، لا تطعهم في معصيةِ الله، أو فيما عرضوا من الأموال والتّزويج، على أنْ تتركَ ذكرَ النّبوّةِ. ثمَّ قيل: أوْ في قولهِ تعالى: ﴿ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا﴾ أوكدُ منَ الواوِ وقدْ دلّتْ على أنَّ كلَّ واحدٍ منهما أهلٌ أنْ يعصى.

قولهُ تعالى: ﴿وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ بُكۡرَةً وَأَصِيلًا﴾ أيْ صلِّ لربّكَ أوّلَ النّهارِ صلاةُ الصّبحِ وآخرهُ صلاةُ الظّهرِ والعصرِ ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَٱسۡجُدۡ لَهُۥ﴾ يعني صلاة المغرب والعشاء ﴿وَسَبِّحۡهُ لَيۡلًا طَوِيلًا﴾ أي التّطوّعَ في اللّيلِ، وقيلَ: هوَ الذّكرُ المطلقُ سواءً كانَ في الصّلاةِ أوْ في غيرها، وجمعُ الأصيلِ: الأصائلُ والأُصلُ كقولكَ سفائنُ وسفنٌ. ودخلتْ ﴿مِنَ﴾ على الظّرفِ للتّبعيضِ كما دخلتْ على المفعولِ في قوله تعالى: ﴿لِيَغۡفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمۡ﴾.

قولهُ تعالى: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ أهلُ مكّةَ ﴿يُحِبُّونَ ٱلۡعَاجِلَةَ﴾ أي الدّنيا، وهذا توبيخٌ وتقريعٌ ﴿وَيَذَرُونَ﴾ أيْ ويدعونَ ﴿وَرَآءَهُمۡ﴾ أيْ بين أيديهم ﴿يَوۡمًا ثَقِيلًا﴾ أيْ عسيراً شديداً كما قالَ: ﴿ثَقُلَتۡ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾، وقيلَ: وراءهمْ أيْ خلفهمْ، أيْ ويذرونَ الآخرةَ خلفَ ظهورهمْ، فلا يعملونَ لها، واليومُ الثّقيلُ يومُ القيامةِ. وإنّما سمّيَ ثقيلاً لشدائدهِ وأهوالهِ. وقيلَ: للقضاءِ فيهِ بينَ عبادهِ. ﴿نَّحۡنُ خَلَقۡنَٰهُمۡ﴾ أيْ منْ طينٍ ﴿وَشَدَدۡنَآ أَسۡرَهُمۡۖ﴾ أيْ خلقهمْ، والأسرُ الخلقُ، وقيلَ: شددنا مفاصلهمْ وأوصالهمْ بعضها إلى بعضٍ بالعروقِ والعصبِ. واشتقاقهُ منَ الإسارِ وهوَ القدُّ الّذي يشدُّ بهِ الأقتابُ ﴿وَإِذَا شِئۡنَا بَدَّلۡنَآ أَمۡثَٰلَهُمۡ تَبۡدِيلًا﴾ أي لأهلكناهم وجئنا بأطوعَ منهمْ، وقيلَ: لغيّرنا محاسنهمْ إلى أسمجِ الصّورِ وأقبحها.

قولهُ تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ﴾ أيِ السّورةُ ﴿تَذۡكِرَةٞ﴾ أيْ موعظةٌ ﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾ أيْ طريقاً موصّلاً إلى طاعتهِ وطلبِ مرضاتهِ ﴿وَمَا تَشَآءُونَ﴾ أيِ الطّاعةَ والاستقامةَ واتّخاذَ السّبيلِ إلى اللّهِ ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ فأخبرَ أنَّ الأمرَ إليهِ سبحانهُ ليسَ إليهمْ، وأنّهُ لا تنفذُ مشيئةُ أحدٍ ولا تتقدّمُ، إلّا أنْ تتقدّمَ مشيئتهُ. وقرأ ابنُ كثيرٍ وأبو عمرو «وَمَا يشاءون» بالياءِ على معنى الخبرِ عنهمْ. والباقونَ بالتّاءِ على معنى المخاطبةِ للّهِ سبحانهُ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا﴾ بأعمالكمْ ﴿حَكِيمًا﴾ في أمرهِ ونهيهِ لكمْ ﴿يُدۡخِلُ مَن يَشَآءُ فِي رَحۡمَتِهِۦۚ﴾ أيْ يدخلهُ الجنّةَ راحماً لهُ ﴿وَٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أيْ ويعذّبُ الظّالمينَ فنصبهُ بإضمارِ يعذّبُ. و ﴿أَعَدَّ لَهُمۡ﴾ تفسيراً لهذا المضمرِ، وقولهُ في الشورى: ﴿يُدۡخِلُ مَن يَشَآءُ فِي رَحۡمَتِهِۦۚ وَٱلظَّٰلِمُونَ﴾ ارتفعَ لأنّهُ لمْ يذكرْ بعدهُ فعلٌ يقعُ عليهِ فينصبُ في المعنى، فلمْ يجزِ العطفُ على المنصوب قبله فارتفع بالابتداء. وها هنا قولهُ: أعدَّ لهمْ عذاباً يدلُّ على ويعذّبُ، فجازَ النّصبُ.

سورة المرسلات

مكّيّةٌ وهي خمسون آية.

بسمِ اللّهِ الرّحمنِ الرّحيم

قولهُ تعالى: ﴿وَٱلۡمُرۡسَلَٰتِ عُرۡفٗا﴾ جمهورُ المفسّرينَ على أنَّ المرسلاتِ الرّياحُ كما قالَ تعالى: ﴿وَأَرۡسَلۡنَا ٱلرِّيَٰحَ﴾، وقال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ﴾، ومعنى عرفًا متتابعةً. وقيلَ: هيَ الملائكةُ أُرسلتْ بالمعروفِ منْ أمرِ اللّهِ تعالى ونهيهِ والخبرِ والوحي. وقيلَ: همُ الأنبياءُ أرسلوا بلا إلهَ إلّا اللّهُ وبما يعرفونَ بهِ منَ المعجزاتِ. وقيلَ: يحتملُ أنْ يكونَ المرادُ بالمرسلاتِ السّحابُ، لما فيها منْ نعمةٍ ونقمةٍ، عارفةٌ بما أرسلتْ فيهِ ومنْ أرسلتْ إليه.

﴿فَٱلۡعَٰصِفَٰتِ عَصۡفٗا﴾ الرّياحُ بغيرِ اختلافٍ تأتي بالعصفِ، وهوَ ورقُ الزّرعِ وحطامهُ، وقيلَ: العاصفاتُ الملائكةُ الموكّلونَ بالرّياحِ يعصفونَ بها، أو تعصفُ بروحِ الكافرِ، وقيلَ: يحتملُ أنّها الآياتُ المهلكةُ كالزّلازلِ والخسوفِ ﴿وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشۡرٗا﴾ الملائكةُ الموكّلونَ بالسّحبِ ينشرونها. وقيلَ: هيَ الرّياحُ يرسلها اللّهُ تعالى نشراً بينَ يديْ رحمتهِ، أيْ تنشرُ السّحابَ للغيثِ. وقيلَ: الأمطارُ، لأنّها تنشرُ النّباتَ، فالنّشرُ بمعنى الإحياءِ ﴿فَٱلۡفَٰرِقَٰتِ فَرۡقٗا﴾ الملائكةُ تنزلُ بالفرقِ بينَ الحقِّ والباطلِ، أو ما تفرّقُ منَ الأقواتِ والأرزاقِ والآجالِ. وقيلَ: الفارقاتُ الرّياحُ تفرّقُ بينَ السّحابِ وتبدّدهُ، وقيلَ: يعني الرّسلَ فرّقوا بينَ ما أمرَ اللّهُ بهِ ونهى عنهُ أيْ بيّنوا ذلكَ ﴿فَٱلۡمُلۡقِيَٰتِ ذِكۡرًا﴾ الملائكةُ بإجماعٍ، أيْ تلقي كتبَ اللّهِ عزَّ وجلَّ إلى الأنبياءِ عليهمُ السّلامُ ﴿عُذۡرًا أَوۡ نُذۡرًا﴾: أيْ تلقّى الوحيَ إعذاراً منَ اللّهِ أوْ إنذاراً إلى خلقهِ منْ عذابهِ، وقرأ أبو عمرو وحمزةُ والكسائيُّ وحفصٌ أوْ نذْراً بإسكانِ الذّالِ وجميعُ السّبعةِ على إسكانِ ذالِ عذراً سوى ما رواهُ الجعفيُّ والأعشى عنْ أبي بكرٍ عنْ عاصمٍ أنّهُ ضمَّ الذّالَ ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٞ﴾ جوابُ ما تقدّمَ منَ القسمِ، أيْ ما توعدونَ منْ أمرِ القيامةِ لواقعٌ بكم ونازل عليكم. ثمَّ بيّنَ وقتَ وقوعهِ فقالَ: ﴿فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتۡ﴾ أيْ ذهبَ ضوءها ومحيَ نورها كطمسِ الكتابِ ﴿وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتۡ﴾ أيْ فتحتْ وشقّتْ، ومنهُ قولهُ تعالى: ﴿وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتۡ أَبۡوَٰبٗا﴾ ﴿وَإِذَا ٱلۡجِبَالُ نُسِفَتۡ﴾ أيْ ذهبَ بها كلّها بسرعةٍ

﴿وَإِذَا ٱلرُّسُلُ أُقِّتَتۡ﴾ أيْ جمعتْ لوقتها ليومِ القيامةِ، أي: جعلَ لها وقتٌ وأجلٌ للفصلِ والقضاءِ بينهمْ وبينَ الأممِ، كما قال تعالى: ﴿۞يَوۡمَ يَجۡمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ﴾، وقيلَ: أقّتتْ أيْ أرسلتْ لأوقاتٍ معلومةٍ على ما علمهُ اللّهُ وأرادَ. والهمزةُ في أقّتتْ بدلٌ منَ الواوِ، وقرأ أبو عمرو «وُقِّتَتْ» بالواوِ وتشديدِ القافِ على الأصلِ، وقرأ أبو جعفرٍ «وُقِتَتْ» بالواوِ وتخفيفِ القافِ. وهوَ فعلتْ منَ الوقتِ ومنهُ ﴿كِتَٰبٗا مَّوۡقُوتٗا﴾.

﴿لِأَيِّ يَوۡمٍ أُجِّلَتۡ ١٢﴾ استفهامٌ على التّعظيمِ ﴿لِيَوۡمِ ٱلۡفَصۡلِ﴾ يفصلُ فيهِ بينَ النّاسِ بأعمالهمْ إلى الجنّةِ أوْ إلى النّارِ ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلۡفَصۡلِ﴾ أتبعَ التّعظيمَ تعظيماً، أي وما أعلمك ما يوم الفصل؟ ﴿وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ﴾ ويلٌ: وادٍ في جهنّمَ فيهِ ألوانُ العذابِ، وقيلَ: أيْ عذابٌ وخزيٌ لمنْ كذّبَ باللّهِ وبرسلهِ وكتبهِ وبيومِ الفصلِ فهوَ وعيدٌ. وكرّرهُ في هذهِ السّورةِ عندَ كلِّ آيةٍ لمنْ كذّبَ، لأنّهُ قسمهُ بينهمْ على قدرِ تكذيبهمْ، فإنَّ لكلِّ مكذّبٍ بشيءٍ عذاباً سوى تكذيبه بشيء آخر، وهو قوله: ﴿جَزَآءٗ وِفَاقًا﴾.

قولهُ تعالى: ﴿أَلَمۡ نُهۡلِكِ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ الكفّار منَ الأممِ الماضينَ ﴿ثُمَّ نُتۡبِعُهُمُ ٱلۡأٓخِرِينَ﴾ أيْ نلحقُ الآخرينَ بالأوّلينَ ﴿كَذَٰلِكَ نَفۡعَلُ بِٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ أيْ مثلَ ما فعلناهُ بمنْ تقدّمَ نفعلُ بمشركي قريشٍ إمّا بالسّيفِ، وإمّا بالهلاكِ.

قولهُ تعالى: ﴿أَلَمۡ نَخۡلُقكُّم مِّن مَّآءٖ مَّهِينٖ﴾ أيْ ضعيفٍ حقيرٍ وهوَ النّطفةُ وقدْ تقدّمَ. وهذهِ الآيةُ أصلٌ لمنْ قالَ: إنَّ خلقَ الجنينِ إنّما هوَ منْ ماءِ الرّجلِ وحدهُ. وقدْ مضى القولُ فيه ﴿فَجَعَلۡنَٰهُ فِي قَرَارٖ مَّكِينٍ﴾ أيْ في مكانٍ حريزٍ وهوَ الرّحمُ ﴿إِلَىٰ قَدَرٖ مَّعۡلُومٖ﴾ إلى أنْ نصوّرهُ. وقيلَ: إلى وقتِ الولادةِ. ﴿فَقَدَرۡنَا﴾ وقرأ نافعٌ والكسائيُّ ﴿فَقَدَّرۡنَا﴾ بالتّشديدِ، وخفّفَ الباقونَ، وهما لغتانِ بمعنى، ومنهُ قولُ النّبيِّ ﷺ في الهلالِ: «إذا غمَّ عليكمْ فاقدروا لهُ» أيْ قدّروا لهُ المسيرَ والمنازلَ، وقالَ اللّهُ تعالى: ﴿نَحۡنُ قَدَّرۡنَا بَيۡنَكُمُ ٱلۡمَوۡتَ﴾ قرئَ بالتّخفيفِ، والتّشديدِ، وتجمعُ العربُ بينَ اللّغتينِ، كما في قول اللّهُ تعالى: ﴿فَمَهِّلِ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَمۡهِلۡهُمۡ رُوَيۡدَۢا﴾.

قولهُ تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾ أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا ﴿٢٦﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ شَٰمِخَٰتٍ وَأَسْقَيْنَٰكُم مَّآءً فُرَاتًا ﴿٢٧﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾، فيهِ مسألتانِ:

الأولى: قولهُ تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا﴾ أيْ ضامّةً ﴿أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا﴾ تضمُّ الأحياءَ على ظهورها والأمواتَ في بطنها. وهذا يدلُّ على وجوبِ مواراةِ الميّتِ ودفنهِ، ودفنِ شعرهِ وسائرِ ما يزيلهُ عنهُ، والكفتُ: الضّمُّ والجمعُ.

الثانية: رويَ عنْ ربيعةَ في النّبّاشِ قالَ تقطعُ يدهُ فقيلَ لهُ: لمَ قلتَ ذلكَ؟ قالَ: إنَّ اللّهَ عزَّ وجلَّ يقولُ: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾ أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا﴾ فالأرضُ حرزٌ. وقدْ مضى هذا في سورةِ المائدة. وكانوا يسمّونَ بقيعَ الغرقدِ كفتةً، لأنّهُ مقبرةٌ تضمُّ الموتى، فالأرضُ تضمُّ الأحياءَ إلى منازلهمْ والأمواتَ في قبورهمْ. وأيضًا استقرارُ النّاسِ على وجهِ الأرضِ، ثمَّ اضطجاعهمْ عليها، انضمامٌ منهمْ إليها. **وقيلَ**: الأحياءُ والأمواتُ ترجعُ إلى الأرضِ، أيِ الأرضُ منقسمةٌ إلى حيٍّ وهوَ الّذي ينبتُ، وإلى ميت وهوَ الّذي لا ينبتُ.

﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا﴾ أيْ في الأرضِ ﴿رَوَٰسِىَ شَٰمِخَٰتٍ﴾ يعني الجبالَ، والرّواسي الثّوابتُ، والشّامخاتُ الطّوالُ، ومنهُ يقال: شمخ بأنفه إذا رفعه كبرا. قال: ﴿وَأَسْقَيْنَٰكُم مَّآءً فُرَاتًا﴾ عذبا، وهذهِ الأمورُ أعجبُ منَ البعثِ، وفي صحيحِ مسلمٍ: «سيحانُ وجيحانُ والنّيلُ والفراتُ كلٌّ منْ أنهارِ الجنة».

قولهُ تعالى: ﴿ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾ بهِ منَ العذابِ، فقدْ شاهدتموها عيانًا ﴿ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ ظِلٍّ﴾ أيْ دخانٍ ﴿ذِى ثَلَٰثِ شُعَبٍ﴾ يرتفعُ ثمَّ يتشعّبُ ﴿لَّا ظَلِيلٍ﴾ يقي حرَّ الشّمسِ ﴿وَلَا يُغْنِى مِنَ ٱللَّهَبِ﴾ أيْ لا يدفعُ منْ لهبِ جهنّمَ شيئًا. واللّهبُ ما يعلو على النّارِ إذِ اضطرمتْ منْ أحمرَ وأصفرَ وأخضرَ. ويكونُ أولياءُ اللّهِ جلَّ ثناؤهُ في ظلِّ عرشهِ أوْ حيثُ شاءَ منَ الظّلِّ، إلى أنْ يفرغَ منَ الحسابِ ثمَّ يؤمرُ بكلِّ فريقٍ إلى مستقرّهِ منَ الجنّةِ والنّارِ. ثمَّ وصفَ النّارَ فقالَ: ﴿إِنَّهَا تَرْمِى بِشَرَرٍ﴾ الشّررُ: واحدتهُ شررةٌ. والشّرارُ: واحدتهُ شرارةٌ، وهوَ ما تطايرَ منَ النّارِ في كلِّ جهةٍ، وأصلهُ منْ شررتُ الثّوبَ إذا بسطتهُ للشّمسِ ليجفَّ ﴿كَٱلْقَصْرِ﴾ كالبناء العالي واحدُ القصورِ، وهوَ في معنى الجمعِ على طريقِ الجنسِ

﴿كَأَنَّهُۥ جِمَٰلَتٌ صُفْرٌ﴾ شبّههُ في لونهِ بالجمالاتِ الصّفرِ، وهيَ الإبلُ السّودُ، والعربُ تسمّي السّودَ منَ الإبلِ صفراً، وإنّما سمّيتِ السّودُ منَ الإبلِ صفراً لأنّهُ يشوبُ سوادها شيء منْ صفرةٍ، وقرأ يعقوبُ: «جُمالَتٌ» بضمِّ الجيمِ موحّداً وهيَ الشّيءُ العظيمُ المجموعُ بعضهُ إلى بعضٍ. وقرأ حفصٌ وحمزةُ والكسائيُّ «جِمالَتٌ» وبقيّةُ السّبعةِ «جِمَالَاتٌ» جمعَ جمالٍ كما يقالُ: رجلٌ ورجالٌ ورجالاتٌ.

قولهُ تعالى: ﴿هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ﴾ أيْ لا يتكلّمونَ ﴿وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾ أيْ إنَّ يومَ القيامةِ لهُ مواطنُ ومواقيتُ فهذا منَ المواقيتِ الّتي لا يتكلّمونَ فيها ولا يؤذنُ لهمْ في الاعتذارِ والتّنصّلِ.

وعنْ عكرمةَ عنِ ابنِ عبّاسٍ قال: سأله ابنُ الأزرقِ عنْ قولهِ تعالى: ﴿هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ﴾ و ﴿فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾ وقدْ قالَ تعالى: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ﴾؟

فقالَ لهُ: إنَّ اللّهَ عزَّ وجلَّ يقولُ: ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ فإنَّ لكلِّ مقدارٍ منْ هذهِ الأيّامِ لونـاً منْ هذهِ الألوانِ.

وقيلَ: لا ينطقونَ بحجّةٍ نافعةٍ، ومنْ نطقَ بما لا ينفعُ ولا يفيدُ فكأنّهُ ما نطقَ.

وقيلَ: إنَّ هذا وقت جوابهم: ﴿ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾.

قولهُ تعالى: ﴿هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ﴾ يفصلُ فيهِ بينَ الخلائقِ، فيتبيّنُ المحقُّ منَ المبطلِ ﴿جَمَعْنَٰكُمْ وَٱلْأَوَّلِينَ﴾ جمعَ الّذينَ كذّبوا محمّداً والّذينَ كذّبوا النّبيّينَ منْ قبلهِ ﴿فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ﴾ أي حيلة في الخلاص من الهلاك ﴿فَكِيدُونِ﴾ أيْ فاحتالوا لأنفسكمْ.

قولهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى ظِلَٰلٍ وَعُيُونٍ﴾ ظلالُ الأشجارِ وظلالُ القصورِ مكانَ الظّلِّ في الشّعبِ الثّلاثِ. وفي سورةِ يس: ﴿هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ فِى ظِلَٰلٍ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ﴾ ﴿وَفَوَٰكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ﴾ أيْ يتمنّونَ ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟﴾ أيْ يقالُ لهمْ غداً ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ أيْ نثيبُ الّذينَ أحسنوا في تصديقهمْ بمحمّدٍ ﷺ وأعمالهم في الدنيا.

قولهُ تعالى: ﴿كُلُواْ وَتَمَتَّعُواْ قَلِيلًا﴾ وعيد وتهديد وهو حال من للمكذّبينَ أيِ الويلُ ثابتٌ لهمْ في حالِ ما يقالُ لهمْ: كلوا وتمتّعوا قليلاً ﴿إِنَّكُم مُّجۡرِمُونَ﴾ أيْ كافرونَ. وقيلَ: مكتسبونَ فعلاً يضرّكمْ في الآخرة، من الشرك والمعاصي.

قولهُ تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرۡكَعُواْ لَا يَرۡكَعُونَ ٤٨﴾ أيْ صلّوا لا يصلّونَ. ويذكرُ أنَّ مالكـًا رحمهُ اللّهُ دخلَ المسجدَ بعدَ صلاةِ العصرِ، وهوَ ممّنْ لا يرى الرّكوعَ بعدَ العصرِ، فجلسَ ولمْ يركعْ، فقالَ: لهُ صبيٌّ: يا شيخُ قمْ فاركعْ. فقامَ فركعَ ولمْ يحاجّهُ بما يراهُ مذهبـًا، فقيلَ لهُ في ذلكَ، فقالَ: خشيتُ أنْ أكونَ منَ الّذينَ إذا قيلَ لهمُ اركعوا لا يركعونَ.

وقيلَ: إنّما يقالُ لهمْ هذا في الآخرةِ حينَ يدعونَ إلى السّجودِ فلا يستطيعونَ.

وقيلَ: هذهِ الآيةُ حجّةٌ على وجوبِ الرّكوعِ وإنزالهِ ركنـًا في الصّلاةِ وقدِ انعقدَ الإجماعُ عليهِ.

قولهُ تعالى: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثِۢ بَعۡدَهُۥ يُؤۡمِنُونَ﴾ أيْ إنْ لمْ يصدّقوا بالقرآنِ الّذي هوَ المعجزُ والدّلالةُ على صدقِ الرّسولِ ﷺ، فبأي شيء يصدّقونَ!

وكرّرَ: ﴿وَيۡلٌ يَوۡمَئِذٍ لِّلۡمُكَذِّبِينَ﴾ لمعنى تكريرِ التّخويفِ والوعيدِ. وقيلَ: ليسَ بتكرارٍ، لأنّهُ أرادَ بكلِّ قولٍ منهُ غيرَ الّذي أرادَ بالآخرِ، كأنّهُ ذكرَ شيئـًا فقالَ: ويلٌ لمنْ يكذّبُ بهذا، ثمَّ ذكرَ شيئـًا آخرَ فقالَ: ويلٌ لمنْ يكذّبُ بهذا، ثمَّ ذكرَ شيئـًا آخرَ فقالَ: ويلٌ لمنْ يكذّبُ بهذا. ثمَّ كذلكَ إلى آخرها.

سورة [عم]

مكّيّةٌ وتسمّى سورةُ النّبأِ وهيَ أربعونَ أوْ إحدى وأربعونَ آيةً

بسمِ اللّهِ الرّحمنِ الرّحيمِ

قولهُ تعالى: ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ﴾ عمَّ لفظُ استفهامٍ، ولذلكَ سقطتْ منها ألفُ ﴿مَا﴾، ليتميّزَ الخبرُ عنِ الاستفهامِ. وكذلكَ فيمَ، وممَّ إذا استفهمتَ. والمعنى عنْ أيِّ شيٍ يسألُ بعضهمْ بعضـًا.

قولهُ تعالى: ﴿عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ﴾ أيِ الخبرُ الكبيرُ ﴿ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ﴾ أيْ يخالفُ فيهِ بعضهمْ بعضـًا، فيصدّقُ واحدٌ ويكذّبُ آخرُ، وهوَ القرآنُ، دليلهُ قولهُ: ﴿قُلْ هُوَ نَبَؤٌاْ عَظِيمٌ ۝٦٧ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ﴾ فالقرآنُ نبأٌ وخبرٌ وقصصٌ، وهوَ نبأٌ عظيمُ الشّأنِ. وقيلَ: هوَ البعثُ بعدَ الموتِ صارَ النّاسُ فيهِ رجلينِ: مصدّقٌ ومكذّبٌ. وقيلَ: أمرَ النّبيُّ ﷺ. ثمَّ هدّدهمْ فقالَ: ﴿كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾ عاقبةَ القرآنِ، أوْ سيعلمون البعث: أحق هو أم باطل. وكلّا ردٌّ عليهمْ في إنكارهمُ البعثَ أوْ تكذيبهمُ القرآنَ، فيوقفُ عليها. ويجوزُ أنْ يكونَ بمعنى حقـًا أوْ ألا فيبدأُ بها. والأظهرُ أنَّ سؤالهمْ إنّما كانَ عنِ البعثِ، قالَ بعضُ علمائنا: والّذي يدلُّ عليهِ قولهُ عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ كَانَ مِيقَٰتًا﴾ يدلُّ على أنّهمْ كانوا يتساءلونَ عنِ البعثِ ﴿ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾ أيْ حقـًا ليعلمنَّ صدقَ ما جاءَ بهِ محمّدٌ ﷺ منَ القرآنِ وممّا ذكرهُ لهمْ منَ البعثِ بعدَ الموتِ.

قولهُ تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا﴾: وطاء وفراشا. وقدْ قالَ تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا﴾ ﴿وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾ أيْ لتسكنَ ولا تكفأَ ولا تميلَ بأهلها ﴿وَخَلَقْنَٰكُمْ أَزْوَٰجًا﴾ أيْ أصنافـًا: ذكراً وأنثى. وقيلَ: ألوانـًا. وقيلَ: يدخلُ في هذا كلُّ زوجٍ منْ قبيحٍ وحسنٍ، وطويلٍ وقصيرٍ، لتختلفَ الأحوالُ فيقعُ الاعتبارُ، فيشكرُ الفاضلُ ويصبرُ المفضولُ ﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ﴾ جعلنا معناهُ صيّرنا، ولذلكَ تعدّتْ إلى مفعولينِ ﴿سُبَاتًا﴾ المفعولُ الثّاني، أيْ راحةً لأبدانكمْ، ومنهُ يومُ السّبتَ أيْ يومَ الرّاحةِ، أيْ قيلَ لبني إسرائيلَ: استريحوا

في هذا اليوم، فلا تعملوا فيهِ شيئًا ﴿وَجَعَلۡنَا ٱلَّيۡلَ لِبَاسٗا﴾ تغشاكمْ ظلمتهُ ﴿وَجَعَلۡنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشٗا﴾ فيهِ إضمارٌ، أيْ وقتَ معاشٍ، أيْ متصرّفًا لطلبِ المعاشِ منَ المطعمِ والمشربِ وغيرِ ذلكَ ﴿وَبَنَيۡنَا فَوۡقَكُمۡ سَبۡعٗا شِدَادٗا﴾ محكمةَ الخلقِ وثيقةَ البنيانِ ﴿وَجَعَلۡنَا سِرَاجٗا وَهَّاجٗا﴾ أيْ وقّاداً وهيَ الشّمسُ. وجعلَ هنا بمعنى خلقَ، لأنّها تعدّتْ لمفعولٍ واحدٍ ﴿وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلۡمُعۡصِرَٰتِ مَآءٗ ثَجَّاجٗا﴾ المعصراتُ الرّياحُ تعصرُ السّحابَ، أعصرتِ الرّيحُ تعصرُ إعصاراً: وقيلَ: أنّها السّحابُ. تنعصرُ بالماءِ ولمّا تمطرْ بعدُ، كالمرأةِ المعصرِ الّتي قدْ دنا حيضها ولمْ تحضْ ﴿مَآءٗ ثَجَّاجٗا﴾ صبّابًا متتابعًا، وفي حديثَ النّبيِّ ﷺ أنّهُ سئلَ عنِ الحجِّ المبرورِ فقالَ: «العجُّ والثّجُّ» فالعجُّ: رفعُ الصّوتِ بالتّلبيةِ، والثّجُّ: إراقةُ الدّماءِ وذبحُ الهدايا. ﴿لِّنُخۡرِجَ بِهِۦ﴾ أيْ بذلكَ الماءِ ﴿حَبّٗا﴾ كالحنطةِ والشّعيرِ وغيرِ ذلكَ ﴿وَنَبَاتٗا﴾ منَ الأبِّ، وهوَ ما تأكلهُ الدّوابُّ منَ الحشيش ﴿وَجَنَّٰتٍ﴾ بساتينُ ﴿أَلۡفَافًا﴾ أيْ ملتفّةً بعضها ببعضٍ لتشعّبِ أغصانها.

قولهُ تعالى: ﴿إِنَّ يَوۡمَ ٱلۡفَصۡلِ كَانَ مِيقَٰتٗا﴾ ميعاداً للأوّلينَ والآخرينَ، لما وعدَ اللّهُ منَ الجزاءِ والثّوابِ. وسمّيَ يومَ الفصلِ لأنَّ اللّهَ تعالى يفصلُ فيهِ بينَ خلقهِ ﴿يَوۡمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ﴾ أيْ للبعثِ ﴿فَتَأۡتُونَ﴾ أيْ إلى موضعِ العرضِ ﴿أَفۡوَاجٗا﴾ أيْ أممًا، كلُّ أمّةٍ معَ إمامهمْ. وقيلَ: زمراً وجماعاتٍ. الواحدُ: فوجٌ ﴿وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتۡ أَبۡوَٰبٗا﴾ أيْ لنزولِ الملائكةِ، كما قالَ تعالى: ﴿وَيَوۡمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلۡغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا﴾. وقيلَ: تقطّعتْ، فكانتْ قطعًا كالأبوابِ فانتصابُ الأبوابِ على هذا التّأويلِ بحذفِ الكافِ، وفي حديثِ الإسراءِ: «ثمَّ عرجَ بنا إلى السّماءِ فاستفتحَ جبريلُ، فقيلَ: منْ أنتَ قالَ: جبريلُ. قيلَ: ومنْ معكَ؟ قالَ: محمّدٌ. قيلَ: وقدْ بعثَ إليهِ؟ قالَ: قدْ بعثَ إليهِ. ففتحَ لنا» ﴿وَسُيِّرَتِ ٱلۡجِبَالُ فَكَانَتۡ سَرَابًا﴾ أي لا شيء كما أنَّ السّرابَ كذلكَ: يظنّهُ الرّائي ماءً وليسَ بماءٍ.

قولهُ تعالى: ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتۡ مِرۡصَادٗا﴾: مفعالٌ من الرصد، والرَصد: كل شيء كانَ أمامكَ، فلا سبيلَ إلى الجنّةِ حتّى يقطعَ جهنّمَ، والتّرصّدُ: التّرقّبُ. والمرصدُ: موضعُ الرّصدِ ﴿لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابٗا﴾ بدلٌ منْ قولهِ: مرصاداً، والمآبُ: المرجعُ، والمرادُ بالطّاغينَ منْ طغى في دينهِ بالكفرِ، أو في دنياه بالظلم ﴿لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحۡقَابٗا﴾ أيْ ماكثينَ في النّارِ ما دامتِ الأحقابُ،

وهيَ لا تنقطعُ، فكلّما مضى حُقبٌ جاءَ حُقبٌ. والحُقُبُ بضمّتينِ: الدّهرُ والأحقابُ الدّهورُ. والحِقبةُ بالكسرِ: السّنةُ، والجمعُ حِقبٌ، قالَ متمّمُ بنُ نويرةَ التّميميُّ:

وكنّا كندمانيْ جذيمةَ حقبةً ... منَ الدّهرِ حتّى قيلَ لنْ يتصدّعا

فلمّا تفرّقنا كأنّي ومالكًا ... لطولِ اجتماعٍ لم نبت ليلة معا

والمعنى في الآيةِ: لابثينَ فيها أحقابَ الآخرةِ الّتي لا نهايةَ لها، فحذفَ الآخرةَ لدلالةِ الكلامِ عليهِ، وإنّما كانَ يدلُّ على التّوقيتِ لوْ قالَ خمسة أحقابٍ أوْ عشرة أحقابٍ، وذكرَ الأحقابَ لأن الحقب كان أبعد شيء عندهمْ، فتكلّمَ بما تذهبُ إليهِ أوهامهمْ ويعرفونها، وهيَ كنايةٌ عنِ التّأبيدِ، أيْ يمكثونَ فيها أبداً. وقيلَ: ذكرَ الأحقابَ دونَ الأيّامِ لأنَّ الأحقابَ أهولُ في القلوبِ، وأدلُّ على الخلودِ. والمعنى متقاربٌ، وهذا الخلودُ في حقِّ المشركينَ. ويمكنُ حملُ الآيةِ على العصاةِ الّذينَ يخرجونَ منَ النّارِ بعدَ أحقابٍ. وقيلَ: الأحقابُ وقتٌ لشربهمُ الحميمَ والغسّاقَ، فإذا انقضتْ فيكونُ لهمْ نوعٌ آخرُ منَ العقابِ، ولهذا قالَ: ﴿لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحۡقَابٗا ۝٢٣ لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرۡدٗا وَلَا شَرَابًا ۝٢٤ إِلَّا حَمِيمٗا وَغَسَّاقٗا﴾ ولابثينَ اسمُ فاعلٍ منْ لبثَ، ويقوّيهِ أنَّ المصدرَ منهُ اللّبْثُ بالإسكانِ، كالشّربِ.

وقرأ حمزةُ والكسائيُّ: "لبثينَ" بغيرِ ألفٍ، وهما لغتانِ، يقالُ: رجلٌ لابثٌ ولبثَ، مثلُ طامعٍ وطمعٍ، وفارهٍ وفرهٍ.

وقيلَ: إنّها منسوخةٌ بقولهِ تعالى: ﴿فَذُوقُواْ فَلَن نَّزِيدَكُمۡ إِلَّا عَذَابًا﴾ يعني أنَّ العددَ قدِ انقطعَ، والخلودَ قدْ حصلَ. قلت: وهذا بعيدٌ، لأنّهُ خبرٌ، وقدْ قالَ تعالى: ﴿وَلَا يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلۡجَمَلُ فِي سَمِّ ٱلۡخِيَاطِۚ﴾ على ما تقدّمَ. هذا في حقِّ الكفّارِ، فأمّا العصاةُ الموحّدونَ فصحيحٌ ويكونُ النّسخُ بمعنى التّخصيصِ. واللهُ أعلم.

قولهُ تعالى: ﴿لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا﴾ أيْ في الأحقابِ ﴿بَرۡدٗا وَلَا شَرَابًا﴾ البردُ: النّومُ، والعربُ تقولُ: منعَ البردُ البردَ، يعني: أذهبَ البردُ النّومَ، وقدْ قالَ تعالى: ﴿لَا يُقۡضَىٰ عَلَيۡهِمۡ فَيَمُوتُواْ﴾، وقيلَ: البردُ: بردُ الشّرابِ. وقيلَ: أيْ لا يذوقونَ فيها بردَ ريحٍ ولا ظلٍّ ولا نومٍ. فجعلَ البردَ بردَ كلِّ شيء لهُ راحةٌ، وهذا بردٌ ينفعهمْ، فأمّا الزّمهريرُ فهوَ بردٌ يتأذّونَ بهِ، فلا

ينفعهمْ، فلهمْ منهُ منَ العذابِ ما اللّهُ أعلمُ بهِ ﴿إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا﴾ استثناءٌ منقطعٌ في قولِ منْ جعلَ البردَ النّومَ، ومنْ جعلهُ منَ البرودةِ كانَ بدلاً منهُ. والحميمُ: الماءُ الحارُّ، ومنهُ اشتقَّ الحمّامُ، ومنهُ الحمّى، ومنه ﴿وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ﴾: إنّما يرادُ بهِ النّهايةُ في الحرِّ. والغسّاقُ: صديدُ أهلِ النّارِ وقيحهمْ. وقيلَ الزّمهريرُ. وقرأ حمزةُ والكسائيُّ وحفص بتشديدِ السّينِ، وقدْ مضى في ص القولُ فيهِ ﴿جَزَآءً وِفَاقًا﴾ أيْ موافقاً لأعمالهمْ، أي وافقَ العذابُ الذّنبَ، فلا ذنبَ أعظمُ منَ الشّركِ، ولا عذابَ أعظمُ منَ النّارِ ﴿إِنَّهُمْ كَانُواْ لَا يَرْجُونَ﴾ أيْ لا يخافونَ ﴿حِسَابًا﴾ أيْ محاسبةً على أعمالهمْ ﴿وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا كِذَّابًا﴾ أيْ بما جاءتْ بهِ الأنبياءُ. وقيلَ: بما أنزلنا منَ الكتبِ ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ كِتَٰبًا﴾ أيْ كتبناهُ في اللّوحِ المحفوظِ لتعرفهُ الملائكةُ. وقيلَ: أرادَ ما كتبَ على العبادِ منْ أعمالهمْ. فهذهِ كتابةٌ صدرتْ عنِ الملائكةِ الموكّلينَ بالعبادِ بأمرِ اللّهِ تعالى إيّاهمْ بالكتابةِ، دليلهُ قولهُ تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ۝١٠ كِرَامًا كَٰتِبِينَ﴾. ﴿فَذُوقُواْ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾ أيْ ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا﴾ و ﴿كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا﴾.

قولهُ تعالى: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا﴾ موضعُ فوزٍ ونجاةٍ وخلاصٍ ممّا فيهِ أهلُ النّارِ. ولذلكَ قيلَ للفلاةِ إذا قلَّ ماؤها: مفازةٌ، تفاؤلاً بالخلاصِ منها ﴿حَدَآئِقَ وَأَعْنَٰبًا﴾ هذا تفسيرُ الفوزِ. وحدائقَ، جمعُ حديقةٍ، وهيَ البستانُ المحوطُ عليهِ، والأعنابُ: جمعُ عنبٍ، أيْ كرومُ أعنابٍ، فحذفَ ﴿وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا﴾ كواعبُ: جمعُ كاعبٍ وهن العذارى، والأترابُ: الأقرانُ في السّنِّ. والواحدُ: تربٌ ﴿وَكَأْسًا دِهَاقًا﴾ مترعةٌ مملوءةٌ، والمرادُ بالكأسِ الخمرُ ﴿لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا﴾ أيْ في الجنّةِ ﴿لَغْوًا وَلَا كِذَّٰبًا﴾ اللّغوُ: الباطلُ، وذلكَ أنَّ أهلَ الجنّةِ إذا شربوا لمْ تتغيّرْ عقولهمْ، ولمْ يتكلّموا بلغوٍ، بخلافِ أهلِ الدّنيا. ولا كذّاباً أيْ لا يكذّبُ بعضهمْ بعضاً، ولا يسمعونَ كذباً. وقرأ الكسائيُّ ﴿كِذَٰبًا﴾ بالتّخفيفِ منْ كذبتُ كذاباً أيْ لا يتكاذبونَ في الجنّةِ ﴿جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً﴾ أيْ أعطاهمْ عطاءً ﴿حِسَابًا﴾ أيْ كثيراً.

قولهُ تعالى: ﴿رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ قرأ نافعٌ وأبو عمرو وابنُ كثيرٍ ﴿رَبُّ﴾ بالرّفعِ على الاستئنافِ ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ خبرهُ. أو بمعنى: هو رب السموات، ويكونُ ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ مبتدأً ثانياً. وقرأ ابنُ عامرٍ ويعقوبُ كلاهما بالخفضِ، نعتاً لقولهِ: ﴿جَزَآءً مِّن

رَّبِّكَ﴾ أيْ جزاءً منْ ربّكَ رب السموات الرّحمنِ. وقرأ عاصمٌ وحمزةُ والكسائيُّ: ربِّ السّماواتِ خفضًا لقربِهِ منْ قولهِ: ﴿منْ ربّكَ﴾ فيكونُ نعتًا لهُ، ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ رفعًا على الابتداءِ، أيْ هوَ الرّحمنُ، أو رفعُ ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ على الاستئنافِ، وخبرهُ ﴿لَا يَمۡلِكُونَ مِنۡهُ خِطَابًا﴾ أيْ لا يملكونَ أنْ يسألوهُ إلّا فيما أذنَ لهمْ فيهِ، وقيلَ: لا يملكونَ منهُ خطابًا بالشّفاعةِ إلّا بإذنهِ. وقيلَ: الخطابُ: الكلامُ، أيْ لا يملكونَ أنْ يخاطبوا الرّبَّ سبحانهُ إلّا بإذنهِ، دليلهُ: ﴿لَا تَكَلَّمُ نَفۡسٌ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ﴾، وقيلَ: أرادَ الكفّارَ لا يملكونَ منهُ خطابًا، فأمّا المؤمنونَ فيشفعونَ. **قلت**: بعدَ أنْ يؤذنَ لهمْ، لقولهِ تعالى: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ﴾، وقولهِ تعالى: ﴿يَوۡمَئِذٖ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنۡ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَرَضِيَ لَهُۥ قَوۡلٗا﴾.

قولهُ تعالى: ﴿يَوۡمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ صَفّٗاۖ﴾ الرّوحِ جبريلُ عليه السلام، وصفًا: مصدرٌ أيْ يقومونَ صفوفًا. والمصدرُ ينبئُ عنِ الواحدِ والجمعِ، كالعدلِ والصّومِ. ويقالُ ليومِ العيدِ: يومُ الصّفِّ. وقالَ في موضعٍ آخرَ: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلۡمَلَكُ صَفّٗا صَفّٗا﴾ هذا يدلُّ على الصّفوفِ، وهذا حينَ العرضِ والحسابِ. وقيلَ: يقومُ الرّوحُ صفًا، والملائكةُ صفًا، فهمْ صفّانِ. وقيلَ: يقومُ الكلُّ صفًا واحداً ﴿لَّا يَتَكَلَّمُونَ﴾ أيْ لا يشفعونَ ﴿إِلَّا مَنۡ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ في الشّفاعةِ ﴿وَقَالَ صَوَابٗا﴾ يعني حقًا، وقيلَ: يشفعونَ لمنْ قالَ لا إلهَ إلّا اللهُ، وأصلُ الصّوابِ. السّدادُ منَ القولِ والفعلِ، وهوَ منْ أصابَ يصيبُ إصابةً، كالجوابِ منْ أجابَ يجيبُ إجابةً ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمُ ٱلۡحَقُّۖ﴾ أي الكائنُ الواقعُ ﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا﴾ أيْ مرجعًا بالعملِ الصّالحِ ﴿إِنَّآ أَنذَرۡنَٰكُمۡ عَذَابٗا قَرِيبٗا﴾: يخاطبُ كفّارَ قريشٍ ومشركي العربِ، لأنّهمْ قالوا: لا نبعثُ. والعذابُ عذابُ الآخرةِ، وكلُّ ما هوَ آتٍ فهوَ قريبٌ، وقدْ قالَ تعالى: ﴿كَأَنَّهُمۡ يَوۡمَ يَرَوۡنَهَا لَمۡ يَلۡبَثُوٓاْ إِلَّا عَشِيَّةً أَوۡ ضُحَىٰهَا﴾.

وقيل العذاب القريب: عقوبةُ الدّنيا، لأنّها أقربُ العذابينِ. قيل: هيَ قتلُ قريشٍ ببدرٍ. والأظهرُ أنّهُ عذابُ الآخرةِ، وهوَ الموتُ والقيامةُ، لأنَّ منْ ماتَ فقدْ قامتْ قيامتهُ، فإنْ كانَ منْ أهلِ الجنّةِ رأى مقعدهُ منَ الجنّةِ، وإنْ كانَ منْ أهلِ النّارِ رأى الخزيَ والهوانَ، ولهذا قالَ تعالى: ﴿يَوۡمَ يَنظُرُ ٱلۡمَرۡءُ مَا قَدَّمَتۡ يَدَاهُ﴾ بيّنَ وقتَ ذلكَ العذابِ، والمرء ها هنا المؤمنُ فأمّا الكافرُ فلا يجدُ لنفسهِ عملاً، فيتمنى أن يكون ترابا.

سورة النازعات

مكّيّةٌ بإجماعٍ. وهيَ خمسٌ أوْ ستٌّ وأربعونَ آيةً.

بسمِ اللّهِ الرّحمنِ الرّحيم

قولهُ تعالى ﴿وَٱلنَّٰزِعَٰتِ﴾: أقسمَ سبحانهُ بهذهِ الأشياءِ الّتي ذكرها، على أنَّ القيامةَ حقٌّ. والنّازعاتِ: الملائكةُ الّتي تنزعُ أنفسَ الكفّارِ ينزعها ملكُ الموتِ منْ أجسادهمْ نزعًا كالسّفّودِ ينزعُ منَ الصّوفِ الرّطبِ ﴿غَرۡقٗا﴾ بمعنى إغراقًا، وأرادَ بالإغراقِ: المبالغةَ في النّزعِ ﴿وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشۡطٗا﴾ الملائكة تنشطُ نفسَ المؤمنِ فتقبضها كما ينشطُ العقالُ منْ يدِ البعيرِ: إذا حلَّ عنهُ. فالنّازعاتِ للكافرينَ والنّاشطاتِ للمؤمنينَ، فالملائكةُ يجذبونَ روحَ المؤمنِ برفقٍ، والنّزعُ جذبٌ بشدّةٍ، والنّشطُ جذبٌ برفقٍ. وقيلَ: هما جميعًا للكفّارِ والآيتانِ بعدهما للمؤمنين عند فراق الدنيا.

قولهُ تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِحَٰتِ سَبۡحٗا﴾ الملائكةُ تسبحُ بأرواحِ المؤمنينَ مسرعينَ لأمرِ اللّهِ، كما يقالُ للفرسِ الجوادِ سابحٌ: إذا أسرعَ في جريهِ، وقيلَ: هيَ الخيلُ الغزاةُ، قالَ عنترةُ:

والخيلُ تعلمُ حينَ تسْ — بحُ في حياضِ الموتِ سبحا

وقيلَ: هيَ النّجومُ تسبحُ في أفلاكها، وكذا الشّمسُ والقمرُ، قالَ اللّهُ تعالى: ﴿كُلّٞ فِي فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ﴾، وقيلَ: هيَ السّفنُ تسبحُ في الماءِ.

قولهُ تعالى: ﴿فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبۡقٗا﴾ الملائكةُ تسبقُ الشّياطينَ بالوحيِ إلى الأنبياءِ عليهمُ السّلامُ. أو تسبقُ بأرواحِ المؤمنينَ إلى الجنّةِ، وقيلَ: هيَ الخيلُ الّتي تسبقُ إلى الجهادِ. قيل: ذكرَ فالسّابقاتِ بالفاءِ لأنّها مشتقّةٌ منَ الّتي قبلها.

قولهُ تعالى: ﴿فَٱلۡمُدَبِّرَٰتِ أَمۡرٗا﴾ الملائكةُ. وتدبيرها نزولها بالحلالِ والحرامِ وتفصيلهِ، ووكّلتْ بتدبيرِ أحوالِ الأرضِ في الرّياحِ والأمطارِ وغيرِ ذلكَ.

وجوابُ القسمِ مضمرٌ، كأنّهُ قالَ: والنّازعاتِ وكذا وكذا لتبعثنَّ ولتحاسبنَّ. أضمرَ لمعرفةِ السّامعينَ بالمعنى، ويدل عليه قول تعالى: ﴿أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمٗا نَّخِرَةٗ﴾.

﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ﴾ أيْ تضطربُ الأرضُ. والرّاجفةُ: أيِ المضطربةُ قالَ اللّهُ تعالى: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ﴾ وليست الرجفة هاهنا من الحركةِ فقطْ، بلْ منْ قولهمْ: رجفَ الرّعدُ يرجفُ رجفًا ورجيفًا: أيْ أظهرَ الصّوتَ والحركةَ، ومنهُ سمّيتِ الأراجيفُ، لاضطرابِ الأصواتِ بها، وإفاضةِ الناس فيها ﴿تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ﴾ الصّيحةُ، أو السّاعةُ، وقيلَ: هما الصّيحتانِ. أيِ النّفختانِ. أمّا الأولى فتميتُ كل شيء بإذنِ اللّهِ تعالى، وأمّا الثّانيةُ فتحيي كلَّ شيء بإذنِ اللّهِ تعالى. وجاءَ في الحديثِ عنِ النّبيِّ ﷺ قال: «بينهما أربعونَ سنةً»، وقدْ مضى في آخرِ النّملِ ما فيهِ كفايةٌ في النّفخِ في الصّورِ.

﴿قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ﴾ أيْ خائفةٌ وجلةٌ، نظيرهُ: ﴿إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ﴾، والمرادُ قلوبُ الكفّارِ، يقالُ وجفَ القلبُ يجفُّ وجيفًا إذا خفقَ ﴿أَبْصَٰرُهَا خَٰشِعَةٌ﴾ منكسرةٌ ذليلةٌ منْ هولِ ما ترى. نظيره: ﴿خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾. والمعنى أبصار أصحابها، فحذف المضاف ﴿يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِى ٱلْحَافِرَةِ﴾ هو كقولهم: ﴿أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾ يقالُ: رجعَ فلانٌ في حافرتهِ، وعلى حافرتهِ، أيْ رجعَ منْ حيثُ جاء، وقيلَ: الحافرةِ: الأرضُ الّتي تحفرُ فيها قبورهمْ، فهيَ بمعنى المحفورةِ، كقولهِ تعالى: ﴿مَّآءٍ دَافِقٍ﴾ و ﴿عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾. والمعنى أئنا لمردودونَ في قبورنا أحياءً ﴿أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا نَّخِرَةً﴾ أيْ باليةً متفتّتةً. يقالُ: نخرَ العظمُ بالكسرِ: أيْ بليَ وتفتّتَ، يقالُ: عظامٌ نخرةٌ. وكذا قرأ الجمهورُ منْ أهلِ المدينةِ ومكّةَ والشّام والبصرةِ، وقرأ أبو عمرو وحمزةُ والكسائيُّ وأبو بكرٍ «ناخرةٌ» بألفٍ، أي مجوّفةٌ باليةٌ ﴿قَالُوا۟ تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ﴾ أهلها خاسرونَ، كما يقالُ: تجارةٌ رابحةٌ أيْ يربح صاحبها. ولا شيء أخسرُ منْ كرّةٍ تقتضي المصيرَ إلى النّارِ، وإنّما قالوا هذا لأنهم أُوعِدوا بالنّارِ، والكرّةُ: المرّةُ، والجمعُ الكرّاتُ ﴿فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ﴾ ذكرَ جلَّ ثناؤهُ سهولةَ البعثِ عليهِ فقالَ: فإنّما هيَ زجرةٌ واحدةٌ. أي: نفخةٌ واحدةٌ ﴿فَإِذَا هُم﴾ أيِ الخلائقُ أجمعونَ ﴿بِٱلسَّاهِرَةِ﴾ أيْ على وجهِ الأرضِ، بعدَ ما كانوا في بطنها، والعربُ تسمّي الفلاةَ ووجهَ الأرضِ ساهرة، بمعنى ذات سهر، لأنّهُ يسهرُ فيها خوفًا منها، فوصفها بصفةِ ما فيها.

قولهُ تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى﴾ أي قد أتاك، وهذا تسليةٌ للنّبيِّ ﷺ. أيْ إن فرعون كانَ أقوى منْ كفّارِ عصركَ، ثمَّ أخذناهُ، وكذلكَ

هؤلاءِ، وقرأ ابنُ عامرٍ والكوفيّونَ ﴿طوىً﴾ منوّناً، الباقونَ بغيرِ تنوينٍ، لأنّهُ معدولٌ مثلَ عمرَ وقثمَ، وهو وادٍ بينَ المدينةِ ومصرَ ﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾ أيْ جاوزَ القدرَ في العصيانِ ﴿فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ﴾ أيْ تسلمُ فتطهرَ منَ الذّنوبِ، وقرأ نافعٌ وابنُ كثيرٍ ﴿تَزَّكَّىٰ﴾ بتشديدِ الزّاي، على إدغامِ التّاءِ في الزّاي لأنَّ أصلها تتزكّى. الباقونَ: ﴿تَزَكَّىٰ﴾ بتخفيفِ الزّاي على معنى طرحِ التّاءِ ﴿وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ أيْ إلى طاعةِ ربّكَ ﴿فَتَخْشَىٰ﴾ أيْ تخافهُ وتتّقيهِ ﴿فَأَرَىٰهُ ٱلْءَايَةَ ٱلْكُبْرَىٰ﴾ يدهُ وعصاهُ ﴿فَكَذَّبَ﴾ موسى ﴿وَعَصَىٰ﴾ ربّهُ عزَّ وجلَّ ﴿ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ﴾ معرضاً عنِ الإيمانِ يسعى أيْ يعملُ بالفسادِ في الأرضِ ﴿فَحَشَرَ﴾ جنودهُ للقتالِ والمحاربةِ، والسّحرةَ للمعارضةِ ﴿فَنَادَىٰ﴾ بصوتٍ عالٍ ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ أيْ لا ربَّ لكمْ فوقي ﴿فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْءَاخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ﴾ أيْ نكالَ قولهِ: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ وقوله بعد: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ وقيلَ: نكالُ الأولى: هوَ أنْ أغرقهُ، ونكالُ الآخرةِ العذابُ في الآخرةِ ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً﴾ أي اعتباراً وعظةً ﴿لِّمَن يَخْشَىٰٓ﴾ الله عز وجل.

قولهُ تعالى: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا﴾ بعدَ الموتِ يريدُ أهلَ مكّةَ ﴿أَمِ ٱلسَّمَآءُ﴾ كقولهِ تعالى: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ﴾، وقول تعالى: ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم﴾ فمعنى الكلامِ التّقريعُ والتّوبيخُ. ثمَّ وصفَ السّماءَ فقالَ: ﴿بَنَىٰهَا﴾ أيْ رفعها فوقكمْ كالبناءِ ﴿رَفَعَ سَمْكَهَا﴾ أيْ أعلى سقفها في الهواءِ ﴿فَسَوَّىٰهَا﴾ أيْ خلقها خلقاً مستوياً، لا تفاوتَ فيهِ، ولا شقوقَ، ولا فطورَ ﴿وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا﴾ أيْ جعلهُ مظلماً ﴿وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا﴾ أي أبرز نهارها وضوءها وشمسها. وأضاف الضحا إلى السّماءِ كما أضافَ إليها اللّيلَ، لأنَّ فيها سببَ الظّلامِ والضّياءِ وهوَ غروبُ الشّمسِ وطلوعها ﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ﴾ دحاها مهّدها للأقواتِ، وقيلَ: بسطها. والعربُ تقولُ: دحوتُ الشّيءَ أدحوهُ دحواً: إذا بسطتهُ. وهذا يشيرُ إلى كونِ الأرضِ بعدَ السّماءِ. وقدْ مضى القولُ فيهِ في أوّلِ البقرةِ عندَ قولهُ تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾. ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا﴾ أي العيونَ المتفجّرةَ بالماءِ ﴿وَمَرْعَىٰهَا﴾ أي النّباتَ الّذي يرعى ﴿وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا﴾ أثبتها فيها أوتاداً لها ﴿مَتَٰعًا لَّكُمْ﴾ أيْ منفعةً لكمْ ﴿وَلِأَنْعَٰمِكُمْ﴾ منَ الإبلِ والبقرِ والغنمِ.

قولهُ تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ﴾ أي الدّاهيةُ العظمى، وهيَ النّفخةُ الثّانيةُ، الّتي يكونُ معها البعثُ، وقيلَ: هي القيامةُ، سمّيتْ بذلكَ لأنّها تطم على كل شيء، فتعمُّ ما سواها لعظم هولها ﴿يَوْمَ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ﴾ أيْ ما عملَ منْ خير أوْ شرٍّ ﴿وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ﴾ أيْ ظهرتْ ﴿لِمَن يَرَىٰ﴾ فيكشفُ عنها فيراها تتلظّى كلُّ ذي بصر. يراها الكافرُ بما فيها منْ أصنافِ العذابِ، ويراها المؤمنُ ليعرفَ قدرَ النّعمةِ.

قولهُ تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ۝٣٧ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾ على الآخرةِ ﴿فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ أيْ مأواهُ. والألفُ واللّامُ بدلٌ منَ الهاءِ ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ﴾ يومَ الحساب. نظيرهُ: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ ﴿وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ﴾ أيْ زجرها عنِ المعاصي والمحارمِ ﴿فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ أيِ المنزلُ.

قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا﴾ سألَ مشركو مكّةَ رسولَ اللّهِ ﷺ متى تكونُ السّاعةُ استهزاءً، ورسوّها قيامها ﴿فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ﴾ ولستَ ممّنْ يعلمهُ والذّكرى بمعنى الذّكر ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ﴾ كقولهِ تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى﴾ وقولهِ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا﴾ خصَّ الإنذارَ بمنْ يخشى، لأنّهمُ المتنفعونَ بهِ، وإنْ كانَ منذراً لكلِّ مكلّفٍ، وهوَ كقولهِ تعالى: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ﴾.

وقراءةُ العامّةِ منذرُ بالإضافةِ غير منوّنٍ، طلبَ التّخفيفِ، وإلّا فأصلهُ التّنوينُ، لأنّهُ للمستقبل وإنّما لا ينوّنُ في الماضي، ويجوزُ التنوين وتركه، كقوله تعالى: ﴿بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ﴾، وبالغٌ أمرَه و﴿مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ وموهنٌ كيدَ الكافرينَ، والتّنوينُ هوَ الأصلُ، وبهِ قرأَ أبو جعفرٍ.

﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا﴾ يعني الكفّارَ يرونَ السّاعةَ ﴿لَمْ يَلْبَثُوٓا۟﴾ أيْ في دنياهمْ، وقيلَ: في قبورهمْ ﴿إِلَّا عَشِيَّةً﴾ أيْ قدرَ عشيّةٍ ﴿أَوْ ضُحَىٰهَا﴾ أي أو قدر الضحا الّذي يلي تلكَ العشيّةَ، والمرادُ تقليلُ مدّةِ الدّنيا، كما قالَ تعالى: ﴿لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ﴾.

سورة عبس

مكّيّةٌ في قولِ الجميعِ وهيَ إحدى وأربعونَ آيةً.

بسمِ اللّهِ الرّحمنِ الرّحيمِ

قولهُ تعالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ١ أَن جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ ٢ وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ٣ أَوۡ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكۡرَىٰٓ﴾ فيهِ ستُّ مسائلَ:

الأولى: قولهُ تعالى: ﴿عَبَسَ﴾ كلحَ بوجههِ ﴿وَتَوَلَّىٰٓ ١ أَن جَآءَهُ﴾ المعنى لأنْ جاءهُ ﴿ٱلۡأَعۡمَىٰ﴾، أيِ الّذي لا يبصرُ بعينيهِ. فروى أهلُ التّفسيرِ أجمعُ أنَّ قوماً منْ أشرافِ قريشٍ كانوا عندِ النّبيِّ ﷺ وقدْ طمعَ في إسلامهمْ، فأقبلَ عبدُ اللّهِ بنُ أمِّ مكتومٍ، فكرهَ رسولُ اللّهِ ﷺ أنْ يقطعَ عبدُ اللّهِ عليهِ كلامهُ، فأعرضَ عنهُ، ففيهِ نزلتْ هذهِ الآيةُ.

الثانية- الآيةُ عتابٌ منَ اللّهُ لنبيّهِ ﷺ في إعراضهِ وتوليه عن عبد الله ابن أمِّ مكتومٍ. ويقالُ: عمرو بنُ أمِّ مكتومٍ، واسمُ أمِّ مكتومٍ عاتكةُ بنتُ عامرِ بنِ مخزومٍ، وهوَ ابنُ خالِ خديجةَ رضي الله عنها.

الثالثة- كانَ النّبيِّ ﷺ بعدَ ذلكَ إذا رأى ابنَ أمِّ مكتومٍ يبسط له رداءه ويقول: «مرحباً بمنْ عاتبني فيهِ ربّي». ويقولُ: «هلْ منْ حاجةٍ»؟ واستخلفهُ على المدينةِ مرّتينِ في غزوتينِ غزاهما. قالَ أنسٌ: فرأيتهُ يومَ القادسيّةِ راكباً وعليهِ درعٌ ومعهُ رايةٌ سوداءُ.

الرابعة- الإقبالُ على الأغنياءِ طمعاً في إيمانهمْ وإنْ كانَ ذلكَ نوعاً منَ المصلحةِ، إلا أن النّظرَ إلى المؤمنِ أولى وإنْ كانَ فقيراً، وعلى هذا يخرّجُ قولهُ تعالى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسۡرَىٰ﴾ الآيةَ على ما تقدّمَ. وقيلَ: إنّما قصدَ النّبيُّ ﷺ تأليفَ الآخر ثقةً بما كانَ في قلبِ ابنِ أمِّ مكتومٍ منَ الإيمانِ، كما قالَ: «إنّي لأصلُ الرّجلَ وغيرهُ أحبُّ إليَّ منهُ، مخافةَ أنْ يكبّهُ اللّهُ في النّارِ على وجههِ».

الخامسة- نزلتْ: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾ بلفظِ الإخبارَ عنِ الغائبِ، تعظيماً لهُ ﷺ، ولمْ يقلْ: عبستَ وتولّيتَ. ثمَّ أقبلَ عليهِ بمواجهةِ الخطابِ تأنيساً لهُ فقالَ: ﴿وَمَا يُدۡرِيكَ﴾ أيْ يعلمكَ

﴿لَعَلَّهُۥ﴾ يعني ابنَ أمِّ مكتوم ﴿يَزَّكَّىٰٓ﴾ بما استدعى منكَ تعليمهُ إيّاهُ منَ القرآنِ والدّينِ، بأنْ يزدادَ طهارةً في دينهِ، وزوالِ ظلمةِ الجهلِ عنهُ. وقيلَ: الضّميرُ في لعلّهُ للكافرِ يعني وما يدريكَ أنَّ ما طمعتَ فيهِ كائنٌ.

السادسة- نظيرَ هذهِ الآيةِ في العتابِ قولهُ تعالى في سورةِ الأنعام: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ﴾، وكذلكَ قولهُ في سورةِ الكهفِ: ﴿وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ وما كانَ مثلهُ، والله أعلم.

﴿أَوْ يَذَّكَّرُ﴾ يتّعظُ بما تقولُ ﴿فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ﴾ أيِ العظةُ. وقراءةُ العامّةِ ﴿فَتَنفَعُهُ﴾ بضمِّ العينِ، عطفاً على يزّكّى. وقرأ عاصمٌ ﴿فَتَنفَعَهُ﴾ نصباً. على جوابِ لعلَّ، لأنّهُ غيرُ موجبٍ، كقوله تعالى: ﴿لَّعَلِّيٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ﴾ ثم قال: ﴿فَأَطَّلِعَ﴾.

قولهُ تعالى: ﴿أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ﴾ أيْ كانَ ذا ثروةٍ وغنى ﴿فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ﴾ أيْ تعرّضُ لهُ، وتصغي لكلامهِ، والتّصدّي: الإصغاءُ، أصلهُ تتصدّدُ منَ الصّدِّ، وهوَ ما استقبلكَ، وصارَ قبالتكَ، يقالُ: داري صددُ دارهِ أيْ قبالتها، وقراءةُ العامّةِ ﴿تَصَدَّىٰ﴾ بالتخفيف، على طرح التاء الثّانيةِ تخفيفاً. وقرأ نافعٌ بالتّشديدِ على الإدغامِ ﴿وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ﴾ أيْ لا يهتدي هذا الكافرُ ولا يؤمنُ، إنّما أنت رسول، ما عليك إلا البلاغ ﴿وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ﴾ يطلبُ العلمَ للّهِ ﴿وَهُوَ يَخْشَىٰ﴾ أيْ يخافُ اللّهَ ﴿فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ﴾ أيْ تعرضُ عنهُ بوجهكَ وتشغلُ بغيرهِ. وأصلهُ تتلهّى.

قولهُ تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ﴾ كلّا كلمةُ ردعٍ وزجرٍ، أيْ ما الأمرُ كما تفعلُ معَ الفريقينِ ﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ﴾ أيِ اتّعظَ بالقرآنِ، والقرآنُ مذكّرٌ إلّا أنّهُ لمّا جعلَ القرآنَ تذكرةً، أخرجهُ على لفظِ التّذكرةِ، ولوْ ذكّرهُ لجازَ، كما قالَ تعالى في موضعٍ آخرَ: ﴿كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذْكِرَةٌ﴾. ويدلُّ على أنّهُ أرادَ القرآنَ قولهُ: ﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ﴾ أيْ كانَ حافظاً لهُ غيرَ ناسٍ، وذكّرَ الضّميرَ، لأنَّ التّذكرةَ في معنى الذّكرِ والوعظِ. ثمَّ أخبرَ عنْ جلالتهِ فقالَ: ﴿فِي صُحُفٍ﴾ جمعُ صحيفةٍ ﴿مُّكَرَّمَةٍ﴾ أيْ عندَ اللّهِ، ونزلَ بها كرامُ الحفظةِ، وقيلَ: المرادُ كتبُ الأنبياءِ، دليلهُ: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَفِي ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ١٨ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ﴾ ﴿مَّرْفُوعَةٍ﴾ رفيعةُ القدرِ عندَ اللّهِ أو في

السّماءِ السّابعةِ، أو مرفوعةُ الذّكرِ والقدرِ ﴿مُّطَهَّرَةِۭ﴾ مصانةٌ منْ كلِّ دنسٍ ﴿بِأَيۡدِي سَفَرَةٖ﴾ أي الملائكةِ الّذينَ جعلهمُ اللّهُ سفراءَ بينهُ وبينَ رسلهِ، فهمْ بررةٌ لمْ يتدنّسوا بمعصيةٍ. أو الكرامُ الكاتبونَ لأعمالِ العبادِ في الأسفارِ، الّتي هيَ الكتبُ، واحدهمْ: سافرٌ، كقولكَ: كاتبٌ وكتبةٌ، وفي الصّحيحِ عنْ عائشةَ ﵂: أنَّ رسولَ اللّهِ ﷺ قالَ: «مثلُ الّذي يقرأُ القرآنَ وهوَ حافظٌ لهُ، معَ السّفرةِ الكرامِ البررةِ، ومثلُ الّذي يقرؤهُ وهوَ يتعاهدهُ، وهوَ عليهِ شديدٌ، فلهُ أجرانِ». متّفقٌ عليهِ ﴿كِرَامِۭ﴾ على ربّهمْ، أو عنِ المعاصي، و﴿بررةٍ﴾ جمعُ بارٍّ مثلَ كافرٍ وكفرةٍ، وساحرٍ وسحرةٍ، وفاجرٍ وفجرةٍ، يقالُ: برٌّ وبارٌّ إذا كانَ أهلاً للصّدقِ، ومنهُ برَّ فلانٌ في يمينهِ: أيْ صدقَ، وفلانٌ يبرُّ خالقهُ ويتبرّرهُ: أيْ يطيعهُ، فمعنى بررةٍ مطيعونَ للّهِ، صادقونَ للّهِ في أعمالهمْ.

قولهُ تعالى: ﴿قُتِلَ ٱلۡإِنسَٰنُ﴾ أيْ لعنَ، والإنسانُ الكافرُ ﴿مَآ أَكۡفَرَهُۥ﴾ تعجّبٌ، وعادةُ العربِ إذا تعجبوا من شيء قالوا: قاتلهُ اللّهُ ما أحسنهُ! وأخزاهُ اللّهُ ما أظلمهُ، والمعنى: اعجبوا منْ كفرِ الإنسانِ لجميعِ ما ذكرنا بعدَ هذا، وقيلَ: ما استفهامٌ أي أي شيء دعاه إلى الكفر، فهو استفهام توبيخ ﴿مِنۡ أَيِّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥ﴾ أيْ منْ أيِّ شيء خلقَ اللّهُ هذا الكافرَ فيتكبّرَ؟ أيِ اعجبوا لخلقهِ ﴿مِن نُّطۡفَةٍ﴾ أيْ منْ ماءٍ يسيرٍ مهينٍ جمادٍ ﴿خَلَقَهُۥ﴾ وخرجَ منْ سبيلِ البولِ مرّتينِ ﴿فَقَدَّرَهُۥ﴾ أطواراً في بطنِ أمّهِ ثم سوّاهُ كما قالَ: ﴿أَكَفَرۡتَ بِٱلَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلٗا﴾،، وقالَ: ﴿ٱلَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ﴾ ﴿ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ﴾ للخروجِ منْ بطنِ أمّهِ، أو يسّرهُ لطريقِ الخيرِ والشّرِّ، أيْ بيّنَ لهُ ذلكَ. دليلهُ: ﴿إِنَّا هَدَيۡنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ . وَهَدَيۡنَٰهُ ٱلنَّجۡدَيۡنِ﴾، وقولهُ ﷺ: «اعملوا فكلٌّ ميسّرٌ لما خلقَ لهُ» ﴿ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقۡبَرَهُۥ﴾ إكراماً، ولمْ يجعلهُ ممّا يلقى على وجهِ الأرضِ تأكلهُ الطّيرُ والعوافي ﴿ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ﴾ أيْ أحياهُ بعدَ موتهِ ﴿كَلَّا لَمَّا يَقۡضِ مَآ أَمَرَهُۥ﴾ أي ما أمرَ بهِ. ولمْ يفِ بالميثاقِ الّذي أخذَ عليهِ في صلبِ آدمَ.

قولهُ تعالى: ﴿فَلۡيَنظُرِ ٱلۡإِنسَٰنُ﴾ بقلبه وفكره ﴿إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ﴾ الّذي هوَ قوامُ حياتهِ كيفَ خلقه اللّهُ، وقيلَ: فلينظرِ الإنسانُ إلى طعامهِ أيْ إلى مدخلهِ ومخرجهِ ﴿أَنَّا صَبَبۡنَا ٱلۡمَآءَ صَبّٗا﴾ قراءةُ العامة «إنا» بالكسرِ، على الاستئنافِ، وقرأ الكوفيّونَ ورويسٌ عنْ يعقوبَ ﴿أَنَّا﴾

بفتحِ الهمزةِ، فَـ ﴿أَنَّا﴾ في موضعِ خفضٍ على التّرجمةِ عنِ الطّعام، فهوَ بدلٌ منهُ ﴿ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا﴾ أيْ بالنّباتِ ﴿فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا﴾ أيْ قمحـًا وشعيراً وسائرَ ما يحصدُ ويدّخرُ ﴿وَعِنَبًا وَقَضْبًا﴾ وهوَ القتُّ والعلفَ، وكل ما يقضبُ أيْ يقطعُ بعدَ ظهورِهِ مرّةً بعدَ مرّةٍ. مثلَ القتِّ والكرّاثِ وسائرِ البقولِ الّتي تقطعُ فينبتُ أصلها ﴿وَزَيْتُونًا﴾ وهيَ شجرةُ الزّيتونِ ﴿وَنَخْلًا﴾ يعني النخيل ﴿وَحَدَآئِقَ﴾ أي بساتين واحدها حديقة. ﴿غُلْبًا﴾ عظامـًا شجرها ﴿وَفَٰكِهَةً﴾ أيْ ما تأكلهُ النّاسُ منْ ثمارِ الأشجارِ كالتّينِ والخوخِ وغيرهما ﴿وَأَبًّا﴾ هوَ ما تأكلهُ البهائمُ منَ العشبِ ﴿مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ﴾ نصبٌ على المصدرِ المؤكّدِ، ويتضمّنُ امتنانـًا عليهمْ بما أنعمَ بهِ، وقدْ مضى في غيرِ موضعٍ أيضـًا.

قولهُ تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ﴾ أي الصّيحةُ الّتي تكونُ عنها القيامةُ، وهيَ النّفخةُ الثّانيةُ، تصخُّ الأسماعَ: أيْ تصمّها فلا تسمعُ إلّا ما يدعى بهِ للأحياءِ ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ﴾ لاشتغالهِ بنفسهِ، وحذراً منْ مطالبتهِ ﴿وَصَٰحِبَتِهِۦ﴾ أيْ زوجتهِ ﴿وَبَنِيهِ﴾ أيْ أولادهِ ﴿لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾.

في صحيحِ مسلمٌ عنْ عائشةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالتْ: سمعتُ رسولَ ﷺ يقولُ: «يحشرُ النّاسُ يومَ القيامةِ حفاةً عراةً غرلاً» قلتُ، يا رسولَ اللّهِ! الرّجالُ والنّساءُ جميعـًا ينظرُ بعضهمْ إلى بعضٍ؟ قالَ: «يا عائشةُ، الأمرُ أشدُّ منْ أنْ ينظرَ بعضهمْ إلى بعضٍ».

قولهُ تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ﴾: أي مشرقة مضيئة، قد علمت مالها منَ الفوزِ والنّعيمِ، وهيَ وجوهُ المؤمنينَ ﴿ضَاحِكَةٌ﴾ أيْ مسرورةٌ فرحةٌ ﴿مُّسْتَبْشِرَةٌ﴾ بما آتاها اللّهُ منَ الكرامةِ ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ﴾ أيْ غبارٌ ودخانٌ ﴿تَرْهَقُهَا﴾ أيْ تغشاها ﴿قَتَرَةٌ﴾ سوادٌ وذلّةٌ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ﴾ جمعُ كافرٍ ﴿ٱلْفَجَرَةُ﴾ جمعُ فاجرٍ، وهوَ الكاذبُ المفتري على اللّهِ تعالى.

سورة التكوير

مكّيّةٌ في قولِ الجميع. وهيَ تسعٌ وعشرونَ آيةً وفي التّرمذيِّ: عنِ ابنِ عمرَ قالَ: قالَ رسولُ اللّهِ ﷺ: «منْ سرّهُ أنْ ينظرَ إليَّ يوم القيامة كأنه رأى عين فليقرأْ إذا الشّمسُ كوّرتْ، وإذا السّماءُ انفطرتْ، وإذا السّماءُ انشقّتْ». قالَ: هذا حديثٌ حسنٌ غريب.

بسمِ اللّهِ الرّحمنِ الرّحيمِ

قولهُ تعالى: ﴿إِذَا ٱلشَّمۡسُ كُوِّرَتۡ﴾ أصلُ التّكويرِ: الجمعُ مأخوذٌ منْ كارَ العمامةَ على رأسِهِ يكورها أيْ لاثها وجمعها فهيَ تكوّرُ ويمحى ضوءها ﴿وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتۡ﴾ أيْ تهافتتْ وتناثرتْ ﴿وَإِذَا ٱلۡجِبَالُ سُيِّرَتۡ﴾ يعني قلعتْ منَ الأرضِ، وسيّرتْ في الهواءِ، وهوَ مثلُ قولهُ تعالى: ﴿وَيَوۡمَ نُسَيِّرُ ٱلۡجِبَالَ وَتَرَى ٱلۡأَرۡضَ بَارِزَةٗ﴾. وقيلَ: تكونُ كثيباً مهيلاً أيْ رملاً سائلاً وتكونُ كالعهنِ، وتكونُ هباءً منثوراً، وتكونُ سراباً، مثلَ السّرابِ الّذي ليسَ بشيءٍ. وعادتِ الأرضُ قاعاً صفصفاً لا ترى فيها عوجاً ولا أمتا ﴿وَإِذَا ٱلۡعِشَارُ عُطِّلَتۡ﴾ أيِ النّوقُ الحواملُ الّتي في بطونها أولادها، الواحدةُ عشراءُ، وخصّها لأنّها أعزُّ ما تكونُ على العربِ، وليسَ يعطّلها أهلها إلّا حالَ القيامةِ. وهذا على وجهِ المثل، لأنَّ في القيامةِ لا تكونُ ناقةٌ عشراءَ، وعطّلتْ: عطّلها أهلها، لاشتغالهمْ بأنفسهمْ ﴿وَإِذَا ٱلۡوُحُوشُ حُشِرَتۡ﴾ أيْ جمعتْ والحشرُ: الجمعُ، فتجمعُ حتّى يقتصَّ لبعضها منْ بعضٍ، فيقتصُّ للجمّاءِ منَ القرناءِ، ثمَّ يقالُ لها كوني تراباً فتموتُ. وإذا كانتْ هذهِ حالها فكيفَ ببني آدمَ ﴿وَإِذَا ٱلۡبِحَارُ سُجِّرَتۡ﴾ ملئتْ حتى يفيضُ بعضها إلى بعضٍ، والعربُ تقولُ: سجرتُ الحوضَ أسجرهُ سجراً: إذا ملأتهُ، وهوَ مسجورٌ والمسجورُ والسّاجرُ في اللغة: الملآن، وقيلَ: أوقدتْ فصارتْ ناراً.

وقرأ ابنُ كثيرٍ وأبو عمرو ﴿سُجِرتْ﴾، إخباراً عنْ حالها مرّةً واحدةً. وقرأ الباقونَ بالتّشديدِ إخباراً عنْ حالها في تكريرِ ذلكَ منها مرّةً بعدَ أخرى.

قولهُ تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتۡ﴾ أزواجاً ثلاثةً، السّابقونَ زوجٌ، وأصحابُ اليمينِ زوجٌ، وأصحابُ الشّمالِ زوجٌ، وقيلَ: يقرنُ الفاجرُ معَ الفاجرِ، ويقرنُ الصّالحُ معَ الصّالحِ،

كما قالَ تعالى: ﴿۞ٱحۡشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزۡوَٰجَهُمۡ﴾ أيْ أشكالهمْ.

قولهُ تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلۡمَوۡءُۥدَةُ سُئِلَتۡ ۝٨ بِأَيِّ ذَنۢبٖ قُتِلَتۡ﴾ الموءودة المقتولةُ، وهيَ الجاريةُ تدفنُ وهيَ حيّةٌ، سمّيتْ بذلك لما يطرح عليها من التراب، فيؤودها أيْ يثقلها حتّى تموتَ، ومنهُ قولهُ تعالى: ﴿وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفۡظُهُمَاۚ﴾ أيْ لا يثقلهُ، وكانوا يدفنونَ بناتهمْ أحياءً لخصلتينِ:

إحداهما: كانوا يقولونَ إنَّ الملائكةَ بناتُ اللّهِ، فألحقوا البناتِ بهِ.

الثّانيةُ: إمّا مخافةَ الحاجةِ والإملاقِ، وإمّا خوفا من السبي والاسترقاق.

وقدْ كانَ ذوو الشّرفِ منهمْ يمتنعونَ منْ هذا ويمنعونَ منهُ، حتّى افتخرَ بهِ الفرزدقُ، فقالَ:

ومنّا الّذي منعَ الوائداتِ فأحيا الوئيدَ فلمْ يوأدِ

يعني جدّهُ صعصعةَ كانَ يشتريهنَّ منْ آبائهنَّ فجاءَ الإسلامُ وقدْ أحيا سبعين موءودة.

وقوله تعالى: ﴿سُئِلَتۡ﴾ سؤالُ توبيخ لقاتلها، لأنّها قتلتْ بغيرِ ذنبٍ، وهوَ مثلُ قولهِ تعالى لعيسى: ﴿ءَأَنتَ قُلۡتَ لِلنَّاسِ﴾، على جهةِ التّوبيخ والتّبكيتِ لهمْ، وفيهِ دليلٌ بيّنٌ على أنَّ أطفالَ المشركينَ لا يعذّبونَ، وعلى أنَّ التّعذيبَ لا يستحقُّ إلّا بذنبٍ.

قولهُ تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتۡ﴾ أي صحفُ الأعمالِ الّتي كتبتِ الملائكةُ فيها ما فعلَ أهلها منْ خيرٍ وشرٍّ، تطوى بالموتِ، وتنشرُ في يوم القيامةِ، فيقفُ كلُّ إنسانٍ على صحيفتهِ، فيعلمُ ما فيها، فيقولُ: ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلۡكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةٗ وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحۡصَىٰهَاۚ﴾.

قولهُ تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتۡ﴾: الكشطُ: قلعٌ عنْ شدّةِ التزاقٍ، فالسّماءُ تكشطُ وتنزعُ منْ مكانها كما ينزعُ الغطاءُ عنِ الشّيءِ. وقيلَ: تطوى كما قالَ تعالى: ﴿يَوۡمَ نَطۡوِي ٱلسَّمَآءَ كَطَيِّ ٱلسِّجِلِّ لِلۡكُتُبِۚ﴾ فكأنَّ المعنى: قلعتْ فطويتْ.

قولهُ تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلۡجَحِيمُ سُعِّرَتۡ﴾ أيْ أوقدتْ فأضرمتْ للكفّارِ وزيدَ في إحمائها.

يقالُ: سَعَّرتُ النّارَ وأسعرتها. وقراءةُ العامّةِ بالتّخفيفِ منَ السّعيرِ. وقرأ نافعٌ بالتّشديدِ لأنّها أوقدتْ مرة بعدَ مرّةٍ، وفي التّرمذيِّ عنْ أبي هريرةَ عنِ النّبيِّ ﷺ قال: «أوقدَ على النّارِ ألفَ سنةٍ حتّى احمرّتْ، ثمَّ أوقدَ عليها ألفَ سنةٍ حتّى ابيضّتْ، ثمَّ أوقدَ عليها ألفَ سنةٍ حتّى اسودّتْ، فهيَ سوداءُ مظلمةٌ» ورويَ موقوفًا.

قولهُ تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ﴾ أيْ دنتْ وقُرِّبتْ منَ المتّقينَ، والزّلفى في كلامِ العربِ: القربةُ قالَ اللّهُ تعالى: ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾، وتزلّفَ فلانٌ تقرّبَ.

قولهُ تعالى: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ﴾ يعني ما عملتْ منْ خيرٍ وشرٍّ. وهذا جوابُ إذا الشّمسُ كوّرتْ وما بعدها.

وفي الصّحيحينِ عنْ عديِّ بنِ حاتمٍ قالَ: قالَ رسولُ اللّهِ ﷺ: «ما منكمْ منْ أحدٍ إلّا وسيكلّمهُ اللّهُ ما بينهُ وبينهُ ترجمانٌ، فينظرُ أيمنَ منهُ فلا يرى إلّا ما قدّمهُ، وينظرُ أشأمَ منهُ فلا يرى إلّا ما قدّمَ بينَ يديهِ، فتستقبلهُ النّارُ، فمنِ استطاعَ منكمْ أنْ يتّقيَ النّارَ ولوْ بشقِّ تمرةٍ فليفعلْ».

قولهُ تعالى: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ﴾ أيْ أقسم، وفلا زائدة، كما تقدم ﴿بِٱلْخُنَّسِ ۝١٥ ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ﴾ النّجومُ تخنسُ بالنّهارِ، وتظهرُ باللّيلِ، وتكنسُ في وقتِ غروبها أيْ تتأخّرُ عنِ البصرِ لخفائها، فلا ترى، والجواري: جمعُ جاريةٍ منْ جرى يجري ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ﴾ إذا أقبلَ أوْ أدبرَ بظلامهِ، وهو من الأضداد.

قولهُ تعالى: ﴿وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾ أيِ امتدَّ حتّى يصيرَ نهاراً واضحاً ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ هذا جوابُ القسمِ. والرّسولُ الكريمُ جبريلُ، وأضافَ الكلامَ إلى جبريلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، ثمَّ عدّاهُ عنهُ بقولهِ: ﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ ليعلمَ أهلُ التّحقيقِ في التّصديقِ، أنَّ الكلامَ للّهِ عزَّ وجلَّ. وقيلَ: هوَ محمّدٌ ﷺ ﴿ذِى قُوَّةٍ﴾ منْ جعلهُ جبريلُ فقوّتهُ ظاهرةٌ ﴿عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ﴾ أيْ عندَ اللّهِ جلَّ ثناؤهُ ﴿مَكِينٍ﴾ أيْ ذي منزلةٍ ومكانةٍ ﴿مُّطَاعٍ ثَمَّ﴾: أي في السموات ﴿أَمِينٍ﴾ أيْ مؤتمنٍ على الوحيِ الّذي يجيءُ بهِ.

ومنْ قالَ: إنَّ المرادَ محمّدٌ ﷺ فالمعنى ذي قوّةٍ على تبليغِ الرّسالةِ مطاعٍ أيْ يطيعهُ منْ

أطاعَ الله عز وجل. ﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ﴾ يعني محمّداً ﷺ ليس بمجنونٍ حتّى يتّهمَ في قولِهِ.

قولهُ تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ﴾ أيْ رأى جبريلُ في صورتهِ، لهُ ستّمائةِ جناحٍ. بالأفقِ المبينِ أيْ بمطلعِ الشّمسِ منْ قبلِ المشرقِ، لأنَّ هذا الأفقَ إذا كانَ منهُ تطلعُ الشّمسِ فهوَ مبينٌ.

﴿وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِظَنِينٍ﴾: بالظّاءِ، قراءةُ ابنِ كثيرٍ وأبي عمرو والكسائيِّ، أيْ بمتّهمٍ، والظِّنّةُ التّهمةُ، وقرأ الباقونَ بضنينٍ بالضّادِ: أيْ ببخيلٍ، والغيبُ: القرآنُ وخبرُ السّماءِ. ثمَّ هذا صفةُ محمّدٍ ﷺ. وقيلَ: صفةُ جبريلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ. وقيلَ: بظنينٍ: بضعيفٍ، يقالُ: رجلٌ ظنينٌ: أيْ ضعيفٌ، فهوَ لفظٌ مشتركٌ ﴿وَمَا هُوَ﴾ يعني القرآنَ ﴿بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ﴾ أيْ مرجوم ملعونٍ، كما قالتْ قريشٌ ﴿فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ﴾ عنْ كتابي وطاعتي ﴿إِنْ هُوَ﴾ يعني القرآنَ ﴿إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ أي موعظة وزجر. وإنْ بمعنى «ما». وقيلَ: ما محمّدٌ إلّا ذكرٌ ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ﴾ أيْ يتّبعَ الحقَّ ويقيمَ عليهِ، وقيلَ: لمّا نزلتْ ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ﴾ قالَ أبو جهلٍ: الأمرُ إلينا، إنْ شئنا استقمنا، وإنْ شئنا لمْ نستقمْ، وهذا هوَ القدرُ، وهوَ رأسُ القدريّةِ؛ فنزلتْ: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ فبيّنَ بهذا أنّهُ لا يعملُ العبدُ خيراً إلّا بتوفيقِ اللّهِ، ولا شراً إلّا بخذلانهِ، وفي التّنزيل: ﴿۞ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾. وقالَ تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾، وقالَ تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ والآيُ في هذا كثيرٌ، وكذلكَ الأخبارُ، وأنَّ اللّهَ سبحانهُ هدى بالإسلامِ، وأضلَّ بالكفرِ، كما تقدّمَ في غيرِ موضعٍ.

ختمتِ السّورةُ والحمدُ لله.

سورة الانفطار

مكّيّةٌ عندَ الجميعِ، وهيَ تسعَ عشرةَ آية.

بسمِ اللّهِ الرّحمنِ الرّحيم

قولهُ تعالى: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ﴾ أيْ تشقّقتْ بأمرِ اللّهِ، لنزولِ الملائكةِ، كقولهِ: ﴿وَيَوۡمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلۡغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا﴾، وقيلَ: تفطّرتْ لهيبةِ اللّهِ تعالى. والفطرُ: الشّقُّ، يقالُ: فطرتهُ فانفطرَ، ومنهُ فطرَ نابُ البعيرِ: طلعَ ﴿وَإِذَا ٱلۡكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتۡ﴾ أيْ تساقطتْ، نثرتُ الشّيءَ أنثرهُ نثراً، فانتثرَ، والاسمُ النّثارُ ﴿وَإِذَا ٱلۡبِحَارُ فُجِّرَتۡ﴾ أيْ فجّرَ بعضها في بعضٍ، فصارتْ بحراً واحداً، وقيلَ: فجّرتْ: ذهبَ ماؤها ويبستْ، وذلكَ أنها أوّلاً راكدةٌ مجتمعةٌ، فإذا فجّرتْ تفرّقتْ، فذهبَ ماؤها. وهذهِ الأشياءُ بينَ يدي السّاعةِ ﴿وَإِذَا ٱلۡقُبُورُ بُعۡثِرَتۡ﴾ أيْ قلّبتْ وأخرجَ ما فيها منْ أهلها أحياءً، يقالُ: بعثرتُ المتاعَ: قلّبتهُ ظهراً لبطنٍ ﴿عَلِمَتۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ وَأَخَّرَتۡ﴾ مثل: ﴿يُنَبَّؤُاْ ٱلۡإِنسَٰنُ يَوۡمَئِذِۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾، وهذا خبرٌ إذا السّماءُ انفطرتْ.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ﴾ الكافر منكر البعث ﴿مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ﴾ حتّى كفرتَ؟ وغرّهُ شيطانهُ المسلّطُ عليهِ، وقيلَ: حمقهُ وجهلهُ كما قالَ اللّهُ تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومٗا جَهُولٗا﴾، وقيلَ: غرّهُ عفوُ اللّهِ، قيل: للفضيلِ بنِ عياضٍ: لوْ أقامكَ اللّهُ تعالى يومَ القيامةِ بينَ يديهِ، فقالَ: لكَ: ما غرّكَ بربّكَ الكريمِ؟ ماذا كنتَ تقولُ؟ قالَ: كنتُ أقولُ غرّني ستوركَ المرخاةِ، لأنَّ الكريمَ هوَ السّتّارُ.

﴿ٱلَّذِي خَلَقَكَ﴾ منْ نطفةٍ ﴿فَسَوَّىٰكَ﴾ في بطنِ أمّكَ، وجعلَ لكَ يدينِ ورجلينِ وعينينِ وسائرَ أعضائكَ ﴿فَعَدَلَّكَ﴾ معتدلاً سويَّ الخلقِ، وهذهِ قراءةُ العامّةِ يدلُّ عليهِ قولهُ تعالى: ﴿لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِيٓ أَحۡسَنِ تَقۡوِيمٖ﴾، وقرأ الكوفيّونَ: عاصمٌ وحمزةُ والكسائيُّ: ﴿فعَدَلَكَ﴾ مخفّفاً أيْ: أمالكَ وصرفكَ ﴿فِيٓ أَيِّ صُورَةٖ مَّا شَآءَ﴾ إلى أيِّ صورةٍ شاءَ، إمّا حسناً وإمّا قبيحاً، وإمّا طويلاً وإمّا قصيرا، وإنْ شاءَ ذكراً، وإنْ شاءَ أنثى.

قولهُ تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ﴾ يجوزُ أنْ تكونَ كلّا بمعنى حقـًا، ويجوزُ أنْ تكونَ بمعنى ﴿لَآ﴾، على أنْ يكونَ المعنى ليسَ الأمرُ كما تقولونَ منْ أنّهُ لا بعثَ، وإنكارهمْ للبعثِ كانَ معلومـًا، وإنْ لمْ يجرِ لهُ ذكرٌ في هذهِ السورة.

قولهُ تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ﴾ أيْ رقباء من الملائكة ﴿كِرَامًا﴾ أي علي، كقوله: ﴿كِرَامِۭ بَرَرَةٍ﴾.

واختلفَ النّاسُ في الكفّارِ هلْ عليهمْ حفظةٌ أمْ لا؟ فقالَ بعضهمْ: لا، لأنَّ أمرهمْ ظاهرٌ، وعملهمْ واحدٌ، قالَ اللّهُ تعالى: ﴿يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ﴾.

وقيلَ: عليهمْ حفظةٌ لهذه الآية، وقوله: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ﴾، وقالَ: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ﴾، فأخبرَ أنَّ الكفّارَ يكونُ لهمْ كتابٌ، ويكونُ عليهمْ حفظةٌ.

فإن قيل: الّذي على يمينهِ أي شيء يكتبُ ولا حسنةَ لهُ؟ قيلَ لهُ: الّذي يكتبُ عنْ شمالهِ يكونُ بإذنِ صاحبهِ، ويكونُ شاهداً على ذلكَ وإنْ لمْ يكتبْ. والله أعلم.

قولهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ۝١٣ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ﴾ تقسيمٌ مثلَ قولهِ: ﴿فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ﴾، وقال: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ ۝ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟...﴾ الآيتينِ ﴿يَصْلَوْنَهَا﴾ أيْ يصيبهمْ لهبها وحرّها ﴿يَوْمَ ٱلدِّينِ﴾ أيْ يومَ الجزاءِ والحساب ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ﴾ كرّرَ ذكرهُ تعظيمـًا لشأنهِ، نحوَ قولهِ تعالى: ﴿ٱلْقَارِعَةُ ۝١ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٢ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ﴾، وقالَ ابنُ عبّاسٍ فيما رويَ عنهُ: كل شيء منَ القرآنِ منْ قولهِ: وما أدراكَ؟ فقدْ أدراه. وكل شيء منْ قولهِ «وَمَا يُدْرِيكَ» فقدْ طويَ عنهُ.

﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ﴾ قرأَ ابنُ كثيرٍ وأبو عمرو «يَوْمُ» بالرّفع على البدلِ منْ يومُ الدّينِ، الباقونَ بالنّصبِ على معنى يدانونَ يومَ، لأنَّ الدّينَ يدلُّ عليهِ ﴿لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا ۖ وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ﴾ لا ينازعهُ فيهِ أحدٌ، كما قالَ: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ۝١٦ ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۚ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ ۚ﴾.

سورة المطففين

مكّيّةٌ، وهيَ ستٌّ وثلاثونَ آيةً.

بسمِ اللّهِ الرّحمنِ الرّحيم

قولهُ تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ﴾، فيهِ أربعُ مسائلَ:

الأولى: روى النّسائيُّ عنِ ابنِ عبّاسٍ قالَ: لمّا قدمَ النّبيُّ ﷺ المدينةَ كانوا منْ أخبثِ النّاسِ كيلاً، فأنزلَ اللّهُ تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾ فأحسنوا الكيلَ بعدَ ذلكَ، وعنِ ابنِ عبّاسٍ أيضاً قالَ: هيَ: أوّلُ سورةٍ نزلتْ على رسولِ اللّهِ ﷺ ساعةَ نزلَ المدينةَ.

الثانية- قولهُ تعالى: ﴿وَيْلٌ﴾ أيْ شدّةُ عذابٍ في الآخرةِ. وقيلَ: إنّهُ وادٍ في جهنّمَ يسيلُ فيهِ صديدُ أهلِ النّارِ، و﴿لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾ أيِ الّذينَ ينقصونَ مكاييلهمْ وموازينهمْ، وقيلَ: التّطفيفُ في الكيلِ والوزنِ والوضوءِ والصلاةِ والحديث. وفي الموطأ قال مالك: ويقال لكل شيءٍ وفاءٌ وتطفيف.

الثالثة- إنّما قيلَ للفاعلِ منْ هذا مطفّفٌ، لأنّهُ لا يكادُ يسرقُ منَ المكيالِ والميزانِ إلّا الشّيءَ الطّفيفَ الخفيفَ.

الرابعة- المطفّفُ: هوَ الّذي يُخسرُ في الكيلِ والوزنِ ولا يوفي، وقالَ عبدُ الملكِ بنُ الماجشونَ: نهى رسولُ اللّهِ ﷺ عنْ مسحِ الطّفافِ. وقالَ: إنَّ البركةَ في رأسهِ. قالَ: وبلغني أنَّ كيلَ فرعونَ كان مسحا بالحديد.

قولهُ تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ﴾ المعنى: الّذينَ إذا استوفوا أخذوا الزّيادةَ، وإذا أوفوا أوْ وزنوا لغيرهمْ نقصوا، فلا يرضونَ للنّاسِ ما يرضونَ لأنفسهمْ.

قولهُ تعالى: ﴿وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ﴾ فيهِ مسألتانِ:

الأولى: قولهُ تعالى: ﴿وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ﴾: أيْ كالوا لهمْ أوْ وزنوا لهمْ فحذفتِ

اللّامُ، فتعدّى الفعلُ فنصبَ، ومثلهُ نصحتكَ ونصحتُ لكَ، ومنِ النّاسِ منْ يجعلها توكيداً، ويجيزُ الوقفَ على «كالوا» وَ «وزنوا» والأوّلُ الاختيار، لأنها حرف واحد، وروي عن حمزة أنه يجعلها حرفينِ، ويقفُ على «كالوا» وَ «وزنوا» ويبتدئُ ﴿هم يخسرونَ﴾، والاختيارُ أنْ يكونا كلمةً واحدةً منْ جهتينِ:

إحداهما: الخطُّ، وذلكَ أنّهمْ كتبوهما بغيرِ ألفٍ، ولوْ كانتا مقطوعتينِ لكانتا «كالوا» وَ «وزنوا» بالألفِ.

والأخرى: أنّهُ يقالُ: كلتكَ ووزنتكَ بمعنى كلتُ لكَ، ووزنتُ لكَ، وهوَ كلامٌ عربيٌّ، كما يقالُ: شكرتك وشكرت لك ونصحتك ونصحت لك ونحو ذلك.

قوله: ﴿يُخْسِرُونَ﴾: أيْ ينقصونَ، والعربُ تقولُ: أخسرتُ الميزانَ وخسرتهُ. وَ﴿هُمْ﴾ في موضعِ نصبٍ، على قراءةِ العامّةِ، راجعٌ إلى النّاسِ، تقديرهُ وإذا كالوا النّاسَ ﴿أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ﴾ وفيهِ وجهانِ:

أحدهما: أنْ يرادَ كالوا لهمْ أوْ وزنوا لهمْ، فحذفَ الجارُّ، وأوصلَ الفعلُ.

والوجهُ الآخرُ: أنْ يكونَ على حذفِ المضافِ، وإقامةِ المضافِ إليهِ مقامهُ، والمضافُ هوَ المكيلُ والموزونُ.

وعلى القراءةِ الثّانيةِ «همْ» في موضعِ رفعٍ بالابتداءِ، أيْ وإذا كالوا للنّاسِ أوْ وزنوا لهمْ فهمْ يخسرونَ.

الثانية- قالَ ابنُ عبّاسٍ قالَ النّبيُّ ﷺ: «خمسٌ بخمسٍ: ما نقضَ قومُ العهدَ إلّا سلّطَ اللّهُ عليهمْ عدوّهمْ، ولا حكموا بغيرِ ما أنزلَ اللّهُ إلّا فشا فيهمُ الفقرُ، وما ظهرتِ الفاحشةُ فيهمْ إلّا ظهرَ فيهمُ الطّاعونُ، وما طفّفوا الكيلَ إلّا منعوا النّباتَ، وأخذوا بالسّنينَ، ولا منعوا الزّكاةَ إلّا حبسَ اللّهُ عنهمُ المطرَ» خرّجهُ أبو بكرٍ البزّارُ بمعناهُ، ومالكُ بنُ أنسٍ أيضاً منْ حديثِ ابنِ عمرَ.

قولهُ تعالى: ﴿أَلَا يَظُنُّ أُوْلَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبۡعُوثُونَ﴾ فمسؤولونَ فيحتاطون، وهو إنكار وتعجيب عظيمٌ منْ حالهمْ ﴿لِيَوۡمٍ عَظِيمٍ﴾ شأنهُ وهوَ يومُ القيامةِ.

قولهُ تعالى: ﴿يَوۡمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ فيهِ أربعُ مسائلَ:

الأولى: العاملُ في يومَ فعلٌ مضمرٌ، دلَّ عليهِ مبعوثونَ. والمعنى يبعثونَ يومَ يقومُ النّاسُ لربِّ العالمينَ.

الثانية- وعنْ عبدِ الملكِ بنِ مروانَ: أنَّ أعرابياً قالَ لهُ: قدْ سمعتُ ما قالَ اللّهُ تعالى في المطفّفينَ، أرادَ بذلكَ أنَّ المطفّفينَ قدْ توجّهَ عليهمْ هذا الوعيدُ العظيمُ الّذي سمعتُ بهِ، فما ظنّكَ بنفسكَ وأنتَ تأخذُ أموالَ المسلمينَ بلا كيلٍ ولا وزنٍ؟.

وفي هذا الإنكارِ والتّعجيبِ وكلمةِ الظّنِّ ووصفِ اليوم بالعظيم وقيامِ النّاسِ فيهِ للّهِ خاضعينَ ووصفِ ذاتهِ بربِّ العالمينَ بيانٌ بليغٌ لعظمِ الذّنبِ، وتفاقمِ الإثمِ في التّطفيفِ، وفيما كانَ في مثلِ حالهِ منَ الحيفِ، وتركِ القيامِ بالقسطِ، والعملِ على التّسويةِ والعدلِ، في كلِّ أخذٍ وإعطاءٍ، بلْ في كلِّ قولٍ وعملٍ.

الثالثة- في صحيحِ مسلمٍ والبخاريِّ والتّرمذيِّ منْ حديثِ ابنِ عمرَ عنِ النّبيِّ ﷺ ﴿يَوۡمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ قالَ: «يقومُ أحدهمْ في رشحهِ إلى نصفِ أذنيهِ». ثمَّ قيل: هذا القيامُ يومَ يقومونَ منْ قبورهمْ. وقيلَ: في الآخرةِ بحقوقِ عبادهِ في الدّنيا.

وعنِ ابنِ عبّاسٍ: يهونُ على المؤمنينَ قدرَ صلاتهم الفريضة. وقيلَ: إنَّ ذلكَ المقامَ على المؤمنِ كزوالِ الشّمسِ، والدّليلُ على هذا منَ الكتابِ قولهُ الحقُّ: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾ ثمَّ وصفهمْ فقالَ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾ جعلنا اللّهُ منهمْ بفضلهِ وكرمهِ وجودهِ. ومنّهِ آمينَ.

الرابعة- القيامُ للّهِ ربِّ العالمينَ سبحانهُ حقيرٌ بالإضافةِ إلى عظمتهِ وحقّهِ، فأمّا قيامُ النّاسِ بعضهمْ لبعضٍ فاختلفَ فيهِ النّاسُ، فمنهمْ منْ أجازهُ، ومنهمْ منْ منعهُ. وقدْ رويَ أنَّ النّبيَّ ﷺ قامَ إلى جعفرِ بنِ أبي طالبٍ واعتنقهُ، وقامَ طلحةُ لكعبِ بنِ مالكٍ يومَ تيبَ عليهِ. وقال النّبيّ ﷺ للأنصارِ حينَ طلعَ عليهِ سعدُ بنُ معاذٍ: «قوموا إلى سيّدكمْ». وقالَ أيضاً:

«منْ سرّهُ أنْ يتمثّلَ لهُ النّاسُ قياماً فليتبوّأْ مقعدهُ منَ النّارِ». وذلكَ يرجعُ إلى حالِ الرّجلِ ونيّتهِ، فإنِ انتظرَ ذلكَ واعتقدهُ لنفسهِ فهوَ ممنوعٌ، وإنْ كانَ على طريقِ البشاشةِ والوصلةِ فإنّهُ جائزٌ، وخاصّةً عندَ الأسبابِ، كالقدومِ منَ السّفرِ ونحوهِ.

قولهُ تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ﴾ كلّا ردعٌ وتنبيهٌ، أيْ ليسَ الأمرُ على ما همْ عليهِ منْ تطفيفِ الكيلِ والميزانِ، أوْ تكذيبٍ بالآخرةِ، فليرتدعوا عنْ ذلكَ. ثمَّ استأنفَ فقالَ: إنَّ كتابَ الفجّارِ. وقيلَ: كلّا بمعنى حقّاً. والمعنى: إنَّ أرواحَ الفجّارِ وأعمالهمْ لفي سجّينٍ. و ﴿سِجِّين﴾ موضعٌ في السّافلينَ، يدفنُ فيهِ كتابُ هؤلاءِ، كالمسجونِ لا يصعدُ منْ أعمالهمِ شيء، وهذا دليلٌ على خبثها، وتحقيرِ اللّهِ إيّاها، ولهذا قالَ في كتابِ الأبرارِ: يشهدهُ المقرّبونَ ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ﴾ تعظيمٌ لأمرِ سجّينٍ، أيْ ليسَ ذلكَ ممّا كنتَ تعلمهُ يا محمّدُ أنتَ ولا قومك. ثم فسره له فقال: ﴿كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ﴾ أيْ مكتوبٌ كالرّقمِ في الثّوبِ، لا ينسى ولا يمحى ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ أيْ شدّةٌ وعذابٌ يومَ القيامةِ للمكذّبينَ. ثمَّ بيّنَ تعالى أمرهمْ فقالَ: ﴿ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ أيْ بيومِ الحسابِ والجزاءِ والفصلِ بينَ العبادِ ﴿وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ﴾ أيْ فاجرٍ جائزٍ عنِ الحقِّ ﴿أَثِيمٍ﴾ في تركِ أمرِ اللّهِ ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي أحاديثهمْ وأباطيلهمُ الّتي كتبوها وزخرفوها. واحدها أسطورة وإسطارة.

قولهُ تعالى: ﴿كَلَّاۖ بَلْۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾: كلّا: ردعٌ وزجرٌ، أيْ ليسَ هوَ أساطيرَ الأوّلينَ، أو: معناها حقّاً رانَ على قلوبهمْ، وفي التّرمذيِّ: عنْ أبي هريرةَ عنْ رسولِ اللّهِ ﷺ قال: «إنَّ العبدَ إذا أخطأَ خطيئةً نكتتْ في قلبهِ نكتةٌ سوداءُ، فإذا هوَ نزعَ واستغفرَ اللّهَ وتابَ، صقلَ قلبهُ، فإنْ عادَ زيدَ فيها، حتّى تعلوَ على قلبهِ»، وهوَ «الرّانُّ» الّذي ذكرَ اللّهَ في كتابهِ: ﴿كَلَّاۖ بَلْۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾. قالَ: هذا حديثٌ حسنٌ صحيحٌ.

وكذا قالَ المفسّرونَ: هوَ الذّنبُ على الذّنبِ حتّى يسودَّ القلبُ. يقال: رانتِ الخمرُ على عقلهِ: أيْ غلبتهُ، ورانَ عليهِ النّعاسُ: إذا غطّاهُ، والرّينُ: أنْ يسودَّ القلبُ منَ الذّنوبِ، والطّبعُ أشدُّ منه.

وقرأ حمزةُ والكسائيُّ «رانَ» بالإمالةِ، ووقفَ حفصٌ على ﴿بَل﴾ ثمَّ يبتدئُ ﴿رانَ﴾ وقفـًا يبيّنُ اللاّمَ، لا للسكت.

قوله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمۡ﴾ أيْ حقـًا إنّهمْ يعني الكفّارَ ﴿عَن رَّبِّهِمۡ يَوۡمَئِذٖ﴾ أيْ يومَ القيامةِ ﴿لَّمَحۡجُوبُونَ﴾. وقيلَ: كلّا ردعٌ وزجرٌ، أيْ ليسَ كما يقولونَ، بلْ إنّهمْ عنْ ربّهمْ يومئذٍ لمحجوبونَ.

وفي هذهِ الآيةِ دليلٌ على أنَّ اللّهَ عزَّ وجلَّ يُرى في القيامةِ، ولولا ذلكَ ما كانَ في هذهِ الآيةِ فائدةٌ، ولا خسّتْ منزلةُ الكفّارِ بأنّهمْ يحجبونَ. وقالَ جلَّ ثناؤهُ: ﴿وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ نَّاضِرَةٌ ٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٞ﴾، فأعلمَ اللّهُ جلَّ ثناؤهُ أنَّ المؤمنينَ ينظرونَ إليهِ، وأعلمَ أنَّ الكفّارَ محجوبونَ عنهُ، وقالَ مالكُ بنُ أنسٍ في هذهِ الآيةِ: لمّا حجبَ أعداءهُ فلمْ يروهُ تجلّى لأوليائهِ حتّى رأوهُ. وقالَ الشّافعيُّ: لمّا حجبَ قومـًا بالسّخطِ، دلَّ على أنَّ قومـًا يرونهُ بالرّضا. ثمَّ قالَ: أما واللّهِ لوْ لمْ يوقنْ محمّدُ بنُ إدريسَ أنّهُ يرى ربّهُ في المعادِ لما عبدهُ في الدّنيا.

﴿ثُمَّ إِنَّهُمۡ لَصَالُواْ ٱلۡجَحِيمِ﴾ أي ملازموها ﴿كُلَّمَا نَضِجَتۡ جُلُودُهُم بَدَّلۡنَٰهُمۡ جُلُودًا غَيۡرَهَا﴾ و﴿كُلَّمَا خَبَتۡ زِدۡنَٰهُمۡ سَعِيرٗا﴾ ﴿ثُمَّ يُقَالُ﴾ لهمْ أيْ تقولُ لهمْ خزنةُ جهنّمَ ﴿هَٰذَا ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾ رسلَ اللّهِ في الدنيا.

قولهُ تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلۡأَبۡرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ﴾ كلّا بمعنى حقـًا، والوقفُ على تكذّبونَ. وقيلَ أيْ ليسَ الأمرُ كما يقولونَ ولا كما ظنّوا بلْ كتابهمْ في سجّينٍ، وكتابُ المؤمنينَ في علّيّينَ أيْ في الجنّةِ ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ﴾ أيْ ما الّذي أعلمكَ يا محمد أي شيء علّيّونَ؟ على جهةِ التّفخيمِ والتّعظيمِ لهُ في المنزلةِ الرّفيعةِ. ثمَّ فسّرهُ لهُ فقالَ: ﴿كِتَٰبٞ مَّرۡقُومٞ ٢٠ يَشۡهَدُهُ ٱلۡمُقَرَّبُونَ﴾. وقيلَ: إنَّ ﴿كِتَٰبٞ مَّرۡقُومٞ﴾ ليسَ تفسيراً لعلّيّينَ، بلْ تمَّ الكلامُ عندَ قولهِ علّيّونَ ثمَّ ابتدأَ، وقالَ: كتابٌ مرقومٌ أيْ كتابُ الأبرارِ كتابٌ مرقومٌ ﴿يَشۡهَدُهُ ٱلۡمُقَرَّبُونَ﴾ أيْ يشهدُ عملَ الأبرارِ مقرّبو كلِّ سماءٍ منَ الملائكةِ.

قولهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ﴾ أيْ أهلَ الصّدقِ والطّاعةِ ﴿لَفِي نَعِيمٍ﴾ أيْ نعمةٍ يتنعّمونَ ﴿عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ﴾ وهيَ الأسرّةُ في الحجالِ ﴿يَنظُرُونَ﴾ أيْ إلى ما أعدَّ اللّهُ لهمْ منَ الكراماتِ،

وقيلَ: ينظرونَ إلى أهلِ النّارِ، وقيلَ: ينظرونَ إلى وجهِهِ وجلاله ﴿تَعۡرِفُ فِي وُجُوهِهِمۡ نَضۡرَةَ ٱلنَّعِيمِ﴾ أيْ بهجته ونوره، قال: نضرَ النّباتُ: إذا أزهرَ ونوّرَ. وقراءةُ العامّةِ ﴿تَعۡرِفُ﴾ بفتحِ التّاءِ وكسرِ الرّاءِ ﴿نَضۡرَةَ﴾ نصبًا، أيْ تعرفُ يا محمّدُ. وقرأ أبو جعفرِ بن القعقاع ويعقوب ﴿تُعۡرَفُ﴾ بضمِّ التّاءِ وفتحِ الرّاءِ على الفعل المجهول ﴿نَضۡرَةُ﴾ رفعا.

﴿يُسۡقَوۡنَ مِن رَّحِيقٖ﴾ صفوة الخمرِ ﴿مَّخۡتُومٍ ۝٢٥ خِتَٰمُهُۥ﴾ آخرُ طعمهِ ﴿مِسۡكٞۚ﴾؛ لأنَّ سبيلَ الأشربةِ أنْ يكونَ الكدرُ في آخرها، فوصفَ شرابُ أهلِ الجنّةِ بأنَّ رائحةَ آخرِهِ رائحةُ المسكِ، وقرأ الكسائيُّ «خَاتَمُهُ» بفتحِ الخاءِ والتّاءِ وألفٌ بينهما، والخاتمَ الاسمُ، والختامُ المصدرُ ﴿وَفِي ذَٰلِكَ﴾ أيْ وفي الّذي وصفناهُ منْ أمرِ الجنّةِ ﴿فَلۡيَتَنَافَسِ ٱلۡمُتَنَٰفِسُونَ﴾ أيْ فليرغبِ الرّاغبونَ ﴿وَمِزَاجُهُۥ﴾ أيْ ومزاجُ ذلكَ الرّحيقِ ﴿مِن تَسۡنِيمٍ﴾ وهوَ شرابٌ يَنصّبُّ عليهِمْ منْ علوٍّ، وهوَ أشرفُ شرابٍ في الجنّةِ. وأصلُ التّسنيمِ في اللّغةِ: الارتفاعُ فهيَ عينُ ماءٍ تجري منْ علوٍّ إلى أسفلَ، ومنهُ سنامُ البعيرِ لعلوّهِ منْ بدنهِ، وكذلكَ تسنيمُ القبورِ. وقيلَ: تسنيمٌ عينٌ في الجنّةِ يشربُ بها المقرّبونَ صرفًا، ويمزجُ منها كأسُ أصحابِ اليمينِ فتطيبُ ﴿عَيۡنٗا يَشۡرَبُ بِهَا ٱلۡمُقَرَّبُونَ﴾ أيْ يشربُ منها أهلُ جنّةِ عدنٍ وهمْ أفاضلُ أهل الجنة صرفا، وهي لغيرهم مزاج. ﴿وعيناً﴾ نصبٌ على المدحِ.

قولهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ﴾ رؤساءأهلِ الشّركِ كالوليدُبن المغيرةِ، وعقبةبن أبي معيطٍ، والعاص بن وائلِ، وأبي جهلِ ﴿كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ منْ أصحابِ محمّدٍ ﷺ مثلَ عمّارٍ وخبّابٍ وصهيبٍ وبلالٍ ﴿يَضۡحَكُونَ﴾ على وجهِ السّخريةِ ﴿وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمۡ﴾ عندَ إتيانهمْ رسولَ اللّهِ ﷺ ﴿يَتَغَامَزُونَ﴾ يغمزُ بعضهمْ بعضًا، ويشيرونَ بأعينهمْ. يقالُ: غمزتُ الشّيءَ بيدي، قالَ:

وكنتُ إذا غمزتُ قناةَ قومٍ ... كسرتُ كعوبها أوْ تستقيما

وقالتْ عائشةُ: كانَ النّبيُّ ﷺ إذا سجدَ غمزني، فقبضتُ رجلي. الحديثَ.

قولهُ تعالى: ﴿وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ﴾ أيِ انصرفوا إلى أهلهمْ وأصحابهمْ وذويهمْ ﴿ٱنقَلَبُواْ فَاكِهِينَ﴾ أيْ معجبينَ منهمْ. وقيلَ: معجبونَ بما همْ عليهِ منَ الكفرِ، متفكّهونَ بذكرِ المؤمنينَ. وقرأ حفصٌ: ﴿فكهينَ﴾ بغيرِ ألفٍ. الباقونَ بألفٍ، وهما لغتانِ، وقيلَ: الفكهُ: الأشرُ البطرُ، والفاكهُ: النّاعمُ المتنعّمُ ﴿وَإِذَا رَأَوْهُمْ﴾ أيْ إذا رأى هؤلاءِ الكفّارُ أصحابَ محمّدٍ ﷺ ﴿قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ﴾ في اتّباعهمْ محمّداً ﷺ ﴿وَمَآ أُرۡسِلُواْ عَلَيۡهِمۡ حَٰفِظِينَ﴾ لأعمالهمْ، موكّلينَ بأحوالهمْ، رقباءَ عليهمْ ﴿فَٱلۡيَوۡمَ﴾ يعني هذا اليومَ الّذي هوَ يومُ القيامةِ ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ بمحمّدٍ ﷺ ﴿مِنَ ٱلۡكُفَّارِ يَضۡحَكُونَ﴾ كما ضحكَ الكفّارُ منهمْ في الدّنيا ﴿عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ٣٥ هَلۡ ثُوِّبَ﴾ أي جوزيَ ﴿ٱلۡكُفَّارُ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ﴾.

ختمتِ السورة والله أعلم.

سورة الانشقاق

مكّيّةٌ في قولِ الجميعِ وهيَ خمسٌ وعشرونَ آيةً.

بسمِ اللّهِ الرّحمنِ الرّحيمِ

قولهُ تعالى: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ﴾ أيِ انصدعتْ، وتفطّرتْ بالغمامِ، والغمامُ مثلُ السّحابِ الأبيضِ، وهذا منْ أشراطِ السّاعةِ وعلاماتها ﴿وَأَذِنَتۡ لِرَبِّهَا وَحُقَّتۡ﴾ أيْ سمعتْ، وحقَّ لها أنْ تسمعَ، ومنهُ قولهُ ﷺ: «ما أذنَ اللّهُ لشيءٍ كإذنهِ لنبيٍّ يتغنّى بالقرآنِ» أيْ ما استمعَ اللّهُ لشيءٍ قالَ الشّاعرُ:

صمٌّ إذا سمعوا خيراً ذكرتُ بهِ ... وإنْ ذكرتُ بسوءٍ عندهمْ أذنوا

أيْ سمعوا. وقال قعنب ابن أمِّ صاحبٍ:

إنْ يأذنوا ريبةً طاروا بها فرحًا ... وما همْ أذنوا منْ صالحٍ دفنوا

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلۡأَرۡضُ مُدَّتۡ﴾ أيْ بسطتْ ودكّتْ جبالها لوقوفِ الخلائقِ عليها للحسابِ حتّى لا يكونُ لأحدٍ منَ البشرِ إلّا موضعُ قدمهِ، لكثرةِ الخلائقِ فيها، وقدْ مضى في سورةِ إبراهيمَ أنَّ الأرضَ تبدّلُ بأرضٍ أخرى وهيَ السّاهرةُ ﴿وَأَلۡقَتۡ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتۡ﴾ أيْ أخرجتْ ما في بطنها منَ الموتى، وتخلّتْ ممّنْ على ظهرها منَ الأحياءِ. وقيلَ: ألقتْ ما في بطنها منْ كنوزها ومعادنها، وتخلّتْ منها. وخلا جوفها، وذلكَ يؤذنُ بعظمِ الأمرِ، كما تلقي الحاملَ ما في بطنها عندَ الشّدّةِ ﴿وَأَذِنَتۡ لِرَبِّهَا﴾ أيْ في إلقاءِ موتاها ﴿وَحُقَّتۡ﴾ أيْ وحقَّ لها أنْ تسمعَ أمرهُ. واختلفَ في جوابِ إذا فقالَ بعضُ المفسّرينَ: جوابُ ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ﴾ ﴿أَذِنَتۡ﴾، وزعمَ أنَّ الواوَ مقحمةٌ. وهذا غلطٌ، لأنَّ العربَ لا تقحمُ الواوَ إلّا معَ ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا﴾ كقولهِ تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا﴾، ومعَ ﴿لَمَّا﴾ كقولهِ تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَسۡلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلۡجَبِينِ ۝١٠٣ وَنَٰدَيۡنَٰهُ﴾ معناهُ ناديناهُ والواوُ لا تقحمُ معَ غيرِ هذينَ.

وقيلَ: جوابها ما دلَّ عليهِ ﴿فَمُلَٰقِيهِ﴾ أيْ إذا السّماءُ انشقّتْ لاقى الإنسانُ كدحهُ. وقيلَ: فيهِ تقديمٌ وتأخيرٌ، أيْ يا أيّها الإنسانُ إنّكَ كادحٌ إلى ربّكَ كدحًا فملاقيهِ إذا السّماءُ انشقّتْ.

قولهُ تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَـٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدۡحٗا﴾ المراد بالإنسان الجنس أي يا ابن آدمَ، والكدحُ في كلامِ العربِ: العملُ والكسبُ، قالَ ابنُ مقبلٍ:

وما الدّهرُ إلّا تارتانِ فمنهما أموتُ وأخرى أبتغي العيشَ أكدحُ

﴿فَمُلَٰقِيهِ﴾ أيْ ملاقٍ ربّكَ لا محالةَ، وقيلَ: ملاقٍ عملكَ.

قولهُ تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ﴾ وهوَ المؤمنُ ﴿فَسَوۡفَ يُحَاسَبُ حِسَابٗا يَسِيرٗا﴾ لا مناقشةَ فيهِ. قالَ ﷺ: «منْ حوسبَ يومَ القيامةِ عذّبَ». قالتْ عايشة: فقلت يا رسولَ اللّهِ أليسَ قدْ قالَ اللّهُ: ﴿فَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَسَوۡفَ يُحَاسَبُ حِسَابٗا يَسِيرٗا﴾ فقالَ: «ليسَ ذاكَ الحسابَ، إنّما ذلكَ العرضُ «منْ نوقشَ الحسابَ يومَ القيامةِ عذّبَ» أخرجهُ البخاريُّ ومسلمٌ.

﴿وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ مَسۡرُورٗا﴾ مغتبطا إلى أهلهِ الّذينَ كانوا لهُ في الدّنيا، ليخبرهمْ بخلاصهِ وسلامتهِ. أو إلى أهلهِ الّذينَ قد أعدهم الله له في الجنة.

قولهُ تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهۡرِهِۦ﴾ يأخذه بشمالهِ منْ وراءِ ظهرهِ ﴿فَسَوۡفَ يَدۡعُواْ ثُبُورٗا﴾ أيْ بالهلاكِ فيقولُ: يا ويلاهُ، يا ثبوراهُ ﴿وَيَصۡلَىٰ سَعِيرًا﴾ أيْ ويدخلُ النّارَ حتّى يصلى بحرّها. وقرأ الحرميانُ وابنُ عامرٍ والكسائيُّ ﴿وَيُصَلَّىٰ﴾ بضمِّ الياءِ وفتحِ الصّادِ، وتشديدِ اللّامِ، كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱلۡجَحِيمَ صَلُّوهُ﴾، وقوله: ﴿وَتَصۡلِيَةُ جَحِيمٍ﴾. الباقونَ ويَصْلى بفتحِ الياءِ مخفّفًا، فعلٌ لازمٌ غيرُ متعدٍّ، لقولهِ: ﴿إِلَّا مَنۡ هُوَ صَالِ ٱلۡجَحِيمِ﴾ وقوله: ﴿يَصۡلَى ٱلنَّارَ ٱلۡكُبۡرَىٰ﴾ وقوله: ﴿ثُمَّ إِنَّهُمۡ لَصَالُواْ ٱلۡجَحِيمِ﴾ ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فِيٓ أَهۡلِهِۦ﴾ أيْ في الدّنيا ﴿مَسۡرُورًا﴾ وصفَ اللّهُ أهلَ الجنّةِ بالمخافةِ والحزنِ والبكاءِ والشّفقةِ في الدّنيا فأعقبهمْ بهِ النّعيمَ والسّرورَ في الآخرةِ، قال تعالى: ﴿إِنَّا كُنَّا قَبۡلُ فِيٓ أَهۡلِنَا مُشۡفِقِينَ ٢٦ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ﴾، ووصفَ أهلَ النّارِ بالسّرورِ في الدّنيا والضّحكِ فيها والتّفكّهِ. فقالَ: إنّهُ كانَ في أهلهِ مسروراً ﴿إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ﴾ أيْ لنْ يرجعَ حيـًا مبعوثـًا فيحاسبُ، ثمَّ يثابُ أوْ يعاقبُ، والحَورُ في كلامِ العربِ الرّجوعُ، ومنهُ قولهُ ﷺ: «اللّهمَّ إنّي أعوذُ بكَ منَ الحَورِ بعدَ الكورِ» يعني: منَ الرّجوعِ إلى النّقصانِ بعدَ الزّيادةِ، وكذلكَ الحُورُ بالضّمِّ.

قولُهُ تعالى: ﴿بَلَىٰٓ﴾ أيْ ليسَ الأمرُ كما ظنَّ، بلْ يحورُ إلينا ويرجعُ ﴿إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا﴾ قبلَ أنْ يخلقهُ، عالماً بأنَّ مرجعهُ إليهِ.

قولُهُ تعالى: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ﴾ أيْ فأقسم وفلا صلةٌ ﴿بِٱلشَّفَقِ﴾ الحمرةُ الّتي في المغربِ، فإذا ذهبتِ الحمرةُ فقدْ خرجتْ منْ وقتِ المغربِ ووجبتْ صلاةُ العشاءِ، وقالَ بهِ منَ الفقهاءِ مالكٌ والشّافعيُّ وأحمدُ، وقيلَ: هوَ البياضُ، رويَ ذلكَ عنِ أبي حنيفةَ في إحدى الرّوايتينِ عنهُ، والاختيارُ الأوّلُ، لأنَّ أكثرَ الصّحابةِ والتّابعينَ والفقهاءِ عليهِ، ولأنَّ شواهدَ كلامِ العربِ والاشتقاقَ والسّنّةَ تشهدُ لهُ، وزعمَ الحكماءُ أنَّ البياضَ لا يغيبُ أصلاً، ثمَّ الحكمُ معلّقٌ بأوّلِ الاسمِ.

قولُهُ تعالى: ﴿وَٱلَّيۡلِ وَمَا وَسَقَ﴾ أيْ جمعَ وضمَّ ولفَّ، ما كانَ منتشراً بالنّهارِ في تصرّفهِ، والوَسْقُ: ضمّكَ الشّيءَ بعضهُ إلى بعضٍ، ومنهُ قيلَ للطّعامِ الكثيرِ المجتمعِ: وسقٌ، وهوَ ستّونَ صاعاً. واللّيلُ يجلل بظلمته كل شيء فإذا جلّلها فقدْ وسقها. ويكونُ هذا القسمُ قسماً بجميعِ المخلوقاتِ، لاشتمالِ اللّيلِ عليها، كقولهِ تعالى: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَا تُبۡصِرُونَ ٣٨ وَمَا لَا تُبۡصِرُونَ﴾.

قولُهُ تعالى: ﴿وَٱلۡقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ﴾ أيْ تمَّ واجتمعَ واستدارَ ليالِيَ البدرِ، وهوَ افتعالٌ منَ الوسقِ الّذي هوَ الجمعُ، يقالُ: وسقتهُ فاتّسقَ، كما يقالُ: وصلتهُ فاتّصلَ، ويقالُ: أمرُ فلانٍ متّسقٌ: أيْ مجتمعٌ على الصّلاحِ منتظمٌ. ويقالُ: اتّسقَ الشّيءُ: إذا تتابعَ: ﴿لَتَرۡكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ﴾ ابنُ كثيرٍ وحمزةُ والكسائيُّ ﴿لَتَرۡكَبُنَّ﴾ بفتحِ الباءِ خطاباً للنّبيِّ ﷺ، أيْ لتركبنَّ يا محمّدُ رتبةً بعدَ رتبةٍ، في القربةِ منَ اللّهِ تعالى. وقيلَ: لتركبنَّ السّماءَ حالاً بعدَ حالٍ، يعني حالاتها الّتي وصفها اللّهُ تعالى بها منَ الانشقاقِ والطّيِّ وكونها مرّةً كالمهلِ ومرّةً كالدّهانِ، وقيلَ: أيْ لتركبنَّ أيّها الإنسانُ حالاً بعدَ حالٍ، منْ كونكَ نطفةً ثمَّ علقةً ثمَّ مضغةً ثمَّ حياً وميّتاً وغنياً وفقيراً. فالخطابُ للإنسانِ المذكورِ في قولهِ: ﴿يا أيّها الإنسانُ إنّكَ كادحٌ﴾ هوَ اسمٌ للجنسِ، ومعناهُ النّاسُ.

وقرأ الباقونَ ﴿لتركبُنَّ﴾ بضمِّ الباءِ، خطاباً للنّاسِ، أيْ لتركبنَّ حالاً بعدَ حالٍ منْ شدائدَ

القيامةِ، أوْ لتركبنَّ سنّةَ منْ كانَ قبلكمْ في التّكذيبِ واختلاقٍ على الأنبياءِ. قلت: وكلّهُ مرادٌ، وقالَ ﷺ: «لتركبنَّ سننَ منْ قبلكمْ شبراً بشبرا، وذراعا بذراع، حتى لو دخلوا حجر ضبٍّ لدخلتموهُ» قالوا: يا رسولَ اللّهِ، اليهودُ والنّصارى؟ قالَ: فمنْ؟ خرّجهُ البخاريُّ.

وقيلَ: حالاً بعدَ حالٍ، فطيماً بعدَ رضيع، وشيخاً بعدَ شبابٍ، وأمراً بعدَ أمرٍ، رخاءً بعدَ شدّةٍ، وشدّةً بعدَ رخاءٍ، وغنى بعدَ فقرٍ، وفقراً بعدَ غنى، وصحّةً بعدَ سقمٍ، وسقماً بعدَ صحّةٍ، وهذا أدلُّ دليلٍ على حدوثِ العالمِ، وإثباتِ الصّانعِ.

قولهُ تعالى: ﴿فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ وقد وضحتْ لهمُ الآياتُ وقامتِ الدّلالاتُ. وهذا استفهامُ إنكارٍ. وقيلَ: تعجّبٌ أيِ اعجبوا منهمْ في تركِ الإيمانِ معَ هذهِ الآياتِ ﴿وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ ٱلْقُرْءَانُ لَا يَسْجُدُونَ﴾ أيْ لا يصلّونَ. وفي الصّحيحِ: أنَّ أبا هريرةَ قرأَ إذا السّماءُ انشقّتْ فسجدَ فيها، فلمّا انصرفَ أخبرهمْ أنَّ رسولَ اللّهِ ﷺ سجدَ فيها. وقدْ قالَ مالكٌ: إنّها ليستْ منْ عزائمَ السّجودِ، لأنَّ «المعنى» لا يذعنونَ ولا يطيعونَ في العملِ بواجباتهِ.

قولهُ تعالى: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُكَذِّبُونَ﴾ محمّداً ﷺ وما جاءَ بهِ ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ﴾ أيْ بما يضمرونهُ في أنفسهمْ منَ التّكذيبِ، مأخوذٌ منَ الوعاءِ الّذي يجمعُ ما فيهِ ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ أيْ موجعٍ في جهنّمَ على تكذيبهمْ. أيِ اجعل ذلكَ بمنزلةِ البشارةِ ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ استثناءٌ منقطعٌ، كأنّهُ قالَ: لكنَّ الّذينَ صدّقوا بشهادةِ أنْ لا إلهَ إلّا اللّهُ وأنَّ محمّداً رسولُ اللّهِ، وعملوا الصّالحاتِ، أيْ أدّوا الفرائضَ المفروضةَ عليهمْ ﴿لَهُمْ أَجْرٌ﴾ أيْ ثوابٌ ﴿غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ أيْ غيرُ منقوصٍ ولا مقطوعٍ.

سورة البروج

مكّيّةٌ باتّفاقٍ، وهيَ ثنتانِ وعشرونَ آية

بسمِ اللّهِ الرّحمنِ الرّحيمِ

قولهُ تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ﴾ قسم أقسم الله به عز وجل. وذات البروجِ ذاتُ النّجوم ﴿ٱلْيَوْمِ ٱلْمَوْعُودِ﴾ بهِ. وهوَ قسمٌ آخرُ، وهوَ يومُ القيامةِ ﴿وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ﴾ الشّاهدُ يومُ الجمعةِ، والمشهودُ يومُ عرفةَ وقيلَ: المشهودُ يومُ القيامةِ، لقول تعالى: ﴿ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾ والشاهد اللّهُ تعالى، لقوله: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾، وقوله: ﴿قُلِ ٱللَّهُ شَهِيدٌۢ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾. وقيلَ: محمّدٌ ﷺ، لقوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا﴾، وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾، وقيلَ: الأنبياءُ يشهدونَ على أممهمْ، لقولهِ تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ﴾، وقيلَ: عيسى بن مريمَ، لقولهِ: ﴿وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ﴾ والمشهودُ: أمّتهُ، وقيلَ: الشّاهدُ الإنسانُ، دليلهُ: ﴿كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾، وقيلَ: أعضاؤهُ، بيانهُ: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾، وقيلَ: الشّاهدُ هذهِ الأمّةُ، والمشهودُ سائرُ الأممِ، بيانهُ: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾، وقدْ يشهدُ المالُ على صاحبهِ، والأرضُ بما عملَ عليها، ففي صحيحِ مسلمٍ عنِ النّبيِّ ﷺ: «إنَّ هذا المالَ خضرٌ حلوٌ، ونعمَ صاحبُ المسلمِ هوَ لمنْ أعطى منهُ المسكينَ واليتيمَ وابنَ السّبيلِ أوْ كما قالَ رسولُ اللّهِ ﷺ وإنّهُ منْ يأخذهُ بغيرِ حقّهِ كانَ كالّذي يأكلُ ولا يشبعُ ويكونُ عليهِ شهيداً يومَ القيامةِ»، وفي التّرمذيِّ عنْ أبي هريرةَ قالَ: قرأَ رسولُ اللّهِ ﷺ هذهِ الآية: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾ قال: «أتدرون ما أخبارها»؟ قالوا: الله ورسوله أعلمُ. قالَ: «فإنَّ أخبارها أنْ تشهدَ على كلِّ عبدٍ أوْ أمةٍ بما عملَ على ظهرها، تقولُ عملَ يومَ كذا كذا وكذا. قالَ: فهذهِ أخبارها». قالَ حديثٌ حسنٌ غريبٌ صحيحٌ.

قولهُ تعالى: ﴿قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ﴾ أي لعن، وهذا جوابُ القسمِ، والأخدودُ: الشّقُّ العظيم المستطيلُ في الأرضِ كالخندقِ، وجمعهُ أخاديدُ. ومنهُ الخدُّ لمجاري الدّموعِ،

والمخدّةُ، لأنَّ الخدَّ يوضعُ عليها. ويقالُ: تخدّدَ وجهُ الرّجلِ: إذا صارتْ فيهِ أخاديدُ منْ جراحٍ ﴿ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ﴾ النّارِ بدلٌ من الأخدودِ بدل الاشتمال. أيْ ذاتُ الاتّقادِ والالتهابِ ﴿إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ﴾ يلقونَ فيها المؤمنينَ، وكانوا بنجرانَ في الفترةِ بينَ عيسى ومحمّدٍ صلّى اللّهُ عليهما وسلّمَ.

وفي صحيحِ مسلمٍ عنْ صهيبٍ: أنَّ رسولَ اللّهِ ﷺ قالَ: كانَ ملكٌ فيمنْ كانَ قبلكمْ، وكانَ لهُ ساحرٌ، فلمّا كبرَ قالَ للملكِ: إنّي قدْ كبرتُ فابعثْ إليَّ غلاماً أعلّمهُ السّحرَ، فبعثَ إليهِ غلاماً يعلّمهُ، فكانَ في طريقهِ إذا سلكَ راهبٌ، فقعدَ إليهِ وسمعَ كلامهُ، فأعجبهُ، فكانَ إذا أتى السّاحرَ مرَّ بالرّاهبِ وقعدَ إليهِ، فإذا أتى السّاحرَ ضربهُ، فشكا ذلكَ إلى الرّاهبِ، فقالَ: إذا خشيتَ السّاحرَ فقلْ: حبسني أهلي. وإذا خشيتَ أهلكَ فقلْ: حبسني السّاحرُ. فبينما هوَ كذلكَ إذْ أتى على دابّةٍ عظيمةٍ قدْ حبستِ النّاسَ، فقالَ: اليومَ أعلمُ السّاحرُ أفضلُ أمِ الرّاهبُ أفضلُ؟ فأخذَ حجراً فقالَ: اللّهمَّ إنْ كانَ أمرُ الرّاهبِ أحبَّ إليكَ منْ أمرِ السّاحرِ فاقتلْ هذهِ الدّابّةَ، حتّى يمضيَ النّاسُ، فرماها فقتلها ومضى النّاسُ. فأتى الرّاهبَ فأخبرهُ فقالَ: لهُ الرّاهبُ: أيْ بنيَّ، أنتَ اليومَ أفضلُ منّي، قدْ بلغَ منْ أمركَ ما أرى، وإنّكَ ستبتلى، فإنِ ابتليت فلا تدلَّ عليَّ. وكانَ الغلامُ يبرئُ الأكمهَ والأبرصَ، ويداوي النّاسَ منْ سائرِ الأدواءِ. فسمعَ جليسٌ للملكِ كانَ قدْ عميَ، فأتاهُ بهدايا كثيرةٍ فقالَ: ما هاهنا لكَ أجمعُ إنْ أنتَ شفيتني. فقالَ: إنّي لا أشفي أحداً، إنّما يشفي اللّهُ، فإنْ أنتَ آمنتَ باللّهِ دعوتُ اللّهَ فشفاكَ؟ فآمنَ باللّهِ فشفاهُ اللّهُ. فأتى الملكَ فجلسَ إليهِ كما كانَ يجلسُ، فقالَ: لهُ الملكُ: منْ ردَّ عليكَ بصركَ؟ قالَ ربّي. قالَ: ولكَ ربٌّ غيري؟ قالَ: ربّي وربّكَ اللّهُ. فأخذهُ فلمْ يزلْ يعذّبهُ حتّى دل على الغلامِ، فجئ بالغلامِ فقالَ: لهُ الملكُ: أيْ بنيَّ! أقدْ بلغَ منْ سحركَ ما تبرئُ الأكمهَ والأبرصَ، وتفعلُ وتفعلُ؟! قالَ: أنا لا أشفي أحداً، إنّما يشفي اللّهُ. فأخذهُ فلمْ يزلْ يعذّبهُ حتى دل على الراهب، فجئ بالرّاهبِ، فقيلَ لهُ: ارجعْ عنْ دينكَ. فأبى فدعا بالمنشارِ، فوضعَ المنشارَ في مفرقِ رأسهِ فشقه حتى وقع شقاه. ثم جئ بجليسِ الملكِ فقيلَ لهُ: ارجعْ عنْ دينكَ، فأبى فوضعَ المنشارَ في مفرقِ رأسهِ، فشقّهُ به حتى وقع شقاه. ثم جئ بالغلامِ فقيلَ لهُ: ارجعْ عنْ دينكَ، فأبى فدفعهُ إلى نفرٍ منْ أصحابهِ فقالَ: اذهبوا بهِ إلى جبلِ كذا وكذا، فاصعدوا بهِ الجبلَ، فإذا بلغتمْ ذروتهُ فإنْ رجعَ عنْ دينهِ وإلّا فاطرحوهُ، فذهبوا بهِ فصعدوا به

الجبلَ فقالَ: اللّهمَّ اكفنيهمْ بما شئتَ، فرجفَ بهمُ الجبلُ، فسقطوا. وجاءَ يمشي إلى الملكِ، فقالَ: لهُ الملكُ: ما فعلَ أصحابكَ؟ قالَ: كفانيهمُ اللّهُ. فدفعهُ إلى نفرٍ منْ أصحابهِ فقالَ: اذهبوا بهِ فاحملوهُ في قرقورٍ، فتوسّطوا بهِ البحرَ، فإنْ رجعَ عنْ دينهِ وإلّا فاقذفوهُ، فذهبوا بهِ فقالَ: اللّهمَّ اكفنيهمْ بما شئتَ، فانكفأتْ بهمُ السّفينةُ، فغرقوا. وجاءَ يمشي إلى الملكِ، فقالَ: لهُ الملكُ: ما فعلَ أصحابكَ؟ قالَ: كفانيهمُ اللّهُ. فقالَ: للملكِ: إنّكَ لستَ بقاتلي حتّى تفعلَ ما آمركَ بهِ. قالَ: وما هوَ؟ قالَ: تجمعُ النّاسَ في صعيدٍ واحدٍ، وتصلبني على جذعٍ، ثمَّ خذْ سهماً منْ كنانتي، ثمَّ ضعِ السّهمَ في كبدِ القوسِ، ثمَّ قلْ: باسمِ اللّهِ ربِّ الغلامِ، ثمَّ ارمني، فإنّكَ إذا فعلتَ ذلكَ قتلتني. فجمعَ النّاسَ في صعيدٍ واحدٍ، وصلبهُ على جذعٍ، ثمَّ أخذَ سهماً منْ كنانتهِ، ثمَّ وضعَ السّهمَ في كبدِ القوسِ ثمَّ قالَ: باسمِ اللّهِ ربِّ الغلامِ، ثمَّ رماهُ فوقعَ السّهمُ في صدغهِ، فوضعَ يدهُ في صدغهِ، في موضعِ السّهمِ، فماتَ، فقالَ: النّاسُ: آمنّا بربِّ الغلامِ! آمنّا بربِّ الغلامِ! آمنّا برب الغلامِ! فأتيَ الملكُ فقيلَ لهُ: أرأيتَ ما كنتَ، تحذرُ؟ قدْ واللّهِ نزلَ بكَ حذركَ، قدْ آمنَ النّاسُ، فأمرَ بالأخدودِ في أفواهِ السككِ، فحدت، وأضرمَ النّيرانَ، وقالَ: منْ لمْ يرجعْ عنْ دينهِ فأحموهُ فيها- أوْ قيلَ لهُ اقتحمْ- ففعلوا، حتّى جاءتِ امرأةٌ ومعها صبيٌّ لها، فتقاعستْ أنْ تقعَ فيها، فقالَ، لها الغلامُ: «يا أمّهُ اصبري فإنّكِ على الحقِّ».

مسألةٌ- قالَ علماؤنا: أعلمَ اللّهُ عزَّ وجلَّ المؤمنينَ منْ هذهِ الأمّةِ في هذهِ الآيةِ، ما كانَ يلقاهُ منْ وحّدَ قبلهمْ منَ الشّدائدِ، يؤنسهمْ بذلكَ. وذكرَ لهمُ النّبيُّ ﷺ قصّةَ الغلامِ ليصبروا على ما يلاقونَ منَ الأذى والآلامِ والمشقّاتِ الّتي كانوا عليها ليتأسّوا بمثلِ هذا الغلامِ، في صبرهِ وتصلّبهِ في الحقِّ وتمسّكهِ بهِ، وبذلهِ نفسهُ في حقِّ إظهارِ دعوتهِ، ودخولِ النّاسِ في الدّينِ معَ صغرِ سنّهِ وعظمِ صبرهِ. وكذلكَ الرّاهبُ صبرَ على التّمسّكِ بالحقِّ حتّى نشرَ بالمنشارِ. وكذلكَ كثيرٌ منَ النّاسِ لمّا آمنوا باللّهِ تعالى ورسخَ الإيمانُ في قلوبهمْ، صبروا على الطّرحِ في النّارِ ولمْ يرجعوا في دينهمْ. ابنُ العربيِّ: وهذا منسوخٌ عندنا، حسبَ ما تقدّمَ بيانهُ في النّحلِ.

قلت: ليسَ بمنسوخٍ عندنا، وأنَّ الصّبرَ على ذلكَ لمنْ قويتْ نفسهُ وصلبَ دينهُ أولى، قالَ اللّهُ تعالى مخبراً عنْ لقمانَ: ﴿يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ﴾، وروى أبو سعيدٍ الخدريُّ أنَّ النّبيَّ ﷺ قال: «إنَّ

منْ أعظمِ الجهادِ كلمةَ عدلٍ عندَ سلطانٍ جائرٍ»: خرّجهُ التّرمذيُّ، وقالَ: حسنٌ غريبٌ.

قالَ علماؤنا: ولقدِ امتحنَ كثيرٌ منْ أصحابِ النّبيِّ ﷺ بالقتلِ والصّلبِ والتعذيب الشديد، فصبروا ولم يلتفتوا إلى شيء منْ ذلكَ ويكفيكَ قصّةُ عاصمٍ وخبيبٍ وأصحابهما وما لقوا منَ الحروبِ والمحنِ والقتلِ والأسرِ والحرقِ، وغيرِ ذلكَ، وقدْ مضى في «النّحلِ» أنَّ هذا إجماعٌ ممّنْ قويَ في ذلكَ، فتأمله هناك.

قولهُ تعالى: ﴿قتلَ أصحابُ الأخدودِ﴾ دعاءٌ على هؤلاءِ الكفّارِ بالإبعادِ منْ رحمةِ اللّهِ تعالى: وقيلَ: معناهُ الإخبارُ عنْ قتلِ أولئكَ المؤمنينَ.

قولهُ تعالى: ﴿وَهُمۡ عَلَىٰ مَا يَفۡعَلُونَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ شُهُودٞ﴾ أيْ حضورٌ، وفي ذلكَ وصفهمْ بالقسوةِ ثمَّ بالجدِّ في ذلكَ.

قولهُ تعالى: ﴿وَمَا نَقَمُواْ مِنۡهُمۡ إِلَّآ أَن يُؤۡمِنُواْ﴾ أيْ إلّا أنْ يصدّقوا: ﴿بِٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ﴾ أي الغالب المنيع ﴿ٱلۡحَمِيدِ﴾ أي المحمودِ في كلِّ حالٍ ﴿ٱلَّذِي لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ لا شريك له فيهما ولا نديدَ ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ﴾ لا تخفى عليهِ خافية.

قولهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ﴾ أيْ حرّقوهمْ بالنّارِ ﴿ثُمَّ لَمۡ يَتُوبُواْ﴾ أيْ منْ قبيحِ صنيعهمْ معَ ما أظهرهُ اللّهُ لهذا الملكِ الجبّارِ الظّالمِ وقومِهِ منَ الآياتِ والبيّناتِ على يدِ الغلامِ ﴿فَلَهُمۡ عَذَابُ جَهَنَّمَ﴾ لكفرهمْ ﴿وَلَهُمۡ عَذَابُ ٱلۡحَرِيقِ﴾ في الدّنيا لإحراقهمُ المؤمنينَ بالنّارِ. وقيلَ: لهمْ عذابٌ، وعذابُ جهنّمَ الحريقُ. والحريقُ: اسمٌ منْ أسماءِ جهنّمَ، كالسّعيرِ. والنّارُ دركاتٌ وأنواعٌ ولها أسماءٌ. وكأنّهمْ يعذّبونَ بالزّمهريرِ في جهنّمَ، ثمَّ يعذّبونَ بعذابِ الحريقِ. فالأوّلُ عذابٌ ببردها، والثّاني عذابٌ بحرّها.

قولهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ باللّهِ، وصدّقوا بهِ وبرسلهِ ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ جَنَّٰتٞ﴾ أيْ بساتينَ ﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ منْ ماءٍ غيرِ آسنٍ، ومنْ لبنٍ لمْ يتغيّرْ طعمهُ، ومنْ خمرٍ لذّةٍ للشّاربينَ، وأنهارٌ منْ عسلٍ مصفّى ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡكَبِيرُ﴾ أيِ العظيمُ، الذي لا فوز يشبهه.

قولهُ تعالى: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾ أيْ أخذهُ الجبابرةَ والظّلمةَ، كقولهِ جلَّ ثناؤهُ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ ﴿إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ﴾ يعني الخلقَ- عنْ أكثرِ العلماءِ- يخلقهمُ ابتداءً، ثمَّ يعيدهمْ عندَ البعثِ ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ﴾ أي السّتورُ لذنوبِ عبادهِ المؤمنينَ لا يفضحهمْ بها ﴿ٱلْوَدُودُ﴾ أي المحبُّ لأوليائهِ المتودّدُ إليهم بالمغفرةِ ﴿ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ﴾ قرأَ الكوفيّونَ إلّا عاصماً «الْمَجِيدِ» بالخفضِ، نعتاً للعرشِ وقيلَ: لِـ «رَبِّكَ»، أيْ إنَّ بطشَ ربّكَ المجيدِ لشديد، ولمْ يمتنع الفصلُ، لأنّهُ جارٍ مجرى الصّفةِ في التّشديدِ. الباقونَ بالرّفع نعتاً لِـ «ذو» وهوَ اللّهُ تعالى؛ لأنَّ المجدَ هوَ النّهايةُ في الكرمِ والفضلِ، واللّهُ سبحانهُ المنعوتُ بذلكَ، وإنْ كانَ قدْ وصفَ عرشهُ بالكريمِ في آخرِ المؤمنونَ ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ أي لا يمتنع عليه شيء يريدهُ، وفعّالٌ خبرُ ابتداءٍ محذوفٍ. وإنّما قيل: فعّالٌ لأنَّ ما يريدُ ويفعلُ في غايةِ الكثرةِ.

قولهُ تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْجُنُودِ﴾ أي الجموعِ الكافرةِ المكذّبةِ لأنبيائهمْ، يؤنسهُ بذلكَ ويسلّيهِ. ثمَّ بيّنهمْ فقالَ: ﴿فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ﴾ وهما في موضعِ جرٍّ على البدلِ منَ الجنودِ ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أيْ منْ هؤلاءِ الّذينَ لا يؤمنون بك ﴿فِى تَكْذِيبٍ﴾، وإنّما خصَّ فرعونَ وثمودَ، لأنَّ ثمودَ في بلادِ العربِ وقصّتهمْ عندهمْ مشهورةٌ وإنْ كانوا منَ المتقدّمينَ. وأمرُ فرعونَ كانَ مشهوراً عندَ أهلِ الكتابِ وغيرهمْ، وكانَ منَ المتأخّرينَ في الهلاكِ، فدلَّ بهما على أمثالهما في الهلاك ﴿وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطٌۢ﴾ أيْ يقدرُ على أنْ ينزلَ بهمْ ما أنزلَ بفرعونَ. والمحاطُ بهِ كالمحصورِ ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ﴾ أيْ متناهٍ في الشّرفِ والكرمِ والبركةِ، وهوَ بيانُ ما بالنّاسِ الحاجةُ إليهِ منْ أحكامِ الدّينِ والدّنيا، وقيلَ مجيدٌ: أيْ غيرُ مخلوقٍ ﴿فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ﴾ أيْ مكتوبٍ ومحفوظٌ عندَ اللّهِ تعالى منْ وصولِ الشّياطينِ إليهِ.

وقرأ نافعٌ ﴿فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٌ﴾ بالرّفع نعتاً للقرآنِ، الباقون بالجر نعتا للوح، واللّوحُ: الكتفُ، وكلُّ عظمٍ عريضٍ. واللّوحُ: الّذي يكتبُ فيهِ.

سورة الطارق

مكّيّةٌ، وهيَ سبعَ عشرةَ آيةً

بسمِ اللّهِ الرّحمنِ الرّحيمِ

قولهُ تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ﴾ قسمان: السّماءِ قَسَم، والطّارقِ قَسَمٌ. والطّارقُ: النّجمُ. وقدْبيّنهُ اللّهُ تعالى بقولهِ: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ ۝٢ ٱلنَّجۡمُ ٱلثَّاقِبُ﴾، واختلفَ فيهِ، فقيلَ: هو نجمٌ في السّماءِ السّابعةِ، والثّاقبُ: الّذي ترمى بهِ الشّياطينُ. وقيلَ: هوَ عامٌّ في سائرِ النّجومِ، لأنَّ طلوعها بليل، وكلُّ منْ أتاكِ ليلاً فهو طارق، فالطّارقُ: النّجمُ، اسمُ جنسٍ، سمّيَ بذلكَ لأنّهُ يطرقُ ليلاً، ومنهُ الحديثُ: «نهى النّبيُّ ﷺ أنْ يطرقَ المسافرُ أهلهُ ليلاً، كيْ تستحدَّ المغيبةُ، وتمتشطَ الشّعثةُ». والعربُ تسمّي كلَّ قاصدٍ في اللّيلِ طارقًا، وأصلُ الطّرقِ: الدّقُّ، ومنهُ سمّيتِ المطرقةُ، فسمّيَ قاصدُ اللّيلِ طارقًا، لاحتياجهِ في الوصولِ إلى الدّقِّ، ثمَّ بيّنَ فقالَ: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ ۝٢ ٱلنَّجۡمُ ٱلثَّاقِبُ﴾ والثاقب: المضيء، ومنهُ شهابٌ ثاقبٌ.

والمعظمُ على أنَّ الطّارقَ والثّاقبَ اسمُ جنسٍ أريدَ بهِ العمومُ ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ﴾ تفخيمًا لشأنِ هذا المقسمِ بهِ. وقالَ سفيانُ: كلُّ ما في القرآنِ وما أدراكَ؟ فقدْ أخبرهُ بهِ. وكلُّ شيء قالَ فيهِ: «وَمَا يُدْرِيكَ»: لمْ يخبرهُ بهِ.

قولهُ تعالى: ﴿إِن كُلُّ نَفۡسٖ لَّمَّا عَلَيۡهَا حَافِظٞ﴾ حَفَظةٌ يحفظونَ عليكَ رزقكَ وعملكَ وأجلكَ، وهذا هوَ جوابُ القسمِ. وقيلَ: الجوابُ ﴿إنّهُ على رجعهِ لقادرٌ﴾ وَ «إنْ»: مخفّفةٌ منَ الثّقيلةِ، وَ «ما»: مؤكّدةٌ، وقراءةُ ابنِ عامرٍ وعاصمٍ وحمزةَ «لَمَّا» بتشديدِ الميمِ، أيْ ما كلُّ نفسٍ إلّا عليها حافظ، وهي لغة هذيلٍ: يقولُ قائلهمْ: نشدتكَ لمّا قمتَ. الباقونَ بالتّخفيفِ، على أنّها زائدةٌ مؤكّدةٌ، كما ذكرنا.

والحافظُ في الحقيقة هو الله عز وجل، قالَ اللّهُ عزَّ وجلَّ: ﴿فَٱللَّهُ خَيۡرٌ حَٰفِظٗاۖ﴾، وقالَ: ﴿قُلۡ مَن يَكۡلَؤُكُم بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحۡمَٰنِۗ﴾، وما كان مثله.

قولهُ تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ أي ابنُ آدمَ ﴿مِمَّ خُلِقَ﴾ استفهام، أي من أي شيء خلقَ؟ ثمَّ قالَ: ﴿خُلِقَ﴾ وهوَ جوابُ الاستفهام ﴿مِن مَّآءٍ دَافِقٍ﴾ أيْ منَ المنيِّ. والدّفقُ: صبُّ الماءِ، فهوَ ماءٌ دافقٌ، أيْ مدفوقٌ، كما قالوا: سرٌّ كاتمٌ: أيْ مكتومٌ، والدّافقُ هوَ المندفقُ بشدّةِ قوّتهِ. وأرادَ ماءينِ: ماءَ الرّجلِ وماءَ المرأةِ، لأنَّ الإنسانَ مخلوقٌ منهما، لكنْ جعلهما ماءً واحداً لامتزاجهما ﴿يَخْرُجُ﴾ أيْ هذا الماءُ ﴿مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ﴾ أيِ الظهر ﴿وَٱلتَّرَآئِبِ﴾ أيِ الصّدرُ، الواحدةُ: تريبةٌ، وهيَ موضعُ القلادة من الصدر. والصّلبُ منَ الرّجلِ، والتّرائبُ منَ المرأةِ ﴿إِنَّهُۥ﴾ أيْ إنَّ اللّهَ جلَّ ثناؤهُ ﴿عَلَىٰ رَجْعِهِۦ﴾ أيْ على ردِّ الماءِ في الصلب، وقيلَ: إنّهُ على ردِّ الإنسانِ ماءً كما كانَ لقادرٌ. وقيلَ: إنّهُ على ردِّ الإنسانِ منَ الكبرِ إلى الشّبابِ، ومنَ الشّبابِ إلى الكبرِ لقادرٌ. وقيلَ: إنّهُ على ردِّ الإنسانِ بعدَ الموتِ لقادرٌ، وهوَ الأقوى، لقولهِ تعالى: ﴿يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ﴾، ويحتملُ أنّهُ على أنْ يعيدهُ إلى الدّنيا بعدَ بعثهِ في الآخرةِ، لأنَّ الكفار يسألون الله تعالى فيها الرجعة.

قولهُ تعالى: ﴿يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ﴾، فيهِ مسألتانِ:

الأولى: تبلى أيْ تمتحنُ وتختبرُ، وقيلَ: تبلى السّرائرُ: أيْ تخرجُ مخبّآتها وتظهرُ، وهوَ كلُّ ما كانَ استسرّهُ الإنسانُ منْ خيرٍ أوْ شرٍّ، وأضمرهُ منْ إيمانٍ أوْ كفرٍ.

الثانية: السّرائرِ ما في القلوبِ، يجزي اللّهُ بهِ العبادَ، قالَ ابنُ عمرَ: يبدي اللّهُ يومَ القيامةِ كلَّ سرٍّ خفيَ، فيكونُ زيناً في الوجوهِ، وشيناً في الوجوه. والله عالم بكل شيء، ولكن يظهر علامات الملائكة والمؤمنين.

قولهُ تعالى: ﴿فَمَا لَهُۥ﴾ أيْ للإنسانِ ﴿مِن قُوَّةٍ﴾ أيْ منعةٍ تمنعهُ ﴿وَلَا نَاصِرٍ﴾ ينصرهُ ممّا نزلَ بهِ.

قولهُ تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجْعِ﴾ أيْ ذاتِ المطرِ. ترجعُ كلَّ سنةٍ بمطر بعد مطر. وقيلَ: الرّجعُ: المطرُ نفسهُ، والرّجعُ أيضاً: نباتُ الرّبيعِ، وهذا قسمٌ ﴿وَٱلْأَرْضِ ذَاتِ ٱلصَّدْعِ﴾ قسمٌ آخرُ، أيْ تتصدّعُ عنِ النّباتِ والشّجرِ والثّمارِ والأنهارِ، نظيرهُ ﴿ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا﴾... الآيةَ. والصّدعُ: بمعنى الشّقِّ، لأنّهُ يصدعُ الأرضَ، فتنصدعُ بهِ. وقيلَ: ذاتُ

الأمواتِ: لانصداعها عنهمْ للنّشورِ ﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلٞ فَصۡلٞ﴾ على هذا وقعَ القسمُ. أيْ إنَّ القرآنَ يفصلُ بينَ الحقِّ والباطلِ، وقيلَ: المرادُ بالقولِ الفصل: ما تقدّمَ منَ الوعيدِ في هذهِ السّورةِ، منْ قولهِ تعالى: ﴿إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجۡعِهِۦ لَقَادِرٞ ٨ يَوۡمَ تُبۡلَى ٱلسَّرَآئِرُ﴾ ﴿وَمَا هُوَ بِٱلۡهَزۡلِ﴾ أيْ ليسَ القرآنُ بالباطلِ واللّعبِ. والهزلُ: ضدُّ الجدِّ، وقدْ هزلَ يهزلُ ﴿إِنَّهُمۡ﴾ أيْ إنَّ أعداءَ اللّهِ ﴿يَكِيدُونَ كَيۡدٗا﴾ أيْ يمكرونَ بمحمّدٍ ﷺ وأصحابهِ مكراً ﴿وَأَكِيدُ كَيۡدٗا﴾ أيْ أجازيهمْ جزاءَ كيدهمْ. وقيلَ: هوَ ما أوقعَ اللّهُ بهمْ يومَ بدرٍ منَ القتلِ والأسرِ. وقيلَ: كيدُ اللّهِ: استدراجهمْ منْ حيثُ لا يعلمونَ.

قولهُ تعالى: ﴿فَمَهِّلِ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ أيْ أخّرهمْ، ولا تسألِ اللّهَ تعجيلَ إهلاكهمْ، وارضَ بما يدبّرهُ في أمورهمْ. ثمَّ نسختْ بآيةِ السّيفِ: ﴿فَٱقۡتُلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ حَيۡثُ وَجَدتُّمُوهُمۡ﴾ ﴿أَمۡهِلۡهُمۡ﴾ تأكيدٌ. ومهّلَ وأمهلَ: بمعنى، مثلَ نزّلَ وأنزلَ. وأمهلهُ: أنظرهُ، ومهّلهُ تمهيلاً، والاسمُ: المهلةُ. والاستمهالُ: الاستنظارُ. وتمهّلَ في أمرهِ أيِ اتّأدَ ﴿رُوَيۡدَۢا﴾ أيْ قريباً، والرّويدُ في كلامِ العربِ: تصغيرُ رودٍ، يقال: على رودِ على مهلٍ.

سورة الأعلى

مكّيّةٌ في قولِ الجمهورِ، وهيَ تسعَ عشرةَ آيةً.

بسمِ اللّهِ الرّحمنِ الرّحيمِ

قولهُ تعالى: ﴿سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى﴾ أيْ عظّمْ ربّكَ الأعلى. والاسمُ صلةٌ، قصدَ بها تعظيمُ المسمّى، وقيلَ: نزّهْ ربّكَ عنِ السّوءِ، وعمّا يقولُ فيهِ الملحدونَ. وقيل المعنى: نزّهِ اسمَ ربّكَ عنْ أنْ تسمّيَ بهِ أحداً سواهُ. وجعلوا الاسمَ بمعنى التّسميةِ، والأولى أنْ يكونَ الاسمُ هوَ المسمّى.

وعنْ عقبةَ بنِ عامرٍ الجهنيِّ قالَ: لمّا نزلتْ ﴿سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى﴾ قالَ رسولُ اللّهِ ﷺ: «اجعلوها في سجودكمْ». وهذا يدلُّ على أنَّ الاسمَ هوَ المسمّى.

قولهُ تعالى: ﴿ٱلَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ﴾ أيْ سوّى ما خلقَ ﴿وَٱلَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾ نظيره في طه: ﴿ٱلَّذِيٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ أي قدّرَ لكلِّ حيوان ما يصلحه، فهداه إليه، وعرّفهُ وجهَ الانتفاعِ بهِ.

وقيلَ: قدّرَ مدّةَ الجنينِ في الرّحمِ تسعةَ أشهرَ، وأقلَّ وأكثرَ، ثمَّ هداهُ للخروجِ منَ الرّحمِ. وقدّرَ منَ التّقديرِ، كقولهِ تعالى: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيۡءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقۡدِيرًا﴾.

قولهُ تعالى: ﴿وَٱلَّذِيٓ أَخۡرَجَ ٱلۡمَرۡعَىٰ﴾ أيِ النّباتَ والكلأ الأخضر ﴿فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحۡوَىٰ﴾ الغثاءُ: ما يقذفُ بهِ السّيلُ على جوانبِ الوادي منَ الحشيشِ والنّباتِ والقماشِ، ويقالُ للبقلِ والحشيشِ إذا تحطّمَ ويبسَ: غثاءٌ وهشيمٌ، والأحوى: الأسودُ، أيْ إنَّ النّباتَ يضربُ إلى الحوّةِ منْ شدّةِ الخضرةِ كالأسودِ. والحوّةُ: السّوادُ، والحوّةُ: سمرةُ الشّفةِ. يقالُ: رجلٌ أحوى، وامرأةٌ حوّاءُ. وهوَ مثلٌ ضربهُ اللّهُ تعالى للكفار، لذهاب الدنيا بعد نضارتها.

قولهُ تعالى: ﴿سَنُقۡرِئُكَ﴾ أي القرآنَ يا محمّدُ فنعلّمكهُ ﴿فَلَا تَنسَىٰٓ﴾ أيْ فتحفظُ، وهذهِ بشرى منَ اللّهِ تعالى، وهوَ أمّيٌّ لا يكتبُ ولا يقرأُ، فيحفظهُ ولا ينساهُ، ووجهُ الاستثناءِ على هذا ﴿إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ﴾، وهوَ لمْ يشأْ أنْ ينسى شيئًا، كقولهِ تعالى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ

ﵟٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَۚﵞ ولا يشاءُ. وعلى هذا مجاري الأيمانِ، يستثنى فيهاونيّةُ الحالفِ التّمامُ.

وقيلَ: إلّا ما شاءَ اللّهُ أنْ ينسى ثمَّ يذكرُ بعدَ ذلكَ، فإذاً قدْ نسيَ، ولكنّهُ يتذكّرُ ولا ينسى نسيانـًا كلّيـًا. وقدْ رويَ أنّهُ أسقطَ آيةً في قراءتهِ في الصّلاةِ، فحسبَ أبيٌّ أنّها نسختْ، فسألهُ فقالَ: «إنّي نسيتها».

وقيلَ: هوَ منَ النّسيانِ، أيْ إلّا ما شاءَ اللّهُ أنْ ينسيكَ. ثمَّ قيل: هذا بمعنى النّسخِ، أيْ إلّا ما شاءَ اللّهُ أنْ ينسخهُ. والاستثناءُ نوعٌ منَ النّسخِ. وقيلَ. النّسيانُ بمعنى التّركِ، أيْ يعصمكَ منْ أنْ تتركَ العملَ بهِ، إلّا ما شاءَ اللّهُ أنْ تتركهُ لنسخهِ إيّاهُ. فهذا في نسخِ العملِ، والأوّلُ في نسخِ القراءةِ.

وقولهُ: ﵟفَلَاﵞ: للنّفي لا للنّهي. وقيلَ: للنّهي، وإنّما أثبتتِ الياءُ لأنَّ رؤوسَ الآيِ على ذلكَ. والمعنى: لا تغفلْ عنْ قراءتهِ وتكرارهِ فتنساهُ، إلّا ما شاءَ اللّهُ أنْ ينسيكهُ برفعِ تلاوتهِ للمصلحةِ. والأوّلُ هوَ المختارُ، لأنَّ الاستثناءَ منَ النّهي لا يكادُ يكونُ إلّا مؤقّتـًا معلومـًا. وأيضـًا فإنَّ الياءَ مثبتةٌ في جميعِ المصاحفِ، وعليها القرّاءُ.

قولهُ تعالى: ﵟإِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلۡجَهۡرَﵞ أيِ الإعلانَ منَ القولِ والعملِ ﵟوَمَا يَخۡفَىٰﵞ منَ السّرِّ ﵟوَنُيَسِّرُكَﵞ معطوفٌ على سنقرئكَ وقولهُ: إنّهُ يعلمُ الجهرَ وما يخفى اعتراض. ومعنى ﵟلِلۡيُسۡرَىٰﵞ أيْ للطّريقةِ اليسرى، وهيَ عملُ الخيرِ، وقيلَ: نوفّقكَ للشّريعةِ اليسرى، وهيَ الحنيفيّةُ السّمحةُ السّهلةُ.

قولهُ تعالى: ﵟفَذَكِّرۡﵞ أيْ فعظْ قومكَ يا محمّدُ بالقرآنِ ﵟإِن نَّفَعَتِﵞ الموعظةُ ﵟٱلذِّكۡرَىٰﵞ فهي: تذكرةٌ للمؤمنِ، وحجّةٌ على الكافرِ. فالتّذكيرُ واجبٌ وإنْ لمْ ينفعْ. والمعنى: فذكّرْ إنْ نفعتِ الذّكرى، أوْ لمْ تنفعْ، فحذفَ، كما قال: ﵟسَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلۡحَرَّﵞ، وقيلَ: إنَّ ﵟإِنﵞ بمعنى "ما" لا بمعنى الشرط، أيْ فذكّرْ ما نفعتِ الذّكرى لأن الذكرى نافعة بكل حال، وقيلَ: أنَّ ﵟإِنﵞ بمعنى إذْ، أيْ إذْ نفعتْ، كقولهِ تعالى: ﵟوَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَﵞ أيْ إذْ كنتمْ، فلمْ يخبرْ بعلوّهمْ إلّا بعد إيمانهم. وقيلَ: بمعنى قد.

قولهُ تعالى: ﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخۡشَىٰ﴾ أي من يتق اللّهَ ويخافهُ ﴿وَيَتَجَنَّبُهَا﴾ ويبعد عنها ﴿ٱلۡأَشۡقَى﴾ أي الشّقيُّ في علمِ اللّهِ ﴿ٱلَّذِي يَصۡلَى ٱلنَّارَ ٱلۡكُبۡرَىٰ﴾ أي العظمى، والصّغرى نارُ الدّنيا ﴿ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا﴾ فيستريحُ منَ العذابِ ﴿وَلَا يَحۡيَىٰ﴾ حياةً تنفعهُ.

قولهُ تعالى: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ١٤ وَذَكَرَ ٱسۡمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ﴾، فيهِ ثلاثُ مسائلَ:

الأولى: قولهُ تعالى: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن تَزَكَّىٰ﴾ أيْ منْ تطهّرَ منَ الشّركِ بإيمانٍ، وقيلَ: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن تَزَكَّىٰ﴾ أخرجَ زكاةَ الفطرِ ﴿وَذَكَرَ ٱسۡمَ رَبِّهِۦ﴾ في طريقِ المصلّى ﴿فَصَلَّىٰ﴾ صلاةُ العيدِ، وقيل المراد بالآية زكاة الأموال كلها، وقيلَ: هيَ زكاةُ الأعمالِ، لا زكاةُ الأموالِ، أيْ تطهّرَ في أعمالهِ منَ الرّياءِ والتّقصيرِ، لأنَّ الأكثرَ أنْ يقالَ في المالِ: زكّى، لا تزكّى.

الثانية- تقدّمَ أنَّ هذهِ السّورةَ مكّيّةٌ، في قولِ الجمهورِ، ولمْ يكنْ بمكّةَ عيدٌ ولا زكاةُ فطرٍ، ولا يبعدُ أنْ يكونَ أثنى على منْ يمتثلُ أمرهُ في صدقةِ الفطرِ وصلاةِ العيدِ، فيما يأمرُ بهِ في المستقبلِ.

الثالثة- قولهُ تعالى: ﴿وَذَكَرَ ٱسۡمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ﴾ قيل: هيَ تكبيراتُ العيدِ، وقيلَ: ذكرَ معادهُ وموقفهُ بينَ يدي اللّهِ جلَّ ثناؤهُ، فعبدهُ وصلّى لهُ. وقيلَ: ذكرَ اسمَ ربّهِ بالتّكبيرِ في أوّلِ الصّلاةِ، لأنّها لا تنعقدُ إلّا بذكرهِ، وهوَ قولهُ: اللّهُ أكبرُ، وبهِ يحتجُّ على وجوبِ تكبيرةِ الافتتاحِ، وعلى أنّها ليستْ منَ الصّلاةِ، لأنَّ الصّلاةَ معطوفةٌ عليها. وفيهِ حجّةٌ لمنْ قالَ: إنَّ الافتتاحَ جائزٌ بكلِّ اسمٍ منْ أسماءِ اللّهِ عزَّ وجلَّ. وهذه مسألة خلافية.

قولهُ تعالى: ﴿بَلۡ تُؤۡثِرُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا﴾ قراءةُ العامّةِ بلْ تؤثرونَ بالتّاءِ، وقرأ أبو عمرو «بَلْ يُؤْثِرُونَ» بالياءِ على الغيبةِ، تقديرهُ: بلْ يؤثرونَ الأشقونَ الحياةَ الدّنيا. وعلى الأوّلِ فيكونُ تأويلها بلْ تؤثرونَ أيّها المسلمونَ الاستكثارَ منَ الدّنيا، للاستكثارِ منَ الثّوابِ.

قولهُ تعالى: ﴿وَٱلۡأٓخِرَةُ﴾ أي الجنّةُ ﴿خَيۡرٞ﴾ منَ الدّنيا ﴿وَأَبۡقَىٰٓ﴾ أيْ أدومُ. وقالَ النّبيُّ ﷺ: «ما الدّنيا في الآخرةِ إلّا كما يضعُ أحدكمْ أصبعهُ في اليمِّ، فلينظرْ بمَ يرجعُ» صحيحٌ.

قالَ مالكُ بنُ دينارٍ: لوْ كانتِ الدّنيا منْ ذهبٍ يفنى، والآخرةُ منْ خزفٍ يبقى، لكانَ الواجبُ أنْ يؤثرَ خزفٌ يبقى، على ذهبٍ يفنى. قالَ: فكيفَ والآخرةُ منْ ذهبٍ يبقى، والدّنيا

منْ خزف يفنى.

قولهُ تعالى: ﴿إِنَّ هَـٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلۡأُولَىٰ﴾ أي قولهُ ﴿وَٱلۡأَاخِرَةُ خَيۡرٌ وَأَبۡقَىٰٓ﴾ وقيلَ: منْ قولهِ: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ﴾ إلى آخرِ السّورةِ ﴿صُحُفِ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ﴾ يعني الكتبَ المنزّلةَ عليهما. ولمْ يردْ أنَّ هذهِ الألفاظَ بعينها في تلكَ الصّحفِ، وإنّما هوَ على المعنى، أيْ إنَّ معنى هذا الكلامِ واردٌ في تلكَ الصّحفِ.

سورة الغاشية

مكّيّةٌ في قولِ الجميعِ، وهيَ ستٌّ وعشرونَ آيةً.

بسمِ اللّهِ الرّحمنِ الرّحيمِ

قولهُ تعالى: ﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلۡغَٰشِيَةِ﴾ هلْ بمعنى قدْ، كقولهِ: ﴿هَلۡ أَتَىٰ عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ﴾، والغاشيةُ القيامةُ الّتي تغشى الخلائقَ بأهوالِها وأفزاعِها، وقيلَ: النّارُ تغشى وجوهَ الكفّارِ، ودليلهُ قولهُ تعالى: ﴿وَتَغۡشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ﴾.

وقيلَ: إنّها خرجتْ مخرجَ الاستفهامِ لرسولهِ، ومعناهُ إنْ لمْ يكنْ أتاكَ حديثُ الغاشيةِ فقدْ أتاكَ.

قولهُ تعالى: ﴿وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٍ﴾ أيْ يومَ القيامةِ ﴿خَٰشِعَةٌ﴾ ذليلةٌ بالعذابِ. والمرادُ بالوجوهِ أصحابُ الوجوهِ وهم الكفّارُ كلهم ﴿عَامِلَةٞ نَّاصِبَةٞ﴾ عاملةٌ ناصبةٌ في الدّنيا خاشعةٌ في الآخرةِ، لأنَّ الآخرةَ ليستْ دارَ عملٍ، وهمُ الّذينَ أنصبوا أنفسهمْ في الدّنيا على معصيةِ اللّهِ عزَّ وجلَّ، وعلى الكفرِ، مثلُ عبدةِ الأوثانِ، وكفّارُ أهلِ الكتابِ مثلُ الرّهبانِ وغيرهمْ، لا يقبلُ اللّهُ جلَّ ثناؤهُ منهمْ إلّا ما كانَ خالصاً لهُ.

وقيلَ: عاملةٌ ناصبةٌ في النّارِ، بجرِ السّلاسلِ الثّقالِ، وحملِ الأغلالِ، والوقوفِ حفاةً عراةً في العرصاتِ، في يومٍ كانَ مقدارهُ خمسينَ ألفَ سنةٍ.

وقيلَ: عاملةٌ في الدّنيا ناصبةٌ في الآخرةِ، وعنْ عليٍّ رضي الله عنه أنّهمْ أهلُ حروراءَ، يعني الخوارجَ الّذينَ ذكرهمْ رسولُ اللّهِ ﷺ فقالَ: «تحقرونَ صلاتكمْ معَ صلاتهمْ، وصيامكمْ معَ صيامهمْ، وأعمالكمْ معَ أعمالهمْ، يمرقونَ منَ الدّينِ كما تمرق السهم من الرمية...» الحديث.

قولهُ تعالى: ﴿تَصۡلَىٰ نَارًا حَامِيَةٗ﴾ قرأ أبو عمرو وأبو بكرٍ ويعقوبُ ﴿تُصۡلَىٰ﴾ بضمِّ التاء. الباقون بفتحها. وقرئ ﴿تُصَلَّىٰ﴾ بالتّشديدِ. وحاميةٌ حميَ غيظٍ وغضبٍ، مبالغةً في شدّةِ الانتقامِ، وقدْ بيّنَ اللّهُ تعالى بقولهِ هذا المعنى فقالَ: ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلۡغَيۡظِۖ﴾.

قولُهُ تعالى: ﴿تُسۡقَىٰ مِنۡ عَيۡنٍ ءَانِيَةٍ﴾ أيْ تناهى حرّها، والآني: الّذي قدِ انتهى حرّهُ، منَ الإيناءِ، بمعنى التّأخيرِ. ومنهُ «آنيتَ وآذيتَ»، ومنهُ: ﴿يَطُوفُونَ بَيۡنَهَا وَبَيۡنَ حَمِيمٍ ءَانٍ﴾.

قولُهُ تعالى: ﴿لَّيۡسَ لَهُمۡ﴾ أيْ لأهلِ النّارِ ﴿طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ﴾ لمّا ذكرَ شرابهمْ ذكرَ طعامهمْ. والضّريعُ: نبتٌ ذو شوكٍ لاصقٌ بالأرضِ، لا تقربهُ دابّةٌ ولا بهيمةٌ ولا ترعاهُ، وهوَ سمٌّ قاتلٌ، وهوَ أخبثُ الطّعامِ وأشنعهُ. وقيلَ: هوَ الزّقّومُ. فاللّهُ أعلمُ. وقدْ قالَ اللّهُ تعالى في موضعٍ آخرَ: ﴿فَلَيۡسَ لَهُ ٱلۡيَوۡمَ هَٰهُنَا حَمِيمٌ ۝٣٥ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنۡ غِسۡلِينٍ﴾، ووجهُ الجمعِ أنَّ النّارَ دركاتٌ، فمنهمْ منْ طعامهُ الزّقّومُ، ومنهمْ منْ طعامهُ الغسلينُ، ومنهمْ منْ طعامهُ الضّريعُ، ومنهمْ منْ شرابهُ الحميمُ، ومنهمْ منْ شرابهُ الصّديدُ. والّذي أنبتَ الضّريعَ في هذا التّرابِ قادرٌ على أنْ ينبتهُ في حريقِ النّارِ، فلا النّارُ تحرقُ الشّجرَ، ولا رطوبةُ الماءِ في الشّجرِ تطفئُ النّارَ، كما قالَ تعالى: ﴿ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلۡأَخۡضَرِ نَارٗا فَإِذَآ أَنتُم مِّنۡهُ تُوقِدُونَ﴾، وكما قيلَ حينَ نزلتْ: ﴿وَنَحۡشُرُهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ﴾: قالوا يا رسولَ اللّهِ، كيفَ يمشونَ على وجوههم؟ فقال: «الذي أمشاهمْ على أرجلهمْ قادرٌ على أنْ يمشيهمْ على وجوههمْ». فلا يتحيّرُ في مثلِ هذا إلا ضعيف القلب.

قولُهُ تعالى: ﴿لَّا يُسۡمِنُ وَلَا يُغۡنِي مِن جُوعٖ﴾ يعني الضّريعَ.

قولُهُ تعالى: ﴿وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ نَّاعِمَةٞ﴾ وهيَ وجوهُ المؤمنينَ، والوجوهُ عبارةٌ عنِ الأنفسِ نعمتْ بما عاينتْ منْ عاقبةِ أمرها وعملها الصّالحِ ﴿لِّسَعۡيِهَا﴾ أيْ لعملها الّذي عملتهُ في الدّنيا ﴿رَاضِيَةٞ﴾ في الآخرةِ حينَ أعطيتِ الجنّةَ بعملها ﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٖ﴾ فوق السموات أو عاليةُ القدرِ ﴿لَّا تَسۡمَعُ فِيهَا لَٰغِيَةٗ﴾ أيْ كلامًا ساقطًا غيرَ مرضيٍّ؛ لأنَّ أهلَ الجنّةِ لا يتكلّمونَ إلّا بالحكمةِ وحمدِ اللّهِ على ما رزقهمْ منَ النّعيمِ الدّائمِ، وقرأ أبو عمرو وابنُ كثيرٍ ﴿لَا يُسۡمَعُ﴾ بياءٍ غيرُ مسمّى الفاعلِ. وكذلكَ نافعٌ، إلّا أنّهُ بالتّاءِ المضمومةِ، لأنَّ اللّاغيةَ اسمٌ مؤنّثٌ فأنّثَ الفعلَ لتأنيثهِ. ومنْ قرأَ بالياءِ فلأنّهُ حالَ بينَ الاسمِ والفعلِ الجارُّ والمجرورُ. وقرأ الباقونَ بالتّاءِ مفتوحةً ﴿لاغيةً﴾ نصبًا على إسنادِ ذلكَ للوجوهِ، أيْ لا تسمع الوجوه فيها لاغية.

قولُهُ تعالى: ﴿فِيهَا عَيۡنٞ جَارِيَةٞ﴾ منْ غيرِ أخدودٍ بأنواعِ الأشربةِ اللّذيذةِ على وجهِ

الأرضِ، وعينٌ: بمعنى عيونٍ ﴿فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ﴾ عاليةٌ ﴿وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ﴾ أيْ أباريقُ وأوانٍ. والإبريقُ: هوَ ماله عروةٌ وخرطومٌ. والكوبُ: إناءٌ ليسَ لهُ عروةٌ ولا خرطومٌ ﴿وَنَمَارِقُ﴾ أيْ وسائدُ، الواحدةُ نمرقةٌ ﴿مَصْفُوفَةٌ﴾ أيْ واحدةٌ إلى جنبِ الأخرى ﴿وَزَرَابِيُّ﴾ بُسطٌ ﴿مَبْثُوثَةٌ﴾ كثيرةٌ متفرّقةٌ. ومنهُ ﴿وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ﴾.

قولهُ تعالى: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ ينبههم جل ثناؤهُ على توحيدهِ وعظيمِ قدرتهِ، وذكرَ الإبلَ أوّلاً، لأنّها كثيرةٌ في العربِ ولأنّها أجمعُ للمنافعِ منْ سائرِ الحيوانِ، لأنَّ ضروبهُ أربعةٌ: حلوبةٌ، وركوبةٌ، وأكولةٌ، وحمولةٌ. والإبلُ تجمعُ هذهِ الخلالَ الأربعَ، فكانتِ النّعمةُ بها أعمَّ، وظهورُ القدرةِ فيها أتمَّ، والإبلُ: لا واحدَ لها منْ لفظها، وهيَ مؤنّثةٌ، والجمع: آبال.

قولهُ تعالى: ﴿وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ﴾ بلا عمدٍ ﴿وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ﴾ على الأرضِ، بحيثُ لا تزولُ، كما قالَ: ﴿وَجَعَلْنَا فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ﴾ ﴿وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ أيْ بسطتْ ومدّتْ.

قولهُ تعالى: ﴿فَذَكِّرْ﴾ عظهم يا محمّدُ وخوّفهمْ ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ﴾ أيْ واعظٌ ﴿لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾ أيْ بمسلّطٍ عليهمْ فتقتلهمْ. ثمَّ نسختها آيةُ السيف ﴿إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ﴾ استثناءٌ منقطعٌ، أيْ لكنْ منْ تولّى عنِ الوعظِ والتّذكيرِ ﴿فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ﴾ وهيَ جهنّمُ الدّائمُ عذابها. وإنّما قالَ: الأكبرَ لأنّهمْ عذّبوا في الدّنيا بالجوعِ والقحطِ والأسرِ والقتلِ، وقيلَ: هوَ استثناءٌ متّصلٌ. والمعنى: لستَ بمسلّطٍ إلّا على منْ تولّى وكفرَ، فأنتَ مسلّطٌ عليهِ بالجهادِ، واللّهُ يعذّبهُ بعدَ ذلكَ العذابَ الأكبرَ، فلا نسخَ في الآيةِ على هذا التّقديرِ.

قولهُ تعالى: ﴿إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ﴾ أيْ رجوعهمْ بعدَ الموتِ. وقرأَ أبو جعفرٍ المدنيُّ ﴿إِيَّابَهُمْ﴾ بالتّشديدِ. وهما لغتانِ بمعنى.

سورة الفجر

مكّيّةٌ، وهيَ ثلاثونَ آيةً.

بسمِ اللّهِ الرّحمنِ الرّحيم

قولهُ تعالى: ﴿وَٱلۡفَجۡرِ﴾ أقسمَ بالفجرِ. ﴿وَلَيَالٍ عَشۡرٖ ۝٢ وَٱلشَّفۡعِ وَٱلۡوَتۡرِ ۝٣ وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَسۡرِ﴾ أقسامٌ خمسةٌ. والفجرُ انفجارُ الظّلمةِ عنِ النّهارِ منْ كلِّ يوم، وقيلَ: أقسم بصلاةُ الصّبح ﴿وَلَيَالٍ عَشۡرٖ﴾ منْ ذي الحجّةِ، وهيَ أفضلُ أيّامِ السّنةِ. وقيلَ: هيَ العشرُ الأواخرُ منْ رمضانَ، وقيلَ: هيَ العشرُ الأولُ منَ المحرّمِ، الّتي عاشرها يومُ عاشوراءَ ﴿وَٱلشَّفۡعِ وَٱلۡوَتۡرِ﴾ وهي: الصّلاةُ، منها شفعٌ، ومنها وتر، وقيلَ: الوترُ يومَ عرفةَ لأنّهُ تاسعُ العشر، والشّفعُ: يومَ النّحرِ عاشرها.

وقيلَ: الشّفع خلقهُ، قالَ الله تعالى: ﴿وَخَلَقۡنَٰكُمۡ أَزۡوَٰجٗا﴾، وقالَ اللّهُ تعالى: ﴿وَمِن كُلِّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَا زَوۡجَيۡنِ﴾، والوترِ هوَ اللّهُ عزَّ وجلَّ، قالَ جلَّ ثناؤهُ: ﴿قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾، وقالَ النّبيِّ ﷺ: «إنَّ للّهِ تسعةً وتسعينَ اسمـًا، واللّهُ وترٌ يحبُّ الوترَ».

وقيلَ: الشّفعُ: درجاتُ الجنّةِ، وهيَ ثمانٍ، والوترُ دركاتُ النّارِ، لأنّها سبعةٌ، **وقيلَ**: الوترُ: هوَ اللّهُ، وهوَ الشّفعُ أيضـًا، لقولهِ تعالى: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجۡوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمۡ﴾.

وقرأ الكسائيُّ وحمزةُ وخلفٌ «وَالْوِتْرُ» بكسرِ الواوِ. والباقونَ «بفتحِ الواوِ»، وهما لغتانِ بمعنى واحدٍ.

قولهُ تعالى: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَسۡرِ﴾ أيْ يسرى فيهِ، يقالُ: ليلٌ نائمٌ، ونهارٌ صائمٌ، ومنهُ قولهُ تعالى: ﴿بَلۡ مَكۡرُ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ﴾، وقيلَ: معنى يسرِ: سارَ فذهبَ، وهذا قَسَمٌ خامس باللّيلِ على العموم بعد ما أقسمَ باللّيالي العشرِ على الخصوصِ.

وقرأ ابنُ كثيرٍ ويعقوبُ «يَسْرِي» بإثباتِ الياءِ في الحالينِ، على الأصلِ، لأنّها ليستْ بمجزومةٍ، فثبتتْ فيها الياءُ. وقرأ نافعٌ وأبو عمرو بإثباتها في الوصلِ، وبحذفها في الوقفِ، ورويَ عنِ الكسائيِّ. وقرأ بحذفِ الياءِ في الحالينِ جميعـًا أهلُ الشّامِ والكوفةِ؛ لأنّهُ رأسُ آيةٍ

واتّباعـًا للخطِّ، لأنّها وقعتْ في المصحفِ بغيرِ ياءٍ.

وهذهِ الأسماءُ كلّها مجرورةٌ بالقسمِ، والجوابُ محذوفٌ، وهوَ ليعذّبنَّ، يدلُّ عليهِ قولهُ تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ﴾ -إلى قولهِ تعالى- ﴿فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ﴾.

﴿هَلْ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِى حِجْرٍ﴾ أيْ لذي لبٍّ وعقلٍ. قالَ الشّاعرُ:

وكيفَ يرجى أنْ تتوبَ وإنّما يرجى منَ الفتيانِ منْ كانَ ذا حجرِ

وأصلُ الحجرِ: المنعُ، ومنهُ سمّيَ الحجرُ، لامتناعهِ بصلابتهِ: ومنهُ حجرَ الحاكمُ على فلانٍ، أيْ منعهُ وضبطهُ عنِ التّصرّفِ، ولذلكَ سمّيتِ الحجرةُ حجرةً، لامتناعِ ما فيها بها.

قولهُ تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ﴾ أيْ مالككَ وخالقكَ ﴿بِعَادٍ ۝٦ إِرَمَ﴾ قراءةُ العامّةِ «بِعَادٍ» منوّنـًا، وجعلوا عاداً اسمَ أبيهمْ، وإرمَ اسمَ القبيلةِ بدلاً منهُ، أوْ عطفَ بيانٍ.

وهذهِ الرّؤيةُ رؤيةُ القلبِ، والخطابُ للنّبيِّ ﷺ، والمرادُ عامٌّ. وكانَ أمرُ عادٍ وثمودَ عندهمْ مشهوراً، إذْ كانوا في بلادِ العربِ، وحجرُ ثمودَ موجودٌ اليومَ. وأمرُ فرعونَ كانوا يسمعونهُ منْ جيرانهمْ منْ أهلِ الكتابِ، واستفاضتْ بهِ الأخبارُ، وبلادُ فرعونَ متّصلةٌ بأرضِ العربِ. ﴿بِعَادٍ﴾ أيْ بقومِ عادٍ ﴿إِرَمَ﴾ قيلَ: هوَ سامُ بنُ نوحٍ، وقيلَ: عادُ بنُ إرمَ. فإرمُ على هذا أبو عادٍ، وعلى الأوّلِ: هوَ اسمُ جدِّ عادٍ. وقيل معنى إرمَ: القديمةُ، وقيلَ: هما عادانِ. فالأولى هيَ إرمُ، قالَ اللّهُ عزَّ وجلَّ: ﴿وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ﴾.

﴿ذَاتِ ٱلْعِمَادِ﴾ ذاتُ الطّولِ يقالُ: رجلٌ معمّدٌ إذا كانَ طويلاً، أو ذاتِ العمادِ ذاتُ القوّةِ والشّدّةِ، مأخوذٌ منْ قوّةِ الأعمدةِ، دليلهُ قولهُ تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾، وقيلَ: ذاتُ الأبنيةِ المرفوعةِ على العمدِ. وكانوا ينصبونَ الأعمدةَ، فيبنونَ عليها القصور. ﴿ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَٰدِ﴾ الضمير في مثلها يرجعُ إلى القبيلةِ. أيْ لمْ يخلقْ مثلُ القبيلةِ في البلادِ: قوّةً وشدّةً، وعظمَ أجسادٍ، وطولَ قامةٍ، وقيلَ: يرجعُ للمدينةِ. والأوّلُ أظهرُ.

ومن جعلَ إرمَ مدينةً قدّرَ حذفـًا، المعنى: كيفَ فعلَ ربّكَ بمدينةِ عادٍ إرمَ، قيل هي دمشقُ، وقيل الإسكندريّة، والله أعلم.

قولهُ تعالى: ﴿وَثَمُودَ﴾ قومُ صالحٍ ﴿ٱلَّذِينَ جَابُواْ ٱلصَّخْرَ﴾ أي: قطعوا. ومنهُ: فلانٌ يجوبُ البلادَ، أيْ يقطعها. وإنّما سمّيَ جيبُ القميصِ لأنّهُ جِيبَ، أيْ قُطِعَ.

قالَ المفسّرونَ: أوّلُ منْ نحتَ الجبالَ والصّورَ والرّخامَ: ثمودُ، وقدْ قالَ تعالى: ﴿وَكَانُواْ يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ﴾ ﴿بِٱلْوَادِ﴾ أيْ بوادي القرى.

قولهُ تعالى: ﴿وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ﴾ أيِ الجنودِ والجيوشِ الّتي تشدُّ ملكهُ، وقيلَ: كانَ يعذّبُ النّاسَ بالأوتادِ، ويشدّهمْ بها إلى أنْ يموتوا، تجبّراً منهُ وعتواً. وهكذا فعلَ بامرأتهِ آسيةَ وماشطةِ ابنتهِ ﴿ٱلَّذِينَ طَغَوْاْ فِى ٱلْبِلَٰدِ﴾ يعني عادا وثمودا وفرعونَ تمرّدوا وعتوا وتجاوزوا القدرَ في الظّلمِ والعدوانِ ﴿فَأَكْثَرُواْ فِيهَا ٱلْفَسَادَ﴾ أيِ الجورَ والأذى ﴿فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ﴾ أيْ أفرغَ عليهمْ وألقى، قالَ النّابغةُ:

فصبَّ عليهِ اللّهُ أحسنَ صنعهِ ... وكانَ لهُ بينَ البريّةِ ناصرا

﴿سَوْطَ عَذَابٍ﴾ أيْ نصيبَ عذابٍ. ويقالُ: شدّتهُ، لأنَّ السّوطَ كانَ عندهمْ نهايةَ ما يعذّبُ بهِ. قالَ الشّاعرُ:

ألمْ ترَ أنَّ اللّهَ أظهرَ دينهُ ... وصبَّ على الكفّارِ سوطَ عذابِ

وقيلَ: معناهُ عذابٌ يخالطُ اللّحمَ والدّمَ، منْ قولهمْ: ساطهُ يسوطهُ سوطًا أيْ خلطهُ، فهوَ سائطٌ. فالسّوطُ: خلطُ الشّيءِ بعضهِ ببعضٍ، ومنهُ سمّيَ المسواطُ.

قولهُ تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ﴾ يسمعُ ويرى ويرصدُ عملَ كلِّ إنسانٍ حتّى يجازيهُ بهِ.

قولهُ تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ﴾ يعني الكافرَ ﴿إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ﴾ أي امتحنه و﴿فَأَمَّا﴾ زائدةٌ صلةٌ ﴿فَأَكْرَمَهُۥ﴾ بالمالِ ﴿وَنَعَّمَهُۥ﴾ بما أوسعَ عليه ﴿فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ﴾ فيفرحُ بذلكَ ولا يحمدهُ ﴿وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ﴾ أيِ امتحنهُ بالفقرِ واختبرهُ ﴿فَقَدَرَ﴾ أيْ ضيّقَ ﴿عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ﴾ على مقدارِ البلغةِ ﴿فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ﴾ أيْ أولاني هوانًا. وهذهِ صفةُ الكافرِ الّذي لا يؤمنُ بالبعثِ فالكرامةُ عندهُ والهوانُ بكثرةِ الحظِّ في الدّنيا وقلّتهِ. فأمّا المؤمنُ فالكرامةُ عندهُ أنْ يكرمهُ اللّهُ بطاعتهِ وتوفيقهِ، المؤدّي إلى حظِّ الآخرةِ، وإنْ وسّعَ عليهِ في الدّنيا حمدهُ

وشكرهُ.

وقراءةُ العامّةِ فقَدَرَ مخفّفةُ الدّالِ. وقرأ ابنُ عامرٍ مشدّداً، وهما لغتانِ. والاختيارُ التّخفيفُ، لقولهِ: ﴿وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ﴾.

وقرأ أهلُ الحرمينِ وأبو عمرو ﴿رَبِّيَ﴾ بفتح الياءِ في الموضعينِ. وأسكن الباقون. وأثبت يعقوبُ الياءَ منْ أكرمنِ وأهاننِ في الحالينِ، لأنّها اسمٌ فلا تحذفُ. وأثبتها المدنيّونَ في الوصلِ دونَ الوقفِ اتّباعـاً للمصحفِ. وخيّرَ أبو عمرو في إثباتها في الوصلِ أوْ حذفها، لأنّها رأسُ آيةٍ، وحذَفها في الوقفِ لخطِ المصحفِ. الباقونَ بحذفها، لأنّها وقعتْ في الموضعينِ بغيرِ ياءٍ، والسّنّةُ ألّا يخالفَ خط المصحف، لأنه إجماع الصحابة.

قولهُ تعالى: ﴿كَلَّآ﴾ ردٌّ، أيْ ليسَ الأمرُ كما يظنُّ، فليسَ الغنى لفضلهِ، ولا الفقرَ لهوانهِ، وإنّما الفقرُ والغنى منْ تقديري وقضائي ﴿بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ﴾ إخبارٌ عنْ أكلِ مالهِ إسرافـاً وبداراً أنْ يكبروا. وقرأ أبو عمرو ويعقوبُ: يكرمونَ ويحضّونَ ويأكلونَ، ويحبّونَ بالياءِ، لأنّهُ تقدّمَ ذكرُ الإنسانِ، والمرادُ بهِ الجنسُ، فعبّرَ عنهُ بلفظِ الجمعِ. الباقونَ بالتّاءِ في الأربعةِ، على الخطابِ والمواجهةِ، كأنّهُ قالَ لهمْ ذلكَ تقريعـاً وتوبيخـاً ﴿وَلَا تَحُضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾ أيْ لا يأمرونَ أهليهمْ بإطعامِ مسكينٍ يجيئهمْ. وقرأ الكوفيّونَ: ﴿وَلَا تَحَٰٓضُّونَ﴾ بفتحِ التّاءِ والحاءِ والألفِ. أيْ يحضُّ بعضهمْ بعضـاً. وأصلهُ تتحاضّونَ، فحذفَ إحدى التّاءينِ لدلالةِ الكلامِ عليها. والحضُّ الحثُّ ﴿وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ﴾ أيْ ميراثَ اليتامى. وأصلهُ الوراثُ منْ ورثتُ، فأبدلوا الواوَ تاءً ﴿أَكْلًا لَّمًّا﴾ أيْ جمعا شديداً، وأصلُ اللّمِّ في كلامِ العربِ: الجمعُ، يقالُ: لممتُ الشّيءَ ألمّهُ لمـاً: إذا جمعتهُ، ومنهُ يقالُ: لمَّ اللّهُ شعثهُ، أيْ جمعَ ما تفرّقَ منْ أمورهِ، ومنهُ حجرٌ ملمومٌ، وكتيبةٌ ملمومةٌ. يعني أنّهمْ يجمعونَ في أكلهمْ بينَ نصيبهمْ ونصيبِ غيرهمْ منْ خبيثٍ أوْ طيّبٍ، وكانَ أهلُ الشّركِ لا يورّثونَ النّساءَ ولا الصّبيانَ، بلْ يأكلونَ ميراثهمْ معَ ميراثهمْ، وتراثهمْ معَ تراثهمْ. ﴿وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾ أيْ كثيراً، حلالهُ وحرامهُ. والجمُّ الكثيرُ. يقالُ: جمَّ الشّيءُ يجمُّ جمومـاً، فهوَ جمٌّ وجامٌّ. ومنهُ جمَّ الماءَ في الحوضِ: إذا اجتمعَ وكثر.

قولهُ تعالى: ﴿كَلَّآ﴾ أيْ ما هكذا ينبغي أنْ يكونَ الأمرُ. فهوَ ردٌّ لانكبابِهمْ على الدّنيا، وجمعِهمْ لها، فإنَّ منْ فعلَ ذلكَ يندمُ ﴿إِذَا دُكَّتِ ٱلۡأَرۡضُ دَكّٗا دَكّٗا﴾، والدّكُّ: الكسرُ والدّقُّ، أيْ زلزلتْ فدكَّ بعضُها بعضاً ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾ أيْ أمرُهُ وقضاؤهُ، وهوَ منْ بابِ حذفِ المضافِ. وقيلَ: أيْ جاءهمُ الرّبُّ بالآياتِ العظيمةِ، وهوَ كقولهِ تعالى: ﴿إِلَّآ أَن يَأۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِي ظُلَلٖ مِّنَ ٱلۡغَمَامِ﴾، أيْ بظللٍ. وقيلَ: جعلَ مجيءَ الآياتِ مجيئاً لهُ، تفخيماً لشأنِ تلكَ الآياتِ. ومنهُ قولهُ تعالى في الحديث: «يا بنَ آدمَ، مرضتُ فلمْ تعدني، واستسقيتكَ فلمْ تسقني، واستطعمتكَ فلمْ تطعمني»، واللّهُ جلَّ ثناؤهُ لا يوصفُ بالتّحوّلِ منْ مكانٍ إلى مكانٍ، وأنّى لهُ التّحوّلُ والانتقالُ، ولا مكانَ لهُ ولا أوانَ، ولا يجري عليهِ وقتٌ ولا زمانٌ، لأنَّ في جريانِ الوقتِ على الشّيءِ فوتُ الأوقاتِ، ومنْ فاته شيء فهوَ عاجزٌ(١١).

قولهُ تعالى: ﴿وَٱلۡمَلَكُ﴾ أيِ الملائكةُ ﴿صَفّٗا صَفّٗا﴾ أي صفوفا ﴿وَجِاْيٓءَ يَوۡمَئِذِۭ بِجَهَنَّمَۚ﴾: تقادُ «لها سبعونَ ألفَ زمامٍ، معَ كلِّ زمامٍ سبعونَ ألفَ ملكٍ يجرّونها» رواه مسلم ﴿يَوۡمَئِذٖ يَتَذَكَّرُ ٱلۡإِنسَٰنُ﴾ أيْ يتّعظُ ويتوبُ. وهوَ الكافرُ، أوْ منْ همّتهُ معظمُ الدّنيا ﴿وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكۡرَىٰ﴾ أيْ ومنْ أينَ لهُ الاتّعاظُ والتّوبةُ وقدْ فرّطَ فيها في الدّنيا ﴿يَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي قَدَّمۡتُ لِحَيَاتِي﴾ أيْ في حياتي. فاللّامُ بمعنى في. وقيلَ: أيْ قدّمتُ عملاً صالحاً لحياتي، أيْ لحياةٍ لا موتَ فيها. ﴿فَيَوۡمَئِذٖ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٞ﴾ أيْ لا يعذّبُ كعذابِ اللّهِ أحدٌ، ﴿ولا يوثِقُ وَثَاقه﴾ أي كوثاقهِ أحدٌ. والكنايةُ ترجعُ إلى اللّهِ تعالى، وقرأ الكسائيُّ ﴿لَّا يُعَذَّبُ﴾ ﴿وَلَا يُوثَقُ﴾ بفتحِ الذّالِ والثّاءِ، أيْ لا يعذّبُ أحدٌ في الدّنيا كعذابِ اللّهِ الكافرَ يومئذٍ، ولا يوثقُ بالسّلاسلِ والأغلالِ كما يوثقُ الكافرُ.

---

(١١) – الله سبحانه وتعالى منزه عن كل نقص، لكن أهل السنة يثبتون ما أثبته سبحانه لنفسه أو أثبته له رسوله ﷺ لربه من غير تأويل أو تحريف أو تشبيه أو تمثيل (ليس كمثله شيء وهو السميع البصير)، وقد أثبت لنفسه المجيء كما في هذه الآية، والإتيان كما في قوله:(هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله...)، والاستواء كما في قوله: (الرحمن على العرش استوى)، وأثبت له رسوله ﷺ النزول، والكيف في هذا كله وفي غيرها من الصفات مجهول لا تدرك العقول.

قولهُ تعالى: ﴿يَـٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ﴾ بالإيمانِ، المصدّقةُ بالبعثِ والثّوابِ، وأنَّ ما أخطأها لمْ يكنْ ليصيبها، وأنَّ ما أصابها لمْ يكنْ ليخطئها ﴿ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ﴾ وهو اللّه، وقيلَ: ارجعي إلى ثوابِ ربّكِ وكرامتهِ، وقيلَ: إلى صاحبكِ وجسدكِ فيأمرُ اللّهُ تعالى الأرواحَ أنْ ترجعَ إلى الأجسادِ وهذا عند الموت ﴿رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ۝٢٨ فَٱدْخُلِى فِى عِبَـٰدِى﴾ أيْ في الصّالحينَ منْ عبادي، كما قال: ﴿لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِى ٱلصَّـٰلِحِينَ﴾ ﴿وَٱدْخُلِى جَنَّتِى﴾ معهم.

سورة البلد

مكّيّةٌ باتّفاقٍ، وهيَ عشرونَ آيةً.

بسمِ اللّهِ الرّحمنِ الرّحيمِ

قولهُ تعالى: ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ﴾ يجوزُ أنْ تكونَ لا زائدةً، كما تقدّمَ في ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ أيْ أقسمُ، لأنّهُ قالَ: ﴿بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ﴾ وقدْ أقسمَ بهِ في قولهِ: ﴿وَهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ٱلۡأَمِينِ﴾ فكيفَ يجحدُ القسمُ بهِ وقدْ أقسمَ بهِ. قالَ الشّاعرُ:

تذكّرتُ ليلى فاعترتني صبابةٌ وكادَ صميمُ القلبِ لا يتقطّعُ

أيْ يتقطّعُ، ودخلَ حرفُ لا صلةٌ، ومنهُ قولهُ تعالى: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسۡجُدَ إِذۡ أَمَرۡتُكَۖ﴾ بدليلِ قولهِ تعالى ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ﴾ وقرأ ابنُ كثيرٍ لأقسمُ منْ غيرِ ألفٍ بعدَ اللّامِ إثباتًا.

وقيلَ: هيَ نفيٌ صحيحٌ، والمعنى: لا أقسمُ بهذا البلدِ إذا لمْ تكنْ فيهِ، بعدَ خروجكَ منهُ.

وقيلَ: قولهُ ﴿لَآ﴾ ردٌّ لما توهّمَ الإنسانُ المذكورُ في هذهِ السّورةِ، المغرورُ بالدّنيا. أيْ ليسَ الأمرُ كما يحسبهُ، منْ أنّهُ لنْ يقدرَ عليهِ أحدٌ، ثمَّ ابتدأ القسم. والبلدِ: هيَ مكّةُ، أجمعوا عليهِ. أيْ أقسمُ بالبلدِ الحرامِ الّذي أنتَ فيهِ، لكرامتكَ عليَّ وحبّي لكَ ﴿وَأَنتَ حِلُّۢ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ﴾ يعني في المستقبلِ، مثلَ قولهِ تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٞ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾، ومثلهُ واسعٌ في كلامِ العربِ. تقولُ لمنْ تعدهُ الإكرامَ والحباءَ: أنتَ مكرمٌ محبوٌّ. وهوَ في كلامِ اللّهِ واسعٌ، لأنَّ الأحوالَ المستقبلةَ عندهُ كالحاضرةِ المشاهدةِ، وكفاكَ دليلاً قاطعًا على أنّهُ للاستقبالِ، وأنَّ تفسيرهُ بالحالِ محالٌ: أنَّ السّورةَ باتّفاقٍ مكّيّةٌ قبلَ الفتحِ.

وقد أحلّتْ لهُ ساعةً منْ نهارٍ، ثمَّ أطبقتْ وحرّمتْ إلى يومِ القيامةِ، وذلكَ يومَ فتحِ مكّةَ. وثبتَ عنِ النّبيِّ ﷺ أنّهُ قالَ: «إنَّ اللّهَ حرّمَ مكّةَ يومَ خلقَ السمواتِ والأرضَ، فهيَ حرامٌ إلى أنْ تقومَ السّاعةُ، فلمْ تحلَّ لأحدٍ قبلي، ولا تحلُّ لأحدٍ بعدي، ولمْ تحلَّ لي إلّا ساعةً منْ نهارٍ» الحديثَ.

وقيلَ: وأنتَ مقيمٌ فيهِ وهوَ محلّكَ.

قولُهُ تعالى: ﴿وَوَالِدٍ﴾ آدمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿وَمَا وَلَدَ﴾ ما نسلَ منْ ولدهِ، وفيهمُ الأنبياءُ والدّعاةُ إلى اللّهِ تعالى، وصلحتْ ﴿مَا﴾ للنّاسِ، كقولِهِ: ﴿مَا طَابَ لَكُم﴾، وكقوله: ﴿وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ﴾ وهوَ الخالقُ للذّكرِ والأنثى، وقيلَ: ﴿مَا﴾ معَ ما بعدها في موضعِ المصدرِ، أيْ ووالدٍ وولادتهِ، كقولِهِ تعالى: ﴿والسّماءِ وما بناها﴾.

قولُهُ تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ﴾ إلى هنا انتهى القسمُ، وهذا جوابهُ. وللّهِ أنْ يقسمَ بما يشاءُ منْ مخلوقاتهِ لتعظيمها، والإنسانُ هنا ابنُ آدمَ ﴿فِى كَبَدٍ﴾ أيْ في شدّةٍ وعناءٍ منْ مكابدةِ الدّنيا. وأصلُ الكبدِ الشّدّةُ. ومنهُ تكبّدَ اللّبنُ: غلظَ وخثرَ واشتدَّ. ومنهُ الكبدُ، لأنّهُ دمٌ تغلّظَ واشتدَّ. ويقالُ: كابدتُ هذا الأمرَ: قاسيتُ شدّتهُ.

قولُهُ تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ﴾ أيْ أيظنُّ ابنُ آدمَ أنْ لنْ يعاقبهُ اللّهُ عزَّ وجلَّ ﴿يَقُولُ أَهْلَكْتُ﴾ أيْ أنفقتُ ﴿مَالًا لُّبَدًا﴾ أيْ كثيراً مجتمعاً. أيحسبُ أيْ أيظنُّ ﴿أَن لَّمْ يَرَهُۥٓ﴾ أيْ أنْ لمْ يعاينهُ أحدٌ بلْ علمَ اللّهُ عزَّ وجلَّ ذلكَ منهُ، فكانَ كاذباً في قولِهِ: أهلكتُ ولمْ يكنْ أنفقهُ.

وقرأ أبو جعفرٍ ﴿مَالًا لُّبَدًا ۝٦﴾ بتشديد الباء مفتوحة، على جمع لابِد، مثلُ راكعٍ ورُكّعٍ، وساجدٍ وسُجّدٍ، وشاهدٍ وشُهّدٍ، ونحوهِ. الباقونَ بضمِّ اللّامِ وكسرها وفتحِ الباءِ مخفّفاً، جمعَ لِبدةٍ ولُبدةٍ، وهوَ ما تلبّدَ، يريدُ الكثرةَ.

ثمَّ عدّدَ عليهِ نعمهُ فقالَ: ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ﴾ يبصرُ بهما ﴿وَلِسَانًا﴾ ينطقُ به ﴿وَشَفَتَيْنِ﴾ يستر بهما ثغرهُ. والمعنى: نحنُ فعلنا ذلكَ، ونحنُ نقدرُ على أنْ نبعثهُ ونحصيَ عليهِ ما عملهُ ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾ يعني الطّريقينِ: طريقَ الخيرِ وطريقَ الشّرِّ. أيْ بيّنّاهما لهُ بما أرسلناهُ منَ الرّسلِ. والنّجدُ. الطّريقُ في ارتفاعٍ. وقيلَ: النّجدانِ: الثّديانِ؛ لأنّهما كالطّريقينِ لحياةِ الولدِ ورزقهِ. فالنّجدُ: العلوُّ، وجمعهُ نجودٌ، ومنهُ سمّيتْ «نجدٌ»، لارتفاعها عنِ انخفاضِ تهامةَ. فالنّجدانِ: الطّريقانِ العاليانِ.

قولُهُ تعالى: ﴿فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ﴾ أيْ فهلّا أنفقَ مالهُ الّذي يزعمُ أنّهُ أنفقهُ في عداوةِ محمّدٍ، هلّا أنفقهُ لاقتحامِ العقبةِ فيأمنَ! والاقتحامُ: الرّميُ بالنفس في شيء منْ غيرِ رويّةٍ،

يقالُ منهُ: قحمَ في الأمر قحوما: أي رمى بنفسهِ فيهِ.

وذكرَ ﴿لَآ﴾ مرّةً واحدةً، والعربُ لا تكادُ تفردُ ﴿لَآ﴾ معَ الفعلِ الماضي في مثلِ هذا الموضعِ، حتّى يعيدوها في كلامٍ آخرَ، كقوله تعالى: ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ﴾ ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾. وإنّما أفردوها لدلالةِ آخرِ الكلامِ على معناهُ، فيجوزُ أنْ يكونَ قولهُ: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ قائماً مقامَ التّكريرِ، كأنّهُ قالَ: فلا اقتحمَ العقبةَ ولا آمنَ. وقيلَ: هوَ جارٍ مجرى الدّعاءِ، كقولهِ: لا نجا ولا سلمَ ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ﴾؟ فقال سفيان بن عيينة: كل شيء قال فيه وما أدراكَ؟ فإنه أخبر به، وكل شيء قال فيه «وما يدريك» ؟ فإنه لم يخبر بهِ، وفيهِ حذفٌ أيْ وما أدراكَ ما اقتحامُ العقبةِ، وهذا تعظيمٌ لالتزامِ أمرِ الدّينِ، والخطابِ للنّبيِّ ﷺ، ليعلمهُ اقتحامَ العقبةِ.

ثمَّ فسّرَ العقبةَ وركوبها فقالَ: ﴿فَكُّ رَقَبَةٍ﴾ وكذا وكذا، أي: هلّا أنفقَ مالهُ في فكِّ الرّقابِ، وإطعامِ السّغبانِ، ليجاوزَ بهِ العقبةَ، فيكونُ خيراً لهُ منْ إنفاقهِ في عداوةِ محمّدٍ ﷺ.

وفي صحيحِ مسلم عنْ أبي هريرةَ، عنِ رسولِ اللّهِ ﷺ، قالَ: «منْ أعتقَ رقبةً أعتقَ اللّهُ بكلِّ عضوٍ منها عضواً منْ أعضائهِ منَ النّارِ، حتّى فرجهُ بفرجهِ». وفي التّرمذيِّ عنْ أبي أمامةَ وغيرهِ منْ أصحابِ النّبيِّ ﷺ قالَ: «أيّما امرئٍ مسلمٍ أعتقَ امرأً مسلماً، كانَ فكاكهُ منَ النّارِ، يجزي كلُّ عضوٍ منهُ عضواً منهُ، وأيّما امرأةٍ مسلمةٍ أعتقتِ امرأةً مسلمةً، كانتْ فكاكها منَ النّارِ، يجزي كلُّ عضوٍ منها عضواً منها». قالَ: هذا حديثٌ حسنٌ صحيحٌ غريبٌ.

قولهُ تعالى: ﴿فَكُّ رَقَبَةٍ﴾، فيهِ ثلاثُ مسائلَ:

الأولى: قولهُ تعالى: ﴿فَكُّ رَقَبَةٍ﴾ فكّها: خلاصها منَ الأسرِ. وقيلَ: منَ الرّقِّ. والفكُّ: هوَ حلُّ القيدِ، والرّقُّ قيدٌ. وسمّيَ المرقوقُ رقبةً، لأنّهُ بالرّقِّ كالأسيرِ المربوطِ في رقبته.

ويحتملُ ثانياً أنّهُ أرادَ فكَّ رقبتهِ وخلاصَ نفسهِ، باجتنابِ المعاصي وفعلِ الطّاعاتِ، ولا يمتنعُ الخبرُ منْ هذا التّأويلِ، وهوَ أشبهُ بالصّوابِ.

الثانية: سئلَ النّبيّ ﷺ أيُّ الرّقابِ أفضلُ؟ قالَ: «أغلاها ثمناً وأنفسها عندَ أهلها»، والمرادُ في هذا الحديث: من المسلمينَ، بدليلِ قولهِ ﷺ: «منْ أعتقَ امرأً مسلما» و «من أعتقَ

رقبةً مؤمنةً».

الثالثة– العتقُ والصّدقةُ منْ أفضلِ الأعمالِ. وعنْ أبي حنيفةَ: أنَّ العتقَ أفضلُ منَ الصّدقةِ. وعندَ صاحبيهِ الصّدقةُ أفضلُ. والآيةُ أدلُّ على قولِ أبي حنيفةَ، لتقديمِ العتقِ على الصّدقةِ.

قولهُ تعالى: ﴿أَوۡ إِطۡعَٰمٞ فِي يَوۡمٖ ذِي مَسۡغَبَةٖ﴾ أيْ مجاعةٍ. والسّغبُ: الجوعُ. والسّاغبُ الجائعُ، وإطعامُ الطّعامِ فضيلةٌ، وهوَ معَ السّغبِ الّذي هوَ الجوعُ أفضلُ ﴿يَتِيمٗا ذَا مَقۡرَبَةٍ﴾ أيْ قرابةٍ. فالصّدقة على القرابةِ أفضلُ منها على غيرِ القرابةِ، كما أنَّ الصّدقةَ على اليتيمِ الّذي لا كافلَ لهُ أفضلُ منَ الصّدقةِ على اليتيمِ الّذي يجدُ منْ يكفلهُ، واليتيم في النّاسِ منْ قبلِ الأبِ. وفي البهائمِ منْ قبلِ الأمّهاتِ ﴿أَوۡ مِسۡكِينٗا ذَا مَتۡرَبَةٖ﴾ كأنّهُ قدْ لصقَ بالتّرابِ منَ الفقرِ.

وقرأَ ابنُ كثيرٍ وأبو عمرو والكسائيُّ: ﴿فَكَّ﴾ بفتحِ الكافِ، على الفعلِ الماضي ﴿رَقَبَةً﴾ نصبًا لكونها مفعولاً أوْ ﴿أطعمَ﴾ بفتح الهمزة نصب الميمِ، منْ غيرِ ألفٍ، على الفعلِ الماضي أيضًا، لقولهِ: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ فهذا أشكل بفك وأطعم. وقرأ الباقونَ: ﴿فكُّ﴾ رفعًا، على أنّهُ مصدرُ فككتُ. ﴿رقبةٍ﴾ خفضَ بالإضافةِ. أوْ ﴿إطعامٌ﴾ بكسرِ الهمزةِ وألفٍ ورفع الميمِ وتنوينها على المصدرِ أيضًا؛ لأنّهُ تفسيرٌ لقولهِ تعالى: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡعَقَبَةُ﴾؟ ثمَّ أخبرهُ فقالَ: ﴿فكُّ رقبةٍ أوْ إطعامٌ﴾. المعنى: اقتحامُ العقبةِ: فكُّ رقبةٍ أوْ إطعامٌ. ومنْ قرأَ بالنّصبِ فهوَ محمولٌ على المعنى، أيْ ولا فكَّ رقبةً، ولا أطعمَ في يومٍ ذا مسغبةٍ، فكيفَ يجاوزُ العقبةَ.

قولهُ تعالى: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ يعني: أنّهُ لا يقتحمُ العقبةَ منْ فكَّ رقبةً، أوْ أطعمَ في يومِ ذا مسغبةٍ، حتّي يكونَ منَ الّذينَ آمنوا، قالَ اللّهُ تعالى في المنافقينَ: ﴿وَمَا مَنَعَهُمۡ أَن تُقۡبَلَ مِنۡهُمۡ نَفَقَٰتُهُمۡ إِلَّآ أَنَّهُمۡ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ﴾». وقالتْ عائشةُ: يا رسولَ اللّهِ، إنَّ ابنَ جدعانَ كانَ في الجاهليّةِ يصلُ الرّحمَ، ويطعمُ الطّعامَ، ويفكُّ العاني، ويعتقُ الرّقابَ، ويحملُ على إبله لله، فعل ينفعهُ ذلكَ شيئًا؟ قالَ: «لا، إنّهُ لمْ يقلْ يومًا ربِّ اغفرْ لي خطيئتي يومَ الدّينِ».

وقيلَ: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ أيْ فعلَ هذهِ الأشياءَ وهوَ مؤمنٌ، ثمَّ بقيَ على إيمانهِ حتّى الوفاةِ، نظيرهُ قولهُ تعالى: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهۡتَدَىٰ﴾.

وقيلَ: المعنى: «ثمَّ كانَ منَ الّذينَ يؤمنونَ» بأنَّ هذا نافعٌ لهمْ عندَ اللّهِ تعالى.

وقيلَ: أتى بهذهِ القُربِ لوجهِ اللّهِ، ثمَّ آمنَ بمحمّدٍ ﷺ. وقدْ قال حكيم بن حزام بعد ما أسلمَ، يا رسولَ اللّهِ، إنّا كنّا نتحنّثُ بأعمال في الجاهلية، فهل لنا منها شيء؟ فقالَ ﷺ: «أسلمتَ على ما أسلفتَ منَ الخيرِ».

وقيلَ: إنَّ ثمَّ بمعنى الواو، أيْ وكانَ هذا المعتقُ الرّقبةِ، والمطعمُ في المسغبةِ، منَ الّذينَ آمنوا ﴿وَتَوَاصَوۡاْ﴾ أيْ أوصى بعضهم بعضا ﴿بِٱلصَّبۡرِ﴾ على طاعةِ اللّهِ، وعنْ معاصيهِ، وعلى ما أصابهمْ منَ البلاءِ والمصائبِ ﴿وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡمَرۡحَمَةِ﴾ بالرّحمةِ على الخلقِ، فإنّهمْ إذا فعلوا ذلكَ رحموا اليتيمَ والمسكينَ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ﴾ أيِ الذين يؤتون كتبهم بأيمانهم ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ أي بالقرآنِ ﴿هُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ﴾ أيْ يأخذونَ كتبهمْ بشمائلهمْ ﴿عَلَيۡهِمۡ نَارٞ مُّؤۡصَدَةُۢ﴾ أيْ مطبقةٍ مغلقةٍ. قالَ:

تحنُّ إلى أجبالِ مكّةَ ناقتي ومنْ دونها أبوابُ صنعاءَ مؤصدهْ

وقرأ أبو عمرو وحفصٌ وحمزةُ ويعقوبُ ﴿مؤصدةٌ﴾ بالهمزِ هنا، وفي الهمزةِ. الباقونَ بلا همزٍ. وهما لغتانِ.

سورة الشمس

مكّيّةٌ باتّفاقٍ، وهيَ خمسَ عشرةَ آية.

قولهُ تعالى: ﴿وَٱلشَّمۡسِ وَضُحَىٰهَا﴾ ضحاها أي ضوئها وإشراقها. وهوَ قَسَمٌ ثانٍ. وأضافَ الضّحى إلى الشّمسِ، لأنّهُ إنّما يكونُ بارتفاعِ الشّمسِ. وقيل ضحاها: حرّها. لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَضۡحَىٰ﴾ أيْ لا يؤذيكَ الحرُّ ﴿وَٱلۡقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا﴾ أيْ تبعها: وذلكَ إذا سقطت رؤي الهلالُ ﴿وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا﴾ أيْ كشفَ الظّلمةَ، وقالَ قومٌ: الضّميرُ في جلّاها للشّمسِ، والمعنى: أنّهُ يبيّنُ بضوئهِ جرمها، وقيلَ: جلّى الأرضُ، وإنْ لمْ يجرِ لها ذكرٌ، ومثله قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ تَوَارَتۡ بِٱلۡحِجَابِ﴾.

﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰهَا﴾ أيْ يغشى الشّمسَ، فيذهبُ بضوئها عند سقوطها، وقيلَ: يغشى الدّنيا بالظّلمِ، فتظلمُ الآفاق. فالكناية ترجع إلى غير مذكور. ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا﴾ أيْ وبنيانها. فما مصدريّةٌ، كما قال: ﴿بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي﴾ أيْ بغفرانِ ربّي، وقيلَ: المعنى ومنْ بناها، وهوَ اللّهُ تعالى ﴿وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا طَحَىٰهَا﴾ أيْ وطحوها. وقيلَ: ومنْ طحاها، و طحاها ودحاها: واحدٌ، أيْ بسطها ﴿وَنَفۡسٖ وَمَا سَوَّىٰهَا﴾ أي وتسويتها. فما: بمعنى المصدرِ. وقيلَ: المعنى ومنْ سوّاها، وهوَ اللّهُ عزَّ وجلَّ. وفي النّفسِ قولانِ: **أحدهما**: آدمُ. **الثّاني**: كلُّ نفسٍ منفوسةٍ. وسوّى: خلقها وعدّلَ. وهذهِ الأسماءُ كلّها مجرورةٌ على القسمِ. أقسمَ جلَّ ثناؤهُ بخلقهِ لما فيهِ منْ عجائبِ الصنعة الدالة عليه. ﴿فَأَلۡهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقۡوَىٰهَا﴾ أيْ عرّفها طريق الفجور والتقوى، كما قال: ﴿وَهَدَيۡنَٰهُ ٱلنَّجۡدَيۡنِ﴾.

قولهُ تعالى: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾ هذا جوابُ القسمِ، وقيلَ: الجوابُ محذوفٌ، أيْ والشّمسِ وكذا وكذا لتبعثنَّ ﴿وَقَدۡ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ أيْ خسرتْ نفسٌ دسّها اللّهُ عزَّ وجلَّ بالمعصيةِ، وقيلَ: أفلحَ منْ زكّى نفسهُ بطاعةِ اللّهِ، وصالحِ الأعمالِ، وخاب من دس نفسه في المعاصي، أو دسَّ نفسهُ في جملةِ الصالحين وليس منهم.

قولهُ تعالى: ﴿كَذَّبَتۡ ثَمُودُ بِطَغۡوَىٰهَآ﴾ أيْ بطغيانها، وهوَ خروجها عنِ الحدِّ في

العصيانِ، وقيلَ: بطغواها أيْ بعذابها الّذي وعدتْ بهِ واسمه الطّغوى، لأنّهُ طغى عليهمْ. وقيلَ: بطغواها بأجمعها ﴿إِذِ ٱنۢبَعَثَ﴾ أيْ نهضَ ﴿أَشۡقَىٰهَا﴾ لعقرِ النّاقةِ. واسمهُ قدارُ بنُ سالفٍ. وفي البخاريِّ ومسلم عن عبد الله ابن زمعةَ أنّهُ سمعَ النّبيَّ ﷺ يخطبُ، وذكرَ النّاقةَ والّذي عقرها، فقالَ: رسولُ اللّهِ ﷺ: «إذِ انبعثَ أشقاها، انبعثَ لها رجلٌ عزيزٌ عارمٌ منيعٌ في رهطهِ مثلُ أبي زمعةَ».

﴿فَقَالَ لَهُمۡ رَسُولُ ٱللَّهِ﴾ صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿نَاقَةَ ٱللَّهِ﴾ ناقةَ منصوبٌ على التّحذيرِ: ذروا ناقةَ اللّهِ كما قالَ: ﴿هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمۡ ءَايَةٗۖ فَذَرُوهَا تَأۡكُلۡ فِيٓ أَرۡضِ ٱللَّهِۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٖ فَيَأۡخُذَكُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ ﴿وَسُقۡيَٰهَا﴾ أيْ ذروها وشربها، فإنّهمْ لمّا اقترحوا النّاقةَ، وأخرجها لهمْ منَ الصّخرةِ، جعلَ لهمْ شربَ يومٍ منْ بئرهمْ، ولها شربُ يومٍ مكانَ ذلكَ، فشقَّ ذلكَ عليهم.

﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ أيْ صالحاً عَلَيْهِ السَّلَامُ في قولِهِ لهمْ: «إنّكمْ تعذّبونَ إنْ عقرتموها» ﴿فَعَقَرُوهَا﴾ أيْ عقرها الأشقى. وأضيفَ إلى الكلِّ لأنّهمْ رضوا بفعلهِ.

قولهُ تعالى: ﴿فَدَمۡدَمَ عَلَيۡهِمۡ﴾ أطبقَ عليهمُ العذابُ وجعلهمْ تحتَ التّرابِ، وحقيقةُ الدّمدمةِ تضعيفُ العذابِ وترديدهُ ﴿رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمۡ﴾ وهوَ الكفرُ والتّكذيبُ والعقرُ ﴿فَسَوَّىٰهَا﴾ أيْ سوّى عليهمُ الأرضَ ﴿وَلَا يَخَافُ﴾ الله ﴿عُقۡبَٰهَا﴾ أي تبعة الدّمدمةِ، وقيلَ: ترجعُ إلى العاقرِ، أيْ لمْ يخفِ الّذي عقرها عقبى ما صنعَ. وقيلَ: لا يخافُ رسولُ اللّهِ صالحٌ عاقبةَ إهلاكِ قومهِ، ولا يخشى ضرراً يعودُ عليهِ منْ عذابهمْ، لأنّهُ قدْ أنذرهمْ، ونجّاهُ اللّهُ تعالى حينَ أهلكهمْ.

وقرأ نافعٌ وابنُ عامرٍ «فَلَا» بالفاءِ، وهوَ الأجودُ، لأنّهُ يرجعُ إلى المعنى الأوّلِ، أيْ فلا يخافُ اللّهُ عاقبةَ إهلاكهمْ. والباقونَ بالواوِ، وهيَ أشبهُ بالمعنى الثّاني، أيْ ولا يخافُ الكافرُ عاقبةَ ما صنعَ.

سورة الليل

مكّيّةٌ. وقيلَ: مدنيّةٌ. وهيَ إحدى وعشرونَ آيةً بإجماعٍ.

بسمِ اللّهِ الرّحمنِ الرّحيمِ

قولهُ تعالى: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ﴾ النّهارَ أو الأرضَ. أو الخلائق. ولمْ يذكرْ المفعول للعلمِ بهِ ﴿وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ﴾ أيْ انكشفَ ﴿وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ﴾ ما بمعنى «منْ» أو «الّذي» خلقَ الذّكرَ والأنثى، فيكونُ قدْ أقسمَ بنفسهِ عزَّ وجلَّ وكذا قوله: ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا﴾ ﴿وَنَفۡسٖ وَمَا سَوَّىٰهَا﴾، وقيلَ: ﴿مَا﴾ مصدريّةٌ معناهُ وخلقِ الذّكرِ والأنثى، وقيلَ: المعنى وما خلقَ منَ الذّكرِ والأنثى، فتكونُ «مَنْ» مضمرةٌ، ويكونُ القسمُ منهُ بأهلِ طاعتهِ، منْ أنبيائهِ وأوليائهِ، ويكونُ قسمهُ بهمْ تكرمةً لهمْ وتشريفًا.

وفي المرادِ بالذّكرِ والأنثى قولانِ:

أحدهما: آدمُ وحوّاءُ.

الثّاني: يعني جميعَ الذّكورِ والإناثِ منْ بني آدمَ والبهائمِ، وقيلَ: كلُّ ذكرٍ وأنثى منَ الآدميّينَ دونَ البهائمِ لاختصاصهمْ بولايةِ اللّهِ وطاعتهِ ﴿إِنَّ سَعۡيَكُمۡ لَشَتَّىٰ﴾ هذا جوابُ القسمِ، وشتّى: واحدهُ شتيتٌ، مثلُ مريضٍ ومرضى، أيْ إنَّ عملكمْ لمتباعدٌ بعضهُ منْ بعضٍ، لأنَّ بعضهُ ضلالةٌ وبعضهُ هدى. ومنكمْ مؤمنٌ وبرٌّ، وكافرٌ وفاجرٌ، ومطيعٌ وعاصٍ.

قولهُ تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنۡ أَعۡطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡيُسۡرَىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسۡتَغۡنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡعُسۡرَىٰ﴾، فيهِ أربعُ مسائلَ:

الأولى: قولهُ تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنۡ أَعۡطَىٰ وَٱتَّقَىٰ﴾ قالَ ابنُ مسعودٍ: يعني أبا بكرٍ رضي الله عنه، وقالهُ عامّةُ المفسّرينَ. وأعطى أيْ بذلَ. واتّقى أيْ محارمَ اللّهِ الّتي نهى عنها ﴿وَصَدَّقَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ﴾ أيْ بالخلفِ منَ اللّهِ تعالى على عطائهِ. أو بلا إلهِ إلّا اللّهُ، أو: بالجنّةِ، دليلهُ قولهُ تعالى: ﴿۞لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ ٱلۡحُسۡنَىٰ وَزِيَادَةٞۖ﴾ ﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡيُسۡرَىٰ﴾ وفي صحيحِ مسلمٍ عنْ أبي هريرةَ قالَ: قالَ رسولُ اللّهِ ﷺ: «ما منْ يومٍ يصبحُ العبادُ فيهِ إلّا وملكانِ ينزلانِ فيقولُ

أحدهما: اللّهمَّ أعطِ منفقـًا خلفـًا، ويقولُ الآخرُ اللّهمَّ أعطِ ممسكـًا تلفـًا».

الثانية- قولهُ تعالى: ﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ﴾ للجنّةِ أو لأسبابِ الخيرِ والصّلاحِ، وفي الصّحيحينِ والتّرمذيِّ عنْ عليٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قالَ: كنّا في جنازةٍ بالبقيع، فأتى النّبيُّ ﷺ، فجلسَ وجلسنا معهُ، ومعهُ عودٌ ينكتُ بهِ في الأرضِ، فرفعَ رأسهُ إلى السّماءِ فقالَ: «ما منْ نفسٍ منفوسةٍ إلّا» قدْ «كتبَ مدخلها» فقالَ القومُ: يا رسولَ اللّهِ، أفلا نتّكلُ على كتابنا؟ فمنْ كانَ منْ أهلِ السّعادةِ فانهُ يعملُ للسّعادةِ، ومنْ كانَ منْ أهلِ الشقاء فإنه يعمل للشقاء. قال: «بل اعملوا فكلٌّ ميسّرٌ، أمّا منْ كانَ منْ أهلِ السّعادةِ فإنّهُ ييسّرُ لعملِ السّعادةِ، وأمّا منْ كانَ منْ أهلِ الشّقاءِ فإنّهُ ييسّرُ لعملِ الشّقاءِ ثمَّ قرأَ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ﴾ لفظُ التّرمذيِّ. وقالَ فيهِ: حديثٌ حسنٌ صحيحٌ.

الثالثة- قولهُ تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ﴾ بمالهِ ﴿وَٱسْتَغْنَىٰ﴾ عنْ ربّهِ ﴿وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ﴾ بلا إلهَ إلّا اللّهُ أو بالجنّةِ أو بالخلفِ ﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ﴾ أيْ نسهلُ طريقهُ ﴿لِلْعُسْرَىٰ﴾ أيْ للشّرِّ، وقيل للنّارِ.

مسألةٌ: قالَ العلماءُ: ثبتَ بهذهِ الآيةِ وبقوله: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾، وقولهُ: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ إلى غيرِ ذلكَ منَ الآياتِ- أنَّ الجودَ منْ مكارمِ الأخلاقِ، والبخلَ منْ أرذلها.

الرابعة- كيف قال: ﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ﴾ وليس في العسرى تيسيرٌ؟

فيقالُ في الجوابِ: هذا بمنزلةِ قوله عز وجل: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾، والبشارةُ في الأصلِ على المفرحِ والسّارِّ، فإذا جمعَ في كلامينِ هذا خيرٌ وهذا شرٌّ، جاءتِ البشارةُ فيهما. وكذلكَ التّيسيرُ في الأصلِ على المفرحِ، فإذا جمعَ في كلامينِ هذا خيرٌ وهذا شرٌّ، جاءَ التّيسيرُ فيهما جميعـًا.

قولهُ تعالى: ﴿وَمَا يُغْنِى عَنْهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ﴾ أيْ ماتَ، وقيلَ: سقطَ في جهنّمَ، ومنهُ المتردّيةُ ﴿وَمَا﴾: يحتملُ أنْ تكونَ جحداً، أيْ ولا يغني عنهُ مالهُ شيئـًا، ويحتملُ أنْ تكون

استفهاما معناه التوبيخ، أي أي شيء يغني عنهُ إذا هلكَ ووقعَ في جهنّمَ! ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ﴾ أي علينا أنْ نبيّنَ طريقَ الهدى منْ طريقِ الضّلالةِ. كقوله: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ﴾، وقيلَ: معناهُ إنَّ علينا للهدى والإضلالَ، فترك الإضلال، كقوله: ﴿بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ﴾ و﴿بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ﴾، وكما قال: ﴿سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ﴾ وهيَ تقي البردَ ﴿وَإِنَّ لَنَا لَلْءَاخِرَةَ وَٱلْأُولَىٰ﴾ أي الدّنيا والآخرةُ للّهِ تعالى. وقيلَ: ثوابُ الدّنيا والآخرةِ، وهوَ كقولهِ تعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾، فمنْ طلبهما منْ غيرِ مالكهما فقدْ أخطأَ الطريق.

قولهُ تعالى: ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ﴾ أيْ حذّرتكمْ وخوّفتكمْ ﴿نَارًا تَلَظَّىٰ﴾ أيْ تلهبُ وتتوقّدُ. وأصلهُ تتلظّى ﴿لَا يَصْلَىٰهَآ﴾ أيْ لا يجدُ صلاها وهوَ حرّها ﴿إِلَّا ٱلْأَشْقَى﴾ أيِ الشّقيُّ ﴿ٱلَّذِى كَذَّبَ﴾ بنبي الله محمدا ﷺ ﴿وَتَوَلَّىٰ﴾ أيْ أعرضَ عنِ الإيمانِ.

قولهُ تعالى: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا﴾ أيْ يكونُ بعيداً منها ﴿ٱلْأَتْقَى﴾ أيِ المتّقي الخائفُ كأبي بكرٍ رضي الله عنه، ﴿ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ﴾ أيْ يطلبُ أنْ يكونَ عندَ اللّهِ زاكيًا، ولا يطلبُ بذلكَ رياءً ولا سمعةً، بلْ يتصدّقُ بهِ مبتغيًا بهِ وجهَ اللّهِ تعالى. وقالَ بعضُ أهلِ المعاني: أرادَ بقولهِ الأتقى والأشقى أيِ التّقيَّ والشّقيَّ، كقولِ طرفةَ:

تمنّى رجالٌ أنْ أموتَ وإنْ أمتْ ... فتلكَ سبيلٌ لستُ فيها بأوحدِ

أيْ واحدٍ ووحيدٍ، وتوضعُ أفعل موضعَ فعيلٍ، نحوَ قولهمْ: اللّهُ أكبر بمعنى كبير ﴿وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ بمعنى هين.

قولهُ تعالى: ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ﴾ أيْ ليسَ يتصدّقُ ليجازى على نعمةٍ ﴿إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ﴾، والأعلى منْ نعتِ الرّبِّ الّذي استحقَّ صفاتِ العلوِّ. أيِ المتعالي ﴿وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ﴾ أيْ بالجزاءِ.

سورة الضحى

مكّيّةٌ باتّفاقٍ، وهيَ إحدى عشرةَ آيةً

بسمِ اللّهِ الرّحمنِ الرّحيمِ

قولهُ تعالى: ﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ﴾ قابل الضّحى باللّيل كقوله: ﴿أَفَأَمِنَ أَهۡلُ ٱلۡقُرَىٰٓ أَن يَأۡتِيَهُم بَأۡسُنَا بَيَٰتٗا وَهُمۡ نَآئِمُونَ ۝٩٧ أَوَأَمِنَ أَهۡلُ ٱلۡقُرَىٰٓ أَن يَأۡتِيَهُم بَأۡسُنَا ضُحٗى وَهُمۡ يَلۡعَبُونَ﴾ أقسمَ بالضّحى وقيلَ: فيهِ إضمار، مجازه ورب الضحى. وسجى معناهُ: سكنَ، وقيلَ: سجى غطى كل شيء ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ﴾ هذا جوابُ القسمِ. وفي البخاريِّ عنْ جندبِ بنِ سفيانَ قالَ: اشتكى رسولُ اللّهِ ﷺ، فلمْ يقمْ ليلتينِ أوْ ثلاثـًا، فجاءتِ امرأةٌ فقالتْ: يا محمّدُ، إنّي لأرجوُ أنْ يكونَ شيطانكَ قدْ تركَكَ، لمْ أرهُ قربكَ منذُ ليلتينِ أوْ ثلاثٍ، فأنزلَ اللّهُ عزَّ وجلَّ: ﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾.

وفي التّرمذيِّ عنْ جندبٍ البجليِّ قالَ: كنتُ معَ النّبيِّ ﷺ في غارٍ فدميتْ أصبعهُ، فقالَ النّبيُّ ﷺ: «هلْ أنتِ إلّا أصبعٌ دميت، وفي سبيلِ اللّهِ ما لقيتِ»! قالَ: وأبطأَ عليهِ جبريلُ فقالَ المشركونَ: قدْ ودّعَ محمّدٌ، فأنزلَ اللّهُ تباركَ وتعالى: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾. هذا حديثٌ حسنٌ صحيحٌ.

و﴿وَدَّعَكَ﴾ بالتّشديدِ: قراءةُ العامّةِ، منَ التّوديعِ، وذلكَ كتوديعِ المفارقِ. ورويَ عنِ ابنِ عبّاسٍ وابنِ الزبير أنهما قراءة «وَدَعَكَ» بالتّخفيفِ، ومعناهُ: تركك

قولهُ تعالى: ﴿وَمَا قَلَىٰ﴾ أيْ ما أبغضكَ ربّكَ منذُ أحبّكَ. وتركَ الكافَ، لأنّهُ رأسُ آيةٍ كما قالَ عزَّ وجلَّ: ﴿وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ﴾ أي والذاكرات الله.

قولهُ تعالى: ﴿وَلَلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لَّكَ مِنَ ٱلۡأُولَىٰ ۝٤ وَلَسَوۡفَ يُعۡطِيكَ رَبُّكَ فَتَرۡضَىٰٓ﴾ يعطيه الحوض والشّفاعة.

قولهُ تعالى: ﴿أَلَمۡ يَجِدۡكَ يَتِيمٗا﴾ لا أبَ لكَ ﴿فَـَٔاوَىٰ﴾ أي آواكَ اللّهُ بأصحابٍ يحفظونكَ ويحوطونكَ.

قولهُ تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ﴾ أيْ غافلاً عمّا يرادُ بكَ منْ أمرِ النّبوّةِ، فهداكَ: أيْ أرشدكَ. والضّلالُ هنا بمعنى الغفلةِ، كقولهِ جلَّ ثناؤهُ: ﴿لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾ أيْ لا يغفلُ. وقالَ في حقِّ نبيِّهِ: ﴿وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾، وقالَ قومٌ: ﴿ضَآلًّا﴾ لمْ تكنْ تدري القرآنَ والشّرائعَ، فهداكَ اللّهُ إلى القرآنِ، وشرائعِ الإسلامِ، وهوَ معنى قولهُ تعالى: ﴿مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ﴾.

﴿وَوَجَدَكَ عَآئِلًا﴾ أيْ فقيراً لا مالَ لكَ، يقالُ: عالَ الرّجلُ يعيلُ عيلةً: إذا افتقرَ ﴿فَأَغْنَىٰ﴾. أيْ فأغناكَ بخديجةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، وقيلَ: أغناكَ بما فتحَ لكَ منَ الفتوحِ، وأفاءهُ عليكَ منْ أموالِ الكفّارِ، وفي هذا نظرٌ، لأنَّ السّورةَ مكّيّةٌ، وإنّما فرضَ الجهادُ بالمدينة وقيلَ: وجدكَ ذا عيالٍ، دليلهُ فأغنى.

قولهُ تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ۝٩ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ۝١٠ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾، فيهِ أربعُ مسائلَ:

الأولى: قولهُ تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ﴾ أيْ لا تسلّطْ عليهِ بالظّلمِ، ادفعْ إليه حقه، واذكر يتمك، وخصَّ اليتيمَ لأنّهُ لا ناصرَ لهُ غيرُ اللّهِ تعالى، فغلّظَ في أمرهِ، بتغليظِ العقوبةِ على ظالمهِ.

الثانية- ودلّتِ الآيةُ على اللّطفِ باليتيمِ، وبرّهِ والإحسانِ إليهِ، وفي الصّحيحِ عنْ أبي هريرةَ: أنَّ رسولَ اللّهِ ﷺ قال: «أنا وكافل اليتيم له أو لغيره كهاتين»، وأشارَ بالسّبّابةِ والوسطى.

الثالثة- قولهُ تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾ أيْ لا تزجرهُ، فهوَ نهيٌ عنْ إغلاظِ القولِ. ولكنْ ردّهُ ببذلٍ يسيرٍ، أوْ ردٍّ جميلٍ، واذكرْ فقركَ.

وقيلَ: المرادُ بالسّائلِ هنا الّذي يسألُ عنِ الدّينِ، فجوابهُ فرضٌ على العالمِ، على الكفايةِ، كإعطاءِ سائلِ البرِّ سواءً.

الرابعة- قولهُ تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ أيِ انشرْ ما أنعمَ اللّهُ عليكَ بالشّكرِ والثّناءِ. والتّحدّثِ بنعمِ اللّهِ، والاعترافُ بها شكرٌ. وقيلَ: ﴿بِنِعْمَةِ رَبِّكَ﴾ أي بالقرآنِ

﴿فَحَدِّثْ﴾، وقيلَ: بالنّبوّةِ، أيْ بلّغْ ما أرسلتَ بهِ. والخطابُ للنّبيِّ ﷺ، والحكمُ عامٌّ لهُ ولغيرِهِ.

وروى النّسائيُّ عنْ مالكِ بنِ نضلةَ الجشميِّ قالَ: كنتُ عندَ رسولِ اللّهِ ﷺ جالسًا، فرآني رثَّ الثّيابِ فقالَ: «ألكَ مال؟» قلت: نعمْ، يا رسولَ اللّهِ، منْ كلِّ المالِ. قالَ: «إذا آتاكَ اللّهُ مالاً فليرَ أثرهُ عليكَ».

وروى أبو سعيدٍ الخدريِّ عنْ رسولِ اللّهِ ﷺ أنّهُ قالَ: «إن الله جميل يحب الجمال، ويجب أنْ يرى أثرَ نعمتهِ على عبدهِ».

فصلٌ:

يكبّرُ القارئُ في روايةِ البزّيِّ عنِ ابنِ كثيرٍ- إذا بلغَ آخرَ والضّحى يكبِّر عند خاتمة كل سورة حتى يختمَ القرآنَ، ولا يصلْ آخرَ السّورةِ بتكبيرِهِ، بلْ يفصلُ بينهما بسكتةٍ. وكأنَّ المعنى في ذلكَ أنَّ الوحيَ تأخّرَ عنِ النّبيِّ ﷺ أيّامًا، فقالَ: ناسٌ منَ المشركينَ: قدْ ودّعهُ صاحبهُ وقلاهُ، فنزلتْ هذهِ السّورةُ فقالَ: «اللّهُ أكبرُ». رواه الحاكمُ في المستدركِ عن أبيِّ بنُ كعبٍ أنَّ رسولَ اللّهِ ﷺ أمرهُ بذلكَ. وقال هذا حديثٌ صحيحٌ ولمْ يخرجاه.

سورة الشرح

مكّيّةٌ في قولِ الجميعِ، وهيَ ثماني آياتٍ.

بسمِ اللّهِ الرّحمنِ الرّحيمِ

قولهُ تعالى: ﴿أَلَمۡ نَشۡرَحۡ﴾ نفتح ونليّنْ ﴿لَكَ صَدۡرَكَ﴾ أي قلبكَ. وهو كقوله: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٖ مِّن رَّبِّهِۦۚ﴾، وفي الصّحيح عنْ أنسِ بنِ مالكٍ، عنْ مالكِ بنِ صعصعةَ- رجل منْ قومهِ- أنَّ النّبيَّ ﷺ قال: «فبينا أنا عندَ البيتِ بينَ النّائمِ واليقظانِ إذْ سمعتُ قائلاً يقولُ: أحدُ الثّلاثةِ فأتيتْ بطستٍ منْ ذهبٍ، فيها ماءُ زمزمَ، فشرحَ صدري إلى كذا وكذا» قالَ قتادةُ قلت: ما يعني؟ قالَ: إلى أسفلِ بطني، قالَ: «فاستخرجَ قلبي، فغسلَ قلبي بماءِ زمزمَ، ثمَّ أعيدَ مكانهُ، ثمَّ حشيَ إيمانًا وحكمةً».

ومعنى ﴿أَلَمۡ نَشۡرَحۡ﴾ قدْ شرحنا، الدّليلُ على ذلكَ قولهُ في النّسقِ عليهِ: ﴿وَوَضَعۡنَا عَنكَ وِزۡرَكَ﴾، فهذا عطفٌ على التّأويلِ، لا على التّنزيلِ، لأنّهُ لوْ كانَ على التّنزيلِ لقالَ: ونضعْ عنكَ وزركَ. فدلَّ هذا على أنَّ معنى ألمْ نشرحْ: قد شرحنا. ولمْ جحدٌ، وفي الاستفهامِ طرفٌ منَ الجحدِ، وإذا وقعَ جحدٌ رجعَ إلى التّحقيقِ، كقولهِ تعالى: ﴿أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِأَحۡكَمِ ٱلۡحَٰكِمِينَ﴾، ومعناهُ: «اللّهُ أحكمُ الحاكمينَ». وكذا ﴿أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبۡدَهُۥۖ﴾، ومثله قول جرير يمدح عبد الملك بن مروانَ:

ألستمْ خيرَ منْ ركبَ المطايا وأندى العالمينَ بطون راح

المعنى: أنتم كذا.

قوله تعالى: ﴿وَوَضَعۡنَا﴾ حططنا ﴿عَنكَ وِزۡرَكَ﴾ أيْ ذنبكَ، وهذهِ الآيةُ مثلَ قولهُ تعالى: ﴿لِّيَغۡفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾.

وقيلَ: الجميعُ كانَ قبلَ النّبوّةِ. والوزرُ: الذّنبُ، أيْ وضعنا عنكَ ما كنتَ فيهِ منْ أمرِ الجاهليّةِ، لأنّهُ كانَ ﷺ في كثيرٍ منْ مذاهبِ قومهِ، وإنْ لمْ يكنْ عبدَ صنمًا ولا وثنًا ﴿ٱلَّذِيٓ أَنقَضَ ظَهۡرَكَ﴾ أيْ أثقلهُ حتّى سمعَ نقيضهُ، أيْ صوتهُ. وأهلُ اللّغةِ يقولونَ: أنقضَ الحِملُ

ظهرَ النّاقةِ: إذا سمعتَ لهُ صريراً منْ شدّةِ الحملِ.

وإنّما وصفتْ ذنوبُ الأنبياءِ بهذا الثّقلِ، معَ كونها مغفورةً لشدّةِ اهتمامهمْ بها وندمهمْ منها وتحسّرهمْ عليها.

قولهُ تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ بالتّأذينِ. وفيهِ يقولُ حسّانُ بنُ ثابتٍ:

وضمَّ الإلهُ اسمَ النّبيِّ إلى اسمهِ   إذا قالَ في الخمسِ المؤذّنُ أشهدُ

وقيلَ: رفعنا ذكركَ عندَ الملائكةِ في السّماءِ، وفي الأرضِ عندَ المؤمنينَ، ونرفعُ في الآخرةِ ذكركَ بما نعطيكَ منَ المقامِ المحمودِ، وكرائمِ الدرجاتِ.

قولهُ تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ﴾ أيْ الضّيقةِ والشّدّةِ ﴿يُسْرًا﴾ أيْ سعةً وغنى ﴿إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾ كرّرَ تأكيدٌ للكلامِ، كما يقالُ: ارمِ ارمِ، اعجلِ اعجلْ، قالَ اللّهُ تعالى: ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٣ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾.

وقالَ قومٌ: إنَّ منْ عادةِ العربِ إذا ذكروا اسماً معرّفاً ثمَّ كرّروهُ، فهوَ هوَ. وإذا نكّروهُ ثمَّ كرّروهُ فهوَ غيرهُ. وهما اثنانِ، ليكونَ أقوى للأملِ، وأبعثَ على الصّبرِ، وجاءَ في الحديثِ عنِ النّبيِّ ﷺ في هذهِ السّورةِ: أنّهُ قالَ: «لنْ يغلبَ عسرٌ يسرينِ».

وقيلَ: إنَّ معَ العسرِ في الدّنيا للمؤمنينَ يسراً وفي الآخرةِ يسرا لا محالةَ. وربّما اجتمعَ يسرُ الدّنيا ويسرُ الآخرةِ.

قولهُ تعالى: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ﴾ منْ صلاتكَ ﴿فَٱنصَبْ﴾ أيْ بالغْ في الدّعاءِ وسلهُ حاجتكَ. وقيلَ: إذا فرغتَ منَ الفرائضِ فانصبْ في قيامِ اللّيلِ. وقيلَ: إذا فرغتَ منْ جهادِ عدوّكَ، فانصبْ لعبادةِ ربّكَ ﴿وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب﴾.

□

سورة التين

مكّيّةٌ في قولِ الأكثرِ، وقالَ ابنُ عبّاسٍ وقتادةُ: هيَ مدنيّةٌ، وهيَ ثماني آياتٍ.

بسمِ اللّهِ الرّحمنِ الرّحيمِ

قولهُ تعالى: ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ﴾، فيهِ ثلاث مسائل:

الأول– قولهُ تعالى: ﴿وَٱلتِّينِ﴾ الّذي تأكلونَ ﴿وَٱلزَّيْتُونِ﴾ الّذي تعصرونَ منهُ الزّيتَ، قالَ اللّهُ تعالى: ﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْآكِلِينَ﴾.

الثانية– قيل: أقسمَ اللّهُ بالتّينِ، والزّيتونِ ويجوزُ أنْ يكونَ ذلكَ على حذفِ مضافٍ، أيْ ومنابتِ التّينِ والزّيتونِ.

الثالثة– قالَ ابنُ العربيِّ ولامتنانِ البارئِ سبحانهُ، وتعظيمِ المنّةِ في التّينِ، وأنّهُ مقتاتٌ مدّخرٌ فلذلكَ قلنا بوجوبِ الزّكاةِ فيه. وإنّما فرَّ كثيرٌ منَ العلماءِ منَ التّصريحِ بوجوبِ الزّكاةِ فيهِ، تقيّةَ جورِ الولاةِ، فإنّهمْ يتحاملونَ في الأموالِ الزّكاتيّةِ، فيأخذونها مغرماً، حسبَ ما أنذرَ بهِ الصّادقُ ﷺ. فكرهَ العلماءُ أنْ يجعلوا لهمْ سبيلاً إلى مالٍ آخرَ يتشطّطونَ فيهِ، ولكنْ ينبغي للمرءِ أنْ يخرجَ عنْ نعمةِ ربّهِ، بأداءِ حقّهِ. وقدْ قالَ الشّافعيُّ لهذهِ العلّةِ وغيرها: لا زكاةَ في الزّيتونِ. والصحيح وجوب الزكاة فيهما.

قولهُ تعالى: ﴿وَطُورِ سِينِينَ﴾ الطورِ: جبلٌ. وسينينَ مباركٌ حسنٌ بالسّريانيّةِ. وهو الجبلُ الّذي نادى اللّهُ جلَّ ثناؤهُ منهُ موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ. وقيلَ: كلُّ جبلٍ فيهِ شجرٌ مثمرٌ، فهوَ سينينَ وسيناءَ بلغةِ النّبطِ، وإنّما أقسمَ بهذا الجبلِ لأنّهُ بالشّأمِ والأرضِ المقدّسةِ، وقدْ باركَ اللّهُ فيهما، كما قالَ: إلى المسجدِ الأقصى الّذي باركنا حولهُ.

قولهُ تعالى: ﴿وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ﴾ يعني مكّةَ. سمّاهُ أميناً لأنّهُ آمنٌ، كما قالَ: ﴿أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا﴾ فالأمينُ: بمعنى الآمنُ، وبهذا احتجَّ منْ قالَ: إنّهُ أرادَ بالتّينِ دمشقَ، وبالزّيتونِ بيتَ المقدسِ. فأقسمَ اللّهُ بجبلِ دمشقَ، لأنّهُ مأوى عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وبجبلِ بيتِ المقدسِ، لأنّهُ مقامُ الأنبياءِ عليهمُ السّلامُ، وبمكّةَ لأنّها أثرُ إبراهيمَ ودارُ محمّدٍ ﷺ.

قولهُ تعالى: ﴿لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِيٓ أَحۡسَنِ تَقۡوِيمٖ ۝٤ ثُمَّ رَدَدۡنَٰهُ أَسۡفَلَ سَٰفِلِينَ ۝٥﴾، فيهِ مسألتانِ:

الأولى: قولهُ تعالى: ﴿لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ﴾ هذا جوابُ القسمِ، وأرادَ بالإنسانِ: الكافرَ، وقيلَ: المرادُ بالإنسانِ آدمُ وذريّتِهِ ﴿فِيٓ أَحۡسَنِ تَقۡوِيمٖ﴾ باعتدالهُ واستواءِ شبابِهِ، لأنه خلق كل شيء منكبا عل وجههِ، وخلقهُ مستويـًا، له لسانٌ ذلقٌ، ويد وأصابعُ يقبضُ بها وعقل.

الثانية- قولهُ تعالى: ﴿ثُمَّ رَدَدۡنَٰهُ أَسۡفَلَ سَٰفِلِينَ﴾ أيْ إلى أرذلِ العمرِ، وهوَ الهرمُ بعدَ الشّبابِ، والضّعفُ بعدَ القوّةِ، وقيلَ: ثمَّ رددناهُ أسفلَ سافلينَ إلى النّارِ، يعني الكافرَ، والاستثناءُ على قولِ منْ قالَ أسفلَ سافلينَ النّارُ، متّصلٌ. ومنْ قالَ: إنّهُ الهرم فهو منقطع.

قولهِ تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ الّذينَ أدركهمُ الكبرُ لا يؤاخذونَ بما عملوهُ في كبرهم فإنّهُ تكتبُ لهمْ حسناتهمْ، وتمحى عنهمْ سيّئاتهمْ، وفي حديثٍ قالَ النّبيُّ ﷺ: «إذا سافرَ العبدُ أوْ مرضَ كتبَ اللّهُ لهُ مثلَ ما كانَ يعملُ مقيمـًا صحيحـًا».

قولهُ تعالى: ﴿فَلَهُمۡ أَجۡرٌ غَيۡرُ مَمۡنُونٖ﴾ غير مقطوع.

قولهُ تعالى: ﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعۡدُ بِٱلدِّينِ﴾ الخطابُ للكافرِ، توبيخـًا وإلزامـًا للحجّةِ. أيْ إذا عرفتَ أيّها الإنسانُ أنَّ اللّهَ خلقكَ في أحسنِ تقويمٍ، وأنّهُ يردّكَ إلى أرذلِ العمرِ، وينقلكَ منْ حالٍ إلى حالٍ، فما يحملكَ على أنْ تكذّبَ بالبعثِ والجزاءِ.

قولهُ تعالى: ﴿أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِأَحۡكَمِ ٱلۡحَٰكِمِينَ﴾ أيْ أتقنِ الحاكمينَ صنعـًا في كلِّ ما خلقَ. وقيلَ: بأحكمِ الحاكمينَ قضاءً بالحقِّ، وعدلاً بينَ الخلقِ.

وكانَ ابنُ عبّاسٍ وعليِّ بنِ أبي طالبٍ رضي الله عنهما إذا قرأَ: ﴿أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِأَحۡكَمِ ٱلۡحَٰكِمِينَ﴾ قالا: بلى، وأنا على ذلكَ منَ الشّاهدينَ، فيختارُ ذلكَ. والله أعلم. ورواهُ التّرمذيُّ عنْ أبي هريرةَ قالَ: منْ قرأَ سورةَ والتّينِ والزّيتونِ فقرأَ أليسَ اللّهُ بأحكمِ الحاكمينَ فليقلْ: بلى، وأنا على ذلكَ منَ الشّاهدينَ. والله أعلم.

سورة العلق

مكّيّةٌ بإجماعٍ وهيَ أوّلُ ما نزلَ منَ القرآنِ في قولٍ، وهيَ تسعَ عشرة آية.

بسمِ اللّهِ الرّحمنِ الرّحيم

هذهِ السّورةُ أوّلُ ما نزلَ منَ القرآنِ، في قولِ معظمِ المفسّرينَ. نزلَ بها جبريلَ على النّبيِّ ﷺ وهوَ قائمٌ على حراءَ، فعلّمهُ خمسَ آياتٍ منْ هذهِ السّورةِ. وقيلَ: إنَّ أول ما نزل ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ﴾، والصّحيحُ الأوّلُ. ففي الصّحيحينِ عنْ عائشة قالتْ: أوّلُ ما بدئَ بهِ رسولُ اللّهِ ﷺ منَ الوحيِ الرّؤيا الصّادقةُ في النّومِ، فكانَ لا يرى رؤيا إلّا جاءتْ مثلَ فلقِ الصّبحِ، ثمَّ حبّبَ إليهِ الخلاءُ، فكانَ يخلو بغارِ حراءَ، يتحنّثُ فيهِ اللّيالي ذواتَ العددِ، قبلَ أنْ يرجعَ إلى أهلهِ ويتزوّدَ لذلكَ، ثمَّ يرجعُ إلى خديجة فيتزود لمثلها، حتى فجأه الحقُّ وهوَ في غارِ حراءَ، فجاءهُ الملكُ، فقالَ: «اقرأْ»: فقالَ: «ما أنا بقارئٍ- قالَ- فأخذني فغطّني، حتّى بلغَ منّي الجهدَ، ثمَّ أرسلني» فقالَ: «اقرأْ» فقلت: «ما أنا بقارئٍ». فأخذني فغطّني الثالثة حتّى بلغَ منّي الجهدَ، ثمَّ أرسلني، فقالَ: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥﴾ الحديث بكاملة.

ومعنى ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾ أيِ اقرأْ ما أنزلَ إليكَ منَ القرآنِ مفتتحًا باسمِ ربّكَ، وهوَ أنْ تذكرَ التّسميةَ في ابتداءِ كلِّ سورةٍ. فمحلُّ الباءِ منْ باسمِ ربّكَ النّصبُ على الحالِ.

قولهُ تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ﴾ يعني ابنَ آدمَ ﴿مِنْ عَلَقٍ﴾ أيْ منْ دمٍ، جمعُ علقةٍ، والعلقةُ الدّمُ الجامدُ، وإذا جرى فهوَ المسفوحُ، وخصَّ الإنسانَ بالذّكرِ تشريفًا لهُ. وقيلَ: أرادَ أنْ يبيّنَ قدرَ نعمتهُ عليهِ، بأنْ خلقهُ منْ علقةٍ مهينةٍ، حتّى صارَ بشراً سويًا، وعاقلاً مميزا.

قولهُ تعالى: ﴿ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ﴾ قولهُ تعالى: اقرأْ تأكيدٌ، وتمَّ الكلامُ، ثمَّ استأنفَ فقالَ: ﴿وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ﴾ أيِ الكريمُ.

قولهُ تعالى: ﴿ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ﴾، فيهِ ثلاثُ مسائلَ:

الأولى: قولهُ تعالى: ﴿ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ﴾ يعني علّمَ الإنسانَ الخطَّ والكتابةَ، وسمّيَ

قلماً لأنّهُ يُقلمُ، أيْ يقطعُ، ومنهُ تقليمُ الظّفرِ.

الثانية- صحَّ عنِ النّبيِّ ﷺ منْ حديثِ أبي هريرةَ، قالَ: «لمّا خلقَ اللّهُ الخلقَ كتبَ في كتابهِ- فهوَ عندهُ فوقَ العرشِ: إنَّ رحمتي تغلبُ غضبي». وثبتَ عنهُ ﷺ أنّهُ قالَ: «أوّلُ ما خلق الله: القلم، فقال له اكتب، فكتبَ ما يكونُ إلى يومِ القيامةِ، فهوَ عندهُ في الذّكرِ فوقَ عرشِهِ».

قالَ علماؤنا: الأقلامُ في الأصلِ ثلاثةٌ: القلمُ الأوّلُ: الّذي خلقهُ اللّهُ بيدهِ، وأمرهُ أنْ يكتبَ. والقلمُ الثّاني: أقلامُ الملائكةِ، جعلها اللّهُ بأيديهمْ يكتبونَ بها المقاديرَ والكوائنَ والأعمالَ. والقلمُ الثّالثُ: أقلامُ النّاسِ، جعلها اللّهُ بأيديهمْ، يكتبونَ بها كلامهمْ، ويصلونَ بها مآربهمْ.

الثالثة- قالَ علماؤنا: كانتِ العربُ أقلَّ الخلقِ معرفةً بالكتابِ، وأقلُّ العربِ معرفةً بهِ المصطفى ﷺ، صرفَ عنْ علمهِ، ليكونَ ذلكَ أثبتَ لمعجزتهِ، وأقوى في حجّتهِ.

قولهُ تعالى: ﴿عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ قيل: الإنسانَ هنا آدمُ عليه السلام. علّمهُ أسماءَ كلِّ شيء، حسبَ ما جاءَ بهِ القرآنُ في قولهِ تعالى: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾، وقيلَ: الإنسان هنا الرّسولُ محمّدٌ ﷺ، دليلهُ قولهُ تعالى: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ﴾، وعلى هذا فالمراد بعلّمكَ المستقبلُ، فإنَّ هذا منْ أوائلِ ما نزلَ. وقيلَ: هوَ عامٌّ لقولهِ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا﴾.

قوله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ﴾ كلّا بمعنى حقا، إذ ليس قبله شيء. والإنسانُ هنا أبو جهلٍ. والطّغيانُ: مجاوزةُ الحدِّ في العصيانِ ﴿أَن رَّءَاهُ﴾ أيْ لأنْ رأى نفسهُ استغنى، أيْ صارَ ذا مالٍ وثروةٍ، وقيلَ: أنْ رآهُ استغنى بالعشيرةِ والأنصارِ والأعوانِ.

قولهُ تعالى: ﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ﴾ أيْ مرجعُ منْ هذا وصفهُ، فنجازيهِ. والرّجعى والمرجعُ والرّجوعُ: مصادرٌ، يقالُ: رجعَ إليهِ رجوعاً ومرجعاً. ورجعى، على وزن فعلى.

قولهُ تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ﴾ وهوَ أبو جهلٍ ﴿عَبْدًا﴾ وهوَ محمّدٌ ﷺ. فإنَّ أبا جهلٍ قالَ: إنْ رأيتُ محمّداً يصلّي لأطأنَّ على عنقهِ، قالهُ أبو هريرةَ. فأنزلَ اللّهُ هذهِ الآياتِ

تعجّبًا منهُ ﴿أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ۝١١ أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ﴾ أيْ أرأيتَ يا أبا جهل إنْ كانَ محمّدٌ على هذهِ الصّفةِ، أليسَ ناهيهِ عن التقوى والصلاة هالكا؟! ﴿أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١٣ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ﴾ يعني أبا جهلٍ كذّبَ بكتابِ اللّهِ عزَّ وجلَّ، وأعرضَ عنِ الإيمانِ، فهوَ تقريرٌ وتوبيخٌ.

قولهُ تعالى: ﴿كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ﴾ عنْ أذاكَ يا محمّدُ ﴿لَنَسْفَعًا﴾ أيْ لنأخذنَّ بالنّاصيةِ فلنذلّنّهُ. والسّفعُ: الجذبُ بشدّةٍ، وقيلَ: لنأخذنَّ بناصيتهِ يومَ القيامةِ وتطوى معَ قدميهِ، ويطرحُ في النّارِ، كما قالَ تعالى: ﴿فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ﴾، فالآيةُ- وإنْ كانتْ في أبي جهلٍ- فهيَ عظةٌ للنّاسِ، وتهديدٌ لمنْ يمتنعُ أوْ يمنعُ غيرهُ عنِ الطّاعةِ. والنّاصيةُ: شعرُ مقدّمِ الرّأسِ. وقدْ يعبّرُ بها عنْ جملةِ الإنسانِ، وخصّها بالذّكرِ على عادةِ العربِ فيمنْ أرادوا إذلالهُ وإهانتهُ أخذوا بناصيتهِ. ثمَّ قالَ على البدلِ: ﴿نَاصِيَةٍ كَـٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ﴾ أيْ ناصيةِ أبي جهلٍ كاذبةٍ في قولها، خاطئةٍ في فعلها. والخاطئُ معاقبٌ مأخوذٌ. والمخطئُ غيرُ مأخوذٍ. ووصفُ النّاصيةِ بالكاذبةِ الخاطئةِ، كوصفِ الوجوهِ بالنّظرِ في قولهِ تعالى: ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾، وقيلَ: أيْ صاحبها كاذبٌ خاطئٌ، كما يقالُ: نهارهُ صائمٌ، وليلهُ قائمٌ، أيْ هوَ صائمٌ في نهاره، ثم قائم في ليله.

قولهُ تعالى: ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ﴾ أيْ أهلَ مجلسهِ وعشيرتهُ، فليستنصرْ بهمْ ﴿سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ﴾ أيِ الملائكةَ الغلاظَ الشّدادَ واحدهمْ زابنٌ منَ الزّبنِ وهوَ الدّفعُ، ومنهُ المزابنةُ في البيعِ.

والنّادي في كلامِ العربِ: المجلسُ الّذي ينتدي فيهِ القومُ، أيْ يجتمعونَ، والمرادُ أهلُ النّادي.

﴿كَلَّا﴾ أيْ ليسَ الأمرُ على ما يظنّهُ أبو جهلٍ ﴿لَا تُطِعْهُ﴾ أيْ فيما دعاكَ إليهِ منْ تركِ الصّلاةِ ﴿وَٱسْجُدْ﴾ أيْ صلِّ للّهِ ﴿وَٱقْتَرِب﴾ أيْ تقرّبْ إلى اللّهِ جلَّ ثناؤهُ بالطّاعةِ والعبادةِ. وقيلَ: المعنى: إذا سجدتَ فاقتربْ منَ اللّهِ بالدّعاءِ. روى عطاءٌ عنْ أبي هريرةَ قالَ: قالَ رسولُ اللّهِ ﷺ: «أقربُ ما يكونُ العبدُ منْ ربّهِ، وأحبّهُ إليهِ، جبهتهُ في الأرضِ ساجداً للّهِ».

قالَ علماؤنا: وإنّما كانَ ذلكَ لأنّها نهايةُ العبوديّةِ والذّلّةِ، ولِلّهِ غايةُ العزّةِ، ولهُ العزّةُ الّتي لا مقدارَ لها، فكلّما بعدتَ منْ صفتهِ، قربتَ منْ جنّتهِ، ودنوتَ منْ جوارهِ في دارهِ. وفي الحديثِ الصّحيحِ: أنَّ النّبيَّ ﷺ قالَ: «أمّا الرّكوعُ فعظّموا فيهِ الرّبَّ. وأمّا السّجودُ فاجتهدوا في الدّعاءِ، فإنّهُ قمنٌ أنْ يستجابَ لكمْ». ولقدْ أحسنَ منْ قالَ:

وإذا تذلّلتِ الرّقابُ تواضعًا ... منّا إليكَ فعزّها في ذلّها

وقيل: اسجدْ أنتَ يا محمّدُ مصلّيًا، واقتربْ أنتَ يا أبا جهلٍ منَ النّارِ.

وقولهُ تعالى: ﴿وَٱسْجُدْ﴾ هذا منَ السّجودِ يحتملُ أنْ يكونَ بمعنى السّجودِ في الصّلاةِ، ويحتملُ أنْ يكونَ سجودَ التّلاوةِ في هذهِ السّورةِ.

قالَ ابنُ العربيِّ: والظّاهرُ أنّهُ سجودُ الصّلاةِ لقولهِ تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ۝٩ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ﴾ - إلى قولهِ - ﴿كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب﴾، لولا ما ثبتَ في الصّحيحِ منْ روايةِ مسلمٍ وغيرهِ منَ الأئمّةِ عنْ أبي هريرةَ أنّهُ قالَ: سجدتُ معَ رسولِ اللّهِ ﷺ في ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ﴾، وفي ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾ سجدتينِ، فكانَ هذا نصًا على أنَّ المرادَ سجودَ التّلاوةِ.

سورة القدر

مدنيّةٌ في قولِ أكثرِ المفسّرينَ، وهيَ خمسُ آياتٍ.

بسمِ اللّهِ الرّحمنِ الرّحيمِ

قولهُ تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ﴾ يعني القرآنِ، وإنْ لمْ يجرِ لهُ ذكرٌ في هذهِ السّورةِ، لأنَّ المعنى معلومٌ، والقرآنُ كلّهُ كالسّورةِ الواحدةِ. وقدْ قالَ: ﴿شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ﴾، وقالَ: ﴿حمٓ ۝١ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ۝٢ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةٖ مُّبَٰرَكَةٍۚ﴾ يريد: في ليلة القدر، والمعنى إنّا ابتدأنا إنزالهُ في ليلةِ القدرِ. وقيلَ: بلْ نزلَ بهِ جبريلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ جملةً واحدةً في ليلةِ القدرِ، منَ اللّوحِ المحفوظِ إلى سماءِ الدّنيا، إلى بيتِ العزّةِ، وأملاهُ جبريلُ على السّفرةِ، ثمَّ كانَ جبريلُ ينزلهُ على النّبيِّ ﷺ نجوماً نجوماً. وكانَ بينَ أوّلهِ وآخرهِ ثلاثٌ وعشرونَ سنةً.

قولهُ تعالى: ﴿فِي لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِ ۝١ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ﴾ سمّيتْ بذلكَ لأنَّ اللّهَ تعالى يقدّرُ فيها ما يشاءُ منْ أمرهِ، إلى مثلها منَ السّنةِ القابلةِ، وقيلَ: إنّما سمّيتْ بذلكَ لعظمها وقدرها وشرفها، منْ قولهمْ: لفلانٍ قدرٌ، أيْ شرفٌ ومنزلةٌ، وقيلَ: سمّيتْ بذلكَ لأنَّ للطّاعاتِ فيها قدراً عظيماً، وثواباً جزيلاً، وقيلَ: سمّيتْ بذلكَ لأنّهُ أنزلَ فيها كتاباً ذا قدرٍ، على رسولٍ ذي قدرٍ، على أمّةٍ ذاتِ قدرٍ، وينزلُ فيها ملائكةٌ ذوو قدرٍ وخطرٍ.

قولهُ تعالى: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ ۝٢ لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ خَيۡرٞ مِّنۡ أَلۡفِ شَهۡرٖ﴾ وكلُّ ما في القرآنِ منْ قولهِ تعالى: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ﴾ فقدْ أدراهُ. وما كانَ منْ قولهِ: وما يدريكَ فلمْ يدرهِ ﴿لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ خَيۡرٞ مِّنۡ أَلۡفِ شَهۡرٖ﴾ أيِ العملُ فيها خيرٌ منَ العملِ في ألفِ شهرٍ ليسَ فيها ليلةُ القدرِ، وقيلَ: عنى بألفِ شهرٍ جميعَ الدّهرِ، لأنَّ العربَ تذكرُ الألفَ في غايةِ الأشياءِ، كما قالَ تعالى: ﴿يَوَدُّ أَحَدُهُمۡ لَوۡ يُعَمَّرُ أَلۡفَ سَنَةٖ﴾ يعني جميعَ الدّهرِ.

قولهُ تعالى: ﴿تَنَزَّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾ أيْ تهبطُ منْ كلِّ سماءٍ، ومنْ سدرةِ المنتهى، ومسكنُ جبريلَ على وسطها. فينزلونَ إلى الأرضِ ويؤمّنونَ على دعاءِ النّاسِ، إلى وقتِ طلوعِ الفجرِ ﴿وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذۡنِ رَبِّهِم﴾ أيْ جبريلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وقيلَ: الرّوحُ الرّحمةُ ينزلُ بها جبريلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ معَ

الملائكةِ في هذهِ اللّيلةِ على أهلها، دليلهُ: ﴿يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ﴾ أيْ بالرّحمةِ ﴿فِيهَا﴾ أيْ في ليلةِ القدرِ ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِم﴾ أيْ بأمره ﴿مِّن كُلِّ أَمْرٍ﴾ قدّرهُ اللّهُ وقضاهُ في تلكَ السّنةِ إلى قابلٍ، كقوله تعالى: ﴿يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ أيْ بأمرِ اللّهِ ﴿سَلَٰمٌ هِىَ﴾ أيْ ليلةُ القدرِ سلامةٌ وخيرٌ كلّها لا شرَّ فيها ﴿حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ﴾ أيْ خيرٌ هيَ إلى طلوعِ الفجرِ. وقرأ الكسائيُّ ﴿مَطْلِعِ﴾ بكسرِ اللّامِ، الباقونَ بالفتحِ. والفتحُ والكسرُ: لغتانِ في المصدرِ، وهنا ثلاثُ مسائلَ:

الأولى: في تعيينِ ليلةِ القدرِ، وقدِ اختلفَ العلماءُ في ذلكَ. والّذي عليهِ المعظمُ أنّها ليلةُ سبعٍ وعشرينَ، لحديثِ زرِّ بنِ حبيشٍ قالَ: قلتُ: لأبيِّ بنِ كعبٍ: إن أخاك عبد الله ابن مسعودٍ يقولُ: منْ يقمُ الحولَ يصبْ ليلةَ القدرِ. فقالَ: يغفرُ اللّهُ لأبي عبدِ الرّحمنِ! لقدْ علمَ أنّها في العشرِ الأواخرِ منْ رمضانَ، وأنّها ليلةُ سبعٍ وعشرينَ، ولكنّهُ أرادَ ألّا يتّكلَ النّاسُ، ثمَّ حلفَ لا يستثني: أنّها ليلةُ سبعٍ وعشرينَ. قالَ قلت: بأي شيء تقولُ ذلكَ يا أبا المنذرِ؟ قالَ: بالآيةِ الّتي أخبرنا بها رسولُ اللّهِ ﷺ، أوْ بالعلامةِ أنَّ الشّمسَ تطلعُ يومئذٍ لا شعاعَ لها. قالَ التّرمذيُّ: حديثٌ حسنٌ صحيحٌ. وخرّجهُ مسلمٌ.

وقيلَ: هيَ في شهرِ رمضانَ دونَ سائرِ العامِ، وقيلَ: هيَ في ليالي السّنةِ كلّها، فمنْ علّقَ طلاقَ امرأتهِ أوْ عتقَ عبدهِ بليلةِ القدرِ، لمْ يقعِ العتقُ والطّلاقُ إلّا بعدَ مضيِّ سنةٍ منْ يوم حلفَ. لأنّهُ لا يجوزُ إيقاعُ الطّلاقِ بالشّكِّ، ولمْ يثبتِ اختصاصها بوقتٍ، فلا ينبغي وقوعُ الطّلاقِ إلّا بمضيِ حولٍ. وكذلكَ العتقُ، وما كانَ مثلهُ منْ يمينٍ أوْ غيرهِ، وإلى هذا القولِ ذهبَ أبو حنيفةَ أنّها في جميعِ السّنةِ. وقيلَ عنهُ: إنّها رفعتْ - يعني ليلةَ القدرِ - وأنّها إنّما كانتْ مرّةً واحدةً.

والصّحيحُ أنّها باقيةٌ، والجمهورُ على أنّها في كلِّ عامٍ منْ رمضانَ. ثمَّ قيل: إنّها اللّيلةُ الأولى منَ الشّهرِ، وقيلَ: هيَ ليلةُ سبعَ عشرةَ منْ رمضانَ، وهيَ اللّيلةُ الّتي كانتْ صبيحتها وقعةُ بدرٍ. كأنّهمْ نزعوا بقولهِ تعالى: ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ﴾، وكانَ ذلكَ ليلةَ سبعَ عشرةَ، والصّحيحُ المشهورُ: أنّها في العشرِ الأواخرِ منْ رمضانَ، وهوَ قولُ مالكٍ والشّافعيِّ وأحمدَ، ثمَّ قالَ قومٌ: هيَ ليلةُ الحادي والعشرينَ. ومالَ

إليهِ الشّافعيُّ ﵁، لحديثِ الماءِ والطّينِ ورواهُ أبو سعيدٍ الخدريُّ، وقيلَ ليلةُ الثّالثِ والعشرينَ، لما رواهُ ابنِ عمرَ أنَّ رجلاً قالَ: يا رسولَ اللّهِ إنّي رأيتُ ليلةَ القدرَ في سابعةٍ تبقى. فقالَ: النّبيُّ ﷺ: «أرى رؤياكمْ قدْ تواطأتْ على ثلاثٍ وعشرينَ، فمنْ أرادَ أنْ يقومَ منَ الشّهرِ شيئًا فليقمْ ليلةَ ثلاثٍ وعشرينَ». وفي صحيح مسلمٍ أنَّ النّبيَّ ﷺ قال: «إنّي رأيتُ أنّي أسجدُ في صبيحتها في ماءٍ وطينٍ». قالَ عبدُ اللّهِ بنُ أنيسٍ: فرأيتهُ في صبيحةِ ليلةِ ثلاثٍ وعشرينَ في الماءِ والطّينِ، كما أخبرَ رسولُ اللّهِ ﷺ. وقيلَ: ليلةُ خمسٍ وعشرينَ، لحديثِ أبي سعيدٍ الخدريِّ: أنَّ رسولَ اللّهِ ﷺ قال: «التمسوها في العشرِ الأواخرِ في تاسعةٍ تبقى، في سابعةٍ تبقى، في خامسةٍ تبقى». رواهُ مسلمٌ، قالَ مالكٌ: يريدُ بالتّاسعةِ ليلةَ إحدى وعشرينَ، والسّابعةِ ليلةَ ثلاثٍ وعشرينَ، والخامسة ليلةَ خمسٍ وعشرينَ. وقيلَ: ليلةُ سبعٍ وعشرينَ. وقدْ مضى دليلهُ، والسّابعةَ والعشرونَ من كلماتِ هذهِ السّورةِ قوله: هيَ، وأيضًا فإنَّ ليلةَ القدرَ كرّرَ ذكرها ثلاثَ مرّاتٍ، وهيَ تسعةُ أحرفٍ، فتجيءُ سبعًا وعشرينَ، وقيلَ إنّها مستورةٌ في جميعِ السّنةِ، ليجتهدَ المرءُ في إحياءِ جميعِ اللّيالي. وقيلَ: أخفاها في جميعِ شهرِ رمضانَ، ليجتهدوا في العملِ والعبادةِ لياليَ شهرِ رمضانَ، طمعًا في إدراكها، كما أخفى الصّلاةَ الوسطى في الصّلواتِ، واسمهُ الأعظمَ في أسمائهِ الحسنى، وساعةَ الإجابةِ في ساعاتِ الجمعةِ وساعاتِ اللّيلِ، وغضبهُ في المعاصي، ورضاهُ في الطّاعاتِ، وقيامَ السّاعةِ في الأوقاتِ، والعبدَ الصّالحَ بينَ العبادِ، رحمةً منهُ وحكمةً.

الثانية: في علاماتها: منها أنَّ الشّمسَ، تطلعُ في صبيحتها بيضاءَ لا شعاعَ لها.

الثالثة: في فضائلها. وحسبكَ بقولهِ تعالى: ﴿لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ خَيۡرٞ مِّنۡ أَلۡفِ شَهۡرٖ﴾، وقولهُ تعالى: ﴿تَنَزَّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا﴾، وفي الصّحيحينِ: «منْ قامَ ليلةَ القدرُ إيمانًا واحتسابًا غفرَ اللّهُ لهُ ما تقدّمَ منْ ذنبهِ» رواهُ أبو هريرةَ، وقالتْ عائشةُ ﵂: قلت: يا رسولَ اللّهِ إنْ وافقتُ ليلةَ القدرِ فما أقولُ؟ قالَ: «قولي اللّهمَّ إنّكَ عفوٌّ تحبُّ العفوَ فاعفُ عنّي».

سورة البينة

مدنيّةٌ، في قولِ الجمهورِ. وهيَ تسعُ آياتٍ. وفي الصّحيحُ عنْ أنسٍ: أنَّ النّبيَّ ﷺ قالَ لأبيِّ بنِ كعبٍ: «إنَّ اللّهَ أمرني أنْ أقرأَ عليكَ ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾» قالَ: وسمّاني لكَ!؟ قالَ: «نعمْ» فبكى». خرّجهُ البخاريُّ ومسلمٌ. وفيهِ منَ الفقهِ قراءةُ العالمِ على المتعلّمِ. قالَ بعضهمْ: إنّما قرأَ النّبيُّ ﷺ على أبيٍّ ليعلّمَ النّاسَ التّواضعَ، لئلّا يأنفَ أحدٌ منَ التّعلّمِ والقراءةِ على منْ دونهُ في المنزلةِ. وقيلَ: لأنَّ أبيًا كانَ أسرعَ أخذاً لألفاظِ رسولِ اللّهِ ﷺ، فأرادَ بقراءتهِ عليهِ، أنْ يأخذَ ألفاظهُ ويقرأَ كما سمعَ منهُ، ويعلّمَ غيرهُ. وفيهِ فضيلةٌ عظيمةٌ لأبيٍّ، إذْ أمرَ اللّهُ رسولهُ أنْ يقرأَ عليهِ.

بسمِ اللّهِ الرّحمنِ الرّحيمِ

قولهُ تعالى: ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ﴾ يعني اليهودَ والنّصارى ﴿وَٱلْمُشْرِكِينَ﴾ في موضعِ جرٍّ عطفاً على أهلِ الكتابِ ﴿مُنفَكِّينَ﴾ أيْ منتهينَ عنْ كفرهمْ، مائلينَ عنهُ ﴿حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ﴾ أيْ أتتهمُ البيّنةُ، أيْ محمّدٌ ﷺ، وقيلَ: منفكّينَ: بارحينَ، أيْ لمْ يكونوا ليبرحوا ويفارقوا الدّنيا ﴿حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ﴾ قيلَ حتّى أتتهمْ. والبيّنةُ: محمّدٌ ﷺ ﴿رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي بعيث منَ اللّهِ جلَّ ثناؤهُ. ورسولٌ رفعَ على البدلِ منَ البيّنةُ ﴿يَتْلُوا۟﴾ أيْ يقرأُ. يقالُ: تلا يتلو تلاوةً ﴿صُحُفًا﴾ جمعُ صحيفةٍ، وهيَ ظرفُ المكتوبِ ﴿مُّطَهَّرَةً﴾ منَ الزّورِ، والشّكِّ، والضّلالةِ، ومطهّرةً: منْ نعتِ الصّحفِ، وهوَ كقولهِ تعالى: ﴿فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ۝١٣ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ﴾، فالمطهّرةُ نعتٌ للصّحفِ في الظّاهرِ، وهيَ نعتٌ لما في الصّحفِ منَ القرآنِ. وقيلَ: مطهّرةً أيْ ينبغي ألّا يمسّها إلّا المطهّرونَ، كما قالَ في سورةِ الواقعةِ حسبَ ما تقدّمَ بيانهُ. وقيلَ: الصّحفُ المطهّرةُ: هيَ الّتي عندَ اللّهِ في أمِّ الكتابِ، الّذي منهُ نسخَ ما أنزل على الأنبياء منَ الكتبِ، كما قالَ تعالى: ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ۝٢١ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ﴾ يعني الصّحفَ المطهّرةَ في السّماءِ ﴿فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ﴾ أيْ مستقيمةٌ مستويةٌ محكمةٌ، والكتبَ هنا: بمعنى الأحكام، قالَ الله عز وجل: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ﴾ بمعنى حكمَ. وقالَ ﷺ: «واللّهِ لأقضينَّ بينكما بكتابِ اللّهِ» ثمَّ قضى بالرّجمِ، وليسَ ذكرُ الرّجمِ

مسطوراً في الكتابِ، فالمعنى: لأقضينَّ بينكما بحكمِ اللّهِ تعالى، وقيلَ: الكتبُ القيّمةُ: هيَ القرآنُ، فجعلهُ كتباً لأنّهُ يشتملُ على أنواعٍ من البيان.

قولهُ تعالى: ﴿وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ خصَّ أهلَ الكتابِ بالتّفريقِ دونَ غيرهمْ وإنْ كانوا مجموعينَ معَ الكافرينَ، لأنّهمْ مظنونٌ بهمْ علمٌ فإذا تفرّقوا كانَ غيرهمْ ممّنْ لا كتابَ لهُ أدخلُ في هذا الوصفِ ﴿إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَةُ﴾ أيْ أتتهمُ البيّنةُ الواضحةُ. والمعنيُّ بهِ محمّدٌ ﷺ، أيْ القرآنُ موافقاً لما في أيديهمْ منَ الكتابِ بنعتهِ وصفتهِ. وذلكَ أنّهمْ كانوا مجتمعينَ على نبوّتهِ، فلمّا بعثَ جحدوا نبوّتهُ وتفرّقوا، فمنهمْ منْ كفرَ: بغياً وحسداً، ومنهمْ منْ آمنَ، كقولهِ تعالى: ﴿وَمَا تَفَرَّقُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۚ﴾، وقيلَ: البيّنةُ: البيانُ الّذي في كتبهمْ أنّهُ نبيٌّ مرسلٌ.

قولهُ تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ﴾، فيهِ ثلاثُ مسائلَ:

الأولى: قولهُ تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ﴾ أيْ وما أمرَ هؤلاءِ الكفّارُ في التّوراةِ والإنجيلِ ﴿إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ أيْ ليوحّدوهُ. واللّامُ في ليعبدوا بمعنى ﴿أن﴾، كقوله: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمۡ﴾ أي أن يبين. و ﴿يُرِيدُونَ لِيُطۡفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ﴾ ﴿وَأُمِرۡنَا لِنُسۡلِمَ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ ﴿مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ أيِ العبادةَ، ومنهُ قولهُ تعالى: ﴿قُلۡ إِنِّيٓ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾، وفي هذا دليلٌ على وجوبِ النّيّةِ في العباداتِ فإنَّ الإخلاصَ منْ عملِ القلبِ وهوَ الّذي يرادُ بهِ وجهُ اللّهِ تعالى لا غيرهِ.

الثانية– قولهُ تعالى: ﴿حُنَفَآءَ﴾ أيْ مائلينَ عنِ الأديانِ كلّها، إلى دينِ الإسلامِ.

الثالثة– قولهُ تعالى: ﴿وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أيْ بحدودها في أوقاتها ﴿وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ﴾ أيْ يعطوها عندَ محلّها ﴿وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ﴾ أيِ الدّينُ المستقيمُ.

قولهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ المشركينَ: معطوفٌ على الّذينَ، أوْ يكونُ مجروراً معطوفاً على أهلِ ﴿فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ شَرُّ ٱلۡبَرِيَّةِ﴾ قرأَ نافعٌ وابنُ ذكوانَ بالهمزِ على الأصلِ في الموضعينِ، منْ قولهمْ: برأَ اللّهُ

الخلقَ، وهوَ الباريُ الخالقُ، وقال: ﴿مِّن قَبۡلِ أَن نَّبۡرَأَهَآۚ﴾. وقدِ استدلَّ بهذه القراءةِ منْ فضّلَ بني آدمَ على الملائكةِ، الباقونَ بغيرِ همزٍ، وشدِّ الياءَ عوضًا منهُ، منَ البرى، وهوَ التّرابُ، وقولهُ ﴿شَرُّ ٱلۡبَرِيَّةِ﴾ أيْ شرُّ الخليقةِ، وقالَ قومٌ: أيْ همْ شرُّ البريّةِ الّذينَ كانوا في عصرِ النّبيِّ ﷺ، كما قالَ تعالى: ﴿وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ أيْ على عالمي زمانكمْ. ولا يبعدُ أنْ يكونَ في كفّارِ الأممِ قبلَ هذا منْ هوَ شرٌّ منهمْ، مثلُ فرعونَ وعاقرِ ناقةِ صالحِ. وكذا خيرُ البريّةِ: إمّا على التّعميمِ، أوْ خيرُ بريّةِ عصرهمْ.

قولهُ تعالى: ﴿جَزَآؤُهُمۡ﴾ أيْ ثوابهمْ ﴿عِندَ رَبِّهِمۡ﴾ أيْ خالقهمْ ومالكهمْ ﴿جَنَّٰتُ﴾ أيْ بساتينُ ﴿عَدۡنٍ﴾ أيْ إقامةٍ. تقولُ: عدنَ بالمكانِ يعدنُ عدنًا وعدونًا: أقامَ. ومعدنُ الشّيءِ: مركزهُ ومستقرّهُ ﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ﴾ لا يظعنونَ ولا يموتونَ ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ﴾ أيْ رضيَ أعمالهمْ ﴿وَرَضُواْ عَنۡهُۚ﴾ أيْ رضوا همْ بثوابِ اللّهِ عزَّ وجلَّ ﴿ذَٰلِكَ﴾ أيِ الجنّةُ ﴿لِمَنۡ خَشِيَ رَبَّهُۥ﴾ أيْ خافَ ربه، فتناهى عن المعاصي.

سورة الزلزلة

مدنيّةٌ في قولٍ، وهيَ تسعُ آياتٍ.

بسمِ اللّهِ الرّحمنِ الرّحيمِ

قولهُ تعالى: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾ أيْ حرّكتْ منْ أصلها ﴿وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾ موتاها، تخرجهمْ في النّفخةِ الثّانيةِ، ومنهُ قيلَ للجنِّ والإنسِ: الثّقلانِ، وقيلَ: أثقالها كنوزها ﴿وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ الكافرُ، لأنَّ المؤمنَ معترفٌ بها، ومعنى ﴿مَا لَهَا﴾ أي مالها زلزلت. وقيلَ: مالها أخرجتْ أثقالها، وهيَ كلمةُ تعجيبٍ، أيْ لأيِ شيء زلزلتْ ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾ يومَئذٍ منصوبٌ بقولهِ: إذا زلزلتِ. وقيلَ: بقولهِ تحدّثُ أخبارها، أيْ تخبرُ الأرضُ بما عملَ عليها منْ خيرٍ أوْ شرٍّ يومئذٍ. ثمَّ قيل: هوَ منْ قولِ اللّهِ تعالى. وقيلَ: منْ قولِ الإنسانِ، أي يقول الإنسان مالها تحدّثُ أخبارها، متعجّباً. وفي التّرمذيِّ عنْ أبي هريرةَ قالَ: قرأَ رسولُ اللّهِ ﷺ هذهِ الآيةَ ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾ قال: «أتدرون ما أخبارها- قالوا الله ورسوله أعلمُ، قالَ: فإنَّ أخبارها أنْ تشهدَ على كلِّ عبدٍ أوْ أمةٍ بما عملَ على ظهرها، تقولُ عملَ يومَ كذا، كذا وكذا. قالَ: «فهذهِ أخبارها». قالَ: هذا حديثٌ حسنٌ صحيحٌ.

وأخبارها: أعمال العبادِ على ظهرها، وحديثها بأخبارها حين يقلبها حيواناً ناطقاً، فتتكلّمُ بذلكَ ﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا﴾ أيْ إنّها تحدّثُ أخبارها بوحيِ اللّهِ لها، أيْ إليها. والعربُ تضعُ لامَ الصّفةِ موضعَ ﴿إِلَىٰ﴾، وقيلَ: أوحى لها أيْ أمرها ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا﴾ أيْ فرقاً، جمعُ شتٍّ. قيل: عنْ موقفِ الحسابِ، فريقٌ يأخذُ جهةَ اليمينِ إلى الجنّةِ، وفريقٌ آخرُ يأخذُ جهةَ الشّمالِ إلى النّارِ، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ﴾ ﴿يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ﴾، وقيلَ: يرجعونَ عنِ الحسابِ بعدَ فراغهمْ منَ الحساب. أشتاتاً يعني فرقاً فرقاً ﴿لِّيُرَوْا۟ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ يعني ثوابَ أعمالهمْ، وقيلَ: هذا الصّدورُ، إنّما هوَ عندَ النّشورِ، يصدرونَ أشتاتاً منَ القبورِ، فيصارُ بهمْ إلى موقفِ الحسابِ، كأنّهمْ وردوا القبورَ فدفنوا فيها، ثمَّ صدروا عنها. والواردُ: الجائي. والصّادرُ: المنصرفُ.

قولهُ تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۞ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾، فيهِ ثلاثُ مسائلَ:

الأولى: قولهُ تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ﴾ منَ الكفّارِ ﴿مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ﴾ في الدّنيا، ولا يثابُ عليهِ في الآخرةِ، ومنْ يعملْ مثقالَ ذرّةٍ منْ شرٍّ عوقبَ عليهِ في الآخرةِ، معَ عقابِ الشّركِ، ومن يعمل مثقال ذرة من شر من المؤمنينَ يرهُ في الدّنيا، ولا يعاقبُ عليهِ في الآخرةِ إذا ماتَ، ويتجاوزُ عنهُ، وإنْ عملَ مثقالَ ذرّةٍ منْ خيرٍ يقبلُ منهُ، ويضاعفُ لهُ في الآخرةِ، وهوَ مثلُ قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ والذّرّ لا وزنَ لهُ.

الثانية- قراءةُ العامّةِ ﴿يَرَهُۥ﴾ بفتحِ الياءِ فيهما؛ وقرئت "يُرَه" أي يريه الله إياه، والأولى الاختيار لقولهِ تعالى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا﴾.

الثالثة- اتّفقَ العلماءُ على عمومِ هذهِ الآيةِ، القائلونَ بالعمومِ ومنْ لمْ يقلْ بهِ، وكانَ النّبيُّ ﷺ يسمّي هذهِ الآيةَ الآيةَ الجامعةَ الفاذّةَ، كما في الصّحيحِ.

سورة العاديات

مكّيّةٌ في قولٍ، وهيَ إحدى عشرةَ آيةً.

بسمِ اللّهِ الرّحمنِ الرّحيمِ

قولهُ تعالى: ﴿وَٱلۡعَٰدِيَٰتِ ضَبۡحٗا﴾ أيِ الأفراسُ تعدو في سبيلِ اللّهِ فتضبحُ. والضّبحُ: صوتُ أنفاسِ الخيلِ إذا عدونَ، والمرادُ الخيلُ الّتي يغزو عليها المؤمنونَ ﴿فَٱلۡمُورِيَٰتِ قَدۡحٗا﴾ الخيلُ حينَ توري النّارَ بحوافرها، وقيلَ: إيراؤها: أنْ تهيّجَ الحربَ بينَ أصحابها وبينَ عدوّهمْ. ومنهُ يقالُ للحربِ إذا التحمتْ: حميَ الوطيسُ. ومنهُ قولهُ تعالى: ﴿كُلَّمَآ أَوۡقَدُواْ نَارٗا لِّلۡحَرۡبِ أَطۡفَأَهَا ٱللَّهُۚ﴾ ﴿فَٱلۡمُغِيرَٰتِ صُبۡحٗا﴾ الخيلُ تغيرُ على العدوِّ عندَ الصّبحِ، وكانوا إذا أرادوا الغارةَ سروا ليلاً، ويأتونَ العدوَّ صبحاً، لأنَّ ذلكَ وقتُ غفلةِ النّاسِ. ومنهُ قوله تعالى: ﴿فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلۡمُنذَرِينَ﴾ وقيلَ: لعزّهمْ أغاروا نهاراً، وصبحاً على هذا أيْ علانيةً، تشبيهاً بظهورِ الصّبحِ ﴿فَأَثَرۡنَ بِهِۦ نَقۡعٗا﴾ أيْ غباراً، يعني الخيلُ تثيرُ الغبارَ بشدّةِ العدو في المكانِ الّذي أغارت به. قال عبد الله ابن رواحةَ:

عدمتُ بنيّتي إنْ لمْ تروها   تثيرُ النّقعَ منْ كنفيْ كداءِ

والكنايةُ في ﴿بِهِۦ﴾ ترجعُ إلى المكانِ أوْ إلى الموضعِ الّذي تقعُ فيهِ الإغارةُ. وإذا علمَ المعنى جازَ أنْ يكنّى عمّا لمْ يجرِ لهُ ذكرٌ بالتصريحِ، كما قال: ﴿حَتَّىٰ تَوَارَتۡ بِٱلۡحِجَابِ﴾، وقيلَ: ﴿فَأَثَرۡنَ بِهِۦ﴾ أيْ بالعدوِ ﴿نَقۡعٗا﴾. والنّقعُ: الغبارُ ﴿فَوَسَطۡنَ بِهِۦ جَمۡعًا﴾ أيِ الجمعَ الّذي أغاروا عليهمْ.

قولهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٞ﴾ لكفورٌ جحودٍ لنعمِ اللّهِ وهذا جوابُ القسمِ ﴿وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٞ﴾ أيْ وإنَّ اللّهَ عزَّ وجلَّ ثناؤهُ على ذلكَ منِ ابنِ آدمَ لشهيدٌ. وقيلَ: وإنّهُ أيْ وإنَّ الإنسانَ لشاهدٌ على نفسهِ بما يصنعُ ﴿وَإِنَّهُۥ﴾ أيِ الإنسانَ منْ غيرِ خلافٍ ﴿لِحُبِّ ٱلۡخَيۡرِ﴾ أيِ المالِ، ومنهُ قولهُ تعالى: ﴿إِن تَرَكَ خَيۡرًا﴾. ﴿لَشَدِيدٌ﴾ أيْ لقويٌّ في حبّهِ للمالِ. وقيلَ: ﴿لَشَدِيدٌ﴾ لبخيلٌ. ويقالُ للبخيلِ: شديدٌ ومتشدّدٌ. والفاحشُ: البخيلُ أيضاً.

ومنهُ قولهُ تعالى: ﴿وَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ﴾ أيِ البخلِ، وسمّى اللّهُ المالَ خيراً، وعسى أنْ يكونَ شراً وحراماً لكنَّ النّاسَ يعدّونهُ خيراً، فسمّاهُ اللّهُ خيراً لذلك. وسمي الجهاد سوءا، فقالَ: ﴿فَٱنقَلَبُواْ بِنِعۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضۡلٖ لَّمۡ يَمۡسَسۡهُمۡ سُوٓءٞ﴾ على ما يسمّيهِ النّاسُ.

قولهُ تعالى: ﴿۞أَفَلَا يَعۡلَمُ﴾ أيِ ابنُ آدمَ ﴿إِذَا بُعۡثِرَ﴾ أيْ أثيرَ وقلبَ وبحثَ، فأخرجَ ما فيها ﴿وَحُصِّلَ مَا فِي ٱلصُّدُورِ﴾ أيْ ميّزَ ما فيها منْ خيرٍ وشرٍّ ﴿إِنَّ رَبَّهُم بِهِمۡ يَوۡمَئِذٖ لَّخَبِيرُۢ﴾ أيْ عالمٌ لا يخفى عليهِ منهمْ خافيةٌ. وهوَ عالمٌ بهمْ في ذلكَ اليومِ وفي غيرهِ، ولكنَّ المعنى أنّهُ يجازيهمْ في ذلكَ اليومِ.

سورة القارعة

مكّيّةٌ بإجماعٍ. وهيَ عشر آيات.

بسم اللّهِ الرّحمنِ الرّحيم

قولهُ تعالى: ﴿ٱلْقَارِعَةُ ① مَا ٱلْقَارِعَةُ﴾ أيِ القيامةُ والسّاعةُ، وذلكَ أنّها تقرعُ الخلائقَ بأهوالها وأفزاعها، قالَ تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا۟ قَارِعَةٌ﴾ وهيَ الشّديدةُ منْ شدائدِ الدّهرِ. وقولهُ تعالى: ﴿مَا ٱلْقَارِعَةُ ② وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ﴾ استفهام على جهةِ التّعظيمِ والتّفخيمِ لشأنها، كما قالَ: ﴿ٱلْحَآقَّةُ ① مَا ٱلْحَآقَّةُ ② وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَآقَّةُ﴾.

قولهُ تعالى: ﴿يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ﴾ الفراشُ الطّيّرُ الّذي يتساقطُ في النّارِ والسّراجِ ومنه الجراد، والواحدُ فراشّةٌ، وفي صحيحِ مسلمٍ عنْ جابرٍ، قالَ: قالَ رسولُ اللّهِ ﷺ: «مثلي ومثلكمْ كمثلِ رجلٍ أوقدَ ناراً، فجعلَ الجنادبُ والفراشُ يقعنَ فيها، وهوَ يذبّهنَّ عنها، وأنا آخذٌ بحجزكمْ عنِ النّارِ، وأنتمْ تفلّتونَ منْ يدي»، والمبثوثُ المتفرّقُ. وقالَ في موضعٍ آخر: ﴿كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ﴾، فأوّلُ حالهمْ كالفراشِ لا وجهَ لهُ، يتحيّرُ في كلِّ وجهٍ، ثمَّ يكونونَ كالجرادِ، لأنَّ لها وجهـاً تقصدهُ.

قولهُ تعالى: ﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ﴾ أيِ الصّوفِ الّذي ينفشُ باليدِ، أيْ تصيرُ هباءً وتزولُ، كما قالَ جلَّ ثناؤهُ في موضعٍ آخرَ: ﴿هَبَآءً مُّنۢبَثًّا﴾ وأهلُ اللّغةِ يقولونَ: العهنُ الصّوفُ المصبوغُ.

قولهُ تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ⑥ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ⑦ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ⑧ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ⑨ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ⑩ نَارٌ حَامِيَةٌۢ﴾

قدْ تقدّمَ القولُ في الميزانِ في الأعرافِ والكهفِ والأنبياءِ، وأنَّ لهُ كفّةً ولسانـاً توزنُ فيهِ الصحفُ المكتوبُ فيها الحسناتُ والسّيّئاتُ. ثمَّ قيلَ: إنّهُ ميزانٌ واحدٌ بيدِ جبريلَ يزنُ أعمالَ بني آدمَ، فعبّرَ عنهُ بلفظِ الجمعِ. وقيلَ: موازين، وقيلَ: إنَّ الموازينَ الحججُ والدّلائلُ،

ومعنى ﴿عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾ أيْ عيشٍ مرضيٍّ، يرضاهُ صاحبهُ. والعيشةُ كلمةٌ تجمعُ النّعمَ الّتي في الجنّةِ، فهيَ فاعلةٌ للرّضا، ومعنى ﴿فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ﴾ يعني جهنّمُ. وسمّاها أمـًا، لأنّهُ يأوي إليها كما يأوي إلى أمّهِ، ومنهُ قولِ أميّةَ بنِ أبي الصّلتِ:

فـالأرضُ مـعـقـلـنـا وكـانـتْ أمّـنـا   فـيـهـا مـقـابـرنـا وفـيـهـا نـولـدُ

وسمّيتِ النّارُ هاويةً، لأنّهُ يهوى فيها على أمِّ رأسهِ معَ بعدِ قعرها ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا هِيَهۡ﴾ الأصلُ ما هيَ فدخلتِ الهاءُ للسّكتِ. وقرأ حمزةُ والكسائيُّ ويعقوبُ «ما هيَ نارٌ» بغيرِ هاءٍ في الوصلِ، ووقفوا بها.

قولهُ تعالى: ﴿نَارٌ حَامِيَةُۢ﴾ أيْ شديدةُ الحرارةِ. وفي صحيحِ مسلمٍ عنْ أبي هريرةَ: أنَّ النّبيَّ ﷺ قال: «ناركمْ هذهِ الّتي يوقدُ ابنُ آدمَ جزءٌ منْ سبعينَ جزءاً منْ حرِّ جهنّمَ» قالوا: واللّهِ إنْ كانتْ لكافيةٌ يا رسولَ اللّهِ. قالَ: «فإنّها فضّلتْ عليها بتسعةٍ وستّينَ جزءاً، كلّها مثلُ حرّها».

سورة التكاثر

مكّيّةٌ في قولِ جميعِ المفسّرينَ. وروى البخاريُّ أنّها مدنيّةٌ. وهيَ ثمان آيات.

بسمِ اللّهِ الرّحمنِ الرّحيمِ

قولهُ تعالى: ﴿أَلۡهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرۡتُمُ ٱلۡمَقَابِرَ﴾، فيهِ خمسُ مسائلَ:

الأولى: قولهُ تعالى ﴿أَلۡهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾ ألهاكمْ شغلكم، وقيلَ: أنساكمْ. والتّكاثرُ أيْ منَ الأموالِ والأولادِ، وقيلَ: أيِ التّفاخرُ بالقبائلِ والعشائرِ ﴿حَتَّىٰ زُرۡتُمُ ٱلۡمَقَابِرَ﴾ مفتخرينَ بالأمواتِ. وفي صحيح مسلمٍ عنْ مطرّفٍ عنْ أبيهِ قالَ: أتيتُ النّبيَّ ﷺ وهوَ يقرأُ ألهاكمُ التّكاثرُ قالَ: «يقولُ ابنُ آدمَ: مالي مالي! وهلْ لكَ يا بن آدمَ منْ مالكَ إلّا ما أكلتَ فأفنيتَ، أوْ لبست فأبليت، أو تصدقت فأمضيت، وما سوى ذلك فذاهب وتاركه للناس».

وروى البخاريُّ عنِ أنسِ بنِ مالكٍ أنَّ رسولَ اللّهِ ﷺ قالَ: «لوْ أنَّ لابنِ آدمَ واديًا منْ ذهبٍ، لأحبَّ أنْ يكونَ لهُ واديانِ، ولنْ يملأَ فاهُ إلّا التّرابُ، ويتوبُ اللّهُ على منْ تابَ».

الثانية- قولهُ تعالى ﴿حَتَّىٰ زُرۡتُمُ ٱلۡمَقَابِرَ﴾ أيْ حتّى أتاكمُ الموتُ، فصرتمْ في المقابرِ زوّاراً، ترجعونَ منها كرجوعِ الزّائرِ إلى منزلهِ منْ جنّةٍ أوْ نارٍ. يقالُ لمنْ ماتَ: قدْ زارَ قبرهُ. وقيلَ: أيْ ألهاكمُ التّكاثرُ حتّى عددتمُ الأمواتَ.

الثالثة- قولهُ تعالى: ﴿المقابرَ﴾ جمعُ مقبَرةٍ ومقبُرةٍ بفتحِ الباءِ وضمّها. والقبورُ: جمع القبر، والقَبر الدفن، قبرتُ الميّتَ أقبِرهُ وأقبُرهُ قبْراً، أيْ دفنتهُ.

الرابعة- لمْ يأتِ في التّنزيلِ ذكرُ المقابرِ إلّا في هذهِ السّورةِ. وزيارتها منْ أعظمِ الدّواءِ للقلبِ القاسي، لأنّها تذكّرُ الموتَ والآخرةَ. وذلكَ يحملُ على قصرِ الأملِ، والزّهدِ في الدّنيا، وتركِ الرّغبةِ فيها. قالَ النّبيُّ ﷺ: «كنتُ نهيتكمْ عنْ زيارةِ القبورِ، فزوروا القبورَ، فإنّها تزهّدُ في الدّنيا، وتذكّرُ الآخرةَ» رواهُ ابنُ مسعودٍ، أخرجهُ ابنُ ماجهْ. وفي صحيحِ مسلمٍ منْ حديثِ أبي هريرةَ: «فإنّها تذكّرُ الموتَ».

وعنْ بريدةَ: «فإنّها تذكّرُ الآخرةَ». قالَ: هذا حديثٌ حسنٌ صحيحٌ. وفيهِ عنْ أبي هريرةَ:

أنَّ رسولَ اللّهِ ﷺ لعنَ زوّاراتِ القبورِ. قالَ أبو عيسى الترمذي: هذا حديثٌ حسنٌ صحيحٌ.

وقدْ رأى بعضُ أهلِ العلمِ أنَّ هذا كانَ قبلَ أنْ يرخّصَ النّبيُّ ﷺ في زيارةِ القبورِ، فلمّا رخّصَ دخلَ في رخصتهِ الرّجالُ والنّساءُ. وقالَ بعضهمْ: إنّما كرهَ زيارةَ القبورِ للنّساءِ لقلّةِ صبرهنَّ، وكثرةِ جزعهنَّ. قلت: زيارةُ القبورِ للرّجالِ متّفقٌ عليهِ عندَ العلماءِ، مختلفٌ فيهِ للنّساءِ. أمّا الشّوابُّ فحرامٌ عليهنَّ الخروجُ، وأمّا القواعدُ فمباحٌ لهنَّ ذلكَ. وجائزٌ لجميعهنَّ ذلكَ إذا انفردنَ بالخروجِ عنِ الرّجالِ، ولا يختلفُ في هذا إنْ شاءَ اللّهُ، وعلى هذا المعنى يكونُ قولهُ: «زوروا القبورَ» عاماً. وأمّا موضعٌ أوْ وقتٌ يخشى فيهِ الفتنةُ منِ اجتماعِ الرّجالِ والنّساءِ فلا يحلُّ ولا يجوز.

الخامسة: قالَ العلماءُ: ينبغي لمنْ أرادَ علاجَ قلبهِ وانقيادهِ بسلاسلِ القهرِ إلى طاعةِ ربّهِ، أنْ يكثرَ منْ ذكرِ هاذمِ اللّذّاتِ، ومفرّقِ الجماعاتِ، وموتمِ البنينَ والبناتِ، ويواظبُ على مشاهدةِ المحتضرينَ، وزيارةِ قبورِ أمواتِ المسلمينَ. فهذهِ ثلاثةُ أمورٍ، ينبغي لمنْ قسا قلبهُ، ولزمهُ ذنبهُ، أنْ يستعينَ بها على دواءِ دائهِ، ويستصرخُ بها على فتنِ الشّيطانِ وأعوانهِ، وينبغي لمنْ عزمَ على الزّيارةِ أنْ يتأدّبَ بآدابها، ويقصدَ بزيارتهِ وجهَ اللّهِ تعالى، وإصلاح فسادِ قلبهِ، أوْ نفعِ الميّتِ بالدّعاءِ، ويتجنّبُ المشيَ على المقابرِ، والجلوسَ عليها ويسلّمُ إذا دخلَ المقابرَ وإذا وصلَ إلى قبرِ ميّتهِ الّذي يعرفهُ سلّمَ عليهِ أيضاً، وأتاهُ منْ تلقاءِ وجههِ، لأنّهُ في زيارتهِ كمخاطبتهِ حياً، ولوْ خاطبهُ حياً لكانَ الأدبُ استقباله بوجهه، فكذلك ها هنا.

قولهُ تعالى: ﴿كَلَّا سَوۡفَ تَعۡلَمُونَ﴾ عاقبةَ هذا التّفاخرِ والتّكاثرِ ﴿ثُمَّ كَلَّا سَوۡفَ تَعۡلَمُونَ﴾ وعيدٌ بعدَ وعيدٍ، ويحتملُ أنْ يكونَ تكرارهُ على وجهِ التّأكيدِ والتّغليظِ، وقيل: ﴿كَلَّا سَوۡفَ تَعۡلَمُونَ﴾ ما ينزلُ بكمْ منَ العذابِ في القبرِ ﴿ثُمَّ كَلَّا سَوۡفَ تَعۡلَمُونَ﴾ في الآخرةِ إذا حلَّ بكمُ العذابُ. فالأوّلُ في القبرِ، والثّاني في الآخرةِ، فالتّكرارُ للحالتينِ.

وتضمّنتِ السّورةُ القولَ في عذابِ القبرِ، والإيمان بهِ واجبٌ، والتّصديق بهِ لازمٌ، حسبما أخبرَ بهِ الصّادقُ، وهذا هوَ مذهبُ أهلِ السّنّةِ، والّذي عليهِ الجماعةُ منْ أهلِ الملّةِ.

قولهُ تعالى: ﴿كَلَّا لَوۡ تَعۡلَمُونَ عِلۡمَ ٱلۡيَقِينِ﴾ أعادَ كلّا وهوَ زجرٌ وتنبيهٌ، وإضافةُ العلمِ

إلى اليقينِ، كقولهِ تعالى: ﴿إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ﴾، وقيلَ: اليقين ها هنا: الموتُ، وقيلَ: البعثُ، لأنّهُ إذا جاءَ زالَ الشّكُّ، وجوابُ لوْ محذوفٌ، أيْ لشغلكمْ ذاكَ عنِ التّكاثرِ بالدّنيا.

قولهُ تعالى: ﴿لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ﴾ هذا وعيدٌ آخرُ. وهوَ على إضمارِ القسمِ، أيْ لترونَّ الجحيمَ في الآخرةِ. والخطابُ للكفّارِ الّذينَ وجبتْ لهمُ النّارُ. وقيلَ: هوَ عامٌّ، كما قالَ: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾، فهي للكفّارِ دارٌ، وللمؤمنينَ ممرٌّ. وفي الصّحيحِ: «فيمرُّ أوّلهمْ كالبرقِ، ثمَّ كالرّيحِ، ثمَّ كالطّيرِ...» الحديثَ.

وقرأ الكسائيُّ وابنُ عامرٍ ﴿لَتُرَوُنَّ﴾ بضمِّ التّاءِ، منْ أريتهُ الشّيءَ، أيْ تحشرونَ إليها فترونها. وعلى فتحِ التّاءِ قراءةُ الجماعةِ، أيْ لترونَّ الجحيمَ بأبصاركمْ على البعدِ ﴿ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ﴾ أيْ مشاهدةً. وقيلَ: هوَ إخبارٌ عنْ دوامِ مقامهمْ في النّارِ، أيْ هيَ رؤيةٌ دائمةٌ.

قولهُ تعالى: ﴿ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ﴾ روى مسلمٌ في صحيحهِ عنْ أبي هريرةَ، قالَ: خرجَ رسولُ اللّهِ ﷺ ذاتَ يومٍ أوْ ليلةٍ، فإذا هوَ بأبي بكرٍ وعمرَ، فقالَ: «ما أخرجكما منْ بيوتكما هذهِ السّاعةَ»؟ قالا: الجوع يا رسول الله. قال: «وأنا والّذي نفسي بيدهِ لأخرجني الّذي أخرجكما قوما» فقاما معهُ، فأتى رجلاً منْ الأنصارِ، فإذا هوَ ليسَ في بيتهِ، فلمّا رأتهُ المرأةُ قالتْ: مرحبًا وأهلاً. فقالَ: لها رسولُ اللّهِ ﷺ: «أينَ فلانٌ»؟ قالتْ: يستعذبُ لنا منَ الماءِ، إذْ جاءَ الأنصاريُّ، فنظرَ إلى رسولِ اللّهِ ﷺ وصاحبيهِ، ثمَّ قالَ: الحمدُ للّهِ! ما أحد اليوم أكرم إضافيا منّي. قالَ: فانطلقَ، فجاءهمْ بعذقٍ فيهِ بسرٌ وتمرٌ ورطبٌ، فقالَ: كلوا منْ هذهِ. وأخذَ المديةَ فقالَ: لهُ رسولُ اللّهِ ﷺ: «إيّاكَ والحلوبَ» فذبحَ لهمْ، فأكلوا منَ الشّاةِ، ومنْ ذلكَ العذقِ، وشربوا، فلمّا أنْ شبعوا ورووا، قالَ رسولُ اللّهِ ﷺ لأبي بكرٍ وعمرَ: «والّذي نفسي بيدهِ لتسألنَّ عنْ نعيمِ هذا اليومِ، يومَ القيامةِ، أخرجكمْ منْ بيوتكمُ الجوعُ، ثمَّ لمْ ترجعوا حتّى أصابكمْ هذا النّعيمُ».

وهذا السّؤالُ يعمُّ الكافرَ والمؤمنَ، ولكنَّ سؤالَ الكفّارِ توبيخٌ، لأنّهُ قدْ تركَ الشّكرَ. وسؤالَ المؤمنِ سؤالُ تشريفٍ، لأنّهُ شكرَ. وهذا النّعيمُ في كلِّ نعمةٍ.

سورة العصر

مكّيّةٌ، وهيَ ثلاثُ آيات.

بسمِ اللّهِ الرّحمنِ الرّحيمِ

قولهُ تعالى: ﴿وَٱلْعَصْرِ﴾، فيهِ مسألتانِ:

الأولى: العصر هو الدّهر، أقسمَ اللّهُ بهِ عزَّ وجلَّ، لما فيهِ منَ التّنبيهِ بتصرّفِ الأحوالِ وتبدّلها، وما فيها منَ الدّلالةِ على الصّانعِ، وقيلَ: هوَ آخرُ ساعةٍ منْ ساعاتِ النّهارِ.

وقيلَ: هوَ قسمٌ بصلاةِ العصرِ، وهيَ الوسطى، لأنّها أفضلُ الصّلواتِ.

وقيلَ: هوَ قسمٌ بعصرِ النّبيِّ ﷺ، لفضلهِ بتجديدِ النّبوّةِ فيهِ.

وقيلَ: معناهُ وربِّ العصرِ.

الثانية– قالَ مالكٌ: منْ حلفَ ألّا يكلّمَ رجلاً عصراً: لمْ يكلّمهُ سنةً، وقالَ الشّافعيُّ: يبرُّ بساعةٍ، إلّا أنْ تكونَ لهُ نيّةٌ.

قولهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ﴾ هذا جوابُ القسمِ. والمرادُ جنسَ النّاسِ ﴿لَفِى خُسْرٍ﴾ لفي غبنٍ وهلكةٍ، ومنهُ قولهُ تعالى: ﴿وَكَانَ عَـٰقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا﴾

قولهُ تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ استثناء منَ الإنسانِ ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ﴾ أيْ أدّوا الفرائضَ المفترضةَ عليهمْ ﴿وَتَوَاصَوْا۟﴾ أيْ تحابّوا، أوصى بعضهمْ بعضاً ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ أيْ بالتّوحيدِ والقرآنِ ﴿وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾ على طاعةِ اللّهِ عزَّ وجلَّ، والصّبرِ عنْ معاصيهِ.

سورة الهمزة

مكّيّةٌ بإجماعٍ، وهيَ تسعُ آيات.

بسمِ اللّهِ الرّحمنِ الرّحيمِ

قولهُ تعالى: ﴿وَيْلٌ﴾ خزيُ وعذابُ وهلكةٌ، وقيلَ: وادٍ في جهنّمَ ﴿لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾. المشّاءونَ بالنّميمةِ، المفسدونَ بينَ الأحبّةِ، الباغونَ للبُرَآءِ العيبَ، فعلى هذا هما بمعنى، وقيلَ: الهمزة: القتات، واللّمزَةَ: العيّابُ. وقيلَ: الهمزةُ: الّذي يغتابُ ويطعنُ في وجهِ الرّجلِ، واللّمزةُ: الّذي يغتابهُ منْ خلفهِ إذا غابَ، ومنهُ قولُ حسّانَ:

همزتكَ فاختضعتَ بذلِّ نفسٍ بقافيةٍ تأجّجُ كالشّواظِ

ومنهُ قولهُ تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ﴾، وقيلَ: الهامزُ: الّذي يهمزُ النّاسَ بيدهِ ويضربهمْ، واللّمزةُ: الّذي يلمزهمْ بلسانهِ ويعيبهمْ، وقيلَ: يهمزُ بلسانهِ، ويلمزُ بعينيهِ.

قولهُ تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُۥ﴾ أحصى عددهُ، وقيلَ: أيْ أعدَّ مالهُ لمنْ يرثهُ منْ أولادهِ. وقيلَ: أيْ فاخرَ بعددهِ وكثرتهِ. والمقصودُ الذّمُّ على إمساكِ المالِ عنْ سبيلِ الطّاعةِ. كما قالَ: ﴿مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ﴾، وقال: ﴿وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰٓ﴾، وقراءةُ الجماعةِ "جمَعَ" مخفّفُ الميمِ. وشدّدها ابنُ عامرٍ وحمزةُ والكسائيُّ على التّكثيرِ.

قولهُ تعالى: ﴿يَحْسَبُ﴾ أيْ يظنُّ ﴿أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ﴾ أيْ يبقيهِ حيًا لا يموتُ ﴿كَلَّا﴾ ردٌّ لما توهّمهُ الكافرُ ﴿لَيُنۢبَذَنَّ﴾ أيْ ليطرحنَّ وليلقينَّ ﴿فِى ٱلْحُطَمَةِ﴾ وهيَ نارُ اللّهِ، سمّيتْ بذلكَ لأنّها تكسرُ كلَّ ما يلقى فيها وتحطّمهُ وتهشّمهُ ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحُطَمَةُ﴾ على التّعظيم لشأنها، والتفخيم لأمرها. ثم فسرها ما هي فقال: ﴿نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ﴾ أيِ الّتي أوقدَ عليها ألفَ عامٍ، وألفَ عامٍ، وألفَ عامٍ، فهيَ غيرُ خامدةٍ، أعدّها اللّهُ للعصاةِ ﴿ٱلَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ﴾ خصَّ الأفئدةَ لأنَّ الألمَ إذا صارَ إلى الفؤادِ ماتَ صاحبهُ. أيْ إنّهُ في حالِ منْ يموتُ وهمْ لا يموتونَ، كما قالَ اللّهُ تعالى: ﴿لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾ فهمْ إذاً أحياءٌ في معنى الأمواتِ ﴿إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ۝٨ فِى عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍۭ﴾ أيْ مطبقة، والمعظمُ على أنَّ العمدَ

أوتادُ الأطباقِ الّتي تطبقُ على أهلِ النّارِ. وقيلَ: «وهمْ في عمدٍ»، أيْ في سلاسلَ وأغلالٍ مطوّلةٍ، وقرأ حمزةُ والكسائيُّ وأبو بكرٍ عنْ عاصمٍ: ﴿فِي عُمُدٍ﴾ بضمِّ العينِ والميمِ، والعَمَدُ والعُمُدُ: جمعانِ صحيحانِ لعمودٍ، مثلُ أديمٍ وأُدُمٍ وأدَمٍ، وفي قولهِ تعالى: ﴿رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ أجمعوا على فتحها.

□

سورة الفيل

مكّيّةٌ بإجماعٍ، وهيَ خمس آيات.

بسمِ اللّهِ الرّحمنِ الرّحيمِ

قولهُ تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ﴾، فيهِ خمسُ مسائلَ:

الأولى: قولهُ تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ أيْ ألمْ تعلمْ، واللّفظُ استفهامٌ، والمعنى تقريرٌ. والخطابُ للنّبيِّ ﷺ، ولكنّهُ عامٌّ.

الثانية: قولهُ تعالى: ﴿بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ﴾ الفيلُ معروفٌ، والجمعُ أفيالٌ وفيولٌ وفيلةٌ.

الثالثة: في قصّةِ أصحابِ الفيلِ، وذلكَ أنَّ أبرهةَ بنى القُلّيسَ بصنعاءَ، وهيَ كنيسةٌ لمْ يرَ مثلها في زمانها بشيءٍ منَ الأرضِ، وكانَ نصرانيًا، ثمَّ كتبَ إلى النّجاشيِّ: إنّي قدْ بنيتُ لكَ أيّها الملكُ كنيسةً لمْ يُبنَ مثلها لملكٍ كانَ قبلكَ، ولستُ بمنتهٍ حتى أصرف إليها حج العرب فلما تحدثت العربُ بكتابِ أبرهةَ ذلكَ إلى النّجاشي غضبَ رجلٌ وخرجَ حتّى أتى الكنيسةَ، فقعدَ فيها -أيْ أحدثَ- ثمَّ خرجَ فلحقَ بأرضهِ فغضبَ عندَ ذلكَ أبرهةُ، وحلفَ ليسيرنَّ إلى البيتِ حتّى يهدمهُ، ثمَّ أمرَ الحبشةَ فتهيّأتْ وتجهّزتْ، ثمَّ سارَ وخرجَ معهُ بالفيلِ، حتّى إذا كانَ بأرضِ خثعمَ عرض له نفيل ابن حبيبِ الخثعميِّ في قبيلتيْ خثعمَ: شهرانَ وناهسٍ، ومنْ تبعهُ منْ قبائلِ العربِ، فقاتلهُ فهزمهُ أبرهةُ، وأخذَ لهُ نفيلٌ أسيراً فأتيَ بهِ وخرجَ بهِ معهُ يدلّهُ، حتّى إذا مرَّ بالطّائفِ خرجَ إليهِ مسعودُ بنُ معتّبٍ في رجالٍ منْ ثقيفٍ، وبعثوا معهُ أبا رغالٍ، حتّى أنزلهُ المغمّسَ فلمّا أنزلهُ بهِ ماتَ أبو رغالٍ هناكَ، فرجمتْ قبرهُ العربُ، فهوَ القبرُ الّذي يرجمُ النّاسَ بالمغمّسِ، وفيهِ يقولُ الشّاعرَ:

وأرجمُ قبرهُ في كلِّ عامٍ كرجمِ النّاسِ قبرَ أبي رغالِ

فلمّا نزلَ أبرهةُ بالمغمّسِ أصابَ فيها مائتيْ بعيرٍ لعبدِ المطّلبِ بنِ هاشمٍ، وهوَ يومئذٍ كبيرُ قريشٍ وسيّدها، فدخلَ عليه عبدُ المطّلبِ وكان أوسمَ النّاسِ، وأعظمهمْ وأجملهمْ، فلمّا رآهُ أبرهةُ أجلّهُ، وأعظمهُ عنْ أنْ يجلسهُ تحتهُ، فنزلَ أبرهةُ عنْ سريرهِ، فجلسَ على

بساطِهِ وأجلسهُ معهُ عليهِ إلى جنبهِ. ثمَّ قالَ لترجمانهِ: قلْ لهُ: حاجتكَ؟ فقالَ: لهُ ذلكَ التّرجمانُ، فقالَ: حاجتي أنْ يردَّ عليَّ الملكُ مائتيْ بعيرٍ أصابها لي. فلمّا قالَ لهُ ذلكَ، قالَ أبرهةُ لترجمانهِ: قلْ لهُ لقدْ كنتُ أعجبتني حينَ رأيتكَ، ثمَّ قدْ زهدتُ فيكَ حينَ كلّمتني، أتكلّمني في مائتيْ بعيرٍ أصبتها لكَ، وتتركُ بيتاً هوَ دينكَ ودينُ آبائكَ، قدْ جئتُ لهدمهِ؟ لا تكلّمني فيهِ! قالَ لهُ عبدُ المطّلبِ: إنّي أنا ربُّ الإبلِ، وإنَّ للبيتِ ربّاً سيمنعهُ. قالَ: ما كانَ ليمتنعَ منّي! قالَ أنتَ وذاكَ. فردَّ عليهِ إبلهُ. وانصرفَ عبدُ المطّلبِ إلى قريشٍ، فأخبرهمُ الخبرَ، وأمرهمْ بالخروجِ منْ مكّةَ والتّحرّزِ في شعفِ الجبالِ والشّعابِ، ثمَّ قامَ عبدُ المطّلبِ فأخذَ بحلقةِ بابِ الكعبةِ، وقامَ معهُ نفرٌ منْ قريشٍ، يدعونَ اللّهَ ويستنصرونهُ على أبرهةَ وجندهِ، فلمّا أصبحَ أبرهةُ تهيّأَ لدخولِ مكّةَ، وهيّأَ فيلهُ، وعبّأَ جيشهُ، وضربوا الفيلَ ليقومَ فأبى، فوجّهوهُ راجعاً إلى اليمنِ فقام يهرول، ووجّهوهُ إلى مكّةَ فبركَ. وأرسلَ اللّهُ عليهمْ طيراً منَ البحرِ، أمثالَ الخطاطيفِ والبلسانِ، معَ كلِّ طائرٍ منها ثلاثةُ أحجارٍ: حجرٌ في منقارهِ، وحجرانِ في رجليهِ، أمثالَ الحمّصِ والعدسِ، لا تصيبُ منهمْ أحداً إلّا هلكَ، وليسَ كلّهمْ أصابتْ، فخرجوا يتساقطونَ بكلِّ طريقٍ، ويهلكونَ «بكلِّ مهلكٍ» على كلِّ سهلٍ، وأصيبَ أبرهةُ الأشرمُ في جسدهِ حتى هلك.

الرابعة: الصّحيحُ ما رويَ عنِ النّبيِّ ﷺ أنه قالَ: «ولدتُ عامَ الفيلِ». وقدْ روى النّاسُ عنْ مالكٍ أنّهُ قال: منْ مروءةِ الرّجلِ ألّا يخبرَ بسنّهِ، لأنّهُ إنْ كانَ صغيراً استحقروهُ وإنْ كانَ كبيراً استهرموهُ. وهذا قولٌ ضعيفٌ، لأنَّ مالكاً لا يخبرُ بسنِ رسولِ اللّهِ ﷺ ويكتمُ سنّهُ، وهوَ منْ أعظمِ العلماءِ قدوةً بهِ. وقالَ عبدُ الملك ابن مروانَ لعتّابِ بنِ أسيدٍ: أنتَ أكبرُ أمُ النبي ﷺ؟ فقالَ: النّبيُّ ﷺ أكبرُ منّي، وأنا أسنُّ منهُ.

الخامسة: قالَ علماؤنا: كانتْ قصّةُ الفيلِ فيما بعدُ منْ معجزاتِ النّبيِّ ﷺ وإنْ كانتْ قبلهُ وقبلَ التّحدّي، لأنّها كانتْ توكيداً لأمرهِ، وتمهيداً لشأنهِ. ولمّا تلا عليهمْ رسولُ اللّهِ ﷺ هذهِ السّورةَ، كانَ بمكّةَ عددٌ كثيرٌ ممّنْ شهدَ تلكَ الوقعةِ.

قولهُ تعالى: ﴿أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ﴾ أيْ في إبطالٍ وتضييعٍ، لأنّهمْ أرادوا أنْ يكيدوا قريشاً بالقتلِ والسّبيِ، والبيتَ بالتّخريبِ والهدمِ.

قالَ ابنُ إسحاقَ: ولمّا ردَّ اللّهُ الحبشةَ عنْ مكّةَ عظّمتِ العربُ قريشاً، وقالوا: «همْ» أهلُ اللّهِ، قاتلَ اللّهُ عنهمْ وكفاهمْ مئونةَ عدوّهمْ.

قولهُ تعالى: ﴿وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا﴾ منَ السّماءِ لمْ يرَ قبلها، ولا بعدها مثلها. ﴿أَبَابِيلَ﴾ أيْ مجتمعةٌ. وقيلَ: متتابعةٌ، بعضها في إثرِ بعضٍ، مأخوذٌ منَ الإبلِ المؤبلة، وهي الأقاطيع.

قولهُ تعالى: ﴿تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ﴾ منْ طينٍ، طبختْ بنارِ جهنّمَ، مكتوبٌ فيها أسماءُ القومِ، لقولهِ تعالى: ﴿لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ﴿٣٣﴾ مُّسَوَّمَةً﴾.

قولهُ تعالى: ﴿فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾ أيْ كورقِ الزّرعِ إذا أكلتهُ الدّوابُّ، فرمتْ بهِ منْ أسفلَ. شبّهَ تقطّعَ أوصالهمْ بتفرّقِ أجزائهِ. وأدخلَ الكافَ في كعصفٍ للتّشبيهِ معَ مثل، نحوَ قولهِ تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ﴾، ومعنى مأكولٍ مأكولٌ حبّهُ. كما يقالُ: فلانٌ حسنٌ، أيْ حسنٌ وجههُ.

سورة قريشٍ

مكّيّةٌ، في قولِ الجمهورِ. ومدنيّةٌ في قولٍ، وهيَ أربعُ آيات.

بسمِ اللّهِ الرّحمنِ الرّحيمِ

قولهُ تعالى: ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ﴾ قيل: إنَّ هذهِ السّورةَ متّصلةٌ بالّتي قبلها في المعنى. يقولُ: أهلكتُ أصحابَ الفيلِ لإيلافِ قريشٍ، أيْ لتأتلفَ وتأمنَ، وممّنْ عدَّ السّورتينِ واحدةً أبيُّ بنُ كعبٍ، ولا فصلَ بينهما في مصحفهِ. وقالَ سفيانُ بنُ عيينةَ: كانَ لنا إمامٌ لا يفصلُ بينهما، ويقرؤهما معـًا؛ لأنّهُ ذكّرَ أهلَ مكّةَ عظيمَ نعمتهِ عليهمْ فيما فعلَ بالحبشةِ، ثمَّ قالَ: ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ﴾ أيْ فعلنا ذلكَ بأصحابِ الفيلِ نعمةً منّا على قريشٍ.

وَقَالَ عَمْرُو بْنُ مَيْمُونٍ الْأَوْدِيُّ: صَلَّيْنَا الْمَغْرِبَ خَلْفَ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، فقرأ في الاولى: ﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ﴾ وفي الثانية ﴿ألم تر كيف﴾ و ﴿لإيلاف قريش﴾.

وقيلَ: ليستْ بمتّصلةٍ، لأنَّ بينَ السّورتينِ بسمِ اللّهِ الرّحمنِ الرّحيمِ، واللّامِ متعلّقةٌ بقوله تعالى: ﴿فَلْيَعْبُدُواْ﴾ كأنّهُ قالَ: ألّفَ اللّهُ قريشـًا إيلافـًا فليعبدوا ربَّ هذا البيتِ.

وقرأ أبو جعفرٍ «لِيلَافِ» بلا همزٍ طلبـًا للخفّةِ. الباقونَ لإيلافِ بالياءِ مهموزاً مشبعـًا، منْ آلفتُ أؤلف إيلافـًا.

وأمّا قريشٌ فهمْ بنو النّضرِ بنِ كنانةَ بنُ خزيمةَ بنِ مدركةَ بنِ إلياسَ بنِ مضرَ. فكلُّ منْ كانَ منْ ولدِ النّضرِ فهوَ قرشيٌّ دونَ بني كنانةَ ومنْ فوقهُ، قال النبي ﷺ: «إنَّ اللّهَ اصطفى كنانةَ منْ ولدِ إسماعيلَ، واصطفى منْ بني كنانةَ قريشـًا، واصطفى منْ قريشٍ بني هاشمٍ واصطفاني منْ بني هاشمٍ». صحيحٌ ثابتٌ، خرّجهُ البخاريُّ ومسلمٌ وغيرهما.

واختلفَ في تسميتهمْ قريشـًا على أقوالٍ:

أحدهما: لتجمّعهمْ بعدَ التّفرّقِ، والتّقرّشُ: التّجمّعُ والالتئامُ.

الثّاني-: لأنّهمْ كانوا تجّاراً يأكلونَ منْ مكاسبهمْ. والتّقرّشُ: التّكسّبُ. وقدْ قرشَ يقرشُ

قرشًا: إذا كسبَ وجمعَ.

الثّالثُ: لأنّهمْ كانوا يفتّشونَ الحاجَّ منْ ذي الخلّةِ، فيسدّونَ خلّتهُ. والقرشُ: التّفتيشُ.

الرّابعُ: لدابّةٍ في البحرِ منْ أقوى دوابّهِ يقالُ لها القرشُ، تأكلُ ولا تؤكلُ، وتعلو ولا تعلى.

قولهُ تعالى: ﴿إِۦلَٰفِهِمۡ رِحۡلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيۡفِ﴾ قرأ أبو جعفرٍ «إلافهمْ» مهموزًا مختلسًا بلا ياء. وقرأ أبو بكر عن عاصم «إِئْيلافهم» بهمزتينِ، الأولى مكسورةٍ والثّانيةِ ساكنةٍ. والجمعُ بينَ الهمزتينِ في الكلمتينِ شاذٌّ. الباقونَ إيلافهمْ بالمدِّ والهمزِ، وهوَ الاختيارُ، وهوَ بدلٌ منَ الإيلافِ الأوّلِ للبيانِ. وهوَ مصدرُ آلفَ: إذا جعلتهُ يألفُ. وألفَ هوَ إلفًا، أيْ وما قدْ ألفوهُ منْ رحلةِ الشّتاءِ والصّيفِ.

وكانَ أصحابُ الإيلافِ أربعةَ إخوةٍ: هاشمٌ، وعبدُ شمسٍ، والمطّلبُ، ونوفلٌ، بنو عبدِ منافٍ. كانوا سكّانَ الحرمِ، ولمْ يكنْ لهمْ زرعٌ ولا ضرعٌ، وكانوا يميرونَ في الشّتاءِ والصّيفِ آمنينَ، والنّاسِ يتخطّفونَ منْ حولهمْ، فكانوا إذا عرضَ لهمْ عارضٌ قالوا: نحنُ أهلُ حرمِ اللّهِ، فلا يتعرّضُ النّاسُ لهمْ.

قولهُ تعالى: ﴿رِحۡلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيۡفِ﴾ رحلةَ نصبَ بالمصدرِ، أيِ ارتحالهمْ رحلةَ، أوْ بوقوعِ إيلافهمْ عليهِ، أوْ على الظّرفِ. ولوْ جعلتها في محلِّ الرّفعِ، على معنى هما رحلةُ الشّتاءِ والصّيفِ، لجازَ. والأوّلُ أولى. والرّحلةُ الارتحالُ. وكانتْ إحدى الرّحلتينِ إلى اليمنِ في الشّتاءِ، لأنّها بلادٌ حاميةٌ، والرّحلةُ الأخرى في الصّيفِ إلى الشّامِ، لأنّها بلادٌ باردةٌ.

وعنِ ابنِ عبّاسٍ أيضًا قالَ: كانوا يشتونَ بمكّةَ لدفئها، ويصيفونَ بالطّائفِ لهوائها. وهذهِ منْ أجلِّ النّعمِ أنْ يكونَ للقومِ ناحيةُ حرٍّ تدفعُ عنهمْ بردَ الشّتاءِ، وناحيةُ بردٍ تدفعُ عنهمْ حرَّ الصّيفِ، فذكّرهمُ اللّهُ تعالى هذهِ النّعمةَ. وقالَ الشّاعرُ:

تشتي بمكّةَ نعمةٌ ومصيفها بالطّائفِ

وهنا ثلاث مسائلَ:

الأولى: إذا قيل أنَّ السورة متعلّقٌ بالسّورةِ الأخرى تبيّنَ جوازُ الوقفِ قبلَ تمام الكلام، فإن كان لانقطاع النّفسِ فلا خلافَ فيهِ، ولا تعدْ ما قبلهُ إذا اعتراكَ ذلكَ، ولكنِ ابدأْ منْ حيثُ وقفَ بكَ نفسكَ. والوقفَ على التّمامِ أفضل خروجا من الخلاف، ومنَ الدّليلِ على صحّةِ هذا، قراءةُ النّبيِّ ﷺ الحمدُ للّهِ ربِّ العالمينَ ثمَّ يقفُ. الرّحمنِ الرّحيمِ ثمَّ يقفُ.

وأجمعَ المسلمونَ أنَّ الوقف عند قوله: ﴿كَعَصۡفٖ مَّأۡكُولِۭ﴾ ليسَ بقبيحٍ، وليسَ أحدٌ منَ العلماءِ يكرهُ ذلكَ، وما كانتِ العلّةُ فيهِ إلّا أنَّ قولهُ تعالى: ﴿فَجَعَلَهُمۡ كَعَصۡفٖ مَّأۡكُولِۭ﴾ انتهاءُ آيةٍ. فالقياسُ على ذلكَ: ألّا يمتنعَ الوقفُ عندَ أعجازِ الآياتِ سواءٌ كانَ الكلامُ يتمُّ، والغرضُ ينتهي، أوْ لا يتمُّ، ولا ينتهي.

الثانية- قالَ مالكٌ: الشّتاءُ نصفُ السّنةِ، والصّيفُ نصفها، وطلوع الثّريّا أوّلَ الصّيفِ ودبرَ الشّتاءِ، وقالَ قومٌ: الزّمانُ أربعةُ أقسام: شتاءٌ، وربيعٌ، وصيفٌ، وخريفٌ، والّذي قالهُ مالكٌ أصحُّ، لأنَّ اللّهَ قسمَ الزّمانَ قسمينِ ولمْ يجعلْ لهما ثالثًا.

الثالثة: لمّا امتنَّ اللّهُ تعالى على قريشٍ برحلتينِ، شتاءً وصيفًا، كانَ فيهِ دليلٌ على جوازِ تصرّفِ الرّجلِ في الزّمانينِ بينَ محلّينِ، يكونُ حالهما في كلِّ زمانٍ أنعمَ منَ الآخرِ، كالجلوسِ في المجلسِ البحريِّ في الصّيفِ، وفي القبليِّ في الشّتاءِ، وفي اتّخاذِ الخيشِ للتبريد، واللبد للدفء.

قولهُ تعالى: ﴿فَلۡيَعۡبُدُواْ رَبَّ هَٰذَا ٱلۡبَيۡتِ﴾

أمرهمُ اللّهُ تعالى بعبادتهِ وتوحيدهِ، لأجلِ إيلافهمْ رحلتينِ. ودخلتِ الفاءُ لأجلِ ما في الكلامِ منْ معنى الشّرطِ، والبيتُ: الكعبةُ. وفي تعريفِ نفسهِ لهمْ بأنّهُ ربُّ هذا البيتِ وجهانِ:

أحدهما: لأنّهُ كانتْ لهم أوثان فميز نفسهُ عنها.

الثّاني: لأنّهمْ بالبيتِ شرّفوا على سائرِ العربِ، فذكرَ لهمْ ذلكَ، تذكيراً لنعمتهِ. وقيلَ: ليعبدوا ربَّ هذا البيتِ أيْ ليألفوا عبادةَ ربِّ الكعبةِ، كما كانوا يألفونَ الرّحلتينِ.

قولهُ تعالى: ﴿ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ﴾ أيْ بعدَ جوعٍ ﴿وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ﴾ بدعوةِ إبراهيمَ عليه السلام حيثُ قالَ: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾، وقالَ: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ﴾.

وقيلَ: هذا الإطعامُ هوَ أنّهمْ لمّا كذّبوا النّبيَّ ﷺ دعا عليهمْ، فقالَ: «اللّهمَّ اجعلها عليهمْ سنينَ كسني يوسفَ» فاشتدَّ القحطُ، فقالوا: يا محمّدُ ادعُ اللّهَ لنا فإنّا مؤمنونَ. فدعا فأخصبتْ تبالةُ وجرشُ منْ بلادِ اليمنِ، فحملوا الطّعامَ إلى مكّةَ، وأخصبَ أهلها.

وقيلَ: ﴿وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ﴾ أيْ منْ خوفِ الجذامِ، لا يصيبهمْ ببلدهمُ الجذامُ. وقيلَ: منْ خوفِ الحبشةِ معَ الفيلِ، واللفظ يعم.

سورة الماعون

مكّيّةٌ في قولٍ، وهي سبع آيات.

بسمِ اللّهِ الرّحمنِ الرّحيمِ

قولهُ تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ۝١ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ۝٢ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ۝٣ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝٤ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝٥ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ۝٦ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ﴾، فيهِ ستُّ مسائلَ:

الأولى: قولهُ تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ﴾ أيْ بالجزاءِ والحسابِ في الآخرةِ، ﴿فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ﴾ أيْ يدفعُ، كما قالَ: ﴿يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا﴾ ﴿فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ﴾ أيْ يدفعهُ عنْ حقّهِ ويقهرهُ ويظلمهُ.

الثانية – قولهُ تعالى: ﴿وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾ أي لا يأمرُ بهِ، منْ أجلِ بخلهِ وتكذيبِهِ بالجزاءِ.

الثالثة – قولهُ تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ﴾ أيْ عذابٌ لهمْ ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾، فلا يصلّونها لمواقيتها، ولا يتمّونَ ركوعها ولا سجودها، ويدلُّ على هذا قولهِ تعالى: ﴿۞فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾.

وعنِ ابنِ عبّاسٍ: همُ المنافقونَ يتركونَ الصّلاةَ سراً، ويصلّونها علانيةً ﴿وَإِذَا قَامُوٓا۟ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُوا۟ كُسَالَىٰ﴾ الآيةَ.

ويدلُّ على أنّها في المنافقينَ قولهُ: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ﴾.

وقالَ ابنُ عبّاسٍ: ولوْ قالَ في صلاتهمْ ساهونَ لكانتْ في المؤمنينَ، والفرق أن المنافقينَ

ساهونَ عنها سهوَ تركٍ لها، وقلّةِ التفاتٍ إليها، ومعنى ﴿فِي﴾ أنَّ السّهوَ يعتريهمْ فيها، بوسوسةِ شيطانٍ، أوْ حديثِ نفسٍ، وذلكَ لا يكادُ يخلو منهُ مسلمٌ. وكانَ رسولُ اللّهِ ﷺ يقعُ لهُ السّهوُ في صلاتهِ، فضلاً عنْ غيرهِ، ومنْ ثمَّ أثبتَ الفقهاءُ بابَ سجودِ السّهوِ في كتبهمْ.

الرابعة- قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ هُمۡ يُرَآءُونَ﴾ أيْ يري النّاسَ أنّهُ يصلّي طاعةً وهوَ يصلّي تقيةً، كالفاسقِ، يري أنّهُ يصلّي عبادةً وهوَ يصلّي ليقالَ: إنّهُ يصلّي. وحقيقةُ الرّياءِ طلبُ ما في الدّنيا بالعبادةِ، وأصلهُ طلبُ المنزلةِ في قلوبِ النّاسِ.

وأوّلها: تحسينُ السّمتِ ويريدُ بذلكَ الجاهَ والثّناءَ.

وثانيها: الرّياءُ بالثّيابِ القصارِ والخشنةِ، ليأخذَ بذلك هيئة الزّهدِ في الدّنيا.

وثالثها: الرّياءُ بالقولِ، بإظهارِ التّسخّطِ على أهلِ الدّنيا، وإظهارِ الوعظِ والتّأسّفِ على ما يفوتُ منَ الخيرِ والطّاعةِ.

ورابعها: الرّياءُ بإظهارِ الصّلاةِ والصّدقةِ، أوْ بتحسينِ الصّلاةِ لأجلِ رؤيةِ النّاسِ، وذلكَ يطولُ، وهذا دليلهُ.

الخامسة- ولا يكونُ الرّجلُ مرائيـًا بإظهارِ العملِ الصّالحِ إنْ كانَ فريضةً، فمنْ حقِّ الفرائضِ الإعلانُ بها وتشهيرها، لأنّها أعلامُ الإسلامِ، وشعائرُ الدّينِ، ولأنَّ تاركها يستحقُّ الذّمَّ والمقتَ، فوجبَ إماطةُ التّهمةِ بالإظهارِ، وإنْ كانَ تطوّعـًا فحقّهُ أنْ يخفى، لأنّهُ مما لا يلامُ تركه ولا تهمةَ فيهِ، فإنْ أظهرهُ قاصداً للاقتداءِ بهِ كانَ جميلاً. وإنّما الرّياءُ أنْ يقصدَ بالإظهارِ أنْ تراهُ الأعينُ، فتثني عليهِ بالصّلاحِ. وعنْ بعضهمْ أنّهُ رأى رجلاً في المسجدِ قدْ سجدَ سجدةَ الشّكرِ فأطالها، فقالَ: ما أحسنَ هذا لوْ كانَ في بيتك. وإنّما قالَ هذا لأنّهُ توسّمَ فيهِ الرّياءَ والسّمعةَ.

السادسة- قولهُ تعالى: ﴿وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ﴾ أي زكاةُ أموالهمْ وقالهُ مالكٌ. والمرادُ بهِ المنافقُ يمنعها، وقيل الماعون اسمٌ جامعٌ لمنافعِ البيتِ كالفأسِ والقدرِ والنّارِ والعاريّةُ، وقيلَ: هو المعروفُ كلّهُ الّذي يتعاطاهُ النّاسُ فيما بينهمْ.

قيلَ: لعكرمةَ مولى ابنِ عبّاسٍ: منْ منعَ شيئاً منَ المتاعِ كانَ لهُ الويلُ؟ فقالَ: لا، ولكنْ منْ جمعَ ثلاثهنَّ فلهُ الويلُ، يعني: تركُ الصّلاةِ، والرّياءِ، والبخلِ بالماعونِ.

قلت: كونها في المنافقينَ أشبهُ، وبهمْ أخلقُ، لأنّهمْ جمعوا الأوصافَ الثّلاثةَ: تركُ الصّلاةِ، والرّياءِ، والبخلِ بالمالِ، قالَ اللّهِ تعالى: ﴿وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾، وقال: ﴿وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَٰرِهُونَ﴾، وهذهِ أحوالهمْ ويبعدُ أنْ توجدَ منْ مسلمٍ محقّقٍ، وإنْ وجدَ بعضها فيلحقهُ جزءٌ منَ التّوبيخِ، وذلكَ في منعِ الماعونِ إذا تعيّنَ، كالصّلاةِ إذا تركها. واللهُ أعلم. وإنّما يكونُ منعاً قبيحاً في المروءةِ في غيرِ حالِ الضرورة. واللهُ أعلم.

سورة الكوثر

مكّيّةٌ في قولٍ، وهيَ ثلاثُ آياتٍ.

بسمِ اللّهِ الرّحمنِ الرّحيمِ

قولهُ تعالى: ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ﴾، فيهِ مسألتانِ:

الأولى: قولهُ تعالى: ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ﴾ قراءةُ العامّةِ. إنّا أعطيناكَ بالعينِ. وقرأ الحسنُ وطلحةُ بنُ مصرّفٍ: «أَنْطَيْنَاكَ» بالنّونِ، وروتهُ أمّ سلمةَ عنِ النّبيِّ ﷺ، وهيَ لغةٌ في العطاءِ، أنطيتهُ: أعطيتهُ. والكوثرَ: فوعلُ منَ الكثرةِ، مثلَ النّوفلِ منَ النّفلِ، والجوهرِ منَ الجهرِ. والعربُ تسمّي كلَّ شيءٍ كثيرٍ في العددِ والقدرِ والخطرِ كوثراً، وقدْ تكوثرَ إذا كثرَ، قالَ الشّاعرُ:

وقدْ ثارَ نقعُ الموتِ حتّى تكوثرا

الثانية- الكوثر الّذي أعطيهُ النّبيُّ ﷺ نهرٌ في الجنّةِ، رواهُ البخاريُّ عنْ أنسٍ، وروى التّرمذيُّ أيضاً عنِ ابنِ عمرَ قالَ: قالَ رسولُ اللّهِ ﷺ: «الكوثرُ: نهرٌ في الجنّةِ، حافّتاهُ منْ ذهبٍ، ومجراهُ على الدّرِّ والياقوتِ، تربتهُ أطيبُ منَ المسكِ، وماؤهُ أحلى منَ العسلِ وأبيضُ منَ الثّلجِ». هذا حديثٌ حسنٌ صحيحٌ.

وقيلَ: إنّهُ حوضُ النّبيِّ ﷺ في الموقفِ، ففي صحيحِ مسلمٍ عنْ أنسٍ قالَ: بينما نحنُ عندَ رسولِ اللّهِ ﷺ إذْ أغفى إغفاءةً، ثمَّ رفعَ رأسهُ متبسّماً فقلنا: ما أضحككَ يا رسولَ اللّهِ؟ قالَ: نزلتْ عليَّ آنفاً سورةٌ- فقرأ- بسمِ اللّهِ الرّحمنِ الرّحيمِ: ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ ١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنۡحَرۡ ٢ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلۡأَبۡتَرُ﴾ ثمَّ قالَ- أتدرونَ ما الكوثرُ؟. قلنا اللّهُ ورسولهُ أعلمُ. قالَ: «فإنّهُ نهرٌ وعدنيهِ ربّي عزَّ وجلَّ، عليهِ خيرٌ كثيرٌ هوَ حوضٌ تردُ عليهِ أمّتي يومَ القيامةِ آنيتهُ عددُ النّجومِ، فيختلجُ العبدُ منهمْ فأقولُ إنّهُ منْ أمّتي، فيقالُ إنّكَ لا تدري ما أحدثَ بعدكَ».

قولهُ تعالى: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ﴾، فيهِ خمسُ مسائلَ:

الأولى: قولهُ تعالى: ﴿فَصَلِّ﴾ أيْ أقمِ الصّلاةَ المفروضةَ عليكَ، وقيلَ: ﴿فَصَلِّ﴾ صلاةَ العيدِ ﴿وَٱنْحَرْ﴾ نسككَ، وقيلَ: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ﴾ صلاةَ الصّبحِ المفروضةِ بجمعٍ، وانحرِ البدنَ بمنى.

الثانية – قالَ ابنُ العربيِّ: ومنْ عجيبِ الأمرِ: أنَّ الشّافعيَّ قالَ: إنَّ منْ ضحّى قبلَ الصّلاةِ أجزأهُ، واللّهُ تعالى يقولُ في كتابهِ: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ﴾، فبدأَ بالصّلاةِ قبلَ النّحرِ، وقدْ قالَ النّبيُّ ﷺ في البخاريِّ وغيرهِ، عنِ البراءِ بنِ عازبٍ، قالَ: «أوّلُ ما نبدأُ بهِ في يومنا هذا: نصلّي، ثمَّ نرجعُ فننحرُ، منْ فعلَ فقدْ أصابَ نسكنا، ومنْ ذبحَ قبلُ، فإنّما هوَ لحمٌ قدّمهُ لأهله، ليس من النسك في شيء». وأصحابهُ ينكرونهُ، وحبّذا الموافقةُ.

الثالثة – رويَ عنْ عليٍّ رضي الله عنه ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ﴾ قالَ: وضعُ اليمينِ على الشّمالِ في الصّلاةِ. خرّجهُ الدّارقطنيُّ، وقدِ اختلفَ علماؤنا في ذلكَ على ثلاثةِ أقوالٍ:

الأوّلُ: لا توضعُ فريضةً ولا نافلةً، لأنَّ ذلكَ منْ بابِ الاعتمادِ. ولا يجوزُ في الفرضِ، ولا يستحبُّ في النّفلِ.

الثّاني – لا يفعلها في الفريضةِ، ويفعلها في النّافلةِ استعانةً، لأنّهُ موضعُ ترخّصٍ.

الثّالثُ – يفعلها في الفريضةِ والنّافلةِ. وهوَ الصّحيحُ، لأنّهُ ثبتَ أنَّ رسولَ اللّهِ ﷺ وضعَ يدهُ اليمنى على اليسرى من حديث وائل ابن حجرٍ وغيرهِ، وبهِ قالَ مالكٌ وأحمدُ، وحكيَ ذلكَ عنِ الشّافعيِّ. واستحبَّ ذلكَ أصحابُ الرّأيِ. ورأتْ جماعةٌ إرسالَ اليدِ، وهوَ مرويٌّ أيضًا عنْ مالكٍ. قالَ ابنُ عبدِ البرِّ: إرسالُ اليدينِ، ووضعُ اليمنى على الشّمالِ، كلُّ ذلكَ منْ سنّةِ الصّلاةِ.

الرابعة – واختلفوا في الموضعِ الّذي توضعُ عليهِ اليدُ، فرويَ عنْ عليِّ بنِ أبي طالبٍ: أنّهُ وضعهما على صدرهِ، وعنه: توضعُ تحتَ السّرّةِ، وقالَ أحمدُ بنُ حنبلٍ: فوقَ السّرّةِ.، وقالَ: لا بأسَ إنْ كانتْ تحتَ السّرّةِ.

الخامسة: وأمّا رفعُ اليدينِ في التّكبيرِ عند الافتتاح والركوع والرّفع منَ الرّكوع والسّجودِ، فاختلفَ في ذلكَ، ففي الصّحيحينِ منْ حديثِ ابنِ عمرَ، قالَ: رأيتُ رسولَ اللّهِ ﷺ إذا قامَ إلى الصّلاةِ رفعَ يديهِ، حتّى تكونا حذو منكبيهِ، ثمَّ يكبّرُ، وكانَ يفعلُ ذلكَ حينَ يكبّرُ للرّكوعِ، ويفعلُ ذلكَ حينَ يرفعُ رأسهُ منَ الرّكوعِ، ويقولُ سمعَ اللّهُ لمنْ حمدهُ. ولا يفعلُ ذلكَ حينَ يرفعُ رأسهُ منَ السّجودِ.

قالَ ابنُ المنذرِ: وهذا قولُ الشّافعيِّ وأحمدَ وحكى ابنُ وهبٍ عنْ مالك هذا القول. وهو الثّابتُ عنْ رسولِ اللّهِ ﷺ. وقالتْ طائفةٌ: يرفعُ المصلّي يديهِ حينَ يفتتحُ الصّلاةَ، ولا يرفعُ فيما سوى ذلكَ. هذا قولُ أصحابِ الرّأيِ، وهوَ المشهورُ منْ مذهبِ مالكٍ، لحديثِ الدّارقطنيّ عنْ ابنِ مسعودٍ قالَ: صلّيتُ معَ النّبيِّ ﷺ ومعَ أبي بكرٍ وعمرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، فلمْ يرفعوا أيديهمْ إلّا أوّلاً عندَ التّكبيرةِ الأولى في افتتاحِ الصّلاةِ.

قولهُ تعالى: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ﴾ أيْ مبغضكَ ﴿هُوَ ٱلۡأَبۡتَرُ﴾ كانتِ العربُ تسمّي منْ كانَ لهُ بنونَ وبناتٌ، ثمَّ ماتَ البنونَ وبقيَ البناتُ: أبترُ. فيقالُ: إنَّ العاصَ وقفَ معَ النّبيِّ ﷺ يكلّمهُ، فقالَ: لهُ جمعٌ منْ صناديدِ قريشٍ: معَ منْ كنتَ واقفًا؟ فقالَ: معَ ذلكَ الأبتر. وكانَ قدْ توفّيَ قبلَ ذلكَ عبدُ اللّهِ بن رسولُ اللّهِ ﷺ، وكانَ منْ خديجةَ، فأنزلَ اللّهُ جلَّ شأنهُ: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلۡأَبۡتَرُ﴾ أيِ المقطوعُ ذكرهُ منْ خيرِ الدّنيا والآخرةِ.

سورة الكافرون

مكّيّةٌ في قولٍ وهي ست آيات، وفي التّرمذيِّ منْ حديثِ أنسٍ: أنّها تعدلُ ثلثَ القرآنِ.

بسمِ اللّهِ الرّحمنِ الرّحيمِ

قولهُ تعالى: ﴿قُلۡ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلۡكَـٰفِرُونَ ١ لَآ أَعۡبُدُ مَا تَعۡبُدُونَ ٢ وَلَآ أَنتُمۡ عَـٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ ٣ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٞ مَّا عَبَدتُّمۡ ٤ وَلَآ أَنتُمۡ عَـٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ ٥﴾

ذكرَ ابنُ إسحاقَ وغيرهُ عنِ ابنِ عبّاسٍ: أنَّ سببَ نزولها أنَّ الوليدَ بنَ المغيرةِ، والعاصَ ابن وائلٍ، والأسودَ بنَ عبدِ المطّلبِ، وأميّةَ بنَ خلفٍ، لقوا رسولَ اللّهِ ﷺ فقالوا: يا محمّدُ، هلمَّ فلنعبدْ ما تعبدُ، وتعبدُ ما نعبدُ، ونشتركُ نحنُ وأنتَ في أمرنا كلّهِ، فإنْ كانَ الّذي جئتَ بهِ خيراً ممّا بأيدينا، كنّا قدْ شاركناكَ فيهِ، وأخذنا بحظّنا منهُ. وإنْ كانَ الّذي بأيدينا خيراً ممّا بيدكَ، كنتَ قدْ شركتنا في أمرنا، وأخذتَ بحظّكَ منهُ، فأنزلَ اللّهُ عزَّ وجلَّ ﴿قُلۡ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلۡكَـٰفِرُونَ﴾ وعنى بالكافرينَ قوماً معيّنينَ. لا جميعَ الكافرينَ، لأنَّ منهمْ منْ آمنَ، فعبدَ اللّهَ، ومنهمْ منْ ماتَ أوْ قتلَ على كفرهِ، وهمُ المخاطبونَ بهذا القولِ، وهمُ المذكورونَ.

وأمّا وجهُ التّكرارِ فقدْ قيلَ إنّهُ للتّأكيدِ في قطعِ أطماعهمْ، ومنْ مذاهبِ العربِ التّكرارُ إرادةَ التّأكيدِ والإفهامِ، كما أنَّ منْ مذاهبهمُ الاختصارَ إرادةَ التّخفيفِ والإيجازِ، لأنَّ خروجَ الخطيبِ والمتكلّمِ من شيءٍ إلى شيءٍ أولى من اقتصاره في المقام على شيءٍ واحدٍ، قالَ اللّهُ تعالى: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ ﴿فَوَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ﴾ ﴿كَلَّا سَيَعۡلَمُونَ ٤ ثُمَّ كَلَّا سَيَعۡلَمُونَ﴾، و ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلۡعُسۡرِ يُسۡرًا ٥ إِنَّ مَعَ ٱلۡعُسۡرِ يُسۡرًا﴾ كلُّ هذا على التّأكيدِ.

وقدْ يقولُ القائلُ: ارمِ ارمِ، أعجلْ أعجلْ، ومنهُ قولهُ ﷺ في الحديثِ الصّحيحِ: «فلا آذنُ، ثمَّ لا آذنُ، إنّما فاطمةُ بضعةٌ منّي». خرّجهُ مسلمٌ. وقالَ الشّاعرُ:

هلّا سألتَ جموعَ كندةَ يومَ ولّوا أينَ أينا

وقيلَ: هذا على مطابقةِ قولهمْ؛ لأنَّ القومَ كرّروا عليهِ مقالهمْ مرّةً بعدَ مرّةٍ. والله أعلم.

وقيلَ: إنّما كرّرَ بمعنى التّغليظِ.

وقيلَ: أيْ لا أعبدُ السّاعةَ ما تعبدونَ. ولا أنتمْ عابدونَ السّاعةَ ما أعبدُ. ثمَّ قالَ: ولا أنا عابدٌ في المستقبلِ ما عبدتّمْ. ولا أنتمْ في المستقبلِ عابدونَ ما أعبدُ.

قولهُ تعالى: ﴿لَكُمۡ دِينُكُمۡ وَلِيَ دِينِ﴾ فيهِ معنى التّهديدِ، وهوَ كقولهِ تعالى: ﴿لَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡ﴾، وكانَ هذا قبلَ الأمرِ بالقتالِ، فنسخَ بآيةِ السّيفِ. وقيلَ: السّورةُ كلّها منسوخةٌ. وقيلَ: ما نسخ منها شيء لأنّها خبرٌ. ومعنى لكمْ دينكمْ أيْ جزاءُ دينكمْ، وليَ جزاءُ ديني. وسمّى دينهمْ دينـًا، لأنّهمُ اعتقدوهُ وتولّوهُ.

وفتحَ الياءَ ﴿منْ ولىَ دينِ﴾ نافعٌ، والبزّيُّ عنِ ابنِ كثيرٍ باختلافٍ عنهُ، وهشامٌ عنِ ابنِ عامرٍ، وحفصٌ عنْ عاصمٍ. وأثبتَ الياءَ في «دِينِي» في الحالين يعقوبُ، الباقونَ بغيرِ ياءٍ، مثلَ قولهِ تعالى: ﴿فَهُوَ يَهۡدِينِ﴾ و﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ ونحوهِ، اكتفاءً بالكسرةِ، واتّباعـًا لخطِّ المصحفِ، فإنّهُ وقعَ فيهِ بغيرِ ياءٍ.

سورة النصر

سورةِ النّصرِ مدنيّةٌ بإجماعٍ. وتسمّى سورةَ التّوديعِ. وهيَ ثلاثُ آياتٍ. وهيَ آخرُ سورةٍ نزلتْ جميعاً قالهُ ابنُ عبّاسٍ في صحيح مسلم.

بسمِ اللّهِ الرّحمنِ الرّحيمِ

قولهُ تعالى: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ﴾ النّصرُ: العونُ، والمرادُ بهذا النّصرِ نصرُ الرّسولِ على قريشٍ ومنْ قاتلهُ منَ الكفّارِ، فإنَّ عاقبةَ النّصرِ كانتْ لهُ. وأمّا الفتحُ فهوَ فتحُ مكّةَ، وقيلَ: هوَ فتحُ المدائنِ والقصورِ. وقيلَ: فتحُ سائرِ البلادِ. وقيلَ: ما فتحهُ عليه من العلوم. وإذا بمعنى قدْ، أيْ قدْ جاءَ نصرُ اللّهِ، لأنَّ نزولها بعدَ الفتحِ.

قولهُ تعالى: ﴿وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ﴾ العربَ وغيرهمْ ﴿يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجًا﴾ أيْ جماعاتٍ: فوجاً بعدِ فوجٍ.

قولهُ تعالى: ﴿فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ﴾ أيْ إذا صلّيتَ فأكثرْ منْ ذلكَ. وقيلَ: معنى سبّحْ: صلِّ، عنِ ﴿بِحَمۡدِ رَبِّكَ﴾ أيْ حامداً لهُ على ما آتاكَ منَ الظّفرِ والفتحِ ﴿وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ﴾ أيْ سلِ اللّهَ الغفرانَ، وروى الأئمّةُ واللّفظُ للبخاريِّ عنْ عائشةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالتْ: ما صلّى رسولُ اللّهِ ﷺ صلاة بعدَ أنْ نزلتْ عليهِ سورةُ إذا جاءَ نصرُ اللّهِ والفتحُ إلّا يقولُ: «سبحانكَ ربّنا وبحمدكَ، اللّهمَّ اغفرْ لي».

وعنها قالتْ: كانَ رسولُ اللّهِ ﷺ يكثرُ أنْ يقولَ في ركوعهِ وسجودهِ: «سبحانكَ اللّهمَّ ربّنا وبحمدكَ، اللّهمَّ اغفرْ لي». يتأوّلُ القرآنَ. وفي غيرِ الصّحيحِ: وقالتْ أمُّ سلمةَ: كانَ النّبيُّ ﷺ آخرَ أمره لا يقوم ولا يقعد ولا يجيء ولا يذهبُ إلّا قالَ: «سبحانَ اللّهِ وبحمدهِ، استغفر الله وأتوب إليهِ- قالَ- فإنّي أمرتُ بها- ثمَّ قرأَ- إذا جاءَ نصرُ اللّهِ والفتحُ إلى آخرها».

وقال أبو هريرة: اجتهد النبي ﷺ بعدَ نزولها، حتّى تورّمتْ قدماهُ. ونحلَ جسمهُ، وقلَّ تبسّمهُ، وكثرَ بكاؤهُ.

وقالَ عكرمةُ: لمْ يكنِ النّبيُّ ﷺ قطُّ أشدَّ اجتهاداً في أمورِ الآخرةِ ما كانَ منهُ عندَ نزولها.

وفي البخاريِّ وغيرِهِ عنِ ابنِ عبّاسٍ قالَ: كانَ عمرُ بنُ الخطّابِ يأذنُ لأهلِ بدرٍ، ويأذنُ لي معهمْ. قالَ: فوجدَ بعضهمْ منْ ذلكَ، فقالوا: يأذنُ لهذا الفتى معنا ومنْ أبنائنا منْ هوَ مثلهُ! فقالَ: لهمْ عمرُ: إنّهُ منْ قدْ علمتمْ. قالَ: فأذنَ لهمْ ذاتَ يوم، وأذنَ لي معهمْ، فسألهمْ عنْ هذهِ السّورةِ ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ﴾ فقالوا: أمر اللّهُ عزَّ وجلَّ نبيّهُ ﷺ إذا فتحَ عليهِ أنْ يستغفرهُ، وأنْ يتوبَ إليهِ. فقالَ: ما تقولُ يا ابنَ عبّاسٍ؟ قلت: ليسَ كذلكَ، ولكنْ أخبرَ اللّهُ نبيّهُ ﷺ حضورَ أجلهِ، فقالَ: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ﴾، فذلكَ علامةُ موتكِ ﴿فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا﴾. فقالَ: عمرُ رضي الله عنه: تلومونني عليهِ؟ وفي البخاريِّ فقالَ: عمرُ: ما أعلمُ منها إلّا ما تقولُ.

فإن قيل: فماذا يغفرُ للنّبيِّ ﷺ حتّى يؤمرَ بالاستغفارِ؟

قيلَ لهُ: كانَ النّبيَّ ﷺ يقولُ في دعائهِ: «ربِّ اغفرْ لي خطيئتي وجهلي، وإسرافي في أمري كلّهِ، وما أنتَ أعلمُ بهِ منّي. اللّهمَّ اغفرْ لي خطأي وعمدي، وجهلي وهزلي، وكلُّ ذلكَ عندي. اللّهمَّ اغفرْ لي ما قدّمتُ وما أخّرتُ، وما أعلنتُ وما أسررتُ، أنتَ المقدّمُ وأنت المؤخر، إنك على شيء قديرٌ». فكانَ ﷺ يستقصرُ نفسهُ لعظمِ ما أنعمَ اللّهُ بهِ عليهِ، ويرى قصورهُ عنِ القيامِ بحقِّ ذلكَ ذنوبًا.

وقيلَ: الاستغفار تعبد يجب إتيانه لا للمغفرةِ، بلْ تعبّداً.

وقيلَ: ذلكَ تنبيهٌ لأمّتهِ، لكيلا يأمنوا ويتركوا الاستغفارَ.

وقيلَ: واستغفرهُ أيِ استغفرْ لأمّتكَ. ﴿إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا﴾: أيْ على المسبّحينَ والمستغفرينَ، يتوبُ عليهمْ ويرحمهمْ، ويقبلُ توبتهمْ.

وإذا كانَ ﷺ وهوَ معصومٌ يؤمرُ بالاستغفارِ، فما الظّنُّ بغيرهِ؟

وروى مسلمٌ عنْ عائشةَ قالتْ: كانَ رسولُ اللّهِ ﷺ يكثرُ منْ قولِ: «سبحانَ الله وبحمده، أستغفر الله وأتوب إليه». قالت: فقلت يا رسول الله أراك تكثر منْ قولِ: «سبحانَ اللّهِ وبحمدهِ، أستغفرُ اللّهَ وأتوبُ إليهِ؟» فقالَ: «خبّرني ربّي أنّي سأرى علامةً في أمّتي، فإذا رأيتها أكثرتُ منْ قولِ سبحانَ اللّهِ وبحمدهِ، أستغفرُ اللّهَ وأتوبُ إليهِ، فقدْ رأيتها: ﴿إِذَا جَآءَ

نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ﴾- فتحُ مكّةَ- ﴿وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ۝٢ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا﴾.

وقالَ ابنُ عمرَ: نزلتْ هذهِ السّورةُ بمنى في حجّةِ الوداعِ، ثمَّ نزلتْ ﴿اليومَ أكملتُ لكمْ دينكمْ وأتممتُ عليكمْ نعمتي﴾ فعاشَ بعدهما النّبيُّ ﷺ ثمانينَ يوماً. ثمَّ نزلتْ آيةُ الكلالةِ، فعاشَ بعدها خمسينَ يوماً. ثمَّ نزلَ ﴿لقدْ جاءكمْ رسولٌ منْ أنفسكمْ﴾ فعاشَ بعدها خمسةً وثلاثينَ يوماً. ثمَّ نزلَ ﴿واتّقوا يوماً ترجعونَ فيهِ إلى اللّهِ﴾ فعاشَ بعدها أحداً وعشرينَ يوماً. وقالَ مقاتلٌ سبعةَ أيّامٍ. وقيلَ غيرَ هذا.

سورة المسد

مكّيّةٌ بإجماعٍ، وهيَ خمسُ آيات.

بسمِ اللّهِ الرّحمنِ الرّحيمِ

قولهُ تعالى: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾، فيهِ ثلاثُ مسائلَ:

الأولى: قولهُ تعالى: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ﴾ في الصّحيحينِ وغيرهما واللّفظُ لمسلمٍ عنِ ابنِ عبّاسٍ قالَ: «لما نزلت ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ «ورهطكَ منهمُ المخلصينَ»، خرجَ رسولُ اللّهِ ﷺ حتّى صعدَ الصّفا، فهتفَ: يا صباحاهُ! فقالوا: منْ هذا الّذي يهتفُ؟ قالوا محمّدٌ. فاجتمعوا إليهِ. فقالَ: «يا بني فلانٍ، يا بني فلانٍ، يا بني فلانٍ، يا بني عبدِ منافٍ، يا بني عبدِ المطّلبِ!» فاجتمعوا إليهِ. فقالَ: «أرأيتكمْ لوْ أخبرتكمْ أنَّ خيلاً تخرجُ بسفحِ هذا الجبلِ أكنتمْ مصدّقيَّ»؟ قالوا: ما جرّبنا عليكَ كذباً. قالَ: «فإنّي نذيرٌ لكمْ بينَ يديْ عذابٍ شديدٍ». فقالَ: أبو لهبٍ: تباً لكَ!، أما جمعتنا إلّا لهذا! ثمَّ قامَ، فنزلتْ هذهِ السّورةُ، فلمّا سمعتِ امرأتهُ ما نزلَ في زوجها وفيها منَ القرآنِ، أتتْ رسولَ اللّهِ ﷺ وهوَ جالسٌ في المسجدِ عندَ الكعبةِ، ومعهُ أبو بكرٍ رَضِيَ اللّهُ عَنْهُ، وفي يدها فهرٌ منْ حجارةٍ، فلمّا وقفتْ عليهِ أخذَ اللّهُ بصرها عنْ رسولِ اللّهِ ﷺ، فلا ترى إلّا أبا بكرٍ. فقالتْ: يا أبا بكرٍ، إنَّ صاحبكَ قدْ بلغني أنّهُ يهجوني، واللّهِ لوْ وجدتهُ لضربتُ بهذا الفهرِ فاهُ، واللّهِ إنّي لشاعرةٌ:

مذمّماً عصينا   وأمرهُ أبينا

ودينهُ قلينا

ثمَّ انصرفتْ. فقالَ: أبو بكرٍ: يا رسولَ اللّهِ، أما تراها رأتكَ؟ قالَ: «ما رأتني، لقدْ أخذَ اللّهُ بصرها عنّي». وكانتْ قريشٌ إنّما تسمّي رسولَ اللّهِ ﷺ مذمّماً، يسبّونهُ، وكانَ يقولُ: «ألا تعجبونَ لما صرفَ اللّهُ عنّي منْ أذى قريشٍ، يسبّونَ ويهجونَ مذمّماً وأنا محمّدٌ».

وخص اليدينِ بالتّبابِ، لأنَّ العملَ أكثرُ ما يكونُ بهما، أيْ خسرتا وخسرَ هوَ. وقيلَ: المرادُ باليدينِ نفسهُ. وقدْ يعبّرُ عنِ النّفسِ باليدِ، كما قالَ اللّهُ تعالى: ﴿بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ﴾ أيْ

نفسكُ. وهذا مهيعُ كلامِ العربِ، تعبّرُ ببعضِ الشّيءِ عنْ كلّهِ، تقولُ: أصابتهُ يدُ الدهر، ويد الرّزايا والمنايا، أيْ أصابهُ كلُّ ذلكَ.

﴿وَتَبَّ﴾ التّبُّ الأوّلُ: دعاءٌ والثّاني خبرٌ، كما يقالُ: أهلكهُ اللّهُ وقدْ هلكَ.

وأبو لهبٍ اسمهُ عبدُ العزّى، وهوَ ابنُ عبدِ المطّلبِ عمُّ النّبيِّ ﷺ. وامرأتهُ العوراءُ أمُّ جميلٍ، أختُ أبي سفيانَ بنِ حربٍ، وكلاهما، كانَ شديدَ العداوةِ للنّبيِّ ﷺ.

الثانية: قولهُ تعالى: ﴿أَبِي لَهَبٍ﴾ قيل: سمّيَ باللّهبِ لحسنهِ، وإشراقِ وجههِ. وقدْ ظنَّ قومٌ أنَّ في هذا دليلاً على تكنيةِ المشركِ، وهوَ باطلٌ، وإنّما كنّاهُ اللّهُ بأبي لهبٍ – عندَ العلماءِ– لمعانٍ أربعةٍ:

الأوّلُ: أنّهُ كانَ اسمهُ عبدُ العزّى، والعزّى: صنمٌ، ولمْ يضفِ اللّهُ في كتابهِ العبوديّةَ إلى صنمٍ.

الثّاني: أنّهُ كانَ بكنيتهِ أشهرَ منهُ باسمهِ، فصرّحَ بها.

الثّالثُ: أنَّ الاسمَ أشرفُ منَ الكنيةِ، فحطّهُ اللّهُ عزَّ وجلَّ عنِ الأشرفِ إلى الأنقصِ، إذا لمْ يكنْ بدٌّ منَ الإخبارِ عنهُ، ولذلكَ دعا اللّهُ تعالى الأنبياءَ بأسمائهمْ، ولمْ يكنْ عنْ أحدٍ منهمْ. ويدلّكَ على شرفِ الاسمِ على الكنيةِ: أنَّ اللّهَ تعالى يُسمّى ولا يُكنى، وإنْ كانَ ذلكَ لظهورهِ وبيانهِ، واستحالةِ نسبةِ الكنيةِ إليه، لتقدسه عنها.

الرابع– أن اللّهَ تعالى أرادَ أنْ يحقّقَ نسبتهُ، بأنْ يدخلهُ النّارَ، فيكونَ أبـًا لها، تحقيقـًا للنّسبِ، وإمضاءً للفألِ والطّيرةِ الّتي اختارها لنفسهِ.

وقدْ قيل: اسمهُ كنيتهُ. فكانَ أهلهُ يسمّونهُ «أبا لهبٍ»، لتلهّبِ وجههِ وحسنهِ، فصرفهمُ اللّهُ عنْ أنْ يقولوا: أبو النّورِ، وأبو الضّياءِ، الّذي هوَ المشتركُ بينَ المحبوبِ والمكروهِ، وأجرى على ألسنتهمْ أنْ يضيفوهُ إلى ﴿لَهَبٍ﴾ الّذي هوَ مخصوصٌ بالمكروهِ المذمومِ، وهوَ النّارُ. ثمَّ حقّقَ ذلكَ بأنْ يجعلها مقرّهُ.

وقرأ ابنُ كثيرٍ ﴿أَبِي لَهْبٍ﴾ بإسكانِ الهاءِ. ولمْ يختلفوا في ذاتَ لهبٍ أنّها مفتوحةٌ، لأنّهمْ

راعوا فيها رؤوسَ الآيِ.

الثالثة: قالَ ابنُ عبّاسٍ: لمّا خلقَ اللّهُ عزَّ وجلَّ القلمَ قالَ لهُ: اكتبْ ما هوَ كائنٌ، وكانَ فيما كتبَ تبّتْ يدا أبي لهبٍ. وقالَ منصورٌ: سئلَ الحسنُ عنْ قولهِ تعالى: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ﴾. هلْ كانَ في أمِّ الكتابِ؟ وهلْ كانَ أبو لهبٍ يستطيعُ ألّا يصلى النّارَ؟ فقالَ: واللّهِ ما كانَ يستطيعُ ألّا يصلاها، وإنّها لفي كتابِ اللّهِ منْ قبلِ أنْ يخلقَ أبو لهبٍ وأبواهُ. ويؤيّدهُ قولُ موسى لآدمَ: «أنتَ الّذي خلقكَ اللّهُ بيدهِ، ونفخَ فيكَ منْ روحهِ، وأسكنكَ جنّتهُ، وأسجدَ لكَ ملائكتهُ، خيّبتَ النّاسَ، وأخرجتهمْ منَ الجنّةِ. قالَ آدمُ: وأنتَ موسى الّذي اصطفاكَ بكلامهِ، وأعطاكَ التّوراةَ، تلومني على أمرٍ كتبهُ اللّهُ عليَّ قبلَ أنْ يخلقَ الله السموات والأرضَ. قالَ النّبيُّ ﷺ: «فحجَّ آدمُ موسى».

قولهُ تعالى: ﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ﴾ أيْ ما دفعَ عنهُ عذابَ اللّهِ ما جمعَ منَ المالِ، ولا ما كسبَ منْ جاهٍ أو ولدٍ، وولدُ الرّجلِ منْ كسبهِ، فعنْ عائشةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أنَّ رسولَ اللّهِ ﷺ قالَ: «إنَّ أطيبَ ما أكلَ الرجل من كسبه، وإن ولده منْ كسبهِ». خرّجهُ أبو داودَ.

و"ما" في قولهِ: ﴿مَآ أَغْنَىٰ﴾ يجوزُ أنْ تكونَ نفياً، ويجوزُ أنْ تكونَ استفهاماً، أيْ أيُّ شيءٍ أغنى «عنه»؟ وما الثانية يجوزُ أنْ تكونَ بمعنى الّذي، ويجوزُ أنْ تكونَ معَ الفعلِ مصدراً، أيْ ما أغنى عنه ماله وكسبه.

قولهُ تعالى: ﴿سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ﴾ أي ذاتَ اشتعالٍ وتلهّبٍ.

قولهُ تعالى: ﴿وَٱمْرَأَتُهُۥ﴾ أمُّ جميلٍ ﴿حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ﴾ كانتْ تمشي بالنّميمةِ بينَ النّاسِ، تقولُ العربُ: فلانٌ يحطبُ على فلانٍ: إذا ورّشَ عليهِ. وثبتَ عنِ النّبيِّ ﷺ: «لا يدخلُ الجنّةَ نمّامٌ»، وقالَ ﷺ: «منْ شرِّ النّاسِ ذو الوجهينِ الّذي يأتي هؤلاءِ بوجهٍ، وهؤلاءِ بوجهٍ».

والنّميمةُ منَ الكبائرِ، لا خلافَ في ذلكَ.

وقيلَ: كانت مع كثرة مالها تحملُ الحطبَ على ظهرها، لشدّةِ بخلها، فعيّرتْ بالبخلِ، وقيلَ: كانتْ تحملُ العضاهَ والشّوكَ، فتطرحهُ باللّيلِ على طريقِ النّبيِّ ﷺ وأصحابهِ.

وقيلَ: حمّالةُ الخطايا والذّنوبِ، منْ قولِهمْ: فلانٌ يحتطبُ على ظهرِهِ، دليلهُ قولهُ تعالى: ﴿وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ﴾.

وقيلَ: المعنى حمّالة الحطبِ في النّارِ، وفيهِ بعدٌ. وقراءةُ العامّةِ ﴿حَمَّالَةُ﴾ بالرّفعِ، على أنْ يكونَ خبراً وامرأتهُ مبتدأٌ. ويكونَ ﴿فِى جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ﴾ جملةٌ في موضعِ الحالِ منَ المضمرِ في حمّالةَ. أوْ خبراً ثانيـاً. وقرأ عاصمٌ ﴿حمّالةَ الحطبِ﴾ بالنّصبِ على الذّمِّ، كأنّها اشتهرتْ بذلكَ، فجاءتِ الصّفةُ للذّمِّ لا للتّخصيصِ، كقولهِ تعالى: ﴿مَّلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓا۟﴾.

قولهُ تعالى: ﴿فِى جِيدِهَا﴾ أيْ عنقها، وجمعه أجيادٌ، قالَ امرؤُ القيسِ:

وجيدٌ كجيدِ الرّيمِ ليسَ بفاحشٍ ... إذا هيَ نصّتهُ ولا بمعطّلِ

قولهُ تعالى: ﴿حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ﴾ وجمعه أمسادٌ، أيْ منْ ليفٍ وهوَ في الآخرةِ حبلٌ من نار، وقدِ اعترضَ فقيلَ: إنْ كانَ ذلكَ حبلها الّذي تحتطبُ بهِ، فكيفَ يبقى في النّارِ؟ وأجيبَ عنهُ بأنَّ اللّهَ عزَّ وجلَّ قادرٌ على تجديدهِ كلّما احترقَ. والحكمُ ببقاءِ أبي لهبٍ وامرأتهِ في النّارِ مشروطٌ ببقائهما على الكفرِ إلى الموافاةِ، فلمّا ماتا على الكفرِ صدقَ الإخبارُ عنهما. ففيهِ معجزةٌ للنّبيِّ ﷺ. فامرأتهُ خنقها اللّهُ بحبلها، وأبو لهبٍ رماهُ اللّهُ بالعَدَسَةِ بعدَ وقعةِ بدرٍ بسبعِ ليالٍ.

□

سورة الإخلاص

مكّيّةٌ في قولِ ابنِ مسعودٍ، ومدنيّةٌ في أحدِ قولِي ابنِ عباس، وهيَ أربعُ آياتٍ.

بسمِ اللّهِ الرّحمنِ الرّحيمِ

قولهُ تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ أيِ الواحدُ الوترُ، الّذي لا شبيهَ لهُ، ولا نظيرَ ولا صاحبةَ، ولا ولدَ ولا شريكَ، وأحدٌ مرفوعٌ، على معنى: هوَ أحدٌ. وقيلَ: المعنى: قلِ: الأمرُ والشّأنُ: اللّهُ أحدٌ. وقيلَ: أحدٌ بدلٌ منْ قولهِ: اللّهُ.

قولهُ تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾ أيِ الّذي يصمدُ إليهِ في الحاجاتِ. كما قالَ عزَّ وجلَّ: ﴿ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ﴾. قالَ أهلُ اللّغةِ: الصّمدُ: السّيّدُ الّذي يصمدُ إليهِ في النّوازلِ والحوائجِ، وقالَ قومٌ: الصّمدُ: الدّائمُ الباقي، الّذي لمْ يزلْ ولا يزالُ. وقيلَ: تفسيرهُ ما بعدهُ ﴿لمْ يلدْ ولمْ يولدْ﴾؛ لأنه ليس شيء يولد إلا سيموت، وليس شيء يموتُ إلّا يورثُ.

وقالَ أبو هريرةَ: إنّهُ المستغني عنْ كلِّ أحدٍ، والمحتاجُ إليهِ كلُّ أحدٍ. وقيلَ: المقصودُ في الرّغائبِ، والمستعانُ بهِ في المصائبِ. وقيلَ: إنّهُ الّذي يفعلُ ما يشاءُ ويحكمُ ما يريدُ. وقيلَ: إنّهُ: الكاملُ الّذي لا عيبَ فيهِ، وقيلَ: الصّمدُ: المصمتُ الّذي لا جوفَ لهُ، والصّحيحَ منها. ما شهدَ لهُ الاشتقاقُ، وهوَ القولُ الأوّلُ.

وروى التّرمذيُّ عنْ أبيِّ بنِ كعبٍ: أنَّ المشركينَ قالوا لرسولِ اللّهِ ﷺ: انسبْ لنا ربكَ، فأنزلَ اللّهُ عزَّ وجلَّ: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ . اللَّهُ الصّمدُ﴾.

قولهُ تعالى: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ أيْ لمْ يكنْ لهُ مثلاً أحد. وفية تقدم وتأخيرٌ، تقديرهُ: ولمْ يكنْ لهُ أحدٌ كفواً، فقدّمَ خبرَ كانَ على اسمها، لينساقَ أواخرُ الآي على نظم واحد. وقريء ﴿كُفْوًا﴾ بضمِّ الفاءِ وسكونها. وقدْ تقدّمَ في «البقرة» أن كل اسم على ثلاث أحرفٍ أوّلهُ مضمومٌ، فإنّهُ يجوزُ في عينهِ الضّمُّ والإسكانُ إلّا قولهُ تعالى: ﴿وَجَعَلُواْ لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا﴾. وقرأ حفصٌ ﴿كُفُوًا﴾ مضمومَ الفاءِ غير مهموز. وكلها لغات فصيحة.

القولُ في الأحاديثِ الواردةِ في فضلِ هذهِ السّورةِ، وفيهِ ثلاثُ مسائلَ:

الأولى: ثبتَ في صحيحِ البخاريِّ عنْ أبي سعيدٍ الخدريِّ: أنَّ رجلاً سمعَ رجلاً يقرأُ ﴿قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ يردّدها، فلمّا أصبحَ جاءَ إلى النّبيِّ ﷺ، فذكرَ ذلكَ لهُ، وكانَ الرّجلُ يتقالّها، فقالَ: رسولُ اللّهِ ﷺ: «والّذي نفسي بيدهِ إنّها لتعدلُ ثلثَ القرآنِ».

وعنهُ قالَ: قالَ النّبيُّ ﷺ لأصحابهِ: «أيعجزُ أحدكمْ أنْ يقرأَ ثلثَ القرآنِ في ليلةٍ» فشقَّ ذلكَ عليهمْ، وقالوا: أيّنا يطيقُ ذلكَ يا رسولَ اللّهِ؟ فقالَ: «اللّهُ الواحدُ الصّمدُ ثلثُ القرآنِ». خرّجهُ مسلمٌ منْ حديثِ أبي الدّرداءِ بمعناهُ.

قالَ بعضُ العلماءِ: إنّها عدلتْ ثلثَ القرآنِ لأجلِ هذا الاسمِ، الّذي هوَ الصّمدُ، فإنّهُ لا يوجدُ في غيرها منَ السورِ. وكذلك أحد. وقيلَ: إنَّ القرآنَ أنزلَ أثلاثًا، ثلثًا منهُ أحكامٌ، وثلثًا منهُ وعدٌ ووعيدٌ، وثلثًا منهُ أسماءٌ وصفاتٌ، وقدْ جمعتْ قلْ هوَ اللّهُ أحدٌ أحد الأثلاث، وهوَ الأسماءُ والصّفاتُ. ودلَّ على هذا التّأويلُ ما في صحيحِ مسلمٍ، منْ حديثِ أبي الدّرداءِ عنِ النّبيِّ ﷺ، قالَ: إنَّ اللّهَ عزَّ وجلَّ جزّأَ القرآنَ ثلاثةَ أجزاءٍ، فجعلَ قلْ هوَ اللّهُ أحدٌ جزءاً منْ أجزاءِ القرآنِ. وهذا نصٌّ، وبهذا المعنى سمّيتْ سورةُ الإخلاصِ، والله أعلم.

الثانية: روى مسلمٌ عنْ عائشةَ: أنَّ رسولَ اللّهِ ﷺ بعثَ رجلاً على سريّةٍ، وكانَ يقرأُ لأصحابهِ في صلاتهمْ، فيختمُ بِ ﴿قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾، فلما رجعوا ذكروا ذلك للنبي ﷺ فقال: «سلوه لأي شيء يصنعُ ذلكَ»؟ فسألوهُ فقالَ: لأنّها صفةُ الرّحمنِ، فأنا أحبُّ أنْ أقرأَ بها. فقالَ: رسولُ اللّهِ ﷺ: «أخبروهُ أنَّ اللّهَ عزَّ وجلَّ يحبّهُ».

وروى التّرمذيُّ عنْ أنسِ بنِ مالكٍ قالَ: كانَ رجلٌ منَ الأنصارِ يؤمّهمْ في مسجدِ قباءٍ، وكانَ كلّما افتتحَ سورةً يقرؤها لهمْ في الصّلاةِ فقرأَ بها، افتتحَ بِ ﴿قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾، حتّى يفرغَ منها، ثمَّ يقرأُ بسورةٍ أخرى معها، وكانَ يصنعُ ذلكَ في كلِّ ركعةٍ، فكلّمهُ أصحابهُ، فقالوا: إنّكَ تقرأُ بهذهِ السّورةِ، ثمَّ لا ترى أنها تجزيكَ حتّى تقرأَ بسورةٍ أخرى، فإمّا أنْ تقرأَ بها، وإمّا أن تدعها وتقرأَ بسورةٍ أخرى؟ قالَ: ما أنا بتاركها وإنْ أحببتمْ أنْ أؤمّكمْ بها فعلتُ، وإنْ كرهتمْ تركتكمْ، وكانوا يرونهُ أفضلهمْ، وكرهوا أنْ يؤمّهمْ غيرهُ، فلمّا أتاهمُ النّبيُّ ﷺ

أخبروهُ الخبرَ، فقالَ: «يا فلانُ ما يمنعكَ ممّا يأمرُ بهِ أصحابكَ؟ وما يحملكَ أنْ تقرأَ هذهِ السّورةَ في كلِّ ركعةٍ»؟ فقالَ: يا رسولَ اللّهِ، إنّي أحبّها، فقالَ: رسولُ اللّهِ ﷺ: «إنَّ حبّها أدخلكَ الجنّةَ». قالَ: حديثٌ حسنٌ غريبٌ صحيحٌ.

قالَ ابنُ العربيِّ: فكانَ هذا دليلاً على أنّهُ يجوزُ تكرارُ سورةٍ في كلِّ ركعةٍ. وقدْ رأيتُ على بابِ الأسباطِ فيما يقرّبُ منهُ، إمامًا منْ جملةِ الثّمانيةِ والعشرينَ إمامًا، كانَ يصلّي فيهِ التّراويحَ في رمضانَ بالأتراكِ، فيقرأُ في كلِّ ركعةٍ ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾ و ﴿قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ حتّى يتمَّ التّراويحَ، تخفيفًا عليهِ، ورغبةً في فضلها وليسَ منَ السّنّةِ ختمُ القرآنِ في رمضانَ.

قلت: هذا نصُّ قولِ مالكٍ، قالَ مالكٌ: وليسَ ختمُ القرآنِ في المساجدِ بسنّةٍ.

الثالثة: روى التّرمذيُّ عنْ أنسِ بنِ مالكٍ قالَ: أقبلتُ معَ النّبيِّ ﷺ فسمعَ رجلاً يقرأُ ﴿قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾، فقالَ: رسولُ اللّهِ ﷺ: «وجبتْ». قلت: وما وجبتْ؟ قالَ: الجنّةُ. قالَ: هذا حديث حسن صحيح.

سورة الفلق

مكّيّةٌ في قولٍ، ومدنيّةٌ في أحدِ قولَي ابنِ عبّاسٍ، وهي خمس آيات.

وهذهِ السّورةُ وسورةُ النّاسِ وَالإخلاصِ: تعوّذَ بهنَّ رسولُ اللّهِ ﷺ حينَ سحرتهُ اليهودُ، على ما يأتي، وزعمَ ابنُ مسعودٍ أنّهما دعاءٌ تعوّذَ بهِ، وليستا منَ القرآنِ، خالفَ بهِ الإجماعَ منَ الصّحابةِ وأهلِ البيتِ.

قالَ ابنُ قتيبةَ: لمْ يكتبْ عبدُ اللّهِ بنُ مسعودٍ في مصحفهِ المعوّذتينِ، لأنّهُ كانَ يسمعُ رسولُ اللّهِ ﷺ يعوذُ الحسنَ والحسينَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - بهما، فقدّرَ أنّهما بمنزلةِ: أعيذكما بكلماتِ اللّهِ التّامّةِ، منْ كلِّ شيطانٍ وهامّةٍ، ومنْ كلِّ عينٍ لامّةٍ.

قالَ أبو بكرٍ الأنباريُّ: وهذا مردودٌ على ابنِ قتيبةَ، لأنَّ المعوّذتينِ منْ كلامِ ربِّ العالمينَ، المعجزِ لجميعِ المخلوقينَ، وَ «أعيذكما بكلماتِ اللّهِ التّامّةِ» منْ قولِ البشرِ بيّنٌ. وكلامُ الخالقِ الّذي هوَ آيةٌ لمحمّدٍ ﷺ خاتمِ النّبيّينَ، وحجّةٌ لهُ باقيةٌ على جميعِ الكافرينَ، لا يلتبسُ بكلامِ الآدميّينَ على مثلِ عبدِ اللّهِ بنِ مسعودٍ الفصيحِ اللّسانِ، العالمِ باللّغةِ، العارفِ بأجناسِ الكلامِ، وأفانينِ القولِ.

وقالَ بعضُ النّاسِ: لمْ يكتبْ عبدُ اللّهِ المعوّذتينِ لأنّهُ أمنَ عليهما منَ النّسيانِ، فأسقطهما وهوَ يحفظهما، كما أسقطَ فاتحةَ الكتابِ منْ مصحفهِ، وما يشكُّ في حفظهِ وإتقانهِ لها.

وردَّ هذا القولَ على قائلهِ، واحتجَّ عليهِ بأنّهُ قدْ كتبَ: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ﴾، وَ ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ﴾، وَ ﴿قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ وهنَّ يجرينَ مجرى المعوّذتينِ في أنّهنَّ غيرُ طوالٍ، والحفظُ إليهنَّ أسرعُ، ونسيانهنَّ مأمونٌ، وكلّهنَّ يخالفُ فاتحةَ الكتابِ، إذِ الصّلاةُ لا تتمُّ إلّا بقراءتها. وسبيلُ كلِّ ركعةٍ أنْ تكونَ المقدّمةُ فيها قبلَ ما يقرأُ منْ بعدها، فإسقاطُ فاتحةِ الكتابِ منَ المصحفِ، على معنى الثّقةِ ببقاءِ حفظها، والأمنِ منْ نسيانها صحيحٌ، وليسَ منَ السّورِ ما يجري في هذا المعنى مجراها، ولا يسلكُ بهِ طريقها.

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝١ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝٢ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ۝٣ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ۝٤ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ۝٥﴾، فيهِ تسعُ مسائلَ:

الأولى: في صحيحِ البخاريِّ ومسلم عنْ عائشةَ أنَّ النَّبيَّ ﷺ كانَ إذا اشتكى قرأَ على نفسهِ بالمعوِّذتينِ وينفثُ، فلَّما اشتدَّ وجعهُ كنتُ أقرأُ عليهِ، وأمسحُ عنهُ بيدهِ، رجاءَ بركتها. النَّفثُ: النَّفخُ ليسَ معهُ ريقٌ.

الثانية- ثبتَ في الصَّحيحينِ منْ حديثِ عائشةَ أنَّ النَّبيَّ ﷺ سحرهُ يهوديٌّ منْ يهودِ بني زريقٍ، يقالُ لهُ لبيدُ بنُ الأعصمِ، حتّى يخيَّلُ إليهِ أنّهُ كانَ يفعلُ الشّيءَ ولا يفعلهُ، فمكثَ كذلكَ ما شاءَ اللّهُ أنْ يمكثَ ثمَّ قالَ: «يا عائشةُ أشعرت أنَّ اللّهَ أفتاني فيما استفتيتهُ فيهِ. أتاني ملكانِ، فجلسَ أحدهما عندَ رأسي، والآخرُ عندَ رجلي، فقالَ: الّذي عندَ رأسي للّذي عندَ رجلي: ما شأنُ الرّجلِ؟ قالَ: مطبوبٌ. قالَ ومنْ طبّهُ؟ قالَ لبيدُ بنُ الأعصمِ. قالَ في ماذا؟ قالَ في مشطٍ ومشاطةٍ وجفِّ طلعةِ ذكر، تحت راعوفة في بئر ذي أرْوان فجاءَ البئرَ واستخرجهُ. انتهى الصّحيح.

ثمَّ بعثَ عليّاً والزّبيرَ وعمار ابن ياسرٍ، فنزحوا ماءَ تلكَ البئرِ كأنّهُ نقاعةُ الحنّاءِ، ثمَّ رفعوا الصّخرةَ وهيَ الرّاعوفةُ- صخرةٌ تتركُ أسفلَ البئرِ يقومُ عليها المائحُ، وأخرجوا الجفَّ، فإذا مشاطةُ رأسِ إنسانٍ، وأسنانٌ منْ مشطٍ، وإذا وترٌ معقودٌ فيهِ إحدى عشرةَ عقدةً مغرزةً بالإبرِ، فأنزلَ اللّهُ تعالى هاتينِ السّورتينِ، وهما إحدى عشرةَ آيةً على عددِ تلكَ العقدِ، وأمرَ أنْ يتعوّذَ بهما، فجعلَ كلّما قرأَ آيةً انحلّتْ عقدةٌ، ووجدَ النّبيُّ ﷺ خفّةً، حتّى انحلّتِ العقدةُ الأخيرةُ، فكأنّما أنشطَ منْ عقالٍ،، وقالَ: ليسَ بهِ بأسٌ. وجعلَ جبريلُ يرقي رسولِ اللّهِ ﷺ فيقولُ: باسمِ الله أرقيك، من كل شيء يؤذيكَ، منْ شرِّ حاسدٍ وعينٍ، واللّهُ يشفيكَ. فقالوا: يا رسولَ اللّهِ، ألا نقتلُ الخبيثَ. فقالَ: أمّا أنا فقدْ شفاني اللّهُ، وأكرهُ أنْ أثيرَ على النّاسِ شراً.

الثالثة- تقدّمَ في البقرةِ القولُ في السّحرِ وحقيقتهِ، وما ينشأُ عنهُ منَ الآلامِ والمفاسدِ، وحكمِ السّاحرِ، فلا معنى لإعادتهِ.

الرابعة- قولهُ تعالى: ﴿ٱلْفَلَقِ﴾ اختلفَ فيهِ، فقيلَ: سجنٌ أو وادٍ في جهنّمَ، وقيلَ: جبٌّ في النّارِ، فإنه يقالُ لما اطمأنَّ منَ الأرضِ فلقٌ.

وقيلَ: الفلقُ، الصّبحُ، وقيلَ: الفلق: الجبال والصخور تنفلق بالمياهِ، أو تتشقّقُ منْ خوفِ اللّهِ، وقيلَ: الرّحمُ تنفلقُ بالحيوانِ. وقيلَ: إنّهُ كلُّ ما انفلقَ عنْ جميعِ ما خلقَ منَ الحيوانِ والصّبحِ والحبِّ والنّوى، قال الله تعالى: ﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ﴾، وقال: ﴿فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ﴾.

فأمّا الفِلْقُ «بالكسرِ»: فالدّاهيةُ والأمرُ العجبُ، ومنهُ: شاعرٌ مُفْلِقٌ.

وقولهُ تعالى: ﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ قيل: هوَ إبليسُ وذرّيّتهُ. وقيلَ جهنّمُ. وقيلَ: هوَ عامٌّ، أيْ منْ شرِّ كلِّ ذي شرٍّ خلقهُ اللّهُ عزَّ وجلَّ.

الخامسة- قولهُ تعالى: ﴿وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾ اختلفَ فيهِ، فقيلَ: هوَ اللّيْلُ. والغسقُ: أوّلُ ظلمةِ الليل، ووقبَ على هذا التّفسيرِ: أظلمَ، وقيلَ: دخلَ. أو: ذهبَ. أو: سكنَ. وقيلَ: نزلَ.

وقيل الغاسقُ: الباردُ. والغسقُ: البردُ، ولأنَّ في اللّيلِ تخرجُ السّباعُ منْ آجامها، والهوامُّ منْ أماكنها، وينبعث أهل الشر على العبث والفسادِ.

وقيلَ: هوَ الشّمسُ إذا غربتْ، وقيلَ: هوَ القمرُ. وكل شيء أسودُ فهوَ غسقٌ. وقالَ قتادةُ: إذا وقبَ إذا غابَ. وهوَ أصحُّ، لأنَّ في التّرمذيِّ عنْ عائشةَ: أنَّ النّبيَّ ﷺ نظرَ إلى القمرِ، فقالَ: يا عائشةُ، استعيذي باللّهِ منْ شرِّ هذا، فإنَّ هذا هوَ الغاسقُ إذا وقبَ. قالَ أبو عيسى: هذا حديثٌ حسنٌ صحيحٌ.

وقيلَ: الغاسقُ: الحيّةُ إذا لدغتْ. وكأنَّ الغاسقَ نابها، لأنَّ السّمَّ يغسقُ منهُ، أيْ يسيلُ. ووقبَ نابها: إذا دخلَ في اللّديغِ. وقيلَ: الغاسقُ: كلُّ هاجمٍ يضرُّ، كائنًا ما كانَ، منْ قولهمْ: غسقتِ القرحةُ: إذا جرى صديدها.

السادسة- قولهُ تعالى: ﴿وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ﴾ يعني السّاحراتِ اللّائي ينفثنَ في عقدِ الخيطِ حينَ يرقينَ عليها. شبّهَ النّفخَ كما يعملُ منْ يرقي.

السابعة- روى النّسائيُّ عنْ أبي هريرةَ قالَ: قالَ رسولُ اللّهِ ﷺ: «منْ عقدَ عقدةً ثمَّ نفثَ فيها، فقدْ سحرَ ومنْ سحرَ فقدْ أشركَ، ومنْ تعلّقَ شيئًا وكلَ إليهِ».

واختلفَ في النّفثِ عندَ الرّقى فمنعهُ قومٌ، وأجازهُ آخرونَ. قالَ إبراهيمُ: كانوا يكرهونَ النّفثَ في الرّقى.

وإذا اختلفوا فالحاكمُ بينهمُ السّنّةُ، وقد روتْ عائشةَ أنَّ النّبيَّ ﷺ كانَ ينفثُ في الرّقيةِ، رواهُ الأئمّةُ.

وأما من منع فكأنّهُ ذهبَ فيهِ إلى أنَّ اللّهَ تعالى جعلَ النّفثَ في العقدِ ممّا يستعاذُ بهِ، فلا يكونُ بنفسهِ عوذةً. وليسَ هذا هكذا، لأنَّ النّفثَ في العقدِ إذا كانَ مذمومًا لمْ يجبْ أنْ يكونَ النّفثُ بلا عقدٍ مذمومًا. ولأنَّ النّفثَ في العقدِ إنّما أريدَ بهِ السّحرُ المضرُّ بالأرواحِ، وهذا النّفثُ لاستصلاحِ الأبدانِ، فلا يقاسُ ما ينفعُ بما يضرُّ.

الثّامنةُ- قولهُ تعالى: ﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ الحسدِ: تمنّي زوالِ نعمةِ المحسودِ وإنْ لمْ يصرْ للحاسدِ مثلها. والمنافسةُ هيَ تمنّي مثلها وإنْ لمْ تزلْ. فالحسدُ شرٌّ مذمومٌ. والمنافسةُ مباحةٌ وهيَ الغبطةُ. وقدْ رويَ أنَّ النّبيَّ ﷺ قال: «المؤمنُ يغبطُ، والمنافقُ يحسدُ». وفي الصّحيحينِ: «لا حسدَ إلّا في اثنتينِ» يريدُ لا غبطةَ.

قلت: قالَ العلماءُ: الحاسدُ لا يضرُّ إلّا إذا ظهرَ حسدهُ بفعلٍ أوْ قولٍ، وذلكَ بأنْ يحملهُ الحسدُ على إيقاعِ الشّرِّ بالمحسودِ، فيتبعُ مساوئهُ، ويطلبُ عثراتهِ، والحسدُ أوّلُ ذنبٍ عصيَ اللّهُ بهِ في السّماءِ، وأوّلُ ذنبٍ عصيَ بهِ في الأرضِ، فحسدَ إبليسُ آدمَ، وحسدَ قابيلُ هابيلَ. والحاسدُ ممقوتٌ مبغوضٌ مطرودٌ ملعونٌ ولقدْ أحسنَ منْ قالَ:

قلْ للحسودِ إذا تنفّسَ طعنةً   يا ظالمًا وكأنّهُ مظلومُ

التاسعة- هذهِ سورةٌ دالّةٌ على أنَّ اللّهَ سبحانهُ خالقُ كلِّ شرٍّ، وأمرَ نبيّهُ ﷺ أنْ يتعوّذَ منْ جميعِ الشّرورِ. فقالَ: منْ شرِّ ما خلقَ. وجعلَ خاتمةَ ذلكَ الحسد، تنبيهـاً على عظمهِ، وكثرةِ ضررهِ. والحاسدُ عدوٌّ نعمةِ اللّهِ. قالَ بعضُ الحكماءِ: بارزَ الحاسدُ ربّهُ منْ خمسةِ أوجهٍ:

أحدها- أنّهُ أبغضَ كلَّ نعمةٍ ظهرتْ على غيرهِ.

وثانيها- أنّهُ ساخطٌ لقسمةِ ربّهِ.

وثالثها- أنّهُ ضادَّ فعلَ اللّهِ، أيْ إنَّ فضلَ اللّهِ يؤتيهِ منْ يشاءُ، وهوَ يبخلُ بفضلِ اللّهِ.

ورابعها- أنّهُ خذلَ أولياءِ اللّهِ، أوْ يريدُ خذلانهمْ وزوالَ النّعمةِ عنهمْ.

وخامسها- أنّهُ أعانَ عدوّهُ إبليسَ.

وقيلَ: الحاسدُ لا ينالُ في المجالسِ إلّا ندامةً، ولا ينالُ عندَ الملائكةِ إلّا لعنةً، ولا ينالُ في الخلوةِ إلّا جزعـاً وغمـاً، ولا ينالُ في الآخرةِ إلّا حزنـاً واحتراقـاً، ولا ينالُ منَ اللّهِ إلّا بعداً ومقتـاً.

سورة الناس

إحدى المعوّذتينِ، وروى التّرمذيُّ عنْ عقبةَ بنِ عامرٍ الجهنيِّ عنِ النّبيِّ ﷺ: «لقدْ أنزلَ اللّهُ عليَّ آياتٍ لمْ يرَ مثلهنَّ: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾ إلى آخرِ السّورةِ وَ ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾ إلى آخرِ السورة». قال: هذا حديثٌ حسنٌ صحيحٌ. ورواهُ مسلمٌ.

بسمِ اللّهِ الرّحمنِ الرّحيمِ

قولهُ تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾ أيْ مالكهمْ ومصلحِ أمورهمْ. وإنّما ذكرَ أنّهُ ربُّ النّاسِ، وإنْ كانَ ربـًا لجميعِ الخلقِ لأمرينِ:

أحدهما: لأنَّ النّاسَ معظّمونَ، فأعلمَ بذكرهمْ أنّهُ ربٌّ لهمْ وإنْ عظّموا.

الثّاني: لأنّهُ أمرَ بالاستعاذةِ منْ شرّهمْ، فأعلمَ بذكرهمْ أنه هو الذي يعيذ منهم.

وإنما قالَ: ﴿مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ﴾ لأنَّ في النّاسِ ملوكـًا يذكرُ أنّهُ ملكهمْ. وفي النّاسِ منْ يعبدُ غيرهُ، فذكرَ أنّهُ إلههمْ ومعبودهمْ، وأنّهُ الّذي يجبُ أنْ يستعاذَ بهِ ويلجأَ إليه، دون الملوك والعظماء ﴿مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ﴾ يعني: منْ شرِّ الشّيطانِ. والمعنى: منْ شرِّ ذي الوسواسِ، فحذفَ المضافَ، وهوَ بفتحِ الواوِ بمعنى الاسمِ، أيِ الموسوسِ. وَ بكسرِ الواوِ المصدرُ، يعني الوسوسةَ. وكذا الزّلزالُ والزّلزالُ.

والوسوسةُ: حديثُ النّفسِ. يقالُ: وسوستْ إليهمْ نفسهُ وسوسةً ووسوسةً بكسرِ الواوِ.

ووصف «بالخناس» لأنه كثير الاختفاء، ومنه قوله تعالى: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ﴾ يعني النّجومَ، لاختفائها بعدَ ظهورها. وقيلَ: لأنّهُ يخنسُ إذا ذكرَ العبدُ اللّهَ، أيْ يتأخّرُ.

وقيلَ: سمّيَ خنّاسـًا لأنّهُ يرجعُ إذا غفلَ العبدُ عنْ ذكرِ اللّهِ. والخنسُ: الرّجوعُ.

قولهُ تعالى: ﴿ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ﴾

فيجري منِ ابنِ آدمَ مجرى الدّمِ في العروق، سلّطهُ اللّهُ على ذلكَ، وفي الصّحيحِ عنِ النّبيِّ ﷺ: «أنَّ الشّيطانَ يجري منَ ابنِ آدمَ مجرى الدّمِ».

﴿مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾ قالَ الحسنُ: هما شيطانانِ، أمّا شيطانُ الجنِّ فيوسوسُ في صدورِ النّاسِ، وأمّا شيطانُ الإنسِ فيأتي علانيةً. قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ﴾... الآيةَ.

وذهبَ قومٌ إلى أنَّ النّاسَ هنا يرادُ بهِ الجنُّ. سمّوا ناسًا كما سمّوا رجالا في قوله: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ وسموا قومًا ونفراً. فعلى هذا يكونُ والنّاسِ عطفًا على الجنّةِ، ويكونُ التّكريرُ لاختلافِ اللّفظينِ.

والجِنّةُ: جمعُ جنّيٍّ، كما يقالُ: إنسٌ وإنسيٌّ. والهاءُ لتأنيثِ الجماعةِ.

وقيلَ: إنَّ إبليسَ يوسوسُ في صدورِ الجنِّ، كما يوسوسُ في صدورِ النّاسِ. فعلى هذا يكونُ في صدورِ النّاسِ عاما في الجميع. ومنَ الجنّةِ والنّاسِ بيانٌ لما يوسوسُ في صدرهِ.

وقيلَ: معنى منْ شرِّ الوسواسِ أيِ الوسوسةِ الّتي تكونُ منَ الجنّةِ والنّاسِ، وهوَ حديثُ النّفسِ. وقدْ ثبتَ عنِ النّبيِّ ﷺ أنّهُ قالَ: «إنَّ اللّهَ عزَّ وجلَّ تجاوزَ لأمّتي عمّا حدّثتْ بهِ أنفسها ما لمْ تعملْ أوْ تتكلّمْ بهِ». رواهُ أبو هريرةَ، أخرجهُ مسلمٌ. فاللّهُ تعالى أعلمُ بالمرادِ من ذلك.

تمَّ الكتاب

والحمد لله رب العالمين